الجزء الأول من السراج المنير في الاعانة على معرفة
بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير
للشيخ الامام الخطيب الشربيني
قدس الله روحه وعم
بالرحمة ضريحه
آمين

{ وبهامشه فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لشيخ الاسلام ومحقق
الانام الحبر الفاضل والبحر الوافر الكامل الامام أبي يحيى زكريا
الانصاري تغمده الله تعالى برحمته وأفاض علينا من سيب فضله الجاري }

الجزء الاول من تفسير السراج المنير

للشيخ محمد الشربيني الخطيب

مطبعة [illegible] حروف [illegible]

٩٠٠ طبع سنة ١٢٣٧

وعلى [illegible] للشيخ [illegible]

للشيخ [illegible]

فهرسة الجزء الاول من تفسير العلامة الخطيب الشربيني

(تمت)

تفسير الخطيب

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الملك السلام المهيمن العلام شارع الاحكام ذى الجلال والاكرام الذى أنزل القرآن بحسب المصالح منجما وجعله بالتحميد مفتتحا وبالاستعاذة مختتما وأوحاه على قسمين متشابها ومحكما فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ووسم كل شئ سواه بالحدوث عن العدم ومن علينا بنبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وأنعم علينا بكتابه المفرق بين الحلال والحرام والصلاة والسلام على خير من أوحى اليه حبيب الله أبى القاسم محمد النبى الامى المثبت بالعصمة المؤيد بالحكمة وعلى جميع الانبياء والملائكة البررة الكرام عدد ساعات الليالى والايام وعلى آله الاطهار وخلفائه وجميع المهاجرين والانصار وعلى بقية الصحابة الأخيار صلاة وسلاما دائمين متلازمين آناء الليل واطراف النهار ﴿أما بعد﴾ فيقول فقير رحمة ربه القريب محمد الشربينى الخطيب ان الله جل ذكره أرسل رسوله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين بشيرا للمؤمنين ونذيرا للمخالفين أكمل به تبيان النبوة وختم به ديوان الرسالة وأنزل عليه بفضله كتابا ساطعا تبيانه قاطعا برهانه ناطقا ببينات وحجج قرآنا عربيا غير ذى عوج مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية مصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية حسناته ظاهرة باهرة فى وجه كل زمان دائرا من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان أعجز الخليقة عن معارضته وعن الاتيان بسورة من مثله فى مقابلته ثم سهل على الخلق مع اعجازه تلاوته ويسر على الالسن قراءته أمر فيه وزجر وبشر وأنذر فهو كلام معجز فى دقائق منطوقه ودقائق مفهومه لا نهاية لاسرار علومه (وقد ألف أئمة السلف) كتبا فى معرفة احكامه ونزوله كل على قدر فهمه ومبلغ علمه فشكر الله تعالى سعيهم ورحم كافتهم ثم خطر لى أن اقتفى أثرهم وأسلك طريقتهم لعل الله أن يرزقنى من مددهم ويعود على من بركتهم فترددت فى ذلك مدة من الزمان خوفا من الدخول فى هذا الشان

(بسم الله الرحمن الرحيم) وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين قال سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاسلام ملك العلماء الأعلام ماضى النقض والابرام سيبويه زمانه فريد عصره وأوانه زين الدين لسان المتكلمين

لقوله صلى الله عليه وسلم من قال فى القرآن برأيه فاصاب فقد أخطأ وقول سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم من قال فى القرآن برأيه وفى رواية بغير علم فليتبوأ مقعده من النار وقول أبى بكر رضى الله تعالى عنه لما سئل عن قوله تعالى وفاكهة وأبا فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله تعالى ما لا أعلم الى أن يسر الله تعالى لى زيارة سيد المرسلين صلى الله وسلم عليه وعلى سائر النبيين والآل والصحب أجمعين فى أول عام تسعمائة واحد وستين فاستخرت الله تعالى فى حضرته بعد ان صليت ركعتين فى روضته وسألته أن ييسر لى أمرى فشرح الله سبحانه وتعالى لذلك صدرى فلما رجعت من سفرى واستمر ذلك الانشراح معى وكتمت ذلك فى سرى حتى قال لى شخص من أصحابى رأيت فى منامى اما النبي صلى الله عليه وسلم أو الشافعى يقول لى قل لفلان يعمل تفسيرا على القرآن فمن قليل الا وقد قررت فى وظيفة مشيخة تفسير فى البيمارستان ثم سألنى بعد ذلك جماعة من أصحابى المخلصين وعلى اقتباس العلم مقبلين بعد ان رأونى فرغت من شرح منهاج الطالبين أن أجعل لهم تفسيرا وسطا بين الطويل الممل والقصير المخل فأجبتهم الى ذلك ممتثلا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فيما رويه أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه انه عليه الصلاة والسلام قال ان رجالا يأتونكم من أقطار الارض يتفقهون فى الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا واقتداء بالماضين من السلف فى تدوين العلم ابقاء على الخلف وليس على ما فعلوه مزيد ولكن لا بد فى كل زمان من تجديد ما طال به العهد وقصر للطالبين فيه الجد والجهد تنبيها للمتوقفين وتحريضا للمتثبطين وليكون ذلك عونا لى وللقاصرين مثلى مقتصرا فيه على أرجح الاقوال واعراب ما يحتاج اليه عند السؤال وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية واعاريب محلها كتب العربية وحيث ذكرت فيه شيأ من القراآت فهو من السبع المشهورات وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها أو لورودها ولكن بصيغة قيل ليعلم ان المرضى أولها (وسميته) السراج المنير فى الاعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير وأسأله من فضله واحسانه أن يجعله عملا مقربا بالاخلاص والقبول والاقبال وفعلا متقبلا مرضيا زكيا يعد من صالح الاعمال (وقد تلقيت) التفسير بحمد الله من تفاسير متعددة رواية ودراية عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم واشتهرت وانتشرت مآثرهم جمعنى الله واياهم والمسلمين فى مستقر رحمته بمحمد وآله وصحابته (وها أنا الآن أشرع) وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير ومعطى كل مسؤل

(سورة فاتحة الكتاب)

وتسمى أم القرآن لانها مفتتحه ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه ولذلك تسمى أساسا أو لانها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله تعالى والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والاحكام العملية التى هى سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الاشقياء وسورة الكنز لانها نزلت من كنز تحت العرش والوافية والكافية لانها وافية كافية فى صحة الصلاة بخلاف غيرها عند القدرة عليها

قوله تقال أى سماء كثيرا ما تستعمل اعادة العامل لطول الفصل وهو فى القول كثير اه مصححه

حجة المناظرين محيي سنة سيد المرسلين أبو يحيى زكريا الانصارى الشافعى أدام الله تعالى أيامه الزاهره وجمع لنا وله بين خيرى الدنيا والآخره وفسح فى مدته وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركته
(بسم الله الرحمن الرحيم)
الحمد لله الذى نور قلوب

والشافية والشفاء لقوله عليه الصلاة والسلام هي شفاء لكل داء والسبع المثاني لانها سبع آيات باتفاق لكن من عد البسملة آية منها جعل السابعة صراط الذين الى آخرها ومن لم يعدها آية منها جعل السابعة غير المغضوب عليهم الى آخرها وسميت مثاني لانها تثنى في الصلاة أي تكرر فيها بأن تقرأ في كل صلاة وفي كل ركعة وقول بعضهم تثنى في كل ركعة فيه تجوز وهي مكية على قول الاكثر وقال مجاهد مدنية وقيل نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة ومرة بالمدينة حين حولت القبلة ولذلك سميت مثاني قال البغوي والاول أصح وقال البيضاوي وقد صح أنها مكية بقوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني وهو مكي بالنص انتهى وأراد بالنص السنة فقد ثبت ذلك عن ابن عباس وقول الصحابي في القرآن خصوصا في النزول له حكم المرفوع والقرآن العظيم والنور والراقية وسورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسئلة لاشتمالها على ذلك وسورة المناجاة وسورة التفويض وفاتحة القرآن وأم الكتاب وسورة الحمد الاولى وسورة الحمد القصوى وسورة السؤال والصلاة لخبر قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدني عبدي يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله أثنى علي عبدي يقول العبد مالك يوم الدين يقول الله مجدني عبدي يقول العبد اياك نعبد واياك نستعين يقول الله عز وجل هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل ولانها جزؤها فهو من باب تسمية جزء الشيء باسم كله * وقوله تعالى (بسم الله) أي الملك الاعظم الذي لا نعبد الا اياه (الرحمن) أي الذي عم بنعمتي ايجاده وبيانه جميع خلقه أسفله وأعلاه أدناه وأقصاه (الرحيم) أي الذي خص من بينهم أهل وده برضاه آية من الفاتحة وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك والشافعي وقيل ليست منها وعليه قراء المدينة والبصرة والشأم وفقهاؤها والاوزاعي ومالك ويدل للاول ما روى أنه صلى الله عليه وسلم عد الفاتحة سبع آيات وعد بسم الله الرحمن الرحيم آية منها رواه البخاري في تاريخه وروى الدارقطني عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا قرأتم الحمد لله فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم انها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم احدى آياتها وروى ابن خزيمة باسناد صحيح عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم عد بسم الله الرحمن الرحيم آية والحمد لله رب العالمين الى آخرها ست آيات وآية من كل سورة الا براءة لاجماع الصحابة على اثباتها في المصحف بخطه أوائل السور سوى براءة مع المبالغة في تجريد القرآن عن الاعشار وتراجم السور والتعوذ حتى لم تكتب آمين فلو لم تكن قرآنا لما أجازوا ذلك لانه يحمل على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا وأيضا هي آية من القرآن في سورة النمل قطعا ثم انا نراها مكررة بخط القرآن فوجب أن تكون منه كما أنا لما رأينا قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان وقوله ويل يومئذ للمكذبين مكررا في القرآن بخط واحد وبصورة واحدة قلنا ان الكل من القرآن (فان قيل) لعلها ثبتت للفصل (أجيب) بأنه يلزم عليه اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا ولثبتت في أول براءة ولم تثبت في أول الفاتحة (فان قيل) القرآن انما يثبت

العارفين بكتابه العظيم وأطلعهم على خبايا الزوايا بالبرهان القويم والصلاة والسلام على خير الانام وعلى آله وصحبه البررة الكرام (وبعد) فهذا مختصر في ذكر آيات القرآن المتشبهات المختلفة بزيادة أو تقديم أو ابدال حرف بآخر أو غير ذلك مع بيان

بالتواتر

سبب الاختلاف وفي ذكر غير المختلفة مع بيان سبب تكراره وفي ذكر بعض ما وقع من أسئلة القرآن العزيز وأجوبتها مما أوائله جمعته من كلام العلماء المحققين مع ما فتح الله به من فيض فضله المتين (وسميته) بفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن

بالتواتر (أجيب) بأن محله فيما ثبت قرآنا قطعا أما ما يثبت قرآنا حكما فيكفي فيه الظن كما يكفي في كل ظني خلافا للقاضي أبي بكر الباقلاني وأيضا اثباتها في المصحف بخطه من غير نكير في معنى التواتر وأيضا قد يثبت التواتر عند قوم دون آخرين (فان قلت) لو كانت قرآنا لكفر جاحدها (أجيب) بأنها لو لم تكن قرآنا لكفر مثبتها وأيضا التكفير لا يكون بالظنيات وقد أوضحت ذلك مع زيادة في شرحي التنبيه والمنهاج أما براءة فليست البسملة آية منها باجماع *(فائدة)* ما أثبت في المصحف الآن من أسماء السور والاعشار شيء ابتدعه الحجاج في زمنه والباء في بسم الله متعلقة بمحذوف تقديره بسم الله أقرأ لان الذي يتلوه مقروء اذ كل فاعل يبدأ في فعله باسم الله يضمر ما يجعل التسمية مبدأ له كما ان المسافر اذا حل أو ارتحل فقال بسم الله الرحمن الرحيم كان المعنى بسم الله أحل بسم الله ارتحل وذلك أولى من أن يضمر أبدأ لعدم ما يطابقه وما يدل عليه ومن أن يضمر ابتدائي لما ذكرنا (فان قيل) المصدر لا يعمل محذوفا (أجيب) بأنه يتوسع في الظرف والجار والمجرور ما لا يتوسع في غيرهما وتقديره مؤخرا كما قال الامام الرازي أولى كما في اياك نعبد واياك نستعين لانه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فان اسمه تعالى مقدم ذاتا لانه قديم واجب الوجود لذاته فقدم ذكرا (فان قيل) قال الله تعالى اقرأ باسم ربك فقدم الفعل (أجيب) بأنه في مقام ابتداء القراءة وتعليمها لانها أول سورة نزلت فكان الامر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض وان كان ذكر الله تعالى أهم في نفسه وذكرت أجوبة غير ذلك في مقدمتي على البسملة والحمدلة والباء للاستعانة أو للمصاحبة والملابسة على جهة التبرك والمعنى متبركا بسم الله اقرأ والثاني أولى لما فيه من التحاشي عن جعل اسمه تعالى آلة والاحسن أن تكون لهما اعمالا للفظ في معنييه الحقيقيين أو الحقيقي والمجازي عند من يجوزه كامامنا الشافعي والبسملة وما بعدها الى آخر السورة مقول على ألسنة العباد ليعلموا كيف يتبرك باسمه ويحمد على نعمه ويسئل من فضله ويقدر في أول الفاتحة قولوا كما قال الجلال المحلي ليكون ما قبل اياك نعبد مناسبا له بكونه من مقول العباد (فان قيل) من حق حروف المعاني التي جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التي هي أخت السكون نحو واو العطف وفائه (أجيب) بأنها انما كسرت للزومها الحرفية والجر ولتشابه حركتها عملها وحذفت الالف من بسم خطا كما حذفت لفظا دون باسم ربك وان كان وضع الخط على حكم الابتداء دون الدرج لكثرة الاستعمال وقالوا طولت الباء تعويضا من طرح الالف وألحق بها بسم الله مجراها ومرساها وانه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم وان لم تكتب في القرآن الا مرة واحدة لشبهها لها صورة (فان قيل) لم حذف في بسم الله دون الله والرحمن الرحيم (أجيب) خطان لا يقاس عليهما خط المصحف وخط العروضيين ولا تحذف الالف اذا أضيف الاسم لغير الله ولا مع غير الباء والاسم مشتق من السمو وهو العلو لانه رفعة للمسمى وشعار له فهو من الاسماء المحذوفة الاعجاز كيد ودم لكثرة الاستعمال وبنيت أوائلها على السكون وأدخل عليها مبتدأ بها همزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن ولان من دأبهم أن يبتدؤا بالمتحرك ويقفوا على الساكن وقيل من الوسم وهو العلامة فوزنه على الاول افع محذوف اللام وعلى الثاني اعل محذوف الفاء وفيه عشر

لغات نظمها بعضهم في بيت فقال

سم وسما واسم بتثليث أول * لهن سماء عاشرة تمت انجلى

والاسم ان أريد به اللفظ فغير المسمى لانه يتألف من أصوات مقطعة غير قارة ويختلف باختلاف الأمم والاعصار ويتعدد تارة ويتحد أخرى والمسمى لا يكون كذلك وان أريد به ذات الشئ فهو المسمى لكنه لم يشتهر بهذا المعنى وقوله سبح اسم ربك الاعلى المراد به اللفظ لانه كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته يجب تنزيه الالفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الادب أو الاسم فيه مقحم كما في قول الشاعر

الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وان أريد به الصفة كما هو رأى أبي الحسن الاشعري انقسم انقسام الصفة عنده الى ما هو نفس المسمى كالواحد والقديم والى ما هو غيره كالخالق والرازق والى ما ليس هو ولا غيره كالعلم والقدرة فانهما زائدان على الذات وليسا غير الذات لان المراد بالغير ما ينفك عن الذات وهما لا ينفكان (فان قيل) لم بدأ ببسم الله دون بالله (أجيب) بأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه وللفرق بين اليمين والتيمن * والله علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد وأصله اله قال الرافعي كامام ثم ادخلوا عليه الالف واللام ثم حذفت الهمزة ونقلت حركتها الى اللام فصار اللاه بلامين متحركين ثم سكنت الاولى وأدغمت في الثانية للتسهيل انتهى والاله في الاصل يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم غلب على المعبود بحق كما ان النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا والحق انه أصل بنفسه غير مأخوذ من شئ بل وضع علما ابتداء فكما أن ذاته لا يحيط بها شئ ولا ترجع الى شئ فكذا اسمه تعالى وقيل مأخوذ من أله اذا تحير اذ العقول تتحير في معرفته وقيل غير ذلك وهو عربي عند الاكثر وعند المحققين انه اسم الله الاعظم وقد ذكره الله تعالى في ألفين وثلثمائة وستين موضعا واختار النووي تبعا لجماعة أنه الحي القيوم قال ولذلك لم يذكر في القرآن الا في ثلاثة مواضع في البقرة وآل عمران وطه * والرحمن الرحيم صفتان مشبهتان بنيتا للمبالغة من رحم بتنزيله منزلة اللازم أو بجعله لازما ونقله الى فعل بالضم والرحمة لغة رقة في القلب تقتضي التفضل والاحسان فالتفضل غايتها وأسماء الله تعالى المأخوذة من نحو ذلك انما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي افعال دون المبادي التي تكون انفعالات فرحمة الله تعالى ارادة ايصال الفضل والاحسان أو نفس ايصال ذلك فهي من صفات الذات على الاول ومن صفات الفعل على الثاني والرحمن أبلغ من الرحيم لان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما في قطع بالتخفيف وقطع بالتشديد (فان قيل) حذر أبلغ من حاذر (أجيب) بأن ذلك أكثري لا كلي وبأن الكلام فيما اذا كان المتلاقيان في الاشتقاق متحدي النوع في المعنى كغرث وغرثان لا كحذر وحاذر للاختلاف وقدم الله عليهما لانه اسم ذات وهما اسما صفة والرحمن على الرحيم لانه خاص اذ لا يقال لغير الله بخلاف الرحيم والخاص مقدم على العام وانما قدم والقياس يقتضي الترقي من الادنى الى الاعلى كقولهم عالم نحرير لانه صار كالعلم من حيث انه لا يوصف به غيره ولذلك رجح جماعة انه علم ولانه لما دل على جلائل النعم وأصولها ذكر الرحيم كالتابع والتتمة والرديف ليتناول ما دق منها ولطف فليس من باب

الترقي

والله أسأل أن ينفع به ويجعله خالصا لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل

(سورة الفاتحة)

(قوله بسم الله الرحمن الرحيم) أي ابتدئ وتقدير العامل مؤخرا كما صنعت أولى من تقديمه ليفيد الاختصاص والاهتمام وشرا.

الترقي بل من باب التعميم والتكميل وللمحافظة على رؤس الآى وهل الرحمن مصروف أو لا فيه قولان مال السعد التفتازاني الى جواز الامرين لان شرط منع صرف فعلان صفة وجود فعلى وشرط صرفه وجود فعلانة وكلاهما منتف هنا لكن أظهرهما أنه ممنوع الصرف الحاقا له بما هو الغالب من نظائره في الزيادة والوصف والثاني انه مصروف الحاقا له بالاصل في مطلق الاسم وهو الصرف هذا مع ان المختار في منع صرف ما ذكر انتفاء فعلانة لا وجود فعلى والحاصل انه تعارض في صرفه وعدم صرفه الاصل والغالب (فان قيل) هذا اذا لم تدخله أل (أجيب) بأن المختار ان غير المصروف اذا دخلت عليه أل والعلتان فيه باق على منع صرفه وان جر بالكسرة *(فوائد الاولى)* الوقف على الله قبيح للفصل بين التابع والمتبوع وعلى الرحمن كذلك وقيل كاف وعلى الرحيم تام *(الثانية)* عدد حروف البسملة الرسمية تسعة عشر حرفا وعدد ملائكة خزنة النار تسعة عشر قال ابن مسعود من أراد أن ينجيه الله تعالى من الزبانية فليقلها ليجعل الله تعالى له بكل حرف جنة أي وقاية من واحد *(الثالثة)* قال النسفي في تفسيره قيل الكتب المنزلة من السماء الى الدنيا مائة وأربعة صحف شيث ستون وصحف ابراهيم ثلاثون وصحف موسى قبل التوراة عشرة والتوراة والانجيل والزبور والفرقان وجميع كل الكتب مجموعة في الفاتحة ومعاني الفاتحة مجموعة في البسملة ومعانيها مجموعة في بائها ومعناها بي كان ما كان وبي يكون ما يكون زاد بعضهم ومعاني الباء في نقطتها وتخصيص التسمية بهذه الثلاثة التي هي الله والرحمن والرحيم ليعلم العارف ان المستحق لان يستعان به في جميع الامور هو المعبود الحقيقي الذي هو مولى النعم كلها عاجلها وآجلها جليلها وحقيرها فيتوجه العارف بجملته حرصا ومحبة الى جناب القدس ويتمسك بحبل التوفيق ويشغل سره بذكره والاستمداد به عن غيره (الحمد لله) الحمد اللفظي لغة الثناء باللسان على الجميل الاختياري على قصد التبجيل أي التعظيم سواء أتعلق بالفضائل وهي النعم القاصرة أم بالفواضل وهي النعم المتعدية فدخل في الثناء الحمد وغيره وخرج باللسان الثناء بغيره كالحمد النفسي وبالجميل الثناء باللسان على غير الجميل ان قلنا برأي ابن عبد السلام ان الثناء حقيقة في الخير والشر وان قلنا برأي الجمهور وهو الظاهر انه حقيقة في الخير فقط ففائدة ذلك تحقيق الماهية أو دفع توهم ارادة الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يجوزه وبالاختياري المدح فانه يعم الاختياري وغيره تقول مدحت اللؤلؤة على حسنها دون حمدتها وظاهر قول الزمخشري الحمد والمدح اخوان انهما مترادفان وبه صرح في الفائق لكن الاوفق ما عليه الاكثر انهما غير مترادفين بل متشابهان معنى أو اشتقاقا كبيرا والاشتقاق ثلاثة أقسام كبير وأكبر وأصغر وقد يعبر عنهما بالصغير فالكبير أن يشترك اللفظان في الحروف الاصول من غير ترتيب كالحمد والمدح والاكبر أن يشتركا في أكثر الحروف الاصول كالفلق والفلج والفلقم مع اتحاد في المعنى أو تناسب والاصغر أن يشتركا في الحروف الاصول المرتبة كضرب والضرب وبعلى قصد التبجيل ما كان على قصد الاستهزاء والسخرية نحو قوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم وتناول للظاهر والباطن اذ لو تجرد الثناء على الجميل عن مطابقة الاعتقاد أو خالفه أفعال الجوارح لم يكن حمدا بل تهكم أو تمليح وهذا لا يقتضي دخول الجنان والاركان في التعريف

بشأن المقدم وانما قدم في قوله اقرأ باسم ربك للاهتمام بالقرآن لان ذلك أول سورة نزلت (قوله الرحمن الرحيم) كرره لان الرحمة هي الانعام على المحتاج وذكر في الآية الاولى المنعم دون النعم عليهم وأعادها مع ذكرهم بقوله رب العالمين الى آخره

لان المطابقة وعدم المخالفة اعتبرا فيه شرطا لا شطرا وعرفا فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث انه منعم على الحامد أو غيره سواء كان ذكرا باللسان أم اعتقادا ومحبة بالجنان أم عملا وخدمة بالاركان كما قيل

أفادتكم النعماء مني ثلاثة • يدي ولساني والضمير المحجبا

فمورد اللغوي هو اللسان وحده ومتعلقه يعم النعمة وغيرها ومورد العرفي يعم اللسان وغيره ومتعلقه يكون النعمة وحدها فاللغوي أعم باعتبار المتعلق وأخص باعتبار المورد والعرفي بالعكس والشكر لغة هو الحمد عرفا وعرفا صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه من السمع وغيره الى ما خلق لاجله والمدح لغة الثناء باللسان على الجميل مطلقا على جهة التعظيم وعرفا ما يدل على اختصاص الممدوح بنوع من الفضائل فالشكر أعم من الحمد والمدح من وجه لانه لا يختص باللسان وأخص منهما من وجه آخر لانه يختص بالثناء على الانعام وضد الحمد الذم وضد الشكر الكفران وضد المدح الهجو وجملة الحمد لله خبرية لفظا انشائية معنى لحصول الحمد بالتكلم بها مع الاذعان لمدلولها ويجوز أن تكون موضوعة شرعا للانشاء وقيل خبرية لفظا ومعنى قال بعضهم وهو التحقيق اذ ليس معنى كونها انشائية الا أنها جملة انشاء الحامد الثناء بها وذلك لا ينافي كونها خبرية معنى ولام لله للملك أو الاستحقاق أو الاختصاص وقيل للتعليل والاولى أنها للاختصاص بالمعنى الاعم الصادق بالملك وبالاستحقاق لا بالمعنى الاخص المقابل لهما وعلى كل فهي متعلقة بمحذوف هو الخبر حقيقة فالحمد مختص بالله كما أفادته الجملة الاسمية سواء أجعلت لام التعريف فيه للاستغراق كما عليه الجمهور وهو ظاهر أم للجنس كما عليه الزمخشري لان لام لله للاختصاص كما مر فلا فرد منه لغيره أم للعهد كالتي في قوله تعالى اذ هما في الغار كما نقله ابن عبد السلام وأجازه الواحدي على معنى ان الحمد الذي حمد الله به نفسه وحمده به أنبياؤه وأولياؤه مختص به والعبرة بحمد من ذكر فلا فرد منه لغيره وأولى الثلاثة الجنس زاد بعضهم أو الكمال كما أفاده سيبويه في الداخلة على الصفات كالرحمن الرحيم قال البيضاوي اذ الحمد في الحقيقة كله له اذ ما من خير الا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال وما بكم من نعمة فمن الله انتهى (فان قيل) بل هو موليه مطلقا بغير وسط (أجيب) بان المراد بالوسط من تصل اليه النعمة أولا ثم تنتقل منه الى غيره لا أنه وسط في التأثير (فان قيل) لم خص الحمد بالله ولم يقل الحمد للخالق أو نحوه من بقية الصفات (أجيب) بأن لا يتوهم اختصاص استحقاق الحمد بوصف دون وصف قال البيضاوي وفيه اشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم اذ الحمد لا يستحقه الا من كان هذا شأنه (رب العالمين) أي مالك جميع الخلق من الانس والجن والملائكة والدواب وغيرهم اذ كل منها يطلق عليه عالم يقال عالم الانس وعالم الجن الى غير ذلك وسمى المالك بالرب لانه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى الا مقيدا كقوله تعالى ارجع الى ربك والعالمين اسم جمع عالم بفتح اللام وليس جمعا له لان العالم عام في العقلاء وغيرهم والعالمين مختص بالعقلاء والخاص لا يكون جمعا لما هو أعم منه قاله ابن مالك وتبعه ابن هشام في توضيحه وذهب كثير الى أنه جمع عالم على حقيقة الجمع ثم اختلفوا في تفسير العالم الذي جمع هذا الجمع فذهب أبو الحسن الى أنه أصناف الخلق العقلاء وغيرهم وهو

(فان قلت) الرحمن أبلغ من الرحيم فكيف قدمه وعادة العرب في صفات المدح الترقي من الادنى الى الاعلى كقولهم فلان عالم نحرير لان ذكر الاعلى أولا ثم الادنى لم يتجدد بذكر الادنى فائدة بخلاف عكسه (قلت) ان كانا بمعنى واحد كندمان ونديم كما قال الجوهري وغيره

ظاهر كلام الجوهري وذهب ابو عبيدة الى أنه أصناف العقلاء فقط وهم الانس والجن والملائكة وقيل عنى به الناس ههنا فان كل واحد منهم عالم من حيث انه يشتمل على نظائر ما فى العالم الكبير ووجه اشتمال الصغير وهو الانسان على نظائر ما فى الكبير وهو ماسوى الله تعالى أن تفاصيله شبيهة بتفاصيل العالم الكبير اذ الكبير ينقسم الى ظاهر محسوس كعالم الملك وهو ماظهر للحواس وتكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وتضمنه التغيير والى باطن معقول كعالم الملكوت وهو ماأوجده سبحانه وتعالى بالامر الازلى بلا تدريج وبقى على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه والى عالم الجبروت وهو مابين العالمين مما يشبه أن يكون فى الظاهر من عالم الملك فجبر بالقدرة الازلية بما هو من عالم الملكوت والانسان كذلك ينقسم الى ظاهر محسوس كاللحم والعظم والدم والى باطن كالروح والعقل والارادة والقدرة والى ماهو مشابه لعالم الجبروت كالادراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة باجزاء البدن (فان قيل) لم جمع جمع قلة مع ان المقام يستدعى الاتيان بجمع الكثرة (أجيب) بأن فيه تنبيها على انهم وان كثروا قليلون فى جنب عظمته وكبريائه تعالى (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة من أسمائه خمسة الله والرب والرحمن والرحيم والمالك والسبب فيه كأنه يقول خلقتك أولا فأنا الله ثم ربيتك بوجود النعمة فأنا رب ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن ثم تبت عليك فأنا رحيم ثم لا بد من ايصال الجزاء اليك فأنا مالك يوم الدين (فان قيل) انه تعالى ذكر الرحمن الرحيم فى التسمية ثم ذكرهما مرة ثانية دون الاسماء الثلاثة الباقية فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأن الحكمة فى ذلك كأنه قال تعالى اذكر أنى اله ورب مرة واحدة واذكر أنى رحمن رحيم مرتين ليعلم أن العناية بالرحمة أكثر منه بسائر الامور ثم لما بين الرحمة المضاعفة فكأنه قال لا تغتروا بذلك فانى مالك يوم الدين ونظيره قوله تعالى غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وقرأ عاصم والكسائى مالك بألف بعد الميم ويعضده قوله تعالى لا تملك نفس لنفس شيأ والامر يومئذ لله وقرأ الباقون بغير ألف ويعضده قوله تعالى ملك الناس وبينهما عموم وخصوص مطلق فكل ملك مالك ولا عكس لعموم ولاية الملك التزاما لا مطابقة ولا يقدح فيها أن تقول مالك الدواب والانعام والوحوش والطير دون ملكها لان ذلك ليس من جهة عدم شمول حياطته لذلك بل من جهة انه انما يضاف عرفا الى مافيه انقياد وامتثال وينفذ فيه التصرف بالامر والنهى قاله السعد التفتازانى وقيل هما بمعنى وهو القادر على اختراع الاعيان من العدم الى الوجود ولا يقدر على ذلك الا الله ويوم الدين يوم الجزاء ومنه قولهم كما تدين تدان وهو يوم القيامة وخص بالذكر لانه لا ملك ظاهرا فيه لاحد الا الله تعالى لمن الملك اليوم لله (فان قيل) اضافة اسم الفاعل غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة (أجيب) بأنها انما تكون غير حقيقية اذا أريد باسم الفاعل الحال او الاستقبال فكان فى تقدير الانفصال كقولك مالك الساعة اوغدا فأما اذا قصد به معنى الاستمرار أى هو موصوف بذلك دائما فتكون الاضافة حقيقية كغافر الذنب فصح وقوعه صفة للمعرفة (فان قيل) التقييد بيوم الدين ينافى الاستمرار لكونه صريحا فى الاستقبال (أجيب) بان معناه الثبوت والاستمرار

فلا اشكال أو بأن الرحمن أبلغ كما عليه الاكثر فانما قدمه لانه اسم خاص بالله تعالى كلفظ الله (قوله واياك) كرر اياك لانه لو حذفه فى الثانى لفاتت فائدة التقديم وهى قطع الاشتراك بين العاملين اذ لو قيل اياك نعبد ونستعين لم يظهر أن التقدير اياك نعبد واياك نستعين أو اياك

من غير اعتبار حدوث فى أحد الازمنة ومثل هذا المعنى لا يمتنع أن يعتبر بالنسبة الى يوم الدين كأنه قيل هو ثابت المالكية فى يوم الدين او المراد انه جعل يوم الدين لتحقق وقوعه بمنزلة الواقع فتستقر مالكيته فى جميع الازمنة *(تنبيه)* اجراء هذه الاوصاف على الله تعالى من كونه رب العالمين موجدا لهم منعما عليهم بالنعم كلها ظاهرها و باطنها عاجلها وآجلها مالكا لامورهم يوم الثواب والعقاب للدلالة على انه تعالى الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه فان ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له (اياك نعبد واياك نستعين) ايا ضمير منصوب منفصل وما يلحقه من الياء والكاف والهاء حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الاعراب وفيه أقوال أخر ذكرتها فى شرح القطر (فان قيل) لم كرر ضمير اياك (أجيب) بأنه كرر للتنصيص على انه المستعان به لا غيره (فان قيل) لم قدمت العبادة على الاستعانة (أجيب) لتتوافق رؤس الآى وليعلم منه ان تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى الى الاجابة وأيضا لما نسب المتكلم العبادة الى نفسه أوهم ذلك فرحا واعترافا منه بما يصدر عنه فعقبه بقوله واياك نستعين ليدل على أن العبادة أيضا مما لا تتم ولا تتيسر له الا بمعونة منه تعالى وتوفيق (فان قيل) لم عدل عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب (أجيب) بأن عادة العرب التفنن فى الكلام والعدول من أسلوب الى آخر تحسينا للكلام وتنشيطا للسامع فيكون أكثر اصغاء للكلام فتعدل من الخطاب الى الغيبة ومن الغيبة الى التكلم و بالعكس فيهما فهذه أقسام أربعة ذكرها البيضاوى والتحقيق كما قاله بعض المتأخرين انها ستة لان الملتفت اليه اثنان وكل منهما اما غيبة او خطاب او تكلم من ذلك قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم الاصل بكم فهو التفات من الخطاب الى الغيبة وقوله تعالى والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الاصل فساقه فهو التفات من الغيبة الى التكلم * والاستعانة طلب معونة وهى اما ضرورية او غير ضرورية فالضرورية ما لا يتأتى الفعل دونه كاقتدار الفاعل وتصوره وحصول آلة ومادة يفعل بها فيها وعند اجتماع ذلك يوصف الرجل بالاستطاعة و يصح أن يكلف بالفعل وغير الضرورية تحصيل ما يتيسر به الفعل و يسهل كالراحلة فى السفر للقادر على المشى او يقرب الفاعل الى الفعل و يحثه عليه وهذا القسم لا يتوقف عليه صحة التكليف غالبا وقد يتوقف كأكثر الواجبات المالية (فان قيل) لم أطلقت الاستعانة (أجيب) بانها انما أطلقت لاجل أنها تتناول المعونة فى المهمات كلها او فى أداء العبادات واستحسن هذا الزمخشرى قال لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض *(تنبيه)* الضمير المستكن فى نعبد ونستعين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضرى صلاة الجماعة او له ولسائر الموحدين أدرج عبادته فى تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعل عبادته تقبل ببركة عبادتهم وحاجته يجاب اليها ببركة حاجتهم ولهذا شرعت الجماعة فى الصلاة (فان قيل) لم قدم المفعول (أجيب) بان تقديمه للتعظيم والاهتمام به والدلالة على الحصر ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه نعبدك ولا نعبد غيرك وتقديم ما هو مقدم فى الوجود والتنبيه على أن العابد ينبغى أن يكون نظره الى المعبود أولا وبالذات ومنه الى العبادة لا من حيث انها عبادة صدرت عنه بل من حيث انها نسبة شريفة اليه ووصلة بينه

نعبدونستعينك (فان قلت) اذا كان نستعينك مفيد القطع الاشتراك بين العاملين فلم عدل عنه مع انه أخصر الى وايالك نستعين (قلت) عدل اليه ليفيد الحصر بين العاملين مع انه اخصر (فان قلت) فلم قدم العبادة على الاستعانة مع ان الاستعانة مقدمة

قوله واستحسن هذا الزمخشرى عبارته فان قلت لم أطلقت الاستعانة قلت ليتناول كل مستعان فيه والاحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة ويكون قوله اهدنا بيانا للمطلوب من المعونة كأنه قيل كيف أعينكم فقالوا اهدنا الصراط المستقيم وانما كان أحسن لتلاؤم الخ اه فتأمل اه مصححه

وبين الحق فان العارف انما يحق وصوله اذا استغرق فى ملاحظة جناب القدس وغاب عما عداه حتى انه لا يلاحظ نفسه ولا حالا من أحوالها الا من حيث انها ملاحظة له ومنتسبة اليه ولذلك فضل ما حكى عن حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لا تحزن ان الله معنا على ما حكاه عن كليمه موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال ان معى ربى سيهدين لان الاول قدم ذكر الله تعالى على المعية والثانى بالعكس (اهدنا الصراط المستقيم) بيان للمعونة المطلوبة فكأنه قال كيف أعينكم فقالوا اهدنا والهداية الدلالة بلطف ولذلك تستعمل فى الخير (فان قيل) قال الله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم (أجيب) بأنه وارد على التهكم * (تنبيه) * هدى أصله أن يتعدى باللام أو بالى كقوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم وانك لتهدى الى صراط مستقيم فعومل معاملة اختار فى قوله تعالى واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا وقد يتعدى بنفسه كما هنا وهو حينئذ محتمل لاضمار الحرف ولعدم اضماره وهداية الله تعالى تتنوع أنواعا لا يحصيها عدد كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ولكنها تنحصر فى أجناس مرتبة الاول افاضة القوى التى يتمكن بها المؤمن من الاهتداء الى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة والثانى نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد واليه أشار تعالى حيث قال وهديناه النجدين أى طريق الخير والشر وقال وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى والثالث الهداية بارسال الرسل وانزال الكتب واياها عنى بقوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وقوله ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم والرابع أن يكشف لقلوبهم السرائر ويريهم الاشياء كما هى بالوحى والالهام والمنامات الصادقة وهذا القسم يختص بنيله الانبياء والاولياء واياه عنى تعالى بقوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (فان قيل) ما معنى طلب الهداية وهم مهتدون (أجيب) بأنهم طلبوا زيادة ما منحوه من الهدى والثبات عليه كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى والصراط من قلب السين صادا ليطابق الطاء فى الاطباق وقد تشم الصاد صوت الزاى ليكون أقرب الى المبدل منه قرأ حمزة الصراط المعرف فى هذه السورة بالاشمام وهو أن ينطق القارئ بحرف متولد بين الصاد والزاى وأشم خلف صراط الثانى كالاول وكذا جميع ما فى القرآن من معرف ومنكر وقرأ قنبل بجميع ما فى القرآن بالسين وقرأ الباقون بالصاد الخالصة فى الجميع وهذه لغة قريش وهى الثابتة فى الامام وهو مصحف سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه والمستقيم المستوى والمراد به طريق الحق وقيل ملة الاسلام وهذان القولان مرويان عن ابن عباس وهما متحدان صدقا وان اختلفا مفهوما (صراط الذين انعمت عليهم) بالهداية بدل من الاول بدل كل من كل والعامل فيه مقدر على رأى الجمهور وقيل العامل فيه هو العامل فى المبدل منه وهو ظاهر مذهب سيبويه واختاره ابن مالك (فان قيل) ما فائدة ذكر صراط الذين أنعمت عليهم بدلا تابعا وهلا اقتصر عليه مع انه المقصود بالنسبة (أجيب) بان فائدته التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه لانه جعل كالتفسير والبيان له فكانه من البين الذى لا خفاء فيه أن الطريق

لان العبد يستعين الله
تعالى على العبادة ليعينه
عليها رقات) الواو لا تقتضى
الترتيب أو المراد بالعبادة
التوحيد وهو مقدم على
الاستعانة على سائر العبادات
(قوله صراط الذين أنعمت
عليهم) كرر الصراط لانه
المكان المهيأ للسلوك
وذكر فى الاول المكان
دون السالك فاعاده مع

المستقيم ما يكون طريق المؤمنين وهذا هو الموافق لما أخرج ابن جرير عن ابن عباس ان المراد بالذين أنعمت عليهم الانبياء والملائكة والصديقون والشهداء ومن أطاعه وعبده وقيل الذين أنعمت عليهم الانبياء خاصة صلوات الله وسلامه عليهم وقيل أصحاب موسى وعيسى قبل التحريف والنسخ *(تنبيه)* أطلق الانعام ليشمل كل انعام لان من أنعم الله عليه بنعمة الاسلام لم تبق نعمة الا أصابته واشتملت عليه ويبدل من الذين بصلته (غير المغضوب عليهم) وهم اليهود لقوله تعالى فيهم من لعنه الله وغضب عليه (ولا) أى وغير (الضالين) وهم النصارى لقوله تعالى قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا الآية ونكتة البدل افادة ان المهتدين ليسوا يهودا ولا نصارى وقيل ان غير صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهى نعمة الايمان وبين السلامة من غضب الله تعالى والضلال وقيل المغضوب عليهم هم الكفار والضالون هم المنافقون وذلك لانه تعالى بدأ فى أول البقرة بذكر المؤمنين والثناء عليهم فى خمس آيات ثم اتبعه بذكر الكفار وهو المراد من قوله تعالى ان الذين كفروا ثم اتبعهم بذكر المنافقين وهو قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الخ وكذا ههنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله أنعمت عليهم ثم اتبعهم بذكر الكفار وهو قوله غير المغضوب عليهم ثم اتبعهم بذكر المنافقين بقوله ولا الضالين (فان قيل) كيف صح أن يقع غير صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وان أضيف الى المعارف (أجيب) بأنه يصح بأحد تأويلين أحدهما اجراء الموصول مجرى النكرة اذ لم يقصد به معهود كالمحلى باللام فى قول القائل * ولقد أمر على اللئيم يسبنى * أى لئيم يسبنى اذ لا مرور على الكل والثانى جعل غير معرفة بالاضافة لانه أضيف الى ماله ضد واحد وهو المنعم عليه فليس فى غير اذن الابهام الذى يأبى عليه أن يتعرف *(تنبيه)* انما سمى كل من اليهود والنصارى بما ذكر مع أنه مغضوب عليه وضال لاختصاص كل منهما بما غلب عليه وقال صلى الله عليه وسلم ان المغضوب عليهم اليهود وان الضالين النصارى رواه ابن حبان وصححه وقيل المغضوب عليهم العصاة والضالين الجاهلون بالله لان المنعم عليه من وفق للجمع بين معرفة الحق لذاته والخير للعمل به فكان المقابل له من اختل احدى قوتيه العاقلة والعاملة والمخل بالعمل فاسق مغضوب عليه لقوله تعالى فى القاتل عمدا وغضب الله عليه والمخل بالعمل جاهل ضال لقوله تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال (فان قيل) ما معنى غضب الله لان الغضب ثوران النفس عند ارادة الانتقام أو تغير يحصل عند ثوران دم القلب ارادة الانتقام وهو محال فى حقه تعالى (أجيب) بأنه اذا أسند الى الله تعالى أريد به المنتهى والغاية فمعناه ارادة الانتقام من العصاة وانزال العقوبة بهم وأن يفعل بهم ما يفعل الملك اذا غضب على من تحت يده نعوذ بالله من غضبه ونسأله رضاه ورحمته (فان قيل) أى فرق بين عليهم الاولى والثانية (أجيب) بأن محل مجرور الاولى النصب على المفعولية ومحل مجرور الثانية الرفع لانه نائب مناب الفاعل (فان قيل) لم دخلت لا فى ولا الضالين (أجيب) بأنها بمعنى غير كما قرئ به تبعا للبدل الحلى وأنها مزيدة كما قال الزمخشرى لتأكيد ما فى غير من معنى النفى كأنه قال لا المغضوب عليهم ولا الضالين وللتصريح بتعلق النفى بكل من المعطوف والمعطوف عليه *(فائدة)* أول السورة مشتمل على الحمد لله والثناء عليه والمدح له وآخرها مشتمل على

الذم

ذكره بقوله صراط الذين أنعمت عليهم الخ المصرح فيه بما أخرج اليهود وهم المغضوب عليهم والنصارى وهم الضالون (فان قلت) المراد بالصراط المستقيم الإسلام أو القرآن أو طريق الجنة كما قيل والمؤمنون مهتدون الى ذلك فما معنى طلب الهداية له اذ فيه

الذم للمعرضين عن الايمان به والاقرار بطاعته وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الاقبال على الله ومطلع الآفات ورأس المخالفات هو الاعراض عن الله تعالى والبعد عن طاعته والاجتناب عن خدمته (فان قيل) مافائدة غير المغضوب الخ بعد ذكر أنعمت عليهم (أجيب) بأن الايمان انما يكمل بالرجاء والخوف كما قال عليه الصلاة والسلام لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا فقوله صراط الذين أنعمت عليهم يوجب الرجاء الكامل وقوله غير المغضوب عليهم الخ يوجب الخوف الكامل وحينئذ يتقوى الايمان بركنيه وطرفيه وينتهي الى حد الكمال وقرأ حمزة عليهم غير المغضوب عليهم بضم الهاء وقفا ووصلا وكذا جميع مافي القرآن وقرأ ابن كثير عليهم بواو بعد الميم في الوصل فاذا وقف أسقط الواو وكذا يفعل في كل ميم جمع بعدها حرف متحرك وأما قالون فهو مخير في ميم الجمع ان شاء وصلها بواو كابن كثير وان شاء لا يصلها بواو وأما ورش فانه يصل ميم الجمع بواو ان كان بعدها همزة قطع فيصير عنده مد منفصل وفي ولا الضالين مدان لازم وعارض فاللازم هو الذي على الالف بعد الضاد قبل اللام المشددة والعارض هو الذي على الياء قبل النون * والسنة للقارئ أن يقول بعد فراغه من الفاتحة آمين مفصولا عن الفاتحة بسكتة وهو اسم الفعل الذي هو استجب وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معناه فقال افعل بني على الفتح كأين لالتقاء الساكنين وجاز مد ألفه وقصرها قال مجنون ليلى

يارب لاتسلبني حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا

اي بالمد وقال جبير لما سأل الاسدي المسمى بفطحل

تباعد عني فطحل اذ سألته * امين فزاد الله ما بيننا بعدا

فذكره مقصورا وكان من حقه التأخير لان التأمين انما يكون بعد الدعاء لكن قدمه للضرورة وليس آمين من القرآن اتفاقا بدليل انه لم يثبت في المصاحف كما مرت الاشارة اليه ولكن يسن ختم السورة به لقوله صلى الله عليه وسلم علمني جبريل عليه السلام آمين عند فراغي من قراءة الفاتحة كما رواه البيهقي وغيره وقال صلى الله عليه وسلم انه كالختم على الكتاب كما رواه أبو داود في سننه وقال علي رضي الله تعالى عنه آمين خاتم رب العالمين ختم به دعاء عبده رواه الطبراني وغيره لكن بسند ضعيف يقوله الامام ويجهر به في الجهرية لما روى عن وائل بن حجر أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته وعن الحسن لا يقوله الامام لانه الداعي وعن أبي حنيفة مثله والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيه والمأموم يؤمن مع امامه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا قال الامام ولا الضالين فقولوا آمين فان الملائكة تقول آمين وان الامام يقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه زاد الجرجاني في أماليه وما تأخر وأحسن ما فسر به هذا الخبر ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة قال صفوف أهل الارض تلي صفوف أهل السماء فاذا وافق تأمين من في الارض تأمين من في السماء غفر للعبد قال ابن حجر ومثل هذا لا يقال بالرأي فالمصير اليه أولى وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابي ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والانجيل والقرآن مثلها قال بلى يارسول الله قال فاتحة الكتاب انها السبع المثاني

تحصيل الحاصل (قلت) معناه ثبتنا وادمنا عليه مع الاستقامة كما في قوله يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله (فان قلت) مافائدة دخول لا في قوله ولا الضالين مع ان الكلام بدونها كاف في المقصود (قلت) فائدته توكيد النفي المفاد من غير

(سورة البقرة)

(قوله الم) كرر في أوائل ست سور وزاد في الاعراف

والقرآن العظيم الذى الذى أوتيته رواه الترمذى وقال حسن صحيح وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ ناداه منادفقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما الا أعطيته وما رواه البيضاوى عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا فيقرأ صبي من صبيانهم فى الكتاب الحمد لله رب العالمين فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة حديث موضوع

(سورة البقرة مدنية)

(وهى مائتان وسبع وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم الم) قال الشعبي وجماعة الم وسائر حروف الهجاء فى أوائل السور من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه وهى سر القرآن فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها الى الله سبحانه وتعالى وفائدة ذكرها طلب الايمان بها والسبب فى ذلك أن العقول الضعيفة لا تحتمل الاسرار القوية كما لا يحتمل نور الشمس أبصار الخفافيش والله تعالى استأثر بعلم لا تقدر عليه عقول الانبياء والانبياء استأثروا بعلم لا تقدر عليه عقول العلماء والعلماء استأثروا بعلم لا تقدر عليه عقول العامة وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى كل كتاب سر وسر الله فى القرآن أوائل السور وقال على رضى الله عنه ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى قال داود بن أبي هند كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور فقال يا داود ان لكل كتاب سرا وان سر القرآن فواتح السور فدعها واسأل عما سوى ذلك وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال معنى الم أنا الله أعلم ومعنى الر أنا الله أرى ومعنى المر أنا الله أعلم وأرى قال الزجاج وهذا حسن فان العرب تذكر حرفا من كلمة تريدها كقولهم
* قلت لها قفى فقالت قاف أى وقفت وقيل هى أسماء السور وعليه اطباق أكثر المتكلمين واختاره الخليل وسيبويه سميت بها اشعارا بأنها كلمات معروفة التركيب فلو لم تكن وحيا من الله تعالى لم تتساقط قدرتهم عند معارضتها ونقضه الامام الرازى بأنها لو كانت اسماء لها لوجب اشتهارها بها وقد اشتهرت بغيرها كسورة البقرة وآل عمران وقيل أسماء للقرآن قاله قتادة والحكمة فى الاتيان بهذه الاحرف الثلاثة أن الالف من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج واللام من طرف اللسان وهو وسطها والميم من الشفة وهى آخرها جمع الله تعالى بينها ايماء الى ان العبد ينبغى أن يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله تعالى ولما تكاثر وقوع الالف واللام فى تراكيب الكلام جاءتا فى معظم الفواتح مكررتين وهى فواتح سورة البقرة وأول آل عمران والاعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وابراهيم والحجر والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة (فان قيل) هلا عددت هذه الاحرف بأجمعها فى أوائل القرآن وما لها جاءت مفرقة على السور (أجيب) بأن اعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير وتجديده فى غير موضع واحد أوصل الى الغرض وأقر له فى الاسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة وكذلك مذهب كل تكرير جاء فى القرآن فطلوب به تمكين المكرر فى

صاد لقوله بعده فلا يكن فى صدرك حرج منه وفى الرعد راء لقوله بعده الله الذى رفع السموات واعلم ان حروف الهجاء فى أوائل السور من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه وهى سر القرآن وفائدة ذكرها طلب الايمان بها وقيل هى معلومة المعانى وعليه فقيل كل حرف منها أول اسم من أسماء الله فالالف من الله واللام من

قوله بان اعادة الخ كذا بالاصل ولعل الصواب بانها لم تعدد للتنبيه اهـ مصحح

النفوس وتقريره (فان قيل) هلا جاءت على وتيرة واحدة ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت ص وق ون على حرف وطه وطس ويس وحم على حرفين والم والر وطسم على ثلاثة أحرف والمص والمر على أربعة أحرف وكهيعص وحم عسق على خمسة أحرف (أجيب) بأن هذا على عادة افتنانهم فى أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب عدة وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين الى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك سلك بهذه الفواتح تلك المسالك (فان قيل) ما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التى اختصت بها (أجيب) بأنه لما كان الغرض هو التنبيه والمبادى كلها فى تأديه هذا الغرض سواء لا مفاضلة كان تطلب وجه الاختصاص ساقطا كما اذا سمى الرجل بعض أولاده زيدا والآخر عمرا لم يقل له لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمرو لان الغرض هو التمييز وهو حاصل بذلك (فان قيل) هل لهذه الفواتح محل من الاعراب (أجيب) بأن لها محلا عند من جعلها أسماء لانها عنده كسائر الاعلام محلها يحتمل ثلاثة أوجه اما الرفع بأنها مبتدأ أو خبر لمبتدا محذوف اى هذه الم أو النصب بفعل مقدر كاذكر أو اقرأ أو اتل الم أو الجر بتقدير حذف حرف القسم (ذلك الكتاب) الذى قرؤه يا محمد على الناس (لا ريب فيه) لا شك فى أنه من عند الله تعالى (فان قيل) لم صحت الاشارة بذلك الى ما ليس يبعد (أجيب) بأن الاشارة وقعت فيه للتعظيم ولذلك قال الطيبى أحسن ما قيل فى توجيه ذلك قول صاحب المفتاح قال ذلك الكتاب ذهابا الى بعده درجة وقيل وقعت الاشارة الى الم بعدما سبق التكلم به وتقضى والمنقضى فى حكم المتباعد وهذا فى كل كلام يحدث الرجل بحديث ثم يقول وذلك ما لا شك فيه ويحسب الحاسب ثم يقول فذلك كذا وكذا وقال تعالى لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك وقال نبى الله يوسف صلى الله عليه وسلم لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى ولانه لما وصل من المرسل سبحانه وتعالى الى المرسل اليه صلى الله عليه وسلم وقع فى حد البعد كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيأ احتفظ بذلك اى تمسك به وقيل معناه ذلك الكتاب الموعود انزاله بقوله تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا أو فى الكتب المتقدمة لان سورة البقرة مدنية كما مر وأكثرها احتجاج على اليهود وعلى بنى اسرائيل وقد كانت بنو اسرائيل اخبرهم موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام أن الله يرسل محمدا وينزل عليه كتابا فقال تعالى ذلك الكتاب أى الذى اخبر الانبياء المتقدمون بأن الله سينزله على النبى المبعوث من ولد اسمعيل وقيل انه تعالى لما اخبر عن القرآن بأنه فى اللوح المحفوظ بقوله وانه فى أم الكتاب لدينا وقد كان صلى الله عليه وسلم اخبر امته بذلك فغير ممتنع ان يقول تعالى ذلك الكتاب ليعلم ان هذا المنزل هو ذلك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ والكتاب مصدر سمى به المفعول للمبالغة او فعال بمعنى المفعول كاللباس ثم اطلق على المنظوم عبارة قبل ان يكتب لانه مما يكتب واصل الكتب الضم والجمع سمى الكتاب كتابا لانه جمع حرف الى حرف والكتاب جاء فى القرآن على وجوه

* أحدها الفرض قال تعالى كتب عليكم القصاص كتب عليكم الصيام ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وثانيها الحجة والبرهان قال تعالى فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين اى برهانكم وثالثها الاجل قال تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم اى أجل ورابعها بمعنى مكاتبة السيد رقيقه قال تعالى والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم

الالف من اللطيف والميم من المجيد والصاد من صادق والراء من رؤف وقيل هى اقسام أقسم الله بها لشرفها وقيل غير ذلك وان تسميتها حروفا مجاز وانما هى أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة وعليه فقيل معربة وقيل مبنية وقيل لا ولا وقد بينت

(فان قيل) كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق وكم من مرتاب فيه (أجيب) بان الله تعالى مانفى أن أحدا لايرتاب فيه وانما المنفى كونه متعلقا للريب ومظنة له لانه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا ينبغى لاحد أن يرتاب فيه ألا ترى الى قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله فانه لم ينف عنهم الريب بل أرشدهم الى الطريق المزيح للريب وهو أن يجتهدوا فى معارضة سورة من سوره ويبذلوا فيها غاية جهدهم حتى اذا عجزوا عنها تحقق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة وقيل هو خبر بمعنى النهى أى لاترتابوا فيه كقوله تعالى فلارفث ولافسوق ولاجدال فى الحج اى لاترفثوا ولاتفسقوا ولاتجادلوا والريب فى الاصل مصدر رابنى الشئ اذا حصل فيه الريبة وهى قلق النفس واضطرابها سمى به الشك لانه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة وفى الحديث دع مايريبك الى مالايريبك فان الشك ريبة والصدق طمأنينة رواه الترمذى لكن بلفظ فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة وصححه ومعناه اترك مافيه شك الى مالاشك فيه فاذا ارتابت نفسك فى شئ فاتركه أواطمأنت اليه فافعله فان نفس المؤمن تطمئن الى الصدق وترتاب من الكذب وهذا مخصوص بذوى النفوس الشريفة القدسية الطاهرة *(تنبيه)* جملة النفى خبر مبتدؤه ذلك و(هدى) خبر ثان أى هاد (للمتقين) الصائرين الى التقوى بامتثال الاوامر واجتناب النواهى لاتقائهم بذلك النار وتخصيص المتقين بالذكر تشريفا لهم ولانهم هم المنتفعون بالهدى كما قال تعالى انما أنت منذر من يخشاها وقال تعالى انما تنذر من اتبع الذكر وقد كان صلى الله عليه وسلم منذرا لكل الناس لان هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره * ولها ثلاث مراتب * الاولى التوقى من العذاب المخلد بالتبرى عن الشرك وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى * والثانية التجنب عن كل مايؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهذا التجنب هو المتعارف بالتقوى فى الشرع وهو المعنى بقوله تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا وعلى هذا قول عمر بن عبد العزيز التقوى ترك ماحرم الله وأداء ماافترض الله فمارزق الله بعد ذلك فهو خير الى خير * والثالثة أن يتنزه عمايشغل سره عن الحق تعالى وهذه هى التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وقال ابن عمر التقوى أن لاترى نفسك خيرا من أحد قرأ ابن كثير فيه هدى فيصل الهاء من فيه بياء فى الوصل لانها مكسورة وقبلها ساكن فان كانت هاء الكناية مضمومة وقبلها ساكن وصلها بواو فان كان قبلها متحرك وبعدها متحرك فجميع القراء يصلونها مكسورة بياء ويصلونها مضمومة بواو فمثال المكسورة به أن يوصل ومثال المضمومة قال له صاحبه وهو وما أشبه ذلك فان كان قبلها متحرك وبعدها ساكن فالجميع على عدم الصلة مثال ذلك به الله وله الملك وما أشبه ذلك ويدغم ابو عمرو الهاء فى الهاء بخلاف عنه وكذا كل مثلين مالم يكن الحرف المدغم تاء متكلم مثل كنت ترابا أو تاء مخاطب مثل أفأنت تكره الناس او منونا مثل سميع عليم او مشددا مثل فتم ميقات ربه * ثم وصف المتقين بما هو شأنهم بقوله (الذين يؤمنون بالغيب) أى يصدقون بما غاب عنهم من البعث والجزاء والجنة والنار والصراط والميزان والايمان لغة التصديق وشرعا قيل التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث

ذلك فى غير هذا الكتاب أى (قوله لاريب فيه) لاشك فيه (فان قلت) كيف نفى الريب وكم ضال ارتاب فيه (قلت) المراد أنه ليس محلا للريب أو لاريب فيه عند الله ورسوله والمؤمنين أو ذلك نفى بمعنى النهى

والجزاء ومجموع ثلاثة أمور اعتقاد الحق والاقرار به والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين
والمعتزلة والخوارج والاصح أنه التصديق وحده ويدل له أنه تعالى أضاف الايمان الى القلب
فقال كتب فى قلوبهم الايمان وقال وقلبه مطمئن بالايمان وقال ولم تؤمن قلوبهم وعطف عليه
العمل الصالح فى مواضع لا تحصى وقرنه بالمعاصى فقال وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا
يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى فلو لم يكن الايمان التصديق فقط بل هو
وترك المعاصى لم يكونوا مؤمنين (فان قيل) قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه وغيره ان
الايمان قول وعمل ويزيد وينقص (أجيب) بأن ذلك محمول على الايمان الكامل وقرأ ورش
والسوسى بابدال الهمزة الساكنة فى يؤمنون واوا وكذا يقرأ حمزة فى الوقف (ويقيمون
الصلاة) أى يديمونها ويحافظون عليها فى مواقيتها بحدودها وأركانها وهيآتها يقال قام بالامر
وأقامه اذا أتى به يعطى حقوقه لان الحقيق بالمدح من راعى حدودها الظاهرة من الفرائض
والسنن وحقوقها الباطنة كالخشوع والاقبال على الله تعالى لا المصلون الذين هم عن صلاتهم
ساهون ولذلك ذكر فى سياق المدح والمقيمين الصلاة وفى معرض الذم فويل للمصلين والمراد
بها الصلوات الخمس ذكر بلفظ الوحدان كقوله تعالى فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين
وأنزل معهم الكتاب بالحق يعنى الكتب والصلاة فى اللغة الدعاء قال الله تعالى وصل عليهم أى
ادع لهم وفى الشرع اسم لافعال وأقوال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم وقرأ
ورش بتغليظ اللام فى الصلاة حيث جاء (ومما رزقناهم) أى أعطيناهم (ينفقون) يخرجون
المال فى طاعة الله فرضا كان أو نفلا ومن فسره بالزكاة ذكر أفضل أنواعه والاصل فيه
أو خصصه بها لاقترانها بالصلاة لانهما يذكران معا فى القرآن ويحتمل أن يراد به الانفاق مما
منحهم الله من النعم الظاهرة والباطنة ويؤيده ما رواه الطبرانى فى الاوسط مرفوعا مثل
الذى يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذى يكنز الكنز فلا ينفق منه والى هذا ذهب من قال ومما
خصصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون والرزق بالكسر فى اللغة الحظ قال الله تعالى
وتجعلون رزقكم أى حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون وأما بالفتح فهو مصدر
بمعنى اعطاء الحظ كما أنه بالكسر يكون مصدرا أيضا كما قيل به فى قوله تعالى ومن رزقنا
منه رزقا حسنا وفى العرف اسم لكل ما ينتفع به حتى الولد والرقيق والمعتزلة لما استحالوا من
الله أن يمكن من الحرام لانه تعالى منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لا يتناول
الحرام ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق ههنا الى نفسه ايذانا بأنهم ينفقون الحلال الصرف
الطيب وأن انفاق الحرام لا يوجب المدح وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى
بقوله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا وأجاب أهل السنة
عما ذكر بأن الاسناد للتعظيم والتحريض على الانفاق والذم بتحريم ما لم يحرم واختصاص
ما رزقهم بالحلال للقرينة وتمسكوا لشمول الرزق له بما رواه ابن ماجه وغيره من حديث صفوان
ابن أمية قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء عمرو بن قرة فقال يا رسول الله ان الله
قد كتب على الشقوة فلا أرانى أرزق الا من دفى بكفى فاذن لى فى الغناء من غير فاحشة فقال
لا آذن لك ولا كرامة كذبت أى عدو الله لقد رزقك الله حلالا طيبا فاخترت ما حرم الله

أى لا ترتابوا فيه لانه من
عند الله ونظيره قوله تعالى
ان الساعة آتية لا ريب
فيها (فان قلت) كيف قال
هدى للمتقين وفيه تحصيل
الحاصل لان المتقين
مهتدون (قلت) انما
صاروا متقين باستفادتهم
الهدى من الكتاب
أو المراد بالهدى الثبات
والدوام عليه أو أراد
الفريقين واقتصر على
المتقين لانهم الفائزون
بمنافع الكتاب أو الايجاز
كما فى قوله تعالى سرابيل

عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله وبأنه لولم يكن رزقا لم يكن المتغذى به طول عمره
مرزوقا وليس كذلك لقوله تعالى وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها * (تنبيه) * تقديم
رزقناهم على ينفقون للاهتمام به وللمحافظة على رؤس الآى وادخال من التبعيضية عليه
للكف عن الاسراف المنهى عنه فى حق من لم يصبر على الاضاقة والافليس باسراف فقد
تصدق أبو بكر رضى الله تعالى عنه بجميع ماله ولم ينكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم
(والذين يؤمنون بما أنزل اليك) أى القرآن باسره والشريعة عن آخرها وانما عبر عنه بلفظ
المضى وان كان بعضه مترقبا تغليبا للموجود على مالم يوجد فيكون مجازا باعتبار تسمية
الكل باسم البعض أو تنزيلا للمنتظر منزلة الواقع فيكون استعارة باعتبار تشبيه غير المحقق
بالمحقق وفى كل من هذين الوجهين جمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز عند الامام الشافعى
رضى الله تعالى عنه (وما أنزل من قبلك) أى التوراة والانجيل وغيرهما من سائر الكتب
السابقة على القرآن والايمان بالانزالين جملة فرض عين وبالاول دون الثانى تفصيلا من
حيث انا متعبدون بتفاصيله فرض ولكن على الكفاية لان وجوبه على كل أحد يوجب
الحرج ويشوش المعاش وهذه الآية فى المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله
* (فائدة) * الكتب المنزلة مائة وأربعة كتب أنزل على السيد شيث ستون صحيفة وعلى السيد
ابراهيم ثلاثون وعلى السيد موسى قبل التوراة عشر فهذه مائة والاربعة الاخرى التوراة
والانجيل والزبور والفرقان العظيم واختلف القراء فى مد وقصر ما أنزل فقالون والدورى
عن أبى عمرو يمدان ويقصران وابن كثير والسوسى يقصران بلا خلاف وباقى القراء وهم
ورش وعاصم وحمزة والكسائى يمدون بلا خلاف ويتفاوتون فى طول المد فأطولهم مدا
ورش وحمزة ودونهما عاصم ودونه ابن عامر والكسائى وهكذا كل مد منفصل (وبالآخرة
هم يوقنون) أى يعلمون أنها كائنة لان اليقين هو العلم بالشئ بعد ان كان صاحبه شاكا فيه
قاله الامام الرازى ولذلك لا يوصف به العلم القديم ولا العلوم الضرورية فلا يقال تيقن الله
كذا ولا تيقنت ان الكل اكبر من الجزء * (فائدة) * سميت الدنيا دنيا لدنوها من الآخرة
وسميت الآخرة آخرة لتأخرها وكونها بعد فناء الدنيا وهى تأنيث الآخر صفة الدار بدليل
قوله تعالى تلك الدار الآخرة قرأ ورش الاخرة بنقل حركة الهمزة الى الساكن قبلها حيث
جاء وكذا الارض وقد افلح ومن امن وما اشبه ذلك (أولئك) الموصوفون بما ذكر (على هدى)
اى رشد (من ربهم) ونكر هدى للتعظيم فكأنه أريد به ضرب لا يبالغ كنهه ولا يقادر قدره
واكد تعظيمه بأن الله مانحه والموفق له * (تنبيه) * جميع القراء يمدون أولئك بلا خلاف لانه
متصل لكن مرتبة ابن كثير وابى عمرو دون مرتبة ابن عامر والكسائى فى المتصل والمنفصل
واولاء كلمة معناها الكناية عن جماعة والكاف للخطاب كما فى حرف ذلك (واولئك هم المفلحون)
اى الفائزون بالجنة والناجون من النار كرر فيه اسم الاشارة تنبيها على ان اتصافهم بتلك
الصفات يقتضى كل واحد من الاختصاصين وان كلا منهما كاف فى تمييزهم بها عن غيرهم فلا
يحتاجون فيه الى مجموعهما (فان قيل) لم وسط العاطف بينهما بين الجملتين دون قوله تعالى
اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون (اجيب) بان الجملتين هنا مختلفتان

باختلاف

(قوله هم يوقنون) أى يعلمون واليقين العلم بعد أن لم يكن ولهذا لا يقال لعلم الله يقين (قوله أولئك على هدى من ربهم) * (فان قلت) لم ذكر هدى هنا مع قوله قبل ذلك هدى للمتقين (قلت) لانه ذكر ثم (قوله سواء عليهم) * (ان قلت) لم حذف الواو هنا وأثبتت فى يس (قلت) لان ما هنا جملة هى خبر ان وما هناك جملة عطفت على أخرى (فان

باختلاف المسندين فيهما اذعلى هدى من ربهم والمفلحون وان تناسبتا تعلقا مختلفتان
مفهوما ووجودا ومقصودا لان الهدى فى الدنيا والفلاح فى العقبى واثبات كل منهما مقصود
فى نفسه بخلاف كالانعام والغافلون فانهما وان اختلفا مفهوما فقد اتحدا مقصودا
ووجودا اذلا معنى للتشبيه بالانعام الا المبالغة فى الغفلة فى الدنيا فناسب العطف فى الاول دون
الثانى *(تنبيه)* تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل مالا يناله احد
من وجوه شتى بناء الكلام على اسم الاشارة للتعليل مع الايجاز وتكريره وتعريف الخبر وتوسط
الفصل لاظهار قدرهم والترغيب فى اقتفاء أثرهم وأصل الفلاح القطع والشق ومنه سمى
الزراع فلاحا لانه يشق الارض فهم المقطوع لهم بالخير فى الدنيا والآخرة * ولما ذكر الله تعالى
خاصة عباده وخاصة أوليائه بصفاتهم التى أهلتهم للهدى والفلاح عقبهم بذكر أضدادهم
العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغنى عنهم الآيات والنذر بقوله تعالى (ان الذين
كفروا) الكفر لغة ستر النعمة وأصله الكفر بالفتح وهو الستر ومنه قيل للزراع والليل كافر
ولكمام الثمر كافور وفى الشرع انكار ما علم بالضرورة مجىء الرسول به وينقسم الى أربعة
أقسام كفر انكار وكفر جحود وكفر عناد وكفر نفاق فكفر الانكار هو أن لا يعرف الله أصلا
ولا يعترف به وكفر الجحود هو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر ابليس واليهود قال
الله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه
ولا يدين به ككفر أبى طالب حيث يقول

ولقد علمت بأن دين محمد * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة * لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب وجميع هذه الاقسام من لقى الله
تعالى بواحد منها لا يغفر له قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به *(تنبيه)* احتجت
المعتزلة بما جاء فى القرآن بلفظ الماضى نحو ان الذين كفروا انا نحن نزلنا الذكر انا أرسلنا
نوحا على حدوث القرآن لاستدعاء ما جاء فيه بلفظ الماضى سابقية المخبر عنه والقديم يستحيل
أن يكون مسبوقا بغيره فأجاب أهل السنة بأن ما جاء فيه بلفظ الماضى مقتضى تعلق الحكم
بالمخبر عنه وحدوث مقتضى التعلق لا يستلزم حدوث المخبر عنه فلا يستلزم حدوث كلام الله كما
فى علمه تعالى فانه قديم ومقتضى تعلقه بغيره حادث والحاصل أنه لا يلزم من حدوث مقتضى
التعلق وهو الكلام اللفظى حدوث الكلام النفسى (سواء عليهم) أى متساو لديهم
(أأنذرتهم أم لم تنذرهم) أى خوفتهم وحذرتهم أم لا والانذار اعلام مع تخويف وتحذير
فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرا وانما اقتصر عليه دون البشارة لانه أوقع فى القلب
وأشد تأثيرا فى النفس من حيث ان دفع الضرر أهم من جلب النفع فاذا لم ينفع فيهم الانذار
كانت البشارة بعدم النفع أولى (لا يؤمنون) بما جئت به وهذه الآية فى أقوام حقت عليهم
كلمة الشقاوة فى سابق علم الله تعالى كأبى جهل وأبى لهب وغيرهما فلا تطمع فى ايمانهم واحتج
بهذه الآية من جوز تكليف ما لا يطاق فانه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بانهم لا يؤمنون
وأمرهم بالايمان فلو آمنوا وقع الخلف فى كلامه تعالى وهو محال والحق ان التكليف بالممتنع

(قلت) ما فائدة بعثة الرسل
بعد قوله سواء عليهم الآية
(قلت) لئلا يكون للناس
حجة اولان الآية نزلت فى
قوم لا يؤمنون ولو جاءتهم
كل آية فبعثة الرسل انتفع
بها آخرون فآمنوا
(قوله يخادعون الله)*(ان
قلت) كيف قاله مع ان
المخادعة انما تتصور فى
حق من تخفى عليه الامور
ليتم الخداع من حيث
لا يعلم ولا يخفى على الله شئ
(قلت) المراد يخادعون
رسول الله اذ معاملة الله

لذاته جائز عقلا غير واقع بخلاف التكليف بالممتنع لغيره كالذى تعلق علم الله تعالى بعدم وقوعه فانه جائز وواقع اتفاقا * (تنبيه) * ههنا همزتان مفتوحتان من كلمة فقالون وأبو عمرو يسهلان الثانية ويدخلان بينهما ألفا وكذا ورش وابن كثير الا انهما لم يدخلا ألفا بينهما ولورش وجه آخر وهو أن يبدل الثانية حرف مد وهشام له وجهان تسهيل الهمزة الثانية وتحقيقها مع ادخال ألف بينهما والباقون بالتحقيق والقصر وجميع القراء يحققون الاولى * ثم ذكر سبب تركهم الايمان بقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) اى طبع واستوثق فلا يدخلها ايمان ولا خير والختم الكتم سمى به الاستيثاق من الشئ بضرب الخاتم عليه لانه كتم له (وعلى سمعهم) أى مواضعه فلا ينتفعون بما يسمعونه من الحق وقوله تعالى (وعلى أبصارهم أى أعينهم (غشاوة) مبتدا وخبر اى على اعينهم غطاء من عند الله تعالى فلا يبصرون الحق وعبر الله تعالى عن احداث هذه الهيئة بالطبع فى قوله تعالى اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم وبالاغفال فى قوله تعالى ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا وبالاقساء فى قوله تعالى وجعلنا قلوبهم قاسية وهذه الهيئة من حيث ان الممكنات بأسرها مستندة الى الله تعالى واقعة بقدرته اسندت اليه تعالى ومن حيث انها مسببة عما اقترفوه بدليل قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم وقوله تعالى ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم وردت الآية مظهرة عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم (فان قيل) لم وحد السمع دون القلوب والابصار (اجيب) بأنه على حذف مضاف مثل وعلى حواس سمعهم كمواضعه كما مر تقديره او باعتبار الاصل فانه مصدر فى اصله والمصادر لا تثنى ولا تجمع والابصار جمع بصر وهو ادراك العين وقد يطلق مجازا على القوة الباصرة وعلى العضو وكذا السمع قال البيضاوى ولعل المراد بهما فى الآية العضو لانه اشد مناسبة للختم والتغطية وبالقلب ما هو محل العلم وقد يطلق القلب ويراد به العقل والمعرفة كما قال الله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى عقل وأمال أبو عمرو ألف ابصارهم وكذا كل الف بعدها راء مكسورة متطرفة وانما جاز مع الصاد لان الراء المكسورة تغلب المستعلية لما فيها من التكرير (ولهم عذاب عظيم) اى قوى دائم فى الآخرة وهذا وعيد وبيان لما يستحقونه والعذاب كل ما يعيى الانسان ويشق عليه وقال الخليل العذاب ما يمنع الانسان عن مراده ومنه الماء العذب لانه يمنع العطش وانما وصف العذاب بالعظيم دون الكبير لان العظيم فوقه لان العظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير واذا كان الحقير مقابلا للعظيم والصغير للكبير كان العظيم فوق الكبير لان العظيم لا يكون حقيرا والكبير قد يكون حقيرا كما ان الصغير قد يكون عظيما وتنكير الغشاوة والعذاب للتنويع لانهما لما قرنا بالختم على القلوب كان المعنى نوعا عظيما منه اى على ابصارهم غشاوة ليس مما يتعارفه الناس وهو التعامى عن الآيات ولهم من الآلام العظام نوع لا يعلم كنهه الا الله * ونزل فى المنافقين حكاية لحالهم قوله تعالى (ومن الناس) امال ابو عمرو الالف قبل السين المكسورة امالة محضة وهكذا كل الف مثلها والباقون بالفتح (من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) اجمع المفسرون على ان ذلك وصف المنافقين قالوا صنف الله الاصناف الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين فبدا بذكر

المؤمنين

معاملة رسوله كمكره لقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وقوله من يطع الرسول فقد اطاع الله أو سمى نفاقهم خداعا لشبهه بفعل المخادع (قوله ألا انهم هم المفسدون) * (ان قلت) كيف خص الفساد بالمنافقين مع ان غيرهم مفسد (قلت) المراد بالفساد الفساد بالنفاق وهم كانوا مختصين به (قوله الله يستهزئ بهم) * (ان قلت) الاستهزاء من باب

المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهرا او باطنا وثلث بالصنف الثالث المذبذب بين القسمين وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلا للتقسيم وهذا الصنف اخبث الكفرة وابغضهم الى الله تعالى لانهم مع مشاركتهم للكفار الاصليين فى أنهم جاهلون بالقلب كاذبون باللسان من حيث انهم ينسبون الى الله تعالى ما هو برى منه كالولد والزوجة والشريك زادوا عليهم بأمور منكرة منها انهم قصدوا التلبيس ورضوا لانفسهم بسمة الكذب ولبسوا الكفر على المسلمين فخلطوا به خداعا واستهزاء ولذلك طوّل الله فى بيان خبثهم وجهلهم واستهزائهم وتهكم بأفعالهم وسجل على عمههم وطغيانهم وضرب لهم الامثال وأنزل فيهم ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار واللام فى الناس للجنس ومن موصوفة لا للعهد وكأنه قال تعالى ومن الناس ناس يقولون وقيل للعهد والمعهود هم الذين كفروا ومن موصولة مرادبها ابن أبى وأصحابه ونظراؤه فانهم من حيث انهم صمموا على النفاق دخلوا فى عداد الكفار المختوم على قلوبهم واختصاصهم بزيادة زادوها على الكفر لا يأبى دخولهم تحت هذا الجنس (فان قيل) خصت من بالموصوفة على تقدير الجنس وبالموصولة على تقدير العهد (أجيب) بأن الجنس لابهامه يناسب الموصوفة لتنكيرها والعهد لتعيينه يناسب الموصولة لتعريفها واختصاص الايمان بالله وباليوم الآخر بالذكر تخصيص لما هو المقصود الاعظم من الايمان وادعاء بأنهم اختاروا الايمان من المبدا والمعاد وايذان بأنهم منافقون فيما يظنون انهم مخلصون فيه فكيف بما يقصدون به النفاق وهو عدم التصديق بالقلب لان القوم كانوا يهودا وكانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر ايمانا كلا ايمان لاعتقادهم التشبيه واتخاذ الولد وأن الجنة لا يدخلها غيرهم وأن النار لن تمسهم الا أياما معدودة وغير ذلك ويرون المسلمين أنهم آمنوا مثل ايمانهم وفى تكرير الباء ادعاء الايمان بكل واحد على الاصالة والاستحكام والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر الى ما لا ينتهى أو الى أن يدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار لانه آخر الاوقات المحدودة بطرفين (وما هم بمؤمنين) لابطانهم الكفر وهذا انكار لما ادعوا اثباته ووحد الضمير فى يقول نظرا الى لفظة من لانها صالحة للتثنية والجمع والواحد وجمع فيما بعدها نظرا الى معناها (فان قيل) كيف طابق قوله وما هم بمؤمنين قولهم آمنا بالله فان الاول فى ذكر شأن الفعل لا الفاعل والثانى فى ذكر شأن الفاعل لا الفعل فكان المطابق له وما آمنوا (أجيب) بأنه انما عدل الى ذلك لرد كلامهم بأبلغ وجه وآكده لان اخراج ذواتهم عن عداد المؤمنين أبلغ من نفى الايمان عنهم فى ماضى الزمان ولذلك أكد النفى بالباء ونظيره قوله تعالى يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها هو ابلغ من قولك وما يخرجون منها واطلق الايمان على معنى انهم ليسوا من الايمان فى شئ ويحتمل ان يقيد بما قيدوا به وهو قوله تعالى بالله وباليوم الآخر لان وما هم بمؤمنين جوابه والآية تدل على ان من ادعى الايمان وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد لم يكن مؤمنا لان من تفوه بالشهادتين فارغ القلب عما يوافقه او ينافيه لم يكن مؤمنا (يخدعون الله والذين آمنوا) اذ أظهروا خلاف ما ابطنوه من الكفر ليدفعوا عنهم احكامه الدنيوية ويحقنوا دماءهم ويحفظوا اموالهم واصل الخدع

العبث والسخرية وذلك قبيح على الله تعالى ومنزه عنه (قلت) سمى جزاء الاستهزاء استهزاء كما قال كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى ان الله يجازيهم جزاء استهزائهم

(قوله أو كصيب من السماء) (ان قلت) ما فائدة قوله من السماء مع ان الصيب لا يكون الا منها (قلت) فائدته انه عرف السماء وأضاف الصيب اليها ليدل على انه من

فى اللغة الاخفاء ومنه المخدع للبيت الذى يخفى فيه المتاع فالمخادع اظهر خلاف مايضمر والمخادعة تكون بين اثنين وخداعهم مع الله ليس على ظاهره لانه تعالى لايخفى عليه خافية ولانهم لم يقصدوا خديعته بل المراد اما مخادعة رسوله أو أوليائه على حذف المضاف لانهم لم يعتقدوا ان الله بعث الرسول اليهم فلم يكن قصدهم فى نفاقهم مخادعة الله تعالى فعلم أن خداعهم مع الله ليس المراد ظاهره كما فى قوله تعالى واسأل القرية أى أهلها أو على أن معاملة الرسول معاملة الله تعالى من حيث انه خليفته كما قال تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله واما ان صورة صنيعهم مع الله تعالى من اظهار الايمان واستبطان الكفر وصنيع الله معهم من اجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده أخبث الكفار وأهل الدرك الاسفل من النار استدراجا لهم وامتثال الرسول والمؤمنين أمر الله فى اخفاء حالهم واجراء حكم الاسلام مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين ويحتمل أن يراد بيخادعون يخدعون لانه بيان ليقول أو استئناف بذكر ماهو الغرض منه الا أنه أخرج فى زنة فاعل للمبالغة فان الزنة لما كانت للمغالبة والفعل متى غولب فيه كان أبلغ منه اذا جاء بلا مغالبة معارض استصحبت الزنة ماذكر من المبالغة وقال الجلال المحلى والمخادعة هنا من واحد كعاقبت اللص وذكر الله فيها تحسين (وما يخدعون الا أنفسهم) لان وبال خداعهم راجع عليهم فيفتضحون فى الدنيا باطلاع نبيه على ما أبطنوه ويعاقبون فى الآخرة والنفس ذات الشئ وحقيقته وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال وقرأ الباقون وهم عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى وما يخدعون بفتح الياء وسكون الخاء ولا ألف بعدها وفتح الدال ولا خلاف بين القراء فى الكلمة الاولى وهى يخادعون الله فالجميع قرؤا بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال وأما الرسم فى الموضعين فبغير ألف (وما يشعرون) أى لا يحسون بمعنى لا يعلمون أن خداعهم لانفسهم لتمادى غفلتهم جعل لحوقه وبال الخداع ورجوع ضرره اليهم فى الظهور كالمحسوس الذى لا يخفى الا على مؤف الحواس وهو المصاب بآفة (فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق لان ذلك يمرض قلوبهم أى يضعفها والمرض حقيقة هو فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل فى افعاله ومجاز فى الاعراض النفسانية التى تخل بكمال أفعالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد والبغض وحب المعاصى لانها مانعة من نيل الفضائل أو مؤدية الى زوال الحياة الحقيقية الابدية والآية تحتمل الحقيقة والمجاز وعلى المجاز اقتصر أكثر المفسرين لانه أبلغ من الحقيقة (فزادهم الله مرضا) بما أنزل من القرآن لانه كلما انزل آية كفروا بها فازدادوا شكا ونفاقا واسناد الزيادة الى الله تعالى من حيث انه خلقها أو أوجدها والى السورة فى قوله تعالى فزادتهم رجسا لكونها سببا وقرأ حمزة وابن ذكوان بامالة الالف التى بعد الزاى محضة والباقون بالفتح (ولهم عذاب أليم) اى مؤلم بفتح اللام وصف به العذاب للمبالغة اذ الالم انما هو للمعذب حقيقة لا للعذاب فنسبة الالم الى العذاب مجاز ويجوز كسر لام مؤلم كسميع بمعنى مسمع وعليه فنسبة الاليم الى العذاب حقيقة (بما كانوا يكذبون) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال أى بتكذيبهم النبى صلى الله عليه

وسلم

جميع آفاق السماء لا من افق واحد اذ كل افق يسمى سماء وتظير ذلك قوله تعالى ومامن دابة فى الارض (قوله يجعلون أصابعهم فى آذانهم) عبر بالاصابع عن أناملها والمراد بعضها الانامل انما جعلوا بعض أناملهم (قوله فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) أى انه لا انداد له (فان قلت) المشركون لم يكونوا عالمين بذلك بل كانوا يعتقدون ان له أندادا

وسلم وقرأ الباقون بفتح الياء وسكون الكاف وتخفيف الذال أى بكذبهم فى قولهم آمنا لان الايمان التصديق بالقلب والكذب هو الخبر عن الشئ على خلاف ماهو به قال البيضاوى تبعا للزمخشرى وهو حرام كله لانه علل به استحقاق العذاب حيث رتب على الكذب وماروى أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات أى لماروى البخارى ومسلم فى حديث الشفاعة فيقول ابراهيم انى كذبت ثلاث كذبات وذكر قوله فى الكوكب هذا ربى وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله انى سقيم فالمراد التعريض أى وهو اللفظ المشار به الى جانب والغرض جانب آخر وقيل هو خلاف التصريح وهو تضمين الكلام دلالة ليس لها ذكر وسمى تعريضا لما فيه من التعريض عن المطلوب ولكن لما شابه الكذب فى صورته سمى به انتهى وهذا ليس على اطلاقه فان من الكذب ماهو مباح وماهو مندوب وماهو واجب وماهو حرام لان الكلام وسيلة الى المقصود فكل مقصود محمود ان أمكن التوصل اليه بالصدق فالكذب فيه حرام وان لم يمكن الا بالكذب فهو مباح ان كان المقصود مباحا ومندوب ان كان المقصود مندوبا وواجب ان كان المقصود واجبا وفى حديث الطبرانى فى الكبير كل الكذب يكتب على ابن آدم الا ثلاثا الرجل يكذب فى الحرب فان الحرب خدعة والرجل يكذب على المرأة فيرضيها والرجل يكذب بين الرجلين فيصلح بينهما وفى حديث فى الاوسط الكذب كله اثم الا ماتفع به مسلم أودفع به عن دينه (واذا قيل لهم) أى لهؤلاء نهو عطف تفسير على يكذبون فمحله نصب لكونه معطوفا على خبر كان فيكون جزأ من السبب الذى استحقوا به العذاب الاليم أو على يقول فلا محل له من الاعراب لكونه معطوفا على صلة من فلا يكون جزأ من السبب والقائل هو الله تعالى أورسوله صلى الله عليه وسلم أو بعض المؤمنين (لاتفسدوا فى الارض) بالكفر والتعويق عن الايمان والفساد خروج الشئ عن الاعتدال والصلاح ضده والفساد يعم كل ضار والصلاح يعم كل نافع وكان من افسادهم فى الارض اثارة الحروب والفتن بمخادعة المسلمين ومعاونة الكفار المتحصن كفرهم على المسلمين فان ماذكر يؤدى الى فساد مافى الارض من الناس والدواب والحرث ومنه اظهار المعاصى والاهانة بالدين فان الاخلال بالشرائع والاعراض عنها ممايوجب القتل والاختلاط ويخل بنظام العالم لأن ذلك افساد لان الافساد جعل الشئ فاسدا وصنيعهم لم يكن كذلك فقوله تعالى لاتفسدوا فى الارض مجاز باعتبار المآل اى لاتفعلوا مايؤدى الى الفساد وليس معنى الافساد هنا الاتيان بالفساد ليصح حمل الكلام على الحقيقة نبه على ذلك السعد التفتازانى (قالوا انما نحن مصلحون) جواب لاذا ورد للناصح على سبيل المبالغة والمعنى أنه لايصح مخاطبتنا بذلك فان شأننا ليس الا الاصلاح وان حالتنا متمحضة عن شوائب الفساد لان انما تفيد قصر مادخله على مابعده مثل انما زيد منطلق وانما ينطلق زيد وانما قالوا ذلك لانهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لمافى قلوبهم من المرض كما قال تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا * قال الله تعالى ردا عليهم أبلغ رد (ألا انهم هم المفسدون) أى بماذكر (ولكن لايشعرون) اى لايفطنون بمعنى لايعلمون انهم هم المفسدون بذلك اى لانهم يظنون ان الذى هم عليه من ابطان الكفر صلاح وقيل لايعلمون مااعد الله لهم من العذاب ووجه الابلغية فى ذلك تصدير

(قلت) المراد وأنتم تعلمون ان الانداد لاتقدر على شئ عامر قبل ذلك أو وأنتم تعلمون انه ليس فى التوراة والانجيل جواز اتخاذ الانداد (قوله فأتوا بسورة من مثله) * (ان قلت) لم ذكرت من هنا وحذفت فى سورتى يونس وهود (قلت) لان من هنا للتبعيض أو للتبيين أو زائدة على قول الاخفش بتقدير رجوع الضمير فى مثله الى مافى قوله مما نزلنا وهو

بألا المنبهة على تحقيق مابعدها فان همزة الاستفهام التى للانكار اذا دخلت على النفى افادت
تحقيقا وبان المقررة للنسبة وتعريف الخبر وتوسط ضمير الفصل والاستدراك بلا يشعرون
(واذا قيل لهم آمنوا) هذا من تمام النصح والارشاد فان كمال الايمان بمجموع امرين
الاعراض عما لا ينبغى وهو المقصود بقوله لاتفسدوا والاتيان بما ينبغى وهو المطلوب بقوله
آمنوا (كما آمن الناس) اى كايمان الناس الكاملين فى الانسانية الموافق باطنهم فيه لظاهرهم
العاملين بقضية العقل فاللام فى الناس للجنس فان اسم الجنس كما يستعمل لمسماه مطلقا
يستعمل لما يستجمع المعانى المخصوصة به والمقصودة منه أو للعهد والمراد به الرسول ومن معه
أو عبد الله بن سلام وغيره من مؤمنى أهل الكتاب وقرأ هشام والكسائى قيل باشمام القاف
وهو أن تضم القاف قبل الياء ولورش فى الهمزة من آمنوا وآمن المد والتوسط والقصر (قالوا
انؤمن كما آمن السفهاء) اى الجهال فاللام فى السفهاء للعهد وهم من تقدم أو للجنس
السفهاء باسرهم وانما سفهوهم لاعتقاد فساد رايهم اولتحقير شأنهم فان اكثر المؤمنين
كانوا فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال اوللتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم ان فسر الناس
بعبد الله بن سلام واشياعه قال الله تعالى ردا عليهم ابلغ رد (ألا انهم هم السفهاء ولكن
لا يعلمون) انهم سفهاء بما فعلوه من ابطان غير ما أظهروه ووجه الابلغية فى تجهيلهم أن
الجاهل بجهله الجازم على خلاف ما هو الواقع أعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف المعترف
بجهله فانه ربما يعذر وتنفعه الآيات والنذر (فان قيل) كيف يصح النفاق مع المجاهرة
بقولهم أنؤمن كما آمن السفهاء (أجيب) بأن هذا القول كانوا يقولونه فيما بينهم لا عند
المؤمنين فأخبر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك والسفه خفة وسخافة رأى
يقتضيهما نقصان العقل والعلم يقابله (فان قيل) لم عبر فى هذه الآية بلا يعلمون وفى التى قبلها
بلا يشعرون (أجيب) بأن التعبير بلا يعلمون أكثر مطابقة لذكر السفه لان السفه جهل
فطابقه العلم ولان أمر الايمان أخروى يحتاج الى دقة نظر فعبر فى الآية التى اشتملت عليه
بلا يعلمون وأمر البغى والفساد دنيوى فهو كالمحسوس لا يحتاج الى دقة نظر فعبر فى الآية
التى اشتملت عليه بلا يشعرون ويشعر مضارع شعر يقال شعرت كذا اى حسست به
اوادركته اى فطنت له وقد استعمل بالمعنى الاول فى قوله وما يشعرون وفى الثانى بقوله
لا يشعرون كما يعلم مما قررته فى الآيتين وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى السفهاء
الا بتحقيق الهمزتين وكذا كل همزتين وقعتا فى كلمتين اتفقتا او اختلفتا والباقون وهم نافع
وابن كثير وأبو عمرو بابدال الثانية واوا خالصة (واذا لقوا الذين آمنوا) اللقاء المصادفة وهى
الاجتماع من غير مواعدة يقال لقيته ولاقيته اذا صادفته واستقبلته وأصل لقوا لقيوا
حذفت الضمة للاستثقال ثم الياء لالتقائها ساكنة مع الواو (قالوا آمنا) أى كايمانكم (واذا
خلوا) منهم ورجعوا (الى شياطينهم) أى الذين ماثلوا الشياطين فى تمردهم وهم المظهرون كفرهم
واضافتهم اليهم للمشاركة فى الكفر أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم (قالوا انا معكم)
أى فى الدين والاعتقاد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وعاتبوا الشياطين بالجملة الاسمية
المؤكدة بان لانهم قصدوا بالاولى دعوى احداث الايمان وقصدوا بالثانية تحقيق ثباتهم على

على الاوجه والمعنى على الاخير فأتوا بسورة مماثلة للقرآن فى البلاغة وحسن النظم وعلى الاولين فأتوا بسورة مما هو على صفته فى البلاغة وحسن النظم وحينئذ فكأنه منه ... الاتيان بمن الدالة على ما ذكر بخلاف ذلك فانه قد وصف السور بالافتراء صريحا فى هود واشارة فى يونس فلم يحسن الاتيان بمن الدالة على ما ذكر لانها

ما كانوا عليه ولانه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدق ورغبة فيما خاطبوا به المؤمنين ولا توقع رواج ادعاء الكمال في الايمان على المؤمنين من المهاجرين والانصار بخلاف ما قالوه مع الكفار (انما نحن مستهزؤن) بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أي نسخر بهم باظهارنا الاسلام لان المستهزئ بالشئ المستخف به مصر على خلافه فهذا تأكيد لما قبله أو بدل منه لان من حقر الاسلام فقد عظم الكفر أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لما قالوا انا معكم ان صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الايمان فأجابوا بذلك * (تنبيه) * بين سبحانه وتعالى بهذه الآية معاملة المنافقين مع المؤمنين والكفار روى الواحدي وغيره ولكن بسند ضعيف ان ابن أبي وأصحابه استقبلهم نفر من الصحابة فقال لقومه انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فاخذ بيد أبي بكر رضي الله تعالى عنه وقال مرحبا بالصديق سيد بني تيم وشيخ الاسلام وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد عمر رضي الله تعالى عنه فقال مرحبا بسيد بني عدي الفاروق القوي في دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد علي رضي الله تعالى عنه فقال مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه أي زوج بنته عند العامة وعند العرب كل من كان من قبل المرأة وكل منهما صحيح هنا سيد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وما صدر به قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا فسوق لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم فليس بتكرير (الله يستهزئ بهم) أي يجازيهم على استهزائهم سمي جزاء الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة اما لمقابلة اللفظ باللفظ أو لكونه مماثلا له في القدر ومثل هذا يسمى مشاكلة أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء والغرض منه أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم أو يعاملهم معاملة المستهزئ أما في الدنيا فباجراء أحكام الاسلام عليهم واستدراجهم بالامهال والزيادة في النعمة مع التمادي في الطغيان وأما في الآخرة فبأن يفتح لهم وهم في النار بابا الى الجنة فيسرعون نحوه فاذا صاروا اليه سد عليهم الباب وذلك قوله تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون وانما استؤنف به ولم يعطف ليدل على أنه تعالى تولى مجازاتهم ولم يحوج المؤمنين أن يعارضوهم وأن استهزاءهم لا يبالي به لحقارتهم (ويمدهم في طغيانهم) أي في ضلالاتهم (يعمهون) يترددون متحيرين والطغيان بالضم والكسر تجاوز الحد في العصيان والغلو في الكفر وأصله تجاوز الشئ عن مكانه قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم قال البيضاوي والعمه في البصيرة كالعمى في البصر وهو التحير في الامر يقال رجل عامه وعمه وأرض عمهاء لا امارات لها اه وظاهر كلامه اختصاص العمه بالبصيرة والعمى بالبصر وهو ما ذكره ابن عطية فبينهما تباين وقال الامام وغيره العمه في البصيرة والعمى عام فيها وفي البصر فبينهما عموم مطلق وأمال الدوري عن الكسائي ألف طغيانهم امالة محضة وفتحها الباقون (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أي اختاروها عليه واستبدلوها به وأصل الشراء بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الاعيان فان كان أحد العوضين ناضا تعين من حيث انه لا يطلب لعينه أن يكون ثمنا وبذله اشتراء والا فالثمن ما دخلت عليه الباء فباذله مشتر وآخذه بائع ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشئ طمعا

حينئذ تشعر بان ما بعدها من جنس ما قبلها فيلزم أن يكون قرآنا وهو محال ويجوز جعل من للابتداء بتقدير رجوع الضمير في مثله الى عبدنا أي محمد والمعنى فأتوا بسورة مبتدأة من شخص مثل محمد (قوله من دون الله) أي من غيره وهو بهذا المعنى في جميع ما جاء منه في القرآن وقد يستعمل بمعنى قبل كقولهم المدينة دون مكة ولا أقوم من مجلسي دون ان تجيء ولا

في غيره والمعنى انهم أخلوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فطر الناس عليها محصلين
الضلالة اي ذهبوا اليها واختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى وأمال ألف الهدى حمزة
والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (فما ربحت تجارتهم) أي
ما ربحوا فيها والتجارة التصرف بالبيع والشراء والربح الفضل على رأس المال واسناده الى
التجارة وهو لاربابها على سبيل الاتساع لتلبسها بالفاعل أو لمشابهتها اياه من حيث انها سبب
للربح والخسران واتفق القراء على ادغام التاء في التاء وكذا كل مثلين الاول منهما ساكن
(وما كانوا مهتدين) لطرق التجارة فان المقصود منها سلامة رأس المال والربح وهؤلاء قد
أضاعوا الامرين لان رأس مالهم كان الفطرة السليمة والعقل الصرف فلما اعتقدوا هذه
الضلالات بطل استعدادهم واختل عقلهم ولم يبق لهم رأس مال يتوصلون به الى ادراك الحق
ونيل الكمال فبقوا خاسرين آيسين عن الربح فاقدين للاصل (مثلهم) أي شبههم وصفتهم في
نفاقهم (كمثل الذي) بمعنى الذين بدليل سياق الآية ونظيره والذي جاء بالصدق وصدق به
أولئك هم المتقون وقوله تعالى وخضتم كالذي خاضوا أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج
الذي (استوقد) اي أوقد (نارا) في ظلمة لما جاء بحقيقة حالهم عقبها بضرب المثل وهو بيان
تصوير تلك الحقيقة وابرازها في معرض المشاهد المحسوس زيادة في التوضيح والتقرير
فانه أوقع في القلب وأقمع للخصم قال البيضاوي والاستيقاد طلب الوقود والسعي في تحصيله
وهو سطوع النار وارتفاع لهبها اه والاكثر على أن استوقد هنا بمعنى أوقد كما قدرته
لا بمعنى طلب الوقود (فلما أضاءت) أي أنارت النار وأضاء لازم ومتعد يقال أضاء الشيء بنفسه
وأضاء غيره (ما حوله) اي المستوقد فأبصر واستدفأ وأمن ما يخافه (ذهب الله بنورهم) أي
أطفأه وهذا جواب لما واسناد الاذهاب الى الله تعالى اما لان الكل بفعله أو لان الاطفاء
حصل بسبب خفي أو أمر سماوي كريح أو مطر أو للمبالغة ولذلك عدى الفعل بالباء دون
الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك يقال ذهب السلطان بماله اذا أخذه
وأمسكه وما أخذه الله تعالى وأمسكه فلا مرسل له ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضى
اللفظ الى النور فانه لو قيل ذهب الله بضوئهم احتمل ذهابه بما في الضوء من الزيادة وبقاء
ما يسمى نورا والغرض ازالة النور عنهم رأسا ألا ترى كيف قرر ذلك وأكده بقوله تعالى
(وتركهم في ظلمات لا يبصرون) ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين فذكر الظلمة التي هي
عدم النور وانطماسه بالكلية وكيف جمع الظلمة وكيف نكرها وكيف أتبعها بما يدل على
أنها ظلمة خالصة وهو قوله لا يبصرون وظلماتهم ظلمة الكفر وظلمة النفاق وظلمة يوم القيامة
يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم أو ظلمة الضلال وظلمة سخط
الله وظلمة العقاب السرمدي أو ظلمة شديدة كأنها ظلمات متراكمة والآية وهي قوله مثلهم
الخ مثل ضربه الله لايمان المنافقين من حيث انه يعود عليهم بحقن الدماء وسلامة الاموال
والاولاد ومشاركة المسلمين في المغانم والاحكام بالنار الموقدة للاستضاءة ولذهاب أثره
وانطماس نوره باهلاكهم وافشاء حالهم باطفاء الله تعالى اياها واذهاب نورها هذا هو الوارد
أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وقيل مثل ضربه الله لمن آتاه ضربا من الهدى واضاعه ولم

أفارقك دون ان تعطيى
حقى (قوله فاتقوا النار)
(ان قلت) كيف عرف
النار هنا ونكرها في
التحريم (قلت) لان الخطاب
في هذه مع المنافقين وهم
في أسفل النار المحيطة
بهم فعرفت بلام الاستغراق
أو العهد الذهني وفي تلك
مع المؤمنين والذي يعذب
من عصاتهم بالنار يكون
في جزء من أعلاها فناسب
تنكيرها لتقليلها وقيل
لان تلك الآية نزلت قبل
هذه بمكة فلم تكن النار

يتوصل

يتوصل به الى نعيم الابد فبقى متحيرا متحسرا تقريرا وتوبيخا لما تضمنه قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى الخ و يدخل تحت عموم ما تضمنته الآية هؤلاء المنافقون فانهم أضاعوا ما نطقت به ألسنتهم من الحق باستبطان الكفر واظهاره حين خلوا الى شياطينهم ومن آثر الضلالة على الهدى المجعول له بالفطرة أو ارتد عن دينه بعد ما آمن وقرأ و رش بترقيق راء يبصرون هم (صم) عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول وأصل الصمم صلابة من اجتماع الاجزاء ومنه قيل حجر أصم وقناة صماء وصمام القارورة وسمى به فقدان حاسة السمع لان سببه ان يكون باطن الصماخ مجتمعا لا تجويف فيه يشتمل على هواء يسمع الصوت بتموجه (بكم) خرس عن الخير فلا يقولونه والخرس فى الاصل عدم القدرة على النطق (عمى) عن طريق الهدى فلا يرونه والعمى فى الاصل عدم البصر عما من شأنه ان يبصر وقد يقال لعدم البصيرة (فهم لا يرجعون) اى لا يعودون الى الهدى الذى باعوه وضيعوه او عن الضلالة التى اشتروها (أو) مثلهم (كصيب) فهو معطوف على الذى استوقد أى كمثل اصحاب صيب لقوله يجعلون أصابعهم فى آذانهم وأو فى الاصل للتساوى للشك ثم اتسع فيها فأطلق للتساوى من غير شك مثل جالس الحسن او ابن سيرين وقوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا فانه يفيد التساوى فى حسن المجالسة فى المثال الاول و وجوب العصيان فى الثانى ومن ذلك قوله أو كصيب من السماء ومعناه بقرينة السياق أن قصة المنافقين مشبهة بهاتين القصتين وأنهما سواء فى صحة التشبيه بهما وأنت مخير فى التمثيل بهما أو بأيتهما شئت وان كان الثانى أبلغ كما قاله الزمخشرى قال لانه أدل على فرط الحيرة وشدة الامر وفظاعته والصيب أصله صيوب من صاب يصوب وهو النزول يقال للمطر وللسحاب والآية تحتملهما أى ينزل (من السماء) ذلك فان قدرت الصيب بالمطر فالمراد بالسماء السحاب وان قدرته بالسحاب فالمراد السماء بعينها والسماء كل ما علاك وأظلك وهى من أسماء الاجناس فيكون واحدا وجمعا (فيه) أى الصيب وقيل السماء (ظلمات) جمع ظلمة فان أريد بالصيب المطر فظلماته ظلمة تكاثفه بتتابع القطر وظلمة غمامه مع ظلمة الليل وان أريد به السحاب فظلماته سواده وتكاثفه مع ظلمة الليل (ورعد) وهو صوت يسمع من السحاب قال البيضاوى والمشهور أن سببه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها اذا ساقها الريح من الارتعاد (وبرق) وهو ما يلمع من السحاب من برق الشئ بريقا هذا ما جرى عليه الجوهرى وغيره وهو المناسب هنا وان أطلق الرعد على الملك أيضا فهو مشترك بين الصوت المذكور والملك الثابت فى الاحاديث ففى بعضها أنه ملك موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه الى حيث شاء الله وصوته ما يسمع وفى بعضها أنه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه وفى بعضها انه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادى الابل بحداته وفى بعضها أنه ملك يسمى به وهو الذى تسمعون صوته (يجعلون) اى اصحاب الصيب (أصابعهم) اى أناملها وانما أطلق الاصابع موضع الانامل للمبالغة لما فى ذلك من الاشعار بدخول أصابعهم فوق المعتاد فرارا من شدة الصوت (فى آذانهم) وقوله (من الصواعق) متعلق بيجعلون اى من أجلها يجعلون وهو جمع صاعقة وهى الصيحة التى يموت من يسمعها او يغشى عليه و يقال لكل عذاب مهلك صاعقة وقيل الصاعقة قطعة

التى وقودها الناس والحجارة معروفة فنكرها ثم وهذه نزلت بالمدينة فعرفت اشارة الى ما عرفوه أولا ورد هذا بان آية التحريم نزلت بالمدينة بعد الآية هنا (قوله وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات) ان قلت كيف شرط فى دخول الجنة العمل الصالح مع ان مجرد الايمان كاف فى دخولها (قلت) المراد بالعمل الصالح الاخلاص فى الايمان

عذاب ينزلها الله تعالى على من يشاء روى عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله تعالى عنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا سمع الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وأمال الدورى عن الكسائى الالف التى بعد الذال فى آذانهم امالة محضة والباقون بالفتح وقوله تعالى (حذر الموت) نصب على العلة كقول الشاعر

واغفر (اى استر) عوراء الكريم ادخاره ۞ وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

قال البيضاوى والموت زوال الحياة زاد فى الطوالع عما من شأنه الحياة وفيه تساهل اذ يلزم منه ان يكون الجنين قبل حلول الحياة فيه ميتا والاظهر كما فى شرح المواقف ان يقال عدم الحياة عما اتصف بها بالفعل فبينهما تقابل العدم والملكة على التفسيرين وقيل عرض يضادها فبينهما تقابل التضاد لقوله تعالى خلق الموت والحياة فجعل الموت مخلوقا والعدم لا يخلق ورد بان الخلق بمعنى التقدير لا بمعنى الايجاد والاعدام مقدرة ولو سلم بانه بمعنى الايجاد فالمعنى خلق اسباب الموت والحياة وبذلك علم ان القول الاول هو المعتمد وكلام أئمة اللغة طافح به وحاصله ان الموت مفارقة الروح الجسد وما ورد فى الاحاديث من انه جسم حيث قيل فى بعضها انه كبش وفى بعضها انه على صورة كبش لا يمر على احد الا مات فمؤول بانه لم يقصد بالموت فيها حقيقته بل قصد انه يصور بصورة كبش كما فى خبر الشيخين وغيرهما انه يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش املح فيوقف بين الجنة والنار الخ (والله محيط بالكافرين) علما وقدرة فلا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط لا يخلصهم الخداع والحيل وقيل مهلكهم دليله قوله تعالى الا ان يحاط بكم اى تهلكوا والجملة اعتراضية لا محل لها قال ابو حيان لانها دخلت بين هاتين الجملتين وهما يجعلون اصابعهم ويكاد البرق وهما من قصة واحدة ويميل ورش الالف بعد الكاف بين بين وكذا الكافرين حيث جاء وقرأ ابو عمرو والدورى عن الكسائى بالامالة المحضة فيهما حيث جاء والباقون بالفتح (يكاد البرق) يقرب لان كاد من افعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لحصول سببه لكنه لم يوجد اما لفقد شرط او لعروض مانع وخبرها مشروط فيه ان يكون فعلا مضارعا تنبيها على انه المقصود بالقرب (يخطف ابصارهم) يختلسها والخطف الاخذ بسرعة (كلما أضاء لهم مشوا فيه) اى ضوئه (واذا اظلم عليهم قاموا) اى وقفوا متحيرين فالله تعالى شبههم فى كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا فى مفازة فى ليلة مظلمة اصابهم مطر فيه ظلمات من صفاتها ان السارى لا يمكنه المشى فيها ورعد من صفته ان يضم السامعون اصابعهم فى آذانهم من هوله وبرق من صفته ان يقرب من ان يخطف ابصارهم ويعميها من شدة توقده فهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه فالمطر القرآن لانه حياة القلوب كما أن المطر حياة الابدان والظلمات ما فى القرآن من ذكر الكفر والشرك والرعد ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة والكافرون والمنافقون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب اليه ولا زعاج ما فى القرآن من الحجج قلوبهم وانما قال الله تعالى مع الاضاءة كلما ومع الاظلام اذا لانهم حراص على المشى كلما صادفوا منه فرصة مما يحبون انتهزوها ولا كذلك التوقف فيما يكرهون ومعنى قاموا وقفوا كما مر ومنه قامت السوق اذا ركدت أى سكت

أو الثبات عليه الى الموت أو المراد بدخول الجنة دخولها مع الفائزين (قوله انى جاعل فى الارض خليفة) اى قوما يخلف بعضهم بعضا او آدم بمعنى خليفة عنى بامرى أو عن ملائكتى أو عن الجن (قوله اسجدوا لآدم) اى تكرمة لا عبادة (قوله اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا) ان قلت لم قال هنا وكلا بالواو وفى الاعراف فكلا بالفاء (قلت) لان اسكن هنا معناه استقر

ويقال قامت السوق بمعنى نفقت فهو من الاضداد (ولوشاء الله لذهب بسمعهم) بمعنى أسماعهم (وأبصارهم) الظاهرة كما ذهب بالباطنة اى ولوشاء ان يذهب بسمعهم بشدة صوت الرعد وأبصارهم بلمعان البرق لذهب بهما فحذف المفعول وهو ان يذهب لدلالة الجواب وهو لذهب عليه ولقد تكاثر حذف المفعول فى شاء وأراد اذا وقعا فى حيز الشرط كما هنا لدلالة الجواب على ذلك المحذوف حتى لا يكاد يذكر الا فى الشئ المستغرب كقول القائل

فلوشئت ان أبكى دما لبكيته * عليك ولكن ساحة الصبر أوسع

وأتى فيه بالمفعول لان بكاء الدم مستغرب ونصب دما لتضمنه معنى الصب ولو من حروف الشرط قال البيضاوى وظاهرها الدلالة على انتفاء الاول لانتفاء الثانى ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه اه وهذا مذهب ابن الحاجب وأما مذهب الجمهور وهو الاصح فانها فى الاصل لانتفاء الثانى لانتفاء الاول فمعنى لوجئتنى أكرمتك ان انتفاء لا كرام لانتفاء المجىء وقيل انها لمجرد الربط كان ومن ثم قال التفتازانى ان لوهنا لمجرد الشرط بمنزلة ان لا بمعناها الاصلى وفائدة هذه الجملة الشرطية ابداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم مع قيام ما يقتضيه وهو أنه تعالى أمهل المنافقين فيما هم فيه ليتمادوا فى الغى والفساد ليكون عذابهم أشد وللتنبيه على ان تأثير الاسباب فى مسبباتها مشروط بمشيئة الله تعالى وان وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته تعالى وقوله تعالى (ان الله على كل شئ) اى يشاؤه (قدير) كالتصريح بما ذكر والتقرير له والشئ يختص بالموجود فلا يطلق على المعدوم (فان قيل) لو اختص الشئ بالموجود لما تعلقت به القدرة لانها الصفة المؤثرة على وفق الارادة وتأثيرها الايجاد وايجاد الموجود محال فالذى تعلقت به القدرة معدوم وهو شئ فالمعدوم شئ (أجيب) بان المحال ايجاد الموجود بوجود سابق وهو غير لازم واللازم ايجاد موجود هو أثر ذلك الايجاد وليس بمحال والقدرة هو التمكن من ايجاد الشئ وقيل صفة تقتضى التمكن وقيل قدرة الانسان هيئة بها يتمكن من الفعل وقدرة الله تعالى عبارة عن نفى العجز عنه والقادر هو الذى ان شاء فعل وان شاء لم يفعل والقدير الفعال لما يشاء ولذلك قلما يوصف به غير البارى تعالى واشتقاق القدير من القدرة لان القادر يوقع الفعل على مقدار قوته أو على مقدار ما تقتضيه مشيئته وفى ذلك دليل على ان الحادث حال حدوثه والممكن حال بقائه مقدوران وان مقدور العبد مقدور لله تعالى خلافا لابى على وأبى هاشم لانه شئ وكل شئ مقدور واحتج بعض الفرق بأن هذه الآية تدل على أن الله تعالى ليس بشئ قال لانها تدل على ان كل شئ مقدور لله تعالى والله سبحانه وتعالى ليس بمقدور له فوجب أن لا يكون شيأ واحتج أيضا على ذلك بقوله تعالى ليس كمثله شئ قال لو كان هو تعالى شيأ فهو تعالى مثل مثل نفسه فكان يكذب قوله تعالى ليس كمثله شئ فوجب أن لا يكون شيأ حتى لا يناقض هذه الآية واعلم أن هذا الخلاف فى الاسم لانه لا واسطة بين الموجود والمعدوم واحتج أصحابنا بوجهين الاول قوله تعالى قل أى شئ أكبر شهادة قل الله والثانى قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه والمستثنى داخل فى المستثنى منه فوجب ان يكون شيأ (واجيب) عن قوله ان هذه الآية تدل على ان الله تعالى قادر على نفسه بأن تخصيص العام جائز فى الجملة وأيضا تخصيص العام جائز بدليل العقل (فان قيل)

لكون ادم وحواء كانا فى الجنة والاكل يجامع الاستقرار غالبا فلهذا عطف بالواو الدالة على الجمع والمعنى اجمعا بين الاستقرار والاكل وفى الاعراف معناه ادخل لكونهما كانا خارجين عنها والاكل لا يكون مع الدخول عادة بل عقبه فلهذا عطف بالفاء الداله على التعقيب وقد بسطت الكلام على ذلك فى الفتاوى (قوله اهبطوا منها) كرر الامر بالهبوط للتوكيد

اذا كان اللفظ موضوعا للكل ثم انه تبين انه غير صادق فى الكل كان هذا كذبا وذلك يوجب الطعن فى القرآن (أجيب) بأن لفظ الكل كما انه مستعمل فى المجموع فقد يستعمل مجازا فى الاكثر فاذا كان ذلك مجازا مشهورا فى اللغة لم يكن استعمال اللفظ فيه كذبا ورقق ورش الراء من قدير وصلا ووقفا وباقى القراء بالترقيق وقفا الا وصلا * ولما عدد سبحانه وتعالى فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم اقبل تعالى عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات بقوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) تحريكا للسامع وتنشيطا له واهتماما بأمر العبادة وتفخيما لشأنها وجبرا لمشقة العبادة بلذة المخاطبة ويا حرف وضع لنداء البعيد وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد اما لعظمته كقول الداعى يارب ويا الله وهو أقرب اليه من حبل الوريد او لغفلته وقلة فهمه أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه ولفظ الناس يعم الموجودين وقت النزول لفظا ومن سيوجد تنزيلا للمعدوم منزلة الموجود لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام ان مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلين ثابت الى قيام الساعة الا ما خصه الدليل وان قال الامام الرازى الاقرب أنه لا يتناوله لان يا أيها الناس صرف خطاب مشافهة وخطاب المشافهة مع المعدوم لا يجوز وتناوله له لدليل منفصل وهو ما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام ان أحكامه ثابتة فى حق من سيوجد الى قيام الساعة (فان قيل) روى عن علقمة والحسن وابن عباس رضى الله تعالى عنهم ان كل شئ نزل فيه يا أيها الناس فمكى ويا أيها الذين آمنوا فمدنى فكيف تكون هذه السورة مكية وقد نزلت بالمدينة (أجيب) بأن المراد بقولهم السورة مكية أو مدنية ان غالبها ذلك والاولى أن يقال ان ذلك أكثرى لا كلى وان سورة البقرة والنساء والحجرات مدنيات باتفاق وقد قال تعالى فى كل منها يا أيها الناس وسورة الحج مكية سوى ما استثنى وفيها من غيره يا أيها الذين آمنوا اركعوا ولا يختص ذلك الخطاب الكفار ولا بأمرهم بالعبادة فان المأمور به هو المشترك بين بدء العبادة والزيادة فيها والمواظبة عليها فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها بعد الايمان بما يجب تقديمه من المعرفة والاقرار بالصانع فان من لوازم وجوب الشئ وجوب ما لا يتم الا به وكما ان الحدث لا يمنع وجوب الصلاة فالكفر لا يمنع وجوب العبادة بل يجب رفع الكفر والاشتغال بالعبادة ومن المؤمنين ازديادهم وثباتهم عليها وانما قال الله تعالى ربكم تنبيها على ان الموجب للعبادة هى الربوبية وقوله تعالى (الذى خلقكم) اى أنشأكم ولم تكونوا شيأ صفة جرت عليه للتعظيم والتعليل ويحتمل التقييد ان خص الخطاب بالمشركين وأريد بالرب أعم من الرب الحقيقى والآلهة التى يسمونها أربابا والخلق ايجاد الشئ على تقدير واستواء وأصله التقدير يقال خلق النعل اذا قدرها وسواها بالقياس وقرأ ابو عمرو خلقكم بادغام القاف فى الكاف بخلف عنه (و) خلق (الذين من قبلكم) وهذا متناول لكل ما يتقدم الانسان بالذات او الزمان كتقدم الجزء على الكل والواحد على الاثنين وهو منصوب عطف على الضمير المنصوب فى خلقكم كما علم من التقدير والجملة أخرجت مخرج المقرر عندهم اما لاعترافهم به كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله او لتمكنهم من العلم به بادنى نظر وقوله تعالى (لعلكم تتقون) اما حال من الضمير فى اعبدوا

كانه

أولان الهبوط الاول من الجنة والثانى من السماء الى الدنيا
أولان الاول الى دار يتعادون فيها ولا يخلدون والثانى اليها للتكليف فمن اهتدى نجا ومن ضل هلك (قوله فمن تبع) وفى طه فمن اتبع (ان قلت) لم عبر هنا بتبع وثم باتبع مع انهما بمعنى (قلت) جريا على الاصل هنا وموافقة لقوله يتبعون الداعى ثم ولان القصة ثم لما بنيت من أول الامر على التأكيد بقوله تعالى ولقد عهدنا

كأنه قال اعبدوا ربكم راجين ان تدخلوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين لجوار الله تعالى نبه به على ان التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى الله الى الله وان العابد ينبغي ان لا يغتر بعبادته ويكون ذا خوف ورجاء كما قال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا يرجون رحمته ويخافون عذابه واما من مفعول خلقكم والمعطوف عليه على معنى انه خلقكم ومن قبلكم في صورة من ترجى منه التقوى لترجح أمره باجتماع أسبابه وكثرة الدواعي اليه وغلب تعالى المخاطبين بقوله لعلكم على الغائبين في اللفظ والمعنى على ارادتهم جميعا ولعل في الاصل للترجي وفي كلامه تعالى للتحقيق والآية تدل على أن الطريق الى معرفة الله تعالى والعلم بوحدانيته والعلم باستحقاقه للعبادة النظر في صنعه والاستدلال بافعاله وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه تعالى ثوابا فانها لما وجبت عليه شكرا لما عدده عليه من النعم السابقة فهو كأجير أخذ الاجر قبل العمل وقوله تعالى (الذى جعل) اى خلق (لكم الارض فراشا) اى بساطا تفرش صفة ثانية أو منصوب بتقدير امدح او مرفوع خبر مبتدأ محذوف ومعنى جعلها فراشا أن جعل بعض جوانبها بارزا عن الماء مع ما في طبع الماء من الاحاطة بها وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهيأة لان يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط وذلك لا يستدعي كونها مسطحة لان كرية شكلها مع عظم حجمها واتساع جرمها لا تأبى الفراش عليها فليس في ذلك الا أن الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفاريش وسواء كانت على شكل السطح أو على شكل الكرة (و) جعل لكم (السماء بناء) أى قبة مضروبة عليكم والسماء اسم جنس يقع على الواحد وعلى المتعدد كالدينار والدرهم وقيل جمع سماءة والبناء مصدر سمي به المبني بيتا كان أو قبة أو خباء ومنه بنى على امرأته لانهم كانوا اذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديدا وقوله تعالى (وأنزل من السماء ماء) معطوف على جعل والمراد بها اما السحاب فان ماعلاك سماء واما الفلك فان المطر يبتدئ اما من السماء الى السحاب ومنه الى الارض كما دلت عليه الظواهر من الآيات كقوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء وقوله تعالى أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض وعن خالد ابن معدان قال المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء الى سماء حتى يجتمع في سماء الدنيا فيجتمع في موضع فتجيء السحاب السود فتدخله فتشرب به فيسوقها الله حيث شاء واما من أسباب سماوية تثير الاجزاء الرطبة من اعماق الارض الى جو الهواء فتنعقد سحابا ماطرا (فاخرج به من) انواع (الثمرات رزقا لكم) تأكلونه وتعلفون منه دوابكم ونحو وجودها بقدرة الله تعالى ومشيئته ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سببا في اخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان بأن أجرى عادته بافاضة صورها وكيفياتها على المادة الممتزجة منهما او أبدع في الماء قوة فاعلة وفي الارض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو تعالى قادر على أن يوجد الاشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الاسباب والمواد ولكن له في انشائها مترقيا من حال الى حال صنائع وحكم يجدد فيها لاولي الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك في ايجادها دفعة (تنبيه) من الاولى للابتداء ومن الثانية للتبعيض بدليل قوله تعالى فاخرجنا به ثمرات لان ثمرات جمع قلة منكر واكتناف المنكرين لها اعني ماء ورزقا

الى آدم من قبل ناسب
اختصاصهم بالزيادة المفيدة
للتأكيد (قوله ولا تلبسوا
الحق بالباطل وتكتموا
الحق) ان قلت لا تغاير بينهما
فكيف عطف أحدهما
على الآخر (قلت) بل
هما متغايران لفظا كما في
قوله تعالى أولئك عليهم
صلوات من ربهم ورحمة
أو لفظا ومعنى لان المراد
بلبسهم الحق بالباطل
كتابتهم في التوراة ما ليس
فيها وبكتمانهم الحق
قولهم لا نجد في التوراة

كأنه تعالى قال وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم وهذا التبعيض هو الموافق للواقع اذلم ينزل من السماء الماء كله ولا أخرج بالمطر كل الثمرات ولا جعل بالمطر كل المرزوق ويصح أن تكون من الثانية للتبيين ورزقا مفعول وهو المبين بمعنى المرزوق كقول القائل أنفقت من الدراهم ألفا فان من الدراهم بيان لقوله عقبه ألفا (فان قيل) المحل محل جمع الكثرة فكيف أتى بجمع القلة (أجيب) بان الجموع يتناوب بعضها موقع بعض كقوله تعالى كم تركوا من جنات وأوقع جمع القلة موقع جمع الكثرة بدليل ذكر كم وكقوله تعالى ثلاثة قروء فأوقع جمع الكثرة موضع جمع القلة لان مميز الثلاثة لا يكون الا جمع قلة أولان الثمرات لما كانت محلاة بالألام خرجت عن حد القلة (فلا تجعلوا لله أندادا) أى شركاء فى العبادة (فان قيل) لم سمى ما يعبده المشركون من دون الله أندادا مع انهم مازعموا أنها تساويه فى ذاته وصفاته ولا أنها تخالفه فى افعاله (أجيب) بانهم لما تركوا عبادته الى عبادتها وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد انها ذوات واجبة بالذات قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله وتمنحهم مالم يرد الله بهم من خير فتهكم الله تعالى بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أندادا لمن يمتنع أن يكون له ند ولذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه

أربا واحدا أم ألف رب * أدين اذا انقسمت الامور

أدين اى أطيع من دان اى انقاد اذا انقسمت اى تفرقت

تركت اللات والعزى جميعا * كذلك يفعل الرجل البصير

ألم تعلم بأن الله أفنى * رجالا كان شأنهم الفجور

وأبقى آخرين ببر قوم * فيربو منهم الطفل الصغير

وقوله تعالى (وأنتم تعلمون) حال من ضمير فلا تجعلوا ومفعول تعلمون متروك اى وحالكم انكم من أهل العلم والنظر واصابة الرأى فلو تأملتم أدنى تأمل اضطر عقلكم الى اثبات موجد للممكنات منفرد بوجود الذات متعال عن مشابهة المخلوقات أو مقدر وهو ان الانداد لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله كقوله تعالى هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ وعلى كون وأنتم تعلمون حالا فالمقصود منه التوبيخ سواء أجعل مفعول تعلمون متروكا أو مقدرا وان كان التوبيخ فى الاول آكد كما صرح به الكشاف لا لتقييد الحكم وقصره وهو النهى عن جعلهم لله أندادا بحال علمهم فان العالم والجاهل المتمكن من العلم سواء فى التكليف *(تنبيه)* قال البيضاوى واعلم أن مضمون الآيتين أى ياأيها الناس اعبدوا ربكم والذى جعل لكم الى آخرهما هو الامر بعبادة الله والنهى عن الاشراك به تعالى والاشارة الى ما هو العلة والمقتضى وبيانه انه تعالى رتب الامر بالعبادة على صفة الربوبية اشعارا بانها العلة لوجوبها ثم بين ربوبيته بانه تعالى خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون اليه فى معايشهم من المقلة والمظلة اى الارض والسماء والمطاعم والملابس فان الثمرة أعم من المطعوم اى فتعم الثمرات الملابس كالمطاعم والرزق أعم من المأكول والمشروب ثم لما كانت هذه أمورا لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته رتب عليها النهى عن الاشراك به ولعله سبحانه وتعالى أراد من الآية الاخيرة مع مادل عليه الظاهر وسيق فيه الكلام الاشارة الى تفصيل خلق الانسان

صفة محمد (قوله الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون) ان قلت مافائدة ذكر الثانى مع ان ما قبله يغنى عنه (قلت) لا يغنى عنه لان المراد بالاول انهم ملاقو ثواب ربهم على الصبر والصلاة وبالثانى انهم موقنون بالبعث وبحصول الثواب على ما ذكر (قوله ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) فان قلت ما الحكمة فى تقديم الشفاعة على أخذ الفداء

وما افاض عليه من المعانى والصفات على طريقة التمثيل فمثل البدن بالارض والنفس بالسماء والعقل بالماء وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصلة بواسطة استعمال العقل للحواس وازدواج اى اقتران القوى النفسانية والبدنية بالثمرات المتولدة من ازدواج اى اقتران القوى السماوية الفاعلة والارضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار فان لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حد مطلعا اه هذا روى عن الحسن مرفوعا مرسلا وظهر الآية ماظهر من معانيها لاهل العلم الظاهر وبطنها ما تضمنته من الاسرار التى أطلع الله عليها الخواص وقيل ظاهرها تلاوتها وباطنها فهمها والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع الاشراف على معرفتها * ولما قرر سبحانه وتعالى وحدانيته وبين الطريق الموصل الى العلم بها ذكر عقبه ما هو الحجة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن المعجز بفصاحته التى غلبت فصاحة كل بليغ مع كثرتهم وافراطهم فى المضادة وتهالكهم على المغالبة بقوله تعالى (وان كنتم فى ريب) أى شك (مما نزلنا على عبدنا) محمد من القرآن انه من عند الله (فأتوا بسورة) وانما قال تعالى مما نزلنا لان نزوله نجما فنجما بحسب الوقائع على ما يرى عليه أهل الشعر والخطابة مما يريبهم كما حكى الله تعالى عنهم بقوله تعالى وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فكان الواجب تحديهم على هذا الوجه ازالة للشبهة والزاما للحجة فان أهل الشعر والخطابة يأتون باشعارهم وخطبهم على قدر الحاجة شيأ فشيأ ولما كان القرآن منزلا كذلك طعنوا فيه بأنه مثل كلامهم فقيل لهم ان ارتبتم فى نزوله منجما فأتوا بنجم منه لانهم اذا عجزوا عن نجم منه فعجزهم عن كله أولى وأضاف العبد الى نفسه تنويها بذكره وتنبيها على أنه مختص به منقاد لحكمه والسورة من القرآن الطائفة منه المترجمة التى لها أول وآخر أقلها ثلاث آيات والحكمة فى تقطيع القرآن سورا افراد الانواع وتلاحق الاشكال وتجاوب النظم وتنشيط القارئ وتسهيل الحفظ والترغيب فيه فان القارئ اذا ختم سورة فرج ذلك عنه بعض كربة كالمسافر اذا علم انه قطع ميلا أو طوى بريدا والحافظ اذا حفظ سورة اعتقد أنه أخذ من القرآن حظا تاما وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها فعظم ذلك عنده وابتهج به الى غيرها من الفوائد وقوله تعالى (من مثله) صفة سورة أى بسورة كائنة من مثله والضمير لما نزلنا ومن للتبعيض أو للتبيين وزائدة عند الاخفش أى بسورة مماثلة للقرآن فى البلاغة وحسن النظم وقيل الضمير لعبدنا ومن للابتداء أى بسورة كائنة ممن هو على حاله من كونه بشرا أميا لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم والوجه الاول أولى لانه المطابق لقوله تعالى فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله ولسائر آيات التحدى ولان الكلام فى المنزل لا فى المنزل عليه فحقه أن لا ينفك عنه ليتسق الترتيب والنظم اذ المعنى وان ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فأتوا بقرآن من مثله ولان مخاطبة الجم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحد من أبناء جنسهم أبلغ فى التحدى من أن يقال لهم ليأت بنحو ما أتى به عبدنا آخر مثله ولانه معجز فى نفسه لا بالنسبة اليه لقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولان عود الضمير الى عبدنا يوهم امكان صدوره ممن لم يكن على صفته ولا يلائمه قوله تعالى (وادعوا شهداءكم من دون الله) فانه تعالى أمر أن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم سواء كان مثله

هنا وعكسه فيما يأتى (قلت) للاشارة هنا الى من ميله الى حب نفسه أشد منه الى حب المال وثم الى من هو بعكس ذلك (قوله يذبحون أبناءكم) فان قلت ما الحكمة فى ترك العاطف هنا وذكره فى سورة ابراهيم (قلت) لان ما هنا من كلام الله تعالى وقع تفسيرا لما قبله وما هناك من كلام موسى وكان مأمورا بتعداد المحن فى قوله وذكرهم بأيام الله فعدد المحن عليهم فناسب

أم لا والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة ومنه قيل للمقتول في سبيل الله شهيد لانه حضر ما كان يرجوه أو الملائكة حضروه ومعنى دون أدنى مكان من الشئ ومنه تدوين الكتب لانه أدنى البعض من البعض ودونك هذا أى خذه من أدنى مكان منك ثم استعير للرتب فقيل عمرو دون زيد أى فى الشرف ومنه الشئ الدون ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حد الى آخر وتخطى أمر الى آخر وان خلا عن الرتبة قال تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أى لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين الى ولاية الكافرين ومن متعلقة بادعوا فهى لابتداء الغاية والمعنى وادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من انسكم وجنكم وادعوا آلهتكم التى تعبدونها غير الله وتزعمون أنها تشهد لكم يوم القيامة أى استعينوا بهم فى الاتيان بما ذكر (ان كنتم صادقين) فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه وان آلهتكم تشهد لكم بذلك وجواب هذا الشرط محذوف تقديره فافعلوا أى ما ذكر من الاتيان بسورة دل عليه قوله تعالى (فان لم تفعلوا) ذلك والصدق الاخبار المطابق وقيل مع اعتقاد المخبر أنه كذلك عن دلالة أو امارة لانه تعالى كذب المنافقين فى قولهم انك لرسول الله لما لم يعتقدوا مطابقته ورد هذا القول بصرف التكذيب الى قولهم نشهد لان الشهادة اخبار عما علموه وهم ما كانوا عالمين به وقوله تعالى (ولن تفعلوا) جملة معترضة أى لا يقع منكم ذلك أبدا لاعجاز القرآن (فاتقوا النار التى وقودها) أى ما تتقد به (الناس والحجارة) التى نحتوها واتخذوها أربابا من دون الله طمعا فى شفاعتها والانتفاع بها ويدل لذلك قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم عذبوا بما هو منشأ جرمهم كما عذب الكانزون بما كنزوه أو حجارة الكبريت كما رواه الطبرانى عن ابن مسعود والحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعليه أكثر المفسرين وان قال البيضاوى انه تخصيص بغير دليل لان مثل هذا التفسير الوارد عن الصحابى فيما يتعلق بأمر الآخرة له حكم المرفوع وأيضا حجارة الكبريت أشد حرا وأكثر التهابا وتزيد على غيرها من الاحجار سرعة الايقاد ونتن الريح وكثرة الدخان وشدة الالتصاق بالابدان وقيل جميع الحجارة *(تنبيه)* تفعلوا مجزوم بلم لا بان لان لم واجبة الاعمال مختصة بالمضارع متصلة بالمعمول ولانها لما صيرته ماضيا صارت كالجزء منه وحرف الشرط كالداخل على المجموع وكأنه قال فان تركتم الفعل ولذلك ساغ اجتماعهما وحاصله ان ان تقتضى الاستقبال ولم تقتضى المضى فرجحت لم لما ذكر فيكون المعنى على المضى دون الاستقبال وقيل ان ان بمعنى اذ ولا اشكال حينئذ وقيل كل منهما على حقيقته والمعنى ان تبين فى المستقبل عدم فعلكم فى الماضى ولن تفعلوا فى المستقبل فاتقوا النار ولن كلا فى نفى المستقبل غير انه أبلغ وهو حرف بسيط ثنائى الوضع وقيل أصله لا ان حذفت الهمزة منها لكثرتها فى الكلام ثم ألف لا لالتقاء الساكنين ولما كانت الآية مدنية نزلت بعد ما نزل بمكة قوله تعالى فى سورة التحريم نارا وقودها الناس والحجارة وسمعوه صح تعريف النار ووقوع الجملة صلة فان الصلة يجب أن تكون معلومة وهى معلومة هنا من سورة التحريم حيث وقعت صفة (فان قيل) الصفة أيضا يجب أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف كالصلة والا لكانت خبرا ولهذا قالوا ان الصفات

ذكر العاطف (قوله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ان قلت ما الحكمة فى ذكر كانوا هنا وفى الاعراف وفى حذفها فى آل عمران (قلت) لان ما فى السورتين اخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا فناسب ذكرها وما فى آل عمران مثل ضربه عليه بقوله مثل ما ينفقون الى آخره (قوله واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا) فان قلت ما الحكمة فى العطف بالفاء هنا وفى الاعراف بالواو (قلت) لانه عبر هنا

قبل العلم بها اخبار كان الاخبار بعد العلم بها أوصاف فيأتى فى الصفة فى آية التحريم ماذكر
فى الصلة *(أجيب)* بأن الصلة والصفة يجب كونهما معلومين للمخاطب لا لكل سامع وما
فى التحريم خطاب للمؤمنين وقد علموا ذلك لسماعهم من النبى صلى الله عليه وسلم ولما سمع
الكفار ذلك الخطاب أدركوا منه نارا موصوفة بتلك الجملة فجعلت فيها خوطبوا به (أعدت)
أى هيئت (للكافرين) وجعلت عدة لعذابهم وفى ذلك دليل على ان النار مخلوقة معدة لهم
الآن والجملة استئناف أو حال من النار باضمار قد والعامل فى الحال اتقوا وهى حال لازمة
فلا يشكل بأن النار أعدت للكافرين اتقوها أم لا *(تنبيه)* قال البيضاوى فى الآيتين أى
آية ان كنتم فى ريب وآية فان لم تفعلوا مايدل على النبوة من وجوه الاول مافيهما أى
فى مجموعهما من التحدى والتحريض على الجد وبذل الوسع فى المعارضة بالتقريع والتهديد
وتعليق الوعيد على عدم الاتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن العزيز ثم انهم مع
كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوا لمعارضته والتجؤا الى جلاء
الوطن وبذل المهج لان قوله من التحدى راجع للآية الاولى والباقى راجع الى الثانية والثانى
تضمنهما أى مجموعهما الاخبار عن الغيب على ماهو به فانهم لو عارضوه بشئ لامتنع خفاؤه
عادة سيما والطاعنون فيه أكثر من الذابين عنه فى كل عصر لان ذلك راجع للآية الثانية
والثالث انه عليه الصلاة والسلام لو شك فى أمره أى نفسه لما دعاهم الى المعارضة بهذه
المبالغة مخافة أن يعارض فتذهب حجته وهذا راجع الى الآية الاولى * ثم عطف سبحانه
وتعالى حال من آمن بالقرآن ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه على عادة ماجرت
به العادة الالهية من أن يشفع الترغيب بالترهيب تنشيطا لاكتساب ماينجى وتثبيطا عن
اقتراف ماردى بقوله تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى الطاعات (أن لهم
جنات) أى حدائق ذات شجر ومساكن وانما أمر الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه
وسلم أو عالم كل عصر أو كل أحد يقدر على البشارة أن يبشر الذين آمنوا ولم يخاطبهم بالبشارة كما
خاطب الكفرة تفخيما لشأنهم وايذانا بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهنؤا بما أعد لهم والبشارة
الخبر الصدق السار أولا فانه يظهر أثر السرور فى البشرة لان النفس اذا سرت انتشر الدم
انتشار الماء فى الشجرة ولذلك قال الفقهاء البشارة هو الخبر الاول حتى لو قال الرجل لعبيده
من يبشرنى بقدوم ولدى فهو حر فأخبروه فرادى عتق أولهم ولو قال من أخبرنى عتقوا جميعا
(فان قيل) ما الجواب عن قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم *(أجيب)* بان ذلك ورد على سبيل
التهكم كقوله تعالى ذق انك انت العزيز الكريم وعطف سبحانه وتعالى العمل على الايمان
مرتبا للحكم عليهما اشعارا بأن السبب فى استحقاق هذه البشارة مجموع الامرين والجمع بين
الوصفين فان الايمان الذى هو عبارة عن التيقن والتصديق أس والعمل الصالح كالبناء عليه
ولا نفع تام بأس لا بناء عليه ولذلك قلما ذكرا مفردين وفى عطف العمل على الايمان دليل على
أن الصالحات خارجة عن مسمى الايمان اذ الاصل أن الشئ لا يعطف على نفسه ولا على ماهو
داخل فيه وجمع سبحانه وتعالى الجنة لان الجنان على ماذكره ابن عباس سبع جنة الفردوس
وجنة عدن وجنة النعيم ودار الخلد وجنة المأوى ودار السلام وعليون وفى كل واحدة

بالدخول وهو صريح
الانقضاء فلا يناسبه مجامعة
الاكل له وانما يناسبه
تعقيبه له فعطف بالفاء وعبر
فى الاعراف بالسكون أى
الاستقرار وهو ممتد
يجامعه الاكل فعطف
بالواو (قوله وادخلوا الباب
سجدا) ان قلت لم قدمه
على قوله وقولوا حطة
وعكس فى الاعراف (قلت)
لانه هنا وقع بيانا لكيفية
الدخول المذكور قبله
بقوله واذ قلنا ادخلوا هذه
القرية بخلافه ثم (قوله

من هذه السبع مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الاعمال والعمال واللام في الصالحات للجنس لا للاستغراق اذ لا يكاد المؤمن أن يعمل جميع الصالحات واللام في لهم تدل على استحقاقهم اياها لاجل ماترتب عليه من الايمان والعمل الصالح لا لذاته فانه لا يكافئ النعم السابقة فضلا عن أن يقتضي ثوابا وجزاء فيما يستقبل بل بجعل الشارع ومقتضى وعده ولا على الاطلاق بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموت وهو مؤمن لقوله تعالى ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ولعله سبحانه وتعالى لم يقيدها هنا استغناء بهذه الآية وأشباهها (تجري من تحتها) أي من تحت أشجارها ومساكنها (الانهار) كأنهارها جارية تحت الاشجار النابتة على شواطئها وعن مسروق أنهار الجنة تجري في غير أخدود قال الجوهري الاخدود شق مستطيل في الارض واللام في الانهار للجنس كما في قولك لفلان بستان فيه الماء الجاري قال البيضاوي أو للعهد والمعهود هي الانهار المذكورة في قوله تعالى أنهار من ماء غير آسن الآية اه قال التفتازاني انما يصح هذا لو ثبت سبق قوله تعالى أنهار من ماء غير آسن في الذكر اه والنهر بالفتح والسكون المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات والمراد بالانهار ماؤها على حذف مضاف أو تسمية للماء باسم مجراه مجازا واسناد الجري اليها مجاز كما في قوله تعالى وأخرجت الارض أثقالها (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا) أي أطعموا من تلك الجنان ثمرة ومن صلة (قالوا هذا الذي رزقنا) أي أطعمنا (من قبل) أي من قبل هذا في الدنيا جعل الله تعالى ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس اليه أول ما يرى فان الطبائع مائلة الى المألوف مستنفرة من غيره أي هذا من نوعه لتشابه ما يؤتون به في الصورة كما قال تعالى (وأتوا به متشابها) أي في اللون والصورة مختلفا في الطعم وذلك أبلغ في باب الاعجاز والداعي لهم الى ذلك فرط استغرابهم وافتخارهم بما وجدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه البليغ في الصورة وقيل في الجنة لان طعامها متشابه الصورة كما حكي عن الحسن ان أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الاولى فيقول ذلك فتقول الملائكة كل فاللون واحد والطعم مختلف أو كما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال والذي نفس محمد بيده ان الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي واصلة الى فيه حتى يبدل الله مكانها مثلها وعن مسروق نخل الجنة نضيد من أصلها الى فرعها وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى والعنقود اثنا عشر ذراعا (فان قيل) على الاول التشابه هو التماثل في الصفة وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس ليس في الجنة من أطعمة الدنيا الا الاسماء *(أجيب)* بأن التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناط الاسم دون المقدار والطعم وهو كاف في اطلاق التشابه وللآية كما قال البيضاوي محمل آخر وهو أن مستلذات أهل الجنة في مقابلة ما رزقوا في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها فيحتمل أن يكون المراد من هذا الذي رزقنا أنه ثوابه ومن تشابههما تماثلهما في الشرف والرتبة وعلو الطبقة فيكون هذا في الوعد نظير قوله تعالى ذوقوا ما كنتم تعملون في الوعيد (ولهم فيها) أي الجنات (أزواج) من الحور العين والآدميات (مطهرة) مما يستقذر من النساء ويذم من أحوالهن كالحيض والدرن

وسنزيد المحسنين) ان قلت لم ذكر هنا بالواو وفي الاعراف بدونها (قلت) لان اتصاله هنا أشد لاسناد القول فيه الى الله تعالى في قوله واذ قلنا ادخلوا بخلافه ثم فالاليق به حذف الواو وليكون استئنافا (قوله فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) ان قلت هم لم يبدلوا غير الذي قيل لهم وانما بدلوه نفسه لانه قيل لهم قولوا حطة فقالوا حنطة (قلت) بل بدلوا غير الذي قيل لهم

أى الوسخ ودنس الطبع وسوء الخلق فان التطهير يستعمل فى الاجسام والاخلاق والافعال ومعنى تطهيرهن مما ذكر كما قال التفتازانى انها منزهة عن ذلك مبرأة عنه بحيث لا يعرض لهن الا التطهر الشرعى بمعنى ازالة النجس الحسى أو الحكمى كما فى الغسل عن الحيض والزوج يقال للذكر والانثى قال تعالى وأصلحنا له زوجه وهو فى الاصل لماله قرين من جنسه كزوج الخف (فان قيل) فائدة المطعوم هو التقوى ودفع ضرر الجوع وفائدة المنكوح التوالد وحفظ النوع وهذه الفوائد مستغنى عنها فى الجنة *(أجيب)* بأن مطاعم الجنة ومناكحها وسائر أحوالها انما تشارك نظائرها الدنيوية فى بعض الصفات والاعتبارات وتسمى بأسمائها على سبيل الاستعارة والتمثيل ولا تشاركها فى تمام حقيقتها حتى تستلزم جميع ما يلزمها وتفيد عين فائدتها (وهم فيها خالدون) أى دائمون أحياء لا يموتون ولا يخرجون والاصل فى الخلود الثبات المديد دام أو لم يدم اذ لو كان وضعه للدوام لكان التقييد بالتأبيد فى قوله تعالى خالدين فيها أبدا تأكيدا والتأسيس أولى والاصل خلافه لكن المراد به الدوام فى الآية عند الجمهور لما يشهد له من الآيات والسنن (فان قيل) الابدان مركبة من أجزاء متضادة الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية الى الانفكاك والانحلال فكيف يعقل خلودها فى الجنات *(أجيب)* بأنه تعالى يعيدها بحيث لا تعتريها الاستحالة بان يجعل أجزاءها مثلا متقاومة فى الكيفية متساوية فى القوة لا يقوى شئ منها على احالة الآخر متعانقة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض كما يشاهد فى بعض المعادن ولما كان معظم اللذات الحسية مقصورا على المساكن والمطاعم والمناكح على ما دل عليه الاستقراء وكان ملاك ذلك كله الثبات والدوام وأن كل نعمة جليلة اذا قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الالم بشر المؤمنين بالمساكن والمطاعم والمناكح فبشر بالاول بقوله تعالى جنات تجرى من تحتها الانهار و بالثانى بقوله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا الآية وبالثالث بقوله تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة ومثل ما أعد لهم فى الآخرة بأحسن ما يستلذ منها وأزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود ليدل على كمالهم فى التنعم والسرور ولما ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله تعالى وان يسلبهم الذباب وقوله تعالى كمثل العنكبوت قالت اليهود ضرب المثل بذلك مما يستحيا منه لخسته فليس من عند الله تعالى فنزل ردا عليهم (ان الله لا يستحيى) أى لا يترك (أن يضرب مثلا ما بعوضة) وهى صغيرة البق ترك من يستحيى أن يمثل بها لحقارتها وأن بصلتها مخفوض المحل عند الخليل باضمار من منصوب بافضاء الفعل اليه بعد حذف من عند سيبويه ويجوز كما فى الكشاف نصبه بافضاء الفعل اليه بنفسه فان استحيا يتعدى بنفسه أيضا يقال استحييت منه واستحييته وما اما ابهامية تزيد النكرة قبلها ابهاما واما مزيدة لتأكيد معنى مضمون الجملة قبلها كالتى فى قوله تعالى فبما رحمة من الله ولا يراد بالمزيد اللغو الضائع فان القرآن كله هدى وبيان بل المراد بالمزيد ما لم يوضع لمعنى يراد منه وانما وضعت لأن تذكر مع غيرها لتفيده وثاقة وقوة وهو زيادة فى الهدى غير قادح فى القرآن وبعوضة عطف بيان أو بدل من مثلا أو مفعول ثان ليضرب بمعنى يجعل والحياء انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم وهو الوسط بين الوقاحة التى هى الجراءة على القبائح وعدم

لان معناه فبدل الذين ظلموا قولا قيل لهم فقالوا قولا غير الذى قيل لهم وزاد فى الاعراف منهم موافقة لقوله قبله ومن قوم موسى ولقوله بعده منهم الصالحون ومنهم دون ذلك (قوله فأنزلنا) عبر بدله فى الاعراف بقوله فأرسلنا لان لفظ الرسول والرسالة كثرتم فناسب التعبير بأرسلنا (قوله فانفجرت) عبر بدله فى الاعراف بقوله فانبجست والاول أبلغ لانه انصباب الماء بكثرة والانبجاس

المبالاتبها وبين الخجل الذى هو انحصار النفس عن الفعل مطلقا فاذا وصف به البارى سبحانه وتعالى كما جاء فى الحديث ان الله يستحى من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه ان الله حيى كريم يستحى اذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا فالمراد به الترك كما قدرناه اللازم للانقباض كما ان المراد من رحمته وغضبه اصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما وتحتمل الآية خاصة أن يكون مجىء الحياء فيها للمشاكلة وهو أن يذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ولو تقديرا كما هنا وهو قول الكفرة أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ولما كان التمثيل يصار اليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وابرازه فى صورة المشاهد المحسوس ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه فان المعنى الصرف انما يدركه العقل مع منازعة من الوهم لان من طبعه ميل الحس وحب المحاكاة شاعت الامثال فى الكتب الالهية وفشت فى عبارات البلغاء واشارات الحكماء فيمثل الحقير بالحقير كما يمثل العظيم بالعظيم وان كان الممثل أعظم من كل عظيم كما مثل سبحانه وتعالى فى الانجيل غل الصدر بالنخالة والقلوب القاسية بالحصاة ومخالطة السفهاء باثارة الزنابير ونصه على ما حكاه الفخر الرازى فى الاول لا تكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم وتبقون الغل فى صدوركم وفى الثانى قلوبكم كالحصاة التى لا تطبخها النار ولا يلينها الماء ولا تنسفها الريح وفى الثالث لا تثيروا الزنابير فتلدغكم وكذلك لا تخالطوا السفهاء فيشتموكم وجاء فى كلام العرب أسمع من قراد لان العرب تزعم أنه يسمع صوت اخفاف الابل من مسيرة يوم فيتحرك لها وقيل من مسيرة سبع ليال وأعز من مخ البعوض يضرب لمن يكلف الامور الشاقة (فما فوقها) أى ما زاد على البعوضة فى الجثة كالذباب والعنكبوت والمعنى انه لا يستحى من ضرب المثل بالبعوضة فضلا عما هو أكبر منه أو المعنى الذى جعلت فيه مثلا وهو الصغر والحقارة كجناحها فانه عليه الصلاة والسلام ضرب جناحها مثلا للدنيا بقوله فى خبر الترمذى لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ونظيره فى احتمال الفوقية للجثة وللمعنى ما روى البخارى وغيره ان رجلا بمنى خر على طنب فسطاط فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها الا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة فانه يحتمل ما يجاوز الشوكة فى الالم كالسقوط على الطنب وما زاد عليها فى القلة كقرصة النملة والطنب حبل الخباء والفسطاط بيت من شعر (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه) أى ضرب المثل بذلك (الحق) أى الواقع موقعه (من ربهم) لان الحق هو الثابت الذى لا يسوغ انكاره وهو يعم الاعيان الثابتة والافعال الصائبة والاقوال الصادقة من قولهم حق اذا ثبت ومنه ثوب محقق أى محكم النسج وأما حرف تفصيل يفصل ما أجمل ويؤكد ما به صدر ويتضمن معنى الشرط ولذلك يجاب بالفاء قال سيبويه أما زيد فذاهب معناه مهما يكن من شئ فزيد ذاهب أى هو ذاهب لا محالة وانه منه عزيمة وكان الاصل دخول الفاء على الجملة لا الخبر لكن كرهوا ايلاءها حرف الشرط فأدخلوا الفاء على الخبر وعوضوا المبتدا عن جملة الشرط لفظا (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا) يحتمل وجهين أن تكون ما استفهامية وذا بمعنى الذى وما بعده

ظهور الماء فناسب ذكر الانفجار هنا الجمع قبله بين الاكل والشرب الذى هو أبلغ من الاقتصار على الاكل (قوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين) ان قلت العثو الفساد فيصير المعنى ولا تفسدوا فى الارض مفسدين (قلت) لا محذور وفيه غايته ان مفسدين حال من فاعل تعثوا فهى حال مؤكدة كما فى قوله ثم وليتم مدبرين أو حال مؤسسة اذ العثو لكونه التمادى فى الفساد

صلته والمجموع خبرها وأن تكون ما مع ذا اسما واحدا بمعنى أي شيء (أراد الله بهذا) فهو منصوب المحل على المفعولية لاراد فما وذا كما في الكشاف في حكم ما وحده لو قلت ما أراد الله وكان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه وهو الذين آمنوا ويقابل قسيمه وهو يعلمون أنه الحق لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحا على كمال جهلهم عدل اليه على سبيل الكناية عن عدم علمهم ليكون كالبرهان عليه والارادة صفة ذاتية قديمة زائدة على العلم ترجح أحد مقدوريه على الآخر وتخصصه بوجه دون وجه بخلاف القدرة فانها لا تخصيص الفعل ببعض الوجوه بل هي موجدة للفعل مطلقا وقوله تعالى (مثلا) نصب على الحال من اسم الاشارة والعامل فيه اسم الاشارة أو التمييز والمعنى أي فائدة في ذلك فقال تعالى (يضل به كثيرا) بأن يكذبوا به (ويهدي به كثيرا) بأن يصدقوا به وكثرة كل واحد من القبيلين بالنظر الى أنفسهم لا بالقياس أي لا بالنظر الى مقابليهم فان المهتدين قليلون بالاضافة الى أهل الضلال كما قال تعالى وقليل من عبادي الشكور ويحتمل أن تكون كثرة الضالين من حيث العدد وكثرة المهتدين باعتبار الفضل والشرف كما قال المتنبي في مدح علي بن يسار

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ * كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا * قليل اذا عدوا كثير اذا شدوا

وقال ان الكرام كثير (أي كرما) في البلاد وان * قلوا (أي عددا) كما غيرهم قل (بضم القاف وكسرها أي قليل كرما) وان كثروا * أي عددا (وما يضل به الا الفاسقين) أي الخارجين عن حد الايمان بالكفر كقوله تعالى ان المنافقين هم الفاسقون وتخصيص الاضلال بهم مرتبا على صفة الفسق يدل على انه الذي أعدهم للاضلال وأدى بهم الى الضلال بالمثل وسبب ضلالتهم به ان كفرهم وعدولهم عن الحق واصرارهم بالباطل صرفت وجوه أفكارهم عن حكمة المثل الى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت به ضلالتهم فأنكروا المثل واستهزؤا به وأما الفاسق في الشرع فهو الخارج عن أمر الله بارتكاب كبيرة أو اصرار على صغيرة ولم تغلب طاعاته على معاصيه ولا يخرجه ذلك عن الايمان الا اذا اعتقد حل المعصية سواء كانت كبيرة أم صغيرة قال تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا والمعتزلة جعلوا الفاسق قسما ثالثا نازلا بين منزلتي المؤمن والكافر لمشاركة كل واحد منهما في بعض الاحكام * ثم بين سبحانه وتعالى صفة الفاسقين بقوله (الذين ينقضون عهد الله) وهو اما المأخوذ بالعقل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسله وعليه يدل قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم واما المأخوذ بالرسل على الامم بأنهم اذا بعث اليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه وعليه يدل قوله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب الآية وقيل عهود الله ثلاثة عهد أخذه بواسطة العقل على جميع ذرية آدم بأن يقروا بربوبيته وعهد أخذه بواسطة الملك على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه وعهد أخذه بواسطة الرسل على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه وقوله تعالى (من بعد ميثاقه) اى توكيده يحتمل عود الضمير للعهد فهو من اضافة المصدر الى المفعول أو لله فهو من اضافة المصدر الى الفاعل قال البيضاوي ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر (واعترض) بأن النحويين

أخص من الفساد فالمعنى كما قال الزمخشري لا تمادوا في الفساد في حال فسادكم (قوله لن نصبر على طعام واحد) ان قلت كيف قالوا على طعام واحد وطعامهم كان طعامين المن والسلوى (قلت) المراد بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل أو بالطعامين انهما ضرب واحد لانهما من طعام أهل التلذذ والترف أو انهما كانا يؤكلان مختلطين (قوله ويقتلون النبيين بغير الحق) عرف

لم يذكر وامفعالا فى صيغ المصادر وأصله ان يكون وصفا كطعام ومسقام (وأجيب) بحمل ذلك على أنه اسم واقع موقع المصدر كما يشير اليه قوله بمعنى المصدر (ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل) وهو الرحم لانهم قطعوا رحم النبى صلى الله عليه وسلم بالمعاداة معه ويحتمل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى كقطع الرحم والاعراض عن موالاة المؤمنين والتفرقة بين الانبياء عليهم الصلاة والسلام والكتب فى التصديق وترك الجماعات وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر فانه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل والامر هو القول الطالب للفعل وقيل مع العلو وقيل مع الاستعلاء وأن يوصل بدل من الهاء وقرأ ورش بتغليظ اللام وصلا واذا وقف رقق وغلظ وأدغم خلف النون فى الياء بغير غنة (ويفسدون فى الارض) بالمعاصى وتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التى بها نظام العالم وصلاحه (أولئك هم الخاسرون) بفوات التوبة والمصير الى العقوبة باهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الابدية واستبدال الانكار والطعن فى الآيات بالايمان بها والنظر فى حقائقها والاقتباس من أنوارها واشتروا النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والعقاب بالثواب ثم وبخ سبحانه وتعالى الكفار بقوله (كيف تكفرون بالله) اى اخبرونى على أى حال تكفرون (وكنتم امواتا) اى نطفا فى أصلاب آبائكم لا احساس لكم (فأحياكم) فى الارحام ثم فى الدنيا بخلق الارواح ونفخها فيكم وانما عطفه بالفاء لانه متصل بما عطف عليه غير متراخ عنه بخلاف البواقى وقرأ الكسائى بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) للبعث يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور قال التفتازانى ولم لا يجوز ان يراد مطلق الاحياء بعد الاماتة على ما يعم الاحياء فى القبور والنشور ولا بعد فيه لشدة ارتباط الاحياءين واتصالهما فى الانقطاع عن أمر الدنيا (ثم اليه ترجعون) تردون بعد الحشر فيجازيكم باعمالكم أو تنشرون اليه من قبوركم للحساب فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه (فان قيل) ان علموا أنهم كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم لم يعلموا انه يحييهم ثم اليه يرجعون (أجيب) بان تمكنهم من العلم بما نصب لهم من الدلائل منزل منزلة علمهم فى ازاحة العذر سيما فى الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما وهو انه تعالى لما قدر على احيائهم اولا قدر على ان يحييهم ثانيا فان بدء الخلق ليس باهون عليه من اعادته (فان قيل) كيف تعد الاماتة من النعم المقتضية للشكر (أجيب) بانها لما كانت وصلة للحياة الدائمة التى هى الحقيقية كما قال تعالى وان الدار الآخرة لهى الحيوان يعنى الحياة كانت من النعم العظيمة مع ان المعدود عليهم نعمة هو المعنى المنتزع من القصة بأسرها كما ان الواقع حالا هو العلم بها لا كل واحدة من الجمل فان بعضها ماض وبعضها مستقبل وكلاهما لا يصح حالا ويصح أن يكون الخطاب مع الكفار والمؤمنين فانه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة ووعدهم على الايمان وأوعدهم على الكفر أكد ذلك بأن عدد عليهم النعم العامة والخاصة واستبعد صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة فان عظم النعم يوجب عظم معصية المنعم وأن يكون مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم وتبعيد الكفر عنهم على معنى كيف يتصور الكفر منكم وكنتم

امواتا

الحق هنا ونكره فى آل عمران والنساء لان ما هنا لكونه وقع أولا اشارة الى الحق الذى أذن الله أن يقتل النفس به وهو قوله ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق فكان التعريف أولى وهناك أريد به بغير حق فى معتقدهم ودينهم فكان بالتنكير أولى (فان قلت) قتل النبيين لا يكون الا بغير الحق فما فائدة ذلك (قلت) فائدته التصريح بصفة فعلهم القبيح لانه أبلغ

أمواتا أى جمالا فأحياكم بما أفادكم من العلم والايمان ثم يميتكم الموت المعروف ثم يحييكم الحياة الحقيقية ثم اليه ترجعون فينبئكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والحياة حقيقة فى القوة الحاسة او ما يقتضيها و بها سمى الحيوان حيوانا مجاز فى القوة النامية لانها من طلائعها ومقدماتها وفيما يخص الانسان من الفضائل كالعلم والعقل والايمان من حيث انه كمالها وغايتها والموت بازائها يقال على ما يقابلها فى كل مرتبة مثال ما يقابل الحقيقة قوله تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم ومثال ما يقابل المجاز الاول قوله تعالى اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها ومثال ما يقابل المجاز الثانى قوله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس واذا وصف بها البارى تعالى أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا أو معنى قائم بذاته تعالى * ثم أومأ الى مشيئته وقدرته فقال (هو الذى خلق لكم ما فى الارض) أى لاجلكم وانتفاعكم فى دنياكم باستنفاعكم بها فى مصالح أبدانكم بوسط كالادوية المركبة أو غير وسط كالثمرة والادوية المفردة وفى دينكم بالاستدلال على موجدكم ففى ذلك نعمة على عباده سبحانه وتعالى وما تم كل ما فى الارض لا الارض الا ان أريد بالارض جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو وقوله تعالى (جميعا) حال من الموصول الثانى وهو ما وهى حال مؤكدة لما لاتحادهما فى العموم وهذا أقرب من جعله حالا من ضمير لكم لان سياق الآيات انما هو فى تعداد النعم لا فى تعداد المنعم عليهم ولان المنة بتعداد النعم أظهر من المنة بتعداد المنعم عليهم لان مقدار النعم يصل الى كل أحد (ثم استوى الى السماء) أى قصد الى خلقها بارادته وأصل الاستواء طلب السواء واطلاقه على الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الاجزاء ولا يمكن حمله على الله تعالى لانه من خواص الاجسام وقيل استوى استولى كما قيل

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

والمراد بالسماء هذه الاجرام العلوية أو جهات العلو ليطابق قوله تعالى (فسواهن سبع سموات) جمع الضمير العائد الى السماء لارادة الجنس وقيل لان السماء جمع سماءة أى جعلهن مستويات لا شقوق فيهن ولا تفاوت قال البيضاوى وثم لعله لتفاوت ما بين الخلقين أى فى القدر والعظم وفضل خلق السماء على خلق الارض كقوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا لا للتراخى فى الوقت فانه يخالف ظاهر قوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها فانه يدل على تأخر دحو الارض المتقدم على خلق ما فيها عن خلق السماء وتسويتها اه (وأجيب) بأنه لا يدل على ذلك لان تقدم خلق جرم الارض على خلق جرم السماء لا ينافى تأخر دحوها عنه وهو بسطها ورده التفتازانى بأنه ليس على ما ينبغى لان ثم تدل على تأخر خلق السماء عن خلق ما فى الارض من عجائب الصنع حتى أسباب اللذات والآلام وأنواع الحيوانات حتى الهوام لا عن مجرد خلق جرم الارض قال وسنذكر فى حم السجدة ما يدل على تأخر خلق السماء عن خلق الارض ودحوها جميعا حتى قيل انه خلق الارض وما فيها فى أربعة أيام ثم خلق السماء وما فيها فى يومين وكثر ذلك فى الروايات فلا يفيد حمل ثم على تراخى الرتبة اه والاوجه كما قاله بعض المفسرين الموافق لظاهر ما هنا وما سيأتى فى فصلت تأويله مع الايضاح أن يقال ان خلق جرم الارض مقدم على خلق جرم السماء وخلق وصفها أعنى دحوها مقدم على خلق وصف

فى الشفاعة (فان قلت) لم مكن الكافرين من قتل الانبياء (قلت) كرامة لهم وزيادة فى منازلهم كمن يقتل فى الجهاد من المؤمنين (قوله والنصارى والصابئين) فان قلت لم قدم النصارى على الصابئين هنا وعكس فى المائدة والحج (قلت) لان النصارى مقدمون على الصابئين فى الرتبة لانهم أهل الكتاب فقدموا فى البقرة لكونهم أولا والصابئين مقدمون على النصارى فى الزمن فقدموا

السماء أعنى تسويتها سبعا فمرجع الاشارة فى قوله تعالى بعد ذلك جرم السماء لا وصفها وبذلك علم أن جعل ثم للتراخى فى الوقت لا يخالف ما ذكر خلافا لما زعمه البيضاوى (فان قيل) أليس أن أصحاب الارصاد أثبتوا بالبراهين تسعة أفلاك وهى كرة القمر فكرة عطارد فكرة الزهرة فكرة الشمس فكرة المريخ فكرة المشترى فكرة زحل فالفلك الذى فيه الكواكب الثابتة فالفلك الاعظم وهو متحرك كل يوم وليلة على التقريب دورة واحدة (وأجيب) بأن ما ذكروه ليس مستندا الى دليل شرعى فلا ينبغى اعتباره قال البيضاوى وان صح فليس فى الآية نفى الزائد مع أنه ان ضم اليها العرش والكرسى لم يبق خلاف وقوله تعالى (وهو بكل شئ عليم) أى مجملا ومفصلا فيه تعليل كأنه قال ولكونه عالما بكنه الاشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الاكمل والوجه الانفع واستدلال بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الانيق كان عليما فان اتقان الافعال واحكامها وتخصيصها بالوجه الاحسن الانفع لا يتصور الا من عالم حكيم رحيم أفلا تعتبرون أن القادر على خلق ذلك ابتداء وهو أعظم منكم قادر على اعادتكم وقرأ حمزة والكسائى ثم استوى وفسواهن بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى وهو بسكون الهاء والباقون بضمها (و) اذكر يا محمد (اذ قال ربك للملائكة) وقيل اذ زائدة أى وقال ربك وكل ما ورد فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله وهو اما أن يقدر اذكر وهو الاولى أو تكون اذ مزيدة واذ واذا ظرفا توقيت الا أن اذ للماضى واذا للمستقبل وقد يوضع أحدهما موضع الآخر قال المبرد اذا جاء اذ مع المستقبل كان معناه ماضيا كقوله تعالى واذ يمكر يعنى واذ مكروا واذا جاء اذا مع الماضى كان معناه مستقبلا كقوله تعالى اذا جاء نصر الله أى سيجىء وقرأ أبو عمرو بادغام اللام فى الراء بخلاف عنه والباقون بالاظهار والملائكة جمع ملك أصله ملأك والتاء لتأنيث الجمع وهو مقلوب مألك من الالوكة وهى الرسالة لانهم وسايط بين الله تعالى وبين الناس فهم رسل الله أو كالرسل اليهم لتوسط الانبياء بينهم وبين الناس واختلف العقلاء فى حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها فذهب أكثر المسلمين الى أنها أجسام لطيفة شفافة ويعبرون عنها بنورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة والجن قادرة على ذلك واستدلوا على ذلك بأن الرسل كانوا يرونهم أجساما لطيفة متشكلة بأشكال مختلفة وزعم الحكماء يعنى الفلاسفة أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة فى الحقيقة وقالت طائفة من النصارى هى النفوس الفاضلة أى المتصفة بفضائل العلم والعمل بخلاف الشريرة فانها عندهم الشياطين البشرية الناطقة * قوله البشرية وما بعده صفة للنفوس المفارقة للابدان يعنى ما دامت فى الابدان تسمى النفوس فاذا فارقتها كانت الملائكة واقوله الملائكة كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص وقيل ملائكة الارض وذلك أن الله تعالى خلق السماء والارض وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن فى الارض فسكنوا فيها دهرا طويلا ثم ظهر فيهم الحسد والبغى فافسدوا فيها فبعث الله تعالى اليهم جندا من الملائكة يقال لها الجن وهم خزان الجنان اشتق لهم اسم من الجنة رأسهم ابليس فكان رئيسهم ومن أشدهم وأكثرهم علما فهبطوا الى الارض وطردوا الجن الى شعوب الجبال وبطون الاودية وجزائر

في الحج وروى في المائدة في العنيان فقدموا في اللفظ وأخروا في المعنى اذ التقدير والصابؤن كذلك كما في قول الشاعر
فمن يك أمسى فى المدينة رحله
فانى وقيار بها لغريب
اذ التقدير فانى لغريب وقيار بها كذلك (قوله ان كونوا قردة خاسئين) ان قلت كيف أمروا بذلك مع أنه ليس فى وسعهم (قلت) هذا أمر ايجاد كقوله كن لا امر ايجاب فيكون (قوله وان بين

الصور وسكنوا الارض وخفف الله تعالى عنهم العبادة وأعطى الله تعالى ابليس ملك
الارض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان يعبد الله تارة فى الارض وتارة فى السماء وتارة
فى الجنة فدخله العجب وقال ما أعطانى الله تعالى هذا الملك الا لانى أكرم الملائكة عليه فقال
الله تعالى له ولجنده (انى جاعل فى الارض خليفة) وجاعل من جعل الذى له مفعولان وهما
فى الارض خليفة أعمل فيهما لانه بمعنى الاستقبال ومعتمد على مسند اليه ويجوز أن يكون
بمعنى خالق فيتعدى لمفعول واحد وهو خليفة والخليفة من يخلف غيره وينوب عنه أى جاعله
بدلا منكم ورافعكم الىّ فكرهوا ذلك لانهم كانوا أهون الملائكة عبادة والهاء فيه للمبالغة
والمراد به آدم صلى الله عليه وسلم لانه كان خليفة الله فى أرضه وكذا كل نبى استخلفه الله فى
عمارة الارض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة به تعالى الى من
ينوبه بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسط ولذلك لم يستنبئ ملكا
كما قال تعالى ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا أى فى صورة رجل ألا ترى أن الانبياء لما فاقت
قوتهم واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار أرسل اليهم الملائكة ومن
كان من الانبياء أعلى رتبة كلمه بلا واسطة كما كلم موسى صلاة الله وسلامه عليه فى الميقات
ومحمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وقيل انه خليفة من سكن الارض قبله وقيل المراد
آدم وذريته لانهم يخلفون من قبلهم أو يخلف بعضهم بعضا وافراد اللفظ اما للاستغناء
بذكره عن ذكر بنيه أو على تأويل من يخلف وفائدة قوله هذا للملائكة تعليم المشاورة وتعظيم
شأن المجعول بأن بشر تعالى بوجوده سكان ملكوته ولقبه بالخليفة قبل خلقه واظهار فضله
الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضى ايجاد ما يغلب
خيره فان ترك الخير الكثير لاجل الشر القليل شر كثير الى غير ذلك (قالوا أتجعل فيها من يفسد
فيها) بالمعاصى (ويسفك الدماء) اى يريقها بالقتل كما فعل بنو الجان تعجبوا من ان يستخلف
لعمارة الارض واصلاحها من يفسد فيها او قصدهم استكشاف ما خفى عليهم من الحكمة
التى بهرت تلك المفاسد وألغتها وليس باعتراض على الله تعالى ولا طعن فى بنى آدم على وجه
الغيبة فانهم أعلى من ان يظن بهم ذلك لقوله تعالى بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم
بأمره يعملون وانما عرفوا ذلك باخبار من الله تعالى أو تلق من اللوح أو استنباط عما ركز
فى عقولهم أن العصمة من خواصهم أو قياس لاحد الثقلين على الآخر والا فهم ما كانوا
يعلمون الغيب (ونحن نسبح) متلبسين (بحمدك) اى نقول سبحان الله وبحمده وهذه صلاة
ما عدا الآدميين وعليها يرزقون قال تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده اى يقول سبحان
الله وبحمده روى عن أبى ذر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل اى الكلام أفضل قال
ما اصطفى الله للملائكة أو لعباده سبحان الله وبحمده وقيل ونحن نصلى بأمرك قال ابن عباس
كل ما فى القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة (ونقدس لك) ننزهك عما لا يليق بك فاللام
صلة والجملة حال مقررة لجهة الاشكال كقولك أتحسن الى أعدائك وأنا الصديق المحتاج
والمعنى أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك والمقصود منه الاستفسار عما رجحهم
مع ما هو متوقع منهم على الملائكة المعصومين فى الاستخلاف لا العجب والتفاخر وقيل نقدس

ذلك) ان قلت بين تقتضى
شيئين فاكثر فكيف
دخلت على ذلك وهو مفرد
(قلت) ذلك يشار به الى
المفرد والمثنى والمجموع
ومنه قوله تعالى قل بفضل
الله وبرحمته فبذلك
فليفرحوا وان تصبروا
وتتقوا الآية وزين
للناس حب الشهوات
الآية فالمعنى عوان بين
الفارض والبكر (قوله
يكتبون الكتاب بايديهم)
فان قلت ما فائدة ذكر اليد
مع أن الكتابة لا تكون الا

لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لاجلك كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح وسفك الدماء الذى هو أعظم الافعال الذميمة بتطهير النفس عن الآثام (قال) تعالى (انى أعلم ما لا تعلمون) من المصلحة فى استخلاف آدم وان ذريته فيهم المطيع والعاصى فيظهر العدل بينهم وقيل انى أعلم ان فيكم من يعصينى وهو ابليس وجنوده وقيل انى أعلم انهم مذنبون وأنا أغفر لهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وهم على مراتبهم فى المد (وعلم آدم الاسماء) اى أسماء المسميات (كلها) حتى القصعة والمغرفة وقيل علمه اسم ما كان وما يكون الى يوم القيامة وقيل صنعة كل شئ قال أهل التأويل ان الله عز وجل علم آدم جميع اللغات ثم كل واحد من اولاده بلغة فتفرقوا فى البلدان واختص كل فرقة منهم بلغة وذلك اما بخلق علم ضرورى بها فيه او ألقى فى قلبه علمها أو بارسال ملك أو بخطاب الله له أو بخلق الاصوات فى الاجسام المسميات والتعليم فعل يترتب عليه العلم غالبا ولذلك يقال علمته فلم يتعلم وآدم اسم أعجمى كسائر الانبياء الا صالحا وشعيبا ولوطا ومحمدا بل قيل ان آدم أيضا عربى وعلى هذا فاشتقاقه من الادمة بضم الهمزة وسكون الدال بمعنى السمرة أو الادمة بفتح الهمزة والدال بمعنى الاسوة اى القدوة او من اديم الارض اى ظاهر وجهها روى الحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله قبض قبضة من جميع الارض سهلها وحزنها وهو بفتح الحاء المهملة ما غلظ من الارض وصلب اى وعجنت بالمياه المختلفة فخلق منها آدم ونفخ فيه الروح فصار حيوانا حساسا بعد ان كان جمادا فلذلك يأتى بنوه مختلفين فى الالوان والاخلاق والهيآت وأما على الاول فلا اشتقاق له لان ذلك انما يأتى فى الاسماء العربية والاعجمى لا اشتقاق له وكنيته أبو محمد وابو البشر والمعنى انه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباعدة مستعدا لادراك انواع المدركات والمعقولات والمحسوسات والمخيلات والموهومات وألهمه معرفة ذوات الاشياء وخواصها واسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها وقرأ ورش فى الهمزة من آدم بالمد والتوسط والقصر حيث جاء وقوله تعالى (ثم عرضهم على الملائكة) الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمنا فى قوله تعالى وعلم آدم الاسماء اذ التقدير أسماء المسميات كما مر تقريره فحذف المضاف اليه لدلالة المضاف عليه وعوض عنه اللام فى الاسماء كقوله تعالى واشتعل الرأس شيبا لان العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الاسماء اذ العرض لا يصح فيها الا انها من المسموعات والعرض يختص بالمحسوسات بالعين تقول عرضت الجند عرض العين اذا امررتهم عليك ونظرت ما حالهم (فان قيل) لم قال عرضهم ولم يقل عرضها (أجيب) بان الاسماء اذا جمعت جمع من يعقل ومن لا يعقل يكنى عنها بلفظ من يعقل كما يكنى عن الذكور والاناث بلفظ الذكور وقال مقاتل خلق الله كل شئ الحيوان والجماد ثم عرض تلك الشخوص على الملائكة والكناية راجعة الى الشخوص فلذلك قال عرضهم على الملائكة (فقال) لهم سبحانه وتعالى تبكيتا لهم وتنبيها على عجزهم عن أمر الخلافة (انبئونى) اى اخبرونى (باسماء هؤلاء) المسميات (ان كنتم صادقين) أنى لا أخلق خلقا الا كنتم أفضل واعلم منه وذلك ان الملائكة قالوا لما قال انى جاعل فى الارض خليفة ليخلق ربنا ما يشاء فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا وان كان فنحن أعلم منه لانا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره

فاظهر

بها (قلت) فائدته تحقيق مباشرتهم ما عرفوه بانفسهم زيادة فى تقبيح فعلهم (قوله أياما معدودة) ان قلت لم قال هنا معدودة وفى آل عمران معدودات (قلت) اشارة الى الجمع بين الاصل والفرع (١) اذ الاصل فى الجمع بالالف والتاء اذا كان واحده مذكرا أن

(١) قوله اذ الاصل فى الجمع الخ بهامش ما نصه عبارة الكرمانى لان الاصل فى الجمع اذا كان واحده مذكرا أن يقتصر فى الوصف على التأنيث نحو سرر مرفوعة الخ اه وهى الصواب ولعل ذلك تحريف من الكاتب

فاظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم وجواب الشرط دل عليه ماقبله (قالوا) اى الملائكة اقرارا
بالعجز واشعارا بان سؤالهم كان استفسارا ولم يكن اعتراضا وأنه قد بان لهم ماخفى عليهم من
فضل الانسان والحكمة فى خلقه واظهار الشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما التبس عليهم
(سبحانك) تنزيها عن الاعتراض عليك (لاعلم لنا الا ما علمتنا) اياه وفى هذا مراعاة للادب
بتفويض العلم كله اليه سبحانه وتعالى وتصدير الكلام بسبحان اعتذار عن الاستفسار
والجهل بحقيقة الحال فانه تعالى منزه عن ان يفعل مايخرج عن الحكمة ولذلك جعل مفتاح
التوبة فقال موسى عليه الصلاة والسلام سبحانك تبت اليك وقال يونس عليه الصلاة والسلام
سبحانك انى كنت من الظالمين * (تنبيه) * اجتمع فى قوله تعالى أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم
صادقين أربع مدات الاولى أنبئونى والثانية بأسماء والثالثة والرابعة هؤلاء ان فالاول مد
بدل والثانى مد متصل والثالث مد منفصل والرابع مخير لا متصل قطعا ولا منفصل قطعا عند
من يقول باسقاط احدى الهمزتين فاما الاول فلورش فيه المد والتوسط والقصر واما الثانى
فبالمد للجميع لانه متصل واما الثالث ففيه المد والقصر كما تقدم لانه منفصل وأما الرابع وهو
أولاء ان ففيه همزتان مكسورتان من كلمتين فقالون والبزى يسهلان الاولى مع المد والقصر
و ورش وقنبل يسهلان الثانية و يجعلانها حرف مد وأبو عمرو يسقط الاولى مع الثانية فمن قال
باسقاط الاولى مد وقصر ومن قال باسقاط الثانية فبالمد فقط و باقى القراء يحققون الهمزتين
وهم على مراتبهم فى المد (انك انت العليم) الذى لايخفى عليه خافية (الحكيم) المحكم لمبدعاته
الذى لايفعل الا مافيه حكمة بالغة وأنت ضمير فصل وقيل تأكيد للكاف كما فى قولك مررت
بك انت وان لم يجز مررت بانت اذ التابع يسوغ فيه مالا يسوغ فى المتبوع وقيل مبتدأ خبره
مابعده والجملة خبر ان (قال) تعالى (يا آدم أنبئهم) اى اخبر الملائكة (بأسمائهم) اى المسميات
فسمى آدم كل شئ باسمه وذكر الحكمة التى لاجلها خلق (فلما أنبأهم بأسمائهم قال) الله تعالى
لهم موبخا (ألم اقل لكم انى اعلم غيب السموات والارض) اى ماغاب فيهما (واعلم ماتبدون) اى
تظهرون من قولكم اتجعل فيها الخ (وما كنتم تكتمون) اى تسرون من قولكم ان يخلق
أكرم عليه منا ولا اعلم وقيل ما أظهروا من الطاعة وأسره ابليس من المعصية والهمزة فى ألم
اقل للانكار بمعنى النفى دخلت على حرف الجحد فافادت الاثبات والتقرير * (تنبيه) * هذه
الآيات وهى آية وعلم آدم وآية سبحانك وآية قال يا آدم تدل على شرف الانسان ومزية العلم
وفضله على العبادة والا لاظهر فضل آدم بها وان العلم بما يستخلف فيه شرط فى الخلافة بل
العمدة فيها وان التعليم يصح اسناده الى الله تعالى وان لم يصح اطلاق المعلم عليه لاختصاصه
بمن يحترف به وأن اللغات توقيفية فان الاسماء تدل على الالفاظ بخصوص أو عموم وتعليمها
ظاهر فى القائها على المتعلم مبينا له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع والاصل ينفى أن يكون
ذلك الوضع ممن كان قبل آدم من الملائكة والجن فيكون من الله وأن مفهوم الحكمة زائد
على مفهوم العلم لتغاير المتعاطفين والا لتكرر قوله انك انت العليم الحكيم وأن علوم
الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة وأن آدم افضل من هؤلاء الملائكة لانه اعلم منهم والاعلم افضل
لقوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون وأن الانبياء افضل من الملائكة وان

يقتصر فى الوصف على
تأنيثه مفردا كقوله سرر
مرفوعة وقد يأتى سرر
مرفوعات على الجمع فهو
فرع عن الاول فذكر فى
البقرة على الاصل لكونها
أول وفى آل عمران على
الفرع (قوله ثم توليتم الا
قليلا منكم وأنتم
معرضون) فان قلت التولى
والاعراض واحد فلم جمع
بينهما (قلت) لامحذور فيه
لان قوله وأنتم معرضون
حال من فاعل توليتم فهى

كانوا رسلا كما ذهب اليه اهل السنة وأنه تعالى يعلم الاشياء قبل حدوثها الا انه اخبر عن علمه تعالى
بأسماء المسميات جميعها ولم تكن موجودة قبل الاخبار (و) اذكر (اذ قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم) لما انبأهم بالاسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له اعترافا بفضله واداء لحقه
واعتذارا عما قالوا فيه او امرهم به قبل ان يسوى خلقه لقوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه
من روحى فقعوا له ساجدين امتحانا لهم واظهارا لفضله وقضية الاول تأخير الامر به عن
تسوية خلقه بدليل تأخيره عن انبائهم وتعليمهم المستلزمين لتسوية خلقه وعلى الثانى اقتصر
بعض المفسرين وهو الظاهر وأجيب عن دليل الاول بأن الواو فى قوله واذ قلنا لا تقتضى
الترتيب والسجود فى الاصل تذلل مع تطامن وفى الشرع وضع الجبهة على قصد العبادة
والمأمور به اما المعنى الشرعى فالمسجود له فى الحقيقة هو الله تعالى وجعل آدم قبلة سجودهم
تفخيما لشأنه او سببا لوجوبه كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله فمعنى اسجدوا له اى
اليه وكأنه تعالى لما خلقه بحيث يكون انموذجا اى مثالا للمبدعات كلها بل الموجودات
بأسرها ونسخة لما فى العالم الروحانى والجسمانى وذريعة للملائكة الى استيفاء ما قدر لهم من
الكمالات ووصلة الى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات أمرهم بالسجود تذللا لما
رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته وشكرا لما انعم عليهم بواسطته واما المعنى اللغوى وهو
التواضع لآدم تحية وتعظيما له كسجود اخوة يوسف له فى قوله تعالى وخروا له سجدا ولم
يكن فيه وضع الجبهة بالارض انما كان الانحناء فلما جاء الاسلام بطل ذلك بالسلام والكلام
فى ان المأمورين بالسجود الملائكة كلهم او طائفة منهم مثل ما مر (فسجدوا) اى الملائكة
(الا ابليس ابى واستكبر) اى امتنع عما أمر به استكبارا من أن يتخذه وصلة فى عبادة ربه
أو يعظمه او يتلقاه بالتحية او يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه وقال أنا خير منه والاباء
امتناع واختيار والتكبر أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك بالتشبع
وهو التزين بأكثر مما عنده يتكبر بذلك ويتزين بالباطل (وكان من الكافرين) اى فى علم الله
او صار منهم باستقباحه امر الله تعالى اياه بالسجود لآدم اعتقادا بأنه افضل منه والافضل
لا يحسن ان يؤمر بالتخضع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله تعالى أنا خير منه جوابا لقوله
تعالى ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت ام كنت من العالين لا بترك الواجب
وهو السجود وحده والآية تدل على ان آدم افضل من الملائكة المأمورين بالسجود له وان
ابليس كان من الملائكة والا لم يتناوله أمرهم ولم يصح استثناؤه منهم ولا يرد على ذلك قوله تعالى
الا ابليس كان من الجن لجواز ان يقال كان من الجن فعلا ومن الملائكة نوعا (فان قيل) له
ذرية والملائكة لا ذرية لهم (أجيب) بان ابن عباس روى ان من الملائكة نوعا يتوالدون
يقال لهم الجن ومنهم ابليس وقيل ان الله تعالى لما أخرجه من الملائكة جعل له ذرية وان
من الملائكة من ليس بمعصوم وان كان الغالب فيهم العصمة كما ان من الانس معصومين وهم
الانبياء والغالب فى الانس عدم العصمة ولمن زعم انه لم يكن من الملائكة أن يقول انه كان
جنيا نشأ بين أظهر الملائكة وكان مغمورا بالالوف منهم فغلبوا عليه لقوله تعالى الا ابليس
كان من الجن ففسق عن امر ربه وهو اصل الجن كما ان آدم اصل الانس ولانه خلق من النار

حال مؤكدة كما فى قوله
تعالى ثم وليتم مدبرين او
مؤسسة اذ المعنى ثم وليتم
عن الوفاء بالعهد وأنتم
معرضون عن النظر
والفكر فى عاقبة ذلك
(قوله وان تمنوه) فان قلت
لم قال هنا لن وفى الجمعة
لا (قلت) لان لن أبلغ فى
النفى من لا حتى قيل انها
لتأبيد النفى ودعواهم فى
البقرة بالغة قاطعة وهى
كون الجنة لهم بصفة
الخلوص فناسب ذكر لن

والملائكة خلقوا من النور وقال البغوي والاول اصح لان خطاب السجود كان مع الملائكة
وقوله تعالى كان من الجن اي من الملائكة الذين هم خزنة الجنة وقال سعيد بن جبير من الذين
يعملون في الجنة وقال قوم من الملائكة الذين كانوا يصوغون حلي الجنة وقيل ان الجن أيضا
كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم فاذا علم ان الاكابر
وهم الملائكة مامورون بالتذلل لاحد والتوسل به علم أيضا ان الاصاغر وهم الجن مأمورون
به أيضا والضمير في فسجدوا راجع للقبيلين فكأنه قال فسجد المامورون بالسجود الا ابليس
(تنبيه) من فوائد الآية استقباح الاستكبار وانه يفضي بصاحبه الى الكفر والحث
على الائتمار لامره وترك الخوض فيما لا ينبغي في سر قدسه وان الامر للوجوب وان الذي علم
الله من حاله انه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة اذ العبرة بالخواتيم وان كان بحكم
الوقت الحاضر مؤمنا (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) اي اتخذ الجنة مسكنا لتستقر
فيها لانها استقرار ولبث ولفظة أنت تاكيد أكد به المستكن ليصح العطف عليه وانما لم
يخاطبهما أولا بان يقول اسكنا تنبيها على انه المقصود بالحكم وهو الامر بالسكنى التي هي
الاصل بالنسبة الى ما عطف عليها من الاكل وغيره والمعطوف عليه تبع له حتى في الوجود اذ
لم يكن له من يؤانسه في الجنة فخلقت حواء من ضلعه الاقصر من جانبه الايسر وهو نائم
فلما استيقظ من نومه رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما خلق الله فقال من أنت قالت زوجتك
خلقني الله لك تسكن الي وتسكن اليك وسميت حواء لانها خلقت من حي خلقها الله من غير
أن يحس بها آدم ولا وجد لذلك ألما ولو وجد لها ألما ما عطف رجل على امرأة قط وانما صح
العطف على المستكن مع ان المعطوف لا يباشر فعل الامر لانه وقع تابعا ويغتفر في التابع ما لا
يغتفر في المتبوع والجنة دار الثواب لان اللام للعهد ولا معهود غيرها ومن زعم انها لم تخلق بعد
قال ان الجنة بستان كان بارض فلسطين او بين فارس وكرمان خلقه الله تعالى امتحانا لآدم
وحمل الاهباط على الانتقال منه الى ارض الهند كما في قوله تعالى اهبطوا مصرا (وكلا منها)
اكلا (رغدا) اي واسعا لا حجر فيه فرغدا صفة مصدر محذوف وقيل مصدر في موضع
الحال (حيث) اي اي مكان من الجنة (شئتما) وسع الامر عليهما ازالة للعلة والعذر في
التناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها التي لا تنحصر وقرأ أبو عمرو بادغام الثاء في
الشين بخلاف عنه وأبدل السوسي الهمزة وقفا ووصلا وحمزة في الوقف فقط (ولا تقربا هذه
الشجرة) بالاكل منها وهي شجرة الحنطة أو الكافور أو شجرة العنب أو التين او شجرة من
أكل منها أحدث والاولى كما قال البيضاوي ان لا تعين من غير دليل قاطع او ظاهر كما لم
تعين في الآية لعدم توقف ما هو المقصود على التعيين (فتكونا) اي فتصيرا (من الظالمين) اي
العاصين *(تنبيه)* في هذه الآية مبالغتان الاولى تعليق النهي بالقرب الذي هو من
مقدمات التناول مبالغة في تحريمه ووجوب الاجتناب عنه وتنبيها على ان القرب من الشيء
يورث داعية وميلا يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع كما روى
أبو داود حبك الشيء يعمي ويصم اي يخفي عليك معايبه ويصم أذنيك عن سماع مساويه
فينبغي ان لا يحوم حول ما حرم عليهما مخافة أن يقعا فيه الثانية جعل قربانهما الى الشجرة

فيها ودعواهم في الجهة
كما صرح مردودة وهي زعمهم
انهم أولياء الله فناسب
ذكرها (قوله ومن
الذين أشركوا) ان قلت
لم خصوا بالذكر مع
دخولهم في الناس في قوله
ولتجدنهم أحرص الناس
على حياة (قلت) لشدة
حرصهم على الحياة
لانكارهم البعث (قوله بل
أكثرهم لا يؤمنون) ان
قلت لم قال هنا لا يؤمنون وفي
غيره لا يعقلون لا يعلمون

سببا لان يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصى (فأزلهما الشيطان) أى ابليس سمى به لبعده عن الخير والرحمة وقرأ حمزة بألف بعد الزاى وتخفيف اللام أى نحاهما والباقون بغير ألف بعد الزاى وتشديد اللام أى اذهبهما (عنها) أى الجنة وازلاله قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وقوله ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ومقاسمته اياهما بقوله انى لكما لمن الناصحين واختلف فى أنه تمثل لهما فقال لهما ذلك أو القاه اليهما على طريق الوسوسة وكيف توصل الى ازلالهما بعد ما قيل له اخرج منها فانك رجيم فقيل انه منع من الدخول بعد خروجه الاول على جهة التكرمة كما كان يدخل مع الملائكة ولم يمنع أن يدخل للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء فلما دخل وقف بين يدى آدم وحواء وهما لا يعلمان أنه ابليس فبكى وناح نياحة أحزنتهما وهو أول من ناح فقالا له ما يبكيك فقال أبكى عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة وكان آدم لما رأى ما فى الجنة من النعيم قال لو أن خلدا فاغتنم الشيطان ذلك منه فأتاه الشيطان من قبل الخلد فوقع قوله فى أنفسهما واغتما ومضى ابليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد فأبى أن يقبل منه فقاسمهما بالله انه لهما لمن الناصحين فاغترا وما ظنا أن أحدا يحلف بالله كاذبا فبادرت حواء الى أكل الشجرة ثم ناولت حواء آدم حتى أكلها وكان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حواء سقته الخمر حتى سكر فادته اليه فأكل وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم تعرفه الخزنة وقيل دخل فى فم الحية حتى دخلت به وكانت صديقة لابليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من خزان الجنة فسألها ابليس أن تدخله الجنة فى فيها فادخلته ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون فادخلته الجنة وقيل أرسل بعض أتباعه فأزالهما والعلم فى ذلك كما قال البيضاوى عند الله (فأخرجهما مما كانا فيه) من الكرامة والنعيم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال الله تعالى لآدم أليس فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة قال بلى يا رب وعزتك ولكن ما ظننت ان أحدا يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لاهبطنك الى الارض ثم لا تنال العيش الا كدا فاهبطا من الجنة وكانا يأكلان فيها رغدا فعلم من صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى اذا بلغ حصد ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله قال ابراهيم بن أدهم أورثتنا تلك الاكلة حزنا طويلا وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان آدم لما أكل من الشجرة التى نهى عنها قال الله عز وجل يا آدم ما حملك على ما صنعت قال يا رب زينته لى حواء قال فانى أعقبتها ان لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها ودميتها فى الشهر مرتين فرنت حواء عند ذلك فقيل عليك الرنة وعلى بناتك فلما أكلا منها سقطت عنهما ثيابهما وبدت سوآتهما وأخرجا من الجنة فذلك قوله تعالى (وقلنا اهبطوا) خطاب لآدم وحواء لقوله تعالى قال اهبطا منها جميعا وجمع الضمير لانهما أصل الانس فكأنهما الانس كلهم أو هما وابليس اخرج منها ثانيا بعدما كان يدخلها للوسوسة أو دخلها مسارقة أو من السماء لا من الباب على الخلاف المتقدم وقيل هما وابليس والحية فهبط آدم بسرنديب بأرض الهند على جبل يقال له نود وحواء بجدة وابليس بالابلة وقيل

بيسان

قلت) لان الآية هنا نزلت فى كفار نقض بعضهم العهد وجحد بعضهم الحق ولم يجمع هذان الامران فى غير هذه السورة (قوله وما انزل على الملكين) أى من السحر فهو معطوف على السحر قبله وسوغ عطفه عليه تغايرهما لفظا والملكان أنزلهما الله تعالى لتعليم السحر ابتلاء منه للناس (فان قلت) هذا يدل على جواز تعليم السحر فلا يكون حراما (قلت) الحرام

يد ـ ـان بالبصرة على أميال والحية باصبهان وقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) حال استغنى فيها
عن الواو بالضمير والمعنى متعادين فان كان الخطاب لآدم وحواء فقط فالمراد بعضكم بعض
الذرية أى بعض ذريتكم لبعض عدو من ظلم بعضهم بعضا وان كان الخطاب لهما ولابليس
والحية فالمراد العداوة بين المؤمنين من ذرية آدم والحية وبين ابليس قال الله عز وجل ان
الشيطان لكما عدو مبين وروى عكرمة عن ابن عباس انه كان يأمر بقتل الحيات وقال من
تركهن خشية أو مخافة ثائر فليس منا وزاد موسى بن مسلم عن عكرمة فى الحديث ماسالمناهن
منذ حاربناهن وروى انه نهى عن ذوات البيوت وروى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى
الله عليه وسلم ان بالمدينة جنا قد أسلموا فان رأيتم منهم شيأ فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم
بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان (ولكم فى الارض مستقر) اى موضع قرار (ومتاع)
ما تتمتعون به من نباتها (الى حين) أى وقت انقضاء آجالكم (فتلقى آدم من ربه كلمات) أى
استقبلها بالاخذ والقبول والعمل بها حين علمها وهى ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقيل سبحانك
اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا اله الا انت ظلمت نفسى فاغفر لى انه لا يغفر
الذنوب الا انت وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال آدم يارب ألم تخلقنى بيدك قال بلى
قال يارب ألم تنفخ فىّ الروح من روحك قال بلى قال ألم تسكنى جنتك قال بلى قال يارب ان تبت
واصلحت أراجعى انت الى الجنة قال نعم رواه الحاكم وصححه وقول آدم اراجعى بتخفيف الياء
اسم فاعل اضيف الى المفعول وأنت فاعل لاعتماده على الاستفهام ومبتدأ خبره ما قبله وقرأ
ابن كثير بنصب الميم من آدم ورفع التاء من كلمات على انها المتلقية والباقون برفع الميم وكسر
التاء والكسر هذا علامة النصب لانه جمع مؤنث سالم فينصب بالكسرة (فتاب عليه) أى قبل
توبته وانما رتب تاب عليه بالفاء على تلقى الكلمات لتضمن تلقى الكلمات معنى التوبة وهو
الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على ان لا يعود اليه ورد المظالم ان كانت واكتفى بذكر
آدم لان حواء كانت تبعا له فى الحكم ولذلك طوى ذكر النساء فى أكثر القرآن والسنن (انه هو
التواب) الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذى يكثر اعانتهم على التوبة واذا وصف بها البارئ
اريد بها الرجوع من العقوبة الى المغفرة (الرحيم) البالغ فى الرحمة وفى الجمع بين التوبة
والرحمة وعد للتائب بالاحسان مع العفو (قلنا اهبطوا منها) أى من الجنة (جميعا) كرر
للتأكيد أو لاختلاف المقصود فان الاول دل على هبوطهم الى دار بلية يتعادون فيها
ولا يخلدون والثانى أشعر بأنهم اهبطوا للتكليف فمن اهتدى لهذا نجا ومن ضل هلك وقيل
الهبوط الاول من الجنة الى السماء الدنيا والهبوط الثانى من السماء الدنيا الى الارض (فاما)
فيه ادغام ان الشرطية فى ما المزيدة (يأتينكم) ياذرية آدم (منى هدى) أى رشد وبيان
شريعة وقيل كتاب ورسول (فمن تبع هداى) بان آمن بى وعمل بطاعتى وكرر لفظ الهدى ولم
يضمر اما لاظهار شأنه وتفخيمه خصوصا مع اضافته اليه أو لانه أراد بالثانى اعم من الاول وهو
ما أتى به الرسل واقتضاه العقل أى فمن تبع ما أتاه راعيا فيه ما يشهد به العقل (فلا خوف عليهم)
فضلا من أن يحل بهم مكروه (ولاهم يحزنون) بفوات محبوب عنهم وهو النظر الى وجهه
تعالى فيحزنوا عليه بل يتنعمون بالنظر الى وجهه تعالى فانه المقصود الاعظم فالخوف على
الواقع نفى عنهم العقاب فاثبت لهم الثواب على آكد وجه وأبلغه وقيل لا خوف عليهم فى الدنيا

تعلمه ليعمل به لا ليجتنب فانه جائز كالو سئل انسان عن الزنا لزمه بيانه للسائل ليعرفه فيجتنبه (قوله ولقد علموا لمن اشتراه الى قوله لو كانوا يعلمون) ان قلت كيف اثبت لهم العلم اولا مؤكدا بلام القسم ونفاه عنهم آخرا (قلت) المثبت لهم علمهم بان من اختار السحر ماله فى الآخرة من نصيب والمنفى عنهم علمهم بحقيقة ما يصيرون اليه فيها او المثبت لهم العلم مطلقا والمنفى عنهم العقل لانه

ولا هم يحزنون في الآخرة وأمال الدوري عن الكسائي ألف هداي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وانما جيء بحرف الشك واتيان الهدى واقع كائن لانه محتمل في نفسه غير واجب عقلا (والذين كفروا) أي جحدوا (وكذبوا بآياتنا) أي كتبنا (أولئك أصحاب النار) يوم القيامة (هم فيها خالدون) ماكثون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يموتون فيها والآية في الاصل العلامة الظاهرة وتقال للمصنوعات من حيث انها تدل على الصانع وعلمه وقدرته ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل * (تنبيه) * في هذه الآيات دلالة على ان الجنة مخلوقة وأنها في جهة عالية وان التوبة مقبولة وان متبع الهدى مأمون العاقبة وان عذاب النار دائم وان الكافر فيه مخلد وان غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى هم فيها خالدون واستدل بعض الخوارج كالحشوية وهم قوم جوزوا الخطاب بما لا يفهم بها على عدم عصمة الانبياء بوجوه الاول ان آدم عليه السلام كان نبيا وارتكب المنهي والمرتكب له عاص والثاني انه جعل بارتكابه من الظالمين والظالم ملعون لقوله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين والثالث انه اسند اليه العصيان والغي وقال وعصى آدم ربه فغوى والرابع أنه تعالى لقنه التوبة وهي الرجوع عن الذنب والندم عليه والخامس اعترافه بأنه خاسر لولا مغفرة الله له بقوله وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين والخاسر من يكون ذا كبيرة والسادس انه لولم يذنب ما جرى عليه ما جرى (واجيب) عن ذلك بوجوه * الاول انه لم يكن نبيا حينئذ والمدعي مطالب بالدليل ولا دليل * الثاني ان النهي للتنزيه وانما سمي ظالما وخاسرا لانه ظلم نفسه وخسر حظه بترك الاولى وانما أجرى الله تعالى عليه ما جرى معاتبة على ترك الاولى ووفاء بما قاله تعالى للملائكة قبل خلق آدم اني جاعل في الارض خليفة ولا يكون خليفة في الارض الا بالاهباط اليها وأمر بالتوبة تلافيا لما فاته * الثالث انه فعله ناسيا لقوله تعالى فنسي ولم نجد له عزما ولكن عوتب بترك التحفظ عن اسباب النسيان اذ رفع الاثم بالنسيان من خصائص هذه الامة كما ثبت في الاخبار الصحيحة كخبر الشيخين رفع عن امتي الخطأ والنسيان وروى الترمذي وصححه أشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالامثل ورواه الحاكم بلفظ أشد الناس بلاء الانبياء ثم العلماء ثم الصالحون * الرابع أنه عليه الصلاة والسلام أقدم عليه بسبب اجتهاد أخطأ فيه فانه ظن أن النهي للتنزيه أو الاشارة الى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المراد بالاشارة الاشارة الى النوع لا الى شجرة معينة كما روى أبو داود وغيره انه عليه الصلاة والسلام اخذ حريرا وذهبا بيده وقال هذان حرام على ذكور امتي حل لاناثها (فان قيل) المجتهد اذا اخطأ لا يؤاخذ (اجيب) بأنه انما عوتب على ذلك تعظيما لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده وقرأ ورش بامالة الف النار بين بين وقرأ أبو عمرو والدوري عن الكسائي بالامالة المحضة والباقون بالفتح (يا بني اسرائيل) أي أولاد يعقوب واسرائيل لقبه ومعنى اسرا بالعبرانية عبد وايل الله فمعناه عبد الله وقيل صفوة الله صلى الله وسلم عليه (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) أي بالتفكر فيها والقيام بشكرها والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان وتقييد النعمة بهم لان الانسان غيور حسود بالطبع فاذا نظر الى ما أنعم الله على غيره حمله الغيرة والحسد على الكفران والسخط وان نظر الى ما أنعم به عليه حمله حب النعمة على الرضا والشكر لله وقيل أراد بها

اصل العلم فاذا انتفى انتفى (قوله لمثوبة من عند الله خير) أي من السحر وهو خير المثوبة (فان قلت) خير أفعل تفضيل ولا خير في السحر (قلت) ليس خير هنا أفعل تفضيل بل هو لبيان أن المثوبة فاضلة كما في قوله تعالى أفمن يلقى في النار خير وكما يقال الرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل او هو أفعل تفضيل وخاطبهم الله على اعتقادهم أن تعلم السحر خير نظرا منهم الى حصول مقصودهم

ما أنعم على آبائهم من فلق البحر وانجائهم من فرعون باغراقه وتظليل الغمام عليهم في التيه وانزال المن والسلوى وغير ذلك من النعم التي لا تحصى قال الله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (وأوفوا بعهدي) أي بامتثال أمري ومنه ما عهدت اليكم من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (أوف بعهدكم) أي الذي عهدته اليكم من الثواب عليه بدخول الجنة * (تنبيه) * للوفاء بالعهد درجات كثيرة فأول مراتبه منا هو الاتيان بكلمتي الشهادتين ومن الله تعالى حقن الدماء والمال وآخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلا عن غيره ومن الله تعالى الفوز بالغنى الدائم واما ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من ان أوفوا بعهدي في اتباع محمد أوف بعهدكم في رفع الآصار أي الاثقال والاغلال وعن غير ابن عباس أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم فبالنظر الى الوسايط (واياي فارهبون) فيما تأتون وتذرون وخصوصا في نقض العهد والرهبة خوف مع تحرز * (تنبيه) * الآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وان المؤمن ينبغي ان لا يخاف أحدا الا الله (وآمنوا بما أنزلت) من القرآن وقوله تعالى (مصدقا) حال مؤكدة لما أنزلت أو من ضميره المحذوف (لما معكم) من التوراة بموافقته له وغيره من الكتب الالهية في القصص ونعت النبي صلى الله عليه وسلم والمواعيد والدعاء الى التوحيد والامر بالعبادة والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش وفيما يخالفها من جزئيات الاحكام بسبب تفاوت الاعصار في المصالح من حيث ان كل واحد منها حق بالاضافة الى زمانها مراعى فيها صلاح من خوطب بها حتى لو نزل المتقدم في ايام المتأخر لنزل على وفقه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام كما رواه الامام أحمد وغيره لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعي وفي ذلك تنبيه على ان اتباع تلك الكتب الالهية لا ينافي الايمان بالقرآن بل يوجبه ولذلك عرض بقوله (ولا تكونوا أول كافر به) أي بالقرآن بل يجب ان تكونوا اول مؤمن به لانكم اهل نظر في معجزاته والعلم بشأنه (فان قيل) كيف نهوا عن التقدم في الكفر وقد سبقهم مشركو العرب (اجيب) بأن المراد به التعريض بما يجب عليهم لمقتضى حالهم لا الدلالة على ما نطق الظاهر كقولك لمن أساء أما انا فلست بجاهل او ولا تكونوا اول كافر من اهل الكتاب لان خلفكم تبع لكم فاثمهم عليكم او ممن كفر بما معه فان من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركي مكة * (تنبيه) * أول كافر به وقع خبرا عن ضمير الجمع بتقدير اول فريق أو فوج او بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به كقولك كسانا حلة أي كل واحد منا (ولا تشتروا) تستبدلوا (بآياتي) التي في كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) أي عوضا يسيرا من الدنيا اي لا تكتموها خوف فوات ما تأخذونه من سفلتكم وذلك ان رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مآكل يصيبونها من سفلتهم وجهالهم يأخذون منهم كل سنة شيأ معلوما من زروعهم وضروعهم ونقودهم فخافوا انهم ان بينوا صفة النبي صلى الله عليه وسلم وتابعوه ان يفوتهم تلك المآكل فغيروا نعته وكتموا اسمه فاختاروا الدنيا على الآخرة فنهوا عن ذلك فان حظوظ الدنيا وان جلت قليلة مسترذلة بالاضافة الى ما يفوت من حظوظ الآخرة (واياي فاتقون) خافون في ذلك دون غيري

الدنيوي به (قوله حمدا من عند أنفسهم) ذكر من عند أنفسهم تأكيد اذ الحسد لا يكون الا من قبل النفس (قوله ان هدى الله هو الهدى) قال ذلك هنا وقال في آل عمران قل ان الهدى هدى الله لان معنى الهدى هنا القبلة لان الآية نزلت في تحويلها وتقديره قل ان قبلة الله هي الكعبة ومعناه ثم الدين لقوله قبل تبع دينكم وان الدين عند الله الاسلام (قوله ولئن

(ولا تلبسوا) أى تخلطوا (الحق) الذى أنزلت عليكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم (بالباطل) الذى تخترعونه وتكتبونه بأيديكم من تغيير صفته (و) لا (تكتموا الحق) أى لا تكتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) انكم لابسون الحق بالباطل كاتمون فانه أقبح اذ الجاهل يعذر (وأقيموا الصلاة) اى الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها (وآتوا الزكاة) أى أدوا زكاة أموالكم المفروضة أمرهم بفروع الاسلام بعدما أمرهم بأصوله وفيه دليل على ان الكفار مخاطبون بها والزكاة مأخوذة من زكا الزرع اذا نما وكثر أو من الزكاء بمعنى الطهارة وكلا المعنيين موجود فى الزكاة فان اخراجها يستجلب بركة فى المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم ويطهر المال من الخبث والنفس من البخل (واركعوا مع الراكعين) أى صلوا مع المصلين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى جماعتهم فان صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ أى الفرد بسبع وعشرين لما فيها من تظاهر أى تعاون النفوس وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود لان صلاتهم لم يكن فيها ركوع أى صلوا مع الذين فى صلاتهم ركوع وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الشاعر

لا تذل الضعيف (وروى لا تهين الفقير) علك (أى لعلك) أن تركع يوما والدهر قد رفعه

فتركع من الركوع بمعنى الانحناء والميل واراد به الانحطاط من الرتبة ونزل فى علماء اليهود وكانوا يقولون لاقربائهم المسلمين سرا اثبتوا على دين محمد صلى الله عليه وسلم فانه حق ولا يتبعونه (أتأمرون الناس بالبر) أى بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فى ذلك تقريع مع توبيخ وتعجيب والبر شرعا التوسع فى الخير من البر بالفتح وهو الفضاء الواسع يتناول كل خير ولذلك قيل البر ثلاثة بر فى عبادة الله وبر فى معاملة الاقارب وبر فى معاملة الاجانب (وتنسون أنفسكم) أى تتركونها من البر كالمنسيات وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون (وأنتم تتلون الكتاب) أى التوراة وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل (أفلا تعقلون) سوء فعلكم فيصدكم عنه أوفلا عقل لكم يمنعكم عما تعملون من عدم موافقة عاقبته لكم والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه بسوء صنيعه وخبث نفسه وان فعله فعل الجاهل بالشرع أو الاحمق الخالى عن العقل فان الجامع بين العلم والعقل يأبى عن كونه واعظا غير متعظ نفسه والمراد بها حث الواعظ على تزكية النفس والاقبال عليها بالتكميل لها ليقوم نفسه ثم يقوم غيره لا منع الفاسق عن الوعظ فان الاخلال بأحد الامرين المأمور بهما لا يوجب الاخلال بالآخر ولكن روى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الخطباء من امتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب وعن اسامة رضى الله تعالى عنه انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق اقتابه أى فتنقطع امعاؤه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أى فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وانهاكم عن المنكر وآتيه وقال شعبة عن الاعمش فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه (واستعينوا) اى اطلبوا المعونة على اموركم (بالصبر) أى الحبس للنفس

على

اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم) ان قلت ما الحكمة فى ذكر الذى هنا وذكر ما فى قوله بعد من بعد ما جاءك من العلم وفى الرعد بعد ما جاءك من العلم (قلت) المراد بالعلم فى الآية الاولى العلم الكامل وهو العلم بالله وصفاته وبان الهدى هدى الله فكان الانسب ذكر الذى لكونه فى التعريف أبلغ من ما وبالعلم فى الثانية والثالثة العلم بنوع وهو فى الثانية العلم بن قبلة الله هى

على ماتكره (والصلاة) افردها بالذكر تعظيما لشأنها فانها جامعة لانواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه الى الكعبة والعكوف للعبادة واظهار الخشوع بالجوارح واخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الرحمن وقراءة القرآن والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الاطيبين وهما الاكل والجماع روى الامام أحمد وغيره ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة أى لجأ اليها وحزبه بالحاء المهملة وزاى وباء موحدة اهمه ونزل به وقيل الخطاب لليهود فهو متصل بما قبله كأنهم لما أمروا بما شق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والاعراض عن المال أمروا بالصبر وهو الصوم ومنه سمى شهر رمضان شهر الصبر لانه يكسر الشهوة ويزهد فى الدنيا والصلاة لانها تورث الخشوع وتنفى الكبر وترغب فى الآخرة وقيل الواو بمعنى على أى واستعينوا بالصبر على الصلاة كما قال تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ويحتمل ان يراد بالصلاة الدعاء (وانها) أى الصلاة رد الكناية اليها لان الصبر داخل فيها لاستجماعها ضروبا من الصبر كما قال تعالى والله ورسوله أحق ان يرضوه ولم يقل يرضوهما لان رضا الرسول داخل فى رضا الله عز وجل أو لانها أعم كما فى قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله رد الكناية الى الفضة لانها أعم وقيل رد الكناية الى كل منهما او ان كل خصلة منهما كما قال تعالى كلتا الجنتين آتت أكلها أى كل واحدة منهما وقيل معناه واستعينوا بالصبر وانه لكبير والصلاة وانها لكبيرة فحذف أحدهما اختصارا وقال الحسين بن الفضل رد الكناية الى الاستعانة (لكبيرة) أى ثقيلة شاقة كقوله تعالى كبر على المشركين ماتدعوهم اليه (الا على الخاشعين) أى الساكنين الى الطاعة والخشوع السكون قال تعالى وخشعت الاصوات للرحمن والخضوع اللين والانقياد ولذا يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب (الذين يظنون) أى يستيقنون واطلق الظن على العلم لتضمنه معنى التوقع (انهم ملاقوا ربهم) بالبعث (وانهم اليه راجعون) فى الآخرة فيجازيهم بأعمالهم وانما لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم لان نفوسهم مرتاضة بامثالها متوقعة فى مقابلتها مايستحقر لاجل مشاقها وتستلذ بسببه متاعبها ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عينى فى الصلاة (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) بالشكر عليها بطاعتى كرره للتوكيد وتذكير التفضيل الذى هو أجل النعم خصوصا وربطه بالوعيد الشديد تخويفا لمن غفل عنها واخل بحقوقها وعطف على نعمتى (وأنى فضلتكم) أى آباءكم الذين كانوا فى عصر موسى صلى الله عليه وسلم وبعده قبل ان يغيروا (على العالمين) أى عالمى زمانهم بما منحهم الله من العلم والايمان والعمل وجعلهم أنبياء وملوكا مقسطين وذلك التفضيل وان كان فى حق الآباء ولكن يحصل به الشرف فى الابناء واستدل بذلك على ان الاصلح لايجب على الله لان تفضيلهم لو وجب عليه لم يجز جعله منة عليهم لان من أتى بما وجب عليه لامنة له به على احد (واتقوا) خافوا (يوما) أى مافيه من الحساب والعقاب وهو يوم القيامة (لاتجزى) أى لاتقضى (نفس عن نفس) فيه (شيأ) أى حقا لزمها (تنبيه) قول البيضاوى وايراده أى شيأ منكرا مع تنكير النفسين للتعميم والاقناط الكلى تبع فيه صاحب الكشاف وهو جار على مذهب المعتزلة من انهم ينكرون الشفاعة للعصاة وسيأتى الجواب عن مذهبهم (ولاتقبل) بالتاء على

الكعبة وفى الثالثة الحكم العربى فكان الانسب ذكرها ولقلة النوع فى الثانية بالنسبة اليه فى الثالثة زيد قبل ما فى الثانية من الدالة على التبعيض (قوله يابنى اسرائيل الى قوله شيأ) تكرر مع نظيره قبل مبالغة فى النصح اولوقوع كل منهما فى مقابلة معصية تقتضى تنبيها او وعظا (قوله للطائفين والعاكفين) قاله هنا بلفظ والعاكفين وفى الحج بلفظ والقائمين والمراد

التأنيث كما قرأ به ابن كثير وأبو عمرو بالياء على التذكير كما قرأ به الباقون (منها شفاعة) أى من
النفس الثانية لقوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) أى فداء (ولا هم ينصرون) أى يمنعون من
عذاب الله اذ الضمير فى الجملتين للنفوس العاصية ويصح رجوعه للنفس الاولى لانها المحدث
عنها فى قوله تعالى لا تجزى نفس عن نفس والثانية مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدة وتذكير
ضمير ولا هم ينصرون مع ان الضمير راجع للنفوس وكان المناسب هن بالتأنيث لانه بمعنى العباد
أو الاناس كما تقول ثلاثة انفس بالتاء مع تأنيث النفس لتأويل النفوس بالاشخاص أو الرجال
والنصرة أخص من المعونة لاختصاصه بدفع الضرر وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفى
الشفاعة لاهل الكبائر وأجاب اهل السنة عن ذلك باجوبة * منها ان الآية مخصوصة بالكفار
للآيات والاحاديث الواردة فى الشفاعة ويؤيد هذا ان الخطاب معهم وعلى هذا يمشى قول
البيضاوى المار ويكون المراد حينئذ انه ليس لها شفاعة فتقبل كما قال تعالى حكاية عنهم فما لنا
من شافعين * ومنها ان الآية نزلت ردا لما كانت اليهود تزعم ان آباءهم تشفع لهم * ومنها انها
لا تشفع الا باذن الله (و) اذكروا (اذ نجيناكم) أى آباءكم الخطاب به وبما بعده للموجودين فى
زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما أنعم على آبائهم تذكيرا لهم بنعمة الله ليؤمنوا (من آل فرعون)
أى اتباعه واهل دينه والمشهور ان اصل آل اهل لان تصغيره أهيل وقال الكسائى وغيره أصله
اول من آل يؤل اى رجع قلبت الواو الفا لتحركها وانفتاح ما قبلها وتصغيره اويل (فان قيل)
يرد الاول اختلاف أهل وآل معنى اذ الاهل القرابة والآل من يؤل اليك بقرابة او رأى أو
مذهب ولان الالف لم يثبت ابدالها من الهاء (أجيب) بأن القائل بالاول جرى على القول بأن
اللفظتين بمعنى او اراد بالاهل أحد معانى آل وابدل الواو من الهاء لتقاربهما مخرجا وخص
بالاضافة الى أولى القدر والشرف كالانبياء والملوك وانما قيل آل فرعون لتصوره بصورة
الاشراف أو لشرفه فى قومه عندهم وفرعون هو الوليد بن مصعب بن ريان وكان من القبط
من العمالقة وعمر أكثر من اربعمائة سنة (يسومونكم) يولونكم ويذيقونكم (سوء العذاب)
أى اشده والجملة حال من الضمير فى نجيناكم او من آل فرعون أو منهما جميعا لان فيها ضمير كل
واحد منهما (يذبحون ابناءكم) المولودين (ويستحيون نساءكم) اى يتركونهن احياء هذا بيان
ليسومونكم ولذلك لم يعطف وذلك ان فرعون لعنه الله رأى فى منامه كان نارا اقبلت من بيت
المقدس وأحاطت بمصر واحرقت كل قبطى بها ولم تتعرض لبنى اسرائيل فهاله ذلك وسأل
الكهنة عن رؤياه فقالوا يولد فى بنى اسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك فأمر
فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى اسرائيل وجمع القوابل فقال لهن لا يسقطن على أيديكن
غلام من بنى اسرائيل الا قتل ولا جارية الا تركت ووكل بالقوابل فكن يفعلن ذلك حتى قيل
انه قتل فى طلب موسى اثنى عشر الف صبى وقال وهب بلغنى انه ذبح فى طلب موسى تسعين الفا
قالوا وأسرع الموت فى مشيخة بنى اسرائيل فدخل رؤس القبط على فرعون وقالوا ان الموت
قد وقع فى بنى اسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك ان يقع العمل علينا فأمر
فرعون ان يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هرون فى السنة التى لا يذبحون فيها وولد موسى فى
السنة التى يذبحون فيها (وفى ذلكم بلاء) ان اشير به الى صنيعهم فهو محنة أو الى الانجاء فهو

مهما المقيمون ونحاب بينهما لتقاربا على عادة العرب من تفننهم فى الكلام (قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا) فان قلت لم نكر البلد هنا وعرفه فى ابراهيم (قلت) لان الدعوة هنا كانت قبل جعل المكان بلدا فطلب من الله أن يجعله بلدا ذا أمن فى الاول وبلدا آمنا الامن فى الثانى (قوله وابعث فيهم رسولا منهم) ذكره هنا وفى الجمعة تارك الانفس ايجازا وذكرها فى آل عمران فى قوله اذ بعث فيهم

نعمة فان البلاء يكون بمعنى الشدة وبمعنى النعمة ويجوز ان يشار بذلكم الى الامرين فالله تعالى
قد يختبر على النعمة بالشكر وعلى الشدة بالصبر قال تعالى ونبلوكم أى نختبركم بالشر والخير فتنة
(من ربكم) أى بتسليطهم عليكم أو ببعثة موسى وتوفيقه لتخليصكم أو بهما وقوله تعالى
(عظيم) صفة بلاء وفى الآية تنبيه على ان مايصيب العبد من خير أو شر اختبار من الله
تعالى فعليه ان يشكر عند مساره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين (و) اذكروا (اذ
فرقنا) فلقنا (بكم) أى بسببكم (البحر) حتى دخلتموه هاربين من عدوكم وذلك ان فرعون لما
دنا هلاكه أمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ان يسرى ببنى اسرائيل من مصر ليلا
فأمر موسى قومه ان يسرجوا فى بيوتهم السرج الى الصبح وخرج موسى فى ستمائة ألف
وعشرين ألف مقاتل لايعدون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره وكانوا يوم دخلوا
مصر مع يعقوب عليه الصلاة والسلام اثنين وسبعين انسانا مابين رجل وامرأة فساروا
وموسى على ساقتهم وهرون على مقدمتهم ثم علم بهم فرعون فجمع قومه وأمرهم ان لايخرجوا فى
طلب بنى اسرائيل حتى يصيح الديك قال ابن مسعود رضى الله عنه فوالله ماصاح ديك فى تلك
الليلة ثم خرج فرعون فى طلبهم وعلى مقدمته هامان فى ألف ألف وسبعمائة ألف وكان فيهم
سبعون ألفا من دهم الخيل سوى سائر الشيات قال محمد بن كعب وكان فى عسكر فرعون مائة
الف حصان ادهم سوى سائر الشيات وكان فرعون فى الدهم وقيل كان فرعون فى سبعة آلاف
الف وكان بين يديه مائة الف ناشب ومائة الف اصحاب حراب ومائة الف اصحاب الاعمدة
فسارت بنو اسرائيل حتى وصلوا الى البحر والماء فى غاية الزيادة ونظروا فاذا هم بفرعون حين
اشرقت الشمس فبقوا متحيرين وقالوا ياموسى كيف تصنع واين ماوعدتنا هذا فرعون خلفنا
ان ادركنا قتلنا والبحر امامنا ان دخلناه غرقنا قال الله تعالى فلما تراءى الجمعان قال اصحاب
موسى انا لمدركون قال موسى كلا ان معى ربى سيهدين فأوحى الله تعالى اليه ان اضرب بعصاك
البحر فضربه فلم يطعه فاوحى الله تعالى اليه ان كنه فضربه وقال انفلق يا ابا خالد باذن الله فانفلق
فكان كل فرق كالطود العظيم فظهر فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق وارتفع الماء بين كل
طريقين كالجبل وارسل الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا فخاضت بنو اسرائيل
البحر كل سبط فى طريق وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم بعضا فخافوا وقال كل
سبط قد قتل اخواننا فأوحى الله تعالى الى جبال الماء ان تشبكى فصارت شبكا كالطاقات يرى
بعضهم بعضا ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى (فأنجيناكم)
اى من آل فرعون (واغرقنا آل فرعون) وذلك ان فرعون لما وصل البحر فرآه منفلقا قال
لقومه انظروا الى البحر انفلق من هيبتى حتى ادرك عبيدى الذين ابقوا ادخلوا البحر فهاب قومه
ان يدخلوه وقيل قالوا له ان كنت ربا فادخل البحر كما دخل يعنى موسى وكان فرعون على حصان
ادهم ولم يكن فى خيل فرعون فرس انثى فجاء جبريل على فرس انثى فتقدمهم وخاض البحر فلما
شم ادهم فرعون ريحها اقتحم البحر فى اثرها وهم لايرونه ولا يملك فرعون من امره شيأ وهو
لايرى فرس جبريل واقتحمت الخيول خلفه فى البحر وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم
يستحثهم ويسوقهم حتى لايشذ رجل منهم ويقول لهم الحقوا بأصحابكم حتى خاضوا كلهم

لانه رسولا من أنفسهم تعالى من على المؤمنين فيما بجعله من انفسهم ليكون موجب المنة اظهر ونظيره لقد جاءكم رسول من انفسكم لما وصفه بقوله عزيز عليه ما عنتم الآية جعله من أنفسهم ليكون موجب الاجابة والايمان به أظهر (قوله فلا تموتن الا وانتم مسلمون) ان قلت ان الموت ليس فى قدرة الانسان حتى ينهى عنه (قلت) النهى فى الحقيقة انما هو عن عدم

البحر وخرج جبريل من البحر وهم أولهم بالخروج فأمر الله البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم وغرقهم أجمعين وكان بين طرفى البحر أربعة فراسخ وهو بحر قلزم طرف من بحر فارس قال قتادة بحر من وراء مصر يقال له اساف وذلك بمرأى من بنى اسرائيل فذلك قوله تعالى (وأنتم تنظرون) الى مصارعهم أو اطباق البحر عليهم او انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة أو جثثهم التى قذفها البحر الى الساحل او ينظر بعضكم بعضا واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بنى اسرائيل ومن الآيات الملجئة الى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى الكليم ثم انهم اتخذوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فهم بمعزل من الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الاتباع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع ان ما تواتر من معجزاته أمور نظرية مثل القرآن والتحدى به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم دقيقة يدركها الاذكياء (واذ واعدنا موسى) بغير ألف بين الواو والعين كما قرأبه أبو عمرو والباقون بألف بين الواو والعين لانه تعالى وعد موسى الوحى ووعد موسى ربه المجيء للميقات الى الطور وقيل هذا من المفاعلة التى تكون من الواحد كعاقبت اللص وطارقت النعل وأمال حمزة ألف موسى محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين (أربعين ليلة) ان يعطيه عند انقضائها التوراة ليتعلوا بها وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة وعبر عنها بالليالى لانها غرر الشهور وقيل لان الظلمة أقدم من الضوء وخلق الله تعالى الليل قبل النهار قال الله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وقول البيضاوى ان ذلك الوعد لما عادوا الى مصر بعد هلاك فرعون تبع فى ذلك الكشاف ولم يعرف ذلك لغيرهما وانما كانوا بالشأم لان اتيان موسى للميقات كان بطور سينا وهو بالشام لا بمصر وقد قال البهاء بن عقيل فى تفسيره لم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين بأنهم دخلوا مصر بعد خروجهم منها (فان قيل) قوله تعالى فأخرجناهم من جنات الى قوله تعالى وأورثناها بنى اسرائيل يقتضى أنهم عادوا اليها (أجيب) بان المعنى ان الله تعالى اورثهم وملكهم اياها ولم يردهم اليها وجعل مسا كنهم الشأم (ثم اتخذتم) قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم اتخذتم باظهار الذال قبل التاء والباقون بادغام الذال فى التاء (العجل) الذى صاغه لكم السامرى الها ومعبودا (من بعده) اى بعد ذهابه الى ميقاتنا وذلك ان بنى اسرائيل لما أمنوا من عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون اليها وعد الله تعالى موسى أن ينزل عليهم التوراة فقال موسى لقومه انى ذاهب لميقات ربى آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون واستخلف أخاه هرون فلما أتاه الوعد جاءه جبريل على فرس يقال له فرس الحياة لا يصيب شيأ الا حيى ليذهب بموسى الى ميقات ربه فلما رآه السامرى وكان رجلا صائغا من قبيلة يقال لها سامرة ورأى موضع قدم الفرس يخضر من ذلك وكان منافقا يظهر الاسلام وكان من قوم يعبدون البقر ألقى فى روعه انه اذا ألقى فى شئ غيره وكانت بنو اسرائيل قد استعاروا حليا كثيرا من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعمل عرس لهم فاهلك الله تعالى فرعون وقومه فبقيت تلك الحلى فى أيدى بنى اسرائيل قال السدى فامرهم هرون أن يلقوها فى حفرة حتى يرجع موسى ففعلوا فلما اجتمعت الحلى صاغها السامرى عجلا من ذهب فى ثلاثة أيام مرصعا

اسلامهم حال موتهم كقولك لا تصل الا وانت خاشع اذ النهى فيه انما هو عن ترك الخشوع حال صلاته لا عن الصلاة والنكتة فى التعبير بذلك اظهار ان موتهم لا على الاسلام موت لا خير فيه وان الصلاة التى لا خشوع فيها كلا صلاة (قوله وما انزل الينا) ان قلت لم قال هنا قولوا والينا وفى آل عمران قل وعلينا (قلت) لان الى للانتهاء وهو لا يختص بجهة والكتب منتهية الى

بالجواهر كأحسن ما يكون ثم ألقى فيه القبضة التي أخذها من تراب حافر فرس جبريل
فصار يخور ويمشي فقال السامري هذا إلهكم وإله موسى فنسي أي فتركه ههنا وخرج يطلبه
وكانت بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوما ولم
يرجع موسى وقعوا في الفتنة وقيل كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة قال تعالى
وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى في محله
فكانت فتنتهم في تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ورأوا العجل وسمعوا قول
السامري عكف منهم ثمانية آلاف رجل على العجل يعبدونه وقيل كلهم عبدوه إلا هرون مع
اثني عشر ألف رجل قال البغوي وهو الأصح وقال الحسن كلهم عبدوه إلا هرون ولذلك قال
تعالى (وأنتم ظالمون) أي باتخاذه لوضعكم العبادة في غير محلها (ثم عفونا) محونا (عنكم)
ذنوبكم حين تبتم والعفو محو الجريمة من عفا إذا درس (من بعد ذلك) أي الاتخاذ (لعلكم
تشكرون) أي لكي تشكروا إنعامنا عليكم * (تنبيه) * إنما قدرت لعل بكي أخذا مما قيل إن
لعل في القرآن بمعنى كي غير قوله تعالى في الشعراء لعلكم تخلدون فإنها بمعنى كأن أي كأنكم
تخلدون (و) اذكروا (إذ آتينا موسى الكتاب) أي التوراة وقوله تعالى (والفرقان) عطف
تفسير أي الفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام وقيل أراد بالفرقان معجزات موسى
كانفلاق البحر الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوى وبين الكفر والإيمان (لعلكم تهتدون)
أي لكي تهتدوا بتدبر الكتاب والتفكر في الآيات من الضلال (و) اذكروا (إذ قال موسى
لقومه) الذين عبدوا العجل (يا قوم إنكم ظلمتم) قرأ ورش بتغليظ اللام والباقون بالترقيق
(أنفسكم باتخاذكم العجل) إلها قالوا فأي شيء نصنع قال (فتوبوا) أي ارجعوا عن عبادة العجل
(إلى بارئكم) أي خالقكم وقرأ أبو عمرو بإسكان الهمزة وروي عن الدوري باختلاس الحركة
وروي عن السوسي إبدالها ياء ساكنة وأمال الدوري عن الكسائي الألف بعد الباء الموحدة
وإذا وقف حمزة على بارئكم سهل الهمزة بين بين قالوا كيف نتوب قال (فاقتلوا أنفسكم) أي
ليقتل منكم البريء من عبادة العجل من عبده وقيل المراد بالقتل قطع الشهوة كما قيل من
لم يعذب نفسه لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يحيها ورده جماعة بإجماع المفسرين على أن المراد
هنا القتل الحقيقي (ذلكم) أي القتل (خير لكم عند بارئكم) من حيث إنه طهرة عن الشرك
ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا نصبر لأمر الله
فجلسوا بالأفنية محتبين وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو
ملعون مردودة توبته وأصلت القوم عليهم الخناجر فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه
فلم يمكنه المضي لأمر الله فقالوا يا موسى كيف نفعل فأرسل الله عليهم ضبابة تشبه سحابة تغشى
الأرض كالدخان وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضا فكانوا يقتتلون إلى المساء فلما كثر القتل
دعا موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام وبكيا وتضرعا وقالا يا رب هلكت بنو إسرائيل
البقية البقية فكشف الله تعالى السحابة عنهم وأمرهم أن يكفوا عن القتل فكشفت عن
ألوف من القتلى روي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال عدد القتلى سبعون ألفا فاشتد ذلك
على موسى فأوحى الله تعالى إليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة فكان من قتل

المؤمنين بعد نزولها على
الأنبياء والخطاب هنا
للمؤمنين لقوله قولوا آمنا
وعلى للاستعلاء وهو مختص
بالأنبياء وأفضلهم نبينا
وهو المخاطب ثم بقوله قل
آمنا فكان الأنسب هنا
وثم ما ذكر وكرر ما أنزل
لاختلاف المنزل إلينا
والمنزل إلى إبراهيم ومن
عطف عليه (قوله وما أوتي
النبيون) ذكر ما أوتي هنا
وحذفه في آل عمران
اختصار كما هو الأنسب
بالآخر أو لأن الخطاب هنا

منهم شهيدا ومن بقي مكفرا عنه ذنوبه فذلك قوله تعالى (فتاب عليكم) أى ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم أى فتجاوز عنكم وقيل توبتكم *(تنبيه)* ذكر البارئ في قوله تعالى فتوبوا الى بارئكم وترتيب الامر بالقتل عليه اشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم الى عبادة البقر التي هي مثلهم في الغباوة وأن من لم يعرف حق منعمه حقيق بان يسترد منه ما أنعم به عليه ولذلك أمروا بفك تركيب ذواتهم بالقتل (انه هو التواب) أى الذى يكثر قبول التوبة من المذنبين (الرحيم) أى البالغ في الانعام على خلقه (واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأتيه في ناس من بني اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل فاختار موسى سبعين رجلا من خيار قومه وقال لهم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا اذلك فخرج موسى الى طور سينا لميقات ربه فقالوا لموسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال لهم افعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام فغشى الجبل كله فدخل في الغمام وقال للقوم ادنوا فدنوا حتى دخلوا في الغمام وخروا سجدا وكان موسى اذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر اليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه وأسمعهم الله تعالى انى أنا الله لا اله الا أنا أخرجتكم من أرض بيد شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل عليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة عيانا وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية فقالوا جهرة ليعلم أن المراد منه العيان روى عن السوسي امالة الالف بعد الراء في نرى وترقيق اللام من اسم الله وروى عنه تفخيم اللام مع الامالة وله وجه ثالث كالجماعة وهو عدم الامالة مع تفخيم اللام (فان قيل) كيف تمال الالف وهي تسقط عند التقاء الساكنين (أجيب) بأنه لولا امالتها ما أميلت الراء لان القارئ اذا أراد أن يميل الالف لا يتمكن من الامالة الا بامالة ما قبله (فأخذتكم الصاعقة) أى الصيحة فمتم وقيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وذلك لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فانهم ظنوا أنه تعالى يشبه الاجسام فطلبوا رؤيته رؤية الاجسام في الجهات والاحياز المقابلة للرائي وهي محال بل المراد أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية وذلك للمؤمنين في الآخرة ولافراد من الانبياء في بعض الاحوال في الدنيا (وأنتم تنظرون) أى ينظر بعضكم الى بعض حين أخذكم الموت وقيل تعلمون ويكون النظر بمعنى العلم فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرع ويقول ماذا أقول لبني اسرائيل اذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلا بعد رجل بعد ما ماتوا ليلة ينظر بعضهم الى بعض كيف يحيون كما قال تعالى (ثم بعثناكم) أى احييناكم والبعث اثارة الشئ عن محله يقال بعثت البعير فانبعث وبعثت النائم فانبعث (من بعد موتكم) بسبب الصاعقة قال قتادة أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا وقيد البعث بعد الموت لانه قد يكون عن اغماء أو نوم كقوله تعالى فضربنا على آذانهم في الكهف الى أن قال ثم بعثناهم أى من النوم (لعلكم تشكرون) نعمة البعث أو ما كفرتموه من النعم المتتابعة (وظللنا عليكم الغمام) في التيه يقيكم حر الشمس والغمام من الغم وأصله التغطية والستر سمي السحاب غماما لانه يغطي وجه الشمس وذلك انه لم يكن لهم في التيه كن يسترهم فشكوا الى موسى صلى

عام وثم خاص كأمر فكان الانسب ذكره في الاول وحذفه في الثاني (فان قلت) لم قال هنا وما أوتي موسى ولم يقل وما أنزل الى موسى كما قال قبل وما أنزل الى ابراهيم (قلت) للاحتراز عن كثرة التكرار (فان قلت) لم كرر وما أوتي هنا وحذفه في آل عمران (قلت) انما حذفه ثم للاغتناء عنه بقوله قبله لما آتيتكم من كتاب وحكمة (قوله فان آمنوا بمثل ما آمنتم به) فان قلت

الله وسلم عليه فارسل الله غماما أبيض رقيقا أطيب من غمام المطر وجعل لهم عمودا من نور يضيء
لهم بالليل اذا لم يكن قمر يسيرون في ضوئه وكانت ثيابهم لا تتسخ ولا تبلى وغلظ ورش اللام
المفتوحة بعد الظاء (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) في التيه والأكثرون على أن المن هو
الترنجبين قال مجاهد هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد وكان يقع كل ليلة على
أشجارهم مثل الثلج لكل انسان منهم صاع فقالوا يا موسى قتلنا هذا المن بحلاوته فادع لنا ربك
أن يطعمنا اللحم فانزل الله عليهم السلوى جمع سلواة وهو الطير السماني بتخفيف الميم والقصر
جمع سماناة وهو الطير المعروف وقيل هو طائر يشبهه بعث الله سحابة فمطرت السماني في عرض
ميل وطول رمح في السماء بعضه على بعض فكان الله تعالى ينزل عليهم المن والسلوى كل صباح
من طلوع الفجر الى طلوع الشمس فكان كل واحد منهم يأخذ ما يكفيه يوما وليلة واذا كان
يوم الجمعة يأخذ كل واحد منهم ما يكفيه ليومين لانه لم يكن ينزل يوم السبت وقرأ السلوى حمزة
والكسائي بالامالة محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين (فان قيل) لم قدم في
الآية المن على السلوى مع انه غذاء والمن حلواء والعادة تقديم الغذاء على الحلواء (أجيب)
بأن نزول المن من السماء أمر مخالف للعادة فقدم لاستعظامه بخلاف الطيور المأكولة وأيضا
هو مقدم في النزول عليهم (كلوا) على ارادة القول أي قلنا لهم كلوا (من طيبات) حلالات
(ما رزقناكم) ولا تدخروا لغد فكفروا النعمة وادخروا فقطع الله ذلك عنهم ودود وفسد
ما ادخروه وقوله تعالى (وما ظلمونا) أي بذلك فيه اختصار وأصله فظلموا بأن كفروا بهذه النعم
وما ظلمونا (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) لان وباله عليهم روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه
أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا بنو اسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا
حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر (واذ قلنا) لهم بعد خروجهم من التيه (ادخلوا هذه القرية) أي
بيت المقدس كما قاله مجاهد أو أريحاء بفتح الهمزة وكسر الراء وبالحاء المهملة كما قاله ابن عباس
وهي قرية الجبارين كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق قال
ابن الاثير وهي قرية بالغور قريبة من بيت المقدس وقيل البلقاء وقيل الرملة والاردن وفلسطين
وقيل الشام سميت القرية قرية لانها تجمع أهلها ومنه المقراة للحوض لانها تجمع الماء (فكلوا
منها حيث شئتم رغدا) أي واسعا لا حجر فيه (وادخلوا الباب) أي بابا من أبواب القرية وكان
لها سبعة أبواب (سجدا) أي متطامنين منحنين أو ساجدين السجود الشرعي لله شكرا على
اخراجكم من التيه (وقولوا) مسألتنا (حطة) اي ان تحط عنا خطايانا قال قتادة أمروا
بالاستغفار وقال ابن عباس بلا اله الا الله لانها تحط الذنوب وقيل معناه أمرنا حطة أي شأننا
أن نحط في هذه القرية ونقيم فيها حتى ندخل الباب سجدا مع التواضع (نغفر لكم خطاياكم)
بسجودكم ودعائكم وقرأ نافع بياء مضمومة على التذكير مع فتح الفاء وقرأ ابن عامر تغفر بتاء
مضمومة على التأنيث مع فتح الفاء أيضا وقرأ الباقون بالنون مفتوحة مع كسر الفاء وقرأ
الكسائي خطاياكم بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وسنزيد المحسنين) بالطاعة
ثوابا جعل الله تعالى امتثال قوله وقولوا حطة توبة للمسيء وسبب زيادة الثواب للمحسنين
(فان قيل) كيف عطف وسنزيد مع انه مرفوع على نغفر مع انه مجزوم جوابا للامر (أجيب)

ان أريد بما آمنتم به الله
تعالى فالله لا مثل له أو دين
الإسلام فكذلك (قلت)
القصد بالآية انما هو التعجيز
كما في قوله فأتوا بسورة من
مثله أو كلمة مثل زائدة
للتوكيد كما في قوله جزاء
سيئة بمثلها أو الباء زائدة
كما في قوله وهزي اليك بجذع
النخلة وما مصدرية والمعنى
بمثل ايمان من آمنتم به وهو
الله أو دين الاسلام (قوله
تلك امة قد خلت الآية)
ذكرها مع أن مضمونها
معلوم لكل مميز للتنبيه

انه أخرجه عن صورة الجواب الى الوعد ايماء بأن المحسن بصدد ذلك وان لم يفعله فكيف اذا فعله وانه يفعل لا محالة وسبب اخراج ما ذكر عن صورة الجواب الى الوعد أن الزيادة اذا كانت من وعد الله كانت أعظم مما اذا كانت مسببة عن فعلهم (فبدل الذين ظلموا) منهم (قولا غير الذى قيل لهم) نقالوا حبة فى شعرة ودخلوا يزحفون على استاههم مخالفة فى الفعل كما بدلوا القول روى معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لبنى اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على استاههم وقالوا حبة فى شعرة وفى رواية فى شعيرة وقوله تعالى (فأنزلنا على الذين ظلموا) فيه وضع الظاهر موضع المضمر مبالغة فى تقبيح أمرهم واشعارا بأن انزال الرجز عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به موضعه أو على أنفسهم بأنهم تركوا ما يوجب نجاتها الى ما يوجب هلاكها (رجزا) أى عذابا مقدرا (من السماء) وقيل أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم فى ساعة واحدة سبعون ألفا وقيل أربعة وعشرون ألفا (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم أى خروجهم عن الطاعة (واذ استسقى موسى) طلب السقيا (لقومه) وذلك أنهم عطشوا فى التيه فسألوا موسى أن يستسقى لهم ففعل فأوحى الله اليه كما قال (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) وكانت من آس الجنة بالمد أى شجرها وهو المرسين وروى عن ابن عباس أنها كانت من عوسج طولها عشرة أذرع على طول موسى وكان لها شعبتان تتقدان فى الظلمة نورا واسمها عليق وقال مقاتل اسمها نبعة حملها آدم من الجنة فتوارثها الانبياء حتى وصلت الى شعيب فأعطاها موسى واللام فى الحجر للعهد على ما روى أنه كان حجرا طوريا مكعبا حمله معه كان له أربعة أوجه ينبع من كل وجه ثلاثة أعين تسيل كل عين فى جدول الى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة العسكر اثنا عشر ميلا أو حجرا أهبطه آدم من الجنة ودفع الى شعيب فأعطاه لموسى مع العصا أو الحجر الذى فر بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل ومر به على ملا من بنى اسرائيل وهو حجر خفيف مربع كرأس الرجل رخام أو كذان وبرأه الله تعالى به عما رموه به من الادرة وهى بضم الهمزة كبر الانثيين فلما وقف أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله تعالى يقول ارفع هذا الحجر فلى فيه قدرة ولك فيه معجزة وللجنس قال البيضاوى وهذا أظهر فى الحجة ويدل له قول وهب لم يكن حجرا معينا بل كان موسى يضرب أى حجر كان فينفجر عيونا لكل سبط عين ثم تسيل كل عين فى جدول الى السبط الذى أمر أن يسقيهم وكان بنو اسرائيل اثنى عشر سبطا ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا الى أرض لا حجارة فيها حمل حجرا فى مخلاته وكان يضربه بعصاه اذا نزل فينفجر ويضربه بها اذا ارتحل فييبس فقالوا ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله تعالى اليه لا تقرع الحجارة وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون وقوله تعالى (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) متعلق بمحذوف أى فضربه فانفجرت أى سالت قال أبو عمرو بن العلاء انبجست عرقت وانفجرت سالت وقال عطاء كان يضرب به موسى اثنتى عشرة ضربة فيظهر على كل موضع ضربة مثل ثدى المرأة فيعرق ثم تتفجر الانهار ثم تسيل (قد علم كل أناس) أى سبط منهم (مشربهم) أى عينهم التى يشربون منها لا يدخل سبط على غيره فى شربه وقلنا لهم (كلوا واشربوا من رزق الله) أى كلوا من المن والسلوى واشربوا من الماء فهذا كله من رزق الله الذى يأتيكم بلا مشقة (ولا تعثوا) أى

على عظم العصيان واجتنابه كما ان قوله لكم دينكم ولى دين ذكر مع انه معلوم للتنبيه على ان الكفر مما يعود دبسوء العاقبة عليهم وكررها مبالغة فى النصح اولان الامة فى الاولى للانبياء وفى الثانية لاسلاف اليهود والنصارى اولان الخطاب فى الاولى لهم وفى الثانية لنا تحذيرا عن الاقتداء بهم (قوله وما جعلنا القبلة الآية) ان قلت كيف قال الا لنعلم من يتبع

لاتعتدوا (فى الارض مفسدين) أى حال افسادكم وانما قيده لانه وان غلب فى الفساد قد يكون منه ماليس بفساد كمقابلة الظالم المعتدى بفعله ومنه مايتضمن اصلاحا راجحا على الفساد كقتل الخضر الغلام وخرقه السفينة * (تنبيه) * من أنكر امثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله تعالى وقلة تدبره فى عجائب صنعه فانه لما أمكن أن يكون من الاحجار مايحلق الشعر كالنورة ويجذب الحديد كالمغناطيس وينفر الخل كالكهربان فانه اذا وضع فى اناء لايحصل الخل فى ذلك الاناء لم يمتنع أن يخلق الله حجرا يسخره لجذب الماء من تحت الارض أو لجذب الهواء من الجوانب الاربعة ويصيره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك (و) اذكروا (اذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) وذلك أنهم سئموا من أكل المن والسلوى وانما عبر عنهما بطعام واحد لعدم تبدلهما كقول العرب طعام مائدة الامير واحد يريدون أنه لايتغير ألوانه أو لان العرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من الملح دون العذب أو لانهم كانوا يعجنون المن بالسلوى فيصيران واحدا أو لانهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعام واحد أو ضرب واحد لانهما معا طعام أهل التلذذ وهم كانوا أهل فلاحة أى أهل زراعات فاشتاقوا الى أصلهم الردىء وعادتهم الخبيثة ولذا قالوا (فادع لنا ربك) أى فسل لاجلنا ربك (يخرج لنا) يظهر لنا ويوجد وجزمه بأنه جواب فادع فان دعوة موسى سبب الاجابة وقوله تعالى (مما تنبت الارض) من الاسناد المجازى واقامة القابل وهى الارض لانها قابلة للنبات مقام الفاعل ومن فى قولهم مما تنبت للتبعيض ومن فى قولهم (من بقلها) للبيان والبقل ماتنبته الارض من الخضر وهو ماليس له ساق والمراد به أطايبه التى تؤكل كالكرفس والنعناع والكراث (وقثائها وفومها) وهو الخبز كما قاله ابن عباس ومنه فوموا لنا أى اخبزوا أو الحنطة كما قاله عطاء أو الثوم كما قاله الكلبى (وعدسها وبصلها قال) أى الله أو موسى (أتستبدلون الذى هو أدنى) أى أخس وأردأ وأصل الدنو القرب فى المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد فى الشرف والرفعة فقيل بعيد الهمة بعيد المحل (بالذى هو خير) أى أشرف وهو المن والسلوى فانه خير فى اللذة والنفع وعدم الحاجة الى السعى أى أتأخذون هذا بدل هذا والهمزة للانكار فأبوا أن يرجعوا فدعا موسى ربه فقال تعالى (اهبطوا) أى انزلوا فان هبط يستعمل متعديا بنفسه كما هنا فيكون بمعنى النزول ويستعمل متعديا بمن فيكون بمعنى الخروج من مكان الى آخر مساوله أو أعلى منه (مصرا) من الامصار والمصر البلد العظيم لا لعلم بفتح اللام وقيل أراد به العلم وهى مصر موسى وفرعون قال البيضاوى ويؤيده أى القول بأن المراد بمصر العلم انه غير منون فى مصحف ابن مسعود أى وهى قراءة شاذة وانما صرفه على هذا مع أن فيه العلمية والتأنيث لسكون وسطه كما فى هند ودعد لمعادلة أحد سببى منع الصرف بخفة الاسم لسكون وسطه أو على تأويل مصر بالمكان فذكره فبقى فيه سبب واحد فانصرف (فان لكم) فيه (ما سألتم) من نبات الارض (وضربت عليهم) أى أحيطت احاطة القبة بمن ضربت عليه أو ألصقت بهم من ضرب الطين على الحائط (الذلة) اى الذل والهوان وقيل الجزية (والمسكنة) أى الفقر وسمى الفقير مسكينا لان الفقر أسكنه واقعده عن الحركة وفعل بهم ذلك مجازاة لهم على كفران النعمة ولذلك تجد اليهود فى غالب

الرسول وهو لم يزل عالما بذلك (قلت) هذا ونحوه باعتبار التعلق والمعنى ليتعلق علمنا به موجودا او المعنى ليعلم رسولنا والمؤمنون لانهم اخصاؤه أو لنميز الثابت عن المتزلزل كقوله ليميز الله الخبيث من الطيب (قوله وما كان الله ليضيع ايمانكم) كان للماضى وهو هنا للحال وتاتى فى القرآن لخمسة معان للحال ومنه ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وكان الله بما

الامر أذلاء مساكين اما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم وقيل الذلة فقر القلب فلا ترى في أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود وقرأ حمزة والكسائي عليهم بضم الهاء والميم وصلا وفي الوقف حمزة على أصله والكسائي بكسرها وأبو عمرو بكسر الهاء والميم وقفا ووصلا وباقي القراء بكسر الهاء وضم الميم وصلا وفي الوقف بكسر الهاء وسكون الميم (وباؤا) رجعوا (بغضب من الله) ولا يقال باء الا بشر وأصل البوء المساواة وقال أبو عبيدة احتملوه وأقروا به ومنه الدعاء أبوء بنعمتك وأبوء بذنبي أي أقر وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما مر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب (بأنهم) أي بسبب أنهم (كانوا يكفرون بآيات الله) بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم في التوراة ويكفرون بالانجيل والقرآن وبالمعجزات التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر واظلال الغمام وانزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر (ويقتلون النبيين بغير الحق) أي ظلما فانهم قتلوا شعياء وزكريا ويحيى وغيرهم روى ان اليهود قتلوا سبعين نبيا في أول النهار وقامت سوق بقلهم آخر النهار (فان قيل) لم قال بغير الحق وقتل النبيين لا يكون الا بغير الحق (أجيب) بأنه ذكره وصفا للقتل والقتل يوصف تارة بالحق وتارة بغير الحق وهو مثل قوله تعالى قل رب احكم بالحق ذكر الحق وصفا للحكم لان حكمه ينقسم الى الجور والحق أو انه بغير الحق عندهم اذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم (فان قيل) ان الله تعالى قد أخبر بقتل الانبياء ونصر الرسل فكيف الجمع (أجيب) بأن المحل مختلف اذ الرسول غير النبي وبأن المراد بالنصر الغلبة باظهار الحجة لا العصمة من القتل وانما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا كما أشار اليه تعالى بقوله (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أي جرهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه الى الكفر بالآيات وقتل النبيين فان صغار الذنوب أسباب تؤدي الى ارتكاب كبارها كما ان صغار الطاعات أسباب مؤدية الى تحري كبارها وكرر الاشارة للدلالة على ان ما لحقهم كما هو بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله وقيل الاشارة الى الكفر والقتل والباء بمعنى مع وعلى هذا انما جوزت الاشارة بالمفرد الى شيئين فصاعدا على تأويل ما ذكر والذي حسن ذلك ان تثنية المضمرات والمبهمات وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع وقرأ النبيئين نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على أصله في الهمز بالمد والتوسط والقصر (ان الذين آمنوا) بالانبياء من قبل (والذين هادوا) أي اليهود سموا به لقولهم انا هدنا اليك أي ملنا اليك وقيل لانهم هادوا أي تابوا من عبادة العجل وكانهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال أبو عمرو بن العلاء لانهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة ويقولون ان السموات والارض تحركت حين آتى الله موسى التوراة (والنصارى) جمع نصران كندامى والياء في نصراني للمبالغة سموا بذلك لانهم نصروا المسيح قال الحواريون نحن أنصار الله (فان قيل) هذا ليس جاريا على قواعد الاشتقاق فانه يقال للواحد ناصر وفاعل لا يجمع على فعالى (أجيب) بأن ذلك كاف في الاشتقاق وان لم يجمع المفرد على فعالى أو لانهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها على الاول أو من اسمها على الثاني (والصابئين) هم طائفة من النصارى وقيل من اليهود وقيل قوم بين النصارى والمجوس وقيل أصل دينهم دين

ويعملون بصيرا والماضي المنقطع ومنه وكان في المدينة تسعة رهط وهو الاصل في معانيها وللاستقبال ومنه يخافون يوما كان شره مستطيرا وللدوام ومنه وكان الله عليما حكيما وصار ومنه وكان من الكافرين (قوله فلنولينك قبلة ترضاها) فان قلت هذا يقتضي عدم رضا النبي صلى الله عليه وسلم بالتوجه الى بيت المقدس مع أن التوجه اليه كان بأمر الله (قلت) المراد

نوع

نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هم عبدة الملائكة أو الكواكب وقرأ نافع وحده بالياء اما لانه خفف الهمزة أو لانه من صبا اذا مال لانهم مالوا عن سائر الاديان الى دينهم أو من الحق الى الباطل والباقون بالهمزة بعد الباء الموحدة (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) أي من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه وبالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة ايمانا خالصا ودخل الاسلام دخولا صادقا (فلهم أجرهم) أي ثواب أعمالهم (عند ربهم) بأن يدخلهم الجنة (ولا خوف عليهم) في الدنيا (ولا هم يحزنون) في الآخرة أو حين يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب (تنبيه) روعي في ضمير آمن وعمل لفظ من وفيما بعده معناها ومن مبتدأ خبره فلهم أجرهم والجملة خبر ان أو بدل من اسم ان وخبرها فلهم أجرهم والفاء لتضمن المسند اليه معنى الشرط وقد منع سيبويه دخولها في خبر ان من حيث انها لا تدخل الشرطية ورد بقوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم (و) اذكروا (اذ أخذنا ميثاقكم) أي عهدكم باتباع موسى والعمل بما في التوراة (و) قد (رفعنا فوقكم الطور) أي الجبل حتى أعطيتم الميثاق روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة ورأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم لانها كانت شريعة ثقيلة وأبوا قبولها فامر الله تعالى جبريل بقلع الطور فظلله فوقهم وكان على قدر عسكرهم وكان فرسخا في فرسخ فرفعه فوق رؤسهم مقدار قامة رجل كالظلة وقال لهم ان لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم وقال عطاء عن ابن عباس رفع الله فوق رؤسهم الطور وبعث نارا من قبل وجوههم وأتاهم البحر الملح من خلفهم وقيل لهم فان قبلتم والا رضختكم بهذا الجبل أو أغرقتكم في هذا البحر أو أحرقتكم بهذه النار فلما رأوا أن لا مهرب لهم من ذلك قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصارت سنة في اليهود لا يسجدون الا على أنصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع العذاب عنا (خذوا) هو على ارادة القول أي وقلنا خذوا (ما آتيناكم) من الكتاب (بقوة) بجد وعزيمة (واذكروا ما فيه) بالعمل به أو تفكروا فيه فانه تذكر بالقلب كما ان الدرس ذكره باللسان أو ادرسوه ولا تنسوه (لعلكم تتقون) لكي تتقوا النار أو المعاصي (ثم توليتم) أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (من بعد ذلك) أي بعد أخذه (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) أي بتوفيقكم للتوبة أو بالامهال وتأخير العذاب عنكم أو بارسال محمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم الى الحق ويهديكم اليه (لكنتم من الخاسرين) أي من المغبونين بالانهماك في المعاصي أو بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة

(تنبيه) لو في الاصل لامتناع الشيء لامتناع غيره فاذا دخل على لا أفاد اثباتا وهو امتناع الشيء لثبوت غيره والاسم الواقع بعده عند سيبويه مبتدأ خبره واجب الحذف لدلالة الكلام عليه وسد الجواب مسده وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف (ولقد علمتم) اللام موطئة للقسم أي عرفتم (الذين اعتدوا) تجاوزوا الحد (منكم في السبت) بصيد السمك وذلك انهم كانوا زمن داود عليه الصلاة والسلام بأرض يقال لها ايلة حرم الله تعالى عليهم صيد السمك يوم السبت فكان اذا دخل السبت لم يبق حوت في البحر الا حضر هنالك وأخرج خرطومه حتى لا يرى الماء من كثرتها فاذا مضى تفرقت ولزمت قعر البحر فذلك قوله تعالى اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم

بالرضا هنا رضا المحبة بالطبع لا رضا التسليم والانقياد لامر الله (قوله فول وجهك شطر المسجد الحرام) كرر ثلاث مرات لان الاول في المسجد الحرام والثاني خارجه والثالث خارج البلد وعليها ينزل قوله قبل كل منها ومن حيث خرجت (قوله وما أنت بتابع قبلتهم) أي اليهود والنصارى ولكل منهما قبلة لكن لما كانت

شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ثم ان الشيطان وسوس اليهم وقال انما نهيتم عن أخذها يوم السبت فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا منه اليها الانهار فاذا كان عشية الجمعة فتحوا تلك الانهار فأقبل الموج بالحيتان الى الحياض فلا تقدر على الخروج لبعد عمقها وقلة مائها فاذا كان يوم الاحد أخذوها فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم ففعلوا ذلك زمانا ولم تنزل عليهم عقوبة فتجرؤا على الذنب وقالوا ما نرى السبت الا قد أحل لنا فاكلوا وملحوا وباعوا فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحوا من سبعين ألفا ثلاثة أصناف صنف أمسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه وصنف انتهك الحرمة وكان الناهون اثنى عشر ألفا فلما أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا والله لا نساكنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بجدار (فقلنا لهم) لاصرارهم على المعصية (كونوا قردة خاسئين) أى مبعدين فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا بابهم فلما أبطؤا تسوروا على الحائط فاذا هم جميعا قردة لها اذناب يتعاوون قال قتادة صار الشبان قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يمكث ممسوخ فوق ثلاثة أيام ولم يتوالدوا وقال مجاهد ما مسخت صورتهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار كما فى قوله تعالى كمثل الحمار يحمل أسفارا رواه عنه ابن جرير ورده وقال انه مخالف لظاهر القرآن والاحاديث والآثار واجماع المفسرين وقوله تعالى كونوا ليس بأمر اذ لا قدرة لهم عليه وانما المراد به سرعة التكوين وانهم صاروا كذلك كما أراد بهم (فجعلناها) أى تلك العقوبة (نكالا) أى عبرة تنكل المعتبر بها أى تمنعه من ارتكاب مثل ما عملوا ومنه النكول عن اليمين وهو الامتناع (لما بين يديها وما خلفها) أى للامم التى فى زمانها او بعدها أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها أو لاهل تلك القرية وما حواليها أو لاجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها (وموعظة للمتقين) الله من قومهم أو لكل متق سمعها وخصوا بالذكر لانهم المنتفعون بها بخلاف غيرهم (و) اذكر (اذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم) قرأ أبو عمرو بسكون الراء وروى عن الدورى اختلاس الحركة والباقون بالحركة الكاملة والحركة ضمة (أن تذبحوا بقرة) أول هذه القصة قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وانما فكت عنه وقدمت عليه لاستقلاله بنوع آخر من مساويهم وهو الاستهزاء بالامر والاستقصاء فى السؤال وترك المسارعة الى الامتثال وقصته أنه كان فيهم رجل غنى وله ابن عم فقير لا وارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله الى قرية اخرى فألقاه ببابها ثم أصبح يطلب ديته وجاء بناس الى موسى يدعى عليهم القتل فسألهم فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى قال الكلبى وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة فسألوا موسى ايدعو الله ليبين لهم بدعائه فدعا فأمرهم الله تعالى بذبح بقرة ويضربوا القتيل ببعضها فيحيا فيخبر بقاتله فقال موسى ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة (قالوا أتتخذنا هزوا) أى أتستهزئ بنا نحن نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح بقرة وانما قالوا ذلك استبعادا لما قاله واستخفافا به قرأ حمزة بسكون الزاى فى الوصل واذا وقف قال هزا بنصب الزاى من غير همز وروى عنه الادغام وهو أن يشدد الزاى وقرأ حفص هزوا بضم الزاى بعدها واو مفتوحة وقفا ووصلا والباقون بضم الزاى بعدها همزة مفتوحة (قال أعوذ) أى امتنع

القبلتان باطلتين كانتا فى حكم البطلان واحدة فلهذا قال قبلتهم (قوله فلا تكونن من الممترين) قال فى الانعام مثله وفى آل عمران فلا تكن من الممترين بغير نون التوكيد لان ما فى آل عمران جاء على الاصل ولم يكن فيها ما اقتضى ادخال نون التوكيد بخلاف ما هنا فان قبله التوكيد بان فى قوله انه منزل فناسب التوكيد فيهما بالنون (قوله لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم)

(بالله)

(بالله) من (أن أكون من الجاهلين) لان الهزء في مثل ذلك جهل وسفه نفى عن نفسه مارمى
به على طريقة البرهان وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعا له فلما علم القوم أن ذبح
البقرة عزم من الله استوصفوه ولو انهم عمدوا الى أدنى بقرة فذبحوها لاجزأت عنهم ولكنهم
شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وكان تحته حكمة وذلك أنه كان في بني اسرائيل رجل
صالح له ابن طفل وله عجلة أتى بها الى غيضة وقال اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى
يكبر ومات الرجل فصارت العجلة في الغيضة عوانا وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر
الابن كان بارا بوالدته فكان يقسم الليل أثلاثا يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه
ثلثا فاذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق
بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى والدته ثلثه فقالت له أمه يوما ان أباك ورثك عجلة استودعها الله في
غيضة كذا فانطلق وادع الله اله ابراهيم واسمعيل واسحق أن يردها عليك وعلامتها انك اذا
نظرت اليها يخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تلك البقرة تسمى الذهبية
لحسنها وصفرتها فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال أعزم عليك باله ابراهيم
واسمعيل واسحق ويعقوب فأقبلت تسعى اليه حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها يقودها
فتكلمت البقرة باذن الله وقالت أيها الفتى البار بوالدته اركبنى فان ذلك أهون عليك فقال
الفتى ان أمى لم تأمرنى بذلك ولكن قالت خذ بعنقها فقالت البقرة باله بنى اسرائيل لو ركبتنى
ما كنت تقدر علىّ أبدا فانطلق فانك لو أمرت الجبل أن ينقطع من أصله وينطلق معك لفعل
لبرك بأمك فسار الفتى بها الى أمه فقالت له انك فقير لا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار
والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة فقال بكم أبيعها قالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير
مشورتى وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير فانطلق بها الى السوق فبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته
وليختبر الفتى كيف بره بوالدته وكان الله به خبيرا فقال الملك له بكم تبيع هذه البقرة فقال
بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا والدتى فقال الملك لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك فقال
الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهبا لم آخذه الا برضا أمى فردها الى أمه وأخبرها بالثمن فقالت ارجع
فبعها بستة دنانير على رضا منى فانطلق بها الى السوق وأتى الملك فقال استأمرت أمك فقال
الفتى انها أمرتنى أن لا أنقصها عن ستة دنانير على ان استأمرها فقال الملك انى أعطيك اثنى
عشر دينارا على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع الى أمه وأخبرها بذلك فقالت ان الذى
يأتيك ملك في صورة آدمى ليختبرك فاذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا نفعل
فقال الملك له اذهب الى أمك وقل لها أمسكى هذه البقرة فان موسى بن عمران يشتريها منك
لقتيل يقتل في بنى اسرائيل فلا تبيعوها الا بملء مسكها أى جلدها ذهبا دنانير فأمسكوها
وقدر الله تعالى على بنى اسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفونها حتى وصف
لهم تلك البقرة مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه تعالى ورحمة فذلك قوله عز وجل (قالوا ادع
لنا ربك يبين لنا ما هى) أى ما سنها وكان من حقهم أن يقولوا أى بقرة هى او كيف هى لان لفظ
ما يسأل به عن الجنس غالبا لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حال لم يوجد بها شئ من جنسه أجروه
مجرى ما لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله (قال) موسى (انه) اى ربى (يقول انها بقرة لا فارض)

(ان قلت) كيف يكون للظالمين من اليهود أو غيرهم حجة على المؤمنين (قلت) حجتهم قولهم ما تحول محمد عن الكعبة الا انه بدا له الرجوع الى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع الى دينهم وهذا باطل وانما سمى حجة كقوله حجتهم داحضة اشبهه لها صورة فالمعنى الا ان لا يقولوا ظلما و باطلا كقولك لرجل مالك عندى حق الا ان تقول تظلم اى الا ان تقول

اى مسنة وسميت فارضا لانها فرضت سنها اى قطعته وبلغت آخره (ولا بكر) اى صغيرة (عوان) اى نصف اى وسط قال الشاعر * نواعم بين أبكار وعون * جمع عوان (بين ذلك) اى بين ما ذكر من الفارض والبكر (فان قيل) بين يقتضى شيئين فصاعدا فمن أين جاز دخوله على ذلك (أجيب) بانه فى معنى شيئين حيث وقع مشارا به الى ما ذكر كما تقرر وعود هذه الكنايات واجراء تلك الصفات على بقرة يدل على أن المراد بها معينة ويلزمه تأخير البيان عن وقت الخطاب بالامر ومن أنكر ذلك زعم أن المراد بها بقرة من جانب البقر غير مخصوصة ثم انقلبت مخصوصة بسؤالهم ويلزمه النسخ قبل الفعل فان التخصيص ابطال التخيير الثابت بالنص والحق جواز تأخير البيان عن الوقت المذكور والنسخ قبل الفعل ويؤيد الرأى الثانى ظاهر اللفظ والمروى عنه عليه الصلاة والسلام لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لاجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وتقريعهم بالتمادى وزجرهم عن المراجعة بقوله (فافعلوا ما تؤمرون) به من ذبحها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال) موسى (انه) اى ربى (يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) أى شديد الصفرة ولذلك تؤكد به الصفرة فيقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وعن الحسن سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى جمالات صفر قال البيضاوى ولعله عبر بالصفرة عن السواد لانه من مقدماته قال البغوى والاول أصح لانه لا يقال أسود فاقع انما يقال أصفر فاقع وأسود حالك وأخضر ناصع (تسر الناظرين) اليها اى يعجبهم حسنها وصفاء لونها والسرور أصله لذة فى القلب عند حصول نفع او توقعه (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) اى أسائمة أم عاملة وعلى هذا فليس تكرارا للسؤال الاول (ان البقر) اى جنسه المنعوت كما ذكر (تشابه) اى التبس واشتبه أمره (علينا) لكثرته فلم يهتدوا الى المقصود * (تنبيه) * لم يقل تشابهت علينا لان المراد الجنس كما مر او لتذكير لفظ البقر كقوله تعالى أعجاز نخل منقعر (وانا ان شاء الله لمهتدون) الى وصفها وفى الحديث لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد واحتج به أصحابنا على أن الحوادث بارادة الله تعالى وان الامر قد ينفك عن الارادة والا لم يكن للشرط بعد الامر معنى والمعتزلة والكرامية على حدوث الارادة لانها وقعت شرطا والشرط أمر يحدث فى المستقبل (وأجيب) بأن تعليق الاهتداء بالمشيئة التى هى الارادة باعتبار تعلق المشيئة بالاهتداء وهذا التعلق هو الحادث ولا يلزم من ذلك قيام الحوادث به تعالى لان التعلق أمر اعتبارى (قال) موسى (انه) اى ربى (يقول انها بقرة لا ذلول) اى غير مذللة بالعمل (تثير الارض) اى تقلبها للزراعة والجملة صفة ذلول داخلة فى النفى (ولا تسقى الحرث) اى الارض المهيأة للزراعة ولا الثانية مزيدة لتأكيد الاولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قال لا ذلول مثيرة وساقية (مسلمة) من العيوب وآثار العمل (لا شية) اى لا لون (فيها) سوى لون جميع جلدها قال مجاهد لا بياض فيها ولا سواد (قالوا الآن جئت) اى نطقت (بالحق) اى بالبيان التام الشافى الذى لا اشكال فيه فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار بأمه فاشتروها بملء مسكها أى جلدها ذهبا كما قاله الملك وقوله تعالى (فذبحوها) فيه اختصار والتقدير فحصلوا البقرة المنعوتة فذبحوها (وما كادوا) أى ما قاربوا (يفعلون) لتطويلهم وكثرة مراجعتهم أو لخوف الفضيحة فى ظهور

الباطل (قوله ولا تم نعمتى عليكم) عطف على لئلا يكون (قوله واشكروا لى ولا تكفرون) ان قلت ما فائدة ذكر الثانى مع ان الاول يقتضيه (قلت) لا نسلم انه يقتضيه لان المراد بالكفر ستر النعمة والشكر لا يقتضى عدمه (قوله الا الذين تابوا وأصلحوا) ترك من بعد ذلك هنا وذكره فى آل عمران لانه لو ذكره هنا مع قوله قبله من بعد ما بيناه لالتبس او تكرر (قوله

القاتل أولغلاء ثمنها ولا ينافي قوله وما كادوا يفعلون قوله فذبحوها لاختلاف وقتيهما اذ المعنى ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتهم وانقطعت تعللاتهم ففعلوا كالمضطر الملجأ الى الفعل (واذ قتلتم نفسا) خطاب للجمع لوجود القتل فيهم (فادارأتم) فيه ادغام التاء في الاصل في الدال أي تخاصمتم وتدافعتم (فيها) اى في شأنها اذ المتخاصمان يدفع بعضهم بعضا أو تدافعتم بان طرح كل قتلها عن نفسه الى صاحبه (والله مخرج) أي مظهر (ما كنتم تكتمون) فان القاتل كان يكتم القتل وقوله تعالى (فقلنا اضربوه) أي القتيل عطف على اذا رأتم وما بينهما اعتراض والضمير للنفس وتذكير الضمير على تأويل الشخص أو القتيل (ببعضها) اى ببعض البقرة واختلفوا في ذلك البعض فقال ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر المفسرين ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف وهو مالان من العظام وقال مجاهد وسعيد بن جبير بعجب الذنب لانه أول ما يخلق وآخر ما يبلى ويركب عليه الخلق وقال الضحاك بلسانها قال الحسين ابن الفضل لانه آلة الكلام وقال عكرمة والكلبي بفخذها الايمن وقيل ببعض منها لا بعينه ففعلوا ذلك فقام القتيل حيا باذن الله تعالى وأوداجه تشخب دما وقال قتلني فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله الميراث وقتل وفي الخبر ما ورث قاتل بعد صاحب البقرة وفيه اضمار تقديره فضرب فحيي قال تعالى (كذلك) الاحياء (يحيي الله الموتى) والخطاب مع من حضر حياة القتيل او نزول الآية (ويريكم آياته) دلائل قدرته (لعلكم تعقلون) لكي يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر على احياء نفس قدر على احياء الانفس كلها فتؤمنون قال البيضاوي ولعله تعالى انما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل اى توكل ابي اليتيم والشفقة على الاولاد وأن من حق الطالب أن يقدم قربة والمتقرب أن يتحرى الاحسن ويغالي بثمنه كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ضحى بنجيبة اي من الابل بثلثمائة دينار وان المؤثر في الحقيقة هو الله تعالى اذ لا يتصور حياة ميت من غيره تعالى والاسباب أمارات لا أثر لها وان من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في اماتته الموت الحقيقي فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها أثر الصبا اى عدم التكليف وهو نظير لا بكر ولم يلحقها ضعف الكبر أي وهو نظير لا فارض وكانت معجبة رائقة المنظر أي وهو نظير تسر الناظرين غير مذللة في طلب الدنيا أي وهو نظير لا ذلول تثير الارض مسلمة من دنسها لا شية أي لا علامة بها من قبائحها بحيث يصل أثره أي الذبح الى نفسه فتحيا حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع اى لان العقل يأمر بالخير والوهم يأمر بالشهوات (ثم قست قلوبكم) أيها اليهود اى ضلت عن قبول الحق لان القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة كما في الحجر وقساوة القلب مثل في بعده عن الاعتبار وثم لاستبعاد القسوة عن الاحياء لا للتراخي في الزمان بل للاستبعاد مجازا لقرينة ما قبلها بمعنى أنه يبعد من العاقل قسوة القلب بعد ظهور تلك الآية العظيمة (من بعد ذلك) المذكور من احياء القتيل وما قبله من الآيات فان ذلك مما يوجب لين القلب (فهي كالحجارة) في قسوتها قرأ قالون وابو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها (أو أشد قسوة) من الحجارة وقيل او بمعنى الواو

والناس أجمعين) ان قلت كيف قاله وأهل دين من مات كافرا لا يلعنونه (قلت) المراد بالناس المؤمنون أو هم وغيرهم وأهل دينه يلعنونه في الآخرة قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وقال كلما دخلت أمة لعنت أختها (قوله وإلهكم إله واحد) ان قلت ما فائدة ذكر إله مع ان واحد يغني عنه (قلت) فائدته التصريح بانفراده

كقوله تعالى مائة ألف او يزيدون وانما لم يشبهها بالحديد مع انه أصلب من الحجارة لان
الحديد قابل للين فانه يلين بالنار وقد لان لداود عليه الصلاة والسلام والحجارة لا تلين قط ثم فضل
الحجارة على القلب القاسي فقال (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار) أي من بعض الحجارة
وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى للاسباط (وان منها لما يشقق) فيه ادغام التاء في
الاصل في الشين (فيخرج منه الماء) اى عيونا دون الانهار (وان منها لما يهبط) أن ينزل من
أعلى الجبل الى أسفله (من خشية الله) وقلوبكم لا تتأثر ولا تلين ولا تخشع يا معشر اليهود
(فان قيل) الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى (أجيب) بان الله يفهمه ويلهمه فيخشى بالهامه
قال البغوي ومذهب أهل السنة أن لله تعالى علما في الجمادات وسائر الحيوانات سوى
العقلاء لا يقف عليه غيره فلها صلاة وتسبيح كما قال جل ذكره وان من شئ الا يسبح بحمده
وقال تعالى والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه وقال تعالى ألم تر أن الله يسجد له من في
السموات ومن في الارض والشمس والقمر الآية فيجب على المرء الايمان به ويكل علمه الى
الله سبحانه وتعالى روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على ثبير والكفار يطلبونه فقال
الجبل انزل عني فاني أخاف أن تؤخذ على فيعاقبني الله بذلك فقال له جبل حراء الي الي يا رسول
الله وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لاعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن
أبعث وانى لاعرفه الآن وروى عن على أنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة
فخرجنا في نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجر ولا جبل الا قال السلام عليك
يا رسول الله وروى عن جابر أنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا خطب استند الى جذع
نخلة من سوارى المسجد فلما صنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية وحنت كحنين
الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتنقها فسكنت وقال
مجاهد لا ينزل حجر من أعلى الى أسفل الا من خشية الله ويشهد لذلك قوله تعالى لو أنزلنا هذا
القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله (وما الله بغافل) أي بساه (عما
تعملون) وعيد وتهديد وقيل بتارك عقوبة ما تعملون بل يجازيكم به وقرأ ابن كثير بالياء على
الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (أفتطمعون) أي أفترجون أيها المؤمنون (أن يؤمنوا)
اى اليهود (لكم) اى لاجل دعوتكم او يصدقوكم بما تخبرونهم به (وقد كان فريق) اى
طائفة (منهم) اى احبارهم (يسمعون كلام الله) اى التوراة (ثم يحرفونه) يغيرونه كنعت
محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وقيل هؤلاء من السبعين المختارين الذين سمعوا كلام الله
حين كلم موسى عليه الصلاة والسلام بالطور ثم قالوا سمعنا الله يقول في آخره ان استطعتم أن
تفعلوا هذه الاشياء فافعلوا وان شئتم فلا تفعلوا (من بعد ما عقلوه) اى فهموه بعقولهم ولم
يبق لهم فيه ريبة (وهم يعلمون) أنهم مفترون والهمزة للانكار اى لا تطمعوا في ايمانهم فلهم
سابقة في الكفر (واذا لقوا) اى منافقو اليهود (الذين آمنوا قالوا آمنا) بأنكم على الحق
وأن رسولكم هو المبشر به في التوراة (واذا خلا) اى رجع (بعضهم الى بعض قالوا) اى
رؤساؤهم الذين لم ينافقوا ككعب بن الاشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا لمن نافق
(أتحدثونهم) اى المؤمنين (بما فتح الله عليكم) بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله

وان بالالهية المقصودة كما تضمن
تضمنه قوله واحد وبصفات
انفراده بالقدم وبعدم التركيب
ذاته وبعدم (قوله ان في خلق السموات
والارض) خصهما بالذكر
لانهما اعظم المخلوقات
وجمع السماء دون الارض
للانتفاع بجميع آحادها
باعتبار ما فيها من نور
وكواكب وغيره بخلاف
الارض انما ينتفع بواحدة
من آحادها وهي ما نشاهده
منها (قوله ما ألفينا عليه
آباءنا) ... وجدنا

عليه

عليه وسلم (ليحاجوكم) اى ليخاصموكم (به عند ربكم) اى بما انزل ربكم فى كتابه ويقيموا عليكم الحجة فى ترك اتباعه مع علمكم بصدقه جعلوا محاجتهم بكتاب الله محاجة عند الله كما يقال عند الله كذا ويراد به أنه فى كتابه وحكمه وقيل بين يدى رسول ربكم وقيل عند ربكم فى الآخرة وقوله تعالى (افلا تعقلون) اما من تمام كلام اللائمين وهم خلص اليهود وتقديره أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم فيحجونكم واما من خطاب الله للمؤمنين متصل بقوله تعالى أفتطمعون والمعنى أفلا تعقلون حالهم وانه لامطمع لكم فى ايمانهم (اولا يعلمون) اى اللائمون او المنافقون أو كلاهما (ان الله يعلم مايسرون ومايعلنون) من اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان واخفاء مافتح الله عليهم واظهار غيره وغير ذلك فيرعووا عن ذلك (ومنهم) اى اليهود (أميون) اى عوام جهلة (لايعلمون الكتاب) اى لايعرفون التوراة والكتابة فيطالعوا التوراة ويتحققوا مافيها وقوله تعالى (الا أمانى) استثناء منقطع اى لكن أكاذيب تلقوها من رؤسا ثم فاعتمدوها (وان هم) أى ماهم (الا) قوم (يظنون) ظنا لاعلم لهم وقد يطلق الظن بازاء العلم على كل رأى واعتقاد من غير قاطع وان جزم به صاحبه كاعتقاد المقلد وكالزائغ عن الحق بسبب شبهة قامت عنده (فويل) أى واد فى جهنم كما رواه الترمذى قال سعيد بن المسيب لوسيرت فيه جبال الدنيا لانماعت من شدة حره وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو شدة العذاب (للذين يكتبون الكتاب) اى المحرف من التأويلات الزائغة وقوله تعالى (بأيديهم) تأكيد كقولك كتبته بيمينى (ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) من الدنيا وهم اليهود غيروا صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة وآية الرجم وغيرها وكتبوها على خلاف ما أنزل الله فكانت صفته صلى الله عليه وسلم فى التوراة أكحل العينين ربعة جعد الشعر حسن الوجه فكتبوها طويلا أزرق العينين سبط الشعر وغيروا آية الرجم بالجلد والتحميم اى تسويد الوجه (فويل لهم مما كتبت ايديهم) من المحرف (وويل لهم مما يكسبون) من الرشا (وقالوا) اى اليهود لما وعدهم النبى صلى الله عليه وسلم النار (لن تمسنا) أى تصيبنا (النار الا اياما معدودة) محصورة قليلة روى ان بعضهم قالوا نعذب بعدد أيام عبادتنا العجل أربعين يوما وبعضهم قالوا مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب مكان كل ألف سنة يوما واحدا ثم ينقطع العذاب بعد سبعة أيام (فان قيل) لم وصف الايام مع انها جمع بالمفرد (أجيب) بانها فى معنى الجماعة فتكون مفردا تقديرا ولان جمع القلة كما قاله الرضى فى حكم المفرد فيوصف بالمفرد كما هنا ويوصف المفرد به كما فى قوله تعالى نطفة أمشاج وقيل الامشاج مفرد وعلى هذا فلا اشكال ثم كذبهم الله تعالى بقوله (قل) لهم يامحمد (أتخذتم) حذف منه همزة الوصل استغناء بهمزة الاستفهام وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم باظهار الذال عند التاء والباقون بالادغام (عند الله عهدا) اى ميثاقا منه بذلك وقوله تعالى (فلن يخلف الله عهده) جواب شرط مقدر اى ان اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده وفيه دليل على أن الخلف فى خبر الله تعالى محال (ام تقولون على الله مالا تعلمون) ام اما منقطعة بمعنى بل أتقولون على التقرير والتقريع واما معادلة بهمزة الاستفهام بمعنى اى الامرين كائن على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدهما وقوله تعالى (بلى)

و فى المائدة وفى لقمان وجدنا لان ألفى يتعدى الى مفعولين دائما ووجد يتعدى اليهما تارة والى واحد أخرى كقولك وجدت الضالة فهو مشترك وألفى خاص فكان الموضع الاول أنسب به (قوله أولو كان آباؤهم لا يعقلون) ان قلت لم قال هنا لايعقلون وفى المائدة لايعلمون (قلت) لان العلم أبلغ درجة من العقل بدليل وصف الله به دون العقل ودعواهم ثم أبلغ

اثبات لما نفوه من مساس النار لهم فان بلى و بل حرفا استدراك ومعناهما فى الخبر الماضى
واثبات الخبر المستقبل أى بل تمسكم وتخلدون فيها (من كسب سيئة) أى قبيحة (وأحاطت به
خطيئته) وقرأ نافع وحده خطيئاته بالجمع أى استولت عليه وشملت جميع أحواله حتى صار
كالمحاط بها لا يخلو عنها شئ من جوانبه وهذا انما يصح فى شأن الكافر لان غيره وان لم يكن له
سوى تصديق قلبه واقرار لسانه لم تحط الخطيئة به ولذلك فسرها السلف بالكفر وقيل
السيئة الكبيرة والاحاطة أن يصر عليها لان من أذنب ذنبا ولم يقلع عنه استجره الى معاودة
مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه حتى تستولى عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه
فيصير بطبعه مائلا الى المعاصى مستحسنا اياها معتقدا أن لا لذة سواها مبغضا لمن يمنعه عنها
مكذبا لمن ينصحه فيها كما قال تعالى ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى ان كذبوا بآيات الله
الآية والفرق بين السيئة والخطيئة ان السيئة قد تقال فيما يقصد بالذات والخطيئة تغلب
فيما يقصد بالعرض لانها من الخطأ والكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على التهكم
كقوله تعالى فبشره بعذاب أليم (فأولئك أصحاب النار) أى ملازموها فى الآخرة كما أنهم
ملازمو أسبابها فى الدنيا (هم فيها خالدون) أى دائمون روعى فيه معنى من والآية كما ترى
لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة لانها فى الكافر كما مر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات
أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده
لترجى رحمته ويخشى عذابه * (تنبيه) * عطف العمل على الايمان يدل على خروجه عن مسماه
(و) اذكر (اذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) فى التوراة وقلنا لهم (لا تعبدون الا الله) هذا
اخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد وهو أبلغ من صريح النهى لما
فيه من ايهام ان المنهى سارع الى الانتهاء فهو يخبر عنه وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى
بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وبالوالدين احسانا) أى برا بهما وعطفا عليهما
ونزولا عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى قال البيضاوى وهذا متعلق بمضمر تقديره
وتحسنون أو أحسنوا انتهى ويلزمه ان احسانا فى الآية منصوب على المصدر المؤكد لعامله
المحذوف مع ان حذف عامل المؤكد ممنوع أو نادر وقوله تعالى (وذى القربى) أى القرابة
(واليتامى والمساكين) عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم وهو الطفل الذى لا أب له كنديم
وندامى وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كأن الفقر أسكنه (وقولوا للناس حسنا) من
الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم والرفق بهم وقيل
هو اللين فى القول والمعاشرة بحسن الخلق وقرأ حمزة والكسائى بفتح الحاء والسين والباقون
بضم الحاء وسكون السين مصدر وصف به مبالغة (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) قال
البيضاوى يريد أى الله بهما ما فرض عليهم فى ملتهم (ثم توليتم) فى هذا التفات عن الغيبة قال
البيضاوى ولعل الخطاب مع الموجودين منهم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قبلهم
على التغليب اى أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه (الا قليلا منكم) اى وهو من أقام اليهودية
على وجهها قبل النسخ ومن أسلم منهم (وأنتم) قوم (معرضون) اى عادتكم الاعراض عن
المواثيق والتولية كاعراض آبائكم (و) اذكروا (اذ أخذنا ميثاقكم) وقلنا (لا تسفكون

دماءكم)

من ههنا قوله ثم حسبنا
ما وجدنا عليه آباءنا
وههنا بل نتبع ما ألفينا
عليه آباءنا فكان الانسب
فى كل بما يناسبه (قوله
ومثل الذين كفروا كمثل
الذى ينعق) ظاهره تشبيه
الكفار بالراعى وليس
مرادا (فان قلت) فما
وجهه (قلت) فيه اضمار
تقديره ومثل واعظ الذين
كفروا كمثل الراعى
أو لا اضمار أو ومثل الذين
كفروا كمثل بهائم الراعى
أو ومثل الذين كفروا

دماءكم) اى تريقونها بقتل بعضكم بعضا (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) اى لا يخرج بعضكم بعضا من داره وانما جعل غير الرجل نفسه لاتصاله به نسبا أو دينا وقيل لا تفعلوا ما يرديكم ويصرفكم عن الحياة الابدية فانه القتل فى الحقيقة ولا تقترفوا ما تمنعون به عن الجنة التى هى داركم فانه الجلاء الحقيقى (ثم اقررتم) بهذا العهد أنه حق وقبلتم (وانتم تشهدون) على أنفسكم هذا توكيد كقولك أقر فلان شاهدا على نفسه وقيل انتم أيها الموجودون تشهدون على اقرار أسلافكم فيكون اسناد الاقرار اليهم مجازا (ثم انتم يا (هؤلاء تقتلون انفسكم) فيه استبعاد لما ارتكبوه بعد الميثاق والاقرار والشهادة عليه اى ثم بعد ذلك يقتل بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الظاء والباقون بتشديدها اى تتعاونون (عليهم بالاثم) اى المعصية (والعدوان) اى الظلم (وان يأتوكم أسارى) قرأ حمزة بفتح الهمزة وسكون السين ولا ألف بعد السين والباقون بضم الهمزة وفتح السين وألف بعدها (تفدوهم) قرأ عاصم والكسائى بضم التاء وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح التاء وسكون الفاء ولا ألف بعدها اى تنقذوهم من الاسر بالمال اوغيره وقوله تعالى (وهو) اى الشأن (محرم عليكم اخراجهم) متعلق بقوله تعالى وتخرجون فريقا منكم من ديارهم وما بينهما اعتراض ومعنى الآية قال السدى ان الله أخذ على بنى اسرائيل فى التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم وأيما عبد او أمة وجدتموه فى بنى اسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه وكانت قريظة حالفوا الاوس وحالفت النضير الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه ويخرب ديارهم ويخرجهم فاذا أسروا فدوهم وكانوا اذا سئلوا لم تقاتلونهم وتفدونهم قالوا امرنا بالفداء فيقال فلم تقاتلونهم فيقولون حياء ان يستذل حلفاؤنا فعيرهم الله تعالى بقوله (افتؤمنون ببعض الكتاب) وهو الفداء (وتكفرون ببعض) وهو ترك القتل والاخراج والمظاهرة (فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى) اى هوان وعذاب (فى الحياة الدنيا) فكان خزى قريظة القتل والسبى وخزى بنى النضير الجلاء والنفى عن منازلهم الى اذرعات واريحا من الشام (ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب) اى عذاب جهنم وانما رد من فعل منهم ذلك الى أشد العذاب لان عصيانه اشد (وما الله بغافل عما تعملون) قرأ نافع وابن كثير وشعبة بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (اولئك الذين اشتروا) اى استبدلوا (الحياة الدنيا بالآخرة) بأن آثروها عليها (فلا يخفف عنهم العذاب) فى الدنيا بنقصان الجزية والتعذيب فى الآخرة (ولاهم ينصرون) اى يدفعها عنهم (ولقد آتينا) اى اعطينا (موسى الكتاب) اى التوراة جملة واحدة (وقفينا من بعده بالرسل) اى اتبعناهم رسولا فى اثر رسول كقوله تعالى ثم ارسلنا رسلنا تترى يقال قفاه اذا اتبعه اياه (وآتينا عيسى بن مريم البينات) اى المعجزات الواضحات كاحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص والاخبار بالمغيبات او الانجيل وعيسى بالعبرانية ايشوع ومريم بمعنى الخادم (وايدناه) اى قويناه (بروح القدس) قرأ ابن كثير باسكان الدال حيث جاء والباقون بضمها وهذا من اضافة الموصوف الى الصفة اى الروح المقدسة وهو جبريل وصف به لطهارته

في دعائهم الاصنام كمثل الراعى (قوله وما أهل به لغير الله) قدم به هنا وأخره فى المائدة والانعام والنحل لان الباء للتعدية كالهمزة والتشديد فهى كالجزء من الفعل فكان الموضع الاول أولى بها او بدخولها وأخر فى بقية المواضع نظرا للمقصود فيها من ذكر المستنكر وهو الذبح لغير الله والحصر بانما فى المحرمات هنا متروك الظاهر لما زاد فى المائدة من المنخنقة والموقوذة

وتأييده به ان امر ان يسير معه حيث سار حتى يصعد به الى السماء وقيل روح عيسى عليه الصلاة والسلام ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان اولانه لم تضمه الاصلاب والارحام الطوامث اى الحيض وقيل اسم الله الاعظم الذى كان يحيي به الموتى ولما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام قالوا يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما تقص علينا من الانبياء فعلت فاتنا بما أتى به عيسى ان كنت صادقا فقال الله تعالى (أفكلما جاءكم) يا معشر اليهود (رسول بما لا تهوى) اى تحب (انفسكم) من الحق وقوله تعالى (استكبرتم) اى تكبرتم عن اتباعه جواب كلما وهو محل الاستفهام والمراد به التوبيخ (ففريقا) اى طائفة (كذبتم) كموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام والفاء السببية الاستكبار للتكذيب اوا التفصيل (وفريقا تقتلون) كزكريا ويحيى عليهما السلام (فان قيل) هلا قال وفريقا قتلتم (أجيب) بانه انما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضارا لها فى النفوس فان الامر فظيع ومراعاة للفواصل قال الزمخشرى أوان يراد وفريقا تقتلونهم بعد أى الآن لانكم درتم حول قتل محمد لولا انى أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة وقال صلى الله عليه وسلم عند موته مازالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت أبهرى (وقالوا) للنبى صلى الله عليه وسلم استهزاء (قلوبنا غلف) جمع أغلف اى مغشاة بأغطية لا يتوصل اليها ما جئت به ولا تفقهه مستعار من الاغلف الذى لم يختن كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وقيل أصل غلف بالسكون غلف بالضم تخفف والمعنى انها أوعية العلم لا تسمع علما الا وعته ولا تعي ما تقول اى فما تقوله ليس بعلم أونحن مستغنون بما فيها عن غيره ثم رد الله تعالى عليهم أن تكون قلوبهم كذلك بقوله تعالى (بل) للاضراب (لعنهم الله بكفرهم) اى بسبب كفرهم والمعنى انها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم كما قال تعالى فأصمهم وأعمى أبصارهم اوهم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك (فقليلا ما يؤمنون) ما مزيدة لتأكيد القلة اى ايمانهم ايمان قليل جدا وهو ايمانهم ببعض الكتاب وقيل أراد بالقلة العدم (ولما جاءهم كتاب من عند الله) هو القرآن (مصدق لما معهم) من كتابهم وهو التوراة لا يخالفه (وكانوا) أى اليهود (من قبل) أى من قبل مجيئه (يستفتحون) أي يستنصرون (على الذين كفروا) أى مشركى العرب اذا قاتلوهم يقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته ونعته فى التوراة ويقولون لاعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم (فلما جاءهم) أى اليهود (ما عرفوا) من الحق وهو بعثة النبى صلى الله عليه وسلم (كفروا به) حسدا أوخوفا على الرياسة وجواب لما الاولى دل عليه جواب لما الثانية (فلعنة الله) أى عذابه وطرده (على الكافرين) اى عليهم وانما أتى بالمظهر للدلالة على انهم لعنوا لكفرهم فتكون اللام للعهد ويجوز أن تكون للعموم ويدخلون فيه دخولا أوليا أو قصديا لانهم المقصودون بالذات وتناول الكلام لغيرهم على سبيل التبع فهو كما اذا ظلمك انسان فقلت ألا لعنة الله على الظالمين كان ذلك الظالم اوليا أو مقصودا فى الدعاء والباقون تبعا (بئس ما اشتروا) اى باعوا (به انفسهم) أى حظها من الثواب وما نكرة بمعنى شيأ مميزة لفاعل بئس المستكن اى بئس الشئ شيأ اشتروا به أنفسهم والمخصوص بالذم (أن يكفروا) اى كفرهم

والمتردية والنطيحة وما أكل السبع (قوله فلا اثم عليه) ذكره هنا وتركه فى المواضع الثلاثة المذكورة آنفا اقتصارا كما هو الانسب بالآخر (قوله ان الله غفور رحيم) قاله هنا وقال فى الانعام فان ربك غفور رحيم لان لفظ الرب تكرر ثم مرات مع ذكر ما يحتاج الى التربية من الثمار والحبوب والحيوان من الضان والمعز والابل والبقر فى قوله وهو الذى أنشأ جنات الى آخره.

(بما أنزل الله) من القرآن (بغيا) أى حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة يكفروا كما قال البيضاوى دون اشتروا وان قاله الزمخشرى لفصل المخصوص بين بغيا الذى هو العلة وبين المعلول وهو اشتروا وحسدوه على (أن ينزل الله من فضله) أى الوحى (على من يشاء) للرسالة (من عباده) وهو محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون نون ينزل وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (فباؤا) أى رجعوا (بغضب على غضب) أى مع غضب واختلف فى معنى ذلك فقال ابن عباس ومجاهد الغضب الاول بتضييعهم التوراة وتبديلهم والثانى بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال السدى الاول كفرهم بعبادة العجل والثانى الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال قتادة الاول بكفرهم بعيسى والانجيل والثانى بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وللكافرين عذاب مهين) أى ذو اهانة بخلاف عذاب العاصى فانه طهرة لذنوبه (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) من القرآن وغيره فيعم سائر الكتب المنزلة (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أى التوراة يكفينا ذلك (ويكفرون) الواو للحال (بما وراءه) أى بما سواه من الكتب كقوله تعالى فمن ابتغى وراء ذلك أى سواه وقال أبو عبيدة بما بعده أى من القرآن وقوله تعالى (وهو) أى ما وراءه (الحق) حال وقوله (مصدقا لما معهم) أى من التوراة حال ثانية مؤكدة تتضمن رد مقالهم فانهم كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ثم اعترض الله تعالى عليهم بقتل الانبياء مع ادعاء الايمان بالتوراة بقوله تعالى (قل) لهم يا محمد (فلم تقتلون) أى قتلتم (أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) بالتوراة والتوراة لا تسوغه بل نهيتم فيها عن قتلهم والخطاب للموجودين فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما فعل آباؤهم لرضاهم به وعزمهم عليه قرأ نافع وحده أنبياء الله بالهمز فى كل القرآن والباقون بالبدل وليس لورش الا المد فقط لانه متصل (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى الآيات التسع فى قوله تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات كالعصا واليد وفلق البحر (ثم اتخذتم العجل) أى الها (من بعده) أى من بعد ذهابه الى الميقات وقوله تعالى (وأنتم ظالمون) أى باتخاذه حال أى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته أو بالاخلال بآيات الله أو اعتراض أى وأنتم عادتكم الظلم (واذ أخذنا ميثاقكم) على العمل بما فى التوراة (و) قد (رفعنا فوقكم الطور) أى الجبل حين امتنعتم من قبولها ليسقط عليكم وقلنا (خذوا ما آتيناكم بقوة) أى بجد واجتهاد (واسمعوا) ما تؤمرون به سماع قبول (قالوا سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك وقيل سمعنا بالآذان وعصينا بالقلوب قال أهل المعانى انهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن لما سمعوا بالآذان وتلقوه بالعصيان نسب ذلك الى القول اتساعا (وأشربوا فى قلوبهم العجل) أى خالط حبه قلوبهم كما يتداخل الشراب أعماق البدن وفى قلوبهم بيان لمكان الاشراب كقوله تعالى انما يأكلون فى بطونهم نارا *(فائدة)* قال البغوى فى القصص ان موسى عليه السلام أمر أن يبرد العجل بالمبرد ثم يذر فى النهر وأمر بالشرب منه فمن بقى فى قلبه شئ من حب العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه (بكفرهم) أى بسبب كفرهم وذلك أنهم كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن من قلوبهم ما سوّل لهم السامرى (قل) لهم يا محمد (بئس ما) أى شيأ (يأمركم به ايمانكم)

فكان ذكر الرب ثم أنسب (قوله ولا يكلمهم الله) ان قلت كيف نفى عنهم الكلام هنا وأثبته لهم فى قوله فوربك لنسألنهم (قلت) المنفى هنا الكلام بلطف واكرام والمثبت ثم سؤال توبيخ واهانة أو فى يوم القيامة مواقف ففى موقف لا يكلمهم وفى موقف يكلمهم ومن ذلك آية النفى المذكورة مع قوله ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين

بالتوراة عبادة العجل واضافة الامر الى ايمانهم تهكم كما قال قوم شعيب أصلواتك تأمرك وكذلك اضافة الايمان اليهم فى قوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) بعبادة العجل (قل) لهم (ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة) أى خاصة (من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) فى قولكم وذلك ان اليهود ادعوا دعاوى باطلة مثل قولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة ولن يدخل الجنة الا من كان هودا وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه فكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال قل لهم يا محمد ذلك لان من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق اليها وتمنى سرعة الوصول الى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب كما روى عن المبشرين بالجنة رضى الله تعالى عنهم فقد كان على رضى الله تعالى عنه يطوف بين الصفين فى غلالة فقال له ابنه الحسن ما هكذا ترى المحاربين فقال له يا بنى لا يبالى أبوك على الموت سقط أم عليه سقط الموت وعن حذيفة انه كان يتمنى الموت فلما احتضر قال حبيب أى الموت جاء على فاقة أى وقت حاجتى اليه وقيل بل أراد بالحبيب لقاء الله لا أفلح من ندم يعنى على التمنى أراد به أنه كان يتمنى الموت وما ندم على التمنى حين جاء الموت وقال عمار بصفين الآن ألاقى الاحبة محمدا وحزبه وكان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحن اليه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لو تمنوا الموت لغص كل انسان منهم بريقه فمات مكانه وما بقى على وجه الارض يهودى الا مات * (تنبيه) * خالصة نصب على الحال من الدار أو من الضمير فى خبر كان العائد الى الدار وتعلق بتمنوا الشرطان على ان الاول قيد فى الثانى (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) من موجبات النار من الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به وتحريف كتاب الله وسائر أنواع الكفر والعصيان ولما كانت اليد العاملة مختصة بالانسان آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه عبر بها عن النفس تارة كما هنا وعن القدرة أخرى كما فى قوله تعالى يد الله فوق أيديهم وهذه الجملة اخبار بالغيب وكان كما أخبر به كقوله تعالى ولن تفعلوا (فان قلت) من أين علمت أنهم لم يتمنوا (أجيب) بأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الاسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل ذلك (فان قيل) التمنى من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه أحد فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا (أجيب) بأن التمنى ليس من أعمال القلوب انما هو قول الانسان بلسانه ليت لى كذا فاذا قاله قالوا تمنى وليت كلمة تمن ومحال أن يقع التحدى بما فى الضمائر والقلوب ولو كان التمنى بالقلوب وتمنوا لقالوا قد تمنينا الموت فى قلوبنا ولم ينقل انهم قالوا ذلك (فان قيل) لم يقولوه لانهم علموا أنهم لا يصدقون (أجيب) بأنه كم حكى عنهم من أشياء قالوها بما اللسان من الافتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ولا محمل له الا الكذب الصرف ولم يبالوا فكيف يمتنعون من أن يقولوا ان التمنى من أفعال القلوب وقد فعلناه مع احتمال ان يكونوا صادقين فى قولهم واخبارهم عن ضمائرهم وكان الرجل يخبر عن نفسه بالايمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذبا لانه أمر خفى لا سبيل الى الاطلاع عليه (والله عليم بالظالمين) أى الكافرين فيجازيهم فى ذلك فيه تهديد لهم وتنبيه على انهم ظالمون فى دعوى ما ليس لهم ونفيه عمن هو لهم (ولتجدنهم) اللام لام القسم والنون تأكيد

شركاؤكم (قوله للوالدين والاقربين) فيه عطف العام على الخاص ونسخ ما كانوا يفعلونه من الوصية للابعد دون الاقرب طلبا للفخر والشرف (قوله ان الله سميع عليم) ان قلت لم خص السمع والعلم بالذكر هنا والغفران فيما بعده (قلت) لقوله هنا بعد ما سمعه وثم فلا اثم عليه (قوله كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) التشبيه فى أصل

القسم تقديره والله لتجدنهم يا محمد أي اليهود (أحرص الناس على حياة) هو من وجد بمعنى علم المتعدي الى مفعولين ومفعولاه هم أحرص (فان قيل) لم قال على حياة بالتنكير (أجيب) بأنه أريد حياة مخصوصة هي فرد من افرادها وهي الحياة المتطاولة (و) أحرص (من الذين أشركوا) أي المنكرين البعث عليها لعلمهم بأن مصيرهم النار دون المشركين لانكارهم له (فان قيل) ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس (أجيب) بلى ولكنهم أفردوا بالذكر لان حرصهم شديد وفيه توبيخ عظيم لان الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة وما يعرفون الا الحياة الدنيا فحرصهم عليها لا يستبعد لانها جنتهم فاذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقا بأعظم التوبيخ (يود) يتمنى (أحدهم لو يعمر ألف سنة) لو مصدرية بمعنى أن وهي بصلتها في تأويل مصدر مفعول يود يقول الله تعالى اليهود أحرص الناس على الحياة من المجوس الذين يقولون ذلك لان تحية المجوس فيما بينهم عش ألف سنة (وما هو) اى أحدهم (بمزحزحه) أي مبعده (من العذاب) أي النار وقوله تعالى (أن يعمر) فاعل مزحزحه أي تعميره (والله بصير بما يعملون) فيجازيهم به وسأل عبد الله بن صوريا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ينزل عليه فقال جبريل فقال ذاك عدونا عادانا مرارا وأشدها انه لما نزل على نبينا أخبرنا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر وأخبرنا بالحين الذي يجيء فيه فلما كان وقته بعثنا رجلا من بني اسرائيل في طلبه ليقتله فانطلق حتى لقيه ببابل غلاما مسكينا فأخذه ليقتله فدفع عنه جبريل وقال ان كان ربكم أمره بهلاككم فلا يسلطكم عليه والا فبم تقتلونه وكبر بختنصر وقوي فنزل (قل) لهم (من كان عدوا لجبريل) روي انه كان لعمر رضي الله تعالى عنه أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدارس اليهود وكان يجلس اليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك وانا لنطمع فيك فقال والله ما أحبكم لحبكم ولا أسألكم لاني شاك في ديني وانما أدخل عليكم لازداد بصيرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره في كتابكم ثم سألهم عن جبريل فقالوا ذاك عدونا يطلع محمدا على أسرارنا وانه صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلام أي السلامة فقال عمر وما منزلتهما من الله قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة فقال لئن كان كما تقولون فليسا بعدوين أي لقرب منزلتهما عند الله ولأنتم أكفر من الحمير أي لان الكفر نتيجة الجهل والبلادة والحمار مثل فيهما ومن كان عدوا أحدهما فهو عدو الله تعالى ثم رجع فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وقال عليه الصلاة والسلام لقد وافقك ربك يا عمر قال عمر لقد رأيتني في دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر وقال مقاتل قالت اليهود ان جبريل عدونا لانه أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا ومعنى جبريل عبد الله فجبر هو الله وايل هو العبد وقرأ حمزة والكسائي بفتح الجيم والراء وهمزة بعد الراء مكسورة ممدودة أي بعدها ياء لفظية وقرأ شعبة كذلك الا انه حذف الياء بعد الهمزة وكسر الراء والباقون بكسر الجيم والراء من غير همز بعد الراء الا ان ابن كثير فتح الجيم ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة (فانه) اى جبريل (نزله) اى القرآن ونحو هذا الاضمار اعني اضمار ما لا يسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه

الصوم لا في كيفيته اذ الافطار منه كان مباحا من الغروب الى وقت النوم فقط ثم نسخ بقوله تعالى وكلوا واشربوا الآية (قوله فمن كان منكم مريضا أو على سفر) قيد بمنكم هنا وفي قوله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه وتركه في قوله

قوله وكسر الراء كذا في الاصول التي بايدينا والصواب حذفه اه مصححه

و يكتفى عن اسمه الصريح بذكر شئ من صفاته (على قلبك) يا محمد وقوله تعالى (باذن الله) اى
بامره حال من فاعل نزل (مصدقا) اى موافقا (لما بين يديه) لما قبله من الكتب (وهدى)
من الضلالة (وبشرى) بالجنة (للمؤمنين) هذه احوال من مفعول نزل وجواب الشرط فانه
نزله والمعنى من عادى منهم جبريل فقد خلع ربقة الانصاف او كفر بما معه من الكتاب بمعاداته
اياه لنزوله عليك بالوحى لانه نزل كتابا مصدقا للكتب المتقدمة فحذف الجواب واقيم علته
مقامه او من عاداه فالسبب فى عداوته انه نزل عليك وقيل الجواب محذوف مثل فليمت غيظا
أو فهو عدو لى وانا عدوه كما قال تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال
فان الله عدو للكافرين) والمراد بمعاداة الله مخالفته عنادا او معاداة المقربين من عباده
وصدر الكلام بذكره تعالى تفخيما لشأنهم كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه (فان
قيل) لم افرد الملكين بالذكر مع دخولهما فى الملائكة (اجيب) بأن ذلك لفضلهما فكأنهما
من جنس آخر وهو مما ذكر أن التغاير فى الوصف ينزل منزلة التغاير فى الذات وبان الحاجة
كانت فيهما والواو فيهما بمعنى او يعنى من كان عدو الاحد هؤلاء لان الكافر بالواحد كافر
بالكل وقدم جبريل لشرفه وقدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لان عداوة الرسل
بسبب نزول الكتب ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر الله فذكر الله ومن بعده على
هذا الترتيب قرأ ابو عمرو وحفص ميكال بغير همز ولا ياء بين الالف واللام وقرأ نافع بهمزة
بعد الالف ولا ياء بعد الهمزة والباقون بهمزة بعد الالف وياء وهم على مراتبهم فى المد ونزل
فى ابن صوريا لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ما جئتنا بشئ نعرفه وما انزل عليك من آية اى
زائدة فنتبعك (ولقد أنزلنا اليك) يا محمد (آيات بينات) واضحات مفصلات بالحلال والحرام
والحدود والاحكام (وما يكفر بها الا الفاسقون) اى المتمردون من الكفرة والفسق اذا
استعمل فى نوع من المعاصى دل على اعظميته كأنه متجاوز عن حده (اوكلما عاهدوا عهدا)
الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف تقديره أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا الله عهدا
على الايمان بالنبى اوان خرج النبى أن لا يعاونوا عليه المشركين وقوله تعالى (نبذه) اى
طرحه (فريق منهم) اى اليهود بنقضه جواب كلما وهو محل الاستفهام الانكارى وانما قال
فريق لان بعضهم لم ينقض وقوله تعالى (بل) للانتقال (أكثرهم لا يؤمنون) رد لما يتوهم ان
الفريق هم الاقلون وقوله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله) هو محمد صلى الله عليه وسلم
(مصدق لما معهم) من التوراة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله) اى التوراة لان
كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدقه ونبذ لما فيها من وجوب الايمان بالرسل
المؤيدين بالآيات وقيل كتاب الله هو القرآن نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول وقوله تعالى
(وراء ظهورهم) اى لم يعملوا بما فيها من الآيات بالرسل وغيره مثل لاعراضهم عنه بالكلية
بالاعراض عما يرمى به وراء الظهر لعدم الالتفات اليه (كأنهم لا يعلمون) ما فيها من أنه نبى
حق او فيه شك يعنى ان علمهم بذلك رصين ولكنهم كابروا وعاندوا وعن سفيان ادرجوه فى
الديباج والحرير وحلوه بالذهب ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه وقوله تعالى (واتبعوا) عطف
على نبذ (ما تتلو) اى ما تلت (الشياطين) والعرب تضع المستقبل موضع الماضى والماضى

موضع

ومن كان مريضا أو على سفرا اكتفاء بقوله قبله فمن شهد منكم (فان قلت) مافائدة ذكر اعادة المريض والمسافر بعد (قلت) رفع توهم نسخ التخيير بين الصوم والفدية بعموم قوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه او ان آيتها الاولى نزلت فى تخييرهما بين الصوم والفدية والثانية فى تخييرهما بين الصوم والافطار والقضاء (قوله من الهدى والفرقان)

موضع المستقبل وقيل ما كانت تتلو أى تقرأ (على) عهد (ملك سليمان) من السحر وكانت دفنته تحت كرسيه لما نزع ملكه فلم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوه وقالوا للناس انما ملككم سليمان بهذا فتعلموه فاما علماء بنى اسرائيل وصلحاؤهم فقالوا معاذ الله ان يكون هذا من علم سليمان عليه الصلاة والسلام واما سفلاؤهم فقالوا هذا علم سليمان واقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب انبيائهم وبقيت الملامة لسليمان فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وانزل الله عليه براءة سليمان هذا قول الكلبى وقال السدى كانت الشياطين تسترق السمع فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون فى الارض من موت وغيره فيأتون الكهنة ويخلطون بما يسمعون فى كل كلمة سبعين كذبة ويخبرونهم بها فاكتتب الناس ذلك وفشا فى بنى اسرائيل ان الجن تعلم الغيب فبعث سليمان فى الناس وجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق ودفنها تحت كرسيه وقال لا اسمع ان احدا يقول ان الشياطين تعلم الغيب الا ضربت عنقه فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب وخلف من بعدهم خلف تمثل شيطان على صورة انسان فأتى نفرا من بنى اسرائيل فقال هل ادلكم على كنز لا تأكلونه ابدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسى وذهب معهم فاراهم المكان واقام ناحية فقالوا ادن فقال لا ولكنى ههنا فان لم تجدوه فاقتلونى وذلك أنه لم يكن احد من الشياطين يدنو من الكرسى الا احترق فحفروا واخرجوا تلك الكتب قال الشيطان ان سليمان كان يضبط الجن والانس والشياطين والطير بهذا ثم طار الشيطان وفشا فى الناس ان سليمان كان ساحرا واخذ بنو اسرائيل تلك الكتب فلذلك اكثر ما يوجد السحر فى اليهود فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برأ الله سليمان من ذلك وانزل تكذيبا لمن زعم ذلك واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان (وما كفر سليمان) أى لم يعمل السحر وعبر عنه بالكفر ليدل على أنه كفر اذا استحله أو احتيج فيه الى تقدم اعتقاد مكفر هذا مذهب الشافعى وعند أحمد يكفر مطلقا (ولكن الشياطين) هم الذين (كفروا) باستعمال السحر وتدوينه وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بكسر النون من ولكن مخففة ورفع نون الشياطين والباقون بنصب النون من ولكن مشددة ونصب نون الشياطين (يعلمون الناس السحر) يقصدون به اغواءهم واضلالهم والجملة حال من ضمير كفروا

(تنبيه) السحر لغة صرف الشئ عن وجهه يقال ما سحرك عن كذا أى ما صرفك عنه واصطلاحا مزاولة النفوس الخبيثة لاقوال وأفعال يترتب عليها أمور خارقة للعادة واختلف فيه هل هو تخييل أو حقيقة قال بالاول المعتزلة واستدلوا بقوله تعالى يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى وقال بالثانى أهل السنة ويدل لذلك الكتاب والسنة الصحيحة والساحر قد يأتى بفعل أو قول يتغير به حال المسحور فيمرض أو يموت منه ويفرق به بين المرء وزوجه ويحرم تعليمه أو تعلمه قال امام الحرمين ولا يظهر السحر الا على يد فاسق ولا تظهر الكرامة على يد فاسق ويحرم أيضا تعليم أو تعلم الكهانة والتنجيم والضرب بالرمل والحصى والشعير والشعبذة ويحرم اعطاء العوض أو أخذه عنها بالنص الصريح فى حلوان الكاهن والباقى بمعناه والكاهن من يخبر بواسطة النجم عن المغيبات فى المستقبل بخلاف العراف فانه الذى

صفة الهدى وبينات قبله ومتعلق بمحذوف أى كون القرآن هدى وبينات من جملة هدى الله وبيناته لكن عبر عن البينات بالفرقان لان فيه زيادة معنى لازم للبينات وهو كونه يفرق به بين الحق والباطل ولان فى لفظ الفرقان تواخى الفواصل (قوله أجيب دعوة الداع اذا دعان) ان قلت نجد كثيرا من الداعين لا يستجاب لهم

يخبر عن المغيبات الواقعة كمين السارق ومكان المسروق والضالة قال فى الروضة ولا يغتر
بجهالة من يتعاطى الرمل وان نسب الى علم وأما الحديث الصحيح كان نبى من الانبياء يخط فمن
وافق خطه فذاك فمعناه من علمتم موافقته له فلا بأس ونحن لانعلم الموافقة فلا يجوز لنا ذلك
وقول البيضاوى وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات كالادوية او يريه
صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحرا على التجوز لما فيه من الدقة لانه اى السحر فى
الاصل اى اللغة لما خفى سببه مردود بل هو مذموم اى حرام كما صرح به النووى فى الروضة
وغيرها وقوله تعالى (وما انزل على الملكين) عطف على السحر اى ويعلمونهم ما انزل على
الملكين وقيل عطف على ما تتلوا اى واتبعوا ما انزل اى ما الهماه وتعلماه من السحر فالانزال
بمعنى الالهام والتعليم قال البيضاوى وهما ملكان انزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس
وتمييزا بينه وبين المعجزة قال وما روى اى فى كتب السير انهما مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة
فتعرضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على المعاصى والشرك ثم صعدت الى السماء بما تعلمت
منهما فمحكى عن اليهود ولعله من رموز الاوائل وحله أى الرمز أو ما روى لا يخفى على ذوى
البصائر اه قال شيخنا شيخ الاسلام زكريا بأن يقال عبر عن العقل والنفس المطمئنة بالملكين
وعن النفس الامارة بالسوء بالزهرة وعن مفارقتها بالموت بالصعود الى السماء وقيل هما
رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما وقيل ما أنزل نفى معطوف على ما كفر تكذيبا لليهود
فى هذه القصة وقد طول البغوى فى هذه القصة واعتمد ما رده البيضاوى وقال شيخنا
المذكور عن شيخه ابن حجر ان لها طرقا تفيد العلم بصحتها فقد رواها مرفوعة الامام أحمد
وابن حبان والبيهقى وغيرهم وموقوفة على على وابن مسعود وابن عباس وغيرهم بأسانيد
صحيحة والبيضاوى لما استبعد ما روى ولم يطلع عليه قال ولعله الخ وقوله تعالى (ببابل)
ظرف أو حال من الملكين أو الضمير فى أنزل وهى بلد فى سواد العراق وقوله تعالى (هاروت
وماروت) بدل أو عطف بيان للملكين ومنع صرفهما للعلمية والعجمة ومن جعل ما فيما أنزل
نافية أبدل هاروت وماروت من الشياطين بدل البعض وما بينهما اعتراض (وما يعلمان) أى
الملكان (من أحد) اى أحدا ومن صلة (حتى) ينصحاه و (يقولا) له (انما نحن فتنة) أى
ابتلاء من الله تعالى للناس لنمتحنهم بتعليمه وأصل الفتنة الاختبار والامتحان من قولهم
فتنت الذهب والفضة اذا أذبتهما بالنار لتميز الجيد من الردىء وانما وحد الفتنة لانها مصدر
والمصادر لا تثنى ولا تجمع (فلا تكفر) بتعلمه اى فلا تتعلمه معتقدا حله فتكفر على ما تقدم
فان أبى الا التعليم علماه قيل انهما يقولان انما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات قال عطاء
والسدى فان أبى الا التعليم قالا له ائت هذا الرماد فبل عليه فيخرج منه نور ساطع فى السماء
فتلك المعرفة وينزل شئ اسود شبه الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى وعلى
القول بانهما رجلان فلا يعلمانه حتى يقولا له انا مفتونان فلا تكن مثلنا (فيتعلمون منهما)
الضمير لما دل عليه من أحد أى فيتعلم الناس من الملكين (ما) أى سحرا (يفرقون به بين المرء
وزوجه) بان يبغض كلا منهما فى الآخر بسبب حيلة أو عقوبة كالنفث فى العقد ونحو ذلك مما
يحدث الله تعالى عنده الفراق ابتلاء منه لا أن السحر له أثر فى نفسه بدليل قوله تعالى (وما هم)

(قلت) انما لم يستجب لهم لانتفاء شرط الاجابة اذ أكل شرطها طاعة الله و[illegible] الحلال وحضور القلب أو لان الداعى قد يعتقد مصلحته فى اجابة دعوته والله يعلم ان المصلحة فى تأخيرها أو يعطيه بدلها فقد روى الحاكم خبر ما من مسلم يدعو الله تعالى بدعوة الا آتاه الله اياها أو صرف عنه من السوء مثلها أو ادخر له من الاجر

أى السحرة (بضارين به) أى السحر (من أحد) أى أحدا ومن صلة (الا باذن الله) أى ارادته لان الاسباب غير مؤثرة بالذات بل بارادته تعالى (ويتعلمون ما يضرهم) فى الآخرة (ولا ينفعهم) وهو السحر لانهم يقصدون به العمل أو لان العلم يجر الى العمل غالبا (ولقد) اللام لام القسم (علموا) أى اليهود (لمن) اللام لام الابتداء علقت علموا عن العمل ومن موصولة (اشتراه) أى استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله تعالى (ماله فى الآخرة من خلاق) أى نصيب فى الجنة (ولبئس ما) أى شيأ (شروا) أى باعوا (به أنفسهم) أى الشارين أى حظها من الآخرة أن يتعلموه حيث أوجب لهم النار (لو كانوا يعلمون) حقيقة ما يصيرون اليه من العذاب ما تعلموه وقيل معناه لو كانوا يعملون بعلمهم فان من لم يعمل بما علم كان كمن لم يعلم (ولو أنهم) أى اليهود (آمنوا) بالنبى والقرآن (واتقوا) عقاب الله بترك معاصيه كنبذ كتاب الله تعالى واتباع السحر وجواب لو محذوف أى لاثيبوا دل عليه (لمثوبة) أى ثواب وهو مبتدأ واللام فيه للقسم وقوله تعالى (من عند الله خير) خبره أى خير مما اشتروا به أنفسهم (لو كانوا يعلمون) أن ثواب الله تعالى خير لما آثروه عليه فجهلهم الله تعالى لترك التدبر والعمل بالعلم (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا) للنبى صلى الله عليه وسلم (راعنا) أمر من المراعاة وكانوا يقولون ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين وكانت كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهو راعنا قالوا فيما بينهم كنا نسب محمدا سرا فاعلنوا به الآن فكانوا يأتون ويقولون يا محمد راعنا وهم يعنون به تلك المسبة ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها وكان يعرف لغتهم فقال لليهود يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذى نفسى بيده لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لاضربن عنقه فقالوا أولستم تقولونها فانزل الله تعالى النهى عن ذلك لكى لا يجد اليهود بذلك سبيلا الى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وامروا بما هو فى معناها وهو قوله تعالى (وقولوا انظرنا) أى انظر الينا وقيل اسمع منا قاله مجاهد وقيل لا تعجل علينا قاله ابن زيد (واسمعوا) ما تؤمرون به سماع قبول لا كسماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا ترجعوا الى ما نهيتم عنه من قولكم راعنا (وللكافرين) أى الذين تهاونوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبوه (عذاب أليم) أى مؤلم وهو النار ونزل فى تكذيب جمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين ويزعمون أنهم يودون لهم الخير (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب) وقوله تعالى (ولا المشركين) أى من العرب عطف على أهل الكتاب ومن للبيان لان الذين كفروا جنس تحته نوعان أهل الكتاب والمشركون كقوله تعالى لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين والمودة محبة الشئ مع تمنيه ولذلك تستعمل فى كل منهما (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) فسر الخير بالوحى والمعنى انهم يحسدونكم به وما يحبون ان ينزل عليكم من شئ منه وفسر بالعلم والنصرة والمراد به ما يعم ذلك كما قاله البيضاوى ومن الاولى مزيدة للاستغراق ومن الثانية لابتداء الغاية (والله يختص برحمته) اى بنبوته كما قاله على رضى الله تعالى عنه ومجاهد او بالاسلام كما قاله ابن عباس ومقاتل (من يشاء) ولا يشاء الا ما تقتضيه الحكمة ولا يجب عليه شئ وليس لاحد عليه حق (والله ذو الفضل) وهو ابتداء احسانه

مثلها ما لم يدع باثم (قوله تلك حدود الله فلا تقربوها) ان قلت لم قال هنا فلا تقربوها وقال فى التى بعدها فلا تعتدوها (قلت) لان الحد هنا نهى وهو قوله ولا تباشروهن وما كان من الحدود نهيا نهى فيه عن المقاربة والحد فيما بعد أمر وهو بيان عدد الطلاق بقوله الطلاق مرتان الآية وما كان أمرا نهى فيه عن الاعتداء

بلا علة وقوله تعالى (العظيم) فيه اشعار بان اتيان النبوة والاسلام من الفضل العظيم ويدل للاول قوله تعالى ان فضله كان عليك كبيرا * ولما طعن الكفار في النسخ وقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ما يقوله الا من تلقاء نفسه يقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا كما أخبر الله تعالى بقوله واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر نزل (ما ننسخ من آية) فبين وجه الحكمة في النسخ بهذه الآية والنسخ في اللغة شيآن احدهما بمعنى التحويل والنقل ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب الى كتاب فعلى هذا الوجه كل القرآن منسوخ لانه نسخ من اللوح المحفوظ والثاني بمعنى الرفع يقال نسخت الشمس الظل اى ذهبت به وابطلته فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخا وبعضه منسوخا وهو المراد من الآية وهذا على وجوه احدها ان تثبت التلاوة وينسخ الحكم كآية الوصية للاقارب وآية عدة الوفاة بالحول والثاني ان ترفع التلاوة ويبقى الحكم كآية الرجم والثالث أن يرفع الحكم والتلاوة كما روى ان قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرؤا سورة فلم يذكروا منها الا بسم الله الرحمن الرحيم فغدوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبروه فقال صلى الله عليه وسلم تلك سورة رفعت بتلاوتها واحكامها وقيل كانت سورة الاحزاب مثل سورة البقرة فرفع اكثرها تلاوة وحكما ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام غيره مقامه كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس الى الكعبة والوصية للاقارب نسخت بالميراث وعدة الوفاة نسخت من الحول الى أربعة أشهر وعشر ومصابرة الواحد للعشرة بمصابرته للاثنين قال البغوى والنسخ انما يعترض على الاوامر والنواهي دون الاخبار اه والنسخ اصطلاحا رفع تعلق حكم شرعي بدليل شرعي ويفارق التخصيص بأن التخصيص لا يرد الا على متعدد وبأنه غير مشروط بالنص بخلاف النسخ فيهما وبأنه يفيد عدم ارادة المخرج في الاصل والنسخ يفيد ارادة المنسوخ في الاصل لكن غير مستمر وقرأ ابن عامر ننسخ بضم النون الاولى وكسر السين من انسخ اى نأمرك او جبريل بنسخها والباقون بفتح النون والسين وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية (او ننسأها) اى نؤخرها فلا نزل حكمها ولا نرفع تلاوتها او نؤخرها في اللوح المحفوظ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح النون الاولى وفتح السين وهمزة ساكنة بعد السين ولم يبدل هذه الهمزة احد من السبعة وقرأ الباقون بضم النون وكسر السين ولا همزة بعد السين اى ننسها اى نمحها من قلبك وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه ما نتركها لا ننسخها قال الله تعالى نسوا الله فنسيهم اى تركوه فتركهم وجواب الشرط (نأت بخير منها) اى بما هو انفع لكم واسهل عليكم واكثر لاجوركم وان كان كلام الله كله خيرا (أو مثلها) في التكليف والثواب والمنفعة وتكون الحكمة في تبديلها بمثلها الاختبار (ألم تعلم ان الله على كل شئ قدير) فيقدر على النسخ والاتيان بمثل المنسوخ وبما هو خير والآية دالة على جواز النسخ وتأخير الانزال اذ الاصل اختصاص ان وما يتضمنها بالامور المحتملة وذلك لان الاحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلا من الله ورحمة وذلك يختلف باختلاف الاعصار والاشخاص كاسباب المعاش فان النافع في عصر قد يضر في غيره واحتج بها من منع النسخ بلا بدل او ببدل اثقل ومن منع نسخ الكتاب بالسنة

(قوله وهو مجاورة الحد) (قوله يسئلونك عن الاهلة قل) السؤال في كل ما جاء من القرآن أجيب عنه بقل بلا فاء الا في قوله في طه ويسئلونك عن الجبال فقل فيها بالفاء لان الجواب كان بعد وقوع السؤال وفي طه قبله اذ تقديره ان سئلت عن الجبال فقل (قوله ويكون الدين لله) ترك كله هنا وذكره في الانفال لان القتال هنا

فان الناسخ هو المأتى به بدلا والسنة ليست كذلك قال البيضاوى والكل ضعيف اذقد يكون عدم الحكم والاثقل اصلح والنسخ قد يعرف بغيره والسنة ما اتى به الله واستدل بهذه الآية المعتزلة على حدوث القرآن فان التغير والتفاوت من لوازم الحدوث واجاب اهل السنة بانهما من عوارض الامور المتعلق بها المعنى القائم بالذات القديم لا من عوارض هذا المعنى وقوله تعالى (ألم تعلم) هنا وفيما مر خطاب لمنكرى النسخ فالهمزة للانكار وقيل خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته فالهمزة للتقرير (أنّ الله له ملك السموات والارض) يفعل فيهما مايشاء ويحكم مايريد فهو يملك أموركم ويدبرها ويجريها على حسب مايصلحكم وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ وهذا كالدليل على قوله ان الله على كل شئ قدير أو على جواز النسخ ولذلك ترك العاطف (ومالكم من دون الله) أى غيره (من ولى) أى ولى يحفظكم ومن صلة (ولانصير) يمنع عنكم عذابه وفرق بين الولى والنصير بان الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا عن المنصور فبينهما عموم وخصوص من وجه * ونزل لما سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يوسعها لهم وأن يجعل الصفا ذهبا (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى) اى سأله قومه (من قبل) اى من قولهم له أرنا الله جهرة وقيل قالوا له لن نؤمن لك حتى تاتى بالله والملائكة قبيلا أو ائتنا بكتاب نقرؤه تنزله من السماء علينا وفجر لنا أنهارا حتى نتبعك وقال عبد الله بن أمية لن نؤمن لك حتى تاتى بكتاب فيه من الله رب العالمين الى ابن أمية اعلم انى أرسلت محمدا الى الناس وأم امامعادلة للهمزة فى ألم تعلم اى ألم تعلموا أنه مالك الامور قادر على الاشياء كلها يأمر وينهى كما أراد وتقترحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى عليه الصلاة والسلام واما منقطعة والمراد أن يوصيهم بالثقة وترك الاقتراح عليه (ومن يتبدل الكفر بالايمان) أى يأخذه بدله بترك النظر فى الآيات البينات واقتراح غيرها (فقد ضل سواء السبيل) اى أخطأ الطريق الحق والسواء فى الاصل الوسط وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار قد عند الضاد حيث جاء وأدغمها الباقون ونزل فى نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد لو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعا الى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم فقال لهم عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فانى قد عاهدت الله أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ما عشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبا وقال حذيفة وأما انا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين اخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبراه بذلك فقال أصبتما الخير وأفلحتما (ودّ) أى تمنى (كثير من أهل الكتاب) من اليهود (لو يردونكم) أى يردوكم يامعشر المؤمنين فلو مصدرية بمعنى ان فان لو تنوب عن ان فى المعنى دون اللفظ (من بعد ايمانكم كفارا) مرتدين وقوله (حسدا) مفعول له كائنا (من عند) أى من تلقاء (أنفسهم) اى لم يامرهم الله بذلك وانما حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة (من بعد ما تبين لهم) فى التوراة (الحق) فى شأن النبى محمد صلى الله عليه وسلم (فاعفوا) عنهم أى اتركوهم (واصفحوا) اى اعرضوا عنهم فلا تجازوهم وكان هذا قبل آية القتال ولهذا قال تعالى (حتى يأتى الله بأمره) فيهم من القتال وقد أذن فى قتالهم وضرب الجزية عليهم وروى عن ابن عباس وابن مسعود

مع أهل ملة فقط وثم مع جميع الكفار فناسب ذكره ثم (قوله تلك عشرة كاملة) ان قلت ما فائدة ذكره بعد الثلاثة والسبعة وذكر كاملة بعد تلك عشرة (قلت) فائدة الاول دفع تصحيف سبعة بتسعة وتاكيد العلم بالعدد تفصيلا واجمالا وفائدة الثانى التاكيد كما فى حولين كاملين أو معناه كاملة فى الثواب مع كونها متفرقة أو واقعة بدلا عن الهدى

أن هذا منسوخ بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية وأبى النسخ جماعة من المفسرين والفقهاء واحتجوا بأن الله تعالى لم يأمر بالعفو والصفح مطلقا وانما أمر به الى غاية وما بعد الغاية يخالف ما قبلها وما هذا سبيله لا يكون من باب النسخ بل يكون الاول قد انقضت مدته والآخر يحتاج الى حكم آخر (ان الله على كل شئ قدير) فهو يقدر على الانتقام من الكفار وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) عطف على قوله فاعفوا كأنه تعالى أمرهم بالصبر والمخالفة والالتجاء اليه بالعبادة والبر (وما تقدموا لانفسكم من خير) أى طاعة كصلاة وصدقة (تجدوه) أى ثوابه (عند الله) فيجازيكم به (ان الله بما تعملون بصير) لا يضيع عنده عمل عامل (وقالوا) أى كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة الا من كان هودا) جمع هائد كعائذ وعود (أو نصارى) قال ذلك يهود المدينة ونصارى نجران لما تناظروا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم اى قالت اليهود لن يدخل الجنة الا اليهود ولا دين الا دين اليهودية وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا النصارى ولا دين الا دين النصرانية فجمع الله بين القولين ثقة بأن السامع يرد الى كل فريق قوله وامنا من الالباس لما علم من التعادى بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه ونحوه (تلك) أى القولة (أمانيهم) اى شهواتهم الباطلة التى تمنوها على الله تعالى بغير حق (قل) لهم يا محمد (هاتوا برهانكم) اى حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة (ان كنتم صادقين) فى دعواكم اذ كل قول لا دليل عليه فهو غير صحيح وهذا متصل بقولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وتلك أمانيهم اعتراض وقوله تعالى (بلى) اثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة (من أسلم وجهه لله) اى انقاد لامره وخص الوجه لانه أشرف الاعضاء الظاهرة فغيره أولى (وهو محسن) فى عمله وقيل مخلص وقيل مؤمن (فله أجره) اى ثواب عمله ثابتا (عند ربه) لا يضيع ولا ينقص والجملة جواب من ان كانت شرطية وخبرها ان كانت موصولة والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله بلى وحده ويحسن الوقف عليه ويصح ان يكون قوله من اسلم فاعل فعل مقدر مثل بلى يدخلها من أسلم فلا يحسن الوقف عليه ويصح ان يكون قوله فله أجره عند ربه كلاما معطوفا على يدخلها من أسلم (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فى الآخرة ولما قدم نصارى نجران على النبى صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت لهم اليهود ما أنتم على شئ من الدين وكفروا بعيسى والانجيل وقالت النصارى لليهود ما أنتم على شئ من الدين وكفروا بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ) أى يعتد به وكفروا بعيسى والانجيل (وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) أى يعتد به وكفروا بموسى والتوراة (وهم) اى الفريقان (يتلون الكتاب) اى المنزل عليهم وفى كتاب اليهود تصديق عيسى وفى كتاب النصارى تصديق موسى والجملة حال وأل فى الكتاب للجنس اى قالوا ذلك وهم من أهل العلم والكتاب (كذلك) اى كما قال هؤلاء (قال الذين لا يعلمون) كعبدة الاصنام والمعطلة وهم الذين لا يثبتون الصانع وقوله تعالى (مثل قولهم) بيان لمعنى ذلك أى قال كل ذى دين ليسوا على شئ وبخهم الله تعالى على المكابرة والتشبه بالجهال (فان قيل) لم وبخهم وقد صدقوا فان كلا الدينين بعد النسخ ليس بشئ

(أجيب)

(قوله فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه) ان قلت ما فائدة تكرار الذكر (قلت) فائدته التنبيه على ارادة ذكر مكرر وزيادة فائدة أخرى فى الثانى وهى كما هداكم بمعنى اذكروه بتوحيده كما ذكركم بهدايته أو الاشارة بالاول الى الذكر باللفظ وبالثانى الى الذكر بالقلب (قوله ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) ان قلت كيف

(أجيب) بانهم لم يقصدوا ذلك وانما قصد به كل فريق ابطال دين الآخر من أصله والكفر بنبيه وكتابه كما مر مع ان ما لم ينسخ حق واجب القبول والعمل به * (تنبيه) * اذا وقف حمزة وهشام على شيء فلهما أربعة وجوه السكون والروم والادغام والروم معه وسكن حمزة قبل الهمزة بخلاف عن خلاد في الوصل وأدغم أبو عمرو الكاف في القاف بخلاف عنه (فالله يحكم بينهم) اى بين الفرق الثلاثة وهم اليهود والنصارى والذين لا يعلمون (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين فيقسم لكل فريق منهم من العقاب الذى استحقه وعن الحسن حكم الله بينهم ان يكذبهم ويدخلهم النار وقرأ أبو عمرو ويحكم بسكون الميم عند الباء والاخفاء بخلاف عنه (ومن أظلم) اى لا أحد أظلم (ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه) بالصلاة والتسبيح (وسعى في خرابها) بالهدم أو التعطيل هذا عام لكل من خرب مسجدا او سعى في تعطيله وان نزل في أهل الروم الذين خربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير فكان خرابا الى ان بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه او في المشركين لما صدوا النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن البيت (فان قيل) قد قال مساجد الله وانما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس او المسجد الحرام (أجيب) بانه لا يمنع ان يجيء الحكم عاما وان كان السبب خاصا كما تقول لمن آذى صالحا ومن أظلم ممن آذى الصالحين وكما قال الله تعالى ويل لكل همزة لمزة والمنزول فيه الاخنس بن شريق (أولئك) اى المانعون (ما كان لهم ان يدخلوها) اى مساجد الله (الا خائفين) اى على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين ان يبطشوا بهم فضلا ان يستولوا عليها او يخربوها او يمنع النبي صلى الله عليه وسلم عنها او قال قتادة لا يوجد نصرانى في بيت المقدس الا انهك ضربا وأبلغ اليه في العقوبة وروى انه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى الا متنكرا مسارقة وقيل نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا لا يحجن بعد هذا العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان وقيل ان هذا خبر بمعنى الامر اى أخيفوهم بالجهاد فلا يدخلها أحد آمنا واختلف في جواز دخول الكافر المسجد فجوزه أبو حنيفة ومنعه مالك وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره فمنع من الاول وجوز في الثاني بشرط اذن المسلم والحاجة وغلظ ورش اللام من أظلم بعد الظاء (لهم في الدنيا خزى) اى هوان بالقتل والسبي والجزية (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) بكفرهم وظلمهم وهو النار * ونزل لما عيرت اليهود المؤمنين في نسخ القبلة وقالوا ليست لهم قبلة معلومة فتارة يستقبلون هذا وتارة هذا كما قاله عكرمة او في صلاة النافلة على الراحلة في السفر حيثما توجهت به راحلته كما قاله ابن عمر (ولله المشرق والمغرب) اى ناحيتا الارض اى له الارض كلها لا يختص به مكان دون مكان فان منعتم ان تصلوا في المسجد الحرام والاقصى فقد جعلت لكم الارض كلها مسجدا (فأينما تولوا) وجوهكم اى جهة وهو الصدر في الصلاة (فثم) اى هنالك (وجه الله) اى قبلته كما قاله مجاهد وقال الكلبي فثم الله يعلم ويرى والوجه صلة كقوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه اى الا هو (ان الله واسع) اى غنى يعطى من السعة يسع فضله كل شيء (عليم) بتدبير خلقه * ونزل لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال مشركو العرب الملائكة بنات الله (وقالوا اتخذ الله ولدا) فقال الله تعالى ردا عليهم

عطف الافاضة بثم مع انها الافاضة من عرفات (قلت) ثم للترتيب الاخبارى لا الزمانى أو المراد بالافاضة الثانية الافاضة من مزدلفة الى منى لا من عرفات (قوله فمن تعجل في يومين) الآية (ان قلت) ما فائدة قوله فيها ومن تأخر فلا اثم عليه مع انه معلوم بالاولى مما قبله (قلت) فائدته رفع ما كان عليه الجاهلية من ان بعضهم قائل باثم المتعجل وبعضهم باثم المتأخر والمعنى لا اثم

(سبحانه) تنزيه له عن ذلك فانه يقتضى التشبيه والحاجة وسرعة الفناء وقرأ ابن عامر قالوا بغير واو قبل القاف والباقون بالواو قبل القاف (بل له ما فى السموات والارض) ملكا وخلقا ومن جملة ذلك العزير والمسيح والملائكة والملكية تنافى الولدية وعبر بما تغليبا لما لا يعقل لكثرته (كل له قانتون) اى منقادون كل بما يراد منه لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه وفى ذلك تغليب للعاقل لشرفه والآية مشعرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه الاول قوله سبحانه والثانى قوله بل له ما فى السموات والارض والثالث كل له قانتون واحتج بها الفقهاء على أن من ملك ولده عتق عليه لانه تعالى نفى الولد باثبات الملك وذلك يقتضى تنافيهما (بديع السموات والارض) اى موجدهما لا على مثال سبق وهذا وجه رابع يشعر بفساد ما قالوه أيضا لان الوالد عنصر الولد المنفصل بانفصال مادته عنه والله سبحانه وتعالى مبدع الاشياء كلها فاعل على الاطلاق منزه عن الصفات فلا يكون والدا (واذا قضى أمرا) اى أراد ايجاد شئ وأصل القضاء اتمام الشئ قولا كان كقوله تعالى وقضى ربك او فعلا كقوله تعالى فقضاهن سبع سموات واطلق على تعلق الارادة الالهية بوجود الشئ من حيث انه يوجبه (فانما يقول له كن فيكون) وهذا مجاز من الكلام وتمثيل وانما المعنى ان ما قضاه من الامور وأراد كونه فانما يكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف كما ان المأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الاباء وفيه تقرير لمعنى الابداع دائما وهذا وجه خامس يشعر بفساد ما قالوه أيضا لان اتخاذ الولد مما يكون باطوار ومهلة وفعله تعالى مستغن عن ذلك وقرأ ابن عامر بنصب النون من يكون جوابا للامر والباقون بالرفع على معنى فهو يكون (فان قيل) المعدوم لا يخاطب (أجيب) بانه لما قدر وجوده وهو كائن لا محالة كان كالموجود فصح خطابه (وقال الذين لا يعلمون) للنبى صلى الله عليه وسلم وهم اليهود كما قاله ابن عباس أو النصارى كما قاله مجاهد أو مشركو العرب كما قاله قتادة ونفى عنهم العلم لانهم لم يعملوا به (لولا) أى هلا (يكلمنا الله) كما يكلم الملائكة أو يوحى الينا بانك رسوله (او تأتينا آية) اى علامة مما اقترحناه على صدقك (كذلك) اى كما قال هؤلاء (قال الذين من قبلهم) من كفار الامم الماضية لانبيائهم (مثل قولهم) من التعنت وطلب الآيات فقالوا أرنا الله جهرة وهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء (تشابهت قلوبهم) اى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى الكفر والعناد وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) الحقائق ولا يعتريهم شبهة ولا عناد وفيه اشارة الى انهم قالوا ذلك لا لخفاء فى الآيات او لطلب مزيد يقين وانما قالوه عتوا وعنادا (انا أرسلناك) يا محمد (بالحق) اى القرآن كما قاله ابن عباس كما قال تعالى بل كذبوا بالحق لما جاءهم أو الاسلام وشرائعه كما قاله ابن كيسان قال تعالى وقل جاء الحق (بشيرا) اى مبشرا من أجاب الى ذلك بالجنة (ونذيرا) اى منذرا من لم يجب اليه بالنار اى انما ارسلناك لان تبشر وتنذر لا لتجبر الناس على الايمان وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم ويضيق صدره لاصرارهم وتصميمهم على الكفر (ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) اى النار وهم الكفار ما لهم لم يؤمنوا بعد ان بينت و بلغت جهدك فى دعوتهم كقوله تعالى فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب وقرأ نافع تسأل بفتح التاء وسكون اللام على النهى قال عطاء عن ابن

عباس

على المتأخر فى ترك الاخذ بالرخصة مع ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب ان تؤتى عزائمه (فان قلت) التعجيل فى اليوم الثانى لا فيه وفى اليوم الاول كيف قال فى يومين (قلت) لان المعنى فى مجموع اليومين الصادق باحدهما وهو الثانى كما فى قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وهما لا يخرجان الا من الملح لا من العذب (قوله أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل

عباس وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ليت شعري ما فعل أبواي فنزلت هذه الآية فنهي عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله تعالى لكن الخبر ضعيف والمختار انها نزلت في كفار أهل الكتاب وقرأ الباقون بضم التاء واللام على النفي اي ولست بمسؤل عنهم كما قال تعالى فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) أي دينهم اي لن ترضى عنك اليهود الا باليهودية ولا النصارى الا بالنصرانية وفي هذا مبالغة في اقناطه صلى الله عليه وسلم عن اسلامهم وذلك انهم كانوا يسالونه الهدنة ويطمعونه انه ان أمهلهم اتبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية فانهم اذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فكيف يتبعون ملته قال البيضاوي ولعلهم قالوا مثل ذلك فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولذلك قال (قل) تعليما للجواب (ان هدى الله) الذي هو الاسلام (هو الهدى) اي هو الذي يصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وما يدعون الى اتباعه ما هو بهدى انما هو أهواء ألا ترى الى قوله تعالى (ولئن) اللام لام القسم (اتبعت أهواءهم) اي آراءهم الزائغة التي يدعونك اليها الخطاب معه صلى الله عليه وسلم والمراد منه أمته كقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك (بعد الذي جاءك من العلم) أي من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة (ما لك من الله من ولي) يحفظك (ولا نصير) يمنعك منه * ونزل في جماعة من أهل الكتاب قدموا من الحبشة وأسلموا (الذين آتيناهم الكتاب) وهو مبتدا (يتلونه حق تلاوته) اي يقرؤنه كما أنزل لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والجملة حال مقدرة وحق نصب على المصدر والخبر (أولئك يؤمنون به) اي بكتابهم دون المحرفين (ومن يكفر به) اي بالكتاب المؤتى بأن يحرفه (فأولئك هم الخاسرون) لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم * ولما صدر قصة بني اسرائيل بالامر بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر عن اضاعتها والخوف من الساعة وأحوالها في قوله تعالى يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي الخ كرر ذلك بقوله تعالى (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين) اي عالمي زمانهم (واتقوا) اي خافوا (يوما لا تجزي) اي لا تغني (نفس عن نفس) فيه (شيأ ولا يقبل منها عدل) اي فداء (ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) اي يمنعون من عذاب الله وختم بالمكرر الكلام معهم مبالغة في النصح * (تنبيه) * اتفق القراء على قراءة يقبل هنا بالياء على التذكير (و) اذكر (اذ ابتلى) اي اختبر (ابراهيم ربه بكلمات) أي بأوامر ونواه وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء لانه عالم بهم ولكن ليعلم العباد احوالهم حتى يعرف بعضهم بعضا * واختلفوا في الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها ابراهيم عليه الصلاة والسلام فقال عكرمة عن ابن عباس هي ثلاثون من شرائع الاسلام عشر في براءة التائبون العابدون الخ وعشر في الاحزاب ان المسلمين والمسلمات الخ وعشر في المؤمنين الى قوله والذين هم على صلواتهم يحافظون وفي سأل سائل الى قوله تعالى والذين هم بشهاداتهم قائمون وقال طاوس عن ابن عباس ابتلاه الله تعالى بعشرة أشياء هي الفطرة خمس في الرأس اي الشامل للوجه قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وخمس في الجسد تقليم الاظافر ونتف الابط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء وفي الخبر ان ابراهيم

الذين خلوا من قبلكم) قال ذلك هنا وقال في آل عمران أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم الآية وفي التوبة أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم الآية مغاير بما ذكر في الثالثة لان الخطاب في الاولى للنبي والمؤمنين وفي الثانية للمجاهدين وفي الثالثة للمؤمنين (قوله يسئلونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم) الآية (ان قلت) كيف

أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الاظافر وأول من رأى الشيب فلما رآه قال يارب ماهذا قال الوقار قال يارب زدني وقارا وقال قتادة هي مناسك الحج أي فرائضه وسننه كالطواف والسعي والرمي والاحرام والتعريف وغيرهن وقال الحسن ابتلاه بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فيها النظر وعلم أن ربه دائم لايزول وبالنار فصبر عليها وبالختان وبذبح ولده وبالهجرة فصبر عليها وقال مجاهد هي الآيات التي بعدها في قوله تعالى اني جاعلك للناس اماما الى آخر القصة وقرأ ابن عامر ابراهام بفتح الهاء وألف بعدها جميع مافي هذه السورة وهي خمسة عشر حرفا وفي النساء ثلاثة أحرف وهي الاخيرة وفي الانعام الحرف الاخير وفي التوبة الحرفان الاخيران وفي ابراهيم حرف وفي النحل حرفان وفي مريم ثلاثة أحرف وفي العنكبوت حرف وفي الشورى حرف وفي الذاريات حرف وفي النجم حرف وفي الحديد حرف وفي الممتحنة الحرف الاول فذلك ثلاثة وثلاثون حرفا وقرأ ابن ذكوان في البقرة خاصة بالوجهين وابراهيم اسم أعجمي ولذلك كان غير منصرف وهو ابن آزر كما في سورة الانعام وكان مولده بالسوس من أرض الاهواز وقيل بابل وقيل حران ولكن نقله أبوه الى بابل أرض نمروذ بن كنعان والضمير في ربه لابراهيم وحسن لتقدمه لفظا وان تأخر رتبة لان الشرط تقدمه لفظا أو رتبة (فأتمهن) أي أداهن تامات وقام بها حق القيام لقوله وابراهيم الذي وفى (قال اني جاعلك للناس اماما) يقتدى بك في الخير وجاعل من جعل الذي له مفعولان والامام اسم من يؤتم به وامامة ابراهيم عامة مؤبدة اذ لم يبعث من بعده نبي الا كان من ذريته مأمورا باتباعه (قال) ابراهيم صلى الله عليه وسلم (ومن ذريتي) اي أولادي اجعل أئمة يقتدى بهم في الخير (قال) الله تعالى (لاينال) أي لايصيب (عهدي) بالامامة (الظالمين) منهم ففي ذلك اجابة الى مطلوبه وتنبيه على انه قد يكون من ذريته ظلمة وانهم لاينالون الامامة لانها امانة من الله تعالى وعهد والظالم لايصلح لها وانما ينالها البررة والاتقياء منهم وفيه دليل على عصمة الانبياء من الكبائر قبل النبوة وأن الفاسق لايصلح للامامة وكيف يصلح لها من لايجوز حكمه وشهادته ولاتجب طاعته ولايقبل خبره ولايقدم للصلاة وقرأ حفص وحمزة عهدي بسكون الياء وفتحها الباقون ومن سكن الياء أسقطها في الوصل لفظا لالتقاء الساكنين (و) اذكر (اذ جعلنا البيت) أي الكعبة غلب عليها كالنجم على الثريا وأدغم أبو عمرو وهشام ذال اذ في الجيم وأظهرها الباقون (مثابة) أي مرجعا (للناس) من الحجاج والعمار وغيرهم يثوبون اليه من كل جانب (وأمنا) اي مأمنا لهم من الظلم وايذاء المشركين والاغارة الواقعة في غيره قال تعالى أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم كان الجاني يأوي اليه فلا يتعرض له حتى يخرج وهذا على طريق الحكم لا على وجه الخبر فقط فلا ينافي ذلك الوقوع قال القاضي أبو يعلى وصف البيت بالامن والمراد جميع الحرم كما قال تعالى هديا بالغ الكعبة والمراد الحرم كله لانه لايذبح في الكعبة ولا في المسجد الحرام (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وهذا أمر استحباب ومقامه الحجر وهو بفتح الحاء والجيم الذي فيه أثر قدميه كان يقوم عليه عند بناء البيت أو عند دعاء الناس الى الحج وهو موضعه اليوم روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر فقال هذا مقام ابراهيم فقال عمر أفلا نتخذه مصلى فقال لم أومر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت وعن ابن عباس انه قال قال عمر

طابق الجواب السؤال لانهم سألوا عن المنفق فاجيبوا ببيان المصرف (قلت) بل طابقه بقوله من خير وزاد عليه بيان المصرف بما بعده فالجواب أعم ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الوضوء بماء البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته (قوله لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) ذكر في الدنيا والآخرة هنا وتركه في آخر السورة وفي الانعام اختصارا للعلم به عما هنا (قوله ولاتنكحوا المشركات)

ابن

ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه وافقت الله تعالى فى ثلاث ووافقنى ربى فى ثلاث فقلت يارسول الله لو اتخذت مقام ابراهيم مصلى فأنزل الله تعالى هذه الآية وقلت يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر لو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله تعالى آية الحجاب قال وبلغنى معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن وقلت لهن ان انتهيتن أو ليبدلن الله تعالى لرسوله خيرا منكن فأنزل الله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن وفى الخبر الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ولولا مامسهما من أيدى المشركين لاضاءتا ما بين المشرق والمغرب وقيل المراد باتخذوا الخ الامر بركعتى الطواف لما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من طوافه عمد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وللشافعى فى وجوبهما قولان أرجحهما عدم الوجوب وقيل مقام ابراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج واتخاذها مصلى أن يدعى فيها ويتقرب الى الله تعالى *(تنبيه)* من فى من مقام ابراهيم للتبعيض (وقيل) بمعنى فى وقيل زائدة وقرأ نافع وابن عامر واتخذوا بفتح الخاء بلفظ الماضى عطفا على جعلنا أى واتخذ الناس من مقام ابراهيم مصلى والباقون بكسرها بلفظ الامر (وعهدنا) أى أمرنا (الى ابراهيم واسمعيل) قيل سمى به لان ابراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولدا ويقول اسمع يا ايل وايل هو الله فلما رزق الولد سماه به (أن) أى بأن (طهرا بيتى) من الاوثان والانجاس ومالا يليق به أو اخلصاه (للطائفين) حوله (والعاكفين) المقيمين عنده او المعتكفين فيه (والركع السجود) جمع راكع وساجد وهم المصلون وقرأ نافع وهشام وحفص بيتى بفتح الياء والباقون بالسكون (و) اذكر (اذ قال ابراهيم رب اجعل هذا) أى مكة أو الحرم (بلدا آمنا) أى ذا أمن كقوله تعالى فى عيشة راضية أو آمنا أهله كقول القائل ليل نائم (وارزق أهله من الثمرات) انما دعا بذلك لانه كان بواد غير ذى زرع وفى القصص ان الطائف كانت من مدائن الشام باردن فلما دعا ابراهيم هذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل عليه الصلاة والسلام حتى قطعها من أصلها وأدارها حول البيت سبعا ثم وضعها موضعها الآن فمنها أكثر ثمرات مكة وقوله تعالى (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) بدل من أهله قاس ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه الرزق على الامامة حيث قيده بالمؤمن كما قيدت به (قال) تعالى (و) ارزق (من كفر) لان الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر بخلاف الامامة والتقدم فى الدين (فأمتعه) فى الدنيا بالرزق وقرأ ابن عامر بسكون الميم وتخفيف التاء والباقون بفتح الميم وتشديد التاء وأما الهمزة بعد الالف فالجميع اتفقوا على ضمها (قليلا) أى مدة حياته والكفر وان لم يكن سبب التمتع لكنه سبب تقليله بأن يجعله مقصورا بحظوظ الدنيا غير متوصل به الى نيل الثواب ولذلك عطف عليه (ثم اضطره) أى ألجئه فى الآخرة (الى عذاب النار) فلا يجد عنها محيصا (وبئس المصير) أى المرجع والمخصوص بالذم محذوف وهو العذاب قال مجاهد وجد عند المقام أنا الله ذو بكة أى صاحبها صنعتها يوم خلقت الشمس والقمر وحرمتها يوم خلقت السموات والارض وحففتها بسبعة املاك حنفاء يأتيها رزقها مباركا لاهلها فى اللحم والماء (و) اذكر (اذ يرفع ابراهيم القواعد) أى الاسس والجدر (من البيت) حكاية حال ماضية كأنه قال اذ كان

بفتح التاء هنا وبضمها فى قوله ولا تنكحوا المشركين لان الاول من نكح وهو يتعدى الى مفعول واحد والثانى من أنكح وهو يتعدى الى اثنين الاول فى الآية المشركين والثانى محذوف وهو المؤمنات (قوله ولا تمسكوهن) هو هنا بالتخفيف من امسك وفى الممتحنة بالتخفيف والتشديد لمناسبة تخفيف ما هنا ما قبله من قوله فامساك وقوله فأمسكوهن ومناسبة تخفيف وتشديد ما هناك

يرفع (فان قلت) وأى فرق بين العبارتين (أجيب) بان فى ابهام القواعد وتبيينها بعد الابهام ما ليس فى اضافتها لما فى الايضاح بعد الابهام من تفخيم شأن المبين وقوله تعالى (واسمعيل) عطف على ابراهيم يقولان يا (ربنا تقبل منا) بناءنا (انك أنت السميع) للقول فتسمع دعاءنا (العليم) بالفعل فتعلم بنيا تنا روت الرواة ان الله تعالى خلق موضع البيت قبل الارض بألفى عام فكانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت الارض من تحتها فلما اهبط الله تعالى آدم الى الارض استوحش فشكا الى الله تعالى فأنزل الله تعالى البيت المعمور من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقى وباب غربى فوضعه على موضع البيت وقال يا آدم انى أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى حول عرشى وأنزل الحجر الاسود وكان أبيض فاسود من لمس الحيض فى الجاهلية فتوجه آدم من أرض الهند الى مكة ماشيا وقيض الله تعالى له ملكا يدله على البيت فحج البيت وأقام المناسك قال ابن عباس حج آدم أربعين حجة من الهند الى مكة على رجليه فكان على ذلك الى أيام الطوفان فرفعه الله تعالى الى السماء الرابعة يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون اليه وبعث جبريل حتى خبأ الحجر الاسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا الى زمن ابراهيم ثم ان الله تعالى أمر ابراهيم بعدما ولد له اسمعيل واسحق ببناء بيت يذكر فيه اسمه تعالى فسأل الله عز وجل ان يبين له موضعه قال ابن عباس فبعث الله له سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وابراهيم يمشى فى ظلها الى ان وافت به مكة ووقفت على موضع البيت فنودى منها ابراهيم ان ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص وقيل أرسل الله تعالى جبريل ليدله على موضع البيت فذلك قوله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت فبنى ابراهيم واسمعيل البيت فكان ابراهيم يبنيه واسمعيل يناوله الحجارة ولما كان له مدخل فى البناء عطف عليه وقيل كانا يبنيان فى طرفين اوعلى التناوب قال ابن عباس بنى البيت من خمسة اجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشأم والجودى وهو جبل بالجزيرة وبنيا قواعده من جبل حراء وهو جبل بمكة فلما انتهى ابراهيم الى موضع الحجر الاسود قال لاسمعيل ائتنى بحجر حسن يكون للناس علما فأتاه بحجر فقال ائتنى بأحسن من هذا فمضى اسمعيل يطلبه فصاح أبو قبيس يا ابراهيم ان لك عندى وديعة فخذها فأخذ الحجر الاسود فوضعه مكانه وقيل أول من بنى الكعبة آدم ثم اندرس من الطوفان ثم أظهره الله تعالى لابراهيم حتى بناه وقيل بنته الملائكة قبل آدم وقد بنى الى يومنا هذا سبع مرات المرة الاولى هل كان البانى الملائكة اوآدم ثم ابراهيم ثم العمالقة ثم جرهم ثم قريش وقد حضر النبى صلى الله عليه وسلم هذا البناء وكان ينقل معهم الحجارة ثم ابن الزبير فى خلافته ثم الحجاج الثقفى وهو الموجود اليوم (ربنا واجعلنا مسلمين) اى منقادين مخلصين خاضعين (لك) والمراد طلب الزيادة فى الاخلاص والاذعان (و) اجعل (من ذريتنا) اى اولادنا (أمة) اى جماعة (مسلمة) خاضعة منقادة (لك) ومن للتبعيض اى واجعل بعض ذريتنا وانما خصا الذرية بالدعاء لانهم احق بالشفقة ولان أولاد الانبياء اذا صلحوا صلح بهم الاتباع الاترى ان المتقدمين من العلماء والكبراء اذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم وخصا بعضهم لتقدم قوله تعالى لا ينال

ماقبله من قوله ولم يخرجوكم وقوله أن تبروهم وخفف فى الطلاق قوله فامسكوهن لمناسبة تخفيفه ماقبله من قوله لاتخرجوهن (قوله وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم) فان قلت اعزمهم الطلاق مما يعلم لا مما يسمع فكيف قال ان الله سميع (قلت) العازم على الشئ يحدث به نفسه وحديث النفس مما يسمعه الله ووسوسة الشيطان مع أن الغالب فى عزم الطلاق المقاولة

عهدى الظالمين فعلما ان فى ذريتهما ظلمة وان الحكمة الالهية لاتقتضى اتفاق الناس كلهم على الاخلاص والاقبال الكلى على الله تعالى فانه مما يشوش المعاش ولذلك قيل لولا الحمق الذين صرفوا انفسهم الى الدنيا لخربت الدنيا و يصح ان تكون من للتبيين كقوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم قدم على المبين وفصل به بين العاطف وهو واو ومن والمعطوف وهو امة كما فى قوله تعالى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن وقيل أراد بالامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (وأرنا) علمنا (مناسكنا) شرائع ديننا واعلام حجنا والنسك فى الاصل غاية العبادة وشاع فى الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن المعتاد كالصيد والتمتع باللباس وغيره والناسك العابد فأجاب الله تعالى دعاءهما و بعث اليهما جبريل عليه السلام فأراهما المناسك فى يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال عرفت يا ابراهيم قال نعم فسمى الوقت عرفة والموضع عرفات وقرأ ابن كثير والسوسى أرنا بسكون الراء وقرأ الدورى عن أبى عمرو باختلاس حركة الراء والباقون بالحركة الكاملة (وتب علينا) سألاه التوبة مع عصمتهما هضما لانفسهما وارشادا لذريتهما أو لما سلف منهما سهوا قبل النبوة (انك أنت التواب) لمن تاب (الرحيم) به (ربنا وابعث فيهم) أى الامة المسلمة من ذرية ابراهيم واسمعيل (رسولا منهم) اى من أنفسهم روى انه قيل له قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان فبعث الله فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم اذلم يبعث من ذريتهما غير محمد صلى الله عليه وسلم اذلم يأت نبى من ولد اسمعيل الا النبى صلى الله عليه وسلم والكل من ولد اسحق فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام انى عند الله مكتوب خاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم بأول أمرى انا دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى وقد خرج لها نور أضاءت له قصور الشأم وأراد بدعوة ابراهيم هذا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كل الانبياء من بنى اسرائيل الا عشرة نوح وهود وشعيب وصالح ولوط وابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين (يتلو) أى يقرأ (عليهم آياتك) القرآن ويبلغهم ما يوحى اليه من دلائل التوحيد والنبوة (ويعلمهم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى ما تكمل به نفوسهم من المعارف والاحكام وقال ابن قتيبة هى العلم والعمل ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما وقال أبو بكر بن دريد كل كلمة وعظتك أو دعتك الى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة وقيل هى فهم القرآن وقيل الفقه فى الدين وقيل السنة (ويزكيهم) أى يطهرهم من الشرك وقيل يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة اذا شهدوا هم للانبياء بالتبليغ والتعديل (انك أنت العزيز) الذى لا يقهر ولا يغلب على ما يريد وقيل هو الذى لا يوجد مثله وقيل هو المنيع الذى لا تناله الايدى ولا يصل اليه شئ (الحكيم) فى صنعه (ومن) اى لا (يرغب) أحد (عن ملة ابراهيم) فيتركها لظهورها ووضوحها (الا من سفه نفسه) اى جهل انها مخلوقة لله تعالى يجب عليه عبادته وذلك ان عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا الى الاسلام فقال لهما قد علمتما ان الله عز وجل قال فى التوراة انى باعث من ولد اسمعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية قاله البيضاوى وغيره قال الاسيوطى لم أقف على ذلك فى شئ من كتب الحديث ولا

(قوله مع الزوجة وبعولتهن أحق بردهن) افعل ههنا بمعنى فاعل (قوله ذلك يوعظ به من كان منكم) قال ذلك هنا وقال فى الطلاق ذلكم يوعظ به من كان يؤمن لما كان كاف ذلك لمجرد الخطاب لا محل لها من الاعراب جاز الاقتصار على الواحد كما هنا وكما فى عفونا عنكم من بعد ذلك وجاز الجمع نظرا للمخاطبين كما فى الطلاق (فان قلت) لم ذكر منكم

التفاسير المسندة والمثبت مقدم على غيره وقد جاء من عرف نفسه فقد عرف ربه وفي الاخبار ان الله أوحى الى داود عليه الصلاة والسلام اعرف نفسك واعرفني فقال يارب كيف أعرف نفسي وأعرفك فأوحى الله تعالى اليه اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء واعرفني بالقوة والبقاء وهذا معنى من عرف نفسه فقد عرف ربه (ولقد اصطفيناه) أي اخترناه (في الدنيا) بالرسالة والخلة (وانه في الآخرة لمن الصالحين) الذين لهم الدرجات العلا وفي هذا حجة وبيان لخطاء من رغب عن ملته لان من جمع الكرامة عند الله في الدارين وكان مشهودا له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عنه الا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والاعراض عن النظر * (تنبيه) * قال الحسين بن الفضل في الآية تقديم وتأخير تقديره ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وانه لمن الصالحين وقوله تعالى (اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) اما ظرف لاصطفيناه أي اخترناه في ذلك الوقت واما منصوب باضمار اذكر كأنه قال اذكر ذلك الوقت ليعلم انه المصطفى الصالح المستحق للامامة والتقدم وانه نال ما نال بالمبادرة الى الاذعان واخلاص السر حين دعاه ربه فكأنه قال له كما قال عطاء أسلم نفسك الى الله عز وجل وفوض أمرك اليه قال أسلمت أي فوضت قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقي في النار (ووصى بها) أي بالملة المتقدم ذكرها أو بأسلمت على تأويل الكلمة او الجملة وقيل بكلمة الاخلاص وهي لا اله الا الله وقرأ نافع وابن عامر وأوصى بسكون الواو الثانية وهمزة مفتوحة بين الواوين والباقون بواوين مفتوحتين ولا همزة بينهما وهذا أبلغ قال الزجاج لان أوصى يصدق بالمرة الواحدة ووصى لا يكون الا لمرات كثيرة وأمال ورش بين بين وحمزة والكسائي محضة والباقون بالفتح وقوله تعالى (ابراهيم بنيه) قال مقاتل وهم أربعة اسمعيل واسحق ومدين ومدان وقد ذكر غير مقاتل انهم ثمانية وقيل أربعة عشر (و) وصى بها أيضا (يعقوب) بنيه وهم اثنا عشر روبيل وشمعون ولاوا ويهوذا ويشنيوخور وزبويلون ودان ويفتوني وكودا وأوشير وبنيامين ويوسف وسمي بذلك لانه والعيص كانا توأمين فتقدم عيص في الخروج من بطن أمه وخرج يعقوب عقبه وقوله تعالى (يا بني) على اضمار القول عند البصريين متعلق بوصى عند الكوفيين (ان الله اصطفى لكم الدين) اي دين الاسلام الذي هو صفوة الاديان لقوله تعالى (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) نهي عن ترك الاسلام وأمر بالثبات عليه الى مصادفة الموت وعن الفضيل بن عياض انه قال الا وأنتم مسلمون أي محسنون بربكم الظن لما روى جابر رضي الله عنه انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول لا يموتن أحد الا وهو يحسن الظن بربه * ولما قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية نزل (أم كنتم شهداء) جمع شهيد بمعنى الحاضر أي ما كنتم حاضرين وقول الاسيوطي لم أقف على ذلك فيه ما مر (اذ حضر يعقوب الموت) أي حين احتضر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الهمزة الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والياء والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (اذ) بدل من اذ قبله (قال لبنيه ما تعبدون من بعدي) اي بعد موتي اي أي شيء تعبدونه أراد به تقريرهم على التوحيد والاسلام وأخذ

هنا وترك ثم (قلت) لترك ذكر الخاطبين هنا في قوله ذلك واكتفى بذكرهم ثم في قوله فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) قال في هذه الآية بالمعروف وقال في الآية الاخرى من معروف لان التقدير في هذه فيما فعلن في أنفسهن بامر الله وهو المعروف من الشرع وفي تلك فيما فعلن في أنفسهن من فعل من أفعالهن معروف جوازه شرعا وقوله

ميثاقهم على الثبات فليس الاستفهام على حقيقته قال عطاء ان الله تعالى لم يقبض نبيا حتى يخيره بين الموت والحياة فلما خير يعقوب قال أنظرنى حتى أسأل ولدى وأوصيهم ففعل الله ذلك به فجمع ولده وولد ولده وقال لهم قد حضر أجلى فما تعبدون من بعدى (قالوا نعبد الهك واله آبائك) وقوله تعالى (ابراهيم واسمعيل واسحق) عطف بيان لآبائك وجعل اسمعيل وهو عمه من جملة آبائه تغليبا للاب اسحق والجد ابراهيم أولان العم أب والخالة أم لانخراطهما فى سلك واحد وهو الاخوة لا تفاوت بينهما ومنه قوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه أى لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوى النخلة وقال فى العباس هذا بقية آبائى وقال ردوا على أبى فانى أخشى ان تفعل بى قريش مافعلت ثقيف بعروة بن مسعود وقوله تعالى (الها واحدا) بدل من اله آبائك كقوله تعالى بالناصية ناصية كاذبة وقوله تعالى (ونحن له مسلمون) حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيه للانكار أى لم يحضروه وقت موته فكيف ينسبون اليه مالا يليق به أو متصلة بمحذوف تقديره أكنتم غائبين أم كنتم شهداء وقيل الخطاب للمؤمنين بمعنى ماشهدتم ذلك وانما حصل لكم العلم به من طريق الوحى وقوله تعالى (تلك) مبتدأ والاشارة الى الامة المذكورة التى هى ابراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون وأنث لتأنيث خبره وهو (أمة قد خلت) اى سلفت وقوله تعالى (لها ما كسبت) اى من العمل جزاؤه استئناف (ولكم) الخطاب لليهود (ما كسبتم) والمعنى ان احدا لا ينفعه كسب غيره متقدما كان أو متأخرا فكما ان أولئك لا ينفعهم الا ما كسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم الا ما كسبتم وذلك انهم افتخروا بأوائلهم ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) كما لا يسئلون عن عملكم والجملة تأكيد لما قبلها (وقالوا) اى اهل الكتاب (كونوا هودا أو نصارى) اى قالت اليهود كونوا هودا وقالت النصارى كونوا نصارى فأو للتفصيل قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزلت فى رؤس يهود المدينة وفى نصارى نجران وذلك انهم خاصموا المسلمين فى الدين كل فرقة تزعم انها أحق بدين فقالت اليهود نبينا موسى افضل الانبياء وكتابنا التوراة افضل الكتب وديننا أفضل الاديان وكفرت بعيسى والانجيل وبمحمد والقرآن وقالت النصارى نبينا عيسى أفضل الانبياء وكتابنا الانجيل أفضل الكتب وديننا أفضل الاديان وكفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقال كل من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين الا ذلك وقوله تعالى (تهتدوا) جواب الامر وهو كونوا قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (بل) نتبع (ملة ابراهيم) وقال الكسائى هو نصب على الاغراء كأنه يقول اتبعوا ملة ابراهيم وقيل معناه بل نكون على ملة ابراهيم فحذف على فصار منصوبا وقوله تعالى (حنيفا) حال من المضاف اليه كقولك رأيت وجه هند قائمة لكن هذا جزء حقيقة وملة كالجزء والحنيف المائل عن كل دين باطل الى دين الحق وقوله تعالى (وما كان من المشركين) تعريض لاهل الكتاب وغيرهم لان كلا منهم يدعى اتباع ابراهيم وهو على الشرك (قولوا آمنا بالله) خطاب للمؤمنين وقول الكشاف ويجوز ان يكون خطابا للكافرين اى قولوا لتكونوا على الحق والا فانتم على الباطل وكذلك قوله تعالى قل بل ملة ابراهيم يجوز ان يكون على تأويل اتبعوا ملة ابراهيم

ان موتوا ثم أحياهم) قلت هذا يقتضى موتهم مرتين وهو مناف للمعروف ان موت الخلق مرة واحدة (قلت) لا منافاة اذ الموت هنا عقوبة مع بقاء الاجل كما فى قوله فى قصة موسى ثم بعثناكم من بعد موتكم وثم موت بانتهاء الاجل ولان الموت هنا خاص بقوم وثم عام فى الخلق كلهم فيكون ماهنا مستثنى اظهارا للمعجزة (قوله ولكن أكثر الناس

او كونوا أهل ملته يرد، قوله تعالى فان آمنوا بمثل ما آمنتم به (وما انزل الينا) اى من القرآن وانما قدم ذكره لانه اول الكتب بالنسبة الينا ولانه سبب للايمان بغيره (وما انزل الى ابراهيم) من الصحف العشرة (واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) جمع سبط وهو الحافد وكان الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد حفدة يعقوب ابناؤه وذراريهم فانهم حفدة ابراهيم واسحق (فان قيل) الصحف انما انزلت على ابراهيم (اجيب) بانهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت احكامها كانت أيضا منزلة اليهم كما ان القرآن منزل الينا (وما أوتى موسى) من التوراة (و) ما اوتى (عيسى) من الانجيل (فان قيل) لم افرد التوراة والانجيل بحكم ابلغ وهو الايتاء لانه ابلغ من الانزال لكونه مقصودا منه ولم يقل والاسباط وموسى وعيسى (اجيب) بأن امرهما بالاضافة الى موسى وعيسى مغاير لما سبق والنزاع وقع فيهما فلهذا افردا بالذكر (وما أوتى) اى اعطى (النبيون) اى المذكورون (من ربهم) من الكتب والآيات وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء ولورش فى الهمز المد والتوسط والقصر (لانفرق بين أحد منهم) كاليهود والنصارى فنؤمن ببعض ونكفر ببعض بل نؤمن بجميعهم (فان قيل) كيف صح اضافة بين الى احد وهو مفرد (اجيب) بانه فى معنى الجماعة وعلله السعد التفتازانى بانه اسم لمن يصلح ان يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث قال ويشترط أن يكون استعماله مع كلمة كل اوفى كلام غير موجب (ونحن له) اى لله (مسلمون) اى مذعنون اى مخلصون روى عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه انه قال كان اهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما انزل الينا الآية وقوله تعالى (فان آمنوا) اى اليهود والنصارى (بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) من باب التعجيز والتبكيت كقوله تعالى فأتوا بسورة من مثله لان دين الحق واحد لامثل له وهو دين الاسلام قال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه واما ان مثل صلة اى آمنوا بما آمنتم به كقوله تعالى ليس كمثله شئ اى ليس كهو شئ وكما فى قوله تعالى وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله اى عليه وقيل الباء صلة كما فى قوله تعالى وهزى اليك بجذع النخلة وقيل معناه فان آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا (وان تولوا) اى أعرضوا عن الايمان به (فانما هم فى شقاق) اى فى خلاف ومنازعة معكم يقال شاق مشاقة اذا خالف كان كل واحد من المتخالفين يحرص على كل مايشق على صاحبه (فسيكفيكهم الله) يامحمد شقاقهم فى ذلك تسلية وتسكين للمؤمنين ووعد لهم بالحفظ والنصر على من عاداهم وقد كفاه اياهم بقتل بنى قريظة ونفى بنى النضير وضرب الجزية على اليهود والنصارى وقوله تعالى (وهو السميع العليم) امامن تمام الوعد بمعنى انه يسمع اقوالكم ويعلم اخلاصكم وهو مجازيكم لامحالة واما وعيد للمعرضين بمعنى انه يسمع مايبدون ويعلم مايخفون وهو معاقبهم عليه ولا مانع من حمل الكلام على الوعد والوعيد معا (صبغة الله) اى دينه الذى فطر الناس عليه بظهور أثره على صاحبه كالصبغ للثوب أو للمشاكلة فان النصارى كانوا اذا ولدلهم ولد واتى عليه سبعة ايام غمسوه فى ماء لهم اصفر يقال له المعمودية ويقولون

(لايشكرون) ٣ لان مافى الثلاثة الاولى لم يتقدمه كثرة تكرر لفظ الناس فناسب الاظهار ومافى يونس تقدمه ذلك فناسب الاضمار لئلا تزيد كثرة التكرار ومافى النمل تقدمه اضمار الموحى اليه ومخاطبته فناسب الاضمار وبعضهم أجاب بمافيه نظر فتركته (قوله ولوشاء الله مااقتتل الذين من بعدهم) كرره بقوله ولوشاء الله مااقتتلوا

٣ قوله لان مافى الثلاثة الخ هكذا بالاصل الذى بأيدينا وفيه سقط ولعل العبارة انما ذكر لفظ الناس هنا وفى يوسف والمؤمن وتركه فى يونس والنمل لان مافى الثلاثة الاولى الخ كمايؤخذ من الكرمانى فى سورة يونس وان اختلف التنكيت اه

هو تطهير لهم مكان الختان فاذا فعلوا به ذلك قالوا الآن صار نصرانيا حقا فأمر المسلمون بان يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالايمان صبغة لا مثل صبغتكم وطهرنا به تطهيرا لا مثل تطهيركم او يقول المسلمون صبغنا الله بالايمان صبغة ولا نصبغ صبغتكم وهو مصدر مؤكد لآمنا ونصبه بفعل مقدر اى صبغنا الله تعالى وقيل نصب على البدل من ملة ابراهيم وقيل نصب على الاغراء (ومن) اى لا احد (احسن من الله صبغة) اى لا صبغة احسن من صبغته اى لا دين احسن من دينه وصبغة تمييز وقوله تعالى (ونحن له عابدون) عطف على آمنا بالله قال الزمخشرى وهذا العطف يرد قول من زعم ان صبغة الله بدل من ملة ابراهيم او نصب على الاغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم واخراج الكلام عن التئامه واتساقه وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذى ذكره سيبويه والقول ما قالت حذام اهـ نعم ان قدر قولوا فى ونحن له عابدون معطوفا على الزموا بتقدير الاغراء أو اتبعوا ملة ابراهيم بتقدير البدل لم يلزم ما قاله ولما قالت اليهود للمسلمين نحن أهل الكتاب الاول وقبلتنا أقدم ولم تكن الانبياء من العرب لانهم عبدة الاوثان ولو كان محمد نبيا لكان منا الا انا أهل الكتاب نزل (قل) لهم (أتحاجوننا) اى تجادلوننا وتخاصموننا (فى الله) اى فى شأنه ان اصطفى النبى صلى الله عليه وسلم من العرب دونكم ويقولون لو أنزل الله على أحد لانزل علينا وترون انكم أحق بالنبوة منا (وهو ربنا وربكم) نشترك جميعا فى أنا عباده وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده هم فوضى فى ذلك لا يختص به عجمى دون عربى اذا كان أهلا للكرامة (ولنا أعمالنا) نجازى بها (ولكم أعمالكم) تجازون بها اى كما ان لكم أعمالا يعتبرها الله فى اعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك فالعمل هو أساس الامر وبه العبرة (ونحن له مخلصون) فى الدين والعمل دونكم فنحن أولى بالاصطفاء فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل اخلاصه لكرامته بالنبوة والهمزة للانكار والجمل الثلاث أحوال وقرأ أبو عمرو بادغام النون فى اللام بخلاف عنه وله فيه الروم والاشمام وقوله تعالى (أم تقولون) قرأه ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة والكسائى بالتاء والباقون بالياء على الغيبة فعلى القراءة الثانية أم منقطعة والهمزة للانكار وعلى القراءة الاولى يحتمل أن تكون معادلة للهمزة فى اتحاجوننا بمعنى اى الامرين تأتون المحاجة وادعاء اليهودية والنصرانية على الانبياء فى قولكم (ان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا او نصارى قل) لهم يا محمد (أأنتم اعلم ام الله) الله اعلم وقد نفى الله تعالى الامرين عن ابراهيم بقوله تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما واحتج تعالى على ذلك بقوله تعالى وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده والمذكورون معه تبع له فهم اتباعه فى الدين وفاقا (ومن) اى لا أحد (أظلم ممن كتم) اى أخفى عن الناس (شهادة عنده) كائنة (من الله) اى شهادة الله تعالى لابراهيم بالحنيفية والبراءة عن اليهودية والنصرانية وهم أهل الكتاب لانهم كتموا هذه الشهادة وكتموا شهادة الله تعالى لمحمد بالنبوة فى كتبهم وغيرها ومن للابتداء كما فى قوله تعالى براءة من الله ورسوله اى شهادة كائنة من الله فمن الله صفة لشهادة وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد لهم وقوله تعالى (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) تكرير للمبالغة فى

تأكيدا وتكذيبا لمن زعم ان ذلك لم يكن بمشيئة الله (قوله من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) أى بغير اذن الله لقوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه وقوله ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له أو لا شفاعة من الاصنام والكواكب التى يعتقدها الكفار (قوله والكافرون هم الظالمون)

التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم وقيل الخطاب فيما سبق لهم وفي هذه الآية لنا تحذيرا عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالامة في الاول الانبياء وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى (سيقول السفهاء) اى الجهال الذين خفت أحلامهم (من الناس) وهم اليهود لكراهتهم التوجه الى الكعبة وانهم لايرون النسخ (ماولاهم) اى اى شئ صرف النبي والمؤمنين (عن قبلتهم التي كانوا عليها) وهي بيت المقدس وقيل هم المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء وقيل المشركون قالوا قد تردد على محمد أمره واشتاق الى مولده وقد توجه نحو بلدكم وهو راجع الى دينكم والاتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الاخبار بالغيب (فان قيل) مافائدة الاخبار بذلك قبل وقوعه (أجيب) بأن فائدته توطين النفس واعداد الجواب فان مفاجأة المكروه أشد والعلم به قبل وقوعه أبعد عن الاضطراب اذا وقع وقيل الرمي يراش السهم والقبلة في الاصل الحالة التي عليها الانسان ماخوذة من الاستقبال وصارت عرفا للمكان المتوجه نحوه للصلاة قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (لله المشرق والمغرب) أى الجهات كلها ملكا والخلق عبيده لايختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع اقامة غيره مقامه وانما العبرة بامتثال أمره لابخصوص المكان فما أمر بالتوجه الى أى جهة شاء لااعتراض عليه (يهدى من يشاء) هدايته (الى صراط) أى طريق (مستقيم) وهو ماتقتضيه الحكمة والمصلحة من توجيههم تارة الى بيت المقدس وأخرى الى الكعبة وقوله تعالى (وكذلك) الكاف فيه للتشبيه أى كما اخترنا ابراهيم وذريته واصطفيناهم (جعلناكم) يا أمة محمد (أمة وسطا) أى خيارا عدولا قال تعالى قال أوسطهم أى خيرهم وأعدلهم وخير الاشياء أوسطها لاافراطها ولاتفريطها لان الافراط المجاوزة لما لاينبغي والتفريط التقصير عما ينبغي كالجود بين الاسراف والبخل والشجاعة بين التهور وهو الوقوع في الشئ بقلة مبالاة وبين الجبن لان الافراد يتسارع اليها الخلل والاوساط محمية محفوظة روى عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد العصر فما ترك شيأ الى يوم القيامة الا ذكره في مقامه ذلك حتى اذا كانت الشمس على رؤس النخل وأطراف الحيطان فقال اما انه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها الا كما بقي من يومكم هذا الاوان هذه الامة توفى سبعين أمة هي أخيرها وأكرمها على الله عز وجل وقوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) أى يوم القيامة ان رسلهم بلغتهم (ويكون الرسول عليكم شهيدا) اى يزكيكم ويشهد بعدالتكم علة الجعل اى لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى مابخل على أحد ولاظلم بل أوضح السبيل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والاعراض عن الآيات فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين قبلكم وبعدكم روى أن الله تعالى يجمع الاولين والآخرين في صعيد واحد ثم يقول لكفار الامم ألم يأتكم نذير فينكرون ويقولون ماجاءنا من بشير ولانذير فيطالب الله تعالى الانبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فتقول الامم من أين علموا أنهم قد بلغوا انما أتوا بعدنا فتسئل هذه الامة فيقولون علمنا ذلك باخبار

حصر الظلم في الكافرين لان ظلمهم أشد فهو حصر اضافي كما في قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء (قوله يخرجهم من الظلمات الى النور) الآية عبر فيها بالمضارع لا بالماضي مع ان الاخراج قد وجد لمناسبة التعبير به قبله في قوله فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ولان المضارع يدل على الاستمرار فيدل هنا على استمرار ماضمنه

الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيزكى محمد صلى الله عليه وسلم يسئل
عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة
بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (فان قيل) هلا قيل لكم شهيدا اذ شهادته لهم لا عليهم
(أجيب) بأن الشهيد لما كان كالرقيب والمهيمن على المشهود له جىء بكلمة الاستعلاء ومنه
قوله تعالى والله على كل شىء شهيد (فان قيل) لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرا
(أجيب) بأن الغرض فى الاول اثبات شهادتهم على الامم وفى الآخر اختصاصهم بكون الرسول
شهيدا عليهم (وما جعلنا) اى صيرنا لك (القبلة) الآن وقوله تعالى (التى كنت عليها) ليس
بصفة للقبلة انما هو ثانى مفعولى جعل اى وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها أولا وهى
الكعبة وكان صلى الله عليه وسلم يصلى اليها فلما هاجر أمر بالصلاة الى صخرة بيت المقدس
تألفا لليهود فصلى اليها ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول الى الكعبة (الا لنعلم من يتبع
الرسول) فيصدقه (ممن ينقلب على عقبيه) اى يرجع الى الكفر شكا فى الدين وظنا أن النبى
فى حيرة من أمره وفى الحديث ان القبلة لما حولت ارتد قوم من المسلمين الى اليهودية وقالوا
رجع محمد الى دين آبائه (فان قيل) كيف قال الله تعالى لنعلم وهو عالم بالاشياء كلها (أجيب)
بانه أراد به علم ظهور وهو العلم الذى يتعلق به الثواب والعقاب فانه لا يتعلق بما هو عالم به
فى الغيب انما يتعلق بما يوجد ومعناه اى لنعلم العلم الذى يستحق العامل عليه الثواب
والعقاب ونظيره قوله تعالى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين وقيل ليعلم
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وانما أسند علمهم الى ذاته تعالى لانهم خواصه
وأهل الزلفى عنده وقيل معناه لنميز التابع من الناكص كما قال الله تعالى ليميز الله الخبيث
من الطيب فوضع العلم موضع التمييز التابع لان بالعلم يقع التمييز فالعلم سبب والتمييز مسبب
فأطلق السبب وهو العلم على المسبب وهو التمييز *(تنبيه)* العلم فى الآية اما بمعنى المعرفة
فيتعدى الى مفعول واحد وهو من يتبع واما معلق لما فى من من معنى الاستفهام واما أن
يكون مفعوله الثانى ممن ينقلب أى ليعلم من يتبع الرسول مميزا ممن ينقلب (فان قيل) على
الاول كيف يكون العلم بمعنى المعرفة والله تعالى لا يوصف بها لانها تقتضى سبق جهل والله
تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بأن ذلك لشيوعها فيما تقتضى أن يكون مسبوقا بالعدم وليس
العلم الذى بمعنى المعرفة كذلك اذ المراد به الادراك الذى لا يتعدى الى مفعولين بل قال الولى
العراقى قد وقع اطلاق المعرفة على الله تعالى فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم وأقوال
الصحابة أو كلام أهل اللغة وقوله تعالى (وان) هى المخففة من الثقيلة واسمها محذوف اى
وانها (كانت) اى التولية (لكبيرة) شاقة على الناس (الا على الذين هدى الله) منهم وهم
الثابتون على الايمان (وما كان الله ليضيع ايمانكم) اى ثباتكم على الايمان وانكم لم
تزلزلوا ولم ترتابوا بل شكر سعيكم وأعد لكم الثواب العظيم أو صلاتكم الى بيت المقدس
بل يثيبكم عليه لان سبب نزولها ان حيى بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين أخبرونا
عن صلاتكم نحو بيت المقدس ان كانت هدى فقد تحولتم عنها وان كانت ضلالة فقد دنتم
الله بها ومن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة فقال المسلمون ان الهدى ما أمر الله تعالى

الاخراج من الله تعالى فى
الزمن المستقبل فى حق من
ذكر (فان قلت) كيف
يخرج الكفار من النور
مع انهم لم يكونوا فى نور
(قلت) لمقابلة ما ذكر قبله
فى المؤمنين ولان الكفار
هنا هم اليهود وقد كانوا
مؤمنين بمحمد صلى الله
عليه وسلم لما يجدونه من
نعته فى كتبهم فلما بعث
كفروا به (قوله أولم تؤمن)
أى بقدرتى على الاحياء

به والصلاة انما هى الله تعالى عنه قالوا فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا وكان قد مات قبل ان تحول القبلة من المسلمين أسعد بن زرارة من بنى النجار والبراء بن معرور من بنى سلمة وكانا من النقباء ورجال آخرون فانطلق عشائرهم الى النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله لقد صرفك الله الى قبلة ابراهيم فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يصلون الى بيت المقدس فأنزل الله تعالى هذه الآية (ان الله بالناس لرؤف رحيم) فلا يضيع اجورهم ولا يدع صلاتهم (فان قيل) لم قدم الرؤف على الرحيم مع أنه أبلغ (أجيب) بانه قدم محافظة على الفواصل وقرا ابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى لرؤف بقصر الهمزة والباقون بمدها ولورش فى الهمزة المد والتوسط والقصر على أصله (قد) للتحقيق (نرى تقلب) اى تردد (وجهك فى السماء) اى فى جهتها متطلعا الى الوحى ومتشوقا الى الامر باستقبال الكعبة وهذه الآية وان كانت متأخرة فى التلاوة فهى متقدمة فى المعنى فانها رأس القصة وأمر القبلة أول مانسخ من أمور الشرع وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة الى الكعبة فلما هاجر الى المدينة أمره الله تعالى أن يصلى الى نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب الى تصديق اليهود اياه اذا صلى الى قبلتهم مع مايجدونه من نعته فى التوراة وكان يحب أن يوجه الى الكعبة لانها كانت قبلة ابراهيم أبيه صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد كان يحب ذلك من أجل ان اليهود كانوا يقولون يخالفنا محمد فى ديننا ويتبع قبلتنا فقال لجبريل عليه السلام وددت لو حولنى الله تعالى الى الكعبة فانها قبلة أبى ابراهيم فقال جبريل انما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فانك عند الله بمكان فعرج جبريل وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر الى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل فنزل قوله تعالى (فلنولينك) اى فلنحولنك (قبلة) اى الى قبلة (ترضاها) اى تهواها وتحبها للاغراض الصحيحة التى أضمرتها ووافقت مشيئة الله تعالى وحكمته (فول) اى اصرف (وجهك شطر) اى نحو (المسجد الحرام) اى الكعبة اى استقبل عينها بصدرك فى الصلاة وان كنت بعيدا عنها وقول البيضاوى والبعيد يكفيه مراعاة الجهة فان فى استقبال عينها حرجا عليه وجه ضعيف والحرام المحرم فيه القتال وممنوع من الظلمة أن يتعرضوه وقوله تعالى (وحيث ما كنتم) من بحر أو بر شرق أو غرب خطاب للامة (فولوا وجوهكم) فى الصلاة (شطره) وكان تحويل القبلة فى رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين وقول البيضاوى وقد صلى باصحابه فى مسجد بنى سلمة ركعتين من الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمى المسجد مسجد القبلتين فيه تحريف فان ظاهره أنه صلى الله عليه وسلم كان اماما فى قصة بنى سلمة وانه تحول فى الصلاة وليس كذلك فقد روى البخارى عن ابن عمر أنه قال بينما الناس يصلون فى صلاة الصبح اذ أتاهم آت اى من بنى سلمة فقال ان النبى صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد امر ان يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة ولما تحولت القبلة قالت اليهود وما هو الا شئ يبتدعه محمد من تلقاء نفسه فتارة يصلى الى بيت المقدس وتارة الى الكعبة ولو ثبت على قبلتنا

قال له ذلك مع علمه بانه بذلك اجيب بما اجاب به فيعلم السامعون غرضه من طلبه لا حياء الموتى (قوله ولكن ليطمئن قلبى) قاله مع ان قلبه مطمئن بقدرة الله تعالى على الاحياء ليطمئن قلبه بعلم ذلك عيانا كما اطمأن به برهانا او ليطمئن بانه اتخذه خليلا او بانه مستجاب الدعوة

لكتاب جوان يكون صاحبنا الذى تنتظره فأنزل الله تعالى (وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه) اى التولى الى الكعبة (الحق) اى الثابت (من ربهم) لما فى كتبهم من نعت النبى صلى الله عليه وسلم من انه يحوّل اليها وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائى بالتاء على الخطاب للمؤمنين اى وما انا بغافل عن جزائكم وثوابكم والباقون بالياء على الغيب اى عما يعمل اليهود اى فأجازيهم فى الدنيا والآخرة ففى الآية وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ولما قالت اليهود والنصارى ائتنا بآية على أن الكعبة قبلة نزل (ولئن) اللام موطئة للقسم (أتيت الذين أوتوا الكتاب) أى اليهود والنصارى (بكل آية) أى برهان وحجة على أن التوجه الى الكعبة هو الحق وقوله تعالى (ما تبعوا قبلتك) جواب للقسم المضمر والمعنى ان تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بايراد الحجة انما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم لما فى كتبهم من نعتك أنك على الحق *(تنبيه)* كان مقتضى الظاهر ما يتبعون لكن أتى بالماضى لتحقق وقوعه كقوله تعالى أتى أمر الله وقوله تعالى (وما أنت بتابع قبلتهم) قطع لأطماعهم فانهم قالوا لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذى ننتظره تغريرا منهم له وطمعا فى رجوعه (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) أى انهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون فى شأن القبلة فان اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس لا يرجى توافقهم كما لا ترجى موافقتهم لك لتصلب كل حزب فيما هو فيه (فان قيل) كيف قال تعالى وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان لليهود قبلة وللنصارى قبلة (أجيب) بأن كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق فكانتا بحكم الاتحاد فى البطلان قبلة واحدة وقوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم) خطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد به الامة أو على سبيل الفرض والتقدير (من بعد ما جاءك) بين لك (من العلم) بالوحى فى القبلة (انك اذا) ان اتبعتهم (لمن الظالمين) أى من المرتكبين الظلم الفاحش وفى هذا لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من ترك الدليل بعد انارته وتتبع الهوى وتهييج الثبات على الحق وقد أكد سبحانه وتعالى التهديد فى ذلك وبالغ فيه قال البيضاوى من سبعة أوجه الاول الاتيان باللام الموطئة للقسم الثانى القسم المضمر الثالث حرف التحقيق أى التأكيد وهى ان الرابع تركيبه من جملة اسمية الخامس الاتيان باللام فى الخبر أى وهو من الظالمين السادس جعله من الظالمين أى تعريف الظالمين الدال على المعروفين ولم يقل انك ظالم فان فى الاندراج معهم ايهاما بحصول أنواع الظلم لان أل فى الظالمين للاستغراق السابع التقييد بمجىء العلم تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتفائه وتحذيرا عن متابعة الهوى واستفظاعا لظهور الذنب عن الانبياء (الذين آتيناهم الكتاب) أى علماؤهم (يعرفونه) أى محمدا صلى الله عليه وسلم لسبق ذكره بلفظ الرسول مرتين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى وان لم يسبق ذكره ممنوع وقيل القرآن وقيل التحويل ويدل للاول قوله تعالى (كما يعرفون أبناءهم) أى من بين الصبيان قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لعبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه كيف هذه المعرفة قال عبد الله يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد صلى الله عليه وسلم اشد من معرفتى بابنى فقال عمر وكيف ذاك قال لست أشك فى محمد انه نبى وأما ولدى فلعل والدته خانت فقال عمر وفقك الله تعالى يا ابن سلام فقد صدقت

(قوله فخذ أربعة من الطير) خص الطير بالذكر من سائر الحيوان لزيادته عليه بطيرانه قيل وكانت الاربعة ديكا وطاوسا ونسرا وغرابا وفائدة التقييد بالاربعة فى الطير وفى الاجبل بعده الجمع بين الطبائع الاربع فى الطير وبين مهاب الرياح من الجهات الاربع فى الاجبل (قوله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا اذى) ان قلت كيف مدح المنفقين بترك المن وقد وصف نفسه بالمن كما فى قوله لقد من الله على المؤمنين (قلت) المن

(فان قيل) لم خص الابناء من الاولاد (أجيب) بأن الذكور أشهر وأعرف وهم لصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق (وان فريقا منهم) أى أهل الكتاب (ليكتمون الحق) أى صفته صلى الله عليه وسلم وأمر الكعبة (وهم يعلمون) ولا يظهرونه عنادا وقوله تعالى (الحق من ربك) كلام مستأنف والحق اما مبتدأ خبره من ربك والمعنى انه الحق أى ماثبت أنه من الله تعالى كالذى أنت عليه لا مالم يثبت كالذى عليه أهل الكتاب واما خبر مبتدا محذوف أى هذا الحق ومن ربك حال أو خبر بعد خبر والمعنى أن ما جاءك من العلم أو ما يكتمونه هو الحق لا ما يزعمون (فلا تكونن من الممترين) أى من الشاكين فى أنه من ربك أو فى كتمانهم الحق عالمين به أى فلا تكونن من هذا النوع وهو أبلغ من لا تمتر وليس فيه نهى للرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك فيه لانه غير متوقع منه بل اما لتحقيق الامر وانه بحيث لا يشك فيه ناظر واما ان المراد به أمته (ولكل) اى أمة من الامم (وجهة) أى قبلة أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة (هو موليها) وجهه فى صلاته وقرأ ابن عامر وحده مولاها بفتح اللام وألف بعدها أى هو مولى تلك الجهة قد وليها والباقون بكسر اللام وياء بعدها وعلى هذا فاحد المفعولين محذوف أى هو موليها وجهه كما مر تقديره أو الله تعالى موليه اياه (فاستبقوا الخيرات) أى بادروا الى الطاعات وقبولها من أمر القبلة وغيره مما تنالون به سعادة الدارين (أين ما تكونوا) أنتم وأهل الكتاب (يأت بكم الله جميعا) يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم (ان الله على كل شئ قدير) فيقدر على الاحياء والجمع *(تنبيه)* رقق ورش الراء المفتوحة بعد الياء الساكنة واتفق المصاحف على قطع أين من ما هنا (ومن حيث خرجت) أى من أى مكان خرجت للسفر (فول وجهك شطر المسجد الحرام) اذا صليت (وانه) أى هذا الامر (للحق من ربك) وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) قرأه أبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) *(تنبيه)* ما مقطوعة من حيث فى موضعى هذه السورة وكرر سبحانه وتعالى التولى لشطر المسجد الحرام ثلاث مرات لتأكيد أمر القبلة وتشديده لان النسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان فكرر عليهم ليثبتوا ويقوموا ويجدوا ولانه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر لانه تعالى علق بكل آية فائدة ففى الاولى ان أهل الكتاب يعلمون ان أمر محمد وأمر القبلة حق لمشاهدتهم له فى التوراة والانجيل وفى الثانية انه تعالى شهد انه حق وشهادة الله تعالى مغايرة لعلم أهل الكتاب وفى الثالثة بيان العلة وهى قطع حجة اليهود أو لان الاحوال ثلاثة أولها أن يكون الانسان فى المسجد الحرام وثانيها أن يخرج عنه ويكون فى البلد وثالثها أن يخرج عن البلد فالآية الاولى محمولة على الاول والثانية على الثانى والثالثة على الثالث وقوله تعالى (لئلا يكون للناس) أى اليهود والمشركين (عليكم حجة) أى مجادلة فى التولى علة لقوله فولوا والمعنى ان التولية عن الصخرة الى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة قبلته الكعبة وان محمدا يجحد ديننا ويتبعنا فى قبلتنا ويدفع احتجاج المشركين بأنه يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته وقرأ ورش بابدال الهمزة من لئلا ياء مفتوحة وقفا ووصلا وحمزة يبدلها وقفا لا وصلا والباقون بهمزة مفتوحة وصلا ووقفا وقوله تعالى (الا

الذين

يقال للاعطاء وللاعتداد بالنعمة واستعظامها والمراد فى الآية المعنى الثانى (فان قلت) من المعنى الثانى بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان (قلت) ذاك اعتداد نعمة الايمان فلا يكون قبيحا بخلاف نعمة المال على أنه يجوز أن يكون من صفات الله تعالى ما هو مدح فى حقه ذم فى حق العبد كالجبار والمتكبر والمنتقم (قوله أيود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب) فان قلت لم خص النخيل

الذين ظلموا منهم) بدل أو استثناء متصل أى لئلا يكون لاحد من الناس حجة الا المعاندين منهم فانهم يقولون ما تحول الى الكعبة الا ميلا الى دين قومه وحبا لبلده أو بدا له فرجع الى دين آبائه ويوشك أن يرجع الى دينهم (فلا تخشوهم) أى فلا تخافوا مطاعنهم فى قبلتكم فانهم لا يضرونكم (واخشونى) بامتثال أمرى فلا تخالفوا ما أمرتكم به * (تنبيه) * الياء هنا ثابتة فى الرسم وهى فى القراءة ثابتة وقفا ووصلا (فان قيل) أى حجة تكون لغير الذين ظلموا لو لم يتحول حتى احترز من تلك الحجة ولم يبال بحجة المعاندين (أجيب) بانهم كانوا يقولون ماله لا يتحول الى قبلة أبيه ابراهيم كما هو مذكور فى نعته فى التوراة (فان قيل) كيف أطلق الحجة على قول المعاندين (أجيب) بأن المراد بالحجة ما يتمسك به حقا كان أو باطلا كما قال تعالى حجتهم داحضة وقوله تعالى (ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون) أى الى الحق علة لمحذوف أى وأمرتكم بذلك لاتمامى النعمة عليكم وارادتى اهتداءكم أو عطف على علة مقدرة كأنه قيل واخشونى لأوفقكم ولأتم نعمتى عليكم قال الكشاف وقيل هو معطوف على لئلا يكون وجرى عليه البيضاوى والسيوطى قال البيضاوى تبعا للكشاف وفى الحديث تمام النعمة دخول الجنة أى ورؤية الله تعالى وعن على رضى الله تعالى عنه تمام النعمة الموت على الاسلام قال شيخنا القاضى زكريا وروى الحديث الترمذى وذكره مع الاثر بعده ربما يرجح العطف على المقدر وقوله تعالى (كما أرسلنا) اما متعلق بما قبله وهو أتم أى ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى أمر الآخرة اتماما كاتمامها بارسالنا (فيكم رسولا منكم) وهو محمد صلى الله عليه وسلم واما متعلق بما بعده وهو فاذكرونى أذكركم أى كما ذكرتكم بالارسال فاذكرونى (يتلو عليكم آياتنا) أى القرآن (ويزكيكم) أى يطهركم من الشرك (ويعلمكم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى ما فيه الاحكام * (تنبيه) * قدم هنا يزكيكم على يعلمكم باعتبار القصد وأخر فى دعوة ابراهيم يزكيكم على يعلمكم باعتبار الفعل (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) أى بالتفكر والنظر اذ لا طريق لمعرفته سوى الوحى (فاذكرونى) بالطاعة كالصلاة والتسبيح (أذكركم) قال ابن عباس بعونى وقال سعيد بن جبير بمغفرتى وقيل اذكرونى فى النعمة والرخاء أذكركم فى الشدة والبلاء كما قال تعالى فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وفى الحديث عن الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يقول يا ابن آدم ان ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى وان ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه وان دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا وان دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا وان مشيت الى هرولت اليك وان سألتنى أعطيتك وان لم تسألنى غضبت عليك وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه وفى رواية جاء اعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أى الاعمال أفضل قال أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله وقرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بالسكون وهم على مراتبهم فى المد (واشكروا لى) نعمتى بالطاعة (ولا تكفرون) بجحد النعم وعصيان

والاعناب بالذكر مع قوله بعده فيها من كل الثمرات (قلت) لأن النخيل والاعناب أكرم الشجر وأكثرها منافع (قوله وتكفر عنكم من سيآتكم) ذكر من هنا خاصة موافقة لما بعدها فى ثلاث آيات ولان الصدقات لا تكفر جميع السيآت (قوله لا يسألون الناس الحافا) فان قلت هذا يفهم أنهم كانوا يسألون برفق مع انه قال يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف (قلت) المراد نفى القيد والمقيد جميعا كما فى

لامر فان من أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفره (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر) على الطاعة والبلاء وعلى المعاصي وحظوظ النفس (والصلوة) خصها بالذكر لانها أم العبادات لاشتمالها على فعل القلب وغيره ومناجاة رب العالمين (ان الله مع الصابرين) بالنصر واجابة الدعوة (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله) هم (أموات بل) هم (أحياء ولكن لا تشعرون) أي لا تعلمون كيف حالهم في حياتهم قال البيضاوي وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات وانما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي اه وهذا ما عليه أكثر المفسرين قال ابن عادل ويحتمل أن حياتهم بالجسد وان لم تشاهد وأيد بان حياة الروح ثابتة لجميع الاموات بالاتفاق فلو لم تكن حياة الشهيد بالجسد لاستوى هو وغيره ولم تكن له مزية اه وقد يرد بان الشهداء فضلوا على غيرهم بأنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها وغيرهم من المؤمنين منعمون بما دون ذلك وفي الحديث أرواحهم في حواصل طيور خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى قناديل تحت العرش وعن الحسن ان الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل اليهم الروح أي الاستراحة أي التلذذ والتنعم والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوا وعشيا فيصل اليهم الوجع والغم وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله ومزيد السرور والكرامة والارواح جواهر قائمة بأنفسها تبقى بعد الموت دراكة كما عليه جمهور الصحابة والتابعين ونطقت به الآيات والسنن (ولنبلونكم) أي ولنختبرنكم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم واللام لجواب القسم تقديره والله لنبلونكم والابتلاء اظهار المطيع من العاصي لا ليعلم شيأ لم يكن عالما به (بشيء) أي بقليل (من الخوف) أي خوف العدو (والجوع) أي القحط وانما قلله بالنسبة لما وقاهم عنه فيخفف عنهم ويريهم أن رحمته لا تفارقهم أو بالنسبة الى ما يصيب به معانديهم في الآخرة وانما أخبرهم قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم (ونقص من الاموال) بالخسران والهلاك (والانفس) بالقتل والموت وقيل بالمرض والشيب (والثمرات) بالجوائح وعن الشافعي رضي الله تعالى عنه الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ومن الثمرات موت الاولاد وعن أبي سنان قال دفنت ولدي سنانا وأبو طلحة الخولاني على شفير القبر فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأخرجني فقال الا أبشرك حدثني الضحاك بن عروب عن أبي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم ولد عبدي فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد وقوله تعالى (وبشر الصابرين) أي على ما يصيبهم من المكروه عطف كما قال التفتازاني على ولنبلونكم عطف المضمون على المضمون أي الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر ثم بينهم بقوله (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله) عبيدا وملكا (وانا اليه راجعون) في الآخرة والمصيبة تعم ما يصيب الانسان من مكروه لقوله صلى الله عليه وسلم كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله

قوله لاذلول تثير الارض وقوله الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها (قوله الذين يأكلون الربا) خص الاكل بالذكر مع أن غيره كاللبس والادخار والهبة كذلك لانه أكثر وأهم انتفاعا بالمال اذ لا بد منه أو أريد بالاكل الانتفاع كما يقال فلان أكل ماله اذا انتفع به في الاكل وغيره (قوله قالوا انما البيع مثل الربا) فان قلت كيف قالوا ذلك مع ان مقصودهم تشبيه الربا بالبيع المتفق على حله (قلت) جاء ذلك على طريق

عليه

عليه وسلم يقول ما من مصيبة تصيب عبدا فيقول انا لله وانا اليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها الا اجره الله تعالى في مصيبته واخلف عليه خيرا منها قالت فلما توفي أبو سلمة استرجعت الله لي فقلت اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها قالت فأخلف لي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية من استرجع عند المصيبة جبر الله تعالى مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه وقال سعيد بن جبير ما اعطي أحد ما أعطيت هذه الامة يعني الاسترجاع ولو أعطيها أحد لاعطي يعقوب في قصة فقد يوسف ألا تسمع الى قوله يا أسفا على يوسف وليس الصبر بالاسترجاع باللسان بل باللسان مع القلب بأن يتصور ما خلق لاجله فانه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه فيرى ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه ويستسلم لربه والمبشر به محذوف دل عليه (أولئك عليهم صلوات) أي مغفرة (من ربهم ورحمة) أي لطف واحسان والصلاة في الاصل من الآدمي أي ومن الجن تضرع ودعاء ومن الملائكة استغفار ومن الله تعالى رحمة مقرونة بتعظيم وجمع الصلاة للتنبيه على كثرتها كالتثنية في لبيك بمعنى لا انقطاع لمغفرته (وأولئك هم المهتدون) الى الصواب حيث استرجعوا وسلموا القضاء الله تعالى قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه نعم العدلان ونعمت العلاوة والعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية وقد ورد أخبار في ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين منها أنه صلى الله عليه وسلم قال من يرد الله به خيرا يصب منه ومنها انه صلى الله عليه وسلم قال ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه ومنها أن امرأة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم وبها لمم فقالت يا رسول الله ادع الله تعالى أن يشفيني فقال ان شئت دعوت الله أن يشفيك وان شئت فاصبري ولا حساب عليك قالت بل أصبر ولا حساب علي ومنها أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن أشد الناس بلاء قال الانبياء والامثل فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلبا ابتلي على قدر ذلك وان كان في دينه رقة هون عليه فما زال كذلك حتى يمشي على الارض ماله ذنب ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال ان عظم الجزاء مع عظم البلاء وان الله تعالى اذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل المؤمن كمثل الزرع لا يزال الريح يثنيه ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لا تهتز حتى تستحصد ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال عجب للمؤمن ان أصابه خير حمد الله وشكر وان أصابته مصيبة حمد الله وصبر فالمؤمن يؤجر في كل أمره (ان الصفا والمروة) هما علما جبلين بمكة في طرفي المسعى قال القرطبي وذكر الصفا لان آدم وقف عليه وأنث المروة لان حواء وقفت عليها (من شعائر الله) أي أعلام دينه جمع شعيرة وهي العلامة أي من أعلام مناسكه ومتعبداته (فمن حج البيت أو اعتمر) أي تلبس بالحج أو العمرة والحج لغة القصد والاعتمار الزيارة فغلبا شرعا على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين (فلا جناح) أي لا اثم (عليه أن يطوف) فيه ادغام التاء في الاصل في الطاء (بهما) أي بأن يسعى بينهما سبعا (فان قيل) كيف قيل انهما من شعائر الله ثم قيل لا جناح

المبالغة لأنه أبلغ من اعتقادهم ان الربا حلال كالبيع كالتشبيه في قولهم القمر وجهه زيد والبحر كفه اذا ارادوا المبالغة أو أن مقصودهم ان البيع والربا متماثلان من جميع الوجوه فساغ قياس البيع على الربا كعكسه (قوله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ان قلت كيف قال ذلك مع ان مرتكب الكبيرة كآكل الربا لا يخلد في النار (قلت) الخلود يقال لطول البقاء وان لم يكن بصيغة التأبيد

عليه أن يطوف بهما (أجيب) بأنه كان على الصفا اساف وعلى المروة نائلة وهما صنمان يروى أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا فى الكعبة فمسخا حجرين فلما طالت المدة عبدا من دون الله فكان أهل الجاهلية اذا سعوا مسحوهما فلما جاء الاسلام وكسرت الاوثان كره المسلمون الطواف بينهما لاجل فعل الجاهلية فأذن الله تعالى فيه وأخبر أنه من شعائر الله والاجماع على أن السعى بين الصفا والمروة مشروع فى الحج والعمرة وانما الخلاف فى وجوبه فعن أحمد أنه سنة وبه قال أنس وابن عباس لقوله تعالى فلا جناح عليه فانه يفهم منه التخيير قال البيضاوى وهو ضعيف لان نفى الجناح يدل على الجواز الداخل فى معنى الوجوب فلا يدفعه وعن أبى حنيفة انه واجب يجبر بدم وعن مالك والشافعى انه ركن لقوله صلى الله عليه وسلم اسعوا فان الله تعالى كتب عليكم السعى رواه البيهقى وغيره وقال صلى الله عليه وسلم ابدؤا بما بدأ الله به يعنى الصفا رواه مسلم (ومن تطوّع خيرا) أى فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض الله عليه من حج أو عمرة أو طواف ونصب خيرا على أنه صفة مصدر محذوف أى تطوّعا أو بحذف الجار وايصال الفعل اليه أى بخير وقرأ حمزة والكسائى يطوّع بالياء على التذكير وتشديد الطاء والواو وسكون العين وأصله يتطوّع فأدغم مثل يطوف والباقون بالتاء على الحضور وتخفيف الطاء وفتح العين (فان الله شاكر) لعمله بالاثابة عليه (عليم) بنيته *(تنبيه)* الشكر من الله أن يعطى العبد فوق ما يستحقه فانه يشكر اليسير ويعطى الكثير* ونزل فى علماء اليهود (ان الذين يكتمون) الناس كأحبار اليهود (ما أنزلنا من البينات) كآية الرجم ونعت محمد صلى الله عليه وسلم (والهدى) أى ما يهدى الى وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم والايمان به (من بعد ما بيناه) أوضحناه (للناس فى الكتاب) أى التوراة أى لم ندع فيه موضع اشكال ولا اشتباه على أحد منهم فعمدوا الى ذلك المبين الواضح فكتموه ولبسوا على الناس (أولئك يلعنهم الله) وأصل اللعن الطرد والبعد (ويلعنهم اللاعنون) أى يسألون الله أن يلعنهم ويقولون اللهم العنهم *(تنبيهان)* أحدهما اختلف فى هؤلاء اللاعنين فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم جميع الخلائق الا الجن والانس وقال عطاء هم الجن والانس وقال الحسن هم جميع عباد الله وقال مجاهد البهائم تلعن عصاة بنى آدم اذا امسك المطر وتقول هذا من شؤم ذنوب بنى آدم *ثانيهما هذه الآية توجب اظهار علوم الدين منصوصة ومستنبطة وتدل على امتناع أخذ الاجرة على ذلك وقد روى الاعرج عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال انكم تقولون أكثر أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وايم الله لولا آية فى كتاب الله ما حدثت أحدا بشئ أبدا وتلا ان الذين يكتمون الآية (الا الذين تابوا) أى رجعوا عن الكتمان وسائر ما يجب ان يتاب منه (وأصلحوا) ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فرط منهم (وبينوا) ما بينه الله تعالى فى كتابهم فكتموه (فأولئك أتوب عليهم) أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم (وأنا التوّاب) أى الرجاع بقلوب عبادى المنصرفة عنى الىّ (الرحيم) بهم بعد اقبالهم علىّ (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) أى من لم يتب من الكاتمين حتى مات (أولئك عليهم لعنة الله و) لعنة (الملائكة و) لعنة (الناس أجمعين) لعنهم الله أحياء ثم لعنهم أمواتا وقال أبو العالية هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم تلعنه الناس (فان قيل) قد قال الله تعالى والناس أجمعين

كما يقال خلد الامير فلانا
فى الحبس اذا أطال حبسه
أو المراد بقوله ومن عاد
العائد الى استحلال أكل
الربا وهو بذلك كافر
والكافر مخلد فى النار على
التأبيد (قوله وأن تصدقوا
خير لكم) أى من انظار
المعسر (فان قلت) انظار
المعسر واجب والتصدق
عليه تطوع فكيف يكون
خيرا من الواجب (قلت)
التطوع المحصل للواجب
لما اشتمل عليه من الزيادة
كما هنا أفضل من الواجب
كما ان الزهد فى الحرام

وفى الناس المسلم والكافر وأهل دينه لا يلعنونه (أجيب) بأجوبة منها ان المراد منهم من
يعتد بلعنه وهم المؤمنون قاله ابن مسعود وعلى هذا فيكون من العام الذى أريد به الخاص
ومنها أنهم يلعنونه فى القيامة قال تعالى يلعن بعضكم بعضا وقال كلما دخلت امة لعنت أختها
ومنها أن اللعنة من الاكثر يطلق عليها لعنة جميع الناس تغليبا لحكم الاكثر على الاقل ومنها
أنهم يلعنون الظالمين والكافرين ومن لعن الظالمين أو الكافرين وهو منهم فقد لعن نفسه
ومعنى لعنة الله لهم تبرؤه منهم وطردهم وتبعيدهم عن الرحمة والثواب أو دعاؤه عليهم بذلك
(خالدين فيها) أى اللعنة أو النار المدلول بها عليها (لا يخفف عنهم العذاب) طرفة عين
(ولاهم ينظرون) من الانظار أى لا يمهلون ولا يؤجلون أو لا ينظرون ليعتذروا كقوله
تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون أو لا ينظر اليهم نظر رحمة * ولما قال كفار قريش يا محمد
صف لنا ربك وانسبه لنا نزل (والهكم اله واحد) وسورة الاخلاص والواحد هو الذى
لا نظير له ولا شريك وقوله تعالى (لا اله الا هو) تقرير للوحدانية ودفع لان يتوهم أن
فى الوجود الها ولكن لا يستحق منهم العبادة وقوله تعالى (الرحمن الرحيم) كالدليل
على الوحدانية فانه لما كان مولى النعم كلها أصولها بقوله الرحمن فانه مولى جلائل النعم
وفروعها بقوله الرحيم فانه مولى لطائف النعم ودقائقها وما سواه تعالى اما نعمة أو منعم عليه
فلم يستحق العبادة أحد غيره وهما خبران آخران لقوله الهكم أو لمبتدا محذوف وعن
أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان فى هاتين الآيتين اسم الله
الاعظم والهكم اله واحد الخ والله لا اله الا هو الحى القيوم * ولما سمع المشركون هذه الآية
وكان لهم حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما تعجبوا وقالوا ان كنت صادقا فأت بآية نعرف
بها صدقك فنزل (ان فى خلق السموات والارض) الى آخر الآية (فان قيل) لم جمع السموات
وأفرد الارض (أجاب) البيضاوى بأن السموات طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة
بخلاف الارضين اه وهذا انما يأتى على قول بعض الحكماء ان المراد بالارضين الاقاليم
والاولى ما أجاب به البغوى من أن كلا منها جنس آخر والارضون كلها من جنس واحد
وهو التراب أى فهى طبقات كالسموات والآية فى السموات سمكها وارتفاعها من غير عمد
ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك والآية فى الارض مدها وبسطها
وسعتها وما يرى فيها من الاشجار والانهار والجبال والبحار والجواهر والنبات وغير ذلك
(واختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما فى المجىء والذهاب يخلف أحدهما صاحبه اذا ذهب
أحدهما جاء الآخر خلفه أى بعده قال تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة قال عطاء
أراد اختلافهما فى النور والظلمة والزيادة والنقصان والليل جمع ليلة والليالى جمع الجمع
والنهار جمع نهر وقدم الليل على النهار فى الذكر لانه أقدم قال تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه
النهار (والفلك) أى السفن (التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) من التجارة والحمل والآية
فيها تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهى موقورة لا ترسب تحت الماء *(تنبيه)* انث
الفلك لانه بمعنى السفينة لان واحد السفن وجمعه سواء اذ لو كانت بمعنى المركب لذكرها مع
أنها فى اللغة تذكر وتؤنث قال تعالى اذ أبق الى الفلك المشحون وضمة الجمع غير ضمة الواحد

واجب وفى الحلال تطوع
والزهد فى الحلال أفضل
(قوله ثم توفى كل نفس
ما كسبت) قال فيه وفى
الجاثية بما كسبت وقال
فى آخر النحل وتوفى كل
نفس ما عملت وفى آخر
الزمر ووفيت كل نفس
ما عملت موافقة لما قبل
كل منها أو بعده أو قبله
وبعده اذ ما هنا قبله أنفقوا
من طيبات ما كسبتم
وبعده لها ما كسبت وعليها
ما اكتسبت وقبله فى آخر
النحل من عمل صالحا

تقدير الذهى فى الجمع كالضمة فى حمر وفى الواحد كالضمة فى قفل قال البيضاوى والقصد به أى
الفلك الى الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لانه سبب الخوض فيه أى البحر
والاطلاع على عجائبه ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب لان منشأهما البحر فى غالب الامر
اه فجعل الآية فى البحر لا فى السفن والاولى جعل الآية فيهما وقوله لان منشأهما البحر
هو قول الحكماء والاشاعرة على خلافه وهو الذى دلت عليه الاخبار قال شيخنا القاضى
زكريا وحاصله أن السحاب من شجرة مثمرة فى الجنة والمطر من بحر تحت العرش (وما أنزل الله
من السماء من ماء) أى مطر * (تنبيه) * من الاولى للابتداء والثانية للبيان قال البغوى
قيل أراد بالسماء السحاب يخلق الله الماء فى السحاب ثم من السحاب ينزل وقيل أراد بالسماء
المعروفة يخلق الله الماء فى السماء ثم ينزل من السماء الى السحاب ثم من السحاب ينزل الى
الارض اه وفيه ما مر (فأحيا به الارض) بالنبات (بعد موتها) أى يبسها او جدوبتها (وبث)
أى فرق ونشر بالماء (فيها) فى الارض (من كل دابة) فان قيل هل بث عطف على انزل أو أحيا
(أجيب) بأنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة لان قوله فأحيا به الارض عطف على
أنزل فاتصل به وصارا جميعا كالشئ الواحد فكأنه قيل وما أنزل فى الارض من ماء وبث فيها
من كل دابة ويجوز عطفه على أحيا على معنى فأحيا بالمطر الارض وبث فيها من كل دابة لان
الدواب ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا أى المطر (وتصريف الرياح) الى قبول ودبور
وجنوب وشمال فالقبول الصبا وهى التى تهب من مطلع الشمس اذا استوى الليل والنهار
والدبور تقابلها والشمال التى تهب من جانب القطب والجنوب تقابلها قال ابن عباس أعظم
جنود الله الريح والماء وسميت الريح ريحا لانها تريح النفوس قال شريح القاضى ماهبت
ريح الا لشفاء سقيم أو لسقم صحيح (فائدة) البشارة فى ثلاث من الرياح فى الصبا والشمال
والجنوب أما الدبور فهى الريح العقيم لا بشارة فيها وقيل الرياح ثمانية أربعة للرحمة وهى
المبشرات والناشرات والذاريات والمرسلات وأربعة للعذاب وهى العقيم والصرصر فى البر
والعاصف والقاصف فى البحر وقرأ حمزة والكسائى الريح بالتوحيد والباقون بالجمع
(فائدة أخرى) كل ريح فى القرآن ليس فيها ألف ولام اتفق القراء على توحيدها وما فيها ألف
ولام كما هنا اختلفوا فى جمعها وتوحيدها الا الحرف الاول فى سورة الروم الرياح مبشرات
اتفقوا على جمعها والريح تذكر وتؤنث (والسحاب) أى الغيم (المسخر) أى المذلل بامر الله
يسير حيث شاء الله (بين السماء والارض) بلا علاقة لا ينزل ولا يرتفع مع ان الطبع يقتضى
أحدهما حتى يأتى أمر الله وقيل تسخير السحاب تقليبه فى الجو بمشيئة الله واشتقاقه من
السحب لان بعضه يجر بعضا (لآيات) أى دلالات واضحات على وحدانية الله تعالى (لقوم
يعقلون) اى ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون لانها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة
وقول البيضاوى وعن النبى صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها أى لم يتفكر فيها
ولم يعتبر بها قال الولى العراقى لم أقف عليه وقال السيوطى لم يرد فى هذه الآية ولا بهذا اللفظ ثم
قال عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أنزل على الليلة ان فى خلق السموات والارض
واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها قيل للاوزاعى

ولنجزينهم أجرهم
بأحسن ما كانوا يعملون
وبعده ثم ان ربك للذين
عملوا السوء وقبل ماقى
الجاثية ولا يغنى عنهم
ما كسبوا شيأ وبعد ماقى
الزمر فنعم أجر العاملين
(قوله اذا تداينتم بدين)
فان قلت ما فائدة قوله بدين
مع أنه معلوم من تداينتم
(قلت) فائدته الاحتراز
عن الدين بمعنى المجازاة
يقال داينت فلانا بالمودة
اى جازيته بها وهو بهذا
المعنى لا كتابة فيه ولا اشهاد

ماغاية التفكر فيهن قال يقرؤهن وهو يعقلهن انتهى ولا ينافى هذا أنه ورد أيضا فى هذه الآية ومن حفظ حجة على من لم يحفظ قال البيضاوى وفى الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله وحث على البحث والنظر فيه انتهى ولا ينافى هذا قول الشافعى رضى الله تعالى عنه لان يلقى العبد ربه بكل ذنب ما عدا الشرك خير له من أن يلقاه بعلم الكلام لانه محمول على التوغل فيه فيصير فلسفيا (ومن الناس) وهم المشركون (من يتخذ من دون الله) أى غيره (أندادا) أى أصناما يعبدونها (يحبونهم) بالتعظيم والخضوع (كحب الله) أى كحبهم له كما قال الزجاج يحبون الاصنام كما يحبون الله لانهم اشركوها مع الله فسووا بين الله وبين أصنامهم فى المحبة أو يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله (والذين آمنوا أشد حبا لله) أى أثبت وأدوم على حبه لانهم لا يختارون على الله ما سواه والمشركون محبتهم لاغراض فاسدة موهومة تزول بادنى سبب ولذلك كانوا اذا اتخذوا صنما أحسن منه طرحوا الاول واختاروا الثانى وربما أكلوه كما أكلت باهلة الهها من حيس عند المجاعة ويعرضون عن معبودهم فى وقت البلاء ويقبلون على الله كما أخبر الله تعالى عنهم فقال فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين والمؤمن لا يعرض عن الله تعالى فى السراء والضراء والشدة والرخاء وقيل انما قال الله تعالى والذين آمنوا أشد حبا لله لان الله أحبهم اولا ثم أحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال الله تعالى يحبهم ويحبونه فمحبة العبد لله طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه ومحبة الله للعبد ارادة اكرامه واستعماله فى الطاعة وصونه عن المعاصى (ولو يرى الذين ظلموا) أى باتخاذ الانداد (اذ يرون) أى يبصرون (العذاب) يوم القيامة واذ بمعنى اذا أو أجرى المستقبل وهو يرى مجرى الماضى لان اذ موضوعة للماضى والمعنى هنا على الاستقبال لتحققه كقوله تعالى ونادى أصحاب الجنة (أن) أى بان (القوة) أى القدرة والغلبة (لله) وقوله تعالى (جميعا) حال (وان الله شديد العذاب) وجواب لو محذوف والتقدير لو يعلمون ان القدرة لله جميعا اذ عاينوا العذاب لندموا أشد الندم والفاعل ضمير السامع أو الذين ظلموا ويرى بمعنى يعلم وأن وما بعدها سدت مسد المفعولين وقرأ نافع وحده بالتاء على الخطاب أى ولو ترى يا محمد ذلك لرأيت أمرا عظيما وامال السوسى الالف المنقلبة بعد الراء فى الوصل بخلاف عنه وغلظ ورش اللام بعد الظاء وقرأ ابن عامر يرون بضم الياء والباقون بفتحها (اذ) بدل من اذ قبله (تبرأ الذين اتبعوا) وهم الرؤساء (من الذين اتبعوا) وهم الاتباع أى ينكر الرؤساء اضلال الاتباع يوم القيامة حين يجمع الله القادة والاتباع (و) قد (رأوا العذاب) أى رائين له فالواو للحال وقد مضمرة كما قدرتها وقيل عطف على تبرأ وقوله تعالى وتقطعت عطف على تبرأ وقوله تعالى (بهم) بمعنى عنهم (الاسباب) أى الوصل التى كانت بينهم فى الدنيا من القرابات والصداقات وصارت مخالتهم عداوة (وقال الذين اتبعوا) أى الاتباع (لو أن لنا كرة) أى رجعة الى الدنيا (فنتبرأ منهم) أى الرؤساء (كما تبرؤا منا) اليوم ولو للتمنى ولذلك أجيب بالفاء (كذلك) أى مثل ذلك الاراء الفظيع (يريهم الله أعمالهم) أى السيئة وقوله تعالى (حسرات) أى تنقلب ندامات (عليهم) ثالث مفاعيل يرى ان كان من رؤية القلب والا فحال وقوله تعالى (وماهم بخارجين من النار) أصله وما يخرجون

وقيل فائدة رجوع الضمير اليه فى قوله فاكتبوه اذ لو لم يذكره لقال فاكتبوا الدين والاول أحسن نظما (قوله أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى) قرئ تذكر بالتخفيف والتشديد (فان قلت) كيف جعل أن تضل علة لاستشهاد المرأتين بدل رجل مع ان علته انما هو التذكير (قلت) بل علته أن تضل لان الضلال من احداهما يكثر وقوعه فصلح أن يكون علة لاستشهادهما وبتقدير

لان المناسب ان تعطف جملة فعلية على جملة فعلية لكن عدل به الى هذه العبارة للمبالغة فى الخلود والاقناط عن الخلاص والرجوع الى الدنيا ❊ واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا) فقال البيضاوى نزلت فى قوم حرموا على أنفسهم رفيع الاطعمة والملابس أى لا على وجه التورع كما تفعله الصوفية وما قاله قول مرجوح كما قاله شيخنا القاضى زكريا والمشهور انها نزلت فيهم آية المائدة وهى يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم وأما هذه الآية فانها نزلت فى الكفار الذين حرموا البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ومن ثم عبر هنا بيا أيها الناس وثم بيا أيها الذين آمنوا ❊(تنبيه)❊ حلالا مفعول كلوا أو حال وقوله تعالى (طيبا) اما صفة مؤكدة واما طاهرا من كل شبهة وهو ما يستطيبه الشرع قال الكشاف ومن للتبعيض لان كل ما فى الارض ليس بمأكول هذا ان جعلنا حلالا حالا فان جعلناه مفعولا فمن للابتداء كما قاله السعد التفتازانى لان من التبعيضية فى موضع المفعول أى كلوا بعض ما فى الارض (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى طرقه كما قاله الزجاج أو المحقرات من الذنوب كما قاله أبو عبيدة فتدخلوا فى حرام أو شبهة أو تحريم حلال أو تحليل حرام وقرأ ابن عامر وقنبل وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (انه لكم عدو مبين) أى بين العداوة أو مظهر العداوة عند ذوى البصيرة وان كان يظهر الموالاة لمن يغويه وقد أظهر عداوته بامتناعه من السجود لآدم ثم بين سبحانه وتعالى عداوته بأنه لا يأمر بخير قط بقوله (انما يأمركم بالسوء) أى القبيح شرعا (والفحشاء) أى ما تجاوز الحد فى القبح من العظائم وعن ابن عباس أن السوء من الذنوب ما لا حد فيه والفحشاء من المعاصى ما يجب به حد وقال السدى الفحشاء هى الزنا وقيل البخل قال البيضاوى واستعير الامر لتزيينه وبعثه لهم تسفيها لرأيهم وتحقيرا لشأنهم انتهى قال شيخنا القاضى زكريا ولا حاجة الى صرف الامر عن ظاهره لان حقيقته طلب الفعل ولا ريب أن الشيطان يطلب السوء والفحشاء ممن يريد اغواءه (و) يأمركم أيضا (أن تقولوا على الله ما لا تعلمون) كتحليل المحرمات وتحريم الطيبات واتخاذ الانداد وقوله تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) من التوحيد وتحليل الطيبات متصل بما قبله وهو نازل فى مشركى العرب وكفار قريش والضمير فى لهم عائد على الناس المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا عدل عن الخطاب عنهم للنداء على ضلالتهم كأنه التفت الى العقلاء وقال لهم انظروا الى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون وقيل مستأنف والهاء والميم فى لهم كناية عن غير مذكور روى عن ابن عباس أنه قال دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود الى الاسلام فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله تعالى هذه الآية (قالوا) لا نتبعه (بل نتبع ما ألفينا) أى وجدنا وأدركنا أو علمنا وألفى تتعدى الى مفعولين وهما قوله (عليه آباءنا) من عبادة الاصنام وتحريم البحائر والسوائب فانهم كانوا خيرا وأعلم منا قال الله تعالى (أولو كان) أى أيتبعونهم ولو كان (آباؤهم لا يعقلون شيأ) أى من أمر الدين لا شيأ مطلقا فانهم كانوا يعقلون أمر الدنيا فلفظه عام ومعناه الخصوص (ولا يهتدون) الى الحق والهمزة للانكار والواو للحال أو العطف وجواب لو محذوف أى لو كان آباؤهم جهلة لا يتفكرون فى أمر الدين

ولا

عدم صلوحه فالتعليل بأن تفعل فى الحقيقة انما هو للتذكير ومن شأن العرب اذا كان للعلة علة قدموا ذكر علة العلة وجعلوا العلة معطوفة عليها بالفاء لتحصل الدلالتان معا بعبارة واحدة كقولك أعددت الخشبة أن يميل الجدار فأدعمه بها فالادعام علة فى اعداد الخشبة والميل علة الادعام (قوله وان كنتم على سفر) الآية فان قلت كيف شرط السفر فى الارتهان مع انه ليس

ولا يهتدون الى الحق لا تبعوهم (ومثل) أى صفة (الذين كفروا) ومن يدعوهم الى الهدى (كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء) أى صوتا ولا يفهم معناه والنعيق التصويت يقال نعق المؤذن ونعق الراعى بالضان قال الاخطل

فانعق بضانك يا جرير فانما • منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

وأما نغق الغراب فبالغين المعجمة والمعنى أنهم فى سماع الموعظة وعدم تدبرها كالبهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهمه (وقيل) معنى الآية مثل الذين كفروا فى دعاء الاصنام التى لا تفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم ولا ينتفع من نعيقه بشئ غير أنه فى عناء من الدعاء والنداء كذلك الكافر ليس له من دعاء الآلهة الا العناء والدعاء كما قال تعالى وان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ثم وصف سبحانه وتعالى الكفار بصفات ذم فقال (صم) أى هم صم عن سماع الحق تقول العرب لمن يسمع ولا يعقل ما يقال له انه أصم (بكم) عن الخير لا يقولونه (عمى) عن الهدى لا يبصرونه (فهم لا يعقلون) الموعظة لاضلال نظرهم (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات) أى حلالات (ما رزقناكم) روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر يمد يديه الى السماء يا رب يا رب أشعث أغبر مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك • ولما وسع الله تعالى الامر على الناس كافة وأباح لهم ما فى الارض سوى ما حرم عليهم أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها فقال (واشكروا لله) على ما رزقكم وأحل لكم (ان كنتم اياه تعبدون) أى ان صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون انه مولى النعم فان عبادته لا تتم الا بالشكر فالمعلق بفعل العبادة هو الامر بالشكر لاتمامه وهو يعدم عند عدمه روى البيهقى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى انى والجن والانس فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى • ثم بين سبحانه وتعالى المحرمات بقوله (انما حرم عليكم الميتة) أى أكلها اذ الكلام فيه وكذا ما بعدها وهى التى ماتت من غير ذكاة شرعية وألحق بها بالسنة ما أبين من حى وخص منها السمك والجراد والحرمة المضافة الى العين تفيد عرفا حرمة التصرف فيها مطلقا الا ما خصه الدليل كالتصرف فى المدبوغ (والدم) أى المسفوح كما قال تعالى فى سورة الانعام أو دما مسفوحا روى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال وهو فى حكم المرفوع بل رفعه ابن ماجه وغيره لكن بسند ضعيف (ولحم الخنزير) أى جميع أجزائه وعبر عن ذلك باللحم لانه معظم المقصود منه وغيره تبع له (وما أهل به لغير الله) أى ذبح على اسم غيره والاهلال رفع الصوت وكانوا يرفعونه عند الذبح لآلهتهم (فمن اضطر) أى ألجأته الضرورة الى أكل شئ مما ذكر فأكله (غير باغ) أى خارج على المسلمين وقيل مجاوز للمقدار الذى أحل له (ولا عاد) أى متعد على المسلمين بقطع الطريق وقيل لا يقصر فيما أبيح له فيدعه وقال سهل بن عبد الله غير باغ مفارق للجماعة ولا عاد مبتدع مخالف للسنة فلم يرخص للمبتدع

بشرط فيه (قلت) لم يذكره لتخصيص الحكم به بل لكونه مظنة عوز الكاتب والشاهد الموثوق بهما (قوله ومن يكتمها فانه آثم قلبه) فان قلت ما فائدة ذكر القلب مع ان الجملة موصوفة بالاثم (قلت) لما كان كتمان الشهادة هو اضمارها فى القلب واثمه مكتسبا بالقلب وبه أسند اليه بالقلب الاثم لان اسناد الفعل الى الجارحة التى يعمل بها أبلغ كما يقال هذا مما أبصرته عيناى وسمعته

في تناول المحرم عند الضرورة وقال مسروق من اضطر الى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل
ولم يشرب حتى مات دخل النار واختلف العلماء في قدر ما يحل للمضطر أكله من الميتة على
قولين أحدهما أن يأكل مقدار ما يمسك رمقه وهو قول أبي حنيفة والراجح عند الشافعي
والقول الآخر يجوز أن يأكل حتى يشبع وبه قال مالك (فلا اثم) أي لا حرج (عليه) في أكل
ماذكر وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر نون فمن اضطر في الوصل والباقون بضمها * (فائدة) *
قال البغوي غير نصب على الحال وقيل على الاستثناء واذا رأيت غير تصلح في موضعها
لا فهي حال واذا اصلح في موضعها الا فهي استثناء (ان الله غفور) لمن أكل في حال الاضطرار
(رحيم) حيث رخص للعباد في ذلك (فان قيل) انما تفيد قصر الحكم على ماذكر وكم من محرم
لم يذكر (أجيب) بأن المراد قصر الحرمة على ماذكر مما استحله الكفار لا مطلقا وقصر ماذكر
على حال الاختيار كأنه قيل انما حرم عليكم هذه الاشياء مالم تضطروا اليها * (تنبيه) * ألحق
بالباغي والعادي كل عاص بسفره كالآبق والمكاس فلا يحل لهم أكل شيء من ذلك مالم يتوبوا
وعليه الشافعي * ونزل في علماء اليهود ورؤسائهم الذين كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا
والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم فلما بعث صلى الله عليه وسلم من غيرهم
خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم فعمدوا الى صفة محمد صلى الله عليه وسلم فغيروها ثم
أخرجوها اليهم فاذا نظرت السفلة الى النعت المغير وجدوه مخالفا لصفة محمد صلى الله عليه
وسلم فلا يتبعونه (ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) المشتمل على نعت محمد صلى الله عليه
وسلم (ويشترون به) أي بالمكتوم (ثمنا) أي عوضا (قليلا) أي يسيرا أي المآكل التي
يصيبونها من سفلتهم (أولئك ما يأكلون في بطونهم) أي ملء بطونهم يقال أكل فلان في بطنه
وأكل في بعض بطنه (الا النار) أي ما يؤديهم الى النار وهو الرشوة وثمن الدين ولما كان
يفضي بهم الى النار لانها عقوبة عليهم فكأنهم أكلوا النار وقيل معناه انه يصير نارا في بطونهم
(ولا يكلمهم الله يوم القيامة) أي لا يكلمهم بالرحمة وبما يسرهم انما يكلمهم بالتوبيخ أو يكون
عليهم غضبان كما يقال فلان لا يكلم فلانا اذا كان عليه غضبان لما ثبت بالنصوص انه تعالى
يسألهم والسؤال كلام فحمل نفي الكلام على الغضب فهو كناية ويجوز ابقاء الكلام على
ظاهره وتحمل نصوص السؤال على أنه يقع بالسنة الملائكة (ولا يزكيهم) أي ولا يطهرهم
من دنس الذنوب (ولهم عذاب أليم) أي مؤلم وهو النار (أولئك الذين اشتروا) أي استبدلوا
(الضلالة بالهدى) فأخذوها بدله في الدنيا (و) استبدلوا (العذاب بالمغفرة) أي المعدة لهم
في الآخرة لو لم يكتموا الحق للمطامع والاغراض الدنيوية (فما أصبرهم على النار) أي ما أشد
صبرهم وهو تعجب المؤمن من ارتكاب موجباتها من غير مبالاة والا فأي صبر لهم كما قال
الحسن والله مالهم عليها من صبر ولكن ما أجرأهم على العمل الذي يقربهم الى النار وقال
الكسائي فما أصبرهم على عمل أهل النار أي ما أدومهم عليه روى عن الكسائي أنه قال قال لي
قاضي اليمن بمكة اختصم الي رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال
ما أصبرك على عذاب الله تعالى (ذلك) أي الذي ذكر من أكلهم النار وما بعده (بأن) أي بسبب
أن (الله نزل الكتاب) وقوله تعالى (بالحق) متعلق بنزل فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان وقوله

اذناى وعاه قلبى (قوله وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ان قلت كيف قال في الاخفاء يحاسبكم به الله مع ان حديث النفس لا اثم فيه ما لم يفعل للحديث المشهور فيه ولانه لا يمكن الاحتراز عنه (قلت) ذلك منسوخ بقوله لا يكلف الله نفسا الا وسعها أو المراد بالاخفاء العزم القاطع والاعتقاد الجازم أو ذلك اخبار بالمحاسبة لا بالمعاقبة فهو تعالى يخبر العباد بما

تعالى (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) اللام فيه اما للجنس واختلافهم ايمانهم ببعض كتب الله تعالى وكفرهم ببعضها واما للعهد وحينئذ الاشارة اما الى التوراة واختلافهم حيث آمنوا ببعضها وكفروا ببعضها بكتمه واما الى القرآن واختلافهم فيه قولهم سحر وتقول وكلام علمه بشر وأساطير الاولين (لفى شقاق) أى خلاف (بعيد) عن الحق واختلف فى المخاطب بقوله تعالى (ليس البر) أى وهو كل فعل مرضى (أن تولوا وجوهكم) أى فى الصلاة (قبل المشرق والمغرب) على قولين أحدهما أنهم المسلمون والثانى أهل الكتابين فعلى الاول معناه ليس البر كله فى الصلاة ولكن البر ما فى هذه الآية قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء وعلى الثانى ليس البر صلاة اليهود الى المغرب وصلاة النصارى الى المشرق فانهم أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت وادعى كل طائفة ان البر هو التوجه الى قبلته فرد الله تعالى عليهم وقال ليس البر ما أنتم عليه فانه منسوخ ولكن البر ما فى هذه الآية قاله قتادة والربيع ومقاتل وقال قوم هو عام لهم وللمسلمين أى ليس البر مقصورا بأمر القبلة وقرأ حفص وحمزة بنصب البر على انه خبر مقدم والباقون برفعه وقوله تعالى (ولكن البر من آمن) على تأويل حذف المضاف أى بر من آمن أو بتأويل البر بمعنى ذى البر أى ولكن البر الذى ينبغى أن يهتم به بر من آمن أو ولكن ذا البر من آمن (بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب) أى الكتب ان أريد به الجنس والا فالقرآن (والنبيين) والتأويل الاول أولى لان السابق فى الآية انما هو نفى كون البر تولية الوجه والذى يستدرك انما هو من جنس ما ينفى وقرأ نافع وابن عامر بكسر نون ولكن مخففة ورفع راء البر والباقون بنصب النون مشددة ونصب الراء والنبيين تقدم أن نافعا يقرؤه بالهمز والباقون على البدل وورش على أصله من المد والتوسط والقصر (وآتى المال على) أى مع (حبه) له كما قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أى الصدقة أفضل ان تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش أى الحياة وتخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان وقيل الضمير لله أى على حب الله (ذوى القربى) أى القرابة قال صلى الله عليه وسلم الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة (واليتامى) جمع يتيم وتقدم تعريفه (والمساكين) جمع مسكين وهو من له مال أو كسب يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه بخلاف الفقير فانه من لا مال له ولا كسب يقع موقعا من كفايته وسيأتى بيان ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة براءة (وابن السبيل) أى المسافر يقال للمسافر ابن السبيل لملازمته الطريق وقيل هو الضيف ينزل بالرجل قال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (والسائلين) أى الطالبين الذين ألجأتهم الحاجة الى السؤال قال صلى الله عليه وسلم للسائل حق وان جاء على ظهر فرسه رواه الامام أحمد وفى رواية ردوا السائل ولو بظلف محرق (وفى الرقاب) أى فكها معاونة المكاتبين وقيل فرض الاسرا وقيل ابتياع الرقاب لعتقها (وأقام الصلاة) المفروضة (وآتى الزكاة) المفروضة (فان قيل) قد ذكر ايتاء المال فى هذه الوجوه ثم ثنى بايتاء الزكاة فقد دل ذلك على أن فى المال حقا سوى الزكاة (أجيب) بأن المتقدم فى التطوع وان قال الشعبى ان فى المال حقا سوى الزكاة وتلا هذه الآية ففى الحديث نسخت الزكاة كل صدقة رواه الدارقطنى والبيهقى أى نسخت الزكاة وجوب كل صدقة

اخفوا واظهروا ليعلموا احاطة علمه ثم يغفر او يعذب فضلا وعدلا (قوله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) قدم المغفرة فى هذه السورة وغيرها الا فى المائدة فقدم العذاب لانها فى المائدة نزلت فى حق السارق والسارقة وعذابهما يقع فى الدنيا فقدم العذاب وفى غيرها قدمت المغفرة رحمة منه للعباد وترغيبا لهم فى المسارعة الى موجباتها (قوله آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه) ان قلت أى

وروى ليس فى المال حق سوى الزكاة (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) فيما بينهم وبين الله عز وجل وفيما بينهم وبين الناس اذا وعدوا أنجزوا واذا حلفوا أو نذروا أوفوا واذا قالوا صدقوا واذا ائتمنوا أدوا * (تنبيه) * الموفون عطف على من آمن وقيل رفع على المبتدا والخبر أى وهم الموفون وقوله تعالى (والصابرين فى البأساء) أى شدة الفقر (والضراء) أى المرض (وحين البأس) أى وقت شدة القتال فى سبيل الله تعالى نصب على المدح ولم يعطف لفضل الصبر على الشدائد ومواطن القتال على سائر الاعمال وروى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال كنا اذا حمى البأس أى اشتد الحرب واتقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون أحد أقرب الى العدو منه (أولئك) الموصوفون بما ذكر (الذين صدقوا) فى الدين واتباع الحق وطلب البر (وأولئك هم المتقون) الله التاركون للكفر وسائر الرذائل قال البيضاوى رحمه الله تعالى والآية كما ترى جامعة للكمالات الانسانية بأسرها دالة عليها صريحا أو ضمنا فانها بكثرتها وتشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس وقد أشير الى الاول بقوله تعالى من آمن الى والنبيين والى الثانى بقوله تعالى وآتى المال الى وفى الرقاب والى الثالث بقوله تعالى وأقام الصلاة الى آخرها ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا الى ايمانه واعتقاده وبالتقوى اعتبارا بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق واليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان * ونزل فى حيين من أحياء العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الاسلام بقليل فكان بينهم ما قتلى وجراحات يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الاسلام وكان لاحد الحيين طول على الآخر فى الكثرة والشرف وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور فأقسموا لنقتلن بالعبد الحر منهم وبالمرأة منا الرجل منهم وبالرجل منا الرجلين منهم وجعلوا جراحاتهم ضعفى جراحات أولئك فرفعوا أمرهم الى النبى صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا كتب) أى فرض (عليكم القصاص) وهو المساواة والمماثلة (فى القتلى) وصفا وفعلا (الحر) يقتل (بالحر) ولا يقتل بالعبد (و) يقتل (العبد بالعبد و) يقتل (الانثى بالانثى) وبينت السنة أن الذكر يقتل بالانثى وان المماثلة تعتبر فى الدين فلا يقتل مسلم ولو عبدا بكافر ولو حرا وللائمة فى ذلك خلاف وأدلة مذكورة فى الفقه وكلهم على هدى من ربهم (فمن عفى له) أى من القاتلين (من) أى دم (اخيه) المقتول (شئ) بأن ترك القصاص منه وتنكير شئ يفيد سقوط القصاص بالعفو عن بعضه ولو من بعض الورثة وفى ذكر أخيه تعطف الى العفو وايذان بأن القتل لا يقطع اخوة الايمان ومن مبتدأ شرطية أو موصولة والخبر (فاتباع) أى فعلى العافى اتباع للقاتل (بالمعروف) بأن يطالبه بالدية بلا عنف وترتيب الاتباع على العفو يفيد أن الواجب أحدهما وهو أحد قولى الشافعى والثانى وهو الاصح عنده الواجب القصاص عينا والدية بدل عنه فلو عفا ولم يسمها فلا شئ (فان قيل) ان عفا يتعدى بعن لا باللام فما وجه قوله فمن عفى له (أجيب) بأن عفا يتعدى بعن الى الجانى والى الذنب فيقال عفوت عن فلان وعن ذنبه قال تعالى عفا الله عنك وقال عفا الله عنها فاذا تعدى الى الذنب والجانى معا قيل عفوت لفلان عما جنى كما تقول غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه وعلى هذا ما فى الآية كأنه قيل فمن عفى له عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية (وأداء) أى وعلى

القاتل

فائدة فى هذا الاخبار مع ان الانبياء فى أعلى درجات الايمان (قلت) فائدته أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الايمان حيث مدح به خواصه ورسله وتطميعه فى الصافات انه ذكر فى كل نبى انه من عبادنا المؤمنين (قوله لا نفرق بين أحد من رسله) فان قلت كيف جاز ذلك مع ان بين لا تضاف الا الى اثنين فاكثر (قلت) أحد هنا بمعنى الجمع الذى هو آحاد كما فى قوله فما منكم من أحد عنه حاجزين

القاتل أداء الدية (اليه) أى العافى وهو الوارث (باحسان) أى بلا مطل ولا بخس (ذلك) الحكم المذكور فى العفو والدية (تخفيف من ربكم ورحمة) لما فيه من التسهيل والنفع لان أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرم العفو وأخذ الدية وعلى أهل الانجيل العفو وحرم القصاص والدية وخيرت هذه الامة بين الثلاث القصاص والدية والعفو توسعة عليهم وتيسيرا (فمن اعتدى) أى ظلم القاتل بأن قتله (بعد ذلك) أى العفو على الدية أو مجانا (فله عذاب أليم) أى مؤلم فى الآخرة بالنار أو فى الدنيا بالقتل أو أخذ الدية ان عفى عنها وقوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) كلام فى غاية الفصاحة والبلاغة حيث جعل الشئ محل ضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على أن فى هذا الجنس من الحكم نوعا من الحياة عظيما وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة قال الزمخشرى وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التشاجر فلما جاء الاسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أو نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لان القاصد للقتل اذا علم أنه ان قتل يقتل يمتنع فيكون فيه بقاؤه وبقاء من يهم بقتله وفى المثل القتل أنفى للقتل وقيل فى المثل القتل قلل القتل وقيل المراد بالحياة الحياة الاخروية فان القاتل اذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤاخذ به فى الآخرة هذا بالنسبة للآدمى وأما بالنسبة لله تعالى فان تاب فكذلك والا فهو تحت المشيئة ثم نادى ذوى العقول الكاملة بقوله (يا أولى الالباب) للتأمل فى حكمة القصاص من استبقاء الارواح وحفظ النفوس ثم بين سبحانه وتعالى مشروعية ذلك بقوله (لعلكم تتقون) القتل مخافة القود أو تعملون عمل أهل التقوى فى المحافظة على القصاص والحكم به والاذعان له وهو خطاب له فضل اختصاص بالائمة (كتب) أى فرض (عليكم اذا حضر أحدكم الموت) أى حضرت أسبابه وظهرت أماراته (ان ترك خيرا) أى مالا نظيره قوله تعالى وما تنفقوا من خير وقيل مالا كثيرا لما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رجلا أراد الوصية فسألته كم مالك فقال ثلاثة آلاف فقالت كم عيالك قال أربعة قالت انما قال الله تعالى ان ترك خيرا وان هذا الشئ يسير فاتركه لعيالك وعن على رضى الله تعالى عنه أن مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى ان ترك خيرا والخير هو المال الكثير وقوله تعالى (الوصية) مرفوع بكتب وذكر فعلها للفاصل ولانها بمعنى أن يوصى ولذلك ذكر الراجع فى قوله فمن بدله بعد ما سمعه والعامل فى اذا مدلول كتب لا الوصية لتقدمه عليها وجواب ان أى فليوص (للوالدين والاقربين بالمعروف) بالعدل فلا يفضل الغنى ولا يتجاوز الثلث لما روى عن سعيد بن مالك رضى الله تعالى عنه قال جاءنى النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى فقلت يا رسول الله أوصى بمالى كله قال لا قلت فالشطر قال لا قلت فالثلث قال الثلث والثلث كثير انك ان تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس بايديهم أى يسألون الناس الصدقة باكفهم وقوله تعالى (حقا) مصدر قال البيضاوى تبعا للزمخشرى وغيره مؤكد لمضمون الجملة قبله أى حق ذلك حقا ورده أبو حيان بأن قوله تعالى على المتقين متعلق بحقا أو صفة له وكل منهما يخرجه عن التأكيد اما الاول فلان المصدر المؤكد لا يعمل انما يعمل المصدر الذى

فكأنه قال لا نفرق بين آحاد من رسله (قوله لها ما كسبت) أى فى الخير وعليها ما اكتسبت أى فى الشر (فان قلت) ما الدليل على ان الاول فى الخير والثانى فى الشر (قلت) اللام فى الاول وعلى فى الثانى لانهما يستعملان لذلك عند تقارنهما كما فى هذه الآية وكما فى قوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وقولهم الدهر يومان يوم لك ويوم عليك وقول الشاعر

يحل الى حرف مصدرى والفعل أو المصدر الذى هو بدل من اللفظ بالفعل وأما الثانى فلان حقا مصدر مخصص بالصفة فلا يكون مؤكدا وقيل حقا نعت لمصدر كتب أو أوصى أى كتبا أو ايصاء حقا وقيل حال من مصدر أحدهما معرفا وقيل نصب على المفعولية أى جعل الوصية حقا (على المتقين) الله وهذا منسوخ بآية المواريث وبقوله صلى الله عليه وسلم ان الله أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث بناء على الاصح من أن الكتاب ينسخ بالسنة وان لم تتواتر وبذلك ظهر ما فى قول بعضهم ان الكتاب لا ينسخ بالسنة وان الحديث من الآحاد (فمن بدله) أى غيره من الاوصياء والشهود (بعدما سمعه) أى وصل اليه علمه وتحقق عنده (فانما اثمه) أى الايصاء المبدل (على الذين يبدلونه) والميت برىء منه وفى هذا اقامة الظاهر مقام المضمر (ان الله سميع) لما وصى به الموصى (عليم) بفعل الوصى فيجازيه عليه وفى هذا وعيد للمبدل بغير حق (فمن خاف من موص) أى توقع وعلم كقوله تعالى فان خفتم أن لا يقيما حدود الله أى علمتم وقرأ حمزة باماله الالف بعد الخاء من خاف حيث جاء وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الواو من موص وتشديد الصاد والباقون بسكون الواو وتخفيف الصاد (جنفا) أى ميلا عن الحق بالخطا فى الوصية (أو اثما) بأن تعمد الحيف فى الوصية (فأصلح بينهم) بين الوصى والموصى لهم باجرائهم على نهج الشرع (فلا اثم عليه) فى هذا التبديل لانه تبديل باطل الى حق بخلاف الاول (ان الله غفور رحيم) فيه وعد للمصلح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الاثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم (يا أيها الذين آمنوا كتب) أى فرض (عليكم الصيام) هو لغة الامساك عما تنازع فيه النفس ومنه قوله تعالى فقولى انى نذرت للرحمن صوما أى صمتا لانه امساك عن الكلام وفى الشرع الامساك عن المفطرات مع النية فانها معظم ما تشتهيه النفس (كما كتب على الذين من قبلكم) من الانبياء والامم من لدن آدم الى عهدكم قال على رضى الله تعالى عنه أولهم آدم يعنى ان الصوم عبادة قديمة أصلية ما أخلى الله أمة من افتراضها عليهم لم يفرضها عليكم وحدكم وفى قوله تعالى كتب عليكم الخ توكيد للحكم وترغيب على الفعل وتطييب على النفس وفى موضع التشبيه فى كاف كما كتب قولان أحدهما أن التشبيه فى حكم الصوم وصفته لا فى عدده قال سعيد بن جبير كتب عليهم اذا نام أحدهم قبل أن يطعم أنه لم يحل له أن يطعم الى الليلة القابلة والنساء عليهم حرام ليلة الصيام وهو عليهم ثابت وقد أرخص لكم هذا فعلى هذا تكون هذه الآية منسوخة بقوله تعالى أحل لكم ليلة الصيام الرفث الآية فانها فرقت بين صوم أهل الكتاب وبين صوم المسلمين والثانى انه كصومهم فى عدد الايام لما روى أن رمضان كتب على أهل الانجيل فأصابهم موتان أى وهو بضم الميم موت يقع على الماشية فزادوا عشرا قبله وعشرا بعده فجعلوه خمسين وقيل كان يقع فى الحر الشديد وكان يشق عليهم فى أسفارهم ويضرهم فى معايشهم فاجتمع رأى علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم فى فصل من السنة بين الشتاء والصيف فجعلوه فى الربيع وقالوا نزيد عشرين يوما تكفر ما صنعنا قال السدى عن مشايخه وقيل زادوا فيه عشرة أيام أولا كفارة لما صنعوا فصار أربعين يوما ثم ان ملكهم اشتكى فمه فجعل لله عليه ان هو شفى من وجعه أن يزيد فى صومهم أسبوعا فبرأ فزاد فيه أسبوعا ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال أتموه

على أغراض بأن اجل الهوى واخلص منه لا على ولا لها فان قلت لم خص الكسب بالخير والاكتساب بالشر (قلت) لان الاكتساب فيه اعمال والشر تشتهيه النفس وتنجذب فكانت اجدفى تحصيله بخلاف الخير ولان فى ذلك اشارة الى اكرامه تعالى وتفضله على الخلق حيث اثابهم على فعل الخير من غير جد واعتمال ولم يؤاخذهم على فعل الشر الا بالجد والاعتمال

خمسين يوما وعلى هذا تكون الآية محكمة لا منسوخة (لعلكم تتقون) بصومكم للمعاصى فان الصوم يكسر الشهوة التى هى مبدؤها كما قال عليه الصلاة والسلام يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة أى مؤن النكاح فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء أى قاطع لشهوته أو لعلكم تنتظمون فى زمرة المتقين لان الصوم شعارهم وقوله تعالى (اياما) نصب بصوموا مقدرا لدلالة الصيام عليه لا بالصيام لوقوع الفصل بينهما (معدودات) أى قلائل كقوله تعالى دراهم معدودة وأصله أن المال القليل يقدر بالعدد ويحكر فيه والكثير يهال هيلا ويحثى حثيا أو موقتات بعدد معلوم وهى رمضان كما سيأتى وقلله تسهيلا على المكلفين وقيل هى عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر كتب على رسول الله صلى الله عليه وسلم صيامها حين هاجر ثم نسخت بشهر رمضان (فمن كان منكم مريضا) مرضا يضره الصوم ويعسر معه (أو على سفر) أى مسافر سفر قصر (فعدة من أيام أخر) أى فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر من أيام أخر ان افطر فحذف الشرط وهو ان أفطر والمضاف وهو صوم والمضاف اليه وهو أيام المرض والسفر للعلم بها واختلفوا فى المرض الذى يبيح الفطر والاصح فيه ماقدرناه وذهب أهل الظاهر الى أن ما ينطلق عليه اسم المرض يبيح الفطر وهو قول ابن سيرين فقد دخل عليه فى رمضان وهو يأكل فاعتل بوجع اصبعه وفى السفر الذى يباح فيه الفطر والاصح فيه أيضا ماقدرناه وهو مرحلتان وقال الاوزاعى أقله مرحلة وقال أبو حنيفة وأصحابه ثلاثة أيام (وعلى الذين يطيقونه) اى ان أفطروا (فدية) هى (طعام مسكين) اى قدر ما يأكله فى يوم وهو مد على الاصح من غالب قوت بلده وقال بعضهم نصف صاع من القمح أو صاع من غيره وقال بعضهم ما كان المفطر يتقوته يومه الذى أفطره وقال ابن عباس يعطى كل مسكين عشاءه وسحوره واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية وحكمها فذهب أكثرهم الى أنها منسوخة وهو قول ابن عمر وسلمة بن الاكوع وغيرهما وذلك انهم كانوا فى صدر الاسلام مخيرين بين ان يصوموا وبين ان يفطروا ويفدوا وانما خيرهم الله تعالى لانهم كانوا لم يتعودوا الصيام ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه قال ابن عباس الا الحامل والمرضع اذا أفطرتا خوفا على الولد فانها باقية بلا نسخ فى حقهما وذهب جماعة منهم الى أن لفظة لا مقدرة فى الآية أى وعلى الذين لا يطيقونه لكبر أو مرض لا يرجى برؤه فدية وهو قول سعيد بن جبير وجعل الآية محكمة وقرأ نافع وابن ذكوان بغير تنوين فى فدية وخفض الميم من طعام والباقون بتنوين فدية ورفع الميم من طعام وقرأ نافع وابن عامر مساكين بفتح الميم والسين وألف بعد السين وفتح النون والباقون بكسر الميم وسكون السين ولا ألف بعدها وكسر النون منونة (فمن تطوع خيرا) بالزيادة على القدر المذكور فى الفدية (فهو) أى التطوع (خير له) فيثيبكم الله عليه (وان تصوموا) أى أيها المطيقون مبتدأ خبره (خير لكم) أى من الافطار والفدية (ان كنتم تعلمون) أى ما فى الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة وجواب ان كنتم محذوف دل عليه خير لكم أى فالصوم خير لكم وقوله تعالى (شهر رمضان) مبتدأ خبره ما بعده أو بدل من الصيام فى قوله كتب عليكم الصيام بدل اشتمال

(سورة آل عمران)
(قوله نزل عليك الكتاب بالحق) ان قلت كيف قال هنا نزل ثم قال وأنزل مرتين (قلت) للاحتراز عن كثرة التكرار وخص المشدد بالاول لما سبقه معدقا وقيل لان القرآن نزل منجما والتوراة والانجيل نزلا جملة واحدة فحيث عبر فيه بنزل أريد الاول أو أنزل أريد الثانى ورد الاول بقوله وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة

أو بدل كل من كل ان قدر مضاف أو خبر مبتدا محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان أو الشهر من الشهور ورمضان مصدر رمض اذا أحرق فأضيف اليه الشهر وجعل علما ومنع من الصرف للعلمية والالف والنون (فان قيل) اذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف اليه جميعا فما وجه ما جاء فى الاحاديث من نحو قوله صلى الله عليه وسلم من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وقوله صلى الله عليه وسلم بعد من أدرك رمضان فلم يغفر له (أجيب) بأن ذلك على حذف المضاف لامن اللبس قال التفتازانى وجاز الحذف من الاعلام وان كان من قبيل حذف بعض الكلمة لانهم أجروا مثل هذا العلم مجرى المضاف والمضاف اليه حيث أعربوا الجزأين وانما سماه العرب بذلك اما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش واما لارتماض الذنوب فيه وقيل لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالازمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر قال أئمة اللغة كان أسماء الشهور فى اللغة القديمة مؤتمر ناجر خوان وبصان حنين وربه الاصم وعل ناتق عادل هواع برك فغيرت الى محرم صفر ربيع الاول ربيع الثانى جمادى الاولى جمادى الثانية رجب شعبان رمضان شوال ذى القعدة ذى الحجة على الترتيب وسمى المحرم لتحريم القتال فيه وصفر لخلو مكة عن أهلها الى الحروب والربيعان لارتباع الناس فيهما أى اقامتهم وجماديان لجمود الماء فيهما ورجب لترجيب العرب اياه أى تعظيمهم له وشعبان لتشعب القبائل فيه ورمضان لرمض الفصال فيه وشوال لشول اذناب اللواقح فيه وذو القعدة للقعود فيه عن الحرب وذو الحجة لحجهم فيه (الذى أنزل فيه القرآن) جملة من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا ليلة القدر ثم تنزل منجما الى الارض وقيل ابتدئ فيه انزاله وكان ذلك ليلة القدر وقيل أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله تعالى كتب عليكم الصيام وعن النبى صلى الله عليه وسلم نزلت صحف ابراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين والانجيل لثلاث عشرة والقرآن لاربع وعشرين رواه الامام أحمد وغيره *(فائدة)* قال ابن عادل روى ان جبريل عليه السلام نزل على آدم اثنتى عشرة مرة وعلى ادريس أربع مرات وعلى ابراهيم اثنتين وأربعين مرة وعلى نوح خمسين مرة وعلى موسى أربعمائة مرة وعلى عيسى عشر مرات وعلى محمد صلى الله عليه وسلم أربعة وعشرين ألف مرة وقرأ ابن كثير القرآن بنقل حركة الهمزة الى الراء وتصير الراء مفتوحة وألف بعدها فى المعرف والمنكر حيث جاء وكذا يقرأ حمزة فى الوقف وقوله تعالى (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) حالان من القرآن أى أنزل وهو هداية للناس لاعجازه من الضلالة الى الحق وهو آيات واضحات مما يهدى الى الحق ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والاحكام (فان قيل) فما معنى قوله وبينات من الهدى بعد قوله هدى للناس (أجيب) بأنه تعالى ذكر اولا انه هدى ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله وفرق به الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال (فمن شهد) أى حضر (منكم الشهر فليصمه) وقوله تعالى (ومن كان مريضا أو على سفر) أى فافطر (فعدة من أيام أخر) تقدم مثله وكرر لئلا

يتوهم

والثانى بقوله وأنزل الفرقان ان أريد به القرآن وبقوله هو الذى أنزل عليك وبقوله والذين يؤمنون بما

قوله قال أئمة اللغة الخ الاسماء المذكورة هى كذلك فى النسخ التى بايدينا وقد اختلف الناس فى ذلك اختلافا كثيرا قال بعضهم وتوجد للشهور أسام قد كان أوائلهم يدعونها بها وهى هذه المؤتمر وناجر وخوان وصوان وحنين ورنى والاصم وعادل وناتق وواغل وهواع وبرك وقد توجد هذه الاسماء مخالفة لما أوردناه مختلفة الترتيب كما نظمها بعضهم بقوله

بمؤتمر وناجر بدأنا
وبالخوان يتبعه الصوان
وبالرنى وبائدة تليه
يعود أصم صم به السنان
وواغله وناطله جميعا
وعادله فهم غرر حسان
ورنة بعدها برك فتمت
شهور الحول يعقدها البنان

وفى مروج الذهب أسماء أخرى فراجعه اه مصححه

يتوهم نسخه بتعميم من شهد (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) أى يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر ولذلك أباح لكم الفطر فى المرض والسفر واختلف اهل الفطر فى السفر أفضل أو الصوم والاصح انه ان شق عليه الصوم فالفطر أفضل والا فالصوم وروى عن ابن عباس وأبى هريرة وعروة بن الزبير وعلى بن الحسين انهم قالوا لا يجوز الصوم فى السفر ومن صام فعليه القضاء واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم ليس من البر الصيام فى السفر وأجاب الاول عن الحديث بانه محمول على من يشق عليه الصوم فقول جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال ما هذا قالوا هذا صائم فقال صلى الله عليه وسلم ليس من البر الصيام فى السفر والدليل على جواز الصوم فى السفر قول أبى سعيد رضى الله تعالى عنه كنا نسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر فلا يعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم وقوله تعالى (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) أى الله على نعمه علل لفعل محذوف دل عليه ما سبق أى وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بالقضاء وبمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى اباحة الفطر فقوله تعالى ولتكملوا العدة علة الامر بمراعاة العدة وقوله تعالى ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر وقوله تعالى ولعلكم تشكرون علة الترخيص من تعظيم الله تعالى بالحمد والثناء عليه ولذلك عد نوعا من اللف والنشر لطيف المسلك ومعنى التكبير تعظيم الله تعالى بالحمد والثناء عليه ولذلك عدى بحرف الاستعلاء لكونه مضمنا معنى الحمد كانه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم وقيل تكبير عيد الفطر وقيل التكبير عند الاهلال وقرأ شعبة ولتكملوا بفتح الكاف وتشديد الميم والباقون بسكون الكاف وتخفيف الميم *(تنبيه)* ورد فى فضل شهر رمضان وثواب الصائمين أخبار منها ما رواه أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ونادى مناد يا باغى الخير أقبل ويا باغى الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة ومنها ما رواه أيضا انه صلى الله عليه وسلم قال من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومنها ما رواه سلمان قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر يوم من شعبان فقال أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر فيه ليلة القدر خير من ألف شهر جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعا من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة وشهر المواساة وشهر يزاد فيه الرزق من فطر فيه صائما كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شئ قالوا يا رسول الله ليس كلنا نجد ما يفطر الصائم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى الله هذا الثواب لمن فطر صائما على مذقة لبن أو تمرة أو شربة من ماء ومن أسقى صائما سقاه الله عز وجل من حوضى شربة لا يظمأ

أنزل اليك (قوله مصدقا لما بين يديه) أى ما مضى بانه بين يديه لغاية ظهوره أمره (قوله ان الله لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء) قدم الارض على السماء هنا وفى موضع من يونس وابراهيم وطه والعنكبوت عكس الغالب فى سائر الآيات لان المخاطبين فى الخمس كائنون فى الارض فقط بخلافهم فى غيرها كذا قيل (قوله منه آيات محكمات) ان قلت كيف قال ذلك ومن

بعدها حتى يدخل الجنة وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار فاستكثروا فيه من أربع خصال خصلتين ترضون بهما ربكم وخصلتين لاغنى لكم عنهما فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا اله الا الله وتستغفرونه وأما اللتان لاغنى لكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الا الصوم فانه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك الصوم جنة وعن سهل بن سعد انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لايدخله الا الصائمون وعن ابن عمر انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصيام والقرآن يشفعان للعبد يقول الصيام رب اني منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه ويقول القرآن رب منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان ● وسأل جماعة النبي صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزل (واذا سألك عبادي عني فاني قريب) أي فقل لهم اني قريب وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم ونحوه قوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وقوله تعالى (أجيب دعوة الداع اذا دعان) أي بانالته ما سأل تقرير للقرب ووعد للداعي بالاجابة وقرأ ورش وأبو عمرو باثبات الياء فيهما وصلا لا وقفا واختلف عن قالون فيهما والباقون بحذفها وصلا ووقفا (فان قيل) ما وجه قوله تعالى أجيب دعوة الداع وقوله ادعوني أستجب لكم وقد يدعى كثيرا فلا يجيب (أجيب) بأنهم اختلفوا في معنى الآيتين فقيل معنى الدعاء هنا الطاعة ومعنى الاجابة الثواب وقيل معنى الآيتين خاص وان لفظهما عام تقديره أجيب دعوة الداعي ان شئت كما قال تعالى فيكشف ما تدعون اليه ان شاء أو أجيب دعوة الداعي ان وافق القضاء أو أجيبه ان كانت الاجابة خيرا له أو أجيبه ان لم يسأل محالا وعن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يستجيب الله لأحدكم ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم أو يستعجل قالوا وما الاستعجال يارسول الله قال يقول قد دعوتك يارب فلا أراك تستجيب لي فيستحسر عند ذلك فيدع أي يترك الدعاء وقيل هو عام ومعنى قوله أجيب أي أسمع ويقال ليس في الآية أكثر من اجابة الدعوة فأما اعطاء الامنية فليس بمذكور فيها وقد يجيب السيد عبده أو الوالد ولده ثم لا يعطيه سؤله فالاجابة كائنة لا محالة عند حصول الدعوة وقيل معنى الآية أنه لايخيب دعاءه فان قدر له ما سأل أعطاه وان لم يقدر له ادخر الثواب له في الآخرة أو كف عنه به سوأ لقوله صلى الله عليه وسلم ما على الارض رجل مسلم يدعو الله بدعوة الا آتاه الله اياها أو كف عنه من السوء مثلها ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم وقيل ان الله يجيب دعوة المؤمن في الوقت ويؤخر اعطاء مراده ليدعوه فيسمع صوته ويعجل اعطاء من لايحبه لانه يبغض صوته وقيل ان للدعاء آدابا وشرائط وهي أسباب الاجابة فمن استكملها كان من أهل الاجابة ومن أخل بها فهو من أهل الاعتداء في الدعاء فلا يستحق الجواب (فليستجيبوا لي) اذا دعوتهم للايمان

للتبعيض وقال في هود كتاب أحكمت آياته وهو يقتضي احكام آياته كلها (قلت) المراد بالمحكمات هنا الناسخات أو العقليات أو ما ظهر معناها كما أن المراد بالمتشابهات المنسوخات أو الشرعيات أو ما كان في معناها غموض ودقة المراد بقوله أحكمت آياته ان جميع القرآن صحيح ثابت مصون عن الخلل والزلل ولا تنافي بين متشابهات وقوله كتابا متشابها اذ المراد

والطاعة كما أجيبهم اذا دعونى بمهماتهم. وقوله تعالى (وليؤمنوا بى) أمر بالثبات والمداومة على الايمان (لعلهم) أى لكى (يرشدون) والرشد اصابة الحق (أحل لكم ليلة الصيام) أى الليلة التى تصبحون منها صائمين (الرفث الى نسائكم) الرفث كناية عن الجماع لانه لا يكاد يخلو عن رفث وهو الافصاح بما يجب أن يكنى عنه كلفظ الوطء والجماع فانه يجب أن يكنى عنه بلازم من لوازمه كالرفث وعدى بالى لتضمنه معنى الافضاء وكنى عن الجماع هنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله وقد أفضى بعضكم الى بعض استهجانا لما وجد منهم قبل الاباحة ولذلك سماه فيما يأتى خيانة قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الله تعالى حيى كريم يكنى كل ما ذكر فى القرآن من المباشرة والملامسة والافضاء والدخول فالرفث انما عنى به الجماع وقال الزجاج الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجال من النساء قال أهل التفسير كان فى ابتداء الامر اذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والنساء الى أوان العشاء الآخرة أو يرقد قبله فاذا صلى العشاء أو رقد قبلها حرم عليه الطعام والشراب والنساء الى الليلة القابلة ثم ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واقع أهله بعد ما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى أعتذر الى الله واليك من نفسى هذه الخاطئة انى رجعت الى أهلى بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لى نفسى فجامعت أهلى فهل تجد لى من رخصة فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما كنت جديرا بذلك يا عمر فقام رجال فاعترفوا بمثله فنزل فى عمر وأصحابه هذه الآية وفى تجويز المباشرة فى جميع الليل دليل على جواز تأخير الغسل الى الفجر وصحة صوم المصبح جنبا (هن لباس) أى سكن (لكم وأنتم لباس) أى سكن (لهن) كما قال تعالى وجعل منها زوجها ليسكن اليها وكما قيل لا يسكن شئ الى شئ كسكون أحد الزوجين الى الآخر وقيل سمى كل واحد من الزوجين لباسا لتجردهما عند النوم وتعانقهما واجتماعهما فى ثوب واحد حتى يصير كل واحد من الزوجين لصاحبه كالثوب الذى يلبسه قال الجعدى

أذا ما الضجيع ثنى عطفها ● تثنت فكانت عليه لباسا

والضجيع المضاجع وما زائدة وثنى عطفها امال شقها وتثنت مالت والشاهد فى قوله فكانت عليه لباسا وقيل ان كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور كما جاء فى الخبر من تزوج فقد أحرز ثلثى دينه (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب بالمجامعة بعد العشاء كما وقع ذلك لعمر وغيره وقال البراء لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله هذه الآية (فتاب عليكم) أى قبل توبتكم (وعفا عنكم) أى محا ذنوبكم ولم يعل أحد الف عفا لانه واوى (فالآن) أى اذا نسخ عنكم التحريم (باشروهن) أى جامعوهن حلالا وسمى المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد منهما بصاحبه (وابتغوا) أى واطلبوا (ما كتب الله لكم) أى ما قسم لكم وأثبت فى اللوح من الولد بالمباشرة أى لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل أو قصد العفة وقال مجاهد ابتغوا

بتشابهات ماس وبتشابه يشبه بعضه بعضا فى الصحة وعدم التناقض وتأييد بعضه لبعض (قوله ان الله لا يخلف الميعاد) قاله بلفظ الغيبة وقال فى آخر السورة انك لا تخلف الميعاد بلفظ الخطاب لان ما هنا متصل بما قبله وهو قوله انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه اتصالا لفظيا فقط وما فى آخرها متصل بما قبله وهو قوله ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك اتصالا لفظيا ومعنويا

الولد فان لم تلد هذه فهذه وقال مقاتل وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم باباحة الاكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ وقيل وابتغوا الحل الذي كتب الله لكم وحلله دون مالم يكتب لكم من المحل المحرم وقيل هو نهي عن العزل لانه في الحرائر فقوله تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) أي الصادق نزل في رجل من الانصار قال عكرمة اسمه أبو قيس وذلك انه ظل نهاره يعمل في أرض وهو صائم فلما أمسى رجع الى أهله بتمر فقال لامرأته قدمي الطعام وأرادت المرأة أن تطعمه شيأ سخنا فأخذت تعمل له في شئ وكان في ابتداء الاسلام من صلى العشاء أو نام قبلها حرم عليه الطعام والشراب فلما فرغت من طعامه اذ هو قد نام وكان قد أعيا وكل فايقظته فكره أن يعصى الله ورسوله وأبى أن يأكل فأصبح صائما مجهودا فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه فلما أفاق أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال يا أباقيس مالك أمسيت طليحا فذكر له حاله فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية وقد شبه سبحانه وتعالى أول ما يبدو من الفجر المعترض في الافق وما يمتد معه من غبش الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الابيض بقوله من الفجر عن بيان الخيط الاسود لدلالته عليه ويصح أن تكون من للتبعيض فانه يبدو بعض الفجر وعلى كل منهما فهي مع مدخولها في محل الحال والمعنى على التبعيض حال كون الخيط الابيض بعضا من الفجر وعلى البيان حال كونه هو الفجر (فان قيل) كيف التبس على عدي بن حاتم مع هذا البيان حتى قال عمدت الى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أقوم من الليل فلا يتبين لي الاسود من الابيض فلما أصبحت غدوت الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فضحك وقال ان كان وسادك اذا لعريضا وروى انك لعريض القفا انما ذاك بياض النهار من الليل (أجيب) بانه غفل عن البيان ولذلك عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه لانه مما يستدل به على بلادة الرجل وقلة فطنته وقال سهل بن سعد الساعدي نزلت ولم ينزل من الفجر فكان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الابيض والخيط الاسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبينهما فأنزل الله تعالى بعد ذلك من الفجر (فان قيل) كيف جاز فعل ذلك في رمضان مع تأخير البيان وهو يشبه العبث حيث لا يفهم منه المراد (أجيب) بأن ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان الى وقت الحاجة جائز أو اكتفى أولا باشتهارهما في ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم (ثم أتموا الصيام) من الفجر (الى الليل) أي الى دخوله بغروب الشمس كما روى عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم أي دخل وقت افطاره *(تنبيه)* انما قدرت في الآية الكريمة من الفجر ليدل على عدم جواز النية في النهار في صوم رمضان كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه ولان الى يكون المغيا بها ينقضي شيأ فشيأ والاتمام فعل الجزء الاخير فقط وهو لا ينقضي كذلك وفي الآية دليل على نفي الوصال لانه تعالى جعل الليل غاية الصوم وغاية الشئ منتهاه وما بعدها يخالف ما قبلها (ولا تباشروهن) أي نساءكم (وأنتم عاكفون) أي مقيمون (في المساجد) بنية الاعتكاف

لتقدم لفظ الوعد (قوله كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا) قال هنا وفي موضع من الانفال كذبوا وفي آخر منها كفروا تفننا جريا على عادة العرب في تفننهم في الكلام (قوله يرونهم مثليهم رأى العين) أي ترى الفئة الكافرة المسلمة مثلي عددهم أو بالعكس على الخلاف (ان قلت) هذا ينافي قوله في الانفال واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم اذ

والمراد بالمباشرة الوطء والآية نزلت فى نفر من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يعتكفون فى المسجد فاذا عرضت للرجل منهم الحاجة الى أهله خرج اليها فجامعها ثم اغتسل ثم يرجع الى المسجد فنهوا عن ذلك ليلا ونهارا حتى يفرغوا من اعتكافهم وفيه دليل على أن الاعتكاف لا يختص بمسجد دون مسجد وأن يكون فى المسجد لا فى غيره اذ ذكر المساجد لا جائز أن يكون لجعلها شرطا فى منع مباشرة المعتكف لمنعه منها وان كان خارج المسجد ويمنع غيره أيضا منها فيها فتعين كونها شرطا لصحة الاعتكاف وان الوطء محرم فى الاعتكاف ويفسده لان النهى فى العبادات يوجب الفساد اما مادون الجماع من المباشرات فان كان بشهوة فحرام ولا يبطل اعتكافه ان لم ينزل فان أنزل وكان بلا حائل فكالجماع والا فلا فعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اعتكف أدنى الى رأسه فأرجله وكان لا يدخل البيت الا لحاجة الانسان (تلك) الاحكام المذكورة وهى قوله تعالى فالآن باشروهن الى قوله تعالى فى المساجد (حدود الله) حدها للعباد ليقفوا عندها (فلا تقربوها) نهى تعالى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يدانى الباطل فضلا أن يتخطى عنه وهذا أبلغ من قوله تعالى فى آية أخرى فلا تعتدوها لكن فى ذلك مامورات وهى لا ينهى عن قربانها فالمراد منها اضدادها بناء على أن الامر بالشئ نهى عن ضده أو مستلزم له ليصح النهى عن قربانها ويجوز أن يراد بحدود الله محارمه ونواهيه وعلى هذا فالنهى عن القربان ظاهر كما قال عليه الصلاة والسلام ان لكل ملك حمى وان حمى الله فى أرضه محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه رواه الشيخان (كذلك) أى كما بين لكم ماذكر (يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) أى لكى يتقوا مخالفة الاوامر والنواهى فينجوا من العذاب (ولا تأكلوا أموالكم بينكم) أى لا يأكل بعضكم مال بعض (بالباطل) أى الحرام شرعا كالغصب والسرقة وقوله تعالى (وتدلوا) مجزوم داخل فى حكم النهى أو منصوب باضمار ان والادلاء الالقاء أى ولا تلقوا (بها) أى بحكومتها أو بالاموال رشوة (الى الحكام لتأكلوا) بالتحاكم (فريقا) أى طائفة (من اموال الناس بالاثم) أى بما يوجب اثما كشهادة الزور واليمين الكاذبة أو متلبس بالاثم فالباء اما للسببية فتكون متعلقة بتأكلوا أو للمصاحبة فتتعلق بمحذوف وتكون مع مدخولها حالا من فاعل تأكلوا (وأنتم تعلمون) انكم مبطلون فان ارتكاب المعصية مع العلم أقبح روى ان عبدان الحضرمى ادّعى على امرئ القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم بالحلف فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا فارتدع عن اليمين وسلم الارض لعبدان فنزلت وهو دليل على أن حكم القاضى لا ينفذ فى باطن الامر وفيه خلاف ظاهر ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لخصمين اختصما اليه انما أنا بشر وأنتم تختصمون الىّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته أى أقوم وأقدر عليها من بعض فاقضى له على ما أسمع منه فمن قضيت له بشئ من أخيه فانما أقطع له قطعة من نار فبكيا وقال كل واحد منهما حقى لصاحبى فقال اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه وسأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى

قضيته ان كلا منهما ترى الاخرى قليلة (قلت) التقليل والتكثير فى حالين قلل الله المشركين فى نظر المؤمنين وعكسه اولا حتى اجترأت كل منهما على قتال الاخرى ثم كثر الله المؤمنين فى نظر المشركين لما التقتا حتى جبنوا وفشلوا وكثر الله المشركين فى نظر المؤمنين وأراهم اياهم على ما هم عليه وكانوا فى الحقيقة أكثر من المؤمنين ليعلموا صدق وعد الله فى قوله فان يكن

عادنورا ويستوى ثم لايزال ينقص حتى يعود دقيقا كما بدا ولا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزل (يسئلونك) يا محمد (عن الاهلة) جمع هلال مثل رداء وأردية والهلال اسم له أول الليلة الاولى والثانية والثالثة وبعدها يسمى قمرا وهنا سماه بأول حالاته لان الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته من قولهم استهل الصبي اذا صرخ حين يولد (قل) لهم (هي مواقيت) جمع ميقات أى معالم (للناس) يعلمون بها أوقات زرعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصيامهم وافطارهم وعدد نسائهم وأيام حيضهن ومدة حملهن وغير ذلك وقوله تعالى (والحج) عطف على الناس أى يعلمون بها وقته أداء وقضاء هذه هي الحكمة الظاهرة في ذلك ولهذا خالف بين الاهلة وبين الشمس فلو استمرت الاهلة على حالة لم يعرف حال ماذكر * ولما كان الناس في الجاهلية وفي أول الاسلام اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطا ولا بيتا ولا دارا من بابه فان كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته ويدخل منه ويخرج أو يتخذ سلما فيه فيصعد منه وان كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يحل من احرامه ويرون ذلك برا الا أن يكون من الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وبنو عامر بن صعصعة وبنو نضر بن معاوية سموا حمسا لشدتهم في دينهم والحماسة الشدة والصلابة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بيتا لبعض الانصار فدخل رجل من الانصار يقال له رفاعة بن تابوت على اثره من الباب وهو محرم فانكروا عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لم دخلت من الباب وأنت محرم قال رأيتك دخلت فدخلت على اثرك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فانى أحمس فقال الرجل فان كنت أحمس فانى أحمس رضيت بهداك وبسمتك ودينك فانزل الله تعالى (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر) أى ذا البر (من اتقى) الله بترك مخالفته ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها انهم سألوا عن الحكمة في اختلال حال القمر وعن حكم دخولهم بيوتهم من غير أبوابها أو انه تعالى لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضا من افعالهم في الحج ذكره للاستطراد وانهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم وهو معرفة الحلال والحرام ويختص بعلم النبوة عقب بذكره جواب ما سألوه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو على أن المراد به التنبيه على تعكيسهم السؤال وتمثيلهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه والمعنى وليس البر أن تعكسوا في مسائلكم ولكن من اتقى ذلك ولم يجسر على مثله (واتوا البيوت من أبوابها) في الاحرام كغيره اذ ليس في العدول بر أو باشروا الامور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها والمراد توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله تعالى حكم وصواب من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك حتى لا يسئل عنه لما في السؤال من الاتهام بمقارنة الشك لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (واتقوا الله) في تغيير الاحكام (لعلكم تفلحون) لكي تفوزوا بالهدى والبر وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص البيوت بضم الباء حيث جاء معرفا كان او منكرا وكسرها الباقون ولا خلاف في وليس البر هنا ان الراء مرفوعة للجميع وقرأ نافع وابن عامر ولكن بكسر النون مخففة ورفع الراء والباقون بفتح النون مشددة ونصب الراء

منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين فان المؤمنين غلبوهم في هذه الغزاة وهي غزاة بدر مع انهم كانوا أضعاف عدد المؤمنين (قوله شهد الله الآية) كرر فيها الا الله لاهو لان الاول قول الله والثاني حكاية قول الملائكة وأولي العلم أو لان الاول جرى مجرى الشهادة والثاني مجرى الحكم بصحة ما شهدت به الشهود وقال جعفر الصادق الاول وصف والثاني تعليم أى قولوا واشهدوا كما شهدت (قوله ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) ان قلت

ولما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت عام الحديبية وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه للعمرة وكانوا ألفا وأربعمائة فساروا حتى نزلوا الحديبية فصدهم المشركون عن البيت الحرام وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام فيطوف بالبيت فلما كان العام المقبل تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم والاحرام والشهر الحرام وكره المسلمون ذلك نزل (وقاتلوا) أي جاهدوا (في سبيل الله) لاعلاء كلمته واعزاز دينه (الذين يقاتلونكم) من الكفار (ولا تعتدوا) عليهم بالابتداء بالقتال (ان الله لا يحب المعتدين) أى لا يريد بهم الخير لانه غاية المحبة اذ المحبة حقيقتها محال في حقه تعالى لانها ميل النفس وسبب ذلك انهم كانوا منعوا من قتال الكفار وأمروا بالصبر على أذاهم بقوله تعالى لتبلون في أموالكم الآية ثم أمروا به اذا ابتدؤا به بهذه الآية ثم أبيح لهم ابتداؤه في غير الاشهر الحرم بقوله تعالى فاذا انسلخ الاشهر الحرم الآية ثم أمروا به مطلقا من غير تقييد بشرط ولا زمان بقوله تعالى (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى وجدتموهم في حل أو حرم وقرأ أبو عمرو بادغام الثاء في الثاء بخلاف عنه حيث جاء (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى من مكة وقد فعل ذلك بمن لم يسلم عام الفتح (والفتنة) أى الشرك منهم (أشد) أى أعظم (من القتل) لهم في الحرم أو الاحرام الذى استعظمتموه أو المحنة التى يفتتن بها الانسان كالاخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها قيل لبعض الحكماء ما أشد من الموت قال الذى يتمنى فيه الموت وقال القائل

لقتل بحد السيف أهون موقعا * على النفس من قتل بحد فراق

وقيل الفتنة عذاب الآخرة كما قال تعالى ذوقوا فتنتكم (ولا تقاتلوهم) أى لا تبدؤهم (عند المسجد الحرام) أى في الحرم (حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم) فيه (فاقتلوهم) فيه فانهم وهم الذين هتكوا حرمته وقرأ حمزة والكسائى ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم بفتح التاء الفوقية من تقتلوهم والياء من يقتلوكم وسكون القاف ولا ألف بعد القاف وضم التاء فيهما والباقون بفتح التاء والياء وفتح القاف وبعد القاف ألف وكسر التاء وأما فان قاتلوكم فحذف حمزة والكسائى الالف وأثبتها الباقون والمعنى على قراءة حمزة والكسائى حتى يقتلوا بعضكم جعل وقوع القتل في بعضهم كوقوعه فيهم كقول بعض العرب قتلنا بنو أسد أى بعضهم وقال بعضهم وان تقتلونا نقتلكم (كذلك) أى القتل والاخراج (جزاء الكافرين) أى يفعل بهم مثل ما فعلوا (فان انتهوا) عن الكفر وأسلموا (فان الله غفور) يغفر لهم ما قد سلف (رحيم) بهم فلا يؤاخذ بذلك (وقاتلوهم حتى لا تكون) أى توجد (فتنة) أى شرك (ويكون الدين) أى العبادة (لله) وحده لا يعبدون سواه (فان انتهوا) عن الشرك فلا تعتدوا عليهم دل على هذا (فلا عدوان) أى اعتداء بقتل أو غيره (الا على الظالمين) اى فلا تعتدوا على المنتهين اذ لا يحسن أن يظلم الا من ظلم والفاء الاولى للتعقيب والثانية للجزاء وسمى جزاء الظالمين عدوانا للمشاكلة كقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه (الشهر الحرام) أى المحرم مقابل (بالشهر الحرام) وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج معتمرا في ذى القعدة

التولى والاعراض واحد
كما مر في البقرة فلم جمع
بينهما (قلت) لان المعنى
يتولون عن الداعى
ويعرضون عما دعاهم اليه
وهو كتاب الله أو يتولون
بابدانهم ويعرضون عن
الحق بقلوبهم أو كان
الذى تولى علماؤهم والذى
أعرض أتباعهم (قوله
بيدك الخير) خص الخير
بالذكر وان كان بيده الشر
أيضا لان الكلام انما ورد

سنة ست وصده المشركون عن البيت بالحديبية ورجع فى العام القابل فى ذى القعدة وقضى عمرته سنة سبع واستعظم المسلمون قتالهم فى الشهر الحرام نزلت هذه الآية أى هذا الشهر بذلك وهتكه بهتكه فلا تبالوا به وقوله تعالى (والحرمات قصاص) احتجاج عليه أى كل حرمة وهو ما يجب أن يحافظ عليها يجرى فيها القصاص والقصاص فيها لانه أراد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الاحرام أى فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم ان قاتلوكم أى كما قال تعالى (فمن اعتدى عليكم) بالقتال فى الحرم أو الاحرام أو الشهر الحرام (فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) سمى الجزاء باسم الاعتداء على ازدواج الكلام كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (واتقوا الله) فى الانتصار لانفسكم منهم ولا تعتدوا الى ما لم يرخص لكم (واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصر فيحرسهم ويصلح شأنهم (وأنفقوا فى سبيل الله) أى طاعته سواء الجهاد وغيره (ولا تلقوا بأيديكم) أى بأنفسكم عبر بالايدى عن الانفس كقوله تعالى بما كسبت أيديكم أى بما كسبتم والباء زائدة (الى التهلكة) أى الهلاك بالامساك عن النفقة فى الجهاد أو الاسراف فيها حتى يفقر نفسه ويضيع عياله أو عن ترك الغزو الذى هو تقوية للعدو روى ان رجلا من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس ألقى بيده الى التهلكة فقال أبو أيوب الانصارى نحن أعلم بهذه الآية وانما نزلت فينا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه وشهدنا معه المشاهد وآثرناه على أهالينا وأولادنا وأموالنا فلما فشا الاسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها رجعنا الى أهلينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها فكانت التهلكة الاقامة فى الاهل والمال وترك الجهاد فما زال أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية فى زمن معاوية فتوفى هناك ودفن فى أصل سورها وهم يستسقون به وروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلمانى الالقاء الى التهلكة هو القنوط من رحمة الله تعالى قال أبو قلابة هو الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليست لى توبة فييأس من رحمة الله وينهمك فى المعاصى فنهاهم الله تعالى عن ذلك كما قال تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون (وأحسنوا) أى بالنفقة وغيرها (ان الله يحب المحسنين) أى يثيبهم (وأتموا الحج والعمرة لله) أى أدوهما بحقوقهما وفى الآية حينئذ دليل على وجوبهما اذ الاصل فى الامر الوجوب وما روى عن جابر انه قال يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج فقال لا معارض بما روى أن رجلا قال لعمر رضى الله تعالى عنه انى وجدت أى علمت الحج والعمرة مكتوبين على أهللت بهما جميعا فقال هديت لسنة نبيك ولا يقال انه فسر وجد انهما مكتوبين بقوله أهللت بهما لانه رتب الاهلال بهما على الوجدان وذلك يدل على أنه سبب الاهلال دون العكس وقيل اتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك روى ذلك عن على وابن عباس رضى الله تعالى عنهم وقيل ان تفرد لكل واحد منهما سفرا وقيل أن تكون النفقة حلالا وقيل أن تخلصهما للعبادة ولا تشوبهما بشئ من التجارة والاغراض الدنيوية (فان أحصرتم) أى منعتم عن اتمامهما يقال حصره وأحصره العدو اذا منعه قال تعالى

الذين

فيه لانه انما ورد ردا على المشركين فيما أنكروه ووعد الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ووعد النبى صلى الله عليه وسلم به الصحابة رضى الله عنهم أو أراد النعم والشر واكتفى باحدهما لدلالته على الآخر كما فى سرابيل تقيكم الحر وانما خص الخير بالذكر لانه المرغوب فيه (قوله تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) أى تدخله فيه

الذين أحصروا في سبيل الله وقال القائل

وما هجر ليلى ان تكون تباعدت * عليك ولا ان أحصرتك شغول

لكن الاشهر أن يقال في العدو حصره وفي المرض أحصره والمراد هنا حصر العدو لقوله تعالى فاذا أمنتم ولنزول الآية في الحديبية ولقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا حصر الا حصر العدو وأما ما روى عنه عليه الصلاة والسلام من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل فمحمول على من شرطه لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير حجي واشترطي وقولي اللهم محلي حيث حبستني ومحلي بكسر الحاء محل الحبس والحصر ويجوز أن يكون مصدرا ميميا (فما استيسر من الهدى) أي فان أردتم التحلل فعليكم ما استيسر أو فالواجب أو فاهدوا ما استيسر من الهدى وهو بدنة أو بقرة أو سبع من أحدهما أو شاة يذبحها حيث أحصر في حل أو حرم عند الاكثر لانه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل وقيل لا بد ان يبعث بها الى الحرم لقوله تعالى (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله) أي لا تحلوا حتى تعلموا ان الهدى المبعوث الى الحرم بلغ محله أي مكانه الذي يجب أن يذبح فيه وحمل الاولون بلوغ الهدى محله على ذبحه حيث يحل ذبحه فيه حلا كان أو حرما لكن يندب ارساله الى الحرم خروجا من خلاف أبي حنيفة واقتصاره تعالى على الهدى دليل عدم القضاء كما قاله الشافعي وذهب أبو حنيفة الى وجوب القضاء ولا بد من نية التحلل عند الذبح أو الحلق أو التقصير بعده مع نية التحلل وبذلك يحصل التحلل والمحل بالكسر يطلق للمكان والزمان (فمن كان منكم مريضا) أي مرضا يحوجه الى الحلق (او به اذى من راسه) كقمل وصداع فحلق في الاحرام (ففدية) أي فعليه فدية ان حلق ولو بعض شعر رأسه ثلاث شعرات فاكثر ولاء (من صيام) وهو ثلاثة أيام (او صدقة) وهي ثلاثة آصع من غالب قوت البلد على ستة مساكين لكل واحد نصف صاع (او نسك) وهو بدنة أو بقرة أو سبع واحد منهما أو شاة وعن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له لعلك اذاك هوام رأسك قال نعم يا رسول الله قال احلق وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك شاة وكان كعب يقول أنزلت في هذه الآية وأو للتخيير وألحق بالمعذور من حلق لغير عذر لانه أولى بالكفارة وكذا من استمتع بغير الحلق كالطيب والدهن واللبس لعذر أو غيره (فاذا امنتم) من العدو بان ذهب أو كنتم في حال سعة وأمن (فمن تمتع بالعمرة) أي بسبب فراغه منها بمحظورات الاحرام (الى الحج) أي الاحرام به بان يكون أحرم بها في أشهره (فما استيسر) أي فعليه ما تيسر (من الهدى) وهو ما تقدم يذبحه بعد الاحرام بالحج ويجوز تقديمه على الاحرام به بعد الفراغ من العمرة (فمن لم يجد) أي الهدى لفقده أو فقد ثمنه (فصيام) أي فعليه صيام (ثلاثة ايام في الحج) أي في حال احرامه به ولا يجوز له أن يقدمه على الاحرام لانه عبادة بدنية فلا يجوز تقديمه على وقته ولا تأخيره عنه والافضل أن يحرم قبل السادس لكراهة صوم عرفة ولا يجب عليه أن يحرم قبل زمن يسع الصوم بل يستحب له لكن اذا أحرم وجب عليه الصوم ولا يجوز أن يصوم يوم النحر ولا أيام التشريق على أصح قولي الشافعي وهو ما عليه الاكثر (وسبعة) من الايام (اذا رجعتم) الى وطنكم مكة أو غيرها وقيل

بان يزيد كل منهما ما نقص من الآخر (قوله ويحذركم الله نفسه) كرره توكيدا للوعيد والاحسن كما قال التفتازاني ما قيل ان ذكره أولا للمنع من موالاة الكافرين وثانيا للحث على عمل الخير والمنع من عمل الشر (قوله وليس الذكر كالانثى) ان قلت ما فائدة ذكره مع انه معلوم (قلت) فائدته اعتذارها عما قالته ظنا فاتها ظنت ما في بطنها

اذا فرغتم من أعمال الحج وفيه التفات عن الغيبة وفائدة قوله تعالى (تلك عشرة) أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو كقولك جالس الحسن وابن سيرين ألا ترى انه لو جالسهما جميعا أو واحدا منهما كان ممتثلا وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا ليحاط به من جهتين فيتأكد العلم فان أكثر العرب لم يحسنوا الحساب وفى أمثال العرب علمان خير من علم وأن المراد بالسبعة العدد دون الكثرة فانه يطلق ايهما وقوله تعالى (كاملة) صفة مؤكدة تفيد المبالغة فى محافظة العدد بأن لا يتهاون بها ولا ينقص من عددها كما تقول للرجل اذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به وكان منك بمنزلة الله الله لا تقصر أو صيغة كمال العشرة فانه أول عدد كامل اذ به تنتهى الآحاد وتتم مراتبها وقيل كاملة فى وقوعها بدلا من الهدى بحيث لا يقصر ثواب الصوم عن ثواب الهدى (ذلك) أى الحكم المذكور من وجوب الهدى أو الصيام على من تمتع (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) وهم من مساكنهم دون مرحلتين من الحرم القريبهم منه والقريب من الشئ يقال انه حاضره قال تعالى واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر أى قريبة منه وفى ذكر الاهل اشعار باشتراط الاستيطان فلو أقام قبل أشهر الحج ولم يستوطن وتمتع فعليه ذلك وهو أصح قولى الشافعى والثانى لا والاهل كناية عن النفس والحق بالمتمتع فيما ذكر بالسنة القارن وهو من يحرم بالعمرة والحج معا أو يدخل الحج عليها قبل الطواف (واتقوا الله) بالمحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصا فى الحج (واعلموا أن الله شديد العقاب) لمن خالفه ليكون علمكم بشديد عقابه لطفا لكم فى التقوى (الحج أشهر) أى وقته كقولك البرد شهران (معلومات) وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة الى طلوع الفجر من يوم النحر عندنا والعشر كله عند أبى حنيفة وذو الحجة كله عند مالك وعلى الاولين انما سمى شهرين وبعض شهر أشهرا اقامة للبعض مقام الكل أو اطلاقا للجمع على مافوق الواحد كما فى قوله تعالى فقد صغت قلوبكما لحفصة وعائشة (فمن فرض) على نفسه (فيهن الحج) بالاحرام به عندنا أو بالتلبية أو بسوق الهدى عند أبى حنيفة وفيه دليل على أن من أحرم بالحج فى غير أشهر الحج لا ينعقد احرامه بالحج وهو قول ابن عباس وجماعة من الصحابة واليه ذهب الاوزاعى والشافعى وقال ينعقد احرامه عمرة لان الله تعالى خص هذه الاشهر بفرض الحج فيها فلو انعقد فى غيرها لم يكن لهذا التخصيص فائدة كما أنه تعالى علق الصلاة بالمواقيت ثم من أحرم بفرض الصلاة قبل دخول وقته لم ينعقد احرامه عن الفرض وانما انعقد عمرة لان الاحرام شديد التعلق وذهب جماعة الى أنه ينعقد احرامه بالحج وهو قول مالك والثورى وأبى حنيفة أما العمرة فجميع السنة وقت لها الا أن يكون عليه بقية من أعمال الحج كالرمى (فلا رفث) أى جماع فيه كما قال ابن عباس وجماعة من الصحابة وقيل الرفث غشيان النساء والقبلة والغمز وان يعرض لها بالفحش من الكلام وقيل هو الفحش والقول القبيح (ولا فسوق) أى ولا خروج عن حدود الشرع بالسيآت وارتكاب المحظورات وقيل هو السباب والتنابز بالالقاب (ولا جدال) أى خصام مع الخدم والرفقة وغيرهما (فى الحج) أى فى أيامه فنفى الثلاث على قصد النهى للمبالغة وللدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون وما كان منها مستقبحا فى نفسه ففى الحج أقبح كلبس الحرير فى الصلاة والتطريب

ذكر انه نذرت ان يجعله خادما لبيت المقدس وكان من شريعتهم صحة هذا النذر فى الذكور خاصة فلما خاب ظنها استحيت حيث لم يقبل نذرها فقالت ذلك معتذرة انه لا يصلح لذلك الذكر من خدمة المسجد فن الله عليها بتخصيص مريم بقبولها فى النذر دون غيرها من الاناث فقال فتقبلها ربها (قوله فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب الخ) ان قلت كيف

بقراءة القرآن وهو مد الصوت وتحسينه بحيث يخرج الحروف عن هيآتها فانه يقبح فى كل كلام لكنه فى قراءة القرآن أقبح وقرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع الثاء من رفث والقاف من فسوق والتنوين فيهما على معنى لا يكون رفث ولا فسوق والباقون بنصبهما ولا خلاف فى ولا جدال فالجميع بالنصب ولا تنوين على معنى الاخبار كأنه قيل ولا شك ولا خلاف فى الحج وذلك أن قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام وسائر العرب يقفون بعرفة وكانوا يقدمون الحج سنة ويؤخرونه سنة وهو النسىء فرد الى وقت واحد ورد الوقوف الى عرفة فأخبر الله تعالى انه قد ارتفع الخلاف فى الحج واستدل على أن المنهى عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال بقوله صلى الله عليه وسلم من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج كهيئة يوم ولدته أمه فانه لم يذكر الجدال (وما تفعلوا من خير) كصدقة (يعلمه الله) فيه حث على الخير حيث عقب به النهى عن الشر وان يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجدال الوفاق والاخلاق الجميلة (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) أى وتزودوا لمعادكم التقوى فانها خير زاد روى البخارى وغيره ان أهل اليمن كانوا يخرجون الى الحج بغير زاد ويقولون نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله تعالى أفلا يطعمنا فيكونون كلا على الناس فيسألونهم وربما يفضى الحال بهم الى النهب والغصب فقال الله جل ذكره وتزودوا أى ما تتبلغون به وتكفون به وجوهكم قال أهل التفسير الكعك والزبيب والسويق والتمر ونحوها فان خير الزاد التقوى أى ما يتقى به سؤال الناس وغيره (واتقون يا أولى الالباب) أى يا ذوى العقول فان قضية اللب خشية الله تعالى وتقواه وحثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شئ سواه وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص أولى الالباب بهذا الخطاب (ليس عليكم جناح) فى (ان تبتغوا) أى تطلبوا (فضلا) أى رزقا (من ربكم) بالتجارة فى الحج نزلت ردعا لناس من العرب كانوا يتأثمون أن يتجروا أيام الحج واذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق ويسمون من يخرج بالتجارة الداج ويقولون هؤلاء الداج وليسوا بالحاج وروى البخارى انه كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية يتجرون فيها فى أيام الموسم وكانت معايشهم منها فلما جاء الاسلام تأثموا فرفع عنهم الجناح فى ذلك وأبيح لهم وعن عمر رضى الله تعالى عنه انه قيل له هل كنتم تكرهون التجارة فى الحج فقال وهل كانت معايشنا الا من التجارة فى الحج وعكاظ سوق لقيس ومجنة وهى بفتح الميم أشهر من كسرها وبفتح الجيم وتشديد النون سوق لكنانة بمر الظهران وذو المجاز وهو بفتح الميم وبالزاى سوق لهذيل (فاذا أفضتم) دفعتم (من عرفات) وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول كما حذفوه من دفعوا من موضع كذا أى دفعوا أنفسهم واختلفوا فى المعنى الذى لاجله سمى الموقف عرفات واليوم عرفة فقال عطاء كان جبريل عليه السلام يرى ابراهيم عليه الصلاة والسلام المناسك ويقول عرفت فيقول عرفت فسمى المكان لذلك عرفات واليوم عرفة وقال الضحاك كان آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط وقع فى الهند وحواء بجدة فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه فاجتمعا بعرفات يوم عرفة فتعارفا فسمى المكان واليوم بما ذكر وقال السدى لما أذن

نادت الملائكة زكريا وهو قائم يصلى وأجابها وهو فى الصلاة (قلت) المراد بالصلاة هنا الدعاء كقوله ولا تجهر بصلاتك (فان قلت) لم خص يحيى عليه السلام بقوله مصدقا بكلمة من الله مع أن كل واحد من المؤمنين مصدق بجميع كلمات الله تعالى (قلت) لان معناه مصدقا بعيسى الذى كان وجوده بكلمة من الله تعالى وهو قوله كن من غير أب وكان فى الوجود أو المرتبة وكان

ابراهيم فى الناس بالحج وأجابوا بالتلبية وأتاه من أتاه أمره الله تعالى ان يخرج الى عرفات ونعتها له فلما بلغ الجمرة الاولى استقبله الشيطان يرده فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية فرماه وكبر فطار و وقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فلما رأى الشيطان انه لا يطيعه ذهب فانطلق ابراهيم حتى أتى ذا المجاز فلما نظر اليه لم يعرفه فجاز فسمى ذا المجاز ثم انطلق حتى وقف بعرفات فعرفها بالنعت فسمى المكان واليوم بما ذكر (فان قيل) هلا منعت الصرف وفيها السببان العلمية والتأنيث (أجيب) بان التأنيث لا يخلوا اما أن يكون بالتاء فى لفظها واما بتاء مقدرة كما فى سعاد فالتى فى لفظها ليست للتأنيث وانما هى مع الالف التى قبلها علامة جمع التأنيث ولا يصح تقدير التاء فيها الان هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها كما لا تقدر تاء التأنيث فى بنت لان التاء التى فيها هى بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها وفى الآية دليل على وجوب الوقوف بعرفة لان اذا تدل على ان المذكور بعدها محقق لا بد منه فكأنه قيل بعدما افضتم من عرفات التى لا بد منها اذكروا الله والافاضة من عرفات لا تكون الا بعد الوقوف بها فوجب أن يكون الوقوف بها واجبا وعن النبى صلى الله عليه وسلم الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج (فاذكروا الله) بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات وقيل بصلاة المغرب والعشاء (عند المشعر الحرام) وهو جبل فى آخر المزدلفة يقال له قزح وفى الحديث انه صلى الله عليه وسلم وقف به يذكر الله تعالى و يدعو حتى أسفر جدا رواه مسلم وقال جابر دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد واقامتين ولم يسبح بينهما شيئا ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان واقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام استقبل القبلة فدعا وكبر وهلل و وحد ولم يزل واقفا حتى أصبح جدا وقوله تعالى عند المشعر الحرام معناه مما يلى المشعر الحرام قريبا منه وذلك للفضل كالقرب من جبل الرحمة والا فالمزدلفة كلها موقف الا وادى محسر و يسمى مشعرا من الشعار وهى العلامة لانه من معالم الحج ووصف بالحرام لحرمته وتسمى المزدلفة جمعا لانه يجمع فيها بين صلاتى المغرب والعشاء وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه نظر الى الناس ليلة جمع فقال لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون وقيل سميت جمعا لان آدم اجتمع فيها مع حواء عليهما الصلاة والسلام وازدلف اليها أى دنا منها وقيل وصفت بفعل أهلها لانهم يزدلفون الى الله تعالى أى يتقربون بالوقوف فيها (واذكروه كما هداكم) لمعالم دينه ومناسك حجه والكاف للتعليل (وان كنتم من قبله) أى الهدى (لمن الضالين) أى الجاهلين بالايمان والطاعة وان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة وقيل ان هى النافية واللام بمعنى الا كقوله تعالى وان نظنك لمن الكاذبين أى ما نظنك الا من الكاذبين (ثم أفيضوا) يا قريش (من حيث أفاض الناس) وذلك أنهم وحلفاءهم ومن دان بدينهم وهم الحمس كانوا يقفون بالمزدلفة وسائر الناس بعرفة و يرون ذلك ترفعا عليهم و يقولون نحن أهل الله وقطان حرمه ولا نخرج منه فأمروا أن يساووهم وثم للترتيب فى الذكر وفى الكلام تقديم وتأخير تقديره فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ثم أفيضوا من حيث أفاض

الناس

تصديق بعيسى لعيسى أسبق من تصديق كل أحد به (قوله قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر) قدم هنا ذكر الكبر على ذكر المرأة وعكس فى مريم لان الذكر مقدم على الانثى فقدم كبره هنا وأخر ثم لتتوافق الفواصل فى عتيا وسويا وعشيا وصبيا وغيرها (فان قلت) كيف استبعد زكريا ذلك ولم يكن شاكا فى قدرة الله تعالى عليه (قلت) انما قال ذلك تعجبا

الناس فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام وقيل لتفاوت ما بين الافاضتين أى لتراخى الثانية عن الاولى رتبة اذ الاولى هى الصواب والثانية خطا كما فى قولك أحسن الى الناس ثم لا تحسن الى غير كريم فانك تاتى بثم لتفاوت ما بين الاحسان الى الكريم والى غيره وبعد ما بينهما وقيل ثم بمعنى الواو كما فى قوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا (واستغفروا الله) من ذنوبكم فى تغيير المناسك وغيره (ان الله غفور رحيم) يغفر ذنوب المستغفر وينعم عليه (فاذا قضيتم) أى أديتم (مناسككم) أى عبادات حجكم كأن رميتم جمرة العقبة وطفتم واستقررتم بمنى وأدغم أبو عمرو الكاف فى الكاف بخلاف عنه ولم يدغم مثلين من كلمة فى القرآن الا هنا وفى سورة المدثر وهى قوله تعالى ما سلككم فى سقر (فاذكروا الله) بالتكبير والتحميد والثناء عليه (كذكركم آباءكم) وذلك ان العرب كانت اذا فرغت من الحج وقفت بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدون فضائل آبائهم ويذكرون محاسن أيامهم فأمرهم الله تعالى بذكره وقال فاذكرونى فانا الذى فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت اليكم واليهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء وذلك ان الصبى أول ما يتكلم يلهج بذكر أبيه لا بذكر غيره فقال الله تعالى فاذكروا الله لا غير كذكر الصبى أباه (أو أشد ذكرا) من ذكركم اياهم ونصب أشد على الحال المنصوب باذكروا اذ لو تأخر عنه لكان صفة له (فمن الناس من يقول ربنا آتنا) نصيبنا (فى الدنيا) وهم المشركون كانوا لا يسألون الله تعالى فى الحج الا الدنيا يقولون اللهم أعطنا غنما وابلا وبقرا وعبيدا وكان الرجل يقوم فيقول اللهم ان أبى كان عظيم الفئة كبير الجفنة كثير المال فأعطنى مثل ما أعطيته (وما له فى الآخرة من خلاق) أى نصيب لان همه مقصور على الدنيا (ومنهم) أى الناس (من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) بعدم دخولها وهم المؤمنون واختلفوا فى معنى الحسنتين فقال على رضى الله تعالى عنه الحسنة فى الدنيا المرأة الصالحة والحسنة فى الآخرة الجنة يدل له قوله صلى الله عليه وسلم الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة وروى عنه أيضا أنه قال الحسنة فى الدنيا المرأة الصالحة وفى الآخرة الحوراء وعذاب النار المرأة السوء وقال الحسن الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة والحسنة فى الآخرة الجنة وقال السدى الحسنة فى الدنيا الرزق الحلال والحسنة فى الآخرة المغفرة والثواب وأدغم أبو عمرو اللام فى الراء بخلاف عنه (أولئك) الداعون بالحسنتين (لهم نصيب) أى ثواب (مما كسبوا) أى من جنس ما كسبوا من الاعمال الحسنة أو من أجل ما كسبوا كقوله تعالى مما خطاياهم أغرقوا ويجوز أن يكون أولئك للفريقين جميعا وان لكل فريق نصيبا من جنس ما كسبوا (والله سريع الحساب) أى اذا حاسب فحسابه سريع لا يحتاج الى عقد يد ولا وعى صدر ولا روية فكر قال الحسن أسرع من لمح البصر وفى الحديث يحاسب الخلق كلهم فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا (واذكروا الله) أى كبروه أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها (فى أيام معدودات) أى أيام التشريق الثلاثة وسميت معدودات لقلتهن كقوله تعالى دراهم معدودة والايام المعلومات عشر ذى الحجة آخرهن يوم النحر والتكبير فى الايام المعدودات عقب كل صلاة ولو فائتة ونافلة مشروع فى حق الحاج

من قدرة الله تعالى لا استبعادا (قوله قال كذلك الله يفعل ما يشاء) قال فى حق زكريا يفعل وفى حق مريم بعد يخلق مع اشتراكهما فى بشارتهما بولد لان استبعاد زكريا لم يكن لامر خارق بل نادر بعيد فحسن التعبير بيفعل واستبعاد مريم كان لامر خارق فكان ذكر الخلق أنسب (قوله قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة ايام

وغير لكن غير الحاج يكبر من صبح يوم عرفة الى عقب عصر آخر أيام التشريق للاتباع رواه الحاكم وصحح اسناده وأما الحاج فيكبر من ظهر يوم النحر لانه أول صلاته بمنى ولا يسن التكبير عقب صلاة عيد الفطر لعدم وروده (فمن تعجل) أى استعجل بالنفر من منى (فى يومين) أى فى ثانى أيام التشريق بعد رمى جماره بعد الزوال عند الشافعى وأصحابه قال فى الكشاف وعند أبى حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر (فلا اثم عليه) بالتعجيل (ومن تأخر) حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره بعد زواله عندنا وقال فى الكشاف يجوز تقديم الرمى على الزوال عند أبى حنيفة (فلا اثم عليه) بذلك أى هم مخيرون فى ذلك (فان قيل) أليس التأخير أفضل (أجيب) بان التخيير يقع بين الفاضل والافضل كما خير المسافر بين الصوم والافطار وان كان الصوم أفضل عند عدم المشقة وقيل ان أهل الجاهلية كانوا فريقين منهم من جعل المتعجل آثما ومنهم من جعل المتأخر آثما فورد القرآن بنفى الاثم عنهما جميعا وذلك التخيير ونفى الاثم عن المتعجل والمتأخر (لمن اتقى) الله تعالى فى حجه لانه الحاج على الحقيقة عند الله تعالى وقال النبى صلى الله عليه وسلم من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه (واتقوا الله) فى مجامع أموركم ليعبأ بكم (واعلموا أنكم اليه تحشرون) فى الآخرة فيجازيكم باعمالكم (ومن الناس من يعجبك قوله) أى يعظم فى نفسك ومنه الشئ العجيب الذى يعظم فى النفس وهو الاخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة واسمه أبى وسمى الاخنس لانه خنس يوم بدر بثلثمائة رجل من بنى زهرة عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان منافقا حلو المنظر حلو الكلام للنبى صلى الله عليه وسلم يحلف انه مؤمن به ومحب له و يقول يعلم الله أنى صادق وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى مجلسه وقوله تعالى (فى الحياة الدنيا) متعلق بالقول أى يعجبك ما يقوله فى أمور الدنيا وأسباب المعاش أو فى معنى الدنيا لان ادعاءه المحبة بالباطل يطلب به حظا من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة كما يراد بالايمان الحقيق والمحبة الصادقة للرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه اذا فى الدنيا لا فى الآخرة أو يعجبك قوله فى الحياة الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك فى الآخرة لما يرهقه فى الموقف من الدهشة واللكنة أو لانه لا يؤذن له فى الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه (ويشهد الله على ما فى قلبه) أنه موافق لكلامه (وهو ألد الخصام) أى شديد الخصومة لك ولاتباعك لعدوته لك وقال الحسن ألد الخصام أى كاذب القول وقال قتادة شديد القسوة فى المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة و يعمل بالخطيئة وفى الحديث ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم (واذا تولى) أى انصرف عنك بعد الانة القول وحلاوة المنطق (سعى) أى مشى (فى الارض ليفسد فيها) قال ابن جرير بقطع الرحم وسفك دماء المسلمين (ويهلك الحرث والنسل) وذلك ان الاخنس كان بينه و بين ثقيف خصومة فبيتهم ليلا فاحرق زرعهم وأهلك مواشيهم وقيل واذا كان واليا فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد فى الارض باهلاك الحرث والنسل وقيل يظهر الظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل وحكى الزجاج عن قوم ان الحرث النساء والنسل الاولاد قال وهذا ليس بمنكر لان المرأة تسمى حرثا أى ويدل له قوله تعالى فأتوا حرثكم أنى شئتم (والله لا يحب الفساد) أى لا يرضى به لان المحبة وهى ميل القلب محالة فى حقه

تعالى

(قوله الا رمزا) ان قلت ما الجمع بين قوله هنا ثلاثة أيام وقوله فى مريم ثلاث ليال قلت كل منهما مقيد بالآخر فلا بد من الجمع بينهما (قوله ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك) كرر اصطفاك لان الاصطفاء الاول للعبادة التى هى خدمة بيت المقدس وتخصيص مريم بقبولها فى النذر مع كونها أنثى والاصطفاء الثانى لولادة عيسى

تعالى فهي مستعملة في حقه تعالى في معنى الرضا (واذا قيل له اتق الله) في فعلك (أخذته العزة) اى حملته الانفة والحمية على العمل (بالاثم) الذى يؤمر باتقائه (فحسبه) اى كافيه (جهنم) جزاء وعذابا وهى علم لدار العقاب وهو فى الاصل مرادف للنار وسميت بذلك لبعد قعرها واصلها من الجهم وهو الكراهة والغلظ فالنون زائدة وقيل معرب نقل من العجمية الى العربية وتصرف فيه وأصله كهنام أبدلت الكاف جيما وأسقطت الالف وقوله تعالى (ولبئس المهاد) جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف للعلم به تقديره جهنم والمهاد الفراش (ومن الناس من يشرى) أى يبيع (نفسه) أى يبذلها فى الجهاد أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل (ابتغاء مرضاة الله) أى طلب الرضا وقال أكثر المفسرين نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون فى رهط من المؤمنين فعذبوهم فقال لهم انى شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أم من غيركم فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى ففعلوا وكان شرط لهم راحلة ونفقة فأقام بمكة ما شاء الله ثم خرج الى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فى رجال فقال له أبو بكر ربح بيعك أبا يحيى فقال وما ذاك فقال انزل الله فيك قرآنا وقرأ عليه هذه الآية فعلى هذا يكون يشرى بمعنى يشترى لا بمعنى يبيع ويبذل وقيل نزلت فى الزبير والمقداد بن الاسود وذلك ان كفار قريش بعثوا الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة انا قد اسلمنا فابعث الينا نفرا من علماء اصحابك يعلمونا دينك وكان ذلك مكرا منهم فبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابو هريرة عشرة ومن جملتهم خبيب فقتلوهم وأسروا خبيبا قال آسره والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب والله وجدته يوما يأكل قطفا من عنب فى يده وانه لموثوق بالحديد وما بمكة من ثمرة ان كان الارزقا رزقه الله خبيبا ثم أرادوا قتله فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل وأرادوا أن يصلبوه فقال دعونى أصلى ركعتين فتركوه حتى صلاهما ثم قال لولا أخشى ان تحسبوا ان ما بى من جزع لزدت اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم انشأ يقول

واست أبالى حين أقتل مسلما * على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وان يشأ * يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم صلبوه حيا فقال اللهم انك تعلم انه ليس أحد حولى يبلغ سلامى رسولك فأبلغه سلامى ثم قام عقبة بن الحرث فقتله فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم هذا الخبر قال أيكم ينزل خبيبا عن خشبته وله الجنة فقال الزبير أنا يا رسول الله وصاحبى المقداد فخرجا يسيران بالليل ويكمنان بالنهار حتى وصلا اليه ليلا واذا حول الخشبة أربعون من المشركين نيام فأنزلاه فاذا هو رطب لم يتغير منه شئ بعد أربعين يوما فحمله الزبير على فرسه وسارا فلحقهم سبعون منهم فلما لحقوهما قذف الزبير خبيبا فابتلعته الارض فسمى بليع الارض ثم رفع الزبير العمامة عن رأسه وقال انا الزبير بن العوام وأمى صفية بنت عبد المطلب وصاحبى المقداد بن الاسود فان شئتم ناضلتكم وان شئتم نازلتكم وان شئتم انصرفتم فانصرفوا الى مكة وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده فقال يا محمد ان الملائكة لتتباهى بهذين من أصحابك فنزلت فيهما هذه الآية (والله رؤف بالعباد) حيث أرشدهم لما فيه رضاه ونزل فى مؤمنى أهل

(قوله قال رب أنى يكون لى ولد) قال هنا ولد وفى مريم غلام لان ذكر المسيح تقدم هنا وهو ولدها وفى مريم تقدم ذكر الغلام (قوله وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم) الآية (ان قلت) كيف نفى وجود النبى صلى الله عليه وسلم فى زمن مريم مع انه معلوم عندهم وترك ما كانوا يتوهمونه من استماعه ذلك الخبر من حفاظه (قلت) لانهم يعلمون انه صلى الله عليه وسلم لم يرأى

الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم) أى الاسلام وقوله تعالى (كافة) حال من السلم لانها تؤنث كما تؤنث الحرب كما قال القائل

أبا خراشة أما أنت ذا نفر * فان قومى لم تأكلهم الضبع
فى السلم تأخذ منا ما رضيت به * والحرب تكفيك من أنفاسها جرع

أى ادخلوا فى جميع شرائعه وذلك انهم كانوا يعظمون السبت ويكرهون لحوم الابل وألبانها بعدما أسلموا فأمروا أن يدخلوا فى جميع شرائعه (ولا تتبعوا خطوات) أى طرق (الشيطان) أى تزيينه من تحريم السبت ولحوم الابل وألبانها وقرأ نافع وابن كثير والكسائى السلم بفتح السين والباقون بكسرها وتقدم الكلام فى خطوات لابن عامر وقنبل وحفص والكسائى بضم الطاء (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (فان زللتم) اى ملتم عن الدخول فى جميعه (من بعد ما جاءتكم البينات) أى الحجج الظاهرة أنه حق (فاعلموا ان الله عزيز) لا يعجزه شئ عن انتقامه منكم (حكيم) فى صنعه * (تنبيه) * قول البيضاوى حكيم لا ينتقم الا بحق تبع فيه الزمخشرى وهو مذهب المعتزلة فانهم يقولون لا ينتقم الا بقدر ما يستحقه العاصى ومذهب أهل السنة انه ينتقم ويعاقب من شاء بما شاء وان كان مطيعا اذ هو متصرف فى ملكه يفعل ما يشاء بمن شاء وان لم يقع منه الانتقام الا عن أسباب وروى أن قارئا قرأ غفور رحيم بدل عزيز حكيم فسمعه اعرابى لم يقرأ القرآن فانكره وقال ان كان هذا كلام الله فلا يذكر الغفران عند الزلل لانه اغراء عليه قوله تعالى (هل ينظرون) استفهام فى معنى النفى أى ما ينظرون (الا أن يأتيهم الله) اى أمره أو بأسه كقوله تعالى أو يأتى أمر ربك اى عذابه وقوله تعالى فجاءهم بأسنا أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتى به للدلالة عليه بقوله تعالى ان الله عزيز حكيم (فى ظلل) جمع ظلة وهى ما أظلك (من الغمام) أى من السحاب الابيض سمى غماما لانه يغم اى يستر وانما يأتيهم العذاب فيه لانه مظنة الرحمة وهى نزول المطر فاذا جاء منه العذاب كان أفظع لان الشر اذا جاء من حيث لا يحتسب كان اصعب فكيف اذا جاء من حيث يحتسب الخير (و) تأتيهم (الملائكة) فانهم الواسطة فى اتيان أمره أوالآتون على الحقيقة ببأسه قال البغوى والاولى فى هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن الانسان بظاهرها ويكل علمها الى الله تعالى ويعتقد أن الله تعالى منزه عن سمات الحوادث وعلى ذلك مضت ائمة السلف وعلماء السنة انتهى وأما أئمة الخلف فانهم يؤولون هذه الآية بنحو ما أولناه وأمثالها بحسب المقام وهو أحكم ومذهب السلف أسلم وكان مكحول ومالك والليث واحمد يقولون فى هذا وامثاله أمروها كما جاءت بلا كيف (وقضى الامر) أى تم أمر هلاكهم وفرغ منهم ووضع الماضى موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه (والى الله ترجع الامور) فى الآخرة فيجازيهم وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم وقوله تعالى (سل) أمر للرسول أولكل أحد (بنى اسرائيل) توبيخا (كم آتيناهم) كم استفهامية معلقة سل عن المفعول الثانى وهى ثانى مفعولى آتيناهم ومميزها (من آية) أى معجزة (بينة) أى ظاهرة فى الدلالة على صدق من جاء بها كفلق البحر والعصا واليد البيضاء وابراء الاكمه والابرص وفلق البحر وانزال المن والسلوى فبدلوها كفرا (ومن يبدل نعمة الله) اى ما أنعم

لا يقرأ ولا يكتب وانما كانوا منكرين للوحى فنفى الله الوجود الذى هو فى غاية الاستحالة على وجه التهكم بالمنكرين للوحى مع علمهم انه لا قراءة له ولا رواية (قوله اسمه المسيح عيسى بن مريم) فيه التفات اذ القياس ابنك (فان قلت) كيف قال ابن مريم والخطاب معها وهى تعلم ان الولد الذى بشرت به يكون ابنها (قلت) لان الناس ينسبون الى الآباء لا الى الامهات

به عليه من الآيات لانها سبب الهداية التي هي أجل النعم كفرا (من بعد ما جاءته) أي وصلته وتمكن من معرفتها (فان الله شديد العقاب) فيعاقبه أشد عقوبة لانه ارتكب أشد جريمة وهي التبديل (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) اي حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها والمزين في الحقيقة هو الله تعالى اذ ما من شيء الا وهو فاعله وكل من الشيطان والقوة الحيوانية وما خلق الله فيها من الامور البهيمية والاشياء الشهية مزين بالعرض واختلف في سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه وكانوا يتنعمون بما بسط لهم في الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد (ويسخرون من الذين آمنوا) اي يستهزؤن بالفقراء من المؤمنين قال ابن عباس أراد بالذين آمنوا عبد الله ابن مسعود وعمار بن ياسر وصهيبا وبلالا وخبابا وأمثالهم وقال قتادة نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتنعمون في الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين ويقولون انظروا الى هؤلاء الذين يزعم محمد انه يغلب بهم وقال عطاء نزلت في رؤساء اليهود من بني قريظة والنضير وقينقاع سخروا من فقراء المهاجرين فوعدهم الله ان يعطيهم أموال بني قريظة والنضير بغير قتال (والذين اتقوا) أي الشرك وهم هؤلاء الفقراء (فوقهم يوم القيامة) لانهم في أعلى عليين وهم في أسفل السافلين أو حالهم عالية لحالهم لانهم في كرامة وهم في هوان أو هم عالون عليهم متطاولون يضحكون منهم كما تطاول هؤلاء عليهم في الدنيا ويرون الفضل لهم عليهم فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون روى عن اسامة بن زيد انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفت على باب الجنة فرأيت أكثر أهلها المساكين ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء واذا أهل الجد محبوسون الا من كان منهم من أهل النار فقد أمر به الى النار وروى عن سهل بن سعد الساعدي انه قال مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده جالس ما رأيك في هذا فقال رجل من أشراف الناس هذا والله حرى ان خطب ان ينكح وان شفع ان يشفع قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيك في هذ فقال يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى اى حقيق ان خطب أن لا ينكح وان شفع ان لا يشفع وان قال أن لا يسمع لقوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير من ملء الارض من مثل هذا (والله يرزق من يشاء) في الدارين (بغير حساب) اى رزقا واسعا بغير تقدير في الدنيا للكافر استدراجا كما وسع على قارون وللمؤمن ابتلاء كما وسع على عبد الرحمن بن عوف وفي الآخرة للمؤمن خاصة تفضلا (كان الناس أمة واحدة) اى متفقين على الحق روى عن أبي العالية عن كعب قال كان الناس حين عرضوا على آدم وأخرجوا من ظهره وأقروا بالعبودية أمة واحدة مسلمين ولم يكونوا أمة واحدة قط غير ذلك اليوم ثم اختلفوا بعد آدم وقال الكلبي هم أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين ثم اختلفوا بعد وفاة نوح وقال قتادة وعكرمة كان الناس من وقت آدم الى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى ثم اختلفوا في زمن نوح وقال مجاهد أراد آدم وحده كان أمة واحدة سمى الواحد بلفظ الجمع لانه أصل النسل وأبو البشر ثم خلق الله حواء ونشر منهما الناس فكانوا

فاعلمت بنسبته اليها انه ولد من غير أب ولا ينسب الا الى أمه (قوله وتكلم الناس في المهد وكهلا) ان قلت اى معجزة لعيسى عليه السلام في تكليمه الناس كهلا (قلت) معناه تكلمهم في الحالتين بكلام الانبياء من غير تفاوت بين الطفولة والكهولة التي يستحكم فيها العقل وتنبأ فيها الانبياء وقال الزجاج هذا أخرج مخرج البشارة لمريم ببقاء عيسى الى وقت الكهولة

مسلمين الى أن قتل قابيل هابيل فاختلفوا وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كان الناس على عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام أمة واحدة كافرين كلهم فبعث الله ابراهيم وغيره من النبيين عليهم السلام كما قال تعالى (فبعث الله النبيين) اى اختلفوا فبعث الله وانما حذف لدلالة فيما اختلفوا فيه عليه وجملة الانبياء كما رواه الامام أحمد مرفوعا فى حديث ورد عن كعب مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر والمذكور منهم فى القرآن باسمه العلم الموضوع له ثمانية وعشرون نبيا وهم آدم وادريس ونوح وهود وصالح وابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب ويوسف ولوط وموسى وهرون وشعيب وزكريا ويحيى وعيسى وداود وسليمان والياس واليسع وذوالكفل وأيوب ويونس ومحمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين وذوالقرنين وعزير ولقمان على القول بنبوة الثلاثة (مبشرين) من آمن وأطاع بالجنة (ومنذرين) من كفر وعصى بالنار (وأنزل معهم الكتاب) المراد به الجنس فهو بمعنى الكتب لكنه تعالى لم ينزل مع كل واحد كتابا يخصه فان اكثرهم لم يكن له كتاب يخصه وانما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وقوله تعالى (بالحق) حال من الكتاب اى متلبسا بالحق شاهدا به (ليحكم بين الناس) اى الله أو الكتاب أو النبى المبعوث ورجح الثانى التفتازانى وقال لابد فى عوده الى الله من تكلف فى المعنى اى ليظهر حكمه والى النبى من تكلف فى اللفظ حيث لم يقل ليحكموا ورجح أبوحيان الاول وهو الظاهر قال والمعنى انه أنزل الكتاب ليفصل به بين الناس ونسبة الحكم الى الكتاب مجاز كما ان اسناد النطق اليه فى قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق كذلك (فيما اختلفوا فيه) من الدين (وما اختلف فيه) اى الدين (الا الذين أوتوه) اى الكتاب المنزل لازالة الخلاف اى عكسوا الامر فجعلوا ما أنزل مزيلا للاختلاف سببا لاستحكام الخلاف فآمن بعض وكفر بعض (من بعد ما جاءتهم البينات) أى الحجج الظاهرة على التوحيد ومن متعلقة باختلف وهى وما بعدها مقدم على الاستثناء فى المعنى (بغيا) من الكافرين (بينهم) حسدا وظلما لحرصهم على الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه) وقوله تعالى (من الحق) بيان لما اختلفوا فيه أى فهدى الله الذين آمنوا للحق الذى اختلف فيه من اختلف (باذنه) اى بارادته قال ابن دريد فى هذه الآية اختلفوا فى القبلة فمنهم من يصلى الى المشرق ومنهم من يصلى الى المغرب ومنهم من يصلى الى بيت المقدس فهدانا الله للكعبة واختلفوا فى الصيام فهدانا الله لشهر رمضان واختلفوا فى الايام فأخذت اليهود السبت والنصارى الاحد فهدانا الله للجمعة واختلفوا فى ابراهيم فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا فهدانا الله للحق من ذلك واختلفوا فى عيسى فجعله النصارى الها فهدانا الله للحق فيه (والله يهدى من يشاء) هدايته (الى صراط مستقيم) هو طريق الحق لا يضل سالكه (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل) اى شبه (الذين خلوا من قبلكم) من المؤمنين من المحن فتصبروا كما صبروا واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال قتادة نزلت فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الاذى كما قال تعالى وبلغت القلوب الحناجر وقال عطاء لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة اشتد عليهم الامر لانهم

(قوله الى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله) الآية نسبة هذه الافعال الى عيسى لكونه سببا فيها بدعائه ومعنى باذن الله بارادته وقال هنا فأنفخ فيه وفى المائدة فتنفخ فيها باعادة الضمير هنا الى الطير أو الطين وفى المائدة الى هيئة الطير تفننا جريا على عادة العرب فى تفننهم فى الكلام وخص ما هنا بتوحيد الضمير مذكرا وما فى المائدة

خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بايدى المشركين وآثروا رضا الله ورسوله وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسر قوم النفاق فانزل الله تعالى هذه الآية تطمينا لقلوبهم وقيل نزلت فى حرب أحد واختلف فى معنى أم فقال الفراء الميم صلة اى أحسبتم وقال الزجاج هى بمعنى بل اى بل حسبتم ولما بمعنى لم اى ولم يأتكم وقوله تعالى (مستهم البأساء) أى شدة الفقر (والضراء) اى المرض والجزع جملة مستأنفة مبينة لما قبلها (وزلزلوا) اى أزعجوا ازعاجا شديدا بما أصابهم من الشدائد (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه) لتناهى الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر (متى) يأتى (نصر الله) الذى وعدناه استطالة لتأخره فاجيبوا من قبل الله (ألا ان نصر الله قريب) اتيانه وفى هذا اشارة الى أن الوصول الى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال عليه الصلاة والسلام كما رواه الشيخان وغيرهما حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وفى رواية لهم حجبت أى جعلت المكاره حجابا دون الجنة فمن خرقه دخلها والشهوات حجابا دون النار فمن اقتحمه دخلها وقرأ نافع يقول بالرفع على أنها حكاية حال ماضية وفائدتها تصور تلك الحال العجيبة واستحضار صورتها فى مشاهدة السامع ليتعجب منها وقرأ الباقون بالنصب (يسئلونك) يا محمد (ماذا) اى الذى (ينفقون) والسائل كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عمرو بن الجموح الانصارى وكان شيخا فانيا ذا مال عظيم فقال يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزل (قل) لهم (ما أنفقتم من خير) أى مال قليلا كان أو كثيرا (فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى هم أولى به سأل عن المنفق فاجيب ببيان المصرف لانه أهم فان اعتداد النفقة باعتباره ولانه كان فى سؤال عمرو وان لم يكن مذكورا فى الآية واقتصر فى بيان المنفق على ما تضمنه قوله ما أنفقتم من خير (وما تفعلوا من خير) انفاق وغيره (فان الله به عليم) فيجازيكم به * (تنبيه) * ليس فى الآية ما ينافى فرض الزكاة لينسخ به كما قيل لان الزكاة لا تعطى للوالدين ولا للاقربين من الاولاد وأولاد الاولاد فالآية محمولة على الانفاق على من ذكر تطوعا أو على الانفاق على الفقراء من الوالدين والاولاد وأولاد الاولاد وذلك ليس بمنسوخ (كتب) اى فرض (عليكم القتال) للكفار (وهو كره) اى مكروه (لكم) طبعا للمشقة (وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم) وهو جميع ما كلفتم به فانه الموجب لسعادتكم فلعل لكم فى القتال وان كرهتموه خيرا لان فيه اما الظفر والغنيمة واما الشهادة والاجر (وعسى ان تحبوا شيأ وهو شر لكم) وهو جميع ما نهيتم عنه فان النفس تحبه وتهواه وهو يهوى بها الى الردى ففى ترك القتال وان أحببتموه شر لان فيه الذل والفقر وحرمان الاجر وانما ذكر عسى لان النفس اذا ارتاضت ينعكس الامر عليها (والله يعلم) ما هو خير لكم (وأنتم لا تعلمون) ذلك فبادروا الى ما يأمركم به (يسئلونك) يا محمد (عن الشهر الحرام) المحرم روى انه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه المدينة ليترصد عير القريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها تجارة من تجارة الطائف وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه

يجمعه موتنا قبل لان ماهنا اخبار من عيسى قبل الفعل فوحده وما فى المائدة خطاب من الله له فى القيامة وقد سبق من عيسى الفعل مرات فجمعه (قوله باذن الله) ذكرها مرتين هنا لانه هنا من كلام عيسى وفى المائدة أربعا بلفظ باذنى لانه ثم من كلام الله (قوله ان الله ربى وربكم) هو كقوله فى مريم وان الله ربى وربكم وقال فى الزخرف وان الله هو ربى وربكم بضمير

جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام الذي يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس الى معايشهم فسفك فيه الدماء وأخذ الاسارى وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين وقالوا يا معشر الصباة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والاسارى وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة وهي أول غنيمة في الاسلام والسائلون هم المشركون كتبوا اليه تشنيعا وتعييرا وقيل أصحاب السرية قالوا يا رسول الله انا قتلنا ابن الحضرمي ثم أمسينا فنظرنا الى هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى فانزل الله تعالى هذه الآية وأكثر الاقاويل على أنها منسوخة بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقوله تعالى (قتال فيه) بدل اشتمال من الشهر (قل) لهم (قتال فيه كبير) اى عظيم وزرا وقد تم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال (وصد) فهو مبتدأ اى منع الناس (عن سبيل الله) اى دينه (وكفر به) ى الله (و) صد عن (المسجد الحرام) اى مكة (واخراج اهله منه) وهم النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وخبر المبتدا وما عطف عليه (أكبر) اى أعظم وزرا (عند الله) مما فعلته السرية من قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام خطأ وبناء على الظن ومما تقرر علم أن والمسجد الحرام معطوف على سبيل الله وقول البيضاوي ولا يحسن عطفه على سبيل الله لان عطف قوله تعالى وكفر به على وصد مانع منه مجاب عنه بان الكفر بالله والصد عن سبيله متحدان معنى فكأنه لا فصل بالاجنبي بين سبيل الله وما عطف عليه ويصح أيضا ان يكون معطوفا على الهاء من به اذ يجوز العطف بدون اعادة الجار كما جرى عليه ابن مالك وان كان مذهب البصريين خلافه وجرى عليه البيضاوي (والفتنة) اى الشرك منكم (أكبر من القتل) لكم فيه فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس الى مؤمني مكة اذا عيركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر واخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت (ولا يزالون) أي الكفار (يقاتلونكم) أيها المؤمنون (حتى يردوكم عن دينكم) الى الكفر في ذلك اخبار عن دوام عداوة الكفار لهم وانهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم وحتى للتعليل لا للغاية كما قيل لانه أفيد من حيث ان فيه ذكر الحامل على المقاتلة بخلاف الغاية أي يقاتلونكم كي يردوكم وقوله تعالى (ان استطاعوا) فيه استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه ان ظفرت بي فلا تبق علي وهو واثق بأنه لا يظفر به (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت) أي بطلت (أعمالهم) اى الصالحة (في الدنيا والآخرة) فلا اعتداد بها ولا ثواب عليها والتقييد بالموت يفيد أنه لو رجع الى الاسلام لم يبطل عمله كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه خلافا لابي حنيفة رضي الله تعالى عنه حيث قال ان الردة تحبط الاعمال مطلقا لقوله تعالى ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله (وأجيب) بانه محمول على المقيد عملا بالدليلين فلا يجب عليه أن يعيد الحج الذي أتى به قبل الردة وكذا غيره لكن يبطل ثوابه كما نص عليه الشافعي رضي الله تعالى عنه وان خالف فيه بعض المتأخرين (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) كسائر الكفرة ولما ظن السرية انهم ان سلموا من الاثم فلا يحصل لهم أجر أنزل الله

تعالى

الفعل الدال على حصر المبتدا في الخبر يعني ان الله ربي لا أب كما زعمت النصارى ولم يتقدم ذلك الحصر فحسن ماينفي عن الآخرين ذكره وبخلافه في آل عمران فانه ذكر في قصة مريم عشر آيات من ... وفي مريم عشرون وعيسى ... ذلك فيهما آية منها فاغنى عن ذكره (قوله بأنا مسلمون) قال هنا بأنا وفي المائدة بأننا لان ما فيها أول كلام الحواريين فجاء على الاصل وما هنا تكرار

تعالى (ان الذين آمنوا والذين هاجروا) اى فارقوا عشائرهم ومنازلهم وأموالهم (وجاهدوا) المشركين (فى سبيل الله) لاعلاء دينه وكرر سبحانه وتعالى الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد وكأنهما مستقلان فى تحقيق الرجاء (أولئك يرجون رحمة الله) اى ثوابه أثبت لهم الرجاء اشعارا بان العمل غير موجب ولا قاطع فى الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم (والله غفور) للمؤمنين لما فعلوه خطأ وقلة احتياط (رحيم) بهم بأن يجزل لهم الاجر والثواب (يسئلونك عن الخمر والميسر) روى انه لما نزل بمكة قوله تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا كان المسلمون يشربونها وهى لهم حلال يومئذ ثم ان عمر ومعاذا فى نفر من الصحابة قالوا أفتنا فى الخمر يارسول الله فانها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم ان عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما فدعا ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب فقدموا بعضهم ليصلى بهم فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون هكذا الى آخر السورة بحذف لا فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون فحرم السكر فى أوقات الصلاة فتركها قوم وقالوا لا خير فى شئ يحول بيننا وبين الصلاة وتركها قوم فى أوقات الصلاة وشربوها فى غير وقتها حتى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر ويشرب بعد صلاة الصبح فيصحو اذا جاء وقت الظهر ثم ان عتبان بن مالك صنع طعاما ودعا رجالا من المسلمين فيهم سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه وقد كان شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى اشتدت فيهم ثم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الاشعار فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للانصار وفخر لقومه فأخذ رجل من الانصار لحى البعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة فانطلق سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا اليه الانصارى فقال عمر اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزل انما الخمر والميسر الى قوله فهل أنتم منتهون فقال عمر رضى الله تعالى عنه انتهينا يارب قال القفال الحكمة فى وقوع التحريم على هذا الترتيب ان القوم كانوا ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم به كثيرا فعلم انه لو منعهم دفعة واحدة اشق عليهم فاستعمل فى التحريم هذا التدريج والرفق وسمى عصير العنب والتمر اذا اشتد وغلا خمرا لانه يخمر العقل كما سمى سكرا لانه يسكره اى يحجزه وهو حرام مطلقا وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء وقال أبو حنيفة نقيع الزبيب والتمر اذا طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حل شربه ما دون السكر وسمى القمار ميسرا لانه أخذ مال الغير بيسر والمعنى يسئلونك عن تعاطيهما لقوله تعالى (قل) لهم (فيهما) أى فى تعاطيهما (اثم كبير) اى عظيم لما يحصل بسببهما من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش وقرأ حمزة والكسائى بالثاء المثلثة والباقون بالباء الموحدة (ومنافع للناس) باللذات والفرح ومصادقة الفتيان وتشجيع الجبان وتوفر المروأة وتقوية الطبيعة فى الخمر واصابة المال بلا كد فى الميسر (واثمهما) اى ما ينشأ عنهما من المفاسد (أكبر) اى أعظم (من نفعهما) المتوقع منهما ولذا قيل ان هذا هو المحرم للخمر فان المفسدة اذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل والظاهر ان المحرم لها آية المائدة كما مر (ويسئلونك) يا محمد (ماذا ينفقون) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثهم على الصدقة

له بالمعنى فناسب فيه التضعيف التضعيف لان كلا من التكرار فرع والفرع بالفرع اولى. (قوله انى متوفيك ورافعك الى) ان قلت كيف قاله والله رفعه ولم يتوفه (قلت) لما هدده اليهود بالقتل بشره الله بانه لا يقبض روحه الا بالوفاة لا بالقتل والواو لا تقتضى الترتيب او انى متوفى نفسك بالنوم من قوله الله يتوفى الانفس حين موتها الآية ورافعك وأنت نائم لئلا تخاف بل

فقالوا ماذا ننفق فقال الله تعالى (قل) لهم (العفو) قرأ ابو عمرو برفع الواو بتقدير هو والباقون بنصبها بتقدير أنفقوا واختلفوا فى معنى العفو وهو نقيض الجهد فقيل ان ينفق ما لا يبلغ انفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع كما قال الشاعر

خذى العفو منى تستديمى مودتى * ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

وسورة الغضب شدته وحدته وقال قتادة وعطاء والسدى هو ما فضل عن الحاجة وكانت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل بحكم هذه الآية وقال مجاهد معناه التصدق عن ظهر غنى روى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها فى بعض الغنائم فقال خذها منى صدقة فاعرض عنه صلى الله عليه وسلم حتى كرره مرارا فقال هاتها مغضبا فاخذها فحذفه بها حذفا لو أصابه لشجه ثم قال يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس انما الصدقة عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول قال ابن الاثير والظهر قد يزاد فى مثل هذا اشباعا للكلام وتمكينا كأن صدقته مستندة الى ظهر قوى من المال وقال عمرو بن دينار الوسط من غير اسراف ولا اقتار كما قال تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (كذلك) كما بين لكم ما ذكر (يبين الله لكم الآيات) قال الزجاج انما قال كذلك على الواحد وهو يخاطب جماعة لان الجماعة معناها القبيل كأنه قيل كذلك أيها القبيل وقيل هو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لان خطابه يشتمل على خطاب الامة كقوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء (لعلكم تتفكرون فى) زوال (الدنيا) وفنائها فتزهدوا فيها (و) فى اقبال (الآخرة) وبقائها فترغبوا فيها (ويسئلونك) يا محمد (عن اليتامى) وقد مر أنهم جمع يتيم وان اليتيم طفل لا أب له قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما نزل قوله تعالى ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن وقوله ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما الآية تحرج المسلمون من اموال اليتامى تحرجا شديدا فان واكلوهم يأثموا وان عزلوا ما لهم من مالهم وصنعوا لهم طعاما وحدهم فحرج فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى (قل اصلاح لهم) اى اليتامى فى أموالهم بتنميتها ومداخلتكم معهم (خير) من مجانبتكم (وان تخالطوهم) اى تخلطوا نفقتهم بنفقتكم (فاخوانكم) اى فهم اخوانكم فى الدين ومن شأن الاخ ان يخالط أخاه اى فلكم ذلك وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة (والله يعلم المفسد) لاموالهم بمخالطته (من المصلح) بها فيجازى كلا منهما فنى ذلك وعيد ووعد لمن خالطهم لافساد واصلاح (ولو شاء الله لاعنتكم) اى لضيق عليكم بتحريم المخالطة وما أباح لكم مخالطتهم وأصل العنت الشدة والمشقة ومعناه كلفكم فى كل شئ ما يشق عليكم (ان الله عزيز) غالب على امره يقدر على الاعنات وغيره (حكيم) يحكم بما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة (ولا تنكحوا) اى لا تتزوجوا ايها المسلمون (المشركات) اى الكافرات (حتى يؤمن) روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثد بن أبى مرثد الغنوى الى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين سرا فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق وكانت خليلته فى الجاهلية فأتته وقالت يا مرثد ألا تخلو فقال لها ويحك يا عناق ان الاسلام قد حال بيننا وبينك فقالت

تسقط وأنت فى السماء آمن مقرب (قوله ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم) ان قلت كيف قاله وآدم خلق من التراب وعيسى من الهواء وآدم خلق من غير أب وأم وعيسى خلق من أم (قلت) المراد تشبيهه به فى الوجود بغير أب والتشبيه لا يقتضى المماثلة من جميع الوجوه (قوله ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده الآية) ان قلت لم خص أهل الكتاب بذلك مع ان

هل لك ان تتزوج بى فقال نعم ولكن استأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رجع اليه قال يارسول الله أيحل لى ان أتزوج بها فانزلت هذه الآية هذا ما أورده الواحدى وغيره ولكن الذى رواه ابو داود وغيره انه سبب فى نزول آية النور الزانى لا ينكح الا زانية او مشركة الآية والآية وان كانت شاملة للكتابيات لكنها مخصوصة بغيرهن بقوله والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب وقد تزوج عثمان بنصرانية فاسلمت وتزوج حذيفة بيهودية وطلحة بن عبيد الله بنصرانية (فان قيل) كيف اطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر الا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قال ابو الحسن بن فارس لانه يقول القرآن كلام غير الله ومن يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غير الله انتهى وقال تعالى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله الى قوله سبحانه عما يشركون (ولامة مؤمنة خير من) اى من حرة (مشركة ولو اعجبتكم) بجمالها ومالها نزلت فى خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة ابن اليمان قال حذيفة يا خنساء قد ذكرت فى الملأ الاعلى على سوادك ودمامتك فاعتقها وتزوج بها وقال السدى نزلت فى عبد الله بن رواحة كانت له أمة فاعتقها وتزوج بها فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا اتنكح أمة وعرضوا عليه حرة مشركة فانزل الله تعالى هذه الآية (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) اى ولا تزوجوا منهم المؤمنات حتى يؤمنوا وهذا على عمومه باجماع (ولعبد مؤمن خير من) اى من حر (مشرك ولو اعجبكم) لماله وجماله وقيل المراد بالامة والعبد المرأة والرجل حرين كانا او رقيقين لان الناس عبيد الله واماؤه (أولئك) اى أهل الشرك (يدعون الى النار) اى الى الكفر المؤدى الى النار فلا تليق مصاهرتهم وهو الاتم (والله يدعو) اى اولياؤه المؤمنون فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه تفخيما لشأنهم أو يدعو على لسان رسله وهذا كما قال أبو حيان أبلغ فى التباعد من المشركين اجراء للفظ على ظاهره والاول ذكر لطلب المعادلة بين المشركين والمؤمنين (الى الجنة والمغفرة) أى العمل الصالح الموصل اليهما فهم الاحقاء بالمواصلة (باذنه) أى بأمر الله ورضاه على التفسير الاول أو بقضائه وارادته على التفسير الثانى فتجب اجابته بتزويج أوليائه (ويبين) أى الله (آياته للناس لعلهم يتذكرون) أى لكى يتذكروا فيتعظوا (ويسئلونك) يا محمد (عن المحيض) اى الحيض اومكانه ماذا يفعل بالنساء فيه روى ان أهل الجاهلية كانوا لم يساكنوا الحيض ولم يؤاكلوهن كفعل اليهود فان اليهود كانت اذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيت واستمر ذلك الى أن سأل أبو الدحداح فى نفر النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال الله تعالى (قل) لهم (هو) أى الحيض أو مكانه (أذى) قذر او محله قذر (فان قيل) لماذا ذكر الله تعالى يسئلونك بغير واو ثلاثا ثم بها ثلاثا (أجيب) بأن السؤالات الاول كانت فى أوقات متفرقة والثلاثة الاخيرة كانت فى وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع وهو واو العطف وهى الجمع فى الحكم لا الزمان (واعترض) هذا الجواب بأنه كان يجب على هذا أن تدخل الواو على اثنين من الثلاثة الاخيرة لان العطف يكون فى الثانية والثالثة منها (وأجيب) بانهم لما سألوا عما كانوا ينفقون فأجيبوا بمصرف النفقة أعادوا سؤالهم بالواو ما ينفقون فأجيبوا بالعفو ولما كان السؤال الثانى عن مخالطة اليتامى فى النفقة وهو مناسب لما قبله

فيهم منهم الامين والخائن (قلت) انما خصهم باعتبار واقعة الحال اذ سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام اودع الفا ومائتى اوقية من الذهب فادى الامانة فيها وفنحاص بن عازوراء اودع دينارا فخانه ولان خيانة أهل الكتاب المسلمين تكون عن استحلال بدليل آخر الآية بخلاف خيانة المسلم المسلم (قوله وأخذتم على ذلكم اصرى) اى عهدى (قوله وله أسلم من فى السموات والارض طوعا

عطف بالواو ولما كان الثالث سؤالا عن اعتزال الحيض كاعتزال اليتامى فناسب ما قبله في الاعتزال عطف بالواو ولا كذلك الثلاثة الاول اذ لا تعلق بينها (فاعتزلوا النساء) أي اتركوا وطأهن (في المحيض) أي وقته أو مكانه لان ذلك هو الاقتصاد بين افراط اليهود وتفريط النصارى فانهم كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض وما استدل به البيضاوي من قوله صلى الله عليه وسلم انما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن اذا حضن ولم نأمركم باخراجهن من البيوت كفعل الاعاجم قال شيخنا القاضي زكريا لم أره بهذا اللفظ في بعض التفاسير لغيره وقوله تعالى (ولا تقربوهن) أي بالجماع (حتى يطهرن) تأكيد للحكم وبيان لغايته وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ويدل عليه صريحا قراءة شعبة وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء أي يتطهرن بمعنى يغتسلن والباقون بسكون الطاء وضم الهاء مخففة والتزاما قوله تعالى (فاذا تطهرن فأتوهن) اى للجماع فانه يقتضي تأخر جواز الاتيان عن الغسل وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ان طهرت لاكثر الحيض وهو عنده عشرة أيام جاز قربانها قبل الغسل (من حيث أمركم الله) بتجنبه في الحيض وهو القبل ولا تتعدوه الى غيره أما الملامسة فيما عدا ما بين السرة والركبة والمضاجعة معها قبل الغسل ولو قبل انقطاع الحيض فجائز قالت عائشة رضي الله تعالى عنها كان يأمرني صلى الله عليه وسلم فأتزر فيباشرني وأنا حائض وكان يخرج رأسه الى وهو معتكف فاغسله وأنا حائض وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت حضت وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الخميلة فانسللت فخرجت منها فأخذت ثياب حيضتي فلبستها فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفست قلت نعم فدعاني فأدخلني معه في الخميلة (ان الله يحب) أي يثيب ويكرم (التوابين) من الذنوب (ويحب المتطهرين) أي المتنزهين عن الفواحش والاقذار كمجامعة الحائض والاتيان في غير القبل (نساؤكم حرث لكم) أي مزرع ومنبت للولد كالارض للنبات (فأتوا حرثكم) أي محله وهو القبل (أنى) اى كيف (شئتم) من قيام وقعود واضطجاع واقبال وادبار روى الشيخان ان اليهود كانوا يقولون من جامع امرأته من دبرها أي من خلفها في قبلها جاء ولدها أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (وقدموا لانفسكم) من الاعمال الصالحة كالتسمية عند الجماع وطلب الولد أي ما يدخر لكم من الثواب (واتقوا الله) في أمره ونهيه (واعلموا أنكم ملاقوه) بالبعث فتزودوا ما لا تفتضحون به فانه يجازيكم بأعمالكم (وبشر المؤمنين) بالكرامة والنعيم الدائم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينصحهم ويبشر من صدقه وامتثل أمره منهم وقوله تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح حين خاض في حديث الافك لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها أو في عبد الله بن رواحة حين حلف أن لا يكلم ختنه اى زوج أخته بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته فالعرضة كل ما يعرض فيمنع عن الشئ اى لا تجعلوا الحلف سببا مانعا لكم من البر والتقوى يدعى أحدكم الى صلة رحم أو بر فيقول حلفت بالله أن لا أفعله فيعتل بيمينه في ترك البر كما قال تعالى (أن تبروا) أي مخافة أن لا تبروا فهو في موضع نصب مفعول من أجله وعند الكوفيين لئلا تبروا كقوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أي لئلا تضلوا وقال

وكرها) ان قلت كيف قال ذلك مع ان أكثر الانس والجن كفرة (قلت) المراد بهذا الاستسلام والانقياد لما قدره عليهم من الحياة والموت والمرض والصحة والشقاء والسعادة ونحوها (قوله ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) ان قلت كيف قال ذلك مع أن المرتد وان زاد ارتداده مقبول التوبة (قلت) الآية نزلت في قوم ارتدوا ثم أظهروا التوبة بالقول

أبو اسحق فى موضع رفع بالابتداء والخبر محذوف اى ان تبروا وتتقوا خير لكم وقيل التقدير فى أن تبروا فلما حذف حرف الجر نصب وقيل هو فى موضع جر بالحرف المحذوف (وتتقوا وتصلحوا بين الناس) فتكره اليمين على ذلك ويسن فيه الحنث ويكفر لما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من حلف بيمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير بخلافها على فعل البر ونحوه فهى طاعة (والله سميع) لاقوالكم (عليم) باحوالكم (لا يؤاخذكم الله باللغو) الكائن (فى أيمانكم) واللغو كل مطروح من الكلام لا يعتد به واختلف أهل العلم فى اللغو فى اليمين المذكورة فى الآية فقال قوم هو ماسبق الى اللسان على عجلة لصلة كلام من غير عقد ولا قصد كقول القائل لا والله وبلى والله وكلا والله وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت لغو اليمين كقول الانسان لا والله وبلى والله ورفعه بعضهم وبهذا قال الشافعى رضى الله عنه وقال قوم هو أن يحلف على شئ يرى أنه صادق ثم يتبين أنه خلاف ذلك وبه قال أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه وقال زيد بن أسلم هو دعاء الرجل على نفسه كقول الانسان أعمى الله بصرى اذا لم أفعل كذا وكذا فهذا اللغو لا يؤاخذ الله به قال تعالى ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وقال تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) أى قصدتم من الايمان اذا حنثتم (والله غفور) حيث لم يؤاخذكم باللغو (حليم) حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد تربصا للتوبة * (تنبيه) * اليمين لا تنعقد الا بالله العظيم أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته فاليمين بالله كأن يقول والذى أعبده والذى نفسى بيده وبأسمائه كأن يقول والله والرحمن وبصفاته كأن يقول وعزة الله وعظمة الله وجلال الله فاذا حلف بشئ من ذلك على أمر مستقبل ثم حنث وجبت عليه الكفارة وسيأتى بيانها ان شاء الله تعالى فى سورة المائدة واذا حلف على أمر ماض أنه كان ولم يكن وهو عالم به حالة ماحلف فهى اليمين الغموس وهى من الكبائر ويجب بها الكفارة كما قاله الشافعى رضى الله تعالى عنه وقال بعض العلماء لا كفارة فيها كسائر الكبائر وأما الحلف بغير ماذكر كالحلف بالكعبة وبيت الله ونبى الله أو بأبيه ونحوه فلا يكون يمينا ولا تجب به الكفارة اذا حنث وهو يمين مكروه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر وهو يسير فى ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت (للذين يؤلون من نسائهم) أى يحلفون أن لا يجامعوهن والايلاء الحلف وتعديته بعلى ولكن لما ضمن هذا القسم معنى البعد عدى بمن قال قتادة كان الايلاء طلاقا لاهل الجاهلية وقال سعيد بن المسيب كان ذلك من ضرار أهل الجاهلية كان الرجل لا يحب المرأة ولا يريد أن يتزوجها غيره فيحلف أن لا يقربها أبدا فيتركها أبدا لا أيما ولا ذات بعل وكانوا عليه فى ابتداء الاسلام فضرب الله لهم أجلا فى الاسلام كما قال تعالى (تربص) أى انتظار (أربعة أشهر) اى للمولى حق التلبث فى هذه المدة فلا يطالب بفيئة ولا طلاق ولذا قال الشافعى رضى الله تعالى عنه لا ايلاء الا فى أكثر من أربعة أشهر ويؤيده (فان فاؤا) أى رجعوا فى المدة أو بعدها عن اليمين الى الوطء لان الفيئة وعزم الطلاق مشروعان عقب الايلاء وحصول التربص فلابد أن يكون مدخول الفاء واقعا بعدهما (فان الله غفور) لهم ما أتوه

لستر أحوالهم والكفر فى ضمائرهم (قوله من آمن تبغونها عوجا) قال ذلك هنا وقال فى الاعراف من آمن به وتبغونها عوجا بزيادة به والواو وجريا هنالك على الاصل فى ذكر به لكونه معمولا وذكروا الواو والعطف اذ مدخولها معطوف على توعدون المعطوف عليه تصدون وجريا هنا على موافقة ومن كفر فى عدم ذكر به واتماما لذكر الواو هنا لان تبغونها وقع حالا والواو لا تزاد مع الفعل

من ضرر المرأة بالحلف (رحيم) بهم (وان عزموا الطلاق) اى صمموا عليه بان لم يفيئوا فليوقعوه (فان الله سميع) لقولهم (عليم) بعزمهم أى ليس لهم بعد تربص ما ذكر الا الفيئة أو الطلاق ففيه دليل على أنه لا اطلاق بعد مضى المدة ما لم يطلقها زوجها لانه شرط فيه العزم وقال فان الله سميع فدل على أنه يقتضى مسموعا والقول هو الذى يسمع وقال بعض العلماء اذا مضت أربعة أشهر يقع عليه طلقة بائنة وهو قول ابن عباس وأصحاب الرأى وقال سعيد ابن المسيب والزهرى يقع عليه طلقة واحدة رجعية ولو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر لا يكون موليا بل حالفا اذا وطئها قبل مضى تلك المدة وجبت عليه كفارة يمين ان كان الحلف بالله ولا يختص الايلاء بالحلف بالله تعالى فلو قال لزوجته ان وطئتك فعبدى حر او ضرتك طالق أو لله على عتق رقبة أو صوم أو صلاة فهو مول لان المولى من يلزمه أمر يمتنع بسببه من الوطء (والمطلقات يتربصن) ينتظرن (بأنفسهن) عن النكاح (ثلاثة قروء) تمضى من حين الطلاق جمع قرء بفتح القاف وضمها وهو يطلق للحيض لقوله عليه الصلاة والسلام كما رواه أبو داود وغيره دعى الصلاة أيام اقرائك وللطهر الفاصل بين حيضتين وهو المراد فى الآية لانه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قال به بعض العلماء لقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن أى وقت عدتهن والطلاق المشروع لا يكون فى الحيض وأما ما رواه ابو داود والترمذى وغيرهما من قوله صلى الله عليه وسلم طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان فلا يقاوم ما رواه البخارى فى قصة ابن عمر مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم ان شاء أمسك وان شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التى امر الله تعالى ان تطلق لها النساء أى بقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن (فان قيل) ما معنى ذكر الانفس فهلا قيل يتربصن ثلاثة قروء (أجيب) بأن فى ذكر الانفس تهييجا لهن على التربص وزيادة بعث لان فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن وذلك أن نفس النساء طوامح اى نواظر الى الرجال فأمرن ان يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص وكان القياس فى جمع قرء ان يذكر بصيغة القلة التى هى الاقراء ولكنهم يتوسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من البناءين مكان الآخر ألا ترى الى قوله بأنفسهن وما هى الانفوس كثيرة قال البيضاوى ولعل الحكم لما عم المطلقات ذوات الاقراء تضمن معنى الكثرة فحسن بناء الكثرة ووجوب ذلك فى المدخول بهن أما غيرهن فلا عدة لهن لقوله تعالى وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها وفى غير الآيسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة أشهر والحوامل فعدتهن ان يضعن حملهن كما فى سورة الطلاق والاماء فعدتهن قرآن بالسنة (ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) من الولد ان كانت حاملا ومن الحيض ان كانت حائضا (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) قال البيضاوى ليس المراد تقييد نفى الحل بايمانهن بل التنبيه على أنه ينافى الايمان اى كماله وأن المؤمن لا يجترئ عليه ولا ينبغى له ان يفعل (وبعولتهن) اى أزواج المطلقات والبعولة جمع بعل والتاء لاحقة لتأنيث الجمع كالعمومة والخؤولة ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك بعل حسن البعولة نعت به مبالغة كما فى رجل عدل او أقيم مقام المضاف المحذوف اى وأهل بعولتهن (أحق بردهن) اى بمراجعتهن (فى ذلك) اى فى زمن التربص (فان قيل) كيف جعلوا

اذا وقع حالا كما فى قوله ولا تمنن تستكثر (قوله كنتم خير أمة) ان قلت كيف قال ذلك ولم يقل أنتم خير امة (قلت) لان معناه كنتم فى سابق علم الله أو فى يوم أخذ الميثاق على الذرية فاعلم بذلك ان كونهم خير أمة صفة أصلية فيهم لا عارضة متجددة أو معنى كنتم وجدتم بجعل كان تامة (قوله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) ان قلت كيف قال ذلك مع أن غير الايمان لا خير

أأحق بالرجعة فكأن للنساء حقا فيها (أجيب) بأن أفعل ههنا بمعنى الفاعل فان غير البعل لا حق له فى الرد فكأنه قيل وبعولتهن حقيقون بردهن وقيل انه على بابه للتفضيل اى أحق منهن بأنفسهن لو أبين الرد ومن آبائهن وسمى الزوج بعلا لقيامه بأمر زوجته وأصل البعل السيد والمالك (ان أرادوا) اى البعولة (اصلاحا) بالرجعة لا اضرار المرأة وليس المراد من هذا اشتراط قصد الاصلاح للرجعة بل التحريض عليه والمنع من قصد الضرار والصارف عن اعتبار مفهوم هذا الشرط الاجماع (ولهن) على الازواج (مثل الذى) لهم (عليهن) من الحقوق (بالمعروف) شرعا من حسن العشرة وترك الضرر ونحو ذلك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى معنى ذلك انى أحب ان اتزين لامرأتى كما تحب أن تتزين لى لهذه الآية وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم (فان قيل) ما المراد بالمماثلة (اجيب) بأن المراد ان لهن حقوقا على الرجال مثل حقوقهم عليهن فى الوجوب واستحقاق المطالبة عليها لا فى الجنس اذ ليس الواجب على كل منهما من جنس ما وجب على الآخر فلو غسلت ثيابه او خبزت له لم يلزمه ان يفعل مثل ذلك ولكن يقابلها بما يليق بالرجال (وللرجال عليهن درجة) اى فضيلة فى الحق لان المرأة تنال من الرجل من اللذة مثل ما ينال الرجل وله الفضيلة بقيامه عليها وانفاقه فى مصالحها ولان حقوقهم فى انفسهن بالوطء والتمتع وحقوقهن المهر والكفاف وترك الضرار وقيل بصلاحيته للامامة والقضاء والشهادة وقيل بالجهاد وقيل بالميراث وقيل بالدية وقيل بالعقل (والله عزيز) فى ملكه قادر على الانتقام ممن خالف الاحكام (حكيم) فيما دبره لخلقه يشرعها الحكم ومصالح (الطلاق) أى التطليق كالسلام بمعنى التسليم أى الذى يراجع به (مرتان) أى اثنتان روى عن عروة بن الزبير قال كان الناس فى الابتداء يطلقون من غير حصر ولا عدد كان الرجل يطلق امرأته فاذا قاربت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها كذلك ثم راجعها بقصد مضارتها فنزلت هذه الآية وروى أبو داود وغيره أنه صلى الله عليه وسلم سئل أين الثالثة فقال صلى الله عليه وسلم أو تسريح باحسان (فامساك) أى فعليكم امساكهن اذا راجعتموهن بعد الطلقة الثانية (بمعروف) وهو كل ما يعرف فى الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة (أو تسريح باحسان) بالطلقة الثالثة أو بأن لا يراجعها حتى تبين منه * (تنبيه) * اختلف العلماء فيما اذا كان أحد الزوجين رقيقا فذهب الاكثر ومنهم الشافعى رضى الله تعالى عنه الى أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج فالحر يملك على زوجته الامة ثلاث طلقات والعبد لا يملك على زوجته الحرة الا طلقتين وذهب الاقل ومنهم أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه الى ان الاعتبار بالمرأة فى عدد الطلاق كالعدة فيملك العبد على زوجته الحرة ثلاث طلقات ولا يملك الحر على زوجته الامة الا طلقتين (ولا يحل لكم) أيها الازواج (أن تأخذوا مما آتيتموهن) من المهور (شيأ) اذا طلقتموهن روى أنها نزلت فى جميلة أخت عبد الله بن أبى ابن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فشكته الى أبيها فقال ارجعى الى زوجك فانى أكره للمرأة أن لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها فلما رأت أباها لم يشكها رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فارسل خلفه فجاءه

فيه حتى يقال ان الايمان خير منه (قلت) ليس خير هنا افعل تفضيل بل هو خير أو هو افعل تفضيل وايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم مع ايمانهم بموسى وعيسى خير من ايمانهم بموسى وعيسى فقط (قوله كمثل ريح فيها صر) اى حر أو برد شديد (قوله ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) وصف الحسنة بالمس والسيئة بالاصابة توسعة فى العبارة والافهما بمعنى واحد فى

فقال له مالك ولاهلك فقال والذى بعثك بالحق نبيا ما على وجه الارض أحب الى منها غيرك فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقولين فقالت هو من أكرم الناس حبا لزوجته ولكن لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسى ورأسه شئ والله لا أعيبه فى دين ولا خلق ولكن أكره الكفر فى الاسلام ما أطيقه بغضا أى أكره ان أقع عنده ان أقع فيما يقتضى الكفر بغضا فيه ويحتمل أن تريد كفران العشيرة انى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة فاذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فقال ثابت قد أعطيتها حديقة فقل لها فلتردها على وأخلى سبيلها فقال لها اتردين عليه حديقته وتملكين أمرك قالت نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها ففعل وفى رواية اقبل الحديقة وطلقها تطليقة (الا أن يخافا) أى الزوجان (الا يقيما حدود الله) أى لا يأتيا بما حدده لهما من الحقوق وقرأ حمزة يخافا بضم الياء بالبناء للمفعول فأن مع صلتها بدل اشتمال من الضمير فى يخافا والباقون بفتحها بالبناء للفاعل (فان خفتم) أيها الائمة والحكام (ألا يقيما حدود الله) أى ما حده من الاحكام (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) نفسها من المال ليطلقها أى لا حرج على الزوج فى أخذه ولا على الزوجة فى بذله وهذا هو الاصل والا فيجوز على عوض وان لم يخافا *(تنبيه)* علم مما تقرر أن الخطاب فى الاول للزوجين وثانيا للائمة والحكام ونحو ذلك غير عزيز فى القرآن وغيره ويجوز أن يكون الخطاب كله للائمة والحكام ولا ينافى ذلك قوله تعالى أن تأخذوا مما آتيتموهن شيأ لانهم الذين يأمرون بالاخذ والايتاء عند الترافع اليهم فكأنهم الآخذون والمؤتون (تلك) أى الاحكام المذكورة (حدود الله) وهى ما منع الشرع من المجاوزة عنه (فلا تعتدوها) اى فلا تتعدوها بالمخالفة وقوله تعالى (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) تعقيب للنهى بالوعيد مبالغة فى التهديد *(تنبيه)* ظاهر الآية يدل على ان الخلع لا يجوز من غير كراهة وشقاق ولا بجميع ما ساق الزوج اليها فضلا عن الزائد ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه البيهقى أيما امرأة سألت زوجها طلاقا من غير بأس اى ضرر فحرام عليها رائحة الجنة وما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجميلة أتردين عليه حديقته فقالت أردها وأزيد عليها فقال عليه الصلاة والسلام أما الزائد فلا فالجمهور استكرهوا الخلع ولكن نفذوه فان المنع عن العقد لا يدل على فساده وانه يصح بلفظ المفاداة فانه سماه افتداء (فان طلقها) اى الزوج بعد الثنتين (فلا تحل له من بعد) اى بعد الطلقة الثالثة (حتى تنكح) اى تتزوج (زوجا غيره) اى المطلق والنكاح يتناول العقد والوطء وتعلق بظاهر الآية من اقتصر على العقد كابن المسيب والجمهور على أنه لا بد من الاصابة لما روى الشيخان ان امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رفاعة طلقنى وان عبد الرحمن بن الزبير بفتح الزاى وكسر الباء تزوجنى وانما معه مثل هدبة الثوب فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتريدين ان ترجعى الى رفاعة لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك فالآية مطلقة قيدتها السنة ويحتمل ان يفسر النكاح بالاصابة ويكون العقد مستفادا من لفظ الزوج والعسيلة مجاز عن قليل الجماع اذ يكفى قليل انتشار شبهت تلك اللذة بالعسل وصغرت ولحقتها الهاء لان الغالب على العسل التأنيث قاله الجوهرى

الامرين قال تعالى ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل وقال ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وقال اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا (قوله وما جعله الله الا بشرى لكم الآية) هذه تخالف آية الانفال فى ثلاثة أمور لانه ذكر فى هذه لكم لتمام القصة قبلها وتركها ثم ايجازا او اكتفاء بذكره قبل فى قوله

وروى انها لبثت ماشاء الله ثم رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت ان زوجى قد مسنى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم كذبت فى قولك الاول فلن أصدقك فى الآخر فلبثت حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتت أبا بكر فقالت ياخليفة رسول الله أرجع الى زوجى الاول فان زوجى الآخر مسنى وطلقنى فقال لها أبو بكر قد شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اتيته وقال لك ما قال فلا ترجعى اليه فلما قبض أبو بكر أتت عمر وقالت له مثل ذلك فقال لها عمر لئن رجعت اليه لارجمنك والحكمة فى التحليل الردع عن المسارعة الى الطلاق والعود الى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الاكثر وجوزه أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه مع الكراهة وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له رواه الترمذى والنسائى وصححه وعن عمر رضى الله تعالى عنه لا أوتى بمحلل ولا بمحلل له الا رجمتهما (تنبيه) شملت الآية الكريمة ما اذا طلق الزوج زوجته الامة ثلاثا ثم ملكها فانه لا يحل له ان يطأها بملك اليمين حتى تنكح زوجا غيره (فان طلقها) الزوج الثانى بعدما أصابها (فلا جناح عليهما) اى المرأة والزوج الاول (أن يتراجعا) الى النكاح بعقد جديد بعد انقضاء العدة (ان ظنا) اى ان كان فى ظنهما (أن يقيما حدود الله) اى ما حدده الله وشرعه من حقوق الزوجية هذا هو الاصل والا فهو ليس بشرط للجواز ولم يقل ان علما أنهما يقيمان لان اليقين مغيب عنهما لا يعلمه الا الله قال فى الكشاف ومن فسر الظن هنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى لانك لا تقول علمت أن يقوم زيد ولكن علمت انه يقوم ولان الانسان لا يعلم ما فى الغد وانما يظن ظنا (وتلك) اى الاحكام المذكورة (حدود الله يبينها لقوم يعلمون) اى يتدبرون ما أمرهم الله تعالى به ويفهمونه ويعملونه بمقتضى العلم (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) اى قاربن انقضاء عدتهن ولم يرد انقضاء العدة حقيقة لان العدة اذا انقضت لم يكن للزوج امساكها فالبلوغ ههنا بلوغ مقاربة وفى قوله تعالى بعد ذلك فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن حقيقة انقضاء العدة والبلوغ يتناول المعنيين يقال بلغ المدينة اذا قرب منها واذا دخلها (فأمسكوهن) بان تراجعوهن (بمعروف) من غير ضرار وقيل بان يشهد على رجعتها وان يراجعها بالقول لا بالوطء (أو سرحوهن بمعروف) اى اتركوهن حتى تنقضى عدتهن فيكن أملك بأنفسهن (ولا تمسكوهن) بالرجعة وقوله تعالى (ضرارا) مفعول له (لتعتدوا) اى لا تقصدوا بالمراجعة المضارة بتطويل الحبس نزلت هذه الآية فى رجل من الانصار يدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى اذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها بقصد مضارتها (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) اى أضر بها بتعريضها الى عذاب الله وقرأ أبو الحرث الليث بادغام اللام من يفعل فى الذال حيث جاء والباقون بالاظهار (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) اى مهزوا بها بمخالفتها لان كل من خالف أمر الشرع فهو متخذ آيات الله هزوا وقيل كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول كنت ألعب فنزلت وروى عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال ثلاث جدهن جد وهزلهن جد الطلاق والنكاح والرجعة (واذكروا نعمت الله عليكم) التى من جملتها الاسلام والايمان وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم (وما أنزل عليكم من الكتاب) اى القرآن (والحكمة) اى السنة أفردهما بالذكر اظهارا لشرفهما

فاستجاب لكم وقدم فلو بكم على به هنا وعكس فى الانفال لمزاوج بين الخطابين هنا فى لكم وفلو بكم وذكرهنا وصفى العزيز والحكيم تابعين بقوله العزيز الحكيم وثم ذكرهما فى جملة مستأنفة بقوله ان الله عزيز حكيم لانه لما خاطبهم هنا حسن تعجيل بشارتهم بان ناصرهم عزيز حكيم ولان ما هناك قصة بدر وهى سابقة على ما هنا فاخبر فى قصة أحد فاخبر هناك بان الله عزيز حكيم

وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقوقها (يعظكم به) اى بما أنزل عليكم ليدعوكم به الى دينه (واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم) لا يخفى عليه شيء ففي ذلك تأكيد وتهديد (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) اى انقضت عدتهن (فلا تعضلوهن) اى تمنعوهن من (أن ينكحن أزواجهن) اى المطلقين لهن وعن الشافعي رضي الله تعالى عنه دل سياق الكلامين اى وهما أمسكوهن الخ وفلا تعضلوهن على افتراق البلوغين فالمراد بالاول المقاربة وبالثاني الوصول كما تقرر والعضل الحبس والتضييق ومن العضل بهذا المعنى عضلت الدجاجة اذا علقت بيضها فلم تخرج * (فائدة) * رسمت التاء في نعمت بالتاء المجرورة ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء وعيلها الكسائي في الوقف ووقف الباقون بالتاء على الرسم والخاطب بذلك الاولياء لما روى أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته ان ترجع الى الزوج الاول ففي الآية دليل على ان المرأة لا تزوج نفسها اذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولي فائدة ولا يعارض ذلك باسناد النكاح اليهن لانه انما أسند اليهن لتوقف النكاح على اذنهن وقيل الخطاب للاولياء والازواج وقيل للناس كلهم اى لا يوجد فيما بينكم هذا الامر فانه ان وجد بينهم وهم راضون به كانوا كالفاعلين له وقوله تعالى (اذا تراضوا بينهم) اى الازواج والنساء ظرف لأن ينكحن أو لا تعضلوهن وقوله تعالى (بالمعروف) اى بما يعرفه الشرع ويستحسنه من كونه بعقد حلال حال من ضمير تراضوا او صفة مصدر محذوف اى تراضيا كائنا بالمعروف وفيه دلالة على أن العضل عن التزويج من غير كفء غير منهي عنه (ذلك) أى النهي عن العضل (يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) لانه المتعظ أو المنتفع به (فان قيل) لم الخطاب في قوله ذلك يوعظ به (أجيب) بأنه يجوز ان يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل أحد كما في قوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء ونحوه (ذلكم) اى ترك العضل (أزكى) اى انفع (لكم وأطهر) لكم ولهن من دنس الآثام لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما (والله يعلم) ما فيه المصلحة (وانتم لا تعلمون) ذلك لقصور علمكم وقوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن) خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن وهو امر استحباب لا امر ايجاب لانه لا يجب عليهن الارضاع اذا كان يوجد من يرضع الولد لقوله تعالى في سورة الطلاق فان ارضعن لكم فآتوهن أجورهن فان رغبت الام في الارضاع فهي اولى من غيرها أما اذا لم يوجد من يرضعه فيجب عليها ارضاعه والوالدات يعم المطلقات وغيرهن وقيل يختص بالمطلقات اذ الكلام فيهن (حولين) اى عامين (كاملين) صفة مؤكدة كما في قوله تعالى تلك عشرة كاملة لان العرب قد تسمي بعض الحول حولا وبعض الشهر شهرا كما قال الله تعالى الحج أشهر معلومات وانما هو شهران وبعض الثالث وقال تعالى فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه وانما يتعجل في يوم وبعض يوم وقال قتادة فرض الله على الوالدات ارضاع حولين كاملين ثم أنزل التخفيف فقال (لمن اراد ان يتم الرضاعة) اى هذا منتهى الرضاع وليس فيما دون ذلك حد محدود وانما هو على مقدار اصلاح المولود وما يعيش به (وعلى المولود له) اى الوالد (رزقهن) اى اطعام الوالدات (وكسوتهن) أجرة لهن على الارضاع اذا كن مطلقات واختلف في استئجار الام للارضاع فجوزه الشافعي ومنعه ابو حنيفة مادامت زوجة

او

وجه ذلك هنا صفة لان المغفرة قد سبق (قوله وسارعوا الى مغفرة من ربكم) أى الى اسبابها كالتوبة (ان قلت) كيف قال ذلك وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن (قلت) استثنى منه بتقدير صحته التوبة وقضاء الدين الحال وتزويج البكر البالغ ودفن الميت واكرام الضيف (قوله والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم صرح بذكر

أو معتدة نكاح (فإن قيل) لم قال تعالى المولود له دون الوالد (أجيب) بأنه تعالى إنما ذكر ذلك ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم لأن الأولاد للآباء ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات وأنشد للمأمون بن الرشيد

فإنما أمهات الناس أوعية * مستودعات وللآباء أبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله تعالى واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ وقوله تعالى (بالمعروف) يفسره ما يعقبه وهو قوله تعالى (لا تكلف نفس إلا وسعها) أي طاقتها فلا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه (لا تضار والدة بولدها) أي بسببه بأن تكره على إرضاعه أو تكلف فوق طاقتها (ولا) يضار (مولود له بولده) أي بسببه بأن يكلف فوق طاقته وإضافة الولد إلى كل منهما للاستعطاف وللتنبيه على أن الولد حقيق بأن يتفقا على استصلاحه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو تضار بضم الراء بدل من قوله لا تكلف والباقون بفتحها (وعلى الوارث) أي وارث الأب وهو الولد أي على الولي في مال الولد (مثل ذلك) أي الذي كان على الأب للوالدة من الرزق والكسوة وقيل هو وارث الولد الذي لو مات الولد لورثه وقيل الباقي من الأبوين أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا واجعلهما الوارث أي الباقي منا والمعنى واجعل كلا منهما في لزومه لنا مدة الحياة كأنه باق بعد الموت (فإن أرادا) أي الوالدان (فصالا) أي فطاما له صادرا (عن تراض) أي اتفاق (منهما وتشاور) بينهما فتظهر مصلحة الولد فيه (فلا جناح عليهما) في ذلك زاد على الحولين أو نقص وهذه توسعة بعد التحديد وإنما اعتبر تراضيهما مراعاة لصلاح الولد حذرا أن يقدم أحدهما على ما يضر به لغرض أو غيره (وإن أردتم) خطاب للأولياء (أن تسترضعوا) مراضع غير الوالدات (أولادكم) يقال أرضعت المرأة الطفل واسترضعتها إياه فحذف المفعول الأول للاستغناء عنه كما يقال استنجحت الحاجة ولا تذكر من استنجحته وكذلك حكم كل مفعولين يكون أحدهما عبارة عن الأول هذا ما جرى عليه الزمخشري من أن استرضع يتعدى لمفعولين بنفسه والجمهور على أنه إنما يتعدى إلى الثاني بحرف الجر وتقديره هنا لأولادكم (فلا جناح عليكم) في ذلك (إذا سلمتم) إليهن (ما آتيتم) أي أردتم إيتاءه لهن من الأجرة كقوله تعالى إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وإنما قدر ذلك لأن ما تحقق إيتاؤه لا يتصور تسليمه في المستقبل وقوله تعالى (بالمعروف) صلة سلمتم أي بالوجه المتعارف المستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله وليس اشتراط التسليم لجواز الاسترضاع بل لسلوك ما هو الأولى والأصلح للطفل وقرأ ابن كثير بقصر همزة أتيتم من أتى إليه إحسانا إذا فعله ومنه قوله تعالى إنه كان وعده مأتيا أي مفعولا والباقون بالمد وهم على مراتبهم وقوله تعالى (واتقوا الله) مبالغة في المحافظة على ما شرع في أمر الأطفال والمراضع ثم حثهم على ذلك وهددهم بقوله تعالى (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه شيء منه (والذين يتوفون) أي يموتون (منكم ويذرون) أي يتركون (أزواجا يتربصن) أي ينتظرن (بأنفسهن) وهو خبر بمعنى الأمر وهو أمر إيجاب أي يجب عليهن أن يتربصن بعدهم عن النكاح (أربعة أشهر وعشرا) أي عشرة أيام وكان القياس تذكير العدد بأن

الفاحشة مع دخولها في ظلم النفس لأن المراد بها نوع من أنواع ظلم النفس وهو الزنا أو كل كبيرة وخص بهذا الاسم تنبيها على زيادة قبحه (قوله ومن يغفر الذنوب إلا الله) أي يسترها

يؤتى فيه بالتاء ولكن لما حذف المعدود جاز فيه ذلك كما فى قوله تعالى ان لبثتم الا عشرا ثم ان لبثتم الا يوما لان قوله فى سورة طه ان لبثتم الا يوما بعد قوله ان لبثتم الا عشرا يدل على ان المراد بالعشر الايام وان ذكر بما يدل على الليالى لانهم اختلفوا فى مدة اللبث فقال بعضهم عشر وبعضهم يوم فدل على ان المقابل باليوم انما هو أيام الليالى وكما فى قوله صلى الله عليه وسلم من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال قال البيضاوى ولعل المقتضى لهذا التقدير أى بهذه المدة ان الجنين فى غالب الامر يتحرك لثلاثة أشهر ان كان ذكرا ولاربعة ان كان أنثى فاعتبر أقصى الاجلين وزيد عليه العشر استظهارا اذ ربما تضعف حركته فى المبادى فلا يحس بها أى بالحركة اه وهذا فى غير الحوامل أما هن فعدتهن أن يضعن حملهن بآية الطلاق وفى غير الاماء فانهن على النصف من ذلك بالسنة وعن على وابن عباس رضى الله تعالى عنهم ان الحامل تعتد باقصى الاجلين احتياطا وحكى عن أبى الاسود الدؤلى انه كان يمشى خلف جنازة فقال له رجل من المتوفى بكسر الفاء فقال الله وكان أحد الاسباب الباعثة لعلى رضى الله تعالى عنه على ان أمره ان يضع كتابا فى النحو لكن يجوز الكسر على معنى أنه مستوف أجله ويدل له قوله تعالى والذين يتوفون بفتح الياء على قراءة شاذة نقلت عن على أى يستوفون آجالهم (فاذا بلغن أجلهن) اى انقضت عدتهن (ولا جناح) أى لا حرج (عليكم) أيها الاولياء (فيما فعلن فى أنفسهن) أى من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدة دون العقد فان العقد الى الولى وقيل المخاطب بذلك الائمة أو المسلمون جميعا (بالمعروف) أى بالوجه الذى لا ينكره الشرع ومفهومه أنهن لو فعلن ما ينكر فعلى المخاطب أن يكفهن فان قصر فعليه الجناح (والله بما تعملون خبير) عالم بباطنه كظاهره فيجازيكم عليه (ولا جناح) أى لا حرج (عليكم فيما عرضتم به) والتعريض فى الكلام ما يفهم منه السامع مراده بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول السائل جئتك لأسلم عليك ولانظر الى وجهك الكريم ولذلك قالوا * وحسبك بالتسليم منى تقاضيا * ويسمى التلويح لانه يلوح منه ما يريده والفرق بينه وبين الكناية ان الكناية هى الدلالة على الشئ بذكر لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وهو بكسر النون حمائل السيف وكثير الرماد للمضياف (من خطبة النساء) المعتدات للوفاة والخطبة بالضم والكسر اسم الهيئة غير أن المضمومة خصت بالموعظة والمكسورة بطلب المرأة للنكاح والتعريض بالخطبة مباح فى عدة الوفاة وهو أن يقول رب راغب فيك من يجد مثلك انك لجميلة وانك لصالحة وانك لعلى كريمة وانى فيك لراغب وان من غرضى ان أتزوج وان جمع الله بينى وبينك بالحلال أعجبتنى ولئن تزوجتك لاحسنن اليك ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه ان رغبت فيه من غير أن يصرح بالنكاح فلا يقول انكحينى والمرأة تجيبه بمثله ان رغبت فيه وروى ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته قالت دخل على أبو جعفر محمد بن على وانا فى عدتى فقال قد علمت قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدى على وقدمى فى الاسلام فقلت قد غفر الله لك أتخطبنى فى عدتى وأنت يؤخذ عنك فقال أو قد فعلت انما أخبرتك بقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبى سلمة فتوفى عنها فلم يزل

(فان قلت) كيف قال ذلك مع انه قال واذا ما غضبوا هم يغفرون وقال قل للذين آمنوا يغفروا (قلت) معناه ومن يغفر الذنوب من جميع الوجوه الا الله وهذا لا يوجد من غيره (قوله

يذكرها منزلته من الله تعالى وهو متحامل على يديه حتى أثر الحصير في يده من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة واما عدة الفرقة في الحياة فيحل لغير صاحب العدة التعريض في غير رجعية لعدم سلطنة الزوج عليها اما التصريح فحرام اجماعا وأما الرجعية فلا يحل التعريض لها لانها في حكم الزوجة أما صاحب العدة فيحل له التعريض والتصريح ان حل له نكاحها والا فلا (أو أكننتم) أي أضمرتم (في أنفسكم) من نكاحهن فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا قال السدي هو ان يدخل فيسلم ويهدي ان شاء ولا يتكلم بشئ (علم الله أنكم ستذكرونهن) بالخطبة ولا تصبرون عنهن فاباح لكم التعريض وفيه نوع توبيخ (ولكن لا تواعدوهن سرا) أي نكاحا فالسر كناية عن النكاح الذي هو الوطء لانه مما يسر قال الاعشى

ولا تقربن من جارة ان سرها • عليك حرام فانكحن أو تأبدا

وقال امرؤ القيس

الا زعمت بسباسة اليوم أنني • كبرت وأن لا يحسن السر امثالي

ثم عبر بالسر الذي هو كناية عن الوطء عن عقد النكاح لان العقد سبب في الوطء وقيل هو الزنا كان الرجل يدخل على المرأة من أجل الزنية وهو يعرض بالنكاح ويقول لها دعيني فاذا اوفيت عدتك أظهرت نكاحك قاله الحسن وقيل هو أن يصف نفسه لها بكثرة الجماع كان يقول آتيك الاربعة والخمسة ونحو ذلك (فان قيل) أين المستدرك بقوله ولكن لا تواعدوهن سرا (أجيب) بانه محذوف لدلالة ستذكرونهن عليه تقديره علم الله أنكم ستذكرونهن فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن سرا (الا أن تقولوا قولا معروفا) أي ما عرف شرعا من التعريض فلكم ذلك (فان قيل) أين المستثنى منه (أجيب) بانه محذوف أي لا تواعدوهن مواعدة الا مواعدة معروفة غير منكرة أو الا مواعدة بقول معروف قال في الكشاف ولا يجوز أن يكون استثناء منقطعا من سرا لادائه الى قولك لا تواعدوهن الا التعريض وقال البيضاوي وقيل انه استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لادائه الى قولك لا تواعدوهن الا التعريض وهو أي التعريض غير موعود أي بل منجز وقيل لا تواعدوهن سرا أي في السر على ان المواعدة في السر عبارة عن المواعدة بما يستقبح لان مسارتهن في الغالب مما يستحيا من المجاهرة به (ولا تعزموا عقدة النكاح) أي على عقده وفي ذلك مبالغة في النهي عن عقد النكاح في العدة لان العزم يتقدم على العقد فاذا نهي عما يتقدمه فهو أولى بالنهي كما في قوله تعالى ولا تقربوا الزنا (حتى يبلغ الكتاب) أي المكتوب (أجله) بأن ينتهي ما فرض فيه من العدة (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم) من العزم وغيره (فاحذروه) أي خافوا عقابه (واعلموا أن الله غفور) لمن عزم ولم يفعل خوفا من الله (حليم) لا يعاجلكم بالعقوبة (لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن) أي تجامعوهن (او) لم (تفرضوا لهن فريضة) أي مهرا وما مصدرية ظرفية أي لا تبعة عليكم في الطلاق زمن عدم المسيس والفرض باثم ولا مهر والتبعة بكسر الباء ما يتبع المال أو البدن من نوائب الحقوق وهو من تبعت الرجل بحق وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء وألف بعد الميم والباقون بفتح التاء ولا ألف بعد الميم وقوله تعالى (ومتعوهن) عطف على مقدر لانه طلب فلا يعطف على لا جناح لانه خبر أي

ونعم اجر العاملين) ذكره بواو العطف هنا وتركها في العنكبوت لوقوع مدخولها هنا بعد خبرين متعاطفين بالواو فناسب عطفه بها ربطا بخلاف ما في العنكبوت اذ لم يقع

فطلقوهن ومتعوهن والحكمة فى ايجاب المتعة جبر ايحاش الطلاق ويسن ان لا تنقص عن ثلاثين درهما أو ماقيمته ذلك واذا تراضيا بشئ فذاك وان تنازعا فى قدرها قدرها قاض باجتهاده بقدر حالهما من يساره واعساره ونسبها وصفاتها كما قال تعالى (على الموسع) أى الغنى منكم (قدره) أى مايطيقه ويليق به (وعلى المقتر) أى ضيق الرزق (قدره) أى مايطيقه ويليق به ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لأنصارى طلق امرأته المفوضة قبل أن يمسها أمتعتها قال لم يكن عندى شئ قال متعها بقلنسوتك ومفهوم الآية يقتضى تخصيص ايجاب المتعة للمفوضة التى لم يمسها الزوج وألحق بها الشافعى رضى الله تعالى عنه الممسوسة المفوضة وغيرها قياسا وهو مقدم على المفهوم وقرأ ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بفتح الدال والباقون بسكونها وقوله تعالى (متاعا) تأكيد لمتعوهن بمعنى تمتيعا وقوله تعالى (بالمعروف) أى شرعا صفة متاعا وقوله تعالى (حقا) صفة ثانية لمتاعا أى متاعا واجبا عليهم أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا (على المحسنين) أى المطيعين الذين يحسنون الى أنفسهم بالمسارعة الى الامتثال أو الى المطلقات بالتمتيع وسماهم قبل الفعل محسنين كما قال عليه الصلاة والسلام من قتل قتيلا فله سلبه ترغيبا وتحريضا * ولما ذكر الله تعالى حكم المفوضة اتبعها حكم قسيمها بقوله تعالى (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم) يجب لهن ويرجع لكم النصف وهو دليل على أن الجناح المنفى ثم تبعة المهر وأن لا متعة مع التشطير لانه قسيمها (الا) لكن (أن يعفون) أى الزوجات فلا يأخذن شيأ (فان قيل) أى فرق بين قولك الرجال يعفون والنساء يعفون (أجيب) بان الواو فى الاول ضميرهم والنون علم الرفع والواو فى الثانى لام الفعل والنون ضميرهن والفعل مبنى لا أثر فى لفظه للعامل وهو فى محل النصب (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) وهو الزوج المالك لعقده وحله كما يعود اليه بالتشطير فيترك لها الكل وقيل هو الولى اذا كانت المرأة محجورة وهو قول قديم للشافعى وهو مروى عن ابن عباس وقوله تعالى (وأن تعفوا) مبتدأ خبره (أقرب للتقوى) والخطاب للرجال والنساء جميعا لان المذكر والمؤنث اذا اجتمعا كانت الغلبة للمذكر أى وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى (ولا تنسوا الفضل بينكم) أى أن يتفضل بعضكم على بعض باعطاء الرجل تمام الصداق أو بترك المرأة نصيبها حثهما جميعا على الاحسان (ان الله بما تعملون بصير) لا يضيع فضلكم واحسانكم بل يجازيكم به (حافظوا على الصلوات) الخمس بأدائها فى أوقاتها ولعل الامر بالصلاة انما وقع فى تضاعيف أحكام الاولاد والازواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها (والصلاة الوسطى) أى الوسطى بين الصلوات أو الفضلى من قولهم للأفضل الاوسط وانما أفردت وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفضل وهى صلاة العصر على الراجح لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم نارا وفضلها لكثرة اشتغال الناس فى وقتها واجتماع الملائكة قال صلى الله عليه وسلم يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار وقيل صلاة الصبح لانها بين صلاتى الليل والنهار والواقعة فى الجزء المشترك بينهما ولانها مشهودة تشهدها الملائكة الحفظة نص عليها الشافعى رحمه الله تعالى لكن رجح الاصحاب الاول عملا بقوله حيث صح الحديث فهو مذهبى وقيل صلاة الظهر لانها

قبل ذلك الاخير واحد كنظيره فى الانفال فى قوله نعم المولى ونظير الاول قوله فى الحج فنعم المولى وان كان العطف فيه بالفاء (قوله وليعلم الله الذين آمنوا) معطوف على مقدر والتقدير

وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم فكانت أفضل لانه صلى الله عليه وسلم سئل أي الاعمال أفضل فقال أحمزها وهو بحاء مهملة وزاي أقواها وأشدها وقيل صلاة المغرب لانها متوسطة بالعدد لان عددها بين عددي الركعتين والاربع وقيل صلاة العشاء لانها بين جهريتين واقعتين طرفي النهار لا يقصران وهما المغرب والصبح وقال بعضهم هي احدى الصلوات الخمس لا بعينها أبهمها الله تعالى تحريضا للعباد في المحافظة على أداء جميعها كما أخفى ليلة القدر في شهر رمضان وساعة اجابة الدعوة في يوم الجمعة وأخفى اسمه الاعظم في الاسماء ليحافظوا على جميعها (وقوموا لله) في الصلاة (قانتين) أي مطيعين لقوله صلى الله عليه وسلم كل قنوت في القرآن فهو طاعة أو ساكتين لحديث زيد بن أرقم كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام رواه الشيخان وقال ابن المسيب المراد به القنوت في الصبح (فان خفتم) من عدو أو سبع أو سيل أو نحو ذلك (فرجالا) جمع راجل أي مشاة صلوا (أو ركبانا) جمع راكب أي كيف أمكن مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ويومئ بالركوع والسجود ويجعل السجود أخفض من الركوع والصلاة في حال الخوف على أقسام وهذه صلاة شدة الخوف وسيأتي بقية الاقسام ان شاء الله تعالى في سورة النساء ولا ينتقص عدد الركعات بالخوف عند أكثر أهل العلم وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم قال فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة وفي الآية دليل على وجوب الصلاة حال المقاتلة واليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه لا يصلي حال المشي والمقاتلة ما لم يمكن الوقوف وقال سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه اذا كنت في القتال وضرب الناس بعضهم بعضا فقل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر واذكر الله فتلك صلاتك (فاذا أمنتم) من الخوف (فاذكروا الله) أي صلوا الصلوات الخمس تامة بحقوقها (كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) قبل تعليمه من فرائضها وحقوقها والكاف بمعنى مثل وما موصولة أو مصدرية (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم) قرأ نافع وابن كثير وشعبة والكسائي وصية بالرفع أي فعليهم وصية والباقون بالنصب أي فليوصوا وصية وقوله تعالى (متاعا) نصب على المصدر أي متعوهن متاعا أي ما يتمتعن به من النفقة والكسوة (الى) تمام (الحول) من موتهم الواجب عليهن تربصه وقوله تعالى (غير اخراج) نصب على الحال أي غير مخرجات من مسكنهن نزلت هذه الآية في رجل من أهل الطائف يقال له الحكم بن الحرث هاجر الى المدينة وله أولاد ومعه أبواه وامرأته فمات فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبي صلى الله عليه وسلم والديه وأولاده من ميراثه ولم يعط امرأته شيئا وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا وكانت عدة الوفاة في ابتداء الاسلام حولا وكان يحرم على الوارث اخراجها من البيت قبل تمام الحول وكانت نفقتها وسكناها واجبة في مال زوجها تلك السنة ما لم تخرج ولم يكن لها الميراث فان خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها وكان على الرجل أن يوصي بها فكان كذلك حتى نزلت آية الميراث فنسخ الله تعالى نفقة الحول بالربع والثمن ونسخ عدة الحول بآية أربعة أشهر وعشرا السابقة (فان قيل) كيف نسخت الآية السابقة المتأخرة (أجيب) بأنها متقدمة في التلاوة ومتأخرة في النزول كما في قوله تعالى سيقول السفهاء مع قوله قد نرى تقلب

وتلك الايام نداولها بين الناس ليتعظوا وليعلم الله الذين آمنوا (قوله ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) ان قلت كيف قال ذلك وقد قال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم

وجهك في السماء (فان خرجن) من قبل أنفسهن قبل الحول من غير اخراج الورثة (فلا جناح عليكم) يا أولياء الميت (فيما فعلن في أنفسهن من معروف) شرعا كالتزين وترك الاحداد وقطع النفقة عنها خيرها الله تعالى بين أن تقيم حولا ولها النفقة والسكنى وبين أن تخرج ولا نفقة لها ولا سكنى الى أن نسخت بأربعة أشهر وعشرا (والله عزيز) في ملكه (حكيم) في صنعه لا يسئل عما يفعل (وللمطلقات متاع) أي يعطينه (بالمعروف) بقدر الامكان وقوله تعالى (حقا) نصب بفعله المقدر (على المتقين) الله (فان قيل) لم كرر الله تعالى ذلك (أجيب) بان ذلك لحكمة وهي أن الآية السابقة في غير الممسوسة وهذه أعم منها فتشمل الممسوسة أيضا (كذلك) أي كما بين لكم ما سبق من أحكام الطلاق والعدد (يبين الله لكم آياته) وعد سبحانه وتعالى انه سيبين لعباده من الدلائل والاحكام ما يحتاجون اليه معاشا ومعادا (لعلكم تعقلون) أي تتدبرون فتستعملون العقل فيها وقوله تعالى (ألم تر) استفهام تعجيب وتشويق الى استماع ما بعده لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ وقد يخاطب به من لم ير ولم يسمع وهذا هنا أولى فانه صار مثلا في التعجيب أي ينته علمك (الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف) أربعة أو ثمانية أو عشرة أو ثلاثون أو أربعون أو سبعون ألفا وقوله تعالى (حذر الموت) مفعول له هم قوم من بني اسرائيل كانوا في قرية يقال لها داوردان جهة واسط وقع بها الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فهلك اكثر من بقي في القرية وسلم الذين خرجوا فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع الطاعون ثانيا لنخرجن الى أرض لا وباء بها فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعا ثم أحياهم الله تعالى كما قال تعالى (فقال لهم الله موتوا) أي فماتوا (ثم أحياهم) ليعتبروا ويتيقنوا ان لا مفر من قضاء الله وقدره وقيل قوم من بني اسرائيل دعاهم ملكهم الى الجهاد ففروا حذر الموت فاماتهم الله ثمانية أيام أو أكثر ثم أحياهم بدعاء نبيهم حزقيل بكسر المهملة والقاف وسكون الزاي ثالث خلفاء بني اسرائيل بعد موسى وكان يقال له ابن العجوز لان أمه كانت عجوزا فسألت الله الولد بعدما كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها قال الحسن ومقاتل هو ذو الكفل وسمي حزقيل ذا الكفل لانه كفل سبعين نبيا وأنجاهم من القتل قال اذهبوا فاني ان قتلت كان خيرا من ان تقتلوا معي جميعا فلما جاء اليهود وسألوا حزقيل عن الانبياء السبعين قال لهم ذهبوا وما أدري أين هم ومنع الله حزقيل من اليهود فلما مر حزقيل على تلك الموتى وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم فبكى وقال يا رب كنت في قوم يحمدونك ويسبحونك ويقدسونك ويكبرونك ويهللونك فبقيت وحدي لا قوم لي فأوحى الله تعالى اليه ان ناد أيتها العظام ان الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمعت العظام من أعلى الوادي وأدناه حتى التزق بعضها ببعض كل عظم جسد التزق بجسده فصارت أجسادا من عظام لا لحم ولا دم ثم أوحى الله تعالى اليه ان ناد أيتها الاجسام ان الله يأمرك أن تكتسي لحما فاكتست لحما ثم أوحى الله اليه ان ناد أيتها الاجساد ان الله يأمرك أن تقومي فبعثوا احياء ورجعوا الى بلادهم وقال مجاهد انهم قالوا حين أحيوا سبحانك ربنا وبحمدك لا اله الا أنت

فرجعوا

أول مرة (قلت) معناه يأتي به مكتوبا في ديوانه أو يأتي به حاملا اثمه وصف فرادى منفردين عن أهل ومال وشريك يتصبرون بهم (قوله هم درجات عند الله) أي ذوو درجات

فرجعوا الى قومهم وعاشوا دهرا عليهم أثر الموت لا يلبسون ثوبا الا عاد كالكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم ولو جاءت آجالهم ما بعثوا واستمر ذلك فى اسباطهم قال ابن عباس وأثر ذلك ليوجد اليوم فى ذلك السبط من اليهود وفائدة هذه القصة تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة وحثهم على التوكل والاستسلام للقضاء فان الموت اذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفر فاولى أن يكون فى سبيل الله تعالى (ان الله لذو فضل على الناس) أى عامة فليذكر كل أحد ماله عليه من الفضل (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) كما ينبغى اما الكفار فلم يشكروا وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية شكره *(تنبيه)* انما كرر الناس ولم يضمر ليكون أنص على العموم لئلا يدعى مدع أن المراد بالناس الاول أهل زمان فيخص بالثانى أكثرهم (وقاتلوا فى سبيل الله) أعداء الله لتكون كلمة الله هى العليا (واعلموا أن الله سميع) لاقوالكم فيسمع مايقوله المتخلفون والسابقون (عليم) باحوالكم فيعلم ماتضمرونه فيجازيكم (من ذا الذى يقرض الله) الذى تفرد بالعظمة بانفاق ماله فى سبيله ومن الاستفهامية مرفوعة الموضع بالابتداء وذا خبره والذى صفة ذا أو بدل واقراض الله مثل لتقديم العمل الذى يطلب ثوابه فهو اسم لكل مايعطيه الانسان ليجازى عليه فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ماوعدهم من الثواب قرضا لانهم يعملون لطلب ثوابه وأصل القرض فى اللغة القطع سمى القرض به لانه يقطع من ماله شيأ يعطيه ليرجع اليه مثله وقيل فى الآية اختصار معناه من ذا الذى يقرض عباد الله المحتاجين من خلقه كقوله تعالى ان الذين يؤذون الله أى عباد الله كما جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يقول يوم القيامة ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه أما علمت انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى (قرضا حسنا) أى جامعا لطيب النفس واخلاص النية وقيل لا يمن به ولا يؤذى ولما كانت النفس مجبولة على الشح بما عندها الا لفائدة رغبها سبحانه وتعالى فى ذلك بقوله (فيضاعفه) أى بجزائه (له) فى الدنيا والآخرة وأول هذه المضاعفة ان الزائد ضعف ليس كسرا كان صلى الله عليه وسلم لا يقترض قرضا الا وفى عليه زيادة وقال خياركم أحسنكم قضاء وقد أنبأ سبحانه وتعالى ان اقتراضه بما هو فوق ذلك لانه يضعف القرض بمثله وأمثاله بقوله (أضعافا كثيرة) من عشر الى أكثر من سبعمائة كما سيأتى روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الانصارى يارسول الله ان الله ليريد منا القرض قال نعم يا أبا الدحداح قال ارنى يدك يارسول الله فناوله يده قال فانى قد أقرضت ربى حائطى وحائطه فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت لبيك قال اخرجى فقد اقرضته ربى عز وجل وقرأ ابن عامر وعاصم فيضاعفه بنصب الفاء على جواب الاستفهام حملا على المعنى فان من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فى معنى أيقرض الله أحد والباقون برفعها واسقط الالف وشدد العين ابن كثير وابن عامر والباقون باثبات الالف وتخفيف العين ولما رغب سبحانه وتعالى فى اقراضه أتبعه جملة حالية من ضمير يضاعف مرهبة مرغبة فقال (والله يقبض) أى يمسك الرزق عمن يشاء ابتلاء (ويبسط) أى يوسعه لمن يشاء امتحانا بحسب ما اقتضته حكمته

(فان قلت) الضمير فى هم يعود على الفريقين واهل النار لهم دركات لا درجات (قلت) الدرجات تستعمل فى الفريقين قال تعالى ولكل درجات مما عملوا وان افترقا عند المقابلة ف

سبحانه وتعالى وقرأ قنبل وأبو عمرو وابن عامر وحفص وحمزة بالسين بخلاف عن ابن ذكوان وخلاد والباقون بالصاد والرسم بالصاد (واليه ترجعون) أى فيجازيكم على ما قدمتم (الم تر الى الملا من بنى اسرائيل) أى الى قصتهم والملأ من القوم اشرافهم وأصل الملا الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والابل والخيل والجيش ومن للتبعيض (من بعد) موت (موسى) ومن للابتداء (اذ قالوا لنبى لهم) أكثر المفسرين على أنه شمويل قال مقاتل هو من نسل هرون وقيل هو يوشع بن نون بن افراثيم بن يوسف عليه الصلاة والسلام وقيل هو شمعون وانما سمى بذلك لان أمه دعت الله أن يرزقها غلاما فاستجاب دعاءها فسمته شمعون تقول سمع الله دعائى والسين تصير شينا بالعبرانية وسبب سؤال بنى اسرائيل نبيهم ذلك انه لما مات موسى عليه الصلاة والسلام وخلف فى بنى اسرائيل الخلوف وعظمت الخطايا سلط الله عليهم قوم جالوت وكانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة فظهروا على بنى اسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيرا من ذراريهم وأسروا من ابناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاما وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ولقى بنو اسرائيل منهم بلاء كثيرا وشدة ولم يكن لهم حينئذ نبى يدبر امرهم وكان سبط النبوة قد هلكوا فلم يبق منهم الا امرأة حبلى فحبسوها فى بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بنى اسرائيل فى ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاما فولدت غلاما فسمته شمعون تقول سمع الله دعائى فكبر الغلام فاسلمته لتعليم التوراة فى بيت المقدس فكفله شيخ من علمائهم وتبناه فلما بلغ الغلام أتاه جبريل فقال له اذهب الى قومك فبلغهم رسالة ربك فان الله قد بعثك فيهم نبيا فلما أتاهم كذبوه وقالوا استعجلت بالنبوة فان كنت صادقا (ابعث) أى أقم (لنا ملكا نقاتل) معه (فى سبيل الله) فتنتظم به كلمتنا ونرجع اليه ويكون ذلك آية من نبوتك وانما كان قوام بنى اسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءهم فكان الملك هو الذى يسير بالجموع والنبى يقيم له أمره ويشير عليه برشده ويأتيه بالخبر من ربه ولما قالوا له ذلك (قال) لهم (هل عسيتم) قرأ نافع بكسر السين والباقون بفتحها وقوله تعالى (ان كتب) أى فرض (عليكم القتال) مع ذلك الملك (الا تقاتلوا) خبر عسى والاستفهام لتقرير المتوقع بها بمعنى التثبيت للمتوقع وان كان الشائع من التقرير هو الحمل على الاقرار (قالوا ومالنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) بسبيهم وقتلهم أى أى غرض لنا فى ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجبه ويحث عليه من الاخراج عن الاوطان والافراد عن الاولاد (فلما كتب عليهم القتال تولوا) عنه وجبنوا وضيعوا أمر الله (الا قليلا منهم) وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة على ما سيأتى ان شاء الله تعالى وقوله تعالى (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم على ظلمهم فى ترك الجهاد * (تنبيه) * هذه الاقاصيص ليس المراد منها احديثا عن الماضين وانما هو اعلام بما يستقبل الآن كما قال القائل * اياك أعنى واسمعى يا جاره * فلذلك لا يسمع القرآن من لم يأخذه بجملته خطابا لهذه الامة بكل ما قص له من أقاصيص الاولين ثم سأل النبى صلى الله عليه وسلم ربه أن يبعث لهم ملكا فاتى بعصا وقرن فيه دهن القدس وقيل له ان صاحبكم الذى يكون ملكا يكون طوله طول هذه العصا وانظر القرن الذى فيه الدهن فاذا دخل عليك رجل ونش

قولهم المؤمنون فى درجات والكفار فى دركات (قوله سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق) قال ذلك مع انهم كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وما قتلوا انبياء قط لكنهم لما رضوا بقتل اسلافهم

الدهن

الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى اسرائيل فادهن به رأسه وملكه عليهم وكان طالوت واسمه بالعبرانية شاول بن قيس من أولاد بنيامين بن يعقوب سمى طالوت لطوله وكان أطول من كل أحد أى فى زمانه برأسه ومنكبه وكان رجلا دباغا يعمل الاديم قاله وهب وقال السدى كان سقاء يسقى على حمار له من النيل فضل حماره فخرج فى طلبه وقال وهب بل ضلت حمر لابى طالوت فارسله وغلاماله فى طلبها فمرا ببيت شمويل فقال الغلام لطالوت لو دخلنا على هذا النبى فسألناه عن أمر الحمر ليرشدنا ويدعو لنا فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران له شأن الحمر اذ نش الدهن الذى فى القرن فقام شمويل فقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال لطالوت قرب رأسك فقربه فدهنه بدهن القدس ثم قال له أنت ملك بنى اسرائيل الذى أمرنى الله أن أملكه عليهم فقال طالوت أما علمت أن سبطى أدنى اسباط بنى اسرائيل و بيتى أدنى بيوتهم قال بلى قال فبأى آية قال بآية انك ترجع وقد وجدت الحمر فكان كذلك ثم أخبرهم نبيهم بذلك كما قال تعالى (وقال لهم نبيهم) الذى تقدم ذكره (ان الله قد بعث لكم) أى لاجل سؤالكم (طالوت ملكا) وهو اسم أعجمى كجالوت وداود وانما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته (قالوا أنى) أى كيف (يكون له الملك علينا) أى من أين يكون له ذلك (ونحن) أى والحال انا نحن (أحق) أى أولى (بالملك منه) وانما قالوا ذلك لانه كان فى بنى اسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنه كان موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ولم يكن طالوت من أحدهما انما كان من سبط بنيامين بن يعقوب وكانوا عملوا ذنبا عظيما كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق جهارا فغضب الله عليهم ونزع الملك والنبوة منهم وكانوا يسمون سبط الاثم فلما قال لهم نبيهم ذلك أنكروا لانه لم يكن من سبط المملكة ومع ذلك قالوا هو دباغ (ولم) أى والحال انه لم (يؤت سعة من المال) يستعين بها على اقامة الملك ولما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك بامور حكاها الله تعالى عن نبيهم بقوله تعالى (قال) أى نبيهم (ان الله اصطفاه) أى اختاره للملك (عليكم) والعمدة فى الملك اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم هذا الامر الاول والثانى قوله (وزاده) عليكم (بسطة) أى سعة (فى العلم) الذى يحصل به نظام المملكة و يتمكن به من معرفة الامور السياسية (و) فى (الجسم) الذى يتمكن به من الظفر بمن بارزه من الشجعان وقصده من سائر الاقران و يكون أعظم خطرا فى القلوب واقوى على مقاومة العدو ومكايدة الحروب لاماذكرتم وقد زاده الله فى العلم فكان اعلم بنى اسرائيل يومئذ والجسم فكان اجملهم واتمهم خلقا كان لو جعل القائم يده فيتناول راس طالوت والثالث قوله (والله يؤتى ملكه) اى الذى هو له وليس لغيره فيه شئ (من يشاء) فانه تعالى مالك الملك على الاطلاق فله ان يؤتيه من يشاء سواء كان غنيا ام فقيرا كما آتاكموه بعد ان كنتم مستعبدين عند آل فرعون والرابع قوله (والله واسع) اى واسع الفضل يوسع على الفقير و يغنيه (عليم) بمن يليق بالملك من النسيب وغيره (وقال لهم نبيهم) لما ادعوا الذلك وطلبوا منه آية تدل على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم (ان آية) أى علامة (ملكه أن يأتيكم التابوت) أى الصندوق وكان فيه صور الانبياء عليهم الصلاة والسلام أنزله

انبياءهم نسب القمل اليهم (قوله ذلك بما قدمت ايديكم) قاله هنا بجمع اليد لانه نزل فى قوم تقدم ذكرهم وقاله فى الحج بتثنيتها لانه نزل فى النضر بن الحرث او فى ابى جهل والواحد ليس له الايدان

الله تعالى على آدم صلى الله عليه وسلم وكان من عود الشمشار مموهتين أولاهما مكسورة
وبينهما سكة خشب تعمل منه الامشاط مموها بالذهب نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين
فكان عند آدم الى ان مات ثم عند شيث ثم توارثه أولاد آدم الى أن بلغ ابراهيم ثم كان عند اسمعيل
لانه كان أكبر ولده ثم عند يعقوب ثم كان فى بنى اسرائيل الى أن وصل الى موسى ثم تداوله أنبياء
بنى اسرائيل ثم استمر عند بنى اسرائيل وكانوا اذا اختلفوا فى شئ تكلم أو حكم بينهم واذا
حضروا القتال قدموه بين ايديهم فيستفتحون به على عدوهم كما قال تعالى (فيه سكينة) أى
طمانينة لقلوبكم (من ربكم) ففى اى مكان كان التابوت اطمانوا اليه وسكنوا قاله قتادة
والكلبى فلما عصوا وفسدوا سلط الله عليهم العمالقة اصحاب جالوت فغلبوهم على التابوت
واخذوه وقال على هى صورة لها رأسان ووجه كوجه الانسان وقال مجاهد هى شئ يشبه
الهرة له رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان وقيل له عينان لهما شعاع وجناحان
من زمرد وزبرجد وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى طشت من ذهب من الجنة كان
يغسل فيه قلوب الانبياء وقال وهب هى روح من الله تتكلم اذا اختلفوا فى شئ تخبرهم ببيان
ما يريدون ولما كان الكليم وأخوه عليهما الصلاة والسلام اعظم انبيائهم قال (و) فيه (بقية
مما ترك آل موسى وآل هرون) وآلهما انفسهما والآل مقحم لتفخيم شأنهما وقيل ابناؤهما
وقيل انبياء بنى اسرائيل لانهم ابناء عم موسى وهرون والبقية هى رضاض الالواح اى فتاتها
وعصا موسى وثيابه ونعلاه وعمامة هرون وقفيز من المن الذى كان ينزل عليهم وقوله تعالى
(تحمله الملائكة) حال من فاعل يأتيكم (ان فى ذلك لآية لكم) على ملكه وقوله تعالى (ان كنتم
مؤمنين) يحتمل ان يكون من كلام نبيهم وان يكون ابتداء خطاب من الله تعالى فحملته الملائكة
بين السماء والارض وهم ينظرون اليه حتى وضعته عند طالوت فاقروا بملكه وقيل رفعه الله
تعالى بعد موسى فنزلت به الملائكة وهم ينظرون اليه فلما رأوه ولم يشكوا فى النصر به فاقروا
بملكه وتسارعوا الى الجهاد فقال طالوت لا حاجة لى فى كل ما ارى لا يخرج معى رجل بنى بناء لم
يفرغ منه ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوج امرأة ولم يبن بها
ولا ابتغى الا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع عليه ممن اختاره ثمانون ألفا وكان الوقت صيفا فى
حر شديد فشكوا قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا ان المياه لا تحملنا فادع الله ان يجرى
لنا نهرا كما قال تعالى (فلما فصل) اى خرج (طالوت) اى الذى ملكوه (بالجنود) من بيت
المقدس اى التى اختارها والجنود جمع جند وهم اتباع يكونون نجدة للمستتبع (قال ان الله
مبتليكم) اى مختبركم ليظهر منكم المطيع والعاصى وهو اعلم (بنهر) قال ابن عباس والسدى
هو نهر فلسطين وقال قتادة وهو نهر بين الاردن وفلسطين عذب (فمن شرب منه) أى من مائه
(فليس منى) اى من اتباعى (ومن لم يطعمه) اى يذقه (فانه منى) اى من اتباعى وانما علم ذلك بالوحى
ان كان نبيا كما قيل او باخبار النبى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (الا من اغترف غرفة بيده)
اى فاكتفى بها ولم يزد عليها فانه منى استثناء من قوله تعالى فمن شرب وانما قدمت عليه الجملة
الثانية للعناية بها كما قدم الصابئون على خبران فى قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والمعنى
الرخصة فى القليل دون الكثير وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو غرفة بفتح الغين والباقون بضمها

(قوله وان الله ليس بظلام للعبيد) (فان قلت) ظلام صيغة مبالغة من الظلم ولا يلزم من نفيها نفيه مع انه منفى عنه قال تعالى ولا يظلم ربك احدا (قلت) صيغة المبالغة هنا لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم كما فى قوله

(فائدة) قال ابو عمرو بن العلاء سمعت اعرابيا ينشد وقد كنت خرجت الى ظاهر البصرة متفرجا مما نالني من طلب الحجاج

صبر النفس عند كل ملم * ان في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن في الامور فقد تكشف لأواؤها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال
قد يصاب الجبان في آخر الصف و ينجو مقارع الابطال

فقلت ماوراءك يا اعرابي قال مات الحجاج فلم أدر بأيهما أفرح أبموت الحجاج ام بقوله فرجة لاني كنت اطلب شاهد الاختيار القراءة في سورة البقرة غرفة بالضم (فشربوا منه) لما وافوه بكثرة وقوله تعالى (الا قليلا منهم) اى فاقتصر على الغرفة نصب على الاستثناء روى ان من اغترف غرفة كما امر الله قوى قلبه وصح ايمانه وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وأداوته والذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا و بقوا على شط النهر و جبنوا عن لقاء العدو واختلفوا في عدد الذين لم يشربوا قال البغوى الصحيح انهم ثلثمائة و بضعة عشر اى عدد اهل بدر وقال السدى كانوا اربعة آلاف و يؤيد الاول ما روى عن البراء أنه قال كنا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نتحدث ان عدة اصحاب بدر على عدة اصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه الا بضعة عشر وثلثمائة وروى ثلثمائة وثلاثة عشر وفي هذا ايذان بان اعظم الجيوش جيش يكون فيه من اهل الورع بعدد التابعين من اصحاب طالوت الذين كان بعددهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وهم ثلثمائة وثلاثة عشر عدد المرسلين من كثرة عدد النبيين ولما كان قصص بني اسرائيل مثلا لهذه الامة كان مبتلى هذه الامة بالنهر فابتلاهم بنهر الدنيا الجاري خلالها وفي افراد اليد ايذان بان الاخذ من الدنيا انما يكون بيد لا بيدين لاشتمال اليدين على جانبي الخير والشر (فلما جاوزه) اى النهر (هو) اى طالوت (والذين آمنوا معه) اى وهم الذين اقتصروا على الغرفة (قالوا) اى الذين شربوا (لا طاقة) اى لا قوة (لنا اليوم بجالوت و جنوده) اى بقتالهم وجبنوا ولم يجاوزوه *و* لما اخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بهذا القول نبه على انه لا ينبغي ان يصدر ممن يظن ان اجله مقدر لا يزيد بالجبن والاحجام ولا ينقص بالجراءة والاقدام وانه يلاقي الله تعالى فيجازيه على عمله وان النصر من الله لا بالقوة والعدد فقال (قال الذين يظنون) اى يوقنون (انهم ملاقوا الله) بالبعث وهم الذين جاوزوه (كم من فئة) اى جماعة وهي جمع لا واحد له من لفظه وجمعه فئات وفئون في الرفع وفئين في النصب والخفض وكم يحتمل ان تكون خبرية بمعنى كثير ومن مبينة وأن تكون استفهامية ومن مؤكدة والاول اولى بقرينة المقام (قليلة) كما كان في هذه الامة في يوم بدر (غلبت فئة كثيرة باذن الله) اى بارادته وتيسيره ثم انظر الى هذا الحال العجيب وهو انه لما ندبهم انتدب جيش لا يحصون فاشترط عليهم الشاب الفارغ من بناء دار و بناء بامرأة فلم يكن الموجود بالشرط الا ثمانين ألفا ثم امتحنوا بالنهر فلم يثبت منهم الا ثلثمائة وثلاثة عشر وهم دون الثلث من ثمن العشر من المتصفين بالشرط من الذين هم دون الدون من المنتدبين الذين هم دون الدون من السائلين في بعث الملك الخارجين

عاقلين وسكم اذا التشديد فيه لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل او الصيغة هنا للنسبة اى لا ينسب الى الظلم فالمعنى ليس بذى ظلم (قوله فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك) جواب الشرط محذوف

معه كما قال القائل

ألم تعلم بأني صيرفي • أحك الاصدقاء على محكي
فمنهم بهرج لاخير فيه • ومنهم من أجوزه بشك
وأنت الخالص الذهب المصفى • بتزكيتي ومثلي من يزكي

ثم بين سبحانه وتعالى أن ملاك كل ذلك بالصبر بقوله (والله مع الصابرين) بالنصر والمعونة فلا يخذل من كان معه (ولما برزوا) أي ظهروا واوهم على ماهم عليه من الضعف والقلة (لجالوت) اسم ملك من ملوك الكنعانيين بالشام في زمن بني اسرائيل جبار من العمالقة من أولاد عمليق ابن عاد (وجنوده) على ماهم فيه من القوة والكثرة التجؤا الى الله بالدعاء كما نبه على ذلك بقوله (قالوا ربنا أفرغ) أي اصبب (علينا صبرا وثبت أقدامنا) بتقوية قلوبنا على الجهاد (وانصرنا على القوم الكافرين) وفي الدعاء ترتيب بليغ اذ سألوا أولا افراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الامر ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالبا (فهزموهم باذن الله) أي بارادته (وقتل داود جالوت) قال أهل التفسير عبر النهر مع طالوت فيمن عبر ايشا أبو داود في ثلاثة عشر ابناله وكان داود أصغرهم فارسل جالوت الى طالوت ان ابرز الى او ابرز من يقاتلني فان قتلني فلكم ملكي وان قتلته فلي ملككم فشق ذلك على طالوت فنادى في عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتي وناصفته ملكي فهابوا اقاء جالوت فلم يجبه احد فسأل طالوت نبيهم ان يدعو الله تعالى فدعا في ذلك فاوحى الله تعالى اليه ان في ولد ايشا من يقتل الله تعالى به جالوت وكان داود أصغرهم يرعى الغنم فاوحى الله تعالى الى نبيهم انه الذي يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء فقال له طالوت هل لك ان تقتل جالوت وازوجك ابنتي وأناصفك ملكي قال نعم قال آنست من نفسك شيأ تتقوى به قال نعم انا ارعى فيجيء الاسد فيأخذ شاة فاقوم اليه وافتح لحييه عنها واشقهما الى قفاه فرد داود في الطريق فكلمه ثلاثة احجار وقالت له انك تقتل جالوت بنا فحملها في مخلاته فلما تصافوا للقتال وبرز جالوت وسال المبارزة وكان من اشد الناس واقواهم كان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة فيها ثلثمائة رطل حديد انتدب له داود واخذ مخلاته وتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت فلما نظر الى داود ألقى في قلبه الرعب فقال له انت تبرز لي قال نعم وكان جالوت على فرس ابلق عليه السلاح التام فقال اتيتني بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب قال نعم أنت شر من الكلب قال لا جرم لاقسمن لحمك بين سباع الارض وطير السماء قال داود أو يقسم الله لحمك فقال داود باسم اله ابراهيم وأخرج حجرا ثم أخرج الآخر وقال باسم اله اسحق ووضعه في مقلاعه ثم أخرج الثالث وقال باسم اله يعقوب ووضعه في مقلاعه فصارت كلها حجرا واحدا ودوّر المقلاع ورمى به فسخر الله له الريح حتى اصاب أنف البيضة فخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا وهزم الله تعالى الجيش وخر جالوت قتيلا فاخذه داود يجره حتى ألقاه بين يدي طالوت وفرح المسلمون فرحا شديدا وانصرفوا الى المدينة سالمين غانمين فجاء داود الى طالوت وقال انجزني ما وعدتني فزوجه ابنته واجرى خاتمه في ملكه فمال الناس الى داود واحبوه وأكثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فاخبر بذلك فهرب فسلط عليه العيون وطلبه اشد الطلب فلم يقدر عليه ثم ان طالوت ركب يوما فوجد

اذ لا يصلح قوله فقد كذب جوابا له لانه حاصل من قبله والتقدير فان كذبوك فتأس بمن كذب من الرسل قبلك فهو من اقامة السبب مقام المسبب (قوله كل نفس ذائقة الموت)

داود يمشي في البرية فقال اليوم اقتله فركض على اثره فاشتد داود وكان اذا فزع لم يدرك
فدخل غارا فاوحى الله تعالى الى العنكبوت فنسجت عليه بيتا فلما انتهى طالوت الى الغار
ونظر الى بناء العنكبوت فقال لو كان دخل ههنا لخرق بناء العنكبوت فتركه ومضى وانطلق
داود الى الجبل مع المتعبدين فتعبد فيه الى ان قتل طالوت وكان ملك طالوت الى ان قتل اربعين
سنة واتى بنو اسرائيل بداود واعطوه خزائن طالوت وملكوه على انفسهم قال الكلبي
والضحاك ملك داود بعد قتل طالوت سبعين سنة ولم يجتمع بنو اسرائيل على ملك واحد الا على
داود فذلك قوله تعالى (وآتاه الله الملك والحكمة) أي النبوة بعد موت شمويل وطالوت ولم
يجتمعا لاحد قبله بل كان الملك في سبط والنبوة في سبط وقيل الملك والحكمة العلم والعمل
(وعلمه مما يشاء) كصنعة الدروع كان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل الا من عمل يده ومنطق الطير
والصوت الطيب والالحان ولم يعط الله تعالى أحدا من خلقه مثل صوته كان اذا قرأ الزبور تدنو
الوحوش حتى يؤخذ باعناقها وتظله الطير ويركد الماء الجاري ويسكن الريح والسلسلة كان
لا يمسها ذو عاهة الا برأ وكانوا يتحاكمون اليها بعده الى ان رفعت فمن تعدى على صاحبه وأنكر له
حقا أتى السلسلة فمن كان صادقا مد يده اليها فتناولها ومن كان كاذبا لم ينلها وكان ذلك الى ان
ظهر فيهم المكر والخديعة فاودع بعض ملوكهم رجلا جوهرة ثمينة فلما طلبها منه أنكرها فتحاكما
الى السلسلة فعمد الذي عنده الجوهرة الى عكازة فنقرها وضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر
السلسلة فقام صاحب الجوهرة فتناول السلسلة بيده ثم قام المنكر وقال لصاحب الجوهرة خذ
عكازتي هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فقال الرجل اللهم ان كنت تعلم ان الوديعة التي
يدعيها قد وصلت اليه فقرب مني السلسلة فمد يده فتناولها فتعجب القوم وشكوا فيها فاصبحوا
وقد رفع الله السلسلة (ولولا دفع الله الناس بعضهم) بدل بعض من الناس (ببعض) أي ولولا
دفع الله بجنود المسلمين الكفار (لفسدت الارض) بغلبة المشركين وقتل المسلمين وتخريب
المساجد أو لفسدت الارض بشؤم الكفر فيكون المعنى ولولا دفع الله بالمؤمنين والابرار عن
الكفار والفجار لهلكت الارض بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر
وقد روى ان الله عز وجل ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر
الآية وروى عن ابن عباس أنه قال يدفع الله تعالى بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يحج عمن لا يحج
وبمن يزكي عمن لا يزكي وعن جابر بن عبد الله ان الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده
وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم وعن ابن مسعود ان لله عز وجل
في الخلق ثلثمائة قلوبهم على قلب آدم ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى ولله في
الخلق سبعة قلوبهم على قلب ابراهيم ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبرائيل ولله في الخلق
ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل ولله في الخلق واحد قلبه على قلب اسرافيل فاذا مات الواحد
أبدل الله مكانه من الثلاثة واذا مات واحد من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة واذا مات
واحد من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة واذا مات واحد من السبعة ابدل الله مكانه من
الاربعين واذا مات واحد من الاربعين ابدل الله مكانه من الثلثمائة واذا مات واحد من
الثلثمائة أبدل الله مكانه من العامة فبهم يحيي ويميت قال لانهم يسألون الله اكثار الامم فيكثرون

اجسادها اذ النفس لا تموت ولو ماتت لما ذاقت الموت في حال موتها لان الحياة شرط في الذوق وسائر الادراكات وقوله تعالى يتوفى الانفس حين موتها معناه حين موت اجسادها

ويدعون على الجبابرة فينقصمون ويستقون فيسقون ويسألون فتنبت لهم الارض ويدعون فيدفع الله انواع البلاء (ولكن الله ذو فضل على العالمين) اى كلهم أولا بالايجاد وثانيا بالدفاع فهو يكف من ظلم الظلمة اما ببعضهم ببعض او بالصالحين ويسبغ عليهم غير ذلك من أبواب نعمه ظاهرة وباطنة (تلك) اى هذه الآيات التى قصصناها عليك من حديث الالوف وتمليك طالوت واتيان التابوت وانهزام الجبابرة على يد صبى وهو داود وقتل داود جالوت (آيات الله) الذى جلت عظمته وتمت قدرته وقوته (نتلوها) اى نقصها (عليك) يا محمد (بالحق) اى بالوجه المطابق الذى لا يشك فيه اهل الكتاب لانهم يجدونه فى كتبهم كذلك وارباب التواريخ (وانك) اى والحال انك (لمن المرسلين) بعادات هذه الآيات عليه من علمك بها من غير معلم من البشر ثم باعجازها الباقى على مدى الدهر ولما تقدم فى هذه السورة ذكر رسل كثيرة وختم هذه الآيات بانه صلى الله عليه وسلم منهم تشوفت النفس الى معرفة احوالهم فى الفضل هل هم فيه سواء أوهم متفاضلون فاشار الى علو مقادير الكل فى قوله (تلك الرسل) باداة البعد اعلاما ببعد مراتبهم وعلو منازلهم وانهم بالمحل الذى لا ينال والمقام الذى لا يطال *(تنبيه)* تلك مبتدأ والرسل صفة اى الرسل التى ذكرت قصصها فى السورة أو التى ثبت علمها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم او جماعة الرسل واللام للاستغراق والخبر (فضلنا بعضهم على بعض) بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره لما أوجب ذلك من تفضيلهم فى الحسنات بعد ان فضلنا الجميع بالرسالة ولما كان اكثر السورة فى بنى اسرائيل واكثر ذلك فى اتباع موسى عليه الصلاة والسلام ذكر وصفه مع وصف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقال (منهم من كلم الله) بلا واسطة وهو موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم كلم موسى ليلة الحيرة وهى بفتح الحاء متحيره فى معرفة طريقه من مسيره من مدين الى مصر وفى الطور ومحمدا ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو ادنى وبين التكليمين بون عظيم ومنهم ايضا آدم كما ورد فى الحديث (ورفع بعضهم) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (درجات) على غيره بعموم الدعوة وختم النبوة به والاتباع الكثيرة فى الازمان الطويلة وبنسخ جميع الشرائع وبكونه رحمة للعالمين وبتفضيل امته على سائر الامم وبالمعجزات المتكاثرة المستمرة واظهرها القرآن الذى عجز اهل السموات والارض عن الاتيان بسورة من مثله والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر والفضائل العلمية والعملية الفائقة للحصر ولو لم يؤت الا القرآن وحده كفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتى الانبياء لانه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات وبانشقاق القمر باشارته وحنين الجذع بمفارقته وتسليم الحجر عليه وكلام البهائم والشهادة برسالته ونبع الماء من بين اصابعه وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من نبى من الانبياء الا وقد اعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا اوحاه الله الى فارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة وروى عنه انه قال اعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلى نصرت بالرعب من مسيرة شهر وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا فايما رجل من أمتى ادركته الصلاة فليصل واحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى واعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه وبعثت الى الناس عامة وروى عنه انه قال فضلت على الانبياء بست اوتيت جوامع الكلم ونصرت

(قوله واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) ءان قلت ما فائدة ولا تكتمونه بعد لتبيننه للناس مع انه معلوم منه (قلت) فائدته التأكيد او المعنى لتبيننه

بالرعب واحلت لى الغنائم وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا وأرسلت الى الخلق كافة وختم بى النبيون (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) من احياء الموتى وغيره (وايدناه) اى قويناه (بروح القدس) وهو جبريل يسير معه حيث سار وخص عيسى صلى الله عليه وسلم باسمه لافراط اليهود فى تحقيره والنصارى فى تعظيمه حيث قالوا هو ابن الله وابهم محمدا صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى بعضهم حيث لم يقل ورفع محمدا صلى الله عليه وسلم لما فى الابهام من تفخيم فضله واعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على انه العلم الذى لا يشتبه والمتميز الذى لا يلتبس ويقال للرجل من فعل هذا فيقول احدكم او بعضكم يراد به الذى تعورف واشتهر فيكون افخم من التصريح به وانوه بصاحبه وسئل الحطيئة عن اشعر الناس فذكر زهيرا والنابغة ثم قال ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه ولو قال ولو شئت لذكرت نفسى لم يفخم امره (ولو شاء الله) اى الذى له جميع الامر هدى الناس جميعا باتفاقهم على دين واحد (ما اقتتل الذين من بعدهم) اى بعد الرسل اى ما اقتتلت امهم (من بعد ما جاءتهم البينات) اى المعجزات الواضحات على ايدى رسلهم لاختلافهم فى الدين وتضليل بعضهم بعضا (ولكن اختلفوا) لمشيئته تعالى ذلك (فمنهم) اى فتسبب عن اختلافهم ان كان منهم (من آمن) اى ثبت على ايمانه (ومنهم من كفر) كالنصارى بعد المسيح * ولما كان من الناس من اعمى الله قلبه فنسب افعال المختارين من الخلق اليهم استقلالا قال الله تعالى معلما أن الكل بخلقه تاكيدا لما مضى من ذلك ومعيدا لذكر الاسم الاعظم (ولو شاء الله ما اقتتلوا) بعد اختلافهم بالايمان والكفر (ولكن الله يفعل ما يريد) فيوفق من يشاء فضلا منه ويخذل من يشاء عدلا منه والآية دليل على أن الانبياء متفاوتة الاقدام وانه يجوز تفضيل بعضهم على بعض ولكن بنص لان اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل لا بالاعتقاد وان الحوادث بيد الله لقوله تعالى يفعل ما يريد تابعة لمشيئته تعالى خيرا كانت أو شرا ايمانا او كفرا * ولما كان الاختلاف على الانبياء سببا للجهاد الذى هو حظيرة الدين وكان عماد الجهاد النفقة اتبع ذلك قوله رجوعا الى اول السورة من هنا الى آخرها واتى التاكيد بلفظ الامر لما تقدم الحث عليه من امر النفقة (يا ايها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم) اى مما وجبت عليكم انفاقه من الزكاة قاله السدى وقال غيره اراد به صدقة التطوع والنفقة فى الخير اى فلا تبخلوا بالانفاق فانه لا داء أدوأ من البخل قال تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وصرف الامر بالتبعيض الى الحلال الطيب يمنع احتجاج المعتزلة به على ان الرزق لا يكون الا حلالا لكونه مأمورا به واتبعه بما يرغب ويرهب من حلول يوم التناد الذى تنقطع فيه الاسباب التى اقامها سبحانه وتعالى فى هذه الدار فقال (من قبل ان يأتى يوم) موصوف بانه (لا بيع فيه) اى فداء (ولا خلة) اى صداقة تنفع (ولا شفاعة) بغير اذنه والمعنى انه لا يفدى فيه أسير بمال ولا يراعى الصداقة من صاد ولا الشفاعة من كبير لعدم ارادة الله تعالى لشئ من ذلك ولا يكون الا ما يريده وقرأ ابن كثير وابو عمرو بالنصب فى بيع وخلة وشفاعة ولا تنوين على الاصل والباقون بالرفع والتنوين على انه فى تقدير جواب هل فيه بيع او خلة او شفاعة * ولما حث سبحانه وتعالى على الانفاق ختم الآية بذم الكافرين بكونهم لم يتحلوا بهذه الصفة لتخليهم عن الايمان وبعدهم منه

في الحال ولا يكتمونه في المستقبل (قوله ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته) * ان قلت هذا يقتضى خزى كل من يدخلها وقوله يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا

وتكذيبهم بذلك اليوم فهم لا ينفقون لخوفه وارهابه فقال بدل ولا نصرة الكافر (والكافرون) اى المعلوم كفرهم فى ذلك اليوم (هم) المختصون بانهم (الظالمون) أى الكاملون فى الظلم لاغيرهم وقوله سبحانه (الله لا اله الا هو) مبتدأ وخبر والمعنى انه المستحق للعبادة لاغير (الحى) أى الدائم البقاء (القيوم) أى الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم (لا تأخذه سنة) وهى ما يتقدم النوم من الفتور الذى يسمى النعاس قال ابن الرقاع العاملى

وسنان اقصده (أى أصابه) النعاس فرنقت * فى عينه سنة وليس بنائم

أى لا يأخذه نعاس (ولا نوم) وهو حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الابخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الاحساس (فان قيل) تقديم السنة على النوم قياس المبالغة عكسه (أجيب) بان هذا ذكر على ترتيب الوجود اذ وجود السنة سابق على وجود النوم فهو على طريقة لا يغادر صغيرة ولا كبيرة قصدا الى الاحاطة والاحصاء ولانه لما عبر بالاخذ الذى هو بمعنى القهر والغلبة وجب تقديم السنة كما لو قيل فلان لا يغلبه أمير ولا سلطان وجملة لا تأخذه سنة ولا نوم نفى للتشبيه بينه وبين خلقه وتأكيد لكونه حيا قيوما فان من أخذه نعاس أو نوم كان مأوف الحياة قاصرا فى الحفظ والتدبير ولذلك ترك العاطف فيه وفى الجمل التى بعده من قوله له ما فى السموات وما فى الارض الخ وقوله تعالى (له) أى بيده وفى تصرفه واختصاصه (ما فى السموات وما فى الارض) أى ملكا وخلقا تقرير لقيوميته واحتجاج على تفرده فى الالوهية والمراد بما فيهما ما وجد فيهما داخلا فى حقيقتهما كالكواكب والنبات والمعادن أو خارجا عنهما متمكنا فيهما كالملائكة والانس والجن وقوله تعالى (من ذا الذى) أى لا أحد (يشفع عنده الا باذنه) له بيان لكبرياء شأنه وانه لا احد يساويه أو يدانيه يستقل بان يدفع ما يريده شفاعة وتواضعا فضلا ان يدفعه عنادا ومخاصمة (يعلم ما بين ايديهم) اى الخلق من امر الدنيا (وما خلفهم) اى من امر الآخرة قاله مجاهد وقال الكلبى ما بين ايديهم يعنى الآخرة لانهم يقدمون عليها وما خلفهم الدنيا لانهم يخلفونها وراء ظهورهم وقيل ما بين أيديهم ما قدموا من خير وشر وما خلفهم ما هم فاعلوه (ولا يحيطون بشئ) أى قليل ولا كثير (من علمه) أى لا يعلمون شيأ من معلوماته (الا بما شاء) أن يعلمهم به منها باخبار الرسل (وسع كرسيه السموات والارض) اختلف فى الكرسى فقال الحسن هو العرش نفسه وقال أبو هريرة هو موضع أمام العرش والاحاديث تدل عليه ومعنى وسع أن سعته مثل سعة السموات والارض وفى الاخبار ان السموات والارض فى جنب الكرسى كحلقة فى فلاة والكرسى فى جنب العرش كحلقة فى فلاة ويروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان السموات السبع فى الكرسى كدراهم سبعة القيت فى ترس وقال على ومقاتل كل قائمة من الكرسى طولها مثل السموات السبع والارضين السبع وهو بين يدى العرش ويحمل الكرسى أربعة املاك لكل ملك اربعة وجوه واقدامهم فى الصخرة التى تحت الارض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام ملك على صورة أبى البشر آدم عليه الصلاة والسلام وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة الى السنة وملك على صورة سيد الانعام وهو الثور

يسال

معه يقتضى انتفاء الخزى من المؤمنين فلا يدخلون النار (قلت) الخزى فى الاول من الخزى وهو الاذلال والاهانة وفى الثانى من الخزاية وهى النكال والفضيحة وكل من

يسأل للانعام الرزق من السنة الى السنة وعلى وجهه غضاضة منذ عبد العجل وملك على صورة سيد السباع وهو الاسد يسأل الرزق للسباع من السنة الى السنة وملك على صورة سيد الطير وهو النسر يسأل للطير الرزق من السنة الى السنة وفي بعض الاخبار ان ما بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام لولا ذلك لاحترقت حملة الكرسي من نور حملة العرش وقيل المراد بالكرسي علمه وقيل ملكه وقيل تصوير لعظمته وتمثيل مجرد (ولا يؤده) أي لا يثقله ولا يشق عليه (حفظهما) أي السموات والارض (وهو العلي) أي الرفيع فوق خلقه المتعالي عن الاشباه والانداد (العظيم) أي الكبير الذي لا شيء أعظم منه المستحقر بالاضافة اليه كل ما سواه وهذه الآية تسمى آية الكرسي مشتملة على أمهات المسائل الالهية فانها دالة على أنه موجود واحد في الالهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجد لغيره اذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا يناسب الاشباح ولا يعتريه ما يعتري الارواح مالك الملك والملكوت ومبدع الاصول والفروع ذو البطش الشديد الذي لا يشفع عنده الا من أذن له عالم بالاشياء كلها جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة اذ المقدور كل ما يصح أن يملك ويقدر عليه لا يؤده شاق ولا يشغله شان عن شان متعال عما يدركه وهم عظيم فلا يحيط به فهم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ان أعظم آية في القرآن آية الكرسي رواه مسلم وروى النسائي وابن حبان وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الا الموت أي فاذا مات دخل الجنة وروى البيهقي في شعبه أنه صلى الله عليه وسلم قال لا يواظب عليها الا صديق او عابد وروى البيهقي أيضا ان من قرأها اذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والابيات حوله وعن أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله أي آية من كتاب الله أعظم قال قلت الله لا اله الا هو الحي القيوم قال فضرب في صدري ثم قال ليهنك العلم أبا المنذر والذي نفسي بيده ان لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش وعن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم حفظ في يومه ذلك حتى يمسي فان قرأهما حين يمسي حفظ في ليلته تلك حتى يصبح وروى ما قرئت آية الكرسي في دار الا هجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة يا علي علمها اولادك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها وتذاكر الصحابة أفضل ما في القرآن فقال لهم علي رضي الله تعالى عنه أين أنتم عن آية الكرسي ثم قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الايام يوم الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن البقرة وسيد البقرة آية الكرسي (لا اكراه في الدين) أي على الدخول فيه أي فمن أعطى الجزية لم يكره على الاسلام فهو عام مخصوص بأهل الكتاب لما روى أن أنصاريا كان له ابنان تنصرا قبل المبعث ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الانصاري يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر فنزلت وقيل عام منسوخ فكان هذا في الابتداء قبل أن يؤمر

قوله ان ما بين حملة الخ كذا في الاصول التي بايدينا باثبات ما ونصب سبعين ولعله على حد ان حراسنا أسدا اه مصححه

يدخل النار بدل وليس كل من يدخلها يتنكل به فالمراد بالخزي في الاول الخلود وفي الثاني تعلت ٣ او التطهير بقدر ذنوب الداخل (قوله ربنا اننا سمعنا مناديا)

٣ قوله بالهامش تعلت هكذا بالاصل ولعله تعلة القسم فليراجع اه مصححه

بالقتال فصارت الآية منسوخة بآية السيف قاله ابن مسعود (قد تبين الرشد من الغي) أي ظهر بالآيات البينات أن الايمان رشد يوصل الى السعادة الابدية وان الكفر غي يؤدي الى الشقاوة السرمدية والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه الى الايمان طلبا للفوز بالسعادة والنجاة فلم يحتج الى الاكراه والالجاء (فمن يكفر بالطاغوت) أي فمن اختار الكفر بالشيطان أو الاصنام (ويؤمن بالله) أي بالتوحيد وتصديق الرسل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين (لا انفصام) أي لا انقطاع (لها) قال التفتازاني شبه التدين بالدين الحق والثبات على الهدى والايمان بالتمسك بالعروة الوثقى المأخوذة من الحبل المحكم المأمون انقطاعها ثم ذكر المشبه به وأراد المشبه وقال الزمخشري وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر اليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به اه والوثقى تأنيث الاوثق وقيل العروة الوثقى السبب الذي يتوصل به الى رضا الله تعالى (والله سميع) لما يقال (عليم) بالنيات والافعال وقيل سميع لدعائك اياهم الى الاسلام عليم بحرصك على ايمانهم (الله ولي) أي ناصر ومعين (الذين آمنوا) أي أرادوا أن يؤمنوا لقوله تعالى (يخرجهم) أي بلطفه وتأييده (من الظلمات) أي الكفر (الى النور) اي الايمان أو أنهم الثابتون على الايمان بأن يخرجهم من الشبهة في الدين ان وقعت لهم بما يهديهم ويوفقهم لمن أجلها حتى يخرجوا منها الى نور اليقين وعن ابن عباس أنهم قوم كانوا كفروا بعيسى وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) أي الشياطين وقال مقاتل هو كعب بن الاشرف وحيي بن أخطب وسائر رؤس الضلالة (يخرجونهم) أي يدعونهم (من النور) الذي منحوه بالفطرة (الى الظلمات) أي الكفر (فان قيل) كيف يخرجونهم من النور وهم كفار لم يكونوا في نور قط (أجيب) بأن الطبراني روى عن ابن عباس أنها نزلت في قوم آمنوا بعيسى فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كفروا به أو أنه تعالى ذكر الاخراج في مقابلة يخرجهم من الظلمات فهو على العموم في حق جميع الكفار كما يقول الرجل لابيه أخرجتني من مالك ولم يكن فيه كما قال تعالى اخبارا عن يوسف عليه الصلاة والسلام اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ولم يكن قط في ملتهم وقيل نزلت في قوم ارتدوا عن الاسلام واسناد الاخراج الى الطاغوت باعتبار السبب لا ينافي تعلق قدرته تعالى وارادته به والطاغوت يكون مذكرا ومؤنثا وواحدا وجمعا قال تعالى في المذكر والواحد يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به وقال تعالى في المؤنث والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وقال في الجمع يخرجونهم من النور الى الظلمات وقوله تعالى (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وعيد وتحذير قال البيضاوي ولعل عدم مقابلته بوعد المؤمنين تعظيم لشأنهم ولما كانت الغرور ذا المحاجج للخليل عن أخرجته الشياطين من النور الى الظلمات ذكره عقب ذلك فقال (ألم تر) أي تعجب تخبرك به علما هو عندك كالمشاهدة لما لك من كمال البصيرة وبما أودعناه فيك من المعاني المنيرة (الى الذي) وهو نمروذ (حاج) جادل وخاصم (ابراهيم في ربه) وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر في الارض وادعى الربوبية (أن) أي لان (آتاه الله الملك) فطغى أي كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه فأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك قال مجاهد ملك الارض مشرقها

(ان قلت) الممنوع النداء لا المنادى (قلت) لما قال ينادي صار معناه منادياً مناديا ينادي منادياً كما يقال سمعت زيدا يقول كذا أي سمعت قوله فمناديا مفعول سمع وينادي حال دالة على محذوف مضاف للمفعول (قوله ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا) فان قلت

ومغربها

وملكها أربعة نفر مؤمنان وكافران أما المؤمنان فسليمان صلى الله عليه وسلم وذو القرنين وأما الكافران فنمروذ بن كنعان وبختنصر لم يملكها غيرهم وفى الآية دليل على أن الله تعالى يعطى الكافر الملك ففيها الحجة على من منع ايتاء الملك للكافر من المعتزلة وأول الملك بالمال والخدم الذي يتسلط به على غلبة الناس لا الملك الحقيقي وبهذا أول الزمخشري (اذ قال ابراهيم ربي الذى) قرأ حمزة ربي بسكون الياء والباقون بفتحها (يحيى ويميت) أى يخلق الموت والحياة فى الاجساد وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره قال له نمروذ من ربك فقال له ابراهيم ذلك واختلفوا فى وقت هذه المناظرة فقال مقاتل لما كسر ابراهيم الاصنام سجنه نمروذ ثم أخرجه ليحرقه بالنار فقال له من ربك الذى تدعونا اليه وقال آخرون كان هذا بعد القائه فى النار وذلك ان الناس قحطوا على عهد نمروذ وكان الناس يمتارون من عنده فكان اذا أتاه الرجل فى طلب الطعام سأله من ربك فان قال أنت باع منه الطعام فأتاه ابراهيم فقال له من ربك فقال له ذلك (قال أنا أحيى وأميت) قرأ نافع بمد الالف من أنا فيصير ممدا متصلا والباقون بالقصر قال أكثر المفسرين دعا نمروذ برجلين فقتل احدهما واستحيا الآخر فجعل ترك القتل احياء فانتقل ابراهيم الى حجة أخرى لا عجزا بل لما رآه من غباوته فان حجته لازمة لانه أراد بالاحياء احياء الميت فكان له أن يقول فأحى من أمت ان كنت صادقا لكنه انتقل الى حجة أوضح من الاولى ذكرها الله تعالى بقوله (قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس) وهو الذى أوجدها (من المشرق) أى فى كل يوم قبل أن توجد أنت بدهور (فأت بها) أنت (من المغرب) ان كنت صادقا فيما تدعيه ولو يوما واحدا وفى ذلك اشعار بان الله تعالى لابد وأن يأتى بالشمس من المغرب ليكون فى ذلك اظهار نصر يفسه لها حيث شاء حتى يطلعها من حيث غربت كما يطلع الروح من حيث قبضت ليكون طلوع الشمس من مغربها آية مقاربة لقيام الساعة وطلوع الارواح من أبدانها (فبهت الذى كفر) تحير ودهش وانقطعت حجته ولم يعط ابراهيم طعاما فرجع فمر على كثيب رمل أعفر فأخذ منه تطييبا لقلوب أهله اذا دخل عليهم فلما أتى أهله ووضع متاعه نام فقامت امرأته الى متاعه ففتحته فاذا هو أجود طعام رأته فأخذته وصنعت له منه وقربته له فقال لها من أين هذا قالت من الطعام الذى جئت به فعرف ان الله تعالى رزقه فحمد الله تعالى (فان قيل) كيف بهت نمروذ وكان يمكنه ان يعارض ابراهيم فيقول له سل أنت ربك حتى يأتى بها من المغرب (أجيب) بان الله تعالى صرفه عن ذلك اظهارا للحجة عليه أو معجزة لابراهيم عليه الصلاة والسلام أو أنه خاف ان لو سأل ذلك دعا ابراهيم ربه فكانت زيادة فى فضيحته وانقطاعه ثم بعث الله تعالى الى نمروذ بن كنعان ملكا أن آمن بى واتركك على ملكك قال فهل رب غيرى فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه ثم أتاه الثالثة فأبى عليه فقال له ذلك الملك فاجمع جموعك الى ثلاثة أيام فجمع الجبار جموعه فأمر الله تعالى الملك ففتح عليه بابا من البعوض فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق الا العظام ونمروذ كما هو لم يصبه من ذلك شئ فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه وكان جبارا أربعمائة سنة فعذبه الله تعالى أربعمائة سنة كملكه ثم أماته الله وهو الذى بنى صرحا طويلا ليصعد منه الى السماء

كيف قال الثانى مع انه معلوم من الاول (قلت) المعنى مختلف لان الغفران مجرد فضل والتكفير محو السيئات بالحسنات (قوله وآتنا ما وعدتنا على رسلك) اى على السنة رسلك

ليقاتل أهلها فارسل الله تعالى عليه الريح فهدمته وسيأتي قصته في غافر ان شاء الله تعالى (والله لا يهدي القوم الظالمين) بالكفر الى محجة الاحتجاج (أو كالذي مر على قرية) فيه حذف تقديره أو رأيت مثل الذي فحذف لدلالة ألم تر عليه لان كلتيهما كلمة تعجب وتخصيصه بحرف التشبيه لان المنكرين للاحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى بخلاف مدعي الربوبية وقيل الكاف مزيدة وتقدير الكلام ألم تر الى الذي حاج أو الى الذي مر والمار عزير بن شرخيا أو الخضر أو الكافر بالبعث ويؤيده نظمه مع نمروذ في سلك وكلمة الاستبعاد التي هي أنى يحيي وأكثر المفسرين على الاول والقرية بيت المقدس حين خربها بختنصر وقتل بني اسرائيل حتى أفناهم ثم أمر جنوده ان يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا فيقذفه في بيت المقدس ففعلوا حتى ملؤه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان في بلدان بيت المقدس فاجتمع عنده صغيرهم وكبيرهم من بني اسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبي فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فاصاب كل رجل منهم أربعة وفرق من بقي من بني اسرائيل ثلاث فرق فثلثا قتلهم وثلثا سباهم وثلثا أقرهم بالشام وقيل هي القرية التي خرج منها الالوف وقيل غيرهما (وهي خاوية) أي ساقطة (على عروشها) أي سقوفها بأن سقط السقف أولا ثم سقطت الجدران عليه لما أخربها بختنصر (قال أنى) أي كيف (يحيي هذه الله بعد موتها) أي بعد ما صارت اليه من الخراب وذهاب الاهل فيعيدها الى ما كانت عليه عامرة آهلة وهذا اعتراف بالعجز عن معرفة طريق الاحياء واستعظام لقدرة المحيي ان كان القائل مؤمنا واستبعاد ان كان كافرا (فاماته الله) وألبثه (مائة عام) ميتا (ثم بعثه) بالاحياء ليريه كيفية ذلك (قال كم لبثت) أي مكثت أي لما أحياه الله بعث اليه ملكا فسأله كم لبثت وعن ابن عباس ان عزيرا كان عبدا صالحا حكيما خرج ذات يوم الى ضيعة له يتعاهدها فلما انصرف انتهى الى خربة حين قامت الظهيرة فاصابه الحر فدخل الخربة وهو على حمار له فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة كانت معه فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ثم أخرج خبزا يابسا معه فالقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل فيأكله ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه الى الحائط فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي ساقطة على عروشها ورأى عظاما بالية فقال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فلم يشك ان الله يحييها ولكن قالها تعجبا فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فاماته الله مائة عام فلما أتت عليه مائة عام وكان فيما بين ذلك في بني اسرائيل أمور واحداث فبعث الله الى عزير ملكا فخلق قلبه ليعقل به وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي الله الموتى ثم ركب خلقه وهو ينظر ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح كل ذلك يرى ويعقل فاستوى جالسا فقال له الملك كم لبثت (قال لبثت يوما) وذلك ان الله تعالى أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس فقال لبثت يوما وهو يرى أن الشمس قد غربت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال (أو بعض يوم) أي بل بعض يوم (قال) أي الله أو الملك له (بل لبثت مائة عام) قرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة في كم لبثت وفي قال لبثت وفي بل لبثت والباقون بالادغام ثم قال له الله او الملك (فانظر الى طعامك) وكان تينا وعنبا (وشرابك) وكان عصيرا او لبنا (لم يتسنه) اي لم يتغير بمرور الزمان فكان التين أو العنب كأنه قد قطف من

(فان قلت) ما فائدة الدعاء مع علمهم انه لا يخلف الميعاد (قلت) فائدته العبادة لان الدعاء عبادة مع ان الوعد من الله للمؤمنين عام يجوز أن يراد به المخصوص فسألوا الله ان يجعلهم من

ساعته والعصير كأنه قد عصر أو اللبن قد حلب من ساعته قال الكسائي أي كأنه لم يأت عليه
السنون وإنما أفرد الضمير لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد (فإن قيل) إذا كان المار
كافرا فكيف يسوغ أن يكلمه الله (أجاب الزمخشري) بأن الكلام كان بعد البعث ولم يك إذ
ذاك كافرا وقال أبو حيان لا نص في الآية أن الله كلمه شفاها وقرأ حمزة والكسائي لم يتسن
بإسقاط الهاء إذا وصلها وأبقاها بعدها والباقون بإثباتها وفي الوقف ثابتة للجميع (وانظر إلى حمارك)
كيف هو فرآه ميتا وعظامه بيض وكان له حمار قد ربطه وقيل رآه حيا مكانه كما ربطه حفظ بلا
ماء ولا علف كما حفظ الطعام والشراب من التغير وقوله تعالى (ولنجعلك آية للناس) معطوف
على محذوف تقديره فعلنا ذلك لتعلم ولنجعلك آية وقيل الواو زائدة مقحمة أي لنجعلك عبرة ودلالة
على البعث بعد الموت (وانظر إلى العظام كيف ننشرها) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالراء
ومعناه نحييها والباقون بالزاي ومعناه نرفعها من الأرض ونردها إلى أماكنها من الجسد وفي
الآية تقديم وتأخير وتقديرها وانظر إلى حمارك وانظر إلى العظام كيف ننشرها ولنجعلك آية
للناس واختلفوا في معنى الآية فقال الأكثرون إنه أراد به عظام حماره وهذا يؤيد كون حماره
كان ميتا قال السدي إن الله أحيا عزيرا ثم قال له انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه فبعث
الله ريحا فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل الذي ذهبت به الطيور والسباع فاجتمعت
فركب بعضها في بعض وهو ينظر فصار حمارا من عظام ليس فيه لحم ولا دم ثم كسا العظام لحما ودما
كما قال تعالى (ثم نكسوها لحما) فصار حمارا لا روح فيه ثم أقبل ملك يمشي حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ
فيه فقام الحمار ونهق بإذن الله تعالى وقال الأقلون أراد به عظام هذا الرجل فأحيا الله عينيه
ورأسه وسائر جسده ميت ثم قال انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره قائما واقفا كهيئته يوم
ربطه وهذا يؤيد كون حماره كان حيا وذلك من أعظم الآيات أن يعيش مائة عام من غير علف ولا
ماء قال الضحاك وقتادة وتقدير الآية أي على هذا وانظر إلى حمارك وانظر إلى عظامك كيف
ننشرها وروي أن عزيرا لما أحياه الله تعالى ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر
الناس ومنازله فانطلق على وهم حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة أتى عليها مائة
وعشرون سنة كانت أمة لهم فخرج عزير عنهم وهي بنت عشرين سنة فقال لها عزير يا هذه هذا
منزل عزير قالت نعم هذا منزل عزير وبكت وقالت ما رأيت أحدا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرا
فقال فإني أنا عزير فقالت سبحان الله فإن عزيرا فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر قال إن الله
أماتني مائة سنة ثم بعثني قالت فإن عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب
البلاء بالعافية فادع الله أن يرد علي بصري حتى أراك فإن كنت عزيرا عرفتك فدعا ربه ومسح
يده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها فقال قومي بإذن الله تعالى فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة
كأنما نشطت من عقال فنظرت إليه فقالت أشهد أنك عزير فانطلقت إلى بني إسرائيل وهم في
أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ في المجلس
قال الضحاك عاد إلى قريته شابا وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس
واللحية فقالت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد علي
بصري وأطلق رجلي وزعم أن الله أماته مائة عام ثم بعثه فنهض الناس وأقبلوا عليه ونظروا

أرادهم بالوعد (قوله لا يغرنك
تقلب الذين كفروا) النهي
في اللفظ للتقلب وفي
الحقيقة للنبي والمراد امته
والقصد بذلك النهي عن
الاغترار بالتقلب في ذكر
الغرور وتنزيل السبب منزلة

اليه وقال ابنه كان لابي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فاذا هو عزير فقال بنو اسرائيل فانه لم يكن فينا احد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير فقرأها عليهم التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك وقالوا هو ابن الله وسيأتي الكلام على ذلك في سورة براءة ان شاء الله تعالى (فلما تبين له) ذلك بالمشاهدة وفاعل تبين مضمر تقديره فلما تبين له ان الله على كل شئ قدير (قال أعلم ان الله على كل شئ قدير) فحذف من الاول لدلالة الثاني عليه كما في قولهم ضربني وضربت زيدا وقرأ حمزة والكسائي بوصل الهمزة قبل العين وسكون الميم والباقون بقطع الهمزة ورفع الميم (و) اذكر (اذ قال ابراهيم رب أرني) اى ابصرني وقرأ ابن كثير والسوسي بسكون الراء من ارني وقرأ الدوري باختلاس الكسرة والباقون بكسرة كاملة (كيف تحيي الموتى) قال الحسن وقتادة والضحاك كان سبب هذا السؤال من ابراهيم عليه السلام انه مر على دابة ميتة قال ابن جرير كانت جيفة حمار فرآها وقد توزعها دواب البحر والبر فكانت اذا مد البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فاكلت منها وما وقع منها يصير في البحر واذا انحسر البحر جاءت السباع فاكلت منها وما وقع منها يصير ترابا فاذا ذهبت السباع جاءت الطير فاكلت منها وما سقط قطعته الريح في الهواء فلما رأى ذلك ابراهيم تعجب منها وقال يارب قد علمت انك تجمعها من بطون السباع وحواصل الطير واجواف دواب البحر فارني كيف تحييها فازداد يقينا فعاتبه الله بقوله (قال أولم تؤمن) بقدرتي على الاحياء سأله مع علمه بايمانه بذلك ليجيب بما أجاب به فيعلم السامعون غرضه (قال بلى) يارب آمنت (ولكن ليطمئن قلبي) اى ليسكن قلبي الى المعاينة والمشاهدة اراد أن يصير له بعد علم اليقين عين اليقين فان العيان يفيد في المعرفة والطمأنينة مالا يفيده الاستدلال وأما قوله صلى الله عليه وسلم نحن احق بالشك من ابراهيم ولو لبثت في السجن طول مالبث يوسف لاجبت الداعي فقال ابو سليمان الخطابي ليس فيه اعتراف بالشك على نفسه ولا على ابراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما يقول اذا لم أشك في قدرة الله تعالى على احياء الموتى فابراهيم اولى بان لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله ولو لبثت في السجن طول مالبث يوسف وقيل سبب سؤاله انه لما قال له نمرود انا احيي واميت قال له ان احياء الله برد الروح الى بدنها فقال نمرود هل عاينته فلم يقدر ان يقول نعم وانتقل الى تقرير آخر ثم سأل ربه ان يريه ليطمئن قلبه في الجواب ان سئل عنه مرة أخرى (فان قيل) بم تعلقت اللام في ليطمئن (أجيب) بانها تعلقت بمحذوف تقديره ولكن سألت ذلك ارادة طمأنينة القلب وقيل بل كان قصده بالسؤال رؤية المحيي ولكنه طلبها تلويحا فاجيب بالمنع منها تلويحا وموسى عليه الصلاة والسلام لما سألها تصريحا أجيب بالمنع تصريحا (قال) تعالى (فخذ أربعة من الطير) قال مجاهد وابن جرير أخذ طاوسا وديكا وحمامة وغرابا وانما خص الطير لانه أقرب الى الانسان شبها كتدوير الرأس والمشي على رجلين واجمع لخواص الحيوان لان فيها ما يتكلم وما يهتدي للطريق كالقطاة والعنقاء كالهدهد وفي هذا ايماء الى ان احياء النفس بالحياة الابدية انما يتأتى باماتة حب الشهوات والزخارف التي هي صفة الطاوس والصولة المشهور بها الديك وخسة النفس وبعد الامل المتصف بهما الغراب والترفع والمسارعة الى الهوى الموسوم بهما الحمام ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة وروى بدلها البطة

السبب والمنع عن السبب وهو غرور وتقلبهم لمنع المسبب وهو الاغترار والمراد بتقلبهم تصرفهم في التجارات والاموال والانتقال بها في البلاد متنعمين والتقلب

وبدل الغراب الغرنوق (فصرهن) أى فامسكهن واضممهن (اليك) قرأ حمزة بكسر الصاد والباقون بضمها (فان قيل) ما معنى أمره بضم الطير الى نفسه بعد أن يأخذها (أجيب) بأنه ليتأملها ويعرف أشكالها وهيآتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الاحياء ولا يتوهم أنها غير تلك ولذلك قال يأتينك سعيا وروى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق اجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها وان يمسك رؤسها ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال كما قال تعالى (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ) واختلفوا فى عدد الاجزاء والجبال فقال ابن عباس وقتادة امره الله تعالى ان يجعل كل طائر اربعة اجزاء ويجعلها على اربعة اجبل على كل جبل جزء من كل طائر وقال السدى وابن جريج جزأها سبعة اجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رؤسهن ثم دعاهن تعالين باذن الله فجعل كل قطرة من دم طائر تصير الى القطرة الاخرى وكل ريشة الى الريشة الاخرى وكل عظم يصير الى العظم الآخر وابراهيم ينظر حتى صارت جثثا بغير رؤس ثم اقبلن الى رؤسهن سعيا فالتقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى (ثم ادعهن يأتينك سعيا) اى سريعا وقيل مشيا لانه لو طارت لربما توهم متوهم انها غير تلك الطير وان ارجلها غير سليمة قال البيضاوى وفى ذلك اشارة الى ان من اراد احياء نفسه بالحياة الابدية فعليه ان يقبل على القوى البدنية كالشهوة والغضب فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سورتها فيطاوعنه مسرعات متى دعاهن بداعية العقل او الشرع وكفى لك شاهدا على فضل ابراهيم ويمنه اى بركته حيث سلك مسلك الضراعة فى الدعاء وحسن الادب فى السؤال انه تعالى اراه ما اراد ان يريه فى الحال على ايسر الوجوه واراه عزيرا بعد ان اماته مائة عام (واعلم ان الله عزيز) لا يعجز عما يريده (حكيم) ذو حكمة بالغة فى كل ما يفعله (مثل الذين ينفقون) اى يبذلون (اموالهم) بطيب النفس (فى سبيل الله) الذى له الكمال كله اى فى طاعته كمثل زارع ومثل ما ينفقون (كمثل حبة) عما زرعه فلا بد من حذف كما تقرر او يقال مثل نفقتهم كمثل حبة او مثلهم كمثل باذر حبة (انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) والمنبت هو الله سبحانه وتعالى ولكن الحبة لما كانت سببا اسند اليها الانبات كما يسند الى الارض والى الماء وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم باظهار تاء التأنيث عند السين والباقون بالادغام ومعنى انباتها سبع سنابل ان يخرج منها ساق يتشعب منه سبع شعب لكل واحدة سنبلة وهذا التمثيل تصوير الاضعاف كأنها مصورة بين عينى الناظر (فان قيل) كيف صح هذا التمثيل ولم نر سنبلة فيها مائة حبة (اجيب) بان ذلك موجود فى الدخن والذرة وغيرهما وربما فرخت ساق البرة فى الارض القوية المغلة فبلغ حبها هذا المبلغ وعلى تقدير عدم وجوده هو غير مستحيل وما لا يكون مستحيلا يجوز ضرب المثل به وتاول ذلك الضحاك فقال كل سنبلة انبتت مائة حبة (فان قيل) هلا قال الله تعالى سبع سنبلات لانه جمع قلة كما قال الله تعالى وسبع سنبلات خضر (اجيب) بما تقدم فى قوله تعالى ثلاثة قروء (والله يضاعف لمن يشاء) بفضله تلك المضاعفة او يضاعف على هذا ويزيد لمن شاء ما بين سبعين الى سبعمائة الى ما شاء من الاضعاف مما لا يعلمه الا الله على حسب حال المنفق من اخلاصه وتعبه ومن اجل ذلك تتفاوت الاعمال فى مقادير الثواب (والله واسع) اى غنى يعطى عن سعة (عليم) بنية المنفق وقدر انفاقه وبمن يستحق المضاعفة (الذين ينفقون اموالهم

انما يتألم ويتكسر قلبه اذا رأى الفسق يتقلب ويتمتع بما افاء الله ذكره التقلب

●(سورة النساء)●

(قوله وخلق منها زوجها) أى حواء (فان قلت) اذا

(في سبيل الله) اي في طاعته قال الكلبي نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما جاء عبد الرحمن باربعة آلاف درهم صدقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كان عندي ثمانية آلاف درهم فامسكت منها لنفسي وعيالي اربعة آلاف واربعة آلاف اقرضتها ربي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما امسكت وفيما اعطيت واما عثمان فجهز المسلمين في غزوة تبوك بالف بعير باقتابها واحلاسها والف دينار قال عبد الرحمن بن سمرة جاء عثمان بالف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدخل فيها يده ويقلبها ويقول ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم وقال يارب عثمان رضيت عنه فارض عنه (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا) اي على المنفق عليه بقولهم مثلا قد احسنت اليه وجبرت حاله فيعددون عليه النعمة فحذر الله عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لانه من العباد تعيير وتكدير ومن الله افضال وتذكير وكان السلف يقولون اذا صنعتم صنيعة فانسوها والعرب يتمدحون بترك المن ويذمون عليه فمن الاول قول القائل

زاد معروفك عندي عظما * أنه عندك مستور حقير

تتناساه كأن لم تأته * وهو في العالم مشهور كبير

ومن الثاني قول القائل

وان امرأ أسدى الي صنيعة * وذكرنيها مرة للئيم

وقيل طعم الآلاء احلى من المن وهي امر من الآلاء مع المن ويطلق المن ايضا على النعمة يقال لفلان على منة اي نعمة وانشد ابن الانباري

فمن علينا بالسلام فانما * كلامك ياقوت ودر منظم

وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا الآية (ولا اذى) له كان يذكر ذلك الى من لا يحب وقوفه عليه او يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه وثم للتفاوت بين الانفاق وترك المن والاذى (لهم اجرهم) اي ثواب انفاقهم (عند ربهم ولا خوف عليهم) اي فلا يخافون فقد اجورهم (ولا هم يحزنون) في الآخرة بسبب أن لا يوجد (قول معروف) اي كلام حسن ورد على السائل جميل لان القول الجميل وان كان رد السائل يفرح قلبه ويروح روحه وقيل عدة حسنة (ومغفرة) اي بان يستر عليه خلته ولا يهتك ستره او يتجاوز عنه اذا وجد منه ما يثقل عليه عند رده (خير من صدقة) يدفعها اليه (يتبعها اذى) اي من وتعيير للسائل او قول يؤذيه (فان قيل) لم لم يعد ذكر المن فيقول يتبعها من او اذى (اجيب) ان الاذى يشمل المن وغيره كما تقرر وانما نص عليه فيما مر لكثرة وقوعه من المتصدقين وعسر تحفظهم منه ولذلك قدم على الاذى قال بعضهم الآية واردة في صدقة التطوع لان الواجب لا يحل منعه ويحتمل ان يراد بها الواجب فانه قد يعدل به عن سائل الى سائل وعن فقير الى فقير وانما صح الابتداء بالنكرة وهي قول لاختصاصها بالصفة وهي معروف واما المعطوف وهي مغفرة فلا يحتاج الى مخصص لتبعيتها (والله غني) عن صدقة العباد وانما امرهم ليثيبهم عليها (حليم) بتأخير العقوبة عن المان والمؤذي بصدقته (يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم) اي اجورها لان الصدقة وقعت فلا يصح ان تبطل (بالمن والاذى) (فان قيل) ظاهر هذا اللفظ ان مجموع المن والاذى

كانت مخلوقة من ادم ونحن مخلوقون منه ايضا يكون نسبتها اليه نسبة الولد فتكون اختالنا لا أما (قلت) خلقها من آدم لم يكن بتوليد كخلق الاولاد من الآباء فلا يلزم منه ثبوت

يبطلان

بطلان الاجر فيلزم انه لو وجد احدهما دون الآخر لا يبطل الاجر (اجيب) بان الشرط أن لا يوجد واحد منهما دون الآخر لان قوله تعالى ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى يقتضى ان لا يقع هذا ولا هذا اى فيبطل بكل واحد منهما ابطالا (كالذى) اى كابطال اجر نفقة الذى (ينفق ماله رئاء الناس) أى مرائيا لهم ليروا نفقته و يقولون انه كريم سخى (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) وهو المنافق لان الكافر معلن بكفره غير مراء (فمثله) أى هذا المرائى فى انفاقه (كمثل صفوان) وهو الحجر الاملس (عليه) أى استقر عليه (تراب) والتراب معروف وهو اسم جنس لا يثنى ولا يجمع وقال المبرد هو جمع واحده ترابة وفائدة هذا الخلاف أنه لو قال لزوجته أنت طالق عدد التراب أنه يقع عليه طلقة على الاول وهو الاصح وثلاث على الثانى (فأصابه وابل) وهو المطر الشديد العظيم القطر (فتركه صلدا) أى أملس نقيا من التراب وقوله تعالى (لا يقدرون على شئ مما كسبوا) استئناف لبيان مثل المنافق المنفق رياء أى لا يجدون له ثوابا فى الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شئ من التراب الذى كان عليه لاذهاب المطر له (فان قيل) كيف قال تعالى لا يقدرون بعد قوله كالذى ينفق (أجيب) بانه تعالى أراد بالذى ينفق الجنس أو الفريق الذى ينفق ولان من والذى يتعاقبان فكأنه قيل كمن ينفق وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء يقول الله تعالى لهم يوم يجازى العباد بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه أن الله تعالى اذا كان يوم القيامة ينزل الى العباد أى أمره ليقضى بينهم وكل أمة جاثية وأول من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى قال بلى قال فماذا عملت فيما علمت قال كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل و يؤتى بصاحب المال فيقول الله ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج الى أحد قال بلى يارب قال فماذا عملت فيما آتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت و يقول الله بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل و يؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله له فيماذا قتلت فيقول يارب أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت و يقول الله بل أردت أن يقال فلان جرئ وقد قيل ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتى فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة (والله لا يهدى القوم الكافرين) الى الخير والرشاد وفيه تعريض بان الرياء والمن والاذى على الانفاق صفة الكفار ولابد أن تجتنبوا عنها (ومثل) نفقات (الذين ينفقون أموالهم ابتغاء) أى طلب (مرضات الله) أى رضاه (وتثبيتا من أنفسهم) أى تثبيتا بالنظر فى اصلاح العمل واخلاصه بالحمل على الحلم والصبر على جميع مشاق التكاليف فان من راض نفسه بحملها على بذل المال الذى هو شقيق الروح فان بذله أشق شئ على النفس لان النفس اذا رضيت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها فى اتباعه

حكم البتة والاختية فيها (قوله وآتوا اليتامى أموالهم) اى اذا بلغوا وان لم يسموا أيتاما بعد البلوغ وانما سموا أيتاما هنا لقرب عهدهم بالبلوغ ففيه مجاز الكون (قوله ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم) اى مضمومة اليها (ان قلت) أكل مال اليتيم حرام وان لم يضم الى مال الوصى فلم خص النهى

اشهوا تها فيسهل عليه حملها على سائر العبادات ومتى تركها وهى مطبوعة على النقائص زاد
طمعها فى اتباع الشهوات فمن للتبعيض مفعول به مثلها فى قولهم هز من عطفه وحرك من
نشاطه (فان قيل) ما معنى التبعيض (أجيب) بان معناه ان من بذل ماله لوجه الله تعالى فقد
ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فهو الذى ثبتها كلها أو تصديقا للاسلام وتحقيقا للجزاء
من أصل أنفسهم لانه اذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله تعالى علم أن تصديقه وايمانه بالثواب من
أصل نفسه ومن اخلاص قلبه فمن على هذا لابتداء الغاية كقوله تعالى حسدا من عند أنفسهم
(كمثل جنة) أى بستان (بربوة) وهى المكان المرتفع الذى تجرى فيه الانهار فلا يعلوه الماء
ولا يعلو هو على الماء وانما جعلها بربوة لان النبات عليها أحسن وأزكى وقرأ ابن عامر وعاصم
بفتح الراء والباقون بضمها (أصابها وابل) أى مطر شديد كثير (فآتت) أى أعطت (أكلها)
أى ثمرتها وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بسكون الكاف والباقون بضمها (ضعفين) أى
مثلى ما يثمر غيرها بسبب الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثاله لان الضعف قدر
الشئ ومثله معه فيكون الضعفان أربعة واستظهره البقاعى وقال أبو حيان يحتمل انها
للتكثير أى ضعفا بعد ضعف أى أضعافا كثيرة لان النفقة لا تضاعف بحسنة فقط بل بعشر
وسبعمائة وأزيد ونصبه على الحال أى مضاعفا (فان لم يصبها وابل فطل) أى مطر خفيف
يصيبها ويكفيها لارتفاعها والمعنى تثمر وتزكو كثر المطر أو قل فكذلك نفقات من ذكر تزكو
عند الله كثرت أو قلت (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم به فيه وعد ووعيد (أيود أحدكم)
أى أيحب حبا شديدا (أن تكون له جنة) أى بستان (من نخيل) جمع نخلة وهى الشجرة
القائمة على ساق ثمرها من أعلاها فى كلها انفع حتى فى خشبها امثالها كمثل المؤمن الذى ينتفع به
كله (وأعناب) جمع عنب وهو شجر الكرم لا يختص ثمره بجهة العلو اختصاص النخلة بل يتفرع
علوا وسفلا ويمنة ويسرة مثله كمثل المؤمن المتقى الذى يكرم بتقواه فى كل جهة ولما كانت
الجنان لا تقوم ولا تدوم الا بالماء قال تعالى (تجرى من تحتها الانهار) أى من تحت هذه الاشجار
(له فيها) اى الجنة ثمر مع ثمر النخل والعنب (من كل الثمرات) فهى محتوية على سائر أنواع
الاشجار وانما خص النخل والعنب بالذكر لشرفهما وكثرة منافعهما وحسن منظرهما
(وأصابه) اى والحال انه أصابه (الكبر) اى كبر السن فصار لا يقدر على اكتساب
(وله ذرية ضعفاء) بالصغر كما ضعف هو بالكبر (فأصابها) اى الجنة (اعصار) وهو الريح
العاصف الذى يرتفع الى السماء كأنه عمود وتسميها العامة الزوبعة وجمعه أعاصير والاعصار
من بين سائر الرياح مذكر ولهذا رجع اليه الضمير مذكرا فى قوله (فيه نار فاحترقت) تلك
الجنة ففقدها أحوج ما كان اليها وبقى هو وأولاده عجزة متحيرين لا حيلة لهم وهذا مثل ضربه
الله تعالى لعمل المنافق والمرائى يقول عمله فى حسنه كحسن الجنة ينتفع به كما ينتفع صاحب
الجنة بها فاذا كبر وضعف وصار له أولاد ضعفاء صغار أصاب جنته اعصار فيه نار فاحترقت
أحوج ما يكون اليها وضعف عن اصلاحها لكبره وضعفت أولاده عن اصلاحها لصغرهم ولم
يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده ما يعودون به عليه فبقوا جميعا متحيرين عجزة لا حيلة
لهم كذلك يبطل الله تعالى عمل المنافق والمرائى فى الآخرة حين لا مغيث لهما ولا توبة ولا اقالة

والاستفهام

(فآتت) لان أكل
بالمضموم
قال النبيم مع الاغتناء عنه
أقبح فلذلك خص النهى به
ولانهم كانوا اباكونه مع
الاغتناء عنه فجاء النهى على
ما وقع منهم (قوله ولابويه
لكل واحد منهما السدس
مما ترك ان كان له ولد) اى
سواء كان الولد ذكرا أو
أنثى وما يأخذه الاب فيما
اذا كان الولد أنثى من الزائد

والاستفهام بمعنى النفي وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هو مثل ضرب لرجل عمل بالطاعات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله (كذلك) أي مثل هذا البيان (يبين الله) أي الذي له الكمال كله (لكم الآيات لعلكم) أي لكي (تتفكرون) فيها فتعتبرون بها ولما ذكر سبحانه وتعالى ان الانفاق على قسمين وبين كل قسم وضرب له مثلا ذكر كيفية الانفاق بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انفقوا) اي زكوا (من طيبات) أي جياد (ما كسبتم) من المال بالتجارة والصناعة وفيه دلالة على اباحة الكسب وانه ينقسم الى طيب وخبيث وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه وقال صلى الله عليه وسلم ما أكل احد طعاما قط خيرا من ان يأكل من عمل يده وكان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده والزكاة واجبة في مال التجارة فبعد الحول تقوم العروض فيخرج من قيمتها ربع العشر ان كان قيمتها عشرين دينارا أو مائتي درهم فضة فيزكيها قال سمرة بن جندب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذي يعد للبيع (ومما) اي ومن طيبات ما (أخرجنا لكم من الارض) من الحبوب والثمار والمعادن فحذف المضاف وهو طيبات من الثاني لتقدم ذكره وفي هذا أمر باخراج العشر من الثمار والحبوب واتفق اهل العلم على ايجاب العشر في النخيل والكروم وفيما يقتات من الحبوب ان كان مسقيا بماء السماء او من نهر يجري الماء فيه من غير مؤنة وان كان مسقيا بساقية أو نضح ففيه نصف العشر لقوله صلى الله عليه وسلم فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وفيما سقي بالنضح نصف العشر وعنه صلى الله عليه وسلم ليس في حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق وقال قوم الآية في صدقة التطوع قال صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يغرس غرسا او يزرع زرعا فيأكل منه انسان او طير او بهيمة الا كانت له به صدقة (ولا تيمموا) أي لا تقصدوا (الخبيث) أي الرديء (منه) اي المذكور (تنفقون) في الزكاة حال من ضمير تيمموا (ولستم بآخذيه) أي الخبيث (الا أن تغمضوا) اي تتسامحوا (فيه) بالحياء مع الكراهة مجاز من أغمض بصره اذا غضه وروى عن البراء قال لو أهدي ذلك لكم ما أخذتموه الا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لانفسكم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عن ذلك هذا اذا كان المال كله أو بعضه جيدا فان كان كل ماله رديا فلا بأس باعطاء الرديء (واعلموا أن الله غني) عن انفاقكم وانما يأمركم به لانتفاعكم (حميد) اي يجازي المحسن أفضل الجزاء على انه لم يزل محمودا ولا يزال عذب أو أثاب (الشيطان يعدكم الفقر) اي يخوفكم به ان تصدقتم و يقال وعدته خيرا ووعدته شرا قال تعالى في الخير وعدكم الله مغانم كثيرة وقال في الشر النار وعدها الله الذين كفروا فاذا لم يذكر الخير والشر قلت في الخير وعدته وفي الشر أوعدته والفقر سوء الحال وقلة ما في اليد وأصله من كسر الفقار ومعنى الآية ان الشيطان يخوفكم بالفقر و يقول للرجل أمسك مالك فانك اذا تصدقت افتقرت (ويأمركم بالفحشاء) اي بالبخل ومنع الزكاة قال الكلبي كل فحشاء في القرآن فهو الزنا الا في هذا الموضع (والله يعدكم مغفرة منه) لما وقع منكم من تقصير وفيه اشعار بانه لا يقدر احد أن يقدر الله حق قدره لما له من

على السدس انما اخذه تعصيبا والآية انما وردت لبيان الفرض (قوله وذلك الفوز العظيم) ذكر الواو فيه هنا وتركها في التوبة موافقة لذكرها هنا قبله في قوله ومن يطع الله وبعده في قوله ومن يعص الله وقوله وله بخلاف ذلك (قوله حتى يتوفاهن الموت) اي ملك الموت اذ التوفي هو الموت ولا يصح به المعنى بغير.

الاحاطة بصفات الكمال ولما جبل عليه الانسان من النقص (وفضلا) بالزيادة فى الدارين
وكل نعمة منه فضل ثم أكد ذلك بقوله تعالى (والله واسع) فضله (عليم) بالمنفق وغيره وفيه
اشارة الى أنه لا يضيع شيأ وان دق وعن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قال يا ابن آدم أنفق أنفق عليك وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما انفق منذ خلق
السموات والارض فانه لم ينقص ما فى يمينه قال وعرشه على الماء وبيده الاخرى القسط يرفع
ويخفض وعن اسماء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك
ولا توعى فيوعى الله عليك (يؤتى الحكمة) اى العلم النافع المؤدى الى العمل وقال السدى
هى النبوة وقال ابن عباس وقتادة علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه
ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثال ذلك وقال الضحاك هى القرآن والفهم فيه وقال فى القرآن
مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى
يتعلموهن وقال مجاهد هى القرآن والعلم والفقه وقوله تعالى (من يشاء) مفعول أول أخر
للاهتمام بالمفعول الثانى وهو الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) لمصيره الى
السعادة الابدية (وما يذكر) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال اى ما يتعظ بما قص من الآيات
اى ما يتفكر فان المتفكر كالمتذكر لما اودع الله تعالى فى قلبه من العلوم بالقوة (الا أولوا
الالباب) اى اصحاب العقول الخالصة من شوائب الوهم والركون الى متابعة الهوى
(وما أنفقتم) اى اديتم (من نفقة) قليلة أو كثيرة سرا أو علانية زكاة او صدقة تطوع (او نذرتم
من نذر) بشرط او بغير شرط فوفيتم به (فان الله يعلمه) فيجازيكم به (فان قيل) لم وحد الضمير
فى يعلمه وقد تقدم شيآن النفقة والنذر (اجيب) بان العطف بأو وهى لاحد الشيئين تقول
زيدا أو عمرا اكرمته ولا يجوز اكرمتهما بل يجوز ان يراعى الاول نحو زيد أو هند منطلق
أو الثانى نحو زيد أو هند منطلقة والآية من هذا ومن مراعاة الاول واذا رأوا تجارة أو لهوا
انفضوا اليها ولا يجوز أن يقال منطلقان ولهذا أول النحاة قوله تعالى ان يكن غنيا أو فقيرا
فالله أولى بهما كما سيأتى ان شاء الله تعالى (وما للظالمين) بمنع الزكاة والنذر أو بوضع الانفاق
فى غير محله من معاصى الله تعالى (من أنصار) اى من ينصرهم من الله ويمنعهم من عذابه
فهو على طريق التوزيع والمقابلة اى لا ناصر لظالم قط فسقط ما يقال ان نفى الانصار لا يوجب
نفى الناصر (ان تبدوا) اى تظهروا (الصدقات) اى النوافل (فنعما هى) اى فنعم شيأ
ابداؤها وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون والباقون بكسرها وقرأ قالون وابو عمرو
باختلاس كسرة العين والباقون بالكسرة الكاملة (وان تخفوها) اى تسروها (وتؤتوها
الفقراء) اى تعطوها اياهم فى السر (فهو خير لكم) اى افضل من ابدائها وايتائها الفقراء
افضل من ايتائها الاغنياء سئل صلى الله عليه وسلم صدقة السر افضل ام صدقة العلانية
فنزلت هذه الآية وفى الحديث صدقة السر تطفئ غضب الرب وقال صلى الله عليه وسلم سبعة
يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ورجل
قلبه متعلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ورجلان تحابا فى الله تعالى فاجتمعا على ذلك

اضمار اذ يصير المعنى
حتى يعاين الموت (قوله
انما التوبة على الله) اى
قبولها عليه لا وجوبها
اذ وجوبها انما هو على
العبد وتوبة الله رجوعه
على العبد بالمغفرة والرحمة
(قوله للذين يعملون السوء
بجهالة) ان قلت لم قيد
بجهالة مع ان من عمل سوأ
بغير جهالة ثم تاب قبلت
توبته (قلت) المراد

وتفرقا ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى اخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه نعم ان كان ممن يقتدى به فالاظهار فى حقه أفضل أما صدقة الفرض فالافضل اظهارها كالصلاة المكتوبة فى الجماعة افضل والنافلة فى البيت افضل ليقتدى به ولئلا يتهم ولا يجوز دفع شئ منها للاغنياء وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا * (تنبيه) * الصدقة تطلق على الفرض والنفل قال تعالى خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وقال عليه الصلاة والسلام نفقة المرء على عياله صدقة والزكاة لا تطلق الا على الفرض (ونكفر عنكم من سيآتكم) اى بعضها وقيل من صلة وقرأ ابن عامر وحفص بالياء التحتية والباقون بالنون وقرأ نافع وحمزة والكسائى بجزم الراء بالعطف على محل فهو والباقون بالرفع على الاستئناف وقوله تعالى (والله بما تعملون خبير) فيه ترغيب فى الاسرار لانه عالم بباطن الشئ كظاهره لا يخفى عليه شئ منه * ولما منع النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين من التصدق على فقراء المشركين كى تحملهم الحاجة ليسلموا نزل (ليس عليك هداهم) اى لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين فتمنعهم الصدقة ليدخلوا فى الاسلام حاجة منهم اليها وانما عليك الارشاد والحث على المحاسن والنهى عن القبائح كالمن والاذى وانفاق الخبيث وقوله تعالى (ولكن الله يهدى من يشاء) اى هداية التوفيق صريح بان الهداية من الله وبمشيئته وانها تخص بقوم دون قوم أما هدى البيان فكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعطوهم بعد نزول الآية (وما تنفقوا من خير) اى من مال وقوله تعالى (فلانفسكم) خبر لمبتدا محذوف اى فهو لانفسكم لان ثوابها لها فلا تمنوا به على غيركم ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ولا تنفقوا الخبيث وقوله تعالى (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) عطف على ما قبله اى وليس نفقتكم الا ابتغاء وجه الله واطلب ما عنده فما لكم تمنون بها او تنفقون الخبيث الذى لا يوجه مثله الى الله تعالى (وما تنفقوا من خير يوف اليكم) ثوابه اضعافا مضاعفة فلا عذر لكم فى ان ترغبوا عن انفاقه وان يكون على احسن الوجوه واجملها والجملتان تاكيد للاولى وهى وما تنفقوا من خير فلانفسكم او ما يخلف المنفق استجابة لقوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل لمنفق خلفا ولممسك تلفا رواه البخارى (وانتم لا تظلمون) اى لا تنقصون من ثواب اعمالكم شيأ تفضلا من الله تعالى عليكم وهذا فى صدقة التطوع اباح الله تعالى ان توضع فى اهل الاسلام واهل الذمة وقيل جاءت اسماء بنت ابى بكر فاتتها امها تسألها وهى مشركة فابت ان تعطيها فنزلت وروى النسائى والحاكم أن ناسا من المسلمين كانت لهم اصهار فى اليهود ورضاع وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الاسلام فلما اسلموا كرهوا ان ينفقوا عليهم فنزلت وعن بعض العلماء لو كان المنفق عليه اشر خلق الله كان لك ثواب نفقتك واما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها الا فى المسلمين أهل السهمان المذكورين فى سورة التوبة لكن جوز ابو حنيفة رحمه الله صرف صدقة الفطر الى أهل الذمة وقوله تعالى (للفقراء) خبر مبتدا محذوف اى صدقاتكم للفقراء او متعلق بفعل مقدر كاجعلوا ما تنفقون للفقراء (الذين احصروا فى سبيل الله) اى حبسوا انفسهم على الجهاد

بالجهالة الجهالة بقدر قبح المعصية وسوء عاقبتها لا بكونها معصية وذما وكل عاص جاهل بذلك حال معصيته لانه حال المعصية مسلوب كمال العلم به بسبب غلبة الهوى (قوله ثم يتوبون من قريب) ليس المراد بالقريب مقابله البعيد اذ حكمهما هنا واحد بل المراد من قوله من قريب من قبل معاينة

وهم فقراء المهاجرين كانوا نحوا من اربعمائة لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر كانوا يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة وكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المشهورون باصحاب الصفة فحث الله عليهم الناس فكان من عنده فضل اتاهم به اذا امسى (لا يستطيعون ضربا) اى سفرا (فى الارض) للتجارة والمعاش لشغلهم عنه بالجهاد (يحسبهم الجاهل) بحالهم (اغنياء من التعفف) اى لاجل تعففهم عن السؤال وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (تعرفهم) أيها المخاطب (بسيماهم) اى بعلامتهم من التخشع والتواضع وصفرة الوجوه ورثاثة الحالة (لا يسئلون الناس) شيأ فيلحفون (الحافا) اى لا سؤال لهم أصلا فلا يقع منهم الحاف ومثل ذلك قول الشاعر

لا يفزع الارنب أهوالها * ولا ترى الضب بها ينجحر

أى ليس فيها أرنب فيفزع لهولها ولا ضب فينجحر وليس المعنى انه ينفى الفزع عن الارنب والانجحار عن الضب والالحاف الالحاح وهو اللزوم وأن لا يفارق الا بشئ يعطاه من قولهم لحفنى من فضل لحافه اى أعطانى من فضل ما عنده وقيل انهم ان سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا قال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحيى الحليم المتعفف ويبغض البذئ السائل الملحف وقال صلى الله عليه وسلم لان يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أشياءهم أعطوه أو منعوه وقال صلى الله عليه وسلم من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته فى وجهه خدوش قيل يا رسول الله وما يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها (وما تنفقوا من خير) اى مال (فان الله به عليم) فيجازيكم وفى هذا ترغيب فى الانفاق (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) اى يعمون الاوقات والاحوال بالصدقة لحرصهم على الخير نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية وفى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية وقال الاوزاعى نزلت فى الذين يربطون الخيل للجهاد فانها تعلف ليلا ونهارا سرا وعلانية روى انه صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة وقوله تعالى (فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) خبر الذين ينفقون والفاء للسببية (فان قيل) أى فرق بين قوله هنا فلهم أجرهم وفيما مر لهم أجرهم (أجيب) بان الموصول ثم لم يضمن معنى الشرط وضمنه هنا (الذين يأكلون الربوا) اى يأخذونه وهو لغة الزيادة وشرعا عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل فى معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير فى البدلين أو أحدهما وهو ثلاثة أنواع ربا الفضل وهو البيع مع زيادة أحد العوضين على الآخر وربا اليد وهو البيع مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما وربا النساء وهو البيع الى أجل وانما ذكر الاكل لانه أعظم منافع المال كقوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فنبه بالاكل على ما سواه من وجوه الاتلافات ولان نفس الربا الذى هو الزيادة لا يؤكل وانما يصرف فى المأكول وقال

قوله سبب الموت بقرينة قوله حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن (قوله وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيأ) ان قلت حرمة الاخذ ثابتة وان لم يكن قد آتاها المسمى بل كان فى ذمته أو فى يده (قلت) المراد بالايتاء الالتزام والضمان كما فى قوله تعالى اذا سلمتم ما آتيتم أى ما التزمتم وضمنتم (قوله

صلى الله عليه وسلم لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه والمحلل له فعلمنا ان الحرمة غير مختصة بالاكل ولما كان بين الصدقة والربا مناسبة من جهة التضاد لان الصدقة عبارة عن تنقيص المال بامر الله بذلك والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهى الله عنه فكانا كالمتضادين ذكر عقب الصدقة ويرسم بالواو والالف بعد الواو وانما رسم على لغة من يفخم وهو ميل الالف الى مخرج الواو كما كتبت الصلاة والزكاة وقيل لان أهل الحجاز تعلموا الخط من أهل الحيرة ولغتهم الربو بالواو والبا كتبة فعلموهم الخط على لغتهم وزيدت الالف بعدها تشبيها بواو الجمع (لا يقومون) اذا بعثوا من قبورهم (الا) اى قياما (كما يقوم الذى يتخبطه) اى يصرعه (الشيطان) وقوله تعالى (من المس) اى الجنون متعلق بيتخبطه من جهة الجنون فيكون فى موضع نصب قاله ابو البقاء والمعنى ان آكل الربا يبعث يوم القيامة وهو كالمصروع تلك سيماء يعرف بها عند أهل الموقف (فان قيل) لم نسب هذا الشيطان (أجيب) بأنه وارد على ما تزعم العرب ان الشيطان يخبط الانسان فيصرع والخبط الضرب على غير استواء يقال ناقة خبوط للتى تطأ الناس وتضرب الارض بقوائمها ويقال للرجل الذى يتصرف فى أمر ولا يهتدى فيه انه يخبط خبط عشواء وتخبطه الشيطان اذا مسه بخبل أو جنون لانه كالضرب على غير استواء فى الادهاش (ذلك) اى الذى نزل بهم (بانهم) اى بسبب أنهم (قالوا انما البيع مثل الربوا) فى الجواز (فان قيل) ما الحكمة فى قلب القصة ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق لان حل البيع متفق عليه وهم أرادوا قياس الربا عليه فكان نظم الكلام أن يقال انما الربا مثل البيع (أجيب) بان هذا من عكس التشبيه مبالغة اذ به صار المشبه مشبها به وبالعكس وشأن المشبه به أن يكون أقوى من المشبه أو بانهم لم يكن مقصودهم أن يتمسكوا بنظم القياس بل كان غرضهم ان البيع والربا متماثلان فى جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل والآخر بالحرمة وعلى هذا التقدير فايهما قدم أو أخر جاز وقوله تعالى (واحل الله البيع وحرم الربوا) انكار لتسويتهم وابطال القياس لمعارضته النص *(تنبيه)* أظهر قولى الشافعى ان هذه الآية عامة فى كل بيع الا ما خص بالسنة وانه صلى الله عليه وسلم نهى عن بيوع والثانى انها مجملة والسنة مبينة لها وتظهر فائدة الخلاف فى الاستدلال بها فى مسائل الخلاف فعلى الاول يستدل بها وعلى الثانى لا يستدل (فمن جاءه) اى بلغه (موعظة) اى وعظ (من ربه) وزجر بالنهى عن الربا (فانتهى) أى فاتبع النهى وامتنع من أكله (فله ما سلف) اى ما مضى قبل النهى فلا يسترد منه ما أخذه من الربا وقيل ما مضى من ذنبه قبل النهى مغفور له (وأمره الى الله) بعد النهى ان شاء عصمه حتى يثبت على الانتهاء وان شاء خذله حتى يعود وقيل أمره الى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس له من أمر نفسه شئ (ومن عاد) الى تحليل الربا مشبها له بالبيع فى الحل (فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لانهم كفروا بذلك وورد انه صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وموكله والواشمة والمستوشمة والمصور وانه صلى الله عليه وسلم قال الربا سبعون بابا أهونها عند الله عز وجل كالذى ينكح أمه (يمحق الله الربوا) اى يذهب بركته ويهلك المال الذى يدخل فيه وعن ابن مسعود الربا وان كثر فالى قل (ويربى الصدقات) اى يضاعف

أتأخذونه بهتانا) ان قلت كيف قال ذلك مع ان البهتان الكذب مكابرة واخذ مهر المرأة قهرا ظلم لا بهتان (قلت) المراد بالبهتان هنا الظلم تجوزا كما قال به ابن عباس وغيره وقيل المراد انه يرمى امرأته بتهمة ليتوصل الى أخذ المهر (قوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف) ان قلت

ثوابها ويبارك فيها أخرجه منه روى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يقبل الصدقة ويربيها كما يربي أحدكم فلوه وروى الامام أحمد ما نقص مال من صدقة (والله لا يحب كل كفار) اى مصرّ على تحليل المحرمات كمن يحلل الربا (اثيم) منهمك فى ارتكابه (ان الذين امنوا) بالله وبرسوله وبما جاءهم عنه (وعملوا الصالحات وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة) وانما عطفهما على ما يعمهما لشرفهما (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم) من آت (ولا هم يحزنون) على فائت وتقدم مثل هذه الآية ولكن جرت عادة الله سبحانه وتعالى فى القرآن مهما ذكر وعيدا ذكر بعده وعدا فلما بالغ هنا فى وعيد الربا اتبعه بهذا الوعد (فان قيل) ان الانسان اذا بلغ عارفا بالله وقبل وجوب الصلاة والزكاة عليه مات فهو من أهل الثواب بالاتفاق فدل على ان استحقاق الثواب لا يتوقف على حصول العمل (أجيب) بانه تعالى انما ذكر هذه الخصال لا لاجل ان استحقاق الثواب مشروط بها بل لاجل ان لكل منها أثرا فى جلب الثواب كما قال تعالى فى ضد هذا والذين لا يدعون مع الله الها آخر ثم قال تعالى ومن يفعل ذلك يلق أثاما ومعلوم ان من ادعى أن مع الله الها آخر لا يحتاج فى استحقاقه العذاب الى عمل آخر وانما جمع الله تعالى الزنا وقتل النفس مع دعاء غير الله تعالى الها البيان ان كل واحد من هذه الخصال يوجب العقوبة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربوا) اى اتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا الذى أخذتم بعضه قبل التحريم (ان كنتم مؤمنين) اى بقلوبكم أو ان ان بمعنى اذ فان دليل الايمان امتثال ما أمرتم به وروى انها نزلت لما طالب بعض الصحابة بعد النهى بربا كان له قبل وروى أنها نزلت فى ثقيف وكان لهم على قوم من قريش مال وطالبوهم عند المحل بالمال والربا (فان لم تفعلوا) أى تذروا ما بقى من الربا (فاذنوا) اى اعلموا من أذن بالشئ اذا علم به اى فاعلموا أنتم وأيقنوا (بحرب من الله ورسوله) لكم (فان قيل) هذا حكمهم ان تابوا فما حكمهم ان لم يتوبوا (أجيب) بان مقتضى ذلك انهم يقاتلون ان لم يرجعوا قال سعيد بن جبير عن ابن عباس يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب قال أهل المعانى حرب الله تعالى النار وحرب رسوله صلى الله عليه وسلم السيف وقرأ شعبة وحمزة فآذنوا بفتح الهمزة ومدها وكسر الذال اى فاعلموا بها غيركم وهو من الاذن وهو الاستماع لانه من طريق العلم والباقون بسكون الهمزة وفتح الذال (وان تبتم) اى تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه (فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون) بطلب الزيادة (ولا تظلمون) بالنقصان عن رأس المال (فان قيل) هلا قال تعالى بحرب الله ورسوله (أجيب) بان هذا أبلغ لان المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولما نزلت هذه الآية قال المرابون بل نتوب الى الله فانه لا ثبات لنا بحرب من الله ورسوله فرضوا برأس المال فشكا من عليه الدين العسرة وقال لمن لهم الدين أخرونا الى أن تدرك الغلات فأبوا أن يؤخروا فانزل الله تعالى (وان كان ذو عسرة فنظرة) له اى عليكم تأخيره (الى ميسرة) اى وقت يسره * (تنبيه) * فى كان هذه وجهان أظهرهما انها تامة بمعنى حدث ووجد أى وان حدث ذو عسرة فتكتفى بفاعلها كسائر الافعال والثانى انها ناقصة وخبرها محذوف قال أبو البقاء تقديره وان كان ذو عسرة لكم عليه حق أو نحو ذلك

المستثنى منه مستقبل والمستثنى ماض فكيف صح استثناؤه من المستقبل (قلت) الا بمعنى بعد أو لكن كما قيل فى قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى والاستثناء هنا كهو فى قوله ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقدره بعضهم وان كان ذو عسرة غريما وقرأ نافع بضم السين والباقون بفتحها (وأن تصدقوا) اى بالابراء وقرأ عاصم بتخفيف الصاد والباقون بالتشديد على ادغام التاء فى الاصل والتخفيف على حذفها (خير لكم) اى أكثر ثوابا من الانظار وهذا مما فضل المندوب فيه الواجب فان الابراء مندوب اليه والانظار واجب فيحرم حبس المعسر وهل القول قوله فى اعساره أولا بد من بينة تشهد بذلك ينظر ان كان الدين عن عوض كالبيع والقرض فلا بد من بينة وان كان عن غير عوض كالضمان والاتلاف والصداق فالقول قول المعسر بيمينه وعلى الغريم البينة الا أن يعرف له مال فلا بد من بينة (ان كنتم تعلمون) فضل التصدق على الانظار فافعلوا وقيل المراد بالتصدق الانظار نفسه ورد هذا كما قال الامام بان الانظار قد علم مما قبل فلا بد من حمله على فائدة جديدة قال عليه الصلاة والسلام لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره الا كان له بكل يوم صدقة وروى من أنظر معسرا أو وضع عنه أنجاه الله من كرب يوم القيامة وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الملائكة تلقت روح رجل كان قبلكم فقالوا هل عملت خيرا قط قال لا قالوا تذكر قال الا انى رجل كنت أداين الناس فكنت آمر فتيانى بان ينظروا الموسر و يتجاوزوا عن المعسر قال الله تعالى تجاوزوا عنه وقال صلى الله عليه وسلم من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله (واتقوا يوما ترجعون) أى تصيرون (فيه الى الله) هو يوم القيامة أى فتأهبوا لمصيركم اليه وقرأ أبو عمرو بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم (ثم توفى) فيه (كل نفس) جزاء (ما كسبت) أى عملت من خير أو شر (وهم لا يظلمون) بنقص حسنة أو زيادة سيئة * (فائدة) * قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هذه آخر اية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جبريل ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم احدا وعشرين يوما وقال ابن جريج تسع ليال وقال سعيد ابن جبير سبع ليال ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الاول وقيل ثلاث ساعات وقال الشعبى عن ابن عباس آخر اية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا ولما منع الله من الربا أذن فى السلم والقرض بما يدعمهما فقال (يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين) كسلم وقرض (الى أجل مسمى) أى معلوم ولذا قال بعض العلماء لا لذة ولا منفعة يتوصل اليها بالطريق الحرام الا والله سبحانه وتعالى وضع لتحصيل مثل تلك اللذة طريقا حلالا وسبيلا مشروعا (فان قيل) المداينة مفاعلة وحقيقتها أن يحصل من كل واحد منهما دين وذلك هو بيع الدين بالدين وهو باطل بالاتفاق (أجيب) بان المراد من تداينتم تعاملتم والتقدير تعاملتم بما فيه دين (فان قيل) هلا اكتفى بقوله اذا تداينتم الى أجل وأى حاجة الى ذكر الدين (أجيب) بانه ذكر ليرجع الضمير اليه فى قوله (فاكتبوه) اذ لو لم يذكر لوجب أن يقال فاكتبوا الدين فلم يكن النظم بذلك الحسن ولئلا يتوهم من الدين المجازاة ولانه أبين لتنويع الدين الى مؤجل وحال وفائدة قوله مسمى ليعلم أن من حق الاجل أن يكون معلوما كالتوقيت بالسنة والاشهر والايام ولو قال الى الحصاد أو الدراس أو رجوع الحاج لم يجز للجهل بوقت الاجل وانما أمر بكتابة الدين لان ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود (فان قيل) ان كلمة اذا لا تفيد العموم والمراد من

والمصنف ان أمكن كون قول السيوف من الكتاب فهو فيهم فهو عيبا فهو عيب من باب التعليق بالمتصل (قوله انه كان فاحشة) * ان قلت كيف جاء بلفظ الماضى مع ان نكاح منكوحة الاب فاحشة فى

الآية العموم لان المعنى كلما تداينتم بدين فاكتبوه فلم عدل عن كلما وقال اذا تداينتم (أجيب) بان كلمة اذا وان كانت لاتقتضى العموم الا أنها لاتمنع من العموم وههنا قام الدليل على أن المراد هو العموم واختلفوا فى هذه الكتابة فقال بعضهم هى واجبة والاكثرون على أنه أمر استحباب فان ترك فلا باس كقوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وقال بعضهم كانت كتابة الدين والاشهاد والرهن فرضا ثم نسخ الكل بقوله تعالى فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته ثم بين كيفية الكتابة فقال تعالى (وليكتب) أى كتاب الدين (بينكم كاتب بالعدل) أى بالحق فى كتابته لايزيد فى المال أو الاجل ولا ينقص وهو فى الحقيقة أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجىء مكتوبه موثوقا به معدلا بالشرع مع أن ظاهره أمر الكاتب (ولاياب) أى لايمتنع (كاتب) من (ان يكتب) اذا دعى اليها (كما علمه) أى فضله (الله) بالكتابة فلا يبخل بها بل ينفع الناس بها كما نفعه الله بتعلمها كقوله تعالى وأحسن كما أحسن الله اليك والكاف متعلقة بياب (فليكتب) تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن الاباء تاكيدا (وليملل الذى عليه الحق) أى وليكن المملل على الكاتب من عليه الحق لانه المقر المشهود عليه والاملال والاملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد جاء بهما القرآن فالاملال ههنا وهو لغة الحجاز والاملاء قوله تعالى فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وهى لغة تميم (وليتق الله ربه) أى كل من المملى والكاتب (ولايبخس) أى لاينقص (منه) أى من الحق أو مما أملى عليه (شيأ فان كان الذى عليه الحق سفيها) أى مبذرا (أوضعيفا) أى صغيرا أو كبيرا اختل عقله لكبره (أولا يستطيع أن يمل هو) لخرس أو جهل باللغة أو نحو ذلك (فليملل وليه) اى متولى أمره من والد ووصى وقيم ووكيل ومترجم (بالعدل) وفى هذا دليل على جريان النيابة فى الاقرار قال البيضاوى ولعله مخصوص بما تعاطاه القيم او الوكيل اى دون المترجم ودونهما فيما لم يتعاطياه (واستشهدوا) اى واشهدوا (شهيدين) اى شاهدين (من رجالكم) اى البالغين الاحرار المسلمين دون الصبيان والعبيد والكفار واجاز ابن سيرين شهادة العبيد وابو حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض (فان لم يكونا) اى الشاهدان (رجلين فرجل) اى فليشهد او فالمستشهد رجل (وامرأتان) واجمع الفقهاء على ان شهادة النساء جائزة مع الرجال فى الاموال حتى تثبت برجل وامرأتين واختلفوا فى غير الاموال فذهبت جماعة الى انه تجوز شهادتهن مع الرجال فى غير العقوبات وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى وذهب جماعة الى أن غير المال لايثبت الا برجلين عدلين وذهب الشافعى الى أن مايطلع عليه النساء غالبا كالولادة والرضاع والثيوبة والبكارة ونحوها تثبت بشهادة رجل وامرأتين وشهادة أربع نسوة واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة فى العقوبات (ممن ترضون من الشهداء) أى من كان مرضيا لدينه وأمانته *(تنبيه)* شروط قبول الشهادة سبعة الاسلام والحرية والعقل والبلوغ والعدالة والمروأة وانتفاء التهمة فمتى فقد شرط منها لم تصح تلك الشهادة وانما اشترط التعدد فى النساء لاجل (أن تضل) اى تنسى (احداهما) أى الشهادة لنقص عقلهن وضبطهن (فتذكر) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون الذال وتخفيف الكاف والباقون بفتح الذال وتشديد الكاف وقرأ حمزة برفع الراء والباقون بالنصب (احداهما) أى الذاكرة

(قلت) الحال والاستقبال كان تستعمل تارة للماضى المنقطع فهو كان زيد غنيا وتارة للماضى المتصل بالحال فهو وكان الله غفورا رحيما وكان الله بكل شئ عليما ومنه انه كان فاحشة

(الاخرى) أى الناسية قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير فتذكر أى فتجعل احداهما الاخرى ذكرا يعنى انهما اذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر وقرأ حمزة وحده ان تضل احداهما على الشرط فتذكر بالرفع والتشديد كقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه وجملة الاذكار محل العلة اى لتذكر ان ضلت ودخلت على الضلال لان الضلال سبب الاذكار وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر (ولا يأب) اى ولا يمتنع (الشهداء اذا ما) اى اذا (دعوا) لاداء الشهادة والتحمل فسماهم بذلك وسموا شهداء على هذا الثانى تنزيلا لما يشارف منزلة الواقع (ولا تسأموا) اى تملوا من (أن تكتبوه) اى ما شهدتم عليه من الحق لكثرة وقوعه أو تكسلوا من أن تكتبوه فكنى عن السآمة التى تكون بعد الشروع للكثرة بالكسل الذى يكون ابتداء لكونه من لوازمه لان الكسل صفة المنافق قال تعالى واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى وقال صلى الله عليه وسلم لا يقول المؤمن كسلت (صغيرا) كان ذلك الحق (أو كبيرا) قليلا أو كثيرا وقوله تعالى (الى أجله) أى وقت حلوله الذى أقر به المديون حال من الهاء فى تكتبوه (ذلكم) اى الكتب (أقسط) اى أعدل (عند الله وأقوم للشهادة) اى أعون على اقامتها لانه يذكرها (تنبيه) * يجوز على مذهب سيبويه أن يكون أقسط وأقوم مبنيين من أقسط وأقام وأن يكون أقسط من قاسط على طريقة النسب بمعنى ذى قسط وأقوم من قويم أو هما مبنيان من أقسط وأقام لا من قسط وقام لان قسط بمعنى جار والمعنى هنا على العدل والفعل منه أقسط فلزم أن يكون أقسط فى الآية من المزيد لقصد الزيادة فى المقسط قال تعالى ان الله يحب المقسطين لا من المجرد لان معناه الزيادة فى القاسط وهو الجائر قال تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وكذا أقوم معناه أشد اقامة لا قياما وبناؤهما من ذلك على غير قياس والقياس أن يكون البناء من المجرد لا من المزيد ويجوز أن يكون بناؤهما من قاسط بمعنى ذى قسط اى عدل وبمعنى قويم اى ذى استقامة على طريقة النسب كلابن وتامر فيكون أفعل لا فعل له وانما صحت الواو فى أقوم كما صحت فى التعجب لجموده (وادنى) اى وأقرب الى (ألا ترتابوا) اى تشكوا فى قدر الحق وجنسه والشهود والاجل ونحو ذلك (الا أن تكون تجارة حاضرة) وهى تعم المبايعة بدين أو عين (تديرونها بينكم) اى تتعاطونها يدا بيد (فليس عليكم جناح) اى لا بأس اذا تبايعتم يدا بيد (ألا تكتبوها) فهو استثناء من الامر بالكتابة لبعده حينئذ عن التنازع والنسيان وقرأ عاصم بنصب التاء فيهما على أن تجارة هى الخبر والاسم مضمر تقديره الا أن تكون التجارة تجارة حاضرة والباقون بالرفع فيهما على ان تجارة هى الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة (وأشهدوا) اى ندبا (اذا تبايعتم) عليه سواء كان ناجزا أو كالئا فانه أدفع للاختلاف فهو تعميم بعد تخصيص احتياطا فى جميع المبايعات ويجوز أن يراد هذا التبايع الذى هو التجارة الحاضرة على أن الاشهاد كاف فيه دون الكتابة وقوله تعالى (ولا يضار كاتب ولا شهيد) أصله يضارر أدغمت احدى الراءين فى الاخرى ونصبت لحق التضعيف لاجتماع الساكنين واختلفوا فمنهم من قال أصله يضارر بكسر الراء الاولى وجعل الفعل للكاتب والشهيد ومعناهما عن ترك الاجابة وعن التحريف والتغيير فى الكتابة والشهادة ومنهم من قال أصله يضارر بفتح الراء على الفعل المجهول وجعلوا الكاتب

(قوله وربائبكم اللاتى فى حجوركم) ذكر فى حجوركم فلا جرى على الغالب فلا مفهوم له اذ الربيبة التى ليست فى الحجر حرام أيضا بقرينة تركه فى قوله فان لم تكونوا دخلتم بهن

والشاهد مفعولين ومعناه النهى عن الضرار بهما مثل أن يعجلا عن مهم و يكلفا الخروج عما حداهما ولا يعطى الكاتب جعله ولا الشهيد مؤنة مجيئه حيث كان والمنهى حينئذ المتبايعان فالآية محتملة للبناء للفاعل وللبناء للمفعول فتحمل عليهما معا أو على كل منهما والاولى أولى (وان تفعلوا) مانهيتم عنه من الضرار (فانه فسوق بكم) اى معصية وخروج عن الامر (واتقوا الله) فى مخالفة أمره ونهيه (ويعلمكم الله) أحكامه المتضمنة لمصالحكم (والله بكل شئ عليم) كرر لفظ الله فى الجمل الثلاث لاستقلالها فان الاولى حث على التقوى والثانية وعد بانعامه والثالثة تعظيم الله لشأنه عز وجل ولانه أدخل فى التعظيم من الضمير وهذا آخر آية الدين وقد حث سبحانه وتعالى فيها على الاحتياط فى أمر الاموال لكونها سببا لمصالح المعاش والمعاد قال تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الآية قال القفال رحمه الله تعالى ويدل على ذلك ان ألفاظ القرآن جارية فى الاكثر على الاختصار وفى هذه الآية بسط شديد ألاترى انه قال اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ثم قال ثانيا وليكتب بينكم كاتب بالعدل ثم قال ثالثا ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فكان هذا كالتكرار لقوله وليكتب بينكم كاتب بالعدل لان العدل هو ما علمه الله ثم قال رابعا فليكتب وهذا اعادة للامر الاول ثم قال خامسا وليملل الذى عليه الحق وفى قوله تعالى وليكتب بينكم كاتب بالعدل كناية عن قوله وليملل الذى عليه الحق لان الكاتب بالعدل انما يكتب مايملى عليه ثم قال سادسا وليتق الله ربه وهذا تأكيد ثم قال سابعا ولا يبخس منه شيأ وهذا كالمستفاد من قوله وليتق الله ربه ثم قال ثامنا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله وهو أيضا تأكيد لما مضى ثم قال تاسعا ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا فذكر هذه الفوائد التالية لتلك التأكيدات السالفة وكل ذلك يدل على المبالغة فى التوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك ليتمكن الانسان بواسطته من الانفاق فى سبيل الله والاعراض عن مساخط الله تعالى من الربا وغيره والمواظبة على تقوى الله (وان كنتم على سفر) اى مسافرين وتداينتم فعلى بمعنى فى ثلا يتوهم ان المعنى على نية سفر (ولم تجدوا كاتبا فرهن) أى فعليكم رهن (مقبوضة) تستوثقون بها و بينت السنة جواز الرهن فى الحضر ومع وجود الكاتب فقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعه فى المدينة من يهودى بعشرين صاعا من شعير أخذها لاهله فالتقييد بما ذكر لان التوثق به أشد وعن مجاهد والضحاك انهما لم يجوزاه الا فى السفر أخذا بظاهر الآية وأفاد قوله تعالى مقبوضة اشتراط القبض أى فى لزوم الرهن لا فى صحته والاكتفاء به من المرتهن و وكيله ولا يشترط القبض عند مالك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم الراء والهاء ولا ألف بعدها والباقون بكسر الراء وفتح الهاء وألف بعدها وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون (فان أمن بعضكم) اى الدائن (بعضا) اى المدين واستغنى بامانته عن الارتهان (فليؤد الذى اؤتمن) اى المدين (أمانته) اى دينه سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به وقرأ ورش فليود بابدال الهمزة واوا واذا وصل السوسى و ورش الذى اؤتمن أبدلا الهمزة ياء وفى الابتداء بهمزة مضمومة للجميع (وليتق الله ربه) فى الخيانة وانكار الحق وفيه مبالغات من حيث الاتيان بصيغة الامر الظاهرة فى الوجوب والجمع بين ذكر الله والرب وذكره عقب الامر بأداء

قوله فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم الآية) • ان قلت ما فائدة ذلك مع انه مفهوم من قوله وأحل لكم ما وراء ذلكم ومن مفهوم قوله من نسائكم اللاتى دخلتم

الدين (ولا تكتموا الشهادة) أيها الشهود اذا دعيتم لاقامتها أو المديونون وعلى هذا فشهادتهم اقرارهم على أنفسهم (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) فان قيل هلا اقتصر على قوله فانه آثم وما فائدة ذكر القلب والجملة هي الآثمة لا القلب وحده (أجيب) بأن كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها فلما كان اى الكتمان اثما مقترفا اى مختلطا بالقلب أسند اليه لانه محل كتمان الشهادة واسناد الفعل الى الجارحة التي يعمل بها أبلغ ألا ترى انك تقول اذا أردت التوكيد هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني ومما عرفه قلبي ولان القلب هو رئيس الاعضاء والمضغة التي ان صلحت صلح الجسد كله وان فسدت فسد الجسد كله فكأنه قيل فقد تمكن الاثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط وليعلم ان القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه واللسان ترجمان عنه ولان أفعال القلوب أعظم من سائر أفعال الجوارح وهي لها كالاصول التي تتشعب منها ألا ترى ان أصل الحسنات والسيئات الايمان والكفر وهما من أفعال القلوب واذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بانه من معاظم الذنوب وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أكبر الكبائر الاشراك بالله لقوله تعالى فقد حرم الله عليه الجنة وشهادة الزور وكتمان الشهادة *(تنبيه)* آثم خبران وقلبه رفع بآثم على الفاعلية كأنه قيل فانه يأثم قلبه ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبران وقوله تعالى (والله بما تعملون عليم) تهديد لانه لا يخفى عليه منه شئ (لله ما في السموات وما في الارض) خلقا وملكا قال الجلال السيوطي وعبيدا ولعل ذكره بعد ملكا لئلا يتوهم ان ما لما لا يعقل (وان تبدوا) اى تظهروا (ما في أنفسكم) من السوء والعزم عليه (أو تخفوه) اى تسروه (يحاسبكم) اى يجزكم (به الله) يوم القيامة والآية حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض (فيغفر لمن يشاء) مغفرته (ويعذب من يشاء) تعذيبه وهذا صريح في نفي وجوبه وقرأ ابن عامر وعاصم برفع الراء من يغفر ورفع الباء من يعذب على الاستئناف والباقون بجزمهما عطفا على جواب الشرط وادغم الراء المجزومة في اللام السوسي واختلف عن الدوري وقول الزمخشري ومدغم الراء في اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشا وراويه عن أبي عمرو يعني السوسي مخطئ مرتين لانه يلحن وينسب اللحن الى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة والسبب في قلة الضبط قلة الدراية ولا يضبط نحو هذا الا أهل النحو مردود لانه مبني على القول بان الراء انما تدغم في الراء لتكرره الفائت بادغامها في اللام ورد بان ذلك قراءة أبي عمرو وهي متواترة مع أن القول بامتناع ادغام الراء في اللام انما هو مذهب البصريين وأما الكوفيون بل وبعض البصريين كأبي عمرو فقائلون بالجواز كما نقله عنهم أبو حيان ونقل أبو عمرو والكسائي وأبو جعفر صحة ادغام صارلي وصارلك عن العرب ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ووجه الجعبري ادغام الراء في اللام بتقارب مخرجيهما على رأى سيبويه وتشاركهما على رأى الفراء وتجانسهما في الجهر والانفتاح والاستفال (والله على كل شئ قدير) فيقدر على جزائكم ومحاسبتكم وقوله تعالى (آمن) أي صدق (الرسول) أي محمد صلى الله عليه وسلم (بما أنزل اليه من ربه) أي من القرآن فيه شهادة وتنصيص من الله تعالى على صحة ايمانه

قلت فائدته رفع توهم ان قيد الدخول خرج مخرج الغالب كما قيل في حجوركم (قوله محصنين غير مسافحين) اقتصر عليه هنا لانه في الحرائر المسلمات وهن الى الخيانة ابعد من بقية النساء وزاد بعد في

والاعتداد به وانه جازم في أمره غير شاك فيه وقوله تعالى (والمؤمنون) عطف على الرسول
(كل) من الرسول والمؤمنين واختلف في تنوين كل فقيل تنوين عوض من المضاف اليه وقيل
تنوين التمكين قال الشيخ خالد الوقاد وهو الاصح (آمن بالله وملائكته) وقرأ (وكتبه) حمزة
والكسائي بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على التوحيد على أن المراد به الجنس والباقون
بضم الكاف والتاء على الجمع (ورسله) يقولون (لانفرق بين أحد) اي بجمع (من رسله) فنؤمن
ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى فاحد اسم لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه
الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث فحيث أضيف بين اليه أو أعيد ضمير جمع اليه أو نحو
ذلك فالمراد به جمع من الجنس الذي يدل الكلام عليه ويجوز أن يقدر القول مفردا باعتبار
كل وانما احتيج الى التقدير لاجل قوله تعالى لانفرق ولو قال تعالى لا يفرقون لم يحتج الى ذلك
(وقالوا سمعنا) اي ما أمرنا به سماع قبول (وأطعنا) امرك نسألك (غفرانك ربنا واليك
المصير) اي المرجع بعد الموت وهو اقرار منهم بالبعث وروى عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه
انه قال لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لله ما في السموات وما في الارض وان تبدوا
ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله الآية قال فاشتد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم فاتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب وقالوا اي رسول الله كلفنا من
الاعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد انزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتريدون ان تقولوا كما قال اهل الكتابين من قبلكم سمعنا
وعصينا بل قولوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما اقرأها القوم وذلت السنتهم
انزل الله تعالى في اثرها آمن الرسول الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى بقوله تعالى
(لا يكلف الله نفسا الا وسعها) أي ما تسعه قدرتها وان شق فضلا ورحمة (لها ما كسبت) من
الخير أي ثوابه (وعليها ما اكتسبت) من الشر أي وزره فلا ينتفع بطاعتها غيرها ولا يؤاخذ أحد
بذنب أحد ولا بما لم يكتسبه مما وسوست به نفسه كما يفيده تقديم الخبر وهو لها وعليها من الحصر
وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تجاوز عن
أمتي ما وسوست به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به (فان قيل) لم خص الخير بالكسب والشر
بالاكتساب (أجيب) بان في الاكتساب اعتمالا أي اضطرابا في العمل مبالغة واجتهادا فلما
كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة اليه وامارة به كانت أشد حبا واجتهادا في تحصيله
وأعملت فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على
الاعتمال قولوا (ربنا لا تؤاخذنا) أي لا تعاقبنا (ان نسينا أو أخطأنا) أي بما أدى بنا الى
النسيان أو الخطا من تفريط وقلة مبالاة لان المؤاخذة انما هي بالمقدور والنسيان والخطا ليسا
بمقدورين ويجوز أن يراد نفس النسيان والخطا أي لا تؤاخذنا بهما كما آخذت به من قبلنا
قال الكلبي كانت بنو اسرائيل اذا نسوا شيئا مما أمروا به أو أخطؤا عجلت لهم العقوبة فحرم
عليهم شيء من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب فامر الله المؤمنين أن يسألوه ترك
مؤاخذتهم بذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع عن أمتي الخطا والنسيان وما
استكرهوا عليه (فان قيل) النسيان والخطا متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما

قوله محصنات غير مسافحات
قوله ولا متخذات أخدان
لانه في الاماء ومن الى
الخيانة اقرب من الحرائر
المسلمات وزاد أيضا في
المائدة في قوله محصنين
غير مسافحين قوله ولا
متخذي اخدان لانه في

(اجيب) بان المراد بذكرهما ما هما سببان عنه من التفريط والاغفال الاترى الى قوله وما أنسانيه الا الشيطان والشيطان لا يقدر على فعل النسيان وانما يوسوس فتكون وسوسته سببا للتفريط الذى منه النسيان ويجوز أن يدعو الانسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته وذكره بلفظ الدعاء على معنى التحدث بنعمة الله فيه قال الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث (ربنا ولا تحمل علينا اصرا) أى لا تكلفنا امرا يثقل علينا حمله (كما حملته على الذين من قبلنا) اى بنى اسرائيل من قتل النفس فى التوبة واخراج ربع المال فى الزكاة وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك قاله الكشاف قال البيضاوى وخمسين صلاة فى اليوم والليلة ونسبها غيره من المفسرين الى اليهود ولا تنافى بينهما اذ المراد من بنى اسرائيل هم اليهود منهم فلا يرد على هذا ما قيل ان بنى اسرائيل لم يفرض عليهم خمسون صلاة بل ولا خمس صلوات مع أن من حفظ حجة على من لم يحفظ (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة) أى قوة (لنا به) من البلاء والعقوبة ومن التكاليف التى لا تفى به الطاقة البشرية وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق والا لما سئل التخلص منه والتشديد هنا لتعدية الفعل الى مفعول ثان لا للمبالغة (واعف عنا) أى امح ذنوبنا (واغفر لنا) أى استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة بها (وارحمنا) وتعطف بنا وتفضل علينا فانا لا ننال العمل بطاعتك ولا ترك معصيتك الا برحمتك (أنت مولانا) أى سيدنا ومتولى أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) باقامة الحجة والغلبة فى قتالهم فان من حق المولى أن ينصر مواليه على الاعداء أو المراد بالكافرين عامة الكفرة روى سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى غفرانك ربنا قال الله تعالى قد غفرت لكم وفى قوله لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا قال لا أؤاخذكم ربنا ولا تحمل علينا اصرا قال لا أحمل عليكم ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به قال لا أحملكم واعف عنا الخ قال قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين وكان معاذ اذا ختم سورة البقرة قال آمين وروى مسلم وغيره انه صلى الله عليه وسلم لما دعا بهذه الدعوات قيل له عقب كل كلمة قد فعلت وعن عبد الله انه قال لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به الى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة اليها ينتهى ما يعرج به من الارض فيقبض منها واليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها قال اذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب قال وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا أعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفران لا يشرك بالله من أمته شيأ المقحمات وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أنزل الله تعالى آيتين أواهما آمن الرسول من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بالفى سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل والكتابة باليد تمثيل وتصوير لاثباتهما وتقديرهما بالفى سنة تصوير لقدمهما الان مثل هذا يقال لطول الزمان لا للتحديد وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن نبى قبلى وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه أى عن قيام الليل أو عن كل ما يسوءه وهذا يرد قول من استنكر أن يقال سورة البقرة وقال ينبغى أن يقال السورة التى يذكر فيها البقرة كما قال عليه الصلاة والسلام السورة

الكتابيات الحرائر وهن الى العفة أقرب من الحرائر المسلمات (قوله وآتوهن اجورهن) اى الاماء فف حذف مضاف اى آتوهن واتوا مواليهن لان مهورهن

التى تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فان تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال السحرة أى انهم مع حذقهم لا يوفقون لتعلمها أو التأمل فى معانيها أو العمل بما فيها وسموا بطلة لانهماكهم فى الباطل أو لبطالتهم عن أمر الدين والفسطاط الخيمة أو المدينة الجامعة سميت به السورة لاشتمالها على معظم أصول الدين وفروعه والارشاد الى كثير من مصالح العباد ونظام المعاش ونجاة المعاد وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه انه رمى الجمرة ثم قال من ههنا والذى لا اله الا هو رمى الذى أنزلت عليه سورة البقرة ولا فرق بين هذا وبين قولك سورة الزخرف والممتحنة والمجادلة وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والارض بألفى عام فانزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال فلا يقربها شيطان انتهى

سورة آل عمران مدنية

باتفاق وآياتها مائتان أو الا آية وثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة وأربعة عشر ألفا وخمسمائة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذى له صفات الكمال فاستحق التفرد بالالوهية (الرحمن) الذى سرت رحمته خلال الوجود فشملت كل موجود بالكرم والجود (الرحيم) أى توكل عليه بالعطف اليه وقوله تعالى (الم) تقدم الكلام عليه فى أول سورة البقرة (الله لا اله الا هو) لم يقطع أحد من القراء السبعة هذه الهمزة التى فى الله فى الوصل واذا وقف على الم يبدأ بالهمزة واكل من القراء مد على الميم ووصل فى الوصل وانما فتح الميم لالتقاء الساكنين كما هو مذهب سيبويه وجمهور النحاة (فان قيل) أصل التقاء الساكنين الكسر فلم عدل عنه (أجيب) بانهم لو كسروا لكان ذلك مفضيا الى ترقيق لام الجلالة والمقصود تفخيمها للتعظيم فاوثروا الفتح لذلك كما حركوها فى نحو من الله وأيضا فقبل الميم ياء وهى أخت الكسرة وقبل هذه الياء كسرة فلو كسرنا الميم الاخيرة لالتقاء الساكنين لتوالى ثلاث متجانسات فحركوها بالفتح وأما سقوط الهمزة فواضح وبسقوطها التقى الساكنان وقيل ان هذه الفتحة ليست لالتقاء الساكنين بل هى حركة نقل أى نقلت حركة الهمزة التى قبل لام التعريف على الميم الساكنة نحو قد افلح فى قراءة ورش وهذا مذهب الفراء وجرى عليه الزمخشرى وأطال الكلام فيه ورده أبو حيان بما يطول ذكره وقوله تعالى الله مبتدأ وما بعده خبره وقوله تعالى (الحى القيوم) نعت له والحى هو الفعال الدراك والقيوم هو القائم بذاته والقائم بتدبير خلقه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان اسم الله الاعظم فى ثلاث سور فى البقرة الله لا اله الا هو الحى القيوم وفى آل عمران الله لا اله الا هو الحى القيوم وفى طه وعنت الوجوه للحى القيوم ونقل البندنيجى عن أكثر العلماء ان الاسم الاعظم هو الله قال الكلبى والربيع بن أنس وغيرهما نزلت هذه الآية فى وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكبا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وفى الاربعة عشر ثلاثة نفر يؤول اليهم أمرهم العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذى لا يصدرون الا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد صاحب رحلهم واسمه الايهم وأبو حارثة بن علقمة حبرهم

قوله فلا يقرآن الخ كذا فى النسخ التى هى بايدينا وفى الجمل ان الله عز وجل كتب كتابا قبل ان يخلق الخلق بالفى عام فانزل منه هذه الثلاث آيات التى ختم بهن سورة البقرة من قرأهن فى بيته لم يقرب الشيطان بيته ثلاث ليال انتهى

انما اعطى لموالبهن لالهن فان اعطى لهن باذن مواليهن (قوله فاذا فلا حذف (فان احصن) اى تزوجن (فان قلت) لاحصان ليس قيدا فى وجوب تنصيف الحد على الامة اذا زنت بل هو

دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات والحرث بن
كعب يقول من وراءهم ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوهم فصلوا الى المشرق
فكلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلما قالا قد أسلمنا قبلك قال
كذبتما يمنعكما من الاسلام ثلاثة أشياء دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير
قالوا ان لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه وخاصموه جميعا في عيسى فقال لهم النبي صلى الله عليه
وسلم ألستم تعلمون انه لا يكون ولد الا وهو يشبه أباه قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حي
لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء قالوا بلى قال ألستم تعلمون ان ربنا قيم على كل شيء يحفظه
ويرزقه قالوا بلى قال فهل يملك عيسى من ذلك شيأ قالوا لا قال ألستم تعلمون ان الله لا يخفى عليه
شيء في الارض ولا في السماء قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك الا ما علمه الله قالوا لا قال فان
ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن
عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان
يطعم ويشرب ويحدث قالوا بلى قال وكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا فأنزل الله تعالى صدر
سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها (نزل عليك) يا محمد (الكتاب) أي القرآن متلبسا
(بالحق) أي بالصدق في اخباره أو بالحجج المحققة أنه من عند الله وهو في موضع الحال أي محققا
(مصدقا لما بين يديه) أي قبله من الكتب (فان قيل) كيف سمى ما مضى بأنه بين يديه (أجيب)
بان تلك الاخبار لغاية ظهورها وكونها موجودة سماها بهذا الاسم (وأنزل التوراة) جملة
على موسى عليه الصلاة والسلام (والانجيل) جملة على عيسى عليه الصلاة والسلام (من قبل)
أي قبل تنزيل القرآن واختلف الناس في هذين اللفظين هل يدخلهما الاشتقاق والتصريف
أولا يدخلانهما لكونهما أعجميين فلا يناسب كونهما مشتقين ورجح هذا الزمخشري وقال
قالوا لان هذين اللفظين اسمان عبرانيان لهذين الكتابين الشريفين وقوله تعالى (هدى) حال
بمعنى هاديين من الضلالة ولم يثنه لانه مصدر (للناس) اي على العموم ان قلنا متعبدون
بشرع من قبلنا وهو رأي والا فالمراد بالناس قومهما وانما عبر في التوراة والانجيل بأنزل وفي
القرآن بنزل المقتضي للتكرير لانهما أنزلا دفعة واحدة بخلافه وقيل ان القرآن أنزل من
اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا جملة واحدة ومن سماء الدنيا نجما في ثلاث وعشرين سنة
فحيث عبر فيه بأنزل أريد الاول أو بنزل أريد الثاني (فان قيل) يرد الاول بقوله تعالى هو الذي
أنزل عليك الكتاب وبقوله تعالى والذين يؤمنون بما أنزل اليك وبقوله تعالى الحمد لله الذي
أنزل على عبده الكتاب وبقوله تعالى وبالحق أنزلناه ويرد الثاني بقوله تعالى وقال الذين كفروا
لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة (أجيب) بان القول بذلك جرى على الغالب (وأنزل
الفرقان) أي الكتب الفارقة بين الحق والباطل وذكره بعد الكتب الثلاثة ليعم ما عداها
فكأنه قال وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل ولم يجمع لانه مصدر بمعنى الفرق
كالغفران والكفران وقيل القرآن وكرر ذكره بما هو نعت له مدحا وتعظيما واظهارا لفضله
من حيث انه يشاركهما في كونه وحيا منزلا ويتميز بأنه معجز يفرق به بين الحق والباطل وقيل

عليها احصنت اولا (قال)
ذكر الاحصان خرج مخرج
جواب سؤال فلا مفهوم
له اذ الصحابة عرفوا مقدار
حد الامة التي لم تتزوج
دون مقداره من التي
تزوجت فسألوا عنه فنزلت

أراد الكتاب الرابع وهو الزبور كما قال تعالى وآتينا داود زبورا قال الزمخشري وهو ظاهر ولما قرر سبحانه جميع ما يتعلق بمعرفة الاله أتبع ذلك بالوعيد زجرا للمعرضين عن هذه الدلائل الباهرة فقال (ان الذين كفروا بآيات الله) من القرآن وغيره (لهم عذاب شديد) بسبب كفرهم (والله عزيز) اى غالب على أمره فلا يمنعه شئ من انجاز وعده ووعيده (ذو انتقام) ممن عصاه والنقمة عقوبة المجرم اى يعاقبه عقوبة شديدة لا يقدر على مثلها أحد (ان الله لا يخفى عليه شئ) كائن (فى الارض ولا فى السماء) لعلمه بما يقع فى العالم من كلى وجزئى (فان قيل) لم خصهما بالذكر مع انه عالم بجميع الاشياء (أجيب) بأنه تعالى انما خصهما به لان البصر لا يجاوزهما (فان قيل) لم قدم الارض على السماء (أجيب) بانها انما قدمت ترقيا من الادنى الى الاعلى وهذه الآية كالدليل على كونه حيا وقوله تعالى (هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء) أى من ذكورة وأنوثة وبياض وسواد وحسن وقبح وتمام ونقص وغير ذلك كالدليل على القيومية والاستدلال على أنه تعالى عالم باتقان فعله فى خلق الجنين وتصويره وفى هذا رد على وفد نجران من النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله واستدلوا على ذلك بأمور منها العلم فانه كان يخبر عن الغيوب ويقول لهذا انك أكلت فى دارك كذا ويقول لذاك انك صنعت فى دارك كذا ومنها القدرة وهى أن عيسى كان يحيى الموتى ويبرئ الاكمه والابرص ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا فكأنه تعالى يقول كيف يكون ولدا لله وقد صوره فى الرحم والمصور لا يكون أب المصور ثم انه تعالى لما أجاب عن شبههم أعاد كلمة التوحيد زجرا للنصارى عن قولهم بالتثليث فقال (لا اله الا هو العزيز) فى ملكه وفيه اشارة الى كمال القدرة فقدرته تعالى أكمل من قدرة عيسى على الاماتة والاحياء (الحكيم) فى صنعه وفيه اشارة الى كمال العلم فعلمه أكمل من علم عيسى بالغيوب وأن علم عيسى ببعض الصور وقدرته على بعض الصور لا يدل على كونه الها بل على ان الله أكرمه بذلك اظهارا لمعجزته وعجزه عن الاحياء فى بعض الصور يوجب قطعا عدم الالهية لان الاله هو الذى يكون قادرا على كل الممكنات عالما بجميع الجزئيات والكليات قال عبد الله بن مسعود حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله اليه الملك أو قال يبعث اليه الملك بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد وقال وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم أربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول يارب شقى أم سعيد فيكتبان فيقول اى رب ذكر أو أنثى فيكتبان فيكتب عمله وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص (هو الذى أنزل عليك) يا محمد (الكتاب) اى القرآن (منه آيات محكمات) أحكمت عبارتها بان حفظت عن الاحتمال والاشتباه فهى واضحات الدلالة (هن أم الكتاب) اى أصله المعتمد عليه فى الاحكام ويحمل المتشابهات عليها وترد اليها ولم يقل أمهات الكتاب لان الآيات كلها فى تكاملها

الآية (قوله يريد الله ليبين لكم) الآية بمعنى أن كما فى قوله تعالى وامرنا لنسلم لرب العالمين وقوله وامرت لاعدل بينكم وقوله يريدون ليطفئوا نور الله وقد قال فى محل آخر

واجتماعها

واجتماعهما كالآية الواحدة وكلام الله واحد وقيل كل آية منهن أم الكتاب كما قال تعالى وجعلنا ابن مريم وأمه آية اى كل واحد منهما آية وقوله تعالى (وأخر) نعت لمحذوف تقديره وآيات أخر (متشابهات) اى محتملات لا يتضح مقصودها الاجمال أو مخالفة ظاهر الا بالفحص والنظر (فان قيل) لم جعل بعضه متشابها وهلا كان كله محكما (أجيب) بأن فى المتشابه من الابتلاء حكمة عظيمة وهى التمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه وليظهر فيها فضل العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا فى تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها فينالوا بها وباتعاب القرائح فى استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات الدرجات العلى عند الله (فان قيل) لم فرق هنا بين المحكم والمتشابه وقد جعل كل القرآن محكما فى موضع آخر فقال الر كتاب أحكمت آياته وجعل كله متشابها فى موضع آخر فقال الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها (أجيب) بانه حيث جعل الكل محكما فمعناه ان آياته حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ وحيث جعل الكل متشابها فمعناه ان آياته يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة اللفظ * (تنبيه) * أخر جمع أخرى وانما لم ينصرف لانه وصف معدول عن الاخريات ففيه الوصف والعدل وهما علتان يمنعان الصرف (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) اى ميل عن الحق كالمبتدعة (فيتبعون ما تشابه منه) اى فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل (ابتغاء الفتنة) اى طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه (وابتغاء تأويله) اى وطلب أن يؤولوه على ما يشتهونه (وما يعلم تأويله) اى الذى يجب أن يحمل عليه (الا الله والراسخون فى العلم) اى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه وسئل مالك بن أنس عن الراسخين فى العلم قال العالم العامل بما علم المتبع وقال غيره هو من وجد فى علمه أربعة أشياء التقوى بينه وبين الله تعالى والتواضع بينه وبين الخلق والزهد بينه وبين الدنيا والمجاهدة بينه وبين نفسه * (تنبيه) * اختلف العلماء فى نظم هذه الآية فقال قوم الواو فى قوله والراسخون واو العطف اى ان تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون فى العلم وهم مع علمهم (يقولون آمنا به) وهذا قول مجاهد والربيع وعلى هذا يكون قوله يقولون حالا معناه والراسخون فى العلم قائلين آمنا به وذهب الاكثرون الى أن الواو فى قوله والراسخون واو الاستئناف وتم الكلام عند قوله وما يعلم تأويله الا الله وهو قول أبى بن كعب وعائشة وغيرهما وقالوا لا يعلم تأويل المتشابه الا الله ويجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه لم يطلع عليه أحدا من خلقه كما استأثر بعلم الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها وخروج الدجال وعدد الزبانية ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحوها والخلق متعبدون فى المتشابه بالايمان به وفى المحكم بالايمان به والعمل وقال عمر بن عبد العزيز فى هذه الآية انتهى علم الراسخين فى العلم بتأويل القرآن الى ان قالوا آمنا به قال فى الكشاف والاول هو الاوجه اه ووجهه شيخنا القاضى زكريا بقوله لان المتشابه على الثانى يصير الخطاب به كالخطاب بالمهملات اه ومع هذا فالوجه هو الثانى لانه أشبه بظاهر الآية ويدل له وجوه أحدها انه ذم طالب المتشابه بقوله تعالى فاما الذين فى قلوبهم زيغ الآية وثانيها انه مدح الراسخين فى العلم بانهم يقولون آمنا به وقال فى أول البقرة فاما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم فهؤلاء الراسخون لو كانوا عالمين

يريدون ان يطفؤا نور الله (قوله الا ان تكون تجارة) اى اموال تجارة (تجارة) خص التجارة بالذكر عن غيرها كالهبة والصدقة والوصية لان غالب التصرف فى الاموال بها ولان أسباب.

بتاويل المتشابه على التفصيل لما كان لهم فى الايمان به مدح لان كل من عرف شيأ على سبيل التفصيل فلابد أن يؤمن به وثالثها لو كان قوله والراسخون معطوفا لصار قوله يقولون آمنا به ابتداء وهو بعيد عن الفصاحة وكان الاولى أن يقال وهم يقولون أو يقال ويقولون (فان قيل) فى تصحيحه وجهان الاول أن يقولون خبر مبتدا والتقدير هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا الثانى أن يكون يقولون حالا من الراسخون (أجيب) بان الاول مدفوع بان تفسير كلام الله تعالى بما لا يحتاج معه الى اضمار أولى والثانى أن ذا الحال هو الذى تقدم ذكره وهم الراسخون فوجب أن يكون قوله آمنا به حالا من الراسخون لامن الله وذلك ترك للظاهر ورابعها قوله تعالى (كل) اى من المحكم والمتشابه (من عند ربنا) معناه أنهم آمنوا بما عرفوا تفصيله وبما لم يعرفوا تفصيله ولو كانوا عالمين بالتفصيل فى الكل لم يبق لهذا الكلام فائدة وخامسها ما نقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير لا يسع أحدا جهله وتفسير تعرفه العرب بألسنتها وتفسير تعرفه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله تعالى وسئل مالك بن أنس رضى الله تعالى عنهما عن قوله تعالى الرحمن على العرش استوى فقال الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة (فان قيل) ما الفائدة فى لفظ عند ولو قال كل من ربنا لحصل المقصود (أجيب) بأن الايمان بالمتشابه يحتاج فيه الى مزيد التأكيد (فان قيل) لم حذف المضاف اليه من كل (أجيب) بان دلالته على المضاف اليه قوية فالامن من اللبس بعد الحذف حاصل (ومايذكر) بادغام التاء فى الاصل فى الذال أى مايتعظ بما فى القرآن (الا أولوا الالباب) أى أصحاب العقول* (تنبيه)* وجه اتصال هذه الآية وأولها هو الذى أنزل عليك الكتاب بما قبلها وأولها هو الذى يصوركم فى الارحام انه لما بين أنه قيوم وهو القائم بمصالح الخلق والمصالح قسمان جسمانى وروحانى فالجسمانى أشرفها تعديل البنية على أحسن شكل وهو المراد بقوله تعالى هو الذى يصوركم فى الارحام وأما الروحانى فاشرفها العلم وهو المراد بقوله هو الذى أنزل عليك الكتاب ولما حكى سبحانه وتعالى عن الراسخين فى العلم أنهم يقولون آمنا به حكى أنهم يقولون (ربنا لاتزغ) اى لاتمل (قلوبنا) عن طريق الحق الى اتباع المتشابه بتأويل لاترتضيه (بعد اذ هديتنا) وفقتنا لدينك والايمان بالمحكم والمتشابه قال عليه الصلاة والسلام قلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أقامه اى القلب على الحق وان شاء أزاغه عنه رواه الشيخان وغيرهما وقيل لاتبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا وعلى هذا اقتصر الزمخشرى ووجه بان ماذكر كناية أو مجاز اذ لايحسن من الله الازاغة ليسئل نفيها وهذا بناء على مذهبه من الاعتزال وأما مذهب أهل السنة فالزيغ والهداية خلق الله تعالى وكان صلى الله عليه وسلم يقول اللهم يامقلب القلوب والابصار ثبت قلوبنا على دينك وعن ابى موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل القلب كريشة بارض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن (وهب لنا) اى أعطنا (من لدنك) اى من عندك (رحمة) اى توفيقا وتثبيتا للذى نحن عليه من الايمان والهدى أو مغفرة للذنوب (انك أنت الوهاب) لكل سؤل وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله تعالى وأنه متفضل بما ينعم على عباده لايجب عليه شئ ما (ربنا انك جامع الناس) اى

الرزق متعلقة بما غالبا (قوله
يومئذ يود الذين كفروا
وعصوا الرسول لو تسوى
بهم الارض) اى بان يكونوا
ترابا مثلها العظم هوله كما قال
فى الآية الاخرى ويقول
الكافر ياليتنى كنت

بجمعهم

تجمعهم (ليوم) اى فى يوم (لا ريب) اى لا شك (فيه) اى فى وقوعه وما فيه من الحشر والجزاء وهو يوم القيامة فتجازيهم باعمالهم كما وعدت وقوله تعالى (ان الله لا يخلف الميعاد) اى موعده بالبعث يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى وأن يكون من كلام الراسخين فيكون فيه التفات عن الخطاب وكانهم لما طلبوا من ربهم الصون عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية والرحمة قالوا ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا فانها منقضية وانما الغرض الاعظم منه ما يتعلق بالآخرة فانا نعلم انك جامع الناس للجزاء فى يوم القيامة ووعدك حق فمن زاغ قلبه بقى هنالك فى العذاب أبد الآباد ومن وفقته وهديته ورحمته بقى هنالك فى السعادة والكرامة أبد الآباد * (تنبيه) * احتج الوعيدية بهذه الآية على القطع بوقوع وعيد الفساق قالوا لان الوعيد داخل تحت لفظ الوعد لقوله تعالى قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا والوعد والميعاد واحد وقد أخبر فى هذه الآية أنه لا يخلف الميعاد وأجيب بانا لا نسلم القول بالقطع بوقوع وعيد الفساق مطلقا بل ذلك مشروط بعدم العفو كما هو مشروط بعدم التوبة بالاتفاق فكما انكم أثبتم ذلك الشرط بدليل منفصل فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل سلمنا أنه توعدهم ولكن لا نسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد ويكون قوله فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا كقوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم وكقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم فيكون من باب التهكم وذكر الواحدى فى البسيط أنه يجوز أن يحمل هذا على ميعاد الاولياء دون وعيد الاعداء لان خلف الوعيد كرم عند العرب لانهم يمدحون بذلك كما قال القائل

اذا وعد السراء أنجز وعده * وان وعد الضراء فالعفو مانعه

وقال الآخر أيضا

وانى وان أوعدته أو وعدته * لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

ولما حكى الله سبحانه وتعالى دعاء المؤمنين وتضرعهم حكى كيفية حال الكافرين وشدة عقابهم بقوله تعالى (ان الذين كفروا) وهو عام فى الكفرة وقيل المراد بهم وفد نجران أو اليهود أو مشركوا العرب (لن تغنى) أى لن تنفع ولن تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ) أى من عذابه وقيل من رحمته أو من طاعته على معنى البدلية قاله البيضاوى أى على أن من للبدل والمعنى لن تغنى عنهم من رحمة الله او من طاعته شيأ اى بدل رحمته وطاعته قال أبو حيان واثبات البدلية جمهور النحاة تاباه (وأولئك هم وقود النار) أى حطبها وفى ذلك كمال العذاب لان كماله أن يزول عنه ما ينتفع به ثم يجتمع عليه الاسباب المؤلمة فالاول هو المراد بقوله تعالى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم فان المرء عند الشدة يفزع الى المال والولد لانهما أقرب الامور التى يفزع اليها فى دفع النوائب فبين تعالى أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا واذا تعذر عليه الانتفاع بالمال والولد وهما أقرب الطرق فما عداه بالتعذر أولى ونظيره يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وأما الثانى من أسباب كمال العذاب وهو اجتماع الاسباب المؤلمة فهو المراد بقوله تعالى وأولئك هم وقود النار وهذا هو النهاية فى العذاب فانه لا عذاب أعظم من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها فى الحطب اليابس وقوله تعالى (كدأب آل فرعون)

فامسحوا
ترابا (قوله وأيديكم) زاد
بوجوهكم وأيديكم منه لان
فى المائدة عليه
المذكور ثم جميع واجبات
الوضوء والتيمم فحسن
البيان والزيادة بخلاف ماهنا
فحسن الترك (قوله يا أيها
الذين أوتوا الكتاب) قال

اما استئناف مرفوع المحل خبر لمبتدا مضمر تقديره دأبهم فى ذلك كدأب آل فرعون واما متصل بما قبله أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن أولئك أو توقد النار بهم كما توقد النار بآل فرعون وقوله تعالى (والذين من قبلهم) عطف على آل فرعون فيكون فى محل جر وقيل استئناف فيكون فى محل رفع على الابتداء والخبر وقوله تعالى (كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم) وعلى الاول تكون هذه الجملة مفسرة لما قبلها وقوله تعالى (والله شديد العقاب) فيه تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة ولما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببدر ورجع الى المدينة جمع اليهود فى سوق قينقاع وقال يا معشر اليهود احذروا من الله تعالى أن ينزل بكم مثل ما نزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم فقالوا يا محمد لا يغرنك انك لقيت أقواما أغمارا أى جهالا لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة وانا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس نزل (قل) يا محمد (للذين كفروا ستغلبون) فى الدنيا بالقتل والاسر وضرب الجزية وقد وقع ذلك بقتل قريظة واجلاء بنى النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم (وتحشرون) فى الآخرة (الى جهنم وبئس المهاد) أى الفراش والمخصوص بالذم محذوف أى بئس المهاد جهنم وفى هذه الآية اخبار عن أمر يحصل فى المستقبل وقد وقع خبره على موافقته فكان هذا اخبارا بالغيب فكان معجزة ولهذا لما نزلت هذه الآية قال لهم صلى الله عليه وسلم ان الله غالبكم وحاشركم الى جهنم وقرأ حمزة والكسائى بالياء فيهما على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (فان قيل) أى فرق بين القراءتين من جهة المعنى (أجيب) بأن معنى قراءة التاء الامر بان يخبرهم بما سيجرى عليهم من الغلبة والحشر الى جهنم فهو اخبار بما سيغلبون ويحشرون وهو الكائن من نفس المتوعد به والذى يدل عليه اللفظ ومعنى القراءة بالياء الامر بان يحكى لهم ما أخبره به من وعيد بلفظه كأنه قال أد اليهم هذا القول الذى هو قولى لك سيغلبون ويحشرون (قد كان لكم آية) أى عبرة ودلالة على صدق ما أقول لكم انكم ستغلبون (فان قيل) لم لم يقل قد كانت لان الآية مؤنثة (أجيب) بانه انما ذكر الفعل للفصل بينه وبين الاسم المؤنث بلكم فان الفصل مسوغ لذلك مع المؤنث الحقيقى كقوله

ان امرأ غره منكن واحدة * بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

قال الفراء وكل ما جاء من هذا النحو فهذا وجهه والخطاب لمشركى قريش وقيل لليهود وقيل للمؤمنين (فى فئتين) اى فرقتين (التقتا) يوم بدر (فئة) مؤمنة (تقاتل فى سبيل الله) أى طاعته وهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلا من الانصار وصاحب راية المهاجرين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان فرس للمقداد بن عمرو وفرس لمرثد بن أبى مرثد وأكثرهم رجالة وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف (و) فئة (أخرى كافرة) تقاتل فى سبيل الشيطان وهم مشركو مكة وقوله تعالى (يرونهم مثليهم) قرأه نافع بالتاء على الخطاب أى ترى المؤمنون المشركين مثلى المؤمنين وكانوا ثلاثة امثالهم ليثبتوا لهم ويوقنوا بالنصر الذى وعدهم به فى قوله

ذلك هنا وقال فى غيره بأهل الكتاب لموافقة التعبير هنا قبله وبعده بالذين أوتوا ولانه تعالى استخف بهم هنا قبل وختم بعد بالطمس وغيره بخلاف ذلك فى غير هذا الموضع

ان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين بعدما كلفوا ان يقاوم الواحد العشرة فى قوله تعالى ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين والباقون بالياء على الغيبة أى يرى المشركون المؤمنين مثلى عدد المشركين وكانوا تسعمائة وخمسين أو مثلى عدد المسلمين وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر (فان قيل) هذا مناقض لقوله تعالى فى سورة الانفال ويقللكم فى أعينهم (أجيب) بانه قللهم أولا حتى اجترؤا عليهم فلما لاقوهم كثروا امدادا من الله تعالى للمؤمنين فى أعينهم حتى غلبوا فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين (رأى) اى فى رأى (العين) اى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات وقد نصرهم الله تعالى مع قلتهم (والله يؤيد) اى يقوى (بنصره من يشاء) نصره كما أيد أهل بدر بتكثيرهم فى عين العدو (ان فى ذلك) المذكور (لعبرة) أى عظة (لاولى الابصار) اى لذوى البصائر أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنون (زين للناس حب الشهوات) اى ما تشتهيه النفس وتدعو اليه والمزين هو الله تعالى للابتلاء كقوله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أولانه من أسباب التعيش وبقاء النوع الانسانى أولانه يكون وسيلة الى السعادة الاخروية اذا كان على وجه يرتضيه الله وقيل الشيطان هو المزين وذهب اليه المعتزلة واستدلوا بقول الحسن الشيطان والله زينها الا انا لا نعلم أحدا أذم لها من خالقها وانما سميت شهوات مبالغة وايماء الى أنهم انهمكوا فى محبتها حتى أحبوا شهواتها كقوله تعالى أحببت حب الخير والشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية ثم بين ذلك بقوله تعالى (من النساء) انما بدأ بهن لانهن حبائل الشيطان (والبنين والقناطير) جمع قنطار وهو المال الكثير قيل ملء مسك ثور اى ملء جلده وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه القنطار مائة ألف دينار وقال ابن عباس والضحاك ألف ومائتا مثقال (المقنطرة) اى المجمعة وقال السدى المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير وقال الفراء المضعفة فالقناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة (من الذهب والفضة) قيل سمى الذهب ذهبا لانه يذهب ولا يبقى والفضة فضة لانها تنفض أى تتفرق (والخيل المسومة) اى الحسان وقال سعيد بن جبير هى الراعية يقال أسام الخيل وسومها والخيل جمع لا واحد له من لفظه واحدها فرس كالقوم والنساء (والانعام) جمع النعم وهى الابل والبقر والغنم جمع لا واحد له من لفظه (والحرث) اى الزرع (ذلك) اى ما ذكر من النساء وما بعده (متاع الحيوة الدنيا) اى يتمتع به فيها ثم يفنى (والله عنده حسن المآب) اى المرجع وهو الجنة فينبغى الرغبة فيما عنده من اللذات الحقيقية الابدية دون غيره من الشهوات الناقصة الفانية (فان قيل) المآب قسمان الجنة وهى فى غاية الحسن والنار وهى خالية عن الحسن كما قال تعالى ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا (أجيب) بان المقصود بالذات هو الجنة واما النار فمقصودة بالعرض والمقصود بالآية الترهيب فى الدنيا والترغيب فى الآخرة (قل) يا محمد لقومك (أؤنبئكم) أخبركم (بخير من ذلكم) اى المذكور من الشهوات وهذا استفهام تقريرى * (تنبيه) * هنا همزتان مختلفتان من كلمة الاولى مفتوحة والثانية مضمومة قرأ قالون بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية وأدخل بينهما ألفا وورش يسهل الثانية من غير ادخال ألف وينقل حركة الهمزة الاولى الى اللام من قل فتصير اللام مفتوحة والثانية مضمومة وابن كثير كورش الا أنه لا ينقل الحركة الا فى لفظ القرآن وقرآن وأبو عمرو

(قوله ان الله لا يغفر ان يشرك به) اى من العالم المتعمد (قوله ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما) ختم الآية مرة بقوله فقد افترى اثما عظيما ومرة بقوله فقد ضل ضلالا بعيدا

يسهل الثانية ويدخل بينهما ألفا كنالون وله وجه آخر وهو عدم ادخال ألف بينهما والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) اى مقدرين الخلود فيها اذا دخلوها كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم كما تقول هل أدلك على رجل عالم عندى رجل عالم من صفته كيت وكيت ويجوز أن تتعلق اللام بخير وترتفع جنات على هو جنات (وأزواج مطهرة) من الحيض وغيره مما يستقذر من النساء وقوله تعالى (ورضوان من الله) قرأ شعبة بضم الراء والباقون بكسرها وهما لغتان الكسر لغة الحجاز والضم لغة تميم وقيل بالكسر اسم وبالضم مصدر وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون يا ربنا وأى شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا *(تنبيه)* قد نبه سبحانه وتعالى فى هذه الآية على نعمه فادناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله لقوله تعالى ورضوان من الله أكبر وأوسطها الجنة ونعيمها (والله بصير) أى عالم (بالعباد) أى بأعمالهم فيجازى كلا منهم بعمله أو بأحوال الذين اتقوا فلذلك أعد لهم جنات وقوله تعالى (الذين) نعت للذين اتقوا أو للعباد أو بدل من الذين قبله (يقولون) يا (ربنا اننا آمنا) أى صدقنا (فاغفر لنا ذنوبنا) أى استرها علينا وتجاوز عنا (وقنا عذاب النار) *(تنبيه)* فى ترتيب سؤال المغفرة وما عطف عليها وسيلة على مجرد الايمان دليل على أن مجرد الايمان كاف فى استحقاق المغفرة أو الاستعداد لاسبابها أو أسباب ما عطف عليها وقوله تعالى (الصابرين) أى على الطاعة وعن المعصية وعلى البأساء والضراء نعت (والصادقين) أى فى أيمانهم وأقوالهم قال قتادة هم قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم فصدقوا فى السر والعلانية (والقانتين) أى المطيعين لله (والمنفقين) أى المتصدقين (والمستغفرين بالاسحار) أى أواخر الليل كأن يقولوا اللهم اغفر لنا خصت بالذكر لانها وقت الغفلة ولذة النوم وفى هذا كما قال البيضاوى حصر لمقامات السالك على أحسن الترتيب أى الذكرى فان معاملته مع الله اما توسل واما طلب والتوسل اما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما واما بالبدن وهو اما قولى وهو الصدق واما فعلى وهو القنوت الذى هو ملازمة الطاعة واما بالمال وهو الانفاق فى سبيل الخير وأما الطلب فالاستغفار لان المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها انتهى وتوسيط الواو بين الصابرين وما بعده للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بالصفات وتخصيص الاسحار لان الدعاء فيها أقرب من الدعاء فى غيرها الى الاجابة لان العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والعقل أجمع لمعانى الالفاظ التى ينطق بها لا سيما للمتهجد قيل انهم كانوا يصلون الى السحر ثم يستغفرون ويدعون وعن الحسن كانوا يصلون فى أول الليل حتى اذا كان السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار فذا نهارهم وهذا ليلهم وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل الله الى سماء الدنيا اى امره كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الاخير فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى

ولا تكرار فيه وان اشتركا فى الضلال لان الاول نزل فى كفار اليهود والثانى فى ما نزل فى لا كتاب لهم وخص اليهود بالافتراء لانهم حرفوا وكتموا ما فى كتابهم وذلك افتراء بخلافه فى الكفار الذين لا كتاب لهم

فاستجيب

فاستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له وحكي عن الحسن أن لقمان قال لابنه يا بني لا تكن أعجز من هذا الديك يصوت في الأسحار وأنت نائم على فراشك وعن زيد بن أسلم أنه قال هم الذين يصلون الصبح في جماعة وعبر بالأسحار لقربه من الصبح (شهد الله) أي بين لخلقه بالدلائل وانزال الآيات (أنه لا اله) أي لا معبود بحق في الوجود (الا هو) قال الكلبي قدم حبران من أحبار الشام على النبي صلى الله عليه وسلم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة فقالا له أنت محمد قال نعم قالا له وأنت أحمد قال أنا محمد وأحمد قالا له فانا نسألك عن شيء فان أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك فقال لهما سلا قالا أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل فأنزل الله هذه الآية فأسلم الرجلان وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة وخلق الله الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة فشهد لنفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال شهد الله أنه لا اله الا هو (و) شهد بذلك (الملائكة) أي أقروا بذلك (و) شهد بذلك (أولوا العلم) أي بالايمان بذلك والاحتجاج عليه (فان قيل) ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم الله تعالى هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله (أجيب) بأن المراد بهم أنهم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل والتوحيد من الأنبياء المؤمنين وفيه دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وقوله تعالى (قائما) أي بتدبير مصنوعاته حال من الله وانما جاز افراده تعالى بها لعدم اللبس وان اختلف في جاءني زيد وعمرو راكبا فقد منعه الزمخشري وتبعه البيضاوي وجوزه أبو حيان وقال يحمل على الأقرب كما في الوصف في نحو جاءني زيد وعمرو الطويل أو حال من هو والعامل فيها معنى الجملة أي تفرد (بالقسط) أي بالعدل وقوله تعالى (لا اله الا هو) كرر للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد اقامة الحجة وليبنى عليه قوله تعالى (العزيز) أي في ملكه (الحكيم) أي في صنعه فيعلم أنه الموصوف بهما وقدم العزيز لأن العزة تلائم الوحدانية والحكمة تلائم القيام بالقسط فأتى بهما لتقرير الأمرين على ترتيب ذكرهما ورفعهما على البدل من الضمير الأول أو الثاني أو على الخبر لمحذوف وعن أبي غالب القطان قال أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريبا من الأعمش وكنت أختلف اليه فلما كنت ذات ليلة أردت أن أنحدر الى البصرة فقام من الليل يتهجد فمر بهذه الآية أي شهد الله الى آخرها ثم قال الأعمش وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة ان الدين عند الله الاسلام قالها مرارا قلت لقد سمع فيها شيئا فصليت معه وودعته ثم قلت اني سمعتك ترددها فما بلغك فيها قال والله لا أحدثك بها الى سنة فكنت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة فقال حدثني أبو وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله ان لعبدي هذا عندي عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة روى هذا الحديث الطبراني والبيهقي لكن بسند ضعيف وقوله تعالى (ان الدين) أي المرضي (عند الله) هو (الاسلام) جملة مستأنفة مؤكدة

(قوله ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم) فان قلت كيف ذمهم على ذلك بما قاله ونهى عنه بقوله فلا تزكوا أنفسكم مع قول النبي صلى الله عليه وسلم والله اني لأمين في السماء أمين في الأرض وقول يوسف عليه السلام اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم (قلت) انما قال النبي ما قاله حين قال المنافقون اعدل في القسمة تكذيبا لهم

للاولى أى لا دين مرضى عند الله سوى الاسلام وهو الشرع المبعوث به الرسل كما قال تعالى ورضيت لكم الاسلام دينا وقال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين وقرأ الكسائى بفتح همزة ان قيل على أنه بدل من أنه الخ بدل اشتمال وضعفه أبو حيان لان فيه فصلا بين البدل والمبدل منه باجنبى قال والصواب انه معمول للحكيم باسقاط الجار اى الحكيم بان الدين والباقون بكسرها على الاستئناف (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) اى من اليهود والنصارى وقيل من أرباب الكتب المتقدمة فى دين الاسلام فقال قوم انه حق وقال قوم انه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقا او فى التوحيد فثلثت النصارى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالوا كنا أحق بان تكون النبوة فينا من قريش لانهم أميون ونحن اهل الكتاب (الا من بعد ما جاءهم العلم) بالتوحيد انه الحق الذى لا محيد عنه (بغيا) اى ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب الا حسدا (بينهم) وطلبا للرياسة وقيل هو اختلاف فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما جاءهم العلم ببيان بعثته فى كتبهم حيث آمن به بعض وكفر به بعض وقيل هو اختلافهم فى الايمان بالانبياء فمنهم من آمن بموسى ومنهم من آمن بعيسى ولم يؤمن ببقية الانبياء وقوله تعالى (ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب) اى المجازاة له وعيد لمن كفر منهم (فان حاجوك) اى جادلك الذين كفروا يا محمد فى الدين (فقل) لهم (أسلمت وجهى لله) اى اخلصت نفسى وجملتى لله وحده لم اجعل فيهما لغيره شركا بان اعبده ولا ادعو الها معه يعنى أن دينى دين التوحيد وهو الدين القويم الذى ثبت عندكم صحته كما ثبت عندى وما جئت بشئ مبتدع حتى تجادلونى فيه وخص الوجه بالذكر لشرفه فهو تعبير عن جملة الشخص باشرف اجزائه الظاهرة وقوله تعالى (ومن اتبعن) عطف على التاء فى اسلمت وحسن للفاصل ويجوز كما قال فى الكشاف ان تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولا معه اى نظرا الى ان المشاركة بين المتعاطفين فى مطلق الاسلام اى الاخلاص لا فيه بقيد وجهه حتى يمتنع ذلك لاختلاف وجهيهما (وقل للذين أوتوا الكتاب) وهم اليهود والنصارى (والاميين) اى الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب (أأسلمتم) اى فهل أسلمتم كما اسلمت أم انتم بعد على الكفر وهذا كقولك لمن لخصت له المسئلة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا الا سلكته هل فهمتها وفى هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الانصاف لان المنصف اذا تجلت له الحجة لم يتوقف اذعانا للحق وكذلك فى هل فهمتها توبيخ بالبلادة وقيل المراد بالاستفهام هنا الامر اى اسلموا كما قال تعالى فهل أنتم منتهون اى انتهوا (فان اسلموا فقد اهتدوا) اى نفعوا انفسهم حيث خرجوا من الضلال الى الهدى ومن الظلمة الى النور فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال اهل الكتاب اسلمنا فقال لليهود اتشهدون ان عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله وقال للنصارى اتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله ان يكون عيسى عبدا فقال عز وجل (وان تولوا) اى عن الاسلام لم يضروك (فانما عليك البلاغ) اى فانك رسول منبه ما عليك الا ان تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى وقد بلغت وليس اليك الهداية (والله بصير بالعباد) اى عالم بمن يؤمن وبمن

بعث وصفوه بخلاف ما كان عليه من العدل والامانة وانما قال يوسف ما قاله ليتوصل الى ما هو وظيفة الانبياء وهو اقامة العدل وبسط الحق ولانه علم انه لا أحد فى زمنه أقوم منه بذلك العمل فكان متعينا عليه (قلت) ٣ كلما نضجت جلودهم بدلناهم

٣ قوله قلت الخ كذا بالاصل ويظهر ان ههنا سقطا وتقديره مثلا قوله تعالى كلما نضجت جلودهم الخ فان قلت كيف تعذب جلود لم تعص قلت الخ اه مصححه

لا يؤمن فيجازى كلا منهم بعمله وهذا قبل الامر بالقتال (ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط) اى بالعدل (من الناس) وهم اليهود قتل اوائلهم الانبياء وقتلوا أتباعهم ومن فى عصره صلى الله عليه وسلم كرواية وقصدوا قتله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لكن الله تعالى عصمهم وعن أبى عبيدة بن الجراح قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر وروى أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا فنهاهم مائة وسبعون من عبادهم فقتلوهم من يومهم وخبران (فبشرهم) اى أعلمهم (بعذاب أليم) اى مؤلم وذكر البشارة تهكم بهم (فان قيل) لم أدخل الفاء فى خبران مع أنه لا يقال ان زيدا فقائم (أجيب) بان الموصول متضمن معنى الشرط فكأنه قيل الذين يكفرون فبشرهم بمعنى من يكفر فبشرهم (أولئك الذين حبطت أعمالهم) اى ما عملوه من خير كصدقة وصلة رحم (فى الدنيا والآخرة) فلا يعتد بها لعدم شرطها (وما لهم من ناصرين) اى مانعين عنهم العذاب (ألم تر) اى تنظر (الى الذين أوتوا نصيبا) اى حظا (من الكتاب) اى التوراة أو جنس الكتب السماوية ومن للتبعيض أو البيان قال البيضاوى وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير اه أما التعظيم فظاهر وهو ما اقتصر عليه الزمخشرى وأما التحقير ففيه نظر اذ النصيب المراد به الكتاب أو بعضه لا حقارة فيه وقد يقال ان تحقيره بالنسبة اليهم حيث لم يعملوا به (يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم) الداعى هو محمد صلى الله عليه وسلم وكتاب الله القرآن أو التوراة واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فروى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس اى موضع صاحب دراسة كتبهم على جماعة من اليهود فدعاهم الى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد على أى دين أنت قال دين ابراهيم فقالا له ان ابراهيم كان يهوديا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلموا الى التوراة فهى بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا وكان فى كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما الى النبى صلى الله عليه وسلم ورجوا أن تكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم فقال له النعمان ابن أوفى وعدى بن عمرو جرت علينا يا محمد ليس عليهما الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبينكم التوراة قالوا قد أنصفتنا قال فمن أعلمكم بالتوراة قالوا رجل يقال له عبد الله بن صوريا فأرسلوا اليه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشئ من التوراة فيها الرجم مكتوب فقال له اقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها وقرأ ما بعدها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن سلام يارسول الله قد جاوزها وقام فرفع كفه عنها ثم قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود ان المحصن والمحصنة اذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما وان كانت حبلى تتربص حتى تضع ما فى بطنها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهوديين فرجما فغضب اليهود وانصرفوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية (ثم يتولى فريق منهم) وأتى بثم لاستبعاد توليهم مع علمهم بان الرجوع الى كتاب الله تعالى واجب لا التراخى فى الزمان اذ لا تراخى فيه وقوله تعالى (وهم معرضون) أى عن قبول حكمه جملة حالية من فريق وانما

جلودا غيرها اى بان تعاد الى حالها الاول غير منضجة اى محرقة فالمراد تبديل الصفة لا الذات كما فى قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات (قوله وندخلهم ظلا ظليلا) هو عبارة عن المستلذ المستطيب كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا جريا على المتعارف بين الناس والا فلا شمس فى الجنة طالعة ولا غاربة كما انه لا بكرة فيها ولا عشية

ساغ لتخصيصه بالصفة (ذلك) اشارة الى ما ذكر من التولي والاعراض (بانهم قالوا) اى بسبب قولهم (لن تمسنا النار الا أياما معدودات) اى قالوا ذلك بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد المائل والطمع الفارغ عن حصول المطموع فيه وهو الخروج من النار بعد أيام قليلة وهي أربعون يوما مدة عبادة آبائهم العجل ثم تزول عنهم (وغرهم في دينهم) والغرور هو الاطماع فيما لا يحصل منه شئ (ما كانوا يفترون) اى من أن النار لن تمسهم الا أياما قلائل أو ان اباءهم الانبياء يشفعون لهم أو انه تعالى وعد يعقوب أن لا يعذب أولاده الا تحلة القسم * (تنبيه) * في دينهم متعلق بغرهم ولا يصح تعلقه بيفترون خلافا للسيوطي لان ما قبل الموصول لا يتعلق بما بعده (فكيف) حالهم أو فكيف صنعهم (اذا جمعناهم ليوم) اى في يوم (لا ريب) اى لا شك (فيه) وهو يوم القيامة وفي ذلك استعظام لما يحيق بهم في الآخرة روى أن أول راية اى علم ترفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤس الاشهاد ثم يؤمر بهم الى النار (ووفيت كل نفس) اى من أهل الكتاب وغيرهم جزاء (ما كسبت) اى عملت من خير أو شر وفي ذلك دليل على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد في النار وان دخلها الا لان توفية ايمانه وعمله لا يكون في النار لا قبل دخولها فاذا هي بعد الخلاص ان دخلها (وهم لا يظلمون) اى بنقص حسنة أو زيادة سيئة * (تنبيه) * ذكر ضمير وهم لا يظلمون وجمعه باعتبار معنى كل نفس لانه في معنى كل انسان ولما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ووعد أمته ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم أولم يكف محمدا مكة والمدينة حتى يطمع في ملك فارس والروم فانزل الله سبحانه وتعالى (قل اللهم) اى يا الله والميم عوض عن ياء النداء ولذلك لا يجتمعان والتعويض من خصائص هذا الاسم كما اختص بدخولها عليه مع لام التعريف وقطع همزته وكما اختص بدخول تاء القسم عليه وأما قولهم ترب الكعبة فنادر (مالك الملك) اى مالك العباد وما ملكوا قال الله تعالى في بعض الكتب المنزلة أنا الله ملك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فان العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة وان عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الى أعطفهم عليكم وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم كما تكونوا يولى عليكم (تؤتي) اى تعطي (الملك) أي في الدنيا (من تشاء) من خلقك (وتنزع الملك ممن تشاء) منهم وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم الى قوم وقال الكلبي تؤتي الملك محمدا وأصحابه وتنزعه من أبي جهل وصناديد قريش وقيل تؤتيه لآدم وذريته وتنزعه من ابليس وجنوده (وتعز من تشاء) من خلقك وقيل محمدا وأصحابه حتى دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها (وتذل من تشاء) منهم وقيل أبا جهل وأصحابه حزت رؤسهم وألقوا في القليب وقيل تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية وقيل تعز من تشاء بالقناعة وتذل من تشاء بالحرص والطمع وقيل تعز من تشاء بالتجرد وتذل من تشاء بتركه (بيدك) اى بقدرتك (الخير) اى والشر واقتصر على الاول لمسارعة الادب في الخطاب أو اكتفى بذكر أحد المقابلين كما في قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر اى والبرد أو لان الكلام وقع فيه اذ روى البيهقي وغيره أنه صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق وقطع لكل عشرة

(قوله ومن يطع الله والرسول الآية) ان قلت هذا مدح لمن يطيع الله والرسول وعادة العرب في صفات المدح الترقي من الادنى الى الاعلى وهذا عكسه (قلت) ليس هو من ذلك الباب بل المقصود منه الاخبار اجمالا عن كون المطيعين لله ولرسوله يكونون يوم القيامة مع الاشراف وقد تم الكلام عند قوله انعم الله عليهم

أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون فظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء واخذ المعول منه فضربها ضربة فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها أى المدينة فكأن بها مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر المسلمون وقال أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب اى فى بياضها وصغرتها وانضمام بعضها الى بعض واللابتان حرّتان يكتنفانها والحرّة كل أرض ذات حجارة سوداء كأنها محترقة من الحرّ ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن امتى ظاهرة على كلها اى الاراضى التى أضاءت فابشروا فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم أيها المؤمنون ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب اى المدينة قصور الحيرة وأنها تفتح لكم وأنتم انما تحفرون الخندق من الفرق اى الخوف فنزلت ونبه ايضا على أن الشر بيده بقوله (انك على كل شئ قدير) والشر شئ ثم عقب ذلك ببيان قدرته على تعاقب الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله فقال (تولج) اى تدخل (الليل فى النهار) حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات (وتولج) اى تدخل (النهار فى الليل) حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر (وتخرج الحى من الميت) كالانسان من النطفة والطائر من البيضة (وتخرج الميت من الحى) كالنطفة من الانسان والبيضة من الطائر وقال الحسن وعطاء تخرج المؤمن من الكافر وتخرج الكافر من المؤمن فالمؤمن حىّ الفؤاد والكافر ميت الفؤاد قال الله تعالى أومن كان ميتا فاحييناه وقال الزجاج يخرج النبات الغض الطرى من الحب اليابس وتخرج الحب اليابس من النبات الحى النامى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة الميت بسكون الياء والباقون بكسر الياء مشددة (وترزق من تشاء بغير حساب) اى رزقا واسعا عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فاتحة الكتاب وآية الكرسى والآيتين من آل عمران شهد الله الى قوله ان الدين عند الله الاسلام وقل اللهم مالك الملك الى قوله بغير حساب معلقات ما بينهن و بين الله عز وجل حجاب قلن يارب تهبطنا الى أرضك والى من يعصيك قال الله عز وجل بى حلفت لا يقرأكن أحد دبر كل صلاة الا جعلت الجنة مثواه على ما كان فيه ولأسكننه حظيرة قدسى ولأنظرن اليه بعينى المكنونة كل يوم سبعين مرة ولأقضين له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ولأعيذنه من كل عدو وحاسد ولأنصرنه منه (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) يوالونهم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالاخبار يرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الاسلام أو غير ذلك من الاسباب التى يتصادق بها أو يتعاشر وقوله تعالى (من دون) اى غير (المؤمنين) اشارة الى أنهم الاحقاء بالموالاة وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة والمحبة فى الله والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الايمان (ومن يفعل ذلك) اى يوال الكفرة (فليس من الله) اى من ولاية الله (فى شئ) يصح

ثم فصلهم بذكر الاشرف فالاشرف بقوله من النبيين الى آخره جريا على العادة فى تعديد الاشراف ومثله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم (قوله ان كيد الشيطان كان ضعيفا) * ان قلت كيف وصف فيه

أن يسمى ولاية شرعية فان ولاية المتعادين لا يجتمعان لما بينهما من التضاد كما قال القائل

فليس أخي من ودني رأي عينه • ولكن أخي من ودني في المغايب
تودّ عدوّي ثم تزعم أنني • صديقك ليس النوك عنك بعازب

بعين مهملة وزاي اي بغائب والنوك بضم النون الحمق والجنون ثم استثنى فقال (إلا أن تتقوا منهم تقاة) اي الا أن تخافوا منهم مخافة تملكم والاتهم باللسان دون القلب كما قال عيسى عليه الصلاة والسلام كن وسطا اي في معاشرتهم ومخالفتهم وامش جانبا اي من موافقتهم فيما يأمرون ويذرون وهذا قبل عزة الاسلام ويجري في بلد ليس قويا فيها قال معاذ بن جبل ومجاهد كانت التقية في بدء الاسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين وأما اليوم فقد أعز الله الاسلام فليس ينبغي لاهل الاسلام أن يتقوا من عدوهم (ويحذركم الله) اي يخوفكم (نفسه) ان يغضب عليكم ان واليتموهم (والى الله المصير) اي المرجع فيجازيكم فلا تتعرضوا للسخط بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي المنهي عنه في القبح وذكر النفس ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه فلا يبالي عنده بما يحذر من الكفرة (قل) لهم يا محمد (ان تخفوا ما في صدوركم) اي قلوبكم من موالاة الكفار أو غيرها مما لا يرضى الله (أو تبدوه) اي تظهروه (يعلمه الله) ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به وقال الكلبي ان تسروا ما في قلوبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من التكذيب أو تظهروه بحربه وقتاله يعلمه الله (و) هو الذي (يعلم ما في السموات وما في الارض) لا يخفى عليه منه شيء قط فلا يخفى عليه سركم وعلانيتكم (والله على كل شيء قدير) فهو قادر على عقوبتكم ان لم تنتهوا عما نهيتم عنه وهذا بيان لقوله تعالى ويحذركم الله نفسه لان نفسه متصفة بعلم ذاتي يحيط بالمعلومات كلها وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها فلا تجسروا على عصيانه اذ ما من معصية الا وهو مطلع عليها لا محالة قادر على العقاب بها ولو علم بعض عبيد السلطان انه أراد الاطلاع على أحواله بان وكل من يتجسس عن مواطن أموره لاخذ حذره منه كل الحذر فما بال من علم أن العالم الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن اللهم انا نعوذ بك من اغترارنا بسترك ونسألك اليقظة من سنة الغفلة (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) نصب يوم بمضمر نحو اذكر وقوله تعالى (وما عملت) اي عملته (من سوء) مبتدأ خبره (تود لو أن بينها) اي النفس (وبينه) اي السوء (أمدا بعيدا) اي غاية في نهاية البعد فلا يصل اليها وكرر سبحانه وتعالى (ويحذركم الله نفسه) قال البيضاوي للتأكيد والتذكير وقال التفتازاني الاحسن ما قيل ان ذكره أولا للمنع من موالاة الكافرين وثانيا للحث على عمل الخير والمنع من عمل الشر وقوله تعالى (والله رؤف بالعباد) اشارة الى انه تعالى انما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم وعن الحسن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي رؤف بقصر الهمزة والباقون بالمد وورش على أصله في المد والتوسط والقصر ونزل في اليهود والنصارى حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه (قل) لهم يا محمد (ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وهم يسجدون لها فقال

كيد الشيطان بالضعف وفي قوله ان كيدهن عظيم وصف كيد النساء بالعظم مع ان كيد الشيطان اعظم (قلت) المراد ان كيد الشيطان ضعيف بالنسبة الى نصرة الله أوليائه وكيد النساء عظيم بالنسبة الى الرجال (قوله فمن ما أصابك من حسنة فمن الله الآية) جمع بينه وبين قوله قل كل من عند الله الواقع رد القول المشركين

يامعشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم ابراهيم واسمعيل فقال له قريش انما نعبدها حبا لله تعالى ليقربونا الى الله زلفى فقال الله تعالى قل لهم يا محمد ان كنتم تحبون الله وتعبدون الاصنام لتقربكم اليه فاتبعونى يحببكم الله فانا رسوله اليكم وحجته عليكم اى اتبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله فحب المؤمنين لله اتباعهم أمره وايثار طاعته وابتغاء مرضاته وحب الله للمؤمنين ثناؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم فذلك قوله تعالى (ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور) لمن اتبعنى ما سلف من ذنبه قبل ذلك (رحيم) به وعن الحسن زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عملهم فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب وكتاب الله يكذبه واذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكره ويطرب وينعر ويصعق فلا شك أنه لا يعرف ما الله ولا يدرى ما محبة الله وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته الا لانه تصور فى نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسماها الله بجهله وادعائه ثم صفق وطرب ونعر وصعق عند تصورها وربما رأيت المنى قد ملأ ازار ذلك المحب عند صعقته وحمق العامة حواليه قد ملؤا أردانهم بالدموع لما رأوه من حاله ٭ ولما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أبى لاصحابه ان محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى نزل قوله تعالى (قل) لهم (أطيعوا الله والرسول) فيما يأمركم به من التوحيد (فان تولوا) اى أعرضوا عن الطاعة (فان الله لا يحب الكافرين) اى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم وانما أتى بالظاهر ولم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على ان التولى كفر وأنه من هذه الحيثية ينفى محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين ولما أوجب الله سبحانه وتعالى طاعة الرسل عليهم الصلاة والسلام وبين أنها الجالبة لمحبة الله عقب ذلك ببيان مناقبهم تحريضا على الطاعة فقال تعالى (ان الله اصطفى) اى اختار (آدم ونوحا وآل ابراهيم) وهم اسمعيل واسحق وأولادهما الرسل وقد دخل فى آل ابراهيم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وآل عمران) موسى وهرون ابنا عمران بن يصهر (على العالمين) بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية ولذلك قووا على ما لم يقو عليه غيرهم وبهذه الآية استدل على فضل الرسل على الملائكة وقيل آل عمران عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة وقيل آل ابراهيم وآل عمران أنفسهما وقوله تعالى (ذرية) بدل من آل ابراهيم وآل عمران (بعضها من) ولد (بعض) منهم وقيل بعضها من بعض فى الدين والذرية تقع على الواحد والجمع والذكر والانثى (والله سميع) لاقوال الناس (عليم) باحوالهم فيصطفى من كان منهم مستقيم القول والحال واذكر (اذ قالت امرأت عمران) وهى حنة بنت فاقوذا أم مريم وعمران هو عمران بن ماثان رئيس بنى اسرائيل وليس هو عمران أبا موسى وهرون اذ كان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة كما مر وكان بنو ماثان رؤس بنى اسرائيل وأحبارهم وملوكهم ٭ (فائدة) ٭ رسمت امرأت بالتاء المجرورة ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء ووقف الكسائى بالفتح والامالة واذا وقف حمزة سهل الهمزة وروى أن حنة كانت عاقرا عجوزا فبينما هى فى ظل شجرة اذ رأت طائرا يطعم فرخه فحنت الى الولد وتمنته فقالت اللهم ان لك على نذرا شكرا ان رزقتنى ولدا أن أتصدق به على

وان تصبهم حسنة الآية
بان قوله كل من عند الله اى
ايجادا وقوله وما أصابك
من سيئة فمن نفسك اى
كسبا كما فى قوله تعالى
وما أصابكم من مصيبة
فيما كسبت ايديكم وبان
قوله ما أصابك من حسنة
الآية حكاية قول
المشركين والتقدير فمال
هؤلاء القوم لا يكادون
يفقهون حديثا يقولون

بيت المقدس فيكون من خدمه فحملت فلما أحست بالحمل قالت يا (رب انى نذرت) أن أجعل (لك ما فى بطنى محررا) اى عتيقا خالصا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس وكان هذا النذر مشروعا فى عهدهم فى الغلمان فقال لها زوجها ويحك ما صنعت أرأيت ان كان ما فى بطنك أنثى لا تصلح لذلك فوقعا جميعا فى هم من ذلك وهلك عمران وحنة حامل بمريم (فتقبل منى) ما نذرته (انك أنت السميع) لقولى (العليم) بنيتى (فلما وضعتها) اى ولدتها جارية والضمير لما فى بطنها وانما أنث على المعنى لان ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله أو على تأويل النفس أو النسمة ولم يكن يحرر الا الغلمان وكانت ترجو أن يكون غلاما ولذلك نذرت تحريره (قالت) معتذرة يا (رب انى وضعتها أنثى) فان قيل كيف جاز انتصاب أنثى حالا من الضمير فى وضعتها وهو كقوله وضعت الانثى أنثى (أجيب) بان الاصل وضعته أنثى وانما أنث لتأنيث الحال لان الحال وصاحبها بالذات واحد وأما على تأويل النفس أو النسمة فهو ظاهر كأنها قالت انى وضعت النفس أو النسمة أنثى (والله أعلم) اى عالم (بما وضعت) قرأ ابن عامر وشعبة بسكون العين وضم التاء فيكون من كلامها قالته تسلية لنفسها اى ولعل لله فيه سرا أو حكمة ولعل هذه الانثى خير من الذكر وقرأ الباقون بفتح العين وسكون التاء فيكون من كلام الله تعالى تعظيما لموضوعها وتجهيلا لها بقدر ما وهب لها منه ومعناه والله أعلم بالانثى التى وضعت وما علق به من عظائم الامور وان يجعلها وولدها آية للعالمين وهى جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئا فلذلك تحسرت وقرأ أبو عمرو والله اعلم بسكون الميم واخفائها عند الباء بخلاف عنه والباقون بالاظهار وقوله تعالى (وليس الذكر كالانثى) بيان لما فى قوله والله اعلم بما وضعت من التعظيم للموضوع والرفع منه ومعناه وليس الذكر الذى طلبت كالانثى التى وهبت لها واللام فيهما للعهد أما معهود لام الانثى ففى قولها انى وضعتها أنثى وأما معهود لام الذكر ففى قولها محررا ويجوز أن يكون معنى قولها وليس الذكر كالانثى اى وليس الذكر والانثى سيين فيما نذرت لما يعترى الانثى من الحيض والنفاس فتكون اللام للجنس وقوله تعالى (وانى سميتها مريم) عطف على انى وضعتها أنثى وما بينهما جملتان معترضتان كقوله تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم وانما ذكرت ذلك لربها تقربا اليه وطلبا لان يعصمها و يصلحها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها فان مريم فى لغتهم بمعنى العابدة * (تنبيه) * فى قوله تعالى حكاية عنها سميتها مريم دليل على ان الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة أو معنى سميتها مريم جعلت اسم المولود مريم (وانى أعيذها) اى أجيرها (بك) اى بحفظك (وذريتها) اى أولادها (من الشيطان الرجيم) اى المطرود وروى الشيخان ما من مولود يولد الا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا الا مريم وابنها ولا يبعد كما قال الطيبى اختصاص عيسى وأمه بهذه الفضيلة دون الانبياء لجواز ان يمكن الله تعالى الشيطان من مسهم مع عصمتهم من الاغواء ولا يمتنع كما قال التفتازانى ان يمس الشيطان المولود حين يولد بحيث يصرخ كما ترى وتسمع وليست تلك المسة للاغواء ليدفع انه لا يتصور فى حق المولود حيث يولد وحينئذ فقول البيضاوى معناه ان الشيطان يطمع فى اغواء كل مولود اى لا يمسه فيه اخراج الحديث عن ظاهره وتبع فيه الزمخشرى وهو ما سلكه المعتزلة حيث انكروا هذا الحديث وقدحوا فى صحته لان الشيطان انما يدعو الى الشر من له تمييز

(قوله
ما أصابك الآية
ولو كان من عند غير
الله لوجدوا فيه اختلافا
كثيرا) يدل بمفهومه على
ان فى القرآن اختلافا
قليلا والا لما كان للتقييد
بوصف الكثرة فائدة مع
انه لا اختلاف فيه أصلا
اذ المراد بالاختلاف فيه

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل بني آدم يطعنه الشيطان في جنبيه باصبعيه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعنه فطعن في الحجاب (فتقبلها ربها) اى قبل مريم من أمها ورضي بها في النذر مكان الذكر (بقبول حسن) وهو اختصاصه لها باقامتها مقام الذكر في النذر ولم يقبل قبلها أنثى (وأنبتها نباتا حسنا) اى أنشأها بخلق حسن فكانت تنبت في اليوم كما ينبت المولود في العام (وكفلها زكريا) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتشديد الفاء وقصروا زكريا غير عاصم في رواية ابن عياش على ان الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول اى جعله كافلا لها وضامنا لمصالحها فلا بد من تقدير مضاف في الآية وهو مصالح لان كفالة البدن لا معنى لها وقرأ الباقون بتخفيف الفاء ومدوا زكريا مرفوعا على الفاعلية روى ان حنة لما ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها الى المسجد الاقصى ووضعتها عند الاحبار وقالت دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لانها بنت امامهم الاعظم في العلم والصلاح فقال زكريا أنا أحق بها لان خالتها عندي فقالت الاحبار لا تقل ذلك فانها لو تركت لاحق الناس بها لتركت لامها التي ولدتها لكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه وكانوا تسعة وعشرين رجلا فانطلقوا الى نهر الاردن والقوا فيه أقلامهم على ان من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها فثبت قلم زكريا فاخذها وضمها الى خالتها أم يحيى حتى اذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها غرفة في المسجد وجعل بابها في وسطها لا يرقى اليها الا بالسلم ولا يصعد اليها غيره وكان يأتيها باكلها وشربها ودهنها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء كما قال تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب) اى الغرفة والمحراب اشرف المجالس ومقدمها وكذلك هو من المسجد ويقال أيضا للمسجد محراب قال المبرد لا يكون المحراب الا ان يرتقى اليه بدرج (وجد عندها رزقا) قال الربيع بن أنس كان زكريا اذا خرج يغلق عليها سبعة أبواب فاذا دخل عليها غرفتها وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فاذا وجد عندها ذلك (قال يامريم انى لك هذا) اى من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والابواب مغلقة عليك (قالت) وهي صغيرة (هو من عند الله) يأتيني به من الجنة قيل تكلمت في المهد وهي صغيرة كما تكلم ابنها عيسى وهو صغير في المهد ولم ترضع ثديا قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة وفي هذا دليل واى دليل على كرامة الاولياء وليس ذلك معجزة لزكريا كما زعمه جماعة لان ذلك مدفوع باشتباه الامر عليه حتى قال لها انى لك هذا ولو كان معجزة له لادعاها وقطع بها الا ان النبي شأنه ذلك ويدل عليها غير ذلك كقصة اصحاب الكهف ولبثهم في الكهف سنين عددا بلا طعام ولا شراب وقصة آصف من اتيانه بعرش بلقيس قبل ارتداد الطرف ورؤية عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو على المنبر جيشه بنهاوند حين قال ياسارية الجبل وسماع سارية ذلك وكان بينهما مسافة شهر وشرب خالد رضي الله عنه السم من غير ان يضره وبالجملة فكرامات الاولياء حق ثابتة بالكتاب والسنة وليس بعجيب انكارها من أهل البدع والاهواء اذا لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم ولم يسمعوا به من رؤسائهم الذين يزعمون انهم على شيء فوقعوا في أولياء الله تعالى اصحاب الكرامات يمزقونهم ويسمونهم بالجهلة المتصوفة ولم يعرفوا ان مبنى هذا الامر على صفاء العقيدة ونقاء

فيه التناقض في معانيه والتباين في نظمه واجيب بان التقييد بالكثرة للمبالغة في اثبات الملازمة أى لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فضلا عن

السرية واقتفاء الطريقة واصطفاء الحقيقة وانما العجب من بعض فقهاء اهل السنة حيث قال فيما روى عن ابراهيم بن ادهم انهم رأوه بالبصرة يوم التروية وفي ذلك اليوم بمكة ان من اعتقد جواز ذلك يكفر والانصاف ماذكره الامام النسفي حين سئل عما يحكى ان الكعبة كانت تزور بعض الاولياء هل يجوز القول به فقال نقض العادة على سبيل الكرامة لاهل الولاية جائز عند اهل السنة وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم جاع في زمن قحط فاهدت له فاطمة رضي الله تعالى عنها رغيفين وبضعة لحم في طبق مغطى آثرته به فرجع بذلك اليها وقال هلمي يابنية فكشفت عن الطبق فاذا هو مملوء خبزا ولحما فبهتت وعلمت ان ذلك نزل من عند الله فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال لها عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة نساء بني اسرائيل ثم جمع صلى الله عليه وسلم عليا والحسن والحسين وجميع اهل بيته فاكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فاوسعت فاطمة على جيرانها هذه كرامة لفاطمة رضي الله تعالى عنها وفي هذه الرواية دليل على ان قوله تعالى (ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) اى رزقا واسعا بلا تبعة من كلام مريم رضي الله تعالى عنها ويحتمل ان يكون من كلام الله تعالى * ولما رأى زكريا كرامة مريم ومنزلتها عند الله قال ان الذي قدر على ان يأتي مريم بالفاكهة في غير حينها من غير سبب قادر على ان يصلح زوجتي ويهب لي ولدا في غير حينه على الكبر فطمع في الولد وذلك ان اهل بيته كانوا قد انقرضوا وكان زكريا قد شاخ وايس من الولد قال الله عز وجل (هنالك دعا زكريا ربه) اى في ذلك المكان او الوقت قال الزمخشري قد تستعار هنا وثم وحيث للزمان اى لمشابهة الزمان للمكان في الظرفية فاستعير له فدخل زكريا المحراب وناجى ربه في جوف الليل (قال يارب هب لي) اى اعطني (من لدنك) اى من عندك (ذرية طيبة) كما وهبتها لحنة العجوز العاقر اى ولدا مباركا تقيا صالحا رضيا والذرية يكون واحدا وجمعا ذكرا وانثى وهو هنا واحد بدليل قوله فهب لي من لدنك وليا يرثني وانما قال طيبة لتأنيث لفظ الذرية (انك سميع) اى مجيب (الدعاء) لمن دعاك فلا تردني خائبا (فنادته الملائكة) اى جنسهم كقولهم فلان يركب الخيل فان المنادى كان هو جبريل وحده وقرأ حمزة والكسائي فناداه بالامالة والتذكير والباقون بالتاء (وهو قائم يصلي في المحراب) اى المسجد وذلك ان زكريا كان هو الحبر الكبير الذي يقرب القربان ويفتح باب المذبح فلا يدخلون حتى يأذن لهم في الدخول فبينما هو قائم يصلي في المحراب والناس ينتظرون ان يؤذن لهم في الدخول فاذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع منه فناداه وهو جبريل وقرأ (ان الله يبشرك بيحيى) ابن عامر وحمزة بكسر الهمزة على ارادة القول او لان النداء نوع من القول والباقون بالفتح على بان وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء من يبشرك وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين المشددة واختلفوا في انه لم سمي يحيى قال ابن عباس لان الله احيا به عقر امه وقال قتادة لان الله احيا قلبه بالايمان وقيل لان الله تعالى احيا قلبه بالطاعة حتى انه لم يهم بمعصية وهو اسم اعجمي منع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى وقيل عربي ومنع صرفه للتعريف ووزن الفعل كيحيى وجمعه يحيون كموسون

وعيسون

القايل لكنه من عند الله فليس فيه اختلاف كثير ولا قليل (قوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا) * ان قلت كيف استثنى القليل بتقدير انتفاء

وعيسون (مصدقا بكلمة) كائنة (من الله) اى بعيسى انه روح الله وسمى كلمة لانه خلق بكلمة كن وقيل لان الله اخبر الانبياء بكلامه فى كتابه انه يخلق نبيا بلا اب فسماه بكلمة لحصول ذلك الوعد وكان يحيى اول من آمن بعيسى وصدقه وكان يحيى اكبر من عيسى بستة اشهر ثم قتل يحيى قبل ان يرفع عيسى عليهما الصلاة والسلام وقول البيضاوى وكان يحيى وعيسى ابنى خالة من الاب فيه تجوز اذ يحيى ابن خالة أم عيسى لا ابن خالته وعيسى ابن بنت خالة يحيى لا ابن خالته (وسيدا) اى يسود قومه فيصير متبوعا وقال الضحاك السيد الحسن الخلق وقال سعيد ابن جبير السيد الذى يطيع ربه وقال سعيد بن المسيب السيد الفقيه العالم (وحصورا) أى مبالغا فى حبس النفس عن الشهوات والملاهى روى أنه مر وهو طفل بصبيان فدعوه للعب فقال ما للعب خلقت وقال سعيد بن المسيب الحصور هو العنين الذى لا ماء له فيكون الحصور بمعنى المحصور كأنه ممنوع من النساء وقيل كان له مثل هدبة الثوب وقد تزوج مع ذلك ليكون أغض لبصره وقيل هو الممتنع من الوطء مع القدرة عليه واختار قوم هذا القول لوجهين أحدهما ان الكلام خرج مخرج الثنا وهذا أقرب الى استحقاق الثناء والثانى انه أبعد من الحاق الآفة بالانبياء (ونبيا) ناشئا (من الصالحين) لانه كان من أصلاب الانبياء أو كائنا من جملة الصالحين فمن على هذا للتبعيض كقوله تعالى وانه فى الآخرة لمن الصالحين (قال رب أنى) أى كيف (يكون لى غلام) أى ابن (وقد بلغنى الكبر) أى أدركنى كبر السن وأثر فى وكان عمره مائة وعشرين سنة وقيل تسعا وتسعين سنة (وامرأتى عاقر) أى لا تلد من العقر وهو القطع لانها ذات عقر من الاولاد وكانت بنت ثمان وتسعين سنة (فان قيل) كيف قال زكريا بعد ما وعده الله تعالى أن يكون له غلام أنى يكون لى غلام أكان شاكا فى وعد الله وفى قدرته (أجيب) بأنه قال ذلك استبعادا من حيث العادة كما قالت مريم أو استعظاما وتعجبا أو استفهاما عن كيفية حدوثه أى أتجعلنى وامرأتى شابين أو ترزقنا ولدا على الكبر منا أو ترزقنى امرأة أخرى وقيل ان زكريا لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال يا زكريا ان الصوت الذى سمعت ليس هو من الله انما هو من الشيطان ولو كان من الله لاوحاه اليك كما يوحى اليك فى سائر الامور فقال ذلك لتدفع الوسوسة (قال) الامر (كذلك) أى من خلق غلام منكما (الله يفعل ما يشاء) لا يعجزه عنه شئ ولاظهار هذه القدرة العظيمة ألهمه الله السؤال ليجاب بها ولما تاقت نفسه الى سرعة المبشر به (قال رب اجعل لى آية) أى علامة أعرف بها حمل امرأتى لاتلقى النعمة اذا جاءت بالشكر (قال آيتك) عليه (ألا تكلم الناس) أى تمتنع من كلامهم (ثلاثة أيام) أى بلياليها كما فى سورة مريم ثلاث ليال (الا رمزا) أى اشارة بيد أو رأس والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام حينئذ ما دل على ما فى الضمير وانما خص تكليم الناس ليعلمه انه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع ابقاء قدرته على التكلم بذكر الله ولذلك قال (واذكر ربك كثيرا وسبح) أى صل (بالعشى) وهو من حين تزول الشمس الى أن تغيب (والابكار) وهو من طلوع الفجر الى وقت الضحى (فان قيل) لم حبس لسانه عن كلام الناس (أجيب) بأنه انما فعل به ذلك لتخلص المدة المذكورة لذكر الله تعالى لا يشغل لسانه بغيره توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها التى طلب

الفضل والرحمة مع انه لولاهما لاتبع الكل الشيطان (قات) الاستثناء راجع الى اذاعوا به أو الى علمه الذين يستنبطونه منهم أو الى لاتبعتم الشيطان لكن بتقييد

الآية من أجله كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له آيتك أن يحبس لسانك الا عن الشكر وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه وقال قتادة أمسك لسانه عن الكلام عقوبة له لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة اياه فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام (و) اذكر (اذ قالت الملائكة) أى جبريل قال لها شفاها (يا مريم ان الله اصطفاك) أى اختارك بأن تقبلك من أمك ولم يقبل قبلك أنثى وفرغك للعبادة وأغناك برزق الجنة عن الكسب وتكليمه لها شفاها كرامة لها وقيل كان معجزة لزكريا وقيل كان ارهاصا أى تأسيسا لنبوة عيسى صلى الله عليه وسلم بطريق الخوارق قبل البعثة كاظلال الغمام لنبينا صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بطريق الشام وانما حمل على هذا التأويل لانها ليست بنبية على الاصح بل حكى البيضاوى الاجماع على انه تعالى لم ينبئ امرأة لقوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا لكن نوزع فى دعوى الاجماع لان الخلاف ثابت فى نبوتها ونبوة مريم اذ القول بنبوتها مشهور (وطهرك) أى من مسيس الرجال ومما يستقذر من النساء (واصطفاك) ثانيا (على نساء العالمين) بهدايتك وارسال الملائكة اليك وتخصيصك بالكرامات السنية كالولد من غير أب ولم يكن لاحد من النساء • (فائدة) • أفضل نساء العالمين مريم كما فى الآية اذ قيل بنبوتها ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خديجة أمها ثم عائشة ثم آسية امرأة فرعون (فان قيل) روى الطبرانى خير نساء العالمين مريم بنت عمران ثم خديجة بنت خويلد ثم فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ثم آسية امرأة فرعون (أجيب) بأن خديجة انما فضلت فاطمة باعتبار الامومة لا باعتبار السيادة (يا مريم اقنتى لربك) أى أطيعيه (واسجدى واركعى مع الراكعين) أى وصلى مع المصلين فى الجماعة أو وانظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولا تكونى فى عداد غيرهم (فان قيل) لم قدم السجود على الركوع (أجيب) باحتمال أنه كان كذلك فى تلك الشريعة وقيل بل كان السجود قبل الركوع فى الشرائع كلها أو للتنبيه على أن الواو لا تقتضى الترتيب (ذلك) أى ما قصصناه عليك يا محمد من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى (من أنباء الغيب نوحيه اليك) أى من الغيوب التى لم تعرفها الا بالوحى (وما كنت لديهم) أى عندهم (اذ يلقون أقلامهم) فى الماء أى سهامهم التى طرحوها فيه وعليها علامة على القرعة وقيل هى الاقلام التى كانوا يكتبون بها التوراة اختاروها للقرعة تبركا بها ليعلموا (أيهم يكفل مريم) أى يحضنها ويربيها فأى متعلق بمحذوف كما علم من التقدير (وما كنت لديهم اذ يختصمون) فى كفالتها فتعرف ذلك فتخبر به وانما عرفته من جهة الوحى (فان قيل) لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم من غير شبهة وترك نفى استماع الانباء من حفاظها وهو موهوم (أجيب) بأنه كان معلوما عندهم علما يقينا انه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحى مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة ومثل ذلك قوله تعالى وما كنت بجانب الغربى وما كنت بجانب الطور وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم واذكر (اذ قالت الملائكة) أى جبريل (يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه) أى بابن (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) وانما خاطبها بنسبته اليها تنبيها على أنها تلده بلا أب اذ عادة الابناء نسبتهم الى آبائهم لا الى أمهاتهم وبنسبته اليها فضلت واصطفيت على نساء العالمين (فان

الفضل والرحمة بارسال الرسول أى لاتبعتم الشيطان فى الكفر والضلال الا قليلا منكم كانوا يهتدون بعقولهم الى معرفة الله وتوحيده كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل قبل البعثة والخطاب فى الآية للمؤمنين (قوله كلما ردوا الى الفتنة) أى دعوا اليها

قيل) هذه ثلاثة أشياء الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة (أجيب) بأن الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره فكأنه قيل الذي يعرف به ويتميز عمن سواه مجموع هذه الثلاثة والمسيح لقب من الالقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك لقوله وجعلني مباركا أينما كنت واشتقاقه من المسح لانه مسح بالبركة أو بما طهره من الذنوب أو مسح الارض ولم يقم في موضع أو لانه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن أو لان جبريل مسحه بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل أو لانه كان مسيح القدم لا أخمص له وقال ابن عباس سمى مسيحا لانه ما مسح ذا عاهة الا برئ ويسمى الدجال مسيحا لانه ممسوح احدى العينين وعيسى معرب ايشوع وهو بالشين المعجمة السيد قال البيضاوى اشتقاقه من العيس وهو بياض تعلوه حمرة وهو تكلف لاطائل تحته وقوله تعالى (وجيها) أى ذا جاه حال مقدرة من كلمة وهى وان كانت نكرة لكنها موصوفة (فان قيل) لم ذكر ضمير الكلمة (أجيب) بان المسمى بها مذكر (فى الدنيا) أى بالنبوة والتقدم على الناس (و) فى (الآخرة) بالشفاعة والدرجات العلا (ومن المقربين) عند الله تعالى لعلو درجته فى الجنة ورفعه الى السماء وصحبته للملائكة (ويكلم الناس فى المهد) أى صغيرا قبل أوان الكلام كما ذكر فى سورة مريم قال انى عبد الله آتانى الكتاب الآية وحكى عن مجاهد قال قالت مريم كنت اذا خلوت أنا وعيسى حدثنى وحدثته فاذا شغلنى عنه انسان سبح فى بطنى وأنا أسمع والمهد ما يمهد للصبى من مضجعه وقوله تعالى (وكهلا) عطف على فى المهد أى ويكلم الناس فى هاتين الحالتين كلام الانبياء من غير تفاوت بين حال الطفولية وحال الكهولية التى يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الانبياء وقد رفع بعد كهولته وقيل انه رفع شابا وعلى هذا المراد كهلا بعد نزوله وذكر تعالى أحواله المختلفة المتنافية ارشادا الى أنه بمعزل عن الالوهية (فان قيل) فما فائدة البشارة بكلامه كهلا والناس فى ذلك سواء (أجيب) بانه بشرها بانه يبقى الى أن يتكهل وبعدم التفاوت بين الحالين كما مر وقوله تعالى (ومن الصالحين) أى من عباد الله الصالحين حال من كلمة أو من ضميرها الذى فى يكلم (فان قيل) لم ختم الصفات المذكورة بقوله ومن الصالحين بعد كونه وجيها فى الدنيا وفسرت بالنبوة ولا شك أن النبوة أرفع من منصب الصلاح بل كل واحدة من الصفات المذكورة أشرف من كونه صالحا (أجيب) بانه لا يكون كذلك الا ويكون فى جميع الافعال والتروك مواظبا على المنهج الاصلح وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح ولهذا قال نبى الله سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام بعد النبوة وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فلما عدد صفات عيسى عليه الصلاة والسلام أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات (قالت رب) أى يا سيدى فقولها لله عز وجل وقيل قالته لجبريل قاله البغوى وقال الزمخشرى ومن بدع التفاسير أن قولها رب نداء لجبريل بمعنى يا سيدى (أنى) أى كيف (يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) أى ولم يصبنى رجل بتزوج ولا غيره قالت ذلك تعجبا اذ لم تكن جرت العادة بان يولد مولود بلا أب أو استفهاما عن أن يكون بتزوج أو بغيره (قال) الامر (كذلك) من خلق ولد منك بلا أب (الله يخلق ما يشاء) القائل جبريل أو الله وجبريل حكى لها وقوله تعالى (اذا

ا أركسوا فيها أى عادوا اليها وقلبوا فيها اقبح قلب (قوله وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ) ٣ قلت الابعض ولا كمان قوله تعالى

٣ قوله قالت الخ هكذا بالاصل ولعله سقط قبله فان قالت الابعض ماذا أو نحو ذلك فليحرر

قضى أمرا) أى أراد كون شئ (فانما يقول له كن) صرو قرأ (فيكون) ابن عامر بفتح النون والباقون بضمها أى فهو يكون لانه تعالى كما يقدر أن يخلق الاشياء مدرجا بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك فنفخ جبريل فى جيب درعها فحملت وكان من أمرها ما ذكر فى سورة مريم وسيأتى ان شاء الله تعالى الكلام عليه هناك وقوله تعالى (ونعلمه الكتاب) أى الكتابة (والحكمة) أى العلم المقترن بالعمل (والتوراة والانجيل) كلام مستأنف ذكر تطييبا لقلبها وازاحة لما همها من خوف اللوم حين علمت أنها تلد من غير زوج وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة وخص الكتابان لفضلهما وقرأ نافع وعاصم بالياء والباقون بالنون (و) نجعله (رسولا الى بنى اسرائيل) اما فى الصبا أو بعد البلوغ وتخصيص بنى اسرائيل لخصوص بعثه اليهم وللرد على من زعم أنه مبعوث الى غيرهم * (فائدة) * كان أول أنبياء بنى اسرائيل يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى عليهم الصلاة والسلام * ولما بعث اليهم قال لهم انى رسول الله اليكم (أنى) أى بأنى (قد جئتكم بآية) أى علامة (من ربكم) تصدق قولى وانما قال بآية وقد أتى بآيات لان الكل دل على شئ واحد وهو صدقه فى الرسالة * ولما قال ذلك لبنى اسرائيل قالوا وما هى قال هى (أنى) قرأ نافع وحده بكسر الهمزة على الاستئناف وفتح الياء من انى نافع وأبو عمرو وسكنها الباقون (أخلق) أى أصور (لكم من الطين كهيئة الطير) أى مثل صورته فيصير طيرا كسائر الطيور رحما طيارا والكاف اسم مفعول وقرأ ورش بالمد على الياء من هيئة والتوسط كما تقدم فى شئ (فأنفخ فيه) الضمير للكاف أى فى ذلك المماثل للطير أى فى فيه (فيكون طيرا باذن الله) أى بارادته نبه بذلك على أن احياءه من الله تعالى لا منه وقرأ نافع بألف بعد الطاء بعدها همزة مكسورة ورقق ورش الراء على أصله والباقون بياء ساكنة بعد الطاء من غير ألف فقراءة الجمع نظرا الى أنه خلق طيرا كثيرا وقراءة المفرد نظرا الى أنه نوع واحد من الطير لانه لم يخلق غير الخفاش وانما خص الخفاش لانه أكمل الطير خلقا لان له اسنانا وللانثى ثديا وتحيض قال وهب كان يطير ما دام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله وليعلم ان الكمال لله عز وجل (وأبرئ) أى أشفى (الاكمه) وهو الذى ولد أعمى أو ممسوح العينين قال الزمخشرى ويقال لم يكن فى هذه الامة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسى صاحب التفسير ولعل هذا على التفسير الثانى (والابرص) وهو الذى به برص وهو بياض شديد يبقع الجلد ويذهب دمويته وانما خص هذين المرضين بالذكر لانهما أعييا الاطباء وكان الغالب فى زمن عيسى الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك قال وهب ربما اجتمع على عيسى من المرضى فى اليوم الواحد خمسون ألفا من أطاق منهم أن يبلغه أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى وما كانت مداواته الا بالدعاء وحده على شرط الايمان وانما قال ثانيا (وأحيى الموتى باذن الله) وكرر باذن الله تعالى دفعا لتوهم الالوهية فان الاحياء ليس من جنس الافعال البشرية قال ابن عباس قد أحيا عيسى أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح عليه السلام فأما عازر فكان صديقا له فأرسلت أخته الى عيسى عليه السلام ان أخاك عازر يموت وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتى هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال لاخته انطلقى بنا الى قبره فانطلقت معهم الى قبره فدعا الله

أى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم (قوله فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين

سبحانه وتعالى فقام وخرج من قبره وبقى وولد له وأما ابن العجوز فمر به ميتا على عيسى يحمل على سرير فدعا الله تعالى عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع الى اهله فبقى وولد له واما ابنة العاشر فكان رجلا يأخذ العشور ماتت له بنت بالأمس فدعا الله تعالى فاحياها فبقيت وولد لها واما سام بن نوح فان عيسى عليه السلام جاء الى قبره ودعا فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة وما كانوا يشيبون فى ذلك الزمان فقال قد قامت القيامة فقال لا ولكن قد دعوت الله تعالى فاحياك ثم قال له مت فقال بشرط أن يعيذنى الله تعالى من سكرات الموت فدعا الله تعالى ففعل به ما قال (وانبئكم) اى اخبركم (بما تأكلون) بما لم اعاينه (وما تدخرون) اى تخبؤن (فى بيوتكم) حتى تأكلوه فكان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما أكل اليوم وبما ادخره للعشاء وقال السدى كان عيسى فى الكتاب يحدث الغلمان بما تصنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وكذا قال فينطلق الصبى الى اهله ويبكى عليهم حتى يعطوه ذلك الشئ فيقولون من اخبرك بهذا فيقول عيسى فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا لهم لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم فى بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا ليسوا ههنا قال فما فى هذا البيت قالوا خنازير قال عيسى كذلك يكونوا ففتحوا عنهم فاذا هم خنازير ففشا ذلك فى بنى اسرائيل فهمت به بنو اسرائيل فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة الى مصر وقال قتادة انما هذا فى المائدة وكان خوانا ينزل عليهم أينما كانوا كالمن والسلوى وأمروا أن لا يخونوا ولا يخبؤا لغد فخانوا وخبؤا فجعل عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة وادخروا منها فمسخهم الله خنازير (ان فى ذلك) الذى ذكرته لكم (لآية لكم ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين للحق غير معاندين وقوله تعالى (ومصدقا) منصوب باضمار فعل يدل عليه قد جئتكم اى وجئتكم مصدقا (لما بين يدى) اى قبلى (من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) فيها اى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فاحل لهم اكل الشحوم والثروب وهو شحم رقيق يغشى الكرش والسمك ولحوم الابل والعمل فى السبت وقيل احل الجميع فبعض بمعنى كل كقول لبيد

تراك امكنة اذا لم أرضها ⁂ أو يرتبط بعض النفوس حمامها

يعنى كل النفوس (فان قيل) كيف يكون مصدقا للتوراة والاحلال يدل على ان شرعه كان ناسخا لشرع موسى (اجيب) بانه لا تناقض كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بالتناقض والتكاذب فان النسخ فى الحقيقة بيان وتخصيص فى الازمان وانما كرر (وجئتكم بآية من ربكم) للتاكيد وليبنى عليه (فاتقوا الله) اى فى مخالفة امره اى جئتكم بآية بعد اخرى مما ذكرت لكم من خلق الطير والابراء والاحياء والانباء بالخفيات وبغيره من ولادتى من غير اب ومن كلامى فى المهد وغير ذلك فهى فى الحقيقة آيات وانما وحدها لانها كلها جنس واحد فى الدلالة على رسالته (وأطيعون) فيما ادعوكم اليه من توحيد الله وطاعته ثم شرع فى الدعوة واشار اليها بالقول المجمل فقال (ان الله ربى وربكم) لان جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه (فاعبدوه) اى لازموا طاعته التى هى الاتيان بالاوامر والانتهاء عن

درجة) ⁂ ان قلت كيف قال هنا درجة وقال فى التى بعدها درجات (قلت) المراد بالاول تفضيلهم على القاعدين بعذر لان لهم اجر الكون مع الغزاة

المناهى (هذا) الذى دعوتكم اليه (صراط) اى طريق (مستقيم) اى هو المشهود له
بالاستقامة روى الامام احمد وغيره ان رجلا قال يا رسول الله مرنى بامر فى الاسلام لا اسئل
عنه احدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم وهو لما قال لهم ذلك كذبوه ولم يؤمنوا به كما قال
تعالى (فلما احس عيسى) اى علم (منهم) علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس (الكفر قال من
انصارى) قرأ نافع بفتح الياء والباقون بالسكون اى أعوانى وقوله (الى الله) متعلق بمحذوف
حال من الياء اى من انصارى ذاهبا الى الله تعالى ملتجئا اليه تعالى لأنصر دينه وقيل الى هنا
بمعنى مع او فى او اللام (قال الحواريون نحن انصار الله) اى اعوان دينه واختلفوا فى
الحواريين فقال السدى لما بعث الله تعالى عيسى الى بنى اسرائيل كذبوه واخرجوه فخرج هو
وامه يسيحان فى الارض فنزلا فى قرية على رجل فاضافهما واحسن اليهما وكان لتلك المدينة
جبار متعد فجاء ذلك الرجل يوما مهتما حزينا فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها مريم
ما شأن زوجك أراه كئيبا قالت لا تسألينى قالت اخبرينى لعل الله يفرج كربته قالت ان لنا ملكا
يجعل على كل رجل منا يوما ان يطعمه وجنوده ويسقيهم خمرا فان لم يفعل عاقبه واليوم نوبتنا
وليس لذلك عندنا سعة قالت فقولى له لا يهتم فانى آمر ابنى فيدعو له فيكفى ذلك فقالت مريم
لعيسى فى ذلك قال عيسى ان فعلت ذلك وقع شر قالت فلا تبال فانه قد أحسن الينا واكرمنا
قال عيسى قولى له اذا اقترب ذلك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمنى ففعل ذلك فدعا الله
عيسى فتحول ماء القدور مرقا ولحما وماء الخوابى خمرا لم ير الناس مثله قط فلما جاء الملك اكل
فلما شرب الخمر قال من اين هذا الخمر قال من أرض كذا قال فان خمرى من تلك الارض وليست
مثل هذه قال هى من أرض أخرى فلما خلط على الملك شدد عليه قال فانا اخبرك عندى غلام
لا يسأل الله تعالى شيئا الا اعطاه اياه وانه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا ٣ فلما احضره وكان للملك ابن
يريد ان يستخلفه فمات قبل ذلك بايام وكان احب الخلق اليه فقال ان رجلا دعا الله تعالى فجعل
الماء خمرا ليجابن اليه حتى يحيى ابنى فدعى بعيسى اليه فكلمه فى ذلك فقال عيسى لا افعل فانه
ان عاش وقع شر قال الملك لا ابالى قال عيسى ان احييته تتركنى انا وامى نذهب حيث نشاء
قال نعم فدعا الله تعالى فعاش الغلام فلما رآه اهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا
أكلنا هذا حتى اذا دنا موته يريد ان يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكلنا ابوه فاقتتلوا وذهب
عيسى وامه فمرا بالحواريين وهم يصطادون السمك فقال ما تصنعون قالوا نصطاد السمك
قالوا ومن انت قال عيسى بن مريم عبد الله ورسوله فقالوا (آمنا) اى صدقنا (بالله واشهد)
يا عيسى (بانا مسلمون) اشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم (ربنا آمنا
بما أنزلت) من الانجيل (واتبعنا الرسول) عيسى (فاكتبنا مع الشاهدين) لك بالوحدانية
أو مع النبيين الذين يشهدون لاتباعهم او مع امة محمد صلى الله عليه وسلم فانهم شهداء على
الناس وقال الحسن كانوا قصارين وسموا بذلك لانهم كانوا يحورون الثياب اى يبيضونها وعلى
الاول سموا حواريين لبياض ثيابهم وقال عطاء سلمت مريم عيسى الى اعمال شتى فكان آخر
ما دفعته الى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين فدفعته الى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع
عنده ثياب وعرض له سفر فقال يا عيسى انك قد تعلمت هذه الحرفة وانا خارج فى سفر لا ارجع

الى

بالهمة والقصد واهذا قال وكلا وعد الله الحسنى اى الجنة والمراد بالثانى تفضيلهم على القاعدين بلا عذر لانهم مقصرون [illegible]

٣ قوله فلما احضره هذه اللفظة ساقطة فى بعض النسخ وهو الظاهر اه مصحح

الى عشرة ايام وهذه ثياب مختلفة الالوان وقد علمت على كل واحد منها بخيط على اللون الذى يصبغ به فيجب ان تكون فارغا منها عند قدومى وخرج فطبخ عيسى حبا واحدا على لون واحد وادخل فيه جميع الثياب وقال كونى باذن الله تعالى على ما اريد منك فقدم الحوارى والثياب كلها فى الحب فقال ما فعلت قال فرغت منها قال أين هى قال فى الحب قال كلها قال نعم قال لقد أفسدت تلك الثياب فقال قم فانظر فاخرج عيسى ثوبا اصفر وثوبا اخضر وثوبا احمر الى ان اخرجها على الالوان التى ارادها فجعل الحوارى يتعجب وعلم ان ذلك من الله تعالى فقال للناس تعالوا فانظروا فآمن هو واصحابه وهم الحواريون وقال الكلبى وعكرمة الحواريون الاصفياء وهم كانوا أصفياء عيسى أول من آمن به وكانوا اثنى عشر من الحور وهو البياض الخالص وحوارى الرجل صفوته وخالصته وقيل للحضريات الحواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن قال القائل

فقل للحواريات يبكين غيرنا • ولا تبكنا الا الكلاب النوابح

قال الله تعالى (ومكروا) اى كفار بنى اسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر به وذلك ان عيسى عليه الصلاة والسلام بعد اخراج قومه اياه وأمه عاد اليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطؤا على الفتك به وكاوا به من يقتله غيلة وهى بالكسر أن يخدع غيره فيذهب به الى موضع فاذا صار اليه قتله فذلك مكرهم اذ المكر من المخلوق الخبث والخديعة والحيلة وأما من الخالق وهو قوله تعالى (ومكر الله) اى بهم (والله خير الماكرين) اى أعلمهم به فقال الزجاج مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لانه فى مقابلته كقوله تعالى الله يستهزئ بهم وهو خادعهم ومكر الله تعالى بهم فى هذه الآية بأن ألقى شبهه على صاحبهم الذى أراد قتل عيسى حتى قتل روى ان عيسى استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما سمع ذلك عيسى دعا عليهم ولعنهم فمسخهم الله خنازير فلما رأى ذلك يهودا رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى وساروا اليه ليقتلوه فبعث الله تعالى اليه جبريل فادخله فى خوخة فى سقفها كوة فرفعه الله تعالى الى السماء من تلك الكوة فأمر يهودا رأس اليهود رجلا من اصحابه أن يدخل الخوخة ويقتله فلما دخل لم ير عيسى فابطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها فالقى الله تعالى عليه شبه عيسى فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه فلما صلب جاءت أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله تعالى من الجنون تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى فقال لهما على من تبكيان ان الله تعالى رفعنى ولم يصبنى الا خير وان هذا شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى اهبط الى مريم فانه لم يبك عليك أحد بكاها ولم يحزن حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم فى الارض دعاة الى الله عز وجل فأهبطه الله تعالى اليها فاشتعل حين أهبط نورا فجمعت له الحواريين فبثهم فى الارض دعاة ثم رفعه الله تعالى اليه وتلك الليلة هى التى تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون حدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى عليه الصلاة والسلام اليهم وروى ان الله تعالى أرسل اليه سحابة فرفعته فتعلقت به أمه وبكت فقال لها ان القيامة تجمعنا وكان ذلك ليلة القدر ببيت المقدس وله ثلاث وثلاثون

فكان فضل الغزاة عليهم
درجات لانتفاء الفضل اهـ
(قوله قالوا فيم كنتم قالوا
كنا مستضعفين فى الارض)
ان قلت هذا الجواب
ليس مطابقا للسؤال بل
المطابق له كنا كذا أو لم
نكن فى شئ (قلت) المراد

سنة وقالت أهل التواريخ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدته لمضي خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل فأوحى الله تعالى اليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه اليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين وقوله تعالى (اذ قال الله) ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله أو لمضمر مثل اذكر (يا عيسى انى متوفيك) اى مستوفى أجلك ومعناه انى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك الى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم أو قابضك من الارض من توفيت مالى اى قبضته أو متوفيك نائما كما قال تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل اى ينيمكم اذ روى انه رفع نائما أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت (ورافعك الى) اى الى محل كرامتى ومقر ملائكتى اذ روى ان الله تعالى رفعه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وكان انسيا ملكيا سماويا أرضيا وقال محمد بن اسحق النصارى يزعمون ان الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه وقال الضحاك ان فى الآية تقديما وتأخيرا ومعناه انى رافعك الى (ومطهرك من الذين كفروا) اى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم ومتوفيك بعد انزالك من السماء روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وروى الشيخان حديث انه ينزل قرب الساعة ويحكم بشريعة نبينا ويقتل الدجال والخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية وفى حديث مسلم انه يمكث سبع سنين وفى حديث عند أبى داود والطيالسى أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون فيحمل على أن مجموع لبثه فى الارض قبل الرفع وبعده أربعون وقيل للحسين بن الفضل هل تجد نزول عيسى فى القرآن قال نعم قوله تعالى ويكلم الناس فى المهد وكهلا وهو لم يكتهل فى الدنيا وانما معناه كهلا بعد نزوله من السماء انتهى وهذا انما يأتى على القول بانه رفع شابا وأما على القول انه رفع بعد ثلاث وثلاثين فلا دليل فيه اذ الكهولة من الثلاثين الى الاربعين (وجاعل الذين اتبعوك) اى صدقوا بنبوتك من النصارى ومن المسلمين لانهم متبعوه فى اصل الاسلام وان اختلفت الشرائع (فوق الذين كفروا) بك من اليهود والنصارى اى يغلبونهم بالحجة والسيف (الى يوم القيامة) وقيل المراد بالذين اتبعوه النصارى وبالذين كفروا اليهود اذ لم تسمع غلبة اليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة وملك النصارى قائم الى قريب من قيام الساعة وعلى هذا يكون الاتباع بمعنى الادعاء فى المحبة لا اتباع الدين (ثم الى مرجعكم) الضمير لعيسى ومن آمن معه ومن كفر به وغلب المخاطب على الغائبين (فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) من امر الدين ثم بين الحكم بقوله (فاما الذين كفروا فاعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا) بالقتل والسبى والجزية والذلة (و) أعذبهم فى (الآخرة) بالنار (فان قيل) الحكم مرتب على الرجوع الى الله تعالى وذلك فى القيامة فكيف يصح فى تبيينه العذاب فى الدنيا (أجيب) بان المقصود التأبيد من غير نظر الى الدنيا والآخرة كما فى قوله خالدين فيها ما دامت السموات والارض (وما لهم من ناصرين) اى مانعين منه (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات

بالسؤال توبيخهم بأنهم لم يكونوا على الدين حيث قدروا على الهجرة ولم يهاجروا فقال الملائكة فيم كنتم مجازا عن قولهم لم تركتم الهجرة فقالوا اعتذارا عما وبخوا به كنا

فنوفيهم أجورهم) اى اجور اعمالهم وقرأ حفص بالياء والباقون بالنون (والله لا يحب الظالمين) اى لا يرحم الكافرين ولا يثنى عليهم بالجميل وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما سبق من خبر عيسى ومريم وامرأة عمران وهو مبتدأ خبره (نتلوه) اى نقصه (عليك) يا محمد وقوله تعالى (من الآيات) خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف او حال من الهاء (والذكر الحكيم) اى القرآن وصف بصفة من هو سببه أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه وقيل هو اللوح المحفوظ وهو معلق بالعرش من درة بيضاء * ولما قال وفد نجران للرسول صلى الله عليه وسلم مالك تسب صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول انه عبد قال أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت انسانا قط من غير أب نزل (ان مثل عيسى) أى شأنه وحالته الغريبة (عند الله كمثل آدم) أى كشأنه فى خلقه من غير أب وقوله تعالى (خلقه) أى آدم (من تراب) جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثم أب ولا أم فكذلك حال عيسى (فان قيل) كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب وآدم بغير أب وأم (أجيب) بأن مثله فى أحد الطرفين ولا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لان المماثلة مشاركة فى بعض الاوصاف ولانه شبه به فى أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما فى ذلك نظيران ولان الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالاغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته اذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه وعن بعض العلماء انه أسر بالروم فقال لهم لم تعبدون عيسى قالوا لانه لا أب له قال فآدم أولى لانه لا أبوين له قالوا كان يحيى الموتى قال فحزقيل أولى لان عيسى أحيا أربعة أنفس وحزقيل ثمانية آلاف فقالوا كان يبرئ الاكمه والابرص قال فجرجيس أولى لانه طبخ وأحرق ثم قام سالما ومعنى خلق آدم من تراب أى صور جسده من تراب (ثم قال له كن) أى أنشأه بشرا بأن نفخ فيه الروح كقوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر وقوله تعالى (فيكون) حكاية حال ماضية أى فكان وكذلك عيسى قال له كن من غير أب فكان ويجوز أن تكون ثم لتراخى الخبر لا لتراخى المخبر عنه وقوله تعالى (الحق من ربك) خبر مبتدأ محذوف أى أمر عيسى وقوله تعالى (فلا تكن من الممترين) أى الشاكين خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره فخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن يكون عبرة (فمن حاجك) أى جادلك من النصارى (فيه) اى عيسى (من بعد ما جاءك من العلم) اى من البينات الموجبة للعلم بأن عيسى عبد الله ورسوله (فقل) لهم (تعالوا) أى هلموا بالرأى والعزم (ندع) جزم فى جواب الامر وعلامة جزمه سقوط الواو (أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وانما قدمهم على النفس لان الرجل يخاطر بنفسه لاجلهم ويحارب دونهم فيجمعهم (ثم نبتهل) أى نتضرع فى الدعاء ونبالغ فيه (فنجعل لعنت الله على الكاذبين) بأن نقول اللهم العن الكاذب بأمر عيسى فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران ودعاهم الى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فى أمرنا ثم نأتيك غدا فخلا بعضهم ببعض وقالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ما ترى فقال والله لقد عرفتم

مستضعفين فى الارض (قوله فقد وقع أجره على الله) اى ثبت وتحقق او وجب بوعد الله بقوله انا لا نضيع أجر من أحسن عملا اذ لا خلف فى وعده تعالى (قوله ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض

يامعشر النصارى أن محمدا نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من امر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فان أبيتم الا الاقامة على دينكم وعلى ما انتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا للحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم اذا أنا دعوت فأمنوا فقال اسقف نجران وهو اسم سريانى لرئيس النصارى وعالمهم وهو غير العاقب يامعشر النصارى انى لارى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لازاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الارض نصرانى الى يوم القيامة فقالوا ياأبا القاسم رأينا ان لا نباهلك وان نقرك على دينك وتثبت على ديننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ابيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فابوا فقال انى أنابذكم فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على ان نؤدى اليك كل عام ألفى حلة ألف فى صفر وألف فى رجب تؤديها للمسلمين وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يؤدوها فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال والذى نفسى بيده ان العذاب تدلى على اهل نجران ولولا عفو المسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى حتى هلكوا كلهم وعن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فادخله ثم جاء الحسين فادخله ثم فاطمة ثم على ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت وفى ذلك دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم وعلى فضل أهل الكساء رضى الله تعالى عنهم وعن بقية الصحابة اجمعين * (فائدة) * رسمت لعنة هنا بالتاء المجرورة ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائى عليها بالهاء والباقون بالتاء (ان هذا) اى الذى قص عليك من نبأ عيسى (لهو القصص) اى الخبر (الحق) الذى لا شك فيه وقرأ قالون وابو عمرو والكسائى بسكون الهاء من لهو والباقون بالرفع حيث جاء وهو اما فصل بين اسم ان وخبرها واما مبتدأ والقصص الحق خبره والجملة خبر ان (فان قيل) لم جاز دخول اللام على الفصل (اجيب) بانه اذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أولى لانه اقرب الى المبتدا وأصلها أن تدخل على المبتدا (وما من اله الا الله) انما صرح فيه بمن المزيدة للاستغراق تأكيدا للرد على النصارى فى تثليثهم (وان الله لهو العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه فلا أحد يساويه فى القدرة التامة والحكمة البالغة فلا يشاركه فى الالوهية (فان تولوا) اى اعرضوا عن الايمان (فان الله عليم بالمفسدين) فيجازيهم وفيه وضع الظاهر موضع المضمر ليدل على ان التولى عن الحجج والاعراض عن التوحيد افساد للدين والاعتقاد المؤدى الى فساد النفس بل والى فساد العالم * ولما قدم وفد نجران المدينة والتقوا مع اليهود واختصموا فى ابراهيم صلى الله عليه وسلم فزعمت النصارى انه كان نصرانيا وهم على دينه وأولى الناس به وقالت اليهود بل كان يهوديا وهم على دينه وأولى الناس به فقال النبى صلى الله عليه وسلم

مراغما) اى متحولا يتحول اليه من الرغام وهو التراب وبعدت المهاجرة مراغمة لان من يهاجر يراغم قومه لما يجد فى ذلك البلد من النعمة والخير ما يكون سببا لرغم انف أعدائه الذين كانوا معه فى بلده الاصلى

كلا

كلا الفريقين برىء من ابراهيم ودينه بل كان ابراهيم حنيفا مسلما وأنا على دينه فاتبعوا دينه الاسلام فقالت اليهود يا محمد ما تريد الا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى وقالت النصارى يا محمد ما تريد الا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير نزل (قل يا أهل الكتاب) وهو يعم اهل الكتابين وهم اليهود والنصارى (تعالوا الى كلمة) العرب تسمي كل قصة لها شرح كلمة ومنها سميت القصيدة كلمة وقوله تعالى (سواء) مصدر بمعنى مستو أمرها لا تختلف فيها الرسل والكتب (بيننا وبينكم) هو نعت الكلمة لان المصادر لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث فاذا فتحت السين مدت واذا كسرت أو ضمت قصرت كقوله تعالى مكانا سوى ثم فسر الكلمة بقوله (ألا نعبد الا الله) اى نوحده بالعبادة ونخلص له فيها (ولا نشرك به شيئا) أى ولا نجعل غيره شريكا له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلا لأن يعبد (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) اى ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ولا نطيع الاحبار فيما احدثوا من التحريم والتحليل لانهم بشر مثلنا روى الترمذي لما نزل قوله تعالى اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله قال أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال هو ذلك اى اخذكم بقولهم (فان تولوا) اى اعرضوا عن التوحيد (فقولوا) أنتم لهم (اشهدوا بأنا مسلمون) اى موحدون دونكم فقد لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بذلك كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع او نحو ذلك اعترف بأن الغالب وسلم لى الغلبة قال البيضاوى تنبيه انظر ما راعى اى الله سبحانه وتعالى فى هذه القصة من المبالغة والارشاد وحسن التدرج في الحجاج فبين أولا احوال عيسى وما تعاور عليه من الاطوار المنافية للالهية ثم ذكر ما يحل عقدتهم و يزيح اى يزيل شبهتهم فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم الى المباهلة بنوع من الاعجاز ثم لما اعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد اليهم بالارشاد وسلك طريقا اسهل وألزم بان دعاهم الى ما وافق عليه عيسى والانجيل وسائر الانبياء والكتب ثم لما لم يجد اى ينفع ذلك ايضا عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغنى عنهم أعرض عن ذلك وقال اشهدوا بانا مسلمون (يا أهل الكتاب) وقد مر انه يعم اهل الكتابين اليهود والنصارى (لم تحاجون) اى تخاصمون (في ابراهيم) بزعمكم انه على دينكم (وما انزلت التوراة) على موسى (والانجيل) على عيسى (الا من بعده) اى بزمن طويل اذ كان بين ابراهيم وموسى ألف سنة و بين موسى وعيسى ألفا سنة وبعد نزول التوراة حدثت اليهودية و بعد نزول الانجيل حدثت النصرانية (أفلا تعقلون) بطلان قولكم حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال (ها أنتم) يا (هؤلاء) ها للتنبيه وأنتم مبتدأ خبره (حاججتم) اى جادلتم (فيما لكم به علم) من امر موسى وعيسى وزعمتم أنكم على دينهما (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) من شأن ابراهيم وليس له ذكر في كتابكم (والله يعلم) ما حاججتم فيه (وأنتم لا تعلمون) اى جاهلون به ثم قال تعالى تبرئة لابراهيم (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا) اى مائلا عن الاديان كلها الى الدين القيم (مسلما) اى موحدا منقادا لله تعالى وليس المراد انه كان على دين الاسلام والا لاشترك الالزام لانهم يقولون ملة

فانه اذا تقام حاله في البلد الاجنبي ووصل خبره الى أهل بلده خجلوا من سوء معاملتهم له ورغبت انفسهم بذلك (قوله واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من

الاسلام حدثت بعد نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وكان ابراهيم قبله بمدة طويلة فكيف يكون على ملة الاسلام الحادثة بنزول القرآن فعلم أن المراد بكون ابراهيم مسلما انه كان على ملة التوحيد لا على هذه الملة (وما كان من المشركين) كما لم يكن منكم او أراد بالمشركين اليهود والنصارى لاشراكهم عزيرا والمسيح (ان أولى الناس) اى أحقهم (بابراهيم) من أمته (للذين اتبعوه) من أمته (وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) اى ناصرهم وحافظهم * ولما دعا اليهود معاذا وحذيفة وعمارا الى دينهم نزل (ودت) اى تمنت (طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) عن دينكم ويردونكم الى الكفر (وما يضلون الا أنفسهم) اى امثالهم أوان اثم اضلالهم عليهم والمؤمنون لا يطيعونهم فيه (وما يشعرون) بذلك (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) بما نطقت به التوراة والانجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وانتم تشهدون) انها آيات الله عز وجل أو بالقرآن العزيز وأنتم تشهدون نعته في الكتابين أو تعلمون بالمعجزات انه حق (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق) اى القرآن المشتمل على نعت محمد صلى الله عليه وسلم (بالباطل) اى بالتحريف والتزوير (وتكتمون الحق) اى نعت محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) انه حق (وقالت طائفة من أهل الكتاب) اى اليهود قالوا لجماعة منهم (آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا) اى القرآن أى أظهروا الايمان به (وجه النهار) اى أوله وانما سمي أوله وجها لانه احسنه ولانه اول ما يرى بعد الليل (واكفروا) به (آخره لعلهم) اى المؤمنين (يرجعون) عن دينهم اذا رأوكم رجعتم واختلف في هذه الطائفة فقال الحسن والسدي هي اثنا عشر من يهود خيبر وقيل قريظة تواطؤا وقال بعضهم لبعض ادخلوا في دين محمد أول النهار وقولوا انا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك فظهر لنا كذبه فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينه واتهموه وقالوا انهم أهل كتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم وقال مجاهد ومقاتل والكلبي هي كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف قالا لاصحابهما لما تحولت القبلة وشق ذلك على اليهود آمنوا بالذي أنزل على محمد من أمر الكعبة وصلوا اليها أول النهار ثم اكفروا وارجعوا الى قبلتكم آخر النهار وصلوا الى الصخرة لعلهم يقولون هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم فيرجعون الى قبلتنا (ولا تؤمنوا الا لمن تبع) اى وافق (دينكم) اى ولا تقروا عن تصديق قلب الا لاهل دينكم أو لا تظهروا ايمانكم وجه النهار الا لمن كان على دينكم فان رجوعهم أولى وأهم وأطلع الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على سرهم * (تنبيه) * قال البغوي اللام في لمن صلة اى لا تصدقوا الا من تبع دينكم اليهودية كقوله تعالى عسى أن يكون ردف لكم اى ردفكم (قل) يا محمد (ان الهدى هدى الله) الذي هو الاسلام وما عداه ضلال وقوله تعالى (أن يؤتى) بمعنى الجحد اى ما يؤتى (احد مثل ما أوتيتم) يا أمة محمد (أو يحاجوكم) اى الا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولوا نحن أفضل منكم وقوله تعالى (عند ربكم) اى عند فعل ربكم بكم ذلك وهذا معنى قول سعيد بن جبير والكلبي ومقاتل والحسن وهو حسن وقال الفراء ويجوز أن تكون أو بمعنى حتى كما يقال تعلق به او يعطيك حقك اى حتى يعطيك حقك ويكون معنى الآية ما أعطى احد مثل ما اعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة حتى

يحاجوكم

السلام اذ انتم مسلمون) الآية
تقييد التقصير بالخوف جرى
على الغالب فلا مفهوم
له اذ المسافر التقصير في
الامن أيضا قوله وترجون
من الله ما لا يرجون) ان
قلت جاء التدريج بين مشترك

يحاجوكم عند ربكم اى يوم القيامة وقال مجاهد قوله قل ان الهدى هدى الله كلام معترض بين كلامين وما بعده متصل بالكلام الاول اخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض اى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى احد مثل ما أوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات من المن والسلوى وفلق البحر وغيرها من الكرامات ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لانكم أصح دينا منهم وقرأ ابن كثير وحده بهمزة واحدة وقال الزمخشري ويجوز أن يكون هدى الله بدلا من الهدى وأن يؤتى احد خبر ان على معنى قل ان هدى الله أن يؤتى احد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم قال ويجوز أن ينتصب ان يؤتى بفعل مضمر يدل عليه قوله ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم كأنه قيل قل ان الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتى احد مثل ما أوتيتم لان قولهم ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم انكار لأن يؤتى احد مثل ما أوتوا قال تعالى (قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده (والله واسع) أى كثير الفضل (عليم) بمن هو أهله (يختص برحمته) اى نبوته (من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ففى ذلك رد وابطال لما زعموه بالحجة الواضحة (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار) اى بمال كثير (يؤده اليك) كعبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفا ومائتى أوقية ذهبا فأداه اليه (ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك) كفنحاص بن عازوراء استودعه رجل آخر من قريش دينارا فجحده (الا مادمت عليه قائما) اى الا ان أودعته واسترجعته منه وأنت قائم على رأسه لم تفارقه رده اليك وان فارقته وأخرته أنكره ولم يرده وقيل المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الامانة عليهم والخائنون فى القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم وقرأ حمزة وأبو عمرو وشعبة يؤده ولا يؤده اليك باسكان الهاء فهو وصل بنية الوقف فهو سكون وقف بالنية لا بالفعل وقالون باختلاس حركة الهاء وحفص والكسائى بالحركة الكاملة والالف فى قنطار ودينار بالامالة لابى عمرو والدورى عن الكسائى وورش بين بين والباقون بالفتح (ذلك) اى ترك الاداء المدلول عليه بقوله تعالى لا يؤده (بأنهم قالوا) اى بسبب قولهم (ليس علينا فى الاميين) اى العرب (سبيل) اى اثم لاستحلالهم ظلم من خالفهم ونسبوا ذلك الى الله تعالى قالوا ان جعل الله لهم فى التوراة حرمة فكذبهم الله عز وجل بقوله عز من قائل (ويقولون على الله الكذب) اى فى نسبة ذلك اليه (وهم يعلمون) أنهم كاذبون وقال الحسن وابن جريج ومقاتل بايع اليهود رجالا من المسلمين فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا ليس لكم علينا حق ولا عندنا قضاء لانكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم فكذبهم الله تعالى فى ذلك روى الطبرانى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال عند نزول هذه الآية كذب أعداء الله ما من شئ فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى اى منسوخ متروك الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر اى والديون من الامانة لان المراد من الامانة الرضا بالذمة وقوله تعالى (بلى) اثبات لما نفوه اى بلى على اليهود فى الاميين سبيل ثم ابتدأ فقال (من أوفى بعهده) اى ولكن من أوفى بعهد الله الذى عهد اليه فى التوراة من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وأداء الامانة (واتقى) الله بترك المعاصى وفعل الطاعات (فان الله يحب

اذا الكفار يرجون الثواب فى قتالهم المؤمنين لاعتقادهم انه قربة لله كالمؤمنين فى قتالهم الكفار (قلت) ممنوع اذ المراد بالكفار عبدة

المتقين) فيه وضع الظاهر موضع المضمر أي يحبهم بمعنى يثيبهم (فان قيل) فأين الضمير الراجع
من الخبر الى من (أجيب) بان عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير * ونزل في أحبار من
اليهود حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم وحكم الامانة وغيرهما وأخذوا على
ذلك رشوة (ان الذين يشترون) اى يستبدلون (بعهد الله) اليهم في الايمان للنبي صلى الله عليه
وسلم والوفاء باداء الامانة (وأيمانهم) اى حلفهم به تعالى كاذبا من قولهم والله لنؤمنن به
ولننصرنه (ثمنا قليلا) من الدنيا (أولئك لا خلاق) اى لا نصيب (لهم في الآخرة ولا يكلمهم
الله) اى بما يسرهم أو بشئ أصلا وان الملائكة يسألونهم يوم القيامة (ولا ينظر اليهم)
اى ولا يرحمهم (يوم القيامة ولا يزكيهم) اى ولا يثنى عليهم بالجميل ولا يطهرهم من الذنوب
(ولهم عذاب أليم) اى مؤلم وقيل نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد اشتراها بما لم
يشترها به وقيل نزلت في جماعة من اليهود جاؤا الى كعب بن الاشرف في سنة أصابتهم ممتارين
فقال لهم أتعلمون أن هذا الرجل رسول الله قالوا نعم قال لقد هممت ان أميركم وأكسوكم
فحرمكم الله خيرا كثيرا فقالوا لعله اشتبه علينا فرويدا حتى نلقاه فانطلقوا فكتبوا صفة غير
صفته ثم رجعوا اليه وقالوا لقد غلطنا وليس هو بالنعت الذى نعت لنا ففرح ومارهم وعن
الاشعث بن قيس نزلت في كان بيني وبين رجل خصومة في بئر وأرض فاختصمنا الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال شاهداك أو يمينه فقلت اذا يحلف ولا يبالى فقال من حلف على
يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان فانزل الله تصديق ذلك هذه
الآية وعن أبى ذر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لا يكلمهم الله يوم
القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم
ثلاث مرات فقال أبو ذر خابوا وخسروا من هم يا رسول الله قال المسبل والمنان والمنفق
سلعته بالحلف الكاذب وفي رواية المسبل ازاره وعن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولهم عذاب أليم رجل حلف على يمين على
مال مسلم فاقتطعه ورجل حلف يمينا بعد صلاة العصر أنه اعطى بسلعته أكثر مما اعطى وهو
كاذب ورجل منع فضل ماء فان الله تعالى يقول اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل مالم تعمل
يداك (وان منهم) اى اهل الكتاب (لفريقا) اى طائفة ككعب بن الاشرف ومالك بن
الصيف وحيي بن اخطب (يلوون ألسنتهم بالكتاب) اى يعطفونها بقراءته عن المنزل الى ما حرفوه
من نعت النبي صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغير ذلك يقال لوى لسانه عن كذا اى غيره
(لتحسبوه) اى المحرف المدلول عليه بقوله تعالى يلوون (من الكتاب) الذى أنزل الله
(وما هو من الكتاب) قرأ ابن عامر وعاصم بفتح السين والباقون بكسرها وقوله تعالى
(ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) تأكيد لقوله وما هو من الكتاب وزيادة تشنيع
عليهم به وبيان لانهم يزعمون ذلك تصريحا لا تعريضا اى ليس هو نازلا من عنده (فان قيل) نفى
الله تعالى كون التحريف من عنده وهو فعل العبد فلا يكون فعل العبد مخلوقا لله تعالى والا
لما صح نفيه عنه تعالى (أجيب) بان المنفى هو الانزال كما تقرر لا كون التحريف غير مخلوق لله

الاوثان ونحوهم ممن لا يعتقد الجزاء فاعتقادهم فاسد لبنائه على فاسد فرجاؤهم وهمي فهو كالمعدوم (قوله ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه)

تعالى يكسب العبد وقوله تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) تأكيد أيضا وتسجيل عليهم بالكذب والتعمد فيه واختلف في سبب نزول قوله تعالى (ما كان) أي ما ينبغي (لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم) أي الفهم للشريعة (والنبوة) أي المنزلة الرفيعة بالأنبياء (ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله) فقال مقاتل والضحاك نزلت في نصارى نجران كانوا يقولون ان عيسى أمرهم ان يتخذوه ربا فقال تعالى ما كان لبشر أي عيسى أن يؤتيه الله الكتاب أي الانجيل وقال ابن عباس وعطاء ما كان لبشر أي محمد أن يؤتيه الله الكتاب أي القرآن وذلك ان أبا رافع القرظي من اليهود والسيد من نصارى نجران قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال معاذ الله ان نأمر بعبادة غير الله ما بذلك بعثني الله ولا بذلك أمرني فنزلت وقيل قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال ما ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله والبشر جميع بني آدم لا واحد له من لفظه كالقوم ويوضع موضع الجمع والواحد (ولكن) يقول (كونوا ربانيين) أي علماء عاملين منسوب الى الرب بزيادة ألف ونون تفخيما كما يقال رقباني ولحياني وهو الشديد التمسك بدين الله تعالى وطاعته وقيل الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره وقيل الربانيون فوق الاحبار والاحبار العلماء والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصارة لسياسة الناس وعن الحسن ربانيين علماء فقهاء وحكي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال هو الذي يربي علمه بعمله وقال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس رضي الله تعالى عنهم اليوم مات رباني هذه الامة (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أي بسبب كونكم تعلمون الكتاب وبسبب كونكم دارسين له فان فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل فيكتفي بذلك دليلا على خيبة سعي من جهد نفسه وكد روحه في جمع العلم ثم لم يجعله ذريعة الى العمل فكان مثله كمثل من غرس شجرة حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها ويجوز أن يكون معناه تدرسونه على الناس كقوله تعالى لتقرأه على الناس وفيه ان من علم ودرس العلم ولم يعمل فليس من الله في شيء وان السبب بينه وبين الله تعالى منقطع حيث لم يثبت النسبة اليه الا للمتمسكين بطاعته وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح التاء وسكون العين وفتح اللام مخففة والباقون بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة (ولا يأمركم) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بنصب الراء عطفا على يقول أي البشر والباقون برفع الراء على أنه استئناف أي الله (أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) كما اتخذت الصابئة الملائكة واليهود عزيرا والنصارى عيسى وقوله تعالى (أيأمركم بالكفر) انكار والضمير فيه للبشر أو لله على الوجهين السابقين وقوله تعالى (بعد اذ أنتم مسلمون) دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون على أن يسجدوا له (و) اذكر (اذ) أي حين (أخذ الله ميثاق النبيين) أي عهدهم (لما آتيتكم من كتاب وحكمة) قرأ حمزة والكسائي بكسر اللام من لما فتكون متعلقة بأخذ والباقون بالفتح على الابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق وما موصولة على الوجهين أي للذي آتيتكموه لتؤمنن به وقرأ نافع آتيناكم بالنون مفتوحة بعد التاء بعدها ألف والباقون بتاء مضمومة (ثم جاءكم) تقدم أن حمزة وابن ذكوان

المراد بعمل السوء ما دون الشرك وبظلم النفس الشرك او بعمل السوء الذنب المتعدي ضرره الى الغير وبظلم النفس الذنب القاصر عليها (قوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته

يسلان الالف محضة والباقون بالفتح (رسول مصدق لما معكم) من الكتاب والحكمة وهو
محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (لتؤمنن به ولتنصرنه) جواب القسم أى ان أدركتموه
وأممهم تبع لهم فى ذلك وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو اسرائيل
أو سماهم نبيين تهكما لانهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لانا أهل كتاب والنبيون
كانوا منا (قال) الله تعالى لهم (أأقررتم) بذلك يقرأ قالون وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية
وألف بينها وبين الهمزة الاولى وابن كثير كذلك الا أنه لا يدخل ألفا بينهما ولورش وجهان
أحدهما كابن كثير والثانى انه يبدل الثانية حرف مد ولهشام فى الهمزة التحقيق والتسهيل
مع دخول ألف بينهما والباقون بتحقيق الهمزتين من غير دخول ألف بينهما (وأخذتم) اى
قبلتم تقدم ان ابن كثير وحفصا يظهران الذال المعجمة عند التاء من اخذتم والباقون بالادغام
(على ذلكم اصرى) اى عهدى سمى به لانه مما يؤصر اى يشد ويعقد ومنه الاصار الذى يعقد
به (قالوا أقررنا قال فاشهدوا) على أنفسكم وأتباعكم بذلك (وأنا معكم من الشاهدين) عليكم
وعليهم وهو توكيد وتحذير عظيم من الرجوع اذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض
وقيل الخطاب للملائكة (فمن تولى) أى أعرض (بعد ذلك) أى الميثاق والتوكيد بالاقرار
والشهادة (فأولئك هم الفاسقون) أى المتمردون من الكفرة وروى أن أهل الكتاب اختصموا
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكل
واحد من الفريقين ادعى انه أولى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين برىء
من دين ابراهيم فقالوا ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فنزل (أفغير دين الله يبغون) وهذه
الجملة معطوفة على الجملة المتقدمة وهى فأولئك هم الفاسقون والهمزة متوسطة بينهما
للانكار ويجوز أن تعطف على محذوف تقديره أيتولون فغير دين الله يبغون وقدم المفعول
الذى هو غير دين الله على فعله لانه اهم من حيث ان الانكار الذى معنى الهمزة ٣ متوجه الى
المعبود الباطل وقرأ أبو عمرو وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب على تقدير
وقل لهم (وله) سبحانه وتعالى (أسلم) اى خضع وانقاد (من فى السموات والارض طوعا) اى
بالنظر فى الادلة واتباع الحجة والانصاف من نفسه (وكرها) بالسيف ومعاينة ما يلجئ الى
الاسلام كنتق الجبل على بنى اسرائيل وادراك الغرق فرعون وقومه والاشراف على الموت
لقوله تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وقال الحسن أسلم أهل السموات طوعا وأهل
الارض بعضهم طوعا وبعضهم كرها خوفا من السيف والسبى وقيل هذا يوم الميثاق حين قال
ألست بربكم قالوا بلى فقال بعضهم طوعا وبعضهم كرها قال قتادة المسلم أسلم طوعا فنفعه
والكافر كرها فى وقت البأس فلم ينفعه قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وانتصب
طوعا وكرها على الحال بمعنى طائعين ومكرهين (واليه ترجعون) قرأ حفص بالياء على الغيبة
والباقون بالتاء على الخطاب (قل) لهم يا محمد (آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم
واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) اى اولاده (وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من
ربهم لا نفرق بين احد منهم) بالتصديق والتكذيب امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يخبر
عن نفسه وعن متبعيه بالايمان فلذلك وحد الضمير فى قل وجمعه فى آمنا وعلينا لان القرآن كما

لهمت طائفة منهم ان
يضلوك) • ان قلت ظاهره
نفى وقوع الهم منهم
باضلاله والمنقول خلافه
(قلت) المراد بالهم المؤثر
اى لهمت هما يؤثر عندك
والمراد بالاضلال الاضلال

٣ قوله الذى معنى الهمزة
هكذا بالنسخ وفيه حذف
صدر الصلة بلا طول اه
مصححه

هو

هو منزل عليه منزل على متابعيه بتوسط تبليغه اليهم أو بان يتكلم عن نفسه بالجمع على طريقة الملوك اجلالا له (فان قيل) لم عدى أنزل في هذه الآية بعلى وفيما تقدم من مثلها في سورة البقرة بالى (أجيب) بان الوحي ينزل من فوق وينتهي الى الرسل فعدى تارة بالى لانه ينتهي الى الرسل وتارة بعلى لانه من فوق وما قيل من انه انما خص ما هنا بعلى وما هناك بالى لان ما هنا خطاب للنبي وكان واصلا اليه من الملا الاعلى بلا واسطة بشرية فناسب الاتيان بعلى المختصة بالعلو وما هناك خطاب للامة وقد وصل اليهم بواسطة النبي الذي هو من البشر فناسب الاتيان بالى المختصة بالاتصال قال الزمخشري فيه تعسف الا ترى الى قوله بما انزل اليك وأنزلنا اليك الكتاب والى قوله تعالى آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا (فان قيل) لم قدم المنزل عليه على المنزل على سائر الرسل (أجيب) بانه انما قدم لان المنزل عليه هو المعرف للمنزل على سائر الرسل ولانه افضل الكتب المنزلة (ونحن له مسلمون) اى موحدون مخلصون له في العبادة لا نجعل له شريكا فيها ونزل فيمن ارتد ولحق بالكفار وهم اثنا عشر رجلا ارتدوا عن الاسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا منهم الحرث بن سويد الانصاري (ومن يبتغ غير الاسلام دينا) اى غير التوحيد والانقياد لحكم الله فهو مشتمل على الايمان بهذا التقدير ودينا تمييز مبين للاسلام والدين يشتمل على التصديق والاعمال الصالحة فالاسلام كذلك لان المبين لا يخالف المبين وعلى هذا حمل الاسلام على الدين في قوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام والدين هو الوضع الالهي السائق لكل خير (فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) لمصيره الى النار المؤبدة عليه وقوله تعالى (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم) لفظه استفهام ومعناه جحد اى لا يهديهم الله لما علم من تصميمهم على كفرهم بانهم كفروا بعد ايمانهم (و) بعدما (شهدوا ان الرسول حق و) قد (جاءهم البينات) أى الحجج الظاهرة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم (والله لا يهدي القوم الظالمين) أى الكافرين (أولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فان الكافر يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه * (تنبيه) * دلت هذه الآية بمنطوقها على جواز لعن القوم المذكورين وبمفهومها على نفي جواز لعن غيرهم من الكفار الذين لم يكفروا بعد ايمانهم قال البيضاوي ولعل الفرق انهم أي هؤلاء مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مايوسون عن الرحمة بخلاف غيرهم أي فلا يلعن الكافر الاصلي المعين حيا ولا ميتا ما لم يعلم موته على الكفر وكالاصلي المرتد وأما لعن الكافر على العموم فيجوز (خالدين فيها) أى اللعنة أو النار أو العقوبة المدلول باللعنة عليها (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أى يمهلون (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) عملهم تصديقا لتوبتهم (فان الله غفور) لهم يقبل توبتهم (رحيم) بهم يتفضل عليهم وذلك أن الحرث بن سويد لما ارتد ولحق بالكفار ندم فارسل الى قومه أن سلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة فارسل اليه أخوه الجلاس بالآية فاقبل الى المدينة فتاب وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته * ونزل في اليهود (ان الذين كفروا) بعيسى والانجيل (بعد ايمانهم) بموسى والتوراة (ثم ازدادوا كفرا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل كفروا بمحمد بعدما آمنوا به قبل

عن النشر بمعنى أي انه [illegible] أن يفعل ذلك عن [illegible] وشرعيتك وكل من هذين [illegible] (قوله ومن يشاقق الرسول) قال هنا بالاظهار كنظيره في الانفال وقال في الحشر بالادغام لان أل في الله لازمة

بعثه ثم ازدادوا كفرا بالاصرار والعناد والطعن فيه والصد عن الايمان ونقض الميثاق (لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) أى الثابتون على الضلال (فان قيل) قد وعد الله تعالى قبول توبة من تاب فما معنى قوله تعالى لن تقبل توبتهم (أجيب) بأن محل القبول اذا كان قبل الغرغرة وهؤلاء توبتهم كانت بعدها أو انهم لم يتوبوا أصلا فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها أو ان توبتهم لا تكون الا نفاقا (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء) أى مقدار ما يملؤها من (الارض) شرقها الى غربها (ذهبا) تغليظا فى شأنهم وابرازا لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة (فان قيل) لم قال فى الآية الاولى لن تقبل بغير فاء وفى هذه بقوله فلن يقبل بالفاء (أجيب) بأن الفاء انما دخلت فى خبر ان لشبه الذين بالشرط وايذانا بتسبب امتناع الفدية على الموت على الكفر بخلافه فى الآية الاولى لا دليل فيه على السبب كما تقول الذى جاءنى له درهم لم تجعل المجىء سببا لاستحقاق الدرهم بخلاف قولك فله درهم ونصب ذهبا على التمييز كقولهم عشرون درهما وقوله تعالى (ولو افتدى به) محمول على المعنى كأنه قيل فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الارض ذهبا أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا لو تقرب به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة ويجوز أن يراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو ان للذين ظلموا ما فى الارض جميعا ومثله معه والمثل يحذف كثيرا فى كلامهم كقوله ضربت ضرب زيد وأبو يوسف أبو حنيفة تريد مثله (أولئك لهم عذاب أليم) أى مؤلم (وما لهم من ناصرين) اى مانعين عنهم العذاب ومن مزيدة للاستغراق روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله لاهون أهل النار عذابا يوم القيامة لو أن لك ما فى الارض من شئ أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقول اردت منك أهون من ذلك وانت فى صلب آدم أن لا تشرك بى شيأ فأبيت الا ان تشرك بى (لن تنالوا البر) اى لن تبلغوا حقيقة البر الذى هو كمال الخير أو لن تنالوا بر الله تعالى الذى هو الرحمة والرضا والجنة (حتى تنفقوا مما تحبون) من أموالكم او ما يعمها وغيرها كبذل الجاه فى معاونة الناس والبدن فى طاعة الله تعالى والنفس فى سبيله وقال الحسن لن تكونوا ابرارا روى انه صلى الله عليه وسلم قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا وكان السلف رحمهم الله اذا أحبوا شيأ جعلوه لله روى لما نزلت هذه الآية جاء أبو طلحة فقال يا رسول الله ان أحب أموالى الى بيرحاء وهو بفتح الباء الموحدة وكسرها وبفتح الراء وضمها مع المد والقصر ضيعة بالمدينة وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ بخ ذاك مال رابح أو قال رايح وانى أرى أن تجعلها فى الاقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها فى أقاربه قوله صلى الله عليه وسلم بخ بخ كلمة تقال عند المدح والرضا بالشئ وتكرر للمبالغة وهى مبنية على السكون فان وصلت كسرت ونونت وربما شددت وقوله رابح أو رايح يقال لضيعة الانسان مال رابح

بخلافها فى الرسول ولان حركة الحرف الثانى فى ذلك وان كانت لالتقاء الساكنين كاللازمة اللازم فلزم الادغام لمجاورتها فى المضمر دون غيرها وانما أظهر فى الانفال مع وجود

بالباء أي يروح نفعه اليه ورابح بالباء الموحدة أي ذو ربح كقولك لابن وتامر أي ذو لبن وذو تمر
وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه في سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله
عليه وسلم اسامة بن زيد بن حارثة فكأن زيدا وجد في نفسه وقال انما أردت أن اتصدق به
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ان الله قد قبلها منك وكتب عمر رضي الله تعالى عنه الى
أبي موسى الاشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما جاءت
أعجبته فقال ان الله تعالى قال لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فاعتقها وقال لولا اني
لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها (وما تنفقوا من شيء) أي من أي شيء تحبونه او غيره ومن بيان
لما (فان الله به عليم) فيجازيكم بحسبه • ولما قالت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم
انك تزعم أنك على ملة ابراهيم وكان ابراهيم لا يأكل لحوم الابل وألبانها وانت تأكلها فلست
انت على ملته فقال النبي صلى الله عليه وسلم كان ذلك حلالا لابراهيم فقالوا كل ما نحرمه اليوم
كان حراما على نوح وابراهيم حتى انتهى الينا نزل (كل الطعام) أي المطعومات او كل انواع
الطعام (كان حلا) أي حلالا أكله (لبني اسرائيل) والحل مصدر يستوي في الوصف به
المذكر والمؤنث والمفرد والجمع قال تعالى لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن (الا ما حرم
اسرائيل) وهو يعقوب صلى الله عليه وسلم (على نفسه من قبل ان تنزل التوراة) أي ليس
الامر على ما قالوا من حرمة لحوم الابل وألبانها على ابراهيم بل كان الكل حلالا له ولبني
اسرائيل وانما حرمها اسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة فليس في التوراة حرمتها
واختلفوا في الطعام الذي حرمه اسرائيل على نفسه وفي سببه فقال مقاتل والكلبي كان ذلك
الطعام لحمان الابل وألبانها وسبب ذلك انه مرض مرضا شديدا وطال سقمه فنذر لئن عافاه
الله من سقمه ليحرمن احب الطعام والشراب اليه وكان ذلك احب اليه فحرمه وقال ابن
عباس والضحاك هي العروق وسبب ذلك انه اشتكى عرق النسا وهو بفتح النون والقصر
عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ وكان اصل وجعه أنه كان نذر ان وهبه الله اثني عشر
ولدا واتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة فقال يا يعقوب انك
رجل قوي فهل لك في الصراع فعالجه فلم يصرع واحد منهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض
له عرق النسا ثم قال له أما اني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لانك كنت
نذرت ان أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت ولدك فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجا
فكان لا ينام بالليل من الوجع فحلف يعقوب لئن عافاه الله تعالى ان لا يأكل عرقا ولا طعاما
فيه عرق فحرمه على نفسه وكان بنوه بعد ذلك يتتبعون العروق يخرجونها من اللحم وقال ابن
عباس لما اصاب يعقوب عرق النسا وصف له الاطباء أن يجتنب لحمان الابل فحرمها يعقوب
على نفسه ثم اختلفوا في حال هذا الطعام المحرم على بني اسرائيل بعد نزول التوراة فقال
السدي حرم الله عليهم في التوراة ما كانوا يحرمونه قبل نزولها وقال الضحاك لم يكن شيء من
ذلك حراما عليهم وانما حرموا على أنفسهم اتباعا لابيهم ثم أضافوا تحريمه الى الله عز وجل
وأكذبهم الله تعالى فقال تعالى (قل) لهم يا محمد (فأتوا بالتوراة فاتلوها) ليتبين صدق
قولكم (ان كنتم صادقين) فيه فبهتوا ولم يأتوا بها وفي اخباره صلى الله عليه وسلم بما في

لفظ الله لانضمام الرسول اليه في العطف لان التقدير فيه ان الحرف الثاني اتصل بالمتعاطفين جميعا اذ الواو تصيرهما في حكم شيء واحد (قوله من يعمل سوءا يجز به) أي ان مات

التوراة دليل على نبوته قال الله تعالى (فمن افترى) اى ابتدع (على الله الكذب من بعد ذلك)
اى ظهور الحجة بان التحريم انما كان من جهة يعقوب لا على عهد ابراهيم (فاولئك هم
الظالمون) اى المتجاوزون الحق الى الباطل وقوله تعالى (قل) أى لهم (صدق الله) تعريض
بكذبهم أى ثبت ان الله صادق فى هذا كجميع ما أخبر به وانتم الكاذبون (فاتبعوا ملة ابراهيم)
أى ملة الاسلام التى انا عليها التى هى فى الاصل ملة ابراهيم حتى تتخلصوا من اليهودية التى
ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم الى تحريف كتاب الله تعالى لتسوية
اغراضكم والزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله تعالى لابراهيم عليه السلام ومن تبعه
(حنيفا) اى مائلا عن كل دين الى دين الاسلام وقوله تعالى (وما كان من المشركين) فيه اشارة
الى ان اتباع ابراهيم صلى الله عليه وسلم واجب فى التوحيد الصرف والاستقامة فى الدين
والتجنب عن الافراط وهو تحريف التوراة وعن التفريط وهو ترك العمل وفيه اشارة الى
التعريض بشرك اليهود * ولما قالت اليهود للمسلمين بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من
الكعبة وأقدم وهو مهاجر الانبياء وقال المسلمون بل الكعبة أفضل نزل (ان اول بيت وضع
للناس) اى جعله الله متعبدا لهم وهو اول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والارض
خلقه الله تعالى قبل الارض بالفى عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الارض تحته
بناه الملائكة قبل خلق آدم ووضع بعده الاقصى وبينهما اربعون سنة كما فى حديث الصحيحين
ولما أهبط آدم قالت له الملائكة طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بالفى عام وقيل أول
من بناه آدم فانطمس فى الطوفان ثم بناه ابراهيم وقيل كان فى موضعه قبل آدم بيت يقال له
الضراح بضاد معجمة وحاء مهملة سمى بذلك لانه ضرح من الارض أى بعد وبطوف به
الملائكة فلما أهبط أمر بان يحجه ويطوف حوله ورفع فى الطوفان الى السماء الرابعة تطوف
به ملائكة السموات قال البيضاوى وهذا القول لا يلائم ظاهر الآية وقيل أول من بناه
ابراهيم ثم هدم فبناه قوم من جرهم ثم العمالقة ثم قريش (للذى) أى للبيت الذى (ببكة) بالباء
لغة فى مكة سميت بذلك لانها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها فلم يرمها جبار بسوء الا قصمه الله
وسميت مكة بالميم لقلة مائها من قول العرب مك الفصيل ضرع أمه وامتكه اذا امتص
كل ما فيه من اللبن وتدعى أم رحم لان الرحمة تنزل بها وقوله تعالى (مباركا) حال من الذى أى
ذا بركة لانه كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف عنده أو طاف حوله من
الثواب وتكفير الذنوب (وهدى للعالمين) لانه قبلتهم ومتعبدهم ولان فيه آيات عجيبة كما قال
تعالى (فيه آيات بينات) كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الاعصار فلا تعلو فوقه
وأن ضوارى السباع تخالط الصيود فى الحرم ولا تتعرض لها واذا قصدت الجارحة صيدا
فدخلت الحرم كفت عنه وانه بلد صار اليه الانبياء والمرسلون والاولياء والابرار وان الصلاة
فيه تضاعف بمائة ألف وان كل جبار قصده بسوء قهره الله تعالى كاصحاب الفيل وجملة
فيه آيات بينات مفسرة للهدى أو حال كمباركا وهدى وقوله تعالى (مقام ابراهيم) مبتدأ حذف
خبره أى منها مقام ابراهيم أو خبر مبتدأ محذوف أى احدها أو بدل من آيات بدل بعض من
كل وهو الحجر الذى قام عليه ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكان أثر قدميه فيه فاندرس من

بكثرة

مصرا عليه فان تاب منه لم يجزيه (قوله كونوا قوامين بالقسط شهداء لله) أخر قوله شهداء لله هنا عن قوله بالقسط اهتماما بطلب القسط أى العدل وعكس فى المائدة لان لله

كثرة المسح بالايدى ولعل الذي اندرس بعضه فانى رأيت أثر القدمين فيه وفي هذا دلالة على قدرة الله تعالى ونبوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام لان تأثير القدم في الصخرة الصماء وغوصه فيها الى الكعبين والانة بعض الصخرة دون بعض وابقاءه دون سائر آيات الانبياء عليهم الصلاة والسلام وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنين معجزة عظيمة واختلف في سبب هذا الاثر على قولين أحدهما انه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف ابراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه وهذا هو المشهور والقول الثاني انه لما جاز ابراهيم من الشام الى مكة قالت له امرأة اسمعيل انزل حتى تغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الايمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته الى شقه الايسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي اثر قدميه عليه قال البيضاوى وقيل عطف بيان ورده هذا القول بان آيات نكرة ومقام ابراهيم معرفة ولا يجوز التخالف في عطف البيان باجماع البصريين والكوفيين وقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) جملة ابتدائية او شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام لانه في معنى أمن من دخله أى ومنها أمن من دخله وذلك بدعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام رب اجعل هذا البلد آمنا وفي الاقتصار على ذكر هاتين الآيتين وطى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات كأنه قيل فيه آيات بينات مقام ابراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما ونحوه في طى الذكر قول جرير

كانت حنيفة أثلاثا فثلثهم * من العبيد وثلث من مواليها

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى في الصلاة والامن من العذاب يوم القيامة قال عليه الصلاة والسلام من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا رواه أبو داود والدارقطنى وغيرهما وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال الحجون والبقيع يؤخذ باطرافهما وينثران في الجنة والحجون مقبرة مكة والبقيع مقبرة المدينة وعند الامام أبى حنيفة رحمه الله تعالى من لزمه القتل بردة أو قصاص أو غيرهما لم يتعرض له الا انه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر الى الخروج فيقتل وكان عمر بن الخطاب يقول لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه وعند الامام الشافعى رحمه الله تعالى لا يلجأ الى الخروج بل يقتل للامر في خبر الشيخين بقتل ابن خطل وقد كان ارتد وتعلق باستار الكعبة وأما قوله ومن دخله كان آمنا وخبر من دخل المسجد فهو آمن فمعناه جمعا بين الادلة ان من دخله بغير استحقاق قتل كان آمنا ومن دخله بعد استحقاق قتل قتل وأما اذا ارتكب الجريمة في الحرم فيستوفى منه بالاتفاق (ولله على الناس حج البيت) أى قصده للزيارة على وجه مخصوص وهو أحد اركان الاسلام قال صلى الله عليه وسلم بنى الاسلام على خمس شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والحج وصوم رمضان وقرأ حفص وحمزة والكسائى بكسر الحاء وهى لغة نجد وقرأ الباقون بالفتح وهى لغة أهل الحجاز وهما لغتان فصيحتان ومعناهما واحد وقوله تعالى (من استطاع اليه) أى الحج أو البيت (سبيلا) أى طريقا بدلا من الناس مخصص له وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة رواه الحاكم وغيره (ومن كفر) اى بما فرضه الله من الحج

(قوله يا أيها الذين آمنوا كونوا أيها الولاة قوامين لله لا لنفع في أحكامكم بدليل قوله ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية أى لكون الآية في الولاة فيها متعلق بقوامين

أو كفر بالله (فان الله غنى عن العالمين) أى الانس والجن والملائكة عن عبادتهم وقيل وضع
كفر موضع لم يحج تأكيدا لوجوبه وتشديدا على تاركه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ملك
زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا او نصرانيا رواه الترمذى
وضعفه ونحوه فى التغليظ من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر *(تنبيه)* فى هذه الآية انواع
من التأكيد والتشديد على طلب الحج منها قوله تعالى ولله على الناس حج البيت أى انه حق
واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهدته ومنها انه ذكر الناس
ثم انه أبدل منه من استطاع اليه سبيلا وفيه ضربان من التوكيد أحدهما ان الابدال
تثنية للمراد وتكرير له والثانى ان الايضاح بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال ايراد له فى
صورتين مختلفتين ومنها ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان ومنها
قوله عن العالمين ولم يقل عنه وفيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لانه اذا استغنى عن
العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ولانه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط
الذى وقع عبارة عنه وعن سعيد بن المسيب نزلت فى اليهود فانهم قالوا الحج الى مكة غير
واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى ولله على الناس حج البيت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
أهل الاديان كلهم فخطبهم فقال ان الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة
وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل وهم المشركون واليهود والنصارى والصابئون والمجوس
قالوا لا نؤمن به ولا نصلى اليه ولا نحجه فنزل ومن كفر الخ وعنه صلى الله عليه وسلم حجوا قبل
أن لا تحجوا فانه قد هدم البيت مرتين ويرفع فى الثالثة وروى حجوا قبل أن لا تحجوا حجوا قبل
أن يمنع البر جانبه وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه حجوا هذا البيت قبل أن تنبت فى
البادية شجرة لا تأكل منها دابة الا نفقت اى ماتت (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله)
الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره وتخصيص أهل
الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح وانهم وان زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة
والانجيل فهم كافرون بهما (والله شهيد) اى والحال ان الله تعالى شهيد (على ما تعملون)
فيجازيكم عليه (قل يا أهل الكتاب لم تصدون) أى تصرفون (عن سبيل الله) أى دينه الحق
المأمور بسلوكه وهو الاسلام (من آمن) بتكذيبكم النبى صلى الله عليه وسلم وكتمكم نعته
وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون فى صدهم عن دين الله ويمنعون من اراد الدخول فيه
بجهدهم وقيل اتت اليهود الاوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العدوان
والحروب ليعودوا لمثله وانما كرر الخطاب والاستفهام مبالغة فى التوبيخ ونفى العذر لهم
واشعارا بان كل واحد من الامرين مستقبح فى نفسه مستقل باستجلاب العذاب وقوله تعالى
(تبغونها) اى السبيل (عوجا) حال من الواو اى باغين طالبين لها اعوجاجا اى ميلا عن
القصد والاستقامة بان تلبسوا على الناس وتوهموا ان فى دين الاسلام عوجا عن الحق بمنع
النسخ وبتغيير صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحوهما *(فائدة)* قال ابو عبيدة العوج
بالكسر فى الدين والقول والعمل وبالفتح فى الجدار وكل شخص قائم (وانتم شهداء) اى
عالمون بان الدين المرضى هو دين الاسلام كما فى كتابكم (وما الله بغافل عما تعملون) من الكفر

والتكذيب

آمنوا) أى داوموا على
الايمان اذ لو حمل على
ظاهره لكان تحصيلا
للحاصل (قوله فان كان
لكم فتح من الله) سمى
ظفر المسلمين فتحا وظفر
الكافرين نصيبا بعده
تعظيما لشان المسلمين

والتكذيب وانما يؤخركم لوقتكم فيجازيكم (فان قيل) لم ختمت الآية الاولى بقوله تعالى والله شهيد على ما تعملون وهذه الآية بقوله تعالى وما الله بغافل عما تعملون (اجيب) بانه لما كان المنكر في الآية الاولى كفرهم وهم يجهرون به ختمها بقوله تعالى والله شهيد على ما تعملون ولما كان في هذه الآية صدهم المؤمنين عن الاسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال وما الله بغافل عما تعملون • ولما مر شاس بن قيس اليهودي وكان شيخا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من الانصار من الاوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون فغاظه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة وقال ما لنا معهم اذا اجتمعوا من قرار فامر شابا من اليهود أن يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث وهو موضع بالمدينة وينشدهم بعض ما قيل فيه من الاشعار وكان يوما اقتتلت فيه الاوس والخزرج وكان الظفر فيه للاوس ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين والانصار فقال أبدعوى الجاهلية وانا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالاسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف به بينكم فعرف القوم انها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فالقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين نزل (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) أي شاسا وأصحابه (يردوكم بعد ايمانكم كافرين) قال جابر ما رأيت يوما قط أقبح أولا وأحسن آخرا مثل ذلك اليوم ثم قال الله تعالى على وجه التعجب والتوبيخ (وكيف تكفرون) أي ولم تكفرون (وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى من أين يتطرق اليكم الكفر والحال ان آيات الله وهي القرآن المعجز تتلى عليكم على لسان النبي صلى الله عليه وسلم غضة طرية وبين أظهركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم (ومن يعتصم بالله) أي ومن يتمسك بدينه أو يلتجئ اليه في مجامع أموره (فقد هدي) أي فقد حصل له الهدى لا محالة كما تقول اذا جئت فلانا فقد أفلحت كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا ومعنى التوقع في قد ظاهر لان المعتصم بالله متوقع للهدى كما ان قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده (الى صراط) أي طريق (مستقيم) أي واضح (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) أي واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم وقال ابن مسعود بان يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى وروي مرفوعا ولما نزلت هذه الآية قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم يا رسول الله من يقوى على هذا فنسخ بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وقال مقاتل ليس في آل عمران منسوخ الا هذه الآية (ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) أي موحدون والمعنى ولا تكونن على حال سوى حالة الاسلام اذا أدرككم الموت فان النهي عن المقيد بحال أو غيرها قد يتوجه بالذات الى القيد تارة والى المقيد أخرى والى المجموع منهما وهو هنا الى القيد كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو لا تأتني الا وانت على حصان بكسر الحاء فلا تنهاه عن الاتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الاتيان فالنهي هنا متوجه الى القيد وحده وعن ابن عباس رضي

وتخصيص لفظ الكافرين لتضمن الاول نصرة دين الله واعلاء كلمته ولهذا اضاف الفتح اليه تعالى وحظ الكافرين في ظفرهم دنيوي (قوله وبكفرهم) كرره لتكرار الكفر منهم فانهم كفروا

الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته الآية فلو ان قطرة من الزقوم قطرت على الارض لامرت على اهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامهم وليس لهم طعام غيره (واعتصموا بحبل الله) اى بدينه وهو دين الاسلام استعار له الحبل من حيث ان التمسك به سبب للنجاة من الردى كما ان التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردى او بكتابه وهو القرآن لقوله صلى الله عليه وسلم القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى الى صراط مستقيم وقوله تعالى (جميعا) حال اى مجتمعين عليه (ولا تفرقوا) اى ولا تتفرقوا بعد الاسلام بوقوع الاختلاف بينكم كاهل الكتاب او كما كنتم متفرقين فى الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضا ويحاربه (واذكروا نعمة الله) اى انعامه (عليكم) التى من جملتها الهداية والتوفيق للاسلام المؤدى الى التألف (اذ كنتم اعداء) فى الجاهلية بينكم الاحن والعداوات والحروب المتواصلة (فألف بين قلوبكم) بالاسلام وقذف فيها المحبة (فاصبحتم بنعمته اخوانا) متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد وهو الاخوة فى الله وقيل هم الاوس والخزرج كانا أخوين لاب وأم فوقعت بينهما العداوة بسبب قتيل وتطاولت الحروب والعداوة بينهم مائة وعشرين سنة الى أن أطفأ الله ذلك بالاسلام وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم (وكنتم على شفا) اى طرف (حفرة من النار) اى حفرة ليس بينكم وبين الوقوع فيها الا ان تموتوا كفارا (فانقذكم منها) بالاسلام والضمير للحفرة والنار او الشفا وانثه لتأنيث ما اضيف اليه كقول الشاعر * كما شرقت صدر القناة من الدم * (كذلك) اى مثل ذلك البيان البليغ (يبين الله لكم آياته) اى دلائله (لعلكم تهتدون) ارادة ان تزدادوا هدى (ولتكن منكم أمة) اى طائفة (يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) من للتبعيض لان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ولانه لا يصلح له الا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الامر فى اقامته وكيف يباشره فان الجاهل ربما نهى عن معروف وامر بمنكر وقد يغلظ فى موضع اللين ويلين فى موضع الغلظة وعلى هذا فالمخاطب به الكل على الاصح ويسقط بفعل البعض الحرج عن الباقين وهكذا كل ما هو فرض كفاية فان تركوه اصلا اثموا جميعا وقيل من زائدة وقيل للتبيين بمعنى وكونوا امة تأمرون بالمعروف كقوله تعالى كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف (وأولئك) اى الداعون الآمرون الناهون (هم المفلحون) اى الفائزون بكمال الفلاح روى الامام احمد وغيره انه صلى الله عليه وسلم سئل وهو على المنبر من خير الناس قال آمرهم بالمعروف وانهاهم عن المنكر واتقاهم لله وأوصلهم للرحم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من امر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى ارضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان وروى انه صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله ان يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم وروى ان ابا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم

بموسى وعيسى وبعضه صلى الله عليه وسلم (قوله وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) * ان قلت اليهود الداخلون تحت اهل الكتاب كانوا كافرين بعيسى فكيف اقروا بانه

من ضل اذا اهتديتم وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا منكرا
فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعذابه (١) وروى انه صلى الله عليه وسلم قال مثل المداهن
فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم فى أسفلها وصار بعضهم فى
اعلاها فكان الذى فى اسفلها يمر بالماء على الذى فى اعلاها فتأذوا به فأخذ فأسا فجعل ينقر
اسفل السفينة فأتوه فقالوا مالك فقال تأذيتم بى ولابد لى من الماء فان اخذوا على يديه أنجوه
وانجوا انفسهم وان تركوه اهلكوه واهلكوا انفسهم وعن حذيفة يأتى على الناس زمان
يكون فيهم جيفة الحمار احب اليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وعن
سفيان الثورى اذا كان الرجل محببا فى جيرانه محمودا عند اخوانه فاعلم انه مداهن والامر
بالمعروف تابع للمأمور به ان كان واجبا فواجب وان كان مندوبا فمندوب واما النهى عن
المنكر اى الحرام فواجب كله لان جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح والاظهر ان العاصى
يجب عليه ان ينهى عما يرتكبه لانه يجب عليه تركه وانكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب
الآخر وعن السلف مروا بالخير وان لم تفعلوا وانما يجب الامر والنهى على المكلف اذا لم
يخش ضررا ويجب ان يدفع بالاخف فالاخف كدفع الصائل (فان قيل) الدعاء للخير عام فى
التكاليف من الافعال والتروك فهو شامل للامر بالمعروف والنهى عن المنكر فما فائدة
ذكر ذلك (أجيب) بانه من عطف الخاص على العام ايذانا بفضله كقوله تعالى حافظوا على
الصلوات والصلاة الوسطى (ولاتكونوا كالذين تفرقوا) عن دينهم (واختلفوا) فيه وهم
اليهود والنصارى (من بعد ما جاءهم البينات) اى الآيات والحجج الموجبة للاتفاق على كلمة
واحدة وهى كلمة الحق وقيل هم مبتدعة هذه الامة وهم المشبهة والجبرية والحشوية
وأشباههم وقوله تعالى (وأولئك لهم عذاب عظيم) وعيد للذين تفرقوا وتهديد للمتشبهين بهم
(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) هو يوم القيامة ونصب يوم بالظرف وهو لهم لما فيه من معنى
الفعل أو باضمار اذكروا والبياض من النور والسواد من الظلمة فمن كان من أهل نور الحق
وسم ببياض اللون واسفاره واشراقه وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه
ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت
به الظلمة من كل جانب نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله (فأما الذين اسودت
وجوههم) فهم الكافرون فيلقون فى النار ويقال لهم توبيخا (أكفرتم بعد ايمانكم)
واختلفوا فى كيف كفروا بعد ايمانهم فقال أبى بن كعب اراد به الايمان يوم الميثاق حين قال
لهم ألست بربكم قالوا بلى يقول أكفرتم بعد ايمانكم يوم الميثاق وعلى هذا هم جميع الكفرة
وقال الحسن هم المنافقون تكلموا بالايمان بالسنتهم وأنكروا بقلوبهم وعن عكرمة انهم
أهل الكتاب آمنوا بانبيائهم وبمحمد صلى الله عليه وسلم قبل ان يبعث فلما بعث كفروا به وقال
قتادة هم أهل البدع وقال أبو امامة هم الخوارج ولما رآهم على درج دمشق دمعت عيناه ثم قال
كلاب أهل النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء وخير قتلى تحت أديم الارض الذين قتلهم هؤلاء
فقال له أبو غالب أشئ تقوله برأيك أم شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بل
سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة قال فما شأنك دمعت عيناك قال رحمة لهم كانوا

(١) قوله بعذابه فى بعض النسخ بعذاب من عنده فلتحرر الرواية

رسول الله (قلت) قالوه استهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون (قوله وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) الآية وصفهم بالشك لا ينافى وصفهم بعد بالظن لان

من أهل الاسلام فكفر وانم قرأ هذه الآية ثم أخذ بيده فقال ان يارضت منهم كثيرا فاعاذك
الله تعالى منهم وقوله تعالى (فذوقوا العذاب) أمر اهانة (بما كنتم تكفرون) اى بسبب كفركم
أو بجزاء كفركم فالباء متعلقة بذوقوا على الاول وبمحذوف على الثانى (وأما الذين ابيضت
وجوههم ففى رحمة الله) أى جنته عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وان استغرق عمره فى
طاعة الله تعالى لايدخل الجنة الا برحمته وفضله (فان قيل) كان حق الترتيب أن يقدم ذكرهم
(أجيب) بان القصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم (فان قيل)
مافائدة قوله تعالى (هم فيها خالدون) بعد قوله ففى رحمة الله (أجيب) بان فائدته انه أخرج مخرج
الاستئناف والتأكيد كأنه قيل كيف يكونون فيها فقال هم فيها خالدون لايظعنون عنها
ولايموتون (تلك) أى هذه الآيات الواردة فى الوعد والوعيد (آيات الله نتلوها عليك) يا محمد
(بالحق) أى متلبسة بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسىء (وما الله يريد ظلما للعالمين) اذ
يستحيل الظلم منه تعالى لانه لايجب عليه شىء بل هو المالك على الاطلاق كما قال تعالى (ولله
ما فى السموات وما فى الارض) ملكا وخلقا (والى الله ترجع) اى تصير (الامور) فيجازى
كلا بما وعده وأوعده (كنتم) يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى علم الله تعالى (خير أمة أخرجت)
أى أظهرت (للناس) وقيل كنتم فى الامم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به
روى انه صلى الله عليه وسلم قال ألا وان هذه الامة توفى سبعين أمة هى خيرها وأكرمها على الله
تعالى وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل امتى مثل المطر لايدرى اوله خير ام آخره وروى
انه صلى الله عليه وسلم قال ان الجنة حرمت على الانبياء كلهم حتى ادخلها وحرمت على الامم
حتى تدخلها امتى وروى انه صلى الله عليه وسلم قال أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون
من هذه الامة وقوله تعالى (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) استئناف بين به كونهم
خير أمة كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم او خبر ثان لكنتم وقوله
تعالى (وتؤمنون بالله) يتضمن الايمان بكل مايجب أن يؤمن به لان من آمن ببعض مايجب
الايمان به من رسول اوكتاب او بعث او حساب او عقاب او ثواب او غير ذلك لم يعتد بايمانه
فكأنه غير مؤمن بالله (فان قيل) لم أخر تؤمنون بالله وحقه أن يقدم (أجيب) بأنه انما اخر لانه
قصد بذكره الدلالة على انهم امروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ايمانا بالله تعالى وتصديقا به
واظهارا لدينه *(تنبيه)* استدل بهذه الآية على ان اجماع هذه الامة حجة لانها تقتضى
كونهم آمرين بكل معروف ناهين عن كل منكر اذ اللام فيها للاستغراق فلو اجمعوا على باطل
كتحريم شىء هو فى نفس الامر معروف كان امرهم على خلاف ذلك (ولو آمن اهل الكتاب) بالله
ورسوله صلى الله عليه وسلم (لكان) الايمان (خيرا لهم) مما هم عليه لانهم انما آثروا دينهم على
دين الاسلام حبا للرياسة واستتباع العوام (منهم المؤمنون) كعبد الله بن سلام وأصحابه
(وأكثرهم الفاسقون) اى المتمردون فى الكفر (لن يضروكم) اى اليهود يا معشر المسلمين بشىء
(الا أذى) اى ضررا يسيرا كسب وطعن فى الدين وتهديد ونحو ذلك (وان يقاتلوكم يولوكم
الادبار) منهزمين ولا يضروكم بقتل او أسر (ثم لا ينصرون) عليكم بل لكم النصر عليهم وفى
هذا تثبيت لمن اسلم منهم لانهم كانوا يؤذونهم بانهم لايقدرون أن يتجاوزوا الاذى الى ضرر يبالى

المراد بالشك هنالك الظن واستقباه الظن من العلم فى الآية منقطع فالا فيها بمعنى لكن كما فى قوله لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما ونحوه (قوله ازله بعلمه) ان قلت كيف قال

قد

به مع انه تعالى وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وان عاقبة امرهم الخذلان والذل (فان قيل) هلا جزم المعطوف فى قوله ثم لا ينصرون (اجيب) بانه عدل به عن حكم الجزاء الى حكم الاخبار ابتداء كانه قيل ثم أخبركم انهم لا ينصرون والفرق بين رفعه وجزمه فى المعنى أنه لو جزم لكان نفى النصر مقيدا بقتالهم كتولية الادبار وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا كأنه قال ثم شأنهم وقصتهم التى اخبركم عنها او ابشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم امر كما اخبر عن حال بنى قريظة والنضير ويهود خيبر (فان قيل) ما معنى التراخى فى ثم (أجيب) بان معناه التراخى فى الرتبة لان الاخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الاخبار بتوليتهم الادبار (ضربت عليهم الذلة) اى هدر النفس والمال والاهل اوذل التمسك بالباطل والجزية (اينما ثقفوا) اى حيثما وجدوا فلا عز لهم ولا اعتصام فى سائر احوالهم (الا) فى حال اعتصامهم (بحبل من الله) اى بذمة الله اوكتابه (وحبل من الناس) اى بذمة المسلمين أو بدين الاسلام واتباع سبيل المؤمنين اى لا عز لهم قط الا هذه الواحدة وهى التجاؤهم الى الذمة لما قبلوه من الجزية او دين الاسلام (وباؤا) أى رجعوا (بغضب من الله) أى مستوجبين له (وضربت عليهم المسكنة) كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون فى المسكنة غير ظاعنين عنها يظهرون الفقر والمسكنة وفسر أكثر المفسرين المسكنة بالجزية وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه قال البيضاوى واليهود فى غالب الامر فقراء مساكين اهـ (ذلك) أى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب كائن (بانهم) أى بسبب انهم (كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك) أى الكفر والقتل (بما عصوا وكانوا يعتدون) أى كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى فان الاصرار على الصغائر يفضى الى الكبائر والاصرار على الكبائر يفضى الى الكفر والعياذ بالله تعالى (ليسوا) أى أهل الكتاب (سواء) أى مستوين وقوله تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة) أى مستقيمة ثابتة على الحق استئناف لبيان نفى الاستواء وهم الذين أسلموا كعبد الله ابن سلام وأصحابه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما أسلم عبد الله بن سلام قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد الا أشرارنا ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم فانزل الله هذه الآية (يتلون آيات الله) أى يقرؤن كتاب الله (آناء الليل) أى فى ساعاته وقوله تعالى (وهم يسجدون) حال أى يصلون لان التلاوة لا تكون فى السجود واختلفوا فى معناها فقال بعضهم هى قيام الليل وقال ابن مسعود هى صلاة العتمة لان أهل الكتاب لا يصلونها لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أخرها ثم خرج الى المسجد فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما انه أى الشأن ليس من أهل الاديان أحد يذكر الله تعالى هذه الساعة غيركم رواه الامام أحمد والنسائى وغيرهما وقوله غيركم بالنصب خبر ليس ومن أهل الاديان حال من أحد قاله التفتازانى * ثم وصف الله تعالى تلك الامة القائمة بصفات أخر فقال (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك) أى الموصوفون بما ذكر (من الصالحين) أى ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناءه أى والامة الاخرى غير قائمة بل منحرفون

بعلمه ولم يقل بقدرته أو بعلمه وقدرته مع انه تعالى لا ينزل الا عن علم وقدرة (قلت) معناه انزله ملتبسا بعلمه اى عالما به أو وفيه علمه اى معلومه (قوله انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته) * فان

عن الحق غير متعبدين بالليل مشركون بالله ملحدون فى صفاته واصفون لليوم الآخر بغير صفته مداهنون المؤمنين عن الخيرات فترك هذا اكتفاء بذكر أحد الفريقين (وما تفعلوا من خير فلن تكفروه) أى تعدموا ثوابه بل تجازون عليه وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالياء فيهما أى الامة القائمة والباقون بالتاء على الخطاب أى أيها الامة القائمة وقوله تعالى (والله عليم بالمتقين) بشارة لهم واشعار بان التقوى مبدأ الخير وحسن العمل وان الفائز عند الله هو أهل التقوى (ان الذين كفروا لن تغنى) أى تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله) أى من عذابه (شيأ) وخص الاموال والاولاد بالذكر لان الانسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالاولاد (واولئك أصحاب النار) أى ملازموها (هم فيها خالدون مثل) أى صفة (ما ينفقون) أى الكفار (فى هذه الحيوة الدنيا) فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم ونحوها (كمثل ريح فيها صر) قال أكثر المفسرين فيها برد شديد وحكى عن ابن عباس أنها السموم الحارة التى تقتل وقيل فيها صر أى صوت (أصابت حرث) أى زرع (قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصى (فاهلكته) عقوبة لهم لان الاهلاك عن سخط أشد وأبلغ والمعنى مثل اهلاك ما ينفقون كمثل اهلاك ريح الزرع فلم ينتفعوا به فكذلك نفقة هؤلاء ذاهبة لا ينتفعون بها (وما ظلمهم الله) بضياع نفقاتهم (ولكن أنفسهم يظلمون) بالكفر الموجب اضياعها ويجوز أن يعود الضمير لاصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم اى وما ظلمهم الله تعالى باهلاك حرثهم ولكن ظلموا انفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) اى اصفياء تطلعونهم على سركم ثقة بهم شبهوا ببطانة الثوب كما شبهوا بالشعار قال عليه الصلاة والسلام الانصار شعار والناس دثار رواه الشيخان والشعار ما يلى الجسد والدثار فوقه وقوله تعالى (من دونكم) اى من دون المسلمين متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف هو صفة بطانة اى كائنة من دونكم اى غيركم من الكفار والمنافقين (لا يألونكم خبالا) اى لا يقصرون لكم فى الفساد والالو التقصير وأصله أن يعدى بالحرف وعدى الى مفعولين كقولهم لا آلوك نصحا على تضمين معنى المنع او النقص والمعنى لا امنعك نصحا ولا انقصكه (ودوا) اى تمنوا (ما عنتم) اى عنتكم وهو شدة الضرر وما مصدرية اى تمنوا أن يضروكم فى دينكم ودنياكم أشد الضرر وابلغه (قد بدت) اى ظهرت (البغضاء من افواههم) اى فى كلامهم بالوقيعة فيكم واطلاع المشركين على سركم لانهم لا يتمالكون انفسهم لفرط بغضهم وعن قتادة قد بدت البغضاء لاوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضا على ذلك (وما تخفى صدورهم) من العداوة والغيظ (اكبر) اى اعظم مما بدا لان بدوه ليس عن روية واختيار (قد بينا لكم الآيات) الدالة على وجوب الاخلاص فى الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين (ان كنتم تعقلون) ما بين لكم فلا توالوهم (فان قيل) كيف موقع هذه الجمل وهى لا يألونكم وودوا ما عنتم وقد بدت البغضاء وقد بينا لكم الآيات (أجيب) بانها استئنافات على وجه التعليل بمعنى ان كلا علة للنهى عن اتخاذهم بطانة (ها أنتم اولاء) ها تنبيه وانتم كناية للمخاطبين واولاء اسم للمشار اليهم وهم المؤمنون وقوله تعالى (تحبونهم) اى هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم

قلت كلامه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته وعيسى مخلوق وحادث فكيف صح اطلاق الكلمة عليه (قلت) كان معناه ان وجوده بكلمة الله تعالى وهو قوله كن من غير واسطة اب بخلاف غيره من البشر

للاسباب التى بينكم من القرابة والرضاع والمصاهرة (ولا يحبونكم) لمخالفتهم لكم فى الدين بيان لخطئهم فى موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لاهل البغضاء (وتؤمنون بالكتاب كله) اى بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم وفى هذا توبيخ شديد للمؤمنين بانهم فى باطلهم اصلب منكم فى حقكم ونحوه هذا قوله تعالى فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون (واذا لقوكم قالوا آمنا) اى نفاقا وتغريرا (واذا خلوا) اى خلا بعضهم ببعض (عضوا عليكم الانامل) اى اطراف الاصابع (من الغيظ) اى شدة الغضب لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ويعبر عن شدة الغضب بعض الانامل مجازا وان لم يكن ثم عض فيوصف المغتاظ والنادم بعض الانامل والبنان والابهام قال الحرث بن ظالم المرى

فاقتل اقواما لئاما اذلة * يعضون من غيظ رؤس الاباهم

(قل موتوا بغيظكم) اى ابقوا الى الممات بغيظكم فلن تروا ما يسركم وقوله تعالى (ان الله عليم بذات الصدور) اى بما فى القلوب ومنه ما يضمره هؤلاء يحتمل ان يكون من المقول اى وقل لهم ان الله عليم بما هو اخفى مما تخفونه من عض الانامل غيظا وان يكون خارجا عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من اطلاعى اياك على اسرارهم فانى عليم بالاخفى من ضمائرهم (ان تمسسكم) اى تصبكم ايها المؤمنون (حسنة) اى نعمة كنصر وغنيمة وخصب فى معاشكم وتتابع الناس فى دينكم (تسؤهم) اى تحزنهم (وان تصبكم سيئة) اى اساءة كهزيمة وجدب واختلاف يكون بينكم (يفرحوا بها) وجملة الشرط متصلة بالشرط قبل وما بينهما اعتراض والمعنى انهم متناهون فى عداوتكم فلم توالونهم فاجتنبوهم (فان قيل) كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالاصابة (اجيب) بان المس مستعار بمعنى الاصابة فكان المعنى واحدا الا ترى الى قوله تعالى ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك (وان تصبروا) على اذاهم (وتتقوا) الله فى موالاتهم وغيرها (لا يضركم كيدهم شيأ) بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين وهذا تعليم من الله تعالى وارشاد الى انه يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى وقد قال الحكماء اذا اردت ان تكيد من يحسدك فازدد فضلا فى نفسك وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بكسر الضاد وسكون الراء من ضاره يضيره والباقون بضم الضاد وضم الراء مشددة للاتباع كضمة مد وهى ضمة الامر المضاعف وكل مجزوم من المضاعف المضموم العين فانه يجوز ضمه للاتباع كما يجوز فتحه للخفة وكسر لاجل تحريك الساكن (ان الله بما تعملون محيط) أى عالم فيجازيكم به (و) اذكر يا محمد (اذ غدوت من أهلك) أى من حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها (تبوئ) أى تنزل (المؤمنين مقاعد) أى مراكز يقفون فيها (للقتال والله سميع) لاقوالكم (عليم) باحوالكم روى أن المشركين نزلوا باحد يوم الاربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن أبى ابن سلول ولم يدعه قط قبلها واستشاره فقال عبد الله وأكثر الانصار يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ما خرجنا منها الى عدو قط الا أصاب منا ولا دخل علينا الا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فان أقاموا أقاموا بشر محبس أى بكسر الباء وهو مكان لا ماء فيه ولا طعام وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين

سوى آدم وانما خص ذلك بعيسى لانه جىء به للرد على من افترى عليه وعلى امه مريم

•(سورة المائدة)•

(قوله وما اكل السبع) اى وما اكل منه السبع وهو

فاعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرأى وقال بعض أصحابه اخرج بنا الى هؤلاء الاكلب لا يرون انا قد جبنا عنهم وضعفنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى قد رأيت فى منامى بقرا مذبحة حولى فاولتها خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فاولته هزيمة ورأيت كانى أدخلت يدى فى درع حصينة فاولتها المدينة فان رأيتم ان تقيموا بالمدينة وتدعوهم فقال رجال من المسلمين قد فاتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا الى أعدائنا فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لامته أى درعه فلما رأوه قد لبس لامته ندموا وقالوا بئس ما صنعنا نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحى يأتيه وقالوا اصنع يا رسول الله ما رأيت فقال لا ينبغى لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة ونزل فى عدوة الوادى أى بالعين المهملة وهى جانبه وجعل ظهره وعسكره الى أحد وسوى صفوفهم وأجلس خمسين من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير بسفح الجبل وقال انضحوا علينا بالنبل لا يأتون من ورائنا ولا تبرحوا غلبنا او نصرنا (اذ) بدل من اذ قبله (همت طائفتان منكم) بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس وهما جناحا العسكر (ان تفشلا) أى تجبنا عن القتال وترجعا روى أنه صلى الله عليه وسلم خرج فى زهاء الف رجل ووعدهم النصر ان صبروا وكان المشركون ثلاثة آلاف فلما بلغوا عند جبل احد بالمدينة انعزل ابن ابى المنافق فى ثلثمائة وقال علام نقتل انفسنا واولادنا فاتبعهم عمرو بن حزم الانصارى وقال انشدكم الله فى نبيكم وانفسكم فقال ابن ابى لو نعلم قتالا لاتبعناكم فهم الحيان باتباعه فثبتهم الله ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الزمخشرى والظاهر انها ما كانت الاهمة وحديث نفس وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يردها صاحبها الى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه كما قال عمرو بن الاطنابة

اقول لها اذا جشأت وجاشت * مكانك تحمدى او تستريحى

(والله وليهما) اى ناصرهما فما لهما تفشلان (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) اى ليثقوا به دون غيره فينصرهم كما نصرهم ببدر * ونزل لما هزموا من احد تذكرة لهم بنعمة الله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر) وهو ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرا فسمى به وقوله تعالى (وانتم اذلة) اى بقلة العدد والسلاح والمال حال من الضمير (فان قيل) قال الله تعالى وانتم اذلة وقد قال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (اجيب) بانه بمعنى القلة وضعف الحال وقلة السلاح والمال كما مر فان نقيض ذلك العز وهو القوة والغلبة روى ان المسلمين كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ولم يكن فيهم الا فرس واحد واكثرهم كانوا رجالة وربما كان الجمع منهم يركبون جملا واحدا والكفار كانوا قريبا من الف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الاسلحة الكثيرة والعدة الكاملة (فاتقوا الله) فى الثبات وعدم المخالفة (لعلكم تشكرون) اى بتقواكم نعمه التى انعم بها عليكم من نصرته وقوله تعالى (اذ تقول للمؤمنين) اى توعدهم تطمينا ظرف لنصركم وقوله تعالى (الن يكفيكم ان يمدكم) اى يعينكم (ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) انكار ان لا يكفيهم ذلك وانما جىء بلن اشعارا بانهم كانوا كالآيسين من

الباقى اذ ما كله السبع عدم وتعذر اكله فلا يضمن بحريمه (قوله واخشون اليوم) حذفت الياء فيه وفى واخشون ولا تشتروا لفظا وخطا اما لفظا

النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاي والباقون بسكون النون وتخفيف الزاي وقوله تعالى (بلى) ايجاب لما بعد لن اي بلى يكفيكم (فان قيل) قد قال تعالى في سورة الانفال اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين فكيف قال هنا بثلاثة آلاف (اجيب) بانه مدهم اولا بالف ثم صارت ثلاثة ثم صارت خمسة كما قال تعالى (ان تصبروا) اي على لقاء العدو (وتتقوا) الله في المخالفة (ويأتوكم) اي المشركون (من فورهم) اي من وقتهم (هذا) والفور العجلة والسرعة ومنه فارت القدر اشتد غليانها او بادر ما فيها الى الخروج (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) اي معلمين وقد صبروا واتقوا وانجز الله وعده بان قاتل معهم الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم صفر او بيض ارسلوها بين اكتافهم وعن عروة بن الزبير كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك وعن الضحاك معلمين بالصوف الابيض في نواصي الدواب واذنابها وعن مجاهد مجزوزة اذناب خيلهم قال اكثر المفسرين ان الملائكة لم تقاتل في غير يوم بدر روى انه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه تسوموا فان الملائكة قد تسومت بالصوف الابيض في قلانسهم ومغافرهم وقرأ ابن كثير وابو عمرو وعاصم بكسر الواو والباقون بفتحها (وما جعله الله) أي الامداد (الا بشرى) أي بشارة (لكم) اي بالنصر (ولتطمئن) أي ولتسكن (قلوبكم به) فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم كما كانت السكينة لبني اسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم (وما النصر الا من عند الله) لا من العدة والعدد وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم الى مدد الملائكة وانما أمدهم ووعدهم به بشارة لهم وربطا على قلوبهم من حيث ان نظر العامة الى الاسباب أكثر (العزيز) الذي لا يغالب (الحكيم) الذي ينصر ويخذل من يشاء بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة وقوله تعالى (ليقطع) متعلق بنصركم أي ليهلك (طرفا) أي طائفة (من الذين كفروا) بالقتل والاسر وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم (أو يكبتهم) أي يذلهم بالهزيمة والكبت شدة غيظ أو وهن يقع في القلب (فينقلبوا) أي فيرجعوا (خائبين) أي لم ينالوا ما راموه وأو للتنويع لا للترديد ونزل لما كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه يوم أحد وقال كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم (ليس لك من الامر شئ) بل الامر كله لله فاصبر انما أنت عبد مبعوث لانذارهم ومجاهدتهم وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد اللهم العن الحرث بن هشام اللهم العن صفوان ابن أمية فنزلت هذه الآية وقال قوم نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلا من القراء بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن والعلم أميرهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدا شديدا وقنت شهرا في الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن والسنين وقوله تعالى (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) عطف على قوله أو يكبتهم وليس لك من الامر شئ اعتراض والمعنى ان الله تعالى مالك أمرهم فاما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم ان أسلموا أو يعذبهم ان أصروا (فانهم ظالمون)

في هذه لالتقاء الساكنين
وفي تلك قتبعها الهمزة واما
خطا فتبعها لحذفها لفظا
واثبت فيما عدا ذلك عملا
بالاصل (قوله ورضيت
لكم الاسلام دينا) جملة
مستأنفة لا معطوفة على

بالكفر وقيل انا او يتوب عليهم يعني الى أن يتوب عليهم (ولله ما في السموات وما في الارض) ملكا وخلقا فله الامر كله والمقصود من هذا تأكيد ما ذكره أولا من قوله ليس لك من الامر شيء والمعنى انما يكون ذلك لمن له الملك وليس هو لاحد الا الله تعالى (فان قيل) ظاهر ما ذكر يدل على أن ذلك ورد للمنع من أمر كان صلى الله عليه وسلم يريد أن يفعله وذلك الفعل ان كان بامر الله تعالى فكيف يمنعه منه وان كان بغير أمره فكيف يصح مع قوله تعالى وما ينطق عن الهوى (أجيب) بأن ذلك كان من باب ترك الافضل والاولى فلا جرم أرشده الله تعالى الى اختيار الاولى نظيره قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله فكأنه تعالى قال أولا ان كان ولا بد أن تعاقب ذلك الظالم فاكتف بالمثل ثم قال ثانيا وان تركته كان ذلك أولى ثم أمره أمرا جازما بتركه فقال واصبر وما صبرك الا بالله (يغفر لمن يشاء) مغفرته (ويعذب من يشاء) تعذيبه * ولما كان له فعل ذلك الا أن جانب المغفرة والرحمة غالب لا على سبيل الوجوب بل على سبيل التفضل والاحسان قال (والله غفور) لاوليائه (رحيم) بعباده فلا تبادر بالدعاء عليهم * ولما شرح سبحانه وتعالى عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بارشادهم الى الاصلح في أمر الدين والجهاد اتبع ذلك بما يدخل في الامر والنهي والترغيب والتحذير فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافا) وهو جمع ضعف * ولما كان جمع قلة والمقصود الكثرة أتبعه بما يدل على ذلك وهو الوصف بقوله (مضاعفة) بان تزيدوا في المال عند حلول الاجل وتؤخروا الطلب والتخصيص بحسب الواقع اذ كان الرجل منهم يربي الى أجل ثم يزيد في الدين زيادة أخرى حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون والافالربا حرام بلا مضاعفة بل هو من الكبائر مطلقا وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد العين ولا ألف قبلها والباقون بتخفيف العين وألف قبلها (واتقوا الله) بترك ما نهيتم عنه (لعلكم تفلحون) اى تفوزون ثم خوفهم فقال تعالى (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم كان ابو حنيفة رحمه الله يقول هذه اخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه باجتناب محارمه وفي الآية تنبيه على ان النار بالذات للكفار وبالعرض للعصاة (واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد ترهيبا عن المخالفة وترغيبا في الطاعة على عادته تعالى المستمرة في القرآن قال محمد بن اسحق بن يسار هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد واهل وعسى في امثال ذلك دليل على عزة التوصل الى ما جعل خبرا لهما ومن تأمل هذه الآيات وامثالها لم يحدث نفسه بالاطماع الفارغة والتمني على الله تعالى (وسارعوا) اى بادروا واقبلوا (الى مغفرة من ربكم) اى الى ما تستحق به المغفرة كالاسلام والتوبة وأداء الفرائض والهجرة والجهاد والتكبيرة الاولى والاعمال الصالحات وقرأ نافع وابن عامر بغير واو قبل السين والباقون بواو قبلها (و) الى (جنة عرضها السموات والارض) اى عرضها كعرضهما كقوله تعالى عرضها كعرض السماء والارض وانما جمعت السماء وافردت الارض لانها انواع قيل بعضها فضة وبعضها غير ذلك والارض نوع واحد وذكر العرض للمبالغة في وصف الجنة بالسعة لان

اكملت في قوله اليوم اكملت لكم دينكم والا كان مفهوم ذلك انه لم يرض لهم الاسلام دينا قبل ذلك وليس كذلك (قوله اليوم وليس مكلفين) ان قلت ما فائدة ذكره بعد وما علمتم من

العرض دون الطول كما دل قوله تعالى بطائنها من استبرق على أن الظهارة اعظم يقول هذه صفة عرضها فكيف طولها قال الزهرى انما وصف عرضها فاما طولها فلا يعلمه الا الله تعالى وهذا على سبيل التمثيل لا أنها كالسموات والارض لا غير بل معناه كعرض السموات السبع والارضين السبع عندظنكم كقوله تعالى خالدين فيها مادامت السموات والارض اى عندظنكم والا فهما زائلتان وعن ابن عباس الجنة كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض وعنه ايضا ان لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة وروى أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا كانت الجنة عرضها ذلك فاين تكون النار فقال لهم ارأيتم اذا جاء الليل فاين يكون النهار واذا جاء النهار فاين يكون الليل فقالوا انه لمثلها فى التوراة ومعناه انه حيث شاء الله وسئل انس بن مالك عن الجنة افى السماء ام فى الارض فقال واى ارض وسماء تسع الجنة قيل فاين هى قال فوق السموات السبع تحت العرش وقال قتادة كانوا يرون أن الجنة فوق السموات السبع وان جهنم تحت الارضين السبع (فان قيل) قال تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون واراد بالذى وعدنا الجنة فاذا كانت الجنة فى السماء فكيف يكون عرضها ماذكر (اجيب) بان باب الجنة فى السماء وعرضها كما أخبر تعالى (أعدت) هيئت (للمتقين) الله بعمل الطاعات وترك المعاصى وفى ذلك دليل على ان الجنة مخلوقة الآن وقيل ان الجنة والنار يخلقان بعد قيام الساعة * ثم وصف الله تعالى المتقين بصفات فقال (الذين ينفقون) اى فى طاعة الله (فى السراء والضراء) اى فى العسر واليسر أو الاحوال كلها لان الانسان لا يخلو عن مسرة او مضرة اى لا يخلون عن حال ما بانفاق ماقدروا عليه من قليل او كثير كما يحكى عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة وعن عائشة رضى الله تعالى عنها انها تصدقت بحبة عنب فاول ماذكر من أوصافهم الموجبة للجنة ذكر السخاء وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله قريب من النار ولجاهل سخى أحب الى الله من العالم البخيل (والكاظمين الغيظ) أى الممسكين عليه الكافين عن امضائه مع القدرة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء وروى من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا وروى ليس الشديد بالصرعة لكنه الذى يملك نفسه عند الغضب (والعافين عن الناس) أى التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته روى انه صلى الله عليه وسلم قال ينادى مناد يوم القيامة اين الذين كانت اجورهم على الله فلا يقوم الا من عفا وعن ابن عيينة أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان هؤلاء فى أمتى قليل الا من عصم الله وقد كانوا كثيرا فى الامم التى مضت وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون منقطعا وهو ظاهر وأن يكون متصلا لما فى القلة من معنى العدم كأنه قيل ان هؤلاء فى أمتى لا يوجدون الا من عصم الله فانه يوجد فى أمتى وقوله تعالى (والله يحب المحسنين) يجوز أن تكون اللام فيه للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون وأن تكون للعهد فتكون اشارة الى هؤلاء وقوله تعالى (والذين اذا فعلوا فاحشة) أى ذنبا قبيحا كالزنا (أو ظلموا أنفسهم)

الجوارح والمكلب هو معلم الكلاب للصيد وفيه تكرار (ذات) قد فسر المكلب بانه المغرى الجارح فلا تكرار وفى الآية اضمار بقرينة فكلوا مما ذكرا مما يم الله عليه اى وصيد

أي عادون الزنا كالقبلة وقيل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك (ذكروا الله)
أي ذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم (فاستغفروا لذنوبهم) بالندم والتوبة عطف على
المتقين أو على الذين ينفقون واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال عطاء نزلت في أبي سعيد
التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرا فقال لها ان هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه
فذهب بها الى بيته وضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك ثم أتى
النبي صلى الله عليه وسلم وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية وقال مقاتل والكلبي آخى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بين رجلين أحدهما من الانصار والآخر من ثقيف فخرج الثقفي في غزاة
واستخلف الانصاري على أهله فاشترى لهم اللحم ذات يوم فلما ارادت المرأة أن تأخذ منه دخل
على اثرها وقبل يدها ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه فلما رجع
الثقفي لم يستقبله الانصاري فسأل امرأته عن حاله فقالت لا أكثر الله في الاخوان مثله
ووصفت له الحال والانصاري يسيح في الجبال تائبا مستغفرا فطلبه الثقفي حتى وجده فأتى
به أبا بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجا وقال الانصاري هلكت وذكر القصة فقال أبو بكر
ويحك اما علمت ان الله تعالى يغار للغازي ما لا يغار للمقيم ثم أتيا عمر فقال عمر مثل ذلك ثم
أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال مثل مقالهما فنزلت هذه الآية وقوله تعالى (ومن) أي
لا احد (يغفر الذنوب الا الله) استفهام بمعنى النفي معترض بين المعطوفين والمراد به وصفه
سبحانه وتعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة (ولم
يصروا على ما فعلوا) أي ولم يقيموا على قبيح فعلهم بل أقلعوا عنه مستغفرين روى عنه صلى الله
عليه وسلم انه قال ما أصر من استغفر وان عاد في اليوم سبعين مرة وروى لا كبيرة مع
الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار وقوله تعالى (وهم يعلمون) حال من يصروا أي ولم يصروا على
قبيح فعلهم عالمين به وقوله تعالى (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها
الانهار) اشارة الى الفريقين ويجوز أن يكون والذين مبتدأ وأولئك خبره وقوله تعالى (خالدين
فيها) حال مقدرة أي مقدرين الخلود فيها اذا دخلوها * (تنبيه) * لا يلزم من اعداد الجنة
للمتقين والتائبين جزاء لهم أن لا يدخلها المصرون كما لا يلزم من اعداد النار للكافرين جزاء
لهم أن لا يدخلها غيرهم فقول الزمخشري في الكشاف وفي هذه الآيات بيان قاطع على أن
الذين آمنوا على ثلاث طبقات متقون وتائبون ومصرون وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم
دون المصرين ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه جار على طريق الاعتزال من أن
مرتكب الكبيرة اذا مات مصرا لا يدخل الجنة ونعوذ بالله من ذلك بل كل من مات على الاسلام
يدخل الجنة وهو تحت المشيئة ان شاء الله عذبه وان شاء عفا عنه وقوله تعالى (ونعم أجر العاملين)
المخصوص فيه بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك أي المغفرة والجنات روى أنه صلى
الله عليه وسلم قال ما من عبد مؤمن أذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله
الا غفر الله له وروى أي عبد أذنب ذنبا فقال يا رب اذنبت ذنبا فاغفر لي فقال ربه علم عبدي
ان له ربا يغفر الذنوب ويؤاخذ بها فغفر له فمكث ما شاء الله ثم اذنب ذنبا آخر فقال يا رب اذنبت
ذنبا آخر فاغفر لي قال ربه علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويؤاخذ به قد غفرت له فليعمل

ما عملتم من الجوارح والافعال الجوارح لا تحل وان كانت معلقة (قوله ومن يكفر بالايمان) قياس قوله ومن يؤمن بالله أن يقال ومن يكفر بالله فالمراد بالكفر هنا الارتداد

ماشاء اى و يستغفر فاغفرله و روى انه تبارك وتعالى قال يا ابن آدم انك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ابن آدم انك ان تلقنى بقراب الارض خطايا القيتك بقرابها مغفرة بعد أن لا تشرك بى شيأ ابن آدم انك ان تذنب ذنبا حتى يبلغ ذنبك عنان السماء ثم تستغفرنى اغفرلك و روى ان الله تبارك وتعالى قال من علم انى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا ابالى مالم يشرك بى شيأ قال ثابت البنانى بلغنى ان ابليس بكى حين نزلت هذه الآية والذين اذا فعلوا فاحشة الى آخرها وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى عليه الصلاة والسلام ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى وعن شهر بن حوشب طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة وعن الحسن يقول الله تعالى يوم القيامة جوزوا الصراط بعفوى وادخلوا الجنة برحمتى واقتسموها باعمالكم وعن رابعة البصرية انها كانت تنشد

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

ونزل فى هزيمة أحد (قد خلت) أى مضت (من قبلكم سنن) جمع سنة وهى الطريقة التى يكون عليها الانسان و يلازمها ومنه سنة الانبياء عليهم الصلاة والسلام أى قد مضت من قبلكم طرائق فى الكفار بامهالهم ثم أخذهم (فسيروا) أيها المؤمنون (فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (المكذبين) الرسل من الهلاك فلا تحزنوا لغلبتهم فأنا أمهلهم لوقتهم (هذا) أى القرآن (بيان للناس) عامة (وهدى) من الضلالة (وموعظة للمتقين) خاصة (ولا تهنوا) أى تضعفوا عن قتال الكفار بما نالكم من القتل والجراح يوم أحد (ولا تحزنوا) على ما أصابكم وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وقتل من الانصار سبعون رجلا (وأنتم الاعلون) أى وحالكم أنكم أعلى شأنا منهم فانكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم فى الجنة وانهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار أو لانكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم أوهى بشارة لهم بالعلو والغلبة أى وانتم الاعلون فى العاقبة وان جندنا لهم الغالبون وقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) متعلق بالنهى بمعنى لا تهنوا ان صح ايمانكم على ان صحة الايمان توجب قوة القلب والثقة بالله تعالى وقلة المبالاة باعدائه أو متعلق بالاعلون أى ان كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة (ان يمسسكم قرح) جهد من جرح ونحوه يوم أحد (فقد مس القوم) الكفار (قرح مثله) يوم بدر ثم انهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فانتم أولى أن لا تضعفوا فانكم ترجون من الله مالا يرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فان المسلمين نالوا منهم قبل ان يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ أبو بكر وشعبة وحمزة والكسائى بضم قاف قرح فى الموضعين والباقون بالفتح وهما لغتان بمعنى وقال الفراء القرح بالفتح الجرح وبالضم ألمه (وتلك الايام) تلك مبتدأ والايام صفته وقوله تعالى (نداولها) خبره ويصح أن تلك الايام مبتدأ وخبر كما تقول هى الايام تبلى كل جديد والمراد بالايام أوقات الظفر والغلبة اى نصرفها (بين الناس) قال البغوى فيوما عليهم ويوما لهم قال فى الكشاف كقوله وهو من ابيات الكتاب

والباء بمعنى عن كما فى سال سائل بعذاب أى ومن ارتد عن الايمان وقيل المراد بالايمان المؤمن به تسمية للمفعول بالمصدر كما فى قوله أحل لكم صيد البحر اى مصيده (قواه)

فيوما علينا ويوما لنا ＊ ويوما نساء ويوما نسر

تقديره فيوما يكون الامر علينا اى بالاضرار ويوما لنا اى بالنفع فيكون يوما ظرفا ملاغما لقوله ويوما نساء ويوما نسر قاله الشيخ سعد الدين اى اديل تارة للمسلمين على المشركين وهو يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين واسروا سبعين واديل تارة للكافرين على المسلمين وهو يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين روى انه صلى الله عليه وسلم جعل عبد الله بن جبير على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلا فقال ان رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم فهزموهم قال فانا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وسوقهن رافعات ثيابهن فقال اصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة الغنيمة فما تنتظرون فقال عبد الله بن جبير أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم فاقبلوا منهزمين فذلك اذ يدعوهم الرسول فى اخراهم فلم يثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم الا اثنا عشر رجلا فاصابوا منا سبعين وكان النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيرا وسبعين قتيلا فقال ابو سفيان أفى القوم محمد ثلاث مرات فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه ثم قال أفى القوم ابن ابى قحافة ثلاث مرات ثم قال أفى القوم ابن الخطاب ثلاث مرات ثم رجع الى اصحابه وهو يقول أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال كذبت والله يا عدو الله ان الذين عددت لأحياء كلهم وقد بقى لك ما يسوءك قال يوم بيوم بدر والحرب سجال انكم ستجدون فى القوم مثلة ثم أخذ يرتجز ＊ اعل هبل اعل هبل ＊ فقال النبى صلى الله عليه وسلم الا تجيبوه فقالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل قال

＊ ان لنا العزى ولا عزى لكم ＊ فقال النبى صلى الله عليه وسلم الا تجيبوه فقالوا يا رسول الله ما نقول فقال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم وفى حديث ابن عباس قال أبو سفيان يوم بيوم وان الايام دول والحرب سجال فقال عمر رضى الله تعالى عنه لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار وانما كانت الدولة يوم أحد للكفار على المسلمين لمخالفتهم لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم (وليعلم الله الذين آمنوا) اى أخلصوا ايمانهم من غيرهم (فان قيل) ظاهر هذه الآية ان الله تعالى انما فعل تلك المداولة ليكتسب هذا العلم وذلك فى حقه تعالى محال ونظير هذا الاشكال قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقوله تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقوله لنعلم اى الحزبين أحصى لما لبثوا وقوله ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم وقوله الا لنعلم من يتبع الرسول وقوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا فظاهر هذه الآيات يدل على أنه تعالى انما صار عالما بحدوث هذه الاشياء عند حدوثها واجاب المتكلمون عنها بأن الدلائل العقلية دلت على انه تعالى يعلم الحوادث قبل وقوعها فثبت أن التغير فى العلم محال الا أن اطلاق لفظ العلم على المعلوم والقدرة على المقدور مجاز مشهور يقال هذا علم فلان والمراد معلومه وهذه قدرة فلان والمراد مقدوره فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم فالمراد تجدد المعلوم واذا عرف هذا فهذه الآية محتملة لوجوه أحدها ليظهر المخلص من المنافق والمؤمن من الكافر وثانيها ليعلم

واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور) ثم قال واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون فاعربتم ما لات الاول وقع فى النية المأخوذة من آية التيمم والوضوء والنية ذات الصدور

أولياء الله وأضاف الى نفسه تفخيما وثالثها ايحكم بالامتياز فاوقع العلم مكان الحكم بالامتياز لان الحكم لا يحصل الا بعد العلم ورابعها ليعلم ذلك واقعا كما كان يعلم أنه سيقع لان المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذى لم يوجد (ويتخذ منكم شهداء) اى ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم المستشهدون يوم أحد أو وليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الامم يوم القيامة بما وجد منهم من الثبات والصبر على الشدائد كما قال تعالى لتكونوا شهداء على الناس وقوله تعالى (والله لا يحب الظالمين) قال ابن عباس اى المشركين كقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم وهو اعتراض بين بعض التعاليل وبعض وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وانما يظفرهم احيانا استدراجا لهم وابتلاء للمؤمنين (وليمحص الله الذين آمنوا) اى ليطهرهم من الذنوب بما أصابهم (ويمحق) اى يهلك (الكافرين) اى ان كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك مما هو أصلح لهم وان كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم (أم) منقطعة مقدرة ببل ومعنى الهمزة فيها الانكار اى بل أ(حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) فى الشدائد وقدم معنى يعلم * (تنبيه) * قال البيضاوى والفرق بين لما ولم أن فى لما توقع الفعل فيما يستقبل لكن قال أبو حيان لا أعلم أحدا من النحويين ذكره بل ذكروا انك اذا قلت لما يخرج زيد دل ذلك على انتفاء الخروج فيما مضى متصلا نفيه الى وقت الاخبار وأما انها تدل على توقعه فى المستقبل فلا انتهى لكن قال الفراء لما لتعريض الوجود بخلاف لم (ولقد كنتم تمنون) فيه حذف احدى التاءين فى الاصل أى تتمنون (الموت) أى الحرب فانها من أسباب الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحوا يوم أحد على الخروج (من قبل ان تلقوه) أى تشاهدوه وتعرفوا شدته (فقد رأيتموه) اى الحرب أو الموت حتى قتل دونكم من قتل من اخوانكم (وانتم تنظرون) أى بصراء تتأملون الحال كيف هى فلم انهزمتم (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) فسيخلو كما خلوا بالموت أو القتل ومحمد هو المستغرق لجميع المحامد لان الحمد لا يستوجبه الا الكامل والتحميد فوق الحمد فلا يستحقه الا المستولى على الامر فى الكمال وأكرم الله تعالى نبيه وصفيه صلى الله عليه وسلم باسمين مشتقين من اسمه جل وعلا محمد وأحمد وفيه يقول حسان بن ثابت

وشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

وقوله تعالى (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) انكار لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه صلى الله عليه وسلم بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به (فان قيل) قوله تعالى أفان مات أو قتل شك وهو على الله محال (أجيب) بان المراد أنه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له فى ضعف الدين ووجود الارتداد قال ابن عباس وأصحاب المغازى لما رأى خالد بن الوليد الرماة يوم أحد اشتغلوا بالغنيمة ورأى ظهورهم خالية صاح فى خيله من المشركين ثم حمل على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من خلفهم فهزموهم وقتلوهم ورمى عبد الله بن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه فى وجهه فاثقله

(قوله والثانى فى العمل) وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) رفع اجر هنا ونصبه فى الفتح فى قوله وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة

وتفرق عنه أصحابه ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم الى صخرة ليعلوها وكان قد ظاهر بين
درعين فلم يستطع فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أوجب طلحة ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم يجدعن الآذان والانوف حتى اتخذت هند من ذلك قلائد وأعطتها وحشيا وبقرت عن
كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها وأقبل عبد الله بن قمئة يريد قتل النبي صلى الله
عليه وسلم فذب مصعب بن عمير وهو صاحب راية النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقتله ابن قمئة وهو
يرى أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم فرجع وقال انى قتلت محمدا وصاح صارخ ألا ان محمدا
قد قتل فقيل ان ذلك الصارخ كان ابليس فانكفأ الناس وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
يدعو الناس الى عباد الله الى عباد الله فاجتمع اليه ثلاثون رجلا فحموه حتى كشفوا عنه
المشركين ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه ونثل له رسول الله صلى الله عليه
وسلم كنانته وقال ارم فداك أبي وأمي وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع كسر يومئذ
قوسين أو ثلاثا فكان الرجل يمر ومعه جعبة من النبل فيقول انثرها لأبي طلحة وكان اذا رمى
يشرف النبي صلى الله عليه وسلم فينظر الى موضع نبله واصيبت يد طلحة بن عبيد الله فيبست
وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيبت عين قتادة بن النعمان يومئذ حتى وقعت على
وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانها فعادت كأحسن ما كانت فلما انصرف
رسول الله صلى الله عليه وسلم ادركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول لا نجوت ان نجوت فقال
القوم يا رسول الله ألا يعطف عليه رجل منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوه حتى اذا
دنا منه وكان أبي قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول عندي رمكة أعلفها كل
يوم فرق ذرة أقتلك عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنا اقتلك ان شاء الله فلما دنا
منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه
في عنقه وخدشه خدشة فتدهده عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور وهو يقول قتلني محمد
واحتمله اصحابه وقالوا ليس عليك بأس قال بلى لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلتهم
أليس قال لي اقتلك فلو بزق علي بعد تلك المقالة لقتلني فلم يلبث الا يوما حتى مات بموضع يقال له
سرف قال ابن عباس اشتد غضب الله على من قتله نبي واشتد غضب الله على من رمى رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال وفشا في الناس أن محمدا قد قتل فقال بعض المسلمين ليت لنا رسولا الى
عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان وبعض الصحابة جلسوا وألقوا بأيديهم وقال اناس
من أهل النفاق ان كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الاول فقال أنس بن مالك بن النضر
يا قوم ان كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل وما تصنعون في الحياة بعد رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وموتوا على ما مات عليه ثم قال اللهم
انى اعتذر اليك مما يقول هؤلاء يعني المسلمين وابرأ اليك مما جاء به هؤلاء يعني المنافقين ثم شد
بسيفه فقاتل حتى قتل ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق الى الصخرة وهو يدعو
الناس فاول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك وقال عرفت عينيه تحت
المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين ابشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأجراهما مجرى واحدا موافقة لانه واصل ومفعول وعد هذا محذوف تقديره خيرا
(فان قلت) كيف قال وعملوا الصالحات ولم يقل وعملوا السيآت مع ان المغفرة انما هي لفاعل السيآت
(قلت)

فأشار الى أن أصنك فانحازت اليه طائفة من أصحابه فلامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفرار فقالوا يا نبي الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فأنزل الله تعالى هذه الآية (فان قيل) انه تعالى بين في آيات كثيرة انه عليه الصلاة والسلام لا يقتل فقال انك ميت وانهم ميتون وقال والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله واذا علم أنه لا يقتل فلم قال أو قتل (أجيب) بأن هذا ورد على سبيل الالزام فان موسى عليه الصلاة والسلام مات ولم ترجع أمته عن دينه والنصارى زعموا أن عيسى عليه الصلاة والسلام قتل ولم يرجعوا عن دينه فكذا هنا (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) بارتداده وانما يضر نفسه (وسيجزي الله الشاكرين) على نعمة الاسلام بالثبات عليه كأنس وأضرابه (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) أي بقضائه ومشيئته أو باذنه لملك الموت في قبض روحه وقوله تعالى (كتابا) مصدر أي كتب الله ذلك ٣(مؤجلا) أي مؤقتا لا يتقدم ولا يتأخر فلم انهزمتم والهزيمة لا تدفع الموت والثبات لا يقطع الحياة * ونزل في الذين تركوا المركز يوم أحد طلبا للغنيمة (ومن يرد) أي بعمله (ثواب الدنيا نؤته منها) ما نشاء مما قدرناه له كما قال تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وفي الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله ابن جبير حتى قتلوا (ومن يرد) أي بعمله (ثواب الآخرة نؤته منها) أي من ثوابها (وسنجزي الشاكرين) أي الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها الا ما كتب له وقال صلى الله عليه وسلم انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه وقوله تعالى (وكأين) أصله أي دخلت الكاف عليها فصارت مركبة من كاف التشبيه ومن أي وحدث فيهما بعد التركيب معنى التكثير المفهوم من كم الخبرية ومثلها في التركيب وافهام التكثير كذا في قولهم عندي كذا كذا درهما وأصله كاف التشبيه وذا الذي هو اسم اشارة فلما ركبا حدث فيهما معنى التكثير فكم الخبرية وكأين وكذا كلها بمعنى واحد والنون تنوين في المعنى أثبت في الخط على غير قياس قال البغوي لم يقع للتنوين صورة في الخط الا في هذا الحرف خاصة وقرأ ابن كثير بألف بعد الكاف بعدها همزة مكسورة والباقون بهمزة بعد الكاف مفتوحة بعدها ياء مشددة ووقف أبو عمرو على الياء والباقون على النون وسهل حمزة الهمزة وحققها الباقون وقوله تعالى (من نبي) تمييز لكأين لأنها مثل كم الخبرية وقوله تعالى (قتل) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم القاف وكسر التاء ولا ألف بين القاف والتاء والباقون بفتح القاف والتاء وألف بين القاف والتاء وقوله تعالى (معه) خبر مبتدؤه (ربيون) وهو جمع ربي وهو العالم المتقي منسوب الى الرب وانما كسرت راؤه تغييرا في النسب وقيل لا تغيير فيه وهو منسوب الى الربة وهي الجماعة للمبالغة وقوله تعالى (كثير) صفة لربيون وان كان بلفظ الافراد لأن معناه جمع (فما وهنوا) أي ضعفوا (لما أصابهم في سبيل الله) من الجراح وقتل أنبيائهم وأصحابهم (وما ضعفوا) عن

٣ قوله أي كتب الله ذلك هكذا في (مؤجلا) ولعل الظاهر كتب الله ذلك كتابا اهـ مصححه

كل أحد ممن ليس بمعصوم لا يخلو عن سيئة وان كان ممن يعمل الصالحات فالمعنى ان من آمن وعمل حسنات غفرت له سيئاته كما قال تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات (قوله فمن كفر

الجهاد (وما استكانوا) اى خضعوا للعدو كما فعلتم حين قيل قتل نبيكم (والله يحب الصابرين) على الشدائد فيثيبهم ويعظم أجرهم (وما كان قولهم) عند قتل نبيهم مع ثباتهم وصبرهم وكونهم ربانيين (الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا) اى تجاوزنا الحد وقولهم (فى أمرنا) ايذان بان ما أصابهم لسوء فعلهم وهضما لانفسهم (وثبت أقدامنا) اى بالقوة على الجهاد (وانصرنا على القوم الكافرين) اى فهلا قلتم وفعلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (فآتاهم الله ثواب الدنيا) أى بالنصر والغنيمة والعز وحسن الذكر (وحسن ثواب الآخرة) أى بالجنة والنعيم المقيم وخص ثوابها بالحسن اشعارا بفضله وانه المعتد به عند الله (والله يحب المحسنين) اى فيكثر لهم الثواب (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا) اى اليهود والنصارى فيما يأمرونكم به وقال على يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا فى دينهم ولو كان محمد نبيا ما قتل (يردوكم على أعقابكم) اى الى الكفر (فتنقلبوا خاسرين) الدنيا والآخرة أما خسران الدنيا فلان أشق الاشياء على العقلاء فى الدنيا الانقياد الى العدو واظهار الحاجة اليه وأما خسران الآخرة فالحرمان عن الثواب المؤبد والوقوع فى العقاب المخلد (بل الله مولاكم) أى ناصركم وحافظكم على دينكم (وهو خير الناصرين) فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره (سنلقى) اى سنقذف (فى قلوب الذين كفروا الرعب) اى الخوف وذلك أن الكفار لما هزموا المسلمين فى أحد أوقع الله الرعب فى قلوبهم فتركوهم وفروا منهم من غير سبب حتى روى أن أبا سفيان صعد الجبل ونادى يا محمد موعدنا موسم بدر القابل ان شئت فقال عليه الصلاة والسلام ان شاء الله وقيل انهم لما ذهبوا متوجهين الى مكة فلما كانوا فى بعض الطريق ندموا وقالوا ما صنعنا شيئا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم الا الشريد تركناهم ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم وقرأ ابن عامر والكسائى بضم العين والباقون بالسكون (بما أشركوا) اى بسبب اشراكهم (بالله ما لم ينزل به سلطانا) اى حجة على عبادته وهو الاصنام وهذا كقوله * ولا ترى الضب بها ينجحر * اى ليس بها ضب فلا ينجحر فكذلك هؤلاء ليس لهم حجة اصلا وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلاطة بحدة اللسان (ومأواهم النار وبئس مثوى) اى مأوى (الظالمين) اى الكافرين هى (ولقد صدقكم الله وعده) قال محمد بن كعب القرظى لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة من احد وقد أصابهم ما أصابهم قال ناس من اصحابه من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فانزل الله هذه الآية لان النصر كان للمسلمين فى الابتداء كما قال تعالى (اذ تحسونهم) اى تقتلونهم من حسه اذا ابطل حسه وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار ذال اذ عند التاء والباقون بالادغام (باذنه) اى بارادته (حتى اذا فشلتم) اى جبنتم عن القتال (وتنازعتم) اى اختلفتم (فى الامر) اى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالمقام فى سفح الجبل للرمى حين انهزم المشركون فقال بعضكم نذهب فقد نصر أصحابنا وقال آخرون لا تخالفوا أمر النبى فاثبتوا مكانكم فثبت عبد الله بن جبير أمير الرماة فى نفر دون العشرة ونفر الباقون للنهب وهو المعنى بقوله تعالى (وعصيتم) اى أمر النبى وتركتم المركز لطلب الغنيمة (من بعد ما أراكم)

بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) فان قلت كيف قال ذلك مع أن من كفر قبل ذلك كذلك (قلت) نعم لكن الكفر بعد ما ذكر من النعم أقبح (قوله يحرزون عما قبله

أي الله (ما تحبون) من الظفر والغنيمة وانهزام العدو وجواب اذا محذوف دل عليه ماقبله اى منعكم نصره ويجوز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده الى وقت فشلكم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا فى مكانهم ولا يبرحوا سواء كانت الدولة للمسلمين أو عليهم فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم ثم اشتغل بعضهم بالغنيمة كما قال تعالى (منكم من يريد الدنيا) وهم التاركون المركز للغنيمة (ومنكم من يريد الآخرة) وهم الثابتون مع عبد الله بن جبير حتى قتلوا (فان قيل) فاذا كان البعض هو المخالف فكيف جاء العتاب عاما بقوله وعصيتم (أجيب) بان اللفظ وان كان عاما فقد جاء المخصص بعده وهو قوله منكم وقوله تعالى (ثم صرفكم) أى ردكم بالهزيمة (عنهم) أى الكفار عطف على ماقبله والجملتان من قوله منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة اعتراض بين المتعاطفين وقيل عطف على جواب اذا المقدر (ليبتليكم) أى ليمتحنكم فيظهر المخلص من غيره (ولقد عفا عنكم) ما ارتكبتموه من مخالفة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وميلكم الى الغنيمة تفضلا منه تعالى (فان قيل) ان ظاهر الآية يدل على أن الذنب من الصغائر لصحة العفو عنه من غير توبة لقيام الدليل على أن اصحاب الكبائر اذا لم يتوبوا لم يكونوا من اهل العفو والمغفرة (أجيب) بان هذا الذنب لاشك أنه كبيرة لانهم خالفوا صريح نص الرسول صلى الله عليه وسلم وصارت تلك المخالفة سببا لانهزام المسلمين فلابد من اضمار توبتهم (والله) اى المتفضل المنعم (ذو فضل على المؤمنين) أى يتفضل عليهم بالعفو أو فى الاحوال كلها سواء أجملت الدولة لهم أم عليهم اذ الابتلاء أيضا رحمة وقوله تعالى (اذ) العامل فيها مضمر اى اذكروا اذ (تصعدون) اى تبعدون فى الارض هاربين (ولا تلوون) اى تعرجون (على احد) أى لا يقف احد لاحد ولا ينتظره (والرسول يدعوكم) اى يقول الى عباد الله الى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة (فى أخراكم) اى من ورائكم (فأثابكم) اى جازاكم (غما) بالهزيمة (بغم) اى بسبب غمكم الرسول بالمخالفة وقيل الباء بمعنى على اى مضاعفا على غم فوت الغنيمة والغموم كانت هنالك كثيرة احدها غمهم بما نالهم من العدو فى الانفس والاموال وثانيها غمهم بما وقع منهم من المعصية وخوف عقابها وثالثها غمهم بما وصل الى الرسول صلى الله عليه وسلم ورابعها غمهم بسبب التوبة التى صارت واجبة عليهم لانهم اذا تابوا عن تلك المعصية لم تتم توبتهم الا بترك الهزيمة والعود الى المحاربة بعد الانهزام وذلك من أشق الاشياء لان الانسان بعد انهزامه يضعف قلبه ويجبن فاذا أمر بالمعاودة فان فعل خاف القتل وان لم يفعل خاف عقاب الآخرة وخامسها غمهم حين سمعوا أن محمدا قد قتل وسادسها غمهم حين أشرف عليهم خالد بن الوليد بخيل المشركين وسابعها غمهم حين أشرف عليهم أبو سفيان وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى الى أصحاب الصخرة فلما رأوه وضع رجل سهما فى قوسه وأراد أن يرميه فقال أنا رسول الله ففرحوا حين وجدوه وفرح صلى الله عليه وسلم حين رأى من يمتنع به فأقبلوا على المشركين يذكرون الفتح وما فاتهم منه ويذكرون اصحابهم الذين قتلوا فاقبل أبو سفيان وأصحابه حتى وقفوا بباب الشعب

الكلم عن مواضعه) وقال
بعد يحرفون الكلم من
بعد مواضعه لان الاول
فى أوائل اليهود والثانى
فيمن كانوا فى زمن النبى
صلى الله عليه وسلم اى
حرفوها بعد أن وضعها

لما انظر المسلمون اليهم همهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فانساهم هذا ما نالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم أن يعلونا اللهم ان تقتل هذه العصابة لا تعبد في الارض ثم بدت أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم واذا عرفت ذلك فلا يضر اختلاف المفسرين فان بعضهم فسر هذين الغمين بغمين من هذه وبعضهم بخلافه وقال القفال وعندي أن الله تعالى ما أراد بقوله غما بغم اثنين وانما أراد مواصلة الغموم وطولها أي ان الله تعالى عاقبكم بغموم كثيرة مثل قتل اخوانكم وأقاربكم ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم بحيث لم تأمنوا ان يهلك اكثركم فكأنه تعالى قال أثابكم هذه الغموم المتعاقبة ليصير ذلك زجرا لكم عن الاقدام على المعصية والاشتغال بما يخالف امر الله تعالى والغم التغطية ومنه غم الهلال اذا لم ير وقوله تعالى (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) اى من الغنيمة متعلق بعفا أو بأثابكم فلا زائدة (ولا ما أصابكم) اى من القتل والهزيمة (والله خبير بما تعملون) اى عالم باعمالكم وبما قصدتم بها (ثم أنزل عليكم) يا معشر المسلمين (من بعد الغم أمنة) اى أمنا والامن والامنة بمعنى واحد وقيل الامن يكون مع زوال سبب الخوف والامنة مع بقاء سبب الخوف وكان سبب الخوف ههنا قائما وقوله تعالى (نعاسا) بدل من أمنة وأمنة مفعول أو نعاسا هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة (يغشى طائفة منكم) وهم المؤمنون وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على التأنيث ردا الى الامنة والباقون بالياء على التذكير ردا الى النعاس (وطائفة) وهم المنافقون (قد أهمتهم أنفسهم) اى حملتهم على الهزيمة فلا رغبة لهم الا انجاؤها دون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يناموا فان الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فريقان أحدهما الجازمون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهؤلاء كانوا قاطعين بأن الله ينصر هذا الدين وان هذه الوقعة لا تؤدي الى الاستئصال فلا جرم كانوا آمنين وبلغ ذلك الامن الى أن غشيهم النعاس فان النوم لا يجيء مع الخوف قال أبو طلحة غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه وقال ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال رفعت رأسي يوم أحد فجعلت ما أرى أحدا من القوم الا وهو يميل تحت حجفته من النعاس قال الزبير كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأرسل الله علينا النوم والله اني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه الا كالحلم يقول لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا والفريق الثاني هم المنافقون كانوا شاكين في نبوته صلى الله عليه وسلم وما حضروا الا لطلب الغنيمة فهؤلاء اشتد جزعهم وعظم خوفهم قال ابن مسعود النعاس في القتال أمنة والنعاس في الصلاة من الشيطان وذلك لانه في القتال لا يكون الا من الوثوق بالله والفراغ من الدنيا ولا يكون في الصلاة الا من غاية البعد عن الله (فان قيل) ما فائدة هذا النعاس (أجيب) بأن له فوائد الاولى أن السهر يوجب الضعف والكلال والنوم يفيد عود القوة والنشاط والثانية أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله تعالى النوم على الباقين لئلا يشاهدوا قتل غيرهم فيشتد خوفهم والثالثة أن الاعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم فبقاؤهم في النوم مع السلامة في تلك المعركة من أدل الدلائل على أن الله تعالى يحفظهم ويعصمهم وذلك مما يزيل

الخوف

الله مواضعها وعرفوها وعلموا بها زمانا (قوله ومن الذين قالوا انا نصارى) ان قلت لم قال ذلك ولم يقل ومن النصارى (قلت) انما قاله توبيخا لهم لانهم كانوا كاذبين في دعواهم انهم

الخوف من قلوبهم ويورثهم الامن *(تنبيه)* قوله تعالى وطائفة مبتدأ والخبر قد أهمتهم أنفسهم (فان قيل) كيف جاز الابتداء بالنكرة (أجيب) بانه جاز لاحد أمرين اما للاعتماد على واو الحال وقد عده بعضهم مسوّغا وان كان الاكثر لم يذكروه وأنشد

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا * محياك أخفى ضوءه كل شارق

واما لان الموضع موضع تفصيل فان المعنى يغشى طائفة وطائفة لم يغشاهم فهو كقوله

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له * بشق وشق عندنا لم يحوّل

وقوله تعالى (يظنون بالله غير الحق) اى ان لا ينصر الله محمدا صفة أخرى لطائفة وغير الحق نصب على المصدر اى يظنون بالله غير الظن الحق الذى يحق أن يظن به (ظنّ) اى كظن (الجاهلية) حيث اعتقدوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل أو لا ينصر وقوله تعالى (يقولون) اى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدل من يظنون (هل لنا) اى ما لنا ولفظه استفهام ومعناه جحد (من الامر) اى النصر الذى وعدناه (من شئ) أى شئ ومن صلة زيدت للتأكيد وهو اما مبتدا خبره لنا واما فاعل لنا لاعتماده على الاستفهام ومن الامر حال من المبتدأ أو الفاعل وهو شئ لكونه مرفوعا حقيقة لا مجرورا وقيل ان عبد الله بن أبى ابن سلول لما شاوره النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الوقعة أشار اليه بان لا يخرج من المدينة ثم ان بعض الصحابة ألحوا على النبي صلى الله عليه وسلم فى أن يخرج اليهم فغضب ابن أبىّ من ذلك فقال عصانى وأطاع الولدان ثم لما كثر القتل فى بنى الخزرج ورجع ابن أبىّ فقيل له قتل بنو الخزرج فقال هل لنا من الامر من شئ يعنى أن محمدا لم يقبل قولى حين أمرته بان لا يخرج من المدينة والمعنى هل لنا أمر يطاع فهو استفهام على سبيل الانكار (قل) لهم يا محمد (ان الامر كله لله) اى الغلبة الحقيقية لله ولاوليائه فان حزب الله هم الغالبون أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقرأ أبو عمرو برفع اللام بعد الكاف على انه مبتدا والخبر لله والباقون بالنصب على انه توكيد *(تنبيه)* هذه الآية تدل على أن جميع المحدثات خلق الله تعالى بقضائه وقدره لان المنافقين قالوا لو أن محمدا قبل منا رأينا ونصحنا لما وقع فى هذه المحنة فاجابهم الله تعالى بان الامر كله لله وهذا انما ينتظم اذا كانت أفعال العباد بقضائه وقدره اذ لو كانت خارجة عن مشيئته لم يكن هذا الجواب رافعا لشبهة المنافقين وقوله تعالى (يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون) اى يظهرون (لك) حال من ضمير يقولون وقل ان الامر كله لله اعتراض بين الحال وذى الحال اى يقولون مظهرين انهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الانكار والتكذيب وقوله تعالى (يقولون) بيان لما قبله (لو كان لنا من الامر شئ) اى كما وعد محمد وزعم أن الامر كله لله ولاوليائه أو لو كان الاختيار الينا لم نخرج كما كان رأى ابن أبىّ وغيره (ما قتلنا ههنا) اى لما غلبنا ولما قتل من قتل منا فى هذه المعركة (قل) لهم (لو كنتم فى بيوتكم) وفيكم من كتب الله تعالى عليه القتل (لبرز) أى خرج (الذين كتب) اى قضى (عليهم القتل) منكم (الى مضاجعهم) اى مصارعهم فيقتلوا ولم ينجهم قعودهم لان قضاء الله تعالى كائن لا محالة فانه قدر الامور ودبرها فى سابق قضائه لا معقب لحكمه وقرأ أبو عمرو وحفص وورش بضم الباء

نصارى ادعاء منهم النصرة
الله بعد ما اختلفوا
نسطورية ويعقوبية
وملكانية أنصار الشياطين
(قوله يا أهل الكتاب قد
جاءكم رسولنا يبين لكم
كثيرا مما كنتم تخفون

فى بيوتكم والباقون بالكسر وقوله تعالى (وليبتلى) اى ليختبر (الله ما فى صدوركم) اى قلوبكم من الاخلاص والنفاق علة فعل محذوف تقديره فرض الله عليكم القتال ولم ينصركم يوم أحد ليبتلى وقيل معطوف على علة محذوفة تقديره ليقضى الله أمره وليبتلى وقوله تعالى (وليمحص ما فى قلوبكم) فيه وجهان أحدهما ان هذه الواقعة تخرج ما فى قلوبكم من الوساوس والشبهات وتطهرها والثانى انها تصير كفارة لذنوبكم فيمحصكم من تبعات المعاصى والسيآت (فان قيل) قد سبق ذكر الابتلاء فى قوله تعالى ثم صرفكم عنهم ليبتليكم فلم اعاده (أجيب) بانه اعيد اما لطول الكلام بينهما واما لان الابتلاء الاول هزيمة للمؤمنين والابتلاء الثانى بسائر الاحوال (والله عليم بذات الصدور) اى بما فى القلوب قبل اظهارها وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه تعالى غنى عن الابتلاء وانما يبتلى ليظهر للناس حال المؤمنين من حال المنافقين (ان الذين تولوا منكم) عن القتال (يوم التقى الجمعان) اى جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة عشر رجلا ستة من المهاجرين ابو بكر وعمر وعلى وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص (انما استزلهم الشيطان) اى طلب منهم الزلل بوسوسته (ببعض ما كسبوا) من الذنوب بترك المركز والحرص على الغنيمة ومخالفة النبى صلى الله عليه وسلم فاطاعوه فمنعوا التأييد وقوة القلب حتى تولوا (ولقد عفا الله عنهم) لتوبتهم واعتذارهم (ان الله غفور) للذنوب (حليم) لا يعاجل بعقوبته المذنب كى يتوب (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) اى المنافقين وهم ابن أبى وأصحابه (وقالوا لاخوانهم) اى فى شأنهم ومعنى اخوانهم اتفاقهم فى النفاق والكفر وقيل فى النسب (اذا ضربوا فى الارض) اى سافروا فيها لتجارة أو غيرها فماتوا (أو كانوا غزا) اى غزاة جمع غاز فقتلوا (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) اى لا تقولوا كقولهم (ليجعل الله ذلك) القول فى عاقبة أمرهم (حسرة فى قلوبهم) اى لانهم اذا ألقوا تلك الشبهة على المؤمنين لم يلتفتوا اليهم فيضيع سعيهم ويبطل كيدهم فتحصل الحسرة فى قلوبهم وقيل ان اجتهادهم فى تكثير الشبهات والقاء الضلالات يعمى قلوبهم فيقعون عند ذلك فى الحسرة والخيبة وضيق الصدر وهو المراد بقوله تعالى ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا (فان قيل) كيف قيل اذا ضربوا مع قالوا (أجيب) بان ذلك على حكاية الحال الماضية قال التفتازانى معناه انك تقدر نفسك كأنك موجود فى ذلك الزمان الماضى أو تقدر ذلك الزمان كأنه موجود الآن وهذا كقولك قالوا ذلك حين يضربون والمعنى حين ضربوا الا انك جئت بلفظ المضارع استحضارا لصورة ضربهم فى الارض وقوله تعالى (والله يحيى ويميت) رد لقولهم أى هو المؤثر فى الحياة والممات لا الاقامة والسفر فانه تعالى قد يحيى المسافر والغازى ويميت المقيم والقاعد (والله بما تعملون بصير) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة ردا على الذين كفروا والباقون بتاء الخطاب ردا على قوله ولا تكونوا وهو خطاب للمؤمنين وفيه تهديد لهم على أن يماثلوهم (ولئن قتلتم) اللام هى الموطئة للقسم محذوف (فى سبيل الله) اى الجهاد (أو متم) اى أتاكم الموت فى سبيل الله

وجواب

من الكتاب ويعفوا عن كثير) ان قلت لم عفا اى ترك كثيرا مما اخفوه من كتابهم مع انه مامور ببيانه (قلت) انما لم يبينه لانه لم يؤمر ببيانه أو لان بيانه مما يكون فيه المامور

و جواب القسم قوله تعالى (لمغفرة) كائنة (من الله) وحذف جواب الشرط لسد جواب
القسم مسدّه لكونه دالا عليه (ورحمة) اى من الله فحذف منه لدلالة الاولى عليها ولابد
من حذف آخر مصحح للمعنى تقديره لمغفرة من الله لكم ورحمة منه لكم (فان قيل) المغفرة هى
الرحمة فلم كررها ونكرها (أجيب) بأنه انما نكرها ايذانا بان ادنى خير وأقل شئ خير من الدنيا
ومافيها وهو المراد بقوله (خير مما يجمعون) من الدنيا وأما التكرير فغير مسلم لان المغفرة مترتبة
على الرحمة فيرحم ثم يغفر (فان قيل) كيف تكون المغفرة موصوفة بانها خير مما يجمعون
ولا خير فيما يجمعون اصلا (أجيب) بان الذى يجمعونه فى الدنيا قد يكون من الحلال الذى يعد
خيرا وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم ان تلك الاموال خيرات فقيل المغفرة
خير من هذه الاشياء التى تظنونها خيرات (ولئن متم أو قتلتم) على اى وجه اتفق هلاككم
(لالى الله) لا الى غيره (تحشرون) فى الآخرة فيجازيكم وقرأ نافع وحمزة متم بكسر الميم والباقون
بالضم وقرأ حفص يحشرون (١) بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب ورسمت لالى الله بالف بعد
اللام (فان قيل) هنا ثلاثة مواضع فقدم الموت على القتل فى الاول والاخير وقدم القتل على
الموت فى المتوسط فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بان الاول لمناسبة ما قبله من قوله اذا ضربوا فى
الارض أو كانوا غزا فرجع الموت لمن ضرب فى الارض والقتل لمن غزا وأما الثانى فلانه محل
تحريض على الجهاد فقدم الاهم الاشرف وأما الاخير فلان الموت أغلب (فبما رحمة) اى
فبرحمة (من الله لنت لهم) فما مزيدة للتأكيد والجار والمجرور مقدم للدلالة على أن لينه صلى الله
عليه وسلم ما كان الا برحمة من الله ومعنى الرحمة توفيقه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه
(ولو كنت فظا) اى سيئ الخلق (غليظ القلب) اى جافيا (لانفضوا) اى تفرقوا (من حولك)
اى عنك وذلك لان المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله تعالى الى الخلق وذلك
لا يتم الا بميل قلوبهم اليه وسكون نفوسهم لديه وهذا المقصود لا يتم الا اذا كان رحيما بهم
كريما يتجاوز عن ذنوبهم و يعفو عن سيآتهم ويخصهم بالبر والشفقة فلهذه الاسباب
وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق وغلظ القلب و يكون كثير الميل الى اعانة الضعفاء
كثير القيام باعانة الفقراء وحمل القفال هذه الآية على واقعة أحد قال فبما رحمة من الله لنت
لهم يوم أحد حين عادوا اليك بعد الانهزام ولو كنت فظا غليظ القلب فشافهتهم بالملامة على
ذلك الانهزام لانفضوا من حولك هيبة منك وحياء بسبب ما كان منهم من الانهزام فكان ذلك
مما يطمع العدو فيك وفيهم (فاعف) اى تجاوز (عنهم) اى ما أتوه (واستغفر لهم) ذنبهم حتى
أشفعك فيهم فاغفر لهم واختلفوا فى معنى قوله تعالى (وشاورهم فى الامر) على وجوه
أحدها ان ذلك يقتضى شدة محبته لهم فلو لم يفعل ذلك لكان ذلك اهانة لهم فيحصل سوء الخلق
والفظاظة وثانيها انه عليه الصلاة والسلام وان كان أكمل الناس عقلا الا أن عقول الخلق
غير متناهية فقد يخطر ببال انسان من وجوه المصالح ما لا يخطر ببال آخر لا سيما فيما يتعلق
بامور الدنيا قال عليه الصلاة والسلام أنتم أعرف بامور دنياكم وأنا أعرف بامور دينكم ولهذا
السبب قال صلى الله عليه وسلم ما تشاور قوم قط الا هدوا لأرشد أمورهم وثالثها قال الحسن
وسفيان بن عيينة انما أمر بذلك ليقتدى به غيره فى المشاورة وتصير سنة ورابعها انه عليه

(١) قوله وقرأ حفص يحشرون الخ المعروف انه يقرأ بالفوقية اه مصحح

[illegible] صفته اظهار حكم شرعى وبعثه والبشارة به وآية الرجم دون ما لم يكن فيه ذلك مما فيه افتضاحهم وهتك استارهم فيعفو عنه (قوله قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه)

الصلاة والسلام شاورهم فى وقعة أحد فاشاروا عليه بالخروج وكان ميله أن لا يخرج فلما خرج وقع ما وقع فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك لكان ذلك يدل على أنه بقى فى قلبه منهم بسبب مشاورتهم شئ فامره الله تعالى بمشاورتهم بعد تلك الواقعة ليدل على انه لم يبق فى قلبه أثر من تلك الواقعة وخامسها أمره بالمشاورة لا ليستفيد منهم رأيا ولكن ليعلم مقادير عقولهم ومحبتهم له وذكروا أيضا وجوها أخر وفى هذا القدر كفاية واتفقوا على أن كل ما نزل فيه وحى من عند الله لم يجز للرسول أن يشاور الامة فيه لان النص اذا جاء بطل الرأى (فاذا عزمت) اى قطعت الامر على امضاء ما تريد بعد المشاورة (فتوكل على الله) اى ثق به لا بالمشاورة فليس التوكل اهمال التدبير بالكلية بل بمراعاة الاسباب مع تفويض الامر الى الله تعالى (ان الله يحب المتوكلين عليه فينصرهم ويهديهم الى الصلاح (ان ينصركم الله) اى يعنكم على عدوكم كيوم بدر (فلا غالب لكم) اى فلا يغلبكم أحد (وان يخذلكم) يترك نصركم كيوم أحد (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) اى من بعد خذلانه اى لا أحد ينصركم وفى هذا تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر سواه لان ايمانهم يوجب ذلك و يقتضيه (وما كان لنبى أن يغل) اى ما صح لنبى أن يخون فى الغنائم فان النبوة تنافى الخيانة واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها وقال مقاتل نزلت فى غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ شيأ فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم تقسم يوم بدر فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم ألم أعهد اليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى فقالوا تركنا بقية اخواننا وقوفا فقال لهم صلى الله عليه وسلم بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم وقال محمد بن اسحق بن يسار هذا فى الوحى يقول ما كان لنبى أن يكتم شيأ من الوحى رغبة أو رهبة أو مداهنة كان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن وفيه سب دينهم وسب آلهتهم فسألوه أن يترك ذلك فنزلت وروى انه صلى الله عليه وسلم غنم فى بعض الغزوات وجمع الغنائم وتأخرت القسمة لبعض الموانع فجاء قوم وقالوا ألا تقسم غنائمنا فقال عليه الصلاة والسلام لو كان لكم مثل أحد ذهبا ما حبست عليكم منه درهما أتحسبون أنى أغلكم مغنمكم فنزلت وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بفتح الياء وضم الغين على البناء للفاعل والباقون بضم الياء وفتح الغين على البناء للمفعول والمعنى على هذا وما صح لنبى أن يوجد غالا أو ينسب الى الغلول (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) قال أكثر المفسرين ان هذه الاية على ظاهرها قالوا وهى نظير قوله تعالى فى مانعى الزكاة يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ويدل له قوله صلى الله عليه وسلم لا ألفين أحدكم يجىء على رقبته يوم القيامة بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثغاء فينادى يا محمد يا محمد فاقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغتك قال المحققون وفائدته أنه اذا جاء يوم القيامة وعلى رقبته ذلك الغلول ازدادت فضيحته وعن ابن عباس انه قال يمثل له ذلك الشئ فى قعر جهنم ثم يقال له انزل اليه فخذه فينزل اليه فاذا انتهى اليه حمله على ظهره فاذا بلغ

(ان قلت) كيف قال ذلك مع ان العبد ما لم يهده الله لا يتبع رضوانه فيلزم الدور (قلت) فيه اضمار تقديره يهدى به الله من علم أنه يريد ان يتبع رضوانه كما قال والذين

موضعه وقع فى النار ثم يكلف ان ينزل اليه فيخرجه ففعل ذلك به وعن ابى هريرة قتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبد فقال الناس هنيأ له الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا والذى نفسى بيده ان الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم تشتعل عليه نارا فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك او شراكين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شراك من النار او شراكان من نار وقال ابو مسلم ليس المقصود من الآية ظاهرها بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل كقوله تعالى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الارض يأت بها الله فانه ليس المقصود نفس هذا الظاهر بل المقصود اثبات ان الله تعالى لا يعزب عن علمه وعن حفظه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء فكذا ههنا المقصود تشديد الوعيد والمعنى ان الله تعالى يحفظ عليه هذا المغلول ويقرره عليه يوم القيامة ويجازيه لانه تعالى لا يخفى عليه خافية وعن أبى حميد الساعدى قال استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من أسد على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدى لى فقام النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا أهدى لى فهلا جلس فى بيت أمه أو فى بيت أبيه فينظر أيهدى اليه أم لا فوالذى نفسى بيده لا يأخذ منها أحد شيأ الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ان كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤيت عفرة ابطيه ثم قال اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت (ثم توفى كل نفس) اى تعطى جزاء (ما كسبت) اى عملت وافيا الغال وغيره (فان قيل) هلا قيل ثم يوفى اى الغال ما كسب (أجيب) بأنه عم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه فانه اذا كان كل كاسب مجزيا بعمله فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى (وهم لا يظلمون) شيأ فلا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزاد فى عقاب عاصيهم وقوله تعالى (أفمن اتبع رضوان الله) الهمزة فيه للانكار والفاء للعطف على محذوف والتقدير أفمن اتقى فاتبع رضوان الله (كمن باء) اى رجع (بسخط من الله) بسبب المعاصى (ومأواه جهنم وبئس المصير) اى المرجع هى اى ليس مثله واختلف فى المراد من هذه الآية فقال الكلبى والضحاك أفمن اتبع رضوان الله فى ترك الغلول كمن باء بسخط من الله فى فعل الغلول وقال الزجاج لما حمل المشركون على المسلمين دعا النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه الى أن يحملوا على المشركين ففعله بعضهم وتركه آخرون فقوله أفمن اتبع رضوان الله هم الذين امتثلوا أمره كمن باء بسخط من الله هم الذين لم يقبلوا قوله وقيل أفمن اتبع رضوان الله وهم المهاجرون كمن باء بسخط من الله وهم المنافقون وقيل أفمن اتبع رضوان الله بالايمان به والعمل بطاعته كمن باء بسخط من الله بالكفر به والاشتغال بمعصيته قال القاضى وكل واحد من هذه الوجوه صحيح ولكن لا يجوز قصر اللفظ عليه لان اللفظ عام فيجب أن يتناول الكل وان كانت الآية نزلت فى واقعة معينة لكن عموم اللفظ لا يبطل بخصوص السبب * (تنبيه) * الفرق بين المصير والمرجع أن المصير يجب أن يخالف الحالة الاولى ولا كذلك المرجع فانه قد يوافق المبدأ وقرأ شعبة رضوان بضم الراء والباقون بالكسر وقوله تعالى (هم درجات)

جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا اى والذين أرادوا سبيل المجاهدة لنهدينهم سبيل مجاهدتنا (قوله ولله ملك السموات والارض وما بينهما الآية) * فان قلت لم كررها وختم الاولى بقوله وهو على كل شئ قدير

مبتدا وخبر أى الفريقان درجات ولابد من تأويل فى الاخبار بالدرجات عن هم لانها ليست اياهم فيجوز أن يكون جعلوا انفس الدرجات مبالغة والمعنى انهم متفاوتون فى الجزاء على كسبهم كما أن الدرجات متفاوتة فهو تشبيه بليغ بحذف الاداة اى هم مثل الدرجات فى التفاوت ويجوز أن يكون على حذف مضاف اى ذوو درجات اى أصحاب منازل ورتب فى الثواب والعقاب (عند الله) فلمن اتبع رضوانه الثواب ولمن باء بسخطه العقاب (والله بصير بما يعملون) اى عالم بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم على حسبها (لقد منّ الله على المؤمنين) اى انعم على من آمن مع النبى صلى الله عليه وسلم ووجه هذه المنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى ما يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم الى ثوابه كقوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (فان قيل) لم خصهم بالنعمة مع أن البعثة عامة (أجيب) بأنهم هم المنتفعون بها كقوله تعالى هدى للمتقين (اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم) اى من جنسهم عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على أحواله فى الصدق والامانة فكان ذلك أقرب لهم الى تصديقه والوثوق به ويشرفوا به لا ملكا ولا عجميا وقرئ شاذا من أنفسهم بفتح الفاء اى من أشرفهم لانه صلى الله عليه وسلم كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم وقد خطب أبو طالب لما تزوج صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله تعالى عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر فقال الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسمعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس ثم ان ابن أخى هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش الا رجح به وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ولم أذكر فى التفسير قراءة شاذة الا هذه لكونها فى شرف الرسول صلى الله عليه وسلم وقراءة السيدة فاطمة رضى الله تعالى عنها (يتلوا عليهم آياته) اى القرآن بعدما كانوا جهالا لم يسمعوا الوحى (ويزكيهم) اى ويطهرهم من دنس الطباع وسوء العقائد والاعمال (ويعلمهم الكتاب) اى القرآن (والحكمة) اى السنة من بعدما كانوا من أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم كما قال تعالى (وان كانوا من قبل) اى قبل بعثته صلى الله عليه وسلم (لفى ضلال مبين) اى بين ظاهر (أولما) اى حين (أصابتكم مصيبة) بأحد بقتل سبعين منكم (قد أصبتم مثليها) يبدر بقتل سبعين وأسر سبعين (قلتم) متعجبين (أنى) اى من أين لنا (هذا) القتل والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا والجملة الاخيرة محل الاستفهام الانكارى (قل) لهم (هو من عند أنفسكم) اى هو مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الامر بترك المركز فان الوعد كان مشروطا بالثبات فى المركز والمطاوعة فى الامر وعن على رضى الله تعالى عنه لاخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم روى عبيدة السلمانى عن على رضى الله عنه قال جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان الله قد كره ما صنع قومك من أخذهم الفداء من الاسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموا اى الاسارى فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عددهم فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فقالوا يا رسول الله عشائرنا واخواننا لا بل نأخذ منهم فداهم فنتقوى به على قتال

اعدائنا

(قلت) لان الاولى نزلت فى النصارى حين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم فرد الله تعالى عليهم بقوله ولله ملك السموات والارض تنبيها على انه مالك لعيسى وغيره وانه قادر على اهلاكه والثانية بقوله واليه المصير

أعدائنا ويستشهد منا عدتهم فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى بدر وهذا معنى قوله قل هو من عند أنفسكم اى بأخذ كم الفداء واختيار كم لاقتل (ان الله على كل شئ قدير) فيقدر على النصر وعلى منعه وعلى أن يصيب بكم تارة ويصيب منكم أخرى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان) اى جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة (فباذن الله) اى فهو كائن بقضائه وارادته ودخلت الفاء فى الخبر لشبه المبتدا بالشرط نحو الذى يأتينى فله درهم (وليعلم المؤمنين) وقد تقدم ان معنى وليعلم الله كذا اى يميز أو يظهر للناس ما كان فى علمه (وليعلم الذين نافقوا) قال الواحدى يقال نافق الرجل فهو منافق اذا أظهر كلمة الايمان وأضمر خلافها قال أبو عبيد مشتق من نافقاء اليربوع لان جحر اليربوع له بابان القاصعاء والنافقاء فان طلب من أحدهما خرج من الآخر فقيل للمنافق انه منافق وهو اسم اسلامى لانه صنع لنفسه طريقين اظهار الاسلام واضمار الكفر فمن أيهما طلب خرج من الآخر وقوله تعالى (وقيل لهم) عطف على نافقوا اى وليعلم الذين قيل لهم لما انصرفوا عن القتال وقالوا لم نلقى أنفسنا فى القتل فرجعوا وهم عبد الله بن أبى وأصحابه وكانوا ثلثمائة من جملة الالف الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (تعالوا قاتلوا فى سبيل الله) الكفار (أو ادفعوا) عنا اى ان كان فى قلبكم حب الايمان فقاتلوا للدين وان لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم وقال السدى وابن جريج ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا ان لم تقاتلوا معنا لان الكثرة احد أسباب الهيبة روى عن سهل ابن سعد الساعدى وقد كف بصره لو أمكننى لبعت دارى ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم قيل وكيف وقد ذهب بصرك قال لقوله تعالى أو ادفعوا أراد أكثر سوادهم واختلفوا فى القائل فقال الاصم انه الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم الى القتال وقيل أبو جابر الانصارى قال لهم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند حضور العدو (قالوا لو نعلم) اى نحسن (قتالا لاتبعناكم) فيه قال تعالى تكذيبا لهم (هم للكفر يومئذ) اى يوم اذ قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم (أقرب منهم للايمان) اى لانقطاعهم وارتدادهم وكلامهم فان ذلك أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم وقيل المعنى على حذف مضاف اى هم لاهل الكفر أقرب منهم لاهل الايمان بما أظهروه من خذلانهم للمؤمنين وكانوا قبل أقرب الى الايمان من حيث الظاهر *(تنبيه)* فضلوا هنا على أنفسهم باعتبار حالين ووقتين ولولا ذلك لم يجز تقول زيد قاعدا أفضل منه قائما أو زيد قاعدا اليوم أفضل منه قاعدا غدا ولو قلت زيد اليوم قاعدا افضل منه اليوم قاعدا لم يجز (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) اى يظهرون خلاف ما يضمرون لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالايمان فهم وان كانوا يظهرون الايمان باللسان لكنهم يضمرون فى قلوبهم الكفر *(تنبيه)* اضافة القول الى الافواه تصوير لنفاقهم فان ايمانهم موجود فى أفواههم فقط وبهذا انتفى كونه للتأكيد كما قيل به لتحصيل هذه الفائدة وقال ابن عادل والظاهر أن القول يطلق على اللسانى وعلى النفسانى فتقييده بأفواههم تقييد لاحد محتمليه اللهم الا أن يقال اطلاقه على النفسانى مجاز (والله أعلم بما يكتمون) اى عالم بما فى ضمائرهم وبما يخلو به بعضهم الى بعض فانه

والاولى ضمير والثانية فى اليهود والنصارى حين قالوا نحن ابناء الله واحباؤه فرد الله تعالى بقوله ولله ملك السموات الآية تنبيها على ان الجميع مملوك له ومصيرهم اليه يعذب من يشاء ويغفر ان يشاء له

يعلم ذلك مفصلا بعلم واحد وأنتم تعلمونه مجملا بامارات وجوّزوا في موضع (الذين قالوا) ألقاب الاعراب الثلاثة الرفع والنصب والجرّ فالرفع من ثلاثة أوجه أحدها أن يكون مرفوعا على خبر مبتدا محذوف تقديره هم الذين الثانى انه بدل من واو يكتمون الثالث انه مبتدأ والخبر قوله قل فادرؤا ولابد من حذف عائد تقديره قل لهم فادرؤا والنصب من ثلاثة أوجه أيضا أحدها النصب على الذم اى أذم الذين قالوا الثانى انه بدل من الذين نافقوا الثالث انه صفة لهم والجر من وجهين أحدهما انه بدل من الضمير في بأفواههم والثانى انه بدل من الضمير في قلوبهم كقول الفرزدق

على حالة لو أن في القوم حاتما * على جوده لضن بالماء حاتم

بجر حاتم على انه بدل من الهاء في جوده وضن مبنى للمفعول وهو بالماء اى ولو أن حاتما مستقرا في القوم كائنا على جوده وهم بتلك الحالة لبخل بالماء (لاخوانهم) اى لاجل اخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد أو اخوانهم في النسب أو في سكنى الدار أو في عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وقعدوا) حال مقدرة بقد اى قالوا قاعدين عن القتال (لو أطاعونا) في القعود (ما قتلوا) كما لم نقتل واختلف في قائل ذلك فقال أكثر المفسرين هو ابن أبىّ وأصحابه وقول الاصم هذا لا يجوز لان ابن أبىّ خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم في الجهاد يوم أحد وهذا القول واقع ممن تخلف فيه نظر لاحتمال أن المراد بالقعود القعود عن القتال لا عن الخروج الى القتال (قل) لهم (فادرؤا) اى ادفعوا (عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) في أن القعود ينجى منه لانكم ان دفعتم القتل الذى هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبثوثة ولابد لكم أن يتعلق بكم بعضها وروى انه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقا (فان قيل) ما وجه هذا الاستدلال فان التحرز عن القتل ممكن وأما التحرز عن الموت فغير ممكن (أجيب) بأن الكل بقضاء الله وقدره فلا فرق بين الموت والقتل وفي قوله تعالى فادرؤا عن أنفسكم الموت استهزاء بهم اى ان كنتم رجالا دافعين لاسباب الموت فادرؤا جميع أسبابه حتى لا تموتوا ونزل في شهداء أحد كما رواه الحاكم وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش وسائرهم من الانصار (ولا تحسبن) اى ولا تظنن (الذين قتلوا في سبيل الله) اى لاجل دينه والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد (أمواتا بل) هم (أحياء عند ربهم) اى ذوو زلفى منه فليس المراد القرب المكانى لاستحالته ولا بمعنى في علمه وحكمه لعدم مناسبة المقام له بل بمعنى القرب شرفا ورتبة قال البيضاوى وقيل نزلت في شهداء بدر أى وكانوا أربعة عشر رجلا ثمانية من الانصار وستة من المهاجرين قال شيخنا القاضى زكريا وهو غلط انما نزل فيهم آية البقرة (يرزقون) من ثمار الجنة روى ابن عباس انه عليه الصلاة والسلام قال أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديل معلقة في ظل العرش وروى ان الله تعالى يطلع عليهم ويقول سلونى ما شئتم فيقولون يا رب كيف نسألك ونحن نسرح في الجنة في أيها شئنا فلما رأوا أن لا يتركوا من أن لا يسألوا شيأ قالوا نسألك أن ترد أرواحنا الى أجسادنا في الدنيا نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأوا من النعيم كما قال تعالى (فرحين بما

كان صبيى انه لم يملكه ولم يعذبه اذ الاب لا يملك ابنه ولا يعذبه (فان قلت) كيف أخبر الله عنهم انهم قالوا نحن أبناء الله مع انه لم يعرف انهم قالوه (قلت) المراد بأبناء الله خاصته كما

آتاهم الله من فضله) وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الابدية والقرب من الله والتمتع بنعيم الجنة (ويستبشرون) أى يفرحون (بالذين لم يلحقوا بهم) من اخوانهم الذين تركوهم أحياء فى الدنيا على مناهج الايمان والجهاد لعلمهم أنهم اذا استشهدوا لحقوا بهم ونالوا من الكرامة ما نالوا فلذلك يستبشرون (من خلفهم) أى الذين من خلفهم زمانا أو رتبة وأبدل من الذين (أن) أى بأن (لا خوف عليهم) أى الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم (ولا هم يحزنون) فى الآخرة والمعنى انهم يستبشرون بما تبين لهم من أمور الآخرة وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة لا يكدرون بخوف وقوع محذور ولا بحزن فوات محبوب وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة والجد فى الجهاد والرغبة فى نيل منازل الشهداء واصابة فضلهم واحماد لحال من يرى نفسه فى خير فيتمنى مثله لاخوانه لان الله تعالى مدحهم على ذلك (يستبشرون بنعمة من الله وفضل) لما بين تعالى انهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم بين هنا انهم يستبشرون لانفسهم بما رزقوا من النعيم ولذلك أعاد لفظ الاستبشار (فان قيل) أليس انه ذكر فرحهم بأحوال أنفسهم والفرح عين الاستبشار فلزم التكرار (أجيب) بأن الاستبشار هو الفرح التام فلا يلزم التكرار وبأن المراد حصول الفرح بما حصل فى الحال وحصول الاستبشار بما عرفوا أن النعمة العظيمة تحصل لهم فى الآخرة والفرق بين النعمة والفضل أن النعمة هى الثواب والفضل هو التفضل الزائد (فان قيل) لم قال يستبشرون من غير عطف (أجيب) بأنه تا كيد للاول لانه قصد بالنعمة والفضل بيان متعلق الاستبشار الاول (وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) لما ذكر ايصال الثواب العظيم الى الشهداء بين أن ذلك ليس مخصوصا بهم بل كل مؤمن يستحق شيأ من الاجر والثواب فان الله تعالى يوصل ثوابه اليه ولا يضيعه وقوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول) اى دعاءه مبتدأ (من بعد ما أصابهم القرح) بأحد وخبر المبتدأ (للذين أحسنوا منهم) بطاعته (واتقوا) مخالفته (أجر عظيم) هو الجنة روى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان وقال لا يخرجن معنا أحد الا من حضر يومنا بالامس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الاسد وهى من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على انفسهم حتى لا يفوتهم الاجر روى أنه كان فيهم من يحمل صاحبه على عنقه ساعة ثم ان المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى وذلك لكثرة الجراحات فيهم وكان فيهم من يتوكأ على صاحبه ساعة ويتوكأ عليه صاحبه ساعة فمر برسول الله صلى الله عليه وسلم معبد الخزاعى بحمراء الاسد وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعبد يومئذ مشرك فقال يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله قد أعفاك فيهم ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال ما وراءك يا معبد قال محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط قال ويلك ما تقول قال والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصى الخيل فالتق

يقال ابناء الدنيا وابناء الآخرة وقيل فيه اضمار تقديره ابناء أنبياء الله (قوله فلم يعذبكم بذنوبكم) فان قلت كيف يصح الاحتجاج عليهم بصح انهم يشكرون تعذيبهم بذنوبهم مدعين

الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت *(تنبيه)* من فى الذين أحسنوا منهم للتبيين مثلها فى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم وقوله تعالى (الذين) بدل من الذين قبله أو نعت (قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) أى الجموع ليستأصلوكم (فاخشوهم) روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال صلى الله عليه وسلم إن شاء الله فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مر الظهران فألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له أن يرجع فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى وقد قدم معتمرا فقال يا نعيم إنى واعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لى أن لا أخرج إليه وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ولأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلى من أن يكون من قبلى فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنى فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا ولك عندى عشرة من الإبل أضعها فى يد سهيل بن عمرو ويضمنها فقال له نعيم يا أبا يزيد أتضمن لى ذلك وأنطلق إلى محمد وأثبطه قال نعم فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبى سفيان فقال أين تريدون فقالوا واعدنا أبو سفيان بموسم بدر الصغرى أن نقتتل بها فقال بئس الرأى رأيتم أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريدا فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم والله لا يفلت منكم أحد فكره بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكبا وهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل ولم يلتفتوا إلى ذلك القول كما قال تعالى (فزادهم) ذلك القول (إيمانا) أى تصديقا بالله ويقينا (وقالوا حسبنا الله) أى كافينا أمرهم (ونعم الوكيل) أى المفوض إليه الأمر هو حتى وافوا بدرا الصغرى فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون أن يرهبوا المسلمين فيقول المسلمون حسبنا الله ونعم الوكيل وهذه هى الكلمة التى قالها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه حين ألقى فى النار حتى بلغوا بدرا وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون إليها فى كل عام ثمانية أيام فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ينتظر أبا سفيان ثمان ليال ولم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحدا من المشركين ووافوا السوق وكان معهم تجارات فباعوها واشتروا أدما وزبيبا وأصابوا الدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين كما قال تعالى (فانقلبوا) أى انصرفوا (بنعمة من الله) أى بعافية لم يلقوا عدوا (وفضل) أى تجارة وربح وهو ما أصابوا فى السوق (لم يمسسهم سوء) أى لم يصبهم أذى ولا مكروه ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق قالوا إنما خرجتم لتشربوا السويق *(تنبيه)* الناس الأول المثبطون والآخرون أبو سفيان وأصحابه (فإن قيل) المثبط هو أبو نعيم فكيف قيل الناس (أجيب) بأنه من جنس الناس كما يقال فلان يركب الخيل ويلبس البرود وماله إلا فرس واحد وبرد واحد ولأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يثبطون مثل تثبيطه بل قيل إنهم كانوا جماعة فقد مر بأبى سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة فجعل

ان ما يذنبونه بالنهار يغفر
بالليل وبالعكس (قلت)
هم مغرورون بأنهم يعذبون
أربعين يوما مدة عبادتهم
العجل فى غيبة موسى عليه
الصلاة والسلام لميقات
ربه وقالوا لن تمسنا النار

لهم حول بعير من زبيب ان ثبطوهم (فان قيل) كيف زادهم القول ايمانا (أجيب) بأنهم لما سمعوا ذلك وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الاسلام كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم كما يزداد الايمان والايقان بتناصر الحجج ولان خروجهم على اثر التثبيط الى وجه العدو طاعة عظيمة والطاعات تزيد الايمان فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قلنا يارسول الله ان الايمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول قم بنا نزدد ايمانا وعنه رضي الله تعالى عنه لو وزن ايمان أبي بكر رضي الله تعالى عنه بايمان هذه الامة لرجح به (واتبعوا رضوان الله) الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجراءتهم وخروجهم (والله ذو فضل عظيم) قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الايمان والتوفيق للمبادرة الى الجهاد والتصلب في الدين واظهار الجراءة على العدو وبالحفظ على كل من يسوءهم واصابة النفع من ضمان الاجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل وفيه تحسير المتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به (انما ذلكم) أي المثبط أو أبو سفيان (الشيطان يخوف أولياءه) اى القاعدين عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم أو يخوفكم أولياءه وهم أبو سفيان وأصحابه ويدل على ذلك قوله تعالى (فلا تخافوهم وخافون) في مخالفة أمرى فجاهدوا مع رسولي (ان كنتم مؤمنين) حقا فان الايمان يقتضي ايثار خوف الله على خوف الناس وقرأ أبو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) اى يقعون فيه وقوعا سريعا حرصا عليه وهم المنافقون من المتخلفين أو قوم ارتدوا عن الاسلام اى لا تهتم لكفرهم (انهم لن يضروا الله شيأ) بفعلهم وانما يضرون به أنفسهم وقرأ نافع يحزنك بضم الياء وكسر الزاى حيث وقع ما خلا قوله تعالى في الانبياء لا يحزنهم الفزع الاكبر فانه على فتح الياء وضم الزاى فيه والباقون كذلك في الكل من حزنه لغة في أحزنه (يريد الله ألا يجعل لهم حظا) اى نصيبا (في الآخرة) اى الجنة فلذلك خذلهم وهو يدل على تمادى طغيانهم وموتهم على الكفر (ولهم) مع حرمان الثواب (عذاب عظيم) في النار (ان الذين اشتروا الكفر بالايمان) أى أخذوه بدله (لن يضروا الله) بكفرهم (شيأ ولهم عذاب أليم) اى مؤلم وكرر ذلك للتأكيد أو هو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين أو ارتدوا من الاعراب ونزل في مشركي مكة كما قاله مقاتل أو في قريظة أو النضير كما قاله عطاء (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي) اى نمهل (لهم) بتطويل الاعمار (خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما) بكثرة المعاصي (ولهم عذاب مهين) اى ذو اهانة روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل اى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قيل فاى الناس شر قال من طال عمره وساء عمله وقرأ حمزة ولا تحسبن الذين كفروا أولا تحسبن الذين يبخلون بالتاء فيهما على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة (ما كان الله ليذر) اى ليترك (المؤمنين على ما أنتم عليه) أيها الناس من اختلاط المسلم بغيره (حتى يميز) اى يفصل (الخبيث) اى المنافق (من الطيب) واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال الكلبي قالت قريش يا محمد تزعم أن من

(قوله واذ الآيات معدودة (قوله واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا) قال ذلك هنا وقال في ابراهيم واذ قال موسى لقومه اذكروا لموافقة ما قبله وما بعده من النداء أو لان التصريح باسم المخاطب

خالفك فهو فى النار والله عليه غضبان وأنّ من اتبعك على دينك فهو فى الجنة والله عنه راض فاخبرنا من يؤمن بك ومن لا يؤمن فنزلت وقال السدى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضت على أمتى فى صورتها فى الطين كما عرضت على آدم وأعلمت من يؤمن ومن يكفر فبلغ ذلك المنافقين فقالوا استهزاء زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد ونحن معه وما يعرفنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال أقوام طعنوا فى على لا تسألونى عن شئ فيما بينكم وبين الساعة الا نبأتكم به فقام عبد الله بن حذافة السهمى فقال من أبى يارسول الله قال حذافة فقام عمر رضى الله تعالى عنه فقال يارسول الله رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما وبك نبيا فاعف عنا عفا الله تعالى عنك فقال النبى صلى الله عليه وسلم فهل أنتم منتهون ثم نزل عن المنبر فنزلت (فان قيل) لمن الخطاب فى أنتم (أجيب) بأنه للمصدّقين جميعا من أهل النفاق والاخلاص كأنه قيل ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التى أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعا حتى يميزهم منكم بالوحى الى نبيه واخباره باحوالكم أو بالتكاليف الشاقة التى لا يصبر عليها ولا يذعن لها الا الخلص المخلصون منكم كبذل الاموال والانفس فى سبيل الله فيختبر بها بواطنكم ويستدل بها على عقائدكم ففعل ذلك يوم أحد حيث أظهروا النفاق وتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ حمزة والكسائى يميز بضم الياء وفتح الميم وتشديد الياء بعد الميم مع كسرها والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء بعد الميم (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) فتعرفوا المنافق من غيره قبل التمييز (ولكنّ الله يجتبى من رسله من يشاء) فيوحى اليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها (فآمنوا بالله ورسله) اى بصفة الاخلاص أو بان تعلموا أن الله وحده مطلع على الغيب وتعلموا أنهم عباد مجتبون لا يعلمون الا ما علمهم الله تعالى ولا يقولون الا ما يوحى اليهم وروى أن الكفرة قالوا ان كان محمد صادقا فليخبرنا من يؤمن ومن يكفر فنزلت الآية (وان تؤمنوا) حق الايمان (وتتقوا) النفاق (فلكم أجر عظيم) أى لا يقادر قدره (ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو) أى بخلهم (خيرا لهم بل هو) أى بخلهم (شرّ لهم) لاستجلاب العقاب اليهم واختلفوا فى المراد بهذا البخل فقال أكثر العلماء المراد به منع الواجب واستدلوا بوجوه أحدها أن الآية دالة على الوعيد الشديد وذلك لا يليق الا بالواجب وثانيها ان الله تعالى ذم البخل والتطوّع لا يذم على تركه وثالثها قال عليه الصلاة والسلام وأىّ داء أدوأ من البخل وتارك التطوّع لا يليق به هذا الوصف وانفاق الواجب على أقسام منها انفاقه على نفسه وعلى أقاربه الذين تلزمه مؤنتهم ومنها الزكوات ومنها ما اذا احتاج المسلمون الى دفع عدوّ يقصد أنفسهم وأموالهم فيجب عليهم انفاق الاموال على من يدفعهم عنهم ومنها دفع ما يسدّ رمق المضطرّ (سيطوّقون) اى سوف يطوّقون (ما بخلوا به يوم القيامة) اختلفوا فى هذا الوعيد فقال ابن عباس وابن مسعود يجعل ما منعه من الزكاة حية يطوقها فى عنقه يوم القيامة تنهشه من فرقه الى قدمه وتنقر رأسه تقول أنا مالك وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال

مع حرف الخطاب يدل على تعظيم المخاطب به وقد ذكر هنا ثم جسام وهو قوله جعل فيكم أنبياء فناسب ذكر يا قوم بخلاف ذلك فى ابراهيم/ قوله فاذا دخلتموه فانكم غالبون) هو من

رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له
زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا
ولا يحسبن الذين يبخلون الآية وعن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي
بيده أو والذي لا إله غيره أو كما حلف ما من رجل تكون له ابل او بقر أو غنم لا يؤدي حقها الا أتى
بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت عليه
أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس وقال مجاهد معنى سيطوقون سيكلفون ان
يأتوا بما بخلوا به يوم القيامة أي يؤمرون بأداء ما منعوا فلا يمكنهم الاتيان به فيكون ذلك توبيخا
وقيل ان هذه الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وأراد
بالبخل كتمان العلم كما في سورة النساء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله
من فضله ومعنى قوله على هذا سيطوقون أي يحملون وزره وإثمه كقوله تعالى يحملون أوزارهم
على ظهورهم وقوله تعالى (ولله ميراث السموات والارض) في معناه وجهان أحدهما أن له
ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره فهو الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم
فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله ونحوه قوله تعالى وانفقوا مما جعلكم مستخلفين
فيه والثاني وبه قال الاكثرون ان معناه انه يفني أهل السموات والارض ويفنى الاملاك
ولا مالك لها الا الله فجرى هذا مجرى الوراثة قال ابن الانباري يقال ورث فلان علم فلان اذا
انفرد به بعد أن كان مشاركا فيه وقال تعالى وورث سليمان داود لانه انفرد بذلك الامر بعد
ان كان داود مشاركا له فيه (والله بما تعملون) من المنع والاعطاء (خبير) فيجازيكم به وقرأ ابن
كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (لقد سمع الله قول الذين قالوا
ان الله فقير ونحن أغنياء) قال الحسن ومجاهد لما نزل قوله تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضا
حسنا قالت اليهود ان الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وذكر الحسن أن قائل هذه المقالة
حيي بن أخطب وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن اسحق كتب النبي صلى الله عليه وسلم
مع أبي بكر الصديق الى يهود بني قينقاع يدعوهم الى الاسلام والى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة
وان يقرضوا الله قرضا حسنا فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناسا كثيرا من
اليهود قد اجتمعوا الى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر
يقال له أشيع فقال أبو بكر لفنحاص اتق الله وأسلم فوالله انك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم
بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة فآمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا
يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب فقال فنحاص يا أبا بكر تزعم ان ربنا يستقرض من اموالنا
وما يستقرض الا الفقير من الغني فان كان ما تقول حقا فان الله اذن لفقير ونحن أغنياء وانه
ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنيا ما أعطانا الربا يعني في قوله فيضاعفه له أضعافا كثيرة
فغضب أبو بكر رضي الله تعالى عنه وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذي نفسي بيده
لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله فذهب فنحاص الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر
ما حملك على ما صنعت فقال يا رسول الله ان عدو الله قال قولا عظيما زعم ان الله فقير وهم

مقول الداخلين (فان قلت) من اين علما انهم غالبون حتى قالا ذلك (قلت) من جهة وثوقهم باخبار موسى عليه السلام بقوله ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم وقيل علما ذلك بغلبة الظن وما

أغنياء فغضبت لله فضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله عز وجل ردا على فنحاص وتصديقا لأبي بكر رضي الله تعالى عنه لقد سمع الله الآية وهذا لا يدل على أن غيره لم يقل ذلك لأن الآية دالة على أن القائل جماعة لقوله تعالى الذين قالوا (سنكتب) أي نأمر بكتب (ما قالوا) من الإفك والفرية في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه وهذا وعيد وإنا له كاتبون أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله واستهزاء بالله والرسول ولذلك نظمه مع قتل الأنبياء كما قال تعالى (وقتلهم) أي وسنكتب قتلهم (الأنبياء بغير حق) وفي نظمه به تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول (ونقول) أي الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة (ذوقوا عذاب الحريق) أي النار وهي بمعنى المحرق كما يقال عذاب أليم أي مؤلم وقرأ حمزة سيكتب بالياء المثناة تحت بعد السين مضمومة وفتح التاء بعد الكاف وضم اللام من قتلهم وبالياء في ويقول والباقون بالنون بعد السين مفتوحة وضم التاء بعد الكاف ونصب اللام من قتلهم وبالنون في ونقول ويقال لهم إذا ألقوا في النار (ذلك) أي العذاب (بما قدمت أيديكم) من الافتراء وقتل الأنبياء وغير ذلك من المعاصي وعبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر الأعمال بهن (وأن الله ليس بظلام) أي بذي ظلم (للعبيد) فيعذبهم بغير ذنب (فإن قيل) ظلام للمبالغة المقتضية للتكثير فهو أخص من ظالم ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم (أجيب) بأنه لما قوبل بالعبيد وهم كثيرون ناسب أن يقابل الكثير بالكثير وبأنه إذا نفي الظلم الكثير ينفي القليل لأن الذي يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم فإذا ترك كثيره مع زيادة نفعه فيمن يجوز عليه النفع والضر كان لقليله مع قلة نفعه أترك وبأن ظلام للنسب كما قدرته في الآية الكريمة كما في بزاز وعطار أي لا ينسب إليه ظلم البتة وقوله تعالى (الذين) نعت للذين قبله (قالوا) لمحمد صلى الله عليه وسلم تزعم أن الله بعثك بالحق رسولا وأنزل عليك كتابا وأن نؤمن بك أي وقالوا (إن الله) قد (عهد إلينا) أي أمرنا وأوصانا في كتبه (ألا نؤمن لرسول) أي لا نصدق رسولا أنه قد جاء من عند الله (حتى يأتينا بقربان تأكله النار) أي حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل فيكون دليلا على صدقه والقربان كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من نسيكة وعمل صالح وكانوا إذا قربوا قربانا أو غنموا غنيمة جاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها ولها دوي وحفيف فتأكل ذلك القربان وتأكل الغنيمة وسمي أكلها أن تحيل ذلك إلى طبعها بالإحراق فيكون ذلك علامة القبول وإذا لم يتقبل بقي على حاله وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات في ذلك سواء وقال السدي هذا الشرط جاء في التوراة ولكنه مع شرط آخر وهو أن الله تعالى أمر بني إسرائيل من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان قال الله تعالى إقامة للحجة عليهم (قل) لهم يا محمد (قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات) أي بالمعجزات (وبالذي قلتم) من القربان كزكريا ويحيى فقتلتموهم (فلم قتلتموهم) والخطاب لمن في زمن نبينا وإن كان الفعل لأجدادهم لرضاهم به (إن كنتم صادقين) في أنكم تؤمنون بالرسل عند الإتيان بذلك ثم قال الله تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم من

ههنا من صنع الله تعالى بموسى عليه السلام من قهر أعدائه (قوله فإنها محرمة عليهم) إن قلت هذا إنما في قوله قبل ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم (قلت) لا منافاة

تكذيب قومه واليهود (فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات) اى المعجزات (والزبر) اى الصحف كصحف ابراهيم (والكتاب) اى التوراة والانجيل (المنير) اى الواضح فاصبر كما صبروا وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام وقرأ ابن عامر وبالزبر بالباء الموحدة والباقون بغير باء بعد الواو وقرأ هشام وبالكتاب بالباء الموحدة بعد الواو والباقون بغير باء وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) زيادة تأكيد فى تسليته صلى الله عليه وسلم ومبالغة فى ازالة الحزن عن قلبه فان من علم أن عاقبته الى الموت زالت عن قلبه الغموم والاحزان روى ان الله تعالى لما خلق آدم اشتكت الارض الى ربها لما أخذ منها فوعدها ان يردفيها ما أخذ منها فما من احد الا يدفن فى التربة التى أخذ منها ولان بعد هذه الدار دارا يتميز فيها المحسن من المسىء والمحق من المبطل ويجازى كل بما يستحقه كما قال تعالى (وانما توفون أجوركم) اى جزاء أعمالكم (يوم القيامة) ان خيرا فخير وان شرا فشر (فمن زحزح) اى بعد (عن النار وادخل الجنة فقد فاز) بالنجاة ونيل المراد والفوز بالظفر بالبغية بالنظر الى وجه الله تعالى الكريم (وما الحيوة الدنيا) اى العيش فيها (الا متاع الغرور) اى الباطل يتمتع به قليلا ثم يفنى روى ان الله تعالى يقول أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤا ان شئتم وظل ممدود ولموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها واقرؤا ان شئتم فمن زحزح عن النار الآية وروى من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤتى الناس ما يحب أن يؤتى اليه أى يفعل بهم ما يحب ان يفعل به وقوله تعالى (لتبلون) جواب قسم محذوف تقديره والله لتبلون وحذف منه نون الرفع لتوالى النونات والواو ضمير الجمع وحذفت واو الرفع لالتقاء الساكنين أى لتختبرن (فى اموالكم) بالفرائض فيها والجوائح (و) فى (أنفسكم) بالعبادات والبلاء والاسر والجراح وغير ذلك (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) اى اليهود والنصارى (ومن الذين اشركوا) اى مشركى العرب (أذى كثيرا) وذلك أنهم كانوا يقولون عزير ابن الله والمسيح ابن الله وثالث ثلاثة وكانوا يطعنون فى النبى صلى الله عليه وسلم بكل ما يقدرون عليه وهجاه كعب بن الاشرف وكانوا يحرضون الناس على مخالفته صلى الله عليه وسلم ويجمعون العساكر لمحاربته ويثبطون المسلمين عن نصرته (وان تصبروا) على ذلك (وتتقوا) الله (فان ذلك من عزم الامور) اى من صواب التدبير والرشد الذى ينبغى لكل عاقل أن يقدم عليه واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن جريج والكلبى ومقاتل نزلت فى أبى بكر وفنحاص وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر الى فنحاص اليهودى ليستمده وكتب اليه كتابا لا تفتاتن على بشىء حتى ترجع الى فجاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه وهو متوشح بالسيف فاعطاه الكتاب فلما قرأه قال احتاج ربك الى أن نمده فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف فتذكر أبو بكر قول النبى صلى الله عليه وسلم وكف عنه فنزلت وقال الزهرى نزلت فى كعب بن الاشرف فانه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعره

لان المعنى كتبها الله لكم بشرط ان تجاهدوا أهلها فلما أبوا حرمت عليهم أو كل منهما عام أريد به خاص فالكتابة للبعض وهم المطيعون والتحريم على البعض وهم العاصون (قوله اذ قربا

ويسب المسلمين ويحرض المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه في شعره ويتشبب بنساء المسلمين *(تنبيه)* في الآية تأويلان احدهما المراد بالمصابرة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على الابتلاء في النفس والمال وتحمل الأذى وترك المعارضة والمقاتلة وذلك لانه أقرب الى دخول المخالف في الدين كقوله تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وقال تعالى قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله وقال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقال تعالى فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل وقال تعالى ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم قال الواحدي وهذا قبل نزول آية السيف وقال القفال والذي عندي ان هذا ليس بمنسوخ والظاهر أنها نزلت عقب قصة أحد والمعنى أنهم أمروا بالصبر على ما يؤذون به الرسول عليه الصلاة والسلام من طريق الاقوال الجارية فيما بينهم واستعمال مداراتهم في كثير من الاحوال والامر بالقتال لا ينافي الامر بالمصابرة التأويل الثاني ان المراد الصبر على مجاهدة الكفار ومنابذتهم والانكار عليهم فالصبر عبارة عن احتمال المكروه والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي (و) اذكر (اذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) أي العهد عليهم في التوراة أي على علمائهم (ليبيننه) أي الكتاب (للناس ولا يكتمونه) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بالياء في الفعلين على الغيبة لان أهل الكتاب المخاطبين بذلك غيب والباقون بالتاء على الخطاب حكاية لمخاطبتهم (فنبذوه) أي طرحوا الميثاق (وراء ظهورهم) أي لم يعملوا به ولم يلتفتوا اليه ونقيض هذا جعله نصب عينيه (واشتروا به) أي أخذوا بدله (ثمنا قليلا) من حطام الدنيا وأعراضها من سفلتهم برياستهم في العلم فكتموه خوف فوتها عليهم وقوله تعالى (فبئس ما يشترون) العائد محذوف تقديره يشترونه قال قتادة رضي الله تعالى عنه هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم فمن علم شيأ فليعلمه واياكم وكتمان العلم فانه هلكة وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء ثم تلا هذه الآية وقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار وقال أبو الحسن بن عمارة رضي الله تعالى عنه أتيت الزهري بعد ان ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت ان رأيت ان تحدثني فقال اما علمت اني قد تركت الحديث فقلت اما ان تحدثني واما ان احدثك فقال حدثني فقلت حدثني الحكم ابن عيينة عن يحيى بن الخراز قال سمعت علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه يقول ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا قال فحدثني أربعين حديثا (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا) اي فعلوا من اضلال الناس (ويحبون أن يحمدوا) بما (أوتوا من علم التوراة و) (بما لم يفعلوا) من التمسك بالحق وهم على ضلال وهذا أيضا من جملة أذاهم لانهم يفرحون بما أتوا به من أنواع الخبث والتلبيس على ضعفة المسلمين ويحبون ان يحمدوا بانهم اهل البر والصدق والتقوى ولا شك ان الانسان يتأذى بمشاهدة مثل هذه الاحوال فامر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر عليها روى انه صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فكتموا الحق واخبروه بخلافه واروه انهم قد صدقوا وفرحوا بما فعلوا فاطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك وسلاه بما انزل من وعيدهم اي لا تحسبن اليهود الذين

يفرحون

قربانا) هو للجنس والمراد قربانين (قوله انما يتقبل الله من المتقين) *ان قلت كيف يصح جوابا لقوله لاقتلنك (قلت) لما كان الحسد لاخيه على تقبل قربانه هو الحامل له على

يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من اخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب وقيل هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بانهم رأوا المصلحة فى التخلف واستحمدوا به وقيل هم المنافقون فانهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون الى المسلمين بالايمان الذى لم يفعلوه على الحقيقة ويجوز أن يكون شاملا لكل من يأتى بحسنة فيفرح بها فرح اعجاب ويحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بالديانة والزهد بما ليس فيه وقوله تعالى (فلا تحسبنهم) تأكيد (بمفازة) أى مكان ينجون فيه (من العذاب) فى الآخرة بل هم فى مكان يعذبون فيه وهو جهنم (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم فيها وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة والباقون بالكسر ومفعولا تحسب الاولى دل عليهما مفعولا الثانية على قراءة التحتانية وعلى الفوقانية حذف الثانى فقط وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فلا يحسبنهم بالياء على الغيبة وضم الباء الموحدة والباقون بالتاء على الخطاب وفتح الباء الموحدة وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة كما تقدم (ولله ملك السموات والارض) فهو يملك أمرهما وما فيهما من خزائن المطر والرزق والنبات وغير ذلك (والله على كل شئ قدير) ومنه تعذيب الكافرين وانجاء المؤمنين (ان فى خلق السموات والارض) وما فيهما من العجائب (واختلاف الليل والنهار) بالمجئ والذهاب والزيادة والنقصان (لآيات) أى دلالات واضحة على قدرته تعالى وباهر حكمته (لاولى الالباب) لذوى العقول الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ولا ينظرون اليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر وفى النصائح الصغار املأ عينيك من زينة هذه الكواكب وأجلها فى جملة هذه العجائب متفكرا فى قدرة مقدرها متدبرا حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ويحال بينك وبين النظر وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلت لعائشة رضى الله تعالى عنها اخبرينى باعجب ما رأيت من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وأطالت ثم قالت كل أمره عجب أتانى ليلة فدخل فى لحافى حتى التصق جلده بجلدى ثم قال يا عائشة هل لك أن تأذنى الليلة فى عبادة ربى فقلت يا رسول الله انى لاحب قربك وأحب هواك قد أذنت لك فقام الى قربة من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلى فقرأ من القرآن وجعل يبكى حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكى ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الارض فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى فقال يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا ثم قال ومالى لا أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة ان فى خلق السموات والارض ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروى ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها وعن على رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر الى السماء ثم يقول ان فى خلق السموات والارض وحكى ان الرجل من بنى اسرائيل كان اذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة فعبدها فتى من فتيانهم فلم تظله فقالت أمه لعل فرطة فرطت منك فى مدتك فقال ما أذكر قالت لعلك نظرت مرة الى السماء ولم تعتبر قال لعل قالت فما أوتيت الا من ذلك وقوله تعالى (الذين) نعت

توعده بالقتل قال انما أتمت من قبل نفسك لا انسلاخها من لباس التقوى فلم يتقبل قربانك (قوله انى أريد أن تبوء باثمى واثمك) أى باثم قتلى واثمك الذى ارتكبته من

ما قبله أو بدل (يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) أى مضطجعين أى يذكرونه دائما على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين لان الانسان قل ان يخلو من احدى هذه الحالات الثلاث وروى الطبرانى وغيره انه صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه هذا فى الصلاة يصلى قائما فان لم يستطع فقاعدا فان لم يستطع فعلى جنب وعن عمران بن حصين قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة المريض فقال يصلى قائما فان لم يستطع فقاعدا فان لم يستطع فعلى جنب *(تنبيه)* قياما وقعودا حالان من فاعل يذكرون وعلى جنوبهم حال أيضا فيتعلق بمحذوف والمعنى يذكرونه قياما وقعودا ومضطجعين فعطف الحال المؤولة على الصريحة عكس الآية الاخرى وهى قوله دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما حيث عطف الصريحة على المؤولة (ويتفكرون فى خلق السموات والارض) وما أبدع فيهما ليدلهم ذلك على قدرة الله تعالى ويعرفون ان لهما مدبرا حكيما قال بعض العلماء الفكرة تذهب الغفلة وتحدث فى القلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات وما جليت القلوب بمثل الاحزان ولا استنارت بمثل الفكرة وروى عنه صلى الله عليه وسلم لا تفضلونى على يونس بن متى أى تفضيلا يؤدى الى تنقيصه والا فهو صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكر فى أمر الله تعالى الذى هو عمل القلب لان أحدا لا يقدر أن يعمل بجوارحه فى اليوم مثل عمل اهل الارض وقال صلى الله عليه وسلم لا عبادة كالتفكر أى لانه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق لكن الحديث رواه البيهقى وغيره وضعفوه وقال صلى الله عليه وسلم بينما رجل مستلق على فراشه اذ رفع رأسه فنظر الى السماء والنجوم فقال أشهد ان لك ربا وخالقا اللهم اغفر لى فنظر الله تعالى اليه فغفر له رواه الثعلبى بسند فيه من لا يعرف قال البيضاوى وهذا دليل واضح على شرف علم أصول الدين وفضل أهله وقوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا) على ارادة القول اى يتفكرون قائلين ذلك وهذا اشارة الى الخلق بمعنى المخلوق من السموات والارض أو الى السموات والارض لانهما فى معنى المخلوق والمعنى ما خلقته عبثا وضائعا من غير حكمة بل خلقته لحكم عظيمة من جملتها ان يكون مبدأ لوجود الانسان وسببا للمعاش ودليلا يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الابدية والسعادة السرمدية فى جوارك *(تنبيه)* نصب باطلا على الحال من هذا وهى حال لا يستغنى عنها لانها لو حذفت لاختل الكلام وهى كقوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وقيل على اسقاط حرف الخفض وهو الباء والمعنى ما خلقتهما بباطل بل بحق وقدرة (سبحانك) اى تنزيها لك عن العبث وهو معترض بين قوله ربنا وبين قوله (فقنا عذاب النار) اى للاخلال بالنظر فى خلق السموات والارض والقيام بما يقتضيه قال أبو البقاء ودخلت الفاء لمعنى الجزاء والتقدير اذا نزهناك أو وحدناك فقنا قال ابن عادل ولا حاجة اليه بل التسبب فيها ظاهر تسبب عن قولهم ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك طلبهم وقاية النار (ربنا انك من تدخل النار) أى للخلود فيها (فقد أخزيته) أى اهنته (وما للظالمين) أى للكافرين فيه وضع الظاهر موضع المضمر اشعارا بتخصيص الخزى بهم

قيل وهو توعدك بقتلى كيف قال (فان قلت) ما يلى لقابيل ذلك مع ان ارادة الشخص السوء والوقوع فى المعصية لغيره حرام (قلت) فى ذلك اضمار لا تقديره انى لا أريد ان تبوء

(من أنصار) أى انصار فمن زائدة زيدت لتأكيد النفى (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى) أى يدعو الناس (للايمان) أى اليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن العظيم (أن) أى بان (آمنوا) بربكم (فآمنا) به (فان قيل) أى فائدة فى الجمع بين مناديا وينادى (أجيب) بانه ذكر النداء مطلقا ثم مقيدا بالايمان تفخيما لشان المنادى لانه لا منادى أعظم من مناد ينادى للايمان ونحوه قولك مررت بهاد يهدى للاسلام وذلك ان المنادى اذا أطلق ذهب الوهم الى مناد للحرب أو لاغاثة المكروب أو نحو ذلك وكذا الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك فاذا قلت ينادى للايمان ويهدى للاسلام فقد رفعت من شان المنادى والهادى وفخمته ويقال دعاه لكذا والى كذا (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) أى الكبائر منها (وكفر عنا سيئاتنا) أى الصغائر منها ويكون ذلك من باب التعميم والاستيعاب كقوله الرحمن الرحيم ولان الالحاح والمبالغة فى الدعاء أمر مطلوب (وتوفنا مع الابرار) أى مخصوصين بصحبتهم معدودين فى جملتهم وهم الانبياء والصالحون وفيه تنبيه على انهم يحبون لقاء الله تعالى ومن أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه رواه الشيخان (ربنا وآتنا) أى اعطنا (ما وعدتنا) به (على) ألسنة (رسلك) من الرحمة والفضل وسؤالهم ذلك وان كان وعده تعالى لا يخلف سؤال أن يجعلهم من مستحقيه لانهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها وتكرير ربنا مبالغة فى التضرع وفى الآثار من حزبه اى اصابه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله تعالى مما يخاف وأعطاه ما اراد (ولا تخزنا) اى ولا تعذبنا ولا تفضحنا ولا تهنا (يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) اى الموعد باثابة المؤمن واجابة الداعى وعن ابن عباس الميعاد البعث بعد الموت (فاستجاب لهم ربهم) دعاءهم وهو أخص من اجاب لانه يفيد حصول جميع المطلوب لكثرة مبانيه لان كثرة المبانى تدل على كثرة المعانى ويتعدى بنفسه وباللام (أنى) اى بانى (لا اضيع عمل عامل منكم) وقوله تعالى (من ذكر أو أنثى) بيان عامل (بعضكم من بعض) اى يجمع ذكركم وأنثاكم اصل واحد فكل واحد منكم من الآخر اى الذكور من الاناث والاناث من الذكور وقيل المراد وصلة الاسلام وهذه الجملة وهى بعضكم من بعض معترضة بين عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى وما فصل به عمل عامل من قوله فالذين هاجروا الخ بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله تعالى عباده العاملين روى ان أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت يارسول الله أسمع الله يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت وقوله تعالى (فالذين هاجروا) اى من مكة الى المدينة (وأخرجوا من ديارهم) تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم كأنه قال فالذين عملوا هذه الاعمال السنية الفائقة وهى المهاجرة عن أوطانهم فارين الى الله تعالى بدينهم من دار الفتنة واضطروا الى الخروج من ديارهم التى ولدوا فيها ونشؤا (وأوذوا فى سبيلى) اى دينى (وقاتلوا) الكفار (وقتلوا) فى الجهاد وقرأ حمزة والكسائى بتقديم قتلوا وتأخير قاتلوا وشدد ابن كثير وابن عامر التاء من قتلوا للتكثير (لاكفرن عنهم سيئاتهم) أى استرها بالمغفرة (ولادخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا) أى أثيبهم بذلك ثوابا (من عند الله) أى تفضلا منه تعالى فهو مصدر مؤكد لما قبله لان قوله تعالى لاكفرن عنهم ولادخلنهم فى معنى لاثيبنهم (والله

كما فى قوله تالله تفتؤ تذكر يوسف أى لا تفتؤ واضمار مضاف تقديره انى اريد اتقاء أن تبوء كما فى قوله تعالى وأشربوا فى قلوبهم العجل اى حبه (قوله فاصبح من

عنده حسن الثواب) أى الجزاء * ولما كان المشركون فى رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون وقال بعض المؤمنين ان أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن فى الجهد نزل (لا يغرنك تقلب) أى تصرف (الذين كفروا فى البلاد) بالتجارات وأنواع المكاسب والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد منه غيره وقوله تعالى (متاع قليل) خبر مبتدأ محذوف أى ذلك التقلب متاع قليل يتمتعون به فى الدنيا يسيرا ويفنى فهو قليل فى جنب مافاتهم من نعيم الآخرة أو فى جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب قال صلى الله عليه وسلم ما الدنيا فى الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع رواه مسلم وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشربة وانه لعلى حصير ما بينه وبينه شئ وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف فرأيت أثر الحصير فى جنبه فبكيت فقال ما يبكيك فقلت يا رسول الله ان كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله فقال أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة (ثم مأواهم) أى مصيرهم (جهنم وبئس المهاد) أى الفراش هى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها نزلا من عند الله) وهو ما يعد للضيف ونصبه على الحال من جنات لتخصيصها بالوصف والعامل فيها معنى الظرف (وما) أى والذى (عند الله) من الثواب لكثرته ودوامه (خير للابرار) مما يتقلب فيه الكفار من متاع الدنيا لقلته وسرعة زواله * واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) فقال جابر وابن عباس وأنس نزلت فى النجاشى ملك الحبشة واسمه اصحمة وهو بالعربية عطية وذلك انه لما مات نعاه جبريل عليه الصلاة والسلام للنبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فقالوا ومن هو قال النجاشى فخرج الى البقيع وكشف له الى أرض الحبشة فابصر سرير النجاشى وصلى عليه وكبر عليه أربع تكبيرات واستغفر له فقال المنافقون انظروا الى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه فانزل الله تعالى هذه الآية وقال عطاء نزلت فى أربعين رجلا من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم وكانوا على دين عيسى فآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه وقال مجاهد نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب (وما أنزل اليكم) أى القرآن (وما أنزل اليهم) أى التوراة والانجيل وقوله تعالى (خاشعين) حال من ضمير يؤمن مراعى فيه معنى من لانها فى معنى الجمع أى متواضعين (لله لا يشترون) أى لا يستبدلون (بآيات الله) التى عندهم فى التوراة والانجيل من نعت النبى صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) من الدنيا بان يكتموها خوفا على الرياسة كما فعل غيرهم من اليهود (أولئك لهم أجرهم) أى ثواب أعمالهم (عند ربهم) وهو ما يختص بهم من الاجر وهو ما وعدوه فى قوله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين وقوله تعالى يؤتكم كفلين من رحمته (ان الله سريع الحساب) لنفوذ علمه فى كل شئ فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الاجر بحساب الخلق فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) على مشاق الطاعة وما يصيبكم من الشدائد وعن المعاصى

النادمين) * ان قلت هذا يقتضى أن قابيل كان تائبا والندم توبة لخبر الندم توبة فلا يستحق النار (قلت) لم يكن ندمه على قتل أخيه بل على حمله على عنقه أو على عدم اهتدائه للدفن الذى تعلمه من الغراب

(وصابروا) أى وغالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الحرب فلا يكونوا أشد صبرا منكم
(ورابطوا) أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو قال الله تعالى
ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من رابط يوما
وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته الا لحاجة وروى
أنه صلى الله عليه وسلم قال من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة (واتقوا الله) فى جميع أحوالكم
(لعلكم تفلحون) أى تفوزون بالجنة وتنجون من النار وقال بعض العلماء اصبروا على
البأساء والضراء ورابطوا فى دار الاعداء واتقوا اله الارض والسماء لعلكم تفلحون فى دار
البقاء روى الطبرى لكن باسناد ضعيف من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة
صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس أى تغيب وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى
وتبعهما ابن عادل من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها
أمانا على جسر جهنم فهو من الاحاديث الموضوعة على أبى بن كعب فى فضائل السور فليتنبه
لذلك ويحذر منه وقد نبه أئمة الحديث قديما وحديثا على ذلك وعابوا على من أورده من
المفسرين فى تفاسيرهم والله تعالى أعلم

سورة النساء مدنية

مائة وخمس أو ست أو سبع وسبعون آية وثلاثة آلاف وتسعمائة وخمس وأربعون
كلمة وستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا

(بسم الله) الظاهر الملك العلام (الرحمن) الذى عم عباده بالانعام (الرحيم) الذى خص أهل
ولايته بدار السلام وقوله تعالى (يا أيها الناس) خطاب يعم المكلفين من أولاد آدم من الذكور
والاناث الموجودين منهم فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم من العرب وغيرهم وقيل يختص
بالعرب منهم لقوله تعالى واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام اذ المناشدة بالله وبالرحم عادة
مختصة بهم فيقولون أنشدك بالله وبالرحم وأجيب بأن خصوص آخر الآية لا يمنع عموم أولها
(اتقوا ربكم) أى عذابه بأن تطيعوه (الذى خلقكم من نفس واحدة) أى فرعكم من أصل
واحد وهو نفس آدم أبيكم وقوله تعالى (وخلق منها زوجها) معطوف على خلقكم أى
خلقكم من شخص واحد هو آدم وخلق منها أمكم حواء بالمد من ضلع من أضلاعه اليسرى
أو معطوف على محذوف كأنه قيل من نفس واحدة أنشأها وابتدأها وخلق منها زوجها وانما
حذف لدلالة المعنى عليه والمعنى شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها وهى أنه أنشأها من تراب
وخلق منها زوجها حواء وهو تقرير لخلقكم من نفس واحدة وقوله تعالى (وبث منهما) أى
من آدم وحواء (رجالا كثيرا ونساء) أى كثيرا بيان لكيفية تولدهم منهما والمعنى وبث أى
نشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة واكتفى بوصف الرجال بالكثرة
عن وصف النساء بها اذ الحكمة تقتضى أن يكن أكثر اذ للرجل أن يزيد فى عصمته على واحدة
بخلاف المرأة وذكر كثيرا حملا على الجمع ولا تكرار فى الآية لان خلقكم من نفس واحدة مغاير
لخلق حواء منها لانها خلقت من ضلعه الايسر وهم من مائهما وبث الرجال والنساء لانه بين به

أو على تقديره انشاء أو على قتل
أخيه لكن مجرد الندم
ليس بتوبة اذ التوبة انما
تتحقق بالاقلاع وعدم
ان لا يعود وتدارك ما يمكن
تداركه (قوله من أجل

أن خلقهم من نفس واحدة معناه من نفس آدم وحواء مع زيادة التصريح بالرجال والنساء (واتقوا الله الذي تساءلون) فيه إدغام التاء في الأصل في السين أي تتساءلون (به) فيما بينكم حيث يقول بعضكم لبعض أسألك بالله وأنشدك بالله (فإن قيل) الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويحث عليها فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجبا للتقوى وداعيا إليها (أجيب) بأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ومن قدر على ذلك كان قادرا على كل شيء ومن المقدورات عقاب العصاة فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ويخشى عقابه ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف السين والباقون بتشديدها (و) اتقوا (الأرحام) أي بأن تصلوها ولا تقطعوها إذ كانوا يتناشدون بالرحم وقد نبه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحام باسمه على أن صلتها بمكان منه تعالى روى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال الرحم معلقة بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله تعالى ومن قطعني قطعه الله تعالى وقرأ غير حمزة بالنصب عطفا على الله تعالى فالعامل فيه اتقوا كما قدرته أو معطوف على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا وأما حمزة فقرأ بالجر عطفا على الضمير المجرور وقول البيضاوي وهو ضعيف أي كما هو مذهب البصريين ممنوع والحق أنه ليس بضعيف فقد جوزه الكوفيون وكيف يكون ضعيفا والقراءة به متواترة فيجب أن يضعف كلام البصريين ويرجع إلى كلام رب العالمين وتعليلهم عدم الجواز بكونه كبعض كلمة لا يقتضي الحاقه به في عدم جواز العطف إذ حذف الشيء مع القرينة جائز ومنه

• رسم دار وقفت في طلله • أي ورب رسم دار وقول الشاعر • اذهب فما بك والأيام من عجب

(إن الله كان عليكم رقيبا) أي حافظا لأعمالكم فيجازيكم بها أي لم يزل متصفا بذلك (وآتوا اليتامى) أي بعد البلوغ والرشد (أموالهم) وسموا يتامى بعد البلوغ مع أن اليتيم في عرف الشرع صغير لا أب له على معنى أنهم كانوا يتامى وإن كان اليتم في اللغة الانفراد ومنه الدرة اليتيمة وقيل اليتم في الأناس من قبل الآباء وفي البهائم من قبل الأمهات وفي الطير من قبلهما والخطاب للأولياء والأوصياء روي أن رجلا كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ اليتيم طلب المال من عمه فمنعه فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فدفع إليه ماله فقال النبي صلى الله عليه وسلم ومن يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فإنه يحله داره أي جنته وسيأتي تفسير الحوب الكبير فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم ثبت الأجر وبقي الوزر فقالوا يا رسول الله قد عرفنا أنه ثبت الأجر فكيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله فقال ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده أي والده كان لا يخرج زكاته (ولا تتبدلوا الخبيث) أي الحرام (بالطيب) أي الحلال أي لا تأخذوه بدله كما تفعلون في أخذ الجيد من مال اليتيم وجعل الردي من مالكم مكانه قال الزمخشري وهذا ليس بتبدل وإنما هو تبديل قال التفتازاني لأن معنى تبدلت هذا بذاك أنك أخذت هذا وتركت ذلك وكذا استبدلت لأن

ذلك كتبنا على بني إسرائيل (الآية) أن ذات كيف يكون قتل الواحد كقتل الكل مع أن الجناية إذا تعددت كانت أقبح (قلت) تشبيه أحد الشيئين بالآخر لا يقتضي تساويهما من كل وجه ولأن المقصود

معنى بدلت هذا بذاك أنك أخذت ذاك وأعطيت هذا قال تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان فاذا أعطى الردىء وأخذ الجيد فقد دل على الخبيث وأخذ الطيب كانوا أخذوا الخبيث وترك الطيب ليكون تبدل الخبيث بالطيب فالحاصل ان في التبدل ما دخلته الباء متروك وما تعدى اليه الفعل بنفسه مأخوذ وفي التبديل بالعكس اه وقد أوضحت ذلك في شرح المنهاج (ولا تأكلوا أموالهم الى) أي مع (أموالكم) كقوله تعالى من أنصاري الى الله أي مع الله أي لا تنفقوهما معا ولا تسووا بينهما فانكم أموالكم حلال لكم وأموالهم حرام عليكم فلا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الاقل من أجرتكم ونفقتكم (فان قيل) قد حرم الله عليهم أكل مال اليتيم وحده ومع أموالهم فلم ورد النهي عن أكله معها (أجيب) بانهم كانوا يفعلون كذلك فانكر عليهم فعلهم وسمع بهم ليكون أزجر لهم ولانهم اذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم مع ذلك يطمعون فيها كان القبح أبلغ والذم أحق (انه) أي أكلها (كان حوبا) أي ذنبا (كبيرا) أي عظيما ولما نزلت هذه الآية في اليتامى وما كان في أكل أموالهم من الحوب الكبير خاف الاولياء ان يلحقهم الحوب بترك العدل في حقوق اليتامى وأخذوا يتحرجون من ولايتهم وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الازواج والثمان والست ولا يقوم بحقوقهن ولا يعدل بينهن نزل (وان خفتم) أي خشيتم (أن لا تقسطوا) أي تعدلوا (في اليتامى) فتحرجتم من أمورهم فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء وقللوا عدد المنكوحات (فانكحوا ما طاب) أي حل (لكم من النساء) لان منهن ما حرم كاللاتي في آية التحريم (مثنى وثلاث ورباع) أي تزوجوا اثنتين اثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا لان من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب لانه انما وجب ان يتحرج من الذنب ويتاب عنه لقبحه والقبح قائم في كل ذنب وانما عبر عنهن بما ومن يعقل انما يعبر عنه بمن ذهابا الى الصفة لانه انما يفرق بين من وما في الذوات لا في الصفات أو اجراهن مجرى غير العقلاء لنقصان عقلهن وقيل كانوا لا يتحرجون من الزنا وهم يتحرجون من ولاية اليتامى فقيل ان خفتم الحوب في حق اليتامى فخافوا الزنا فانكحوا ما حل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات وقيل كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال فيتزوجها ضنا أي بخلا بها فربما يجتمع عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن (فان قيل) الذي أطلق للناكح في الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع فما معنى التكرير في مثنى وثلاث ورباع حتى ان بعض الرافضة قال للشخص ان يتزوج بثمانية عشر (أجيب) بان الخطاب للجميع فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له كما تقول للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أفردت لم يكن له معنى (فان قيل) لم جاء العطف بالواو دون أو حتى قال بعض الرافضة ان له ان يتزوج بتسعة (أجيب) بانه لو عطف بأو لذهب معنى تجويز أنواع الجمع بين أنواع القسمة التي دلت عليها الواو (فان خفتم ألا تعدلوا) بين هذه الاعداد أيضا بالقسم والنفقة (فواحدة) أي فانكحوا واحدة وذروا الجمع (أو ما ملكت أيمانكم) أي اقتصروا على ذلك سواء بين

من ذلك المبالغة في تعظيم أمر القتل العمد العدوان أو لان المعنى من قتل نفسا بغير حق كان بجميع الناس خصمه وما في الآخرة مطلقا وفي الدنيا ان لم يكن له ولي أو المعنى ان من قتل نبيا

الواحدة من الازواج والعدد من السراري لخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم بينهن
(تنبيه) هذا في حق الحر أما من فيه رق فلا يتزوج اكثر من ثنتين باجماع الصحابة وقد يعرض للمرء عوارض لا يزاد فيها على واحدة بجنون اوسفه (ذلك) اى نكاح الاربعة فقط أو الواحدة أو التسري (أدنى) أقرب الى (الا تعولوا) اى تجور وا يقال عال الحاكم في حكمه اذا جار وروى ان اعرابيا حكم عليه حاكم فقال له اتعول على وقد ورد عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا تعولوا ان لا تجوروا وحكى عن الشافعي رضى الله تعالى عنه انه فسر الا تعولوا بان لا تكثر عيالكم قال البغوى وما قاله احد انما يقال من كثرة العيال اعال يعيل اعالة اذا كثرت عياله وقال الزمخشرى ووجهه ان يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم كقولك مانهم يمونهم اذا انفق عليهم لان من كثر عياله لزمه أن يعولهم ثم قال وكلام مثله من اعلام العلم وائمة الشرع ورؤس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد وأن لا يظن به تحريف تعيلوا الى تعولوا فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لا تظن بكلمة خرجت من في اخيك سوأ وانت تجد لها في الخير محملا وكان الشافعي رحمه الله تعالى اعلى كعبا واطول باعا في علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا اه (وآتوا) أى أعطوا (النساء صدقاتهن) جمع صدقة أى مهورهن (نحلة) أى عطية يقال نحله كذا نحلة أى اعطاه اياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ونصبها على المصدر لان النحلة والايتاء بمعنى الاعطاء فكانه قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة قال الكلبى وجماعة والخطاب للاولياء وذلك ان ولى المرأة كان اذا زوجها فان كان معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها شيأ وان زوجها غريبا حملوها اليه على بعير ولا يعطوها من مهرها غير ذلك فنهاهم الله تعالى عن ذلك وامرهم ان يدفعوا الحق الى أهله (فان طبن لكم عن شئ منه) أى الصداق وقوله تعالى (نفسا) تمييز محول عن الفاعل أى ان طابت نفسهن لكم عن شئ من الصداق فوهبنه لكم (فكلوه) أى فخذوه وأنفقوه (هنيأ) أى طيبا (مريأ) أى محمود العاقبة لاضرر فيه عليكم في الآخرة روى ان ناسا كانوا يتأثمون أن يرجع أحدهم في شئ مما ساقه الى امرأته فقال الله تعالى ان طابت نفس واحدة من غير اكراه ولا خديعة فكلوه هنيأ مريأ قال الزمخشرى وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل فان طبن ولم يقل فان وهبن أو سمحن اعلاما بان المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة وعن الشعبى ان رجلا أتى مع امرأته شريحا في عطية أعطتها اياه وهى تطلب أن ترجع فقال شريح ردعليها فقال الرجل أليس الله تعالى قد قال فان طبن لكم قال لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه وحكى ان رجلا من آل ابى معيط اعطته امرأته الف دينار صداقا كان لها عليه فلبث شهرا ثم طلقها فخاصمته الى عبد الملك بن مروان فقال الرجل اعطتنى طيبة بها نفسها فقال عبد الملك فاين الآية التى بعدها ولا تأخذوا منه شيأ اردد عليها وعن عمر رضى الله تعالى عنه انه كتب الى قضاته ان النساء يعطين رغبة ورهبة فايما امرأة اعطت ثم ارادت ان ترجع فذلك لها (ولا تؤتوا) أيها الاولياء (السفهاء) أى المبذرين من الرجال والنساء (أموالكم) أى أموالهم

قوله واحكم أهل الانجيل (قوله واحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الانجيل منسوخ بالقرآن (قلت) معناه واحكم أهل الانجيل ابطال المنفعة عن الكل قتل الناس جميعا من حيث أو اماما عاد لا كان كمن

وانما اضاف الاموال الى الاولياء لانها فى تصرفهم وتحت ولايتهم وقيل نهى الى كل احد أن يعمد الى ماخوله الله من المال فيعطيه امرأته وأولاده ثم ينظر الى ما فى أيديهم وانما سماهم سفهاء استخفافا بعقلهم واستهجانا لجعلهم قواما وهذا أوفق لقوله تعالى (التى جعل الله لكم قياما) أى تقوم بها معايشكم ومصالح اولادكم فيضعوها فى غير وجهها وعلى القول الاول يؤول بان اموال السفهاء التى من جنس ما جعل الله لكم قياما وسمى الله مابه القيام قياما للمبالغة وقرأ نافع وابن عامر قيما بغير ألف بعد الياء والقيم جمع قيمة ما يقوم به الامتعة والباقون بالالف مصدر قام (وارزقوهم) أى أطعموهم (فيها واكسوهم) فيها وانما قال تعالى فيها لجعله الاموال ظرفا للرزق فيكون الانفاق من الربح لا من الاموال التى هى الظروف بان يتجر وافيها ويحصلوا من ربحها ما يحتاجون اليه ولو قيل منها لكان الانفاق من نفس الاموال (وقولوا لهم قولا معروفا) اى عدوهم عدة جميلة باعطائهم أموالهم اذا رشدوا وكل ما سكنت اليه النفس وأحبته لحسنه عقلا اوشرعا من قول اوعمل فهو معروف وما أنكرته ونفرت منه لقبحه فهو منكر وعن عطاء اذا ربحت أعطيتك واذا غنمت فى غزاتى جعلت لك حظا وقيل ان لم يكن ممن وجبت عليك نفقته فقل له عافانا الله واياك بارك الله فيك وقيل لا يختص ذلك بالاولياء بل هو أمر لكل أحد ان لا يخرج ماله الى احد من السفهاء قريب أو أجنبى رجل أو امرأة يعلم انه يضيعه فيما لا ينبغى و يفسده (وابتلوا) أى اختبروا (اليتامى) فى دينهم وتصرفهم بان تختبر ولد التاجر بالبيع والشراء والمماكسة فيهما و ولد الزراع بالزراعة والنفقة على القوام بها والمرأة فيما يتعلق بالغزل والقطن وصون الاطعمة عن الهرة ونحوها وحفظ متاع البيت و ولد الامير ونحوه بالانفاق مدة فى خبز وماء ولحم ونحوها كل ذلك على العادة فى مثله ويشترط تكرار الاختبار مرتين او اكثر بحيث يفيد غلبة الظن برشده ووقت الاختبار قبل البلوغ ولا يصح عقده بل يمتحن فى المماكسة فاذا اراد العقد عقد الولى (حتى اذا بلغوا النكاح) اى صار وا اهلا له اما بالسن وهو استكمال خمس عشرة سنة تحديدية لخبر ابن عمر رضى الله تعالى عنه عرضت على النبى صلى الله عليه وسلم يوم احد وانا ابن اربع عشرة سنة فلم يجزنى ولم يرنى بلغت وعرضت عليه يوم الخندق وانا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى ورانى بلغت رواه ابن حبان واصله فى الصحيحين وابتداؤها من انفصال جميع الولد قيل عرض عليه صلى الله عليه وسلم سبعة عشر من الصحابة وهم أبناء اربع عشرة فلم يجزهم وعرضوا عليه وهم ابناء خمس عشرة فاجازهم واما بخروج المنى فى وقت امكانه واقله تسع سنين قمرية تحديدية سواء اخرج فى نوم ام يقظة بجماع اوغيره وتزيد المرأة على هذين الامرين الحيض لوقت امكانه واقله تسع سنين قمرية تقريبية فيغتفر فيها زمن لا يسع حيضا وطهرا والولادة لانها يسبقها الانزال و يحكم بالبلوغ قبلها بستة اشهر وشئ وانبات شعر العانة الخشن دليل للبلوغ فى حق الكفار لا فى حق المسلمين ولا عبرة بانبات شعر الابط واللحية (فان آنستم) اى ابصرتم (منهم رشدا) وهو صلاح الدين والمال اما صلاح الدين فلا يرتكب محرما يسقط العدالة من كبيرة او اصرار على صغيرة و يعتبر فى رشد الكافر دينه واما صلاح المال فلا يضيعه بالقائه فى بحر او يصرفه فى محرم او باحتمال الغبن الفاحش فى المعاملة ونحوها

بما أنزل الله فيه بما لم ينسخ بالقرآن أو المعنى لما أنزلنا الانجيل قلنا وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه (قوله ومن لم يحكم بما أنزل الله) كرره ثلاث مرات وختم الاولى بقوله الكافرون

وليس صرفه فى الخبز بتبذير ولا صرفه فى الثياب والاطعمة النفيسة وشراء الجوارى والاستمتاع بهن لان المال يتخذ لينتفع به ثم ان صرفه فى ذلك بطريق الاقتراض له حرم عليه (فادفعوا اليهم اموالهم) من غير تأخير (ولا تأكلوها) أيها الاولياء وقوله تعالى (اسرافا) اى بغير حق (وبدارا) حالان اى مسرفين ومبادرين الى انفاقها مخافة (أن يكبروا) رشداء فيلزمكم تسليمها اليهم (ومن كان) من الاولياء (غنيا فليستعفف) اى يعف عن مال اليتيم ويمتنع من أكله (ومن كان فقيرا فليأكل) منه (بالمعروف) اى بقدر الاقل من حاجته واجرة سعيه كما مر ولفظ الاستعفاف والاكل بالمعروف مشعر بان الولى له حق فى مال الصبى وروى النسائى وغيره أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أن فى حجرى يتيما أفآكل من ماله قال بالمعروف *(تنبيه)* ايراد هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهى للاغنياء منهم أن يأخذوا لانفسهم من أموال اليتامى شيأ وللفقراء منهم أن يأخذوا منها شيأ بغير المعروف كما أن قوله ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا يدل على أنه نهى للفريقين عن أكلها اسرافا ومبادرة لكبرهم (فاذا دفعتم اليهم) أى اليتامى (أموالهم فأشهدوا) ندبا (عليهم) بانهم قبضوها فان الاشهاد أنفى للتهمة وأبعد عن الخصومة فتحتاجون الى البينة وهذا يدل على ان القيم لا يصدق فى دعواه لدفع لو أبا الا ببينة وهو مذهب الشافعى ومالك خلافا لابى حنيفة (وكفى بالله حسيبا) اى حافظا لاعمال خلقه ومحاسبهم. (للرجال) أى الذكور (نصيب) أى حظ (مما ترك الوالدان والاقربون) أى المتوفون (وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه) اى المال (او كثر) جعله الله (نصيبا مفروضا) أى مقطوعا بتسليمه اليهم روى أن أوس بن ثابت الانصارى رضى الله تعالى عنه توفى وترك امرأته أم كحة بضم الكاف والحاء المشددة وثلاث بنات له منها فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه سويد وعرفجة فاخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيأ وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار وان كان الصغير ذكرا انما كانوا يورثون الرجال و يقولون لا نعطى الا من قاتل وحاز الغنيمة فجاءت أم كحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفضيخ وهو بالضاد والخاء المعجمتين موضع بالمدينة قيل لعله المسجد الذى كان يسكنه أصحاب الصفة لانهم كانوا يرضخون فيه النوى فشكت اليه فقالت يارسول الله ان أوس بن ثابت مات وترك على ثلاث بنات وأنا امرأته وليس عندى ما أنفق عليهن وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيانى ولا بناته شيأ وهن فى حجرى لا يطعمن ولا يسقين فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يارسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكى عدوا فنزلت هذه الآية فاثبتت لهن الميراث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقربا من مال أوس شيأ فان الله جعل لبناته نصيبا مما ترك ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهن فانزل الله تعالى يوصيكم الله فى أولادكم فاعطى صلى الله عليه وسلم أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى ابنى العم وهذا دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب (واذا حضر القسمة) للميراث (أولوا القربى) أى ذوو القرابة ممن لا يرث (واليتامى والمساكين فارزقوهم) أى أعطوهم (منه) أى المقسوم شيأ قبل القسمة تطييبا لقلوبهم وتصدقا عليهم وهو أمر ندب للبلغ من الورثة وقيل أمر وجوب واختلف العلماء فى حكم هذه الآية

والثانية بقوله الظالمون والثالثة بقوله الفاسقون قيل لان الاولى فى حكام المسلمين والثانية فى حكام اليهود والثالثة فى حكام النصارى وقيل كلها بمعنى واحد وهو الكفر عبر عنه

فقال قوم هي منسوخة بآية المواريث كالوصية وعن سعيد بن جبير ان ناسا يقولون نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس (وقولوا لهم قولا معروفا) وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم وعن الحسن والنخعي أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات والمساكين واليتامى من العين يعنيان الذهب والورق فاذا قسم الذهب والورق وصارت القسمة الى الارضين والرقيق وما أشبه ذلك قالوا لهم قولا معروفا كأن يقولون بورك فيكم (وليخش) أي وليخف على اليتامى (الذين لو تركوا) أي قاربوا أن يتركوا (من خلفهم) أي بعد موتهم (ذرية ضعافا) اى أولادا صغارا (خافوا عليهم) أي الضياع (فليتقوا الله) في أمر اليتامى وغيرهم وليأتوا اليهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم من بعدهم (وليقولوا) أي للمريض (قولا سديدا) أي عدلا وصوابا بأن يأمروه أن يتصدق بدون ثلثه ويترك الباقي لورثته ولا يتركهم عالة وذلك انه كان اذا حضر أحدهم الموت يقول له من بحضرته انظر لنفسك فان أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيئا قدم لنفسك أعتق وتصدق وأعط فلانا كذا وفلانا كذا حتى يأتي على عامة ماله فنهاهم الله عز وجل وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد في وصيته على الثلث ولا يجحف بورثته (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) أي بغير حق (انما يأكلون في بطونهم نارا) أي ملء بطونهم يقال أكل فلان في بطنه وفي بعض بطنه قال الشاعر * كلوا في بعض بطنكم تعفوا * ومعنى يأكلون نارا يأكلون ما يجر الى النار فكأنه نار في الحقيقة روي أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه فيعرف الناس انه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة أسري بي قوما لهم مشافر كمشافر الابل احداهما قالصة على منخريه والاخرى على بطنه وخزنة النار يلقمونهم جمر جهنم وصخرها فقلت يا جبريل من هؤلاء قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما (وسيصلون سعيرا) اى نارا شديدة يحترقون فيها وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الياء والباقون بالفتح (يوصيكم الله) اى يأمركم (في أولادكم) أي في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة وهذا اجمال تفصيله (للذكر) منهم (مثل حظ) أي نصيب (الانثيين) اذا اجتمعتا معه فله نصف المال ولهما النصف فان كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان وانما فضل الذكر على الانثى لاختصاصه بلزوم ما لا يلزم الانثى من الجهاد وتحمل الدية وغيرهما وله حاجتان حاجة لنفسه وحاجة لزوجته والانثى حاجة واحدة لنفسها بل هي غالبا مستغنية بالتزويج عن الانفاق من مالها ولكن لما علم الله تعالى احتياجها الى النفقة وان الرغبة تقل فيها اذا لم يكن لها مال جعل لها حظا من الارث وابطل حرمان الجاهلية اياها (فان قيل) هلا قيل للانثيين مثل حظ الذكر أو للانثى نصف حظ الذكر (أجيب) بانه انما بدأ ببيان حظ الذكر لفضله كما ضوعف حظه لذلك ولان قوله للذكر مثل حظ الانثيين قصد الى بيان فضل الذكر وقولك للانثيين مثل حظ الذكر قصد الى بيان نقص الانثى وما كان قصدا الى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد الى بيان نقص غيره عنه ولانهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان وكان في ابتداء الاسلام بالمحالفة قال تعالى

بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة واجتناب التكرار وقيل ومن لم يحكم بما انزل الله انكارا له فهو كافر ومن لم يحكم بالحق مع اعتقاده للحق وحكم بضده فهو ظالم ومن لم يحكم بالحق

والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ثم صارت الوارثة بالهجرة قال الله تعالى والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ ثم نسخ ذلك كله بالآية الكريمة واختلف فى سبب نزولها فعن جابر انه قال جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب على من وضوئه فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث انما يرثنى كلالة فنزلت وقال مقاتل والكلبى نزلت فى أم كجة امرأة أوس بن ثابت وبناته وقال عطاء استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أحد وترك امرأة وبنتين وأخا فأخذ الاخ المال فأتت امرأة سعد الى النبى صلى الله عليه وسلم بابنتى سعد فقالت يا رسول الله ان هاتين ابنتا سعد وان سعدا قتل يوم أحد شهيدا وان عمهما أخذ مالهما ولا ينكحان الا ولهما مال فقال صلى الله عليه وسلم ارجعى فلعل الله سيقضى فى ذلك فنزلت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمهما وقال أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقى فهو لك فهذا أول ميراث قسم فى الاسلام وكأنه قيل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الاناث ولا يضاررن فى حظهن حتى يحرمن مع ادلائهن مع القرابة بمثل ما يدلون به (فان قيل) حظ الانثيين الثلثان فكأنه قيل للذكر الثلثان (أجيب) بان المراد حالة الاجتماع كما مر أما فى حالة الانفراد فالابن يأخذ المال كله والبنتان تأخذان الثلثين والدليل على أن الفرض حكم الاجتماع أنه اتبعه حكم الانفراد بقوله تعالى (فان كن) أى ان كان الاولاد (نساء) خلصا ليس معهن ذكر وأنث الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات وقوله تعالى (فوق اثنتين) خبر ثان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين (فان قيل) قوله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الاولاد لا لبيان حظ الانثيين فكيف صح أن يردف قوله فان كن نساء وهو لبيان حظ الاناث (أجيب) بانه وان كان مسوقا لبيان حظ الذكر الا أنه لما علم منه حظ الانثيين مع أخيهما كان كأنه مسوق للامرين جميعا فلذلك صح أن يقال فان كن نساء (فلهن ثلثا ما ترك) اى المتوفى منكم ويدل عليه المعنى (وان كانت) اى المولودة (واحدة فلها النصف) وقرأ نافع واحدة بالرفع على كان التامة والباقون بالنصب على كان الناقصة واختلف فى ميراث الانثيين فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه حكمهما حكم الواحدة لانه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما وقال الباقون حكمهما حكم ما فوقهما لانه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الانثيين اذا كان معه انثى وهو الثلثان اقتضى ذلك ان فرضهما الثلثان ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى فان كن نساء فوق اثنتين ويؤيد ذلك ان البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها فبالاولى والاحرى أن تستحقه مع أخت مثلها ويؤيده أيضا ان البنتين أمس رحما من الاختين وقد فرض لهما الثلثين بقوله فلهما الثلثان مما ترك وقيل فوق صلة وقيل لدفع توهم زيادة النصيب بزيادة العدد لما فهم استحقاق البنتين من جعل الثلث للواحدة مع الذكر (ولابويه) اى الميت وقوله تعالى (لكل واحد منهما السدس مما ترك) بدل بعض من كل فالسدس مبتدأ ولابويه خبر وفائدة البدل دفع توهم أن يكون للاب ضعف ما للام أخذا من قوله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين وبهذا اندفع كما قال

جهلا وحكم بضده فهو فاسق وقيل ومن لم يحكم بما انزل الله فهو كافر بنعمة الله ظالم فى حكمه فاسق فى فعله (قوله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الكفار معاقبون بكل ذنوبهم

التفتازاني ان البدل ينبغي أن يكون بحيث لو أسقط استقام الكلام معنى وهنا لو قيل لابويه السدس لم يستقم هذا (ان كان له) أي الميت (ولد) ذكرا أو غيره والحق بالولد ولد الابن وبالاب الجد (فان لم يكن له ولد وورثه أبواه) أي فقط بقرينة المقام (فلامه الثلث) مما ترك وانما لم يذكر حصة الاب لانه لما فرض ان الوارث أبواه فقط وعين نصيب الام علم ان الباقي للاب وكأنه قال فلهما ما ترك اثلاثا ولو كان معهما احد الزوجين كان لها ثلث ما بقي بعد فرضه كما قال الجمهور لا ثلث المال كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فانه يفضي الى تفضيل الانثى على الذكر المساوي لها في الجهة والقرب وهو كما قال البيضاوي خلاف وضع الشرع (فان كان له اخوة) أي اثنان فصاعدا ذكورا أو اناثا كما عليه الجمهور (فلامه السدس) والباقي للاب ولا شيء للاخوة وقال ابن عباس لا يحجب الام من الثلث الى السدس الا ثلاثة اخوة ذكورا أخذا بظاهر اللفظ واطلاق اللفظ يدل على أن الاخوة يردونها من الثلث الى السدس وان كانوا لا يرثون مع الاب شيأ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الام وقرأ حمزة والكسائي في الوصل فلامه بكسر الهمزة فرارا من ضمة الى كسرة لثقله في الموضعين والباقون بضمها وقوله تعالى (من بعد وصية يوصي بها أو دين) متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها أي هذه الانصباء للورثة من بعد وصية أو وفاء دين وانما عبر بأو دون الواو للدلالة على انهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومفردين (فان قيل) لم قدمت الوصية في الذكر على الدين مع انهما متأخرة في حكم الشرع عنه (اجيب) بأنها لما كانت شاقة على الورثة لكونها ماخوذة بلا عوض وهي مستحبة لكل مكلف بخلاف الدين فانه لا يكون على كل مكلف فقدمت لذلك وقرأ ابن كثير وابن عامر وشعبة يوصى بفتح الصاد ووافقهم حفص على فتح الصاد في الحرف الثاني والباقون بكسر الصاد فيهما وقوله تعالى (آباؤكم وأبناؤكم) مبتدأ خبره (لا تدرون ايهم اقرب لكم نفعا) اي لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم فمنكم من يظن ان الاب أنفع له فيكون الابن أنفع له ومنكم من يظن ان الابن أنفع له فيكون الاب أنفع له وانما العالم بذلك هو الله تعالى وقد دبر أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه وقال ابن عباس أطوعكم لله من الآباء والابناء أرفعكم درجة يوم القيامة والله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فان كان الوالد أرفع درجة في الجنة رفع اليه ولده وان كان الولد أرفع درجة من الآخر في الجنة سأل الله أن يرفع اليه فيرفع بشفاعته (فريضة) أي ما قدر من المواريث فرض فريضة (من الله ان الله كان عليما) بامور عباده (حكيما) فيما قضى وقدر أي لم يزل متصفا بذلك (ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد) ذكرا وغيره منكم أو من غيركم (فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين) وولد الابن في ذلك كالولد اجماعا (ولهن) أي الزوجات تعددن أو لا (الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد) منهن أو من غيرهن (فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) وولد الابن كالولد في ذلك اجماعا فقد فرض للرجل بحق العقد الصحيح ضعف ما للمرأة كما في النسب وهكذا القياس كل رجل وامرأة وارثين اشتركا في الجهة والقرب من الميت ولا يستثنى من ذلك الا أولاد الام والمعتق

(قال) اراد به عقوبتهم في الدنيا على توليهم عن الايمان بالسبي والجزية وغيرهما وهذه العقوبة منقطعة بخلاف عقوبة الآخرة فانها على جميع الذنوب من توليهم عن

والمتفقة (وان كان رجل) أى الميت (يورث) أى منه من ورث صفة رجل وخبر كان (كلالة) أو يورث خبر كان وكلالة حال من الضمير فى يورث واختلفوا فى الكلالة فذهب أكثر الصحابة الى أنها من لا ولد له ولا والد قال الشعبى سئل أبو بكر رضى الله تعالى عنه عن الكلالة فقال انى سأقول فيها برأيى فان كان صوابا فمن الله وان كان خطأ فمنى ومن الشيطان أراه ماخلا الوالد والولد فلما استخلف عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال انى لأستحيى من الله ان أرد شيأ قاله أبو بكر وذهب طاوس ان الكلالة من لا ولد له وهى احدى الروايتين عن ابن عباس وأحد القولين عن عبد الله بن عمر وسأل رجل عقبة عن الكلالة فقال ألا تعجبون من هذا سألنى وما أعضل بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شئ ما أعضلت بهم الكلالة وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ثلاث لأن يكون النبى بينهن لنا أحب الينا من الدنيا وما فيها الكلالة والخلافة وأبواب الربا وقال (١) سعيد بن أبى طلحة خطب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما فقال انى لا ادع بعدى شيأ أهم عندى من الكلالة ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شئ ما راجعته فى الكلالة وما أغلظ لى فى شئ ما أغلظ فيه حتى طعن باصبعه فى صدرى وقال يا عمر ألا يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء وانى ان أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن وقوله ألا يكفيك آية الصيف أراد أن الله تعالى أنزل فى الكلالة آيتين احداهما فى الشتاء وهى التى فى أول سورة النساء والاخرى فى الصيف وهى التى فى آخرها وفيها من البيان ما ليس فى آية الشتاء فلذلك أحاله عليها وقوله تعالى (أو امرأة) عطف على رجل أى أو امرأة تورث كلالة (وله) أى الرجل (أخ أو أخت) واكتفى بحكم الرجل عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه ويصح أن يعود الضمير على الموروث الكلالة فيشمل الرجل والمرأة (فلكل واحد منهما السدس) وقد أجمعوا على أن المراد به الاخ والاخت من الام (فان كانوا) أى الاخت والاخوات من الام (أكثر من ذلك) أى من واحد (فهم شركاء فى الثلث) يستوى فيه ذكورهم واناثهم لانه لا ادلاء بمحض الانوثة (من بعد وصية يوصى بها أو دين) وقوله تعالى (غير مضار) حال من ضمير يوصى أى غير مدخل الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من الثلث وعن قتادة كره الله الضرار فى الحياة وعند الممات ونهى عنه وعن الحسن المضارة فى الدين أن يوصى بدين ليس عليه ومعناه الاقرار وقوله تعالى (وصية من الله) مصدر مؤكد ليوصيكم أى يوصيكم بذلك وصية كقوله فريضة من الله (والله عليم) بما دبره لخلقه من الفرائض (حليم) بتأخير العقوبة عمن خالفه * (تنبيه) * خصت السنة توريث من ذكر بمن ليس فيه مانع من قتل أو اختلاف دين أو رق (تلك) أى الاحكام المذكورة فى أمر اليتامى والوصايا والمواريث (حدود الله) أى شرائعه التى حدها للعباد ليعملوا بها ولا يتعدوها (ومن يطع الله ورسوله) فيما حكم به (يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار) وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة كقولك مررت برجل معه صقر صائدا به غدا (وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده) أى الله (يدخله نارا) وقوله تعالى (خالدا فيها) حال كما مر ولا يجوز أن يكون خالدين وخالدا صفتين لجنات ونار لانهما جريا على غير من هما له فلا بد من الضمير وهو قولك خالدين هم فيها وخالدا

(١) قوله سعيد فى بعض النسخ سعد بدله اه

الايمان ومن جميع فروعه ودائمة لا تنقطع (قوله ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون) ان قلت لم خص الموقنين بالذكر مع ان احسنية حكم الله لا يختص بهم (قلت) لانهم أكثر

هو فيها هذا على مذهب البصريين أما على مذهب الكوفيين فوجائز عندهم عند أمن
اللبس كما هنا وهو الراجح كما جرى عليه ابن مالك وغيره (وله عذاب مهين) أي ذو اهانة وروعي
في الضمائر في الآيتين لفظ من وفي خالدين معناها وقرأ نافع وابن عامر ندخله جنات وندخله
نارا بالنون فيهما على الالتفات والباقون بالياء (واللاتي يأتين الفاحشة) أي الزنا (من
نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) أي من رجال المسلمين وهذا خطاب للحكام اي
فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود وفيه بيان أن الزنا لا يثبت الا بأربعة من الشهود (فان
شهدوا) عليهن بها (فامسكوهن) أي احبسوهن (في البيوت) واجعلوها سجنا لهن
وامنعوهن عن مخالطة الناس وقرأ ورش وابو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بكسرها
(حتى يتوفاهن الموت) اي ملائكته (أو) الى ان (يجعل الله لهن سبيلا) اي طريقا الى
الخروج منها امروا بذلك أول الاسلام ثم جعل لهن سبيلا بجلد البكر مائة وتغريبها عاما ورجم
المحصنة وفي الحديث لما بين الحد قال خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا رواه مسلم
(واللذان) اي الزاني والزانية وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف (يأتيانها) اي
فاحشة الزنا (منكم) اي الرجال (فآذوهما) بالسب والضرب بالنعال (فان تابا) اي منها
(واصلحا) اي العمل (فاعرضوا عنهما) ولا تؤذوهما (ان الله كان توابا) على من تاب (رحيما) به
وهو علة الامر بالاعراض وترك المذمة وهذا منسوخ بالحد روى ابن مسعود عن ابي هريرة
وزيد بن خالد الجهني أنهما اخبراه ان رجلين اختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
احدهما يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله فقال الآخر وكان افقههما اجل يا رسول الله فاقض
بيننا بكتاب الله وأذن لي أن أتكلم فقال ان ابني كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته فاخبروني ان
على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة وبجارية ثم اني سألت اهل العلم فاخبروني ان ما على ابني
جلد مائة وتغريب سنة وانما الرجم على امرأته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي
نفسي بيده لاقضين بينكما بكتاب الله اما غنمك وجاريتك فرد عليك وجلد ابنه مائة وغربه عاما
اي لانه كان غير محصن وامر انيسا الاسلمي ان يأتي امرأة الآخر فان اعترفت رجمها فاعترفت
فرجمها وروى ابن عباس عن عمر رضي الله تعالى عنهما انه قال ان الله بعث محمدا بالحق وانزل
عليه الكتاب فكان مما انزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها رجم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى ان طال بالناس زمان ان يقول قائل والله ما نجد آية الرجم
في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة انزلها الله والرجم في كتاب الله حق على من زنى اذا احصن من
الرجال والنساء اذا قامت البينة او الاعتراف وجملة حد الزنا ان الزاني اذا كان محصنا وهو
الذي اجتمع فيه اربعة اوصاف العقل والبلوغ والحرية والاصابة بالنكاح الصحيح فحده
الرجم مسلما كان او ذميا وعند ابي حنيفة ان الاسلام من شرائط الاحصان فلا يرجم عنده
الذمي ويرده ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رجم يهوديين زنيا وكانا قد احصنا
وان كان الزاني غير محصن بان لم تجتمع فيه هذه الاوصاف نظر ان كان غير بالغ او مجنونا فلا حد
عليه وان كان حرا عاقلا بالغا غير انه لم يصب بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام وان
كان رقيقا فعليه جلد خمسين وتغريب نصف عام ومثل الزنا اللواط عند الشافعي رضي الله

استغناء بذلك من غيرهم
كنظيره في قوله تعالى
انما أنت منذر من يخشاها
قوله ومن يتولهم منكم
(فانه منهم) ان قلت هذا
يقتضي ان من والى اهل
الكتاب يكون كافرا وليس

تعالى عنه لكن المعمول به لا رجم عليه وان كان محصنا بل يجلد ويغرب وقيل نزلت آية واللاتي يأتين الفاحشة في المساحقات وآية واللذان يأتيانها منكم في اللواطين (انما التوبة على الله) اي ان قبول التوبة كالمحتوم على الله تفضلا منه بمقتضى وعده لانه تعالى وعد بقبول التوبة فاذا وعد شيئا لا بد ان ينجز وعده لان الخلف في وعده سبحانه وتعالى محال (للذين يعملون السوء) اي المعصية وقوله تعالى (بجهالة) في موضع الحال اي يعملون السوء جاهلين اي سفهاء فان ارتكاب الذنب مما يدعو اليه السفه والشهوة لا مما تدعو اليه الحكمة والعقل وعن مجاهد من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع اي يخرج من جهالته وقال قتادة اجمع اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان كل ما عصى به الله فهو جهالة عمدا كان او لم يكن وكل من عصى الله تعالى فهو جاهل (ثم يتوبون من) زمن (قريب) اي قبل ان يغرغروا لقوله تعالى حتى اذا حضر احدهم الموت وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر رواه الترمذي وحسنه وعن عطاء ولو قبل موته بفواق ناقة وعن الحسن ان ابليس قال حين اهبط الى الارض وعزتك لا افارق ابن آدم ما دام روحه في جسده فقال وعزتي وجلالي لا اغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر والغرغرة تردد الروح في الحلق * (تنبيه) * معنى من في قوله تعالى من قريب التبعيض اي يتوبون بعض زمان قريب كانه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زمنا قريبا لان امد الحياة قريب لقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل ففي اي جزء تاب من اجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب والا فهو تائب من بعيد (فاولئك يتوب الله عليهم) اي يقبل توبتهم (فان قيل) ما فائدة ذلك بعد قوله تعالى انما التوبة على الله (اجيب) بان ذلك وعد بالوفاء بما وعد به وكتبه على نفسه كما يعد العبد الوفاء بما عليه (وكان الله عليما) بخلقه (حكيما) في صنعه بهم (وليست التوبة للذين يعملون السيآت) اي الذنوب (حتى اذا حضر احدهم الموت) اي اخذ في النزع (قال) عند مشاهدة ما هو فيه (اني تبت الآن) حين لا يقبل من كافر ايمان ولا من عاص توبة قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ولذلك لم ينفع ايمان فرعون حين ادركه الغرق (ولا الذين يموتون وهم كفار) اي اذا تابوا في الآخرة عند معاينة العذاب لا ينفعهم ذلك ولا تقبل توبتهم فسوى سبحانه وتعالى بين الذين سوفوا توبتهم الى حضور الموت وبين الذين ماتوا على الكفر في انه لا توبة لهم لان حضور الموت اول احوال الآخرة فكما ان المصرون على الكفر قد فاتتهم التوبة على اليقين فكذلك المسوف الى حضور الموت لمجاوزة كل منهما اوان التكليف والاختيار وقوله تعالى (اولئك اعتدنا لهم عذابا اليما) اي مؤلما تأكيد لعدم قبول توبتهم وبيان ان العذاب اعده لهم لا يعجزه عذابهم متى شاء والاعتداد التهيئة من العتاد وهو العدة وقيل اصله اعددنا ابدلت الدال الاولى تاء (يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء) اي ذواتهن (كرها) نزلت في اهل المدينة كانوا في الجاهلية وفي اول الاسلام اذا مات الرجل وله امرأة وللرجل عصبة والقى ثوبه على امرأة الميت او على خبائها صار احق بها من نفسها او من غيره ثم ان شاء تزوجها بصداقها الاول وان شاء زوجها غيره واخذ صداقها وان شاء عضلها ومنعها من الازواج يضارها لتفتدي منه بما ورثته من الميت او تموت هي فيرثها فان ذهبت المرأة الى

كذلك (قلت) انما قال
ذلك مبالغة في اجتناب
المخالف في الدين أو لان
الآية نزلت في المنافقين
وهم كفار (قوله ان الله
لا يهدي القوم الظالمين)
أي ما داموا مقيمين على

أحابها النبل أن يلقى عليها عصبة الميت ثوبه فهى احق بنفسها وكانوا على هذا حتى توفى أبو القيس بن الاسلت الانصارى وترك امرأته فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها يضارها لتفدى نفسها منه فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ان أبا قيس توفى وورث نكاحى ابنه فلا هو ينفق على ولا يدخل بى ولا يخلى سبيلى فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اقعدى فى بيتك حتى يأتى أمر الله فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ حمزة والكسائى بضم الكاف والباقون بفتحها قال الكسائى وهما لغتان وقال الفراء الكره بالفتح ما أكره عليه وبالضم المشقة وقوله تعالى (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) عطف على أن ترثوا أى لا تمنعوا أزواجكم عن نكاح غيركم بامساكهن ولا رغبة لكم فيهن ضرارا لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهر وقيل هذا خطاب لاولياء الميت والصحيح كما قال البغوى انه خطاب للازواج قال ابن عباس هذا فى الرجل يكون له المرأة وهو كاره صحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدى وترد اليه ما ساق اليها من المهر فنهى الله تعالى عن ذلك قال الزمخشرى والعضل الحبس والضيق ومنه عضلت المرأة بولدها اذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقى بعضه (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالزنا والنشوز وسوء العشرة فحينئذ يحل لكم اضرارهن ليفتدين منكم قال عطاء كان الرجل اذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق اليها وأخرجها فنسخ ذلك بالحدود وقرأ ابن كثير وشعبة بفتح الياء المثناة تحت والباقون بالكسر وقوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) قال الحسن رجع الى أول الكلام يعنى وآتوا النساء صدقاتهن نحلة وعاشروهن بالمعروف وهو النصفة فى المبيت والنفقة والاجمال فى القول وقيل هو ان يتصنع لها كما تتصنع له (فان كرهتموهن) فاصبروا ولا تفارقوهن (فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) أى فربما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين وأحمد وأدنى الى الخير وأحبت ما هو بضد ذلك وليكن نظركم ما هو أصلح للدين وأدنى الى الخير فلعل أن يرزقكم الله تعالى منهن ولدا صالحا أو يعطفكم الله عليهن وقد بينت الآية جواز امساك المرأة مع الكراهة لها ونبهت على معنيين احدهما ان الانسان لا يعلم وجوه الصلاح والثانى ان الانسان لا يكاد يجد محبوبا ليس فيه ما يكره فليصبر على ما يكره لما يحب وأنشدوا فى هذا المعنى

ومن لم يغمض عينه عن صديقه * وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهدا كل عثرة * يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

ولما كان الرجل اذا طمحت عينه الى استطراف امرأة بهت بالتى تحته ورماها بفاحشة حتى يلجئها الى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه الى زوج غيرها نزل (وان اردتم استبدال زوج مكان زوج) أى أخذها بدلها بان طلقتموها (و) قد (آتيتم احداهن) أى الزوجات (قنطارا) أى مالا كثيرا صداقا (فلا تأخذوا منه) أى القنطار (شيأ) وقوله تعالى (أتأخذونه بهتانا) أى ظلما (واثما مبينا) أى بينا حال أى أتأخذونه باهتين وآثمين وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قام خطيبا فقال أيها الناس لا تغالوا بصداق النساء فلو كان مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من

ظلمهم والمعنى لا يهدى من سبق فى علمه انه يموت ظالما (قوله اذلة على المؤمنين) على جمع الذليل لا الذلول ضد الصعب أو ضمن الذلة معنى العطف فعداها بعلى كأنه قال عاطفين عليهم (قوله ومن ...) على المؤمنين

اثنى عشرة أوقية فقامت اليه امرأة فقالت له يا أمير المؤمنين لم تمنعنا حقا جعله الله لنا والله تعالى يقول وآتيتم احداهن قنطارا فقال عمر رضى الله عنه كل احد أعلم من عمر ثم قال لاصحابه تسمعوننى اقول مثل هذا القول ولا تنكرونه على حتى ترد على امرأة ليست من اعلم النساء وقوله تعالى (وكيف تأخذونه) استفهام توبيخ وانكار أى تأخذونه بأى وجه (وقد أفضى) اى وصل (بعضكم الى بعض) بالجماع المقرر للمهر وكنى الله تعالى عن الجماع بالافضاء وهو الوصول الى الشئ من غير واسطة تعليما لعباده لانه مما يستحيا منه (وأخذن منكم ميثاقا) اى عهدا (غليظا) اى شديدا وهو ما أخذه الله للنساء على الرجال من امساك بمعروف أو تسريح باحسان وعن النبى صلى الله عليه وسلم اتقوا الله فى النساء فانكم اخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله وقد قيل صحبة عشرين يوما قرابة فكيف بما يجرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج * ولما توفى ابو قيس وكان من صالحى الانصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه وكان اهل الجاهلية ينكحون ازواج آبائهم فقالت انى اعدك ولدا وانت من صالحى قومك ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم استأمره فأتته وأخبرته بذلك فنزل (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) وانما عبر بما دون من لانه اريد به صفة ذات معينة وهى كونهن منكوحات الآباء وقيل ما مصدرية على ارادة المفعول من المصدر وقوله تعالى (الا ما قد سلف) استثناء من المعنى اللازم للنهى فكأنه قيل تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم الا ما قد سلف او من اللفظ للمبالغة فى التحريم والمعنى لا تنكحوا حلائل آبائكم الا ما قد سلف ان امكنكم ان تنكحوه ولا يمكن ذلك والغرض المبالغة فى تحريمه وسد الطريق الى اباحته كما تعلق بالمحال فى التأييد فى نحو قوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط أو منقطع أى لكن ما قد سلف من فعلكم ذلك فانه معفو عنه وقوله تعالى (انه) اى نكاحهن (كان فاحشة ومقتا) علة للنهى اى انه فاحشة فكان مزيدة أى قبيحا عند الله تعالى ما رخص فيه لامة من الامم ممقوتا عند ذوى المروآت من الجاهلية وغيرهم وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة ابيه المقتى ويسمى به الرجل المذكور أيضا قال فى القاموس نكاح المقت أن يتزوج امرأة ابيه بعده فالمقتى ذلك المتزوج أو ولده اى ومن ثم قيل ومقتا كأنه قيل هو فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح قبيح ممقوت فى المروأة ولا مزيد على ما يجمع القبحين (وساء) أى بئس (سبيلا) أى طريقا ذلك روى عن البراء بن عازب انه قال مر بى خالى ومعه لواء فقلت أين تذهب فقال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجل تزوج امرأة ابيه آتيه برأسه * واعلم ان أسباب التحريم المؤبد ثلاثة قرابة ورضاع ومصاهرة وضابط المحرمات بالنسب والرضاع أن يقال تحرم نساء القرابة الا من دخلت تحت ولد العمومة أو ولد الخؤلة وقد بدأ الله بالسبب الاول وهو القرابة فقال (حرمت عليكم امهاتكم) أى العقد عليهن وكذلك يقدر فى الباقى لان تحريم نكاحهن هو الذى يفهم من تحريمهن كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله والامهات جمع ام وأصلها امهة قاله الجوهرى وضابط الام هى كل من ولدتك فهى امك حقيقة أو ولدت من ولدك ذكرا كان أو أنثى كام الاب وان علت وأم الام كذلك فهى أمك مجازا وان شئت قلت هى كل أنثى ينتهى اليها نسبك (وبناتكم) جمع بنت

يقول الله ورسوله) الآية المراد بالغلبة فيها الغلبة بالحجة والبرهان فانها مستمرة ابدا الا بالدولة والصولة والا فقد غلب حزب الله غير مرة حتى فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم (قوله قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة) ان قلت كيف قال ذلك مع ان المثوبة

وضابطها هو كل من ولدتها فهي بنتك حقيقة أو ولدت من ولدها ذكرا كان أو انثى كبنت ابن وان نزل و بنت بنت وان نزلت فبنتك مجازا وان شئت قلت كل أنثى ينتهي اليك نسبها وخرج بالبنت المخلوقة من ماء زنا الرجل فانها تحل له لانها أجنبية عنه بدليل منع الارث بالاجماع فلا تتبعض الاحكام ويحرم على المرأة ولدها من زنا بالاجماع كما أجمعوا على انه يرثها والفرق ان الابن كالعضو منها وانفصل منها انسانا ولا كذلك النطفة التي خلقت منها البنت بالنسبة للاب (واخواتكم) جمع أخت وضابطها هو كل من ولدها ابواك أو احدهما فهي اختك (وعماتكم) جمع عمة وضابطها هو كل من هي اخت ذكر ولدك بلا واسطة فعمتك حقيقة أو بواسطة كعمة ابيك فعمتك مجازا وقد تكون العمة من جهة الام كاخت ابي الام (وخالاتكم جمع خالة وضابطها هو كل من هي أخت أنثى ولدتك بلا واسطة فخالتك حقيقة أو بواسطة كخالة أمك فخالتك مجازا وقد تكون الخالة من جهة الاب كاخت ام الاب (و بنات الاخ و بنات الاخت) من جميع الجهات و بنات أولادهم وان سفلن ثم ثنى بالسبب الثاني وهو الرضاع فقال (وامهاتكم اللاتي أرضعنكم) وضابط امك من الرضاع هو كل من ارضعتك أو أرضعت من ارضعتك أو صاحب اللبن أو أرضعت من ولدك بواسطة أو غيرها أو ولدت مرضعتك بواسطة أو غيرها أو صاحب لبنها وهو الفحل بواسطة أو غيرها فام رضاع (وأخواتكم من الرضاعة) وضابط أخت الرضاع هو كل من أرضعتها أمك أو ارتضعت بلبن ابيك أو ولدتها مرضعتك أو ولدها الفحل و يلحق بذلك بالسنة باقي السبع لخبر الصحيحين يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة وفي رواية حرموا من الرضاعة ما يحرم من الولادة وفي رواية حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب وضابط بنت الرضاع هو كل أنثى ارتضعت بلبنك أو لبن من ولدته بواسطة أو غيرها أو ارضعتها امرأة ولدتها بواسطة أو غيرها وكذا بناتها من نسب أو رضاع وان سفلن وضابط عمة الرضاع هو كل اخت للفحل او اخت ذكر ولد الفحل بواسطة او غيرها من نسب أو رضاع وضابط خالة الرضاع هو كل اخت للمرضعة او اخت انثى ولدت المرضعة بواسطة او غيرها من نسب او رضاع وضابط بنات الاخوة و بنات الاخوات من الرضاع كل انثى من بنات اولاد المرضعة و الفحل من الرضاع و النسب وكذا كل انثى ارضعتها اختك او ارتضعت بلبن اخيك و بناتها او بنات اولادها من نسب او رضاع وانما تثبت حرمة الرضاع بشرطين احدهما ان يكون قبل استكمال المولود حولين لقوله تعالى والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين ولقوله صلى الله عليه وسلم لا يحرم من الرضاع الا ما فتق الامعاء وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لا رضاع الا ما انشر العظم وانبت اللحم وانما يكون هذا في حال الصغر وعند ابي حنيفة مدة الرضاع ثلاثون شهرا لقوله (١) تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وعند الاكثرين لاقل مدة الحمل واكثر مدة الرضاع واقل مدة الحمل ستة اشهر وابتداء الحولين من تمام انفصاله والشرط الثاني ان توجد خمس رضعات متفرقات لما روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها انها قالت فيما انزل الله في القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخت بخمس معلومات فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي فيما يقرا من القرآن اي يقرؤهن من لم يبلغه نسخهن فقد نسخت تلاوتهن و بقي حكمهن وهذا

مختصة بالاحسان (قلت) لا نسلم اختصاصها بذلك لغة بل هي الجزاء مطلقا بدليل قوله فاثابكم غما بغم وقوله هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون أي هل جوزوا غايته ان الثواب قد يكون خيرا وقد يكون شرا يقصد به التهكم والاستهزاء كلفظ البشارة

(١) قوله لقوله الخ كذا بالنسخ وهو غير مطابق لما قبله اه مصحح

ماذهب اليه الشافعي وذهب اكثر اهل العلم الى ان قليل الرضاع وكثيره محرم وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب واليه ذهب سفيان الثوري ومالك والاوزاعي وعبد الله ابن المبارك وابو حنيفة ويقوى الاول قوله صلى الله عليه وسلم لا تحرم المصة من الرضاع والمصتان ثم ثلث بالسبب الثالث وهو النكاح فقال تعالى (وامهات نسائكم) اى بواسطة او بغيرها من نسب اورضاع سواء ادخل بزوجته ام لا لاطلاق الآية (وربائبكم) جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من غيره وسميت ربيبة لانه يربيها كما يربي ولده في غالب الامر ثم اتسع فيه وسميت بذلك وان لم يربها وقوله تعالى (اللاتي في حجوركم) اى تربونهن صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) اى جامعتموهن سواء اكان ذلك بعقد صحيح ام فاسد لاطلاق الآية (فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) اى في نكاح بناتهن اذا فارقتموهن (فان قيل) لم اعيد الوصف الى الجملة الثانية ولم يعد الى الجملة الاولى وهي وامهات نسائكم مع ان الصفات عقب الجمل تعود الى الجميع (اجيب) بان نسائكم الثاني مجرور بحرف الجر ونسائكم الاول مجرور بالاضافة واذا اختلف العامل لم يجز الاتباع وتعين القطع واعترض بان المعمول الجر وهو واحد * (تنبيه) * قضية كلام الشيخ ابي حامد وغيره انه يعتبر في الدخول ان يقع في حياة الام فلو ماتت قبل الدخول ووطئها بعد موتها لم تحرم بنتها لان ذلك لا يسمى دخولا وان تردد فيه الروياني (فان قيل) لم لم يعتبر الدخول في تحريم اصول البنت واعتبر في تحريمها الدخول (اجيب) بان الرجل يبتلى عادة بمكالمة امها عقب العقد لترتيب اموره فحرمت بالعقد ليسهل ذلك عليه بخلاف بنتها واستدخال الماء المحترم يثبت المصاهرة كالوطء وتحرم البنت المنفية باللعان وان لم يدخل بامها لانها لا تنتفي عنه قطعا (وحلائل) اى ازواج (أبنائكم) واحدتها حليلة والذكر حليل سميا بذلك لان كل واحد منهما حلال لصاحبه وقيل سميا بذلك لان كل واحد يحل ازار صاحبه من الحل وهو ضد العقد وقوله تعالى (الذين من اصلابكم) احترازا عن حليلة المتبنى فانها لا تحرم على الرجل الذي تبناه فان النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة زيد بن حارثة وكان تبناه صلى الله عليه وسلم لا عن حليلة ولده من الرضاع فانها تحرم عليه ولا عن حلائل أبناء الولد وان سفلوا * (تنبيه) * كل امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين والوطء بشبهة النكاح فاذا وطئ امرأة بشبهة اوجارية بملك اليمين حرم على الواطئ امها وبنتها وتحرم الموطوأة على ابي الواطئ وابنه ولو زنى بامرأة لم تحرم امها ولا بنتها على الزاني ولا تحرم الزانية على ابي الزاني وابنه كما قاله ابن عباس واليه ذهب مالك والشافعي وذهب قوم الى التحريم يروى ذلك عن عمران بن حصين وابي هريرة وهو قول اصحاب الرأي وهل المباشرة بشهوة كلمس وقبلة كالوطء في تحريم الربيبة فيه قولان احدهما وهو الاصح من مذهب الشافعي لا لان ذلك لا يوجب العدة فكذا لا يوجب الحرمة والثاني نعم لان ذلك كالوطء بجامع التلذذ بالمرأة ولانه استمتاع يوجب الفدية على المحرم فكان كالوطء وبهذا قال جمهور العلماء * ثم ذكر سبحانه وتعالى تحريم الجمع بقوله تعالى (وان تجمعوا بين الاختين) اى ولا يجوز للرجل ان يجمع بين اختين في نكاح سواء اكانتا من نسب ام رضاع سواء انكحهما معا ام مترتبا

لا اختصاص له بالحبيب بل هو شامل للشر قال تعالى فبشرهم بعذاب اليم (قوله ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل) الآية وقضيته ان اقامة الكتاب

فاذا نكح امرأة ثم طلقها بائنا جاز له نكاح أختها ولو خرج بالجمع في النكاح الجمع بملك اليمين فانه جائز لكن لا يجوز أن يجمع بينهما في الوطء فاذا وطئ احداهما لم يحل له وطء الاخرى حتى يحرم الاولى على نفسه ويلحق بالاختين بالسنة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من نسب أو رضاع ولو بواسطة قال صلى الله عليه وسلم لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها لا الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى رواه الترمذي وغيره وصححوه ولما فيه من قطيعة الرحم وان رضيت بذلك فان الطبع يتغير واليه أشار صلى الله عليه وسلم في خبر النهي عن ذلك بقوله انكم اذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامهن كما رواه ابن حبان وغيره وضابط تحريم الجمع ابتداء ودواما هو كل امرأتين بينهما قرابة أو رضاع ولو فرضت احداهما ذكرا حرم تناكحهما حرم الجمع بينهما بنكاح أو وطء بملك اليمين وقوله تعالى (الا ما قد سلف) استثناء عن لازم المعنى وهو المؤاخذة فكأنه قال تعالى تؤاخذون بذلك الا ما قد سلف قبل النهي فلا تؤاخذون به أو منقطع أي لكن ما قد سلف من نكاح بعض ما ذكر فانه مغفور لكم ويؤيده هذا قوله تعالى (ان الله كان غفورا) لما سلف منكم قبل النهي (رحيما) بكم في ذلك وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر من رواية ابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند السين والباقون بالادغام (و) حرمت (المحصنات) أي ذوات الازواج (من النساء) أن تنكحوهن قبل مفارقة أزواجهن سواء أكن حرائر أم لا مسلمات أم لا قال أبو سعيد الخدري نزلت في نساء كن هاجرن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فتزوجهن بعض المسلمين ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهن * ثم استثنى فقال (الا ما ملكت أيمانكم) أي من الاماء بالسبي فلكم وطؤهن وان كان لهن أزواج في دار الحرب بعد الاستبراء لان بالسبي يرتفع النكاح بينها وبين زوجها قال أبو سعيد الخدري بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين جيشا الى أوطاس فاصابوا سبايا لهن ازواج من المشركين فكرهوا غشيانهن وتحرجوا فانزل الله هذه الآية * (فائدة) * قرأ الكسائي جميع ما في القرآن من لفظ المحصنات ومحصنات بكسر الصاد الا هذا الحرف فانه فتح الصاد موافقة للجميع ووجه تسميتهن بذلك لانهن أحصن فروجهن بالتزويج فهن محصنات ومحصنات بالكسر في غير هذه الآية وقوله تعالى (كتاب الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي قبله وهي حرمت عليكم الخ أي كتب الله (عليكم) تحريم هؤلاء كتابا وقوله تعالى (وأحل لكم) عطف على الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله اذا قرئ بالبناء للفاعل كما قرأه غير حفص وحمزة والكسائي وأما هم فقرؤه بالبناء للمفعول عطفا على حرمت (ما وراء ذلكم) أي سوى ما حرم عليكم من النساء وقوله تعالى (أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) مفعول له والمعنى أحل لكم ما وراء ذلكم ارادة أن تبتغوا أي تطلبوا النساء بأموالكم التي جعل الله لكم قياما في حال كونكم محصنين أي متزوجين غير مسافحين أي زانين لئلا تضيعوا أموالكم وتفقروا أنفسكم فيما لا يحل لكم فتخسروا دنياكم ودينكم ولا مفسدة أعظم مما يجمع بين الخسرانين والاحصان العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام والمسافح الزاني من السفح وهو صب المني وكان الفاجر يقول للفاجرة سافحيني ماذيني من المذي والاموال المهور

(فان قلت) ليس الامر كذلك لانا نجد كثيرا من المؤمنين ضيق المعيشة في الدنيا (قلت) القضية خاصة باهل الكتاب لانهم شكوا ضيق الرزق حتى توجب سعة الرزق والرخاء

ومايخرج في المناكح * (تنبيه) * يجوز أن يكون مفعولا له بتبتغوا مقدرا وهو النساء كما قدرته لك قال الزمخشري والاجود أن لا يقدر وكأنه قيل أن تخرجوا أموالكم ويجوز أن يكون أن تبتغوا بدلا مما وراء ذلكم بدل اشتمال لان المبدل منه ذات والمبدل معنى والذات مشتملة عليه (فما) أي فمن (استمتعتم) أي تمتعتم (به منهن) أي ممن تزوجتم بالوطء (فآتوهن أجورهن) اي مهورهن فان المهر في مقابلة الاستمتاع وقوله تعالى (فريضة) حال من الاجور بمعنى مفروضة أو صفة مصدر محذوف أي ايتاء مفروضا أو مصدر مؤكد (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم) أنتم وهن (به من بعد الفريضة) فيما يزاد على المسمى أو يحط عنه بالتراضي أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فراق وقيل نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نسخت كان الرجل ينكح المرأة وقتا معلوما ليلة او ليلتين أو اسبوعا بثوب أو غير ذلك ويقضي منها وطره ثم يسرحها سميت متعة لاستمتاعه بها أو لتمتيعه لها بما يعطيها وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه أباحها ثم أصبح يقول يا أيها الناس اني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء الا ان الله حرم ذلك الى يوم القيامة وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال لا أوتى برجل تزوج بامرأة الى أجل الا رجمتهما بالحجارة وعن ابن عباس أنه قال هي محكمة أي لم تنسخ وكان يقرأ فما استمتعتم به الى أجل مسمى ويروى أنه رجع عن ذلك عند موته وقال اللهم اني أتوب اليك من قولي بالمتعة وقيل انها أبيحت مرتين وحرمت مرتين (ان الله كان عليما) بخلقه (حكيما) فيما دبر لهم (ومن لم يستطع منكم طولا) أي غنى وأصل الطول الفضل يقال لفلان على فلان طول أي زيادة فضل وقد طاله طولا فهو طائل كما قال القائل

لقد زادني حبا لنفسي أنني * بغيض الى كل امرئ غير طائل

ومنه قولهم هذا أمر ما تحته طائل أي شيء يعتد به مما له فضل وخطر ومنه الطول في الجسم لانه زيادة فيه كما ان القصر قصور فيه ونقصان والمعنى ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة (أن ينكح المحصنات) أي الحرائر وقوله تعالى (المؤمنات) جرى على الغالب فلا مفهوم له فان الحرائر الكتابيات كذلك (فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) أي امائكم المؤمنات أي ومن لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة أي أو الكتابية كما مر فليتزوج الامة المؤمنة وظاهر الآية حجة للشافعي رضي الله عنه في تحريم نكاح الامة على من ملك ما يجعله صداق حرة ومنع نكاح الامة الكتابية مطلقا وأول أبو حنيفة رضي الله عنه طول المحصنات بأن يملك فراشهن على أن النكاح هو الوطء وحمل قوله من فتياتكم المؤمنات على الافضل كما حمل عليه قوله المحصنات المؤمنات ومن أصحابنا من حمله أيضا على التقييد وجوز نكاح الامة لمن قدر على الحرة والكتابية دون المؤمنة حذرا من مخالطة الكفار وهو الاتم والمحذور في نكاح الامة رق الولد ولانها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله نقصان راجع الى الناكح ومهانة والعزة من صفات المؤمنين واما وطؤها بملك اليمين فجائز باتفاق * (فائدة) * قوله تعالى فمن ما ملكت من مقطوعة عن ما (والله أعلم بايمانكم) أي يتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الايمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم وربما كان ايمان الامة أرجح من ايمان الحرة والمرأة أفضل في الايمان من الرجل وحق المؤمنين أن لا يعتبروا الا فضل الايمان لا فضل الاحساب

قالوا بدا لله مقولة فاخبرهم الله ان ذلك التضييق عقوبة لهم بعصيانهم وكفرهم والله تعالى يجعل ضيق الرزق وسعته نعمة في بعض عباده ونقمة على آخرين فلا يلزم من توسيع

والانساب وهذا تأنيس بنكاح الاماء وترك الاستنكاف منه فانه العالم بالسرائر (بعضكم من بعض) أى أنتم واماؤكم سواء فى النسب والدين نسبكم من آدم ودينكم الاسلام فلا تستنكفوا من نكاحهن (فانكحوهن باذن أهلهن) أى مواليهن (وآتوهن أجورهن) أى أدوا اليهن مهورهن باذن أهلهن فحذف باذن لتقدم ذكره أو أدوا الى مواليهن فحذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لانه عوض حقه فيجب أن يؤدى اليه وقال مالك المهر للامة ذاهبا الى ظاهر الآية (بالمعروف) أى من غير مطل ولا ضرار وقوله تعالى (محصنات) أى عفيفات حال من ضمير فانكحوهن وهو محمول على الندب بناء على المشهور من جواز نكاح الزوانى (غير مسافحات) أى زانيات جهرا (ولا متخذات أخدان) أى اخلاء يزنون بهن سرا جمع خدن وهو الصديق فى السر وقيل المسافحات اللاتى يزنين مع أى رجل وذوات الاخدان اللاتى يزنين مع معين وذلك بحسب ما كان فى الجاهلية (فاذا أحصن) قرأ شعبة وحمزة والكسائى أحصن بفتح الهمزة والصاد على البناء للفاعل أى تزوجن والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد على البناء للمفعول أى زوجن (فان أتين بفاحشة) أى زنا (فعليهن نصف ما على المحصنات) أى الحرائر الابكار اذا زنين (من العذاب) أى الحد فيجلدن خمسين ويغربن نصف سنة ويقاس عليهن العبد (فان قيل) ما فائدة وجوب تنصيف الحد عليهن بتقييده بتزوجهن اذ تنصيف العذاب لازم للامة الزانية تزوجت أم لا (أجيب) بان فائدة ذلك بيان ان لا رجم عليهن أصلا وبأنه انما ذكر لبيان جواب سؤال اذ الصحابة رضى الله تعالى عنهم عرفوا مقدار حد الامة قبل التزوج دون مقداره بعده فسألوا عنه النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية وذهب بعضهم الى أنه لا حد على من لم يتزوج من المماليك اذا زنى أخذا بظاهر الآية وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم ان عادت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها فان زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر (ذلك) أى نكاح الاماء عند عدم الطول (لمن خشى) أى خاف (العنت) أى الزنا وأصله المشقة سمى به الزنا لانه سببها بالحد فى الدنيا أو العقوبة فى الاخرى (منكم) أيها الاحرار بخلاف من لم يخفه أما العبيد فيجوز لهم نكاح الاماء مطلقا لكن ان كان العبد مسلما فلا بد أن تكون الامة مسلمة (وان تصبروا) عن نكاح الاماء متعففين (خير لكم) لئلا يصير الولد رقيقا وعن النبى صلى الله عليه وسلم الحرائر صلاح البيت والاماء هلاك البيت (والله غفور) لمن لم يصبر (رحيم) بأن وسع له فى ذلك (يريد الله ليبين لكم) شرائع دينكم ومصالح أموركم (ويهديكم) أى يرشدكم (سنن) أى شرائع (الذين من قبلكم) من الانبيا فى التحريم والتحليل فتتبعوهم (ويتوب عليكم) أى ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم (والله عليم) بكم (حكيم) فيما دبره لكم (والله يريد أن يتوب عليكم) ان وقع منكم تقصير فى دينه (ويريد الذين يتبعون الشهوات) قال السدى هم اليهود والنصارى وقال بعضهم هم المجوس لانهم يستحلون نكاح الاخوات وبنات الاخ والاخت فلما حرمهن الله قالوا فانكم تحلون بنات الخالة والعمة والخالة والعمة عليكم حرام فانكحوا بنات الاخ والاخت فنزلت وقال مجاهد هم الزناة (أن تميلوا) أى تعدلوا عن الحق (ميلا عظيما) بارتكاب

الرزق الاكرام ولا من تضييقه الاهانة (قوله وان لم تفعل فما بلغت رسالته) ان قلت ما فائدته مع انه معلوم انه اذا لم يبلغ ما أنزل عليه لم يكن قد بلغ الرسالة (قلت) فائدته

ما حرم عليكم فتسلكوا سبيلهم (يريد الله أن يخفف عنكم) أي يسهل عليكم أحكام الشرع وقد سهل كما قال تعالى ويضع عنهم إصرهم وقال صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة أي السهلة (وخلق الانسان ضعيفا) لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات وعن سعيد ابن المسيب ما أيس الشيطان من أحد قط الا أتاه من قبل النساء فقد أتى على ثمانون سنة وذهبت احدى عيني وأنا أعشو بالاخرى وان أخوف ما أخاف على فتنة النساء وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ثمان آيات في سورة النساء خير لهذه الامة مما طلعت عليه الشمس وغربت يريد الله ليبين لكم والله يريد أن يتوب عليكم يريد الله أن يخفف عنكم ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك ان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ما يفعل الله بعذابكم (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) أي بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار والربا وقوله تعالى (الا أن تكون تجارة) استثناء منقطع أي لكن أن تقع تجارة على قراءة الرفع وهي قراءة غير عاصم وحمزة والكسائي وأما هؤلاء فقرؤا بالنصب على كان الناقصة واضمار الاسم أي الا أن تكون الاموال تجارة (عن تراض منكم) أي فلكم ان تأكلوها (ولا تقتلوا أنفسكم) أي بارتكاب ما يؤدي الى هلاككم في الدنيا والآخرة وقال الحسن يعني اخوانكم أي لا يقتل بعضكم بعضا أو لا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتل نفسه بشئ في الدنيا عذب به يوم القيامة وروي ان الله تعالى يقول بادرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة وعن عمرو بن العاص انه تأوله في التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم (ان الله كان بكم) يا أمة محمد (رحيما) حيث أمر بني اسرائيل بقتل الانفس ونهاكم عنه (ومن يفعل ذلك) أي ما نهي عنه من قتل النفس وغيره من المحرمات وقوله تعالى (عدوانا) حال أي متجاوزا للحلال وقوله تعالى (وظلما) تأكيد وقيل أراد بالعدوان التعدي على الغير وبالظلم ظلم الشخص نفسه بتعريضها للعقاب (فسوف نصليه) أي ندخله (نارا) يحترق فيها (وكان ذلك على الله يسيرا) أي هينا لا عسر عليه فيه (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) أي كلا منها وفسر جماعة الكبيرة بأنها ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وقال جماعة هي المعصية الموجبة للحد والاول أولى لانهم عدوا الربا وأكل مال اليتيم وشهادة الزور ونحوها من الكبائر ولا حد فيها وقال الامام هي كل جريمة تؤذن أي تعلم بقلة اكتراث مرتكبها بالدين وقال سفيان الثوري الكبائر ما كان بينك وبين العباد والصغائر ما كان بينك وبين الله واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم ينادي مناد من بطنان العرش يوم القيامة يا أمة محمد ان الله قد عفا عنكم جميعا المؤمنين والمؤمنات تواهبوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتي وهي أشياء كثيرة قال ابن عباس هي الى السبعين أقرب وقال سعيد بن جبير هي الى السبعمائة أقرب أي باعتبار أصناف أنواعها (نكفر عنكم سيآتكم) أي الصغائر وهي ما عدا الكبائر أي نكفر بفعل الطاعات كالصلاة والصوم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت

الحث على تبليغ معايب
اليهود حتى لو فرض
كتمان حرف واحد
كتمان
كان في الاثم
الجميع أو الامر بتعجيل
التبليغ لانه كان عازما
على تبليغ جميع ما أنزل
اليه الا انه أخر البعض

الكبائر ولا بأس بذكر شئ من النوعين فمن الاول تقديم الصلاة أو تأخيرها عن وقتها بلا عذر ومنع الزكاة وترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مع القدرة ونسيان القرآن واليأس من رحمة الله وأمن مكره تعالى والقتل عمدا أو شبه عمد والسكر والفرار من الزحف وأكل الربا وأكل مال اليتيم والافطار فى رمضان من غير عذر وعقوق الوالدين والزنا واللواط وشهادة الزور وشرب الخمر وان قل والسرقة والغصب وقيده جماعة بما يبلغ ربع مثقال كما يقطع به فى السرقة وكتمان الشهادة بلا عذر وضرب المسلم بغير حق وقطع الرحم والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسب الصحابة وأخذ الرشوة والنميمة وأما الغيبة فان كانت فى أهل العلم أو حملة القرآن فهى من الكبائر والا فهى صغيرة ومن الصغائر النظر المحرم وكذب لا حد فيه ولا ضرر والاشراف على بيوت الناس وهجر المسلم فوق ثلاث وكثرة الخصومات الا ان راعى حق الشرع فيها والضحك فى الصلاة والنياحة وشق الجيب فى المصيبة والتبختر فى المشى والجلوس بين الفساق ايناسا لهم وادخال مجانين وصبيان يغلب تنجيسهم ونجاسة المسجد واستعمال نجاسة فى بدن أو ثوب لغير حاجة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار وقيل الكبائر الشرك وما عداه من الصغائر قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (وندخلكم مدخلا) قرأ نافع بفتح الميم أى موضعا (كريما) أى حسنا وهو الجنة وقرأ الباقون بضمها على المصدر بمعنى الادخال مع الكرامة (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) من جهة الدنيا والدين لئلا يؤدى الى التحاسد والتباغض لان ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد وبما يصلح للمقسوم له من بسط فى الرزق وقبض ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له علما بأن ما قسم له هو المصلحة ولو كان خلافه لكان مفسدة له ولا يحسد أخاه على حظه قال مجاهد قالت أم سلمة يا رسول الله ان الرجال يغزون ولا نغزو ولهم ضعف ما لنا من الميراث فلو كنا رجالا غزونا وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا فنزلت هذه الآية وقيل لما جعل الله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين فى الميراث قالت النساء نحن أحوج الى الزيادة من الرجال فانا ضعفاء وهم أقويا وأقدر فى طلب المعاش منا فنزلت وقال قتادة والسدى لما أنزل الله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين قال الرجال انا لنرجو أن نفضل على النساء فى الآخرة فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كما فضلنا عليهن فى الميراث فأنزل الله تعالى (للرجال نصيب) أى ثواب (مما اكتسبوا) أى بسبب ما عملوا من الجهاد (وللنساء نصيب مما اكتسبن) أى من حفظ فروجهن وطاعة الله وطاعة أزواجهن فالرجال والنساء فى الاجر فى الآخرة سواء وذلك ان الحسنة تكون بعشر أمثالها يستوى فى ذلك الرجال والنساء وفضل الرجال على النساء انما هو فى الدنيا (واسألوا الله من فضله) أى لا تتمنوا ما للناس واسألوا الله ما تحتاجون اليه يعطكم من خزائنه التى لا تنفد فنهى الله عن التمنى لما فيه من دواعى الحسد والحسد أن يتمنى الشخص زوال النعمة عن صاحبها سواء تمناها لنفسه أم لا والغبطة أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز قال صلى الله عليه وسلم لا حسد أى لا غبطة الا فى اثنتين الحديث (ان الله كان بكل

خوفا على نفسه مع بقاء العزم ويؤيده قوله والله يعصمك من الناس أى من القتل لا من جميع أنواع الأذى كشج الوجه وكسر الرباعية أو اهل الآية نزلت بعد أحد لان المائدة

شيء عليما) فهو يعلم ما يستحقه كل انسان فيتفضل عن علم وتبيان (ولكل) من الرجال والنساء (جعلنا موالي) أي عصبة يعطون (مما ترك الوالدان والاقربون) لهم من المال فالوالدان والاقربون هم الموروثون وقيل معناه ولكل جعلنا موالي أي ورثة مما ترك أي من الذين تركهم فيكون ما بمعنى من ثم فسر الموالي فقال الوالدان والاقربون أي هم الوالدان والاقربون فعلى هذا القول الوالدان هم الوارثون (والذين عاقدت ايمانكم) والمعاقدة المعاهدة والمحالفة والايمان جمع يمين بمعنى القسم أو اليد وذلك أنهم كانوا عند المحالفة يأخذ بعضهم بيد بعض على الوفاء والتمسك بالعهد ومحالفتهم ان الرجل كان في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول دمي دمك وثاري ثارك وحربي حربك وسلمي سلمك وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتعقل عني وأعقل عنك فيكون للحليف السدس من مال الحليف وكان ذلك ثابتا في ابتداء الاسلام فذلك قوله تعالى (فآتوهم نصيبهم) أي أعطوهم حظهم من الميراث ثم نسخ ذلك بقوله تعالى وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله وقال مجاهد أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث وعلى هذا الآية غير منسوخة لقوله تعالى أوفوا بالعقود وقوله صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم فتح مكة لا تحدثوا حلفا في الاسلام وما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به فانه لم يزده الاسلام الا شدة قال الزمخشري وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح عنده وورث بحق الموالاة خلافا للشافعي رحمه الله تعالى اه وقرأ غير عاصم وحمزة والكسائي عاقدت بألف بين العين والقاف وأما هؤلاء الثلاثة فقرؤا عقدت بغير ألف بمعنى عقدت عهودهم أيمانكم فحذف العهود وأقيم الضمير المضاف اليه مقامه ثم حذف كما حذف في القراءة الاولى (ان الله كان على كل شيء شهيدا) أي مطلعا فخافوه (الرجال قوامون على النساء) أي يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية وعلل ذلك بأمرين أحدهما وهبي والآخر كسبي وقد ذكر الاول بقوله تعالى (بما فضل الله بعضهم على بعض) أي بسبب تفضيله الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الاعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والامامة والولاية واقامة الشعائر والشهادة في مجامع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة والتعصيب وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق والرجعة وعدد الازواج واليهم الانتساب وهم أصحاب اللحى والعمائم ثم ذكر الثاني بقوله تعالى (وبما انفقوا من أموالهم) في نكاحهن كالمهر والنفقة وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها وروي أن سعد بن الربيع أحد نقباء الانصار نشزت عليه زوجته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطمها فانطلق بها أبوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أفرشته كريمتي فلطمها فقال لتقتص منه فنزلت فقال أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خير ورفع القصاص (فالصالحات) منهن (قانتات) أي مطيعات لازواجهن (حافظات للغيب) أي لما يجب عليهن حفظه في حال غيبة أزواجهن من الفروج والبيوت والاموال وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة اذا نظرت اليها سرتك وان أمرتها أطاعتك وان غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها (بما حفظ الله) أي بما

من أواخر ما نزل من القرآن (قوله لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) كرر إذ الآية وختم هذه بقوله ان الله هو المسيح ابن مريم والثانية بقوله ان الله

حفظهن الله حين أوصى بهن الازواج فى كتابه وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال استوصوا بالنساء خيرا أو بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب أو بما حفظهن حين وعدهن الثواب العظيم على حفظ الغيب وأوعدهن بالعذاب الشديد على الخيانة (واللاتى تخافون) أى تعلمون (نشوزهن) كما فى قوله تعالى فمن خاف من موص جنفا أو اثما (فعظوهن) أى خوفوهن كأن يقول لزوجته اتقى الله فى الحق الواجب لى عليك واحذرى العقوبة و يبين لها أن النشوز يسقط النفقة والقسم (واهجروهن فى المضاجع) أى اعتزلوهن فى الفراش (واضربوهن) وان لم يتكرر النشوز ان أفاد الضرب والا فلا يضرب كما لا يضرب ضربا مبرحا ولا وجها ولا مهالك ومع ذلك فالاولى له العفو وخرج بالعلم بالنشوز ما اذا ظهرت اماراته فقط اما بقول كأن صارت تجيبه بكلام خشن بعد ان كان بلين واما بفعل كأن يجد منها اعراضا وعبوسا بعد تلطف وطلاقة وجه فانه يعظها بلا هجر و بلا ضرب لعلها تبدى عذرا أو تتوب عما وقع منها بغير عذر وخرج بالمضجع الهجر بالكلام فلا يجوز الهجر فوق ثلاثة أيام ويجوز فيها للخبر الصحيح لا يحل لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاث هذا ان قصد بهجرها ردها لحظ نفسه فان قصد به ردها عن المعصية واصلاح دينها فلا تحريم اذ النشوز حينئذ عذر شرعى والهجر له فى الكلام جائز مطلقا ومنه هجره صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك وصاحبيه ونهيه الصحابة عن كلامهم (فان أطعنكم) فيما يراد منهن (فلا تبغوا) أى لا تطلبوا (عليهن سبيلا) أى طريقا الى ضربهن ظلما واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له رواه الطبرانى وابن ماجه وغيرهما (ان الله كان عليا كبيرا) فاحذروه أن يعاقبكم ان ظلمتموهن فانه أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم (وان خفتم) أى علمتم (شقاق) أى خلاف (بينهما) أى بين المرء وزوجه وذكرهما بضميرهما وان لم يجر ذكرهما لجرى ما يدل عليهما وهو الرجال والنساء واضافة الشقاق الى الظرف اما لاجرائه مجرى المفعول به كقوله * يا سارق الليلة أهل الدار * أو الفاعل كقولهم نهارك صائم (فابعثوا) أى أيها الحكام متى اشتبه عليكم حالهما اليهما لكن برضاهما (حكما من أهله) أى أقاربه (وحكما) آخر (من اهلها) اى أقاربها لينظرا فى أمرهما بعد اختلاء حكمه به وحكمها بها ومعرفة ما عندهما فى ذلك و يصلحا بينهما أو يفرقا ان عسر الاصلاح على ما يأتى فان الاقارب أعرف ببواطن الاحوال وأطلب للصلاح * (تنبيه) * بعث الحكمين على سبيل الوجوب وكونهما من الاقارب على سبيل الندب وهما وكيلان لهما فاشترط رضاهما الا حكمان من جهة الحاكم لان الحال يؤدى الى الفراق والبضع حق الزوج والمال حق الزوجة وهما رشيدان فلا يولى عليهما فى حقهما فيوكل هو حكمه بطلاق أو خلع وتوكل هى حكمها ببذل عوض وقبول طلاق و يشترط فيهما اسلام وحرية وعدالة واهتداء الى المقصود من بعثهما له وانما اشترط فيهما ذلك مع انهما وكيلان لتعلق وكالتهما بنظر الحاكم كما فى أمينه ويسن كونهما ذكرين ولا يكفى حكم واحد (ان يريدا) أى الحكمان (اصلاحا يوفق الله بينهما) أى الزوجين أى ان قصدا اصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى بورك فى وساطتهما وأوقع الله بطيب أنفسهما وحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والالفة وألقى فى

ثالث ثلاثة لان اليعقوبية من النصارى زعموا ان الله تجلى فى زمن على شخص عيسى فظهرت منه المعجزات فصار الها والملكانية منهم زعموا ان الله اسم يجمع اما وابنا

فرجعا بينهما المودة والرحمة وقيل الضمير الاول للزوجين والثانى للحكمين اى ان يرد الزوجان اصلاحا يوفق الله بين الحكمين اختلافهما حتى يعملا بالصلاح وقيل الضميران للحكمين أى ان قصدا الاصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما وقيل للزوجين أى ان أرادا الاصلاح وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الالفة والوفاق وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله تعالى مبتغاه وان لم يرضيا بحكمهما ولم يتفقا على شئ أدب الحاكم الظالم واستوفى للمظلوم حقه (ان الله كان عليما) بكل شئ (خبيرا) بالبواطن كالظواهر فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق قال تعالى لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم (واعبدوا الله) أى وحدوه وأطيعوه (ولا تشركوا به شيأ) أى شيأ من الاشراك جليا كان أو خفيا وعن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه أنه قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هل تدرى يا معاذ ما حق الله على الناس قال قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ أتدرى يا معاذ ما حق الناس على الله تعالى اذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال فان حق الناس على الله ان لا يعذبهم قال قلت يا رسول الله ألا أبشر الناس قال دعهم يعملون (و) أحسنوا (بالوالدين احسانا) أى برا ولين جانب (وبذى القربى) أى صاحب القرابة (واليتامى والمساكين) ويدخل فى المساكين الفقراء روى انه صلى الله عليه وسلم قال أنا وكافل اليتيم فى الجنة وفى رواية من مسح رأس يتيم ولم يمسحه الا لله كان له بكل شعرة تمر عليها يداه حسنات ومن أحسن الى يتيم أو يتيمة عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين وقرن بين أصبعيه (والجار ذى القربى) أى القريب منك فى النسب او الجوار (والجار الجنب) اى البعيد عنك فى النسب او الجوار روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها انها قالت يا رسول الله ان لى جارين فالى أيهما أهدى قال الى أقربهما منك بابا وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لابى ذر لا تحقرن من المعروف شيأ ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق واذا طبخت مرقة فاكثر ماءها واغرف لجيرانك منها وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت انه يورثه (والصاحب بالجنب) اى الرفيق فى السفر كما قاله ابن عباس ومجاهد او المرأة تكون معه الى جنبه كما قاله على والنخعى او الذى يصحبك رجاء نفعك فى تعلم علم او حرفة او نحو ذلك كما قاله ابن جريج وابن زيد (وابن السبيل) اى المسافر لانه يلازم السبيل او الضيف كما عليه الاكثر روى انه صلى الله عليه وسلم قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت وفى رواية من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة ايام فما كان بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له ان يثوى عنده حتى يحرجه (وما ملكت أيمانكم) اى من الارقاء من عبيد واماء روى انه صلى الله عليه وسلم قال هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فان كلفه ما يغلبه فليعنه عليه وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم كان يقول فى مرضه الصلاة وما ملكت أيمانكم فجعل يتكلم وما يفيض

وروح القدس فصار كل منهم الها واحدا أخذا من قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله فكرر الآية لذلك وأخبر الله تعالى انهم كلهم كفار (قوله وما للظالمين من أنصار) المراد بالظالمين

بها

بهالسانه (ان الله لايحب من كان مختالا) أى متكبرا على الناس من أقاربه وأصحابه وجيرانه وغيرهم ولا يلتفت اليهم (فخورا) أى يتفاخر عليهم بما آتاه الله روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يتبختر فى بردين وقد أعجبته نفسه خسف به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وفى رواية لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء وقوله تعالى (الذين) مبتدأ (يبخلون) أى بما يجب عليهم (ويأمرون الناس بالبخل) بذلك (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) من العلم والمال وهم اليهود بخلوا ببيان صفته صلى الله عليه وسلم وكتموها وكانوا يأتون رجالا من الانصار ويخالطونهم فيقولون لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون وخبر المبتدا محذوف تقديره لهم وعيد شديد ويصح أن يكون الذين بدلا من قوله من كان أو منصوبا على الذم أو مرفوعا عليه أى هم الذين وقرأ حمزة والكسائى بالبخل بفتح الباء والخاء والباقون بضم الباء وسكون الخاء (وأعتدنا للكافرين) بذلك وبغيره (عذابا مهينا) أى ذا اهانة وضع الظاهر فيه موضع المضمر اظهارا بأن من هذا شأنه فهو كافر بالله لكتمانه صفة النبى صلى الله عليه وسلم وكافر بنعمة الله عليه وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته على عبده وبنى عامل للرشيد قصرا حذاء قصره فنم به عنده فقال الرجل يا أمير المؤمنين ان الكريم يسره ان يرى أثر نعمته فاحببت ان أسرك بالنظر الى آثار نعمتك فأعجبه كلامه وقوله تعالى (والذين) عطف على الذين قبله (ينفقون أموالهم رئاء الناس) أى مرائين لهم (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) أى كالمنافقين ومشركى مكة المنفقين أموالهم فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم (ومن يكن الشيطان له قرينا) أى صاحبا يعمل بأمره كهؤلاء (فساء) أى فبئس (قرينا) هو حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر وزينه لهم كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين والمراد ابليس وأعوانه الداخلة فى باطن الانسان والخارجة عنه ويجوز ان يكون وعيدا لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله) أى أى ضرر عليهم فى ذلك والاستفهام للانكار ولو مصدرية أى لا ضرر فيه وانما الضرر فيما هم عليه وقوله تعالى (وكان الله بهم عليما) وعيد لهم فيجازيهم بما عملوا (ان الله لا يظلم) أحدا (مثقال) أى وزن (ذرة) وهى أصغر نملة ويقال لكل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة أى لا ينقص قدر ذلك من حسناته ولا يزيده فى سيآته كما قال تعالى ان الله لا يظلم الناس شيأ وفى ذكر المثقال ايماء الى انه وان صغر قدره عظم جزاؤه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه أدخل يده فى التراب فرفعها ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة (وان تك حسنة) أى وان يك المثقال حسنة (يضاعفها) اى ثوابها من عشر الى أكثر من سبعمائة وعن أبى عثمان النهدى أنه قال لابى هريرة بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعطى عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة قال أبو هريرة لا بل سمعته يقول ان الله يعطيه ألفى ألف حسنة ثم تلا هذه الآية وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزيه بها فى الآخرة قال واما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا وفى رواية اذا

هنا المشركون بقرينة ماقبله اذ الظالمون من المسلمين لهم ناصر وهو النبى صلى الله عليه وسلم لشفاعته لهم يوم القيامة (قوله وضلوا عن سواء

خلص المؤمنون من النار وآمنوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه فى الحق يكون له فى الدنيا بأشد
مجادلة من المؤمنين لربهم فى اخوانهم الذين أدخلوا النار قال يقولون ربنا اخواننا كانوا يصلون
معنا ويصومون معنا ويحجون معنا فأدخلتهم النار قال فيقول اذهبوا فاخرجوا من
عرفتم منهم فيأتون فيعرفونهم بصورهم لا تأكل النار صورهم فمنهم من أخذته النار الى أنصاف
ساقيه ومنهم من أخذته الى ركبتيه (١) فيخرجونهم فيقولون ربنا قد أخرجنا من أمرتنا
قال ثم يقول أخرجوا من كان فى قلبه وزن دينار ثم من كان فى قلبه وزن نصف دينار حتى
يقول من كان فى قلبه مثقال ذرة قال أبو سعيد فمن لم يصدق فليقرأ هذه الآية ان الله الخ قال
فيقولون ربنا قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق أحد فى النار فيه خير ثم يقول الله عز وجل
شفعت الملائكة وشفعت الانبياء وشفعت المؤمنون وبقى أرحم الراحمين قال فيقبض قبضة
من النار أو قال قبضتين ناسا لم يعملوا خيرا حتى احترقوا حتى صاروا حمما فيؤتى بهم الى ماء
يقال له ماء الحياة فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل وهى بكسر الحاء
المهملة وتجمع على حبب قال فتخرج أجسادهم مثل اللؤلؤ فى أعناقهم الخاتم عتقاء الله
فيقال لهم ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو رأيتم من شئ فهو لكم قال فيقولون ربنا أعطيتنا مالم
تعط أحدا من العالمين قال فيقول الله تعالى فان لكم عندى أفضل منه فيقولون ربنا وما
أفضل من ذلك فيقول رضائى عنكم فلا أسخط عليكم أبدا (فان قيل) لم أنث الضمير مع انه
راجع للمثقال وهو مذكر (أجيب) بأنه انثه لتأنيث الخبر أو لاضافة المثقال الى مؤنث
وقيل ان الضمير راجع الى ذرة وهى مؤنثة لا الى مثقال وحذفت النون تشبيها بحروف العلة
وقرأ نافع وابن كثير حسنة برفع التاء على كان التامة والباقون بنصبها على كان الناقصة
وقرأ ابن كثير وابن عامر يضعفها بتشديد العين ولا ألف قبلها والباقون بتخفيف العين وألف
قبلها (ويؤت) أى يعط صاحب الحسنة (من لدنه) أى من عنده على سبيل التفضل زائدا
على ما وعد فى مقابلة العمل (أجرا عظيما) أى عطاء جزيلا وانما سماه أجرا لانه تابع للاجر
مزيد عليه لا يثبت الا بثباته (فكيف) حال الكفار (اذا جئنا من كل أمة بشهيد) يشهد عليها
بعملها وهو نبيها لقوله تعالى وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم (وجئنا بك) يا محمد (على هؤلاء)
الشهداء (شهيدا) أى شاهدا تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك على
مجامع قواعدهم وقيل هؤلاء اشارة الى المؤمنين لقوله تعالى لتكونوا شهداء على الناس
ويكون الرسول عليكم شهيدا وقيل الى الكافرين المستفهم عن حالهم وعن ابن مسعود أنه
قرأ سورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله وجئنا بك على هؤلاء شهيدا
فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال حسبك (يومئذ) أى الجئ وهو يوم القيامة (يود)
أى يتمنى (الذين كفروا وعصوا الرسول لو) أى أن (تسوى بهم الارض) كالموتى أو لم يبعثوا
أو لم يخلقوا وكانوا هم والارض سواء وقال الكلبى يقول الله عز وجل للبهائم والوحوش
والطيور والسباع كن ترابا فتسوى بهن الارض فعند ذلك يتمنى الكافر أنه لو كان ترابا كما
قال تعالى ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم تسوى بضم التاء
بالبناء للمفعول والباقون بالفتح بالبناء للفاعل مع حذف احدى التاءين فى الاصل وشدد

(١) قوله الى ركبتيه فى بعض النسخ الى كعبيه اه مصحح

السبيل) فائدة ذكره بعد قوله قد ضلوا من قبل ان المراد بالضلال الاول ضلالهم عن الانجيل وبالثانى ضلالهم عن القرآن (قوله كانوا

السين

السين نافع وابن عامر وخففها الباقون (ولا يكتمون الله حديثا) أي مما عملوه لان جوارحهم تشهد عليهم وقال الحسن انها مواطن ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع الا همسا وفي موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون ما كنا مشركين وما كنا نعمل من سوء وفي موطن يسألون الرجعة وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم وهو قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثا وقال سعيد بن جبير قال رجل لابن عباس انى أجد في القرآن شيئا يختلف على فقال هات ما اختلف عليك قال قال الله تعالى فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وقال تعالى وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وقال تعالى ولا يكتمون الله حديثا وقال والله ربنا ما كنا مشركين فقد كتموا وقال تعالى أم السماء بناها الى قوله والارض بعد ذلك دحاها فذلك خلق السماء قبل خلق الارض ثم قال أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين الى طائعين فذكر في هذه الآية خلق الارض قبل خلق السماء وقال تعالى وكان الله غفورا رحيما وقال وكان الله عزيزا حكيما فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون في النفخة الاولى قال ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض فلا انساب عند ذلك ولا يتساءلون ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون في النفخة الآخرة ثم أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قوله والله ربنا ما كنا مشركين ولا يكتمون الله حديثا فان الله يغفر لاهل الاخلاص ذنوبهم فقال المشركون تعالوا نقل لم نك مشركين فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم وأرجلهم فعند ذلك عرفوا ان الله لا يكتم حديثا وعنده يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض وخلق الارض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى الى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الارض في يومين ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فقال خلق الارض في يومين فخلقت الارض وما فيها من شئ في أربعة أيام وخلقت السموات في يومين وكان الله غفورا رحيما أي لم يزل كذلك فلا يختلف عليك القرآن فان كلا من عند الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلوة) أي لا تغشوها ولا تقوموا اليها واجتنبوها (وأنتم سكارى) من الشراب (حتى تعلموا ما تقولون) بأن تصحوا منه كقوله تعالى ولا تقربوا الزنا ولا تقربوا الفواحش روى أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما وشرابا فدعا نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان الخمر مباحا فأكلوا وشربوا فلما سكروا وجاء وقت صلاة المغرب قدموا أحدهم يصلى بهم فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون بحذف لا هكذا الى آخر السورة فنزلت فكانوا لا يشربونها في أوقات الصلاة فاذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون الا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون ثم نزل تحريمها وقيل أراد بالصلاة مواضعها وهى المساجد وقيل أراد بالسكر سكر النوم ونهى عن الصلاة عند غلبة النوم قال صلى الله عليه وسلم اذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم فان أحدكم اذا صلى وهو ينعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه وقوله تعالى (ولا جنبا) منصوب على الحال أي ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب بايلاج أو انزال يقال رجل جنب وامرأة جنب ورجال ونساء جنب لانه يجرى مجرى المصدر لا أنه مصدر بل هو اسم مصدر لانه لم يستوف حروف الفعل

لا يتناهون عن منكر فعلوه) ان قلت النهى عن المنكر بعد فعله لا معنى له (قلت) فيه حذف مضاف أى كانوا لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه أو عن مثله أو عن منكر ارادوا فعله اى لا يمتنعون

لان فعله أجنب فمصدره اجنابا لا جنبا وأصل الجنابة البعد وسمى جنبا لانه يجتنب مواضع
الصلاة أو لمجانبته الناس و بعده منهم حتى يغتسل (الا عابرى) أى مجتازى (سبيل) أى طريق
أو مسافرين (حتى تغتسلوا) أى فلكم أن تصلوا واستثناء المسافر له حكم آخر سيأتى وفى هذا
دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث لانه غياه بقوله حتى تغتسلوا ومن فسر الصلاة بمواضعها فسر
عابرى سبيل بالمجتازين فيها و جوز للجنب عبور المسجد و به قال الشافعى رضى الله تعالى عنه
وقال أبو حنيفة لا يجوز له المرور الا اذا كان فيه الماء أو الطريق الى الماء (وان كنتم مرضى)
أى مرضا يخاف معه من استعمال الماء فان الواجد كالفاقد (أو على سفر) أى مسافرين
وأنتم جنب أو محدثون (أو جاء أحد منكم من الغائط) اى أحدث بخروج الخارج من
أحد السبيلين والغائط المكان المطمئن من الارض تقضى فيه الحاجة سمى باسمه الخارج
للمجاورة (أو لامستم النساء) قرأ حمزة والكسائى بغير ألف بين اللام والميم والباقون بالف
واختلف فى معنى اللمس والملامسة فقال قوم هما التقاء البشرتين سواء أكان بجماع أم بغيره
وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبى والنخعى و به استدل الشافعى رضى الله تعالى عنه على
أن اللمس ينقض الوضوء وقال قوم هما المجامعة وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة
كنى باللمس عن الجماع لان باللمس يوصل الى الجماع (فلم تجدوا ماء) تطهرون به للصلاة بعد
الطلب لانه لا يسمى غير واجد الا بعد الطلب وهذا راجع الى ما عدا المرضى (فتيمموا) أى بعد
دخول الوقت (صعيدا طيبا) أى ترابا طاهرا أى طهورا أما المرضى فيتيممون مع حضور الماء
لان وجوده بالنسبة اليهم كالعدم (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) مع المرفقين منه بضربتين
كما ثبت فى الحديث وقال الزجاج الصعيد وجه الارض ترابا كان أو غيره وان كان صخرا لا تراب
عليه لو ضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره والى هذا ذهب أبو حنيفة رحمه الله
تعالى وأجاب عن قوله تعالى فى آية المائدة فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه أى بعضه وهو
لا يتأتى فى الصخر الذى لا تراب عليه بان من لابتداء الغاية قال الزمخشرى وقولهم انها
لابتداء الغاية فيه تعسف ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل مسحت برأسى من الدهن
ومن الماء ومن التراب الا معنى التبعيض قال والاذعان للحق أحق من المراء والتيمم من
خصائص هذه الامة روى عن حذيفة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة و جعلت لنا الارض
كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا اذا لم نجد الماء وكان بدء التيمم ما روى عن عائشة رضى
الله تعالى عنها أنها قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره حتى اذا كنا
بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لى فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه وأقام
الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فاتى الناس أبا بكر فقالوا ألا ترى ما صنعت عائشة
أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر
ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذى قد نام فقال حبست رسول الله صلى الله
عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فعاتبنى أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول
وجعل يطعن بيده فى خاصرتى ولا يمنعنى من التحرك الا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

أو المعنى كانوا لا يتناهون عن
منكر فعلوه بل يصرون
عليه (قوله ولكن كثيرا
منهم فاسقون) اى من
المنافقين او اليهود (ان
قلت) كلهم فاسقون
لا كثير منهم فقط (قلت)
المراد بالفسق فسقهم

على فخذي فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر فقالت عائشة فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته وفي رواية أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا من أصحابه في طلبها فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم شكوا ذلك اليه فنزلت فقال أسيد بن حضير جزاك الله خيرا فوالله ما نزل بك أمر قط الا جعل الله لك منه مخرجا وجعل للمسلمين فيه بركة وقوله تعالى (ان الله كان عفوا غفورا) كناية عن الترخيص والتيسير لان من كانت عادته أن يعفو عن الخاطئين ويغفر لهم آثر ما كان ميسورا غير معسر (ألم تر) أى تنظر (الى الذين أوتوا نصيبا) أى حظا يسيرا (من الكتاب) أى من علم التوراة وهم أحبار اليهود (يشترون) أى يختارون (الضلالة) على الهدى (ويريدون ان تضلوا) أيها المؤمنون (السبيل) أى تخطئون طريق الحق لتكونوا مثلهم (والله أعلم) منكم (باعدائكم) فيخبركم بهم لتجتنبوهم ولا تستصحبوهم فانهم اعداؤكم (وكفى بالله وليا) اى حافظا (وكفى بالله نصيرا) اى مانعا لكم من كيدهم وقوله تعالى (من الذين هادوا) بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب لانهم يهود ونصارى وقوله تعالى والله أعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض او بيان لاعدائكم وما بينهما اعتراض او صلة لنصيرا أى ينصركم من الذين هادوا كقوله تعالى ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا أو خبر مبتدا محذوف صفته (يحرفون الكلم عن مواضعه) اى ومن الذين هادوا قوم يحرفون أى يغيرون الكلم الذى انزل فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم عن مواضعه التى وضع عليها بازالته عنها واثبات غيره فيها وفى المائدة من بعد مواضعه والمعنيان متقاربان قال ابن عباس كانت اليهود يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألونه عن الامر فيخبرهم ويرى انهم يأخذون بقوله فاذا انصرفوا من عنده حرفوا كلامه (ويقولون) للنبي صلى الله عليه وسلم اذا أمرهم (سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (واسمع غير مسمع) بمعنى الدعاء أى لا سمعت بصمم أو بموت أو بمعنى اسمع منا ولا نسمع منك أو بمعنى اسمع غير مسمع كلاما ترضاه (و) يقولون له (راعنا) يريدون به النسبة الى الرعونة وقد نهى عن خطابه صلى الله عليه وسلم بها وهى كلمة سب بلغتهم (ليا) أى تحريفا (بالسنتهم) أى يحرفون ما يظهرون من الدعاء والتوقير الى ما يضمرونه من السب والتحقير نفاقا (وطعنا) اى قدحا (فى الدين) اى الاسلام (ولو أنهم قالوا سمعنا واطعنا) بدل وعصينا (واسمع) أى فقط (وانظرنا) أى انظر الينا بدل راعنا (لكان خيرا لهم) مما قالوه (وأقوم) اى اعدل واصوب (ولكن لعنهم الله) اى ابعدهم عن رحمته (بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا) اى ايمانا قليلا لا يعبأ به وهو الايمان ببعض الآيات والرسل ويجوز ان يراد بالقلة العدم أو الا نفرا قليلا منهم كعبد الله بن سلام واصحابه (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) يخاطب اليهود (آمنوا بما نزلنا) اى القرآن (مصدقا لما معكم) اى التوراة وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم كلم احبار اليهود عبد الله بن صوريا واصحابه وكعب بن اسد وقال يا معشر اليهود اتقوا الله واسلموا فوالله انكم لتعلمون ان الذى جئتكم به لحق قالوا

بموالاة المشركين ودس الاخبار اليهم لا لمطلق الفسق وذلك مخصوص بكثير منهم وهم المذكورون فى قوله قبل ترى كثيرا منهم (قوله انما الخمر والميسر) الى قوله من عمل الشيطان (ان قلت) هذه المذكورات من عمل الله لا من عمل

ماعرف ذلك وانصرفوا على الكفر فنزلت (من قبل أن نطمس وجوها) أى نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم (فنردها على أدبارها) اى فنجعلها كالاقفاء مطموسة مثلها أو ننكسها الى ورائها فى الدنيا أو فى الآخرة روى أن عبد الله بن سلام لما سمع هذه الآية جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله ويده على وجهه وأسلم وقال يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل اليك حتى يتحول وجهى فى قفاى وكذلك كعب الاحبار لما سمع هذه الآية أسلم فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه فقال يا رب آمنت يا رب اسلمت مخافة أن يصيبه وعيد هذه الآية (فان قيل) قد اوعدهم الله بالطمس ان لم يؤمنوا ثم لم يؤمنوا ولم يفعل بهم ذلك (اجيب) بان هذا الوعيد باق ويكون طمس ومسخ فى اليهود قبل قيام الساعة أو أن هذا كان وعيدا بشرط فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه رفع ذلك عن الباقين وقيل أراد به فى القيامة وقال مجاهد أراد بقوله نطمس وجوها أى نتركهم فى الضلالة فيكون المراد طمس وجه القلب والرد عن بصائر الهدى على ادبارها فى الكفر والضلالة (أو نلعنهم) أى نخزيهم قردة وخنازير (كما لعنا) اى مسخنا (اصحاب السبت) منهم قردة وخنازير (وكان أمر الله) اى قضاؤه (مفعولا) اى نافذا وكائنا فيقع لا محالة ما اوعدتم به ان لم تؤمنوا (ان الله لا يغفر ان يشرك به) اى لا يغفر الاشراك به قال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما لما نزل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا قالوا يا رسول الله والشرك فنزلت ﴿ ولما اخبر بعدله اخبر تعالى بفضله فقال (ويغفر ما دون ذلك) الامر الكبير العظيم من كل معصية سواء كانت صغيرة أم كبيرة سواء أتاب فاعلها أم لا ورهب بقوله اعلاما بانه مختار لا يجب عليه شئ (لمن يشاء) وقال الكلبى نزلت هذه الآية فى وحشى بن حرب واصحابه وذلك انه لما قتل حمزة وذهب الى مكة ندم هو وأصحابه وكتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انا قد ندمنا على ما صنعنا وانه ليس يمنعنا عن الاسلام الا انا سمعناك تقول وانت بمكة والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآيات وقد دعونا مع الله الها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله قتلها وزنينا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزل الامن تاب وآمن وعمل عملا صالحا الآيتين فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فلما قرؤهما كتبوا اليه ان هذا شرط شديد نخاف ان لا نعمل عملا صالحا فنزل ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فبعث بها اليهم فبعثوا اليه انا نخاف أن لا نكون من اهل مشيئته فنزل يا عبادى الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية فبعث بها اليهم فدخلوا فى الاسلام ورجعوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقبل منهم ثم قال لوحشى أخبرنى كيف قتلت حمزة فلما أخبره قال ويحك غيب وجهك عنى فلحق وحشى بالشام فكان بها الى ان مات (ومن يشرك بالله فقد افترى) اى ارتكب (اثما عظيما) اى كبيرا فالافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذا الاختلاق روى أن رجلا قال يا رسول الله ما الموجبات قال من مات لا يشرك بالله شيأ دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيأ دخل النار وروى أبو ذر أنه صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق قلت وان زنى

وان

الشيطان (قلت) فى الكلام اضمار اى تعاطى هذه الاشياء من عمل الشيطان (فان قلت) ٣ مع هذا الاضمار كيف قال من عمل الشيطان وتعاطى هذه الاشياء وسوسته وتزيينه ذلك للفساق صار كالواغرى رجل رجلا بضرب آخر

٣ قوله فان قلت الى قوله صار الخ هكذا بالاصل الذى بايدينا وفيه سقط من الناسخ وحق العبارة أن يزاد بعد قوله وتعاطى هذه الاشياء من عمل الانسان لا من عمل الشيطان (قلت) لما كان تعاطى هذه الاشياء بوسوسة الشيطان وتزيينه الخ ويدل على ما زدناه عبارة زاده على البيضاوى اه مصححه

وان سرق قال وان زنى وان سرق على رغم انف أبى ذر وكان أبو ذر اذا حدث بهذا قال وان رغم انف أبى ذر (ألم تر الى الذين يزكون انفسهم) قال الحسن وقتادة نزلت فى اليهود والنصارى قالوا نحن ابناء الله واحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وقال الكلبى نزلت فى رجال من اليهود جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطفالهم فقالوا هل على هؤلاء ذنب قال لا قالوا والله مانحن الا كهيئتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار ويدخل فى الآية كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله الا اذا كان لغرض صحيح وطابق الواقع كقول سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم وقوله صلى الله عليه وسلم انى أمين فى السماء أمين فى الارض حين قال له المنافقون اعدل فى القسمة اكذابا لهم اذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه ولكن شتان بين من شهد الله له بالتزكية ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم (بل الله) الذى له صفات الكمال (يزكى من يشاء) اى بما له من العلم التام والقدرة الشاملة والحكمة البالغة واصل التزكية نفى ما يستقبح فعلا او قولا (ولا يظلمون) اى ينقصون من اعمالهم (فتيلا) اى قدر ما يكون فى شق النواة قاله عكرمة عن ابن عباس فهو اسم لما فى شق النواة والقطمير اسم للقشرة التى على النواة والنقير اسم للنقطة التى تكون على ظهر النواة وقيل الفتيل من الفتل وهو ما يحصل بين الاصبعين من الوسخ عند الفتل ولما أخبر سبحانه وتعالى ان التزكية انما هى اليه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (انظر) متعجبا (كيف يفترون) اى يتعمدون (على الله) الذى لا يخفى عليه شئ ولا يعجزه شئ (الكذب) من غير خوف منهم لذلك عاقبة ذلك (وكفى به) اى بهذا الكذب (اثما مبينا) أى بيناواضحا (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) وهما صنمان بمكة لقريش وذلك ان كعب بن الاشرف خرج فى سبعين راكبا من اليهود الى مكة بعد وقعة احد ليحالفوا قريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل كعب على ابى سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود فى دور قريش فقال اهل مكة انكم اهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن ان يكون هذا مكرا منكم فاسجدوا للآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا فهذا ايمانهم بالجبت والطاغوت لانهم سجدوا للاصنام واطاعوا ابليس فيما فعلوا ثم قال ابو سفيان لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن اميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا نحن ام محمد قال كعب اعرضوا على دينكم فقال أبو سفيان نحن ولاة البيت نسقى الحجاج الماء ونقرى الضيف ونفك العانى ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن اهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال كعب أنتم والله اهدى سبيلا مما عليه محمد فانزل الله تعالى ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا اى حظا من الكتاب وهم كعب بن الاشرف وأصحابه يؤمنون بالجبت والطاغوت اى الصنمين (ويقولون للذين كفروا) وهم أبو سفيان وأصحابه (هؤلاء) أى أنتم (اهدى من الذين آمنوا) وهم محمد واصحابه (سبيلا) اى أقوم دينا وأرشد طريقا (اولئك الذين لعنهم الله) اى طردهم وأبعدهم من رحمته (ومن يلعن الله فلن

فضربه فانه يجوز ان يقال للمغرى هذا من عمل الشيطان (فان قلت) لم خص من الاشياء المذكورة الخمر والميسر بالذكر فى قوله انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر (قلت) خصهما بالذكر تعظيما

تجدله نصيرا) أى مانعا يمنع العذاب عنه بشفاعة أو غيرها *(تنبيه)* فى هؤلاء أهدى همزتان من كلمتين الاولى مكسورة والثانية مفتوحة قرأنافع وابن كثير وابو عمرو بابدال الثانية ياء خالصة والباقون بالتحقيق (أم) منقطعة أى بل (لهم نصيب) أى حظ (من الملك) ومعنى الهمزة انكار ان يكون لهم شئ من الملك وجحد لما زعمت اليهود من ان الملك سيصير لهم ولو كان لهم نصيب منه (فاذا) اى فيتسبب عن ذلك انهم (لايؤتون الناس) اى واحدا منهم (نقيرا) وهو أنه النقرة فى ظهر النواة وهو مثل فى القلة كالفتيل والقطمير والمراد بالملك اما ملك الدنيا واما ملك الله كقوله تعالى قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لامسكتم خشية الانفاق وفى هذا مبالغة فى شحهم فانه بخلوا بالنقير وهم ملوك فاظنك بهم اذا كانوا اذلاء منقادين ويصح ان يكون معنى الهمزة فى أم لانكار انهم قد أوتوا نصيبا من الملك وكانوا أصحاب اموال و بساتين وقصور مشيدة كما تكون احوال الملوك وانهم لايؤتون أحدا مما يملكون شيأ (أم) اى بل (يحسدون الناس) اى محمدا صلى الله عليه وسلم الذى جمع فضائل الناس الاولين والآخرين (على ما آتاهم الله من فضله) اى من النبوة والكتاب والنصرة والاعزاز وكثرة النساء اى يتمنون زواله عنه و يقولون لو كان نبيا لاشتغل عن النساء (فقد آتينا آل ابراهيم) وهو جد النبى صلى الله عليه وسلم ومن آل ابراهيم موسى وداود وسليمان (الكتاب) أى ما أنزل اليهم (والحكمة) أى النبوة (وآتيناهم ملكا عظيما) فلا يبعد أن يؤتيه الله تعالى مثل ما آتاهم فكان لداود تسع وتسعون امرأة وكان لسليمان ألف وثلثمائة حرة وسبعمائة سرية وقيل المراد بالناس الناس جميعا وقيل العرب وحسدوهم لان النبى الموعود منهم وقيل النبى وأصحابه لان من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم على كمالهم ورشدهم (فمنهم) اى اليهود (من آمن به) اى بمحمد صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومنهم من صد) أى اعرض (عنه) فلم يؤمن به (وكفى بجهنم سعيرا) اى عذابا لمن لم يؤمن وقوله تعالى (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم) أى ندخلهم (نارا) كالبيان والتقرير لذلك (كلما نضجت) اى احترقت (جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) بان يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة اخرى روى ان هذه الآية قرئت عند عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال عمر للقارئ اعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندى تفسيرها يبدله الله تعالى فى ساعة مائة مرة قال عمر هكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا (فان قيل) كيف تعذب جلود لم تكن فى الدنيا لم تعص (أجيب) بأن المعاد انما هو الجلد الاول وانما قال جلودا غيرها لتبدل صفتها كما تقول صنعت من خاتمى خاتما غيره فالخاتم الثانى هو الاول الا أن الصناعة والصفة تبدلت روى أن ما بين منكبى الكافر فى النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع وروى أن ضرسه أو نابه مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (ليذوقوا العذاب) أى ليقاسوا شدته وقيل يخلق مكان ذلك الجلد جلد آخر والمعذب فى الحقيقة على كل حال هى النفس العاصية القائمة بالبدن لانها المدركة دونه (ان الله كان) ولم يزل (عزيزا) أى لا يعجزه شئ (حكيما) فى خلقه يعاقب على وفق

لامرهما ولان ما ذكر من العداوة والبغضاء بين الناس يقع كثيرا بسببهما دون الباقى وقيل انما خصهما بالذكر بيانا للواقع لان الخطاب للمؤمنين بدليل قوله يا أيها الذين آمنوا وهم انما كانوا يتعاطون الخمر والميسر

حكمته (والذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا الصالحات سندخلهم) أى بوعد لا خلف فيه وربما أفهم التنفيس لهم بالسين دون سوف كما فى الكافرين انهم أقصر الامم مدة وانهم أقصرهم أعمارا راحة لهم من دار الكدر الى محل الصفاء وانهم يدخلون الجنة قبل جميع الفرق الناجية من أهل الموقف (جنات) أى بساتين ووصفها بما يديم بهجتها ويعظم نضرتها وزهرتها فقال (تجرى من تحتها الانهار) أى ان أرضها فى غاية الرى كل موضع صالح لان يجرى منه نهر ولما ذكر قيامها وما به دوامها أتبعه بما تم واه النفوس من استمرار الاقامة بها فقال (خالدين فيها أبدا) وانما قدم تعالى ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لان الكلام فيهم وذكر المؤمنين بالعرض * ولما وصف تعالى حسن الدار ذكر حسن الجار فقال تعالى (لهم فيها أزواج مطهرة) أى من الحيض والقذر (فان قيل) المطرد فى وصف جمع القلة لمن يعقل أن يكون بالالف والتاء فيقال مطهرات (أجيب) بأنه عدل عن ذلك الى الوحدة لانهام انهن لشدة الموافقة فى الطهر كذات واحدة (وندخلهم) أى فيها (ظلا) أى عظيما وأكده تعالى بقوله (ظليلا) أى متصلا لا فرج فيه منبسطا لا ضيق معه دائما لا تصيبه الشمس يوما ما لا حر فيه ولا برد بل هو فى غاية الاعتدال وهو ظل الجنة جعلنا الله تعالى ومن يحبنا ونحبه من أهلها السابقين مع النبيين والصديقين وقوله تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) خطاب يعم المكلفين والامانات وان نزلت يوم الفتح فى عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة وصعد السطح فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح ليدخلها فأبى وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح فلوى على رضى الله تعالى عنه يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله هذه الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يرد المفتاح الى عثمان ويعتذر ففعل ذلك وقال هاك خالدة تالدة فعجب من ذلك وقال له عثمان أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق فقال قد أنزل الله فى شأنك قرآنا وقرأ عليه فقال عثمان أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة تكون فى أولاد عثمان أبدا فلما مات عثمان دفعه الى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة فى أيديهم الى اليوم والى يوم القيامة فالآية وان وردت فى سبب خاص فعمومها معتبر بقرينة الجمع (واذا حكمتم بين الناس) أى قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم أو يرضى بحكمكم (أن تحكموا بالعدل) أى بالسواء بان تأمروا من وجب عليه حق بادائه الى من هو له فان ذلك من أعظم الصالحات الموجبة لحسن المقيل فى الظل الظليل أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل الحديث وروى ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا امام عادل وان أبغض الناس الى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا امام جائر * ولما أخبرهم بأمره زادهم رغبة بقوله (ان الله نعما) فيه ادغام ميم نعم فى ما النكرة الموصوفة أى نعم شيأ (يعظكم به) وهو تأدية الامانة والحكم بالعدل وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون وكسرها الباقون واختلس كسر العين قالون

فقط (قوله ليعلم الله) اى علم ظهور (قوله ومن قتله منكم متعمدا) الآية قيد العمد ليس بشرط لوجوب الجزاء كما بينته السنة وذكره فى الآية بيان للواقع لان الواقعة التى كانت سبب نزول

وأبو عمرو وشعبة (ان الله كان) اى ولم يزل ولا يزال (سميعا) لكل ما يقال (بصيرا) بكل ما يفعل (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان وبدأ بهاعوا عمدة فى الحمل على ذلك فقال (أطيعوا الله) أى فيما أمركم به (وأطيعوا الرسول) أى فيما بينه لكم (و) أطيعوا (أولى) أى أصحاب (الامر) أى الولاة (منكم) أى اذا أمروكم بطاعة الله ورسوله سواء كان ذلك فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بعده ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية روى أنه صلى الله عليه وسلم قال السمع والطاعة على المرء فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة وروى أنه صلى الله عليه وسلم خطب فى حجة الوداع فقال اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا اذا أمركم تدخلوا جنة ربكم وقيل المراد باولى الامر أبو بكر وعمر لقوله صلى الله عليه وسلم اقتدوا باللذين من بعدى أبي بكر وعمر وقال عطاء هم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان بدليل قوله تعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان روى أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل أصحابي فى أمتى كالملح والطعام ولا يصلح الطعام الا بالملح قال الحسن فقد ذهب ملحنا فكيف نصلح وقيل المراد علماء الشرع لقوله تعالى ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم (فان تنازعتم) أى اختلفتم (فى شئ فردوه الى الله) أى كتابه (والرسول) أى مدة حياته وبعد وفاته الى سنته أى اكشفوا عليه منهما والرد الى الكتاب والسنة واجب ان وجد فيهما فان لم يوجد فسبيله الاجتهاد وقيل الرد الى الله والرسول أن يقول لما لا يعلم الله ورسوله أعلم (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى فان الايمان يوجب هذا (ذلك) أى الرد اليهما (خير) لكم من التنازع والقول بالرأى (وأحسن تأويلا) أى من تأويلكم بلا رد أو عاقبة (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا) أى أوجدوا هذه الحقيقة وأوقعوها فى أنفسهم (بما أنزل اليك) أى القرآن (وما أنزل من قبلك) أى التوراة والانجيل قال الاصبهانى ولا يستعمل أى الزعم فى الاكثر الا فى القول الذى لا يتحقق يقال زعم فلان كذا اذا شك فيه فلا يعرف كذبه أو صدقه (يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت) أى الباطل المغرق فى البطلان وقيل هو كعب بن الاشرف روى عن ابن عباس أن بشرا المنافق خاصم يهوديا فقال اليهودى ننطلق الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق بل الى كعب بن الاشرف فأبى اليهودى أن يخاصمه الا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى المنافق ذلك أتى معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودى فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا الى عمر رضى الله تعالى عنه فأتيا عمر فقال اليهودى اختصمت أنا وهذا الى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصم اليك فقال عمر للمنافق أكذلك قال نعم فقال لهما عمر مكانكما حتى أخرج اليكما فدخل وأخذ سيفه ثم خرج فضرب عنق المنافق وقال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت هذه الآية وقال جبريل عليه السلام ان عمر فرق بين الحق والباطل فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق والطاغوت على هذا هو كعب بن الاشرف سمى بذلك لفرط طغيانه أو لتشبيهه بالشيطان أو لان التحاكم اليه تحاكم الى الشيطان من حيث انه الحامل عليه (وقد) أى والحال انهم قد

الآية كانت عند اقلا الآية (قوله هديا بالغ مفهوم له (قوله هديا بالغ الكعبة) قيد بها تعظيما لها والا فالشرط بلوغه الحرم (قوله ما جعل الله من بحيرة) الآية أى ماحرم أو ما شرع ولا يصح تفسيره بخلق لان الاشياء

(أمروا) ممن له الامر في كل ما أنزل اليك من كتاب وما قبله (أن يكفروا به) أي بالشيطان فتى تحاكموا اليه كانوا مؤمنين به كافرين بالله وهو معنى قوله (ويريد الشيطان) أي بارادتهم ذلك التحاكم اليه (أن يضلهم) أي المتحاكمين اليه (ضلالا بعيدا) أي بحيث لا يمكنهم معه الرجوع الى الهدى ولما ذكر ضلالهم بالارادة ورغبتهم في التحاكم الى الطاغوت ذكر فعلهم فيه في نفرتهم عن التحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (واذا قيل لهم) أي من أي قائل كان وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بالكسر وتقدم ذكر الادغام لابي عمرو (تعالوا) أي اقبلوا رافعين أنفسكم من وهاد الجهل الى شرف العلم (الى ما أنزل الله) اي الذي عنده كل شئ (والى الرسول) أي الذي تجب طاعته لاجل مرسله مع انه أكمل الرسل الذين هم أكمل الخلق رسالة (رأيت المنافقين يصدون) أي يعرضون (عنك) الى غيرك وأكد ذلك بقوله (صدودا) أي هو أعلى طبقات الصدود (فكيف) يكون حالهم (اذا أصابتهم مصيبة) أي عقوبة كقتل عمر رضي الله عنه المنافق (بما قدمت أيديهم) أي من التحاكم الى غيرك وعدم الرضا بحكمك ومن الكفر بغير ذلك أي أيقدرون على الاعراض والفرار منها لا وتم الكلام ههنا وقوله تعالى (ثم جاؤك) أي حين يصابون للاعتذار معطوف على يصدون وما بينهما اعتراض (يحلفون بالله ان) أي ما (أردنا) أي بالمحاكمة الى غيرك (الا احسانا) أي صلحا (وتوفيقا) أي تأليفا بين الخصمين ولم نرد مخالفتك وقيل جاء أصحاب القتيل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم الى عمر الا أن يحسن الى صاحبنا ويوفق بينه وبين خصمه بالتقريب في الحكم دون الحمل على مر الحق (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) أي من النفاق والبغض للاسلام وأهله وان اجتهدوا في اخفائه وكذبهم في حلفهم وعذرهم (فاعرض عنهم) أي عن عتابهم بالصفح لانهم أقل من أن يحسب لهم حساب (و) لكن (عظهم) أي خوفهم الله القادر على انتقامه (وقل لهم في أنفسهم) أي في شأنهم أو خاليا بهم فان النصح في السر أنجع (قولا بليغا) أي مؤثرا فيهم أي ازجرهم ليرجعوا عن كفرهم وقيل هذا منسوخ بآية القتال ولما أمر الله تعالى بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذم من حاكم الى غيره وهدده وختم تهديده بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاعراض عنه والوعظ له فكان التقدير فما أرسلناك وغيرك من الرسل الا للرفق بالامة والصفح عنهم والدعاء لهم على غاية الجهد والنصيحة عطف عليه قوله (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع) أي فيما يأمر به ويحكم لان منصبه الشريف يقتضي ذلك (باذن الله) أي بارادته من أنه يطاع فلا يعصى ولا يخالف (ولو أنهم اذ) أي حين (ظلموا أنفسهم) أي بالتحاكم الى الطاغوت أو غيره (جاؤك) اى تائبين (فاستغفروا الله) بالتوبة والاخلاص (واستغفر) اى شفع (لهم الرسول) اى اعتذروا اليه حتى انتصب لهم شفيعا وانما عدل عن الخطاب تفخيما لشأنه (لوجدوا الله توابا) عليهم (رحيما) بهم وقرأ أبو عمرو بادغام الراء في اللام بخلاف عنه (فلا وربك) اى فوربك ولا مزيدة لتأكيد القسم (لا يؤمنون) اى يوجدون هذا الوصف ويجددونه (حتى يحكموك) أي يجعلوك حكما (فيما شجر) اى اختلف واختلط (بينهم) من كلام بعضهم لبعض للتنازع حتى كانوا كأغصان الشجرة في التداخل والتضايق (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا) اى

المذكورة خلفها الله (قوله يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) الآية أي احفظوا أنفسكم وقوموا باصلاحها (فان قلت) ظاهر الآية يقتضي عدم وجوب الامر بالمعروف

نوعامن الضيق (مما قضيت) به عليهم (ويسلموا تسليما) اى وينقادوا لك انقيادا بظواهرهم وبواطنهم وفي الصحيح ان الآية نزلت في الزبير وخصم له من الانصار وقد تشاجرا في شراج من الحرة كانا يستقيان بها النخل فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير اسق يا زبير ثم أرسل الى جارك فغضب الانصارى وقال يا رسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اسق يا زبير ثم احبس حتى يبلغ الجدر واستوف حقك ثم أرسله الى جارك وقيل نزلت في بشر المنافق واليهودى اللذين اختصما الى عمر (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا انفسكم) كما امرنا بنى اسرائيل او تعرضوا بها للقتل بالجهاد وأن مصدرية او مفسرة لأن كتبنا في معنى امرنا وقرأ ابو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى بكسر النون في الوصل والباقون بالضم (او اخرجوا من دياركم) اى التى هى لاشباحكم كاشباحكم لارواحكم توبة لربكم (ما فعلوه) اى المكتوب عليهم أى انا ما كتبنا عليهم الا طاعة الله ورسوله والرضا بحكمه ولو كتبنا عليهم القتل والخروج من الديار ما كان يفعله (الا قليل منهم) قال الحسن ومقاتل لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم القايل والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذى عافانا فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال ان من امتى لرجالا الايمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسى وقرأ ابن عامر قليلا بالنصب على الاستثناء والباقون بالرفع على البدل (ولو انهم) اى هؤلاء المنافقين (فعلوا ما يوعظون به) من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم (لكان خيرا لهم) في عاجلهم وآجلهم مما اختاروه لانفسهم (واشد تثبيتا) اى تحقيقا لايمانهم (واذا) اى لو ثبتوا (لآتيناهم من لدنا) اى من عندنا (اجرا عظيما) وهو الجنة (ولهديناهم صراطا مستقيما) يصلون بسلوكه جنات القدس وتفتح لهم ابواب الغيب قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم رواه ابو نعيم في حليته وروى ان ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه يعرف الحزن في وجهه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غير لونك فقال يا رسول الله ما بى مرض ولا وجع غير أنى اذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى القاك ثم ذكرت الآخرة واخاف ان لا اراك لانك ترفع مع النبيين وانى ان دخلت الجنة كنت في منزلة ادنى من منزلتك وان لم ادخل الجنة لا اراك ابدا فانزل الله تعالى (ومن يطع الله) في امتثال اوامره والوقوف عند زواجره (والرسول) اى في كل ما اراده فان منصب الرسالة يقتضى ذلك لاسيما من بلغ نهايتها (فاولئك مع الذين انعم الله عليهم) اى معدود من حزبهم فهو بحيث اذا اراد زيارتهم او رؤيتهم وصل اليهم بسهولة وقوله تعالى (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) بيان للذين حال منه او من ضميره قسمهم اربعة اقسام بحسب منازلهم في العلم والعمل وحث كافة الناس على ان لا يتاخروا عنهم وهم الانبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال الى درجة التكميل ثم الصديقون الذين صعدت نفوسهم تارة بمعراج النظر في الحجج والآيات واخرى بمعارج التصفية والرياضات الى اوج العرفان حتى اطلعوا على الأشياء واخبروا عنها على

(قلت) والنهى عن المنكر لا اسلم ذلك فانهما انما تقتضى ان المطيع لا يؤاخذ بذنوب الفعل اولان الآية مخصوصة بما اذا خاف الانسان عند الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على نفسه او عرضه او ماله

ماهى

ماهي عليه ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في اظهار الحق حتى بذلوا مهجتهم في اعلاء كلمة الله تعالى ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته (وحسن) أي وما أحسن (أولئك) أي العالون الاخلاق السابقون (رفيقا) من الرفق وهو لين الجانب ولطافة الفعل وهو مما يستوي واحده وجمعه أي رفيقا في الجنة بأن يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم وان كان مقرهم في درجات عالية بالنسبة الى غيرهم روى عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلا قال يارسول الله الرجل يحب قوما ولم يلحق بهم قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب وروى أيضا أن رجلا قال يارسول الله متى الساعة قال وما أعددت لها فلم يذكر كثيرا الا أنه يحب الله ورسوله قال فأنت مع من أحببت وقوله تعالى (ذلك) أي كونهم مع من ذكر مبتدا خبره (الفضل من الله) أي تفضل به عليهم لا انهم نالوه بطاعتهم (وكفى بالله عليما) أي بجزاء من أطاعه أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله روى ابو هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قاربوا وسددوا واعلموا أنه لا ينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل (يا أيها الذين امنوا) أي أقروا بالايمان (خذوا حذركم) من عدوكم أي احترزوا منه وتيقظوا له والحذر والحذر كالاثر والاثر (فانفروا) أي اخرجوا الى قتاله مسرعين (ثبات) أي جماعات متفرقين سرية في أثر سرية جمع ثبة وهي الجماعة من الرجال فوق العشرة (أو انفروا جميعا) أي مجتمعين كوكبة واحدة قال البيضاوي والآية وان نزلت في الحرب لكن يقتضي اطلاق لفظها وجوب المبادرة الى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات (وان منكم) الخطاب لعسكر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين منهم والمنافقين (لمن ليبطئن) أي ليتأخرن وليتثاقلن عن القتال وهم المنافقون كعبد الله بن أبي المنافق وأصحابه وانما قال منكم لاجتماعهم مع أهل الايمان في الجنسية والنسب واظهار الاسلام لا في حقيقة الايمان (فان أصابتكم مصيبة) كقتل وهزيمة (قال) هذا المتباطئ جهلا منه وغلطة (قد أنعم الله على اذ) أي حين (لم أكن معهم شهيدا) أي حاضرا فأصاب (ولئن) لام قسم (أصابكم فضل) أي فتح وظفر وغنيمة (من الله) الذي كل شئ بيده (ليقولن) نادما على مافاته من الاغراض الدنيوية واكده تنبيها على فرط تحسره وقوله تعالى (كأن) مخففة واسمها محذوف أي كأنه (لم تكن بينكم وبينه مودة) أي معرفة وصداقة رجع الى قوله قد أنعم الله على اعتراض بين القول ومقوله وهو (يا) للتنبيه (ليتني كنت معهم فأفوز) أي بمشاركتهم في ذلك (فوزا عظيما) أي آخذ حظا وافرا من الغنيمة وقرأ ابن كثير وحفص بالتاء في تكن على التأنيث والباقون بالياء على التذكير ولما بين أن محط رحال القاعد عن الجهاد الدنيا علم أن قصد المجاهد الآخرة فقال تعالى (فليقاتل في سبيل الله) أي لاعلاء دينه (الذين يشرون) أي يبيعون برغبة (الحيوة الدنيا بالآخرة) وهم المؤمنون والمعنى ان تباطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة ويشرون أي يأخذون وهم المتباطئون فيختارونها على الآخرة والمعنى حثهم على ترك ما حكى عنهم وفي هذا استعمال المشترك في مدلوليه (ومن يقاتل في سبيل الله) لاعلاء دينه (فيقتل) أي يستشهد

(قوله قالوا لا علم لنا) ان قلت كيف قال ذلك مع انهم عالمون بماذا أجيبوا (قلت) هذا جواب دهشة وحيرة حين تطيش عقولهم من زفرة جهنم أو المعنى لا علم لنا بحقيقة ما أجابوا به لانا

(أو يغلب) أي يظفر بعدوه (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أي ثوابا جزيلا وانما وعد له الاجر العظيم غلب أو غلب ترغيبا في القتال وتكذيبا لقول المثبطين قد أنعم الله علي اذ لم أكن معهم شهيدا وانما قال فيقتل أو يغلب تنبيها على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة أو الدين بالظفر والغلبة وان لا يكون قصده بالذات الى القتل بل الى اعلاء كلمة الحق واظهار الدين روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته الا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القانت الصائم الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجعه الله الى أهله انما يرجعه من غنيمة وأجر أو يتوفاه فيدخله الجنة وقوله تعالى (وما لكم لا تقاتلون) استفهام توبيخ اي لا مانع لكم من القتال (في سبيل الله) لاعلاء دينه وقوله تعالى (والمستضعفين) عطف على اسم الله أي وفي سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الاسر وصونهم عن العدو وقوله تعالى (من الرجال والنساء والولدان) بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين حبسهم الكفار عن الهجرة واذوهم قال ابن عباس كنت أنا وأمي منهم وانما ذكر الولدان مبالغة في الحث وتنبيها على تناهي المشركين بحيث بلغ اذاهم الولدان وان دعوتهم اجيبت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استنزال الرحمة واستدفاع البلية وقيل المراد بهم العبيد والاماء وهم جمع وليد (الذين يقولون) اي داعين يا (ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها) اي بالكفر (واجعل لنا من لدنك) اي من عندك (وليا) يتولى امرنا (واجعل لنا من لدنك نصيرا) يمنعنا منهم وقد استجاب الله تعالى دعاءهم فيسر لبعضهم الخروج الى المدينة وبقي بعضهم الى ان فتحت مكة له صلى الله عليه وسلم فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن اسيد بفتح الهمزة وكسر السين فحماهم ونصرهم حتى صاروا اعزاءها وكان حينئذ ابن ثمان عشرة سنة والقرية مكة والظالم صفتها وتذكيره لتذكير ما اسند اليه فان اسم الفاعل او المفعول اذا جرى على غير من هو له كان كالفعل يذكر ويؤنث على حسب ما عمل فيه (الذين امنوا يقاتلون في سبيل الله) اي في طاعة الله (والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) اي في طاعة الشيطان (فقاتلوا) ايها المؤمنون (اولياء الشيطان) اي حزبه وجنوده وهم الكفار (ان كيد الشيطان) اي مكره بالمؤمنين (كان ضعيفا) بالاضافة الى كيد الله تعالى بالكافرين لا يعتد به فلا تخافوا اولياءه فان اعتمادهم على اضعف شئ واوهنه كما فعل الشيطان يوم بدر لما رأى الملائكة خاف ان تأخذه فهرب وخذلهم (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم) اي عن قتال الكفار وهم جماعة من الصحابة كانوا يلقون من المشركين اذى كثيرا قبل ان يهاجروا ويقولون يا رسول الله ائذن لنا في قتالهم فانهم قد آذونا فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا ايديكم فاني لم اومر بقتالهم (واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة) فلما هاجروا الى المدينة وامرهم الله تعالى بقتال المشركين شق ذلك على بعضهم كما قال تعالى (فلما كتب) اي فرض (عليهم القتال) قرأ ابو عمرو بكسر الهاء والميم في الوصل وحمزة والكسائي بضم الهاء

قوله من غنيمة هكذا في الاصول التي بايدينا ولعله مع غنيمة فليحرر لفظ الحديث

لانه لم الا ظاهره وانت تعلم ظاهره وباطنه بدليل آخر الآية فقيل المراد منه المبالغة في تحقيق نصحهم كمن يقول لغيره ما تقول في فلان فيقول انت اعلم بمعنى كأنه قيل لا يحتاج

والكم

والميم في الوصل وأمّا الوقف فالجميع بسكون الميم وحمزة بضم الهاء على أصله وكسرها الباقون (اذا فريق منهم يخشون) أي يخافون (الناس كخشية الله) أي كخشيتهم من الله (أو أشد خشية) من خشيتهم له ﴿ونصب أشد على الحال وجواب لما دل عليه اذا وما بعدها أي فاجأتهم الخشية (وقالوا) جزعا من الموت (ربنا لم كتبت علينا القتال لولا) أي هلا (أخرتنا الى أجل قريب) وهو الموت أي هلا تركتنا حتى نموت بآجالنا واختلفوا في هؤلاء الذين قالوا ذلك فقيل قاله قوم من المنافقين لان قوله لم كتبت علينا القتال لا يليق بالمؤمنين وقيل قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم قالوه خوفا وجبنا لا اعتقادا ثم تابوا وأهل الايمان يتفاضلون فيه وقيل هم قوم كانوا مؤمنين فلما كتب عليهم القتال نافقوا من الجبن وتخلفوا عن الجهاد وقرأ البزي في الوقف لمه بهاء بعد الميم بخلاف عنه والباقون بالميم بغير هاء والهاء ساقطة في الوصل للجميع (قل) لهم يا محمد (متاع الدنيا) أي ما يتمتع به فيها أو الاستمتاع بها (قليل) أي آيل الى الزوال (والآخرة) أي ثوابها وهو الجنة والنظر الى الله تعالى (خير لمن اتقى) عقاب الله بترك معاصيه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما الدنيا في الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع (ولا تظلمون) أي تنقصون من أعمالكم (فتيلا) أي قدر ما يكون في شق النواة كما مر عن عكرمة وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ونزل في المنافقين الذين قالوا في قتلى أحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا (أينما تكونوا) أيها الناس كلكم مطيعكم وعاصيكم (يدرككم الموت) أي فانه طالب لا يفوته هارب واختلف كتاب المصاحف في رسم أينما فمنهم من كتب ما مقطوعة من أين ومنهم من وصلها (ولو كنتم في بروج) أي حصون برج داخل برج أو كل واحد منكم داخل برج (مشيدة) أي مرتفعة كل واحد منها لاحق في الهواء منيع فلا تخشوا القتال خوف الموت ونزل في اليهود لما قالوا حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه (وان تصبهم) أي اليهود (حسنة) أي خصب ورخص في السعر (يقولوا هذه من عند الله) لنا لا مدخل لك فيها (وان تصبهم سيئة) أي جدب وغلاء في الاسعار (يقولوا هذه من عندك) أي من شؤم محمد وأصحابه وقيل المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر والسيئة القتل والهزيمة يوم أحد يقولون هذه من عندك أي أنت الذي حملتنا عليه يا محمد فعلى هذا يكون هذا قول المنافقين (قل) لهم يا محمد (كل) أي الحسنة والسيئة (من عند الله) ثم عيرهم بالجهل فقال (فمال هؤلاء القوم) أي اليهود أو المنافقين (لا يكادون يفقهون) أي لا يقاربون أن يفهموا (حديثا) يوعظون به وهو القرآن لانهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا أن الكل من عند الله أو حديثا ما يلقى اليهم كبهائم لا افهام لهم وما استفهام تعجب من فرط جهلهم ونفي مقاربة الفعل أشد من نفيه (ما أصابك) أي أيها الانسان (من حسنة) أي نعمة دنيوية أو أخروية (فمن الله) أتتك تفضلا منه والايمان أحسن الحسنات قال الامام انهم اتفقوا على أن قوله ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله المراد به كلمة الشهادة (وما أصابك من سيئة) أي بلية وأمر تكرهه (فمن نفسك) أتتك

فيه الى شهادة لظهوره (قوله اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) فان قلت كيف قال الحواريون وهم خلص

حيث ارتكبت ما يستوجبها من الذنوب (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى قل كل من عند الله وبين قوله فمن نفسك (أجيب) بأن قوله قل كل من عند الله اى الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله وقوله فمن نفسك اى ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك كما قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وقيل ان هذه الآية متصلة بما قبلها والقول فيه مضمر تقديره فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك قل كل من عند الله (وأرسلناك) يا محمد (للناس) أى كافة وقوله تعالى (رسولا) حال قصد بها التأكيد (وكفى بالله شهيدا) على ارسالك بنصب المعجزات ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم من أطاعني فقد أطاع الله ومن أحبني فقد أحب الله فقال بعض المنافقين ما يريد هذا الرجل الا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم نزل (من يطع الرسول فقد أطاع الله) لانه فى الحقيقة مبلغ والآمر هو الله تعالى (ومن تولى) اى أعرض عن طاعتك فلا يهمنك (فما أرسلناك) يا محمد (عليهم حفيظا) اى حافظا لاعمالهم وتحاسبهم عليها انما عليك البلاغ وعلينا الحساب فنجازيهم وهذا قبل الامر بالقتال (ويقولون) اى المنافقون اذا أمرتهم بشىء من امرنا وهم بحضرتك (طاعة) اى امرنا وشأننا طاعة اى نطيعك فيما تأمرنا به (فاذا برزوا) اى خرجوا (من عندك بيت طائفة منهم) اى اضمرت (غير الذى تقول) لك فى حضورك من الطاعة اى عصيتك وقرأ أبو عمرو وحمزة بادغام التاء فى الطاء فانها عندهما ساكنة اى التاء فاذا سكنت التاء قبل الطاء وجب ادغامها فيها والباقون بالاظهار فان التاء عندهم مفتوحة (والله يكتب) اى يأمر بكتب (ما يبيتون) اى ما يسرون من النفاق فى صحائفهم ليجازوا عليه (فأعرض عنهم) اى قال المبالاة بهم (وتوكل على الله) اى ثق به فانه كافيك معرتهم وينتقم لك منهم (وكفى بالله وكيلا) اى مفوضا اليه (أفلا يتدبرون) اى يتأملون (القرآن) وما فيه من المعانى البديعة (ولو كان من عند غير الله) اى ولو كان من كلام البشر كما زعم الكفار (لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) اى تناقضا فى معانيه وتباينا فى نظمه فكان بعضه فصيحا وبعضه ركيكا وبعضه تصعب معارضته وبعضه تسهل وتخالفا عن الصدق فى الاخبار عن الغيب بما كان وما يكون أفلا يتفكرون فيه فيعرفون عدم التناقض فيه وصدق ما يخبرهم به انه كلام الله ولان ما لا يكون من عند الله لا يخلو عن تناقض واختلاف والمراد من التقييد بالكثير المبالغة فى اثبات الملازمة اى لو كان من عند غير الله لزم أن يكون فيه اختلاف كثير فضلا عن القليل لكنه من عند الله فليس فيه اختلاف لا كثير ولا قليل (واذا جاءهم) أى المنافقين (أمر) أى خبر عن سرايا النبي صلى الله عليه وسلم (من الامن) اى الفتح والغنيمة (أو الخوف) اى القتل والهزيمة (أذاعوا به) أى أفشوه وكانت اذاعتهم مفسدة والباء مزيدة او لتضمن الاذاعة معنى التحدث وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث السرايا فاذا غلبوا او بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم فيفشونه ويحدثون به قبل أن يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضعفون به قلوب المؤمنين ويتأذى النبي صلى الله عليه وسلم (ولو ردوه) أى ذلك الخبر (الى الرسول) أى لم يحدثوا به حتى يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى يحدث به (والى أولى

اتباع عيسى ذلك وهو كفر لانه شك فى قدرة الله تعالى وذلك كفر (قلت) الاستفهام المذكور استفهام عن الفعل لا عن القدرة كما يقول الفقير لافق القادر هل تقدر أن

الامر منهم) اى ذوى الرأى من الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله تعالى عنهم (لعلمه) على اى وجه يذكر (الذين يستنبطونه منهم) اى يستخرجون تدابيره بتجاربهم وانظارهم هل ينبغى ان يكتم او يفشى (ولولا فضل الله عليكم) بالاسلام (ورحمته) لكم بارسال الرسل وانزال القرآن (لاتبعتم الشيطان) فيما يأمركم به من الكفر والمعاصى (الا قليلا) اى منكم فانهم لا يتبعونه حفظا من الله بما وهبهم الله من صحيح العقل والعصمة تقال فى حق غير الانبياء أيضا لانها المنع من المعصية ولكن الشائع أن يقال فى حق النبى معصوم وفى حق غيره محفوظ (فقاتل) يا محمد (فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك) فلا تهتم بتخلفهم عنك اى قاتل ولو وحدك فانك موعود بالنصر من الله وليس النصر الا بيده وما كان ليأمرك بشئ الا وأنت كفؤ له فأنت كفؤ لمقاتلة الكفار وان كانوا أهل الارض كلهم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد ودعا الناس الى الخروج فكرهه بعضهم فانزل الله هذه الآية (تنبيه) الفاء فى قوله تعالى فقاتل فى سبيل الله قال البغوى جواب عن قوله تعالى ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما فقاتل انتهى (وحرض المؤمنين) أى حثهم على القتال ورغبهم فيه اذ ما عليك فى شأنهم الا التحريض (عسى الله أن يكف بأس) اى حرب (الذين كفروا) وعسى فى كلام الله وعد واجب الوقوع بخلافها فى كلام المخلوق (والله أشد بأسا) اى صولة منهم (وأشد تنكيلا) اى عقوبة منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لاخرجن ولو وحدى فخرج بسبعين راكبا الى بدر الصغرى فكف الله بأس الذين كفروا بالقاء الرعب فى قلوبهم ومنع أبا سفيان من الخروج كما تقدم فى سورة آل عمران (من يشفع شفاعة حسنة) راعى بها حق مسلم بأن دفع عنه بها ضررا أو جلب اليه نفعا ابتغاء وجه الله ومنها الدعاء للمسلم قال صلى الله عليه وسلم من دعا لاخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثله اى مثل ذلك اى ودعاء الملك لا يرد (يكن له نصيب) اى أجر (منها) اى بسببها قال أبو موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا اذ جاءه رجل يسأل أو يطلب حاجة أقبل علينا بوجهه فقال اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما شاء (ومن يشفع شفاعة سيئة) مخالفة للشرع (يكن له كفل) اى نصيب من الوزر (منها) اى بسببها (وكان الله على كل شئ مقيتا) قال ابن عباس مقتدرا مجازيا قال الشاعر

وذى ضغن (أى رب صاحب حقد) كففت الضغن عنه
وكنت على اساءته (اى اساءة لذى الضغن) مقيتا

اى مقتدرا وقال مجاهد شاهدا وقال قتادة حفيظا وقيل معناه على كل حيوان مقيتا اى يوصل القوت اليه وجاء فى الحديث كفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها) التحية هى دعاء الحياة ولكن جمهور المفسرين على أن ذلك فى السلام أى اذا سلم عليكم مسلم فاجيبوه بأحسن مما سلم فاذا قال السلام عليكم فيزيد الراد ورحمة الله فاذا قال ورحمة الله فيزيد الراد وبركاته (أو ردوها) اى بان ترد عليه بمثل ما سلم روى ان رجلا قال لرسول الله

(فان قلت) لو كان ماذكر ... وأنت تعلم استطاعته لذلك ... تستطيع أن تقوم معى ربك كقولك لآخر هل ... هل يسهل عليك ان تنال لا استطاعة القدرة والمعنى استطاعة المطاوعة تعطى شيأ وهذه نسمى

صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال آخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال آخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك أي السلام ورحمة الله وبركاته فقال الرجل نقصتني اى الفضل على سلامي فاين ما قال الله اى من الفضل وتلا الآية فقال لم تترك لي فضلا فرددت عليك مثله لان ذلك هو النهاية لاستجماعه أقسام المطالب وهي السلامة من المضار وحصول المنافع وثبوتها وظاهر الآية أنه لو رد عليه باقل مما سلم عليه به انه لا يكفي وظاهر كلام الفقهاء انه يكفي وتحمل الآية على انه الاكمل وابتداء السلام على المسلم سنة عين من المنفرد وكفاية من الجماعة ورده فرض عين اذا كان المسلم عليه واحدا او كفاية من الجماعة ويشترط في الرد الفور والوجوب مستفاد من الامر والفور من الفاء وأما كونه كفاية فلخبر أبي داود يجزئ عن الجماعة اذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزئ عن الجلوس ان يرد أحدهم والراد منهم هو المختص بالثواب ويسقط الحرج عن الباقين وان أجابوا كلهم كانوا مؤدين للفرض سواء كانوا مجتمعين أم متفرقين كصلاة الجنازة ولا يسقط الفرض برد الصبي المميز (فان قيل) قد سقط به فرض الصلاة على الجنازة (أجيب) بأن المقصود من الصلاة الدعاء والصبي أقرب الى الاجابة والمقصود من السلام الامان والصبي ليس من أهله ولا يسقط أيضا برد من لم يسمع ولو سلم على امرأة ان كان يباح له النظر اليها كمحرمه وزوجته يسن له السلام عليها ووجب عليها الرد والا كره له ابتداء وردا وحرم عليها ابتداء وردا هذا اذا كانت مشتهاة فان كانت عجوزا أو جماعة نسوة لم يكره ويجب الرد لانتفاء خوف الفتنة ولا يسن ابتداؤه على قاضي حاجة ولا على آكل ولا على من في حمام ولا على مصل ومؤذن وخطيب وملب ومستغرق القلب بالدعاء ولا يجب الجواب عليهم ويحرم ابتداؤه على الكافر ويرد عليه اذا سلم بعليك فقط وهذا باب طويل قد بينته السنة وقد أكثرت منه في شرح المنهاج (ان الله كان) اى ازلا وأبدا (على كل شئ حسيبا) اى محاسبا فيجازي عليه وقال مجاهد حفيظا وقال أبو عبيدة كافيا يقال حسبي هذا اى كفاني وقوله تعالى (الله لا اله الا هو) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (ليجمعنكم) اللام لام القسم اى والله ليجمعنكم الله من قبوركم (الى) في (يوم القيامة) وسميت بذلك لان الناس يقومون من قبورهم قال تعالى يوم يخرجون من الاجداث سراعا وقيل لقيامهم الى الحساب قال تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين (لا ريب) اى لا شك (فيه) اى في ذلك اليوم او في الجمع (ومن اصدق من الله حديثا) اى قولا (فان قيل) الصدق لا يتفاوت كالعلم اذ لا يقال هذا الصدق أصدق من هذا الصدق كما لا يقال هذا العلم أعلم من هذا العلم (أجيب) بان الصدق صفة للقائل لا صفة للحديث اى لا أحد غير الله أصدق منه لان غيره يتطرق الى خبره الكذب وذلك مستحيل في حقه تعالى والانبياء مخبرون عن الله تعالى وقرأ حمزة والكسائي باشمام الصاد اى بحرف متولد بين الصاد والزاي (فما لكم) اى فما شأنكم صرتم (في المنافقين) اى في أمرهم (فئتين) اى فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم وذلك ان ناسا منهم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج الى البدو لاجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة

مرادا لما أنكر عليهم عيسى بآخر الآية (قلت) انكاره عليهم انما كان لاتيانهم بلفظ لا يليق ذكره بالمؤمن الخالص (قوله ولا أعلم ما في نفسك) ان قلت كيف قال عيسى ذلك مع أن كل ذي نفس

حتى يلحقوا المشركين فاختلف المسلمون فى اسلامهم وقال مجاهد هم قوم خرجوا الى المدينة وأسلموا ثم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج الى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة واختلف المسلمون فيهم فقائل يقول هم منافقون وقائل يقول هم مؤمنون وقال قوم فى الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين فلما رجعوا قال بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اقتلهم فانهم منافقون وقال بعضهم اعف عنهم فانهم تكلموا بالاسلام (والله أركسهم) اى نكسهم بأن صيرهم الى النار أوردهم الى حكم الكفرة (بما كسبوا) من الكفر والمعاصى (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) اى أتعدونهم من جملة المهتدين والاستفهام فى الموضعين للانكار (ومن يضلل الله) اى ومن يضلله الله (فلن تجد له سبيلا) اى طريقا الى الهدى (ودوا) اى تمنوا (لو تكفرون كما كفروا فتكونون) أنتم وهم (سواء) فى الكفر *(تنبيه)* قوله تعالى فتكونون لم يرد به جواب التمنى لان جوابه بالفاء منصوب وانما أراد النسق اى ودوا لو تكفرون وودوا لو تكونون سواء مثل قوله ودوا لو تدهن فيدهنون اى ودوا لو تدهن وودوا لو يدهنون (فلا تتخذوا منهم أولياء) اى فلا توالوهم وان أظهروا الايمان (حتى يهاجروا فى سبيل الله) معكم هجرة صحيحة تحقق ايمانهم قال عكرمة هى هجرة أخرى والهجرة على ثلاثة أوجه هجرة المؤمنين فى أول الاسلام وهى قوله تعالى للفقراء المهاجرين وقوله تعالى ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ونحوهما من الآيات وهجرة المنافقين وهى خروج الشخص مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صابرا محتسبا لا لاغراض الدنيا وهى المرادة ههنا وهجرة عن جميع المعاصى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر ما نهى الله عنه (فان تولوا) أى اعرضوا عن التوحيد والهجرة وأقاموا على ما هم عليه (فخذوهم) اى بالاسر (واقتلوهم حيث وجدتموهم) اى فى حل أو فى حرم كسائر الكفرة (ولا تتخذوا منهم وليا) توالونه (ولا نصيرا) تنتصرون به على عدوكم اى بل جانبوهم مجانبة كلية وقوله تعالى (الا الذين يصلون) استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم اى الا الذين يصلون اى ينتهون (الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) اى عهد بالامان لهم ولمن وصل اليهم كما عاهد النبى صلى الله عليه وسلم وقت خروجه الى مكة هلال بن عمير الاسلمى على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن لجأ اليه فله من الجوار مثل ماله وقوله تعالى (أو جاؤكم) عطف على الصلة اى أو الذين جاؤكم وقوله تعالى (حصرت) أى ضاقت حال باضمار قد أى وقد ضاقت (صدورهم أن يقاتلوكم) أى عن قتالكم مع قومهم (أو يقاتلوا قومهم) معكم اى ممسكين عن قتالكم وقتالهم فلا تتعرضوا لهم باخذ ولا قتل وهذا وما بعده منسوخ بآية القتال وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار تاء تأنيث حصرت عند الصاد وأدغمها الباقون (ولو شاء الله) تسليطهم عليكم (لسلطهم عليكم) بان يقوى قلوبهم ويبسط صدورهم ويزيل الرعب (فلقاتلوكم) ولكنه لم يشأ فالقى فى قلوبهم الرعب (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم) اى بان لم يتعرضوا لكم (وألقوا اليكم السلم) أى الاستسلام والانقياد (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى طريقا بالاخذ أو القتل (ستجدون) أى عن قريب بوعد لا شك فيه (آخرين) لهم من المنافقين يروى

لان النفس فهو ذو جسم جوهر قائم بذاته متعلق بالجسم تعلق التدبير والله منزه عن ذلك (قلت) النفس كما تطلق على ذلك تطلق على ذات الشئ وحقيقته كما يقال نفس الذهب والفضة محبوبة اى ذاتهما والمراد

عن ابن عباس أنه قال هم أسد وغطفان كانوا حاضرى المدينة تكلموا بالاسلام رياء وهم غير مسلمين وكان الرجل منهم يقول له قومه بماذا أسلمت فيقول آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء واذا لقوا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا انا على دينكم يريدون بذلك الامن من الفريقين كما قال تعالى (يريدون أن يأمنوكم) باظهار الايمان عندكم (ويأمنوا قومهم) باظهار الكفر اذا رجعوا اليهم (كلما ردوا) أى دعوا (الى الفتنة) أى الكفر (اركسوا) اى انقلبوا منكوسين (فيها) اى الفتنة أقبح قلب (فان لم يعتزلوكم) اى بترك قتالكم (ويلقوا) اى ولم يلقوا (اليكم السلم ويكفوا) أى ولم يكفوا (أيديهم) عن قتالكم (فخذوهم) اى بالاسر (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى وجدتموهم (وأولئكم) اى أهل هذه الصفة (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أى حجة واضحة فى التعرض لهم بالقتل والسبى لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم (وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا) اى ما ينبغى أن يصدر منه قتل له بغير حق (الا خطأ) اى مخطئا فى قتله من غير قصد نزلت فى عياش بن ربيعة وذلك انه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة وأسلم ثم خاف أن يظهر الاسلام لاهله فخرج هاربا الى المدينة وتحصن فى أطم من آطامها فجزعت أمه لذلك جزعا شديدا وقالت لابنيها الحرث وأبى جهل ابنى هشام وهما أخواه لامه والله لا يظلنى سقف ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى تأتيانى به فخرجا فى طلبه وخرج معهما الحرث بن زيد حتى أتوا المدينة فاتوا عياشا وهو فى الاطم وقالوا له انزل فان امك لم يأوها سقف بيت بعدك وقد حلفت أن لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى ترجع اليها ولك والله علينا عهد أن لا نكرهك على شئ ولا نحول بينك وبين دينك فلما ذكروا له ذلك أى جزع أمه وأوثقوا بالله نزل اليهم فاخرجوه من المدينة ثم أوثقوه وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ثم قدموا به الى أمه فلما أتاها قالت له والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذى آمنت به ثم تركوه موثقا مطروحا فى الشمس ما شاء الله فاعطاهم الذى أرادوا فاتاه الحرث بن زيد فقال ياعياش أهذا الذى أنت عليه فوالله لئن كان هدى لقد تركت الهدى ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها فغضب عياش من مقالته وقال والله لا ألقاك خاليا أبدا الا قتلتك ثم ان عياشا بعد ذلك أسلم وهاجر ثم أسلم الحرث بن زيد بعده وهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عياش حاضرا يومئذ ولم يشعر باسلامه فبينما عياش بظهر قباء اذ لقى الحرث فقتله فقال الناس ويحك أى شئ صنعت انه قد أسلم فرجع عياش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له قد كان من أمرى وأمر الحرث ما قد علمت وانى لم أشعر باسلامه حتى قتلته فنزلت الآية (تنبيه) قوله تعالى الا خطأ اما منصوب على الحال أى وليس من شان المؤمن ان يقتل مؤمنا فى حالة من الاحوال الا حال الخطأ واما مفعول لاجله أى لا يقتله لعلة الا للخطا وقيل الا بمعنى ولا أى ليس له قتله فى حال من الاحوال ولا خطأ نظيره قوله تعالى انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم وقوله تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم (ومن قتل مؤمنا خطأ) كأن قصد رمى غيره كصيد أو شجر فاصابه (فتحرير رقبة) أى فعليه أى فواجبه تحرير رقبة كاملة الرق فلا يجزى مكاتب كتابة صحيحة ولا أم ولد والتحرير الاعتاق ويعبر عن النسمة بالرقبة كما يعبر عنها

بالرأس

هنا الثانى (قوله ما قلت لهم الا ما أمرتنى به) فان قلت كيف قال ذلك مع أنه قال لهم أيضا غير ما ذكر فى الآية (قلت) معناه ما قلت لهم فيما يتعلق بالاله (فان قلت) عيسى حى فى السماء فكيف قال فلما توفيتنى (قلت) المراد

بالرأس (مؤمنة) أى محكوم بإسلامها وان كانت صغيرة ولو كان اسلامها بتبعية الدار أو السابى سليمة عما يخل بالعمل (ودية مسلمة) أى مؤداة (الى أهله) أى ورثة المقتول يقتسمونها كسائر المواريث (الا ان يصدقوا) أى يتصدقوا بها عليه بان يعفوا عنها وسمى العفو عنها صدقة حثا عليه وتنبيها على فضله قال صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة و بينت السنة ان دية الخطا مائة من الابل عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون ابن لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة وان عاقلة القاتل تحملها عنه وهم عصبته الا أصله وفرعه موزعة عليهم على ثلاث سنين على الغنى منهم نصف دينار والمتوسط ربع دينار كل سنة فان لم يفوا فمن بيت المال فان تعذر فعلى الجانى (فان كان) اى المقتول (من قوم عدو لكم) اى محاربين (وهو) اى والحال أنه (مؤمن) أى ولم يعلم القاتل ايمانه (فتحرير) أى فالواجب على القاتل تحرير (رقبة مؤمنة) ولا دية تسلم الى أهله اذ لا وراثة بينه وبينهم لانهم محاربون (وان كان) اى المقتول (من قوم) أى كفرة أيضا عدو لكم (بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد كأهل الذمة وهو كافر مثلهم (فدية) اى فالواجب فيه دية (مسلمة) أى مؤداة (الى أهله) وهى ثلث دية المؤمن ان كان نصرانيا أو يهوديا تحل مناكحته وثلثا عشرها ان كان مجوسيا أو كتابيا لا تحل مناكحته (وتحرير رقبة مؤمنة) على قاتله (فمن لم يجد) أى الرقبة بان فقدها وما يحصلها به (فصيام) أى فالواجب عليه صيام (شهرين متتابعين) حتى لو أفطر يوما واحدا لغير حيض أو نفاس وجب الاستئناف ولم يذكر تعالى الانتقال الى الطعام كالظهار وبه قال الشافعى رضى الله تعالى عنه فى أصح قوليه وقوله تعالى (توبة من الله) نصب على المصدر أى وتاب عليكم توبة أو على المفعول له أى وشرع لكم ذلك توبة مأخوذة من تاب الله عليه اذا قبل توبته (وكان الله) أى ولم يزل (عليما) أى بأحوالكم وبما يصلحكم فى الدنيا والآخرة (حكيما) فيما دبره لكم من نصب الزواجر بالكفارات وغيرها فالزموا أوامره وباعدوا زواجره لتفوزوا بالعلم والحكمة (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) بأن يقصد قتله بما يقتل غالبا عالما بايمانه (فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه) أى أبعده من رحمته (وأعدله عذابا عظيما) فى النار وهذا مخصوص بالمستحل له كما قاله عكرمة وغيره ويؤيده ان الآية نزلت فى مقيس بن صبابة وجد أخاه هشاما قتيلا فى بنى النجار ولم يظهر قاتله فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يدفعوا اليه ديته فدفعوا اليه ثم حمل على مسلم فقتله ورجع الى مكة مرتدا أو المراد من الآية التغليظ كقوله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين على تفسير من كفر بمن لم يحج وكقوله صلى الله عليه وسلم للمقداد لا تقتله فان قتلته فانه بمنزلتك قبل أن تقتله وانك بمنزلته قبل أن تقول الكلمة التى قال أو ان هذا جزاؤه ان جوزى ولا بدع فى خلف الوعيد لقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء أو المراد بالخلود المكث الطويل فان الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم ولهذا لم يذكر فى الآية أبدا وما روى عن ابن عباس أنه قال لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمدا كما رواه الشيخان أراد به التشديد كما قاله البيضاوى اذ روى عنه خلافه رواه البيهقى فى سننه وبينت آية البقرة ان قاتل

بالتوفى النوم كما مر مع
زيادة فى قوله فى آل عمران
انى متوفيك ورافعك الى
مع ان السؤال انما يتوجه
على قول من قال ان
السؤال والجواب وجدا
يوم رفعه الى السماء واما
من قال انهما يكونان يوم

العمد يقتل به وانّ عليه الدية ان عفى عنه وسبق قدرها وبينت السنة ان بين العمد والخطا قتلا يسمى شبه العمد وهو أن يقتله بما لا يقتل غالبا فلا قصاص فيه بل فيه دية كالعمد فى الصفة والخطا فى التأجيل والحمل وهو أى العمد أولى بالكفارة من الخطا (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم) اى سافرتم للجهاد (فى سبيل الله فتبينوا) روى أن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم غزت أهل فدك فهربوا وبقى رجل يقال له مرداس لانه كان على دين المسلمين فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فالجأ غنمه الى عاقول من الجبل وصعد هو الى الجبل فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون فلما سمع التكبير علم انهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر ونزل وهو يقول لا اله الا الله محمد رسول الله السلام عليكم فتغشاه أسامة بن زيد فقتله واستاق غنمه فنزلت ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجدا شديدا وقد كان سبقهم قبل ذلك الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلتموه ارادة ما معه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على أسامة بن زيد فقال يارسول الله استغفر لى فقال وكيف بلا اله الا الله قال اسامة فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها على حتى وددت انى لم أكن أسلمت الا يومئذ ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لى ثلاث مرات وقال أعتق رقبة وقال عكرمة عن ابن عباس قال مر رجل من بنى سليم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غنم له فسلم عليهم قالوا ما سلم عليكم الا ليعوذ منكم فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه وأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقرأ حمزة والكسائى بالثاء المثلثة مكان الباء الموحدة وبالباء الموحدة مكان الياء المثناة تحت وبالتاء المثناة فوق مكان النون فهو من التثبت والباقون من البيان (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام) أى لمن حياكم بتحية الاسلام وقرأ نافع وابن عامر وحمزة بغير ألف بعد اللام من السلام أى الاستسلام والانقياد والباقون بالالف (لست مؤمنا) وانما فعلت ذلك متعوذا (تبتغون عرض الحيوة الدنيا) أى تطلبون ماله الذى هو حطام سريع النفاد (فعند الله مغانم كثيرة) تغنيكم عن قتل مثله لماله (كذلك كنتم من قبل) أى أول ما دخلتم فى الاسلام تفوهتم بكلمة الشهادة فحصنتم بها أموالكم ودماءكم من غير أن تعلم مواطأة قلوبكم ألسنتكم (فمن الله عليكم) أى بالاشتهار بالايمان والاستقامة فى الدين (فتبينوا) أى وافعلوا بالداخلين فى الاسلام كما فعل الله بكم ولا تبادروا الى قتلهم ظنا انهم دخلوا اتقاء وخوفا فان ابقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل امرئ مسلم وتكريرها تأكيد لتعظيم الامر بالتبيين وترتيب الحكم على ما ذكر من حالهم (ان الله كان) ولم يزل (بما تعملون خبيرا) أى عالما به وبالغرض منه فيجازيكم به فلا تتساهلوا فى القتل واحتاطوا فيه (لا يستوى القاعدون) اى عن الجهاد حال كونهم (من المؤمنين) روى أن زيد بن ثابت أخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها على فقال يارسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان رجلا أعمى فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذى اى

القيامة وعليه الجمهور فلا اشكال (قوله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) اى يوم القيامة فان قلت كيف قال ذلك مع ان الصدق نافع فى الدنيا أيضا (قلت) نفعه بالنسبة الى نفع يوم القيامة الذى هو

تكسر ثم سرى عنه أى أزيل وكشف ما به من برحاء الوحى (غير أولى الضرر) أى من زمانة أو عمى أو نحوه فقال اكتب لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر وقرأ نافع وابن عامر والكسائى بنصب الراء على الحال من القاعدين او الاستثناء والباقون بالرفع صفة للقاعدين لانه لم يقصد به قوم بأعيانهم بل أراد به الجنس كما فى قوله * ولقد أمر على اللئيم يسبنى * فصح جعل غير صفة للقاعدين (والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) اى لا مساواة بينهم و بين من قعد عن الجهاد من غير علة *(تنبيه)* فائدة ذكر قوله تعالى لا يستوى القاعدون الخ تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد فى الجهاد رفعا لرتبته واتقاء عن انحطاط منزلته وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال ان فى المدينة لاقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد الا كانوا معكم فيه قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين) لضرر (درجة) اى فضيلة لاستوائهما فى النية وزيادة المجاهد بالمباشرة (وكلا) من القاعدين لضرر والمجاهدين (وعد الله الحسنى) اى الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم وانما التفاوت فى زيادة العمل المقتضى لمزيد الثواب (وفضل الله المجاهدين على القاعدين) لغير ضرر (أجرا عظيما) ويبدل منه (درجات منه) اى منازل بعضها فوق بعض من الكرامة وقوله تعالى (ومغفرة ورحمة) منصوبان بفعلهما المقدر (وكان الله) اى ولم يزل (غفورا) لاوليائه (رحيما) بأهل طاعته وروى أبو سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا سعيد من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة قال فعجب بها أبو سعيد فقال أعدها يا رسول الله ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض فقال وما هى يا رسول الله قال الجهاد فى سبيل الله وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها قالوا يا رسول الله أفلا تنذر الناس بذلك فقال ان فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض فاذا سألتموه فاسألوه الفردوس فانه اوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وانما يجب الجهاد على كل مسلم مكلف حر ذكر مستطيع له وهو فرض كفاية للآية المتقدمة اذا كان الكفار ببلادهم ويجب على الامام أن يغزوهم فى كل عام مرة بنفسه أو بنائبه أو بشحن الثغور بما يقاوم العدو وأما اذا دخلوا بلادنا والعياذ بالله تعالى تعين على أهل البلدة وعلى من دون مسافة القصر حتى على فقير وولد ومدين ورقيق بلا اذن ويجب على من هو فى مسافة القصر بقدر الكفاية وان أسر وا مسلما لزمنا النهوض لخلاصه ان رجى وان لم يدخلوا بلادنا * ونزل فى جماعة أسلموا ولم يهاجروا وقاتلوا خرجوا الى بدر وجعوا معهم فقتلوا مع الكفار (ان الذين توفاهم الملائكة) اى ملك الموت وأعوانه أو ملك الموت وحده كما قال تعالى قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم والعرب قد تخاطب الواحد

الفوز بالجنة والنجاة من النار كالعدم (فان قلت) ان أراد بالصدق صدقهم فى الآخرة فالآخرة ليست بدار عمل أو فى الدنيا فليس مطابقا لما ورد فيه وهو الشهادة لعيسى بالصدق مما يجيب به يوم القيامة

بلفظ الجمع (ظالمي أنفسهم) اى فى حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة بالمقام فى دار الشرك فان الهجرة كانت واجبة قبل فتح مكة ثم نسخ الوجوب بعد فتحها فقال صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقرأ البزي بتشديد التاء المثناة فوق من توفاهم فى الاصل والباقون بالتخفيف وأدغم أبو عمرو التاء فى الظاء بخلاف عنه والباقون بغير ادغام (قالوا) اى الملائكة لهم (فيم كنتم) اى فى اى شئ كنتم من أمر دينكم وقرأ البزي فيمه بالهاء بعد الميم فى الوقف بخلاف عنه (قالوا) معتذرين عما وبخوا به (كنا مستضعفين) اى عاجزين عن اظهار الدين واعلاء كلمته (فى الارض) اى فى أرض مكة (قالوا) اى الملائكة تكذيبا لهم وتوبيخا (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) من أرض الكفر الى بلد أخرى كما فعل غيركم من المهاجرين الى المدينة والحبشة قال تعالى (فأولئك مأواهم جهنم) اى لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار (وساءت مصيرا) اى جهنم وفى الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من اقامة دينه وعن النبي صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان ما بينهما شبرا استوجبت اى وجبت له الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم * ثم استثنى أهل العذر منهم فقال (الا المستضعفين) اى الذين وجد ضعفهم فى نفس الامر وعدوا ضعفاء وتقوى عليهم غيرهم (من الرجال والنساء والولدان) ثم بين ضعفهم بقوله (لا يستطيعون حيلة) اى لا قوة لهم على الهجرة ولا نفقة لهم (ولا يهتدون سبيلا) اى طريقا الى أرض الهجرة (فأولئك عسى الله أن يعفو) أي يتجاوز (عنهم) وعسى من الله واجب للاطماع والله تعالى اذا أطمع عبده بشئ أوصله اليه ولكن فى ذكر الاطماع والعفو ايذان بان أمر الهجرة مضيق لا توسعة فيه حتى ان المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول عسى الله أن يعفو عنى فكيف بغيره (وكان الله عفوا غفورا) قال ابن عباس كنت أنا وأمي ممن عذر الله اى من المستضعفين وكان صلى الله عليه وسلم يدعو لهؤلاء المستضعفين فى كل صلاة قال أبو هريرة كان اذا قال سمع الله لمن حمده فى الركعة الاخيرة من صلاة العشاء قنت يقول اللهم أنج عياش بن ربيعة اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج سلمة بن هشام اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا) اى متحولا يتحول اليه وقيل طريقا يراغم بسلوكه قومه اى يفارقهم على رغم انوفهم مأخوذ من الرغام والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الانف بالرغام وهو التراب يقال راغمت الرجل اذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك (و) يجد (سعة) فى الرزق كما قال صلى الله عليه وسلم صوموا تصحوا وسافروا تغنموا أخرجه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه واغزوا تغنموا وهاجروا تفلحوا ولما سمع هذه الآية رجل من بني قيس يقال له جندع ابن ضمرة قال ما أنا ممن استثنى الله عز وجل وانى لاجد حيلة ولى من المال ما يبلغنى المدينة وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة أخرجونى فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به التنعيم فادركه الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على

(قوله) أراد به الصدق المستقر بالصادقين فى دنياهم وآخرتهم

(سورة الانعام)

(قوله الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور) جمع الظلمات والارض لما هى السماء دون الارض لما

ما يبايعك عليه ورسولك فات قال التفتازاني الظاهر أن هذه اشارة الى اليمين وهذه الى الشمال لا قصد اسناد الجارحة الى الله تعالى بل على سبيل التصوير وتمثيل مبايعة الله تعالى على الايمان والطاعة بمبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه وقيل اشارة الى البيعة والصفقة والمعنى أن بيعته كبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بيعة كبيعة الناس فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو وافى المدينة كان أتم وأوفى أجرا وضحك المشركون وقالوا ما أدرك هذا ما طلب فنزل (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت) اى في الطريق قبل مقصده (فقد وقع اجره على الله) اى ثبت اجره عنده تعالى ثبوت الاجر الواجب تفضلا منه ورحمة (وكان الله غفورا) لتقصيره ان كان (رحيما) يكرم بعد المغفرة بانواع الكرامات * ولما أوجب الله السفر للجهاد والهجرة وكان مطلق السفر مظنة المشقة فكيف بسفرهما مع ما ينضم الى المشقة فيهما من خوف الاعداء ذكر تخفيف الصلاة بالقصر بقوله تعالى (واذا ضربتم) اى سافرتم (في الارض) سفرا طويلا لا غير معصية والطويل عند الشافعي رحمه الله تعالى أربعة برد وهي مرحلتان كما ثبت ذلك بالسنة وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ثلاثة أيام ولياليهن بسير الابل ومشي الاقدام على القصد وقوله تعالى (فليس عليكم جناح) أي اثم وميل في (أن تقصروا من الصلوة) اى من أربع الى ركعتين وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء يدل على جواز القصر دون وجوبه ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام أتم في السفر كما رواه الشافعي وغيره وعن عائشة رضي الله تعالى عنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة الى مكة حتى اذا قدمت مكة قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت وصمت وأفطرت فقال أحسنت يا عائشة وما عاب علي رواه الدارقطني وحسنه البيهقي وصححه وكان عثمان رضي الله عنه يتم ويقصر وأوجب القصر أبو حنيفة لقول عمر رضي الله تعالى عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم رواه النسائي وابن ماجه ولقول عائشة رضي الله عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فاقرت في السفر وزيدت في الحضر رواه الشيخان (فان قيل) ظاهرهما يخالف الآية (أجيب) بأن الاول مؤول بأن القصر كالتمام في الصحة والاجزاء ومعنى الثاني لمن أراد الاقتصار عليهما جمعا بين الادلة وقوله تعالى (ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا) أي ينالوكم بمكروه بيان باعتبار الغالب في ذلك الوقت فلا مفهوم له قال يعلى بن أمية قلت لعمر انما قال الله تعالى ان خفتم وقد أمن الناس قال قد عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته رواه مسلم (ان الكافرين كانوا) اى جبلة وطبعا (لكم عدوا مبينا) اى بين العداوة وقوله تعالى (واذا كنت) اى يا محمد حاضرا (فيهم) اى وأنتم تخافون العدو (فأقمت لهم الصلوة) تمسك بمفهومه من خص صلاة الخوف بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وعامة الفقهاء على أنه تعالى علم نبيه صلى الله عليه وسلم كيفيتها ليقتدي به الائمة بعده فانهم نواب عنه فيكون حضورهم كحضوره روى ان المشركين لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا الى الظهر يصلون جميعا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقال بعضهم لبعض دعوهم فان لهم بعدها صلاة هي أحب

في البقرة وجمع الظلمة دون النور لانها اسم جنس والنور مصدر والمصدر لا يجمع وقيل لكثرة أسبابها بخلاف النور وجعل تأتي في القرآن لمعان فتأتي بمعنى خلق كما هنا وكاني

اليهم من آبائهم وأبنائهم وهي صلاة العصر فاذا قاموا فيها فشدوا عليهم فاقتلوهم فنزل جبريل فقال يا محمد انها صلاة الخوف وان الله يقول واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فعلمه صلاة الخوف وهي أنواع ٭ الاول اذا كان العدو في جهة القبلة ولا ساتر والمسلمون كثيرون فيصلي بهم الامام ثم يسجد بصف أول ويحرس صف ثان فاذا قاموا سجد من حرس ولحقه وسجد معه بعد تقدمه وتأخر الاول بلا كثرة أفعال في الركعة الثانية وحرس الآخرون فاذا جلس للتشهد سجد الآخرون وتشهد وسلم بالجميع روى هذا النوع مسلم وقد صلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان وهي قرية على مرحلتين من مكة بقرب خليص سميت بذلك لعسف السيول فيها وجاز عكس هذه الكيفية ٭ والنوع الثاني اذا كان العدو في غير جهة القبلة أو فيها وثم ساتر فيصلي الامام بهم ركعتين مرتين كل مرة بفرقة كما قال تعالى (فلتقم طائفة منهم معك) أي وتتأخر طائفة (وليأخذوا) أي الطائفة التي قامت معك (أسلحتهم) معهم (فاذا سجدوا) أي صلوا (فليكونوا) أي هذه الطائفة الاخرى (من ورائكم) يحرسون الى أن تقضوا الصلاة وتذهب هذه الطائفة الاخرى تحرس (ولتأت طائفة أخرى) تحرس (لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) معهم الى أن يقضوا الصلاة وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ببطن نخل رواه الشيخان وهذه الصلاة وان جازت في غير الخوف سنت فيه عند كثرة المسلمين وقلة عدوهم وخوف هجومهم عليهم في الصلاة (فان قيل) أخذ الحذر وهو الخوف مع التحفظ مجاز وأخذ الاسلحة حقيقة فلا يجمع بينهما (أجيب) بأن أخذ الحذر حقيقة أيضا تنزيلا له منزلة الآلة على سبيل الاستعارة بالكناية فالجمع انما هو بين حقيقتين على أن الجمع بين الحقيقة والمجاز جائز كما عليه الشافعي رضي الله تعالى عنه (فان قيل) لم ذكر أخذ الحذر في الثانية دون الاولى (أجيب) بان الكفار يتنبهون للثانية ما لا يتنبهون للاولى ٭ والنوع الثالث صلاة ذات الرقاع رواها الشيخان أيضا وهي والعدو في غير جهة القبلة أو فيها وثم ساتر أن تقف فرقة في وجه العدو ويصلي الامام بفرقة ركعة ثم عند قيامه للثانية تفارقه وتتم بقية صلاتها وتقف في وجه العدو وتجيء تلك والامام ينتظرها فيصلي بها ثانية فاذا جلس للتشهد قامت وأتت بركعة ولحقته ويسلم بها ويصلي الثلاثية بفرقة ركعتين وبالثانية ركعة وهو أفضل من عكسه ويصلي الرباعية بكل فرقة ركعتين وبقي نوع رابع تقدم عند قوله تعالى فان خفتم فرجالا أو ركبانا (ود) أي تمنى (الذين كفروا لو تغفلون) اذا قمتم الى الصلاة (عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) بان يحملوا عليكم فيأخذوكم وهذه علة الامر بأخذ السلاح ولما كان الله تعالى قد تفضل على هذه الامة ورفع عنها الحرج وكان المطر والمرض يشقان قال (ولا جناح) أي حرج (عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) لان حمل السلاح في المطر يكون سببا لبله وفي المرض يزيد حملها المريض وهنا وهذا يفيد ايجاب حملها عند عدم العذر وهو أحد قولي الشافعي والثاني أنه سنة ورجح بشرط أن لا يؤذي ولا يحصل بترك حمله خطر ولا يمنع صحة الصلاة فان آذى كرمح وسط الصف كره حمله بل ان غلب على ظنه ذلك حرم وان حصل بتركه خطر وجب حمله ويمكن حمل الآية على هذه الحالة وكحمله وضعه بين يديه ان سهل

قوله وجعل فيها رواسي من فوقها أي هي بمعنى كما في قوله وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا وبمعنى قال كما في قوله وجعلوا لله أندادا وقوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وبمعنى بين كما في قوله انا

مقيده اليه بل يتعين ان منع حمله الصحة من نجس أو غيره (وخذوا حذركم) من العدو أى احترزوا منه ما استطعتم كى لا يهجم عليكم (فان قيل) كيف طابق الامر بالحذر قوله تعالى (ان الله أعد للكافرين عذابا) أى قتلا وأسرا ونهبا فى الدنيا (مهينا) أى ذا اهانة (أجيب) بأن الامر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واغتراره فنفى عنهم ذلك الايهام باخبارهم أن الله تعالى يهين عدوهم ويخذله وينصرهم عليه لتقوى قلوبهم ويعلموا أن الامر بالحذر ليس لذلك وانما هو تعبد من الله تعالى كما قال تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ولما أعلمهم بما يفعلون فى الصلاة حال الخوف اتبع ذلك ما يفعلون بعدها لئلا يظن أنه انقضى عن مجرد الذكر فقال مشيرا الى تعقيبه (فاذا قضيتم الصلوة) أى فرغتم من فعلها وأديتموها على حالة الخوف أو غيرها (فاذكروا الله) أى بالتهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد (قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى مضطجعين أى اذكروه فى كل حال وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه وقيل صلوا قياما فى حال الصحة وقعودا فى حال المرض وعلى جنوبكم عند الجرح والزمانة (فاذا اطمأننتم) أى أمنتم مما كنتم فيه من الخوف (فأقيموا الصلوة) أى أدوها بحقوقها على الحالة التى كنتم تفعلونها قبل الخوف (ان الصلوة كانت على المؤمنين كتابا) أى مكتوبا أى مفروضا (موقوتا) أى مقدرا وقتها لا تؤخر عنه ولا تقدم عليه قال صلى الله عليه وسلم أمنى جبريل عند البيت مرتين فصلى بى الظهر حين زالت الشمس والعصر حين كان ظله أى الشئ مثله والمغرب حين أفطر الصائم أى دخل وقت افطاره والعشاء حين غاب الشفق الاحمر والفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم فلما كان الغد صلى بى الظهر حين كان ظله مثله والعصر حين كان ظله مثليه والمغرب حين أفطر الصائم والعشاء الى ثلث الليل والفجر فأسفر وقال هذا وقت الانبياء من قبلك رواه أبو داود وغيره وصححه الحاكم وغيره وقوله صلى الله عليه وسلم صلى بى الظهر حين كان ظله مثله أى فرغ منها حينئذ كما شرع فى العصر فى اليوم الاول حينئذ قاله الشافعى رضى الله عنه نافيا به اشتراكهما فى وقت ويدل له خبر مسلم وقت الظهر اذا زالت الشمس ما لم يحضر العصر ونزل لما بعث صلى الله عليه وسلم طائفة فى طلب أبى سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد فشكوا الجراحات (ولا تهنوا) اى تضعفوا (فى ابتغاء القوم) اى فى طلب ابى سفيان وأصحابه (ان تكونوا تألمون) اى تتوجعون من ألم الجراح (فانهم يألمون) اى يتوجعون من الجراح (كما تألمون) ولم يجبنوا عن قتالكم فلا تجبنوا عن قتالهم (وترجون) أنتم (من الله) من النصر والثواب على جهادكم (ما لا يرجون) هم فانتم تزيدون عليهم بذلك فيجب أن تكونوا أرغب منهم فى الحرب وأصبر عليها (وكان الله عليما) بأعمالكم وضمائركم (حكيما) اى فيما يأمر وينهى (انا أنزلنا اليك الكتاب) اى القرآن وقوله تعالى (بالحق) متعلق بانزل (لتحكم بين الناس بما أراك الله) اى عرفك وأوحى به اليك وليس أرى من الرؤية بمعنى العلم والا لاستدعى ثلاثة مفاعيل وعن عمر رضى الله تعالى عنه لا يقولن أحدكم قضيت بما أرانى الله فان الله لم يجعل ذلك الا لنبيه ولكن ليجتهد رأيه لأن الرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيبا لان الله تعالى كان يريه اياه وهو منا الظن والتكليف وروى الكلبى عن أبى صالح عن

جعلناه قرآنا اى بيناه جلاله وحرامه وبعض صبركما فى قوله وجعلنا على قلوبهم أكنة وقوله بجعل بين البحرين حاجزا (قوله بعلم سركم وجهركم) فائدة ذكر الجهر بعد السر مع انه مفهوم منه بالاولى

ابن عباس قال نزلت هذه الآية في رجل من الانصار يقال له طعمة بكسر الطاء وفتحها والاول أفصح ابن أبيرق من بني ظفر بن الحرث سرق درعا من جارله يقال له قتادة بن النعمان وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه حتى انتهى الى الدار ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا الى منزل اليهودي فأخذوها فقال دفعها الى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واسألوه ان يجادل عن صاحبهم فقالوا ان لم تفعل افتضح صاحبنا فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل لانه برئ بحلفه وأن يعاقب اليهودي لثبوت المال عنده وقيل هم أن يقطع يده فقال تعالى (ولا تكن للخائنين) كطعمة (خصيما) أي مخاصما مدافعا عنهم (واستغفر الله) أي مما هممت به أي من الذب عنه وهذا الاستغفار لا عن ذنب اذ هو منزه عن ذلك معصوم ولكن عن مقام عال سام للارتقاء الى أعلى منه وأتم (ان الله كان غفورا رحيما) لمن يستغفره (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) أي يخونونها بالمعاصي لان وبال خيانتهم عليهم (فان قيل) لم قال للخائنين يختانون أنفسهم والخائن واحد فقط (أجيب) بأنه جمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانته أو ليتناوله وقومه فانهم شاركوه في الاثم حين شهدوا على براءته وخاصموا عنه وقيل ان هذا خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره كقوله تعالى فان كنت في شك مما أنزلنا اليك والاستغفار في حق الانبياء بعد النبوة على أحد وجوه ثلاثة اما الذنب تقدم على النبوة أو لذنوب أمته أو لمباح جاء الشرع بتحريمه فيتركه بالاستغفار فالاستغفار يكون معناه السمع والطاعة لحكم الشرع (ان الله لا يحب) أي يعاقب (من كان خوانا) أي كثير الخيانة (أثيما) أي منهمكا فيه روى ان طعمة هرب الى مكة وارتد ونقب حائطا ليسرق متاع أهله فسقط الحائط عليه فقتله (فان قيل) لم قال خوانا أثيما على المبالغة (أجيب) بأن الله تعالى كان عالما من طعمة بالافراط في الخيانة وركوب المآثم ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك في حاله وقيل اذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم ان لها أخوات وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكي وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه فقال كذبت ان الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة (يستخفون) أي طعمة وقومه يستترون ويستحيون ويخافون (من الناس ولا يستخفون) أي ولا يستحيون ولا يخافون (من الله) وهو أحق أن يستحيا ويخاف منه (وهو معهم) بعلمه لا يخفى عليه سرهم (اذ يبيتون) أي يدبرون ليلا على طريق الامعان في المكر والاتقان للرأي (ما لا يرضى من القول) أي من رمي اليهودي بالسرقة وشهادة الزور عليه والحلف الكاذب على نفيها (فان قيل) لم سمي التدبير قولا وانما هو معنى في النفس (أجيب) بأنه لما حدث بذلك نفسه سمي قولا مجازا قال في الكشاف ويجوز أن يراد بالقول الحلف الكاذب الذي حلف به بعد أن بيته (وكان الله بما يعملون محيطا) أي علما وقدرة لا يفوت عنه شئ وقوله تعالى (ها أنتم هؤلاء) خطاب لقوم طعمة أي يا هؤلاء (جادلتم) أي خاصمتم (عنهم) أي عن طعمة وذويه (في الحيوة الدنيا) أي بما جعل لكم من الاسباب (فمن يجادل الله عنهم يوم

القيامة

قوله فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه (قوله فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) بسط هنا المقابلة والتأكيد كاف

القيامة) اذا عذبهم (ام من يكون عليهم وكيلا) يتولى أمرهم ويذب عنهم أى لا أحد يفعل ذلك * (فائدة) * اتفق كتاب المصاحف على قطع أم عن من (ومن يعمل سوأ) أى ذنبا يسوء به غيره كرمي طعمة اليهودى (او يظلم نفسه) أى يعمل ذنبا يختص به لا يتعداه وقيل المراد بالاول الصغيرة والثانى الكبيرة (ثم يستغفر الله) أى يطلب من الله تعالى غفرانه بالتوبة بشروطها (يجد الله غفورا) أى محاء للزلات (رحيما) أى مبالغا فى اكرام من يقبل اليه كما فى الحديث عن الله من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ان هذه الآية نسخت من يعمل سوأ يجز به (ومن يكسب اثما) أى ذنبا (فانما يكسبه على نفسه) أى لان وباله راجع عليه اذ الله له بالمرصاد فهو مجاز به عليه فلا يتعداه وباله قال تعالى وان أسأتم فلها (وكان الله عليما) بالغ العلم بدقيق ذلك وجليله فلا يترك شيأ منه (حكيما) فى صنعه فلا يجازيه الا بمقدار ذنبه (ومن يكسب خطيئة) أى ذنبا صغيرا أو ما لا عمد فيه (او اثما) أى كبيرة أو ما كان عن عمد (ثم يرم به بريا) أى ينسبه الى من لم يعمله كما فعل طعمة باليهودى (فقد احتمل) أى تحمل (بهتانا) أى خطر كذب يبهت المرمى به (واثما) أى ذنبا كبيرا (مبينا) أى بينا يكسبه بسبب رمى البرىء (ولولا فضل الله عليك) يا محمد (ورحمته) بالعصمة (لهمت طائفة منهم) أى من قوم طعمة أى هما مؤثرا عندك (أن يضلوك) أى عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال بتلبيسهم عليك فلا ينافى ذلك أنهم قد هموا بذلك لان الهم المؤثر لم يوجد (وما يضلون الا أنفسهم) اذ وبال ذلك عليهم (وما يضرونك من شيء) فان الله عاصمك وما خطر ببالك كان اعتمادا منك على ظاهر الامر لا ميلا فى الحكم * (تنبيه) * من شيء فى موضع نصب على المصدر أى شيأ من الضرر فمن مزيدة (وانزل الله عليك الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى السنة فانها أيضا قرآنا يتلى وفسرت أيضا بانها علم الشرائع وكل كلام وافق الحق (وعلمك ما لم تكن تعلم) أى من المشكلات وغيرها غيبا وشهادة من أحوال الدين والدنيا (وكان فضل الله عليك عظيما) أى بهذا وبغيره من أمور لا تدخل تحت الحصر وفى هذا دليل على ان العلم من أشرف الفضائل (لا خير فى كثير من نجواهم) أى الناس قوم طعمة فانهم ناجوا النبى صلى الله عليه وسلم فى الدفع عنه وكذا غيرهم (الا) نجوى (من امر بصدقة) واجبة أو مندوبة (او معروف) أى عمل بر وقيل المراد بالصدقة الواجبة وبالمعروف صدقة التطوع (او اصلاح بين الناس) وسواء اصلاح ذات البين وغيرهم قال صلى الله عليه وسلم كلام ابن آدم كله عليه لا له الا ما كان من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله وسمع سفيان رجلا يقول ما أشد هذا الحديث فقال ألم تسمع الله يقول لا خير فى كثير من نجواهم فهو هذا بعينه أو ما سمعته يقول والعصر ان الانسان لفى خسر فهو هذا بعينه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال الا أخبركم بافضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة قلنا بلى يا رسول الله قال اصلاح ذات البين وافساد ذات البين هى الحالقة وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ليس بالكذاب من أصلح بين الناس فقال خيرا أو انمى خيرا (ومن يفعل ذلك) أى هذا المذكور (ابتغاء) أى طلب (مرضات الله) أى لا غيره من أمور الدنيا لان الاعمال بالنيات (فسوف يؤتيه) أى الله فى الآخرة بوعد لا خلف

واختصر فى الشعراء فقال فقد كذبوا فسيأتيهم الآية لان ما هنا سابق على ما هناك فناسب البسط هنا والاختصار ثم (قوله الم يروا) كذا هنا وفى الانعام بلا عاطف من

فيه (أجرا عظيما) هو الجنة والنظر الى وجهه الكريم وفى هذه الآية دلالة على ان المطلوب من أعمال الظاهر رعاية أحوال الباطن فى اخلاص النية وتصفية القلب من الالتفات الى غرض دنيوى وقرأ أبو عمرو وحمزة يؤتيه بالياء والباقون بالنون (ومن يشاقق الرسول) اى يخالفه فيما جاء به ماخوذ من الشق فان كلا من المتخالفين فى شق غير شق الآخر (من بعد ما تبين) اى ظهر (له الهدى) اى الدليل الذى هو سببه (ويتبع) طريقا (غير سبيل المؤمنين) اى طريقهم الذى هم عليه من الدين بان يتبع غير دين الاسلام (نوله ماتولى) اى نجعله واليا لما تولاه بان نخلى بينه وبينه فى الدنيا (ونصله) أى ندخله فى الآخرة (جهنم) يحترق فيها (وساءت مصيرا) اى مرجعا هى وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة نوله ونصله بسكون الهاء واختلاس كسرة الهاء قالون ولهشام وجهان الاختلاس كقالون واشباع الحركة كباقى القراء (فان قيل) ما الحكمة فى فك الادغام فى قوله تعالى ومن يشاقق الرسول والادغام فى سورة الحشر فى قوله تعالى ومن يشاق الله (أجيب) بان أل فى لفظ الجلالة لازم بخلافه فى الرسول واللزوم يقتضى الثقل فخفف بالادغام فيما صحبته الجلالة بخلاف ما صحبه لفظ الرسول (فان قيل) يرد هذا قوله تعالى فى سورة الانفال ومن يشاقق الله ورسوله (أجيب) أنه لما انضم الرسول الى الله صار المعطوف والمعطوف عليه كالشئ الواحد (ان الله لا يغفر ان يشرك به) اى وقوع الشرك به من اى شخص كان وباى شئ كان (ويغفر ما) اى كل شئ هو (دون ذلك) اى من سائر المعاصى لكن (لمن يشاء) لان جميع الامور بمشيئته روى ان شيخا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى شيخ منهمك فى الذنوب الا انى لم أشرك بالله شيأ منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أوقع المعاصى جراءة وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا وانى لنادم تائب مستغفر فما ترى حالى عند الله فنزلت (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الحق فان الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة وانما ذكر فى الآية الاولى فقد افترى لانها متصلة بقصة أهل الكتاب ومنشأ شركهم نوع افتراء وهو دعوى التبنى على الله (ان) اى ما (يدعون) اى يعبد المشركون (من دونه) أى غير الله (الا اناثا) وهى اللات والعزى ومناة وعن الحسن لم يكن حى من احياء العرب الا ولهم صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بنى فلان وقيل كانوا يقولون فى أصنامهم هن بنات الله وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله (وان) اى ما (يدعون) اى يعبدون بعبادتها (الا شيطانا مريدا) اى خارجا عن الطاعة وهو ابليس لانه الذى أمرهم بعبادتها واغراهم عليها فكانت طاعته فى ذلك عبادة له (لعنه الله) اى أبعده عن رحمته (وقال) الشيطان المذكور (لأتخذن من عبادك نصيبا) اى حظا (مفروضا) اى مقطوعا ادعوهم فيه الى طاعتى قال الحسن من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار (ولأضلنهم) اى عن طريقك السوى بما القى به من الوسواس وتزيين الاباطيل (ولأمنينهم) أى بكل ما أقدر عليه من الباطل من عدم البعث والحساب ولا جنة ولا نار وغيره وألقى فى قلوبهم طول الاعمار وبلوغ الآمال من الدنيا والآخرة بالرحمة والعفو والاحسان ونحوه مما هو سبب للتسويف بالتوبة (ولآمرنهم فليبتكن) اى يقطعن (آذان الانعام) كما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب التى حرموها على

وأوفاء عقب الهمزة وفى الشعراء بواو وفى سبا بفاء لان مثل هذا الكلام يأتى للانكار فان اعتبر فيه الاستدلال لم يؤت بواو ولا فاء لانه كالمستأنف وان اعتبرت فيه المشاهدة أتى

انفسهم

أنفسهم كانوا يشقون آذان الناقة اذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا حرموا على أنفسهم الانتفاع بها (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) اى فطرة الله التى هى دين الاسلام بالكفر واحلال ماحرم الله وتحريم ما أحل الله ويدخل فى ذلك اللواط والسحر والوشم وهو أن يغرز الجلد بابرة ويحشى بنحو نيلة والوشر وهو ان تحد المرأة أسنانها وترققها ونحو ذلك وكالخصاء وهو حرام فى بنى آدم قال الزمخشرى وعند أبى حنيفة يكره شراء الخصيان وامساكهم واستخدامهم لان الرغبة فيهم تدعو الى خصائهم واما فى البهائم فيجوز فى المأكول الصغير ويحرم فى غيره وقيل للحسن رحمه الله تعالى ان عكرمة يقول المراد هنا هو الخصاء فقال كذب عكرمة هو دين الله وعن ابن مسعود هو الوشم (ومن يتخذ الشيطان وليا) أى يتولاه ويطيعه (من دون الله) اى غيره (فقد خسر خسرانا مبينا) بينا لمصيره الى النار المؤبدة عليه (يعدهم) ما لا ينجز بان يخيل اليهم بما يصل الى قلوبهم بالوسوسة فى شئ من الاباطيل انه قريب الحصول فيسعون فى تحصيله فيضيع عليهم فى ذلك الزمان ويرتكبوا ما لا يحل من الاهوال والهوان (ويمنيهم) نيل الآمال فى الدنيا ولا بعث ولا جزاء (وما) أى والحال انه ما (يعدهم الشيطان) بذلك (الا غرورا) أى باطلا وهو اظهار النفع فيما فيه الضر وهذا الوعد اما بالخواطر أو بلسان أوليائه (اولئك) أى الشيطان وأولياؤه (مأواهم) أى مقرهم (جهنم) يحترقون فيها (ولا يجدون عنها محيصا) أى معدلا ومهربا ولما ذكر مآل الكافرين ترهيبا اتبعه مآل غيرهم ترغيبا فقال (والذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا الصالحات) أى الطاعات تصديقا لاقرارهم (سندخلهم) بوعد لا خلف فيه (جنات تجرى من تحتها الانهار) اى لرى أرضها الخيشة أجرى منها نهر بجرى (خالدين فيها) ولما كان الخلود يطلق على المكث الطويل دفع ذلك بقوله تعالى (ابدا) أى لا الى آخر (وعد الله حقا) أى وعدهم الله ذلك وهو قوله تعالى سندخلهم وحقه حقا (ومن) أى لا أحد (اصدق من الله قيلا) أى قولا وأكثر سبحانه وتعالى من التأكيد هنا لانه فى مقابلة وعد الشيطان ووعد الشيطان موافق للهوى الذى طبعت عليه النفوس فلا تنصرف عنه الا بعسر شديد * ونزل لما افتخر المسلمون وأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم وقال المسلمون نبينا خاتم الانبياء وكتابنا يقضى على الكتب وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى (ليس) أى الامر منوطا (بامانيكم) أيها المسلمون (ولا امانى أهل الكتاب) بل بالايمان والعمل الصالح (من يعمل سوأ يجز به) قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين وقالوا يا رسول الله أينا لم يعمل سوأ غيرك فكيف الجزاء قال منه ما يكون فى الدنيا أى بالبلاء والمحن كما ورد فى الحديث فمن يعمل حسنة فله عشر أمثالها ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشرة وبقى له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره وأما ما كان جزاء فى الآخرة فيقابل بين حسناته وسيآته فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر فى الفضل فيعطى الجزاء فى الجنة فيؤتى كل ذى فضل فضله وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزلت عليه الآية من يعمل سوأ يجز به (ولا يجد له من دون الله) أى غيره (وليا) أى يحفظه (ولا نصيرا) أى يمنعه منه قال

بالواو والفاء لتدل الهمزة
على الانكار والواو أو
الفاء على عطف مابعدها
على مقدر قبلها يناسبه
فى المعنى المناسب لعطف
ماقبل الهمزة لكن الفاء

رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر الا أقرئك آية نزلت على قلت بلى يارسول الله قال
فاقرأنيها قال ولا أعلم انى قد وجدت انفصامافى ظهرى حتى تمطيت لها فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم مالك يا أبا بكر فقلت يارسول الله بابى أنت وأمى وأينالم يعمل سوأ وانالمجزيون
بكل سوء عملناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتجزون
بذلك فى الدنيا أى بالبلاء والمحن كالمرض حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع
ذلك لهم حتى يجزوا يوم القيامة (ومن يعمل) شيأ (من الصالحات) فان كل أحد لا يتمكن
من كلها وليس مكلفا بها وقوله تعالى (من ذكر أو أنثى) فى موضع الحال من المستكن فى يعمل
ومن للبيان أو من الصالحات اى كائنة من ذكر او انثى ومن للابتداء وقوله تعالى (وهو
مؤمن) حال شرط اقتران العمل بها فى استدعاء الثواب المذكور تنبيها على انه لا اعتداد
بالعمل الصالح دون اقتران بها (فاولئك) اى العالو الرتبة (يدخلون) اى ندخلهم (الجنة) اى
الموصوفة (ولا يظلمون نقيرا) قدر نقرة النواة من ثواب اعمالهم وان لم ينقص ثواب المطيع
فبالحرى ان لا يزاد عقاب العاصى لان المجازى هو أرحم الراحمين ولذلك اقتصر على ذكره
عقب الثواب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم
الخاء (ومن) اى لا احد (احسن دينا ممن اسلم وجهه) أى انقاد واخلص عمله (لله) فلا يحركه
ولا يسكون الا فيما يرضاه وفى هذا الاستفهام تنبيه على ان ذلك منتهى ما تبلغه القوة
البشرية (وهو) أى والحال انه (محسن) أى مؤمن مراقب آت بالحسنات تارك للسيآت
لانه يعبد الله كأنه يراه وقد اشتملت هذه الكلمات العشر على الدين كله أصلا وفرعا مع
الترغيب بالمدح الكامل لمتبعه وافهام الذم الكامل لغيره (واتبع ملة ابراهيم) أى الموافقة
لملة الاسلام وقوله تعالى (حنيفا) حال اى مائلا عن الاديان كلها الى الدين القيم (واتخذ الله
ابراهيم خليلا) اى صفيا خالص المحبة له وانما أعاد ذكره ولم يضمره تفخيما له وتنصيصا على انه
الممدوح والخلة من الخلال فانه ودّ تخلل النفس وخالطها قال الزجاج الخليل الذى ليس فى
محبته خلل والخلة الصداقة فسمى خليلا لان الله تعالى أحبه واصطفاه روى ان ابراهيم عليه
الصلاة والسلام كان يسمى ابا الضيفان وكان منزله على ظهر الطريق يضيف من مربه من
الناس فاصاب الناس سنة فحشروا الى باب ابراهيم يطلبون الطعام وكانت الميرة له كل سنة
من صديق له بمصر فبعث غلمانه بالابل الى الخليل الذى بمصر فقال خليله لغلمانه لو كان ابراهيم
يريده لنفسه لفعلت ولكن يريده للاضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة فرجع
غلمانه فمروا ببطحاء أى بارض ذات حصى فقالوا لو أنا حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس انا
قد جئنا بميرة فانا نستحيى ان نمر بهم وابلنا فارغة فملؤا تلك الغرائر ثم أتوا ابراهيم فلما أخبروه
بذلك وسارة نائمة ساءه الخبر فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار فقالت
سبحان الله ماجاء الغلمان قالوا بلى فقامت الى الغرائر ففتحتها فاذا هو أجود حوارى أى وهو
بضم الحاء المهملة وتشديد الواو وفتح الراء الدقيق الذى نخل مرة بعد أخرى فامرت الخبازين
فخبزوا وأطعموا الناس فاستيقظ ابراهيم فوجد رائحة الخبز فقال من أين هذا لكم فقالت
من خليلك المصرى فقال بل من عند خليلى الله عز وجل فسماه الله خليلا (ولله ما فى السموات

اشد انصالا بما قبلها من الواو والتقدير فى الشعراء اكذبوا الرسل ولم يروا وفى سبا اكفروا فلم يروا (قوله قل سيروا فى الارض ثم انظروا) قاله هنا بثم الدالة على التراخى

وما فى الارض) خلقا وملكا يفعل فيهما ما يشاء (وكان الله بكل شىء محيطا) علما وقدرة اى ولم يزل متصفا بذلك فهما أراد كان فى وعده ووعيده للمطيع والعاصى لا يخفى عليه أحد منهم ولا يعجزه شىء (ويستفتونك) اى يطلبون منك الفتوى (فى) شان (النساء) اى فى شان اليتامى (قل الله يفتيكم) أى يبين لكم حكمه (فيهن) والافتاء تبيين المبهم (و) يفتيكم أيضا فى (ما يتلى عليكم فى الكتاب) أى القرآن من آية الميراث (فى يتامى النساء) أى فى شأن اليتامى (اللاتى لا تؤتونهن ما كتب) أى فرض (لهن) أى من الميراث (وترغبون) أيها الاولياء (أن) أى فى ان أو عن ان (تنكحوهن) لجمالهن أو دمامتهن قالت عائشة رضى الله تعالى عنها هى اليتيمة تكون فى حجر الرجل وهو وليها فيرغب فى نكاحها اذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سنة صداقها وان كانت مرغوبا عنها فى قلة المال والجمال تركها وفى رواية هى اليتيمة تكون فى حجر الرجل قد شركته فى ماله فيرغب عنها أن يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه فى ماله فيحبسها حتى تموت فيرثها فنهاهم الله تعالى عن ذلك (و) يفتيكم فى (المستضعفين) أى الصغار (من الولدان) أى أن تعطوهم حقوقهم لان العرب كانوا لا يورثونهم كما لا يورثون النساء وقوله تعالى (وان تقوموا) فى محل نصب باضمار فعل أى ويأمركم أن تقوموا (لليتامى بالقسط) أى العدل من الميراث وغيره والخطاب للائمة فى ان ينظروا لهم ويستوفوا حقهم أو للقوام بالنصفة فى شأنهم (وما تفعلوا من خير) أى فى ذلك أو غيره (فان الله كان به عليما) اى فيجازيكم عليه فانه أكرم الاكرمين فطيبوا انفسا وقروا عينا قال سعيد بن جبير كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فاراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت له لا تطلقنى ودعنى على ولدى واقسم لى من كل شهرين ان شئت وان شئت فلا تقسم لى فقال ان كان يصلح ذلك فهو أحب الى فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (وان امرأة) مرفوع بفعل يفسره (خافت) أى توقعت (من بعلها) أى زوجها (نشوزا) أى تجافيا عنها وترفعا عن صحبتها كراهة لها ومنعا لحقوقها (أو اعراضا) بان يقل محادثتها ومجالستها (فلا جناح عليهما) أى الزوج والزوجة (ان يصالحا بينهما صلحا) أى فى القسم والنفقة وهو ان يقول الزوج لها انك قد دخلت فى السن وانى أريد أن أتزوج امرأة شابة جميلة أوثرها عليك فى القسم ليلا ونهارا فان رضيت بهذا فأقيمى وان كرهت خليت سبيلك فان رضيت كانت هى المحسنة ولا تجبر على ذلك وان لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يسرحها باحسان فان أمسكها ووفاها حقها مع كراهته فهو المحسن وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بضم الياء وسكون الصاد ولا ألف من أصلح بين المتنازعين والباقون بفتح الياء وفتح الصاد مع التشديد وألف بعدها وفتح اللام وفيه ادغام التاء فى الاصل فى الصاد وغلظ ورش اللام من يصالحا بخلاف عنه (والصلح) بأن يترك كل منهما حقه أو بعض حقه (خير) من الفرقة والنشوز والاعراض كما روى أن سودة كانت امرأة كبيرة أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يفارقها فقالت لا تطلقنى واتركنى أن ابعث فى نسائك وقد جعلت نوبتى لعائشة فأمسكها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة ثم بين سبحانه وتعالى ما جبل عليه الانسان بقوله (وأحضرت الانفس

وفى غير هذه السورة بالفاء الدالة على التعقيب مع الامر بالسير اشتراكهما فى ان ما فى هذه السورة وقع بعد ذكر القرون فى قوله كم أهلكنا من قبلهم من قرن وقوله وأنشأنا من بعدهم

الشح) أي جبلت عليه فكأنها حاضرة لا تغيب عنه فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها والتقصير في حقها ولا بنفسه بأن يمسكها أو يقوم بحقها على ما ينبغي إذ الزوج لا يكاد يسمح بنفسه إذا كرهها وخصوصا إذا أحب غيرها والشح أقبح البخل وحقيقته الحرص على منع الخير (وإن تحسنوا) أي في عشرة النساء وإن كنتم كارهين (وتتقوا) أي النشوز والإعراض ونقص الحق (فإن الله كان) أزلا وأبدا (بما تعملون) أي من الإحسان والخصومة (خبيرا) أي عليما به وبالغرض منه فيجازيكم عليه (ولن تستطيعوا) أي توجدوا من أنفسكم طواعية بالغة دائمة (أن تعدلوا) أي تسووا (بين النساء) أي في المحبة لأن العدل أن لا يقع ميل البتة وهو متعذر ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ويقول هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك رواه أبو داود وغيره وصححه الحاكم (ولو حرصتم) على تحري ذلك وبالغتم فيه (فلا تميلوا) أي إلى التي تحبونها (كل الميل) في القسم والنفقة فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله (فتذروها) أي تتركوا المرأة المال عنها (كالمعلقة) أي التي لا هي أيم ولا ذات بعل وعن النبي صلى الله عليه وسلم من كان له امرأتان يميل إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل رواه أبو داود وغيره وصححه الحاكم وروي أن عمر رضي الله تعالى عنه بعث إلى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بمال فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها إلى كل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعث عمر مثل هذا قالوا لا بعث إلى القرشيات بمثل هذا وإلى غيرهن بغيره فقالت ارفع رأسك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا في القسمة بماله ونفسه فرجع الرسول فأخبره فأتمها لهن جميعا وكان لمعاذ رضي الله تعالى عنه امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يتوضأ في بيت الأخرى فماتتا في الطاعون فدفنهما في قبر واحد (وإن تصلحوا) أي ما كنتم تفسدون من أمورهن (وتتقوا) فيما يستقبل (فإن الله كان غفورا) أي لما في قلوبكم من الميل (رحيما) بكم في ذلك وغيره فإنه أرحم الراحمين (وإن يتفرقا) أي يفترق كل من الزوجين من صاحبه بالطلاق (يغن الله كلا) منهما عن الآخر بدل بأن يرزقها زوجا ويرزقه غيرها أو سلوا (من سعته) أي من فضله وكرمه (وكان الله واسعا) أي واسع الفضل والرحمة بخلقه (حكيما) أي فيما دبره لهم وفي قوله تعالى (ولله ما في السموات وما في الأرض) أي ملكا وعبيدا تنبيه على كمال سعته وقدرته (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب) أي جنس الكتب (من قبلكم) أي اليهود والنصارى ومن قبلهم وقوله تعالى (وإياكم) عطف على الذين وهو خطاب لأهل القرآن (أن اتقوا الله) أي بأن اتقوا الله أي خافوا عقابه بأن تطيعوه وقوله تعالى (وإن تكفروا) أي بما وصيتم به (فإن لله ما في السموات وما في الأرض) على إرادة القول قال التفتازاني لأن الجملة الشرطية لا تصح أن تقع بعد أن المصدرية فلا يصح عطفها على الواقع بعدها أي وقلنا لهم ولكم إن تكفروا فإن الله مالك الملك كله لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم وإنما وصيكم لرحمته لا لحاجته ثم قرر ذلك بقوله تعالى (وكان الله غنيا) عن الخلق وعبادتهم (حميدا) في ذاته حمد أو لم يحمد (ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) أي شهيدا بأن ما فيهما له (فإن قيل) ما فائدة تكرير قوله ما في السموات وما في الأرض (أجيب) بأن لكل واحدة منها

قرنا آخرين فتطاولت القرون في أزمنة متطاولة ثم أمر القوم بالسعي الأرض الذي لا يقع مثل ذلك إلا في أزمنة متطاولة بخلاف نعت الآية هنا ثم ما في غير هذه السورة إذ لم

وجها أما الاول فمعناه لله ما فى السموات وما فى الارض وهو يوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيته وأما الثانى فمعناه لله ما فى السموات وما فى الارض وكان الله غنيا حميدا أى هو الغنى المطلق فاطلبوا منه ما تطلبون فانه لا ينفد ما عنده واما الثالث فمعناه لله ما فى السموات وما فى الارض وكفى بالله وكيلا ولا تتوكلوا على غيره فذكرت كل مرة دليلا على شئ غير الذى قبله وكررت لان الدليل الواحد اذا كان دالا على مدلولات كثيرة يحسن أن يستدل به على كل واحد منها واعادته مع كل واحد أولى من الاكتفاء بذكره مرة واحدة لان اعادته تحضر فى الذهن ما يوجب العلم بالمدلول فيكون العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجل وفى ختم كل جملة بصفة من الصفات الحسنى تنبيه الذهن بها الى أن هذا الدليل يحتوى على أسرار شريفة ومطالب جليلة لا تنحصر فيجتهد السامع فى التفكر لاظهار الاسرار والاستدلال على صفات الكمال لان الغرض الكلى من هذا الكتاب صرف العقول والافهام عن الاشتغال بغير الله الى الاستغراق فى معرفته سبحانه وتعالى وهذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكده (ان يشأ يذهبكم) أى يفنكم (أيها الناس) كما أوجدكم (ويأت بآخرين) أى ويوجد قوما آخرين مكانكم أو خلقا آخرين مكان الانس (وكان الله على ذلك) أى الاعدام والايجاد (قديرا) أى بليغ القدرة لا يمتنع عليه شئ أراده وقيل هذا خطاب لمن كان يعادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ان يشأ يمتكم ويأت بناس آخرين يوالونه وروى انه لما نزلت ان يشأ يذهبكم الآية ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهر سلمان وقال انهم قوم هذا أى سلمان وهم بنو فارس (من كان يريد ثواب الدنيا) الخسيسة الفانية كالمجاهد يجاهد للغنيمة لقصور نظره على الخسيس الحاضر مع خسته كالبهائم (فعند الله ثواب الدنيا) الخسيسة الفانية (والآخرة) النفيسة الباقية لا عند غيره فماله يطلب الخسيس فليطلبهما منه كمن يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة أو ليطلب الاشرف منهما فان من غلب همته وأقبل بقلبه اليه وقصر همه عليه جمع له سبحانه وتعالى بينهما كمن يجاهد لله خالصا يجمع له بين الآخرة والمغنم (وكان الله سميعا) أى بالغ السمع لكل قول وان خفى (بصيرا) أى بالغ البصر لكل ما يبصر وان خفى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين) أى قائمين قياما بليغا مواظبا عليه مجتهدا فيه (بالقسط) أى بالعدل (شهداء لله) بالحق أى تقيمون شهادتكم لوجه الله (ولو) كانت الشهادة (على أنفسكم) فاشهدوا عليها بأن تقروا بالحق ولا تكتموه (أو الوالدين والاقربين) أى ولو كانت الشهادة على والديكم وأقاربكم (ان يكن) أى المشهود عليه (غنيا) فلا تمنع الشهادة عليه لغناه طلبا لرضاه (أو فقيرا) فلا تمنع ترحما عليه (فالله أولى بهما) أى الغنى والفقير وبالنظر لهما فلو لم تكن الشهادة لهما أو عليهما اصلاحا لما شرعها ⋆ (تنبيه) ⋆ الضمير فى بهما راجع الى مادل عليه المذكور وهو جنس الغنى والفقير لا اليهما والا لوحد الضمير لكون العطف بأو فكأنه قال فالله أولى بجنس الغنى والفقير أى بالاغنياء والفقراء (فلا تتبعوا الهوى) أى فى شهادتكم بأن تحابوا الغنى لرضاه أو الفقير رحمة له (أن تعدلوا) أى ارادة ان تعدلوا فقد بان لكم أن لا عدل فى ذلك أو لئلا تعدلوا أى تميلوا عن الحق (وان تلووا) أى السنتكم تحرفوا الشهادة (أو تعرضوا) أى عن أدائها (فان الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازيكم

بتقدمه شئ من ذلك فعطف بالفاء (قوله وله ما سكن فى الليل والنهار) خص الليل والنهار بالذكر دون الساكن بالذكر دون الساكن من المتحرك لان الساكن أكثر عددا من المخلوقات أكثر عددا من المتحرك أو لان كل متحرك

به وقرأ ابن عامر وحمزة بضم اللام وحذف الواو الاولى والباقون بسكون اللام وواوين
الاولى مضمومة (يا أيها الذين آمنوا آمنوا) أى داوموا على الايمان (بالله ورسوله والكتاب
الذى نزل على رسوله) محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن (والكتاب الذى أنزل من قبل) على
الرسل بمعنى الكتب أى آمنوا بجميع كتب الله المنزلة وقيل ان الخطاب فى ذلك لاهل الكتاب
روى ان ابن سلام وأصحابه قالوا يا رسول الله انا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير
ونكفر بما سواه فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم بل آمنوا بالله ورسوله محمد والقرآن وبكل
كتاب كان قبله فانزل الله تعالى هذه الآية وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بضم النون من
نزل وضم الهمزة من انزل وكسر الزاى فيهما والباقون بفتح النون والهمزة وفتح الزاى فيهما
(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه) التى انزلها على أنبيائه (ورسله) اى من الملائكة
والبشر (واليوم الآخر) اى الذى أخبرت به رسله وهو يوم القيامة اى ومن يكفر بشئ من
ذلك (فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الحق بحيث لا يكاد يعود اليه وقرأ قالون وابن كثير وعاصم
باظهار دال قد عند الضاد والباقون بالادغام (ان الذين آمنوا) اى بموسى وهم اليهود (ثم
كفروا) حين عبدوا العجل (ثم آمنوا) بعد عوده اليهم (ثم كفروا) بعيسى (ثم ازدادوا
كفرا) بمحمد صلى الله عليه وسلم (لم يكن الله ليغفر لهم) اى ما داموا على هذه الحالة لانه لا يغفر
ان يشرك به (ولا ليهديهم سبيلا) اى طريقا الى الحق (بشر المنافقين) يا محمد (بان لهم عذابا
اليما) اى مؤلما هو النار وه (تنبيه) وضع بشر مكان انذر تهكما بهم وقوله تعالى (الذين) بدل
أو نعت للمنافقين (يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) لما يتوهمون فيهم من القوة
وقوله تعالى (أيبتغون) اى ايطلبون (عندهم العزة) استفهام انكارى اى لا يجدونها عندهم
(فان العزة لله جميعا) فى الدنيا والآخرة ولا ينالها الا اولياؤه قال الله تعالى ولله العزة
ولرسوله وللمؤمنين (وقد) اى تتخذونهم والحال انه قد (نزل عليكم) اى ايتها الامة الصادقين
منكم والمنافقين (فى الكتاب) اى القرآن فى سورة الانعام النازلة بمكة المشرفة النهى عن
مجالستهم فضلا عن ولايتهم (ان) اى انه نهى مخففة واسمها محذوف (اذا سمعتم آيات الله) اى
القرآن (يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم) أى الكافرين والمستهزئين (حتى يخوضوا
فى حديث غيره) اى حتى يأخذوا فى حديث غير ذلك قال الضحاك عن ابن عباس دخل فى هذه
الآية كل محدث فى الدين وكل مبتدع الى يوم القيامة وقرأ عاصم نزل بفتح النون والزاى
والباقون بضم النون وكسر الزاى (انكم اذا) اى ان قعدتم معهم (مثلهم) اى فى الاثم
لانكم قادرون على الاعراض عنهم والانكار عليهم أو الكفر ان رضيتم به وقيل كان الذين
يقاعدون الخائضين فى القرآن من الاحبار هم المنافقون فقيل لهم انكم اذا مثل الاحبار فى
الكفر ويدل عليه قوله تعالى (ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) اى
القاعدين والمقعود معهم كما اجتمعوا فى الدنيا على الكفر والاستهزاء وقوله تعالى (الذين) اما
بدل من الذين قبله واما صفة للمنافقين واما نصب على الذم منهم (يتربصون) اى ينتظرون
وقوع امر (بكم فان كان لكم فتح من الله) اى ظفر وغنيمة (قالوا) لكم (ألم نكن معكم) اى
فى الدين والجهاد فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة (وان كان للكافرين نصيب) أى من الظفر فان

الحرب

نبه الى السكون من غير
عكس أو لان السكون هو
الاصل والحركة حادثة عليه
(قوله وهو يدغم ولا يظهر)
خص الادغام بالذكر لان
الحاجة اليه أتم (قوله قل
اى شئ أكبر شهادة قل

الحرب مع لو عبر بنصيب تحقيراً لظفرهم بالنسبة لما حصل للمسلمين من الفتح (قالوا) لهم (ألم نستحوذ) أي نستول (عليكم) ونقدر على أخذكم وقتلكم فأبقينا عليكم (ونمنعكم من المؤمنين) أي من تسلطهم عليكم بما كنا نخادعهم به ونشيع فيهم من الإرجافات والأمور المرعبات الصارفة لهم عن كثير من المقاصد لتصديقهم لنا لإظهارنا الإيمان ومراد المنافقين بذلك إظهار المنة على الكافرين (فالله يحكم بينكم) وبينهم (يوم القيامة) بأن يدخلكم الجنة ويدخلهم النار (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) أي طريقاً بالاستئصال واحتج أصحابنا بهذه الآية على فساد شراء الكافر العبد المسلم (إن المنافقين يخادعون الله) أي بإظهارهم خلاف ما يبطنونه من الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية (وهو خادعهم) أي مجازيهم على خداعهم فيفضحهم في الدنيا بإطلاع نبيه على ما أبطنوه ويعاقبهم في الآخرة (وإذا قاموا إلى الصلاة) مع المؤمنين (قاموا كسالى) أي متثاقلين كالمكره على الفعل (يراؤون الناس) بصلاتهم ليظنوهم مؤمنين (ولا يذكرون الله) أي ولا يصلون (إلا قليلاً) أي حين يتعين ذلك طريقاً لمخادعتهم ولا يصلون تماماً حين قط عن عيون الناس وما يجهرون به أيضاً إلا قليلاً لأنهم ما وجدوا مندوحة عن تكلف ما ليس في قلوبهم لم يتكلفوه ويجوز أن يراد بالقلة العدم (فإن قيل) ما معنى المراءاة وهي مفاعلة من الرؤية (أجيب) بأن المرائي يريهم عمله وهم يرونه استحسانه وقوله تعالى (مذبذبين) حال من واو يراؤون أي مترددين (بين ذلك) أي الكفر والإيمان (لا) منسوبين (إلى هؤلاء) أي الكفار (ولا إلى هؤلاء) أي المؤمنين (ومن يضلل الله) أي يضله (فلن تجد له سبيلاً) أي طريقاً إلى الهدى ونظيره قوله تعالى ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين) أي المجاهرين بالكفر (أولياء من دون المؤمنين) فإنه صنيع المنافقين وديدنهم فلا تتشبهوا بهم (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم) أي بموالاتهم (سلطاناً) أي دليلاً على كفركم باتباعهم غير سبيل المؤمنين (مبيناً) أي واضحاً على نفاقكم (إن المنافقين في الدرك) أي البطن (الأسفل من النار) أي لأن ذلك أخفى ما في النار وأستره وأخبثه كما أن كفرهم أخفى الكفر وأستره وأخبثه وسميت طبقات النار دركات لأنها متداركة متتابعة إلى أسفل كما أن الدرج مترقية إلى فوق (فإن قيل) لم كان المنافق أشد عذاباً من الكافر (أجيب) بأنه مثله في الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون الراء والباقون بفتحها (ولن تجد لهم نصيراً) أي مانعاً يمنعهم من عذاب الله تعالى فيخرجهم (إلا الذين تابوا) أي رجعوا عما كانوا عليه من النفاق (وأصلحوا) أي أعمالهم (واعتصموا) أي وثقوا (بالله وأخلصوا دينهم لله) من الرياء فلا يريدون بطاعتهم إلا وجهه تعالى (فأولئك مع المؤمنين) في الجنة (وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً) فيشاركونهم ويساهمونهم (فإن قيل) من المنافق (أجيب) بأنه في الشريعة من أظهر الإيمان وأبطن الكفر وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به منافقاً فللتغليظ كقوله صلى الله عليه وسلم من ترك الصلاة متعمداً فهو كافر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وقيل لحذيفة رضي الله تعالى عنه من المنافق قال الذي

(الله شهيد بيني وبينكم) فان قلت كيف اكتفى من النبي صلى الله عليه وسلم في الجواب بقوله الله شهيد بيني وبينكم مع ان ذلك لا يكفي من غيره (قلت) لانه قادر على اقامة الحجة

يصف الاسلام ولا يعمل به (وقيل) لابن عمر رضي الله تعالى عنهما ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فاذا خرجنا تكلمنا بخلافه فقال كنا نعده من النفاق * (فائدة) * اتفق كتاب المصاحف على حذف الياء من يؤت الله ولا سبب لحذفها (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم) نعماءه (وآمنتم) به اي ايشفي به غيظا أو يدفع ضرا او يستجلب به نفعا وهو الغني المطلق المتعالي عن النفع والضر والاستفهام بمعنى النفي اي لا يعذبكم (فان قيل) لم قدم الشكر على الايمان مع أنه لا ينفع مع عدم الايمان (اجيب) بان الناظر يدرك النعمة اولا فيشكر شكرا مبهما فاذا انتهى الى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكرا مفصلا فكان الشكر متقدما على الايمان وكانه اصل التكليف ومداره فيؤمن به والشكر ضد الكفر فالكفر ستر النعمة والشكر اظهارها (وكان الله شاكرا) لاعمال المؤمنين بالاثابة يقبل اليسير ويعطي الجزيل (عليما) بخلقه (لا يحب الله الجهر بالسوء) اي القبيح (من القول) من احد اي يعاقب عليه (الا من) اي جهر من (ظلم) وهو ان يدعو على الظالم ويذكره بما هو فيه من السوء فلا يؤاخذ به قال الله تعالى ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل قال الحسن البصري دعاؤه عليه ان يقول اللهم اعني عليه اللهم استخرج حقي منه وقيل ان شتم جاز له ان يشتم مثله لا يزيد عليه وقال مجاهد هذا في الضيف اذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يحسنوا ضيافته فله أن يشكو ويذكر ما صنع به روي أن رجلا اضاف قوما اي نزل بهم ضيفا فلم يطعموه فاصبح شاكيا فعوتب على الشكاية فنزلت وعن عقبة بن عامر قال قلنا يا رسول الله انك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقروننا فما ترى فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نزلتم بقوم فامر والكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا وان لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم (وكان الله سميعا) لكل ما يقال ومنه دعاء المظلوم (عليما) بكل ما يفعل ومنه فعل الظالم (ان تبدوا) اي تظهروا (خيرا) من أعمال البر (أو تخفوه) اي تعملوه سرا (او تعفوا عن سوء) اي عن مظلمة (فان الله كان) اي دائما أزلا وأبدا (عفوا قديرا) اي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام فانتم اولى بذلك وهو حث للمظلوم على تمهيد العفو بعدما رخص له في الانتصار حملا على مكارم الاخلاق وقوله تعالى (ان الذين يكفرون بالله ورسله) نزل في اليهود وذلك انهم آمنوا بموسى والتوراة وعزير وكفروا بعيسى والانجيل ومحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله) بان يؤمنوا بالله ويكفروا برسله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) اي نؤمن ببعض الانبياء ونكفر ببعضهم (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) اي طريقا وسطا بين اليهودية والاسلام ولا واسطة اذ الحق لا يختلف فان الايمان بالله انما يتم بالايمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلا واجمالا والكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال قال تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال (أولئك هم الكافرون) اي الكاملون في الكفر وقوله تعالى (حقا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله (واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) اي ذا اهانة وهو عذاب النار ولما بين سبحانه وتعالى ما أعده للكافرين بين ما اعده للمؤمنين بقوله تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله) كلهم (ولم يفرقوا بين احد منهم) بان كفروا ببعض وآمنوا ببعض كما فعل الاشقياء منهم وانما دخل بين على احد وهو يقتضي متعدد العموم من حيث انه وقع في سياق

على انه نزل بمثله وقد اتاها بقوله وأوحي الي هذا القرآن لانذركم به بخلاف قوله ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بآياته انه لا يفلح الظالمون) بدأ الآية هنا بالواو وختمها بقوله انه لا يفلح الظالمون وبداها في يونس بالفاء وختمها بقوله انه لا يفلح المجرمون

النفي

النفى (أولئك) اى العالو الرتبة فى رتب السعادة (سوف نؤتيهم) بوعد لاخلف فيه وان تأخر (اجورهم) الموعودة لهم بايمانهم بالله وكتبه ورسله وقرأ حفص بالياء على الغيبة والباقون بالنون (وكان الله غفورا) لما يريد من الزلات (رحيما) اى لمن يريد اسعاده بالجنات * ونزل لما قال أحبار اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فائتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى به موسى (يسئلك) يا محمد (أهل الكتاب) اى احبار اليهود (ان تنزل عليهم كتابا من السماء) جملة كما انزل على موسى وقيل كتابا محررا اى مجلدا مصونا بخط سماوى على ألواح كما كانت التوراة وقيل كتابا نعاينه حين ينزل او كتابا الينا باعياننا بانك رسول الله قالوا ذلك تعنتا قال الحسن لو سألوا كى يتبينوا الحق لاعطاهم وفيما آتاهم كفاية وقوله تعالى (فقد سألوا) اى آباؤهم (موسى) جواب شرط مقدر معناه انك ان استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى (اكبر) اى أعظم (من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة) أى عيانا وانما اسند السؤال اليهم وان وجد من آبائهم فى أيام موسى عليه الصلاة والسلام وهم النقباء السبعون لانهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم فى التعنت (فأخذتهم الصاعقة) أى عقب هذا السؤال وهى نار جاءت من السماء فاهلكتهم (بظلمهم) اى بسببه وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل فى تلك الحال التى كانوا عليها وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا (ثم) بعد العفو عنهم واحيائهم من اماتة هذه الصاعقة (اتخذوا العجل) أى تكلفوا أخذه وجعلوه الها (من بعد ما جاءتهم البينات) المعجزات على وحدانية الله تعالى وليس المراد التوراة لانها لم تأتهم فيما مضى بل أتتهم بعد (فعفونا عن ذلك) أى الذنب العظيم بتوبتنا عليهم من غير استئصالهم (وآتينا موسى سلطانا) تسلطا واستيلاء (مبينا) أى ظاهرا فانه أمرهم بقتل أنفسهم توبة من عبادة العجل فبادروا الى الامتثال (ورفعنا فوقهم الطور) أى الجبل العظيم (بميثاقهم) أى بسبب أخذ الميثاق عليهم ليخافوا فيقبلوه (وقلنا لهم) على لسان موسى صلى الله عليه وسلم والطور مظال عليهم (ادخلوا الباب) أى باب البيت المقدس (سجدا) أى سجود انحناء (وقلنا لهم) أى على لسان داود (لا تعدوا) أى لا تتجاوزوا ما حددناه لكم (فى السبت) أى لا تعملوا فيه عملا من الاعمال تسمية للشئ باسم سببه سمى عدوا لان العامل للشئ يكون لشدة اقباله عليه كأنه يعدو ويحتمل أن يكون ذلك على لسان موسى حين ظلل عليهم الجبل فانه شرع السبت أى ترك العمل فيه ولكن كان الاعتداء فى السبت والمسخ به فى زمن داود وقرأ ورش بفتح العين مع تشديد الدال وقرأ قالون باختلاس حركة العين مع تشديد الدال والباقون بسكون العين وتخفيف الدال (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) على ذلك وهو قولهم سمعنا وأطعنا ومعاهدتهم على أن يقيموا عليه ثم نقضوه بعد كما قال تعالى (فبما نقضهم) أى فبنقضهم وما مزيدة للتوكيد والباء للسببية متعلقة بمحذوف أى لعناهم بسبب نقضهم (ميثاقهم وكفرهم بآيات الله) أى القرآن أو بما فى كتابهم (وقتلهم الانبياء بغير حق) فانهم معصومون من كل نقيصة ومبرؤن من كل ريبة لا يتوجه عليهم حق (وقولهم قلوبنا غلف) أى اوعية للعلوم أو فى أكنة مما تدعونا اليه فلا نعى كلامك (بل طبع الله) اى ختم (عليها بكفرهم) فلا تعى وعظا (فلا يؤمنون الا قليلا) منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه أو ايمانا قليلا لا يعبأ به بأن

لان ما قبلها اثر سبب لها ومعطوف بالفاء ومذكور فيه المجرمون فناسب فيها ما ذكر بخلاف ما هنا فان المتقدم فيه معطوف بالواو ولم يذكر فيه لفظ المجرمون (قوله ثم لم تكن فتنتهم الا ان

يؤمنوا وقتا يسيرا كوجه النهار ويكفروا في غيره ويؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض وقوله تعالى (وبكفرهم) معطوف على فبما نقضهم ويجوز عطفه على بكفرهم وقد تكرر منهم الكفر لانهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم فعطف بعض كفرهم على بعض وكرر الباء للفصل بينه وبين ما عطف عليه (وقولهم على مريم) أي بعد ما ظهر على يديها من الكرامات الدالة على براءتها وانها ملازمة للعبادة بانواع الطاعات (بهتانا عظيما) وهو نسبتها الى الزنا (فان قيل) كان مقتضى الظاهر أن يقول في مريم (أجيب) بانه ضمن القول معنى الافتراء وهو يتعدى بعلى (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) أي بمجموع ذلك عذبناهم (فان قيل) كانوا كافرين بعيسى أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله (أجيب) بانهم قالوه بزعم عيسى عندهم أو انهم قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون قال الزمخشري ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعا لعيسى عليه الصلاة والسلام عما كانوا يذكرونه به اهـ قال الله تعالى تكذيبا لهم في قتله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أي المقتول والمصلوب روى النسائي عن ابن عباس أن رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم فمسخهم الله قردة وخنازير فاجتمعت اليهود على قتله فاخبره الله تعالى بانه يرفعه الى السماء ويطهره من صحبة اليهود فقال لاصحابه أيكم يرضى أن يلقى الله عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فالقى الله عليه شبهه فقتل وصلب وقيل كان رجلا ينافق عيسى أي يظهر له الاسلام ويخفي الكفر فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل في بيت عيسى فرفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى الله شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وصلبوه وهم يظنون انه عيسى وقيل انهم حبسوا عيسى عليه الصلاة والسلام في بيت وجعلوا عليه رقيبا فالقى الله شبه عيسى على الرقيب فقتلوه (وان الذين اختلفوا فيه) أي في شان عيسى فانه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود انه كان كاذبا فقتلناه حقا وتردد آخرون وقال بعضهم ان كان هذا عيسى فاين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا ان كان الله القى شبه وجه عيسى عليه ولم يلق على جسده وقال من سمع من عيسى ان الله يرفعني الى السماء انه رفع الى السماء وقال قوم صلب الناسوت أي الانسانية وصعد اللاهوت اى الالوهية (لفي شك منه) اى من قتله (ما لهم به) أي بقتله (من علم) وقوله تعالى (الا اتباع الظن) استثناء منقطع اى لكن يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه (فان قيل) قد وصفوا بالشك والشك ان لا يترجح احد الجائزين ثم وصفوا بالظن والظن ان يترجح احدهما فكيف يكونون شاكين ظانين (اجيب) بان الشك كما يطلق على ما لا يترجح احد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم فيشمل الاعتقاد (وما قتلوه) اى انتفى قتلهم له انتفاء (يقينا) اى انتفاؤه على سبيل القطع ويجوز ان يكون حالا من واو قتلوه أي ما فعلوا القتل متيقنين انه عيسى عليه الصلاة والسلام بل فعلوه شاكين فيه والحق انهم لم يقتلوا الا الرجل الذي ألقي عليه شبهه

قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) كذبوا في قولهم ذلك مع ما بينهم حتى اتى الامور ظننا منهم انهم ينفعونه (فان قلت) كيف الجمع بين هذا وبين قوله ولا يكتمون الله حديثا (قلت) في القيامة مواقف

قال

قال البقاعي والوجه الاول أولى لقوله تعالى (بل رفعه الله اليه) اى الى مكان لا يصل اليه حكم آدمي وعن وهب انه أوحى اليه وهو ابن ثلاثين سنة ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين فكانت رسالته ثلاث سنين (وكان الله عزيزا) اى فى ملكه لا يغلب عما يريد (حكيما) فى صنعه لا يطمع أحد فى نقص شئ منه (وان من اهل الكتاب) أى وما من أهل الكتاب أحد (الا ليؤمنن به) اى بعيسى عليه الصلاة والسلام هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم (قبل موته) اختلف فى عود هذا الضمير فقال عكرمة ومجاهد والضحاك يعود للكتابى اى ان الكتابى يؤمن بعيسى حين يعاين ملائكة الموت فلا ينفعه ايمانه سواء احترق او غرق اوتردى اوسقط عليه جدار أو أكله سبع او مات فجأة فقيل لابن عباس أرأيت من خر من فوق بيت فقال يتكلم به فى الهوى فقيل أرأيت ان ضرب عنق أحدهم قال يتلجلج بها لسانه وذهب قوم الى عود الضمير الى عيسى أى وما من أهل الكتاب احد الا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد الا آمن به حتى تكون الملة واحدة ملة الاسلام روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك ان ينزل فيكم عيسى ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ويهلك فى زمانه الملل كلها الا الاسلام ويقتل الدجال فيمكث فى الارض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون قال أبو هريرة اقرؤا ان شئتم وان من أهل الكتاب الآية ثم أعادها أبو هريرة ثلاث مرات ولا يعارض هذا ما فى مسلم فى قصة الدجال ان الله يبعث عيسى ابن مريم فيطلبه فيهلكه ثم يلبث الناس بعده سبع سنين ليس بين اثنين عداوة لان قوله ثم يلبث الناس بعده أى بعد موته فلا معارضة أولان السبع محمول على مدة اقامته بعد نزوله ويكون ذلك مضافا الى مكثه فيها قبل رفعه الى السماء وكان عمره اذذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور وروى عكرمة ان الهاء فى قوله تعالى ليؤمنن به كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول لا يموت كتابى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل الهاء راجعة الى الله عزوجل يقول وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن بالله عزوجل قبل موته عند المعاينة حين لا ينفعه ايمانه (ويوم القيامة يكون) أى عيسى على القول الاول (عليهم شهيدا) انه قد بلغهم رسالة ربه وأقر بالعبودية على نفسه كما قال تعالى مخبرا عنه وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم وكل نبى شاهد على أمته قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (فبظلم من الذين هادوا) وهو ما تقدم ذكره من نقضهم الميثاق وبكفرهم بآيات الله وبهتانهم على مريم وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم (حرمنا عليهم طيبات احلت لهم) أى كان وقع احلالها لهم فى التوراة ثم حرمت عليهم وهى التى فى قوله تعالى فى سورة الانعام وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وبصدهم) أى الناس (عن سبيل الله) أى دينه وقوله تعالى (كثيرا) صفة مصدر محذوف أى صدا كثيرا بالاضلال عن الطريق فنعوا امستلذات تلك المآكل بما ظلموا أنفسهم وغيرهم من لذاذة الايمان (واخذهم الربا وقد) أى والحال انهم قد (نهوا عنه) فى التوراة فكان محرما عليهم كما هو محرم علينا لانه قبيح فى نفسه مزر بصاحبه وفى الآية دليل على ان النهى للتحريم (واكلهم اموال الناس بالباطل) أى من الرشا فى

مختلفة ففى بعضها لا يكتمون وفى بعضها يكتمون بل يكذبون ويحلفون كما فى قوله فوربك لنسألنهم أجمعين مع قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان (قوله ومنهم من

الحكم والمآكل اى التى كانوا يصيبونها من عوامهم عاقبناهم بأن حرمنا عليهم طيبات فكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرم عليهم شئ من الطيبات التى كانت حلالا لهم قال تعالى ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون (واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أى مؤلما دون من تاب وآمن * ولما بين سبحانه وتعالى ما للمطبوع على قلوبهم الغريقين فى الكفر من العقاب بين ما للنيرى البصائر بالرسوخ فى العلم والايمان من الثواب فقال (لكن الراسخون) أى الثابتون المتمكنون (فى العلم منهم) أى من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (والمؤمنون) اى من المهاجرين والانصار (يؤمنون بما انزل اليك) اى القرآن (وما انزل من قبلك) اى من سائر الكتب المنزلة وقوله تعالى (والمقيمين الصلوة) نصب على المدح لان الصلاة لما كانت أعظم دعائم الدين ولذلك كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر نصبت على المدح من بين هذه المرفوعات اظهارا لفضلها وحكى عن عائشة رضى الله تعالى عنها وأبان بن عثمان ان ذلك غلط من الكاتب وينبغى أن يكتب والمقيمون الصلوة وكذلك قوله فى سورة المائدة ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى وقوله تعالى ان هذان لساحران قالا ذلك خطأ من الكاتب وقال عثمان ان فى المصحف لحنا وستقيمه العرب بألسنتها فقيل له الا تغيره فقال دعوه فانه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا وعامة الصحابة وأهل العلم على انه صحيح كما قدمناه وقيل نصب باضمار فعل تقديره أعنى المقيمين الصلاة وقوله تعالى (والمؤتون الزكوة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) رجوع الى النسق الاول (اولئك سنؤتيهم) بوعد لا خلف فيه على جمعهم بين الايمان الصحيح والعمل الصالح (اجرا عظيما) وهو الجنة والنظر الى وجهه الكريم وقوله تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) جواب لاهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بان شأنه فى الوحى اليه كشأن سائر الانبياء الذين سلفوا وبدأ بذكر نوح عليه الصلاة والسلام لانه كان أبا البشر مثل آدم عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين ولانه أول نبى من أنبياء الشريعة وأول نذير على الشرك وأول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الارض بدعائه وكان أطول الانبياء عمرا وجعلت معجزته فى نفسه لانه عمر ألف سنة فلم ينقص له سن ولم يشب له شعرة ولم تنقص له قوة ولم يصبر أحد على أذى قومه ما صبر هو على طول عمره (و) كما (اوحينا الى ابراهيم واسمعيل واسحق) ابنى ابراهيم (ويعقوب) بن اسحق (والاسباط) اولاد يعقوب وظاهر هذا انهم كلهم أنبياء وهو أحد القولين والقول الآخر أن يوسف هو النبى فقط وعلى هذا فالمراد المجموع (وعيسى وايوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا) أباه (داود زبورا) قرأ حمزة بضم الزاى مصدر بمعنى مزبورا اى مكتوبا والباقون بالنصب على انه اسم للكتاب المؤتى وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عز وجل كان داود يبرز الى البرية فيقوم ويقرأ الزبور ويقوم معه علماء بنى اسرائيل فيقومون خلفه ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس الاعظم فالاعظم والشياطين خلف الجن وتجىء الدواب التى فى الجبال فيقمن بين يديه تعجبا لما يسمعن منه والطير ترفرف على رؤسهم فلما قارف الذنب لم ير ذلك فقيل له ذاك أنس الطاعة وهذا وحشة المعصية قال

يسمع اليك) قال هنا يسمع بالافراد وفى يونس يستمعون بالجمع لان ما هنا نزل فى قوم قليلين وهم أبو سفيان والنضر بن الحرث وعتبة وشيبة وأمية وأبى بن خلف فنزلوا منزلة الواحد

السيوطى فى شرح التنبيه ان الزبور مائة وخمسون سورة مابين قصار وطوال والطويلة منها قدر ربع حزب والقصيرة قدر سورة النصر اهـ وعن أبى موسى قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتنى البارحة وأنا أسمع لقراءتك لقد أعطيت مزمارا من مزامير داود وكان عمر اذا رآه قال ذكرنا يا أبا موسى فيقرأ عنده وانما خص هؤلاء بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيما لهم وقوله تعالى (ورسلا) أى غير هؤلاء نصب بمضمر دل عليه أوحينا اليك مثل أرسلنا (قد قصصناهم) أى تلونا ذكرهم (عليك من قبل) أى قبل انزال هذه السورة أو هذه الآية (ورسلا لم نقصصهم عليك) أى الى الآن روى انه سبحانه وتعالى بعث ثمانية آلاف نبى أربعة آلاف من بنى اسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس قاله الجلال المحلى فى سورة غافر وقوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) هو منتهى مراتب الوحى أى كلمه على التدريج شيأ فشيأ بحسب المصالح بغير واسطة ملك فلا فرق فى الوحى بين ما كان بواسطة وبين ما كان بلا واسطة وخص به موسى من بين سائر الانبياء غير نبينا وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد فضله الله تعالى بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم وقوله تعالى (رسلا) بدل من رسلا قبله (مبشرين) أى بالثواب من آمن (ومنذرين) أى مخوفين بالعذاب من كفر وقوله تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة) متعلق بأرسلنا أو بمبشرين ومنذرين أى حجة تقال (بعد ارسال الرسل) فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فبعثناهم لقطع عذرهم (فان قيل) كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله تعالى من الادلة التى النظر فيها يوصل الى المعرفة (أجيب) بأن الرسل ينبهون عن الغفلة وباعثون على النظر فى الادلة فارسالهم ضرورى (وكان الله عزيزا) فى ملكه لا يغلب فيما يريده (حكيما) فى صنعه روى أن سعد بن عبادة قال لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتعجبون من غيرة سعد والله لانا أغير منه والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب اليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد بالجنة قال ابن عباس ان رؤساء مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد انا سألنا عنك اليهود وعن صفتك فى كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك ودخل عليه جماعة من اليهود فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم والله انكم لتعلمون انى رسول الله فقالوا والله ما نعلم ذلك فانزل الله عز وجل (لكن الله يشهد) أى يبين نبوتك (بما انزل اليك) أى من القرآن المعجز الدال على نبوتك ان جحدوك وكذبوك (انزله) متلبسا (بعلمه) الخاص به وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ وروى أنه لما نزل انا أوحينا اليك قالوا ما نشهد لك فنزلت (والملائكة يشهدون) لك أيضا (وكفى بالله شهيدا) على ذلك بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره (ان الذين كفروا وصدوا) الناس (عن سبيل الله) اى دين الاسلام بكتمهم دين محمد صلى الله عليه وسلم وهم اليهود (قد ضلوا ضلالا بعيدا) عن الحق لانهم جمعوا بين الضلال والاضلال ولان المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الانقلاع عنه (ان الذين كفروا) بالله (وظلموا) نبيه بكتمان نعته (لم يكن

قاعد الضمير على لفظ من وما فى يونس نزل فى جميع الكفار فناسب الجمع

فاعاد الضمير على معنى من وانما لم يجمع ثم فى قوله ومنهم من ينظر اليك لان الناظرين الى المعجزات

الله ليغفر لهم) لكفرهم وظلمهم (ولا ليهديهم طريقا) من الطرق (الا طريق جهنم) اى الطريق المؤدى اليها (خالدين) اى مقدرين الخلود (فيها) اذا دخلوها وأكد ذلك بقوله (ابدا) لان الله لا يغفر أن يشرك به (وكان ذلك على الله يسيرا) اى هينا لا يصعب عليه ولا يستعظمه (يا ايها الناس قد جاءكم الرسول) محمد صلى الله عليه وسلم (بالحق من ربكم) لما قرر من أمر النبوة و بين الطريق الموصل الى العلم بها و وعيد من أنكرها خاطب الناس عامة بالدعوة والزام الحجة والوعد بالاجابة والوعيد على الرد (فآمنوا) بالله وقوله تعالى (خيرا لكم) وكذلك قوله تعالى فيما يأتى انتهوا خيرا لكم منصوب بمضمر وذلك انه لما بعثهم على الايمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر فقال خيرا لكم اى اقصدوا أمرا خيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث وهو الايمان والتوحيد وقيل تقديره يكن الايمان خيرا لكم قال البيضاوى ومنعه البصريون لان كان لا يحذف مع اسمه الا فيما لا بد منه ولانه يؤدى الى حذف الشرط وجوابه اهـ (وان تكفروا) بالله (فان لله ما فى السموات والارض) ملكا وخلقا فهو غنى عنكم فلا يضره كفركم كما لا ينفعه ايمانكم ونبه على غناه بقوله تعالى لله ما فى السموات والارض وهو يعم ما اشتملتا عليه وما تركبتا منه (وكان الله عليما) باحوالكم (حكيما) اى فيما دبره لكم (يا أهل الكتاب لا تغلوا) اى تتجاوزوا الحد (فى دينكم) الخطاب للفريقين غلت اليهود فى حط عيسى حتى رموه بالزنا والنصارى فى رفعه حتى اتخذوه الها وقيل للنصارى خاصة والمراد بالكتاب الانجيل فانه أوفق لقوله تعالى (ولا تقولوا على الله الا) القول (الحق) أى من تنزيهه عن الشريك والولد (انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها) اى أوصلها (الى مريم) وجعلها فيها (وروح) أى ذو روح (منه) لا بتوسط ما يجرى مجرى الاصل والمادة له وسمى عيسى كلمة الله وكلمة منه لانه وجد بكلمته وأمره لا غير من غير واسطة أب ولا نطفة وقيل له روح الله وروح منه لانه ذو روح وجد من غير جزء من ذى روح كالنطفة المنفصلة من الاب الحى وانما اخترع اختراعا من عند الله وقدرته بان أمر جبريل فنفخ فى جيب درعها فحملت به فاضيف الى الله تعالى تشريفا له وليس كما زعمتم أنه ابن الله أو اله معه أو ثالث ثلاثة لان الروح مركب والاله منزه عن التركيب وعن نسبة المركب اليه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من شهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل (فآمنوا بالله ورسله) أى عيسى وغيره ولا تؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض (ولا تقولوا) كما قالت النصارى الآلهة (ثلاثة) الله وعيسى وأمه قال تعالى (انتهوا) عن ذلك وأتوا (خيرا لكم) من ذلك وهو التوحيد (انما الله اله واحد) أى لا تعدد فيه بوجه ما (سبحانه) تنزيها له (أن) اى عن أن (يكون له ولد) اى كما قلتم أيها النصارى فان ذلك يقتضى الحاجة ويقتضى التركيب والمجانسة ثم علل ذلك بقوله (له ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا فلا يتصور أن يحتاج الى شئ منهما ولا الى شئ متميز فيهما ولا يصح بوجه أن يكون بعض ما يملكه المالك جزأ منه وولدا له لان الملكية تنافى البنوة وعيسى وأمه كل منهما محتاج الى ما فى الوجود (وكفى بالله

(وكيلا)

أقل من المستمعين للقرآن (قوله ولو ترى اذ وقفوا على النار) وفى أخرى بعد وقفوا على ربهم لانهم أنكروا وجود التلاقى القيامة وجزاء ربهم ونكالهم بها فقال فى الاولى اذ وقفوا

وكيلا) اى يحتاج اليه كل شئ ولا يحتاج هو الى شئ فهو غنى عن الولد فان الحاجة اليه ليكون وكيلا لابيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الاشياء كاف فى ذلك مستغن عمن يخلفه او يعينه روى ان وفد نجران قالوا يا رسول الله لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال واى شئ أقول قالوا تقول انه عبد الله قال انه ليس بعار أن يكون عبد الله قالوا بلى فنزل قوله تعالى (لن يستنكف) اى يتكبر ويأنف (المسيح) اى الذى زعمتم انه اله (أن) اى عن أن (يكون عبد الله) فان عبوديته له شرف يتباهى به وانما المذلة والاستنكاف فى عبوديته غيره وقوله تعالى (ولا الملائكة المقربون) اى عند الله عطف على المسيح اى ولا تستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله وهذا من أحسن الاستطراد ذكر للرد على من زعم انها آلهة او بنات الله كما رد بما قبله على النصارى الزاعم ذلك المقصود خطابهم ولا حجة فيه على أن الملائكة أفضل من الانبياء كما زعمه بعض المعتزلة قائلا بان المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه قال الطيبى وانما تنهض الحجة على النصارى اذا سلموا ان الملائكة أفضل من عيسى ودونه خرط القتاد فكيف والنصارى رفعوا درجة عيسى الى الالهية فظهر ان ذكر الملائكة للاستطراد كما رد على النصارى وأنه من باب التتميم لا من باب الترقى اه أو من باب الترقى فى الخلق لا فى المخلوق كما قاله البقاعى قال لان الملائكة أعجب خلقا من عيسى فى كونهم ليسوا من ذكر ولا أنثى ولا ما يجانس عضو البشر فكانوا لذلك أعجب خلقا من آدم عليه الصلاة والسلام أيضا أو فى القوة لانهم أقوى من عيسى لانهم يقتلعون الجبال ويأتون بالمياه العظيمة والعبادات الدائمة المستمرة (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) أى يطلب الكبر عن ذلك قال الراغب الاستنكاف تكبر فى أنفة والاستكبار بخلافه (فسيحشرهم) أى المستكبرين وغيرهم (اليه جميعا) فى الآخرة بوعد لا يخلف فيجازيهم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تصديقا لاقرارهم بالايمان (فيوفيهم أجورهم) أى ثواب أعمالهم (ويزيدهم من فضله) أى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وأما الذين استنكفوا واستكبروا) عن عبادته (فيعذبهم عذابا أليما) اى مؤلما هو عذاب النار بما وجدوا من لذاذة الترفع والتكبر (ولا يجدون لهم) أى حالا ومآلا (من دون الله) أى غيره (وليا) يدفعه عنهم (ولا نصيرا) يمنعهم منه (يا أيها الناس) أى كافة أهل الكتاب وغيرهم (قد جاءكم برهان من ربكم) أى حجة نيرة واضحة مفيدة لليقين التام وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالادلة القاطعة من المعجزات وغيرها (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) أى واضحا فى نفسه موضحا لغيره وهو القرآن الجامع باعجازه وحسن بيانه فلم يبق لكم عذر ولا علة وقيل المراد بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم) أى بوعد لا خلف فيه (فى رحمة منه) أى ثواب عظيم هو رحمة لهم لا بشئ استوجبوه (وفضل) أى احسان زائد عليه (ويهديهم) اى فى الدنيا والآخرة (اليه صراطا) اى طريقا (مستقيما) وهو الاسلام والطاعة فى الدنيا والجنة فى الآخرة (يستفتونك) اى فى الكلالة حذف لدلالة الجواب عليه روى ان جابر بن عبد الله قال عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب على من وضوئه فعقلت وقلت يا رسول الله لمن الميراث وانما

على النار وفى الثانية اه
وقفوا على ربهم أى على
جزاء ربهم وتكشف النار
(قوله ان هى الا حياتنا
الدنيا وما نحن بمبعوثين)
قاله بدون نموت ونحيا وفى
المؤمنون والجاثية

يرثني كلالة فنزل يستفتونك (قل الله يفتيكم في الكلالة) وقد تقدم معنى الكلالة وحكم الآية في أول السورة وفي هذه الآية بيان حكم ميراث الاخوة للاب والام او للاب وقوله تعالى (ان امرؤ) هو مرفوع بفعل يفسره (هلك) اى مات (ليس له ولد) اى ولا والد وهو الكلالة قال الاصبهاني عن الشعبي اختلف أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في الكلالة فقال أبو بكر هو ما عدا الوالد وقال عمر ما عدا الوالد والولد ثم قال عمر اني لاستحي من الله أن اخالف أبابكر وقوله تعالى (وله اخت) يحتمل الحال والعطف والمراد بالاخت الاخت من الابوين او الاب لانه جعل أخوها عصبة والذي لام لا يكون عصبة والولد يشمل الذكر والانثى فان الاخت وان ورثت مع البنت قد لا ترث النصف وذلك عند تعدد البنت (فلها نصف ما ترك وهو) أى هذا الاخ للميت (يرثها) أى ان ماتت هي وبقي هو جميع مالها (ان لم يكن لها ولد) فان كان لها ولد ذكر فلا شيء له أو أنثى فله ما فضل عن نصيبها ولو كانت الاخت أو الاخ من الام ففرضه السدس كما مر اول السورة (فان كانتا) أى الاختان (اثنتين) أى فصاعدا لانها نزلت في جابر وقد مات عن أخوات (فلهما الثلثان مما ترك) أى الاخ (وان كانوا) أى الورثة (اخوة رجالا ونساء فللذكر) منهم (مثل حظ الانثيين يبين الله لكم) أى ولم يكلكم في بيانه الى بيان غيره وقال ابن عباس هنا (أن) أى كراهة أن (تضلوا) وقيل لئلا تضلوا فحذف لا وهو قول الكوفيين وقيل يبين الله لكم ضلالكم أي الذي هو من شأنكم أي اذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه (والله بكل شيء عليم) فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات ومنه الميراث روى عن البراء رضي الله تعالى عنه أنه قال آخر سورة نزلت كاملة براءة وآخر آية نزلت قال السيوطي أي من الفرائض خاتمة سورة النساء يستفتونك الآية وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان آخر آية نزلت آية الربا وآخر سورة نزلت اذا جاء نصر الله والفتح وروى عنه ان آخر آية نزلت قوله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وروى بعد ما نزلت سورة النصر عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها عاما فنزلت بعدها سورة براءة وهي آخر سورة نزلت كاملة فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ستة أشهر ثم نزل في طريق حجة الوداع يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة فسميت آية الصيف ثم نزل وهو واقف بعرفة اليوم أكملت لكم دينكم فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها احدا وثمانين يوما ثم نزلت آية الربا ثم نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها احدا وعشرين يوما وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة وورث ميراثا وأعطي من الاجر كمن اشترى محررا أى رقيقا وحرره وبرئ من الشرك وكان في مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم حديث موضوع

سورة المائدة مدنية

مائة وعشرون آية أو اثنتان أو ثلاث وكلماتها ألفان وثمانمائة وأربع كلمات وحروفها أحد عشر ألفا وسبعمائة وثلاثة وثلاثون حرفا

(بسم

لانهم في القيامة قالوه
بيوقف ولم يقولوه بآخر
فأشار الى الامرين بما ذكر
(قوله وما الحيوة الدنيا الا
لعب ولهو) قدم اللعب هنا
وفي القتال والحديد وعكس

(بسم الله) الذى له الامر كله فلا يسئل عما يفعل (الرحمن) الذى عم بنعمة ايجاده وبيانه فنعمته أتم نعمة وأشمل (الرحيم) الذى خص خلص عباده بتوفيقه وأتم نعمته عليهم وأكمل

(يا ايها الذين امنوا أوفوا بالعقود) أى التى عقدها الله تعالى على عباده وألزمها اياهم من مواجب التكليف وما يعقدون بينهم من عقود الامانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن ان حملنا الامر على المشترك بين الوجوب والندب والعقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه قول الحطيئة

قوم اذا عقدوا عقدا لجارهم * شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

والعناج حبل يشد فى أسفل الدلو ثم يشد الى العراقى ليكون عونا له والكرب الحبل الذى يشد فى وسط العراقى والعرقوتان الخشبتان المعترضتان على الدلو كالصليب وقوله تعالى (أحلت لكم بهيمة الانعام) تفصيل للعقود لان العقود مجملة فهو شامل لجميع العقود لان ذلك أمهات التكاليف وجميع ما فى هذه السورة من الاحكام تفصيل لذلك * (فائدة) * روى عن ابن مسعود قال أنزل الله تعالى فى هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها فى غيرها قوله تعالى والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالازلام وما علمتم من الجوارح مكلبين وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وتمام الطهر فى قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة والسارق والسارقة ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم الآية وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام وقوله تعالى شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت وزيد عليها تاسع عشر وهو قوله تعالى واذا ناديتم الى الصلاة ليس للاذان ذكر فى القرآن الا فى هذه السورة وأما فى سورة الجمعة فهو مخصوص بالجمعة وهو فى هذه السورة عام فى جميع الصلوات والبهيمة كل حى لا يميز أى من شأنه أنه لا يميز فلا يدخل فى ذلك المجنون ونحوه والانعام الابل والبقر والغنم وهى الازواج الثمانية وألحق بها الظباء وبقر الوحش * (تنبيه) * اضافة البهيمة الى الانعام للبيان كقولك ثوب خز ومعناه البهيمة من الانعام (فان قيل) لم أفرد البهيمة وجمع الانعام (أجيب) بارادة الجنس وقوله تعالى (الا ما يتلى عليكم) اى تحريمه فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الآية استثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا والتحريم عرض من الموت ونحوه وقوله تعالى (غير محلى الصيد) حال من ضمير لكم وقوله تعالى (وأنتم حرم) مبتدأ أو خبر فى محل نصب على الحال من الضمير فى محلى جمع حرام وهو المحرم (ان الله يحكم ما يريد) من تحليل وتحريم وغيرهما على سبيل الاطلاق لا يجب عليه مراعاة مصلحة ولا حكمة كما تقوله المعتزلة فلا يسئل عن تخصيص ولا تفصيل فما فهمتم حكمته فذاك وما لا فكلوه اليه وارغبوا الى أن يلهمكم حكمته (يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) جمع شعيرة وهى اسم ما أشعر أى جعل شعارا وعلما للنسك من مواقف الحج ومرامى الجمار والمطاف والمسعى والافعال التى هى علامات الحاج يعرف بها من الاحرام والطواف والسعى والحلق والنحر وقيل معالم دينه وقيل فرائضه التى حدها لعباده (ولا) تحلوا (الشهر الحرام) اى بالقتال فيه قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم وهى

فى الاعراف والعنكبوت لان اللعب زمن الصبا واللهو زمن الشباب وزمن الصبا مقدم على زمن الشباب فناسب اعطاء المقدم للاكثر والمؤخر للاقل (قوله

ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب فيجوز أن يكون ذلك اشارة الى جميع هذه الاشهر كما يطلق اسم الواحد على الجنس لان الاشهر كلها فى الحرمة سواء ولكن قال الزمخشرى والشهر الحرام شهر الحج (ولا) تحلوا (الهدى) أى بالتعرض له وهو ما أهدى الى الحرم من النعم (ولا) تحلوا (القلائد) أى صاحب القلائد من الهدى وعبر بها مبالغة فى تحريمها أو القلائد أنفسها والنهى عن احلالها مبالغة فى النهى عن التعرض للهدى والقلائد جمع قلادة وهى ما قلد به الهدى من نعل أو غيره ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له (ولا) تحلوا (آمين) أى قاصدين (البيت الحرام) لزيارته أى بان تقاتلوهم (يبتغون فضلا من ربهم) وهو الثواب (ورضوانا) أى وأن يرضى عنهم والجملة فى موضع الحال من المستكن فى آمين أى لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيما لهم واستنكارا أن يتعرض لمثلهم وقيل معناه يبتغون من الله رزقا بالتجارة ورضوانا بزعمهم لانهم كانوا يظنون ذلك فوصفوا به بناء على ظنهم ولان الكافر لا نصيب له فى الرضوان كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان المسلمون والمشركون يحجون جميعا فنهى الله تعالى المسلمين أن يمنعوا أحدا عن حج البيت بقوله تعالى لا تحلوا شعائر الله فعلى الاول الآية محكمة قال الحسن ليس فى المائدة منسوخ وعلى الثانى قال البيضاوى فالآية منسوخة أى لما فيها من حرمة القتال فى الشهر الحرام ومن حرمة منع المشركين عن المسجد الحرام والاول منسوخ بقوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم والثانى بقوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا فقوله منسوخ منزل على هذا لكن اذا قلنا بشمول آمين للمسلمين والمشركين انما يكون النسخ فى حق المشركين خاصة وهو فى الحقيقة تخصيص لا نسخ ففى تسميته نسخا تسمح وقرأ شعبة بضم الراء والباقون بالكسر (واذا حللتم) أى من الاحرام وقوله تعالى (فاصطادوا) أمر اباحة أباح لهم الاصطياد بعد حظره عليهم كأنه قيل واذا حللتم فلا جناح عليكم ان تصطادوا كما فى قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض (ولا يجرمنكم) أى يحملنكم أو يكسبنكم (شنآن قوم) أى شدة بغضهم وقرأ ابن عامر وشعبة بسكون النون بعد الشين والباقون بفتحها وقوله تعالى (أن صدوكم) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة على ان الشرطية والباقون بفتحها أى لاجل أن صدوكم فى عام الحديبية أو غيره (عن المسجد الحرام) وقوله تعالى (أن تعتدوا) اى يشتد عدوكم عليهم بان تنتقموا منهم بالقتل وغيره ثانى مفعولى يجرمنكم فانه يتعدى الى واحد والى اثنين ككسب (وتعاونوا على البر والتقوى) أى بفعل ما أمرتم به (ولا تعاونوا) فيه حذف احدى التاءين فى الاصل (على الاثم) أى المعاصى (والعدوان) أى التعدى فى حدود الله للانتقام (واتقوا الله) أى خافوا عقابه بان تطيعوه (ان الله شديد العقاب) لمن خالفه فانتقامه أشد وقوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) أى أكلها بيان ما يتلى عليكم والميتة ما فارقته الروح من غير ذكاة شرعية (والدم) أى المسفوح قال تعالى أو دما مسفوحا وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الامعاء ويشوونها (ولحم الخنزير) قال العلماء الغذاء يصير جزأ من جوهر المتغذى ولابد أن يحصل للمتغذى أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلا فى الغذاء والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة فى المنهيات

والدار الآخرة خير للذين يتقون) خص المتقين بالذكر مع ان غيرهم كذلك لانهم الاصل وغيرهم تبع لهم وقرئ هنا ولدار الآخرة بلام واحدة وتخفيف الدال ورفع الآخرة بجعلها صفة

تحريم أكله على الانسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية ولذلك ان الفرنج لما واظبوا على أكل لحم الخنزير أورثهم الحرص العظيم والرغبة الشديدة فى المنهيات وأورثهم عدم الغيرة فان الخنزير يرى الذكر من الخنازير ينزو على الانثى التى له ولا يتعرض له لعدم الغيرة (وما أهل لغير الله به) أى رفع الصوت به لغير الله بأن ذبح على اسم غيره والاهلال رفع الصوت ومنه يقال فلان أهل بالحج اذا لبى وكانوا يقولون عند الذبح باسم اللات والعزى قال ابن عادل وقدم هنا لفظ الجلالة فى قوله لغير الله به وأخرت فى البقرة لانها هنالك فاصلة أو تشبه الفاصلة بخلافها هنا لان بعدها معطوفات (والمنخنقة) وهى التى ماتت بالخنق سواء أفعل بها ذلك آدمى أم اتفق لها ذلك (والموقوذة) وهى التى وقذت أى ضربت حتى ماتت ويدخل فى الموقوذة مارمى بالبندق فمات (والمتردية) أى الساقطة من علو بان سقطت من جبل أو مشرف أو فى بئر فماتت ولو رمى صيدا فى الهواء بسهم فأصابه فسقط على الارض ومات حل لان الوقوع على الارض من ضرورته وان سقط على جبل أو شجر ثم تردى منه فمات لم يحل لانه من المتردية الا ان يكون السهم ذبحه فى الهواء فيحل كيفما وقع لان الذبح قد حصل قبل التردية * (تنبيه) * دخلت الهاء فى هذه الكلمات لان المنخنقة هى الشاة المنخنقة كأنه قيل حرمت عليكم الشاة المنخنقة والموقوذة والمتردية وخصت الشاة لانها من أعم ما يأكل الناس والكلام يخرج على الاعم ويكون المراد الكل وأما الهاء فى قوله تعالى (والنطيحة) وهى التى تنطحها أخرى فتموت فلانقل من الوصفية الى الاسمية والا فكان من حقها أن لا تدخلها تاء التأنيث كقتيل وجريح وما فى قوله تعالى (وما أكل السبع) بمعنى الذى وعائده محذوف أى وما أكله السبع ولا بد من حذف ولهذا قال الزمخشرى وما أكل بعضه السبع وهذا يدل على ان جوارح الصيد اذا أكلت مما اصطادته لم يحل أكله وقوله تعالى (الا ماذكيتم) استثناء متصل أى الا ما أدركتم ذكاته وصار فيه حياة مستقرة من ذلك فهو حلال وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع وقيل الاستثناء منقطع أى ولكن ماذكيتم من غيرها فحلال أو فكلوه وكأن هذا القائل رأى انها وصلت بهذه الاسباب الى الموت أو الى حالة قريبة منه فلم تفد تذكيتها عنده شيأ وقيل الاستثناء من التحريم لا من المحرمات اى حرم عليكم ما مضى الا ماذكيتم فانه لكم حلال فيكون الاستثناء منقطعا أيضا وأقل الذكاة فى الحيوان المقدور عليه قطع الحلقوم والمرىء وكماله أن يقطع الودجين معهما وهما عرقان فى صفحتى العنق ويجوز بكل محدد يجرح من حديد أو قصب أو زجاج أو غيره الا السن والظفر لقوله صلى الله عليه وسلم ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر وقوله تعالى (وما ذبح على النصب) فى محل رفع عطفا على الميتة أى وحرم عليكم ذلك والنصب واحد الانصاب وهى حجارة كانت حول الكعبة يذبحون عليها تقربا اليها وتعظيما لها وقيل هى الاصنام لانها تنصب لتعبد وعلى بمعنى اللام أو على أصلها بتقدير وما ذبح مسمى على الانصاب وقيل هو جمع والواحد نصاب ويدل للاول قول الاعشى

وذا النصب المنصوب لا تعبدنه * ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

وقوله تعالى (وأن تستقسموا بالازلام) فى محل رفع أيضا عطفا على الميتة أى وحرم عليكم

للدار وباضافة الدار اليها بلام واحدة تبعا لاختلاف المصاحف فى ذلك وفى يوسف بالوجه الثانى فقط تبعا للمصاحف (قوله فلا تكونن من الجاهلين)

ذلك والازلام جمع زلم بفتح الزاي وضمها مع فتح اللام قدح بكسر القاف صغير وهو سهم لاريش له ولا نصل وذلك انهم كانوا اذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها أمرني ربي وعلى الآخر نهاني ربي والثالث غفل أي لاسمة عليه فان خرج الآمر مضوا على ذلك وان خرج الناهي تجنبوا عنه وان خرج الغفل أداروها ثانيا فمعنى الاستقسام طلب معرفة ماقسم لهم دون مالم يقسم بالازلام وقيل هو قسمة الجزور بالاقداح على الانصباء المعلومة وقوله تعالى (ذلكم فسق) أشارة الى ماذكر تحريمه اى خروج عن الطاعة وقيل اشارة الى الاستقسام وكونه فسقا لانه دخول في علم الغيب الذي استأثر بعلمه علام الغيوب وقد قال تعالى قل لايعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وضلال باعتقاد ان ذلك طريق اليه وقوله أمرني ربي ونهاني ربي افتراء على الله عز وجل ان كان أراد ربي الله ومايدريه ان الله أمره أو نهاه فالكهنة والمنجمون بهذه المثابة وجهالة وشرك ان أراد به الصنم وقوله تعالى (اليوم) لم يرد به يوما بعينه وانما أراد الحاضر ومايتصل به ويدانيه من الازمنة الماضية والآتية وقيل الالف واللام للعهد وقيل أراد يوم نزولها وقيل نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع وقيل هو يوم دخوله صلى الله عليه وسلم مكة سنة تسع وقيل ثمان وقوله تعالى (يئس الذين كفروا من دينكم) فيه قولان أحدهما يئسوا من ان يحلوا هذه الخبائث بعد أن جعلها الله تعالى محرمة والثاني يئسوا من أن يغلبوكم على دينكم فترتدوا عنه بعد طمعهم في ذلك لما رأوا من قوته لانه تعالى كان وعدنا بالاعلاء هذا الدين على كل الاديان بقوله تعالى ليظهره على الدين كله فحقق ذلك النصر وأزال الخوف (فلا تخشوهم) أن يظهروا عليكم (واخشون) أجمع القراء السبعة على حذف الياء بعد النون لحذفها في الرسم أي واخلصوا الخشية لي وحدي فان دينكم قد اكتمل بدره وجل عن المحاق محله وقدره ورضى به الآمر ومكنه على رغم أنوف الاعداء وهو قادر وذلك قوله تعالى مستأنفا التعليل (اليوم أكملت لكم دينكم) اى الذى أرسلت به أكمل خلقي محمدا صلى الله عليه وسلم نزلت هذه الآية يوم الجمعة يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت وعن عمر رضي الله تعالى عنه أن رجلا من اليهود قال له ياأمير المؤمنين آية من كتابكم تقرؤنها لو علينا معاشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال أي آية قال اليوم أكملت لكم دينكم (وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) قال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى أنزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة أشار عمر الى ان ذلك اليوم كان عيدا قال ابن عباس كان ذلك اليوم خمسة أعياد جمعة وعرفة وعيد اليهود وعيد النصارى والمجوس ولم يجتمع أعياد أهل الملل في يوم قبله ولا بعده وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم مايبكيك ياعمر قال ابكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فاذا كمل فلم يكمل شئ الا نقص قال صدقت فكانت هذه الآية نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعدها أحدا وثمانين يوما ومات يوم الاثنين بعد مازاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة من الهجرة وقيل توفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع

(ان قلت) كيف قال لمحمد ذلك وهو أغلظ خطابا من قوله لنوح اني اعظك أن تكون من الجاهلين مع ان محمدا اعظم رتبة (قلت) لان نوحا كان

الاول

الاول وكانت هجرته فى الثانى عشر منه فقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم أى الفرائض والسنن والحدود والجهاد والحلال والحرام فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شئ من الفرائض وهذا معنى قول ابن عباس وقال سعيد بن جبير وقتادة اليوم أكملت لكم دينكم فلم يحج معكم مشرك وقيل اظهرت دينكم وأمنتكم من عدوكم (فان قيل) قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم يقتضى ان الدين كان ناقصا قبل ذلك وذلك يوجب ان الدين الذى كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم أكثر عمره كان ناقصا وانما وجد الدين الكامل فى آخر عمره مدة قليلة (أجيب) بأن الدين لم يكن ناقصا بل كان أبدا كاملا وكانت الشرائع النازلة من عند الله فى كل وقت كافية فى ذلك الوقت الا أنه تعالى كان عالما فى أول وقت المبعث بأن ما هو كامل فى هذا اليوم ليس بكامل فى الغد ولا مصلحة فيه فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان ينزل بعد العدم وأما فى آخر زمان المبعث فأنزل شريعة كاملة وحكم ببقائها الى يوم القيامة فالشرع أبدا كان كاملا الا أن الاول كمال الى زمان مخصوص والثانى كمال الى يوم القيامة فلهذا قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى باكماله وقيل بدخول مكة آمنين ورضيت أى اخترت لكم الاسلام دينا من بين الاديان وهو الذى عند الله لا غير قال الله تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وقوله تعالى (فمن اضطر) متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض بما يوجب التجنب عنها وهو ان تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والاسلام المرضى والمعنى فمن اضطر الى تناول شئ من هذه المحرمات (فى مخمصة) أى مجاعة (غير متجانف) أى مائل (لاثم) أى معصية بأن يأكل ذلك تلذذا أو مجاوزا حد الرخصة كقوله تعالى غير باغ ولا عاد (فان الله غفور) له ما أكل (رحيم) به فى اباحته له فلا يؤاخذه ومن المائل الى الاثم قاطع الطريق ونحوه فلا يحل له الاكل مما ذكر قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر نون فمن اضطر فى الوصل والباقون بالضم (يسئلونك) يا محمد (ماذا أحل لهم) من الطعام وانما أتى بقوله لهم بلفظ الغيبة لتقديم ضمير الغيبة فى قوله تعالى يسئلونك ولو قيل فى الكلام ماذا أحل لنا لكان جائزا على حكاية الجملة كقولك أقسم زيد ليضربن ولاضربن بلفظ الغيبة والتكلم الا ان ضمير المتكلم يقتضى حكاية ما قالوه كما ان لاضربن يقتضى حكاية الجملة المقسم عليها وماذا مبتدأ وأحل لهم خبره كقولك أى شئ أحل لكم منها فقال تعالى (قل) لهم (أحل لكم الطيبات) أى ما ليس بخبيث منها وهو كل ما لم يأت تحريمه فى كتاب أو سنة أو قياس مجتهد ولا مستقذر من ذى الطباع السليمة وهذا يشمل كل ما ذبح وهو مأذون فى ذبحه مما كانوا يحرمونه على أنفسهم من السائبة وما معها وكل ما أذن فيه من غير ذبح كحيوان البحر وما أذن فيه من غير المطاعم وقوله تعالى (وما علمتم من الجوارح) معطوف على الطيبات أى أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم فحذف المضاف للعلم به والجوارح جمع جارحة من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والباز والشاهين والهاء للمبالغة سميت بذلك لان الجرح الكسب لانها تكسب الصيد ومنه قوله تعالى ويعلم ما جرحتم بالنهار أى كسبتم أو لانها تجرح الصيد غالبا وقوله تعالى (مكلبين) حال من ضمير علمتم أى حال كونكم معلمين هذه الكواسب الصيد والمكلب المؤدب الجوارح ومغريها مأخوذ من

معذورا بجهله بمفارقة لانه تمسك بوعد الله تعالى فى انجاء اهله وظن أن ابنه من أهله بخلاف محمد لم يكن معذورا لانه كبر عليه كفرهم مع علمه أن

الكلب بسكون اللام وهو الحيوان النابح لان التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فأخذ من لفظه لكثرته في جنسه أو لان السبع يسمى كلبا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في عتبة بن أبي لهب حين أراد سفر الشام فغاظ النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فأكله الاسد وقوله تعالى (تعلمونهن) حال ثانية من ضمير علمتم أو استئناف (فان قيل) مافائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بعلمتم (أجيب) بان فائدتها ان يكون من يعلم الجوارح فقيها عالما بالشرائط المعتبرة في الشرع لحل الصيد وفي هذا فائدة جليلة وهي أن على كل طالب لشيء ان لا يأخذه الا من أجل العلماء به وأشدهم دراية له وأغوصهم على لطائفه وحقائقه وان احتاج في ذلك الى أن يضرب اليه أكباد الابل فكم من أخذ من غير متقن قد ضيع أيامه وعض عند لقاء النضار بر أنامله (مما علمكم الله) أي من علم التكليب لانه الهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه أو مما علمكم الله ان تعلموه من اتباع الصيد بارسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وامساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه (فكلوا مما أمسكن) أي الجوارح مستقرا امساكها (عليكم) اي على تعليمكم وان قتلته بان لم تأكل منه بخلاف غير المعلمة فلا يحل صيدها وشروط التعليم فيها ثلاثة أشياء اذا ارسلت استرسلت واذا زجرت انزجرت واذا أخذت الصيد أمسكته ولم تأكل منه وأقل ما يعرف به ذلك ثلاث مرات فان أكلت منه فليس مما أمسكن على صاحبها فلا يحل أكله كما في حديث الصحيحين وان أكل منه فلا تأكل منه انما أمسك على نفسه وعن علي رضي الله عنه اذا أكل البازي فلا تأكل والى هذا ذهب أكثر الفقهاء وبعضهم لا يشترط ذلك في سباع الطير لان تأديبها الى هذا الحد متعذر وقال آخرون لا يشترط مطلقا وفي هذا الحديث ان صيد السهم اذا أرسل وذكر اسم الله عليه كصيد المعلم من الجوارح (واذكروا اسم الله عليه) في هذه الكناية ثلاثة أوجه احدها انها تعود الى المصدر المفهوم من الفعل وهو الاكل كأنه قيل واذكروا اسم الله عليه على الاكل ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم سم الله وكل مما يليك الثاني انها تعود الى ما علمتم أي اذكروا اسم الله على الجوارح عند ارسالها على الصيد ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم اذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه الثالث انها تعود الى ما أمسكن أي اذكروا اسم الله تعالى على ما ادركتم ذكاته مما أمسكت عليكم الجوارح (واتقوا الله) أي في محرماته (ان الله سريع الحساب) فيؤاخذكم بما جل ودق وقوله تعالى (اليوم) الكلام فيه كالكلام فيما قبله (أحل لكم الطيبات) أي المستلذات (وطعام الذين أوتوا الكتاب) اي ذبائح اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم (حل) اي حلال (لكم) فاما من دخل في دينهم بعد المبعث فلا تحل ذبيحتهم ولو ذبح يهودي أو نصراني على اسم غير الله تعالى كالنصراني يذبح على اسم المسيح لم تحل ذبيحته واما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب في تقريرهم بالجزية دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم قال صلى الله عليه وسلم سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم رواه الامام مالك (وطعامكم) اياهم (حل لهم) فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك (والمحصنات من المؤمنات) أي الحرائر (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وهم اليهود والنصارى

كفرهم وايمانهم بمشيئة الله وارادته وانهم لا يهتدون الا ان يهديهم الله تعالى (قوله ثم اليه ترجعون) ان قلت مافائدة ذكره مع انه مفهوم من قوله

أي

أى حل لكم ان تنكحوهن وان كن حربيات وقال ابن عباس لا تحل الحربيات وأما الاماء المسلمات فيحل نكاحهن فى الجملة بخلاف الاماء الكتابيات فلا يحل نكاحهن عندنا ويحل عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى (اذا آتيتموهن أجورهن) أى مهورهن فتقييد الحل باتيانها لتأكيد وجوبها والحث على الاولى وان من تزوج امرأة وعزم أن لا يعطى صداقها كان فى صورة الزانى وورد فيه حديث وتسميته بالاجر يدل على انه لا حد لاقله كما ان أقل الاجر فى الاجارة لا يتقدر (محصنين) أى قاصدين الاعفاف والعفاف وقيل متزوجين (غير مسافحين) أى معلنين بالزنا بهن (ولا متخذى أخدان) أى مسرين بالزنا منهن والخدن الصديق يقع على الذكر والانثى قال الشعبى الزنا ضربان السفاح وهو الزنا على سبيل الاعلان واتخاذ الخدن وهو الزنا سرا والله تعالى حرمهما فى هذه الآية وأباح التمتع بالمرأة على جهة الاحصان وهذه الآية مخصصة لقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن فبقى على التحريم ما تضمنته تلك ماعدا الكتابيات من الوثنيات وغيرهن من جميع المشركات حتى المنتقلة من الكتابيات من دينها الى غير دين الاسلام وقرأ الكسائى بكسر صاد المحصنات والباقون بنصبها وقوله تعالى (ومن يكفر بالايمان) اختلف المفسرون فى معناه فقال ابن عباس ومجاهد ومن يكفر بالايمان أى بالله الذى يجب الايمان به وانما حسن هذا المجاز لانه يقال رب الايمان ورب الشئ على سبيل المجاز وقال الكلبى ومن يكفر بالايمان أى بكلمة التوحيد وهى شهادة أن لا اله الا الله لان الايمان من لوازمها واطلاق الشئ على لازمه مجاز مشهور وقال قتادة ان ناسا من المسلمين قالوا كيف نتزوج نساءهم مع كونهم على غير ديننا فأنزل الله هذه الآية ومن يكفر بما أنزل الله فى القرآن فهو كذا وكذا فسمى القرآن ايمانا لانه مشتمل على بيان كل مالا بد منه فى الايمان والمراد من ذلك أن يأتى بشئ يصير به مرتدا (فقد حبط) أى فسد (عمله) الصالح قبل ذلك ان اتصل ذلك بالموت بدليل قوله تعالى (وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقوله تعالى فى آية أخرى فيمت وهو كافر أما من أسلم قبل الموت فان ثوابه يفسد دون عمله فلا يجب عليه اعادة حج قد فعله ولا صلاة قد صلاها قبل الردة (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلوة) أى أردتم القيام اليها كقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله عبر عن ارادة الفعل بالفعل المسبب عنها للايجاز والتنبيه على ان من أراد العبادة ينبغى أن يبادر اليها بحيث لا ينفك الفعل عن الارادة وظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم الى الصلاة وان لم يكن محدثا لكن صد عنه الاجماع لما روى انه صلى الله عليه وسلم صلى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح فقال له عمر صنعت شيئا لم تكن تصنعه فقال عمدا فعلته فقيل هو مطلق أريد به التقييد والمعنى اذا قمتم الى الصلاة محدثين وقيل الامر فيه للندب وقيل كان ذلك أول الامر ثم نسخ قال البيضاوى وهو ضعيف لقوله صلى الله عليه وسلم المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها (فاغسلوا وجوهكم) أى أمروا الماء عليها ولا يجب الدلك خلافا لمالك رضى الله تعالى عنه (و) اغسلوا (أيديكم الى المرافق) أى معها ان وجدت وقدرها ان فقدت لما روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه فى صفة وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم انه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع فى العضد الخ وللاجماع

قبله والموتى يبعثهم الله لانهم اذا بعثوا من قبورهم فقد رجعوا اليه بالحياة بعد الموت (قلت) الذى هو بعد الموت فهو سامعه لان المراد وقوفهم بين يديه للحساب

أو ان الى فى الآية بمعنى مع كما فى قوله تعالى من انصارى الى الله ويزدكم قوة الى قوتكم أو يجعل اليد التى هى حقيقة لى المنكب مجازا الى المرفق مع جعل الى غاية للغسل الداخلة هنا فى المغيا بقرينة الاجماع والاحتياط للعبادة والمعنى اغسلوا أيديكم من رؤس الاصابع الى المرافق أو تجعل باقية على حقيقتها الى المنكب مع جعل الى غاية للترك المقدر فتخرج الغاية والمعنى اغسلوا أيديكم واتركوا منها الى المرافق والمرافق جمع مرفق بفتح الميم وكسر الفاء على الفصيح من اللغة وهو مفصل ما بين العضد والمعصم ولو قطع بعض ما يجب غسله وجب غسل الباقى لان الميسور لا يسقط بالمعسور وان قطع من المرفق فان سل عظم الذراع وبقى العظمان المسميان برأس العضد وجب غسل رأس عظم العضد لانه من المرفق وهو مجموع العظمين والابرة الداخلة بينهما وان قطع من فوق المرفق ندب غسل باقى عضده (وامسحوا برؤسكم) أى ببعضها لما روى مسلم انه صلى الله عليه وسلم مسح بناصيته وعلى عمامته واكتفى بمسح البعض لانه المفهوم من المسح عند اطلاقه ولم يقل أحد بوجوب خصوص الناصية وهى الشعر الذى بين النزعتين والاكتفاء بها يمنع وجوب الاستيعاب ويمنع وجوب التقدير بالربع أو أكثر لانها دونه والباء اذا دخلت على متعدد كما فى الآية تكون للتبعيض أو على غيره كما فى قوله تعالى وليطوفوا بالبيت العتيق تكون للالصاق (فان قيل) صيغة الامر بمسح الرأس والوجه فى التيمم واحدة فهلا أوجبتم التعميم أيضا (أجيب) بان المسح ثم بدل للضرورة فاعتبر ببدله ومسح الرأس أصل فاعتبر لفظه (فان قيل) المسح على الخف بدل فهلا وجب تعميمه كبدله (أجيب) بقيام الاجماع على عدم وجوبه ولا فرق بين أن يمسح على بشرة الرأس أو شعرها ولو شعرة واحدة فى حد الرأس لان ذلك يصدق عليه مسمى الرأس عرفا اذ الرأس اسم لما رأس وعلا وقوله تعالى (وأرجلكم) قرأه نافع وابن عامر وحفص والكسائى بنصب اللام عطفا على وجوهكم وقيل على أيديكم والباقون بالكسر على الجوار ومنهم من عطف على المجرور على قراءة الجر والمسح ليفيد مسح الخف وعطف على المنصوب على قراءة النصب على المغسول ليفيد غسل الرجل المتجردة منه فيفيد كل من القراءتين غير ما أفادته الاخرى وقوله تعالى (الى الكعبين) وهما العظمان الناتئان فى كل رجل من جانبين عند مفصل الساق والقدم دل على دخولهما فى الغسل ما دل على دخول المرفقين فيه وقدم

(تنبيه) الفصل بين الايدى والارجل المغسولة بالرأس الممسوح فيه دليل على وجوب الترتيب فى طهارة هذه الاعضاء وعليه الشافعى رضى الله عنه ولو قطع بعض القدم وجب غسل الباقى وان قطع فوق الكعب فلا فرض عليه وندب غسل الباقى كما مر فى اليد ويؤخذ من السنة وجوب النية فيه كغيره من العبادات (وان كنتم جنبا) من جماع وغيره (فاطهروا) أى بالغسل لجميع البدن لانه أطلق ولم يخص الاعضاء كما فى الوضوء (وان كنتم مرضى) اى مرضا يضره الماء (أو على سفر) اى مسافرين سفرا مباحا طويلا او قصيرا (أو جاء أحد منكم من الغائط) أى الموضع المطمئن من الارض الذى تقضى فيه حاجة الانسان التى لا بد منها سمى باسمه الخارج للمجاورة قيل وفى ذلك حكمة وهى شدة عجز الانسان ليكف عن اعجابه وكبره وترفعه وفخره كما حكى أن بعض الامراء لقى بعض البله فلم يفسح له فغضب وقال كانك

والجزاء وهو غير البعث الذى هو احياء بعد الموت (قوله قل ان الله قادر على ان ينزل آية) وقع جوابا لقولهم لولا نزل عليه آية من ربه (فان قلت) لو صح

لم تعرفني فقال بلى والله إني لأعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية وحقق الباقون الهمزتين معا (أو لامستم النساء) بالذكر أو غيره أمنيتم أم لا وقرأ حمزة والكسائي بغير ألف بين اللام والميم والباقون بالألف (فلم تجدوا ماء) بعد طلبه لفقده حسا أو معنى بالعجز عن استعماله للمرض بجرح أو غيره (فتيمموا) أي اقصدوا (صعيدا) أي ترابا (طيبا) أي طهورا خالصا (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) مع المرفقين (منه) بضربتين والباء للإلصاق وبينت السنة أن المراد استيعاب العضوين بالمسح وتقدم مثل هذه الآية في النساء قال البيضاوي ولعل تكريره ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة (ما يريد الله ليجعل عليكم) في الدين (من حرج) أي ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم (ولكن يريد ليطهركم) من الأحداث والذنوب فإن الوضوء تكفير للذنوب (وليتم نعمته عليكم) ببيان شرائع الدين (لعلكم تشكرون) نعمه فيثيبكم قال البيضاوي والآية مشتملة على سبعة أمور كلها مثنى طهارتان أصل وبدل والأصل اثنان مستوعب وغير مستوعب وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود وإن آلتهما مائع وجامد وموجبهما حدث أصغر أو أكبر وإن المبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر وإن الموعود عليه تطهير الذنوب وإتمام النعمة (واذكروا نعمة الله عليكم) أي في هدايته لكم إلى الإسلام بعد أن كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها وفي غير ذلك من جميع النعم ليذكركم المنعم ويرغبكم في شكره لأن كثرة النعم توجب على المنعم عليه الاشتغال بخدمة المنعم والانقياد لأوامره ونواهيه وقال تعالى نعمة الله ولم يقل نعم الله لأن هذا الجنس لا يقدر عليه إلا الله لأن نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون من الآفات وإيصال الخيرات في الدنيا والآخرة لا يعلمه إلا الله تعالى وإن المراد التأمل في هذا النوع من حيث إنه ممتاز عن نعمة غيره (فإن قيل) قوله تعالى واذكروا نعمة الله عليكم يشعر بسبق النسيان وكيف يعقل نسيانها مع أنها متواترة متوالية علينا في جميع الساعات والأوقات (أجيب) بأنها لكثرتها وتعاقبها صارت كالأمر المعتاد فصار غاية ظهورها وكثرتها سببا لوقوعها في محل النسيان (و) اذكروا (ميثاقه) أي عقده الوثيق (الذي واثقكم به) أي بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايعكم ليلة العقبة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره والمنشط مفعل من النشاط وهو الأمر الذي ينشط له والمكره مفعل من الكره وهو الأمر الذي تكرهه النفس وأضاف الميثاق الصادر من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نفسه كقوله إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله وأكد ذلك بأنكم التزمتموه (إذ) أي حين (قلتم سمعنا وأطعنا) وفي ذلك تذكير بما أوجب الله له صلى الله عليه وسلم عليكم من الشكر بهدايته لكم إلى الإسلام ثم حذركم عن نقض تلك العهود بقوله (واتقوا الله) أي في ميثاقه أن تنقضوه (إن الله) الذي له صفات الكمال (عليم) أي بالغ العلم (بذات الصدور) أي بما في القلوب فبغيره أولى فيجازيكم عليها فضلا عن جليات أعمالكم وقيل المراد

جوابا لمصحح من كل من ادعى النبوة وطولب بآية أن يجيب بذلك (قلت) يلزم ذلك أن تثبت نبوته بمعجزة كانت للنبي صلى الله عليه وسلم وإلا فلا يصح

بالميثاق هو الذى أخذه الله منهم حين أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى قاله مجاهد وقيل المراد به الدلائل العقلية والشرعية التى نصبها الله على التوحيد والشرائع قاله السدى وأدغم أبو عمرو القاف فى واثقكم فى الكاف بخلاف عنه (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين) أى مجتهدين فى القيام (لله) تعالى بحقوقه (شهداء) أى متيقظين محضرين أفهامكم غاية الاحضار بحيث لا يشذ عنها شئ مما تريدون الشهادة به (بالقسط) أى العدل (ولا يجرمنكم) أى ولا يحملنكم (شنآن) أى شدة بغض (قوم) أى الكفار (على ألا تعدلوا) فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا مما فى قلوبكم (اعدلوا) أى تحروا العدل واقصدوه فى كل شئ (هو) أى العدل (أقرب) من تركه (للتقوى) لكونه لطفا فيها وفيه تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله اذا كان بهذه الصفة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه ﴿تنبيه﴾ يؤخذ من هذا أن التكاليف مع كثرتها محصورة فى نوعين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فقوله تعالى كونوا قوامين لله اشارة الى التعظيم لامر الله ومعنى القيام هو أن تقوم لله بالحق فى كل ما يلزمك وقوله تعالى شهداء بالقسط اشارة الى الشفقة على خلق الله وفيه قولان الاول قال عطاء لا تحاف فى شهادتك أهل ودك وقرابتك ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك الثانى أمرهم بالصدق فى أفعالهم وأقوالهم وتقدم نظير هذه الآية فى النساء الا أن هناك قدم لفظة القسط وهنا أخرها قال ابن عادل فكان الغرض من ذلك والله أعلم أن آية النساء جىء بها فى معرض الاقرار على نفسه ووالديه وأقاربه فبدأ فيها بالقسط الذى هو العدل من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة والتى هنا جىء بها فى معرض ترك العداوة فبدأ فيها بالامر بالقيام به لانه أردع للمؤمنين ثم ثنى بالشهادة بالعدل فجىء فى كل معرض بما يناسبه وقال البيضاوى وتكرير هذا الحكم اما لاختلاف السبب كما قيل ان الاولى نزلت فى المشركين وهذه فى اليهود أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة فى اطفاء ثائرة الغيظ (واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) فيجازيكم به (وعد الله الذين آمنوا) اى أقروا بالايمان بألسنتهم (وعملوا) تصديقا لهذا الاقرار (الصالحات) وحذف ثانى مفعولى وعد استغناء بقوله (لهم مغفرة وأجر عظيم) فانه استئناف يبينه وقيل الجملة فى موضع المفعول فان الوعد ضرب من القول لانه لا ينعقد الا به فكأنه قال وعدهم هذا القول والاجر العظيم هو الجنة (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) اى النار التى اشتد توقدها فاشتد حرارها فلا يراها أحد الا أحجم عنها فيلقون فيها ثم يلازمونها فلا ينفكون عنها كما هو شأن الصاحب وهذا من عادة الله سبحانه وتعالى انه يتبع حال أحد الفريقين حال الفريق الآخر وفاء بحق الدعوة وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم) رسمت نعمت هنا بالتاء فوقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وفى الوصل الجميع بالتاء روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا الى صلاة الظهر يصلون معا وذلك بعسفان وهو واد بينه وبين مكة مرحلتان فى غزوة ذى أنمار فلما صلوا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم

الجواب بذلك (قوله وما من دابة) الآية فائدة ذكر فى الارض بعد دابة مع انها لا تكون الا فى الارض وذكر يطير بجناحيه بعد طائر مع انه لا يطير الا بجناحيه

فقالوا ان لهم بعدها صلاة هي أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم يعنون صلاة العصر وهموا بأن يوقعوا بهم اذا قاموا اليها فنزل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف رواه مسلم وغيره والآية اشارة الى ذلك وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني قريظة ومعه الخلفاء الاربعة يستقرضهم أي يطلب منهم مالا اقرضا الدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما مشركين لكن في رواية البيهقي أن المقتولين كانا معاهدين لا مسلمين وأن الخروج كان لبني النضير لا الى قريظة فقالوا نعم يا أبا القاسم وكانوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات فقالوا قد آن لك ان تأتينا وتسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وخلا بعضهم ببعض وقالوا انكم لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه فقال عمرو بن جحاش أنا فجاء الى رحا عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده فنزل جبريل عليه السلام فأخبره فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا الى المدينة ثم دعا عليا وقال لا تبرح مقامك فمن خرج عليك من أصحابي فسأل عني فقل توجه الى المدينة ففعل ذلك حتى تناهوا اليه ثم تبعوه وقيل نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا وتفرق الناس في العضاه يستظلون بها فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة فجاء أعرابي فسل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل عليه فقال من يمنعك مني قال الله فأسقطه جبريل من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من يمنعك مني فقال لا أحد أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فنزلت (اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم) اذ يفتكوا بكم يقال بسط اليه لسانه اذا شتمه وبسط اليه يده اذا بطش به قال تعالى ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ومعنى بسط اليد مدها الى المبطوش به ألا ترى الى قولهم فلان بسيط الباع ومديد الباع بمعنى (فكف أيديهم عنكم) أي منعها ان تمد اليكم ورد مضرتها عنكم (واتقوا الله) في جميع أموركم (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فانه الكافي لايصال الخير ودفع الشر (ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل) أي العهد الموثق بما أخذ عليكم من السمع والطاعة (وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) أي شاهدا على كل سبط نقيب يكفلهم بالوفاء بما عليهم الوفاء به كما بعثنا منكم ليلة العقبة اثني عشر نقيبا وأخذنا منكم الميثاق على ما به كمال الاسلام والنقيب الذي ينقب عن أحوال القوم كما قيل له عريف لانه يتعرفها ومن ذلك المناقب وهي الفضائل لانها لا تظهر الا بالتنقيب عنها روى أن بني اسرائيل لما استقروا بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالمسير الى أريحاء بالمد أرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال اني كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا اليها وجاهدوا فيها واني ناصركم وأمر موسى صلوات الله وسلامه عليه أن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم واختار النقباء وأخذ الميثاق على بني اسرائيل وتكفل له بهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم فنكثوا الميثاق الا كالب بن يوفنا من سبط يهودا ويوشع بن نون من سبط افرائيم بن يوسف وكانا من النقباء (وقال) لهم (الله اني معكم) أي بالعون

التأكيد كما في قوله لا تتخذوا الهين اثنين أو زيادة التعميم والاحاطة (قوله أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله) أي أرأيتم ان أتاكم عذاب الله وقد جمع في

والنصرة (لئن) لام قسم (أقمتم الصلوة) التي هي وصلة العبد والخالق بجميع شروطها وأركانها
(وآتيتم الزكوة) التي تقرب العبد الى الله عز وجل (وآمنتم برسلي) أي بجميع الرسل
(وعزرتموهم) أي نصرتموهم وقيل التعزير التعظيم وقيل هو الثناء بخير قاله يونس وهو قريب
من الثاني (فان قيل) لم أخر الايمان بالرسل عن اقام الصلاة وايتاء الزكاة مع انه مقدم عليهما
(أجيب) بان اليهود كانوا مقرين بانه لابد في حصول النجاة من اقام الصلاة وايتاء الزكاة الا أنهم
كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل فذكر أن بعد اقام الصلاة وايتاء الزكاة لابد من الايمان
بجميع الرسل حتى يحصل المقصود والا لم يكن لاقام الصلاة وايتاء الزكاة تأثير في حصول النجاة
بدون الايمان بجميع الرسل (فان قيل) قوله تعالى (وأقرضتم الله قرضا حسنا) داخل تحت
ايتاء الزكاة فما فائدة اعادته (أجيب) بان المراد بالزكاة الواجبة وبالقرض الصدقة المندوبة
وخصها تنبيها على شرفها وقرضا يحتمل المصدر والمفعول به ولما كان الانسان محل النقصان
فهو لا ينفك عن زلل أو تقصير وان اجتهد في صلاح العمل قال سد الجواب القسم المدلول
عليه باللام في لئن مسد جواب الشرط (لأكفرن) أي لأسترن (عنكم سيئاتكم) أي
فعلكم الذي من شأنه أن يسوء (ولأدخلنكم) فضلا ورحمة مني (جنات تجري من تحتها
الانهار) أي من شدة الري (فمن كفر بعد ذلك) الميثاق (منكم فقد ضل) أي ترك وضيع (سواء
السبيل) أي أخطأ طريق الحق والسواء في الاصل الوسط (فان قيل) من كفر قبل ذلك أيضا
فقد ضل سواء السبيل (أجيب) بان الضلال بعده أظهر وأعظم لان الكفر بعد البيان العظيم
فهو أعظم من غيره لانه قد يكون له قبل ذلك شبهة يتوهم له معذرة وقرأ قالون وابن كثير
وعاصم باظهار دال قد عند الضاد والباقون بالادغام وقد تقدم ولما نقضوا الميثاق مرة بعد
مرة بتكذيب الرسل وقتل الانبياء وكتمهم صفة النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم في سورة البقرة
قال تعالى (فبما) ما مزيدة للتأكيد (نقضهم ميثاقهم لعناهم) قال عطاء أبعدناهم من رحمتنا
وقال الحسن ومقاتل مسخناهم قردة وخنازير وقال ابن عباس ضربنا الجزية عليهم (وجعلنا
قلوبهم قاسية) أي لا تلين لقبول الايمان وقرأ حمزة والكسائي بغير ألف بعد القاف وتشديد
الياء بمعنى رديئة من قولهم درهم قسي اذا كان مغشوشا وهو أيضا من القسوة فان المغشوش
فيه يبس وصلابة والباقون بالف بعد القاف وتخفيف الياء وقوله تعالى (يحرفون الكلم عن
مواضعه) استئناف لبيان قسوة قلوبهم فانه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله تعالى والافتراء
عليه (ونسوا حظا) أي نصيبا نافعا (مما ذكروا به) أي من التوراة على أنبيائهم عيسى ومن
قبله عليهم الصلاة والسلام تركوه ترك الناسي لشيء لقلة مبالاتهم به بحيث لم يكن لهم رجوع
اليه وقيل معناه انهم حرفوها فزالت لشؤمهم أشياء منها عن حفظهم وعن ابن مسعود رضي
الله تعالى عنه أنه قال ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية وقيل تركوا نصيب أنفسهم
مما أمروا به من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعته (ولا تزال) أي يا مطلعا عليه
يا أكرم الخلق فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (تطلع) أي تظهر (على خائنة) أي خيانة
(منهم) بنقض العهد وغيره لان ذلك من عادتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم (الا قليلا

هذه الآية ونظيرتها بعد بين علامتي خطاب التاء والكاف لمزيد الاهتمام والمراد الذي هو الاستئصال بالهلاك والتاء اسم اجماعا والكاف حرف خطاب عند البصريين (قوله لعلهم

منهم) لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم (فاعف عنهم) أى امح ذنبهم ذلك (واصفح) أى أعرض عن ذلك أصلا ورأسا ان تابوا وآمنوا وعاهدوا والتزموا الجزية وقيل مطلق ونسخ بآية السيف وقوله تعالى (ان الله يحب المحسنين) تعليل للامر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن احسان فضلا عن العفو عن غيره روى الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره رجل من اليهود يقال له لبيد بن الاعصم وفى رواية البخارى أنه رجل من بنى زريق حليف لليهود وكان منافقا حتى كان يخيل اليه أنه يأتى النساء ولا يأتيهن وذلك أشد السحر ثم ان الله تعالى شفاه وأعلمه أن السحر فى بئر ذروان فقالت له عائشة رضى الله عنها أفلا أخرجته فقال لا أما أنا فقد عافانى الله وكرهت ان أثير على الناس شرا فأمرت به فدفنته وهو فى معجم الطبرانى الكبير وهذا لفظه وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال كان رجل يدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فعقد له عقدا فجعله فى بئر رجل من الانصار فأتاه ملكان يعودانه فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما أتدرى ما وجعه قال فلان الذى يدخل عليه عقد له عقدا فألقاه فى بئر فلان الانصارى فلو أرسل رجلا لوجد الماء أصفر فبعث رجلا فأخذ العقد فحلها فبرئ فكان الرجل بعد ذلك يدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فلم يذكر له شيأ منه ولم يعاتبه وعن أنس رضى الله عنه أن امرأة يهودية سمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك فقالت أردت لاقتلك فقال ما كان الله ليسلطك على ذلك أو قال على قالوا أفلا تقتلها قال لا قال أنس فمازلت أعرفها فى لهوات النبى صلى الله عليه وسلم فانظر الى عفوه صلى الله عليه وسلم واقتد به وفى ذلك غاية العفو والاحسان امتثالا لامر ربه تعالى وقيل فاعف عن مؤمنيهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) أى وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا من قبلهم (فان قيل) هلا قال من النصارى (أجيب) بانهم انما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله تعالى لقولهم لعيسى نحن أنصار الله وليسوا موصوفين به قال الحسن فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى (فنسوا) أى تركوا ترك الناسى (حظا) أى نصيبا عظيما يتنافس فى مثله (مما ذكروا به) أى فى الانجيل من الايمان ومن أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك ونقضوا الميثاق (فأغرينا) أى أوقعنا (بينهم) أى النصارى بعد أن جعلناهم فرقا متباينين وهم نسطورية ويعقوبية وملكانية وكذا بينهم وبين اليهود (العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) اى بتفرقهم واختلاف أهوائهم فكل فرقة تكفر الاخرى وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما (وسوف ينبئهم الله) أى يجزيهم فى الآخرة (بما كانوا يصنعون) فيجازيهم عليه وقوله تعالى (يا أهل الكتاب) خطاب لليهود والنصارى ووحد الكتاب لانه للجنس (قد جاءكم رسولنا) وهو أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم (يبين لكم) أى يوضح ايضاحا شافيا (كثيرا مما كنتم تخفون) أى تكتمون (من الكتاب) أى التوراة والانجيل كنعت محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى بأحمد فى الانجيل (ويعفوا عن كثير) أى مما تخفونه فلا يبينه اذا لم يكن فيه مصلحة فى أمر دينى أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه (قد جاءكم من الله نور) هو

(قوله انظر كيف نصرف
يتضرعون) قال ذلك هنا
وقال فى الاعراف يضرعون
بالادغام لان ههنا وافق
مابعده وهو قوله جاءهم
باسنا تضرعوا ومستقبل
تضرعوا يتضرعون لا غير

محمد صلى الله عليه وسلم الذى جلا ظلمات الشك والشرك (وكتاب) هو القرآن العظيم (مبين) أى بين فى نفسه مبين لما كان خافيا على الناس من الحق (يهدى به الله) أى بالكتاب وقيل بهما ووحد الضمير لان المراد بهما واحد لانهما كواحد فى الحكم (من اتبع رضوانه) أى رضاه بان آمن (سبل) أى طرق (السلام) أى السلامة من العذاب أو الله باتباع شرائع دينه (ويخرجهم من الظلمات) أى انواع الكفر والوساوس الشيطانية (الى النور) أى الاسلام (باذنه) أى بارادته أو بتوفيقه (ويهديهم الى صراط مستقيم) أى طريق هى أقرب الطرق الى الله تعالى ومؤد اليه لا محالة وهو الدين الحق (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) وذلك حيث جعلوه الها وهم اليعقوبية فرقة من النصارى وقيل ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدى اليه حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيى ويميت ويدبر أمر العالم (قل) لهم يا محمد (فمن يملك) اى يدفع (من) عذاب (الله شيأ) أى من الاشياء التى يتوهم أنها قد تمنعه عما يريد (ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الارض جميعا) أى لا أحد يملك ذلك ولو كان المسيح الها لقدر عليه فدل ذلك على انه بمعزل من الالوهية وانه مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات وأراد بعطف من فى الارض على المسيح وأمه انهما من جنسهم لا تفاوت بينهم وبينهما فى البشرية (ولله ملك السموات والارض وما بينهما) أى بين النوعين وبين أفرادهما مما به تمام أمرهما (يخلق ما يشاء) اى على اى كيف أراد (والله على كل شئ قدير) اى قادر على الاطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والارض ومن أصل كما خلق ما بينهما وينشئ من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ومن أصل يجانسه اما من ذكر وحده كما خلق حواء من آدم أو من أنثى وحدها كعيسى بن مريم أو منهما كسائر الناس وقوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى) اى كل طائفة قالت على حدتها (نحن أبناء الله وأحباؤه) اختلف المفسرون فى معنى ذلك على أربعة أوجه أحدها أن هذا من باب حذف المضاف أى نحن أبناء رسل الله كقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله الثانى ان لفظ الابن كما يطلق على ابن الصلب قد يطلق أيضا على من اتخذ ابنا بمعنى تخصيصه بمزيد الشفقة والمحبة فالقوم لما ادعوا عناية الله بهم ادعوا انهم أبناء الله الثالث ان اليهود زعموا ان العزير ابن الله والنصارى زعموا ان المسيح ابن الله ثم زعموا ان العزير والمسيح كانا منهم فصار كأنهم قالوا نحن أبناء الله ألا ترى أن أقارب الملك اذا فاخروا أحدا يقولون نحن ملوك الدنيا والمراد كونهم مختصين بالشخص الذى هو الملك فكذا هنا الرابع قال ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا جماعة من اليهود الى دين الاسلام وخوفهم من عقاب الله فقالوا كيف تخوفنا بعذاب الله ونحن أبناء الله تعالى وأحباؤه فهذه الرواية انما وقعت عن تلك الطائفة وأما النصارى فانهم يتلون فى الانجيل ان المسيح قال لهم انى ذاهب الى أبى وأبيكم وقيل أرادوا أن الله كالاب لنا فى الحنو والعطف ونحن كالابناء له فى القرب والمنزلة وقال ابراهيم النخعى ان اليهود وجدوا فى التوراة يا أبناء أحبارى فبدلوه يا أبناء أبكارى فمن ذلك قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وجملة الكلام ان اليهود والنصارى كانوا يرون لانفسهم فضلا على سائر

الخلق

الآيات) كررها طلبا للرغبة فى ايمان المذكورين اذا التقدير انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون أى يعرضون عنها فلا تعرض عنهم بل كررها لهم لعلهم يفقهون

الحلق بسبب أسلافهم من الانبياء الى ان ادعوا ذلك (قل) لهم يا محمد (فلم يعذبكم بذنوبكم) أى فان صح ما زعمتم فلم يعذبكم بذنوبكم ولا يعذب الاب ولده ولا الحبيب حبيبه وقد عذبكم فى الدنيا بالقتل والاسر والمسخ واعترفتم بانه سيعذبكم بالنار أياما معدودة وقرأ البزى فى الوقف فله بخلاف عنه (بل أنتم بشر ممن) جملة (من خلقه الله) تعالى من البشر لكم ما لهم وعليكم ما عليهم (يغفر لمن يشاء) اى ممن خلقه منكم ومن غيركم تفضلا منه تعالى (ويعذب من يشاء) كذلك كما تشاهدونه يكرم ناسا منكم فى هذه الدار ويهين آخرين لا اعتراض عليه وقرأ أبو عمرو بادغام الراء فى اللام من يغفر والباء فى الميم من يعذب بخلاف عنه ورقق ورش الراء على أصله (ولله ملك السموات والارض وما بينهما) أى وأنتم مما بينهما فمن كان هكذا وقدرته هكذا كيف يستحق عليه البشر الضعيف حقا واجبا وكيف يملك عليه الجاهل بعبادته الناقصة دينا لازما كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ثم قال (واليه المصير) أى المرجع فيجازى المحسن باحسانه والمسىء باساءته (يا أهل الكتاب) أى من الفريقين (قد جاءكم رسولنا) محمد صلى الله عليه وسلم (يبين لكم) أى ما كتمتم وحذف لتقدم ذكره أو الدين وحذف لظهوره ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى ويبذل لكم البيان وجملة يبين لكم فى موضع الحال أى جاءكم رسولنا مبينا لكم وقوله تعالى (على فترة من الرسل) متعلق بجاءكم أى جاءكم على حين فتور من ارسال الرسل وانقطاع من الوحى قال ابن عباس يريد على انقطاع من الانبياء فشبه فقدهم وبعد العهد بهم ونسيان أخبارهم وبلاء رسومهم وآثارهم وانطماس معالمهم وأنوارهم بشىء كان يغلى ففتر ولم يبق من وصفه المقصود منه الا أثر خاف ورسم دارس يقال فتر الشىء يفتر فتورا اذا سكنت حركته وصار أقل مما كان عليه وسميت المدة بين الانبياء فترة لفتور الدواعى فى العمل بترك الشرائع واختلفوا فى مدة الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم فقال أبو عثمان النهدى ستمائة سنة وقال قتادة خمسمائة وستون سنة وقال معمر والكلبى خمسمائة وستة وأربعون سنة وعن الكلبى بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبى وبين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم أربعة من الانبياء ثلاثة من بنى اسرائيل وواحد من العرب وهو خالد بن سنان العبسى وفى الآية امتنان عليهم بان بعث اليهم حين انطمست آثار الوحى وكانوا أحوج ما يكونون اليه قال البقاعى ولعله عبر بالمضارع فى يبين اشارة الى ان دينه وبيانه لا ينقطع أصلا بحفظ كتابه فكلما درست سنة منها أقام الله تعالى بعالم يرد الناس اليها بالكتاب العزيز المعجز القائم أبدا فلذلك لا يحتاج الامر الى نبى مجدد الا عند الفتنة التى لا تطيقها العلماء وهى فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج ثم علل ذلك بقوله تعالى (أن) أى كراهة أن (تقولوا) أى اذا حشرتم وسئلتم عن أعمالكم (ما جاءنا من بشير) أى بشير فمن زائدة لتأكيد النفى أى يبشرنا الترغيب فنعمل بما يسعدنا (ولا نذير) أى يحذرنا الترهيب فنترك ما يشقينا فنسلم وقوله تعالى (فقد جاءكم بشير ونذير) متعلق بمحذوف أى لا تعتذروا بما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير (والله على كل شىء قدير) أى فيقدر على الارسال تترا واحدا بعد واحد على التعاقب كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وعلى الارسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام

أى يفهمون وانما ختم الاولى بقوله ثم هم يصدفون والثانية بقوله لعلهم يفقهون لان الاعراض عن الشىء أقبح من عدم فهمه فوصفوا بالاول فى الآية الاولى تبعا لما

(واذ قال موسى لقومه) أى من اليهود (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم) أى انعامه فذكرهم بثلاثة امور أولها قوله تعالى (اذ) أى حين (جعل فيكم) أى منكم (أنبياء) فارشدكم وشرفكم بهم ولم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى اسرائيل من الانبياء وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائى باظهار ذال اذ عند الجيم وأدغمها أبو عمرو وهشام وثانيها قوله تعالى (وجعلكم ملوكا) أى وجعل منكم أو فيكم فقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الانبياء بعد فرعون حتى قتلوا يحيى وهموا بقتل عيسى وقال ابن عباس أصحاب خدم وحشم قال قتادة كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن قبلهم خادم وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كان بنو اسرائيل اذا كان لاحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكا وقال أبو عبد الرحمن الحبلى سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال ألسنا من فقراء المسلمين المهاجرين فقال عبد الله له يا هذا ألك امرأة تأوى اليها قال نعم قال ألك مسكن تسكنه قال نعم قال فانت غنى من الاغنياء قال ألك خادم قال نعم قال أنت من الملوك وقال السدى وجعلكم احرارا تملكون أمر أنفسكم بعد ما كنتم فى أيدى القبط يستعبدونكم وقال الضحاك كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية فمن كان مسكنه واسعا وفيه نهر جار فهو ملك وثالثها قوله تعالى (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) وذلك لانه تعالى خصهم بانواع عظيمة من الاكرام كفلق البحر لهم وأهلك عدوهم وأورثهم أموالهم وأنزل عليهم المن والسلوى وأخرج لهم المياه الغزيرة من الحجر وأظل فوقهم الغمام ولم يجتمع الملك والنبوة لقوم كما اجتمعا لهم وكانوا فى تلك الايام هم العلماء بالله تعالى وهم أحباب الله وأنصار دينه وقيل المراد بالعالمين عالمو زمانهم وقال الكلبى ان جعلت لعالمين عاما وجب تخصيص ما لئلا يلزم انهم أوتوا ما لم تؤت هذه الامة من الكرامة والفضل وغير ذلك وان خصصته بعالمى زمانهم فما باقية على عمومها اذ لا محذور ولما ذكرهم هذه النعم وشرحها لهم أمرهم بعد ذلك بجهاد العدو فقال (يا قوم ادخلوا الارض المقدسة) أى المطهرة وهى أرض بيت المقدس سميت بذلك لانها كانت مسكن الانبياء والمؤمنين وقال مجاهد هى الطور وما حوله وقال الكلبى هى دمشق وفلسطين وبعض الاردن وهو بضم الدال وتشديد النون اسم نهر أو كورة بالشام قاله الجوهرى وقال قتادة هى الشأم كلها (التى كتب الله لكم) أى فى اللوح المحفوظ انها لكم مساكن وقال السدى أمركم بدخولها (فان قيل) على القول الاول كيف كتبها لهم بعد قوله تعالى بعد فانها محرمة عليهم (أجيب) باجوبة أولها ما قال ابن عباس انها كانت هبة ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم ثانيها اللفظ وان كان عاما لكن المراد به الخصوص فكانها كتبت لبعضهم وحرمت على بعضهم ثالثها ان الوعد بقوله تعالى كتب الله لكم مشروط بقيد الطاعة فلما لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط رابعها انها محرمة عليهم أربعين سنة فلما مضت الاربعون حصل ما كتب (ولا ترتدوا على أدباركم) أى ولا ترجعوا مدبرين خوفا من العدو (فتنقلبوا خاسرين) اى فى سعيكم وذلك ان قوم موسى لما أخرجوا من مصر وعدهم الله تعالى اسكان أرض الشام قال الكلبى صعد ابراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له انظر ما أدركه بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك وكان بنو اسرائيل يسمون أرض الشام

ارض

وصدوا به قبلها من قوة
قلوبهم ونبئاهم ماذكروا
به وغيرهما وذلك مقصود
فى النابه (قوله قل لا أقول
لكم عندى خزائن الله
الآية) كرر فيها لكم لعدم
ذكره قبلها وبعدها ولم

أرض الموعد ثم بعث موسى عليه السلام اثنى عشر نقيبا ليتجسسوا لهم عن أحوال تلك الارض فلما دخلوا تلك الاماكن رأوا أجساما عظيمة قال ابن عادل قال المفسرون فأخذهم أحد أولئك الجبارين وجعلهم فى كمه مع فاكهة قد حملها من بساتينه وأتى بهم للملك ونثرهم بين يديه وقال تعجبا للملك هؤلاء يريدون قتالنا فقال الملك ارجعوا الى صاحبكم فأخبروه بما شاهدتم ثم انصرف هؤلاء النقباء الى موسى عليه السلام فأخبروه بالواقعة فأمرهم أن يكتموا ما شاهدوه فلم يقبلوا قوله الا رجلين منهم وهما يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف فتى موسى وكالب بن يوفنا ختن موسى وكان من سبط يهوذا فانهما سهلا الامر وقالا هى بلاد طيبة كثيرة النعم والاقوام وان كانت أجسامهم عظيمة الا أن قلوبهم ضعيفة وأما العشرة الباقية من النقباء فانهم أوقعوا الجبن فى قلوب الناس حتى أظهروا الامتناع ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا ياليتنا متنا فى أرض مصر او ليتنا نموت فى هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمة لهم ويقولون لاصحابهم تعالوا نجعل علينا رؤساء وننصرف الى مصر فذلك قوله تعالى (قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين) اى عتاة قاهرين لغيرهم مكرهين لغيرهم على ما يريدون (وانا لن ندخلها) خوفا منهم (حتى يخرجوا منها) اى بأى وجه كان (فان يخرجوا منها فانا داخلون) لها وأصل الجبار المتعظم الممتنع عن القهر يقال نخلة جبارة اذا كانت طويلة ممتنعة عن وصول الايدى اليها وسمى هؤلاء القوم جبارين لامتناعهم بطولهم وقوة أجسادهم وكانوا من العمالقة وبقية قوم عاد فلما قال بنو اسرائيل ما قالوا وهموا بالانصراف الى مصر خر موسى وهرون عليهما السلام ساجدين وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما فى قوله (قال رجلان من الذين يخافون) أى مخالفة أمر الله تعالى (أنعم الله عليهما) اى بالتوفيق والعصمة (ادخلوا عليهم الباب) اى باب قرية الجبارين ولا تخشوهم فانا رأيناهم وأجسادهم عظيمة بلا قلوب (فاذا دخلتموه فانكم غالبون) اى لان الله تعالى منجز وعده (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) به ومصدقين بوعده فأراد بنو اسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوا أمرهما ثم (قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا) نفوا دخولهم على التأكيد والتأبيد وقوله تعالى (ماداموا فيها) بدل من أبدا بدل البعض (فاذهب أنت وربك فقاتلا) هم (انا ههنا قاعدون) عن القتال لا القعود الذى هو ضد القيام قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما وقيل وربك اى هرون لانه أكبر منه وقيل تقديره اذهب أنت وربك يعينك فلما سمع من قومه ذلك (قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى) اى لا أملك التصرف ولا ينفذ أمرى الا فى نفسى وأخى لان الانسان لا يملك نفسه فى الحقيقة انما المراد به التصرف ٣ وانى أفعل ما أمرتنى به وأخى كذلك قاله اشكوى بثه وحزنه الى الله عز وجل لما خالفه قومه وأيس منهم ولم يبق معه موافق يثق به غير هرون عليه السلام والرجلان المذكوران وان كانا موافقين لم يثق بهما لما كابد من تلون قومه أو ان المراد بأخى من يؤاخيه فى الدين فيدخلان فيه وأظهر وجوه الاعراب فى أخى انه منصوب عطفا على نفسى والمعنى ولا أملك الا أخى مع ملكى نفسى دون غيرنا (فافرق) أى فافصل (بيننا وبين القوم الفاسقين) بان تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه أو بالتبعيد بيننا وبينهم (قال) تعالى (فانها)

يكررونه فى آية هود اكتفا بذكره قبلها مرتين فى قوله انى لكم نذير وقوله وماترى لكم وبعدها مرة فى قوله (قوله أن أنصح لكم (وقوله) ولتستبين سبيل المجرمين) ترك تعيين سبيل المؤمنين

٣ قوله وانى أفعل الخ هكذا بالاصول بالواو ولعل الظاهر أو ايكون اشارة لوجه آخر وهو أن أخى مرفوع على الابتداء والخبر محذوف أى كذلك انظر عبارة العلامة الجمل اه مصححه

أى الارض المقدسة (محرمة عليهم) ان يدخلوها وقوله تعالى (اربعين سنة يتيهون) أى يتحيرون
(فى الارض) اختلف فى العامل فى اربعين فقيل محرمة فيكون التحريم مؤقتا غير مؤبد
فلا يخالف ظاهر قوله تعالى التى كتب الله لكم وقيل هو يتيهون أى يسيرون فيها متحيرين
قال الزجاج والاول خطأ لانه جاء فى التفسير انها محرمة عليهم أبدا فنصبها بيتيهون أى
فيكون التحريم مطلقا قال البغوى لم يرد به تحريم تعبد وانما أراد تحريم منع وأوحى الله
تعالى الى موسى عليه الصلاة والسلام بى حلفت لاحرمن عليهم دخول الارض المقدسة غير
عبدى يوشع وكالب ولاتيهنهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الايام التى تجسسوا
فيها سنة ولالقين جيفهم فى هذه القفار وأما بنوهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها فلبثوا
اربعين سنة فى فراسخ وقيل تسعة فراسخ قال ابن عباس وهم ستمائة ألف مقاتل وكانوا
يسيرون كل يوم جادين فاذا أمسوا كانوا فى الموضع الذى ارتحلوا عنه وكان الغمام يظلهم من
الشمس وعمود نور يطلع بالليل فيضئ لهم وكان طعامهم المن والسلوى وماؤهم من الحجر الذى
يحملونه فاذا ولد لاحدهم ولود كان عليه ثوب مثل الظفر فى رأى العين يطول بطوله ويتسع
بقدرة الله والله أعلم بما يحكى من ذلك (فان قيل) كيف ينزل المن والسلوى فى حال العقوبة
(أجيب) بانه سبب البقاء وهو أبقى للعقوبة فهو كاقامة الحدود مع بقاء الخطاب واختلفوا هل
كان موسى وهرون عليهما السلام فيهم أولا قال البغوى الاصح انهما كانا فيهم الا أنه كان ذلك
راحة لهما وزيادة فى درجتهما وعقوبة لهم وهو أبلغ فى الاجابة ان يشاهدوهما فى حال العقوبة
فلا يصيبهما ما اصابهم ولم يدخل الارض المقدسة احد ممن قال انا لن ندخلها بل هلكوا فى التيه
وانما قاتل الجبابرة اولادهم واختلفوا هل مات موسى وهرون فى التيه ام لا قال البيضاوى
الاكثرون انهما كانا معهم فى التيه وانهما ماتا فيه مات هرون قبل موسى وموسى بعده
بسنة قال عمرو بن ميمون مات هرون قبل موسى وكانا خرجا الى بعض الكهوف فمات هرون
فدفنه موسى وانصرف الى بنى اسرائيل فقالوا قتله لحبنا اياه وكان محببا فى بنى اسرائيل
فتضرع موسى الى ربه فأوحى الله تعالى اليه أن انطلق بهم الى هرون فانى باعثه فانطلق بهم
الى قبره فناداه يا هرون فخرج من قبره ينفض رأسه فقال أنا قتلتك قال لا ولكنى مت قال
فعد الى مضجعك وانصرفوا وعاش موسى صلى الله عليه وسلم بعده سنة روى عن ابى هريرة
رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ملك الموت الى موسى فقال له
اجب امر ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها فقال ملك الموت يارب انك ارسلتنى الى
عبد لا يريد الموت وقد فقأ عينى قال فرد الله عينه وقال ارجع الى عبدى وقل له الحياة تريد
فان كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعرة فانك تعيش بها سنة
قال ثم مه قال ثم تموت قال الآن من قريب قال رب أدننى من الارض المقدسة رمية بحجر
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أنى عنده لاريتكم قبره الى جانب الطريق عند
الكثيب الاحمر قال وهب خرج موسى ليقضى حاجة فمر برهط من الملائكة يحفرون قبرا
لم ير شيأ أحسن منه ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة فقال لهم يا ملائكة
الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا لعبد كريم على ربه فقال ان هذا العبد لمن الله بمنزلة

لعلمهن تبيين سبيل المجرمين (قوله ويعلم ما جرحتم بالنهار) اى كسبتم فيه وخص النهار بالذكر دون الليل لان الكسب فيه أكثر لانه زمن حركة الانسان والليل زمن سكونه (قوله مولاهم

ما رأيت كاليوم أحسن منه مضجعا فقالت الملائكة يا موسى الله تحب أن يكون لك قال وددت قالوا فانزل فاضطجع فيه وتوجه الى ربك قال فاضطجع فيه وتوجه الى ربه ثم تنفس أسهل نفس فقبض الله تعالى روحه ثم سوت عليه الملائكة التراب وقيل ان ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض الله روحه وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة فلما مات موسى عليه السلام وانقضت الاربعون سنة بعث الله تعالى يوشع عليه السلام نبيا فأخبرهم ان الله تعالى قد أمرهم بقتال الجبابرة فصدقوه وبايعوه فتوجه ببنى اسرائيل الى أريحاء ومعه تابوت الميثاق وأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر وفتحوها فى الشهر السابع ودخلوها فقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم وكانت العصابة من بنى اسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها وكان القتال يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت فقال اللهم اردد الشمس على وقال للشمس انك فى طاعة الله وأنا فى طاعة الله فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت فردت عليه الشمس وزيد فى النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين وروى الامام أحمد فى مسنده حديثا ان الشمس لم تحبس على بشر الا ليوشع ليالى سار الى بيت المقدس ثم تتبع ملوك الشام فاستباح منهم احدا وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام وصارت الشام كلها لبنى اسرائيل وفرق عماله فى نواحيها وجمع الغنائم فلم تنزل النار فأوحى الله تعالى الى يوشع ان فيها غلولا فمرهم فليبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده فقال هلم ما عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل باليواقيت والجواهر وكان قد غله فجعله فى القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان ثم مات يوشع ودفن فى جبل ابراهيم وكان عمره مائة وستا وعشرين سنة وتدبر أمر بنى اسرائيل بعد موسى سبعا وعشرين سنة فسبحان الباقى بعد فناء خلقه ٭ ولما ندم موسى عليه السلام على الدعاء عليهم قال تعالى (فلا تأس على القوم الفاسقين) فبين تعالى انهم أحقاء بذلك لفسقهم (واتل عليهم نبأ ابنى آدم) وهما هابيل وقابيل وقوله تعالى (بالحق) صفة مصدر محذوف أى تلاوة متلبسة بالحق ٭ وقصتهما أن الله تعالى أوحى الى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر وكانت حواء تلد لآدم كل بطن غلاما وجارية وظاهر كلام المؤرخين ان آدم لا يحل له أن يتزوج بواحدة من بناته ولا من بنات أولاده ولهذا ألغز بعضهم بقوله مات زوجة رجل فحرم عليه نساء الدنيا وكان جميع ما ولدته أربعين ولدا فى عشرين بطنا أولهم قابيل وتوأمته اقليما وثانيهم هابيل وتوأمته ليوذا وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث ثم بارك الله تعالى فى نسل آدم عليه السلام قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا فأراد آدم أن ينكح قابيل ليوذا أخت هابيل وينكح هابيل اقليما وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل فذكر ذلك لولده فرضى هابيل وسخط قابيل وقال هى أختى وأنا أحق بها فقال له أبوه انها لا تحل لك فأبى أن يقبل ذلك وقال ان الله لم يأمر بهذا وانما هو من رأيك فقال لهما آدم قربا قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكانت القرابين اذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها واذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكله الطير والسباع فخرجا ليقربا وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة

(الحق) اى مولى جميع الخلق وهذا الاية الى قوله وان الكافرين لا مولى لهم لان المراد بالمولى هنا المالك او الخالق او المعبود وثم الناصر (قوله ويوم يقول كن فيكون قوله

من طعام من أرداز رعه وأضمر فى نفسه ما أبالى تقبل منى أم لا لا يتزوج أختى أبدا وكان هابيل
صاحب غنم فعمد الى أحسن كبش فى غنمه فقربه وأضمر فى نفسه رضاء الله عز وجل فوضعا
قربانهما على الجبل ثم دعا آدم فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل
كما قال تعالى (اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما) وهو هابيل (ولم يتقبل من الآخر) وهو
قابيل لانه سخط حكم الله ولم يخلص النية فى قربانه وقصد الى أخس ما عنده فغضب قابيل لرد
قربانه وأضمر الحسد فى نفسه الى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت الحرام فلما غاب آدم أتى قابيل
هابيل وهو فى غنمه (قال لأقتلنك) قال ولم قال لان الله تعالى قبل قربانك ورد قربانى وتنكح
أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس انك خير منى ويفتخر ولدك على ولدى
(قال) هابيل وما ذنبى (انما يتقبل الله من المتقين) فان قيل كيف كان قول هابيل انما يتقبل
الله من المتقين جوابا لقوله لاقتلنك (أجيب) بأنه لما كان الحسد لاخيه على تقبل قربانه هو
الذى حمله على توعده بالقتل قال له انما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى
لا من قبلى فلم تقتلنى ومالك لا تعاقب نفسك ولا تحملها على تقوى الله تعالى التى هى السبب فى
القبول فاجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان وفيه اشارة الى أن الحاسد ينبغى أن يرى حرمانه
من تقصيره ويجتهد فى تحصيل ما صار به المحسود محظوظا لا فى ازالة حظ المحسود فان ذلك مما
يضره ولا ينفعه وأن الطاعة لا تقبل الا من مؤمن متق وعن عامر بن عبد الله أنه بكى حين
حضرته الوفاة فقيل له ما يبكيك وقد كنت وكنت فقال انى أسمع الله يقول انما يتقبل الله من
المتقين (لئن) لام قسم (بسطت) أى مددت (الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك
انى أخاف الله رب العالمين) قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وايم الله ان كان المقتول لاشد
الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط لاخيه يده خوفا من الله عز وجل لان الدفع لم يبح
بعد أو تحريا لما هو الافضل قال عليه الصلاة والسلام كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله
القاتل وانما قال ما أنا بباسط فى جواب لئن بسطت للتبرى عن هذا الفعل الشنيع رأسا
والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه ولذلك أكد النفى بالباء وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص
بفتح الياء من يدى والباقون بالسكون واتفق القراء السبعة على بقاء صفة الطاء فى بسطت
وادغام الطاء فى التاء لان مخرج الطاء والتاء واحد ولكن الصفة مختلفة فالطاء منطبقة والتاء
منفتحة والطاء مستعلية والتاء مستفلة والطاء مجهورة والتاء مهموسة ويقال فى ذلك ادغام
الحرف وابقاء الصفة (انى أريد أن تبوء) أى ترجع (باثمى) أى باثم قتلى (واثمك) الذى ارتكبته
من قبل (فتكون من أصحاب النار) ولا أريد أن أبوء باثمك اذا قتلتك فأكون منهم (فان قيل)
كيف قال أريد أن تبوء باثمى واثمك وارادة القتل والمعصية لا تجوز (أجيب) بان ذلك ليس
بحقيقة ارادة لكنه لما علم انه يقتله لا محالة ووطن نفسه على الاستسلام طلبا للثواب فكأنه
صار مريدا لقتله مجازا وان لم يكن مريدا حقيقة (وذلك جزاء الظالمين) أى الراسخين فى وصف
الظلم وأكون أنا من أصحاب الجنة جزاء لى باحسانى فى ايثارى حياتك على حياتى وذلك جزاء
المحسنين (فطوعت) قال قتادة فزينت (له نفسه قتل أخيه فقتله) قال ابن جريج تمثل له ابليس
وأخذ طائرا ووضع رأسه على حجر وشدخ رأسه بحجر آخر وقابيل ينظر اليه فعلمه القتل فرضخ

قابيل

الخلق) خص قوله الحق بيوم
القيامة مع انه لا يختص
به لوجوده فى الدنيا ايضا
لان ذلك اليوم ليس لغيره
تعالى فيه قول يرجع اليه
بل قوله فيه هو الحق الذى
لا يدفعه احد من العباد

قابيل رأس هابيل بين حجرين وقتله وهو مستسلم وقيل اغتاله في النوم وهو نائم فشدخ رأسه فقتله (فأصبح) اى فصار (من الخاسرين) بقتله ولم يدر ما يصنع به لانه أول ميت على وجه الارض من بنى آدم وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة فحمله بعد قتله فى جراب أربعين يوما وقال ابن عباس سنة حتى أروح وعكف عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمى فتأكله فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل احدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكنه ثم ألقاه فى الحفرة وواراه وقابيل ينظر اليه فذلك قوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه) أى الله أو ليريه الغراب أى ليعلمه لانه لما كان سبب تعليمه فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز (كيف يوارى) أى يستر (سوأة) أى جيفة (أخيه) وقيل عورته لانه كان سلبه ثيابه فلما رأى قابيل ذلك (قال ياويلتى) كلمة جزع وتحسر والالف فيها بدل من ياء المتكلم والمعنى ياويلتى احضرى فهذا أوانك والويل والويلة الهلكة (أعجزت) اى مع ما جعل الله لى من القوة الناطقة (ان) اى عن ان (أكون) مع مالى من الجوارح الصالحة لاعظم من ذلك (مثل هذا الغراب فاوارى سوأة أخى) أى لا اهتدى الى ما اهتدى اليه وقوله تعالى فاوارى عطف على أكون وليس جواب الاستفهام اذ ليس المعنى لو عجزت لواريت (فأصبح) أى بسبب قتله (من النادمين) أى على مافعل لانه فقد أخاه واغضب ربه وأباه وما انتفع من قتله بشئ قال المطلب بن عبد الله بن حنطب لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الارض بما عليها سبعة أيام وعن ابن عباس لما قتله وكان آدم عليه السلام بمكة اشتاك الشجر وتغيرت الاطعمة وحمضت وأمر الماء واغبرت الارض فقال آدم عليه السلام قد حدث فى الارض حدث وروى انه لما قتله اسود جسده وكان أبيض وشربت الارض الدم فسأله آدم عليه السلام بعد مجيئه من مكة عن اخيه فقال ما كنت عليه وكيلا فقال بل قتلته ولذلك اسود جسدك قال فاين دمه ان كنت قتلته فحرم الله عز وجل على الارض من يومئذ ان تشرب دما بعده ابدا وعن الواقدى ان السودان كلهم من ولده وعن محمد بن اسحق كان نوح نائما فرآه ابنه حام عريانا فلم يستره فاسود فى الوقت فالسودان من ولده ورآه ابنه سام فستره وروى ان آدم صلوات الله وسلامه عليه مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك وأنه لما اتى من مكة الى الهند رثاه بشعر وهو

تغيرت البلاد ومن عليها • فوجه الارض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون • وقل بشاشة الوجه المليح

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه قال من قال ان آدم قال شعرا فقد كذب ان محمدا والانبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام فى النهى عن الشعر سواء وروى انه رثاه فلم يزل ينتقل حتى وصل الى يعرب بن قحطان وكان يقول الشعر فنظر الى المرثية فاذا هى سجع فقال ان هذا يقوم منه شعر فرد المقدم الى المؤخر والمؤخر الى المقدم فوزنه شعرا وزيد فيه أبيات منها

ارى طول الحياة على غما • فهل انا من حياتى مستريح
ومالى لا أجود بسكب دمع • وهابيل تضمنه الضريح

فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ولدت له حواء شيثا وتفسيره هبة الله اى انه خلف الله من هابيل علمه الله ساعات الليل والنهار واعلمه الله عبادة

لانه كشاف لفظا فيه ونظيره قوله تعالى والامر يومئذ لله مع ان الامر له فى كل زمان ومثل ذلك باتى فى قوله وله الملك يوم ينفخ فى الصور وأما الملك غيره فى الدنيا فهو انما يكون خلافة

انطاق فى كل ساعة منها وانزل عليه خمسين صحيفة وصار وصى آدم وولى عهده وأما قابيل فقيل له اذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا يأمن من يراه فاخذ بيد اخته اقليما وهرب بها الى عدن من ارض اليمن فاتاه ابليس لعنه الله تعالى وقال له انما كانت النار قربان اخيك لانه كان يعبد النار فانصب انت نارا تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو اول من عبد النار قال مجاهد واتخذ اولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش حتى اغرقهم الله تعالى بالطوفان ايام نوح عليه السلام وبقى نسل شيث عليه السلام قال البقاعى فى تفسيره والله اعلم بما يروى من ذلك ولا يعتمد على مثل هذه الاحاديث وقد احسن الطبرى بقوله اخبر الله تعالى بقتله ولا خبر يقطع العذر بصفة قتله على ما ذكرناه فى مثله ولا فائدة فى طلب الصحيح منه فى الدين اه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه اول من سن القتل (من اجل ذلك) اى الذى فعله قابيل (كتبنا) اى قضينا (على بنى اسرائيل) فى التوراة لانهم كانوا اشد الناس جراءة على القتل ولذلك كانوا يقتلون الانبياء (انه) اى الشان (من قتل نفسا) اى من بنى آدم (بغير نفس) اى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص (أو) قتلها بغير (فساد) اتاه (فى الارض) كالشرك والزنا بعد الاحصان وقطع الطريق وكل ما يبيح اراقة الدم (فكأنما قتل الناس جميعا) أى من حيث هتك حرمة الدماء وسن القتل وجراءة الناس عليه او من حيث ان قتل الواحد وقتل الجميع سواء فى استجلاب غضب الله والعذاب العظيم (ومن احياها) اى بسبب من الاسباب كانقاذ من هلكة او غرق او دفع من يريد ان يقتلها ظلما (فكأنما احيا الناس جميعا) قال ابن عباس من حيث عدم انتهاك حرمتها وصونها قال سليمان بن على قلت للحسن يا أبا سعيد اهى لنا اى هذه الآية كما كانت لبنى اسرائيل قال اى والذى لا اله غيره ما كانت دماء بنى اسرائيل اكرم على الله من دمائنا اه ومما يحسن ايراده هنا ما نسب لامير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنه وقيل انه للشافعى رحمه الله تعالى

الناس من جهة التمثيل اكفاء • أبوهم آدم والام حواء
نفس كنفس وارواح مشاكلة • واعظم خلقت فيهم واعضاء
فان يكن لهم فى اصلهم حسب • يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر الا لاهل العلم انهم • على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه • وللرجال على الافعال اسماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله • والجاهلون لاهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا • فالناس موتى وأهل العلم أحياء

(ولقد جاءتهم) اى بنى اسرائيل (رسلنا بالبينات) اى المعجزات وقرأ ابو عمرو بسكون السين والباقون بضمها (ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك) اى بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم وارسلنا اليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيدا للامر وتجديدا للعهد (فى الارض لمسرفون) اى مجاوزون الحد بالكفر والقتل وغير ذلك ولا يبالون به وبهذا اتصلت القصة بما قبلها

عنه وهبه منه وانما
بدليل قوله تعالى فى حق
داود عليه السلام وآتاه
الله الملك والحكمة (قوله
ووهبنا له اسحق) ان قلت
كيف ذكر فى معرض
الامتنان من اولاده اسحق

*ونزل في العرنيين لما قدموا المدينة وهم مرضى اتوا النبي صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الاسلام وهم كذبة فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم الى ابل الصدقة ليشربوا من ألبانها وأبوالها فلما صحوا قتلوا الراعي واستاقوا الابل (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون جعل محاربتهم محاربتهما تعظيما (ويسعون في الارض فسادا) أي بقطع الطريق (ان يقتلوا) اى ان قتلوا (أو يصلبوا) اى مع ذلك ان قتلوا وأخذوا المال اى والصلب ثلاثا بعد القتل (أو تقطع أيديهم وارجلهم من خلاف) اى أيديهم اليمنى وارجلهم اليسرى ان اقتصروا على أخذ المال (أو ينفوا من الارض) أى ان ارعبوا ولم يأخذوا شيأ أى ينفوا من بلد الى بلد ان رأى الامام ذلك وان رأى حبسهم فله ذلك ولو في بلدهم هكذا فسر الآية ابن عباس رضى الله عنهما فحمل كلمة أو على التنويع لا التخيير كما في قوله تعالى وقالوا كونوا هودا أو نصارى اى قالت اليهود كونوا هودا وقالت النصارى كونوا نصارى اذلم يخير أحد منهم بين اليهودية والنصرانية (ذلك) اى الجزاء العظيم (لهم خزى) اى ذل واهانة (في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) هو عذاب النار واحتج اكثر اهل العلم على ان هذه الآية نزلت في قطاع الطريق بقوله تعالى (الا الذين تابوا) اى رجعوا عما كانوا عليه من الحرابة خوفا من الله تعالى (من قبل أن تقدروا عليهم) أى فان حقوقه تعالى تسقط عنهم كالقطع والصلب وتحتم القتل ويبقى القصاص والمال لانه حق آدمى لا يسقط بالتوبة (فاعلموا أن الله غفور) لهم ما أتوه (رحيم) بهم ولو كانت نزلت في الكفار لكانت توبتهم بالاسلام وهو رافع للعقوبة قبل القدرة وبعدها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى خافوا عقابه بأن تطيعوه (وابتغوا اليه الوسيلة) أى اطلبوا ما تتوسلون به الى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصى من وسل الى كذا اذا تقرب اليه قال لبيد

اری الناس لایدرون ما قدر أمرهم * ألا كل ذى لب الى الله واسل

وفي الحديث الوسيلة منزلة في الجنة (وجاهدوا في سبيله) بمحاربة أعدائه لتكون كلمة الله هي العليا (لعلكم تفلحون) بالوصول الى الله عز وجل والفوز بكرامته (ان الذين كفروا لو) ثبت (ان لهم ما في الارض) من صنوف الاموال وأكده بقوله (جميعا ومثله معه ليفتدوا به) أى ليجعلوه فدية لانفسهم (من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم) اى لان المدفوع اليه ذلك تام القدرة وله الغنى المطلق (ولهم) بعد ذلك (عذاب اليم) اى مؤلم (يريدون أن يخرجوا) اى ان يكون لهم وقت الخروج في وقت ما اذا رفعهم اللهب الى أن يكاد أن يلقيهم خارجا (من النار) ثم نفى خروجهم على وجه التأكيد فقال (وما هم بخارجين منها) أى ما يثبت لهم خروج اصلا (ولهم) خاصة دون عصاة المؤمنين (عذاب مقيم) أى دائم تارة بالبرد وتارة بالحر وتارة بغيرهما (فان قيل) قال تعالى لا يذوقون فيها بردا فهو ينافى ما ذكر (أجيب) بان المراد بالبرد في الآية النوم فلا منافاة وأل في قوله تعالى (والسارق والسارقة) موصولة مبتدأ أى والذى سرق والتى سرقت واشبه بالشرط دخلت الفاء في خبره وهو (فاقطعوا أيديهما) أى يمين كل واحد منهما من الكوع كما بينته السنة كما يفت أنه لابد أن يكون المسروق ربع دينار فصاعدا من حرز مثله من غير شبهة له فيه وأنه اذا عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم ثم اليد

ولم يذكر معه اسمعيل بل اخره عنه بدرجات مع انه اكبر منه (قلت) لان اسحق وهب له من حرة وكانت عجوزا عقيما واسمعيل من امة فكانت المنة في هبة اسحق اظهر

اليسرى ثم الرجل اليمنى ثم بعد ذلك يعزر ثم علل تعالى ذلك بقوله (جزاء بما كسبا) أى فعلا من ذلك ثم علل تعالى هذا الجزاء بقوله (نكالا) اى عقوبة لهما (من الله) وأعاد الاسم الاعظم تعظيما للامر فقال (والله عزيز) اى غالب على أمره (حكيم) اى بالغ الحكم والحكمة فى خلقه (فمن تاب) اى من السراق (من بعد ظلمه) أى سرقته (وأصلح) أمره بالتخلص من التبعات والعزم على أن لا يعود اليها (فان الله يتوب عليه) أى يقبل توبته تفضلا منه تعالى (ان الله غفور رحيم) فلا يعذبه فى الآخرة وأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الاكثرين واذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم وقال سفيان الثورى وأصحاب الرأى لا غرم عليه وبالاتفاق ان كان المسروق قائما عنده يسترد وتقطع يده لان القطع حق الله عز وجل والغرم حق العبد ولا يمنع أحدهما الآخر وقوله تعالى (ألم تعلم) الاستفهام للتقرير والخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وقيل معناه ألم تعلم أيها الانسان فيكون خطابا لكل أحد من الناس (أن الله له ملك السموات والارض) اى ان الملك خالص له عن جميع الشوائب (يعذب من يشاء) تعذيبه (ويغفر لمن يشاء) المغفرة له (والله على كل شئ قدير) أى ومنه التعذيب والمغفرة فليس هو كغيره من الملوك الذين قد يعجز أحدهم عن تقريب ابنه وتبعيد أعدى عدوه (يا أيها الرسول) أى المبلغ لما أرسل به وقوله تعالى (لا يحزنك) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى (الذين يسارعون فى الكفر) أى يقعون فيه بسرعة بأن يظهروه اذا وجدوا منه فرصة وقوله تعالى (من الذين قالوا آمنا) بيان وقوله تعالى (بأفواههم) أى بألسنتهم متعلق بقالوا (ولم تؤمن قلوبهم) وهم المنافقون وقوله تعالى (ومن الذين هادوا) عطف على من الذين قالوا وقوله تعالى (سماعون للكذب) خبر مبتدأ محذوف أى هم سماعون والضمير فى سماعون للفريقين أو للذين يسارعون ويجوز أن يكون مبتدأ ومن الذين خبره أى ومن اليهود قوم سماعون للكذب الذى افترته أحبارهم سماع قبول (سماعون) منك (لقوم) أى لاجل قوم (آخرين) من اليهود (لم يأتوك) اى لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبرا وافراطا فى البغضاء (يحرفون الكلم) أى الذى فى التوراة كآية الرجم (من بعد مواضعه) أى التى وضعها الله عليها أى يبدلونه (يقولون) اى الذين يحرفونه لمن يرسلونهم للنبى صلى الله عليه وسلم (ان أوتيتم هذا) اى المحرف اى أفتاكم به محمد صلى الله عليه وسلم (فخذوه) اى فاقبلوه منه واعلموا انه الحق واعملوا به (وان لم تؤتوه) اى بأن أفتاكم بخلافه (فاحذروا) ان تقبلوه منه فانه الباطل والضلال روى ان شريفا فى خيبر زنى بشريفة وكانا محصنين وحدهما الرجم فى التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما وقالوا ان هذا الرجل الذى بيثرب ليس فى كتابه الرجم ولكن الضرب فارسلوا مع رهط منهم الى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وقالوا ان أمركم بالجلد والتحميم اى تسويد الوجه من الحمة بالضم والتشديد وهى السواد فاقبلوا وان أمركم بالرجم فلا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا محمد اخبرنا عن الزانى والزانية اذا أحصنا ما حدهما فى كتابك فقال هل ترضون بقضائى فقالوا نعم فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فاخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه فقال

لهم

وقيل لان القصد هنا ذكر أنبياء بنى اسرائيل وهم باسرهم اولاد اسحق واسمعيل لم يخرج من صلبه نبى الا محمد صلى الله عليه وسلم (قوله ان هو الا ذكرى للعالمين) فانه هنا يدون

لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم فقال هو أى رجل فيكم فقالوا هو أعلم يهودى بقى على وجه الارض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة قال فارسلوا اليه ففعلوا فأتاهم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا قال نعم قال اعلم اليهود قال كذلك يزعمون قال تجعلونه بينى وبينكم قالوا نعم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى لا اله الا هو الذى فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن قال نعم فوثب عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبته أن ينزل علينا العذاب ثم سال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله النبى الامى العربى الذى بشر به المرسلون فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب مسجده وقال اللهم انى أول من أحيا امرك اذ أماتوه فأنزل الله عز وجل يا أيها الرسول الآية وروى ان اليهود جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجدون فى التوراة فى شان الرجم قالوا نفضحهم ويجلدون قال عبد الله بن سلام كذبتم ان فيها آية الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما بعدها فقال له عبد الله ارفع يدك فرفع يده فاذا فيها آية الرجم قالوا صدقت يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فرأيت الرجل يقى بيده عن المرأة الحجارة * (فائدة) * كانت آية الرجم فى القرآن فنسخت تلاوتها وبقى حكمها روى البيهقى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم أنه قال فى خطبته ان الله بعث محمدا وأنزل عليه كتابا وكان فيما أنزل عليه آية الرجم فتلوناها ووعيناها الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم وسيأتى الكلام فى سورة الاحزاب أن هذه الآية كانت فيها (ومن يرد الله فتنته) أى اضلاله أو فضيحته (فلن تملك) أى لن تستطيع (له من الله شيأ) فى دفعها واذا لم تملك أنت وأنت أقرب الخلق الى الله تعالى فمن يملك (أولئك) أى البعداء من الهدى (الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) أى من الكفر ولو أراده لكان وهذا كما ترى نص على فساد قول المعتزلة بانه أراد ذلك (لهم فى الدنيا خزى) أى ذل بالفضيحة والجزية والخوف من المؤمنين (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) وهو الخلود فى النار والضمير للذين هادوا ان استأنفت بقوله تعالى ومن الذين والا فللفريقين وقوله تعالى (سماعون للكذب) كرره للتأكيد (أكالون للسحت) وهو كل ما لا يحل كسبه وهو من سحته اذا استأصله لانه مسحوت البركة كما قال الله تعالى يمحق الله الربا والربا باب منه وكانوا يأخذون الرشا على الاحكام وتحليل الحرام وعن الحسن رحمه الله تعالى كان الحاكم فى بنى اسرائيل اذا أتاه أحدهم برشوة جعلها فى كمه فأراه اياها وتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر الى خصمه فيأكل الرشوة ويسمع الكذب وعنه صلى الله عليه وسلم كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بضم الحاء والباقون بالسكون (فان جاؤك) أى لتحكم فيهم

تنوين ويوسف بالتنوين لانه ذكر هنا أصل قوله بعد الذكرى بلا تنوين فناسب ذكرها هنا كذلك (قوله والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) * ان قلت كيف قال فى وصف القرآن ذلك مع ان كثيرا ممن يؤمن بالآخرة من اليهود

(فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) هذا تخيير لرسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا هل نسخ
هذا التخيير أم لا فقال أكثر أهل العلم هو محكم ثابت وليس في سورة المائدة منسوخ وحكام
المسلمين بالخيار في الحكم بين أهل الكتاب ان شاؤا حكموا وان شاؤا لم يحكموا بحكم الاسلام
وهو قول النخعي والشعبي وعطاء وقتادة وقال قوم يجب على حكام المسلمين ان يحكموا بينهم
والآية منسوخة نسخها قوله تعالى وأن احكم بينهم بما أنزل الله وهو قول مجاهد وعكرمة
وروى ذلك أيضا عن ابن عباس وقال لم ينسخ من المائدة الا آيتان قوله تعالى لا تحلوا شعائر
الله نسخها قوله تعالى اقتلوا المشركين وقوله تعالى فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم
نسخها قوله تعالى وأن احكم بينهم بما أنزل الله ومذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه ان
الذميين وان اختلفت ملتهما كيهودي ونصراني يجب الحكم بينهما عند الترافع وكذا الذي
مع المعاهد بخلاف المعاهدين فان الحكم لا يجب بينهما لانهم لم يلتزموا باحكامنا ولا التزمنا
دفع بعضهم عن بعض فيحمل التخيير على هذا والآية الاخرى على أهل الذمة ويعلم من ذلك ان
الحكم بين الحربيين لا يجب بطريق الاولى ولو ترافع الينا ذميان في شرب خمر لم نحدهما وان
رضيا بحكمنا لانهما لا يعتقدان تحريمه ولو ترافع الينا مسلم وذمي وجب الحكم بينهما اجماعا
(وان تعرض عنهم فلن يضروك شيأ) بان يعادوك لاعراضك عنهم فان الله تعالى يعصمك من
الناس (وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط) اي بالعدل الذي أمر الله تعالى به (ان الله يحب)
اي يثيب (المقسطين) اي العادلين في الحكم وقوله تعالى (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة
فيها حكم الله) استفهام تعجيب من تحكيمهم من لا يؤمنون به والحال ان الحكم منصوص
عليه في كتابهم الذي هو عندهم وتنبيه على انهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق واقامة الشرع
وانما طلبوا منه ما يكون أهون عليهم وان لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم (ثم يتولون) اي
يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم (من بعد ذلك) التحكيم وهذا داخل في حكم التعجب
فانه معطوف على يحكمونك (وما أولئك) اي البعداء من الله (بالمؤمنين) اي بكتابهم
لاعراضهم عنه اولا وعنك ثانيا ... به (انا انزلنا التوراة فيها هدى) يهدي من الضلالة الى الحق
(ونور) يكشف ما اشتبه عليهم من الاحكام (يحكم بها النبيون) اي من بني اسرائيل وقوله
تعالى (الذين اسلموا) ذكر على وجه الصفة للانبياء للتنويه بشان الصفة دون التخصيص
والتمييز لانهم كلهم بهذه الصفة منقادون لله تعالى وللتنبيه على عظم قدرها حيث وصف
بها عظيم كما وصف الانبياء بالصلاح والملائكة بالايمان فان أوصاف الاشراف أشراف
الاوصاف وقوله تعالى (للذين هادوا) متعلق بانزل أو بيحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم وهو
يدل على أن النبيين انبياؤهم وقوله تعالى (والربانيون) أي الزهاد الذين انسلخوا من الدنيا
وبالغوا فيما يوجب النسبة الى الرب (والاحبار) أي العلماء السالكون طريقة انبيائهم عطف
على النبيون (بما) أي بسبب الذي (استحفظوا) أي استودعوه (من كتاب الله) اي استحفظهم
الله تعالى اياه بان يحفظوه من التضييع والتحريف او بان يحفظ فلا ينسى وقد اخذ الله على
العلماء حفظ كتاب الله من هذين الوجهين احدهما ان يحفظ في صدورهم ويدرسوه بالسنتهم

والنصارى وغيرهم لا يؤمن
به (قلت) معناه والذين
يؤمنون بالآخرة ايمانا
نافعا مقبولا هم الذين
يؤمنون به (قوله او قال
اوحى الى ولم يوح اليه
شيء) ان قلت كيف افرده
بالذكر مع دخوله في قوله
قبل ومن اظلم ممن افترى
على الله كذبا (قلت)

والثانى أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه والراجع الى ما محذوف ومن للتبيين والضمير فى استحفظوا للانبياء والربانيين والاحبار جميعا وكذلك الضمير فى قوله تعالى (وكانوا عليه شهداء) اى رقباء حاضرين لا يغيبون عنه ولا يتركون مراعاته أصلا وقوله تعالى (فلا تخشوا الناس واخشونى) نهى للحكام أن يخشوا غير الله تعالى فى حكوماتهم خوفا من سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد من الاقرباء والاصدقاء وقرأ أبو عمرو باثبات الياء فى الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وصلا ووقفا (ولا تشتروا) اى تستبدلوا (بآياتى) اى بأحكامى التى أنزلتها (ثمنا قليلا) اى من الرشا وغيرها لتكتموا أو تبدلوها كما فعل أهل الكتاب وقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال عكرمة معناه ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدا له فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق فحمل الآيات على هذا وهو ظاهر وقال الضحاك وقتادة نزلت هذه الآيات الثلاث فى اليهود دون من أساء من هذه الامة وقيل أولئك هم الكافرون فى المسلمين لاتصالها بخطابهم والظالمون فى اليهود والفاسقون فى النصارى (وكتبنا) أى فرضنا (عليهم) أى اليهود (فيها) اى التوراة (أن النفس) تقتل (بالنفس) اذا قتلتها (والعين) تفقأ (بالعين) اى بعين من فقأها (والانف) تجدع (بالانف) أى بانف من جدعه (والاذن) تقطع (بالاذن) أى باذن من قطعها (والسن) تقلع (بالسن) أى بسن من قلعها (والجروح قصاص) أى يقتص فيها اذا أمكن كاليد والرجل والذكر ونحو ذلك وما لا يمكن فيه القصاص فيه الحكومة وهذا الحكم وان كتب عليهم فهو مقرر فى شرعنا وقرأ الكسائى هذه الالفاظ الخمسة وهى العين بالعين الى آخرها بالرفع على انها جمل معطوفة على ان وما فى حيزها باعتبار المعنى وكانه قيل كتبنا عليهم النفس بالنفس والعين بالعين فان الكتابة والقراءة يقعان على الجمل كالقول أو مستأنفة ووافق الكسائى ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر فى الجروح فقط والباقون بالنصب فى الجميع وسكن نافع الذال من الاذن وقرأ الباقون برفعها (فمن تصدق به) أى القصاص بأن مكن من نفسه (فهو) أى التصدق بالقصاص (كفارة له) اى لما أتاه فلا يعاقب ثانيا فى الآخرة وقيل فمن تصدق به من أصحاب الحق فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله تعالى به من سيآته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما تهدم عنه ذنوبه بقدر ما تصدق به وقيل فهو كفارة للجانى اذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه (ومن لم يحكم بما أنزل الله) أى فى القصاص وغيره (فأولئك هم الظالمون) أى الذين تركوا العدل فضلوا فصاروا كمن يمشى فى الظلام فان كان تدينا بالترك كان نهاية الظلم وهو الكفر والا كان عصيانا لان الله تعالى أحق أن يخشى ويرجى (وقفينا) اى أتبعنا (على آثارهم) اى النبيين الذين يحكمون بالتوراة (بعيسى بن مريم) صلى الله عليه وسلم ونسبه تعالى الى أمه اشارة الى أنه لا والد له تكذيبا لليهود والى أنه عبد مربوب تكذيبا للنصارى (مصدقا لما بين يديه) اى قبله مما أتى به موسى عليه السلام (من التوراة) وأشار تعالى بقوله (وآتيناه الانجيل) اى أنزلناه عليه كما أنزلنا التوراة على موسى عليهما الصلاة والسلام الى أنه ناسخ لكثير من أحكامها (فيه هدى) من الضلالة (ونور) اى بيان للاحكام وقوله تعالى (ومصدقا) اى الانجيل حال

انما أفرده بالذكر لانه لما اختص بمزيد قبح من بين أنواع الاقتراف خص بالذكر تنبيها على مزيد العقاب فيه والاثم (قوله يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) قال ذلك

(لما بين يديه) اي قبله وانما كان الذي نزل قبله كثيرا بين المراد بقوله (من التوراة) اي لما فيها من الاحكام فالاول صفة لعيسى عليه الصلاة والسلام والثاني صفة الكتاب اي فهو والتوراة والانجيل يتصادقون فكل من الكتابين يصدق الآخر وهو يصدقهما لم يخالفهما في شيء بل هو متفاق بجميع ما اتى به (وهدى وموعظة للمتقين) أي كل ما فيه يهتدون به ويتعظون فترق قلوبهم ويعتبرون به (وليحكم اهل الانجيل) وهم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام (بما انزل الله فيه) اي من الاحكام وقرأ حمزة بكسر اللام ونصب الميم عطفا على معمول آتيناه والباقون بكسر اللام وسكون الميم على الامر أي فلينته أهل التوراة عما نسخ منها وليحكم أهل الانجيل الخ (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون) اي المختصون بكمال الفسق فان كان تدينا كان كفرا وان كان لاتباع الشهوات كان مجرد معصية لان الحظوظ والشهوات تحمل على الخروج من دائرة الشرع مرة بعد أخرى (وانزلنا اليك) يا محمد خاصة (الكتاب) أي الكامل في جمعه لكل ما يطلب منه وهو القرآن وقوله تعالى (بالحق) متعلق بانزلنا (مصدقا لما بين يديه) أي قبله ولما كانت الكتب السماوية من شدة تصادقها كالشيء الواحد عبر تعالى بالمفرد فقال (من الكتاب) أي الكتب المنزلة التي جاء بها الانبياء من قبل فاللام الاولى في الكتاب للعهد لانه عني به القرآن والثانية للجنس لانه عني به جنس الكتب المنزلة (ومهيمنا عليه) أي رقيبا على سائر الكتب أي يحفظها من التغيير والتبديل ويشهد لها بالصحة والثبات (فاحكم بينهم) أي بين جميع أهل الكتاب اذا ترافعوا اليك (بما انزل الله) اليك في هذا الكتاب الناسخ لكتبهم المهيمن عليها في اثبات ما أسقطوه منها من أمرهم باتباعك ونحو ذلك من أوصافك (ولا تتبع اهواءهم) فيما خالفه عادلا (عما جاءك من الحق) بالانحراف عنه الى ما يشتهونه (لكل جعلنا منكم) أيها الامم (شرعة) أي دينا موصلا الى الحياة الابدية والشرعة هي الطريقة الى الماء شبه بها الدين لانها موصلة الى الماء الذي به الحياة الدنيوية (ومنهاجا) أي طريقا واضحا في الدين ناسخا لما قبله وقد جعلنا شرعتك ناسخة لجميع الشرائع وأمثاله مما يدل على أنا لسنا متعبدين بالشرائع المتقدمة وأن كل رسول غير متعبد بشرع من قبله وهو محمول على الفروع وما دل على الاجتماع كآية شرع لكم من الدين محمول على الاصول (ولو شاء الله لجعلكم امة) أي جماعة (واحدة) اي متفقة على دين واحد في جميع الاعصار من غير نسخ وتحويل (ولكن) لم يشأ ذلك بل شاء أن تكونوا على شرائع مختلفة (ليبلوكم) أي يختبركم (فيما آتاكم) من الشرائع المختلفة ليبرز الى الوجود المطيع منكم والعاصي (فاستبقوا الخيرات) أي ابتدروها انتهازا للفرصة بغاية الجهد فعل من يسابق شخصا يخشى العار بسبقه وقوله تعالى (الى الله مرجعكم جميعا) أي بالبعث استئناف فيه تعليل للامر بالاستباق ووعد للمبادرين ووعيد للمقصرين (فينبئكم) أي يخبركم (بما كنتم فيه تختلفون) اي من أمر الدين ويجزي كلا منكم بعمله وقوله تعالى (وأن احكم بينهم بما انزل الله) عطف على الكتاب أي انزلنا اليك الكتاب والحكم او على الحق أي انزلناه بالحق وبأن احكم وقرأ ابو عمرو وعاصم وحمزة بكسر نون وأن احكم والباقون بضمها (ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن) أي لئلا (يفتنوك) أي يضلوك ويصرفوك

هذا وقال في آل عمران ويخرج والروم ويونس لان ما هنا الميت بالفعل وهو وقع بعد اسم فاعل وقبل اسمي فاعل فناسب وهنا فالق وجاعل فناسب ذكر مخرج لكونه اسم

(عن

(عن بعض ما أنزل الله اليك) روى ان أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فقالوا يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا ان اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم اليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (فان تولوا) أي عن الحكم المنزل وأرادوا غيره (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم) أي بالعقوبة في الدنيا (ببعض ذنوبهم) أي التي أتوها ومنها التولي ويجازيهم على جميعها في الآخرة (وان كثيرا من الناس) أي هم وغيرهم (لفاسقون) أي خارجون عن دائرة الطاعات ومعادن السعادات (أفحكم الجاهلية) أي خاصة مع ان أحكامها لا يرضى بها عاقل لكونها لم يدع اليها كتاب بل هي مجرد أهواء وهم أهل الكتاب (يبغون) أي يريدون باعراضهم عن حكمك مع ما دعا اليه كتابهم من اتباعك وشهد كتابك المعجز عن معارضته من وجوب رسالتك الى جميع الخلائق وهذا استفهام انكاري وقرأ ابن عامر بالتاء على الالتفات من الغيبة الى الخطاب وهو أدل على الغضب والباقون بالياء على الغيبة وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بما كان يحكم به الجاهلية من التفاضل بين القتلى أي بين دياتهم بعضهم على بعض (ومن) أي لا أحد (أحسن من الله حكما لقوم) أي عند قوم (يوقنون) به خصوا بالذكر لانهم الذين يتدبرون الامور ويتأملون الاشياء بأنظارهم فيعلمون ان لا أحسن حكما من الله جل وعلا (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) أي توالونهم وتوادونهم وتعاشرونهم معاشرة الاحباب وقوله تعالى (بعضهم أولياء بعض) فيه ايماء الى علة النهي أي فانهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضا لاتحادهم في الدين واجماعهم على مضارتكم (ومن يتولهم منكم) أي ومن والاهم منكم (فانه منهم) أي من جملتهم وهذا تشديد في وجوب مجانبتهم أولان الموالين كانوا منافقين (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار ومن لم يرد الله هدايته لم يقدر أحد أن يهديه (تنبيه) اختلف في سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول المنافق وذلك انهما اختصما فقال عبادة ان لي أولياء من اليهود كثيرا عددهم شديدة شوكتهم واني أبرأ الى الله والى رسوله من موالاتهم ولا مولى لي الا الله ورسوله فقال عبد الله لكني لا أبرأ من ولاية اليهود لاني أخاف الدوائر ولا بد لي منهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال السدي لما كانت وقعة أحد اشتدت على طائفة من الناس وتخوفوا أن تدال عليهم الكفار فقال رجل من المسلمين أنا ألحق بفلان اليهودي آخذ منه أمانا اني أخاف أن تدال علينا اليهود وقال الآخر أما أنا فألحق بفلان النصراني من أهل الشام وآخذ منه أمانا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال عكرمة نزلت في أبي لبابة بن المنذر بعثه النبي صلى الله عليه وسلم الى بني قريظة حين حاصرهم فاستشاروه في النزول وقالوا ماذا يصنع بنا اذا نزلنا فجعل اصبعه على حلقه يعني أنه الذبح أي يقتلكم فنزلت (فترى الذين في قلوبهم مرض) أي ضعف اعتقاد كعبد الله بن أبي (يسارعون فيهم) أي في موالاتهم (يقولون) معتذرين عنها (نخشى) أي نخاف خوفا بالغا (أن تصيبنا دائرة) أي مصيبة تحيط بنا ويدور بها الدهر علينا من جدب أو غلبة ولا يتم أمر محمد فلا يميرونا

فاعل وخص بالاسم الكريم
وخص بعده
الاسم في قبله بالفصل له
بخرج الحكم
لم يتقدمه الاسم واحده
ما في بقية السور لم يقع
قبله وبعده الا الافعال

(فعسى الله أن يأتى بالفتح) اى باظهار الدين على الاعداء (او امر من عنده) اى بهتك ستر المنافقين وافتضاحهم (فيصبحوا) اى هؤلاء المنافقون (على ما أسروا فى أنفسهم) اى على ما استبطنوه من الكفر والشك فى أمر الرسول فضلا عما أظهروه مما أشعر به نفاقهم (نادمين) اى ثابت لهم غاية الندم فى الصباح وغيره وقوله تعالى (ويقول الذين آمنوا) قرأه عاصم وحمزة والكسائى بالرفع على أنه كلام مبتدأ ويؤيده قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعا بغير واو وعلى أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ وقرأ بالنصب أبو عمرو عطفا على يأتى باعتبار المعنى وكأنه قال عسى الله أن يأتى بالفتح ويقول الذين آمنوا (أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم) اى غاية اجتهادهم فيها (انهم لمعكم) فى الدين أى يقوله المؤمنون بعضهم لبعض تعجبا من حال المنافقين وتبجحا بما منّ الله تعالى عليهم من الاخلاص او يقولون لليهود فان المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله وان قوتلتم لننصرنكم (حبطت) أى بطلت (أعمالهم) أى الصالحة (فاصبحوا) أى فصاروا (خاسرين) الدنيا بالفضيحة والآخرة بالعقاب (يا أيها الذين آمنوا) اى أقروا بالايمان (من يرتدد) أى يرجع (منكم عن دينه) الى الكفر وهذا من الكائنات التى أخبر الله تعالى عنها فى القرآن قبل وقوعها وكان أهل الردة احدى عشرة فرقة ثلاثة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاولى بنو مدلج وكان رئيسهم ذو الحمار بالحاء المهملة قال التفتازانى كان له حمار يقول له قف فيقف وسر فيسير وكانت النساء أى نساء أصحابه يتعطرن بروث حماره وقيل يعتقدن روثه يخمرهن فسمى ذو الخمار أيضا بالخاء المعجمة وذو هنا وفيما قبله بالواو على الحكاية وهو العنسى بفتح العين وسكون النون منسوب الى عنس وهو يزيد بن مذحج بن ادد بن كعب العنسى ويلقب بالاسود كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلادها وأخرج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه والى سادات اليمن وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسك بدينهم والنهوض الى حرب الاسود فقتله فيروز الديلمى على فراشه قال ابن عمر رضى الله عنهما وأتى الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء الليلة التى قتل فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل الاسود البارحة قتله رجل مبارك قيل ومن هو قال فيروز فسر المسلمون فبشر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بهلاك الاسود وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد وأتى خبر مقتل العنسى المدينة فى آخر شهر ربيع الاول وكان ذلك أول فتح جاء الى أبى بكر رضى الله تعالى عنه وأرضاه والفرقة الثانية بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذاب وكان تنبأ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر سنة عشر وزعم أنه اشترك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النبوة وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فان الارض نصفها لى ونصفها لك وبعثه اليه مع رجلين من أصحابه فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ثم أجاب من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى فبعث أبو بكر رضى الله عنه خالد بن

(قوله فناسب ذكره بالفعل) قاله هنا بلفظ أنشأكم وفى غيره أنشأكم بلفظ خلقكم السورة لان ما هنا موافق لقوله قبله أنشأنا من بعدهم ولقوله

الوليد

الوليد في جيش كبير حتى أهلكه الله تعالى على يد وحشي غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة ابن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حرب شديد وكان وحشي يقول قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الاسلام أراد في جاهليتي واسلامي الفرقة الثالثة بنو أسد ورئيسهم طليحة بن خويلد وكان طليحة أحد من ارتدوا وادعى النبوّة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوّل من قوتل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الردة فبعث أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد رضي الله عنه اليه فهزمهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد قتال شديد وأفلت طليحة فمر على وجهه هاربا نحو الشام ثم انه أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه وسبع في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه الاولى فزارة قوم عيينة بن حصن والثانية غطفان قوم قرة بن سلمة والثالثة بنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل والرابعة بنو يربوع قوم مالك بن نويرة والخامسة بعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوجت نفسها لمسيلمة الكذاب وفيها يقول أبو العلاء المعري

أتت سجاح ووالاها مسيلمة • كذابة في بني الدنيا وكذاب

والسادسة كندة قوم الاشعث بن قيس والسابعة بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد وكفى الله تعالى أمرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه وفرقة واحدة في عهد عمر رضي الله تعالى عنه وهي غسان قوم جبلة بن الايهم تنصروا وساروا الى الشام والجمهور انه مات على ردته وذكرت طائفة انه عاد الى الاسلام وقرأ نافع وابن عامر يرتدد بدالين الاولى مكسورة مخففة والثانية ساكنة والباقون بدال مفتوحة مشددة واختلف في القوم في قوله تعالى (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال قتادة بن غنم الازدي لما نزلت الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم هذا وأشار الى أبي موسى الاشعري رضي الله عنه وكانوا من اليمن وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الايمان يمان والحكمة يمانية وقال الكلبي هم أحياء من اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من أفناء أي لم يعلم عن هم قاله الجوهري فجاهدوا في سبيل الله يوم القادسية وقيل هم الانصار وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فضرب على عاتق سلمان رضي الله عنه فقال هذا وذووه ثم قال لو كان الايمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس والراجع الى من محذوف تقديره فسوف يأتي الله بقوم مكانهم أو بقوم غيرهم أو ما أشبه ذلك ومحبة الله تعالى لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم ومحبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه (أذلة على المؤمنين) أي عاطفين عليهم متذللين لهم جمع ذليل وأما ذلول فجمعه ذلل ومن زعم أنه من الذل الذي هو نقيض الصعوبة فقد غبي عنه لان ذلولا لا يجمع على أذلة (فان قيل) هلا قال أذلة للمؤمنين (أجيب) بانه تضمن معنى الحنو والعطف كأنه قال عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع وأنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم أو للمقابلة في قوله تعالى (أعزة على الكافرين) أي شداد متغلبين عليهم من عزه اذا غلبه وقوله تعالى (يجاهدون في سبيل الله) حال من الضمير في أعزة أو صفة أخرى لقوم وقوله تعالى (ولا يخافون لومة لائم)

بعده وهو الذي أنشأ جنات بخلاف البقية (قوله بديع السموات والارض) الآية فائدة ذكر خالق كل شيء فيها بعد قوله وخلق كل شيء جعله توطئة قوله تعالى

يحتمل أن تكون الواو للحال على أنهم يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين فانهم كانوا موالين لليهود فاذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود فلا يعملون شيأ مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط وان يكون للعطف على يجاهدون بمعنى انهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينهم واللومة المرة من اللوم وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان (ذلك) اشارة الى الاوصاف المذكورة وقوله تعالى (فضل الله يؤتيه من يشاء) اى يمنحه ويوفق له فيبذل الانسان جهده في طاعته لينظر اليه هذا النظر برحمته (والله واسع) اى كثير الفضل (عليم) اى بمن هو أهله ونزل لما قال ابن سلام رضي الله عنه يارسول الله ان قومنا هجرونا (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) وانما قال وليكم ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله على الاصالة ولرسوله وللمؤمنين على التبع اذ التقدير انما وليكم الله وكذا رسوله والمؤمنون ولو قيل انما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع ثم وصف المؤمنين بقوله تعالى (الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون) اى يخشعون في صلاتهم وزكاتهم وقيل يصلون صلاة التطوع (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا) اى ومن يتخذهم أولياء وقيل من يعنهم وينصرهم (فان حزب الله هم الغالبون) أى فانهم هم الغالبون ولكن وضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لما شرفهم به ترغيبا لهم في ولايته وتنويها بفالهم بهذا الاسم فكأنه قيل ومن يتول هؤلاء فانهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتعريضا بمن يوالي هؤلاء بانه حزب الشيطان وأصل الحزب القوم يجتمعون لامر حزبهم * ونزل في رفاعة بن زيد وسويد بن حرث اللذين أظهرا الاسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم) أى الذى شرفكم الله به (هزوا) أى مهزوا به (ولعبا) ثم بين المنهي عن موالاتهم بقوله تعالى (من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم) أى اليهود ولما خص عمم بقوله (والكفار) أى من عبدة الاوثان وغيرهم (اولياء) أى فان الفريقين اجتمعوا على حدكم وازدرائكم فلا تصح لكم موالاتهم وقرأ أبو عمرو والكسائي بخفض الراء والباقون بالنصب عطفا على الذين اتخذوا على أن النهي عن موالاة من ليس على الحق رأسا سواء من كان ذا دين تبع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كاهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين (واتقوا الله) اى بترك المناهي (ان كنتم مؤمنين) اى صادقين في ايمانكم فان الايمان حقا يقتضي ذلك وقوله تعالى (واذا ناديتم) معطوف على الذين قبله أى ولا تتخذوا الذين اذا ناديتم أى دعوتم (الى الصلوة) بالاذان (اتخذوها) أى الصلاة (هزوا ولعبا) بان يستهزؤا بها او يتضاحكوا او يقولوا صاحوا كصياح العير وفي هذا دليل على أن الاذان مشروع للصلوات المكتوبات روى الطبرانى أن نصرانيا بالمدينة كان اذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدا رسول الله قال أحرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطاير شرره في البيت فاحرقه وأهله (ذلك) اى الاتخاذ (بانهم) اى بسبب انهم (قوم لا يعقلون) اى فان السفه يؤدي الى الجهل بالحق والهزء به والعقل يمنع منه * ونزل لما سأل نفر من اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عمن يؤمن به من الرسل

فقال

فاعبدوه وأما قوله وخالق كل شيء فانما ذكر استدلالا على نفي الولد (قوله لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) * ان قلت كيف خص الابصار في الثاني

فقالوا ومن بالله وما انزل الينا الآية وقالوا حين سمعوا ذكر عيسى ما نعلم اهل دين اقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم (قل يا اهل الكتاب هل تنقمون) اي تنكرون (منا) وتعيبون يقال نقم منه كذا أنكره وانتقم اذا كافأه (الا ان آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل) أي الى الانبياء وقوله تعالى (وأن اكثركم فاسقون) عطف على ان آمنا والمعنى ما تنكرون منا الا ايماننا وفسقكم في عدم قبول الايمان المعبر عن عدم قبوله بالفسق اللازم عن عدم القبول وليس هذا مما ينكر (قل) لهم يا محمد (هل انبئكم) أي أخبركم (بشر من ذلك) أي الذي تنقمونه (مثوبة عند الله) نصب مثوبة على التمييز أي ثوابا بمعنى جزاء (فان قيل) المثوبة مختصة بالاحسان كما ان العقوبة مختصة بالشر (أجيب) بان ذلك على سبيل التهكم كما في قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم وقوله تعالى (من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير) بدل من شر على حذف مضاف قبل لفظ ذلك أو قبل لفظ من لعنه وتقديره بشر من أهل ذلك من لعنه الله أو بشر من ذلك دين من لعنه الله لان الدين المشار اليه غير مطابق لقوله من لعنه الله في معنى يشترك فيه لفظ شر فيقدر أهل قبل ذلك أو دين قبل من ليطابق (فان قيل) هذا يقتضي كون الموصوفين بذلك الدين محكوما عليهم بالشر ومعلوم انه ليس كذلك (أجيب) بانه انما خرج الكلام على حسب قولهم واعتقادهم فانهم حكموا بان اعتقاد ذلك الدين شر فقيل لهم هب ان الامر كذلك لكن لعنة الله وغضبه ومسخ الصور شر من ذلك والذين لعنهم الله في هذه الآية هم اليهود أبعدهم الله من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات ومسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسى وقيل كلا المسخين في أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة ومشايخهم خنازير روي أنه لما نزلت كان المسلمون يعيرون اليهود ويقولون يا اخوة القردة والخنازير فينكسون رؤسهم وقوله تعالى (وعبد الطاغوت) عطف على صلة من كانه قيل ومن عبد الطاغوت وقرأ حمزة بضم باء عبد وكسر تاء الطاغوت على انه اسم جمع لعبد عطف على من والباقون بنصب الباء من عبد والتاء من الطاغوت والطاغوت الشيطان أو العجل لانه معبود من دون الله ولان عبادتهم للعجل مما زينه لهم الشيطان فكانت عبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت وعن ابن عباس رضي الله عنهما الطاغوت الكهنة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى * (تنبيه) * روعي في منهم معنى من وفيما قبله لفظها وهم اليهود (أولئك) أي الملعونون الممسوخون (شر مكانا) لان مأواهم النار وجعلت الشرارة للمكان وهي لاهله وفيه مبالغة ليست في قولك أولئك شر ومكانا تمييز (وأضل عن سواء السبيل) أي طريق الحق وأصل السواء الوسط (فان قيل) ذكر شر وأضل يقتضي مشاركة المؤمنين والكفار في الشر والضلال وأن الكفار أشر وأضل مع ان المؤمنين لم يشاركوا الكفار في شيء من ذلك (أجيب) بان مكان هؤلاء في الآخرة شر وأضل من مكان المؤمنين في الدنيا لما يلحقهم فيها من الشر والضلال الحاصل لهم بالهموم الدنيوية كسماع الاذى وغيره أو ان ذلك على سبيل التنزل والتسليم للخصم على زعمه الزاما له بالحجة وهذا أولى ونزل في يهود نافقوا النبي صلى الله عليه وسلم (واذا جاؤكم قالوا آمنا وقد)

* بالذكر مع انه تعالى بدرك كل شئ (قلت) خصه بالذكر لرعاية المقابلة اللفظية لانها نوع من البلاغة (قوله وهو الذى انزل اليكم الكتاب مفصلا)

أي قالوا ذلك والحال انهم قد (دخلوا) اليكم متلبسين (بالكفر وهم قد خرجوا) من عندكم
متلبسين (به) أي الكفر كما دخلوا لم يتعلق بهم شيء مما سمعوا به من تذكيرك بآيات الله
ومواعظك (والله أعلم بما كانوا يكتمون) من الكفر وغيره في جميع أحوالهم من أقوالهم
وأعمالهم وفي هذا وعيد لهم (وترى كثيرا منهم) اى اليهود والمنافقين (يسارعون) اى
يقعون سريعا (في الاثم) اى الكذب بدليل قوله تعالى عن قولهم الاثم (والعدوان) اى الظلم
وقيل الاثم ما يختص بهم والعدوان ما يتعدى الى غيرهم (واكلهم السحت) اى الحرام كالرشا
(لبئس ما كانوا يعملون) عملهم هذا (لولا) هلا (ينهاهم) أي يجدد لهم النهي (الربانيون) اى
المدعون للتخلي من الدنيا الى سبيل الرب (والاحبار) اى العلماء (عن قولهم الاثم) اى الكذب
(واكلهم السحت) اى الحرام هذا تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك فان لولا اذا دخل على
الماضي افاد التوبيخ واذا دخل على المضارع المستقبل أفاد التحضيض (لبئس ما كانوا
يصنعون) تركهم نهيهم (فان قيل) لم عبر في الاول يعملون وفي الثاني يصنعون (اجيب) بان كل
عامل لا يسمى صانعا ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب ولذلك ذم بهذا
خواصهم ولان ترك الانكار على المعصية أقبح من مواقعة المعصية لان النفس تلتذ بها وتميل
اليها ولا كذلك ترك الانكار عليها فكان جديرا بأبلغ الذم فيدخل في الذم كل من كان قادرا
على النهي عن المنكر من العلماء وغيرهم وتركه وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي أشد آية
نزلت في القرآن وعن الضحاك ما في القرآن آية أخوف عندي منها (وقالت اليهود) لما ضيق
عليهم بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية (يد الله
مغلولة) اى هو ممسك يقتر بالرزق وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ومنه قوله تعالى
ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ولا يقصد من يتكلم به اثبات يد ولا
غل ولا بسط ولو اعطى الاقطع الى المنكب عطاء جزيلا لقالوا ما ابسط يده بالنوال لان بسط
اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود وقد استعملوها حيث لا تصح اليد
كقولهم بسط اليأس كفيه في صدري فجعلت لليأس الذي هو معنى من المعاني لا من الاعيان
كفان (فان قيل) قد تقدم ان قوله يد الله مغلولة عبارة عن البخل فما تفعل في قوله تعالى (غلت
ايديهم) ومن حقه ان يطابق ما تقدمه (اجيب) بانه يجوز ان يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل
والنكد ومن ثم كانوا ابخل خلق الله تعالى وانكدهم والمطابقة على هذا ظاهرة ويجوز
ان يكون دعاء عليهم بغل الايدي حقيقة يغلون في الدنيا اسارى وفي الآخرة
معذبين باغلال جهنم كما قال تعالى اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل وعلى هذا تكون
المطابقة حاصلة من حيث لفظ مغلولة وغلت من حيث ملاحظة ان الاصل في القول
الشنيع ان يقابل بالدعاء على قائله (ولعنوا) اى ابعدوا مطرودين عن الجناب الكريم
(بما قالوا) فمن لعنهم انهم مسخوا قردة وخنازير ثم رد الله تعالى عليهم بقوله (بل يداه
مبسوطتان) مشيرا بالتثنية الى غاية الجود وان غاية ما يبذله السخي من ماله ان يعطي
بيديه جميعا (ينفق كيف يشاء) اى هو مختار في انفاقه يضيق تارة ويوسع اخرى على حسب
مشيئته ومقتضى حكمته لا اعتراض عليه وقيل القائل هذه المقالة فنحاص بن عازوراء فلما

(ان قلت) كيف قال اليكم ولم يقل الى مع انه تعالى انما قال وانزلنا اليك الكتاب (قلت) لما كان انزاله لاجل تبليغهم كان كانه أنزل اليهم (قوله ولو شاء ربك ما فعلوه) قاله هنا بلفظ الرب وبعده بلفظ الله لانه هنا وقع بين آيات فيها ذكر الرب مرات

لم ينههم الآخرون ورضوا بفعله أشركهم الله تعالى فيها (وليزيدن كثيرا منهم) أى من أراد الله فتنته ثم ذكر فاعل الزيادة فقال (ما أنزل اليك من ربك) من القرآن (طغيانا) أى تماديا فى الجحود (وكفرا) بآيات الله فيزدادون على كفرهم وطغيانهم طغيانا وكفرا مما يسمعون من القرآن كما يزداد المريض مرضا من تناول الغذاء الصالح للاصحاء (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) فكل فرقة منهم تخالف الاخرى فلا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أى كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا لم يقم لهم نصر من الله تعالى على أحد وقد أتاهم الاسلام وهم فى ملك المجوس وقيل خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس بالفاء الرومى ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين وقيل كلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصر عليهم وعن قتادة لا تلقى اليهود ببلدة الا وجدتهم من أذل الناس (ويسعون فى الارض فسادا) أى ويجتهدون فى الكيد للاسلام ومحو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتبهم واثارة الحرب والفتن وهتك المحارم (والله لا يحب المفسدين) أى فلا يجازيهم الا شرا (ولو أن أهل الكتاب آمنوا) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به (واتقوا) أى الكفر (لكفرنا عنهم سيئاتهم) أى التى فعلوها ولم نؤاخذهم بها (ولأدخلناهم جنات النعيم) مع المسلمين وفى هذا اعلام بعظم معاصى اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص وان عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى وان الاسلام يجب ما قبله وان جل وان الكتابى لا يدخل الجنة ما لم يسلم (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) أى أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت محمد صلى الله عليه وسلم (وما أنزل اليهم) أى من الكتب المنزلة (من ربهم) لانهم مكلفون بالايمان بجميعها فكأنها أنزلت اليهم وقيل هو القرآن وقوله تعالى (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) عبارة عن التوسعة أى لوسع عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم من بركات السماء والارض أو أن تكثر الاشجار المثمرة والزروع المغلة أو أن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار فيجنونها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الارض من تحت أرجلهم بين سبحانه وتعالى بذلك أن ما كف عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا بقصور الفيض ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين (منهم أمة) أى جماعة (مقتصدة) أى عادلة غير غالية ولا مقصرة وهم عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل متوسطة فى عداوته (وكثير منهم ساء) أى بئس (ما) أى شيئا (يعملون) فيه معنى التعجب كأنه قيل وكثير منهم ما أسوأ عملهم وقيل هو كعب بن الاشرف وأصحابه والروم وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت من حدثك أن محمدا كتم شيئا مما أنزل الله فقد كذب وهو يقول (يا أيها الرسول بلغ) جميع (ما أنزل اليك من ربك) أى لا تكتم شيئا منه خوفا أن تنال بمكروه (وان لم تفعل) أى وان لم تبلغ جميع ما أنزل اليك (فما بلغت رسالته) أى لان كتمان بعضها ككتمان كلها أى ولان

وما بعده وقع بعد آيات فيها ذكر الله مرات والهذاذ كر لفظ الله قبل فى قوله ولو شاء الله ما أشركوا وبعده فى قوله لو شاء الله ما أشركنا (قوله ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) قال ذلك

بعضها ليس بالاولى بالاداء من بعض فاذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت اداءها جميعا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان كتمت آية لم تبلغ رسالتى واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت فى عتب اليهود وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم الى الاسلام فقالوا أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤن به ويقولون تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك نزلت هذه الآية وقيل نزلت فى الجهاد وذلك ان المنافقين كانوا يكرهونه فكان يمسك أحيانا عن حثهم على الجهاد وقيل لما نزلت آية التخيير وهى قوله تعالى يا أيها النبى قل لازواجك فلم يعرضها عليهن خوفا من اختيارهن الدنيا فنزلت وقيل غير ذلك وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بألف بعد اللام وكسر التاء والباقون بغير ألف ونصب التاء (والله يعصمك من الناس) أى يحفظك ويمنعك منهم (فان قيل) أليس قد شج وجهه وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وأوذى بضروب من الاذى (أجيب) بأن معناه يعصمك من القتل فلا يصلون الى قتلك وفى هذا تنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل مادون النفس من أنواع البلايا فما أشد تكليف الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل نزلت هذه الآية بعدما شج رأسه لان سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن وروى اسحق بن راهويه فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثنى الله برسالاته فضقت بها ذرعا فأوحى الله الى ان لم تبلغ رسالاتى عذبتك وضمن لى العصمة فقويت وعن أنس رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم فقال انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله من الناس قال البيضاوى وظاهر الآية يوجب تبليغ كل ما أنزل ولعل المراد بالتبليغ ما يتعلق به مصالح العباد وقصد بانزاله اطلاعهم عليه فان من الاسرار الالهية ما يحرم افشاؤه اه قال بعض العارفين ولهذا قال تعالى بلغ ما أنزل اليك ولم يقل ما تعرفنا به اليك واعلم أن المراد من الناس هنا الكفار بدليل قوله تعالى (ان الله لا يهدى القوم الكافرين) أى لا يمكنهم مما يريدون وروى انه عليه الصلاة والسلام نزل تحت شجرة فى بعض أسفاره وعلق سيفه عليها فأتاه أعرابى وهو نائم وأخذ سيفه واخترطه وقال من يمنعك منى يا محمد قال الله تعالى فرعدت يد الاعرابى وسقط من يده وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه (قل يا أهل الكتاب لستم على شئ) اى دين يعتد به حتى يسمى شيأ لفساده وبطلانه كما تقول هذا ليس بشئ تريد تحقيره وتصغير شأنه وفى أمثالهم أقل من لاشئ (حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) اى بان تعملوا بما فيها ومن اقامتها الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والاذعان لحكمه فان الكتب الالهية باسرها آمرة بالايمان بمن صدقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له والمراد اقامة أصولها وما لم ينسخ من فروعها (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك) أى من القرآن (طغيانا وكفرا) لكفرهم به (فلا تأس) اى تحزن (على القوم الكافرين) ان لم يؤمنوا بك أى لا تهتم بهم فان ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفى المؤمنين مندوحة عنهم لك (ان الذين آمنوا والذين هادوا) هم اليهود (والصابئون) فرقة منهم (والنصارى) وقد سبق تفسير هذه الآية فى سورة البقرة (فان قيل) بم رفع الصابئون وكان حقه والصابئين (أجيب) بانه رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما فى خبر ان

هنا بلا نحو بالمضارع موافقة لقوله بعد والله أعلم حيث يجعل رسالاته وقال فى الفعل والنحو ن بين فعل بزيادة الباء والماضى علا بزيادة الباء فى مفعول اعلم تقوية له لضعفه كما فى قوله

مع اسمها وخبرها كأنه قيل ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك وأنشد سيبويه شاهداله

والا فاعلموا أنا وأنتم * بغاة ما بقينا في شقاق

والشاهد في أنتم فانه مبتدأ حذف خبره والتقدير والا فانا بغاة وأنتم كذلك (فان قيل) ما فائدة هذا التقديم والتأخير (أجيب) بان الصابئين أشد الفرق المذكورين في هذه الآية ضلالا وما سموا صابئين الا لانهم صبؤا عن الاديان كلها أي خرجوا فكأنه قال هؤلاء الفرق الذين آمنوا وأتوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم حتى الصابئون فانهم ان آمنوا كانوا أيضا كذلك وقيل منصوب بالفتحة فكما جوز بالفتحة مع الياء في بنين وسنين جوز مع الواو وكماها

وقوله تعالى (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) في محل رفع بالابتداء وخبره (فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) في الآخرة والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط والجملة خبران (فان قيل) كيف قيل الذين آمنوا من آمن (أجيب) بان المراد بالذين آمنوا الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون أو ان المراد بمن آمن من ثبت على الايمان واستقام ولم يخالجه ريبة فيه (لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل) اي على الايمان بالله ورسوله (وأرسلنا اليهم رسلا) أي ولم نكتف بهذا العهد بل أرسلنا رسلا ليذكروهم وليبينوا لهم أمر دينهم (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم) أي بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكاليف (فريقا) أي من الرسل (كذبوا) اي كذبهم بنو اسرائيل من غير قتل كعيسى (وفريقا) منهم (يقتلون) كزكريا ويحيى وانما جيء بيقتلون موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضارا للحالة الشنيعة للتعجب منها وتنبيها على ان ذلك ديدنهم ماضيا ومستقبلا ومحافظة على رؤس الآي (وحسبوا) أي ظن بنو اسرائيل (ألا تكون) أي توجد (فتنة) أي لا يصيبهم بها عذاب في الدنيا ولا في الآخرة بل استخفوا بامرها فلا تعجب أنت من جراءتهم في ادعائهم انهم أبناء الله وأحباؤه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي برفع النون تنزيلا للحسبان منزلة العلم فتكون مخففة من الثقيلة وأصله أنه لا تكون فتنة والباقون بالنصب على أن الحسبان على بابه (فعموا) أي عن الحق فلم يبصروه وهذا العمى هو الذي لا عمى في الحقيقة سواه وهو انطماس البصائر فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (وصموا) عنه فلم يسمعوه أي عموا وصموا بعد موسى ويوشع عليهما السلام والصمم أضر من العمى فصاروا كمن لا يهتدي الى سبيل أصلا لانه لا بصر له بعين ولا قلب ولا سمع (ثم تاب الله عليهم) ببعث عيسى بن مريم فرفعوه الى الحق (ثم عموا وصموا) كرة أخرى بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (كثير منهم) بدل من الضمير (والله بصير بما يعملون) أي وان دق فيجازيهم به وفق أعمالهم

(لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) وهم اليعقوبية منهم القائلون بالاتحاد (وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم) أي اني عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم (انه من يشرك بالله) أي يشرك في العبادة غيره (فقد حرم الله عليه الجنة) أي منعه من دخولها امتناعا محتما فانها دار الموحدين (ومأواه النار) أي محل سكناه فانها المعدة

وهو أعلم بالمهتدين وقوله وهو أعلم من اهتدى وعلا في الماضي بكثرة الاستعمال فهو قولهم اعلم من دب ودرج وأحسن من قام وقعد وأفضل من حج واعتمر وحيث حذفت الباء أضمر

المشركين (وما للظالمين من أنصار) أى ومالهم أحد ينصرهم من النار لا بفداء ولا بشفاعة
ولا بغيرهما فوضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا على أنهم ظلموا بالاشراك وعدلوا عن طريق
الحق وهو يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى تنبيه على أنهم عدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على
عيسى عليه السلام فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ورده وأنكره وان كانوا معظمين
له بذلك ورافعين من مقداره وأن يكون من كلام عيسى عليه السلام على معنى ولا ينصركم
أحد منى فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن المعقول أو لا ينصركم ناصر فى
الآخرة من عذاب الله (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) أى أحد ثلاثة وهو حكاية
عما قاله النسطورية والملكانية وفيه اضمار معناه ثالث ثلاثة الآلهة لانهم يقولون الالهية
مشتركة بين الله ومريم وعيسى وكل واحد من هؤلاء اله فهم ثلاثة آلهة يبين هذا قوله تعالى
للمسيح أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ومن قال ان الله تعالى ثالث ثلاثة
بالعلم ولم يرد به الآلهة لم يكفر فان الله يقول ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم وقال النبى
صلى الله عليه وسلم لابى بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ثم قال الله تعالى ردا عليهم (وما من اله
الا اله واحد) أى وما فى الموجودات واجب مستحق للعبادة من حيث انه مبدأ جميع
الموجودات الا اله واحد موصوف بالوحدانية متعال عن الشركة ومن مزيدة للاستغراق
(وان لم ينتهوا) أى الكفرة بجميع أصنافهم (عما يقولون) أى من هاتين المقالتين وداموا عليها
(ليمسن) أى مباشرة من غير حائل (الذين كفروا) أى داوموا على الكفر (منهم عذاب أليم)
أى مؤلم لم ينقطع عنهم لعدم توبتهم ولذلك عقبه بقوله تعالى (أفلا يتوبون) أى يرجعون بعد
هذا الكفر الذى لا أوضح من بطلانه ولا أبين من فساده (الى الله ويستغفرونه) أى يطلبون
منه غفران ما أقدموا عليه من تلك العقائد والاقوال الزائفة ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه
عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقريع والتهديد (والله غفور) أى بالغ المغفرة يمحو الذنوب
فلا يعاقب عليها ولا يعاتب (رحيم) أى بالغ الاكرام ان أقبل عليه فيغفر لهم ويمنحهم من
فضله ان تابوا وفى هذا الاستفهام تعجيب من اصرارهم (ما المسيح ابن مريم الا رسول قد
خلت) أى مضت (من قبله الرسل) أى ليس هو بالله كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة وما من
خارقة له الا وقد كان مثلها أو أعجب منها لمن كان قبله فان كان قد أحيا الموتى على يده فقد أحيا
العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى وهو أعجب وان كان قد خلقه من غير أب فقد خلق آدم
من غير أب وأم وهو أغرب (وأمه صديقة) أى بليغة الصدق فى نفسها كسائر النساء اللاتى
يلازمن الصدق أو بصدق الانبياء كما قال تعالى فى وصفها وصدقت بكلمات ربها وهذه
الآية من أدلة من قال ان مريم عليها السلام لم تكن نبية فانه تعالى ذكر أشرف صفاتهما فى
معرض الرد على من قال بالهيتهما اشارة الى ما هو الحق فى اعتقادهما لهما من أعلى الصفات
فان أعظم صفات عيسى عليه السلام الرسالة وأكمل صفات أمه عليها السلام الصديقية
* (فائدة) * مريم من أزواج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى الجنة * ولما بين سبحانه وتعالى
أقصى ما لهما من الكمالات بين أن ذلك لا يوجب لهما الالوهية بقوله (كانا يأكلان الطعام)
لان من احتاج الى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم لم يكن الا جسما مركبا من عظم ولحم

فصل من جادة عنه يعمل فى المفعول لضعف اعمل عن العمل بلا تقوية وتقديره فى الآية يعلم من ضل (قوله كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) المزين لهم هو الله لقوله تعالى

وعروق

وعروق وأعصاب وأخلاط وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الاجسام فكيف يكون الها وخص الاكل بالذكر لانه أصل الحاجات والاله لا يكون محتاجا وقيل هذا كناية عن الحدث لان من أكل وشرب لابد له من البول والغائط ومن كانت هذه صفته كيف يكون الها ثم لما أوضح الله تعالى لهم الادلة فى أمرهما حتى ظهر كالشمس بعدهما عما ادعوا فيهما اتبعه التعجيب بقوله (انظر) متعجبا (كيف نبين لهم الآيات) على وحدانيتنا (ثم انظر أنى) أى كيف (يؤفكون) أى يصرفون عن الحق مع قيام البرهان (فان قيل) مامعنى التراخى فى قوله تعالى ثم انظر (أجيب) بان معناه التفاوت بين العجبين أى ان بياننا للآيات عجب واعراضهم عنها أعجب (قل أتعبدون من دون الله) أى غيره يعنى عيسى عليه السلام (مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا) أى لا يستطيع أن يضركم بمثل مايضر الله تعالى به من البلايا والمصائب فى الانفس والاموال ولا أن ينفعكم بمثل ماينفعكم الله به من صحة الابدان والسعة والخصب وكل مايستطيعه البشر من المضار والمنافع فباقدار الله تعالى وتمكينه وكأنه لا يملك شيأ وهذا دليل قاطع على ان أمر عيسى مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرا ولا نفعا وصفة الرب تعالى أن يكون قادرا على كل شئ لا يخرج مقدور عن قدرته تعالى (فان قيل) اذا كان المراد السيد عيسى فلم عبر بما دون من مع أن المراد من يعقل (أجيب) بانه أتى بما نظرا الى ماهو عليه فى ذاته توطئة لنفى القدرة عنه رأسا وتنبيها على أنه من هذا الجنس ومن كان له حقيقة تقبل المجانسة والمشاركة فبمعزل عن الالوهية أو ان المراد كل ماعبد من دون الله تعالى سواء كان ممن يعقل أم لا (والله هو السميع) لاقوالكم (العليم) باحوالكم فيجازى عليها ان خيرا فخير وان شرا فشر والاستفهام للانكار (قل ياأهل الكتاب) أى عامة (لا تغلوا) أى تجاوزوا الحد (فى دينكم) وقوله تعالى (غير الحق) صفة للمصدر أى لا تغلوا فى دينكم غلوا غير الحق أى غلوا باطلا لان الغلو فى الدين غلوان حق وهو أن يجتهد فى تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون وغلو باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالاعراض عن الأدلة فيرفعوا عيسى عليه السلام الى أن يدعوا له الالهية أو يضعوه ويرتابوا فيه وقيل الخطاب للنصارى خاصة (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) فى غلوهم وهم أسلافهم الذين قد ضلوا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم (وأضلوا كثيرا) أى من الناس بمتابعتهم فى الباطل من التثليث وغيره حتى ظن حقا (وضلوا) أى بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عن سواء السبيل) أى طريق الحق وهو الاسلام والسواء فى الاصل الوسط والاهواء ههنا المذاهب التى تدعو اليها الشهوة دون الحجة قال أبو عبيدة لم يذكر الهوى الا فى موضع الشر لا يقال فلان يهوى الخير انما يقال يريد الخير ويحبه وقيل سمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه الى النار وقال رجل لابن عباس الحمد لله الذى جعل هواى على هواك فقال كل هوى ضلالة (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود) أى لعنهم الله فى الزبور على لسان داود وان أهل ايلة لما اعتدوا فى السبت قال داود عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة وخنازير وقوله تعالى (وعيسى ابن مريم) عطف على داود أى لعنهم الله فى الانجيل على لسان عيسى بن مريم وهم أصحاب المائدة لما لم يؤمنوا قال عيسى عليه السلام اللهم العنهم

وزينا لهم أعمالهم أو الشيطان لقوله تعالى وزين لهم الشيطان أعمالهم وكل صحيح فالتزيين من الله بالايجاد والخلق ومن الشيطان بالاغواء والوسوسة (قوله مشر

واجعلهم آية فمضوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي قال بعض العلماء
ان اليهود كانوا يفتخرون بأنا من أولاد الانبياء فذكر الله تعالى هذه الآية ليدل على أنهم
ملعونون على ألسنة الانبياء (ذلك) أى اللعن المذكور (بما) أى بسبب ما (عصوا وكانوا
يعتدون) ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله تعالى (كانوا لا يتناهون) أى لا ينهى بعضهم بعضا
(عن منكر) أى معاودة منكر (فعلوه) أو عن مثل منكر أو عن منكر ارادوا فعله وتهيؤا له
وانما قدرنا ذلك لان التناهي عن منكر قد مضى محال (لبئس ما كانوا يفعلون) أى يفعلونه
والمخصوص بالذم محذوف أى فعلهم هذا قال بعض المفسرين فيا حسرتا على المسلمين في
اعراضهم عن باب التناهي عن المناكير وقلة عبئهم به كأنه ليس من ملة الاسلام في شئ مع
ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب (ترى كثيرا منهم) أى من أهل
الكتاب (يتولون الذين كفروا) أى يوالون المشركين بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وللمؤمنين (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) من العمل لمعادهم (أن سخط الله عليهم) أى غضب
عليهم (وفي العذاب هم خالدون) أى دائما (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي) محمد صلى الله عليه
وسلم (وما أنزل اليه) من عند الله تعالى أعم من القرآن وغيره ايمانا خالصا من غير نفاق
(ما اتخذوهم) أى المشركين (أولياء) اذ الايمان يمنع ذلك (ولكن كثيرا منهم فاسقون) أى
خارجون عن الايمان وقيل معناه ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون ما اتخذوا
المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون (لتجدن) يا محمد (أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود
والذين أشركوا) من أهل مكة لتضاعف كفرهم وجهلهم وانهماكهم في اتباع الهوى وفي
جعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين دلالة على شدة عداوتهم لهم بل نبه على
تقدمهم فيها على الذين أشركوا وكذلك فعل في قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس على
حياة ومن الذين أشركوا وعنه صلى الله عليه وسلم ما خلا يهوديان بمسلم الا هما بقتله (ولتجدن
أقربهم) أى الناس (مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) انما أسند تسميتهم نصارى
اليهم دون تسمية اليهود لانهم الذين سموا أنفسهم نصارى حين قال لهم عيسى عليه السلام من
أنصاري الى الله الآية أو لانهم كانوا يسكنون قرية يقال لها ناصرة وكأنهم لم يكونوا ساكنين
فيها على التقديرين فتسميتهم نصارى ليست حقيقة بخلاف تسمية اليهود يهودا فانها حقيقة
سواء سموا بذلك لكونهم أولاد يهودا بن يعقوب أو لكونهم تابوا عن عبادة العجل بقولهم انا
هدنا اليك أو لتحركهم في دراستهم ثم علل سبحانه وتعالى سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم
للمؤمنين بقوله تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين) أى علماء (ورهبانا) أى عبادا (وأنهم
لا يستكبرون) عن اتباع الحق كما استكبر اليهود والمشركون من أهل مكة نزلت في وفد
النجاشي القادمين من الحبشة لا في كل النصارى لانهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود في قتلهم
المسلمين وأسرهم وتخريب ديارهم وهدم مساجدهم وحرق مصاحفهم قال أهل التفسير ائتمرت
قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يؤذونهم
ويعذبونهم فافتتن من افتتن وعصم الله تعالى منهم من شاء ومنع الله تعالى رسوله محمدا صلى الله

(الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) فان قلت كيف قال ذلك والرسل انما كانت من الانس خاصة (قلت) بل ومن الجن أيضا على قول الضحاك ومقاتل أو أن أرسل اليهم رسل

عليه وسلم بعمه أبي طالب فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد أمرهم بالخروج الى أرض الحبشة وقال ان بها ملكا صالحا لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا اليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجا وأراد به النجاشي واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية وانما النجاشي اسم الملك كقولهم قيصر وكسرى فخرج اليه سرا احد عشر رجلا وأربع نسوة من جملتهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجوا الى البحر وأخذوا سفينة الى أرض الحبشة بنصف دينار وذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الهجرة الاولى ثم خرج جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب وتتابع المسلمون اليها فكان جميع من هاجر الى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان فلما علمت قريش بذلك أرسلوا الى النجاشي بالهدايا ليردهم اليهم فعصمهم الله تعالى وانصرفوا خائبين وأقام المسلمون هناك بخير دار وخير جوار الى أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلا دينه في سنة ست من الهجرة كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت قد هاجرت اليه مع زوجها فمات زوجها فارسل النجاشي الى أم حبيبة جارية تخبرها بخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستبشرت بذلك وأذنت لخالد بن سعيد أن يزوجها وكان الخاطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي فانفذ اليها أربعمائة دينار قالت أم حبيبة فخرجنا الى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فخرج من خرج اليه وأقمت بالمدينة حتى قدم ووافى جعفر بن أبي طالب وأصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكوا وأسلموا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى قال تعالى (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول) من القرآن (ترى أعينهم تفيض من الدمع) اى جعلت أعينهم من فرط البكا كأنها تفيض بأنفسها (مما عرفوا من الحق) من الاولى للابتداء والثانية لتبيين ما عرفوا أو للتبعيض فانه بعض الحق والمعنى انهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف اذا عرفوا كله وقال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه فقرئ عليهم ثم دعا بجعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين وأمر جعفرا أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ عليهم كهيعص فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة قالوا آمنا كما قال تعالى (يقولون ربنا آمنا) أى صدقنا نبيك وكتابك (فاكتبنا مع الشاهدين) اى أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون على الامم يوم القيامة دليله قوله تعالى لتكونوا شهداء على الناس واذا نظرت مكاتبات النبي صلى الله عليه وسلم ازددت بصيرة في صدق هذه الآية فانه ما كاتب نصرانيا الا آمن أو كان لينا ولولم يسلم كهرقل والمقوقس وهوذة بن علي وغيرهم وغايتهم أنهم ضنوا بملكهم وأما غير النصارى فانهم كانوا على غاية في الفظاظة ككسرى فانه مزق كتابه صلى الله عليه وسلم ولم يجز رسوله بشئ قال البقاعي السر في ذلك انه لما كان عيسى عليه الصلاة والسلام أقرب الانبياء زمنا من زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان المنتمون اليه ولو كانوا كفرة أقرب الامم مودة لاتباع النبي صلى الله عليه وسلم

على قول غيرهما بأنه غير ذلك فالمراد برسل الجن الذين سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم ثم ولوا الى قومهم منذرين كما قال تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن الآية (قوله قالوا

وقالوا في جواب من عيرهم بالاسلام من اليهود (ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق) وهو القرآن لا مانع لنا من الايمان مع وجود مقتضيه وقوله تعالى (ونطمع) معطوف على نؤمن (أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) أى المؤمنين الجنة (فأثابهم الله بما قالوا) أى جعل ثوابهم على هذا القول المستند الى خلوص النية الناشئ عن حسن الطوية (جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك) أى الجزاء العظيم (جزاء المحسنين) أى بالايمان (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب الجحيم) أى الذين لا ينفكون عنها الا غيرهم من عصاة المؤمنين وان كثرت كبائرهم وعطف التكذيب بآيات الله على الكفر وهو ضرب منه لان القصد الى بيان حال المكذبين وذكرهم في معرض المصدقين بها جمعا بين الترغيب والترهيب (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا) أى لا تمنعوا أنفسكم بنذر او يمين أو غير ذلك (طيبات) اى مستلذات (ما أحل الله لكم) كمنع التحريم اى لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا (ولا تعتدوا) حدود ما أحل الله لكم الى ما حرم عليكم (ان الله لا يحب المعتدين) أى لا يفعل فعل المحب من الاكرام للمفرطين في الورع بحيث يحرمون ما أحلت ولا للمفرطين فيه الذين يحلون ما حرمت أن يفعلوا فعل المحرم من المنع وفعل المحلل من التناول فالآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حرم داعية الى القصد بينهما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف يوم القيامة لاصحابه فبالغ وأشبع في الكلام في الانذار فرق الناس وبكوا واجتمع عشرة من الصحابة رضى الله عنهم في بيت عثمان بن مظعون وهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وأبو ذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد بن الاسود وسلمان الفارسى ومعقل بن مقرن وعثمان بن مظعون رضى الله تعالى عنهم وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويجبوا مذاكيرهم ويصوموا الدهر ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب ويسيحوا في الارض فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا فقالوا بلى يا رسول الله ما أردنا الا الخير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لم أومر بذلك ثم قال ان لانفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ثم جمع الناس وخطبهم وقال ما بال أقوام يحرمون النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا أما انى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا فانه ليس في دينى ترك اللحم ولا النساء ولا اتخاذ الصوامع وان سياحة أمتى الصوم ورهبانيتهم الجهاد اعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فانما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فاولئك بقاياهم في الديارات والصوامع فانزل الله تعالى هذه الآية فقالوا يا رسول الله فكيف نصنع بايماننا التى حلفنا عليها وكانوا حلفوا على ما عليه اتفقوا فانزل الله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم الآية وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ وكان يعجبه

كرر شهدنا على انفسنا) شهادتهم على انفسهم لاختلافهما باختلاف المشهود به لان الاولى شهادتهم بتبليغ الرسل اليهم والثانية شهادتهم بكفرهم (فان قلت) شهادتهم بكفرهم

الحلواء والعسل وقال المؤمن حلو يحب الحلاوة وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رجلا قال له اني حرمت الفراش فتلا هذه الآية وقال نم على فراشك وكفر عن يمينك وعن الحسن أنه دعي الى طعام ومعه فرقد السبخي وأصحابه فقعدوا على المائدة وعليها الالوان من الدجاج والفالوذ وغير ذلك فاعتزل فرقد ناحية فسأل الحسن أهو صائم فقالوا لا ولكنه يكره هذه الالوان فقال يا فريقد أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم وعنه أنه قيل له فلان لا يأكل الفالوذ ويقول لا أؤدي شكره قال أفيشرب الماء البارد قال نعم قال انه جاهل ان نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ وعنه أن الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم قال تعالى لينفق ذو سعة من سعته ما عاب الله قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوه ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه وروي أن عثمان بن مظعون أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ائذن لي في الاختصاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس منا من خصى ولا من اختصى ان خصاء أمتي الصيام فقال يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال ان سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله قال يا رسول الله ائذن لي في الترهب قال ان ترهب أمتي الجلوس في المساجد لانتظار الصلاة وروي أن رجلا قال يا رسول الله اني أصبت من اللحم فانتشرت فأخذتني شهوة فحرمت اللحم فأنزل الله تعالى هذه الآية ولا تعارض بين الخبرين لان الشيء الواحد قد يكون له أسباب جمة بعضها أقرب من بعض وروي أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التبتل نهيا شديدا وقال تزوجوا الولود الودود فاني مكاثر بكم الامم يوم القيامة (وكلوا مما رزقكم الله) ولما كان الرزق يقع على الحرام قيده بعد القيد بالتبعيض بقوله (حلالا طيبا) وهو مفعول كلوا ومما حال منه تقدمت عليه لانه نكرة وقوله تعالى (واتقوا الله) تأكيد للتوصية بما أمر الله به وزاده تأكيدا بقوله (الذي أنتم به مؤمنون) لان الايمان به يوجب التقوى في الانتهاء الى ما أمر به وعما نهى عنه (لا يؤاخذكم الله باللغو) الكائن (في أيمانكم) هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الانسان لا والله وبلى والله واليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالى وقيل هو الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن واليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم) أي وثقتم (الايمان) عليه بأن حلفتم عن قصد روي أن الحسن سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال يا أبا سعيد دعني أجب عنك فقال

ولست بمأخوذ بلغو تقوله ● اذا لم تعمد عاقدات العزائم

والمعنى ولكن يؤاخذكم الله بما عقدتم اذا حنثتم أو بنكث ما عقدتم فحذف التقدير بأحد الامرين للعلم به وقرأ ورش يواخذكم بابدال الهمزة واوا مفتوحة وقرأ ابن ذكوان عاقدتم بألف بعد العين وتخفيف القاف والباقون بغير ألف مع تشديد القاف (فكفارته) أي اليمين اذا حنثتم فيه التي تذهب اثمه وتزيل أثره بحيث تصيرون كأنكم ما حلفتم (اطعام عشرة مساكين) أي لكل مسكين مد عندنا ونصف صاع عند أبي حنيفة رحمه الله (من أوسط) أي أعدل (ما تطعمون أهليكم) من بر أو غيره لا من أعلاه ولا من أدناه (أو كسوتهم) بما يسمى كسوة كقميص وعمامة وازار وسراويل ومقنعة من صوف وقطن وكتان وحرير ولو لرجل وان لم يجز له لبسه لوقوع اسم الكسوة عليه رديئا كان أو جيدا ويجزئ لبدا وفروة اعتيد

تضمنت اقرارهم به وهو مناف لجحدهم له في قوله والله ربنا ما كنا مشركين حكاية عنهم (قلت) مواقف القيامة مختلفة ففي موقف اقروا وفي آخر جحدوا والمراد بتهادتهم

في البلد لبعدها ولا يكفي دفع ماذكر لمسكين واحد وعليه الشافعي ولا يكفي المكعب والنعل والخف والقلنسوة والتبان وهو سراويل قصيرة لا تبلغ الركبة ونحو ذلك مما لا يسمى كسوة (أو تحرير رقبة) أي مؤمنة كما في كفارتي القتل والظهار حملا للمطلق على المقيد وجوز أبو حنيفة عتق الكافرة في كل كفارة الا القتل وخرج بالتخيير بين هذه الثلاثة أنه لا يجزئ أن يطعم خمسة ويكسو خمسة كما لا يجزئ اعتاق نصف رقبة واطعام خمسة (فمن لم يجد) أي أن عجز عن أحد ماذكر (فصيام ثلاثة أيام) أي فكفارته صيام ثلاثة أيام ولا يجب تتابعها (فان قيل) قرئ شاذا متتابعات والقراءة الشاذة كخبر الواحد في وجوب العمل كما أوجبنا قطع يد السارق اليمنى بالقراءة الشاذة في قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما ولأن من عادة الشافعي رحمه الله تعالى حمل المطلق على المقيد من جنسه وهو الظهار والقتل (أجيب) بأن آية اليمين نسخ فيها متتابعات تلاوة وحكما فلا يستدل بها بخلاف آية السرقة فانها نسخت تلاوة لا حكما وبأن المطلق ههنا متردد بين أصلين يجب التتابع في أحدهما وهو كفارة الظهار والقتل ولا يجب في الآخر وهو قضاء رمضان فلم يكن أحد الاصلين في التتابع بأولى من الآخر ويسن تتابعها خروجا من خلاف أبي حنيفة فانه شرط تتابعها * (تنبيه) * المراد بالعجز أن لا يقدر على المال الذي يصرفه في الكفارة كمن يجد كفايته وكفاية من تلزمه مؤنته فقط ولا يجد ما يفضل عن ذلك وضابطه ذلك أن من جاز له أن يأخذ سهم الفقراء والمساكين من الزكاة والكفارات جاز له أن يكفر بالصوم لانه فقير في الاخذ فكذا في الاعطاء (ذلك) أي المذكور (كفارة أيمانكم اذا حلفتم) أي وحنثتم (واحفظوا أيمانكم) أي من أن تنكثوها ما لم تكن من فعل بر أو اصلاح بين الناس كما مر في سورة البقرة (كذلك) أي مثل ما بين لكم ماذكر (يبين الله لكم آياته) أي أعلام شريعته (لعلكم تشكرون) أي يحصل منكم شكر بحفظ جميع الحدود الآمرة والناهية (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر) أي المسكر الذي خامر العقل سوء فيه كثيره وقليله (والميسر) أي القمار (والانصاب) أي الاصنام (والازلام) أي قداح الاستقسام (رجس) أي خبيث مستقذر وانما وحد الخبر للنص على الخمر والاعلام بأن اخبار الثلاثة حذفت وقدرت لانها أهل لان يقال في كل واحدة منها على حدتها كذلك ولا يكتفى عنها بخبر واحد على سبيل الجمع ثم زاد في التنفير منها تأكيدا لرجسيتها بقوله تعالى (من عمل الشيطان) الذي يزينه (فاجتنبوه) أي الرجس المعبر به عن هذه الاشياء ان تفعلوه (لعلكم تفلحون) أي تظفرون بجميع مطالبكم واعلم انه سبحانه وتعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بأن صدر الجملة بانما وقرنهما بالاصنام والازلام وسماهما رجسا وجعلهما من عمل الشيطان تنبيها على أن الاشتغال بهما شر خالص أو غالب وامر بالاجتناب عن عينهما وجعل الاجتناب سببا يرجى منه الفلاح ثم قرر ذلك بأن بين ما فيهما من المفاسد الدينية والدنيوية المقتضية للتحريم بقوله تعالى (انما يريد الشيطان) أي بتزيين الشرب والقمار لكم (أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر) أي اذا أتيتموهما لما يحصل فيهما من الشر والفتن أما العداوة في الخمر فان الشارب اذا سكر عربد كما فعل الانصاري الذي شج رأس سعد بن أبي وقاص بلحي الجمل وأما العداوة في الميسر فقال قتادة كان الرجل يقامر على الاهل والمال ثم يبقى

شهادة أعضائهم عليهم كما من يختم على أفواههم كما قال تعالى اليوم نختم على أفواههم الآية وجحدهم بأفواههم قبل أن يختم عليها (قوله فسوف يعلمون) قاله هنا وفي

حزينا مسلوب الاهل والمال مغتاظا على حرفانه (ويصدكم) بالاشتغال بهما (عن ذكر الله وعن الصلوة) وذلك لان من اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن ذكر الله وشوش عليه صلاته كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف تقدم رجل منهم يصلي بهم صلاة المغرب بعد ماشربوا فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد بحذف لا وانما خصهما باعادة الذكر وشرح مافيهما من الوبال تنبيها على أنهما المقصودان بالبيان وذكر الانصاب والازلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة لقوله صلى الله عليه وسلم شارب الخمر كعابد الوثن رواه البزار ورواه ابن حبان بلفظ مدمن الخمر كعابد الوثن قال ويشبه أن يكون فيمن يستحلها وهو كذلك وخص الصلاة بالذكر للافراد بالتعظيم والاشعار بان الصاد عنها كالصاد عن الايمان من حيث انها عماده والفارق بينه وبين الكفر ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ماتقدم من أنواع الصوارف بقوله تعالى (فهل أنتم منتهون) ايذانا بان الامر في المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الاعذار قد انقطعت فلفظه استفهام ومعناه أمر كقوله تعالى فهل أنتم شاكرون (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فيما أمراكم به من اجتناب ذلك (واحذروا) مخالفتهما فيما نهياكم عنه (فان توليتم) أي عن الطاعة (فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين) اي فلا يضره توليكم فانما عليه الابلاغ المبين وقد أدى وانما ضررتم أنفسكم ❊ ولما نزل تحريم الخمر قال الصحابة رضي الله عنهم يارسول الله فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر نزل (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تصديقا لايمانهم (جناح) اي حرج (فيما طعموا) اي من مال الميسر وشربوا من الخمر قبل التحريم (اذا ما اتقوا) اي المحرمات (وآمنوا وعملوا الصالحات) اي ثبتوا على الايمان والاعمال الصالحة (ثم اتقوا) ماحرم عليهم بعد الخمر (وآمنوا) بتحريمه (ثم اتقوا) اي استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي (وأحسنوا) اي وتحروا الاعمال الجميلة واشتغلوا بها وأن التكرير باعتبار الاوقات الثلاثة الماضي والحال والاستقبال التي تقع فيها الافعال المذكورة أو باعتبار الحالات الثلاث استعمال الانسان التقوى والايمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله عز وجل ولاجل استعمال الانسان التقوى بينه وبين الله ابدل الايمان بالاحسان في الكرة الثالثة اشارة الى ماقاله عليه الصلاة والسلام في تفسير الاحسان من قوله الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك أو باعتبار المراتب الثلاثة المبدا والوسط والمنتهى أو باعتبار مايتقى به فانه ينبغي أن يترك المحرمات توقيا من العقاب والشبهات تحرزا للنفس عن الوقوع في الحرام وبعض المباحات صونا لها عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة (والله يحب المحسنين) أي يثيبهم ❊ ونزل عام الحديبية وكانوا محرمين ابتلاهم الله بالصيد فكانت الوحوش تغشى رحالهم فهموا باخذها (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله) أي ليختبرنكم (بشيء) يرسله لكم (من الصيد) وانما بعض لانه ابتلاهم بصيد البر خاصة وفائدة الابتلاء اظهار المطيع من العاصي والا فلا حاجة به الى البلوى (تناله أيديكم) أي مالا يقدر أن يفر من الصيد لصغر أو غيره (ورماحكم) أي مايقدر على الفرار لكبر أو غيره (ليعلم الله) أي علم ظهور

مواضع بالفاء لانه وقع
جوابا للأمر قبله وقال
في أواخر هود بدون فاء
لانه لم يتقدمه أمر فصار
استئنافا أو صفة لعامل
أي اني عامل سوف تعلمون
(قوله بغير علم) ❊ ان قلت

فانه تعالى يعلم ما تخفى الصدور (من يخافه بالغيب) أى ليتميز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر فى الآخرة فيجتنبوا الصيد والمعنى أنه سبحانه وتعالى يخرج بالامتحان ما كان من أفعال العباد فى عالم الغيب الى عالم الشهادة فيصير تعلق العلم به تعلقا شهوديا كما كان تعلقا غيبيا فيقوم بذلك على الفاعل الحجة فى مجارى عاداتكم (فمن اعتدى) اى فاصطاد (بعد ذلك) اى الابتلاء بالصيد (فله عذاب أليم) أى مؤلم وان من لا يملك نفسه فى مثل ذلك ولا يراعى حكم الله فيه فكيف به فيما تكون فيه النفس أميل اليه وأحرص عليه (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم) اى محرمون بحج أو عمرة أو فى الحرم والنهى عما يؤكل لحمه لانه الغالب فيه عرفا وأما غير المأكول فيحل قتله فانه لا حظ للنفس فى قتله الا الاراحة من أذاه ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم خمس يقتلن فى الحل والحرم الحدأة والغراب والعقرب والفأرة والكلب وفى رواية أخرى الحية بدل العقرب مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذ وانما ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم فان مذبوح المحرم ميتة (ومن قتله منكم متعمدا) أى قاصدا للصيد ذاكرا للاحرام ان كان محرما والحرم ان كان فيه عالما بالتحريم وذكر العمد ليس لتقييد وجوب الجزاء فان اتلاف العامد والمخطئ واحد فى ايجاب الضمان بل لقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه ولان الآية نزلت فيمن تعمد اذ روى أنه عن لهم فى عمرة الحديبية حمار وحش فطعنه أبو قتادة برمحه فقتله فنزلت وعن الزهرى نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ وعن سعيد بن جبير لا أرى فى الخطأ شيأ باشتراط العمد فى الآية وعن الحسن روايتان وقوله تعالى (فجزاء) منون فى قراءة عاصم وحمزة والكسائى وما بعده مرفوع اى فعليه جزاء هو (مثل ما قتل من النعم) اى شبهه فى الخلقة لا التساوى فى القيمة وقرأ الباقون بغير تنوين فى جزاء وخفض لام مثل (يحكم به) اى المثل رجلان (ذوا عدل منكم) اى لهما فطنة يميزان بها أشبه الاشياء به فيحكمان به وقد ذهب الى ايجاب المثل جماعة من الصحابة حكموا فى بلدان مختلفة بالمثل من النعم فحكم ابن عباس وعمر وعلى فى النعامة ببدنة وهى لا تساوى بدنة وعمر فى الضبع بكبش وهو لا يساوى كبشا وابن عباس وأبو عبيدة فى بقر الوحش وحماره ببقرة وابن عمر وابن عوف فى الظبى بشاة وحكم بها ابن عباس وعمر وغيرهما فى الحمام لانه يشبهها فى العب والحمام كل ما عب وهدر من الطير كالفواخت والقمرى والدبسى فدل ذلك على أنهم ينظرون الى ما يقرب من الصيد شبها من حيث الخلقة لا من حيث القيمة وقوله (هديا) حال من جزاء وقوله تعالى (بالغ الكعبة) اى يبلغ به الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه ولا يجوز أن يذبح حيث كان وهو نعت لما قبله وان أضيف الى معرفة لان اضافته لفظية لا تفيد تعريفا فان لم يكن للصيد مثل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته (أو) عليه (كفارة طعام مساكين) فى الحرم من غالب قوت البلد عما يساوى قيمة الجزاء لكل مسكين مد وقرأ نافع وابن عامر كفارة بغير تنوين وخفض ميم طعام والباقون بالتنوين ورفع ميم طعام أى هى طعام (أو) عليه (عدل) أى مثل (ذلك) أى الطعام (صياما) يصومه فى كل موضع يتيسر له عن كل مد يوما فأو للتخيير لانه الاصل فيها قال البقاعى والقول بانها للترتيب يحتاج الى دليل

ما فائدته بعد قوله سفها مع ان السفه لا يكون الا بغير علم (قلت) معنى قوله بغير علم بغير حجة (قوله وما كانوا مهتدين) فائدته بعد قوله قد ضلوا انهم بعد ما ضلوا لم يهتدوا مرة

وقوله

وقوله تعالى (ليذوق وبال أمره) متعلق بمحذوف أى فعليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الاحرام والوبال المكروه والضرر الذى يناله فى العاقبة من عمل سوء لثقله عليه من قوله تعالى فأخذناه أخذا وبيلا أى ثقيلا والطعام الوبيل الذى يثقل على المعدة ولا يستمرئ (عفا الله عما سلف) اى من قتل الصيد قبل تحريمه فلا يؤاخذكم به (ومن عاد) الى تعمد شئ من ذلك بعد النهى وقوله تعالى (فينتقم الله منه) خبر مبتدا محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ولذلك دخلت الفاء ونحو ذلك قوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا اى ينتقم الله تعالى منه فى الآخرة واذا تكرر من المحرم قتل الصيد تعددت عليه الكفارة عند عامة العلماء وعن ابن عباس وشريح لا كفارة عليه تعلقا بظاهر الآية فانه لم يذكر الكفارة فالالانتقام من العائد يمنع وجوب الكفارة (والله) الذى له صفات الكمال (عزيز) اى غالب على أمره (ذو انتقام) اى ممن أصر على عصيانه ❁ ولما كان هذا عاما فى كل صيد بين تعالى أنه خاص بصيد البر فقال (أحل لكم) أيها الناس حلالا كنتم أو محرمين (صيد البحر) اى ما صيد منه وهو ما لا يعيش الا فى الماء كالسمك بخلاف ما يعيش فيه وفى البر عند الشافعى رحمه الله تعالى وذهب قوم الى أن جميع ما فى البحر حلال وظاهر الآية حجة له وعند أبى حنيفة رحمه الله تعالى لا يحل منه الا السمك وقوله تعالى (وطعامه) عطف على صيد البحر اى وأحل لكم طعام البحر وهو ما يقذفه من السمك ميتا قال صلى الله عليه وسلم فى البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته رواه أبو داود والترمذى وغيرهما وصححوه وقال قتادة صيده طريه وطعامه مالحه وقيل الضمير للصيد وطعامه أكله وعلى هذا فالصيد بمعنى الاصطياد والمعنى أحل لكم اصطياد الصيد وأكل المصيد من الانهار والبرك وغيرهما من جميع المياه كالبحر وقوله تعالى (متاعا) مفعول اى أحل (لكم) تمتيعا لكم تأكلونه طريا (وللسيارة) اى المسافرين منكم يتزودونه قديدا كما تزود موسى صلى الله عليه وسلم فى مسيره الى الخضر الحوت (وحرم عليكم صيد البر) اى اصطياده وأكل ما صيد منه لكم وهو ما لا يعيش الا فيه وما يعيش فيه وفى البحر فان صيد الحلال حل للمحرم أكله لقوله صلى الله عليه وسلم لحم الصيد حلال لكم ما لم تصطادوه أو يصد لكم (ما دمتم حرما) أى محرمين وقد ذكر تعالى تحريم الصيد على المحرم فى ثلاثة مواضع من هذه السورة قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم الى قوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا وقوله تعالى لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم وقوله تعالى وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما تشديدا على المحرم أنه لا يتعاطى ذلك وأكد ذلك بقوله تعالى (واتقوا الله) أى فى ذلك الاصطياد وغيره (الذى اليه تحشرون) فانه مجازيكم بأعمالكم (جعل الله الكعبة) أى صيرها وسمى البيت كعبة لتكعبه أى تربعه وقال مجاهد سميت كعبة لترفعها والعرب تسمى كل بيت مرتفع كعبة وقال مقاتل سميت كعبة لانفرادها من البناء وقوله تعالى (البيت الحرام) أى المحترم عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح كما تجئ الصفة كذلك (قياما للناس) أى يقوم به أمر دينهم بالحج أو العمرة اليه ودنياهم بأمن داخله وعدم التعرض له وجبى ثمرات كل شئ اليه قال الرازى والمراد بعض الناس وهم العرب وانما حسن هذا المجاز لان أهل كل بلد اذا قالوا الناس فعلوا كذا وصنعوا كذا فهم لا يريدون الا أهل بلدتهم فلهذا السبب خوطبوا

(قوله اذا أثمر) ❁ أخرى (قوله اذا أثمر) ان قلت ما فائدة ذكره بعد قوله كلوا من ثمره مع انه معلوم انه انما يؤكل من ثمره اذا أثمر (قلت) فائدته نفى توهم توقف اباحة أكله على بدو صلاحه (قوله

بهذا الخطاب على وفق عادتهم وقرأ ابن عامر قيما بغير ألف مصدر قام غير معل والباقون بالالف (والشهر الحرام) أى الاشهر الحرم وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب أى صير الاشهر الحرم قياما للناس يأمنون فيها من القتال (والهدى) أى الذى لم يقلد (والقلائد) أى الهدى الذى يقلد فيذبح ويقسم على الفقراء ومر الكلام عليه فى أول السورة (ذلك) أى الجعل المذكور وهو الاربعة الاشياء التى جعلها الله قياما للناس (لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض) فان شرع الاحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها دليل على علمه بما فى الوجود وما هو كائن وقوله تعالى (وأن الله بكل شئ عليم) تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد اطلاق وقوله تعالى (اعلموا أن الله شديد العقاب) فيه وعيد لاعدائه ممن انتهك محارمه وقوله تعالى (وان الله غفور) فيه وعد لاوليائه ممن حافظ عليها (رحيم) بهم وقوله تعالى (ما على الرسول الا البلاغ) فيه تشديد على ايجاب القيام بما أمر به وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم فى التفريط (والله يعلم ما تبدون) اى تظهرون من العمل (وما تكتمون) اى تخفون منه فيجازيكم به وقوله تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب) حكم عام فى نفى المساواة عند الله تعالى بين الردىء من الاشخاص والاعمال والاموال وجيدها رغب به فى صالح العمل وحلال المال (ولو أعجبك كثرة الخبيث) اذ لا عبرة بالقلة والكثرة بل بالجودة والرداءة فان المحمود القليل خير من المذموم الكثير والخطاب لكل معتبر ولذلك قال تعالى (فاتقوا الله) اى فى ترك الخبيث وان كثر فى الحس لنقصه فى المعنى وآثروا الطيب وان قل فى الحس لكثرته فى المعنى (يا أولى الالباب) اى أصحاب العقول السليمة (لعلكم تفلحون) اى لتكونوا على رجاء من أن تفوزوا بجميع المطالب ونزل لما أكثروا سؤاله صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد) اى تظهر (لكم تسؤكم) اى لما فيها من المشقة فقيل سبب نزولها ما فى الصحيحين عن أنس رضى الله تعالى عنه انهم لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه المسئلة أى بالغوا فى السؤال فغضب وصعد المنبر وقال لا تسألونى اليوم من شئ الا بينته لكم وشرع يكرر ذلك واذا رجل كان اذا لاحى الرجال يدعى لغير أبيه فقال يا رسول الله من أبى فقال حذافة فقال عمر رضى الله تعالى عنه رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا نعوذ بالله من الفتن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيت فى الخير والشر كاليوم قط انه قد صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط فى آخره فنزلت هذه الآية وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال يا رسول الله انا حديث عهد بجاهلية اعف عنا يعف الله عنك فسكن غضبه وللبخارى فى التفسير عن أنس أيضا قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبى قال فلان فنزلت هذه الآية وللبخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل من أبى ويقول الرجل تضل ناقته

قل لا أجد فيما أوحى الى محرما) الآية أى لا أجد فيه محرما مما كانوا يحرمونه فى الجاهلية الا ان يكون ميتة الى آخره والا ففى القرآن تحريم أشياء أخر غير ذلك كالربا وأكل مال

أين ناقتي فأنزل الله فيهم هذه الآية وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب ذات يوم وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يعنيهم فقال صلى الله عليه وسلم لا أسأل عن شيء الا وأجيب فقال رجل أين أنا قال في النار وقال آخر من أبي قال حذافة وكان يدعى لغيره فنزلت هذه الآية وقيل غير ذلك ولا تعارض بين هذه الاخبار ولو تعددت وردها الى شيء واحد ان الامر عند قوله تعالى لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم من أن الامر الواحد قد تتعدد أسبابه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما ولما كان ربما وقع في وهم متعنت ان هذا الزجر انما هو لقصد راحة المسؤول عن السؤال خوفا من عواقبه قال تعالى (وان تسألوا عنها) أي تلك الاشياء التي تتوقع مساءتكم عند ابدائها (حين ينزل القرآن تبد لكم) المعنى اذا سألتم عن أشياء في زمنه صلى الله عليه وسلم ينزل القرآن بابدائها ومتى أبداها ساءتكم فلا تسألوا روي انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى قد فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي وقوله تعالى (عفا الله عنها) استئناف أي عفا الله عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا الى مسألتها أو صفة أخرى أي عن أشياء عفا الله عنها ولا يكلف بها روي انه لما نزل ولله على الناس حج البيت قال سراقة بن مالك أكل عام فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد ثلاثا فقال لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم فاتركوني ما تركتكم فانما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بامر فخذوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه (والله غفور) يمحو الزلات عينا وأثرا ويعقبها بالاكرام (حليم) لا يعجل على العاصي بالعقوبة وقوله تعالى (قد سألها قوم) الضمير فيه للمسألة التي دل عليها لا تسألوا ولذلك لم يعد بعن أو الاشياء بحذف الجار وقوله تعالى (من قبلكم) قال البيضاوي متعلق بسألها وليس صفة لقوم فان ظرف الزمان لا يكون صفة لجثة ولا حالا منها ولا خبرا عنها اهـ قال أبو حيان هذا محله في ظرف الزمان المجرد من الوصف أما اذا لم يتجرد عنه فيصح أن يكون صفة للجثة أو حالا منها أو خبرا عنها وقبل وبعد وصفان في الاصل فاذا قلت جاء زيد قبل عمرو فالمعنى جاء في زمان قبل زمان مجيئه أي تقدم عليه ولذا صح وقوعه صلة للموصول ولو لم يلحظ فيه الوصف ولو كان ظرف زمان مجردا لم يجز أن يقع صلة قال تعالى والذين من قبلكم ولا يجوز والذين اليوم وممن سألها قبلهم ثمود سألوا صالحا الناقة وسأل قوم عيسى المائدة (ثم أصبحوا) أي صاروا (بها) أي بسببها (كافرين) حيث لم يأتمروا بما سألوا بجحودها وقوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) رد وانكار لما ابتدعته أهل الجاهلية روي ان أهل الجاهلية كانوا اذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وتركوا الحمل عليها وركوبها ولم يجزوا وبرها ولم يمنعوها الماء والكلأ وقيل انهم كانوا ينظرون الى خامس ولدها فان كان ذكرا نحروه فأكله الرجال والنساء وان كان أنثى بحروا أذنها أي شقوها وتركوها وحرم على النساء لبنها ومنافعها وكانت منافعها خاصة للرجال واذا ماتت حلت للرجال والنساء وأما السائبة فكان الرجل منهم يقول ان

البنائي ومال الغير بالباطل (قوله فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) ان قلت كيف قال في الجواب ذلك مع ان المحل محل عقوبة فكان الانسب ان يقال فقل ربكم ذو عقوبة

شفيت أو رجع غائبي فناقتي سائبة ثم يسيبها فلا تحبس عن مرعى ولا ماء ولا تركب ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها وقيل كانت الناقة اذا تابعت ثنتي عشرة سنة اناثا سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف فان نتجت بعد ذلك انثى شق اذنها ثم خلى سبيلها مع امها في الابل فلم تركب ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا الضيف كما فعل بامها فهي البحيرة بنت السائبة وأما الوصيلة فمن الغنم كانت اذا ولدت سبعة أبطن تطرفان كان السابع ذكرا ذبحوه فأكل منه الرجال والنساء وان كانت أنثى تركوها في الغنم وقيل اذا ولدت انثى فهي لهم وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم فان ولدت ذكرا وانثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم وكان لبن الانثى حراما على النساء فان مات منها شيء أكله الرجال والنساء جميعا وأما الحام فهو الفحل اذا ركب ولد ولده ويقال اذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى واذا مات أكله الرجال والنساء وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأكثم الخزاعي يا أكثم رأيت عمرو ابن لحي يجر قصبه في النار فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا به منك وذلك انه اول من غير دين اسمعيل ونصب الاوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي ولقد رأيته في النار يؤذي اهل النار بريح قصبه فقال اكثم أيضرني شبهه يا رسول الله قال لا انك مؤمن وهو كافر ومعنى ما جعل الله اي ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير ولا التسييب ولا غير ذلك (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) في قولهم ان الله أمرنا بها (وأكثرهم لا يعقلون) ان ذلك افتراء لانهم قلدوا فيه آباءهم كما قال تعالى (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا) اي كافينا (ما وجدنا عليه آباءنا) اذ لا مستند لهم سوى ذلك قال الله تعالى (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) اي الى الحق والاستفهام للانكار اي احسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين وقرأ هشام والكسائي قيل بضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر (يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم) اي احفظوها والزموا اصلاحها (لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) اي لا يضركم الضال اذا كنتم مهتدين ومن الاهتداء ان ينكر المنكر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام من رأى منكرا واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وروى عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه قال يا أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هي واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك ان يعمهم الله بعذابه وفي رواية لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون الله خياركم فلا يستجاب لهم قال ابو عبيدة خاف الصديق رضي الله عنه ان يتأول الناس الآية غير متأولها فيدعوهم الى ترك الامر بالمعروف فاعلمهم انها ليست كذلك قال ابو ثعلبة الخشني سألت عن هذه الآية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيه ورأيت الامر لا بد لك منه فعليك نفسك ودع امر العامة وان وراءكم أيام الصبر فمن صبر

شديدة (قلت) انما قال ذلك نفيا للاغترار بسعة رحمته في الاجتراء على معصيته وذلك ابلغ في التهديد معناه لا تغتروا بسعة رحمته فانه مع ذلك لا يرد عذابه عنكم

فيهن قبض على الجمر وان وراءكم أياما العامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله قال ابن المبارك وزادني غيره قال يارسول الله أجر خمسين منهم قال اجر خمسين منكم وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية قرئت عنده فقال ان هذا ليس بزمانها انها اليوم مقبولة ولكن يوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم فهي على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه وبسط لعذره وعنه ليس هذا زمان تأويلها قيل فمتى قال اذا سال دونهم السيف والسوط والحبس وروى المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا فان لو تفتح عمل الشيطان ولكن قل قدر الله وما شاء فعل وقيل كان الرجل اذا أسلم قالوا له سفهت آباءك ولاموه فنزلت عليكم أنفسكم وعليكم من اسماء الفعل بمعنى الزموا أنفسكم ولذلك نصب أنفسكم (الى الله مرجعكم جميعا) الضال والمهتدي (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم به وفي ذلك وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بذنب أحد غيره (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) أي فيما أمرتم شهادة بينكم فشهادة مبتدأ خبره محذوف قيل هذه الآية وما بعدها من أشكل آي القرآن حكما واعرابا وتفسيرا والمراد بالشهادة الاشهاد بالوصية وقيل المراد بها اليمين بمعنى يمين ما بينكم أن يحلف اثنان قال القرطبي ورد لفظ الشهادة في القرآن على أنواع مختلفة بمعنى الحضور قال تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه وبمعنى قضى قال تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو وبمعنى أقر قال تعالى والملائكة يشهدون وبمعنى حكم قال تعالى وشهد شاهد من اهلها وبمعنى حلف قال تعالى فشهادة أحدهم اربع شهادات وبمعنى وصى قال تعالى يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم (اذا حضر أحدكم الموت) اى اسبابه (حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) وهذا خبر بمعنى الامر أي ليشهد واضافة شهادة لبين على الاتساع وحين بدل من اذا أو ظرف لحضر واثنان فاعل شهادة أو خبر مبتدأ محذوف أي الشاهدان اثنان وقوله تعالى (أو آخران من غيركم) عطف على اثنان ومن فسر الغير باهل الذمة جعله منسوخا فان شهادته على المسلم لا تسمع اجماعا وقد اتفق الاكثرون على انه لا نسخ في سورة المائدة وعن مكحول نسخها قوله تعالى وأشهدوا ذوي عدل منكم وانما جازت في أول الاسلام لقلة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر (ان أنتم ضربتم) أي سافرتم (في الارض فأصابتكم مصيبة الموت) أي قاربتم الاجل وقوله تعالى (تحبسونهما) اى توقفونهما وتصبرونهما صفة لآخران (من بعد الصلوة) أي صلاة العصر لانه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار وقيل اى صلاة كانت (فيقسمان) أي يحلفان (بالله) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليمين انما تكون اذا كانا من غيرنا فان كانا مسلمين فلا يمين وعن غيره ان كان الشاهدان على حقيقتهما فقد نسخ تحليفهما وان كانا الوصيين فلا ثم شرط لهذا الحلف شرطا فقال اعتراضا بين القسم والمقسم عليه (ان ارتبتم) أي شككتم فيما أخبرا به عن الواقعة ثم ذكر المقسم عليه بقوله (لا نشتري به ثمنا) أي بهذا الذي ذكرناه ثمنا أي لم نذكره ليحصل لنا به غرض دنيوي وان كان في نهاية الجلالة وليس قصدنا به الا اقامة الحق (ولو كان

(قوله سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) قال ذلك هنا وقال في النحل وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه الآية بزيادة من

أى المقسم له (ذا قربى) أى لنا (ولا نكتم شهادة الله) أى التى أمرنا باقامتها (انا اذا) أى اذا كتمناها (لمن الآثمين فان عثر) أى اطلع بعد حلفهما (على أنهما استحقا اثما) اى فعلا ما اوجبه من خيانة أو كذب فى الشهادة بان وجد عندهما مثلا ما اتهما به وادعيا أنهما ابتاعاه من الميت أو وصى لهما به (فآخران) اى فشاهدان آخران (يقومان مقامهما) اى فى توجيه اليمين عليهما (من الذين استحق عليهم) الوصية وهم الورثة على قراءة غير حفص بضم التاء وكسر الحاء على البناء للمفعول وعلى البناء للفاعل فهو الاوليان ويبدل من آخران (الاوليان) بالميت أى الاقربان اليه وقرأ حمزة وشعبة بتشديد الواو وكسر اللام وبسكون الياء وفتح النون على الجمع على أنه صفة للذين أو بدل منه أى من الاولين الذين استحق عليهم والباقون بسكون الواو وفتح اللام والياء وألف بعد الياء وكسر النون على التثنية على انه بدل من آخران كما مر أو خبر محذوف أى هما الاوليان (فيقسمان) أى هذان الآخران (بالله) ويقولان (لشهادتنا) أى يميننا (أحق) اى اصدق (من شهادتهما) اى يمينهما (وما اعتدينا) أى تجاوزنا الحق فى اليمين (انا اذا) اى اذا وقع منا اعتداء (لمن الظالمين) أى الواضعين الشئ فى غير موضعه ● ومعنى الآيتين أن المحتضر اذا أراد الوصية ينبغى أن يشهد عدلين من ذوى نسبه أو دينه على وصيته أو يوصى اليهما احتياطا فان لم يجدهما بان كان فى سفر فآخران من غيرهم ثم ان وقع نزاع وارتياب أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ فى الوقت فان اطلع على انهما كذبا بامارة أو مظنة حلف آخران من أولياء الميت والحكم منسوخ ان كان الاثنان شاهدين فان الشاهد لا يحلف ولا تعارض يمينه بيمين الوارث وثابت ان كانا وصيين ورد اليمين الى الورثة اما لظهور خيانة الوصيين فان تصديق الوصى باليمين لامانته أو لتغيير الدعوى وتخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة التى نزلت لها وهى ما روى أن رجلا من بنى سهم خرج مع تميم الدارى وعدى بن بداء الى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما فلما قدموا الشام مرض بديل فدوّن ما معه فى صحيفة وطرحها فى متاعه ولم يخبرهما بها وأوصى اليهما بان يدفعا متاعه الى أهله ومات ففتشاه واخذا منه اناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشا بالذهب ثم قضيا حاجتهما وانصرفا الى المدينة ودفعا المتاع الى أهل الميت ففتشوا فأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه فجاؤا تميما وعديا فقالوا هل باع صاحبنا شيأ قالا لا قالوا هل اتجر تجارة قالا لا قالوا فهل طال مرضه فانفق على نفسه قالا لا قالوا فانا وجدنا فى متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه وانا فقدنا منها اناء من فضة مموها بالذهب ثلثمائة مثقال قالا ماندرى انما أوصى لنا بشئ وأمرنا ان ندفعه لكم فقد دفعناه وما لنا علم بالاناء فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصرا على الانكار وحلفا فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا الآية فلما نزلت هذه الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا تميما وعديا فاستحلفهما عند المنبر بالله الذى لا اله الا هو انهما لم يختانا شيأ مما دفع اليهما فحلفا على ذلك وخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما ثم وجد الاناء فى أيديهما فبلغ ذلك بنى سهم فأتوهما فى ذلك فقالا انا كنا قد اشتريناه منه فقالوا ألم تزعما ان صاحبنا لم يبع شيأ من متاعه

دونه مرتين وهن لان الاشراك يدل على اثبات شريك لا يجوز اثباته وعلى تحريم اشياء من دون الله فلم يحتج الى من دونه فحذف وتبعه فى الحذف نحن طردا للتخفيف بخلاف

قالا لم يكن عندنا بينة وكرهنا أن نغرلكم فكتمنا ذلك فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فان عثر فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي رفاعة السهميان وحلفا وتقدم ان تخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة التى نزلت لها (ذلك) أى الحكم المذكور من رد اليمين على الورثة (ادنى) اى أقرب (أن) اى الى أن (يأتوا) اى الذين شهدوا اولا (بالشهادة) اى الواقعة فى نفس الامر (على وجهها) اى الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة (او) أقرب الى ان (يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) اى على الورثة المدعين فيحلفون على خيانتهم وكذبهم فيفتضحون ويغرمون فلا يكذبوا وانما جمع الضمير لانه حكم يعم الشهود كلهم (واتقوا الله) بترك الخيانة والكذب (واسمعوا) ما تؤمرون به سماع قبول (والله لا يهدى القوم الفاسقين) اى الخارجين عن طاعته لا يهديهم الى حجة أو الى طريق الجنة * وقوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل) اى يوم القيامة منصوب باضمار اذكر وقيل بدل من مفعول واتقوا بدل اشتمال (فيقول) لهم توبيخا لقومهم كما أن سؤال الموؤدة لتوبيخ الوائد (ماذا) اى الذى (اجبتم) به حين دعوتم الى التوحيد (قالوا لا علم لنا) اى لا علم لنا بما انت تعلمه (انك انت علام الغيوب) فتعلم ما اجابونا وأظهروا لنا وما لم نعلم مما اضمروا فى قلوبهم وقوله تعالى (اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك) اى اشكرها منصوب باضمار اذكر وقيل بدل من يوم يجمع وهو على طريقة ونادى أصحاب الجنة والمعنى انه تعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن اجابتهم وتعديد ما ظهر على ايديهم من الآيات فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة وقوله تعالى (اذ أيدتك) اى قويتك ظرف لنعمتى أو حال منه (بروح القدس) اى جبريل عليه السلام فكان له فى الصغر حفظ لم يكن لغيره وقوله تعالى (تكلم الناس) حال من الكاف فى أيدتك (فى المهد) اى طفلا (وكهلا) اى تكلمهم فى الطفولية والكهولة على السواء والمعنى الحاق حاله فى الطفولية بحال الكهول فى كمال العقل والتكلم به وبه استدل على انه ينزل قبل الساعة لانه رفع قبل الكهولة كما سبق فى آل عمران (واذ علمتك الكتاب) اى الخط الذى هو مبدأ العلم (والحكمة) اى الفهم لحقائق الاشياء والعمل بما يدعو اليه العلم (والتوراة) اى المنزلة على موسى صلى الله عليه وسلم (والانجيل) اى المنزل عليك (واذ تخلق من الطين) اى هذا الجنس (كهيئة) اى كصورة (الطير) والكاف اسم بمعنى مثل مفعول (باذنى) أى بامرى (فتنفخ فيها) أى فى الصورة المهيأة (فتكون) تلك الصورة التى هيأتها (طيرا باذنى) اى بارادتى وقرأ نافع بالمد بعد الطاء وبعد الالف همزة مكسورة وورش يرقق الراء على اصله والباقون بياء ساكنة بعد الطاء (وتبرئ الاكمه والابرص باذنى) وسبق تفسيرهما فى سورة آل عمران (واذ تخرج الموتى) اى من قبورهم احياء (باذنى واذ كففت بنى اسرائيل) اى اليهود (عنك) اى حين هموا بقتلك وقوله تعالى (اذ جئتهم) ظرف لكففت (بالبينات) اى المعجزات (فقال الذين كفروا منهم ان) اى ما (هذا) الذى جئت به (الا سحر مبين) اى بين ظاهر وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين والف بعدها وكسر الحاء اشارة الى عيسى عليه السلام والباقون بكسر السين وسكون الحاء ولا ألف بعدها اشارة الى ما جاء به (واذ أوحيت) اى بالالهام باطنا

العبادة فانها غيره تذكرة واما المستكبر عبادة شئ مع الله ولا يدل الفعلها على تحريم شئ كما دل عليه أشركنا ولم يكن بدمن تقييده بقوله من دونه وناسب استيفاء الكلام فيه زيادة فهن وظاهرات

وبايصال الاوامر على لسانك ظاهرا (الى الحواريين) أى الانصار (أن) أى بان (آمنوا بى وبرسولى) عيسى صلى الله عليه وسلم (قالوا آمنا) بهما (واشهد باننا مسلمون) أى منقادون أتم انقياد وقوله تعالى (اذ قال الحواريون) منصوب باذكر وقيل ظرف لقالوا فيكون تنبيها على أن ادعاءهم الاخلاص مع قولهم (يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك) قرأ الكسائى بالتاء على الخطاب وادغام لام هل فيها على أصله وفتح الباء الموحدة من ربك أى هل تستطيع ربك أى سؤال ربك والمعنى هل تسأل ذلك من غير صارف وقرأ الباقون بالياء على الغيبة ورفع الباء أى يجيبك ربك اذا سألته (أن ينزل علينا مائدة) وهى الطعام ويقال أيضا للخوان اذا كان عليه الطعام والخوان شئ يوضع عليه الطعام للاكل هو فى العموم بمنزلة السفرة لما يوضع فيه طعام المسافر بالخصوص وقال أهل الكوفة سميت مائدة لانها تميد بالآكلين أى تميل وقال أهل البصرة فاعلة بمعنى مفعولة أى تميد أيدى الآكلين اليها كقولهم عيشة راضية أى مرضية وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى وقولهم (من السماء) أى لا صنع للآدميين فيها لتختص بها عمن تقدمها من الامم لم يكن بعد عن تحقيق واستحكام معرفة (قال) عيسى عليه الصلاة والسلام مجيبا لهم (اتقوا الله) أن تسألوه شيئا لم تسأله الامم من قبلكم (ان كنتم مؤمنين) بكمال قدرته تعالى وصحة نبوتى وصدقكم فى ادعائكم الايمان فنهاهم عن اقتراح الآيات بعد الايمان (قالوا نريد) اى بسؤالنا من اجل (ان نأكل منها) تبركا لا أكل حاجة وقولهم (وتطمئن) أى تسكن (قلوبنا) بانضمام علم المشاهدة الى علم الاستدلال بكمال قدرته بيان لما دعاهم الى السؤال وتمهيد عذرهم وقولهم (ونعلم) أى نزداد علما (أن) مخففة أى انك (قد صدقتنا) فى ادعاء النبوة وان الله يجيب دعوتنا وقيل ان عيسى عليه السلام امرهم ان يصوموا ثلاثين يوما فاذا افطروا لا يسألون الله شيئا الا اعطاهم ففعلوا وسألوا المائدة وقالوا ونعلم أن قد صدقتنا فى قولك أنا اذا صمنا ثلاثين يوما لا نسأل الله تعالى شيئا الا أعطانا (ونكون عليها من الشاهدين) اذا استشهدتنا أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر (قال عيسى ابن مريم) لما رأى أن لهم غرضا صحيحا فى ذلك وأنهم لا يقلعون عنه فاراد الزامهم الحجة بكمالها (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة) وحقق موضع الانزال بقوله (من السماء تكون) هى أو يوم نزولها (لنا عيدا) نعظمه ونشرفه وقال سفيان نصلى فيه وروى انها نزلت يوم الاحد فلذلك اتخذه النصارى عيدا وقيل ان عيسى عليه السلام اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ رأسه وغض بصره وبكى ثم قال اللهم ربنا الخ وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمى يوم العيد عيدا وقوله (لاولنا وآخرنا) بدل من لنا باعادة العامل اى عيدا لاهل زماننا ولمن جاء بعدنا وقال ابن عباس يأكل منها آخر الناس كما يأكل اولهم وقوله (وآية) عطف على عيدا وقوله (منك) صفة لها اى آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى (وارزقنا) المائدة والشكر عليها (وأنت خير الرازقين) اى من يرزق لانه تعالى خالق الرزق ومعطيه بلا غرض (قال الله) تبارك وتعالى مجيبا لعيسى عليه السلام (انى منزلها عليكم) اى المائدة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (فمن يكفر بعد) اى بعد

ذكر التصريح فى آية لو شاء الله ما أشركنا تصريح بما أفاده أشركنا (قوله من املاق نحن نرزقكم واياهم) قال فى سبحان ذلك هنا وقال نحن نرزقهم خشية املاق فقدم هنا المخاطبين واياكم

نزولها

نزولها (منكم فانى أعذبه عذابا) اى تعذيبا أو مفعولا به على السعة والضمير فى (لا أعذبه) للمصدر ولو اريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء (أحدا من العالمين) أى عالمى زمانهم أو العالمين مطلقا فانهم مسخوا قردة وخنازير ولم يعذب بمثل ذلك غيرهم قال عبد الله بن عمران أشد الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من اصحاب المائدة وقوم فرعون واختلف العلماء هل نزلت المائدة أولا فقال مجاهد والحسن لم تنزل فان الله تعالى لما أوعدهم على كفرهم بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لا نريدها فلم تنزل وقوله تعالى انى منزلها عليكم اى ان سألتم والصحيح الذى عليه الاكثرون أنها نزلت لقوله تعالى انى منزلها عليكم ولتواتر الاخبار فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فى صفتها فقال عطاء بن أبى رباح عن سلمان الفارسى لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى عليه السلام مسحا وبكى وقال اللهم ربنا أنزل علينا مائدة الآية فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون اليها وهى منقضة حتى سقطت بين ايديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة فقام فتوضأ وصلى وكشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية بلا فلوس أى بلا قشر كالفلوس ولا شوك تسيل دهنا وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون الصفار وهو رأس الحواريين يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة فقال ليس شيأ مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شئ اخترعه الله تعالى بقدرته كلوا مما سألتم واشكروا يمددكم و يزدكم من فضله فقال يا روح الله كن أول من يأكل منها فقال معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا ان يأكلوا منها فدعا أهل الفاقة والمرض وأهل البرص والجذام والمقعدين وقال كلوا من رزق الله لكم الهناء ولغيركم البلاء فأكلوا وصدروا عنها وهم ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير وزمن ومريض ومبتلى كلهم شبعان والسمكة كهيئتها حين نزلت ثم طارت المائدة صعودا وهم ينظرون اليها حتى توارت فلم يأكل منها زمن ولا مريض ولا مبتلى الا عوفى ولا فقير الا استغنى وندم من لم يأكل فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى فاذا نزلت اجتمعت الاغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى اذا فاء الفئ أى زالت الشمس طارت وهم ينظرون فى ظلها حتى توارت عنهم وكانت تنزل غبا تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة ثمود وقال قتادة كانت تنزل عليهم بكرة وعشيا حيث كانوا كالمن والسلوى لبنى اسرائيل وقال وهب بن منبه أنزل الله تعالى أقراصا من شعير وحيتانا فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجئ آخرون فيأكلون حتى أكلوا جميعهم وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شئ وقال الكلبى كان عليها خبز أرز وبقل وقال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس أنزل على المائدة كل شئ الا الخبز واللحم وقال كعب الاحبار نزلت منكسة تطير بها الملائكة بين السماء والارض عليها كل الطعام ويمكن الجمع بين هذه الروايات بانها كانت

على الفائتين وعكس ثم
لان ظاهر قوله هنا من
املاق أى فقر ان الاملاق
حاصل للوالدين المخاطبين
لا توقعه فبدئ بهم وظاهر
قوله ثم خشية املاق ان

تنزل تارة كذا وتارة كذا وقيل لما نزلت قالوا يا رسول الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال يا سمكة احيي باذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا بعدها فمسخوا فمسخ منهم ثلثمائة وثلاثون رجلا من ليلتهم على فراشهم مع نسائهم فاصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات يأكلون العذرة في الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى وبكوا فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطوف بعيسى وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برؤسهم ويبكون ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا وفي حديث أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما فامروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا فمسخوا قردة وخنازير (و) اذكر (اذ قال الله) أي يقول لعيسى في القيامة توبيخا لقومه واتباعهم بالماضي لتحقق وقوعه كقوله تعالى أتى أمر الله (ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله) أي غيره وقال السدي قال الله هذا القول لعيسى حين رفعه الى السماء لان حرف اذ يكون للماضي وسائر المفسرين على الاول وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية وأدخل ألفا بينهما قالون وأبو عمرو وورش وابن كثير لم يدخلا ألفا بينهما والباقون بتحقيق الهمزتين ولا ألف بينهما وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص أمي بفتح الياء والباقون بالسكون (فان قيل) ما وجه هذا السؤال مع علم الله عز وجل ان عيسى عليه السلام لم يقله (أجيب) بانه ذكر لتوبيخ قومه كما مر ولتعظيم أمر هذه المقالة كما يقول القائل لآخر أفعلت كذا وكذا فيما يعلم أنه لم يفعله اعلاما واستعظاما لا استخبارا واستفهاما وأيضا أراد الله عز وجل أن يقر عيسى على نفسه بالعبودية فيسمع قومه ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك قال أبو روق اذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب ارتعدت فرائصه ومفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة من جسده عين من دم ثم (قال) وهو يرعد مجيبا لله (سبحانك) أي أنزهك من أن يكون لك شريك (ما يكون) أي ما ينبغي (لي أن أقول ما ليس لي بحق) خبر ليس ولي للتبيين وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو لي الاولى بفتح الياء والباقون بالسكون (ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما) أخفيه (في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) أي ما أخفيته عني من الاشياء وقوله في نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس الذات وقوله (انك أنت علام الغيوب) تقرير للجملتين باعتبار منطوق انك أنت علام الغيوب ومفهومه لانه يدل بمنطوقه على أنه تعالى لا يعلم الغيب غيره فيكون تقريرا لقوله تعالى ولا أعلم ما في نفسك وقرأ حمزة وشعبة بكسر الغين والباقون بالضم (ما قلت لهم الا ما أمرتني به) وهو (أن اعبدوا الله ربي وربكم) أي فانا واياهم في العبودية سواء (وكنت عليهم شهيدا) أي رقيبا أمنعهم عما يقولون (ما دمت فيهم فلما توفيتني) بالرفع الى السماء لقوله تعالى اني متوفيك ورافعك الي والتوفي أخذ الشئ وافيا والموت نوع منه قال الله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها (كنت أنت الرقيب) اي الحفيظ (عليهم) أي لاعمالهم (وأنت على كل شئ) من قولي وقولهم وغير ذلك (شهيد) أي مطلع عالم به (ان تعذبهم) اي من اقام على الكفر منهم (فانهم عبادك) وأنت مالكهم تتصرف فيهم

الاملاق متوقع بهم وهم موسرون فبدئ بالاولاد فاهنا بقيد النهي للآباء من قتل الاولاد وان تلبسوا بالفقر وما هنالك بقيده وان تلبسوا ابالبصر (قوله واذا قلتم فاعدلوا)

بكيف

كيف شئت لا اعتراض عليك (وان تغفر لهم) أى لمن آمن منهم (فانك أنت العزيز) اى الغالب على أمره (الحكيم) فى صنعه فان عذبت فعدل وان عفوت ففضل (قال الله) تعالى (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) أى فى الدنيا كعيسى فان النافع ما كان حال التكليف لا صدقهم فى الآخرة وقرأ نافع بنصب اليم على انه ظرف لقال وخبر هذا محذوف والمعنى هذا الذى من كلام عيسى عليه السلام واقع يوم ينفع والباقون بالرفع على الخبر وقيل أراد بالصادقين النبيين وقال الكلبى ينفع المؤمنين ايمانهم وقال قتادة متكلمان يخطبان يوم القيامة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو ماقص الله تعالى وعدو الله ابليس وهو قوله تعالى وقال الشيطان لما قضى الامر فصدق عدو الله يومئذ وكان كاذبا فلم ينفعه صدقه قال ولما كان عيسى صادقا فى الدنيا والآخرة نفعه صدقه * ثم بين تعالى ثوابهم فقال (لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) وأكد معنى ذلك بقوله تعالى (أبدا) ولما كان ذلك لا يتم الا برضا الله تعالى قال (رضى الله عنهم) بطاعته (ورضوا عنه) بثوابه (ذلك) اى هذا الامر العلى لا غيره (الفوز العظيم) وأما الكاذبون فى الدنيا فلا ينفعهم صدقهم فى ذلك اليوم كالكفار لما يؤمنون عند رؤية العذاب (لله ملك السموات والارض) أى خزائن المطر والنبات والرزق وغيرها (وما فيهن) من انس وجن وملك وغيرهم ملكا وخلقا وأتى بما دون من تغليبا لغير العاقل (وهو على كل شئ قدير) ومنه اثابة الصادق وتعذيب الكاذب قال السيوطى وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر وقول البيضاوى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المائدة أعطى من الاجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيآت ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا حديث موضوع

سورة الانعام مكية

روى أنها نزلت بمكة جملة واحدة ليلا ونزل معها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان ربى العظيم وخر ساجدا والزجل بفتح الزاى والجيم القوة قال البغوى وروى مرفوعا من قرأ سورة الانعام يصلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت سورة الانعام بمكة الا قوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الى قوله تعالى لعلكم تتقون فهذه الست آيات مدنيات وروى انه صلى الله عليه وسلم دعا بالكتاب فكتبوها من ليلتهم الا الست آيات قال بعض العلماء واختصت هذه السورة بنوعين من الفضيلة أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة والثانى انها شيعها سبعون ألفا من الملائكة والسبب فيها أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وابطال مذاهب المبطلين والملحدين وهى مائة وخمس وستون آية وعدد كلماتها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة وعدد حروفها اثناعشر ألفا واربعمائة واثنان وعشرون حرفا (بسم الله) الذى تعالت عظمته عن كل شائبة نقص فكان له كل كمال (الرحمن) الذى عمت نعمته المحسن والمسئ فغمر الكل بالنوال (الرحيم) الذى خص أولياءه

(ان قلت) لم خص العدل بالقول مع ان الفعل اليه أحوج فان الضرر الناشئ من الجور الفعلى أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولى (قلت) انما

بتمام النعمة فهداهم بنعمة الايصال (الحمد) هو الوصف بالجميل ثابت (لله) وهل المراد الاعلام بذلك للايمان به أو الثناء به أو هما احتمالات قال الجلال المحلى فى سورة الكهف أفيدها الثالث وتقدم الكلام على الحمد لغة واصطلاحا فى أول الفاتحة وقال كعب الاحبار هذه الآية أول آية فى التوراة وآخر آية فى التوراة وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الى آخر الآية وفى رواية ان آخر آية فى التوراة آخر سورة هود وقال ابن عباس رضى الله عنهما افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله (الذى خلق السموات والارض) وختم بالحمد فقال تعالى وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وقال أهل المعانى لفظ الحمد لله خبر ومعناه الامر أى احمدوا الله وانما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الامر لانه أبلغ فى البيان من حيث انه جمع الامرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الامرين فكان قوله الحمد لله أبلغ وانما خص السموات والارض بالذكر لانهما أعظم المخلوقات فيما ترى العباد لان السماء بغير عمد ترونها فيها العبر والمنافع والارض مسكن الخلائق وفيها أيضا العبر والمنافع وجمع السموات دون الارض وهى مثلهن لان طبقاتها مختلفة الذات متفاوتة الآثار والحركات بالكواكب فى سيرها وحركاتها فى السرعة والبطء واستتار بعضها ببعض عند الخسوف وغيره وغير ذلك مما هو محرر عند اهله وقدمها لشرفها قدرا وعلوا وان كانت الارض أشرف من حيث انها مسكن الانبياء (وجعل) اى خلق (الظلمات والنور) اى كل ظلمة ونور وجمعها دونه لكثرة أسبابها والاجرام الحاملة لها اذ ما من جرم الا وله ظل وظلمة بخلاف النور فانه من جنس واحد وهو النار ولا ترد الاجرام المنيرة كالكواكب لان مرجع كل نير الى النار على ما قيل ان الكواكب أجرام نورانية نارية وان الشهب منفصلة من نار الكواكب فصح أن النور من جنس النار وأن المراد بالظلمة الضلال وبالنار الهدى والهدى واحد والضلال متعدد وتقديمها لتقدم الاعدام على الملكات وقوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) عطف على قوله خلق أى انه تعالى خلق ما لا يقدر عليه احد سواه ثم الذين كفروا يعدلون بربهم الاوثان أى يسوونها به فى العبادة وعلى هذا فيعدلون من العدل وهو التسوية والباء متعلقة بيعدلون أو على قوله الحمد لله على معنى ان الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه وانعمه على العباد ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيكفرون نعمته وعلى هذا فيعدلون من العدول والباء متعلقة بكفروا ومعنى ثم استبعاد عدولهم بعد وضوح آيات قدرته (هو الذى خلقكم من طين) أى ابتدأ خلقكم منه فانه المادة الاولى وان آدم الذى هو أصل البشر خلق منه أو خلق اباكم فحذف المضاف قال السدى بعث الله تعالى جبريل عليه السلام الى الارض ليأتيه بطائفة منها فقالت الارض انى أعوذ بالله منك ان تنقص منى فرجع جبريل عليه السلام ولم يأخذ قال يارب عاذت بك فبعث ميكائيل عليه السلام فاستعاذت فرجع فبعث ملك الموت عليه السلام فعاذت بالله منه فقال أنا أعوذ بالله أن أخالف أمره فأخذ من وجه الارض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بنى آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم فقال الله تعالى لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الارض ولم ترحمها لا جرم اجعل أرواح الخلق من هذا الطين بيدك وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه خلق الله تعالى ادم عليه

خصه بالقول لعلم وجوب العدل فى الفعل بالاولى كما فى قوله تعالى ولا تقل لهما أف (قوله ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) ختم الآية الاولى بقوله تعقلون

السلام من تراب وجعله طينا ثم تركه حتى كان حمأ مسنونا ثم خلقه وصوّره وتركه حتى كان صلصالا كالفخار ثم نفخ فيه من روحه (ثم قضى اجلا) أى أجلا لكم تموتون عند انتهائه (وأجل مسمى) أى مضروب (عنده) أى وهو أجل القيامة وقال الحسن الاوّل بين وقت الولادة الى وقت الموت والثانى من وقت الموت الى البعث فان كان الرجل برّا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله تعالى وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب وقيل الاوّل النوم والثانى الموت وقيل الاوّل لمن مضى والثانى لمن بقى ولمن يأتى (ثم أنتم) أيها الكفار (تمترون) اى تشكون فى البعث بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم ومن قدر على الابتداء فهو على الاعادة أقدر ومعنى ثم استبعاد أيضا كما مرّ لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم (وهو الله) الضمير لله والله خبره وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء من وهو والباقون بالضم وقوله تعالى (فى السموات وفى الارض) متعلق بمعنى اسم الله كأنه قيل هو مستحق العبادة فيهما ومنه قوله تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله أو هو المعروف بالالهية أو المتوحد بالالهية فيهما وقال الزجاج فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله (يعلم سركم) أى ما تسرون (وجهركم) أى ما تجهرون به بينكم فى السموات والارض وقيل معناه وهو اله السموات والارض كقوله تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله (ويعلم ما تكسبون) أى ما تعملون من خير أو شر فيثيب عليه أو يعاقب (فان قيل) الافعال اما أفعال القلوب وهى المسماة بالسر واما أفعال الجوارح وهى المسماة بالجهر والافعال لا تخرج عن السر والجهر فقوله تعالى ويعلم ما تكسبون يقتضى عطف الشئ على نفسه وهو غير جائز (أجيب) بان المراد بالسر ما يخفى وبالجهر ما يظهر من أحوال الانفس وبالمكتسب أعمال الجوارح فهو كما يقال هذا المال كسب فلان اى مكتسبه فلا يحمل على نفس الكسب والا لزم عطف الشئ على نفسه (وما تأتيهم) أى الكفار (من آية من آيات ربهم) من الاولى مزيدة للاستغراق والثانية للتبعيض اى ما يظهر لكم دليل قط من الادلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن (الا كانوا عنها معرضين) اى تاركين لها وبها مكذبين (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) اى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أتى به من المعجزات (فسوف يأتيهم أنباء) أى عواقب (ما كانوا به يستهزؤن) بنزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة أو عند ظهور الاسلام وارتفاع أمره (ألم يروا) أى فى اسفارهم الى الشام وغيرها (كم) خبرية بمعنى كثيرا (أهلكنا من قبلهم من قرن) أى أمة من الامم الماضية وعلى هذا القرن الجماعة من الناس وجمعه قرون وقيل القرن مدة من الزمان قيل انها عشرة أعوام وقيل عشرون وقيل ثلاثون وقيل أربعون وقيل خمسون وقيل ستون وقيل سبعون وقيل ثمانون وقيل تسعون وقيل مائة لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بشر المازنى تعيش قرنا فعاش مائة سنة وقيل مائة وعشرون فيكون معناه على هذه الاقوال بل من أهل قرن (مكناهم فى الارض) أى جعلنا لهم فيها مكانا بالقوّة والسعة وقررناهم فيها (ما لم نمكن لكم) اى ما لم نجعل لكم من السعة والقوّة فيه التفات عن الغيبة والمعنى لم نعط أهل

والثانية بقوله تذكرون والثالثة بقوله تتقون لان الاولى اشتملت على خمسة أشياء عظام والوصية فيها أبلغ منها فى غيرها فقدمها بما فى الانسان من أعظم السجايا وهو العقل الذى امتاز به على سائر الحيوان والثانية اشتملت

مكنة نحو ما أعطينا عادا وثمود وغيرهم من البسطة في الاجسام والسعة في الاموال والاستظهار باسباب الدنيا (وأرسلنا السماء) أي المطر (عليهم مدرارا) أي متتابعا (وجعلنا الانهار تجري من تحتهم) أي تحت مساكنهم (فأهلكناهم بذنوبهم) أي بسبب ذنوبهم بتكذيبهم الانبياء فلم يغن ذلك عنهم شيأ (وأنشأنا) أي أحدثنا (من بعدهم قرنا آخرين) بدلا منهم (فان قيل) ما فائدة ذكر أنشأنا قرنا آخرين بعدهم (أجيب) بانه ذكر للدلالة على انه تعالى لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده منهم فانه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده فهو قادر على أن يفعل ذلك بكم * ونزل لما قال النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله (ولو نزلنا عليك كتابا) أي مكتوبا (في قرطاس) أي رق كما اقترحوه (فلمسوه بايديهم) أبلغ من عاينوه لانه أنفى للشك (لقال الذين كفروا ان) أي ما (هذا الا سحر مبين) أي تعنتا وعنادا كما قالوا في انشقاق القمر (وقالوا لولا) أي هلا (انزل عليه) أي محمد صلى الله عليه وسلم (ملك) يكلمنا انه نبي كقوله تعالى لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا (ولو أنزلنا ملكا) بحيث عاينوه كما اقترحوا فلم يؤمنوا (لقضي الامر) أي حق اهلاكهم فان سنة الله تعالى جرت فيمن قبلهم أنهم اذا جاءهم مقترحهم فلم يؤمنوا به يهلكهم (ثم لا ينظرون) أي لا يمهلون لتوبة أو معذرة (ولو جعلناه) أي المنزل اليهم (ملكا لجعلناه) أي الملك (رجلا) أي على صورته ليتمكنوا من رؤيته اذ لا قوة للبشر على رؤية الملك في صورته وانما رآه كذلك الافراد من الانبياء لقوتهم القدسية وقوله تعالى (وللبسنا عليهم ما يلبسون) جواب محذوف أي ولو أنزلناه وجعلناه رجلا للبسنا أي لخلطنا عليهم بجعلنا اياه رجلا ما يخلطون على أنفسهم وعلى غيرهم فيقولون ما هذا الا بشر مثلكم وانما كان تلبيسا لانهم لبسوا على ضعفتهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا انما هو بشر مثلكم ولو رأوا الملك رجلا للحقهم من اللبس مثل ما لحق الضعفاء منهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ما كان منهم من التخليط في السؤال واللبس على الضعفاء وقوله تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك) فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على ما يرى من قومه (فحاق) قال الربيع بن أنس فنزل وقال عطاء فحل وقال الضحاك فأحاط (بالذين سخروا منهم) أي من أولئك الرسل (ما كانوا به يستهزؤن) وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك (قل) لهم (سيروا في الارض) أي أوقعوا السير للاعتبار فيها ولا تغتروا بامهالها لكم وتمكينكم (ثم انظروا كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (المكذبين) الرسل من هلاكهم بالعذاب فانكم اذا شاهدتم تلك الآثار كمل لكم الاعتبار بهم (قل) لهم (لمن ما في السموات والارض) خلقا وملكا وهو سؤال تبكيت (قل لله) ان لم يقولوه لا جواب غيره لانه المتعين للجواب بالاتفاق اذ لا يمكنهم أن يذكروا غيره (كتب) أي قضى (على نفسه الرحمة) تفضلا منه واحسانا فالرحمة تعم الدارين ومن ذلك الهداية الى معرفته والعلم بتوحيده بنصب الادلة وانزال الكتب والامهال على الكفرة والعصاة والمذنبين ولو شاء لسلط عليهم المضار وجعل عيشهم من غير اللذيذ كالتراب وبعض القاذورات التي تعيش فيها الحيوانات روي أنه صلى الله عليه وسلم قال

على خمسة أشياء يقبح ارتكابها والوصية فيها تجري مجرى الزجر والوعظ ختمها بقوله تذكرون أي تتعظون والثالثة اشتملت على ذكر الصراط المستقيم والتحريض على اتباعه واجتناب منافيه ختمها بالتقوى التي هي ملاك

لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده فوق عرشه ان رحمتى غلبت غضبى وفى رواية سبقت غضبى وفى رواية ان لله تعالى مائة رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قدم عليه سبى فاذا امرأة من السبى قد غلب ثديها اذ وجدت صبيا فى السبى أخذته وألصقته ببطنها وأرضعته فقال النبى صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على أن لا تطرحه فقلنا لا والله يا رسول الله فقال لله أرحم بعباده من هذه بولدها وقوله تعالى (ليجمعنكم) استئناف واللام لام القسم اى والله ليجمعنكم (الى يوم القيامة) اى فى يوم القيامة والى بمعنى فى أو ليجمعنكم فى القبور مبعوثين الى يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم وقيل بدل من الرحمة بدل البعض فان من رحمته بعثه اياكم وانعامه عليكم (لا ريب) أى لا شك (فيه) أى اليوم أو الجمع وقوله تعالى (الذين خسروا انفسهم) فى موضع نصب على الذم أو رفع على الخبر أى وأنتم الذين خسروا أنفسهم بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الاصلية أو مبتدأ خبره (فهم لا يؤمنون) ● (فان قيل) الفاء تدل على أن عدم ايمانهم مسبب عن خسرانهم مع أن الامر على العكس (أجيب) بأن ابطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك فى التقليد واغفال النظر أدى بهم الى الاصرار على الكفر والامتناع عن الايمان وقوله تعالى (وله ما سكن) اى حل (فى الليل والنهار) عطف على لله اى له كل شئ من حيوان وغيره لانه خالقه ومالكه وقيل له ما سكن فيهما أو تحرك واكتفى بأحد الضدين عن الآخر (وهو السميع) أى لكل ما يقال (العليم) اى بكل ما يفعل فلا يخفى عليه شئ سبحانه وتعالى ● ونزل لما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه (قل) لهم (أغير الله أتخذ وليا) اى ربا ومعبودا وناصرا ومعينا وهو استفهام ومعناه الانكار أى لا أتخذ غير الله وليا (فاطر السموات والارض) اى خالقهما ابتداعا من غير سبق وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما عرفت معنى الفاطر حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما انى فطرتها اى ابتدأتها (وهو يطعم) أى يرزق (ولا يطعم) اى ولا يرزق ووصف سبحانه وتعالى ذاته بالغنى عن الخلق باحتياجهم اليه لان من كان من صفته أن يطعم الخلق لاحتياجهم اليه ولا يطعم لاستغنائه عنهم وجب أن يتخذ ربا وناصرا ووليا (قل انى أمرت أن أكون اول من أسلم) لله من هذه الامة لان النبى سابق أمته فى الدين والدين وضع الهى سائق لذوى العقول السليمة بسبب اختيارهم المحمود الى ما هو خير لهم بالذات (ولا تكونن من المشركين) اى وقيل لى يا محمد لا تكونن من المشركين اى فى عدادهم باتباعهم فى شئ من اغراضهم وهذا التأكيد لقطع اطماعهم عنه صلى الله عليه وسلم فى سؤالهم أن يكون على دين آبائه وقوله تعالى (قل انى اخاف ان عصيت ربى) بعبادة غيره (عذاب يوم عظيم) مبالغة أخرى فى قطع اطماعهم وتعريض لهم بانهم عصاة مستوجبون للعذاب وقوله تعالى (من يصرف عنه) العذاب (يومئذ) اى يوم القيامة قرأه أبو بكر وحمزة والكسائى بفتح الياء وكسر الراء على البناء للفاعل والضمير لله تعالى والمفعول محذوف وقرأه الباقون بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول فالضمير للعذاب (فقد رحمه) ربه تعالى

(قوله العمل وخسر الزاد (قوله) ولا تزر وازرة وزر أخرى) ● ان قلت هو مناف لنحو قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ولخبر من عمل سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة (قلت)

اى أراد به الخير (وذلك) أى الصرف أو الرحمة (الفوز المبين) اى النجاة الظاهرة (وان يمسسك الله بضر) أى ببلاء كرض وفقر والضر اسم جامع لما ينال الانسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو فى معناه (فلا كاشف) أى لا رافع (له الا هو) لا غيره (وان يمسسك بخير) أى بصحة وغنى والخير اسم جامع لكل ما ينال الانسان من لذة وفرح وسرور وغير ذلك (فهو على كل شئ قدير) من الخير والضر وهذه الآية وان كانت خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم فهى عامة لكل أحد والمعنى وان يمسسك الله بضر أيها الانسان فلا كاشف لذلك الضر الا هو وان يمسسك بخير أيها الانسان فهو على كل شئ قدير من دفع الضرر وايصال الخير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم اردفنى خلفه فسار بى مليا ثم التفت الى فقال لى يا غلام فقلت لبيك يا رسول الله قال أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف وفى رواية واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين وفى رواية فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلق ان ينفعوك بما لم يقضه لك الله لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه (وهو القاهر) اى القادر الذى لا يعجزه شئ مستعليا (فوق عباده) فهم مقهورون تحت قدرته وكل من قهر شيأ فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة (وهو الحكيم) فى خلقه (الخبير) بسرائرهم كظواهرهم * ونزل لما قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك (اى شئ) يبق وبينكم (اكبر شهادة) تمييز محول من المبتدا (قل الله) أكبر شهادة ان لم تقولوه لا جواب غيره ثم ابتدأ (شهيد بينى وبينكم) أى هو شهيد بينى وبينكم ويحتمل أن يكون الله شهيد هو الجواب لانه تعالى اذا كان هو الشهيد كان أكبر شئ شهادة (وأوحى الى هذا القرآن لانذركم) يا أهل مكة (به) اى القرآن واكتفى بذكر الانذار عن ذكر البشارة وقوله تعالى (ومن بلغ) عطف على ضمير المخاطبين اى لانذركم به يا اهل مكة ومن بلغه من الانس والجن الى يوم القيامة وهو دليل على أن احكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم وأنه لا يؤاخذ بها من لم يبلغه قال محمد بن كعب القرظى من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلى الله عليه وسلم وقال أنس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم الى الله تعالى وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار وفى رواية نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب مبلغ أوعى من سامع وفى رواية فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه وقال مقاتل من بلغه القرآن من الجن والانس فهو نذير له وقوله تعالى (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى)

لا منافاة اذ الوزر فى الآية الاولى محمول على من لم يتسبب فى الفعل بوجه وفيما عداها على من تسبب فيه بوجه كالامر به والدلالة عليه فعليه وزره بالمباشرة ووزر تسببه فيه (قوله وهو

استفهام

استفهام انكارى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيرى أئنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى وهى الاصنام التى كانوا يعبدونها (قل) لهم (لا أشهد) بما تشهدون به ان مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره (قل انما هو اله واحد) لا شريك له وبذلك أشهد (واننى برىء مما تشركون) معه من الاصنام وفى الآية دليل على اثبات التوحيد ونفى الشرك لان كلمة انما تفيد الحصر فثبت بذلك ايجاب التوحيد والتبرى من كل معبود سوى الله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) أى التوراة والانجيل وهم علماء اليهود والنصارى (يعرفونه) اى محمدا صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته (كما يعرفون أبناءهم) من بين الصبيان روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال عمر رضى الله تعالى عنه ان الله تعالى أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمكة هذه الآية فكيف هذا فقال عبد الله بن سلام قد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم من ابنى فقال له عمر كيف ذلك فقال أشهد أنه رسول الله حقا ولا أدرى ما تصنع النساء (الذين خسروا أنفسهم) من أهل الكتاب والمشركين (فهم لا يؤمنون) به لما سبق لهم من القضاء بالشقاء (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) كقولهم الملائكة بنات الله واتخذ الله ولدا (أو كذب بآياته) الآتى بها الرسل كالقرآن وغيره من المعجزات (انه) أى الشأن (لا يفلح الظالمون) اى لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون عليه الباطل (و) اذكر (يوم نحشرهم جميعا) أى أهل الكتاب والمشركين وغيرهم ومعبوداتهم وهو يوم القيامة (ثم نقول) توبيخا (للذين أشركوا) أى معه سواه ممن دونه الها وعبدوه من الاصنام أو عزيرا أو المسيح أو الملائكة أو النور أو غير ذلك (أين شركاؤكم) أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله تعالى وأضافها الى ضميرهم لتسميتهم اياها بذلك وقوله تعالى (الذين كنتم تزعمون) معناه كنتم تزعمونهم شركاء وانها تشفع لكم عند الله فحذف المفعولان (ثم لم تكن فتنتهم) أى معذرتهم (الا أن قالوا) اى قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) فيختم على أفواههم وتشهد جوارحهم عليهم بالشرك وقرأ حمزة والكسائى يكن بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص فتنتهم بضم التاء والباقون بالنصب وقرأ حمزة والكسائى ربنا بنصب الباء على النداء أو المدح والباقون بالكسر قال الله تعالى (انظر) يا محمد (كيف كذبوا على أنفسهم) باعتذارهم الباطل وتبريهم من الاصنام والشرك الذى كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه فى دار الدنيا وذلك لا ينفعهم (وضل) اى غاب (عنهم ما كانوا يفترون) اى يكذبون وهو قولهم ان الاصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله فى ذلك اليوم (فان قيل) كيف يصح ان يكذبوا حين يطلعون على حقائق الامور وعلى ان الكذب والجحود لا وجه لمنفعته (أجيب) بان الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشة ألا تراهم يقولون ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون وقد أيقنوا الخلود ولم يشكوا فيه وقالوا يا مالك ليقض علينا ربك وقد علموا أنه لا يقضى عليهم (ومنهم من يستمع اليك) حين تتلو القرآن روى انه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون القرآن فقالوا

التى جعلكم خلائف الارض) قال ذلك هنا وقال فى يونس ٣ وفاطر جعلكم خلائف فى الارض لان ما هنا تكررة لهذكر العالمين مرات فعرفهم بالاضافة وما فى السورتين باء على الاصل كما فى قوله

٣ وقال فى يونس ه وقوله تعالى ثم جعلناكم خلائف فى الارض ... عبارته مساعجة اه مصححه

للنضر ما يقول محمد فقال والذي جعلها بيته يعني الكعبة ما أدري ما يقول الا أنه يحرك لسانه فيقول أساطير الاولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها فقال أبو سفيان اني لأرى بعض ما يقول حقا فقال أبو جهل كلا لا تقر بشيء من هذا فأنزل الله تعالى ومنهم من يستمع اليك (وجعلنا على قلوبهم أكنة) اى اغطية (أن) اى كراهة أن (يفقهوه) اى يفهموا القرآن (و) جعلنا (فى آذانهم وقرا) اى صمما فلا يسمعونه سماع قبول ووجه اسناد الفعل الى ذاته تعالى وهو قوله تعالى وجعلنا الدلالة على انه امر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه او هى حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب (وان يروا كل آية) اى معجزة من المعجزات الدالة على صدقك (لا يؤمنوا بها) لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم (حتى اذا جاؤك يجادلونك) اى بلغ تكذيبهم الآيات الى انهم جاؤك يجادلونك ويناكرونك وحتى هى التى تقع بعدها الجمل لا عمل لها والجملة اذا وجوابها وهو (يقول الذين كفروا ان) اى ما (هذا الا اساطير) أى اكاذيب (الاولين) اى احاديثهم من الامم الماضية واخبارهم وأقاصيصهم وما سطروا اى فى كتبهم والاساطير جمع اسطورة بالضم قال البخارى عن ابن عباس وهى الترهات (وهم ينهون) الناس (عنه) اى اتباع النبى صلى الله عليه وسلم او القرآن (وينأون) اى يتباعدون (عنه) فلا يؤمنون به قال محمد بن الحنفية والسدى والضحاك نزلت فى كفار مكة وقال ابن عباس ومقاتل فى ابى طالب كان ينهى الناس عن أذى النبى صلى الله عليه وسلم ويمنعهم وينأى عن الايمان به اى يبعد حتى روى انه اجتمع له رؤس المشركين وقالوا اخذ شابا من أحسن أصحابنا وجها وادفع الينا محمدا فقال ابو طالب ما انصفتمونى ادفع اليكم ولدى لتقتلوه وأربى ولدكم وروى انه صلى الله عليه وسلم دعاه الى الايمان فقال لولا ان تعيرنى قريش لاقررت بها عينك ولكن اذب عنك ما حييت وروى انهم اجتمعوا الى ابى طالب وارادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوأ فقال

والله لن يصلوا اليك بجمعهم • حتى اوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة • وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصح • ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لا محالة انه • من خير اديان البرية دينا
لولا الملامة او حذار مسبة • لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

(وان) اى ما (يهلكون) بالنأى عنه (الا انفسهم) لان ضرره عليهم (وما يشعرون) ان ضررهم لا يتعداهم الى غيرهم وقوله تعالى (ولو ترى) يا محمد (اذ وقفوا) اى عرضوا (على النار) جوابه محذوف اى لو تراهم حين يقفون على النار فيعرفون مقدار عذابها لرأيت امرا شنيعا (فقالوا) اى الكفار (يا) للتنبيه (ليتنا نرد) اى الى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) تمنوا ان يردوا الى الدنيا ولا يكذبوا بآيات ربهم وقرأ حفص وحمزة بنصب الباء من يكذب على جواب التمنى والباقون بالرفع على الاستئناف وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة بفتح النون من نكون على جواب التمنى والباقون بالضم على العطف

جاعل فى الارض خليفة وجعلكم مستخلفين فيه (قوله ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) وقال فى الاعراف ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم باللام فى الجملتين لان ما هنا وقع بعد قوله من جاء بالحسنة

وقوله

وقوله تعالى (بل بدا لهم) اى ظهر لهم (ما كانوا يخفون من قبل) للاضراب عن ارادة الايمان المفهوم من التمنى والمعنى أنهم ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم وقبائح أعمالهم فتمنوا ذلك ضجرا لا عزما على انهم لو ردوا لآمنوا كما قال تعالى (ولو ردوا) الى الدنيا اى لو فرض ذلك بعد الوقوف والظهور (لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والمعاصى (وانهم لكاذبون) فى قولهم لو رددنا الى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين (وقالوا ان) اى ما (هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة ويجوز أن يعطف على قوله وانهم لكاذبون على معنى وانهم لقوم كاذبون فى كل شئ وهم الذين قالوا ان هى الا حياتنا وكفى به دليلا على كذبهم (ولو ترى) يا محمد (اذ وقفوا) اى عرضوا (على ربهم) لرأيت أمرا عظيما (قال) لهم على لسان الملائكة توبيخا (أليس هذا) البعث والحساب (بالحق) وقوله تعالى (قالوا بلى وربنا) اقرار مؤكد باليمين لانجلاء الامر غاية الانجلاء (قال فذوقوا العذاب) اى الذى كنتم به توعدون (بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم وجحودكم البعث (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أى بالبعث واستمر تكذيبهم (حتى اذا جاءتهم الساعة) أى القيامة (بغتة) اى فجأة وسميت القيامة ساعة لانها تفجأ الناس بغتة فى ساعة لا يعلمها الا الله تبارك وتعالى وقيل لسرعة الحساب فيها لان حساب الخلائق يوم القيامة يكون فى ساعة واحدة وأقل من ذلك (قالوا يا حسرتنا) اى يا ندامتنا والحسرة التلهف على الشئ الفائت وشدة التألم ونداؤها مجاز أى هذا أوانك فاحضرى (على ما فرطنا) أى قصرنا (فيها) أى الحياة الدنيا جئ بضميرها وان لم يجر لها ذكر لكونها معلومة لانها موضع التفريط فى الاعمال الصالحة ويجوز أن يكون للساعة على معنى قصرنا فى شأنها والايمان بها كما تقول فرطت فى فلان ومنه فرطت فى جنب الله وقوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم) أى أثقالهم وآثامهم (على ظهورهم) تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام وقال السدى وغيره ان المؤمن اذا خرج من قبره استقبله أحسن شئ صورة وأطيبه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبنى فقد طالما ركبتك فى الدنيا فذلك قوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا أى ركبانا وأما الكافر فيستقبله اقبح شئ صورة وأنتنه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طالما ركبتنى فى الدنيا واليوم أركبك فهو معنى قوله تعالى وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم (ألا ساء) اى بئس (ما يزرون) أى ما يحملون حملهم ذلك وقوله تعالى (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) جواب لقولهم ان هى الا حياتنا الدنيا أى وما أعمالها الا لعب ولهو يلهى الناس ويشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية وقيل معناه ان أمر الدنيا والعمل فيها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة (وللدار الآخرة) أى الجنة واللام فيه لام القسم (خير) اى من الدنيا وأفضل لان الدنيا سريعة الزوال والانقطاع (للذين يتقون) أى الشرك وقيل اللهو واللعب (أفلا يعقلون) أى ان الآخرة خير من الدنيا فيعملوا لها وقرأ ابن عامر ولدار بتخفيف الدال وجر التاء من الآخرة والباقون وللدار بتشديد الدال ورفع التاء وقرأ نافع

قوله عشر أمثالها وقوله وهو الذى جعلكم خلائف الارض فانى بالادم المؤكدة فى الجملة الثانية فقط ترجيحا للغفران على سرعة العقاب وما هنالك وقع بعد قوله وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس وقوله كونوا قردة خاسئين فانى

وابن عامر وحفص تعقلون على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (قد) للتحقيق (نعلم انه) أى الشأن (ليحزنك الذى يقولون) من التكذيب وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى (فانهم لا يكذبونك) أى بقلوبهم ولكن يجحدون بألسنتهم أو انهم لا يكذبونك لانك عندهم الصادق الموسوم بالصدق (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى يكذبون وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الامين فعرفوا أنه لا يكذب فى شئ ولكنهم كانوا يجحدون قال السدى التقى الاخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال الاخنس لابى جهل يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيرى فقال أبو جهل الله وان محمدا لصادق ما كذب محمد قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ان أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك ولكنا نكذب الذى جئت به فانزلت ووضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أنهم ظلموا فى جحودهم والباء لتضمن الجحود معنى التكذيب وقرأ نافع والكسائى يكذبونك بسكون الكاف وتخفيف الذال من أكذبه اذا وجده كاذبا أو نسبه للكذب والباقون بفتح الكاف وتشديد الذال من التكذيب وهو أن ينسبه الى الكذب وقوله تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وهذا دليل على أن قوله فانهم لا يكذبونك ليس بنفى لتكذيبه مطلقا وانما هو من قولك لغلامك ما اهانوك ولكنهم أهانونى (فصبروا على ما كذبوا) أى على تكذيبهم لهم (واوذوا) أى وصبروا على ايذائهم لهم (حتى أتاهم نصرنا) باهلاك من كذبهم فتأس بهم واصبر حتى يأتيك النصر باهلاك من كذبك وفى ذلك ايماء بوعد النصر للصابرين (ولا مبدل لكلمات الله) أى لمواعيده من قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين الآيات (ولقد جاءك من نبإ المرسلين) أى من قصصهم وما كابدوا من قومهم مما يسكن به قلبك قيل من مزيدة وقيل للتبعيض و يدل له قوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك (وان كان كبر) اى عظم وشق (عليك اعراضهم) عنك وعن الايمان بما جئت به (فان استطعت أن تبتغى) اى تطلب بجهدك وغاية طاقتك (نفقا) اى منفذا (فى الارض) تنفذ فيه الى ما تقدر الى الانتهاء اليه (او سلما فى السماء) اى جهة العلو ترتقى فيه الى ما تقدر عليه (فتأتيهم بآية) اى مما اقترحوه عليك فافعل لتشاهد أنهم لا يزدادون عند اتيانك بها الا اعراضا كما أخبرناك لان الله تعالى شاء ضلال بعضهم والمقصود بهذا بيان شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم وأنه لو قدر أن يتكلف النزول الى تحت الارض أو فوق السماء فيأتيهم بما يؤمنون به لفعل (ولو شاء الله) هدايتهم (لجمعهم على الهدى) اى لوفقهم له ولكن لم يشأ ذلك فلم يؤمنوا اولت المعتزلة أو لوا ولو شاء الله بانه لو شاء لجمعهم على الهدى بان يأتيهم بآية ملجئة ولكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة وجرى على هذا الزمخشرى فى كشافه والمعنى أن اسناد مشيئة الجمع الى الله تعالى ظاهر فى أنه هو المهدى والمضل والمعتزلة لما قالوا انه بفعل العبد احتاجوا

الى

فاللام فى الجملة الاولى لمناسبة ما قبلها وفى الثانية تبعا للام فى الاولى (فان قلت) كيف قال سريع العقاب مع انه حليم والحليم هو الذى لا يعجل بالعقوبة على من عصاه (قلت) معنى سريع شديد أو

الى التأويل (فلا تكونن من الجاهلين) اى لا يشتد تحسرك على تكذيبهم ولا تجزع من اعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم وانما نهاه عن هذه الحالة وغلظ عليه الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة (انما يستجيب) دعاءك الى الايمان (الذين يسمعون) سماع تفهم واعتبار كقوله تعالى او ألقى السمع وهو شهيد وهم المؤمنون الذين فتح الله تعالى لهم أسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويتبعونه دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله (والموتى) اى الكفار اشبههم بهم فى عدم السماع (يبعثهم الله) فى الآخرة (ثم اليه يرجعون) اى يردون فيجازيهم باعمالهم (وقالوا) اى رؤساء قريش (لولا) اى هلا (نزل عليه آية) مما اقترحوا (من ربه) المحسن اليه كالناقة والعصا والمائدة او آية تضطرهم الى الايمان كنتق الجبل او آية ان يجحدوها هلكوا (قل) لهم (ان الله قادر على ان ينزل آية) مما اقترحوه او آية تضطرهم الى الايمان او آية ان يجحدوها هلكوا الا يعجزه شئ (ولكن اكثرهم لا يعلمون) اى ماذا عليهم فى انزالها من العذاب ان لم يؤمنوا بها ولهم فيما أنزل مندوحة عن غيره وقرأ ابن كثير ينزل بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى والمعنى واحد (وما من دابة فى الارض) أى تدب على وجهها (ولا طائر يطير بجناحيه) فى الهواء بالمد وهو ما بين السماء والارض وهو المراد هنا وأما الهوى بالقصر فهوى النفس وليس مرادا وانما قال بجناحيه مع أن الطيران لا يكون الا بهما قطعا لمجاز السرعة ونحوها كما تقول كتبت بيدى ونظرت بعينى (الا أمم أمثالكم) أى محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها وآجالها قال العلماء جميع ما خلق الله تعالى لا يخرج عن هاتين الحالتين حتى ما فى البحر لان سيرها فى الماء اما أن يكون دبيبا أو طيرانا مجازا وانما خص ما فى الارض بالذكر دون ما فى السماء وان كان ما فى السماء مخلوقا له لان الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد واختلف العلماء فى وجه هذه المماثلة فقال مجاهد أصناف مصنفة تعرف بأسمائها تماثل بنى آدم يعرفون بأسمائهم يريد ان كل جنس من الحيوان أمة فالطير أمة والدواب أمة والسباع أمة وقال ابن قتيبة أمم أمثالكم فى الغذاء وابتغاء الرزق وتوقى المهالك وقال عطاء أمثالكم فى التوحيد والمعرفة وقيل غير ذلك والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية (ما فرطنا) أى ما تركنا وما أغفلنا (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ (من شئ) فلم نكتبه فانه مشتمل على ما يجرى فى العالم من الجليل والدقيق ولم يهمل فيه أمر حيوان وقيل المراد بالكتاب القرآن فانه قد دوّن فيه ما يحتاج اليه من أمر الدين مفصلا ومجملا ومن مزيدة وشئ فى موضع المصدر لا المفعول به فان فرط لا يتعدى بنفسه وقد عدى بفى الى الكتاب (ثم الى ربهم يحشرون) قال ابن عباس والضحاك حشرها موتها وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة الدواب والطير وكل شئ فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا فحينئذ يتمنى الكافر ويقول يا ليتنى كنت ترابا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء (والذين كذبوا بآياتنا) اى القرآن (صم) عن سماعها سماع

المعنى سريع العقاب اذا جاء وقته

(سورة الاعراف)

(قوله فلا يكن فى صدرك حرج منه) أى ضيق من الكتاب ان تبلغه مخافة

قوله (وبكم) عن النطق بالحق (فى الظلمات) اى فى ضلالات الكفر (من يشأ الله) اضلاله (يضلله ومن يشا) هدايته (يجعله على صراط مستقيم) هو دين الاسلام وهو دليل واضح لاهل السنة على المعتزلة فى قولهم انه مامن العبد كامر (قل) يا محمد لاهل مكة وقوله تعالى (أرأيتكم) استفهام تعجب والكاف حرف خطاب اى أخبرونى (ان اتاكم عذاب الله) أى فى الدنيا كما اتى من قبلكم من الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب (او اتتكم الساعة) اى القيامة المشتملة على العذاب (اغير الله تدعون) فى كشف العذاب عنكم (ان كنتم صادقين) ان الاصنام آلهة وجواب الاستفهام محذوف أى فادعوه وهو تبكيت لهم (بل اياه تدعون) أى تخصونه بالدعاء كما حكى الله تعالى ذلك عنهم فى مواضع كما فى قوله تعالى واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما الآية (فيكشف ما تدعون اليه) أى ماتدعون الى كشفه (ان شاء) كشفه فى الدنيا تفضلا عليكم كما هو عادته معكم فى وقت شدائدكم ولكنه لا يشاء كشفه فى الآخرة لانه لا يبدل القول لديه وان كان له ان يفعل مايشاء (وتنسون) أى تتركون فى تلك الاوقات دائما (ماتشركون) معه من الاصنام فلا تدعونها لعلمكم أنها لاتضر ولا تنفع (ولقد ارسلنا) رسلا (الى امم من قبلك) أى قبلك ومن مزيدة فكذبوهم (فأخذناهم بالبأساء) أى شدة الفقر (والضراء) أى الامراض والاوجاع وهما صيغتا تأنيث لامذكر لهما (لعلهم يتضرعون) أى يتذللون ويتوبون من ذنوبهم فيؤمنون (فلولا) أى فهلا (اذجاءهم بأسنا) أى عذابنا (تضرعوا) أى لم يفعلوا ذلك مع قيام المقتضى له (ولكن قست قلوبهم) فلم تلن للايمان (وزين لهم الشيطان) أى بما أدخل عليهم من باب الشهوات (ما كانوا يعملون) من المعاصى فأصروا عليها (فلما نسوا) أى تركوا (ماذكروا) أى وعظوا وخوفوا (به) وانما كان النسيان بمعنى الترك لان التارك للشئ معرضا عنه كانه قد صيره بمنزلة مانسى (فتحنا عليهم أبواب كل شئ) اى من الخيرات والارزاق والملاذ التى كانت مغلقة عنهم فنقلناهم من الشدة الى الرخاء استدراجا لهم وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) أى فرح بطر (أخذناهم) بالعذاب (بغتة) أى فجأة (فاذاهم مبلسون) أى متحسرون آيسون من كل خير (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى آخرهم بان استؤصلوا (والحمد لله رب العالمين) أى على نصر الرسل واهلاك الكافرين والعصاة فان اهلاكهم من حيث انه تخليص لاهل الارض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها (قل) أى لاهل مكة (أرأيتم) أى أخبرونى (ان أخذ الله سمعكم) أى أصمكم (وأبصاركم) اى أعماكم (وختم) أى طبع (على قلوبكم) أى بأن يغطى عليها مايزول به عقلكم وفهمكم فلا تعرفون شيأ (من اله غير الله يأتيكم به) أى بذلك أو بما أخذ منكم وختم عليه لان الضمير فى به يعود على معنى الفعل أو باحد هذه المذكورات ويجوز أن يعود الى السمع الذى ذكر أولا ويندرج غيره تحته كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه فالهاء راجعة الى الله تعالى ورضا رسول الله صلى الله عليه وسلم يندرج فى رضا الله تعالى (انظر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره أى انظر يا محمد (كيف نصرف) أى نبين لهم الآيات أى العلامات الدالة على التوحيد والنبوة

ان تكذب وانى لم اقط
للحرج والمراد الطلب
مبالغة فى النهى عن ذلك
كانه قيل لاتتسبب فى شئ
ينشا منه حرج وهو من
باب لا أرينك ههنا النهى

وتكررها

وتكريرها تارة من جهة المقدمات العقلية وتارة من جهة الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين (ثم هم يصدفون) أي يعرضون عنها فلا يؤمنون (قل) لهم (أرأيتكم) أي أخبروني (إن أتاكم عذاب الله بغتة) أي فجأة (أو جهرة) أي معاينة ترونه عند نزوله وقال ابن عباس والحسن ليلا أو نهارا (هل يهلك) أي ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب (إلا القوم الظالمون) أي المشركون لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين) من آمن بالجنة (ومنذرين) من كفر بالنار أي ليس في إرسالهم أن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات إنما أرسلوا بالبشارة والنذارة (فمن آمن) أي بهم (وأصلح) أي عمله (فلا خوف عليهم) أي من العذاب (ولا هم يحزنون) في الآخرة بفوات الثواب (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) أي يصيبهم (بما كانوا يفسقون) أي بسبب خروجهم عن الطاعة (قل) لهم (لا أقول لكم عندي خزائن الله) نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم إنما بعثت بشيرا ونذيرا ولا أقول لكم عندي خزائن الله جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه بحيث لا تناله الأيدي خزائن رزقه أو مقدوراته فأعطيكم منها ما تريدون لأنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع علينا ويغني فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لا بيدي (ولا) أقول لكم إني (أعلم الغيب) أي فأخبركم بما مضى وما هو آت وذلك أنهم قالوا له أخبرنا بمصالحنا ومضارنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار فأجابهم بقوله ولا أعلم الغيب فأخبركم بذلك (ولا أقول لكم إني ملك) وذلك أنهم قالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج النساء فأجابهم بذلك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدونه أي لا أقول لكم شيئا من ذلك فتنكرون وتجحدون (فإن قيل) قد يستدل بهذا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء لأن معنى الكلام لا أدعي منزلة أقوى من منزلتي ولولا أن الملائكة أفضل لم يصح ذلك (أجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم إنما قال ذلك تواضعا لله تعالى واعترافا بالعبودية حتى لا يعتقد فيه مثل اعتقاد النصارى في المسيح وبأن المراد بما قاله نفي قدرته عن أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة وذلك لا يدل على أنهم أفضل من الأنبياء (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) تبرأ صلى الله عليه وسلم من دعوى الألوهية والملكية وادعى النبوة مع الرسالة التي هي أعلى كمالات البشر ردا لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه وظاهر هذه الآية يدل على أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يجتهد في شيء من الأحكام بل جميع أوامر الله تعالى ونواهيه إنما كانت بوحي ولكن المرجح أنه يجتهد (قل) لهم (هل يستوي الأعمى والبصير) أي هل يكونون سواء من غير مزية فإن قالوا إنهم كابروا الحس وإن قالوا لا قيل فمن تبع هذه الآيات الجليات فهو البصير ومن أعرض فهو الأعمى وقيل المراد بالأول الكافر وبالثاني المؤمن وقيل الضال والمهتدي وقيل الجاهل والعالم (أفلا تتفكرون) في أنهم لا يستويان فتؤمنوا (وأنذر) أي خوف إذ الإنذار إعلام مع تخويف (به) أي القرآن وقوله تعالى (الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) إما قوم داخلون في الإسلام ومقرون بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل وإما أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث وإما ناس من

والمراد في اللفظ للمتكلم والمراد المخاطب أي لا تكن بحضرتي فأراك ومثله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها قوله أهلكناها فجاءها بأسنا) أي أردنا إهلاكها

المشركين علم من حالهم انهم يخافون اذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الانذار دون المتمردين منهم وقوله تعالى (ليس لهم من دونه) اى غير الله تعالى (ولى) اى ينصرهم (ولا شفيع) اى يشفع لهم حال من ضمير يحشرون بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم ولا بد من هذه الحال لان كلا منهم محشور فان المخوف هو الحشر على هذه الحالة (فان قيل) اذا فسر ما ذكر بالمؤمنين كان مشكلا لانه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم للمذنبين من أمته وكذلك تشفع الملائكة والانبياء والمؤمنون بعضهم لبعض (أجيب) بان الشفاعة لا تكون الا باذن الله تعالى كما قال من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه واذا كانت الشفاعة لا تكون الا باذن الله صح قوله ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع حتى يؤذن لهم بالشفاعة فاذا أذن فيها كان للمؤمنين ولى وشفيع (لعلهم يتقون) الله باقلاعهم عما هم فيه وعمل الطاعات (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) بعدما أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بانذار غير المتقين ليتقوا أمره باكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضية لقريش روى ان رؤساءهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لو طردت هؤلاء الاعبد يعنون الفقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وخباب وسلمان واضرابهم وكانت عليهم جباب من صوف جلسنا اليك وحادثناك فقال عليه الصلاة والسلام ما أنا بطارد المؤمنين فقالوا فاقمهم عنا اذا جئنا فاذا قمنا فاقعدهم معك ان شئت قال نعم طمعا فى ايمانهم وروى أن عمر رضى الله عنه قال له لو فعلت حتى تنظر الى ماذا يصيرون قالوا فاكتب بذلك كتابا فدعا بالصحيفة وبعلى رضى الله تعالى عنه فنزلت فرمى بالصحيفة واعتذر عمر رضى الله تعالى عنه من مقالته قال سلمان وخباب فينا نزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا وندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته فكان يقوم عنا اذا أراد القيام فنزل واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم فترك القيام عنا الى أن نقوم عنه وقال لنا الحمد لله الذى لم يمتنى حتى امرنى ان أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات وقال الكلبى قالوا له اجعل لنا يوما ولهم يوما قال لا أفعل قالوا فاجعل واحدا وأقبل علينا وولهم ظهرك فانزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد لبايعنا محمدا فانزل الله تعالى هذه الآية ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى قال ابن عباس يعبدون ربهم بالغداة والعشى يعنى صلاة الصبح وصلاة العصر ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس وذلك ان ناسا من الفقراء كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال ناس من الاشراف اذا صلينا فأخر هؤلاء فليصلوا خلفنا فنزلت هذه الآية وقوله تعالى (يريدون وجهه) حال من يدعون اى يدعون ربهم مخلصين فيه قيد الدعاء بالاخلاص تنبيها على انه ملاك الامر (ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ) اى ليس عليك حساب فى اختبار بواطنهم واخلاصهم لما اتسموا بسيرة المتقين وان كان لهم باطن غير مرضى كما ذكره المشركون وطعنوا فى دينهم فحسابهم عليهم لا يتعداهم اليك كما أن حسابك لا يتعداك اليهم كقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى (فان قيل) هلا اكتفى بقوله ما عليك من حسابهم من شئ عن وما من حسابك عليهم من شئ (أجيب) بان الجملتين جعلتا بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى فى قوله تعالى ولا تزر

(قوله فمن ثقلت موازينه) جمع ميزان القيامة مع انه واحد باعتبار تعدد ما يوزن به من الاعمال او باعتبار انه يقوم مقام موازين لانه يميز كثيرة

وازرة وزر أخرى ولا يفيد هذا المعنى الا الجملتان جميعا كأنه قيل لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه وقيل الضمير للمشركين والمعنى لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك ايمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعا فيه وقوله تعالى (فتطردهم) أى فتبعدهم جواب النفى وقوله تعالى (فتكون من الظالمين) جواب النهى وهو ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة واحتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا ان النبى صلى الله عليه وسلم لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لاجل أشراف قريش عاتبه الله تعالى به على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك قدح فى العصمة وقوله تعالى فتطردهم فتكون من الظالمين (وأجيب) بانه صلى الله عليه وسلم ما طردهم ولا هم به لاجل استخفاف بهم وانما كان هذا الهم لمصلحة وهى التلطف بهؤلاء الاشراف فى ادخالهم فى الاسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه صلى الله عليه وسلم فأعلمه الله تعالى أن تقريب هؤلاء الفقراء أولى من الهم بطردهم فقربهم منه وأدناهم والظلم فى اللغة وضع الشئ فى غير محله اى فلا تهم بطردهم عنك فتضع الشئ فى غير موضعه فهو من باب ترك الافضل والاولى لا من باب ترك الواجبات (وكذلك فتنا) اى ابتلينا (بعضهم ببعض) اى الشريف بالوضيع والغنى بالفقير بان قدمناه بالسبق للايمان (ليقولوا) اى الشرفاء والاغنياء (أهؤلاء) الفقراء (من الله عليهم من بيننا) بالهداية اى لو كان ما هم عليه هدى ما سبقونا اليه ونحن الاكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء قال الله تعالى (أليس الله باعلم بالشاكرين) أى بمن يقع منهم الايمان والشكر فيوفقه وبمن لا يقع منه فيخذله (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) وقوله تعالى (فقل) لهم (سلام عليكم) اما أن يكون أمرا بتبليغ سلام الله تعالى اليهم واما أن يكون أمرا بان يبدأهم بالسلام اكراما لهم وتطييبا لقلوبهم (كتب) اى قضى (ربكم على نفسه الرحمة) روى أنها نزلت فى الذين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم فوصفهم الله تعالى بالايمان بالقرآن واتباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة وأمره بان يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى اليهم ويبشرهم بسعة رحمته وفضله بعد النهى عن طردهم ايذانا بانهم الجامعون لفضيلتى العلم والعمل ومن كان كذلك ينبغى أن يقرب ولا يطرد ويعز ولا يذل ويبشر من الله تعالى بالسلامة فى الدنيا والرحمة فى الآخرة وقال عطاء نزلت فى الخلفاء الاربع وجماعة من الصحابة وقيل الآية على اطلاقها فى كل مؤمن وقيل لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التى تقدمت وقال ما أردت الا الخير نزلت وقيل ان قوما جاؤا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا انا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد عليهم شيأ فانصرفوا فنزلت (انه من عمل منكم سوأ) أى سوء كان ملتبسا (بجهالة) أى عمله وهو جاهل وفيه معنيان أحدهما انه فاعل فعل الجهلة لان من عمل ما يؤدى الى الضرر فى العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل لا من أهل الحكمة والتدبير ومنه قول الشاعر

على انها قالت عشية زرتها * جهلت على عمد ولم تك جاهلا

والثانى انه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شئ حتى يعلم حاله وكيفيته وقيل انها نزلت فى عمر رضى الله تعالى عنه حين أشار باجابة الكفرة الى

الذرة وما هو كالجبال (فان قلت) الاعمال اعراض فكيف توزن (قلت) يجسمها الله أجساما او الموزون صحائفها (قوله ولقد خلقناكم ثم

سالة وهو لم يعلم أنها مفسدة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم انه بفتح الهمزة على انه بدل من الرحمة والباقون بالكسر على انه ضمير الشان (ثم تاب) اى رجع (من بعده) اى من بعد ارتكابه ذلك السوء (وأصلح) عمله (فانه) اى الله (غفور) له (رحيم) به وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الهمزة على تقدير أن المغفرة له والباقون بالكسر (وكذلك) اى ومثل ذلك التفصيل الواضح وهو تفصيل أحوال الطوائف الاربع الاولى المطبوع على قلوبهم وهم من فى آية والذين كذبوا بآياتنا والثانية المرجو اسلامهم وهم من فى آية وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم والثالثة المطيعون وهم من فى آية ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى والرابعة الداخلون فى الاسلام لكنهم لا يحفظون حدوده وهم من فى آية وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا (نفصل الآيات) أى نبين آيات القرآن فى صفة المطيعين والمجرمين المصرين منهم والاوابين (ولتستبين سبيل) اى طريق (المجرمين) قرأ أبو بكر وشعبة وحمزة والكسائى بالياء بعد اللام على التذكير أى وليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة اذا صاروا الى النار والباقون بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى وليظهر لك الحق يا محمد ويتبين لك سبيلهم فتعامل كلامنهم بما يحق له وقرأ نافع سبيل بنصب اللام والباقون بالرفع (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين (انى نهيت أن أعبد الذين تدعون) اى تعبدون (من دون الله) وهى الاصنام التى يعبدونها وما تدعونها آلهة اى تسمونها الان الجمادات أخس من ان تدعى وقوله تعالى (قل لا اتبع اهواءكم) تأكيد لقطع اطماعهم وبيان لمبدأ ضلالهم وأن ماهم عليه هوى وليس بهدى (قد ضللت اذا) اى ان اتبعت اهواءكم فانا ضال (وما انا من المهتدين) اى وما انا من المهتدين فى شئ لانكم كذلك (قل انى على بينة) اى بيان (من ربى) اى معرفة وانه لا معبود سواه (و) قد (كذبتم به) اى بربى حيث أشركتم به غيره (ما عندى ما تستعجلون به) اى العذاب الذى استعجلوه بقولهم فأمطر علينا حجارة من السماء (ان) اى ما (الحكم) فى ذلك وغيره (الا لله) فهو يفصل بين المختلفين ويقضى بانزال العذاب متى شاء (يقص الحق) قرأ نافع وابن كثير وعاصم بضم القاف وصاد مهملة مشددة مع الرفع ومعناه يقول الحق لان كل ما أخبر به فهو حق والباقون بسكون القاف وضاد معجمة مخففة مع الكسر اى انه تعالى يقضى القضاء الحق (وهو خير الفاصلين) اى الحاكمين (قل) لهم (لو ان عندى) اى فى قدرتى ومكنتى (ما تستعجلون به) اى من العذاب (لقضى الامر بينى وبينكم) اى لانفصل ما بينى وبينكم بان أهلككم عاجلا بما تستعجلون به من العذاب غضبا لربى ولكنه عند الله تعالى (والله أعلم بالظالمين) اى ما يستحقونه من العذاب والوقت الذى يستحقون فيه (وعنده) سبحانه وتعالى (مفاتح الغيب) اى خزائنه جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن او ما يتوصل به الى المغيبات مستعار من المفاتيح الذى هو جمع مفتح بالكسر وهو المفتاح (لا يعلمها الا هو) وهى الخمسة التى فى قوله تعالى ان الله عنده علم الساعة الآية كما رواه البخارى فيعلم أوقاتها وما فى تعجيلها وتأخيرها من الحكم فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته وفيه دليل على انه تعالى يعلم الاشياء قبل وقوعها (ويعلم ما) يحدث (فى البر والبحر) قدم البر لان الانسان أكثر ملابسة له بما فيه من القرى والمدن والمفاوز والجبال

والحيوان

صورناكم ثم قلنا للملائكة
اسجدوا لآدم) أتى بثم
الثانية وهى للترتيب مع
ان الامر بالسجود لآدم
كان قبل خلقنا وتصويرنا
لان ثم هنا للترتيب

والحيوان والنبات والمعادن وغير ذلك واخر البحر لان احاطة العقل بأحواله أقل وقال مجاهد البر المفاوز والقفار والبحر القرى والامصار التي على الانهار وقوله تعالى (وما تسقط من ورقة) اى ورقة من يد (الا يعلمها) مبالغة في احاطة علمه تعالى بالجزئيات وقوله تعالى (ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس) عطف على ورقة واختلف في الحبة فقيل هي من هذا الحب المعروف تكون في بطن الارض قبل ان تنبت وقيل هي الحبة التي تنبت في الصخرة التي في أسفل الارض واختلف في معنى الرطب واليابس فقال ابن عباس الرطب الماء واليابس البادية وقال عطاء يريد ما ينبت وما لا ينبت وقيل المراد بالرطب الحي وباليابس الميت وقيل هو عبارة عن كل شئ لان جميع الاشياء اما رطبة واما يابسة (فان قيل) جميع هذه الاشياء داخلة تحت قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو فلم أفرد هذه الاشياء بالذكر (أجيب) بانه تعالى ذكرها أولا مجملة ثم فصل بعضها من ذلك الاجمال ليدل بها على غيرها وقوله تعالى (الا في كتاب مبين) فيه قولان أحدهما انه علم الله الذي لا يغير ولا يبدل والثانى انه اللوح المحفوظ لان الله تعالى كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والارض فهو على الاول بدل من الاستثناء الاول بدل الكل وعلى الثانى بدل الاشتمال (وهو الذى يتوفاكم بالليل) اى يقبض أرواحكم عند النوم (و يعلم ما جرحتم) اى ما كسبتم (بالنهار ثم يبعثكم) أي يوقظكم برد أرواحكم (فيه) اى النهار (فان قيل) لم خص الليل بالنوم والنهار بالكسب مع ان ذلك يقع في غير هذا (اجيب) بان ذلك جرى على الغالب (ليقضى اجل مسمى) أى ليبلغ المستيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا (ثم اليه مرجعكم) بالموت والبعث (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم به (وهو القاهر) مستعليا (فوق عباده) لان من قهر شيأ وغلبه فهو مستعل عليه أما قهره للمعدوم فبالتكوين والايجاد وأما قهره للموجود فبالافناء والافساد ينقل الممكن من العدم الى الوجود تارة ومن الوجود الى العدم أخرى ويقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور والنهار بالليل والليل بالنهار الى غير ذلك من ضروب الكائنات وصنوف الممكنات (ويرسل عليكم) من ملائكته (حفظة) اى تحفظ اعمالكم وهم الكرام الكاتبون وعن أبي حاتم السجستاني أنه كان يكتب عن الاصمعى كل شئ تلفظ به من فوائد العلم حتى قال فيه أنت شبيه الحفظة تكتب لفظ اللفظة فقال أبو حاتم وهذا أيضا مما يكتب (فان قيل) الله تعالى غنى عن كتابة الملائكة فما فائدتها (أجيب) بان فيها لطفا للعباد لانهم اذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤس الاشهاد في مواقف القيامة كان ذلك ازجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء (حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) اى ملك الموت وأعوانه (وهم لا يفرطون) اى لا يقصرون فيما يؤمرون وقيل ملك الموت وحده فذكر الواحد بلفظ الجمع وجاء في الاخبار ان الله تعالى جعل الدنيا بين يدى ملك الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من ههنا ومن ههنا فاذا كثرت عليه الارواح يدعوها فتستجيب له (فان قيل) قال الله تعالى في آية أخرى الله يتوفى الانفس حين موتها وفي أخرى قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع (اجيب) بان المتوفى في الحقيقة هو

الاخبارى اولتفاوت ما بين زمن الصبود له وما قبله لان السجود له اكمل احسانا واتم انعاما مما قبله او المراد والله اعلم اقتنا آباكم ثم صورناه بحذف

الله تعالى فاذا حضر أجل العبد أمر الله تعالى ملك الموت أن يقبض روحه ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فاذا وصلت الى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت بنفسه فحصل الجمع بين الآيات وقال مجاهد ما من أهل بيت شعر ولا مدر الا وملك الموت يطوف بهم كل يوم مرتين وقرأ حمزة بعد فاء توفته بألف ممالة على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وسكن السين من رسلنا أبو عمرو ورفعها الباقون (ثم ردوا) أى الخلق (الى الله) أى الى حكمه وجزائه (مولاهم) أى سيدهم ومدبر أمورهم كلها (الحق) اى الثابت الولاية وكل ولاية غير ولايته تعالى عدم (الا له الحكم) أى القضاء النافذ فيهم فلا حكم عليه (وهو أسرع الحاسبين) يحاسب الخلق كلهم فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك لانه لا يحتاج الى فكرة وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض (قل) يا محمد لاهل مكة (من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) أى من الخسف فى البر والغرق فى البحر أو من شدائدهما استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتهما فى الهول وابطال الابصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ولغيره يوم ذو كواكب وقيل حمله على الحقيقة أولى وظلمات البر هى ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء الى الطريق الصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والامواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع فى المهالك والمقصود أن عند اجتماع هذه الاسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الانسان فيها الا الى الله تعالى لانه هو القادر على كشف الكروب وازالة الشدائد وهو المراد من قوله (تدعونه تضرعا) أى علانية (وخفية) أى سرا وقوله تعالى (لئن) اللام لام القسم على ارادة القول أى يقولون والله لئن (أنجيتنا من هذه) أى الظلمات والشدائد (لنكونن من الشاكرين) لك على هذه النعمة والشكر هو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها أى فنكون من المؤمنين وقرأ عاصم وحمزة والكسائى أنجانا بحذف التاء وألف بعد الجيم بدل الياء ليوافق قوله تعالى تدعونه وأمالها حمزة والكسائى والباقون بالتاء بعد الياء (قل الله ينجيكم منها) أى تلك الظلمات والشدائد وقرأ هشام وعاصم وحمزة والكسائى بفتح النون وتشديد الجيم والباقون بسكون النون وتخفيف الجيم (ومن كل كرب) أى غم سوى ذلك (ثم أنتم تشركون) أى تعودون الى شركة الاصنام معه التى لا تضر ولا تنفع ولا توفون بالعهد وانما وضع تشركون موضع لا تعبدون تنبيها على ان من أشرك فى عبادة الله تعالى فكأنه لم يعبده (قل) لهم (هو القادر على ان يبعث) فى كل وقت يريده (عليكم) فى كل حالة (عذابا من فوقكم) بارسال الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الفيل (أو من تحت أرجلكم) بالغرق أو الخسف كما فعل بفرعون وقارون وعن ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم السلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم العبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم أى من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم أى من أسفل منكم (أو يلبسكم) اى يخلطكم (شيعا) اى فرقا وينشب فيكم الاهواء المختلفة فيقتل بعضكم بعضا روى لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال صلى الله

مضاف (قوله ما منعك) قال ذلك هنا وقال فى الحجر قال يا ابليس ما لك ص قال يا ابليس ما منعك قال يا ابليس ما منعك بزيادة يا ابليس فيهما لان خطابه هنا قرب من ذكره

عليه وسلم أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك او يلبسكم شيعا (ويذيق بعضكم بأس بعض) اى بالقتال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أهون او أيسر وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم قال سألت ربى ثلاثا أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتى بالسنين فأعطانيها وسألته ان لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى ثلاثا فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة سأله أن لا يسلط على أمته عدوا من غيرهم يظهر عليهم فأعطاه ذلك وسأله أن لا يهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك وسأله أن لا يجعل بأس بعضهم على بعض فمنعه ذلك (انظر) يا محمد (كيف نصرف) أى نبين لهم (الآيات) الدالة على قدرتنا (لعلهم يفقهون) أى يعلمون ان ما هم عليه باطل فيرجعوا عنه (وكذب به) اى القرآن أو العذاب (قومك) أى الذين من حقهم أن يقوموا بجميع أمرك ويسروا بسيادتك فان القبيلة اذا ساد أحدها عزت به فان عزه عزها وشرفه شرفها ولاسيما اذا كان من بيت الشرف ومعدن السيادة واذا سفل أحدها اهتمت به غاية الاهتمام وسترته جهدها مهما أمكنها فان عاره لاحق لها ففهم من عظيم التوبيخ لهم ودقيق التقريع لهم وزاد ذلك بقوله (وهو) أى والحال انه (الحق) أى الثابت الذى لا يضره التكذيب به ولا يمكن زواله (قل) لهم (لست عليكم بوكيل) أى حفيظ وكل الى أموركم فأجازيكم أو أمنعكم من التكذيب انما أنا منذر والله الحفيظ (لكل نبأ) اى خبر أخبركم به من هذه الاخبار (مستقر) أى وقت يقع فيه ويستقر ومنه عذابكم (وسوف تعلمون) صحة ذلك عند وقوعه اما فى الدنيا واما فى الآخرة وفى ذلك تهديد لهم (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) أى القرآن بالاستهزاء والتكذيب (فأعرض عنهم) أى فاتركهم ولا تجالسهم (حتى يخوضوا فى حديث غيره) أى حتى يكون خوضهم فى غير الآيات والاستهزاء بها وذكر الضمير على معنى الآيات لانها القرآن والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ليكون أردع أو لغيره أى واذا رأيت أيها الانسان (واما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما المزيدة (ينسينك الشيطان) أى فقعدت معهم ثم تذكرت (فلا تقعد بعد الذكرى) اى التذكر لهذا النهى (مع القوم الظالمين) أظهر موضع الاضمار تنبيها ودلالة على الوصف الذى هو سبب الخوض وروى ان المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس بالمسجد ونطوف فنزل (وما على الذين يتقون) الله (من حسابهم) أى الخائضين (من شئ) أى شئ مما يحاسبون عليه اذا جالسوهم فمن مزيدة لتأكيد (ولكن) عليهم (ذكرى) اى تذكرة لهم ووعظ ويمنعوهم من الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها وقال سعيد بن جبير ومقاتل هذه الآية ٣ منسوخة بالآية التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله الآية وذهب الجمهور الى أنها محكمة لا نسخ فيها لانها خبر والخبر لا يدخله النسخ ولانه انما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكرة والموعظة (لعلهم يتقون) الخوض فى الآيات (وذر الذين اتخذوا دينهم) اى الذى كلفوه (لعبا ولهوا) باستهزائهم به (وغرتهم الحيوة الدنيا) اى خدعتهم وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق أى فاتركهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضى الاعراض عنهم وهو قبل الامر بالقتال ثم نسخ ذلك

قوله وفى نسخة حذف ذلك وفى نسخة لم يقرب منه قربه هنا تبيينا لم يقرب منه قربه هنا نسخة ذكره واما قوله هنا وفى نسخة صح منه ذلك وفى الخبر ما لك فتنة بجربا على عادة

٣ قوله منسوخة بالآية الخ كذا فى النسخ ولينظر اه

الاعراض بآية السيف (وذكر) أى وعظ (به) أى القرآن الناس (أن) اى كراهة أن (تبسل نفس) أى تسلم الى الهلاك (بما كسبت) أى بسبب ما عملت وأصل الابسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لان فريسته لاتفلت منه والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أى حرام (ليس لها من دون الله) أى غيره (ولى) أى ناصر (ولا شفيع) يمنع عنها العذاب (وان تعدل) أى تلك النفس لاجل التوصل الى الفكاك (كل عدل) أى وان تفد كل فداء والعدل الفدية لانها تعادل المفدى (لايؤخذ منها) ما تفدى به (أولئك) أى الذين عملوا هذه الاعمال البعيدة عن الخير (الذين ابسلوا) أى اسلموا الى العذاب (بما كسبوا) أى بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة (لهم شراب من حميم) أى ماء هو فى غاية الحرارة (و) لهم (عذاب أليم) أى مؤلم (بما) أى بسبب ما (كانوا يكفرون) اى هم بين ماء يغلى يتجرجر فى بطونهم ونار تشتعل فى أبدانهم بسبب كفرهم (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى دين آبائهم (أندعوا) أى نعبد (من دون الله) أى غيره (مالا ينفعنا) أى عبادته (ولا يضرنا) أى بتركها وهو الاصنام (ونرد على أعقابنا) أى نرجع الى الشرك (بعد اذ هدانا الله) تعالى الى التوحيد ودين الاسلام (كالذى استهوته) أى أضلته (الشياطين فى الارض) حالة كونه (حيران) تائها ضالا لايهتدى لوجه ولايدرى كيف يسلك وقرأ حمزة بعد الواو فى استهوته بألف ممالة على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث ورقق ورش را حيران بخلاف عنه (له) أى المستهوى (أصحاب) أى رفقة (يدعونه الى الهدى) أى الى الطريق المستقيم وسماه هدى تسمية للمفعول بالمصدر يقولون له (ائتنا) فلا يجيبهم فيهلك والاستفهام للانكار وجملة التشبيه للحال من ضمير نرد وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن يدعو الى عبادة الاصنام التى لاتضر ولاتنفع ومن يدعو الى عبادة الله عز وجل الذى يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل فى رفقته ضل به الغيلان والشياطين عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه من أهل رفقته يدعونه اليهم يقولون هلم الى الطريق المستقيم وجعل الغيلان يدعونه اليهم فبقى حيران لايدرى أين يذهب فان أجاب الغيلان ضل وهلك وان أجاب أصحابه اهتدى وسلم (قل) لهم (ان هدى الله) الذى هو الاسلام (هو الهدى) وحده وما عداه ضلال (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) أى بأن نخلص العبادة له لانه المستحق العبادة لاغيره وقوله تعالى (وأن أقيموا الصلوة واتقوه) عطف على لنسلم أى للاسلام ولاقامة الصلاة لان فيهما ما يقرب الى الله وروى ان عبد الرحمن بن أبى بكر دعا أباه الى عبادة الاوثان فنزلت (فان قيل) اذا كان هذا واردا فى شأن أبى بكر رضى الله تعالى عنه فكيف قيل للرسول صلى الله عليه وسلم قل أندعو (أجيب) بان ذلك اظهار للاتحاد الذى كان بينه صلى الله عليه وسلم و بين المؤمنين خصوصا الصديق رضى الله تعالى عنه (وهو الذى اليه) لا الى غيره بعد بعثكم من الموت (تحشرون) يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم (وهو الذى خلق السموات والارض) على عظمهما (بالحق) أى بسبب اقامة الحق وقيل خلقهما بكلامه الحق الذى هو قوله تعالى كن وهو دليل على ان كلام الله تعالى ليس بمخلوق لانه لايخلق مخلوق بمخلوق (و) اذكر (يوم يقول) الله للخلق (كن فيكون) أى فهو يكون وهو يوم القيامة يقول للخلق قوموا أحياء (قوله) تعالى (الحق) أى

العرب فى تفننهم فى الكلام (قوله الا تسهيد) قال ذلك بزيادة لا كما فى الاصل وقال فى ص حذفها يعلم وهو الاصل فزيادتها هنا

الصدق الواقع لا محالة (وله الملك يوم ينفخ في الصور) أي النفخة الثانية من اسرافيل عليه الصلاة والسلام وانما أخبر سبحانه وتعالى عن ملكه يومئذ وان كان الملك له سبحانه وتعالى في كل وقت في الدنيا والآخرة لانه لا منازع له يومئذ فان من كان يدعى الملك من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا في الدنيا قد زال ملكهم فاعترفوا أن الملك لله الواحد القهار وأنه لا منازع له تعالى فيه وعلموا ان الذي كانوا يدعونه من الملك في الدنيا غرور وباطل ه (تنبيه) ه اختلفت العلماء في الصور المذكور في الآية فقال قوم هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن وقال مجاهد الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ماروى ان أعرابيا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور قال قرن ينفخ فيه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته واصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على الصحابة فقالوا كيف نعمل يارسول الله أو كيف تقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وقال أبو عبيدة الصور جمع صورة والنفخ فيها احياؤها والاول أصح لما مر في الحديث ولاجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب (عالم الغيب والشهادة) أي ما غاب وما شوهد فلا يغيب عن علمه تعالى شئ (وهو الحكيم) أي في جميع أفعاله وتدبير خلقه (الخبير) بباطن الاشياء كظاهرها بكل ما يعملونه من خير أو شر (واذ قال ابراهيم لابيه آزر) اختلف العلماء في لفظة آزر فقال مجاهد آزر اسم أبي ابراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة وقال البخاري في تاريخه الكبير ابراهيم بن آزر وهو في التوراة تارخ فعلى هذا يكون لابي ابراهيم اسمان آزر وتارخ مثل يعقوب واسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه آزر وتارخ لقب له وبالعكس فالله سماه آزر وان كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو ابراهيم من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة وقال سعيد بن المسيب ومجاهد آزر اسم صنم كان والد ابراهيم يعبده وانما سماه بهذا الاسم لان من عبد شيأ أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسماله فهو كقوله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم وقيل معناه واذ قال ابراهيم لابيه يا عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه والاول أصح لان آزر اسم أبي ابراهيم لان الله تعالى سماه به وأخرج البخاري في افراده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه الصلاة والسلام أباه آزر يوم القيامة على وجهه أي آزر قترة وغبرة الحديث سماه النبي صلى الله عليه وسلم آزر أيضا ولم يقل أباه تارح كما نقل عن النسابين والمؤرخين فثبت بهذا ان اسمه الاصلي آزر لا تارح وكان أهل تلك البلاد وهم الكنعانيون يعتقدون الهية النجوم في السماء والاصنام في الارض فيجعلون لكل نجم صنما فاذا أرادوا التقرب الى ذلك النجم عبدوا ذلك الصنم ليشفع لهم عند ذلك النجم فقال ابراهيم منكرا عليهم منبها لهم على ظهور فساد ما هو مرتكبه (أتتخذ) أي أتكلف نفسك الى خلاف ماتدعو اليه الفطرة الاولى بان تجعل (أصناما آلهة) أي تعبدها وتخضع لها ولا نفع فيها ولا ضر (انى أراك وقومك) أي في اتفاقكم على هذا (في ضلال) اى بعد عن الصراط المستقيم (مبين) أي ظاهر جدا لبديهة العقل مع مخالفته لكل نبي نبأه الله تعالى من آدم عليه السلام فمن بعده

لنا كم معه في النسخ في منعك أو التضمين منعك منعك وهي على الثانى ابيت سالك وهي على الثانى (قوله فما زائدة في المصحف (قوله فما يكونلك ان تتكبر فيها)

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (وكذلك) أى ومثل هذا التبصير العظيم الشأن (نرى ابراهيم) أى نبصره وهى حكاية حال ماضية (ملكوت السموات والارض) أى عجائبهما وبدائعهما والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرغبة والرهبة والرحمة وقال ابن عباس خلق السموات والارض وقال مجاهد وسعيد بن جبير يعنى آيات السموات والارض وذلك انه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسى وما فى السموات من العجائب وحتى رأى مكانه فى الجنة فذلك قوله تعالى وآتيناه أجره فى الدنيا يعنى أريناه مكانه فى الجنة وكشف له عن الارض حتى نظر أسفل الارضين ورأى ما فيها من العجائب وروى عن سلمان ورفعه بعضهم عن على قال لما رأى ابراهيم ملكوت السموات والارض أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له الرب تبارك وتعالى يا ابراهيم انك رجل مجاب الدعوة فلا تدع على عبادى فانما أنا من عبدى على ثلاث خلال اما أن يتوب الى فأتوب عليه واما أن أخرج منه نسمة تعبدنى واما أن يبعث الى فان شئت عفوت عنه وان شئت عاقبته وفى رواية فان تولى فان جهنم من ورائه وقال قتادة ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الارض الجبال والشجر والبحار وقيل ان هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لان ذلك لا يدرك الا بالعقل فأريناه ذلك ليستدل به على توحيدنا (وليكون من الموقنين) واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة لان الانسان فى أول الحال لا ينفك عن شبهة فاذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سببا لحصول اليقين والطمأنينة فى القلب وزالت الشبهة عند ذلك قال ابن عباس فى وليكون من الموقنين جلى له الامر سره وعلانيته فلم يخف عليه شئ من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى انك لا تستطيع هذا فرده الله تعالى كما كان قبل ذلك (فلما جن عليه الليل) أى دخل فيه (رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل) اى غاب (قال لا أحب الآفلين) وذلك ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم ولد فى زمن نمروذ بن كنعان وكان النمروذ أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس الى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له انه يولد فى بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الارض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال انهم وجدوا ذلك فى كتب الانبياء وقال السدى ان النمروذ رأى فى منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا ودعا السحرة والكهنة فسألهم فقالوا هو مولود يولد فى ناحيتك فى هذه السنة فيكون هلاكك وهلاك ملكك وأهل بيتك على يديه فأمر بذبح كل غلام يولد فى ناحيته فى تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشرة رجلا فاذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها لانهم كانوا لا يجامعون فى الحيض فاذا طهرت حيل بينهما فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت فواقعها فحملت بابراهيم قال محمد بن اسحق بعث نمروذ الى كل امرأة حبلى بقريته يحبسها عنده الا ما كان من أم ابراهيم فانه لم يعلم بحبلها لانها كانت صغيرة لم يعرف الحبل ببطنها وقال السدى خرج نمروذ بالرجال الى العسكر ونحاهم عن النساء خوفا من ذلك ثم بدت له حاجة الى المدينة فلم يأمن عليها أحدا من قومه الا

أى فى السماء خصوصا بالذكر لانها مقر الملائكة المطيعين لله والذين لا يعصون الله والا فليس لابليس ان يتكبر فى الارض ايضا (قوله

أزر

آزر فبعث اليه وأقسم عليه أن لايدنو من أهله فقال آزر أنا أشح على ديني من ذلك فاوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجته ثم قال لو دخلت على أهلي فنظرت اليهم فلما نظر الى أم ابراهيم لم يتمالك حتى واقعها فحملت بابراهيم قال ابن عباس لما حملت أم ابراهيم به قال الكهان لنمروذ ان الغلام الذي أخبرناك عنه قد حملته أمه الليلة فأمر نمروذ بذبح الغلمان قال محمد بن اسحق لما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلا الى مغارة وكانت قريبة منها فولدت فيها ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت الى بيتها وكانت تختلف اليه فتنظر ما فعل فتجده يمص من اصبع ماء ومن اصبع لبنا ومن اصبع عسلا ومن اصبع تمرا ومن اصبع سمنا وقال محمد بن اسحق كان آزر قد سأل أم ابراهيم عن حملها فقالت ولدت غلاما فمات فصدقها وكان اليوم على ابراهيم في الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث ابراهيم في المغارة الا خمسة عشر شهرا حتى قال لامه اخرجيني فاخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والارض وقال ان الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي ما لي اله غيره ثم نظر في السماء فرأى كوكبا فقال هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب فلما أفل قال لا أحب الآفلين (فلما رأى القمر بازغا) أي مبتدئا في الطلوع (قال هذا ربي) فاتبعه بصره (فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) وقيل انه كان في السرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة قال بعض أهل التفسير فلما شب ابراهيم وهو في السرب قال لامه من ربي قالت أنا قال فمن ربك قالت أبوك قال فمن رب أبي قالت اسكت فسكت ثم رجعت الى زوجها فقالت الغلام الذي كان يحدث انه يغير دين أهل الارض فانه ابنك ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه فقال له ابراهيم يا أبتاه من ربي قال أمك قال فمن رب أمي قال أنا قال فمن ربك قال نمروذ قال فمن رب نمروذ فلطمه وقال اسكت فلما أخرج من السرب وجن عليه الليل رأى المشترى قد طلع وقيل الزهرة وكانت تلك الليلة في آخر الشهر فتأخر القمر فيها فرأى الكوكب فقال ذلك وهل ذلك جار على ظاهره أو مؤول جرى بعضهم على الاول وقال كان ابراهيم مسترشدا طالبا للتوحيد حتى وفقه الله تعالى فلم يضره ذلك وأيضا كان ذلك في طفوليته قبل قيام الحجة عليه فلم يكن كفرا والاصح الثاني اذ لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الاوقات الا وهو لله تعالى موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه بري ثم قالوا في تأويله أوجه أحدها وهو الاصح ان ابراهيم ذكر ذلك على وجه الاحتجاج عليهم بقوله هذا ربي أي في زعمكم فلما غاب قال لو كان الها لما غاب كما قال تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم أي عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى أنه قال وانظر الى الهك أي في زعمك فلما أفل قال لا أحب الآفلين فضلا عن عبادتهم فان الانتقال والاحتجاب يقتضي الامكان والحدوث وينافي الالوهية فلم ينجع فيهم ذلك فلما رأى القمر بازغا قال لهم هذا ربي فلما أفل أي غاب قال لئن لم يهدني ربي أي يثبتني على الهدى لا انه لم يكن مهتديا والانبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الايمان وكان ابراهيم عليه السلام يقول واجنبني وبني أن نعبد الاصنام (فلما رأى الشمس بازغة) أي عند طلوع النهار (قال) لهم (هذا ربي هذا أكبر) أي من الكواكب والقمر ولم يقل هذه

انظرني الى يوم يبعثون) قاله هنا بحذف الفاء موافقة لحذف با بليس هنا وقال في الحجر وص بذكرها موافقة لذكره ثم

مع أن الشمس مؤنثة لانه أراد هذا الطالع أو رده الى المعنى وهو الضياء والنور لانه رآه أضوأ من النجم والقمر أو ذكره لتذكير خبره (فلما أفلت) اى غربت وقويت عليهم الحجة فلم يرجعوا (قال يا قوم انى برىء مما تشركون) أى بالله من الاصنام والاجرام المحدثة المحتاجة الى محدث التى تجعلونها شركاء لخالقها والوجه الثانى من التاويل أنه قال ذلك على وجه الاستفهام تقديره أهذا ربى كقوله تعالى أفان مت فهم الخالدون أى أفهم الخالدون وذكره على وجه التوبيخ منكرا لفعلهم والوجه الثالث انه أراد أن يستدرجهم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم ومثل هذا مثل من ورد على قوم يعبدون صنما فاظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدروا فى كثير من الامور عن رأيه الى أن دهمهم عدو فشاوروه فى أمره فقال الرأى أن ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنا ما أصابنا فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبين لهم أنه لا ينفع ولا يدفع دعاهم الى أن يدعوا الله تعالى فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا (فان قيل) لم احتج عليهم بالافول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال الى حال (أجيب) بان الاحتجاج بالافول اظهر لانه انتقال مع خفاء واحتجاب ولما اظهر خلاف قومه واستمروا فى شركهم وقالوا له من تعبد أنت أظهر لهم ما هو عليه من الحق بقوله (انى وجهت وجهى) أى أخلصت قصدى وصرفت عبادتى (للذى فطر السموات والارض) أى خلقهما وابتدعهما وهو الله تعالى (حنيفا) أى مائلا الى الدين القويم عن كل دين يخالفه وأصل الحنف الميل وهو عن طريق الضلال الى طريق الاستقامة وقيل الحنيف هو الذى يستقبل الكعبة بصلاته (وما أنا من المشركين) تبرأ من الشرك الذى كان عليه قومه أى وما أنا منكم ولا أعد فى عدادكم بشئ أقار بكم به (وحاجه قومه) أى خاصموه فى التوحيد وهددوه بالاصنام أن تصيبه بسوء ان لم يرجع عن الكلام فيها (قال) لهم (أتحاجونى) أى أتجادلونى (فى الله) أى فى وحدانيته وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف النون وهى نون الرفع عند النحاة ونون الوقاية عند القراء والباقون بالتشديد (وقد) أى والحال انه قد (هدان) الى توحيده ومعرفته (ولا أخاف ما تشركون به) شيأ وذلك ان ابراهيم لما رجع الى أبيه وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذباحين أى ذباحى نمروذ وضمه آزر الى نفسه وجعل آزر يصنع الاصنام ويعطيها لابراهيم ليبيعها فيذهب بها ابراهيم وينادى من يشترى ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فاذا بارت عليه ذهب بها الى النهر فصوب رؤسها وقال اشربى استهزاء بقومه وما هم عليه حتى فشا استهزاؤه بها فى قومه وأهل قريته فقالوا له احذر الاصنام فانا نخاف أن تمسك بخبل أو جنون بعيبك اياها فقال انما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله تعالى (الا أن يشاء ربى شيأ) وهذا استثناء منقطع معناه لكن ان شاء ربى شيأ من المكروه يصيبنى فيكون لانه قادر على النفع والضر وانما قال ابراهيم ذلك لاحتمال ان الانسان قد يصيبه فى بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه الى الاصنام فنفى هذه الشبهة بذلك (وسع ربى كل شئ علما) أى أحاط علمه بكل شئ من معلومه (أفلا تتذكرون) أى يقع منكم تذكر فتميزوا بين الحق والباطل والقادر والعاجز

لما تضمنه النداء من ادعوك وأناديك كما فى قوله ربنا فاغفر لنا (قوله قال انك من المنظرين) قاله هنا بحذف الفاء وأثبتها بعدها فى القاصر

(وكيف

(وكيف أخاف ما أشركتم) به أى من الاصنام وهى لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع (ولا تخافون) أنتم (أنكم أشركتم بالله) وهو تعالى حقيق بأن يخاف منه كل الخوف لانه اشراك للمصنوع مع الصانع وتسوية بين المقدور العاجز والقادر الضار النافع (مالم ينزل به) أى بعبادته (عليكم سلطانا) أى حجة وبرهانا وهو القادر على كل شئ (فأى الفريقين) أى حزب الله وحزب ما أشركتم ولم يقل فأينا تعميها للمصنف (أحق بالامن) أهم الموحدون أو المشركون (ان كنتم تعلمون) من الاحق أى ان كان لكم علم فاخبرونى عما سألتكم عنه والاحق بذلك هم الموحدون فاتبعوهم قال تعالى قاضيا بينهما (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) أى لم يخلطوا ايمانهم بشرك روى انه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقالوا يارسول الله فاينا لم يظلم نفسه فقال ليس ذلك انما هو الشرك ألم تسمعوا الى ما قال لقمان لابنه يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم (اولئك) أى الموصوفون بما ذكر (لهم الامن) أى من العذاب المؤبد (وهم مهتدون) وقوله تعالى (وتلك) مبتدأ ويبدل منه (حجتنا) وهى ما احتج به ابراهيم على قومه من قوله تعالى فلما جن عليه الليل الى قوله وهم مهتدون أو من قوله تعالى أتحاجونى فى الله والخبر (آتيناها ابراهيم) اى أرشدناه لها حجة (على قومه) ثم انه سبحانه وتعالى لما تفضل على خليله صلى الله عليه وسلم برفعه على قومه قال تعالى (نرفع درجات من نشاء) فى العلم والحكمة وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتنوين التاء والباقون بغير تنوين (ان ربك حكيم) فى صنعه فيرفع من يشاء ويخفض من يشاء (عليم) بخلقه فهو الفعال لما يريد (ووهبنا له) اى ابراهيم (اسحق) اى ابناله (ويعقوب) أى ابنا لاسحق فهو ابن ابنه (كلا) منهما ومن أبيهما (هدينا) ه الى سبيل الرشاد ووفقناه الى طريق الحق والصواب (ونوحا هدينا) ه (من قبل) أى قبل ابراهيم (ومن ذريته) أى نوح لا ابراهيم لانه تعالى ذكر فى جملتهم يونس ولوطا ولم يكونا من ذرية ابراهيم وقيل الضمير لابراهيم ويكون ذلك من باب التغليب فان التغليب سائغ شائع فى انتساب العرب (داود) وهو ابن ايشا هديناه وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة (وسليمان) هو ابن داود وهما اللذان بنيا بيت المقدس بامر الله تعالى داود بخطه وتاسيسه وسليمان باكماله وتشييده (وايوب) هو ابن أموص بن رزاح بن روم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم (ويوسف) هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (فان قيل) لم قدم أيوب على يوسف مع ان يوسف أقرب منه (أجيب) بانه قدمه للمناسبة بينه وبين سليمان لان كلا منهما ابتلى باخذ كل ما فى يده ثم رده الله تعالى اليه (وموسى) هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب (وهرون) هو أخو موسى أكبر منه بسنة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (وكذلك) كما جزينا ابراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه بان رفعنا درجته ووهبنا له أولادا أنبياء (نجزى المحسنين) على احسانهم (وزكريا) هو ابن أدن بن بركيا وقرأ حفص وحمزة والكسائى بغير همز والباقون بالهمز (ويحيى) هو ابن زكريا (وعيسى) هو ابن مريم بنت عمران (والياس) قال ابن مسعود هو ادريس وله اسمان مثل يعقوب واسرائيل قال البغوى والصحيح أنه غيره لان الله تعالى ذكره فى ولد نوح وادريس جد أبى نوح وهو الياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران (كل) منهم (من

السؤال هنا وقال فى الجبر
وصى بذكرها موافقة
لذكرها فيه ثم (فان قلت)
كيف أجيب ابليس الى
الانظار مع انه انما طلبه

الصالحين) أي الكاملين في الصلاح وهو الاتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي (واسمعيل) هو ابن ابراهيم وانما أخر ذكره الى هنا لانه ذكر اسحق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر اسمعيل الى هنا (واليسع) هو أخطوب بن العجوز وقرأ حمزة والكسائي بتشديد اللام وسكون الياء والباقون بسكون اللام وفتح الياء (ويونس) هو ابن متى (ولوطا) هو ابن هرون أخي ابراهيم (وكلا) منهم (فضلنا على العالمين) اي بالنبوة وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق من أنس وملك ويستدل بهذه الآية من يقول ان الانبياء أفضل من الملائكة وقوله تعالى (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم) عطف على كلا أو نوحا ومن للتبعيض أي وفضلنا بعض آبائهم وبعض ذرياتهم واخوانهم لان آباء بعضهم كانوا مشركين وعيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان في ذرية بعضهم من كان كافرا كابن نوح وقوله تعالى (واجتبيناهم) أي اخترناهم عطف على فضلنا أو هدينا (وهديناهم) أي وأرشدناهم (الى صراط مستقيم) هو الدين الحق (ذلك) أي الذي هدوا اليه (هدى الله يهدي به من يشاء من عباده) سواء كان له أب يعلمه أو كان له من يحمله على الضلال أم لا فهو سبحانه وتعالى هو المتفضل بالهداية (ولو أشركوا) أي ولو فرض اشراك هؤلاء الانبياء بعد علو درجتهم وفضلهم (لحبط عنهم) أي لفسد وسقط (ما كانوا يعملون) اي لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) اي اولئك الذين سميناهم من الانبياء وهم ثمانية عشر نبيا أعطيناهم الكتاب فالمراد بالكتاب الجنس (والحكم) اي العمل المتقن بالعلم (والنبوة) اي وشرفناهم بالنبوة والرسالة (فان يكفر بها) اي بهذه الثلاثة (هؤلاء) اي أهل مكة الذين أنت بين أظهرهم (فقد وكلنا بها) اي وفقنا للايمان بها والقيام بحقوقها (قوما ليسوا بها بكافرين) كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه واختلف في ذلك القوم فقال ابن عباس هم الانصار وأهل المدينة وقال الحسن وقتادة هم الانبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال والدليل عليه قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقال عطاء العطاردي هم الملائكة ونظر فيه لان اسم القوم لا يطلق الا على بني آدم وقيل هم الفرس وقيل هم المهاجرون والانصار واستظهر وقال ابن زيد كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا أم نبيا أم صحابيا أم تابعيا والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها فانها ليست هدى مضافا الى الكل ولا يمكن التأسي بهم جميعا فليس فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم متعبد بشرع من قبله واستدل بعض العلماء بهذه الآية على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال وبيانه ان جميع الخصال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه وكان ابراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة في الله عز وجل وكان اسحق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة كما قال تعالى اعملوا آل داود شكرا وكان أيوب صاحب صبر على البلاء كما قال تعالى انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وكان يوسف قد جمع بين الحالتين أي الصبر والشكر وكان

ليقصد أحوال عباد الله تعالى (قلت) لما في ذلك من ابتلاء العباد ولما في مخالفته من أعظم الثواب (قوله قال فبها أهو يقتدي) قال ذلك هنا

موسى

موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزات الباهرة وكان زكريا ويحيى وعيسى والياس من اصحاب الزهد فى الدنيا وكان اسمعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع واحسان ثم ان الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة والمتفرقة فثبت بهذا البيان أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء لما اجتمع فيه من الخصال التى كانت متفرقة فى جميعهم اه وقرأ حمزة والكسائى بحذف الهاء فى الوصل وحرك الهاء بحركة مختلسة ابن عامر ومد على الهاء ابن ذكوان بخلاف عنه وسكن الهاء الباقون فى الوصل وأما فى الوقف فجميع القراء يثبتون الهاء ويسكنونها (قل) يا محمد لاهل مكة (لا أسئلكم عليه) اى القرآن أو التبليغ (أجرا) اى لا أطلب على ذلك جعلا (ان هو) اى القرآن أو التبليغ (الا ذكرى) أى عظة (للعالمين) أى الانس والجن (وما قدروا) أى اليهود (الله حق قدره) اى ما عرفوه حق معرفته أو ما عظموه حق عظمته (اذ قالوا) للنبى صلى الله عليه وسلم وقد خاصموه فى القرآن (ما أنزل الله على بشر من شئ) قال سعيد بن جبير جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم يخاصم النبى صلى الله عليه وسلم بمكة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله تعالى يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا والحبر بالفتح والكسر وهو أفصح العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه قاله الجوهرى فغضب فقال والله ما أنزل الله على بشر من شئ فقال له قومه ويلك ما هذا الذى بلغنا عنك فقال انه أغضبنى فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقال السدى نزلت فى فنحاص بن عازوراء وهو قائل هذه المقالة وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قالت اليهود يا محمد أنزل الله تعالى عليك كتابا قال نعم قالوا والله ما أنزل الله من السماء كتابا قال الله تعالى (قل) لهم (من أنزل الكتاب) أى التوراة (الذى جاء به موسى) أى الذى أنتم تزعمون القطع بشرعه حال كون الكتاب (نورا) أى ذا نور أى ضياء من ظلمة الضلالة (وهدى) أى ذا هدى (للناس) أى يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن يبدل ويغير (يجعلونه قراطيس) أى يكتبونه فى دفاتر مقطعة (يبدونها) أى يظهرون ما يحبون اظهاره منها (ويخفون كثيرا) أى مما كتبوه فى القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومما أخفوه أيضا آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم فى التوراة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء فى المواضع الثلاثة على الغيبة حملا على قالوا وما قدروا والباقون بالتاء على الخطاب وتضمن ذلك توبيخهم على سوء جهلهم للتوراة وذمهم على تجزئتها بابداء بعض انتخبوه وكتبوه فى ورقات متفرقة واخفاء بعض لا يشتهونه وقوله تعالى (وعلمتم) أى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم (ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم) خطاب لليهود أى علمتم زيادة على ما فى التوراة وبيانا لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم ونظيره ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ويذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الخطاب لمن آمن من قريش وقوله تعالى (قل الله) أنزله راجع الى قوله تعالى قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى اى فان أجابوك بأن الله أنزله فذاك والا فقل أنت الله أنزله

بالتاء وفى الجر بحذفها مع التاء وفى الجر بمدخول الباء ازماقهما فى مدخول الباء وقال فى ص فيعز نل بالتاء مع مخالفته لتينك فى مدخول الباء لان الفاء وقعت فى محلها هنا وفى ص لا لانها متسببة

اذلاجواب غيره (ثم ذرهم) اى اتركهم (فى خوضهم) أى باطلهم (يلعبون) أى يستهزؤن ويسخرون وفيه وعيد وتهديد للمشركين وقال بعضهم هذا منسوخ بآية السيف (وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه مبارك) أى كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية وأصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير (مصدق الذى بين يديه) أى قبله من الكتب الالهية المنزلة من السماء على الانبياء لانها مشتملة على التوحيد والتنزيه لله تعالى وعلى البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقا لجميع الكتب المنزلة وقوله تعالى (ولينذر) قرأ شعبة بالياء على الغيبة أى لينذر الكتاب والباقون بالتاء على الخطاب أى ولتنذر يا محمد (أم القرى) أى أهل مكة وسميت أم القرى لانها قبلة أهل القرى ومحجهم ومجتمعهم وأعظم القرى شأنا ولبعض المجاورين

فمن يلق فى بعض القريات رحله • فأم القرى ملقى رحالى ومنتاى

وقيل لان الارض دحيت من تحتها أولانها مكان أول بيت وضع للناس (ومن حولها) أى جميع البلاد والقرى التى حولها شرقا وغربا (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) لان من صدق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبى والكتاب والضمير يحتملهما ويحافظ على الطاعة وتخصيص الصلاة فى قوله تعالى (وهم على صلاتهم يحافظون) لانها عماد الدين وعلم الايمان ومن حافظ عليها كانت لطفا له فى المحافظة على أخواتها (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى) أى اختلق (على الله كذبا) فزعم أن الله بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والاسود العنسى أو اختلق عليه أحكاما كعمرو بن لحى ومتابعيه (أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شئ) قال قتادة نزلت فى مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة وكان يسجع ويتكهن فادعى النبوة وزعم أن الله تعالى أوحى اليه وكان قد أرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهدان أن مسيلمة نبى قالا نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا نائم اذ أوتيت خزائن الارض فوضع فى يدى سواران من ذهب فكبرا على وأهمانى فأوحى الله تعالى الى أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة مسيلمة الكذاب وفى لفظ الترمذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت فى المنام كان فى يدى سوارين فأولتهما كذابين يخرجان بعدى يقال لاحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسى صاحب صنعاء وقوله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله الى أن انفخهما بالحاء المهملة ومعناه الرمى والدفع من نفحت الدابة برجلها ويروى بالخاء المعجمة من النفخ وهو قريب من الاول فأما مسيلمة الكذاب فانه ادعى النبوة فى اليمامة وتبعه قوم من بنى حنيفة وقتل فى خلافة أبى بكر قتله وحشى قاتل حمزة رضى الله تعالى عنهما وكان يقول قتلت خير الناس يعنى حمزة وقتلت شر الناس يعنى مسيلمة الكذاب قتل الاول وهو كافر وقتل الثانى وهو مسلم وأما الاسود العنسى بالنون ويقال له ذو الحمار ادعى النبوة باليمن فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل فى حياته صلى الله عليه وسلم قبل موته بيومين وأخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقتله قتله فيروز الديلمى فقال صلى الله

عليه

عماة يليها ولامانع من حذف ولم يحسن فى الجر لوقوع النداء ثم فى قوله ربما أغويتنى والنداء يستأنف له الكلام ويقطع والباء فى المواضع الثلاثة للسببية

قوله ويروى الخ هو الذى اقتصر عليه الزرقانى فى شرح المواهب والذى فى الصحاح نفحت الناقة برجلها ضربت اه

عليه وسلم فازفيروز بقتل الاسود العنسى (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قال السدى نزلت فى عبد الله بن أبى سرح وكان قد أسلم وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فكان اذا أملى عليه صلى الله عليه وسلم سميعا بصيرا كتب عليما حكيما واذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين أملاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الانسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال النبى صلى الله عليه وسلم اكتبها هكذا نزلت فشك عبد الله بن أبى سرح وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحى الى مثل ما أوحى اليه فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين ثم رجع بعد ذلك الى الاسلام فأسلم قبل فتح مكة حين نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وقال ابن عباس ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله يريد المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل فى حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا فى ذلك الزمان وبعده لان خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم (ولو ترى) يا محمد (اذ الظالمون) حذف مفعوله لدلالة الظرف عليه أى ولو ترى الظالمين المذكورين (فى غمرات) أى شدائد (الموت) من غمره الماء اذا غشيه فاستعير للشدة الغالبة (والملائكة باسطوا أيديهم) أى لقبض أرواحهم كالمتقاضى الملازم لغريمه لا يفارقه أو بالعذاب أو الضرب يضربون وجوههم وأدبارهم يقولون لهم تعنيفا (أخرجوا أنفسكم) الينا لنقبضها (فان قيل) انه لا قدرة لاحد على اخراج روحه من بدنه فما فائدة هذا (أجيب) بأنهم يقولون لهم أخرجوها كرها لان المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر وقيل يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب ان قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخا لهم لانهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب فى ذلك الوقت (اليوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) أى كادعاء الولد والشريك له تعالى ودعوى النبوة والايحاء كذبا (وكنتم عن آياته تستكبرون) أى تتكبرون عن الايمان بها وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا (و) يقال لهم اذا بعثوا للحساب والجزاء (لقد جئتمونا فرادى) أى منفردين عن الاهل والمال والولد وسائر ما آثرتموه من الدنيا أو عن الاعوان والاوثان التى زعمتم انها شفعاؤكم وهو جمع فرد والالف للتأنيث ككسالى وفى هذا تقريع وتوبيخ لهم لانهم صرفوا هممهم فى الدنيا الى تحصيل المال والولد والجاه وافنوا أعمارهم فى عبادة الاصنام فلم يغن عنهم ذلك شيئا يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه فى الدنيا (كما خلقناكم أول مرة) أى حفاة عراة غرلا روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قرأت هذه الآية فقالت يا رسول الله واسوأتاه ان الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم الى سوأة بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال الى النساء ولا النساء الى الرجال وروى عنها انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا أى غير مختونين وفى رواية زيادة على ذلك بهما قال البخوى وغيره أى ليس معهم شئ قالت عائشة رضى الله عنها فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الامر أشد أن يهمهم ذلك (وتركتم ما خولناكم) أى ما تفضلنا به عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة (وراء ظهوركم) أى فى الدنيا

أو للقسم وما بعدها فى ص موافق لما بعدها فى غيرها فى المعنى وان خالفه لفظا فلا اختلاف فى الحقيقة اذ اغواء الله للشيطان يتضمن عزته تعالى (قوله فوسوس

فما أغنى عنكم ما كنتم منه تستكثرون (و) يقال لهم توبيخا (ما نرى معكم شفعاءكم) أى الاصنام (الذين زعمتم انهم فيكم) أى فى استحقاق عبادتكم (شركاء) أى لله وقوله تعالى (لقد تقطع بينكم) قرأه نافع وحفص والكسائى بنصب النون أى لقد تقطع ما بينكم من الوصل والباقون بالرفع أى لقد تقطع وصلكم والبين من الاضداد يستعمل للوصل والفصل (وضل) أى ذهب (عنكم ما كنتم تزعمون) أى من أنها شفعاؤكم أو أن لا بعث ولا جزاء (ان الله فالق) أى شاق (الحب) اى عن النبات (والنوى) اى عن النخل وقيل المراد الشق الذى فى الحنطة والنواة والحب جمع الحبة وهو اسم لجميع البزور والحبوب من البر والشعير والذرة وكل ما لم يكن له نوى والنوى جمع نواة وهى كل ما لم يكن حبا كالتمر والمشمش وغيرهما وقال الضحاك فالق الحب والنوى يعنى خالق الحب والنوى (يخرج الحى من الميت) أى كالانسان من النطفة والطائر من البيضة (ومخرج الميت من الحى) كالنطفة من الانسان والبيضة من الطائر (تنبيه) مخرج معطوف على فالق كما قاله الزمخشرى ويصح عطفه على يخرج لان عطف الاسم المشابه للفعل على الفعل صحيح كعكسه وهو عطف الفعل على الاسم الشبيه بالفعل كقوله تعالى ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا فاقرضوا معطوف على المصدقين لشبهه بالفعل لكونه اسم فاعل ومخرج شبيه بالفعل لكونه اسم فاعل وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بتشديد الياء والباقون بالتخفيف (ذلكم) المحيى والمميت هو (الله) الذى تحق له العبادة (فانى) أى فكيف (تؤفكون) اى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذى هو خالق الاشياء كلها وقوله تعالى (فالق الاصباح) مصدر بمعنى الصبح أى شاق عمود الصبح وهو أول ما يبدو من النهار عن ظلمة الليل أو شاق ظلمة الاصباح وهو الغبش الذى عليه فى آخر الليل (وجاعل الليل سكنا) أى يسكن فيه الخلق راحة لهم قال ابن عباس اذ كل ذى روح يسكن فيه لان الانسان قد أتعب نفسه فاحتاج الى زمان يستريح فيه ما يسكن فيه عن الحركة وذلك هو الليل وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بنصب العين واللام ولا ألف قبل العين على الماضى حملا على معنى المعطوف عليه فان فالق بمعنى فلق والباقون بكسر العين ورفع اللام وألف قبل العين وقوله تعالى (والشمس والقمر) منصوبان باضمار فعل دل عليه جاعل الليل أى وجعل الشمس والقمر (حسبانا) أى حسابا للاوقات أو الباء محذوفة وهو حال من مقدر أى يجريان بحسبان كما فى آية الرحمن وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره فى هذه الآية من الاشياء التى خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله (تقدير العزيز العليم) فالعزيز اشارة الى كمال قدرته والعليم اشارة الى كمال علمه (وهو الذى جعل) أى خلق (لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) أى فى ظلمات الليل فى البر والبحر واضافتها اليهما للملابسة أو فى مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة وهو افراد لبعض منافعها بالذكر بعد ما أجملها بقوله لكم ومن منافعها أنها زينة للسماء كما قال تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ومنها رمى الشياطين كما قال تعالى وجعلناها رجوما للشياطين (قد فصلنا) أى بينا (الآيات) أى الدالات على قدرتنا وتوحيدنا (لقوم يعلمون) أى يتدبرون فانهم المنتفعون به (وهو الذى انشأكم) اى خلقكم (من نفس واحدة) أى من آدم عليه الصلاة والسلام فهو

ابو

لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما) اللام فيه لام العاقبة والصيرورة لا لام كى لان الغرض اخراجهما من الجنة لا كشف عورتهما

أبو البشر كلهم وحواء مخلوقة منه وعيسى أيضا لان ابتداء خلقه من مريم وهي من بنات آدم فثبت ان جميع البشر من آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) أي فمستقر في الرحم ومستودع في القبر الى أن يبعث أو فمستقر في أرحام الامهات ومستودع في أصلاب الآباء قال سعيد بن جبير قال لي ابن عباس هل تزوجت قلت لا قال أما انه ما كان مستودعا في ظهرك فسيخرجه الله عز وجل أو مستقر في الرحم ومستودع فوق الارض قال تعالى ونقر في الارحام ما نشاء أو فمستقر على وجه الارض ومستودع عند الله في الآخرة أو فمستقر في القبر ومستودع في الدنيا وكان الحسن يقول يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك يوشك ان تلحق بصاحبك أو فمستقر في القبر ومستودع في الجنة أو النار قال تعالى في صفة الجنة حسنت مستقرا وفي صفة النار ساءت مستقرا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر القاف على اسم الفاعل والمستودع مفعول أي فمنكم قار ومنكم مستودع لان الاستقرار من الله تعالى دون الاستيداع لان الاستقرار في الاصلاب أو فوق الارض لا صنع للعبد فيه بخلاف الاستيداع في الارحام أو تحت الارض والباقون بالنصب (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أي يفهمون ما يقال لهم ذكر مع ذكر النجوم يعلمون لان أمرها ظاهر وذكر مع تخليقه بني آدم يفقهون لان انشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج الى استعمال فطنة وتدقيق نظر (وهو الذي أنزل من السماء ماء) أي مطرا وهو من السحاب أو من جانب السماء وقيل ان الله تعالى ينزله من السماء الى السحاب ثم من السحاب الى الارض (فأخرجنا به) أي بالماء وفي ذلك التفات حيث لم يقل فأخرج على وفق أنزل (نبات كل شيء) أي شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات فالسبب واحد وهو الماء والمسببات صنوف متفرقة كما قال تعالى تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل (فأخرجنا منه) أي من النبات أو الماء (خضرا) أي شيأ أخضر يقال أخضر وخضر مثل أعور وعور والاخضر هو جميع البقول والزروع والبقول الرطبة (نخرج منه) أي الخضر (حبا متراكبا) أي يركب بعضه بعضا كسنابل الحنطة والشعير والارز والذرة وقوله تعالى (ومن النخل) خبر مقدم ويبدل منه (من طلعها) وهو أول ما يخرج منها والمبتدأ (قنوان) أي عراجين (دانية) أي قريبة من التناول يتناولها النائم والقاعد أو قريب بعضها من بعض وانما اقتصر على ذكرها عن مقابلها وهي البعيدة لا لانها عليها كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أي والبرد واكتفى بذكر أحدهما وحكمة تخصيص الدانية بالذكر زيادة النعمة فيها وقوله تعالى (وجنات) عطف على نبات كل شيء أي وأخرجنا به بساتين (من أعناب) وقوله تعالى (والزيتون والرمان) عطف أيضا على نبات أي وأخرجنا به شجر الزيتون والرمان (مشتبها وغير متشابه) قال قتادة معناه مشتبها ورقها مختلفا ثمرها لان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان وقيل مشتبها في المنظر مختلفا في الطعم والله سبحانه ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وقدم الزرع على الاشجار لان الزرع غذاء وثمار الاشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وقدم النخل على غيرها لان ثمرها يجري مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الاشجار قال بعضهم وليس انما أتى من الشجر يحتاج الى ذكر غير النخل أي في تطييب ثمرها وذكر العنب عقب النخل لانه من أشرف

كما في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وقول الشاعر
لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلكم يصير الى التراب
(قوله كما بدأكم تعودون)

أنواع الفواكه ثم ذكر عقيبه الزيتون لما فيه من البركة والنفع ثم ذكر بعده الرمان لما فيه من المنافع أيضا (انظروا) أيها المخاطبون نظر اعتبار (الى ثمره) قرأ حمزة والكسائى بضم الثاء والميم والباقون بالنصب وهو جمع ثمرة كشجرة وشجر وخشبة وخشب (اذا أثمر) اى حين يبدو من أكمامه ضعيفا قليل النفع أو عديمه (و) انظروا الى (ينعه) اى الى ادراكه اذا أدرك وحان قطافه كيف يصير ذا نفع ولذة والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله هذه الثمرة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله تعالى (ان فى ذلكم لآيات) اى دلالات على قدرته تعالى على البعث وغيره فان حدوث الاجناس المختلفة والانواع المتفننة من أصل واحد ونقلها من حال الى حال لا يكون الا باحداث قادر يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه او ضد يعانده وخص المؤمنين بالذكر بقوله (لقوم يؤمنون) لانهم المنتفعون بها بخلاف الكافرين ولذلك عقبه توبيخ من أشرك به والرد عليه فقال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) اى الشياطين لانهم أطاعوهم فى عبادة الاوثان فجعلوها شركاء لله (فان قيل) لله مفعول ثان لجعلوا وشركاء مفعول أول ويبدل منه الجن فما فائدة التقديم (أجيب) بأن فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من جن أو انس أو ملك فلذلك قدم اسم الله تعالى على الشركاء وقيل المراد بالجن الملائكة بأن عبدوهم وقالوا الملائكة بنات الله وسماهم جنا لاجتنانهم تحقيرا لشأنهم وقال الكلبى نزلت فى الزنادقة أثبتوا الشركة لابليس فى الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والانعام وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب فيقولون هو شريك الله فى تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن ابليس تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا وقوله تعالى (وخلقهم) حال بتقدير قد والضمير اما أن يعود الى الجن فيكون المعنى والله خلق الجن فكيف يكون شريك الله عز وجل محدثا مخلوقا واما أن يعود الى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى وجعلوا الله الذى خلقهم شركاء لا يخلقون شيأ وهذا كالدليل القاطع بأن المخلوق لا يكون شريكا لله وكل ما فى الكون محدث مخلوق والله تعالى خالق لجميع ما فى الكون فامتنع أن يكون لله شريك فى ملكه (وخرقوا) قرأه نافع بتشديد الراء والباقون بالتخفيف أى اختلقوا (له بنين وبنات بغير علم) وهو قول أهل الكتابين فى المسيح وعزير وقول قريش فى الملائكة يقال خلق الافك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى وسئل الحسن عنه فقال كلمة عربية كانت العرب تقولها كان الرجل اذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم قد خرقها والله (سبحانه) تنزيها له (وتعالى عما يصفون) بأن له شريكا وولدا (بديع السموات والارض) أى مبتدعهما من غير سبق مثال ورفع بديع على الخبر والمبتدا محذوف أى هو بديع أو على الابتداء والخبر (أنى يكون له ولد) أى من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) يكون منها الولد لان الولد لا يكون الا من صاحبة انثى (وخلق كل شئ) أى من شأنه أن يخلق (وهو بكل شئ عليم) لا تخفى عليه خافية وفى الآية استدلال على نفى الولد من وجوه الاول انه مبدع السموات والارض وهى أجسام عظيمة ٣ من جنس ما يوصف بالولادة لكونها مخلوقة لا يستقيم أن توصف بالولادة لاستمرارها وطول مدتها ومخترع الاجسام لا يكون جسما حتى يكون والدا الثالث أن الولادة

لا تكون

● ان قلت كيف قال ذلك مع انه تعالى بدأنا أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم لحما ونحن لا نعود بعد الموت كذلك (قلت) معناه كما بدأكم من تراب كذلك تعودون

٣ قوله وهى اجسام عظيمة من جنس الخ عبارة البيضاوى وهى مع انها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها الخ اه

لا تكون الا من ذكر وأنثى مجانسين وهو متعال عن مجانس فلم يصح ان تكون له صاحبة فلم تصح الولادة والثالث أنه ما من شئ الا وهو خالقه والعالم به ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شئ والولد انما يطلبه المحتاج وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ وقوله تعالى (الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ) أخبار مترادفة ويجوز أن يكون البعض في غير الله تعالى بدلا أو صفة لان الله تعالى أول وليس بصفة والبعض خبرا وقوله تعالى (فاعبدوه) مسبب عن مضمون ذلك فان من استجمع هذه الصفات استحق العبادة (وهو على كل شئ وكيل) اى وهو مع تلك الصفات مالك لكل شئ من الارزاق والآجال رقيب على الاعمال فيجازى عليها (لا تدركه الابصار) جمع بصر وهى حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث انها محلها والادراك احاطة بكنه الشئ وحقيقته وتمسك بظاهر هذه الآية قوم من أهل البدع وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا ان الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وان رؤيته مستحيلة عقلا لان الله تعالى أخبر أن الابصار لا تدركه وادراك البصر عبارة عن الرؤية اذ لا فرق بين قولك أدركته ببصرى ورأيته ببصرى فثبت بذلك أن لا تدركه الابصار بمعنى لا تراه الابصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفى الجنة واستدلوا لمذهبهم بأشياء من الكتاب والسنة واجماع الصحابة ومن بعدهم من السلف فمن الكتاب قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ففى هذه الآية دليل على ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون قال الشافعى رضى الله تعالى عنه حجب قوما بالمعصية وهى الكفر فثبت ان قوما يرونه بالطاعة وهى الايمان وقال مالك رضى الله تعالى عنه لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله تعالى الكفار بالحجاب وقال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وهذه الزيادة مفسرة بالنظر الى الله تعالى يوم القيامة ومن السنة ما روى عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله تعالى عنه قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر فقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم ان لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومنها ان ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضامون فى القمر ليلة البدر اى هل تشكون قالوا لا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ترونه كذلك وعن ابى رزين العقيلى رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك من خلقه قال يا ابا رزين اليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به قلت بلى قال فالله اعظم انما هو خلق من خلق الله اى القمر فالله اعظم واجل واحتج اهل السنة ايضا على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة بقول كليم الله موسى عليه السلام رب أرنى انظر اليك اذ لا يسأل نبى ما لا يجوز او يمتنع وقد علق الله تعالى الرؤية على استقرار الجبل بقوله تعالى فان استقر مكانه فسوف ترانى واستقرار الجبل جائز فالمعلق على الجائز جائز واما قول المتمسكين بظاهر الآية وان الادراك بمعنى الرؤية فممنوع لان الادراك هو الوقوف على كنه الشئ والاحاطة به والرؤية المعاينة وقد تكون المعاينة بلا ادراك قال الله تعالى

منه أو كما أوجدكم بعد العدم كذلك يعيدكم بعده فالتشبيه فى نفس الاحياء والخلق لا فى الكيفية والترتيب. (قوله قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم

فى قصة موسى عليه السلام قال اصحاب موسى انا لمدركون قال كلا وكان قوم فرعون قد رأوا
قوم موسى ولم يدركوهم فنفى موسى عليه السلام الادراك مع ثبوت الرؤية فالله تعالى يصح
ان يرى من غير ادراك ولا احاطة كما يعرف فى الدنيا ولا يحاط به قال تعالى ولا يحيطون به علما
فنفى الاحاطة مع ثبوت العلم قال سعيد بن المسيب لا تحيط به الابصار وقال عطاء كلت أبصار
المخلوقين عن الاحاطة به وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومقاتل لا تدركه الابصار
فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة وظاهر هذا التسوية بين الادراك والرؤية ويدل على هذا
التخصيص قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فقوله ناظرة مقيد بيوم القيامة
ويكون هذا جمعا بين الآيتين (وهو يدرك الابصار) اى يراها أو يحيط بها علما فلا يخفى
عليه شئ ولا يفوته شئ (وهو اللطيف الخبير) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اللطيف
بأوليائه الخبير بهم وقال الزهرى اللطيف الرفيق بعباده وقيل اللطيف الموصل الشئ بالرفق
واللين وقيل اللطيف الذى ينسى العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا (قد جاءكم بصائر) جمع بصيرة
اى حجج (من ربكم) تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل (فمن أبصر) اى
عمل بالادلة (فلنفسه) أى خاصة ابصاره لانه خلصها من الضلال الى الهدى (ومن عمى)
اى لم يهتد بالادلة (فعليها) اى خاصة عماه لانه يضل فلا يضر الا نفسه (وما أنا عليكم بحفيظ)
اى برقيب لاعمالكم وانما أنا منذر والله تعالى هو الرقيب عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم
عليها (وكذلك) اى كما بينا ما ذكر (نصرف) اى نبين (الآيات) من حال الى حال فى المعانى
المتنوعة سالكين من وجوه البراهين بما يفوت القوى ويعجز القدر اعتبارا (وليقولوا)
اعتذارا اعتدظهور عجزهم (دارست) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالف بين الدال والراء أى ذاكرت
أهل الكتاب والباقون بغير الف اى درست كتب الماضين وجئت بهذا منها وقرأ ابن عامر
بفتح السين وسكون التاء من الدروس أى هذه الآيات التى تتلوها علينا قديمة قد درست
وانمحت كقولهم أساطير الاولين وقيل اللام فيه لام العاقبة اى عاقبة أمرهم أن يقولوا
دارست اى قرأت على غيرك وقيل قرأت كتب أهل الكتاب كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون
ليكون لهم عدوا وحزنا (ولنبينه) اى الآيات وذكر الضمير لانها فى معنى القرآن كأنه قيل
وكذلك نصرف القران أو القرآن وان لم يجر له ذكر لكونه معلوما أو الى التبيين الذى هو مصدر
الفعل كقولهم ضربته زيدا (لقوم يعلمون) فانهم المنتفعون به وقوله تعالى (اتبع) خطاب
للنبى صلى الله عليه وسلم أى اتبع يا محمد (ما أوحى اليك) أى القرآن فالزم العمل به ثم أكده
بقوله (من ربك) أى المحسن اليك بهذا البيان وقوله تعالى (لا اله الا هو) اعتراض أكد به
ايجاب الاتباع لما فى كلمة التوحيد من التمسك بحبل الله والاعتصام به والاعراض عما سواه
وقول البيضاوى أو حال مؤكدة من ربك بمعنى منفردا فى الالوهية مبنى على جواز تأكيد
الجملة الفعلية بالاسمية وهو نادر (وأعرض عن المشركين) ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت
الى رأيهم ومن جعله منسوخا بآية السيف حمل الاعراض على ما يعم الكف عنهم (ولو شاء الله)
ايمانهم وعدم اشراكهم (ما أشركوا) وهذا نص صريح فى أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى

خلافا

القيامة) فان قلت كيف
أخبر عن الزينة والطيبات
بانها للذين آمنوا فى الحياة
الدنيا مع ان المشاهد انها
لغير الذين آمنوا أكثر
وأدوم (قلت) فى الآية

خلافا للمعتزلة فى قولهم لم يرد الله من أحد الكفر والشرك والآية ردّ عليهم (وما جعلناك عليهم حفيظا) أى رقيبا فتجازيهم باعمالهم (وما أنت عليهم بوكيل) أى فتجبرهم على الايمان وهذا قبل الامر بالقتال (ولا تسبوا الذين يدعون) اى يعبدون (من دون الله) وهى الاصنام اى ولا تذكروا آلهتهم التى يعبدونها بما فيها من القبائح (فيسبوا الله عدوا) أى اعتداء وظلما (بغير علم) اى جهلا منهم بالله وبما يجب أن يذكر به روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يطعن فى آلهتهم فقالوا لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون الهك فنزلت وقال السدى لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فانا نستحى أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعه عمه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل وأبى بن خلف ومعهم جماعة الى ابى طالب فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآلهتنا فنحب أن تدعوه وتنهاه عن ذكر آلهتنا وندعه والهه فطلبه وقال هؤلاء قومك وبنو عمك يقولون نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك والهك وقد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة ان تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هى قال قولوا لا اله الا الله فأبوا ونفروا فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخى فقال يا عم ما أنا بالذى أقول غيرها فقالوا لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك ومن يأمرك فنزلت وقيل كان المسلمون يسبونها فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب الله تعالى وفيه دليل على أن الطاعة اذا أدت الى معصية راجحة وجب تركها فان ما يؤدى الى الشر شر (كذلك) اى كما زينا لهؤلاء ما هم عليه من عبادة الاوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان (زينا لكل أمة عملهم) اى من الخير والشر باحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقا وتخذيلا وفى هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لا يحسن من الله تعالى خلق الكفر وتزيينه فهو الفعال لما يريد لا يسئل عما يفعل (ثم الى ربهم مرجعهم) فى الآخرة (فينبئهم بما كانوا يعملون) فى الدنيا فيجازيهم به (وأقسموا) اى كفار مكة (بالله جهد أيمانهم) اى غاية اجتهادهم فيها (لئن جاءتهم آية) اى مما اقترحوه (ليؤمنن بها) روى أن قريشا قالوا يا محمد انك تخبرنا ان موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه الماء اثنتى عشرة عينا وتخبرنا ان عيسى كان يحيى الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أى شئ تحبون قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا وتبعث لنا بعض أمواتنا حتى نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فعلت بعض ما تقولون أتصدقوننى قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يجعل الصفا ذهبا فجاء جبريل عليه السلام فقال يا رسول الله لك ما شئت ان شئت أصبح ذهبا ولكن ان لم يصدقوا ليعذبنهم الله وان شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فنزلت قال الله تعالى (قل) لهم (انما الآيات عند الله) ينزلها كيف يشاء وانما أنا نذير (وما يشعركم) اى وما يدريكم أيها المسلمون بايمانهم

اضمار تقديره قل هى للذين آمنوا غير خالصة فى الحياة الدنيا خالصة للمؤمنين يوم القيامة (قوله فاذا جاء أجلهم) قاله

اذا جاءت فانهم كانوا يتمنون مجيء الآية طمعا في ايمانهم اى أنتم لاتدرون ذلك (انها اذا جاءت لايؤمنون) لما سبق في علمي وقرأ أبو عمرو بسكون الراء وروى عن الدوري اختلاس الضم وكسر الهمزة من انها ابن كثير وأبو عمرو على الابتداء وقالا تم الكلام عند قوله تعالى وما يشعركم والباقون بالفتح فهي بمعنى لعل وهو شائع في كلام العرب ائت السوق أنك تشترى لنا شيئا بمعنى لعلك ومنه قول عدي بن زيد

اعاذل مايدريك أن منيتي الى ساعة في اليوم أو في ضحى غد

اى لعل منيتي وقرأ ابن عامر وحمزة لاتؤمنون بالتاء خطابا للكفار والباقون بالياء على الغيبة (ونقلب أفئدتهم) اى ونحول قلوبهم عن الحق فلا يفقهونه (و) نقلب (أبصارهم) عن الحق فلا يبصرونه فلا يؤمنون لان الله تعالى اذا صرف القلوب والابصار عن الايمان بقيت على الكفر (كما لم يؤمنوا به) اى بما أنزل من الآيات (أول مرة) اى التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغيره من المعجزات الباهرات وقيل معجزات موسى وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ان المرة الاولى دار الدنيا اى لو ردوا من الآخرة الى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الايمان كما لم يؤمنوا في الدنيا قبل مماتهم كما قال تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه (ونذرهم) اى نتركهم (في طغيانهم) اى ضلالهم (يعمهون) اى يترددون متحيرين لانهم ديهم هداية المتقين (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى) كما اقترحوا (وحشرنا) اى جمعنا (عليهم كل شيء قبلا) قرأ نافع وابن عامر بكسر القاف وفتح الباء اى معاينة فشهدوا بصدقك والباقون بضم القاف والباء جمع قبيل اى فوجا فوجا (ما كانوا ليؤمنوا) لما سبق في علم الله وقوله تعالى (الا أن يشاء الله) استثناء منقطع اى لكن ان شاء الله ايمانهم فيؤمنون او استثناء من اعم الاحوال اى لايؤمنون في حال الاحال مشيئة الله تعالى ايمانهم (ولكن أكثرهم يجهلون) اى انهم لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد ايمانهم على مالا يشعرون ولذلك اسند الجهل الى أكثرهم لان بعضهم معاند مع ان مطلق الجهل يعمهم فيشمل المعاند او لكن أكثر المسلمين يجهلون انهم لايؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعا في ايمانهم (وكذلك) اى ومثل ما جعلنا لك أعداء من كفار الانس والجن (جعلنا لكل نبي) اى ممن كان قبلك (عدوا) ويبدل منه (شياطين) اى مردة (الانس والجن) وفي هذا دليل على ان عداوة الكفرة للانبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله تعالى وخلقه (يوحي) اى يوسوس (بعضهم) اى الشياطين من النوعين (الى بعض زخرف القول) اى مموهه من الباطل (غرورا) اى لاجل أن يغروهم بذلك (ولو شاء ربك) ايمانهم (مافعلوه) اى هذا الذي أنبأتك به من عداوتهم وما تفرع عليها وفي هذا دليل ايضا (فذرهم) اى اترك الكفرة على اى حالة اتفقت (وما يفترون) من الكفر وغيره مما زين لهم وهذا قبل الامر بالقتال وقوله تعالى (ولتصغى) عطف على غرورا ان جعل علة اى ولتميل ميلا قويا (اليه) اى الزخرف الباطل (أفئدة) اى قلوب (الذين لايؤمنون بالآخرة) اى ليس في طبعهم الايمان بها لانها غيب

هنا وفي سائر المواضع بالفاء فهذه فيها الا ان الا في يونس مدخولها في غير يونس جملة معطوفة على أخرى مصدرة بالواو ونحوها اتصال

وهم

وهم لبلادتهم واقفون مع وهمهم ولذلك استولت عليهم الدنيا التي هي من اصل الغرور أو متعلق بمحذوف اى وليكون ذلك جعلنا لكل نبي عدوا والمعتزلة لما اضطروا فيه قالوا اللام لام العاقبة وهو قول الزمخشري في كشافه ان اللام للصيرورة (وليرضوه) اى الزخرف الباطل لانفسهم (وليقترفوا) اى يكتسبوا (ما هم مقترفون) من الآثام فيعاقبوا عليها ونزل لما قال مشركو قريش للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما من أحبار اليهود وان شئت من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك (أفغير الله) اى قل لهم يا محمد أفغير الله (ابتغي) اى أطلب (حكما) اى قاضيا بيني وبينكم (وهو الذي أنزل اليكم الكتاب) اى الاكمل المعجز وهو هذا القرآن الذي هو تبيان لكل شئ (مفصلا) اى مبينا فيه الحق من الباطل (والذين آتيناهم الكتاب) اى المعهود انزاله من التوراة والانجيل والزبور (يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) لما عندهم به من البشارة في كتبهم ولما له من موافقتهم في ذكر الاحكام المحكمة والمواعظ الحسنة وكثرة ذكر الله على وجه ترق القلوب وتفيض الدموع وتصدع الصدور مع ما يزيد به على ما في كتبهم من التفصيل بما يفهم المعارف الالهية والمقامات الصوفية في ضمن الاحكام السياسية وانما وصف جميعهم بالعلم لان أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن بادنى تامل وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه وقرأ ابن عامر وحفص بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (فلا تكونن) يا محمد (من الممترين) أى الشاكين في أن علماء اهل الكتاب يعلمون ان هذا القرآن حق وانه منزل من عند الله وقيل فلا تكونن في شك مما قصصنا فيكون من باب التعريض فانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط وقيل الخطاب وان كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم الا ان المراد به غيره اى فلا تكونن أيها الانسان السامع لهذا القرآن في شك انه منزل من عند الله لما فيه من الاعجاز الذي لا يقدر على مثله الا الله تبارك وتعالى (وتمت كلمات ربك) اى بلغت الغاية أخباره واحكامه ومواعيده وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بغير الف بين الميم والتاء والباقون بالالف (صدقا) في الاخبار والمواعيد لا يقدر احد أن يبدي في شئ منها خدشا بخلاف ما عن مطابقة الواقع (وعدلا) اى في الاقضية والاحكام ونصبهما على التمييز ويحتمل الحال والمفعول له (لا مبدل لكلماته) بنقض أو خلف بل كل ما أخبرت به فهو كائن لا محالة رضي من رضي وسخط من سخط وقيل المراد بالكلمات القرآن لا مبدل له لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون (وهو السميع) لكل ما يقال (العليم) بكل ما يفعل (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله) أى دينه وأكثر اهل الارض كانوا على الضلالة وقيل الارض مكة وذلك أن المشركين جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في أكل الميتة فقالوا للمسلمين انكم تزعمون انكم تعبدون الله فكيف تاكلون ما قتلتم ولا تاكلون ما قتل ربكم فنزلت وقيل لا تطعهم في اعتقاداتهم الفاسدة فانك ان تطعهم يضلوك عن سبيل الله اى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم علل ذلك بقوله (ان) اى لانهم ما (يتبعون) في مجادلتهم لك (الا الظن) وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق (وان) اى ما (هم الا يخرصون) اى يكذبون على الله عز وجل فيما ينسبون اليه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الاوثان وصلة اليه وتحليل الميتة وتحريم

وتعقيب فحسن الاتيان بالفاء الدالة على التعقيب بخلاف ما في يونس وقوله في الآية لا يستقدمون معطوف على الجملة الشرطية

الجائر ونحو ذلك (ان ربك هو) أي لا غيره (أعلم) أي عالم (من يضل عن سبيله وهو) أي لا غيره
(أعلم) أي عالم (بالمهتدين) فيجازي كلا منهم بما يستحقه وقوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله
عليه) مسبب عن انكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام والمعنى كلوا
مما ذكر اسم الله تعالى على ذبحه ولا تأكلوا مما ذكر عليه اسم غيره تعالى أو مات حتف أنفه
(ان كنتم بآياته مؤمنين) أي ان كنتم محققين الايمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه فان
الايمان يقتضي استباحة ما أحله الله تعالى واجتناب ما حرمه (وما لكم) أي أي غرض لكم
في (ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) من الذبائح (وقد فصل) أي بين (لكم ما حرم عليكم)
أي مما لم يحرم في آية حرمت عليكم الميتة تفصيلا واضح البيان ظاهر البرهان وقرأ ابن كثير وأبو
عمرو وابن عامر بضم الفاء وكسر الصاد والباقون بفتحهما وقرأ نافع وحفص بفتح الحاء
والراء والباقون بضم الحاء وكسر الراء (الا ما اضطررتم اليه) أي مما حرم عليكم فانه أيضا
حلال حال الضرورة (وان كثيرا) من الذين يجادلونكم في أكل الميتة ويحتجون عليكم في ذلك
بقولهم كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم (ليضلون بأهوائهم) أي بما تهوى
أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بضم الياء والباقون بفتحها
(بغير علم) يعتمدونه في ذلك وقيل المراد بذلك عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين لانه أول من بحر
البحائر وسيب السوائب وأباح الميتة وغير دين ابراهيم صلى الله عليه وسلم (ان ربك هو أعلم
بالمعتدين) أي الذين تجاوزوا الحق الى الباطل والحرام الى الحلال (وذروا) أي اتركوا
(ظاهر الاثم وباطنه) أي ما أعلنتم به وما أسررتم به من الذنوب كلها وقيل المراد بظاهر الاثم
أفعال الجوارح وبباطنه أفعال القلوب فيدخل فيه الحسد والكبر والعجب وارادة الشر
للمسلمين ونحو ذلك وقيل ظاهر الاثم الزنا في الحوانيت وباطنه المرأة يتخذها الرجل صديقة
فيأتيها سرا (ان الذين يكسبون الاثم) في الدنيا بارتكاب المعاصي (سيجزون) في الآخرة
(بما كانوا يقترفون) أي يكسبون وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب ومذهب أهل
السنة انه اذا لم يتب فهو في خطر المشيئة ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه بفضله أما اذا تاب من
الذنب توبة صحيحة لم يعاقب فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله
عليه) قال ابن عباس الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها وقال عطاء
الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الاصنام واختلف أهل العلم في ذبيحة
المسلم اذا لم يذكر اسم الله تعالى عليها فذهب قوم الى تحريمها سواء أترك التسمية عمدا
أم نسيانا وهو قول ابن سيرين والشعبي واحتجوا بظاهر الآية وذهب قوم الى حلها مطلقا
ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الشافعي وأحمد وذهب قوم الى أنه ان ترك التسمية عامدا
لم تحل أو ناسيا حلت وهو مذهب مالك ومن قال بالاباحة مطلقا قال المراد من الآية الميتات
وما ذبح على غير اسم الله بدليل قوله تعالى (وانه لفسق) أي ما ذكر عليه اسم غير الله كما قال
تعالى في آخر السورة قل لا أجد فيما أوحي الى محرما الى قوله أو فسقا أهل لغير الله به والضمير لما
ويجوز أن يكون للاكل الذي دل عليه لا تأكلوا واحتجوا أيضا في اباحتها بما روى البخاري

(ان قلت) كيف قال ذلك (قوله ونودوا ان تلكم الجنة أورثتموها) الآية اذ لا يصح ترتيبه على الشرط لا على جواب الشرط

في

في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قالوا يا رسول الله ان هنا أقواما حديث عهدهم
بشرك يأتونا باللحمان فلا ندري أيذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا فلو
كانت التسمية شرطا للاباحة لكان الشك في وجودها مانعا من أكلها كالشك في أصل الذبح
(وان الشياطين ليوحون) أي يوسوسون (الى أوليائهم) من الكفار (ليجادلوكم) في تحليل
الميتة بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله وهذا يؤيد التأويل
بالميتة (وان أطعتموهم) أي باستحلال ما حرم (انكم لمشركون) أي مثلهم في الشرك قال
الزجاج فيه دليل على أن كل من أحل شيأ مما حرم الله أو حرم شيأ مما أحل الله فهو مشرك
(أومن كان ميتا) أي بالكفر (فأحييناه) أي بالايمان وانما جعل الكفر موتا لانه جعل
الايمان حياة لان الحي صاحب بصر يهتدي به الى رشده ولما كان الايمان يهدي الى الفوز
العظيم والحياة الابدية شبه بالحياة وقرأ نافع بتشديد الياء والباقون بالتخفيف (وجعلنا له
نورا يمشي به في الناس) أي يتبصر به الحق من غيره وهو الايمان وقال قتادة هو كتاب الله
القرآن بينة من الله مع المؤمن بها يعمل وبها يأخذ واليها ينتهي (كمن مثله) أي كمن هو
(في الظلمات) فمثل زائدة (ليس بخارج منها) وهو الكافر أي ليس مثله نزلت هذه الآية في حمزة
ابن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه وأبي جهل بن هشام وذلك ان أبا جهل رمى رسول الله صلى
الله عليه وسلم بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس وحمزة
لم يؤمن بعد فاقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يقول يا أبا يعلى ما ترى ما جاء به سفه
عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله
أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وقيل في عمر بن الخطاب أو عمار بن ياسر وأبي
جهل (كذلك) أي كما زين للمؤمنين ايمانهم (زين للكافرين ما كانوا يعملون) أي من
الكفر والمعاصي قال أهل السنة المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله تعالى زينا لهم أعمالهم
وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ويرد بالآية المذكورة (وكذلك) أي كما جعلنا فساق أهل
مكة أكابرها (جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها) أي عظماءها وأكابر جمع أكبر كأفضل
وأفاضل وأسود وأساود وذلك سنة الله تعالى انه جعل في كل قرية اتباع الرسل ضعفاءهم كما
قال في قصة نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون وجعل فساقهم أكابرهم (ليمكروا فيها) بالصد
عن الايمان وذلك انهم أجلسوا على طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الايمان بمحمد
صلى الله عليه وسلم يقولون لكل من يقدم اياكم وهذا الرجل فانه كاهن ساحر كذاب فكان هذا
مكرهم (وما يمكرون الا بأنفسهم) لان وباله يحيق بهم (وما يشعرون) أي بما لهم نوع شعور
بذلك (واذا جاءتهم) أي أهل مكة (آية) على صدق النبي صلى الله عليه وسلم (قالوا لن نؤمن)
به (حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) أي من النبوة وذلك ان الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى
الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لاني أكبر منك سنا وأكثر منك مالا
فنزلت وقال مقاتل نزلت في أبي جهل حين قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا
كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى اليه والله لا نرضى الا أن يأتينا وحي كما يأتيه وقوله تعالى

مع ان الميراث هو ما ينتقل
من ميت الى حي وهو
مفقود هنا (قلت) هو على
تشبيه أهل الجنة وأهل
النار بالوارث والموروث

(الله أعلم حيث يجعل رسالاته) استئناف للرد عليهم بان النبوة ليست بالنسب والمال وانما هى بفضائل نفسانية يخص الله بها من يشاء من عباده فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها وحيث مفعول به لفعل محذوف دل عليه أعلم لان أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به أى يعلم الموضع الصالح لوضعها فيه فيضعها وهؤلاء ليسوا أهلا لها وقرأ ابن كثير وحفص بنصب التاء ورفع الهاء ولا ألف قبل التاء على التوحيد والباقون بكسر التاء والهاء وألف قبل التاء على الجمع (سيصيب الذين أجرموا) بقولهم ذلك (صغار) اى ذل وهوان (عند الله) يوم القيامة وقيل تقديره من عند الله (وعذاب) أى مع الصغار (شديد) اى فى الدنيا بالقتل والاسر وفى الآخرة بالنار (بما) اى بسبب ما (كانوا يمكرون) من صدهم الناس عن الايمان وطلبهم ما لا يستحقونه (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) بان يقذف فى قلبه نورا فينفسح له و يقبله ولما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له قلبه و ينفسح قيل فهل لذلك امارة قال نعم الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقى الموت (ومن يرد) اى الله (ان يضله يجعل صدره ضيقا) اى عن قبول الايمان حتى لا يدخله وقرأ ابن كثير بسكون الياء والباقون بتشديدها مع الكسر وقوله تعالى (حرجا) قرأه نافع وابو بكر بكسر الراء أى شديد الضيق والباقون بالفتح وصفا للمصدر وفى الآية دليل على أن جميع الاشياء بمشيئة الله وارادته حتى ايمان المؤمن وكفر الكافر (كأنما يصعد فى السماء) اى يشق عليه الايمان كما يشق عليه صعود السماء شبهه مبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه وقرأ ابن كثير بسكون الصاد وتخفيف العين من غير الف بعد الصاد وقرأ شعبة بتشديد الصاد وتخفيف العين والف بعد الصاد بمعنى يتصاعد

عنه لان الله خلق فى الجنة منازل الكفار بتقدير ايمانهم فمن لم يؤمن منهم جعل منزله لاهل الجنة او لان دخول الجنة لا يكون الا برحمة الله تعالى لا بعمل

(كذلك) اى مثل ما جعل الله الرجس على من اراد ضلاله من اهل هذا الزمان (يجعل الله الرجس) اى العذاب او الشيطان اى يسلطه (على الذين لا يؤمنون) وقال الزجاج الرجس فى الدنيا اللعنة وفى الآخرة العذاب (وهذا) اى الدين الذى انت عليه يا محمد (صراط) اى طريق (ربك مستقيما) لا عوج فيه ونصبه على الحال المؤكدة للجملة والعامل فيها معنى الاشارة (قد فصلنا) أى بينا (الآيات لقوم يذكرون) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال اى يتعظون فيعلمون ان القادر على كل شئ هو الله عز وجل وان كل ما يحدث من خير او شر فهو بقضائه وقدره وخلقه وانه تعالى عالم باحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم وخصوا بالذكر لانهم المنتفعون (لهم) اى المتذكرين (دار السلام) هى الجنة واضافها الى نفسه فى قول جميع المفسرين فان السلام كما قال الحسن هو الله تعالى تشريفا لها او تحيتهم فيها سلام او اراد بها دار السلامة (عند ربهم) اى ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره (وهو وليهم) اى المتكفل يتولى امورهم ولا يكلهم الى احد سواه (بما) اى بسبب ما (كانوا يعملون) من الاعمال الصالحة التى كانوا يتقربون بها اليه فى الدنيا (و) اذكر يا محمد (يوم نحشرهم) اى الخلق (جميعا) اى لا نترك منهم احدا وقرأ حفص بالياء والباقون بالنون وقوله تعالى (يا معشر الجن) فيه حذف تقديره ويقال لهم يا معشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين (قد استكثرتم من الانس) اى من اضلالهم واغوائهم حتى صاروا كثيرهم اتباعكم (وقال اولياؤهم) اى الذين

اطاعوهم

اطاعوهم (من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) اى انتفع الانس بتزيين الجن لهم الشهوات والجن بطاعة الانس لهم (وبلغنا اجلنا الذى اجلت لنا) اى ان ذلك الاستمتاع كان الى اجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة قال الحسن الاجل الموت وقيل هو وقت البعث للحساب فى القيامة (قال) الله تعالى على لسان الملائكة لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والانس (النار مثواكم) اى مأواكم (خالدين فيها) اى الى ما لا آخر له فان الجزاء من جنس العمل (الا ما شاء الله) اى من الاوقات التى ينقلون فيها من النار الى الزمهرير فقد روى انهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض اوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد الى الجحيم وقيل الا ما شاء الله قبل الدخول قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب وقال ابن عباس الاستثناء يرجع الى قوم سبق فى علم الله انهم يسلمون فيخرجون من النار قال البغوى فما بمعنى من على هذا التأويل (ان ربك حكيم) فى صنعه (عليم) بعواقب امور خلقه وما هم صائرون اليه (وكذلك) اى كما متعنا عصاة الانس والجن بعضهم ببعض (نولى) من الولاية (بعض الظالمين بعضا) اى على بعض روى عن ابن عباس فى تفسيرها ان الله تعالى اذا أراد بقوم خيرا ولى أمرهم خيارهم واذا أراد بقوم شرا ولى أمرهم شرارهم (بما) أى بسبب ما (كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصى (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) أى من مجموعكم وهم الانس اذ الرسل منهم خاصة ولكن لما جمع الجن مع الانس فى الخطاب صح ذلك ونظيره قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فان ذلك يخرج من الملح دون العذب أو ان رسل الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسول فيبلغونه قومهم كما قال تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن الآية وتعلق بظاهر الآية قوم فقالوا بعث الى كل من الثقلين رسل من جنسهم (يقصون عليكم آياتى) أى يخبرونهم بما أوحى اليهم من آياتى الدالة على توحيدى وتصديق رسلى (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى ويحذرونكم لقاء عذابى فى يومكم هذا وهو يوم القيامة (قالوا شهدنا على أنفسنا) أى اعترفوا بان الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا وانهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) أى انما كان ذلك بسبب انهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا اليها (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى فى الدنيا (فان قيل) كيف اقروا على انفسهم بالكفر فى هذه الآية وجحدوا فى آية اخرى وهى قولهم والله ربنا ما كنا مشركين (أجيب) بتفاوت الاحوال والمواطن فى ذلك اليوم المتطاول فيقرون فى بعضها ويجحدون فى بعض آخر (فان قيل) لم كرر شهادتهم على انفسهم (اجيب) بان الاولى حكاية لقولهم كيف يقولون وكيف يعترفون والثانية ذم لهم على سوء نظرهم وخطا رأيهم فانهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة واعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا الى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب الخالد تحذيرا للسامعين عن مثل حالهم (ذلك) أى ارسال الرسل (أن) أى لاجل أن (لم يكن ربك مهلك القرى بظلم) أى بسبب ظلم ارتكبوه (وأهلها غافلون) أى لم ينبهوا برسول يبين لهم

(قوله وهم بالآخرة كافرون) قال ذلك هنا وقال فى هود وهم بالآخرة هم كافرون فاشبه الميراث وان كانت الدرجات فيها بحسب الاعمال

(ولكل) أي من العاملين بطاعة أو معصية (درجات) أي جزاء (مما عملوا) أي من خير وشر ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر وانما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانخفاض كتفاضل الدرج (وما ربك بغافل عما يعملون) أي عن شيء يعمله أحد من الفريقين بل هو عالم بكل شيء من ذلك وبما يستحقه العامل من ثواب أو عقاب وقرأ ابن عامر بالتاء على تغليب الخطاب على الغيبة والباقون بالياء على الغيبة (وربك الغني) أي الغني المطلق عن كل عابد وعبادته فليعمل العامل انفع نفسه أو ضرها (ذو الرحمة) أي التجاوز عن خلقه فمن رحمته ارسال الرسل وتأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون (ان يشأ يذهبكم) يا أهل مكة بالاهلاك ففيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف من بعدكم) أي بعد اهلاككم (ما يشاء) أي خلقا غيركم أمثل وأطوع منكم (كما أنشأكم من ذرية) أي نسل (قوم آخرين) أذهبهم لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام ولكنه أبقاكم رحمة بكم (ان ما توعدون) من مجيء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة (لآت) لا محالة (وما أنتم بمعجزين) أي فائتين عذابنا (قل) يا محمد لقومك من كفار قريش (يا قوم اعملوا على مكانتكم) أي حالتكم التي أنتم عليها (اني عامل) على حالتي التي أنا عليها والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي فاني ثابت على الاسلام وعلى مصابرتكم والتهديد بصيغة الامر مبالغة في الوعيد (فسوف تعلمون) غدا في القيامة (من) موصولة مفعول العلم (تكون له عاقبة الدار) أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم أنتم (انه لا يفلح) أي يسعد (الظالمون) أي الكافرون (وجعلوا) أي كفار مكة (لله مما ذرأ) أي خلق (من الحرث) أي الزرع (والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) وذلك أن المشركين كانوا يجعلون لله من حروثهم وانعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبا وللاوثان نصيبا فما جعلوه لله صرفوه الى الضيفان والمساكين وما جعلوه للاصنام أنفقوه على الاصنام وخدمها فان سقط شيء من نصيب الاوثان فيما جعلوه لله ردوه الى الاوثان وقالوا انها محتاجة وكان اذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به واذا هلك شيء مما جعلوه للاصنام جبروه بما جعلوه لله فذلك قوله تعالى (فما كان لشركائهم) أي ما جعلوه لها من الحرث والانعام (فلا يصل الى الله) أي لجهته فلا يعطونه للمساكين ولا ينفقونه على الضيفان (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) وفي قوله تعالى مما ذرأ تنبيه على فرط جهالتهم فانهم أشركوا مع الخالق تعالى في خلقه جمادا لا يقدر على شيء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له وفي قوله تعالى بزعمهم تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به وقرأ الكسائي برفع الزاي والباقون بالنصب (ساء) أي بئس (ما يحكمون) حكمهم هذا (وكذلك) أي ومثل ما زين لجميع المشركين تضييع أموالهم والكفر بربهم (زين لكثير من المشركين قتل أولادهم) أي بالوأد خشية الاملاق (شركاؤهم) من الجن أو من السدنة أي الخدمة وقرأ غير ابن عامر بفتح الزاي والياء ونصب لام قتل وكسر دال أولادهم وشركاؤهم بالواو مضمومة الهمزة على أنه فاعل وقرأ ابن عامر بضم الزاي وكسر الياء ورفع لام قتل ونصب دال أولادهم وشركائهم بالياء مكسورة الهمزة باضافة القتل اليه مفصولا بينهما بمفعوله قال البيضاوي تبعا للزمخشري وهو ضعيف في العربية معدود من ضرورة

لان ما هنا جاء على الاصل وتقديره وهم بالآخرة كافرون فقدم بالآخرة رعاية للفواصل وما في هود وقع بعد قوله هؤلاء

الشعر اهـ وقد أنكر جماعة على الزمخشري وذلك بأن القراءة المذكورة صحيحة متواترة وتركيبها صحيح في العربية فلا يجوز الطعن فيها ولا في ناقلها قال التفتازاني وهذا على عادته يطعن في متواتر القراآت السبع وينسب الخطأ تارة اليهم كما هنا وتارة الى الرواية عنهم وكلاهما خطأ لان القراآت متواترة وكذا الروايات عنهم وأطال في بيان ذلك وقال ابن مالك في كافيته اضافة المصدر الى الفاعل مفصولا بينهما بمفعول المصدر جائزة في الاختيار اذ لا محذور فيها مع ان الفاعل كجزء من عامله فلا يضر فصله واضافة القتل الى الشركاء لامرهم (ليردوهم) أي ليهلكوهم بذلك الفعل الذي أمروهم به والارداء في اللغة الاهلاك وقال ابن عباس ليردوهم في النار (وليلبسوا) اى وليخلطوا (عليهم دينهم) قال ابن عباس ليدخلوا عليهم الشك في دينهم وكانوا على دين ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة والسلام فرجعوا الهم هذه الاصنام وزينوها لهم (ولو شاء الله) عصمة هؤلاء من ذلك القبيح الذي زين لهم (ما فعلوه) لجميع الاشياء بمشيئته وارادته (فذرهم) أي اتركهم يا محمد (وما يفترون) أي وما يختلقون من الكذب على الله فان الله لهم بالمرصاد وفي ذلك تهديد لهم كما مر (وقالوا) أي المشركون سفها وجهلا (هذه) اشارة الى قطعة من اموالهم عينوها لآلهتهم (أنعام وحرث حجر) اى حرام محجور عليه لا يصل أحد اليه وهو وصف يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لان حكمه حكم الاسماء غير الصفات (لا يطعمها) أي لا يأكل منها (الا من نشاء) اى من خدمة الاوثان والرجال دون النساء (بزعمهم) اى لا حجة لهم فيه (وانعام حرمت ظهورها) أي فلا يركبونها كالبحائر والسوائب والحوامي (وانعام لا يذكرون اسم الله عليها) اى عند ذبحها وانما كانوا يذكرون عليها اسم الاصنام وقيل لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل خير لان العادة لما جرت بذكر الله على الخير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير ونسبوا ما فعلوه الى الله تعالى (افتراء عليه) اى اختلاقا وكذبا انه أمرهم بها (سيجزيهم) اى بوعد صادق لا خلف فيه (بما) أي بسبب ما (كانوا يفترون وقالوا ما في بطون هذه الانعام) أي أجنة البحائر والسوائب وقوله تعالى (خالصة) حلال (لذكورنا) اى خاصة بهم دون الاناث كما قال تعالى (ومحرم على أزواجنا) اى النساء وحذف الهاء من محرم اما حملا على اللفظ أو تخفيفا ٣ لان المراد بخالصة المبالغة (وان يكن) أي ما في بطونها (ميتة فهم فيه شركاء) أي الذكور والاناث فيه سواء أي أن ما ولد منها حيا فهو للذكور دون الاناث وما ولد منها ميتا أكله الذكور والاناث جميعا وقرأ ابن عامر وشعبة بالتأنيث في تكن والباقون بالتذكير وقرأ ابن كثير وابن عامر ميتة بالرفع على أن تكون تامة والباقون بالنصب على أنها ناقصة (سيجزيهم) الله (وصفهم) أي سيكافئهم على وصفهم بالكذب على الله تعالى بالتحليل والتحريم (انه) أي الله (حكيم) في صنعه (عليم) بخلقه (قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها) اى جهلا (بغير علم) نزلت في ربيعة ومضر وبعض من العرب من غيرهم كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم بل عدمه بان الله هو رازق أولادهم لا هم لان الجهل كان غالبا عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا سموا جاهلية وسبب هذا الخسران أن الولد نعمة عظيمة أنعم الله

الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين والقياس عليهم فلما عبر عنهم بالظالمين التبس

٣ قوله او تخفيفا لان المراد الخ لا يخفى ما فيه وعبارة الكشاف وانث خالصة للحمل على المعنى لان ما في معنى الاجنة وذكر محرم للحمل على اللفظ ونظيره ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك ويجوز ان تكون التاء للمبالغة مثلها في راوية الشعر وان تكون مصدرا وقع موقع الخالص كالعاقبة أي ذو خالصة ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب على ان قوله لذكورنا هو الخبر وخالصة مصدر مؤكد ولا يجوز ان يكون حالا متقدمة لان المجرور لا يتقدم عليه حاله وقرأ ابن عباس خالصه على الاضافة وفي مصحف عبد الله خالص اهـ

تعالى بها على الوالد فاذا تسبب فى ازالة هذه النعمة وابطالها فقد استوجب الذم وخسر فى الدنيا والآخرة أما خسارته فى الدنيا فقد سعى فى نقص عدده وازالة ما أنعم الله تعالى به عليه وأما خسارته فى الآخرة فقد استوجب بذلك العذاب العظيم وقرأ أبو عمرو وابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف (وحرموا ما رزقهم الله) وتفضل به عليهم وجعله لهم من تلك الانعام والغلات بغير شرع ولا نفع بوجه (افتراء) أى تعمد الكذب (على الله) وهذا أيضا من أعظم الجهالة لان الجراءة على الله والكذب عليه من اعظم الذنوب والكبائر ولهذا قال تعالى (قد ضلوا) اى فى فعلهم عن الحق والرشاد (وما كانوا مهتدين) اى الى طريق الحق والصواب فى فعلهم روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الانعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها الى قوله وما كانوا مهتدين وروى عن مهدى بن ميمون أنه قال سمعت أبا رجاء العطاردى يقول كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر واذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا به فاذا دخل شهر رجب قلنا منصل الاسنة فلا ندع رمحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة الا نزعناه فألقيناه فى رجب (وهو الذى أنشأ) اى خلق (جنات) اى بساتين (معروشات) اى مبسوطات على الارض كالبطيخ والقثاء (وغير معروشات) بان ارتفعت على ساق كالنخل وشجر الرمان وقال الضحاك كلاهما فى الكرم خاصة لان منه ما يعرش بان يبقى على وجه الارض منبسطا ومنه ما لم يعرش بأن يرتفع على ساق وقيل المعروشات ما عرشه الناس فى البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير المعروشات هو ما أنبته الله تعالى فى البرارى والجبال من كرم أو شجر (و) أنشأ (النخل والزرع مختلفا أكله) اى ثمره وحبه فى الهيئة والطعم منها الحلو والحامض والجيد والردىء والضمير للزرع والباقى مقيس عليه او للنخل والزرع داخل فى حكمه لكونه معطوفا عليه أو للجميع على تقدير كل ذلك او كل واحد منها ومختلفا حال مقدرة لانه لم يكن كذلك عند الانشاء وقرأ نافع وابن كثير بجزم الكاف والباقون بالرفع (والزيتون والرمان متشابها) اى ورقهما (وغير متشابه) اى فى طعمهما وقيل متشابهين فى المنظر مختلفين فى الطعم ولما ذكر الله تعالى ما انعم به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع الثمار ذكر ما هو المقصود الاصلى وهو الانتفاع بها فقال تعالى (كلوا من ثمره) اى كل واحد من ذلك (اذا أثمر) اى ولو قبل نضجه وهذا امر اباحة وأما قوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) فالامر فيه للوجوب والآية مدنية والحق هو الزكاة المفروضة والامر بايتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخره عن اول وقت يمكن فيه الايتاء وليعلم ان الوجوب بالادراك لا بالتنقية وقيل الآية مكية والزكاة انما فرضت بالمدينة فالحق ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد وكان ذلك واجبا حتى نسخه افتراض العشر ونصف العشر وقرأ حمزة والكسائى برفع الثاء والميم من ثمره والباقون بنصبهما وقرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح حاء حصاده والباقون بكسرها ومعناهما واحد (ولا تسرفوا) اى باعطاء كله فلا يبقى لعيالكم شئ روى ان ثابت بن قيس صرم خمسمائة نخلة وقسمها فى يوم واحد ولم يترك لاهله شيأ فنزلت (انه لا يحب المسرفين) اى

انهم هم الذين كذبوا على ربهم فقال وهم بالآخرة هم كافرون ليعلم انهم هم المذكورون لاغيرهم (قوله ولا تفسدوا فى الارض

المجاوز بن ما حداهم وفى ذلك وعيد وزجر عن الاسراف فى كل شئ قال مجاهد الاسراف ماقصرت به عن حق الله تعالى وقال لو كان أبو قبيس ذهبا لرجل فأنفقه فى طاعة الله تعالى لم يكن مسرفا ولو أنفق درهما واحدا أو مدا فى معصية كان مسرفا وقوله تعالى (ومن الانعام) عطف على جنات أى وأنشأ من الانعام (حمولة) اى صالحة للحمل عليها كالابل الكبار والبغال (وفرشا) اى لا تصلح للحمل كالابل الصغار والعجاجيل والغنم سميت فرشا لانها كالفرش للارض لدنوها منها وقيل هو ما ينسج من وبره وصوفه وشعره للفرش (كلوا مما رزقكم الله) اى مما أحله لكم من هذه الانعام والحرث (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى طرائقه فى التحليل والتحريم من عند انفسكم كما فعل اهل الجاهلية وقرأ قنبل وابن عامر وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (انه) اى الشيطان (لكم عدو مبين) اى بين العداوة وقوله تعالى (ثمانية أزواج) اى أصناف بدل من حمولة وفرشا والزوج اسم لفرد اذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللانثى زوج (من الضأن) زوجين (اثنين) أى ذكر وأنثى والضأن ذوات الصوف من الغنم والذكر ضائن والانثى ضائنة والجمع ضوائن (ومن المعز) زوجين (اثنين) أى ذكر وأنثى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح العين والباقون بالسكون والمعز والمعزى جمع لا واحد له من لفظه وهى ذوات الشعر من الغنم وقال البغوى جمع الماعز معيز وجمع الماعزة مواعز (قل) يا محمد لمن حرم ذكور الانعام تارة واناثها أخرى وأولادها كيفما كانت ذكورا أو اناثا أو مختلطة تارة ونسبوا ذلك لله تعالى (آلذكرين) من الضأن والمعز (حرم) الله عليكم (أم الانثيين) منهما (أما) اى أم حرم ما (اشتملت) أى انضمت (عليه أرحام الانثيين) ذكرا كان أو أنثى (نبئونى) اى اخبرونى (بعلم) عن كيفية ذلك بأمر معلوم من جهة الله تعالى على تحريم ما حرمتم (ان كنتم صادقين) فى دعواكم والاستفهام للانكار والمعنى من اين جاء التحريم فان كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام وان كان من قبل الانوثة فجميع الاناث حرام أو من قبل اشتمال الرحم فالزوجان حرام فن أين التخصيص * (تنبيه) * اتفق القراء على ان فى همزة الوصل وهى التى بين همزة الاستفهام ولام التعريف وجهين وهما البدل والتسهيل والبدل هو مدها مدا طويلا والتسهيل هو ان تقصرها مسهلة (ومن الابل اثنين) ذكرا وأنثى (ومن البقر اثنين) كذلك (قل) يا محمد لهؤلاء الذين اختلقوا جهلا وسفها (آلذكرين حرم الله عليكم أم الانثيين) منهما (أما) اى أم حرم ما (اشتملت) اى انضمت (عليه ارحام الانثيين) ذكرا كان او انثى (أم كنتم) أى بل أكنتم (شهداء) اى حاضرين (اذ وصاكم الله بهذا) اى حين وصاكم بهذا التحريم اذ انتم لا تؤمنون بنبى فلا طريق لكم الى معرفة امثال ذلك الا بالمشاهدة والسماع فكيف تثبتون هذه الاحكام وتنسبونها الى الله تعالى * ولما احتج عليهم بهذه الحجة وبين انه لا سند لهم فى ذلك قال تعالى (فمن) اى لا أحد (أظلم ممن افترى) اى تعمد (على الله كذبا) كعمرو بن لحى فانه اول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين ابراهيم عليه السلام ويدخل فى هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدأ شيئا لم يأمر الله به

بعد اصلاحها اى بعد ان أصلحها الله بالامر بالعدل وارسال الرسل أو بعد ان أصلح الله اهلها بحذف مضاف (قوله وهو الذى

(قوله والمعز والمعزى جمع لا واحد له الخ) الذى فى حاشية زاده ان معز بفتح العين وسكونها لغتان فى جمع ماعز وقد تقدم ان فاعلا يجمع تارة على فعل كتاجر وتجر وعلى فعل أخرى نحو خادم وخدم ويجمع ايضا على معزى اه

ولا رسوله ونسب ذلك الى الله تعالى لان اللفظ عام فلا وجه للتخصيص فكل من ادخل في دين الله ما ليس منه فهو داخل في هذا الوعيد (ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين) اي لا يرشد ولا يوفق من كذب عليه واضاف اليه ما لم يشرع لعباده * ولما بين سبحانه وتعالى فساد طريقة اهل الجاهلية وما كانوا عليه من التحريم والتحليل من عند انفسهم واتباع اهوائهم فيما احلوه وحرموه من المطعومات اتبعه بالبيان الصحيح في ذلك وبين ان التحريم والتحليل لا يكون الا بوحي سماوي وشرع نبوي فقال تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الجهلة الذين يحلون ويحرمون من عند انفسهم (لا أجد فيما أوحي الي محرما) اي طعاما محرما مما حرمتموه *(فائدة)* في ما أوحي الي في مقطوعة من ما في الرسم (على طاعم) اي طاعم كان من ذكر أو انثى (يطعمه) اي يتناوله أكلا أو شربا أو دواء او غير ذلك (الا ان يكون) اي ذلك الطعام (ميتة) وهي كل ما زالت حياته بغير ذكاة شرعية وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة تكون بالتأنيث والباقون بالتذكير ورفع ميتة ابن عامر على ان كان هي التامة وعلى هذه القراءة يكون قوله تعالى (أو دما مسفوحا) عطفا على أن مع ما في حيزه اي الا وجود ميتة او دما مسفوحا اي مصبوبا كالدم في العروق لا كالكبد والطحال (او لحم خنزير فانه) اي الخنزير (رجس) اي نجس فالضمير يعود على المضاف اليه لان اللحم دخل في قوله ميتة وحينئذ ففي الآية دلالة على نجاسة الخنزير وهو حي فلحمه وكذا سائر اجزائه بطريق الاولى ثم اني رأيت البقاعي في تفسيره جرى على ذلك وقوله تعالى (أو فسقا اهل لغير الله به) اي ذبح على اسم غيره عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض للتعليل *(تنبيه)* ظاهر الآية ان المحرمات محصورة في هذه الاربعة وانه لا يحرم شيء من سائر المطعومات والحيوانات غيرها وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح على اسم غير الله تعالى ويروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير رضي الله تعالى عنهم لانه ثبت أنه لا طريق الى معرفة المحرمات الا بوحي وثبت ان الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الاربعة اشياء وقال تعالى في سورة البقرة انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وانما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم ولكن الذي ذهب اليه جمهور العلماء ان التحريم لا يختص بهذه فقط بل المحرم ما كان بنص كتاب او سنة وقد وردت السنة بتحريم اشياء غير ذلك منها تحريم الحمر الاهلية وكل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطيور وورد النهي عن اكل الهر واكل ثمنه ويحرم ايضا كل ما امر بقتله كالحدأة والغراب الابقع او نهي عن قتله كالهدهد والخفاش وما لا نص فيه بتحريم او تحليل او بما يدل على احدهما كالامر بالقتل والنهي عنه ان استطابته عرب ذوو يسار وطباع سليمة حال رفاهية حل وان استخبثوه فلا يحل فان اختلفوا في استطابته اتبع الاكثر فان استووا فقريش لانهم قطب العرب وفيهم الفتوة فان اختلفت او لم تحكم بشيء اعتبر الاشبه به من الحيوانات فان استوى الشبهان او لم يوجد ما يشبهه فحلال لهذه الآية وما جهل اسمه عمل بتسمية العرب له مما هو حلال او حرام * ولما حرم الله تعالى هذه الاشياء اباحها كلها عند الاضطرار بقوله تعالى (فمن اضطر) اي حصل له جوع خشي منه التلف (غير باغ) اي على مضطر مثله

(ولا عاد)

يرسل الرياح) فاله هنا وفي الروم بلفظ المضارع وقال في الفرقان وفاطر أرسل بلفظ الماضي لان ما هنا

(ولا عاد) اى ولا متجاوز قدر الضرورة وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم النون في الوصل والباقون بالكسر (فان ربك غفور) لا يؤاخذه بالاكل (رحيم) به حيث أباح له ذلك (وعلى الذين هادوا) اى اليهود واليهود علم على قوم موسى عليه الصلاة والسلام وسموا به اشتقاقا من هادوا أى مالوا اما عن عبادة العجل واما عن دين موسى عليه السلام أو من هاد اذا رجع من خير الى شر أو من شر الى خير لكثرة انتقالهم عن مذاهبهم وقيل لانهم يتهودون اى يتحركون عند قراءة التوراة وقيل معرب من يهوذا بن يعقوب بالذال المعجمة ثم نسب اليه فقيل يهودى ثم حذف الياء في الجمع فقيل يهود (حرمنا) أى بسبب ظلمهم عليهم (كل ذى ظفر) اى ما هو كالاصبع للآدمى من دابة أو طير وكان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا حرم عليهم فعم التحريم كل ذى ظفر بدليل قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم (ومن البقر والغنم) اى التى هى ذوات الاظلاف (حرمنا عليهم شحومهما) اى الصنفين والمراد شحم الجوف وهو الثروب قال الجوهرى هو شحم قد غشى الكرش والامعاء رقيق ثم استثنى من الشحوم ما ذكره بقوله (الا ما حملت ظهورهما) اى الا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما (او الحوايا) اى ما حملته الحوايا وهى الامعاء التى هى متعاطفة ملوية جمع حوية فوزنها فعائل كسفينة وسفائن وقيل جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع (أو ما اختلط) اى من الشحوم (بعظم) مثل شحم الالية فان ذلك لا يحرم عليهم روى انه صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح وهو بمكة ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فانها تطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لا هو حرام اى بيعها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود ان الله تعالى لما حرم عليهم شحومهما أجملوه أى أذابوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه (ذلك) اى التحريم العظيم وهو تحريم الطيبات (جزيناهم) به (ببغيهم) اى بسبب مجاوزتهم الحدود (وانا لصادقون) اى فى الاخبار عما حرمنا عليهم وعن بغيهم (فان كذبوك) اى اليهود يا محمد فيما اخبرت به عنهم (فقل) لهم (ربكم ذو رحمة واسعة) اى بتأخير العذاب عنكم فلم يعاجلكم بالعقوبة فى ذلك تلطفا بدعائهم الى الايمان (ولا يرد بأسه) اى عقابه (عن القوم المجرمين) اذا جاء وقته وقيل ذو رحمة واسعة للمطيعين وذو بأس شديد للمجرمين وقوله تعالى (سيقول الذين اشركوا) اخبار عن مستقبل ووقوع مخبره يدل على اعجازه ولما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ) أرادوا ان يجعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجة لهم على اقامتهم على الشرك وقالوا ان الله قادر على ان يحول بيننا وبين ما نحن فيه حتى لا نفعله فلولا انه رضى بما نحن فيه واراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك فقال الله تعالى تكذيبا لهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) اى من كفار الامم الماضية (حتى ذاقوا بأسنا) اى عذابنا ويستدل اهل القدر بهذه الآية يقولون انهم لما قالوا لو شاء الله ما اشركنا كذبهم الله ورد عليهم فقال كذلك كذب الذين من قبلهم وأجاب اهل السنة بان التكذيب ليس فى قولهم لو شاء الله ما اشركنا بل ذلك القول صدق ولكن فى قولهم ان الله أمرنا بها ورضى ما نحن عليه

تقدم عند ذكر الخوف والطمع فى قوله وادعوه خوفا وطمعا وهما للمستقبل وما فى الروم تقدمه التعبير

كما اخبر تعالى عنهم في سورة الاعراف واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها فالرد عليهم في هذا كما قال تعالى قل ان الله لا يامر بالفحشاء والدليل على ان التكذيب ورد فيما قلناه الا في قولهم لو شاء الله ما اشركنا قوله تعالى كذب الذين من قبلهم بالتشديد ولو كان ذلك خبرا من الله عن كذبهم في قولهم لو شاء الله ما اشركنا لقال كذب الذين من قبلهم بالتخفيف وكان ينسبهم الى الكذب لا الى التكذيب وقال الحسين بن الفضل لو ذكروا هذه المقالة تعظيما واجلالا لله تعالى ومعرفة منهم لما عابهم بذلك لان الله تعالى قال ولو شاء الله ما اشركوا وقال تعالى وما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله والمؤمنون يقولون ذلك ولكن المشركين قالوا تكذيبا وتخريصا وجدلا من غير معرفة بالله وبما يقولون نظيره قوله تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم قال الله تعالى ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون وقد علم من ذلك ان امر الله تعالى بمعزل عن مشيئته وارادته فانه مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له ان يتعلق بمشيئته فان مشيئته لا تكون عذرا لاحد (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين ما ذكر (هل عندكم) أيها الجهلة (من علم) اى من امر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم من تحريم ما حرمتم وان الله راض بشرككم (فتخرجوه لنا) اى فتظهروه لنا وتبينوه لنا كما بينا لكم خطأكم (ان) اى ما (تتبعون) في ذلك (الا الظن) اى فيما انتم عليه ولا علم عندكم (وان أنتم الا تخرصون) اى وما أنتم في ذلك كله الا تكذبون وتقولون على الله تعالى الباطل (قل) لهم حين عجزوا عن اظهار الحجة (فلله الحجة البالغة) اى التامة على خلقه بانزال الكتب وارسال الرسل قال الربيع بن انس لا حجة لاحد عصى الله وأشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده (فلو شاء) الله هدايتكم (لهداكم اجمعين) ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء هداية بعض وضلال بعض آخر فوقع ذلك على الوجه الذي شاءه لا يسئل عما يفعل (قل) لهم (هلم) اى أحضروا (شهداءكم الذين يشهدون لكم (أن الله حرم هذا) اى ما تقدم من تحريم الاشياء على انفسهم وزعموا أن الله أمرهم به وهلم اسم فعل لا يتصرف يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين وعند بني تميم فعل مؤنث ويثنى ويجمع (فان شهدوا) اى فان تجرؤا على الشهادة كذبا (فلا تشهد معهم) اى فلا تصدقهم ولا تسلم لهم فانهم على ضلال وليست شهادتهم مستندة الا الى الهوى (ولا تتبع اهواء الذين كذبوا بآياتنا) انما وضع المظهر موضع المضمر للدلالة على ان مكذب الآيات متبع الهوى لا غير وان متبع الحجة لا يكون الا مصدقا بها (و) لا تتبع اهواء (الذين لا يؤمنون بالآخرة) التي هي دار الجزاء فانهم لو جوزوها ما اجترؤا على ذلك (وهم بربهم يعدلون) اى يشركون فيجعلون له عديلا (قل) لهم (تعالوا) اى أقبلوا على (أتل) اى أقرأ (ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا) وذلك أنهم سألوا وقالوا أي الذي حرم الله فأمر الله تعالى نبيه ان يبين لهم ذلك (فان قيل) ما معنى قوله تعالى حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به والمحرم هو الشرك لا ترك الشرك (اجيب) بان موضع أن رفع اى هو أن لا تشركوا وقيل نصب واختلفوا في وجهه فقيل معناه حرم عليكم ان تشركوا ولا صلة كقوله تعالى ما منعك أن لا تسجد أي ما منعك ان تسجد وقيل تم الكلام عند قوله حرم ربكم

بالمضارع مرات في قوله ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات الآية فناسب ذكر المضارع فيهما وما في الفرقان

ثم قال عليكم ان لا تشركوا به شيأ على وجه الاغراء وقال الزجاج يجوز أن يكون هذا محمولا على المعنى اى أتل عليكم تحريم الشرك وجائز أن يكون على معنى أوصيكم أن لا تشركوا (وبالوالدين احسانا) أى فاحسنوا اليهما احسانا ووضعه موضع النهى عن الاساءة اليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الاساءة فى شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) أى من أجل فقر تخافونه والمراد بالقتل وأد البنات وهن احياء وكانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم وقوله تعالى (نحن نرزقكم واياهم) منع لموجبية ما كانوا يفعلونه لاجله واحتجاج عليهم لان الله تعالى اذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال فى أمر الرزق على الله (ولا تقربوا الفواحش) أى سائر المعاصى (ما ظهر منها وما بطن) اى علانيتها وسرها وقيل المراد الزنا علانيته وسره وكان اهل الجاهلية يستقبحون الزنا فى العلانية ولا يرون به بأسا فى السر فحرم الله عز وجل الزنا فى السر والعلانية وأجاب الاول بان السبب اذا كان خاصا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم ثم صرح بالقتل لشدة أمره بالتخصيص بعد التعميم فقال (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) عليكم قتلها (الا بالحق) وهى التى أبيح قتلها بردة أو قصاص أو زنا بعد احصان وهو الذى يوجب الرجم أو نحو ذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وانى رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى ما ذكر مفصلا (وصاكم به) أى أمركم به وأوجبه عليكم (لعلكم تعقلون) أى تتدبرون ما فى هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فان كمال العقل هو التدبر (ولا تقربوا مال اليتيم) أى بنوع من أنواع عمل فيه أو غيره (الا بالتى) أى بالخصلة التى (هى احسن) بماله كحفظه وتنميته وتثميره ويستمر ذلك (حتى يبلغ أشده) وهو سن يبلغ به أوان حمله وعقله عادة وهو البلوغ بالسن أو الاحتلام أو عقل يحصل به رشده وقيل الاشد من الثمانى عشر الى ثلاثين سنة وقيل الى أربعين وقيل الى ستين (وأوفوا) أى أتموا (الكيل والميزان بالقسط) أى العدل من غير تفريط ولا افراط (لا نكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها فى ايفاء الكيل والميزان لم يكلف المعطى أكثر مما وجب عليه ولا يكلف صاحب الحق الرضا باقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عليه بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه وذكره عقب الامر معناه أن ايفاء الحق عسر فعليكم بما فى وسعكم وما وراء الوسع معفو عنه (واذا قلتم) أى فى حكم او شهادة او غير ذلك (فاعدلوا) فيه بالصدق (ولو كان) المقول له أو عليه (ذا قربى) اى من ذوى قرابتكم (وبعهد الله اوفوا) اى ما عهد اليكم من ملازمة العدل وتأدية احكام الشرع (ذلكم) اى الذى ذكر فى هذه الآيات (وصاكم) بالعمل (به لعلكم تذكرون) اى تتعظون فتأخذون بما امرتكم به وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (وأن هذا) الذى وصيتكم به (صراطى مستقيما) والاشارة فيه الى ما ذكر فى السورة فانها باسرها فى اثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وقرأ ابن عامر بتخفيف النون والباقون بالتشديد وكسر الهمزة حمزة والكسائى على الاستئناف وفتحها الباقون على تقدير اللام وفتح الياء من صراطى ابن عامر وسكنها

تقدمه التعبير بالماضى مرات فى قوله كيف مد الظل الآية وتأخر عنه ذلك فى قوله وهو الذى مرج الآية وما فى فاطر تقدمه

الباقون وتقدم مذهب قنبل في الصراط بالسين ومذهب خلف في اشمام الصاد (فاتبعوه) اي بغاية جهدكم لانه الجامع للعباد على الحق الذي فيه كل خير (ولا تتبعوا السبل) اي الطرق المخالفة لدين الاسلام (فتفرق) فيه حذف احدى التاءين أي فتميل (بكم) اي هذه الطرق المضلة (عن سبيله) اي طريقه التي ارتضاها لعباده وبها أوصى (ذلكم) اي الامر العظيم من اتباعه (وصاكم به لعلكم تتقون) الضلال والتفرق عن الحق روي انه صلى الله عليه وسلم خط خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه ومن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه وقرأ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه (ثم آتينا موسى الكتاب) اي التوراة (فان قيل) ثم للترتيب وايتاء موسى الكتاب كان قبل مجيء القرآن (أجيب) بان ثم لترتيب الاخبار أي ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب فدخل ثم لترتيب الخبر لا لترتيب النزول وقوله تعالى (تماما) حال أي لم ينقص الكتاب مما يصلحهم شيئا (على) الوجه (الذي أحسن) أي أتى بالاحسان فاثبت الحسن وجمع ما يلزم من الشرع وما هو لو اتبعه أهل الارض به من الاهلاك العام وروي ان الله تعالى لم يهلك قوما الا كاملا بعد نزول التوراة وقيل تماما على المحسنين من قوم موسى فيكون الذي بمعنى من اي على من أحسن من قومه وكان فيهم محسن ومسيء وقيل الذي احسن هو موسى عليه السلام أي اتماما للنعمة عليه لاحسانه بالعبادة أو الذي بمعنى ما أي ما أحسن وقوله تعالى (وتفصيلا) عطف على تماما أي وبيانا (لكل شيء) أي يحتاج اليه في الدين (وهدى) اي فيه هدى من الضلالة (ورحمة) اي انزاله عليهم رحمة لهم (لعلهم) اي بني اسرائيل (بلقاء ربهم) أي بالبعث والجزاء (يؤمنون) أي ليكون حالهم بعد انزال الكتاب لما يرون من حسن شرائعه وفخامة كلامه وجلالة امره حال من يرجو أن يجدد الايمان في كل وقت بلقاء ربه وليذكروا ما انعم به عليهم من اخراجهم من مصر من العبودية والرق (وهذا) أي القرآن (كتاب) أي عظيم (انزلناه) اليكم أي بلسانكم حجة عليكم (مبارك) اي كثير الخير والنفع والبركة (فاتبعوه) اي اتبعوا ما فيه من الاوامر والنواهي والاحكام (واتقوا) الكفر (لعلكم ترحمون) أي بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه ثم بين تعالى المراد من انزاله فقال (أن) اي كراهة أن (تقولوا انما أنزل الكتاب) اي التوراة والانجيل (على طائفتين من قبلنا) أي اليهود والنصارى (وان كنا) اي وقد كنا وان هي المخففة من الثقيلة ولذلك دخلت اللام الفارقة بينها وبين النافية في خبر كان أي وانه كنا (عن دراستهم) قراءتهم لكتابهم قراءة مرددة (لغافلين) أي لا نعرف حقيقتها ولا ثبت عندنا حقيتها ولا هي بلساننا (أو تقولوا) أي أيها العرب لم نكن عن دراستهم غافلين بل كنا عالمين بها ولكنه لا يجب اتباع الكتاب الا على المكتوب اليه فلم نتبعه و (لو أنا) أهلنا لما أهلوا له حتى (انزل علينا الكتاب) أي جنسه (لكنا أهدى منهم) اي لما لنا من الاستعداد بوفور العقل وحدة الاذهان واستقامة الافكار واعتدال الامزجة والاذعان للحق (فقد جاءكم بينة من ربكم) اي القرآن فيه بيان وحجة واضحة تعرفونها على لسان رجل منكم تعرفون انه اولا كمهذلك (وهدى) من الضلالة لمن تدبره (ورحمة) اي وهو رحمة ونعمة انعم بها عليكم فتأملوا فيه واعملوا به (فمن) أي لا احد (اظلم ممن

في اوله انا طروجا على وهما بمعنى الماضي فناسب ذكر الماضي في السورتين (قوله لقد أرسلنا نوحا) قاله هنا

كذب

كذب بآيات الله وصدف) اى أعرض (عنها) فضل وأضل (سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا)
ولا يتوبون (سوء العذاب) اى شدته (بما كانوا يصدفون) اى بسبب اعراضهم (هل ينظرون)
اى ما ينتظر هؤلاء المكذبون (الا أن تأتيهم الملائكة) اى لقبض أرواحهم أو بالعذاب وقرأ
حمزة والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث (أو يأتي ربك) اى أمره
بالعذاب (أو يأتي بعض آيات) اى علامات (ربك) الدالة على الساعة كطلوع الشمس من
مغربها وعن حذيفة والبراء بن عازب كنا نتذاكر الساعة اذ طلع علينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال ما تتذاكرون قلنا كنا نتذاكر الساعة فقال انها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات
الدخان ودابة الارض وخسفا بالمشرق وخسفا بالمغرب وخسفا بجزيرة العرب والدجال وطلوع
الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ونارا تخرج من عدن (يوم يأتي بعض
آيات ربك) وهو طلوع الشمس من مغربها كما في حديث الصحيحين (لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن
آمنت من قبل) صفة نفسا (أو) نفسا لم تكن (كسبت في ايمانها خيرا) اى طاعة لا ينفعها
توبتها قال صلى الله عليه وسلم يد الله مبسوطتان لمسيء الليل ليتوب بالنهار ولمسيء النهار ليتوب
بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها وقال صلى الله عليه وسلم من تاب قبل ان تطلع الشمس من
مغربها تاب الله عليه وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جعل بالمغرب بابا مسيرة عرضه سبعون
عاما للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث اذا خرجن فلا
ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها (قل
انتظروا) بعض هذه الاشياء (انا منتظرون) ذلك وحينئذ لنا الفوز عليكم ولكم الويل (ان
الذين فرقوا دينهم) أى بدّدوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض واختلفوا فيه قال صلى الله عليه
وسلم افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية الا واحدة وافترقت النصارى
على ثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية الا واحدة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في
الهاوية الا واحدة رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححاه وفي بعض الروايات قالوا من هم
يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي وقرأ حمزة بتخفيف الراء وألف قبلها والباقون بتشديدها
ولا ألف (وكانوا شيعا) أى فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة كأهل
الكتاب فانهم ابتدعوا في دينهم بدعا أوصلتهم الى تكفير بعضهم بعضا فآمنوا ببعض الانبياء
وكفروا ببعض وكالمجوس الذين فرقوا دينهم باعتقاد أن الاله اثنان النور والظلمة وعبدوا
الاصنام والنجوم وجعلوا لكل نجم قسما يتوسل به في زعمهم اليه وقيل هم أهل البدع وأصحاب
الاهواء من هذه الامة روى انه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة يا عائشة ان الذين فرقوا دينهم
وكانوا شيعا هم أهل البدع وأصحاب الاهواء من هذه الامة وعن العرباض بن سارية قال صلى
بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فوعظنا موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها
القلوب فقال قائل يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال أوصيكم بتقوى الله والسمع
والطاعة وان كان عبدا حبشيا فان من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة
الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وايا كم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة
وكل بدعة ضلالة وروى ان أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه
وسلم وشر الامور محدثاتها (لست منهم في شيء) اى من السؤال عنهم فلا تتعرض لهم (انما أمرهم

بلا واو وقاله في هود والمؤمنين
بواو لان ما هنا مستأنف
لم يتقدمه ذكر نبي وما في هود
تقدمه ذكر الانبياء مرة
بعد اخرى وما في المؤمنين

الى الله) يتولى جزاءهم (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) فيجازيهم به وهذا منسوخ بآية السيف (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) اى عشر حسنات أمثالها افضلا من الله تعالى (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) اى جزاءها قضية للعدل (وهم لا يظلمون) اى بنقص الثواب وزيادة العقاب وما ذكر فى اضعاف الحسنات هو أقل ما عد من الاضعاف فقد قال صلى الله عليه وسلم اذا أحسن أحدكم اسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها او أزيد ومن جاء بالسيئة فله سيئة مثلها او أغفر ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن لقينى بقراب الارض خطيئة لا يشرك بى شيأ لقيته بمثلها مغفرة وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى اذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فان عملها فاكتبوها بمثلها وان تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة وان عملها فاكتبوها بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وقال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما الآية فى غير الصدقات من الحسنات فأما الصدقات فانها تضاعف سبعمائة ضعف (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك (اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم) بالوحى والارشاد الى ما نصب من الحجج وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وقوله تعالى (دينا) بدل من محل الى صراط مستقيم والمعنى وهدانى صراطا كقوله تعالى ويهديك صراطا مستقيما (قيما) أى مستقيما وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح القاف وكسر الياء مشددة والباقون بكسر القاف وفتح الياء مخففة على انه مصدر نعت به وكان قياسه قوما فاعل لاعلال فعله كالقيام وقوله تعالى (ملة ابراهيم) عطف بيان لدينا اذ الملة بالكسر الدين وان فرق بينهما بأن الملة لا تضاف الا الى النبى الذى تستند اليه والدين لا يختص اضافته بذلك وقوله تعالى (حنيفا) حال من ابراهيم أى مائلا من الضلالة الى الاستقامة والعرب تسمى كل من حج أو اختتن حنيفا تنبيها على انه دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (وما كان) ابراهيم صلى الله عليه وسلم (من المشركين) رد على كفار قريش لانهم يزعمون انهم على دين ابراهيم فأخبر الله تعالى ان ابراهيم لم يكن من المشركين (قل) يا محمد (ان صلاتى ونسكى) اى عبادتى من حج وغيره (ومحياى ومماتى) اى وما أنا عليه فى حياتى وأموت عليه من الايمان والطاعة أو طاعات الحياة والخيرات المضافة الى الممات كالوصية والتدبير أو الحياة والممات أنفسهما وقرأ نافع ومحياى بسكون الياء بخلاف عن ورش اجراء للوصل مجرى الوقف والباقون بالفتح وفتح الياء من مماتى نافع وسكنها الباقون (لله رب العالمين لا شريك له) فى ذلك (وبذلك) أى وبهذا التوحيد (أمرت وأنا أول المسلمين) أى من هذه الامة لان اسلام كل نبى متقدم على اسلام أمته وقرأ نافع بمد أنا قبل الهمزة المفتوحة وقالون بالمد والقصر لانها عنده مد منفصل والباقون بلا مد أصلا (قل) يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (أغير الله ابغى) أى أطلب (ربا) أى الها فأشركه فى عبادتى وهذا جواب عن دعائهم له الى عبادة آلهتهم والهمزة للانكار اى منكر أن ابغى ربا غيره (وهو رب كل شئ) فكل من دونه مربوب ليس فى الوجود من له الربوبية غيره كما قال تعالى قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون (ولا تكسب كل نفس) ذنبا (الا عليها) اى اثم الجانى عليه لا على غيره وقوله تعالى (ولا

قد تقدم ولقد خلقناكم ثم صورناكم وعلى الفلك تحملون وقعا أو على ما سيذكرها وكلها بالواو وفيها (قوله قال الملأ) قاله هناك قصة نوح وهود بلا

تزر) اى ولاتحمل نفس (وازرة) اى آثمة (وزر) نفس (أخرى) جواب عن قولهم اتبعوا سبيلنا
ولنحمل خطاياكم (ثم الى ربكم مرجعكم) يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) فى
الدنيا فيتبين الرشد من الغى والمحق من المبطل (وهو الذى جعلكم خلائف الارض) جمع خليفة
لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فخلفت أمته سائر الامم أو يخلف بعضهم بعضا فيها اوهم
خلفاء الله تعالى فى أرضه يملكونها ويتصرفون فيها (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) اى
فى الشرف والرزق (ليبلوكم) اى ليختبركم (فى ما آتاكم) أى اعطاكم ليظهر المطيع منكم
والعاصى * (فائدة) * فى تكتب مقطوعة عن ما (ان ربك سريع العقاب) لمن عصاه لان ماهو
آت قريب أولانه يسرع اذا أراده (وانه لغفور) للمؤمنين (رحيم) بهم وصف الله تعالى
العقاب ولم يضفه الى نفسه ووصف تعالى ذاته بالمغفرة وضم اليه الوصف بالرحمة وأتى ببناء
المبالغة واللام المؤكدة تنبيها على انه تعالى غفور بالذات معاقب بالعرض كثير الرحمة مبالغ
فيها قليل العقوبة مسامح فيها فنسأل الله العظيم أن يسامحنا وأن يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا
بسوء أعمالنا وان يفعل ذلك بوالدينا وأقاربنا وأحبابنا وأصحابنا وجميع المسلمين ولا حول
ولا قوة الا بالله العلى العظيم ۞ قال المؤلف وقد تم تفسير بعض معانى الربع الاول من كلام
ربنا العظيم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه يوم الاثنين المبارك عاشر شهر شعبان من شهور سنة
أربع وستين وتسعمائة على يد مؤلفه فقير رحمة ربه القريب محمد الشربينى الخطيب نفع الله
تعالى به مؤلفه ومن قرأه أو نقل منه أو طالع فيه أو كان سببا فى تأليفه بالموت على الاسلام وان
يجعله خالصا لوجهه الكريم وان ينفع به وان يعيننا على اتمامه كما أعاننا على ابتدائه انه قريب
مجيب الدعوات لا يخيب من سأله واعتمد عليه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه
وذريته واتباعه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين

سورة الاعراف مكية

الاثمان آيات من قوله تعالى واسئلهم عن القرية الى قوله تعالى واذ نتقنا الجبل وهى محكمة
كلها وقيل الا قوله تعالى وأعرض عن الجاهلين وعدد آياتها مائتان وخمس آيات وكلماتها ثلاثة
آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة وحروفها أربعة عشر ألفا وثلثمائة وعشرة احرف

(بسم الله) الواحد الذى لا يقدر أحد قدره (الرحمن) الذى عم بنعمه البيان من اوجب عليهم
شكره (الرحيم) الذى خص أهل وده فاجتنبوا نهيه وامتثلوا أمره (المص) سبق الكلام على
معانى الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة وقوله تعالى (كتاب) خبر مبتدا محذوف تقديره هو
أو هذا أو خبر المص والمراد بالكتاب السورة أو القرآن وقوله تعالى (أنزل اليك) صفة والخطاب
للنبى صلى الله عليه وسلم (فلا يكن فى صدرك حرج) اى ضيق (منه) اى لا يضق صدرك بالابلاغ
وتأدية ما أرسلت به مخافة أن تكذب لانه كان يخاف قومه وتكذيبهم له واعراضهم عنه واذاهم
وكان يضيق صدره من الاذى ولا ينبسط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم وقيل الحرج الشك
والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته وسمى الشك حرجا لان الشاك ضيق الصدر كما ان
المتيقن منشرح الصدر وقوله تعالى (لتنذر) متعلق بأنزل أى للانذار (به وذكرى) أى
وتذكرة (للمؤمنين) به وحذف المفعول يدل على عموم الرسالة لكل من أمكن انذاره وتذكيره

قوله لانه خرج مخرج الابتداء وان تضمن الجواب كما فى قوله قالوا نحن أعلم بمن فيها بعد قوله قال ان فيها لوطا وقال فى هود والمؤمنين بالفاء لانه

قوله وثلاثمائة فى نسخة وثمانمائة فليحرر اه مصححه

من الهلاك قال بعض المفسرين وهذا من المؤخر الذى معناه التقديم تقديره كتاب أنزلناه اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن فى صدرك حرج منه ويدل لهذا تعلق لتنذر بأنزل وقوله تعالى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) يعنى القرآن والسنة لقوله تعالى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ولقوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا أى قل لهم يا محمد اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم وذروا ما أنتم عليه من الشرك (ولا تتبعوا من دونه) أى ولا تتخذوا من دون الله أى غيره (أولياء) تطيعونهم من شياطين الانس والجن فيأمروكم بعبادة الاصنام واتباع البدع و الاهواء الفاسدة (قليلا ما تذكرون) أى تتعظون وقرأ ابن عامر بياء قبل التاء وتخفيف الذال وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال ولا ياء قبل التاء والباقون بتشديد الذال ولا ياء قبل التاء (وكم من قرية أهلكناها) أى أهلكنا أهلها وقيل لا يحتاج الى تقدير مضاف لان القرية تهلك كما يهلك أهلها وانما يقدر فى جاءها الاجل قوله تعالى أو هم قائلون وكم خبرية مفعول أهلكنا وهى للتكثير والاهلاك على حقيقته أو يقدر أردنا اهلاكها لقوله تعالى (فجاءها) أى أهلها (بأسنا) أى عذابنا فان مجىء البأس قبل الاهلاك فتقدر الارادة وقيل الاهلاك الخذلان وعلى هذا فلا حاجة الى تقدير (بياتا) أى وقت الاستكنان فى البيوت ليلا كما جاء قوم لوط عليه السلام (أو هم قائلون) أى نائمون وقت القائلة وهى نصف النهار أو مستريحون من غير نوم كما أهلكنا قوم شعيب عليه السلام أى مرة جاءها ليلا ومرة نهارا وانما خص هذين الوقتين لانهما وقت دعة واستراحة فيكون مجىء العذاب فيهما أقطع وفى هذا وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لا تغتروا بأسباب الامن والراحة فان عذاب الله اذا نزل نزل دفعة واحدة (فما كان دعواهم) اى قولهم (اذ جاءهم بأسنا) أى عذابنا (الا أن قالوا) اى الا قولهم (انا كنا ظالمين) أى فيما كنا عليه حيث لم نتبع ما أنزل الينا من ربنا وذلك حين لا ينفعهم الاعتراف (فلنسئلن الذين أرسل اليهم) اى المرسل اليهم وهم الامم يسألهم الله تعالى عن قبول الرسالة واجابتهم الرسل (ولنسئلن المرسلين) اى عما اجيبوا به كما قال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم وقيل نسأل المرسلين عن الابلاغ والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والمنفى فى قوله تعالى ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون سؤال الاستعلام الاول فى موقف الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة (فلنقصن عليهم) اى الرسل والمرسل اليهم (بعلم) اخبرناهم عن علم بما فعلوه باطنا وظاهرا او بما قالوه سرا وعلانية (وما كنا غائبين) عنهم فيخفى علينا شىء من أحوالهم وأقوالهم (والوزن) أى وزن صحائف الاعمال بميزان له لسان وكفتان ينظر اليه الخلائق اظهارا للعدل وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم ويؤيده ما روى ان رجلا يؤتى به الى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة والبطاقة رقعة صغيرة تجعل فى طى الثوب يكتب فيها ثمنه وقيل توزن الاعمال روى عن ابن عباس يؤتى بالاعمال الحسنة على صورة حسنة وبالاعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع فى الميزان وقيل توزن الاشخاص لما روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال انه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقوله تعالى (يومئذ) اى يوم السؤال المذكور وهو يوم القيامة خبر المبتدا الذى هو الوزن

وقع جوابا لما قبله فناسبه الفاء (فان قلت) كيف وصف الملأ بالذين كفروا فى قصة هود دون قصة نوح عليهما الصلاة والسلام

وقوله تعالى (الحق) اى العدل السوى صفته (فمن ثقلت موازينه) أى رجحت على ما يعهد فى الدنيا بصحائف الاعمال أو حسناته أو به على الاقوال الماضية وعن الحسن وحق لميزان توضع فيه الحسنات ان يرجح ويثقل وحق لميزان توضع فيه السيآت أن يخف (فان قيل) الميزان واحد فما وجه الجمع (أجيب) بأن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقيل انه ينصب لكل عبد ميزان وقيل انما جمعه لان الميزان يشتمل على الكفتين واللسان والساهون ولا يتم الوزن الا بذلك كله وقيل جمع لاختلاف الموزونات وتعدد الجمع فهو جمع موزون أو ميزان (فأولئك هم المفلحون) الفائزون بالنجاة والثواب (ومن خفت) اى طاشت (موازينه) اى السيآت اى بسببها (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى بتصييرها الى النار (بما كانوا بآياتنا يظلمون) أى يجحدون (ولقد مكناكم) يا بنى آدم (فى الارض) اى فى سكنها وزرعها والتصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة اى اسبابا تعيشون بها أيام حياتكم من أنواع التجارات والصنائع والمآكل والمشارب وذلك بفضل الله تعالى وانعامه على عبيده وكثرة الانعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ثم بين تعالى انه مع هذا الافضال على عبيده وانعامه عليهم لا يقومون بشكرها كما ينبغى فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) أى على ما صنعت اليكم وأنعمت به عليكم وفيه دليل على انهم قد يشكرون لان الانسان قد يذكر نعمة الله فيشكره عليها ولا يخلو فى بعض الاوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر تصور النعمة واظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها (ولقد خلقناكم) اى أباكم آدم (ثم صورناكم) أى أباكم آدم والمراد يعنى خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه فنزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويرهم وقيل خلقناكم فى اصلاب الرجال ثم صورناكم فى أرحام النساء (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فان قيل ثم للترتيب والتراخى وهى ظاهرة على القول الاول فما وجهه على الثانى (أجيب) بأنها تكون بمعنى الواو اى وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تحية بالانحناء (فسجدوا) أى الملائكة كلهم لآدم (الا ابليس) أبا الجن كان بين الملائكة (لم يكن من الساجدين) اى ممن سجد (قال) الله تعالى لابليس (ما منعك أن لا تسجد) اى ان تسجد (اذ أمرتك) فلا زائدة للتأكيد كما فى قوله تعالى لا أقسم اى أقسم وقوله تعالى وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون اى يرجعون نعم ان حمل ما منعك على ما حملك لم تكن زائدة (قال) ابليس مجيبا له تعالى (أنا خير منه) (فان قيل) كيف يكون قوله أنا خير منه جوابا لما منعك وانما الجواب أن يقول منعنى كذا (أجيب) بأنه جواب من حيث المعنى استأنف به استبعادا لأن يكون مثله مأمورا بالسجود لمثله كأنه قال المانع أنى خير منه ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف يحسن أن يؤمر به فهو الذى سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولا وعلل الخيرية بقوله تعالى (خلقتنى من نار) فهى أغلب أجزائى وهى مشرقة مضيئة عالية غالبة (وخلقته من طين) اى هو أغلب أجزائه وهو كدر مظلم سافل مغلوب فكل منهما مركب من العناصر الاربعة فالاضافة الى ما ذكر باعتبار الجزء الغالب قال ابن عباس رضى الله عنهما أول من قاس ابليس فأخطأ فمن قاس الدين بشئ من رأيه قرنه الله تعالى مع ابليس قال ابن سيرين ما عبدت الشمس الا بالقياس وانما أخطأ ابليس لانه رأى الفضل كله

(قلت) لانه كان قد امن بهود بعضهم فلم يكونوا كلهم قائلين له انا لنراك فى سفاهة بخلاف قوم نوح فانه لم يكن فيهم من امن به اذ ذاك

باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار اليه بقوله تعالى ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي اى بغير واسطة وباعتبار الصورة كما نبه عليه تعالى بقوله ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين وباعتبار الغاية وهي ملاكه ولذلك أمر الملائكة بالسجود لما تبين لهم انه أعلم منهم وأن له خواص ليست لغيره وقال محمد بن جرير ظن الخبيث ان النار خير من الطين ولم يعلم ان المفضل ما جعل الله له الفضل وقد فضل الله الطين على النار بوجوه منها ان من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر وهو الداعى لآدم بعد السعادة التى سبقت له الى التوبة والتواضع والتضرع فأورثته الاجتباء والمنزلة والهداية ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع وهو الداعى لابليس بعد الشقاوة التى سبقت له الى الاستكبار والاصرار فاورثته اللعنة والشقاوة ولان الطين سبب جمع الاشياء والنار سبب تفرقها ولان التراب سبب الحياة لان حياة الاشجار والنبات لا تكون الا مع الطين والنار سبب الهلاك (فان قيل) لم سأله الله تعالى عن المانع من السجود وهو عالم بما منعه (أجيب) بانه للتوبيخ ولاظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره باصله وازدرائه أصل آدم عليه الصلاة والسلام (قال) الله تعالى لابليس (فاهبط منها) أى من الجنة وقيل من السماء الى الارض والهبوط الانزال والانحدار من فوق على سبيل القهر والهوان والاستخفاف (فما يكون) أى فما يصح (لك أن تتكبر فيها) عن أمرى لان الجنة أو السماء مكان الخاشع المطيع لامر الله تعالى وفيه تنبيه على ان التكبر لا يليق باهل الجنة والسماء وانه تعالى انما طرد ابليس لتكبره لا لمجرد المعصية قال صلى الله عليه وسلم كما رواه البيهقى من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله وعن عمر رضى الله عنه من تواضع رفع الله حكمته ومن تكبر وعدا طوره هضمه الله الى الارض (فاخرج) منها (انك من الصاغرين) اى الكفرة الاذلاء المهانين والصغار الذل والمهانة قال الزجاج استكبر عدو الله ابليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة وقيل كان له ملك الارض فاخرجه الله منها الى جزائر البحر الاخضر وعرشه عليه فلا يدخل الارض الا خائفا كهيئة السارق مثل شيخ عليه اطمار رثة يروغ فيها حتى يخرج منها (قال) ابليس عند ذلك (أنظرنى) اى أخرنى ولا تمتنى ولا تعجل عقوبتى (الى يوم يبعثون) اى الناس وهو النفخة الاخيرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة ابليس الخبيث لانه سأل ربه الامهال وقد علم انه لا سبيل لاحد من الخلق الى البقاء فى الدنيا ولكنه كره أن يذوق الموت فطلب البقاء والخلود فلم يجب الى ما سأل بل أجابه الله تعالى بقوله (قال انك من المنظرين) لا الى ذلك الوقت بل الى الوقت المعلوم كما بينه تعالى فى سورة الحجر بقوله تعالى فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الاولى التى يموت فيها الخلق (فان قيل) لم أجيب الى الانظار وانما استنظر ليفسد عباده و يغويهم (أجيب) بانه أجابه لما فى ذلك من ابتلاء العباد وفى مخالفته من عظيم الثواب وحكمة ما خلق الله تعالى من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهى وما ركب فى الانفس من الشهوات ليمتحن بها عباده (قال) اى ابليس (فبما أغويتنى) اى فباغوائك لى والباء للقسم اى أقسم باغوائك وجوابه (لاقعدن لهم) اى لبنى آدم (صراطك المستقيم) اى على الطريق الموصل اليك وانما أقسم بالاغواء لانه كان تكليفا والتكليف من أحسن افعال الله تعالى لكونه تعريضا لسعادة الابد

فكان

وتعقب بانه تعالى وصف أيضا الملأ من قوم نوح بالكفر فى سورة هود وأجيب بجواز كون هذا القول وقع مرتين

فكان جديرا الان يقسم به ويجوز أن تتعلق الباء بفعل القسم المحذوف تقديره فبما أغويتني

أقسم بالله لاقعدن أى فبسبب اغوائك أقسم (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) اى من جميع الجهات الاربع ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم قال ابن عباس رضى الله عنهما ولا يستطيع أن ياتى من فوقهم لئلا يحول بين العبد و بين رحمة ربه وقيل لم يقل من تحتهم لان الاتيان منه يوحش وعنه انه قال من بين أيديهم من قبل الآخرة فيخبرهم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من قبل الدنيا فيزينها لهم وعن أيمانهم اى من قبل حسناتهم اى فيبطؤهم عنها وعن شمائلهم من قبل سيآتهم اى فيزين لهم المعاصى ويدعوهم اليها وانما عدى الفعل الى الاولين بحرف الابتداء لانه منهما متوجه اليهم والى الآخرين بحرف المجاوزة فان الآتى منهما كالمنحرف عنهم المار على عروضهم ونظيره قوله جلست عن يمينه وعن شقيق ما من صباح الا قعد لى الشيطان على أربع مراصد من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى أما من بين يدى فيقول لا تخف ان الله غفور رحيم فاقرأ وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وأما من خلفى فيخوفنى الضيعة على من خلفى فاقرأ وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها وأما من قبل يمينى فيأتينى من قبل النساء فاقرأ والعاقبة للمتقين وأما من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فاقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون (ولا تجد أكثرهم شاكرين) اى مطيعين (فان قيل) كيف علم الخبيث ذلك (أجيب) بانه انما قال ذلك ظنا لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه لما رأى فيهم مبدأ الشر متعددا وهو الشيطان والنفس والهوى ومبدأ الخير واحدا وهو الملك الملهم وقيل سمع ذلك من الملائكة (قال) الله تعالى لابليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه بسبب عصيانه ومخالفته (اخرج منها) اى الجنة أو السماء كما مر فانه لا ينبغى ان تسكن فيها (مذؤما) اى محقورا ممقوتا (مدحورا) اى مبعدا مطرودا عن الرحمة وقوله تعالى (لمن تبعك منهم) اى من الناس اللام فيه موطئة للقسم وجوابه (لأملأن جهنم منكم أجمعين) وهو ساد مسد جواب الشرط وهو من تبعك اى لأملأن جهنم منك بذريتك ومن الناس وفيه تغليب الحاضر على الغائب (ويا آدم) اى وقلنا يا آدم (اسكن) فهذه القصة معطوفة على قوله تعالى قلنا للملائكة وقوله تعالى (أنت) تاكيد للضمير فى اسكن ليعطف عليه (وزوجك) أى حواء بالمد وذلك بعد ان أهبط منها ابليس واخرجه وطرده من الجنة (الجنة فكلا من حيث شئتما) من ثمار الجنة اى من اى مكان شئتما (فان قيل) قال تعالى فى سورة البقرة وكلا بالواو وهنا بالفاء فما الفرق (أجاب) الفخر الرازى بان الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففى سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع (ولا تقربا هذه الشجرة) اى بالاكل منها مشيرا الى شجرة بعينها أو نوعها وهى الحنطة وقيل شجرة الكرم وقيل غيرهما (فتكونا من الظالمين) اى بالاكل منها أى فتصيرا بذلك من الذين ظلموا أنفسهم وتكونا يحتمل الجزم عطفا على تقربا والنصب على جواب النهى (فوسوس لهما الشيطان) اى ابليس بما مكنه الله تعالى منه من أنه يجرى من الانسان مجرى الدم و يلقى له فى سره ما يميل به قلبه الى ما يريده وهو أحقر وأذل من أن يكون له فعل وانما

المرة الثانية بعد اعيان بعضهم المرة الاولى (قوله بخلاف في قصة نوح أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم) قال ذلك

الكل بيد الله سبحانه وتعالى وهو الذى جعله آلة لمراده منه ومنهم فان من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون ثم بين علة الوسوسة بقوله تعالى (ليبدى) اى ليظهر (لهما ماورى) اى ستر وغطى (عنهما من سوآتهما) اى عوراتهما وكانا لا يريانها من انفسهما ولا أحدهما من الآخر وفيه دليل على ان كشف العورة فى الخلوة وعند الزوجة من غير حاجة قبيح مستهجن فى الطباع قالت عائشة رضى الله عنها ما رأيت منه صلى الله عليه وسلم ولا رأى منى اى الفرج (وقال) اى ابليس لآدم وحواء (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة) اى عن الاكل منها (الا ان) اى كراهة أن (تكونا ملكين) اى فى عدم الشهوة وفى القدرة على الطيران والتشكل وغير ذلك من خواصهم (او تكونا من الخالدين) اى الذين لا يموتون ولا يخرجون من الجنة أصلا كما فى آية اخرى هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (وقاسمهما) اى اقسم لهما بالله على ذلك واخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة وقيل اقسما له بالقبول وقيل اقسما عليه بالله انه لهما لمن الناصحين فاقسم لهما (انى لكما لمن الناصحين) فجعل ذلك مقاسمة وقال قتادة حلف لهما بالله حين خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله تعالى فقال انى خلقت قبلكما وأنا أعلم فاتبعانى أرشدكما وفيه تنبيه على الاحتراز من الحالف وان الاغلب أن كل حلاف كاذب وأنه لا يحلف الا عند ظنه ان سامعه لا يصدقه ولا يظن ذلك الا وهو معتاد للكذب وقال بعض العلماء من خادعنا بالله خدعنا له وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما انه كان اذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة اعتقه وكان عبيده يفعلون ذلك طلبا للعتق فقيل له انهم يخدعونك فقال من خدعنا بالله انخدعنا له وابليس لعنه الله تعالى اول من حلف بالله تعالى كاذبا فلما حلف ظن آدم ان احدا لا يحلف بالله تعالى كاذبا فاغتر به (فدلاهما بغرور) اى خدعهما يقال ما زال يدلى لفلان بالغرور يعنى ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف القول الباطل وقيل حطهما من منزلة الطاعة الى حالة المعصية والغرور اظهار النصح مع ابطان الغش (فلما ذاقا الشجرة) اى اكلا من ثمرها وفى ذلك دليل على انهما تناولا اليسير من ذلك قصدا الى معرفة طعمه اذ الذوق يدل على الاكل اليسير وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال قبل ازدرادهما أخذتهما العقوبة والعقوبة هى قوله تعالى (بدت) أى ظهرت (لهما سوآتهما) أى عوراتهما وتهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ماورى عنه من سوأة صاحبه بان رأى قبل نفسه وقبل صاحبه ودبره وكانا لا يريان ذلك وسمى كل منهما سوأة لان انكشافه يسوء صاحبه قال وهب كان لباسهما من النور يحول بينهما وبين النظر وقال قتادة كان ظفرا ألبسهما الله من الظفر لباسا فلما وقعا فى الذنب بدت لهما سوآتهما فاستحييا (وطفقا) اى أقبلا وجعلا (يخصفان) اى يلزقان (عليهما من ورق الجنة) اى من ورق التين قال البغوى حتى صار كهيئة الثوب قال الزجاج يجعلان ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما روى عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان آدم رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فى الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها فانطلق هاربا فى الجنة فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها أرسلينى فقالت لست بمرسلتك فناداه الله عز وجل يا آدم أمنى تفر فقال لا يارب ولكنى استحييتك (وناداهما) اى خاطبهما (ربهما) بقوله (ألم أنهكما عن

فيهما بلفظ المضارع فى الجملة الثانية مناسبة للمضارع فى الاولى كما عطف الماضى على الماضى فى قوله لقد

تلكما

تلكما الشجرة) اى عن الاكل من ثمرها (وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) اى بين العداوة لكما وقد بان لكما عداوته بترك السجود تعنتا وحسدا وفى ذلك عتاب على مخالفة النهى وتوبيخ على الاغترار بقول العدو ودليل على أن مطلق النهى للتحريم قال محمد بن قيس لما أكل آدم من الشجرة ناداه ربه يا آدم أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها قال حواء أمرتنى وقال لحواء لم أطعمت آدم قالت أمرتنى الحية وقال للحية لم أمرتيها قالت أمرنى ابليس قال الله تعالى أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة فتدمين فى كل شهر وأما أنت يا حية فاقطع قوائمك فتمشين على وجهك ويشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا ابليس فملعون مدحور وفى رواية لابن عباس انه قال لحواء فانى أعطيتها أن لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) أى ضررناها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك أى فان لم تتب علينا استمر عاصين (وان لم تغفر لنا) أى تمح ما عملناه عينا وأثرا (وترحمنا) أى فتعلى درجاتنا (لنكونن من الخاسرين) فى الارض فاعربت الآية أنهما فزعا الى الانصاف وبالاعتراف بذنبهما وان كان انما هو خلاف الاولى لانه بطريق النسيان كما فى سورة طه قال قتادة قال آدم أرأيت ان تبت اليك واستغفرتك قال أدخلك الجنة وأما ابليس فلم يسأل التوبة وسأل النظرة فاعطى كل واحد منهما ما سأله وقال الضحاك فى قوله تعالى قالا ربنا ظلمنا أنفسنا قال هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه تعالى وقد استدل من يرى صدور الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية ورد بان درجة الانبياء فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله تعالى فى أعلى الدرجات ولكن يؤاخذون بما لم يؤاخذ به غيرهم وانهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل فهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهى ذنوب بالاضافة الى علو منصبهم ومعاص بالنسبة الى كمال طاعتهم لا انها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصى غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحى السماوى والذكر القدسى وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله تعالى ذنوب بالنسبة الى أحوالهم فقالوا ذلك على عادة المقربين فى استعظام الصغير من السيآت وتحقير العظيم من الحسنات وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة ومن جملة ذلك أن آدم انما أكل من الشجرة قبل النبوة (قال) الله تعالى (اهبطوا) أى آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ويدل لذلك قوله تعالى فى سورة طه اهبطا بضمير التثنية (بعضكم) أى بعض الذرية (لبعض عدو) أى من ظلم بعضهم بعضا وقيل يعود الضمير لآدم وحواء وابليس وقيل لآدم وحواء وابليس والحية وعلى هذا فالعداوة ثابتة بين آدم وابليس والحية وذرية كل واحد من آدم وابليس (ولكم فى الارض) أى جنسها (مستقر) اى موضع استقرار (و) لكم فيها (متاع) أى تمتع (الى حين) أى انقضاء آجالكم وقيل الى انقطاع الدنيا وعن ثابت البنانى رحمه الله تعالى لما اهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها خلى ملائكة ربى فانما أصابنى الذى أصابنى منك فلما توفى غسلته الملائكة بسرنديب بماء وسدر وترا وحنطته وكفنته فى وتر من الثياب وحفروا له ولحدوه بسرنديب بأرض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم من بعده (قال) الله تعالى (فيها) أى الارض (تحيون) أى تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) أى وفيها وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها

ابلغكم رسالات ربى ونصحت لكم وقاله فى قصة هود بلفظ اسم الفاعل مناسبة لاسم الفاعل قبله فى قوله وانا لكم [illegible] من

تخرجون) أي يوم القيامة تخرجون للحشر والجزاء وقرأ ابن ذكوان وحمزة والكسائي بفتح التاء وضم الراء والباقون بضم التاء وفتح الراء (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) أي خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة من مطر ونحوه ونظيره قوله تعالى وأنزل لكم من الانعام وقوله تعالى وأنزلنا الحديد وقيل كل بركات الارض منسوبة الى السماء (يواري) أي يستر (سوآتكم) أي عوراتكم روى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله تعالى فيها وكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء يطوفون بالليل عراة قال قتادة كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فنزلت قال البيضاوي ولعله سبحانه ذكر قصة آدم تقدمة لذلك حتى تعلم ان انكشاف العورة أول سوء أصاب الانسان من الشيطان وأنه أغواهم في ذلك كما اغوى أبويهم (وريشا) أي ولباسا تتجملون به والريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للانسان فاستعير للانسان لانه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم ولباسا لزينتكم لان الزينة غرض صحيح كما قال تعالى لتركبوها وزينة وقال تعالى ولكم فيها جمال وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال وقال ابن عباس وريشا أي مالا يقال تريش الرجل تمول ولما ذكر سبحانه وتعالى اللباس الحسي وقسمه الى ساتر ومزين أتبعه اللباس المعنوي فقال (ولباس التقوى) قال ابن عباس هو العمل الصالح ثم زاد الله تعالى في تعظيم المعنوي بقوله (ذلك خير) أي ولباس التقوى هو خير من لباس الثياب لكونه أهم اللباسين لان نزعه يكشف العورة الحسية والمعنوية فلو تجمل الانسان بأحسن الملابس وهو غير متق كان كله سوآت ولو كان متقيا وليس عليه الا خرقة ثوب توارى عورته كان في غاية الجمال والكمال وأنشدوا في المعنى

اذا أنت لم تلبس ثيابا من التقى * عريت وان وارى القميص قميص

وقال قتادة لباس التقوى هو الايمان وقال الحسن هو الحياء لانه يبعث على التقوى وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه هو السمت الحسن وقال ابن الزبير هو خشية الله تعالى والعمل الصالح يشمل هذه الامور كلها وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بنصب السين عطفا على لباسا والباقون بالرفع عطفا على الابتداء والخبر ذلك خير (ذلك) أي انزال اللباس (من آيات الله) الدالة على فضله ورحمته (لعلهم يذكرون) فيعرفون نعمة الله فيتعظون ويتورعون عن القبائح وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليها اظهارا للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة اظهارا واشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى (يا بني آدم) اى الذي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي ثم أسكنته جنتي وأزلته منها الى دار محنتي (لا يفتننكم) اى يضلنكم (الشيطان) أي البعيد المحترق بالذنوب أي لا تتبعوه فتفتتنوا فيمنعكم بذلك من دخول الجنة ويدخلكم النار (كما أخرج أبويكم من الجنة) بفتنته بعد ان كانا سكناها وتمكنا فيها وتوطناها وقد علم أن الدفع أسهل من الرفع وقوله تعالى (ينزع عنهما لباسهما) حال من أبويكم

الكاذبين وبعده في قوله أمين وعبر في قصة نوح وهود بالمضارع في الجملة الاولى وفي قصة صالح وشعيب بالماضي فيهما لان

او

أو من فاعل أخرج وانما أضاف نزع اللباس الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لان نزع لباسهما بسبب وسوسة الشيطان وغروره فاسند اليه واختلفوا في اللباس الذي نزع عنهما فقال ابن عباس وقتادة كان لباسهما الظفر فلما أصابا المعصية نزع عنهما وبقيت الاظفار تذكرة وزينة ومنافع وقال وهب بن منبه كان نورا يحول بينهما وبين النظر وتقدم بعض ذلك وقال مجاهد كان لباسهما التقوى وقيل كان لباسهما من ثياب الجنة قال بعض المفسرين وهذا اقرب لان اطلاق اللباس يطلق عليه وان النزع لا يكون الا بعد اللبس اه وتقدم الكلام على قوله (لبريهما سوآتهما انه) أى الشيطان (يراكم هو وقبيله) أى جنوده وقال ابن عباس قبيله ولده وقال ابن زيد نسله وانما أعاد الكناية في قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضها بعضا (من حيث لا ترونهم) أى للطافة أجسامهم أو عدم ألوانهم وعن ابن عباس أنه قال ان الله تعالى جعلهم يجرون من ابن آدم مجرى الدم وجعل صدور بنى آدم مساكن لهم الا من عصمه الله تعالى كما قال تعالى الذى يوسوس فى صدور الناس فهم يرون بنى آدم وبنو آدم لا يرونهم وعن مجاهد قال ابليس جعل لنا أربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى وعن ابن دينار ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصمه الله تعالى ومنع الرؤية اذا كانوا على خلقتهم الاصلية والا فقد يرون عند تشكلهم بصورة حيوان أو طير أو غير ذلك فان للجن قوة التشكل وهذا أمر شائع ذائع وقد روى ابليس على صورة شيخ وتمثل لكثير من العباد على صورة حية بل قال شيخنا القاضى زكريا والحق جواز رؤيتهم حتى من تلك الجهة كما هو ظاهر الاحاديث الصحيحة وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرئيين فى بعض الاحيان لبعض الناس دون بعض (انا جعلنا الشياطين أولياء) أى اعوانا وقرناء (للذين لا يؤمنون) لما بينهم من التناسب فى الطباع (واذا فعلوا فاحشة) كالشرك وطوافهم بالبيت عراة فنهوا عنها (قالوا) معللين لارتكابهم اياها بامرين أحدهما قولهم (وجدنا عليها) أى الفاحشة (آباءنا) فاقتدينا بهم والثانى قولهم (والله أمرنا بها) افتراء عليه سبحانه وتعالى فاعرض الله تعالى عن الاول لظهور فساده ورد عن الثانى بقوله (قل) لهم يا محمد (ان الله لا يأمر بالفحشاء) لان عادته سبحانه وتعالى جرت على الامر بمحاسن الافعال والحث على مكارم الخصال (أتقولون على الله ما لا تعلمون) انه قاله فانكم لم تسمعوا كلام الله من غير واسطة ولا اخذتموه عن الانبياء الذين هم وسايط بين الله وبين عباده وهو استفهام انكارى يتضمن النهى عن الافتراء على الله وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء فى الوصل والباقون بالتحقيق (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يقولون ذلك (أمر ربى بالقسط) أى بالعدل وهو الوسط من كل أمر المتجافى عن طرفى الافراط والتفريط وقال ابن عباس بلا اله الا الله (وأقيموا) أى وقل لهم أقيموا (وجوهكم) لله (عند كل مسجد) اى اخلصوا له سجودكم (فان قيل) قل أمر ربى خبر وأقيموا وجوهكم أمر وعطف الامر على الخبر لا يجوز (أجيب) بان فيه اضمارا وحذفا تقديره قل أمر ربى بالقسط وقل أقيموا كما تقدم تقديره فحذف قل لدلالة الكلام عليه وقيل معنى الآية وجهوا وجوهكم حيثما كنتم فى الصلاة الى الكعبة وقيل معناه صلوا فى اى مسجد حضرتكم الصلاة

ما فى الاولين وقع فى ابتداء الرسالة وما فى الآخرين وقع فى آخرها (قوله فاصبحوا فى دارهم جاثمين) قال هنا مرتبا وفى العنكبوت مرتبا بالافراد

ولا تؤخروها حتى تعودوا الى مساجدكم (وادعوه) اى اعبدوه (مخلصين له الدين) أى الطاعة ولا تشركوا به شيأ فان اليه مصيركم و (كما بدأكم) أى كما أنشأكم ابتداء (تعودون) اى يعيدكم احياء يوم القيامة حالة كونكم فريقين (فريقا هدى) أى خلق الهداية فى قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية (وفريقا حق) أى ثبت ووجب (عليهم الضلالة) اى بمقتضى القضاء السابق وقيل ان الله تعالى بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا كما قال تعالى هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدكم يوم القيامة كما خلقكم كافرا ومؤمنا وقيل يبعثون على ما كانوا عليه روى انه صلى الله عليه وسلم قال يبعث كل عبد على ما مات عليه المؤمن على ايمانه والكافر على كفره وقيل من ابتدأ الله خلقه على الشقوة صار اليها وان عمل عمل اهل السعادة كما ان ابليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار الى الشقاوة ومن ابتدأ الله خلقه على السعادة صار اليها وان عمل عمل اهل الشقاوة كما ان السحرة كانوا يعملون عمل اهل الشقاوة فصاروا الى السعادة روى انه صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل اهل الجنة وانه من اهل النار وانه ليعمل فيما يرى الناس بعمل اهل النار وانه من اهل الجنة وانما الاعمال بالخواتيم وانتصاب فريقا بفعل يفسره ما بعده أى وخذل فريقا وقوله تعالى (انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله) اى دونه تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالهم (ويحسبون) اى يظنون (انهم) مع ضلالهم (مهتدون) اى على هداية وحق وفيه دليل على ان الكافر الذى يظن انه فى دينه على الحق والجاحد والمعاند فى الكفر سواء (يابنى آدم خذوا زينتكم) اى ما يستر العورة والتجمل عند الاجتماع للعبادة (عند كل مسجد) اى كلما صليتم او طفتم وكانوا يطوفون عراة وعن طاوس رحمه الله لم يامرهم بالحرير والديباج وانما احدهم كان يطوف عريانا ويضع ثيابه وراء المسجد وان طاف وهى عليه ضرب وانتزعت منه لانهم قالوا لا نعبد الله فى ثياب اذنبنا فيها وقيل تفاؤلا ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب وقيل الزينة المشط وقيل الطيب والسنة ان يأخذ الرجل احسن هيئة للصلاة وكان بنو عامر فى ايام حجهم لا يأكلون الطعام الا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون فانا احق ان نفعل فقيل لهم (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) بتحريم الحلال او بالتعرى فى الطواف او بافراط الطعام او الشره عليه وعن ابن عباس رضى الله عنهما كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وروى ان الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين بن واقد ليس فى كتابكم من علم الطب شئ والعلم علمان علم الابدان وعلم الاديان فقال له قد جمع الله تعالى الطب كله فى نصف آية من كتابه فقال وما هى قال قوله تعالى وكلوا واشربوا ولا تسرفوا فقال النصرانى ولا يؤثر عن نبيكم شئ فى الطب فقال جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيرة قال وما هى قال قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء واعط كل بدن ما عودته فقال النصرانى ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا (انه لا يحب المسرفين) أى لا يرتضى فعلهم ففى الآية الوعيد الشديد على الاسراف (قل) يا محمد لاولاء الجهلة من الذين يطوفون بالبيت عراة (من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) من الثياب كل ما يتجمل به فيدخل تحته انواع الملبوس

وقال فى هود فاصبحوا فى ديارهم مرتين بالجمع لان ما فى المواضع الاول تقدمه ذكر الرجفة أى الزلزلة وهى تختص بجزء من الارض

(قوله اولاء الخ فى بعض النسخ بدله لهؤلاء الجهلة من العرب الذين اه مصححه)

والحلي

والحلى ولولا النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير للرجال لدخل فى هذا العموم ولكن
ورد النص فى تحريمه على الرجال دون النساء (و) قل أيضا لهؤلاء الجهلة الذين كانوا الايأكلون
دسما يعظمون بذلك حجهم من حرم (الطيبات من الرزق) التى أخرج لعباده وخلقها لهم
فيدخل تحت ذلك كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات الا ما ورد نص بتحريمه وقد دلت
الآية على أن الاصل فى الملابس وأنواع التجملات والمطاعم الاباحة الا ما ورد النص بخلافه
لان الاستفهام فى من للانكار (قل هى) أى الزينة والطيبات (للذين آمنوا فى الحيوة
الدنيا) أى بالاصالة والكفرة وان شاركوهم فيها فتبع ولذا لم يقل تعالى للذين آمنوا وغيرهم
(خالصة يوم القيامة) لا يشاركهم فيها غيرهم وقرأ نافع برفع التاء على أنها خبر بعد خبر
والباقون بالفتح على الحال (كذلك) أى مثل هذا التفصيل البديع (نفصل الآيات) أى نبين
أحكامها ونميز بعض المشتبهات من بعض (لقوم يعلمون) أى يتدبرون فانهم المنتفعون بها
(قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات من الرزق
وغير ذلك مما أحله الله تعالى (انما حرم ربى الفواحش) أى الكبائر والكبيرة ما توعد عليها
بنحو لعن أو غضب بخصوصها فى الكتاب أو السنة غالبا كالزنا جمع فاحشة (ما ظهر منها
وما بطن) أى جهرها وسرها وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها (و) حرم (الاثم) أى
الصغائر وهى ما عدا الكبائر كالنظر الى بدن أجنبية (و) حرم (البغى) على الناس أى الظلم
أو الكبر وأفرده بالذكر مع أنه من الكبائر للمبالغة وقوله تعالى (بغير الحق) متعلق بالبغى
مؤكد له معنى (و) حرم (أن تشركوا بالله ما لم ينزل به) أى بالاشراك (سلطانا) أى حجة وفى
ذلك تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم ما لم يدل عليه برهان وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف
والباقون بالتشديد (و) حرم (أن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فى تحريم ما لم يحرم وغيره (ولكل
أمة أجل) أى وقت معلوم وفى ذلك وعيد لاهل مكة بالعذاب النازل فى أجل معلوم عند الله كما
نزل بالامم الماضية (فاذا جاء أجلهم) أى حان وقتهم (لا يستأخرون ساعة) عنه (ولا يستقدمون)
ساعة عليه وانما ذكرت الساعة وان كان دونها كذلك لانها أقل اسم للاوقات فى العرف
وذلك حين سألوا نزول العذاب فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط
الهمزة الاولى مع المد والقصر وورش وقنبل سهلا الثانية وابدلاها حرف مد والباقون
بالتحقيق فيها (يا بنى آدم اما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (يأتينكم رسل منكم)
أى من نوعكم من عند ربكم (يقصون عليكم آياتى) أى يقرؤن عليكم كتابى وأدلة أحكامى
وشرائعى التى شرعت لعبادى وجواب الشرط قوله تعالى (فمن اتقى) الشرك ومخالفة رسلى
(وأصلح) عمله الذى أمرته به رسلى فعمل بطاعتى وتجنب معصيتى وما نهيت عنه (فلا خوف
عليهم) حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب (ولا هم يحزنون) أى يتجدد لهم فى وقت
ما حزن على شئ فاتهم لان الله يعطيهم ما تقر به أعينهم (والذين كذبوا بآياتنا) أى جحدوها
وكذبوا رسلنا (واستكبروا) أى تكبروا (عنها) أى عن الايمان بها لان كل مكذب وكافر
متكبر قال تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون (أولئك) هؤلاء البعداء
البغضاء (أصحاب النار هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها أبدا وادخال الفاء فى خبر المبتدا

فناسبها الافراد وما فى
الاخير بن تقدمه ذكر
الصيحة وكانت من السماء
وهى زائدة على الرجفة
فناسبها الجمع (قوله ف

الاول ومن خبر الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد (فمن) أي لا أحد (أظلم ممن افترى
على الله كذبا) أي بنسبة الشريك والولد اليه أو قال عليه ما لم يقله (أو كذب بآياته) أي القرآن
(أولئك ينالهم) أي يصيبهم (نصيبهم) أي حظهم (من الكتاب) أي مما كتب لهم في اللوح
المحفوظ من الرزق والاجل وغير ذلك (حتى اذا جاءتهم) أي هؤلاء الذين يفترون على الله
الكذب (رسلنا) أي ملك الموت وأعوانه (يتوفونهم) بقبض أرواحهم عند استكمال
أعمارهم وارزاقهم وقوله تعالى (قالوا) جواب اذا أي قال الرسل لهم تبكيتا وتوبيخا
وتقريعا (أين ما كنتم تدعون) أي تعبدون (من دون الله) أي غيره ادعوهم ليدفعوا عنكم
ما نزل بكم وقيل ان هذا يكون في الآخرة أي اذا جاءتهم ملائكة العذاب يتوفونهم أي
يستوفون عددهم عند حشرهم الى النار (قالوا) أي الكفار مجيبين للرسل (ضلوا) أي غابوا
(عنا) وتركونا عند حاجتنا اليهم فلم ينفعونا (وشهدوا على أنفسهم) أي بالغوا في الاعتراف
عند الموت أو عند معاينة العذاب (أنهم كانوا كافرين) أي جاحدين وحدانية الله تعالى
(قال) الله تعالى لهم يوم القيامة أو أحد من الملائكة (ادخلوا في أمم) أي في جملة جماعات
وفرق أمم بعضها بعضا (قد خلت) أي مضت وسلفت (من قبلكم من الجن والانس) أي كفار
الامم الماضية من الفريقين وقوله تعالى (في النار) متعلق بادخلوا (كلما دخلت أمة) أي
جماعة النار (لعنت أختها) أي التي ضلت بالاقتداء بها (حتى اذا اداركوا) أي تلاحقوا
واستقروا (فيها) أي النار (جميعا قالت أخراهم) أي منزلة أو دخولا وهم الاتباع (لأولاهم)
أي لاجلهم وهم المتبعون اذ الخطاب مع الله تعالى لا معهم (ربنا هؤلاء) أي الاولون
(أضلونا) أي لانهم أول من سن الضلال وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية
ياء في الوصل والباقون بالتحقيق (فآتهم) أي اذقهم بسبب ذلك (عذابا ضعفا) أي يكون بقدر
عذاب غيرهم مرتين لانهم ضلوا وأضلوا ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى
يوم القيامة ومنه لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه أول من سن
القتل ثم أكد واشتدة العذاب بقولهم (من النار قال) الله تعالى (لكل) أي منكم ومنهم
(ضعف) أي عذاب مضعف أما القادة فبكفرهم وتضليلهم وأما الاتباع فبكفرهم وتقليدهم
لهم (ولكن لا تعلمون) أي ما أعد الله تعالى لكل فريق من العذاب وقرأ شعبة يعلمون بالياء
على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وقالت أولاهم) أي في الكفر وهم القادة (لأخراهم)
أي الاتباع (فما كان لكم علينا من فضل) أي لانكم لم تكفروا بسببنا فقد جاءتكم الرسل
والنذر فارجعتم عن ضلالتكم وكفركم فنحن وأنتم سواء قال الله تعالى لهم (فذوقوا العذاب
بما) أي بسبب ما (كنتم تكسبون) أي من الكفر والأعمال الخبيثة (ان الذين كذبوا بآياتنا)
أي بدلائل التوحيد فلم يصدقوا ولم يتبعوا رسلي (واستكبروا عنها) أي وتكبروا عن الايمان
بها والانقياد لها والعمل بمقتضاها (لا تفتح لهم أبواب السماء) لصعود أعمالهم ولا لدعائهم ولا
لارواحهم ولا لنزول البركات عليهم لانها طاهرة عن الارجاس الحسية والمعنوية فاذا صعدت
أرواحهم الخبيثة بعد الموت مع ملائكة العذاب اغلقت الابواب دونها ثم ألقيت من هنالك

قصة صالح لقد ابلغتكم
رسالة ربي) قال فيها
ذلك بالتوحيد وقاله في
قصة شعيب بالجمع لان ما أمر
به شعيب قومه من التوحيد

الى سجين بخلاف المؤمن فيفتح له ويصعد بروحه الى السماء السابعة كما ورد في حديث وقرأ
أبو عمرو وحمزة والكسائي بسكون الفاء وتخفيف التاء بعدها الا ان ابا عمرو يقرأ بالتاء على
التأنيث وحمزة والكسائي بالياء على التذكير وقرأ الباقون بالتأنيث وفتح الفاء وتشديد التاء
بعدها (ولا يدخلون الجنة) اى التى هى اطهر المنازل واشرفها (حتى) يكون مالا يكون بان
(يلج) اى يدخل (الجمل) على كبره (في سم الخياط) اى ثقب الابرة وهو غير ممكن فكذا دخولهم
الجنة فهو تعليق على محال وعن ابن مسعود انه سئل عن الجمل فقال زوج الناقة استجهالا
للسائل واشارة الى ان طلب معنى آخر تكلف (وكذلك) اى ومثل ذلك الجزاء بهذا العذاب
وهوان دخولهم الجنة محال عادة (نجزي المجرمين) اى الكافرين لانه تقدم من صفتهم انهم
كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على انهم
الكفار * ولما بين الله تعالى ان الكفار لا يدخلون الجنة ابدا بين انهم من اهل النار ووصف
ما اعد الله لهم فيها فقال تعالى (لهم من جهنم مهاد) اى فراش واصل المهاد والمهد الذى يقعد
عليه ويضطجع عليه كالبساط (ومن فوقهم غواش) اى اغطية من النار جمع غاشية والتنوين
فيه عوض عن الياء التى هى حرف علة وقيل عن حركتها (وكذلك نجزي الظالمين) عبر عنهم
بالمجرمين تارة وبالظالمين اخرى اشعارا بانهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الاوصاف الذميمة
وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيها على أنه أعظم الاجرام وقوله
تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ وقوله تعالى (لا نكلف نفسا الا وسعها) أى
طاقتها من العمل اعتراض بينه وبين خبره وهو (اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون) وانما
حسن وقوع ذلك بين المبتدأ والخبر لانه من جنس هذا الكلام لان الله تعالى لما ذكر عملهم الصالح
دل ذلك على أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على
أن الجنة مع عظم قدرها وجلالها يوصل اليها بالعمل السهل من غير تحمل كلفة ولا مشقة صعبة
وأتبع الوعيد بالوعد على عادته فقال تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) اى غش وعداوة
كانت بينهم في الدنيا فمن كان في قلبه على اخيه غل في الدنيا نزع فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم
الا التوادد والتعاطف وعن على رضى الله عنه انى لارجو ان اكون انا وعثمان وطلحة والزبير
منهم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة
والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم في
دخول الجنة فو الذى نفس محمد بيده لاحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا وقال
السدى في هذه الآية ان أهل الجنة اذا سيقوا الى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها
عينان فشربوا من احداهما فنزع ما في صدورهم من غل وهو الشراب الطهور واغتسلوا من
الاخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلا يشعثوا ولا يشحبوا بعدها ابدا وقيل ان درجات الجنة
متفاوتة في العلو والكمال فبعض اهل الجنة اعلى من بعض فاخرج الله تعالى الغل والحسد
من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب الدرجة
العالية (تجري من تحتهم الانهار) اى من تحت قصورهم زيادة في لذتهم وسرورهم (وقالوا
الحمد لله الذى هدانا لهذا) اى ان المؤمنين اذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذى وفقنا وارشدنا

وإيفاء الكيل والنهي عن الفساد وإقامة الوزن بالقسط أو كثرة ما أمر به صالح قومه أو لأن شعيبا

للعمل الذي هذا ثوابه وتفضل علينا به رحمة منه واحسانا وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فلله الحمد على ذلك (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) أي لولا هداية الله وتوفيقه واللام لتوكيد النفي وجواب لولا محذوف دل عليه قوله تعالى وما كنا لنهتدي وتقديره لولا هداية الله لنا موجودة لشقينا أو ما كنا مهتدين وقرأ ابن عامر بحذف الواو قبل ما والباقون بالواو ❁ واذا دخل أهل النعيم الجنة ورأوا ما أعد الله تعالى لهم من النعيم قالوا (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) فاهتدينا بنا رشادهم يقولون ذلك سرورا واغتباطا بما نالوا وتلذذوا بالتكلم به وتحدثا بأن ما علموه يقينا في الدنيا صار لهم عين اليقين في الآخرة وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام (ونودوا) اذا رأوها من بعيد أو بعد دخولها والمنادي هو الله تعالى أو الملائكة ينادون بأمر الله تعالى (أن تلكم الجنة) أي التي كانت الرسل وعدتكم بها في الدنيا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد ان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وان لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله تعالى ونودوا أن تلكم الجنة (أورثتموها) أي أعطيتموها (بما كنتم تعملون) أي بسبب أعمالكم الصالحة التي عملتموها لان الجنة جعلت جزاء وثوابا لكم على الاعمال الصالحة ولا يعارض هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لن يدخل الجنة أحد بعمله انما يدخلونها برحمة الله تعالى فان الباء في الحديث للعوض وهي الداخلة على الأثمان نحو شريت الفرس بالف فلا تكون الجنة مشتراة بعمله فيكون عمله ثمنا لها أو ان دخول الجنة برحمة الله واقتسام الدرجات بالاعمال أو ان العمل الصالح ان يناله المؤمن وان يلقه الا برحمة الله وتوفيقه واذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة في الحقيقة برحمة الله وجعلها الله تعالى ثوابا وجزاء لهم على تلك الاعمال الصالحة التي عملوها في دار الدنيا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من أحد الا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فأما الكافر فيرث المؤمن منزله من الجنة والمؤمن يرث الكافر منزله من النار وأن في المواضع الخمسة التي فيها المناداة والتأذين هي المخففة أو المفسرة لان المناداة والتأذين من القول وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام (ونادى أصحاب) أي أهل (الجنة أصحاب) أي أهل (النار) أي تقول أهل الجنة يا أهل النار (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا) أي في الدنيا على لسان الرسل من الثواب على الايمان به وبرسله وطاعته (حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم) أي من العذاب على الكفر (حقا قالوا) أي قال أهل النار مجيبين لاهل الجنة (نعم) وجدنا ذلك حقا وهذا النداء انما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار (فان قيل) الجنة في السماء والنار في الارض فكيف يصح أن يقع هذا النداء (أجيب) بان الله قادر على أن يقوي الاصوات والاسماع فيصير البعيد كالقريب (فان قيل) هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض (أجيب) بان ظاهر الآية العموم ويحتمل أن كل واحد من أهل الجنة ينادي من كان يعرف من الكفار في دار الدنيا والله أعلم بحقيقة ذلك وقرأ الكسائي بكسر العين والباقون بالفتح

أرسل الى أصحاب الايكة والمدين فجمع باعتبار تعدد المرسل اليهم وصالح عليه السلام وحد باعتبار

وهما

وهم الفتان (فأذن مؤذن) أي وهو اسرافيل صاحب الصور كما قاله ابن عباس وقيل واحد من الملائكة وأصل الاذان في اللغة الاعلام والمعنى نادى مناد (بينهم) أي الفريقين اسمعهم (أن لعنة الله على الظالمين) وقرأ البزي وابن عامر وحمزة والكسائي بتشديد أن ونصب التاء والباقون بتخفيف أن ورفع التاء ثم فسر الظالمين منهم بقوله تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) أي يمنعون الناس عن الدخول في دين الاسلام (ويبغونها) أي يطلبون السبيل (عوجا) أي معوجة قال ابن عباس يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله والعوج بكسر العين في الدين والامر وكل ما لم يكن قائما وبالفتح في كل ما كان قائما كالحائط والرمح (وهم بالآخرة كافرون) أي بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها (وبينهما) أي أهل الجنة وأهل النار (حجاب) لقوله تعالى فضرب بينهم بسور أو بين الجنة والنار ليمتنع وصول أثر احداهما الى الاخرى (وعلى الاعراف) وهو سور الجنة جمع عرف وهو المكان المرتفع ومنه عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده وقال السدي سمي ذلك السور اعرافا لان أصحابه يعرفون الناس أي اهل الجنة والنار (رجال) أي طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم كما في الحديث فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك حتى يقضي الله تعالى فيهم ما يشاء ثم يدخلون الجنة بفضل الله تعالى ورحمته وهم آخر من يدخل الجنة وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قوله تعالى فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم ثم قال ان الميزان يخف بمثقال حبة او ترجح قال ومن استوت حسناته وسيئاته كان من اصحاب الاعراف وقيل هم قوم خرجوا الى الغزو بغير اذن آبائهم فقتلوا فاعتقوا من النار بقتلهم في سبيل الله وحبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم فهم آخر من يدخل الجنة وقيل هم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدلوا دينهم وقيل هم اطفال المشركين (يعرفون) اي اصحاب الاعراف (كلا) من اهل الجنة والنار (بسيماهم) اي بعلاماتهم وهي بياض الوجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين لرؤيتهم لهم اذ موضعهم عال (ونادوا) اي ونادى اصحاب الاعراف (أصحاب الجنة أن سلام عليكم) اذا نظروا اليهم سلموا عليهم (لم يدخلوها) اي اصحاب الاعراف الجنة (وهم يطمعون) في دخولها قال الحسن لم يطمعهم الا لكرامة يريدها بهم وروى الحاكم عن حذيفة قال بينما هم كذلك اذ طلع عليهم ربك فقال قوموا ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم وقال مجاهد اصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء علماء وعلى هذا انما يكون لبثهم على الاعراف على سبيل النزهة وليرى غيرهم شرفهم وفضلهم وحكى ابن الانباري انهم انبياء وعلى هذا انما اجلسهم على ذلك العالي تمييزا لهم على اهل القيامة واظهارا لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على احوالهم ومقادير ثواب اهل الجنة وعقاب اهل النار وقال ابو مجلز هم ملائكة يرون في صورة الرجال والاقوال الاول تدل على ان اصحاب الاعراف دون اهل الجنة في الدرجات وان كانوا يدخلون الجنة برحمة الله والاقوال الاخيرة تدل على انهم افضل من اهل الجنة لانهم اعلى

الجنس (فان قلت) كيف
قال صالح لقومه بعد
ما اخذتهم الرجفة وماتوا
ياقوم لقد أبلغتكم رسالة
ربي الآية ومخاطبة الحي

منهم منزلة وافضل (واذا صرفت ابصارهم) اى اصحاب الاعراف (تلقاء) أى جهة (اصحاب النار) فنظروا اليهم والى سواد وجوههم وماهم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) أى الكافرين فى النار قال ابن عباس ان أصحاب الاعراف اذا نظروا الى أصحاب النار وماهم فيه تضرعوا الى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم وقرأ قالون وأبو عمرو والبزى باسقاط الهمزة الاولى وأبدلها ورش وقنبل حرف مد وسهلاها والباقون بالتحقيق (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) أى كانوا عظماء فى الدنيا من أهل النار (يعرفونهم بسيماهم) أى بسيما أهل النار (قالوا) أى أصحاب الاعراف لهؤلاء الذين عرفوهم فى النار (ما أغنى عنكم جمعكم) اى ما كنتم تجمعون من الاموال فى الدنيا أو كثرتكم واجتماعكم فيها (وما كنتم تستكبرون) اى وما أغنى عنكم تكبركم عن الايمان شيأ قال الكلبى ينادونهم على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون الى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزؤن بهم مثل سلمان الفارسى وخبيب وصهيب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الاعراف لهؤلاء الكفار (أهؤلاء) لفظ استفهام اى أهؤلاء الضعفاء (الذين أقسمتم) اى حلفتم بالله (لا ينالهم الله برحمة) اى لا يدخلون الجنة وقد قيل لهم (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقيل أصحاب الاعراف اذا قالوا لاهل النار ما قالوا قال لهم أهل النار ان دخل هؤلاء فانتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون انهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة الذين حبسوا أهل الاعراف ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون وهذا ظاهر على الاقوال الاول وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر تنوين رحمة فى الوصل وابن ذكوان بوجهين الضم والكسر والباقون بالضم (ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء) اى صبوه وهو دليل على ان الجنة فوق النار (أو مما رزقكم الله) أى من سائر الاشربة ليلائم الافاضة لان الافاضة ملائمة للماء وسائر المائعات فحملت الافاضة على افاضة جميع المائعات أو من سائر المشروب والمأكول بتضمين افيضوا ألقوا كقوله

علفتها تبنا وماء باردا ❊ حتى غدت همالة عيناها

اى فائضة عيناها (قالوا) اى أهل الجنة مجيبين لهم (ان الله حرمهما) أى منعهما (على الكافرين) أى منعهم طعام الجنة وشرابها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر كقوله ❊ حرام على عينى أن تطعم الكرى ❊ وقيل لما كانت شهوتهم فى الدنيا فى لذة الاكل والشرب وعذبهم الله فى الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه فى الدنيا من طلب الاكل والشرب فأجيبوا بان الله تعالى حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين ثم وصف الله تعالى الكافرين بقوله (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) وهو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية وقيل كانوا اذا دعوا الى الايمان سخروا ممن دعاهم وهزؤا به واللهو هو صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف له واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به (وغرتهم الحيوة الدنيا) أى وخدعتهم عاجل ماهم فيه من رغد العيش والدعة وشغلهم ماهم فيه من ذلك عن الايمان بالله ورسوله

(قالت) للبيت لا فائدة فيه بل فيه فائدة وهى نصيحة غيره فان ذلك يستعمل عرفا فيما اذا كان من زعم غيره فلم يقبل منه حتى قتل

ومن الاخذ بنصيبهم في الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على ذلك والغرة غفلة في اليقظة وهو طمع الانسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال ونيل الجاه ونيل الشهوات فاذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لانه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال (فاليوم) أي يوم القيامة (ننساهم) أي نتركهم في النار ونعرض عنهم فلا نجيب دعاءهم ولا نرحم ضعفهم (كما نسوا لقاء يومهم هذا) أي كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا كفعل الناسين فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا له وأعرضوا عن الايمان فقابل الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لان الله تعالى لا ينسى شيأ فهو كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (وما كانوا بآياتنا يجحدون) أي وما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى (ولقد جئناهم) أي هؤلاء الكفار (بكتاب) أي قرآن أنزلناه عليك يا محمد (فصلناه) اي بينا معانيه من العقائد والاحكام والمواعظ مفصلة (على علم) أي عالمين وجه تفصيله وقوله تعالى (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أي به حال من منصوب فصلناه كما ان على علم حال من مرفوعه (هل ينظرون) أي ما ينظرون (الا تأويله) اي الا عاقبة أمره وما يؤل اليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد (يوم يأتي تأويله) أي يوم القيامة لانه يوم الجزاء (يقول الذين نسوه من قبل) اي تركوه ترك الناسي (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أي قد تبين لهم واعترفوا يوم القيامة بأن ما جاءت به الرسل من الايمان والحشر والنشر والبعث والثواب والعقاب حق حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف ولما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) اليوم (أو نرد) أي أو هل نرد الى الدنيا وقولهم (فنعمل غير الذي كنا نعمل) فيها فنبدل الكفر بالايمان والتوحيد والمعاصي بالطاعة والانابة جواب الاستفهام الثاني (قد خسروا أنفسهم) أي اذ صاروا الى الهلاك لانهم كانوا في الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو ردوا الى الدنيا لعادوا الى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله فيهم (وضل) اي ذهب (عنهم ما كانوا يفترون) أي من دعوى الشريك فلم ينفعهم (ان ربكم) أي سيدكم ومولاكم ومصلح أموركم وموصل الخيرات اليكم ودافع المكاره عنكم هو (الله الذي خلق السموات والارض) أي ابتدعهما وانشأ خلقهما على غير مثال سبق (في ستة أيام) أي من أيام الدنيا وقيل من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة (فان قيل) اليوم من أيام الدنيا عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار من طلوع الشمس الى غروبها ولم يكن اذ ذاك شمس ولا قمر ولا سماء (أجيب) بأن معنى ذلك في مقدار ستة أيام فهو كقوله تعالى لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أي على مقادير البكر والعشي في الدنيا لان الجنة لا ليل فيها ولا نهار قال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والارض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأني في الامور وقد جاء في الحديث التأني من الله والعجلة من الشيطان واختلف العلماء في اليوم الذي ابتدأ الله خلق الاشياء فيه فقيل هو يوم السبت لخبر مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق الله آدم بعد العصر من

ويراد ناصحه فانه يقول له كم نصحتك فلم تقبل حتى اصابك هذا حذا الا اسعين له على قبول لهم النصيحة (قوله بل أنتم قوم مسرفون)

يوم الجمعة فى آخر ساعة من النهار وفيما بين العصر الى الليل وقيل يوم الاحد اقول بعضهم سمى يوم الاثنين لانه ثانى الايام والخميس لانه خامس الايام قال الاسنوى والصواب الاول للخبر المذكور (ثم استوى على العرش) اى استوى أمره وقال اهل السنة الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب الايمان به ونكل فيه العلم الى الله تعالى والمعنى أن له سبحانه وتعالى استواء على العرش على الوجه الذى عناه منزه عن الاستقرار والتمكن وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالى الرحمن على العرش استوى فأطرق رأسه مليا وعلاه الرحضاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أظنك الا ضالا ثم أمر به فاخرج وروى عن سفيان الثورى والاوزاعى والليث ابن سعد وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهة أمروها كما جاءت اقروها بلا كيف واجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية والعرش فى اللغة السرير قال كعب ان السموات فى العرش كقنديل معلق بين السماء والارض وقال الطائف العرش ياقوتة حمراء وشذ قوم فقالوا العرش بمعنى الملك وهذا عدول عن الحقيقة الى التجوز مع مخالفة الاثر ألم يسمعوا قوله تعالى وكان عرشه على الماء أتراه كان الملك على الماء وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء وبعضهم يقول استوى بمعنى استولى ويحتج بقول الشاعر

قد استوى بشر على العراق • من غير سيف ودم مهراق

وقال آخر

هما استويا بفضلهما جميعا • على عرش الملوك بغير زور

وهذا منكر عند أهل اللغة قال ابن الاعرابى لا يعرف استولى فلان على كذا الا اذا كان بعيدا منه غير متمكن منه ثم تمكن منه والله تعالى لم يزل مستوليا على الاشياء والبيتان قال ابن فارس اللغوى لا يعرف قائلهما ولو صح الاحتجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستوليا نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة وقيل هو ما علا فاظل ومنه عرش الكرم (يغشى الليل النهار) أى يغطيه ولم يذكر عكسه اما للعلم به واما لان اللفظ يحتملهما بان يكون المعنى بانه يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين (يطلبه) أى يطلب كل منهما الآخر طلبا (حثيثا) أى سريعا فهو صفة مصدر محذوف ويحتمل أن يكون حالا من الفاعل بمعنى حاثا أو المفعول بمعنى محثوث (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) أى مذللات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب ارادة المدبر لهن (بأمره) أى بقضائه وتصريفه وقرأ ابن عامر برفع الاربعة على الابتداء والخبر والباقون بالنصب عطفا على السموات ومسخرات منصوب بالكسرة (ألا له الخلق) جميعا (والامر) كله فانه الموجد والمتصرف فى ذلك وفى هذا رد على من يقول ان الشمس والقمر والكواكب تخلق له الامر المطلق وليس لاحد أمر غيره فهو الآمر والناهى الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد من خلقه عليه واستخرج سفيان بن عيينة من هذا ان كلام الله تعالى ليس بمخلوق فقال ان الله تعالى فرق بين الخلق والامر فمن جمع بينهما فقد كفر أى ان جعل الامر وهو كلامه من جملة ما خلقه فهو كفر لان المخلوق لا يقوم الا بمخلوق (تبارك الله رب العالمين) أى تعالى بالوحدانية وتعظم بالتفرد فى

الربوبية

عبر هنا بلفظ المعرف والاسم وفى النحل بلفظ الجهل والفعل تكثيرا للفائدة فى التعبير عن المراد بلفظين متساويين معنى

الربوبية قال البيضاوي وتحقيق الآية والله أعلم أن الكفرة كانوا متخذين أربابا فبين الله تعالى لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله تعالى لانه الذي له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الافلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار اليه بقوله تعالى فقضاهن سبع سموات في يومين وعمد الى ايجاد الاجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيآت المختلفة ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والافعال وأشار اليه بقوله تعالى خلق الارض في يومين أي ما في جهة السفل في يومين ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة أي وهي النبات والحيوان والمعدن بتركيب موادها أولا وتصويرها ثانيا كما قال تعالى بعد قوله خلق الارض في يومين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام أي مع اليومين الاولين اللذين خلق فيهما السموات لقوله تعالى في سورة السجدة الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم لما تم له عالم الملك عمد الى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة فدبر الامر من السماء الى الارض بتحريك الافلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والايام ثم صرح بما هو نتيجة ذلك فقال ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ثم أمرهم أن يدعوه مخلصين بقوله تعالى (ادعوا ربكم) لان الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادة لان الداعي لا يقدم على الدعاء الا اذا عرف من نفسه الحاجة الى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف أن ربه سبحانه وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته وهو قادر على ايصالها الى الداعي فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى (تضرعا) أي ادعوا ربكم تذللا واستكانة وهو اظهار الذل في النفس والخشوع يقال ضرع فلان لفلان اذا ذل له وخشع (وخفية) أي سرا في أنفسكم وهو ضد العلانية والادب في الدعاء أن يكون خفيا لهذه الآية وعن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس اربعوا على أنفسكم انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم قال أبو موسى وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة الا بالله في نفسي فقال يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى قال لا حول ولا قوة الا بالله وقال الحسن بين دعوة السر والجهر سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجهدون في الدعاء لا يسمع لهم صوت ان كان الا همسا بينهم وبين ربهم وذلك ان الله تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية فان الله تعالى أثنى على زكريا عليه الصلاة والسلام فقال اذ نادى ربه نداء خفيا وعن الحسن أيضا ان الله يعلم القلب التقي والدعاء الخفي ان كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره وان كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر الناس به وان كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة وعنده الزوار وما يشعرون به ولقد أدركنا أقواما ما كان على الارض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدا (انه) تعالى (لا يحب المعتدين) أي المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره نبه به على ان الداعي ينبغي له أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والصعود الى السماء وروي أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول اللهم اني أسألك

اذ كل حرف جهل وبالعكس ورعاية للفواصل في التعبير بالاسم والفعل اذ الفواصل السابقة هنا اسماء وهي العالمين المرسلين

القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها فقال يابنى اسأل الله الجنة وتعوذ به من النار فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون فى هذه الامة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء وقيل أراد به الاعتداء فى الجهر قال ابن جريج من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح وعنه صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لا يحب المعتدين (ولا تفسدوا فى الارض) أى بالشرك والمعاصى (بعد اصلاحها) أى ببعث الرسل وشرع الاحكام وقيل لا تفسدوا فى الارض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم وعلى هذا فمعنى قوله تعالى بعد اصلاحها أى بعد اصلاح الله تعالى اياها بالمطر والخصب (وادعوه خوفا) منه ومن عذابه (وطمعا) أى فيما عنده من مغفرته وثوابه وقال ابن جريج خوف العدل وطمع الفضل (ان رحمت الله قريب من المحسنين) أى المطيعين وفى ذلك ترجيح الطمع وتنبيه على ما يتوسل به الى الاجابة وتذكير قريب المخبر به عن رحمة لاضافتها الى الله تعالى وقال سعيد بن جبير الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت الى المعنى دون اللفظ وقيل ان تأنيث الرحمة ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وقيل ذكره للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره حيث يجب التأنيث فى الاول فيقال فيه فلانة قريبة منى ويجوز فى الثانى فيقال فلانة قريبة وقريب منى فى المكان وكون الرحمة قريبا من المحسنين لان الانسان فى كل ساعة من الساعات فى ادبار من الدنيا واقبال على الآخرة واذا كان كذلك كان الموت أقرب اليه من الحياة وليس بينهم وبين رحمة الله التى هى الثواب فى الآخرة الا الموت وهو قريب من الانسان * (فائدة) * رحمة تكتب بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وأمالها الكسائى فى الوقف وقوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح) عطف على ما قبله والمعنى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وهو الذى يرسل الرياح وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع (بشرا بين يدى رحمته) أى متفرقة قدام المطر الذى هو من أجل النعم وأحسنها أثرا وقرأ عاصم بالباء الموحدة وسكون الشين أى مبشرا وحمزة والكسائى بالنون مفتوحة وسكون الشين على انه مصدر فى موضع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فان الارسال والنشر متقاربان وابن عامر بالنون مضمومة وسكون الشين تخفيفا والباقون بضم النون والشين جمع نشور بمعنى ناشر (حتى اذا أقلت) أى حملت الرياح (سحابا ثقالا) أى بالمطر يقال أقل فلان الشئ اذا حمله واشتقاق الاقلال من القلة فان من يرفع شيأ يراه قليلا (سقناه) أى السحاب وافراد الضمير باعتبار اللفظ وفيه التفات عن الغيبة ولو حمل على المعنى كالثقال لانث كما لو حمل على اللفظ على الوصف لقيل ثقيلا والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء سمى سحابا لانسحابه فى الهواء قال السدى ان الله سبحانه وتعالى يرسل الرياح فتأتى بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والارض حيث يلتقيان فتخرجه ثم تنشره فتبسطه فى السماء كما يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك (لبلد ميت) لا نبات فيه أى لاحيائه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة

التاصبين الى آخرها وفى النمل ادعال وهى يعلون يتقون يبصرون فناسب الاسم هنا والفعل ثم (قوله وما كان جواب قومه)

بتخفيف

بتخفيف الياء والباقون بالتشديد (فأنزلنا به) اى بالبلد أو السحاب (الماء فأخرجنا به) اى بذلك الماء لان انزال الماء كان سببا لاخراج الثمرات (من كل الثمرات) أى من كل أنواعها قال الازهرى قال الليث بن سعد رحمه الله تعالى البلد هو كل موضع من الارض عامر أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد (كذلك) أى مثل هذا الاخراج (نخرج الموتى) أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودرس آثارهم (لعلكم تذكرون) أى لكى تعتبروا وتتذكروا والخطاب لمنكرى البعث يقول انكم شاهدتم الاشجار وهى مزهرة مورقة مثمرة فى أيام الربيع والصيف ثم انكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الاوراق والثمار ثم ان الله أحياها مرة أخرى فالقادر على احيائها بعد موتها قادر على ان يحيى الاجساد بعد موتها قال أبو هريرة وابن عباس رضى الله تعالى عنهم اذا مات الناس كلهم فى النفخة الاولى أرسل الله تعالى عليهم مطرا كمنى الرجال من ماء تحت العرش فينبتون فى قبورهم نبات الزرع حتى اذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح ثم يلقى عليهم نومة فينامون فى قبورهم ثم يحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم فى رؤسهم وأعينهم فعند ذلك يقولون ياويلنا من بعثنا من مرقدنا وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (والبلد الطيب) أى والارض الكريمة التربة السهلة السمحة (يخرج نباته باذن ربه) أى بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لانها وقعت فى مقابلة (والذى خبث) أى والبلد الذى خبث أرضه فهى سبخة (لايخرج) نباته (الا نكدا) أى عسرا بمشقة وكلفة قال المفسرون وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالارض الطيبة وشبه نزول القرآن على قلبه بنزول المطر على الارض الطيبة فاذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الازهار والاثمار كذلك المؤمن اذا سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهر منه الطاعات والعبادات وأنواع الاخلاق الحميدة وشبه الكافر بالارض الرديئة الغليظة السبخة التى لا ينتفع بها وان أصابها المطر فكذلك الكافر اذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده الا عتوا وكفرا وان عمل الكافر حسنة فى الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها فى الآخرة وقيل هو مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم طيب ومنهم خبيث (كذلك) أى كما بينا ماذكر (نصرف) أى نبين (الآيات) الدالة على التوحيد والايمان آية بعد آية وحجة بعد حجة (لقوم يشكرون) نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها وانما خص الشاكرين بالذكر لانهم هم الذين ينتفعون بسماع القرآن ● ولما ذكر الله تعالى فى الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته الدالة على توحيده وربوبيته وأقام الادلة القاطعة على صحة البعث بعد الموت اتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم مع أممهم فقال (لقد) جواب قسم محذوف تقديره والله لقد (أرسلنا نوحا) عليه السلام (الى قومه) ولا تكاد تطلق هذه اللام الا مع قد لانها مظنة التوقع فان المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لمك ابن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام وهو أول نبى بعثه الله تعالى بعد ادريس وكان نجارا بعثه الله تعالى الى قومه وهو ابن خمسين سنة وقال ابن عباس رضى الله عنهما وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقال ابن عباس

قاله هذا بالواو وفى النمل وفى العنكبوت فى الموضعين بالفاء لان ما هنا تقدمه اسم هو مسرفون والاسم لا يناسبه التعقيب ومالى

سمى نوحا لكثرة ما ناح على نفسه واختلفوا فى سبب نوحه فقال بعضهم لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه فى شأن ابنه كنعان وقيل لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى اليه أعبتنى أو أعبت الكلب وفى ذكر القصص تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن اعراض قومه عن قبول الحق فقط بل قد أعرض عنه غالب الامم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على ان عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت النار والهلاك فى الدنيا والآخرة والعذاب الاليم فمن كذب محمدا صلى الله عليه وسلم من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبلهم من الامم المكذبة وفيه دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحدا من علماء زمانه وقد أتى بمثل هذه القصص والاخبار عن هذه القرون الماضية والامم الخالية مما لم ينكره عليه أحد فعلم بذلك أنه انما أتى من عند الله وانه أوحى اليه بذلك فكان ذلك دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم (فقال) نوح حال ارساله لقومه (يا قوم اعبدوا الله) أى اعبدوه ووحدوه لقوله تعالى (ما لكم من اله غيره) فانه الذى يستحق العبادة لا غيره وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء على أنه صفة لاله والباقون برفعهما على البدل من محله (انى أخاف عليكم) ان لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته (عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة أو يوم نزول الطوفان واهلاكهم فيه وقال اخاف على الشك وان كان متيقنا من حلول العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب الى يوم القيامة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (قال الملأ من قومه) أى الاشراف منهم فانهم يملؤن العيون منظرا (انا لنراك فى ضلال) أى خطأ وزوال عن الحق (مبين) أى بين (قال) نوح مجيبا لهم (يا قوم ليس بى ضلالة) أى ليس بى شئ مما تظنون من الضلال (فان قيل) لم لم يقل ليس بى ضلال كما قالوا (أجيب) بان الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ فى نفى الضلال عن نفسه كما لو قيل ألك تمر فقلت ما لى تمرة فقد بالغ فى النفى كما بالغوا فى الاثبات وقوله تعالى (ولكنى رسول من رب العالمين) استدراك باعتبار ما لزمه وهو كونه كأنه قال ولكنى على هدى فى الغاية لانى رسول الله (أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم) والنصح ارادة الخير لغيره كما يريده لنفسه ويقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على امحاض النصيحة وانما وقعت خالصة للمنصوح له مقصودا بها جانبه لا غير فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فتقصد المنفعتين جميعا ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله ورسوله وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه وقال بعض المفسرين والفرق بين ابلاغ نصيحة الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة ان يعلمهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى أوجبها الله تعالى عليهم وأما النصيحة فهى أن يرغبهم فى قبول تلك الاوامر والنواهى والعبادات ويحذرهم عقابه ان عصوه وقرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام من الابلاغ كقوله تعالى لقد أبلغتكم رسالات ربى وقرأ الباقون بفتح الباء وتشديد اللام من التبليغ كقوله تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك (وأعلم من الله ما لا تعلمون) اى من صفات الله

واحوال

ثمة فعل هو تمنك تقدمه تجهلون وتقطعون وتأتون فى ناديكم المنكر والفعل يناسبه التعقيب فناسب ذكر الفاء لدلالته عليه ثم ذكر الواو هنا (قوله أو لتعودن فى ملتنا) فيه تغليب

وأحوال قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وان بأسه لا يرد عن القوم المجرمين وقوله تعالى (أوعجبتم) الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف أى أكذبتم وعجبتم (أن جاءكم) اى من أن جاءكم (ذكر) أى موعظة (من ربكم على رجل) أى على لسان رجل (منكم) أى من جنسكم أو من جملتكم تعرفون نسبه وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين يعنون ارسال البشر ولو شاء ربنا لانزل ملائكة (لينذركم) أى لاجل أن ينذركم عاقبة الكفر والمعاصى (ولتتقوا) أى ولاجل أن تتقوا الله (ولعلكم ترحمون) بالتقوى ان وجدت منكم لان المقصود من ارسال الرسل الانذار والمقصود من الانذار التقوى عن كل ما لا ينبغى والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة فى الدار الآخرة وفائدة حرف الترجى التنبيه على أن التقوى غير موجبة والرحمة من الله تعالى محض تفضل وان المتقى ينبغى أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله (فكذبوه) أى نوحا (فأنجيناه والذين) آمنوا به (معه) من الغرق وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة بنوه الثلاثة سام وحام ويافث وستة ممن آمن به وقوله تعالى (فى الفلك) متعلق بمعه كأنه قيل والذين استقروا معه فى الفلك أو صحبوه فى الفلك أو بأنجيناه أى أنجيناهم فى السفينة من الطوفان (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان (انهم كانوا قوما عمين) أى عمى القلوب عن الحق غير مستبصرين يقال رجل عم فى البصيرة وأعمى فى البصر وأنشدوا قول زهير

وأعلم علم اليوم والامس قبله ● ولكننى عن علم ما فى غد عمى

(والى عاد) أى وأرسلنا الى عاد وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهى عاد الاولى (أخاهم هودا) أى أخاهم فى النسب لا فى الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص ابن ارم بن سام بن نوح وقيل هو ابن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام واختلف فى سبب الاخوة من أين حصلت على وجهين الاول قال الزجاج انه كان من بنى آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفى هذا القدر فى تسمية الاخوة والمعنى انا أرسلنا الى عاد واحدا من جنسهم من البشر ليكون الفهم والانس بكلامه أتم وأكمل ولم يبعث اليهم من غير جنسهم مثل الملك والجن والوجه الثانى ان أخاهم بمعنى صاحبهم والعرب تسمى صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالاحقاف باليمن والاحقاف الرمل الذى عند عمان وحضرموت (قال ياقوم اعبدوا الله) أى وحدوه ولا تجعلوا معه الها آخر (ما لكم من اله غيره) (فان قيل) لم حذف العاطف من قوله قال ولم يقل فقال كما فى قصة نوح (أجيب) بان هذا على تقدير سؤال سائل قال فما قال لهم هود فقيل قال ياقوم وقيل ان نوحا كان مواظبا على دعوة قومه غير متوان فيها لان الفاء تدل على التعقيب وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح فى المبالغة فى الدعاء فأخبر الله تعالى عنه بقوله قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره (أفلا تتقون) الله أى أفلا تخافون عقابه فتؤمنون ولما كانت هذه القصة معطوفة على قصة نوح وقد علم ما حل بهم من الغرق حسن قوله هنا أفلا تتقون أى أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب ولما لم يكن قبل واقعة قوم نوح شئ حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة) اى فى حمق وجهالة وضلالة عن

الجمع على الواحد اذ منهم شعيب اذ لم يكن فى اتمم حق بهود البها وكذا قول شعيب ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها على

الصواب (فان قيل) لم قال قوم نوح انا لنراك فى ضلال مبين وقوم هود انا لنراك فى سفاهة (أجيب) بأن نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق فى عمل السفينة فى أرض ليس فيها من الماء شئ قال له قومه انا لنراك فى ضلال مبين حيث تتعب فى اصلاح سفينة فى هذه الارض وأما هود عليه السلام لما زيف عبادة الاصنام ونسب من عبدها الى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا انا لنراك فى سفاهة (وانا لنظنك من الكاذبين) أى فى ادعائك انك رسول من رب العالمين (قال) هود لهؤلاء الملا الذين نسبوه الى السفه (يا قوم ليس بى سفاهة) أى ليس الامر كما تزعمون ان بى سفاهة (ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى) أى أؤدى اليكم ما أرسلنى به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه (وأنا لكم ناصح) أى فيما آمركم به من عبادة الله تعالى (أمين) أى مأمون على تبليغ الرسالة وأداء النصح والامين الثقة على ما ائتمن عليه (فان قيل) لم قال نوح وأنصح لكم بصيغة الفعل وقال هود وأنا لكم ناصح بصيغة اسم الفاعل (أجيب) بان صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة وكان نوح يدعو قومه ليلا ونهارا كما أخبر الله تعالى عنه بقوله رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال وأنا لكم ناصح أمين (فان قيل) مدح الذات باعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء (أجيب) بانه فعل هود ذلك لانه كان يجب عليه اعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم فى قولهم وانا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالامانة وانه أمين فى تبليغ ما أرسل به من عند الله وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه فى موضع الضرورة الى مدحها (أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) سبق تفسيره

•(تنبيه)• فى اجابة الانبياء الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والاعراض عن مقابلتهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة وهكذا ينبغى لكل ناصح (واذكروا) نعمة الله عليكم (اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أى خلفتموهم فى الارض أو جعلكم ملوكا فى الارض فان شداد بن عاد ممن ملك معمورة الارض من رمل عالج وهو موضع بالبادية به رمل الى شحر عمان وهو بفتح الشين المعجمة وكسرها وبالحاء المهملة ساحل البحر بين عمان وعدن (وزادكم فى الخلق بسطة) أى طولا وقوة قال الجلال المحلى فى سورة الفجر كان طول الطويل منهم أربعمائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا وقال أبو حمزة اليمانى سبعون ذراعا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ثمانون ذراعا وقال مقاتل كان طول كل رجل اثنى عشر ذراعا أخرج ابن عساكر عن وهب بذراعهم أى على الاقوال كلها وقال وهب كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل أى بعد موته تفرخ فيها الضباع وكذا مناخرهم وقرأ نافع والبزى وشعبة والكسائى بالصاد وأبو عمرو وهشام وقنبل وحفص وخلف بالسين وأما ابن ذكوان وخلاد فقرآ بالسين والصاد (فاذكروا آلاء الله) أى أنعمه أى ما عملوا عملا يليق بذلك الانعام وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الاصنام (لعلكم تفلحون) اى تفوزون بالنعيم المقيم فى الآخرة (قالوا) اى قوم هود مجيبين له (أجئتنا) يا هود (لنعبد الله وحده ونذر) اى نترك (ما كان يعبد آباؤنا) أى من الاصنام

ان عادا أى بعض عاد صار كالعرجون القديم والمعروف ان مصر نافى ملتكم (قوله) بما كانوا ليؤمنوا بما في قوله تعالى حتى عاد

استبعدوا

استبعدوا اختصاص الله تعالى بالعبادة والاعراض عما أشرك به آباؤهم ومعنى المجيء في أجئتنا اما لان هودا كان معتزلا من قومه كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم بحراء قبل البعثة فلما أوحي اليه جاء قومه يدعوهم او يريدون به الاستهزاء لانهم كانوا يعتقدون ان الله تعالى لا يرسل الا الملائكة فكأنهم قالوا أجئتنا من السماء كما يجيء الملك او ان المقصود على المجاز كما تقول ذهب يشتمني ولا يراد حقيقة الذهاب (فأتنا بما تعدنا) اى من العذاب (ان كنت من الصادقين) اى في قولك انك رسول الله (قال) هود مجيبا لهم (قد وقع عليكم) اى نزل عليكم (من ربكم رجس) عقاب (وغضب) اى سخط (أتجادلونني في أسماء سميتموها) اى وضعتموها (أنتم وآباؤكم) اى من عند أنفسكم والاستفهام للانكار عليهم لانهم سموا الاصنام بالآلهة تعبدوها من دون الله (ما نزل الله بها) اى بعبادتها (من سلطان) اى حجة وبرهان لان المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل وانها لو استحقت كان استحقاقها بجعله تعالى اما بانزال آية أو نصب دليل (فانتظروا) اى نزول العذاب بسبب تكذيبكم لي (اني معكم من المنتظرين) ذلك فارسلت عليهم الريح العقيم (فأنجيناه) اى هودا (والذين معه) اى من المؤمنين (برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) اى استأصلناهم وقوله تعالى (وما كانوا مؤمنين) عطف على كذبوا روي ان قوم هود كانوا يعبدون الاصنام فبعث الله تعالى اليهم هودا فكذبوا وازدادوا عتوا فأمسك الله تعالى القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس حينئذ مسلمهم وكافرهم اذا نزل بهم بلاء توجهوا الى البيت الحرام وطلبوا من الله تعالى الفرج فجهزوا الى الحرم قيل بن عنز ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم وكان بمكة اذ ذاك العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاوية بن بكر فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فلبثوا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان له وكان اسم احداهما وردة والأخرى جرادة فتسميتهما جرادتين فيه تغليب والقينة الامة مغنية او غير مغنية فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا اليه أهمه ذلك واستحى أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله فعلم القينتين معاوية

* الايا قيل ويحك قم فهينم * والهينمة الصوت الخفي اى أخف الدعاء لعل الله يصبحنا غماما * والغمام هنا المطر

فيسقي أرض عاد ان عادا * قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما

فلما غنتا به أزعجهم ذلك وقالوا ان قومكم يتغوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثد بن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان أطعتم نبيكم وتبتم الى الله تعالى سقاكم واظهر اسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لا يقدمن معنا مكة فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فانشأ الله تعالى سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فانها اكثرهن ماء فخرجت على عاد من واد لهم

كذبوا من قبل) كما هنا
بحذف المعمول وهو به
وفي يونس باثباته تبعا لما
قبلهما في الموضعين اذ قبل
ما هنا ولكن كذبوا وقبل

يقال له المغيث فاستبشروا به وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فاهلكتهم ونجا هود ومن معه من المؤمنين وأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا يروى أن النبي من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين اذا اهلك قومه هاجر والصالحون معه الى مكة يعبدون الله تعالى فيها حتى يموتوا وروى عن على رضى الله تعالى عنه ان قبر هود بحضرموت فى كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن سابط بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل فى تلك البقعة (والى ثمود) اى وارسلنا الى ثمود قبيلة أخرى من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل سموا به لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وكان مسكنهم الحجر وهو بكسر الحاء موضع بين الحجاز والشأم الى وادى القرى واتفق القراء السبعة هنا على عدم صرف ثمود مرادا به القبيلة وقرئ مصروفا فى غير هذه السورة بتأويل الحى او باعتبار الاصل وهو انه اسم لابيهم الاكبر اوالماء القليل (اخاهم صالحا) اى اخاهم فى النسب لا فى الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود (قال) لهم صالح حين ارسله الله تعالى اليهم (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) اى فلا يستحق ان يعبد سواه (قد جاءتكم بينة من ربكم) اى معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتى وصدق ما أقول وأدعو اليه من عبادة الله تعالى ثم فسر تلك البينة بقوله (هذه ناقة الله لكم آية) اى علامة على صدقى وآية نصبت على الحال عاملها مادل عليه اسم الاشارة من معنى الفعل كانه قال اشير اليها آية ولكم بيان لمن هى له آية موجبة عليه الايمان خاصة وهم ثمود لانهم عاينوها وسائر الناس أخبروا وليس الخبر كالمعاينة كانه قال لكم خصوصا وانما أضيفت الى الله تعالى تعظيما لها وتفخيما لشأنها كما يقال بيت الله ولانها جاءت من عند الله تعالى بلا وسائط واسباب معهودة ولذلك كانت آية (فذروها) اى اتركوها (تأكل فى أرض الله) اى العشب فليست الارض لكم ولا مافيها من النبات انباتكم (ولا تمسوها بسوء) اى بشئ من انواع الاذى لا بعقر ولا بغيره وقوله (فيأخذكم عذاب اليم) اى بسبب اذاها جواب النهى (واذكروا اذ جعلكم خلفاء) فى الارض (من بعد عاد) اى ان الله تعالى أهلك عادا وجعلكم تخلفونهم فى الارض وتعمرونها (وبوأكم) اى اسكنكم وأنزلكم (فى الارض) اى ارض الحجر (تتخذون من سهولها قصورا) اى تبنون القصور من سهولة الارض لان القصور انما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين غالبا (وتنحتون الجبال بيوتا) اى وتنقبون فى الجبال البيوت وكانوا فى الصيف يسكنون بيوت الطين وفى الشتاء بيوت الجبال وقرأ ورش وابو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بخفضها (فاذكروا آلاء الله) اى فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها فانكم متنعمون مرفهون بما كن فى الصيف ومساكن فى الشتاء (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) والعثو اشد الفساد وقال قتادة معناه لا تسيروا مفسدين فى الارض وقيل اراد به النهى عن عقر الناقة (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) اى تكبروا عن الايمان به (للذين استضعفوا) اى للذين استضعفوهم واستذلوهم وقوله تعالى (لمن آمن منهم) بدل من الذين استضعفوا

بدل

تعالى فى يونس كذبوا به من قبل (قوله ونطبع على قلوبهم) مع قوله بعد كذلك يطبع الله قاله هنا أولا بالنون واضمار الفاعل

بدل الكل ان كان الضمير لقومه و بدل البعض ان كان للذين وقرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو والباقون بلا واو (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) اى أن الله أرسله الينا واليكم قالوا ذلك على الاستهزاء (قالوا) اى الضعفاء (انا بما ارسل به) اى صالح من الدين والهدى (مؤمنون) اى مصدقون وانما عدلوا عن الجواب السوى الذى هو نعم تنبيها على أن ارساله أظهر من أن يشك فيه عاقل او يخفى على ذى لب (قال الملأ) (الذين استكبروا) عن امر الله تعالى والايمان به و برسوله صالح عليه السلام (انا بالذى آمنتم به كافرون) اى جاحدون متكبرون (فعقروا الناقة) اى عقرها قدار بأمرهم فاسند العقر اليهم والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا لانه قتلها بالسيف فان ناحر البعير يعقره ثم ينحره (وعتوا عن امر ربهم) اى تكبروا عن امر ربهم وعصوه وكذبوا نبيهم صالحا عليه السلام (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا) اى من العذاب (ان كنت من المرسلين) أى ان كنت تزعم أنك رسول الله فان الله ينصر رسله على أعدائه وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مكذبين فى كل ما أخبرهم به من العذاب (فأخذتهم الرجفة) اى الزلزلة الشديدة من الارض والصيحة من السماء (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) اى باركين على الركب ميتين روى ان عادا لما أهلكت عمرت ثمود بلادهم وخلفوهم فى الارض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا حتى ان الرجل كان يبنى البيت المحكم فينهدم فى حياته فينحتون البيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء من العيش فعتوا وأفسدوا فى الارض وعبدوا الاصنام فبعث الله تعالى اليهم صالحا عليه السلام من أشرافهم غلاما شابا فدعاهم الى الله تعالى حتى كبر لا يتبعه الا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ واكثر عليهم التحذير والتخويف سألوه آية فقال لهم أى آية تريدون فقالوا تخرج معنا الى عيدنا فى يوم معلوم لهم فى السنة فتدعو الهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا قال لهم صالح نعم فخرجوا بأوثانهم الى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو وأشار الى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء والمخترجة هى التى شاكلت البخت والجوفاء ذات الجوف والوبراء ذات الوبر فان فعلت ذلك صدقناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتؤمنن ولتصدقن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة اى تحركت للولادة تمخض النتوج بولدها فانصدعت اى انشقت عن ناقة عشراء وهى التى مر عليها من يوم أرسل عليها الفحل عشرة أشهر جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها الا الله تعالى عظما وعظماؤهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به و يصدقوه فنهاهم ذؤاب بن عمرو ابن لبيد والحباب صاحبا أوثانهم و رباب بن صمعر كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة قال لهم صالح هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج وهو بتقديم الحاء المهملة مثل التفسح وهو أن تفرج بين

وثانيا بالياء واظهار الفاعل وقاله فى يونس بالنون والاضمار لان الآيتين هنا تقدمهما الاسمان الباء مع الاظهار مرتين

رجليها فيحلبون ما شاؤا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف أى تقيم زمن الصيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو أى تقيم زمن الشتاء ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق ذلك عليهم وزين عقرها لهم امرأتان عنيزة بنت غنم وصدقة بنت المختار لما اضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشى فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها وهو بفتح السين والقاف ولدها الذكر جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا وكان صالح عليه السلام قال لهم أدركوا الفصيل عسى ان يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجت وهو بتشديد الجيم اى انفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا وجوهكم مصفرة وبعد غد وجوهكم محمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين فلما كان اليوم الرابع واشتد الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وهلكوا وسيأتى لهذه القصة زيادة ان شاء الله تعالى فى سورة النمل ويروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر فى غزوة تبوك قال لاصحابه لا يدخلن احد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا ان تكونوا باكين ان يصيبكم مثل الذى اصابهم وقال صلى الله عليه وسلم لعلى اتدرى من اشقى الاولين قال الله ورسوله اعلم قال عاقر ناقة صالح عليه السلام اتدرى من اشقى الآخرين قال الله ورسوله اعلم قال قاتلك (فتولى) اى اعرض صالح (عنهم) وفى هذا التولى قولان احدهما انه تولى عنهم بعد ان ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله تعالى فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم والفاء للتعقيب فدل على انه حصل هذا التولى بعد جثومهم وهو موتهم والقول الثانى انه تولى عنهم وهم احياء قبل هلاكهم ويدل عليه انه خاطبهم (وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) وهذا الخطاب لا يليق الا بالاحياء وعلى هذا القول يحتمل ان فى الآية تقديما وتأخيرا تقديره فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين (واجيب) من جهة الاول بانه خاطبهم بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا كما خاطب نبينا صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقوا فى القليب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يناديهم بأسمائهم الحديث فى الصحيحين وفيه فقال عمر يا رسول الله تكلم أمواتا قد جيفوا فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون وقيل انما خاطبهم صالح عليه السلام بذلك ليكون عبرة لمن يأتى من بعدهم فينزجروا عن مثل تلك الطريقة وروى ان عقرهم الناقة كان يوم الاربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت وروى أنه خرج فى مائة وعشرين من المسلمين وهو يبكى فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفا وخمسمائة دار وروى انه رجع بمن معه من المسلمين فسكنوا ديارهم وقال قوم من أهل العلم توفى صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام فى قومه عشرين سنة (ولوطا) اى وأرسلنا لوط بن هاران بن تارخ ابن اخى ابراهيم (اذ قال لقومه) اى وقت قوله لهم وقيل معناه واذكر لوطا ويبدل منه اذ قال لقومه وهم اهل سدوم قال التفتازانى هو بفتح السين قرية قوم لوط والذال المعجمة فى رواية الازهرى دون غيره اه وصوبه صاحب

قوله أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله والنون مع الاضمار فى قوله ان لو نشاء اصبناهم فناسب الجمع بين الامرين هنا والآية ثم تقدمها

قوله وقال قوم الخ الذى فى حاشية الجمل وعاش صالح مائتى سنة وثمانين سنة اه قليبرا

القاموس

القاموس وغلط الجوهري في قوله انه بالمهملة وذلك ان لوطا عليه السلام لما هاجر مع عمه ابراهيم عليه السلام الى الشام فنزل ابراهيم عليه السلام أرض فلسطين وأنزل لوطا الاردن وهو بضم الهمزة والدال وتشديد النون نهر وكورة بأعلى الشام فأرسله الله تعالى الى أرض سدوم يدعوهم الى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى (أتأتون الفاحشة) اى أتفعلون الفاحشة الخبيثة التي هي غاية القبح وكانت فاحشتهم اتيان الذكران في أدبارهم كما سيأتي (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) اى ما فعلها احد قبلكم والباء للتعدية ومن الاولى زائدة لتوكيد النفي وافادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض والجملة استئناف مقرر للانكار وبخهم أولا باتيان الفاحشة ثم باختراعها فانه أسوأ قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان من قوم لوط ثم بين الفاحشة بقوله (أئنكم لتأتون الرجال) اى في أدبارهم (شهوة من دون النساء) اى ان أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء وقرأ نافع وحفص بكسر الهمزة ولا ياء بينها او بين النون على الخبر وشهوة اما مفعول له واما مصدر في موضع الحال وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له الى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الوطر وقرأ ابن كثير بهمزتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة مسهلة ولا مد بينهما وابو عمرو كذلك الا أنه يمد بين الهمزتين وهشام بتحقيق الهمزتين بينهما مد والباقون بتحقيقهما من غير مد بينهما وقوله (بل أنتم) أيها القوم (قوم مسرفون) اى مجاوزون الحلال الى الحرام اضراب عن الانكار الى الاخبار عنهم بالحالة التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو الى اتباع الشهوات وابعادهم الله تعالى وغيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لان الله تعالى خلق الانسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمارة الدنيا وجعل النساء محلا لتلك الشهوة وموضع النسل فاذا تركهن ووضع الشيء في غير محله الذي خلق له فقد أسرف وجاوز واعتدى لان وضع الشيء في غير محله الذي وضع له اسراف لان أدبار الرجال ليست محلا للولادة التي هي مقصودة بتلك الشهوة المركبة في الانسان روى ان أول من عمل عمل قوم لوط ابليس لعنه الله تعالى لان بلادهم أخصبت بالزرع والثمار وانتجعها أهل البلدان فتمثل لهم ابليس لعنه الله تعالى في صورة شاب ثم دعا الى نفسه فكان أول من نكح في دبره وقال محمد بن اسحق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الارض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم ابليس لعنه الله تعالى في صورة شيخ وقال لهم ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فلما ألح عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا حسانا فاستخبثوا واستحكم ذلك فيهم (وما كان جواب قومه) لما ردهم ووبخهم على فعلهم القبيح وارتكابهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث (الا أن قالوا) اى قال بعضهم لبعض (أخرجوهم من قريتكم) اى ما جاؤا بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط عليه السلام من انكار الفاحشة وتعظيم امرها ولكنهم جاؤا بشيء آخر لا يتعلق بنصيحته وكلامه من الامر باخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرا بهم وبما يسمعونه من وعظهم ونصحهم وقولهم (انهم أناس يتطهرون) اى يتنزهون عن فعلكم وعن ادبار الرجال سخرية بهم

النون مع الاضمار فقط في قوله فبعثناهم وجعلناهم ثم بعثنا فناسب الاقتصار على النون مع الاضمار ثم (قوله فاتت بها) • ان قلت لم قال فرعون هذا بعد

ويتطهرهم من الفواحش وافتخارا بما كانوا فيه من القاذورات كما تقول الفسقة لبعض الصلحاء اذا وعظهم أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد (فأنجيناه) اى لوطا (وأهله) اى من آمن به وقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من اهله فانها كانت تسر الكفر موالية لاهل سدوم (كانت من الغابرين) اى من الذين غبروا أى بقوا فى ديارهم فهلكوا وروى انها التفتت فاصابها حجر فماتت وانما قال تعالى من الغابرين ولم يقل من الغابرات لانها هلكت مع الرجال فغلب الذكور على الاناث (وامطرنا عليهم مطرا) اى نوعا من المطر عجيبا وهو مبين بقوله تعالى وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل اى قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت وقال أبو عبيدة يقال فى العذاب أمطر وفى الرحمة مطر وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم (فانظر) اى أيها الانسان (كيف كان عاقبة المجرمين) روى ان تاجرا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه وقال مجاهد نزل جبريل عليه السلام وأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم أتبعوا بالحجارة كما قال تعالى فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل (والى مدين) اى وارسلنا الى ولد مدين بن ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام (اخاهم) فى النسب لا فى الدين (شعيبا) ابن ميكيل ابن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه عليه السلام وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان (قال) اى شعيب عليه السلام (يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة) اى معجزة تدل على صدق ما جئت به (من ربكم) اوجبت عليكم الايمان بى والاخذ بما آمركم به (فان قيل) ما كانت معجزته اذ لم تذكر له معجزة (اجيب) بانه قد وقع العلم بانه كان له معجزة لقوله قد جاءتكم بينة من ربكم ولانه لابد لمدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه والا لم تصح دعواه وكان متنبئا لا نبيا غير أن معجزته لم تذكر فى القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه ومن معجزات شعيب عليه السلام الواردة فى غير القرآن ما روى من محاربة عصا موسى التنين حين دفع اليه الغنم وولادة الغنم الدرع حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها والدرع بوزن الصرد وهى الغنم التى أوائلها سواد وأواخرها بياض ووقوع عصا آدم عليه السلام على يده فى المرات السبع وغير ذلك من الآيات لان هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام فكانت معجزة لشعيب وهذا أولى من جعله كرامة لموسى او ارهاصا وهو علامة تظهر قبل النبوة وقيل أراد بالبينة الموعظة وهى قوله تعالى (فأوفوا الكيل والميزان) اى أتموهما (ولا تبخسوا) اى تنقصوا (الناس أشياءهم) فتطففوا الكيل والوزن يقال بخس فلان الكيل والوزن اذا نقصه وطففه (فان قيل) هلا قال المكيال والميزان كما فى سورة هود (اجيب) بانه اراد بالكيل آلة الكيل وهو المكيال أو سمى ما يكال به بالكيل او أريد وأوفوا كيل المكيال ووزن الميزان وانما قال أشياءهم لانهم كانوا يبخسون الناس كل شئ فى مبايعاتهم او كانوا مكاسين لا يدعون شيأ الا مكسوه كما يفعل أمراء الجور (ولا تفسدوا فى الارض) اى بالكفر والمعاصى (بعد

قوله ان كنت جئت بآية (قلت) معناه ان كنت جئت بآية من عند الله فأت بها (فان قلت) كيف قال تعالى هذا حكاية عن

…ـحها) أى بعد ما أصلح أمرها وأهلها الانبياء واتباعهم بالشرائع (ذلكم) اى الذى …لكم وأمرتكم به من الايمان ووفاء الكيل والميزان وترك المظالم والبخس (خير لكم) …مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بما أقول لكم ومعنى …ير لكم أى فى الانسانية وحسن ما يتحدث به وجمع المال لان الناس ترغب فى متاجرتكم اذا عرفوا امنكم الامانة والتسوية (ولا تقعدوا بكل صراط) أى طريق من طرق الدين (توعدون) أى تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك وذلك انهم كانوا يجلسون على الطرقات فيخبرون من أتى عليهم ان شعيبا الذى تريدونه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم وقيل كانوا يقطعون الطريق على الناس أو يقعدون لاخذ المكس منهم وقوله تعالى (وتصدون) أى تصرفون الناس (عن سبيل الله) أى دينه (من آمن به) دليل على أن المراد بالطريق سبيل الحق (فان قيل) صراط الحق واحد قال تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله فكيف قيل بكل صراط (أجيب) بأن صراط الحق وان كان واحدا لكنه يتشعب الى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة وكانوا اذا رأوا أحدا يشرع فى شئ منها أوعدوه وصدوه (وتبغونها) أى تطلبون الطريق (عوجا) أى تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة عن الحق غير مستقيمة لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها أو يكون ذلك تهكما بهم وانهم يطلبون لها ما هو محال فان طريق الحق لا يعوج (واذكروا) نعمة الله عليكم وآمنوا به (اذ كنتم قليلا فكثركم) أى كثر عددكم بعد القلة أو كثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقدرة بعد الضعف قيل ان مدين بن ابراهيم تزوج بنت لوط عليهما السلام فولدت فرمى الله تعالى فى نسلهما بالبركة والنماء فكثروا ونموا (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) قبلكم بتكذيبهم رسلهم أى آخر أمرهم من الهلاك وأقرب الامم اليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسوله (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) به أى وان اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين فرقة آمنت بى وصدقت برسالتى وفرقة كذبت وجحدت برسالتى (فاصبروا) أى فتربصوا (حتى يحكم الله بيننا) أى بين الفرقتين فيعز المؤمنين أى المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم وفى هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين (وهو خير الحاكمين) أى لا حيف فى حكمه ولا معقب له لانه تعالى منزه عن الجور والميل فى حكمه وانما قال خير الحاكمين لانه قد يسمى بعض الاشخاص حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم فى الحقيقة (قال الملأ) أى الجماعة (الذين استكبروا) أى تكبروا (من قومه) عن الايمان بالله ورسوله وتعظموا عن اتباع شعيب عليه الصلاة والسلام (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن) اى ترجعن (فى ملتنا) أى لا بد من أحد الامرين اما اخراجك ومن اتبعك على دينك من بلدنا او عودكم فى الكفر (فان قيل) شعيب لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع الى ما كان عليه (أجيب) بأن أتباع شعيب كانوا على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا واتباعه جميعا فدخل هو فى الخطاب وان لم يكن على ملتهم قط لان الانبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقا فاستعمل العود فى حقهم على سبيل المجاز وجرى بعضهم على ان

السحرة الذين آمنوا ومن فرعون قالوا آمنا برب العالمين الى قوله وتوفنا مسلمين ثم حكى عنهم هذا فى طه والشعراء بزيادة ونقصان

العود يستعمل بمعنى صار كما يستعمل بمعنى رجع فلا يستلزم الرجوع الى حالة سابقة بل هو انتقال من حالة سابقة الى حالة مستأنفة كما قال القائل

فان تكن الايام تحسن مرة • الىّ فقد عادت لهن ذنوب

أراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد أن ذنوبا كانت لهن قبل الاحسان (قال) لهم شعيب على سبيل الاستفهام الانكاري (أولو كنا كارهين) أى كيف نعود فيها ونحن كارهون لها وقيل لا نعود فيها وان اكرهتمونا وجبرتمونا على الدخول فيها لا نقبل ولا ندخل (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها) والجواب عن هذا مثل ما أجيب به عن الاول وهو ان نقول ان الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة الا أن شعيبا نظم نفسه فى جملتهم وان كان بريا مما كانوا عليه من الكفر فاجرى الكلام على حكم التغليب (وما يكون لنا أن نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا) أى الا أن يشاء خذلاننا وارتدادنا فحينئذ يمضى قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى وقيل أراد به حسم طمعهم فى العود بالتعليق على ما لا يكون (وسع ربنا كل شىء علما) أى وسع علمه كل شىء فلا يخفى عليه شىء مما كان وما يكون منا ومنكم (على الله توكلنا) فى أن يثبتنا على الايمان ويخلصنا من الاشرار ولما أيس شعيب من ايمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال (ربنا افتح) أى اقض وافصل واحكم (بيننا وبين قومنا بالحق) أى بالعدل الذى لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف (وأنت خير الفاتحين) أى الحاكمين (وقال الملأ الذين كفروا من قومه) اى قال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم (لئن اتبعتم شعيبا) اى على دينه وتركتم دينكم وما أنتم عليه (انكم اذا لخاسرون) أى مغبونون لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف أو لاستبدال الضلالة بهداكم وجواب القسم الذى وطأته اللام فى لئن اتبعتم شعيبا وجواب الشرط قوله انكم اذا لخاسرون فهو ساد مسد الجوابين (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة (فأصبحوا فى دارهم) أى مدينتهم (جاثمين) اى باركين على الركب ميتين قال ابن عباس رضى الله عنهما فتح الله عليهم بابا من جهنم فارسل عليهم حرا شديدا فاخذ بانفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا فى الاسراب ليتبردوا فيها فوجدوها اشد حرا من الظاهر فخرجوا الى البرية فبعث الله تعالى عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فاظلتهم وهى الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الارض فاحترقوا كما يحترق الجراد وصاروا رمادا وروى ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر سبعة ايام ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فاذا تحته انهار وعيون فأتاهم واخبرهم فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم فذلك قوله تعالى عذاب يوم الظلة وقال قتادة بعث الله تعالى شعيبا الى اصحاب الايكة واصحاب مدين فاما اصحاب الايكة فاهلكوا بالظلة واما أصحاب مدين فاخذتهم الصيحة صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا جميعا قال ابو عبد الله البجلى كان ابو جاد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم فى زمن شعيب يوم الظلة كلمن فلما هلك قالت ابنته شعرا ترثيه وتبكيه

واختلاف الفاظ فى الالفاظ المنسوبة اليهم والقصة واحدة فكيف اختلفت عباراتهم فيها (قلت) احكى الله ذلك عنهم [illegible]

كمن قد هدركني • هلكه وسط المحله
سيد القوم اتاه الشحتف نارتحت ظله
جعلت نارا عليهم • دارهم كالمضمحله

وقوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا) مبتدأ خبره (كأن) مخففة واسمها محذوف أي كأنهم (لم يغنوا) اى لم يقيموا او ينزلوا (فيها) أي في ديارهم يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان اى اقمت به والمغانى المنازل التى بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة • فى ظل ملك ثابت الاوتاد

اراد اقاموا فيها وقيل كأن لم يعيشوا فيها مستغنين يقال غنى الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذى هو ضد الفقر قال الشاعر

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى • وكل سقانا بكاسيهما الدهر
فما زادنا بغيا على ذى قرابة • غنى ولا أزرى باحسابنا الفقر

قال الزجاج معنى غنينا عشنا والتصعلك الفقر يقال للفقير صعلوك (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) أى دينا ودنيا دون الذين اتبعوه فانهم الرابحون فى الدارين وا كد ذلك باعادة الموصول وغيره للرد عليهم فى قولهم السابق (فتولى) أى اعرض شعيب (عنهم) أى عن قومه (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم) أى قال ذلك لما تيقن نزول العذاب بهم تأسفا وحزنا عليهم لانهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الاجابة والايمان ثم أنكر على نفسه فقال (فكيف آسى) أى احزن (على قوم كافرين) لانهم ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بسبب كفرهم وقيل قال ذلك اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد بالغت فى الابلاغ والانذار وبذلت وسعى فى النصح فلم يصدقوا قولى فكيف احزن عليهم وقوله تعالى (وما ارسلنا فى قرية من نبى) فيه اضمار وحذف تقديره فكذبوه (الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء) قال ابن مسعود البأساء الفقر والضراء المرض وقيل البأساء الشدة وضيق العيش والضراء سوء الحال (لعلهم يضرعون) اى فعلنا بهم ذلك لكى يتضرعوا ويتوبوا والتضرع التذلل والخضوع والانقياد لامر الله (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) اى اعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة كقوله تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيئات فاخبر الله تعالى بهذه الآية انه يأخذ اهل المعاصى والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله تعالى (حتى عفوا) اى كثروا ونموا فى انفسهم واموالهم يقال عفا الشعر اذا كثر وطال ومنه قوله صلى الله عليه وسلم واعفوا اللحى اى وفروها واكثروا شعرها (وقالوا) كفرا للنعمة (قد مس آباءنا الضراء والسراء) وهذه عادة الدهر قديما وحديثا النا ولا بآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما انتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فانهم لم يتركوا دينهم لما اصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى (فاخذناهم بغتة) أى فجأة اينما كانوا ليكون ذلك اعظم لحسرتهم (وهم لا يشعرون) اى بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة وغيرها من القصص اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب ويرجع الى الله تعالى

بالفاظ متساوية معنى جريا على عادة العرب فى التفنن فى الكلام والحذف فى محل احالة على ذكره فى محل آخر وانما خولف فى

و يزداد الذين آمنوا ايمانا (ولو ان اهل القرى) اى المكذبين (آمنوا) بالله ورسوله (واتقوا) اى الشرك والمعاصى (لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) اى لاتيناهم بالخير من كل جهة وقيل بركات السماء المطر و بركات الارض النبات والثمار والانعام و جميع ما فيهما من الخيرات وكل ذلك من فضل الله تعالى واحسانه وانعامه على عباده وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف (ولكن كذبوا) اى فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا انما آمنوا ولكن كذبوا الرسل (فاخذناهم) أى عاقبناهم بانواع العذاب (بما) اى بسبب ما (كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصى وقوله تعالى (أفأمن اهل القرى) عطف على قوله تعالى فاخذناهم بغتة وهم لايشعرون وما بينهما اعتراض والمعنى أبعد ذلك امن اهل القرى (أن يأتيهم بأسنا) أى عذابنا (بياتا) اى ليلا وقوله تعالى (وهم نائمون) حال من ضميرهم البارز أو المستتر فى بياتا (أوأمن اهل القرى) هو استفهام بمعنى الانكار وفيه وعيد وزجر وتهديد والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عام فى كل اهل القرى الذين كفروا وكذبوا وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بسكون الواو والباقون بفتح الواو (أن يأتيهم بأسنا ضحى) أى نهارا الان الضحى صدر النهار (وهم يلعبون) أى وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم وقوله تعالى (أفأمنوا مكر الله) تقرير لقوله تعالى افأمن اهل القرى ومكر الله استعارة لاستدراج العبد بالنعم فى الدنيا وأخذه من حيث لايحتسب (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) أى انه لا يأمن استدراجه اياهم بالنعم وأخذهم بغتة الا من خسر فى اخراه وهلك مع الهالكين فعلى العاقل ان يكون فى خوف من الله تعالى كالمحارب الذى يخاف من عدوه المتمكن البيات والغيلة وعن الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى ان ابنته قالت له مالى ارى الناس ينامون ولا اراك تنام فقال يا ابنتاه ان اباك يخاف البيات اراد قوله تعالى أن يأتيهم بأسنا بياتا (اولم يهد) أى يتبين (للذين يرثون الارض) أن يسكنونها (من بعد) هلاك (أهلها) الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها (أن لو نشاء اصبناهم) بالعذاب (بذنوبهم) كما اصبنا من قبلهم والهمزة للتوبيخ وان لو نشاء مرفوع بانه فاعل يهد أى اولم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم فى ديارهم و يرثون أرضهم هذا الشأن وهو أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم أى بسببها كما اصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين منهم كما أهلكنا الموروثين وانما عدى فعل الهداية باللام لانه بمعنى التبيين كما مر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية واوا فى الوصل والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (ونطبع) اى نختم (على قلوبهم) معطوف على ما دل عليه اولم يهد كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم أو على يرثون الارض أو يكون منقطعا بمعنى ونحن نطبع على قلوبهم (فهم لايسمعون) موعظة أى لا يقبلونها ومنه سمع الله لمن حمده قال الشاعر

دعوت الله حتى خفت أن لا • يكون الله يسمع ما أقول

أى يقبله و يستجيبه (تلك القرى) أى القرى التى ذكرنا لك يا محمد أمرها وأمر أهلها وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (نقص عليك) يا محمد (من أنبائها) أى نخبرك عنها وعن أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين ارسلوا اليهم لتعلم انا ننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف اهلكناهم بكفرهم ومخالفتهم

ذلك اتصلا جمل اذا تمحض نكراره والحكمة فى تكرار قصة موسى وغيرها من القصص تاكيد التحدى واظهار الاعجاز ولهذا

رسلهم

رسلهم وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصابهم (ولقد جاءتهم) أي اهل تلك القرى (رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام وأمال حمزة وابن ذكوان الالف وسكن السين أبو عمرو ورفعها الباقون (فما كانوا ليؤمنوا) أي عند مجيئهم بها (بما كذبوا) أي كفروا به (من قبل) أي قبل مجيء الرسل بل استمروا على الكفر واللام لتأكيد النفي والدلالة على انهم ما صلحوا للايمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم (كذلك) أي كما طبع الله على قلوب كفار الامم الخالية وأهلكهم (يطبع الله على قلوب الكافرين) الذين كتب عليهم انهم لا يؤمنون من قومك (وما وجدنا لاكثرهم) أي لاكثر الناس على الاطلاق أو لاكثر الامم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك وأكد الاستغراق فقال (من عهد) أي من وفاء بالعهد الذي عهدناه اليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق والآية على الاول اعتراض وعلى الثاني من تتمة الكلام السابق (وان) مخففة اي وانا (وجدنا) أي في علمنا في عالم الشهادة (اكثرهم لفاسقين) أي خارجين عن دائرة العهد طبق ما كنا علمناه منهم في عالم الغيب وما ابرزناه في عالم الشهادة الا لنقيم عليهم به الحجة على ما يتعارفونه بينهم في مجاري عاداتهم ومدارك عقولهم (ثم بعثنا من بعدهم) أي الرسل المذكورين وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام او الامم المهلكين (موسى) عليه السلام (بآياتنا) اي بحججنا الدالة على صدقه كاليد والعصا (الى فرعون) هو علم جنس لملوك مصر ككسرى لملوك فارس وقيصر لملوك الروم والنجاشي لملوك الحبشة وكان اسم فرعون موسى قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط (وملئه) أي عظماء قومه وخصهم بالذكر لانهم اذا اذعنوا اذعن من دونهم فكأنهم المقصودون والارسال اليهم ارسال الى الكل (فظلموا) أي كفروا (بها) أي بسبب رؤيتها خوفا على رياستهم وممالكهم الفانية ان تخرج من ايديهم (فانظر) أيها المخاطب بعين البصيرة (كيف كان عاقبة المفسدين) أي آخر امرهم اي كيف فعلنا بهم وكيف اهلكناهم (وقال موسى) لما دخل على فرعون (يا فرعون) خاطبه بما يحبه امتثالا لامر الله تعالى له أن يلين في خطابه وذلك لان فرعون كان اقب مدح لمن ملك مصر (اني رسول) أي مرسل اليك والى قومك ثم بين مرسله بقوله تعالى (من رب العالمين) اي الاله الذي خلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم وقوله تعالى (حقيق على ان لا اقول على الله الا الحق) جواب لتكذيب فرعون اياه في دعوى الرسالة وانما لم يذكر لدلالة قوله تعالى فظلموا بها والحق هو الثابت الدائم والحقيق مبالغة فيه وكأن المعنى أنا ثابت مستمر على أن لا اقول على الله الا الحق قرأ نافع على بالتشديد فحقيق مبتدأ خبره ان وما بعدها والباقون بالسكون وعلى هذا تكون على بمعنى الباء او يضمن حقيق معنى حريص وان لا مقطوعة في الرسم اي النون من لام الالف (قد جئتكم ببينة) اي معجزة (من ربكم) على صدقي فيما أدعي من الرسالة وهي العصا واليد البيضاء ثم ان موسى عليه السلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم قوله (فارسل معي بني اسرائيل) أي خلهم حتى يرجعوا معي الى الارض المقدسة التي هي وطن آبائهم وكان قد استعبدهم واستخدمهم

سمى الله القرآن مثاني لانه تثنى فيه الاخبار والقصص اولافادة الغائب عن المرة السابقة فقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

فى الاعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب ونحوهما (قال) فرعون لعنه الله مجيبا لموسى عليه السلام (ان كنت جئت باية) اى علامة على صحة رسالتك (فأت بها ان كنت من الصادقين) اى فى عداد اهل الصدق الذين يقين فيه لتصح دعواك عندى وتثبت (فالقى عصاه فاذا هى) اى العصا (ثعبان مبين) اى ظاهر امره لاشك فيه انه ثعبان والثعبان الذكر العظيم من الحيات (فان قيل) اليس قال الله تعالى فى موضع كأنها جان والجان الحية الصغيرة (اجيب) بانها كانت كالجان فى الخفة والحركة وهى فى جثتها حية عظيمة روى انه لما القاها صارت حية عظيمة صفراء شقراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت عن الارض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الاسفل فى الارض والاعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتاخذه فوثب فرعون عن سريره هاربا وأحدث قيل اخذته البطن فى ذلك اليوم اربعمائة مرة وقد قيل انه كان يأكل الموز حتى لا يتغوط وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات منهم خمسة وعشرون الفا ودخل فرعون البيت وصاح ياموسى انشدك الله الذى ارسلك ان تاخذها وانا أومن بك وارسل معك بنى اسرائيل فاخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم قال هل معك آية اخرى قال نعم (ونزع يده) اى اخرجها من جيبه وقيل من تحت ابطه بعد أن اراه اياها محترقة أدماء كما كانت وهى عنده (فاذا هى بيضاء) نورانية (للناظرين) لها شعاع غلب شعاع الشمس قال ابن عباس كان لها نور ساطع يضىء ما بين السماء والارض له لمعان مثل لمعان البرق فخروا على وجوههم ثم ردها الى جيبه فاذا هى كما كانت ولما كان البياض المفرط عيبا فى الجسد وهو البرص قال الله تعالى فى آية اخرى من غير سوء اى من غير برص (فان قيل) بم يتعلق قوله تعالى للناظرين (اجيب) بانه يتعلق بقوله تعالى بيضاء والمعنى فاذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة يجتمع الناس للنظر اليه كما تجتمع النظارة للعجائب (فان قيل) احد هذين الامرين اما العصا واما اليد كان كافيا فما فائدة الجمع بينهما (اجيب) بان كثرة الدلائل توجب القوة فى اليقين وزوال الشك وقول بعض الملحدين المراد بالثعبان وباليد البيضاء شئ واحد وهو أن حجة موسى عليه السلام كانت قوية ظاهرة قاهرة من حيث انها ابطلت اقوال المخالفين واظهرت فسادها كانت كالثعبان العظيم الذى يتلقف حجج المبطلين ومن أنها كانت ظاهرة فى نفسها وصفت باليد البيضاء كما يقال فى العرف لفلان يد بيضاء فى العلم الفلانى اى قوة كاملة ومرتبة ظاهرة مردود اذ حمل هاتين المعجزتين على هذا الوجه يجرى مجرى دفع التواتر وتكذيب الله ورسوله ولما اتى بالبيان واقام واضح البرهان (قال الملأ) اى الاكابر (من قوم فرعون ان هذا) اى موسى (لساحر عليم) اى عالم بالسحر ماهر فيه قد اخذ باعين الناس ويريهم الشئ بخلاف ما هو عليه حتى يخيل اليهم ان العصا صارت حية وان الآدم ابيض كما اراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وانما قالوا ذلك لان السحر كان هو الغالب فى ذلك الزمان (فان قيل) قد اخبر الله تعالى فى هذه السورة ان هذا الكلام من قول الملا فرعون وقال فى سورة الشعراء وقال اى فرعون للملا حوله ان هذا الساحر عليم فكيف الجمع بينهما (اجيب) عن ذلك بجوابين الاول لا يمتنع أن يكون قاله فرعون اولا ثم انهم قالوه بعده فاخبر الله عنهم هنا واخبر عن فرعون فى

بعضهم بعضهم ويغيب بعضهم فى الغزوات فاذا حضر الغائبون أكرمهم الله تعالى باعادة الوحى ثم يبشرهم (قوله قال الملا

سورة الشعراء الثاني أن فرعون قال هذا القول ثم ان الملأ من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم
انهم بلغوه الى العامة فاخبر الله تعالى هنا عن الملأ واخبر هنالك عن فرعون (يريد) اى موسى
(ان يخرجكم) ايها القبط (من ارضكم) اى ارض مصر (فماذا تامرون) اى اى شئ تشيرون
أن نفعل به فقوله فماذا تامرون من قول فرعون وان لم يذكره وقيل من قول الملأ وتم كلام
فرعون عند قوله يريد ان يخرجكم من ارضكم فقال الملأ مجيبين له فماذا تامرون وانما خاطبوه
بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك فى التعظيم والتفخيم والمعنى فما تامرون ان نفعل به
والقول الاول اصح لسياق الآية التى بعدها وهى قوله تعالى (قالوا ارجئه) اى موسى
(واخاه) هرون عليهما السلام اى اخر امرهما ولا تعجل فيه حتى تنظر فى امرهما والارجاء فى
اللغة التاخير وقيل الحبس اى احبسه واخاه ورد بان فرعون ما كان يقدر على حبس موسى
بعد ما راى من امر العصا ما راى وقرا ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بهمزة ساكنة والباقون بغير
همز (وارسل فى المدائن) جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان اى اقام به اى مدائن صعيد
مصر (حاشرين) اى ارسل رجالا من اعوانك وهم الشرط بضم الشين وفتح الراء طائفة من
اعوان الولاة يحشرون اليك السحرة من جميع مدائن الصعيد وكان رؤساء السحرة باقصى
مدائن الصعيد فان غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وان غلبوه علمنا انه ساحر فذلك قوله تعالى
(ياتوك) اى الشرط (بكل ساحر عليم) اى ماهر بصناعته والباء يحتمل ان تكون بمعنى مع ويحتمل
ان تكون باء التعدية وقرا حمزة والكسائى بتشديد الحاء مفتوحة والف بعدها ولا الف
قبلها والباقون بتخفيف الحاء مكسورة والف قبلها ولا الف بعدها ولم يختلفوا فى سورة
الشعراء انه سحار قيل الساحر الذى يعلم السحر ولا يعلم والسحار من يديم السحر روى ان
فرعون لما راى من سلطان الله وقدرته فى العصا ما رأى قال انا لا نقاتل موسى الا بمن هو اقوى
منه فاتخذ غلمانا من بنى اسرائيل وبعث بهم الى مدينة يقال لها القرما يعلمونهم السحر
فعلموهم سحرا كثيرا وواعد فرعون موسى موعدا ثم بعث الى السحرة الذين ارسلهم فجاؤا
ومعلمهم معهم فقال فرعون للمعلم ما صنعت فقال علمتهم سحرا لا تطيقه اهل الارض الا ان يأتى
امر من السماء فانهم لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون فى مملكته فلم يترك فى سلطانه ساحرا الا اتى
به وهذا يدل على ان السحرة كانوا كثيرين فى ذلك الزمان وهو يدل على صحة ما يقوله
المتكلمون وهو انه تعالى يجعل معجزة كل نبى من جنس ما كان غالبا على اهل ذلك الزمان فلما
كان السحر غالبا على اهل زمان موسى كانت معجزته شبيهة بالسحر وان كانت مخالفة للسحر
فى الحقيقة ولما كان الطب غالبا على اهل زمان عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس
الطب ولما كانت الفصاحة غالبة على اهل زمان محمد صلى الله عليه وسلم كانت معجزته من
جنس الفصاحة واختلفوا فى عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فمن مقل ومن مكثر وليس فى
الآية ما يدل على المقدار والكيفية والعدد ولذلك اختلف فى عددهم فقال مقاتل كانوا
اثنين وسبعين اثنان من القبط وهما رؤساء القوم وسبعون من بنى اسرائيل وقال الكلبى كان
الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من اهل نينوى بلدة يونس عليه السلام وكانوا سبعين غير
رئيسهم وقال كعب الاحبار كانوا اثنى عشر الفا وقال محمد بن اسحق كانوا خمسة عشر الفا

من قوم فرعون ان هذا
لساحر عليم) • ان قلت
كيف نسب القول هنا
للملأ ونسبه فى الشعراء
لفرعون فى قوله تعالى قال

وقال عكرمة كانوا سبعين ألفا وقال ابن المنكدر كانوا ثمانين ألفا وقال مقاتل كان رئيس السحرة شمعون وقال ابن جريج كان رئيسهم يوحنا (وجاء السحرة فرعون) أى بعدما أرسل الشرط فى طلبهم (قالوا أئن لنا لاجرا) اى جعلا وعطاء تكرمنا به (ان كنا نحن الغالبين) لموسى (فان قيل) هلا قيل فقالوا بالفاء (اجيب) بانه على تقدير سائل سأل ما قالوا اذ جاؤا فاجيب بقوله ائن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين وقرأ ابن كثير وحفص بهمزة مكسورة ونون مشددة بعدها على الخبر والباقون بهمزتين وسهل الثانية أبو عمرو وادخل ألفا بينهما والباقون بتحقيقهما وأدخل بينهما الفا هشام والباقون بغير الف بينهما (قال) لهم فرعون (نعم) اى لكم الاجر والعطاء وقرأ الكسائى بكسر العين والباقون بالفتح وقوله تعالى (وانكم لمن المقربين) عطف على محذوف سد مسد الجواب كأنه قيل جوابا لقولهم أئن لنا لاجرا ان لكم اجرا وانكم لمن المقربين اراد انى لا أقتصر لكم على الثواب بل ازيدكم عليه وتلك الزيادة أنى أجعلكم من المقربين عندى قال الكلبى تكونون اول من يدخل وآخر من يخرج من عندى والآية تدل على ان كل الخلق كانوا عالمين بان فرعون كان عبدا ذليلا مهينا عاجزا والا لما احتاج الى الاستعانة بالسحرة فى دفع موسى وتدل أيضا على ان كل السحرة ما كانوا قادرين على قلب الاعيان والا لما احتاجوا الى طلب الاجر والمال من فرعون لانهم لو قدروا على قلب الاعيان لقلبوا التراب ذهبا ولنقلوا ملك فرعون الى أنفسهم ولجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا والمقصود من هذه الآيات تنبيه الانسان لهذه الدقائق وان لا يغتر بكلمات أهل الاباطيل والاكاذيب (قالوا) أى السحرة (ياموسى اما أن تلقى) أى عصاك (واما ان نكون نحن الملقين) أى عصينا وحبالنا فراعوا مع موسى عليه السلام حسن الادب حيث قدموه على أنفسهم فى الالقاء فعوضهم الله تعالى حيث تأدبوا مع نبيه عليه السلام أن من عليهم بالايمان والهداية ولما راعوا الادب أولا وأظهروا مايدل على رغبتهم (قال) لهم موسى (ألقوا) انتم فقدمهم على نفسه فى الالقاء (فان قيل) كيف جاز لنبى الله تعالى موسى عليه السلام أن يأمر بالالقاء وقد علم أنه سحر وفعل السحر حرام أو كفر (أجيب) عن ذلك باجوبة أحدها ان معناه ان كنتم محقين فى فعلكم فالقوا والا فلا تلقوا الثانى أن القوم انما جاؤا لالقاء تلك الحبال والعصى وعلم موسى عليه السلام انه لابد وأن يفعلوا ذلك ووقع التخيير فى التقديم والتأخير فعند ذلك اذن لهم فى التقديم ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما وعده الله تعالى من التأييد والتقوية وان المعجزة لايغلبها سحر ابدا الثالث انه عليه السلام كان يريد ابطال ما أتوا به من السحر وابطاله ما كان يمكن الا بتقديمهم فاذن لهم فى الاتيان بذلك السحر ليمكنه الاقدام على ابطاله فلهذا المعنى امرهم بالالقاء أولا (فلما ألقوا) حبالهم وعصيهم (سحروا) أى صرفوا (اعين الناس) عن ادراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو الفرق بين السحر الذى هو فعل البشر وبين معجزة الانبياء عليهم الصلاة والسلام الذى هو فعل الله تعالى وذلك لان السحر ليس فيه قلب الاعيان وانما فيه صرف أعين الناس عن ادراك ذلك الشئ بسبب التمويهات والمعجزة قلب

للملأ حوله ان هذا لساحر عليم (قلت) قاله هو وهم فحكى قوله ثم وقولهم هنا أو معه وحده هم

تلك الشيء حقيقة كقلب عصا موسى عليه السلام فإذا هي حية تسعى (واسترهبوهم) أي أرهبوهم والسين زائدة قاله المبرد وقال الزجاج استدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس وذلك بأن بعثوا جماعة ينادون عند القاء ذلك أيها الناس احذروا فهذا هو الاسترهاب (وجاؤا) أي السحرة (بسحر عظيم) روي ان السحرة قالوا قد علمنا سحرا لا تطيقه سحرة أهل الارض الا أن يكون أمرا من السماء فانه لا طاقة لنا به وذلك انهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هي حيات تسعى كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا ويقال انهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصي زئبقا أيضا وألقوها على الارض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس انها حيات تتحرك وتلتوي باختيارها ويقال ان الارض كانت سعتها ميلا في ميل فصارت كلها حيات وافاعي ففزع الناس من ذلك وأوجس في نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه السلام لاجل سحرهم لانه كان على ثقة ويقين من الله تعالى أنهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان عالما بأن ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى عليه السلام وانما كان خوفه لاجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوه من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه السلام ان يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس في نفسه خيفة موسى (وأوحينا الى موسى أن الق عصاك) فالقاها فصارت حية عظيمة قد سدت الافق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية وقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا (فاذا هي تلقف) بحذف احدى التاءين من الاصل أي تبتلع (ما يأفكون) أي ما يزورونه من الافك وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه روي انها ابتلعت كل ما أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل ثم أقبلت على الذين حضروا ذلك الجمع ففزعوا ووقع الزحام عليهم فمات منهم بسبب ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ثم اخذها موسى عليه السلام فصارت في يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه أمر من السماء وليس بسحر وعرفوا ان ذلك ليس في قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى (فوقع الحق) اي فظهر الحق الذي جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) اي من السحر وذلك أن السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما فقدت وتلاشت في عصا موسى علموا ان ذلك من أمر الله تعالى وقدرته وقرأ حفص تلقف بسكون اللام وتخفيف القاف والباقون بفتح اللام وتشديد القاف وشدد التاء البزي (فغلبوا) اي فرعون وجمعه (هنالك) أي عند ذلك الامر العظيم العالي الرتبة (وانقلبوا صاغرين) اي رجعوا الى المدينة اذلاء مقهورين (وألقي السحرة ساجدين) اي ان الله تعالى ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى يتكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلب الامر عليه قال الاخفش من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا (قالوا آمنا برب العالمين) قال فرعون اياي تعنون قالوا لا بل (رب موسى) فقال اياي تعنون لاني انا الذي ربيت موسى فلما قالوا (وهرون) زالت الشبهة وعرف الكل انهم كفروا بفرعون وآمنوا باله السماء قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة:

(قوله يريد أن يخرجاكم من أرضكم) قاله هنا بحذف بسحرهما وقاله في الشعراء باثباته لان الآية هنا بنيت على الاختصار ولان

أتؤمر بي إن غلبتك فقال لآتين بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتني لأؤمنن بك وفرعون ينظر إليهما ويسمع كلامهما فهذا قوله إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة ويقال إن الحبال والعصي التي كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى عليه السلام كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن هذا السحر وما هو إلا من أمر السماء فآمنوا وصدقوا (فإن قيل) كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الإيمان (أجيب) بأن الله تعالى لما قذف في قلوبهم الإيمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على ما هداهم إليه وألهمهم من الإيمان بالله تعالى وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك إيمانهم قال قتادة كانوا أول النهار كفارا سحرة وفي آخره شهداء بررة وعن الحسن تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا وهؤلاء الكفار نشؤا في الكفر بذلوا أنفسهم لله تعالى (قال فرعون) للسحرة منكرا عليهم موبخا لهم بقوله (آمنتم) أي صدقتم (به) أي بموسى أو بالله تعالى والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ * (فائدة) * هنا ثلاث همزات بجميع القراء بإبدال الثالثة ألفا وحقق الثانية شعبة وحمزة والكسائي وسهلها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأما حفص فإنه أسقط الأولى وأبدلها ألفا في الوصل والوقف (قبل أن آذن لكم) أي قبل أن آمركم بذلك وآذن لكم فيه (إن هذا لمكر مكرتموه) أي إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى (في المدينة) أي مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع وذلك أن فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون أن موسى وكبير السحرة قد تواطؤا عليه وعلى أهل مصر ليستولوا على مصر كما قال (لتخرجوا منها أهلها) أي القبط وتخلص لكم ولبني إسرائيل وقوله تعالى (فسوف تعلمون) فيه وعيد وتهديد أي فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد بقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أي بمخالف الطرف الذي تقطع منه اليد الطرف الذي تقطع منه الرجل قال الكلبي لأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى (ثم لأصلبنكم) أي أعلقكم ممددة أيديكم لتصيروا على هيئة الصليب أو حتى يتقاطر صليبكم وهو الدهن الذي فيكم (أجمعين) أي لا أترك منكم أحدا تفضيحا لكم وتنكيلا لأمثالكم قال ابن عباس أول من صلب وقطع الأيدي والأرجل فرعون أي إنه أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى للقطاع تعظيما لجرمهم ولذلك سماه محاربة الله ورسوله ولكن على التعاقب لفرط رحمته (قالوا) أي السحرة مجيبين لفرعون حين وعدهم بما ذكر (إنا إلى ربنا) بعد موتنا على أي وجه كان (منقلبون) أي راجعون إليه في الآخرة (وما تنقم) أي تنكر (منا) أي في فعلك لتبيننا وتعيب علينا (إلا أن آمنا) أي إلا ما هو أصل المفاخر كلها وهو الإيمان (بآيات ربنا لما جاءتنا) لم نتأخر عن معرفة الصدق وهذا موجب للإكرام لا الانتقام ثم فزعوا إلى الله تعالى فقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) عندما توعدهم فرعون به أي اصبب علينا صبرا كاملا تاما ولهذا أتى بلفظ التنكير أي صبرا وأي صبر عظيم (وتوفنا مسلمين) أي واقبضنا على دين الإسلام وهو دين خليلك عليه السلام قال ابن عباس كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء قال الطبري إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وقال غيره إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون (تنبيه)

ما قبل الآية هنا وهو ... عليم يدل على ساحر عليم ... الآية ثم السحر بخلاف الآية (قوله وأرسل في المدائن) قاله هنا بلفظ وأرسل

في الآية

في الآية فوائد الاولى قولهم أفرغ علينا صبرا أكمل من قولهم أنزل علينا صبرا لان افراغ الاناء هو صب ما فيه بالكلية فكأنهم طلبوا من الله تعالى كل الصبر لا بعضه الثانية ان قولهم صبرا مذكور بصيغة التنكير وذلك يدل على تمام الكمال أي صبرا تاما كاملا الثالثة ان ذكر الصبر من قبلهم ومن أعمالهم ثم انهم طلبوه من الله تعالى وذلك يدل على أن فعل العبد لا يحصل الا بتخليق الله تعالى وقضائه الرابعة احتج القاضي بهذه الآية على أن الايمان والاسلام واحد فقال انهم قالوا أولا آمنا بآيات ربنا ثم قالوا ثانيا وتوفنا مسلمين فوجب أن يكون ذلك الايمان هو ذلك الاسلام وذلك يدل على ان احدهما هو الآخر واعلم أن فرعون بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض لموسى لانه كان كلما رأى موسى عليه السلام خافه أشد الخوف فلهذا السبب لم يتعرض له الا أن القوم لم يعرفوا ذلك فقالوا له أتذر موسى وقومه كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى (وقال الملأ) أي الاشراف (من قوم فرعون) له (أتذر) اي تترك (موسى وقومه) من بني اسرائيل (ليفسدوا في الارض) أي أرض مصر وأرادوا بالفساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قولهم (ويذرك وآلهتك) اي معبوداتك أي فلا يعبدك ولا يعبدها قال ابن عباس كان لفرعون بقرة حسنة يعبدها وكان اذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامري عجلا وقال السدي كان فرعون اتخذ لقومه أصناما وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الاصنام وذلك قوله أنا ربكم الاعلى (فان قيل) ان فرعون ان لم يكن كامل العقل لم يجز في حكمة الله تعالى ارسال الرسل اليه وان كان عاقلا لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالق السموات والارض لان فساده معلوم بالضرورة (أجيب) بان الاقرب أن يكون دهريا منكرا لوجود الصانع وكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب واتخذ اصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول في نفسه انه المطاع المخدوم في الارض ولهذا قال أنا ربكم الاعلى (قال) فرعون مجيبا للملأ حين قالوا له أتذر موسى وقومه (سنقتل ابناءهم) أي المولودين (ونستحيي نساءهم) أي نتركهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم انه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه وقرأ نافع وابن كثير بفتح النون وسكون القاف وضم التاء مخففة والباقون بضم النون وفتح القاف وكسر التاء مشددة (وانا فوقهم قاهرون) أي غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا ولا أثر لغلبة موسى لنا في هذه المناظرة فاعادوا عليهم القتل فشكت بنو اسرائيل لموسى فامرهم بالصبر كما قال تعالى (قال موسى لقومه) أي بني اسرائيل (استعينوا بالله واصبروا) اي استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فان الله تعالى هو الكافي لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم (ان الارض) أي ارض مصر وان كانت الارض كلها (لله) تعالى لان الكلام فيها (يورثها من يشاء من عباده) وفي هذا تسلية لهم وتقرير للامر بالاستعانة بالله عز وجل والتثبت في الامر وقوله تعالى (والعاقبة) أي المحمودة (للمتقين) لان الله تعالى وعدهم بالنصر وتذكير لما وعدهم به من اهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له ولما سمع بنو اسرائيل ما قال فرعون من توعده

وفي الشعراء بلفظ وابعث وهما بمعنى تكثير الفائدة في التعبير عن المراد بلفظين متساويين معنى (قوله بكل ساحر عليم) قاله هنا

لهم بالقتل مرة ثانية (قالوا) لموسى (أوذينا من قبل أن تأتينا) أى بالرسالة وذلك ان بنى اسرائيل كانوا مستضعفين فى يد فرعون وقومه وكان يأخذ منهم الجزية وكان يستعملهم فى الاعمال الشاقة الى نصف النهار ويمنعهم من الترفه والتنعم ويقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم فلما جاء موسى بالرسالة وجرى له ما جرى شدد فرعون فى استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار بلا أجر وأراد أن يعيد القتل عليهم فقالوا اوذينا من قبل ان تأتينا (ومن بعد ما جئتنا) اى بالرسالة (فان قيل) ظاهر هذا الكلام يوهم ان بنى اسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر (أجيب) عن هذا الايهام بان موسى عليه السلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا ان ذلك يكون على الفور فلما رأوا ان المشقة قد زادت عليهم قالوا ذلك اى فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه (قال) موسى عليه السلام مجيبا لهم (عسى ربكم ان يهلك عدوكم) اى فرعون وقومه (ويستخلفكم فى الارض) اى يجعلكم تخلفونهم فى ارضهم بعد هلاكهم قال البيضاوى ولعله أتى بفعل الطمع أى بعسى لعدم جزمه بانهم المستخلفون باعيانهم أو أولادهم وقد روى ان مصر انما فتح لهم فى زمن داود عليه السلام ثم سبب عن الاستخلاف قوله تعالى مذكرا لهم محذرا من سطواته تعالى (فينظر) أى وأنتم خلفاء ممكنون (كيف تعملون) أى يعاملكم معاملة المختبر وهو فى الازل أعلم بما تعملون منكم بعد ابقائكم للاعمال ولكنه يفعل ذلك لتقوم الحجة عليكم على مجارى عاداته روى عن عمرو بن عبيد أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان فطلب زيادة لعمرو فلم يجد فقرأ عمرو هذه الآية ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقى فينظر كيف تعملون (ولقد اخذنا آل فرعون) اى فرعون وقومه (بالسنين) اى بالقحط والجوع سنة بعد سنة فان السنة تطلق بالغلبة على ذلك كما تطلق على العام ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف (ونقص من الثمرات) أى بالعاهات قال قتادة أما السنين فلأهل البوادى وأما نقص الثمرات فلاهل الامصار وعن كعب يأتى على الناس زمان لا تحمل النخلة الا ثمرة (لعلهم يذكرون) اى يتعظون فيؤمنون ويرجعون عما هم عليه من الكفر والمعاصى لان الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله تعالى من الخيرات والدليل على ذلك قوله تعالى واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه وقوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض وقال سعيد بن جبير عاش فرعون اربعمائة سنة لم ير مكروها فى نفسه ثلثمائة وعشرين سنة ولو أصابه فى تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية ثم بين سبحانه وتعالى انهم عند نزول تلك المحن عليهم يقدمون على ما يزيد فى كفرهم ومعصيتهم فقال (فاذا جاءتهم الحسنة) قال ابن عباس العشب والخصب والثمار والمواشى والسعة فى الرزق والعافية والسلامة (قالوا لنا هذه) اى نحن مستحقوه على العادة التى جرت من كثرة نعمتنا وسعة أرزاقنا ولم يعلموا انه من الله تعالى فيشكروه على انعامه (وان تصبهم سيئة) اى قحط وجدب ومرض وبلاء ورأوا ما يكرهونه فى أنفسهم (يطيروا) أى يتشاءموا وأصله يتطيروا (بموسى ومن معه) من المؤمنين ويقولون ما اصابنا الا بشؤمهم وهذا اغراق فى وصفهم فى الغباوة والقساوة فان

وفى يونس بلفظ ساحر موافقة لما قبله وهو لساحر عليم هنا والساحرون فى يونس وقرئ بكل سحار موافقة لما فى الشعراء .

الشدائد

الشدائد ترق القلوب وتذل العرائك وتزيل التماسك سيما بعد مشاهدة الآيات وهي لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتوا وانهماكا في البغي وانما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الارادة باحداثها بالذات ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها الا بالتبع (الا انما طائرهم عند الله) أي سبب خيرهم وشرهم عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته أو سبب شؤمهم عند الله تعالى وهو أعمالهم المكتوبة عنده فانها التي ساقت اليهم ما يسوءهم (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي ان ما يصيبهم من الله تعالى وذلك لان أكثر الخلق يضيفون الحوادث الى الاسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره والحق أن الكل من الله تعالى لان كل موجود اما واجب لذاته أو ممكن لذاته والواجب لذاته واحد وما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد الا بايجاد الواجب لذاته وبهذا الطريق يكون الكل من الله تعالى فاسناده الى غير الله تعالى يكون جهلا بكمال الله تعالى (وقالوا) أي فرعون وقومه القبط لموسى عليه السلام (مهما تأتنا به) وقوله تعالى (من آية) أي من عند ربك بيان لمهما وانما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا (لتسحرنا بها) أي لتصرفنا عما نحن عليه من الدين (فما نحن لك بمؤمنين) أي بمصدقين * (تنبيه) * اختلف في أصل مهما فقيل أصلها ماما الاولى ما الشرطية والثانية ما الزائدة ضمت اليها للتأكيد ثم قلبت ألفها هاء استثقالا للتكرير المتجانسين فصارت مهما هذا قول الخليل والبصريين وقيل أصلها مه التي بمعنى اكفف وما الجزائية كانهم قالوا اكفف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فهو كذا وكذا هذا قول الكسائي فهي مركبة على هذين القولين والمعتمد الذي جرى عليه ابن هشام وغيره أنها بسيطة لان دعوى التركيب لم يقم عليها دليل ووزنها فعلى وألفها للالحاق أو للتأنيث والضميران في به وبها راجعان لمهما الا أن أحدهما ذكر باعتبار اللفظ والثاني أنث باعتبار المعنى لانه في معنى الآية ونحوه قول زهير

ومهما يكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

قال في الكشاف وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يدله في علم العربية فيضعها في غير موضعها ويحسب انها بمعنى متى ما ويقول مهما جئتني أعطيتك قال ابن عباس ان القوم لما قالوا مهما تأتنا به من آية من ربك فهي عندنا من باب السحر ونحن لا نؤمن بها البتة وكان موسى عليه السلام رجلا حديدا فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله تعالى له فقال تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) وقال سعيد بن جبير لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه الا الاقامة على الكفر والتمادي على الشر فتابع الله تعالى عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين وهو القحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال يا رب ان عبدك فرعون علا في الارض وبغى وعتا وان قومه قد نقضوا العهد فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله تعالى عليهم الطوفان وهو الماء فأرسل الله تعالى عليهم المطر من السماء وبيوت بني اسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في

(قوله آمنتم به) قاله هنا بلفظ به وقاله في طه والشعراء بلفظ له لان الضمير هنا عائد الى رب العالمين وفي تينك الى موسى لقوله فيهما انه

الماء الى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء في بيوت بني اسرائيل شئ وركب ذلك الماء على ارضهم فلم يقدروا ان يحرثوا ولا يعملوا شيأ ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت حتى كان الرجل منهم لا يرى شمسا ولا قمرا ولا يستطيع الخروج من داره فصرخوا الى فرعون واستغاثوا به فأرسل الى موسى عليه السلام فقال اكشف عنا العذاب فقد صار بحرا واحدا فان كشفت هذا العذاب آمنا بك فأزال الله تعالى عنهم المطر وأرسل الرياح فجففت الارض وخرج من النبات ما لم ير مثله قط فقالوا هذا الذي جزعنا منه خير لنا لكنا لم نشعر فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني اسرائيل وقيل المراد بالطوفان الجدري وهو بضم الجيم وفتح الدال وبفتحهما قروح في البدن تنفط وتتقيح وقيل هو الموتان وهو بضم الميم موت في الماشية وقيل هو الطاعون فنكثوا العهد (و) لم يؤمنوا وأقاموا شهرا في عافية فأرسل الله تعالى عليهم (الجراد) فأكل النبات والثمار وأوراق الشجر حتى كان يأكل الابواب وسقوف البيوت ومسامير الابواب من الحديد وابتلى الجراد بالجوع فكانت لا تشبع ولم يصب بني اسرائيل شئ من ذلك وعظم الامر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطى الشمس ووقع بعضها على بعض في الارض ذراعا فضجوا من ذلك وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك فأعطوه عهد الله وميثاقه فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة ايام من السبت الى السبت وفي الخبر مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الاعظم ويقال ان موسى عليه السلام برز الى الفضاء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت وقيل أرسل الله تعالى ريحا فاحتمل الجراد فألقاه في البحر وكان قد بقي من زرعهم وغلاتهم بقية فقالوا قد بقي لنا ما يكفينا فما نحن بتاركي ديننا (و) لم يؤمنوا وأقاموا شهرا في عافية وعادوا الى أعمالهم الخبيثة فأرسل الله تعالى عليهم (القمل) واختلفوا في القمل فعن ابن عباس أنه السوس الذي يخرج من الحنطة وعن قتادة أنه أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها وعن عكرمة انه الحمنان وهو ضرب من القراد وعن عطاء القمل المعروف فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الارض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه وكان أحدهم يأكل طعاما فيمتلئ قملا وكان أحدهم يخرج عشرة أجربة الى الرحا فلا يرد منها الا يسيرا وعن سعيد بن جبير كان الى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى عليه السلام بعصاه فصار قملا فأخذت أبشارهم واشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري ومنعهم النوم والقرار فصاحوا وصرخوا هم وفرعون الى موسى عليه السلام وقالوا انا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى فرفع الله القمل عنهم بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت فنكثوا وعادوا الى أخبث أعمالهم وقالوا ما كنا أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم جعل الرمل دوابا (و) لم يؤمنوا فدعا موسى عليه السلام عليهم بعد ما أقاموا شهرا في عافية فأرسل الله تعالى عليهم (الضفادع) فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحدهم عن ثوب ولا طعام ولا شراب الا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس في الضفادع الى رقبته ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه وكان يثب في قدورهم فيفسد عليهم طعامهم

ويطفئ

لكم كيم وقيل آمنتم به وآمنتم له واحد (قوله مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها) ان قلت كيف سموا ذلك آية مع قولهم لتسحرنا

ويطفئ نيرانهم وكان احدهم يضطجع فتركبه الضفدع فيكون عليه ركاما حتى لا يستطيع أن ينصرف الى شقه الآخر ويفتح فاه الى أكلته فيسبق الضفدع أكلته الى فيه ولا يعجن عجينا ولا يفتح قدرا الا امتلأت ضفادع وعن ابن عباس أن الضفادع كانت برية فلما أرسلها الله تعالى الى آل فرعون سمعت فأطاعت فجعلت تلقي نفسها في القدور وهي تغلي وفي التنانير وهي تفور فأثابها الله تعالى بحسن طاعتها برد الماء فأقواهما أذى شديدا فشكوا الى موسى عليه السلام وقالوا ارحمنا هذه المرة فما بقي الا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بأن أماتها وأرسل الله المطر والريح فاحتملها الى البحر بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت ثم نكثوا العهد (و) لم يؤمنوا وعادوا الكفرهم وأعمالهم الخبيثة فدعا عليهم موسى بعدما أقاموا شهرا في عافية فأرسل الله تعالى عليهم (الدم) فصارت مياههم كلها دما فما يستقون من بئر ولا نهر الا وجدوه دما عبيطا أحمر فشكوا الى فرعون وقالوا ليس لنا شراب فقال انه سحركم فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيأ من الماء الا دما عبيطا وكان فرعون لعنه الله تعالى يجمع بين القبطي والاسرائيلي على الاناء الواحد فيكون ما يلي الاسرائيلي ماء وما يلي القبطي دما ويقومان الى الجرة فيها الماء فيخرج للاسرائيلي ماء وللقبطي دم حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتي للمرأة من بني اسرائيل حين جهدهم العطش فتقول اسقيني من مائك فتصب لها من قربتها فيعود في الاناء دما حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجيه في فيّ فتأخذ في فيها ماء واذا مجته في فيها صار دما واعترى فرعون العطش حتى انه كان ليضطر الى مضغ الاشجار الرطبة فاذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا على ذلك سبعة أيام لا يشربون الا الدم فأتوا موسى وشكوا اليه ما يلقونه وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بني اسرائيل فدعا موسى عليه السلام ربه فكشفه عنهم وقيل الدم الذي سلط عليهم هو الرعاف وقوله تعالى (آيات) نصب على الحال (مفصلات) أي مبينات لا تشكل على عاقل انها آيات الله تعالى ونقمته عليهم أو مفصلات لامتحان أحوالهم اذ كان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة اسبوعا كما مرت الاشارة الى ذلك وقيل ان موسى عليه السلام لبث فيهم بعد ما غلب السحرة وآمنوا به عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل (فاستكبروا) عن الايمان فلم يؤمنوا (وكانوا) أي فرعون وقومه (قوما مجرمين) اى كافرين (ولما وقع عليهم الرجز) اى نزل بهم العذاب وهو ما ذكره الله تعالى من الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون فمات من القبط في يوم واحد سبعون ألفا وتركوا غير مدفونين قال الامام الرازي والقول الاول أقوى لأن لفظ الرجز مفرد محلى بالالف واللام فينصرف الى المعهود السابق وههنا المعهود السابق هو الانواع الخمسة التي تقدم ذكرها وأما غيرها فمشكوك فيه فحمل اللفظ على المعلوم أولى من حمله على المشكوك فيه وعن اسامة بن زيد الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني اسرائيل وعلى من كان قبلكم فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارا منه (قالوا يا موسى ادع لنا ربك) ولم يقولوا ربنا كبرا

بها (قلت) انما سموه آية استهزاء بموسى لا لاعتقادهم أنه آية (قوله ومهما كان يستمع فرعون) الآية

وعتوا (بما عهد عندك) أى بعهده عندك وهو النبوة وسميت عهدا لان الله تعالى عهد أن يكرم النبى وهو عهد أن يستقل بأعبائها أو بالذى عهده اليك أن تدعو به فيجيبك كما أجابك فى آياتك والباء اما أن تتعلق بقوله ادع لنا ربك على وجهين احدهما أسعفنا الى ما نطلب منك من الدعاء لك بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة أو ادع الله لنا متوسلا اليه بعهده عندك واما ان يكون قسما مجابا بقوله تعالى (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك) اى اقسمنا بعهد الله تعالى عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (ولنرسلن معك بنى اسرائيل) اى لنصدقنك بما جئت به ولنخلين بنى اسرائيل ليذهبوا حيث شاؤا (فلما كشفنا عنهم الرجز) أى بدعاء موسى عليه السلام (الى أجل هم بالغوه) اى الى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الامهال وكشف العذاب الى حلوله وهو وقت اهلاكهم بالغرق فى اليم وقوله تعالى (اذا هم ينكثون) جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث من غير توقف وتأمل فيه (فان قيل) ان الله تعالى علم من حال هؤلاء انهم لا يؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة فى توالبها عليهم واظهار الكثير منها (أجيب) بان الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل قال تعالى (فانتقمنا منهم) اى كافأناهم على سوء صنيعهم وأصل الانتقام فى اللغة سلب النعمة بالعذاب لانه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم وبلغوا الاجل الذى اجل لهم انتقم منهم بان اهلكهم كما قال تعالى (فأغرقناهم فى اليم) أى فى البحر الذى لا يدرك قعره وقيل هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم لان المنتفعين به يقصدونه قال الازهرى ويقع اليم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى فاقذفيه فى اليم والمراد نيل مصر وهو عذب واغراقهم (بانهم) اى بسبب انهم (كذبوا بآياتنا) الدالة على وحدانيتنا وصدق رسولنا (وكانوا عنها) أى الآيات (غافلين) أى لا يتدبرونها وقيل الضمير فى عنها يرجع للنقمة التى دل عليها قوله تعالى انتقمنا أى وكانوا عن النقمة قبل حلولها غافلين (فان قيل) الغفلة ليست من فعل الانسان ولا تحصل باختياره فكيف جاء الوعيد على الغفلة (أجيب) بان المراد بالغفلة هنا الاعراض عن الآيات وعدم الالتفات اليها فهم أعرضوا عنها حتى صاروا كالغافلين عنها (فان قيل) أليس قد ضموا الى التكذيب والغفلة معاصى كثيرة فكيف يكون الانتقام بهذين دون غيرهما (أجيب) بانه ليس فى بيان انه تعالى انتقم منهم بهذين دلالة على نفى ما عداهما قال الرازى والآية تدل على ان الواجب فى الآيات النظر فيها فلذلك ذمهم بانهم غفلوا عنها وذلك يدل على أن التقليد طريق مذموم ولما بين تعالى اهلاك القوم بالغرق على وجه العقوبة بين تعالى ما فعله بالمؤمنين من الخيرات وهو انه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم فقال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) أى بالاستعباد وذبح الابناء وأخذ الجزية والاعمال الشاقة وهم بنو اسرائيل (مشارق الارض ومغاربها) أى أرض الشام وهى من الفرات الى بحر سرف الموضع الذى نجوا منه من البحر وغرق فيه فرعون وآله كما نقله البقاعى فى المائدة عن التوراة وقيل المراد جملة الارض لانه خرج من جملة بنى اسرائيل

(ان قلت) ما الجمع بينه وبين قوله فى الشعراء فاخرجناهم من جنات وعيون الآية (قلت) معنى

داود وسليمان عليهما السلام وقد ملكا الارض ويدل للاول قوله تعالى (التي باركنا فيها)
أي بالخصب وسعة الارزاق وذلك لا يليق الا بارض الشأم (وتمت كلمت ربك الحسنى على بني
اسرائيل) أي مضت عليهم واستمرت من قولهم تم عليه الامر اذا مضى وهي قوله تعالى ونريد
أن نمن على الذين استضعفوا في الارض الخ والحسنى تأنيث الاحسن صفة للكلمة ومعنى
تمت عليهم انجاز الوعد الذي تقدم باهلاك عدوهم واستخلافهم في الارض وانما كان الانجاز
تماما للكلام لان الوعد بالشئ يبقى كالشئ المعلق فاذا حصل الموعود به فقد تم ذلك الوعد وكمل
•(فائدة)• رسمت كلمة بالتاء المجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابو عمرو والكسائي ووقف
الباقون بالتاء وانما حصل لهم ما ذكر (بما صبروا) أي بسبب صبرهم وحسبك به حاثا على
الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله تعالى اليه ومن قابله بالصبر وانتظار النصر
ضمن الله تعالى له الفرج (ودمرنا) أي أهلكنا قال الليث الدمار الهلاك التام (ما كان يصنع
فرعون وقومه) في أرض مصر من القصور والعمارات (وما كانوا يعرشون) أي من الجنات
وما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بالجر
وهذا آخر ما اقتص الله تعالى من نبا فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم
ثم اتبعه اقتصاص نبا بني اسرائيل وما أحدثوه بعد انقاذهم من مملكة فرعون واستعبادهم
ومعاينتهم الآيات العظام بقوله تعالى (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) أي قطعناه بهم روي أن
جوازهم كان يوم عاشوراء وان موسى عليه السلام صامه شكرا لله تعالى على انجائهم واهلاك
عدوهم ومع النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم لم يرعوها حق رعايتها كما حكى الله تعالى
عنهم ذلك بقوله تعالى (فأتوا على قوم) أي مروا عليهم (يعكفون على أصنام لهم) أي يقيمون
على عبادتها قال ابن جريج كانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل قيل كانوا قوما من لخم
وكانوا نزولا بالرقة وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم وقرأ حمزة والكسائي
بكسر الكاف والباقون بالضم (قالوا) أي قال بعضهم لبعض لانه كان مع موسى السبعون
المختارون وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السؤال الباطل وهو قولهم (يا موسى) سموه
كما ترى باسمه جفاء وغلظة (اجعل لنا الها) أي صنما نعكف عليه وهذا يدل على غاية جهلهم
وذلك أنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعد ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله
تعالى وكمال قدرته وهي الآيات التي توالت على قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى في البحر
بكفرهم وهو عبادتهم غير الله سبحانه وتعالى فحملهم جهلهم الى أن قالوا لنبيهم موسى عليه
السلام اجعل لنا الها (كما لهم آلهة) وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما رأى من بني
اسرائيل بالمدينة تذكرة لحال الانسان وانه ظلوم جهول كنود الا من عصمه الله وقليل من
عبادي الشكور (قال) موسى رداً عليهم (انكم قوم تجهلون) وصفهم بالجهل المطلق وأكده
لبعد ما صدر عنهم بعد ما رأوا من الآيات العظمى والمعجزة الكبرى لانه جهل أعظم مما رأى
منهم وأشنع (ان هؤلاء) أي القوم (متبر) أي هالك مدمر (ما هم فيه) أي ان الله تعالى يهدم
دينهم الذي هم عليه ويحطم اصنامهم ويجعلها رضاضا (وباطل) أي مضمحل (ما كانوا
يعملون) من عبادتها وان قصدوا بها التقرب الى الله تعالى لان الاشتغال بعبادة غير الله

دمرنا ابطلنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المكر والكيد بموسى عليه السلام وما كانوا يعرشون الذي يبنون من الصرح الذي

ر بل معرفة الله تعالى من القلب والمقصود من العبادة رسوخ معرفة الله تعالى في القلب فكان هذا ضدا للغرض ونقيضا للمطلوب (قال) موسى عليه السلام مجيبا لهم على سبيل الانكار عليهم والتعجب (أغير الله أبغيكم الها) وأصله أبغي لكم أي أطلب لكم معبودا (وهو) اي والحال أنه هو وحده (فضلكم على العالمين) اذ الاله ليس شيأ يطلب ويلتمس ويتخذ بل الاله هو الذي يكون قادرا على الانعام بالايجاد واعطاء الحياة وجميع النعم فهذا الموجود هو الاله الذي يجب على الخلق عبادته فكيف يجوز العدول عن عبادته الى عبادة غيره وفي تفضيلهم على العالمين قولان الاول أنه تعالى فضلهم على عالمي زمانهم الا ما يخصه العقل من الانبياء والملائكة والثاني أنه تعالى خصهم بتلك الآيات القاهرة ولم يحصل مثلها لاحد من العالمين وان كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال مثاله رجل يعلم علما واحدا وآخر يعلم علوما كثيرة سوى ذلك العلم فصاحب العلم الواحد مفضل على صاحب العلوم الكثيرة بذلك العلم في الحقيقة (واذ انجيناكم من آل فرعون) اي واذكروا صنعه معكم في هذا الوقت وقرأ ابن عامر بحذف الياء والنون والباقون باثباتهما وقوله تعالى (يسومونكم) اي يكلفونكم ويذيقونكم (سوء العذاب) أي أشده استئناف لبيان ما أنجاهم أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما وقوله تعالى (يقتلون أبناءكم ويستحيون) اي يستبقون (نساءكم) بدل من يسومونكم سوء العذاب (وفي ذلكم) اي الانجاء أو العذاب (بلاء) أي نقمة أو محنة (من ربكم عظيم) اي افلا تتعظون وتنتهون عما قلتم (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) نكلمه عند انتهائها بان يصوم أيامها روي أن موسى عليه السلام وعد بني اسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك سأل ربه فأمر بصوم ثلاثين وهو شهر ذي القعدة فصامه فلما تم أنكر خلوف فمه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فافسدته بالسواك وقيل أوحى الله تعالى اليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فأمره الله تعالى بعشرة أخرى ليكلمه الله بخلوف فمه كما قال تعالى (وأتممناها بعشر) اي من ذي الحجة (فتم ميقات ربه) اي وقت وعده بتكليمه اياه (اربعين ليلة) وقيل أمره ان يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها ولقد أجمل ذكر الاربعين في سورة البقرة وفصلها هنا وقرأ أبو عمرو وعدنا بغير ألف قبل العين والباقون بالف (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى فتم ميقات ربه اربعين ليلة مع أن كل احد يعلم أن الثلاثين مع العشر تكون اربعين (اجيب) بانه تعالى انما قال اربعين ليلة ازالة لتوهم أن ذلك العشر من الثلاثين لانه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين كأنه كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين فازال هذا الابهام • (تنبيه) • الفرق بين الميقات والوقت ان الميقات ما قدر فيه عمل من الاعمال والوقت وقت للشيء قدره مقدر أم لا وقوله تعالى أربعين نصب على الحال اي تم بالغا هذا العدد وليلة نصب على التمييز (وقال موسى لاخيه) وقوله (هرون) عطف بيان لاخيه أي قال له عند ذهابه الى الجبل للمناجاة (اخلفني) اي كن خليفتي (في قومي وأصلح) اي ما يجب ان يصلح من امورهم أو كن مصلحا (ولا تتبع سبيل المفسدين) اي ومن دعاك منهم الى الافساد فلا تتبعه ولا تطعه (فان قيل) ان هرون كان

امر فرعون هامان ببنائه ليصعد بواسطته الى السماء وقيل هو على ظاهره من ان معنى ما اهلكنا الا ان الله تعالى اورث ذلك بني

شريك موسى عليهما السلام في النبوة فكيف جعله خليفة لنفسه فان شريك الانسان أعلى حالا من خليفته ورد الانسان من منصبه الاعلى الى الادون يكون اهانة له (اجيب) بان الامر وان كان كما ذكر الا أن موسى عليه السلام كان هو الاصل في تلك النبوة (فان قيل) لما كان هرون نبيا والنبي لا يفعل الا الاصلاح فكيف وصى اليه بالاصلاح (أجيب) بان المقصود من هذا الامر التأكيد كقول الخليل ولكن ليطمئن قلبي (ولما جاء موسى لميقاتنا) اى للوقت الذى وعدناه للكلام فيه (وكلمه ربه) دلت الآية الكريمة على أنه تعالى كلم موسى عليه السلام والناس مختلفون في كلام الله تعالى قال الزمخشري في كشافه وكلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقا به في بعض الاجرام كما خلقه مخطوطا في الالواح اه وهذا مذهب المعتزلة ولاشك في بطلانه وفساده لان ذلك الجرم كالشجرة لا يقول أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهب بعض الحنابلة والحشوية الى أن كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وانه قديم قال الامام الرازى وهذا القول اخس من ان يلتفت اليه العاقل والذى عليه أئمة أهل السنة والجماعة ان كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والاصوات وان موسى سمع تلك الصفة الحقيقية الازلية قالوا كما أنه لا يبعد رؤية ذاته مع أن ذاته ليست جسما ولا عرضا كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه لا يكون حرفا ولا صوتا وفيما روى أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه تعالى القديم ليس من جنس كلام المحدثين وهل كان سبحانه وتعالى كلم موسى وحده أو مع أقوام آخرين ظاهر الآية يدل للاول لان قوله تعالى وكلمه ربه يدل على تخصيص موسى عليه السلام بهذا التشريف والتخصيص بالذكر يدل على نفي الحكم عن عداه وقال القاضي بل السبعون المختارون سمعوا أيضا كلام الله تعالى قال لان الغرض باحضارهم أن يخبروا قوم موسى عليه السلام عما يجرى هنالك وهذا المقصود لا يتم الا عند سماع الكل وأيضا فان تكليم الله تعالى موسى على هذا الوجه معجز وقد تقدمت نبوة موسى عليه السلام فلا بد من ظهور هذا المعنى لغيره ولما سمع عليه السلام كلام ربه اشتاق الى رؤيته سبحانه وتعالى (قال رب أرنى أنظر اليك) قال في الكشاف ثاني مفعولي أرنى محذوف أى أرنى نفسك أنظر اليك (فان قيل) الرؤية عين النظر فكيف قيل أرنى أنظر اليك (اجيب) بان معنى أرنى نفسك اجعلني متمكنا من رؤيتك بان تتجلى لى فانظر اليك وأراك وفي هذا دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لان طلب المستحيل من الانبياء محال خصوصا ما يقتضي الجهل بالله تعالى ولذلك رده بان (قال) له (لن ترانى) دون لن أرى وان أريك وان تنظر الى تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد فى الرائى لم يوجد فيه بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله جهرة كما قاله الزمخشرى اشد خطأ اذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيل شبههم كما فعل بهم حين قالوا اجعل لنا الها والاستدلال بالجواب وهو قوله تعالى لن ترانى على استحالتها أشد خطأ اذ لا يدل الاخبار عن عدم رؤيته اياه على أنه لا يراه أبدا وأن لا يراه غيره اصلا فضلا عن أن يدل على استحالته فان اهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة قالوا ان تكون لتأبيد النفى

(قوله اسرائيل مدة ثم دمر) (قوله وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى نعمة عظيمة ان جعلت الاشارة راجعة الى الانجاء في قوله واذ انجيناكم

وهو خطأ لانها لو كانت للتأبيد لزم التناقض بذكر اليوم فى قوله تعالى فلن أكلم اليوم انسيا ولزم التكرار بذكر أبدا فى قوله تعالى ولن يتمنوه أبدا ولن تجتمع مع ما هو لانتهاء الغاية فى قوله تعالى فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى وأما تأبيد النفى فى قوله تعالى لن يخلقوا ذبابا فلأمر خارجى لا من مقتضيات لن ولا تقتضى تأكيد النفى أيضا خلافا للزمخشرى فى كشافه بل قولك لن أقوم محتمل لان تريد به انك لا تقوم أبدا وأنك لا تقوم فى بعض الازمنة المستقبلة وهو موافق لقولك لا أقوم فى عدم افادة التأكيد وقوله تعالى (ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيق الرؤية وفى تعليق الرؤية بالاستقرار ايضا دليل على جوازها لان استقرار الجبل عند التجلى ممكن بأن يجعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق على الممكن ممكن وترانى فى الطرفين الياء ثابتة وقفا ووصلا وقرأ ابو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون والباقون بالضم قال وهب بن منبه ومحمد بن اسحق لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب والصواعق والرعد والبرق حتى احاطت بالجبل الذى عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب وامر الله تعالى ملائكة السموات ان يعرضوا على موسى عليه السلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس باصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد ثم مرت به ملائكة السماء الثانية كأمثال الاسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع موسى مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة فى جسده ورأسه ثم قال لقد ندمت على مسئلتى فهل ينجينى من مكانى الذى أنا فيه شىء فقال له رئيس الملائكة يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم مرت به ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس كلجب الجيش العظيم الوانهم كلهب النار ففزع موسى عليه السلام واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له رأس الملائكة مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا صبر لك عليه ثم مرت به ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شىء من الذين مروا به الوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الابيض اصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شىء من الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وارعب قلبه واشتد بكاؤه فقال له رأس الملائكة يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم مرت به ملائكة السماء الخامسة لهم سبعة الوان فلم يستطع موسى ان يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل اصواتهم فامتلأ جوفه خوفا واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له رأس الملائكة يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه ثم مرت به ملائكة السماء السادسة وفى يد كل واحد منهم مثل النخلة الطويلة نورا أشد ضوأ من الشمس ولباسهم كلهب النار اذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبدا لا يموت فى رأس كل ملك منهم اربعة أوجه فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم وهو يبكى و يقول يا رب اذكرنى ولا تنس عبدك لا ادرى انفلت مما أنا فيه ام لا ان خرجت احترقت وان مكثت احترقت فقال له رأس الملائكة قد أوشكت يا ابن عمران ان يشتد خوفك و ينخلع قلبك فاصبر للذى سألت ثم امر الله تعالى ان يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور عرشه انصدع نورا لجبل من عظمة الله تعالى ورفعت الملائكة

من آل فرعون او محنة عظيمة فان جعلت الاشارة راجعة الى قتل الابناء واستحياء النساء فى قوله يقتلون ابناءكم و يستحيون

اصواتهم

أصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبدا لا يموت بشدة أصواتهم فارتج الجبل وندك وذلك قوله تعالى (فلما تجلى ربه) أى أظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر كما فى حديث صححه الحاكم (للجبل) أى جبل زبير بفتح الزاى والاضافة فيه بيانية لقول الجوهرى الزبير اسم الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه (جعله دكا) أى مدكوكا مفتتا وحكى عن سهل بن سعد الساعدى ان الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم فجعل الجبل دكا مستويا بالارض والدك والدق اخوان وقال ابن عباس جعله ترابا وقال سفيان ساخ الجبل فى الارض حتى وقع فى البحر فهو يذهب فيه وقال الكلبى كسر جبالا صغارا قال البغوى ووقع فى بعض التفاسير صار لعظمته ستة أجبل وقعت ثلاثة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحرا وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الكاف وهمزة مفتوحة من غير تنوين وصلا ووقفا أى مستويا ومنه ناقة دكاء التى لا سنام لها والباقون بالتنوين بعد الكاف والوقف على ألف التنوين (وخر) أى وقع (موسى صعقا) أى مغشيا عليه من هول ما رأى غشية كالموت وروى أن الملائكة مرت عليه وهو مغشى عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون له يا ابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة (فلما أفاق) من غشيته (قال) تعظيما لما رأى (سبحانك) أى تنزيها لك من النقائص كلها (تبت اليك) أى من الجراءة والاقدام على السؤال بغير اذن وقيل لما كانت الرؤية مختصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها قال سبحانك تبت اليك من سؤالى ما ليس لى وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت اليك من هذا السؤال وحسنات الابرار سيئات المقربين (وأنا أول المؤمنين) أى فى زمانى وقيل أنا أول من آمن انك لا ترى فى الدنيا أى لكل الانبياء والا فالرؤية ثابتة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء على الصحيح وللزمخشرى هنا فى كشافه على مذهبه الفاسد فى عدم الرؤية مطلقا تأويلات فاحذر (قال يا موسى انى اصطفيتك) أى اخترتك (على الناس) أى الموجودين فى زمانك وهرون وان كان نبيا مرسلا كان مأمورا باتباعه ولم يكن كليما ولا صاحب شرع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء انى والباقون بالسكون وقوله تعالى (برسالاتى) أى بأسفار التوراة وقرأ نافع وابن كثير بغير ألف بعد اللام على التوحيد والباقون بالألف بعد اللام على الجمع (وبكلامى) أى وبتكليمى اياك (فخذ ما آتيتك) أى ما أعطيتك من الرسالة (وكن من الشاكرين) لانعمى لان موسى عليه السلام لما منع الرؤية عدد الله تعالى عليه وجوه نعمه العظيمة التى له عليه وأمره ان يشتغل بشكرها كأنه قال له ان كنت منعتك رؤية فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية وانظر الى سائر أنواع النعم التى خصصتك بها واشتغل بشكرها والاشتغال بشكرها انما يكون بالقيام بلوازمها علما وعملا والمقصود تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية قال الامام الرازى وهذا أيضا أحد ما يدل على ان الرؤية جائزة على الله تعالى اذ لو كانت ممتنعة فى نفسها لما كان الى ذكر هذا القدر حاجة وروى ان موسى عليه السلام كان بعد ما كلمه ربه لا يستطيع أحد ان ينظر اليه لما غشى وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه

نساءكم اذا البلاء مشترك بين النعمة والمحنة فالله يجزى شكر عباده بالنعمة وصبرهم بالمحنة قال تعالى وبلوناهم بالحسنات

فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله ان يجعلني زوجتك في الجنة قال ذاك ان لم تتزوجي بعدي لان المرأة لآخر ازواجها (وكتبنا له) أي لموسى (في الالواح) اى الواح التوراة قال البغوي وفي الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنتا عشرة ذراعا وجاء في الحديث خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده والمراد بيده قدرته وقيل كانت من زبرجدة خضراء وقيل من ياقوتة حمراء وقيل من صخرة صماء لينها الله تعالى لموسى فقطعها بيده واما كيفية الكتابة فقال ابن جريج كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور وقال وهب سمع موسى صرير القلم بالكلمات العشر وكان ذلك في اول يوم من ذي القعدة وقيل ان موسى خر صعقا يوم عرفة واعطى التوراة يوم النحر وكانت الالواح عشرة على طول موسى وقيل كانت تسعة وقيل سبعة وقال مقاتل وكتبناله في الالواح كنقش الخاتم وقال الربيع بن انس نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منها في سنة ولم يقرأها الا اربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام اى لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلب الا هؤلاء الاربعة قال الامام الرازي وليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الالواح وعلى كيفية تلك الكتابة فان ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوى وجب القول به والا وجب السكوت عنه واما قوله تعالى (من كل شئ) فلا شبهة انه ليس على العموم بل بما يحتاج اليه موسى عليه السلام وقومه من أمر الدين وقوله تعالى (موعظة وتفصيلا) أي تبيينا (لكل شئ) بدل من الجار والمجرور قبله أي كتبنا كل شئ من المواعظ وتفصيل الاحكام وقوله تعالى (فخذها) على اضمار القول عطفا على كتبنا أو بدلا من قوله فخذما آتيتك والهاء للالواح أو لكل شئ فانه بمعنى الاشياء أو الرسالة وعن كعب الاحبار ان موسى عليه السلام نظر في التوراة فقال انى أجد امة هي خير الامم اخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الاعور الدجال رب اجعلهم امتي قال هي امة محمد يا موسى قال يارب انى أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس المحكمون اذا أرادوا أمرا قالوا نفعل ان شاء الله فاجعلهم أمتي قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الاولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجابون والمستجاب لهم الشافعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة اذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله واذا هبط وادياحمد الله الصعيد لهم طهور والارض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي قال هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال يارب انى أجد أمة اذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة مثلها وان عملها كتبت عشر امثالها الى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتي قال هم امة محمد قال يارب انى أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا اجد أحدا الا مرحوما فاجعلهم أمتي قال هم أمة محمد قال يارب انى اجد أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون الوان ثياب أهل الجنة يصطفون في صلاتهم كصفوف الملائكة اصواتهم في مساجدهم كدوي النحل لا يدخل النار احد منهم

والسيآت وقال ونبلوكم بالشر والخير فتنة (قوله وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) الآية (فان قلت) المواعدة كانت امرا بالصوم

الامن برئ من الحسنات مثل ما برئ الحجر من ورق الشجر فاجعلهم أمتي قال هم أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله محمدا وأمته قال يا ليتني من أصحاب محمد فأوحى الله تعالى اليه اني اصطفيتك الخ فرضي موسى كل الرضا ومعنى (بقوة) أي بجد وعزيمة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أي بأحسن ما فيها (فان قيل) ظاهر هذا يقتضي ان فيها ما ليس بأحسن وانه لا يجوز لهم الاخذ به وذلك متناقض (وأجيب) عن ذلك بأجوبة الاول ان تلك التكاليف منها ما هو حسن ومنها ما هو احسن كالاقتصاص والعفو والانتصار والصبر فمرهم ان يحملوا أنفسهم على ما هو ادخل في الحسن واكثر للثواب كقوله تعالى واتبعوا أحسن ما انزل اليكم من ربكم وقوله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هذا ما اجاب به في الكشاف وتبعه البيضاوي والامام الرازي لكن قال التفتازاني هذا ينافي ما تقرر من ان المكتوب على بني اسرائيل هو القصاص قطعا والجواب بانه مثال للحسن والاحسن لا لكونه في التوراة بعيد جدا (فان قيل) يلزم عليه أيضا منع الاخذ بالحسن وذلك يقدح في كونه حسنا (أجيب) عن هذا بان الاخذ بالحسن الثاني على سبيل الندب فلا يقدح في منع الاخذ بالحسن ٭ الثاني ان الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح واحسن هؤلاء الثلاثة الواجب ٭ الثالث ان المراد بالاحسن البالغ في الحسن مطلقا لا بالاضافة وهو المأمور به كقولهم الصيف احر من الشتاء أي هو في حره ابلغ من الشتاء في برده فكذا هذا المأمور به ابلغ في الحسن من المنهي عنه في القبح (سأريكم دار الفاسقين) اي دار فرعون وقومه وهي مصر كيف اقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل ما نكل بهم وقيل منازل عاد وثمود والقرون الذين اهلكهم الله لفسقهم في ممركم عليها في اسفاركم وقيل المراد دارهم في الآخرة وهي جهنم (سأصرف عن آياتي) المنصوبات في الآفاق والانفس كخلق السموات والارض وما بينهما (الذين يتكبرون في الارض) اي اصرفها عنهم بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها وقال سفيان بن عيينة سأمنعهم فهم القرآن وقوله تعالى (بغير الحق) صلة يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل فان اظهار الكبر على الغير قد يكون بالحق فان للمحق ان يتكبر على المبطل وفي الكلام المشهور التكبر على المتكبر صدقة (وان يروا كل آية) أي منزلة او معجزة (لا يؤمنوا بها) اي لعنادهم وتكبرهم (وان يروا سبيل) اي طريق (الرشد) اي الهدى الذي جاء من عند الله (لا يتخذوه سبيلا) اي طريقا يسلكونه لقصد منهم ونظر وتعمد بل ان سلكوه فمن غير قصد وقرأ حمزة والكسائي بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين (وان يروا سبيل الغي) اي الضلال (يتخذوه سبيلا) اي بغاية الشهوة والتعمد والاعتماد لسلوكه (ذلك) اي هذا الصرف العظيم الذي زاد عن مطلق الصرف بالعمى عن الايمان واتخاذ الرسالة (بأنهم) اي بسبب انهم (كذبوا بآياتنا) اي الدالة على وحدانيتنا (وكانوا عنها غافلين) اي كان دأبهم وديدنهم معاملتهم ايانا بالاعراض عنها حتى كأنهم امغفول عنها فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم وعن الفضيل بن عياض ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا عظمت امتي الدنيا نزع عنها هيبة الاسلام واذا تركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت عليهم بركة

في هذا العدد فكيف ذكر الليالي مع ان البيت محلا للصوم (قلت) العرب في اغلب تواريخها انما تذكر الليالي وان ارادت

الوحى (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) اى وكذبوا بلقائهم الدار الآخرة التى هى موعد
الثواب فهو من اضافة المصدر الى المفعول به ويجوز ان يكون من اضافة المصدر الى الظرف
بمعنى ولقاء ما وعد الله فى الدار الآخرة (حبطت) اى بطلت (اعمالهم) اى ما عملوه فى الدنيا
من خير كصلة رحم وصدقة فلا ثواب لهم لعدم شرطه (هل) اى ما (يجزون الا) جزاء (ما كانوا
يعملون) اى من التكذيب والمعاصى (واتخذ قوم موسى من بعده) اى بعد ذهابه الى
المناجاة (من حليهم) أى الذى استعاروه من القبط بسبب عرس فبقى عندهم (فان قيل) كيف
قال من حليهم وكان معهم معارا (أجيب) بانه لما أهلك الله تعالى قوم فرعون بقيت تلك
الاموال فى أيديهم وصارت ملكا لهم كسائر املاكهم بدليل قوله تعالى كم تركوا من جنات
وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوما آخرين وقرأ
حمزة والكسائى بكسر الحاء والباقون بضمها (عجلا) أى صاغه لهم منه السامرى وقوله تعالى
(جسدا) بدل منه أى صار جسدا ذا لحم ودم (له خوار) أى صوت البقر روى ان السامرى
لما صاغ العجل القى فى فمه قبضة من تراب اثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر فصار حيا
له خوار وقيل صاغه بنوع من الحيل فيدخل الريح جوفه ويصوت وانما نسب الاتخاذ
اليهم وهو فعله اما لانهم رضوا به او لان المراد اتخاذهم اياه الها وقيل انه ما خار الامرة واحدة
وقيل انه كان يخور كثيرا فاذا خار سجدوا له واذا سكت رفعوا رؤسهم وقال وهب كان يسمع
منه الخوار وهو لا يتحرك قال السدى كان يخور ويمشى وقوله تعالى (ألم يروا أنه لا يكلمهم
ولا يهديهم سبيلا) تقريع على فرط ضلالهم وافراطهم بالنظر لان هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم
بصواب ولا يهدى الى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جمادا أو حيوانا ناقصا
عاجزا وعلى كلا التقديرين لا يصلح أن يعبد ثم وصفهم الله تعالى بالظلم بقوله (اتخذوه) أى
العجل الها (وكانوا ظالمين) أى واضعين الاشياء فى غير موضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم
ولا أول مناكيرهم واختلفوا هل كل قوم موسى عبدوا العجل أو بعضهم قال الحسن كلهم
عبدوا العجل غير هرون واحتج عليه بوجهين الاول عموم هذه الآية والثانى قول موسى
عليه السلام فى هذه القصة رب اغفر لى ولاخى قال خص نفسه واخاه بالدعاء وذلك يدل على ان
من كان مغايرا لهما ما كان أهلا للدعاء ولو بقوا على الايمان ما كان الامر كذلك وقال غيره
بل كان قد بقى فى بنى اسرائيل من ثبت على ايمانه وذلك الكفر انما وقع فى قوم مخصوصين
والدليل عليه قوله ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (ولما سقط فى أيديهم) أى
ولما ندموا على عبادة العجل تقول العرب لكل نادم على أمر قد سقط فى يده وذلك لان من شان
من اشتد ندمه على أمر ان يعض يده ثم يضرب فخذه فتصير يده ساقطة لان السقوط عبارة عن
النزول من أعلى الى أسفل (ورأوا) أى علموا (انهم قد ضلوا) عن الطريق الواضح باتخاذ العجل
(قالوا) توبة ورجوعا الى الله تعالى كما قال أبوهم آدم عليه السلام (لئن لم يرحمنا ربنا) الذى لم
يقطع قط احسانه عنا فيكف غضبه ويديم احسانه (ويغفر لنا) اى يمح ذنوبنا عينا واثرا التلا
ينتقم منا فى المستقبل (لنكونن من الخاسرين) اى فينتقم منا بذنوبنا وهذا كلام من

الايام لان الليل هو الاصل فى الزمان والنهار عارض لان الظلمة سابقة فى الوجود على النور مع ان الليل ظرف لبعض الصوم وهى النية التى هى ركن فيه

اعترف

اعترف بعظيم ما قدم عليه من الذنوب وندم على ما صدر منه ورغب الى الله تعالى في اقالة عثرته
وانما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام اليهم كما قال تعالى (ولما رجع موسى) أي من
مناجاته (الى قومه غضبان) أي من جهتهم (أسفا) أي لأن الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن
قومه وأن السامري قد أضلهم فكان موسى في حال رجوعه غضبان أسفا قال أبو الدرداء
الاسف أشد الغضب وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الاسف الحزن والاسيف الحزين
قال الواحدي والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب وقرأ حمزة
والكسائي بالخطاب في يرحمنا ويغفر لنا ونصب ربنا والباقون بالغيبة ورفع الباء (قال)
موسى (بئسما خلفتموني من بعدي) أي بئس الفعل فعلكم بعد فراقي اياكم وهذا الخطاب
يحتمل ان يكون لعبدة العجل من السامري واتباعه أي بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل
وتركتم عبادة الله تعالى وان يكون لهرون والمؤمنين أي بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوهم من
عبادة غير الله تعالى والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي
خلافتكم • (فائدة) • اتفقوا على وصل بئسما في الرسم (أعجلتم أمر ربكم) أي أتركتموه
غير تام كأنه ضمن عجل معنى سبق فعدي تعديته أو أعجلتم أمر ربكم الذي وعدنيه من
الاربعين وقدرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرت الامم بعد أنبيائهم روي ان السامري قال لهم حين
أخرج لهم العجل وقال هذا الهكم واله موسى ان موسى لن يرجع وانه قد مات وروي انهم عدوا
عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا (وألقى الالواح) أي ألواح التوراة
أي طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر أي عند استماعه حديث العجل حمية للدين وكان
في نفسه حديدا شديد الغضب روي ان التوراة كانت سبعة أسباع في سبعة ألواح فلما ألقاها
انكسرت فرفع ستة أسباعها أي ستة أسباع ما فيها الا ستة أسباعها فمنها قوله بعد وأخذ
الالواح وكان فيها تفصيل كل شيء وبقي سبع فرفع ما كان من أخبار الغيب وبقي ما فيه المواعظ
والاحكام والحلال والحرام قال الرازي وللقائل أن يقول ليس في القرآن الا انه ألقى الالواح
فاما انه ألقاها بحيث تكسرت فهذا ليس في القرآن وانه جراءة عظيمة على كتاب الله ومثله
لا يليق بالانبياء (وأخذ برأس أخيه) أي بشعر رأسه بيمينه وشعر لحيته بشماله (يجره) أي أخاه
(اليه) غضبا وكان هرون عليه السلام أكبر من موسى بثلاث سنوات وأحب الى بني اسرائيل
من موسى عليه السلام لانه كان ألين منه جانبا (قال) هرون عند ذلك (ابن أم) قرأ ابن عامر
وشعبة والكسائي بكسر الميم وأصله يا ابن أمي فحذف الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفا كالمنادى
المضاف الى الياء والباقون بالنصب زيادة في التخفيف لطوله أو تشبيها بخمسة عشر (فان
قيل) هرون وموسى من أب وأم فلماذا ناداه بالام فقط (أجيب) بأنه انما ذكرها لانها كانت
مؤمنة فاعتد بنسبها ولانها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ليرققه عليه
والطاعنون في عصمة الانبياء يقولون أخذ برأس أخيه يجره على سبيل الاهانة والاستخفاف
والمثبتون لعصمة الانبياء قالوا جر رأس أخيه اليه ليساره ويستكشف منه كيفية تلك الواقعة
(فان قيل) فلماذا قال يا ابن أم (ان القوم) الذين عبدوا العجل (استضعفوني) أي اني قد بذلت
وسعي في كفهم فاستذلوني وقهروني (وكادوا) أي قاربوا (يقتلونني فلا تشمت بي الاعداء) أي

(قوله فتم ميقات ربه أربعين ليلة) • فان قلت ما فائدته مع علمه مما قبله (قلت) فائدته التوكيد والعلم بان العشر ليال لا ساعات ورفع

فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله وأصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت
فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به أي لا تسر الأعداء بما تنال مني من مكروه فكيف فعل
بأخيه ذلك (أجيب) بأن هرون إنما قال ذلك خوفا من أن يتوهم جهال بني إسرائيل أن
موسى غضبان عليه كما هو غضبان على عبدة العجل أي فلا تفعل بي ما تشمت به أعدائي فهم
أعداؤك فإن القوم يحملون هذا الفعل الذي تفعله بي على الإهانة لا على الإكرام (ولا
تجعلني مع القوم الظالمين) أي الذين عبدوا العجل مع براءتي منهم بالمؤاخذة أو بنسبة التقصير
ولما اعتذر له أخوه وذكر شماتة الأعداء (قال رب اغفر لي) أي ما حملني عليه مما صنعت
بأخي (ولأخي) أي اغفر له ما فرط في كفهم عن عبادة العجل إن كان وقع منه تفريط وضعه إلى
نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعا للشماتة عنه (وأدخلنا في رحمتك) بمزيد الإنعام علينا
(وأنت أرحم الراحمين) فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا قال الله تعالى (إن الذين اتخذوا العجل)
أي إلها يعبدونه من دون الله تعالى فهذا هو المفعول الثاني من مفعولي اتخذوا (سينالهم
غضب) أي عقوبة (من ربهم وذلة في الحيوة الدنيا) وهي خروجهم من ديارهم ولأهل التفسير
في هذه الآية طريقان الأول أن المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا عبادة العجل (فإن
قيل) أولئك تاب الله عليهم بسبب أن قتلوا أنفسهم في معرض التوبة على ذلك الذنب وإذا
تاب الله عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة (أجيب) أن ذلك الغضب إنما حصل لهم في الدنيا
وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضبا عليهم والمراد بالذلة هو استسلامهم أنفسهم للقتل
واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطأ وقيل خروجهم من ديارهم لأن ذل الغربة مثل
مضروب (فإن قيل) السين في قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضي (أجيب)
بأن هذا إنما هو خبر عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه
واتخاذهم العجل ثم أخبره الله تعالى في ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان
هذا الكلام سابقا لوقته وهو القتل الذي أمرهم الله تعالى به بعد ذلك والطريق الثاني أن
المراد بالذين اتخذوا العجل الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فوصف اليهود الذين
كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم باتخاذ العجل وإن كان ما فعل ذلك إلا آباؤهم لأنهم رضوا
بفعلهم ولأن العرب تعير الأبناء بقبائح أفعال الآباء كما يفعل ذلك في المناقب يقولون للأم
فعلتم كذا وكذا وإنما فعله من مضى من آبائهم ثم حكم عليهم بأنهم سينالهم غضب من ربهم في
الآخرة وذلة في الحياة الدنيا كما قال تعالى في صفتهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة (وكذلك)
أي كما جزيناهم (نجزي المفترين) أي كل مفتر في دين الله فجزاؤه غضب الله في الآخرة والذلة في
الدنيا قال مالك بن أنس ما من مبتدع إلا ويجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية لأن المبتدع
مفتر في دين الله (والذين عملوا السيئات) أي عملوا الأعمال السيئة ويدخل في ذلك كل ذنب
حتى الكفر (ثم تابوا) أي رجعوا عنها إلى الله تعالى (من بعدها) أي من بعد أعمالهم السيئة
(وآمنوا) أي وصدقوا بالله تعالى بأنه لا إله غيره وأنه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب وإن
عظمت (إن ربك) أي يا محمد أو يا أيها الإنسان التائب (من بعدها) أي التوبة (لغفور) أي
ستور عليهم محاء لما كان منهم (رحيم) بهم أي منعم عليهم بالجنة وفي الآية دليل على أن السيئات

بأسرها

توهم أن العشر داخلة في الثلاثين بمعنى أنها كانت عشرين وأتمت بعشر
(قوله وأنا أول المؤمنين) أي أنا أول من آمن من بني إسرائيل في زمني أو بأنك

بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة فى التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته فان عفوه وكرمه أعظم وأجل وهذا من أعظم مايفيد البشارة والفرح للمذنبين التائبين وتقدير الآية ان من أتى بجميع السيآت ثم تاب الى الله تعالى واخلص التوبة فان الله يغفرها له ويقبل توبته (ولما سكت) أى سكن (عن موسى الغضب) أى باعتذار هرون او بتوبتهم فعند ذلك سكن غضبه وهو الوقت الذى قال رب اغفر لى ولاخى وفى هذا الكلام استعارتان استعارة بالكناية فى الغضب عن الشخص الناطق واستعارة تصريحية أو تخييلية فى السكوت عن طف غضب موسى وسكون هيجانه وغليانه وقال عكرمة ان المعنى سكت موسى عن الغضب فقلب كما قالوا أدخلت القلنسوة فى رأسى والمعنى أدخلت رأسى فى القلنسوة (اخذ الالواح) أى وكاد عالاخيه منبها بذلك على زوال غضبه عليه فكذلك أخذ الالواح التى ألقاها منبها على زوال غضبه قال الامام الرازى وظاهر هذا يدل على ان شيأ منها لم ينكسر ولم يبطل وان الذى قيل من ان ستة أسباع التوراة رفعت الى السماء ليس الامر كذلك اه ومرت الاشارة الى مايدل على الجمع بين ماههنا وبين مامر (وفى نسختها) أى مانسخ فيها من كتب والنسخ عبارة عن النقل والتحويل فاذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نسخت ذلك الكتاب فهو نقل لما فى الاصل الى الفرع لان الالواح نسخت من اللوح المحفوظ والنسخة فعلة بمعنى مفعولة كالخطبة وقيل ان موسى عليه السلام لما ألقى الالواح فتكسرت صام أربعين يوما فردت عليه فى لوحين وعلى قول من قال ان الالواح لم تنكسر وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون المعنى وفى نسختها اى المكتوب فيها (هدى) أى بيان للحق (ورحمة) اى ارشاد الى الصلاح والخير وقال ابن عباس هدى من الضلالة ورحمة من العذاب (للذين هم لربهم يرهبون) أى يخافون (فان قيل) التقدير الذين يرهبون ربهم فما الفائدة فى اللام فى قوله لربهم (أجيب) بأوجه الاول ان تأخير الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفا فدخلت اللام للتقوية ونظيره قوله تعالى ان كنتم للرؤيا تعبرون الثانى انها لام الاجل والمعنى للذين هم لاجل ربهم يرهبون لا رياء ولا سمعة الثالث انه قد يزاد حرف الجر فى المفعول وان كان الفعل متعديا كقولك قرأت السورة وقرأت بالسورة (واختار موسى قومه) أى من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل اليه فنصب يقال اخترت من الرجال زيدا واخترت الرجال زيدا وأنشدوا قول الفرزدق

ومنا الذى اختير الرجال سماحة * وجودا اذا هب الرياح الزعازع

قال أبو على والاصل فى هذا الباب ان فى الافعال مايتعدى الى المفعول الثانى بحرف الجر ثم يتسع فيحذف حرف الجر فيتعدى الى المفعول الثانى من ذلك قولك اخترت من الرجال زيدا ثم يتسع فيقال اخترت الرجال زيدا واستغفر الله من ذنبى واستغفر الله ذنبى قال الشاعر

استغفر الله ذنبا لست محصيه * ويقال أمرت زيدا بالخير وأمرت زيدا الخير قال الشاعر

* أمرتك الخير فافعل ما أمرت به * قال الرازى وعندى فيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير واختاره موسى قومه لميقاتنا وأراد بقومه المعتبرين منهم اطلاقا لاسم الخير على ماهو المقصود منه وقوله (سبعين رجلا لميقاتنا) عطف بيان وعلى هذا الوجه فلا حاجة الى ماذكر من

لاترى فى الدنيا بالحاسة الفانية (قوله وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى التوراة (ان قلت) كيف قال بأحسنها مع انهم مأمورون بجميع مافيها

الكلمات (فلما أخذتهم الرجفة) روي ان الله تعالى أمره أن يأتيه في سبعين رجلا من بني اسرائيل فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال ان لمن قعد أجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب معه الباقون وروي أنه لم يصب الا ستين شيخا فاوحى الله تعالى اليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخا وقيل كانوا أبناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الاربعين قد ذهب عنهم الجهل والصبا فأمرهم موسى عليه السلام أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم خرج الى طور سيناء لميقات ربه وكان أمره أن يأتيه في سبعين من بني اسرائيل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى غشي الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى عليه السلام اذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع احد من بني آدم أن ينظر اليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجدا فسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ من أمره ونهيه وانكشف عن موسى الغمام فاقبل اليهم فقالوا له لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي الرجفة فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل) أي من قبل خروجهم الى الميقات (واياي) معهم فكان بنو اسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني اذا رجعت اليهم وما هم معي وعني بذلك انك قدرت على اهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على اهلاكهم وباغراقهم في البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالانقاذ منهما فان ترحمت عليهم مرة أخرى لم يبعد من عميم احسانك وقال وهب لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرجفة حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربه فكشف الله تعالى عنهم تلك الرجفة واطمأنوا وسمعوا كلام ربهم وذلك قوله تعالى قال أي موسى رب لو شئت أهلكتهم من قبل أي من قبل عبادة العجل واياي بقتلي القبطي (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أي عبدة العجل وظن موسى انهم عوقبوا باتخاذ بني اسرائيل العجل وقال هذا على طريق السؤال وقال المبرد هو استفهام استعطاف أي لا تهلكنا وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعظم من أن يأخذ بجريرة الجاني غيره وقيل بما فعل السفهاء من العناد والتجاسر على طلب الرؤية وكان ذلك قاله بعضهم (ان هي) أي ما هي (الا فتنتك) قال الواحدي الكناية في هي تعود الى الفتنة كما تقول ان هو الا زيد والمعنى ان تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن الا فتنتك أي اختبارك وابتلاؤك وهذا تأكيد لقوله تعالى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا لان معناه لا تهلكنا بفعلهم فان تلك الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء أضللت بها قوما فافتتنوا بان أوجدت في العجل خوارا فزاغوا به وأسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية وهديت قوما فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك فذلك معنى قوله (تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) ولما أثبت ان الكل بيده تعالى استأنف سؤاله أن يفعل لهم الاصلح فقال (أنت) أي وحدك (ولينا) أي نعتقد أن لا يقدر على جلب مصالحنا غيرك وأنت لا تنفعك في شيء من الامرين ولا تضر بل الكل بالنسبة اليك على حد سواء ونحن على بصيرة من أن أفعالك لا تعلل بالاغراض

(قوله) يعني باحسنها بجميعها
وكلها حسن أوامر وافيها
بالصبر والعفو وان الشر وفعل
الخير أحسن من ترك الشر
أو أن فيها حسنا وأحسن
كالقود والعفو والانتصار

وعفوك

وعفوك عنا بفعلنا وانتقامك منا بضرنا وليس فى حضرتك قدانقطعنا اليك وحططنا رحال افتقارنا لديك (فاغفر لنا) أى امح ذنوبنا (وارحمنا) أى اشملنا برحمتك التى وسعت كل شئ (وأنت خير الغافرين) اى لان غيرك يتجاوز عن الذنب طلبا للثناء أو للثواب أو دفعا لصفة خسيسة وهى صفة الحقد ونحوه وأنت منزه عن ذلك فتغفر السيئة وتبدلها حسنة (واكتب) أى أوجب أو اثبت واقسم (لنا) اى فى مدة حياتك لنا (فى هذه الدنيا) اى الحاضرة والدنية (حسنة) اى حسن معيشة وتوفيق طاعة (وفى الآخرة) اى واكتب لنا فى الحياة الآخرة حسنة وهى الجنة ثم علل ذلك بقوله (انا هدنا) اى تبنا (اليك) اى عما لا يليق بجنابك واصل الهود الرجوع برفق والهود جمع هائد وهو التائب ولبعضهم

يا راكب الذنب هدهد ● واسجد كأنك هدهد

قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم ثم صار اسم ذم بعد نسخها (قال) الله تعالى لموسى (عذابى اصيب به من اشاء) من خلق اذنب اولم يذنب لا اعتراض على (ورحمتى وسعت) عمت وشملت (كل شئ) من خلق فى الدنيا من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص الا وهو متقلب فى نعمتى وهذا معنى حديث ابى هريرة فى الصحيحين ان رحمتى سبقت غضبى وفى رواية غلبت غضبى واما فى الآخرة فقال تعالى (فسأكتبها للذين يتقون) الله (ويؤتون الزكوة) وخصها بالذكر لنفعها المتعدى ولانها كانت اشق عليهم قال قتادة لما نزل ورحمتى وسعت كل شئ قال ابليس انا من ذلك الشئ فقال تعالى فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة (والذين هم بآياتنا يؤمنون) ولا يكفرون بشئ منها فايس ابليس منها وتمناها اليهود والنصارى وقالوا نحن نتقى ونؤمن بآيات ربنا فاخرجها الله تعالى بقوله (الذين يتبعون الرسول النبى الامى) وانما سماه رسولا باضافته الى الله عز وجل لانه الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه لرسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه اليهم ونبيا لانه رفيع الدرجة عند الله ثم وصفه بالامى وهو الذى لا يكتب ولا يقرأ وهى صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب والعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرؤن أى الخط والنبى صلى الله عليه وسلم كان كذلك قال أهل التحقيق وكونه أميا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه الاول أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوما مرة بعد أخرى من غير تبديل الفاظه ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب اذا ارتجل خطبة ثم أعادها فلابد وان يزيد فيها أو ان ينقص عنها بالقليل والكثير ثم انه عليه الصلاة والسلام مع انه ما كان يكتب ولا يقرأ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك معجزة واليه الاشارة بقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى الثانى انه لو كان يحسن الخط والقراءة لكان متهما فى أنه ربما طالع كتب الاولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون الثالث تعلم الخط شئ سهل فان اقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بادنى سعى فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم فى الفهم ثم انه تعالى آتاه علوم الاولين والآخرين

والصغو والمأمور به والمباح فامروا بما هو الاكثر ثوابا (قوله واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) ليس

وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل اليه أحد من الخلق ومع تلك القوة العظيمة فى العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذى يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلا وفهما فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الامور الخارقة للعادة وجارية مجرى المعجزات وهذا الاتباع تارة يكون بالقوة فقط لمن تقدم موته على زمانه صلى الله عليه وسلم وتارة يخرج من القوة الى الفعل كمن لحق زمان دعوته فمن علم الله تعالى منه انه لا يتبعه اذا أدركه لا يغفر له ولو عمل جميع الطاعات وغير ذلك وعرفهم بجميع خواصه حتى لا يتطرق اليه عند مجئه ريب ولا يتعلل فى أمره بعلة ولذلك اتبعه (الذى يجدونه) أى علماء بنى اسرائيل (مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) باسمه ونعته ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسدا منهم له وخوفا على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا فى الذل والهوان وعن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فقلت اخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال اجل انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الاسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله و يفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا انتهى (شرح غريب ألفاظه) الفظ السئ الخلق والغليظ الجافى القاسى والسخاب بالسين والصاد الكثير الصياح والاعوجاج ضد الاستقامة والملة العوجاء الكفر والقلب الاغلف الذى لا يصل اليه شئ ينفعه كأنه فى غلاف وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف) قال الزجاج يجوز أن يكون استئنافا ويجوز أن يكون المعنى يجدونه مكتوبا عندهم انه يأمرهم بالمعروف قال الرازى ومجامع المعروف فى قوله عليه الصلاة والسلام التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله وذلك لان الموجود اما واجب الوجود لذاته واما ممكن لذاته أما الواجب لذاته فهو الله تعالى ولا معروف أشرف من تعظيمه واظهار عبوديته واظهار الخشوع والخضوع على باب عزته والاعتراف بكونه موصوفا بصفات الكمال مبرأ عن النقائص والآفات منزها عن الاضداد والانداد وأما الممكن لذاته فان لم يكن حيوانا فلا سبيل الى ايصال الخير اليه لان الانتفاع مشروط بالحياة ومع ذلك فانه يجب النظر الى كلها بعين التعظيم من حيث انها مخلوقة لله ومن حيث ان كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلا ظاهرا و برهانا باهرا على توحيده وتنزيهه فانه يجب النظر اليه بعين الاحترام ومن حيث ان لله سبحانه وتعالى فى كل ذرة من ذرات المخلوقات اسرارا عجيبة وحكما خفية فيجب النظر اليها بعين الاحترام واما ان كان ذلك المخلوق من جنس الحيوان فانه يجب الشفقة عليه بأقصى ما يقدر الانسان عليه و يدخل فيه بر الوالدين وصلة الارحام و بث المعروف فثبت ان قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله كلمة جامعة لجميع جهات الامر بالمعروف (وينهاهم عن المنكر) وهو ضد الامور المذكورة وقال عطاء يأمرهم بالمعروف بخلع الانداد و بمكارم الاخلاق و بصلة الارحام وينهاهم عن المنكر أى عبادة الاوثان وقطع الارحام (ويحل لهم الطيبات) أى ما حرم عليهم فى شرعهم كالشحوم

قوله وجارية كذا بالنسخ ولعل الناسخ حرفوه عن وجاريا أو عن الجارية اه مصححه

المراد من بعد زمن موسى لان اتخاذ قومه ذلك اعما كان فى زمنه بل المراد من بعد ذهابه الى الجبل او من بعد عهده اليهم ان

(ويحرم)

(ويحرم عليهم الخبائث) كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة (ويضع عنهم اصرهم) أى ثقلهم الذى كان يحمل عليهم وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة الممدودة والصاد وألف بعد الصاد على الجمع والباقون بكسر الهمزة وسكون الصاد ولا ألف بعدها على التوحيد (والاغلال التى كانت عليهم) أى ويضع الاثقال والشدائد التى كانت عليهم من الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس فى التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض النجاسة من البدن والثوب بالمقراض وغير ذلك من الشدائد التى كانت على بنى اسرائيل شبهت بالاغلال التى تجمع اليد الى العنق كما ان اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد الى الحرام الذى نهيت عنه وكانت هذه الاثقال فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السهلة السمحة (فالذين آمنوا به) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم (وعزروه) أى وقروه وعظموه وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبى صلى الله عليه وسلم تعظيمه واجلاله ودفع الاعداء عنه (ونصروه) على أعدائه (واتبعوا النور الذى أنزل معه) أى القرآن سمى نورا لان به يستنير قلب المؤمن فيخرج من ظلمات الشك والجهالة الى ضياء اليقين والعلم وقيل الهدى والبيان والرسالة وقيل الحق الذى بيانه فى القلوب كبيان النور (فان قيل) كيف يمكن حمل النور هنا على القرآن والقرآن ما أنزل مع محمد صلى الله عليه وسلم وانما أنزل مع جبريل عليه السلام (أجيب) بان معناه انه أنزل مع نبوته لان نبوته ظهرت مع ظهور القرآن ثم انه تعالى لما ذكر هذه الصفات قال (أولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطلوب فى الدنيا والآخرة ولما تم ما انتظمه تعالى فى اثناء هذه القصص من جواهر أوصاف هذا النبى الكريم حثا على الايمان وايجابا له على وجه يعلم منه انه رسول الله الى كل مكلف تقدم زمانه أو تأخر قال تعالى (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم) الخطاب عام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى كافة الثقلين بل والى الملائكة قاله السبكى والبقاعى وغيرهما وهذا هو اللائق بمقامه صلى الله عليه وسلم وان خالف فى ذلك بعضهم وأما سائر الرسل فيبعثون الى أقوامهم فقط لقوله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى أرسلت الى الاحمر والاسود وجعلت لى الارض طيبة مسجدا وطهورا ونصرت على عدوى بالرعب يرعب منى مسيرة شهر وأطعمت الغنيمة دون من قبلى وقيل لى سل تعطه واختبأت شفاعتى لامتى (فان قيل) كان آدم عليه السلام مبعوثا الى جميع أولاده ونوح عليه السلام لما خرج من السفينة كان مبعوثا الى الذين كانوا معه مع ان جميع الناس فى ذلك الزمان ما كانوا الا ذلك القوم (أجيب) بأن ذلك لم يكن لعموم رسالتهما بل للحصر المذكور فليس ذلك من باب عموم الرسالة وقوله (جميعا) حال من اليكم أى ان الكل يشترط عليهم الايمان بى والاتباع لى وقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم الى كل أفق وتغلغل فى كل نفق ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بحر ولا بر فى مشارق الارض ومغاربها الا وقد ألقاه اليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه حين رفع اليه الذراع فنهش منها فقال أنا سيد الناس يوم القيامة وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا قائدهم اذا وفدوا

(قوله ولما سقط فى ايديهم) أى ندموا على عبادتهم العجل (ان لا يعبدوا غير الله (قلت) كيف عبر عن الندم بالسقوط فى اليد (قلت)

وأنا خطيبهم اذا أنصتوا وأنا مستشفعهم اذا حبسوا وأنا مبشرهم اذا يئسوا لواء الحمد يومئذ
بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر وعن أبي بن كعب رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر وعن ابن
عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء
الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا
أكرم الاولين والآخرين ولا فخر وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وما من نبي
يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائي والفخر ادعاء العظمة والكبر والشرف أي لا أقول ذلك تبجحا
ولكن شكرا وتحدثا بالنعمة وما اجتمع بهم في مجمع الا كان امامهم قبل موته وبعده اجتمع
بهم ليلة الاسراء في بيت المقدس فصلى بهم اماما ثم اجتمع بهم في السماء فصلى بجميع أهل
السماء اماما وأما يوم الجمع الاكبر والكرب الاعظم فيحيل الكل عليه وما احال بعض
الاكابر على بعض الا اعلاما منهم بان الختام يكون به ليكون أظهر للاعتراف بامامته والانقياد
الطاعة لان المحيل على المحال على الشئ محيل على ذلك والحاصل انه صلى الله عليه وسلم تظهر
في ذلك الموقف رسالته بالفعل الى كافة الخلق فيظهر سر هذه الآية الذين يتبعون الرسول
قال البقاعي ولما دل بالاضافة الى اسم الذات مايدل على جميع الصفات على عموم دعوته
وشمول رسالته حتى للجن والملائكة أيد ذلك بقوله (الذى له ملك السموات والارض)
فيكون محله جرا على الوصف وان حصل بين الصفة والموصوف بقوله اليكم جميعا لانه متعلق
المضاف اليه فهو كالمتقدم عليه قال الزمخشري والاحسن أن يكون محله نصبا باضمار أعني
وهذا الذي يسمى النصب على المدح قال البيضاوي أو مبتدأ خبره (لا اله الا هو) أي
فالكل منقادون لامره خاضعون له ثم علل ذلك بقوله (يحيي ويميت) أي له هاتان الصفتان
مختصا بهما ومن كان كذلك كان منفردا بما ذكر قال البقاعي واذا راجعت ما يأتي ان شاء الله
تعالى في أول الفرقان مع ما مضى في أوائل الانعام لم يبق عندك شك في دخول الملائكة
عليهم السلام في عموم الدعوة اه وقد مرت الاشارة الى ذلك ولما أمر الله تعالى رسوله
محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس اني رسول الله اليكم جميعا أمر الله تعالى جميع خلقه
بالايمان به وبرسوله بقوله (فآمنوا بالله ورسوله) وذلك أن الايمان بالله هو الاصل والايمان
برسوله فرع عليه فلهذا بدأ بالايمان بالله ثم ثنى بالايمان برسوله ثم وصفه تعالى بقوله (النبي
الامي) وتقدم معناهما (الذي يؤمن بالله وكلماته) أي بما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من
كتبه ووحيه وقال قتادة المراد بكلماته القرآن وقال مجاهد عيسى بن مريم لانه خلق بقوله
كن فكان ولم يكن من نطفة تمنى ولهذا سمي كلمة الله وقيل هو الكلمة التي تكونت عنها عيسى
وجميع خلقه وهي قوله كن (واتبعوه) أي واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه
(لعلكم تهتدون) أي لكي تهتدوا وترشدوا واجعل تعالى رجاء الاهتداء أثر الايمان والاتباع
تنبيها على ان من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو بعد في خطة الضلالة (ومن
قوم موسى) أي من بني اسرائيل (أمة) أي جماعة (يهدون بالحق) أي يهدون الناس

دن عادة من اشتد ندمه
عـلى فائت أن يعض يده
غما كما في قوله ويوم
يعض الظالم على يديه

محقين أو بكلمة الحق (وبه) أي بالحق (يعدلون) أي يحكمون والمراد بتلك الامة الثابتون على الايمان القائلون بالحق من أهل زمان موسى عليه السلام اتبع ذكر المرتابين الكافرين من بني اسرائيل بذكر اضدادهم كما هو عادة القرآن تنبيها على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل مستمر وقيل هم الذين أسلموا من اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه (واعترض) بأنهم كانوا قليلين في العدد ولفظ الامة يقتضي الكثرة (وأجيب) بأنهم لما كانوا مخلصين في الدين جاز اطلاق لفظ الامة عليهم كما في قوله تعالى ان ابراهيم كان أمة وقيل ان بني اسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين اخوانهم ففتح الله تعالى لهم نفقا في الارض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل ذهب به ليلة الاسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبي الامي فآمنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى عليه السلام أوصانا ان من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فرد محمد على موسى صلى الله عليهما وسلم السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن أنزلت بمكة ولم تكن فريضة نزلت غير الصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا و يتركوا السبت ولا يتظالموا ولا يتحاسدوا ولا يصل اليهم منا أحد ولا الينا منهم أحد قال بعض المحققين هذا القول ضعيف وان كان البغوي صححه لوجوه الاول كونه أقرأهم عشر سور وقد نزل عليه أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضها الثاني كون جبريل ذهب اليهم به ليلة الاسراء لم يرد بذلك نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث الثالث ان أحدا منهم لا يصل الينا ولا يصل اليهم منا احد فمن الذي أوصل خبرهم الينا فثبت بذلك بطلان هذا القول (فان قيل) ان يأجوج ومأجوج قد وصل خبرهم الينا ولم يصل خبرنا اليهم (أجيب) بالمنع فمن اين يعرف انه لم يصل خبرنا اليهم ثم قال فالمختار في تفسير هذه الآية انها اما ان تكون قد نزلت في قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك واما ان تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام واصحابه (وقطعناهم) اى فرقنا بني اسرائيل وقوله تعالى (اثنتى عشرة) حال وتأنيثه حملا على الامة (اسباطا) بدل منه ولذلك جمع قبائل والاسباط أولاد الولد وكانوا اثنتى عشرة قبيلة من اثني عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام (أمما) بدل بعد بدل أو نعت الاسباط اى وقطعناهم امما لان كل سبط كان أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الاخرى لا تكاد تأتلف (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه) اى حين استسقوه في التيه (ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست) أى انفجرت والمعنى واحد وهو الانفتاح بسعة وكثرة يقال بجست الماء فانبجس أي فجرته فانفجر قاله الجوهري وعلى هذا التقرير فلا تباين بين الانبجاس المذكور هنا و بين الانفجار المذكور في سورة البقرة وقال آخرون الانبجاس خروج الماء بقلة والانفجار خروجه بكثرة وطريق الجمع ان الماء ابتدأ

فتضمير بده سقوطا فيها لان فاه قد وقع فيها (قوله غضبان اسفا) ان قلت يعني غضبان من اسف (قلت) لا لان الاسف

بالخروج قليلا ثم صار كثيرا وهذا الفرق مروى عن عمرو بن العلاء (فان قيل) هلا قيل فضرب به فانبجست (أجيب) بانه انما حذف ذلك للايماء على أن موسى لم يتوقف فى الامتثال وان ضربه لم يكن مؤثرا يتوقف عليه الفعل فى ذاته (منه) أى من الحجر (اثنتا عشرة عينا) أى بعدد الاسباط (قد علم كل أناس) أى كل سبط منهم (مشربهم) أى لا يدخل سبط على سبط فى مشربهم (وظللنا عليهم الغمام) أى فى التيه ليقيهم من حر الشمس (وأنزلنا عليهم المن) الترنجبيل (والسلوى) أى الطير السمانى بتخفيف الميم والقصر جعل الله تعالى ذلك طعاما لهم فى التيه وقيل المن الخبز والسلوى الادام وقال ابن يحيى السلوى طائر يشبه السمانى وخاصيته ان أكل لحمه يلين القلوب القاسية يموت اذا سمع صوت الرعد كما ان الخطاف يقتله البرد فيلهمه الله تعالى أن يسكن جزائرا بحر التى لا يكون فيها مطر ولا رعد الى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر فى الارض (كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات مارزقناكم) مما لم تعالجوه نوع معالجة وقوله تعالى (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فيه حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات مارزقناكم فامتنعوا من ذلك وسئموه وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه غير ذلك لان المكلف اذا أمر بشئ فتركه وعدل عنه الى غيره يكون عاصيا بفعل ذلك فلهذا قال تعالى وما ظلمونا أى بفعل شئ مما قابلوا به الاحسان بالكفران ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمخالفتهم ما أمروا به وقد سبق تفسير هذه الآية فى سورة البقرة (واذ قيل لهم) أى واذكر يا محمد لقومك اذ قيل لبنى اسرائيل (اسكنوا هذه القرية) أى بيت المقدس (وكلوا منها) أى من القرية (حيث شئتم وقولوا) أمرنا (حطة وادخلوا الباب) أى باب القرية (سجدا) أى سجود انحناء وقوله تعالى (نغفر لكم) قرأه نافع وابن عامر بضم التاء وفتح الفاء على التأنيث والباقون بنون مفتوحة وكسر الفاء وقوله تعالى (خطاياكم) قرأه نافع بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة ممدودة وبعد الهمزة تاء مضمومة على الجمع وابن عامر كذلك الا أنه يقصر الهمزة على التوحيد وأبو عمرو بفتح الخاء والطاء وبعد الطاء ألف بعدها ياء وبعد الياء ألف على وزن قضاياكم والباقون بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة ممدودة بعدها تاء مكسورة (سنزيد المحسنين) أى بالطاعة ثوابا (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم) فقالوا حبة فى شعرة ودخلوا يزحفون على أستاههم أى أدبارهم (فأرسلنا عليهم رجزا) أى عذابا (من السماء بما كانوا يظلمون) وهذه القصة أيضا تقدمت فى سورة البقرة لكن ألفاظ هذه الآية تخالف الآية المذكورة فى سورة البقرة من وجوه الاول انه قال هنالك واذ قلنا ادخلوا هذه القرية وهنا قال واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية والثانى انه قال هنالك فكلوا بالفاء وقال هنا وكلوا بالواو والثالث انه قال هنالك رغدا وأسقطه هنا والرابع انه قال هنالك وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة وقال هنا على التقديم والتأخير والخامس انه قال هنالك نغفر لكم خطاياكم وقال هنا نغفر لكم خطيئاتكم والسادس انه قال هنالك وسنزيد المحسنين وهنا حذف الواو والسابع انه قال هنالك فأنزلنا على الذين ظلموا وقال هنا فارسلنا عليهم والثامن انه قال هنالك بما كانوا

يفسقون

الحزين وقيل الشديد الغضب (قوله اخذ الالواح وفى نسختها هدى ورحمة) فى محل الجملة الثانية فيها حال من الالواح والمعنى اخذ

يفسقون وقال هنا بما كانوا يظلمون ولا منافاة بين هذه الالفاظ المختلفة أمّا الاول وهو أنه قال
هناك ادخلوا هذه القرية وقال هنا اسكنوا فلا منافاة بينهما لان كل ساكن فى موضع فلابد من
الدخول فيه وأمّا الثانى وهو قوله هناك فكلوا بالفاء وقال هنا وكلوا بالواو فالفرق بينهما
أنّ للدخول حالة مقتضية للاكل عقب الدخول فحسن دخول الفاء التى هى للتعقيب ولما
كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الاكل حاصلا متى شاؤا
فظهر الفرق وأمّا الثالث وهو انه ذكر هناك رغدا واسقطه هنا فلانّ الاكل عقب الدخول
ألذوأكمل والاكل مع السكنى والاستمرار ليس كذلك فحسن دخول لفظ رغدا هناك دون هنا
وأمّا الرابع وهو قوله هناك ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة وقال هنا على التقديم والتأخير
فلا منافاة فى ذلك لانّ المقصود من ذلك تعظيم أمر الله تعالى واظهار الخضوع والخشوع له فلم
يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير وأمّا الخامس وهو انه قال هناك خطايا كم وقال هنا
خطيئاتكم فهو اشارة الى أنّ هذه الذنوب سواء كانت قليلة أم كثيرة فهى مغفورة عند
الاتيان بهذا الدعاء والتضرع وأما السادس وهو قوله تعالى هناك وسنزيد بالواو وقال هنا
بحذفها فالفائدة فى حذف الواو انه تعالى وعد بشيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب
واسقاط الواو لايخل بذلك المعنى لانه استئناف مرتب على تقدير قول القائل ماذا حصل بعد
الغفران فقيل انه سيزيد المحسنين وأما السابع وهو الفرق بين انزلنا وبين ارسلنا فلان الانزال
لايشعر بالكثرة والارسال يشعر بها فكأنه تعالى بدأ بانزال العذاب القليل ثم جعله كثيرا
وهو نظير ماتقدم من الفرق بين انبجست وانفجرت وأما الثامن وهو الفرق بين قوله تعالى
يفسقون وبين قوله تعالى يظلمون فلانهم لما ظلموا أنفسهم فيما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك
وخرجوا عن طاعة الله فوصفوا بكونهم ظالمين لاجل انهم ظلموا أنفسهم وبكونهم فاسقين
لانهم خرجوا عن طاعة الله فالفائدة فى ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الامرين
هذا ملخص كلام الرازى رحمه الله تعالى ثم قال وتمام العلم بذلك عند الله تعالى (واسئلهم) أى
اسأل يامحمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع (عن القرية) أى عن خبرها
وماوقع بأهلها السؤال استفهام لانه صلى الله عليه وسلم كان قد علم حال هذه القرية بوحى من
الله تعالى اليه واخباره اياه بحالهم وانما القصد من هذا السؤال تقريرا عتداء اليهود
واقدامهم على الكفر والمعاصى قديما وان اصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم
وانكارهم نبوته ومعجزاته ليس بشئ قد حدث الآن فى زمانه بل اصرارهم على الكفر كان
حاصلا فى قديم الزمان وفى الاخبار بهذه القصة معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا
لم يقرا الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الاولين ثم أخبرهم بما جرى لاسلافهم فى قديم الزمان
وانهم بسبب مخالفتهم لامر الله تعالى مسخوا قردة واختلفوا فى هذه القرية فقال ابن عباس
رضى الله عنهما هى قرية يقال لها ايلة بين مدين والطور على شاطئ البحر وقال الزهرى هى
طبرية الشام وقيل مدين والعرب تسمى المدينة قرية وعن أبى عمرو بن العلاء مارأيت قرويين
أفصح من الحسن والحجاج يعنى رجلين من أهل المدن (التى كانت حاضرة البحر) أى مجاورة
بحر القلزم على شاطئه والحضور نقيض الغيبة كقوله تعالى ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى

الالواح والحال ان فيما
نسخ فيها اى كتب هدى
ورحمة (قوله واتبعوا
النور) اى القرآن الذى
انزل معه اى مع النبى

المسجد الحرام (اذ) أي حين (يعدون) أي يعتدون (في السبت) أي يتجاوزون حدود الله
تعالى بالصيد فيه وقد نهوا عنه وقوله تعالى (اذ تأتيهم حيتانهم) ظرف ليعدون (يوم سبتهم
شرعا) أي ظاهرة على الماء كثيرة جمع شارع وقال الضحاك متتابعة وعن الحسن تشرع على
أبوابهم كأنها الكباش البيض والحيتان السمك وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى
السمكة والسبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد فمعناه
يعدون في تعظيم هذا اليوم وكذلك قوله يوم سبتهم معناه يوم تعظيمهم أمر السبت يدل عليه
قوله تعالى (ويوم لا يسبتون) أي لا يعظمون السبت أي سائر الايام (لا تأتيهم) أي الحيتان
ابتلاء من الله تعالى (كذلك) أي مثل ذلك البلاء الشديد (نبلوهم بما) أي بسبب ما (كانوا
يفسقون) وقوله تعالى (واذ) معطوف على اذ قبله (قالت أمة) أي جماعة (منهم) أي من
أهل القرية لم تصد ولم تعظ لمن نهى (لم تعظون قوما الله مهلكهم) في الدنيا بعذاب من عنده
لانهم لا ينتهون عن الفساد ولا يتعظون بالمواعظ (أو معذبهم عذابا شديدا) في الآخرة لتماديهم
في العصيان (قالوا) أي الواعظون موعظتنا (معذرة) نعتذر بها (الى ربكم) أي لئلا ننسب
الى تقصير في ترك النهي فان النهي عن المنكر يجب وان علم الناهي ان مرتكبه لا يقلع عن
معصيته وقيل اذا علم الناهي حال المنهي وان النهي لا يؤثر فيه سقط النهي وربما وجب
الترك لدخوله في باب العبث ألا ترى انك لو ذهبت الى المكاسين القاعدين على المآصر
أو الجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه كان ذلك عبثا منك ولم يكن الا سببا
لتلهي بك (ولعلهم يتقون) أي وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم
فيه من الصيد اذ اليأس لا يحصل الا بالهلاك (فلما نسوا) أي ترك وأترك الناس
(ما ذكروا) أي وعظوا (به) ولم يرجعوا (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا)
أي بالاعتداء ومخالفة أمر الله تعالى (بعذاب بئيس) أي شديد (بما) أي بسبب ما (كانوا
يفسقون) روى عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال أسمع الله تعالى يقول أنجينا
الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة
وجعل يبكي قال عكرمة فقلت جعلني الله تعالى فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم
عليه قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وان لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولي
ورضي به وأمر لي ببردين فألبسنيهما وقال نجت الساكتة وقال عمار بن زياد نجت الطائفتان
الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا
الحيتان وهذا قول الحسن (فان قيل) ان ترك الوعظ معصية والنهي أيضا عنه معصية
فوجب دخول هؤلاء التاركين للوعظ الناهين عنه تحت قوله تعالى وأخذنا الذين ظلموا
بعذاب بئيس ولهذا قال ابن زيد نجت الناهية وهلكت الفرقتان (أجيب) بان هذا غير لازم
لان النهي عن المنكر انما يجب على الكفاية فاذا قام به البعض سقط عن الباقين (فلما عتوا
عما نهوا عنه) قال ابن عباس أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الاباء والعصيان
اى فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا في العصيان من اعتدائهم في السبت واستحلالهم

(فان قلت) القرآن لم ينزل معه بل عليه وانما نزل مع جبريل (قلت) معه بمعنى مقارنا لزمنه او بمعنى عليه او هو متعلق باتبعوا

ما حرم

ما حرم الله تعالى عليهم من صيد السمك فى يوم السبت وأكله (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى
صاغرين فكانوها كقوله تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون وهذا
يقتضى ان الله تعالى عذبهم أولا بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم ويجوز أن تكون الآية
الثانية تقريرا وتفصيلا للاولى وروى أن اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة
فتركوه واختاروا يوم السبت فابتلوا به وحرم الله عليهم فيه الصيد وأمروا بتعظيمه فكانت
الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا بيضا سمانا كأنها المخاض لايرى الماء من كثرتها ويوم
لا يسبتون لاتأتيهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم جاءهم ابليس فقال لهم انما نهيتم عن
أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا تسوقون الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج
منها وتأخذونها يوم الاحد وأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا الى خشبة فى الساحل
ثم شواه يوم الاحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى تنوره فقال انى أرى الله سيعذبك فلما لم يره
عذب أخذ فى السبت القابل حوتين فلما رأوا ان العذاب لايعاجلهم صادوا وأكلوا وملحوا
وباعوا وكانوا نحوا من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا ثلثا نهوا وكانوا نحوا من اثنى عشر
ألفا وثلثا قالوا لم تعظون قوما وثلثا هم أصحاب الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون انا لانساكنكم
فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون
ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان للناس شأنا فعلوا الجدار فنظروا
فاذا هم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القرود أنسباءها من الانس والانس
لايعرفون أنسباءهم من القرود فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه ويبكى فيقول ألم ننهك
فيقول برأسه بلى وقيل صار الشباب قردة والشيوخ خنازير واختلفوا فى ان الذين مسخوا
هل بقوا قردة وهل هذه القردة من نسلهم أو هلكوا وانقطع نسلهم لادلالة فى الآية على شئ
من ذلك وعن الحسن أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا
فى الآخرة وعن جابر بين العبد وبين رزقه حجاب فان صبر خرج اليه والا هتك الحجاب ولم ينل
الا ماقدر له قال الزمخشرى هاه وايم الله ماحوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل
رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدا الساعة والساعة أدهى وأمر وقوله تعالى (واذ)
عطف على واسألهم أى واذكر لهم حين (تأذن) أى أعلم (ربك) وأجرى مجرى القسم كعلم الله
وشهد الله ولذلك أجيب بجوابه وهو (ليبعثن عليهم) أى اليهود (الى يوم القيامة من يسومهم
سوء العذاب) أى بالاهانة والذل وأخذ الجزية منهم فبعث الله تعالى عليهم سليمان وبعده
بختنصر فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية وكانوا يؤدونها الى المجوس الى أن بعث الله
تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم ولاتزال مضروبة عليهم الى آخر الدهر حتى
ينزل عيسى بن مريم فانه لايقبل الجزية ولايقبل الا الاسلام (فان قيل) انه يحكم بشريعة نبينا
محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته أخذ الجزية والاسلام (أجيب) بان شريعته بذلك مغياة
بنزول عيسى عليه السلام وقوله تعالى (ان ربك لسريع العقاب) أى لمن أقام على الكفر
كهيئة الدليل على انه يجمع لهم مع ذل الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم فى
الدنيا والآخرة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله (وانه لغفور) أى لمن آمن منهم ورجع عن الكفر

اى اتبعوا القران كما اتبعه
هو مصاحبين له فى اتباعه
(قوله والذين يمسكون
بالكتاب واقاموا الصلوة)
خص الصلاة بالذكر

واليهودية ودخل في دين الاسلام (رحيم) بهم (وقطعناهم) أي فرقناهم (في الارض أمما) أي فرقا بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تتمة لادبارهم حتى لا تكون لهم شوكة قط وأمما مفعول ثان أو حال وقوله تعالى (منهم الصالحون) صفة أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم (ومنهم) أي اناس (دون ذلك) أي منحطون عن الصلاح فهم كفرتهم وفسقتهم (وبلوناهم) أي اختبرناهم جميعا الصالح وغيره (بالحسنات) أي بالخصب والعافية (والسيئات) أي بالجور والشدة (لعلهم يرجعون) أي كي يرجعوا الى طاعة ربهم ويتوبوا اليه قال أهل المعاني وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو الى الطاعة اما النعم فلاجل الترغيب وأما النقم فلاجل الترهيب (فخلف من بعدهم) أي هؤلاء الذين وصفناهم (خلف) والخلف القرن الذي يجيء من بعد وهو بسكون اللام شائع في الشر وبفتحها في الخير يقال خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح قال حسان بن ثابت

لنا القدم الأولى اليك وخلفنا ❊ لاولنا في طاعة الله تابع

وقال لبيد في الذم

ذهب الذين يعاش في اكنافهم ❊ وبقيت في خلف كجلد الاجرب

يحرك اللام والخلف مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع والمراد به الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ورثوا الكتاب) اى التوراة من اسلافهم يقرؤنها ويقفون على ما فيها (يأخذون عرض هذا الادنى) أي هذا الشيء الفاني الادنى أي الدنيا وما يتمتع به فيها وفي قوله هذا الادنى تخسيس وتحقير والادنى اما من الدنو بمعنى القرب لانه عاجل قريب واما من دون الحال وسقوطها وقلتها والعرض بالفتح جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير وجمعه عروض والمعنى انهم يأخذون حطام الدنيا وهو الشيء التافه الخسيس الحقير لان الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا في الاحكام ويعلمون أنه حرام (و) مع اقدامهم على هذا الذنب العظيم واصرارهم عليه (يقولون سيغفر لنا) أي لا يؤاخذهم الله تعالى بذلك فيتمنون على الله الاماني الباطلة وعن شداد بن أوس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني لان اليهود كانوا يقومون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمني بعينه وقوله تعالى (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) الواو فيه للحال أي يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون الى مثل فعلهم غير تائبين وليس في التوراة وعد المغفرة مع الاصرار وقوله تعالى (ألم يؤخذ) استفهام تقرير (عليهم ميثاق الكتاب) أي التوراة والاضافة بمعنى في (ان لا يقولوا على الله الا الحق) أي المعلوم شأنه وليس من المعلوم اثبات المغفرة على القطع بغير توبة بل ذلك خروج عن ميثاق الكتاب وقوله تعالى (ودرسوا ما فيه) أي ما في ذلك الميثاق الذي في الكتاب أو الكتاب بتقرير القراءة للفظ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فانه تقرير أو على ورثوا وألم يؤخذ

مع دخولها في ما قبلها اظهارا لمرتبتها لكونها عماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر (قوله فمثله كمثل الكلب) فان

اعتراض (والدار الآخرة خير) أي ومافي الدار الآخرة مما اعده الله خير (للذين يتقون) الله ويخافون عقابه (أفلا يعقلون) أي حين أخذوا مايشقيهم ويفنى بدل مايسعدهم ويبقى أن الدار الآخرة خير وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب ويكون المراد الاعلام بتناهي الغضب والباقون بالياء على الغيبة (والذين يمسكون بالكتاب) يقال مسكت بالشيء وتمسكت به وأمسكت به والتمسك بالكتاب العمل بما فيه واحلال حلاله وتحريم حرامه واقامة حدوده والتمسك باحكامه وقرأ شعبة بسكون الميم وتخفيف السين والباقون بفتح الميم وتشديد السين (وأقاموا الصلوة) اي وداوموا على اقامتها في مواقيتها وانما أفردها بالذكر وان كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وانها من أعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى وهذه الآية نزلت في الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام واصحابه وقوله تعالى (انا لا نضيع اجر المصلحين) الجملة خبر الذين وفيه وضع الظاهر موضع المضمر اي أجرهم (واذ) اي اذكر يا محمد اذ (نتقنا) اي رفعنا (الجبل فوقهم) اي من اصله (كأنه ظلة) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كأنه سقيفة والظلة كل ما اظلك من سقف بيت اوسحابة او جناح حائط والجمع ظلل وظلال (وظنوا) اي ايقنوا (انه واقع بهم) اي ساقط عليهم بوعد الله بوقوعه ان لم يقبلوا احكام التوراة روى انهم لم يقبلوا احكام التوراة لعظمها وثقلها فرفع الله تعالى الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم فكان فرسخا في فرسخ وقيل لهم ان قبلتموها بما فيها والا ليقعن عليكم فلما نظروا الى الجبل خر كل واحد منهم ساجدا على حاجبه وهو ينظر بعينه اليمنى خوفا من سقوطه فلذلك لاترى يهوديا يسجد الا على حاجبه الايسر ويقولون هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة وقوله تعالى (خذوا) هو على اضمار القول أي قلنا لهم خذوا أو قائلين خذوا (ما آتيناكم) أي من الكتاب وقوله تعالى (بقوة) أي بجد وعزم على تحمل مشاقه حال من واو خذوا (واذكروا مافيه) أي بالعمل به ولاتتركوه كالمنسي (لعلكم تتقون) أي فضائح الاعمال ورذائل الاخلاق (واذ) أي واذكر يا محمد حين (أخذ ربك من بني آدم) وقوله تعالى (من ظهورهم) بدل اشتمال مما قبله باعادة الجار كما قاله السيوطي أو بدل بعض كما قاله البيضاوي (ذرياتهم) أي بأن أخرج بعضهم من صلب بعض نسلا بعد نسل كنحو مايتوالدون كالذر ونصب لهم دلائل على ربوبيته وركب فيهم عقلا عرفوا به كما جعل للجبال عقولا حين خوطبوا بقوله تعالى ياجبال أوبي معه والطير كما جعل تعالى للبعير عقلا حتى سجد للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا للشجرة حين سمعت لامره وانقادت وكذا النملة حين قالت يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر بالف بعد الياء وكسر التاء على الجمع والباقون بغير الف وفتح التاء على التوحيد (وأشهدهم على انفسهم) قال (الست بربكم قالوا بلى) أنت ربنا وعن مسلم بن يسار الجهني انه قال ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عنها فقال ان الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون

قلت هذا تمثيل لحال بالمام فكيف قال بعده فساء مثلا القوم ولم يضرب الا لواحد (قلت) وان المثل في السورة

ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال هؤلاء الى النار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة وجعل بين عيني كل انسان وبيصا من نور وعرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يا رب من هذا قال داود قال يا رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يا رب زده من عمري أربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انقضى عمر آدم الا أربعين سنة جاءه ملك الموت فقال آدم أولم يبق من عمري أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داود فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أبصر آدم في ذريته قوما لهم نور فقال يا رب من هم فقال الانبياء ورأى واحدا هو أشدهم نورا فقال يا رب من هو قال داود قال فكم عمره قال ستون سنة قال آدم هو قليل وكان عمر آدم الف سنة فقال يا رب زده من عمري أربعين سنة فلما تم عمر آدم تسعمائة وستين سنة أتاه ملك الموت ليقبض روحه فقال بقي من أجلي أربعون سنة فقال ألست قد وهبتها من ابنك داود فقال ما كنت لأجعل لأحد من أجلي شيئا فعند ذلك كتب لكل نفس اجلها وعن مقاتل ان الله تعالى مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيض كهيئة الذر تتحرك ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سود كهيئة الذر فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ثم أعادهم جميعا في صلب آدم فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء وقال تعالى فيمن نقض العهد الأول وما وجدنا لأكثرهم من عهد وقال بعض المفسرين ان أهل السعادة أقروا طوعا وقالوا بلى وأهل الشقاوة قالوا بغتة وكرها وذلك معنى قوله تعالى وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واختلفوا في موضع الميثاق فقال ابن عباس رضي الله عنهما ببطن نعمان وهو واد الى جنب عرفة وعنه أيضا أنه بدهناء من أرض الهند وهو الموضع الذي أهبط فيه آدم عليه السلام وقال الكلبي بين مكة والطائف (فان قيل) ما معنى قوله تعالى واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم وانما أخرجهم من ظهر آدم (أجيب) بأن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على ما يتوالدون فالابناء من الآباء في الترتيب فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم انهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره فالمخرج من ظهورهم مخرج من ظهره وقوله (شهدنا) أي على أنفسنا بذلك وانما أشهدهم على أنفسهم كراهة (أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا) التوحيد (غافلين) أي لعدم الادلة فلذلك أشركنا وقوله تعالى (أو يقولوا) أي

ضرب لواحد فالمراد به كفار مكة كلهم لانهم صنعوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بسبب ميلهم الى الدنيا من الكيد والمكر ما يشبه

ولم ترسل اليهم الرسل عطف على أن يقولوا وقرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على
الخطاب (انما أشرك آباؤنا من قبل) اى قبل أن نوجد (وكنا ذرية من بعدهم) أى فلم نعرف لنا
مربيا غيرهم فكأنهم تمسكوا في ذلك بأنا اتبعناهم عن النظر ولم يأتنا رسول منبه فيتسبب عن ذلك
انكارهم في قولهم (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى من آبائنا قال أبو حيان والمعنى ان
الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكر بما تضمن العهد من توحيد الله وعبادته
لكانت لهم حجتان احداهما كنا غافلين والاخرى كنا تبعا للاسلاف فكيف والذنب انما هو لمن
طرق لنا وأضلنا انتهى (فان قيل) كيف يكون ذكر الميثاق عليهم حجة فانهم لما أخرجوا من
ظهر آدم ركب فيهم العقل وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا الى صلبه بطل ما ركب فيهم
فتولدوا ناسين لذلك الميثاق (أجيب) بان التذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره
في النفوس وبذلك قامت الحجة عليهم يوم القيامة لاخبار الرسل اياهم بذلك الميثاق في الدنيا فمن
أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمتهم الحجة ولا تسقط الحجة بنسيانهم وعدم حفظهم بعد
اخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات والمقصود من ايراد هذا الكلام هنا
الزام اليهود مقتضى الميثاق العام بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم والاحتجاج عليهم بالحجج
السمعية والعقلية ومنعهم من التقليد وحملهم على النظر والاستدلال كما قال تعالى (وكذلك)
اى ومثل ذلك التفصيل البديع الجليل الرفيع (نفصل الآيات) اى كلها لئلا يواقعوا
مالا يليق بجنابنا جهلا لعدم الدليل (ولعلهم يرجعون) اى عن التقليد واتباع الباطل (واتل)
أى يا محمد (عليهم) أى اليهود (نبأ) أى خبر (الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) اى خرج بكفره
كما تخرج الحية من جلدها وهو بلعم بن باعوراء من علماء بنى اسرائيل وقيل من الكنعانيين سئل
أن يدعو على موسى وأهدى اليه شئ فدعا فانقلبت عليه واندلع لسانه على صدره (فأتبعه
الشيطان) اى لحقه وأدركه وصيره لنفسه تابعا في معصية الله تعالى فخالف أمر ربه وأطاع
الشيطان وهواه (فكان من الغاوين) اى من الضالين الهالكين ٭ وقصته على ما ذكره ابن
عباس رضى الله عنهما وغيره أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بنى
كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم وكان عنده اسم الله الاعظم فقالوا ان موسى رجل حديد
ومعه جند كثير وانه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى اسرائيل وأنت رجل
مجاب الدعوة فاخرج فادع الله تعالى أن يردهم عنا فقال ويلكم نبى الله ومعه الملائكة
والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله مالا تعلمون وانى ان فعلت هذا ذهبت دنياى
وآخرتى فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أوامر ربى وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به في المنام
فوامر في الدعاء عليهم فقيل له في المنام لا تدع عليهم فقال لقومه انى قد وامرت ربى وانى نهيت
ان ادعو عليهم فاهدوا اليه هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أوامر ربى فوامر فلم يؤمر بشئ
فقال قد وامرت ربى فلم يأمرنى بشئ فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرة الاولى
فلم يزالوا يتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتانا له متوجها الى جبل يطلعه على عسكر
بنى اسرائيل يقال له حسبان فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت
فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها فأذن الله تعالى لها في الكلام وانطقها الله فكلمته

فعل بلعام مع موسى أو ان
ساء مثلا القوم راجع الى
قوله تعالى ذلك مثل القوم
لا الى أول الآية (قوله

عليه فقالت ويحك يا بلعم أين تذهب أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى ويحك أتذهب الى نبى الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزجر فخلى الله تعالى سبيل الاتان فانطلقت به حتى أشرف على جبل حسبان فجعل يدعو عليهم فلا يدعو بشر الا صرف الله تعالى به لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير الا صرف الله تعالى به لسانه الى بنى اسرائيل فقال له قومه يا بلعم أتدرى ما تصنع انما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا ما لا أملكه هذا شئ قد غلب الله عليه فاندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت الآن منى الدنيا والآخرة ولم يبق الا المكر والحيلة فسأمكر لكم واحتال احلوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن الى عسكر بنى اسرائيل يبعنها فيه ومروهن ان لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانه ان زنى رجل بواحدة كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين على رجل من عظماء بنى اسرائيل وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام الى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف على موسى وقال انى لاظنك أن تقول هذه حرام عليك قال أجل هى حرام عليك لا تقربها قال فوالله لا نطيعك ثم دخل بها قبته فوقع عليها فارسل الله تعالى عليهم الطاعون فى الوقت فهلك منهم سبعون ألفا فى ساعة من النهار * وقيل الآية نزلت فى أمية بن أبى الصلت كان قد قرأ الكتب وعلم ان الله تعالى يرسل رسولا فى ذلك الزمان ورجا أن يكون هو فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به * وقيل نزلت فى منافقى أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم * وقيل انما نزلت فى البسوس وهو رجل من بنى اسرائيل وكان قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات وكان له امرأة وكان له منها أولاد فقالت له اجعل لى منها دعوة فقال لها لك منها واحدة فما تريدين قالت ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى اسرائيل فدعا الله تعالى فصارت أجمل النساء فى بنى اسرائيل فلما علمت أنه ليس فى بنى اسرائيل أجمل منها رغبت عنه فغضب ودعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان فجاء بنوها وقالوا ليس لنا على هذا قرار قد صارت امنا كلبة نباحة وقد عيرنا الناس ادع الله أن يردها الى الحال التى كانت عليها فدعا الله تعالى فعادت كما كانت فذهب فيها الدعوات كلها وقيل غير ذلك ويدل للقول الاول قوله تعالى (ولو شئنا لرفعناه) أى منازل الابرار (بها) أى بسبب تلك الآيات (ولكنه أخلد الى الارض) أى مال الى الدنيا قال البيضاوى أو السفالة قال الجوهرى السفالة بالضم نقيض العلو وبالفتح النذالة (واتبع هواه) أى فى ايثار الدنيا واسترضى قومه وأعرض عن مقتضى الآيات وانما علق رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العبد تنبيها على ان المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وان عدمه دليل عدمها دلالة انتفاء المسبب على انتفاء سببه وان السبب الحقيقى هو المشيئة وان ما نشاهده من هذه الاسباب وسايط معتبرة فى حصول المسبب من حيث ان المشيئة تعلقت به كذلك وكان مقتضى ظاهر الكلام أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد الى الارض واتبع هواه مبالغة وتنبيها على ما حمله عليه وان حب الدنيا رأس كل خطيئة وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم وذلك لانه بعد ان خص هذا الرجل بآياته وعلمه الاسم الاعظم وخصه بالدعوات المستجابة لما اتبع الهوى انسلخ من الدين فصار فى درجة الكلب وذلك يدل

أولئك كالانعام بل أضل) ان قلت كيف جمع بين الامرين (قلت) المراد بالاول تشبيههم بالانعام

على

على ان كل من كانت نعم الله تعالى في حقه أكثر فاذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى كان بعده عن الله أعظم واليه الاشارة بقوله من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا (فمثله) اى فصفته التى هى مثل فى الخسة (كمثل الكلب) اى كمثله فى أخس اوصافه وهو (ان تحمل عليه) اى بالطرد والزجر (يلهث) اى يدلع لسانه (أو) ان (تتركه يلهث) فهو يلهث دائما سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك ولبس غيره من الحيوان كذلك قيل كل شئ يلهث انما يلهث من اعياء أو عطش الا الكلب فانه يلهث فى حال الكلال والراحة لان اللهث طبيعة أصلية فيه فكذلك حال من كذب بآيات الله ان وعظته فهو ضال وان تركته فهو ضال وكذلك حال الحريص على الدنيا ان وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه وان تركته ولم تعظه فهو حريص أيضا لان الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب وعن ابن عباس رضى الله عنهما الكلب منقطع الفؤاد يلهث ان حمل عليه أو لم يحمل عليه ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال كأنه قيل كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثا فى الحالتين وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب (ذلك) اى المثل (مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) فعم بهذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها ووجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث انهم اذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا بل هم فى ضلال على كل حال (فاقصص القصص) اى فاخبر يا محمد قومك بهذه الاخبار التى سبقت بها مواقع الوقائع وآثار الاعيان حتى لم تدع فى شئ منها التباسا على كل من يسمع لك من اليهود وغيرهم (لعلهم يتفكرون) اى يتدبرون فيها فيؤمنون (ساء) أى بئس (مثلا القوم) أى مثل القوم (الذين كذبوا بآياتنا) أى بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها (وانفسهم كانوا يظلمون) أى كان ذلك فى طبعهم جبلة لهم لا يقدر غير الله تعالى على تغييره وتقديم المفعول به للاختصاص كأنه قيل وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدها الى غيرها وقوله تعالى (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) تصريح بأن الهدى والضلال من الله تعالى وأن هداية الله تعالى تختص ببعض دون بعض وانها مستلزمة للاهتداء والافراد فى الاول والجمع فى الثانى باعتبار اللفظ والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقتهم بخلاف الضالين والاقتصار فى الاخبار عمن هدى الله بالمهتدى تعظيم لشأن الاهتداء وتنبيه على انه فى نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وانه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان له (ولقد ذرأنا) أى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والانس) أخبر الله تعالى انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية بالشقاوة ومن خلقه الله تعالى للنار فلا حيلة له فى الخلاص منها روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبى من الانصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أو غير ذلك يا عائشة ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى اصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى اصلاب آبائهم أخرجه مسلم قال النووى فى شرح مسلم أجمع من يعتد به من علماء المسلمين أن من مات من أطفال المسلمين فهو فى الجنة لانه ليس مكلفا وتوقف فيه من لا يعتد به لهذا الحديث وأجاب العلماء عنه بأن رسول

فى أصل الضلال لا فى مقداره وبالثانى فى بيان مقداره وقيل المراد بالاول التشبيه فى المقدار أيضا لكن المراد

الله صلى الله عليه وسلم لعلهم انا عن المسارعة الى القطع من غير أن يكون عنها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبي وقاص قوله أعطه فاني لأراه مؤمنا فقال أو مسلما قال بعضهم ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم أن اطفال المسلمين في الجنة فلما علم ذلك أخبر به قال وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب قال الاكثرون هم في النار تبعا لآبائهم وتوقف طائفة منهم والثالث وهو الصحيح الذي ذهب اليه المحققون انهم من أهل الجنة واستدلوا بأشياء منها حديث ابراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة وحوله أولاد الناس قالوا يا رسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين رواه البخاري في صحيحه ومنها قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه وفي الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة في ان الله تعالى خالق افعال العباد جميعها خيرها وشرها لانه تعالى بين باللفظ الصريح أنه خلق كثيرا من الجن والانس للنار ولا مزيد على بيان الله تعالى ولان العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب عليه دخول النار به علم أن له من يضطره الى ذلك العمل الموجب لدخول النار وهو الله تعالى وقالت المعتزلة ان اللام في قوله لجهنم لام العاقبة واستدلوا لذلك بآيات واشعار فمن الآيات قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وهم ما التقطوه لهذا الغرض ومنها قول موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ومن الاشعار قول بعضهم

ولموت تغذو الوالدات سخالها ❊ كما لخراب الدهر تبنى المساكن

وقال آخر — أموالنا لذوي الميراث نجمعها ❊ ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر — له ملك ينادي كل يوم ❊ لدوا للموت وابنوا للخراب

وقال آخر — وأم سماك فلا تجزعي ❊ فللموت ما تلد الوالدات

وهذا مردود لان المصير الى التأويل انما يحسن اذا ثبت الدليل العقلي على امتناع حمل اللفظ على ظاهره فاذا لم يثبت كان المصير الى التأويل في هذا المقام عبثا فالحق مذهب أهل الحق جعلنا الله تعالى وأهل مودتنا منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله ثم وصف الله تعالى هؤلاء الذين أضلهم بقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها) أي لا يبصرون بها طريق الحق والهدى (ولهم آذان لا يسمعون بها) أي الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر وقال أهل المعاني ان الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لا شك فيه ولما وصفهم الله تعالى بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس المدركة علم أن المراد من ذلك يرجع الى مصالح الدين وما فيه نفعهم في الآخرة والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قول الشاعر

وعوراء الكلام صممت عنها ❊ واني ان أشاء بها سميع

فانه أثبت له صمما مع وجود السمع ولما سلب عنهم هذه المعاني كانت النتيجة (أولئك) أي البعداء من المعاني الانسانية (كالانعام) في أنها لا تفهم ولا تعقل ذلك لان الانسان وسائر

الحيوانات

به طائفة وبالثاني أخرى ووجه كونهم أضل من الانعام انها تنقاد لاربابها وتعرف من يحسن اليها

الحيوانات مشتركة فى هذه الحواس الثلاث التى هى القلب والبصر والسمع وانما فضل الانسان على سائر الحيوانات بالعقل والادراك والفهم المؤدى الى معرفة الحق من الباطل والخير من الشر فاذا كان الكافر لايعرف ذلك ولايدركه كان لافرق بينه و بين البهائم التى لاتدرك شيأ ولما كانوا قد زادوا على ذلك بفقد نفع هذه الحواس قال تعالى (بل هم أضل سبيلا من الانعام لان الانعام تعرف مايضرها وماينفعها فاذا رأت نارا مثلا لاتقع فيها واذا رأت كلأ مثلا دخلت فيه والكافر لايعرف ذلك ولان الحيوان لاقدرته على تحصيل هذه الفضائل والانسان أعطى القدرة على تحصيلها ومن أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخس حالا ممن لم يكتسبها مع العجز عنها ولان الانعام مطيعة لله تعالى والكافر غير مطيع ولان الانعام تعرف ربها وتذكره وهم لايعرفون ربهم ولايذكرونه ولانها تضل اذا لم يكن معها مرشد فأما اذا كان معها مرشد فقل أن تضل وهؤلاء الكفار قد جاءهم الانبياء وأنزل عليهم الكتب وهم يزدادون فى الضلالة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله (أولئك هم الغافلون) قال عطاء عما أعد الله تعالى لاوليائه من الثواب ولاعدائه من العقاب (ولله الاسماء الحسنى) ذكر ذلك فى أربع سور أولها هذه السورة وثانيها فى آخر سورة بنى اسرائيل فى قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وثالثها فى أول طه وهو قوله تعالى الله لااله الا هو له الاسماء الحسنى ورابعها فى آخر الحشر فى قوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى والحسنى مؤنث الاحسن كالكبرى والصغرى (فادعوه بها) أى فسموه بتلك الصفات وللدعاء شروط منها أن يعرف الداعى معانى الاسماء التى يدعو بها ومنها أن يستحضر فى قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى ومنها أن يخلص اليه فى دعائه وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان لله تسعة وتسعين اسما مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر وكان صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يارحمن فقال المشركون ان محمدا وأصحابه يزعمون انهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين فأنزل الله تعالى هذه الآية والاسماء الحسنى كما فى الحديث الله الذى لااله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور رواه الترمذى قال النووى اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه تعالى وليس

وتجتنب مايضرها وهؤلا لا ينقادون لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو

قوله الواحد الخ كذا فى بعض النسخ وهو الموافق لما فى الترمذى وما وقع فى الطبعة الاولى من زيادة الاحد الفرد فلعله زيادة من الناسخ اه مصححه

معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وقوله من أحصاها دخل الجنة المراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها الا الاخبار بحصر الاسماء ولهذا جاء في حديث آخر أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم ان لله تعالى ألف اسم قال ابن العربي وهذا قليل وقوله صلى الله عليه وسلم من أحصاها دخل الجنة قال البخاري من حفظها وهو قول أكثر المحققين وتعضده الرواية الاخرى من حفظها دخل الجنة وقيل من أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه في وصف الله تعالى الواحد الذي لا شريك له ولا نظير واختلفوا هل الاسم الاعظم الله أو الحي القيوم وهل الاسم عين المسمى أو غيره وفي ذلك خلاف وقد حققت ذلك في مقدمتي على البسملة والحمدلة (وذروا) أي اتركوا (الذين يلحدون) اي يميلون عن الحق (في أسمائه) أي حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم كاللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان وقال أهل المعاني الالحاد في أسمائه تعالى هو أن تسميه بما لم يسم الله به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لان أسماءه تعالى كلها توقيفية فيجوز ان يقال يا جواد ولا يجوز أن يقال يا سخي ويجوز أن يقال يا عالم ولا يجوز أن يقال يا عاقل ويجوز أن يقال يا حكيم ولا يجوز أن يقال يا طبيب (سيجزون) أي في الدنيا والآخرة (ما كانوا يعملون) وفي هذا وعيد شديد لمن الحد في أسمائه تعالى وهذا قبل الامر بالقتال وقرأ حمزة يلحدون بفتح الياء والحاء من لحد والباقون بضم الياء وكسر الحاء من ألحد ولما ذكر سبحانه وتعالى انه خلق للنار طائفة ضالين مضلين ملحدين عن الحق ذكر أنه خلق للجنة أمة هادين في الحق عادلين في الامر بقوله تعالى (وممن خلقنا أمة) أي جماعة (يهدون بالحق وبه) أي بالحق خاصة (يعدلون) اي يحملون الامور متعادلة لا زيادة في شئ منها على ما ينبغي ولا نقص لانا وفقناهم فكشفنا عن أبصارهم حجاب الغفلة التي ألزمناها أولئك واستدل بذلك على صحة الاجماع لان المراد منه ان في كل قرن طائفة بهذه الصفة وأكثر المفسرين انهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم لا تزال من أمتي طائفة على الحق الى أن يأتي أمر الله رواه الشيخان وعن معاوية رضي الله تعالى عنه قال وهو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك اذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة فانه معلوم وعن الكلبي هم الذين آمنوا من أهل الكتاب وقيل هم العلماء والدعاة الى الدين (والذين كذبوا بآياتنا) أي القرآن أو غيره من أهل مكة أو غيرهم (سنستدرجهم) أي سنستدنيهم الى الهلاك قليلا قليلا وأصل الاستدراج الاستبعاد والاستنزال درجة بعد درجة (من حيث لا يعلمون) أي سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك ان الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغبطون به ويركنون اليه ثم يأخذهم على غرة أغفل ما يكونون وقيل سنقربهم الى ما يهلكهم ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لانهم كانوا اذا أتوا بذنب فتح الله تعالى عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا فيزدادوا بذلك تماديا في الغي والضلالة ويتدرجوا في الذنوب والمعاصي بسبب ترادف النعم يظنون ان تواتر النعم تقرب من الله تعالى وانما هي

عدوهم (قوله ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) فان قلت كيف خص المؤمنين بالذكر مع انه نذير وبشير

خذلان منه وتبعيد فهو استدراج الله تعالى فيأخذهم الله تعالى أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم اني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فاني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (وأملي لهم) أي أمهلهم وأطيل مدة أعمارهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي ولا أعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة (ان كيدي) أي أخذي (متين) أي شديد وانما سماه كيدا لان ظاهره احسان وباطنه خذلان (أولم يتفكروا) فيعلموا (ما بصاحبهم) محمد صلى الله عليه وسلم (من جنة) أي جنون روي أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فخذا فخذا يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم ان صاحبكم لمجنون بات يهوت الى الصباح فنزلت ومعنى يهوت يصوت يقال هيت به وهوت به أي صاح قاله الجوهري وانما نسبوه الى الجنون وهو بريء منه لانه صلى الله عليه وسلم خالفهم في الاقوال والافعال لانه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الآخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء الى الله تعالى وانذارهم بأسه ونقمته ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبرأه الله تعالى من الجنون بقوله تعالى (ان) أي ما (هو الا نذير مبين) أي بين الانذار بحيث لا يخفى على ناظر (أولم ينظروا) أي نظر اعتبار واستدلال (في ملكوت السموات والارض) أي ملكهما البالغ (وما) أي وفيما (خلق الله من شيء) أي غيرهما مما يقع عليه الشيء من الاجناس التي لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوهم اليه وقوله تعالى (وأن عسى أن يكون قد اقترب) أي دنا (أجلهم) عطف على ملكوت وان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وكذا اسم يكون ولا يصح أن تكون أن مصدرية خلافا للبيضاوي قال التفتازاني لان المصدرية لا تدخل الافعال غير المتصرفة التي لا مصادر لها والمعنى أولم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا الى طلب الحق والتوجه الى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب فلعل أجلهم قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا الى النار فيجب على العاقل المبادرة الى التفكر والاعتبار والنظر المؤدي الى الفوز والنعيم الدائم (فبأي حديث) أي كتاب (بعده) أي الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (يؤمنون) أي يصدقون وليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبي ولا بعد كتابه كتاب لانه خاتم الانبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحي بعده صلى الله عليه وسلم (فان قيل) قوله تعالى فبأي حديث بعده يؤمنون يدل على أن القرآن حادث كما تمسك به بعض المعتزلة (أجيب) من جهة أهل السنة بأن ذلك محمول على الالفاظ من الكلمات ولا نزاع في حدائتها ثم ذكر تعالى علة اعراضهم عن الايمان بقوله تعالى (من يضلل الله فلا هادي له) بوجه من الوجوه أي ان اعراض هؤلاء عن الايمان لاضلال الله اياهم ولو هداهم لآمنوا (ويذرهم) أي يتركهم (في طغيانهم) أي ضلالهم وتماديهم في الكفر (يعمهون) أي يترددون متحيرين لا يهتدون سبيلا وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ونذرهم بالنون والباقون بالياء وجزم حمزة والكسائي الراء قال سيبويه انه عطف على محل الفاء وما بعدها من قوله تعالى فلا هادي له

الناس كافة كما قال تعالى وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا (قلت) خصهم بالذكر لانهم المنتفعون

لان موضع الفاء وما بعدها جزم بجواب الشرط ورفعها الباقون استئنافا وهو مقطوع عما قبله ولما بين تعالى التوحيد والنبوة والقضاء والقدر أتبعه المعاد لتكمل المطالب الاربعة التى هى أمهات مطالب القرآن مبينا ما اشتمل عليه عامة الكلام من تبلدهم فى العمه وتلددهم فى أشراك الشبه بقوله تعالى (يسئلونك) يا محمد سؤال استهزاء (عن الساعة) أى عن وقتها واختلفوا فى ذلك السائل فقال ابن عباس ان قوما من اليهود قالوا يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة ان كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى هى فنزلت هذه الآية وقال الحسن وقتادة ان قريشا قالوا يا محمد بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة والساعة من الاسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لان حساب الخلق يقضى فيها فى ساعة واحدة فسميت بالساعة لهذا السبب أو لانها على طولها عند الله تعالى كساعة واحدة وقوله تعالى (أيان) سؤال استفهام عن الوقت الذى تقوم فيه الساعة ومعناه متى (مرساها) قال ابن عباس منتهاها والمرسى هنا مصدر بمعنى الارساء كقوله تعالى بسم الله مجراها ومرساها أى اجراؤها وارساؤها والارساء الاثبات يقال رسا يرسو اذا ثبت قال الله تعالى والجبال أرساها (قل) لهم يا محمد (انما علمها) أى متى تكون (عند ربى) أى لا يعلم الوقت الذى تقوم فيه الساعة الا الله تعالى استأثر الله تعالى بعلمها فلم يطلع عليه أحدا من خلقه ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال متى الساعة فقال عليه الصلاة والسلام ما المسؤل عنها بأعلم من السائل قال المحققون والسبب فى اخفاء الساعة عن العباد أنهم اذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها فيكون ذلك أدعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية ثم انه تعالى أكد هذا المعنى فقال (لا يجليها) أى يظهرها (لوقتها) أى فى وقتها المعين فاللام بمعنى فى وهو أولى من قول البيضاوى انها للتأقيت (الا هو) أى لا يقدر على اظهار وقتها المعين بالاعلام والاخبار الا هو (ثقلت) أى عظمت (فى السموات والارض) أى ثقل أمرها وخفى علمها على أهل السموات والارض وكل شئ خفى فهو ثقيل شديد وقال الحسن اذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والارض وانما ثقلت عليهم لان فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب وقوله تعالى (لا تأتيكم الا بغتة) تأكيد أيضا لما تقدم وتقرير لكونها بحيث لا تجئ الا فجأة على حين غفلة من الخلق وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة والرجل قد رفع الاكلة الى فيه فلا يطعمها ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه اللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة العهد بالنتاج وقوله يليط حوضه ويروى يلوط حوضه أى يطينه ويصلحه يقال لاط حوضه يليطه ويلوطه اذا طينه والاكلة بضم الهمزة اللقمة وفى رواية أن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقوم سلعته فى سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه رواه بمعناه الشيخان (يسئلونك) أى يسألك قومك عن الساعة (كأنك حفى عنها) أى عالم بها من قولهم أحفيت

(قوله بالانذار والبشارة) (جعلا له شركاء فيما آتاهما) (ان قلت) كيف قال حكاية عن آدم وحواء ذلك مع ان

في المسئلة اذا بالغت في السؤال عنها حتى علمتها وقيل الحفي البار اللطيف ومنه قوله سبحانه وتعالى انه كان بي حفيا أي بارا لطيفا يجيب دعائي اذا دعوته أي يسألونك كأنك بارّ بهم لطيف العشرة معهم وهذا قول الحسن ويؤيده ماروى في تفسيره أن قريشا قالت لمحمد صلى الله عليه وسلم ان بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة والمعنى يسئلونك عنها كأنك حفي فتحفي بهم أي فتخصهم لاجل قرابتك بتعليم وقتها وتزوي علمها عن غيرهم ولو أخبرت بوقتها لمصلحة علمها الله تعالى في اخبارك به لكنت مبلغه القريب والغريب من غير تخصيص كسائر ما أوحي اليك وقيل كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه وتؤثره أي انك تكره السؤال عنها لانه من علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ولم يؤته أحدا من خلقه كقوله تعالى (قل) يا محمد (انما علمها عند الله) أي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلم متى الساعة الا هو (فان قيل) قوله تعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وقوله تعالى ثانيا يسئلونك كأنك حفي عنها فيه تكرار (أجيب) بانه لا تكرار لان السؤال الاول عن وقت قيام الساعة والثاني عن كنه ثقل الساعة وشدتها ومهابتها فلا يلزم التكرار وقيل لذكر الثاني للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله كأنك حفي عنها وعلى هذا تكرار العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة ومنهم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى (فان قيل) لم أجاب عن الاول بقوله انما علمها عند ربي وعن الثاني بقوله انما علمها عند الله (أجيب) بان السؤال الاول لما كان واقعا عن وقت قيام الساعة والثاني كان واقعا عن مقدار شدتها ومهابتها عبر عن الجواب فيه بقوله علم ذلك عند الله لانه أعظم أسمائه مهابة وعظمة ثم انه تعالى ختم هذه الآية بقوله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي لا يعلمون السبب الذي من أجله أخفيت معرفة علم وقت قيامها المغيب عن الخلق وقيل لا يعلمون أن علمها عند الله وانه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه وروى أن أهل مكة قالوا يا محمد ألا تخبرنا بالسعر الرخيص ٣ قبل أن يغلو فنشتريه ونربح فيه عند الغلاء وبالارض التي تريد أن تجدب فنرحل عنها الى ما قد أخصبت فأنزل الله تعالى (قل) لهم (لا أملك لنفسي نفعا) اجتلاب نفع بان أربح فيما أشتريه (ولا ضرا) أي ولا أقدر أدفع عن نفسي ضرا نزل بها بان أرتحل الى الارض المخصبة أو من الارض المجدبة (الا ما شاء الله) من ذلك فيلهمني اياه ويوفقني له وقيل انه صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة بني المصطلق عصفت ريح في الطريق ففرت الدواب منها فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم بموت رفاعة بالمدينة وكان فيها غيظ للمنافقين وقال صلى الله عليه وسلم انظروا أين ناقتي فقال عبد الله ابن أبي المنافق مع قومه ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولم يعرف أين ناقته فقال صلى الله عليه وسلم ان ناسا من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتي في هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة فوجدوها على ما قال صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى هذه الآية (ولو كنت) أي من ذاتي (أعلم الغيب) أي جنسه (لاستكثرت) أي أوجدت لنفسي كثيرا (من الخير وما مسني السوء) أي ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار المنافع ويدخل فيه ما يتصل بالخصب واجتناب المضار حتى لا يمسني سوء (ان) أي ما (أنا الا نذير) بالنار

الانبياء معصومون عن الكبائر فضلا عن مطلق الكبائر والمراد الكبائر التي هو أكبر الشرك الذي هو أكبر الكبائر (قلت) فيه حذف

٣ قوله بالسعر الرخيصة هكذا بالاصول الخ التي بايدينا ولعل هذا الحديث اه مصححه

للكافرين (وبشير) بالجنة (لقوم يؤمنون) أى يصدقون وقيل لقوم يؤمنون متعلق بنذير وبشير لانهم المنتفعون بهما (هو الذى خلقكم) أى ولم تكونوا شيأ (من نفس واحدة) أى خلقها ابتداء من تراب وهى آدم عليه السلام (وجعل منها) أى من جسدها من ضلع من اضلاعها وقيل من جنسها لقوله تعالى وجعل لكم من أنفسكم أزواجا (زوجها) أى حواء قالوا والحكمة فى كونها خلقت منه أن الجنس الى الجنس أميل والجنسية علة الضم (ليسكن اليها) أى ليأنس بها ويطمئن اليها اطمئنان الشئ الى جزئه أو جنسه وانما ذكر الضمير فى يسكن بعد ان أنث فى قوله تعالى من نفس واحدة ذهابا الى معنى النفس ليناسب تذكير الضمير فى قوله تعالى (فلما تغشاها) أى جامعها ولئلا يوهم لو أنثه نسبة السكون الى الانثى والامر بخلافه ازالة لاستيحاشه فكانت نسبة المؤانسة اليه أولى (حملت حملا خفيفا) أى خف عليها ولم تلق منه مايلق الحوامل غالبا من الاذى أو محمولا خفيفا وهو النطفة (فمرت به) أى فمالبثت به أعمالها وقامت وقعدت ولم يعقها عن شئ من ذلك خفته (فلما أثقلت) أى صارت ذا ثقل بكبر الولد فى بطنها (دعوا الله) أى آدم وحواء عليهما السلام (ربهما) مقسمين (لئن آتيتنا صالحا) أى ولدا سويا لاعيب فيه (لنكونن من الشاكرين) أى نحن وأولادنا على نعمتك علينا وذلك أنهما جوزا أن يكون غير سوى لقدرة الله تعالى على كل مايريد لانه الفاعل المختار *(فائدة)* اتفق القراء على ادغام تاء التانيث الساكنة فى الدال (فلما آتاهما صالحا) أى جنس الولد الصالح فى تمام الخلق بدنا وقوة وعقلا فكثروا فى الارض وانتشروا فى نواحيها ذكورا واناثا (جعلا) أى النوعان من أولادهما الذكور والاناث لان صالحا صفة لولد وهو الجنس فيشمل الذكر والانثى والقليل والكثير فكأنه قيل فلما آتاهما أولادا صالحى الخلقة من الذكور والاناث جعل النوعان (له شركاء) أى بعضهم أصناما وبعضهم نارا وبعضهم شمسا وبعضهم غير ذلك وقيل جعل أولادهما له شركاء (فيما آتاهما) أى فيما آتى أولادهما فسموه عبد العزى وعبد مناف على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ويدل عليه قوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون أيشركون مالا يخلق شيأ وهم يخلقون) أى الاصنام (فان قيل) كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون (اجيب) بان لفظ مايقع على الواحد والاثنين والجمع فوحد بحسب ظاهر اللفظ وجمع باعتبار المعنى (فان قيل) كيف جمع بالواو والنون لمن لايعقل وهو جمع من يعقل من الناس (أجيب) بانه لما اعتقد عابدوا الاصنام انها تعقل وتميز وردهذا الجمع على مايعتقدونه وقيل لما حملت حواء اتاها ابليس فى صورة رجل فقال لها مايدريك مافى بطنك ولعله بهيمة او كلب ومايدريك من اين يخرج فخافت من ذلك وذكرت لآدم فهمامنه وهو بضم الهاء وتشديد الميم من الهم وهو هنا الحزن ثم عاد اليها وقال انى من الله بمنزلة فان دعوت الله ان يجعله خلقا مثلك ويسهل عليك خروجه فسميه عبد الحرث وكان اسم ابليس حارثا فى الملائكة ففعلت ولما ولدته سمته عبد الحرث (فان قيل) قد قال البيضاوى وأمثال ذلك لاتليق بالانبياء ويحتمل أن يكون الخطاب فى خلقكم لآل قصى من قريش فانهم خلقوا من نفس قصى وكان لها زوج من جنسها عربية قرشية فطلبا من الله

مضاف أى جعل أولادهما شركاء له فيما آتاهما أى آتى أولادهما بقرينة قوله يشركون بالجمع

تعالى الولد فاعطاهما أربعة بنين فسمياهم عبد شمس وعبد مناف وعبد قصي وعبد الدار ويكون الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما اه (أجيب) بانه تطرق في ذلك الى الظاهر والا فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما ولدت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فانه يعيش فسمته فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره رواه الحاكم وقال صحيح والترمذي وقال حسن غريب وروى عن ابن عباس أنه قال كانت حواء تلد لآدم فتسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما ابليس فقال ان سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فسمياه فعاش وجاء في حديث خدعهما ابليس مرتين مرة في الجنة ومرة في الارض وهو قول كثير كمجاهد وسعيد بن المسيب وهذا كما قال البغوي ليس اشراكا في العبادة ولا أن الحرث ربهما فان آدم كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصد الى أن الحرث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما يطلق اسم الرب على من لا يراد به أنه معبود وهذا كالرجل اذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على وجه ان الضيف مالكه قال الشاعر

وانى لعبد الضيف مادام ثاويا * ولا شيمة لي بعدها تشبه العبدا

وتقول للغير أنا عبدك قال الرازي ورأيت بعض الافاضل كتب على عنوان عبد ودود فلان وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر انه ربي ولم يرد به معبوده كذلك هذا فقوله تعالى فتعالى الله عما يشركون ابتداء كلام وأريد به اشراك أهل مكة وقرأ نافع وشعبة شركا بكسر الشين وسكون الراء وألف منونة بعد الكاف في الوصل وفي الوقف بغير تنوين أي شركة والباقون بضم الشين وفتح الراء وبعد الكاف ألف بعدها همزة مفتوحة (فان قيل) المطاع ابليس فكيف يعبر بالجمع (أجيب) بان من أطاع ابليس فقد أطاع جميع الشياطين هذا ان حملت هذه الآية على القصة المشهورة اما اذا لم نقل به فلا حاجة الى التأويل (ولا يستطيعون) أي الاصنام (لهم) أي لعابديهم (نصرا) أي لا تقدر على النصر لمن أطاعها أو عبدها ولا تضر من عصاها والمعبود الذي تجب عبادته يكون قادرا على ايصال النفع والضر وهذه الاصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها (ولا أنفسهم ينصرون) أي وهي لا تقدر أن تدفع عن نفسها مكروها فان من أراد كسرها قدر عليه وهي لا تقدر على دفعه عنها والاستفهام للتوبيخ ثم خاطب المؤمنين بقوله تعالى (وان تدعوهم) أي المشركين (الى الهدى) أي الى الاسلام (لا يتبعوكم) أي لان الله تعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلوا الهداية وقرأ نافع بسكون التاء وفتح الباء الموحدة والباقون بفتح التاء مشددة وكسر الباء الموحدة (سواء عليكم أدعوتموهم) الى الهدى (ام انتم صامتون) اي ساكتون عن دعائهم فهم في كلا الحالتين لا يؤمنون وقيل الضمير في تدعوهم للاصنام اي ان هذه الاصنام التي يعبدها المشركون معلوم من حالها انها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع من دعاها الى خير وهدى وذلك أن المشركين كانوا اذا وقعوا في شدة وبلاء تضرعوا الى أصنامهم واذا لم يكن لهم الى الاصنام حاجة سكتوا فقيل لهم لا فرق بين دعائكم الى الاصنام وسكوتكم عنها فانها عاجزة

ومعنى اشراكهما اولادهما فيما آتاهم الله تسميتهم اولادهم بعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس

قوله عبد ودود الخ كذا في بعض النسخ وبعض عبدود بيد والذي في الرازي عبدود اه مصححه

فى كل حال (ان الذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله عباد) أى مملوكة (أمثالكم) فهى لا تملك ضرا ولا نفعا (فان قيل) كيف وصفها بانها عباد مع أنها جماد (أجيب) بان المشركين لما ادعوا أن الاصنام تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الالفاظ على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا ولذلك قال (فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) فى كونها آلهة ولم يقل فادعوهن فليستجبن وقال ان الذين ولم يقل التى وبأن هذا اللفظ انما ورد فى معرض الاستهزاء بالمشركين لانهم لما نحتوها بصورة الاناسى قال لهم ان قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما انه لا يستحق بعضكم عبادة بعض فلم جعلتم أنفسكم عبيدا وجعلتموها آلهة وأربابا ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالكم بقوله تعالى (ألهم أرجل يمشون بها أم) أى بل أ (لهم أيد يبطشون بها أم) أى بل أ (لهم أعين يبصرون بها أم) أى بل أ (لهم آذان يسمعون بها) وهذا الاستفهام انكارى أى ليس لهم شئ من ذلك مما هو لكم فكيف تعبدونهم وأنتم أتم حالا منهم اذ لا يليق بالانسان العاقل ان يشتغل بعبادة الاخس الادون الارذل ونظير هذا قول ابراهيم الخليل عليه السلام لابيه لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وقد تعلق بعض الجهال بهذه الآية فى اثبات هذه الاعضاء لله تعالى فقال ان الله تعالى جعل عدم هذه الاعضاء لهذه الاصنام دليلا على عدم الهيتها فلو لم تكن هذه الاعضاء موجودة لله لكان عدمها دليلا على عدم الالهية وذلك باطل فوجب القول باثبات هذه الاعضاء لله تعالى (أجيب) بان المقصود من هذه الآية بيان أن الانسان افضل وأحسن حالا من الصنم لان الانسان له رجل ماشية ويد باطشة وعين باصرة وأذن سامعة والصنم رجله غير ماشية ويده غير باطشة وعينه غير مبصرة واذنه غير سامعة فكان الانسان افضل واكمل حالا من الصنم فاشتغال الافضل الاكمل بعبادة الاخس الادون جهل فهذا هو المقصود من ذكر هذا الكلام لا ما ذهب اليه وهم هؤلاء الجهال (قل ادعوا) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا (شركاءكم) أى الى هلاكى (ثم كيدون) قال الحسن كانوا يخوفونه صلى الله عليه وسلم بآلهتهم فقال الله تعالى له قل لهم ادعوا شركاءكم ثم كيدون أى ليظهر لكم أنه لا قدرة لها على ايصال المضار الى بوجه وقرأ أبو عمرو باثبات الياء وصلا ووقفا وهشام له فيها وجهان الاثبات والحذف وصلا ووقفا والباقون يحذفونها وصلا ووقفا ثم تهكم عليهم صلى الله عليه وسلم بقوله (فلا تنظرون) اى فاعجلوا فى كيدى أنتم وشركاؤكم فانكم لا تقدرون على ذلك وعلل عدم قدرتهم على ذلك بقوله (ان وليى الله) الذى يتولى حفظى ونصرى هو الله (الذى نزل الكتاب) المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة فى الدين وهو القرآن (وهو) اى الله سبحانه (يتولى الصالحين) أى بنصرهم وحفظهم فلا يضرهم عداوة من عاداهم قال ابن عباس يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيأ ولا يعصونه فمن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلا عن أنبيائه وفى هذا مدح للصالحين وأن من تولاه الله تعالى بحفظه لا يضره شئ وعن عمر بن عبد العزيز أنه ما كان يدخر لاولاده شيأ فقيل له فيه فقال ولدى اما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين فان كان من الصالحين فوليه هو الله تعالى ومن

ونحوهما كان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم (قوله قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا) قدم النفع

كان الله تعالى له وليا ولا حاجة له الى ما لى وان كان من المجرمين فقد قال الله تعالى فلن أكون ظهيرا للمجرمين ومن يرده الله تعالى لم أكن مشتغلا بمهماته (والذين تدعون من دونه) أى الله (لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) أى فكيف أبالى بهم (فان قيل) هذه الاشياء قد صارت مذكورة فى الآيات المتقدمة فما الفائدة فى تكريرها (أجيب) بأن الاول مذكور على جهة التقريع وهذا مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وبين من لا تجوز كأنه قيل الاله المعبود يجب أن يكون بحيث يتولى الصالحين وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تكون صالحة للالهية (وان تدعوهم) أى الاصنام (الى الهدى لا يسمعوا) دعاءكم (وتراهم) يا محمد (ينظرون اليك) أى يقابلونك كالناظر (وهم لا يبصرون) لانهم صوروا بصورة من ينظر الى من يواجهه وقال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه ان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الهدى لا يسمعوا دعاءكم لان آذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون اليك يا محمد وهم لا يبصرون أى بعين قلوبهم * ولما بين تعالى أن الله تعالى هو الذى يتولاه وان الاصنام وعابديها لا يقدرون على الايذاء والاضرار بين ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم فى معاملة الناس بقوله تعالى (خذ العفو) أى اقبل الميسور من اخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار ويدخل فى ذلك ترك التشديد فى كل ما يتعلق بالحقوق المالية ويدخل فيه أيضا التخلق مع الناس بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة قال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وقال صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وقال الشاعر

خذى العفو منى تستديمى مودتى * ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام يا جبريل ما هذا قال لا أدرى حتى أسأل ثم رجع فقال ان الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عن ظلمك (وأمر بالعرف) أى بالمعروف قال عطاء بلا اله الا الله (وأعرض عن الجاهلين) أى فلا تقابلهم بالسفه وذلك مثل قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وذلك سلام المتاركة وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق من هذه الآية وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الاسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثنى بمكارم الاخلاق وتمام محاسن الافعال * قال أبو زيد لما نزل قوله تعالى وأعرض عن الجاهلين قال النبى صلى الله عليه وسلم كيف يا رب والغضب فنزل (واما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (ينزغنك من الشيطان نزغ) أى وسوسة وقوله تعالى (فاستعذ) أى فاستجر (بالله) جواب الشرط وجواب الامر محذوف أى يدفعه عنك * (تنبيه) * احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء بهذه الآية وقالوا لولا أنه يجوز من النبى الاقدام على المعصية والذنب لم يحتج الى الاستعاذة (وأجيب) عن ذلك باجوبة الاول ان معنى هذا الكلام ان حصل فى قلبك نزغ فاستعذ بالله كما انه تعالى قال لئن أشركت ليحبطن عملك ولم يدل ذلك على أنه أشرك الثانى على تقدير أنه لو حصل

هنا على الضر وعكس فى يونس لان اكثر ما جاء فى القرآن من لفظى الضر والنفع معا جاء بتقديم

وسوسة من الشيطان لكن الله تعالى قد عصم قلب نبيه صلى الله عليه وسلم من قبولها وثباتها
في قلبه وانما القادح لو قبل صلى الله عليه وسلم وسوسة والآية لا تدل على ذلك وروى أنه صلى
الله عليه وسلم قال ما من انسان الا ومعه شيطان وفي رواية ما منكم من أحد الا وقد وكل به
قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا واياك يا رسول الله قال واياي الا أن الله تعالى أعانني
عليه فاسلم فلا يأمرني الا بخير وفي رواية لكنه أسلم بعون الله فلقد أتاني فأخذت بحلقه ولولا
دعوة سليمان لاصبح في المسجد طريحا قال النووي يروى بفتح الميم وضمها فمن ضمها معناه فاسلم
أنا من شره وفتنته ومن فتحها قال معناه ان القرين أسلم أي صار مسلما فلا يأمرني الا بخير
الثالث أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره أي واما ينزغنك أيها الانسان من
الشيطان نزغ فاستعذ بالله كقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله (انه سميع) للقول
(عليم) بالفعل وفي الآية دليل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد الا اذا حضر في القلب العلم
بمعنى الاستعاذة فكأنه تعالى قال اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فاني سميع واستحضر معنى
الاستعاذة بعقلك وقلبك فاني عليم بما في ضميرك وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف
القلبية عديم الفائدة والاثر (ان الذين اتقوا اذا مسهم) أي أصابهم (طيف) أي شيء ألم بهم
(من الشيطان تذكروا) عقاب الله وثوابه (فاذا هم مبصرون) الحق من غيره فيرجعون وقرأ
ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بياء ساكنة بعد الطاء والباقون بالف بعد الطاء بعدها همزة
مكسورة (واخوانهم) أي واخوان الشياطين من الكفار (يمدونهم) أي يمدهم الشياطين
(في الغي) أي يزيدونهم في الضلالة بالتزيين والحمل عليها (ثم لا يقصرون) أي لا يكفون عن
الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لان المؤمن اذا أصابه طيف من
الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر في ضلاله لا يتذكر

الضر على النفع ولو بغير
انتفاعهما كالطمع والكره
في الوعد لان العابد يعبد
معبوده خوفا من عقابه

ولا يرعوي (واذا لم تأتهم) أي أهل مكة (بآية) أي مما اقترحوها كقولهم لن نؤمن لك حتى
تفجر لنا من الارض ينبوعا (قالوا لولا اجتبيتها) أي هلا تقولتها من عند نفسك كسائر
ما تقرؤه فانهم كانوا يقولون ان هذا الا افك مفترى تقول العرب اجتبيت الكلام اختلقته
وافتعلته وأنشأته من عندك وهلا طلبتها من ربك منزلة عليك مقترحة قال الله تعالى (قل)
يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات (انما أتبع ما يوحى الي من ربي) أي ليس لي
أن أقترح على ربي في أمر من الامور انما أنتظر الوحي فكل شيء أكرمني به قلته والا فالواجب
السكوت وترك الاقتراح ثم بين ان عدم الاتيان بتلك المعجزات التي اقترحوها لا يقدح في
الغرض لان ظهور القرآن على وفق دعواه معجزة بالغة باهرة فاذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة
كانت كافية في تصحيح النبوة فكان طلب الزيادة من باب التعنت فذكر في وصف القرآن
ألفاظا ثلاثة أولها قوله (هذا بصائر من ربكم) أي هذا القرآن فيه حجة وبرهان وأصل
البصائر الابصار وهو ظهور الشيء حتى يبصره الانسان ولما كان القرآن سببا لبصائر العقول
في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه لفظ البصيرة فهو من باب تسمية السبب باسم
المسبب وثانيها (وهدى) أي وهو هدى وثالثها (ورحمة) أي وهو رحمة (لقوم يؤمنون) فان
قيل ما الفرق بين هذه المراتب الثلاث (أجيب) بأنهم متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من

بلغ الغاية فى علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن فى حق القسم الاول وهم السابقون بصائر وفى حق القسم الثانى وهم المستدلون هدى وفى حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) أى عن الكلام (لعلكم ترحمون) أى لكى يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمرتم به من أوامره واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فذهب قوم الى أنها نزلت فى الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الامام والانصات وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع الى قراءة القرآن وقال قوم نزلت فى ترك الجهر بالقراءة خلف الامام وروى زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى هريرة قال نزلت هذه الآية فى رفع الاصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة وقال الكلبى كانوا يرفعون أصواتهم فى الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار وعن ابن مسعود أنه سمع ناسا يقرؤن مع الامام فلما انصرفوا قال أما آن لكم أن تفقهوا واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله وهذا قول الحسن والزهرى ان الآية نزلت فى القرآن فى الصلاة وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد ان الآية نزلت فى الخطبة أمروا بالانصات لخطبة الامام يوم الجمعة وقال عمر بن عبد العزيز الانصات لكل واعظ وقيل معناه واذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وأنصتوا وقيل معنى فاستمعوا له فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه قال البغوى والاول أولاها وهو أنها فى القراءة فى الصلاة لان الآية مكية والجمعة وجبت بالمدينة قال البيضاوى وظاهر اللفظ يقتضى وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقا وعامة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف اه اى مردود بخبر الصحيحين لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وقوله تعالى (واذكر ربك فى نفسك) عام فى الاذكار من القراءة والدعاء وغيرهما والمراد بالذكر فى النفس ان يستحضر فى قلبه عظمة الله تعالى جل جلاله لان الذكر باللسان اذا كان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لان فائدة الذكر حضور القلب واشعاره عظمة المذكور تعالى قال الرازى سمعت بعض الاكابر من أصحاب القلوب كان اذا أراد ان يأمر واحدا من المريدين بالخلوة والذكر امره ان يعين يوما بالخلوة والتصفية ثم عند استكمال هذه المدة وحصول التصفية الكاملة يقرأ عليه الاسماء التسعة والتسعين ويقول للمريد اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الاسماء فكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قوى تأثره وعظم تشوقه فاعلم ان الله تعالى انما يفتح أبواب المكاشفات عليك بواسطة المواظبة على ذكر ذلك الاسم بعينه وهذا طريق حسن لطيف فى هذا الباب اه وقيل ذلك أمر للمأموم بالقراءة سرا بعد فراغ الامام من قراءة الفاتحة كما هو مذهب الشافعى رحمه الله تعالى (تضرعا) اى تذللا (وخيفة) اى خوفا منه ❊(فائدة)❊ انما قال تعالى واذكر ربك ولم يقل واذكر الهك ولا غيره من الاسماء وانما سماه فى هذا المقام باسم كونه ربا وأضاف نفسه اليه وكل ذلك يدل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والاحسان والمقصود منه أن يصير العبد فرحا مسرورا مبتهجا عند سماع

اولانهم طمعا فى ثوابه تارة كما قال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا او حيث تقدم النفع على الضر

هذا الاسم لان لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل وعند سماع هذا الاسم يتذكر العبد أقسام انعام الله تعالى عليه وبالحقيقة لا يصل عقله الى أقل أقسامه كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فعند انكشاف هذا المقام فى القلب يقوى الرجاء فاذا سمع بعد ذلك قوله تضرعا وخيفة عظم الخوف وحينئذ يحصل فى القلب موجبات الرجاء وموجبات الخوف وعنده يكمل الايمان كما قال عليه الصلاة والسلام لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وهذا جرى عليه بعضهم فى حالة الصحة فيكون الخوف والرجاء مستويين والذى جرى عليه الغزالى وهو التحقيق أنه ان قوى رجاؤه يقوى جانب الخوف والعكس بالعكس وأما حال المرض فيكون جانب الرجاء أرجح وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو فى الموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله يا رسول الله وانى أخاف ذنوبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان فى قلب مؤمن فى مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجو وامنه مما يخاف (ودون الجهر من القول) أى ومتكلما كلاما فوق السر ودون الجهر أى قصدا بينهما فانه أدخل فى الخشوع والاخلاص (بالغدو) جمع غدوة وقيل انه مصدر (والآصال) جمع أصيل وهو ما بين صلاة العصر الى الغروب وانما خص هذين الوقتين بالذكر لان الانسان يقوم بالغداة من النوم الذى هو أخو الموت الى اليقظة التى هى كالحياة فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله تعالى وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فان الانسان يريد أن يستقبل النوم الذى هو أخو الموت فيستحب الذكر لانها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله تعالى وهو المراد من قوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله وقيل انما خصا بالذكر لان الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة واستحب للعبد أن يذكر الله تعالى فيهما ليكون فى جميع أوقاته مشتغلا بما يقربه الى الله تعالى من صلاة وذكر وقيل ان أعمال العباد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر الى الغروب فاستحب له الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله بالذكر وختامه بالذكر (ان الذين عند ربك) أى الملائكة المقربين بالفضل والكرامة (لا يستكبرون) أى لا يتكبرون (عن عبادته) لانهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه (ويسبحونه) اى وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان الله ربنا (وله يسجدون) اى ويخضعون له بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره وفى هذا اشارة الى أن الاعمال تنقسم الى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح فأعمال القلوب هى تنزيه الله تعالى عن كل ما سواه وهو الاعتقاد القلبى عبر عنه بقوله ويسبحونه وعبر عن أعمال الجوارح بقوله وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين فى عبادتهم وعن معدان قال سألت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت حدثنى حديثا ينفعنى الله به قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يسجد لله سجدة الا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة وفى رواية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليك بكثرة السجود لله فانك لا تسجد سجدة الا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه

تقدمت هذه اللفظة تضمن ندما
وذلك فى ثمانية مواضع هنا
وفى الرعد وسبا والانعام
وآخر يونس وفى الانبياء

وسلم

وسلم يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته في غير وقت صلاة وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويلتي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعا للزمخشري وهو من قرأ سورة الاعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين ابليس سترا وكان آدم شفيعا له يوم القيامة حديث موضوع

سورة الانفال مدنية

وقيل الا واذ يمكر بك الذين كفروا الآيات السبع فمكية وهي خمس أو ست أو سبع وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفا

(بسم الله) الذي له العظمة الظاهرة والحكمة الباهرة (الرحمن) الذي عم جميع خلقه بنعمه المتواترة (الرحيم) الذي خص من اراد من عباده بما يرضيه فكان حامده وشاكره (يسئلونك) يا أشرف الخلق يا محمد (عن الانفال) أي الغنائم لمن هي وكيف مصرفها وانما سميت الغنيمة نفلا لانها عطية من الله تعالى وفضل منه كما يسمى به ما يشرطه الامام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه (قل) يا محمد لهم (الانفال لله والرسول) يجعلانها حيث شاآ وأكثر المفسرين ان سبب نزولها اختلاف المسلمين في غنائم بدر كيف تقسم فقال الشبان هي لنا لانا باشرنا القتال وقال الشيوخ كنا ردأ لكم ولو انكشفتم لفئتم الينا فنزلت وقيل شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان له غناء وهو بفتح الغين المعجمة والمد النفع أن ينفله فسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين واسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم وكان المال قليلا فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردأ أي عونا لكم وفئة تنحازون الينا فنزلت فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء رواه الحاكم في المستدرك وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معاشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسوله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح ذات البين وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه انه قال لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه وأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال هذا ليس لي ولا لك اطرحه في القبض وهو بفتحتين ما قبض من الغنائم فطرحته وبي ما لا يعلمه الا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلبي فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الانفال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتني السيف وليس لي وانه قد صار لي اذهب فخذه وقيل انها نزلت فيما يصل من المشركين الى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة أو متاع فهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء واختلفوا هل هذه الآية منسوخة أو لا فقال مجاهد وعكرمة هي منسوخة بقوله تعالى واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول الآية فكانت الغنائم يومئذ للنبي صلى الله عليه وسلم فنسخها الله تعالى بالخمس وقال بعضهم هي ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه وذلك

والفرقان والشعراء فقدم هنا النفع او افقة قوله قبله من يهد الله فهو المهتدي الآية وقوله بعده لاستكثرت من الخير وما مسني السوء

ان الغنائم كانت حراما على الامم الذين من قبلنا فى شرائع انبيائهم وابا حها الله تعالى بهذه الآية لهذه الامة وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآية الخمس وقال عبد الله بن زيد بن اسلم هى ثابتة غير منسوخة ومعنى الآية قل الانفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله تعالى وقد بين الله تعالى مصارفها فى قوله واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه الآية (فان قيل) مامعنى الجمع بين ذكر الله والرسول (اجيب) بان معناه ان حكم الغنيمة مختص بالله ورسوله بامر الله يقسمها على ماتقتضيه حكمته ويمتثل الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الله تعالى فيها وليس الامر فى قسمها مفوضا الى رأى أحد (فاتقوا الله) بطاعته واتركوا المخالفة واتركوا المخاصمة والمنازعة فى الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) أى واصلحوا الحال فيما بينكم بالمودة وترك النزاع وتسليم أمر الغنائم الى الله ورسوله (واطيعوا الله ورسوله) فيما يأمركم به وينهاكم عنه (ان كنتم مؤمنين) حقا فان الايمان يقتضى ذلك (انما المؤمنون) اى الكاملون فى الايمان (الذين اذا ذكر الله) اى وعيده (وجلت) اى خافت وخضعت ورقت (قلوبهم) اى ان المؤمن انما يكون مؤمنا كاملا اذا كان خائفا من الله تعالى ونظيره قوله تعالى والذين هم من عذاب ربهم مشفقون وقوله تعالى الذين هم فى صلاتهم خاشعون (فان قيل) انه تعالى قال هنا وجلت قلوبهم وفى آية أخرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما (أجيب) بانه لامنافاة بينهما لان الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان انما يكون من اليقين وشرح الصدر بمعرفة التوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد اجتمعا فى آية واحدة وهى قوله تعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله عند رجاء ثواب الله وقال أهل التحقيق الخوف على قسمين خوف العقاب وهو خوف العصاة وخوف الجلال والعظمة وهو خوف الخواص لانه تعالى غنى بذاته عن كل الموجودات وماسواه من المخلوقات محتاجون اليه والمحتاج اذا حضر عند الملك الغنى هابه وخافه وليست تلك الهيبة من العقاب بل مجرد علمه بكونه غنيا عنه وكونه محتاجا اليه يوجب تلك المهابة وذلك الخوف وأما العصاة فيخافون عقابه والمؤمن اذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) أى تصديقا و يقينا لان زيادة الايمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين الوجه الاول وهو الذى عليه عامة أهل العلم على ماحكاه الواحدى ان كل من كانت عنده الدلائل أكثر وأقوى كان أزيد ايمانا لان عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك و يقوى اليقين فتكون معرفته بالله اقوى فيزداد ايمانه واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام لووزن ايمان أبى بكر بايمان اهل الارض لرجح الوجه الثانى وهو انهم يصدقون بكل مايتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية فى زمنه صلى الله عليه وسلم فكلما تجددت تكليف كانوا يزدادون تصديقا واقرارا ومن المعلوم أن من صدق انسانا فى شيئين كان أكثر ممن يصدقه فى شئ واحد فقوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا معناه انهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا باقرار جديد فكان ذلك زيادة فى الايمان والتصديق (فان قيل) ان تلك الآيات لاتوجب الزيادة وانما الموجب هو سماعها أو معرفتها (أجيب) بان ذلك هو المراد من الآية

اذ الهداية والمطر من جنس النفع وقدم الضر فى آخر يونس على الاصل والموافقة قوله قبله لايضرهم ولا ينفعهم

واختلفوا هل الايمان يقبل الزيادة والنقصان أولا فالذين قالوا ان الايمان عبارة عن التصديق
القلبي قالوا لا يقبل الزيادة ولا النقصان والذين قالوا انه مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل
قالوا يقبل الزيادة والنقصان واحتجوا بهذه الآية من وجهين الاول أن قوله تعالى زادتهم
ايمانا يدل على ان الايمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق فقط لما قبل الزيادة واذا
قبل الزيادة فقد قبل النقص الوجه الثاني انه تعالى ذكر في هذه الآية أوصافا متعددة من
أحوال المؤمنين ثم قال بعد ذلك أولئك هم المؤمنون حقا وذلك يدل على أن تلك الاوصاف
داخلة في مسمى الايمان وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن
الطريق والحياء شعبة من الايمان ففي الحديث دليل على أن للايمان أدنى وأعلى فيكون قابلا
للزيادة والنقص وقال عمير بن حبيب ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته وما نقصانه

(سورة الانفال)

قوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي خافت والمراد بالمؤمنين

فقال اذا ذكرنا الله ووحدناه فذلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبد
العزيز الى عدي بن عدي ان للايمان فرائض وشرائط وحدودا وسننا فمن استكملها فقد
استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ثم وصف الله تعالى المؤمنين
الكاملين بصفة أخرى ثالثة وهي الاتكال عليه بقوله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) اى
يفوضون جميع أمورهم اليه لا يرجون غيره ولا يخافون سواه لان المؤمن اذا كان واثقا
بوعد الله تعالى ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهذا الحال مرتبة عالية ودرجة
شريفة وهي ان الانسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد في أمر من الامور الا على الله تعالى وهذه
الصفات الثلاث مرتبة على أحسن صفات الترتيب فان المرتبة الاولى هي الوجل عند ذكر الله
والمرتبة الثانية هي الانقياد لمقامات تكاليفه والمرتبة الاخيرة الانقطاع بالكلية عما سوى
الله والاعتماد بالكلية على فضل الله بل الغنى بالكلية عما سوى الله ثم ان هذه المراتب الثلاث
أحوال معتبرة في القلوب والبواطن ثم انتقل منها الى رعاية أحوال الظاهر فقال (الذين
يقيمون الصلاة) أي الذين يؤدونها بحقوقها (ومما رزقناهم) أي أعطيناهم (ينفقون) في طاعة
الله لان رأس الطاعات المعتبرة في الظاهر ورئيسها بذل النفس في الصلاة وبذل المال في مرضاة
الله ويدخل في ذلك صلاة الفرض والنفل والزكاة والصدقات والانفاق في الجهاد والانفاق
على المساجد والقناطر ثم قال تعالى (أولئك) أي الموصوفون بهذه الصفات الحسنة (هم
المؤمنون حقا) لانهم حققوا ايمانهم بان ضموا اليه مكارم أعمال القلوب من الخشية
والاخلاص والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح التي المعيار عليها وهي الصلاة والصدقة وحقا
مصدر مؤكد للجملة التي هي أولئك هم المؤمنون كقوله هو عبد الله حقا أي أحق ذلك حقا
(تنبيه) اختلف العلماء في أنه هل للشخص أن يقول أنا مؤمن حقا أولا فقال أصحاب
الشافعي رضي الله تعالى عنه الاولى ان يقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله تعالى ولا يقول
أنا مؤمن حقا وقال أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه الاولى أن يقول أنا مؤمن حقا
ولا يجوز أن يقول ان شاء الله تعالى واستدل الاول بوجوه الاول أن قوله أنا مؤمن ان شاء الله
تعالى ليس على سبيل الشك ولكن الشخص اذا قال أنا مؤمن فقد مدح نفسه باعظم المدائح

فربما حصل له بذلك عجب فاذا قال ان شاء الله تعالى زال ذلك العجب وحصل الانكسار له الثاني
ان الله تعالى ذكر في أول الآية ما يدل على الحصر وهو قوله تعالى انما المؤمنون هم كذا وكذا
وكلمة انما تفيد الحصر وذكر في آخر الآية قوله تعالى أولئك هم المؤمنون حقا وهذا أيضا يفيد
الحصر فلما دلت هذه الآية على هذا المعنى ثم ان الانسان لا يمكنه القطع على نفسه بحصول
هذه الصفات الخمس فكان الاولى له أن يقول ان شاء الله تعالى وعن الحسن أن رجلا سأله
أمؤمن أنت فقال الايمان ايمانان فان كنت تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن بها وان كنت تسألني عن قوله
تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدري أنا منهم أم لا وقال
سفيان الثوري من زعم أنه مؤمن حقا عند الله ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف
الآية وهذا الزام منه أي كما لا نقطع أنه من أهل الجنة قطعا فلا نقطع أنه مؤمن حقا الثالث أن
قوله أنا مؤمن ان شاء الله تعالى للتبرك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم
لاحقون مع العلم القطعي بأنه لاحق بأهل القبور الرابع أن المؤمن لا يكون مؤمنا حقا الا اذا
ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لا يحصل الا عند الموت فلهذا السبب حسن أن يقول أنا
مؤمن ان شاء الله تعالى فالمراد صرف هذا الاستثناء الى الخاتمة الخامس أن ذكر هذه الكلمة
لا ينافي حصول الجزم والقطع ألا ترى أنه تعالى قال لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن
المسجد الحرام ان شاء الله آمنين وهو تعالى منزه عن الشك والريب فثبت أنه تعالى انما ذكر ذلك
تعليما منه لعباده فالاولى ذكر هذه الكلمة الدالة على تفويض الامور الى الله تعالى حتى يحصل
ببركة هذه الكلمة دوام الايمان واستدل للثاني بوجهين الاول أن المتحرك يجوز أن يقول
أنا متحرك ولا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله تعالى وكذا القول في القائم والقاعد فكذا
هنا الثاني أنه تعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقا فكان
قوله ان شاء الله يوجب الشك فيما قطع الله تعالى لهم به وذلك لا يجوز وأجاب الاول عن قوله
المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله تعالى بالفرق بين وصف الانسان بكونه مؤمنا
وبين وصفه بكونه متحركا اذ الايمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل للانسان نفسي
فحصل الفرق بينهما وعن قولهم انه تعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فحكم لهم بكونهم
مؤمنين حقا اذا أتوا بتلك الاوصاف الخمسة على الحقيقة ونحن لا نعلم ذلك فثبت حينئذ أن
الصواب مع أصحاب القول الاول (لهم) أي للموصوفين بتلك الصفات (درجات) أي
منازل في الجنة (عند ربهم) بعضها أعلى من بعض لان المؤمنين تتفاوت أحوالهم في الاخذ
بتلك الاوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت منازلهم في الجنة على قدر أعمالهم قال عطاء
درجات الجنة يرتقون فيها بأعمالهم وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام وعن أبي سعيد
الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الجنة مائة درجة لو أن
العالمين اجتمعوا في احداهن لوسعتهم (ومغفرة) أي لما فرط منهم (ورزق كريم) أعد
لهم في الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهي أمده (فان قيل) أليس للفضول اذا علم حصول

الدرجات

هنا وفي قوله بعد أولئك هم المؤمنون حقا المؤمنون الكاملون (قوله واذا تليت عليهم آياته زادتهم

الدرجات العالية الفاضل وحرمانه منها فانه يتألم قلبه ويتنغص عيشه وذلك يخيل كون الثواب رزقا حسنا (أجيب) بأن استغراق كل أحد فى سعادته الحاضرة تمنعه من حصول النظر الى غيره وبالجملة فأحوال الآخرة لاتناسب أحوال الدنيا الا بالاسم وقوله تعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) يقتضى تشبيه شئ بهذا الاخراج واختلفوا فى تقدير ذلك فقال المبرد تقديره الانفال لله والرسول وان كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الى القتال وان كانوا كارهين له قال الرازى وهذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة فى هذا الموضع وقال عكرمة تقديره فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما أن اخراج محمد من بيته خير لكم وان كرهه فريق منكم وقال الكسائى الكاف متعلق بما بعده وهو قوله يجادلونك فى الحق والتقدير كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف بمعنى على تقديره امض على الذى أخرجك ربك وقيل الكاف بمعنى اذ تقديره واذكر اذ أخرجك ربك من بيتك بالحق (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) الخروج والجملة حال من كاف أخرجك وقيل كما خبر مبتدا محذوف أى هذه الحالة فى كراهتهم لها مثل اخراجك فى حال كراهتهم وقد كان خيرا لهم فكذلك هذه أيضا وذلك أن أبا سفيان قدم بعير من الشام فى أربعين راكبا منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى وفيها تجارة كثيرة فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة المال وقلة العدو فلما سمع أبو سفيان بمسير النبى صلى الله عليه وسلم اليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى وبعثه الى مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم ويخبرهم أن محمدا وأصحابه قد خرجوا العيرهم فخرج ضمضم سريعا الى مكة وكانت عاتكة أخت العباس بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رأت رؤيا فقالت لاخيها العباس انى رأيت مجبارا أيت راكبا أقبل على بعيره حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا عليه ورأيت كأن ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها ورمى اى رمى بها الى فوق فلم يبق بيت من بيوت مكة الا أصابه حجر من تلك الصخرة فقال العباس اكتميها فلا تذكريها لاحد ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان صديقا له فذكرها له واستكتمه فذكرها الوليد لابيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش قال العباس فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة فلما رآنى أبو جهل قال يا أبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل علينا قال فلما فرغت من طوافى أقبلت حتى جلست معهم فقال أبو جهل يا بنى عبد المطلب متى حدثت هذه النبيئة فيكم قلت وماذاك قال الرؤيا التى رأت عاتكة قلت ومارأت قال يا بنى عبد المطلب أما رضيتم ان تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال انفروا فى ثلاث فنتربص بكم الثلاث فان يك ما قالت حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب قال العباس فوالله ما كان منى اليه كبير أمر الا انى جحدت ذلك وانكرته أن لا تكون عاتكة رأت شيأ ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب الا أتتنى فقالت أقررتم لهذا الفاسق

كيف ايمانا (ان قلت) كيف قال ذلك مع أن حقيقة الايمان عند الاكثر لاتزيد ولا تنقص كما هو الاوجه

الخبيث أن يقع في رجالكم ثم تتاول النساء وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت قال قلت والله ما كان مني اليه من شيء وايم الله تعالى لاتعرضن له فان عاد لاكفينكه قال فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى ان قد فاتني منه أمر احب ان ادركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته قال فوالله اني لامشي نحوه لاتعرضه ليعود لبعض ما قال فاقع به وكان أبو جهل رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر اذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال قلت ماله لعنه الله اكل هذا فرقا مني أن اشاتمه قال فاذا هو سمع مالم أسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره وقد حول رحله وشق قميصه وهو يقول يامعشر قريش هذه اموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد وأصحابه فنادى ابو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء وهو بالمد الاسراع منصوب على الاغراء أي الزموا الاسراع على كل صعب وذلول اي اسرعوا مجتمعين ولا تقفن لان تختاروا الركوب ذلولا دون صعب عيركم اموالكم ان اصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبدا فخرج أبو جهل بجميع اهل مكة وهم النفير في المثل لافي العير ولافي النفير فقيل له ان العير اخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس فقال والله لا يكون ذلك ابدا حتى تنحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بخرجنا وان محمدا لم يصب العير فانا قد اعضضناه فمضى بهم الى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة ونزل جبريل عليه السلام وقال يامحمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم اصحابه وقال ماتقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير احب اليكم ام النفير قالوا بل العير احب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم وقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد اقبل فقالوا يارسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ابو بكر وعمر رضي الله عنهما فاحسنا الكلام واماله الى المضي الى العدو ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر امرك فامض فوالله لو سرت الى عدن ابين وهي مدينة معروفة باليمن وابين بوزن ابيض اسم رجل من حمير عدن بها اي اقام ماتخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو يارسول الله امض لما امرك الله فانا معك حيثما احببت لانقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اشيروا على ايها الناس وهو يريد الانصار لانهم قالوا له حين بايعوه على العقبة انا برآء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الى ديارنا فانت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوف ان تكون الانصار لاترى عليهم نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكانك تريدنا يارسول الله قال اجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ماجئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما اردت فوالله الذي بعثك بالحق نبيا لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ومانكره ان تلقى بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق

والوحدانية (قلت) المراد
بزيادته آثار من الطمأنينة
واليقين والخشية ونحوها
وعليه يحمل مانقل عن

عند اللقاء ولعل الله تعالى يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد رضي الله عنه قال سيروا على بركة الله تعالى وابشروا فان الله وعدني احدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثه عن أهل بدر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالامس يقول هذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى قال عمر فوالذي بعثه بالحق نبيا ما أخطأ الحدود التي حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى اليهم فقال يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقا فاني وجدت ما وعدني الله حقا فقال عمر كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها فقال ما أنتم باسمع لما أقول لهم منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيأ وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس وهو في وثاقه أي قيده وكان العباس حينئذ مأسورا مقيدا لا يصلح فقال له النبي صلى الله عليه وسلم قال لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد اعطاك ما وعدك فكانت الكراهة من بعضهم لقوله تعالى وان فريقا من المؤمنين لكارهون (يجادلونك في الحق) أي القتال (بعدما تبين) انك لا تصنع شيأ الا بامر ربك (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) اليه أي يكرهون القتال كراهة من يساق الى الموت وهو يشاهد أسبابه وذلك ان المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم يعلمنا انا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وانما خرجنا لطلب العير اذ روى أنهم كانوا رجالة وما كان فيهم الا فارسان وفيه ايماء الى أن مجادلتهم كانت لفرط فزعهم ورعبهم (واذ) أي واذكر اذ (يعدكم الله احدى الطائفتين) أي العير أو النفير واحدى ثاني مفعولي يعدكم وقد ابدل منها (أنها لكم) بدل اشتمال (وتودون) أي تريدون (أن غير ذات الشوكة) أي القوة والشدة والسلاح وهي العير (تكون لكم) لقلة عددها وعددها اذ لم يكن فيها الا أربعون فارسا بخلاف النفير لكثرة عددهم وعددهم وقرأ أبو عمرو بادغام التاء في التاء بخلاف عنه (ويريد الله أن يحق الحق) أي يظهره (بكلماته) أي بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما امر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من اسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر (ويقطع دابر الكافرين) أي يستأصلهم والمعنى انكم تريدون ان تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها والله يريد اعلاء الدين واظهار الحق وما يحصل لكم من فوز الدارين (ليحق الحق) أي يثبت الاسلام (ويبطل الباطل) اي يمحق الكفر (ولو كره المجرمون) اي المشركون ذلك (فان قيل) قوله تعالى ليحق الحق بعد قوله أن يحق الحق يشبه التكرار (أجيب) بأن المعنيين متباينان وذلك ان الاول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت والثاني لبيان الداعي الى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة على غيرها ونصره عليها (اذ) اي واذكر اذ (تستغيثون ربكم) واستغاثتهم انهم لما علموا ان لا محيص عن القتال اخذوا يقولون ربنا انصرنا على عدوك اغثنا

الشافعي من أنه يقبل الزيادة والنقص (قوله كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) الكاف للتشبيه أي امض

يا غياث المستغيثين وعن عمر رضي الله عنه انه عليه الصلاة والسلام نظر الى المشركين وهم الف والى اصحابه وهم ثلثمائة اى وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم انجز لى ما وعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الارض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه وأخذه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فالقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار ذال اذ عند التاء والباقون بالادغام (فاستجاب لكم أنى) أى بأنى فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله (ممدكم بألف من الملائكة مردفين) أى متتابعين يردف بعضهم بعضا وقرأ نافع بفتح الدال وقيل بالفتح والكسر والباقون بالكسر وعدهم بالالف أولا ثم صارت ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف كما فى آل عمران فقيل نزل جبريل عليه السلام فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضي الله تعالى عنه وميكائيل عليه السلام على الميسرة وفيها على رضي الله تعالى عنه فى صور الرجال عليهم عمائم بيض وثياب بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم فقاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الاحزاب ويوم حنين وروى أن أبا جهل قال لابن مسعود من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمع ولا نرى شخصا قال من الملائكة فقال أبو جهل هم غلبونا لا أنتم وروى أن رجلا من المسلمين بينما هو يشتد فى طلب رجل من المشركين اذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر الى المشرك وقد خر مستلقيا وشق وجهه فحدث الانصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقت ذاك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يوم بدر سبعين وأسروا سبعين وعن أبى داود المازنى تبعت رجلا من المشركين لاضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل اليه سيفى وروى أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال قال لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا ليشير بسيفه الى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف وقيل انهم لم يقاتلوا وانما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين والا فملك واحد كاف فى اهلاك أهل الدنيا كلهم فان جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود قوم صالح عليه السلام بصيحة واحدة وقيل يدل على هذا قوله تعالى (وما جعله الله الا بشرى) لكم أى وما جعل الارداف بالملائكة الا بشرى لكم (ولتطمئن به قلوبكم) فيزول ما بها من الوجل لقلتكم وذلتكم والصحيح أنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه لما تقدم (وما النصر الا من عند الله) أى لا من عند غيره وأما امداد الملائكة وكثرة العدد والاهب ونحوها فهى وسايط لا تأثير لها فلا تحسبوا ان النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها وفى ذلك تنبيه على أن الواجب على المسلم أن لا يتوكل الا على الله تعالى فى جميع أحواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده النصر والاعانة (ان الله عزيز) أى انه تعالى قوى منيع لا يقهره شئ ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شئ ويغلبه (حكيم) فى تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده (اذ) أى واذكر اذ (يغشاكم النعاس) وهو النوم الخفيف (أمنة) أى أمنا حاصلا لكم من الخوف من عدوكم (منه) أى من الله تعالى لانهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعطشوا عطشا شديدا ألقى الله عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم كان

على ما رأيته صوابا من تنفيل الغزاة فى قسمة الغنائم وان كرهوا كما مضيت فى خروجك من بيتك بالحق

ذلك النوم نعمة فى حقهم لانه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله اليهم وقدروا على دفعه عنهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما النعاس فى القتال أمنة من الله تعالى وفى الصلاة وسوسة من الشيطان وقرأ نافع بضم الياء وكسر الشين مخففة وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والشين مع التخفيف فيهما والباقون بضم الياء وكسر الشين مشددة ورفع السين من النعاس ابن كثير وأبو عمرو ونصبها الباقون على أن الله تعالى هو الفاعل (وينزل عليكم من السماء ماء) اى مطرا (ليطهركم به) اى من الاحداث والجنابات وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب فناموا فاحتلم أكثرهم وكان المشركون قد سبقوهم على ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس اليهم الشيطان أو قال لهم المنافقون تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله صلى الله عليه وسلم وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين فكيف ترجون ان تظهروا على عدوكم وما ينتظرون بكم الا أن يجهدكم العطش فاذا قطع العطش أعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم الى مكة فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا فانزل الله تعالى مطرا أسال منه الوادى فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الدواب وملؤوا الاسقية وطفئ الغبار وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلا على حصول النصر والظفر وزالت عنهم وسوسة الشيطان كما قال تعالى (ويذهب عنكم رجز الشيطان) اى وسوسة الشيطان التى ألقاها فى قلوبكم وقيل الجنابة لانها من تخييله (فان قيل) يلزم على هذا التكرار فان هذا تقدم فى قوله تعالى ليطهركم به (وأجيب) عنه بان المراد من قوله تعالى ليطهركم به حصول الطهارة الشرعية ومن قوله تعالى ويذهب عنكم رجز الشيطان ان الرجز عين المنى فانه شئ مستخبث وطابت أنفسهم كما قال تعالى (وليربط) اى يحبس (على قلوبكم) باليقين والصبر ولبدت الارض حتى ثبتت عليها الاقدام كما قال تعالى (ويثبت به الاقدام) اى أن تسوخ فى الرمل والضمير فى به للماء ويجوز كما قال الزمخشرى أن يكون للربط لان القلب اذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت الاقدام فى مواطن القتال وقوله تعالى (اذ يوحى ربك) متعلق بيثبت او بدل من اذ يعدكم (الى الملائكة) اى الذين أمد بهم المسلمين وقوله تعالى (أنى) اى بانى (معكم) اى بالعون والنصرة مفعول يوحى (فثبتوا الذين آمنوا) اى قووا قلوبهم بان تقاتلوا المشركين معهم وقيل بالتبشير والاعانة فكان الملك يمشى فى صورة رجل امام الصف ويقول أبشروا فان الله تعالى ناصركم عليهم فانكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه وقيل بالقاء الالهام فى قلوبهم كما أن للشيطان قوة فى القاء الوسوسة فى قلب ابن آدم بالشر ويسمى ما يلقيه الشيطان وسوسة وما يلقيه الملك الهاما ثم بين تعالى المعية بقوله تعالى (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) اى الخوف فلا يكون لهم ثبات وكان ذلك نعمة من الله تعالى على المؤمنين حيث ألقى الخوف فى قلوب المشركين وقرأ ابن عامر والكسائى برفع العين والباقون بالسكون وقوله تعالى (فاضربوا) خطاب للمؤمنين وللملائكة (فوق الاعناق) اى أعاليها التى هى

وهم كارهون (قوله ليحق الحق ويبطل الباطل) • ان قلت فيه تحصيل الحاصل (قلت) لا لان المراد

المذابح والمفاصل والرؤس فانها فوق الاعناق وقيل المراد الاعناق وفوق صلة او بمعنى على اى اضربوا على الاعناق (واضربوا منهم كل بنان) قال ابن عطية يعنى كل مفصل وقال ابن عباس يعنى الاطراف والبنان جمع بنانة وهى أطراف الاصابع من اليدين والرجلين وقال ابن الانبارى كانت الملائكة لا تعلم كيف تقاتل بنى آدم فعلمهم الله تعالى قيل انما خصت الرأس والبنان بالذكر لان الرأس أعلى الجسد وأشرف الاعضاء والبنان أضعف الاعضاء فيدخل فى ذلك كل عضو فى الجسد وقيل أمرهم بضرب الرأس وبه هلاك الانسان وبضرب البنان وبه تبطل حركته عن القتال لان بالبنان يتمكن من مسك السيف والسلاح وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل ذلك كله (ذلك) اى التسليط العظيم الذى وقع من القتل والاسر يوم بدر والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم اولكل أحد (بانهم) اى الذين تلبسوا بالكفر (شاقوا الله) الذى لا يطاق انتقامه (ورسوله) اى خالفوهما فى الاوامر والنواهى والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كانهم صاروا فى شق وجانب غير الذى يرضيانه (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) له فان الذى أصابهم فى ذلك اليوم من الاسر والقتل شئ قليل فى جنب ما أعد الله تعالى لهم من العقاب يوم القيامة وقوله تعالى (ذلكم) خطاب للكفرة على طريق الالتفات من الغيبة فى شاقوا أى ذلكم الذى عجل لكم ببدر من القتل والاسر (فذوقوه) عاجلا (وأن للكافرين) آجلا فى الآخرة (عذاب النار) ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب للعاجل والآجل (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) اى مجتمعين كانهم لكثرتهم يزحفون اى يدبون دبيبا من زحف الصبى اذا دب على استه قليلا قليلا سمى به وجمع على زحوف وانتصابه على الحال وهو مصدر موصوف به كالعدل والرضا ولذلك لم يجمع (فلا تولوهم الادبار) اى منهزمين منهم وان كنتم اقل منهم (ومن يولهم يومئذ) اى يوم لقائهم (دبره) اى يجعل ظهره اليهم منهزما (الا متحرفا) اى منعطفا (لقتال) بان يريهم أنه منهزم خداعا ثم يكر عليهم وهو باب من مكايد الحرب (او متحيزا) منضما وصائرا (الى فئة) اى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها على القرب يستنجد بها ومنهم من لا يعتبر القرب لما روى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه كان فى سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا الى المدينة فقلت يا رسول الله نحن الفرارون فقال بل أنتم العكارون وفى رواية الكرارون اى المتعاطفون الى الحرب وأنا فئتكم وانهزم رجل من القادسية فاتى المدينة الى عمر رضى الله تعالى عنه فقال يا أمير المؤمنين هلكت فررت من الزحف فقال عمر أنا فئتك (فقد باء) اى رجع (بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) اى المرجع هى وعن ابن عباس ان الفرار من الزحف من أكبر الكبائر هذا اذا لم يزد العدد على الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا وقيل هذا فى أهل بدر خاصة لانه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لان النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم قاله مجاهد ولما انصرف المسلمون من قتال بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا فنزل قوله تعالى (فلم تقتلوهم) اى بقوتكم (ولكن الله قتلهم) أى بنصره اياكم بان هزمهم لكم قال البيضاوى تبعا للزمخشرى والفاء جواب

بالحق الايمان وبالباطل الشرك (فان قلت) ما فائدة تكرار يحق الحق هنا مع قوله قبل ويريد الله

شرط

شرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم اه ورده ابن هشام بان
الجواب المنفي بلم لا تدخل عليه الفاء واختلف في سبب نزول قوله تعالى (وما رميت) يا محمد
(اذ رميت ولكن الله رمى) على ثلاثة أقوال الاول وهو قول أكثر المفسرين نزلت في يوم بدر
وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الى قتال بدر نزلوا بدرا وو ردت عليهم روّاد
قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار غلام لبني العاصي بن سعد فاتوا بهما الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما أين قريش فقالا هم وراء هذا الكثيب الذي بالعدوة
القصوى الكثيب العقنقل وهو الكثيب العظيم المتداخل الرمل قاله الجوهري فقال لهما
رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم قالا كثير قال ما عدتهم قالا لا ندري قال كم ينحرون
كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ما بين التسعمائة
الى الالف ثم قال لهما فمن فيهم من أشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو
البختري بن هشام وأبو جهل بن هشام وعدا جماعة أخرى فقال صلى الله عليه وسلم هذه مكة
قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها فلما طلعت قريش من العقنقل قال عليه الصلاة والسلام هذه
قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم اني أسألك ما وعدتني فأتاه جبريل
عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلي رضي الله عنه
أعطني قبضة من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال شاهت الوجوه أي قبحت فلم يبق
مشرك الا دخل في عينيه وفمه ومنخره فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم والمعنى
ان الرمية التي رميتها بلغ أثرها الى ما لا يبلغه أثر البشر لكونها كانت برمي الله حيث أثرت
ذلك الاثر العظيم لان كفا من الحصباء لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية البشر فاثبت الرمية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم لان صورتها وجدت منه ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا تطيقه
البشر فعل الله تعالى فكان الله تعالى هو فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من
الرسول صلى الله عليه وسلم أصلا القول الثاني انها نزلت يوم خيبر روي انه عليه الصلاة
والسلام أخذ قوسا وهو على باب خيبر فرمى سهما فاقبل السهم حتى قتل لبابة بن أبي الحقيق
وهو على فرسه فنزلت القول الثالث انها نزلت في يوم أحد في قتل أبي بن خلف وذلك انه أتى
النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وفته وقال يا محمد من يحيي هذه وهي رميم فقال صلى الله
عليه وسلم يحييه الله ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار فاسر يوم بدر فلما افتدى قال لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ان عندي فرسا أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه فقال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم بل أنا أقتلك ان شاء الله تعالى فلما كان يوم أحد أقبل أبي يركض على ذلك
الفرس حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم استأخروا ورماه بحربة كسر ضلعا من أضلاعه فمات ببعض
الطريق فنزلت والاصح الاول والا دخل في أثناء القصة كلاما أجنبيا عنها وذلك لا يليق
وقال الرازي لا يبعد أن يدخل تحتها سائر الوقائع لان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى بكسر النون مخففة ورفع
الهاء من اسم الله فيهما والباقون بفتح النون مشددة ونصب الهاء وقوله تعالى (وليبلي

ان يحق الحق بكلماته
ويقطع دابر الكافرين (قلت)
فائدته أنه اريد بالاول
تثبيت ما وعد الله به في

المؤمنين منه بلاء حسنا) معطوف على قوله تعالى ولكن الله رمى أى وليُنعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ثم ختم الله تعالى هذه الآية بقوله تعالى (ان الله سميع) لأقوالكم (عليم) بأحوال قلوبكم وهذا يجري مجرى التحذير والترهيب لئلا يغتر العبد بظواهر الامور ويعلم ان الخالق تعالى يطلع على ما في الضمائر والقلوب وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع أى الغرض ذلكم وقوله تعالى (وأن الله موهن كيد الكافرين) معطوف على ذلكم أى المقصود ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الواو وتشديد الهاء وتنوين النون ونصب الدال وقرأ حفص بسكون الواو وتخفيف الهاء وعدم تنوين النون وخفض الدال والباقون بسكون الواو وتخفيف الهاء مع تنوين النون ونصب الدال وقوله تعالى (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أكثر المفسرين على انه خطاب للكفار روى ان أبا جهل لعنه الله قال يوم بدر اللهم أينا كان أقطع للرحم وأفجر فأهلكه الغداة وقال السدى ان المشركين لما أرادوا الخروج الى بدر أخذوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدين فأنزل الله تعالى هذه الآية أى ان تستنصروا لأهدى الفئتين وتستفتحوا فقد جاءكم النصر والقضاء لمن هو كذلك وهو أبو جهل ومن قتل معه دون النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل خطاب للمؤمنين وذلك انه صلى الله عليه وسلم لما رأى المشركين وكثرة عددهم وعددهم استغاث بالله تعالى وطلب ما وعده الله تعالى به من احدى الطائفتين وتضرع الى الله تعالى وكذلك الصحابة رضى الله تعالى عنهم فقال تعالى ان تستفتحوا أى ان تطلبوا النصر الذى تقدم به الوعد فقد جاءكم الفتح أى حصل ما وعدتم فاشكروا الله تعالى والزموا الطاعة قال القاضى عياض وهذا القول أولى لان قوله تعالى فقد جاءكم الفتح لا يليق الا بالمؤمنين اه وقال البيضاوى انه خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم اه ويدل له قوله تعالى (وان تنتهوا) أى عن الكفر ومعاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فهو خير لكم) أى لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلتين (وان تعودوا) أى لقتال النبي صلى الله عليه وسلم (نعد) أى لنصرته عليكم (ولن تغنى) أى تدفع (عنكم فئتكم) أى جماعتكم (شيئا) لان الله تعالى على الكافرين فيخذلهم (ولو كثرت) فئتكم (وان الله مع المؤمنين) بالنصر والمعونة وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح الهمزة على ولان الله تعالى والباقون بالكسر على الاستئناف (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا) أى تعرضوا (عنه) أى الرسول صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره فان المراد من الآية الامر بطاعته والنهى عن الاعراض عنه وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على ان طاعة الله فى طاعة الرسول لقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد (وأنتم تسمعون) أى القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) أى بألسنتهم (وهم لا يسمعون) سماعا ينتفعون به وهذه صفة المنافقين (ان شر الدواب عند الله) أى ان شر من دب على وجه الارض من خلق الله عنده (الصم) عن سماع الحق (البكم) عن النطق بالحق فلا يقولونه (الذين لا يعقلون)

هذه الواقعة من النصر والظفر بالاعداء بقرينة قوله عقبه ويقطع دابر الكافرين وبالشاني

أمر الله وعصاهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم كما قال تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل
قال ابن عباس هم نفر من بني عبد الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عما جاء به محمد
فقتلوا جميعا بأحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم الارجلان مصعب بن عمير وسويبط بن
حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا) أي سعادة كتبت لهم أو انتفاعا بالآيات (لأسمعهم) سماع
تفهم (ولو أسمعهم) على سبيل الفرض وقد علم أن لا خير فيهم (لتولوا) عنه ولم ينتفعوا به
وارتدوا عن التصديق والقبول (وهم معرضون) لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل
انهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحي لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا يشهد لك
بالنبوة فنؤمن بك فقال الله تعالى ولو أسمعهم كلام قصي لتولوا وهم معرضون (يا أيها
الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) أي أجيبوهما بالطاعة ووحد الضمير في قوله تعالى
(اذا دعاكم) لان دعوة الله تعالى تسمع من الرسول صلى الله عليه وسلم وروى الترمذي انه صلى
الله عليه وسلم مر على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء فقال له صلى الله عليه
وسلم ما منعك عن اجابتي قال كنت أصلي قال ألم تجد فيما أوحي الي استجيبوا لله وللرسول
ويؤخذ من ذلك ان اجابته صلى الله عليه وسلم بالقول لا تقطع الصلاة وهو كذلك بل ولا
بالفعل الكثير كما قاله بعض أصحابنا وهو ظاهر الحديث أيضا ولما كان اجتناء ثمرة الطاعة
في غاية القرب منه نبه على ذلك باللام دون الى فقال (لما يحييكم) من العلوم الدينية فانها
حياة القلوب والجهل موتها قال أبو الطيب

لا تعجبن الجهول حلته ٭ فذاك ميت وثوبه كفن

أو مما يورثكم الحياة الابدية في النعيم الدائم من العقائد وقال السدي هو الايمان لان الكافر
ميت فيحيا بالايمان وقال ابن اسحق هو الجهاد أعزكم الله تعالى به بعد الذل وقال العتبي هو
الشهادة لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) اى
انه يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها وهي التمكن من اخلاص القلب ومعالجة ادوائه
وعلله ورده سليما كما يريده الله تعالى فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله
ورسوله وقال الضحاك يحول بين المرء المؤمن والمعصية وبين الكافر والطاعة وقال السدي
يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر الا باذنه وقال مجاهد يحول بين المرء
وقلبه فلا يعقل ولا يدري ما يعمل وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالوا يا رسول الله آمنا بك وبما
جئت به فهل تخاف علينا قال القلوب بين اصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء (وأنه) اى
واعلموا أنه تعالى (اليه تحشرون) لا الى غيره فلا تتركوا اهملين معطلين فيجازيكم بأعمالكم
وفي هذا تشديد في العمل وتحذير عن الكسل والغفلة (واتقوا فتنة) اى ذنبا قيل هو اقرار
المنكر بين أظهرهم وقيل افتراق الكلمة وقيل فتنة عذابا وقوله تعالى (لا تصيبن الذين
ظلموا منكم خاصة) جواب الامر والمعنى ان أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها
تعمكم كما يحكى ان علماء بني اسرائيل لم ينهوا عن المنكر فعمهم الله تعالى بالعذاب (فان قيل)

تقوية الدين ونصرة الشريعة بقرينة قوله عقبه ويبطل الباطل (قوله فلم تقتلوهم ولكن

كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الامر (أجيب) بان فيه معنى النهى كقولك
انزل عن الدابة لا تطرحك ولا تطرحنك وكقوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم
لا يحطمنكم سليمان (واعلموا أن الله شديد العقاب) لمن خالفه (واذكروا) يا معاشر
المهاجرين (اذ أنتم) فى أوائل الاسلام (قليل) اى عددكم (مستضعفون) اى لا منعة لكم
(فى الارض) اى أرض مكة باطلاقها الاسم المعظمها كأنها هى الارض كلها اولان حالهم كان
فى بقية البلاد كحالهم فيها او قريبا من ذلك ولهذا عبر بالناس فى قوله تعالى (تخافون أن
يتخطفكم الناس) اى تأخذكم الكفار بسرعة كما تتخطف الجوارح الصيد (فآواكم) الى
المدينة او جعل لكم مأوى تتحصنون فيه على اعدائكم (وأيدكم) اى قواكم (بنصره) اى بامداد
الملائكة يوم بدر وبمظاهرة الانصار (ورزقكم من الطيبات) اى الغنائم أحلها لكم ولم يحلها
لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) هذه النعم العظيمة (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول)
اى بان تضمروا خلاف ما تظهرون روى انه صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بنى قريظة
احدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح كما صالح اخوانهم بنى
النضير على أن يسيروا الى اخوانهم باذرعات وأريحا من الشام فأبى رسول الله صلى الله عليه
وسلم أن يعطيهم ذلك الا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة واسمه
رفاعة او مروان بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لان ماله وعياله عندهم فبعثه رسول الله صلى
الله عليه وسلم اليهم فقالوا يا أبا لبابة ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده الى
حلقه انه الذبح أى حكم سعد هو القتل فلا تفعلوا فقال أبو لبابة والله مازالت قدماى من
مكانهما حتى علمت انى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله
عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى
أموت أو يتوب الله على فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما لو جاءنى لاستغفرت له
وأما اذ فعل مافعل فانى لا أطلقه حتى يتوب الله تعالى عليه فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما
ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك فقال لا والله
لا احلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه فحله بيده فقال ان من
تمام توبتى ان أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال له رسول الله صلى
الله عليه وسلم يجزيك الثلث ان تتصدق به فنزلت هذه الآية وعن المغيرة نزلت فى قتل عثمان
ابن عفان رضى الله تعالى عنه وعن جابر بن عبد الله ان أبا سفيان خرج من مكة فعلم النبى صلى
الله عليه وسلم خروجه وعزم على الذهاب اليه فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا يريدكم
فخذوا حذركم فنزلت وقيل معنى لا تخونوا الله بان لا تعطلوا فرائضه و رسوله بان لا تستنوا
به وأصل الخون النقص كما ان أصل الوفاء التمام واستعماله فى ضد الامانة لتضمنه اياه وقوله
تعالى (وتخونوا أماناتكم) اى ما ائتمنتم عليه من الدين وغيره مجزوم بالعطف على الاول أى
ولا تخونوا أو منصوب بان مضمرة بعد الواو على جواب النهى أى لا تجمعوا بين الخيانتين
كقوله ولا تنه عن خلق وتأتى مثله (وأنتم تعلمون) أنكم تخونون أى وأنتم علماء مميزون

فان قلت (الآية) كيف نفى عن المؤمنين قتل الكفار مع انهم قتلوهم يوم بدر ونفى عن النبى صلى الله عليه وسلم

الحسن

الحسن من القبيح (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى محنة من الله تعالى ليبلوكم فيهم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كأبى لبابة لانه يشغل القلب بالدنيا و يصير حجابا عن خدمة المولى • ثم انه تعالى نبه بقوله تعالى (وأن الله عنده أجر عظيم) على ان سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لانها أعظم فى الشرف وأعظم فى القوة وأعظم فى المدة لانها تبقى بقاء لا نهاية له فهذا هو المراد من وصف الله الاجر الذى عنده بالعظم قال الرازى و يمكن أن يتمسك بهذه الآية فى بيان ان الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالنكاح لان الاشتغال بالنوافل يفيد الاجر العظيم عند الله والاشتغال بالنكاح يفيد الولد و يوجب الحاجة الى المال وذلك فتنة ومعلوم ان ما يفضى الى الاجر العظيم عند الله هو خير مما يفضى الى الفتنة اه لكن محله فى غير المحتاج الى النكاح الواجد أهبته والا فالنكاح حينئذ أفضل وأولى من التخلى للعبادة • ولما حذر الله تعالى عن الفتنة بالاموال والاولاد رغب فى التقوى التى توجب ترك الميل والهوى فى محبة الاموال والاولاد بقوله (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله) اى بالامانة وغيرها (يجعل لكم فرقانا) اى هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل (و يكفر عنكم سيآتكم) اى يسترها ما دمتم على التقوى (و يغفر لكم) اى يمح ما كان منكم غير صالح عينا وأثرا وقيل السيآت الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لانها فى أهل بدر وقد غفر الله تعالى لهم وقوله تعالى (والله ذو الفضل العظيم) تنبيه على ان ما وعده لهم على التقوى تفضل منه واحسان وانه ليس مما توجبه تقواهم عليه كالسيد اذا وعد عبده انعاما على عمله • ولما ذكر سبحانه وتعالى المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى واذكروا اذ أنتم قليل الى آخره عطف عليه قوله تعالى (واذ يمكر بك الذين كفروا) فذكر رسوله صلى الله عليه وسلم نعمه عليه وهو دفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه وهذه السورة مدنية وهذا المكر كان بمكة ولكن الله تعالى ذكره بالمدينة مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله تعالى عليه فى نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وكان ذلك المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من المفسرين ان قريشا لما أسلمت الانصار و بايعوه فرقوا ان يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعت رؤساؤهم كأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان وهشام ابن عمرو وطعيمة بن عدى والنضر بن الحرث وأبى البخترى بن هشام فى دار الندوة متشاورين فى أمره صلى الله عليه وسلم فدخل عليهم ابليس لعنه الله تعالى فى صورة شيخ فلما رأوه قالوا من أنت قال شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فاردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا قالوا ادخل فدخل فقال أبو البخترى رأيى ان تحبسوه فى بيت وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك مثل ما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله النجدى وقال بئس الرأى رأيتم والله لئن حبستموه فى بيت ليأتينكم من يقاتلكم من قومه و يخلصه من أيديكم قالوا صدق الشيخ النجدى فقال هشام بن عمرو رأيى ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم فقال النجدى بئس الرأى تعمدون الى رجل قد أفسد سفهاءكم فتخرجوه الى غيركم فيفسدهم ألم تروا الى حلاوة منطقه وطلاوة لسانه وأخذ القلوب ما يسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك

الله عليه وسلم رميهم مع انه رماهم يوم بدر وبالحصباء فى وجوههم (قلت) نفى الفعل عنهم وعنه باعتبار

فيذهب ويستميل قلوب قوم ثم يسير بهم اليكم ويخرجكم من بلادكم قالوا صدق والله الشيخ النجدي فقال أبو جهل لعنه الله تعالى والله لاشيرن عليكم برأى لا رأى غيره انى أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا تقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا فقال ابليس الملعون صدق هذا الفتى هو اجودكم رأيا القول ما قال لا رأى غيره فتفرقوا على قول أبى جهل مجمعين على قتله فاتى جبريل عليه الصلاة والسلام النبى صلى الله عليه وسلم فاخبره بذلك وأمره ان لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه وأذن الله تعالى له عند ذلك بالخروج الى المدينة فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه فنام فى مضجعه وقال له اتشح ببردتى فانه لن يخلص اليك أمر تكرهه ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ انا جعلنا فى اعناقهم أغلالا الى قوله تعالى فهم لا يبصرون ومضى الى الغار هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت بمكة عنده وكانت الودائع تودع عنده لصدقه وأمانته وبات المشركون يحرسون عليا على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون انه النبى صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا بادروا اليه فرأوا عليا فقالوا له أين صاحبك فقال لا أدرى فاقتصوا أثره وأرسلوا فى طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم تكن تنسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثا ثم قدم المدينة وأبطل الله مكرهم وهذا معنى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا (ليثبتوك) أى يوثقوك ويحبسوك (أو يقتلوك) كلهم قتلة رجل واحد (أو يخرجوك) من مكة (ويمكرون) بك (ويمكر الله) أى يرد مكرهم عليهم بتدبير أمرك بان أوحى اليك ما دبروه وأمرك بالخروج الى المدينة وأخرجهم الى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا (والله خير الماكرين) أى أعلمهم به فلا يؤبه بمكرهم دون مكره قال البيضاوى واسناد أمثال هذا انما يحسن للمزاوجة ولا يجوز اطلاقها ابتداء لما فيه من ايهام الذم اه واعترض عليه بانه لا يتعين فى مثل ذلك المشاكلة بل يجوز أن يكون ذلك استعارة لان اطلاق المكر على اخفاء الله تعالى ما أوعدهم ان استوجبه ان جعل باعتبار أن صورته تشبه صورة المكر فاستعارة أو باعتبار الوقوع فى صحبة مكر العبد فمشاكلة وعلى هذا لا يحتاج كما قال الطيبى الى وقوعه فى صحبة مكر العبد قال ومنه قول على رضى الله عنه من وسع الله تعالى عليه فى دنياه ولم يعلم انه مكر به فهو مخدوع فى عقله (واذا تتلى عليهم آياتنا) أى القرآن (قالوا) أى هؤلاء الذين اتفقوا فى أمره صلى الله عليه وسلم (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم اذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم والا فما منعهم لو كانوا مستطيعين وقرعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا بسورة مع انفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصا فى باب البيان وقيل قائله النضر بن الحارث المقتول صبرا لانه كان يأتى الحيرة يتجر فيشترى كتب أخبار العجم ويحدث بها أهل مكة واسناده الى الجميع اسناد ما فعله رئيس القوم اليهم فكانه كان قاضيهم وقد أسره المقداد يوم بدر فامر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فقال المقداد أسيرى يا رسول الله فقال انه كان يقول فى كتاب الله

الايجاد اذ الموجد له حقيقة هو الله تعالى واثباته لهم وله باعتبار الكسب والصورة وقوله يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا

تعالى

تعالى ما يقول فعاد المقداد لمقولته فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أغن المقداد من فضلك فقال ذلك الذي أردت يا رسول الله فقتله النبي صلى الله عليه وسلم فانشدت أخته

ما كان ضرك لو مننت وربما • من الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه (ان) اى ما (هذا) اى القرآن (الا أساطير الاولين) اى أخبار الامم الماضية وأسماؤهم وما سطر الاولون في كتبهم والاساطير جمع أسطورة وهي المكتوبة من قولهم سطرت اى كتبت وقيل أساطير جمع أسطور وأسطار جمع سطر (واذ قالوا اللهم ان كان هذا) اى الذي يقرؤه محمد (هو الحق) المنزل (من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) اى مؤلم على انكاره غير الحجارة قاله النضر وغيره استهزاء وايهاما انه على بصيرة وجزم ببطلانه وعن معاوية رضي الله عنه انه قال لرجل من سبا ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة قال أجهل من قومي قومك قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وما قالوا ان كان هذا هو الحق فاهدنا اليه (فان قيل) قد حكى الله تعالى هذه المقالة عن الكفار وهي من حسن نظم القرآن فقد حصلت المعارضة في هذا القدر وأيضا حكى عنهم أنهم قالوا في سورة بني اسرائيل وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآية وذلك أيضا كلام الكفار فقد حصل من كلامهم ما يشبه نظم القرآن وذلك يدل على حصول المعارضة (أجيب) بان الاتيان بهذا القدر لا يكفي في حصول المعارضة لانه كلام قليل لا تظهر فيه وجوه الفصاحة والبلاغة لان أقل ما وقع به التحدي سورة أو قدرها قال الله تعالى (وما كان الله ليعذبهم) اى بما سألوه (وأنت فيهم) اى لان العذاب اذا نزل عم ولم يعذب أمة الا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) اى وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين وعن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه كان في هذه الامة أمانان أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى وأما الاستغفار فهو كائن فيكم الى يوم القيامة فاللفظ وان كان عاما الا أن المراد بعضهم كما يقال قدم أهل البلدة الفلانية على القتال والمراد بعضهم (وما لهم ألا يعذبهم الله) بالسيف بعد خروجك والمستضعفين فنفى تعالى في الآية انه لا يعذبهم ما دام الرسول والمؤمنون فيهم وذكر في هذه الآية انه يعذبهم اذا خرجوا من بينهم وقال الحسن الآية الاولى منسوخة بهذه ورد بان الاخبار لا يدخلها النسخ واختلفوا في هذا العذاب فقال بعضهم لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر وقيل يوم فتح مكة وقال ابن عباس هذا العذاب هو عذاب الآخرة والعذاب الذي نفى عنهم هو عذاب الدنيا ثم بين تعالى ما لاجله يعذبهم فقال (وهم يصدون) اى يمنعون النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين (عن المسجد الحرام) أن يطوفوا به وذلك عام الحديبية ونبه تعالى على انهم يصدونهم لادعائهم أنهم أولياؤه فكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء ثم بين تعالى بطلان هذه الدعوى بقوله تعالى (وما كانوا أولياءه) كما زعموا (ان) أي ما (أولياؤه الا المتقون) أي الذين يحترزون عن المنكرات الذين لا يعبدون فيه غيره وقيل الضمير ان لله (ولكن أكثرهم) أي الناس (لا يعلمون) أن لا ولاية لهم عليه وكأنه

(تولوا عنه) ثنى في الامر وأفرد في النهي تحرزا بالافراد عن الاخلال بالادب من النبي صلى الله

نبه بالاكثر على ان منهم من يعلم و يعاند أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم (وما كان صلاتهم عند البيت) اى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها (الامكاء) اى صفيرا (وتصدية) اى تصفيقا قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون و يصفقون وقال مجاهد كان نفر من بنى عبد الدار يعارضون النبى صلى الله عليه وسلم فى الطواف و يستهزؤن به و يدخلون أصابعهم فى أفواههم و يصفرون و يخلطون عليه طوافه وصلاته فالمكاء جعل الاصابع فى الشدق والتصدية الصفير وقال مقاتل كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد الحرام قام رجلان عن يمينه و رجلان عن يساره يصفران و يصفقان ليخلطوا على النبى صلى الله عليه وسلم صلاته (فذوقوا العذاب) اى عذاب القتل والاسر يوم بدر فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة (بما) اى بسبب ما (كنتم تكفرون) اعتقادا وعملا ولما ذكر تعالى عبادة الكفار البدنية وهى المكاء والتصدية ذكر عقبه عبادتهم المالية التى لا جدوى لها فى الآخرة بقوله تعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم) فى حرب النبى صلى الله عليه وسلم (ليصدوا عن سبيل الله) أى ليصرفوا عن دين الله تعالى نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا منهم أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم أيام بدر عشر جزائر أو فى أبى سفيان استأجر يوم أحد ألفين من العرب سوى من استجاش أى اتخذه جيشا وأنفق عليهم أربعين أوقية والاوقية اثنان وأربعون مثقالا أو فى أصحاب العير فانه لما أصيب قريش يوم بدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرنا ففعلوا (فسينفقونها ثم تكون) اى عاقبة الامر (عليهم حسرة) اى ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه (ثم يغلبون) اى آخر الامر وان كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك كما اتفق لهم فى بدر فانهم أنفقوا مع الكثرة والقوة ولم يغن عنهم شئ من ذلك بل كان وبالا عليهم فانه كان سببا لجراءتهم حتى قدموا اذا ما كان فى الحقيقة الاقوة للمؤمنين (والذين كفروا) أى ثبتوا على الكفر (الى جهنم يحشرون) أى يساقون اليها يوم القيامة فهم فى خزى فى الدنيا والآخرة (فان قيل) لم لم يقل تعالى والى جهنم يحشرون (أجيب) بانه اسلم منهم جماعة كابى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وحكيم بن حزام بل ذكر أن الذين ثبتوا على الكفر يكونون كذلك (ليميز الله الخبيث) اى الفريق الكافر (من الطيب) اى من الفريق المؤمن (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا) أى يجمعه مترا كما بعضه على بعض كقوله تعالى كادوا يكونون عليه لبدا أى لفرط ازدحامهم وقيل ليميز المال الخبيث الذى أنفقه الكافر على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم من المال الطيب الذى أنفقه المؤمن فى جهاد الكفار كانفاق أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما فى نصرة النبى صلى الله عليه وسلم فيركمه جميعا (فيجعله فى جهنم) فى جملة ما يعذبون به كقوله تعالى فتكوى بها جباههم و جنوبهم وظهورهم الآية واللام على هذا متعلقة بتكون من قوله تعالى ثم تكون عليهم حسرة وعلى الاول متعلقة بيحشرون أو يغلبون وقرأ ليميز حمزة والكسائى بضم الياء الاولى وفتح الميم وتشديد الياء الثانية مع الكسر والباقون بفتح الياء الاولى وكسر الميم

الكفار
عليه وسلم عن نهيه
فى قرانه بين اسمه واسم
الله تعالى فى ذكرهما بلفظ
واحد كما روى ان خطيبا

وسكون الياء الثانية وقوله تعالى (أولئك) اشارة الى الذين كفروا (هم الخاسرون) أى الكاملون فى الخسران لانهم خسروا أنفسهم وأموالهم ❊ ولما بين تعالى ضلالهم فى عباداتهم البدنية والمالية أرشدهم الى طريق الصواب فقال (قل) يا محمد (للذين كفروا) كأبى سفيان وأصحابه (ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) أى قل لاجلهم هذا القول وهو ان ينتهوا عن الكفر وقتال النبى صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ما قد سلف من ذلك ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل ان تنتهوا يغفر لكم (وان يعودوا) أى الى الكفر ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم (فقد مضت سنة الاولين) أى باهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على أن الاسلام يجب ما قبله واختلفوا هل الكافر الاصلى مخاطب بفروع الشريعة وهل يسقط عن المرتد ما مضى فى حال ردته كالكافر الاصلى كما هو ظاهر الآية وهل الردة تحبط ما مضى من العبادات قبلها ذهب أصحاب الشافعى رضى الله تعالى عنه الى أنه مخاطب بدليل قوله تعالى ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين الآية وأن المرتد لا تسقط عنه العبادات الفائتة فى الردة تغليظا عليه وان الردة لا تحبط ما مضى وقد تقدم الكلام على ذلك فى المائدة وعن يحيى بن معاذ أنه قال توحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر أرجو أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب ❊ ولما بين تعالى أن هؤلاء الكفار ان انتهوا عن كفرهم حصل لهم الغفران وان عادوا فهم متوعدون بسنة الاولين أتبعه بالامر بقتالهم اذا أصروا فقال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أى شرك كما قاله ابن عباس وقال الربيع حتى لا يفتتن أحد كم عن دينه لان المؤمنين كانوا يفتنون عن دين الله فى مبدا الدعوة فافتتن من المسلمين بعضهم وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا الى الحبشة وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة توامرت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم فاصاب المؤمنين جهد شديد فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة (ويكون الدين كله) خالصا (لله) تعالى وحده لا يعبد غيره (فان انتهوا) عن الكفر (فان الله بما يعملون بصير) أى فيجازيهم به (وان تولوا) عن الايمان (فاعلموا ان الله مولاكم) أى ناصركم ومتولى أموركم (نعم المولى) هو فانه لا يضيع من تولاه (ونعم النصير) أى الناصر فلا يغلب من ينصره فمن كان فى حماية هذا المولى وفى حفظه وكفايته كان آمنا من الآفات مصونا عن المخافات (واعلموا أنما غنمتم) أى أخذتم من الكفار الحربيين (من شئ) مما يقع عليه اسم شئ مما هو لهم ولو اختصاصا (فأن لله خمسه وللرسول) واعلم أن الغنيمة والفئ اسمان لما يصيبه المسلمون من الحربيين والصحيح أنهما مختلفان فالفئ ما حصل لنا مما هو لهم بلا ايجاف كجزية وعشر تجارة وما جلوا عنه ولو لغير خوف كضر أصابهم وتركة مرتد وكافر معصوم بلا وارث وكذا الفاضل عن وارث له غير حائز وسيأتى حكمه ان شاء الله تعالى عند قوله تعالى ما أفاء الله على رسوله وأما الغنيمة فهى ما حصل لنا منهم مما هو لهم بايجاف أو سرقة أو التقاط وكذا ما انهزموا عنه عند التقاء الصفين ولو قبل شهر السلاح أو أهداه الكافر لنا والحرب قائمة ولم تحل الغنائم لاحد قبل الاسلام بل كانت الانبياء اذا غنموا مالا جمعوه فتأتى نار من السماء تأخذه ثم أحلت للنبى

خطب فقال من أطاع الله ورسوله فقد رشد ومن عصاهما فقد غوى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم وكانت في صدر الاسلام مختصة لانه كالمقاتلين كلهم نصرة وشجاعة بل أعظم ثم نسخ ذلك واستقر الامر على أنها تجعل خمسة أقسام متساوية ويؤخذ خمس رقاع ويكتب على واحدة لله أو للمصالح وعلى أربع للغانمين ثم تدرج في بنادق مستوية ويخرج لكل خمس رقعة فما خرج لله أو للمصالح جعل بين أهل الخمس على خمسة أصناف وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه وذكر الله تعالى في الآية للتبرك وأما ما كان له صلى الله عليه وسلم فهو لمصالح المسلمين كسد الثغور وأرزاق علماء بعلوم تتعلق بمصالحنا كتفسير وفقه وحديث ﻫ والصنف الثاني ماذكره الله تعالى بقوله (ولذى القربى) أى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم وبنى المطلب دون من عداهم لاقتصاره صلى الله عليه وسلم في القسم عليهم مع سؤال غيرهم من بنى عميهم نوفل وعبد شمس له ولقوله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وشبك بين أصابعه فيعطون ولو أغنياء ويفضل الذكر على الانثى كالارث لانه عطية من الله تعالى تستحق بقرابة الاب كالارث فلا يعطى أولاد البنات من بنى هاشم والمطلب شيأ لانه صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير وعثمان مع أن أم كل واحد منهما كانت هاشمية ﻫ والصنف الثالث ماذكره الله تعالى بقوله (واليتامى) اليتيم صغير ولو أنثى لخبر لا يتم بعد احتلام لا أب له وان كان له أم وجد ومن فقد أمه فقط يقال له منقطع واليتيم في البهائم من فقد أمه وفي الطير من فقد أباه وأمه ﻫ والصنف الرابع ماذكره الله تعالى بقوله (والمساكين) الصادقين بالفقراء والمسكين من له مال أو كسب لائق به يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه العمر الغالب وقيل سنة كمن يملك أو يكسب سبعة أو ثمانية ولا يكفيه الا عشرة والفقير من لا مال له أوله ذلك ولا يقع موقعا من كفايته كمن يحتاج الى عشرة ولا يملك أو لا يكتسب الا درهمين أو ثلاثة ﻫ والخامس ماذكره الله تعالى بقوله (وابن السبيل) وهو المسافر المحتاج ولا معصية بسفره والاخماس الاربعة الباقية للغانمين وهم من حضر القتال ولو في أثنائه بنية القتال وان لم يقاتل أو حضر بلا نية وقاتل كأجير لحفظ أمتعة وتاجر ومحترف وقوله تعالى (ان كنتم آمنتم بالله) متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا أى ان كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه اليهم واقنعوا بالاخماس الاربعة الباقية فان العلم العملي اذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد لانه مقصود بالعرض والمقصود بالذات هو العمل وقوله تعالى (وما) عطف على بالله (أنزلنا على عبدنا) محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والملائكة والنصر (يوم الفرقان) أى يوم بدر فانه فرق به بين الحق والباطل (يوم التقى الجمعان) أى جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسعة عشر أو لسبعة عشر من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الالف والتسعمائة فهزم الله تعالى المشركين وقتل منهم سبعون وأسر منهم مثل ذلك (والله على كل شئ قدير) فيقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل ذلك بكم ذلك اليوم وقوله تعالى (اذ أنتم بالعدوة الدنيا) أى القربى من المدينة بدل من يوم الفرقان أو من يوم التقى الجمعان أو منصوب باذكروا مقدرا والعدوة الدنيا مما يلى

بئس خطيب القوم أنت هلا قلت ومن يعص الله ورسوله فقد غوى أو أفرد باعتبار عوده الى الله

المدينة (وهم بالعدوة القصوى) أى البعدى من المدينة وهى مما يلى مكة وكان الماء بها
وكان استظهار المشركين من هذا الوجه أشد والقصوى تأنيث الاقصى وكان قياسه قلب
الواو كالدنيا والعليا ولكن لم تقلب تفرقة بين الاسم والصفة فانها تقلب فى الاسم دون الصفة
على الاكثر وقيل بالعكس وعلى الاول القصوى وان كان صفة للعدوة فى الآية كالدنيا
لكن غلب عليها الاسمية لترك الوصف بها فى أكثر الاستعمالات كما قاله ابن جنى فالقصوى
بالواو على القولين شاذ بالنظر الى اسميتها فى الاول والى وصفيتها فى الثانى ومثال الصفة
الخالصة حلوى تأنيث الاحلى فهى بالواو مقيسة على الاول شاذة على الثانى ومثال الاسم
الخالص حزوى اسم مكان فهو بالواو شاذ على الاول مقيس على الثانى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو
العدوة وهى شط الوادى بكسر العين فيهما والباقون بضم العين فيهما وأما الدنيا والقصوى
فأمالهما حمزة والكسائى محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين (والركب) أى
العير التى خرجوا لها التى يقودها أبو سفيان (أسفل منكم) أى أسفل منكم على ساحل
البحر على ثلاثة أميال من بدر وأسفل نصب على الظرفية معناه مكانا أسفل من مكانكم وهو
مرفوع المحل لانه خبر المبتدا (ولو تواعدتم) أنتم والنفير للقتال (لاختلفتم فى الميعاد) وذلك
أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير راغبين فى الخروج وخرج الكفار مرعوبين مما بلغهم
من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لاموالهم فعنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد
لقلتهم وكثرة عدوهم (ولكن) جمع الله تعالى بينهم على هذه الحالة من غير ميعاد (ليقضى الله
أمرا كان مفعولا) فى علمه وهو نصر أوليائه واعزاز دينه واعلاء كلمته وقهر اعدائه وقوله
تعالى (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) بدل من ليقضى أو متعلق بقوله مفعولا
واستعير الهلاك والحياة للكفر والاسلام أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن
مخالطة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ويصدر اسلام من أسلم أيضا عن يقين وعلم بأنه دين الحق
الذى يجب الدخول فيه والتمسك به فان وقعة بدر من الآيات الواضحة التى من كفر بعدها
كان مكابر النفسه مغالطا لها وقرأ نافع والبزى وشعبة بياءين الاولى مكسورة والثانية
مفتوحة والباقون بياء واحدة مشددة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله (وان الله لسميع عليم)
أى يسمع دعاءكم ويعلم حاجتكم وضعفكم ولا تخفى عليه خافية (اذ) أى واذكر يا محمد نعمة الله
عليك اذ (يريكهم الله) أى المشركين (فى منامك) أى نومك (قليلا) فاخبرت أصحابك فسروا
وقالوا رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم حق وصار ذلك سببا لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم
(فان قيل) رؤيا الكثير قليلا غلط فكيف يجوز على الله تعالى (أجيب) بأن الله تعالى يفعل
ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يسئل عما يفعل أو أنه تعالى أراه بعضهم دون بعض فحكم صلى الله
عليه وسلم على أولئك الذين رآهم بانهم قليلون وقال الحسن ان هذه الاراءة كانت فى اليقظة
قال والمراد من المنام العين التى هى موضع النوم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) أى ولو أراكهم
كثيرا لذكرته للقوم ولو سمعوا ذلك لفشلوا أى جبنوا (ولتنازعتم) أى اختلفتم (فى الامر)
أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الفرار والقتال (ولكن الله سلم) أى سلمكم من الفشل
والتنازع فيما بينكم وقيل سلمكم من الهزيمة والقتل (انه) تعالى (عليم) أى بالغ العلم (بذات

وحده لانه الاصل مع ان طاعة الله وطاعة رسوله متلازمتان أو ان الاسم المفرد يأتى فى لغة العرب

الصدور) أي بما في القلوب من الجراءة والجبن والجزع وغير ذلك (وإذ يريكموهم) أيها
المؤمنون (إذ التقيتم في أعينكم قليلا) أي ان الله تعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين يوم
التقوا في القتال ليتأكد في اليقظة ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وأخبر به أصحابه
وتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم ولا يجبنوا عن قتالهم قال ابن مسعود لقد قللوا
في أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبي أتراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا رجلا منهم فقلنا
كم كنتم قال ألفا والضميران مفعولا يرى وقليلا حال من الثاني (ويقللكم في أعينهم) أي
ويقللكم يا معشر المؤمنين في أعينهم أي المشركين لئلا يهربوا وإذا استقلوا عدد المسلمين
لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين قال السدي قال
ناس من المشركين ان العير قد انصرفت فارجعوا فقال أبو جهل الآن إذ برز لكم محمد
وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم إنما محمد وأصحابه أكلة جزور يعني جمعا أكل أي قليل
يشبعهم جزور واحد يضرب مثلا في القلة والأصل الذي لا يعبأ به ثم قال فلا تقتلوهم
واربطوهم بالحبال أراد بقوله ذلك القدرة والقوة (فإن قيل) كيف يمكن تقليل الكثير
وتكثير القليل (أجيب) بأن ذلك ممكن في قدرة الله تعالى وان الله تعالى على ما يشاء قدير
ويكون ذلك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم والمعجزة هي من خوارق العادات فلا ينكر ذلك
أو أن الله تعالى يستر عنهم بعضه بساتر أو يحدث في أعينهم ما يستقلون له الكثير كما أحدث
في عيون الحول ما يرون له الواحد اثنين قيل لبعضهم ان الأحول يرى الواحد اثنين وكان بين
يديه ديك قال فمالي لا أرى هذين الديكين أربعة وهذا قبل التحام القتال فلما التحم أراهم
إياهم مثليهم كما في آل عمران (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) أي في علمه وهو إعلاء كلمة الإسلام
ونصر أهله (فإن قيل) قد تقدم ذلك في الآية المتقدمة فكان ذكره هنا محض تكرار
(أجيب) بأن المقصود من ذكره في الآية المتقدمة هو انه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل
استيلاء المؤمنين على الكافرين على وجه يكون معجزة دالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم
والمقصود من ذكره هنا ليس هو ذلك المعنى بل المقصود أنه تعالى ذكر هنا أنه قلل عدد
المؤمنين في أعين الكفار فبين تعالى أنه إنما فعل ذلك ليصير ذلك سببا لئلا يبالغ الكفار
في تحصيل الاستعداد والحذر فيصير ذلك سببا لانكسارهم (وإلى الله ترجع الأمور) كلها
فلا ينفذ إلا ما يريد إنفاذه فلا تجري الأمور على ما يظنه العباد وفي هذا تنبيه على ان أمور الدنيا
غير مقصودة وإنما المراد منها ما يصلح ان يكون زاد اليوم المعاد ولما ذكر تعالى أنواع
نعمه على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم إذا التقوا بالفئة وهي الجماعة
من المحاربين نوعين من الأدب بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم) أي قاتلتم لأن اللقاء
سبب للقتال غالبا (فئة) أي جماعة كافرة (فاثبتوا) لقتالهم كما ثبتم في بدر ولا تحدثوا أنفسكم
بفرار هذا هو النوع الأول (واذكروا الله كثيرا) بقلوبكم وألسنتكم قال ابن عباس
أمر الله تعالى أولياءه بذكره في أشد أحوالهم تنبيها على ان الإنسان لا يجوز له أن يخلو قلبه
ولسانه عن ذكر الله ولو ان رجلا أقبل من المشرق الى المغرب على ان ينفق الأموال سخاء
والآخر من المغرب الى المشرق يضرب بسيفه في سبيل الله لكان الذاكر لله أعظم أجرا وقيل

ويراد به الاثنان والجمع
كقولهم انعام فلان
ومعروفه ينفعني والانعام
والمعروف لا ينفع مع ذلك

المراد

المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر لان ذلك لا يحصل الا بمعونة الله تعالى (لعلكم تفلحون) أى تظفرون بمرادكم من النصر والثبوت (فان قيل) هذه الآية توجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز (أجيب) بان المراد من الثبات الجد فى المحاربة بل كان الثبات فى هذا المقصود لا يحصل الا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكدا لذلك (وأطيعوا الله ورسوله) فى سائر ما يأمران به لان الجهاد لا ينفع الا مع التمسك بسائر الطاعات (ولا تنازعوا) أى تختلفوا فيما بينكم (فتفشلوا) أى تجبنوا (وتذهب ريحكم) أى قوتكم ودولتكم والريح مستعارة للدولة شبهها فى نفوذ أثرها بالريح ثم ادخل المشبه فى جنس المشبه به ادعاء وأطلق اسم المشبه به على المشبه وقيل المراد بها الحقيقة لانه لم يكن قط نصر الا بريح يبعثها الله تعالى وفى حديث الشيخين نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود (واصبروا) أى عند لقاء العدو ولا تنهزموا عنه (ان الله مع الصابرين) بالنصر والمعونة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الاحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم) أى ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها (بطرا) أى فخرا وطغيانا فى النعمة وذلك ان النعم اذا كثرت من الله تعالى على العبد فان صرفها فى المفاخرة على الاقران وكاثر بها أبناء الزمان وانفقها فى غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر فى النعمة وان صرفها فى طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها (ورئاء الناس) أى ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك انهم لما بلغوا الجحفة وأتاهم رسول أبى سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم فقال أبو جهل لا والله حتى نقدم بدرا وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم فيها سوق فى كل عام ونشرب بها الخمور وتعزف علينا القينات والعزف اللعب بالمعازف وهى الدفوف وغيرها مما يضرب به قاله ابن الاثير وغيره والقينات الجوارى ونطعم بها من حضرنا من العرب فذلك بطرهم ورياؤهم الناس باطعامهم فوافوها فسقوا المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القينات فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين وأمرهم ان يكونوا أهل تقوى واخلاص من حيث ان النهى عن الشئ أمر بضده (ويصدون عن سبيل الله) أى ويمنعون الناس الدخول فى دين الله (والله بما يعملون محيط) لا يخفى عليه شئ لانه محيط باعمال العباد كلها فيجازيهم باعمالهم (واذ) أى واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم اذ (زين لهم) أى المشركين (الشيطان) أى ابليس (أعمالهم) الخبيثة بان شجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج من أعدائهم بنى بكر بن الحرث جاء ابليس وجند من الشياطين معه راية فتمثل لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكنانى وكان من أشرافهم (وقال) غارا لهم فى أنفسهم (لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم) أى مجير لكم من كنانة

وعلى ذلك قوله تعالى والله ورسوله أحق ان يرضوه (قوله ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا

(فلما تراءت الفئتان) أى التقى الفريقان رأى ابليس الملائكة قد نزلوا من السماء علم عدو الله ابليس أنهم لا طاقة لهم بهم (نكص على عقبيه) قال الضحاك ولى مدبرا وقال النضر بن شميل رجع القهقرى على قفاه هاربا (وقال انى برىء منكم) قال الكلبى لما التقى الجمعان كان ابليس فى صف المشركين على صورة سراقة بن مالك وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله ابليس على عقبيه فقال له الحرث الى أين أتخذلنا فى هذه الحالة فقال له عدو الله ابليس (انى أرى مالا ترون) ودفع فى صدر الحرث وانطلق فانهزموا قال الحسن رأى ابليس جبريل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وفى يده اللجام يقود الفرس ماركب قال قتادة قال ابليس انى أرى مالا ترون وصدق وقال (انى أخاف الله) وكذب والله مابه مخافة الله ولكن علم أنه لاقوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم وذلك من عادة عدو الله ابليس لعنه الله لمن أطاعه اذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقال عطاء خاف ابليس ان يهلكه الله تعالى فيمن يهلك وقيل أخاف الله عليكم وقيل انه لما رأى جبريل خافه وقيل لما رأى الملائكة تنزل من السماء خاف أن يكون الوقت الذى أنظر اليه قد حضر فقال ما قال اشفاقا على نفسه ولما انهزموا وبلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وقوله تعالى (والله شديد العقاب) يجوز أن يكون من كلام ابليس أى انى أخاف الله لانه شديد العقاب وأن يكون مستأنفا أى والله شديد العقاب لمن خالفه وكفر به (فان قيل) كيف يقدر ابليس أن يتصور بصورة البشر واذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطانا (أجيب) بان الله تعالى أعطاه قوة وأقدره على فعل ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنية لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما رؤى ابليس يوما فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة وما ذاك الا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام الا ما كان من يوم بدر (اذ) أى واذكر اذ (يقول المنافقون) أى من أهل المدينة والمنافق هو من يظهر الاسلام ويخفى الكفر كما أن المرائى هو من يظهر الطاعة ويخفى المعصية (والذين فى قلوبهم مرض) أى شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالاسلام ولم يقع الاسلام فى قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج قريش الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم الى بدر فلما نظروا الى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا (غر هؤلاء) المسلمين (دينهم) اذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهما أنهم ينصرون بسببه فقتلوا جميعا منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وعدى بن أمية بن خلف الجمحى والعاص بن أمية بن الحجاج قال تعالى فى جوابهم (ومن يتوكل على الله) أى يثق به يغلب (فان الله عزيز) أى غالب على أمره (حكيم) أى فى صنعه يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن ادراكه ولما شرح تعالى أحوال هؤلاء الكفار شرح أحوال موتهم والعذاب الذى يصل اليهم فى ذلك الوقت بقوله تعالى (ولو ترى) أى عاينت وشاهدت يا محمد (اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) أى يقبض أرواحهم عند الموت (يضربون وجوههم وأدبارهم) أى ظهورهم وأستاههم قال البيضاوى ولعل المراد

وهم معرضون) معناه ولو علم الله فيهم ايمانا فى المستقبل لاسمعهم سماع فهم وقبول أولا لأنطقهم

تعميم الضرب أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر بمقامع من حديد (و) يقولون لهم (ذوقوا عذاب الحريق) أي النار قال ابن عباس كان المشركون اذا أقبلوا بوجوههم الى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف واذا ولوا ضربوا أدبارهم فلا جرم قابلهم الله بمثله في وقت نزع الروح وجواب لو محذوف والتقدير لرأيت منظرا هائلا وأمرا فظيعا وعقابا شديدا والملائكة مرفوعة بالفعل ويضربون حال منهم ويجوز أن يكون في قوله يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر (ذلك) أي الذي نزل بكم من القتل والضرب والحريق (بما) أي بسبب ما (قدمت) أي كسبت (أيديكم) من الكفر والمعاصي وانما عبر بالايدي دون غيرها لان أكثر الافعال تزاول بها والتحقيق ان الانسان جوهر واحد وهو الفعال وهو الدراك وهو المؤمن وهو الكافر وهو المطيع وهو العاصي وهذه الاعضاء آلة له وأدوات في الفعل فأضيف الفعل في الظاهر الى الآلة وهو في الحقيقة مضاف الى جوهر ذات الانسان (وأن الله ليس بظلام للعبيد) فلا يعذب أحدا من خلقه بغير ذنب وظلام للتكثير لاجل العبيد أي انه بمعنى ذي ظلم (كدأب) أي دأب هؤلاء الكفار بكفرهم مثل دأب (آل فرعون) وهو عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه فجوزي هؤلاء بالقتل والاسر يوم بدر كما جوزي آل فرعون بالاغراق وأصل الدأب في اللغة ادامة العمل يقال فلان دأب في كذا أي داوم عليه وسميت العادة دأبا لان الانسان مداوم على عادته مواظب عليها (والذين من قبلهم) أي من قبل آل فرعون وقوله تعالى (كفروا بآيات الله) تفسير لدأب آل فرعون (فأخذهم الله بذنوبهم) أي بسبب كفرهم كما أخذ هؤلاء (ان الله قوي) أي على ما يريده فينتقم ممن كفر وكذب رسله (شديد العقاب) لمن كفر وكذب رسله وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما حل بهم من العقاب (بأن) أي بسبب أن (الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم) أي مبدلا لها بالنقمة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) أي بأن يبدلوا ما بهم من الحال الى حال أسوأ منه (فان قيل) فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله تعالى نعمته عليهم ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها الى حال مسخوطة (أجيب) بأنه تعالى كما يغير الحال المرضية الى المسخوطة يغير الحال المسخوطة الى أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كفرة عبدة أوثان فلما بعث اليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في اراقة دمه غيروا حالهم الى أسوأ مما كانت عليه فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الامهال وعاجلهم بالعذاب (وأن الله سميع) لما يقولون (عليم) بما يفعلون (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم) أي أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ كذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون) أي هو وقومه (فان قيل) ما فائدة تكرير هذه الآية مرة ثانية (أجيب) بان فيها فوائد منها أن الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الاول لان الكلام الاول فيه ذكر أخذهم وفي الثاني ذكر اغراقهم وذلك تفصيل ومنها أنه ذكر في الآية الاولى انهم كفروا بآيات الله وفي الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ففي الآية الثانية اشارة الى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها ومنها أن تكرير هذه القصة للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله بآيات ربهم وبيان ما أخذ به آل فرعون ومنها أن الاولى لسببية الكفر والثانية لسببية

الموتى يشهدون بصدق نبوتك كما طلبوا أو لو أسمعهم أو انطق لهم الموتى يشهدون بما ذكر بعد ان علم ان لا خير

التغيير والنعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم (وكل) أي من الفرق المكذبة أو من غرقى القبط وقتلى قريش (كانوا ظالمين) أنفسهم بالكفر والمعاصي وغيرهم بالاضلال واضعين الآيات في غير موضعها وهم يظنون بأنفسهم العدل ولما وصف تعالى كل الكفار بقوله تعالى وكل كانوا ظالمين أفرد بعضهم بمزية في الشر والفساد فقال (ان شر الدواب عند الله) في حكمه وعلمه (الذين كفروا) أي أصروا على الكفر (فهم لا يؤمنون) أي لا يتوقع منهم ايمان وقوله تعالى (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) بدل البعض من الذين كفروا وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمالؤا أي يساعدوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا نسينا وأخطأنا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤا معهم يوم الخندق وانطلق كعب بن الاشرف الى أهل مكة فحالفهم وانما جعلهم الله تعالى شر الدواب لان شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون منهم وشر المصرين الناكثون العهود (وهم لا يتقون) الله في غدرهم (فاما) فيه ادغام ان الشرطية في ما الزائدة (تثقفنهم) أي تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وظفرت بهم (في الحرب فشرد) قال ابن عباس فنكل (بهم) أي بهؤلاء الذين نقضوا العهد (من خلفهم) أي من وراءهم من أهل مكة واليمن وغيرهم فيخافون أن تفعل بهم كفعل هؤلاء وقال عطاء أثخن فيهم القتل حتى يخاف غيرهم (لعلهم) أي الذين خلفهم (يذكرون) أي يتعظون بهم (واما تخافن) أي تعلمن يا محمد (من قوم) عاهدتهم (خيانة) في العهد بامارات تلوح لك كما ظهر من قريظة والنضير (فانبذ) أي اطرح عهدهم (اليهم) وقوله تعالى (على سواء) حال أي مستويا أنت وهم في العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به لئلا يتهموك بالغدر اذا نصبت الحرب معهم (ان الله لا يحب الخائنين) أي في نقض العهد أو غيره روى ان معاوية كان بينه وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم حتى اذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس او برذون وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرا فاذا هو عمرو ابن عبسة فأرسل اليه معاوية يسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ اليهم على سواء فرجع معاوية قال الرازي حاصل الكلام في هذه الآية أنه تعالى أمره بقتل من ينقض العهد على أقبح الوجوه وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه قال أهل العلم اذا ظهرت آثار نقض العهد ممن عاهدهم الامام من المشركين بامر ظاهر مستفيض اما أن يظهر ظهورا محتملا أو ظهورا مقطوعا به فان كان الاول وجب الاعلام عليه على ما هو مذكور في هذه الآية وذلك أن قريظة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم فحصل للنبي صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وبأصحابه فههنا يجب على الامام أن ينبذ اليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فههنا لا حاجة الى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم باهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم الا جيش النبي صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وذلك على أربعة فراسخ من مكة ولما بين تعالى ما يفعله صلى الله عليه وسلم في حق من يجده في الحرب

فيهم لتولوا وهم معرضون لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وتقدم في البقرة الكلام على الجمع بين

ويتمكن منه وذكر أيضا ما يجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد بين أيضا حال من فاته في يوم بدر وغيره لكي لا تبقى حسرة في قلبه فقد كان فيهم من بلغ في أذية النبي صلى الله عليه وسلم مبلغا عظيما بقوله تعالى (ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا) أي خلصوا من القتل والأسر يوم بدر (انهم لا يعجزون) الله أي لا يفوتونه بهذا السبق في الانتقام منهم اما في الدنيا بالقتل واما في الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منه فاعلمه الله تعالى انهم لا يعجزونه وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص يحسبن بالياء على الغيبة على أن الفعل للذين كفروا والباقون بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرد من صدر منه نقض العهد الى من خاف منه النقض واتفق لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم في هذه الآية بالاعداد لهؤلاء الكفار بقوله تعالى (وأعدوا لهم) أي لقتالهم (ما استطعتم من قوة) الاعداد اتخاذ الشئ لوقت الحاجة اليه وفي المراد بالقوة أقوال الاول الرمي وقد جاءت مفسرة به عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم ألا ان القوة الرمي ثلاثا أخرجه مسلم وعن أبي أسيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش وصفوا لنا اذا أكثبوكم فعليكم بالنبل وفي رواية ليس من اللهو محمود الا ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبة أهله ورميه بقوسه أي نبله فانهن من الحق ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فانها نعمة تركها أو كفرها أخرجه الترمذي والثاني انها الحصون والثالث انها جميع الاسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوكم وقوله تعالى (ومن رباط الخيل) مصدر بمعنى حبسها في سبيل الله سواء كانت ذكورا أو اناثا وقال عكرمة المراد الاناث وروى عن خالد بن الوليد انه قال لا يركب في القتال الا الاناث لقلة صهيلها وعن ابن محيريز انه قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف واناث الخيل عند البيات والغارات وقيل ربط الفحول أولى لانها أقوى على الكر والفر ويدل للاول ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وبوله وروثه في ميزانه يوم القيامة يعني حسناته وعن عروة البارقي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والمغنم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما أنزل علي فيها الا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (ترهبون) أي تخوفون (به) أي بتلك القوة أو بذلك الرباط (عدو الله وعدوكم) أي الكفار من أهل مكة وغيرهم وذلك ان الكفار اذا علموا ان المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الاسلحة وآلات الحرب واعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الاسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار في الاسلام أو بذل الجزية للمسلمين (و) ترهبون (آخرين من دونهم) أي غيرهم وهم المنافقون لقوله تعالى (لا تعلمونهم) لانهم معكم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم (الله يعلمهم) أي انهم منافقون (فان قيل) المنافقون لا يخافون

التولي والاعراض (قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ان قلت قد عذبهم يوم بدر والنبي فيهم

القتال فكيف يوجب ماذكر الارهاب (أجيب) بان المنافقين اذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويقطع طمعهم من أن يصيروا غالبين فيحملهم ذلك على أن يتركوا الكفر من قلوبهم وبواطنهم ويصيروا مخلصين فى الايمان وقيل هم اليهود وقيل الفرس (وما تنفقوا من شئ) وان قل (فى سبيل الله) أى طاعته جهادا كان أو غيره (يوف اليكم) قال ابن عباس أجره أى لا يضيع فى الآخرة أجره ويعجل الله عوضه فى الدنيا (وأنتم لا تظلمون) أى لا تنقصون من الثواب ولما سئل ابن عباس عن هذا التفسير تلا قوله تعالى آتت أكلها ولم تظلم منه شيأ * ولما بين تعالى ما يرهب به العدو من القوة والاستظهار بين جواز الصلح بقوله تعالى (وان جنحوا) أى مالوا (للسلم) أى الصلح (فاجنح) أى مل (لها) وعاهدهم وتأنيث الضمير فى لها لحمل السلم على نقيضه مع انه مذكر على ضده وهو الحرب قال الشاعر

السلم تأخذ منها ما رضيت به * والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

فانث ضمير السلم فى تأخذ حملا على ضده وهو الحرب وعن ابن عباس هذه الآية منسوخة بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وعن مجاهد بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقال غيرهما الصحيح ان الامر موقوف على ما يرى فيه الامام صلاح الاسلام وأهله من حرب أو سلم وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا أو يجابوا الى الهدنة أبدا وهذا ظاهر وقرأ شعبة بكسر السين والباقون بالفتح (وتوكل على الله) أى فوض أمرك اليه فيما عقدته معهم ليكون عونا لك فى جميع أحوالك (انه هو السميع) لاقوالهم فهو يسمع كل ما أبرموه فى ذلك وفى غيره كما يسمعه علانية (العليم) بنياتهم فهو يعلم كل ما أخفوه كما انه يعلم كل ما أعلموه (وان يريدوا) أى الكفار (أن يخدعوك) أى باظهار الصلح ليستعدوا لك (فان حسبك) أى كافيك (الله هو الذى أيدك بنصره) فى سائر أيامك فان أمر النبى صلى الله عليه وسلم من أول حياته الى وقت وفاته كان أمرا الهيا وتدبيرا علويا وما كان لكسب الخلق فيه مدخل (و) أيدك (بالمؤمنين) أى الانصار (فان قيل) فاذا كان الله تعالى مؤيده بنصره فأى حاجة مع نصره تعالى الى المؤمنين (أجيب) بان التأييد ليس الا من الله تعالى دائما لكنه على قسمين أحدهما ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة والثانى ما يحصل بذلك فالاول هو المراد من قوله تعالى أيدك بنصره والثانى هو المراد من قوله تعالى وبالمؤمنين والله تعالى هو مسبب الاسباب وهو الذى أقامهم بنصره ثم بين تعالى كيف أيده بالمؤمنين بقوله تعالى (وألف) أى جمع (بين قلوبهم) وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث الى قوم أنفتهم شديدة وحميتهم عظيمة حتى لو أن رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتلت عنه قبيلته حتى يدركوا ثاره ثم انهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أباه وأخاه وابنه واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا وأعوانا فازالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية مما لا يقدر عليها الا الله تعالى وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى (لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) أى تناهت عداوتهم الى حد لو أنفقت فى اصلاح ذات بينهم ما فى الارض من الاموال لم تقدر على الالفة والصلاح بينهم (ولكن الله ألف بينهم) بقدرته البالغة فانه تعالى المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء (انه) أى الله تعالى (عزيز) أى غالب على أمره

(قلت) المراد وأنت فيهم مقيم بمكة وتعذيبهم يوم بدر انما كان بعد خروجه من مكة والمراد ما كان الله

لا يعصى عليه ما يريد (حكيم) لا يخرج شئ عن حكمته وقيل الآية نزلت فى الاوس والخزرج كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم فانساهم الله تعالى ذلك وألف بين قلوبهم بالاسلام حتى تصادقوا وصاروا أنصارا وما ذلك الا بلطيف صنعه و بليغ قدرته (يا أيها النبى حسبك) أى كافيك (الله) * فان قيل هذا مكرر (أجيب) بانه تعالى لما وعده بالنصر عند مخادعة الاعداء وعده بالنصر والظفر فى هذه الآية مطلقا على جميع التقديرات فلا يلزم حصول التكرار لان المعنى فى الآية الاولى ان أرادوا خداعك كفاك الله تعالى أمرهم والمعنى فى هذه الآية عام فى كل ما يحتاج اليه فى الدين وقوله تعالى (ومن اتبعك من المؤمنين) اما فى محل نصب على المفعول معه كقول الشاعر * فحسبك والضحاك سيف مهند * روى الضحاك بالنصب على انه مفعول معه والمعنى كفاك وكفى أتباعك المؤمنين الله ناصرا أو رفع عطفا على اسم الله تعالى أى كفاك الله وكفى المؤمنون وهذه الآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال وعن سعيد بن جبير أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فتمم الله تعالى به الاربعين فنزلت هذه الآية (يا أيها النبى حرض المؤمنين) أى حثهم (على القتال) للكفار والتحريض فى اللغة كالتحضيض وهو الحث على الشئ (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) منهم (وان يكن منكم مائة) صابرة (يغلبوا ألفا من الذين كفروا) وهذا خبر بمعنى الامر أى ليقاتل العشرون منكم المائتين والمائة الالف وقتال عشرة أمثالكم * (تنبيه) * تقييد ذلك بالصبر يدل على انه تعالى ما أوجب هذا الحكم الا بشرط كونه صابرا قادرا على ذلك وانما يحصل هذا الشرط عند حصول أشياء منها ان يكون شديد الاعضاء قويا جلدا ومنها ان يكون قوى القلب شديد البأس شجاعا غير جبان ومنها أن يكون غير متحرف لقتال أو متحيز الى فئة فان الله تعالى استثنى هاتين الحالتين فى الآيات المتقدمة فعند حصول هذه الشروط كان يجب على الواحد أن يثبت للعشرة (فان قيل) حاصل هذه العبارة المطولة ان الواحد يثبت للعشرة فما الفائدة فى العدول الى هذه العبارة المطولة (أجيب) بان هذا انما ورد على وفق الواقعة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا والغالب ان تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على المائة فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذين العددين وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالتاء على التأنيث والباقون بالياء على التذكير (بانهم) أى بسبب انهم (قوم لا يفقهون) أى جهلة بالله تعالى واليوم الآخر فلا يقاتلوا الطلب ثواب وخوف عقاب انما يقاتلون حمية فاذا صدقتوهم فى القتال لا يثبتون معكم وكان هذا يوم بدر فرض الله تعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين فثقلت على المؤمنين قال عطاء عن ابن عباس لما نزل التكليف بهذه الآية صاح المهاجرون وقالوا يا رب نحن جياع وعدونا شباع ونحن فى غربة وعدونا فى أهليهم ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وعدونا ليس كذلك فنسخها الله تعالى بقوله تعالى (الآن خفف الله عنكم) أيها المؤمنون (وعلم ان فيكم ضعفا) أى فى قتال الواحد للعشرة (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) منهم (وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين) منهم (باذن الله) أى بارادته تعالى فردوا من العشرة الى اثنين فاذا كان المسلمون على قدر النصف

لهم العذاب الذى طلبوه وهو امطار الحجارة وأنت فيهم (قوله وما لهم أن لا يعذبهم الله الآية)

من عدوهم لايجوز أن يفروا وقال عكرمة انما أمر الرجل ان يصبر لعشرة والعشرة لمائة حال
ما كان المسلمون قليلين فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيما
رجل فر من ثلاثة فلم يفر فان فر من اثنين فقد فر (والله مع الصابرين) بالنصر والمعونة فكيف
لايغلبون قال سفيان بن شبرمة وأرى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك * ونزل لما
أخذوا الفداء من أسرى بدر (ما كان) أي ماصح وما استقام (لنبي أن تكون له أسرى) قرأ أبو
عمرو بالتاء على التأنيث والباقون بالياء على التذكير (حتى يثخن في الارض) أي يكثر قتل
الكفار ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولي أهله لان الملك
والدولة انما تقوى وتشتد بالقتل قال الشاعر

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

روى انه صلى الله عليه وسلم أتي يوم بدر بسبعين أسيرا فيهم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم
وعقيل بن أبي طالب فاستشارفيهم فقال أبو بكر رضي الله عنه قومك وأهلك استبقهم لعل الله
تعالى أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك وقال عمر رضي الله عنه كذبوك
وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فان هؤلاء أئمة الكفر وان الله أغناك عن الفداء مكن
عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان لنسيب له فلنضرب أعناقهم وقال عبد الله
ابن رواحة يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارا فقال له
العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ
بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب
رجال حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال من تبعني فانه مني ومن
عصاني فانك غفور رحيم ومثل عيسى في قوله وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ومثلك
يا عمر مثل نوح قال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا ومثل موسى حيث قال ربنا
اطمس على أموالهم ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قول أبي بكر روى انه صلى الله عليه
وسلم قال لعمر يا أبا حفص وكان ذلك أول ما كناه أتأمرني أن أقتل العباس فجعل عمر يقول ويل
لعمر ثكلته أمه ثم قال لاصحابه أنتم اليوم عالة ولا يفلتن أحد منهم الا بفداء أو ضرب عنق فقال
ابن مسعود الا سهيل بن بيضاء فاني سمعته يذكر الاسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم
واشتد خوفي فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا سهيل بن بيضاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
للقوم ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم فقالوا بل نأخذ الفداء
فاستشهدوا باحد وكان فداء الاسارى عشرين أوقية والاوقية أربعون درهما فيكون مجموع
ذلك ألفا وستمائة درهم وقال قتادة كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف قال عمر رضي
الله عنه فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه
يبكيان قلت يارسول الله أخبرني من أي شئ تبكي أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم
أجد بكاء تباكيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد

ان قلت هذا ينافي قوله أولا وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (قلت) لا منافاة لان الاول مقيد بكونه

قوله عشرين أوقية صوابه أربعين بدليل التذليلة وهو كذلك في المواهب اه مصححه

عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة قريبا منه (تريدون) أيها المؤمنون (عرض الدنيا) بأخذ الفداء من المشركين وانما سمى منافع الدنيا عرضا لانه لا ثبات لها ولا دوام فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة (والله يريد) لكم (الآخرة) أى ثوابها بقهركم المشركين ونصركم الدين (والله عزيز) لا يقهر ولا يغلب (حكيم) أى لا يصدر منه فعل الا وهو فى غاية الاتقان قال ابن عباس كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الاسرى فاما منا بعد واما فداء فجعل الله تعالى نبيه والمؤمنين فى أمر الاسرى بالخيار ان شاؤا قتلوهم وان شاؤا فادوهم وان شاؤا أعتقوهم أى فهذه الآية نسخت تلك قال ابن عباس رضى الله عنهما كانت الغنائم حراما على الانبياء والامم وكانوا اذا أصابوا مغنما جعلوه بالقربان وكانت تنزل نار من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون فى الغنائم وأخذوا الفداء فأنزل الله تعالى (لولا كتاب من الله سبق) أى لولا قضاء الله سبق فى اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم (لمسكم) أى لنالكم (فيما أخذتم) أى من الفداء (عذاب عظيم) وقال الحسن ومجاهد لولا كتاب من الله سبق انه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن اسحق لم يكن من المؤمنين أحد الا أحب الغنائم الا عمر بن الخطاب فانه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الاسرى وسعد بن معاذ قال يا رسول الله كان الاثخان فى القتل أحب الى من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ روى لما نزلت هذه الآية كف رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم أن يأخذوا من الفداء فنزلت (فكلوا مما غنمتم) أى من الفداء فانه من جملة الغنائم (حلالا طيبا) فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الامة وقال صلى الله عليه وسلم أحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم أحل لنا الغنائم ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا (فان قيل) ما معنى الفاء فى قوله تعالى فكلوا (أجيب) بأنها سببية والسبب محذوف تقديره أبحت لكم الغنائم فكلوا او بنحوه تشبث من زعم أن الامر الوارد بعد الحظر للاباحة وحلالا حال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا وفائدته ازاحة ما وقع فى نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة ولذلك وصفه بقوله طيبا (واتقوا الله) فى مخالفته (ان الله غفور) غفر ذنوبكم (رحيم) أباح لكم ما أخذتم فقوله تعالى واتقوا الله اشارة الى المستقبل وقوله تعالى ان الله غفور رحيم اشارة الى الحالة الماضية ولما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء من الاسارى وشق عليهم أخذ أموالهم منهم ذكر الله تعالى هذه الآية استمالة لهم فقال عز من قائل (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسارى) قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وفتح السين بعدها ألف والباقون بفتح الهمزة وسكون السين ولا ألف بعدها وأمال الالف بعد الراء أبو عمرو وحمزة والكسائى محضة وورش بين بين (ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا) أى خلوص ايمان وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء قال ابن عباس نزلت فى العباس وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث كان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس فكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لاهل بدر فلم تبلغه النوبة حتى أسر فقال العباس كنت مسلما الا أنهم أكرهونى فقال صلى الله

صلى الله عليه وسلم فيهم والثانى بخروجه عنهم أو المراد بالاول عذاب الدنيا وبالثانى عذاب الآخرة

عليه وسلم ان يكن ماتذكره حقا فالله يجزيك وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا قال العباس وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك ذلك الذهب لى فقال اما شئ خرجت به تستعين به علينا فلا قال فكلفنى فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية وفداء نوفل بن الحرث فقال العباس تركتنى يامحمد أتكفف قريشا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاين مادفعته الى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها ما أدرى مايصيبنى فان حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم فقال العباس ومايدريك يا ابن أخى قال أخبرنى به ربى فقال العباس أنا أشهد انك صادق وأشهد أن لا اله الا الله وانك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد الا الله ولقد دفعته اليها فى سواد الليل ولقد كنت مرتابا فى أمرك فاما اذ أخبرتنى بذلك فلا ريب قال العباس فابدلنى الله خيرا من ذلك لى الآن عشرون عبدا وان أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا وأعطانى زمزم وما أحب ان لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس أن يأخذ منه فاخذ منه ماقدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ منى وأنا أرجو المغفرة من ربكم يعنى الموعودة بقوله تعالى (ويغفر لكم والله غفور رحيم) واختلف المفسرون فى أن الآية نزلت فى العباس خاصة أو فى جملة الاسارى قال بعضهم انها نزلت فى الكل قال الرازى وهذا أولى لان ظاهر الآية يقتضى العموم من ستة أوجه أحدها قوله تعالى قل لمن فى أيديكم وثانيها قوله تعالى من الاسرى وثالثها قوله تعالى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا ورابعها قوله تعالى يؤتكم خيرا وخامسها قوله تعالى مما أخذ منكم وسادسها قوله تعالى ويغفر لكم فدلت هذه الالفاظ الستة على العموم فما الموجب للتخصيص أقصى مافى الباب أن يقال سبب نزول هذه الآية هو العباس الا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (وان يريدوا) اى الاسارى (خيانتك) اى بما أظهروا من القول (فقد خانوا الله) بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعهد (من قبل) أى قبل بدر (فامكن منهم) يبدر قتلا وأسرا فليتوقعوا مثل ذلك ان عادوا (والله عليم) بما فى بواطنهم وضمائرهم من ايمان وتصديق وخيانة (حكيم) اى بالغ الحكمة فهو يتقن كل مايريده فهو يوهن كيدهم ويتقن ما يقابلهم به فيلحقهم لا محالة وكذا فعل تعالى فى أبى عزة الجمحى فانه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى المن عليه بغير شئ لفقره وعياله وعاهده على أنه لا يظاهر عليه أحدا ثم خان فظفر به فى غزوة حمراء الاسد عقب يوم أحد اسيرا فاعتذر له وسأله العفو عنه فقال لا لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين وأمر به فضربت عنقه (ان الذين آمنوا) اى بالله ورسوله (وهاجروا) اى وأوقعوا الهجرة من بلاد الشرك وهم المهاجرون الاولون هجروا أوطانهم وعشائرهم وأحبابهم حبا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم (وجاهدوا) اى وأوقعوا الجهاد وهو بذل الجهد فى توهين الكفر (باموالهم) وكانوا فى غاية العزة فى أول الامر (وأنفسهم) باقدامهم على القتال مع شدة الاعداء وكثرتهم وقدم المال لانه سبب قيام النفس اى بانفاقهم لها فى الجهاد وتضييع بعضها بالهجرة من الديار والنخيل وغيرها وأخر قوله تعالى (فى سبيل الله) لذلك وفى سبيه اى جاهدوا بسببه حتى لا يصد عنه صاد ويسهل المرور فيه من غير قاطع

(قوله وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) أى الا صفيرا وتصفيقا

(والذين آووا) أى من هاجر اليهم من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فاسكنوهم فى ديارهم وقسموا لهم من أموالهم وعرضوا عليهم أن ينزلوا لهم عن بعض نسائهم ليتزوجوهن (ونصروا) اى الله ورسوله والمؤمنين وهم الانصار رضى الله عنهم حازوا هذين الوصفين الشريفين فكانوا فى الذروة من هذين الجنسين ولكن المهاجرون الاولون أعلى منهم لسبقهم فى الايمان الذى هو رئيس الفضائل ولحملهم الاذى من الكفار زمانا طويلا وصبرهم على فرقة الاهل والاوطان وأشار تعالى الى القسمين باداة البعد لعلو مقامهم فقال (اولئك) أى العالو الرتبة (بعضهم اولى ببعض) أى دون أقاربهم من الكفار قال ابن عباس فى الميراث فكانوا يتوارثون بالهجرة فكان المهاجرون والانصار يتوارثون دون ذوى الارحام وكان من امن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة انقطعت الهجرة وتوارثوا بالارحام حيث كانوا وصار ذلك منسوخا بقوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله (والذين آمنوا ولم يهاجروا) أى آمنوا وأقاموا بمكة (ما لكم من ولايتهم من شئ) اى فلا ارث بينكم وبينهم ولا نصيب لهم فى الغنيمة (حتى يهاجروا) أى الى المدينة (وان استنصروكم فى الدين) اى ولم يهاجروا (فعليكم النصر) أى فيجب عليكم أن تنصروهم على المشركين (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) اى عهد فلا تنصروهم عليهم وتنقضوا عهدهم (والله بما تعملون بصير) فى ذلك ترغيب فى العمل بما حث عليه من الايمان والهجرة وغير ذلك مما تقدم وترهيب من العمل باضدادها وفى البصير اشارة الى العلم بما يكون من ذلك خالصا أو مشوبا وفى ذلك مزيد حث على الاخلاص (والذين كفروا بعضهم اولياء بعض) أى فى النصر لان كفار قريش كانوا معادين اليهود فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا وفى الميراث فيرث بعضهم بعضا ولا ارث بينكم وبينهم (الا تفعلوه) أى ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم لبعض حتى فى الميراث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار (تكن) أى تحصل (فتنة) اى عظيمة (فى الارض) بضعف الايمان وقوة الكفر (وفساد كبير) فى الدين ولما تقدمت أنواع المؤمنين المهاجر والناصر والقاعد وذكر أحكام موالاتهم أخذ يبين تفاوتهم فى الفضل بقوله تعالى (والذين آمنوا) أى بالله ورسوله وما أتى به (وهاجروا) فى الله تعالى من يعادى نبيه صلى الله عليه وسلم سابقين (وجاهدوا فى سبيل الله) بما تقدم من المال والنفس وغيرهما فبذلوا الجهد فى اذلال الكفار ولم يذكر آلة الجهاد لانه سبق تقدم ذكرها لازمة (والذين آووا) اى من هاجر اليهم (ونصروا) اى حزب الله (اولئك هم المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (حقا) اى لانهم حققوا ايمانهم بتحقيق مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق ثم وعدهم الموعد الكريم بقوله تعالى (لهم مغفرة) اى لزلاتهم وهفواتهم لان مبنى الآدمى على العجز اللازم عنه التقصير وان اجتهدوا ولن يشاد الدين أحد الا غلبه ولما ذكر تطهيرهم بالمغفرة ذكر تزكيتهم بالرحمة بقوله تعالى (ورزق) اى من الغنائم وغيرها فى الدنيا والآخرة (كريم) اى لا تبعة ولا منة فيه ثم الحق بهم فى الامرين من يتلوهم ويتسم بسمتهم بقوله تعالى (والذين آمنوا من بعد) اى بعد السابقين الى الايمان والهجرة (وهاجروا) اى لاحقين للسابقين وعن ابن عباس رضى الله عنهما انهم من هاجر بعد الحديبية قال وهى

(قوله واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا) (ان قلت) فائدة تقليل الكفار فى أعين المؤمنين

الهجرة الثانية (وجاهدوا معكم) اى من تجاهدونه من حزب الشيطان (فأولئك منكم) أى من جملتكم ايها المهاجرون والانصار فلهم مالكم وعليهم ما عليكم من المواريث والمغانم وغيرها الا ان الوصف الجامع هو المدار للاحكام وان تأخرت رتبتهم عنكم بما أفهمته أداة البعد (وأولوا الارحام) أى ذووا القرابات (بعضهم أولى ببعض) قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية فبين الله تعالى بها ان سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والاخاء ونسخ بها ذلك التوارث وقوله تعالى (فى كتاب الله) اى فى حكمه فى اللوح المحفوظ أو القرآن وتمسك أصحاب أبى حنيفة رحمه الله تعالى بهذه على توريث ذوى الارحام واجاب عنه الشافعى رضى الله تعالى عنه بأنه لما قال فى كتاب الله كان معناه فى حكم الله الذى بينه فى سورة النساء فصارت هذه السورة مقيدة بالاحكام التى ذكرها فى سورة النساء فى قسمة المواريث واعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقى فللعصبات فوجب أن يكون المراد من هذا هو ذلك فقط فلا يتعدى الى توريث ذوى الارحام ثم قال تعالى فى ختم السورة (ان الله بكل شئ عليم) أى ان هذه الاحكام التى ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وصواب وصلاح وليس فيها شئ من العبث والباطل لان العالم بجميع المعلومات لا يحكم الا بالصواب ونظيره ان الملائكة لما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال الله تعالى مجيبا لهم انى أعلم ما لا تعلمون أى كما علمتم بكونى عالما بكل المعلومات فاعلموا أن حكمى يكون منزها عن الغلط فكذا ههنا وقول البيضاوى فى بعض النسخ تبعا للزمخشرى وعن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الانفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برئ من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته فى الدنيا حديث موضوع

سورة التوبة مدنية

الا الآيتين من قوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم وهى آخر ما نزلت وآيها مائة وثلاثون وقيل تسع وعشرون وعدد كلماتها ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة وحروفها عشرة آلاف وثمانمائة وسبعة وثمانون حرفا ولها عدة أسماء التوبة براءة المقشقشة البحوثة المبعثرة المنقرة المثيرة الحافرة المخزية الفاضحة المنكلة المشردة المدمدمة سورة العذاب وانما سميت بذلك لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقشة من النفاق وهى التبرى منه والبحث عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم ولم تكتب فيها البسملة لانه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم وأخرج فى معناه عن على ان البسملة أمان وهى نزلت لرفع الامن بالسيف وعن حذيفة انكم تسمونها سورة التوبة وهى سورة العذاب وروى البخارى عن البراء انها آخر سورة نزلت وقيل كان صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه سورة أو آية بين موضعها فتوفى ولم يبين موضعها وكانت قصتها تشابه قصة الانفال وتناسبها لان فى الانفال ذكر العهود وفى براءة نبذها فضمت اليها قال القاضى ويبعد أن يقال انه عليه الصلاة والسلام لم يبين كون

ظاهر وهى زوال الرعب من قلوب المؤمنين فما فائدة تقليل المؤمنين فى أعين الكفار فى قوله

هذه

هذه السورة تالية لسورة الانفال لان القرآن مرتب من قبل الله تعالى ومن قبل رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نقل ولو جوزنا فى بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله تعالى على سبيل الوحى لجوزنا مثله فى سائر السور وفى آيات السورة الواحدة وذلك يخرجه عن كونه حجة بل الصحيح انه عليه الصلاة والسلام أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الانفال وحيا وانه عليه الصلاة والسلام حذف بسم الله الرحمن الرحيم من هذه السورة وحيا والقول بان قصتها تشابه قصتها وتناسبها افضت الى الصحابة اذ قلنا انهم انما وضعوا هذه السورة من قبل أنفسهم لهذه العلة وقيل ان الصحابة رضى الله عنهم اختلفوا فى أن سورة الانفال وسورة براءة سورة واحدة أم سورتان فقال بعضهم هما سورة واحدة لان كلتيهما نزل فى القتال ومجموعهما هو السورة السابعة من الطوال وهى سبع وما بعدها المئون لانهما معا مائتان وست آيات فهما بمنزلة سورة واحدة ومنهم من قال سورتان فلما ظهر الاختلاف من الصحابة فى هذا تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة وقال بعض أصحاب الامام الشافعى رضى الله عنه لعل الله لما علم من بعض الناس انهم ينازعون فى كون بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن أمر أن لا تكتب ههنا لدل ذلك على كونها آية من كل سورة فانها لما لم تكن آية من هذه السورة وجب كونها آية من كل سورة وقيل غير ذلك والصحيح من هذه الاقوال ما ذهب اليه القاضى من أن القرآن مرتب من قبل الله ومن قبل رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نقل وانه صلى الله عليه وسلم حذف بسم الله الرحمن الرحيم من هذه السورة وحيا وانما ذكرت هذه الاقوال تشحيذا للاذهان وقوله تعالى (براءة) خبر مبتدا محذوف اى هذه براءة وقوله تعالى (من الله ورسوله) من ابتدائية متصلة بمحذوف تقديره واصلة من الله ورسوله ويجوز أن يكون براءة مبتدأ تخصيصها بصفتها والخبر (الى الذين عاهدتم) اى أوقعتم العهد بينكم وبينهم (من المشركين) اى وان كانت معاهدتكم لهم انما كانت باذن من الله ورسوله فكأنما المعاهدة باذنهما فانما فعلوا النقض تبعا لهما ودل سياق الكلام وما حواه من بديع النظام ان العهد انما هو لاجل المؤمنين وأما الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فغنيان عن ذلك أما الله فبالغنى المطلق وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فبالذى اختاره للرسالة لانه ما فعل ذلك الا وهو قادر على نصره بسبب وبغير سبب روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج الى تبوك كان المنافقون يرجفون الاراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فامر الله تعالى بنقض عهودهم وذلك قوله تعالى واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء الآية ونقض العهد بما ذكر فى قوله تعالى (فسيحوا) أى سيروا آمنين أيها المشركون (فى الارض اربعة أشهر) لا يتعرض لكم فيها ولا أمان لكم بعدها وكان ابتداء هذه الاشهر يوم الحج الاكبر وانقضاؤها الى عشر من ربيع الآخر وقال الزهرى هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لانها نزلت فى شوال وقيل عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشرون من شهر ربيع الآخر وكانت حرما لانهم أومنوا فيها او حرم قتلهم وقتالهم او على التغليب لان ذا الحجة والمحرم منها قال البغوى والاول هو الاصوب وعليه الاكثرون اه وقيل العشر من ذى

وبقاءكم فى أعينهم (قلت) فائدته ان لا يبالغوا فى الاستعداد لقتال المؤمنين لظنهم كمال قدرتهم فيقدموا

القعدة الى عشر من شهر ربيع الاول لان الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان فيهم ثم صار في السنة الثانية من ذي الحجة وكان نزولها في سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان وكان الامير فيها عتاب بن أسيد فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه على موسم الحج سنة تسع ثم اتبعه عليا رضي الله عنه راكب العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأها على أهل الموسم فقيل له لو بعثت بها الى أبي بكر فقال لا يؤدي عني الا رجل مني فلما دنا علي من أبي بكر سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصل العضباء المشقوقة الاذن ولم تكن ناقته صلى الله عليه وسلم كذلك ولكن كان ذلك علما عليها والرغاء بالمد صوت ذوات الخف قاله الجوهري فلما لحقه قال أميرا ومامور وروى ان أبا بكر رضي الله عنه لما كان ببعض الطريق هبط جبريل وقال يا محمد لا يبلغن رسالتك الا رجل منك فأرسل عليا رضي الله عنه فرجع أبو بكر رضي الله عنه وقال يا رسول الله أشيء نزل قال نعم فسر وأنت على الموسم وعلي ينادي بالآي فلما كان قبل التروية بيوم خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم وقام علي يوم النحر عند جمرة العقبة فقال أيها الناس اني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين او أربعين آية وعن مجاهد ثلاث عشرة ثم قال أمرت باربع آي بان أخبر وأنادي بها أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولا يطوف به عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وأن يتم الى كل ذي عهد عهده فقالوا عند ذلك أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وانه ليس بيننا وبينه عهد الا طعن بالرماح وضرب بالسيوف ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (فان قيل) قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة لأن يؤدوا عنه كثيرا ولم يكونوا من عترته (أجيب) بان هذا ليس على العموم بل مخصوص بالعهود لان العرب عاداتهم أن لا يتولى العهود ونقضها على القبيلة الا رجل من الاقارب فلو تولاه أبو بكر رضي الله تعالى عنه لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود فربما لم يقبلوا فلم يحتف عليهم بتوليته عليا ذلك ويدل على ذلك ان في بعض الروايات لا ينبغي لاحد أن يبلغ هذا الا رجل من أهلي وقيل لما خص أبا بكر بتولية الموسم خص عليا بهذا التبليغ تطييبا للقلوب ورعاية للجوانب وقيل قرر أبا بكر على الموسم وبعث عليا خليفة لتبليغ هذه الرسالة حتى يصلي خلف أبي بكر ويكون ذلك جاريا مجرى تنبيه على امامة أبي بكر (فان قيل) ما وجه اطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الاشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك (أجيب) بانهم قالوا قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها (واعلموا أنكم غير معجزي الله) اي لا تفوتونه وان أمهلكم (وان الله مخزي الكافرين) أي مذلهم في الدنيا بالقتل والاسر وفي الآخرة بالعذاب (وأذان) أي اعلام واقع (من الله ورسوله الى الناس) اذ الاذان في اللغة الاعلام ومنه الاذان للصلاة فانه اعلام بوقتها وارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين (فان قيل) لم علقت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الاذان بالناس (أجيب) بان البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم وأما الاذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث (يوم الحج الاكبر) أي يوم عيد النحر لان فيه معظم

عليهم ثم تعجزهم كثرة المؤمنين فيدهشوا (قوله ويضجروا ويفشلوا) اى ولا تنازعوا فتفشلوا) اى

أفعاله من طواف ونحر وحلق ورمي يقع فيه ولان الاعلام كان فيه وروى أنه صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في حجة الوداع فقال أي يوم هذا فقالوا يوم النحر فقال هذا يوم الحج الاكبر وروى ان عليا رضي الله عنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاءه رجل فاخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الاكبر فقال يومك هذا خل سبيلها وقيل يوم عرفة لقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقيل أيام منى كلها لان اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقوله يوم صفين ويوم الجمل لان الحرب دامت في هذه الايام ويطلق عليها يوم واحد وقيل هو الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر وانما قيل لها الاصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل وصف بذلك لموافقته حج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة وودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وقيل وصف بذلك لاجتماع أعياد الملل في ذلك اليوم وقيل لانه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين وقوله تعالى (ان الله برىء من المشركين) اى من عهودهم فيه حذف تقديره وأذان من الله ورسوله بان الله برىء من المشركين وانما حذف الجار لدلالة الكلام عليه وقوله تعالى (ورسوله) مرفوع على انه مبتدأ حذف خبره اى ورسوله كذلك وحكى ان اعرابيا سمع رجلا يقرأ ورسوله بالجر فقال ان كان الله برىء من رسوله فانا منه برىء فلببه الرجل الى عمر رضي الله عنه فحكى الاعرابي الواقعة فحينئذ أمر عمر بتعليم العربية وحكى أيضا ان اعرابيا قدم في زمن عمر فقال من يقرئني مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فاقرأه رجل براءة فقال ان الله برىء من المشركين ورسوله بالجر فقال الاعرابي اوقد برئ الله من رسوله ان يكن الله برئ من رسوله فانا برىء منه فبلغ عمر رضي الله عنه مقالة الاعرابي فدعاه فسأله فاخبره الاعرابي بذلك فقال عمر ليس هكذا يا اعرابي فقال وكيف هي يا أمير المؤمنين فقال ان الله برىء من المشركين ورسوله بالرفع فقال وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه فامر عمر أن لا يقرأ القرآن الا عالم باللغة وأمر أبا الاسود الدؤلي فوضع النحو (فان تبتم) اى عن الكفر والغدر (فهو) اى ذلك الامر العظيم وهو المتاب (خير لكم) اى من الاقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله في التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار (وان توليتم) اى أعرضتم عن الايمان والتوبة من الشرك (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) وذلك وعيد عظيم واعلام بان الله تعالى قادر على انزال أشد العذاب بهم كما قال تعالى (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) اى مؤلم وهو القتل والاسر في الدنيا والنار في الآخرة ولفظ البشارة هنا ورد على سبيل الاخبار أو على سبيل الاستهزاء كما يقال تحيتهم الضرب واكرامهم الشتم وقوله تعالى (الا الذين عاهدتم من المشركين) استثناء من المشركين وهم بنو ضمرة حي من كنانة أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه انهم لم ينقضوا كما قال تعالى (ثم لم ينقصوكم شيأ) اى من عهودكم التي عاهدتم عليها (ولم يظاهروا) اى ولم يعاونوا (عليكم أحدا) من عدوكم (فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) اى الى انقضائها ولا تجروهم مجرى الناكثين وقوله تعالى (ان الله

لا تتنازعوا في أمر الحرب والا بان لا تشتغلوا بالمنازعة في اظهار الحق فانه كما لوبة كما قال وجادلهم

يحب المتقين) تعليل وتنبيه على ان اتمام عهدهم من باب التقوى (فاذا انسلخ) اى انقضى
وخرج (الاشهر الحرم) التى حرم الله تعالى عليهم فيها قتالهم وضربت أجلا لسياحتهم
والتعريف مثله فى فارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول والمراد بكونها حرما أن
الله تعالى حرم القتل والقتال فيها وقيل هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم قال
البيضاوى وهذا مخل بالنظم اى نظم الآية اذ نظمها يقتضى توالى الاشهر المذكورة (فاقتلوا
المشركين) اى الناكثين الذين ضربتم لهم هذا الاجل احسانا وكرما (حيث وجدتموهم) اى
فى حل او حرم او فى شهر حرام او غيره (وخذوهم) اى بالاسر (واحصروهم) اى بالحبس عن
اتيان المسجد الحرام والتصرف فى بلاد الاسلام فى القلاع والحصون حتى يضطروا الى
الاسلام او القتل (واقعدوا لهم) اى لاجلهم خاصة فان ذلك من أفضل العبادات (كل
مرصد) اى طريق يسلكونه لئلا ينبسطوا فى البلاد وانتصاب كل على الظرفية كقوله
لاقعدن لهم صراطك المستقيم وقيل بنزع الخافض قال الحسين بن الفضل نسخت هذه
الآية كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على أذى الاعداء (فان تابوا) اى عن
الكفر بالايمان (وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة) تصديقا لتوبتهم وايمانهم فوصلوا ما بينهم
وبين الخالق وما بينهم وبين الخلائق (فخلوا سبيلهم) اى فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشئ من
ذلك وفى هذه الآية دليل على ان تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله لانه ان كان جاحدا
لوجوبهما فهو مرتد والا قتل بترك الصلاة وأخذت منه الزكاة قهرا وقوتل على ذلك كما نقل
عن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر
من كفر من العرب قال عمر لابى بكر رضى الله تعالى عنهما كيف تقاتل الناس وقد قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله فمن
قال لا اله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقها وحسابه على الله فقال أبو بكر والله
لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر والله ما هو الا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر الى
القتال فعرفت أنه الحق (ان الله غفور) اى بليغ المحو للذنوب التى تاب صاحبها عنها (رحيم)
به (وان احد من المشركين) اى الذين أمرت بقتالهم (استجارك) اى طلب أن تعامله فى
الاكرام معاملة الجار بعد انقضاء مدة السياحة (فأجره) اى فأمنه ودافع عنه من يقصده
بسوء (حتى يسمع كلام الله) اى القرآن بسماع التلاوة الدالة عليه فيعلم بذلك ما يدعى اليه من
المحاسن ويتحقق انه ليس من كلام الخلق (ثم) ان أراد الانصراف ولم يسلم (أبلغه مأمنه) اى
الموضع الذى يأمن فيه وهو دار قومه لينظر فى أمره ثم بعد ذلك يجوز لك قتلهم وقتالهم من
غير غدر ولا خيانة قال الحسن هذه الآية محكمة الى يوم القيامة • (تنبيه) • أحد مرفوع
بفعل مضمر يفسره الظاهر وتقديره وان استجارك أحد ولا يجوز أن يرتفع بالابتداء لان ان
من عوامل الفعل فلا تدخل على غيره (ذلك) اى الامر بالاجارة لغرض المذكور (بأنهم) اى
بسبب أنهم (قوم لا يعلمون) اى لا علم لهم لانهم لا عهد لهم بنبوة ولا رسالة ولا كتاب فاذا علموا

او

بالتى هى أحسن (قوله انى أخاف الله) • ان قلت كيف قال الشيطان ذلك مع انه لا يخافه والالما

اوشك أن ينفعهم العلم وقوله سبحانه وتعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) استفهام معناه الجحد اى لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد (الا الذين عاهدتم) اى من المشركين (عند المسجد الحرام) يوم الحديبية وهم المستثنون قبل (فما استقاموا لكم) اى أقاموا على العهد ولم ينقضوه (فاستقيموا لهم) اى على الوفاء وهو كقوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم غير انه مطلق وهذا مقيد وما تحتمل الشرطية والمصدرية (ان الله يحب المتقين) اى من اتقى يوفى بعهده لمن عاهد وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوه باعانة بنى بكر على خزاعة وقوله تعالى (كيف) تكرار للاستبعاد بثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما اى كيف يكون لهم عهد ثابت (وان) اى والحال أنهم مضمرون لكم الغدر والخيانة فهم ان (يظهروا عليكم) اى يظفروا بكم بعد العهد والميثاق (لا يرقبوا) اى لا يراعوا (فيكم) اى فى أذاكم بكل جليل وحقير (الا) اى قرابة محققة قال حسان

لعمرك ان الك من قريش ۞ كال السقب من رأل النعام

السقب ولد الناقة والرأل ولد النعامة والخطاب فى لعمرك لابى سفيان اى لا قرابة بينك وبين قريش كما لا قرابة بين ولد الناقة وولد النعامة وقيل الاالها وقيل جبريل ٣ (ولا ذمة) اى عهدا بل يؤذوكم ما استطاعوا وقوله تعالى (يرضونكم بافواههم) اى بكلامهم كلام مبتدا فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد (وتأبى قلوبهم) اى عن الوفاء به لمخالفة ما فيها من الاضغان (وأكثرهم فاسقون) اى راسخو الاقدام فى الفسق (فان قيل) الموصوفون بهذه الصفة كفار والكفر أقبح وأخبث من الفسق فكيف يحسن وصفهم بالفسق فى معرض المبالغة فى الذم وأيضا الكفار كلهم فاسقون فلا يبقى لقوله وأكثرهم فائدة (اجيب) بان الكافر قد يكون عدلا فى دينه فلا ينقض العهد وقد يكون فاسقا خبيث النفس فى دينه فينقضه فالمراد بالفسق هنا نقض العهد وكان فى المشركين من وفى بعهده فلهذا قال وأكثرهم اى ان هؤلاء الكفار الذين من عادتهم نقض العهد أكثرهم فاسقون فى دينهم وعند اقوامهم وذلك يوجب المبالغة فى الذم وقال ابن عباس لا يبعد أن يكون بعض أولئك الكفار قد أسلم وتاب فلهذا السبب قال وأكثرهم فاسقون حتى يخرج من هذا الحكم أولئك الذين دخلوا فى الاسلام (اشتروا) اى استبدلوا (بآيات الله) اى القرآن (ثمنا قليلا) أى عرضا يسيرا من الدنيا وهو اتباع الاهواء والشهوات مع مصاحبة الكفر وذلك ان أبا سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم فنقض العهد الذى بينهم بسبب تلك الاكلة (فصدوا) اى فتسبب لهم ذلك وأداهم الى أن صدوا (عن سبيله) أى منعوا الناس من الدخول فى دينه (انهم ساء) أى بئس (ما كانوا يعملون) أى عملهم هذا وما دل عليه قوله تعالى (لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة) فهو تفسير لا تكرير وقيل الاول عام فى المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود والاعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم (وأولئك) أى هؤلاء البعداء من كل خير (هم المعتدون) الذين تعدوا ما حده الله لهم فى دينه وما يوجبه العقد والعهد ولما بين تعالى حال من لا يرقب فى الله الا ولا ذمة و ينقض العهد و ينطوى على النفاق و يتعدى ما حده الله تعالى له بين ما

خالفه وأضل عشيرة (قلت) قاله كذبا كما قاله قتادة أو صدقا كما قاله عطاء لكنه خالف عنادا أو ۞

٣ قوله وقيل جبريل هكذا بالنسخ التى بايدينا وعبارة الكشاف وقيل إلا الها وقرئ ايلا بمعناه وقيل جبرئيل وجبرئل من ذلك اه وعبارة البيضاوى وقيل انه عبرى بمعنى الاله لانه قرئ ايلا كجبرئل وجبرئيل اه وبذلك علم ما فى عبارته من تحريف النساخ اه مصححه

يصيرون به من أهل دينه بقوله تعالى (فان تابوا) أى رجعوا عن الشرك الى الايمان وعن نقض العهد الى الوفاء به (وأقاموا الصلوة) أى المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها (وآتوا الزكاة) المفروضة عليهم طيبة بها أنفسهم (فاخوانكم) أى فهم اخوانكم (فى الدين) لهم مالكم وعليهم ما عليكم وقوله تعالى (ونفصل الآيات لقوم يعلمون) اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين (وان نكثوا) أى نقضوا (أيمانهم) أى عهودهم (من بعد عهدهم) الذى عاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم (وطعنوا فى دينكم) أى وعابوا دينكم الذى أنتم عليه وقدحوا فيه (فقاتلوا أئمة الكفر) أى الكفار بأسرهم وانما خص الائمة منهم بالذكر لانهم هم الذين يحرضون الاتباع منهم على هذه الاعمال الباطلة وقال ابن عباس نزلت فى أبى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وأبى جهل وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهودهم وهموا باخراج الرسول وفيه وضع الظاهر موضع المضمر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة وحققها الباقون وقول البيضاوى والتصريح بالياء لحن تبع فيه الكشاف التابع للفراء وهو مردود فان جمهور من النحاة والقراء على جواز قلب الهمزة الثانية حرف لين فبعضهم على جعلها بين بين وبعضهم على قلبها ياء خالصة وقوله تعالى (انهم لا ايمان لهم) قرأ ابن عامر بكسر الهمزة أى لا تصديق لهم ولا دين وليس فى ذلك دلالة على ان توبة المرتد لا تقبل والباقون بالفتح جمع يمين أى لا أيمان لهم على الحقيقة وأيمانهم ليست بأيمان والا لما طعنوا فى دينكم ولم ينكثوا وفيه دليل على ان الذمى اذا طعن فى الاسلام فقد نكث عهده أى ان شرط ذلك عليه كما هو مذهبنا وتمسك أبو حنيفة رحمه الله تعالى بهذا على ان يمين الكافر لا تكون يمينا وعند الشافعى رحمه الله تعالى يمينهم منعقدة ومعنى هذه الآية عنده أنهم لما لم يؤمنوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان والدليل على ان يمينهم منعقدة ان الله تعالى وصفها بالنكث فى قوله تعالى وان نكثوا أيمانهم ولو لم تكن منعقدة لما صح وصفها بالنكث وقوله تعالى (لعلهم ينتهون) متعلق بقاتلوا أى ليكن غرضكم فى مقاتلتهم بعدما وجد منهم ما وجد من العظائم ان ينتهوا عما هم عليه من الكفر والطعن فى دينكم والمظاهرة عليكم وهذا فى غاية كرم الله تعالى وفضله على الانسان وليس الغرض ايصال الاذية لهم كما هو طريقة الموحدين ٭ ولما قال تعالى فقاتلوا أئمة الكفر اتبعه بذكر ثلاثة أسباب تبعثكم على مقاتلتهم كل واحد منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد فكيف بها حال الاجتماع أحدها ما ذكره تعالى بقوله (الا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) أى نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بنى بكر على خزاعة وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار ليكون ذلك زجرا لغيرهم وثانيها قوله تعالى (وهموا باخراج الرسول) من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة على ما ذكر فى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا باخراجه من المدينة وهذا من أوكد ما يجب القتال لاجله وثالثها قوله تعالى (وهم بدؤكم) أى بالقتال (أول مرة) أى هم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم بالكتاب المنير وتحداهم به فعدلوا عن المعارضة لعجزهم

الخوف بمعنى العلم كافى
قوله تعالى الا ان يخافا الا
يقيما حدود الله اى اعلم
صدق وعد الله نبيه النصر
قوله ومن يتوكل على الله)

منهم الى القتال فهم البادئون بالقتال والبادئ أظلم فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم وبخهم الله تعالى بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها وتقرر ان من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد واخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا تترك مصادمته وأن يوبخ من فرط فيها (أتخشونهم) أى أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم (فالله أحق أن تخشوه) فقاتلوا أعداءه (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بوعد الله تعالى ووعيده لان قضية الايمان الصحيح ان لا يخشى المؤمن الا ربه ولا يبالى بمن سواه كقوله تعالى ولا يخشون أحدا الا الله ولما وبخهم الله تعالى على ترك القتال جدد له الامر به بقوله تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) اى بالقتل والاسر واغتنام الاموال (فان قيل) قد قال الله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم فكيف قال تعالى هنا يعذبهم الله بأيديكم (أجيب) بان المراد بالعذاب في الآية الاولى عذاب الاستئصال وبهذه الآية القتل والاسر والفرق ان عذاب الاستئصال قد يتعدى الى غير المذنب وانه في حقه لمزيد الثواب وعذاب القتل مقصور على المذنب وهذا كالتصريح بأن هذا الفعل وما عطف عليه فعله تعالى وان كان جاريا على أيدى العباد كسبا الا يرد على ذلك أنه لا يقال يعذب الله المؤمنين بأيدى الكافرين لان ذلك انما امتنع لشناعة العبارة كما لا يقال يا خالق القاذورات والابوال والعذرات وان كان هو الخالق لها (ويخزهم) اى بالذل والفضيحة في الدنيا والعذاب في الآخرة (وينصركم عليهم) اى يمكنكم من قتلهم واذلالهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) اى طائفة من المؤمنين وهم خزاعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فاسلموا فلقوا من أهلها أذى شديدا فمشوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه فقال أبشروا فان الفرج قريب (ويذهب غيظ قلوبهم) أى كربها ووجدها لوقد وفى الله تعالى بما وعد والآية من المعجزات وقوله تعالى (ويتوب الله على من يشاء) استئناف أى ان الله تعالى يهدى من يشاء الى الاسلام كما فعل بأبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم من الله تعالى عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فاسلموا وحسن اسلامهم (والله عليم) أى يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان فهو عليم بكل شئ يعلم من يصلح للتوبة ومن لا يصلح لها ويعلم ما فى قلوبكم من الاقدام والاحجام (حكيم) أى أحكم جميع أموره (أم حسبتم) أى أظننتم (ان تتركوا) فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب والخطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال وقيل للمنافقين وأم بمعنى همزة الانكار (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أى علما ظاهرا تقوم به الحجة عليكم فى مجارى عاداتكم على مقتضى عقولكم بأن يقع الجهاد فى الواقع بالفعل وعبر تعالى بلما دون لم لدلالتها مع استغراق الزمان على أن تبين ما بعدها متوقع كائن وقوله تعالى (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) عطف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة كأنه قيل ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله والوليجة فعيلة من ولج كالدخيلة من دخل وهى البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون اليهم أسرارهم وقال قتادة هى الخيانة وقال عطاء هى الاولياء

جوابه محذوف اى
يغلب دل عليه قوله
فان الله عزيز اى غالب
(قوله كدأب آل
فرعون والذين من

(والله خبير بما تعملون) من موالاة المشركين وغيرها فيجازيكم عليه قال ابن عباس رضي الله عنهما ولما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم وأغلظ علي رضي الله عنه عليه القول فقال العباس ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا فقال له علي وهل لكم محاسن قال نعم نحن أفضل منكم انا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني يعني الاسير فأنزل الله تعالى ردا على العباس (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) أي ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مسجد الله بدخوله والقعود فيه وخدمته فاذا دخل بغير اذن مسلم عزر وان دخل باذنه لم يعزر لكن لا بد من حاجة فيشترط لجواز الاذن والحاجة ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبي صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سواري المسجد وهو كافر وذهب جماعة الى أن المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد وترميمه عند خرابه فيمنع منه الكافر وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون السين ولا ألف بعدها على التوحيد وفي هذا دلالة على أن المراد المسجد الحرام والباقون بفتح السين وألف بعدها على الجمع وفيه دلالة على أن المراد جميع المساجد وقيل المراد على القراءتين المسجد الحرام وانما جمع لانه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامر الجميع وقوله تعالى (شاهدين على أنفسهم بالكفر) حال من الواو في يعمروا أي ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ظهور كفرهم قال الحسن لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم وعن ابن عباس رضي الله عنهما شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للاصنام وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم حول البيت وكانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف بثياب قد عملنا فيها المعاصي وكلما طافوا أسبوعا سجدوا للاصنام فلم يزدادوا من الله الا بعدا وقيل هو قولهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك وقال السدي شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسئل من أنت فيقول نصراني واليهودي يقول يهودي والمشرك يقول مشرك (أولئك حبطت) أي بطلت (أعمالهم) أي الاعمال التي عملوها من أعمال البر وافتخروا بها مثل العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة لانها مع الكفر لا تأثير لها (وفي النار هم خالدون) لجعلهم الكفر مكان الايمان واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة من أهل الايمان لا يبقى مخلدا في النار من وجهين الاول قوله تعالى وفي النار هم خالدون يفيد الحصر أي هم فيها خالدون لا غيرهم ولما كان هذا واردا في حق الكفار ثبت أن الخلود لا يحصل الا للكافر الثاني أنه تعالى جعل الخلود في النار جزاء للكفار عن كفرهم فلو كان هذا الحكم جزاء لغير الكافر لما صح تهديد الكافر به وفي الكشاف أن الكبيرة تهدم الاعمال وهو جار على مذهبه الفاسد ولما بين تعالى أن الكافر ليس له أن يعمر مساجد الله بين المستحق لعمارتها بقوله تعالى (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلوة وآتى الزكوة ولم يخش أحدا (الا الله) اي انما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين بين الكمالات العملية والعلمية (فان قيل) لم لم يذكر الايمان برسوله صلى الله عليه وسلم مع أن الايمان به شرط في صحة الايمان (أجيب) بانه تعالى لما ذكر الصلاة والصلاة لا تتم الا بالتشهد وهو مشتمل على ذكره كان ذلك كافيا وعما

قبلهم) كرره لان الاول اخبار عن عذاب لم يمكن الله احدا من فعله وهو ضرب الملائكة وجوههم

علم أن الايمان بالله تعالى قرينه وتمامه الايمان به فكان الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم مذكورا بطريق أبلغ وهو طريق الكناية لما مر من مقارنتهما وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر وقيل ان المشركين كانوا يقولون ان محمدا انما ادعى رسالة الله طلبا للرياسة والملك فلذلك ترك ذكر النبوة فكأنه يقول لمطلوبي من تبليغ الرسالة ليس الا الايمان بالمبدا والمعاد فذكر المقصود الاصلي وحذف ذكر النبوة تنبيها للكفار على أنه لا مطلوب له من الرياسة (فان قيل) كيف قال تعالى ولم يخش الا الله والمؤمن يخاف الظلمة والمفسدين (أجيب) بان المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى في أبواب الدين وان لا يختار على رضا الله تعالى عنه رضا غيره لتوقع مخوف واذا اعترضه أمران أحدهما حق الله تعالى والآخر حق نفسه أن يخاف الله تعالى فيؤثر حق الله تعالى على حق نفسه وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها فأريد نفي تلك الخشية عنهم ومن عمارة المساجد ترميمها وفرشها وتنويرها بالسرج التي لا سرف فيها وادامة العبادة فيها والذكر ومن الذكر درس العلم فيها بل هو أجله وأعظمه وصيانتها عما لم تبن المساجد لاجله كحديث الدنيا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة وفي الحديث الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش وفي الكشاف انه صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى ان بيوتي في أرضي المساجد وان زواري فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور أن يكرم زائره قال شيخ شيخنا ابن حجر لم أجده هكذا وفي الطبراني عن سلمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله وحق على المزور أن يكرم زائره وروى عنه صلى الله عليه وسلم من ألف المسجد ألفه الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان وعن أنس رضي الله عنه من أسرج في مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوءه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من غدا الى المسجد وراح أعد الله تعالى له نزلا من الجنة كلما غدا أو راح وفي قوله تعالى (فعسى أولئك) أي الموصوفون بهذه الصفات (أن يكونوا من المهتدين) تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم اطماعهم والانتفاع بأعمالهم التي قد استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها فانه تعالى بين أن الذين آمنوا وضموا الى ايمانهم العمل بالشرائع وضموا اليه الخشية من الله تعالى فهؤلاء صار حصول الاهتداء لهم دائرا بين لعل وعسى فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون ويجزمون بفوزهم بخير من عند الله وفيه منع للمؤمنين من أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها وذكر المفسرون في سبب نزول قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله) أقوالا منها عن النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل لا أبالي أن لا أعمل عملا بعد ان أسقي الحاج وقال آخر ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة

وادبارهم عند نزع أرواحهم والثاني اخبار عن عذاب مكن الله الناس من فعل مثله وهو الاهلاك والاغراق

ولكن اذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فنزلت وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال العباس حين أسر يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام وبالهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج فنزلت وقيل ان المشركين قالوا لليهود نحن سقاة الحاج وعمارة المسجد الحرام أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه فقالت لهم اليهود أنتم أفضل فنزلت وقيل ان عليا قال العباس رضى الله عنهما ياعم ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست فى أفضل من الهجرة أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال العباس ما أرانى الا تارك سقايتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقيموا على سقايتكم فان لكم فيها خيرا وكان العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم بيده سقاية الحاج وكان يليها فى الجاهلية فلما جاء الاسلام وأسلم العباس أقره صلى الله عليه وسلم على ذلك وروى انه صلى الله عليه وسلم جاء السقاية فاستسقى فقال العباس رضى الله عنه لابنه الفضل يافضل اذهب الى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال له صلى الله عليه وسلم اسقنى قال يارسول الله يجعلون أيديهم فيه قال اسقنى فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال اعملوا فانكم على عمل صالح وعن أبى بن عبد الله المزنى رضى الله عنه قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه اعرابى فقال مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس رضى الله عنهما الحمد لله مابنا من حاجة ولا بخل انما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه اسامة فاستسقى فأتيناه باناء من نبيذ فشربه وسقى فضله اسامة وقال أحسنتم وأجملتم كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبيذ تمر ينقع فى الماء غدوة وهو حلال فان غلا وسكر حرم ●(تنبيه)● السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية فلابد من مضاف محذوف تقديره أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كايمان من آمن بالله (لا يستوون عند الله) اى لا يستوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على كفره لان الله تعالى لا يقبل عملا الا مع ايمان به وبين عدم تساويهم بقوله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى الكفرة ظلمة بالشرك ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم منهمكون فى الضلال فكيف يساوون الذين جاهدهم الله تعالى ووفقهم للحق والصواب وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) أى أعلى مرتبة وأكثر كرامة ممن لم يستجمع هذه الصفات والمراد من كون العبد عند الله بالاستغراق فى عبوديته وطاعته وليس المراد منه قطع العندية بحسب الجهة والمكان لان الارواح البشرية اذا تطهرت من دنس الاوصاف البدنية أشرقت بانوار الجلال وتجلى فيها أضواء عالم الكمال وسرت من العبودية الى العندية وقيل أعظم درجة عند الله ممن اقتصر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام (فان قيل) على هذا كيف قال فى وصفهم أعظم درجة مع انه ليس للكافر درجة (اجيب) بان هذا ورد على حسب ما كانوا يقدرون لانفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله ونظيره قوله تعالى ٣ قل آلله خير أما يشركون وقوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم

(واولئك)

١ ومعنى الاول كدأب آل فرعون فيما فعلوا والثانى كدأب آل فرعون فيما فعل بهم أو المراد بالاول

٣ قوله قل آلله خير كذا بالنسخ والتلاوة وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير بدون قل اه مصححه

(واولئك) من هذه صفتهم (هم الفائزون) اى بسعادة الدنيا والآخرة (يبشرهم) اى يخبرهم (ربهم) والبشارة الخبر السار الذى يفرح الانسان عند سماعه وتستبشر بشرة وجهه عند سماع ذلك الخبر السار ثم ذكر سبحانه وتعالى الذى يبشرهم به بقوله تعالى (برحمة منه ورضوان) فهذا أعظم البشارات لان الرحمة والرضوان من الله سبحانه وتعالى على العبد نهاية مقصوده (وجنات) أى بساتين كثيرة الاشجار والثمار (لهم فيها) أى الجنات (نعيم) أى جزاء خالص عن كدر ما (مقيم) أى غير منقطع وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة وحقق الخلود بقوله تعالى (أبدا) ولما ذكر تعالى هذه الاحوال قال (ان الله عنده اجر عظيم) وناهيك بما يصفه الله بالعظم وخص هؤلاء المؤمنين بهذا الثواب المعبر عن دوامه بهذه العبارات الثلاث المقرونة بالعظم و الاسم الاعظم فكان أعظم الثواب لان ايمانهم أعظم الايمان * وذكر المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء) أقوالا فقال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت فى العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس رضى الله عنهما لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وولده يقولون ننشدك الله ان لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عندهم ويدع الهجرة فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقربائه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه حتى رخص لهم بعد ذلك قال مقاتل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة أى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الايمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله تعالى (ان استحبوا) اى اختاروا (الكفر على الايمان) أى أقاموا عليه وتركوا الايمان بالله ورسوله (ومن يتولهم منكم) أى ومن يختر المقام معهم على الهجرة والجهاد (فاولئك هم الظالمون) أى فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله تعالى واختيار الكفار على المؤمنين * ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا ان نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فنزل قوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) اى أقرباؤكم مأخوذ من العشرة وقيل من العشيرة فان العشيرة جماعة ترجع الى عقد كعقد العشرة (واموال اقترفتموها) أى اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) اى عدم نفاقها بفراقكم لها (ومساكن ترضونها) اى تستوطنونها راضين بسكناها (احب اليكم من الله ورسوله) اى الهجرة الى الله ورسوله (وجهاد فى سبيله) فقعدتم لاجل ذلك عن الهجرة والجهاد اى ان كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيل الله (فتربصوا) اى انتظروا متربصين وهو تهديد بليغ (حتى يأتى الله بامره) قال مجاهد بقضائه اى عقوبة عاجلة او آجلة وقال مقاتل بفتح مكة (والله لا يهدى القوم) أى لا يخلق الهداية فى قلوب (الفاسقين) اى الخارجين عن طاعته وفى هذا دليل على انه اذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا (لقد نصركم الله) النصرة المعونة على الاعداء باظهار المسلمين عليهم (فى مواطن) اى اماكن الحرب (كثيرة) كبدر وقريظة والنضير والمراد بذلك غزواته صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكانت

كفرهم بالله وبالنبى
تكذيبهم الانبياء
(قوله ان شر الدواب
عند الله الذين كفروا
فهم لا يؤمنون) *(ان

غزا انه صلى الله عليه وسلم على ما ذكر في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة
زاد بريدة في حديثه قاتل في ثمان منها وأما جميع غزواته وسراياه وبعوثه فقيل سبعون وقيل
ثمانون (ويوم) أي واذكروا يوم (حنين) وهو واد بين مكة والطائف أي يوم قتالكم فيه هوازن
وقوله تعالى (اذ أعجبتكم كثرتكم) بدل من يوم حنين ٭ وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وقد بقي من شهر رمضان أيام ٣ وخرج متوجها الى
حنين لقتال هوازن وثقيف واختلفوا في عدد عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما كانوا ستة عشر ألفا وقال الكلبي كانوا عشرة آلاف
وقال قتادة كانوا اثني عشر ألفا عشرة آلاف الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا اليهم
من الطلقاء وهم الاسراء الذين أخذوا يوم فتح مكة وأطلقوا وبالجملة كانوا عددا كثيرا وكان
هوازن وثقيف أربعة آلاف فلما التقوا قال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم من قلة أعجبا
بكثرتهم فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا الى كلمة الرجل وقيل قائلها أبو بكر
رضي الله عنه وقيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا القول بعيد جدا لانه صلى الله عليه
وسلم كان في أحواله كلها متوكلا على الله تعالى منقطع القلب عن الدنيا وأسبابها ثم اقتتلوا
قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري ثم تنادوا يا حماة السواد اذكروا الفضائل
٤ فتراجعوا وأدركت المسلمون حتى بلغ منهزمهم مكة وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في
مركزه ليس معه الا عمه العباس آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحرث وناهيك
بهذا شهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على تناهي شجاعته قال البراء بن عازب كانت هوازن
رماة فلما حملنا عليهم انكشفوا وأكببنا على الغنائم واستقبلونا بالسهام فانكشف المسلمون
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق معه الا العباس وأبو سفيان قال البراء والذي لا اله
الا هو ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم دبره قط قد رأيته وأبو سفيان آخذ بالركاب
والعباس آخذ بلجام الدابة وهو يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب فطفق
يركض بغلته نحو الكفار لا يولي ثم قال للعباس وكان صيتا صح يا عباس فنادى يا عباد الله
يا أصحاب الشجرة وهم أصحاب بيعة الرضوان المذكورون في قوله تعالى لقد رضي الله عن
المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة يا أصحاب سورة البقرة قال الطيبي وهم المذكورون في
قوله تعالى آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون وقيل الذين نزلت عليهم سورة البقرة
فرجعوا جماعة واحدة يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال عليه
الصلاة والسلام هذا حين حمي الوطيس أي اشتد الحرب ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم
كفا من تراب فرماهم ثم قال انهزموا ورب الكعبة فانهزموا وروي أنه صلى الله عليه وسلم
نزل عن البغلة ثم أخذ قبضة من تراب الارض ثم استقبل بها وجوههم ثم قال شاهت الوجوه
قال سلمة بن الاكوع فما خلق الله تعالى منهم انسانا الا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا

مدبرين فهزمهم الله تعالى (فلم تغن) أي الكثرة (عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما
رحبت) أي برحبها أي بسعتها لا تجدون فيها مقرا تطمئن اليه نفوسكم من شدة الرعب ولا

تثبتون

قلت) ما فائدة فهم لا يؤمنون بعد ذكر ما قبله (قلت) مراده ان يبين ان شر الدواب

٣ قوله وخرج هكذا بالنسخ بالواو والظاهر اسقاطها اه مصححه

٤ قوله اذكروا الفضائل هكذا في بعض النسخ وفي بعضها اذكر الفضائح فليحرر اه مصححه

تثبتون فيها لكن لا يسعه مكانه (ثم وليتم مدبرين) أي الكفار ظهوركم مدبرين أي منهزمين والادبار الذهاب الى خلف خلاف الاقبال (ثم أنزل الله سكينته) اى رحمته التى سكنوا اليها وأمنوا (على رسوله وعلى المؤمنين) اى على الذين انهزموا فردوا الى النبى صلى الله عليه وسلم لما ناداهم العباس باذنه صلى الله عليه وسلم وقيل هم الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقع الحرب (وأنزل جنودا) اى ملائكة (لم تروها) بأعينكم قال سعيد بن جبير مد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفا وروى ان رجلا من بنى النضير قال للمؤمنين بعد القتال أين الخيل البلق والرجال الذين عليهم ثياب بيض ما كانوا كم فيهم الا كهيئة الشامة وما قتلنا الا بأيديهم فاخبروا بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال تلك الملائكة (وعذب الذين كفروا) بالقتل والاسر وسبى العيال وسلب المال (وذلك جزاء الكافرين) أى مافعل بهم جزاء كفرهم فى الدنيا روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قسم ما أفاء الله عليه يوم حنين فى الناس وفى المؤلفة قلوبهم لم يعط الانصار شيأ فكانهم وجدوا اذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يامعاشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبى الى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار لو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادى الانصار وشعبهم الانصار شعار والناس دثار انكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض وعن رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والاقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الابل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال العباس بن مرداس

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والاقرع
فما كان حصن ولا حابس • يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما • ومن يخفض اليوم لا يرفع

قال فاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم له مائة (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) منهم بالتوفيق للاسلام (والله غفور رحيم) فيتجاوز عنهم ويتفضل عليهم روى ان ناسا منهم جاؤا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام وقالوا يارسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهالونا وأولادنا وأخذت أموالنا قيل سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الابل ما لا يحصى فقال ان عندى ما ترون ان خير القول أصدقه اختاروا اما ذراريكم ونساءكم وأما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيأ والحسب ما يعده الانسان من مفاخر آبائه كنوا بذلك عن اختيار الذرارى والنساء على استرجاع الاموال لان تركهم فى ذل الاسر يفضى الى الطعن فى احسابهم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان هؤلاء جاؤا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيأ فمن كان بيده شئ وطابت نفسه

هم الذين كفروا واستمروا على كفرهم الى وقت موتهم (قوله فان تسكن منكم

أن يرده فشأنه أى فقد لزم شأنه وأمره ومن لا تطب نفسه ليعطنا وليكن قرضا علينا أى بمنزلة القرض حتى نصيب شيأ فنعطيه مكانه فقالوا رضينا وسلمنا فقال انى لا أدرى أهل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا فرفعت اليه العرفاء أن قد رضوا (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) أى ذو نجس لان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو انهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم أو جعلوا كأنهم النجاسات بعينها مبالغة فى وصفهم بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن رحمه الله تعالى من صافح مشركا توضأ وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين والنجس مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع (فلا يقربوا المسجد الحرام) أى لنجاستهم وانما نهى عن الاقتراب للمبالغة والمنع من دخول الحرم قال العلماء وجملة بلاد الاسلام فى حق الكفار على ثلاثة أقسام أحدها الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخل الحرم بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية واذا جاء رسول من دار الكفر الى الامام والامام فى الحرم لا يؤذن له فى دخول الحرم بل يخرج اليه الامام أو يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم القسم الثانى من بلاد الاسلام الحجاز فيجوز للكافر دخوله بالاذن ولا يقيم فيه أكثر من ثلاثة أيام لما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا ادع الا مسلما فأجلاهم عمر فى خلافته وأجل لمن قدم منهم تاجرا ثلاثا وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين الى ريف العراق فى الطول وأما فى العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر الى أطراف الشام والقسم الثالث سائر بلاد الاسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة أو أمان لكن لا يدخل المساجد الا باذن مسلم لحاجة وقوله تعالى (بعد عامهم هذا) اشارة الى العام الذى حج فيه أبو بكر رضى الله تعالى عنه ونادى على رضى الله عنه ببراءة وهو سنة تسع من الهجرة وقيل سنة حجة الوداع ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يقرأ على مشركى مكة أول براءة وينبذ اليهم عهدهم وان الله برىء من المشركين ورسوله قال أناس يا أهل مكة ستعلمون ما تلقون من الشدة لانقطاع السبل وفقد الحمولات وذلك ان أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون فلما امتنعوا من دخول الحرم خافوا الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (وان خفتم عيلة) أى فقرا وحاجة بانقطاع تجارتهم عنكم (فسوف يغنيكم الله من فضله) أى من عطائه وتفضله من وجه آخر وقد أنجز الله تعالى وعده بان أرسل المطر عليهم مدرارا فكثر خيرهم وأسلم أهل جدة وصنعاء وتبالة وجرش وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة فكفاهم الله تعالى ما كانوا يخافون وتبالة بفتح التاء وجرش بضم الجيم وفتح الراء وشين معجمة قريتان من قرى اليمن وقيد ذلك بقوله تعالى (ان شاء) لتنقطع الآمال اليه تعالى ولينبه على انه متفضل فى ذلك وان الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض وفى عام دون عام (ان الله) أى

الذى

مائة صابرة يغلبوا مائتين) الآيتين حاصله ان البعض منا يقاوم عشيرة أعشاره منهم

الذى له الاحاطة الكاملة (عليم) أى بوجوه المصالح (حكيم) أى فيما يعطى ويمنع وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ألقى الشيطان فى قلوبهم الخوف وقال من اين تأكلون فأمرهم الله تعالى بقتال أهل الكتاب كما قال تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) (فان قيل) اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك (أجيب) بأن من اعتقد ان العزير ابن الله وان المسيح ابن الله فليس بمؤمن بل هو مشرك وبأن من كذب رسولا من الرسل فليس بمؤمن واليهود والنصارى يكذبون أكثر الانبياء (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) من الشرك وأكل أموال الناس بالباطل وتبديل التوراة والانجيل وغير ذلك (ولا يدينون دين الحق) أى الثابت الذى هو ناسخ لسائر الاديان وهو الاسلام كما قال تعالى ان الدين عند الله الاسلام (من الذين أوتوا الكتاب) أى اليهود والنصارى بيان للذين لا يؤمنون (حتى يعطوا الجزية) وهى الخراج المضروب على رقابهم فى نظير سكناهم فى بلاد الاسلام آمنين مأخوذ من المجازاة لكفهم عنهم وقيل من الجزاء بمعنى القضاء قال الله تعالى واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا أى لا تقضى وقوله تعالى (عن يد) حال من الضمير أى منقادين مقهورين يقال لكل من أعطى شيئا كرها من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وهل يجوز أن يوكلوا مسلما فى دفعها أو لا ينبنى على تفسير الصغار المذكور فى قوله تعالى (وهم صاغرون) أى أذلاء منقادون لحكم الاسلام ويكفى فى الصغار ان يجرى عليهم الحكم بما لا يعتقدون حله وعلى هذا يجوز التوكيل وتفسيره ان يجلس الآخذ ويقوم الكافر ويطاطئ رأسه ويحنى ظهره ويضع الجزية فى الميزان ويقبض الآخذ لحيته ويضرب لهزمتيه وهما مجمع اللحم بين الماضغ والاذن من الجانبين مردود بأن هذه الهيئة باطلة ودعوى سنيتها أو وجوبها أشد بطلانا ولم ينقل ان النبى صلى الله عليه وسلم ولا احدا من الخلفاء الراشدين فعل شيئا من ذلك وعلى تفسيرها بما ذكر يمتنع التوكيل اذا قيل بوجوبه لا باستحبابه *(تنبيه)* مفهوم الآية يقتضى تخصيص الجزية بأهل الكتاب ولكن ألحق بهم المجوس لانه صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر وقال سنوا بهم سنة أهل الكتاب وكذا من زعم التمسك بصحف ابراهيم وزبور داود صلى الله عليهما وسلم ومن أحد أبويه كتابى والآخر وثنى وأولاد من تهود أو تنصر قبل النسخ أو شككنا فى وقت التهود والتنصر أكان قبل النسخ أم بعده فلا تعقد لاولاد من تهود أو تنصر بعد النسخ فى ذلك الدين ولا لعبدة الاوثان والشمس والملائكة والسامرة والصابئون ان خالفوا اليهود والنصارى فى أصول دينهم فليسوا منهم والا فمنهم وعن مالك تؤخذ الجزية من كل كافر الا المرتد وعن أبى حنيفة الا مشركى العرب وأقل الجزية دينار لكل سنة عن كل واحد لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما بعثه الى اليمن خذ من كل حالم أى محتلم دينارا صححه ابن حبان والحاكم وتؤخذ من زمن وشيخ هرم وأعمى وراهب وأجير وفقير عجز عن كسب فاذا تمت سنة وهو معسر ففى ذمته حتى يوسر وقال أبو حنيفة على الغنى ثمانية وأربعون درهما وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكسوب ربعها ولا شئ على فقير غير كسوب ولا بد أن يكون المأخوذ منه حرا ذكرا غير صبى

قيل التضعيف وبقاوم ضعفه بعده وقد كرر كالمتن من المنسين فى الآيتين وفائدة التكرار الدلالة على ان الحال مع الكثرة والقلة لا يختلف فكما

ومجنون وتلحق افاقة مجنون كثرت فان قل زمن الجنون كساعة من شهر فلا أثر لها ولو بلغ ابن ذمى ولم يعط جزية ألحق بمأمنه وان أعطاها عقدت له وقيل عليه بجزية أبيه ولا يحتاج الى عقد لها اكتفاء بعقد أبيه ومن مات ممن عقدت له الجزية او اسلم او جن او حجر عليه بفلس اوسفه بعد سنة فجزيته كدين آدمى أوفى اثنائها فقسط وتسقط بالاسلام والموت عند أبي حنيفة (وقالت اليهود عزير ابن الله) اختلفوا فى قائل هذه المقالة على اقوال أحدها قال عبيد بن عمير انما قال هذا القول رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال ان الله فقير ونحن اغنياء وثانيها قال ابن عباس فى رواية سعيد بن جبير وعكرمة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبع دينك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم ان عزيرا ابن الله فانزل الله تعالى هذه الاية وعلى هذين القولين القائل انما هو بعض اليهود الا ان الله تعالى نسب ذلك الى اليهود بناء على عادة العرب فى ايقاع اسم الجماعة على اسم الواحد يقال فلان ركب الخيول ولعله لم يركب الا واحدا منها وفلان يجالس السلاطين ولعله لم يجالس الا واحدا وثالثها ان هذا المذهب لعله كان فاشيا فيهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بانكار اليهود لذلك فان الآية تليت عليهم فما انكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب واختلف فى السبب الذى قالوا ذلك لاجله فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان اليهود اضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فانساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم فتضرع عزير الى الله تعالى وابتهل اليه ان يرد اليه الذى نسخ من صدورهم فبينما هو يصلى مبتهلا الى الله تعالى نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت اليه التوراة فاذن فى قومه وقال يا قوم قد آتانى الله تعالى التوراة وردها الى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ما شاء الله تعالى ثم ان التابوت انزل بعد ذهابه عنهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله فقالوا ما أوتى عزير هذا الا انه ابن الله وقيل لما رفع الله تعالى عنهم التوراة خرج عزير وهو غلام يسيح فى الارض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له الى أين تذهب قال أطلب العلم فحفظه التوراة واملاها عليهم عن ظهر قلبه لا يخرم منها حرفا فقالوا ما جمع الله التوراة فى قلبه وهو غلام الا أنه ابنه وقال الكلبى ان بختنصر لما ظهر على بنى اسرائيل وقتل من قرأ التوراة وكان عزير اذ ذاك صغيرا فاستصغره فلم يقتله فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة فبعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعد ما اماته الله تعالى مائة سنة وارسل اليه ملكا باناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة فى صدره فلما أتاهم وقال لهم انا عزير كذبوه وقالوا ان كنت كما تزعم فاتل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم ان رجلا منهم قال ان أبى حدثنى ان التوراة جعلت فى خابية ودفنت فى كرم فانطلقوا معه حتى اخرجوها فعارضوها بما كتبه عزير فلم يجدوه غادر حرفا فقالوا ان الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب عزير الا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله وقرأ عاصم والكسائى عزير بالتنوين والباقون بغير تنوين قال الزجاج الوجه اثبات التنوين فقوله عزير مبتدأ وقوله ابن خبره واذا كان كذلك فلابد من التنوين فى حال السعة لان عزيرا ينصرف سواء

تغلب العشرون المائتين وكما تغلب المائة الالف وكما تغلب المائة المائتين يغلب الالف الالفين (قوله والله يريد الآخرة) أى ثوابها والا فهو كما يريد

كان عربيا أم عجميا وسبب كونه منصرفا أمران احدهما انه اسم خفيف فينصرف وان كان اعجميا كهود ولوط والثانى انه على صيغة التصغير وان الاسماء الاعجمية لا تصغر وأما الذين تركوا التنوين فلهم فيه أوجه احدها انه اعجمى معرفة فوجب ان لا ينصرف وثانيها قال الفراء نون التنوين ساكنة من عزير والباء من ابن الله ساكنة فحصل ههنا التقاء الساكنين فحذف التنوين للتخفيف ورد هذا الوجه بانه مخالف لما تقرر من ان الوجه عند ملاقاة التنوين للساكن التحريك لا الحذف وثالثها ان الابن وصف والخبر محذوف والتقدير عزير ابن الله معبودنا ورد هذا أيضا بانه يؤدى الى تسليم النسب وانكار الخبر المقدر لان من أخبر عن ذات موصوفة بصفة بامر من الامور وانكره منكر توجه الانكار الى الخبر فكان المقصود بالانكار قولهم عزير ابن الله معبودنا وحصل تسليم كونه ابن الله ومعلوم أن ذلك كفر (وقالت النصارى المسيح) عيسى (ابن الله) واختلف فى السبب الذى قالوا ذلك لاجله فقيل انما قالوه استحالة لان يكون ولد بلا أب وقيل ان النصارى كانوا على دين الاسلام احدى وثمانين سنة بعد ما رفع عيسى عليه الصلاة والسلام يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بواص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بواص لليهود ان الحق مع عيسى وقد كفرنا ومصيرنا الى النار ونحن مغبونون ان دخلوا الجنة ودخلنا النار فانى سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار وكان له فرس يقاتل عليه يقال له العقاب فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه وقال للنصارى نوديت من السماء ليس لك توبة الا أن تتنصر وقد تبت وأتيتكم فادخلوه الكنيسة ونصروه ودخل بيتا فيها مكث فيه سنة لا يخرج منه ليلا ولا نهارا حتى تعلم الانجيل ثم خرج منه وقال انه نودى ان الله قبل توبتك فصدقوه واحبوه وعلا شانه فيهم ثم عمد الى ثلاثة رجال اسم واحد منهم نسطورا والآخر يعقوب والآخر ملكا فعلم نسطورا ان عيسى ومريم والاله ثلاث وعلم يعقوب أن عيسى ليس بانسان ولا جسم ولكنه ابن الله وعلم ملكا ان عيسى هو الاله لم يزل ولا يزال فلما تمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم وقال له أنت خالصتى فادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم انى رأيت عيسى فى المنام وقد رضى عنى وقال لكل واحد منهم سأذبح نفسى تقربا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد الى الروم وواحد الى بيت المقدس وواحد الى ناحية أخرى وأحكم كل واحد منهم مقالته ودعا الناس اليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فهذا هو السبب فى وقوع الكفر فى طوائف النصارى هذا ما حكاه الواحدى رحمه الله تعالى قال الرازى عقب هذه الحكاية والاقرب عندى أن يقال ورد لفظ الابن فى الانجيل على سبيل التشريف ثم ان القوم لاجل عداوة القوم بالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك وفشا هذا المذهب الفاسد فى اتباع عيسى عليه السلام والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقيقة (ذلك قولهم بافواههم) أى لا مستند لهم عليه (فان قيل) كل قول يقال بالفم فما معنى بافواههم (أجيب) بانه قول لا يعضده برهان فما هو الا لفظ تفوهوا به فارغ من معنى تحته كالالفاظ

الآخرة يريد الدنيا والآخرة وجدت (قوله الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله) قدم هنا باموالهم وانفسهم على قوله فى سبيل الله

المهملة التي لا تدل على معان وذلك ان القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب وما لا معنى له مقول بالفم لا غير أو بأن يراد بالقول المذهب كقولهم قول الشافعي رحمه الله تعالى يريدون مذهبه وما يقول به كأنه قيل ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم لانه لا حجة معه ولا شبهة حتى تؤثر في القلوب وذلك أنهم اذا اعترفوا أنه لا صاحبة له ولا ولد لم تكن لهم شبهة في انتفاء الولد قال أهل المعاني لم يذكر الله تعالى قولا مقرونا بالافواه والالسن الا كان ذلك زورا (يضاهون) قال ابن عباس يشابهون وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون (قول الذين كفروا من قبل) أي من قبلهم ولا بد من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قول الذين كفروا ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا والمعنى ان الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم فالكفر قديم فيهم غير مستحدث أو يضاهي قول المشركين الملائكة بنات الله وقيل الضمير للنصارى أي يضاهي قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله لانهم أقدم منهم وقرأ عاصم بكسر الهاء وبعدها همزة مضمومة والباقون بضم الهاء ولا همز بعدها وقوله تعالى (قاتلهم الله) دعاء عليهم بالهلاك فان من قاتله الله تعالى هلك أو تعجب من شناعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله وقيل لعنهم الله وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال كل شيء في القرآن مثله فهو لعن (أنى يؤفكون) أي كيف يصرفون عن الحق الى الباطل مع قيام الدليل بأن الله تعالى واحد أحد جعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله تعالى لا يتعجب من شيء ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطباتهم فالله تعالى عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق واصرارهم على الباطل (اتخذوا احبارهم ورهبانهم) أي اتخذ اليهود أحبارهم أي علماءهم والحبر في الاصل العالم من أي طائفة كان واختص في العرف بعلماء اليهود من ولد هرون وكان أبو الهيثم يقول واحد الاحبار حبر بالفتح وينكر الكسر واتخذ النصارى رهبانهم أي عبادهم أصحاب الصوامع والراهب في الاصل من تمكنت الرهبة من قلبه فظهر آثارها على وجهه ولباسه واختص في العرف بعلماء النصارى أصحاب الصوامع (اربابا من دون الله) لانهم اطاعوهم في تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرم الله تعالى كما تطاع الارباب في أوامرهم ونحوه تسمية اتباع الشيطان فيما يوسوس به عبادة كما قال تعالى بل كانوا يعبدون الجن وقال ابراهيم الخليل عليه السلام يا أبت لا تعبد الشيطان وعن عدي بن حاتم انه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته ثم انتهيت اليه وهو يقرأ سورة براءة فوصل الى هذه الآية فقلت انا لسنا نعبدهم فقال اليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرمه فتحلونه قلت بلى قال تلك عبادتهم قال عبد الله بن المبارك

وهل بدل الدين الا الملوك • وأحبار سوء ورهبانها

(فان قيل) انه تعالى كفرهم بسبب انهم أطاعوا الاحبار والرهبان فالفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره على ما هو قول الخوارج (اجيب) بأن الفاسق وان كان يقبل دعوى

وعكس في براءة لان ما هنا تقدمه ذكر المال والانفس في قوله تريدون عرض الدنيا وقوله لولا كتاب من الله سبق لكم فيما أخذتم أي من الفداء وقوله فكلوا

الشيطان الا انه لا يعظمه بل يلعنه ويستخف به واما هؤلاء فكانوا يقبلون قول الاحبار والرهبان ويعظمونهم وقد يبالغ بعض الجهال فى تعظيم شيخه بحيث يميل طبعه الى القول بالحلول والاتحاد قال الرازى وذلك الشيخ اذا كان طالبا للدنيا بعيدا عن الآخرة بعيدا عن الدين قد يلقى اليهم ان الامر كما يقولون ويعتقدون وعن الفضيل رضى الله تعالى عنه ما أبالى أطعت مخلوقا فى معصية الخالق أو صليت لغير القبلة (والمسيح ابن مريم) أى اتخذوه كذلك لكونهم جعلوه ابنا فأهلوه للعبادة بدليل انه مع كونه ابن مريم فهو لا يصلح للالهية بوجه لمشاركته للآدميين فى الحمل والولادة والاكل والشرب وغير ذلك من أحوال البشر الموجبة للحاجة المنافية للالهية (وما أمروا) أى فى التوراة والانجيل (الا ليعبدوا) أى ليطيعوا على وجه التعبد (الها واحدا) أى لا يقبل القسمة بوجه لا بالذات ولا بالمماثلة وهو الله تعالى وأما طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعة من أمر الله بطاعته فهى فى الحقيقة طاعة الله تعالى وقوله تعالى (لا اله الا هو) صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد (سبحانه عما يشركون) أى تعالى وتنزه عن أن يكون له شريك فى العبادة والاحكام وأن يكون له شريك فى الالهية يستحق التعظيم والاجلال (يريدون) أى رؤساء اليهود والنصارى (أن يطفئوا نور الله) أى شرعه وبراهينه الدالة على وحدانيته وتقديسه عن الولد أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (بأفواههم) أى بأقوالهم الكاذبة وشركهم وفى تسميته ذلك دينه أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نورا ومعاندتهم له واطفاءه بأفواههم تمثيل لحالهم فى طلبهم أن يبطلوا نور الله بالتكذيب بالشرك بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الاشراق والاضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه (ويأبى الله) أى لا يرضى (الا أن يتم نوره) باعلاء التوحيد واعزاز الاسلام (فان قيل) كيف جاز أبى الله الا كذا ولا يقال كرهت أو أبغضت الا زيدا (أجيب) بأنه أجرى أبى مجرى لم يرد الا ترى كيف قوبل يريدون أن يطفئوا بقوله ويأبى الله وكيف أوقع موقع ولا يريد الله الا أن يتم نوره وقوله تعالى (ولو كره الكافرون) محذوف الجواب لدلالة ما قبله أى ولو كرهوا اظهاره (هو الذى أرسل رسوله) محمدا صلى الله عليه وسلم (بالهدى) أى القرآن الذى أنزله عليه وجعله هاديا له (ودين الحق) أى دين الاسلام (ليظهره) أى ليعليه (على الدين كله) أى جميع الاديان المخالفة له وهذا كالبيان لقوله تعالى ويأبى الله الا أن يتم نوره ولذلك كرر (ولو كره المشركون) غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول الى الشرك بالله تعالى (فان قيل) الاسلام لم يصر غالبا لسائر الاديان فى أرض الصين والهند والروم وسائر بلاد الكفر (أجيب) عن ذلك بأوجه الاول بأنه لا دين بخلاف الاسلام الا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليهم فى بعض المواضع وان لم يكن ذلك فى جميع مواضعهم فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها الى ناحية الروم والمغرب وغلبوا المجوس على ملكهم وغلبوا عباد الاصنام على كثير من بلادهم مما يلى الهند والترك وكذا سائر الاديان فثبت ان الذى أخبر الله تعالى عنه فى هذه الآية قد وقع وحصل فكان ذلك اخبارا عن الغيب فكان معجزا الوجه الثانى ما روى عن أبى هريرة

عما غنمتم وما فى براءة تقدمه ذكر فى سبيل الله ومناسب تقديم بأموالهم وأنفسهم هنا وتقديم فى سبيل الله ثم

(سورة براءة)

(قوله براءة من الله ورسوله)

رضي الله تعالى عنه أنه قال هذا وعد من الله تعالى بجعل الاسلام غالبا على جميع الاديان وتمام هذا انما يحصل عند خروج عيسى عليه السلام فانه لا يبقى أهل دين الا دخلوا في الاسلام وقال السدى ذلك عند خروج المهدى لا يبقى أحد الا دخل في الاسلام أو أدى الخراج الوجه الثالث أن المراد اظهاره في جزيرة العرب وقد حصل ذلك فانه تعالى ما أبقى فيها أحدا من الكفار وقال ابن عباس الهاء في ليظهره الى الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شىء منها (يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار) أى علماء اليهود (والرهبان) أى عباد النصارى (ليأكلون) أى يتناولون (أموال الناس بالباطل) كالرشا وانما عبر بالاكل لانه معظم المراد من المال واشارة الى تحقير الاحبار والرهبان بان يفعلوا ما ينافى مقامهم الذى أقاموا انفسهم فيه باظهار الزهد والمبالغة فى التدين قال الرازى ولعمرى من تامل أحوال الناس فى زماننا وجد هذه الآية كأنها ما نزلت الا فى شأنهم وشرح أحوالهم فترى الواحد منهم يدعى انه لا يلتفت الى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات وانه فى الطهارة والعظمة مثل الملائكة المقربين حتى اذا آل الامر الى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة فى تحصيله (ويصدون) الناس (عن سبيل الله) أى دينه ولما كان مطلوب الخلق فى الدنيا المال والجاه بين تعالى فى صفة الاحبار والرهبان كونهم مشغوفين بهذين الامرين اما المال فهو المراد بقوله تعالى ليأكلون أموال الناس بالباطل واما الجاه فهو المراد بقوله ويصدون عن سبيل الله فانهم لو أقروا بان محمدا صلى الله عليه وسلم على الحق لزمهم متابعته وحينئذ كان يبطل حكمهم وتزول حرمتهم ولاجل الخوف من هذا المحذور كانوا يبالغون فى المنع من متابعته صلى الله عليه وسلم ويبالغون فى القاء الشبهات وفى استخراج وجوه المكر والخديعة وفى منع الخلق من قبول دينه الحق (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) يحتمل أن يراد بقوله الذين اولئك الاحبار والرهبان فيكون مبالغة فى وصفهم بالحرص الشديد على اخذ اموال الناس بقوله تعالى ليأكلون اموال الناس بالباطل ووصفهم ايضا بالبخل الشديد والامتناع من اخراج الواجبات عن أموال انفسهم بقوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة وان يراد المسلمون الذين يجمعون المال ولا يؤدون حقه ويكون اقترانهم بالمرتشين من اليهود والنصارى تغليظا ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطى منكم بطيب زكاة ماله سواء فى استحقاق البشارة بالعذاب الاليم وأن يراد كل من كنز المال ولم يخرج منه الحقوق الواجبة سواء كان من الاحبار والرهبان أو كان من المسلمين لما روى عن زيد بن وهب قال مررت على أبى ذر بالربذة فقلت ما انزلك بهذه الارض فقال كنا بالشام فقرأت والذين يكنزون الذهب الآية فقال معاوية ما هذه فينا ما هذه الا فى أهل الكتاب فقلت انها فيهم وفينا فصار ذلك سببا لوحشة بينى وبينه فكتب الى عثمان ان أقبل الى فلما قدمت المدينة انحرف الناس عنى كأنهم لم يرونى من قبل فشكوت ذلك الى عثمان فقال لى تنح قريبا فقلت انى والله ان ادع ما كنت اقول واصل الكنز فى كلام العرب الجمع وكل شىء جمع بعضه الى بعض فهو مكنوز يقال هذا جسم مكتنز الاجزاء اذا كان مجتمع الاجزاء واختلف علماء

(ان قلت) لم ترك البسملة فيها دون غيرها (قلت) لاختلاف الصحابة فى ان براءة والانفال سورتان او سورة واحدة تطرا الى

الصحابة في المراد بهذا الكنز المذموم على قولين الاول وهو ما عليه الاكثر انه المال الذي لم تؤد زكاته لما روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله الآية والشجاع الحية والاقرع صفته لطول عمره لان من طال عمره تمزق شعره وذهب وهي صفة أخبث الحيات والزبيبتان الزائدتان في الشدقين وروى لما نزلت هذه الآية كبر على المسلمين فذكر عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وقال ابن عباس في قوله تعالى ولا ينفقونها في سبيل الله يريد الذين لا يؤدون زكاة أموالهم قال القاضي عياض تخصيص هذا المعنى بمنع الزكاة لا سبيل اليه بل الواجب أن يقال الكنز هو الذي ما أخرج عنه ما وجب اخراجه ولا فرق بين الزكاة وبين ما يجب من الكفارات وبين ما يلزم من نفقة الحج وبين ما يجب اخراجه في الدين والحقوق والانفاق على الاهل والعيال وضمان المتلفات وأروش الجنايات فيجب في كل هذا الاقسام وأن يكون داخلا في الوعيد والقول الثاني ان المال الكثير اذا جمع فهو الكنز المذموم واحتج الذاهبون الى هذا القول بعموم الآية وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية تبا للذهب تبا للفضة قالها ثلاثا فقالوا له أي مال نتخذ قال لسانا ذاكرا وقلبا خاشعا وزوجة تعين أحدكم على دينه وقال عليه الصلاة والسلام من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها وتوفى شخص فوجد في مئزره دينار فقال صلى الله عليه وسلم كية وتوفى آخر فوجد في مئزره ديناران فقال كيتان وأجاب القائلون بالاول بأن هذا كان قبل فرض الزكاة فاما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم أن يجمع عبده مالا من حيث أذن فيه ويؤدي ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه وقد روى عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن هذه الآية فقال كانت قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للاموال وقال ما ابالي لو ان لي مثل أحد ذهبا أعلم عدده أزكيه وأعمل فيه بطاعة الله تعالى وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال نعم المال الصالح للرجل الصالح وقال صلى الله عليه وسلم ما أدى زكاته فليس بكنز وكان في زمانه صلى الله عليه وسلم جماعة معهم الاموال كعثمان وعبد الرحمن بن عوف وكان عليه الصلاة والسلام يعدهم من أكابر الصحابة وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لان الاعراض اختيار للافضل والادخل في الورع والزهد في الدنيا والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه وكونه أدخل في الورع لامور منها ان كسب المال شاق شديد وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب فيبقى الانسان طول عمره تارة في طلب التحصيل وأخرى في طلب الحفظ ثم انه لا ينتفع منها الا بالقليل ومنها ان كثرة المال والجاه تورث الطغيان كما قال تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فالطغيان يمنع من وصول العبد الى مقام رضوان الرحمن ويوقع في الخذلان والخسران ومنها أنه تعالى أوجب الزكاة وذلك سعي في تنقيص المال ولو كان تكثيره فضيلة لما سعى الشرع في تنقيصه (فان قيل) قال عليه الصلاة والسلام اليد العليا خير من اليد السفلى (أجيب) بأن اليد العليا انما افادته صفة الخيرية لانه لما اعطى ذلك القليل

ان كلا منهما ورد في القتال فترك بينهما فرجة علامة بالاول وتركت البسملة علامة بالثاني اولان البسملة أمان

تسبب أنه حصل في ماله ذلك النقصان القليل فحصل له الخير به وبسبب أنه حصل للفقير بذلك الزيادة القليلة حصلت له المرجوحية (فان قيل) انه تعالى ذكر شيئين وهما الذهب والفضة ثم قال ولا ينفقونها فلم أفرد الضمير (أجيب) بأن الضمير راجع الى المعنى دون اللفظ لان كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وقيل ذهب به الى المكنوز وقيل الى الاموال وقيل التقدير ولا ينفقون الفضة وحذف الذهب لانه داخل في الفضة من حيث انهما معا يشتركان في ثمنية الاشياء أو ان ذكر أحدهما يغني عن الآخر كقوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها جعل الضمير للتجارة وقيل التقدير والذهب كذلك كما أن قول القائل * فاني وقيار بها لغريب * أي وقيار كذلك (فان قيل) ما السبب في كونه خصهما بالذكر من سائر الاموال (أجيب) بأنهما خصا من دون سائر الاموال لأنهما أشرف الاموال وهما اللذان يقصدان بالكنز ومن كنزا عنده لم يعدم سائر أجناس المال فكان ذكر كنزهما دليلا على ما سواهما ثم انه تعالى لما ذكر من يكنز الذهب والفضة قال تعالى (فبشرهم) أي أخبرهم (بعذاب أليم) أي مؤلم وعبر بالبشارة على سبيل التهكم (يوم يحمى عليها) أي الكنوز بان تدخل (في نار جهنم) فيوقد عليها (فتكوى) أي تحرق (بها) أي بهذه الاموال (جباههم وجنوبهم وظهورهم) قال ابن مسعود رضي الله عنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدته وسئل أبو بكر الوراق لم خصت الجباه والجنوب والظهور بالكي قال لان الغني صاحب الكنز اذا رأى الفقير قبض جبهته واذا جالس الفقير بجنبه تباعد عنه وولى عليه ظهره وقيل المعنى انهم يكوون على الجهات الاربع أما من مقدمه فعلى الجبهة وأما من خلفه فعلى الظهر وأما من يمينه ويساره فعلى الجنبين وقيل لان جمعهم وامساكهم المال كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فاحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره كلما بردت عليه أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار وقوله تعالى (هذا ما كنزتم) على ارادة القول أي يقال لهم هذا ما كنزتم (لانفسكم) أي لنفعها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم وعن أبي ذر رضي الله عنه قال انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال هم الاخسرون ورب الكعبة فقلت يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم قال هم الاكثرون أموالا الا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم (ان عدة الشهور) أي عددها (عند الله اثنا عشر شهرا) وهي المحرم وصفر وشهر ربيع الاول وشهر ربيع الثاني وجمادى الاول وجمادى الثاني ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة هذه شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت

وبراءة نزلت في قتال المشركين ومعاداتهم فلا مناسبة بينهما أو لان الاتصال لما تضمنت طلب موالاة المؤمنين بعضهم بعضا

حجهم

حجهم واعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة واحدة تامة وهى ثلثمائة وخمسة وستون يوم وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف قال المفسرون وسبب نزول هذه الآية من أجل النسىء الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية فكان حجهم يقع تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيره من الشهور فأعلم الله تعالى ان عدة الشهور سنة المسلمين التى يعتدون بها اثناعشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تعالى ان عدة الشهور عند الله اثناعشر شهرا أى فى علمه وحكمه (فى كتاب الله) أى فى اللوح المحفوظ الذى كتب فيه أحوال مخلوقاته بأسرها على التفصيل وهو أصل الكتب التى أنزلها الله تعالى على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابا (يوم خلق السموات والارض) أى ان هذا الحكم حكم به وقضاه يومئذ أى السنة اثناعشر شهرا (منها) أى الاشهر (أربعة حرم) ثلاثة سرد ذو القعدة بفتح القاف وذو الحجة بكسر الحاء على المشهور فيهما وسميا بذلك لقعودهم عن القتال فى الاول ولوقوع الحج فى الثانى والمحرم بتشديد الراء المفتوحة سمى بذلك لتحريم القتال فيه وقيل لتحريم الجنة فيه على ابليس ودخلته اللام دون غيره من الشهور لانه أولها فعرفوه كأنه قيل هذا الشهر الذى ابتدأ أول السنة وواحد فرد وهو رجب ويجمع على ارجاب ورجاب ورجوب ورجبات ويقال له الاصم والاصب وقيل لم يعذب الله أمة فى شهر رجب ورد عليه بان الله تعالى أغرق قوم نوح فيه قاله الثعلبى وهذا الترتيب الذى ذكرناه فى عد الاشهر الحرم وجعلها من سنتين هو الصواب كما قاله النووى فى شرح مسلم ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثناعشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان وعدها الكوفيون من سنة واحدة فقالوا المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة قال ابن دحية وتظهر فائدة الخلاف فيما اذا نذر صيامها مرتبة فعلى الاول يبتدئ بذى القعدة وعلى الثانى بالمحرم ومعنى الحديث أن الاشهر رجعت الى ما كانت عليه وعاد الحج فى ذى الحجة وبطل النسىء الذى كان فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ومعنى الحرم ان المعصية فيها اشد عقابا والطاعة فيها أكثر ثوابا والعرب كانوا يعظمونها جدا حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه لم يتعرض له (فان قيل) اجزاء الزمان متشابهة فى الحقيقة فما السبب فى هذا التمييز (أجيب) بان هذا المعنى غير مستبعد فى الشرائع فان أمثلته كثيرة ألا ترى انه تعالى ميز البلد الحرام عن سائر البلاد بمزيد الحرمة وميز يوم الجمعة عن سائر أيام الاسبوع بمزيد الحرمة وميز يوم عرفة عن سائر الايام بتلك العبادة المخصوصة وميز شهر رمضان عن سائر الشهور بمزيد حرمة وهو وجوب الصوم وميز بعض ساعات اليوم بوجوب الصلاة فيها وميز بعض الليالى عن سائرها وهى ليلة القدر وميز بعض الاشخاص عن سائر الناس باعطاء خلع الرسالة واذا كانت هذه الامثلة ظاهرة مشهورة فاى استبعاد فى تخصيص

قوله وايام هذه الشهور الخ المذكور فى كتب الفقه أن السنة الهلالية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس يوم وسدسه وان السنة الشمسية ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم الاجزأ من ثلثمائة جزء من اليوم اه

وأن يقطعوا عن الكفار بالكلية وكان قوله براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين تقريرا وتأكيدا لذلك تركت البسملة بينهما

بعض الاشهر بمزيد الحرمة (ذلك) أي تحريم الاشهر الاربعة (الدين القيم) أي المستقيم وهو دين ابراهيم واسمعيل عليهما السلام والعرب ورثوه منهما وقيل المراد بالدين الحساب يقال الكيس من دان نفسه أي حاسبها والقيم معناه المستقيم فتفسير الآية على هذا التقدير ذلك الحساب المستقيم الصحيح والعدد المستوى وقال الحسن ذلك الدين القيم الذى لا يبدل ولا يغير فالقيم هنا بمعنى القائم الدائم الذى لا يزول وهو الدين الذى فطر الناس عليه (فلا تظلموا فيهن) أي الاشهر الحرم (أنفسكم) بالمعاصى فانها فيها أعظم وزرا الا ان الله تعالى خص هذه الشهور بمزيد احترام فى آية أخرى وهو قوله تعالى الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج فهذه الاشياء غير جائزة فى غير الحج أيضا الا انه تعالى أكد فى المنع منها فى هذه الايام تنبيها على زيادتها فى الشرف وقال ابن عباس ان المراد فلا تظلموا فى الشهور الاثنى عشر أنفسكم والمقصود منع الانسان من الاقدام على الفساد مطلقا فى جميع العمر قال الفراء والاول أولى لان العرب تقول فيما بين الثلاثة الى العشرة فيهن فاذا جاوزه هذا العدد قالوا فيها والاصل فيه ان جمع القلة يكنى عنه كما يكنى عن جماعة مؤنثة ويكنى عن جمع الكثرة كما يكنى عن واحدة مؤنثة كما قال حسان

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى • واسيافنا يقطرن من نجدة دما

قال يلمعن ويقطرن لان الاسياف والجفنات جمع قلة ولو جمع جمع الكثرة لقال تلمع وتقطر هذا فى الاختيار ثم يجوز اجراء أحدهما مجرى الآخر كقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم • بهن فلول من قراع الكتائب

فقال بهن والسيوف جمع كثرة وقيل المراد بالظلم المقاتلة فى هذه الاشهر وقيل النسىء الذى كانوا يعملونه فينقلون الحج من الذى أمر الله تعالى باقامته فيه الى شىء آخر ويغيرون تكاليف الله تعالى والجمهور على ان حرمة المقاتلة فى الاشهر الحرم منسوخة وعن عطاء لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم والاشهر الحرم الا أن يقاتلوا ويؤيد الاول ما روى انه صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة وقوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة) أي جميعا فى كل الشهور (كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصرة ومن كان معه نصر لا محالة (انما النسىء) أي التأخير لحرمة شهر الى آخر كما كانت الجاهلية تفعل كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ورفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيحرمون صفر ويستحلون المحرم فاذا احتاجوا الى تأخير تحريم صفر أخروه الى ربيع وهكذا شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها او كانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى القعدة عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين وكذا باقى شهور السنة فوافقت حجة أبى بكر رضى الله عنه فى السنة التاسعة فى ذى القعدة قبل حجة الوداع بسنة ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه فى شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر وأعلمهم ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث المتقدم وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الايام وقد رجح

(قوله واعلموا انكم غير معجزى الله) كرره لان الاول للمكان والثانى للزمان المذكور بين قبل فى قوله فسيحوا فى الارض أربعة أشهر (قوله فان تابوا

المحرم الى موضعه الذى وضعه الله تعالى وذلك بعد دهر طويل وروى عن أبى بكرة رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته لنا أى شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال أى بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلد الحرام قلنا بلى قال فأى يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ألا هل بلغت ألا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد واختلفوا فى أول من نسأ النسىء فقال ابن عباس بنو مالك بن كنانة وكان يليه أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية الكنانى كان يقوم على جمل بالموسم فينادى ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم ينادى فى قابل ان آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وقيل أول من فعل ذلك عمرو بن لحى وهو أول من سيب السوائب قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار وقوله تعالى (زيادة فى الكفر) معناه انه تعالى حكى عنهم أنواعا كثيرة من الكفر فلما ضموا تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرم الله تعالى وهو كفر كان ضم هذا العمل الى تلك الانواع المتقدمة من الكفر زيادة فى الكفر لان الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفرا فزادتهم رجسا الى رجسهم كما ان المؤمن كلما أحدث طاعة ازداد ايمانا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وقرأ ورش النسى بقلب الهمزة ياء وادغام الياء فيها فبقيت ياء مضمومة مشددة والباقون بهمزة مضمومة هذا فى الوصل وأما الوقف فورش يقف بياء مشددة ساكنة وهمزة كذلك وله فيه الروم والاشمام والباقون بهمزة ساكنة (يضل به) أى بهذا التأخير الذى هو النسىء (الذين كفروا) قرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الياء وفتح الضاد لقوله تعالى زين لهم سوء أعمالهم والباقون بفتح الياء وكسر الضاد على معنى انهم هم الضالون لقوله تعالى (يحلونه) أى يحلون النسىء من الاشهر الحرم (عاما) ويحرمون مكانه شهرا آخر (ويحرمونه عاما) فيتركونه على حرمته وانما فعلوا ذلك (ليواطئوا) أى ليوافقوا (عدة) أى عدد (ما حرم الله) من الاشهر فلا يزيدون على تحريم أربعة أشهر ولا ينقصون عنها ولا ينظرون الى أعيانها (فيحلوا ما حرم الله) بمواطأة العدة من غير مراعاة الوقت الذى يحلون اليه الاشهر الحرم (زين لهم سوء أعمالهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل حتى حسبوا هذا القبيح حسنا (والله لا يهدى القوم الكافرين) أى هداية موصلة الى الاهتداء لما سبق لهم فى الازل انهم من أهل النار ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من الطائف الى المدينة وحث على غزوة تبوك وكان ذلك الوقت زمان عسرة وشدة حر وطابت ثمار المدينة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وجلا للناس أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فنزل

وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة كرر لاختلاف جزاء الشرط اذ جزاء الشرط فى الاول تخلية سبيلهم فى الدنيا وفى الثانى أخوتهم لنا فى الدين وهى ليست عين تخليتهم بل

(يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم) بادغام التاء فى الاصل فى المثلثة واجتلاب همزة الوصل اذ أصله تثاقلتم ومعناه تباطأتم وملتم عن الجهاد (الى الارض) والقعود فيها والاستفهام للتوبيخ قال المحققون وانما تثاقل الناس من وجوه الاول شدة الزمان فى الضيق والقحط والثانى بعد المسافة والحاجة الى الاستعداد الكثير الزائد على ماجرت به عادتهم فى سائر الغزوات والثالث ادراك الثمار بالمدينة فى ذلك الوقت والرابع شدة الحر فى ذلك الوقت ثم قال لهم الله تعالى (أرضيتم بالحيوة الدنيا) وغرورها (من الآخرة) بدل الآخرة ونعيمها (فما متاع الحيوة الدنيا فى) جنب متاع (الآخرة الا قليل) أى حقير لان متاع الدنيا بفنى عن قريب ونعيم الآخرة باق على الدوام فلهذا السبب كان متاع الدنيا بالنسبة الى نعيم الآخرة قليلا وفى الآية دليل على وجوب الجهاد فى كل حال وفى كل وقت لان الله تعالى نص على ان تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم الله على التثاقل ويؤكده هذا الوعيد المذكور قوله تعالى (الا) بادغام نون ان الشرطية فى لا فى الموضعين (تنفروا) أى تخرجوا مع النبى صلى الله عليه وسلم للجهاد (يعذبكم عذابا أليما) أى مؤلما فى الآخرة لان العذاب الاليم لا يكون الا فيها أو بالاهلاك بسبب فظيع كقحط وظهور عدو وقيل باحتباس المطر عنهم قال ابن عباس استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) أى يأت بهم بدلكم قال ابن عباس هم التابعون وقال سعيد بن جبير ابناء فارس وقال أبو روق هم أهل اليمن قال الرازى وهذه الوجوه ليست تفسيرا للآية لان الآية ليس فيها اشعار بها بل حمل ذلك المطلق على صورة معينة شاهدوها وقال فى الكشاف بعد ذكره ذلك والظاهر مستغن عن التخصيص (ولا تضروه شيأ) أى لا يقدح تثاقلكم فى نصر دينه شيأ فانه الغنى عن كل شئ وفى كل أمر وقيل الضمير راجع الى الرسول صلى الله عليه وسلم أى ولا تضروه لان الله تعالى وعده أن ينصره ووعده كائن لا محالة (والله على كل شئ قدير) أى فيقدر على التبديل وتغيير الاسباب والنصرة بلا عدد كما قال تعالى (الا تنصروه) أى محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون (فقد نصره الله) فانه المتكفل بنصرة رسوله صلى الله عليه وسلم فى اعزاز دينه واعلاء كلمته أعنتموه أو لم تعينوه فانه قد نصره عند قلة الاولياء وكثرة الاعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد والعدد وقد نصره (اذ) أى حين (أخرجه الذين كفروا) من مكة حين مكروا به حيث تشاوروا فى قتله أو اخراجه أو اثباته فى دار الندوة فبكان ذلك لاذن الله له فى الخروج من بينهم حالة كونه (ثانى اثنين) أى أحدهما أبو بكر رضى الله عنه لا ثالث لهما لم ينصرهما الا الله تعالى وقوله تعالى (اذ) بدل من اذ قبله (هما فى الغار) أى غار ثور الذى فى اعلى الجبل المواجه للركن اليمانى بأسفل مكة على مسيرة ساعة منها لما كمنا فيه ثلاث ليال ليفتر عنهما الطلب وذلك قبل أن يصلا اليكم ويعول فى النصر عليكم وقوله تعالى (اذ) بدل ثان (يقول) صلى الله عليه وسلم (لصاحبه) أبى بكر الصديق رضى الله عنه وتوقاربة غ بعد مؤيده عن شئ وقد قال له أبو بكر لما رأى أقدام المشركين لو نظر أحدهم تحت قدميه لابصرنا (لا تحزن) والحزن هم غليظ بتوجع يرق له القلب وانما كان خوفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم

سيما (قوله لا يرقبوا فيكم الا) أى قرابة ولا ذمة أى عهدا كرر ذلك بابدال الضمير بمؤمن فى قوله لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة لان الاول وقع جوابا لقوله وان يظهروا

فانهما

فانتهيا الى الغار فلما وصلا الغار نزل أبو بكر الغار أولا يلتمس ما في الغار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما لك فقال بأبي أنت وأمي الغار مأوى السباع والهوام فان كان فيه شيء كان بي لا بك وكان في الغار جحر فوضع عقبه عليه لئلا يخرج ما يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما طلب المشركون الاثر وقربوا بكى أبو بكر خوفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له صلى الله عليه وسلم لا تحزن (ان الله معنا) فقال له أبو بكر وان الله لمعنا فقال الرسول صلى الله عليه وسلم نعم فجعل يمسح الدموع عن خده وروى لما طلع المشركون فوق الغار واشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ما ظنك باثنين الله ثالثهما وروى لما دخل الغار بعث الله تعالى حمامتين باضتا في أسفله والعنكبوت نسجت عليه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يرون أحدا ويقولون لو دخلا هذا الغار تكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت • (تنبيه) • دلت هذه الآية على تفضيل أبي بكر رضى الله عنه من وجوه منها ان الهجرة كانت باذن الله تعالى وكان في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من المخلصين وكانوا في النسبة الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب من أبي بكر رضى الله عنه فلولا ان الله تعالى أمره بأن يستصحبه في تلك الواقعة الصعبة الهائلة والا لكان الظاهر أن لا يخصه بهذه الصحبة وتخصيص الله تعالى له بهذا التشريف دال على منصب عال له في الدين ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لا تحزن ان الله معنا ولا شك ان المراد من هذه المعية المعية بالحفظ والنصرة والحراسة والمعونة وقد شرك صلى الله عليه وسلم بين نفسه وبين أبي بكر في هذه المعية وكفى بها شرفا ومنها أن قوله لا تحزن نهي عن الحزن مطلقا والنهي يوجب الدوام والتكرار وذلك يقتضي أنه لا يحزن أبو بكر رضى الله عنه بعد ذلك البتة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت ومنها اطباق الكل على ان أبا بكر هو الذي اشترى الراحلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ان عبد الرحمن بن أبي بكر واسماء بنت أبي بكر هما اللذان كانا يأتيانهما بالطعام وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لابي بكر أنت صاحبي في الغار وصاحبي على الحوض قال الحسين بن الفضل من قال ان ابا بكر رضى الله عنه لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكار نص القرآن وفي سائر الصحابة اذا أنكر يكون مبتدعا لا كافرا واختلف في ع[illegible] الضمير في قوله تعالى (فأنزل الله سكينته) أي طمأنينته (عليه) هل هو للنبي صلى الله عليه وسلم أو لابي بكر رضى الله عنه رجح الثاني لوجوه الاول ان الضمير يجب عوده الى اقرب المذكورات واقرب المذكورات المتقدمة في هذه الآية هو ابو بكر لانه تعالى قال اذ يقول لصاحبه والتقدير اذ يقول محمد لصاحبه ابي بكر لا تحزن وعلى هذا التقدير فاقرب المذكورات السابقة هو ابو بكر فوجب عود الضمير اليه والثاني ان الحزن والخوف كانا حاصلين لابي بكر لا للرسول صلى الله عليه وسلم فانه كان آمنا ساكن القلب فيما وعده الله تعالى أن ينصره على قريش فلما قال لابي بكر لا تحزن صار آمنا فصرف السكينة لابي بكر ليصير ذلك سببا لزوال خوفه اولى من صرفها الى الرسول صلى الله عليه وسلم مع انه كان قبل ذلك ساكن النفس قوي القلب الثالث انه لو كان المراد انزال السكينة على

أي الكفار عليكم والثاني
وقع اخبارا عن تقديم حالهم
(قوله وان نكثوا أيمانهم
من بعد عهدهم) الآية
خص فيه أئمة الكفر بالذكر
وهم رؤساء الكفار وقادتهم

الرسول صلى الله عليه وسلم لوجب أن يقال ان الرسول كان قبل ذلك خائفا ولو كان خائفا لما أمكنه أن يقول لابي بكر لا تحزن ان الله معنا فمن كان خائفا كيف يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره ولو كان راجعا الى الرسول لوجب أن يقال فانزل الله سكينته عليه فقال لصاحبه لا تحزن فيكون ذلك مما يدل على فضيلة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ومنها حديث الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام عن عائشة رضي الله عنها وعن ابويها قالت لم اعقل ابوي الا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم الا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينا طرفي النهار بكرة وعشية فلما ابتلى المسلمون قال النبي صلى الله عليه وسلم لابي بكر اني رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بارض الحبشة الى المدينة وتجهز أبو بكر رضي الله عنه قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك يا رسول الله قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر قالت عائشة فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في حر الظهيرة قال قائل لابي بكر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر والله ما جاء به في هذه الساعة الا أمر قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فاذن له فدخل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر انما هم أهلك يا رسول الله فقال قد أذن لي في الخروج فقال أبو بكر الصحبة يا رسول الله قال نعم قال أبو بكر فخذ احدى راحلتي هاتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن قالت عائشة فجهزناهما أحب الجهاز ووضعنا لهما سفرة في جراب فقطعت اسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فسميت بذلك ذات النطاقين قالت ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الرحمن بن أبي بكر وهو غلام شاب فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به الا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام وكان يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء يفعل ذلك كل ليلة من الليالي الثلاث واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بني الديل هاديا عارفا بالهداية وهو على دين كفار قريش فامناه ودفعا اليه راحلتيهما [illegible]عداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما بهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلي فاخذ بهم طريق الساحل فعلم بهم سراقة بن مالك المدلجي وكان كفار قريش جعلوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر كل واحد منهما لمن قتله أو اسره دية قال سراقة فتبعتهم حتى دنوت منهم فعثرت فرسي فخررت عنها فقمت واهويت بيدي الى كنانتي فاستخرجت منها الازلام فاستقسمت بها اضرهم ام لا فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصيت الازلام فقربت بي حتى سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وابو بكر يكثر الالتفات فساخت يدا فرسي في الارض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا لاثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالازلام فخرج الذي أكره فناديتهم الامان

لانهم الاصل في الشك والطعن في الدين (قوله وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) قائل ذلك في كل منهما بعضهم

فرقتوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ان سيظهر امر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك جعلوا فيك الدية واخبرتهم بما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يسألاني الا ان قال اخف عنا فسألته ان يكتب لي كتاب امان فامر عامر بن فهيرة فكتب لي رقعة من ادم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وابا بكر ثيابا بيضا فاقتربا من المدينة ووصل الخبر الى الانصار فخرجوا مسرعين فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهر الحرة فاخذ بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الاول فقام في بني عمرو بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي اسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته وسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مكان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكان مربدا لتمر لسهل وسهيل فسارمهما صلى الله عليه وسلم ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يا رسول الله ثم بناه مسجدا وصار صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في بنائه ويقول وهو ينقل اللبن

هذا الحمال لا حمال خيبر ❁ هذا أبر ربنا واطهر

ويقول ايضا

ان الاجر اجر الآخرة ❁ فارحم الانصار والمهاجرة

قال ابن شهاب لم يبلغنا في الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا فاظهار خروجه صلى الله عليه وسلم لابي بكر رضي الله تعالى عنه مما يدل على فضيلته وفضائله رضي الله عنه وعن بقية الصحابة اجمعين وفيما ذكرناه كفاية وأما الضمير في قوله تعالى (وأيده) فاتفقوا انه للنبي صلى الله عليه وسلم فهو معطوف على قوله تعالى فقد نصره الله (بجنود لم تروها) أي من الملائكة الكرام في الغار ويوم بدر والاحزاب وحنين وجميع مواطن قتاله (وجعل كلمة) أي دعوة (الذين كفروا) الى الكفر (السفلى) أي المغلوبة لخيب سعيهم ورد كيدهم (وكلمة الله) أي الى الاسلام (هي العليا) أي الغالبة الظاهرة وقيل كلمة الذين كفروا ما كانوا اقدروها بينهم من الكيد بالنبي صلى الله عليه وسلم وكلمة الله هي ما وعده بالنصر والظفر بهم فكان ما وعده الله تعالى حقا وصدقا (والله عزيز) في ملكه (حكيم) في أمره وتدبيره لا يمكن أن ينتقض شيء من مراده فلا محيص عن نفوذ ما أراده ❁ ولما بلغت هذه المواعظ من القلوب الواعية مبلغها أهابه للقبول اقبل عليها سبحانه وتعالى فقال (انفروا خفافا وثقالا) أي على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها وعلى الصفة التي يثقل عليكم وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة ولهذا اختلفت عبارات المفسرين فيهما فقال ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال الحسن شبابا وشيوخا وقال عطية العوفي ركبانا ومشاة وقال أبو صالح فقراء وأغنياء وقال الحكم بن عيينة مشاغيل وغير مشاغيل وقال مرة الهمداني اصحاء وأصحاب مرض وعن صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا كبيرا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم لقد أعذر الله اليك فرفع حاجبيه وقال استنفرنا الله خفافا وثقالا الا انه من يحبه الله يبتليه وعن الزهري خرج سعيد بن المسيب الى

لا كلام قال في ح العهد لا للاستغراق كما في قوله واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك الآية اذ القائل انما ذلك انما هو

الغزو وقد ذهبت احدى عينيه فقيل انك عليل صاحب مرض فقال استنفرنا الله الخفيف والثقيل فان لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع وعن ابن ام مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى ان أنفر قال ما أنت الا خفيف أو ثقيل فرجع الى أهله ولبس سلاحه ووقف بين يديه صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى ليس على الاعمى حرج أى فهى منسوخة بذلك وقال ابن عباس نسخت بقوله تعالى ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية وقال السدى لما نزلت اشتد شأنها على المسلمين فنسخها الله تعالى وانزل ليس على الضعفاء ولا على المرضى وقال عطاء الخراسانى منسوخة بقوله تعالى وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقوله تعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) أمر ايجاب للجهاد أى بما أمكن لكم بهما كليهما أو احدهما على حسب الحال والحاجة (ذلكم) اى هذا الامر العظيم (خير لكم) اى خاص بكم ويجوز ان يكون افعل تفضيل اى عبادة المجاهد بالجهاد خير من عبادة القاعد بغيره كما قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله هل يمكن بلوغ درجة المجاهد فقال هل تستطيع ان تقوم فلا تفتر وتصوم فلا تفطر ثم ختم تعالى الآية بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) اى ما حصل من الخيرات فى الآخرة على الجهاد لا يدرك الا بالتأمل ولا يعرفه الا المؤمن الذى عرف بالدليل ان القول بالقيامة حق وان القول بالثواب والعقاب صدق ونزل فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (لو كان) ما تدعوهم اليه (عرضا) اى متاعا من الدنيا يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر (قريبا) اى سهل المأخذ وقوله تعالى (وسفرا قاصدا) اى وسطا فحذف اسم كان وهو ما قدرته قال الزجاج لدلالة ما تقدم عليه وانما سمى السفر قاصدا لان المتوسط بين الافراط والتفريط يقال له مقتصد قال تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد لان المتوسط بين الكثرة والقلة يقصده كل احد وقوله تعالى قاصدا اى ذا قصد كقولهم لابن وتامر (لاتبعوك) اى وافقوك طلبا للغنيمة (ولكن بعدت عليهم الشقة) اى المسافة التى تقطع بمشقة (وسيحلفون) اى المتخلفون (بالله) اذا رجعت من تبوك معتذرين (لو استطعنا) اى لو كان لنا استطاعة بالبدن او العدة (لخرجنا) اى فى هذه الغزاة (معكم يهلكون أنفسهم) اى بسبب هذه الايمان الكاذبة كما قال تعالى (والله يعلم انهم لكاذبون) فى ذلك لانهم كانوا مستطيعين الخروج (عفا الله عنك لم أذنت لهم) اى عفا الله تعالى عنك يا محمد ما كان منك فى ذلك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك الى تبوك واختلفوا هل فى ذلك معاتبة للنبى صلى الله عليه وسلم أم لا فقال عمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بهما اذنه للمنافقين واخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وقال سفيان ابن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ الله تعالى بالعفو قبل ان يعيره وقال القاضى عياض فى الشفاء ان هذا أمر لم يتقدم للنبى صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهى فيعد معصية ولا عده الله تعالى معصية عليه بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك وليس عفا بمعنى غفر بل كما قال النبى صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط اى لم يكن يلزمكم ذلك ونحوه للقشيرى قال وانما يقول العفو لا يكون الا عن ذنب من

بجبرائيل (قوله ذلك قولهم بأفواههم) فائدة قوله بأفواههم مع ان القول لا يكون الا بالفم الاعلام بأن

لا يعرف

لايعرف كلام العرب وقال مكي هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وقال السمرقندي ان معناه عافاك الله وقال الرازي ان ذلك يدل على مبالغة الله في توقيره وتعظيمه كما يقول الرجل لغيره اذا كان معظما عنده عفا الله عنك ماجوابك عن كلامي ورضي الله عنك ماصنعت في أمري فلا يكون غرضه من هذا الكلام الا مزيد التجيد والتعظيم أي كما كانت عادة العرب في مخاطبتهم لأكابرهم بأن يقولوا أصلح الله الامير والملك ونحو ذلك (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أي في اعتذارهم (وتعلم الكاذبين) أي فيما أظهروا من الايمان باللسان ولو لم يؤذن لهم لقعدوا بلا اذن غير مراعين ميثاقهم الذي واثقوك عليه بالطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة (لا يستأذنك) أي لا يطلب اذنك بغاية الرغبة فيه (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) أي الذي يكون فيه الجزاء بالثواب والعقاب (أن) أي في أن (يجاهدوا) وانما حسن هذا الحذف لظهوره (بأموالهم وأنفسهم) بل يبادرون الى الجهاد عند اشارتك اليه وبعثك عموما عليه فضلا عن أن يستأذنوك في التخلف عنه فان الخلص من المهاجرين والانصار كانوا يقولون لانستأذنه صلى الله عليه وسلم في الجهاد فان ربنا ندبنا اليه مرة بعد مرة فاي فائدة في الاستئذان ولنجاهدن معه بأموالنا وأنفسنا وكانوا بحيث لو أمرهم صلى الله عليه وسلم بالقعود لشق عليهم كما وقع لعلي رضي الله عنه في غزوة تبوك لما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يبقى في المدينة شق عليه ولم يرض حتى قال له صلى الله عليه وسلم ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى (والله عليم بالمتقين) أي الذين يتقون مخالفته ويسارعون الى طاعته (انما يستأذنك) يا محمد في التخلف عن الجهاد معك من غير عذر (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون لانهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا (وارتابت) أي شكت (قلوبهم) في الدين وانما أضاف الشك والارتياب الى القلب لانه محل المعرفة والايمان فاذا دخله الشك كان ذلك نفاقا (فهم) أي فتسبب عن ذلك انهم (في ريبهم يترددون) أي المنافقون يتحيرون لامع الكفار ولامع المؤمنين * (تنبيه) * اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآيات فقيل انها منسوخة بالآية التي في سورة النور وهي قوله تعالى ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم وقيل انهن محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات ان المؤمنين كانوا يسارعون الى طاعة الله تعالى وجهاد عدوهم من غير استئذان فاذا عرض لاحدهم عذر استأذن في التخلف فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيرا في الاذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر (ولو أرادوا الخروج) الى الغزو معك (لأعدوا له) أي قبل حلوله (عدة) أي قوة وأهبة من المتاع والسلاح والكراع بحيث يكونون كالحاضرين في صلب الحرب الواقفين في الصف قد استعدوا لها بجميع عدتها * ولما كان قوله تعالى ولو أرادوا الخروج يعطي معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو أتى تعالى بحرف الاستدراك فقال تعالى (ولكن كره الله انبعاثهم) أي لم يرض خروجهم معك الى الغزو (فثبطهم) أي حبسهم بالجبن والكسل (وقيل) لهم (اقعدوا مع القاعدين) أي مع

ذلك مجرد قول لا أصل له (قوله مبالغة في الرد عليهم (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) فائدة ذكر دين الحق مع دخوله في الهدى

النساء والصبيان والمرضى وأهل الاعذار ومعنى قيل لهم أى قدر الله تعالى ذلك عليهم ذلك بان ألقى في قلوبهم القعود لما كره الله انبعاثهم مع المؤمنين وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استأذنوه فى القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين (فان قيل) خروج المنافقين مع النبى صلى الله عليه وسلم اما ان يكون فيه مصلحة أو مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال تعالى ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وان كان فيه مفسدة فلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم عفا الله عنك لم أذنت لهم فى ترك الخروج (أجيب) بان خروجهم فيه مفسدة عظيمة بدليل قوله تعالى (لو خرجوا فيكم) أى معكم (ما زادوكم) بخروجهم (الا خبالا) أى فسادا وشرا بتخذيل المؤمنين وتقدم الكلام على قوله لم أذنت لهم *(تنبيه)* لا يصح أن يكون فيه الاستثناء منقطعا لان الاستثناء المنقطع يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقوله ما زادوكم خيرا الا خبالا والمستثنى منه فى هذا الكلام غير مذكور واذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام كأنه قيل ما زادوكم شيأ الا خبالا (ولا وضعوا) أى أسرعوا (خلالكم) أى بينكم فيما يخل بكم بالمشى بالنميمة (يبغونكم الفتنة) أى يطلبون منكم ما تفتتنون به وذلك انهم يقولون للمؤمنين لقد جمعوا لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التى تجبنهم (وفيكم) أى والحال ان فيكم (سماعون لهم) أى عيون لهم يؤدون لهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس أو مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك انهم يلقون اليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم (فان قيل) كيف يكون فى المؤمنين المخلصين من يطيع المنافقين (أجيب) بانهم ربما قالوا قولا أثر فى قلوب ضعفة المؤمنين فى بعض الاحوال وقوله تعالى (والله عليم بالظالمين) وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين (لقد ابتغوا الفتنة) أى العنت ونصب الغوائل والسعى فى تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله بن أبى يوم أحد وحين انصرف بمن معه وعن ابن جريج وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا ليفتكوا به (من قبل) أى قبل غزوة تبوك (وقلبوا لك الامور) أى ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء بينهم فى ابطال أمرك (حتى جاء الحق) وهو تأييدك ونصرك (وظهر أمر الله) أى غلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) له اى على رغم منهم فدخلوا فيه ظاهرا ولما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس وكان من المنافقين يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الاصفر يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصفاء فقال الجد بن قيس يا رسول الله لقد علم قومى انى مغرم بالنساء وانى أخشى ان رأيت بنات بنى الاصفر ان لا أصبر عنهن ائذن لى بالقعود ولا تفتنى واعينك بمالى قال ابن عباس اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة الا النفاق فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيه (ومنهم) أى المنافقين (من يقول ائذن لى) أى فى القعود فى المدينة (ولا تفتنى) أى ببنات بنى الاصفر وقيل لا توقعنى فى الفتنة وهى الاثم بان لا تأذن لى فانك ان منعتنى من القعود وقعدت بغير اذنك وقعت فى الاثم وقيل لا تلقنى فى الهلاك فان الزمان زمان شدة الحر ولا طاقة لى بها وقيل لا تفتنى بسبب ضياع المال والعيال

قوله بيان شرفه وتعظيمه كقوله والصلاة الوسطى أو ان المراد بالهدى القرآن وبالدين الاسلام (قوله ولا ينفقونها فى سبيل الله)

اذلا كافل لهم بعدى قال الله تعالى (ألا فى الفتنة سقطوا) اى ان الفتنة هى التى سقطوا فيها
وهى فتنة التخلف وظهور النفاق لا ما أخبروا عنه (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أى جامعة
لهم لامحيص لهم عنها يوم القيامة أو هى محيطة بهم الآن لان أسباب الاحاطة معهم فكأنهم
فى وسطها (ان تصبك) يا محمد فى بعض الغزوات (حسنة) اى نصرة وغنيمة (تسؤهم) أى تحزنهم
لما فى قلوبهم من الضعف والمرض (وان تصبك مصيبة) أى نكبة وان صغرت فى بعض
الغزوات كما وقع يوم أحد (يقولوا) أى سرورا وتبجحا بحسن رأيهم (قد أخذنا أمرنا) أى بالجد
والحزم فى القعود عن الغزو (من قبل) أى قبل هذه المصيبة (ويتولوا وهم فرحون) اى
مسرورون بما نالك من المصيبة وسلامتهم منها قال الله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون
بما يصيبك من المصائب والمكروه (لن يصيبنا الا ما كتب الله) اى قدره (لنا) فى اللوح
المحفوظ لان القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن
نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا ان أراده مالم يقدر له (هو) أى الله (مولانا) أى
ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وأن
الكافرين لا مولى لهم (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فى جميع أمورهم لان حقهم أن لا
يتوكلوا على غيره فليفعلوا ما هو حقهم (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (هل تربصون) فيه حذف
احدى التاءين من الاصل أى تنتظرون أن يقع (بنا) أيها المنافقون (الا احدى الحسنيين)
تثنية حسنى تأنيث أحسن أى الا احدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى
العواقب وهما النصر أو الشهادة وذلك ان المسلم اذا ذهب الى الجهاد فى سبيل الله اما أن يسلم
ويغنم فيحصل له المال واما أن يقتل فى سبيل الله فتحصل له الشهادة وهى العاقبة القصوى وعن
أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه
من بيته الا الجهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذى خرج منه
مع ما نال من أجر أو غنيمة (ونحن نتربص بكم) أى احدى السوأيين من العواقب اما (أن
يصيبكم الله بعذاب من عنده) لا بسبب لنا فيه كأن ينزل عليكم قارعة من السماء كما نزلت على
عاد وثمود (أو) بعذاب (بأيدينا) اى بسببنا من قتل ونهب وأسر وغير ذلك (فتربصوا) بنا ما ذكرنا
من عواقبنا (انا معكم متربصون) ما هو عاقبتكم ولا بد أن يلاقى كل ما يتربصه لا يتجاوزه (قل)
يا محمد لهؤلاء المنافقين (أنفقوا طوعا أو كرها) اى من غير الزام من الله ورسوله أو ملزمين وسمى
الالزام اكراها لانهم منافقون فكان الزامهم الانفاق شاقا عليهم كالاكراه أو طائعين من غير
اكراه من رؤسائكم لان رؤساء اهل النفاق كانوا يحملون على الانفاق لما يرون من المصلحة فيه
أو مكرهين من جهتهم (لن يتقبل منكم) اى لا تقبل منكم نفقاتكم على اى حال كان (فان
قيل) كيف امرهم بالانفاق ثم قال لن يتقبل منكم (اجيب) بان هذا امر فى معنى الخبر كقوله
تعالى قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا وروى انها نزلت فى الجد بن قيس حين تخلف
عن غزوة تبوك وقال للرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا مالى اعينك به فاتركنى ثم علل تعالى
سبب منع القبول بقوله تعالى (انكم) اى لانكم (كنتم قوما فاسقين) والمراد بالفسق هنا
الكفر ويدل عليه قوله تعالى (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله)

أفرد الضمير مع تقدم اثنين
الذهب والفضة نظرا الى
عوده الى الفضة لقربها
ولانها اكثر من الذهب أو
الى عوده الى المعنى لان

اى وما منعهم قبول نفقاتهم الا كفرهم وقرأ حمزة والكسائى يقبل بالياء على التذكير لان تأنيث النفقات غير حقيقى والباقون بالتاء على التأنيث (ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى) اى متثاقلون لا يأتونها قط بنشاط (ولا ينفقون) أى نفقة من واجب أو غيره (الا وهم كارهون) أى فى حال الكراهة وان ظهر خلاف ذلك وذلك كله لعدم النية الصالحة وهذا لا ينافى طوعا لان ذلك بحسب الظاهر وهذا بحسب الواقع (فلا تعجبك) يا محمد (أموالهم) أى وان أنفقوها فى سبيل الله وجهزوا بها الغزاة فان ذلك من غير اخلاص منهم ولا حسن نية ولا جميل طوية (ولا أولادهم) الذين يتجملون بهم فان ذلك استدراج ووبال كما قال تعالى (انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا) وان كان يتراءى أنها لذيذة لان ذلك من شأن الحياة وتعذيبهم فيها بسبب ما يكابدون من جمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب (فان قيل) هذا لا يختص بالمنافق فما فائدة تخصيصه به (أجيب) بأن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وانه يثاب بالمصائب الحاصلة له فى الدنيا فلم يكن المال والولد فى حقه عذابا والمنافق لا يعتقد ذلك فبقى ما يحصل له فى الدنيا من التعب والمشقة والغم والحزن على المال والولد عذابا عليه فى الدنيا (وتزهق) أى تخرج (أنفسهم) بسببها (وهم) أى والحال انهم (كافرون) أى يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة وهكذا كل من أراد الله تعالى استدراجه فى الغالب كثر ماله وولده فيكثر اعجابه بماله وولده وبطره وكفره نعمة الله تعالى والاعجاب السرور بالشئ مع نوع الافتخار به ومع اعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه وهذه الحالة تدل على استغراق النفس بذلك الشئ وانقطاعه عن الله تعالى فانه لا يبعد فى حكم الله تعالى أن يزيل ذلك الشئ عن ذلك الانسان ويجعله لغيره والانسان متى كان متذكرا لهذا المعنى زال اعجابه بذلك الشئ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وكان صلى الله عليه وسلم يقول هلك المكثرون وقال أيضا مالك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أولبست فأبليت أوتصدقت فأبقيت وروى من كثر ماله اشتد حسابه ومن أراد من السلطان قربا ازداد من الله بعدا والاخبار الواردة فى هذا الباب كثيرة والمقصود منها الزجر عن الاطناب من الدنيا والمنع من التهالك فى حبها والافتخار بها لان الانسان خلق للآخرة لا للدنيا فينبغى أن لا يشتد عجبه بالدنيا وان لا يميل قلبه اليها فان المسكن الاصلى له هو الآخرة لا الدنيا ولما بين تعالى كون المنافقين مستجمعين لكل مضار الدنيا والآخرة خالين عن جميع منافع الآخرة والدنيا عاد الى ذكر فضائحهم وقبائحهم فمنها اقدامهم على الأيمان الكاذبة كما قال تعالى (ويحلفون) اى المنافقون (بالله) للمؤمنين اذا جاؤا معهم (انهم لمنكم) اى على دينكم وملتكم (وما هم منكم) اى لكفر قلوبهم (ولكنهم قوم يفرقون) اى يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلوا بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية (لو يجدون ملجأ) اى حصنا يلجؤن اليه وقيل لو وجدوا مهربا لهربوا اليه وقيل لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا اليهم وفارقوكم (أو مغارات) أى سراديب جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الانسان أى يستتر (أو مدخلا) أى موضعا يدخلونه (لولوا اليه) والمعنى انهم لو وجدوا مكانا على أحد هذه الوجوه الثلاثة مع انها شر الامكنة لدخلوا اليه وتحرزوا فيه (وهم

يجمحون

الكنوز دراهم ودنانير

ونظيره قوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (قوله فلا تظلموا فيهن أنفسكم) لم خص الاربعة (ان قلت)

يجمحون) أي يسرعون في دخول ذلك المكان اسراعا لا يرد وجوههم شيء ومن هذا يقال جمح الفرس وهو فرس جموح وهو الذي اذا حمل لا يرده اللجام * ثم ذكر تعالى نوعا آخر من قبائح المنافقين وهو طعنهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أخذ الصدقات بقوله تعالى (ومنهم من يلمزك) أي يعيبك (في الصدقات) قال أبو علي الفارسي ههنا محذوف والتقدير يعيبك في تقسيم الصدقات واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال أبو سعيد الخدري بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا اذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم رأس الخوارج وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين واستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال يا رسول الله اعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك ان لم أعدل فمن يعدل قد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه فقال له صلى الله عليه وسلم دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقال الكلبي قال رجل من المنافقين يقال له الجواظ المنافق ألا ترون الى صاحبكم يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم انه يعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أبا لك أما كان موسى راعيا أما كان داود راعيا فلما ذهب قال صلى الله عليه وسلم احذروا هذا وأصحابه فانهم منافقون وقال ابن زيد قال المنافقون والله ما يعطيها محمد الا من أحب ولا يؤثر بها الا هواه فنزلت وروى ابو بكر الاصم في تفسيره أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من اصحابه ما علمك بفلان فقال مالي به علم الا انك تدنيه في المجلس وتجزل له العطاء فقال صلى الله عليه وسلم انه منافق أداريه عن نفاقه واخاف ان يفسد علي غيره فقال لو اعطيت فلانا بعض ما تعطيه فقال صلى الله عليه وسلم انه مؤمن اكل ايمانه واما هذا فمنافق اداريه خوف فساده (فان اعطوا منها) اي من الصدقات (رضوا) اي رضوا عنك في قسمتها (وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) اي وان لم تعطهم عابوا عليك وسخطوا قال اهل المعاني ان هذه الآية تدل على ركاكة اخلاق المنافقين ودناءة طباعهم وذلك لانه لشدة شرههم الى اخذ الصدقات عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبوه الى الجور في القسمة مع انه كان ابعد خلق الله تعالى عن الميل الى الدنيا وقال الضحاك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بينهم ما آتاه الله تعالى من قليل المال وكثيره وكان المؤمنون يرضون بما اعطوا ويحمدون الله تعالى واما المنافقون فان اعطوا كثيرا فرحوا وان اعطوا قليلا سخطوا وذلك يدل على ان رضاهم وسخطهم لطلب النصيب لا لاجل الدين وكلمة اذا للمفاجأة اي وان لم يعطوا منها فاجؤا السخط (ولو أنهم) اي المنافقين (رضوا ما آتاهم الله ورسوله) اي ما اعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم والصدقات أو غيرها وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على ان ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بأمره (وقالوا) اي مع الرضا (حسبنا الله) اي كافينا الله من فضله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) اي من غنيمة او صدقة اخرى ما يكفينا (انا الى الله) اي في ان الله تعالى يغنينا عن الصدقة وغيرها من اموال الناس ويوسع علينا من فضله (راغبون) اي عريقون في الرغبة ولذلك نكتفي بما يأتي من قبله كائنا ما كان وجواب لو محذوف والتقدير لكان خيرا لهم

المحرم بذلك مع ان ظلم النفس منهي عنه في كل زمان (قلت) لم يخصه به اذا الضمير عائد الى اثنا عشر شهرا كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما

نقل عن عيسى عليه السلام انه مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال ما الذى حملكم عليه فقالوا الخوف من عقاب الله فقال أصبتم ومر على قوم يشتغلون بالذكر فسألهم فقالوا لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة فى الثواب بل لاظهار ذلة العبودية وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بالالفاظ الدالة على صفات قدسه فقال أنتم المحقون المحققون ثم بين سبحانه وتعالى مصارف الصدقات تحقيقا لما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عز من قائل (انما الصدقات) اى الزكوات مصروفة (للفقراء) والفقير هو الذى لا يجد ما يقع موقعا من كفايته كأن يحتاج الى عشرة دراهم وهو لا يجد الا درهمين أو ثلاثا مأخوذ من الفقار كأنه أصيب فقاره (والمساكين) جمع مسكين وهو الذى يجد ما يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه كأن يحتاج الى عشرة وهو يجد سبعة أو ثمانية مأخوذ من السكون كأن العجز أسكنه والمسكين أعلى من الفقير ويدل عليه قوله تعالى أما السفينة فكانت لمساكين وروى أنه صلى الله عليه وسلم تعوذ من الفقر وقيل الفقير أعلى لقوله تعالى أو مسكينا ذا متربة والعبرة عند الجمهور فى عدم كفاية الفقير والمسكين بالعمر الغالب بناء على انه يعطى كفاية ذلك (والعاملين عليها) أى الزكاة فيعطى العامل وان كان غنيا ويدخل فى اسم العامل الساعى وهو الذى يبعثه الامام لاخذ الزكاة والكاتب والحاشر والعريف وهو الذى يعرف أرباب الاستحقاق والحاسب والحافظ للاموال والكيال والوزان والعداد عمال ان ميزوا أنصباء الاصناف لا المميزون للزكاة من المال وجامعوه فان أجرتهم على المالك (والمؤلفة قلوبهم) وهم اما ضعيف النية فى الاسلام فيعطى ليقوى اسلامه أو شريف فى قومه يتوقع باعطائه اسلام غيره او كاف لنا شر من يليه من الكفار أو مانعى الزكاة فيعطى حيث اعطاؤه اهون علينا من بعث جيش وأما مؤلفة الكفار لترغيبهم فى الاسلام فلا يعطون من الزكاة ولا من غيرها للاجماع ولان الله تعالى أعز الاسلام وأهله وأغنى عن التأليف (وفى الرقاب) وهم المكاتبون كتابة صحيحة فيعطون ما يؤدون من النجوم ان عجزوا عن الوفاء ولو لم يحل النجم لان قوله تعالى وفى الرقاب كقوله تعالى وفى سبيل الله وهناك يعطى المال للمجاهدين فيعطى للرقاب فلا يشترى به رقاب للعتق كما قيل به (والغارمين) وهم من لزمتهم الديون وهم ثلاثة أضرب دين لزمه لمصلحة نفسه ودين لزمه بضمان لا لتسكين فتنة ودين لزمه لتسكينها وهو اصلاح ذات البين فمن استدان لمصلحة نفسه أعطى لا ان استدان فى معصية الا ان تاب عنها فيعطى اذا احتاج وكان بحيث لو قضى دينه مما معه تمسكن فيترك له ما يكفيه ويعطى ما يقضى به بقية دينه ويعطى ولو قدر على قضائه بالكسب وكذا المكاتب ويشترط حلول الدين فى اعطاء الغريم وان ضمن لا لتسكين فتنة وهو معسر ملتزم عال على معسر أعطى ما يقضى به دينه واذا قضى به دينه لا يرجع على الاصيل وان ضمن باذنه وانما يرجع اذا غرم من عنده ويعطى معسر ملتزم عال على موسر بلا اذن من الاصيل لانه اذا غرم لا يرجع عليه بخلاف ما اذا ضمن باذنه ولا يعطى موسر ملتزم عال على موسر وان ضمن موسر ما على معسر أعطى الاصيل دون الضامن والغارم لاصلاح ذات البين يعطى مع الغنى ولو فى غير دم ويعطى المستدين لقرى ضيف وعمارة مسجد وبناء قنطرة وفك أسير ونحو ذلك من المصالح العامة عند العجز عن النقد (وفى سبيل الله) وهم الغزاة

لا الى الاربعة الحرم فقط او خصها به لقربها أو لمزيد فضلها وحرمتها عندهم فى الجاهلية (قوله لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم

المتطوعون أى الذين لا رزق لهم فى الفىء و يعطون ولو أغنياء اعانة لهم على الغزو وتحرم الزكاة على الغازى المرتزق ولو كان عاملا فاذا عدم الفىء واضطررنا الى المرتزق ليكفينا شر الكفار اعانه الاغنياء لا من الزكاة (وابن السبيل) أى الطريق وهو من ينشئ سفرا مباحا من محل الزكاة فيعطى ولو كان كسوبا أو كان مسافر النزهة و يعطى أيضا المسافر الغريب المجتاز بمحل الزكاة وانما يعطى ان لم يجد ما معهما شيأ يكفيهما السفرهما وقوله تعالى (فريضة من الله) نصب بفعله المقدر أى فرض لهم الصدقات فريضة أو حال من الضمير المستكن فى للفقراء (والله عليم) أى بالغ العلم بما يصلح الدين والدنيا ويؤلف بين قلوب المسلمين (حكيم) يضع الاشياء فى مواضعها وانما أضيفت الصدقات الى الاصناف الاربعة الاولى بلام الملك والى الاربعة الاخيرة بفى الظرفية للاشعار باطلاق الملك فى الاربعة الاولى وتقييده فى الاخيرة حتى اذا لم يحصل الصرف فى مصارفها استرجع بخلافه فى الاولى ويجب تعميم الاصناف الثمانية فى القسم ان أمكن بأن قسم الامام ولو بنائبه ووجدوا الظاهر الآية سواء فى ذلك زكاة الفطر وزكاة المال وان لم يمكن بأن قسم المالك اذ لا عامل أو الامام ووجد بعضهم كأن جعل عامل بأجرة من بيت المال فتعميم من وجد منهم وعلى الامام تعميم آحاد كل صنف من الزكاة الحاصلة عنده اذ لا يتعذر عليه ذلك وعلى المالك أيضا ان انحصر الآحاد بالبلد بأن سهل عادة ضبطهم ومعرفة عددهم ووفى بهم المال فان أخل أحدهما بصنف ضمن وان لم ينحصروا أو لم يف بهم المال ٣ ويجب اعطاء ثلاثة فاكثر من كل صنف لذكره فى الآية بصيغة الجمع وهو المراد فى سبيل الله وابن السبيل الذى هو للجنس ولا عامل فى قسم المالك و يجوز حيث كان أن يكون واحدا ان حصلت به الكفاية كما يستغنى عنه فيما مر وتجب التسوية بين الاصناف غير العامل لا بين آحاد الصنف الا أن يقسم الامام وتتساوى الحاجات فتجب التسوية لانه عليه التعميم فعليه التسوية بخلاف المالك اذا لم ينحصروا أو لم يف بهم المال ولا يجوز ولا يجزيه نقل الزكاة من بلد وجوبها مع وجود المستحقين فيه الى بلد آخر أو حال الحول والمال ببادية فرقت الزكاة باقرب البلاد اليه أما الامام ولو بنائبه فله نقلها ولو امتنع المستحقون من أخذها قوتلوا وشرط آخذ الزكاة من هذه الثمانية حرية واسلام وان لا يكون هاشميا ولا مطلبيا ولا مولى لهما كما بينته السنة هذا مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه وقال الرازى وغيره لا دلالة فى الآية على قول الشافعى فى أنه لا بد من صرفها الى جميع الاصناف لانه تعالى جعل جملة الصدقات لهؤلاء الاصناف وأما ان صدقة زيد بعينها يجب توزيعها على الاصناف كلها فلا كما ان قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه الآية يوجب قسم الخمس على الطوائف من غير توزيع بالاتفاق وما ذهب اليه الشافعى رضى الله تعالى عنه قول عكرمة وما ذهب اليه الائمة الثلاثة من جواز صرفها الى صنف واحد هو قول عمر وحذيفة وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وكل على هدى من ربهم (فان قيل) كيف وقعت هذه الآية فى تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم (أجيب) بانه تعالى ذكر ذلك ليدل على أن هذه الاصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسما لاطماعهم واشعارا باستحقاقهم الحرمان وانهم بعداء عنها وعن مصارفها فالهم ومالها وما سلطهم على التكلم فيها و بن قاسمها

الآخر) أى لا يستأذنونك فى التخلف عن الجهاد (ان قات) كيف قال ذلك مع ان كثيرا من المؤمنين استأذنوه فى ذلك لعذر أخذا

---

٣ قوله وان لم ينحصروا أو لم يف بهم المال هذه الجملة ساقطة فى بعض النسخ ولعل الواو فى قوله ويجب زائدة من الناسخ و يكون قوله يجب جوابا عن قوله وان لم ينحصروا الخ كما يدل عليه عباراتهم فى الفقه اهـ مصححه

(ومنهم) أي المنافقين (الذين يؤذون النبي) هذا نوع آخر من جهالات المنافقين وهو أنهم كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويعيبونه وينقلون حديثه (ويقولون) إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه (هو أذن) أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة للسماع كما يسمى الجاسوس عينا لذلك واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف له فيصدقنا فيما نقول فان محمدا أذن أي أذن سامعة يسمع كل ما يقال له ويقبله وقال محمد بن اسحق نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبيل بن الحرث وكان رجلا ثائر الشعر أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة وقد قال صلى الله عليه وسلم من أراد أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبيل بن الحرث وكان ينم حديث النبي صلى الله عليه وسلم الى المنافقين فقيل له لا تفعل ذلك فقال انما محمد أذن فمن حدثه شيئا صدقه فنقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا فنزلت وقال الحسن كان المنافقون يقولون ما هذا الرجل الا أذن من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له ومقصود المنافقين بقولهم هو أذن ليس له ذكاء ولا بعد غور بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع فلهذا السبب سموه باذن وقوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (أذن خير لكم) تصديق لهم بانه أذن لكن لا على الوجه الذي ذموه به بل من حيث انه يسمع الخير ويقبله ثم فسر تعالى ذلك بقوله تعالى (يؤمن بالله) أي يصدق به لما قام عنده من الادلة (ويؤمن للمؤمنين) أي ويصدقهم ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين (فان قيل) لم عدى فعل الايمان بالباء الى الله تعالى والى المؤمنين باللام (أجيب) بان الايمان المعدى الى الله تعالى المراد منه التصديق الذي هو نقيض الكفر فعدى بالباء والايمان المعدى للمؤمنين معناه الاستماع منهم والتسليم لقولهم فعدى باللام كما في قوله تعالى وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وقوله تعالى فما آمن لموسى الا ذرية من قومه وقوله تعالى أنؤمن لك واتبعك الارذلون وقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وقرأ نافع أذن في الموضعين بتسكين الذال والباقون بالرفع (ورحمة) أي وهو رحمة (للذين آمنوا منكم) أي لمن أظهر الايمان حيث يقبله ولا يكشف سره وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقا بكم وترحما عليكم وقرأ حمزة ورحمة بالجر عطفا على خير والباقون بالرفع ولما بين سبحانه وتعالى كونه سببا للخير بين أن كل من آذاه استوجب العذاب الاليم بقوله تعالى (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) أي مؤلم لانه اذا كان يسعى في ايصال الخير والرحمة اليهم مع كونهم في غاية الخبث والخزي ثم انهم مع ذلك يقابلون احسانه بالاساءة وخيراته بالشرور فلا شك انهم يستحقون العذاب الشديد من الله تعالى ثم ذكر نوعا آخر من قبائح أفعال المنافقين بقوله تعالى (يحلفون بالله لكم) أيها المؤمنون (ليرضوكم) أي لترضوا عنهم واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل والكلبي نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوا يعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم وقال قتادة والسدي اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد ووديعة بن ثابت

من قوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه

فوقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا ان كان ما يقول محمد حقا فنحن أشر من الحمير وكان عندهم غلام من الانصار يقال له عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام وقال والله ما يقول محمد الا حق وأنتم أشر من الحمير ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا ان عامرا كذب وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فنزلت (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أي بالارضاء بالطاعة والوفاق وافراد الضمير لانه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم لتلازمهما كقولك احسان زيد واجماله نعشني وجبرني أو ان العالم بالاسرار والضمائر هو الله تعالى واخلاص القلب لا يعلمه الا الله تعالى ولهذا السبب خص الله تعالى نفسه بالذكر أو لان الكلام في ايذاء الرسول وارضائه أو خبر الله أو رسوله محذوف وفي كلام البيضاوي اشارة الى ان المذكور خبر الاول لانه المتبوع وفي كلام سيبويه انه للثاني لكونه أقرب مع السلامة من الفصل بين المبتدا والخبر (ان كانوا) أي هؤلاء المنافقون (مؤمنين) أي مصدقين بوعد الله ووعيده في الآخرة (ألم يعلموا) قال أهل المعاني هذا خطاب لمن علم شيأ ثم نسيه وتركه فيقال له ألم تعلم انه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله تعالى ألم يعلموا أن من شرائع الدين التي علمهم رسولنا (انه) اى الشأن (من يحادد الله) اى من يخالف الله (ورسوله) وأصل المحادة في اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا اى صار في حد غير حده كشاقه اى صار في شق غير شقه ومعنى يحادد الله اى يصير في حد غير حد أولياء الله تعالى بالمخالفة وقوله تعالى (فان له نار جهنم) اى على حذف الخبر اى فحق ان له نار جهنم لان الفاء واقعة في جواب الشرط فتقتضي جملة وفان له نار جهنم مفرد في موضع رفع بالابتداء وقدر خبره مقدما لان أن لا يبتدأ بها قال الرازي أو ان معناه فله نار جهنم وأن تكررت للتوكيد واعترض بان فيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بأجنبي ثم قال او جواب من محذوف والتقدير ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فان له نار جهنم (خالدا فيها) اى دائما من غير انقضاء كما كانت نيته المحادة أبدا ثم نبه على عظم هذا الجزاء بقوله تعالى (ذلك) اى الامر البعيد الوصف العظيم الشأن (الخزي العظيم) اى الهلاك الدائم (يحذر) اى يخاف (المنافقون أن تنزل عليهم) اى المؤمنين (سورة تنبئهم) اى تخبرهم (بما في قلوبهم) اى بما في قلوب المنافقين من النفاق والحسد والعداوة للمؤمنين كانوا يقولون فيما بينهم ويستهزؤن ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم قال قتادة هذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة أثارت مخازيهم ومثالبهم قال ابن عباس أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الاسماء رحمة على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لان أولادهم كانوا مؤمنين (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (استهزؤا) أمر تهديد (ان الله مخرج) أي مظهر (ما تحذرون) اخراجه من نفاقكم قال ابن كيسان نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به اذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه

(قلت) لامنافاة لان ذلك نفي بمعنى النهي كقوله فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج أو هو منسوخ كما قال ابن عباس بقوله لم يذهبوا حتى يستأذنوه أو المراد انهم لا يستأذنونه في ذلك لغير عذر (قوله وقيل اقعدوا مع القاعدين)

وتنكروا له في ليلة مظلمة فاخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدروا وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم وعمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاها عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة الا تبعث اليهم فتقتلهم فقال اكره أن تقول العرب لما ظفر باصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله (ولئن) اللام لام القسم (سألتهم) أي المنافقين عن استهزائهم بك والقرآن وهم سائرون معك الى تبوك (ليقولن) معتذرين (انما كنا نخوض ونلعب) أي الحديث لنقطع به الطريق ولم نقصد ذلك قال قتادة كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزئان بالنبي صلى الله عليه وسلم والقرآن والثالث يضحك قيل كانوا يقولون ان محمدا يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك وقيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن وانما هو قوله وكلامه فاطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا الركب على فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب اى كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لنقطع الطريق بالحديث واللعب قال الله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (أبالله) اى بفرائضه وحدوده وأحكامه (وآياته) اى القرآن وسائر مايدل على الدين الذى لايمكن تبديله ولايخفى على بصير ولابصيرة (ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم الذى عظمته من عظمته وهو مجتهد في اصلاحكم وتشريفكم واعلائكم (كنتم تستهزؤن) توبيخا وتقريعا لهم على استهزائهم بما لايصلح الاستهزاء به والزاما للحجة عليهم ولا يعبأ باعتذارهم الكاذبة ولما كان الاستهزاء بذلك كفرا قال الله تعالى (لاتعتذروا) اى لاتشتغلوا باعتذاراتكم الباطلة (قد كفرتم) اى أظهرتم الكفر بقولكم هذا (بعد ايمانكم) اى بعد اظهار الايمان (فان قيل) المنافقون لم يكونوا مؤمنين فكيف قال تعالى قد كفرتم بعد ايمانكم (أجيب) بانهم كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الايمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر فقد أظهروا الكفر بعدما أظهروا الايمان كما تقرر (ان نعف عن طائفة منكم) اى باحداثهم التوبة واخلاصهم الايمان بعد النفاق (نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين) اى مصرين على النفاق والاستهزاء قال محمد بن اسحق الذى عفا الله عنه رجل واحد هو مخشى بن حمير الاشجعى يقال هو الذى كان يضحك ولايخوض وكان يمشى مجانبا لهم وكان ينكر بعض مايسمع والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فتقول خرج فلان الى مكة على الجمال والله تعالى يقول الذين قال لهم الناس يعنى نعيم بن مسعود فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه وقال اللهم انى لاأزال أسمع آية تقرأ تقشعر منها الجلود وتخفق منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فاصيب يوم اليمامة فلم يعرف أحد من المسلمين مصرعه وقرأ عاصم نعف بالنون مفتوحة وضم الفاء ونعذب طائفة بنون مضمومة وكسر الذال وطائفة بالنصب والباقون ان يعف بياء مضمومة وتعذب بضم التاء وفتح الذال وطائفة بالرفع ثم بين

* ان قلت كيف أمرهم بالقعود عن الجهاد مع انه ذمهم عليه (قلت) انما أمرهم بذلك أمر توبيخ كقوله تعالى اعملوا ماشئتم بقرينة قوله مع القاعدين أى مع النساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود في البيوت أو الآمر لهم انما هو الشيطان

تعالى نوعا آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم والمقصود منه بيان ان اناثهم كذكورهم فى تلك الاعمال المنكرة والافعال الخبيثة بقوله تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) أى متشابهة فى النفاق والبعد عن الايمان كابعاض الشئ الواحد كما يقول الانسان لغيره أنا منك وأنت منى أى أمرنا واحد لا مباينة فيه (يأمرون بالمنكر) أى يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب النبى صلى الله عليه وسلم (وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أى عن الانفاق فى كل خير من زكاة وصدقة وانفاق فى سبيل الله والاصل فى هذا ان المعطى يمد يده ويبسطها بالعطاء فقيل لمن منع وبخل قد قبض يده فقبض اليد كناية عن الشح وقوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) لايمكن اجراؤه على ظاهره لانا لو حملنا النسيان على الحقيقة لما استحقوا عليه ذما لان النسيان ليس فى وسع البشر وللخبر رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وأيضا هو فى حق الله تعالى محال فلا بد من التأويل وهو من وجهين الاول معناه انهم تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسى فجازاهم بان صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته وجاء هذا على مزاوجة الكلام كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها الثانى النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله بالعبادة والثناء على الله ترك الله تعالى ذكرهم بالرحمة والاحسان وانما حسن جعل النسيان كناية عن ترك الذكر لان من نسى شيأ لم يذكره فجعل اسم الملزوم كناية عن اللازم (ان المنافقين هم الفاسقون) أى الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف الله تعالى به المنافقين حتى بالغ فى ذمهم وقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول كرهت كسلت لان المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله تعالى الا وهم كسالى فما ظنك بالفسق ولما بين سبحانه وتعالى كثيرا من أحوال المنافقين والمنافقات وانه نسيهم اى جازاهم على تركهم التمسك بطاعة الله تعالى أكد هذا الوعيد وضم المنافقين الى الكفار فيه بقوله تعالى (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) اى المجاهرين فى عنادهم يقال وعده بالخير وعدا وأوعده بالشر وعيدا (نار جهنم خالدين فيها) أى مقدرين الخلود ولا شك ان النار المخلدة من أعظم العقوبات (هى حسبهم) أى كافيتهم فى العذاب (ولعنهم الله) أى ابعدهم مع من أبعدهم من رحمته ولما كان الخلود قد يتجوز به عن الزمن الطويل فيكون بعده خروج نفى ذلك بقوله تعالى (ولهم عذاب مقيم) أى دائم لا ينقطع وقوله تعالى (كالذين من قبلكم) رجوع من الغيبة الى خطاب الحضور والكاف فى كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكافرين الذين كانوا من قبلهم فى الامر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الايدى عن فعل الخير والطاعة ثم انه تعالى وصف الكفار بانهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا وأولادا بقوله تعالى (كانوا أشد منكم قوة) أى بطشا ومنعا (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) أى تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق للانسان وقدر له من خير أو شر كما يقال قسم له (فاستمتعتم بخلاقكم) أى تمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم فهو خطاب للحاضرين (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم)

بالوسوسة او بعضهم بعضا (قوله لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم) فان قلت اذا علم الله ان المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للجهاد ما زادوهم الا خبالا أى فسادا أو لأوضعوا خلالهم أى لأسرعوا فى السعى بينهم

ذم الاولين باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا العاجلة وحرمانهم من سعادة الآخرة
بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ العاجلة تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم
• ولما بين تعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لاولئك المتقدمين فى طلب الدنيا وفى الاعراض عن
طلب الآخرة بين حصول المشابهة بين الفريقين فى تكذيب الانبياء وفى المكر والخديعة
بقوله تعالى (وخضتم) اى ودخلتم فى الباطل والكذب على الله تعالى وتكذيب رسله والاستهزاء
بالمؤمنين (كالذى خاضوا) اى كالذين خاضوا أو كالفوج الذى خاضوا هذا كله اذا جعلنا
الذى موصولا اسميا فان جعلناه موصولا حرفيا أول مع صلته بمصدر أى كخوضهم والفوج
الجماعة (فان قيل) أى فائدة فى قوله تعالى فاستمتعوا بخلاقهم وقوله تعالى كما استمتع الذين
من قبلكم بخلاقهم مغن عنه كما أغنى قوله تعالى كالذى خاضوا عن أن يقال وخاضوا فخضتم
كالذى خاضوا (اجيب) بان فائدة ذلك أن يذم الاولين بما ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين
بحالهم فيكون ذلك نهاية فى المبالغة كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على قبح ظلمه بقولك أنت
مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب من غير موجب وأما وخضتم كالذى خاضوا فمعطوف
على ما قبله مستند اليه مستغن باسناده اليه عن تلك التقدمة (أولئك) اى هؤلاء الاشقياء
(حبطت) اى بطلت (أعمالهم فى الدنيا) اى بزوالها عنهم ونسيان لذاتها (والآخرة) أى وفى
الدار الآخرة لانهم لم يسعوا لها سعيها فلم تنفعهم أعمالهم فى الدارين بل يعاقبون عليها وزاد
فى التنبيه على بعدهما عما قصدوا لانفسهم من النفع بقوله تعالى (واولئك هم الخاسرون)
أى الذين خسروا الدنيا والآخرة والمعنى أنه كما بطل أعمال الكفار الماضين وخسروا وابطل
أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون وفى الالتفات الى مقام الخطاب اشارة الى تحذير كل
سامع عن مثل هذه المقالة قال بعض كبراء التابعين أدركت سبعين ممن أدرك النبى صلى الله
عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه وذكر أن مالكا رحمه الله تعالى دخل المسجد بعد
العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع فقال له صبى يا شيخ قم فاركع فقام
وركع ولم يحاجه بما يراه مذهبا فقيل له فى ذلك فقال خشيت أن أكون من الذين اذا قيل لهم
اركعوا لا يركعون وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح
لا يستطيعونهما وقال تعالى لا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ينظر المنافق الى ما يسقط فضائل
أهل الفضل ويتعامى عن محاسنهم كما روى ان الله تعالى يبغض التارك لحسنة المؤمن الآخذ
لسيئته والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوى أهل المساوى فكيف يعايب أهل المحاسن
والمنافق يأخذ من الدين ما ينفع فى الدنيا ولا يأخذ ما ينفع فى العقبى ويجتنب فى الدين ما يضر
فى الدنيا ولا يجتنب ما يضر فى العقبى مما لا يضر فى الدنيا ويذكر ان رجلا من صلحاء المسلمين
دخل كنيسة فقال لراهب فيها دلنى على موضع طاهر أصلى فيه فقال له الراهب طهر قلبك مما
سواه وقم حيث شئت قال المسلم فخجلت منه وقوله عز من قائل (ألم يأتهم) فيه رجوع من
الخطاب الى الغيبة أى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أى قد
أتاهم (نبأ) أى خبر (الذين من قبلهم) من الامم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف
أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا • ولما شبه تعالى المنافقين بالكفار المتقدمين

بالغيبة فكيف أمرهم
بالخروج مع المؤمنين
(قلت) أمرهم بالخروج
لالزامهم الحجة ولاظهار
نفاقهم (قوله قل انفقوا
طوعا أو كرها لن يتقبل
منكم انكم كنتم قوما
فاسقين) أى كافرين ولو
بالنفاق بقرينة قوله وما

فى الرغبة فى الدنيا وفى تكذيب الانبياء والمبالغة فى ايذائهم لرسلهم بين منهم ستة طوائف الاولى (قوم نوح) أهلكوا بالطوفان (و) الثانية (عاد) وهم قوم هود أهلكوا بالريح (و) الثالثة (ثمود) وهم قوم صالح أهلكوا بالرجفة (و) الرابعة (قوم ابراهيم) أهلكوا بسلب النعمة وأهلك نمروذ ببعوضة سلطها الله تعالى على دماغه فقتلته (و) الخامسة (أصحاب مدين) وهم قوم شعيب و يقال انهم من ولد مدين بن ابراهيم أهلكوا بعذاب يوم الظلة (و) السادسة (المؤتفكات) وهم قوم لوط أى أهلها أهلكوا بان جعل الله تعالى أعالى أرضهم سافلها وامطر عليهم حجارة وانما ذكر الله تعالى هذه الطوائف الستة لان آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من بلاد العرب فكانوا يمرون عليهم و يعرفون أخبارهم وقوله تعالى (أتتهم رسلهم) راجع الى كل هؤلاء الطوائف (بالبينات) أى المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها الكفار والمنافقون فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع (فما كان الله ليظلمهم) بتعجيل العقوبة لهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى وصف المنافقين بالاعمال الفاسدة والافعال الخبيثة ثم ذكر عقبه أنواع الوعيد فى حقهم فى الدنيا والآخرة ذكر بعده صفات المؤمنين بقوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة وهذا فى مقابلة قوله تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض (فان قيل) لم قال تعالى فى وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال فى وصف المؤمنين بعضهم أولياء بعض ما الحكمة فى ذلك (أجيب) بانه لما كان نفاق الاتباع حصل بسبب التقليد لا ولئك الاكابر لسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بان بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الحكمة وقوله تعالى (يأمرون بالمعروف) أى بالايمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف من الشرع من خير وطاعة (وينهون عن المنكر) أى الشرك والمعاصى والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف (ويقيمون الصلوة) أى المفروضة ويتمون أركانها وشروطها (ويؤتون الزكوة) أى الواجبة عليهم فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين ويقبضون أيديهم المعبر به عن البخل وقوله تعالى (ويطيعون الله ورسوله) أى فيما يأمرهم به فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين نسوا الله فنسيهم * ولما ذكر تعالى ما وعد به المنافقين من العذاب فى نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين من الرحمة المستقبلة وهى ثواب الآخرة بقوله تعالى (أولئك) أى المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه الصفات (سيرحمهم الله) بوعد لا خلف فيه (ان الله عزيز) أى غالب على كل شئ لا يمتنع عليه ما يريده (حكيم) أى لا يقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه * ولما ذكر سبحانه وتعالى الوعد على سبيل الاجمال ذكره على سبيل التفصيل بقوله تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات

منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا (قوله كفروا بالله وبرسوله) قاله هنا بالله وبرسوله وقاله بالباء فى المتعاطفين وفيما تقدم بحذفها من الثانى لان ما فى الاول المعطوف لان ما فى الاول ... تقدمه غاية التوكيد

جنات تجرى من تحتها الانهار) فذكر فى هذه الآية أن الرحمة هى هذه الانواع المذكورة فى
هذه الآية أولها قوله تعالى جنات تجرى من تحتها الانهار فهى لاتزال خضرة ذات بهجة نضرة
ولما كان النعيم لايكمل الا بالدوام قال تعالى (خالدين فيها) والمراد بالجنات التى تجرى من
تحتها الانهار البساتين التى يحير فى حسنها الناظر لانه تعالى قال (ومساكن طيبة فى جنات
عدن) أى اقامة وخلود وهذا هو النوع الثانى فتكون جنات عدن هى المساكن التى
يسكنونها والجنات الاخر هى البساتين التى يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف
والمعطوف عليه وقد كثر كلام أصحاب الآثار فى صفة جنات عدن فقال الحسن سألت عمران
ابن الحصين عن قوله تعالى ومساكن طيبة فقال على الخبير سقطت سألت رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال قصر فى الجنة من اللؤلؤ فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون
بيتا من زمردة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا على كل فراش
زوجة من الحور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام وفى كل
بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة فى غداة واحدة ما يأتى على ذلك أجمع وعن ابى
الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عدن دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب
بشر أى دار الله تعالى التى أعدها لاوليائه وأهل طاعته والمقربين من عباده وعن أبى
هريرة رضى الله عنه قلت يارسول الله حدثنى عن الجنة ما بناؤها قال لبنة من ذهب ولبنة من
فضة وبلاطها المسك الاذفر وتربتها الزعفران وحصباؤها الدر والياقوت فهى النعيم بلا
بؤس والخلود بلا موت لاتبلى ثيابه ولا يفنى شبابه وقال ابن مسعود جنات عدن بطنان الجنة
قال الازهرى بطنانها وسطها وقال عطاء عن ابن عباس هى قصر فى الجنة وسقفها عرش
الرحمن وهى المدينة التى فيها الرسل والانبياء والشهداء وأئمة الهدى وسائر الجنات حولها
وفيها عين التسنيم وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش
فتدخل عليهم كثبان المسك الاذفر وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما
ان فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لايدخله الا نبى او
صديق او شهيد أو حكم عدل وقال عطاء بن السائب عدن نهر فى الجنة قبابه على حافتيه وقال
الرازى حاصل الكلام ان فى جنات عدن قولين أحدهما أنه اسم علم لموضع معين فى الجنة
وهذه الاخبار والآثار تقوى هذا القول وقال فى الكشاف وعدن علم بدليل قوله تعالى
جنات عدن التى وعد الرحمن عباده والقول الثانى انه صفة الجنة قال الازهرى مأخوذ من
قولك عدن بالمكان اذا أقام به يعدن عدونا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن
جعلنا الله تعالى ومن نحبه من أهلها وأحل علينا رضوانه فانه المقصود الاعظم كما قال تعالى
(ورضوان من الله اكبر) لانه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدى الى نيل الوصول والفوز
باللقاء روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله
تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك وسعديك والخير فى يديك فيقول
هل رضيتم فيقولون ومالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم
أفضل من ذلك فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك قال تعالى أحل عليكم رضوانى فلا أسخط

بقوله وتماضهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا فاذا كر الله تعالى فى الماء ابكون الكلام على نسق واحد بخلاف الثانى والثالث لم يتقدمهما ذلك (قوله فلا تعجبك أموالهم) قاله هنا بالفاء وقاله بعد

عليكم أبدا وهذا هو النوع الثالث وقرأ شعبة ورضوان بضم الراء والباقون بالكسر (ذلك)
أى الرضوان أو جميع ما تقدم (هو الفوز العظيم) الذى تستصغر دونه الدنيا وما فيها ولما
وصف الله تعالى المنافقين بالصفات الخبيثة وتوعدهم بانواع العقاب وكانت عادة الله تعالى
فى هذا الكتاب الكريم جارية بذكر الوعد مع الوعيد لا جرم ذكر عقبه وصف المؤمنين
بالصفات الشريفة الطاهرة الطيبة ووعدهم بالثواب الرفيع والدرجة العالية ثم عاد الى
شرح أحوال الكفار والمنافقين بقوله تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار) أى المجاهرين
(والمنافقين) أى الساترين كفرهم بظهور الاسلام (فان قيل) الآية تدل على وجوب
مجاهدة المنافقين وهو غير جائز فان المنافق كاتم من يستر كفره وينكر بلسانه ومن كان كذلك
لم تجز محاربته ومجاهدته (أجيب) بان ليس فى الآية ما يدل على ان ذلك الجهاد بالسيف أو
باللسان أو بطريق آخر وانما تدل على وجوب الجهاد مع الفريقين وكيفية تلك المجاهدة انما
تعرف من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة على ان المجاهدة مع الكفار يجب ان تكون
بالسيف ومع المنافقين بالحجة والبرهان وحمل الحسن جهاد المنافقين على اقامة الحدود عليهم
اذا تعاطوا أسبابها قال القاضى وهذا ليس بشئ لان اقامة الحدود واجبة على من ليس
بمنافق فلا يكون لها تعلق بالنفاق ولما كان صلى الله عليه وسلم مطبوعا على الرفق وحسن
الخلق قال تعالى (واغلظ عليهم) أى بالانتهار والمقت فى الجهادين لا تعاملهم بمثل ما عاملتهم
به من اللين عند استئذانهم فى القعود وهذا بخلاف ما مضى فى وعيد المنافقين حيث قدمهم
فقال المنافقون والمنافقات فقدم فى كل سياق الاليق به (ومأواهم) أى مسكنهم فى الآخرة
(جهنم وبئس المصير) أى المرجع هى (يحلفون) أى المنافقون (بالله ما قالوا) أى ما بلغك
عنهم من السب والمفسرون ذكروا فى أسباب نزول هذه الآية وجوها الاول روى انه عليه
الصلاة والسلام أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين فقال
الجلاس بن سويد لئن كان ما يقول محمد فى اخواننا الذين خلفناهم بالمدينة حقا لنحن شر من
الحمير فقال عامر بن قيس الانصارى للجلاس أجل والله ان محمدا صادق وأنت شر من الحمار
فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضره فحلف بالله عز وجل ما قاله فرفع عامر يده وقال
اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزلت فقال الجلاس لقد
ذكر الله تعالى التوبة فى هذه الآية ولقد قلت هذا الكلام وصدق عامر ثم تاب وحسنت
توبته الثانى أنها نزلت فى عبد الله بن أبى لما قال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها
الاذل وأراد به الرسول صلى الله عليه وسلم فسمع زيد بن أرقم ذلك فبلغه النبى صلى الله عليه
وسلم فهم عمر رضى الله عنه بقتل عبد الله بن أبى فجاء عبد الله بن أبى وحلف أنه لم يقل الثالث
روى قتادة أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء
الانصار فظهر الجهنى على الغفارى فقال عبد الله بن أبى للاوس انصروا أخاكم فوالله ما
مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك فسعى بها رجل من المسلمين الى النبى صلى
الله عليه وسلم فأرسل اليه فسأله فحلف بالله ما قاله فنزلت (ولقد قالوا كلمة الكفر) وهى سب
النبى صلى الله عليه وسلم وقيل هى كلمة الجلاس بن سويد وقيل هى كلمة عبد الله بن أبى

بالواو لان الفاء تتضمن
معنى الجزاء والفعل
قبلها فى قوله ولا يأتون
الصلاة وقوله ولا ينفقون
لكونه مستقبلا يتضمن
معنى الشرط فناسب فيه
الفاء وما بعد ذكر قبله
كفروا بالله ورسوله وماتوا

(وكفروا بعد اسلامهم) أى واظهروا كفرهم بعد اظهارهم الاسلام (وهموا بما لم ينالوا) أى من قتل النبى صلى الله عليه وسلم عند مرجعه من تبوك ٣ توافق خمسة عشر منهم اذا تسنم العقبة أى علاها بالليل فاخذ عمار بن ياسر بخطام ناقته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها فبينما هم كذلك اذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الابل وبقعقعة السلاح فالتفت فاذا قوم متلثمون فقال اليكم يا أعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون هموا بقتل عامر حين رد على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى وان لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما نقموا) أى وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ (الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) فان أكثر أهل المدينة كانوا قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحرزون الغنيمة وبعد قدومه أخذوا الغنائم وفازوا بالاموال ووجدوا الدولة وذلك يوجب أن يكونوا محبين له مجتهدين فى بذل النفس والمال لاجله وقتل للجلاس مولى فامر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى فالمنافقون عملوا بضد الواجب فوضعوا موضع شكره صلى الله عليه وسلم أن نقموا منه وقال ابن قتيبة معناه ليس هناك شئ ينقمونه ولا يعيبون من الله الا الصنيع وهذا كقول الشاعر

ما نقموا من بنى أمية الا انهم يحلمون ان غضبوا

وكقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم ● بهن فلول من قراع الكتائب

أى ليس فيهم عيب (فان يتوبوا) أى من كفرهم ونفاقهم (يك خيرا لهم) فى العاجل والآجل من اصرارهم على ذلك وهذا الذى حمل الجلاس على التوبة والضمير فى يك للتوبة (وان يتولوا) أى يعرضوا عن الايمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر (يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا) بالقتل والاسر والاذلال (والآخرة) بالعذاب الاكبر الذى لا خلاص لهم منه وهو خلودهم فى النار (وما لهم فى الارض) أى التى لا يعرفون غيرها السفول همتهم (من ولى) يحفظهم منه (ولا نصير) ينصرهم وأما السماء فهم أقل من ان يطمعوا منها فى شئ ناصر أو غيره واغلظ أكبادا من أن يرتقى فكرهم الى ما بها من العجائب وما بها من الجنود واعلم أن هذه السورة أكثرها فى شرح أحوال المنافقين ولا شك انهم أقسام وأصناف فلهذا السبب يذكرهم الله تعالى على التفصيل فيقول تعالى ومنهم الذين يؤذون النبى ومنهم من يلمزك فى الصدقات ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الصاد (ولنكونن من الصالحين) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان ثعلبة بن حاطب أبطأ عنه ماله بالشام فلحقه شدة فحلف بالله وهو واقف ببعض مجالس الانصار لئن آتانا الله من فضله لاصدقن ولأودين منه حق الله تعالى والمشهور فى سبب نزول هذه الآية ان ثعلبة بن حاطب الانصارى قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه فراجعه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أما لك فى رسول الله اسوة حسنة والذى نفسى بيده لو أردت أن

٣ قوله توافق خمسة عشر الذى تقدم عن ابن كيسان فى اسباب نزول قل استهزءوا الخ انها نزلت فى اثنى عشر من المنافقين فليراجع اه مصححه

والفعل فيه ما لكونه ماضيا لا يتضمن معنى الشرط فتناسب فيه الواو (قوله لولا أولادهم) ذكره هنا بلا وفيما بعد بدونها لما فى زيادتها هنا من التوكيد المناسب لغاية التوكيد بالمصدر فيما قبلها وذلك مفقود فيما بعده

لسيرت الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك وقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنما فنمت كما تنمي الدود حتى كثرت ونزل بها واديا من أودية المدينة واشتغل بها حتى صار يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي في غنمه باقي الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا فصار لا يشهد لا جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال ما فعل ثعلبة فقالوا يا رسول الله اتخذ غنما ما يسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ويح ثعلبة ثلاثا فنزلت آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين لأخذ الصدقة وكتب لهما أصناف الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما مرا بثعلبة وخذا صدقاته فأتياه وسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي فانطلقا فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ثم رجعا إلى ثعلبة فقال كمقالته الأولى ولم يدفع إليهما شيئا فرجعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبراه بالذي صنع ثعلبة فأنزل الله تعالى هذه الآية وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يقبل صدقته فقال إن الله تعالى منعني من أن أقبل صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال صلى الله عليه وسلم لقد قلت لك فما أطعتني فرجع إلى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ثم جاء بها إلى عمر أيام خلافته فلم يقبلها فلما ولي عثمان أتاه بها فلم يقبلها وهلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه (فإن قيل) العبد إذا تاب تاب الله عليه فلماذا امتنع الله تعالى من قبول صدقته (أجيب) بأن الله تعالى لما قال خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وكان هذا المقصود غير حاصل في ثعلبة مع نفاقه فلهذا السبب امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ تلك الصدقة ثم قال الله تعالى (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) أي منعوا حق الله تعالى منه (وتولوا) عن طاعة الله تعالى (وهم معرضون) أي عن طاعة الله تعالى (فأعقبهم) أي صير عاقبتهم (نفاقا) متمكنا (في قلوبهم إلى يوم يلقونه) أي الله يوم القيامة (بما أخلفوا الله ما وعدوه) أي بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح لأن الجزاء من جنس العمل (وبما كانوا يكذبون) أي يجددون الكذب دائما مع الوعد ومنه كما عنه فقد استكملوا النفاق عاهدوا فغدروا ووعدوا فأخلفوا وحدثوا فكذبوا وقد قال صلى الله عليه وسلم آية المنافق أي علامته ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان (ألم يعلموا) أي المنافقون (أن الله يعلم سرهم) أي ما أسروا في أنفسهم من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه (ونجواهم) أي ما تناجوا بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها فكيف يجترئون على النفاق الذي الأصل فيه الاستسرار والتناجي فيما بينهم مع علمهم بأن الله تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر وأنه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر

(قوله إنما الصدقات للفقراء الآية) أضاف الصدقات إلى الأصناف الأربعة الأولى بلام الملك وإلى الأربعة الأخيرة بفي الظرفية للإشعار بإطلاق الملك في الأربعة الأولى وتقييده في الأخيرة حتى إذا لم يحصل الصرف في مصارفها استرجع بخلافه

(وان الله علام الغيوب) والعلام مبالغة فى العالم والغيب ما كان غائبا عن الخلق فكيف
يمكن الاخفاء عنه وقوله تعالى (الذين) مبتدأ (يلمزون) اى يعيبون (المطوعين) المتنفلين
(من المؤمنين) اى الراغبين فى الايمان (فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم) أى
طاقتهم فيأتون به (فيسخرون منهم) اى يستهزؤن بهم والخبر (سخر الله منهم) أى جازاهم على
سخريتهم (ولهم عذاب أليم) على كفرهم وهذا نوع آخر من أعمال المنافقين القبيحة وهو
لمزهم لمن يأتى بالصدقات روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم وحث على
الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم
يارسول الله مالى ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف درهم فاجعلها فى سبيل الله
وأمسكت أربعة آلاف لعيالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت
وفيما أمسكت فبارك الله تعالى فى مال عبد الرحمن حتى انه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن
ماله لهما مائة وتسعين ألف درهم وجاء عاصم بن عدى الانصارى بسبعين وسقا من تمر وجاء
عثمان بن عفان بصدقة عظيمة وجاء ابو عقيل الانصارى بصاع من تمر وقال أجرت الليلة
الماضية نفسى من رجل لارسال الماء الى نخله فاخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما
لعيالى وأتيتك بالآخر فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه فى الصدقات فلمزهم
المنافقون وقالوا ما اعطى عبد الرحمن وعثمان ما يعطيان الا رياء والله ورسوله لغنيان عن صاع ابى
عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطى من مال الصدقات فنزلت وقوله تعالى (استغفر لهم)
يا محمد (او لا تستغفر لهم) تخيير للنبى صلى الله عليه وسلم فى الاستغفار لهم وتركه قال صلى الله
عليه وسلم انى خيرت فاخترته يعنى الاستغفار رواه البخارى (ان تستغفر لهم سبعين مرة
فلن يغفر الله لهم) روى أن عبد الله بن عبد الله بن ابى وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى
الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام سأزيد على
السبعين وذلك لانه صلى الله عليه وسلم فهم من السبعين العدد المخصوص لانه الاصل فجواز
أن يكون ذلك حدا يخالفه حكم ما وراءه فبين تعالى أن المراد التكثير دون التحديد وانما
خص السبعين من العدد بالذكر لان العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى
الله عليه وسلم على عمه حمزة رضى الله عنه سبعين تكبيرة ولان آحاد السبعين سبع وهو عدد
شريف فان السموات سبع والارضين سبع والايام سبع والاقاليم سبع والبحار سبع
والنجوم سبع وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها فى التكثير لاشتمال
السبعة على جملة أقسام العدد اى عدة مراتبه الاصلية والفرعية مع ذكر أول فروع فروعه
وهى سبعة آحاد عشرات مئين آحاد ألوف عشرات ألوف مئين ألوف آحاد ألوف الالوف
وقوله تعالى (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) اشارة الى ان اليأس من المغفرة وعدم قبول
استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها (والله
لا يهدى القوم الفاسقين) اى المتمردين فى كفرهم وهو كالتنبيه على عذر النبى صلى الله عليه
وسلم فى استغفاره وهو عدم يأسه من ايمانهم ما لم يعلم انهم مطبوعون على الضلالة والممنوع
هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو

كانوا

فى الاولى كما هو معروف
فى الاخيرة فى
الفقه وكرر فى
فى قوله فى سبيل الله حثا
على الاعانة فى الجهاد
لشرفه (قوله يؤمن بالله
ويؤمن للمؤمنين) عدى
الايمان الى الله بالباء
لتضمنه معنى التصديق
ولموافقته ضده وهو الكفر
فى قوله من كفر بالله

كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (فرح المخلفون) عن غزوة تبوك (بمقعدهم) اى بقعودهم فهو اسم للمصدر (خلاف رسول الله) هذا نوع آخر من قبائح أعمال المنافقين وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد والخلف المتروك ممن مضى (فان قيل) انهم احتالوا حتى تخلفوا فكانوا متخلفين لا مخلفين (أجيب) بان من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه الى الجهاد مع المؤمنين وصف بانه مخلف حيث لم ينهض وأقام
(تنبيه) في قوله تعالى خلاف فيه قولان الاول وهو قول الزجاج بمعنى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ساروا أقاموا قال وهو منصوب لانه مفعول له والمعنى بان قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والثاني قال الاخفش ان خلاف بمعنى خلف ومعناه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله) تعريض للمؤمنين بتحملهم المشاق لوجه الله تعالى بما فعلوا من بذل أنفسهم وأموالهم وايثارهم ذلك على السكون والراحة وكره ذلك المنافقون وكيف لا يكرهون وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الايمان وداعي الايقان (وقالوا) اى قال بعض المنافقين لبعض او قالوا للمؤمنين تثبيطا (لا تنفروا) اى لا تخرجوا الى الجهاد (في الحر) وكانت غزوة تبوك في شدة الحر فأجاب الله تعالى عن هذا بقوله تعالى (قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون) اى يعلمون أن بعد هذه الدار دارا أخرى وان بعد هذه الحياة حياة أخرى وان هذه مشقة منقضية وتلك مشقة باقية ما أقضاه وأول بعضهم

مسرة أحقاب تلقيت بعدها * مساءة يوم اريها شبه الصاب
فكيف بان تلقى مسرة ساعة * وراء تقضيها مساءة أحقاب

وقوله تعالى (فليضحكوا قليلا) أي في الدنيا (وليبكوا كثيرا) اى في الآخرة ورد بصيغة الامر ومعناه الاخبار بانه ستحصل لهم هذه الحالة ودليل ذلك قوله تعالى (جزاء بما كانوا يكسبون) اى ان ذلك البكاء في الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيثة في الدنيا روى ان أهل النفاق يبكون في الآخرة في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ففرحهم وضحكهم طول أعمارهم في الدنيا قليل بالنسبة الى الآخرة لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة الى الدائم الباقي قليل وروى عن أنس انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس ابكوا فان لم تستطيعوا فتباكوا فان أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون حتى لو ان سفنا اجريت فيها لجرت قال البيضاوي ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة العدم (فان رجعك) أي ردك (الله) من غزوة تبوك (الى طائفة منهم) اى ممن تخلف بالمدينة من المنافقين وانما قال الى طائفة منهم لان منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف أو اعتذر بعذر صحيح وقيل لم يكن المخلفون كلهم منافقين وأراد بالطائفة المنافقين منهم (فاستأذنوك للخروج) معك الى غزوة أخرى بعد تبوك (فقل) يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج معك وهم مقيمون على نفاقهم (لن تخرجوا معي ابدا) اى في سفر من الاسفار ان الله تعالى قد أغناني عنكم وأحوجكم الى

وعداه الى المؤمنين باللام لتضمنه معنى الانقياد وموافقة لكثير من الآيات كقوله وما أنت بمؤمن لنا وقوله أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقوله أنؤمن لك وأما قوله تعالى في موضع قال آمنتم له قبل أن آذن لكم وفي آخر آمنتم به

(ولن تقاتلوا معى عدوا) اخبار بمعنى النهى للمبالغة وقوله تعالى (انكم رضيتم بالقعود اول مرة) تعليل له وكان اسقاطهم من ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم وأول مرة هى الخرجة الى غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) اى المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان وغيرهم قال الرازى واعلم ان هذه الآية تدل على ان الرجل اذا ظهر له من بعض اخوانه مكر وخداع ورآه مشددا فيه مبالغا فى تقرير موجباته فانه يجب عليه أن يقطع العلقة بينه و بينه وأن يحترز عن مصاحبته ه ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنع المنافقين من الخروج معه الى الغزوات اذلالا لهم أمره بمنع الصلاة على من مات منهم اذلالا لهم ايضا بقوله تعالى (ولا تصل على احد منهم مات ابدا) روى ان ابن أبى رأس المنافقين دعا النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه فلما دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم سأله أن يصلى عليه واذا مات يقوم على قبره ثم ارسل للنبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه قميصه ليكفن فيه فارسل اليه القميص الفوقانى فرده وطلب الذى يلى جلده ليكفن فيه فقال عمر رضى الله عنه لم تعطى قميصك للرجس النجس فقال صلى الله عليه وسلم ان قميصى لا يغنى عنه من الله شيأ وانى أؤمل من الله أن يدخل فى الاسلام كثير بهذا السبب فيروى انه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما مات جاء ابنه يعرفه وكان ابنه صحابيا خالصا صالحا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم صل عليه وادفنه فقال ان لم تصل عليه يا رسول الله لم يصل عليه مسلم فقام عليه الصلاة والسلام ليصلى عليه فقام عمر رضى الله عنه بينه و بين القبلة فنزلت هذه الآية وأخذ جبريل عليه السلام بثوب النبى صلى الله عليه وسلم وقال لا تصل على احد منهم مات أبدا قال عمر فعجبت من جراءتى على النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضى الله عنه وذلك ان الوحى ينزل وفق قوله فى آيات كثيرة منها آية أخذ الفدية من أسارى بدر وقد سبق شرحه ومنها آية تحريم الخمر ومنها آية تحويل القبلة ومنها آية أمر النساء بالحجاب ومنها هذه الآية فصار نزول الوحى على مطابقة قول عمر منصبا عاليا ودرجة رفيعة له فى الدارين ولهذا قال فى حقه عليه الصلاة والسلام لو لم أبعث لبعثت يا عمر نبيا وانما لم ينه صلى الله عليه وسلم عن التكفين فى القميص ونهى عن الصلاة عليه لان الضنة بالقميص كانت تخل بالكرم وكان الله تعالى أمره أن لا يرد سائلا بقوله تعالى وأما السائل فلا تنهر ولان ابنه كان بالوصف المتقدم فأكرمه النبى صلى الله عليه وسلم لمكان ابنه ولان الرحمة والرأفة كانت غالبة عليه صلى الله عليه وسلم ولانها كانت مكافأة لالباسه العباس قميصه حين كان أسر يدر والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له وهو ممنوع فى حق الكافر قال الواحدى مات فى موضع جر لانه صفة للنكرة كأنه قيل على أحد منهم ميت وقوله تعالى أبدا متعلق بقوله ولا تصل والتقدير ولا تصل أبدا على أحد منهم منعا كليا دائما وقال البيضاوى مات أبدا يعنى الموت على الكفر فان احياء الكافر للتعذيب لا للتمتع فكأنه لم يحى واختلف فى تفسير قوله تعالى (ولا تقم على قبره) فقال الزجاج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فمنع ههنا منه قال الكلبى لا تقم لاصلاح مهمات قبره وهو من قولهم قام فلان بامر فلان اذا كفاه أمره وتولاه

وقيل

به فتشترك الدلالة بين الايمان بموسى والايمان بالله لان من آمن بموسى حقيقة آمن بالله كعكسه (قوله ألم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله الآية) خبر عن المنافقين الذين سبق ذكرهم والمنافقون مخلدون فى النار فلا يشكل

وقيل لاتقم عند قبره لدفن او زيارة والاول أولى لان النهي للتحريم ثم انه تعالى علل المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره بقوله تعالى (انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) اى كافرون يعنى لم يتوبوا قبل موتهم عن كفرهم فسقط بذلك ماقيل ان الفسق ادنى من الكفر فما الفائدة فى وصفهم بعد ذلك بالفسق وأجيب ايضا بان الكافر قد يكون عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا فوصف الله تعالى المنافق بالفسق بعد ان وصفه بالكفر تنبيها على ان طريقة النفاق طريقة مذمومة عند كل اهل العلم (فان قيل) كيف هم صلى الله عليه وسلم أن يصلى على هذا المنافق مع قيام الكفر فيه وقيل انه صلى عليه (اجيب) بان التكاليف مبنية على قوله صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فانه كان ظاهره الاسلام فلما أعلمه الله تعالى بذلك امتنع فلم يصل على منافق بعد ذلك ولا قام على قبره حتى قبض (ولا تعجبك اموالهم واولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون) سبق ذكر هذه الآية فى هذه السورة بعينها ولكن حصل بينهما تفاوت فى ألفاظ اربعة أولها أن فى الآية المتقدمة فلا تعجبك بالفاء وههنا بالواو لان الآية الاولى ذكرت بعد قوله تعالى ولا ينفقون الا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق وانما كرهوا ذلك الانفاق لكونهم معجبين بكثرة تلك الاموال والاولاد فلهذا المعنى نهاه الله تعالى عن ذلك الاعجاب بفاء التعقيب وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو ثانيها انه قال تعالى فى الآية الاولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وههنا كلمة لا محذوفة لان مثل هذا الترتيب يبدأ فيه بالادون ثم يترقى الى الاشرف فيقال لا يعجبنى أمر الامير ولا أمر الوزير وهذا يدل على انه كان اعجاب أولئك الاقوام باولادهم فوق اعجابهم باموالهم وهذه الآية تدل على عدم التفاوت بين الامرين عندهم ثالثها انه تعالى قال هنالك انما يريد الله ليعذبهم وههنا قال انما يريد الله أن يعذبهم فالفائدة فيه التنبيه على ان التعليل فى أحكام الله تعالى محال وأنه وان ورد حرف التعليل فمعناه أن كقوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله فان معناه وما أمروا الا بان يعبدوا الله رابعها انه ذكر فى الآية الاولى فى الحياة الدنيا وههنا أسقط لفظ الحياة تنبيها على ان الحياة الدنيا بلغت فى الخسة مبلغا الى أنها لا تستحق أن تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دناءتها قال الرازى فهذه وجوه فى الفرق بين هذه الالفاظ والعالم بحقيق القرآن هو الله تعالى (فان قيل) ما الحكمة فى التكرير (أجيب) بان أشد الاشياء جذبا وطلبا للنفوا طر الاشتغال بالدنيا وهى الاموال والاولاد وما كان كذلك يجب التحذير عنه مرة بعد أخرى فى المطلوبية والمرغوبية كما أعاد تعالى قوله فى سورة النساء ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء مرتين وقيل انما كرر هذا المعنى لان الآية الاولى فى قوم منافقين لهم اموال وأولاد فى وقت نزولها وهذه الآية فى قوم آخرين والكلام الواحد اذا احتيج الى ذكره مع أقوام كثيرين فى أوقات مختلفة لم يكن ذكره مع بعضهم مغنيا عن ذكره مع آخرين وقوله تعالى (واذا أنزلت سورة) يحتمل أن يراد بالسورة تمامها وأن يراد بعضها اى طائفة من القرآن وقيل المراد بالسورة سورة براءة لان فيها الامر بالايمان والجهاد (أن آمنوا بالله) اى بان آمنوا ويجوز أن تكون أن المفسرة

بان المؤمن العاصى لا يخلد فى النار (قوله يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) فان قلت كيف قال ذلك مع ان انزال السور انما هو على النبى لا عليهم (قلت) على بمعنى فى كما فى قوله على ملك سليمان او ان الانزال هنا بمعنى

(وجاهدوا مع رسوله) • فان قيل كيف يأمر المؤمنين بالايمان فان ذلك يقتضى الامر بتحصيل الحاصل وهو محال (اجيب) بأن معناه الدوام على الايمان والجهاد فى المستقبل وقيل هذا الامر وان كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون اى أخلصوا الايمان بالله وجاهدوا مع رسوله صلى الله عليه وسلم وانما قدم الامر بالايمان على الامر بالجهاد لان الجهاد بغير الايمان لا يفيد شيأ ثم حكى الله تعالى أن عند نزول هذه السورة ماذا يقولون فقال تعالى (استأذنك أولوا الطول منهم) قال ابن عباس يعنى أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم (وقالوا) اى اولو الطول (ذرنا نكن مع القاعدين) اى الذين قعدوا لعذر كالمرضى والزمنى وقيل مع النساء والصبيان ثم ذمهم الله تعالى بقوله (رضوا بان يكونوا مع الخوالف) جمع خالفة اى النساء اللاتى تخلفن فى البيوت وقيل الخوالف أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه اذا كان دونهم وانما خص أولوا الطول بالذكر لان الذم لهم لازم لكونهم قادرين على السفر والجهاد وأما من لا مال له ولا قدرة له على السفر فلا يحتاج الى الاستئذان قال المفسرون كان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف (وطبع) أى وختم (على قلوبهم) اى هؤلاء المنافقين (فهم لا يفقهون) أى لا يعلمون ما فى الجهاد من الفوز والسعادة وما فى التخلف من الشقاوة والخذلان • ولما شرح الله سبحانه وتعالى حال المنافقين من الفرار عن الجهاد بين حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه بقوله تعالى (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا باموالهم وانفسهم) أى بذلوا المال والنفس فى طلب رضوان الله تعالى والتقرب اليه وفى قوله تعالى لكن فائدة وهى تقريرأنه وان تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو فقد توجه اليه من هو خير منهم وأخلص نية واعتقادا كقوله تعالى ان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما • ولما وصفهم الله تعالى بالمسارعة الى الجهاد ذكر ما حصل لهم من الفوائد والمنافع وهو أنواع أولها ماذكره تعالى بقوله سبحانه (وأولئك لهم الخيرات) اى منافع الدارين النصرة والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل الخيرات الحور العين لقوله تعالى فيهن خيرات حسان ثانيها ماذكره الله تعالى بقوله (وأولئك هم المفلحون) اى الفائزون بالمطالب المتخلصون من العقاب والعتاب وثالثها ماذكره بقوله تعالى (اعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) هذا بيان مالهم من الخيرات الاخروية (وجاء المعذرون) بادغام التاء فى الاصل فى الذال أى المعتذرون بمعنى المعذورين (من الاعراب) الى النبى صلى الله عليه وسلم (ليؤذن لهم) فى القعود لعذرهم فأذن لهم واختلف فى هؤلاء المعذرين فقيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا جهدا فائذن لنا فى التخلف وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك أغارت اعراب طيء على أهالينا ومواشينا فقال صلى الله عليه وسلم سيغنينى الله عنكم وقيل نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله وعن قتادة اعتذروا بالكذب والاعتذار فى كلام العرب على قسمين يقال اعتذر اذا كذب فى عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم فرد الله تعالى عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر اذا أتى بعذر صحيح كما فى قول لبيد

(فان قلت) القراءة عليهم على انزال العذر واقع منهم على انزال السورة فكيف قال ان الله مخرج ما تحذرون (قلت) معناه ان الله مظهر ما تحذرون ظهوره من نفاقكم بانزال هذه السورة وهو المناسب لقوله تنبئهم بما فى قلوبهم

ومن

* ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر * يريد فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو التعذير الذى هو التقصير يقال عذر يعذر اذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل انهم كانوا صادقين فى اعتذارهم وانهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال انهم كانوا صادقين بدليل انه تعالى لما ذكرهم قال بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) اى فى ادعاء الايمان من منافقى الاعراب عن المجىء للاعتذار فلما فصل بينهم وميزهم من الكاذبين دل ذلك على انهم ليسوا كاذبين ويروى عن عمرو بن العلاء انه لما قيل له هذا الكلام فقال ان اقواما تكلفوا عذرا بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف الآخرون لا لعذر ولا لشبه عذر جراءة على الله وهم المراد بقوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله (سيصيب الذين كفروا منهم) اى من الاعراب أو من المعذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره (عذاب أليم) فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار * ولما بين سبحانه وتعالى الوعيد فى حق من توهم العذر مع انه لا عذر له ذكر أصحاب الاعذار الحقيقية وبين أن تكليف الله تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط بقوله تعالى (ليس على الضعفاء) كالشيوخ ومن خلق فى أصل الفطرة ضعيفا نحيفا (ولا على المرضى) كالزمنى والعرج والعمى (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) فى الجهاد (حرج) اى اثم فى التخلف عنه فنفى سبحانه وتعالى عن هذه الاقسام الثلاثة الحرج فيجوز لهم أن يتخلفوا عن الغزو وليس فى الآية بيان انه يحرم عليهم الخروج لان الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بقدر قدرته اما لحفظ متاعهم او لتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلا وبالا عليهم كان ذلك طاعة مقبولة ثم انه سبحانه وتعالى شرط فى جواز هذا التأخر عن الغزو شرطا بقوله (اذا نصحوا لله ورسوله) فى حال قعودهم بالايمان والطاعة فى السر والعلانية وان يحترزوا عن القاء الارجافات وعن اثارة الفتن ويسعوا فى ايصال الخير الى المجاهدين الذين سافروا اما ان يقوموا باصلاح مهمات بيوتهم واما ان يسعوا الى ايصال الاخبار السارة من بيوتهم اليهم فان جملة هذه الامور جارية مجرى الاعانة على الجهاد وقوله تعالى (ما على المحسنين) فى موضع ما عليهم لبيان احسانهم بنصحهم مع عذرهم (من سبيل) اى طريق الى ذمهم أو لومهم والمعنى انه سد باحسانه طريق العتاب ومن أعظم الاحسان من شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله مخلصا من قلبه فان ما عليه من سبيل فى نفسه وماله لاباحة الشرع بدليل منفصل اذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمحسن هو الآتى بالاحسان ورأس أبواب الاحسان ورئيسها هو قول لا اله الا الله محمد رسول الله (والله غفور) اى محاء للذنوب (رحيم) اى بجميع عباده وفى ذلك اشارة الى أن الانسان محل التقصير وان اجتهد فلا يسعه الا العفو * ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الضعفاء والمرضى والفقراء وبين انه يجوز لهم التخلف عن الجهاد بشرط أن يكونوا ناصحين لله ورسوله وهو كونهم محسنين وانه ليس لاحد عليهم سبيل ذكر قسما رابعا من المعذورين بقوله تعالى (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم) الى الغزو وهم البكاؤن سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل

او مظهر ما يعتذرون من انزال هذه السورة (فان قلت) تنبئهم عالى قلوبهم تحصيل الحاصل لانهم عالمون به (قلت) تنبئهم باسرارهم وما كتموه شائعة ذائعة وتفضحهم بظهور ما اعتقدوا انه

وعلبة بن زيد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ابدرنا بالخروج اى أسرعنا فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين وقيل هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة اخوة معقل وسويد والنعمان وقيل أبو موسى وأصحابه وقيل نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل انها نزلت فى كل من ذكر وقوله تعالى (قلت لا أجد ما أحملكم عليه) حال من الكاف فى أتوك باضمار قد وقوله تعالى (تولوا) جواب اذا (وأعينهم تفيض) أى تسيل (من الدمع) اى دمعها فان ومن للبيان كقولك أفديك من رجل وهو أبلغ من يفيض دمعها لانه يدل على ان العين صارت دمعا فياضا وقوله تعالى (حزنا) منصوب على العلة (ألا يجدوا) اى لئلا يجدوا ومحله نصب على انه مفعول له وناصبه المفعول له الذى هو حزنا (ما ينفقون) فى الجهاد ولما قال تعالى ما على المحسنين من سبيل قال تعالى فى حق من يعتذر ولا عذر له (انما السبيل) اى انما يتوجه الطريق بالعقوبة (على الذين يستأذنونك) يا محمد فى التخلف عنك والجهاد (وهم أغنياء) أى قادرون على أهبة الخروج معك وقوله تعالى (رضوا بان يكونوا مع الخوالف) استئناف كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان (وطبع الله على قلوبهم) فلاجل ذلك الطبع قال الله تعالى (فهم لا يعلمون) اى ما فى الجهاد من منافع الدارين أما فى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وأما فى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لا ينقطع (يعتذرون) اى هؤلاء المنافقون (اليكم) اى فى التخلف (اذا رجعتم) من الغزو (اليهم) بالاعذار الباطلة والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له ويحتمل أن يكون له وللمؤمنين يروى ان الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين كانوا بضعة وثلاثين رجلا فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم جاؤا يعتذرون اليه بالباطل قال تعالى (قل) لهم يا محمد (لا تعتذروا) بالمعاذير الباطلة (لن نؤمن لكم) اى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به وقوله تعالى (قد نبأنا) اى أعلمنا (الله من أخباركم) اى بعض أحوالكم التى أنتم عليها من الشر والفساد علة لانتفاء تصديقهم لان الله تعالى اذا أوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم الاعلام باحوالهم وما فى ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم (وسيرى الله عملكم ورسوله) اى أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه (ثم تردون) اى بالبعث (الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) اى الله المطلع على ما فى ضمائركم من الخيانة والكذب واخلاف الوعد وغير ذلك من الخبائث التى أنتم عليها فيجازيكم عليه (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم) اى رجعتم (اليهم) من تبوك أنهم معذورون فى التخلف (لتعرضوا عنهم) اى لتصفحوا عنهم فلا تعاتبوهم (فأعرضوا عنهم) اى فدعوهم وما اختاروا لانفسهم من النفاق قال ابن عباس يريد ترك الكلام والسلام قال مقاتل قال النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعانى هؤلاء طلبوا اعراض الصفح فأعطوا اعراض المقت ثم ذكر تعالى علة الاعراض بقوله (انهم رجس) اى قذر لخبث باطنهم فكما يجب الاحتراز عن الانجاس

(قوله لا يعرفه غيرهم (قوله المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) فان قلت كيف قال ذلك هنا وقال فى قوله والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض بلفظ أولياء مع ان ... من أدل على المجانسة

الجسمانية يجب الاحتراز عن الارجاس الروحانية خوفا من سريانها الى الانسان وحذرا من أن يميل طبع الانسان الى تلك الاعمال وقوله تعالى (ومأواهم جهنم) من تمام العلة (جزاء بما كانوا يكسبون) من الاعمال الخبيثة في الدنيا واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال ابن عباس نزلت في الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما كانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقال مقاتل نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بالله الذي لا اله الا هو لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه فأنزل الله تعالى هذه الآية ونزل (يحلفون لكم لترضوا عنهم) أي يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم (فان ترضوا عنهم) أى فان رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) لانه تعالى يعلم ما في قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم والمقصود من الآية عدم الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الامر بالاعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم * ونزل في سكان البادية (الأعراب) أى أهل البدو (أشد كفرا ونفاقا) أى من أهل الحضر لجفائهم وغلظ طباعهم وبعدهم عن أهل العلم وقلة استماعهم الكتاب والسنة واستيلاء الهواء الحار اليابس عليهم وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم وليسوا تحت سياسة سائس ولا تأديب مؤدب ولا ضبط ضابط فنشؤا كما شاؤا ومن كان كذلك خرج على أشد الجهات نفاقا ولو قابلت الفواكه الجبلية بالفواكه البستانية لعرفت الفرق بين أهل الحضر وأهل البادية قال العلماء من أهل اللغة يقال رجل عربي اذا كان له نسب في العرب وجمعه العرب كما يقال مجوسي ويهودي ثم تحذف ياء النسب في الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل اعرابي بالالف اذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلا وسواء كان من العرب أم من مواليهم ويجمع الاعرابي على الاعراب والاعاريب والاعرابي اذا قيل له يا عربي فرح والعربي اذا قيل له يا اعرابي غضب له فمن استوطن القرى العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم اعراب والذي يدل على الفرق بينهما أنه صلى الله عليه وسلم قال حب العرب من الايمان وأما الاعراب فقد ذمهم الله تعالى في هذه الآية وقيل سموا بالعرب لان ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم ولا شك أن اللسان العربي مختص بأنواع من الفصاحة والجزالة لا توجد في سائر الالسنة قال الرازي ورأيت في بعض الكتب عن بعض الحكماء انه قال حكمة الروم في أدمغتهم وذلك لانهم يقدرون على التركيبات العجيبة وحكمة الهند في أوهامهم وحكمة اليونان في أفئدتهم وذلك لكثرة ما لهم من المباحث العقلية وحكمة العرب في ألسنتهم وذلك لحلاوة ألفاظهم وعذوبة عباراتهم ثم حكم الله تعالى على الاعراب بحكم آخر بقوله تعالى (وأجدر) أى أحق وأولى (أن) أى بأن (لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) من الاحكام والشرائع فرائضها وسننها (والله عليم) بما في قلوب عباده (حكيم) فيما فرض من فرائضه واحكامه (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق) في سبيل الله تعالى (مغرما) اى غرامة وخسرانا والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه لانه لا ينفق الا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله تعالى وابتغاء المثوبة عنده وهم أسد وغطفان

لاقتضائها البعضية فكانت بالمؤمنين أولى لانهم أشد تجانسا في الصفات (قلت) المراد بقوله بعضهم من بعض بعضهم على دين بعض لان من يأتي بمعنى على كاف قوله تعالى ونصرناه من القوم وقوله الذين يؤلون من نسائهم أي يحلفون على وطئهن والمراد بقوله

(ويتربص) أى ينتظر (بكم الدوائر) أى دوائر الزمان أن ينقلب عليكم فيموت النبى صلى الله عليه وسلم ويظهر المشركون قال الله تعالى (عليهم دائرة السوء) دعاء عليهم معترض قال التفتازانى بين كلامين لا فى أثناء كلام ولا فى آخره دعا عليهم بنحو ما دعوا به قال الله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم أى يدور عليهم البلاء والحزن ولا يرون فى محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وأصحابه الا ما يسوءهم ويكيدهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين والباقون بالفتح مصدر أضيف اليه للمبالغة كقولك رجل سوء فى نقيض قولك رجل صدق (والله سميع) لاقوالهم (عليم) بما تخفى ضمائرهم ولما بين سبحانه وتعالى انه حصل فى الاعراب من يتخذ انفاقه فى سبيل الله مغرما بين ان فيهم قوما مؤمنين صالحين مجاهدين يتخذ انفاقه فى سبيل الله مغنما بقوله تعالى (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) كبعض جهينة ومزينة فوصفهم الله تعالى بوصفين كونهم مؤمنين بالله واليوم الآخر والمقصود التنبيه على أنه لابد فى جميع الطاعات من تقديم الايمان وفى الجهاد أيضا كذلك والثانى ما ذكره بقوله تعالى (ويتخذ ما ينفق قربات) جمع قربة أى يقربه (عند الله) الذى لا أشرف من القرب عنده (و) وسيلة الى (صلوات) اى دعوات (الرسول) صلى الله عليه وسلم لانه كان يدعو للمصدقين عنده بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل ابى اوفى قال تعالى وصل عليهم أى ادع لهم ولما كان ما ينفق سببا لذلك قيل يتخذ ما ينفق قربات وصلوات الرسول (الا انها) أى نفقاتهم (قربة لهم) عند الله وهذا شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقاته قربات عند الله وصلوات الرسول وقد اكد تعالى هذه الشهادة بحرف التنبيه وهو قوله تعالى ألا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى انها ثم زاد فى التأكيد فقال تعالى (سيدخلهم الله فى رحمته) فان دخول السين توجب مزيد التأكيد وهذه النعمة هى أقصى مرادهم وقرأ ورش قربة برفع الراء والباقون بالسكون والاصل هو الضم والاسكان تخفيف (ان الله غفور) اى بليغ الستر لقبائح من تاب (رحيم) بهم ولما ذكر تعالى فضائل الاعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وما اعد لهم من الثواب بين تعالى ان فوق منزلتهم منازل اعلى واعظم منها بقوله تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) أما من المهاجرين فقال سعيد بن المسيب هم الذين صلوا الى القبلتين وقال عطاء بن أبى رباح هم أهل بدر وقال الشعبى هم أهل بيعة الرضوان وقال محمد بن كعب هم جماهير الصحابة وقيل هم الذين أسلموا قبل الهجرة واختلف فى اول الناس اسلاما وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء أول من أسلم بعد خديجة على بن أبى طالب وهذا قول جابر واختلفوا فى سنه وقت اسلامه فقيل كان ابن عشر سنين وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر وقيل كان بالغا والاكثرون على انه لم يكن بالغا وقت اسلامه وقال بعضهم أول من اسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس وقال بعضهم أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول عروة بن الزبير وكان اسحق بن ابراهيم الحنظلى يجمع بين هذه الروايات فيقول اول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان على ومن الموالى زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهؤلاء أربعة سباق الخلق

بعضهم أولياء بعض فى انصارهم واعوانهم فى الدين وعلى ذلك فكل من الفطين يصلح مكان الآخر لكن للولاية شرف فكانت اولى بالمؤمنين والمؤمنات (قوله أولئك) أى المنافقون والمنافقات حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة أما حبطها فى

الى

الى الاسلام وأما من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي الاولى وكانوا ستة نفر ثم العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلا ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا فهؤلاء سباق الانصار وقيل المراد بالسابقين الاولين من سبق الى الهجرة والنصرة ويدل على هذا انه تعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين انهم سابقون فيماذا فبقي اللفظ مجملا فوجب صرف ذلك اللفظ الى ما قد صاروا به مهاجرين وانصارا وهو الهجرة والنصرة فوجب ان يكون المراد منه السابقين الاولين في الهجرة والنصرة ازالة للاجمال عن اللفظ وايضا فان الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية ومنقبة شريفة لانهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وآووه وواسوه وآووا اصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله تعالى عليهم ومدحهم (والذين اتبعوهم) أي الفريقين الى يوم القيامة (باحسان) أي في اتباعهم فلم يحولوا عن شيء من طريقتهم وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والانصار ويترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم وقيل بقية المهاجرين والانصار سوى السابقين الاولين وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه والمد ربع الصاع والنصيف نصفه والمعنى لو أن أحدا عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والانفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القدر الصغير من عمل الصحابة وانفاقهم لانهم أنفقوا وبذلوا الجهد في وقت الحاجة وعن عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدري أذكر بعده قرنين أم ثلاثا والقرن الامة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا في مدته من الزمان فقيل من عشر سنين الى عشرين سنة وقيل من مائة الى مائة سنة وهذا هو المشهور وقيل من مائة الى مائة وعشرين سنة ثم جمعهم الله تعالى في الثواب فقال (رضي الله عنهم) فالسابقون مرتفع بالابتداء وخبره رضي الله عنهم أي بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم من نعمه الجليلة في الدنيا والآخرة (وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار) أي هي كثيرة المياه فكل موضع أردته نبع منه ماء يجري منه نهر وقرأ ابن كثير بزيادة من تحتها وبجر التاء بعد الحاء والباقون بغير من وفتح التاء ثم نفى سبحانه الانقطاع بقوله تعالى (خالدين فيها) وأكد المراد من الخلود بقوله تعالى (أبدا) ثم استأنف مدح هذا الذي أعده لهم بقوله تعالى (ذلك) أي الامر العالي الرتبة (الفوز العظيم) ولما شرح تعالى أحوال منافقي المدينة ثم ذكر بعده أحوال منافقي الاعراب ثم بين ان في الاعراب من هو مؤمن صالح مخلص ثم بين ان رؤساء المؤمنين من هم وهم السابقون والمهاجرون والانصار ذكر ان جماعة من حول المدينة موصوفون بالنفاق بقوله تعالى (وممن حولكم) أي اهل بلدتكم وهي المدينة (من الاعراب منافقون) وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها وقوله تعالى (ومن أهل المدينة) عطف على خبر المبتدا الذي هو ممن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدا والخبر اذا قدرت ومن أهل المدينة قوم (مردوا على النفاق) على ان مردوا صفة موصوف محذوف كقول الشاعر

* أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * أي انا ابن رجل جلا فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه وقال

الدنيا فمن حيث كيدهم ومكرهم وخداعهم التي كانوا يقصدون بها اطفاء نور الله ويأبى الله الا ان يتم نوره واما حبطها في الآخرة فمن حيث ان عباداتهم وطاعاتهم انوا بها رياء وسمعة ونفاقا فحبطت أعمالهم من الخبيثات المذكورة حيث لم يحصل

الزجاج في الآية تقديم وتأخير والتقدير وممن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة منافقون
مردوا على النفاق أي ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه واصل المرود الملاسة ومنه صرح ممرد
وغلام أمرد (لا تعلمهم) باعيانهم أي يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط
توقيهم ما يشكك في امرهم ثم هددهم وبين خسارتهم بقوله تعالى (نحن نعلمهم) أي لا يعلمهم الا
الله تعالى ولا يطلع على سرهم غيره لانهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم ابطانا و يبرزون
لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين لا تشك معه في ايمانهم وذلك أنهم مردوا على النفاق
وضروا به فلهم فيه اليد الطولى واختلفوا في تفسير قوله تعالى (سنعذبهم مرتين) فقال
الكلبي والسدي قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق
اخرج يا فلان فانك منافق فاخرج من المسجد جماعة من المنافقين وفضحهم فهذا هو العذاب
الاول والثاني عذاب القبر (فان قيل) كيف هذا مع قوله تعالى لا تعلمهم نحن نعلمهم (أجيب)
بانه تعالى أعلمه بهم بعد ذلك وقال مجاهد الاول القتل والسبي والثاني عذاب القبر وقال ابن زيد
الاول المصائب في الاولاد والثاني عذاب الآخرة وقال ابن عباس الاول اقامة الحدود عليهم
والثاني عذاب القبر وقيل عذبوا بالجوع مرتين وقيل الاول ضرب الملائكة وجوههم وادبارهم
عند قبض أرواحهم والثاني عذاب القبر وقيل الاول احراق مسجدهم مسجد الضرار
والثاني احراقهم بنار جهنم كما قال تعالى (ثم يردون) أي في الآخرة (الى عذاب عظيم) هو
النار وقوله تعالى (وآخرون) أي وقوم آخرون مبتدأ وقوله تعالى (اعترفوا بذنوبهم) ولم
يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة نعته والخبر (خلطوا عملا صالحا) أي وهو جهادهم قبل
ذلك او اعترافهم بذنوبهم او غير ذلك (وآخر سيأ) أي وهو تخلفهم (عسى الله ان يتوب عليهم
ان الله غفور رحيم) يتجاوز عن التائب و يتفضل عليه نزلت في طائفة من المتخلفين عن غزوة
تبوك واختلف في عددهم فعن ابن عباس انهم كانوا ثلاثة عشر وروى عنه انهم كانوا خمسة
وقال سعيد بن جبير كانوا ثمانية وقيل كانوا ثلاثة ندموا لما بلغهم ما نزل بالمتخلفين وتابوا وقالوا
نكون في الظلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الجهاد واللأواء فلما
رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا والله لنوثقن انفسنا
بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقها ويعذرنا
فربطوا أنفسهم في سواري المسجد فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد على
عادته في رجوعه من سفره فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم فذكر له انهم اقسموا الا يحلوا انفسهم
حتى تحلهم وترضى عنهم فقال وأنا اقسم أن لا أحلهم حتى أومر باطلاقهم رغبوا عني وتخلفوا
عن الغزو مع المسلمين فانزل الله تعالى هذه الآية فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم
واطلقهم وعذرهم فلما اطلقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا وانما تخلفنا عنك بسببها خذها
فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال عليه الصلاة والسلام ما امرت ان آخذ من
اموالكم شيأ فانزل الله تعالى (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم) من الذنوب او حب المال
المؤدي الى مثله وتجري لهم مجرى الكفارة هذا قول الحسن كان يقول ليس المراد من هذه
الآية الصدقة الواجبة وانما هي كفارة الذنب الذي صدر ويدل عليه انه صلى الله عليه وسلم

بما اغرضهم في الدنيا ولا في
الآخرة وأما عباداتهم
التي تجري بها الاحكام
المسلمين عليهم كحقن دمائهم
وأموالهم فينتفعون بها
في الدنيا خاصة ولا عبرة بها
(قوله وما لهم في الارض
من ولي ولا نصير) ♦ ان قلت
لم خصص الارض بالذكر
مع انهم لا ولي لهم فيها ولا

اخذ ثلث اموالهم وتصدق بها وابقى لهم الثلثين ولم يأخذ الجميع لان الله تعالى قال خذ من اموالهم والصدقة الواجبة لا يؤخذ فيها ثلث المال (وتزكيهم بها) اى وتنمى بها حسناتهم وترفعهم الى منازل المخلصين (وصل عليهم) اى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم والسنة أن يدعو آخذ الصدقة لصاحب الصدقة اذا أخذها وعن الشافعى رضى الله عنه انه كان يقول أحب أن يقول الوالى عند أخذ الصدقة اجرك الله فيما أعطيت وجعله لك طهورا وبارك لك فيما أبقيت (ان صلاتك سكن لهم) اى تسكن اليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم لان روحه صلى الله عليه وسلم كانت روحا قوية مشرقة صافية باهرة فاذا دعا صلى الله عليه وسلم لهم وذكرهم بالخير فاضت آثار من قوة روحه الروحانية على أرواحهم فاشرقت بهذا السبب أرواحهم وصفت اسرارهم وانتقلوا من الظلمة الى النور ومن الجسمانية الى الروحانية فحصل لهم بذلك غاية الطمأنينة وقرأ حفص وحمزة والكسائى صلاتك بغير واو بعد اللام ونصب التاء على التوحيد والباقون بالواو وكسر التاء على الجمع لتعدد المدعو لهم وقيل ان هذه الآية كلام مبتدأ والمقصود منها ايجاب أخذ الزكوات من الاغنياء وعليه أكثر الفقهاء اذ استدلوا بهذه الآية فى ايجاب الزكاة وقالوا فى الزكاة انها طهرة (والله سميع) لاقوالهم واعترافهم ودعائك لهم (عليم) بندامتهم ونياتهم ولما حكى سبحانه عن القوم الذين تقدم ذكرهم أنهم تابوا عن ذنوبهم وانهم تصدقوا وهناك لم يذكر الا قوله عسى الله أن يتوب عليهم وما كان ذلك صريحا فى قبول التوبة ذكر بعد ذلك انه يقبل التوبة وانه سبحانه يأخذ الصدقات ترغيبا لمن لم يتب فى التوبة وترغيبا لكل العصاة فى الطاعة بقوله تعالى (ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ) اى يقبل (الصدقات) والضمير اما للمتوب عليهم والمراد ان يمكن فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم واما لغيرهم والمراد به التحضيض عليها والآية وان وردت بصيغة الاستفهام الا ان المراد بها التقرير فى النفس ومن عادة العرب فى افهام المخاطب وازالة الشك عنه ان يقولوا أما علمت ان من علمك يجب عليك خدمته أما علمت أن من احسن اليك يجب عليك شكره فبشر الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ترغيبا فى التوبة وبذل الصدقات وذلك انه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالامس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم اليوم فانزل الله تعالى هذه الآية ترغيبا فى التوبة ثم زاد تأكيدا بقوله تعالى (وان الله هو التواب الرحيم) أى وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم وفى هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وان الله يقبلها من عبده وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد مؤمن يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الا طيبا ولا يصعد الى السماء الا الطيب الا يضعها فى يد الرحمن عز وجل فيربيها له كما يربى احدكم فلوه حتى ان اللقمة لتأتى يوم القيامة وانها كمثل الجبل العظيم ثم قرأ ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات (وقل اعملوا) أى وقل لهم أو للناس يا محمد اعملوا ما شئتم (فسيرى الله عملكم) فانه لا يخفى عليه شئ خيرا كان أو شرا ففيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا فى العمل فى المستقبل فان الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها (و) يرى أيضا (رسوله

فى السماء فى الدنيا ولا فى الآخرة (قلت) لما كانوا لا يعتقدون الوحدانية ولا يصدقون بالآخرة كان اعتقادهم وجود الولى والنصير مقصورا على الدنيا فعبر عنها بالارض أو اراد بالارض أرض الدنيا

(والمؤمنون) أعمالكم أما رؤية النبي صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله اياه على أعمالكم واما رؤية المؤمنين فبقذف الله تعالى في قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المفسدين (وستردون الى عالم الغيب والشهادة) أي وسترجعون يوم القيامة الى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شيء من أعمال بواطنكم وظواهركم (فينبئكم) أي فيخبركم (بما كنتم تعملون) من خير وشر فيجازيكم على أعمالكم واعلم ان الله تعالى قسم المتخلفين عن الجهاد ثلاثة أقسام أولهم المنافقون الذين مردوا على النفاق والثاني التائبون وهم المرادون بقوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم وبين انه تعالى قبل توبتهم والقسم الثالث الذين بقوا موقوفين وهم المذكورون في قوله تعالى (وآخرون) أي من المتخلفين (مرجون) أي مؤخرون عن التوبة وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بغير همز بين الجيم والواو والباقون بهمزة مضمومة بين الجيم والواو (لأمر الله) أي لحكم الله تعالى فيهم والفرق بين القسم الثاني وبين هذا ان أولئك سارعوا الى التوبة وهؤلاء لم يسارعوا اليها قال ابن عباس نزلت هذه الآية في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وسيأتي قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا تخلفوا كسلا وميلا الى الراحة لا نفاقا ولم يعتذروا الى النبي صلى الله عليه وسلم كغيرهم فوقف أمرهم خمسين ليلة حتى نزلت توبتهم بعد (اما يعذبهم) بان يميتهم من غير توبة (واما يتوب عليهم) ان تابوا (فان قيل) كلمة اما واما للشك والله تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بان الترديد بالنسبة للعباد أي ليكن أمرهم عندكم على هذا في الخوف والرجاء فان الله تعالى لا تخفى عليه خافية وفي هذا دليل على ان كلا الامرين بارادة الله تعالى (والله عليم) باحوال عباده (حكيم) فيما يفعل بهم ولما ذكر تعالى اصناف المنافقين وطرائقهم المختلفة قال تعالى (والذين اتخذوا مسجدا) قال ابن عباس رضي الله عنه وهم اثنا عشر رجلا من المنافقين بنوا مسجدا (ضرارا) اى مضارة لاخوانهم اصحاب مسجد قباء (وكفرا) أي وتقوية للنفاق وقال ابن عباس يريدون به ضرارا للمؤمنين وكفرا بالنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به وقال غيره اتخذوه ليكفروا فيه بالطعن على النبي صلى الله عليه وسلم والاسلام (وتفريقا بين المؤمنين) لانهم كانوا جميعا يصلون بمسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك الى الاختلاف وافتراق الكلمة (وارصادا) أي ترقبا (لمن حارب الله ورسوله) وهو أبو عامر والد أبي حنظلة الذي غسلته الملائكة وكان قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة عاداه لانه زالت رياسته وقال النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا الذي جئت به قال جئت بالحنيفية دين ابراهيم عليه السلام فقال له ابو عامر انا عليها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انك لست عليها فقال ابو عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبي صلى الله عليه وسلم آمين وسماه الفاسق فلما كان يوم أحد قال أبو عامر لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم ولم يزل يقاتله الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج الى الشام وأرسل الى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من القوة والسلاح وابنوا الى مسجدا فاني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فاخرج محمدا وأصحابه فبنوا مسجد الضرار الى جنب مسجد قباء وانتظروا مجيء ابي عامر ليصلي بهم في ذلك المسجد

والآخرة (قوله ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فان قلت لم خص السبعين مع انهم لا يغفر لهم اصلا لقوله سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ولانهم

وقوله

وقوله تعالى (من قبل) متعلق بحارب اى حارب من قبل أن يبنى مسجد الضرار أو باتخذوا أى اتخذوا من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف ولما وصف تعالى هذا المسجد بهذه الصفات الاربعة قال تعالى (وليحلفن ان أردنا الا الحسنى) أى وليحلفن ما أردنا ببنائه الا الفعلة الحسنى وهى الرفق بالمسلمين في التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز عن المسير الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المظلمة والليلة الشاتية (والله يشهد انهم لكاذبون) فى قولهم * (تنبيه) * قوله تعالى والذين اتخذوا محله نصب على الاختصاص كقوله تعالى والمقيمين الصلاة او رفع على الابتداء والخبر محذوف أى وممن ذكرنا الذين * ولما بنى المنافقون ذلك المسجد للاغراض الفاسدة عند ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك وقالوا يارسول الله بنينا مسجدا لذى العلة والليلة المظلمة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا فيه بالبركة فقال صلى الله عليه وسلم انى على جناح سفر فى حال شغل واذا قدمنا ان شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل أى رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزل قوله تعالى (لا تقم فيه أبدا) قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه لا تصل فيه أبدا وقال الحسن هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذهب الى ذلك المسجد فنادى جبريل لا تقم فيه أبدا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك انظرونى حتى اخرج لكم بنار من اهلى فدخل الى اهله واخذ سعفا من النخل فاشعل فيه نارا ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه اهله فهدموه واحرقوه وتفرق عنه اهله وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ومات ابو عامر الراهب بالشام وحيدا فريدا غريبا وقيل كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى او بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار وعن عطاء لما فتح الله تعالى الامصار على عمر رضى الله تعالى عنه امر المسلمين ان يبنوا المساجد وان لا يتخذوا فى مدينة مسجدين يضار احدهما صاحبه وقوله تعالى (لمسجد) اللام فيه للابتداء وقيل لام القسم تقديره والله لمسجد (اسس) اى وضع اساسه وقواعده (على التقوى) اى تقوى الله تعالى (من اول يوم) اى من اول ايام وجوده لان من تعم الزمان والمكان أى فاحاطت به التقوى لانها اذا احاطت باوله احاطت بآخره (أحق) أى أولى (أن) أى بان (تقوم) اى تصلى (فيه) واختلف فى هذا المسجد الذى اسس على التقوى فقيل هو مسجد المدينة قاله زيد بن ثابت وابو سعيد الخدرى قال أبو سعيد رضى الله عنه دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت بعض نسائه فقلت يارسول الله أى المسجد الذى اسس على التقوى قال فاخذ كفا من حصباء فضرب به الارض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى وعن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوائم منبرى هذا رواتب فى الجنة أى ثوابت وقيل

مشركون والله لا يغفر أن يشرك به (قلت) لان عادة العرب جرت بضرب المثل فى الآحاد بالسبعة وفى العشرات بالسبعين استكثارا ولا يريدون الحصر (فان قلت) لو كان المراد ذلك

هو مسجد قباء قاله سعيد بن جبير وقتادة أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهو يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة ويدل على هذا قوله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) أى من المعاصى والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله تعالى عليهم (والله يحب المطهرين) أى يثيبهم ويرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادناء المحب حبيبه روى انها لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فاذا الانصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر يارسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يامعشر الانصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا يارسول الله نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال يحبون أن يتطهروا وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن ابن ساعدة انه صلى الله عليه وسلم أتاهم فى مسجد قباء فقال ان الله تعالى قد أحسن اليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم فما الطهور الذى تطهرون به قالوا والله يارسول الله ما نعلم شيأ الا انه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وفى حديث رواه البزار فقالوا نتبع الحجارة بالماء فقال هو ذاك فعليكموه وقيل كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون الماء أثر البول وعن الحسن هو التطهر من الذنوب بالتوبة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم (أفمن أسس بنيانه) أى بنيان دينه (على تقوى من الله ورضوان) أى على قاعدة قوية محكمة وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه (خير أم من أسس بنيانه على شفا) أى طرف (جرف) أى جانب (هار) أى على قاعدة هى أضعف القواعد وأقلها بقاء وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل شفا جرف هار أى مشرف على السقوط (فانهار به) أى سقط مع بانيه (فى نار جهنم) خبر وهذا تمثيل للبناء على ضد التقوى بما يؤل اليه والاستفهام للتقرير أى الاول خير وهو مثال مسجد قباء والثانى مثال مسجد الضرار قال الرازى ولا نرى فى العالم مثالا أحسن مطابقة لامر المنافقين من هذا المثال وحاصل الكلام ان أحد البنائين قصد بانيه ببنائه تقوى الله تعالى ورضوانه والبناء الثانى قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر فكان البناء الاول شريفا واجب الابقاء وكان الثانى خسيسا واجب الهدم قيل حفرت بقعة فى مسجد الضرار فرؤى الدخان يخرج منها وقرأ نافع وابن عامر أفمن أسس بضم الهمزة وكسر السين الاولى مع التشديد وضم النون قبل الهاء والباقون بفتح الهمزة والسين مع التشديد أيضا ونصب النون قبل الهاء وقرأ شعبة رضوان بضم الراء والباقون بالكسر ورسمت أم هنا مقطوعة من من والكلام على أسس بنيانه كالكلام على التى قبلها وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة جرف بسكون الراء والباقون بالرفع وأما شفا فلا امالة فيه بخلاف هار فان أبا عمرو وشعبة والكسائى يقرؤنه بالامالة المحضة وابن ذكوان بالفتح والامالة وورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى الى ما فيه صلاح

الماخوذ على أفصح العرب وأعلمهم بأساليب الكلام حتى قال لما أنزلت هذه الآية لازيدن على السبعين (قلت) أمل الله ان يغفر لهم وانما اراد لم يخف عليه ذلك وانما اراد بما قال اظهار كمال رأفته

ونجاة (لا يزال بنيانهم الذي بنوا) أي بناؤهم الذي بنوه وهو مصدر كالغفران والمراد هنا المبنى واطلاق لفظ المصدر على المفعول مجاز مشهور يقال ضرب الامير ونسج زيد والمراد مضروبه ومنسوجه وليس بجمع خلافا للواحدي في تجويزه ان يكون جمع بنيانة لانه وصف بالمفرد وأخبر عنه بقوله (ريبة) أي شكا (في قلوبهم) والمعنى ان بناء ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة في قلوبهم فجعل نفس ذلك البنيان ريبة وانما جعل سببا للريبة لان المنافقين فرحوا ببناء مسجد الضرار فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه عظم خوفهم في كل الاوقات وصاروا مرتابين في أنهم هل يتركهم على ماهم فيه أو يامر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبي صار حسرة وندامة لانهم ندموا على بنائه وقال السدي لا يزال هدم بنائهم ريبة أي حرارة وغيظا في قلوبهم (الا أن تقطع قلوبهم) قطعا اما بالسيف واما بالموت بحيث لا يبقى لهم قابلية الادراك وقيل التقطع بالتوبة ندما وأسفا (والله عليم) بأحوالهم وأحوال عباده (حكيم) في الاحوال التي يحكم بها عليهم وعلى غيرهم * ولما تقدم الانكار على المتثاقلين عن النفر في سبيل الله في قوله تعالى مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله الآية ثم الجزم بالجهاد بالنفس والمال في قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا الآية ذكر فضيلة الجهاد وحقيقته بقوله تعالى (ان الله اشترى) أي بعهود أكيدة ومواثيق غليظة شديدة (من المؤمنين) بالله ورسوله وبما جاء به من عنده (أنفسهم) التي تفرد بخلقها (وأموالهم) التي تفرد برزقها وهو علكها دونهم وقدم النفس اشارة الى أن المبايعة سابقة على اكتساب المال والماذكر البيع أتبعه الثمن بقوله تعالى (بان لهم الجنة) مثل الله تعالى اثابتهم على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشراء وروى تاجرهم الله تعالى فأغلى لهم الثمن وعن عمر رضي الله عنه فجعل لهم الصفقتين جميعا وعن الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها وروى أن الانصار لما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا قال عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون به انفسكم وأموالكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا قال الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ومر اعرابي على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها فقال الاعرابي كلام من قال عليه الصلاة والسلام كلام الله عز وجل فقال الاعرابي والله بيع مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو فاستشهد وقال الحسن اسمعوا والله بيعة رابحة وكفة راجحة بايع الله تعالى بها كل مؤمن والله ما على الارض مؤمن الا وقد دخل في هذه البيعة والمراد بالاموال انفاقها في سبيل الله وعلى انفسهم واهليهم وعيالهم وفي جميع وجوه البر والطاعات وقوله تعالى (يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) استئناف بيان لما لاجله الشراء وقيل يقاتلون في معنى الامر وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المقتولين على القاتلين لان الواو لا تقتضي للترتيب ولان فعل البعض قد يسند الى الكل أي فيقتل بعضهم ويقاتل الباقي والباقون بتقديم القاتلين وقوله تعالى (وعدا عليه حقا) مصدران منصوبان بفعليهما المحذوفين ثم أخبر الله تعالى بان هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت (في التوراة) كتاب موسى عليه السلام (والانجيل) كتاب عيسى عليه السلام (والقرآن) أي

ووجهه ان بعث اليهم وفيه لطف بامته وحث لهم على التراحم والشفقة بعضهم على بعض وهذا دأب الانبياء عليهم السلام كما قال ابراهيم عليه السلام ومن عصاني فانك غفور رحيم (قوله وطبع على قلوبهم) قاله بالبناء للمفعول في قوله هنا وقال بعده

قد أثبته فيهما كما أثبته في القرآن أي الكتاب الجامع لكل ما قبله (ومن أوفى بعهده من الله) أي لا أحد أوفى منه سبحانه لان الاخلاف لا يقدم عليه الكرام من الناس فكيف بخالقهم الذي له الغنى المطلق وقوله تعالى (فاستبشروا) فيه التفات عن الغيبة أي فافرحوا غاية الفرح (ببيعكم الذي بايعتم به) فانه أوجب لكم عظائم المطالب كما قال تعالى (وذلك هو الفوز العظيم) ● (تنبيه) ● هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيدات أولها قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بكون المشتري هو الله تعالى المقدس عن الكذب والخيانة وذلك من أدل الدلائل على تأكيد هذا العهد ثانيها انه تعالى عبر عن ايصال هذا الثواب بالبيع والشراء وذلك حق مؤكد ثالثها قوله تعالى وعدا ووعد الله تعالى حق رابعها قوله تعالى عليه وكلمة على للوجوب خامسها قوله تعالى حقا وهو لتأكيد التحقيق سادسها قوله تعالى في التوراة والانجيل والقرآن وذلك يجري مجرى اشهاد جميع الكتب الالهية وجميع الانبياء والرسل على هذه المبايعة سابعها قوله تعالى ومن أوفى بعهده من الله وهو غاية في التأكيد ثامنها قوله تعالى فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وأيضا هو مبالغة في التأكيد تاسعها قوله تعالى وذلك هو الفوز وعاشرها قوله تعالى العظيم فثبت اشتمال هذه الآية على هذه الوجوه العشرة في التأكيد والتقرير والتحقيق ● ولما ذكر الله تعالى في هذه الآية انه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بين ان أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسعة الآتية أولها قوله تعالى (التائبون) وهو مرفوع على المدح اى هم التائبون يعني المذكورين في قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين وقال الزجاج لا يبعد ان يكون قوله التائبون مبتدأ وخبره محذوف تقديره التائبون من اهل الجنة وان لم يجاهدوا لقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى او خبره ما بعده اى التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال والتائبون صيغة عموم محلاة بالالف واللام فتتناول التوبة من كل معصية والتوبة انما تحصل عند أربعة أمور اولها احتراق القلب عند صدور المعصية ثانيها الندم على ما مضى ثالثها العزم على الترك في المستقبل رابعها أن يكون الحامل له على هذه الامور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته فان كان غرضه منها رفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم او لغرض من الاغراض الدنيوية فليس بتائب ولا بد من رد المظالم الى اهلها ان كانت الصفة الثانية قوله تعالى (العابدون) اى الذين اخلصوا العبادة لله وقال الحسن هم الذين عبدوا الله في السراء والضراء وقال قتادة قوم اخذوا من ابدانهم في ليلهم ونهارهم الصفة الثالثة قوله تعالى (الحامدون) وهم الذين يقومون بحق شكر الله تعالى على نعمه دينا ودنيا ويجعلون اظهار ذلك عادة لهم وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم اول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء الصفة الرابعة قوله تعالى (السائحون) واختلف في المراد منهم فقال ابن مسعود وابن عباس هم الصائمون قال ابن عباس رضي الله عنهما كل ما ذكر في القرآن من السياحة فهو الصوم وقال صلى الله عليه وسلم سياحة أمتي الصوم وعن الحسن أن هذا صوم الفرض وقيل هم الذين يديمون الصيام قال الازهري قيل للصائم سائح لان الذي يسيح في الارض متعبد الازاد معه كان ممسكا عن الاكل والصائم ممسك

عن

وطبع الله بالبناء للفاعل لان الاول تقدمه مبني للمفعول وهو قوله واذا انزلت سورة والثاني تقدمه ذكر الله مرات فناسب بناء الاول للمفعول والثاني للفاعل لمناسب الفاعل ما قبله ثم ختم كلا منهما بما يناسبه فقال في الاول لا يفقهون وفي الثاني لا يعلمون لان

عن الاكل فلهذه المشابهة يسمى الصائم سائحا وقال عطاء السائحون الغزاة في سبيل الله
تعالى وروى عن عثمان بن مظعون انه قال يا رسول الله ائذن لنا في السياحة فقال ان سياحة
أمتي الجهاد في سبيل الله وقال عطاء السائحون هم طلاب العلم والسياحة امر عظيم في تكميل
النفس لانه يلقى افاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة وقد يلقى الاكابر من
الناس فيستحقر نفسه في مقابلتهم وقد يصل الى المدارسة الكثيرة فينتفع بها وقد يشاهد
اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الاحوال الخاصة بهم
فتقوى معرفته وبالجملة فالسياحة لها أثر قوي في الدين الصفة الخامسة والسادسة قوله تعالى
(الراكعون الساجدون) اي المصلون وانما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لانهما يميز
المصلي عن غيره بخلاف حالة القيام والقعود لانهما حالة المصلي وغيره ولان القيام أول
مراتب التواضع لله تعالى والركوع وسطها والسجود غايتها فخص الركوع والسجود بالذكر
لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية تنبيها على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع
والتعظيم الصفة السابعة والثامنة قوله تعالى (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر)
أي الآمرون بالايمان والطاعة والناهون عن الشرك والمعصية ودخول الواو في والناهون
عن المنكر للدلالة على انهما عطف عليه في حكم خصلة واحدة فكأنه قال الجامعون بين
الوصفين ولان العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله تعالى وثامنهم كلبهم وقوله تعالى
في صفة الجنة وفتحت أبوابها ايذانا بان التعداد قد تم بالسابع من حيث ان السبعة هو العدد
التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك تسمى واو الثمانية وقيل الموصوفون
بهذه الصفات هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعلى هذا يكون قوله تعالى
التائبون الى قوله الساجدون مبتدأ خبره هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر
الصفة التاسعة قوله تعالى (والحافظون لحدود الله) أي لاحكامه بالعمل بها والمقصود أن
تكاليف الله تعالى كثيرة وهي محصورة في نوعين أحدهما ما يتعلق بالعبادات والثاني ما يتعلق
بالمعاملات (فان قيل) ما الحكمة في ان الله تعالى ذكر تلك الصفات الثمانية على التفصيل ثم
ذكر عقبها سائر أقسام التكاليف على سبيل الاجمال في هذه الصفة التاسعة (أجيب) بان
التوبة والعبادة والاشتغال بتحميد الله والسياحة والركوع والسجود والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر أمور لا ينفك المكلف عنها في أغلب أوقاته فلهذا ذكرها الله تعالى على
سبيل التفصيل وأما البقية فقد ينفك المكلف عنها في أكثر أوقاته مثل احكام البيع والشراء
وأحكام الجنايات ودخل في هذه الصفة التاسعة رعاية أحوال القلوب بل البحث عنها والمبالغة
في الكشف عن حقائقها أولى لان أعمال الجوارح انما تراد لاجل تحصيل أعمال القلوب
ثم ذكر سبحانه وتعالى عقب هذه الصفات التسعة قوله تعالى (وبشر المؤمنين) تنبيها على أن
البشارة في قوله تعالى فاستبشروا لم تتناول الا المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات التسعة
وحذف تعالى المبشر به للتعظيم فكأنه قيل وبشرهم بما يجل عن احاطة الافهام وتعبير
الكلام • واختلف في سبب نزول قوله تعالى (ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا
للمشركين ولو كانوا أولي قربى) فقال سعيد بن المسيب عن أبيه انه نزل في شأن أبي طالب وذلك

العلم فوق الفقه أي الفهم
(قوله وسيرى الله عملكم
ورسوله ثم تردون) قال هنا
بثم وحذف والمؤمنون
وقاله بعد بالواو وذكر
والمؤمنون لان الاول في
المنافقين ولا يطلع على
ضمائرهم الا الله ثم رسوله
باطلاع الله اياه عليها والثاني
في المؤمنين وطاعاتهم

أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء لعمه أبي طالب لما حضرته الوفاة فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية فقال أي عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله ابن أمية أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان عليه الى تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله الا الله فقال صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك فنزل ذلك وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه قل لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن يعيرني قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله تعالى انك لا تهدي من أحببت الآية وقال بريدة لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له يستغفر لها فنزل ما كان للنبي الآية وقال أبو هريرة زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه آمنة فبكى وأبكى من حوله وقال استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته ان أزورها فاذن لي فزوروا القبور فانها تذكر الموت وقال قتادة قال النبي صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لابي كما استغفر ابراهيم لابيه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما مشركان فقلت له تستغفر لهما وهما مشركان فقال استغفر ابراهيم عليه السلام لابيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية وروى الطبراني بسنده عن قتادة قال ذكر لنا أن رجالا قالوا يا نبي الله ان من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الرحم ويفك العاني أفلا نستغفر لهم فقال صلى الله عليه وسلم والله لأستغفرن لابي كما استغفر ابراهيم لابيه فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أي بان ماتوا على الكفر قال البيضاوي وفيه دليل على جواز الاستغفار لاحيائهم فانه طلب توفيقهم للايمان وبه دفع النقض باستغفار ابراهيم عليه السلام لابيه الكافر فقال (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه) أي وعدها ابراهيم اباه بقوله لاستغفرن لك أي لاطلبن مغفرتك بالتوفيق للايمان فانه يجب أي يقطع ويمحو ما قبله وقرأ هشام ابراهام بالالف بعد الهاء في الموضعين والباقون بالياء فيهما (فلما تبين له أنه عدو لله) بان مات على الكفر أو أوحى الله تعالى اليه أنه لن يؤمن (تبرأ منه) أي قطع استغفاره (ان ابراهيم لأواه) أي كثير التضرع والدعاء (حليم) أي صبور على الاذى والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار لابيه مع صعوبة خلق أبيه عليه (وما كان الله ليضل قوما) أي يفعل بهم ما يفعل بالضالين من العقوبة لاجل ارتكابهم المنهي عنه (بعد اذ هداهم) للاسلام (حتى يبين لهم) بيانا شافيا الداء العمى (ما يتقون) أي ما يجب اتقاؤه للنهي أما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا بيع الصاع بالصاعين قبل التحريم وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه وقيل انه في قوم مضوا على الامر الاول في القبلة والخمر وغير ذلك وفي الجملة دليل على ان الغافل غير مكلف (ان الله بكل شئ عليم) أي بالغ العلم فهو يبين لكم ما تأتون وما تذرون مما يتوقف عليه الهدى وما تركه تعالى فانما تركه رحمة لكم لا يضل ربي ولا ينسى (ان الله له ملك السموات والارض) فلا يخفى

و عبادا تهم ظاهرة له
ولرسوله والمؤمنين وختم
الاولى بقوله ثم تردون ليفيد
كلفهم بما قبله لانه وعيد
وختم الثاني بقوله وستردون
ليفيد وصله بما قبله لانه
وعد فناسب في الاول ثم
وحذف والمؤمنون وفي

عليه

عليه شيء وهو خبير بكل ما ينفعكم أو يضركم (يحيي ويميت) أي يحيي من شاء على الايمان ويميته عليه ويحيي من شاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض لاحد عليه في حكمه وعبيده (وما لكم) أيها الناس (من دون الله) أي غيره (من ولي) يحفظكم منه (ولا نصير) يمنع عنكم ضرره (لقد تاب الله) أي أدام توبته (على النبي والمهاجرين والانصار) وافتتح الله تعالى الكلام بذكر توبة النبي صلى الله عليه وسلم لانه كان سبب توبتهم فذكر معهم كقوله تعالى فان لله خمسه وللرسول ونحوه وقيل هو بعث على التوبة والمعنى ما من أحد الا وهو محتاج الى التوبة حتى النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والانصار اقوله تعالى وتوبوا الى الله جميعا اذ ما من أحد الا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه والترقي اليه توبة من تلك النقيصة واظهار لفضلها بانها مقام الانبياء والصالحين من عباده * (فائدة) * اتفق القراء على ادغام دال قد في التاء (الذين اتبعوه في ساعة العسرة) أي في وقت العسرة لم يرد ساعة بعينها وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش يسمى جيش العسرة والعسرة الشدة فكانت عليهم عسرة في الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر يخرجون ما معهم الا التمرات اليسيرة بينهم فاذا بلغ الجوع من احدهم اخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تاتي على آخرهم ولا يبقى من التمرة الا النواة فمضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم وارضاهم اجمعين ورضي عنا بهم آمين وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا اصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا ان رقابنا ستقطع حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه ويجعل ما بقي على كبده وحتى ان الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن ان رقبته ستقطع فقال ابو بكر يا رسول الله ان الله تعالى قد عودك في الدعاء خيرا فادع الله تعالى قال أتحب ذلك قال نعم فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فلم يرجعهما حتى اظلت السماء ثم سكبت فملأنا ما معنا ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (من بعد ما كاد تزيغ) اى قرب ان تميل (قلوب فريق منهم) اى هم بعضهم عند تلك العسرة العظيمة أن يفارق النبي صلى الله عليه وسلم لكنه صبر واحتسب ولم يرد الميل عن الدين فلذلك قال الله تعالى (ثم تاب عليهم) لما صبروا وثبتوا وندموا على ذلك الامر اليسير (فان قيل) قد ذكر الله تعالى التوبة أولا ثم ذكرها ثانيا فما فائدة التكرار (اجيب) بأن الله تعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك واردفه بذكر التوبة مرة اخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا انه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم وقرأ حفص وحمزة يزيغ بالياء على التذكير لان تأنيث القلوب غير حقيقي والباقون بالتاء على التانيث وادغم ابو عمرو الدال من كاد في التاء بخلاف عنه (انه بهم رؤف رحيم) هما صفتان لله تعالى ومعناهما متقارب فالرأفة عبارة عن السعي في ازالة الضر والرحمة عبارة عن السعي في ايصال المنفعة وقيل احداهما للرحمة السابقة والاخرى للمستقبلة وقوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) اى عن غزوة

الثاني الواو وذكر والمؤمنون (فان قلت) الـسين في سيرى الله للاستقبال والرؤية هي العلم والله تعالى عالم بعملهم حالا وما لا فكيف جمع بينهما (قلت) معناه في حق الله انه سيعلمه واقعا ما لا يعلمه غير

تبوك وهم كعب بن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع معطوف على الآية الاولى والتقدير لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهذه الثلاثة كلهم من الانصار وهم المذكورون في قوله تعالى وآخرون مرجون لامر الله روى عن ابن شهاب الزهري قال ٣ أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال وكان أعلم قومه وأوعاهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال كعب كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك اني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فاخبرهم بوجهه الذي يريد فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت اغدو لكي أتجهز معهم فارجع ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا فهممت أن أرتحل وأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك وكنت اذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني ان لا أرى لي اسوة الا رجلا مغموصا في النفاق أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمت عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كعب فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه قافلا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بما أخرج به من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت اني لم أخرج بشيء أبدا فيه كذب وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس وجاءه المخلفون يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله تعالى فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلفك الم تكن قد ابتعت ظهرك قلت بلى يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من اهل الدنيا رأيت ان اخرج من سخطك بعذر ولقد اعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله ان يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه اني لارجو فيه عفو الله والله ما كان لي من عذر والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني وقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا وقد كان كافيك لذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لهم هل لقي هذا معي أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فذكروا لي رجلين صالحين

واقع حالا لان الله تعالى يعلم الاشياء على ما هي عليه فيعلم الواقع واقعا وغير الواقع غير واقع أما في حق الرسول فهو على ظاهره (قوله واجدر ان لا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله) فان قلت وصف

٣ قوله اخبرني عبد الرحمن الخ كذا بالنسخ التي عندنا وظاهره ان القائد عبد الرحمن وليس كذلك وعبارة البخاري في المغازي عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن كعب بن مالك ان عبد الله بن كعب بن مالك وكان الخ اه فالقائد عبد الله لا عبد الرحمن اه مصححه

قد

قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لى ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وابثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت اشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين وأطوف بالاسواق ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ثم اصلى قريبا منه وأسارقه النظر فاذا اقبلت على صلاتى نظر الى واذا التفت نحوه اعرض عنى حتى اذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت حائط ابى قتادة وهو ابن عمى واحب الناس الى فسلمت عليه فوالله مارد على السلام فقلت يا ابا قتادة انشدك الله هل تعلم انى احب الله ورسوله فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى وتوليت فبينما انا امشى فى سوق المدينة اذا نبطى من انباط الشأم ممن قدم بالطعام يبيعه يقول من يدلنى على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى جاءنى فدفع الى كتابا من ملك غسان فاذا فيه أما بعد فقد بلغنى ان صاحبك جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسيك فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء فيممت به التنور فسجرته به حتى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين أمرنا ان نعتزل نساءنا ولا نقربهن فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله تعالى فى هذا الامر قال كعب فجاءت امرأة هلال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له ان هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم هل تكره أن أخدمه فقال اخدميه ولكن لا يقربك قالت والله انه مابه حركة الى شئ والله لا يزال يبكى منذ كان من أمره ما كان الى يومه هذا فقال بعض أهلى لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك لاذن لك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا استأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدرينى ما يقول اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال الذى ذكره الله تعالى فى قوله (حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) أى مع رحبها أى سعتها فلا يجدون مكانا يطمئنون اليه (وضاقت عليهم أنفسهم) أى قلوبهم بالغم والوحشة أى بتأخير توبتهم فلا يسعها سرور ولا أنس (وظنوا) أى أيقنوا (أن) مخففة (لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم) أى وفقهم للتوبة (ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم) اذ سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع ينادى بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجدا وعرفت أنه جاء فرج وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله تعالى علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبى مبشرون وركض رجل الى فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى الى الجبل فكان الصوت اسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى وكسوته اياهما والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقانى الناس فوجا فوجا يهنؤنى بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله

العرب بانهم جاهلون بذلك يا فى صحة الاحتجاج بالفاظهم واشعارهم على كتاب الله تعالى وسنة نبيه (قلت) لا منافاة اذ وصفهم بالجهل انما هو فى احكام القرآن لا فى الفاظه وفى لا يحتج بالفاظهم فى بيان الاحكام بل فى بيان معانى.

عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام الى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنانى رضى الله تعالى عنه والله ما قام الى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال أن تضيق على التائب الارض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه ❊ ولما حكم الله بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ذكر ما يكون كالزاجر عن مثل فعل ما مضى وهو التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى بترك معاصيه (وكونوا مع الصادقين) أى مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم أجمعين فى الغزوات ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين فى البيوت وقيل كونوا مع الذين صدقوا فى الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة الكاذبة وقيل مع بمعنى من أى وكونوا من الصادقين ❊ (تنبيه) ❊ فى الآية دلالة على فضيلة الصدق وكمال درجته ويدل عليه أيضا أشياء منها ما روى عن ابن مسعود أنه قال عليكم بالصدق فانه يقرب الى البر والبر يقرب الى الجنة وان العبد ليصدق فيكتب عند الله تعالى صديقا واياكم والكذب فان الكذب يقرب الى الفجور والفجور يقرب الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا الا ترى أنه يقال صدقت وبررت وكذبت وفجرت ومنها ما روى أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال انى رجل أريد أن أومن بك الا أنى أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون انك تحرم هذه الاشياء ولا طاقة لى على تركها فان قنعت منى بترك واحدة منها فعلت فقال صلى الله عليه وسلم اترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبى صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه الخمر فقال ان شربت وسالنى النبى صلى الله عليه وسلم وكذبت فقد نقضت العهد وان صدقت أقام على الحد فتركها ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا فى السرقة فعاد الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال ما أحسن ما فعلت لما منعتنى عن الكذب انسدت أبواب المعاصى على وفات الكل ومنها ما قيل فى قوله تعالى حكاية عن ابليس فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين لان ابليس انما ذكر هذا الاستثناء لانه لو لم يذكره لصار كاذبا فى ادعاء اغواء الكل فكأنه استنكف عن الكذب فذكر هذا الاستثناء واذا كان الكذب شيأ يستنكف منه ابليس لعنه الله فالمسلم أولى أن يستنكف منه ومنها قول ابن مسعود الكذب لا يصلح فى جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم أخاه ثم لا ينجز له اقرؤا ان شئتم وكونوا مع الصادقين (ما كان) أى ما صح وما ينبغى بوجه من الوجوه (لاهل المدينة) أى دار الهجرة ومعدن النصرة (ومن حولهم) أى فى جميع نواحى المدينة الشريفة (من الاعراب) أى سكان البوادى وهم مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار وقيل عام فى كل الاعراب لان اللفظ عام وحمله على العموم أولى وقوله تعالى (أن يتخلفوا عن رسول الله) أى عن حكمه وقوله تعالى (ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه) أى بان يصونوها عما لم يرضى لنفسه عليه الصلاة والسلام من الشدائد يجوز فيه النصب والجزم على ان لا ناهية روى عن ابى خيثمة أنه بلغ بستانه واستوى ونضج وله امرأة حسناء فرشت له

الا الفاظ لان القرآن والسنة جاآ بلغتهم (قوله لا تعلمهم نحن نعلمهم) الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم (فان قلت) كيف نفى عنه علمه بحال المنافقين هنا واثبته له فى قوله ولتعرفنهم فى لحن القول (قلت) آية النفى نزلت قبل آية الاثبات

فى الظل وبسطت له الحصير وقربت له الرطب والماء البارد فقال ظل ظليل ورطب يانع أى ناضج وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح ما هذا بخير فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه الى الطريق فاذا براكب يزهاه السراب أى يدفعه وهو عبارة عن السرعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة فكان هو ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له (ذلك) أى النهى عن التخلف (بأنهم) أى بسبب انهم (لا يصيبهم ظمأ) أى عطش (ولا نصب) أى تعب (ولا مخمصة) أى مجاعة (فى سبيل الله) أى فى طريق دينه (ولا يطؤن) أى يدوسون وقوله تعالى (موطئا) مصدر أى وطأ أو مكان وطء (يغيظ) أى يغضب (الكفار) أى وطؤهم له بأرجلهم ودوابهم (ولا ينالون من عدو نيلا) أى قتلا أو أسرا أو غنيمة أو هزيمة أو نحو ذلك قليلا كان أو كثيرا (الا كتب لهم به) أى بذلك (عمل صالح) أى ثواب جزيل عند الله تعالى يجازيهم به (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) أى لا يترك ثوابهم وأظهر موضع الاضمار تنبيها على أن الجهاد احسان * (تنبيه) * فى هذه الآية دلالة على أن من قصد طاعة الله تعالى كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله تعالى وكذا القول فى طرف المعصية فان حركته فيها كلها سيآت فما أعظم بركة الطاعة وما أكبر ذل المعصية الا ان يغفرها الله تعالى * روى عن أبى عيسى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله تعالى على النار (ولا ينفقون) فى سبيل الله (نفقة صغيرة) تمرة فما دونها (ولا كبيرة) أى اكثر منها مثل ما أنفق عثمان رضى الله تعالى عنه فى جيش العسرة (ولا يقطعون) اى يجاوزون (واديا) اى ارضا فى سيرهم مقبلين او مدبرين (الا كتب لهم) ذلك من الانفاق وقطع الوادى (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) اى يجزيهم الله جزاء هو احسن من اعمالهم واجل وافضل وهو الثواب * (فائدة) * الوادى كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل وهو فى الاصل فاعل من ودى اذا سال ومنه الوادى وقد شاع فى استعمال العرب بمعنى الارض يقولون لا تصل فى وادى غيرك * (تنبيه) * فى الآية دليل على فضل الجهاد والانفاق فيه ويدل عليه اشياء منها ما روى عن ابن مسعود قال جاء رجل بناقة مخطومة فقال هذه فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة ومنها ما روى عن زيد بن خالد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومنها ما روى عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما عليها وفى رواية وما فيها * ومنها ما روى عن أبى سعيد الخدرى ان رجلا سال رسول الله صلى الله عليه وسلم اى الناس أفضل قال مؤمن مجاهد بنفسه فى سبيل الله قال ثم أى قال ثم رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله تعالى وفى رواية يتقى الله ويدع الناس من شره وقوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) فيه احتمالان الاول انه كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد والثانى أن يكون من بقية أحكام

(قوله خلطوا) اى عملا صالحا وآخر سيئا) اى خلطوا كلا منهما بالآخر (قوله والناهون عن المنكر) * ان قلت لم عطفه دون ما قبله من الصفات (قلت) لانه وقع بعد سبع صفات وعادة العرب أن تدخل الواو بعد السبعة (قوله الا كتب لهم به عمل صالح) قال ذلك هنا وقال بعد الا

الجهاد على الاول يقال وما استقام لهم ان ينفروا جميعا لنحو غزو وطلب علم كما لا يستقيم لهم ان يتثبطوا جميعا فانه يخل بامر المعاش (فلولا) اى فهلا (نفر من كل فرقة) اى قبيلة (منهم طائفة) اى جماعة ومكث الباقون (ليتفقهوا) اى ليتكلفوا الفقاهة (فى الدين) ويتجشموا مشاق تحصيلها ليعرفوا الحلال من الحرام ويعودوا الى اوطانهم (ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) اى وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة ارشاد القوم وانذارهم وتخصيصه بالذكر لانه اهم وفيه دليل على ان التفقه والتذكير من فروض الكفاية وانه ينبغى ان يكون غرض المتكلم فيه أن يستقيم و يقيم لا الترفع على الناس وصرف وجوههم اليه والتبسط فى البلاد ايدخل فى قوله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وفى قوله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على ادناكم وفى قوله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله تعالى له طريقا الى الجنة (لعلهم يحذرون) عقاب الله تعالى بامتثال امره ونهيه وعلى الاحتمال الثانى يقال انه لما نزل فى المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون الى النفير وانقطعوا عن التفقه فامروا بان ينفر من كل فرقة طائفة الى الجهاد ويمكث الباقون يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذى هو الجهاد الاكبر لان الجدال بالحجة هو الاصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير فى ليتفقهوا ولينذروا لبواقى الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفى رجعوا للطوائف ولينذروا الباقى قومهم[٣] النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا ايام غيبتهم من العلوم قال ابن عباس فهذه مخصوصة بالسرايا والتى قبلها بالنهى عن تخلف أحد فيما اذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الاقرب منهم فالاقرب كما أمر صلى الله عليه وسلم اولا بانذار عشيرته الاقربين وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا الشام وقيل هم قريظة والنضير وفدك وخيبر وقيل الروم لانهم كانوا يسكنون الشام والشام اقرب الى المدينة من العراق وغيره وهكذا المفروض على اهل كل ناحية ان يقاتلوا من وليهم مالم يضطروا الى اهل ناحية اخرى (وليجدوا فيكم غلظة) اى شدة وصبرا على القتال والغلظة ضد الرقة اى أغلظوا عليهم (واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصرة والحراسة (واذا ما انزلت سورة) من القرآن (فمنهم) اى المنافقين (من يقول) اى لاصحابه انكارا واستهزاء بالمؤمنين (ايكم زادته هذه) السورة (ايمانا) اى تصديقا قال الله تعالى (فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) بزيادة العلم الحاصل فى تدبر السورة وانضمام الايمان بها وبما فيها الى ايمانهم (وهم يستبشرون) اى يفرحون بنزولها لانه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم (واما الذين فى قلوبهم مرض) اى شك ونفاق سمى الشك فى الدين مرضا لانه فساد فى القلب يحتاج الى علاج كالمرض فى البدن اذا حصل يحتاج الى علاج (فزادتهم) أى السورة أى نزولها (رجسا الى رجسهم) اى كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها (وماتوا) اى هؤلاء المنافقون (وهم كافرون) اى وهم جاحدون لما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم قال مجاهد فى هذه الآية دليل على ان الايمان يزيد وينقص وكان على رضى الله تعالى عنه يأخذ بيد الرجل

والرجلين

كتب لهم بعون عمل صالح لان ماهذا مشتمل على ماهو من عملهم وهو قوله ولا يطؤن موطئا الى آخره وعلى ماليس من عملهم وهو قوله ذلك بانهم لا يصيبهم ظما الى آخره فتفضل الله باجرائه مجرى عملهم فى الثواب فناسب ذلك زيادة قوله به عمل صالح واهذا هم عقبه فى قوله ان الله لا يضيع اجر

[٣] قوله ولينذروا لبواقى قومهم الخ غير ظاهر وراجع عبارة الكشاف

ين من الصحابة و يقول تعالوا حتى نزداد ايمانا وقوله تعالى (أولا يرون) قرأ حمزة بالتاء
المؤمنون والباقون بالياء على الغيبة اى المنافقون (أنهم يفتنون) أى يبتلون (فى كل
ا او مرتين) بالامراض والقحط والحرب (ثم لا يتوبون) من نفاقهم ونقض عهودهم
ه تعالى (ولا هم يذكرون) أى ولا يتعظون بما يرون من نصرته صلى الله عليه وسلم وتأييده
(واذا ما أنزلت سورة) فيها عيب المنافقين وتوبيخهم وقرأها صلى الله عليه وسلم (نظر بعضهم الى
بعض) أى تغامزوا بالعيون انكارا لها وسخرية أو غيظا لما فيها من عيوبهم ويريدون الهرب
يقولون (هل يراكم من أحد) اى من المؤمنين اذا قمتم فان لم يرهم أحد قاموا وخرجوا من
المسجد وان علموا ان أحدا يراهم ثبتوا على تلك الحالة (ثم انصرفوا) على كفرهم ونفاقهم وقيل
انصرفوا عن مواضعهم التى يسمعون فيها ما يكرهون وقوله تعالى (صرف الله قلوبهم) أى
عن الهدى يحتمل الاخبار والدعاء (بأنهم) أى بسبب انهم (قوم لا يفقهون) أى لسوء فهمهم
وعدم تدبرهم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى من جنسكم عربى مثلكم وهو محمد
صلى الله عليه وسلم تعرفون حسبه ونسبه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ليس قبيلة من
العرب الا وقد ولدت النبى صلى الله عليه وسلم وله فيها نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم
يصبه شئ من ولادة الجاهلية من زمن آدم عليه السلام وعن الطبرانى قال صلى الله عليه وسلم
انى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما ولدنى من سفاح أهل الجاهلية شئ ما ولدنى الا نكاح كنكاح الاسلام وعن واثلة بن
الاسقع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل
واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم الحديث وقرأ
أبو عمرو وحمزة والكسائى بادغام دال قد فى الجيم والباقون بالاظهار (عزيز) أى شديد شاق
(عليه ما عنتم) أى عنتكم ولقاؤكم المكروه وقيل يشق عليه ضلالتكم (حريص عليكم) أى
ان تهتدوا أو على ايصال الخير اليكم (بالمؤمنين) أى منكم ومن غيركم (رؤف) أى شديد الرحمة
بالمطيعين (رحيم) بالمذنبين وقدم الابلغ وهو الرؤف محافظة على الفواصل وعن الحسين بن
الفضل لم يجمع الله تعالى لاحد من الانبياء بين اسمين من أسمائه الا لنبينا صلى الله عليه وسلم
فسماه رؤفا رحيما وقال تعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر
وحفص بمد الهمزة من رؤف والباقون بالقصر (فان تولوا) أى فان أعرضوا هؤلاء الكفار
والمنافقون عن الايمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وناصبوك الحرب (فقل حسبى
الله) أى يكفينى الله وينصرنى عليكم وانما كان كافيا لانه (لا اله الا هو) فلا مكافئ له ولا راد
لامره ولا معقب لحكمه (عليه توكلت) أى فلا ارجو الا اياه ولا أخاف الا منه لان امره نافذ
فى كل شئ (وهو رب العرش) أى الكرسى (العظيم) وخصه بالذكر تشريفا له ولانه من أعظم
مخلوقاته سبحانه وتعالى روى عن أبى بن كعب قال آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان لقد
جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر السورة وقال هما أحدث الآيات بالله عهدا وما رواه
البيضاوى رحمه الله تعالى تبعا للكشاف من أنه صلى الله عليه وسلم قال ما أنزل على القرآن

المحسنين وما ذكر فى الآية
الثانية مختص بما هو من
عملهم وهو قوله ولا ينفقون
نفقة صغيرة الى اخره
ليكتب لهم ذلك بعينه
والهذا خصهم عقبه فى قوله
ليجزيهم الله احسن
ما كانوا يعملون وقوله
احسن اى بأحسن والمراد
بحسن عملهم اذ لا يختص
جزاؤهم بأحسن عملهم
او المراد ليجزيهم احسن
من الذى كانوا يعملون

الا آية آية وحرفا حرفا ماخلا سورة براءة وقل هو الله أحد فانهما أنزلا علي ومعهما
سبعون ألف صف من الملائكة حديث منكر ومخالف
لما مر عن أبي من ان آخر ما نزل
الآيتان اه والله سبحانه
وتعالى أعلم

•(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني وأوله سورة يونس)•

الجزء الثاني من السراج المنير في الاعانة على معرفة
بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير
للشيخ الامام الخطيب الشربيني
قدس الله روحه وعم
بالرحمة ضريحه
آمين

وبهامشه فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لشيخ الاسلام ومحقق
الانام الحبر الفاضل والبحر الوافر الكامل الامام أبي يحيى زكريا
الأنصاري تغمده الله تعالى برحمته وأفاض علينا من سيب أفضاله الجاري

فهرسة الجزء الثاني من تفسير العلامة الخطيب الشربيني

(تمت)

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة يونس عليه السلام مكية)

الافان كنت فى شك الآيتين أو الثلاث أو ومنهم من يؤمن به الآية مائة وتسع أو عشر آيات
وعدد كلماتها ألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وسبعة
وستون حرفا وهى أول المئين ان جعلنا براءة مع الانفال من الطوال والافبراءة أولاهن
(بسم الله) جامع العباد بعد تفريقهم بما له من العظمة والامتنان (الرحمن) الذى عمهم
بالايجاد وخص منهم من شاء بالايمان (الرحيم) الذى خص أولياءه بالرضوان المبيح للجنان
(الر) قال ابن عباس والضحاك الر أنا الله أرى والمر أنا الله أعلم وأرى وقيل أنا الرب لارب
غيرى وقال سعيد بن جبير الر وحم ون حروف اسم الرحمن وقد سبق الكلام على حروف
الهجاء أول البقرة واتفقوا على ان الر وحده ليس آية واتفقوا على أن قوله طه وحده آية
والفرق أن قوله تعالى الر لايشاكل مقاطع الآى التى بعده بخلاف قوله تعالى طه فانه يشاكل
مقاطع الآى التى بعده وقرأ قالون وابن كثير وحفص بفتح الراء والالف بعدها وورش بين
اللفظين والباقون بالامالة المحضة (تلك) اى الآيات العظيمة جدا التى اشتملت عليها هذه
السورة أو السورة التى تقدمت هذه السورة أو هذه الحروف المقطعة المشيرة الى أن القرآن
كلام الله تعالى قد أعجز القادرين عن التلفظ بهذه الاحرف (آيات الكتاب) اى الذكر الجامع
لكل خير وهو هذا القرآن الذى وافق كل ما فيه من القصص كل ما فى التوراة والانجيل من
ذلك فدل ذلك على صدق الآتى به قطعا لانه لم يكن يعرف شيأ من الكتابين ولا جالس أحدا يعلمه

(الحكيم)

•(سورة يونس عليه السلام)•

(قوله اليه مرجعكم) قال
ذلك هنا وقال فى هود الى
الله مرجعكم لان ماهنا
خطاب للمؤمنين والكفار
بقرينة ذكرهما بعد وما

(الحكيم) اى المحكم وقوله تعالى (أكان للناس) اى أهل مكة استفهام انكار للتعجب وقوله تعالى (عجبا) خبر كان والعجب تغير النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة ثم ذكر الحامل على العجب وهو اسم كان بقوله تعالى (أن أوحينا) اى ايحاؤنا (الى رجل منهم) اى من أهل مكة ومن قريش وهو محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون صدقه ونسبه وأمانته قيل كانوا يقولون العجب ان الله تعالى لم يجد رسولا يرسله الى الناس الا يتيم أبي طالب وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر عن عظمائهم فيما يعتبر فيه الا في المال وخفة المال أهون شئ في هذا الباب ولذلك كان أكثر الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك وقد قال تعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى (أن أنذر الناس) عامة اى اعلمهم مع الخوف ما أمامهم من البعث وغيره وأن هي المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول (وبشر الذين آمنوا) اعا عمم في الانذار لانه قل ان يسلم أحد من كبيرة أو صغيرة أو هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات وخصص البشارة اذ ليس للكافر ما يصح ان يبشر به (أن) اى بان (لهم قدم) اى سلف (صدق عند ربهم) اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق فقال ابن عباس أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه وقال عطاء مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه وقال زيد بن أسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد وقال أبو عبيدة كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم قال الشاعر

صل لذى العرش واتخذ قدما * ينجيك يوم العثار والندم

وهو مؤنث فيقال قدم حسنة وقدم صالحة وقوله تعالى (قال الكافرون ان هذا لسحر مبين) قرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على ان الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء على ان الاشارة للنبي صلى الله عليه وسلم (ان ربكم) الموجد لكم والمربي والمحسن هو (الله الذى خلق) اى قدر وأوجد (السموات والارض) على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع (في ستة ايام) من أيام الدنيا اى في قدرها لانه لم يكن ثم شمس ولو شاء لخلقهما في لحة والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت (فان قيل) ان اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته وقد يراد به النهار وحده فما المراد (أجيب) بان الغالب في اللغة انه مراد باليوم اليوم بليلته ولما وجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الاقطار الواسع الانتشار المفتقر الى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير عبر سبحانه وتعالى عن عمله فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيرا الى عظمته باداة التراخي (ثم استوى) اى عمل في تدبيره واتقان ما فيه واحكامه عمل المعتني بذلك (على العرش) المتقدم وصفه في الاعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازلها ثم بين ذلك الاستواء بقوله (يدبر الامر) كله فلا يخفى عليه عاقبة أمر من الامور لان التدبير اعدل أحوال الملك فالاستواء كناية عنه وقوله تعالى (ما من شفيع الا من بعد اذنه) تقريرا لعظمته جل وعلا ورد على من

في هود خطاب للكفار فقط بقرينة قوله قبله وان تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير (قوله يفصل الآيات لقوم يعلمون) خص التفصيل بالعلماء مع انه تعالى

زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وفيه اثبات الشفاعة لمن أذن له (ذلكم الله) اى الموصوف بتلك الصفات المقتضية للالوهية والربوبية (ربكم) اى الذى يستحق العبادة منكم (فاعبدوه) اى وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو انسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع فان عبادتكم مع التشريك ليست عبادة ولولا فضله لم يكن لمن زل أدنى زلة طاعة وقوله تعالى (افلا تذكرون) قرأه حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء فى الاصل فى الذال اى فلا تتفكرون أدنى تفكر فينبئكم عن انه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه (اليه) تعالى (مرجعكم) اى رجوعكم بالموت والنشور حالة كونكم (جميعا) لا يتخلف منكم احد فاستعدوا للقائه وقوله تعالى (وعد الله) مصدر منصوب بفعله المقدر مؤكد لنفسه لان قوله تعالى اليه مرجعكم وعد من الله وقوله تعالى (حقا) اى صدقا لا خلف فيه مصدر آخر منصوب بفعله المقدر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه وعد الله (انه يبدأ الخلق) اى يحييهم ابتداء (ثم يعيده) اى ثم يميتهم ثم يحييهم وفى هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكرى البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفريقها بالموت والبلى فيركب تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة أخرى فاذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصى وهو قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) اى بالعدل لا ينقص من اجورهم شيأ (والذين كفروا لهم شراب من حميم) وهو ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم) اى بالغ فى الايلام (بما كانوا يكفرون) اى بسبب كفرهم (هو الذى جعل الشمس ضياء) اى ذات ضياء (والقمر نورا) اى ذا نور وخص الشمس بالضياء لانه أقوى وآكد من النور وخص القمر بالنور لانه أضعف من الضياء لان الشمس نيرة فى ذاتها والقمر نير بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها وقرأ قنبل بهمزة مفتوحة ممدودة بعد الضاد والباقون بياء مفتوحة والضمير فى قوله تعالى (وقدره منازل) يرجع الى الشمس والقمر اى قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل او يرجع الى القمر فقط وتخصيصه بالذكر لسرعة مسيره ومعاينة منازله واناطة احكام الشرع به ولذلك علله بقوله تعالى (لتعلموا عدد السنين والحساب) اى حساب الاوقات من الاشهر والايام فى معاملاتكم وتصرفاتكم لان الشهور المعتبرة فى الشريعة مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة فى الشريعة هى السنة القمرية كما قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهرا فى كتاب الله (فائدة) منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا وأسماؤها الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت وهذه المنازل مقسومة على البروج وهى اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت فلكل

فصل الآيات للجهلاء آنفا لان انتفاءهم بالتفصيل أكثر (قوله وما كانوا ليؤمنوا) قاله هنا بالواو تبعا لها فى قوله وجاءتهم رسلهم بالبينات وقاله فى مواضع أخر بالفاء

برج

برج منزلان وثلث فينزل القمر كل ليلة منها منزلا فيستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين فليلة واحدة فيكون انقضاء الشهر مع نزوله تلك المنازل ويكون مقام الشمس فى كل منزلة ثلاثة عشر يوما فيكون انقضاء السنة مع انقضائها وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة الى هذه الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل والنهار يكون زمانا للتكسب وللطلب والليل يكون زمانا للراحة (ما خلق الله ذلك) المذكور (الا بالحق) اى لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا تعالى الله عن ذلك اظهار القدرته ودلائل وحدانيته ونظيره قوله تعالى فى آل عمران ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقال تعالى فى سورة أخرى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا (يفصل) اى يبين (الآيات) اى الدلائل الباهرة واحدة فى اثر واحدة بيانا شافيا (لقوم يعلمون) فانهم المنتفعون بالتأمل فيها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالياء والباقون بالنون * ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الالهية والتوحيد بقوله تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وثانيا باحوال الشمس والقمر استدل ثالثا بقوله تعالى (ان فى اختلاف الليل والنهار) اى بالمجىء والذهاب والزيادة والنقصان ورابعا بقوله تعالى (وما خلق الله فى السموات) من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك (و) ما خلق الله فى (الارض) من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك * (فائدة) * أقسام الحوادث فى هذا العالم محصورة فى اربعة أقسام احدها الاحوال الحادثة فى العناصر الاربعة ويدخل فيها احوال الرعد والبرق والسحاب والامطار ويدخل فيها أيضا أحوال البحار والصواعق والزلازل والخسف وثانيها احوال المعادن وهى عجيبة كثيرة وثالثها اختلاف احوال النبات ورابعها اختلاف احوال الحيوانات وجملة هذه الاقسام الاربعة داخلة فى قوله تعالى وما خلق الله فى السموات والاستقصاء فى شرح هذه الاحوال لا يدخل تحت الحصر بل كل ما ذكر العقلاء فى احوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب (لآيات) اى دلالات على قدرته تعالى (لقوم يتقون) الله فانه يحملهم على التفكر والتذكر وخصهم بالذكر لانهم المنتفعون بها قال القفال من تدبر فى هذه الاحوال علم ان الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل واذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهى ثم من ثواب وعقاب ليميز المحسن عن المسىء فهذه الاحوال فى الحقيقة دالة على صحة القول باثبات المبدا واثبات المعاد * ولما أقام الله سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على صحة القول باثبات الاله الرحمن وعلى صحة القول باثبات الاله الرحيم الحكيم وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر شرع فى شرح احوال من يكفر بها وشرح احوال من يؤمن بها وقد ابتدأ باولها ووصفه باربع صفات مبتدئا باولها بقوله تعالى (ان الذين لا يرجون لقاءنا) اى لا يخافونه لانكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع فمن الاول قول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول أبى ذؤيب

(قوله التعقيب على أصلها) (قوله قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) (ان قلت) كيف قال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك مع أن الله تعالى أنكر على الكفار احتجاجهم بمشيئته فى قوله م

الهدى * اذا السعته الضل لم يرج اسمهاه اى لم يخفها ومن الثانى قولهم فلان يرجو فلانا اى يطمع فيه والمعنى لايطمعون فى ثوابنا والصفة الثانية والثالثة قوله تعالى (ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها) فيميلون اليها على المقيم فيها مع مايشاهدونه من سرعة زوالها فتمكين فى لذاتها وزخارفها وسكنوا فيها سكون من لاينزع عنها والصفة الرابعة قوله تعالى (والذين هم عن آياتنا) اى دلائل وحدانيتنا (غافلون) تاركون النظر فيها بمنزلة الغافل عن الشئ الذى لايخطر ببالهطول عمره ذكر ذلك الشئ وبالجملة فهذه الصفات الاربعة دالة على شدة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات الاخروية ويحتمل أن الصفة الاخيرة لفريق آخر ويكون المراد بالاولين من أنكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخر من الهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والاعداد له ولما وصفهم الله تعالى بتلك الصفات قال (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) من الشرك والمعاصى * ولما شرح أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شرح من يؤمن بها فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والاعمال الصالحة عبارة عن الاعمال التى تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة والاعمال المذمومة ما يكون بالضد من ذلك (يهديهم) اى يرشدهم (ربهم بايمانهم) اى بسبب ايمانهم الى سلوك سبيل يؤدى الى الجنة أو لما يريدونه فى الجنة أو لادراك الحقائق كما قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم وقال مجاهد المؤمنون يكون لهم نور يمشى بهم الى الجنة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار ومفهوم ترتب الهداية على الايمان والعمل الصالح قد دل على أن سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله جل وعلا بايمانهم على استقلال الايمان بالسببية وان العمل الصالح كالتتمة والرديف * ثم انه تعالى لما وصفهم بالايمان والاعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهى أربعة الاولى قوله تعالى (تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم) اى يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والانهار تجرى من بين أيديهم ينظرون اليها من أعالى أسرتهم وقصورهم ونظيره قوله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا فهى ما كانت قاعدة عليه ولكن المعنى بين يديك وكذا قوله وهذه الانهار تجرى من تحتى اى بين يدى فكذا هنا الثانية قوله تعالى (دعواهم فيها) قال بعض المفسرين اى طلبهم لما يشتهون فى الجنة أن يقولوا (سبحانك) اى تنزهك من كل سوء ونقيصة (اللهم) اى يا الله فاذا ماطلبوه بين أيديهم على موائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة فى كل صحفة لون من الطعام لايشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله تعالى فذلك قوله تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين او أن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى والثناء عليه بما هو أهله وفى هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال لذاتهم وهذا أولى ويدل عليه ماروى عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس اى يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا الثالثة قوله تعالى (وتحيتهم)

لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وا هذا لا ينبغى ان نفعل معصية ان يحتج لو شاء الله ما فعلناها (قلت) انما قال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بأمر الله تعالى له فيه بقوله قل الى آخره والعاصى

فيها

فيما بينهم وتحية الملائكة لهم (فيها) أي الجنة (سلام) وتأتيهم الملائكة أيضا من عند ربهم بالسلام قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تعالى سلام قولا من رب رحيم الرابعة قوله تعالى (وآخر دعواهم) أي وآخر دعائهم (أن الحمد لله رب العالمين) اى ان يقولوا ذلك وأن هي المخففة من الثقيلة وقد ذكرنا أن بعض المفسرين حمل التسبيح والتحميد على احوال اهل الجنة بسبب المأكول والمشروب فانهم اذا اشتهوا شيأ قالوا سبحانك اللهم فيحصل ذلك الشئ فاذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترتفع الموائد عند ذلك قال الرازي وهذا القائل ما أرق نظره في دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب وحقيق بمثل هذا الانسان أن يعد في زمرة البهائم وأما المحققون فقد تركوا ذلك اه ولا تنبغي هذه المبالغة فقد قاله البغوي وتبعه جماعة من المفسرين وقال الزجاج أعلم الله ان أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه قال البيضاوي المعنى انهم اذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الاكرام * ولما وصف الله تعالى الكفار بانهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وكانوا عن آيات الله غافلين بين ان من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلا منهم وسفها بقوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) أي ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه (استعجالهم بالخير) أي كما يحبون أن يعجل لهم اجابتهم بالخير (لقضى اليهم اجلهم) اى لاهلكهم ولكن يمهلهم نزلت في النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ويدل عليه قوله تعالى (فنذر) اى فنترك (الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم) أي في تمردهم وعتوهم (يعمهون) أي يترددون متحيرين وقال ابن عباس هذا في قول الرجل عند الغضب لاهله وولده لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم اني أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه انما انا بشر فأي المؤمنين اذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة (فان قيل) قابل التعجيل في الآية بالاستعجال وكان مقتضى النظم أن يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال (اجيب) بان تقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوا استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه وقال في الكشاف أصل هذا الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير الا انه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم بالخير اشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم * ولما حكى تعالى عنهم انهم يستعجلون في نزول العذاب بين انهم كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى (واذا مس الانسان) أي الكافر (الضر) أي المرض والفقر (دعانا لجنبه) اى على جنبه مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الاحوال أو لاصناف المضار والمعنى انه لو نزل بالانسان أدنى شئ يكرهه ويؤذيه فانه يتضرع الى الله تعالى في ازالته عنه

أن يحتج بذلك اذا أمره الله به (قوله ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) ان قلت كيف نفى عن الاصنام الضر والنفع هنا وأثبتهما له في قوله في الحج يدعو لمن ضره

وفى دفعه عنه وذلك يدل على انه ليس صادقا فى طلب الاستعجال (فلما كشفنا عنه ضره) اى أزلنا عنه ما نزل به (مر) اى مضى على ما كان عليه من الكفر (كأن لم يدعنا) اى كأنه فاسقط الضمير على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى كأن لم يلبثوا (الى ضر مسه) قال الحسن نسى ما كان دعا الله فيه وما صنع الله به فى ازالة ذلك البلاء عنه وانما حمل الانسان فى هذه الآية على الكافر لان العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة وقول بعضهم كل موضع فى القران ورد فيه ذكر الانسان فالمراد هو الكافر مردود فقد قال تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه وأما المؤمن اذا ابتلى بلية أو محنة وجب عليه رعاية أمور رأولها ان يكون راضيا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه وانما وجب عليه ذلك لانه تعالى مالك على الاطلاق وملك بالاستحقاق فله ان يفعل فى ملكه ما شاء ولانه تعالى حكيم على الاطلاق وهو منزه عن فعل العبث فكل ما فعله فهو حكمة وصواب فيجب عليه الصبر وترك القلق فان أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل وان أزالها عنه فهو فضل وثانيها انه فى ذلك الوقت ان اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا عن الدعاء كان أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى اعطيته أفضل ما أعطى السائلين ولان الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ولا شك أن الاول أفضل وثالثها انه تعالى اذا أزال عنه تلك البلية وجب عليه أن يبالغ فى الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر فى السراء والضراء وأحوال الشدة والرخاء فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء وحينئذ يكون المؤمن على الضد من الكافر لان الكافر منهمك فى الشهوات والاعراض عن العبادات كما قال تعالى (كذلك) اى مثل ما زين لهؤلاء الكافرين هذا العمل القبيح (زين للمسرفين) اى المشركين (ما كانوا يعملون) من القبائح لاعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات وانما سمى الكافر مسرفا لانه أتلف نفسه بتضييعها فى عبادة الاوثان وأتلف ماله فى البحيرة والسائبة والوصيلة والمزين هو الله تعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف شاء وقيل هو الشيطان وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك والاول هو أخس واحقر (ولقد أهلكنا القرون) اى الامم الماضية (من قبلكم) يا أهل مكة (لما ظلموا) اى حين أشركوا وقوله تعالى (وجاءتهم رسلهم بالبينات) اى بالحجج الدالة على صدقهم حال من الواو باضمار قد أو عطف على ظلموا (وما) اى والحال انهم ما (كانوا ليؤمنوا) اى وما استقام لهم ان يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية لعلمه تعالى بانهم يموتون على كفرهم واللام لتأكيد النفى (كذلك) اى مثل ذلك الجزاء العظيم وهو اهلاكهم لما كذبوا رسلهم (نجزى القوم المجرمين) اى نجزيكم يا أهل مكة بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وانهم أعلام فيه (ثم جعلناكم) اى أيها المرسل اليهم أشرف رسلنا (خلائف) جمع خليفة (فى الارض من بعدهم) اى استخلفناكم فيها بعد القرون التى أهلكناها استخلاف من يختبر (لننظر) ونحن اعلم بكم من أنفسكم فى علم الشهادة لاقامة الحجة (كيف تعملون) من خير أو شر فنجازيكم به وقد مر نظائر هذا ومنه قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وقال قتادة صدق الله ربنا ما جعلنا

(قلت) أقرب من نفعه

باعتبار الذات ونفعهما عنه

باعتبار وإثباتهما له

(قوله فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق) ان قلت

ما فائدة قوله بغير الحق

خلفاء

خلفاء الا لينظر الى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل والنهار قال الزجاج وموضع كيف نصب بقوله تعملون اى لا معمول تنظر لانها حرف استفهام والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله لان له صدر الكلام فلا يتقدمه عامله وظاهر كلامه ان كيف معمول لتعملون وجمهور النحاة على انه حال من ضمير تعملون (واذا تتلى عليهم) اى واذا اقرئ على هؤلاء المشركين (آياتنا) اى القرآن الذى أنزلناه اليك يا محمد حالة كون تلك الآيات (بينات) اى ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لا يرجون لقاءنا) اى لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث بعد الموت فانه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا (ائت) اى من عندك (بقرآن) اى كلام مجموع جامع لما نريد (غير هذا) فى نظمه ومعناه (او بدله) بالفاظ أخرى والمعانى باقية وقد كانوا عالمين بانه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا ان يأخذ فى التغيير حرصا على اجابة مطلوبهم فيبطل مدعاه أو يهلك واختلف فى هذا القائل فقال قتادة هم مشركو أهل مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية الجمحى والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو ابن عبد الله بن أبى قيس العامرى والعاصى بن عامر بن هشام قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن ليس فيه ترك لعبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزله الله فقل أنت من عند نفسك او بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة او مكان حرام حلالا او مكان حلال حراما ولما كان كانه قيل فماذا أقول لهم قال الله تعالى (قل) لهم (ما يكون) اى ما يصح (لى) ولا يتصور بوجه من الوجوه (ان ابدله من تلقاء) اى قبل (نفسى) وانما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الاتيان بقرآن آخر وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (ان) اى ما (اتبع الا ما يوحى الى) فيما آمركم به أو أنهاكم عنه اى لا آتى بشئ ولا اذر شيأ من نحو ذلك الا متبعا لوحى الله تعالى وأوامره ان نسخت آية تبعت النسخ وان بدلت آية مكان آية تبعت التبديل وليس الى تبديل ولا نسخ (انى أخاف ان عصيت ربى) اى بتبديله (عذاب يوم عظيم) فانى مؤمن به غير مكذب ولا شاك كغيرى ممن يتكلم الهذيان بما لا يخاف عاقبته فى ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو لى وانى بفتح الياء والباقون بالسكون (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لو شاء الله ما تلوته عليكم) اى لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن ولم يأمرنى بقراءته عليكم (ولا أدراكم به) اى ولا اعلمكم به على لسانى وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزى بقصر الهمزة بعد اللام جواب لو اى لاعلمكم به على لسان غيرى والباقون بالمد المنفصل وقوله تعالى (فقد لبثت) اى مكثت قرأه نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام (فيكم عمرا) سنين أربعين (من قبله) اى قبل ان يوحى الى هذا القرآن لا أتلوه ولا اعلمه ففى ذلك اشارة الى ان هذا القرآن معجز خارق للعادة وتقريره ان أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره الى ذلك الوقت وكانوا عالمين باحواله وأنه ما طالع كتابا ولا تلمذ لاستاذ ولا تعلم من احد ثم بعد انقراض اربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الاصول ودقائق

قوله لانها حرف استفهام كذا فى النسخ وظاهر ان كيف اسم لا حرف اه مصححه

بعد قوله يبغون معان البغى وهو الفساد من قولهم بغى الجرح اى فسد لا يكون الا بغير الحق (قلت) قد يكون الفساد بحق كاستيلاء المسلمين على ارض الكفار وهدم

علم الاحكام ولطائف علم الاخلاق وأسرار قصص الاولين وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء وكل من له عقل سليم فانه يعرف أن مثل هذا لا يحصل الا بالوحى والالهام من الله تعالى (أفلا تعقلون) أى أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أن مثل هذا الكتاب العظيم على من لم يتعلم ولم يتتلمذ ولم يطالع كتابا ولم يمارس مجادلة أنه لا يكون الا على سبيل الوحى من الله تعالى لا من مثلى وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه *(تنبيه)* أقام صلى الله عليه وسلم بعد أن أوحى اليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة قال النووى وردفى عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها أنه توفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهى أصحها وأشهرها وتأولوا رواية ستين بان راويها اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس أيضا متأولة وحصل فيها اشتباه ولما أقيمت الدلائل على أن هذا القرآن من عند الله وجب ان يقال انه ليس فى الدنيا أحد اجهل ولا أظلم على نفسه من منكر ذلك كما قال تعالى (فمن) اى لا احد (أظلم ممن افترى) اى تعمد (على الله كذبا) اى اى كذب كان من شريك او ولد او غير ذلك وكان الاصل مبنى على تقدير ان لا يكون هذا القرآن من عند الله ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميما وتعلية للحكم بالوصف (او كذب بآياته) اى دلائل توحيده فكفر بها كما فعلتم أنتم وذلك من أعظم الكذب وقوله تعالى (انه) اى الشأن (لا يفلح) بوجه من الوجوه (المجرمون) اى المشركون تأكيد لما سبق من هذين الوصفين (ويعبدون) اى هؤلاء المشركون (من دون الله) اى غيره (مالا يضرهم) اى ان لم يعبدوه (ولا ينفعهم) أى ان عبدوه وهو الاصنام لانها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع والكافرون قادرون على التصرف فيها تارة بالاصلاح وتارة بالافساد واذا كان العابد أصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة لان العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع بان يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة يعبدون العزى ومناة وهبل واسافا ونائلة (ويقولون هؤلاء) اى الاصنام التى نعبدها (شفعاؤنا عند الله) ونظيره قوله تعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام والاوثان على صور أنبيائهم واكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الاكابر يكونون شفعاء لهم عند الله قال الرازى ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الاكابر على اعتقاد أنهم اذا عظموا قبورهم فانهم يكونون شفعاء لهم عند الله اه ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار وفى هذه الشفاعة قولان أحدهما انهم يزعمون أنها تشفع لهم فيما يهمهم من أمور الدنيا فى اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعث الموت والثانى أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فى الآخرة ان يكن بعث قاله ابن جريج عن ابن عباس وكأنهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضار النافع الى عبادة ما لم يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم قال النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى وقوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين (أتنبئون) أى أتخبرون (الله) وهو العالم بكل شئ

دورهم واحراق زرعهم وقطع أشجارهم كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة (قوله انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) ان قلت لم شبه الحياة الدنيا بماء السماء

اضبط

المحيط بكل محيط (بما لا يعلم) أى لا يوجد له به علم فى وقت من الاوقات استفهام انكار وتهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الاصنام واعلام بأن الذى انبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة فكأنهم يخبرونه بشئ لا يتعلق به علمه وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض) تأكيد لنفيه لان ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم وهذا على طريق الالزام والمقصود نفى علم الله بذلك الشفيع وانه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون معلوما موجودا وهذا مثل مشهور فى العرب فان الانسان اذا أراد نفى شئ عن نفسه يقول ما علم الله ذلك منى ومقصوده أنه ما حصل ذلك الشئ منه قط ولا وقع (سبحانه) اى تنزيها له عن كل شئ فيه شائبة نقص (وتعالى عما يشركون) ما مصدرية أو موصولة اى عن اشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب لقوله تعالى أتنبئون الله والباقون بالياء على الغيبة فكأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم قل أنت سبحانه وتعالى عما يشركون ويجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى نزه نفسه عما قالوه فقال سبحانه وتعالى عما يشركون * ولما أقام تعالى الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الاصنام بين السبب فى كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله (وما كان الناس الا امة واحدة) أى جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام وقيل على الضلال فى فترة الرسل واختلف القائلون بالاول أنهم متى كانوا كذلك فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الاسلام من لدن آدم الى أن قتل قابيل هابيل وقال قوم الى زمن نوح وكانوا عشرة قرون ثم اختلفوا فى عهد نوح فبعث الله تعالى اليهم نوحا وقال آخرون كانوا على دين الاسلام من زمن نوح بعد الغرق حيث لم يذر الله على الارض من الكافرين ديارا الى أن ظهر الكفر فيهم وقال آخرون من عهد ابراهيم عليه السلام الى زمن عمرو بن لحى وهذا القائل قال المراد من الناس فى قوله تعالى وما كان الناس الا أمة واحدة العرب خاصة (فاختلفوا) بأن ثبت بعض وكفر بعض (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهو تأخير الحكم الى يوم القيامة وقيل تلك الكلمة هى قوله سبحانه سبقت رحمتى غضبى فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة اسبال الستر على الجاهل الضال وامهاله الى وقت الوجدان (لقضى بينهم) اى الناس بنزول العذاب فى الدنيا دون يوم القيامة (فيما فيه يختلفون) من الدين باهلاك المبطل وابقاء المحق وكان ذلك فصلا بينهم (ويقولون) اى كفار مكة (لولا) اى هلا (انزل عليه) اى محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) اى غير ما جاء به كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد (فقل) يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين (انما الغيب) اى ما غاب عن العباد أمره (لله) اى هو المختص بعلمه ومنه الآيات فلا يأتى بها الا هو وانما على التبليغ (فانتظروا) اى نزول ما اقترحتموه وقيل نزول العذاب ان لم يؤمنوا (انى معكم من المنتظرين) اى لما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحودكم الآيات وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة فى الآيات رفيعة المسالك بين المعجزات مع عجزكم عن معارضته بتبديل او غيره فاى عناد أعظم من هذا (واذا اذقنا الناس) اى كفار مكة (رحمة) اى صحة وسعة (من بعد ضراء) اى شدة وبلاء (مستهم) سلط الله تعالى القحط سبع سنين على اهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم فانزل عليهم المطر الكثير حتى

(قوله) دون ماء الارض وهو المطر لان ماء السماء لا أثر لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص او لانه يستوى فيه جميع الخلائق بخلاف ماء الارض فيهما فكان تشبيهه الحياة به ا

اخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى العناد والكفر كما قال
تعالى (اذا لهم مكر فى آياتنا) بالاستهزاء والتكذيب وقيل لا يقولون هذا من رزق الله انما
يقولون سقينا بنوء كذا وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال
ان الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا
بنوء كذا والنوء عند العرب هى منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره (قل الله) أى قل لهم
يا محمد الله (أسرع مكرا) منكم أى أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء ومعنى الوصف
بالاسرعية أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر اخفاء الكيد وهو من الله تعالى
اما الاستدراج أو الجزاء على المكر فانهم لما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم باشد منه وهو
امهالهم الى يوم القيامة (ان رسلنا) أى الحفظة الكرام الكاتبين (يكتبون ما تمكرون)
لانهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفا ولم يوكلوا بكم الا بعد علم موكلهم بكل ما تفعلونه ولا يكتبون
مكركم الا بعد اطلاعهم عليه واما هو سبحانه وتعالى فانه اذا قضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه
رسله الا باطلاعه فكيف بغيرهم واذا تبين أنه عالم بامورهم وهم جاهلون باموره علم أنه لا بدعهم
يدبرون كيدا الا وقد سبب له ما يجعله فى نحورهم وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون
بالرفع ثم أخذ سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به أسرعية مكره فى مثال دال على ما فى الآية قبلها
لان المعنى الكلى لا يصل الى أفهام السامعين الا بذكر مثال جلى واضح يكشف عن حقيقة
ذلك المعنى الكلى فقال (هو الذى يسيركم) اى يحملكم على السير فى كل وقت تسيرون فيه
لا تقدرون على الانفكاك عنه ويمكنكم منه (فى البر والبحر) اى يسبب لكم اسبابا توجب
سيركم فيهما وقرأ ابن عامر بعد الياء الاولى بنون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة والباقون
بسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشددة ولما كان العطب بسير البحر أظهر مع أن
السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات بينه معرضا عن ذكر البر بقوله تعالى (حتى اذا
كنتم) أى كونا لا براح لكم منه (فى الفلك) اى السفن (فان قيل) كيف جعل الكون فى
الفلك غاية للتسيير فى البحر مع ان الكون فى الفلك متقدم لا محالة على التسيير فى البحر
(أجيب) بانه لم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير بل تقدير الكلام كانه قيل هو الذى يسيركم
حتى اذا وقع فى جملة تلك التسييرات الحصول فى الفلك كان كذا وكذا ولفظ الفلك يطلق على
الواحد وعلى الجمع فان اريد الواحد كان كبناء قفل أو الجمع كان كبناء حمر والمراد هنا الجمع
لقوله تعالى (وجرين بهم) اى بمن فيها وعدل عن الخطاب الى الغيبة للمبالغة كانه يذكر لغيرهم
حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الانكار والتقبيح والالتفات فى الكلام عن الغيبة الى
الحضور والعكس فى فصيح كلام العرب (بريح طيبة) اى لينة الهبوب (وفرحوا بها) اى
بتلك الريح وبالفلك الجارى بهما وقوله تعالى (جاءتها) جواب اذا والضمير للفلك او للريح
الطيبة بمعنى تلقتها (ريح عاصف) اى شديدة الهبوب فازعجت سفينتهم واماتتهم (وجاءهم
الموج) اى وجاء ركاب السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من ضراب الماء فى البحر وقيل هو
شدة حركة الماء واختلاطه (من كل مكان) اى يعتاد مجىء الموج منه فارجف قلوبهم (وظنوا
انهم احيط بهم) اى ظنوا ان الهلاك قد احاط بهم وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن

أحاط

قوله (قوله قل من يرزقكم من السماء والارض) الى قوله فسيقولون الله (ان قالت) هذا يدل على انهم معترفون بان الله هو الخالق الرازق المدبر فكيف عبدوا الاصنام (قاش) كلهم كانوا

احاط بهم العدو (دعوا الله مخلصين) اى من غير اشراك به (له الدين) أى الدعاء لانهم لايدعون حينئذ غيره لان الانسان فى هذه الحالة لايطمع الا فى فضل الله ورحمته ويصير منقطعا عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعا الى الله تعالى وقوله تعالى (لئن أنجيتنا من هذه) الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) على ارادة القول أو مفعول دعوا لانه من جملة القول أى لنكونن من الشاكرين لك بالايمان والطاعة على انعامك علينا بانجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما أنجاهم) اى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها اجابة لدعائهم (اذا هم يبغون) اى فاجؤا الفساد وسارعوا الى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصى (فى الارض) أى جنسها (بغير الحق) * فان قيل البغى لايكون بحق فما معنى قوله بغير (أجيب) بانه قد يكون بحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة فان ذلك افساد بحق قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما غير محمود وهو مجاوزة الحق الى الباطل والى الشبهة والآخر كفعل المسلمين ماذكر (يا أيها الناس انما بغيكم) اى ظلمكم (على انفسكم) لعود وباله عليها خاصة قال صلى الله عليه وسلم أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس لو بغى جبل على جبل لدك الباغى وكان المامون يتمثل بهذين البيتين فى أخيه

يا صاحب البغى ان البغى مصرعة * فاربع فخير فعال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل * لاندك منه أعاليه وأسفله

وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر وعلى تقدير الانتفاع بالبغى هو عرض زائل كما قال تعالى (متاع الحيوة الدنيا) أى لا يتهيأ لكم بغى بعضكم على بعض الا اياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها (ثم الينا) بعد البعث (مرجعكم) فى القيامة (فننبئكم) اى فنخبركم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من البغى والمعاصى فنجازيكم عليها وقرأ حفص متاع بنصب العين على انه مصدر مؤكد اى تتمتعون متاع الحياة الدنيا والباقون بالرفع على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته أو خبر مبتدا محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى انفسكم خبر بغيكم ولما قال تعالى يا أيها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا اتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغى فى الارض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ويقوى اعراضه عن أمر الآخرة والتاهب لها بقوله تعالى (انما مثل الحيوة الدنيا) أى حالها العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالاول (كماء انزلناه) وحقق امره وبينه بقوله تعالى (من السماء فاختلط به) اى بسببه (نبات الارض) اى اشتبك بعضه ببعض والاختلاط تداخل الاشياء بعضها فى بعض (مما يأكل الناس) من الحبوب والثمار ونحو ذلك (و) مما يأكل (الانعام) من الحشيش ونحوه (حتى اذا اخذت الارض زخرفها) اى حسنها وبهجتها من النبات (وازينت) باظهار ألوان زهرها من ابيض واصفر واحمر وغير ذلك من الزهور كالعروس اذا

يعتقدون بعبادتهم الاصنام عبادة الله تعالى والتقرب اليه لكن بطرق مختلفة وفرقة قالت ليست لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته فعبدناها ليقربونا الى الله زلفى وفرقه

اخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من الوان الزين واصل ازينت تزينت ابدلت التاء زايا وادغمت فى الزاى (وظن اهلها) اى اهل تلك الارض (انهم قادرون عليها) اى متمكنون من تحصيل جذاذها وحصادها (اتاها امرنا) اى قضاؤنا من البرد والحر المفرط او غيره (ليلا او نهارا) اى فى الليل او فى النهار (فجعلناها) اى زرعها (حصيدا) اى كالمحصود بالمناجل وقوله تعالى (كان) مخففة اى كأنها (لم تغن) اى لم تكن (بالامس) تلك الزروع والاشجار قائمة على ظهر الارض وحذف المضاف من فجعلناها ومن كان لم تغن للمبالغة * (تنبيه) * تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها الاول ان عاقبة هذه الدنيا التى ينفقها المرء فى باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذى حين عظم الرجاء فى الانتفاع به وقع اليأس منه لان الغالب ان المتمسك بالدنيا اذا وضع قلبه عليها وعظمت رغبته فيها اتاه الموت وهو معنى قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون اى خاسرون الدنيا وقد انفقوا اعمارهم فيها وخاسرون من الآخرة مع انهم توجهوا اليها الثانى انه تعالى بين انه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة محمودة فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة محمودة مع ان المنافع التى تحصل فيها مخلوطة بالمضار والمتاعب فان سعادة الدنيا غير خالصة من الآفات بل هى ممزوجة بالبليات والاستقراء يدل عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من طلب ما لم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل يا رسول الله وما هو قال سرور يوم بتمامه الثالث ان مالك ذلك البستان لما عمره باتعاب النفس وكد الروح وعلق قلبه على الانتفاع به فاذا حصل ذلك السبب المهلك صار العناء الشديد الذى تحمله فى الماضى سببا لحصول الشقاء الشديد له فى المستقبل وهو ما يحصل له فى قلبه من الحسرات فكذا حال من وضع قلبه على الدنيا واتعب نفسه فى تحصيلها فاذا مات وفاته كل ما فات صار العناء الذى تحمله فى تحصيل اسباب الدنيا سببا لحصول الشقاء العظيم له فى الآخرة (كذلك) اى مثل هذا التفصيل الذى ذكرناه (نفصل الآيات) اى نبينها (لقوم يتفكرون) لانهم المنتفعون بها ولما نفر تعالى الغافلين عن الميل الى الدنيا بالمثل السابق رغبهم فى الآخرة بقوله تعالى (والله يدعوا) اى يعلق دعاءه على سبيل التجدد والاستمرار بالمدعوين (الى دار السلام) قال قتادة السلام هو الله وداره الجنة وسمى سبحانه وتعالى بالسلام لانه واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير وسلم من احتياجه فى ذاته وصفاته ومن الافتقار الى الغير وهذه الصفة ليست الا له سبحانه كما قال تعالى والله الغنى وانتم الفقراء وقال تعالى يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله وقيل السلام بمعنى السلامة وقيل المراد بالسلام الجنة سميت الجنة دار السلام لان اهلها يحيى بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم قال الله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده ان دعاهم الى الجنة التى هى دار السلام وفيه دليل على ان فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لا يدعو الا الى عظيم ولا يصف الا عظيما وقد وصف الله تعالى الجنة فى آيات كثيرة من كتابه وعن جابر قال جاءت ملائكة الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا ان صاحبكم هذا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا فمن اجاب الداعى دخل الدار واكل من المائدة ومن لم يجب

قالت الملائكة ذو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناما على هيئة الملائكة ليقربونا الى الله وفرقة قالت جعلت الاصنام قبلة لنا فى عبادة الله تعالى كما ان

الداعى ليدخل الدار ولم يأكل من المائدة والدار الجنة والداعى محمد صلى الله عليه وسلم (و) الله (يهدى من يشاء) من عباده بما يخلق فى قلبه من الهداية (الى صراط مستقيم) وهو دين الاسلام عم سبحانه وتعالى بالدعوة أولا اظهارا للحجة وخص بالهداية ثانيا اظهارا للقدرة لان الحكم له فى خلقه وقال الجنيد الدعوة عامة والهداية خاصة بل الهداية عامة والصحبة خاصة بل الصحبة عامة والاتصال خاص وقيل يدعو بالآيات ويهدى للحقائق والمعارف وقيل الدعوة لله والهداية من الله وقال بعضهم لا تنفع الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية (للذين احسنوا) اى بالايمان (الحسنى) وهى الجنة (وزيادة) وهى النظر اليه تعالى فى الآخرة كما فى الحديث الصحيح اذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا اهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيأ هو احب اليهم منه والزمخشرى فى كشافه قال فى هذا وزعمت المشبهة والجبرة لان المعتزلة ينكرون الرؤية ويرد عليهم قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فاثبت الله لاهل الجنة امرين أحدهما النضارة وهى حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثانى النظر الى الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الحسنى الحسنة والزيادة عشر أمثالها وعن الحسن عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وعن مجاهد الزيادة مغفرة من الله ورضوان وعن يزيد بن شجرة الزيادة ان تمر السحابة باهل الجنة فتقول ما تريدون ان امطركم فلا يريدون شيأ الا امطرتهم ولا مانع من ان تفسر الزيادة بذلك كله اذ لا تنافى فيها والفضل واسع (ولا يرهق) اى يغشى (وجوههم قتر) اى سواد (ولا ذلة) اى كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان (أولئك) اى هؤلاء الذين وصفهم الله هم (أصحاب الجنة) وقوله تعالى (هم فيها خالدون) اشارة الى كونها دائمة آمنة من الانقطاع ولا زوال فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا وزخارفها ولما بين تعالى حال الفضل فمن احسن بين حال العدل فيمن اساء بقوله تعالى (والذين كسبوا السيآت) اى الشرك (جزاء سيئة) منهم (بمثلها) بعدل الله من غير زيادة وفى ذلك اشارة الى الفرق بين السيآت والحسنات لان الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة تفضلا منه تعالى وتكرما واما السيئة فانه يجازى عليها بمثلها عدلا منه تعالى (وترهقهم) اى تغشاهم (ذلة) عكس اهل الجنة (ما لهم من الله من عاصم) اى مانع يمنعهم من عذاب الله اذا نزل بهم (كأنما اغشيت) اى البست (وجوههم قطعا من الليل مظلما) افرط سوادها وظلمتها وقرأ ابن كثير والكسائى بسكون الطاء اى جزأ والباقون بفتحها جمع قطعة اى اجزاء (اولئك) اى هؤلاء الاشقياء (اصحاب النار هم فيها خالدون) لا يتمكنون من مفارقتها (و) اذكر (يوم نحشرهم) اى الفريقين الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية الى موقف الحساب حال كونهم (جميعا) لا يتخلف منهم احد وهو يوم القيامة والحشر الجمع بكره الى موقف واحد (ثم نقول للذين اشركوا مكانكم) اى الزموا مكانكم لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم وقوله تعالى (انتم) تأكيد للضمير المستتر فى الفعل المقدر ليعطف عليه (وشركاؤكم) اى من كنتم تعبدونه من دون الله (فزيلنا) اى فرقنا (بينهم) اى بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا وذلك حين تبرأ كل معبود من

الكعبة قبلة فى عبادتنا
وفرقة اعتقدت ان على كل
صنم شيطانا موكلا بامر
الله فمن عبد الصنم حق
عبادته قضى الشيطان
حوائجه بامر الله والا

دون الله من عبده وقيل فرقنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية وامتازوا اليوم أيها المجرمون
والاول انسب بقوله تعالى (وقال شركاؤهم) لهؤلاء المشركين (ما كنتم ايانا تعبدون) اى
انما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم ان تتخذوا لله اندادا فاطعتموهم واختلفوا فى
المراد بهؤلاء الشركاء فقال بعضهم الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم
نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ومنهم من قال هى الاصنام والدليل عليه ان هذا
الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لا يليق بالملائكة المقربين وسموا شركاء لانهم
جعلوا انصيبا من أموالهم لتلك الاصنام فصيروهم شركاء لانفسهم فى تلك الاموال ثم اختلفوا
فى هذه الاصنام كيف ذكرت هذا الكلام فقال بعضهم ان الله تعالى خلق الحياة والعقل
والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام وقال آخرون ان الله تعالى خلق فيها الكلام من غير
ان يخلق فيها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام والاول أظهر لان ظاهر قوله تعالى وقال
شركاؤهم يقتضى ان يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء (فان قيل) اذا أحياها الله تعالى هل
يبقيها او يفنيها (أجيب) بان الكل محتمل فان الله تعالى يفعل فى خلقه ما يشاء واحوال القيامة
غير معلومة الا القليل الذى أخبر الله تعالى عنه فى القرآن وعلى لسان أنبيائه وقال بعضهم
المراد بهؤلاء الشركاء كل من عبد من دون الله من انس وملك وجن وشمس وقمر وصنم
وهذا أظهر وعلى هذا والاول سموا شركاء لان الله تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين
بقوله تعالى مكانكم صاروا شركاء فى هذا الخطاب • ولما قال لهم شركاؤهم ذلك قالوا
بل كنا نعبدكم فقال شركاؤهم (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) فانه تعالى العالم بكنه الحال
(ان كنا عن عبادتكم لغافلين) اى لم نأمر بها ولم نعلم بها وعلى القول بانها الاصنام فتقول
ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل فانها جمادات لا حس لها بشئ ولا شعور البتة • (تنبيه) •
ان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بين المخففة والنافية (هنالك) اى فى ذلك
الموقف من المكان العظيم الاهوال المتوالى الزلزال (تبلوا) اى تختبر (كل نفس) طائعة
وعاصية (ما اسلفت) اى ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضره يؤدى الى سعادة او شقاوة
وقرأ حمزة والكسائى بتاءين من التلاوة اى تقرأ ذكر ما قدمت او من التلو فيتبع كل شخص
عمله فيقوده الى الجنة او الى النار والباقون بعد التاء باء موحدة من البلوى وهو الاختبار
(وردوا الى الله) اى الى جزائه اياهم عما أسلفوا فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره (مولاهم
الحق) اى ربهم ومتولى امرهم على الحقيقة ولا التفات الى سواه من تلك الاباطيل بل انقطع
رجاؤهم من كل ما يدعونه فى الدنيا وهو المراد بقوله تعالى (وضل عنهم) اى ذهب وبطل وضاع
(ما كانوا يفترون) اى يتعمدون كذبه من ان معبوداتهم شركاء وتيقنوا فى ذلك المقام أن
توليهم لغير الله كان باطلا غير حق • ولما بين فضائح عبدة الاوثان اتبعها بذكر الدلائل على
فساد هذا المذهب بحجج الحجة الاولى قوله تعالى (قل) اى قل يا محمد لهؤلاء المشركين
(من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات فانحصر الرزق فى ذلك أما من السماء
فبتنزل الامطار وأما من الارض فلان الغذاء اما ان يكون نباتا أو حيوانا اما النبات فلا
ينبت الا من الارض واما الحيوان فهو يحتاج ايضا الى الغذاء ولا يمكن ان يكون غذاء

أصابه الشيطان بنكبة
قوله قل هل من
شركائكم من يبدؤ الخلق
ثم يعيده) ان قلت
كيف قال ذلك مع
انهم غير معترفين بوجود

كل

لكل حيوان حيوانا آخر والالزم الذهاب الى مالانهاية له وذلك محال فثبت ان أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها الى النبات وثبت ان تولد النبات من الارض فثبت القطع بأن الارزاق لا تحصل الا من السماء والارض (أمن يملك السمع) أى الاسماع (والابصار) أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة * عن على رضى الله تعالى عنه كان يقول سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم أو جعهما وحفظهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شئ بكلاءته وحفظه (ومن يخرج الحى من الميت) كأن يخرج الانسان من النطفة والطائر من البيضة (ويخرج الميت من الحى) كأن يخرج النطفة من الانسان والبيضة من الطائر وقيل المراد أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى ميت فى الموضعين بعد الميم بكسر الياء المشددة والباقون بعد الميم بسكون الياء (ومن يدبر الامر) أى ومن يلى تدبير أمر الخلائق وهو تعميم بعد تخصيص وذلك لان أقسام تدبير الله تعالى فى العالم السفلى وفى العالم العلوى وفى عالم الارواح والاجساد أمور لا نهاية لها وذكرها كالمتعذر فلما ذكر بعض تلك التفاصيل عقبها بالكلام الكلى ليدل على الباقى ثم بين تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سألهم عن مدبر هذه الاحوال (فسيقولون الله) اذ لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه واذا كانوا يقرون بذلك (فقل) لهم يا محمد (أفلا تتقون) الشرك مع اعترافكم بأن كل الخيرات فى الدنيا والآخرة انما تحصل بفضل الله تعالى واحسانه (فذلكم الله ربكم الحق) أى الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه واذا ثبت أن هذا هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالا لان النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين فاذا كان أحدهما حقا وجب أن يكون ما سواه باطلا كما قال تعالى (فماذا بعد الحق الا الضلال) اذ لا واسطة بينهما وهو استفهام تقرير أى ليس بعده غيره فمن اخطأ الحق وهو عبادة الله تعالى وقع فى الضلال ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فأنى) أى فكيف ومن أى جهة (تصرفون) أى تعدلون عن عبادته وأنتم تقرون بأن الله هو الحق (كذلك) أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو ان الحق بعده الضلال أو انهم مصروفون عن الحق (حقت كلمة ربك) فى الازل (على الذين فسقوا) أى تمردوا فى كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح وقوله تعالى (أنهم لا يؤمنون) بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الايمان وعلم الله منهم ذلك والمراد بكلمة الله العدة بالعذاب وهو لأملأن جهنم الآية وأنهم لا يؤمنون تعليل بمعنى لانهم لا يؤمنون أو ذلك تفسير الكلمته التى حقت وقرأ نافع وابن عامر كلمة بالالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير الالف بعد الميم على الافراد الحجة الثانية قوله تعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء (هل من شركائكم) الذين زعمتوهم شركاء وأشركتموهم فى أموالكم من أنعامكم وزرعكم (من يبدأ الخلق) كما بدأه ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة (ثم يعيده) كما كان (فان قيل) هم غير معترفين بالاعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتداء فى الالزام بها (أجيب) بانها لظهور برهانها وان لم يقروا بها وضعت موضع ما ان دفعه دافع كان مكابرا رادا للظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه دلالة على أنهم فى انكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ولذلك أمر رسول الله صلى الله

الاعادة أصلا (قلت) لما كانت الاعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها وهو القدرة على ابداء الخلق والاعادة أهون بالنسبة الينا ألزمهم الاعتراف بها فكأنهم

عليه وسلم أن ينوب عنهم في الجواب بقوله تعالى (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) لان لجاجهم لايدعهم أن يعترفوا بها (فأنى) اى فكيف (تؤفكون) عن عبادته مع قيام الدلائل (فان قيل) ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام (أجيب) بأن الكلام اذا كان ظاهرا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب ❊ الحجة الثالثة قوله تعالى (قل) اى قل يامحمد لهم (هل من شركائكم من يهدى الى الحق) بنصب الحجج وخلق الاهتداء وارسال الرسل ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب بقوله تعالى (قل الله) اى الذى له الاحاطة الكاملة (يهدى للحق) من يشاء لا أحد ممن زعمتم شركاء فالاشتغال بشئ منها بعبادة أو غيرها جهل محض قال الزجاج يقال هديت الى الحق وهديت للحق بمعنى واحد فالله تعالى ذكر هاتين اللغتين في قوله تعالى من يهدى الى الحق وفي قوله تعالى قل الله يهدى للحق وقوله تعالى (أفمن يهدى الى الحق) اى وهو الله تعالى (احق أن يتبع أمن لا يهدى) اى يهتدى (الا أن يهدى) احق أن يتبع استفهام تقرير وتوبيخ اى الاول أحق (فما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع وقوله تعالى (وما يتبع أكثرهم) في تفسيره وجهان الاول وما يتبع أكثرهم في اقرارهم بالله تعالى (الا ظنا) لانه قول غير مستند الى برهان عندهم بل سمعوه من أسلافهم الثاني وما يتبع أكثرهم الا ظنا في قولهم للاصنام آلهة وانها شفعاء عند الله تعالى الا الظن حيث قلدوا فيه آباءهم قال الرازى والقول الاول أقوى لانا في القول الثاني نحتاج الى تفسير الاكثر بالكل (ان الظن لا يغنى من الحق) فيما المطلوب فيه العلم (شيئا) من الاغناء ❊ فدلت هذه الآية على أن كل من كان ظانا في مسائل الاصول وما كان قاطعا لا يكون مؤمنا (فان قيل) فقول أهل السنة أنا مؤمن ان شاء الله يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر (أجاب) الرازى بان هذا ضعيف من وجوه الاول أن مذهب الشافعي رضى الله تعالى عنه أن الايمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل فالشك حاصل في أن هذه الاعمال هل هي موافقة لامر الله تعالى والشك في أحد أجزاء الماهية لا يوجب الشك في تمام الماهية الثاني ان الغرض من قوله ان شاء الله تعالى بقاء الايمان عند الخاتمة الثالث الغرض هضم النفس وكسرها (ان الله عليم) اى بالغ العلم (بما يفعلون) اى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين فيجازيهم عليه وقوله تعالى (وما كان) عطف على قوله ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى الخ وحينئذ مقول القول اى قل لهم ذلك الكلام (هذا القرآن) اى الجامع لكل خير مع التأدية بأساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق (أن يفترى) اى افتراء (من دون الله) اى غيره لان المفترى هو الذى تأتى به البشر وكفار مكة زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى بهذا من عند نفسه فاخبر الله تعالى أن هذا القرآن وحى أنزله عليه وانه مبرأ عن الافتراء والكذب وانه لا يقدر عليه أحد الا الله ثم ذكر ما يؤكد هذا بقوله تعالى (ولكن) أنزل (تصديق الذى بين يديه) اى قبله من الكتب التى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل فثبت بذلك انه وحى من الله انزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وانه معجزة له فانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع باحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا

معلوم وجوده من حيث
ظهوره واطلبه ووضوحها
(قوله فالينا مرجعهم ثم
الله شهيد على ما يفعلون)
رتب شهادته على فعلهم
على رجوعهم في البعث
القيامة مع انه شهيد عليهم

القرآن العظيم المعجز وفيه اخبار الاولين وقصص الماضين وقيل تصديق الذى القرآن بين يديه من القيامة والبعث (وتفصيل الكتاب) اى تبيين ما كتب الله من الاحكام وغيرها (لا ريب) اى لا شك (فيه) وقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بتصديق أو بانزل المحذوف (أم) اى بل (يقولون افتراه) اى اختلقه محمد ومعنى الهمزة فيه للانكار (قل) اى قل لهم يا محمد ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فانتم عرب مثله فى البلاغة والفطنة (فان قيل) هل يتناول ذلك جميع السور الصغار والكبار أو يختص بالسور الكبار (أجيب) بان هذه الآية فى سورة يونس وهى مكية فيكون المراد مثل هذه السورة لانها اقرب ما يمكن أن يشار اليه هكذا أجاب الرازى والاولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون أن يأتوا باقصر سورة (فان قيل) لم قال فى البقرة بسورة من مثله وهنا بسورة مثله (أجيب) بانه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلمذ لاحد فقيل فى سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله بناء على أن الضمير يرجع للنبى صلى الله عليه وسلم اى فليأت انسان يساوى محمدا صلى الله عليه وسلم فى عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوى هذه السورة وحيث ظهر العجز ظاهر المعجز فهذا لا يدل على ان السورة فى نفسها معجزة ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من انسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى عدم التعلم والتتلمذ معجز ثم بين تعالى فى هذه السورة ان تلك السورة فى نفسها معجزة فان الخلق وان تتلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا لا يمكنهم الاتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور وهو المراد من قوله تعالى (وادعوا من استطعتم) اى فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به (من دون الله) اى غيره فانه تعالى وحده قادر على ذلك (ان كنتم صادقين) اى فى انى أتيت به من عندى لان العاقل لا يجزم بشئ الا اذا كان عنده منه مخرج وذلك لا يكون الا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر * (تنبيه) * مراتب تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ستة أولها انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثانيها انه تحداهم بعشر سور فقال تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها انه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى فأتوا بسورة من مثله رابعها انه تحداهم بحديث مثله خامسها ان فى تلك المراتب الاربعة كان يطلب منهم ان يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذة والتعلم ثم فى هذه السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من اى انسان سواء تعلم العلوم أم لم يتعلمها سادسها ان فى المراتب المتقدمة تحدى واحدا من الخلق وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم وجوز ان يستعين البعض بالبعض فى الاتيان بهذه المعارضة كما قال تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله وههنا آخر المراتب فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى اثبات ان القرآن معجز ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذى لاجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى (بل كذبوا) اى أوقعوا التكذيب الذى لا تكذيب اشنع منه مسرعين فى ذلك (بما لم يحيطوا بعلمه) اى القرآن أول ما سمعوه قبل ان يتدبروا آياته من غير شبهة أصلا بل عنادا وطغيانا ونفورا عما يخالف دينهم فهو من باب من جهل شيئا عاداه والاحاطة ادراك ماهو كالحائط حول الشئ

فى الدنيا أيضا الا ان المراد بما ذكر تعقيبه وهو العذاب والجزاء كأنه قال ثم الله معاقب أو مجاز على ما يفعلون (قوله بياتا أو نهارا) ان قلت لم قال بياتا ولم يقل ليلا مع انه

واساطة العلم بالشئ العلم به من جميع وجوهه (ولما يأتهم) اى الى زمن تكذيبهم (تأويله) اى تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعيد حتى تبين لهم انه صدق ام كذب ومعنى التوقع فى لما انه قد ظهر لهم بالآخرة اعجازه لما كرر عليهم التحدى فجربوا عقولهم فى معارضته فصغرت وضعفت دونها ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا (كذلك) اى مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم فى الشناعة قبل تدبر المعجزة (كذب الذين من قبلهم) اى من كفار الامم الماضية فظلموا فاهلكناهم بظلمهم (فانظر) يا محمد (كيف كان عاقبة الظالمين) بتكذيب الرسل اى آخر أمرهم من الهلاك فكذلك يهلك من كذبك من قومك وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ويحتمل ان يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر أيها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله (ومنهم) اى من قومك يا محمد (من يؤمن به) اى القرآن اى يصدق به فى نفسه ويعلم انه حق ولكنه يعاند بالتكذيب (ومنهم من لا يؤمن به) فى نفسه لغباوته وقلة تدبره أو منهم من يؤمن به فى المستقبل بان يتوب عن الكفر ويبدله بالايمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر وانما فسرت هذه الآية بهذين التأويلين لان كلمة يؤمن تصلح للحال والاستقبال (وربك أعلم بالمفسدين) اى المعاندين على التفسير الاول والمصرين على التفسير الثانى وفى ذلك تهديد لهم (وان كذبوك) اى وان يكذبوك يا محمد بعد الزام الحجة (فقل) لهم (لى عملى) من الطاعة وجزاء ثوابها (ولكم عملكم) من الشرك وجزاء عقابه اى فتبرأ منهم فقد أعذرت والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم واختلف فى معنى ذلك فقيل معنى الآية الزجر والردع وقيل بل معناه استمالة قلوبهم وقال مقاتل والكلبى هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الرازى وهذا بعيد لان شرط الناسخ ان يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بافعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وذلك لا يقتضى حرمة القتال وآية القتال ما رفعت شيأ من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا انتهى ولا تنبغى هذه المبالغة مع مثل من ذكر وقد تبعهما جماعة من المفسرين ولما قسم تعالى الكفار قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قسم من لا يؤمن به قسمين منهم من يكون فى نهاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه ومنهم من لا يكون كذلك فوصف القسم الاول فى قوله تعالى (ومنهم) أى من هؤلاء المشركين (من يستمعون اليك) اذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك فان الانسان اذا قوى بغضه لآخر وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه (أفأنت تسمع الصم) أى أتقدر على اسماعهم (ولو كانوا) مع الصمم (لا يعقلون) أى لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع فى صماخه دوى الصوت فاذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الامر فكما أنك لا تقدر على اسماع الاصم الذى لا يعقل لا تقدر على اسماع من أصم الله تعالى قلبه فان الله تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولهم نقص شبههم الله تعالى بالصم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ثم وصف القسم الثانى فى قوله تعالى (ومنهم من ينظر اليك)

أكثر استعمالا وأظهر مطابقة مع النهار قلت لان المقصود فى الاستعمال فى مقام التهديد ذكر الاهلاك والتهديد يتضمن ذكر البيات وان قرن به النهار (قوله ألا ان لله ما فى السموات والارض) الخ

الميت) أى وما ينون دلائل نبوّتك ولا يصدقونك (أفأنت تهدى العمى) أى أتقدر على هدايتهم (ولو كانوا) مع العمى (لا يبصرون) أى لا بصيرة لهم لان الاعمى الذى فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن فأما العمى مع الحمق فجهد البلاء فلا تقدر على هداية من أعمى الله تعالى بصيرته فهؤلاء فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر فلا يقدر على اسماعهم وهدايتهم الا الله تعالى • (تنبيه) • اختلف فى أن السمع أفضل أو البصر فمنهم من قال السمع واحتج على ذلك بأمور منها ما تقدم فى الآية ومنها أن القوّة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب والقوّة الباصرة لا تدرك المرئى الا من جهة واحدة وهى المقابل ومنها أن الانسان انما يستفيد العلم من المتعلم من الاستاذ وذلك لا يكون الا بقوّة السمع فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل الا بقوّة السمع ومنها أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم فنبوّتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية وانما حصلت بسبب ما معهم من الاحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الاحكام ومنها أن المعنى الذى يمتاز به الانسان من سائر الحيوانات هو النطق بالكلام وانما ينتفع بذلك بالقوّة السامعة فمتعلق السمع النطق الذى يحصل به شرف الانسان ومتعلق البصر ادراك الالوان والاشكال وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات ومنهم من قال البصر واحتج بأمور منها ان آلة القوّة الباصرة هى النور وآلة القوّة السامعة هى الهواء والنور أشرف من الهواء ومنها أن جمال الوجه يحصل بالبصر وبذهابه عيبه وذهاب السمع لا يورث الانسان عيبا فى جمال وجهه والعرب تسمى العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا وفى الحديث يقول الله تعالى من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة ومنها أنهم قالوا فى المثل المشهور ليس وراء العيان بيان وذلك يدل على أن أكمل وجوه الادراكات هو الابصار ومنها أن كثيرا من الانبياء سمع الله واختلفوا فى أنه هل رآه منهم أحد أم لا وأيضا فان موسى عليه السلام أسمعه الله تعالى كلامه من غير سبق سؤال والتماس فلما طلب الرؤية قال لن ترانى وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع وهذا هو الظاهر ولما حكم تعالى على أهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم أخبر تعالى أن تقدير الشقوة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى (ان الله لا يظلم الناس شيأ) أى لانه تعالى فى جميع أفعاله متفضل وعادل فيتصرف فى ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف فى ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما وانما قال تعالى (ولكن الناس أنفسهم يظلمون) لان فعلهم منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله تعالى وقدره فيهم ففى ذلك دليل على أن للعبد كسبا وأنه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت المجبرة وقرأ حمزة والكسائى بكسر النون مخففة ورفع السين والباقون بنصب النون مشددة ونصب السين ولما وصف تعالى هؤلاء الكفار بقلة الاصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد بقوله تعالى (ويوم نحشرهم) أى واذكر يا محمد يوم نحشر هؤلاء المشركين لموقف الحساب وأصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم عن مكانهم (كأن) أى كأنهم (لم يلبثوا) فى الدنيا أو فى القبور فيموت (...)

هنا بلفظها ولم يكرره وهناك بعد بلفظ من ويكرره لان ما فى هذا لما للعقلاء وهو فى الاول المال المأخوذ من قوله لا تقسدت به ولم يكرر ما اكتفاء بقوله ولو أن

ضميرنحشرهم الجار زاى مشبهين بمن لم يلبثوا (الاساعة) حقيرة (من النهار) اى يستقصرون مدة مكثهم فى الدنيا وفى القبور لهول مايرون (يتعارفون بينهم) اى يعرف بعضهم بعضا اذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الاهوال والجملة حال مقدرة متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم نحشرهم وقوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) اى بالبعث يحتمل وجهين الاول ان يكون على ارادة القول اى يتعارفون بينهم قائلين ذلك الثانى ان يكون كلام الله تعالى فيكون شهادة من الله تعالى عليهم بالخسران والمعنى ان من باع آخرته بالدنيا فقد خسر لانه اعطى الكثير الشريف الباقى وأخذ القليل الخسيس الفانى (وما كانوا مهتدين) اى الى رعاية مصالح التجارة وذلك لانهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة فصاروا كمن رأى زجاجة خسيسة فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ماملكه فاذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله ووقع فى حرقة الروح وعذاب القلب وقوله تعالى (واما) فيه ادغام ان الشرطية فى ما الزائدة (نرينك) يامحمد (بعض الذى نعدهم) به من العذاب فى حياتك وجواب الشرط محذوف اى فذاك (أونتوفينك) قبل ان نريك ذلك الوعد فى الدنيا فانك ستراه فى الآخرة وهو قوله تعالى (فالينا) بعد البعث (مرجعهم) فنريك هنالك ماهو أقر لعينك وأسر لقلبك وقوله تعالى (ثم الله شهيد على مايفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم اى انه تعالى شهيد على أعمالهم التى عملوها فى الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة ولما بين تعالى حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين ان حال كل الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم كذلك بقوله تعالى (ولكل أمة) اى من الامم التى خلت من قبلك (رسول) يدعوهم الى الله تعالى وقوله تعالى (فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط) فيه اضمار تقديره فاذا جاء رسولهم وبلغهم ما أرسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون قضى اى حكم وفصل بينهم بالقسط اى بالعدل وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان أحدهما انه فى الدنيا بان يهلك الكافرين وينجى رسوله والمؤمنين لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا والثانى فى الآخرة وذلك ان الله تعالى اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جىء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم والمراد منه المبالغة فى اظهار العدل وهو قوله تعالى (وهم لايظلمون) فى جزاء أعمالهم شيأ بل يجازى كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء (ويقولون متى هذا الوعد) الذى تعدنا به يامحمد من نزول العذاب ومن قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد (ان كنتم صادقين) اى فيما تعدوننا به وانما قالوا بلفظ الجمع على سبيل التعظيم أو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وان كان كل أمة قالوا لرسولها مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى ولكل أمة رسول قال الله تعالى (قل) اى قل لهم يامحمد (لا أملك لنفسى ضرا) من مرض أو فقر أدفعه (ولا نفعا) من صحة أو غنى أجلبه (الا ماشاء الله) ان يقدرنى عليه فكيف أملك لكم حلول العذاب أو قيام الساعة ولا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى (لكل أمة أجل) اى مدة مضروبة (اذا جاء أجلهم) اى انقضت مدة أعمارهم (فلا يستأخرون) اى لايتأخرون (عنه ساعة) ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها (ولا يستقدمون) اى ولا يتقدمون اى ولا

يستعجلون

لكل نفس ظلمت ما فى
الارض ومن للعقلاء وهم
فى الثانى قوم آذوا النبى
صلى الله عليه وسلم فنزل
فيهم ولا يحزنك قولهم
وكرر من لان المراد من فى

يستعجلون فان الوفاء بالوعد لا بد منه والسين فيهما بمعنى الوجدان اى لا يوجدا لهم المعنى الذى منع منه الفعل ويجوز ان يكون المعنى لا يجدون التأخر ولا التقدم وان اجتهدوا فى الطلب فيكون فى السين معنى الطلب وتدل الآية على ان أحدا لا يموت الا بانقضاء أجله وكذا المقتول لا يقتل الا على هذا الوجه وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى وسهل ورش وقنبل الثانية وابدالها أيضا حرف مد والباقون بالتحقيق قال الله تعالى (قل) اى قل لهم يا محمد أيضا (أرأيتم ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلون به (بياتا) اى فى الليل بغتة كما يفعل العدو (أو نهارا) اى وقت أنتم فيه تشتغلون بطلب المعاش والكسب (ماذا) اى اى شئ (يستعجل منه) اى من عذابه وعذاب كل مكروه ولا يحتمل شئ منه (المجرمون) اى المشركون وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة على انهم لجرمهم ينبغى ان يفزعوا من مجئ الوعيد لا أن يستعجلوا وجملة الاستفهام متعلقة بأرأيتم وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه (أثم اذا ما وقع) اى حل بكم (آمنتم) اى آمنتم بالله أو العذاب وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس والهمزة لانكار التأخير فلا يقبل منكم وقوله تعالى (آلآن) على ارادة القول اى قيل لهم اذا آمنوا وقت نزول العذاب آلآن (وقد كنتم به تستعجلون) تكذيبا واستهزاء (تنبيه) اتفق قالون مع ورش على النقل هنا واتفق القراء كلهم على همزة الوصل التى بعد همزة الاستفهام ان فيها وجهين وهما البدل والتسهيل وقوله تعالى (ثم قيل للذين ظلموا) عطف على قيل المقدر اى من اى قائل كان استهانة بهم وقرأ هشام والكسائى باشمام القاف وهو ان تضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر (ذوقوا عذاب الخلد) اى الذى تخلدون فيه والاتيان بثم اشارة الى تراخى ذلك عن الاهلاك فى الدنيا بالمكث فى البرزخ أو الى ان عذابه أدنى من عذاب يوم الدين (هل) اى ما (تجزون الا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا من الكفر والمعاصى (ويستنبؤنك) اى يستخبرونك يا محمد (أحق هو) اى ما وعدتنا به من نزول العذاب وقيام الساعة وهو استفهام على جهة الانكار والاستهزاء قاله حيى بن أخطب لما قدم مكة (قل) لهم فى جوابهم (اى وربى انه لحق) اى كائن ثابت لا بد من نزوله بكم * (تنبيه) * اى بمعنى نعم وهو من لوازم القسم ولذلك توصل بواوه فى التصديق فيقال اى والله ولا ينطقون به وحده (وما أنتم بمعجزين) اى بفائتين العذاب لان من عجز عن شئ فقد فاته (ولو ان لكل نفس ظلمت) اى أشركت (ما فى الارض) من الاموال (لافتدت به) من عذاب يوم القيامة ولم ينفعها الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) اى حين عاينوه وأبصروه وصاروا مبهوتين متحيرين لم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن ذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة وقيل انهم أخلصوا لله فى تلك الندامة ومن أخلص فى الدعاء أسره وفيه تهكم بهم وباخلاصهم لانهم انما أتوا بهذا الاخلاص فى غير وقته بل كان من الواجب عليهم ان يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف وقيل المراد بالاسرار الاظهار وهو من الاضداد لانهم انما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لاجل حفظ

الارض وهم القوم المذكورون وانما قدم عليهم من فى السماء اهتماما ولموافقته سائر الآيات سوى ما قدمته فى آل عمران وذكر قوله بعده ما فى السموات وما فى

الرياسة وفي القيامة بطل هذا فوجب الاظهار وليس هناك تغار (فان قيل) أسروا جاء على لفظ الماضي والقيامة من الامور المستقبلة (أجيب) بانها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضي (وقضى بينهم) اى بين الخلائق (بالقسط) اى بالعدل (وهم لا يظلمون) (فان قيل) هذه الآية مكررة (أجيب) بان الاولى في القضاء بين الانبياء وتكذيبهم وهذه عامة وقيل بين المؤمنين والكفار وقيل بين الرؤساء والاتباع فان الكفار وان اشتركوا في العذاب فلابد ان يقضي الله تعالى بينهم لانه لا يمتنع ان يكون قد ظلم بعضهم بعضا في الدنيا وخانه فيكون في ذلك القضاء تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضي ان ينصف المظلومين من الظالمين ولا سبيل اليه الا ان يخفف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين وقوله تعالى (ألا ان لله ما في السموات والارض) تقرير لقدرته تعالى على الاثابة والعقاب (ألا ان وعد الله) اى ما وعد به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من البعث للجزاء ومن ثواب الطائع وعقاب العاصي (حق) لا شك فيه (ولكن أكثرهم) أي الناس (لا يعلمون) اى جاهلون عن حقيقة ذلك فهم باقون على الجهل معدودون مع البهائم لقصور عقلهم الا ظاهرا من الحياة الدنيا (هو) اى الذي يملك ما في السموات والارض (يحيي ويميت) اى قادر على الاحياء والاماتة لا يتعذر عليه شيء مما أراد (واليه ترجعون) بعد الموت للجزاء وقوله تعالى (يا أيها الناس) خطاب عام وقيل لاهل مكة (قد جاءتكم موعظة من ربكم) اى كتاب فيه ما لكم وعليكم وهو القرآن (وشفاء) اى دواء (لما في الصدور) اى القلوب من داء الجهل لان داء الجهل أضر للقلب من المرض للبدن وأمراض القلب هي الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة والقرآن مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الشفاء لهذه الامراض القلبية وانما خص تعالى الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغيره وهو أعز موضع في الانسان لمكان القلب فيه (وهدى) من الضلالة (ورحمة) اى اكرام عظيم (للمؤمنين) لانهم هم الذين انتفعوا به دون غيرهم واختلف في تفسير قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) فقال مجاهد وقتادة فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عباس والحسن فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وعن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه في قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن ولا مانع من ان تفسر الآية بجميع ذلك اذ لا تنافي بين هذه الاقوال والباء في بفضل الله وبرحمته متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته (فبذلك فليفرحوا) والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل ان فرحوا بشيء فليفرحوا بهما فانه لا مفروح به أحق منهما (هو) اى المحدث عنه من الفضل والرحمة (خير مما يجمعون) أي من حطام الدنيا ولذاتها الفانية وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (قل) يا محمد لكفار

الارض بلفظ ما وكرر لان بعض الكفار قالوا اتخذ الله ولدا فقال تعالى له ما في السموات وما في الارض أي اتخاذ الولد انما يكون لدفع أذى أو جذب منفعة والله مالك ما في

مكة (أرأيتم) أي أخبروني (ما أنزل) أي خلق (الله لكم من رزق) وانه تعالى جعل الرزق منزلا لانه مقدر في السماء يحصل بأسباب منها (فجعلتم منه) أي من ذلك الرزق (حراما وحلالا) وهو مثل ما ذكروه من تحريم السائبة والوصيلة والحام ومثل قولهم هذه أنعام وحرث حجر ومثل قولهم هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ومثل قولهم ثمانية أزواج من الضأن اثنين (قل) لهم يا محمد (آلله أذن لكم) في هذا التحريم والتحليل (أم) اي بل (على الله تفترون) اي تكذبون على الله بنسبة ذلك اليه (وما ظن الذين يفترون) اي يتعمدون (على الله الكذب) اي اي شيء ظنهم به (يوم القيامة) أيحسبون أن لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد العظيم لمن يفتري على الله الكذب (ان الله لذو فضل على الناس) بنعم كثيرة لا تحصى منها انزال الكتب مفصلا فيها ما يرضيه وما يسخطه ومنها ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيانها بما يحتمله عقول الخلق منها ومنها طول امهالهم على سوء أفعالهم ومنها انعامه عليهم بالعقل فكان شكره واجبا عليهم (ولكن أكثرهم) اي الناس (لا يشكرون) هذه النعم ولا يستعملون العقل في دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبيائه ولا ينتفعون باستماع كتب الله وقوله تعالى (وما تكون) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (في شأن) اي عمل من الاعمال وجمعه شؤون والضمير في قوله تعالى (وما تتلو منه) اما للشأن لان تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه واما للتنزيل كانه قيل وما تتلو من التنزيل (من قرآن) لان كل جزء منه قرآن والاضمار قبل الذكر تفخيم له واما لله تعالى والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك وقوله تعالى (ولا تعملون من عمل) اي اي عمل كان تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رئيسهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك ذكر حيث خص بما فيه فخامة وهو الشأن وذكر حيث عم بقوله تعالى من عمل بما يتناول الجليل والحقير وقيل ان الكل داخلون في الخطابين الاولين أيضا لانه من المعلوم انه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب كما في قوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء (الا كنا عليكم شهودا) اي رقباء نحصي عليكم أعمالكم لان الله تعالى رقيب على كل شيء وعالم بكل شيء اذ لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه وشاهد عليه (اذ تفيضون) اي الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون (فيه) اي ذلك العمل وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج اذ تنتشرون فيه يقال افاض القوم في الحديث اذا انتشروا فيه (وما يعزب) اي يغيب (عن ربك) يا محمد (من مثقال) اي وزن (ذرة) وهي النملة الحمراء الصغيرة خفيفة الوزن جدا وقيل المراد بها الهباء وهو الشيء المنبث الذي تراه في البيت في ضوء الشمس وقرأ الكسائي بكسر الزاي والباقون بالضم ومن صلة على القراءتين وانما قيد بقوله تعالى (في الارض ولا في السماء) تقريبا بالعقول العامة (فان قيل) لم قدم ذكر الارض على السماء وقدم ذكر السماء على الارض في سورة سبأ حيث قال تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في

السموات وما في الارض فكان الحمل محل ما وحمل التكرار التعميم والتوكيد (فان قلت) لم خص ما في السموات وما في الارض بالذكر مع أنه تعالى مالك أيضا السموات والارض

الارض فما فائدة ذلك (أجيب) بان الكلام هنا فى حال أهلها والمقصود منه هو البرهان على احاطة علمه على ان العطف بالواو حكمه حكم التثنية (ولا اصغر من ذلك) اى الذرة (ولا أكبر) اى منها (الا فى كتاب مبين) اى بين وهو اللوح المحفوظ وقرأ حمزة برفع الراء من أصغر وأكبر على الابتداء والخبر والباقون بالنصب على ان ذلك اسم لا وفى كتاب خبرها (الا ان اولياء الله) أى الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة (لا خوف عليهم) من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) بفوات مأمول وفسرهم بقوله تعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) الله بامتثال أمره ونهيه وهذا الذى فسر الله تعالى به الاولياء لا مزيد عليه وعن على رضى الله عنه هم قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر خمص البطون من الخوى وعن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله تعالى فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم يعنى السمت والهيئة وعن ابن عباس الاخبات والسكينة وعن عمر رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن من عباد الله عبادا ماهم بانبياء ولا شهداء تغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى قالوا يارسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله بغير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ الآية ونقل النووى فى مقدمة شرح المهذب عن الامامين الشافعى وأبى حنيفة رضى الله تعالى عنهما ان كلا منهما قال اذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولى وذلك فى العالم العامل بعلمه وقال القشيرى من شرط الولى أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبى أن يكون معصوما فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور ومخادع فالولى هو الذى توالت أفعاله على الموافقة ولما نفى الله عنهم الخوف والحزن زادهم فقال تعالى مبينا التولية لهم بعد أن شرع بتوليتهم له (لهم البشرى) أى الكاملة (فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة) أما البشرى فى الدنيا ففسرت باشياء منها الرؤيا الصالحة فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن اوترى له وقال صلى الله عليه وسلم ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وقال الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم احدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره وقال الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة ومنها محبة الناس له وذكرهم اياه فى الثناء الحسن وعن أبى ذر قال قلت يارسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن ومنها البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرونه من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بايمانهم وما يقرؤن منها وسلام الله تعالى عليهم كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم وغير ذلك من المبشرات مما بشر الله تعالى به عباده المتقين فى كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه فان لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره فى بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل فى هذه الآية ثم انه تعالى لما ذكر صفة أوليائه وشرح أحوالهم قال (لا تبديل) اى بوجه من الوجوه (لكلمات الله) اى لا تغيير لاقواله ولا اخلاف

لان ما وماوراءهما (قلت) فى السموات والارض الانبياء والملائكة والعلماء والاولياء ومن يعقل فيهم أحق بالذكر مع ان غيرهم مفهوم بالاولى (قوله وما ظن الذين يفترون على الله

لمواعيده والكلمة والقول سواء ونظيره قوله تعالى ما يبدل القول لدي وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى كونهم مبشرين في الدارين (هو الفوز العظيم) هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه ان يقع بعده كلام يتصل بما قبله (ولا يحزنك) يا محمد (قولهم) اي هؤلاء المشركين اي لا يغمك تكذيبهم وتهديدهم وتشويرهم في تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتكلمون به في شأنك وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من أحزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاي وكلاهما بمعنى وقوله تعالى (ان العزة) اي القوة (لله جميعا) استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالي لا أحزن فقيل ان العزة لله جميعا اي ان الغلبة والقهر في مملكة الله لله جميعا لا يملك أحد شيأ منها لا هم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم قال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي وقال تعالى انا لننصر رسلنا وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فاخبر الله تعالى ان جميع ذلك في ملكه فهو قادر على ان يسلب جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع) أي البليغ السمع لاقوالهم (العليم) اي المحيط العلم بضمائرهم وجميع أحوالهم فهو البالغ القدرة على كل شئ فيجازيهم وهو تعليل لتفرده بالعزة لانه تفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم فانى يكون له عزة (فان قيل) قوله تعالى ان العزة لله جميعا يضاد قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (أجيب) بالمنع لان عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله (ألا ان لله من في السموات ومن في الارض) ملكا وخلقا (فان قيل) لقد ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة ألا ان لله ما في السموات والارض بلفظ ما وقال هنا بلفظ من فما فائدة ذلك (أجيب) بانه تعالى غلب في الآية الاولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته وفي هذه غلب العاقل على غيره لشرفه وقيل مجموع الآيتين دال على ان الكل خلقه وملكه وقيل ان المراد بمن في السموات الملائكة وبمن في الارض الثقلان وانما خصهم بالذكر لشرفهم واذا كان هؤلاء في ملكه وتحت قهره فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ندا وشريكا فهو كالدليل على قوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون) اي يعبدون (من دون الله) أي غيره اصناما (شركاء) على الحقيقة وان كانوا يسمونها شركاء تعالى الله عن ذلك (ان) اي ما (يتبعون) في ذلك (الا الظن) اي ظنهم انها آلهة تشفع لهم وانها تقربهم الى الله تعالى ثم بين تعالى ان هذا الظن لا حكم له بقوله تعالى (وان) أي ما (هم الا يخرصون) أي يكذبون في ذلك ويجوز ان يكون وما يتبع في معنى الاستفهام أي وأي شئ يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الاول بيتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة وقوله تعالى (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) اي ليزول عنكم التعب والكلال فيه بما تقاسون في نهاركم من تعب التردد في المعاش (والنهار مبصرا) اي مضيئا تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته المتوحد هو بها ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة واضافة الابصار الى النهار مع أنه يبصر فيه على طريق نقل الاسم من المسبب الى السبب كقولهم ليل نائم لان الليل سبب السكون قال قطرب تقول العرب أظلم الليل اي صار ذا ظلمة وأضاء النهار اي صار ذا ضياء (ان في ذلك) المذكور

الكذب يوم القيامة) ان قلت هذا تهديد فكيف ناسبه قوله بعد ان الله لذو فضل على الناس (قلت) هو مناسب لان معناه ان الله لذو فضل على الناس حيث أنعم عليهم بالعقل وارسال

(لآيات) اى دلالات على وحدانيته تعالى (لقوم يسمعون) سماع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذى خلق الاشياء كلها هو الاله المعبود المتفرد بالوحدانية فى الوجود * ثم ذكر الله تعالى نوعا من أباطيل الكفار بقوله تعالى (قالوا) اى اليهود والنصارى ومن زعم ان الملائكة بنات الله (اتخذ الله ولدا) قال الله تعالى (سبحانه) اى تنزيها له عن الولد (هو الغنى) عن كل أحد وانما يطلب الولد من يحتاج اليه ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض) من ناطق وصامت ملكا وخلقا * ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا اليه عطف بالانكار والتوبيخ فقال (ان) اى ما (عندكم من سلطان) اى حجة (بهذا) اى الذى تقولونه ثم بالغ تعالى فى ذلك الانكار عليهم بقوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) حقيقته وصحته وتضيفون اليه ما لا يجوز اضافته اليه تعالى جهلا منكم والاستفهام للتوبيخ (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويزعمون ان له ولدا (ان الذين يفترون) أى يتعمدون (على الله الكذب لا يفلحون) أى لا ينجحون فى سعيهم ولا يفوزون بمطلوبهم بل خابوا وخسروا فانهم لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة ومن الناس من اذا فاز بشئ من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن انه قد فاز بالمقصد والله سبحانه وتعالى أزال هذا الخيال بان قال (متاع فى الدنيا) وفيه اضمار تقديره لهم متاع فى الدنيا على انه مبتدأ خبره محذوف ويصح أن يكون خبر المبتدا محذوف تقديره افتراؤهم متاع فى الدنيا يقيمون به رياستهم فى الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع فى الدنيا وهو أيام يسيرة بالنسبة الى طول بقائهم فى العذاب (ثم الينا مرجعهم) بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد) بعد الموت (بما) أى بسبب ما (كانوا يكفرون) * ولما ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة من أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك فى قصص الانبياء وما جرى لهم مع أممهم وذكر الله تعالى منهم فى هذه السورة ثلاث قصص * القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (واتل) يا محمد (عليهم) أى كفار قريش (نبأ) أى خبر (نوح) وذلك ليكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه اسوة بمن سلف من الانبياء فانه كان صلى الله عليه وسلم اذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كان الا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت ولان الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا أن الجهال وان بالغوا فى ايذاء الانبياء المتقدمين الا ان الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لامثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل فى صدورهم ولان الكلام اذا طال تقريره فى نوع من أنواع العلوم فربما حصل نوع من أنواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر انشرح صدره وطاب قلبه ووجد فى نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قويا ولانه صلى الله عليه وسلم لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم انما عرفها بالوحى والتنزيل ويبدل من نبأ نوح (اذ قال لقومه) وهم بنو قابيل (يا قوم ان كان كبر) أى شق وعظم (عليكم مقامى) أى لبثى فيكم ألف سنة الا خمسين عاما (وتذكيرى) أى وعظى اياكم (بآيات الله) أى بحججه

ويبناته

الرسل وتأخير العذاب وفتح باب التوبة أى كيف تفترون على الله الكذب مع تظافر نعمه عليكم (قوله ولا تعملون من عمل) ان قلت كيف جمع الضمير مع انه افرد قبل فى قوله وما

وبينانه فعزمتم على قتلى وطردى (فعلى الله توكلت) أى فهو حسبى وثقتى أو قيامى على الدعوة لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام انه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود (فأجمعوا أمركم) اى فاعزموا على أمر تفعلونه فى أذاى بالاهلاك أو غيره (وشركاءكم) اى وادعوا شركاءكم أو الواو بمعنى مع اى مع شركائكم وهى الاصنام وانما حثهم على الاستعانة بها بناء على مذهبهم الفاسد واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع تبكيتا وتوبيخا لهم (ثم لا يكن أمركم) اى الذى تقصدونى به (عليكم غمة) اى مستورا من غمه اذا ستره بل اظهروه وجاهرونى بمجاهرة فانه لا معارضة لى بغير الله الذى يستوى عنده السر والجهر (ثم اقضوا الى) أى أمضوا ما فى أنفسكم وافرغوا منه يقال قضى فلان اذا مات ومضى وقضى دينه اذا فرغ منه وقيل معناه توجهوا الى بالقتل والمكروه وقيل فاقضوا ما أنتم قاضون وهذا مثل قول السحرة لفرعون فاقض ما أنت قاض أى اعمل ما أنت عامل (ولا تنظرون) أى ولا تؤخرون بعد اعلامكم اياى ما أنتم عليه وانما قال ذلك اظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته وانهم لن يجدوا اليه سبيلا (فان توليتم) أى أعرضتم عن تذكيرى (فما سألتكم من أجر) أى من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فينفركم عنى وتتهمونى لاجله من طمع فى أموالكم وطلب أجر على عظتكم ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله أقوى تأثيرا فى القلب (ان أجرى الا على الله) وهو الثواب الذى يثيبنى به فى الآخرة أى ما نصحتكم الا لوجه الله تعالى لا لغرض من أغراض الدنيا وهكذا ينبغى لكل من ينفع الناس بعلم أو ارشاد الى طريق الله تعالى (وأمرت أن أكون من المسلمين) اى انى مأمور بالاستسلام لكل مكروه يصل الى منكم لاجل هذه الدعوة وقيل بدين الاسلام وأنا ماض فيه غير تارك له قبلتموه أو لم تقبلوه (فكذبوه) اى اصروا على تكذيبه بعدما لزمهم الحجة وبين أن توليتهم ليست الا لعنادهم وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب (فنجيناه) من الغرق (ومن معه فى الفلك) أى السفينة وكانوا ثمانين (وجعلناهم) أى الذين أنجيناهم معه فى الفلك (خلائف) فى الارض يخلفون الهالكين بالغرق (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان وقوله تعالى (فانظر) أى أيها الانسان أو يا محمد (كيف كان عاقبة المنذرين) تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له وهذه القصة اذا سمعها من صدق النبى صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كان زجرا للمكذبين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة فى الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ ولهذا الوجه أكثر الله تعالى ذكر أقاصيص الانبياء عليهم السلام (ثم بعثنا من بعده) أى نوح (رسلا الى قومهم) لم يسمهم هنا تعالى من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم (فجاؤهم بالبينات) أى بالمعجزات الواضحات التى تدل على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا) أى فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة عنادهم وخذلان الله تعالى اياهم (بما) أى بسبب ما (كذبوا به من قبل)

تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (قال) جمع ليدل على ان الامة داخلون مع النبى صلى الله عليه وسلم فيما خوطب به بل أوجع

أى أنهم كانوا قبل بعثة الرسل اليهم أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث اليهم أحد (كذلك) أى مثل ماطبعنا على هؤلاء بسبب تكذيبهم الرسل (نطبع) أى نختم (على قلوب المعتدين) فى كل زمن لكل من تعمد العدول فيما لا يحل له فلا يقبل الايمان لانهماكهم فى الضلال واتباعهم المألوف وفى أمثال ذلك دليل على ان الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد ٭ القصة الثانية قصة موسى عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) اى هؤلاء الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه) اى اشراف قومه وغيرهم تبع لهم فهو مرسل الى الجميع (بآياتنا) التسع (فاستكبروا) عن اتباعها والايمان بها وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها (وكانوا قوما مجرمين) اى كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا على ردها (فلما جاءهم الحق) اى جاء فرعون وقومه (من عندنا) اى الذى جاء به موسى من عندنا به وعرفوا أنه ليس من عند موسى وهرون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيحة للشك (قالوا) اى غير متأملين له ولا ناظرين فى أمره لفرط تمردهم (ان هذا لسحر مبين) اى بين ظاهر يعرفه كل أحد وهم يعلمون أن الحق أبعد شئ من السحر الذى لا يظهر الا على يد كافر أو فاسق وقوله تعالى (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الاول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار بمعنى انه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله تعالى فقال (ولا يفلح الساحرون) فانه لو كان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة فقلب العصا حية وفلق البحر معلوم بالضرورة انه ليس من باب التمويه والتخييل فثبت انه ليس بسحر (قالوا) أى قوم فرعون لموسى (أجئتنا لتلفتنا) أى لتردنا وتصرفنا واللفت والفتل أخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) أى من الدين وعبادة الاصنام ثم قالوا لموسى وهرون (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك والعز (فى الارض) أى أرض مصر قال الزجاج سمى الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا وأيضا الملوك موصوفون بالكبر ولهذا وصف ابن الرقيات مصعبا فى قوله

ملكه ملك رأفة ليس فيه ٭ جبروت منه ولا كبرياء

ينفى ما عليه الملوك من ذلك ويجوز أن يقصدوا بذلك ذمهما وأنهما ان ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا كما قال القبطى لموسى عليه السلام ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض (وما نحن لكما بمؤمنين) أى بمصدقين فيما جئتما به (وقال فرعون) لقومه ارادة للمناظرة لما أتى به موسى عليه السلام (ائتونى بكل ساحر عليم) أى بالغ فى علم السحر لا يفوته شئ من السحر يتأخر البعض وقرأ حمزة والكسائى بغير ألف بين السين والحاء وتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها بصيغة فعال دال على زيادة فاق فرعون والباقون بألف بعد السين وتخفيف الحاء مكسورة ولا ألف بعدها (فلما جاء السحرة) أى كل من فى أرض مصر منهم قالوا لموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين (قال لهم موسى ألقوا) جميع (ما أنتم ملقون) (فلما ألقوا

تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات (قوله ولا يحزنك قولهم) أى لأنه استئناف لا مقول كنظيره فى يس محذوف والوقف على قولهم فيهما

كيف أمرهم بالكفر والسحر والأمر بالكفر كفر (أجيب) بأنه إنما أمرهم بالقاء ما معهم من الحبال والعصى التي معهم ليظهر للخلق أن ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر (فلما ألقوا) ما معهم من الحبال والعصي وخيلوا بسحرهم أعين الناس أنها تسعى (قال موسى) منكرا عليهم (ما جئتم به السحر) قرأ أبو عمرو بهمزتين الأولى همزة الاستفهام فهي مفتوحة والثانية همزة وصل وله فيها وجهان التسهيل والبدل فما استفهامية مبتدأ وجئتم به خبره والسحر بدل منه وقرأ الباقون بهمزة وصل فتسقط في الوصل أي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحرا ثم أخبر موسى عليه السلام بقوله (ان الله سيبطله) أي يمحقه ويظهر فضيحة صاحبه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) أي لا يثبته ولا يقويه وقول البيضاوي وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له محمول على ما ينسب له أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية والا فله حقيقة عند أهل السنة وهو علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التأثير في عالم العناصر (ويحق) أي يثبت ويظهر (الله الحق بكلماته) أي بقضائه ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد أخبر الله تعالى في غير هذه السورة أنه كيف أبطل ذلك السحر وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصى (ولو كره المجرمون) ذلك ولما بين تعالى أن قوم موسى شاهدوا هذه المعجزات ومع ذلك لم يؤمن منهم الا القليل كما قال تعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واصرارهم على الكفر بين تعالى أن له في هذا الباب بسائر الأنبياء أسوة لأن الذي ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان أمرا عظيما ومع ذلك فما آمن له الا ذرية من قومه والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل والهاء التي في قومه راجعة الى موسى أي فما آمن من قومه الا طائفة من ذراري بني اسرائيل كأنه قيل الا أولاد من أولاد قومه وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف وقيل راجعة الى فرعون والذرية امرأته آسية ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته (على خوف من فرعون وملئهم) أي خوف منه لأنه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى واذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ في ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن أشراف قومه والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظمة لأنه ذو أصحاب يأتمرون به وقيل المراد بفرعون آله كما يقال ربيعة ومضر (أن يفتنهم) أي يصرفهم ويصدهم عن الايمان (وان فرعون لعال) أي متكبر قاهر (في الارض) أي أرض مصر (وانه لمن المسرفين) أي المجاوزين الحد فانه كان من أخس العبيد وادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني اسرائيل (وقال موسى) لقومه (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله) أي صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) أي ثقوا به واعتمدوا عليه فانه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه (ان كنتم مسلمين) أي مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وقيل ان كنتم آمنتم بالقلب وأسلمتم بالظاهر (فقالوا) مجيبين له (على الله توكلنا) أي عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أي لا تسلطهم

لازم ويمتنع الوصل لأنه صلى الله عليه وسلم منزه عن ان يخاطب بذلك (قوله ان العزة لله جميعا) قال ذلك هنا وقال في سورة المنافقين ولله العزة ولرسوله والمؤمنين لأن المراد هنا

علينا فيفتنونا (ونجنا) أى خلصنا (برحمتك من القوم الكافرين) اى من أيدى قوم فرعون لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الاعمال الشاقة وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مخلصين لا جرم ان الله تعالى قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء فى الارض وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على ان الداعى ينبغى ان يتوكل أولا لتجاب دعوته ولما شرح الله تعالى خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر فيهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بان أمر موسى وهرون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه) اى الذى طلب موازرته ومعاضدته (ان تبوآ) اى اتخذا (لقومكما بمصر بيوتا) تسكنون فيها او ترجعون اليها للعبادة (واجعلوا) أنتما وقومكما (بيوتكم) اى تلك البيوت (قبلة) مصلى أو مساجد كما فى قوله تعالى فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه موجهة نحو القبلة أى الكعبة وكان موسى عليه السلام يصلى اليها وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتا وبيوتكم برفع الباء والباقون بالخفض (وأقيموا الصلوة) فيها ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة الاول أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بان يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ويؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الاسلام بمكة الثانى انه قيل انه تعالى لما أرسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون الثالث أنه تعالى لما أرسل موسى اليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل الله تعالى بأن يصونهم من شر الاعداء وقد خص الله تعالى موسى وهرون فى أول هذه الآية بالخطاب بقوله تعالى أن تبوآ لقومكما لان التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤس القوم للتشاور ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة لان جعل البيوت مساجد واقامة الصلاة مما ينبغى أن يفعله كل أحد ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى (وبشر المؤمنين) أى بالنصر فى الدنيا والجنة فى العقبى لان الغرض الاصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على أن الاصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام وان هرون عليه السلام تبع له ثم ان موسى عليه السلام لما بالغ فى اظهار المعجزات القاهرة الظاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على الجرائم وكان جرمهم هو لاجل حبهم الدنيا تركوا الدين لهذا السبب (قال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه) أى أشراف قومه على ما هم عليه من الكفر والكبر (زينة) أى عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر ونحو ذلك (وأموالا) أى كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما (فى الحيوة الدنيا) روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان لهم من فسطاط مصر الى أرض الحبشة جبال فيها معادن

العزة الخاصة بالله وهى عزة الالهية والخلق والامانة والاحياء والبقاء الدائم وشبه ذلك هنالك العزة المشتركة وهى فى حق الله تعالى القدرة والغلبة وفى حق رسوله صلى الله عليه

من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ثم بين غايتها لهم فقال مفتتحا بالنداء باسم الرب ليعيذه واتباعه من مثل حالهم (ربنا) أي يا ربنا آتيتهم ذلك (ليضلوا) أي في خاصة أنفسهم ويضلوا غيرهم (عن سبيلك) أي دينك واللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل لام كي أي آتيتهم كي تفتنهم وقيل هو دعاء عليهم بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غير ذلك وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بضم الياء والباقون بالفتح (ربنا اطمس على أموالهم) أي امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وأرباعا ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة وانها كالحجر قال السدي مسخ الله تعالى أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والاطعمة فكانت احدى الآيات التسع (واشدد على قلوبهم) أي اطبع عليها واستوثق حتى لا تنشرح للايمان وقوله (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض وقوله تعالى (قال قد أجيبت دعوتكما) فيه وجهان الاول قال ابن عباس ان موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال دعوتكما وذلك أن من يقول عند دعاء الداعي آمين فهو أيضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما ان الداعي سائل أيضا الثاني أن يكون كل منهما ذكر هذا غاية ما في الباب أن يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله تعالى وقال موسى ربنا وهذا لا ينافي أن يكون هرون قد ذكر الدعاء أيضا وأما قوله تعالى (فاستقيما) فمعناه اثبتا على الدعوة والرسالة والزيادة في الزام الحجة فقد لبث نوح في قومه ألف سنة الا خمسين عاما فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) أي الجاهلين الذين يظنون انه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا في الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء الانسان في مطلوبه الا انه ربما يوصله اليه في وقته المقدور والاستعجال لا يصدر الا من الجهال وهذا كما قال تعالى لنوح عليه الصلاة والسلام اني أعظك أن تكون من الجاهلين وهذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون والباقون بتشديدها لان نون التوكيد تثقل وتخفف ولما أجاب الله تعالى دعاءهما أمر بني اسرائيل وكانوا استمائة ألف بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج في عقبهم كما قال تعالى (وجاوزنا) أي قطعنا (ببني اسرائيل) أي عبدنا المخلص لنا (البحر) حتى بلغوا الشط حافظين لهم (فأتبعهم فرعون وجنوده) أي لحقهم وأدركهم يقال تبعه وأتبعه اذا أدركه ولحقه (بغيا وعدوا) أي ظلما وعدوانا وقيل بغيا في القول وعدوا في الفعل فلما أدركهم فرعون قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا قد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله تعالى الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق لموسى وقومه فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف عن وجه

وسلم وعلو كلمته واظهار دينه وفي حق المؤمنين نصرتهم على الاعداء (قوله أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) ان قلت كيف قال موسى عنهم انهم قالوا أسحر هذا بطريق الاستفهام مع

الارض وانتشر لهم البحر فلما وصل فرعون الى البحر هابوا دخوله وكان فرعون على حصان أدهم وكان معه فى عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه وميكائيل يسوقهم حتى لم يشذ منهم أحد فلما خرج آخر بنى اسرائيل من البحر تقدمهم جبريل على فرس وخاض البحر فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر واتبعه جنوده حتى اذا كملوا جميعا فى البحر وهموا أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما تنا الغرق أتى بكلمة الاخلاص كما قال تعالى (حتى اذا أدركه الغرق) أى لحقه (قال آمنت أنه) أى بأنه (لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) ● (فان قيل) انه آمن ثلاث مرات أولها قوله آمنت وثانيها قوله لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وأنا من المسلمين فما السبب فى عدم القبول (اجاب) العلماء عن ذلك بأجوبة منها انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبول ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ودس جبريل فى فيه من حال البحر مخافة أن تناله الرحمة وقال له (آلآن) تؤمن (وقد عصيت قبل) وضيعت التوبة فى وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية (وكنت من المفسدين) بضلالك واضلالك عن الايمان والتوبة حتى أغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة وانما قال له وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله وأنا من المسلمين ومنها ان فرعون انما قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية فلم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت ومنها ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى ولذلك قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى ايمانه ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته الا بنور الحجة القطعية والدلائل اليقينية ومنها ما روى فى بعض الكتب أن بعض أقوام بنى اسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة فى حقه سببا لزيادة الكفر ومنها أن الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى وبالاقرار بنبوة موسى عليه السلام وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه ونظيره ان الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه وأشهد أن محمدا رسول الله فكذا هنا ومنها أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتوى ما قول الامير فى عبد نشأ فى مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج عن سيده الكافر بنعمته أن يغرق فى البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام اليه خطه (فان قيل) فما فائدة دس جبريل فى فم فرعون ذلك لانه فى تلك الحالة اما أن يكون التكليف ثابتا أم لا فان كان فكيف يمنعه من التوبة وان كان غير مكلف فلا فائدة فى ذلك (أجيب) بأن التكليف كان ثابتا وجبريل عليه السلام لم يفعل ذلك من قبل نفسه فانه عبد مأمور والله تعالى يفعل ما يشاء كما قال تعالى فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزاء على تركه الايمان أولا فدس الحال فى فم فرعون

انهم انما قالوه بطريق الاخبار المؤكد فى قوله تعالى فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين (قال) فيه اضمار تقديره أتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين

من جنس الختم والطبع على القلب ومن الناس من قال قائل هذا القول هو الله تعالى لانه ذكر بعده (فاليوم ننجيك) أى نخرجك من البحر (ببدنك) أى جسمك الذى لا روح فيه كاملا سويا لم يتغير أو نخرجك من البحر عريانا من غير لباس أو ان المراد بالبدن الدرع قال الليث البدن هو الدرع الذى يكون قصيرا الكمين وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب يعرف به فأخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف (لتكون لمن خلفك) أى بعدك (آية) أى عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك وعن ابن عباس أن بعض بنى اسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه ويشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله أنا ربكم الاعلى ليعلموا ان دعواه كانت باطلة وان ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره الى ما يرون لعصيانه ربه (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى لا يعتبرون بها وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى ولكن القول الاول أشهر (ولقد بوأنا) أى أنزلنا (بنى اسرائيل مبوأ صدق) أى منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام وانما وصف المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيأ أضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشئ اذا كان كاملا صالحا لابد أن يصدق الظن فيه وقيل أرض الشام والقدس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) أى الحلالات المستلذات من الفواكه والحبوب والالبان والاعسال وغيرها فأورث تعالى بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها (فما اختلفوا) أى هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل فى أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) أى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة وانهم ما اختلفوا فى دينهم الا من بعد ما قرؤا التوراة وعلموا أحكامها (ان ربك) يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة) أى الذى هو أعظم الايام (فيما كانوا) أى بأفعالهم الجبلية (فيه يختلفون) أى فيتميز الحق من الباطل والصديق من الزنديق ويسكن كل داره واختلف المفسرون فى المخاطب بقوله تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب) أى التوراة (من قبلك) أى فانه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه فقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر والمراد أمته كقوله تعالى يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ومن الامثلة المشهورة اياك أعنى واسمعى يا جارة والذى يدل على صحة هذا وجوه الاول قوله تعالى فى آخر السورة يا أيها الناس فبين أن ذلك المذكور فى أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون فى هذه الآية على سبيل التصريح الثانى أنه صلى الله عليه وسلم لو كان شاكا فى نبوة نفسه لكان شك غيره فى نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية الثالث اذا قدر أن يكون شاكا

ثم قال لهم أسحر هذا انكارا لما قالوه فالاستفهام للانكار لا من قولهم من قول موسى (وملئهم) قوله من فرعون وملئهم قاله هنا بضمير الجمع لعوده الى الذرية أو القوم المتقدم ... على خلافه

فى نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم فى الا كثر كفار فثبت أن الخطاب وان كان فى الظاهر معه صلى الله عليه وسلم الا أن المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان اذا كان له أمير وتحت راية ذلك الامير جمع فاذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذى جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أشد تأثيرا فى قلوبهم وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على حقيقته ولكن الله تعالى علم أنه صلى الله عليه وسلم لا يشك فى ذلك الا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح ويقول يارب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل أكتفى بما أنزلته على من الدلائل الظاهرة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لا أشك ولا أسأل أحدا منهم ونظير هذا قوله للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة من ذلك فكذلك هنا وقرأ ابن كثير والكسائى بنقل حركة الهمزة الى السين والباقون بالهمزة وسكون السين وقيل الخطاب لكل من يسمع أى ان كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا على لسان نبينا اليك وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع الى حلها بالرجوع الى أهل العلم وأظهر هذه الاقوال أولها وهذه الاقوال تجرى فى قوله تعالى (لقد جاءك الحق من ربك) أى الآيات القاطعة لا مدخل للمرية فيه (فلا تكونن من الممترين) أى الشاكين فيه وفى قوله تعالى (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أى الذين خسروا أنفسهم (ان الذين حقت عليهم كلمت ربك) أى ثبت عليهم قوله تعالى الذى كتبه فى اللوح المحفوظ وأخبر به الملائكة أنهم (لا يؤمنون) أى يموتون كفارا فلا يكون غيره اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه (ولو جاءتهم كل آية) فان السبب الاصلى لايمانهم وهو تعلق ارادة الله تعالى به مفقود فان الدليل لا يهدى الا باعانة الله تعالى واذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل (حتى يروا العذاب الاليم) فحينئذ لا ينفعهم الايمان كما لم ينفع فرعون وقرأ نافع وابن عامر كلمات بألف بعد الميم على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد

القصة الثالثة قصة يونس عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (فلولا) أى فهلا (كانت قرية) واحدة من قرى الامم الماضية التى أهلكناها (آمنت) أى آمن أهلها عند اتيان الآيات أو عند رؤية أسباب العذاب (فنفعها) أى فتسبب عن ايمانها ذلك أنه نفعها (ايمانها) بأن تقبله الله تعالى منها وكشف العذاب عنها وقوله تعالى (الا قوم يونس) استثناء منقطع بمعنى لكن قوم يونس (لما آمنوا) أى لما أخلصوا الايمان أول ما رأوا آية العذاب ولم يؤخروه الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا) ويجوز أن يكون متصلا والجملة فى معنى النفى لتضمن حرف التحضيض معناه كأنه قيل ما آمن أهل قرية من القرى الهالكة فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس (ومتعناهم الى حين) أى الى انقضاء آجالهم روى عن ابن مسعود وغيره ان قوم يونس كانوا بأرض نينوى من أرض الموصل فأرسل الله تعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان فدعاهم فأبوا فقيل له ان العذاب مصبحهم الى ثلاثة أيام فأخبرهم بذلك فقالوا انا لم

بقية الآيات فانه بضمير المفرد لعوده الى فرعون (قوله وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ) الآية ففى ضمير المثنى ورجع لعوده الى موسى وأخيه بالتصريح بهما وجمعه ثانيا لعوده

نجرب عليك كذبا فانظروا فان بات فيكم تلك الليلة فليس بشئ وان لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم قدر ميل وقال وهب غامت السماء غيما عظيما أسود هائلا يدخن دخانا عظيما فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه وقذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وأولادهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الايمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن بعضها الى بعض وعلت أصواتها واختلطت بأصواتهم وعجوا وتضرعوا الى الله تعالى وقالوا آمنا بما جاء به يونس عليه السلام فرحمهم الله تعالى واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعدما أظلهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه أساس بنيانه فيرده وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحي حين لاحي وياحي محيي الموتى وياحي لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله وسيأتي بقية القصة ان شاء الله تعالى في سورة والصافات (فان قيل) قد حكى الله تعالى عن فرعون انه تاب في آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم فما الفرق بين الحالين (أجيب) بأن فرعون انما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وأما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية وان الله تعالى قد علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه لم يصدق في ايمانه ولا أخلص فلم يقبل منه قال الله تعالى (ولو شاء ربك) يا محمد (لآمن) بك وصدقك (من في الارض كلهم) بحيث لم يشذ منهم أحد (جميعا) أي مجتمعين على ذلك في آن واحد لا يختلفون في شئ منه ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك الا من سبقت له السعادة في الازل وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن به الا من سبقت له السعادة الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله تعالى (أفأنت تكره الناس) أي الذين لم يرد الله ايمانهم (حتى يكونوا مؤمنين) أي ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه وليس لاحد ذلك سواه كما قال تعالى (وما كان) أي وما ينبغي وما يتأتى (لنفس) أي واحدة فما فوقها (أن تؤمن) أي يقع منها ايمان في وقت ما (الا باذن الله) أي بارادته لها بالايمان فان هدايتها الى الله فهو الهادي والمضل وقال ابن عباس بأمر الله وقال عطاء بمشيئة الله (ويجعل) الله (الرجس) أي العذاب والخذلان فانه سببه وقرأ شعبة وحده بالنون (على الذين لا يعقلون) أي لا يتدبرون في آيات الله تعالى فينتفعوا بها وهم يدعون انهم أعقل الناس ويتساقطون في مساوي الاخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولما بين الله تعالى في الآيات السابقة أن الايمان

قوله نجرب عليك الخ كذا في النسخ والذي في الجمل عليه اه مصححه

الجامع قوله الا ان كلامهم مأمور بحمل يتمه قبله يصلي اليها خوفا من ظهورها الفرعون وأفرده ثالثا لعوده الى موسى لانه الاصل المناسب لتخصيصه بالبشارة اشرفها

لا يحصل الا بخلق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال فى الدلائل بقوله تعالى (قل انظروا) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات (ماذا) أى الذى (فى السموات والارض) من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته ففى العالم العلوى الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار والنجوم وحركات الافلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع وفى العالم السفلى الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان وأخصها حال الانسان كل ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال القائل

وفى كل شئ له آية * تدل على أنه واحد

وقرأ عاصم وحمزة فى الوصل بكسر اللام والباقون بضمها وأما الهمزة من انظروا فكل القراء يبتدؤن بالضم (وما تغنى الآيات) أى وان كانت فى غاية الوضوح (والنذر) جمع نذير أى الرسل (عن قوم لا يؤمنون) فى علم الله تعالى وحكمه * (تنبيه) * قال النحويون ما هنا تحتمل وجهين الاول أن تكون نفيا بمعنى ان هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة فى حق من حكم الله تعالى عليه بأنه لا يؤمن كقولك لا يغنى عنك المال اذا لم تنفق والثانى أن تكون استفهاما كقولك أى شئ يغنى عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار (فهل) أى ما (ينتظرون) أى أهل مكة بتكذيبك (الا) أياما أى وقائع (مثل أيام) أى وقائع (الذين خلوا من قبلهم) أى من مكذبى الامم كالقبط وقوم نوح وما انطوى بينهما من الامم أى مثل وقائعهم من العذاب (قل) أى قل لهم يا محمد (فانتظروا) أى العذاب (انى معكم من المنتظرين) أى لنزول العذاب بكم وقوله تعالى (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل نهلك الامم ثم ننجى رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الاحوال الماضية وقرأ أبو عمرو وحده بسكون السين (كذلك) أى كما نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك (حقا علينا ننج المؤمنين) أى ننجيك يا محمد ومن آمن معك وصدقك من الهلاك والعذاب (فان قيل) قوله تعالى حقا يقتضى الوجوب والله تعالى لا يجب عليه شئ (أجيب) بان ذلك حق بحسب الوعد والحكم لا أنه حق بحسب الاستحقاق لما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيأ وهو اعتراض بين المشبه والمشبه به ونصب بفعله المقدر وقيل بدل من ذلك وقرأ حفص والكسائى بسكون النون الثانية والباقون بفتحها وأما الوقف عليها فجميع القراء يقفون على الجيم لانها مرسومة فى المصحف بالجيم بلا ياء فهى فى القرآن وقفا ووصلا بلا ياء بجميع القراء ولما ذكر تعالى الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باظهار دينه فقال (قل) يا محمد (يا أيها الناس) أى الذين أرسلت اليهم فشكوا فى أمرك ولم يؤمنوا بك (ان كنتم فى شك من دينى) أى الذى أدعوكم اليه انه حق وأصررتم على ذلك وعبدتم الاصنام التى لا تضر ولا تنفع (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) أى غيره وهو الاصنام التى لا قدرة لها على شئ (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) بقبض أرواحكم التى لا شئ عندكم يعدلها فانه الذى يستحق العبادة وانما خص الله تعالى هذه الصفة لانها بدو وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذى هو قادر على اهلاككم ونصرى عليكم

(قوله قد أجيبت دعوتكما) (ان قلت) لم أضاف الدعوة اليهما مع أنها انما صدرت من موسى عليه السلام (قلت) ... ون وقال ... لا آية ... آيات ...

(وأمرت أن) أى بأن (أكون من المؤمنين) أى المصدقين بما جاء من عند الله وقيل انه لما ذكر العبادة وهى من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الايمان لانه من أعمال القلوب (فان قيل) كيف قال فى شك وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به (أجيب) بأنه كان فيهم شاكون أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا فى أمره صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وأن أقم وجهك للدين) عطف على أن أكون غير أن صلة أن محكية بصيغة الامر ولا فرق بينهما فى الغرض لان المقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه وصيغ الافعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب والمعنى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح أو فى الصلاة باستقبال القبلة وقوله (حنيفا) حال من فاعل أقم أو من الدين أو من الوجه ومعناه مائلا مع الدين غير معوج عنه الى دين آخر وقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) أى ممن يشرك بالله فى عبادته غيره فتهلك خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أى ولا تكونن أيها الانسان وكذا قوله تعالى (ولا تدع) أى تعبد (من دون الله) أى غيره (ما لا ينفعك) أى ان عبدته (ولا يضرك) ان لم تعبده (فان فعلت) ذلك (فانك اذا من الظالمين) لنفسك لانك وضعت العبادة فى غير موضعها والظلم وضع الشئ فى غير محله فاذا كان ما سوى الحق معزولا عن التصرف كان اضافة التصرف الى ما سوى الحق وضعا للشئ فى غير موضعه فيكون ظلما ولما ذكر تعالى الاوثان وبين أنها لا تقدر على ضر ولا نفع بين تعالى أنه هو القادر على كل شئ وأنه ذو الجود والكرم والرحمة بقوله تعالى (وان يمسسك) أى يصبك (الله بضر) كفقر ومرض (فلا كاشف) أى لا دافع (له الا هو) لانه الذى أنزله بك (وان يردك بخير) كرخاء وصحة (فلا راد) أى دافع (لفضله) أى الذى أرادك به (يصيب به) أى بالخير (من يشاء من عباده وهو الغفور) أى البليغ الستر للذنوب (الرحيم) أى البالغ فى الاكرام وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى بسكون الهاء والباقون بالضم فرجح سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه الاول أنه تعالى لما ذكر امساس الضر بين أنه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفى اثبات ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال انه لا راد لفضله وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى انه قال سبقت رحمتى غضبى الثانى أنه سبحانه وتعالى قال فى صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على أن جانب الخير أقوى وأغلب الثالث أنه تعالى قال وهو الغفور الرحيم وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وأنه لا موجد سواه ولا معبود الا اياه وأن جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة فالايدى مرفوعة اليه والحاجات منتهية اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود فائض منه ٭ ولما قرر تعالى الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد وزين أمر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مبتدئا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية التى لا يبقى لاحد عذر بقوله تعالى (قل) يا محمد (يا أيها الناس) أى الذين أرسلت اليهم (قد جاءكم الحق من ربكم) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن الذى يتلى

زينة (قلت) أضافها اليهما لان هرون كان يؤمن على دعاء موسى والتأمين دعاء فى المعنى أو لان هرون دعا أيضا مع موسى الا انه تعالى خص موسى بالذكر لانه

لكم عذر (فمن اهتدى) أى آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وعمل بما فى الكتاب (فانما يهتدى لنفسه) لانه اتبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فانه انقذ نفسه من النار وأوجب لها الجنة وثواب اهتدائه له (ومن ضل) أى كفر بها أو بشئ منها (فانما يضل عليها) أى على نفسه لان وبال ضلاله عليها الا ان من ترك الباقى وتمسك بما ليس فى يده منه شئ فقد غر نفسه ثم قال صلى الله عليه وسلم (وما أنا عليكم بوكيل) أى حفيظ أى موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير قال ابن عباس وهذه الآية منسوخة بآية السيف قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (واتبع) يا محمد (ما يوحى اليك) بالامتثال والتبليغ (واصبر) أى على دعوتهم وتحمل أذيتهم (حتى يحكم الله) أى بنصرك عليهم واظهار دينك أو بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ فى حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر فحكم بقتل المشركين والجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون وأنشد بعضهم فى الصبر

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى * وأصبر حتى يحكم الله فى أمرى

سأصبر حتى يعلم الصبر أننى * صبرت على شئ أمر من الجمر ٣

وروى أن أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الانصار ثم دخل المدينة فقال له مالك لم تتلقنا قال لم يكن عندنا دواب قال فأين النواضح قال اقطعناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر وقد قال صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار انكم ستلقون بعدى أثرة قال معاوية فماذا قال قال فاصبروا حتى تلقونى قال فاصبر قال اذا نصبر فقال عبد الرحمن بن حسان

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير الظالمين نثا كلامى

بانا صابرون فمنظروكم * الى يوم التغابن والخصام

وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق يونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون حديث موضوع

(سورة هود عليه السلام مكية)

الا وأقم الصلاة الآية والا فلعلك تارك الآية وأولئك يؤمنون به الآية مائة وثنتان أو ثلاث وعشرون آية وكلماتها ألف وسبعمائة وخمس عشرة وحروفها سبعة آلاف وستمائة وخمسة أحرف وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال قلت يا رسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية (بسم الله) أى الذى له تمام العلم وكمال الحكمة وجميع القدرة (الرحمن) لجميع خلقه بعموم البشارة والنذارة (الرحيم) لاهل ولايته بالحفظ فى سلوك سبيله وقوله تعالى (الر كتاب) مبتدأ وخبر أو كتاب خبر مبتدأ محذوف وتقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة وقرأ أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى بالامالة والباقون بالفتح وقوله تعالى (أحكمت آياته) صفة للكتاب وفسر الاحكام بوجوه الاول أحكمت آياته أى نظمت نظما محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ولا يعتريه اخلال من جهة اللفظ والمعنى ولا يستطيع أحد

كان أسبق بالدعوة أو أحرص عليها (قوله فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) ان قلت ان الشك والشك فى القرآن منتف عنه صلى الله عليه وسلم

٣ قوله أمر من الجمر هكذا فالاصول التى بايدينا ولعل المناسب أمر من الصبر أو أحر من الجمر اه مصححه

نقض شئ منه ولا الطعن فى شئ من بلاغته أو فصاحته الثانى ان الاحكام عبارة عن منع
الفساد من الشئ فقوله أحكمت آياته أى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به كما قال
ابن عباس الثالث أنها أحكمت بالحجج والدلائل أو جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم اذا
صار حكيما لانها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية وقوله تعالى (ثم فصلت) صفة
أخرى للكتاب أى بينت بالاحكام والقصص والمواعظ والاخبار أو بالانزال نجما نجما أو فصل
فيها ولخص ما يحتاج اليه أو جعلها سورا وقال الحسن أحكمت بالامر والنهى ثم فصلت
بالوعد والوعيد *(تنبيه)* معنى ثم فى قوله تعالى ثم فصلت ليس للتراخى فى الوقت لكن فى الحال
كما تقول هى محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وفلان كريم الاصل ثم كريم
الفعل وقوله تعالى (من لدن حكيم خبير) أى الله تعالى صفة أخرى للكتاب والتقدير الر
كتاب من حكيم خبير أو خبر بعد خبر والتقدير الر من لدن حكيم خبير أو صلة لاحكمت
وفصلت أى أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير قد حصل بين أوائل هذه
السورة وبين آخرها مناسبة لطيفة كأنه يقول تعالى أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت
من لدن خبير عالم بكيفيات الامور وقوله تعالى (أن لا تعبدوا الا الله) يحتمل وجوها الاول
أن تكون مفعولا له والتقدير كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لاجل أن لا تعبدوا الا الله
الثانى أن تكون مفسرة لان فى تفصيل الآيات معنى القول قال الرازى والحمل على هذا أولى
لان قوله تعالى وأن استغفروا معطوف على قوله تعالى أن لا تعبدوا فيجب أن يكون معناه
أى لا تعبدوا ليكون الامر معطوفا على النهى فان كونه بمعنى لان لا تعبدوا يمنع عطف
الامر عليه الثالث أن يكون كلاما مبتدأ منقطعا عما قبله على لسان النبى صلى الله عليه وسلم
اغراء منه على اختصاص الله تعالى بالعبادة ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم (اننى لكم
منه) أى الله (نذير) بالعقاب على الشرك (وبشير) بالثواب على التوحيد كأنه قيل ترك عبادة
غير الله تعالى بمعنى اتركوها اننى لكم منه نذير وبشير كقوله تعالى فضرب الرقاب *(تنبيه)*
هذه الآية الكريمة مشتملة على أشياء مترتبة الاول أنه تعالى أمر أن لا تعبدوا الا الله لان
ما سواه محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة عبارة عن اظهار
الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وذلك لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن
فثبت ان عبادة غير الله تعالى منكرة المرتبة الثانية قوله تعالى (وأن استغفروا ربكم)
المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم توبوا اليه) واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه
الاول أن معنى قوله وأن استغفروا أى اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشئ الذى
يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعى الى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار
الذى هو عبارة عن طلب المغفرة فالاستغفار مطلوب بالذات والتوبة مطلوبة لكونها من
متممات الاستغفار وما كان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب فلهذا السبب قدم ذكر
الاستغفار على التوبة الثانى وأن استغفروا من الشرك والمعاصى ثم توبوا أى ارجعوا
اليه بالطاعة الثالث الاستغفار طلب من الله تعالى لازالة ما لا ينبغى والتوبة سعى من
الانسان فى ازالة ما لا ينبغى فقدم الاستغفار ليدل على ان المؤمن يجب عليه أن لا يطلب الشئ

قطعا فكيف قال الله ذلك له (قلت) لم يقله بل لمن كان شاكا فى القرآن وفى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ينافيه قوله مما أنزلنا اليك لوروده فى قوله وأنزلنا اليكم نورا مبينا

الامن مولاه فانه هو الذي يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتي به الانسان و يتوسل به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى تتقدم على الاستعانة بسعى النفس * ثم انه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار المطلوبة ومن المعلوم ان المطالب محصورة فى نوعين لانه انما يكون حصولها فى الدنيا أو فى الآخرة أما المنافع الدنيوية فهى المرادة من قوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أى بطيب عيش وسعة رزق (الى اجل مسمى) وهو الموت (فان قيل) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال أيضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات فى الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة فى الدنيا فكيف الجمع بينهما (أجيب) بأن المشتغل بعبادة الله ومحبته مشتغل بحب شئ يمتنع تغيره و زواله وفناؤه فكلما كان امعانه فى ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل وكلما كان الكمال فى هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أكمل لانه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه وأمّا من كان مشتغلا بحب غير الله كان أبدا فى ألم الخوف من فوات المحبوب و زواله وكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال تعالى فى صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة وقيل المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا بالمتاع لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى الى أجل مسمى فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية وأما المنافع الاخروية فقد ذكرها تعالى بقوله تعالى (ويؤت) أى فى الآخرة (كل ذى فضل) أى فى العمل (فضله) أى جزاءه لان مراتب السعادة فى الآخرة مختلفة لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة فى الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال تعالى ويؤت كل ذى فضل فضله وقال أبو العالية من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت درجاته فى الآخرة وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن استوت سيآته وحسناته كان من أهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقى له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلب آحاده أعشاره وقوله تعالى (وان تولوا) فيه حذف احدى التاءين أى وان تعرضوا عما جئتكم به من الهدى (فانى) أى فقل لهم انى (أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف (الى الله مرجعكم) أى رجوعكم فى ذلك اليوم فيثيب المحسن على احسانه و يعاقب المسئ على اساءته (وهو على كل شئ قدير) أى قادر على جميع المقدورات لا دافع

لقضائه

وقوله يعقد المنافقون ان تنزل عليهم سورة وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره كما فى قوله تعالى يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين أو المراد الزام

لقضائه ولامانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب وفى ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد والملك القاهر العالى اذا رأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فاسجح أى فاعف يقول مصنف هذا الكتاب قد أفنيت عمرى فى خدمة العلم ومطالعة الكتب ولا رجاء لى فى شئ الا أنى فى غاية الذلة والقصور والكريم اذا قدر عفا فأسألك يا أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين أن تفيض سجال رحمتك على وعلى والدى وأولادى واخوانى واحبابى وأن تخصنى واياهم بالفضل والتجاوز والجود والكرم واختلفوا فى سبب نزول قوله تعالى (ألا انهم يثنون صدورهم) فقال ابن عباس نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على ما يكره فمعنى قوله تعالى يثنون صدورهم يخفون ما فى صدورهم من الشحناء والعداوة وقال عبد الله بن شداد نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطاطا رأسه وغطى وجهه كى لا يراه النبى صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون ظهورهم كى لا يسمعوا كلام الله تعالى ولا ذكره وروى البخارى عن ابن عباس أنها نزلت فيمن كان يستحى أن يتخلى أو يجامع فيفضى الى السماء وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما فى قلبى وقال السدى يثنون صدورهم أى يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عنانى (ليستخفوا منه) أى من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عليه وقيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قيل انها نزلت فى طائفة من المشركين قالوا ان أرخينا علينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم (ألا حين يستغشون ثيابهم) أى يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم (يعلم) تعالى (ما يسرون) فى قلوبهم (وما يعلنون) بأفواههم أى أنه لا تفاوت فى علمه تعالى بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الاخفاء (انه) تعالى (عليم بذات الصدور) أى بالقلوب وأحوالها ولما أعلم تعالى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون أردفه بما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات بقوله تعالى (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) فذكر تعالى ان رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات والدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الارض ولا شك ان أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة وهى الاجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال والله تعالى عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها وما كنها وما يوافقها ويخالفها فالاله المدبر لاطباق السموات والارض وطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالما بأحوالها روى أن موسى عليه السلام عند نزول الوحى عليه تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرج منها صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرج منها صخرة ثالثة ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفى فيها شئ يجرى مجرى الغذاء لها ورفع الله تعالى الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة كانت تقول سبحان من يرانى ويسمع كلامى ويعرف مكانى

الحجة على الناسكين الكافرين كما يقول لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله وهو عالم بانتفاء هذا القول منه لالزام الحجة على

ويذكرني ولا ينساني (فان قيل) ان كلمة على للوجوب فيدل على ان ايصال الرزق الى الدابه
واجب على الله تعالى (أجيب) بأنه تعالى انما أتى بذلك تحقيقا لوصوله بحسب الوعد والفضل
والاحسان وحملا على التوكل فيه وفي هذه الآية دليل على ان الرزق قد يكون حراما لانه ثبت
ان ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والله تعالى لا يخل به ثم
قد نرى ان انسانا لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما
أوصل رزقه اليه فيكون الله تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال فعلمنا ان الحرام قد يكون رزقا
(ويعلم) تعالى (مستقرها) قال ابن عباس هو المكان الذي تأوي اليه وتستقر فيه ليلا
ونهارا (ومستودعها) هو الذي تدفن فيه اذا ماتت وقال عبد الله بن مسعود المستقر ارحام
الامهات والمستودع المكان الذي تموت فيه وقال عطاء المستقر أرحام الامهات والمستودع
أصلاب الآباء وقيل الجنة أو النار والمستودع القبر لقوله تعالى في صفة الجنة والنار
حسنت مستقرا وساءت مستقرا ومقاما ولا مانع أن يفسر الشيء بذا كله (كل) أي كل واحدة
من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها (في كتاب) أي ذكرها مثبت في اللوح المحفوظ
(مبين) أي بين كما قال تعالى ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولما أثبت تعالى بالدليل
المتقدم كونه عالما بالمعلومات أثبت كونه تعالى قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى
(وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام) أي من أيام الدنيا أولها الاحد وآخرها
الجمعة وتقدم الكلام على تفسير ذلك في سورة الاعراف (وكان عرشه على الماء) قال كعب
خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها
ثم وضع العرش على الماء وقال أبو بكر الاصم ومعنى قوله تعالى وكان عرشه على الماء كقولهم
السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر وقال حمزة ان الله
عز وجل كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ما هو خالقه
وما هو كائن من خلقه ثم ان ذلك الكتاب سبح الله تعالى ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيأ من
خلقه ففي هذا دلالة على كمال قدرته تعالى لان العرش مع كونه أعظم من السموات والارض
كان على الماء وقد أمسكه الله تعالى من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وقوله تعالى (ليبلوكم)
متعلق بخلق أي خلقها وما فيها منافع لكم ومصالح ليختبركم وهو أعلم بكم منكم (أيكم
أحسن عملا) أي أطوع لله وأورع عن محارم الله وهذا لقيام الحجة عليهم وقد مر أمثال ذلك
• ولما بين تعالى أنه انما خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم وهذا يوجب القطع
بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب
وتخصيص المسيء بالعقاب وذلك لا يتم الا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة خاطب تعالى محمدا
صلى الله عليه وسلم فقال جل وعلا (ولئن قلت) يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (انكم
مبعوثون من بعد الموت) أي للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا ان) أي ما (هذا) أي
القرآن بالبعث أو الذي تقوله (الا سحر مبين) أي بين وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين وألف
بعدها وكسر الحاء فيكون ذلك راجعا للنبي صلى الله عليه وسلم والباقون بكسر السين
وسكون الحاء • ولما حكى تعالى عن الكفار أنهم يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم حكى

النصارى (قوله ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا) فائدة ذكر جميعا بعد كلهم مع ان كلا منهما يفيد الاحاطة والشمول الدلالة على وجود الايمان منهم بصفة

عنهم نوعا آخر بقوله تعالى (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى) مجيء (أمة) أى جماعة من الاوقات (معدودة) أى قليلة (ليقولن) أى استهزاء (ما يحبسه) أى ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالى (ألا يوم يأتيهم) كيوم بدر (ليس مصروفا) أى مدفوعا العذاب (عنهم وحاق) أى نزل (بهم) من العذاب (ما كانوا به يستهزؤن) أى الذى كانوا يستعجلون فوضع يستهزؤن موضع يستعجلون لان استعجالهم كان استهزاء (فان قيل) لم قال تعالى وحاق على لفظ الماضى مع أن ذلك لم يقع (أجيب) بأنه وضع الماضى موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة فى التأكيد والتقرير والتهديد ولما ذكر تعالى أن عذاب الكفار وان تأخر الا أنه لابد وأن يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالى (ولئن أذقنا) أى أعطينا (الانسان) أى الكافر (منا رحمة) أى نعمة كغنى وصحة بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها) أى سلبنا تلك النعمة (منه انه ليؤس) أى قنوط من رحمة الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به (كفور) أى جحود لنعمتنا عليه وأما المسلم الذى يعتقد أن تلك النعمة من جود الله تعالى وفضله واحسانه فانه لا يحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها على بعد ذلك أحسن وأكمل وأفضل مما كانت (ولئن أذقناه) أى الكافر (نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم وفى اختلاف الفعلين وهما أذقناه ومسته من حيث الاسناد اليه تعالى فى الاول والى الضراء فى الثانى نكتة عظيمة وهى أن النعمة صادرة من الله تعالى تفضلا منه نظيرما أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا والضرر صادر من العبد كسبا لانه السبب فيه باجتلابه اياه بالمعاصى غالبا لقوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولا ينافى ذلك قوله تعالى قل كل من عند الله فان الكل منه ايجادا غيرأن الحسنة احسان وامتحان والسيئة مجازاة وانتقام نظيرما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو الله أكثر (ليقولن) أى الذى أصابه الصحة والغنى (ذهب السيآت) أى المصائب التى أصابتنى (عنى) ولم يتوقع زوالها ولا يشكر عليها (انه لفرح) أى فرح بطر (فخور) على الناس بما أذاقه الله تعالى من نعمائه وقد شغله الفرح والفخر عن الشكر فبين سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن أحوال الدنيا غير باقية بل هى أبدا فى التغير والزوال والتحول والانتقال فان الانسان اما أن يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات كالقسم الاول واما أن يكون بالعكس من ذلك وهو أن ينتقل من المكروه الى المحبوب كالقسم الثانى ولما بين تعالى أن الكافر عند الابتلاء لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين بين حال المتقين بقوله تعالى (الا) أى لكن (الذين صبروا) على الضراء (وعملوا الصالحات) أى فى النعماء أى فانهم ان أصابتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا (أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين أحدهما زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله تعالى لهم مغفرة والثانى الفوز بالثواب ودخول الجنة وهو المراد من قوله تعالى وأجر كبير (فلعلك) يا محمد (تارك بعض ما يوحى اليك) فلا تبلغهم اياه لتهاونهم به فانهم كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين

الاجماع الذى لا يدل عليه كلهم كقولك جاء القوم جميعا أى مجتمعين ونظيره قوله تعالى فسجد الملائكة كلهم أجمعون (قوله وأمرت ان أكون من المؤمنين) قال ذلك

الفطين والباقون بالفتح (وضائق به صدرك) أى بتلاوته عليهم لاجل (أن يقولوا لولا) أى هلا (أنزل عليه كنز) ينفقه فى الاستتباع كالملوك (أو جاء معه ملك) يصدقه كما اقترحنا وروى عن ابن عباس أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزل (انما أنت نذير) فلا عليك الا البلاغ لا الاتيان بما اقترحوه (والله على كل شئ وكيل) فتوكل عليه انه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم (أم) أى بل (يقولون) كفار مكة (افتراه) أى اختلقه من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (فأتوا بعشر سور مثله) فى البيان وحسن النظم (مفتريات) فانكم عربيون مثلى قال ابن عباس هذه السور التى وقع بها هذا التحدى معينة وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود وقيل التحدى وقع بمطلق السور وهو متقدم على التحدى بسورة واحدة والتحدى بسورة واحدة وقع فى سورة البقرة وفى سورة يونس اما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية وأما فى سورة يونس فلان كل واحدة من هاتين السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس كما قاله الرازى وأنكر المبرد هذا وقال بل سورة يونس أولا وقال معنى قوله فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله أى مثله فى الخبر عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم فى سورة هود ان عجزتم عن الاتيان بسورة مثله فى الاخبار والاحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور من غير وعد ولا وعيد وانما هى مجرد البلاغة (وادعوا) أى وقل لهم يا محمد ادعوا للمعاونة على ذلك (من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فى أنه مفترى والضمير فى قوله تعالى (فان لم يستجيبوا لكم) أى باتيان ما دعوتموهم اليه للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لانه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال تعالى فى موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم والتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم (فاعلموا أنما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) أى بما لا يعلمه الا الله تعالى من نظم يعجز الخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه ولا يقدر عليه سواه وقوله تعالى (وأن) مخففة من الثقيلة أى وانه (لا اله الا هو) وحده وان توحيده واجب والاشراك به ظلم عظيم (فهل أنتم مسلمون) اى ثابتون على الاسلام راسخون مخلصون فيه اذ تحقق عندكم اعجازه مطلقا وقيل الخطاب للمشركين والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه فاعلموا أنه منزل من عند الله وأن ما دعاكم اليه من التوحيد حق فهل أنتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون أى أسلموا وفى مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) أى بعمله الذى يعمل من أعمال البر (نوف اليهم أعمالهم) أى التى عملوها من خير كصدقة وصلة رحم (فيها) أى فى الدنيا (وهم فيها لا يبخسون) أى نوصل اليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد ونحو ذلك (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا

(فان قلت) لم ذكر المس فى
أى يمسسك بضر الآية
(قوله وان يمسسك الله)
لقوله قبل فهم مسلمون
النحل من المسلمين موافقة
تفسير المؤمنين وقال فى
هنا وافقه لقوله قبل

النار

النار وحبط) أى بطل (ماصنعوا) أى عملوا (فيها) أى الآخرة فلا ثواب لهم (وباطل ما كانوا يعملون) لانه لغير الله تعالى فقال مجاهد نزلت فى أهل الرياء قال صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يارسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء والرياء هو أن يظهر الانسان الاعمال الصالحة لتحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح فهذا هو العمل الذى لغير الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان وقال أكثر المفسرين انها نزلت فى الكافر وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا وقيل نزلت فى المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبى صلى الله عليه وسلم الغنائم من غير أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها وقيل فى اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس ولما ذكر تعالى الذين يريدون باعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) قيل هو النبى صلى الله عليه وسلم والبينة هى القرآن (ويتلوه) أى يتبعه (شاهد) يصدقه (منه) أى من الله تعالى وهو جبريل عليه السلام (ومن قبله) أى القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة شاهد له أيضا وقوله تعالى (اماما) أى كتابا مؤتما به فى الدين (ورحمة) أى على المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بسعادة الدارين حال من كتاب موسى والجواب محذوف لظهوره والتقدير أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الا النار ليس مثله بل بينهم تفاوت بعيد وتباين بين وقيل هو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره والمراد بالبينة هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه أى من الله ومن قبله كتاب موسى أى ويتلو ذلك البرهان من قبل مجىء القرآن كتاب موسى أى فى دلالته على هذا المطلوب لا فى الوجود قال الرازى وهذا القول هو الاظهر لقوله تعالى (أولئك يؤمنون به) وهذه صيغة جمع ولا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم انتهى ويجوز أن تكون للتعظيم أوله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه وربما يكون هذا أولى كما جرى عليه بعض المفسرين والاشارة الى من كان على بينة والضمير فى به القرآن واذا كان هذا الفريق ليس له فى الآخرة الا النار فهذا الفريق ليس له فى الآخرة الا الجنة (ومن يكفر به) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن (من الاحزاب) أى أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس (فالنار موعده) يصلى فى الآخرة روى سعيد بن جبير عن أبى موسى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى الا كان من أهل النار قال أبو موسى فقلت فى نفسى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال بعض العلماء ولما دلت الآية على أن من يكفر به كانت النار موعده دل على أن من لا يكفر به كانت الجنة موعده وقوله تعالى (فلا تك فى مرية) أى شك (منه) أى القرآن أو الموعد (انه الحق من ربك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويؤيد

الضمير والارادة فى الضمير (قلت) لاستعمال كل من المس والارادة فى كل من الضمير والظهر وانه لامزيل لما يسيب به منهما ولاراد لما يريده فيهما

ذلك قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى لا يصدقون بما أوحينا اليك أو بان
موعد الكفار النار * ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض
الذم * الصفة الاولى كونهم مفترين على الله كما قال تعالى (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى
على الله كذبا) بنسبة الشريك والولد اليه أو أسند اليه مالم ينزله أو نفى عنه ما أنزله * الصفة
الثانية أنهم يعرضون على الله تعالى فى موقف الذل والهوان كما قال تعالى (أولئك يعرضون
على ربهم) أى يوم القيامة (فان قيل) هم لا يختصون بهذا العرض لان العرض عام فى كل
العباد كما قال تعالى وعرضوا على ربك صفا (أجيب) بأنهم يعرضون فيفتضحون بشهادة
الاشهاد عليهم كما قال تعالى (ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) فيحصل لهم من
الخزى والنكال مالا مزيد عليه وهذه هى الصفة الثالثة واختلف فى هؤلاء الاشهاد فقال
مجاهد هم الملائكة الذين يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا وقال مقاتل هم الناس كما يقال
على رؤس الاشهاد أى على رؤس الناس وقال قوم هم الانبياء كما قال تعالى فلنسئلن الذين
أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين والفائدة فى اعتبار قول الاشهاد المبالغة فى اظهار الفضيحة
(فان قيل) العرض على الله يقتضى أن يكون الله تعالى فى حيز وهو تعالى منزه عن ذلك
(أجيب) بأنهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال أو يكون ذلك عرضا على
من يوبخ بأمر الله تعالى من الانبياء والمؤمنين والاشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب أو
جمع شهيد كشريف وأشراف قال أبو على الفارسى وكان هذا أرجح لان ماجاء من ذلك فى
التنزيل جاء على فعيل كقوله تعالى وجئنا بك شهيدا على هؤلاء وعن عبد الله بن عمر أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يدنى المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول أى
عبدى تعرف ذنب كذا وكذا فيقول نعم حتى اذا أقره بذنوبه قال تعالى سترتها عليك فى الدنيا
وقد سترتها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فتقول الاشهاد هؤلاء الذين
كذبوا على ربهم اه ولما أخبر الله تعالى عن حالهم فى عقاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال
بقوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) فبين تعالى انهم فى الحال ملعونون من عند الله وهذه
هى الصفة الرابعة * ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) أى
دينه * ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى (ويبغونها) أى يطلبون السبيل (عوجا) أى
معوجة أى لانهم ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد أضافوا اليه المنع من الدين الحق
والقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لا يقال فى العاصى انه يبغى عوجا وانما يقال
ذلك فيمن يعرف كيف الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات * ثم
وصفهم بالصفة السابعة بقوله تعالى (وهم) أى والحال انهم (بالآخرة هم كافرون) وتكرير
لفظ هم لتأكيد كفرهم وتوغلهم فيه * الصفة الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب
الله تعالى كما قال تعالى (أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض) أى ما كانوا معجزين الله فى الدنيا
أن يعاقبهم اذ لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه فان هرب العبد من عذاب الله تعالى محال لانه تعالى
قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد والقوة والضعف * الصفة التاسعة
انهم ليس لهم أولياء يدفعون عقاب الله تعالى عنهم كما قال تعالى (وما كان لهم من دون الله) أى

فاوجز الكلام بان ذكر
الامر فى احدهما والارادة
فى الآخر ليدل بما ذكر
على مالم يذكر مع انه قد
ذكر الامر فيهما فى سورة
الانعام

(سورة هود عليه السلام)

(قوله وأن استغفروا
ربكم ثم توبوا اليه الآية)
ثم للترتيب الاخبارى

غيره (من أولياء) أي أنصار يمنعونهم من عذابه * الصفة العاشرة مضاعفة العذاب كما قال تعالى (يضاعف لهم العذاب) أي بسبب اضلالهم غيرهم وقيل لانهم كفروا بالله وكفروا بالبعث والنشور * الصفة الحادية عشرة قوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع) قال قتادة صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به (وما كانوا يبصرون) خيرا فيأخذوا به قال ابن عباس أخبر الله تعالى انه حال بين أهل الشرك وبين طاعته تعالى في الدنيا وفي الآخرة أما في الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وأما في الآخرة فانه قال فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم * الصفة الثانية عشرة قوله تعالى (أولئك الذين خسروا أنفسهم) فانهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم الى النار المؤبدة عليهم وذلك أعظم وجوه الخسرانات * الصفة الثالثة عشرة قوله تعالى (وضل) أي غاب (عنهم ما كانوا يفترون) على الله تعالى من دعوى الشريك وان الآلهة تشفع لهم * الصفة الرابعة عشرة قوله تعالى (لا جرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون) أي لا أحد أبين وأكثر خسرانا منهم * (تنبيه) * قال الفراء ان لا جرم بمنزلة قولنا لابد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول العرب لا جرم انك محسن على معنى حقا انك محسن وقال الزجاج ان كلمة لا نفي لما ظنوا أنه ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران في الدنيا والآخرة قال الازهري وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب وقال سيبويه لا رد على أهل الكفر كما مر وجرم معناه أحق والمعنى انه أحق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا

أراد أحقت الطعنة فزارة ان يغضبوا * ولما ذكر تعالى عقوبة الكفار وخسرانهم اتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة بقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) أي اطمأنوا اليه وخشعوا اليه اذ الاخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ويتعدى بالى وباللام فاذا قلت أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع عمل الجوارح وقوله تعالى وأخبتوا اشارة الى أعمال القلوب وهي الخشوع والخضوع لله تعالى وان هذه الاعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة الا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع (أولئك) أي الذين هذه صفتهم (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) فاخبر تعالى عن حالهم في الآخرة بانهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال * ولما ذكر سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ذكر فيهما مثالا مطابقا بقوله تعالى (مثل) أي صفة (الفريقين) أي الكفار والمؤمنين (كالاعمى والاصم) هذا مثل الكافر شبه بالاعمى لتعاميه عن آيات الله وبالاصم لتصامه عن استماع كلام الله تعالى وتابيه عن تدبر معانيه (والبصير والسميع) هذا مثل المؤمن شبه بالبصير والسميع لان امرهما بالضد من الكافر فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين أو تشبيه

لا بالوجودي اذ التوبة سابقة على الاستغفار او المعنى استغفروا ربكم من الشرك ثم توبوا اي ارجعوا اليه بالطاعة (فان قلت) يجب من لم يستغفر الله ولم يتب يمتعه

الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما على أن تكون الواو فى الاصم وفى السميع لعطف الصفة على الصفة بخلافه على التشبيه الاول فانه لعطف الموصوف على الموصوف ويعبر عنه بعطف الذات على الذات (هل يستويان) أى هل يستوى الفريقان (مثلا) اى تشبيها لا يستويان ويصح أن يكون مثلا صفة لمصدر محذوف أى استواء مثلا وان يكون حالا من فاعل يستويان وقوله تعالى (أفلا تذكرون) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال اى تتعظون بضرب الامثال والتأمل فيها وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وقد جرت عادة الله تعالى بانه اذا أورد على الكفار أنواع الدلائل اتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل وفى هذه السورة ذكر أنواعا من القصص * القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) وقوله (انى لكم) قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة اى بانى والباقون بكسرها على ارادة القول (نذير مبين) اى بين النذارة أخوف من العقاب لمن خالف أمر الله تعالى وقوله (أن لا تعبدوا الا الله) بدل من انى لكم أو مفعول مبين (انى أخاف عليكم) اى ان عبدتم غيره (عذاب يوم أليم) اى مؤلم موجع فى الدنيا أو الآخرة قال ابن عباس بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألف سنة وأربعمائة وخمسين * ولما حكى تعالى عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا فى نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات بقوله تعالى (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) وهم الاشراف (ما نراك الا بشرا مثلنا) هذه الشبهة الاولى اى انك بشر مثلنا لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان الله تعالى اذا اصطفى عبدا من عباده وأكرمه بنبوته ورسالته وجب على من أرسله اليهم اتباعه الشبهة الثانية ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) أى أسافلنا كالحاكة وأهل الصنائع الخسيسة وهو جمع أرذل بفتح الهمزة كقوله تعالى أكابر مجرميها وقوله صلى الله عليه وسلم أحاسنكم أخلاقا أو جمع أرذل بضم الذال جمع رذل بسكونها فهو على الاول جمع مفرد وعلى الثانى جمع جمع ثم قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الاكابر من الناس والاشراف منهم وانما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا لان الرفعة بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية والمال (بادى الرأى) اى اتبعوك فى أول الرأى من غير تثبت وتفكر فى أمرك ولو تفكروا ما اتبعوك ونصبه على الظرف أى وقت حدوث أول رأيهم وقرأ أبو عمرو بادئ بهمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بياء مفتوحة وأبدل السوسى همزة الرأى ألفا وقفا ووصلا وأما حمزة فابدلها وقفا لا وصلا الشبهة الثالثة ما ذكره الله تعالى عنهم فى قوله تعالى (وما نرى لكم) أى لك ولمن اتبعك (علينا من فضل) اى بالمال والشرف والجاه تستحقون به الاتباع منا وهذا أيضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة وقولهم (بل نظنكم كاذبين) خطاب لنوح عليه

السلام

الله مناما حسنا الى ان جم
اى برزقه ووسع عليه كما
قال ابن عباس او بعمره
كما قال ابن قتيبة فالفائدة
التقييد بالاستغفار
والتوبة (قلت) قال غيرهما
المتاع الحسن المقيد

السلام فى دعوى الرسالة وأدرجوا قومه معه فى الخطاب وقيل خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وقيل كذبوه فى دعوى النبوة وكذبوا قومه فى دعوى العلم بصدقه فغلب المخاطب على الغائبين ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام (قال) لهم (يا قوم أرأيتم) اى أخبرونى (ان كنت على بينة) اى نبوة ورسالة (من ربى وآتانى رحمة) اى نبوة ورسالة (من عنده) من فضله واحسانه (فعميت) اى خفيت والتبست (عليكم) ووحد الضمير اما لان البينة فى نفسها هى الرحمة واما لانه لكل واحد منهما وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم العين وتشديد الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم (أنلزمكموها) اى أنكرهكم على قبولها (وأنتم لها كارهون) اى لا تختارونها ولا تتأملون فيها الا نقدر على ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها قومه ولكنه لا يملك ذلك واتفق القراء على ضم الميم من أنلزمكموها لاتصالها بالام رعاية حيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعا وقدم الاعرف منهما جاز فى الثانى الوصل كما فى الآية والفصل كان يقال أنلزمكم اياها (ويا قوم لا أسألكم عليه) اى على تبليغ الرسالة وهو وان لم يذكر معلوم مما ذكر (مالا) اى جعلا تعطونيه (ان) اى ما (اجرى الا على الله) اى ما ثواب تبليغى الا عليه فانه المأمول منه تعالى وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائى بسكون الياء والباقون بالفتح وقول نوح عليه السلام (وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب لهم حين طلبوا طردهم فانهم طلبوا من نوح عليه السلام قبل ان يطرد الذين آمنوا وهم الارذلون فى زعمهم فقال ما يجوز لى ذلك (انهم ملاقوا ربهم) اى بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده ويأخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم او انهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) اى ان هؤلاء المؤمنين خير منكم أو عاقبة امركم أو تسفهون عليهم بان تدعوهم أراذل (ويا قوم من ينصرنى) اى يمنعنى (من الله) أى من عقابه (ان طردتهم) عنى وهم مؤمنون مخلصون (أفلا) أى فهلا (تذكرون) أى تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء فى الاصل فى الذال (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) أى خزائن رزقه فكما أنى لا أسألكم مالا فكذلك لا أدعى انى املك مالا ولا غرض لى فى المال لا أخذا ولا دفعا وقوله (ولا اعلم الغيب ولا أقول انى ملك) فانعاظم به عليكم حتى تقولوا ما أنت الا بشر مثلنا بل طريقى التواضع والخضوع ومن كان هذا شأنه وطريقته كذلك فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الامراء والسلاطين ثم أكد ذلك بقوله (ولا أقول للذين تزدرى) أى تحتقر (أعينكم) أى لا أقول فى حقهم (لن يؤتيهم الله خيرا) فان ما أعده الله تعالى لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى الدنيا (الله اعلم بما فى انفسهم) وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون اتباعهم مع الفقر والذلة الى النفاق (انى اذا) اى ان فعلت ذلك (لمن الظالمين) لنفسى ومن الظالمين لهم (فان قيل) هذه الآية تدل على تفضيل الملائكة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان الانسان اذا قال لا أدعى كذا وكذا انما يحسن اذا كان ذلك الشئ أشرف من أحوال ذلك القائل (اجيب) بان نوحا عليه السلام انما ذكر ذلك جوابا عما ذكروه من الشبه فانهم طعنوا فى اتباعه بالفقر فقال ولا أقول لكم عندى خزائن الله

بالاستغفار والتوبة هو الحياة فى الطاعة والقناعة ولا يكون ان الا للمستغفر التائب (قوله وما من دابة فى الارض) لم يقل على الارض مع انه انسب بتفسير الدابة لغة بانها

حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضا بانهم منافقون فقال ولا أعلم الغيب حتى أعرف كيفية باطنهم وانما تكليفي بناء الاحوال على الظاهر وطعنوا فيه انه من البشر فقال ولا أقول انى ملك حتى تنفروا عن ذلك وحينئذ فالآية ليس فيها ذلك (فان قيل) في هذه الآية دلالة على ان طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي فكيف طرد محمد صلى الله عليه وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الله حتى عاتبه الله تعالى في قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى (أجيب) بان الطرد المذكور في هذه الآية محمول على الطرد المطلق على سبيل التأييد والطرد المذكور في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد في أوقات معينة رعاية للمصلحة ❊ ولما ان الكفار أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أوردوا عليه كلاما من الاول ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (قالوا يا نوح قد جادلتنا) اى خاصمتنا (فاكثرت جدالنا) اى فاطنبت فيه وهذا يدل على انه عليه السلام كان قد أكثر في الجدال معهم وذلك الجدال ما كان الا في اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وهذا يدل على ان الجدال في تقرير الدلائل وازالة الشبهات حرفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى ان التقليد والجهل حرفة الكفار والثاني ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله (فأتنا بما تعدنا) اى من العذاب (ان كنت من الصادقين) في الدعوى والوعيد فان مناظرتك لا تؤثر فينا (قال) لهم نوح عليه السلام في جواب ذلك (انما يأتيكم به الله ان شاء) تعجيله لكم فان امره اليه ان شاء عجله وان شاء أخره لا الى (وما أنتم بمعجزين) اى بفائتين الله تعالى ولما أجاب نوح عليه السلام عن شبههم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال (ولا ينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) أى يضلكم وجواب الشرط محذوف دل عليه ولا ينفعكم نصحى وتقدير الكلام ان كان الله يريد ان يغويكم فان اردت ان انصح لكم فلا ينفعكم نصحى فهو من باب اعتراض الشرط على الشرط ونظير ذلك ما لو قال رجل لزوجته انت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق فيشترط في وجوب الحكم وقوع الشرط الثاني قبل وقوع الاول وفي الآية دليل على ان الله تعالى قد يريد الكفر من العبد فانه اذا أراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه (هو ربكم) اى خالقكم والمتصرف فيكم وفق ارادته (واليه ترجعون) فيجازيكم على اعمالكم قال تعالى (ام) اى بل (يقولون افتراه) اى اختلقه وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع الى الوحى الذى بلغه اليهم (قل) لهم (ان افتريته فعلى اجرامى) وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلى اثم اجرامى والاجرام اقتراف المحظور وفي الآية محذوف آخر وهو ان المعنى ان كنت افتريته فعلى عقاب جرمى وان كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها (وانا برىء مما تجرمون) اى من عقاب جرمكم في اسناد الافتراء الى ❊ (تنبيه) ❊ أكثر المفسرين على ان هذا من بقية كلام نوح عليه السلام مع قومه وقال مقاتل أم يقولون اى المشركون من كفار مكة افتراه اى محمد صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه وهذه الآية وقعت في قصة محمد صلى الله عليه وسلم في اثناء قصة نوح عليه السلام قال الرازى وقوله بعيد جدا (وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك)

اى

ما يدب على الارض لان في
أمم من على لانها تتناول
من الدواب ما على ظهر
الارض وما في بطنها وقيل
في بمعنى على كما في قوله
لاصلبنكم في جذوع
النخل وقوله ام لهم سلم

اى لن يستمر على الايمان الا قوله تعالى (الا من قد آمن) قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا
يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه في لبد ويلقونه في بيت يظنون انه قد مات فيخرج في اليوم
الثاني ويدعوهم الى الله تعالى وروى ان شيخا منهم جاء متوكئا على عصاه ومعه ابنه فقال
لابنه لا يغوينك هذا الشيخ المجنون فقال يا ابتاه مكني من العصا فاخذها من أبيه وضرب بها
نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فاوحى الله تعالى اليه انه لن يؤمن من قومك الا من
قد آمن (فلا تبتئس) اى لا تحزن عليهم فاني مهلكهم (بما) أى بسبب ما (كانوا يفعلون)
من الشرك وتكذيب منهم فحينئذ دعا عليهم نوح عليه السلام فقال رب لا تذر على الارض من
الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبيد بن عمير الليثي انه بلغه انهم كانوا يبطشون به
فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا أفاق قال رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون حتى تمادوا في
المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر من الجيل الى الجيل فلا يأتي قرن الا كان أخبث
من الذين قبلهم ولقد كان يأتي القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا
وأجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيأ فشكا الى الله تعالى فقال رب اني دعوت قومي ليلا
ونهارا حتى قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فاوحى الله تعالى اليه (واصنع
الفلك) اى السفينة (باعيننا) قال ابن عباس بمرأى منا وقال مقاتل بعلمنا وقيل بحفظنا
(ووحينا) اى بامرنا لك كيف تصنعها (ولا تخاطبني في الذين ظلموا) اى ولا تراجعني في
الكفار ولا تدعني في استدفاع العذاب عنهم (انهم مغرقون) اى محكوم عليهم بالاغراق فلا
سبيل الى كفه وقيل لا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك راعلة فانهما هالكان مع القوم
ويروى ان جبريل عليه السلام أتى نوحا فقال ان ربك يامرك ان تصنع الفلك قال كيف
أصنع ولست بنجار قال ان ربك يقول اصنع فانك باعيننا فاخذ القدوم فجعل ينجر ولا يخطئ
وصنعها فعملها مثل جؤجؤ الطير وفي قوله تعالى (ويصنع الفلك) قولان أحدهما انه حكاية
حال ماضية اى في ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك الثاني التقدير فاقبل يصنع
الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك ثم ان نوحا عليه السلام أقبل على عملها ولها عن قومه
وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره وجعل قومه يمرون
عليه ويسخرون منه كما قال تعالى (وكلما مر عليه ملأ) اى جماعة (من قومه سخروا منه)
اى استهزؤا به ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعدما كنت نبيا فاعقم الله أرحام نسائهم
فلا يولد لهم قال ابن عباس رضي الله عنهما اتخذ نوح عليه السلام السفينة في سنتين وكان
طول السفينة ثلثمائة ذراع وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن
الاول الوحوش والهوام وفي البطن الاوسط الدواب وركب هو ومن معه البطن الاعلى مع
ما يحتاج اليه من الزاد وقال قتادة كان بابها في عرضها وروى عن أنس كان طولها ألف
ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام لو بعثت لنا
رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم الى كثيب من تراب فاخذ كفا من
ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال كعب بن حام قال فضرب الكثيب
بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض عن رأسه التراب وقد شاب فقال له عيسى عليه

يسمعون فيه وظاهر ان
تفسير الدابة بما يدب على
الارض يتناول الطير فلا
يرد أن الآية لا تتناول
الطير في ضمان رزقه (فان
قلت) على الوجوب والله
تعالى لا يجب عليه شئ

السلام هكذا هلكت قال لا ولكن مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحوش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال له عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا قال البغوي والمعروف ان طولها ثلثمائة ذراع وعن زيد بن أسلم قال مكث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ومائة سنة يعمل الفلك وعن كعب الاحبار ان نوحا عمل السفينة في ثلاثين سنة وروى أنها كانت ثلاث طبقات الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الانس والطبقة العليا فيها الطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله تعالى الى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث ولما أفسد الفار في السفينة فجعل يقرض حبالها أوحى الله تعالى اليه أن اضرب بين عيني الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهو القط فاقبلا على الفار فاكلاه قال الرازي واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبني لانها أمور لا حاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة فكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بانه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذي نعلمه انها كانت في السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه وما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور في القرآن وما آمن معه الا قليل فاما تعيين ذلك القدر فغير معلوم (قال) لهم لما سخروا منه (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) اذا نجونا وغرقتم (فان قيل) السخرية لا تليق بمنصب النبوة (أجيب) بان ذلك ذكر على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها او المعنى ان تسخروا منا فستعرفون عاقبة سخريتكم وهو قوله تعالى (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) اى يهينه في الدنيا وهو الغرق (ويحل عليه) في الآخرة (عذاب مقيم) وهو النار التي لا انقطاع لها وقوله تعالى (حتى اذا جاء أمرنا) اى باهلاكهم غاية لقوله ويصنع الفلك وما بينهما حال من الضمير فيه أو حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام واختلف في التنور في قوله تعالى (وفار التنور) فقال عكرمة والزهري هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء فار على وجه الارض فاركب السفينة وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال فار التنور وقت طلوع الفجر ونور الصبح وقال الحسن ومجاهد والشعبي انه التنور الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عطية وابن عباس لانه حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقته هو الموضع الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح ومنهم من قال انه كان لآدم عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصار الى نوح فقيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب السفينة أنت وأصحابك ثم اختلفوا أيضا في موضعه فقال مجاهد والشعبي كان في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران الماء منه علما لنوح وقال مقاتل كان ذلك تنور آدم عليه السلام وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة

(قلت) المراد بالوجوب هنا وجوب اختيار لا وجوب الزام كقوله صلى الله عليه وسلم غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم وكقول الانسان لصاحبه حقك واجب علي أو علي بمعنى من

و روى عن ابن عباس انه كان بالهند ومعنى فار نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة ان التنور لا يفور والمراد فار الماء من التنور فلما فار أمر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الاشياء الاول قوله تعالى (قلنا احمل فيها) اى السفينة (من كل زوجين اثنين) والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر انثى والتقدير من كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر وواحد انثى وفى القصة ان نوحا عليه السلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى يده اليسرى فيحملهما فى السفينة وقرأ حفص بتنوين لام كل اى واحمل من كل شئ زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج (فان قيل) ما الفائدة فى قوله زوجين اثنين والزوجان لا يكونان الا اثنين (اجيب) بان هذا على مثال قوله تعالى لا تتخذوا الهين اثنين وقوله تعالى نفخة واحدة والباقون بغير تنوين فهذا السؤال غير وارد النوع الثانى من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحملها فى السفينة قوله تعالى (وأهلك) وهم أبناؤه وزوجته وقوله تعالى (الا من سبق عليه القول) بانه من المغرقين وهو ابنه كنعان وامه واعلة وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك بخلاف سام وحام ويافث وزوجاتهم ثلاثة وزوجته المسلمة (فان قيل) الانسان اشرف من سائر الحيوانات فلم بدأ بالحيوانات (اجيب) بان الانسان عاقل فهو لعقله مضطر الى دفع اسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه الى المبالغة فى الترغيب بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به النوع الثالث من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى (ومن آمن) اى واحمل معك من آمن معك من قومك واختلف فى العدد الذى ذكره الله تعالى فى قوله تعالى (وما آمن معه الا قليل) فقال قتادة وابن جريج لم يكن معه فى السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته المسلمة وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال ابن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه الثلاثة وستة اناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعا وقال مجاهد كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وعن ابن عباس قال كان فى سفينة نوح ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نساء وقال الطبرى والصواب من القول فى ذلك ان يقال كما قال الله تعالى وما آمن معه الا قليل فوصفهم بالقلة فلم يحد عددا بمقدار فلا ينبغى ان يجاوز فى ذلك حد الله تعالى اذ لم يرد عدد فى كتاب الله تعالى ولا فى خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم نحو ذلك عن الرازى وقال مقاتل حمل نوح معه فى السفينة جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوح عليه السلام جميع الدواب والطير ليحملها قال ابن عباس أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار أدخل صدره وتعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال ويحك ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال نوح ما أدخلك على ياعدو الله قال مالك بد أن تحملنى معك فكان معه على ظهر السفينة هكذا نقله البغوى قال الرازى وأما الذى

كما فى قوله تعالى اذا كالوا على الناس يستوفون (قوله ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) قاله هنا وقال فى فصلت ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته بزيادة منا ومن لانه ثم بين

يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى فكيف يؤثر
الغرق فيه وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد فى ذلك خبر صحيح فالاولى ترك الخوض
فى ذلك قال البغوى ورُوى ان بعضهم قال ان الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا
احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فانا نضمن لك ان لا نضر أحدا
ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين لم يضراه وقال الحسن لم يحمل
نوح فى السفينة الا ما يلد و يبيض فاما ما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق
والبعوض فلم يحمل منها اشيأ (وقال) نوح لمن معه (اركبوا) أى صيروا (فيها) أى السفينة
وجعل ذلك ركوبا لانها فى الماء كمركوب فى الارض وقوله تعالى (بسم الله مجراها ومرساها)
متصل باركبوا حال من الواو فى اركبوا أى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت
اجرائها وارسائها قال الضحاك كان نوح اذا أراد ان تجرى السفينة قال بسم الله جرت
واذا أراد أن ترسو قال بسم الله رست وقرأ حفص وحمزة والكسائى بنصب الميم من جرت
ا ورست أى جريها ورسوها وهما مصدران والباقون بضم الميم من أجريت وارسيت اى بسم
اجرائها وارسائها وأمال الالف بعد الراء أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائى محضة و ورش
بين اللفظين والباقون بالفتح وذكروا فى عامل الاعراب فى بسم الله وجوها الاول اركبوا بسم
الله الثانى ابدؤا بسم الله الثالث بسم الله اجراؤها (ان ربى لغفور رحيم) أى لولا مغفرته
لفرطاتكم ورحمته اياكم لما نجاكم وقوله تعالى (وهى تجرى بهم) متعلق بمحذوف دل عليه
اركبوا اى فركبوا مسمين الله تعالى وهى تجرى وهم فيها (فى موج) وهو ما ارتفع من الماء اذا
اشتدت عليه الريح (كالجبال) فى عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء بالسير أرسل الله
تعالى المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله تعالى ففتحنا أبواب السماء
بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر فصار الماء نصفين نصف من السماء
ونصف من الارض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر
ذراعا حتى أغرق كل شئ وروى انه لما كثر الماء فى السكك خافت امرأة على ولدها من الغرق
وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى
بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبى
بيديها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله تعالى منهم أحدا لرحم هذه المرأة وما قيل من أن الماء
طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كما تسبح السمكة فليس بثابت قال
البيضاوى والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا فان صح أى انه طبق ما بين
السماء والارض فلعل ذلك أى ما ذكر من علو الموج قبل التطبيق (ونادى نوح ابنه) كنعان
وكان كافرا بجامس وقيل كان اسمه يام (وكان فى معزل) عزل فيه نفسه اما عن أبيه أو دينه ولم
يركب معه واما عن السفينة واما عن الكفار كأنه انفرد عنهم وظن نوح عليه السلام ان
ذلك انما كان لانه أحب مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله (يا بنى اركب معنا) فى السفينة وقرأ
عاصم بفتح الياء اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من ياء الاضافة فى قولك يا بنيا والباقون
بالكسر فى الوصل ليدل على ياء الاضافة المحذوفة كما قال الشاعر

يا ابنة

لمه الرحمة بقوله لايسأم الانسان من دعاء الخير فناسب ذكرهما وحذفه هنا اكتفاء بقوله قبل ولئن أذقنا الانسان منا رحمة وزاد من ثم لانه لما حذف

(١) قوله ورست يتبادر منه ان حفصا وحمزة والكسائى يقرؤن بفتح ميم مرساها والذى فى الجمل وقرأ الاخوان وحفص مجراها بفتح الميم والباقون بضمها واتفق السبعة على ضم ميم مرساها فانظره

• يابنيّ لاتلوى واجيبى • ثم حذف الالف للتخفيف (ولا تكن مع الكافرين) أى فى دين ولا مكان فتهلك ولما قال له ذلك (قال سآوى) أى التجئ وأصير (الى جبل يعصمنى) أى يمنعنى (من الماء قال) له نوح عليه السلام (لا عاصم) أى لا مانع (اليوم من أمر الله) أى من عذابه وقوله (الا من رحم) استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله تعالى مالهم به من علم الا اتباع الظن وقيل الا من رحم أى الا الراحم وهو الله تعالى وقيل الا مكان من رحمه الله تعالى فانه مانع من ذلك وهو السفينة (وحال بينهما) أى بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل (الموج) المذكور فى قوله موج كالجبال (فكان) ابنه (من المغرقين) أى فصار من المهلكين بالماء (و) لما تناهى الطوفان وأغرق قوم نوح (قيل) أى قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (يا أرض ابلعى ماءك) أى تشربيه (ويا سماء أقلعى) أى أمسكى ماءك ناداهما بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والاقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل تمثيلا لكمال انقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير بابدال الثانية واوا خالصة والباقون بالتحقيق (وغيض الماء) أى نقص وذهب وقرأ هشام والكسائى باشمام الغين وهو ضم الغين قبل الياء والباقون بالكسر وكذا وقيل (وقضى الامر) أى وأنجز ما وعد من اهلاك الكافرين وانجاء المؤمنين (واستوت) أى استقرت السفينة (على الجودى) وهو جبل بالجزيرة قريب من الموصل (وقيل) أى قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (بعدا) أى هلاكا (للقوم الظالمين) ومجىء اخباره على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وان تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وان فاعلها واحد لا يشارك فى أفعاله فلا يذهب الوهم الى أن يقول غيره يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ولا أن يقضى ذلك الامر الهائل غيره ولا أن تستوى على متن الجودى وتستقر عليه الا بتسويته واقراره وروى ان السفينة لما استقرت بعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون فى منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح أن الماء قد نقص فقيل انه دعا على الغراب بالخوف فلذا لا يألف البيوت وطوّق الحمامة الخضرة التى فى عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تألف البيوت وروى ان نوحا ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت العتيق وقد رفعه الله تعالى من الغرق وبقى موضعه فطافت به السفينة سبعا وأودع الحجر الاسود فى جبل أبى قبيس وهبط نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح وأمر من معه بصيامه شكرا لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل وسميت سوق ثمانين فهى أول قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج ابن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وهذا لا يأتى على القول باطباق الماء قال هذا القائل وسبب نجاته أن نوحا احتاج الى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج اليه من الشام فنجاه الله تعالى من الغرق بذلك (فان قيل) كيف أغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم من الاطفال (أجيب) بأنه تعالى يتصرف فى خلقه لا يسئل عما يفعل وقيل ان الله تعالى أعقم أرحام نسائهم

الرحمة ووجه تهاحد الثلاثة بعدها النفسا كالذى التعد وهنا لما أهمل الاول أهمل الثانى ابتشا كالا (قوله وضائق به صدرك) انما لضائق ولم يقل ضيق لموافقة قوله تعبا

أربعمائة سنة فلم يولد لهم تلك المدة (ونادى نوح ربه) أى دعاه وسأله (فقال رب ان ابنى من أهلى) وقد وعدتنى أن تنجيني وأهلى (وان وعدك الحق) أى الصدق الذى لا خلف فيه (وأنت أحكم الحاكمين) لانك أعلمهم وأعدلهم (فان قيل) اذا كان النداء هو قوله رب فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء (أجيب) بأن الفاء تفصيل لمجمل نادى مثلها فى توضأ فغسل وقيل نادى أى أراد نداءه فقال رب (قال) الله تعالى له (يا نوح انه) أى هذا الابن الذى سألت نجاته (ليس من أهلك) أى المحكوم بنجاتهم لايمانهم وكفره ولهذا علل بقوله تعالى (انه عمل غير صالح) وقرأ الكسائى بكسر الميم ونصب اللام بغير تنوين ونصب الراء أى عمل الكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء أى ذو عمل غير صالح أو صاحب عمل غير صالح فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة ترتع فانما هى اقبال وادبار واختلف علماء التفسير هل كان ذلك الولد ابن نوح أولا على أقوال الاول وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والاكثرين أنه ابنه حقيقة ويدل عليه أنه تعالى نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح أيضا نص عليه فقال يا بنى وصرف هذا اللفظ الى أنه رباه وأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة القول الثانى أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن على الباقر وقول الحسن البصرى القول الثالث وهو قول مجاهد والحسن أنه ولد حنث ولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك واحتج هذا القائل بقوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما قال الرازى وهذا قول واجب يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو خلاف نص القرآن وقد قيل لابن عباس ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول زوجى مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزل به (فلا تسألن ما ليس لك به علم) أى بما لا تعلم أصواب هو أم لا لان اللائق بأمثالك من أولى العزم بناء أمورهم على التحقيق وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام وتخفيف النون وأثبت الياء بعد النون فى الوصل دون الوقف ورش وأبو عمرو وحذفها الباقون وقفا ووصلا (انى أعظك) أى بمواعظى كراهة (أن تكون من الجاهلين) فتسأل كما يسألون وانما سمى نداءه سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله واستنجازه فى شأن ولده (قال) نوح (رب انى أعوذ بك أن) أى من أن (أسألك) فى شئ من الاشياء (ما ليس لى به علم) تأدبا بأدبك واتعاظا بوعظك (والا تغفر لى) أى الآن ما فرط منى وفى المستقبل ما يقع منى (وترحمنى) أى تتعزز لى وتمهلنى وتكرمنى (أكن من الخاسرين) أى الفريقين فى الخسارة فان قيل هذا يدل على عدم عصمة الانبياء لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام (أجيب) بأن الزلة الصادرة من نوح انما هى كونه لم يستقص ما يدل على نفاق ابنه وكفره لان قومه كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم ايمانه ومنافق لا يعلم حاله فى نفس الامر وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما وأما أهل النفاق فبقى أمرهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة التى تكون للاب فى حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فأخطأ فى ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم عليه السلام فى الاكل من الشجرة فلم يصدر عنه الا الخطأ فى الاجتهاد فلم تصدر منه معصية فلجأ الى ربه تعالى

وخشع

كالذ وليدل على أنه ضيق عارض لا ثابت لأنه صلى الله عليه وسلم أوسع الناس صدرا ونظيره قولك زيد سائد وجائد تريد حدث فيه السيادة والجود فان أردت وصفه بثبوتهما قلت زيد

وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة كما قال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لان حسنات الابرار سيآت المقربين (قيل) أي قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (يا نوح اهبط) أي انزل من السفينة أو من الجبل الى الارض المستوية (بسلام) أي بعظم وأمن وسلامة (منا) وذلك ان الغرق لما كان عاما في جميع الارض فعندما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس في الارض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة وأنه لا يكون الامع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بان وعده بالبركة بقوله تعالى (وبركات عليك) وهو عبارة عن الدوام والبقاء والثبات لان الله تعالى صير نوحا عليه السلام أبا البشر لان جميع من بقي كانوا من نسله لان نوحا لما خرج من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته فالخلق كلهم من نسله أو انه لم يكن معه في السفينة الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته ويدل على ذلك قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت أن نوحا كان آدم الاصغر فكان أبا الانبياء والخلق بعد الطوفان كلهم منه ومن ذريته وكان بين نوح وآدم ثمانية أجداد وقوله تعالى (وعلى أمم ممن معك) يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الامم الذين كانوا معه في السفينة لانهم كانوا جماعات أو قيل لهم أمم لان الامم تتشعب منهم وأن تكون لابتداء الغاية أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الامم الى آخر الدهر قال في الكشاف وهو الوجه وقوله تعالى (وأمم) بالرفع على الابتداء وقوله تعالى (سنمتعهم) أي في الدنيا صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم وانما حذف لان قوله ممن معك يدل عليه والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤن ممن معك وممن معك أمم ممتعون في الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم) في الآخرة وهم الكفار وعن محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تعالى (تلك) أي قصة نوح التي شرحناها ومحل تلك رفع على الابتداء وخبرها (من أنباء الغيب) أي من الاخبار التي كانت غائبة عن الخلق وقوله تعالى (نوحيها اليك) خبر ثان والضمير لها أي موحاة اليك وقوله تعالى (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أي نزول القرآن خبر آخر والمعنى أن هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا اليك ونظير هذا ان يقول انسان لآخر لا تعرف هذه المسئلة لا أنت ولا أهل بلدك (فان قيل) قد كانت قصة طوفان نوح مشهورة عند أهل العلم (أجيب) بأن ذلك كان بحسب الاجمال وأما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة لانه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فاصبر) أي أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار (ان العاقبة للمتقين) الشرك والمعاصي وفي هذا تنبيه على ان عاقبة الصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم النصر والفرج أي السرور كما كان لنوح ولقومه (فان

سيد وجواد (قوله فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) أي مثله في الفصاحة والبلاغة والا فما يأتون به مفترى والقرآن ليس بمفترى أو معناه مفتريات كالقرآن في زعمكم

قيل) هذه القصة ذكرت في يونس فما الحكمة والفائدة في اعادتها (أجيب) بأن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففي السورة الاولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه السورة ذكرت لاجل أن الكفار كانوا يبالغون في الايحاش فذكرها الله تعالى لبيان أن اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا في زمان نوح عليه السلام فلما صبر فاز وظفر فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الحكمة والفائدة ٭ والقصة الثانية من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة هود عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (والى عاد) أي وأرسلنا الى عاد (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحا وقوله تعالى (هودا) عطف بيان ومعلوم أن تلك الاخوة ما كانت في الدين وانما كانت في النسب لان هودا كان رجلا من قبيلة عاد قبيلة من العرب كانوا بناحية اليمن (فان قيل) انه تعالى قال في ابن نوح انه ليس من أهلك فبين أن قرابة النسب لا تفيد اذا لم تحصل قرابة الدين وهنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف في الدين (أجيب) بأن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يستبعدون أن يكون رسولا من عند الله تعالى مع انه واحد من قبيلتهم فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وأن صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد ولما تقدم أمر نوح عليه السلام مع قومه استشرف السامع الى معرفة ما قال هود عليه السلام هل هو مثل قوله أولا فاستأنف الجواب بقوله (قال يا قوم اعبدوا الله) اي وحدوه ولا تشركوا معه شيأ في العبادة (ما لكم من اله غيره) أي هو الهكم لان هذه الاصنام التي تعبدونها حجارة لا تضر ولا تنفع (فان قيل) كيف دعاهم الى عبادة الله تعالى قبل اقامة الدليل على ثبوت الاله (أجيب) بان دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهي دلائل الآفاق والانفس وقلما يوجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله ولذلك قال تعالى في صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقرأ الكسائي بكسر الراء والهاء صفة على اللفظ والباقون بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ومن زائدة (ان أنتم الا مفترون) أي كاذبون في عبادتكم غيره وكرر قوله (يا قوم) للاستعطاف وقوله (لا أسألكم عليه أجرا ان أجري الا على الذي فطرني) أي خلقني خاطب به كل رسول قومه ازالة للتهمة وتمحيضا للنصيحة فانها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع (أفلا تعقلون) أي أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا الحق من المبطل والصواب من الخطا فتتعظون ثم قال (ويا قوم) أيضا لما ذكر (استغفروا ربكم) أي آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان (يرسل السماء) أي المطر (عليكم مدرارا) أي كثير الدر (ويزدكم قوة الى قوتكم) أي ويضاعف قوتكم واعمارهم بكثرة المطر وزيادة القوة لان القوم كانوا أصحاب زرع وبساتين وعمارات حراصا عليها أشد الحرص فكانوا أحوج شئ الى الماء وكانوا مدلين بما هم عليه من شدة القوة والبطش والباس والنجدة مهابين في كل ناحية وقيل أراد القوة في المال وقيل القوة على النكاح وقيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم وعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال اني رجل ذو مال

٦. مفترى (فان قلت) كيف
[illegible] أفرد في قوله فقل ثم جمع في
قوله فان لم يستجيبوا لكم
(قلت) الخطاب للنبي صلى
الله عليه وسلم فيهما لكنه
جمع في لكم تعظيما وتفخيما
[illegible] ويعضده قوله في سورة

ولا يولد لى فعلمنى شيأ لعل الله يرزقنى ولدا فقال عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما
استغفر فى يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشر بنين فبلغ ذلك معاوية فقال هلا سألته مم قال
ذلك فوفد مرة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح
ويمددكم بأموال وبنين (ولا تتولوا) أى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حالة كونكم
(مجرمين) أى مشركين * ولما حكى الله تعالى عن هود ماذكره لقومه حكى أيضا ماذكره قومه
له وهو أشياء أولها ماذكره تعالى بقوله (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) أى بحجة تدل على صحة
دعواك وسميت بينة لانها تبين الحق ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أظهر لهم
المعجزات الا ان القوم لجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشئ من المعجزات وثانيها قولهم
(وما نحن بتاركى آلهتنا) أى عبادتها وقولهم (عن قولك) أى صادرين عن قولك حال من
الضمير فى تاركى وهذا أيضا من جهلهم فانهم كانوا يعرفون أن النافع والضار هو الله تعالى وأن
الاصنام لا تضر ولا تنفع وذلك حكم فطرة العقل وبديهة النفس وثالثها قولهم (وما نحن لك
بمؤمنين) أى مصدقين وفى ذلك اقناط له من الاجابة والتصديق ورابعها قولهم (ان) أى
ما (نقول) فى شأنك (الا اعتراك) أى أصابك (بعض آلهتنا بسوء) اى سبك اياها فجعلتك مجنونا
وأفسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك (قال) هود عليه السلام مجيبا لهم (انى
أشهد الله) على (واشهدوا) أنتم أيضا على (أنى برئ مما تشركون من دونه) أى الله وهو
الاصنام التى كانوا يعبدونها (فكيدونى) أى احتالوا فى هلاكى (جميعا) أنتم وأصنامكم التى
تعتقدون أنها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع * (فائدة) * اتفق القراء على اثبات الياء فى
كيدونى هنا وقفا ووصلا لثباتها فى المصحف (ثم لا تنظرون) أى تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة
لهود عليه السلام لانه كان وحيدا فى قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخش منهم مع ما هم
فيه من الكفر والجبروت ثقة بالله تعالى كما قال تعالى (انى توكلت على الله ربى وربكم) أى
فوضت أمرى اليه واعتمدت عليه (ما من دابة) تدب على الارض ويدخل فى هذا جميع بنى
آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) أى مالكها وقاهرها فلا يقع
نفع ولا ضر الا باذنه والناصية كما قال الازهرى عند العرب منبت الشعر فى مقدم الرأس وسمى
الشعر النابت هنا ناصية باسم منبته والعرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية
فلان الا بيد فلان وكانوا اذا أسروا الاسير وأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون
ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون من كلامهم (ان ربى على صراط مستقيم)
أى طريق الحق والعدل فلا يظلمكم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف فيجازى المحسن باحسانه
والمسئ بعصيانه وقوله تعالى (فان تولوا) فيه حذف احدى التاءين اى تعرضوا (فقد أبلغتكم)
جميع (ما أرسلت به اليكم) فان قيل الابلاغ كان قبل التولى فكيف وقع جزاء للشرط أجيب
بان معناه فان تتولوا لم أعاتب على تقصير من جهتى وصرتم محجوجين لانكم أنتم الذين أصررتم
على التكذيب وقوله (ويستخلف ربى قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بان الله تعالى يهلكهم
ويستخلف قوما آخرين فى ديارهم وأموالهم يوحدونه ويعبدونه تعالى (ولا تضرونه) أى الله
باشراككم (شيأ) من الضرر انما تضرون أنفسكم وقيل لا تنقصونه شيأ اذا أهلككم لان

القصص فان لم يستجيبوا
لك أو الخطاب فى الثانى
للمشركين وفى يستجيبوا
لمن استطعتم والمعنى فأتوا
أيها المشركون بعشر سور
مثله الخ فان لم يستجب لكم
من تدعونه الى المظاهرة

وجودكم وعدمكم عنده سواء (إن ربي على كل شيء) صغيراً وكبيراً حقيراً وجليل (حفيظ) أي رقيب عالم بكل شيء وقادر على كل شيء فيحفظني أن تنالوني بسوء أو حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها أو حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء (ولما) لم يرجعوا ولم يرعووا بينة ولا رغبة ولا رهبة (جاء أمرنا) أي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله تعالى بها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وترفعهم وتضربهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية وهنا همزتان مفتوحتان من كلمتين قرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الأولى وقرأ ورش وقنبل بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما (نجينا هوداً والذين آمنوا معه) أي من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) لأن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) هو عذاب الآخرة ووصفه بالغلظ لأنه أغلظ من عذاب الدنيا أو نجينا هوداً والذين آمنوا معه من أن يصل إليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم في ذلك ونجيناهم من عذاب غليظ هو الريح المذكورة ● ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال (وتلك عاد) وهو إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة أما أوصافهم فثلاثة الصفة الأولى قوله تعالى (جحدوا بآيات ربهم) أي بالمعجزات التي أتى بها هود عليه السلام الصفة الثانية قوله تعالى (وعصوا رسله) أي هوداً وحده وإنما أتى به بلفظ الجمع إما للتعظيم أو لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله الصفة الثالثة قوله تعالى (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أي أن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم ما هذا إلا بشر مثلكم فأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم وعصوا من دعاهم إلى الإيمان ولا يرديهم والجبار المرتفع المتمرد والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض ● ولما ذكر تعالى أوصافهم ذكر أحوالهم بقوله تعالى (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أي جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة ومعنى اللعنة الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير وقيل اللعنة في الدنيا من الناس وفي الآخرة لعنة على رؤوس الأشهاد ● ثم إنه تعالى بين السبب الأصلي في نزول هذه الأحوال المكروهة بهم بقوله تعالى (ألا إن عاداً كفروا ربهم) أي كفروا بربهم فحذف الباء أو أن المراد بالكفر الجحد أي جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف أي كفروا نعمة ربهم ● (تنبيه) ● ألا أداة استفتاح لا تذكر إلا بين يدي كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ثم قال (ألا بعداً لعاد) دعاء عليهم بالهلاك والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكى عنهم وإنما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفظيعاً لأمرهم وحثاً على الاعتبار بحالهم وقوله تعالى (قوم هود) عطف بيان لعاد وفائدته تمييزهم من عاد الثانية عاد إرم والإيماء إلى استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود ● القصة الثالثة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وإلى ثمود) وهم سكان الحجر أي وأرسلنا إلى ثمود (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحاً كما عطف عليه وإلى عاد

على معارضته لعجزهم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وبالنظر إلى هذا الجواب جمع الضمير في لم يستجيبوا لكم هنا وأفرد في القصص (فإن قلت) قد قال في سورة يونس فأتوا بسورة مثله وقد

وقوله تعالى (صالحا) عطف بيان وتلك الاخوة كانت فى النسب لا فى الدين كما مر فى هود ثم
أخرج قوله عليه السلام على تقدير سؤال بقوله (قال يا قوم) أى يا من يعز على أن يحصل لهم
سوء (اعبدوا الله) أى وحده وخصوه بالعبادة (ما لكم من اله غيره) هو الهكم المستحق للعبادة
لا هذه الاصنام ثم ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته تعالى بقوله (هو أنشأكم) أى ابتدأ
خلقكم (من الارض) وذلك انهم من بنى آدم وآدم خلق من الارض أو ان الانسان مخلوق
من المنى وهو متولد من الدم والدم متولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية فاما
الحيوانية فحالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات والنبات متولد من الارض
فثبت أنه تعالى أنشأ الانسان من الارض وقيل من بمعنى فى كما فى قوله تعالى اذا نودى للصلاة
من يوم الجمعة (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال اعماركم
فيها حتى ان الواحد منهم كان يعيش ثلثمائة سنة الى ألف سنة وكذا كان قوم عاد وروى ان
ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وحصلت لهم الاعمار الطويلة
فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فأوحى الله اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها
عبادى وأخذ معاوية فى احياء الارض فى آخر عمره فقيل له فى ذلك فقال ما حملنى عليه
الا قول القائل

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ● ولا يكون له فى الارض آثار

وقال مجاهد استعمركم من العمرى أى جعلها لكم ما عشتم فاذا متم انتقلت الى غيركم ● ولما
بين لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع اليه بقوله (فاستغفروه) أى
آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر مثل ذلك
(ان ربى قريب) من خلقه بعلمه لكل من أقبل عليه من غير حاجة الى حركة (مجيب) لكل من
ناداه لا كمعبوداتكم فى الامرين ● ولما قرر لهم عليه السلام هذه الدلائل (قالوا) له (يا صالح
قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى القول الذى جئت به لما نرى فيك من مخايل الرشد
والسداد فانك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك أن
تنصر ديننا فكيف أظهرت العداوة ● ثم انهم أضافوا الى هذا التعجب الشديد فقالوا
(أتنهانا أن نعبد ما) كان (يعبد آباؤنا) من الآلهة ومقصودهم بذلك التمسك بطرف التقليد
ووجوب متابعة الآباء والاسلاف ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث
قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب ثم قالوا (واننا لفى شك مما تدعونا اليه)
من التوحيد وترك عبادة الاصنام (مريب) أى موقع فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء
الطمأنينة باليقين والرجاء تعلق النفس بمجئ الخير على جهة الظن ونظيره الامل والطمع
والنهى المنع من الفعل بصيغة لا تفعل وقولهم هذا مبالغة فى تزييف كلامه (قال) صالح
عليه السلام مجيبا لهم (يا قوم أرأيتم) أى أخبرونى (ان كنت على بينة) أى بيان وبصيرة (من
ربى) وأتى بحرف الشك على سبيل الجزم لملائم الخطاب حال المخاطبين (وآتانى منه رحمة) أى
نبوة ورسالة (فمن ينصرنى) أى يمنعنى (من الله) أى عذابه (ان عصيته) أى ان خالفت أمره فى
تبليغ رسالته والمنع عن الاشراك به (فما تزيدوننى) أى بامركم لى بذلك (غير تخسير) أى بغير

عجزوا عنه فكيف قال
هنا قالوا بعشر سور مثله
(قلت) قيل نزلت سورة
هود أولا لكن أنكره المبرد
وقال بل سورة يونس أولا
قال ومعنى قوله فى سورة
يونس فأتوا بسورة مثله

تضليل قال الحسن بن الفضل لم يكن صالح فى خسارة حتى يقول فما تزيدوننى غير تخسير وانما المعنى فما تزيدوننى بما تقولون الا نسبتى اياكم الى الخسارة • ولما كانت العادة فيمن يدعى النبوة عند قوم يعبدون الاصنام أن يطلبوا المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان يروى أن قومه خرجوا فى عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا اليها ناقة فدعا ربه فخرجت كما سألوا أشار اليها بقوله (و ياقوم هذه ناقة الله) واضافتها الى الله اضافة تشريف كبيت الله (لكم آية) أى معجزة من وجوه أحدها أنه خلقها الله تعالى من الصخرة ثانيها أنه تعالى خلقها فى جوف الجبل ثم شق الجبل عنها ثالثها أنه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر ثم ولدت فصيلا يشبهها رابعها أنه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة خامسها ماروى أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر سادسها أنه كان يحصل منها لبن كثير فيكفى الخلق العظيم به فكل واحد من هذه الوجوه معجز قوى وليس فى القرآن الا أن هذه الناقة كانت آية معجزة وأما بيان أنها كانت آية معجزة من أى الوجوه فليس فيه بيانه • (تنبيه) • آية نصب على الحال وعاملها معنى الاشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها ولو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال ثم قال لهم (فذروها) أى اتركوها على أى حالة كان تركتكم لها (تأكل) مما أرادت (فى أرض الله) من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها ثم انه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى فى اخفائها وابطالها باقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال (ولا تمسوها بسوء) أى بعقر أو غيره ثم توعدهم بقوله (فيأخذكم) ان مسستموها بسوء (عذاب قريب) أى فى الدنيا لا يتأخر عن مسكم لها الا يسيرا وذلك تحذير شديد لهم فى الاقدام على قتلها فخالفوه (فعقروها) وذبحوها (فقال لهم) عند بلوغه الخبر (تمتعوا) أى عيشوا (فى داركم) والتمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التى تدرك بالحواس وذلك لا يحصل الا للحى وفى المراد من الدار وجهان أحدهما البلد وتسمى البلد الديار لانه يدار فيها أى يتصرف فيها يقال ديار بكر لبلادهم الثانى دار الدنيا أى تمتعوا فى الدنيا (ثلاثة أيام) وذلك أنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه الصلاة والسلام بنزول العقاب بعد هذه المدة قال ابن عباس انه تعالى لما أمهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم فى الايمان ثم قالوا لصالح عليه السلام وما علامة ذلك قال تصير وجوهكم فى اليوم الاول مصفرة وفى الثانى محمرة وفى الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب فى اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم مسودة أيقنوا حينئذ بالعذاب فتحنطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع كما قال تعالى (ذلك) أى الوعد العالى الرتبة فى الصدق (وعد غير مكذوب) أى فيه فاتسع فى الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله • ويوم شهدناه (أى ورب يوم شهدنا فيه) سليما وعامرا • أو غير مكذوب على المجاز أو وعد غير كذب على أنه مصدر وقوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) فى تفسيره وقراءة الهمزتين وعدد الذين امنوا معه مثل ما تقدم فى قصة عاد (و) نجيناهم (من خزى يومئذ) وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم أو فضيحتهم يوم

أى فى الاخبار عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم فى سورة هود ان عجزتم عن ذلك فاتوا بعشر سور مثله فى البلاغة لا فى غيره مما ذكروه قاله هو المتبع هذا وغيره

القيامة وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم من يومئذ على البناء لاضافته الى مبني وكسرها الباقون على الاعراب والاول أكثر (ان ربك هو القوى) فهو يغلب كل شئ (العزيز) أى القادر على منع غيره من غير أن يقدر واحد عليه ثم أخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله (وأخذ الذين ظلموا) اى انفسهم بالكفر (الصيحة) اى صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا أو أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا كما قال تعالى (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) أى باركين على الركب ميتين *(تنبيه)* انما قال تعالى وأخذ ولم يقل وأخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وأيضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث وقوله تعالى (كأن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف اى كأنهم (لم يغنوا) أى يقيموا (فيها) أى ديارهم ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا أقمت به وقوله تعالى (ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) تفسيره ما تقدم في قوله تعالى ألا ان عادا كفروا ربهم الآية وقرأ حفص وحمزة ألا ان ثمود بغير تنوين للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة والباقون بالتنوين للذهاب الى الحي او الى الأب الاكبر ومن نون وقف على ألف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة وقرأ الكسائي بعدا لثمود بتنوين ثمود مع الكسر للميم والباقون بغير تنوين مع الفتح للميم أيضا * القصة الرابعة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) اى باسحق ومن وراء اسحق يعقوب والمراد بالرسل الملائكة ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة واختلف في الزائد على ذلك وأجمعوا على ان الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام واقتصر ابن عباس وعطاء على أقل الجمع فقالا كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الذاريات بقوله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وفي الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم وقال الضحاك كانوا تسعة وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي كان جبريل ومعه أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن قال النحويون ودخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبياء يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام في لقد لتأكيد الخبر (قالوا سلاما) اى سلمنا عليك سلاما ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاما أى سلموا (قال سلام) أى أمركم أو جوابي سلام أو وعليكم سلام *(تنبيه)* قوله سلام أكمل من قوله السلام لان التنكير يفيد الكمال والمبالغة والتمام وهذا أصح وقوعه مبتدأ لان النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ وأما لفظ السلام فانه لا يفيد الا الماهية (فان قيل) فلاى شئ ما كفى الاول في التحلل من الصلاة عند النووي (أجيب) بان ذلك سنة متبعة وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام ولا ألف بعدها والباقون بفتح السين واللام وبعدها ألف قال الفراء ولا فرق بين القراءتين كما يقال حل وحلال وحرم وحرام وقيل سلم هو بمعنى الصلح أى نحن سلم صلح غير حرب (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أى فما أبطأ مجيئه به والحنيذ المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الارض وكان سمينا يقطر ودكه كما قال تعالى في موضع آخر فجاء بعجل سمين قال قتادة كان عامة مال ابراهيم

الاول مع زيادة ان يقال ان الاعجاز وقع أولا بالتحدي بكل القرآن في آية قل لئن اجتمعت الانس والجن فلما عجزوا تحداهم بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة فلما عجزوا

البقر روى أن ابراهيم عليه السلام مكث خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءته الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم فعجل قراهم وجاء بعجل سمين مشوى (فلما رأى أيديهم) أى الاضياف (لا تصل اليه) أى لا يمدون أيديهم اليه (نكرهم) أى أنكرهم وانكر حالهم لامتناعهم من الطعام (وأوجس) أى أضمر فى نفسه (منهم خيفة) أى خوفا قال قتادة وذلك انهم كانوا اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وانما جاء بشر (قالوا لا تخف) يا ابراهيم (انا) ملائكة الله (أرسلنا الى قوم لوط) بالعذاب وانما لم نمد أيدينا لانا لا نأكل (وامرأته) أى ابراهيم سارة وهى ابنة عم ابراهيم (قائمة) وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة فسمعت البشارة بالولد التى دل عليها فيما مضى قوله بالبشرى (فضحكت) سرورا من تلك البشرى لزوجها مع كبره وربما ظنته من غيرها لانها كانت عجوزا عقيما فأزيل ذلك الظن عنها بقوله تعالى (فبشرناها) اى على لسان الملائكة تشريفا لها وتفخيما لشأنها (باسحق) تلده (ومن وراء اسحق يعقوب) اى يكون يعقوب عليه السلام ابنا لاسحق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد ولدها قال البقاعى والذى يدل على هذا التقدير من انهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت ما يأتى عن نص التوراة وساق عن التوراة عبارة طويلة وقيل سبب سرورها زوال الخيفة أو هلاك أهل الفساد وقيل فضحكت فحاضت كما قال الشاعر

عهدى بسلمى ضاحكا فى لبانة * اى حائضا فى جماعة من النساء وهذا رد على الفراء حيث قال ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال آخر * تضحك الضبع لقتلى هذيل * أراد أنها تحيض فرحا (تنبيه) ههنا همزتان مكسورتان من كلمتين قرأ قالون والبزى بتسهيل الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها أيضا حرف مد وقرأ أبو عمرو باسقاط أحدهما مع المد والقصر والباقون بتحقيق الهمزتين ولا ألف بينهما (قالت يا ويلتا) هذه كلمة تقال عند أمر عظيم والالف مبدلة من ياء الاضافة (أألد وأنا عجوز) وكانت ابنة تسعين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد تسع وتسعين سنة (وهذا بعلى) اى زوجى سمى بذلك لانه قيم أمرها وقولها (شيخا) نصب على الحال قال الواحدى وهذا من لطيف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قولها وهذا بعلى شيخا قائم مقام أن يقال أشير الى بعلى حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة وكان ابن مائة وعشرين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين البشارة والولادة سنة (ان هذا لشئ عجيب) أى ان الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك (قالوا) أى الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) منكرين عليها ذلك أى لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شئ واذا أراد شيأ كان سريعا فان خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس بمستغرب (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى بيت ابراهيم وأهل منصوب على المدح او النداء لقصد التخصيص كقولهم اللهم اغفر لنا أيتها العصابة وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على ان ازواج الرجل من أهل بيته (انه) تعالى (حميد) أى محمود على كل حال أو فاعل ما يستوجب به الحمد

(مجيد)

قوله فلما أتوا قومهم بقومهم بقوله لا جرم بعد بسمله (قوله لا جرم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون) قال ذلك هنا وقال فى النحل هم الخاسرون لان ما هنا نزل فى قوم صدوا عن سبيل

(مجيد) أي كثير الخير والاحسان ٭ القصة الخامسة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) أي الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه واطمأن قلبه بعرفانهم (وجاءته البشرى) بدل الروع بالولد أخذ (يجادلنا) أي يجادل رسلنا (في) شأن (قوم لوط) وجواب لما أخذ يجادلنا الا أنه حذف اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا (فان قيل) كيف جادل ابراهيم الملائكة مع علمه بانهم لا يمكنهم مخالفة امر الله وهذا منكر (أجيب) بان المراد من هذه المجادلة تاخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي لان الملائكة قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية أو ان مجادلته انما كانت في قوم لوط بسبب مقام لوط فيهم ولهذا قال ابراهيم عليه السلام أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال أو أربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فعشرون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت فقال ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين قال ابن جريج وكان في قرى لوط أربعة آلاف ألف ولو كانت هذه المجادلة مذمومة لما مدحه بقوله تعالى (ان ابراهيم لحليم) اى لا يتعجل مكافأة غيره بل يتأنى فيها فيؤخر او يعفو ومن هذا حاله يحب من غيره هذه الطريقة وهذا مدح عظيم من الله تعالى لابراهيم ثم ضم الى ذلك ما يتعلق بالحلم وهو قوله تعالى (أواه) اى كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس (منيب) اى رجاع فلما اطال مجادلتهم قالوا له (يا ابراهيم أعرض عن هذا) أي الجدال وان كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه (انه قد جاء أمر ربك) أي قضاؤه الازلي بعذابهم وهو أعلم بحالهم (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) اى لا سبيل الى دفعه ورده (ولما جاءت رسلنا لوطا) أي هؤلاء الملائكة الذين بشروا ابراهيم بالولد قال ابن عباس انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وهو ابن أخي ابراهيم عليهما الصلاة والسلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملائكة الله تعالى (سيء بهم) أي حزن بسببهم (وضاق بهم ذرعا) أي صدرا يقال ضاق ذرع فلان بكذا اذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم وقيل ساءه ذلك لانه عرف بالامارة انهم ملائكة الله تعالى وانهم جاؤا لاهلاك قومه فرق قلبه على قومه (وقال هذا يوم عصيب) أي شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أي شد به مأخوذ من العصابة التي تشد بها الرأس قال قتادة خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطا نصف النهار وهو في أرض له يعمل فيها وروي أنه كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه وانطلق بهم فلما مضى ساعة قال لهم ما بلغكم من أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله انها لشر قرية في الارض عملا يقول ذلك أربع مرات وروي أن الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك

الله وصدوا غيرهم وضلوا
وأضلوا وأما هنا التي نزلت في
قوم صدوا عن سبيل الله
فناسب في الاول الاخسرون
وفي الثاني الخاسرون (قوله
وآتاني رحمة من عنده) قاله
هنا بتقديم رحمة على الجار

أحـد الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فاخبرت قومها وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وجاءه قومه) لما علموا بهم (يهرعون) اى يسرعون (اليه) قاله ابن عباس وقال الحسن الاهراع المشى بين مشيين (ومن قبل) اى قبل مجيئهم الى لوط وقيل من قبل مجيء الرسل اليهم (كانوا يعملون السيئات) اى الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهى اتيان الرجال فى أدبارهم (قال) لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا انهم غلمان من بنى آدم (ياقوم هؤلاء بناتى) قال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته نساء قومه وأضافهن الى نفسه لان كل نبى هو أبو امته كالوالد لهم اى تزوجوا منهن وقيل أراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الاسلام وقيل كان فى ذلك الوقت وفى تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد ان يزوجهما ابنتيه (هن أطهر لكم) اى أنظف فعلا (فان قيل) افعل التفضيل يقتضى كون العمل الذى يطلبونه طاهرا ومعلوم انه فاسد لانه لاطهارة فى اتيان الرجال (أجيب) بان هذا جار مجرى قوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم ان شجرة الزقوم لاخير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم أحد اعل هبل قال الله اعلى وأجل ولا مماثلة بين الله تعالى والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة (فاتقوا الله) وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى (ولا تخزون) اى تفضحونى (فى ضيفى) اى أضيافى (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى الى الحق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) اى حاجة (وانك لتعلم مانريد) اى من اتيان الذكور ومالنا فيه الشهوة فعند ذلك (قال) اى لوط عليه السلام (لو ان لى بكم قوة) أى طاقة (أو آوى الى ركن شديد) أى عشيرة تنصرنى شبهت بركن الجبل فى شدته وعنه صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد والركن الشديد نصر الله ومعونته فكان النبى صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام قوله أو آوى الى ركن شديد وعده نادرة اذ لا ركن أشد من الركن الذى كان يأوى اليه وجواب لو محذوف تقديره لبطشت بكم أو لدفعتكم روى أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بسوء فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه فى عقوبتهم فاذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم كما قال تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لايعرفون الطريق ولايهتدون الى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط قوما سحرة * (تنبيه) * لن يصلوا اليك جملة موضحة للتى قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لن يصلوا اليه ولن يقدروا على ضرره ثم قالوا له (فاسر باهلك بقطع) أى طائفة (من الليل) وقرأ نافع وابن كثير بعد الفاء بهمزة وصل من السرى والباقون بهمزة قطع من الاسراء (ولا يلتفت منكم أحد) اى لا ينظر الى ورائه لئلا يرى عظيم مانزل بهم وقوله (الا امرأتك) قرأه ابن كثير وأبو عمرو برفع التاء على انه بدل من أحد والباقون بالنصب على انه

قوله والمجرور وعكس بعد فى قوله وآتانى منه رحمة وفى قوله ورزقنى منه رزقا حسنا اه وافق كل منهما ماقبله اذا لا فعال المتقدمة هنا وهى نرى وترى ونظن لم يفصل بينها وبين

قوله ابن الربيع هو كذلك فى متن المواهب قال شارحه على الصواب ورواه يحيى بن بكير ومعن بن عيسى وأبو مصعب وغيره عن مالك وروى الجمهور عنه انه ابن ربيعة وادعى الاصيلى انه ابن الربيع بن ربيعة اه

استثناء

استثناء من الاهل اى فلا تسر بها (انه مصيبها ما أصابهم) فلم يخرج بها وقيل خرجت
والتفتت فقالت واقوماه فجاءها حجر فقتلها روى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا له
(ان موعدهم الصبح) قال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب) اى فاسرع
الخروج بمن أمرت بهم (فلما جاء أمرنا) اى عذابنا بهلاكهم (جعلنا عاليها) اى قراهم
(سافلها) روى ان جبريل عليه السلام ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات
المذكورة فى سورة براءة وكانت خمس مدائن وفيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف
فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونهيق الحمار ونباح الكلاب لم يكفأ لهم
اناء ولم ينتبه نائم ثم اسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا عليها) اى المدن بعد قلبها او قيل على
شذاذها وهو بضم الشين المعجمة وبذالين معجمتين أولاهما مشددة وهم الذين ليسوا من أهلها
يكونون فى القوم وليسوا منهم (حجارة من سجيل) اى من طين طبخ بالنار كما قال تعالى فى
موضع آخر من طين وقيل مثل السجل وهو الدلو العظيمة (منضود) اى متتابع يتبع بعضها
بعضا (مسومة) اى معلمة عليها اسم من يرمى بها وقال أبو صالح رأيت منها عند أم هانئ وهى
حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن عليها امثال الخواتيم وقال ابن جريج
كان عليها سيما يعلم بها انها ليست من حجارة الارض وقوله تعالى (عند ربك) ظرف لها (وما
هى) أى تلك الحجارة (من الظالمين) أى مشركى مكة (ببعيد) اى بشئ بعيد أو بمكان بعيد لانها
وان كانت فى السماء وهى مكان بعيد الا انها اذا وقعت منها فهى أسرع شئ لحوقا بالمرمى
فكأنها بمكان قريب منه وفيه وعيد لهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل فقال
يعنى ظالمى مكة ما من ظالم منهم الا وهو يعرض عليه حجر فيسقط عليه من ساعة الى ساعة
وقيل الضمير للقرى اى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون عليها فى مسيرهم * القصة السادسة
التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة شعيب عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (والى
مدين) أى وأرسلنا الى مدين وهم قبيلة أبوهم مدين بن ابراهيم عليه السلام وقيل هو
اسم مدينة بناها مدين المذكور وعلى هذا فالتقدير وأرسلنا الى أهل مدين فحذف المضاف
لدلالة الكلام عليه (أخاهم) اى فى النسب لا فى الدين و(شعيبا) عطف بيان وكان قائلا قال
فما قال لهم فقيل (قال) ما قال اخوته من الانبياء فى البداءة باصل الدين (يا قوم) مستعطفا
لهم مظهرا غاية الشفقة (اعبدوا الله) اى وحدوه ولا تشركوا به شيئا (ما لكم من اله غيره)
فلقد اتفقت كما ترى كلمتهم واتحدت الى الله تعالى دعوتهم وهذا وحده قاطع الدلالة على
صدق كل منهم لما علم قطعا من تباعد اعصارهم وتنائى ديارهم وان بعضهم لم يلم بالعلوم ولا
عرف أخبار الناس الا من الحى القيوم ولما دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين الله تعالى دعاهم
الى العدل فيما بينهم وبين عبيده فى أقبح ما كانوا اتخذوه بعد الشرك تدينا فقال (ولا تنقصوا)
بوجه من الوجوه (المكيال والميزان) اى لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته والكيل
تعديل الشئ بالآلة فى القلة والكثرة والوزن تعديله فى الخفة والثقل فالكيل العدل فى
الكمية والوزن العدل فى الكيفية ثم علل ذلك بقوله (انى اراكم بخير) أى بثروة وسعة
تغنيكم عن التطفيف قال ابن عباس كانوا موسرين فى نعمة وقال مجاهد كانوا فى خصب

مفاعيلها جار ومجرور
والفعل المتقدم بعد وهى
كان فى الثانى وتفصل فى
الثالث فصل بينه وبين
معموله جار ومجرور اذ خبر
كان كالمعمول (فان قلت)
لم قال فى الاولين وآتانى وفى

وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة ان لم يؤمنوا و يتوبوا وهو قوله (وانى اخاف عليكم) ان لم تؤمنوا (عذاب يوم محيط) اى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة ومنه قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر وفى المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب (ويا قوم أوفوا) أى أتموا اتماما حسنا (المكيال والميزان) أى الكيل والوزن وآلتهما (فان قيل) النهى عن النقصان أمر بالايفاء فما فائدة قوله تعالى أوفوا (أجيب) بانهم نهوا أولا عن القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لان فى التصريح بالقبيح نعيا على المنهى وتعييرا له ثم ورد الامر بالايفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجىء به مقيدا (بالقسط) أى ليكون الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمر بما هو الواجب لان ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب اليه غير المأمور به وقد يكون محظورا كما فى الربا وقوله تعالى (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) تعميم بعد تخصيص فانه أعم من ان يكون فى المقدار أو فى غيره فانهم كانوا يأخذون من كل شئ يباع كما تفعل السماسرة وكانوا يمكسون الناس وكانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الاشياء فنهوا عن ذلك فظهر بهذا البيان ان هذه الاشياء غير مكررة بل فى كل واحد منها فائدة زائدة والحاصل انه تعالى نهى فى الآية الاولى عن النقصان فى المكيال والميزان وفى الثانية أمر باعطاء قدر الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب الا عند أداء ذلك القدر من الزيادة ولهذا قال الفقهاء انه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من الرأس فكأنه تعالى نهى أولا عن سعى الانسان فى أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة وفى الثانى أمر بان يسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة كما قيده بقوله تعالى بالقسط وفى الآية الثالثة نهى عن النقص فى كل الاشياء وكذا قوله تعالى (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) فان العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد ومفسدين حال مؤكدة لمعنى عاملها وفائدتها اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام (بقيت الله) قال ابن عباس يعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن (خير لكم) مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام (ان كنتم مؤمنين) اى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به *(فائدة)* بقيت رسمت هنا بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى والباقون وقفوا عليها بالهاء (وما انا عليكم بحفيظ) أعلم جميع اعمالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها فساداه ولما أمرهم شعيب عليه السلام بشيئين بالتوحيد وبترك البخس (قالوا) له (يا شعيب) مموهين بما معها استخفافا وغلظة وأنكروا عليه مستهزئين به (أصلواتك تامرك) اى تفعل معك فعل من يأمر دائما بتكليفنا (ان نترك ما يعبد) اى على سبيل المواظبة (آباؤنا) من الاصنام فحذف الذى هو التكليف لان الانسان لا يؤمر بفعل غيره قالوا له ذلك فى جواب أمره لهم بالتوحيد (او) نترك (أن نفعل) أى دائما (فى أموالنا ما نشاء) من قطع الدراهم والدنانير وافساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون افسادا للمال قالوا له ذلك فى جواب النهى عن

الثالث ورزقنى (قلت) لان
الثالث تقدمه ذكر
الاموال وتأخر عنه قوله
رزقا حسنا وهما خاصان
فناسبهما قوله ورزقنى
بخلاف الاولين فانه
تقدمهما أمر وعامة

التطفيف

التطفيف والامر بالايفاء وانما أضافوا ذلك الى صلاته تهكما واستهزاء بها واشعارا بان مثل هذا لا يدعو اليه داع عقلي وانما دعاك اليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه وكان شعيب عليه الصلاة والسلام كثير الصلاة في الليل والنهار وكان قومه اذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا او قصدوا بقولهم أصلواتك تأمرك السخرية والهزء كما انك اذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا فائدة مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزء فكذا ههنا وقرأ حفص وحمزة والكسائي أصلاتك بالافراد والباقون بالجمع والتاء بالرفع في القراءتين وغلظ ورش اللام في أصلواتك وقولهم له (انك لانت الحليم الرشيد) تهكم به وقصدوا وصفه بضد ذلك كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك وعللوا انكار ما سمعوه منه واستبعدوه بانه موسوم بالحلم والرشد المانعين من المبادرة الى مثل ذلك ثم أخرج قوله عليه الصلاة والسلام على تقدير سؤال بقوله (قال يا قوم) مستعطفا لهم لما بينهم من عواطف القرابة منبها لهم على أحسن النظر فيما ساقه على سبيل الفرض والتقدير ليكون أدعى الى سبيل الوفاق والانصاف (أرأيتم) اى أخبروني (ان كنت على بينة) اى برهان (من ربي) وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله (ورزقني) والضمير في (منه) لله تعالى اى من عنده باعانته بلا كد مني في تحصيله وعظم الرزق بقوله (رزقا حسنا) جليلا وما لا حلالا لم أظلم فيه أحدا وجواب الشرط محذوف اى فهل يسوغ مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ان أخون في وحيه فأخالفه في امره ونهيه وهذا اعتذار عما انكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء (وما أريد ان أخالفكم) اى واذهب (الى ما انهاكم عنه) فارتكبه (ان) اى ما (اريد) اى فيما آمركم به وانهاكم عنه (الا الاصلاح) اى ما أريد الا ان اصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر (ما استطعت) اى وهو الابلاغ والانذار فقط ولا استطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله تعالى فانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء (وما توفيقي) اى لاصابة الحق والصواب (الا بالله) اى الا بمعونته وتأييده (عليه) لا على غيره (توكلت) اى اعتمدت في جميع أموري فانه القادر على كل شيء وما عداه عاجز وهذه الصيغة تفيد الحصر فلا ينبغي للانسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وفيه اشارة الى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب المبدا وأما قوله (واليه انيب) ففيه اشارة الى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر لان قوله واليه انيب يدل على انه لا مآب للخلق الا الى الله تعالى وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر شعيبا قال ذلك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه (ويا قوم لا يجرمنكم) اى لا يكسبنكم (شقاقي) اى خلافي وهو فاعل يجرم والضمير مفعول أول والمفعول الثاني (ان يصيبكم) عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة قال في الكشاف جرم مثل كسب في تعديه الى مفعول واحد والى مفعولين تقول جرم ذنبا وكسبه وجرمته ذنبا وكسبته اياه ومنه قوله تعالى لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح العقيم (أو قوم صالح) من الرجفة (وما قوم لوط منكم ببعيد) لا في الزمان ولا في المكان لانهم كانوا احدث عهد بهلاكهم وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم فان

فناسب قوله وآتاني (قوم ويا قوم لا أسئلكم عليه مالا) ان قلت لم قال ههنا مالا حكاية عن نوح بلفظ مالا وقاله بعد حكاية عن هود بلفظ أجرا (قلت) توسعة في التعبير عن المراد بمتساويين

اقرب فى الزمان والمكان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكأنه يقول اعتبروا باحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب (فان قيل) لم قال ببعيد ولم يقل ببعيدين (أجيب) بان التقدير وما اهلاكهم بشئ بعيد وأيضا يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما انتهى (واستغفروا ربكم) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) عن عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقدم مثل ذلك (ان ربى رحيم) أى عظيم الرحمة للتائبين (ودود) أى محب لهم ولما بالغ عليه السلام فى التقرير والبيان أجابوه بانواع فاسدة الاول (قالوا) له (يا شعيب ما نفقه) أى ما نفهم (كثيرا مما تقول) (فان قيل) انه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه (أجيب) بانهم كانوا لا يلقون اليه اذهانهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو قوله تعالى وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه أو انهم فهموه ولكنهم ما أقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه ما أدرى ما تقول * النوع الثانى قولهم له (وانا لنراك فينا ضعيفا) أى لا قوة لك فتمتنع منا ان أردناك بسوء أو ذليلا لا عزلك وقيل أعمى بلغة حمير قاله قتادة وفى هذا تجويز العمى على الانبياء الا ان هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به فى اثبات هذا المعنى لانه ترك الظاهر من غير دليل وقيل ضعيف البصر قاله الحسن * النوع الثالث قولهم له (ولولا رهطك) اى عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم (لرجمناك) بالحجارة حتى تموت والرهط من الثلاثة الى عشرة وقيل الى السبعة والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا له انه لا حرمة له عندهم ولا وقع له فى صدورهم وانهم انما لم يقتلوه لاجل احترام رهطه * النوع الرابع قولهم له (وما انت علينا بعزيز) أى لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من أهل ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا * ولما خوف الكفار شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء حكى الله تعالى عنهم ما ذكروه ٢ فى هذا المقام وهو نوعان الاول (قال) لهم (يا قوم) مستعطفا لهم مع غلظتهم عليه (أرهطى أعز عليكم من الله) المحيط بكل شئ قدرة وعلما حتى نظرتم اليهم فى قرابتى منهم ولم تنظروا الى الله تعالى فى قربى منه لما ظهر على من كرامته تعالى (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى جعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والاهانة لرسوله قال فى الكشاف والظهرى منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره قولهم فى النسبة الى الامس امسى بكسر الهمزة وقوله (ان ربى بما تعملون محيط) أى انه عليم باحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها * النوع الثانى قوله (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) والمكانة الحالة التى يمكن صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما فى وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الى (انى) أيضا (عامل) بما آتانى الله من القدرة والطاعة (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) فمن موصولة مفعول العلم (فان قيل) لم لم يقل فسوف تعلمون (أجيب) بان ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل واما حذف الفاء فيجعله

ولان قصة نوح وقع بعدها نحزانك والمال بها أنسب (فان قلت) لم قال فى الاولى ويا قوم بالواو وفى الثانية يا قوم بدونها (قلت) لطول الكلام الواقع بين النداءين فى قصة نوح وقصيره بينهما

٢ قوله حكى الله تعالى عنهم ما ذكروه سبق قلم والصواب حكى الله عنه ما ذكره اه مصححه

جوابا عن سؤال مقدر وهو المسمى فى علم البيان بالاستئناف البيانى تقديره انه لما قال ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل فى باب الفصاحة والتهويل لانه استئناف (وارتقبوا) اى انتظروا عاقبة أمركم (انى معكم رقيب) اى منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع (ولما جاء أمرنا) بعذابهم واهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة) اى بفضل (منا) بان هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة (فان قيل) لم جاءت قصة عاد وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء (أجيب) بان قصة عاد ومدين لم يسبقهما ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتى صالح ولوط فانهما ذكرا بعد الوعد وذلك قوله تعالى وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح فلذلك جاء بفاء السببية (وأخذت الذين ظلموا) اى ظلموا انفسهم بالشرك والبخس (الصيحة) اى صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة خرجت أرواحهم وماتوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء (فاصبحوا فى ديارهم جاثمين) اى باركين على الركب ميتين (كأن لم يغنوا) اى كأنهم لم يقيموا (فيها) اى ديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غنى بالمكان اذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره (الا بعدا) اى هلاكا (لمدين كما بعدت ثمود) انما شبههم بهم لان عذابهم كان أيضا بالصيحة لكن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم قال ابن عباس لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب الا قوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم شعيب فاخذتهم الصيحة من فوقهم ❊ القصة السابعة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر قصصها قصة موسى عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا) اى التوراة مع ما فيها من الشرائع والاحكام (وسلطان مبين) اى برهان بين ظاهر على صدق نبوته ورسالته وقيل المراد بالآيات المعجزات وبالسلطان المبين العصا لانها اظهر الآيات وذلك لان الله تعالى اعطى موسى تسع آيات بينات وهى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والسنين ومنهم من ابدل نقص الثمرات والسنين باظلال الجبل وفلق البحر قال بعض المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة له كالسلطان يقهر غيره والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة الا ان سلطنة العلماء أكمل واقوى من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء لان سلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة (الى فرعون) طاغية القبط (وملئه) اى أشراف قومه الذين تتبعهم الاذناب لان القصد الاكبر رفع أيديهم عن بنى اسرائيل (فاتبعوا أمر فرعون) اى اتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلال والطغيان الداعى الى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل ولم يتبعوا موسى الهادى الى الحق المؤيد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم (وما أمر فرعون برشيد) اى بسديد ولا

فى قصة هود فناسب ذكر الواو فى الاول لتوصل ما بعدها بما قبلها (قوله لا عاصم اليوم الآية) الاستثناء فيه منقطع لان من رحمه الله معصوم لا عاصم او متصل لان معنى لا عاصم

حميد العاقبة ولا يدعو الى خير وقيل رشيد ذو رشد وانسلاخ فرعون من الرشد كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على أهل كل بلد ان يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وكل الرشد في عبادة الله تعالى ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية (يقدم قومه يوم القيامة) الى النار كما كان يقدمهم في الدنيا الى الضلال أو كما تقدم قومه في الدنيا فادخلهم البحر وأغرقهم فكذا يتقدمهم في القيامة فيدخلهم النار كما قال تعالى (فأوردهم النار) * فان قيل لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل أتى بلفظ الماضي (أجيب) بانه انما أتى بلفظ الماضي مبالغة في تحققه ونزل النار لهم منزلة الماء فسمى اتيانها موردا ولهذا قال تعالى (وبئس الورد المورود) وردهم لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده (فان قيل) لفظ النار مؤنث فكان مقتضى ذلك ان يقال وبئست الورد المورود (أجيب) بان لفظ الورد مذكرة فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار (واتبعوا في هذه) اى الدنيا (لعنة) اى طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة) اى واتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم ملعونون في الدنيا والآخرة ونظيره قوله تعالى في سورة القصص وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين (بئس الرفد) اى العون (المرفود) رفدهم سأل نافع بن الازرق ابن عباس عن ذلك فقال هو اللعنة بعد اللعنة وقال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شئ جعلته عونا لشئ فقد رفدته به وسميت اللعنة عونا لانها اذا تبعتهم في الدنيا ابعدتهم عن الرحمة واعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفدا اى عونا لهذا المعنى على التهكم كقول القائل * تحية بينهم ضرب وجيع * وسميت معانا لانها اردفت في الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هاديتين الى طريق الجحيم * ولما ذكر تعالى قصص الاولين قال تعالى (ذلك) اى المذكور وهو مبتدأ خبره (من انباء القرى) اى اخبار اهل القرى وهم الامم السالفة في القرون الماضية وقوله تعالى (نقصه عليك) اى نخبرك به يا محمد خبر بعد خبر وفائدة ذكر هذه القصص على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع ان المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة وان الكافر يخرج مع اللعنة في الدنيا والعقاب في الآخرة واذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلابد وان يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال وفي اخباره صلى الله عليه وسلم هذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذ دلالة على نبوته فان ذلك لا يكون الا بوحي من الله تعالى (منها) اى القرى (قائم) اى باق كالزرع القائم هلك أهله ومنها (و) منها (حصيد) اى عافي الاثر كالزرع المحصود هلك مع أهله (وما ظلمناهم) اى باهلاكهم بغير ذنب (ولكن ظلموا انفسهم) بالكفر والمعاصي وقال ابن عباس يريد وما نقصناهم في الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى (فما أغنت) اى دفعت (عنهم آلهتهم) اى اصنامهم (التي يدعون) اى يعبدون (من دون الله)

من رحم الراحم وهو الله فكأنه قيل لا عاصم الا الله أو لا ن عاصما بمعنى معصوم كماء دافق وعيشة راضية (قوله يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي) * ان قلت هما لا يعقلان فكيف أمرا

اى غيره (من شئ) اى شيأ من مزيدة (لما جاء امر ربك) اى عقابه (وما زادوهم) بعبادتهم (غير
تتبيب) اى غير تخسير وقيل تدمير ولما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه بما فعله
بامم من تقدم من الانبياء عليهم الصلاة والسلام لما خالفوا الرسل وما ورد عليهم من عذاب
الاستئصال وبين انهم ظلموا انفسهم فحل بهم العذاب فى الدنيا قال تعالى بعده (وكذلك)
اى ومثل ذلك الاخذ العظيم (اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى) اى القرى (ظالمة) والمراد
اهلها ونظيره قوله تعالى وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها وقوله تعالى وكم قصمنا من قرية
كانت ظالمة فبين تعالى ان عذابه ليس مقصورا على من تقدم بل الحال فى اخذ كل الظالمين
يكون كذلك و لما بين تعالى كيفية اخذ الامم المتقدمة ثم بين تعالى انه انما يأخذ جميع
الظالمين على ذلك الوجه اتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية بقوله تعالى (ان اخذه اليم) اى
مؤلم (شديد) اى صعب مفتت القوى وعن ابى موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك اخذ
ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد وفى هذه الآية الكريمة والحديث
الشريف دلالة على ان من اقدم على ظلم فانه يتداركه بالتوبة والانابة ورد الحقوق الى اهلها
ان كان الظلم للغير لئلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الآية
مختصة بظالمى الامم الماضية بل هى عامة فى كل ظالم ويعضده الحديث (ان فى ذلك) اى ما ذكر
من عذاب الامم الماضية واهلاكهم (لآية) اى لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب) يوم الحياة
(الآخرة) لانه ينظر ما أحل الله تعالى بالمجرمين فى الدنيا وما هو الا انموذج لما اعد لهم فى الآخرة
فاذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفا فى زيادة
التقوى والخشية من الله تعالى وقوله (ذلك) اشارة الى يوم القيامة لان عذاب الآخرة دل
عليه (يوم مجموع له) اى فيه (الناس) اى ان خلق الاولين والآخرين كلهم يحشرون فى ذلك
اليوم ويجمعون ثم وصفه تعالى بوصف آخر بقوله تعالى (وذلك يوم مشهود) اى يشهده اهل
السموات واهل الارض (وما نؤخره) اى ذلك اليوم وهو يوم القيامة (الا لاجل) اى وقت
(معدود) اى معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه الا الله تعالى (يوم يأتى) ذلك اليوم (لا تكلم)
فيه حذف احدى التاءين اى لا تتكلم (نفس الا باذنه) تعالى وقرأ نافع وابو عمرو والكسائى
باثبات الياء بعد التاء من يأتى وصلا ووقفا وحذفها الباقون واما التاء من تكلم فشددها البزى
فى الوصل وخففها الباقون (فان قيل) كيف يوفق بين قوله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل
عن نفسها وقوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (أجيب) بان ذلك اليوم
يوم طويل له مواقف ومواطن ففى بعضها يجادلون عن أنفسهم وفى بعضها يكفون عن
الكلام ولا يؤذن لهم وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفى بعضها يختم على أفواههم وتتكلم
أيديهم وتشهد أرجلهم (فمنهم) اى الناس (شقى و) منهم (سعيد) اى فمنهم من سبقت له الشقاوة
فوجبت له النار بمقتضى الوعيد ومنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد
وعن على رضى الله تعالى عنه قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة ثم نكت بها الارض ساعة ثم قال ما من نفس منفوسة

(قلت) الامر هنا أمر ايجاد لا أمر ايجاب فلا يشترط فيه فهم ولا عقل لان الاشياء كلها منقادة لله تعالى ومنه قوله تعالى انما أمرنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون وقوله فقال لها

الا قد كتب مكانها من الجنة أو النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من أهل السعادة فيصير الى عمل اهل السعادة ومن كان من اهل الشقاوة فيصير لعمل اهل الشقاوة ثم قرأ فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية وبقيع الغرقد هو مقبرة اهل المدينة الشريفة ومدفنهم فيه والمخصرة كالسوط والعصا مما يمسكه الانسان بيده والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشئ بتلك المخصرة او باليد او نحو ذلك حتى يؤثر فيه (فاما الذين شقوا) في علمه تعالى (ففي النار لهم فيها زفير) وهو صوت شديد (وشهيق) وهو صوت ضعيف وقيل الزفير اخراج النفس والشهيق رده وقيل الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير بالنهيق والشهيق بمنزلة آخر صوت الحمار اذا ردده في صدره وقيل الزفير في الحلق والشهيق في الصدر وعلى كل فالمراد منهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم (خالدين فيها) وقوله تعالى (مادامت السموات والارض) فيه وجهان احدهما سموات الآخرة وارضها وهي مخلوقة دائمة للابد والدليل على ان لها سموات وارضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ولانه لابد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم اما سماء يخلقها الله تعالى او يظلهم العرش وكل ما اظلك فهو سماء وكل ما استقر قدمك عليه فهو ارض والوجه الثاني ان المراد مدة دوامهما في الدنيا (الا) اي غير (ماشاء ربك) من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له وذلك هو الخلود فيها ابدا (ان ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض (واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) كما تقدم ودل عليه قوله تعالى (عطاء غير مجذوذ) اي مقطوع وقيل الاستثناء في اهل الشقاوة يرجع الى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء وذلك كاف في صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض من غير الجنس لان الذين اخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء لما روى عن جابر انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بالشفاعة وفي رواية ان الله تعالى يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال ليصيبن قوما سفع من النار بذنوب اصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد اي من أهل الكبائر من امة محمد صلى الله عليه وسلم بان تخلى طبقتهم التي كانوا فيها وان نازع في ذلك الزمخشري على مذهبه الفاسد من ان أهل الكبائر يخلدون في النار واما الاستثناء في اهل السعادة فيرجع الى مدة لبثهم في النار قبل دخولهم الجنة أو ان الاستثناء راجع الى الفريقين فانهم مفارقوا الجنة ايام عذابهم وان التأبيد من مبدأ معين ينتقص باعتبار الابتداء كما ينتقص باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى فمنهم شقي وسعيد تقسيما صحيحا لان شرطه ان تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمة لان ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي او مانع من الجمع من الجنة

والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين قوله ونادى نوح ربه فقال رب قال هنا بالفاء وقال في مريم في قصة زكريا اذ نادى ربه نداء خفيا قال رب بلا فاء لانه أريد بالنداء هنا ارادته

والنار مدة تمتعهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه لو شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لا يشاء لانه تعالى حكم لهم بالخلود وقال الفراء هذا الاستثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله كقولك والله لاضربنك الا ان أرى غير ذلك وعزيمتك ان تضربه وقال اهل المعانى هذه عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون لا آتيك مادامت السموات والارض ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار يعنون أبدا وقيل ان اهل النار ينقلون منها الى الزمهرير وغيره من العذاب أحيانا وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه كما قال تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر وقرأ حفص وحمزة والكسائى سعدوا بضم السين على البناء للمفعول من سعده الله بمعنى أسعده والباقون بفتحها وعطاء نصب على المصدر المؤكد أى أعطوا اعطاء أو الحال من الجنة ● ولما شرح الله تعالى أقاصيص عبدة الاوثان ثم اتبعه باحوال الاشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومه فقال (فلا تك) يا محمد (في مرية) أى شك (مما يعبد هؤلاء) المشركون من الاصنام أنا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) أى كعبادتهم (من قبل) وقد عذبناهم (وانا لموفوهم) مثلهم (نصيبهم) أى حظهم من العذاب (غير منقوص) أى كاملا غير ناقص ● ولما ذكر تعالى في هذه الآية اعراضهم عن الاتباع مع ما أتى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب سلاه باخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة الجامعة للخير (فاختلف فيه) أى الكتاب فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن (ولولا كلمة سبقت من ربك) بتأخير الحساب والجزاء للخلائق الى يوم القيامة (لقضى) أى لوقع القضاء (بينهم) أى بين من اختلف في كتاب موسى في الدنيا فيما اختلفوا فيه بانزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ولكن سبقت الكلمة ان القضاء الكامل انما يكون يوم القيامة كما قال تعالى في سورة يونس عليه السلام فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الآية ● ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين تعالى أنه به لان كل طائفة من اليهود تنكر شكها فيه وفعلها فعل الشاك فقال تعالى مؤكدا (وانهم لفي شك) أى عظيم محيط بهم (منه) أى من الكتاب والقضاء (مريب) أى موقع في الريب والتهمة والاضطراب مع ما رأوا من الآيات التي منها اسماع كلام الله تعالى ورؤية ما كان يتجلى في جبل الطور من خوارق الاحوال وقيل الضمير في وانهم راجع لكفار مكة وفي منه للقرآن (وان كلا) أى كل الخلائق وقوله تعالى (لما) ما زائدة واللام موطئة لقسم مقدر تقديره والله (ليوفينهم ربك أعمالهم) فيجازى المصدق على تصديقه الجنة ويجازى المكذب على تكذيبه النار وقرأ نافع وابن كثير وشعبة بتخفيف وان والباقون بالتشديد وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون بالتخفيف ● (فائدة) ● قال بعض الفضلاء انه تعالى لما أخبر عن توفية الاجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات أولها كلمة ان وهي للتأكيد وثانيها كلمة

فهى سبب له فناسبت الفاء الدالة على السببية وهنالك لم يرد ذلك فناسب ترك الفاء (قوله قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) ● ان قلت هود كان رسولا فكيف لم يظهر معجزة (قلت) قد

كل وهي أم الباب في التأكيد وثانيها اللام الداخلة على خبر ان تفيد التأكيد أيضا ورابعها
حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا وخامسها المضمر وسادسها اللام الثانية الداخلة
على جواب القسم وسابعها النون المذكورة في قوله تعالى ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ
السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على ان أمر الربوبية والعبودية
لا يتم الا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله تعالى (انه بما يعملون خبير) وهو
من أعظم المؤكدات فانه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده ففيه وعد للمحسنين ووعيد
للمكذبين الكافرين * ولما بين تعالى أمر الوعد والوعيد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاستقم)
أي على دين ربك والعمل والدعاء اليه (كما أمرت) والامر في ذلك للتأكيد فانه صلى الله عليه
وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك اى دم على ما أنت عليه
من القيام حتى آتيك وتوطئة لقوله تعالى (ومن تاب معك) أي وليستقم أيضا على دين
الله والعمل بطاعته من آمن معك قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الاستقامة أن
تستقيم على الامر والنهي ولا تروغ عنه روغان الثعلب وأشار صلى الله عليه وسلم الى شدة
الاستقامة بقوله شيبتني هود وأخواتها وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما نزلت على
النبي صلى الله عليه وسلم آية أشد ولا أشق من هذه الآية وعن بعضهم رأيت رسول الله صلى
الله عليه وسلم في النوم فقلت له روي عنك انك قلت شيبتني هود فقال نعم فقلت بأي آية قال
قوله تعالى فاستقم كما أمرت وعن سفيان ابن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في
الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال قل آمنت بالله ورسوله ثم استقم قال الامام الرازي
ان هذه الآية أصل عظيم في الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر باعمال الوضوء مرتبة
في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله تعالى فاستقم كما أمرت ولما ورد الامر في الزكاة
باداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى
به انتهى * ولما كانت الاستقامة هي التوسط بين طرفي الافراط والتفريط نهى عن الافراط
بقوله تعالى (ولا تطغوا) اي لا تتجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة افراطا فان
الله تعالى انما أمركم ونهاكم لتهذيب أنفسكم لا لحاجته الى ذلك ولن تطيقوا ان تقدروا
الله حق قدره والدين متين لم يشاده أحد الا غلبه كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا ويسروا
واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة فقوله صلى الله عليه وسلم ان الدين يسر ضد
العسر أراد به التسهيل في الدين وترك التشديد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوي فلن
يغالب ولن يقاوى وقوله وسددوا أي اقصدوا السداد في الامور وهو الصواب وقاربوا أي
اطلبوا المقاربة وهي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح
الرجوع عشاء والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضا وقوله واستعينوا بشيء من الدلجة
اشارة الى تقليله * ولما نهى تعالى عن الافراط وهو الزيادة تصريحا أفهم النهي عن التفريط
وهو النقص عن المأمور تلويحا من باب أولى ثم علل ذلك مؤكدا تنزيلا لمن يفرط أو يفرط
منزلة المنكر فقال (انه بما تعملون بصير) أي عالم بأعمالكم كلها لا يخفى عليه شيء منها

الظهر ها وهي الربع
الصرصر ولا يقبل قول
الكفار في حقه قال
بعضهم أو ان الرسول انما
يحتاج الى المعجزة اذا كان
صاحب شريعة لتنقاد
امته اليها اذ لي كل شريعة

فيجازيكم

فيما زيكم عليها (ولا تركنوا) أى تميلوا (الى الذين ظلموا) أدنى ميل (فتمسكم النار) أى
تصيبكم بحرها والنهي متناول للانحطاط فى هواهم والانقطاع اليهم ومصاحبتهم
ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزي بزيهم ومد العين الى
زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم وتأمل قوله تعالى ولا تركنوا فان الركون هو الميل اليسير
وحكي أن الموفق صلى خلف الامام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه فلما أفاق قيل له فى ذلك
فقال هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم ولما خالط الزهري السلاطين كتب اليه أخ له
فى الدين عافانا الله واياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو الله لك
ويرحمك اصبحت شيخا كبيرا وقد أثقلتك نعم الله تعالى بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه
وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه وتعالى لتبيننه للناس ولا تكتمونه
واعلم ان أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت انك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغي
بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين ادناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم وجسرا
يعبرون عليك الى بلائهم وسلما يصعدون فيك الى ضلالهم يدخلون بك الشك على العلماء
ويقتادون بك قلوب الجهلاء فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك وما أكثر ما أخذوا
منك فيما أفسدوا عليك من دينك فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم فخلف من
بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا فانك تعامل من لا يجهل
ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله سقم وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد
وما يخفى على الله من شيء فى الارض ولا فى السماء والسلام وقال سفيان فى جهنم واد لا يسكنه
الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعي ما من شيء أبغض الى الله تعالى من عالم يزور عاملا
أى من الظلمة وعن محمد بن سلمة الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء وقال صلى
الله عليه وسلم من دعا للظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه ولقد سئل سفيان عن ظالم
أشرف على الهلاك فى برية هل يسقى شربة ماء فقال لا فقيل له يموت فقال دعه يموت وقوله
تعالى (وما لكم من دون الله من أولياء) أى أعوانا وأنصارا يمنعونكم من عذابه حال من قوله
فتمسكم النار أى فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة (ثم لا تنصرون) اى لا تجدون من ينصركم
ويخلصكم من عذاب الله فى القيامة فى هذه الآية وعيد لمن ركن الى الظلمة بأن تمسه النار
فكيف يكون حال الظالم فى نفسه ولما أمر تعالى بالاستقامة أردفه بالامر بالصلاة بقوله تعالى
(وأقم الصلوة) وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى هو الصلاة وقوله
تعالى (طرفى النهار) الغداة والعشي اى الصبح والظهر والعصر وقوله تعالى (وزلفا) جمع
زلفة أى طائفة (من الليل) اى المغرب والعشاء (ان الحسنات) كالصلوات الخمس (يذهبن)
أى يكفرن (السيئات) اى الذنوب الصغائر لما رواه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال الصلوات
الخمس والجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وزاد فى رواية أخرى ورمضان
الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه سمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس
مرات ما تقولون هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شيء فقال ذلك مثل

احكام غير معقولة ويحتاج
الرسول الآتى بها الى
معجزة تدل على صدقه
وهو لم يكن له شريعة
وانما كان يأمر بالعقل فلا
يحتاج الى معجزة لان الناس
ينقادون الى ما يأمرهم به

الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات وعن الحسن ان الحسنات قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وسبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذى عن أبى اليسر بن عمرو قال أتتنى امرأة وزوجها بعثه النبى صلى الله عليه وسلم فى بعث فقالت بعنى بدرهم تمرا قال فاعجبتنى فقلت ان فى البيت تمرا هو أطيب من هذا فالحقينى فدخلت معى البيت فاهويت اليها فقبلتها فاتيت أبا بكر فذكرت ذلك فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فاتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فاتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخنت رجلا غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من أهل النار وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى اليه وأقم الصلوة طرفى النهار وزلفا من الليل الى قوله تعالى (ذلك ذكرى للذاكرين) اى عظة للمتقين قال أبو اليسر فاتيته فقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وعن عبد الله بن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فاتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت فقال رجل يا رسول الله ألهذا خاصة فقال بل للناس كافة وعن معاذ بن جبل قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلا لقى امرأة ليس بينهما معرفة وليس يأتى الرجل الى امرأته شيأ الا قد أتى هو اليها الا أنه لم يجامعها قال فانزل الله تعالى هذه الآية وأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلى فقال معاذ بن جبل فقلت يا رسول الله أهى له خاصة أم للمؤمنين عامة قال بل للمؤمنين عامة قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط الاول الاقلاع عن الذنب بالكلية الثانى الندم على فعله الثالث العزم التام على أن لا يعود اليه فى المستقبل فاذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى والاشارة فى قوله تعالى ذلك ذكرى الى ما تقدم ذكره من قوله تعالى فاستقم كما أمرت الى ههنا وقيل هو اشارة الى القرآن وقوله تعالى (واصبر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى واصبر يا محمد على أذى قومك أو على الصلاة وهو قوله تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أى أجر أعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على ان الصلاة والصبر احسان وايماء بانه لا يعتد بهما دون الاخلاص ❁ ولما بين تعالى أن الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين ان السبب فيه أمران السبب الاول انه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الارض فقال تعالى (فلولا) اى فهلا (كان من القرون) أى من الامم الماضية (من قبلكم أولوا بقية) اى اصحاب دين وخير وفضل (ينهون عن الفساد فى الارض) ومعنى الفضل والجود بقية لان الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وافضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم وبه فسر بيت الحماسة

لموافقته للعقل والمعتقد
الجواب الاول ولا يلزم من
عدم اظهاره معجزة عدمها
فى نفس الامر فقد قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما من نبى الا وقد أوتى
من الآيات ما مثله آمن

* ان تذنبوا ثم يا بني بقيتكم * ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى اى فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه * (فائدة) * حكى عن الخليل أنه قال كل ما في القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التي في الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات لولا أن تداركه نعمة من ربه ولولا رجال مؤمنون ولولا أن ثبتناك انتهى وقوله تعالى (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع معناه ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون النهي السبب الثاني لنزول عذاب الاستئصال قوله تعالى (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) اى ما نعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك (وكانوا مجرمين) اى كافرين * (تنبيه) * قوله تعالى واتبع الذين ظلموا ان كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر لان المعنى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا وان كان معناه واتبعوا جزاء الاتراف فالواو للحال فكأنه قيل أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم وقوله تعالى وكانوا مجرمين عطف على أترفوا اى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو على اتبعوا اى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك ثم بين تعالى انه ما أهلك أهل القرى بظلم بقوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) اى بشرك (وأهلها مصلحون) فيما بينهم والمعنى انه لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم والحال ان عذاب الاستئصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقدين الشرك بل انما ينزل ذلك العذاب اذا أساؤا في المعاملات وسعوا في الايذاء والظلم ولهذا قيل ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال في الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وانما نزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) اى أهل ملة واحدة وهي الاسلام كقوله تعالى ان هذه أمتكم أمة واحدة وفي هذه الآية دليل على ان الامر غير الارادة وأنه تعالى لم يرد الايمان من كل أحد وان ما أراده يجب وقوعه والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار ولهذا قال الزمخشري يعني لاضطرهم الى ان يكونوا أهل ملة واحدة (ولا يزالون مختلفين) اى على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الاديان اختلفوا في دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة وفي رواية ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة فثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة والمراد بهذه الفرق أهل البدع والاهواء كالقدرية والمعتزلة والرافضة والمراد بالواحدة هي ملة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله (فان قيل) ما الدليل على ان الاختلاف في الاديان

عليه السلام بشرة وقولهم ما جئتنا ببينة كقول غيرهم ان هو الا رجل به جنة ان هذا لساحر عليم (قوله ولما جاء أمرنا نجينا هودا) قاله في قصة هود وشعيب بالواو وفي قصة صالح ولوط بالفاء

فلم لا يجوز ان يحمل على الاختلاف في الالوان والالسنة والارزاق والاعمال (أجيب) بان
الدليل عليه ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فيجب حمل
الاختلاف على ما يخرجهم من ان يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية وهو قوله تعالى (الا
من رحم ربك) اى أراد لهم الخيرة لا يختلفون فيه فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح أن
يستثنى منه ذلك وفي هذه الآية دلالة على ان الهداية والايمان لا تحصل الا بتخليق الله تعالى
لان تلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة
العذر فان كل ذلك حاصل في حق الكفار فلم يبق الا ان يقال تلك الرحمة هو انه سبحانه وتعالى
خلق فيهم تلك الهداية والمعرفة (ولذلك خلقهم) اى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وخلق
أهل الرحمة للرحمة روى عن ابن عباس انه قال خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل
العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا والحاصل ان
الله تعالى خلق اهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على
بعضهم بالاختلاف وهم أهل الباطل ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم أهل
الحق ومصيرهم الى الجنة ويدل لذلك قوله تعالى (وتمت كلمة ربك) وهي (لأملأن جهنم من
الجنة) اى الجن (والناس أجمعين) وهذا صريح بان الله تعالى خلق أقواما للجنة والرحمة
فهداهم ووفقهم لاعمال أهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية
ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر نوعين من الفائدة أولهما تثبيت الفؤاد
بقوله تعالى (وكلا) اى وكل نبأ (نقص عليك) وقوله تعالى (من أنباء الرسل) اى نخبرك به بيان
لكل وقوله تعالى (ما نثبت به فؤادك) بدل من كلا ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه وطمأنينة
قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك لان الانسان اذا ابتلى
بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت واذا
سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا
سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه * الفائدة الثانية قوله تعالى (وجاءك
في هذه الحق) اى في السورة وعليه الاكثر أو في هذه الانباء المقتصة فيها وقال الحسن في هذه
الدنيا قال الرازى وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير لها
(فان قيل) قد جاءه الحق في غير هذه السورة بل القرآن كله حق وصدق (أجيب) بانه انما
خصها بالذكر تشريفا لها (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك
بخلاف الكفار فذكر تعالى أمورا ثلاثة الحق والموعظة والذكرى أما الحق فهو اشارة الى
البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وأما الموعظة فهي اشارة الى التنفير عن
الدنيا وتقبيح أحوالها وأما الذكرى فهي اشارة الى الارشاد الى الاعمال النافذة الصالحة في
الدار الآخرة ولما بلغ تعالى الغاية في الانذار والاعذار والترغيب والترهيب أتبع ذلك بان
قال للرسول صلى الله عليه وسلم (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم) اى حالتكم وفيه
وعيد وتهديد وان كانت صيغته صيغة الامر فهو كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت

لان العذاب في قصة الاولين تأخر عن وقت الوعيد فناسب الاتيان بالواو وفي قصة الآخرين وقع العذاب عقب الوعيد فناسب الاتيان بالفاء الدالة على التعقيب (قوله فان تولوا فقد

منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وقرأ شعبة بعد النون بالف على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (انا عاملون) اى على حالتنا التى أمرنا بها ربنا (وانتظروا) اى مايعدكم الشيطان به من الخذلان (انا منتظرون) اى مايحل بكم من نقم الله تعالى وعذابه نحو ما نزل على أمثالكم وقيل انا منتظرون ماوعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال (ولله غيب السموات والارض) اى علم ماغاب فيهما فعلمه سبحانه وتعالى نافذ فى جميع مخلوقاته خفيها وجليها (واليه) اى لا الى غيره (يرجع الامر كله) اى اليه يرجع أمر الخلق كلهم فى الدنيا والآخرة وقرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول والباقون بفتح الياء وكسر الجيم ولما كان أول درجات السير الى الله تعالى عبوديته وآخرها التوكل عليه قال تعالى (فاعبده) ولا تشتغل بعبادة غيره (وتوكل عليه) اى ثق به فى جميع أمورك فانه كافيك (وماربك بغافل عما تعملون) فيحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه شئ منها فيجزى المحسن باحسانه والمسئ باساءته وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة
(فائدة) قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء حديث موضوع

سورة يوسف عليه السلام مكية

مائة واحدى عشرة آية وعدد كلماتها ألف وتسعمائة وست وتسعون كلمة
وعدد حروفها سبعة آلاف ومائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى وسع كل شئ قدرة وعلما (الرحمن) لجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى (الرحيم) الذى خص حزبه بالابعاد عن مواطن الردى وقوله تعالى (الر) تقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة وقرأ ورش بالامالة بين بين وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى بالامالة محضة والباقون بالفتح واختلف فى سبب نزول هذه السورة فعن سعيد بن جبير أنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتلوه على قومه فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا يارسول الله لو حدثتنا فنزل الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها فقالوا لو ذكرتنا فنزل الله ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وعن ابن عباس انه قال سألت اليهود النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فنزلت هذه السورة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة اى تلك الآيات التى أنزلت اليك فى هذه السورة المسماة بالرهى (آيات الكتاب) اى القرآن (المبين) اى المبين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل الذى ثبت فيه قصص الاولين والآخرين وشرحت فيه أحوال المتقدمين (انا أنزلناه) اى الكتاب (قرآنا عربيا) اى بلغة العرب لكى يعلموا معانيه ويفهموا مافيه روى ان علماء اليهود قالوا لكبراء

ابلغتكم) جواب الشرط محذوف ان الابلاغ ليس هو الجواب لتقدمه على توليهم وانما هو متعلق الجواب والتقدير فقل لهم قد ابلغتكم (قوله ونجيناهم من عذاب غليظ)

المشركين اسألوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فانزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض (لعلكم) يا أهل مكة (تعقلون) اى ارادة ان تفهموا وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته واختلف العلماء هل في القرآن شئ بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم ان في القرآن لسانا غير العربية فقد أعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا أنزلناه قرآنا عربيا وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة واليم واستبرق وجمع بعض المفسرين بين القولين بان هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية في الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة وهو جمع حسن (نحن نقص عليك أحسن القصص) اى أحسن الاقتصاص لانه اقتص على أبدع الاساليب والقصص اتباع الخبر بعضه بعضا وأصله في اللغة من قص الاثر اذا اتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ والمعنى انا نبين لك يا محمد أخبار الامم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان أو قصة يوسف عليه السلام خاصة وسماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والغلمان ومكر النساء والصبر على ايذاء الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك قال خالد بن معدان في سورة يوسف ومريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة وقال ابن عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها (بما) اى بسبب ما (أوحينا) اى بايحائنا (اليك) يا محمد (هذا القرآن) الذي قالوا فيه انه مفترى فنحن نتابع القصص القصة بعد القصة حتى لا يشك شاك ولا يمترى ممتر أنه من عند الله (وان كنت من قبله) اى ايحائنا اليك أو هذا القرآن (لمن الغافلين) اى عن قصة يوسف واخوته لانه صلى الله عليه وسلم انما علم ذلك بالوحي وقيل لمن الغافلين عن الدين والشريعة وان هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وقوله تعالى (اذ قال يوسف لابيه) بدل من أحسن القصص أو منصوب باضمار اذكر ويوسف اسم عبري وقيل عربي ورد بانه لو كان عربيا لصرف وسئل أبو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف في اللغة الحزن والاسيف العبد واجتمعا في يوسف فسمي به وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وقوله (يا أبت) أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ولذلك قلبها ابن كثير وابن عامر هاء في الوقف ووقف الباقون بالتاء كالرسم وفي الوصل بالتاء للجميع وفتح التاء في الوصل ابن عامر وكسرها الباقون (انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) قال أهل التفسير رأى يوسف عليه الصلاة والسلام في منامه وكان ابن اثنتى عشرة سنة وقيل سبع عشرة وقيل سبع سنين ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وفسروا الكواكب باخوته وكانوا أحد عشر

كرر التنجية لان المراد بالاولى تنجيتهم من عذاب الدنيا الذى نزل بقوم هود وهى سموم أرسلها الله تعالى اليهم فقطعتهم عضوا عضوا وبالثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذى

يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس والقمر بابيه وأمه بجعل الشمس للام لانها مؤنثة والقمر للاب لانه مذكر والذي رواه البيضاوي تبعا للكشاف عن جابر من ان يهوديا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فاخبره باسمائها فقال اليهودي اي والله انها لاسماؤها قال ابن الجوزي انه موضوع وقوله (رأيتهم لي ساجدين) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرار لان الرؤية الاولى تدل على انه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية تدل على انه شاهد كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قيل له كيف رأيت قال رأيتهم لي ساجدين وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤية وأيهما يحمل على الرؤيا قال الرازي فذكر قولا مجملا غير مبين (فان قيل) قوله رأيتهم وقوله ساجدين لا يليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جاءت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات (أجيب) بأنها لما وصفت بالسجود صارت كأنها تعقل وأخبر عنها كما أخبر عمن يعقل كما قال تعالى في صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وكما في قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم (فان قيل) لم أفرد الشمس والقمر بالذكر مع أنهما من جملة الكواكب (أجيب) بانه أفردهما لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وهل المراد بالسجود نفس السجود حقيقة أو التواضع كلاهما محتمل والاصل في الكلام حمله على الحقيقة قال أهل التفسير ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن أبويه واخوته يخضعون له وخاف عليه حسدهم وبغيهم (قال) له أبوه (يا بني) بصيغة التصغير للشفقة أو لصغر سنه على ما تقدم وقرأ حفص في الوصل بفتح الياء والباقون بالكسر والتشديد للجميع (لا تقصص رؤياك على اخوتك) أي لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها (فيكيدوا لك كيدا) أي فيحتالوا في هلاكك (فان قيل) لم لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدوني (أجيب) ان هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقوله نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك وقيل صلة كقوله لربهم يرهبون (ان الشيطان للانسان عدو مبين) أي ظاهر العداوة كما فعل بآدم وحواء فلا يألو جهدا في تسويلهم واثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد وعن أبي قتادة قال كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحبه فلا يحدث به الا من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لا تضره وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره وعن أبي رزين العقيلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا المؤمن جزء من أربعين جزأ من النبوة وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها الا

استحقه قوم هود بالكفر (قوله وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة) قال هنا بذكر الدنيا وقال في قصة موسى بعد في هذه لعنة بحذفها اختصارا واكتفاء بما هنا (قوله وأخذ

لبيبا أو حبيبا وانما أضيفت الرؤيا المحبوبة الى الله اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا من خلق الله تعالى وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيهما ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب اذا رأى الشخص فى منامه ما يحب أن يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها وليتفل ثلاثا وليتحول عن جنبه الآخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال قال الحكماء ان الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب فيه ان رحمة الله تعالى تقتضى أن لا يحصل الاعلام بوصول الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدما على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم ولهذا لم تظهر رؤيا يوسف عليه السلام الا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصرى كان بينهما ثمانون سنة حتى اجتمع عليه أبواه واخوته وخروا له ساجدين (وكذلك) اى وكما اجتباك ربك للاطلاع على هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال نفس (يجتبيك) اى يختارك ويصطفيك (ربك) بالدرجات العالية واجتباء الله تخصيصه بفيض الهى يحصل منه أنواع الكرامات بلا سعى من العبد وذلك مخصوص بالانبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وقوله (ويعلمك) كلام مستأنف خارج عن التشبيه والتقدير وهو يعلمك (من) اى بعض (تأويل الاحاديث) من تأويل الرؤيا وغيرها من كتب الله تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين وكان يوسف عليه السلام فى تعبير الرؤيا وغيرها غاية والتأويل ما تؤول اليه عاقبة الامر (ويتم نعمته عليك) بالنبوة قال ابن عباس لان منصب النبوة اى مع الرسالة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من تمام النعمة عليهم لان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق فى حق البشر ليس الا النبوة والرسالة وقيل يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة أما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع فى المال والجاه والاجلال فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد وأما سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى (وعلى آل يعقوب) اى أولاده وهذا يقتضى حصول تمام النعمة لآل يعقوب وتمام النعمة هو النبوة والرسالة كما مر فلزم حصولها لآل يعقوب وأيضا ان يوسف عليه السلام قال انى رأيت أحد عشر كوكبا وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ويستضئ بعلمهم ودينهم أهل الارض لانه لا شئ أضوأ من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضى أن تكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا (فان قيل) كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه فى حق يوسف عليه السلام (أجيب) بان ذلك وقع منهم قبل النبوة والعصمة من المعاصى انما تعتبر بعد النبوة لا قبلها على خلاف فيه (كما أتمها على أبويك) بالنبوة والرسالة وقيل اتمام النعمة على ابراهيم عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه خليلا وعلى اسحق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح

الذين ظلموا الصيحة) قاله هناك فى قصة صالح بلا تاء وقاله بها بعد فى قصة شعيب وكل صحيح لكن اختص الثانى بها لان قوم شعيب وقع الاخبار عن عذابهم

عظيم على قول ان اسحق هو الذبيح (من قبل) أي من قبل هذا الزمان وقوله (ابراهيم واسحق)
عطف بيان لابويك ثم ان يعقوب عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام
بقوله (ان ربك عليم) أي بليغ العلم (حكيم) أي بليغ الحكمة وهي وضع الاشياء في أتقن
مواضعها (لقد كان في) خبر (يوسف واخوته) وهم أحد عشر يهوذا وروبيل وشمعون
ولاوى وزبلون قال البقاعي بزاى وباء موحدة ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة
خال يعقوب وولد له من سريتين احداهما زلفى والاخرى بلهم كذا قاله البغوي وقال الرازى
والاخرى بلهة أربعة اولاد وأسماؤهم دان ونفتالى قال البقاعي بنون مفتوحة وفاء ساكنة
ومثناة فوقية ولام بعدها ياء وجاد وأشر ثم توفيت ليا فتزوج باختها راحيل فولدت له يوسف
وبنيامين وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرما حينئذ (آيات) اى علامات ودلائل على قدرة
الله تعالى وحكمته في كل شئ (للسائلين) عن قصصهم قال الرازى وان لم يسأل عنها وهو كقوله
تعالى في أربعة أيام سواء للسائلين وقيل آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن اليهود
سألوه عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من ارض كنعان الى ارض
مصر فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فكان دلالة على
نبوته صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء واصحاب الاخبار ولم
يأخذ عنهم شيأ فدل ذلك على أن ما يأتي به وحي سماوي أوحاه الله تعالى اليه وعرفه به وهذه
السورة تشتمل على انواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف عليه السلام وما حقق
الله تعالى فيها من حسد اخوانه وما آل اليه امره من الملك ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب
وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي اذا فكر فيها
الانسان اعتبر وقرأ ابن كثير آية على التوحيد والباقون على الجمع (اذ) أي واذكر اذ (قالوا)
أي بعض اخوة يوسف لبعض بعد أن بلغتهم الرؤيا وقالوا ما رضي أن تسجد له اخوته حتى
يسجد له أبواه (ليوسف واخوه) اى بنيامين (أحب الى ابينا منا) اللام لام الابتداء وفيها
تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وخبر المبتدا
أحب ووحد لان افعل يستوى فيه الواحد وما فوقه مذكرا كان أو مؤنثا اذا لم يعرف ولم
يضف وقيل اللام لام قسم تقديره والله ليوسف وانما قالوا وأخوه وهم جميعا اخوته لان
أمهما كانت واحدة والواو في قولهم (ونحن عصبة) واو الحال أي يفضلهما في المحبة علينا
وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن جماعة أقوياء نقوم بمرافقه فنحن أحق
بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها
وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور ويستكفى بهم النوائب (ان
أبانا لفي ضلال) اى خطا (مبين) اى بين في ايثاره حب يوسف واخيه علينا والقرب المقتضى
للحب في كلنا واحد لانا في البنوة سواء ولنا مزية تقتضي تفضيلنا وهي أنا عصبة لنا من النفع
له والذب عنه والكفاية ما ليس لهما * (تنبيه) * ههنا سؤالات * الاول ان من المعلوم أن
تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد فلم أقدم يعقوب عليه السلام على ذلك
(أجيب) بانه انما فضلهما في المحبة والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورا فيها ولا يلحقه

بثلاثة ألفاظ مؤنثة في
الاعراف والعنكبوت
فأخذتهم الرجفة وهنا
الصيحة وفي الشعراء الظلة
وقعت لهم الثلاثة في ثلاثة
أوقات (قوله فاسر باهلك بقطع

فى ذلك لومه الثانى كيف اعترضوا على أبيهم وهم يعلمون انه نبى وهم مؤمنون به وأجيب بانهم وان كانوا مؤمنين بنبوته لكن جوزوا أن يكون فعله باجتهاد ثم ان اجتهادهم أدى الى تخطئة أبيهم فى ذلك الاجتهاد لكونهم أكبر سنا وأكثر نفعا وغاب عنهم ان تخصيصهما بالبركان لوجوه أحدها أن أمهما ماتت ثانيها أنه كان فى يوسف من آثار الرشد والنجابة مالم يجده فى سائر أولاده ثالثها أنه وان كان صغيرا الا أنه كان يخدم أباه بانواع من الخدمة أعلى وأشرف مما كان يصدر عن سائر أولاده والحاصل أن هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين الآخر الثالث أنهم نسبوا أباهم الى الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق الرشد لا الضلال فى الدين • الرابع أن قولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا محض حسد والحسد من أمهات الكبائر لاسيما وقد أقدموا بسبب ذلك الحسد على أمور مذمومة منها قولهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أى بحيث يحصل اليأس من اجتماعه بابيه ومنها القاؤه فى ذل العبودية ومنها أنهم أبقوا اباهم فى الحزن الدائم والأسف العظيم ومنها اقدامهم على الكذب وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة (أجيب) بما تقدم أن ذلك كان قبل النبوة وقرأ نافع وابن كثير وهشام والكسائى بضم التنوين من مبين فى الوصل والباقون بالكسر فان وقف القارئ على مبين وامض فى الابتداء يبتدئ بالضم للجميع وقولهم (يخل لكم وجه أبيكم) جواب الامر أى يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا ينازعكم فى محبته أحد وقولهم (وتكونوا) مجزوم بالعطف على يخل لكم أو منصوب باضمار أن (من بعده) اى قتل يوسف أو طرحه (قوما صالحين) بان تتوبوا الى الله تعالى بعد فعلكم فانه يعفو عنكم وقال مقاتل يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم رأيا فيه وهو الذى قال فلن أبرح الارض وقيل روبيل وكان أكبرهم سنا (لا تقتلوا يوسف وألقوه) أى اطرحوه (فى غيابت الجب) اى فى اسفله وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيأ وغيبه عن النظر قال القائل

فان أنا يوما غيبتنى غيابتى • فسيروا بسيرى فى العشيرة والاهل

اراد غيابة حفرته التى يدفن فيها والجب البئر الكبيرة التى ليست مطوية سميت جبا لانها قطعت قطعا ولم يحصل فيها شئ غير القطع من طى أو ما أشبهه وانما ذكر الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين قال بعض أهل العلم انهم عزموا على قتله وعصمه الله تعالى رحمة بهم ولو فعلوا الهلكوا أجمعين واختلف فى موضع ذلك الجب فقال قتادة هو بيت المقدس وقال وهب هو بارض الاردن وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وقرأ نافع بالف بين الباء والتاء على الجمع والباقون بغير ألف على التوحيد (يلتقطه) أى يأخذه (بعض السيارة) جمع سيار اى المبالغ فى السير وذلك الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين فاذا أخذوه وذهبوا به الى ناحية أخرى فتستريح منه (ان كنتم فاعلين) اى ما أردتم من التفريق فا كتفوا بذلك ولما أجمعوا على التفريق بين

من الليل) الا آية استثنى فيها الامر أذن ولم يستثنها منها فى الطبرا كتفاء باستثنائها ثم قبله فى قوله انا لمنجوهم أجمعين الا امرأته (قوله ولا

يوسف وأبيه بضرب من الحيل (قالوا) اعمالا للحيلة في الوصول اليه مستفهمين على وجه التعجب لانه كان أحس منهم السوء فكان يحذرهم عليه (يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف و) الحال (انا له لناصحون) أي قائمون بمصلحته وحفظه * (تنبيه) * اتفق القراء على اخفاء النون الساكنة عند النون المتحركة واتفقوا أيضا على ادغامها مع الاشمام (أرسله معنا غدا) أي الى الصحراء (نرتع) أي نتسع في أكل الفواكه ونحوها وأصل الرتع أكل البهائم في الخصب في زمن الربيع ويستعار للانسان اذا أريد به الاكل الكثير (ونلعب) روى أنه قيل لابي عمرو كيف يقولون نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد باللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا كان لعبهم الاستباق والانتضال والغرض منه المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه في صورته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما والباقون بالياء وسكن العين أبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وكسرها الباقون في الوصل ولقنبل وجه آخر وهو انه يثبت الياء في نرتع بعد العين وقفا ووصلا (وانا له لحافظون) أي بليغون في الحفظ له حتى نرده اليك سالما قال أبو حيان وانتصب غدا على الظرف وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد وأصل غد غدو فحذفت الواو انتهى ثم ان يعقوب عليه السلام اعتذر لهم بعذرين الاول ما حكاه الله تعالى عنه بقوله (قال اني ليحزنني أن تذهبوا به) أي ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب لانه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي والباقون بفتح الياء وضم الزاي والثاني قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم به وكان يعقوب عليه السلام رأى في النوم أن الذئب شد على يوسف فكان يحذره فمن أجل هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم العلة وفي أمثال العرب البلاء موكل بالمنطق والمراد به الجنس وكانت أرضهم كثيرة الذئاب (قالوا) مجيبين عن الثاني بما يلين الاب لارساله مؤكدين لتطييب خاطره دالين على القسم بلامه (لئن أكله الذئب ونحن) أي والحال انا (عصبة) أي جماعة عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب وأجابوا عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط بقولهم (انا اذا) أي اذا كان هذا (لخاسرون) أي كاملون في الخسارة لانا اذا ضيعنا أخانا فنحن لما سواه من أموالنا أشد تضييعا وأعرضوا عن جواب الاول لان حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه وأقله أن يقولوا ما فوجه الشح بفراقه يوما والسماح بفراقنا كل يوم وقرأ الذيب ورش والسوسي والكسائي بابدال الهمزة ياء وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا والباقون بالهمزة وقفا ووصلا وقوله تعالى (فلما ذهبوا به) فيه اضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به (وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب) أي وعزموا على القائه فيها ولا بد من تقدير جواب وهو فجعلوه فيها وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلا عليه وهنا كذلك قال وهب وغيره من أهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له ما تشتاق أن تخرج معنا الى

(تنقصوا المكيال والميزان) تتضمن الامر هذا النهي يتضمن ... وصرح به بعد بالايفاء في قوله ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط وهو يتضمن النهي عن النقص ففي ذلك تأكيد على الحث

مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا فسل أباك أن يرسلك معنا قال يوسف أفعل فدخلوا
جميعا على أبيهم وقالوا يا أبانا ان يوسف قد أحب أن يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب
ما تقول يا بني قال نعم يا أبت اني أرى من اخوتي اللين واللطف فأحب أن تأذن لي وكان يعقوب
عليه الصلاة والسلام يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له فأرسله معهم فلما خرجوا به من
عند أبيهم جعلوا يحملونه على رقابهم وأبوهم ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى
الصحراء ألقوه على الارض وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا
يضربونه فجعل كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به يضربه فلم ير منهم رحيما فضربوه حتى
كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه ويا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من اخوته لأحزنك
ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وجعل يبكي بكاء شديدا فأخذه روبيل فجلد به
الارض ثم جلس على صدره وأراد قتله فقال له مهلا يا أخي لا تقتلني فقال له يا ابن راحيل أنت
صاحب الأحلام الكاذبة قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا
وقال له اتق الله في وحل بيني وبين من يريد قتلي فأدركته رحمة ورقة فقال يهوذا يا اخوتاه
ما على هذا عاهدتموني فانطلقوا به الى الجب ليطرحوه فيه فجاؤوا به على بئر على غير الطريق
واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه في البئر فتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه
فقال يا اخوتاه ردوا علي قميصي استتر به في الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب
تخلصك وتؤنسك فقال اني لم أر شيئا فألقوه فيها وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة
كانت في البئر فقام عليها فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة
ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقي فيها ثلاث ليال (وأوحينا اليه)
في الجب في صغره وهو ابن سبع عشرة سنة أو دونها كما أوحى الى يحيى وعيسى عليهما السلام
في صغرهما وفي القصص ان ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل
عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه ودفعه ابراهيم عليه السلام الى اسحق
واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب في تميمة علقها بيوسف فأخرجها جبريل وألبسه اياها
(لتنبئنهم) أي لتخبرنهم بعد هذا اليوم (بأمرهم) أي بصنيعهم (هذا وهم لا يشعرون) أي
انك يوسف لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للهيآت كما قال تعالى فعرفهم
وهم له منكرون والمقصود من ذلك تقوية قلبه وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير
مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره ونهيه وقهره وروي أنهم لما دخلوا عليه لطلب الحنطة
عرفهم وهم له منكرون ودعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام
انه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه وقلتم لأبيكم أكله الذئب وقيل
لا يشعرون بايحائنا اليك وأنت في البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا والفائدة في اخفاء ذلك
الوحي عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم وكانوا يقصدون قتله وقيل ان المراد من هذا
الوحي الالهام كما في قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وقوله تعالى وأوحى ربك الى النحل
(و) لما كان من المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل الذي فعلوه الا الاعتذار (جاؤوا أباهم) دون
يوسف (عشاء) في ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم في وجوههم اذا رآها في ضياء النهار ضد ما جاؤوا

على الزجر عن الجنس وعلى المثل على العمل وقدم النهي على الامر لان دفع المفاسد آكد من جلب المصالح (قوله يوم يأتي لا تكلم نفس الا باذنه) مقيد لقوله كل نفس تجادل عن

به من الاعتذار وقد قيل لا تطلب الحاجة في الليل فان الحياء في العينين ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار (يبكون) والبكاء جريان الدمع من العين والآية تدل على أنه لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع روى ان امرأة حاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبي يا أبا أمية أما تراها تبكي فقال قد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للانسان أن يقضي الا بالحق فعند ذلك فزع يعقوب عليه السلام فقال هل أصابكم في غنمكم شيء قالوا لا قال فما فعل يوسف (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) قال الزجاج يسابق بعضنا بعضا في الرمي ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا في خف أو نصل أو حافر يعني بالنصل الرمي وقيل العدو لنتبين أينا أسرع عدوا (وتركنا يوسف) أخانا (عند متاعنا) اى ما كان معنا مما نحتاج اليه في ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك (فأكله) اى فتسبب عن انفراده أن أكله (الذئب وما) أي والحال انك ما (أنت بمؤمن) أي بمصدق لنا علوا أنه لا يصدقهم بغير أمارة (لنا ولو كنا صادقين) في هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وأنت تسيء الظن بنا وقيل لا تصدقنا لانه لا دليل لنا على صدقنا وان كنا صادقين عند الله تعالى (و) لما علوا أنه لا يصدقهم بغير أمارة (جاؤا على قميصه) اى يوسف عليه السلام (بدم كذب) قال الفراء أي مكذوب فيه الا انه وصفه بالمصدر على تقدير ذي كذب أو مكذوب أطلق على المصدر مبالغة لانه غير مطابق للواقع لانهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخلة ذبحوها ولطخوا القميص بذلك الدم قال القاضي ولعل غرضهم في نزع قميصه عند القائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدا لصدقهم اذ يبعد ان يفعلوا ذلك طمعا في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يقترن بها الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الاتهام أقوى فلما شاهد يعقوب عليه السلام القميص صحيحا علم كذبهم روى أن يعقوب عليه السلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه و بكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق قميصه *(تنبيه)* على قميصه محله النصب على الظرفية كأنه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحماله ولا يصح أن يكون حالا متقدمة لان حال المجرور لا يتقدم عليه قال الشعبي قصة يوسف كلها في قميصه وذلك أنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على ابيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قميصه قد من قبل ولما أتى بقميصه الى يعقوب وألقي على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى ان اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب عليه السلام (بل سولت) اى زينت (لكم أنفسكم أمرا) ففعلتموه واختلف في السبب الذي عرف به كونهم كاذبين على وجوه الاول أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم الثاني كان عالما بأنه حي لانه عليه السلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك وذلك دليل على كذبهم في ذلك القول الثالث أنه لما رأى قميصه صحيحا قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق ثوبه وقيل انه لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم الى قميصه أحوج منهم الى قتله فلما اختلفت اقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم وقوله (فصبر جميل) مرفوع بالابتداء لكونه موصوفا وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل اولى من الجزع ومنهم من أضمر المبتدا

نفسها اى باذن ربها قوله ولا ينافي ذلك قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون لان في يوم القيامة مواقف ففي بعضها لا يؤذن لهم في الكلام فيكتمون عنه

قال الخليل الذى افعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبرى صبر جميل وقال الفراء فهو صبر جميل وعن الحسن ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر كما قال يعقوب انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال مجاهد فصبر جميل من غير جزع وقال الثورى ان من الصبر ان لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكى نفسك وروى ان يعقوب عليه السلام كان قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله تعالى اليه يا يعقوب أتشكونى فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها فى قصة الافك انها قالت والله لئن حلفت لا تصدقونى ولئن اعتذرت لا تعذرونى فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على ما تصفون فأنزل الله تعالى فى عذرها ما أنزل وقوله فصبر جميل يدل على ان الصبر على قسمين قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل فالصبر الجميل ان ينكشف له ان هذا البلاء من الحق فاستغراقه فى شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال بالشكاية من البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء لانها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل وأما الصبر لا للرضا بقضاء الله تعالى بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لا يكون جميلا (فان قيل) الصبر على قضاء الله تعالى واجب وأما الصبر على ظلم الظالمين فغير واجب بل الواجب ازالته لاسيما فى الضرر العائد الى الغير فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ فى البحث مع شدة رغبته فى حضور يوسف ونهاية حبه له وكان من بيت عظيم شريف وكان الناس يعرفونه و يعتقدون فيه (اجيب) بانه يحتمل أن يكون منع من الطلب بوحى تشديدا للمحنة عليه زيادة فى اجره أو أنه لو بالغ فى البحث لربما اقدموا على ايذائه ولم يمكنوه من الطلب والفحص فرأى ان الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر بالكلية الى الله تعالى وقال (والله المستعان) اى المطلوب منه العون (على ما تصفون) أى تذكرون من امر يوسف والمعنى ان اقدامه على الصبر لا يكون الا بمعونة الله تعالى لان الدواعى النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهى قوية والدواعى الروحانية تدعوه الى الصبر فكأن المحاربة وقعت بين الصنفين فما لم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجرى مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ما تصفون يجرى مجرى قوله واياك نستعين ولما اراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب بين سببه بقوله تعالى (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا بذلك لانهم يسيرون فى الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فاخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على ارض فيها جب يوسف وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران اى لم يكن الا للرعاة وروى ان ماءه كان ملحا فعذب حين القى يوسف فيه فلما نزلوا ارسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر ليطلب الماء فذلك قوله تعالى (فارسلوا واردهم) اى الذى يريد الماء ليستقى منه والوارد هو الذى يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء (فادلى) اى أرسل (دلوه) فى البئر يقال أدليت الدلو اذا ارسلتها فى البئر ودلوتها اذا اخرجتها والدلو معروف والجمع الدلاء فلما أرسلها تعلق بالحبل يوسف عليه السلام فلما خرج فاذا هو بغلام احسن ما يكون قال صلى

الله

وفى بعضها يؤذن لهم فيه فيشكاه ون (قوله فمنهم شقى وسعيد) ان قلت من للتبعيض ومعلوم ان الناس كلهم اما شقى أو سعيد فما معنى التبعيض (قلت) لان أهل التبعيض صحيح

الله عليه وسلم أعطى يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت جدته قد أعطيت سدس الحسن قال ابن اسحق ذهب يوسف وامه بثلثي الحسن وحكى الثعلبي عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه لا يستطيع احد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله وصوره قبل ان يصيب الخطيئة فلما رآه مالك بن ذعر (قال يابشراى هذا غلام) نادى البشرى بشارة لنفسه كأنه قال تعالى فهذا أوانك وعن الاعمش انه قال دعا امرأة اسمها بشرى فقال يابشرى وعن السدي أن المدلي نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يابشرى كما قرأ حمزة وعاصم والكسائي فانهم قرؤا بحذف الياء بعد الالف والباقون باثبات الياء وقيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك وروى ان جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين اخرج منها واختلف في ضمير (وأسروه بضاعة) الى من يعود وفيه قولان الاول انه عائد الى الوارد واصحابه أخفوا من الرفقة انهم وجدوه بالجب وذلك أنهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا وان قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالاصوب ان نقول ان اهلا لنا جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر والثاني ونقل عن ابن عباس أنه قال وأسروه يعني اخوة يوسف أسروا شأنه وذلك انيهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم فلم يجده في البئر فأخبر اخوته فطلبوه فاذا هم بمالك بن ذعر واصحابه نزول فأتوهم فاذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد لنا أبق منا وتابعهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية قال الرازي والاول أولى لان قوله وأسروه بضاعة يدل على ان المراد انهم أسروه حال ماحكموا بانه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لا باخوة يوسف ٭(تنبيه)٭ البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشيء اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوب على الحال كانه قال وأسروه حال ماجعلوه بضاعة ٭ ولما جعل تعالى هذا البلاء سببا لوصوله الى مصر ثم صارت وقائعه الى ان صار ملكا بمصر وحصل ذلك الذي رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الاعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال تعالى (والله عليم) أي بالغ العلم (بما يعملون) اى لم يخف عليه مافعلوه بيوسف وأبيهم (وشروه) اى باعوه اذ قد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشيء بمعنى بعته وانما حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير في شروه وفي كانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شيء واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير يعود الى مالك بن ذعر واصحابه وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه وقال محمد بن اسحق ربك اعلم أاخوته باعوه ام السيارة واختلفوا في معنى قوله تعالى (بثمن بخس) فقال الضحاك اى حرام لان ثمن الحر حرام وسمى الحرام بخسا لانه مبخوس البركة وقال ابن مسعود اى زيوف وقال عكرمة اى بثمن قليل ويدل لهذا قوله تعالى (دراهم معدودة) لانهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من اربعين درهما انما كانوا يأخذون مادونها عدا فاذا بلغتها وهي اوقية

القيامة ثلاثة اقسام قسم شقي وهم اهل النار وقسم سعيد وهم اهل الجنة وقسم لاشقي ولا سعيد وهم اهل الاعراف وان كان مصيرهم الى الجنة كما قال البارزي وغيره

وزنوها واختلفوا فى عدد تلك الدراهم فقال ابن عباس كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين وعلى هذا لم يأخذ أخوه بنيامين شيئا منها وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما وقال عكرمة أربعين درهما (وكانوا) اى اخوته (فيه) اى يوسف (من الزاهدين) لانهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا اذا لم يرغب فيه وأصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وقيل كانوا فى الثمن من الزاهدين لانهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وانما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه وقيل الضمير فى كانوا للسيارة لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل فى بيعه لاجرم باعوه باوكس الاثمان روى فى الاخبار ان مالك بن ذعر انطلق هو وأصحابه بيوسف وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لانه آبق فذهبوا به حتى اتوا مصر وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العمالقة وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فابى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة واقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك فى ايامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من اولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه اربعمائة رطل وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة وقيل ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته) واسمها راعيل وقيل زليخا (أكرمى مثواه) قال الرازى اعلم ان شيأ من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت ايضا فى خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شئ من هذه الروايات فالاليق بالعاقل ان يحترز من ذكرها انتهى ولكن البغوى ذكرها وتبعه على ذلك جماعة من المفسرين واللام فى امرأته متعلقة بقال لا باشتراه والمثوى موضع الاقامة اى اجعلى منزله ومقامه عندنا كريما اى حسنا مرضيا بدليل قول يوسف انه ربى احسن مثواى والمراد تفقديه بالاحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ساكنة فى كنفنا قال المحققون امر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالى ولما امرها باكرام مثواه علل ذلك بان قال (عسى أن ينفعنا) اى يقوم باصلاح مهماتنا أو نبيعه بالربح ان اردنا بيعه (أو نتخذه ولدا) اى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود افرس الناس ثلاثة العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته أكرمى مثواه عسى ان ينفعنا وابنة شعيب حين قالت لابيها فى موسى استأجره وأبو بكر فى عمر حيث استخلفه (وكذلك) اى وكما

حاشية

(قوله خالدين فيها مادامت السموات والارض) ان قلت كيف قال ذلك مع ان السموات والارض تفنيان وذلك ينافى الخلود الدائم (قلت) هذا خرج مخرج الالفاظ التى تعبر العرب بها

نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه قلب العزيز (مكنا ليوسف فى الارض) اى أرض مصر
قال البقاعى التى هى كالارض كلها لكثرة منافعها بالاذن فيها بالتمكنه من الحكم بالعدل
والنبوة وقوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) اى تعبير الرؤيا عطف على مقدر متعلق
بمكنا أى لنمكنه أو الواو زائدة (والله غالب على أمره) اى الامر الذى يريده لانه تعالى فعال لما
يريد ولا دافع لقضائه ولا مانع من حكمه فى ارضه وسمائه أو على امر يوسف اراد اخوته
قتله فغلب امره عليهم وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة ليندرس اسمه فغلب امره وظهر
اسمه واشتهر ثم باعوه ليكون مملوكا فغلب الله امره حتى صار ملكا وعبيدا بين يديه ثم أرادوا
ان يضروا أباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه فغلب امره تعالى فاظهره على مكرهم
واحتالت عليه امرأة العزيز لتضله عن نفسه فغلب امره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل
هرب منه غاية الهرب ثم بذلت جهدها فى اذلاله والقاء التهمة عليه فابى الله تعالى الا اعزازه
وبراءته ثم اراد يوسف عليه السلام ذكر الساقى له فغلب امره تعالى فانساه ذكره حتى مضى
الاجل الذى ضربه الله تعالى له وكم من امر كان فى هذه القصة وفى غيرها يرشد الى أنه لا امر
لغيره (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) أن الامر كله بيد الله تعالى أو أن أكثر
الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه فمن تأمل فى الدنيا وعجائب احوالها عرف
وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله تعالى غالب ولما بين تعالى ان اخوته أساؤا اليه وصبر
على تلك الشدائد والمحن ومكنه فى الارض أتبعه الامر بتمام النعمة عليه بقوله تعالى (ولما
بلغ أشده) اى منتهى شبابه وقوته وشدته تقول العرب بلغ فلان اشده اذا انتهى منتهاه فى
شبابه وقوته وهذا اللفظ مستعمل فى الواحد والجمع يقال بلغ فلان اشده وبلغوا اشدهم
وهو ثلاث وثلاثون سنة وقال السدى بلغ ثلاثين سنة وقال الضحاك عشرين سنة وقال
الكلبى الاشد ما بين ثمانية عشر الى ثلاثين وقيل اقصاه اثنان وستون سنة قال الاطباء ان
الانسان يحدث فى اول الامر ويتزايد كل يوم شيأ فشيأ الى ان ينتهى الى غاية الكمال ثم يأخذ
فى التراجع الى ان ينتهى الى العدم والحاق كالقمر (آتيناه حكما) اى حكمة وهو العلم المؤيد
بالعمل او حكما بين الناس (وعلما) اى علم تأويل الاحاديث وقيل المراد بالحكم النبوة
والرسالة وتقدم أن قوله تعالى واوحينا اليه وحى حقيقة قال الرازى فلا يبعد ان يقال ان ذلك
الوحى اليه فى ذلك الوقت لا لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن
صدره ولاجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام (وكذلك) اى ومثل ذلك الجزاء
الذى جزيناه به (نجزى المحسنين) قال ابن عباس يعنى المؤمنين وعنه ايضا يعنى المهتدين
وقال الضحاك يعنى الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام وعن الحسن من
أحسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله ولما اخبر تعالى ان سبب النعمة
عليه احسانه اتبعه دليله فقال تعالى (وراودته التى هو فى بيتها) اى امرأة العزيز راودت
يوسف (عن نفسه) لانها لما رأته فى غاية الحسن والجمال طمعت فيه ويقال اذ زوجها كان
عاجزا والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه أى فعلت

عن ارادة الدوام دون
التأقيت كقولهم لا افعل
هذا ما اختلف الليل
والنهار وما دامت السموات
والارض تريد لا أفعله
أبدا وانهم خوطبوا على

ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهو عبارة عن التمحل لمواقعته إياها (وغلقت الأبواب) أي أطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق لأن مثل هذا الفعل لا يكون إلا في ستر وخفية لا سيما إذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد (وقالت) له (هيت) أي تهيأت وتصنعت (لك) خاصة فأقبل إلي وامتثل أمري قال الواحدي هيت لك اسم للفعل نحو رويدك وصه ومه ومعناه هلم في قول جميع أهل اللغة وقرأ نافع وابن عامر بكسر الهاء والباقون بالفتح وقرأ هشام بعد الهاء بهمزة ساكنة والباقون بياء ساكنة وقرأ ابن كثير بضم التاء وفتحها والباقون بالفتح (قال) لها يوسف عليه السلام (معاذ الله) أي أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ إليه مما تدعينني إليه (إنه) أي الذي اشتراني (ربي) أي سيدي (أحسن مثواي) أي أكرم منزلي فلا أخونه في أهله وقيل إنه أي الله ربي أحسن مثواي أي آواني ومن بلاء الجب أنجاني (إنه لا يفلح الظالمون) أي إن فعلت هذا الفعل فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون (ولقد همت به وهم بها) أي قصدت مخالطته وقصد مخالطتها والهم بالشيء قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذي إذا هم بشيء أمضاه والمراد بهمه ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ولهذا قال بعض أهل الحقائق الهم قسمان هم ثابت وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل كما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها حسنة ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشرة أمثالها وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها قال في الكشاف ويجوز أن يريد بقوله وهم بها شارف أن يهم بها كما يقول الرجل قتلته لو لم أخف الله يريد مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه (لولا أن رأى) أي بعين قلبه (برهان ربه) أي الذي آتاه إياه من الحكم والعلم أي لهم بها لكنه كان البرهان حاضرا له بحضور من يراه بالعين فلم يهم أصلا مع كونه في غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله تعالى من القوة مع كونه في سن الشباب فلولا المراقبة لهم بها لتوفر الدواعي غير أن نور الشهود محاها أصلا وهذا التقدير هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام مع أنه الذي تدل عليه أساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء وأن السجن أحب إليه من ذلك مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الآية من مطلق الإرادة ومع ما يتحتم من تقدير ما ذكر بعد لولا في خصوص هذا التركيب من أساليب كلام العرب فإنه يجب أن يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله وهذا مثل قوله تعالى إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها أي لأبدت به وأما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك من تفسيرهم همه بها بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها ومن تفسير البرهان بأنه سمع

صوتا

معتقدهم أن السموات والأرض لا تفنيان أو أن المراد سموات الآخرة وأرضها قال تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وتلك دائمة لا تفنى (فإن قلت)

صوتا اياك وايا هافلم يكترث له فسمعه ثانيافلم يعمل به فسمعه ثالثا أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على انملته وقيل ضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل كل ولد يعقوب ولد له اثنا عشر ولدا الا يوسف فانه ولد له أحد عشر ولدا من أجل مانقص من شهوته حين هم وقيل صيح به يايوسف لاتكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لاريش له وقيل بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فيه فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدي قبل أن يدرك الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول يايوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل قامت المرأة الى صنم كان هناك فسترته وقالت أستحي أن يرانا فقال يوسف استحيت ممالايسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع العليم بذات الصدور فلم يصح منه شئ عن أحد منهم مع أن هذه الاقوال التي وردت عنهم اذا جمعت تناقضت وتكاذبت قال الزمخشري وهذا ونحوه مما يورده أهل الجبر والحشو الذين دينهم بهت الله وأنبيائه فأخزى الله أولئك في ايرادهم مايؤدي الى أن يكون انزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدى بنبي من أنبياء الله تعالى فيما ذكروه وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل وأطال في رد ذلك وكذا فعل الرازي وقيل وهم بها أي بزجرها ووعظها وقيل هم بها أي غمه امتناعها منه وقيل هم بها أي نظر اليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله قبل نبوته وقد ذكر بعضهم مازال النساء يملن الى يوسف عليه السلام ميل شهوة حتى نبأه الله تعالى فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه (كذلك) أي مثل ذلك التثبيت ثبته في كل أمر (لنصرف عنه السوء) أي الهم بالزنا وغيره (والفحشاء) أي الزنا وغيره وقيل السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هي الزنا فكأنه قيل لم فعل به هذا فقيل (انه من عبادنا) أي الذين عظمناهم (المخلصين) أي في عبادتنا الذين هم خير صرف لايخالطهم غش وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام بعد الخاء والباقون بالفتح قال الرازي فوروده باسم الفاعل دل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته وعلى كلا اللفظين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه وهذا مع قول ابليس لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين شهادة من ابليس أن يوسف عليه السلام بريء من الهم فمن نسبه الى الهم ان كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من أتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته قال ولعلهم يقولون كنا في أول الامر تلامذة ابليس الا أنا زدنا وبجرنا عليه في السفاهة كما قال الجزوري

وكنت فتى من جند ابليس فارتقى • بي الامر حتى صار ابليس من جندي
فلومات قبلي كنت أحسن بعده • طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

ثم ذكر سبحانه وتعالى مبالغة في الامتناع بالجد في الهرب دليلا على اخلاصه وأنه لم يهم أصلا

اذا كان المراد بما ذكر الخلود الدائم فما معنى الاستثناء في قوله الاماشاء ربك (قلت) هو استثناء من الخلود في عذاب اهل النار ومن الخلود في نعيم اهل الجنة لان أهل النار

فقال (واستبقا الباب) أى أوجدا المسابقة بغاية الرغبة من كل منهما هذا الهرب منها وهذه اتبعه فكل منهما بذل أقصى جهده فى السبق فلحقته عند الباب الاقصى مع أنه قد كان سبقها بقوة الرجولية وقوة الداعية الى الفرار الى الله تعالى ولكن عاقه اتقانها المكر بكون الابواب كانت مغلقة فكان يشتغل بفتحها فتعلقت بأدنى ما وصلت اليه من قميصه وهو ما كان من ورائه خوف فواته فاشتدت تعلقها به مع اعراضه هو عنها وهربه منها فقصته فأراد الخروج فمنعته (و) لم تزل تنازعه حتى (قدت) أى شقت (قميصه) وكان القد (من دبر) أى الناحية من الخلف منه وانقطعت منه قطعة فبقيت فى يدها (والفيا) أى وجدا (سيدها) أى زوجها اقطفير وهو العزيز تقول المرأة لبعلها سيدى ولم يقل سيدهما لان ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيداله على الحقيقة (لدى) أى عند (الباب) جالسا مع ابن عم المرأة (فان قيل) كيف وحد الباب وقد جمعه فى قوله وغلقت الابواب (أجيب) بانه أراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار فقد روى كعب الاحبار ان يوسف لما هرب جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب فلما رأت المرأة ابن عمها هابته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول و(قالت) لزوجها (ما جزاء من أراد باهلك سوأ) أى فاحشة زنا أو غيره ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت (الا أن يسجن) أى يحبس فى السجن ويمنع التصرف (أو عذاب اليم) أى مؤلم بأن يضرب بالسياط ونحوها وانما بدأت بالسجن قبل العذاب لان المحب لا يشتهى ايلام المحبوب وانما أرادت أن يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال فى حق موسى عليه السلام فى قوله لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها (قال) مبرئا نفسه (هى) بضمير الغيبة لاستحيائه عن مواجهتها باشارة أو ضمير خطاب (راودتنى عن نفسى) أى طلبت منى الفاحشة فأبيت وفررت منها وذلك أن يوسف عليه السلام ما كان يريد أن يذكر ذلك القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هى ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه وصدقه لعمرى فيما قال لا يحتاج الى بيان اكثر من الحال الذى كان فيه وهو أنهما عند الباب ولو كان الطلب منه لما كان الا فى محلها الذى تجلس فيه وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه وأيضا هو عبد لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه الى هذا الحال وأيضا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان الحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ثم انه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برئ من الريب وأن المرأة هى المذنبة وهو قوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها) اى وحكم حاكم من اهل المرأة واختلفوا فى هذا الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى كرامة ليوسف عليه السلام وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال تكلم فى المهد أربعة وهم صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى ابن مريم وصاحب جريج الراهب رواه الامام أحمد وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وصبى كان يرضع أمه فمرّ راكب حسن

لا يخلدون فى عذابها وحده بل يعذبون بالزمهرير وأنواع أخر من العذاب وبما هو أشد من ذلك وهو سخط الله عليهم وأهل الجنة لا يخلدون فى نعيمها وحده بل ينعمون بالرضوان

الهيئة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله وبهذا الاعتبار صار واحد خمسة وزاد الثعلبي سادسا وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام وزاد غيره على ذلك وأهل الحصر فيما ذكر في الحديث كان قبل العلم بالزيادة فلا تناقض وأوصلهم السيوطي الى أحد عشر ونظمهم فقال

تكلم في المهد النبي محمد • ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف • وطفل لدى الاخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالامة التي • يقال لها تزني ولا تتكلم
وماشطة في عهد فرعون طفلها • وفي زمن الهادي المبارك يختم

وقالت طائفة عظيمة من المفسرين انما كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص الا أنا لا ندري أيكما قدام صاحبه ولكن (ان كان قميصه قد من قبل) أي من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر) أي من خلف (فكذبت وهو من الصادقين) لانه لولا ادباره منها واقبالها عليه لما وقع ذلك فعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى (فلما رأى) أي سيدها (قميصه) أي يوسف عليه السلام (قد من دبر قال) لها زوجها قطفير وقد قطع بصدقه وكذبها مؤكدا الاجل انكارها (انه) أي هذا القذف له (من كيدكن) معشر النساء والكيد طلب الانسان بما يكره (ان كيدكن عظيم) والعظيم ما ينقص مقدار غيره عنه حسا أو معنى (فان قيل) كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال أقوى من مكر النساء (أجيب) بأن الانسان ضعيف بالنسبة لخلق ما هو أعظم منه كخلق السموات والارض وبأن كيدهن أدق من كيد الرجال وألطف وأخفى لان الشيطان عليهن لنقصهن أقدر ومكرهن في هذا الباب أعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد في اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب ولان كيدهن في هذا الباب يورث العار ما لا يورثه كيد الرجال • ولما ظهر للقوم براءة يوسف من ذلك الفعل المنكر حكى تعالى أنه قال (يوسف) أي يا يوسف (أعرض) أي انصرف بكليتك مجاوزا (عن هذا) الحديث فلا تذكره لاحد حتى لا يشيع وينتشر بين الناس ثم التفت الى المرأة وقال لها (واستغفري لذنبك) أي توبي الى الله تعالى مما رميتي يوسف به من الخطيئة وهو بريء منها (انك كنت من الخاطئين) أي الآثمين قال ابو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار وقيل ان القائل المذكور هو الشاهد (فان قيل) كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير (أجيب) بانه قال ذلك تغليبا للذكور على الاناث أو أن المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى ذلك العرق الخبيث فيك • ثم شاع الخبر واشتهر (وقال نسوة) أي وقال جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث وقوله (في المدينة) أي مدينة مصر ظرف أي أشعن الحكاية في مصر او صفة نسوة وقيل مدينة عين شمس (امرأت العزيز) وانما

والنظر الى وجهه الكريم وغير ذلك كما دل عليه عطاء غير مجذوذ أو الا بمعنى غير أي خالدين فيها ما دامت السموات والارض غير ما شاء الله من الزيادة عليهما أو الا بمعنى الى ما لا نهاية له

أضفنها الى زوجها ارادة لاشاعة الخبر لان النفس الى سماع أخبار أولى الاخطار أميل ويردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ورسم امرأة بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وأما الوصل فهو بالتاء للجميع (تراود فتاها) أى عبدها الكنعانى يقال فتاى وفتاتى أى عبدى وجاريتى (عن نفسه) أى تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها (قد شغفها حبا) أى شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى فؤادها وحبا نصب على التمييز وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب قال النابغة

وقد حال هم دون ذلك والج * مكان الشغاف تبتغيه الاصابع

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الشين والباقون بالادغام (انا لنراها) أى نعلم أمرها علما هو كالرؤية (فى ضلال) أى خطا (مبين) أى بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر بسبب حبها اياه (فلما سمعت) زليخا (بمكرهن) أى قولهن وانما سمى ذلك مكرا لوجوه الاول ان النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن الثانى ان زليخا أسرت اليهن حبها ليوسف عليه السلام وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما أظهرن السر كان ذلك مكرا الثالث انهن وقعن فى غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر (أرسلت اليهن) تدعوهن لتقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن الخمس (وأعتدت) أى أعددت (لهن متكأ) أى طعاما يقطع بالسكين وهو الاترج وانما سمى الطعام متكأ لانه يتكأ عنده قال جميل

فظللنا بنعمة واتكأنا * وشربنا الحلال من قلله

والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك جاء النهى عنه فى الحديث أن يأكل الرجل متكئا وقال صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل انها زينت البيت بالوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتى عيرنها بحب يوسف عليه السلام (وآتت) أى أعطت (كل واحدة منهن سكينا) أى لتأكل بها وكانت عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين (وقالت) زليخا ليوسف عليه السلام (اخرج عليهن) أى النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته فى مكان وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى بكسر التاء فى الوصل والباقون بالضم وأما الابتداء فجميع القراء يبتدؤن الهمزة بالضم (فلما رأينه) أى النسوة (أكبرنه) أى أعظمنه ودهشن عند رؤيته اتفق الاكثرون على انهن انما أكبرنه بحسنه من الجمال الفائق والحسن الكامل وكان يوسف قد أعطى شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت يوسف ليلة أسرى بى الى السماء كالقمر ليلة البدر ذكره البغوى بغير سند وقال ابن اسحق كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر يتلألأ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها ويقال انه ورث حسن آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى قبل أن

قوله الا من ظلم اى لايخاف لدى المرسلون الا من ظلم الواو كقوله

(قوله وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) قال هذا بصيغة ليهلك لانه لما ذكر قوله بظلم نفى الظلم عن نفسه بابلغ لفظ يستعمل

يخرج من الجنة وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرنه بمعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع • فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

وقيل أمنين قال الكميت

ولما رأته الخيل من رأس شاهق • صهلن وأمنين المنى المدفقا

وقال الرازى انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه شهادة الهيبة وهيبة ملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن (وقطعن أيديهن) أى جرحنها بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم من فرط الدهشة بيوسف وقال وهب مات جماعة منهن (وقلن حاش لله) أى تنزيها له الرسم بغير ألف بعد الشين وقرأ أبو عمرو فى الوصل دون الوقف بألف بعد الشين والباقون بغير الف وقفا ووصلا (ما هذا) أى يوسف عليه السلام (بشرا) واعمال ما عمل ليس هى اللغة القدمى الحجازية ويدل عليها هذه الآية وقوله تعالى ما هن أمهاتهم (ان) أى ما (هذا الا ملك كريم) أى على الله لما حواه من الحسن الذى لا يكون عادة فى النسمة البشرية فان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة (قالت) أى زليخا النسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته (فذلكن) أى فهذا هو (الذى لمتننى فيه) اى فى محبته قبل ان تتصورنه حق تصوره ولو تصورتنه بما عاينتن لعذرتننى ثم انها صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) اى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبت وانما صرحت بذلك لانها علمت انها لا ملامة عليها منهن وانهن قد اصابهن ما اصابها عند رؤيته ثم قالت (ولئن لم يفعل ما آمره) اى وان لم يطاوعنى فيما ادعوته اليه (ليسجنن) اى ليعاقبن بالحبس (وليكونا من الصاغرين) اى الذليلين المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف عليه السلام السجن على ما دعت اليه فلذلك (قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) وان كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه نظرا الى العاقبة فان الاول فيه الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة والثانى فيه المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة (فان قيل) ان الدعاء كان منها فلم اضافه اليهن جميعا (اجيب) بأنهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها وقيل انهن دعونه الى انفسهن قال بعض العلماء لو لم يقل السجن احب الى لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد ان يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الله الصبر بقوله لقد سألت الله البلاء فاسأله العافية رواه الترمذى (والا) اى وان لم (تصرف عنى كيدهن) اى فيما اردن منى بالتثبيت على العصمة (اصب) اى امل (اليهن) يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه (وأكن) اى أصر (من الجاهلين) أى من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه فان الحكيم لا يفعل القبيح وفى ذلك دليل على أن من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة والقصد بذلك الدعاء ولذلك قال تعالى (فاستجاب له ربه) اى فاجاب الله

فى النفى لان اللام فيه لام الجحود والمضارع بعده الاستقرار فعنا ما فعلت الظلم فيما مضى ولا أفعله فى الحال ولا فى المستقبل فكان غاية فى النفى وقاله فى القصص بدون ذكر ظلم

تعالى دعاءه الذى تضمنه هذا الثناء لان الكريم يغنيه التلويح عن التصريح كما قيل

اذا أثنى عليك المرء يوما ❊ كفاه من تعرضه الثناء

(فصرف عنه كيدهن) اى فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان (انه هو السميع) اى لدعاء الملتجئين اليه (العليم) اى للضمائر والنيات فيجيب ما صح فيه القصد وطاب منه العزم (ثم بدا) اى ظهر (لهم) اى العزيز واصحابه (من بعد ما رأوا الآيات) اى الدالة على براءة يوسف عليه السلام كشهادة الصبى وقد القميص وقطع النساء ايديهن واستعصامه عنهن (ليسجننه حتى) اى الى (حين) ينقطع فيه كلام الناس وذلك أن المرأة قالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يقول لهم انى راودته عن نفسه وأنا لا اقدر على اظهار عذرى فاما ان تأذن لى فأخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستنى فعند ذلك وقع فى قلب العزيز أن الاصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فسجنه ❊ (تنبيه) ❊ فى فاعل بدا اربعة اوجه احسنها انه ضمير يعود على السجن بفتح السين اى ظهر لهم حبسه والثانى ان الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا اى بدا لهم بداء والثالث انه مضمر يدل عليه السياق اى بدا لهم رأى والرابع انه محذوف وليسجننه قائم مقامه اى بدا لهم السجن فحذف واقيمت الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا لان الجملة لا تكون كذلك وقيل الحبس هنا خمس سنين وقيل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنتى عشرة سنة وقال الرازى والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم أنه بقى مسجونا مدة طويلة لقوله تعالى وادكر بعد امة وعن عكرمة قال قال رجل ذو رأى للعزيز متى تركت هذا العبد يعتذر الى الناس ويقص عليهم امره فاتركه فى بيتها لا يخرج الى الناس فان خرج للناس عذروه وفضحوا اهلك فامر به فسجن (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليق ملك مصر الاكبر احدهما خبازه صاحب طعامه والآخر ساقيه صاحب شرابه غضب الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه أن جماعة من أشراف مصر ارادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على ان يسما الملك فى طعامه وشرابه فاجابا الى ذلك ثم ان الساقى ندم ورجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الطعام مسموم فقال الخباز ولا تشرب فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فابى فاطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فامر بحبسهما وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لاهله انى أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد العبرانى فنتراءى له رؤيا قال ابن مسعود ومارأيا شيأ وانما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا رأيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شانهما فذكرا أنهما صاحبا الملك حبسهما وقد رأيا رؤيا غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (انى أرانى أعصر خمرا) ❊ فان قيل كيف يعقل عصر الخمر (أجيب) عن ذلك بثلاثة أقوال أحدها أن يكون المعنى أعصر عنب خمر أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف الثانى ان العرب تسمى الشئ باسم ما يؤل اليه تقول فلان يطبخ دبسا

فاكتفى بذكر اسم الفاعل المفيد للحال فقط وان كان يستعمل فى الماضى والمستقبل مجازا (قوله وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) ان قلت ما الجمع بينه

وهو يطبخ عصيرا الثالث قال أبو صالح أزد عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بألسنة جميع العرب وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كأنى فى بستان واذا فيه شجرة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك انه قال رأيت فى المنام كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الطعام وسباع الطير تنهش منه (نبئنا) أى أخبرنا (بتأويله) أى بتفسيره (انا نراك من المحسنين) أى فى علم التفسير لانه متى عبر لم يخطئ كما قال وعلمنى من تأويل الاحاديث وقيل فى أمر الدين لانه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فانه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا وفى سائر الامور وقيل فى حق الشركاء والاصحاب لانه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم واذا ضاق على أحدهم وسع عليه واذا احتاج أحدهم جمع له شيأ قيل انه لما دخل السجن وجد قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول اصبروا وأبشروا وتؤجروا فقالوا بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يا فتى قال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن والله يا فتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك فكن فى اى بيوت السجن شئت وروى ان الفتيين لما رأيا يوسف قالا لقد احببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف انشدكما الله ان لا تحبانى فوالله ما احبنى احد قط الا دخل على من حبه بلاء لقد احبتنى عمتى فدخل على بلاء ثم احبنى ابى فالقيت فى الجب واحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبرها لهما لما علم فى ذلك من المكروه على احدهما (قال) معرضا عن سؤالهما آخذا فى غيره من اظهار المعجزة فى الدعاء الى التوحيد (لا يأتيكما طعام ترزقانه) اى فى منامكما (الا نبأتكما بتأويله) اى فى اليقظة (قبل ان يأتيكما) تأويله وقيل اراد به فى اليقظة يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما تطعمانه الا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذى يصل اليكما قبل أن يصل وأى طعام اكلتم ومتى اكلتم وهذه كمعجزة عيسى عليه السلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقالا هذا فعل العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما أنا بكاهن (ذلكما) اى هذا التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمنى ربى) وفى ذلك حث على ايمانهم ثم قواه بقوله (انى تركت ملة) اى دين (قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) وكرر لفظة هم للتأكيد لشدة انكارهم للمعاد ولما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر انه من أهل بيت النبوة بقوله (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) ليسمعوا قوله ويطيعوا امره فيما يدعوهم اليه من التوحيد فان الانسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه وأيضا فكمال درجة ابراهيم واسحق ويعقوب أمر مشهور فى الدنيا فاذا أظهر أنهم آباؤه عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له أتم وتأثرهم بكلامه أكمل (فان قيل) انه كان نبيا فكيف قال اتبعت ملة آبائى والنبى لا بد وأن يكون مختصا بشريعة نفسه (أجيب) بان مراده التوحيد الذى لا يتغير أو لعله كان رسولا من عند الله

وبين قوله ورسلا قد قصصناهم عليه من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك (قلت) معناه وكلا نبأ نقصه عليك من أنباء الرسل هو ما نثبت به فؤادك فما فى موضع رفع

تعالى الا انه كان نبي على شريعة ابراهيم عليه السلام وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون ياء آبائي والباقون بالفتح (ما كان) اى ماصح (لنا) معشر الانبياء (ان نشرك بالله من شئ) لان الله تعالى طهره وطهر آباءه عن الكفر ونظيره قوله تعالى ما كان لله ان يتخذ من ولد وانما قال من شئ لان اصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد الملائكة فقوله من شئ رد على هؤلاء الطوائف وارشاد الى الدين الحق وهو انه لا موجد ولا خالق ولا رازق الا الله (ذلك) اى التوحيد (من فضل الله علينا) بالوحى (وعلى الناس) اى سائرهم ببعثنا لارشادهم وتثبيتهم عليه (ولكن اكثر الناس) اى المبعوث اليهم (لا يشكرون) هذه النعمة التى انعم الله تعالى بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهم الى الايمان فقال (يا صاحبى السجن) اى يا صاحبى فى السجن فاضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليلة فكما ان الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب وانما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام او يا ساكنى السجن كما قيل لسكان الجنة اصحاب الجنة ولسكان النار اصحاب النار (أأرباب) اى آلهة (متفرقون) اى متباينون من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وصغير وكبير ومتوسط وغير ذلك (خير) اى اعظم فى صفة المدح واولى بالطاعة (ام الله الواحد القهار) اى المتوحد بالالوهية الذى لا يغالب ولا يشاركه فى الربوبية غيره خير والاستفهام للتقرير وفى الهمزتين فى أأرباب من القراآت ما فى أأنذرتهم وقد مر (فان قيل) هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انهم خير ام الله (اجيب) بان ذلك خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا انه حصل منها ما يوجب الخير فهى خير ام الله الواحد القهار ثم بين عجز الاصنام فقال (ما تعبدون) وانما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة لانه أراد جميع من فى السجن من المشركين والعبادة خضوع القلب فى اعلى مراتب الخضوع ٭ وبين حقارة معبوداتهم وسفالتها بقوله (من دونه) اى الله الذى قام البرهان على الهيته وعلى اختصاصه بذلك (الا اسماء) وبين ما يريد واوضحه بقوله (سميتموها) اى ذوات اوجدتم لها اسماء (انتم) سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة جماد خالية عن المعنى لا حقيقة لها (وآباؤكم) من قبلكم سموها كذلك (ما انزل الله بها) اى بعبادتها (من سلطان) اى حجة وبرهان (ان الحكم) أى ما الحكم (الا لله) أى المختص بصفات الكمال والحكم فصل الامر بما تدعو اليه الحكمة (أمر) وهو النافذ الامر المطاع الحكم (ألا تعبدوا الا اياه) لانه المستحق للعبادة لا هذه الاسماء التى سميتموها آلهة ٭ ولما أقام الدليل على هذا الوجه الذى كان جديرا بالاشارة الى فضله أشار اليه بأداة البعد تنبيها على علو مقامه وعظيم شانه فقال (ذلك) أى الشان الاعظم وهو توحيده وافراده عن خلقه (الدين القيم) اى المستقيم الذى لا عوج فيه (ولكن اكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون ٭ ولما قرر يوسف عليه السلام أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذى ذكراه فقال (يا صاحبى السجن) اى الذى يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة فى القلب فتخلص فيه المودة ولما كان فى الجواب ما يسوء الخباز

خبر مبتدا محذوف ولا يقتضى اللفظ قصر أنباء جميع الرسل (قوله وجاءك فى هذه الحق) اى هذه الانباء والآيات أو السورة تخصيصها بالذكر تشريفا لها وان كان قد جاءه الحق فى جميع السور

أيهم ليجوز كل منهما انه الفائز فان ألجأه الى التعيين كان ذلك عذراً له فى الخروج عن الالبق فقال (أما أحدكما) وهو صاحب شراب الملك (فيسقى ربه) أى سيده (خمراً) على عادته والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يدعو به الملك فيرده الى رتبته التى كان عليها هذا تأويل رؤياه (وأما الآخر) وهو صاحب طعام الملك (فيصلب) والسلال الثلاثة ثلاثة أيام ويدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه) هذا تأويل رؤياه قال ابن مسعود فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا ما رأينا شيأ انما كنا نلعب فقال لهما يوسف عليه السلام (قضى) أى تم (الامر الذى فيه تستفتيان) أى تطلبان الافتاء فيه عملا بالفتوة فسألتما عن تأويله وهو تعبير رؤيا كما كذبتما أو صدقتما لم أقله عن جهل ولا غلط (وقال) يوسف عليه السلام (للذى ظن) أى علم وتحقق فالظن بمعنى العلم لانه قاله عن وحى لقوله قضى الامر ويجوز أن يكون ضمير ظن للساقى فهو حينئذ على بابه (أنه ناج منهما) وهو الساقى (اذكرنى عند ربك) أى سيدك ملك مصر بما رأيت منى من معالى الاخلاق وطهارة الشيم الدالة على بعدى عما رميت به والمراد بالرب هنا غير المراد به فى قوله أأرباب متفرقون فنجا الساقى وصلب صاحبه وفق ما قال لهما يوسف عليه السلام واختلف فى ضمير (فأنساه الشيطان ذكر ربه) على قولين أحدهما أنه يعود الى الساقى وهو قول جماعة من المفسرين أى فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقى حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها الى يوسف والقول الثانى وعليه أكثر المفسرين أنه يرجع الى يوسف عليه السلام وقال الرازى انه الحق أى ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه تعالى حتى استعان بمخلوق مثله وتلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق فى رفع الظلم جائزة فى الشريعة الا أن حسنات الابرار سيآت المقربين فهذا وان كان جائزاً لعامة الخلق الا أن الاولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا الا بمسبب الاسباب فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذاً بهذا القول ولم يؤاخذه تعالى فى تلك القصة البتة بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء فعلم بذلك أنه عليه السلام كان مبرأ عما نسبه الجهال والحشوية اليه (فان قيل) كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه (أجيب) بان ذلك انما كان شغل خاطر وأما النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه واختلف فى قدر البضع فى قوله تعالى (فلبث فى السجن بضع سنين) فقال مجاهد ما بين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس ما دون العشرة قال البغوى وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة وقال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التى قالها ما لبث فى السجن ما لبث ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا بلاء فزعنا الى الناس ذكره الثعلبى مرسلا وبغير سند وقال

كقوله حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى والتعريف فى الحق اما الجنس أو العهد والمراد به البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة وما عرفه وذكر تاليه تفخيما له لكونه

الحسن أيضا دخل جبريل على يوسف عليهما السلام فى السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يا أخا المنذرين مالى أراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر يا ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك أما استحييت منى واستشفعت بالآدميين فوعزتى لالبثنك فى السجن بضع سنين قال يوسف وهو فى ذلك عنى راض قال نعم قال اذا لا أبالى وقال كعب قال جبريل ليوسف ان الله تعالى يقول لك من خلقك قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله تعالى قال فمن حببك الى أبيك قال الله قال فمن أنجاك من كرب البئر قال الله تعالى قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استشفعت بآدمى مثلك قال محمد بن عمر الرازى فى تفسيره والذى جربته من أول عمرى الى آخره ان الانسان كلما عول فى أمر من الامور على غير الله تعالى صار ذلك سببا للبلاء والمحنة والشدة والرزية واذا عول على الله تعالى ولم يرجع الى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى الى هذا الوقت الذى بلغت الى السابع والخمسين فعند ذلك استقر قلبى على انه لا مصلحة للانسان فى التعويل على شئ سوى فضل الله تعالى واحسانه * ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر الاكبر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هائلة كما قال تعالى (وقال الملك انى أرى) اى رأيت عبر بالمضارع حكاية للحال الشديدة ما هاله من ذلك (سبع بقرات سمان) اى خرجن من نهر يابس والسمن زيادة البدن من الشحم واللحم وسمان جمع سمينة ويجمع سمين أيضا عليه يقال رجال سمان ونساء سمان كما يقال رجال كرام ونساء كرام (يأكلهن) اى يبتلعهن (سبع) اى من البقر (عجاف) جمع عجفاء اى مهازيل خرجن من ذلك النهر *(تنبيه)* جمع عجفاء على عجاف والقياس عجف نحو حمراء وحمر حملا له على سمان لانه نقيضه ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض (و) انى ارى (سبع سنبلات خضر) اى قد انعقد حبها (و) انى أرى سبع سنبلات (أخر يابسات) اى قد أدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها وانما استغنى عن بيان حالها بما نص من حال البقرات والسنبلة نبات كالقصبة فيها جملة حبوب منتظمة فكأنه قيل فكان ماذا فقيل قال الملك بعد ان جمع السحرة والكهنة والمعبرين (يا أيها الملأ) اى الاشراف النبلاء الذين تملأ العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم (أفتونى فى رؤياى) اى أخبرونى بتأويلها (ان كنتم للرؤيا تعبرون) اى ان كنتم عالمين بعبارة الرؤيا فاعبروها *(تنبيه)* اللام فى الرؤيا مزيدة فلا تعلق لها بشئ وزيدت لتقدم المعمول تقوية للعامل كما زيدت اذا كان العامل فرعا كقوله تعالى فعال لما يريد ولا تزاد فيما عدا ذينك الا ضرورة وقيل ضمن تعبرون معنى ما يتعدى باللام تقديره ان كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا وقيل متعلقة بمحذوف على انها للبيان كقوله تعالى وكانوا فيه من الزاهدين تقديره أعنى فيه وكذلك هذا تقديره أعنى للرؤيا وعلى هذا يكون مفعول تعبرون محذوفا تقديره تعبرونها وفى الآية ما يوجبه حال العلماء من حاجة الملوك اليهم فكأنه قيل فما قالوا فقيل (قالوا) هذه الرؤيا (أضغاث) اى اخلاط (أحلام) مختلطة مختلفة مشتبهة جمع ضغث بكسر الضاد واسكان الغين المعجمة وهى قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس والاحلام جمع حلم بضم الحاء واسكان اللام وضمها وهو الرؤيا فقيد وهاب الاضغاث وهو ما يكون من الرؤيا باطلا لكونه من

حديث

يطلق على الله تعالى بخلاف تاليه

(سورة يوسف عليه السلام)

(قوله رأيتهم لى ساجدين) ذكر الرؤية ثانيا جوابا لسؤال مقدر من يعقوب

حديث النفس ووسوسة الشيطان لكونها اشبه اخلاط النبات التى لا تناسب بينها الان الرؤيا تارة تكون من الملك وهى الصحيحة وتارة تكون من تخييل الشيطان وتخليطاته وتارة من حديث النفس ثم قالوا (وما نحن) اى بأجمعنا (بتأويل الاحلام) اى المنامات الباطلة (بعالمين) اى ليس لها تأويل عندنا وانما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعذر * ولما سأل الملك عن هذه الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب تذكر ذلك الشرابى واقعة يوسف عليه السلام لانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا فى هذا العلم كما قال تعالى (وقال الذى نجا) اى خلص (منهما) اى من صاحبى السجن وهو الشرابى ان فى الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى كل ماذكر وما أخطا فى حرف فكانت هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام ولم يتذكر الشرابى الا بعد طول المدة كما قال تعالى (وادكر) بالدال المهملة اى طلب الذكر بالذال المعجمة وزنه افتعل (بعد أمة) اى وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة اى مدة طويلة والجملة اعتراض ومقول القول (أنا أنبئكم بتأويله فارسلون) اى الى يوسف عليه السلام فانه أعلم الناس فارسلوه اليه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولم يكن السجن بالمدينة فاتاه فقال الساقى المرسل اليه مناديا له نداء القرب تحببا اليه (يوسف) وزاد فى التحبب بقوله (أيها الصديق) اى البالغ فى الصدق والتصديق لانه جرب أحواله وعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيأ فانه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه أعاد السؤال بعين اللفظ الذى ذكره الملك فقال (أفتنا) اى اذكر لنا الحكم (فى سبع بقرات سمان) اى رآهن الملك (يأكلهن سبع) من البقر (عجاف و) فى (سبع سنبلات) جمع سنبلة وهى مجمع الحب من الزرع (خضر و) فى سبع (أخر) من السنابل (يابسات) أى فى رؤيا ذلك ونعم ما فعل من ذكر السؤال بعين اللفظ فان نفس الرؤيا قد تختلف بحسب اختلاف الالفاظ كما هو مذكور فى ذلك العلم ثم قال (لعلى أرجع الى الناس) أى الى الملك وجماعته بفتواك قبل مانع يمنعنى (لعلهم يعلمون) أى بتأويل هذه الرؤيا وقيل بمنزلتك فى العلم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح الياء والباقون بالسكون (قال) يوسف عليه السلام معبرا لتلك الرؤيا اما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبات وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله (تزرعون سبع سنين) وهو خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما خرج الامر فى صورة الخبر للمبالغة فى الايجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه فى معنى الامر قوله فذروه فى سنبله وقوله (دأبا) نصب على الحال أى دائبين أى سبع سنين متتابعة على عادتكم فى الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد وهذا تأويل السبع السمان والسنبلات الخضر وقرأ حفص بفتح الهمزة وسكنها الباقون وأبدلها السوسى ألفا وقفا ووصلا وحمزة وقفا فقط (فما حصدتم فذروه) أى اتركوه (فى سنبله) لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس وذلك أبقى له على طول الزمان (الا قليلا مما تأكلون) أى ادرسوا

عليه السلام كأنه قال ليوسف بعد قوله رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر كيف رأيتها سائلا عن حال رؤيتها فقال مجيبا رأيتهم لى ساجدين وقيل ذكره توكيدا وجمع

قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة أمرهم بحفظ الاكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة كما قال (ثم يأتي من بعد ذلك) أي السبع المخصبات (سبع شداد) أي مجدبات صعاب وهي تأويل السبع العجاف والسنبلات اليابسات (يأكلن ما قدمتم لهن) أي يأكل أهلهن ما ادخرتم لاجلهن فاسند اليهن على المجاز تطبيقا بين المعبر والمعبر به وهو يأكلهن سبع عجاف والمعبر به وهو يأكلن ما قدمتم لهن (الا قليلا مما تحصنون) أي تحرزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع (ثم يأتي من بعد ذلك) أي السبع المجدبات (عام فيه يغاث الناس) أي يمطرون من الغيث وهو المطر وقيل ينقذون من قول العرب استغثت فاغاثني (وفيه يعصرون) من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم دهنا وأراد بذلك كثرة النعم والخير وقال أبو عبيدة ينجون من الكرب والشدة والجدب وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب لان الكلام كله مع الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ردا الى الناس * ولما رجع الشرابي الى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنه (وقال الملك) أي الذي العزيز في خدمته (ائتوني به) لاسمع ذلك منه وأكرمه وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه وتعالى جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الاخروية فاتاه الرسول ليأتي به الى الملك (فلما جاءه) أي يوسف عليه السلام عن قرب من الزمان (الرسول) بذلك وهو الساقي وقال له أجب الملك (قال) له يوسف عليه السلام (ارجع الى ربك) أي سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه للملك ولا يراه بعين النقص ولذلك قال (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) وانما قال يوسف عليه السلام فاسأله ما بال النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن لان قوله فاسأله يحتمل أن يكون بمعنى المسئلة أي اسأله عن شأنهن وأن يكون بمعنى الطلب وهو ان يفتش عن شأنهن فحسن تقييده بلفظ ما التي يسئل بها عن حقيقة الشيء ليهيجه أن يتحرك للتفتيش عن حالهن لان الانسان حريص على تحقيق الشيء ويستنكف أن ينسب الى الجهل به بخلاف ما لو قال سله أن يفتش أي اطلب منه فانه لا يبالي بهذا الطلب ولا يلتفت اليه لاسيما الملوك وانما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعته به كرما ومراعاة للادب وقدم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته لانه لو خرج في الحال ربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثر فلما التمس من الملك أن يفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وان يتوصل بها الى الطعن فيه وفي ذلك دليل على أنه ينبغي للشخص أن يجتهد في نفي التهم ويتقي مواقعها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجوني ولقد عجبت منه حيث أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لاسرعت الاجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر ان كان لحليما ذا اناة واصل الحديث في الصحيحين مختصرا وانما قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل التواضع لانه صلى الله عليه وسلم كان في الامر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف والتواضع لا يصغر كبيرا ولا يضع رفيعا ولا يبطل لذي حق

بحقه

الكواكب في قوله رأيتهم لي ساجدين جمع العقلاء لوصفه لها بما هو من صفات العقلاء وهو السجود كقوله قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان

حقه لكنه يوجب لصاحبه فضلا ويلبسه جلالة وقدرا وقوله والله يغفر له مثل هذه المقدمة مشعرة بتعظيم المخاطب من توقيره وتوقير حرمته كما تقول لمن تعظمه عفا الله عنك ما صنعت في أمري ورضي الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامي وقوله ان كان حليما هي المخففة من الثقيلة والاناة الوقار وقيل هو اسم من التأني في الامور وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها (ان ربي) أي الله (بكيدهن عليم) حين قلن أطع مولاتك وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه وأنه بريء مما عيب به والوعيد لهن على كيدهن وقيل المراد بربي الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وأبى أن يخرج من السجن قبل تبين الامر رجع الرسول الى الملك فاخبره بما قال عليه السلام فكأنه قيل فما فعل الملك فقيل (قال) للنسوة بعد ان جمعهن وامرأة العزيز معهن (ما خطبكن) أي ما شأنكن العظيم وقوله (اذ راودتن) أي خادعتن (يوسف عن نفسه) دليل على أن براءته كانت محققة عند كل من علم القصة وانما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل ان امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن فكأنه قيل فما قلن قيل (قلن حاش لله) أي عياذا بالملك الاعظم وتنزيها له من هذا الامر (ما علمنا عليه) أي يوسف عليه السلام وأغرقن في النفي فقلن (من سوء) أي من خيانة في شيء من الاشياء ولما أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة وعرفت المرأة انه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء للامر عنها أرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء فلذلك (قالت امرأت العزيز) مصرحة بحقيقة الحال (الآن حصحص الحق) أي ظهر وتبين (أنا راودته) أي خادعته (عن نفسه) وأكدت ما أفصحت به مدحا ونفيا لكل سوء به ولها مؤكدا لاجل ما تقدم (وانه لمن الصادقين) أي العريقين في هذا الوصف في نسبة المراودة الي وتبرئة نفسه فقد شهد النسوة كلهن ببراءته وانه لم يقع منه ما نسب به الى شيء من السوء البتة فمن نسب بعد ذلك هما أو غيره فهو تابع لمجرد الهوى في نبي من المخلصين قال الرازي رأيت في بعض الكتب ان امرأة جاءت بزوجها الى القاضي وادعت عليه المهر فأمر القاضي بان تكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى ذلك فاني مقر بصداقها في دعواها فقالت المرأة لما أكرمتني الى هذا الحد فاشهدوا اني ابرأت ذمتك من كل حق لي عليك * ولما رجع الرسول الى يوسف عليه السلام وأخبره بشهادتهن ببراءته قال (ذلك) أي الخلق العظيم في تلبثي في السجن الى أن تبين الحق (ليعلم) العزيز باقرارها وهي في الامن وأنا في محل الضيق والخوف علما مؤكدا (أني لم أخنه) أي في أهله ولا في غيرها (بالغيب) أي والحال أن كلا منا غائب عن صاحبه هذا قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام آخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة هذا كلام بلقيس ثم قال الله تعالى وكذلك يفعلون وقوله

(قوله اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) هذا قول اخوة يوسف (فان قلت) كيف قالوا ذلك وهم أنبياء (قلت) لم يكونوا أنبياء على الصحيح وبتقدير

تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه كلام الداعى ثم قال الله تعالى ان الله لا يخلف
الميعاد ثم ختم الكلام بقوله (وان الله لا يهدى) أى يسدد و ينجح بوجه من الوجوه (كيد
الخائنين) أى ولو كنت خائنا لما خلصنى الله من هذه الورطة العظيمة وحيث خلصنى منها ظهر
انى برىء عما نسبوني اليه وقيل انه كلام امرأة العزيز والمعنى انى وان كنت أحلت عليه الذنب
فى حضوره لكنى ما أحلت الذنب عليه فى غيبته اى لم تقل فيه وهو فى السجن خلاف الحق ثم
انها بالغت فى تأكيد هذا القول وقالت وان الله لا يهدى كيد الخائنين يعنى انى لما أقدمت
على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وانه لما كان بريأ من الذنب لا جرم طهره الله تعالى منه
* واعلم ان هذه الآية على القول الاول دالة على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه كثيرة
الاول قولها أنا راودته عن نفسه والثانى قولها وانه لمن الصادقين وهو اشارة الى أنه صادق
فى قوله هى راودتنى عن نفسى والثالث قول يوسف عليه السلام ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب
والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت
بها قال الرازى وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية فى كتاب معتمد اى وانما
أسندها بعضهم لابن عباس بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم فى تحريف ظاهر القرآن
ورابعها أن اقدامه على قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة
اقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما والاقدام على مثل
هذه الوقاحة من غير فائدة أصلا لا يليق بأحد من العقلاء فكيف يليق اسناده الى نبى مرسل
من سلالة الانبياء الاصفياء فثبت ان هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقول الجهال
والحشوية * واختلفوا فى تفسير قوله (وما أبرئ نفسى) لان ذلك يختلف باختلاف ما قبله لان
قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ان كان من كلام يوسف عليه السلام وقد مر أنه قول
الاكثرين فهو أيضا كلامه وان كان من كلام المرأة فهذا أيضا كلامها فعلى الاول قد تمسك به
الحشوية وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين
حللت تكة سراويلك فعند ذلك قال يوسف عليه السلام وما أبرئ نفسى (ان النفس لامارة
بالسوء) أى بالزنا (الا ما رحم) اى عصم منه (ربى ان ربى غفور) اى للهم الذى هممته (رحيم)
أى لو فعلته لتاب على وهذا ضعيف كما قاله الرازى لما تقدم ان الآية المتقدمة برهان قاطع
على براءته من الذنب وانما قال ذلك عليه السلام لانه لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب كان
ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم فاستدرك ذلك على
نفسه بقوله وما أبرئ نفسى والمعنى وما أزكى نفسى ان النفس لامارة بالسوء ميالة الى القبائح
راغبة فى المعصية وعلى الثانى أنها لما قالت ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قالت وما أبرئ نفسى
من الخيانة مطلقا فانى قد خنته حين أحلت الذنب عليه وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا
أن يسجن وأودعته فى الحبس كأنها أرادت الاعتذار مما كان * واختلف فى قوله (وقال الملك)
فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال هو الريان الذى هو الملك الاكبر قال الرازى وهذا
هو الاظهر لوجهين الاول ان قول يوسف اجعلنى على خزائن الارض يدل عليه الثانى قوله
أستخلصه لنفسى يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك

خالصا

كانوا أنبياء انما قالوا
ذلك قبل نبوتهم والجواب
بان ذلك من الصغائر او
بانهم قالوه فى صغرهم
ضعيف (قوله نرتع ونلعب)
(ان قلت) كيف قالوا
ذلك مع انهم كانوا بالغين

خالصا للعزيز فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الاكبر انتهى وانما صرح به ولم يستغن بضميره كراهية الالباس لما تخلل بينه وبين جواب امرأة العزيز من كلام يوسف عليه السلام ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ولم يحتج الى ابرازه (ائتونى به استخلصه لنفسى) أى اجعله خالصا لى دون شريك قال ابن عباس فأتاه الرسول فقال له ألق عنه ثياب السجن وألبسه ثيابا جددا وقم الى الملك فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة واغتسل وتنظف ولبس ثيابا جددا بعد ان دعا لاهل السجن فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عنهم الاخبار وكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وبيوت الاحزان وتجربة الاصدقاء وشماتة الاعداء ثم أتى الملك فلما رآه غلاما حدثا فقال أيعلم هذا رؤياى ولا يعلمها السحرة والكهنة ثم أقعده قدامه وقال له لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وروى ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو فى الحبس وقال قل اللهم اجعل لى من عندك فرجا ومخرجا وارزقنى من حيث لا أحتسب فقبل الله تعالى دعاءه وأظهر هذا السبب فى تخليصه من السجن وروى أن يوسف لما دخل عليه قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه بالعربية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان عمى اسمعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان آبائى قال وهب كان الملك يتكلم بسبعين لغة ولم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف عليه السلام وزاد بالعربية والعبرانية (فلما كلمه) أى كلم الملك يوسف عليه السلام وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلال السيادة ومخايل السعادة أقبل عليه وقال انى أحب ان أسمع منك تأويل رؤياى شفاها فاجابه بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك (قال) له (انك اليوم لدينا مكين أمين) اى ذو مكانة وأمانة على أمرنا فما ترى أيها الصديق (قال) أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنين المجدبة بعنا الغلال فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لى بهذا الشغل فقال يوسف (اجعلنى على خزائن الارض) جمع خزانة وأراد خزائن الطعام والاموال والارض أرض مصر أى خزائن أرضك مصر وقال الربيع بن أنس اى خرج مصر ودخله روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية قال رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الارض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره الله تعالى سنة فأقام فى بيته سنة مع الملك قال الرازى وهذا من العجائب لانه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله تعالى عليه ذلك على أحسن الوجوه * ولما سارع فى ذكر هذا الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف أتم والتفويض بالكلية الى الله تعالى أولى ثم قال (انى حفيظ عليم) أى ذو حفظ وعلم بأمرها وقيل كاتب وحاسب (فان قيل) لم طلب يوسف عليه السلام الامارة والنبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة ولم طلب الامارة من سلطان كافر ولم لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة فى طلبها فى الحال ولم طلب أمر الخزائن فى أول الامر مع ان هذا يورث نوع تهمة ولم مدح نفسه وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم ولم ترك الاستثناء فى هذا وقد قال تعالى ولا

قوله ألق عنه الخ كذا بالاصل ولعل الصواب ألق عنك ثياب السجن والبس بدليل بقية عبارته اه مصححه

عاقلين وأنبياء أيضا على قول وكيف رضى يعقوب بذلك منهم على قراءة النون (قلت) كان لعبهم المسابقة والمناضلة يؤيده انا ذهبنا نستبق وسموه لعبا لانه فى صورة اللعب قال الفخر

تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فهذه سبعة أسئلة (أجيب) عنها بأن الاصل فى جواب هذه الاسئلة أن التصرف فى أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان وانما كان ذلك واجبا عليه لوجوه الاول أنه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه مراعاة الامة بقدر الامكان والثانى أنه علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد فلعله تعالى أمره أن يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لاجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق والثالث أن السعى أيضا فى ايصال النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول فكان مكلفا عليه السلام برعاية المصالح من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذا الطريق وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب وانما مدح نفسه لان الملك وان علم كماله فى علوم الدين لكن ما كان عالما بأنه يفى بهذا الامر وأيضا مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد به الشخص التطاول والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل وأما هذا الوجه فليس بمذموم وقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم المراد به تزكية حال من لا يعلم كونها كذلك والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية هو أعلم بمن اتقى أما اذا كان الانسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه وانما ترك الاستثناء لانه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه انه انما ذكره لعلمه أنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلهذا المعنى ترك الاستثناء * ولما سأل يوسف عليه السلام ما تقدم قال معلما بأنه قد أجيب بتخيير الله تعالى له (وكذلك) أى كانعامنا عليه بالخلاص من السجن (مكنا ليوسف فى الارض) أى أرض مصر (يتبوأ) أى ينزل (منها حيث يشاء) بعد الضيق والحبس قال ابن عباس وغيره ولما انقضت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوجه وجعل خاتم الملك فى اصبعه وقلده سيفه وجعل له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشا فقال يوسف عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى وأمره أن يخرج فخرج لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فى صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض اليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سلطانه كله اليه وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته ثم مات قطفير بعد ذلك فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت أيها الصديق لا تلمنى فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى فوجدها يوسف عليه السلام عذراء فأصابها فولدت له ذكرين افرائيم وميشا فأقام العدل بمصر وأحبه الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الاولى ثم بالحلى والجواهر فى السنة الثانية ثم بالدواب فى السنة الثالثة ثم بالعبيد والاماء فى السنة الرابعة ثم بالضياع والعقار فى السنة الخامسة ثم بأولادهم فى السنة السادسة ثم برقابهم فى السنة السابعة حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا صار عبدا له فقال الناس ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من هذا صار كل الخلق عبيدا له فلما سمع ذلك قال انى أشهد الله أنى أعتقت أهل مصر

عن

الرازى وورد على أصل السؤال أن يقال كيف يتورعون عن الاهب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من الاهب وأشد وهو القاء أخيهم فى الجب

من آخرهم ووردت عليهم املا كهم وكان لا يبيع أحدا ممن يطلب الطعام أكثر من حمل بعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هذا ملخص ما قاله البغوي والزمخشري وغيرهما قال الرازي والله أعلم بحقيقة الحال وروي ان يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك الايام فقيل له تجوع و بيدك خزائن الارض فقال ان شبعت نسيت الجائع وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار أراد بذلك أن يذيق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين قال البغوي فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال الله تعالى (نصيب) أي نخص (برحمتنا من نشاء) في الدنيا والآخرة (ولا نضيع اجر المحسنين) بل نوفيهم أجورهم عاجلا وآجلا لان اضاعة الاجر اما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع في حق الله تعالى فالاضاعة ممتنعة (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال الرازي وهذا تنصيص من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان في الزمان السابق من المتقين وليس ههنا زمان سابق يحتاج الى بيان أنه كان فيه من المتقين الا ذلك الوقت الذي قال الله تعالى فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا من الله تعالى شهادة بانه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين وأيضا قوله ولا نضيع أجر المحسنين شهادة من الله تعالى على أنه كان من المخلصين ٣ فثبت أن الله تعالى شهد بان يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين والجاهل الحشوي يقول انه كان من المذنبين ولا شك أن من لم يقبل قول الله تعالى مع هذه التأكيدات كان من الاخسرين ● ولما اشتد القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد الشام وأرض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان للميرة فجعل يوسف عليه السلام لا يعطي أحدا أكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا بين الناس وتزاحم الناس عليه ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف لامه وأبيه فذلك قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف) وكانوا عشرة وكان منزلهم بالعربات من أرض فلسطين ثغور الشام وكانوا أهل ابل وشياه فدعاهم أبوهم يعقوب عليه السلام وقال بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا اليه واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون من الطعام وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الثانية والباقون بالتحقيق ولما أمرهم أبوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر (فدخلوا عليه فعرفهم) قال ابن عباس بأول نظرة اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه (وهم له منكرون) أي لم يعرفوه وذلك لوجوه الاول أنه عليه السلام أمر حجابه بان يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بواسطة الثاني أنهم حين ألقوه في الجب كان صغيرا ثم انهم رأوه بعد وفور اللحية وكبر الجثة قال ابن عباس وكان بين ان قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه لانه كان على سرير الملك وكان بزي ملوك مصر عليه ثياب حرير وفي عنقه طوق من ذهب ثم ان يوسف عليه السلام أمر بانزالهم واكرامهم وكانت عادته أن لا يزيد أحدا على حمل بعير وكانوا عشرة فاعطاهم عشرة أحمال كما قال تعالى (ولما جهزهم بجهازهم) أي وفاهم كيلهم والجهاز ما يعد من الامتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة الى أخرى وما تزف به المرأة الى زوجها

على قصد القتل (قلت) لم يكن وقت القائهم يوسف في الجب وقت طلب تورعهم عن اللعب ولا قبله وأصل السؤال انما وقع على طلب التورع المتقدم على الالقاء لكن يطلب الجواب عن القائهم له في

٣ قوله شهادة من الله تعالى الخ هكذا بالاصول التي بايدينا ومقتضى قوله فثبت الخ أن يكون حق العبارة شهادة من الله تعالى على أنه كان من المحسنين وأيضا قوله انه من عبادنا المخلصين شهادة من الله تعالى على أنه كان من المخلصين فثبت الخ فاحرر اه مصححه

فقالوا ان ابانا شيخا كبيرا وأخا آخر بقي معه وذكروا ان أباهم لاجل سنه وشدة حزنه لم يحضر
وان أخاهم في خدمة أبيه ولابد لهما أيضا من حمل آخر من الطعام فلما ذكروا ذلك قال
يوسف عليه السلام فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم وهذا شئ عجيب لانكم
أنتم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم اذا كانت محبة أبيكم لذلك الاخ أكثر من محبته لكم دل
ذلك على انه أعجوبة في العقل والادب فجيئوني به حتى أراه كما قال تعالى حكاية عنه (قال ائتوني
بأخ لكم من أبيكم) اى الذى خلفتموه عنده وقيل انه لما نظر اليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم
أخبروني من أنتم وما أمركم فاني أنكرت شانكم قالوا قوم من أرض الشام أصابنا ما أصاب
الناس فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم لتنظروا الى عورة بلادنا قالوا لا والله لسنا بجواسيس انما
نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله تعالى قال وكم
كنتم قالوا كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا الى البرية فهلك فيها وكان أحبنا الى أبينا قال فكم
أنتم ههنا قالوا عشرة قال وأين الابن الآخر قالوا عند أبينا لانه أخو الذى هلك وأبوه يتسلى به
قال فمن يعلم ان الذى تقولون حق قالوا أيها الملك انا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فقال يوسف عليه
السلام فائتوني بأخيكم الذى من أبيكم ان كنتم صادقين فانا أرضى بذلك فقالوا ان أبانا يحزن
على فراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم فاقترعوا
بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا في يوسف فخلفوه عنده ثم انه قال لهم
(الا ترون أني أوفي الكيل) أى أتمه ولا أبخس منه شيأ وقرأ نافع بفتح الياء من أني والباقون
بالسكون وأما الياء من أوفي فجميع القراء يثبتونها في الوقف لثباتها في الرسم وحذفوها في
الوصل لالتقاء الساكنين (وأنا خير المنزلين) أى المضيفين فانه كان قد أحسن ضيافتهم مدة
اقامتهم عنده قال الرازى وهذا يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى
انهم عيون وجواسيس ولو شافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أني أوفي
الكيل وأنا خير المنزلين وأيضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم
أنتم عيون وجواسيس مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال
الصديق ثم قال عليه السلام (فان لم تأتوني به) أى بأخيكم (فلا كيل) أى فلا ميرة (لكم
عندي) ولم يمنعهم من غيره (ولا تقربون) نهي أو عطف على محل فلا كيل لكم أى تحرموا ولا
تقربوا مني ولا تدخلوا دياري فجمع لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب فالترغيب في قوله
الاول والترهيب في قوله الثاني لانهم كانوا في نهاية الحاجة الى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله
الا من عنده ومع ذلك لم يخطر ببالهم أنه يوسف فكأنه قيل فما قالوا فقيل (قالوا سنراود) أى
نجتهد لا خلف فيه حين نصل (عنه اباه) أى سنكلمه فيه ونتنازعه الكلام ونحتال فيه ونتلطف
في ذلك ولا ندع جهدا (وانا لفاعلون) أى ما أمرتنا به والتزمناه (و) لما أرغبهم وارهبهم في
شأن أخيه (قال لفتيته) أى غلمانه الكيالين جمع فتى وقرأ حفص وحمزة والكسائى بألف
بعد الياء المثناة تحت وبعد الالف نون مكسورة والباقون بالياء المثناة تحت ثم بتاء مثناة
فوق مكسورة (اجعلوا بضاعتهم) أى التى أتوا بها ثمن الميرة وكانت دراهم وعن ابن عباس
رضي الله تعالى عنهما أنها كانت النعال والادم (في رحالهم) جمع رحل أوعيتهم التى يحملون

فيها

الحب مع ان ذلك من
المعاصى ويجاب بماصى
في الجواب عن قولهم
اقتلوا يوسف أو اطرحوه
أرضا (قوله وأوحينا
اليه) أى وحى الهام
لا وحى رسالة لانه يومئذ لم
يكن بالغا ووحى الرسالة
انما يكون بعد الاربعين

فيها الطعام (لعلهم يعرفونها) أى بضاعتهم (اذا انقلبوا) أى رجعوا (الى اهلهم) وفتحوا أوعيتهم (لعلهم يرجعون) الينا واختلف فى السبب الذى من أجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم فى رحالهم على أوجه الاول أنه أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية الى أن يصلوا الى أبيهم الثانى أراد أن يعرف أباه أنه أكرمهم وطلبهم لمزيد الاكرام فلا يثقل على أبيه ارسال أخيه الثالث مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الاخ لاجل الايذاء والظلم ولا يطلب زيادة الثمن الرابع أراد أن يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة الخامس قال الفراء انهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع فى قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد أنبياء فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ويردوا المال الى مالكه السادس أراد به التوسعة على أبيه لان الزمان كان زمان القحط السابع رأى ان أخذ ثمن الطعام من أبيه ومن اخوته على شدة حاجتهم الى الطعام لؤم الثامن خاف أن لا يكون عند أبيه من المال ما يرجعون به مرة أخرى التاسع أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاء فيبعثهم ذلك الى العود اليه والحرص على معاملته عليه السلام (فلما رجعوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (الى ابيهم قالوا يا ابانا) انا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا اكرامه فقال يعقوب عليه السلام اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤه منى السلام وقولوا له ان أبانا يدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة وقولهم (منع منا الكيل) فيه قولان أحدهما أنهم لما طلبوا الطعام لاخيهم الغائب عند أبيهم منعوا منه والثانى أنهم منعوا الكيل فى المستقبل وهو قول يوسف عليه السلام فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ويدل له ما قولهم (فأرسل معنا أخانا) بنيامين (نكتل) فان حمزة والكسائى قرآ بالياء أى يكتل لنفسه وهذا يدل لقول الاول والباقون بالنون أى نكتل نحن واياه وهذا يدل للقول الثانى (وانا له لحافظون) عن أن يناله مكروه حتى نرده اليك فلما قالوا ليعقوب عليه السلام هذه المقالة (قال) لهم (هل آمنكم) أى أقبل منكم الآن وفى مستقبل الزمان تأمينكم لى فيه بما بسوءنى تأمينا استقبلا (عليه) أى بنيامين (الا كما أمنتكم) أى فى الماضى (على أخيه) يوسف عليه السلام (من قبل) فانكم أكدتم غاية التأكيد فلم تحفظوه لى ولم تردوه الى والامن اطمئنان القلب الى سلامة النفس فانا فى هذا لا آمن عليه الا الله تعالى (فالله) المحيط علما وقدرة (خير حفظا) منكم ومن كل أحد ففيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه فى جميع الامور وقرأ حفص وحمزة والكسائى بفتح الحاء وألف بعدها وكسر الفاء والباقون بكسر الحاء وسكون الفاء وهو منصوب على التمييز فى القراءتين ويحتمل الاولى النصب على الحال اللازمة (وهو أرحم الراحمين) أى أرحم بى من أن يفجعنى به بعد مصيبتى باخيه فلا يجمع على مصيبتين (ولما) أرادوا تفريغ ما قدموا به من الميرة (فتحوا متاعهم) أى أوعيتهم التى حملوها من مصر (وجدوا بضاعتهم) أى ما كان معهم من كنعان لشراء القوت (ردت اليهم) والوجه انه علم ورد

(قوله ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) قاله هنا بدون واستوى وقاله فى القصص بواستوى لان يوسف أوحى اليه فى الصغر وموسى أوحى اليه بعد أربعين سنة فقوله واستوى اشارة الى تلك

الشئ للنفس بجاسة أو ما يفنى عنها فكأنه قيل ما قالوا فقيل (قالوا) أى لابيهم عليه السلام (يا أبانا ما) استفهامية أى أى شئ (نبغى) أى نريد جميع القراء أثبتوا الياء وقفا ووصلا لثباتها فى الرسم فكأنه قال لهم ما الخبر فقالوا بيانا لذلك وتأكيدا للسؤال فى استصحاب أخيهم (هذه بضاعتنا ردت الينا) هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا ولما كان التقدير ونرجع بها اليه بأخينا فيظهر له نصحنا وصدقنا (ونمير أهلنا) أى نجلب اليهم الميرة برجوعنا اليه والميرة الاطعمة التى تحمل من بلد الى بلد (ونحفظ أخانا) فلا يصيبه شئ مما تخشى عليه تأكيدا للوعد بحفظه (ونزداد كيل بعير) لاخينا (ذلك كيل يسير) أى سهل على الملك لسخائه وحرصه على البذل وقيل قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير وقيل قليل فابعث أخانا معنا حتى نبدل تلك القلة بالكثرة فكأنه قيل ما قال لهم فقيل (قال) يعقوب عليه السلام (لن أرسله) أى بنيامين كائنا (معكم) أى فى وقت من الاوقات (حتى تؤتون موثقا) أى عهدا مؤكدا (من الله) قرأ ابن كثير باثبات الياء بعد النون وقفا ووصلا وأبو عمرو باثبات الياء وقفا لا وصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا وقوله (لتأتننى) أى كلكم (به) أى تحلفوا بالله لتأتننى به من الاتيان وهو المجئ فى كل حال جواب القسم أو المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به (الا) أى فى حال (أن يحاط) أى تحصل الاحاطة بمصيبة من المصائب لا طاقة لكم بها (بكم) فتهلكوا من عند آخركم كل ذلك زيادة فى التوثق بما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام وان كان الاعتماد فى حفظه انما هو على الله تعالى وهذا من باب اعقلها وتوكل فاجابوه الى ذلك كما قال تعالى (فلما آتوه موثقهم) بذلك (قال الله على ما نقول) نحن وأنتم (وكيل) أى شهيد وأرسله معهم بذلك (فان قيل) لم أرسله معهم وقد شاهد منهم ما شاهد فى يوسف عليه السلام (أجيب) بان ذلك لوجوه أحدها أنهم كبروا ومالوا الى الخير والصلاح الثانى انه كان شاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام الثالث لعل الله أوحى اليه وضمن حفظه وايصاله اليه (و) لما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد (قال) لهم (يا بنى لا تدخلوا) اذا قدمتم الى مصر (من باب واحد) من أبوابها (وادخلوا من أبواب) واحترز من أن تكون متلاصقة أو متقاربة جدا بقوله (متفرقة) أى تفرقا كثيرا وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين وهى من قدر الله تعالى وقد ورد شرعنا بذلك ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العين حق وفى رواية عن أحمد يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم وفى رواية لمسلم العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين وفى رواية عن جابر ان العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر النبيين وعن عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدت اليه فى آخر النهار

الزيادة (قوله واستبقا الباب) وحد الباب هنا وجمعه قبل فى قوله وغلقت الابواب لان اغلاق الباب للاحتياط لا يتم الا باغلاق الجميع وأما هروبه منها فلا يكون الا الى باب واحد

فرأيته مصابا فقال ان جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال بسم الله أرقيك من كل شئ
يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت وفى رواية ان بنى جعفر بن أبى طالب كانوا
غلمانا بيضا فقالت أسماء يا رسول الله ان العين اليهم سريعة فاسترق لهم من العين فقال لها نعم
وفى رواية دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يا رسول
الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين وعن عائشة رضى الله تعالى عنها كان يؤمر
العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين الذى أصيب بالعين * ولما خاف يعقوب عليه السلام
أن يسبق من أمره هذا الى بعض الاوهام أن الحذر يغنى عن القدر نفى ذلك بقوله عليه
السلام (وما أغنى) أى أدفع (عنكم) بقولى ذلك (من الله من شئ) قدره عليكم وانما ذلك
شفقة ومن مزيدة للتأكيد واعلم أن الانسان مأمور بان يراعى الاسباب المعتبرة فى هذا العالم
بان يجزم بانه لا يحصل الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا يدفع القدر فالانسان مأمور بان يحذر
الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان ومع
ذلك يكون جازما بانه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى ولا يحصل فى الوجود الا ما أراده الله
تعالى فقوله عليه السلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة اشارة الى رعاية
الاسباب المعتبرة فى هذا العالم وقوله وما أغنى عنكم من الله من شئ اشارة الى عدم الالتفات
الى الاسباب بل الى التوحيد المحض والبراءة من كل شئ سوى الله تعالى * ولما قصر الامر كله
اليه تعالى وجب رد كل أمر اليه وقصر النظر عليه فقال منبها على ذلك (ان الحكم الا لله)
وحده الذى ليس الحكم الا له (عليه) أى على الله وحده (توكلت) أى جعلته وكيلى فرضيت
بكل ما يفعل (وعليه) وحده (فليتوكل المتوكلون) أى الثابتون فى باب التوكل فان ذلك من
أعظم الواجبات من فعله فاز ومن أغفله خاب وقد ثبت بالبرهان ان لا حكم الا لله فلزم القطع
بان حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى وذلك يوجب أن لا توكل الا على الله
تعالى فهذا مقام شريف عال والشيخ أبو حامد الغزالى أكثر فى تقرير هذا المعنى فى كتاب
التوكل من كتب احياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب * ولما قال
يعقوب عليه السلام وما أغنى عنكم من الله من شئ صدقه الله تعالى فى ذلك فقال (ولما
دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أى متفرقين (ما كان) ذلك التفرق (يغنى عنهم من الله) أى
من قضائه وأغرق فى النفى فقال (من شئ) أى مما قضاه عليهم كما تقدم من قول يعقوب عليه
السلام فسرقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع فى رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب
عليه السلام وقوله تعالى (الا حاجة) استثناء منقطع أى لكن حاجة (فى نفس يعقوب) وهى
الوصول الى ما أمر به شفقة عليهم (قضاها) يعقوب عليه السلام وأبرزها من نفسه الى أولاده
فعملوا فيها بارادة فانتفى عنهم الخلاص من عقوق أبيهم فقط (وانه) أى يعقوب عليه السلام
مع أمره لبنيه بذلك (لذو علم) أى معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع
على الكونين عظيم (لما علمناه) بالوحى ونصب الحجج ولذلك قال وما أغنى عنكم من الله من شئ
ولم يغتر بتدبيره * ولما كان قد يظن أن كل أحد يكون كذلك أى يعلم ما علمه نفى ذلك سبحانه

حتى لو تعددت أماكنه لم يقصد منها أولا الا الاول فلهذا وحد الباب هنا وجمعه ثم (قوله لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) كرر لعل رعاية للفواصل اذ لو قال لعلى أرجع الى الناس فيعلموا بحذف

وتعالى بقوله جل شانه (ولكن أكثر الناس) أى لاجل مانالهم من الاضطراب (لايعلمون) أى ليسوا بذوى علم لما علمناهم لاعراضهم عنه واستفراغ قواهم فى الاهتمام بما وقع التكليف لهم به ومن أحوال الدنيا ومقابلة فطرهم القويمة السليمة بردّها الى ماتدعوهم اليه الحظوظ والشهوات حتى لايكونون طب لمخاوقه ولما أخبر تعالى عن دخولهم الى البلد أخبر عن دخولهم لحاجتهم الى يوسف عليه السلام فقال (ولما دخلوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (على يوسف) فى المقدمة الثانية باخيهم بنيامين قالوا هذا أخونا فقال أحسنتم واصبتم وستجدون خير ذلك عندى ثم أنزلهم وأكرم منزلهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا أجلسنى معه فقال يوسف لقد صار أخوكم هذا وحيدا فاجلسه معه على مائدته وصار يؤاكله فلما كان الليل أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتا فبقى بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام معى على فراشى كما قال تعالى (آوى) أى ضم (اليه اخاه) فبات معه وجعل يوسف يضمه اليه ويشمه ثم قال له ما اسمك فقال بنيامين قال وما بنيامين قال المثكل وذلك انه لما ولد هلكت أمه قال وما اسم أمك قال راحيل بنت لاوى قال فهل لك من ولد قال نعم عشرة بنين ولما رأى تاسفه لاخ له هلك قال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك فقال ومن يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه و (قال انى أنا أخوك فلا تبتئس) أى لاتحزن (بما كانوا يعملون) أى بشئ فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا فلا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التى قد أقدموا عليها وقد جمعنا الله تعالى على خير ولا تعلمهم بشئ من ذلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ومدّ بعد النون من أنا قبل الهمزة المفتوحة نافع والباقون بالقصر ثم انه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا وكان فى المرة الاولى أبطأ فى تجهيزهم فى طول المدة ليتعرف أخبارهم من حيث لايشعرون ولذلك لم يعطف بالفاء وأسرع فى تجهيزهم فى هذه المرة قصدا الى انفراده باخيه من غير رقيب بالحيلة التى دبرها فلذلك أتت الفاء فى قوله (فلما جهزهم) أى أعجل جهازهم وأحسنه (بجهازهم جعل) بنفسه أو بماذونه (السقاية) أى المشربة التى كان يشرب بها (فى رحل اخيه) أى وعاء طعام أخيه بنيامين كما فعل ببضاعتهم فى المرة الاولى قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر وجعلها يوسف عليه السلام مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها قال الرازى هذا بعيد لان الاناء الذى يشرب فيه الملك لايصلح أن يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها قال وهذا أيضا بعيد لان الآنية التى تسقى الدواب فيها لاتكون كذلك قال والاصوب أن يقال كان ذلك الاناء شيأ له قيمة أما الى هذا الحد الذى ذكروه فلا والسقاية والصواع واحد ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم اذن) أى أعلن فيهم بالنداء (مؤذن) قائلا برفيع صوته وان كانوا فى غاية القرب منه بما دل عليه اسقاط الاداة (ايتها العير) أى القافلة قال أبو الهيثم كل ما سير

عليه

النون جوانا اهل اقالت الرعاية (قوله اجعلنى على خزائن الارض) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الانبياء عليهم السلام أعظم الناس زهدا فى

عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير قال وقول من قال العير الابل خاصة باطل فقوله أيتها العير أى أصحاب العير كقوله يا خيل الله اركبي قال الفراء كانوا أصحاب ابل وقال مجاهد كانت العير حميرا وقرأ ورش بابدال الهمزة مؤذن واوا وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط والباقون بالقصر (انكم لسارقون) فقفوا حتى تنظر الذى فقدناه والسرقة أخذ ماليس له أخذه فى خفاء من حرز مثله (فان قيل) هل كان هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام أوما كان بأمره فان كان بأمره فكيف يليق بيوسف عليه السلام مع علو منصبه أن يبهت أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة (أجيب) بأجوبة الاول أنه عليه السلام لما أظهر لاخيه أنه يوسف قال لست أفارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى مالا يليق بك قال رضيت بذلك وعلى هذا لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام لانه قد رضى به فلا يكون ذلك ذنبا الثانى انكم لسارقون يوسف من أبيه الا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة من الكذب الثالث أن المنادى انما ذكر النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا يخرج أن يكون كذبا الرابع ليس فى القرآن مايدل على أنهم قالوا هذا بأمر يوسف عليه السلام قال الرازى والاقرب الى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لانهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم غلب على ظنهم أنهم الذين أخذوها ولما وصل اليهم الرسول قال لهم ألم نحسن ضيافتكم ونكرم مثواكم ونفيكم كيلكم وفعلنا بكم مالم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا سقاية الملك فقدناها ولانتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى (قالوا و) الحال أنهم قد (أقبلوا عليهم) أى على جماعة الملك المنادى وغيره (ماذا) أى ما الذى (تفقدون) مما يمكننا أخذه والفقدان ضد الوجود (قالوا نفقد) وكان للسقاية اسمان فعبروا بقولهم (صواع الملك) والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة سموه تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذوا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به فى ذلك الوقت (ولمن جاء به حمل بعير) أى من الطعام والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة وأطلقه بعضهم على الناقة أيضا وجعله نظير انسان وهو ماجرى عليه الفقهاء فى باب الوصية والجمع فى القلة على أبعرة وفى الكثرة على بعران (وأنا به زعيم) قال مجاهد هذا الزعيم هو الذى أذن والزعيم الكفيل وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الزعيم غارم واذا ورد فى شرعنا ما يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا فى ذلك خلاف والراجح أنه ليس بشرع لنا (فان قيل) كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيأ (أجيب) بأنهم لم يكونوا سراقا فى الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون ذلك جعالة أو ان مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم فى ذلك الزمان (قالوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (تالله) التاء حرف قسم وهى عند الجمهور بدل من واو القسم والواو بدل من الباء فهى فرع الفرع فلذلك ضعفت عن التصرف فى الاسماء فلا تدخل الا على الجلالة الكريمة أو الرب مضافا للكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحمن لم يجز أى والله (لقد علمتم) أى علما جربتموه من أمانتنا

الدنيا ورغبة فى الآخرة (قلت) انما طلب ذلك ليتوصل به الى امضاء حكم الله تعالى واقامة الحق وبسط العدل ونحوه ولعله ان أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك (قوله ولما

قبل هذا في كون مجيئنا (ما جئنا) وأكدوا النفي باللام فقالوا (لنفسد) أي لنوقع الفساد (في الارض) أي أرض مصر (و) لقد علمتم (ما كنا) أي بوجه من الوجوه (سارقين) أي موصوفين بهذا الوصف قطعا (فان قيل) من أين علموا ذلك (أجيب) بان ذلك يعلم مما رأوا من أحوالهم وقيل لانهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم قالوا فلو كنا سارقين ما رددناها وقيل قالوا ذلك لانهم كانوا معروفين بانهم لا يتناولون ما ليس لهم وكانوا اذا دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم كي لا تتناول شيأ من حروث الناس (قالوا) أي أصحاب يوسف عليه السلام المنادي ومن معه (فما جزاؤه) أي السارق وقيل الصواع (ان كنتم كاذبين) في قولكم ما كنا سارقين ووجد فيكم والجزاء مقابلة العمل بما يستحق من خير وشر (قالوا) وثوقا منهم بالبراءة واخبارا بالحكم عندهم (جزاؤه من وجد في رحله) ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة ثم أكدوا ذلك بقولهم (فهو جزاؤه) قال ابن عباس كان ذلك الزمان كل سارق بسرقته فلذلك قالوا ذلك أي فالسارق جزاؤه أن يسلم بسرقته الى المسروق منه فيسترق سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق فاراد يوسف أن يحبس أخاه عنده فرد الحكم اليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم (كذلك) أي الجزاء (نجزي الظالمين) بالسرقة قال أصحاب يوسف فلا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف عليه السلام فامر بتفتيشها بين يديه (فبدأ باوعيتهم) ففتشها (قبل وعاء أخيه) لئلا يتهم فلم يجد فيها شيأ (ثم) أي بعد تفتيش أوعيتهم والثاني في ذلك (استخرجها) أي السقاية أو الصاع لانه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس اخوته رؤسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ايش الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصاع فقال بنيامين بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم باخي فاهلكتموه في البرية ان الذي وضع هذا الصاع في رحلي هو الذي وضع البضاعة في رحالكم فاخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فاخذوه برقبته وردوه الى يوسف عليه السلام • (تنبيه) • ههنا همزتان مختلفتان من كلمتين قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الثانية ياء والباقون بالتحقيق (كذلك) أي مثل ذلك الكيد (كدنا ليوسف) خاصة بان علمناه اياه جزاء لهم على كيدهم بيوسف عليه السلام في الابتداء وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام فيكيدوا لك كيدا والكيد من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبير بالحق فالمراد من هذا الكيد هو ان الله تعالى ألقى في قلب اخوته بان حكموا أن جزاء السارق هو أن يسترق لا جرم لما ظهر الصاع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك أخيه عند نفسه • ولما كان الكيد يشعر بالحيلة والخديعة وهو في حق الله تعالى محال حمل على الغاية ونهايته هنا القاء الانسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه ولا سبيل له الى دفعه فالكيد في حق الله تعالى محال على هذا المعنى وقيل المراد بالكيد هنا ان اخوة يوسف سعوا في ابطال أمره والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره وقوله تعالى (ما كان) أي

جهزهم بجهازهم) قاله هنا بالواو وقاله بعد بالفاء لانه ذكر هنا أول تجهيزهم الى يوسف فناسبته الواو الدالة على الاستئناف وذكر بعد عند انصرافهم عنه عطفا على ما

يوسف

يوسف (ليأخذ أخاه في دين الملك) اى حكمه بيان للكيد لان جزاءه كان عنده الضرب وتغريم مثلى ما أخذ لا أنه يستعبد وقوله تعالى (الا ان يشاء الله) فيه وجهان أحدهما انه استثناء منقطع تقديره ولكن بمشيئة الله أخذه في دين غير دين الملك وهو دين آل يعقوب عليه السلام ان الاسترقاق جزاء السارق والثانى انه مفرغ من الاحوال العامة والتقدير ما كان ليأخذه في كل حال الا في حال التباسه بمشيئة الله اى اذنه في ذلك ٭ ولما كان يوسف عليه السلام انما تمكن من ذلك بعلو درجته وتمكنه و رفعته بعدما كان فيه عندهم من الصغار كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتا الى مقام التكلم (نرفع درجات من نشاء) اى بالعلم كما رفعنا درجته وكان الاصل درجاته ولكنه عمم لانه أدل على العظمة فكان أليق بظهورها وفى هذه الآية دليل على ان العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لان الله تعالى لما هدى يوسف عليه السلام الى هذه الحيلة مدحه لاجل ذلك و رفع درجته على اخوته ووصف ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى نرفع درجات من نشاء عندما حكى عنه دلائل التوحيد والبراءة عن الهية الشمس والقمر والكواكب وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتنوين التاء والباقون بغير تنوين (وفوق كل ذى علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى ان ينتهى العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغنى بعلمه عن التعلم وفى الآية دليل على ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الانبارى يجب ان يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لربه تعالى ولا يطمع نفسه في العلية في العلوم لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه ٭ ولما حصل لاخوة يوسف من اخراج الصواع من رحل بنيامين ما حصل فكأنه قيل فما كان فعلهم عند ذلك فقيل (قالوا) تسلية لانفسهم ودفعا للعار عن خاصتهم (ان يسرق) ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بامانته وظنهم ان الصواع دس في رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم في رحالهم وكان قد قال لهم ذلك (فقد سرق أخ له من قبل) اى يوسف وكان غرضهم من ذلك انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من أم أخرى واختلفوا في التى نسبوها الى يوسف عليه السلام على أقوال فقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير التى كانت في بيت يعقوب فاعطاها سائلا وقال مجاهد جاء سائل فاخذ بيضة من البيت فناولها السائل وقال وهب كان يخبأ الطعام من مائدة يعقوب للفقراء وقال سعيد بن جبير كان جده أبو أمه كافرا يعبد الوثن وأمرته أمه ان يسرق تلك الاوثان و يكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة وقال محمد بن اسحق ان يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة اسحق وكانت تحبه حبا شديدا فارادت ان تمسكه عند نفسها وكان قد بقى معها منطقة لابيها اسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت انه سرقها وكان علمهم ان من سرق يسترق فقال يعقوب عليه السلام ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فامسكته عندها حتى ماتت فتوصلت بهذه الحيلة الى امساكه عند نفسها قال ابن الانبارى وليس فى هذه الافعال كلها سرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب وقيل انهم كذبوا عليه و بهتوه وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع و بعد انقضاء المدة الطويلة قال الرازى وهذه

دخلوا فيما سبقه الفاء الدالة على الترتيب والتعقيب (قوله أيتها العير انكم لسارقون) ان قلت كيف جاز ليوسف ان يأمر المؤذن بان يقول ذلك مع ان فيه بهتانا واتهام من لم يسرق

الواقعة تدل على ان قلب الحاسد لا يطمئن من الغل البتة (فاسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها)
اى يظهرها (لهم) والضمير للكلمة التى هى قوله (قال) اى فى نفسه (أنتم شر مكانا) اى من
يوسف وأخيه اى لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له وقيل الضمير يرجع الى الكلمة التى
قالوها فى حقه وهى قولهم فقد سرق أخ له من قبل وعلى هذا يكون المعنى فاسر يوسف جواب
الكلمة التى قالوها فى حقه (والله أعلم) منكم (بما تصفون) اى تقولون وانه ليس كما قلتم قال
أصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه السلام لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره
وأدناه الى اذنه ثم قال ان صاعى هذا يخبرنى انكم كنتم اثنى عشر رجلا لاب واحد وانكم
انطلقتم باخ لكم من أبيكم فبعتموه فقال بنيامين أيها الملك ان صاعك يخبرك من جعله فى
رحلى ثم نقره وأدناه من اذنه فقال ان صاعى غضبان وهو يقول كيف تسألونى عن صاحبى
وقد رأيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكانوا أولاد يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا
وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شئ وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت صوته
وكان مع هذا اذا مسه أحد من ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة
وأشدهم وروى انه قال لاخوته كم عدد الاسواق بمصر قالوا عشرة فقال اكفونى أنتم
الاسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفونى أنتم الملك وأنا أكفيكم الاسواق ودخلوا على يوسف
فقال روبيل اتردن علينا أخانا أو لاصيحن صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل الا ألقت ولدها
وقامت كل شعرة فى جسده حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب روبيل
فمسه وروى خذ بيده فاتنى به فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال لاخوته من مسنى
منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل ان هنا بذرا من بذر يعقوب فقال يوسف من يعقوب
وروى انه غضب ثانيا فقام اليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال
أنتم يا معشر العبرانيين تظنون ان لا أحد أشد منكم فلما صار أمرهم الى هذا ورأوا ان لا سبيل
لهم الى تخليصه خضعوا وذلوا و(قالوا يا أيها العزيز) فخاطبوه بما يليق بالاكابر ليرق لهم (ان
له) اى لهذا الذى وجد الصواع فى رحله (أبا شيخا كبيرا) اى فى سنه وقدره وهو مغرم به لا يقدر
على فراقه ولا يصبر عنه (فخذ أحدنا مكانه) وأحسن الى أبيه بارساله اليه (انا نراك) اى نعلمك
علما هو كالرؤية أو بحسب ما رأيناه (من المحسنين) اى العريقين فى صفة الاحسان فاجر فى
أمرنا على عادة احسانك فكانه قيل فما أجابهم قيل (قال معاذ الله) هو نصب على المصدر
وحذف فعله وأضيف الى المفعول اى نعوذ بالذى لا مثل له معاذا عظيما من (ان نأخذ الا من
وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل سرق متاعنا لانه لم يفعل فى الصواع فعل السارق ولم يقع منه
قبل ذلك ما يصح اطلاق الوصف عليه ثم علله بقوله (انا اذا) اى اذ أخذنا أحدا مكانه
(لظالمون) اى عريقون فى الظلم فى دينكم فلم تطلبون ما هو ظلم عندكم ولما استيأسهم بما قال
من اطلاق بنيامين حكى الله تعالى ما تم لهم من الرأى فقال (فلما) دالا بالفاء على قرب زمن تلك
المراجعات (استيأسوا) اى ايسوا (منه) لما رأوا من احسانه ولطفه ورحمته يأسا شديدا بما
رأوا من ثباته على أخذه بعينه وعدم استبداله (خلصوا) اى انفردوا عن غيرهم حال كونهم
(نجيا) وهو مصدر يصلح للواحد وغيره اى ذوى نجوى يناجى بعضهم بعضا فكانه قيل فما

(قوله) انما قاله بانه سرق (قلت) قوربة مما جرى منهم مجرى السرقة من فعلهم بيوسف فانفعلوا أولا أو كان ذلك القول من المؤذن بغير أمر يوسف عليه السلام أو ان حكم ذلك حكم المجمل

قالوا

قالوا فقيل (قال كبيرهم) في السن وهو روبيل وقيل في الفضل والعلم وهو يهوذا وقيل
شمعون وكان له الرياسة على اخوته (ألم تعلموا) مقررا لهم بما يعرفونه مع قرب الزمان ليشتد
توجههم الى بذل الجهد في الخلاص من غضب أبيهم (ان أباكم) اى الشيخ الكبير الذى
جمعتموه في أحب ولده اليه (قد أخذ عليكم) اى قبل ان يعطيكم هذا الولد الآخر (موثقا)
اى عهدا وثيقا (من الله) في أخيكم وانما جعل حلفهم بالله موثقا منه لانه باذن منه وتأكيد
من جهته وقوله (ومن قبل ما فرطتم) في هذه الآية وجوه أظهرها ان ما مزيدة فيتعلق
الظرف بالفعل بعدها والتقدير ومن قبل هذا فرطتم اى قصرتم في حق يوسف وشأنه وزيادة
ما كثيرة وبه بدأ الزمخشري وغيره وقيل انها مصدرية في محل رفع بالابتداء والخبر هو قوله (في
يوسف) اى وتفريطكم كائن أو مستقر في يوسف والى هذا ذهب الفارسي وقيل غير ذلك
ولا نطيل بذكره اذ في هذا القدر كفاية (فلن أبرح) اى أفارق (الارض) اى أرض مصر (حتى
يأذن لى أبى) اى بالعود اليه (أو يحكم الله لى) بخلاص أخى (وهو خير الحاكمين) اى أعدلهم
(فان قيل) هذه الواقعة من أولها الى آخرها تزوير وكذب فكيف يجوز ليوسف عليه السلام
ان يعمل مثل هذه الاعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجدان
أبيه عليه وشدة غمه وفيه ما فيه من العقوق وايذاء الناس من غير ذنب لاسيما ويعلم انه اذا
حبس أخاه عنده بهذه التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم
المبالغة في التزوير الى هذا الحد (أجيب) بأجوبة كثيرة للعلماء وأحسنها انه انما فعل ذلك
بأمر الله تعالى له لا عن أمره وانما أمره الله تعالى بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام
فيضاعف له الاجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه وهو
المتصرف في خلقه بما يشاء فهو الذى أخفى خبر يوسف عن يعقوب في هذه المدة مع قرب
المسافة لما يريد ان يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده ثم قال كبيرهم (ارجعوا الى أبيكم)
دوني (فقولوا) له اى متلطفين في خطابكم (يا أبانا) وأكدوا مقالتكم فانه ينكرها وقولوا
(ان ابنك سرق) (فان قيل) كيف يحكمون عليه بانه سرق من غير بينة وهو قد أجابهم بالجواب
الشافي فقال الذى جعل الصاع في رحلى هو الذى جعل البضاعة في رحالكم (أجيب) بانهم لما
شاهدوا الصاع وقد أخرج من متاعه غلب على ظنهم انه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة في
ظاهر الامر لا في حقيقة الحال ويدل على انهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا)
عليه (الا بما علمنا) ظاهرا من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه وأما قوله وضع الصاع في رحلى
من وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر لان هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بانهم
هم الذين وضعوها في رحالهم وأما هذا الصاع فان أحدا لم يعترف بانه هو الذى وضع الصاع في
رحله فلهذا السبب غلب على ظنهم انه سرق فشهدوا بناء على الظن (وما كنا للغيب) اى بما غاب
عنا حين أعطينا الموثق (حافظين) اى ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ويصير أمرنا الى هذا ولو علمنا
ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا الى حفظه سبيل وحقيقة الحال غير معلومة
لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى فلعل الصاع دس في رحله ونحن لا نعلم ذلك فلعل حيلة دبرت
في ذلك غاب عنا علمها كما منع فرد بضاعتنا (واسئل القرية) اى أهلها على حذف المضاف وهو

الشرعية التى يتوصل بها
الى مصالح دينية كقوله تعالى
لايوب وخذ بيدك ضغثا
فاضرب به ولا تحنث وقول
ابراهيم في حق زوجته هى
أختى لتسلم من يد الكافر
وقوله انه لا ييأس من روح

مجاز مشهور وقيل انه مجاز لكنه من باب اطلاق المحل وارادة الحال (التى كنا فيها) وهى مصر عما أخبرناك به يخبرونك بصدق فان الامر قد اشتهر عندهم وقيل هى قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها الى مصر (و) اسأل (العير) اى القافلة وهم قوم من كنعان جيران يعقوب عليه السلام (التى أقبلنا فيها) والسؤال طلب الاخبار باداته من الهمزة أوهل أوغيرهما والقرية الارض الجامعة لحدود فاصلة وأصلها من قريت الماء جمعته والعير قافلة الحمير من العير بالفتح وهو الحمار هذا هو الاصل ثم كثر حتى استعمل فى غير الحمير ولما كان ذلك بالانكار لما يتحقق من كرم أخيهم أكدوه بقولهم (وانا) اى والله انا (لصادقون) فى أقوالنا ولما رجعوا الى أبيهم وقالوا له ما قال كبيرهم فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (بل سولت) اى زينت تزيينا فيه غى (لكم أنفسكم أمرا) اى حدثتكم بأمر ففعلتموه والا فما أدرى الملك ان السارق يؤخذ بسرقته (فصبر جميل) اى فامرى صبر جميل أو فصبر جميل صبرى أو أجمل وقدم مثل ذلك فى واقعة يوسف الا انه قال فيها والله المستعان على ما تصفون وقال هنا (عسى الله أن يأتينى بهم) اى بيوسف وشقيقه بنيامين والاخ الثالث الذى أقام بمصر (جميعا) اى فلا يتخلف منهم أحد وانما قال يعقوب عليه السلام هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله تعالى وتفرس ان هذه الافعال نشأت عن يوسف عليه السلام وان الامر يرجع الى سلامة واجتماع ثم علل هذا بقوله (انه هو العليم) اى البليغ العلم بما خفى عنا من ذلك فيعلم أسبابه الموصلة الى المقاصد (الحكيم) اى البليغ فيما يدبره ويقضيه (و) لما ضاق قلب يعقوب عليه السلام بسبب الكلام الذى سمعه من ابنائه فى حق بنيامين (تولى عنهم) اى انصرف بوجهه عنهم لما توالى عنده من الحزن (وقال يا أسفا) اى يا أسفى (على يوسف) اى تعال هذا أوانك والاسف أشد الحزن والحسرة والالف بدل من ياء المتكلم وانما تأسف على يوسف دون أخويه والحادث انما هو مصيبتهما لان مصيبته كانت قاعدة المصائب والحزن القديم اذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدد حزنه على أخيه مالك

فقالوا أتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت لهم ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

ولانه كان واثقا بحياتهما دون حياته وفى حديث رواه الطبرانى لم تعط أمة من الامم انا لله وانا اليه راجعون عند المصيبة الا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا ترى الى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا (وابيضت عيناه) اى انمحق سوادهما وبدل بياضا (من الحزن) اى من كثرة البكاء عليه وقيل عند غلبة البكاء يكثر الماء فى العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقيل ضعف بصره حتى صار يدرك ادراكا ضعيفا وقيل عمى وقال مقاتل لم يبصر بهما ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف عليه السلام قيل ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف فى السجن فقال ان بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على

الله) أى من رحمته الا القوم
الكافرون (ان قلت) من
المؤمنين من ييأس من
روح الله لشدة مصيبته أو
كثرة ذنوبه كما فى قصة الذى
امر أهله اذا مات ان يحرقوه
الحديث ثم ان الله تعالى

رأسه وقال ليت أمي لم تلدني ولم أكن حزنا على أبي (فان قيل) هذا اظهار للجزع وجار مجرى الشكاية وهو لا يليق بمثل يعقوب عليه السلام (أجيب) بانه لم يذكر الا هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه ثم أمسك لسانه عن النياحة وذكر ما لا ينبغي ولم يظهر الشكاية مع أحد من الخلق ويدل لذلك قوله (فهو كظيم) أي مغموم مكروب لا يظهر كربه وقوله انما أشكو بثي وحزني الى الله فكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته صبر وتجرع الغصة وما اظهر الشكاية به فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء الجزيل وروى ان يوسف عليه السلام قال لجبريل عليه السلام هل لك علم بيعقوب قال نعم قال فكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد يموت قال فهل له أجر قال نعم أجر مائة شهيد واعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد وأيضا البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا على فراقك يا ابراهيم لمحزونون رواه الشيخان * (تنبيه) * شرف الانسان باللسان والعين والقلب فبين تعالى أن هذه الثلاثة كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله يا أسفا والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي سد فلا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم * ولما وقع من يعقوب عليه السلام ذلك كان قائلا يقول فما قال له أولاده فقيل (قالوا) له حنقا من ذلك (تالله تفتؤ) اى لا تفتؤ أي لا تزال (تذكر يوسف) تفجعا فتفتؤ جواب القسم وهو على حذف لا كقول الشاعر

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

ويدل على حذفها أنه لو كان مثبتا لاقترن بلام الابتداء ونون التوكيد معا عند البصريين أو أحدهما عند الكوفيين فتفتؤ هنا ناقصة بمعنى لا تزال كما تقرر ورسمت تفتؤ بالواو (حتى) الى أن (تكون حرضا) اى مشرفا على الهلاك لطول مرضك وهو مصدر يستوي فيه الواحد وغيره (او تكون من الهالكين) اى الموتى (فان قيل) لم حلفوا على ذلك مع انهم لم يعلموا ذلك قطعا (أجيب) بانهم بنوا الامر على الظاهر قال اكثر المفسرين قائل هذا الكلام هم اخوة يوسف وقال بعضهم ليس الاخوة بل الجماعة الذين كانوا في الدار من أولاده وخدمه * ولما قالوا له ذلك فكأن قائلا يقول فما قال لهم فقيل (قال) لهم (انما أشكو بثي) والبث أشد الحزن سمي بذلك لانه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر (وحزني) مطلقا وان كان سببه خفيفا يقدر الخلق على ازالته (الى الله) المحيط بكل شئ علما وقدرة لا الى غيره فهو الذي تنفع الشكوى اليه (وأعلم من الله) أي الملك الاعلى من اللطف بنا أهل البيت (ما لا تعلمون) فيأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب وفي ذلك اشارة الى أنه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه اليه وذكروا السبب هذا التوقع أمورا احدها أن ملك الموت أتاه فقال له يا ملك الموت هل قبضت روح ابني يوسف قال لا يا نبي الله ثم أشار الى جانب مصر وقال اطلبه من ههنا ولذلك قال (يا بني اذهبوا فتحسسوا) أي والتحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورة الناس والمعنى تحسسوا خبرا (من) أخبار (يوسف

قوله (قالت) انما ييأس من روح الله الكافر لا المؤمن ظاهر الآية فكل من أيس من روح الله فهو كافر حتى يعود الى الايمان ولا نسلم ان صاحب القصة مات

وأخيه) أي اطلبوا خبرهما وثانيها أنه علم أن رؤيا يوسف عليه السلام صادقة لأن أمارات الرشد والكمال ظاهرة في حق يوسف عليه السلام ورؤيا مثله لا تخطئ وثالثها لعل الله تعالى أوحى اليه أنه سيوصله اليه ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق ورابعها قال السدي لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله وأقواله وأفعاله طمع في أن يكون هو يوسف وقال بعيد أن يظهر في الكفار مثله ثم تلطف بنيه وقال لهم (ولا تيأسوا) أي تقنطوا (من روح الله) قال ابن عباس من رحمة الله وقال قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) أي الغريقون في الكفر قال ابن عباس ان المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده على الرخاء والكافر على الضد من ذلك فان اليأس من رحمة الله لا يحصل الا اذا اعتقد الانسان أن اله العالم غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر واذا كان اليأس لا يحصل الا عند حصول أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل الا لمن كان كافرا وقرأ البزي بعد التاء من تيأسوا وبعد الياء من لا ييأس بألف وبعدها ياء مفتوحة بخلاف عنه والباقون بهمزة مفتوحة قبلها ياء ساكنة * ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه الوصية وعادوا الى مصر (فلما دخلوا عليه) أي على يوسف عليه السلام (قالوا يا أيها العزيز) وكان العزيز لقب الملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا) أي من خلفناهم وراءنا (الضر) أي لابسنا ملابسة نحسها (وجئنا ببضاعة) وقالوا (مزجاة) اما لنقصها أو لرداءتها أو لهما جميعا وقال الحسن البضاعة المزجاة القليلة واختلفوا في تلك الرداءة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام وقيل متاع الأعراب الصوف والسمن وقيل الاقط وقيل النعال والادم وقيل ان دراهم مصر كان ينقش فيها صورة يوسف عليه السلام والدراهم التي جاؤا بها ما كان فيها ذلك فما كانت مقبولة عند الناس ثم سببوا عن هذا الاعتذار لأنه أقرب الى رحمة أهل الكرم قولهم (فأوف لنا الكيل) أي شفقة علينا بسبب ضعفنا (وتصدق) أي تفضل (علينا) زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو ثوابه ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله تعالى عللوا ذلك بقولهم (ان الله) أي الذي له الكمال كله (يجزي المتصدقين) أي وان كانت على غني قوي فكيف اذا كانت على أهل الحاجة والضعف * (فائدة) * سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على نبي من الأنبياء سوى نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام قال سفيان ألم تسمع قوله وتصدق علينا الآية يريد أن الصدقة كانت حلالا لهم ولا بيهم وروي أن الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق علي قال ان الله لا يتصدق وانما يتصدق من يبغي الثواب قل اللهم أعطني وتفضل علي (فان قيل) اذا كان أبوهم أمرهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه فلم عادوا الى الشكوى (أجيب) بأن المتحسس يتوصل الى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضر ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وذلك مما يرق القلب فقالوا نجربه في هذه الأمور فان رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود والا سكتنا فقدموا هذه المقدمة قال أبو اسحق ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة على اخوته فارفض دمعه فباح بالذي كان يكتم فلهذا (قال) لهم (هل علمتم)

(قوله ايسا) ولم ينسوا الرجوع عن وصيته (قوله فلما ان جاء البشير) قاله هنا وفي العنكبوت آخرا في قوله ولما ان جاءت رسلنا لوطا بذكر ان وقال في هود ولما جاءت رسلنا لوطا وفي

مقررا

مقررا لهم بعد ان استأنسوا به قال البقاعي والظاهر ان هذا كان بغير ترجمان (ما) اي قبح الذي (فعلتم بيوسف) اي اخيكم الذي حلتم بينه وبين أبيه (وأخيه) في جعلكم اياه فريدا منه ذليلا بينكم ثم في قولكم له لما وجد الصاع في رحله لا يزال يأتينا البلاء من قبلكم يا بني راحيل وانما قال لهم ذلك نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا وقيل اعطوه كتاب يعقوب عليه السلام في تخليص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك وقوله (اذ أنتم جاهلون) اي فاعلون فعلهم أولانهم كانوا حينئذ صبيانا طياشين تلويحا الى معرفته فقد روي أنه لما قال هذا تبسم وكان في تبسمه أمر من الحسن لا يجهله منه من رآه ولو مرة واحدة فعرفوه بذلك فلذلك (قالوا أئنك لانت يوسف) استفهام تقرير ولذلك حقق بان واللام عليه وقيل عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب واسحق مثلها وقرأ ابن كثير بهمزة مكسورة بعدها نون على الخبر وقرأ قالون وأبو عمرو بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة مسهلة بينهما ألف على الاستفهام وقرأ ورش بغير ألف بينهما والتسهيل في الثانية على الاستفهام أيضا وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين مع القصر ولهشام وجه ثان وهو المد وقيل انهم لم يعرفوه حتى (قال) لهم (أنا يوسف) وزادهم بقوله (وهذا أخي) بنيامين شقيقي وانما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتا في أمره وليبني عليه قوله (قد من الله علينا) قال ابن عباس بكل خير في الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة (انه من يتق) اي المعاصي (ويصبر) اي على البليات وأذى الناس وقال ابن عباس يتقي الزنا ويصبر على العزوبة وقال مجاهد يتقي المعصية ويصبر على السجن (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) والمعنى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين وقرأ قنبل باثبات الياء بعد القاف وقفا ووصلا واختلف المعربون في ذلك على وجهين أجودهما أن اثبات حرف العلة في الجزم لغة لبعض العرب وأنشدوا عليه قول قيس بن زهير

ألم يأتيك والانباء تنمي • بما لاقت لبون بني زياد

(وقول الآخر)

هجوت زبان ثم جئت معتذرا • من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

(وقول الآخر)

اذا العجوز غضبت فطلق • ولا ترضاها ولا تملق

والثاني أنه مرفوع غير مجزوم ومن موصولة والفعل صلتها فلذلك ثبتت لامه وسكن يصبر تخفيفا لتوالي الحركات وان كانت في كلمتين وقرأ الباقون بالحذف وقفا ووصلا ولما ذكر يوسف عليه السلام لاخوته ان الله تعالى من عليه وأن من يتق ويصبر فان الله تعالى لا يضيعهم صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمرتبة ولذلك (قالوا) مقسمين بقولهم (تالله) اي الملك الاعظم (لقد آثرك) اي اختارك (الله علينا) بالعلم والعقل والحلم والحسن والملك والتقوى وغير ذلك واحتج بعضهم بهذه الآية على ان اخوته ما كانوا أنبياء لان جميع المناصب التي

العنكبوت اولا ولما جاءت رسلنا ابراهيم بحذفها تنبيها على جواز الامرين والقول بان ذكر ان يدل على وقوع جواب لما الا بخلاف ما اذا حذفت يرد بان آية هود وآية

تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم قالوا (وان كنا لخاطئين) أي والحال ان شأننا انا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك أذلنا الله تعالى لك فكأنه قيل ما قال لهم على قدرته وتمكنه مع ما سلف من اهانتهم له فقيل (قال) لهم قول الكرام اقتداء باخوانه من الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (لا تثريب) اى لا لوم ولا تعنيف ولا اهلاك (عليكم اليوم) وانما خصه بالذكر لانه مظنة التثريب فاذا انتفى ذلك فيه فما ظنك بما بعده ولما أعفاهم من التثريب كانوا في مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى فاتبعه الجواب عن ذلك بالدعاء لهم بقوله (يغفر الله) أي الذي لا اله غيره (لكم) اى ما فرط منكم وعبر في هذا الدعاء بالمضارع ارشاد لهم الى اخلاص التوبة ورغبهم في ذلك ورجاهم بالصفة التي هي سبب الغفران فقال (وهو) تعالى (أرحم الراحمين) لجميع العباد لا سيما التائب فهو جدير بادراك النعم روى أنهم أرسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك وكرامتك بكرة وعشيا ونحن نستحي مما فرط منا فقال ان أهل مصر ينظرون وان ملكت فيهم بعين العبودية فيقولون سبحان من بلغ عبدا بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم اخوتي واني من ذرية ابراهيم عليه السلام ولما أقر أعينهم بعد اجتماع شملهم بازالة ما تخشونه دنيا وأخرى سأل عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي قالوا ابيضت عيناه من الحزن فاعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصي هذا) وهو قميص ابراهيم عليه السلام الذي لبسه حين ألقي في النار عريانا فاتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه وكان ذلك عند ابراهيم فلما مات ابراهيم ورثه اسحق فلما مات اسحق ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك في قصبة من فضة وسد رأسها وعلقها في عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه فلما ألقي في البئر عريانا جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ فاخرج القميص والبسه اياه ففي الوقت جاءه جبريل عليه السلام وقال ارسل ذلك القميص فان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم الا عوفي فدفع يوسف ذلك القميص الى اخوته وقال اذا وصلتم الى أبي (فالقوه على وجه أبي يات) أي يصر (بصيرا) أي يرد اليه بصره كما كان أو يات الى حال كونه بصيرا (وأتوني) أي أبي وأنتم (باهلكم) اى مصاحبين لكم (أجمعين) لا يتخلف منكم أحد فرجعوا بالقميص لهذا القصد وروى أن يهوذا هو الذي حمل القميص لما لطخوه بالدم فقال لا يحمل هذا غيري لافرحه كما احزنته فحمله وهو حاف من مصر الى كنعان وبينهما ثمانون فرسخا (ولما فصلت العير) من عريش مصر وهو آخر بلاد مصر الى اول بلاد الشام (قال ابوهم) لولد ولده ومن حوله من اهله مؤكدا لعلمه انهم ينكرون قوله (اني لاجد ريح يوسف) اوصلته اليه ريح الصبا باذن الله تعالى من مسيرة ثلاثة ايام او ثمانية ايام أو اكثر قال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام انه ليس في الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص قال اهل المعاني ان الله تعالى اوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الفرج من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل سهل فهو في زمان المحنة صعب

العنكبوت التي ذكر فيها
ان تعددت شرطا وجوابا
مع ان اذكرت في
احداهما وحذفت من
الاخرى الا ان يقال انها
اذا لم تذكر لم يلزم وقوع
جواب لما الا (قوله

وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل ومعنى أجد ريح يوسف أشم وعبر بالوجود لانه وجدان له بحاسة الشم (لولا أن تفندون) أي تنسبوني الى الخرف قال أبو بكر الانبارى أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله وعن الاصمعي اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو مفند قال في الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لانها لم تكن في شبيبتها ذات رأى حتى تفند في كبرها وقيل التفنيد الافساد يقال فندت فلانا اذا أفسدت رأيه ورددته قال بعضهم

ياصاحبي دعا لومي وتفنيدي ✱ فليس مافات من أمر بمردود

ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك (قالوا) أي الحاضرون عنده (تالله انك لفي ضلالك) أي حبك (القديم) ليوسف لاتنساه ولاتذهل عنه على بعد العهد وهو كقول اخوة يوسف ان أبانا لفي ضلال مبين وقال مقاتل معنى الضلال هنا الشقاء أي شقاء الدنيا والمعنى انك لفي شقائك القديم بما تكابده من الاحزان على يوسف وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات فكان يعقوب في ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم انهم عجلوا له بشيرا فأسرع قبلهم وصولا بالقميص (فلما) وزيدت (أن) لتأكيد مجيئه على تلك الحالة وزيادتها بعد ما اقياس مطرد (جاء البشير) وهو يهوذا بذلك القميص (ألقاه) أي طرحه البشير (على وجهه) أي يعقوب وقيل ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد) أي رجع (بصيرا) أي صيره الله بصيرا كما كان كما يقال طالت النخلة والله تعالى هو الذي أطالها ولما ألقى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه فعند ذلك (قال) لبنيه (ألم أقل لكم اني أعلم من الله مالا تعلمون) من حياة يوسف وان الله تعالى يجمع بيننا قال السهيلي لما جاء البشير الى يعقوب عليه السلام أعطاه في بشارته كلمات كان يرويها عن أبيه عن جده عليهم السلام وهي يالطيفا فوق كل لطيف الطف بي في أموري كلها كما أحب ورضني في دنياي وآخرتي وروى ان يعقوب عليه السلام قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة فعند ذلك (قالوا يا أبانا) منادين بالاداة التي تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقع (استغفر) أي اطلب من الله تعالى ان يغفر (لنا ذنوبنا) أي التي اقترفناها ثم قالوا مؤكدين حقيقة الاخلاص في التوبة (انا كنا خاطئين) أي متعمدين للاثم بما ارتكبنا في أمر يوسف عليه السلام ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسئل له المغفرة قال صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (سوف أستغفر) أي أطلب ان يغفر (لكم ربي) الذي أحسن الي بأن يغفر لبنى حتى لايفرق بيني وبينهم في دار البقاء والربوبية هو أتم الملك على الاطلاق وهو ملك الله تعالى وظاهر هذا الكلام انه لم يستغفر لهم في الحال بل وعدهم بأن يستغفر لهم بعد ذلك واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه فقال ابن عباس والاكثرون أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر لان هذا الوقت أوفق الاوقات لرجاء الاجابة وفي رواية أخرى له انه أخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لانها أوفق لاوقات الاجابة وقال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة وقال طاوس أخر الى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء

وخروا له سجدا) ان قلت كيف جاز لهم ان يسجدوا ليوسف والسجود لغير الله حرام (قلت) المراد انهم جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكرا النعمة وجدان يوسف كانقول سجدت

وقيل استغفر لهم في الحال وقوله سوف استغفر لكم ربي معناه اني اداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل وقيل قام الى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لاولادي ما فعلوا في حق يوسف فاوحى الله تعالى اليه اني قد غفرت لك ولهم اجمعين وعن الشعبي قال اسأل يوسف ان عفا عنكم استغفر لكم ربي (انه هو الغفور الرحيم) كل ذلك تسكينا لقلوبهم وتصحيحا لرجائهم وروي ان يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير الى يعقوب عليه السلام مائتي راحلة وجهازا كثيرا ليأتوا بيعقوب واهله وولده فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج الى مصر فخرج بهم فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه فخرج يوسف عليه السلام والملك في اربعة آلاف من الجند والعظماء وركب اهل مصر معهما باجمعهم يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا اهذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال الثوري لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى فقال يوسف يا ابت بكيت علي حتى ابيضت عيناك ألم تعلم ان القيامة تجمعنا قال بلى يا بني ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى) اى ضم (اليه ابويه) قال الحسن اباه وامه وكانت حية اكراما لهما بما يتميزان به وغلب الاب في التثنية لذكورته وعن ابن عباس انها خالته لياوكانت امه قد ماتت في نفاس بنيامين قال البغوي وفي بعض التفاسير ان الله تعالى احيا امه حتى جاءت مع يعقوب الى مصر (فان قيل) ما معنى دخولهم عليه قبل مصر (اجيب) بانه حين استقبلهم نزل بهم في خيمة او بيت هناك فدخلوا عليه وضم اليه ابويه (وقال) مكرما (ادخلوا مصر) اى البلد المعروف واتى بالشرط للامن لا للدخول فقال (ان شاء الله آمنين) من جميع ما ينوب حتى مما فرطتم في حقي وفي حق اخي روي ان يعقوب عليه السلام وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام والمقاتلون منهم ستمائة الف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ (و) لما استقرت بهم الدار بدخول مصر (رفع ابويه) اى اجلسهما معه (على العرش) اى السرير الرفيع والرفع هو النقل الى العلو (وخروا له) اى انحنوا له ابواه واخوته (سجدا) اى سجودا انحناء والتواضع قد يسمى سجودا كقول الشاعر

• ترى الأكم فيها سجدا للحوافر • لا وضع جبهة وكان تحيتهم في ذلك الزمان او انهم وضعوا الجباه وكان ذلك على طريقة التحية والتعظيم لا على طريقة العبادة وكان ذلك جائزا في الامم السالفة فنسخت في هذه الشريعة وروي عن ابن عباس انه قال معناه خروا لله سجدا بين يدي يوسف عليه السلام فيكون سجود شكر لله لاجل وجدان يوسف ويدل عليه قوله تعالى ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وذلك يشعر بانهم صعدوا على السرير ثم سجدوا لله تعالى ولو انهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لان ذلك ادخل في التواضع (فان قيل) هذا التأويل لا يطابق قول يوسف عليه السلام (وقال يا ابت هذا تأويل رؤياي

وصليت للقبلة او اللام للتعليل اى لاجل يوسف والله ومنه قوله رأيتهم اى الكواكب لي ساجدين اى انها سجدت لله لاجل مصلحتي والسعي في اعلاء منصبي وقوله وقمنا حسن به سجدا

من قبل) والمراد منه قوله انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين أى رأيتهم ساجدين لاجلى اى انهم سجدوا لله لطلب مصلحتى والسعى فى اعلاء منصبى واذا كان هذا محتملا سقط السؤال قال الرازى وعندى أن هذا التأويل متعين لانه يبعد من عقل يوسف ودينه ان يرضى بان يسجد له ابوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة او انهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرا للنعمة وجدانه فانه يقال صليت للكعبة كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان

ما كنت أعرف ان الامر منصرف • عن هاشم ثم منها عن أبى الحسن
أليس اول من صلى لقبلتكم • واعرف الناس بالآثار والسنن

ثم استأنف يوسف عليه السلام فقال (قد جعلها ربى) اى الذى رآنى بها وصلى اليها (حقا) أى مطابقة للواقع لتأويلها وتأويل ما اخبرتنى به أنت والتأويل تفسير ما يؤول اليه معنى الكلام وعن سلمان رضى الله تعالى عنه ان ما بين رؤياه وتأويلها أربعون سنة وعن الحسن انه القى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ثم وصل الى ابيه واقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة (وقد أحسن) اى اوقع احسانه (بى) تصديقا لما بشرتنى به من اتمام النعمة وتعديته احسن بالباء أدل على القرب من التعدية بالى وان كان أصل احسن ان يتعدى بالى كما قال تعالى وأحسن كما احسن الله اليك وقيل ضمن معنى لطف فتعدى بالباء كقوله تعالى وبالوالدين احسانا وقال (اذ أخرجنى من السجن) ولم يذكر اخراجه من الجب لوجوه اولها انه قال لاخوته لا تثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة الجب لكان ذلك تثريبا لهم فكان اهماله جاريا مجرى الكرم ثانيها أنه لما خرج من الجب لم يصر ملكا بل صير ومعبدا وانما صار ملكا بعد اخراجه من السجن فكان هذا الاخراج أقرب من أن يكون انعاما كاملا ثالثها انه لما خرج من الجب وقع فى المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة ولما خرج من السجن وصل الى ابيه واخوته فكان هذا أقرب الى المنفعة مع ان اللفظ محتمل للجب أيضا لكنه احتمال خفى ولما كان يعقوب وولده بارض كنعان وتحول الى بدو وقال ابن عباس ومنه قدم على يوسف قال يوسف عليه السلام (وجاء بكم من البدو) أى من أطراف بادية فلسطين وذلك من أكبر النعم كما جاء فى الحديث من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة والبدو ضد الحاضرة وهو من الظهور يقال بدا يبدو اذا سكن فى البادية يروى عن عمر اذا بدونا جفونا اى تخلقنا باخلاق البدويين قال الواحدي البدو بسط من الارض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوا ثم سمى المكان باسم المصدر وفى الآية دلالة على ان فعل العبد خلق الله تعالى لانه أضاف اخراجه من السجن الى الله تعالى ومجيئهم من البدو اليه (من بعد أن نزغ) أى افسد (الشيطان) بسبب الحسد (بينى وبين اخوتى) واصل النزغ دخول فى امر لافساده (فان قيل) اضافة يوسف عليه السلام الخير الى الله تعالى والشر الى الشيطان تقتضى ان فعل الشر ليس من الله تعالى كما قاله بعض المبتدعة ولو كان منه لاضافه اليه (أجيب) بان اضافة هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان الفاعل المطلق هو الله تعالى فى الحقيقة قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا

(اذا أخرجنى من السجن) وان قلت لم ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله عليه فى اخراجه من السجن دون اخراجه من الجب مع انه أعظم نعمة لان وقوعه فى الجب كان اعظم خطرا

الله قد ثبت بذلك ان الكل من عند الله تعالى وبقضائه وقدره وليس للشيطان فيه
مدخل الا بالقاء الوسوسة والتحريش لافساد ذات البين وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك كما
حكى الله تعالى ذلك عنه بقوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى
ولما كان حصول الاجتماع بينه وبين اخوته وابويه مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ
البال وكان فى غاية البعد عن العقول الا أنه تعالى لطيف قال يوسف عليه السلام (ان ربى
لطيف لما يشاء) أى لطيف التدبير له اذ ما من صعب الا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها
فاذا أراد حصول الشئ سهل أسبابه فحصل وان كان فى غاية البعد عن الحصول (انه هو العليم)
بوجوه المصالح والتدابير (الحكيم) أى الذى يفعل كل شئ فى وقته وعلى وجه يقتضى
الحكمة روى ان يوسف عليه السلام طاف بأبيه فى خزائنه فلما ادخله خزانة القرطاس قال
يابنى ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمان مراحل قال أمرنى جبريل
بذلك قال أوما تسأله قال أنت اقرب منى اليه فسأله فقال جبريل الله أمرنى بذلك لقولك
واخاف ان يأكله الذئب قال فهلا خفتنى ولما حضر يعقوب عليه السلام الموت وصى يوسف
عليه السلام ان يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه فدفنه ثمة ثم عاد الى مصر وأقام بعده
ثلاثا وعشرين سنة ولما تم امره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه الى الملك الدائم فقال (رب قد
آتيتنى) وافتتح بقد لان الحال حال توقع السامع لشرح حال الرؤيا (من الملك) اى بعضه بعد
بعدى منه جدا وهو ملك مصر (وعلمتنى من) اى بعض (تأويل الاحاديث) طبق ما بشرنى به
ابى واخبرت به أنت من التمكين والتعليم قبل قولك والله غالب على امره ثم ناداه بوصف جامع
للعلم والحكمة فقال (فاطر) أى خالق (السموات والارض) ثم اعلمه باعترافه بمضمون قوله من
انه لا يعول على غيره فى شئ من الاشياء (أنت وليى) اى الاقرب الى باطنا وظاهرا (فى الدنيا
والآخرة) اى لا ولى لى غيرك والولى يفعل لموليه الاصلح والاحسن فاحسن لى فى الآخرة
اعظم مما احسنت لى فى الدنيا روى أنه صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل
وعلا أنه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته افضل ما اعطى السائلين فلهذا المعنى من
أراد الدعاء لابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله تعالى فهذا يوسف عليه السلام لما اراد ان
يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث
فاطر السموات والارض ثم ذكر عقبه الدعاء وهو قوله (توفنى) اى اقبض روحى وافيا تاما فى
جميع امرى حساو معنى حال كونى (مسلما) ولما كان المسلم حقيقة من كان عريقا فى
الاخلاص عقبه بقوله (والحقنى بالصالحين) ونظيره ما فعله الخليل عليه السلام فى قوله الذى
خلقنى فهو يهدين من ههنا الى قوله رب هب لى حكما ثناء على الله تعالى ثم من قوله رب هب لى
حكما الى آخر الكلام دعاء فكذا هنا * (تنبيه) * اختلف فى قوله توفنى مسلما هل هو طلب
منه للوفاة أم لا فقال قتادة سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبى قط الموت قبله وكثير من المفسرين
على هذا القول وقال ابن عباس فى رواية عطاء يريد اذا توفيتنى فتوفنى على الاسلام فهذا
طلب لان يجعل الله تعالى وفاته على الاسلام وليس فيه ما يدل على انه طلب الوفاة واللفظ صالح
للامرين ولا يبعد فى الرجل العاقل اذا كمل عقله أن يتمنى الموت وتعظم رغبته فيه لوجوه

(قلت) لان مصيبة السجن كانت عنده اعظم لطول مدتها ولمصاحبته الاوباش واعداء الدين فيه بخلاف مصيبة الجب لقصر مدتها ولكون المؤنس له فيه جبريل عليه السلام وغيره

كثيرة منها ان الخطباء والبلغاء وان أطنبوا في مذمة الدنيا الا أن حاصل كلامهم يرجع الى ثلاثة أمور احدها ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والالم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها وثانيها انها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات وثالثها ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كان حصة الاراذل أعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ولما عرف العاقل انه لا يمكن تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم تمنى الموت ليتخلص من هذه الآفات ومنها أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي ثلاثة أنواع لذة الاكل ولذة النكاح ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة أما لذة الاكل ففيها عيوب احدها ان هذه اللذة ليست لذة قوية فانه لا يمكن ابقاؤها فان الانسان اذا أكل وشبع لم يبق فيه الالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية وثانيها انها في نفسها خسيسة وان الاكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ولاشك انه شيء منفر ولما يصل الى المعدة يظهر فيه الاستحالة الى الفساد والنتن والعفونة وذلك أيضا منفر وثالثها ان جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة فيها ورابعها ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع والجوع نقص وآفة وخامسها ان الاكل مستحقر عند العقلاء حتى قيل من كانت همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه فهذه اشارات مختصرة الى معايب الاكل وأما لذة النكاح فما ذكرنا في الاكل حاصل هنا مع أشياء أخر وهي ان النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجات الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال في المال بطرق لا نهاية لها وربما صار هالكا بسبب طلب المال وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة منها أن يكون على شرف الزوال في كل حين وأوان ومنها انه عند حصولها في الخوف الشديد من الزوال ومنها أنه يكون عند زوالها في الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال فالعاقل اذا تأمل في هذه المعاني علم قطعا انه لا صلاح له في طلب هذه اللذات فيكون لقاء الله عنده أروح فيتمنى الموت وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه ان ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكا والمسئلة للموت فقال له صنع الله لك خيرا كثيرا أحييت سننا وأمت بدعا وفي حياتك خير وراحة للمسلمين فقال أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره قال توفني مسلما وألحقني بالصالحين (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز (أجيب) بان حال كمال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وتطمئن النفس وينشرح الصدر وينفسح القلب في هذا الباب وهذه حالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى (فان قيل) ان يوسف عليه السلام كان من أكابر الانبياء والصلاح أول درجة المؤمنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية (أجيب) بان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال يعني بان يلحقه بآبائه ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى ألحقني بهم في ثوابهم ودرجاتهم ووالد يوسف عليه السلام من امرأة

من الملائكة) ولأن في ذكر الجب توبيخا وتقريعا لاخوته بعد قوله لا تثريب عليكم اليوم (قوله توفني مسلما) فان قلت كيف قال يوسف ذلك مع علمه بان كل نبي لا يموت الا مسلما (قلت

العزيز ثلاثة افراثيم وميشا وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليهم السلام ولما تاقت
نفسه الى الملك المخلد وتمنى الموت فلم يات عليه أسبوع حتى توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا
وتشاح الناس في دفنه فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا بالقتال
فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجري عليه
الماء وتصل بركته الى جميعهم قال عكرمة دفن في الجانب الايمن من النيل فاخصب ذلك
الجانب واجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فاخصب ذلك الجانب واجدب
الآخر فدفنوه في وسطه وقدروا ذلك بسلسلة فاخصب الجانبان الى أن اخرجه موسى عليه
السلام ودفنه بقرب آبائه بالشام وقد يسر الله تعالى زيارته وزيارة آبائه في عام شرعت في هذ
التفسير سنة أربع وستين وتسعمائة جمعني الله تعالى وآبائي وأهلي واصحابي وأحبابي معهم
في دار كرامته ولما تم الذي كان من أمر يوسف عليه السلام واخوته على الوجه الاحكم
والصراط الاقوم من ابتدائه الى انتهائه قال تعالى مشيرا الى أنه دليل كاف في تصحيح
نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله (ذلك) اى الذي ذكرته لك يا محمد من قصة يوسف عليه السلام
وما جرى له مع اخوته ثم صار الى الملك بعد الرق (من أنباء الغيب) اى اخبار ما غاب عنك
(نوحيه اليك) اى الذي اخبرناك به من اخبار يوسف وحي اوحيناه اليك (و) الحال انك
(ما كنت لديهم) اى عند اخوة يوسف عليه السلام (اذ) اى حين (اجمعوا امرهم) اى عزموا
على أمر واحد وهو القاء يوسف في الجب (وهم يمكرون) اى يدبرون الاذى في الخفية بيوسف
والمعنى ان هذا النبأ غيب لانه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولا تتلمذ لاحد ولا كانت
البلدة بلدة العلماء فاتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه
تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير أن يقال انه حاضر معهم لابد وأن يكون معجزا
وقوله تعالى وما كنت لديهم ذكر على سبيل التهكم بهم لان كل أحد يعلم أن محمدا صلى الله عليه
وسلم ما كان معهم ولما سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نقله أبو حيان
عن ابن الانباري عن قصة يوسف عليه السلام فنزلت مشروحة هذا الشرح الشافي مبينة
هذا البيان الوافي فامل صلى الله عليه وسلم ان يكون ذلك سبب اسلامهم فخالفوا تأميله عزاه
الله تعالى بقوله (وما أكثر الناس) أى اهل مكة (ولو حرصت) على ايمانهم (بمؤمنين) لعنادهم
وتصميمهم على الكفر وكان ذلك اشارة الى ما ذكر الله تعالى في قوله تعالى انك لا تهدي من
أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى (وما تسألهم عليه) اى على
تبليغ هذا الكتاب الذي أوحيناه اليك واغرق في النفي فقال (من اجر) حتى يكون
سؤالك سببا لان يتهموك او يقولوا لولا انزل عليه كنز ليستغني به عن سؤالنا ثم نفى عن
هذا الكتاب كل غرض دنيوي بقوله تعالى (ان هو الا ذكر) اى عظة من الله تعالى (للعالمين)
عامة ثم ان الله تعالى اخبر عنهم انهم لما تأملوا الآيات الدالة على توحيده تعالى بقوله تعالى
(وكأين) أى وكم (من آية) دالة على وحدانية الله تعالى (في السموات) كالنيرين وسائر
الكواكب والسحاب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (والارض) من الجبال والشجر
والدواب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (يمرون عليها) اى يشاهدونها (وهم عنها

معرضون)

قاله اظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليما للامة وطلبا للثواب (قوله وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) ان قلت كيف قال ذلك مع ان

معرضون) اى لا يتفكرون فيها ولا عجب اذا لم يتاملوا فى الدلائل على نبوتك فان العالم مملوء
من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها ● ولما كان ربما
قيل كيف يوصفون بالاعراض وهم يعتقدون ان الله تعالى فاعل تلك الآيات بين ان
اشراكهم مسقط لذلك بقوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله) حيث يقرون بانه الخالق الرازق
(الا وهم مشركون) بعبادة الاصنام قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله لكنهم
كانوا يثبتون شريكا فى العبودية وعن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى تلبية مشركى
العرب كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك يعنون
الاصنام وعنه أيضا ان اهل مكة قالوا الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا
بل أشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله
وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله
وحده وهؤلاء أربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده لا شريك له ولما كان أكثر
هؤلاء لا ينقادون الا بالعذاب قال تعالى (أفأمنوا) انكار فيه معنى التوبيخ والتهديد (أن
تأتيهم) فى الدنيا (غاشية) اى نقمة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله) أى الذى له الامر كله
كما أتى من ذكرنا قصصهم من الامم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة وهم عنها فى غاية الغفلة
وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى بوقت اتيانها قبله كالتأكيد لقوله بغتة ● ولما كان صلى الله
عليه وسلم مبلغا عن الله تعالى امره أن يامرهم باتباعه بقوله تعالى (قل) يا أعلى الخلق
وأصفاهم وأعظمهم نصحا واخلاصا (هذه) اى الدعوة الى الله تعالى التى أدعو اليها (سبيلى)
أى طريقتى التى ادعوا اليها الناس وهى توحيد الله تعالى ودين الاسلام وسمى الدين سبيلا لانه
الطريق المؤدى الى ثواب الجنة (ادعوا الى الله) اى الى توحيده والايمان به (على بصيرة) اى
حجة واضحة وقوله (أنا) تاكيد للمستتر فى أدعو وعلى بصيرة لانه حال منه او مبتدأ خبره على
بصيرة وقوله (ومن اتبعنى) اى ومن آمن بى وصدق بما جاء به عطف عليه لان كل من ذكر الحجة
وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدور وسعه الى الله وهذا دل على ان الدعاء الى الله انما يحسن
و يجوز مع هذا الشرط وهو ان يكون على بصيرة مما يقول و يقين فان لم يكن كذلك والا فهو
محض الغرور وقال صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون
ما يدعون اليه ● (فائدة) ● جميع القراء يثبتون الياء وقفا ووصلا لثباتها فى الرسم (وسبحان)
أى وقل سبحان (الله) تنزيها لله تعالى عما يشركون به (وما أنا من المشركين) أى الذين اتخذوا
مع الله ضدا وندا ولما قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم هلا بعث الله ملكا قال تعالى (وما
ارسلنا من قبلك) الى المكلفين (الا رجالا) اى مثل ما انك رجل لا ملائكة ولا اناثا كما قاله ابن
عباس ولا من الجن كما قاله الحسن (يوحى اليهم) اى بواسطة الملائكة مثل ما يوحى اليك وقرأ
حفص قبل الواو بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء وضم الهاء من اليهم حمزة
على أصله وكسرها الباقون (من اهل القرى) أى من اهل الامصار والمدن المبنية بالمدر
والحجر ونحوه لا من اهل البوادى لان اهل الامصار افضل وأعلم وأكمل واعقل من اهل
البوادى ومكة ام القرى لانها مجمع لجميع الخلائق لما أمروا به من حج البيت وكان العرب كلهم

(قلت) معناه وما يؤمن أكثرهم بان الله خالقه ورازقه وخالق كل شئ قولا الا وهو مشرك بعبادة الاصنام فعلا او المراد به المنافقون يؤمنون بالسنتهم
الايمان والشرك لا يجتمعان

بالوثنية كيف تهيبوا في حقك قال الحسن لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى (أفلم يسيروا) أي هؤلاء المشركون المكذبون (في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين الرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ويعتبروا بهم وبما حل بهم من عذاب الله ولما بين الله تعالى نجى المؤمنين عند نزول العذاب بالامم الماضية المكذبة وما في الآخرة خير لهم بين ذلك بقوله تعالى (ولدار الآخرة) أي ولدار الحال الآخرة او الساعة الآخرة او الحياة الآخرة (خير) وهي الجنة (للذين اتقوا) الله من حيث انها الموت وان فرحوا في الحال وان امتدت ألف عام وكانت عيشتها كلها رغدا من غير آلام (أفلا يعقلون) فيستعملون عقولهم فيتبعون الداعي الى هذا السبيل الاقوم وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتاء على الخطاب لاهل مكة والباقون بالياء على الغيبة لهم وللمشركين المكذبين وقوله تعالى (حتى اذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه الكلام أي لا يغررهم تمادي أيامهم فان من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل من النصر عليهم في الدنيا ومن ايمانهم لانهماكهم في الكفر مترفين متمادين فيه من غير وزع (وظنوا) أي أيقن الرسل (أنهم قد كذبوا) بالتشديد كما قرأه غير حمزة وعاصم والكسائي تكذيبا لا ايمان بعده وأما بالتخفيف كما قرأ هؤلاء فالمعنى ان الامم ظنوا أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر عليهم (جاءهم نصرنا) بهم بخذلان أعدائهم (فنجي من نشاء) أي النبي والمؤمنون وقرأ ابن عامر وعاصم بنون مضمومة بعدها جيم مشددة وياء بعد الجيم مفتوحة والباقون بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الجيم وسكون الياء (ولا يرد بأسنا) أي عذابنا (عن القوم المجرمين) أي المشركين ما نزل بهم ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على الاعتبار بها بقوله أفلم يسيروا أتبعه بأن في أحاديثهم أعظم عبرة فقال حثا على تأملها والاستبصار بها (لقد كان في قصصهم) أي يوسف واخوته او في قصص الرسل (عبرة) أي عظة عظيمة (لاولي الالباب) أي لذوي العقول المبرأة من شوائب الكدر يعتبرون بها الى ما يسعدهم لان من قدر على ما قص من أمر يوسف عليه السلام لقادر على أن يعز محمدا صلى الله عليه وسلم ويعلي كلمته وينصره على من عاداه كائنا من كان كما فعل بيوسف وغيره ولما كان من أجل العبرة في ذلك القطع بحقية القرآن نبه تعالى على ذلك بتقدير سؤال فقال تعالى (ما كان حديثا يفترى) أي يختلق لان الذي جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتريه لانه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لاحد ولم يخالط العلماء فمحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت كما علم من قوله تعالى (ولكن تصديق الذي بين يديه) أي من الكتب الالهية المنزلة من السماء كالتوراة والانجيل ففي ذلك اشارة الى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف عليه السلام (و) زاد على ذلك بقوله (تفصيل) أي تبيين (كل شيء) أي يحتاج اليه من الدين اذ ما من أمر ديني الا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط وقيل المراد تفصيل كل شيء من واقعة يوسف مع أبيه واخوته قال الواحدي وعلى التفسيرين جميعا فهو من العام الذي أريد به الخاص كقوله تعالى ورحمتي وسعت كل شيء أي يجوز أن يدخل فيها وقوله تعالى وأوتيت

قوله ويشركون بغلوهم اعتقادا (قوله أفلم يسيروا في الارض) قاله هنا وفي الملح وفي آخر غافر بالفاء وقاله في الروم وفاطر وأول غافر بالواو لان ما في الثلاثة الاول تقدمه التعبير

من كل شئ (وهدى) من الضلال (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أى يصدقون خصهم بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى هدى للمتقين فسبحان من انزله معجزا باهرا وقاضيا بالحق لايزال ظاهرا وما رواه البيضاوى تبعا للكشاف من أنه صلى الله عليه وسلم قال علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد أحدا حديث موضوع والله أعلم

سورة الرعد مكية

الا ولا يزال الذين كفروا الآية ويقول الذين كفروا لست مرسلا الآية أو مدنية الا ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وهى ثلاث أو أربع أو خمس أو ست وأربعون آية وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وسبعة أحرف

(بسم الله) الحق الذى كل ما عداه باطل (الرحمن) الذى عم بالرغبة والرهبة لعموم الرحمة (الرحيم) الذى خص من شاء بما يرضاه بتطييب الرهبة (المر) قال ابن عباس معناه أنا الله أعلم وأرى وقال فى رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن وقد تقدم الكلام على شئ من أوائل السور فى أول سورة البقرة وقرأ قالون وابن كثير وحفص بالفتح وقرأ ورش بين بين والباقون بالامالة (تلك) أى هذه الآيات (آيات الكتاب) أى القرآن والاضافة بمعنى من وقيل المراد بالكتاب السورة الكاملة ووصفت بالكمال من تعريف الكتاب بأل لان خبر المبتدا اذا عرف بلام الجنس أفاد المبالغة وقوله تعالى (والذى انزل اليك من ربك) أى القرآن مبتدأ وخبره (الحق) أى الموضوع كل شئ منه فى موضعه على ما تدعو اليه الحكمة الواضح الذى لا يتخلف شئ منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره (ولكن اكثر الناس) أى مشركى مكة (لا يؤمنون) لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه قال مقاتل نزلت فى مشركى مكة حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بذلك ولما ذكر تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد بامور أحدها قوله تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد) أى سوارٍ ٣ جمع عمود كأدم وأديم أو عماد كاهب واهاب والعمود جسم مستطيل يمنع المرتفع أن يميل (ترونها) أى وأنتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها تسندها ولا من فوقها علاقة تمسكها فالعمد منفية بالكلية قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة ففى ذلك دلالة عظيمة على وحدانية الله تعالى لان هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة فى الجو العالى ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لاعيانها ولذاتها فهذا برهان باهر على وجود الاله القادر القاهر وقيل الضمير راجع الى العمد أى ان لها عمدا ولكن لا ترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة قال الرازى وهذا التأويل فى غاية السقوط لان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأى دلالة تبقى فيها على وجود الاله (تنبيه) الله مبتدأ والذى رفع السموات خبره ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر يدبر الامر ثانيها قوله تعالى (ثم استوى على العرش) بالحفظ والتدبير والقهر

في الانكار بالفاء في قوله هنا أفأمنوا أن تأتيهم غاشية وفي الحج فهي خاوية على عروشها وفي آخر غافر فأي آيات الله تنكرون وما في الثلاثة الاخيرة

٣ قوله جمع عمود كأدم وأديم الخ في حاشية الجمل والعامة على فتح العين والميم وهو اسم جمع وعبارة بعضهم انه جمع نظرا الى المعنى دون الصناعة وقرأ أبو حيوة ويحيى بن وثاب عمد بضمتين ومفرده يحتمل أن يكون عمادا كشهاب وشهب وكتاب وكتب وأن يكون عمودا كرسول ورسل اهـ

والقدرة أي انه من فوق العرش الى ما تحت الثرى في حفظه وتدبيره وفي الاحتياج اليه ولتقدم الكلام على ذلك في سورة الاعراف بما فيه كفاية نوّه كالشهادة قوله تعالى (وسخر) أي ذلل (الشمس والقمر) لمنافع خلقه فهما مقهوران يجريان على ما يريد (كل) منهما (يجري) في فلكه (لاجل مسمى) أي الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وعند مجيء ذلك الوقت تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك التسييرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت وعن ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر ثم انها تعود مرة أخرى الى واحد واحد منها في ستة أشهر مرة أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله تعالى كل يجري لاجل مسمى هذا وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من تلك الكواكب سيرا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء وحينئذ يلزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال (يدبر الامر) أي يقضي أمر ملكه من الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد وفي ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من اعلى العرش الى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها الا الله عز وجل والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم أن من اشتغل بتدبير شيء آخر فانه يشغله شأن عن شأن فالعاقل اذا تأمل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الاجساد وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى متعال في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة المحدثات والممكنات ولما كان هذا بيانا شافيا لا لبس فيه قال تعالى (يفصل) أي يبين (الآيات) التي برزت الى الوجود وتدبيرها الدالة على وحدانيته وكمال حكمته المشتملة على ابتداعها بمفرقها او يباين بينها مباينة لا لبس فيها تقريبا لعقولكم وتدريبا لفهومكم لتعلموا أنها فعل الواحد المختار ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل واظهار العظمة هو محط الحكمة علل ذلك بقوله (لعلكم) يا أهل مكة (بلقاء ربكم) بالبعث (توقنون) فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمها وكثرتها قادر على ايجاد الانسان واحيائه بعد موته روي أن واحدا قال لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي لا يبعد أن يرد الارواح الى الاجساد وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش الى ما تحت الثرى لا يشغله شأن عن شأن كذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن (تنبيه) اليقين صفة من صفات العلم وهي فوق المعرفة والدراية وهي سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال

تقدم التعبير بالواو في قوله في الروم أولم يتفكروا في أنفسهم وفي فاطر أولم نعمركم وفي أول غافر وأنذرهم يوم الآزفة وما تخفى الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من

قدرته

قدرته من رفع السماء بغير عمد وأحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الارضية بقوله تعالى (وهو الذى مد الارض) أى بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوان ولو شاء لجعلها كالجدار والازج لا يستطاع القرار عليها هذا اذا قلنا ان الارض مسطحة لا كرة وعند أصحاب الهيئة أنها كرة فكيف يقولون بذلك ومد الارض ينافى كونها كرة كما ثبت بالدليل (أجيب) بان الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت فى غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح كما أن الله تعالى جعل الجبال أوتادا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا ومع هذا فالله تعالى قد أخبر أنه مد الارض ودحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة هذا هو الدليل الاول من الدلائل الارضية الثانى منها قوله (وجعل) أى وخلق (فيها) أى الارض (رواسى) أى جبالا ثوابت واحدها راسية أى ثابتة باقية فى حيزها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرك ولا يتحرك ما هى راسية فيه وهذا لا بد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قال ابن عباس أول جبل وضع على وجه الارض جبل أبى قبيس ٭ ولما غلب على الجبال وصفها بالرواسى صارت الصفة تغنى عن الموصوف فجمعت جمع الاسم كحائط وكاهل قاله أبو حيان الثالث منها قوله تعالى (وانهارا) أى وجعل فى الارض أنهارا جارية لمنافع الخلق والنهر المجرى الواسع من مجارى الماء وأصله الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيائه الرابع منها قوله تعالى (ومن كل الثمرات) وهو متعلق بقوله تعالى (جعل فيها) أى الارض (زوجين اثنين) أى وجعل فيها من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين والاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو والحامض أو اللون كالاسود والابيض أو الحجم كالصغير والكبير أو الطبيعة كالحار والبارد (فان قيل) الزوجان لا بد وأن يكونا اثنين فما الفائدة فى اثنين (أجيب) بانه قيل انه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو قال خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص فلما قال اثنين علم أنه تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد كما أن الناس وان كان فيهم الآن كثرة فابتداؤهم من زوجين اثنين بالشخص آدم وحواء فكذا القول فى جميع الاشجار والزروع الخامس منها قوله تعالى (يغشى) أى يغطى (الليل) بظلمته (النهار) أى والنهار الليل بضوئه فيعتدل فعلهما على ما قدره الله تعالى لهما فى السير من الزيادة والنقصان وذلك من الحكم النافعة فى الدين والدنيا الظاهرة لكل ذى عقل انها تدبير بفعله واختياره وقهره واقتداره وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين ٭ ولما ذكر تعالى هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة جمعها وناطها بالفكر فقال تعالى (ان فى ذلك) أى الذى وقع التحدث عنه من الآيات (لآيات) أى دلالات (لقوم يتفكرون) أى يجتهدون فى الفكر فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والتفكر والتدبر تصرف القلب فى طلب معانى الاشياء ثم انه تعالى ذكر دليلا ظاهرا جدا بقوله تعالى (وفى الارض) أى التى أنتم سكانها تشاهدون فيها مشاهدة لا تقبل الشك (قطع) أى بقاع مختلفة (متجاورات) أى متقاربات يقرب بعضها من بعض واحدة طيبة والاخرى سبخة لا تنبت

دونه لا يقضون بشئ
٭(سورة الرعد)٭
(قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ختم الآية هنا بيتفكرون وختمها بعد بيعقلون لان التفكر فى الشئ سبب

وأخرى صالحة للزرع لا للشجر وأخرى بالعكس وأخرى قليلة الريع وأخرى كثيرة مع انتظام الكل في الارضية وهو من دلائل قدرته تعالى (وجنات) أي بساتين فيها أنواع الاشجار من نخل وأعناب وغير ذلك كما قال تعالى (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) جمع صنو وهي النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في عمه العباس عم الرجل صنو أبيه يعني أنهما من أصل واحد (وغير صنوان) أي متفرقات مختلفة الاصول وسمى البستان جنة لانه يستر بأشجاره الارض وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص برفع العين واللام والنون الثانية من صنوان والراء من غير مع التنوين في العين واللام والنون وعدم التنوين في الراء والباقون بالخفض في الاربعة وعدم التنوين في الراء ولما كان الماء بمنزلة الاب والارض بمنزلة الام وكان الاختلاف مع اتحاد الاب والام أعجب وأدل على الاسناد الى الواحد المسبب لا الى شيء من الاسباب قال (تسقى) قراءة ابن عامر وعاصم بالياء على التذكير أي المذكور وقراءة الباقين بالتاء على التأنيث أي الجنات وما فيها (بماء واحد) فتخرج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا تتأخر عنه ولا تتقدم والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل في حده جوهر سيال به قوام الارواح (ونفضل بعضها على بعض في الاكل) أي في الطعم ما بين حلو وحامض وغير ذلك وفي الشكل والرائحة والمنفعة وغير ذلك وذلك أيضا مما يدل على القادر الحكيم فان اختلافها مع اتحاد الاصول والاسباب لا يكون الا بتخصيص قادر مختار قال مجاهد وذلك كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم وكانت الارض طينة واحدة في يد أي في قدرة الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات فينزل عليها الماء من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد وكذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن أحد الا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقرأ حمزة والكسائي بالياء ليطابق قوله تعالى يدبر الامر والباقون بالنون وقرأ نافع وابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع (ان في ذلك) أي الامر العظيم الذي ذكرناه (لآيات) أي دلالات (لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر في الآيات الدالة على وحدانيته تعالى * ولما ذكر تعالى الدلائل القاهرة الدالة على معرفة المبدا ذكر بعده ما يدل على المعاد بقوله تعالى (وان تعجب) أي يا أكرم الخلق من تكذيب الكفار لك بعد ان كنت تعرف عندهم بالصادق الامين (فعجب) أي حقيق أن يتعجب منه (قولهم) أي منكري البعث (أئذا كنا ترابا) أي بعد الموت (أئنا لفي خلق جديد) أي خلق بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا أن القادر على انشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم (وقيل) وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع اقرارهم بأن الله تعالى خلق السموات والارض وهو يضر وينفع وقدرا والقدرة لله تعالى وما ضرب لهم به الامثال فعجب قولهم ذلك والعجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة وقال المتكلمون

العقل والسبب مقدم على المسبب فناسب تقدم التفكر على التعقل (قوله وقد يعجلون في السموات والارض) * ان قلت كيف قال ذلك هنا وقال في الحج ان الله يعبده

العجب هو الذى لا يعرف سببه وذلك فى حق الله تعالى محال لانه تعالى علام الغيوب لا تخفى
عليه خافية وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء فى الفاء والباقون بالاظهار
●(تنبيه)● هنا آيتان فى كل منهما همزتان فقرأ قالون بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية
ويدخل بينهما ألفا على الاستفهام وفى الآية الثانية بهمزة مكسورة وبعدها نون مشددة
على الخبر وورش كذلك الا أنه لا يدخل بين الهمزتين فى أئذا ألفا وينقل فى الثانى على أصله
وابن كثير يقرأ بالاستفهام فيهما من غير ادخال ألف بين الهمزتين مع تحقيق الاولى وتسهيل
الثانية فيهما وأبو عمرو كذلك مع ادخال ألف بينهما وابن عامر فى الاول بهمزة مكسورة بعدها
ذال مفتوحة على الخبر وفى الثانى بهمزة مفتوحة محققة وهمزة مكسورة محققة على
الاستفهام وأدخل هشام بينهما ألفا بخلاف عنه والباقون بهمزتين محققتين الاولى
مفتوحة والثانية مكسورة ولا ألف بينهما فى الموضعين ●(فائدة)● جميع ما فى القرآن من
ذلك أحد عشر موضعا فى تسع سور والاحد عشر مكررة فتصير اثنين وعشرين فى هذه
السورة موضع والثانى والثالث فى سورة الاسراء والرابع فى المؤمنون والخامس فى النمل
والسادس فى العنكبوت والسابع فى السجدة والثامن والتاسع فى الصافات والعاشر
فى الواقعة والحادى عشر فى النازعات وأذكر ان شاء الله تعالى فى كل سورة من السور
المذكورة مذهبهم فى محله (اولئك) أى الذين بعدوا أنواعا من البعد من كل خير (الذين
كفروا بربهم) أى غطوا ما يجب اظهاره بسبب الاستهانة بالذى بدأ خلقهم ثم رباهم بأنواع
اللطف فاذا أنكروا اعادهم فقد أنكروا ابداءهم (واولئك) البعداء البغضاء (الاغلال) يوم
القيامة (فى أعناقهم) بسبب كفرهم والغل طوق من حديد تقيد به اليد فى العنق وقيل المراد
بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الاسير الذليل بالغل وقيل انهم مقيدون بالضلال
لا يرجى فلاحهم (واولئك) أى الذين لا خسارة أعظم من خسارتهم (أصحاب النار هم فيها
خالدون) أى ثابت خلودهم دائما لا يخرجون منها ولا يموتون ●ولما كان صلى الله عليه وسلم
يهددهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب يوم القيامة
أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذى تقدم ذكره فى الآية الاولى وكلما
هددهم بعذاب الدنيا قالوا له جئنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزاله على سبيل
الطعن واظهار ان الذى يقوله كلام لا أصل له نزل (ويستعجلونك) أى استهزاء وتكذيبا
والاستعجال طلب التعجيل وهو تقديم الشئ قبل وقته الذى يقدر له (بالسيئة) أى العذاب
(قبل الحسنة) أى الرحمة وذلك أن مشركى مكة كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من
عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ●(تنبيه)● قوله قبل الحسنة فيه
وجهان أحدهما متعلق بالاستعجال ظرفا له والثانى أنه متعلق بمحذوف على أنه حال مقدرة
من السيئة قاله أبو البقاء (وقد) أى والحال أنه قد (خلت من قبلهم المثلات) جمع مثلة بفتح
الميم وضم المثلثة كصدقة وصدقات أى عقوبات أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بها
(وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) والا لم يترك على ظهرها دابة كما قال تعالى ولو يؤاخذ
الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس معناه انه لذو تجاوز عن

من فى السموات ومن فى
الارض وفى النحل ولله
يسجد ما فى السموات وما
فى الارض (قلت) لانه
هنا ذكر العلويات من
الرعد والبرق والسحاب
ثم الملائكة بتسبيحهم ثم

المشركين اذا آمنوا (وان ربك لشديد العقاب) للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه وقال مقاتل انه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم وشديد العقاب اذا عاقب ولما بين سبحانه وتعالى أن الكفار طعنوا فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم فى الحشر والنشر أولا ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ثم طعنوا فى نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور فى قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) أى مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك لانهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب واتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزا مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام وكان نبينا صلى الله عليه وسلم راغبا فى اجابة مقترحاتهم لشدة التفاته الى ايمانهم قال الله تعالى له (انما أنت منذر) أى ليس عليك الا الانذار والتخويف وليس عليك اتيان الآيات (ولكل قوم هاد) أى نبى يدعوهم الى ربهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون وقرأ ابن كثير فى الوقف بياء بعد الدال وفى الوصل بغير ياء وتنوين الدال والباقون بغير ياء فى الوقف والوصل مع تنوين الدال ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله تعالى عن عظيم قدرته وكمال علمه بقوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل انثى) من ذكر وغيره وواحد ومتعدد وغير ذلك (وما تغيض) أى تنقص (الارحام) من مدة الحمل (وما تزداد) أى من مدة الحمل فقد تكون سبعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عند الامام ابى حنيفة والى أربع عند الامام الشافعى والى خمس عند الامام مالك رضى الله تعالى عنهم وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقى فى بطن أمه أربع سنين ولذلك سمى هرما وقيل ما تنقصه الرحم من الاولاد وتزيده منهم يروى ان شريكا كان رابع أربعة فى بطن أمه وقيل من نقصان الولد فيخرج ناقصا والزيادة تمام خلقه وقيل ما تنقص بالسقط عن ان يتم وما تزداد بالتمام وقيل ما تنقص بظهور دم الحيض وذلك انه اذا سال الدم فى وقت الحمل ضعف الولد ونقص بمقدار حصول ذلك قال ابن عباس كلما سال الحيض فى وقت الحمل يوما زاد فى مدة الحمل يوما ليحصل الجبر ويعتدل الامر والآية تحتمل جميع ذلك اذ لا تنافى فى هذه الاقوال ويدل لذلك قوله تعالى (وكل شئ) من هذا وغيره من الآيات المقترحات وغيرها (عنده) اى فى علمه وقدرته (بمقدار) فى كيفيته وكميته لا يجاوزه ولا يقصر عنه لانه تعالى عالم بكيفية كل شئ وكميته على الوجه المفصل المبين (تنبيه) قوله تعالى عنده يجوز أن يكون مجرور المحل صفة لشئ أو مرفوعه صفة لكل أو منصوبه ظرفا لقوله بمقدار أو ظرفا للاستقرار الذى تعلق به الجار لوقوعه خبرا (عالم الغيب) وهو ما غاب عن كل مخلوق (والشهادة) وهو ما شاهدوه وقيل الغيب هو المعدوم والشهادة هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشهادة ما حضر فى الحس (الكبير) أى العظيم (المتعال) عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص فهو تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وقرأ ابن كثير فى الوقف والوصل بياء بعد اللام والباقون بغير ياء وقفا ووصلا ولما كان علمه تعالى شاملا لجميع الاشياء قال تعالى (سواء منكم) أى فى علمه تعالى (من أسر القول) أى أخفى معناه فى

نفسه

الاصنام والكفار فبدأ بذكر من فى السموات لتقدم ذكرهم واتبعهم من فى الارض ولم يذكر من فيها اختصاصا بالاصنام والكفار وفى الحج تقدم ذكر المؤمنين وسائر الاديان فقدم ذكر من فى السموات لشرفهم ثم قال ومن فى الارض لتقدم المؤمنين وفى النحل تقدم ذكر ما خلقه الله عاما ولم يكن فيه ذكر الملائكة والرعد ولا الانس =

نفسه (ومن جهر به) أي أظهره فقد استوى في علمه تعالى المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف) أي مستتر (بالليل) أي بظلامه (وسارب) أي ظاهر بذهابه في سربه (بالنهار) والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال ابن عباس. واما أضمرته القلوب وأظهرته الالسنة وقال مجاهد سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليل ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التواري والضمير في (له) يعود الى من في قوله سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل أو للانسان (معقبات) أي ملائكة تعتقبه والذي عليه الجمهور ان المراد بالملائكة الحفظة وانما صح وصفهم بالمعقبات اما لاجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس واما لاجل انهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملا ثم عاد اليه فقد عقب فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل والنهار روى عن عثمان أنه قال يا رسول الله اخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال صلى الله عليه وسلم ملك عن يمينك للحسنات وهو أمير على الذي على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين اكتب قال لا لعله أن يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فاذا قال ثلاثا قال اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله واستحياءه منا فهو قوله تعالى له معقبات (من بين يديه) أي قدامه (ومن خلفه) أي وراءه وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لربك رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة وملك على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك ٣ فهذه عشرة أملاك على كل آدمي ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فهم عشرون ملكا على كل آدمي وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله تعالى وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وقال مجاهد ما من عبد الا وله ملك موكل يحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته (فان قيل) الملائكة ذكور فلم ذكروا في جمع الاناث وهو المعقبات (أجيب) بجوابين الاول قال الفراء المعقبات ملائكة معقبة واحدها معقب ثم جمعت معقبة بمعقبات كما قيل أبناآت ورجالات جمع أبناء ورجال ٤ والذي على التذكير قوله تعالى (يحفظونه) والثاني وهو قول الاخفش انما أنث لكثرة ذلك منها نحو نسابة وعلامة وهو ذكر واختلف في المراد من قوله تعالى (من امر الله) على أقوال أحدها انه على التقديم والتأخير والتقدير له معقبات من أمر الله يحفظونه ثانيها ان فيه اضمارا أي ذلك الحفظ من أمر الله أي مما أمر الله تعالى به فحذف الاسم وأبقى خبره ثالثها ان كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وباعانته وقال كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه أي يحفظون عليه الحسنات والسيآت (فان قيل) ما الفائدة في تخصيص هؤلاء الملائكة مع بني آدم وتسليطهم عليهم (أجيب) بأن الانسان اذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان الى الحذر من المعاصي أقرب لان من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونه ازجره الحياء منهم عن الاقدام اليها كما يزجره اذا حضر من يعظمه من البشر

---

٣ قوله فهذه عشرة الخ عبارة العلامة عبد السلام على الجوهرة وعند الطبراني أن عثمان سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن عدد الملائكة الموكلين بالآدمي فقال لكل آدمي عشرة بالليل وعشرة بالنهار واحد عن يمينه وآخر عن شماله واثنان من بين يديه ومن خلفه واثنان على جانبيه وآخر قابض على ناصيته فان تواضع رفعه وان تكبر وضعه واثنان على شفتيه ليس يحفظان عليه الا الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه اه وهو ظاهر اه مصححه

٤ قوله والذي على التذكير لعله والذي يدل على التذكير اه مصححه

واذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الاعمال كان ذلك أيضا رادعا له عنها واذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل ٭ ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى (ان الله) مع قدرته (لا يغير ما بقوم) أى لا يسلبهم نعمته (حتى يغيروا ما) أى الذى (بأنفسهم) من الاحوال الجميلة الى الاحوال القبيحة (واذا أراد الله بقوم سوأ) أى هلاكا وعذابا (فلا مرد له) أى لا يقدر أحد لا من المعقبات ولا من غيرها أن يرد ما نزل بهم من قضائه وقدره (ومالهم) أى ان أراد الله بهم سوأ (من دونه) أى غير الله (من وال) يلى أمرهم وينصرهم ويمنع العذاب عنهم وقرأ ابن كثير فى الوقف باثبات الياء بعد اللام دون الوصل والباقون بغير ياء بعد اللام وقفا ووصلا ٭ ولما خوّف الله تعالى بقوله واذا أراد الله بقوم سوأ اتبعه بذكر آيات تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى (هو الذى يريكم البرق خوفا) أى للمسافرين من الصواعق (وطمعا) أى للمقيم فى المطر وقيل ان كل شئ يحصل فى الدنيا يحتمل الخير والشر فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر خير فى حق من يحتاج اليه فى أوانه وشر فى حق من يضره ذلك اما بحسب المكان واما بحسب الزمان والبرق معروف وهو لمعان يظهر من بين السحاب (وينشئ) أى يخلق (السحاب الثقال) أى بالمطر ٭ (تنبيه) ٭ خوفا وطمعا مصدران ناصبهما محذوف أى تخافون خوفا وتطمعون طمعا ويجوز غير ذلك والسحاب قال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه غربال الماء وهو غيم ينسحب فى السماء وهو اسم جنس جمعى واحده سحابة وأكثر المفسرين على أن الرعد فى قوله تعالى (ويسبح الرعد بحمده) على انه اسم للملك الذى يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه ولا يرد ذلك عطف الملائكة عليه فى قوله تعالى (والملائكة) أى تسبحه (من خيفته) أى الله لانه أفرد بالذكر تشريفا له كما فى قوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود على النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقها السحاب قال ابن الاثير والمخاريق جمع مخراق وهو فى الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وهى آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه وقد جاء تفسير المخراق فى حديث آخر وهو سوط من نور تزجر به الملائكة السحاب وعن ابن عباس أنه قال من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان أصابته صاعقة فعلى ديته وعن عبد الله بن الزبير أنه كان اذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفى بعض الاخبار يقول الله تعالى لو أن عبادى أطاعونى لاسقيتهم المطر بالليل وأطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد وفى رواية عن ابن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث يؤمر ٣ وانه يحوز الماء فى نقرة ابهامه وانه يسبح الله تعالى اذا سبح لا يبقى ملك فى السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وعن الحسن أن الرعد خلق من خلق الله ليس بملك وقد اختلفت الروايات فى ذلك ففى بعضها أنه ملك موكل بالسحاب وفى بعضها انه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه وفى بعضها انه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادى الابل

بحدائه

بالصريح فاقتضت الآية ما فى السموات وما فى الارض فقال فى كل آية ما يناسبها (قوله الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) قاله هنا وفى القصص والعنكبوت والروم بلفظ الله وفى الاسراء وفى سبأ بضمير

٣ قوله وأنه يحوز كذا فى النسخة المطبوعة وفى بعض النسخ وأنه يجور على صيغة جمع بحر واحده اه مصححه

جعدا نه وفى بعضها أنه ملك سمى به وهو الذى تسمعون صوته وقد مرت الاشارة الى ذلك فى البقرة وقيل هؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعوانا فهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة واستظهر وقوله تعالى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهى العذاب المهلك تنزل من البرق فتحرق من تصيبه (فيصيب بها من يشاء) فيهلكه (وهم يجادلون فى الله) حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب التشديد فى الخصومة روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين لقتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار اربد من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله تعالى على اربد صاعقة فقتلته ورمى عامر بغدة فمات فى بيت سلولية فكان يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية فنزلت وعن الحسن أنه قال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبى صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم اخبرونى عن رب محمد هذا الذى تدعونى اليه مم هو أمن ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا اليه فجعل لا يزيدهم على مقالته الاولى وقال أجيب محمدا الى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى وأخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة اذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس فجاؤا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا احترق صاحبكم فقالوا من أين علمتم فقالوا أوحى الله تعالى الى النبى صلى الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله (وهو شديد المحال) واختلف المفسرون فى قوله تعالى وهو شديد المحال فقال على رضى الله عنه شديد الاخذ وقال ابن عباس شديد الحول وقال مجاهد شديد القوة وقال أبو عبيدة شديد القوة والمغالبة واختلف فى قوله تعالى (له) أى الله (دعوة الحق) فقال علىّ دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة أن لا اله الا الله وقال الحسن الحق هو الله تعالى وكل دعاء اليه دعوة الحق (والذين يدعون) أى وهم الكفار (من دونه) أى غير الله وهى الاصنام (لا يستجيبون) أى الاصنام (لهم) أى الكفار (بشئ) مما يطلبونه من نفع أو دفع ضر (الا) أى الا استجابة (كباسط) أى كاستجابة باسط (كفيه الى الماء) أى على شفير البئر يدعوه (ليبلغ فاه) أى بارتفاعه من البئر اليه (وما هو) أى الماء (ببالغه) أى فاه أبدا لانه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على اجابته فكذلك ما هم بمستجيبين لهم أبدا لان أصنامهم كذلك وقيل شبهوا فى قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشرب به فبسط كفيه ناشرا أصابعهما ولم يصل كفاه الى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من مشربه ثم انه تعالى حكم فى أنه لا يستجاب لهم بقوله تعالى (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) أى ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا آلهتهم لم تستطع اجابتهم وقيل المراد بالصاعقة الجبالين العبادة وقوله تعالى (ولله يسجد من فى السموات والارض) يحتمل أن يراد به

بلفظ الرب وفى الشورى باضمار لفظ الله وبزيادته فى العنكبوت وفى ثانى موضعى سبا وبزيادة من عباده فى العنكبوت وفى القصص وفى ثانى موضعى سبا موافقة لتقدم تكرر

السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة وعلى هذا فيكون قوله تعالى (طوعا) للملائكة والمؤمنين من الثقلين حالتي الشدة والرخاء وقوله تعالى (وكرها) للكافرين والمنافقين الذين أكرهوا على السجود بالسيف وأن يراد به التعظيم والاعتراف بالعبودية فكل من السموات والارض معترف بعبودية الله تعالى كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وأن يراد به الانقياد والخضوع وترك الامتناع وكل من في السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة في الكل ٭ (تنبيه) ٭ قوله تعالى طوعا وكرها اما مفعول من أجله واما حال أى طائعين وكارهين واختلف في تفسير قوله تعالى (وظلالهم بالغدو) أى البكر (والآصال) أى العشايا أى تسجد فقال أكثر المفسرين كل شخص سواء كان مؤمنا أو كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله تعالى وهو طائع وظل الكافر يسجد لله تعالى وهو كاره وقال الزجاج جاء في التفسيرات الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانبارى ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال عقولا وأفهاما تسجد بها لله وتخشع وقيل المراد من سجود الظلال ميلها من جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر في هذين الوقتين ٭ (تنبيه) ٭ الغدو جمع غداة كقنى وقناة والآصال جمع الاصل والاصل جمع أصيل وهو ما بين العصر الى غروب الشمس ٭ ولما بين تعالى ان كل من في السموات والارض ساجد لله تعالى عدل الى الرد على عباد الاصنام بقوله تعالى (قل) يا أشرف الخلق على الله تعالى لقومك (من رب السموات والارض) أى من مالكهما وما فيهما ومدبرهما وخالقهما (قل الله) أى أجب عنهم بذلك ان لم يقولوه ولا جواب لهم غيره ولانه البين الذى لا يمكن المراء فيه ولقنهم الجواب به وروى أنه لما قال للمشركين ذلك عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله تعالى فأجاب بذلك ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام بقوله تعالى (قل) لهم (أفاتخذتم من دونه) أى غير الله (أولياء) أى أصناما تعبدونها (لا يملكون لانفسهم نفعا) يجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه فكيف يملكون لكم ذلك وقرأ ابن كثير وحفص باظهار الذال في أتخذتم عند التاء والباقون بالادغام ثم ضرب الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوى الاعمى والبصير) قال ابن عباس يعنى المشرك والمؤمن وانما مثل الكافر بالاعمى لانه لا يهتدى سبيلا فكذلك الكافر لا يهتدى سبيلا ٭ ثم ضرب الله مثلا للايمان والكفر بقوله تعالى (أم هل تستوى الظلمات) أى الكفر (والنور) أى الايمان الجواب لا وقرأ شعبة وحمزة والكسائى يستوى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وأما اللام من هل هنا فلا تدغم على القراءتين (أم جعلوا لله شركاء) والهمزة للانكار وقوله تعالى (خلقوا كخلقه) صفة شركاء أى خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا (فتشابه الخلق) أى خلق الشركاء بخلق الله (عليهم) من هذا الوجه فلا يدرون ما خلق الله ولا ما خلق آلهتهم فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم وهذا استفهام انكار أى ليس الامر كذلك ولا يستحق العبادة الا الخالق ٭ ولما كان من المعلوم قطعا أن جوابهم ان الخالق كله لله لزمتهم الحجة

لفظ الله تعالى في السور الاربع ولتقدم تكرر لفظ الرب في المواضع الثلاثة ولتقدم تكرر الاضمار في الشورى وزاد في العنكبوت من عباده لموافقة ابسط الكلام على الرزق

فقال

فقال تعالى (قل) لهؤلاء المشركين (الله خالق كل شئ) أى مما يصح أن يكون مخلوقا فهو من العموم الذى يراد به الخصوص فلا يدخل فى ذلك صفات الله تعالى واذا كان لا خالق غيره فلا يشاركه فى العبادة أحد فوجب أن ينفرد بالالهية كما قال تعالى (وهو الواحد) أى الذى لا يجانسه شئ وكل ما سواه لا يخلو عن مماثل يماثله وأين رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له (القهار) الذى كل شئ تحت قهره فيدخل تحت قضائه ومشيئته وارادته * ثم ضرب تعالى مثلا للحق والباطل بقوله تعالى (أنزل من السماء) أى السحاب أو السماء نفسها (ماء) أى مطرا (فسالت أودية) أى أنهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى فيه وتنكيرها لان المطر يأتى على تناوب بين البقاع (بقدرها) أى بمقدارها الذى علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقدارها فى الصغر والكبر (فاحتمل السيل زبدا رابيا) أى عاليا عليه هو ما على وجهه من قذر ونحوه (ومما توقدون عليه فى النار) أى من جواهر الارض الذهب والفضة والنحاس والحديد (ابتغاء) أى طلب (حلية) أى زينة (أو متاع) أى ينتفع به كالاوانى اذا أذيبت وآلات الحرب والحرث والمقصود من هذا بيان منافعها (زبد مثله) أى مثل زبد السيل وهو خبثه الذى ينفيه الكير ومن للابتداء أو للتبعيض وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة على أن الضمير للناس واضماره للعلم به والباقون بالتاء على الخطاب (كذلك) أى مثل هذا الضرب العلى الرتب المتين السبب (يضرب الله) أى الذى له الامر كله (الحق والباطل) أى مثلهما فانه تعالى مثل الحق فى افادته وثباته بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به الاودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع ويمكث فى الارض بأن يثبت بعضه فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الارض الى العيون والقنى والآبار ومثل الباطل فى قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وهو قوله تعالى (فأما الزبد) أى من السيل وما أوقد عليه من الجواهر (فيذهب جفاء) قال أبو حيان مضمحلا أى متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء له وقال ابن الانبارى متفرقا وانتصابه على الحال (وأما ما ينفع الناس) من الماء ومن الجواهر الذى هو مثل الحق (فيمكث فى الارض) أى يثبت ويبقى لينتفع به أهلها (كذلك) أى مثل ذلك الضرب (يضرب) أى يبين (الله) الذى له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (الامثال) فيجعلها فى غاية الوضوح وان كانت فى غاية الغموض قال أهل المعانى هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق فى بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافى الذى ينفع وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذى هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذى لا ينتفع به البتة * ثم انه تعالى لما ذكر الحق والباطل ذكر مالاهلهما من الثواب والعقاب فقال تعالى (للذين استجابوا لربهم) أى أجابوه الى ما دعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الاموات والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم (الحسنى) قال ابن عباس ٣ وقال أهل المعانى الحسنى هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة

المذكور فيها أمر بها وقاد فى القصص من عباده موافقة لذلك وان كان اللفظ الرزق فيه تضمنا وزاد من عباده فى ثانى موضعى سبأ لانه نزل فى المؤمنين وما قبله فى الكافرين وحذف

٣ قوله قال ابن عباس وقال أهل المعانى هكذا بالاصول ولينظر ما قاله ابن عباس اه مصححه

الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر تعالى الزيادة ههنا لانه تعالى ذكرها في سورة أخرى وهي قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة هذا مالاهل الحق وأما مالاهل الباطل فهو ماذكره بقوله جل من قائل (والذين لم يستجيبوا له) وهم الكفرة فلهم أنواع ثلاثة من العذاب والعقوبة فالنوع الاول قوله تعالى (لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) أي جعلوه فكاك أنفسهم بغاية جهدهم لان المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فهو انما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس في الضرر والالم والتعب وكان مالكا لما يساوي عالم الاجناس والارواح فانه يرضى بأن يجعله فداء نفسه لان المحبوب بالعرض لابد وأن يكون فداء لما كان محبوبا بالذات والكناية في به عائدة الى ما في قوله ما في الارض والنوع الثاني من أنواع العذاب الذي أعده الله تعالى لهم ماذكره بقوله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وهو المناقشة فيه وعن النخعي بأن يحاسب العبد بذنبه كله لا يغفر منه شيء وانما نوقشوا لانهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا وبقوا محرومين من الفوز بسعادة خدمة المولى والنوع الثالث من عقوباتهم ماذكره بقوله تعالى (ومأواهم) أي مرجعهم (جهنم) وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاشتغال بخدمة المولى عاشقين للذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شيء آخر يجبر هذه المصيبة فلذلك كان مأواهم جهنم * ثم انه تعالى وصف هذا المأوى بقوله عز من قائل (وبئس المهاد) اي الفراش والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم * ونزل في حمزة وأبي جهل وقيل في عمار وأبي جهل (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق) أي يؤمن به ويعمل بما فيه وهو حمزة أو عمار رضي الله تعالى عنهما (كمن هو أعمى) أي أعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو أبو جهل قال ابن الخازن في تفسيره وحمل الآية على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى لا يهتدي لرشد (انما يتذكر) اي يتعظ (أولوا الالباب) أي أصحاب العقول الذين يطلبون من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون من ظاهر كل حديث الى سره ولبابه (الذين يوفون بعهد الله) أي ما عاقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى أو ما عهد الله تعالى عليهم في كتبه (ولا ينقضون الميثاق) أي ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين العباد فهو تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أي من الايمان والرحم وغير ذلك والاكثرون على أنه أراد به صلة الرحم عن أبي موسى ان عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكي عن ربه تعالى أنا الرحمن وهي الرحم شققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم متعلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وفيه قولان أحدهما وهو المشهور أنه يزاد في عمره

لفظه له في غير العنكبوت وفي اول موضعي سبأ اختصارا (قوله قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب) ان قلت كيف طابق هذا الجواب قوله لولا أنزل عليه آية من ربه

زيادة حقيقية والثانى يبارك له فى عمره فكأنه قد زيد فيه وعن ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى اذا انقطعت رحمه وصلها وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال تاتى يوم القيامة لها ألسنة ذلقة الرحم فتقول أى رب قطعت والامانة تقول أى رب تركت والنعمة تقول أى رب كفرت وعن الفضيل بن عياض ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من أين أنتم فقالوا من خراسان قال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا ان العبد لو أحسن كل الاحسان وكان له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين (ويخشون ربهم) أى وعيده عموما والخشية خوف يشوبه تعظيم (ويخافون سوء الحساب) خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) اى على طاعة الله تعالى وعن معاصيه وفى كل ما ينبغى الصبر فيه وقال ابن عباس صبروا على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصى ومرجع الكل واحد فان الصبر الحبس وهو تجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله (ابتغاء) اى طلب (وجه ربهم) أى رضاه لا طلب غيره من جور أو سمعة أو رياء أو لغرض من أغراض الدنيا أو نحو ذلك (وأقاموا الصلوة) اى المفروضة وقيل مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض والنفل (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة فان لم يتهم بترك الزكاة فالاولى أن يؤديها سرا وان كان يتهم بترك أدائها فالاولى أن يؤديها علانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة وقيل المراد بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه وبالعلانية ما يدفعه الى الامام (ويدرؤن) أى يدفعون (بالحسنة السيئة) كالجهل بالحلم والاذى بالصبر روى عن ابن عباس قال يدفعون بالصالح من العمل السيء من العمل وهو معنى قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله صلى الله عليه وسلم اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج الى الارض وقال ابن عباس يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن عمر ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا امروا بتغييره وروى أن شقيقا البلخى دخل على ابن المبارك متنكرا فقال له من أين أنت فقال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم فقال وكيف طريقة أصحابه قال اذا منعوا صبروا واذا أعطوا شكروا فقال ابن المبارك طريقة كلابنا هكذا فقال شقيق فكيف ينبغى أن يكون الامر فقال الكاملون هم الذين اذا منعوا شكروا واذا أعطوا آثروا (أولئك) أى العالو الرتبة (لهم عقبى الدار) ويبينها تعالى بقوله (جنات عدن) أى اقامة لا انفكاك لها يقال عدن بالمكان اذا أقام به ثم استأنف بيان تمكنهم بها بقوله تعالى (يدخلونها) ولما كانت الدار لا تطيب بدون الاحبة قال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع (ومن صلح من آبائهم) أى الذين كانوا سببا فى

(قلت) المعنى قل لهم ان الله أنزل على آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة لكن الاضلال والهداية من الله فاضلكم عن تلك الآيات وهدى اليها آخرين فلا فائدة فى تكثير الآيات

ايجادهم فيشمل ذلك الآباء والامهات وان علوا (وأزواجهم وذرياتهم) أى الذين تسببوا عنهم والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم وتعظيما لشأنهم ويقال ان من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم فى الدنيا ثم يشكروا الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال الله تعالى فى صفة أهل الجنة انهم يقولون ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين وفى ذلك دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوفين بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الانساب لا تنفع وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال يريد من صدق بما صدقوا وان لم يعمل مثل أعمالهم قال الرازى قوله وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وما روى عن سودة أنه لما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعنى يا رسول الله أحشر فى جملة نسائك كالدليل على ما ذكرنا اه وعلى هذا من تزوجت بغيره قيل انها تخير بينهما ثم زاد تعالى فى ترغيبهم بقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم) لان الاكثار من ترداد رسل الملك أعظم فى الفخر وأكثر فى السرور والعزة ولما كان اتيانهم من الاماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الادب والكرم قال تعالى (من كل باب) قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم (سلام عليكم) أى فاضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) على أمر الله والباء السببية أى بسبب صبركم أو البدلية أى بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه (فان قيل) بم يتعلق قوله بما صبرتم قال الزمخشرى بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم وقال البيضاوى متعلق بعليكم أو بمحذوف لا بسلام فان الخبر فاصل مع أن الزمخشرى قال ويجوز أن يتعلق بسلام أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم وهذا أظهر ورد الاول بأن الممنوع منه انما هو المصدر المؤول بحرف مصدرى وفعل والمصدر هنا ليس كذلك ۝ ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى (فنعم عقبى الدار) وهى المسكن فى قرارها بالابنية التى يحتاج اليها والمرافق التى ينتفع بها والعقبى الانتهاء الذى يؤدى اليه الابتداء من خير أو شر والمخصوص بالمدح محذوف أى عقباكم ۝ ولما ذكر تعالى صفات السعداء وما يترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر أحوال الاشقياء وذكر ما يترتب عليها من الاحوال المخزية المكربة وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال تعالى (والذين ينقضون عهد الله) أى فيعملون بخلاف موجبه والنقض التفريق الذى ينفى تأليف البناء (من بعد ميثاقه) أى الذى أوثقه عليهم من الاقرار والقبول (ويقطعون ما) أى الذى (أمر الله به أن يوصل) وذلك فى مقابلة قوله من قبل والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع ما اوجب الله تعالى وصله أى لما له من المحاسن الجلية والخفية التى هو عين الصلاح ويدخل فى ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ووصل الارحام ووصل سائر من له حق (ويفسدون) أى يوقعون الفساد (فى الارض) أى فى أى جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعاء الى غير دين الله تعالى (أولئك) أى البعداء

والمعجزات أو هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم لان الآيات الباهرة المتكاثرة التى ظهرت على النبى صلى الله عليه وسلم كانت أكثر من ان تشتبه على العاقل فلما طلبوا بعدها آيات أخر

البغضاء (لهم اللعنة) أي الطرد والبعد (ولهم سوء الدار) والدار لهم هي جهنم وليس لهم فيها الا ما يسوء الصائر اليها ولما حكم تعالى على من نقض عهده في قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون في الدنيا ومعذبون في الآخرة فكأنه قيل لو كانوا أعداء الله تعالى لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في الدنيا فأجاب الله تعالى بقوله تعالى (الله يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء ويقدر) أي يضيقه على من يشاء سواء في ذلك الطائع والعاصي ولا تعلق لذلك بالكفر والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن موسعا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان ولما كانت السعة مظنة الفرح الا عند من وفقه الله تعالى قال الله تعالى (وفرحوا) أي كفار مكة فرح بطر (بالحيوة الدنيا) أي بما نالوه فيها لا فرح سرور بفضل الله والعافية عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة (وما الحيوة الدنيا) أي بكمالها (في الآخرة) أي في جنبها (الا متاع) أي حقير متلاش يتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهي ما يتعجله من تميرات أو شربة ماء سويق أو نحو ذلك (ويقول الذين كفروا) من أهل مكة (لولا) أي هلا (أنزل عليه) أي على هذا الرسول (آية) أي علامة بينة (من ربه) أي المحسن اليه كالعصا واليد والمن والسلوى والناقة لصالح لنهتدي بها فنؤمن به وأمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله (قل) أي لهؤلاء المعاندين (ان الله يضل من يشاء) اضلاله فلا تغني عنه الآيات شيأ وان أنزلت كل آية (ويهدي) أي يرشد (اليه) أي الى دينه (من أناب) أي رجع اليه كأبي بكر الصديق وغيره ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم ولو حصلت آية واحدة فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا الى الله تعالى في طلب الهداية وقوله تعالى (الذين آمنوا) بدل من من أناب أو خبر مبتدا محذوف (وتطمئن) أي تسكن (قلوبهم بذكر الله) أي أنسا به واعتمادا عليه ورجاء منه أو بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته أو بذكر دلائله الدالة على وجوده أو بالقرآن الذي هو أقوى المعجزات وقال ابن عباس يريد اذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت (فان قيل) قد قال الله تعالى في سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فكيف الجمع بين هاتين الآيتين (أجيب) بأنهم اذا ذكروا العقاب ولم يأمنوا أن يقدموا على المعاصي فهناك يحصل الوجل واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما (ألا بذكر الله) أي الذي له الجلال والاكرام لا بذكر غيره (تطمئن) أي تسكن (القلوب) ويثبت اليقين فيها وقوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ خبره (طوبى لهم) واختلف العلماء في تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة عين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وقال النخعي خير لهم وكرامة وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية قال الرازي وهذا القول ضعيف لانه ليس في القرآن الا العربي لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر وعن أبي هريرة وأبي الدرداء ان طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح

كان محل التعجب والانكار فكأنه قيل لهم ما أعظم عنادكم ان الله يضل من يشاء كمن كان على صنيعكم من التصميم على الكفر فلا سبيل الى هدايتكم وان أنزلت كل آية ويهدي

الله تعالى بانواع التسبيح وعن أبي سعيد الخدري أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم
ما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وعن معاوية
ابن قرة عن أبيه يرفعه طوبى شجرة غرسها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل
وان أغصانها لترى من وراء سور الجنة وفي رواية عن أبي هريرة انه قال ان في الجنة شجرة يقال
لها طوبى يقول الله تعالى لها انفتقي لعبدي عما يشاء فتنفتق له عن فرس مسرجة بلجامها
وهيئتها كما يشاء وتنفتق له عن راحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وقيل طوبى فعلى من
الطيب قلبت ياؤه واوا لضم ما قبلها مصدر الطاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا
وطيبا (وحسن مآب) أي حسن المنقلب (كذلك) أي مثل ارسال الرسل الذين قدمنا الاشارة
اليهم في آخر سورة يوسف وفي غيرها (أرسلناك في أمة) أي جماعة كثيرة (قد خلت من قبلها)
أي تقدمتها (أمم) طال اذاهم لانبيائهم ومن آمن بهم واستهزاؤهم بهم في عدم الاجابة حتى كأنهم
تواصوا بهذا القول فليس ببدع ارسالك اليهم (لتتلو) أي لتقرأ (عليهم) أي على أمتك (الذي
أوحينا اليك) من القرآن وشرائع الدين (وهم) أي والحال أنهم (يكفرون بالرحمن) أي
بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شئ وقال قتادة هذه الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية
وذلك ان سهل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لعلي اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهل بن عمرو لا نعرف الرحمن الا
صاحب اليمامة يعني مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم
يكفرون بالرحمن أي انهم يكفرونه ويجحدونه قال البغوي والمعروف ان الآية مكية وسبب
نزولها ان أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو يا الله يا رحمن فرجع الى
المشركين فقال ان محمدا يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن
اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء
الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس انها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله
عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد ان الرحمن الذي
أنكرتم معرفته (هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت) أي اعتمدت عليه في أموري كلها (واليه
متاب) أي مرجعي ومرجعكم روي ان أهل مكة قعدوا في فناء الكعبة فأتاهم النبي صلى الله
عليه وسلم وعرض الاسلام عليهم فقال له عبد الله بن أمية المخزومي سير لنا جبال مكة حتى
ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها وأحي لنا بعض اموا تنا لنسألهم أحق
ما تقول ام باطل فقد كان عيسى يحيي الموتى وسخر لنا الريح حتى نركبها الى البلاد فقد كانت
الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان فنزل قوله تعالى (ولو أن قرآنا
سيرت به الجبال) اى نقلت عن أماكنها (أو قطعت) اى شققت (به الارض) من خشية
الله تعالى عند قراءته فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) أي بأن يحيوا وجواب لو محذوف
أي لكان هذا القرآن لانه في غاية ما يكون من الصحة واكتفى بمعرفة السامعين مراده وهذا
معنى قول قتادة قال لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقيل تقديره لما آمنوا
ونقل عن الفراء ان جواب لو هي الجملة من قوله وهم يكفرون ففي الكلام تقديم وتأخير وما
بينهما اعتراض وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به

لمن كان على خلاف
صنيعكم (قوله أفمن هو قائم
على كل نفس بما كسبت)
وان قلت كيف طابقه قوله
عقبه وجعلوا لله شركاء
(قلت) فيه محذوف تقديره

الارض اوكلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا لما سبق من علمنا فيهم (فان قيل) لم حذفت التاء فى قوله تعالى أوكلم به الموتى وثبتت فى الفعلين قبله (أجيب) بانه من باب التغليب لان الموتى يشمل المذكر والمؤنث (بل لله الامر) اى القدرة على كل شئ (جميعا) وهذا اضراب عما تضمنته لو من معنى النفى اى بل الله قادر على الاتيان بما اقترحوه من الآيات لكن الارادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى بانه لا يلين قلوبهم ويؤيد ذلك قوله تعالى (افلم ييأس الذين آمنوا) عن ايمانهم مع ما رأوا من أحوالهم وذهب أكثرهم الى أن معناه افلم يعلم الذين آمنوا (أن) اى بانه (لو يشاء الله) أى الذى له صفات الكمال (لهدى الناس جميعا) اى الى الايمان من غير آية ولكنه تعالى لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا) اى جميع الكفار (تصيبهم بما) اى بسبب ما (صنعوا قارعة) اى نازلة وداهية تقرعهم بانواع البلايا تارة بالجدب وتارة بالسلب وتارة بالقتل وتارة بالاسر وغير ذلك واختلف فى الكفار على قولين قيل أراد بهم جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من ذلك أوجبت حصول الغم فى قلب الكل وقيل المراد الكفار من أهل مكة والالف واللام للمعهود السابق ويدل لهذا قول ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم (او تحل) أى تنزل تز ولا ثابتا تلك القارعة (قريبا من دارهم) اى فتفزعون من أمرهم وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد بجيشك قريبا من دارهم مكة كما حل بالحديبية (حتى يأتى وعد الله) اى بالنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة أو بالنصر على جميع الكفرة فى زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك لانه لا يبقى على الارض كافر وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم باعمالهم (ان الله لا يخلف الميعاد) لامتناع الكذب فى كلامه تعالى * ولما كان الكفار يسألون هذه الآيات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تعالى تسلية له وتصبيرا له على سفاهة قومه (ولقد استهزئ برسل من قبلك) كما استهزئ بك (فامليت للذين كفروا) أى أطلت المدة بتأخير العقوبة (ثم أخذتهم) بالعقوبة (فكيف كان عقاب) أى هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك والاملاء الامهال بان يترك مدة من الزمان فى راحة وأمن كالبهيمة على اهاف المرعى وهذا استفهام معناه التعجب وفى ضمنه وعيد شديد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى أورد على المشركين ما يجرى مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال تعالى (أفمن هو قائم) أى رقيب (على كل نفس بما كسبت) أى عملت من خير وشر وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات ولا بد لهذا الكلام من جواب فان من موصولة صلتها هو قائم والموصول مرفوع بالابتداء وخبره محذوف تقديره كمن ليس بهذه الصفة وهى الاصنام التى لا تنفع ولا تضر دل على هذا المحذوف قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) ونظيره قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام الآية تقديره كمن قسا قلبه يدل عليه قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله وانما حسن حذفه كون الخبر مقابلا للمبتدإ لو قد جاء مبينا كقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق وقوله تعالى (قل سموهم) فيه

أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ما كسبت من خير وشر كمن ليس كذلك من شركائهم التى لا تضر ولا تنفع ويدل له قوله وجعلوا لله شركاء ونحوه قوله تعالى

تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها والمعنى سموهم بأسمائهم الحقيقية فإنهم إذا عرفت حقائقهم أنها حجارة أو غير ذلك مما هو مركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء ثم قيل أرجعتم عن ذلك إلى الإقرار بأنهم من جملة عبيده (أم تنبئونه) أي تخبرونه (بما لا يعلم) وعلمه محيط بكل شيء (في الأرض) من كونها آلهة ببرهان قاطع (أم) تسمونهم شركاء (بظاهر من القول) أي بحجة إقناعية تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشيء وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز. ولما كان التقدير ليس لهم على شيء من هذا برهان قاطع ولا قول ظاهر بني عليه قوله تعالى (بل زين) أي وقع التزيين بأمر من لا يرد أمره على يد من كان من شياطين الإنس أو شياطين الجن (للذين كفروا مكرهم) أي أمرهم الذي أرادوا به ما يراد بالمكر من إظهار شيء وإبطان غيره وذلك أنهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس بهم في الباطن إلا تقليد الآباء وأظهروا أنهم يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى وليشفعوا لهم وهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا فصار كل ذلك من فعلهم فعل الماكر (وصدوا) غيرهم (عن السبيل) أي طريق الهدى الذي لا يقال لغيره سبيل فإن غيره عدم بل العدم خير منه فهم لم يسلكوا السبيل ولا تركوا غيرهم يسلكه فضلوا وأضلوا وليس ذلك بعجيب فإن الله أضلهم (ومن يضلل الله) أي الذي له الأمر كله بإرادة ضلاله (فما له من هاد) وقرأ ابن كثير بإثبات الياء بعد الدال في الوقف دون الوصل والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذلك من واق وكذا ولا واق. ولما أخبر الله تعالى بتلك الأمور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى (لهم عذاب في الحياة الدنيا) بالقتل والأسر والذل والإهانة واغتنام الأموال واللعن ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) أي أشد في المشقة بسبب القوة والشدة وكثرة الأنواع والدوام وعدم الانقطاع ثم بين تعالى أن أحدا لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى (وما لهم من الله من واق) أي مانع يمنعهم إذا أرادهم بسوء في الدنيا ولا في الآخرة والواقي فاعل من الوقاية وهي الحجز بما يدفع الأذية. ولما ذكر تعالى عذاب الكفار في الدنيا والآخرة أتبعه بذكر ثواب المتقين بقوله تعالى (مثل) أي صفة (الجنة) أي التي هي مقرهم (التي وعد المتقون) واختلف في إعراب ذلك على أقوال الأول قال سيبويه مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما قصصناه عليك مثل الجنة والثاني قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدأ وخبره (تجري من تحتها الأنهار) كما تقول صفة زيد أسمر والرابع الخبر (أكلها) أي مأكولها (دائم) لأنه الخارج عن العادة فقد وصف الله تعالى الجنة بثلاثة أوصاف الأول تجري من تحتها أي من تحت قصورها وأشجارها الأنهار الثاني أن أكلها دائم لا ينقطع أبدا بخلاف جنة الدنيا والثالث قوله تعالى (وظلها) أي دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس ولا غيرها إذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ثم إنه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين تعالى أنها للمتقين بقوله تعالى (تلك) أي الجنة العالية الأوصاف (عقبى) أي آخر أمر (الذين اتقوا) أي الشرك ثم كرر الوعيد للكافرين بقوله تعالى (وعقبى) أي منتهى أمر (الكافرين النار)

أفمن شرح الله صدره للإسلام
تقديره كمن قسا قلبه يدل
عليه قوله فويل للقاسية
قلوبهم من ذكر الله (قوله
قل إنما أمرت أن أعبد الله)
إن قلت كيف اتصل
هذا بقوله قبله ومن

لاغير وفى ترتيب النظم بين اطماع للمتقين واقناط للكافرين واختلف فى قوله تعالى (والذين
آتيناهم الكتاب) على قولين الاول أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب
القرآن (يفرحون بما انزل اليك) من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام
والقصص (ومن الاحزاب) اى الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار (من ينكر
بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة (فان قيل) الاحزاب منكرون كل القرآن (أجيب) بأنهم
لا ينكرون كل ما فى القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته
وأقاصيص الانبياء والاحزاب لا ينكرون كل هذه الاشياء والقول الثانى ان المراد بالكتاب
التوراة وبأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام واصحابه ومن أسلم من
النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من أرض
الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين
وقيل كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من
أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره فى
القرآن فرحوا به فانزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن
الاحزاب من ينكر بعضه يعنى مشركى مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتاب
الصلح بسم الله الرحمن الرحيم قالوا ما نعرف الرحمن الارحمن اليمامة يعنى مسيلمة فانزل الله
تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون ثم انه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه فى
معرفة المبدا والمعاد وبينه بالفاظ قليلة فقال (قل) اى يا اكرم الخلق على الله تعالى (انما
أمرت) اى وقع الى الامر الجازم الذى لا شك فيه ولا تغيير ممن له الامر كله (ان اعبد الله)
اى وحده ولذلك قال (ولا أشرك به) شيأ (اليه) وحده (أدعوا واليه مآب) أى مرجعى
للجزاء لا الى غيره (وكذلك) أى كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم (أنزلناه) أى القرآن
(حكما) والحكم فصل الامر على الحق (عربيا) بلسانك ولسان قومك وانما سمى القرآن حكما
لان فيه جميع التكاليف والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان سببا للحكم جعل نفس
الحكم على سبيل المبالغة وروى ان المشركين كانوا يدعون النبى صلى الله عليه وسلم الى ملة
آبائه فوعده الله تعالى على متابعتهم فى تلك المذاهب بان تصلى الى قبلتهم بعد ما حوله الله تعالى
عنها بقوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم) أى الكفار فيما يدعونك اليه من ملتهم (بعد ما جاءك
من العلم) أى بانك على الحق وأن قبلتك هى الكعبة (مالك من الله من ولى) اى ناصر (ولا
واق) اى مانع من عذابه قال ابن عباس الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته
ونزل لما عير الكفار النبى صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك
وجعلنا لهم أزواجا) أى نساء ينكحونهن فكان لسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية
وكان لداود عليه السلام مائة امرأة (وذرية) أى أولادا فانت مثلهم وكانوا يقولون أيضا
لو كان رسولا من عند الله لكان أى شئ طلبناه منه من المعجزات أتى به فرد الله تعالى عليهم
بقوله تعالى (وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله) أى بارادته لان المعجزة الواحدة كافية
فى ازالة العذر والعلة وفى اظهار الحجة والبينة وأما الزائد عليها فهو مفوض الى مشيئة الله

(قوله وقد ذكر الذين من
الاحزاب من ينكر بعضه
(قالت) هو جواب المنكرين
معناه قل انما أمرت فيما
أنزل الى بان اعبد الله ولا
أشرك به فانكارهم لبعضه
انكار لعبادة الله وتوحيده

تعالى ان شاء أظهرها وان لم يشأ لم يظهرها الا اعتراض لاحد عليه فى ذلك ه ولما توعدهم صلى الله عليه وسلم نزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه وتأخر ذلك عنهم قالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (لكل أجل) أى مدة (كتاب) أى مكتوب قد أثبت فيه ان أمر كذا يكون فى وقت كذا من الثواب والعقاب والاحكام والاتيان بالآيات وغيرها ثباتا ونسخا على ما تقتضيه الحكمة ه ولما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمر بخلافه غدا وما سبب ذلك الا أنه يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (يمحوا الله ما يشاء) أى يمحوه من الشرائع والاحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه (ويثبت) ما يشاء اثباته من ذلك بأن يقره ويمضى حكمه كقوله تعالى ما ننسخ من آية الى قوله تعالى ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بسكون الثاء المثلثة وتخفيف الباء الموحدة والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء الموحدة ه(تنبيه) ه فى هذه الآية قولان أحدهما أنها عامة فى كل شئ كما يقتضيه ظاهر اللفظ وهذا مذهب عمر وابن مسعود وغيرهما قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول فى الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول اللهم ان كنت كتبتنى فى أهل السعادة فاثبتنى فيها وان كنت كتبت على الشقاوة فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ومثله عن ابن مسعود وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى بعض الآثار ان الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيرد الى ثلاثة أيام والرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيرد الى ثلاثين سنة وروى ان الله تعالى ينزل أى أمره فى آخر ثلاث ساعات تبقى من الليل فينظر فى الساعة منهن فى أم الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت والقول الثانى ان هذه الآية خاصة فى بعض الاشياء دون بعض واختلفوا على هذا القول فقال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة واستدل لهذا عمار وأحمد وحذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يا رب أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يا رب رزقه فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب أشقى أم سعيد فيكتبان فيكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص وقال عطية عن ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يرجع لمعصية الله تعالى فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو والذى يثبت يعمل الرجل بطاعة الله فيموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت وقال الحسن يمحو ما يشاء أى من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجئ أجله الى أجله وعن سعيد بن جبير قال يمحو ما يشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وقال السدى

فان قلت كيف اثبت لهم مكرا ثم نفاه عنهم بقوله فلله المكر جميعا (وقلت) معناه ان مكر الماكرين مخلوق له ولا يضر الا بارادته فاثبت لهم باعتبار الكسب ونفيه

يمحو

يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت ما يشاء يعني الشمس بيانه قوله تعالى فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة وقال الربيع هذا في الارواح يقبضها الله تعالى عند النوم فمن أراد موته أمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده الى صاحبه بيانه قوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها الآية وقيل ان الله تعالى يثبت في أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل ان الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب وقيل هذا في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة (وعنده) تعالى (أم الكتاب) أصل الكتب والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشيء أما ومنه أم الرأس للدماغ وام القرى لمكة وكل مدينة فهي أم لما حواليها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلا لجميع الكتب وفيه قولان الاول أنه اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل وجميع حوادث العالم العلوي والسفلي يثبت فيه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولا شيء ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق الى قيام الساعة والقول الثاني ان أم الكتاب أصله الذي لا يغير منه شيء وهو الذي كتب في الازل وقال ابن عباس في رواية عكرمة هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو ما يشاء منه ويثبت وعنده أم الكتاب لا يغير منه شيء وعلى هذا فالكتاب الذي يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذي تكتبه الملائكة على الخلق وعن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرته خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوتة لله فيه في كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه * ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استهزاء استعجال السيئة مما توعدوا به وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك البعض واثباته ليؤمن به غيره تقريبا لفصل النزاع قال تعالى (واما نرينك) بالمؤكدة بما تأكيدا للاعلام بأنه لا حرج عليه في ضلال من ضل بعد ابلاغه (بعض الذي نعدهم) اي من العذاب وأنت حي كما تريد أو تريد أصحابك قبل وفاتك فذلك شافيك من أعدائك والوعد الخبر عن خير مضمون والوعيد الخبر عن شر مضمون والمعنى ههنا عليه وسماه وعدا للتنزيل بايهم اياه في طلب نزوله منزلة الوعد (او نتوفينك) اي قبل أن نرينك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب (فانما عليك البلاغ) أي ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم وليس عليك ان تجازيهم ولا ان تأتيهم بالمقترحات والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ وأما فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة (وعلينا الحساب) اي علينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم باعمالهم فلا تحتفل باعراضهم ولا تستعجل بعذابهم * (تنبيه) * قال أبو حيان هنا شرطان لان المعطوف على الشرط شرط فيقدر لكل شرط ما يناسب أن يكون جزاء مترتبا عليه والتقدير واما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك شافيك من أعدائك واما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب وقد مرت الاشارة الى ذلك * ولما وعد الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يريه بعض ما يعده أو يتوفاه قبل ذلك بين تعالى ان آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى (أولم يروا) اي كفار مكة (أنا نأتي الارض) أي

عندهم باعتبار الخلق
(سورة ابراهيم عليه السلام)
(قوله وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه)
* ان قلت هذا يقتضي ان النبي صلى الله عليه

نقصد أرض هؤلاء الكفرة (ننقصها من أطرافها) بما يفتح الله تعالى على المسلمين من ديار الشرك أرضا بعد أرض حوالى أرضهم هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض أهلها وعن عكرمة قال هو قبض الناس وعن الشعبي مثله وعطاء وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ويؤيد هذا ما رواه عمرو بن العاص أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا وقال الحسن قال عبد الله بن مسعود عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله وقال على انما مثل الفقهاء كمثل الانف اذا قطعت لم تعد وقال سليمان لا يزال الناس بخير ما بقي الاول حتى يتعلم الآخر واذا هلك الاول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد ابن جبير ما علامة هلاك الناس قال هلاك علمائهم ثم أثبت تعالى لنفسه أمرا كليا فقال (والله) أى الملك الاعلى (يحكم) فى خلقه بما يريد لانه (لا معقب) أى راد لان التعقيب رد الشيء بعد فصله (لحكمه) وقد حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره * (تنبيه) * محل جملة لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءنى زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة تريد حاسرا (وهو) عز وجل مع تمام القدرة (سريع الحساب) فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاجلاء فى الدنيا وقال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعنى حسابه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم الكلام فى معنى سريع الحساب قبل هذا وقوله تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) أى من كفار الامم الماضية قبل مكروا بانبيائهم مثل نمروذ مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى فيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (فلله المكر جميعا) أى ان مكر جميع الماكرين حاصل بتخليقه وارادته لانه تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد فالمكر لا يضر الا باذنه ولا يؤثر الا بتقديره فيه أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم فكأنه قيل اذا كان حدوث المكر من الله تعالى وتأثيره فى الممكور به من الله وجب ان لا يكون الخوف الا من الله تعالى لا من أحد من المخلوقين وذهب بعض المفسرين الى أن المعنى فلله جزاء المكر وذلك أنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم قال الواحدى والاول أظهر القولين بدليل قوله تعالى (يعلم ما تكسب كل نفس) أى ان اكساب العباد معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله فيجازيهم على أعمالهم وفى ذلك وعيد وتهديد للكفار الماكرين ثم انه تعالى أكد ذلك التهديد بقوله تعالى (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة ألهم أم للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالالف بعد الكاف على الافراد والكاف مفتوحة والفاء مكسورة مخففة والباقون بالالف بعد الفاء على الجمع فالكاف مضمومة والفاء مفتوحة مشددة فمن قرأ بالافراد أراد الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفى خسر ليوافق قراءة الجمع وقال عطاء المستهزؤن وهم خمسة والمقتسمون وهم ثمانية وعشرون

وسلم انما بعث الى العرب خاصة فكيف الجمع بينه وبين قوله قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا وقوله وما أرسلناك الا كافة للناس فقلت قومه هم العرب ونزوله بلسانهم

وقال ابن عباس يريد أبا جهل قال الرازي والاول هو الصواب أي لبوافق قراءة الجمع كما مر ❁ ولما تقدم قوله تعالى ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) أي لكونك لا تأتي بمقترحاتهم مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما انه قادر عليها فكأنه قيل فما أقول لهم فقال تعالى (قل) لهم (كفى بالله) الذي له الاحاطة الكاملة (شهيدا) أي بليغ العلم في شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن (بيني وبينكم) يشهد بتأييد رسالتي وتصحيح مقالتي بما أظهر لي من الآية وأوضح من الدلالة بهذا الكتاب ويشهد بتكذيبهم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزا وهذا أعلى مراتب الشهادة لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الامر كما شهد به والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله واختلف في قوله تعالى (ومن عنده علم الكتاب) فروى العوفي عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى أي أن كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيها شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم والثاني ان المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى قال الحسن لا والله لا يعني الا الله والمعنى كفى بالله الذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح الا هو شهيدا بيني وبينكم وهذا أظهر كما استظهره البقاعي وان كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الاصل اذ يقال شهد بهذا زيد الفقيه لا زيد والفقيه لانه جائز في الجملة وقيل معناه أن علم أن القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علمه بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله أعلم بمراده وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الرعد أعطي من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله حديث موضوع

مع الترجمة لما في الاسم كاف لحصول الغرض بذلك ولانه أبعد عن التصر والتبديل وأسلم من التنافع والاختلاف (قوله ليغفر لكم من ذنوبكم) من زائدة اذ الاسلا

سورة ابراهيم عليه السلام مكية

(الا قوله تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله الآيتين وهي اثنتان وخمسون آية وعدد كلماتها ثمانمائة واحدى وثلاثون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا (بسم الله الرحمن الرحيم) قوله تعالى (الر) تقدم الكلام عليه أول يونس وهود وقوله تعالى (كتاب) خبر لمبتدا محذوف أي هذا القرآن كتاب أو الر ان قلنا انها مبتدأ والجملة بعده صفة ويجوز أن يرتفع بالابتداء وخبره الجملة بعده وجاز الابتداء بالنكرة لانها موصوفة تقديرا تقديره كتاب أي كتاب يعني عظيما من بين الكتب السماوية (أنزلناه اليك) يا أشرف الخلق عند الله تعالى (لتخرج الناس) أي عامة قومك وغيرهم بدعائك اياهم (من الظلمات) أي الكفر وأنواع الضلالة (الى النور) أي الايمان والهدى قال الرازي والآية دالة على أن

طرق الكفر والبدع كثيرة وان طريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أن طرق الجهل والكفر كثيرة وأن طريق العلم والايمان ليس الا واحدا ه (تنبيه) * القائلون بان معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول احتجوا بهذه الآية وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل الا من طريق التعليم وأجيب بان الرسول صلى الله عليه وسلم كالمنبه وأما المعرفة فهي انما تحصل من الدليل وقوله تعالى (باذن ربهم) متعلق بالاخراج أي بتوفيقه وتسهيله ويبدل من الى النور (الى صراط) أي طريق (العزيز) أي الغالب (الحميد) أي المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد وفي قوله (الله) قراءتان فقرأ نافع وابن عامر برفع الهاء وصلا وابتداء على انه مبتدأ خبره (الذي له ما في السموات وما في الارض) أي ملكا وخلقا وقرأ الباقون بالجر على أنه بدل أو عطف بيان وما بعده صفة * (تنبيه) * ذهب جماعة من المحققين الى أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالى وذهب قوم آخرون الى أنه لفظ مشتق قال الرازي والحق عندنا هو الاول لان الامة لما اجتمعت على أن قولنا لا اله الا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم وقد قال تعالى هل تعلم له سميا أي هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك يدل على أن قولنا الله اسم لذاته المخصوصة ولذا استشكل قراءة الجر اذ الترتيب الحسن أن يذكر الاسم ثم يذكر عقبه الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور وأما الخالق الله فلا يحسن وأجيب عن ذلك بانه لا يبعد أن تذكر الصفة أولا ثم يذكر الاسم ثم تذكر الصفة مرة أخرى كما يقال مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله تعالى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الارض والآية تفيد حصر ما في السموات وما في الارض له لا لغيره وذلك يدل على أنه لا مالك الا الله ولا حاكم الا الله وأنه تعالى خالق لاعمال العباد لانها حاصلة في السموات والارض فوجب القول بان أعمال العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله واذا ثبت أنها مقدورة لله وجب وقوعها بقدرة الله والا لكان العبد قد منع الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال * ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال تعالى (وويل للكافرين) أي الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الارض وعبدوا من لا يملك شيأ البتة بل هو مملوك لله تعالى لانه من جملة ما في السموات وما في الارض وويل مبتدأ وجاز الابتداء به لانه دعاء كسلام عليكم وللكافرين خبره وقوله تعالى (من عذاب شديد) أي يعذبهم في الآخرة متعلق بويل ولا يضر الفصل بالخبر ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين يستحبون) أي يختارون (الحيوة الدنيا على الآخرة) أي يؤثرونها عليها (ويصدون عن سبيل الله) أي يمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها) أي السبيل (عوجا) أي معوجة والاصل ويبغون لها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير (أولئك) أي الموصوفون بهذه الصفات (في ضلال بعيد) أي عن الحق واسناد البعد الى الضلال اسناد مجازي لان البعيد هم الضلال بابعادهم عن الباقي الى الفانية ثم ذكر ما يجري مجرى تكميل النعمة والاحسان في الوجهين بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول) أي في زمن من

يغفر ما قبله أو تبعيضية لاخراج حقوق العباد (قوله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) قال ذلك هنا وقال بعد وعلى الله فليتوكل المتوكلون لان الايمان سابق على التوكل

الازمان (الا بلسان) اى لغة (قومه) أما بالنسبة الى الرسول فلانه تعالى بين أن سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة وأما أنت يا محمد فمبعوث الى عامة البشر وكان هذا الانعام في حقك أكمل وأفضل واما بالنسبة الى عامة الخلق فهو انه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولا الا بلسان أولئك القوم (ليبين لهم) ما أمروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة لان ذلك أسهل لفهم أسرار تلك الشريعة والوقوف على حقائقها وأبعد عن الغلط والخطا ● (تنبيه) ● تمسك طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل الى غير العرب من وجهين الاول ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة الا عليهم الثاني قالوا ان قوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يدل على انه مبعوث الى العرب فقط ورد عليهم بان المراد بالقوم أهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدى كما وقع مع الانس وقع مع الجن بدليل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثم بين سبحانه وتعالى ان الاضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى (فيضل الله من يشاء) اضلاله (ويهدى من يشاء) هدايته فانه تعالى هو المضل الهادى وليس على الرسل الا التبليغ والبيان والله تعالى هو الهادى المضل يفعل ما يشاء (وهو العزيز) فى ملكه فلا راد لما عن مشيئته (الحكيم) فى صنعه فلا يهدى ولا يضل الا لحكمة ● ولما بين تعالى انه انما أرسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الارسال وفى تلك البعثة أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم لهم ليكون ذلك تصبيرا له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وارشادا له الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام فقال (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) اى العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر واظلال الجبل والمن والسلوى وسائر معجزاته (ان أخرج قومك) اى بنى اسرائيل (من الظلمات) اى الكفر والضلال (الى النور) اى الايمان والهدى ● (تنبيه) ● يجوز ان تكون أن مصدرية اى بان أخرج والباء فى بآياتنا للحال وهذه للتعدية ويجوز ان تكون مفسرة للرسالة بمعنى اى ويكون المعنى اى أخرج قومك من الظلمات اى قلنا له أخرج قومك كقوله تعالى وانطلق الملأ منهم ان امشوا (وذكرهم بايام الله) قال ابن عباس بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله فى الامم السالفة يقال فلان عالم بايام العرب اى بوقائعهم وفى المثل من سره يومه ساءه يومه قال الرازى معناه من رأى فى يوم سروره بمصرع غيره رأى غيره فى يوم آخر بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الايام والترهيب والوعيد ان يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من

(قوله لا يقدرون مما كسبوا على شئ) قدم مما كسبوا على ما بعده لان الكسب هو المقصود بالذكر بقرينة ما قبله وان كان القياس عكس ذلك كما فى البقرة لان على

العذاب ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب وقيل ايام الله
في حق موسى أن يذكر قومه بايام المحنة والبلاء حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء
العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين (ان في ذلك) اى التذكير
العظيم (لآيات) على وحدانية الله تعالى وعظمته (لكل صبار) اى كثير الصبر على الطاعة
وعن المعصية (شكور) اى كثير الشكر للنعم وتخصيص الصبور والشكور بالاعتبار
بالآيات وان كان فيها عبرة للكل لانهم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات
فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله تعالى هدى للمتقين فان الانتفاع لا يمكن حصوله الا ان
يكون صابرا شاكرا أما من لا يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة ❁ ولما أمر الله تعالى موسى ان
يذكرهم بايام الله حكى عنه انه ذكرهم بها بقوله تعالى (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة
الله عليكم) وقوله (اذ أنجاكم من آل فرعون) ظرف للنعمة بمعنى الانعام اى اذكروا انعام
الله عليكم في ذلك الوقت (يسومونكم سوء العذاب) بالاستعباد (ويذبحون) اى تذبيحا
كثيرا (أبناءكم) اى المولودين (ويستحيون) اى يستبقون (نساءكم) أحياء وذلك لقول
بعض الكهنة ان مولودا يولد في بنى اسرائيل يكون سبب زوال ملك فرعون (فان قيل) لم
ذكرته لى في سورة البقرة يذبحون بغير واو وذكره هنا مع الواو (أجيب) بانه لما حذفت
في سورة البقرة لانه تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو
وهنا أدخل الواو فيه لانه نوع آخر لانهم كانوا يعذبونهم بانواع من العذاب غير التذبيح فليس
تفسيرا للعذاب (وفي ذلكم بلاء) اى انعام وابتلاء (من ربكم عظيم) لان الابتلاء يكون ابتلاء
بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فان قيل) تذبيح الابناء فيه
بلاء وأما استحياء النساء فكيف فيه ابتلاء (أجيب) بانهم كانوا يستحيونهن ويتركونهن
تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك ابتلاء وقوله تعالى (واذ) اى واذكروا اذ (تأذن ربكم) فهو
أيضا من كلام موسى عليه السلام وتأذن بمعنى أذن كتوعد وأوعد غير انه أبلغ لما في التفعل
من معنى التكلف والمبالغة (لئن شكرتم) يا بنى اسرائيل نعمتى بالتوحيد والطاعة
(لأزيدنكم) نعمة الى نعمة ولاضاعفن لكم ما آتيتكم فان الشكر قيد الموجود وصيد
المفقود والشكر عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه
الطريقة ثم قد يرتقى العبد عن تلك الحالة الى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى
النعمة ولا شك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته وأما الزيادة
في النعمة فهى على قسمين روحانية وجسمانية فالاولى هى ان الشاكر يكون أبدا في مطالعة
أقسام نعمة الله تعالى وأنواع فضله وكرمه وأما الثانية فلان الاستقراء دل على ان كل من
كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله اليه أكثر نسأل الله تعالى القيام بواجب
شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه ويفعل ذلك باهلنا وأحبابنا ❁ ثم انه تعالى
لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله بقوله تعالى (ولئن كفرتم) اى جحدتم
النعمة بالكفر والمعصية لاعذبنكم دل عليه (ان عذابى لشديد) اى لمن كفر نعمتى ولا
يشكرها ومن عادة اكرم الاكرمين ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد ❁ ولما بين موسى ان

شىء لا يقدرون ربما كانوا يصنعون الشىء (قوله وأنزل من السماء ماء) قاله هنا بدون لكم وقاله في النحل اكتفاء هنا بذكر لكم بذكره بعد لا سيما وقد ذكر مكررا (قوله رب انهن

الاشتغال

الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات فى الدنيا والآخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات فى الدنيا والآخرة بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا الى صاحب الشكر وصاحب الكفران وأما المعبود والمشكور فانه متعال عن ان ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران فلا جرم قال تعالى (وقال موسى ان تكفروا أنتم) يابنى اسرائيل (ومن فى الارض) وأكده بقوله تعالى (جميعا) اى من الثقلين فانما ضرر ذلك يعود على أنفسكم وحرمتموها الخير كله (فان الله لغنى) عن جميع خلقه فلا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين (حميد) اى محمود فى جميع أفعاله لانه فيها متفضل عادل وقوله تعالى (ألم يأتكم) يابنى اسرائيل (نبأ) اى خبر (الذين من قبلكم قوم نوح) وكانوا اهل الارض (و) نبأ (عاد) قوم هود وكانوا أشد الناس أبدانا (و) نبأ (ثمود) قوم صالح وكانوا أقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور يحتمل ان يكون من كلام موسى أو كلاما مبتدأ من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم وهو استفهام تقرير وقوله تعالى (والذين من بعدهم) اى بعد هؤلاء الامم الثلاثة (لا يعلمهم الا الله) فيه قولان الاول ان يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم الا الله تعالى لان المذكور فى القرآن جملة فاما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل والقول الثانى ان المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم أصلا ولا يعلمهم الا الله ولذلك كان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى انهم يدعون علم الانساب الى آدم عليه السلام وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن عباس انه قال بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ونظير هذه الآية قوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا وقوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعنه صلى الله عليه وسلم انه كان فى انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد وقال تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق قال الرازى والقول الثانى أقرب ولما (جاءتهم) اى هؤلاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم (رسلهم بالبينات) اى الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات أتوا بامور رأوها ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (فردوا) اى الامم (أيديهم فى أفواههم) وفى ذلك احتمالات الاول ان الكفار ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ والثانى انهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فيضع يده على فيه والثالث أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك الى الانبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث والرابع أنهم أشاروا بايديهم الى ألسنتهم والى ما تكلموا به من قولهم الكفر كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) اى على زعمكم اى ان هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره اقناطا لهم من التصديق هذا هو الامر الثانى الذى أتوا به وقيل الضمير فى ردوا راجع للرسل عليهم السلام وفيه وجهان أحدهما ان الكفار أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوا ويقطعوا الكلام والثانى ان الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدى أنفسهم على أفواه أنفسهم

(الناس) أضللن كثيرا من الناس) ان قلت كيف جعل الاصنام مضلة والاضلال ضرر وقد نفى عنهم الضرر بقوله ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم (قلت) نسبة الاضلال

فان من ذكر كلاما عند قوم وأنكروه وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يده نفسه على فم نفسه وغرضه ان يعرفهم انه لا يعود الى ذلك الكلام البتة والامر الثالث قولهم (وانا لفي شك مما) اى شئ (تدعوننا) أيها الرسل (اليه) اى من الدين (مريب) اى موجب الريبة اى موقع في الريبة والشبهة والريبة قلق النفس وان لا تطمئن الى الامر الذى يشك فيه (فان قيل) انهم قالوا أولا انا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفي شك والشك دون الكفر (أجيب) بانهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كانهم حصل لهم شبهة توجب الشك لهم فقالوا ان لم ندع الجزم واليقين في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل الى الاعتراف بنبوتكم ولما قال هؤلاء الكفار للرسل ذلك (قالت) لهم (رسلهم) مجيبين (أفي الله شك) اى هل تشكون في الله وهو استفهام انكار اى لا شك في توحيده للدلائل الظاهرة عليه منها قوله تعالى (فاطر) اى خالق (السموات والارض) اى وما فيهما من الانفس والارواح والارزاق وقرأ أبو عمرو رسلهم هنا وفيما في بابه ثم رسلهم باسكان السين والباقون بالرفع ولما أقاموا الدليل على وجود الله تعالى وصفوه بكمال الرحمة قولهم (يدعوكم) اى الى الايمان بيعثنا وقولهم (ليغفر لكم) اللام متعلقة بيدعو اى لاجل غفران ذنوبكم كقوله

دعوت لما نابني مسورا ● فلبى فلبي يدى مسور

ويجوز أن تكون معدية كقوله دعوتك لزيد والتقدير يدعوكم الى غفران ذنوبكم وقوله (من ذنوبكم) قال السيوطى من زائدة فان الاسلام يغفر به ما قبله أو تبعيضية لاخراج حقوق العباد اه اى والمغفور لهم ما بينهم وبين الله تعالى قال الرازى والعاقل لا يجوزه المصير الى كلمة من كلام الله تعالى بانها زائدة من غير ضرورة اه وقال في الكشاف ما علمته جاء هكذا الا في خطاب الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال في خطاب المؤمنين ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يوقفك عليه الاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين وان لا يسوى بين الفريقين في المعاد اه قال الرازى وأما قول الكشاف فهو من باب الطامات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هذا الكلام فاسدا (ويؤخركم) اى ولا يعاجلكم فعل من تهددون من الملوك في المعاجلة في الاهلاك لمن خالفهم بل يؤخرهم (الى أجل مسمى) اى الى وقت قد سماه وبين مقداره يبلغكموه ان أنتم آمنتم به والا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ان أنتم ما آمنتم (فان قيل) أليس قال تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فكيف قال هنا ويؤخركم الى أجل مسمى (أجيب) بان الاجل على قسمين معلق ومبرم (قالوا) اى الامم مجيبين للرسل (ان) اى ما (أنتم) أيها الرسل (الا بشر مثلنا) اى لا فضل لكم علينا فلم تختصون بالنبوة دوننا ولو ارسل الله تعالى الى البشر رسلا لجعلهم من جنس اى من البشر في زعم القائلين أفضل وقول الكشاف وهم الملائكة جار على مذهبه (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) اى ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا

بسلطان

اليهما مجاز من باب نسبة الشيء الى سببه كما يقال فتنتهم الدنيا ودواء سهل فهي سبب الاضلال وفاعله حقيقة هو الله (قوله ربنا اغفر لي ولوالدي) ان قلت كيف استغفر ابراهيم عليه

بسلطان مبين) أى بحجة ظاهرة على صدقكم * ولما حكى الله تعالى عن الكفار شبهاتهم فى الطعن فى النبوة حكى عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى (قالت لهم رسلهم) مجيبين لهم (ان) أى ما (نحن الا بشر مثلكم) كما قلتم فسلموا أن الامر كذلك لكنهم بينوا أن التماثل فى البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوة بقولهم (ولكن الله يمن) أى يتفضل (على من يشاء من عباده) بالنبوة والرسالة فيصطفى من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته (وما كان) أى ما صح واستقام (لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله) أى الا بأمره لانا عبيد مربوبون فليس الينا الاتيان بالآيات ولا تستبد به استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه وانما هو أمر متعلق بمشيئة الله تعالى فله أن يخص كل نبى بنوع من الآيات (وعلى الله فليتوكل) بأمر حتم (المؤمنون) أى بثوابه فلا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فانا لو كنا على الله واعتمادنا على فضل الله فان الروح متى كانت مشرقة بالمعارف الالهية مشرقة بأضواء علم الغيب قلما تبالى بالاحوال الجسمانية وقلما تقيم لها وزنا فى حالتى السراء والضراء فلهذا لو كانوا على الله وتوكلوا على فضله وقطعوا أطماعهم عن سواه وهو الامر للاشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا ألا ترى الى قولهم (وما لنا ألا نتوكل على الله) أى أى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) أى وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يقبح عليه أن يرجع فى أمر من الامور الى غير الحق وفى هذه الآية دلالة على أنه تعالى يعصم أولياءه والمخلصين فى عبوديته عن كيد أعدائهم ومكرهم وقرأ أبو عمرو بسكون الباء والباقون بالرفع وكذلك لرسلهم سكن أبو عمرو السين ورفعها الباقون ثم قالوا (ولنصبرن على ما آذيتمونا) فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لابد وأن يصير غالبا قاهرا والباطل لابد وأن يصير مغلوبا مقهورا ثم قالوا (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فان قيل أى فرق بين التوكلين (أجيب) بان الاول لاستحداث التوكل والثانى طلب دوامه أى فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن ايمانهم * ولما حكى الله تعالى عن الانبياء عليهم السلام انهم اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة بقوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم) مستهينين لمن قصروا التجاءهم عليه (لنخرجنكم من أرضنا) أى التى لنا الآن الغلبة عليها (أو لتعودن فى ملتنا) أى حلفوا ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل واما عودكم الى ملتنا أى ديننا (فان قيل) قد يفهم هذا بظاهره أنهم كانوا على ملتهم قبل ذلك (أجيب) بان العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد يقولون ما عدت أراه عاد لا يكلمنى ما عاد لفلان مال وقد أجمعت الامة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤوا على التوحيد لا يعرفون غيره ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه فغلبوا الجماعات على الواحد وقيل أو لتعودن فى ملتنا أى الى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عنه ذكر ما نسبه وعدم التعرض له بالطعن والقدح * ولما ذكر

السلام لوالديه وهما كافران والاستغفار للكفار حرام (قال) المعنى واغفر لوالدى ان اسلما أو أراد بهما آدم وحواء (قوله ولا تحسبن الله غافلا) عما يعمل الظالمون

الكفار هذا الكلام قال تعالى (فأوحى إليهم) أي الرسل (ربهم) وقوله تعالى (لنهلكن الظالمين) أي الكافرين حكاية تقتضي إضمار القول أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه (ولنسكننكم الأرض) أي أرضهم (من بعدهم) أي بعد هلاكهم ونظيره قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها وقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم قال الزمخشري وعن النبي صلى الله عليه وسلم من آذى جاره ورثه الله داره قال ولقد عاينت هذا في مدة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا فيها ويؤذيني فيه فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته فنظرت يوما إلى أبناء خالي يترددون فيها ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به وسجدنا شكرا لله تعالى (ذلك) أي النصر وإيراث الأرض (لمن خاف مقامي) أي موقفي وهو موقف الحساب لأن ذلك الموقف موقف الله الذي يوقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره وأما من خاف مقام ربه وقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقيل ذلك لمن خاف مقامي أي خافني فالمقام مقحم مثل ما يقال سلام على المجلس العالي والمراد السلام على فلان (وخاف وعيد) قال ابن عباس ما أوعدت من العذاب وهذا يدل على أن الخوف من الله غير الخوف من وعيده لأن العطف يقتضي المغايرة وفي تفسير قوله تعالى (واستفتحوا) قولان أحدهما طلب الفتح أي واستنصروا الله تعالى على أعدائهم وهو كقوله تعالى إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثاني الفتح الحكم والقضاء أي واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم وهو مأخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فعلى القول الأول المستفتح هم الرسل لأنهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من إيمانهم قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس على أموالهم وقال لوط انصرني على القوم المفسدين وعلى القول الثاني قال الرازي فالأولى أن يكون المستفتح هم الأمم وذلك أنهم قالوا اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين (وخاب) أي خسر وهلك (كل جبار) أي متكبر عن طاعة الله وقيل هو الذي لا يرى فوقه أحدا وقيل هو المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه واختلفوا في قوله تعالى (عنيد) فقال مجاهد معاند للحق ومجانبه وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذي يأبى أن يقول لا إله إلا الله وقيل هو المعجب بما عنده ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور الأول قوله تعالى (من ورائه) أي أمامه (جهنم) أي هو صائر إليها قال أبو عبيدة هو من الأضداد وقال الشاعر

عسى الكرب الذي أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضا الموت وراء كل أحد وقال تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا أي أمامهم وقال ثعلب هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك أم قدامك فيصح إطلاق لفظ الوراء على خلف وقدام وقال ابن الأنباري وراء بمعنى بعد قال الشاعر

(إن قلت) كيف يخشى النبي صلى الله عليه وسلم شيئا ولا نعلم بذلك مع أنه معصوم وهو أعلم الخلق بالله (قلت) المراد دوام خشيته عن ذلك كقوله تعالى ولا تكونن من المشركين وقوله ولا تدع مع الله إلها آخر

* وليس وراءه الله للخلق مهرب * ومعنى الآية على هذا ان الكافر بعد الخيبة يدخل جهنم الامر الثاني ماذكره تعالى بقوله (ويسقى) أي في جهنم (من ماء صديد) وهو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطا بالقيح والدم جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر (فان قيل) علام عطف ويسقى (أجيب) بانه عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد (يتجرعه) اى يتكلف أن يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) أي ولا يقدر على ابتلاعه قال الزمخشري دخل كاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها (فان قيل) كيف الجمع على هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه (أجيب) بجوابين أحدهما أن المعنى ولا يسيغ جميعه كأنه يتجرع البعض وما أساغ الجميع والثاني ان الدليل الذي ذكرناه دل على وصول ذلك الشراب الى جوف ذلك الكافر لان ذلك ليس باساغة لان الاساغة في اللغة اجراء الشراب في الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أي لا يستطيبه ولا يشربه شربا مرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة الامر الثالث ماذكره تعالى بقوله تعالى (ويأتيه الموت) أي أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب (من كل مكان) أي من سائر الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وما هو بميت) فيستريح وقال ابن جريج تتعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة الامر الرابع ماذكره تعالى بقوله تعالى (ومن ورائه) أي ومن بين يديه بعد ذلك العذاب (عذاب غليظ) أي شديد كل وقت يستقبله أشد مما قبله وقيل هو الخلود في النار وقيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد ولما ذكر تعالى أنواع عذابهم بين بعده أن سائر أعمالهم تصير باطلة ضائعة وذلك هو الخسران الشديد بقوله تعالى (مثل) اى صفة (الذين كفروا بربهم أعمالهم) اى الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك أسير واقراء ضيف وبر والدين في عدم الانتفاع بها (كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) اى شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثورا لا يقدر عليه كما قال تعالى (لا يقدرون) اى الكفار يوم الجزاء (مما كسبوا) اى عملوا في الدنيا (على شيء) اى لا يجدون له ثوابا لفقد شرطه وهو الايمان وقرأ نافع الرياح بالجمع والباقون بالافراد (ذلك) اشارة الى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون (هو الضلال البعيد) اى الخسران الكبير لان أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها * (تنبيه) * في ارتفاع قوله تعالى مثل أوجه أحدها وهو مذهب سيبويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وتكون الجملة من قوله تعالى أعمالهم كرماد مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد والثاني وهو مذهب الفراء التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله تعالى أعمالهم ومثله قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة الثالث أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد كقوله صفة زيد

ونظيره في الامر قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وهو مجاز معناه لا تغفلوا عن الايمان ولا تكونوا من الظالمين أو نهي عن لوازم الغفلة لغير النبي صلى الله عليه

عرضه مصون وماله مبذول الرابع أن تكون اعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل اعمالهم وقوله تعالى كرماد هو الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى (ألم تر) اى تنظر خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل واحد من الكفرة على الالتفات (أن الله خلق السموات) على عظمها وارتفاعها (والارض) على تباعد أقطارها واتساعها وقوله تعالى (بالحق) أى بالحكمة والوجه الذى يحق أن تخلق عليه متعلق بخلق وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وخفض الارض والباقون بغير ألف بعد الخاء وفتح اللام والقاف ونصب الارض (ان يشأ يذهبكم) أيها الناس (ويأت) بدلكم (بخلق جديد) أطوع منكم رتب ذلك على كونه خالق السموات والارض استدلالا به عليه فان من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم قدر أن يبدلهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه كما قال تعالى (وما ذلك على الله بعزيز) أى بممتنع فانه تعالى قادر بذاته ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه كان حقيقا أن يؤمن به ويعبد رجاء ثوابه وخوفا من عقابه يوم الجزاء ولما ذكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفار وذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية مجادلتهم عند تلك اتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم بقوله تعالى (وبرزوا) أى الخلائق من قبورهم (لله جميعا) والتعبير فيه وفيما يأتى بالماضى وان كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه لان كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود ونظيره ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار * (تنبيه) * البروز فى اللغة الظهور بعد الاستتار وهو فى حق الله تعالى محال فلا بد من تأويله وهو من وجهين الاول أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله تعالى لا يخفى عليه خافية الثانى انهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله تعالى وحكمه * ثم حكى الله تعالى عنهم أن الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى (فقال الضعفاء) اى الاتباع جمع ضعيف يريد به ضعفاء الرأى (للذين استكبروا) اى المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه فاستغووهم به حتى تكبروا على الرسل وقوله تعالى (انا كنا لكم تبعا) يصح أن يكون مصدر التبع به للمبالغة أو على اضمار مضاف وأن يكون جمع تابع أى تابعين لكم فى تكذيب الرسل فكنتم سبب ضلالنا وقد جرت عادة الاكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم (فهل أنتم) اى فى هذا اليوم (مغنون) اى دافعون (عنا من عذاب الله) اى من انتقامه (من شئ) فان قيل فما الفرق بين من فى عذاب الله وبين من فى شئ (اجيب) بان الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل هل أنتم مغنون عنا بعض الشئ الذى هو من بعض عذاب الله ويجوز أن يكونا للتبعيض معا بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شئ هو بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا انهم (قالوا لو هدانا الله) اى الذى له صفات الكمال (لهديناكم) اى لو أرشدنا الله تعالى لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكنه لم يهدنا فضللنا

وسلم عن حسبه نعمة لاجله بمعانه

* (سورة الحجر) *

(قوله وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون) ان قلت كيف وصفوه بالجنون مع قولهم نزل عليه

وكنتم لنا تبعا فاضللناكم ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا (سواء علينا) أى نحن وأنتم (أجزعنا أم صبرنا) أى مستو علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه (ما لنا من محيص) أى منجى ومهرب مما نحن فيه من العقاب *(تنبيه)* يحتمل ان يكون هذا من كلام المتبوعين وان يكون كلام الفريقين ويؤيد الثانى ما روى انهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون ذلك وقال محمد بن كعب القرظى بلغنى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة عليهم ادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما أيسوا مما عنده قال بعضهم لبعض ذلك * ولما ذكر تعالى المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس أردفها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين اتباعه بقوله تعالى (وقال الشيطان) الذى هو أول المتبوعين فى الضلال ورأس المضلين والمستكبرين (لما قضى الامر) أى أحكم وفرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر من نار فيجتمع أهل النار اليه يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله تعالى بقوله (ان الله وعدكم وعد الحق) أى بالبعث والجزاء على الاعمال فصدقكم (ووعدتكم) أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب (فأخلفتكم) أى الوعد فلم أقل شيأ الا كان زيفا فاتبعتمونى مع كونى عدوكم وتركتم ربكم وهو وليكم *(تنبيه)* فى الآية اضمار من وجهين الاول ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم كما تقدم تقديره ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا يشاهدونه اوليس وراء العيان بيان ولانه ذكر فى وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى الثانى أن قوله ووعدتكم فأخلفتكم الوعد يقتضى مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم به والتقدير ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ولما بين غروره بين سهولة اغترارهم زيادة فى تنديمهم فقال (وما كان لى عليكم من سلطان) أى سلطان فى مدة اى قوة وقدرة أقهركم على الكفر والمعاصى وألجئكم على متابعتى وقوله (الا أن دعوتكم) استثناء منقطع قال البصريون لان الدعاء ليس من جنس السلطان فمعناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لى) محكمين الشهوات لان النفس تدعو الى هذه الاحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الاخروية والكمالات النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والآخرة خير وأبقى قال الرازى وعندى انه يمكن أن يقال كلمة الا ههنا استثناء حقيقى لان قدرة الانسان على حمل الغير على عمل من الاعمال تارة تكون بالقهر والقسر وتارة تكون بتقوية الداعية فى قلبه بالقاء الوساوس اليه فهذا نوع من أنواع التسليط اه ثم قال لهم (فلا تلومونى) أى لانه ما كان منى الا الدعاء والقاء الوسوسة (ولوموا

الذكر أى القرآن المستم
ذلك اعترافهم بنبوتنا
(قالت) انما قالوه استهزا
وسخرية لا اعترافا كما قال
فرعون لقومه ان
رسولكم الذى ارسل اليـ
لمجنون اوفيه حذف اى

أنفسكم) لانكم سمعتم دلائل الله تعالى وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا الى ولا تسمعوا قولى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى باجابتى ومتابعتى من غير حجة ولا دليل (فان قيل) لم قال الشيطان فلا تلومونى وهو ملوم بسبب اقدامه على تلك الحالة والوسوسة الباطلة (أجيب) بانه أراد لا تلومونى على فعلكم ولوموا أنفسكم عليه لانكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم * ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان انه قال (ما أنا بمصرخكم) أى بمغيثكم فيما يخصكم من العذاب فازيل صراخكم منه (وما أنتم بمصرخى) أى بمغيثى فيما يخصنى منه وقرأ ما عدا حمزة بفتح الياء مع التشديد وقرأ حمزة بكسر الياء مع التشديد على الاصل فى التقاء الساكنين لان ياء الاعراب ساكنة وياء المتكلم أصلها السكون فلما التقيا كسرت لالتقاء الساكنين قال البيضاوى وهو أصل مرفوض فى مثله لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع حركة ياء الاضافة اه فقوله أصل مرفوض أى متروك عند النحاة والا فهو قراءة متواترة عند القراء فيجب المصير اليه الانها وردت من رب العالمين على لسان سيد المرسلين وقول القراء واماما من وهم القراء فانه قل من سلم منهم من الوهم ممنوع فقد قال أبو حيان هى قراءة متواترة نقلها السلف واتفق آثارهم فيها الخلاف فلا يجوز أن يقال فيها انها خطأ أو قبيحة أو رديئة وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكن قل استعمالها ونص قطرب على أنها لغة فى بنى يربوع ونص على أنها صواب أبو عمرو بن العلاء الماثل عنها والقاسم بن معن من رؤساء الكوفيين قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال (انى كفرت بما أشركتمون من قبل) أى كفرت اليوم باشراككم اياى من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراككم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم روى البغوى بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة يقول عيسى ذلك النبى الامى فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ٣ ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى الى ظفر قدمى ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير الشيطان هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فانك أضللتنا فيقوم فيثور مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم لهم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية قال فى الكشاف وقوله (ان الظالمين) أى الكافرين (لهم عذاب أليم) أى مؤلم من كلام الله تعالى ويحتمل أن يكون من جملة قول ابليس وانما حكى الله تعالى ما سيقول فى ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لابد لهم من الوصول اليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول فيه الشيطان ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى شرح حال الاشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) وكونها دائمة أشير اليها

بقوله

يا أيها الذى نزل عليه الذكر (قوله ونحن الوارثون) * ان قلت كيف قال ذلك والوارث من يتجدد له الملك بعد فناء المورث والله تعالى لم يتجدد له ملك لانه لم يزل

٣ قوله فيثور مجلسى من أطيب وقوله الآتى فيثور مجلسه أنتن هكذا بالاصول التى بايدينا وليحرر لفظ الحديث اه مصححه

بقوله تعالى (خالدين فيها) وهو حال مقدرة والتعظيم حصل لهم من وجهين أحدهما قوله تعالى (باذن ربهم) لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله تعالى وانعاما والثانى قوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) لان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب يحييهم أيضا بهذه التحية كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات الدنيا وحسراتها وفنون آلامها واسقامها وأنواع همومها وغمومها لان السلام مشتق من السلامة * ولما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال الاشقياء وأحوال السعداء ذكر مثلا يبين الحال فى حكم هذين القسمين بقوله تعالى (ألم تر) اى تنظر والخطاب يحتمل أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره وأن يكون لكل فرد من الناس اى ألم تر أيها الانسان (كيف ضرب الله) اى المحيط بكل شئ علما وقدرة (مثلا) سيره بحيث يعم نفعه والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالاول ثم بينه بقوله تعالى (كلمة طيبة) قال ابن عباس وأكثر المفسرين هى لا اله الا الله (كشجرة طيبة) قال ابن مسعود وأنس هى النخلة وعن ابن عباس هى شجرة فى الجنة وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبرونى ماهى قال عبد الله فوقع الناس فى شجر البوادى وكنت صبيا فوقع فى قلبى أنها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم وروى فتى فى مكان عمر فاستحييت فقال له عمر يا بنى لو كنت قلتها لكانت أحب الى من حمر النعم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انها النخلة قيل الحكمة فى تشبيه الانسان بالنخلة من بين سائر الاشجار أن النخلة أشبه به من حيث انها اذا قطع رأسها يبست وسائر الاشجار يتشعب من جوانبها بعد قطع رأسها وأنها تشبه الانسان بحيث انها لا تحمل الا باللقاح لانها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكرموا عمتكم قيل ومن عمتنا قال النخلة (أصلها ثابت) اى فى الارض (وفرعها) اى غصنها (فى السماء) اى فى جهة العلو والصعود ولم يرد المظلة كقولك فى الجبل طويل فى السماء تريد ارتفاعه وشموخه (تؤتى) اى تعطى (أكلها) اى ثمرها (كل حين باذن ربها) اى بارادته والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا فى مقداره هذا فقال مجاهد الحين هنا سنة كاملة لان النخلة تثمر فى كل سنة مرة وقال قتادة ستة أشهر يعنى من حين طلعها الى وقت صرامها وقال الربيع كل حين يعنى كل غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس الى حين الطرى الرطب فاكلها دائم فى كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة فى تمثيل كلمة الاخلاص بالشجرة لان الايمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت أصل هذه الشجرة فى الارض وعمله يصعد الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فكذلك فرع هذه عال فى السماء وتنال بركته وثوابه كل وقت والمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السماء وجاءت بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ولان الشجرة لا تكون شجرة الا بثلاثة أشياء عرق راسخ واصل قائم وفرع عال كذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء تصديق القلب وقول

الوارث
مالك العالم (قلت)
لغة هو الباقى بعد دفنا
غيره وان لم يتجدد له ملك
ففى الآية وتحن الباقون
بعد فناء الخلائق وان
الخلائق لما كانوا
يعتقدون أنهم مالكون

اللسان وعمل بالابدان ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل اقبل على تدبر ليعلم المراد منه فيلزم فقال (ويضرب الله) اى الذى له الاحاطة الكاملة (الامثال للناس لعلهم يتذكرون) اى يتعظون فان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى العقلية فيحصل الفهم التام والوصول الى المطلوب ولما ذكر مثل حال السعداء اتبعه بمثل حال الاعداء فقال (ومثل كلمة خبيثة) هى كلمة الكفر (كشجرة خبيثة) هى الحنظل وقيل الثوم وقيل الكشوث بمثلثة فى آخره قال الجوهرى نبت يتعلق باغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق فى الارض قال الشاعر

هى الكشوث فلا أصل ولا ورق ● ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

وقيل شجرة الشوك (اجتثت) اى استؤصلت (من فوق الارض) اى عروقها قريبة منه (ما لها من قرار) اى اصل ولا عرق فكذلك الكفر بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة وعن عبادة انه قيل لبعض العلماء ما تقول فى كلمة خبيثة فقال ما اعلم لها فى الارض مستقرا ولا فى السماء مصعدا الا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها يوم القيامة ● ولما وصف الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة اخبر بقوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) انه تعالى يثبتهم بها (فى الحيوة الدنيا) اى فى القبر وقيل قبل الموت (وفى الآخرة) اى يوم القيامة عند البعث والحساب وقيل فى القبر على القول الثانى ● ولما وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة اخبر بقوله تعالى (ويضل الله الظالمين) اى الكفار انه تعالى لا يهديهم للجواب الصواب (ويفعل الله ما يشاء) اى ان شاء هدى وان شاء أضل لا اعتراض عليه روى عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم اذا سئل فى القبر يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وروى عن انس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه يسمع قرع نعالهم اتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم فاما المؤمن فيقول اشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا أنه يفسح له فى قبره ثم رجع الى حديث انس قال وأما المنافق او الكافر فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول لا ادرى كنت اقول ما يقول الناس فيه فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من دفنها وانصرف الناس قال انه الآن يسمع خفق نعالكم اتاه منكر ونكير أعينهما مثل قدور النحاس وانيابهما مثل صياصى البقر واصواتهما مثل الرعد فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن نبيه فان كان ممن يعبد الله تعالى قال كنت أعبد الله ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة فيقال له على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى الجنة ويوسع له فى حفرته وان كان من أهل الشك قال لا ادرى

ويسمون بذلك ايضا مجازا
ثم اذا ماتوا خلصت الاملاك
كلها لله تعالى عن ذلك
التعلق فهو بهذا الاعتبار
سمى وارثا ونظير ذلك قوله
تعالى لمن الملك اليوم
والملك له ازلى وابدى

سمعت الناس يقولون شيأ فقلته فيقال له على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى النار ويسلط عليه عقارب وتنانين لو نفخ احدهم فى الدنيا ما انبتت شيأ فتنهشه وتؤمر الارض فتنضم عليه حتى تختلف اضلاعه فنسأل الله الثبات لنا ولوالدينا ولاحبابنا فى الدنيا والآخرة انه كريم جواد ثم انه تعالى عاد الى وصف الكافرين فقال (ألم تر) اى تنظر وفى المخاطب ما تقدم (الى الذين بدلوا) والتبديل جعل الشئ مكان غيره (نعمت الله) اى التى اسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق وغير ذلك بان جعلوا مكان شكرها (كفرا) وهم يدعون أنهم اشكر الناس للاحسان واعلاهم همما فى الوفاء وابعدهم عن الجفاء (وأحلوا) اى انزلوا (قومهم) اى الذين تابعوهم فى الكفر باضلالهم اياهم (دار البوار) اى الهلاك مع ادعائهم انهم أذب الناس عن الجار فضلا عن الاهل روى البخارى فى التفسير انهم كفار اهل مكة وقوله تعالى (جهنم) عطف بيان (يصلونها) اى يدخلونها (وبئس القرار) اى المقرهى (وجعلوا لله) اى الذين يعلمون انه لا شريك له فى خلقهم ورزقهم لان له الكمال كله (أندادا) اى شركاء وقوله تعالى (ليضلوا عن سبيله) اى دين الاسلام فيه قراءتان قرأ ابن كثير وابو عمرو بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من اضل يضل وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم فى اتخاذ الانداد لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض * ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى تهديدا لهم فانهم لا يشكون فى قولك وان عاندوا (تمتعوا) بدنيا كم قليلا (فان مصيركم) اى مرجعكم (الى النار) فى الآخرة ولما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة فى المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى (قل لعبادى) فوصفهم باشرف اوصافهم واضافهم الى ضميره الشريف تحبيبا لهم فيه ثم اتبع هذا الوصف ما يناسبه من اذعانهم اسعدهم بقوله تعالى (الذين آمنوا) اى اوجدوا هذا الوصف (يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم) فيه وجهان احدهما يصح أن يكون جوابا للامر محذوف تقديره قل لعبادى الذين آمنوا اقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا والثانى يصح أن يكون هو أمرا مقولا محذوفا منه اللام اى ليقيموا ليصح تعلق القول بهما وانما حسن ذلك ههنا ولم يحسن فى قوله

محمد تفد نفسك كل نفس * اذا ما خفت من شئ تبالا

اى تبالى به اى تكترث به لدلالة قل عليه (سرا وعلانية) اى ينفقون اموالهم فى حال السر والعلانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة *(تنبيه)* فى انتصاب سرا وعلانية وجوه احدها أن يكون على الحال اى ذوى سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين والثانى على الظرف اى وقت سر وعلانية وثالثها على المصدر اى انفاق سر وانفاق علانية * ولما أمرهم الله تعالى باقامة الصلاة والانفاق أشار الى عدم التهاون بذلك بقوله عز وجل (من قبل أن يأتى يوم) اى عظيم جدا ليس كشئ من الايام التى تعرفونها (لا بيع فيه) اى فيشترى المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه (ولا خلال) اى مخالة اى صداقة تنفع فى ذلك اليوم قال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة فكأنه تعالى يقول

(قوله وان عليك اللعنة) قال ذلك هنا بتعريف الجنس ليناسب ما قبله من التعبير بالجنس فى قوله ولقد خلقنا الانسان والجان خلقناه فقصد الملائكة وقال فى ص وان

انفقوا أموالكم فى الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق فى مثل هذا اليوم الذى لا يحصل فيه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة (فان قيل) كيف نفى الله تعالى الخالة فى هاتين الآيتين مع انه تعالى اثبتها فى قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (اجيب) بان الآية الدالة على نفى الخالة محمولة على نفى الخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس والآية الدالة على حصول الخالة محمولة على حصول الخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى * ولما طال الكلام فى وصف احوال السعداء واحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى فى حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وفى حصول الشقاوة فقدان ذلك ختم تعالى احوال الفريقين بقوله تعالى (الله) اى الملك الاعلى المحيط بكل شئ ثم اتبعه بالدلائل الدالة على وجوده وكمال علمه وقدرته وذكر هنا عشرة انواع من الدلائل اولها قوله تعالى (الذى خلق السموات) وثانيها قوله تعالى (والارض) وهما اكبر خلقا منكم واعظم شانا وثالثها قوله تعالى (وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم) تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس * (تنبيه) * الله مبتدا وخبره الذى خلق ورزقا مفعول لاخرج ومن الثمرات بيان له حال منه ويصح أن يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقا من السمو والارتفاع وأن يكون الجرم المعهود فينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض وقد ذكرت ذلك فى سورة البقرة وفى غيرها ورابعها قوله تعالى (وسخر لكم الفلك) أى السفن (لتجرى فى البحر) أى بالركوب والحمل (بامره) أى بمشيئته وارادته وخامسها قوله تعالى (وسخر لكم الانهار) اى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم لان ماء البحر لا ينتفع به فى سقى الزروع والثمرات ولا فى الشراب فكان ذلك نعمة من الله تعالى وسادسها وسابعها قوله تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر) حال كونهما (دائبين) اى جاريين فى فلكهما لا يفتران فى سيرهما وانارتهما وتأثيرهما فى انارة الظلمة واصلاح النبات والحيوان الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها والشمس سلطانها النهار وبها تعرف فصول السنة وهى افضل من القمر لكثرة نفعها والقمر سلطانه الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله تعالى وانعامه وثامنها وتاسعها قوله تعالى (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة والزيادة والنقصان وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار ليبتغوا من فضله وعاشرها قوله تعالى (وآتاكم من كل ما سألتموه) أى مما أنتم محتاجون اليه على حسب مصالحكم فانتم سألتموه بالقوة * ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما أنعم به على عباده بين أن العبد عاجز عن حصرها وعدها بقوله تعالى (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) أى لا تضبطوا عددها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا أرادوا أن يعدوها على الاجمال واما على التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه الا الله تعالى (ان الانسان) أى الكافر وقال ابن عباس يريد أبا جهل (لظلوم) أى كثير الظلم لنفسه (كفار) أى كفور لنعم ربه وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع (فان قيل) لم قال تعالى هنا ان الانسان لظلوم كفار وفى النحل ان الله لغفور رحيم (أجيب) بانه تعالى يقول للعبد اذا حصلت لك النعم

عليك اعنى بالاضافة لمناسب ماقبله من قوله لما خلقت بيدى (قوله ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا) قاله هنا بزيادة اخوانا لانه نزل فى اصحاب رسول الله صلى الله

الكثيرة فانت الذى أخذتها وأنا الذى أعطيتها فصل لان عند أخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولى وصفان عند اعطائها وهما كونى غفورا رحيما والمقصود كأنه يقول ان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت كفارا فأنا رحيم أعلم عجزك وتقصيرك فلا أقابل تقصيرك الا بالتوفير ولا أجازى جزاءك الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة ولما بين الله تعالى بالدلائل المتقدمة أن لا معبود الا الله سبحانه وتعالى وانه لا يجوز عبادة غير الله البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغة فى انكاره عبادة الاوثان بقوله تعالى (واذ) أى واذكر لهم مذ كرا بايام الله خبر ابراهيم اذ (قال ابراهيم رب) أى المحسن الى باجابة دعائى (اجعل هذا البلد) أى مكة (آمنا) أى ذا أمن وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه (فان قيل) أى فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد امنا (أجيب) بان المسؤل فى الاول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون وفى الثانى أن يزيل عنها الصفة التى كانت حاصلة لها وهى الخوف و يجعل لها تلك الصفة وهى الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (فان قيل) كيف أجاب الله تعالى دعاءه مع ان جماعة من الجبابرة قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها (أجيب) بجوابين أحدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر أحد على اخراب مكة (فان قيل) يرد على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة (أجيب) بان قوله تعالى اجعل هذا البلد يعنى الى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا فهو عام مخصوص بقصة ذى السويقتين فلا تعارض بين النصين والجواب الثانى أن المراد جعل أهلها آمنين كقوله تعالى واسئل القرية أى أهلها وهذا الجواب عليه أكثر المفسرين وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الامن فى بلدهم كما أخبر الله تعالى بقوله و يتخطف الناس من حولهم وأهل مكة آمنون من ذلك حتى ان من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله وحتى ان الوحوش اذا كانت خارجة الحرم استوحشت واذا كانت داخلة الحرم استأنست لعلمها انه لا يهيجها أحد فى الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها (واجنبنى) أى بعدنى (وبنى أن) أى عن أن (نعبد الاصنام) أى اجعلنا فى جانب غير جانب عبادتها (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما الفائدة فى قوله اجنبنى عن عبادة الاصنام (أجيب) بانه عليه الصلاة والسلام انما سأل ذلك هضما للنفس واظهارا للحاجة والفاقة الى فضل الله فى كل المطالب وفى ذلك دليل على أن عصمة الانبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه اياهم (فان قيل) كان كفار قريش من أبنائه مع انهم كانوا يعبدون الاصنام فكيف أجيب دعاؤه (أجيب) بان المراد من كان موجودا حال الدعاء ولا شبهة ان دعوته كانت مجابة فيهم أو ان هذا الدعاء مخصوص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال عليه السلام فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح والصنم المنحوت على خلقة البشر وما كان منحوتا على غير خلقة البشر فهو وثن قاله الطبرى ولذا لما سئل ابن عيينة كيف عبدت العرب الاصنام فقال ما عبد أحد

عليه وسلم وقاله فى غيرهذه السورة بدونهم الا انه نزل فى عامة المؤمنين (قوله فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون) حذف منه قبل قال اختصارا ما فى هود قال سلام فما لبث أن جاء بعجل

من بني اسمعيل صنما واحتج بقوله تعالى واجنبني وبني أن نعبد الاصنام انما كانت انصاب الحجارة لكل قوم قالوا البيت حجر فحيثما نصبنا حجرا فهو بمنزلة البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر أي يطوفون به أسابيع تشبيها بالكعبة ويسمونه الدوار بضم الدال المشددة وقد تفتح قال الجوهري دوار بالضم صنم وقد يفتح فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت قال الرازي وهذا الجواب ليس بقوي لانه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء الاعبادة غير الله والحجر كالصنم في ذلك ٭ ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم أنه قال (رب انهن) أي الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) بعبادتهم لها ٭ (تنبيه) ٭ اتفق كل الفرق على أن قوله أضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يفعل شيأ البتة الا انه لما حصل عند عبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم أي افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال (فمن تبعني) أي على التوحيد (فانه مني) أي فانه جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه مني (ومن عصاني) أي في غير الدين (فانك غفور رحيم) وهذا صريح في طلب الرحمة والمغفرة لاولئك العصاة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم لانه مامور بالاقتداء به كما قال تعالى اتبع ملة ابراهيم وقيل ان هذا الدعاء كان قبل أن يعلم ابراهيم ان الله لا يغفر الشرك وقيل انك قادر أن تغفر له وترحمه بان تنقله عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب فلا يمهلهم حتى يتوبوا قال الرازي واعلم أن هذه الاوجه ضعيفة والارتضى ما تقرر أولا ٭ (تنبيه) ٭ حكى الله سبحانه وتعالى عن ابراهيم عليه السلام في هذا الموضع انه طلب من الله تعالى سبعة أمور الاول طلب من الله تعالى نعمة الامان وهو رب اجعل هذا البلد آمنا المطلوب الثاني أن يرزقه الله تعالى التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله واجنبني وبني أن نعبد الاصنام المطلوب الثالث قوله (ربنا اني اسكنت من ذريتي) أي بعض ذريتي أوذرية من ذريتي فحذف المفعول على هذا القول وهم اسمعيل ومن ولد منه فان اسكانه متضمن لاسكانهم (بواد) هو وادي مكة المشرفة لكونه في فضاء منخفض بين جبال تجري فيه السيول (غير ذي زرع) أي لا يكون فيه من الزرع قط فانه حجري لا ينبت كقوله تعالى قرآنا عربيا غير ذي عوج بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج (عند بيتك المحرم) أي الذي حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه أولانه لم يزل ممنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشئ المحرم الذي حقه أن يجتنب أولانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه أولانه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقا لانه أعتق منه فلم يستول عليه أولانه أمر الصائرين اليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل أولانه حرم موضع البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة املاك وهو مثل البيت المعمور الذي بناه آدم فرفع الى السماء السادسة ٭ وروى ان هاجر كانت امة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه السلام فولدت منه اسمعيل فقالت سارة كنت أريد أن يهب الله لي ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتي وغارت عليهما وقالت لابراهيم بعدهما مني وناشدته بالله أن يخرجهما من عندها فنقلهما الى مكة واسمعيل رضيع حتى وضعهما عند البيت عند دوحة

حنيذ فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة (قوله لا توجل) اي لا تخف وبه عبر في هود توسعة في التعبير عن الشئ الواحد بمتساويين وخص ما هنا بالاول

[illegible] المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع
عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته ام اسمعيل فقالت يا ابراهيم
أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت
اليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا
كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه
فقال رب انى أسكنت من ذريتى حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضعه وتشرب
من ذلك الماء حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال
يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الارض يليها فقامت عليه
ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى من أحد فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن
عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت
صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث
فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه
وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال
ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف
من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة
فان هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من
الارض كالرابية يأتيه السيل فيأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة
من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا
ان هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم
بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك
قالت نعم ولكن لا حق لكم فى الماء قالوا نعم قال ابن عباس فألفى ذلك أم اسمعيل وهى
تحب الانس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم وشب
الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت
أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج اسمعيل وتقدم تمام هذه القصة فى سورة البقرة ثم قال
(ربنا ليقيموا الصلاة) اللام لام كى متعلقة بأسكنت أى ما أسكنتهم بهذا الوادى المقفر
الخالى [illegible] الا لاقامة الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وما أمرت به
[illegible] متبركين بالبقعة التى شرفتها على البقاع مستسعدين بجوار بيتك الكريم
[illegible] والركوع والسجود حوله مستنزلين
[illegible]
[illegible] (فاجعل أفئدة) أى قلوبا [illegible]
[illegible] (من الناس) [illegible]
[illegible] (تهوى اليهم) [illegible]
[illegible]

او النقسم [illegible]
او [illegible] بالثانى او [illegible]
ومثل [illegible]
[illegible] (قوله [illegible]) [illegible]
انها لمن [illegible]
التشبيه [illegible]
بمجاز اذ [illegible]
هو الله تعالى وهنا كما

والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون وقال ابن عباس لو قال أفئدة الناس لحنت اليه فارس والروم والناس كلهم ولما دعا لهم بالدين دعا لهم بالرزق فقال (وارزقهم من الثمرات) ولم يقل وارزقهم الثمرات وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء ايصال بعض الثمرات اليهم ويحتمل أن يكون المراد ايصال بعض الثمرات اليهم ايصالها اليهم على سبيل التجارات كما قال تعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ حتى توجد فيه الفواكه الصيفية والربيعية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من آياته بعجب وأن يكون المراد عمارة القرى بالقرب منها لتحصل تلك الثمار وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال كانت الطائف من أرض فلسطين فلما قال ابراهيم ذلك رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم (لعلهم يشكرون) يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لاداء العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام بين انه انما طلب تيسير المنافع على أولاده لاجل أن يتفرغوا لاقامة الطاعات واداء الواجبات • ولما طلب عليه السلام من الله تعالى تيسير المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر انه لا يعلم عواقب الاحوال ونهاية الامور في المستقبل فانه تعالى هو العالم بها والمحيط بأسرارها فقال (ربنا انك تعلم ما نخفي) أي نسر (وما نعلن) وهذا هو المطلوب الرابع والمعنى أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا فما قيل ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين اسمعيل وما نعلن من البكاء وقيل ما نخفي من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع الى من تكلنا قال الى الله قال لكم قالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا واختلف في قوله تعالى (وما يخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء) فقيل من تتمة قول ابراهيم عليه السلام يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شئ في أي مكان والاكثرون على انه قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال كقوله تعالى وكذلك يفعلون ولفظ من تفيد الاستغراق كانه قيل وما يخفى عليه شئ ما ولما أتم ابراهيم عليه السلام ما دعا به أتبعه الحمد على ما رزقه من النعم بقوله تعالى (الحمد لله) أي المستجمع لصفات الكمال (الذي وهب لي) أي أعطاني (على الكبر) أي وهب لي وأنا كبير آيس من الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهار الما فيه من المعجزة (اسمعيل واسحق) ومقدار ذلك السن غير معلوم من القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقال ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة (فان قيل) ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء عند ما اسكن اسمعيل وأمه في ذلك الوادي وفي ذلك الوقت ما ولد اسحق فكيف يمكنه أن يقول ذلك (أجيب) بان هذا يقتضي ان ابراهيم انما ذكر هذا الكلام في زمن آخر لا عقب ما تقدم من الدعاء قال الرازي ويمكن أيضا أن يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه انتهى •(تنبيه)• قوله على الكبر بمعنى مع كقوله

الى على ما ترين من كبري • أعلم من حيث يؤكل الكتف

يقول خواص الملائكة ربنا كذا واصنا بكذا والمدبر والآمر هو الله وفي ذلك اظهار لمزيد قربهم بالملك (قوله ان في ذلك لآيات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم ان في ذلك

وهو

وهو فيه وضع الحال • ولما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الافصاح
والتصريح قال (ان ربى) أى المحسن الى (لسميع الدعاء) أى لمجيبه (فان قيل) الله
تعالى يسمع كل دعاء أجابه أو لم يجبه (أجيب) بان هذا من قولك سمع الملك كلامى اذا اعتد به
وقبله ومنه سمع الله لمن حمده • المطلوب الخامس قوله (رب اجعلنى مقيم الصلوة) أى معدلا
لها مواظبا عليها • (تنبيه) • فى الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله
تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام يدل على أن ترك
المنهيات لا يحصل الا من الله تعالى وقوله رب اجعلنى مقيم الصلاة يدل على ان فعل المأمورات
لا يحصل الا من الله تعالى وذلك تصريح بان ابراهيم عليه السلام كان مصرا على ان الكل
من الله تعالى وقوله تعالى (ومن ذريتى) عطف على المنصوب فى اجعلنى أى واجعل
بعض ذريتى كذلك لان كلمة من فى قوله ومن ذريتى للتبعيض وأما ذكر هذا التبعيض فلانه
علم باعلام الله تعالى انه يكون فى ذريته جمع من الكفار وذلك قوله تعالى لا ينال عهدى
الظالمين • المطلوب السادس أنه عليه السلام لما دعا الله تعالى فى المطالب المذكورة دعا الله
تعالى فى أن يقبل دعاءه فقال (ربنا وتقبل دعاء) قال ابن عباس يريد عبادتى بدليل
قوله تعالى وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وقيل دعائى المذكور • المطلوب السابع قوله
(ربنا) أى أيها المالك لامورنا المدبر لنا (اغفر لى) فان قيل ان طلب المغفرة انما يكون بعد
سابقة ذنب (أجيب) بان المقصود من ذلك الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الا من فضله
وكرمه ورحمته ثم أشرك معه أقرب الناس اليه وأحقهم بشكره فقال (ولوالدى) • فان
قيل كيف جاز أن يستغفر لوالديه وكانا كافرين (أجيب) بوجوه الاول ان المنع منه لا يعلم
الا بتوقيف فلعله لم يجد منه منعا وظن كونه جائزا الثانى أراد بوالديه آدم وحواء الثالث
كان ذلك بشرط الاسلام وقال بعضهم كانت أمه مؤمنة ولذلك خص أباه بالذكر فى قوله
فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه • ثم دعا لمن تبعه فى الدين من ذريته وغيرهم بقوله (وللمؤمنين)
أى العريقين فى هذا الوصف (يوم يقوم) أى يبدو ويظهر (الحساب) وقيل أراد يوم يقوم
الناس فيه للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين
بالمغفرة والله تعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام وفيه بشارة عظيمة للمؤمنين بالمغفرة
فنسأل الله تعالى أن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولاحبابنا ولمن نظر فى هذا التفسير ودعا لمن
كان سببا فيه بالمغفرة • ولما بين تعالى دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام انه
طلب من الله تعالى أن يصونه عن الشرك وطلب منه أن يوفقه للاعمال الصالحة وان يخصه
بالرحمة والمغفرة فى يوم القيامة عقبه بقوله تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولا تحسبن
الله غافلا عما يعمل الظالمون) لان الغفلة معنى يمنع الانسان عن الوقوف على حقائق الامور
وقيل حقيقة الغفلة سهو يعترى الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا فى حق الله تعالى
محال والمقصود من ذلك التنبيه على انه ينتقم للمظلوم من الظالم ففيه وعيد وتهديد للظالم
واعلام له بانه لا يعاملهم معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا عنه وعن سفيان
ابن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فقيل له من قال هذا فغضب وقال انما قاله من

(ان قلت) لآية المؤمنين كيف جمع الآية أولا ووحدها ثانيا والقصة واحدة (قلت) جمع أولا باعتبار تعدد مقاصد من حديث لوط وضيف ابراهيم وتعرض قوم لوط لهم وما

عليه (فان قيل) كيف يليق به صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفا بالغفلة وهو أعلم الناس به (أجيب) بوجوه الاول أن المراد به التثبت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله تعالى لا تدع مع الله الها آخر والثانى ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم والثالث ان المراد ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير والرابع أن يكون هذا الكلام وان كان خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر الا انه يكون فى الحقيقة خطابا مع الامة * ثم بين تعالى انه (انما يؤخرهم) أى عذابهم (ليوم) موصوف بخمس صفات الصفة الاولى قوله تعالى (تشخص فيه الابصار) أى أبصارهم لا تقر مكانها من هول ما ترى فى ذلك اليوم الصفة الثانية قوله تعالى (مهطعين) أى مسرعين الى الداعى أو مقبلين بابصارهم لا يطرفون هيبة وخوفا وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكن الصفة الثالثة قوله تعالى (مقنعى رؤسهم) أى رافعيها اذ الاقناع رفع الرأس الى فوق فاهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤسهم الى السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلاء يطرق ببصره الى الارض وقال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السماء لا ينظر أحد الى أحد الصفة الرابعة قوله تعالى (لا يرتد اليهم طرفهم) أى بل تثبت عيونهم شاخصة لا يطرفون بعيونهم ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للاجفان قد شغلهم ما بين أيديهم الصفة الخامسة قوله تعالى (وأفئدتهم) أى قلوبهم (هواء) أى خالية من العقل لفرط الحيرة والدهشة وقال قتادة خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت فى حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها *(تنبيه)* اختلفوا فى وقت حصول هذه الصفات فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك اليوم بانه يوم يقوم الحساب وقيل انها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق فالسعداء يذهبون الى الجنة والاشقياء الى النار وقيل يحصل عند اجابة الداعى والقيام من القبور قال الرازى والاول أولى (وأنذر الناس) يا محمد أى خوفهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (يوم يأتيهم العذاب) أى الذى تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤسهم (فيقول الذين ظلموا) أى كفروا (ربنا أخرنا) أى بان تردنا الى الدنيا (الى أجل قريب) أى الى امد واحد من الزمان قريب (نجب دعوتك) أى بالتوحيد ونتدارك ما فرطنا فيه (ونتبع الرسل) فيما يدعوننا اليه فيقال لهم توبيخا (أولم تكونوا أقسمتم) أى حلفتم (من قبل) فى الدنيا (ما لكم) وأكد النفى بقوله (من زوال) أى ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور كما قال فى آية أخرى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وكانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة الى حياة أخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة لا انهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة الى موت أو عن شباب الى هرم أو عن غنى الى فقر ثم انه تعالى زادهم توبيخا آخر بقوله تعالى (وسكنتم) فى الدنيا (فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر من الامم السابقة (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) أى وظهر لكم بما تشاهدون

كلا من اهلاكهم وقلب المدينة على من فيها وامطار الحجارة على من غاب منها ووحده ثانيا باعتبار وصفه قرية قوم لوط وانها المشار اليها بقوله وانها لبسبيل مقيم (قوله واقد

فى منازلهم من آثار مانزل بهم وما تواتر عندكم من اخبارهم (وضربنا) اى وبينا (لكم الامثال) فى القرآن أن عاقبتهم عادت الى الوبال والخزى والنكال مما يعلم به انه قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل وذلك فى كتاب الله تعالى كثير واما ذكر تعالى صفة عقابهم أتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى (وقد مكروا مكرهم) اى الشديد العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم واختلف فى عود الضمير فى مكروا على وجوه الاول أن يعود الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم لان الضمير يعود الى أقرب مذكور والثانى الى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى وأنذر أى يا محمد الناس وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذى ذكر الله تعالى فى قوله واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك (وعند الله مكرهم) اى ومكتوب عند الله فعلهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه وقيل ان مكرهم لا يزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى الآية قول آخر وهو أنها نزلت فى نمروذ الجبار الذى حاج ابراهيم فى ربه فقال نمروذ ان كان ما يقوله ابراهيم حقا فلا أنتهى حتى أصعد الى السماء فاعلم ما فيها ثم أمر نمروذ صاحبه فاتخذ لنفسه تابوتا وجعل له بابا من أعلاه وبابا من أسفله وربط قوائمه الاربع بأربعة نسور وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الاربع من التابوت عصا أربعة وعلق على كل واحدة منها قطعة لحم ثم انه جلس مع صاحبه فى ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت فى جو الهواء فطارت يوما حتى أبعدت فى الهواء فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاسفل وانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال أرى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاعلى ففتح فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة ونودى ايها الطاغى اين تريد قال عكرمة كان معه فى التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بالدم بدم سمكة قذفت نفسها من بحر فى الهواء وقيل طائر أصابه السهم فقال كفيت اله السماء فنكس تلك العصى التى علق عليها اللحوم فتسفلت النسور وهبطت الى الارض فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت وظنت ان قد حدث فى السماء حدث وأن القيامة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى (وان كان مكرهم) أى من القوة والضخامة (لتزول منه الجبال) قال الرازى ولا حاجة بى فى تأويل الآية الى هذا فانه لم يجئ فيه خبر صحيح معتمد انتهى والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل شرائع الاسلام المشبهة بها فى القرار والثبات وقرأ الكسائى بفتح اللام الاولى ورفع الاخيرة والباقون بكسر الاولى وفتح الثانية والتقدير على القراءة الاولى وان كان مكرهم بحيث انه تزول منه الجبال وقيل ان نافية واللام لتأكيد النفى (فلا تحسبن الله) الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد منه أمته (مخلف وعده رسله) من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين كما قال تعالى انا لننصر رسلنا وقال تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلى (فان قيل) هلا قال مخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثانى على الاول (أجيب) بانه تعالى قدم ذلك ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله

كذب اصحاب الحجر المرسلين
الحجر اسم واديهم أو مدينتهم
(فان قلت) اصحابه وهم
قوم صالح انما كذبوا
صالحا لا المرسل اليهم
لا الرسل كلهم
(قلت) من كذب رسولا

تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس
من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخالف رسله الذين هم خيرته وصفوته (ان الله) اى
ذو الجلال والاكرام (عزيز) اى غالب يقدر ولا يقدر عليه (ذو انتقام) اى ممن عصاه وقوله
تعالى (يوم تبدل الارض غير الارض) بدل من يوم يأتيهم أو ظرف للانتقام والمعنى يوم تبدل
هذه الارض التى تعرفونها أرضا أخرى غير هذه المعروفة وقوله تعالى (والسموات) عطف
على الارض وتقديره والسموات غير السموات والتبديل التغيير وقد يكون فى الذوات
كقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه بدلناهم جلودا غيرها وبدلناهم بجنتيهم جنتين وفى
الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل
آخر ومنه قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات والآية محتملة لكل واحد من
هذين المفهومين فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى تلك الارض وانما تغير اوصافها
وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ● ولا الدار بالدار التى كنت تعلم

فتبدل اوصافها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتستوى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا
وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها
أبوابا ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء
كقرصة النقى ليس فيها معلم لاحد أخرجاه فى الصحيحين العفراء بالعين المهملة وهى البيضاء
الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقى وهو الخبز الابيض الجيد الفائق المائل الى الحمرة كان النار
ميلت بياض وجهه الى الحمرة وقوله ليس فيها معلم لاحد يعنى ليس فيها علامة لاحد لتبديل
هيئتها وصفتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به وعن ابن مسعود انه
قال تبدل الارض بارض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة وقال على بن
أبى طالب كرم الله وجهه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال محمد بن كعب وسعيد بن
جبير تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه وعن الضحاك أيضا من فضة
كالصحائف وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه
الآية فاين يكون الناس يومئذ يارسول الله فقال على الصراط أخرجه مسلم وروى ثوبان ان
حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين تكون الناس يوم تبدل الارض غير
الارض قال هم فى الظلمة دون الحشر قال الرازى واعلم انه لا يبعد أن يقال المراد من تبديل
الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم والسموات الجنة والدليل عليه قوله تعالى
كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وقوله تعالى كلا ان كتاب الفجار لفى سجين (وبرزوا) اى خرجوا من
قبورهم (لله) اى لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب (الواحد) اى الذى لا شريك له
(القهار) اى الذى لا يدافعه شئ عن مراده كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولما
وصف نفسه سبحانه وتعالى بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم بقوله تعالى (وترى) يا محمد اى تبصر
(المجرمين) اى الكافرين (يومئذ) اى يوم القيامة ثم ذكر تعالى من صفات عجزهم وذلتهم أمورا
الصفة الاولى قوله تعالى (مقرنين) أى مشدودين (فى الاصفاد) جمع صفد وهو القيد قال

الكلبى

واحدا كذب جميع الرسل لاتفاقهم فى دعوة الناس الى توحيد الله تعالى (قوله فوربك لنسألنهم اجمعين) ● ان قلت كيف قال ذلك هنا وقال فى الرحمن فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس

الكلبي كل كافر مع شيطان في غل وقال عطاء هو معنى قوله تعالى واذا النفوس زوجت أى قرنت فتقرن نفوس المؤمنين بنفوس الحور العين ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين وقيل هو قرن بعض الكفار ببعض فتضم تلك النفوس الشقية والارواح الكدرة الظلمانية بعضها الى بعض لكونها متشاكلة متجانسة وتتادى ظلمة كل واحد منها الى الاخرى وقال ابن زيد قرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاغلال الصفة الثانية قوله تعالى (سرابيلهم) أى قمصهم جمع سربال وهو القميص (من قطران) وهو شئ يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ وتطلى به الابل الجربى فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شأنه أنه يتسارع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلاء كالسرابيل فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وأيضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين الصفة الثالثة قوله تعالى (وتغشى) أى تعلو (وجوههم النار) ونظيره قوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب وقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم * ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم هو الرأس واثر هذه الاحوال يظهر في الوجه فلهذا خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة وقال في الوجه وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى (ليجزى الله) متعلق ببرزوا (كل نفس ما كسبت) اى من خير أو شر وهذا أولى من قول الواحدي المراد منه أنفس الكفار لان ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لاهل الايمان * ولما كان حساب كل نفس جديرا بان يستعظم قال (ان الله سريع الحساب) أى لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى ولا شأن عن شان وقوله تعالى (هذا) اشارة الى القرآن الذى يخرج الناس من الظلمات الى النور نزل منزلة الحاضر وقيل الى السورة (بلاغ) اى كان غاية الكفاية في الايصال (للناس) والموعظة لهم وقوله تعالى (ولينذروا) اى وليخوفوا (به) عطف على محذوف وذلك المحذوف متعلق ببلاغ تقديره اى لينصحوا ولينذروا وقيل الواو مزيدة ولينذروا متعلق ببلاغ (وليعلموا) اى بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى (أنما هو) اى الله (اله واحد) فيستدلوا بذلك على أن الله واحد لا شريك له (وليذكر) بادغام التاء في الاصل في الذال اى يتعظ (أولوا الالباب) أى أصحاب العقول الصافية من الاكدار والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ * (تنبيه) * ذكر سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد مستفادة من قوله تعالى ولينذروا به وتاليه والحكمة في انزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية التي هي التدرع بلباس التقوى جعلنا الله تعالى من الفائزين بها بمحمد وآله وفعل ذلك بوالدينا وأحبابنا وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الاصنام وعدد من لم يعبد حديث موضوع قال العلامة ابن جماعة في شرح منظومة ابن فرج التي أولها غرامى * صحيح قرح من غرائب الجوبني يكفر واضع الحديث أى والمشهور عدم تكفيره

ولاجابان (قلت) لان في يو...
القيامة مواقف ففى بعض...
يسئلون وفى بعضها لا يسئلا...
وتقدم تطبيق هو داولات...
المراد هنا انهم يسئلون...
سؤال توبيخ وهو لم فعلتم...
او نحوه وثم لا يسئلون سؤال...

سورة الحجر مكية بالاجماع

وهى تسع وتسعون آية وستمائة واربع وخمسون كلمة وعدد حروفها
الفان وسبعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك الواحد القهار (الرحمن) الذى أسبغ نعمه على سائر بريته فعجزت عن وصفه الافكار (الرحيم) الذى خص أهل ولايته بنجاتهم من النار وقوله تعالى (الر) ذكر فيه الفتح والامالة أول يونس وقيل معناه انا الله أرى وقدمنا الكلام على أوائل السور فى أول سورة البقرة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أى هذه الآيات (آيات الكتاب) أى القرآن والاضافة بمعنى من وقوله تعالى (وقرآن مبين) أى مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة وقيل المراد بالكتاب هو السورة وكذا القرآن وقيل المراد بالكتاب التوراة والانجيل و بالقرآن هذا الكتاب ثم بين سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى (ربما يود) اى يتمنى (الذين كفروا) اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين فى ذلك اليوم (لو كانوا مسلمين) وقيل حين يعاينون حال المسلمين عند نزول النصر وحلول الموت ورب للتكثير فانه يكثر منهم تمنى ذلك وقيل للتقليل فان الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا فى أحيان قليلة فان قيل لم دخلت رب على المضارع وقد أبوا دخولها الا على الماضى (أجيب) بان المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه فكأنه قيل ربما ود وقرأ عاصم ونافع بتخفيف باء ربما والباقون بالتشديد قال أبو حاتم أهل الحجاز يخففون ربما وقيس وبكر يثقلونها ولما تمادوا فى طغيانهم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (ذرهم) أى دعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم وتنفيذ شهواتهم والتمتع التلذذ وهو طلب اللذة حالا بعد حال كالتقرب فى أنه طلب القرب حالا بعد حال (ويلههم الامل) اى يشغلهم توقعهم لطول الاعمار واستقامة الاحوال عن أخذ حظهم من الطاعة ومن الاستعداد للمعاد وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى برفع الهاء والميم والباقون بكسر الهاء ورفع الميم وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء والكلام على الهاء الثانية وأما الهاء الاولى فمكسورة للجميع وقفا ووصلا ولما كان هذا أمرا لا يشتغل به الا أحمق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى (فسوف يعلمون) اى ما يحل بهم بعد ما فسحنا لهم فى زمن التمتع من سوء صنيعهم وهذا قبل الامر بالقتال (تنبيه) فى الآية دليل على أن ايثار التلذذ والتنعم فى الدنيا يؤدى الى طول الامل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمتع فى الدنيا من أخلاق الهالكين والاخبار فى ذم الامل كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وعن على رضى الله تعالى عنه انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق ولما هددهم تعالى

باية

استدلالهم واستعبادهم

(سورة النحل)

(قوله حين تريحون وحين تسرحون) قدم الاراحة على السرح مع انها مؤخرة عنه فى الواقع لان الانعام وقت الاراحة

بآية التمتع والهاء الامل أتبعه بما يؤكد الزجر بقوله تعالى (وما أهلكنا من قرية) أى من القرى والمراد أهلها ومن مزيدة (الا ولها كتاب معلوم) أى أجل مضروب محدود مكتوب فى اللوح المحفوظ لهلاكها *(تنبيه)* المستثنى جملة واقعة صفة لقرية والاصل أن لا تدخلها الواو كقوله تعالى الا لها منذرون وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال فى الحال جاءنى زيد عليه ثوب وجاءنى وعليه ثوب *(فائدة)* رسم كتاب هنا باثبات الالف * ثم بين تعالى الآية السابقة بقوله تعالى (ما تسبق) وأكد الاستغراق بقوله تعالى (من أمة) وقيل من مزيدة كقولك ماجاءنى من أحد أى أحد وبين ان المراد بالكتاب الاجل بقوله تعالى (أجلها) أى الذى قدرناه لها (وما يستأخرون) أى عنه *(تنبيه)* انث الامة أولا ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ فى الاول وعلى المعنى فى الثانى قال البقاعى وانما ذكره لئلا يصرفوه الى خطابه صلى الله عليه وسلم تعنتا وفى الآية دليل على أن كل من مات أو قتل فانما مات بأجله وان من قال يجوز أن يموت قبل أجله مخطئ * ولما بالغ تعالى فى تهديد الكفار ذكر شبههم فى انكار نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر) أى القرآن فى زعمه (انك لمجنون) انما نسبوه الى الجنون اما لانهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله لان الرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال به جنون واما لانه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه عند نزول الوحى حالة شبيهة بالغشى فظنوا أنها جنون ويدل عليه قوله تعالى أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ثم أتبعوه ما زعموا أنه دليل على قولهم فقالوا (لوما) أى هلا (تأتينا بالملائكة) أى يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقا (ان كنت من الصادقين) فى ادعائك الرسالة وان هذا القرآن من عند الله * ولما كان فى قولهم أمران أجاب الله تعالى عن قولهم الثانى لانه أقرب بقوله تعالى (ما ننزل الملائكة الا بالحق) أى الا تنزلا ملتبسا بالحكمة والمصلحة ولا حكمة فى أن تأتيكم بهم عيانا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبى صلى الله عليه وسلم لانكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقيل الحق الوحى أو العذاب وقرأ شعبة بضم التاء مع فتح الزاى ورفع الملائكة وحفص وحمزة والكسائى بنونين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاى ونصب الملائكة والباقون بالتاء مفتوحة مع فتح الزاى ورفع الملائكة وشدد التاء البزى فى الوصل وأما الزاى فهى مشددة للجميع من يفتح ومن يكسر (وما كانوا) أى الكفار (اذا) أى اذ تأتيهم الملائكة (منظرين) أى لزوال الامهال عنهم فيعذبوا فى الحال ان لم يؤمنوا ويصدقوا وكان حينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم واخراج من أردنا ايمانه من أصلابهم ثم أجاب تعالى عن الاول بقوله تعالى مؤكدا لتكذيبهم (انا نحن) بما لنا من العظمة والقدرة (نزلنا) أى بالتدريج على لسان جبريل عليه السلام (الذكر) أى القرآن (وانا له لحافظون) أى من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان ونظيره قوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والانس أن يزيد فيه أو ينقص منه كلمة واحدة أو حرفا واحدا وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها

وهى ردها عشاء الى مراحها
أجل وأحسن من سرحها
لانها تقبل مالئة البطون
حافلة الضروع متهادية فى
مشيها بخلاف وقت سرحها
وهو اخراجها الى المرعى
(قوله ان فى ذلك لآية لقوم

التحريف والتبديل والزيادة والنقصان (فان قيل) فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه (أجيب) بان جمعهم القرآن في المصحف كان من أسباب حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما أراد حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا وفي هذه الآية دلالة قوية على كون البسملة آية من أول كل سورة لان الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له الا أن يبقى مصونا من الزيادة والنقصان فلو لم تكن البسملة آية من القرآن لما كان مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أيضا أن يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة وقيل الضمير في له راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا له لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس * ولما أساء الكفار عليه صلى الله عليه وسلم في الاول وخاطبوه بالسفاهة وقالوا انك لمجنون وكان عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء قال سبحانه وتعالى تسلية له على وجه راد عليهم (ولقد أرسلنا من قبلك) أي رسلا فحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى (في شيع) اي فرق (الاولين) من باب اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى حق اليقين عند الشيعة المتابعة بعضهم بعضا في الاحوال التي يجتمعون عليها في الزمن الواحد والشيع جمع شيعة وهي الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان (وما يأتيهم) عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل على مضارع الا وهو في معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال والاصل وما كان يأتيهم (من رسول) اي على اي وجه كان (الا كانوا به) جبلة وطبعا (يستهزؤن) كاستهزاء قومك بك فاصبروا فاصبر كما صبروا (كذلك) اي مثل ادخالنا التكذيب في قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل (نسلكه) اي ندخله (في قلوب المجرمين) اي كفار مكة المستهزئين (لا يؤمنون به) اي بالنبي صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن وفي الآية دليل على أن الله تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار والسلك ادخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط والرمح في المطعون ومنه قوله تعالى ما سلككم في سقر وقيل الضمير في نسلكه يعود الى الذكر كما أن الضمير في به يعود اليه وجملة لا يؤمنون به حال من ذلك الضمير والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين مكذبا به غير مؤمن به قال البيضاوي وهذا الاستدلال ضعيف اذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها في المرجوع اليه اه وما أعدت الضمير عليه في ذلك هو ما قاله ابن الخازن وجرى عليه الجلال السيوطي وقوله تعالى (وقد خلت سنة الاولين) أي سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم وعيد شديد لكفار مكة بأنه ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية المكذبة وقال الزجاج قد مضت سنة الله في أن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم قال الرازي وهذا أليق بظاهر اللفظ وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بادغام تاء التأنيث في السين والباقون بالاظهار وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) الآية هو المراد في سورة الانعام في قوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس الآية أي الذين يقولون لوما تأتينا بالملائكة فلو أنزلنا الملائكة (فظلوا فيه) أي فظلت الملائكة (يعرجون) أي يصعدون في الباب وهم يرونها عيانا (لقالوا) أي من

يتفكرون) وحد الآية في هذه السورة في خمسة مواضع نظرا الى لولها وجمعها في موضعين انما بعد قوله قبله مسخرات (قوله وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله) قاله هنا

عتوهم

عتوهم في الكفر (انما سكرت ابصارنا) أي سدت عن الابصار بالسحر من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف أو حيرت من السكر ويدل عليه قراءة الباقين بالتشديد (بل نحن قوم مسحورون) أي قد سحرنا محمد بذلك أي كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات كانشقاق القمر وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله وقيل الضمير في يعرجون للمشركين أي فظل المشركون يصعدون في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات وما فيها من العجائب لما آمنوا لعنادهم وكفرهم وقالوا انما سحرنا وقرأ الكسائي بادغام لام بل في النون والباقون بالاظهار * ولما أجاب الله تعالى عن شبهة منكري النبوة والقول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال مفتتحا بحرف التوقع (ولقد جعلنا) بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة (في السماء بروجا) قال الليث البروج واحدها برج من بروج الفلك والبروج هي النجوم الكبار مأخوذة من الظهور يقال تبرجت المرأة اذا ظهرت وأراد بها المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهي اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهي منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشتري وله القوس والحوت وزحل وله الجدي والدلو وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس في هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر يعني منازلهما وقال عطية هي قصور في السماء عليها الحرس وقال مجاهد هي النجوم العظام قال أبو اسحق يريد نجوم هذه البروج وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام (وزيناها) أي السماء بالشمس والقمر والنجوم والاشكال والهيآت البهية (للناظرين) أي المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذي أوجد كل شيء وخلقه وصوره (وحفظناها من كل شيطان رجيم) أي مرجوم وقيل ملعون قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة ولما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع الا رمي بشهاب فلما منعوا تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث في الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا والله هذا حدث وقوله تعالى (الا من استرق السمع) بدل من كل شيطان رجيم وقيل استثناء منقطع أي لكن من استرق السمع واستراق السمع اختلاسه قال ابن عباس يريد الخطفة اليسيرة وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى (فأتبعه شهاب مبين) وهو شعلة من نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب لما فيها من البريق يشبه شهاب النار

بتأخير فيه عن مواخر وبالواو وفي لتبتغوا وقاله في فاطر بتقديم فيه وحذف الواو جريا هنا على القياس اذ الفلك مفعول أول لترى ومواخر مفعول ثان له وفيه ظرف وحقه التأخير والواو

فلا يخطئ أحدا فنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه أو جنبه أو يده حيث يشاء الله ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس في البوادي روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قضى الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها الآخر الى لسان الساحر أو الكاهن وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء (فان قيل) اذا جاز أن يسمع الشيطان أخبار الغيوب من الملائكة خرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا دليلا على الصدق لان كل غيب يخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق (أجيب) بأنا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوته نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيب معجزا ولما شرح الله تعالى الدلائل السماوية في تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الارضية وهي أنواع النوع الاول قوله تعالى (والارض مددناها) قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء قال البغوي يقال انها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة (فان قيل) فهل يدل ذلك على أنها بسيطة أو كرة عظيمة على ما يقوله أرباب الهيئة (أجيب) بأنه ليس في الآية دلالة على شئ من ذلك لان الارض على تقدير كونها كرة فهي في غاية العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي وتقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وسيأتي زيادة على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة والنازعات النوع الثاني قوله تعالى (وألقينا فيها رواسي) أي جبالا ثوابت واحدها راس والجمع راسية وجمع الجمع رواسي وهو كقوله تعالى وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكي لا تميد بأهلها وقيل ان الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال النوع الثالث قوله تعالى (وأنبتنا فيها) واختلف في عود ضمير فيها فقيل يعود الى الارض لان أنواع النبات المنتفع به تكون في الارض وقيل الى الجبال لانها أقرب مذكور ولقوله تعالى (من كل شئ موزون) وانما يوزن ما يتولد من الجبال والاولى عوده لهما واختلفوا في المراد بالموزون فقال ابن عباس أي معلوم وقال مجاهد أي مقدار معين تقتضيه حكمته وقال الحسن أعني به الشئ الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن والاولى أنه جميع ما ينبت في الارض والجبال لان ذلك نوعان أحدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثاني النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها) أي أنعاما منا وتفضلا عليكم (معايش) وهي ياء صريحة من غير همز جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم

العطف على لام العلة في قوله إنا كلوا منه وقدم في فاطر فيه لمناسبة ما قبله من تقديم الجار والمجرور على ما بعده في قوله ومن كل تأكلون لحما طريا وحذف الواو لعدم المعطوف عليه

والملابس

والملابس والمعادن وغيرها (و) جعلنا لكم (من لستم له برازقين) من العبيد والانعام والدواب والطير فانكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله تعالى وبعض الجهال يظنون في أكثر الامر انهم هم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك لانه تعالى خالق الاطعمة والاشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة والا لم يحصل لاحد رزق (فان قيل) صيغة من مختصة بمن يعقل (أجيب) بأنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقا على الله تعالى حيث قال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها فغلب من يعقل على غيره حكي أن الماء قد قل في بعض الاودية والجبال واشتد الحر قال بعضهم فرأيت بعض تلك الوحوش رفعت رؤسها الى السماء عند اشتداد عطشها قال فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت وامتلأت الاودية * (تنبيه) * قيل لا يجوز أن يكون ومن لستم له برازقين مجرورا عطفا على الضمير المجرور لا يقال أخذت منك وزيد الا باعادة الخافض كما في قوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح والراجح الجواز كما قرئ قوله تعالى تساءلون به والارحام بالخفض في القراآت السبع وهذا أعظم دليل * ولما بين سبحانه وتعالى أنه أثبت لهم كل شئ موزون وجعل لهم معايش أشعر بذكر ما هو السبب لذلك فقال تعالى (وان) أي وما (من شئ) أي مما ذكر وغيره من الاشياء الممكنة وهي لا نهاية لها (الا عندنا خزائنه) أي قادرون على ايجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور وروى جعفر ابن محمد عن أبيه عن جده قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البحر والبر والخزائن جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الحفظ وقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل المطر لانه سبب الارزاق لبني آدم والوحش والطير والدواب ومعنى عندنا أي في حكمه تعالى وتصرفه وأمره وتدبيره (وما ننزله) من بقاع القدرة (الا بقدر معلوم) أي على حسب المصالح وقيل ان لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا ينزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله * ولما أتم ما اراد من آيتي السماء والارض وختمه بشمول قدرته لكل شئ أتبعه ما ينشأ عنهما مما هو بينهما ودعا في خزائن قدرته بقوله تعالى (وأرسلنا الرياح) جمع ريح وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع المر (لواقح) أي حوامل لانها تحمل الماء الى السحاب فهي لاقحة يقال ناقة لاقحة اذا حملت الولد وقال ابن مسعود يرسل الله تعالى الريح فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وقال عبيد بن عمير يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر وعن ابن عباس قال ما هبت ريح قط الا جثا النبي صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحا وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم اني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وقرأ حمزة بالافراد والباقون بالجمع (فأنزلنا) أي بعظمتنا بسبب تلك السحب التي حملتها الريح (من السماء) أي الحقيقية أو جهتها أو السحاب لان الاسباب المترقبة ١ يسند الشئ تارة الى القريب منها وتارة

هنالك (قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق) هذا من عكس التشبيه اذ مقتضى الظاهر العكس لان الخطاب لعباد الاوثان حيث سموها آلهة تشبيها به تعالى فجعلوا غير الخالق كالخالق فخولف

١ قوله المترقبة هكذا بالاصل المطبوع وفي بعض النسخ المتقاربة وبعض المتراقبة اه مصححه

الى البعيد (ماء) وهو جسم مائع سيال به حياة كل حيوان من شأنه الاغتذاء (فأسقيناكموه) اى جعلناه لكم سقيا يقال سقيته ماء بشرب به واسقيته اى مكنته منه ليسقى به ماشيته ومن يريد ونفى سبحانه وتعالى عن غيره ما أثبته أولا لنفسه بقوله (وما أنتم له) أى لذلك الماء (بخازنين) أى ليست خزائنه بأيديكم والخزن وضع الشئ فى مكان مهيأ للحفظ فثبت أن القادر عليه واحد مختار ومن دلائل التوحيد الاحياء والاماتة كما قال تعالى (وانا لنحن نحيى) أى لنا هذه الصفة على وجه العظمة فنحيى بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف ومن النبات بالنمو وان كان أحدهما حقيقة والآخر مجازا لان الجمع جائز (ونميت) أى لنا هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء (ونحن الوارثون) أى الارث التام اذا مات الخلائق الباقون بعد كل شئ كما كنا ولا شئ فليس لاحد تصرف باماتة ولا احياء فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة الا بالعلم قال تعالى (ولقد علمنا المستقدمين منكم) وهو من قضينا بموته أولا من لدن آدم فيكون فى موته كأنه يسارع الى التقدم اليه وان كان هو وكل من أهله مجتهدا بالعلاج فى تأخيره (ولقد علمنا المستأخرين) أى الذين نمد فى أعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كأنهم يسابقون الى ذلك وان عالجوا الموت بشرب سم او نحوه أو عالجه لهم غيرهم بضربهم بسيف أو غيره فعرف من ذلك قطعا أن الفاعل واحد مختار وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين الاموات وبالمستأخرين الاحياء وقال عكرمة المستقدمين من خلق الله تعالى والمستأخرين من لم يخلق وقال الحسن المستقدمين فى الطاعة والخير والمستأخرين المستبطؤن عنه وقيل المستقدمين من القرون الاولى والمستأخرين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المستقدمين فى الصفوف والمستأخرين فيها وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان فى الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة فتتقدم الى أول صف النساء لتقرب من الرجال فقال النبى صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها (تنبيه) فى سبب نزول هذه الآية قولان أحدهما ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يستقدم حتى يكون فى أول صف حتى لا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون فى آخر صف فاذا ركع نظر من تحت ابطه فنزلت والثانى أن النبى صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ولنشترين دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت (وان ربك هو يحشرهم) أى المستقدمين والمستأخرين للجزاء وتوسط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لا غيره وتصدير الجملة بان لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى (انه حكيم) أى بالغ الحكمة متقن فى أفعاله (عليم) وسع علمه كل شئ ولما استدل سبحانه وتعالى بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب بقوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) قال الرازى والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه آدم عليه السلام ونقل فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر أنه قال قد انقضى قبل آدم الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر ومعنى انا الظهوره

فى خطابهم لانهم بالغوا فى عبادتها حتى صارت عندهم أصلا فى العبادة وانما الى فرعا فجاء الانكار على وفق ذلك ليفهموا المراد على معتقدهم

وادراك

وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسى (من صلصال) أى من الطين الشديد اليابس الذى لم تصبه نار اذا نقرته سمعت له صلصلة أى صوتا وقال ابن عباس هو الطين اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائى وقال الفراء هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره وقال الرازى قال المفسرون خلق الله تعالى آدم من طين فصوره وتركه فى الشمس أربعين سنة فصار صلصالا لايدرى أحد ما يراد به ولم يروا شيأ من الصور يشبهه الى أن نفخ فيه الروح (من حمأ) أى طين أسود منتن (مسنون) أى مصور بصورة الآدمى وقال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن وقال مجاهد هو المنتن المتغير قال البغوى وفى بعض الآثار ان الله تعالى خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيرا أسود ثم خلق منه آدم عليه السلام قال ابن الخازن والجمع بين هذه الاقوال على ماذكره بعضهم ان الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض واليه الاشارة بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالماء وحى حتى اسود وأنتن ريحه وتغير واليه الاشارة بقوله تعالى من حمأ مسنون ثم ان ذلك الطين الاسود المتغير صوره الله صورة انسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فيسمع له صلصلة واليه الاشارة بقوله تعالى من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس يفخر فى الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الانسان ذكر ما خلقه قبل من الجان فقال تعالى (والجان) قال ابن عباس هو أبو الجن كما ان آدم عليه السلام أبو البشر وابليس أبو الشياطين وفى الجن مسلمون وكافرون ويأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبنى آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين قال ابن الخازن والاصح ان الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا استتر والشيطان هو العاتى المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر وانتصاب الجان بفعل يفسره (خلقناه من قبل) أى قبل خلق الانسان (من نار السموم) أى من ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله من قوة حرارتها قال الرازى فالريح الحارة فيها نار ولها لفح كما ورد فى الخبر انها من فيح جهنم انتهى ويقال السموم بالنهار والحرور بالليل وقال الكلبى عن أبى صالح السموم نار لادخان لها والصواعق تكون منها وهى نار تكون بين السماء وبين الحجاب فاذا أحدث الله تعالى أمرا خرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة التى تسمعون خرق ذلك الحجاب وعن ابن عباس هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التى خلق منها الجان وتلا هذه الآية وعن الضحاك عن ابن عباس كان ابليس من حى من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وأما الملائكة فخلقوا من النور * ولما ذكر الله تعالى حدوث الانسان الاول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته بقوله تعالى (واذ) أى واذكر يا أشرف الخلق قول ربك عز وجل اذ (قال ربك) أى المحسن اليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام لتشريفك (للملائكة انى خالق بشرا) أى حيوانا

(فان قلت) المراد بمن لا يخلق الاصنام فكيف جىء بمن المختصة باولى العلم (قلت) خاطبهم على معتقدهم لانهم سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى أولى العلم

كثيفا يباشر ويلاقى والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن ابشار البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وقوله تعالى (من صلصال من حمأ مسنون) تقدم تفسيره (فاذا سويته) أى عدلته وأتممته وهيأته لنفخ الروح فيه بالفعل (ونفخت فيه من روحى) أى خلقت الحياة فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل وأضاف الروح اليه تشريفا كما يقال بيت الله وهو ما يصير به الروح عالما وأشرف منه ما يصير به العالم عاملا خاشعا وسيأتى الكلام على الروح ان شاء الله تعالى فى سورة سبحان عند قوله تعالى ويسألونك عن الروح (فقعوا) أى اسقطوا (له) تعظيما حال كونكم (ساجدين) وتقدم فى سورة البقرة الكلام على من المخاطب بالسجود وهل هو كل الملائكة أو ملائكة السموات أو ملائكة الارض وهل هو سجود الحناء أو غيره (فسجد الملائكة) وقوله تعالى (كلهم أجمعون) قال سيبويه تأكيد بعد تأكيد وسئل المبرد عن ذلك فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ثم عند هذا بقى احتمال وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد فى وقت آخر فلما قال أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة قال الزجاج وقول سيبويه أجود لان أجمعين معرفة ٣ فلا يكون حالا وقوله تعالى (الا ابليس) أجمعوا على أن ابليس كان مأمورا بالسجود لآدم واختلفوا فى انه هل كان من الملائكة أم لا وقد سبقت هذه المسئلة على الاستقصاء فى سورة البقرة وقوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) أى لآدم استئناف تقديره ان قائلا قال هل سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه (قال) الله تعالى له (يا ابليس مالك ألا تكون) أى أن تكون ولا مزيدة أى ما منعك أن تكون (مع الساجدين) لآدم (قال لم أكن لاسجد لبشر) جسمانى كثيف واللام لتأكيد النفى أى لا يصح منى وينافى حالى أن أسجد وانا ملك روحانى لبشر (خلقته من صلصال من حمأ مسنون) وهو أخس العناصر وخلقتنى من نار وهى أشرفها استنقص آدم باعتبار النوع والاصل وقد سبق الجواب عنه فى سورة الاعراف * (تنبيه) * قال بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله وضعف لان ابليس قال فى الجواب لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره يقتضى أن الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وأن ابليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف يعقل هذا مع ان مكالمة الله تعالى من غير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم * (وأجيب) * بان مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كانت على سبيل الاكرام والاعظام فاما اذا كانت على سبيل الاهانة والاذلال فلا (قال) الله تعالى له (فاخرج منها) أى من الجنة وقيل من السموات وقيل من زمرة الملائكة وقد تقدم الكلام على ذلك أيضا فى سورة الاعراف (فانك رجيم) أى مطرود من الخير والكرامة فان من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان رجيم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته (وان عليك اللعنة) أى هذا الطرد والابعاد (الى يوم الدين) قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد باعمالهم مثل قوله تعالى مالك يوم الدين (فان قيل) كلمة الى تفيد حصر انتهاء الغاية فهذا يفيد ان اللعنة لا تحصل الا الى يوم الدين وعند القيامة يزول اللعن

ونظيره قوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها الآية (قوله أموات غير أحياء) ان قلت ما فائدة قوله فى وصف الاصنام غير أحياء بعد قوله أموات

٣ قوله فلا يكون حالا انظر من ادعى حالية اجمعون مع انه مفرد مرفوع اه مصححه

(أجيب) بجوابين الاول أن المراد التأبيد وذكر القيامة أبعد غاية ذكرها الناس فى كلامهم كقوله تعالى مادامت السموات والارض فى التأبيد والثانى أنه مذموم مدعو عليه باللعن فى السموات والارض الى يوم القيامة من غير أن يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يقترن اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه ولما جعله الله تعالى رجيما ملعونا الى يوم القيامة فكان قائلا يقول فماذا قال فقيل (قال رب) فاعترف بالعبودية والاحسان اليه (فانظرنى) أى أخرنى والانظار تأخير المحتاج للنظر فى أمره والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك رجيم (الى يوم يبعثون) أى الناس أراد أن يجد فسحة فى الاغواء ونجاة من الموت اذ لا موت بعد وقت البعث (قال) الله تعالى مجيبا للاول دون الثانى بقوله تعالى (فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) وهو المسمى فيه أجلك عند الله وهو النفخة الاولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن فى دار الخلد (فان قيل) كيف أجابه الله تعالى الى ذلك الامهال (أجيب) بانه انما أجابه الى ذلك زيادة فى بلائه وشقائه وعذابه لا لاكرامه ورفع مرتبته * ولما أجيب لذلك كأنه قيل فماذا قال فقيل (قال رب) أى أيها الموجد والمدبر لى وقوله (بما أغويتنى) أى خيبتنى من رحمتك الباء فيه للقسم وما مصدرية وجواب القسم (لأزينن) أى أقسم باغوائك اياى لأزينن لهم (فى الارض) حب الدنيا ومعاصيك كقوله فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا انه فى ذلك الموضع أقسم بعزة الله وهى من صفات الذات وهنا أقسم باغواء الله وهى من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح واختلفوا فى القسم بصفات الافعال والراجح فيها الصحة (ولأغوينهم) أى بالاضلال عن الطريق الجيدة بالقاء الوسوسة فى قلوبهم ولاجلهم (أجمعين) على الغواية وقوله (الا عبادك منهم المخلصين) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينك عن الشوائب وقرأه الباقون بفتحها أى الذين أخلصهم الله تعالى بالهداية وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه قال الرازى والذى حمله على هذا الاستثناء انه لا يصير كاذبا فى دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب فى غاية الخساسة *(تنبيه)* قال رويم الاخلاص فى العمل هو ان لا يريد صاحبه عنه عوضا من الدارين ولا عوضا من الملكين وقال الجنيد الاخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله وذكر القشيرى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ماهو قال سألت رب العزة عن الاخلاص ماهو قال سر استودعته قلب من أحب من عبادى * ولما ذكر ابليس أنه يغوى بنى آدم الا من عصمه الله بتوفيقه وتضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته (قال) تعالى (هذا) أى الذى ذكرته من حال المستثنى والمستثنى منه (صراط) أى طريق (على مستقيم) أى لا انحراف عنه لانى قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل أنت * ولما قال ابليس لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم هذا أن له سلطانا على عباد الله غير المخلصين فبين تعالى كذبه أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء أكانوا المخلصين

(قلت) فائدته انها أموات لا يعقب موتها حياة احترازا عن أموات يعقب موتها حياة كالنطف والبيض والاجساد الميتة وذلك أبلغ فى موتها كأنه قال أموات فى الحال غير احياء

اولم يكونوا مخلصين بل ومن اتبع منهم ابليس باختياره صار تبعاله ولكن حصول تلك المتابعات أيضا ليس لاجل ابليس وأوهم ان له على بعض عباد الله سلطانا نافين تعالى كذبه وذكر تعالى انه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلا بقوله تعالى (ان عبادى) أى المؤمنين كلهم (ليس لك) أى بوجه من الوجوه (عليهم سلطان) أى لتردهم كلهم عما يرضينى ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقال تعالى فى آية أخرى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (الا من اتبعك) أى بتعمد منه ورغبة فى اتباعك (من الغاوين) أى ومات من غير توبة فانى جعلت لك عليهم سلطانا بالتزيين والاغواء وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى وقيل ان الاضافة للتشريف فلا تشمل الا الخلص فحينئذ يكون الاستثناء منقطعا وفائدة سوقه بصورة الاستثناء على تقدير الانقطاع الترغيب فى رتبة التشريف بالاضافة اليه والرجوع عن اتباع العدو الى الاقبال عليه لان ذوى الانفس الابية والهمم العلية ينافسون فى ذلك المقام ويرونه كما هو الحق أعلى مرام (وان جهنم لموعدهم) أى الغاوين وهم ابليس ومن تبعه (أجمعين) ثم بين تعالى أنهم متفاوتون فيها بقوله تعالى (لها) أى لجهنم (سبعة أبواب) أى سبع طبقات قال على رضى الله تعالى عنه أتدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض وان الله تعالى وضع الجنات على العرض ووضع النيران بعضها على بعض قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية * (تنبيه) * تخصيص العدد لان أهلها سبع فرق وقيل جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لانها مصادر السيآت فكانت مواردها الابواب السبعة ولما كانت هى بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الاعضاء واحدا فجعلت أبواب الجنان ثمانية قال تعالى (لكل باب) أى منها (منهم) أى من الغاوين خاصة لا يشاركهم فيه المخلص (جزء) أى نصيب وقرأ شعبة بضم الزاى والباقون بالسكون (مقسوم) أى معلوم فلكل دركة قوم يسكنونها قال الضحاك فى الدركة الاولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى الرابعة الصابئون وفى الخامسة المجوس وفى السادسة أهل الشرك وفى السابعة المنافقون فذلك قوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى أو قال على أمة محمد ولما شرح الله تعالى أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا لانكار المكذبين بالبعث (ان المتقين) أى الذين اتقوا الشرك بالله تعالى كما قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لان المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة كما أن الضارب هو الآتى بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة فكما أنه ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضاربا أو قاتلا كونه آتيا بجميع أنواع الضرب

فى المآل (قوله وما يشعرون أيان يبعثون) * ان قلت كيف عاب الاصنام بأنهم لا يعلمون مع ان المؤمنين كذلك (قلت) معناه وما يشعر الاصنام متى يبعث عبادها فكيف تكون

والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى لان الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيا بالتقوى لان كل فرد من افراد الماهية يجب كونه مشتملا على تلك الماهية (في جنات) أي بساتين قال الرازي أما الجنات فأربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون المجموع أربعة وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان يؤكد ماقلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه من الخوف من الله تعالى وقوله تعالى ولمن خاف يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله تعالى (وعيون) قال الرازي يحتمل أن يكون المراد منها ماذكره الله تعالى في قوله مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الانهار (فان قيل) هل كل واحد من المتقين مختص بعيون أو تجرى تلك العيون بعضها الى بعض (أجيب) بان كل واحد من الوجهين محتمل فيجوز أن يختص كل واحد بعين ينتفع هو بها ومن يختص به من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجاتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل أن يجري من بعضهم الى بعض لانهم يتطهرون عن الحقد والحسد وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون بالكسر وقرأ بكسر التنوين في الوصل أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة والباقون بالضم * ولما كان المنزل لا يحسن الا بالسلامة والانس قال تعالى (ادخلوها) أي يقال لهم ذلك (بسلام) أي سالمين من كل آفة مرحبا بكم (آمنين) من ذلك دائما ولما كان الانس لا يكمل الا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى (ونزعنا) أي بما لنا من العظمة والقدرة (ما في صدورهم من غل) أي حقد كامن في القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والحسد والبغضاء فكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لانها كامنة في القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد حالة كونهم (اخوانا) أي متصافين حالة كونهم (على سرر) جمع سرير وهو مجلس رفيع موطأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين صنعاء الى الجابية (متقابلين) لا يرى بعضهم قفا بعض فان التقابل التواجه وهو نقيض التدابر ولا شك أن المواجهة أشرف الاحوال وعن مجاهد رضي الله تعالى عنه تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين * (تنبيه) * ليس المراد الاخوة في النسب بل المراد الاخوة في المودة والمخالطة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وعن الجنيد أنه قال ما أحلى الاجتماع مع الاصحاب وما أمر الاجتماع مع الاضداد وقوله تعالى (لا يمسهم فيها نصب) أي اعياء وتعب وجهد ومشقة استئناف او حال بعد حال او حال من الضمير في متقابلين وقوله تعالى (وما هم منها بمخرجين) المراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمالا بلا نقصان وفوزا بلا حرمان * ولما ذكر تعالى أحوال المتقين وأحوال غيرهم اتبع ذلك بقوله تعالى (نبئ) أي خبر يا أفضل الخلق (عبادي) اخبارا جليلا (اني أنا) أي وحدي (الغفور) أي

آلهة مع الجهل بخلاف المؤمنين فانهم يعلمون ٣ (قوله انه يوم القيامة) (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم) اى ليحملوا أوزار كفرهم

٣ هكذا بياض بالاصل

للمؤمنين (الرحيم) بهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من عبادى وانى والباقون بالسكون وأما الهمزة فى نبئ فلم يبدلها الا حمزة فى الوقف فقط وكذا الهمز ممن نبئهم ونقل عن حمزة كسر الهاء فى الوقف (وان عذابى) أى وعدى للعصاة (هو العذاب الاليم) أى المؤلم ٭(تنبيه)٭ فى هذه الآية لطائف الاولى انه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه وهذا تشريف عظيم الاترى انه قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم سبحان الذى أسرى بعبده ليلا الثانية انه تعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيدات بالفاظ ثلاث أولها قوله تعالى انى وثانيها قوله انا وثالثها ادخال حرف الالف واللام على قوله تعالى الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل انى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وان عذابى هو العذاب الاليم الثالثة انه أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ اليهم هذا المعنى فكأنه اشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة والرابعة انه لما قال نبئ عبادى كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتى وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصى وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فامسك منها عنده تسعة وتسعين وأرسل فى خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار وعن عبادة رضى الله تعالى عنه قال بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم العبد قدر عفو الله ما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه الى قتالها وعنه صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وقد ذكر الجنة والنار بين أيديكم فنزل نبئ عبادى انى أنا الغفور الرحيم ٭ ولما بالغ تعالى فى تقرير النبوة ثم اردفه بذكر دلائل التوحيد ثم ذكر تعالى عقبه أحوال القيامة ووصف الاشقياء والسعداء أتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام ليكون سماعها مرغبا فى العبادة الموجبة للفوز بدرجات الاولياء ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (ونبئهم) أى خبر يا سيد المرسلين عبادى (عن ضيف ابراهيم) وهم ملائكة اثنا عشر او عشرة او ثلاثة منهم جبريل عليه السلام (فان قيل) الضيف هو المنضم الى غيره لطلب القرى (اجيب) بان هؤلاء سموا بهذا الاسم لانهم على صورة الضيف فهو من دلالة التضمن وقيل أيضا ان من يدخل دار انسان و يلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم يأكل (اذ دخلوا عليه) أى ابراهيم وكان يكنى أبا الضيفان كان لقصره أربعة أبواب لكى لا يفوته أحد (فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما او سلمت سلاما (قال) ابراهيم عليه السلام بلسان الحال او المقال (انا) أى انا ومن عندى (منكم وجلون) أى خائفون وكان خوفهم لامتناعهم من الاكل او لانهم دخلوا بغير اذن و بغير وقت والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره (قالوا لا توجل) أى لا تخف (انا) رسل ربك (نبشرك بغلام) أى ولد ذكر فى غاية القوة ليس كأولاد الشيوخ ضعيفا وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة (عليم) أى ذى علم كثير هو

مباشرة ومشل او بعض اوزاركه من اضلوهم بتسببهم فى كفرهم أن زائدة او تبعيضية واما قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى فمعناه وزرا لا مدخل لها فيه ولا تعلق

اسحق عليه السلام كما ذكر في هود وتقدم ذكر القصة هنالك بأسرها (قال) ابراهيم عليه السلام (أبشرتموني) أي بالولد وقوله (على ان مسني الكبر) حال أي مع مسه اياي (فان قيل) كيف قال (فبم) أي فبأي شيء (تبشرون) أي بينوا الى ذلك بيانا شافيا مع انهم قد بينوا ما بشروا به وما فائدة هذا الاستفهام (اجيب) بانه أراد ان يعرف ان الله تعالى هل يعطيه الولد مع بقائه على صفة الشيخوخة او يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب في هذا الاستفهام ان العادة جارية بانه لا يحصل في حال الشيخوخة التامة وانما يحصل في حال الشباب او انه استفهام تعجب ويدل لذلك قولهم (قالوا بشرناك بالحق) قال ابن عباس يريدون بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى ان يخرج من صلب ابراهيم اسحق و يخرج من صلب اسحق ذرية مثل ما أخرج من صلب آدم وقولهم (فلا تكن) أي بسبب تبشيرنا (من القانطين) أي الآيسين نهي لابراهيم عليه السلام عن القنوط ونهي الانسان عن الشيء لا يدل على كونه فاعلا للمنهي عنه كما في قوله تعالى ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه (قال ومن يقنط) أي ييأس من هذا اليأس ٣ (من رحمة ربه) أي الذي لم يزل احسانه عليه (الا الضالون) أي المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم من تمام القدرة وانه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون والباقون بفتحها ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى اتيانهم مجتمعين على غير الصفة التي يأتي عليها الملك للوحي وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بانه ما ينزل الملك الا بالحق كان ذلك سببا لان يسألهم عن أمرهم ابزول وجله كله ولذلك (قال) عليه السلام (فما) بفاء السبب (خطبكم) أي شأنكم قال أبو حيان والخطب لا يكاد يقال الا في الامر الشديد اه وقال الرماني انه الامر الجليل (أيها المرسلون) فانكم ما جئتم الا لامر عظيم يكون فصلا بين هالك وناج (قالوا انا أرسلنا) أي أرسلنا العزيز الحكيم الذي أنت أعرف الناس في هذا الزمان به (الى) اهلاك (قوم) اي ذوي منعة (مجرمين) أي كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى (الا آل لوط) فيه وجهان أحدهما انه استثناء متصل على أنه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى أجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ويكون معنى قوله تعالى (انا لمنجوهم أجمعين) اي لايمانهم استئناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للمجرمين ولآل لوط لاهلاك اولئك وانجاء هؤلاء والثاني انه استثناء منقطع لان آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة فيكون قوله تعالى انا لمنجوهم أجمعين جرى مجرى خبر لكن في اتصاله بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجوهم وقرأ حمزة والكسائي بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من آل لوط او من ضميرهم على الاول وعلى الثاني لا يكون الا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقوله تعالى (قدرنا) قرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (انها لمن الغابرين) أي من الباقين في العذاب لكفرها *(تنبيه)* معنى التقدير في اللغة جعل الشيء على مقدار غيره يقال قدر هذا الشيء بهذا أي اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات أي جعلها على مقدار الكفاية ويفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله تعالى عليه وقدره عليه أي جعله

لهما بسبب ولا غيره وتطيرها بين الآيتين سؤالا وجوابا قوله تعالى واتصل خطايا كم الى قوله وانا لا مع اثقالهم (قوله فاصابهم سيات ما عملوا) قال فيه وفي الجاثية ما عملوا وفي

٣ قوله من هذا اليأس هكذا بالاصول ولعل من زائدة من الناسخ اه مصححه

على مقدار ما يكفى فى الخير والشر وقيل معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا (فان قيل) لم اسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم مع انه لله عز وجل (اجيب) بانهم انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما تقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم وانما يريدون بهذا الكلام اظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا هنا • ولما بشر الملائكة عليهم السلام ابراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بانهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ابراهيم عليه السلام الى لوط وآله وهذه هى القصة الثانية المذكورة فى هذه السورة قال تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون) ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط واحدة منهما مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين وكذا وجاء أهل المدينة (قال) لهم (انكم قوم منكرون) لانهم دخلوا عليه فجأة فاستنكرهم وخاف من دخولهم لاجل شر يوصلونه اليه ولاجل انهم كانوا شبابا مردا حسان الوجوه فخاف ان يهجم قومه عليهم بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله عليه السلام انكم قوم منكرون أى لا اعرفكم ولا أعرف انكم من أى الاقوام أنتم ولاى غرض دخلتم على فعند ذلك (قالوا) اى الملائكة (بل جئناك بما) اى بالعذاب الذى (كانوا) أى قومك (فيه يمترون) اى يشكون فى نزوله بهم والجاهل يوصف بالشك وان كان مكذبا من جهة ما يعرض له منه من حيث انه لا يرجع الى نفسه فيما هو عليه ثم اكدوا ما ذكروه بقولهم (وأتيناك بالحق) اى باليقين الذى لا يشك فيه ثم اكدوا هذا التأكيد بقولهم (وانا لصادقون) اى فيما أخبرناك به (فاسر باهلك) اى فاذهب بهم فى الليل (بقطع من الليل) أى فى طائفة من الليل وقيل هى آخره قال الشاعر

افتحى الباب وانظرى فى النجوم • كم علينا من قطع ليل بهيم

كأنه طال عليه الليل فخاطب ضجيعته بذلك او كان يحب طول الليل للوصال وقرأ نافع وابن كثير بوصل همزة فاسر بعد الفاء من السرى والباقون بالقطع وهما بمعنى (واتبع ادبارهم) اى وكن على آثار أهلك وسر خلفهم وتطلع على أحوالهم (ولا يلتفت منكم احد) أى لئلا يرى اليهم ما نزل بهم من البلاء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط (وامضوا حيث تؤمرون) اى الى المكان الذى أمركم الله بالمضى اليه قال ابن عباس هو الشام وقال الفضيل حيث يقول لكم جبريل وذلك ان جبريل أمرهم ان يمضوا الى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط وقيل الى الاردن وقيل الى مصر • (تنبيه) • حيث ههنا على بابها من كونها ظرف مكان مبهم ولابهامها تعدى اليها الفعل من غير واسطة (وقضينا) أى واوحينا (اليه) ولما ضمن قضينا معنى الايحاء تعدى بالى ومثله وقضينا الى بنى اسرائيل وقوله تعالى (ذلك الامر) مبهم تفسيره (ان دابر هؤلاء مقطوع) اى مستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم احد وقوله تعالى (مصبحين) حال من هؤلاء او من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء فى معنى مدبرى هؤلاء اى يتم استئصالهم فى الصباح (وجاء اهل المدينة) اى مدينة من مدائن قوم لوط وهى سذوم بسين مهملة وذال معجمة واخطأ من

الزمر ما كسبوا موافقة لما قبل كل منها او بعده او قبله وبعده اذ ما هنا قبله ما كانوا يعملون من سوء وتعملون مرتين وقبل فى الجاثية ما كنتم تعملون وعملوا الصالحات وبعده

قال

قال بعضهم (يستبشرون) اى بأضياف لوط طمعا فيهم وليس فى الآية دليل على المكان الذى جاؤه الآن القصة تدل على انهم جاؤا دار لوط وقيل ان الملائكة لما كانوا فى غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل الى قوم لوط وقيل امرأة لوط أخبرتهم بذلك قال الرازى وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منهم لاولئك المرد والاستبشار اظهار السرور ولما وصلوا اليه (قال) لهم لوط (ان هؤلاء ضيفى) أى وحق على الرجل اكرام الضيف (ولا تفضحون) فيهم يقال فضحه يفضحه اذا أظهر من أمره ما يلزم به العار واذا قصد الضيف بسوء كان ذلك اهانة لصاحب المنزل ثم أكد ذلك بقوله (واتقوا) أى خافوا (الله) فى أمرهم (ولا تخزون) اى ولا تخجلونى فيهم بقصدكم اياهم بفعل الفاحشة من الخزاية وهى الحياء أو لا تذلونى بسببهم من الخزى وهو الهوان (قالوا) أى قومه فى جواب قوله لهم (اولم ننهك عن العالمين) أي عن ان تضيف أحدا من العالمين وقيل اولم ننهك ان تدخل الغرباء المدينة فانا نطلب منهم الفاحشة وقيل اولم ننهك ان تمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنهم بقدر وسعه ثم (قال) لهم (هؤلاء بناتى) أى نساء القوم لان كل امة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته فكأنه قال لهم هؤلاء بناتى فانكحوهن وخلوا بنى فلا تتعرضوا لهم (ان كنتم فاعلين) اى ما أقول لكم او قضاء الشهوة والكلام فى ذلك قد مر بالاستقصاء فى سورة هود وقرأ نافع بفتح ياء بناتى والباقون بسكونها قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على لسان ملائكته (لعمرك) اى وحياتك وما اقسم بحياة أحد غيره وذلك يدل على انه أكرم الخلق على الله تعالى (انهم لفى سكرتهم) أى شدة غفلتهم التى أزالت عقولهم (يعمهون) أى يتحيرون الخطاب ٣ للوط عليه السلام قالت له الملائكة ذلك أى فكيف يعقلون قولك ويلتفتون الى نصيحتك * (تنبيه) * لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوبا وانهم وما فى حيزه جواب القسم تقديره لعمرك قسمى او يمينى انهم والعمر والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقاء الا انهم خصوا القسم بالمفتوح لايثار الاخف فيه وذلك لان الحلف كثير الدور على ألسنتهم بلعمرى ولعمرك (فأخذتهم الصيحة) اى صيحة هائلة مهلكة وهل هى صيحة جبريل عليه السلام قال الرازى ليس فى الآية دليل على ذلك فان ثبت بدليل قوى قيل به والا فليس فى الآية دليل الا انهم جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله تعالى (مشرقين) اى داخلين فى وقت الشروق وهو بزوغ الشمس حال من مفعول أخذتهم ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب عن الصيحة معقبا لها بقوله تعالى (فجعلنا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (عاليها) اى مدائنهم (سافلها) بان رفعها جبريل عليه السلام الى السماء واسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا عليهم) اى أهل المدائن التى قلبت المدائن لاجلهم (حجارة من سجيل) اى طين طبخ بالنار * (تنبيه) * دلت الآية الكريمة على ان الله تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب احدها الصيحة الهائلة المنكرة وثانيها انه جعل عاليها سافلها وثالثها انه أمطر عليهم حجارة من سجيل وتقدمت الاشارة الى ذلك فى سورة هود (ان فى ذلك) اى المذكور من هذه الانواع (لآيات) اى دلالات على وحدانية الله تعالى (للمتوسمين) أى للناظرين المتفكرين بجمع

شيآت ما عملوا وقيل ما فى الزمر ذوقوا ما كنتم تكسبون وبعده فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (قوله انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون) ان قلت * هذا يدل على

٣ قوله الخطاب للوط الخ هكذا بالاصول التى بايدينا ولعله او الخطاب الخ كما تدل عليه عبارة الكشاف اه مصححه

متوسم وهو الناظر في السمة حتى يعرف حقيقة الشيء وسمته (وإنها) أي هذه المدائن
(لبسبيل) أي طريق قريش الى الشام (مقيم) أي لم يندرس بل يشاهدون ذلك ويرون
آثره أفلا يعتبرون ثم قال سبحانه وتعالى مشيرا الى زيادة الحث على الاعتبار بالتأكيد (إن
في ذلك) أي هذا الامر العظيم (لآية) أي علامة عظيمة في الدلالة على وحدانيته تعالى
(للمؤمنين) أي كل من آمن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف ان ذلك انما كان لاجل ان الله
تعالى انتقم لانبيائه من اولئك الجهال اما الذين لا يؤمنون بالله فانهم يحملونه على حوادث
العالم ووقائعه * ثم ذكر تعالى القصة الثالثة وهي قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى (وإن)
مخففة من الثقيلة أي وانه (كان) أي جبلة وطبعا (أصحاب الأيكة) وهم قوم شعيب عليه
السلام وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء والايكة الشجر المتكاثف وقيل الشجر
الملتف وقال ابن عباس هي شجر المقل وقال الكلبي الايكة الغيضة أي غيضة شجر بقرب
مدين (لظالمين) أي عريقين في الظلم بتكذيبهم شعيبا عليه السلام (فانتقمنا منهم) أي
بسبب ذلك قال المفسرون اشتد الحر فيهم أياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا
عن آخرهم وقوله تعالى (وإنهما) فيه قولان الاول ان المراد قرى قوم لوط والايكة
والقول الثاني ان الضمير للايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل
بذكرها على مدين فجاء بضميرهما (لبإمام) أي طريق (مبين) أي واضح والامام اسم لما يؤتم به
قال الفراء انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل
الى الموضع الذي يريده * ثم ذكر تعالى القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام بقوله تعالى
(ولقد كذب أصحاب الحجر) وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة الشريفة
والشام (المرسلين) أي كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء المرسلين بتكذيبك لان
الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع وهم في اثبات
الرسالة بالمعجزة على حد سواء ثم اتبع ذلك قوله تعالى (وآتيناهم) أي بما لنا من العظمة
والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام (آياتنا) أي آيات الكتاب المنزل على نبيهم
او معجزات كالناقة وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظيم خلقها وقرب
ولادتها وغزارة لبنها وانما اضاف الآيات اليهم وان كانت لنبيهم صالح عليه السلام
لانه مرسل من ربهم اليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) أي الآيات (معرضين) أي
تاركين لها غير ملتفتين اليها لا يتفكرون فيها ثم أخبر تعالى عنهم انهم كانوا مثل هؤلاء في الأمن
من العذاب والغفلة عما يراد بهم مع انهم كانوا أشد منهم فقال تعالى (وكانوا
ينحتون) والنحت قلع جزء بعد جزء من الجسم على سبيل المسح (من الجبال) أي التي
تقدم انا جعلنا عاليها سافلها (بيوتا آمنين) عليها من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب
الاعداء لوثاقتها لا كبيوتكم التي لا بقاء لها على أدنى درجة وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص
برفع الباء والباقون بكسرها (فأخذتهم الصيحة) أي صيحة العذاب (مصبحين) أي وقت الصبح
(فما أغنى) أي ما دفع (عنهم) الضر والبلاء (ما كانوا يكسبون) أي يعملون من بناء البيوت

ان المعدوم شيء وعلى ان
خطاب المعدوم جائز مع
ان الاول منتف عند اكثر
العلماء والثاني بالاجماع
(قلت) اما تسميته شيئا
فمجاز بالاول واما الثاني

الوثيقة واستكثار الاموال والعدد وعن جابر رضى الله تعالى عنه مررنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا
باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته
فاسرع حتى خلفها ولما ذكر تعالى هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه اذا سمع
ان الامم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة قال
تعالى (وما خلقنا السموات والارض) اى على ما لهما من العلو والسعة والارض على ما لها
من المنافع والغرائب (وما بينهما) من هؤلاء المشركين المكذبين وعذابهم ومن المياه والرياح
والسحاب المسبب عنه النبات وغير ذلك (الا بالحق) اى الا خلقا ملتبسا بالحق فيتفكر فيه
من وفقه الله تعالى ليعلم النشأة الآخرة بهذه النشأة الاولى (وان الساعة) اى القيامة
(لآتية) لامحالة فيجازى الله تعالى كل أحد بعمله ثم انه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه
بعد ذلك فى الصفح عن سيآتهم بقوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل) اى اعرض عنهم اعراضا
لاجزع فيه ولا تعجل بالانتقام منهم وهذا منسوخ بآية السيف قال الرازى وهو بعيد لان
المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا اه والاول
جرى عليه البغوى وجماعة من المفسرين ثم علل تعالى هذا الامر بقوله (ان ربك) اى المحسن
اليك الآمر لك بهذا (هو) اى وحده (الخلاق) أى المتكرر منه هذا الفعل (العليم) اى
البالغ العلم بكل المعلومات فليست أقوالهم وأفعالهم الا منه سبحانه وتعالى لانه خالقها وقد
علمت أنه لايضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه فى أخذ حقك فانه نعم المولى ونعم النصير ولما صبره الله
تعالى على أذى قومه وأمره ان يصفح الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص
الله تعالى أفضل خلقه بها بقوله تعالى (ولقد آتيناك) يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة
والقدرة كما آتيناصالحا ما تقدم (سبعا) يكون كل سبع منها كفيلا باغلاق باب من أبواب
النيران السبعة وهى أم القرآن الجامعة لجميع معانى القرآن التى أمرنا باعادتها فى كل ركعة
زيادة فى حفظها وتبركا بلفظها وتذكرا لمعانيها وتخصيصا لها عن بقية الذكر الذى تكفلنا
بحفظه والسبب فى وقوع هذا الاسم على الفاتحة لانها سبع آيات وهذا ما عليه أكثر
المفسرين روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هى السبع المثانى رواه أبو هريرة
وقيل المراد سبع سور وهى الطوال واختلف فى السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما فى
حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بآية البسملة وقيل الحواميم السبع وقيل سبع صحائف
وهى الاسباع وقوله تعالى (من المثانى) صفة للسبع وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شئ
يثنى اى يجعل اثنين من قولك ثنيت الشئ ثنيا اى عطفته وضممت اليه آخر ومنه يقال
لركبتى الدابة ومرفقيها مثانى لانها تثنى بالفخذ والعضد ومثانى الوادى معاطفه أما تسمية
الفاتحة بالمثانى فلوجوه الاول أنها تثنى فى كل صلاة بمعنى أنها تقرأ فى كل ركعة الثانى
أنها تثنى بما بعدها اى يقرأ معها الثالث أنها قسمت قسمين اثنين لما روى أنه صلى الله عليه
وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين والحديث مشهور وقد ذكرته

فلان ذلك خطاب تكوين لاخطاب ايجاد فمنع ان يكون المخاطب موجودا قبل الخطاب لانه انما يكون بالخطاب (قوله وقيل ما فى السموات وما فى الارض من دابة) تجوز

في وجه تسميتها صلاة عند ذكرها الرابع أنها قسمان اثنان ثناء ودعاء وأيضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء الخامس أن كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم وأما السور والاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء كأنها تثني على الله تعالى بافعاله العظمى وصفاته الحسنى ٭ (تنبيه) ٭ من في من المثاني اما للبيان واما للتبعيض اذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال وللبيان ان أردت الاسباع قال الزمخشري ويجوز أن تكون كتب الله كلها مثاني لانها تثني عليه لما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها وقوله تعالى (والقرآن العظيم) أي الجامع لجميع معاني الكتب السماوية المتكفل بخيري الدارين مع زيادات لا تحصى فيه أوجه أحدها أنه من عطف بعض الصفات على بعض أي الجامع بين هذين النعتين الثاني أنه من عطف العام على الخاص اذ المراد بالسبع اما الفاتحة واما الطوال فكانه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجه في العموم الثالث أن الواو مقحمة ٭ ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو انه آتاه سبعا من المثاني والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة في الدنيا بقوله تعالى (لا تمدن عينيك) أي لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات (الى ما متعنا به ازواجا منهم) أي اصنافا من الكفار والزوج في اللغة الصنف وقد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه من أوتي القرآن فرأى أن أحدا أوتي في الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وتأول سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبي صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن أي لم يستغن وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا تمدن عينيك أي لا تتمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا وقيل أتت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في طاعة الله تعالى فقال الله تعالى لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع وقرر الواحدي هذا المعنى فقال انما يكون مادا عينيه الى الشيء اذا أدام النظر نحوه وادامة النظر الى الشيء تدل على استحسانه وتمنيه وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا روى أنه نظر الى ابل بني المصطلق وقد عبست في أبوالها وأبعارها وهو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها اذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي أحسن ما تكون وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم وقوله تعالى (ولا تحزن عليهم) نهي له عن الالتفات اليهم ان لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات الى أولئك الاغنياء من الكفار امره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى (واخفض جناحك) أي ألن جانبك (للمؤمنين) أي العريقين في هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم ٭ ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله

عليه

بالسجود عن الانقياد لانها لا يعقل والسجود على الجبهة فمن يعقل فيه جمع بين الحقيقة والمجاز وانما لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم كما في آية والله خلق كل دابة من ماء لانه

عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به اليهم بقوله تعالى (وقل
اني أنا النذير) من عذاب الله أن ينزل عليكم ان لم تؤمنوا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو
بفتح الياء والباقون بالسكون (المبين) اي البين الانذار وقوله تعالى (كما أنزلنا) اي العذاب
(على المقتسمين) قال ابن عباس هم اليهود والنصارى سموا بذلك لانهم آمنوا ببعض القرآن
وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم
اقتسموا سور القرآن فقال واحد هذه السورة لي وقال آخر هذه السورة لي وانما فعلوا ذلك
استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم ببعضها وقال
قتادة أراد بالمقتسمين كفار قريش قال سموا بذلك لان أقوالهم تقسمت في القرآن فقال بعضهم
انه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الاولين وقال ابن السائب سموا
بالمقتسمين لانهم اقتسموا طرق مكة وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطا من أهل مكة قيل ستة
عشر وقيل أربعين وقال انطلقوا فتفرقوا على طرق مكة حيث يمر بكم أهل الموسم فاذا سألوكم
عن محمد فليقل بعضكم انه مجنون وليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم انه ساحر وليقل
بعضكم انه شاعر فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج العرب وقعد
الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام نصبوه حكما فاذا جاؤا وسألوه قال أولئك فيقول صدقوا
فاهلكهم الله تعالى يوم بدر وقوله تعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) نعت للمقتسمين وقال
ابن عباس هم اليهود والنصارى جزؤا القرآن اجزاء فآمنوا بما وافق التوراة والانجيل
وكفروا بالباقي وقال مجاهد قسموا كتاب الله ففرقوه وبدلوه وقيل كانوا يستهزؤن به فيقول
بعضهم سورة البقرة لي ويقول بعضهم سورة آل عمران لي وقيل اقتسموا القرآن فقال
بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الاولين وقيل
هم أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤنه من كتبهم
فيكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم
سحر وشعر وأساطير الاولين بان غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم
(تنبيه) عضين جمع عضة وهي الفرقة والعضين الفرق وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك
وقيل العضة السحر بلغة قريش يقولون هو عاضه وهي عاضهة وفي الحديث لعن رسول الله
صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة اي الساحرة والمستسحرة وقيل هو من العضه وهو
الكذب والبهتان يقال عضهه عضها وعضيهة اي رماه بالبهتان وقيل جمع عضو مأخوذ من
قولهم عضيت الشئ أعضيه اذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك انهم جعلوا القرآن أعضاء
متفرقة فقال بعضهم سحر وقال بعضهم أساطير الاولين ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على
أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين بقوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين
عما كانوا يعملون) فيكون الضمير عائدا على المقتسمين لانه الاقرب ويحتمل أن يعود على جميع
المكلفين لان ذكرهم تقدم في قوله تعالى وقل اني أنا النذير المبين اي لجميع الخلق قال جماعة
من المفسرين يسئلون عن لا اله الا الله وقال أبو العالية يسئلون عما كانوا يعبدون وما

أراد هنا عموم كل دابة ولم
يقترن بتغليب خطابها التي
تم النوعين وفي تلك وان
أراد العموم لكنه اقترن
بتغليب وهو ذكر ضمير
العقلاء في قوله فانهم حجاب

أجابوا به المرسلين (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى فوربك لنسئلنهم أجمعين و بين قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان (أجيب) بان النفي ينصرف الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت آخر لان يوم القيامة يوم طويل وفيه مواقف يسئلون فى بعضها ولا يسئلون فى بعض آخر ونظيره قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون وقال فى آية أخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاصدع) اى اجهر بما وشقه تفارقا بين الحق والباطل وقرأ حمزة والكسائى باشمام الصاد الساكنة قبل الدال والباقون بالصاد الخالصة (بما) اى بسبب ما (تؤمر) به أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية باظهار الدعوة روى عن عبد الله بن عبيدة قال كان مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (واعرض) اى اعراض من لا يبالى (عن المشركين) بالصفح الجميل عن الاذى والاجتهاد فى الدعاء ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة قال بعض المفسرين كالبغوى وهذا منسوخ بآية القتال قال الرازى وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا ولما كان هذا الصدع فى غاية الشدة عليه صلى الله عليه وسلم لكثرة ما يلقى عليه من الاذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللا (انا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (كفيناك المستهزئين) اى شر الذين هم عريقون فى الاستهزاء وهم خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل وعدى بن قيس والاسود بن عبد المطلب والاسود بن عبد يغوث ووصف سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله تعالى (الذين يجعلون مع الله الها آخر) وقيل ليس بصفة بل مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء فى خبره وهو (فسوف يعلمون) اى عاقبة أمرهم فى الدارين ولما ذكر سبحانه وتعالى ان قومه يسفهون عليه ولا سيما أولئك المقتسمون قال له تعالى (ولقد نعلم) اى تحقق وقوع علمنا (أنك) اى على ما لك من الحلم وسعة البطان (يضيق صدرك) اى يوجد ضيقه ويتجدد (بما يقولون) اى من الاستهزاء والتكذيب بك وبالقرآن لان الجبلة البشرية والمزاج الانسانى يقتضى ذلك فعند هذا قال تعالى (فسبح) ملتبسا (بحمد ربك) اى نزهه عن صفات النقص وقال الضحاك قل سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس فصل بامر ربك (وكن من الساجدين) اى من المصلين روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وتقدمت معناه فى سورة البقرة (تنبيه) اختلف الناس كيف صار الاقبال على الطاعات سببا لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان بهذه الانواع من العبادات يتنور باطنه ويشرق قلبه وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها وقال بعض الحكماء اذا نزل بالانسان بعض المكاره ففزع الى الطاعات فكأنه يقول يا رب يجب على عبادتك سواء أعطيتنى المسرات أو ألقيتنى فى المكاره فانا عبدك بين يديك فافعل بى ما تشاء (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال ابن عباس يريد الموت وسمى الموت يقينا لانه أمر متيقن وهذا مثل قوله تعالى فى سورة مريم

(قوله جن تغليبا للعقلاء (قوله ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قاله هنا وفى الروم بالتاء باعتبار القول اى قل لهم تمتعوا كما فى قوله قل تمتعوا

وأوصاني بالصلوة والزكوة مادمت حيا وروى البغوي بسنده عن ابن جبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله الى أن اجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى الى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (فان قيل) اى فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه اذا مات سقطت عنه العبادات (أجيب) بان المراد منه واعبد ربك في جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات الدنيا بهذه العبادات وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

سورة النحل مكية

الا قوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة وحكى الاصم عن بعضهم أنها كلها مدنية وقال آخرون من أولها الى قوله كن فيكون مدني وما سواه مكي وعن قتادة بالعكس وتسمى سورة النعم والمقصود من هذه السورة الدلالة على انه تعالى تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار منزه عن شوائب النقص وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من شأنها في دقة الفهم في ترتيب بيوتها ورعيها وسائر أمرها من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها وجعله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة وغير ذلك من الامور ووسمها بالنعم واضح وهي مائة وثمانية وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف (بسم الله) اى المحيط بدائرة الكمال فما شاء فعل (الرحمن) اى الذي عمت نعمته جليل خلقه وحقيره صغيره وكبيره (الرحيم) اى الذي خص من شاء بنعمة النجاة عما يسخطه بعد أن أراه وقوله تعالى (أتى أمر الله) فيه وجهان أحدهما أنه ماض لفظا مستقبل معنى اذ المراد به يوم القيامة وانما أبرزه في صورة ما وقع وانقضى تحقيقا له ولصدق المخبر به والثاني أنه على بابه والمراد مقدماته وأوائله وهو نصر رسوله صلى الله عليه وسلم اى جاء أمر الله ودنا وقرب فانه يقال في الكلام المعتاد انه قد أتى ووقع اجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع يقال لمن طلب الاعانة وقرب حصولها جاءك الغوث اى أتى امر الله وعدا (فلا تستعجلوه) اى لا تطلبوا حصوله قبل مجيئه فانه واقع لا محالة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه السبابة والوسطى قال ابن عباس كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ولما مر جبريل بأهل السموات مبعوثا الى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وروى أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا أى محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم ان القيامة قد اقتربت فامسكوا عن

فان مصيركم الى النار وقوله قل تمتع بكفرك قليلا وقال في العنكبوت وليتمتعوا فسوف يعلمون باللام والياء على القياس اذ هو معطوف على اللام

بعض ما تقولون حتى تنظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيأ فنزل اقترب للناس حسابهم فاشفقوا وانتظروا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزل أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا فلما كان الكفار قالوا سلنا لك يا محمد الا أنا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به فاجابهم الله تعالى بقوله تعالى (سبحانه) أي تنزيها له (وتعالى عما يشركون) اي تبرأ سبحانه وتعالى بالاوصاف الحميدة عن أن يكون له شريك في ملكه وقرأ حمزة والكسائي أتى بالامالة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ حمزة والكسائي عما تشركون في الموضعين بالتاء على وفق قوله فلا تستعجلوه والباقون بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب أو على ان الخطاب للمؤمنين أولهم ولغيرهم ❊ ولما أجاب سبحانه وتعالى الكفار عن شبهتهم بقوله تنزيها لنفسه عما يشركون وكان الكفار قالوا هب ان الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى آخرين بالخير ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الامور التي لا يعلمها الا الله تعالى وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله تعالى وأحكامه في ملكه وملكوته فاجابهم الله تعالى بقوله (ينزل الملائكة) قال ابن عباس يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدي يسمى الواحد بالجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الزاي والباقون بتشديدها والمراد (بالروح) الوحي أو القرآن فان القلوب تحيا به من موت الجهالات وقوله تعالى (من امره) اي بارادته حال من الروح (على من يشاء من عباده) وهم الانبياء (أن أنذروا) اي خوفوا الكافرين بالعذاب وأعلموهم (أنه) اي الشان (لا اله الا أنا) اي لا اله غيري وقوله تعالى (فاتقون) اي خافون رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود ❊ (تنبيه) ❊ في قوله تعالى ان أنذروا ثلاثة أوجه أحدها انها المفسرة لان الوحي فيه ضرب من القول والانزال بالروح عبارة عن الوحي قال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا الثاني أنها المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان محذوف الثالث أنها المصدرية التي من شأنها نصب المضارع ووصلت بالامر كقولهم كتبت اليه بان قم والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة وان النبوة عطاءة ❊ ولما وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر الآيات الدالة على وحدانيته من حيث انها تدل على أنه تعالى هو الموجد لاصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى (خلق السموات) اي التي هي السقف المظل (والارض) اي التي هي البساط المقل (بالحق) أي اوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته (تعالى) اي تعالى البالغ الوصف (عما يشركون) به من الاصنام ❊ ولما كان خلق السموات والارض غيبا تقدمه وكان خلق الانسان على هذه الصفة شهادة فتكون أقوى في الدلالة على وحدانيته تعالى قال تعالى (خلق الانسان) اي هذا النوع (من نطفة) اي آدم عليه السلام من مطلق الماء ومن تفرع منه بعد زوجه حواء من ماء مقيد بالدفق الى أن صيره قويا شديدا (فاذا هو خصيم) اي شديد الخصومة (مبين) اي بينها روي ان أبي

ابي

ومدخولها في قوله ليكفروا
بما آتيناهم ومدخولها
غائب (قوله ولو يؤاخذ الله
الناس بظلمهم ما ترك عليها)
اي على الارض من دابة
قال ذلك هنا وقال في فاطر

ابن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال تزعم يا محمد ان الله يحيي هذا العظم بعد ما قد رم فنزلت هذه الآية ونزل فيه أيضا قوله تعالى قال من يحيي العظام وهي رميم قال الخازن في تفسيره والصحيح ان الآية عامة في كل ما يقع فيه الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى ولما كان أشرف الاجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الانسان سائر الحيوانات وأشرفها الانعام ذكرها بقوله تعالى (والانعام) اى الازواج الثمانية الضأن والمعز والابل والبقر ونصبه بفعل يفسره (خلقها) قال الواحدي تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال (لكم فيها دفء) اى ما يدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار قال ويجوز أيضا ان يكون تمام الكلام عند قوله والانعام خلقها لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال الرازي قال صاحب النظم واحسن الوجهين ان يكون الوقف عند قوله تعالى خلقها والدليل عليه انه عطف عليه ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال ولما ذكر تعالى الانعام ذكر لها أنواعا من المنافع الاول قوله تعالى لكم فيها دفء النوع الثاني قوله تعالى (ومنافع) اى ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام وانما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان الدر والنسل قد ينتفع به في الاكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود وقد ينتفع به بان يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل النوع الثالث قوله تعالى (ومنها تأكلون) فان قيل تقديم الظرف يفيد الحصر لان تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها (أجيب) بان الاكل من هذه الانعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فليس يعتمد به في الاغلب وانما يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الغالب في الاكل من هذه الانعام (فان قيل) منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم قدمت منفعة اللباس عليه (أجيب) بان منفعة اللباس أكثر من منفعة الاكل فلهذا قدمت على منفعة الاكل (ولكم فيها جمال) اى زينة (حين تريحون) اى تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) اى تخرجونها بالغداة الى المرعى فان الافنية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين اليها (فان قيل) لم قدمت الاراحة على التسريح (أجيب) بان الجمال في الاراحة أظهر اذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت الى الحظائر حاضرة لاهلها فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تأخذ في التفرق والانتشار للمرعى في البرية فليس في التسريح جمل كما في الاراحة النوع الرابع قوله تعالى (وتحمل أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر (الى بلد) اى غير بلدكم أردتم السفر اليه (لم تكونوا بالغيه) اى غير واصلين اليه على غير الابل (الا بشق الانفس) اى الا بكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف الشيء اى لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها وقال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشام والى مصر قال الواحدي والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير ابل لشق عليكم

بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ترك لفظ ظهرها هنا احترازا عن الجمع بين الظاءين في ظهرها وظلمهم بخلافه في فاطر اذ لم يذكر فيها بظلمهم (فان قلت)

وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر أهل مكة كانت الى هذه البلاد (فان قيل) المراد من قوله تعالى والانعام خلقها لكم الابل فقط بدليل أنه وصفها الى آخر الآية بقوله وتحمل أثقالكم الى بلد وهذا الوصف لا يليق الا بالابل (أجيب) بان المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع حاصل في الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه أن قوله ولكم فيها جمال حاصل في البقر والغنم مثل حصوله في الابل ٭ (تنبيه) ٭ احتج منكرو كرامات الاولياء بهذه الآية فانها تدل على أن الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الا بشق الانفس وحمل الاثقال على الابل ومثبتو الكرامات يقولون ان الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة وكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا واذا بطل القول بالكرامات في هذه الصورة بطل القول بها في سائر الصور اذ لا قائل بالفرق وأجاب المثبتون بانا نخص من عموم هذه الآية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات (ان ربكم) أي الموجد لكم والمحسن اليكم (لرؤف) أي بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بما يرضيه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمد (رحيم) أي بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب وقوله تعالى (والخيل) أي الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط (والبغال) أي المتولدة بينها وبين الحمير (والحمير) أي الناهقة عطف على الانعام أي وخلق هذه الحيوانات (لتركبوها) أي لاجل ان تركبوها وفي نصب قوله تعالى (وزينة) أوجه أحدها انه مفعول من أجله وانما وصل الفعل الى الاول باللام في قوله تعالى لتركبوها والى هذا بنفسه لاختلاف شرطه في الاول وهو عدم اتحاد الفاعل فان الخالق هو الله تعالى والراكب المخاطبون بخلاف الثاني الثاني انها منصوبة على الحال وصاحب الحال اما مفعول خلقها واما مفعول لتركبوها فهو مصدر أقيم مقام الحال الثالث أن ينتصب بتقدير فعل قدره الزمخشري بقوله وخلقها زينة وقدره ابن عطية وغيره بقولهم وجعلها زينة الرابع أنها مصدر لفعل محذوف أي وتتزينون بها زينة ٭ (تنبيه) ٭ احتج القائلون وهم ابن عباس والحاكم وأبو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية قالوا منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان أكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكره تعالى علمنا أنه يحرم أكله لان الله تعالى نص الانعام بالاكل حيث قال تعالى ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل واحتج القائلون باباحة أكل اللحم من الخيل وهم سعيد بن جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعي بما روى عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة وبما روى عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن في الخيل وفي رواية أكلنا زمن خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي هذه رواية البخاري ومسلم وفي رواية أبي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وأجابوا عن هذه الآية بان ذكر الركوب والزينة لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك

الآية تقتضي مؤاخذة الورى بظلم الظالم وذلك لا يحسن من الحكيم (قلت) المراد بالظلم هنا الكفر وبالدابة الدابة الظالمة وهي الكافر

وانما

وانما خص هاتين المنفعتين بالذكر لانهما معظم المقصود ولهذا سكت من حمل الاثقال على الخيل مع قوله تعالى فى الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من ذلك تحريم حمل الاثقال على الخيل وقال الواحدى لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذا الحيوان لكان تحريم أكلها معلوما فى مكة لاجل ان هذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر اى وذلك فى المدينة باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يكن لتخصيص هذا التحريم بهذه السنة فائدة قال الرازى وهذا جواب حسن متين وقال ابن الخازن والدليل الصحيح المعتمد عليه فى اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضى ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه ودار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير أخذنا به جمعا بين النصين ● ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الانواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الاجمال بقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) وذلك لان أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان فى شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كالقطرة فى البحر فكان أحسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى فى هذه الآية وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس انه قال ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل كل يوم ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نفضة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل كل يوم منهم سبعون ألفا البيت المعمور وفى الكعبة أيضا سبعون ألفا لا يعودون اليه الى ان تقوم الساعة سبحان من له هذا الملك العظيم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وفسر قتادة الآية بالسوس فى النبات والدود فى الفواكه وفسرها بعضهم بما أعد الله تعالى لاهل الجنة فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ● ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال تعالى (وعلى الله) اى الذى له الاحاطة بكل شئ (قصد السبيل) اى بيان الطريق المستقيم انما ذكرت هذه الدلائل وشرحها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة والمراد بالسبيل الجنس ولذا أضاف اليها القصد وقال (ومنها) اى السبيل (جائر) اى حائد عن الاستقامة (فان قيل) هذه الآية تدل على ان الله تعالى يجب عليه الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار كما قال به المعتزلة لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت (أجيب) بان المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح (فان قيل) لم غير أسلوب الكلام حيث قال فى الاول وعلى الله قصد السبيل وفى الثانى ومنها جائر دون وعليه جائر (أجيب) بان المقصود بيان سبله وتقسيم السبيل الى القصد والجائر انما جاء بالعرض ثم قال تعالى (ولو شاء) هدايتكم (لهداكم) الى قصد السبيل (أجمعين) فتهتدون اليه باختيار منكم قال الرازى وهذا يدل على ان الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره ● ولما ذكر تعالى نعمه على

كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما (قوله فاحياه به الارض بعد موتها) قال هنا بعد نفس من اهدم ذكرها فيه وليوافق ما بعدها بعده من قوله لكيلا يعلم بعد علم شيا

عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر لانه من أعظم النعم على عباده فقال (هو) اى لا غيره مما تدعى فيه الالهية (الذى أنزل) اى بقدرته الباهرة (من السماء) اما من نفسها أو من غيرها أو من جهتها أو من السحاب كما هو مشاهد (ماء) اى واحدا تحسونه بالذوق والبصر (لكم منه) اى من ذلك الماء (شراب) اى تشربونه وقد بين تعالى فى آية أخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل شئ حى (فان قيل) ظاهر هذا ان شرابنا ليس الا من المطر (أجيب) بانه تعالى لم ينف أن نشرب من غيره وبتقدير الحصر لا يمتنع ان يكون الماء العذب تحت الارض من جملة ماء المطر سكن هناك بدليل قوله فى سورة المؤمنون وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الارض (ومنه) اى من الماء (شجر) اى ينبت بسببه والشجر هنا كل نبات من الارض حتى الكلأ وفى الحديث لا تاكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ (فان قيل) قال المفسرون فى قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان المراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ماله ساق (أجيب) بان عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وأيضا فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط يقال تشاجر القوم اذا اختلط أصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرياح اذا اختلطت وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلأ فوجب اطلاق لفظ الشجر عليه ويصح ان يكون المراد بالشجر هنا ماله ساق لان الابل تقدر على رعى ورق الاشجار الكبار وحينئذ فاطلاق الشجر على الكلأ مجاز (فيه) اى الشجر (تسيمون) اى ترعون مواشيكم يقال أسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت هى اذا رعت حيث شاءت قال الزجاج أخذ ذلك من السومة وهى العلامة لانها تؤثر فى الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم الارسال فى المرعى ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا واجمالا ذكر الثمار تفصيلا واجمالا بقوله تعالى (ينبت) اى الله (لكم به) اى بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير والارز لان به قوام البدن وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن والبركة فيه وثلث بذكر النخيل لان ثمرها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانه شبيه النخيل فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر تعالى سائر الثمار اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده لان الحبة الواحدة تقع فى الطين فاذا مضى عليها مقدار معين من الوقت نفذ فى داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الارض ونداوتها فتنتفخ الحبة فينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الى الهواء ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة فى قعر الارض وهذه الغائصة هى المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ثم تخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك الثمار تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان والى ذلك الاشارة بقوله تعالى (ان فى ذلك لآية) بينة على ان فاعل ذلك تام القدرة يقدر على الاعادة وانه مختار يفعل ذلك فى الوقت الذى يريده وانما تحصل معرفة ذلك (لقوم يتفكرون) فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته فيؤمنون ثم ذكر سبحانه وتعالى

وقوله فى العنكبوت بانبائها ليوافق التعبير بها فى قوله ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء وانبتها [illegible] فى قوله فى الحج الكلأ [illegible] من بعد علم شيئا ليوافق التعبير بالقبل فى قوله

أشياء

أشياء تدل على أنه الفاعل المختار بقوله تعالى (وسخر لكم) أي أيها الناس لاصلاح أحوالكم (الليل) للسكون (والنهار) للمعاش ثم ذكر آية النهار فقال (والشمس) أي لمنافع اختصاصهم اثر آية الليل فقال (والقمر) لامور علقها به (والنجوم) أي الآيات أصحبها لها ثم نبه على تغيرها بقوله تعالى (مسخرات) أي بأنواع التغير لما خلقها الله على أوضاع دبرها (بأمره) أي بإرادته سببا لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم دلالة على وحدانيته تعالى وفعله تعالى بالاختيار ولو شاء تعالى لأقام أسبابا غيرها أو أغنى عن الأسباب وقرأ ابن عامر برفع الأربع وهي الشمس والقمر والنجوم ومسخرات على الابتداء والخبر ووافقه حفص في الاثنين الأخيرين والنجوم مسخرات لا غير والباقون بالنصب عطفا على ما قبله في الثلاثة الأول وفي الرابع وهو مسخرات على الحال ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الأشياء وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله (إن في ذلك) أي التسخير العظيم (لآيات) أي دلالات متعددة كثيرة عظيمة (لقوم يعقلون) أي يتدبرون فيعلمون أن جميع الخلق تحت قدره وقدرته وتسخيره لما أراده منهم وقوله تعالى (وما ذرأ) أي خلق (لكم في الأرض) عطف على الليل أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات وقيل إنه في موضع نصب بفعل محذوف أي وخلق هكذا قدره أبو البقاء وكأنه استبعد تسلط سخر على ذلك فقدر فعلا لائقا وقوله تعالى (مختلفا) حال منه وقوله تعالى (ألوانه) أي في الخلقة والهيئة والكيفية فاعل به (إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) أي يتعظون (تنبيه) ختم تعالى الآية الأولى بالتفكر لأن ما فيها يحتاج إلى تأمل ونظر وختم الثانية بالعقل لأن مدار ما تقدم عليه وختم الثالثة بالتذكر لأنه نتيجة ما تقدم وجمع الآيات في الثانية دون الأولى والثالثة لأن ما نيط بها أكثر ولذلك ذكر معها العقل ولما استدل سبحانه وتعالى على إثبات الإله أولا بأجرام السموات والأرض وثانيا ببدن الإنسان وثالثا بعجائب خلقة الحيوان ورابعا بعجائب النبات ذكر خامسا عجائب العناصر وبدأ بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالى (وهو) أي لا غيره وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها (الذي سخر البحر) أي ذلله وهيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكون الجواهر وغير ذلك قال علماء الهيئة ثلاثة أرباع كرة الأرض غائصة في الماء فذلك هو البحر المحيط وجعل في هذا الربع المسكون سبعة أبحر قال تعالى والبحر يمده من بعده سبعة أبحر والبحر الذي سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار فتسخيرها للخلق مأمور منه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها بالركوب وبالغوص وبغير ذلك فمنافع البحار كثيرة وذكر سبحانه وتعالى منها هنا ثلاثة منافع الأولى قوله تعالى (لتأكلوا منه) أي بالاصطياد وغيره من لحوم الأسماك (لحما طريا) لا تجدانه منه ولا ألين وهو أرطب اللحوم فيسرع إليه الفساد فيبادر إلى أكله عذبا في ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى وذلك أن السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري لأنه لما خرج من البحر الملح الحسم الطري في غاية العذوبة علم أنه بخلق الله وقدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك أن الله تعالى قادر على إخراج الضد من الضد المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه) أي بجهدكم في الغوص وما يتبعه (حلية) أي اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ

خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية (قوله نسقيكم مما في بطونه) قال هنا باعتبار الضمير مذكرا وفي المؤمنين بطونها جمعه وثناه نظرا هنا إلى أن الأنعام مفرد كما نقله الزمخشري عن سيبويه

والمرجان (تلبسونها) اى نساؤكم ومن بعضكم فكأن اللابس أنتم ولان زينة النساء بالحلى
انما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم * المنفعة الثالثة قوله تعالى (وترى الفلك) اى السفن
(مواخر) اى تمخر الماء اى تشقه بجريها (فيه) اى مقبلة ومدبرة وذلك أنك ترى سفينتين
احداهما تقبل والاخرى تدبر بريح واحدة وقال مجاهد تمخر الريح السفن يعنى أنها اذا جرت
يسمع لها صوت وقال الحسن مواخر يعنى مملوأة متاعا وقوله تعالى (ولتبتغوا) اى لتطلبوا
عطف على تأكلوا وما بينهما اعتراض وقيل عطف على محذوف تقديره لتنتفعوا بذلك
ولتبتغوا (من فضله) اى من سعة رزقه بركوبها للتجارة وللوصول الى البلدان الشاسعة
(ولعلكم تشكرون) الله على هذه النعم التى أنتم عاجزون عنها ولا تحصونها * ثم انه تعالى ذكر
بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الارض بقوله تعالى (وألقى فى الارض رواسى) أى جبالا
ثوابت (أن تميد) اى كراهة ان تميل وتضطرب (بكم) وقيل لئلا تميل بكم والاول قدره
البصريون والثانى قدره الكوفيون وقد تقدم مثل ذلك فى قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا
روى ان الله تعالى خلق الارض فجعلت تمور فقالت الملائكة ما هى بمقر أحد على ظهرها
فاصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت وقوله تعالى (وأنهارا) عطف على
رواسى لان الالقاء بمعنى الخلق والجعل ألا ترى أنه تعالى قال فى آية أخرى وجعل فيها رواسى
من فوقها وقال تعالى وألقيت عليك محبة منى وذكر تعالى الانهار بعد الجبال لان
معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال (و) جعل لكم فيها (سبلا) اى طرقا
مختلفة تسلكون فيها فى أسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان
(لعلكم تهتدون) اى بتلك السبل الى مقاصدكم والى معرفة الله تعالى فلا تضلون
(و) جعل لكم فيها (علامات) اى من الجبال وغيرها جمع علامة تهتدون بها فى أسفاركم * ولما
كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأوضحها برا وبحرا ليلا ونهارا نبه على عظمها بالالتفات
الى مقام الغيبة لافهام العموم لئلا يظن ان المخاطب مخصوص والامر لا يتعداه فقال تعالى
(وبالنجم) اى الجنس (هم) اى أهل الارض كلهم وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش
ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم (يهتدون) وقدم الجار تنبيها على أن الدلالة بغيره بالنسبة
اليه سافلة وقيل المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى وقيل الضمير لقريش
لانهم كانوا كثيرى الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجوم * ولما ذكر سبحانه
وتعالى من عجائب قدرته وبديع خلقه ما ذكر على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت هذه
الاشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه
تعالى المنفرد بخلقها جميعها قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه
الاصنام العاجزة التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ (أفمن يخلق) أى هذه الاشياء الموجودة
وغيرها (كمن لا يخلق) شيأ من ذلك بل على ايجاد شئ ما فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل
بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى (فان قيل) ذلك الزام
للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق فكان حق
الالزام أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق (أجيب) بانهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى

وثم الثانى انه جمع كما هو الشائع
(قوله والله جعل لكم من
أنفسكم أزواجا) اى من
جنسكم كما قال الله تعالى
لقد جاءكم رسول من
أنفسكم (قوله وبنعمة الله
هم يكفرون) لفظ هنا زيادة

في تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبهاً بها فانكر عليهم ذلك بقوله تعالى افمن يخلق كمن لا يخلق (فان قيل) من لا يخلق ان اريد به جميع ما عبد من دون الله كان ورود من واضحاً لان العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جيء ايضاً بما لجاز وان اريد به الاصنام فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم (اجيب) بانهم سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى اولي العلم الا ترى الى قوله تعالى على اثره والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيأ وهم يخلقون والى قول الشاعر

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي ∗ فقلت ومثلي بالبكاء جدير
اسرب القطا هل من يعير جناحه ∗ لعلي الى من قد هويت اطير

فاوقع من على سرب لما عامله معاملة العقلاء وقيل للمشاكلة بينه وبين ما يخلق وقيل المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من اولي العلم فكيف بما لا علم عنده كقوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها يعني ان الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لان هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف تصح لهم العبادة لا انها لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح أن يعبدوا ولما كان هذا القدر ظاهراً غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى تدقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل ختم تعالى ذلك بقوله تعالى (أفلا تذكرون) بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه فتؤمنون ∗(تنبيه)∗ احتج أهل السنة بهذه الآية على أن العبد غير خالق لافعال نفسه لانه تعالى ميز نفسه عن الاشياء التي يعبدونها بصفة الخالقية لان الغرض من قوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق بيان تميزه عن هذه الاشياء بصفة الخالقية وانه انما استحق الالهية والعبودية لكونه تعالى خالقاً وهذا يقتضي ان العبد لو كان خالقاً لشيء لوجب كونه الهاً معبوداً ولما كان ذلك باطلاً علمنا ان العبد لا يقدر على الخلق والايجاد ولما كانت المقدورات لا تحصى وأ كثرها نعم على العباد مذكرة لهم بخالقهم قال ممتناً عليهم باحسانه من غير سبب منهم (وان تعدوا) كلكم (نعمة الله) اى انعام الملك الاعظم الذى لا رب غيره عليكم من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين ومشي الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون اليه من أمر الدنيا حتى لو رام أحدكم معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عنها وعن معرفتها وحصرها فان تتبعها يفوت الحصر (لا تحصوها) أى لا تضبطوا اعدادها ولا تبلغه طاقتكم مع كفرها واعراضكم جملة عن شكرها والعبد وان أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر نعم الله تعالى فانه يكون مقصراً لان نعم الله كثيرة وأقسامها عظيمة وعقل الخلق قاصر عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها لكن الطريق الى ذلك أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها (ان الله لغفور) أي لتقصيركم في القيام بشكرها بحق النعمة كما يجب عليكم (رحيم) بكم فوسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي وقوله تعالى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) فيه وجهان الاول ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون اى وما يظهرون من

هم وفي العنكبوت بدونها لان ما هنا اتصل بقوله والله جعل لكم من انفسكم ازواجا الخ وهو بالخطاب ثم انتقل الى الغيبة فقال افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم

أداه صلى الله عليه وسلم فاخبر الله تعالى بانه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لايخفى عليه خافية وان دقت وخفيت والوجه الثانى أنه تعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها فى الآية المتقدمة ذكر فى هذه الآية ان الاله الذى يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة * ثم وصف تعالى هذه الاصنام بصفات * الاولى مذكورة فى قوله تعالى (والذين تدعون) اى تعبدون (من دون الله) اى الاصنام وتعتقدون انها آلهة وقرأ عاصم بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (لايخلقون شيأ وهم يخلقون) اى يصورون من الحجارة وغيرها (فان قيل) قوله تعالى فى الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لايخلق يدل على أن هذه الاصنام لا تخلق شيأ وهم يخلقون وهذا هو المعنى المذكور فى تلك الآية المذكورة فما فائدة هذا التكرار (أجيب) بان فائدته أن المعنى المذكور فى الآية المتقدمة أنهم لايخلقون شيأ فقط والمذكور فى هذه الآية أنهم لايخلقون شيأ وهم يخلقون كغيرهم فكان هذا زيادة فى المعنى وهو فائدة التكرار فكانه تعالى بدأ بشرح نقصهم فى ذواتهم وصفاتهم فبين أولا أنها لا تخلق شيأ ثم بين ثانيا أنها كما لا تخلق غيرها فهى مخلوقة كغيرها * الصفة الثانية قوله تعالى (أموات) اى جمادات لاروح لها (غير أحياء) اذ الاله الذى يستحق أن يعبد هو الحى الذى لايموت (فان قيل) علم من قوله أموات أنها غير أحياء فما الفائدة فى ذكره (أجيب) بان من الاموات ما يعقب موته حياة كالنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا واجساد الحيوانات التى تبعث بعد موتها وأما الحجارة فاموات لايعقب موتها حياة وذلك أعرق فى موتها وقيل ذكر للتأكيد بان الكلام مع الكفار الذين يعبدون الاوثان وهم فى نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغبى فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه الاعلام بكون المخاطب فى غاية الغباوة فى أنه لايفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة * الصفة الثالثة قوله تعالى (ومايشعرون) أى الاصنام (أيان) اى وقت (يبعثون) اى وما تعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الاحياء تهكما بها لان شعور الجماد محال فكيف بشعور ما لايعلمه الا الحى القيوم سبحانه وتعالى وقيل الضمير راجع للاصنام قال ابن عباس ان الله تعالى يبعث الاصنام لها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بالكل الى النار وقيل المراد بقوله تعالى والذين تدعون من دون الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله تعالى انهم أموات اى لابد لهم من الموت غير أحياء اى باقية حياتهم ومايشعرون اى لا علم لهم بوقت بعثهم * ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الاصنام وبين فساد مذهبهم قال تعالى (الهكم) اى أيها الخلق جميعا المعبود بحق (اله) اى متصف بالالهية على الاطلاق بالنسبة الى كل أوان وكل زمان وكل مكان (واحد) لايقبل التعدد الذى هو مثار النقص بوجه من الوجوه لان التعدد يستلزم امكان التمانع المستلزم للعجز المستلزم للبعد عن رتبة الالهية (فالذين) اى فتسبب عن هذا أن الذين (لايؤمنون بالآخرة) اى دار الجزاء ومحل اظهار الحكم الذى هو ثمرة الملك والعدل الذى هو مدار العظمة (قلوبهم منكرة) اى جاحدة للوحدانية (وهم) اى والحال انهم بسبب انكار ذلك (مستكبرون) اى متكبرون عن الايمان بها (لاجرم) اى حقا (ان الله يعلم) علما غيبيا

وشاهديا

يكفرون فلو ترك هم
لالتبست الغيبة بالخطاب
(قوله بان تبدل الياء تاء)
يعبدون من دون الله مالا
يملك لهم رزقا من السموات
والارض شيأ ولا
يستطيعون) غلب فيه
من يعقل على من لا يعقل

وشاهديا (مايسرون) اى مايخفون مطلقا أو بالنسبة الى بعض الناس (ومايعلنون) اى يظهرون فيجازيهم بذلك * ولما كان فى ذلك معنى التهديد عال ذلك بقوله تعالى (انه) اى العالم بالسر والعلن (لايحب المستكبرين) اى على خلقه فمابالك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى عدم محبتهم انه يعاقبهم وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يارسول الله ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس ومعنى بطر الحق أنه يستكبر عند سماع الحق فلايقبله ومعنى غمص الناس استنقاصهم وازدراؤهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة فى ابطال مذاهب عبدة الاصنام قال تعالى عاطفا على قلوبهم منكرة (واذا قيل لهم) اى لهؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة وقوله تعالى (ما) استفهامية و(ذا) موصولة اى ما الذى (أنزل ربكم) على محمد صلى الله عليه وسلم واختلف فى قائل هذا القول فقيل كلام بعضهم لبعض وقيل قول المسلمين لهم وقيل قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم (قالوا) مكابرين فى انزال القرآن هو (أساطير) اى أكاذيب (الاولين) مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضتهم أقصر سورة منه مع علمهم بانهم أفصح الناس وأنه لايكون من احد من الناس متقدم أو متأخر قول الا قالوا أبلغ منه (فان قيل) هذا كلام متناقض لانه لا يكون منزلا من ربهم وأساطير (أجيب) بانهم قالوه على سبيل السخرية كقوله ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون واللام فى قوله تعالى (ليحملوا) لام العاقبة كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وذلك لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كان عاقبتهم بذلك ان يحملوا (اوزارهم) اى ذنوب انفسهم وانما قال تعالى (كاملة) لئلا يتوهم انه يكفر عنهم شئ بسبب البلايا التى اصابتهم فى الدنيا وأعمال البر التى عملوها فى الدنيا بل يعاقبون بكل أوزارهم (يوم القيامة) الذى لاشك فيه ولامحيص عن اتيانه قال الرازى وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة (و) ليحملوا أيضا (من) جنس (أوزار) الجهلة الضعفاء (الذين يضلونهم) وقوله تعالى (بغير علم) حال من مفعول يضلونهم اى يضلون من يعلم أنهم ضلال أو من الفاعل وانما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وان لم يعلم لانه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل وانما حصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل أوزار الاتباع لانهم دعوهم الى الضلال فاتبعوهم فاشتركوا فى الاثم وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث أن الرئيس والكبير اذا سن سنة حسنة أو سيئة قبيحة فتبعه عليها

فعبر بالواو والنون اذ المعبود من يعقل كالعزير والمسيح ومن لا يعقل كالاصنام وافرد عليك نظرا الى لفظ ما وجمع فيستطيعون نظرا الى معناها كما قال وجعل لكم من الفلك

جماعة فعملوا بها فان الله تعالى يعطيهم ثوابه وعقابه حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بالسنة الحسنة أو القبيحة وليس المراد بان الله يوصل جميع الثواب أو العقاب الذى يستحقه الاتباع الى الرؤساء ويدل لذلك قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى *(تنبيه)* قال الواحدى لفظة من فى قوله تعالى ومن اوزار ليست للتبعيض لانها لو كانت كذلك لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وقد قال صلى الله عليه وسلم لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ لكنها للجنس كما قدرت ذلك فى الآية الكريمة اى ليحملوا من جنس اوزار الاتباع وقيل انها للتبعيض وجرى عليه البيضاوى تبعا للزمخشرى (الاساء) اى بئس (مايزرون) اى يحملون حملهم هذا وفى هذا وعيد وتهديد لهم (فان قيل) ان الله تعالى حكى هذه الشبهة عن القوم ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب فى ذلك (اجيب) بان السبب فيه انه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين الاول انه صلى الله عليه وسلم تحداهم اولا بكل القرآن وثانيا بعشر سور وثالثا بسورة فعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزا الثانى انه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها فى آية اخرى وهى قوله تعالى اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا وابطلها بقوله تعالى قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ومعناه ان القرآن يشتمل على الاخبار بالغيوب وذلك لا يتاتى الا ممن يكون عالما باسرار السموات والارض * ولما ثبت كون القرآن معجزا بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لاجرم اقتصر فى هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجرى مجرى الجواب عن هذه الشبهة ثم انه سبحانه وتعالى بالغ فى وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم) اى من رأوا آثارهم ودخلوا فى ديارهم (فاتى الله) أى أمره (بنيانهم من القواعد) أى من جهة العمد التى بنوا عليها مكرهم (فخر) أى سقط (عليهم السقف من فوقهم) وصار سبب هلاكهم وقرأ ابو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم واما الوقف فحمزة بضم الهاء على اصله والباقون بالكسر (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) اى من جهة لا تخطر ببالهم وهذا على سبيل التمثيل اى التشبيه والتخييل لافساد ما أبرموه من المكر بالرسل فجعل الله هلاكهم فيما أبرموه كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فاتى البنيان من الاساطين بان تضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا ونحوه من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا وقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ليصعد الى السماء قال ابن عباس كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب كان طوله فرسخين فاهب الله تعالى الريح فالقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى وهم تحته قال البغوى ولما سقط الصرح تبلبلت السن الناس يومئذ من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية فذلك قوله تعالى فاتى الله بنيانهم من القواعد اى أتى امره فضرب بنيانهم من أصله فخر عليه وعلى قومه السقف اى أعلى البيوت من فوقهم فهلكوا *(تنبيه)* قال ابن الخازن فى قول البغوى وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان اهل

والانعام جاز كون استووا على ظهوره وحيث افرد الضمير نظرا الى لفظ ما وجمع الظهور نظرا الى معناها (فان قلت) ما فائدة نفى استطاعة الرزق بعد نفى ملكه (قلت) ليس فى

اليمن مر باضنهم جرهم الذين نشأ اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان ببابل من العرب طائفة قديمة قبل ابراهيم عليه السلام انتهى وقد يقال انه كان لسان أكثر الناس بالسريانية فلا ينافى ذلك (فان قيل) مافائدة قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم والسقف من فوقهم (أجيب) بانهم قد لا يكونون تحته فلما قال تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم دل على انهم كانوا تحته وحينئذ يفيد هذا الكلام بان الابنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها * ولما ذكر الله تعالى حال أصحاب المكر فى الدنيا ذكر حالهم فى الآخرة بقوله عز وجل (ثم يوم القيامة يخزيهم) أى يذلهم ويهينهم بعذاب النار (ويقول) لهم الله تعالى على لسان الملائكة توبيخا (أين شركائى) أى فى زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون) أى تخالفون المؤمنين (فيهم) أى فى شأنهم وقرأ نافع بكسر النون والباقون بفتحها (قال) أى يقول (الذين أوتوا العلم) أى من الانبياء والمؤمنين وقال ابن عباس يريد الملائكة (ان الخزى) أى البلاء المذل (اليوم) أى يوم الفصل الذى يكون للفائز فيه العاقبة المأمونة (والسوء) أى كل ما يسوء (على الكافرين) أى العريقين فى الكفر الذين تكبروا فى غير موضع التكبر وفائدة قولهم اظهار الشماتة وزيادة الاهانة وحكايته لتكون لطفا لمن سمعه *(تنبيه)* فى الآية دلالة على ان ماهية الخزى وماهية السوء فى يوم القيامة مختصة بالكافرين وهذا ينفى حصول هذه الماهية فى حق غيرهم ويؤكده هذا قول موسى عليه السلام انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى ثم انه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) أى تقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه عليهم السلام وقرأ حمزة فى هذه الآية وفى الآية الآتية بالياء فى الموضعين على التذكير لان الملائكة ذكور والباقون بالتاء على التأنيث لان لفظا لجمع مؤنث (ظالمى أنفسهم) أى بان عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم (فالقوا السلم) أى استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قائلين (ما كنا نعمل من سوء) أى شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة (بلى) أى بل كنتم تعملون أعظم السوء ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى (ان الله عليم بما كنتم تعملون) أى فلا فائدة لكم فى انكاركم فيجازيكم به * ولما كان هذا الفعل مع العلم سببا لدخول جهنم قال تعالى (فادخلوا) أى أيها الكفرة (أبواب جهنم) أى أبواب طبقاتها ودركاتها (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) أى جهنم لا يخرجون منها وانما قال تعالى ذلك لهم ليكون أعظم فى الخزى والغم وفى ذلك دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض ثم قال تعالى (فلبئس مثوى) أى مأوى (المتكبرين) عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الرسل * ولما بين تعالى أحوال المكذبين ذكر أحوال المصدقين بقوله تعالى (وقيل للذين اتقوا) أى خافوا عقاب الله (ماذا) أى أى شئ (انزل ربكم قالوا خيرا) أى أنزل خيرا وذلك ان أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون ساحر شاعر كاهن كذاب مجنون ولو لم تلقه خيرا لك فيقول السائل أنا شر وافد ان رجعت الى قومى دون أن أدخل مكة وألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وانه نبى مبعوث من الله تعالى فذلك قوله تعالى وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم

يستطيعون ضمير مفعول هو الرزق بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقا فى الرزق وغيره وبتقدير ان فيه ضميرا لا يلزم من نفى الملك انتفاء استطاعته لجواز بقاء الاستطاعة

الآية (فان قيل) لم رفع الاول وهو قولهم أساطير الاولين ونصب الثانى وهو قوله سم خيرا (أجيب) بأنه ذكر ذلك للفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا أساطير الاولين وليس هو من الانزال فى شئ لانهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وطابقوا الجواب عن السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا أى أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) أى حياة طيبة أو ان الذين أتوا بالاعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابها حسنة مضاعفة من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة أو انه تعالى بين أن اعترافهم بذلك الاحسان فى هذه الدنيا حسنة أى جزاء لهم على احسانهم هل جزاء الاحسان الا الاحسان ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال أخبر عن حالهم فى الآخرة فقال (ولدار الآخرة) أى الجنة (خير) اى ما أعد الله لهم فى الجنة خير مما حصل لهم فى الدنيا ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى (ولنعم دار المتقين) أى دار الآخرة فحذف لتقدم ذكرها وقال الحسن هى الدنيا لان أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة وقوله تعالى (جنات) أى بساتين (عدن) أى اقامة خبر مبتدا محذوف ويصح أن يكون المخصوص بالمدح (يدخلونها) أى تلك الجنات حالة كونها (تجرى من تحتها) أى من تحت غرفها (الانهار) ثم كأن سائلا سأل عما فيها من الثمار وغيرها فاجيب بان (لهم فيها ما يشاؤن) أى ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك فهذه الآية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات فهى أبلغ من قوله تعالى وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان فى قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن مع أقسام أخرى وعلى أن الانسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر (كذلك) أى مثل هذا الجزاء العظيم (يجزى الله) أى الذى له الكمال كله (المتقين) أى الراسخين فى صفة التقوى ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على أن العبرة بحال الموت فقال (الذين تتوفاهم الملائكة) أى تقبض أرواحهم وقوله تعالى (طيبين) كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الامع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت وأكثر المفسرين على أن هذا التوفى هو قبض الارواح كما مر وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر واستدل بقوله تعالى ادخلوا الجنة لانه لا يقال عند قبض الارواح فى الدنيا ادخلوا الجنة وأجاب الاكثرون بما سيأتى وأدغم أبو عمرو التاء فى الطاء بخلاف عنه ثم بين تعالى ان الملائكة (يقولون) لهم عند الموت (سلام عليكم) فتسلم عليهم أو تبلغهم السلام من الله تعالى كما روى ان العبد المؤمن اذا أشرف على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولى الله الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بالجنة ويقال لهم فى الآخرة هذا جواب الاكثرين (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أو انهم

على الكتاب المنجلاف هؤلاء فانهم لا يملكون شيئا ولا يستطيعون ان يملكوا (قوله عبدا مملوكا لا يقدر على شئ) فائدة ذكر مملوكا بعد قوله عبدا الاحتراز عن

للمبشرو هم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة أي هي خاصة لكم كأنكم فيها • ولما طعن الكفار في القرآن بقولهم أساطير الاولين وذكر أنواع التهديد والوعيد ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرا عاد الى بيان ان أولئك الكفار لا ينزجرون عن كفرهم وأقوالهم الباطلة الا اذا جاءتهم الملائكة أو أتاهم أمر ربك فقال تعالى (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم وقرأ حمزة والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وتقدم توجيه ذلك (أو يأتي أمر ربك) أي يوم القيامة وقيل العذاب وقيل انهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ان ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى هل ينظرون في التصديق بنبوتك الا ان تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك وعلى كلا التقديرين فقد قال تعالى (كذلك) أي مثل ما (فعل) هؤلاء هذا الفعل البعيد الشنيع فعل (الذين من قبلهم) من الامم السالفة كذبوا رسلهم فاهلكوا (وما ظلمهم الله) باهلاكهم بغير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بكفرهم وتكذيبهم للرسل فاستوجبوا ما نزل بهم (فأصابهم) أي فتسبب عن ظلمهم لانفسهم ان أصابهم (سيئات) أي عقوبات أو جزاء سيئات (ما عملوا وحاق) أي نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) تكبرا عن قبول الحق فحاق بهم جزاؤه والحيق لا يستعمل الا في الشر وقرأ حاق حمزة بالامالة والباقون بالفتح (وقال الذين أشركوا) للنبي صلى الله عليه وسلم استهزاء ومنعا للبعثة والتكليف (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) لانهم اعتقدوا أن كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا الهم (ولا حرمنا من دونه من شئ) أي من السوائب والبحائر والحامي فهو راض به وبمشيئته وحينئذ فلا فائدة في مجيئك وفي ارسالك وهذا عين ما حكاه الله تعالى عنهم في سورة الانعام في قوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله الآية قال الله تعالى (كذلك فعل الذين من قبلهم) أي من تقدم هؤلاء من الكفار من الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما في الامم الخالية ففي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا في قوله تعالى (فهل على الرسل الا البلاغ) أي الابلاغ (المبين) أي البين فليس عليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى من أرسلوا اليه • ثم بين تعالى ان البعثة أمر جرت به السنة الالهية في الامم كلها سببا لهدى من أراد اهتداءه وزيادة اضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح فانه ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه بقوله تعالى (ولقد) أي والله لقد (بعثنا) أي بما لنا من العظمة التي من اعترض عليها قصم (في كل أمة) من الامم الذين من قبلكم (رسولا) أي كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا (أن اعبدوا الله) أي الملك الاعلى وحده وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون في الوصل والباقون بالضم (واجتنبوا الطاغوت) أي الاوثان ان تعبدوها (فمنهم من هدى الله) أي وفقهم للايمان بارشاده (ومنهم من حقت) أي وجبت (عليه الضلالة) أي في علم الله تعالى فلم ينفعهم ولم يرد هداهم • (تنبيه) • في هذه الآية أبين دليل على أن

الطرفانه عبد لله تعالى وليس علو كالغير وفائدة لا يقدر علو كا على شئ به شعوره علو كا الاحتراز من المأذون له والمكاتب لتقدمهما على التصرف استقلالا (قوله هل يستوون) • ان قلت

الهادي والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه فيما يحكم به لسابق علمه ثم التفت سبحانه وتعالى الى مخاطبتهم اشارة الى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعي في نظر البصيرة الا الدليل المحسوس بالبصر فقال تعالى (فسيروا) اى فان كنتم أيها المخاطبون في شك من أخبار الرسل فسيروا (في الارض) اى جنسها (فانظروا) اى اذا أسرتم تبصرتم ببلاد المكذبين وآثارهم ثم أشار تعالى بالاستفهام الى أن أحوالهم مما يجب أن يسئل عنه للاتعاظ به فقال (كيف كان عاقبة) اى آخر أمر (المكذبين) اى من عاد ومن بعدهم من الذين تلقيتم أخبارهم عمن قلدتموهم في الكفر من آبائكم لعلكم تعتبرون • ولما كان من المحقق انه ليس بعد الابصار في الاستدلال الى الامر المحسوس الا العناد أعرض عنهم ملتفتا الى الرؤف بهم الشفيق عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال مسليا له (ان تحرص على هداهم) فتطلبه بغاية جدك واجتهادك وقد اضلهم الله تعالى لا تقدر على ذلك ثم قال تعالى (فان الله لا يهدي من يضل) اى من يرد ضلاله وهو ممن حقت عليه الضلالة وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الدال والباقون بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول قال البيضاوي وهو أبلغ ثم قال تعالى (وما لهم) أى هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله (من ناصرين) أى وليس لهم أحد ينصرهم في الدنيا والآخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذوهم مما يلحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين ممن قبلهم ثم حكى الله عن هؤلاء القوم انهم ينكرون الحشر والنشر بقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لا يبعث الله من يموت) وذلك أنهم قالوا ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلي امتنع عوده بعينه لان الشيء اذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فكذبهم الله تعالى في قولهم بقوله تعالى (بلى) أى يبعثهم بعد الموت فان لفظة بلى اثبات لما بعد النفي والجواب عن شبهتهم أن الله تعالى خلق الانسان وأوجده من العدم ولم يكن شيئا فالذي أوجده ولم يكن شيئا قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشأة الثانية أهون من الاولى وقوله تعالى (وعدا عليه حقا) مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر أى وعد ذلك وعدا وحقه حقا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك أى لا علم لهم بوصلهم لذلك لانه من عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول اليه بغير ارشاد من الله تعالى ولا هم يقبلون أقوال الهداة اليه الذين أيدهم الله بروح منه لتقيدهم بما يوصل الى عقولهم انها قاصرة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقي منه الى عالم الغيب بغير واسطة منه سبحانه وتعالى فلذلك ترى الانسان منهم يأبى ذلك استبعادا وهو خصيم مبين وقوله تعالى (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) يتعلق بما دل عليه بلى أى يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو عام للمؤمنين والكافرين والذي اختلفوا فيه هو الحق (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) في قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء وقولهم لا يبعث الله من يموت وقيل يجوز أن يتعلق بقوله ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أى بعثنا ليبين لهم ما اختلفوا فيه وانهم كانوا على الضلالة قبله مفترين

لم يجمع ولم يثن مع ان المضروب به المثل اثنان مملوك ومن رزقه الله رزقا حسنا (قلت) جمع الضمير باعتبار جنس المالكين أو نظرا الى ان أقل الجمع اثنان

مفترين على الله الكذب ثم بين سبحانه وتعالى تيسر الاعادة بقوله تعالى (انما قولنا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (لشئ) ابتداء واعادة (اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) اى يتسبب عن ذلك القول انه يكون * (تنبيه) * قوله تعالى قولنا مبتدأ وان نقول خبره فيكون وكن من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود اى اذا أردنا حدوث شئ فليس الا ان نقول له احدث فيحدث عقب ذلك من غير توقف (فان قيل) قوله تعالى كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود فكان أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال (أجيب) بان هذا تمثيل لنفى الكلام والمعاياة وخطاب مع الخلق بما يعقلون ليس هو خطاب المعدوم لان ما أراده فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الاسراع ولو أراد تعالى خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والارض فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن خاطب تعالى العباد بما يعقلون وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له ان يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له اما شتمه اياى فيقول ان لى ولدا واما تكذيبه فيقول ليس يعيدنى كما بدأنى وفى رواية كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى وليس أول الخلق باهون على من اعادته واما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الله الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وقرأ ابن عامر والكسائى بفتح النون من يكون عطفا على نقول أو جوابا للامر والباقون بالرفع ولما حكى الله تعالى عن الكفار انهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا فى الغى والجهالة والجهل والضلال وفى مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء المسلمين وانزال العقوبة بهم وحينئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا من تلك الديار والمساكن فبين تعالى حكم تلك الهجرة وما لهؤلاء المهاجرين من الحسنة فى الدنيا والآخرة بقوله تعالى (والذين هاجروا فى الله) اى فى حقه ولوجهه لاقامة دينه (من بعد ما ظلموا) وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع له تعالى بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل أخذهم المشركون بمكة يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر فاما بلال فكان أصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأعتقه واشترى معه ستة نفر آخرين وأما صهيب فقال أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر قال له ربح البيع يا صهيب وقال عمر نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله نارا لاطاعه (لنبوئنهم) أى لننزلنهم (فى الدنيا) دارا (حسنة) وهى المدينة وقيل الحسنة اليهم فى الدنيا بان فتح لهم مكة ومكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها وقيل أرادوا الحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية الى الدين (ولاجر الآخرة) وهى الجنة والنظر الى وجهه الكريم (أكبر) أى أعظم (لو كانوا يعلمون) أى الكفار والمتخلفون عن الهجرة

(قوله وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب) ان قلت أو للشك وهو على الله محال فما معنى ذلك (قلت) أو هنا بمعنى الواو أو للشك بالنسبة الينا أو بمعنى بل ونظير ذلك

ما للمهاجرين من الكرامة لو افقوهم وقيل انه راجع الى المهاجرين أى لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا فى اجتهادهم وصبروا وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يقرأ هذه الآية وقوله تعالى (الذين صبروا) أى على الشدائد وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله وعلى المجاهدة وبذل الاموال والأنفس فى سبيل الله محله رفع على تقديرهم أو نصب على المدح ويجوز أن يكون تابعا للموصول قبله نعتا أو بدلا أو بيانا فمحله محله (وعلى ربهم يتوكلون) أى منقطعين اليه مفوضين الامر كله اليه *(تنبيه)* ذكر الله تعالى فى هذه الآية الصبر والتوكل وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه اما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على اعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق وأما التوكل فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق كما مرت الاشارة اليه فالاول هو مبدأ السلوك والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه *ونزل لما أنكر مشركو مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل ان يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا (وما أرسلنا من قبلك) يا محمد الى الامم من طوائف البشر (الا رجالا) لا ملائكة بل آدميين هم فى غاية الاقتدار على الصبر والتوكل الذى هو محط الرحال (نوحى اليهم) بواسطة الملائكة فعادة الله جارية مستمرة من أول مبتدا الخلق الى الآن لم يبعث رسولا الا من البشر (فاسئلوا أهل الذكر) اى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله تعالى بسؤالهم لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب اهل علم وقد أرسل اليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام من البشر وكانوا بشرا مثلهم فاذا سألوهم فلا بد أن يخبروهم ان الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك زالت هذه الشبهة وقال ابن عباس يريد أهل التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر يعنى التوراة والذكر هو التوراة وقال الزجاج معناه اسألوا كل من يذكر بعلم وتحقيق *ولما كان عندهم أحسن من ذلك سماع أخبار الامم قبلهم أشار اليه بقوله تعالى (ان كنتم) اى بجبلة وطبع (لا تعلمون) ذلك فانهم لا يعلمونه وأنتم الى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (بالبينات) متعلق بمحذوف اى أرسلناهم بالحجج الواضحة وقيل التقدير ان كنتم لا تعلمون بالبينات (والزبر) أى الكتب فاسألوا اهل الذكر وقيل انه متعلق بمحذوف جواب لسؤال مقدر كأنه قيل بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر وقوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والذكر هو القرآن وانما سمى ذكرا لانه موعظة وتذكير (لتبين للناس) كافة اى بما أعطاك الله تعالى من الفهم الذى فقت فيه جميع الخلق واللسان الذى هو أعظم الالسنة وأفصحها وقد أوصلك الله تعالى فيه الى رتبة لم يصل اليها احد (ما نزل) أى ما وقع تنزيله (اليهم) من هذا الشرع المؤدى الى سعادة الدارين بتبيين المجمل وشرح ما أشكل من علم أصول الدين الذى رأسه التوحيد ومن البعث وغيره فان القرآن فيه محكم وفيه متشابه فالمحكم يجب ان يكون مبينا والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة (ولعلهم يتفكرون) فيما أنزل اليهم اذا نظروا أساليبه الفائقة ومعانيه العالية الرائقة فيعتبرون (فان قيل) ان هذه الآية تدل على ان

قوله الى مائة ألف أو يزيدون وقوله كالحجارة أو أشد قسوة وأورد على الاخير ان بل للاضراب وهو رجوع عن الاخبار وهو محال على الله ويجاب بمنع انه محال بناء على جواز

المبين لكل التكاليف والاحكام هو النبي صلى الله عليه وسلم فالقياس ليس بحجة (أجيب) بانه صلى الله عليه وسلم لما بين ان القياس حجة فمن رجع فى تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك فى الحقيقة رجوعا الى بيان النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيآت) فيه اضمار تقديره المكرات السيآت وهم كفار قريش مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه وبالقرآن فى أذيتهم والمكر عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء ثم انه تعالى ذكر فى تهديدهم أربعة أمور الاول قوله تعالى (ان يخسف الله بهم الارض) كما خسف بقارون وأصحابه فاذا هم فى بطنها لا يقدرون على نوع تقلب بمتابعة ولا غيرها الثانى قوله تعالى (أو يأتيهم العذاب) على غير تلك الحال (من حيث لا يشعرون) به فيأتيهم بغتة فيهلكهم كما فعل بقوم لوط عليه السلام الثالث قوله تعالى (أو يأخذهم) اى الله بعذابه (فى) حالة (تقلبهم) ومشاعرهم حاضرة وقواهم مجتمعة وفى تفسير هذا التقلب وجوه أولها انه تعالى يأخذهم بالعقوبة فى أسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما انه قادر على اهلاكهم فى الحضر (فما هم بمعجزين) اى بفائتين العذاب بسبب ضربهم فى البلاد البعيدة بل يدركهم الله تعالى حيث كانوا ثانيها انه تعالى يأخذهم بالليل والنهار وفى حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وثالثها ان الله تعالى يأخذهم فى حال ما يتقلبون فى قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين اتمام تلك الحيل وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها الامر الرابع قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) وفى تفسير التخوف قولان الاول التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشئ وتخوفته والمعنى انه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو انه تعالى يهلك قرية فتخاف التى تليها فيأتيهم العذاب والثانى التخوف بمعنى التنقص اى انه تعالى ينقص شيأ بعد شئ فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا من تخوفه اذا تنقصه روى ان عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر ما تقولون فى هذه الآية فسكتوا فقال شيخ من هذيل هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها قال نعم قال شاعرنا أبو كبير

تخوف (اى تنقص) الرحل (اى رحل ناقته) منها تامكا (اى سناما) قردا
(اى متراكبا أو مرتفعا وهو بسكون الراء) كما تخوف عود النبعة السفن

والنبعة بالضم واحدة النبع وهو شجر يتخذ منه السفن والسفن بفتح السين والفاء ما ينحت به الشئ وهو فاعل تخوف ومفعوله عود فقال عمر عليكم بديوانكم قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم ومعنى البيت ان رحل ناقته ينقص سنامها المتراكم أو المرتفع كما ينقص السفن عود النبعة (فان ربكم) اى المحسن اليكم باهلاك من يريدوا بقاءه من يريد وقوله تعالى (لرؤف) قرأه أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بقصر الهمزة والباقون بالمد ومعناه بليغ الرحمة لمن يتوصل اليه بذرع وسيلة وكذا من قاطعه أتم مقاطعة واليه أشار بقوله تعالى (رحيم) اى حيث لم يعاجلهم بالعذاب ولما خوف سبحانه وتعالى المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى وتدبير أحوال الارواح والاجسام ليظهر لهم أنه مع كمال هذه

وقوع النسخ فى الاخبار وهو جائز عند الاشاعرة مطلقا خلافا للمعتزلة

٣ (قوله فيه الاربع ستر) أى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد وانما حذفه لدلالة ضده عليه كما فى قوله

٣ قوله فيه الاربع هكذا بالاصل ولعل صوابه مصحيه

القدرة الباهرة والقوة القهر المتناهية لا يعجز عن ايصال العذاب اليهم على أحد تلك الاقسام الاربعة * وقوله تعالى (أولم يروا) قرأه حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب على نسق ما قبله والباقون بالياء على الغيبة (الى ما خلق الله من شيء) أي من الاجرام التي لها ظل كشجر وجبل (تتفيؤ) أي تميل (ظلاله عن اليمين والشمائل) جمع شمال أي عن جانبي كل واحد منهما وشقيه استعارة من يمين الانسان وشماله لجانبي الشيء أي ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقال قتادة والضحاك أما اليمين فاول النهار وأما الشمائل فآخره لان الشمس وقت طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الظلال الى الجانب الغربي فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربي وقعت الظلال في الجانب الشرقي والظلال في أول النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربي من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الارض (فان قيل) ما السبب في ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمائل بصيغة الجمع (أجيب) باشياء الاول انه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر في اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر الثاني قال الفراء كأنه اذا وحد ذهب الى واحد من ذوات الظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله الى ما خلق الله من شيء لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مر فيحتمل كلا الامرين الثالث ان العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم * (تنبيه) * الهمزة للاستفهام وهو استفهام انكار أي قد رأوا امثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيه ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه وما موصولة مبهمة بمعنى الذي ومن شيء بيان لها (فان قيل) كيف بين الموصول وهو مبهم بشيء وهو مبهم بل أبهم مما بين به (أجيب) بان شيأ قد اتضح وظهر بوصفه بالجملة بعده وهو تتفيؤ ظلاله وقيل الجملة بيان لما وقوله تعالى (سجدا لله) حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهود وراكع وركوع واختلف في المراد من السجود على قولين أحدهما ان المراد منه الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد للقرد في زمانه أي اخضع له وقال الشاعر * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * أي متواضعة والثاني ان هذه الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول أما ظلك فيسجد لربك وأما أنت فلا تسجد لربك بئسما صنعت وعن مجاهد ظل الكافر يصلي وهو لا يصلي وقيل ظل كل شيء يسجد لله سواء أكان ذلك الشيء ساجدا أم لا قال الرازي والاول أقرب الى الحقائق العقلية والثاني أقرب الى الشبهات الظاهرة وقوله تعالى (وهم داخرون) أي صاغرون حال أيضا من الظلال فينتصب عنه حالان وقيل حال من الضمير المستتر في سجدا فهي حال متداخلة (فان قيل) الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون (أجيب) بانه تعالى لما وصفها بالطاعة والدخور أشبهت العقلاء أو ان في جملة ذلك من يعقل فغلب * ولما حكم على الظلال بما يعم أصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان أشرف من الجماد رقى الحكم اليه

قوله أولم يروا قرأه الخ كذا في نسخة صحيحة وما وقع في الطبعة الاولى غير سديد اه مصحح

يدل الحر أي والبرد وخص الحر والخير بالذكر لان الخطاب بالقرآن أول ما وقع بالحجاز والوقاية من الحر أهم عند أهله لان الحر عندهم أشد من البرد والخير مطلوب العباد من

بخصوصه فقال (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض) وقوله تعالى (من دابة) يجوز ان
يكون بيانا لما فى السموات وما فى الارض جميعا على ان فى السموات خلقا لله يدبون فيها كما تدب
الاناسى فى الارض وان يكون بيانا لما فى الارض وحده ويراد بما فى السموات الخلق الذى
يقال له الروح وان يكون بيانا لما فى الارض ويراد بما فى السموات الملائكة وكرر ذكرهم
بقوله تعالى (والملائكة) خصوصا من بين الساجدين لانهم أطوع الخلق وأعبدهم ويجوز
ان يراد بما فى السموات ملائكتهن وبقوله تعالى والملائكة ملائكة الارض من الحفظة
وغيرهم (فان قيل) سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم فكيف
عبر عن النوعين بلفظ واحد (أجيب) بان المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم
وبسجود غيرهم انقياده لارادة الله تعالى وانه غير ممتنع عليه وكلا السجودين يجمعهما معنى
الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز ان يعبر عنهما بلفظ واحد (فان قيل) هلا جىء بمن دون ما تغليبا
للعقلاء من الدواب على غيرهم (أجيب) بانه لو جىء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان
متناولا للعقلاء خاصة فجىء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ارادة للعموم (وهم) اى الملائكة
(لايستكبرون) عن عبادته ثم قال مخصصا لهم بقوله تعالى دلالة على انهم كغيرهم فى الوقوف
بين الخوف والرجاء (يخافون ربهم) اى الموجد لهم المدبر لامورهم المحسن اليهم خوفا مبتدأ
(من فوقهم) اشارة الى علو الخوف عليهم وغلبته لهم أو ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم
أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده وقوله تعالى وانا فوقهم
قاهرون والجملة حال من الضمير فى لايستكبرون أو بيان له أو تقرير لان من خاف الله
لايستكبر عن عبادته (ويفعلون ما يؤمرون) اى من الطاعة والتدبير وفى ذلك دليل على ان
الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهى والوعد والوعيد كسائر المكلفين وأنهم بين
الخوف والرجاء كما مرت الاشارة اليه وانهم معصومون من الذنوب لان قوله تعالى وهم
لايستكبرون يدل على انهم منقادون لخالقهم وانهم ما خالفوا فى أمر من الامور كما قال تعالى
لايسبقونه بالقول وهم بامره يعملون * ولما بين تعالى ان كل ما سوى الله تعالى سواء كان
من عالم الارواح أم من عالم الاجساد فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه أتبعه بالنهى
عن الشرك وبالامر بان كل ما سواه فهو ملكه وانه غنى عن الكل بقوله تعالى (وقال الله)
فعبر لاجل تعظيم المقام بالاسم الاعظم الخاص (لاتتخذوا) اى لاتكلفوا فطرتكم الاولى
السليمة المجبولة على معرفة ان الاله واحد أن تاخذ فى اعتقادها (الهين اثنين) * فان قيل انما
جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندى رجال ثلاثة وأفراس أربعة
لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فاما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان
فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى ان يقال رجل واحد ورجلان اثنان فما وجه قوله تعالى
الهين اثنين (أجيب) باجوبة أولها قال الرازى وهو الاقرب عندى ان الشئ اذا كان مستنكرا
مستقبحا فمن أراد المبالغة فى التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالى تلك العبارات
سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح والقول بوجود الهين مستقبح فى العقول فان أحدا من
العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين فى الوجود والقدم وصفات الكمال فالمقصود من تكرار

(قوله ربهم دون الشر (قوله
يعرفون نعمة الله ثم
ينكرونها واكثرهم
الكافرون) ان قلت
بل كلهم كافرون (قلت)
المراد بالاكثر هنا الجميع
(قوله قالوا ربنا هؤلاء

اثنين تأكيد التنفير عنه وتوقيف العقل على ما فيه من القبح الثانى ان قوله تعالى الهين لفظ واحد يدل على أمرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لا تتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان النهى وقع عن اثبات الالهين أو عن اثبات التعدد أو عن مجموعهما فلما قال لا تتخذوا الهين اثنين ظهر ان قوله لا تتخذوا نهى عن اثبات التعدد فقط الثالث فى الآية تقديم وتأخير والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين الرابع ان الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على ان المعنى به منهما والذى يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به ألا ترى انك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الالهية لا الوحدانية ❊ ثم علل تعالى ذلك النهى بما اقتضاه السياق من الوحدانية فقال جل ذكره (انما هو) اى الاله المفهوم من لفظ الهين الذى لا يستحق غيره ان يطلق عليه هذا الضمير الا مجازا لانه لا يطلق اطلاقا حقيقيا الا على من وجوده من ذاته (اله) اى مستحق هذا الوصف على الاطلاق (واحد) لا يمكن ان يثنى بوجه ولا ان يجزأ بغاية وغير غاية لغناه المطلق عن كل شئ واحتياج كل شئ اليه ❊ ولما دلت الدلائل على انه لا بد للعالم من اله وثبت ان القول بوجود الهين محال وثبت انه لا اله الا الواحد الاحد الفرد الصمد قال تعالى بعده (فاياى فارهبون) اى خافون دون غيرى والرهبة مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى خطاب الحضور وهو من طريقة الالتفات لانه أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوه ومن ان يجئ ما قبله على لفظ المتكلم ❊ ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم لا شريك له فى الالهية وجب ان يكون جميع المخلوقات عبيده وفى ملكه وتصرفه وتحت قهره وذلك قوله تعالى (وله) اى الله وأعاد الضمير فى قوله تعالى له على الله الاسم الاعظم العلم الجامع لجميع الاسماء الحسنى (ما فى السموات والارض) اى ما تعبدونه وغيره فكيف يتصور ان يكون شئ من ذلك الها وهو ملكه مع كونه محتاجا الى الزمان والمكان وغيرهما (وله الدين) اى الطاعة وقوله تعالى (واصبا) أى دائما حال من الدين والعامل فيه ما فى الظرف من معنى الفعل قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك بسبب فى حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فان طاعته واجبة أبدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائما أبدا وقوله تعالى (أفغير الله) أى الذى له العظمة كلها (تتقون) استفهام انكار والمعنى أنكم بعدما عرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم أن كل ما سواه محتاج اليه فى وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بذلك كيف يعقل أن يكون للانسان رغبة فى غير الله تعالى أو رهبة من غير الله تعالى ❊ ولما بين تعالى أن الواجب على العاقل أن لا يتقى غير الله بين أنه يجب عليه أن لا يشكر أحدا الا الله تعالى بقوله تعالى (وما بكم من نعمة) أى من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة فى الارزاق وكل ما أعطاكم من مال أو ولد أو جاه (فمن الله) هو المتفضل على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه لان الشكر انما يجب على النعمة فثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يشكر الا الله تعالى ❊ (تنبيه) ❊ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الايمان حصل بخلق الله فقالوا الايمان نعمة وكل نعمة فمن الله ينتج أن الايمان من الله وأيضا النعمة عبارة عن كل

شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) ❊ ان قلت ما فائدة قولهم ذلك مع انه تعالى عالم به (قلت) لما أنكروا الشرك بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين عاقبهم الله باصمات ألسنتهم وانطاق ❊

مايكون منتفعا به وأعظم الاشياء فى النفع هو الايمان فثبت أن الايمان نعمة و المسلمون مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان والنعم اما دينية واما دنيوية أما النعم الدينية فهى اما معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل العمل به والنعم الدنيوية اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقدمرت الاشارة الى ذلك عند ذكر هذه الآية * ولما كان اخلاصهم لمصح ادعائهم الوهية غيره أمرا مستبعدا عبر باداة التراخى والبعد فى قوله تعالى (ثم اذا مسكم) اى أصابكم أدنى مس (الضر) بزوال نعمة مما أنعم به عليكم وقال ابن عباس يريد الاسقام والامراض والحاجة (فاليه) اى لا الى غيره (تجأرون) اى ترفعون أصواتكم بالاستغاثة لما ركز فى فطرتكم الاولية السليمة من انه لا ملجأ ولا منجى منه الا اليه (ثم اذا كشف) سبحانه وتعالى (الضر) اى الذى مسكم (عنكم) ونبه على مسارعة الانسان فى الكفران فقال (اذا فريق) اى جماعة هم أهل فرقة وضلال (منكم) اى أيها العباد (بربهم) الذى تفرد بالانعام عليهم (يشركون) اى يوقعون الاشراك بعبادة غيره (ليكفروا بما آتيناهم) اى من النعم *(تنبيه)* فى هذه اللام وجهان الاول انها لام كى فيكون المعنى على هذا انهم انما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم فى كشف الضر الثانى أنها لام العاقبة كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا والمعنى عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء ثم انه تعالى توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى (فتمتعوا) اى باجتماعكم على عبادة الاصنام وهذا لفظه أمر والمراد منه التهديد كقوله تعالى قل آمنوا به أو لا تؤمنوا وقوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب * ولما بين تعالى بالدلائل القاهرة فساد قول أهل الشرك والتشبيه شرح تفاصيل أقوالهم وبين فسادها بانواع الاول قوله تعالى (ويجعلون) اى المشركون (لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) من الحرث والانعام بقولهم هذا لله وهذا لشركائنا *(تنبيه)* الضمير فى قوله تعالى لما لا يعلمون عائد على الاصنام اى ان الاصنام لا تعلم شيأ البتة لانها اجساد وجماد لا علم له وقيل عائد الى المشركين ومعنى لا يعلمونها انهم يسمونها آلهة فيعتقدون فيها جهالات مثل انها تنفعهم وتشفع لهم وليس الامر كذلك * ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة بقوله تعالى (تالله لتسئلن) سؤال توبيخ وفيه التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه (عما كنتم تفترون) على الله من أنه أمركم بذلك *(تنبيه)* فى وقت السؤال احتمالان الاول انه يقع عند القرب من الموت الثانى انه يقع فى الآخرة قال الرازى وهذا أولى * النوع الثانى قوله تعالى (ويجعلون لله البنات) ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله قال الرازى أظن ان العرب انما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون فاشبهوا النساء فى الاستتار فاطلقوا عليهم البنات قال ابن عادل وهذا الذى ظنه ليس بشئ فان الجن أيضا مستترون عن العيون ولم يطلقوا عليهم لفظ البنات * ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال تعالى (سبحانه) وفيه وجهان الاول ان يكون المراد تنزيه

جؤارهم فقالوا عند معاينة آلهتهم وبنا هؤلاء شركاؤنا فاقروا بعد انكارهم طلبا للرحمة وفرارا من الغضب فكان هذا القول على وجه الاعتراف منهم بالذنب لا على وجه

ذاته عن نسبة الولد اليه الثانى تعجيب الخلق من هذا الامر والجهل الصريح وهو وصف
الملائكة بالانوثة ثم نسبتها بالولدية الى الله تعالى قيل فى التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب
للوجه الاول وانما ذكر الله تعالى ما يعلم اهمع الغنى المطلق بين ما نسب والانقسام
مع لزوم الحاجة والضعف بقوله تعالى (ولهم ما يشتهون) من البنين وقد يكونون أعداء
أعدائهم ثم انه تعالى ذكر ان الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فكيف
يثبته لله تعالى فقال (واذا بشر أحدهم بالانثى) اى أخبر بولادتها (ظل وجهه) اى صار
أودام النهار كله (مسودا) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام
والتخجيل كما أن بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح والسرور (وهو كظيم) اى مملوء غيظا
على المرأة ولا ذنب لها بوجه والبشارة فى أصل اللغة الخبر الذى يغير البشرة من حزن أو سرور ثم
خص فى عرف اللغة بالسرور ولا يكون الا بالخبر الاول فالمراد بالبشارة هنا الاخبار كما مر وقول
الرازى ان اطلاقه على الخير والشر داخل فى التحقيق خلاف المشهور (يتوارى) اى يستخفى
(من القوم) اى من الرجال الذين هو فيهم (من سوء ما بشر به) خوفا من التعيير وذلك ان
العرب كانوا فى الجاهلية اذا قرب ولادة زوجة أحدهم توارى عن القوم الى ان يعلم ما ولد له
فان ولد له ذكر ابتهج وسر بذلك وظهر وان كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما يتردد ماذا يفعل
بذلك الولد (أيمسكه) أى يتركه بغير قتل (على هون) هوان وذل (أم يدسه فى التراب) وذكر الضمير
فى يمسكه ويدسه نظرا للفظ الولد أو لكون الانثى ولدا كما علم مما مر قال ابن عادل قال
المفسرون كانت المرأة اذا أدركها المخاض احتفرت حفرة وجلست على شفيرها فان وضعت
ذكرا أظهرته وظهر السرور على أهله وان وضعت أنثى استأذنت مستولدها فان شاء أمسكها
على هون وان شاء أمرها بالقائها فى الحفرة وردت التراب عليها وهى حية لتموت انتهى وعن
قيس بن عاصم أنه قال يا رسول الله انى واريت ثمان بنات فى الجاهلية فقال له صلى الله عليه
وسلم أعتق عن كل واحدة منهن رقبة فقال يا نبى الله انى ذو ابل قال أهد عن كل واحدة منهن
هديا وروى أن رجلا قال يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما أجد حلاوة الاسلام منذ قد أسلمت
فقد كانت لى فى الجاهلية ابنة فأمرت امرأتى أن تزينها فأخرجتها فلما انتهيت الى واد فيه بئر
بعيدة القعر ألقيتها فيها فقالت يا أبت قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شئ فقال صلى الله
عليه وسلم ما كان فى الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما فى الاسلام يهدمه الاستغفار وكانوا
فى الجاهلية مختلفين فى قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها الى ان تموت ومنهم من
يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية
خوفا من أن يطمع فيهن غير الاكفاء وتارة خوفا من الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة وكان
الذى منهم يريد أن يحيى ابنته تركها حتى تكبر ثم يلبسها جبة من صوف أو شعر ويجعلها
ترعى الابل والغنم فى البادية قال الله تعالى (ألا ساء) أى بئس (ما يحكمون) حكمهم هذا
وذلك لانهم بلغوا فى الاستنكاف من البنت الى أعظم الغايات فاولها أنه يسود وجهه
وثانيها أنه يختفى من القوم من شدة نفرته عن البنت وثالثها ان الولد محبوب بحسب
الطبيعة ثم انه بسبب نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على أن النفرة عن البنت

ا.لام من لا يعلم وأنهم
لما ظنوا عظيم غضب الله
قالوا ذلك رجاء أن يلزم
الله الاصنام ذنوبهم فيخف
عنهم العذاب (قوله فألقوا)
أى الشركاء كالاصنام
اليهم القول فسر القول
بقوله انكم لكاذبون أى

والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا يزاد عليه فكيف يليق بالعاقل أن يثبت ذلك لاله عالم مقدس عال عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الآية قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ثم قال تعالى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) وهم الكفار (مثل السوء) اى الصفة السوء بمعنى القبيحة وهى قتلهم البنات مع احتياجهم اليهن للنكاح (ولله المثل الاعلى) اى الصفة العليا وهى انه لا اله الا هو وان له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدى وغير ذلك من الصفات التى وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة أن لا اله الا الله (فان قيل) كيف جاء لله المثل الاعلى مع قوله تعالى فلا تضربوا لله الامثال (أجيب) بان المثل الذى يضرب به الله تعالى حق وصدق والذى يذكره غيره باطل (وهو العزيز) الذى لا يمتنع عليه شئ فلا نظير له (الحكيم) الذى لا يوقع شيأ الا فى محله ولما حكى الله تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين أنه تعالى يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم بقوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) اى بسبب كفرهم ومعاصيهم (ما ترك عليها) اى على الارض وغاب أضمر ذكرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها (من دابة) اى ان الله تعالى لو آخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض (فان قيل) اسم الناس جنس يشمل الكل فيدخل فى ذلك الانبياء فيدل ذلك على عدم عصمتهم (أجيب) بان ذلك عام مخصوص بقوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله فالمذكور فى هذه الآية اما كل العصاة المستحقين العقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات أو جميع الكفار بدليل قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقال قتادة قد فعل الله تعالى ذلك فى زمن نوح عليه السلام فاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض الا من كان فى السفينة مع نوح عليه السلام روى أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئسما قلت ان الحبارى تموت هزالا من ظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب فى جحرها بذنب ابن آدم والجعل بضم الجيم وفتح العين دويبة قاله الجوهرى وقيل فى معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء ولم يبق فى الارض أحد (ولكن يؤخرهم) أى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (الى أجل مسمى) أى الى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة) عنه (ولا يستقدمون) أى لا يؤخرون ساعة من الاجل الذى جعله الله تعالى لهم ولا ينتقصون منه * (تنبيه) * ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط احدى الهمزتين مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين * النوع الثالث من الاقاويل الفاسدة التى كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله (ويجعلون لله ما يكرهون) لانفسهم من البنات وأراذل الاموال والشركاء فى الرياسة ثم وصف الله تعالى جرأتهم مع ذلك بقوله تعالى (وتصف) اى وتقول (ألسنتهم الكذب) اى مع ذلك مع أنه قول لا ينبغى أن يتخيله عاقل ثم بينه بقوله تعالى (أن لهم الحسنى) اى عنده اى الجنة كقوله تعالى ولئن

دعونا
فى قولكم انكم
(فان قلت) لم قالت
الاصنام للمشركين
ذلك مع انهم كانوا صادقين
فيه (قلت) قالوا لهم
لفظهم فضحهم حيث
عبدوا من لا يعلم بعبادتهم
(فان قلت) كيف أثبت

رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى ولا جهل اعظم ولا احكم سوأ من ان تقطع بان من تجعل له ما تكره أن يجعل لك ما تحب فكأنه قيل مالهم عنده فقيل (لاجرم) اى لاظن ولا تردد فى (أن لهم النار) اى هى جزاء الظالمين وقيل لاجرم بمعنى حقا (وأنهم مفرطون) اى متركون فيها أو مقدمون اليها وقرأ نافع بكسر الراء اى متجاوزون الحد والباقون بالفتح (فان قيل) انهم لم يقروا بالبعث فكيف يقولون ان لنا الحسنى عند الله (أجيب) بانهم قالوا ان كان محمد صادقا فى البعث بعد الموت فان لنا الجنة وقيل انه كان فى العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة وانهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه الى أن يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر معه مركوبه ثم بين تعالى أن مثل هذا الصنيع الذى يصدر من مشركى قريش قد صدر من سائر الامم السابقين فى حق الانبياء المتقدمين بقوله تعالى (تالله) اى الملك الاعلى (لقد أرسلنا) اى بما لنا من القدرة رسلا من الماضين (الى أمم من قبلك) كما أرسلنا الى هؤلاء (فزين لهم الشيطان) اى المحترق بالغضب المطرود باللعنة (أعمالهم) الخبيثة من الكفر والتكذيب كما زين لهؤلاء فضلوا كما ضلوا فاهلكناهم وهذا يجرى مجرى التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالالقاء للوسوسة فى قلوبهم وليس له قدرة على أن يضل أحدا أو يهدى أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن أراد الله تعالى شقاوته سلطه الله عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم اليوم) اى فى الدنيا وانما عبر باليوم عن زمانهم أى فهو وليهم حين كان يزين لهم أو يوم القيامة على أنه حكاية حال ماضية أو آتية أى لا ولى لهم غيره وهو عاجز عن نصرة نفسه فكيف ينصرهم وقيل الضمير لقريش أى زين الشيطان للكفرة المتقدمين أعمالهم وهو ولى هؤلاء القوم يغرهم ويغويهم وقيل يجوز أن يقدر مضاف أى فهو ولى أمثالهم والولى القرين والناصر فيكون نفيا للناصر لهم على ابلغ الوجوه (ولهم عذاب اليم) اى مؤلم فى الآخرة ＊ ثم ذكر تعالى أنه مع هذا الوعيد الشديد قد اقام الحجة وازاح العلة بقوله تعالى (وما انزلنا) اى بما لنا من العظمة من جهة العلو (عليك) يا أشرف المرسلين (الكتاب) اى القرآن (الا لتبين لهم) اى للناس (الذى اختلفوا فيه) من امر الدين مثل التوحيد والشرك واثبات المعاد ونفيه فانه كان فيهم من ينكر البعث ومنهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب ومثل تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة وتحليلهم أشياء محرمة كالميتة (فان قيل) اللام فى لتبين لهم تدل على ان افعال الله تعالى معللة بالاغراض كقوله تعالى كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (اجيب) بانه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التأويل وقوله تعالى (وهدى ورحمة) اى وذكرا ما بعده معطوفان على محل لتبين الا انهما انتصبا على انهما مفعول لهما لانهما فعلا الذى انزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل ولما كان ذلك ربما شملهم وهم على ضلالهم نفاه بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) ونظيره قوله تعالى فى أول البقرة هدى للمتقين وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه وانتفعوا به كما فى قوله تعالى انما أنت منذر من يخشاها لانه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط ＊ ولما اقتضى الدليل على أن قلوبهم منكرة استكبارا

للاصنام نطقا هنا ونفاه
عنها فى قوله فى الكهف
فدعوهم فلم يستجيبوا لهم
(قال) المثبت لهم هنا
النطق بتكذيب المشركين
فى دعوى عبادتهم لها
والمنفى عنهم فى الكهف

ومايتعلق به وختمه بما احيابه القلوب فى الايمان والعلم بعد موتها بالكفر والجهل وكان المقصود الاعظم من القرآن تقرير اصول اربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضاء والقدر والفعل بالاختيار وكان أجل هذه المقاصد الالهيات شرع فى ذكر الوحدانية والقدرة والفعل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم ليعلم أن أدلة ذلك أكثر من أوراق الاشجار وأجلى من ضياء النهار فعطف على قوله والله يعلم ماتسرون وماتعلنون قولها جامعا فى الدليل بين العالم العلوى والعالم السفلى (والله) اى الذى له الامر كله (أنزل من السماء) فى الوقت الذى يريده (ماء) بالمطر والثلج والبرد (فأحيابه) اى بذلك الماء (الارض) بانواع النبات (بعد موتها) اى يبسها (ان فى ذلك) المذكور (لآية) اى دلالة واضحة على كمال قدرته تعالى (لقوم يسمعون) اى سماع تدبر وانصاف ونظر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع فلم ينتفع بالآيات ومن الدلائل المذكورة فى هذه الآية الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله (وان لكم فى الانعام لعبرة) اى اعتبارا اذا تفكرتم فيها وعرفتم كمال قدرتنا وقوله تعالى (نسقيكم مما فى بطونه) استئناف بيان للعبرة وانما ذكر الضمير لان لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع كالرهط والقوم ولأمن اللبس والدلالة على قوة المعنى لكونها اسورة النحل وأنثه فى سورة المؤمنون للمعنى فان الانعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه فى باب مالا ينصرف فى الاسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم ثوب أكياش بياء تحتية وشين معجمة ضرب من الثياب يغزل مرتين ومن قال انه جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن لبعضها دون جميعها وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بفتح النون تقول سقيته حتى روى قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا والباقون بضمها من قولك اسقاه اذا جعل له شرابا كقوله تعالى وأسقيناكم ماء فراتا ولما كان فى موضع العبرة تخليص اللبن من غيره قدم قوله تعالى (من بين فرث) وهو الثفل الذى نزل الى الكرش فاذا اخرج منه لم يسم فرثا (ودم لبنا خالصا) أى صافيا خلقه الله وسطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغى عليه أحدهما بلون أو رائحة أو طعم روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اذا أكلت البهيمة العلف واستقر فى كرشها طحنته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد متسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقتسمها فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضرع ويبقى الفرث فى الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم (سائغا للشاربين) أى سهل المرور فى الحلق وقيل لم يغص أحد باللبن قط *(تنبيه)* قال أهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار كذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب الذى يأكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا آخر بقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا آخر فاحدث من ذلك اللبن السمن والجبن فهذا الاستقراء يدل على انه تعالى قادر على ان يقلب هذه الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع أيضا أن يكون قادرا على أن يقلب أجزاء أبدان الاموات

النطق بالاجابة الى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافى (قوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ) ان قلت اذا كان كذلك فكيف اختلفت الائمة فى كثير من الاحكام (قلت)

الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع وفى حدوث اللبن فى الثدى واتصافه بالصفات التى باعتبارها يكون موافقا لتغذية الطفل مشتملة على حكمة عجيبة يشهد صريح العقل بانها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم المدبر وبيانه من وجوه الاول انه تعالى خلق فى أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء أو شرابا انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شئ من ذلك المأكول والمشروب الى أن يكمل انهضامه فى المعدة وينجذب ما صفا منه الى الكبد ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التى لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى خروج ذلك الجسم من المعدة انفتح فحصول الانطباق تارة والانفتاح تارة أخرى بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما لا يتأتى الا بتقدير الفاعل الحكيم الثانى عند تولد اللبن فى الضرع يحدث الله تعالى فى حلمة الثدى ثقبا صغيرة ومساما ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص والحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا كان لا يخرج منها الا ما كان فى غاية الصفاء واللطافة وأما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى فى الداخل فالحكمة فى احداث تلك الثقب الصغيرة والمنافذ الضيقة فى رأس حلمة الثدى انها تكون كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس فى الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير اللبن خالصا موافقا لبدن الطفل سائغا للشاربين الثالث أنه تعالى ألهم ذلك الطفل الى المص فان الام كلما ألقت حلمة الثدى فى فم الطفل فذلك الطفل فى الحال يأخذ فى المص ولولا أن الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن فى الثدى وقوله تعالى (ومن ثمرات النخيل والاعناب) متعلق بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أى من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم عليه وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنه الاسقاء قال الواحدى الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه ثمرة وليس له ثمرة أخرى (ورزقا حسنا) كالتمر والزبيب والدبس والخل *(تنبيه)* فى تفسير السكر وجوه الاول هو الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله تعالى فى معرض الانعام (أجيب) عن ذلك بوجهين احدهما ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة فكان نزول هذه الآية كان فى الوقت الذى كانت الخمرة فيه غير محرمة وممن قال بنسخها النخعى والشعبى الثانى أن الآية جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة الى السكر والمنة بالنسبة الى رزقا حسنا الوجه الثانى أن السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر فاذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد فهو حلال عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى الى حد السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم الخمر حرام لعينها وهذا يقتضى أن يكون السكر شيأ غير الخمر وكل من أثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ الوجه الثالث أن السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر

لان اكثر الاحكام ليس منصوصا عليه بل بعضها منصوص عليه وبعضها مستنبط منه وطرق الاستنباط مختلفة فبعضها بالاحالة اما على السنة بقوله تعالى وما آتاكم

* جعلت اعراض الكرام سكرا * اى تنقلت باعراضهم بان جعلتم ذلك نقلا وتناولتها والنقل ما يتنقل به على الشراب قال البغوى والأولى لاقاويل ان قوله تعالى تتخذون منه سكرا منسوخ انتهى ويدل له قول الحسن ذكر الله نعمته عليهم فى الخمر قبل أن يحرمها عليهم وروى عن ابن عباس قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما حل من ثمرها وروى عنه ايضا السكر الحرام منه والرزق زبيبه وعنبه ومنافعه * ثم قال تعالى (ان فى ذلك) المذكور (لآية) اى دلالة على قدرته تعالى (لقوم يعقلون) اى يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات فيعلمون ان هذه الاحوال لا يقدر عليها الا الله تعالى فيحتج به واياها على وجود الاله القادر الحكيم * ولما بين تعالى أن اخراج الالبان واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب دليل قاطع وبرهان ساطع على ان لهذا العالم الها قادرا مختارا حكيما ذكر أن اخراج العسل الذى جعله الله تعالى شفاء للناس من دابة ضعيفة وهى النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود بقوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل) وحى الهام قال الضحاك الهمها ولم يرسل اليها رسولا والمراد من الالهام انه تعالى قدر فى نفسها هذه الاعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه الاول ما ذكر الله تعالى بقوله (أن اتخذى) اى بان اتخذى ويجوز أن تكون مفسرة لان فى الايحاء معنى القول (من الجبال بيوتا) تأوين اليها واتساعى ما تبنيه لتتعسل فيه بيتا تشبها ببيت الانسان فتبنى البيوت المسدسة من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طبعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم مثل تلك البيوت الا بآلات وانظار دقيقة الثانى انه ثبت فى الهندسة ان تلك البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوى المسدسات كأن كانت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال فانه تبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة فاهتداء هذا الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب الثالث ان النحل يحصل بينها واحد كالرئيس لبقية وذلك الواحد يكون اعظم جثة من الباقى ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند تعبه وذلك ايضا من الاعاجيب الرابع انها اذا انفردت عن وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا أرادوا ردها الى وكرها ضربوا الطبول وآلات الموسيقى فبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى أوكارها وهذه ايضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة كان ليس الا على سبيل الالهام وهو حالة شبيهة بالوحى والوحى قد ورد فى حق الانبياء كقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب وفى حق الاولياء قال تعالى واذ أوحيت الى الحواريين وبمعنى الالهام فى حق البشر قال تعالى واوحينا الى أم موسى وفى حق سائر الحيوانات خاص قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز ولذلك أنثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء (و) اتخذى (من الشجر) أى الصالحة بيوتا (و) اتخذى (مما يعرشون) أى الناس فيبنون تلك الاماكن وذلك أن النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجر والكهوف ومنه أهلى وهو

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقوله وما ينطق عن الهوى أو على الاجماع بقوله ويتبع غير سبيل المؤمنين الآية أو على القياس بقوله فاعتبروا يا أولى الابصار

الذى ياوى الى البيوت وتربيه الناس عندهم وقد جرت العادة أن الناس يبنون للنحل الاماكن حتى ياوى اليها وذكر ذلك بحرف التبعيض لانها لاتبنى فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من الكرم أو سقف ولا فى كل مكان منها وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بكسرها *(تنبيه)* ظاهر قوله تعالى اتخذى أمر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لابعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا بدع أن يتوجه عليها من الله أمر ونهى وقال آخرون بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الاحوال وسياق الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة النمل عند قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ولما كان أهم شئ للحيوانات بعد الراحة من هم المقيل أكل شئ نبه به فقال (ثم كلى من كل الثمرات) أى من كل ثمرة تشتهيها مرها وحلوها وذكر ذلك بحرف التراخى اشارة الى عجيب الصنع فى ذلك وتيسيره لها *(تنبيه)* لفظ من هذا للتبعيض أو لابتداء الغاية ولما أذن لها فى ذلك كله وكان من المعلوم عادة ان تعاطيه لايكون الابمشقة عظيمة فى معاناة السير اليه نبه على خرقه العادة فى تيسيره لها بقوله تعالى (فاسلكى سبل ربك) أى الطرق التى ألهمك الله تعالى أن تسلكيها وتدخلى فيها لاجل طلب الثمار وقوله تعالى (ذللا) جمع ذلول حال من السبل أى مسخرة لك فلا تعسر عليك وان توعرت ولا تضلى عن العود فيها وان بعدت وقيل من الضمير فى اسلكى أى منقادة لاربابها حتى انهم ينقلونها من مكان الى مكان آخر حيث شاؤا وأرادوا لاتستعصى عليهم وقوله تعالى (يخرج من بطونها) فيه عدول عن خطاب النحل الى خطاب الناس لانه محل الانعام عليهم والمقصود من خلق النحل والهامه لاجلهم (شراب) أى عسل (مختلف ألوانه) ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والازهار ويستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وقال الرازى انه رأى فى بعض كتب الطب ان العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار وأوراق الشجر فيجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه فى بيوتها لانفسها لتتغذى به فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب الى العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضا انا نشاهد ان النحل يتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها شراب ان كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها أى من أفواهها انتهى والاول كما قال ابن الخازن وغيره أظهر لانا نشاهد ان العسل يوجد فيه طعم تلك الازهار التى يأكلها النحل وكذا يوجد لذتها وريحها وطعمها فيه أيضا ويعضد هذا قول بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أكلت مغافير قال لا قالت ما هذه الريح التى أجد منك قال سقتنى حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط والعرفط شجر الطلح له صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذى له الرائحة الكريهة فثبت بهذا أنه يوجد فى طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لاما قاله الاطباء من انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وقوله كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا خلاف الظاهر لان لفظ البطن اذا أطلق لم يرد به الا العضو المعروف بطن الانسان وغيره (فيه) أى الشراب

والاعتبار بالنظر والاستدلال الـذات يحصل بهما القياس (قوله وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) قاله هنا بلفظ ما وفى الزمر بلفظ الذى موافقة فى كل

الذي يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) من الأوجاع كما قال ابن عباس وابن مسعود
أما بعضها كما دل عليه تنكير شفاء وأما كلها فضعيفة الى غيره اذ قل معجون من المعاجين
لم يذكر الأطباء فيه العسل أو يدونه بنيته وبهذا سقط ما قيل انه يضر بأصحاب الصفراء ويهيج
الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن
شفاء لما في الصدور وفي رواية عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروى نافع أن ابن عمر
ما كانت قرحة ولا شيء الا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه
فيه شفاء للناس وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه
وسلم فقال ان أخي يشتكي بطنه فقال صلى الله عليه وسلم اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال
قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فشفاه الله
فبرأ فكأنما أنشط من عقال فقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك يحتمل أنه
صلى الله عليه وسلم علم بنور الوحي الالهي أن العسل الذي أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك
فلما لم يظهر نفعه في الحال قال صدق الله يعني فيما وعد من أن فيه شفاء للناس وكذب بطن
أخيك يعني باستعجاله للشفاء في أول مرة وقال مجاهد الضمير في فيه شفاء للناس راجع
للقرآن لان فيه شفاء من أمراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس وعلى
هذا تمت قصة تولد العسل من النحل عند قوله تعالى يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ثم
ابتدأ وقال فيه شفاء للناس أي في هذا القرآن قال الرازي وهذا قول ضعيف ويدل عليه
وجهان الأول أن الضمير في قوله تعالى فيه شفاء للناس يجب عوده الى أقرب المذكورات
وما ذاك الا قوله تعالى شراب مختلف ألوانه وأما الحكم بعود هذا الضمير الى القرآن مع أنه غير
مذكور فيما سبق فهو غير مناسب والثاني حديث أبي سعيد الخدري المتقدم • ثم انه تعالى
ختم الآية بقوله تعالى (ان في ذلك) أي المذكور (لآية لقوم يتفكرون) أي في اختصاص
النحل بتلك الطعوم الرقيقة واللطائف الخفية مثل بناء البيوت المسدسة وغير ذلك فيعتبرون
ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا وقد كثر في هذه السورة اضافة الآيات الى
المخاطبين تارة بالافراد وتارة بالجمع ونوعها تارة بالعقل وتارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة بغيرها
• ثم انه تعالى لما أيقظهم من رقدتهم ونبههم على عظيم غفلتهم ثنى ببعض ما في أنفسهم من
الأدلة على ذلك فقال (والله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما (خلقكم) أي أوجدكم من العدم
وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيئا (ثم يتوفاكم) أي عند انقضاء آجالكم على اختلاف
الانسان فلا يقدر الصغير أن يؤخر ولا الكبير على أن يقدم فمنكم من يموت على حال قوته
(ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أي أخسه من الهرم والخرف قال بعض العلماء عمر الانسان
له أربع مراتب سن الطفولية والنمو وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية
سن الشباب وبلوغ الأشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاثة وثلاثين سنة الى
أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل والمرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الأربعين
الى الستين وهذه المرتبة يشرع فيها الانسان في النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم
المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر خمسة وستون سنة يتبين

منهما لما قبله اذ بل ما هنا
انما عند الله هو خير لكم
ما عندكم ينفد وما عند الله
باق وقيل ما هنا أسوأ الذي
والذي جاء بالصدق (قوله
ثم ان ربك للذين هاجروا
من بعد ما فتنوا) الآية

النقص و يكون الهرم والخرف قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرذل العمر خمسة وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اني أعوذ بك من العجز والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفي رواية عنه كان يقول اللهم اني أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) أي ليصير الى حالة شبيهة بحال الطفولية في نقصان القوة والعقل وسوء الفهم *(تنبيه)* هل ذلك عام في المسلم والكافر أو مختص بالكافر فيه قولان أحدهما انه عام والقول الثاني انه مختص اذ المسلم لا يزداد بطول العمر الا كرامة على الله تعالى ولا يقال في حقه انه رد الى أرذل العمر قال الرازي والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فبين ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا الى أسفل السافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقال في قوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس قوله ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهذا يؤيد ما مر (ان الله عليم) بمقادير أعمارهم (قدير) يميت الشاب النشيط ويبقي الهرم الفاني وفي ذلك تنبيه على ان تفاوت آجال الناس ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبائعيون لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ * ولما ذكر تعالى المفاوتة في الاعمار المنادية بابطال الطبائع الموجبة للمسابقة الى الاعتبار لأولي الابصار المخوف كل لحظة من مصيبة الموت أتبعها بالمفاوتة في الارزاق فقال (والله) أي الذي له الامر كله (فضل بعضكم) أيها الناس (على بعض في الرزق) فمنكم غني ومنكم فقير ومنكم مالك ومنكم مملوك كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم فيجعل الضعيف العاجز الجاهل أغنى من القوي المحتال العالم فترى أكيس الناس وأكثرهم عقلا يفني عمره في طلب القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك وترى أجلف الخلق وأقلهم عقلا وفهما تفتح له أبواب الدنيا فكل شيء خطر بباله أو دار في خياله فانه يحصل له بسهولة ولو كان السبب في ذلك هو جهل الانسان وعقله لوجب أن يكون الاعقل أفضل في هذه الاحوال فلما رأينا ان الاعقل أقل نصيبا وان الاجهل الاخس أوفر نصيبا علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا فاتقوا الله وأجملوا في طلب الرزق وأقبلوا فى جمع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار وأنشد سفيان بن عيينة يقول

كم من قوي قوي في تقلبه * مهذب الرأي عنه الرزق منحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط * كأنه من خليج البحر يغترف

(وحكى) أن سليمان المهلبي أرسل الى الخليل بن أحمد بمائة ألف درهم فردها الخليل وكتب اليه هذه الابيات

أبلغ سليمان اني عنه في سعة * وفي غنى غير اني لست ذا مال
شحي بنفسي أني لا أرى أحدا * يموت جوعا ولا يبقى على حال

كرر فيها وفي قوله بعد ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة الآية ان ربك لطول الكلام بين الا ذلك قيل ومثله أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون

فالعجز عن قدرها العجز بنفسه ● ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه ● ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وقال الشافعي رحمه الله تعالى

ومن الدليل على القضاء وكونه ● بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

●(تنبيه) ● هذا التفاوت ليس مختصا بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له قال الرازي وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك في بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه فكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما حضرت الاطعمة الشهية والفواكه الكثيرة العطرة عنده وما كان يمكنه أن يتناول شيأ منها وكان من الفقراء من هو صحيح المزاج وقوي البنية كامل القوة وما كان يجد مل‍ء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل هذا الفقير في المال الا أن هذا الفقير كان يفضل ذلك الملك في الصحة والقوة وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه فيه فنسأل الله تعالى أن يغنينا من فضله وان يرضينا بما قسم لنا انه كريم جواد ● ثم ضرب الله تعالى مثلا للذين جعلوا لله شركاء بقوله تعالى (فما الذين فضلوا) اي في الرزق وهم الموالي (برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم) اي بجاعلي ما رزقناهم من الاموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم (فهم) اي المماليك والموالي (فيه سواء) اي شركاء يقول الله تعالى هم لا يرضون ان يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سواء فكيف يجعلون بعض عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني وقيل معنى الآية ان الموالي والمماليك الله رازقهم جميعا فهم في رزقه سواء فلا تحسبن الموالي يردون ارزاقهم على مماليكهم من عند انفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على ايدي الموالي للمماليك والمقصود منه بيان ان الرازق هو الله تعالى لجميع خلقه وان الموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء وان المالك لا يرزق المملوك وانما ذلك رزق اجريته اليهم على ايديهم فالرازق للمالك والمملوك هو الله تعالى ● ولما قرر سبحانه وتعالى هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما منه على الخلق فعند هذا قال (أفبنعمة الله) في تقرير هذه البيانات وايضاح هذه البينات (يجحدون) أي يكفرون وفي ذلك انكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره وجعلوا له شركاء يضيفون اليهم بعض ما أنعم به عليهم فيسوون بينهم وبينه في ذلك وقرأ شعبة بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ● ثم انه تعالى ذكر نوعا آخر من أحوال الناس ليستدل به على وجود الاله المختار الحكيم وتنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم بقوله تعالى (والله) أي الذي له تمام القدرة وكمال العلم (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أي من جنسكم لتستأنسوا بها ولتكون أولادكم منكم فخلق حواء من ضلع آدم وسائر الناس من نطف الرجال والنساء فهو خطاب عام فتخصيصه بآدم وحواء فقط خلاف الدليل والمعنى أنه تعالى خلق النساء لتزوج بهن الذكور ومعنى من أنفسكم كقوله تعالى فاقتلوا أنفسكم فسلموا على أنفسكم أي بعضكم بعضا ونظيره قوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) والحفدة جمع حافد وهو المسرع بالخدمة المسارع

(قوله يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) ● ان قلت ما معنى اضافة النفس الى النفس مع ان النفس لا نفس لها (قلت) النفس تقال للروح وللجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق

الى الطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى طاعتك هذا أصله فى اللغة واختلف فيه أقوال المفسرين فقال ابن مسعود والنخعى الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود انهم أصهاره فهو بمعنى الاول وعلى هذا يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن فيحصل لكم بسببهن الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فهو حفيدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقال الكلبى ومقاتل البنون هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل الذين ليسوا منه أى أولاد المرأة من الزوج الاول قال الرازى والاولى دخول الكل فيه لان اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك قال الزمخشرى ويجوز أن يراد بالحفدة البنون أنفسهم كانه قيل جعل لكم منهن أولادا هم بنون وهم حافدون أى جامعون بين الامرين انتهى ومع هذا فالمشهور ان الحافد ولد الولد من الذكور والاناث •(فائدة)• قال الاطباء وأهل الطبيعة المنى اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما فى الذكورة واذا انصب من الخصية اليسرى ثم انصب الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد أنثى تاما فى الانوثة واذا انصب الى الخصية اليمنى وانصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان ذكرا فى طبيعة الاناث واذا انصب الى الخصية اليسرى ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد أنثى فى طبيعة الذكور وحاصل كلامهم ان الذكور الغالب عليهم الحرارة واليبوسة والغالب على الاناث البرودة والرطوبة وهذه العلة ضعيفة فان فى النساء من مزاجها فى غاية السخونة وفى الرجال من مزاجه فى غاية البرودة فخالق الذكر والانثى هو الاله القادر الحكيم • ولما ذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح وما بينه فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة فقال (ورزقكم من الطيبات) سواء كانت من النبات وهى الثمار والحبوب والاشربة أو كانت من الحيوان والمراد بالطيب المستلذ أو الحلال ومن فى من الطيبات للتبعيض لان كل الطيبات فى الجنة وما طيبات الدنيا الا أنموذج منها واختلف فى تفسير قوله تعالى (أفبالباطل يؤمنون) فقال ابن عباس يعنى بالاصنام وقال مقاتل يعنى بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا (وبنعمت الله هم يكفرون) أى بان يضيفوها الى غير الله تعالى ويتركون اضافتها الى الله تعالى وقيل الباطل ما سول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم من هذه الطيبات وتحريم الخبائث •(فائدة)• رسمت نعمت هنا بالتاء ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء والكسائى يقرأ بالامالة • ولما شرح الله تعالى الدلائل على صحة التوحيد واتبعها بذكر أقسام النعم العظيمة اتبعها بالرد على عبدة الاصنام فقال (ويعبدون من دون الله) أى غيره (ما لا يملك لهم رزقا) اى تاركين عبادة من بيده جميع الارزاق وهو ذو العلو المطلق الذى رزقهم من الطيبات ويعبدون غيره ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى (من السموات والارض) اما الرزق الذى يأتى من جانب السماء فالمطر وأما الذى من جانب الارض فالنبات والثمار التى تخرج منها وقوله تعالى (شيأ) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه منصوب على المصدر اى لا يملك لهم

التدبير وبطلة الانسان ولعين الشئ وذاته كما يقال نفس الذهب والفضة محبوبة اى ذاتها فالمراد بالنفس الاولى الانسان وبالثانية ذاته فكأنه قال يوم يأتى كل انسان يجادل

ملكا أى شيئا من الملك والثانى أنه بدل من رزقا أى لا يملك لهم شيئا قال ابن عادل وهذا غير مفيد اذ من المعلوم أن الرزق شئ من الاشياء ويؤيد ذلك أن البدل لا يأتى الا لأحد معنيين البيان أو التأكيد وهذا ليس فيه بيان لانه أعم ولا تأكيد والثالث انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل المصدر على خلاف فى ذلك * ولما كان من لا يملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة أن يتملك بطريق من الطرق نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى (ولا يستطيعون) أى وليس لهم نوع استطاعة أصلا (فان قيل) انه تعالى قال ويعبدون من دون الله ما لا يملك فعبر عن الاصنام بصيغة ما وهى لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون فقال ولا يستطيعون وهو مختص بمن يعقل (أجيب) بانه عبر عنها ثانيا اعتبارا باعتقادهم انها آلهة وفى تفسير قوله تعالى (فلا تضربوا لله الامثال) وجهان الاول قال أكثر المفسرين لا تشبهوا الله بخلقه فانه واحد لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفى ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق والقادر بالعاجز الثانى ان عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم أجل وأعظم من ان يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هؤلاء الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم كما ان أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك وأولئك الاكابر كانوا يخدمون الملك فكذا ههنا (ان الله) أى الذى له الامر كله ولا أمر لغيره (يعلم) أى خطأ ما أنتم عليه من ضرب الامثال له (وأنتم لا تعلمون) ذلك وقيل معناه وأنتم لا تعلمون ما عليكم من العذاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام ولو علمتموه لتركتم عبادتها * ولما ختم تعالى ابطال مذهب عبدة الاصنام بسلب العلم الذى هو مناط السداد عنهم أكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى (ضرب الله) أى الذى له كمال العلم وتمام القدرة (مثلا) بالاحرار والعبيد ثم أبدل من مثلا (عبدا) وقيده بقوله تعالى (مملوكا) ليخرج الحر لان العبد يطلق على الحر بالنسبة الى الله تعالى وقيده بقوله تعالى (لا يقدر على شئ) ليخرج المكاتب ومن فيه شائبة حرية وهذا مثل شركائهم ثم عطف على عبدا قوله (ومن) أى وحرا فهى نكرة موصوفة ليطابق عبدا (رزقناه منا رزقا حسنا) أى واسعا طيبا (فهو ينفق منه) دائما وهو معنى قوله تعالى (سرا وجهرا) أى يتصرف فيه كيف يشاء وهذا مثل الاله وله المثل الاعلى ثم بكتهم انكارا عليهم بقوله تعالى (هل يستوون) أى هذان الفريقان المثل بهما لان المراد الجنس فاذا كان لا يسوغ فى عقل أن يسوى بين مخلوقين أحدهما حر مقتدر والآخر مملوك عاجز فكيف يسوى بين حجر من صوان أو غيره وبين الله تعالى الذى له القدرة التامة على كل شئ وقيل ذلك تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق *(تنبيه)* جواب هل يستوون هو لا يستوون وقوله تعالى (الحمد لله) قال ابن عباس الحمد لله على ما فعل باوليائه وانعم عليهم بالتوحيد وقيل المعنى ان كل الحمد لله وليس شئ من الحمد للاصنام لانه لا نعمة لها على أحد لانها جماد عاجز أى انما الحمد لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لانه تعالى أهل المحامد والثناء الحسن فكانهم قالوا نحن نعلم ذلك فقيل (بل أكثرهم) أى الكفار (لا يعلمون) لكونهم يسوونه غيره [3] ومن نفى عنه أصل العلم الذى هو أعلى صفات الكمال كان فى عداد الانعام فهم لذلك يشبهون به ما ذكر ويضربون له الامثال الباطلة ويضيفون نعمه الى غيره ثم انه

عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسى نفسى (قوله ولا تك فى ضيق) قاله هنا بحذف النون وفى النمل باثباتها تشبيها الها بحروف العلة وخص ما هنا بحذفها موافقة لقوله

[3] قوله يسوونه غيره كذا بالاصل ولعله يسوونه بغيره وفى نسخة يسوون غيره ولعل صوابها يسوون غيره به فلعل الساقط من الناسخ اه مصحح

تعالى ضرب لعبدة الاوثان مثلا آخر بقوله تعالى (وضرب الله مثلا) ثم أبدل منه (رجلين) ثم استأنف البيان لمثل أجل فقال (أحدهما أبكم) وهو الذى ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم وروى ثعلب عن ابن الاعرابى الابكم الذى لا يسمع ولا يبصر وصف الله تعالى هذا الرجل بصفة ثانية بقوله تعالى (لا يقدر على شئ) لانه لا يفهم ولا يفهم وفى ذلك اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ثم وصفه الله تعالى بصفة ثالثة بقوله تعالى (وهو) أى ذلك الابكم العاجز (كل على مولاه) أى ثقيل على من ولى أمره ويعوله قال أهل المعانى أصله من الغلظ الذى هو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته فلم تقطع وكل اللسان اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينهض فيه ثم وصفه تعالى بصفة رابعة بقوله (أينما يوجهه) أى يرسله ويصرفه ذلك المولى (لا يأت بخير) لانه عاجز لا يحسن ولا يفهم قيل هذا مثل شركائهم الذين هم عيالهم وبال على عبدتهم ووبخهم الله تعالى بقوله (هل يستوى هو) أى هذا الموصوف بهذه الصفات الاربع (ومن) أى ورجل آخر على ضد صفته فهو ناطق قادر عالم فطن ذو خير مبارك ميمون (يأمر) أى ورجل آخر يأمر بما له من العلم والقدرة (بالعدل) أى يبذل النصيحة لغيره (وهو) فى نفسه ظاهرا وباطنا (على صراط) أى طريق واضح (مستقيم) أى عامل فيه بما يأمر به قيل هذا مثال المعبود بالحق الذى يكفى عابده جميع المؤن وهو دال على كمال علمه وتمام قدرته وقيل المراد من هذا الابكم عبد لعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان ذلك العبد يكره الاسلام وما كان فيه خير ومولاه وهو عثمان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم وقيل المراد كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا القول كما قال الرازى أولى من الاول لان وصفه تعالى إياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه فى جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بانه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وأيضا المقصود تشبيه صورة بصورة فى أمر من الامور وذلك التشبيه لا يتم الا عند كون احدى الصورتين مغايرة للاخرى وأما القول الثانى فضعيف أيضا لان المقصود ابانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين بل اذا حصل التفاوت فى الصفات المذكورة فانه يحصل المقصود ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بكمال العلم بقوله تعالى (ولله) أى لا لغيره (غيب السموات والارض) وهو ما غاب فيهما عن العباد بان لم يكن محسوسا ولم يدل عليه محسوس وقيل الغيب هاهنا قيام الساعة فان علمه غائب عن أهل السموات والارض ثم وصف سبحانه وتعالى كمال قدرته بقوله تعالى (وما أمر الساعة) وهو الوقت الذى يكون فيه البعث (الا كلمح البصر) أى الا كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها والمعنى وما أمر قيام الساعة فى السرعة والسهولة الا كطرف العين والمراد منه تقدير كمال القدرة ومعنى قوله تعالى (أو هو أقرب) ان لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ولا شك أن الحدقة مؤلفة من أجزاء فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الاجزاء التى منها تألف الحدقة ولا شك أن تلك الاجزاء كثيرة والزمان الذى يحصل فيه لمح البصر مركب من

قيل ولم يك من المشركين ولسبب نزول هذه الآية لانها نزلت تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم حين قتل عمه حمزة ومثل به فقال صلى الله عليه وسلم لافعلن بهم فانزل الله ولا تحزن ... ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

آيات متباقية والله تعالى قادر على اقامة القيامة فى آن واحد من تلك الآنات فلذلك قال أوهو أقرب الا أنه لما كان أسرع الاحوال والحوادث فى عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لاجرم ذكره ثم قال أوهو أقرب تنبيها على ما مر ولا شبهة فى أنه ليس المراد طريقة الشك فالمراد اذا بل هو أقرب وقال الزجاج المراد به الابهام على المخاطبين لانه تعالى يأتى بالساعة اما بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع وقيل معناه ان قيام الساعة وان تراخى فهو عند الله كالشئ الذى تقولون فيه هو كلمح البصر أوهو أقرب مبالغة كقوله تعالى وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (ان الله) اى الملك الاعظم (على كل شئ قدير) فيقدر على أن يحيى الخلائق دفعة واحدة كما قدر على احيائهم فانه تعالى مهما أراده كان فى أسرع ما يكون ثم انه تعالى عاد الى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فعطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا قوله عز وجل (والله) اى الذى له العظمة كلها (أخرجكم) بقدرته وعلمه (من بطون أمهاتكم) حال كونكم عند الاخراج (لاتعلمون شيأ) من الاشياء قل أو جل فالذى أخرجكم منها قادر على اخراجكم من بطون الارض بلا فرق بل بطريق الاولى وقرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة والباقون بضمها وقرأ حمزة بكسر الميم والباقون بفتحها ثم عطف على أخرجكم قوله تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) آلات لازالة الجهل الذى وقعت الولادة عليه وفتق مواضعها وسواها وعدلها وأنتم فى البطون حيث لا تصل اليه يد ولا يتمكن من شق شئ منه بآلة فالذى قدر على ذلك فى البطن ابداعا قادر على اعادته فى بطن الارض بل بطريق الاولى قال البقاعى ولعله تعالى جمعهما اى الابصار والافئدة دون السمع لان التفاوت فيهما أكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه الا الله والافئدة هى القلوب التى هيأها الله تعالى للفهم واصلاح البدن بما أودعها من الحرارة اللطيفة للمعانى الدقيقة (لعلكم تشكرون) لتصيروا بمعارف القلوب التى وهبكموها اذا سمعتم المواعظ وأبصرتم الآيات فى حال يرجى فيها شكركم لما أفاض عليكم من لطائف صنعه بأن تعرفوا ما له من العلم والقدرة فانه انما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها فى شكر من أنعم بها عليكم (فان قيل) عطف وجعل لكم السمع على أخرجكم يقتضى أن يكون جعل السمع والبصر متأخرين عن الاخراج من البطون مع أن الامر ليس كذلك (أجيب) بأن حرف الواو لا يوجب الترتيب وأيضا اذا حملنا السمع على الاستماع والابصار على الرؤية زال السؤال ثم انه تعالى ذكر دليلا آخر على كمال قدرته وحكمته بقوله تعالى (ألم يروا الى الطير مسخرات) اى مذللات للطيران (فى جو السماء) اى فى الهواء بين الخافقين بما لا يقدرون عليه بوجه من الوجوه مع مشاركتكم لها فى السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول فعلم قطعا أنه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران فيها والا لما أمكن ذلك لانه تعالى أعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره مرة أخرى مثل ما يعمل السابح فى الماء وخلق الجو خلقة لطيفة رقيقة يسهل خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا مع ذلك (ما يمسكهن) فى الجو عن الوقوع (الا الله) اى الملك الاعظم فان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه

العابرين الآية فبالغ فى الحذف ليكون ذلك مبالغة فى التسلية واثباتها فى النحل جاء على القياس ولان الحزن ثم دون الحزن هنا

(سورة الاسراء)

في الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على أنه خطاب العامة والباقون بالياء على الغيبة (ان في ذلك) المذكور (لآيات) أي دلالات (لقوم يؤمنون) وخصهم بذلك لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء ثم ذكر تعالى نوعا آخر من دلائل التوحيد بقوله تعالى (والله) اى الذي له الحكمة البالغة (جعل لكم من بيوتكم) وأصل البيت المأوى ليلا ثم اتسع فيه (سكنا) اى موضعا تسكنوا فيه * (تنبيه) * البيوت التي يسكن الانسان فيها على قسمين أحدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقلها بل الانسان ينتقل اليها والقسم الثاني القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله تعالى (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) المتخذة من الادم ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فانها من حيث انها نابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها (تستخفونها) اى تتخذونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها (يوم ظعنكم) اى وقت ترحالكم وعبر باليوم لان الترحال في النهار (ويوم اقامتكم) اى وقت الحضر أو وقت النزول وهذا القسم من البيوت يمكن نقلها وتحويلها من مكان الى مكان وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح العين والباقون بالسكون وأضاف قوله تعالى (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الى ضمير الانعام لانها من جملتها قال المفسرون وأهل اللغة الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز (أثاثا) اى ما يلبس و يفرش (ومتاعا) اى ما يتجر به وقيل الاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمل في الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش في المنازل و يتزين به واختلف في معنى قوله تعالى (الى حين) فقيل الى حين تبلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد حين وقيل الى يوم القيامة * (تنبيه) * في نصب أثاثا وجهان أحدهما انه منصوب عطفا على بيوتا اى وجعل لكم من أصوافها أثاثا والثاني انه منصوب على الحال واعلم ان الانسان اما أن يكون مقيما أو مسافرا والمسافر اما أن يكون غنيا يستصحب معه الخيام أولا فالقسم الاول أشار اليه بقوله تعالى جعل لكم من بيوتكم سكنا وأشار الى القسم الثاني بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا وأشار الى القسم الثالث بقوله تعالى (والله) اى الذي له الجلال والاكرام (جعل لكم) اى من غير حاجة منه تعالى (مما خلق) من شجر وجبال وأبنية وغيرها وقوله تعالى (ظلالا) جمع ظل تتقون به شدة الحر وقوله تعالى (وجعل لكم) مع غناه المطلق (من الجبال أكنانا) جمع كن موضع تسكنون فيه من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها (وجعل لكم) اى امتنانا منه عليكم (سرابيل) جمع سربال قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره اى وسواء كان من صوف أو كتان أو قطن أو غير ذلك (تقيكم الحر) ولم يقل تعالى والبرد لتقدمه في قوله تعالى فيها دفء وقيل انه اكتفى بأحد المتقابلين وقيل كان المخاطبون بهذا الكلام العرب وبلادهم حارة فكان حاجتهم الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال تعالى ومن

(قوله الذي أسرى بعبده ليلا) قال بعبده دون نبيه أو حبيبه لئلا تضل به أمته كما ضلت أمة المسيح حيث دعته الها أولان وصفه بالعبودية المضافة الى الله تعالى أشرف

إصوافها

أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائر أنواع الثياب أشرف الا أنه تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان الفهم بها أشد واعتيادهم للبسها أكثر ولما كانت السرابيل نوعا واحدا لم يكرر لفظ جعل فقال (وسرابيل) اى دروعا من حديد وغيرها (تقيكم بأسكم) اى حربكم أى في الطعن والضرب فيها ولما عدد الله تعالى أنواع نعمه قال (كذلك) اى كاتمام هذه النعمة المتقدمة (يتم نعمته عليكم) في الدنيا والدين بالبيان والهداية لطريق النجاة والمنافع والتنبيه على دقائق ذلك (لعلكم) يا أهل مكة (تسلمون) اى تخلصون لله الربوبية وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الانعامات أحد سواه وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع (فان تولوا) فلم يقبلوا منك وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة في الكفر (فانما عليك) يا أفضل الخلق (البلاغ المبين) هذا جواب الشرط وفي الحقيقة جواب الشرط محذوف أى فقد تمهد عذرك بعدما اديت ما وجب عليك من التبليغ فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب وذلك لان تبليغه سبب في عذره فأقيم السبب مقام المسبب وهذا قبل الامر بالقتال ثم انه تعالى ذمهم بانهم (يعرفون نعمت الله) اى الملك الاعظم التي تقدم عد بعضها في هذه السورة وغيرها (ثم ينكرونها) بعبادتهم غير المنعم بها وقال السدى نعمة الله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هي الاسلام وهو من أعظم النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه واختلف في معنى قوله تعالى (وأكثرهم الكافرون) مع أنهم كلهم كانوا كافرين على وجوه الاول انما قال تعالى وأكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل فاراد بالاكثر البالغين الاصحاء الثاني ان يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله الثالث انه ذكر الاكثر والمراد الجميع لان أكثر الشئ يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع وهذا كقوله تعالى الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ❊ ولما بين تعالى من حال القوم انهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضا من حالهم أن أكثرهم كافرون اتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة بقوله تعالى (ويوم) اى وخوفهم يوم أو واذكر لهم يوم (نبعث) بعد البعث (من كل أمة شهيدا) هو نبيها كما قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يشهد نبيها لها وعليها يوم القيامة ليحكم تعالى بقوله اجزاء للامر على ما يتعارفون وان كان تعالى غنيا عن شهيد وقوله تعالى (ثم لا يؤذن للذين كفروا) فيه وجوه أحدها لا يؤذن لهم في الاعتذار كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون ثانيها لا يؤذن لهم في كثرة الكلام ثالثها لا يؤذن لهم في الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف رابعها لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود (فان قيل) ما معنى ثم ههنا (أجيب) بان معناها انهم يمنعون أى يبتلون بغير شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو أطم منها وانهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في القاء معذرة ولا ادلاء بحجة (ولا هم يستعتبون) اى لا تزال عتباهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون يقال استعتبت فلانا بمعنى اعتبته اى ازلت

المقامات وقال ليلا منكرا ليدل على قصر زمن الاسراء مع ان بين مكة و بين بيت المقدس مسيرة اربعين ليلة لان التنكير يدل على البعضية والحكمة في اسرائه صلى الله عليه

منباه (واذا رأى الذين ظلموا) اى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (العذاب) اى عذاب جهنم بعد الموقف وشهادة الشهداء (فلا يخفف عنهم) ذلك العذاب (ولاهم ينظرون) اى لايمهلون ولما بين تعالى حال أمرهم فى البعث وما بعده وكان من أهم المهم أمرهم فى الموقف مع شركائهم الذين كانوا يرجونهم عطف على ذلك بقوله تعالى (واذا رأى) اى بالعين يوم القيامة (الذين اشركوا شركاءهم) اى الآلهة التى كانوا يدعونها شركاء من الشياطين وغيرها (قالوا ربنا) اى يامن أحسن الينا ودبرنا (هؤلاء شركاؤنا) أضافوهم الى أنفسهم لانه لاحقيقة لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجبة لضرهم ثم بينوا المراد بقولهم (الذين كنا ندعوا) اى نعبدهم (من دونك) ليقربونا اليك فاكرمنا لاجلهم جريا على مناهجهم فى الدنيا فى الجهل والغباوة فخاف شركاؤهم من عواقب هذا القول والاقرار عليه سطوات الغضب (فالقوا) اى الشركاء (اليهم) اى المشركين (القول) اى بادروا به حتى كان اسراعهم اليه اسراع شئ ثقيل يلقى من علو واكدوا قولهم فقالوا (انكم لكاذبون) فى جعلنا شركاء أو انكم عبدتمونا حقيقة وانما عبدتم أهواءكم كقوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ولا يبعد أن تنطق الاصنام بذلك يومئذ فى انهم حملوهم على الكفر والزموهم اياه كقوله وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى (والقوا) اى الشركاء (الى الله) اى الملك الاعلى (يومئذ) اى يوم القيامة (السلم) اى الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار فى الدنيا (وضل) اى غاب (عنهم) اى الكفار (ما كانوا يفترون) اى من أن آلهتهم تشفع لهم ولما ذكر تعالى وعيد الذين كفروا أتبعه بوعيد من ضم الى كفره صد الغير عن سبيل الله بقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) اى ضموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول فى الايمان بالله وبرسوله (زدناهم عذابا) لصدهم (فوق العذاب) المستحق بكفرهم (بما كانوا يفسدون) اى بكونهم مفسدين بصدهم وقيل زدناهم عذابا بحيات وعقارب كامثال البخت يستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر أن لكل عقرب ستمائة فقرة فى كل فقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ثم كرر سبحانه وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السابقة وهو أن الشهادة تقع على الامم لا لهم وذكرت بحضرتهم فقال (ويوم) اى وخوفهم أو واذكر لهم يوم (نبعث) اى بما لنا من القدرة (فى كل أمة) من الامم والامة عبارة عن القرن والجماعة (شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الانبياء قال المفسرون كل نبى شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) اى منهم لان كل نبى انما بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهدوا عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان (وجئنا) بما لنا من العظمة (بك) يا خير المرسلين (شهيدا على هؤلاء) اى الذين بعثناك اليهم وهم أهل الارض واكثرهم ليس من قومه صلى الله عليه وسلم والملك لم تقيد بعثته بشئ وقال أبو بكر الاصم المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الانسان حتى انها تشهد عليهم وهى الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال والدليل عليه انه قال فى صفة الشهيد أنه من أنفسهم وهذه الاعضاء لاشك أنها من

وسلم من بيت المقدس دون مكة لانه محشر الخلائق فيطؤه بقدمه ليسهل على امته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدمه اولانه مجمع ارواح الانبياء فاراد الله تعالى ان يشرفهم بزيارته

انفسهم

أنفسهم وورد بانه تعالى قال شهيدا عليهم فيجب ان يكون غيرهم وأيضا قال من كل أمة فيجب ان يكون ذلك الشهيد من الامة وآحاد هذه الاعضاء لا يصح وصفها بانها من الامة ثم بين تعالى انه أزاح علتهم فيما كلفوا به فلا حجة لهم ولا معذرة بقوله تعالى (ونزلنا) أى بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم (عليك) يا خير خلق الله (الكتاب) أى القرآن الجامع للهدى (تبيانا) أى بيانا بليغا (لكل شئ) (فان قيل) كيف كان القرآن تبيانا لكل شئ (اجيب) بان المعنى من كل شئ من امور الدين حيث كان نصا على بعضها واحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم وطاعته وقد قال تعالى وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع فى قوله تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب فمن ثم كان تبيانا لكل شئ (وهدى) أى من الضلالة (ورحمة) لمن آمن به وصدقه (وبشرى) بالجنة (للمسلمين) أى الموحدين خاصة * ولما استقصى سبحانه وتعالى فى شرح الوعد والوعيد والرغبة والترهيب اتبعه بقوله (ان الله) أى الملك المستجمع لصفات الكمال (يأمر بالعدل) قال ابن عباس فى بعض الروايات العدل شهادة ان لا اله الا الله (والاحسان) أداء الفرائض وقال فى رواية اخرى العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مؤمنا احببت له ان يزداد ايمانا وان كان كافرا احببت له أن يكون أخاك فى الاسلام وقال فى رواية ثالثة العدل هو التوحيد والاحسان هو الاخلاص فيه وقال آخرون يعنى بالعدل فى الافعال والاحسان فى الاقوال فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا ما هو احسان وأصل العدل المساواة فى كل شئ من غير زيادة ولا نقصان فالعدل هو المساواة فى المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان ان تقابل الخير باكثر منه والشر بان تعفو عنه وعن الشعبى قال عيسى بن مريم انما الاحسان أن تحسن الى من أساء اليك ليس الاحسان ان تحسن الى من أحسن اليك وقيل العدل الانصاف والانصاف أعدل من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من أساء اليك وعن محمد بن كعب القرظى قال دعانى عمر بن عبد العزيز فقال صف لى العدل فقلت بخ سألت عن أمر جسيم كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك (وايتاء) أى ومن الاحسان ايتاء (ذى القربى) أى القرابة القربى والبعدى فيندب ان تصلهم من فضل ما رزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد وروى ابو سلمة عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان أهل هذا البيت ليكونون فجارا فتنمى أموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا أرحامهم * ولما أمر تعالى بالمكارم نهى عن المساوى بقوله تعالى (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس أى الزنا فانه اقبح احوال الانسان واشنعها وقال غيره الفحشاء ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة جميعها (والمنكر) قال ابن عباس يعنى الشرك والكفر وقال غيره المنكر ما لا يعرف فى شريعة ولا سنة (والبغى) هو الاستعلاء على الناس والتجبر عليهم وقيل ان أجل

صلى الله عليه وسلم او امرى بصفة ليشاهده من احواله وصفاته ما يعتبر به الكفار صحيحة تلك الجملة فيكون اخبارهم بذلك مطابقا لما رأوا وشاهدوا ودليلا على صدقه فى الاخبار

المعاصي عقابا البغي ولو أن جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغي ونص تعالى على البغي مع دخوله في المنكر اهتماما به كما بدأ بالفحشاء لذلك وقال ابن قتيبة في هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان أن تكون سريرته خيرا من علانيته والفحشاء والمنكر والبغي أن تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعض العلماء ان الله تعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة في الاقوال والافعال وذكر في مقابلته الفحشاء وهو ما قبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان يعفو عمن ظلمه ويحسن الى من أساء اليه وذكر في مقابلته المنكر وهو أن ينكر احسان من أحسن اليه وذكر ايتاء ذي القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر في مقابلته البغي وهو أن يتكبر عليهم او يظلمهم حقوقهم ولما كان هذا المذكور من أبلغ المواعظ نبه عليه بقوله تعالى (يعظكم) أي يأمركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة الاول وهي العدل والاحسان وايتاء ذي القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهي الفحشاء والمنكر والبغي (لعلكم تذكرون) أي لكي تتعظوا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وفيه ادغام التاء في الاصل في الذال وروى البيهقي في شعب الايمان عن ابن مسعود انه قال أعظم آية في كتاب الله تعالى الله لا اله الا هو الحي القيوم وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل ان الله يأمر بالعدل والاحسان وأكثر آية في كتاب الله تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وأشد آية في كتاب الله تعالى رجاء قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية وقال أهل المعاني لما قال الله تعالى في الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ بين في هذه الآية المأمور به والمنهي عنه على سبيل الاجمال فما من شئ يحتاج اليه الناس في أمر دينهم مما يجب أن يؤتى به او يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان من أهل الجاهلية يعملون به ويعظمونه ويخشونه الا أمر الله تعالى به وليس من خلق سئ كانوا يتعايرونه بينهم الا نهى الله عنه وعن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخر الآية فقال له يا ابن أخي أعد علي فأعادها عليه فقال الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر ولما تفرقت هذه الجمل التي جمعت بجمعها المأمورات والمنهيات ما تضيق عنه الدفاتر والصدور وشهد لها المعاندون من بلغاء العرب انها بلغت من البلاغة مبلغا يحصل به غاية السرور ذكر بعض تلك الاقسام وبدأ بما هو مع جمعه أهم وهو الوفاء بالعهد بقوله تعالى (وأوفوا) أي أوقعوا الوفاء الذي لا وفاء في الحقيقة غيره (بعهد الله) أي الملك الاعلى الذي عاهدكم عليه بادلة العقل من التوحيد والبيع والايمان وغيرها من أصول الدين وفروعه (اذا عاهدتم) بتقبلكم لما بذلها نكم لامتثاله (ولا تنقضوا الايمان) واحترز عن لغو اليمين بقوله تعالى (بعد توكيدها) أي تشديدها فتحنثوا فيها وفي ذلك دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لانه أعم منه وقرأ أبو عمرو بادغام الدال في التاء بخلاف عنه (و) الحال انكم (قد جعلتم الله) أي الذي له العظمة كلها (عليكم كفيلا) أي شاهدا ورقيبا

(قوله بارك فيه) هو أعم من ان يقال بارك عليه او فيه لافادته شمول البركة لما احاط بالمسجد من ارض الشام بالمنطوق وللمسجد بمفهوم الاولى (قوله) وان اساتم فلها اللام للاختصاص

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام وعن جابر رضي الله عنه قال نزلت هذه الآية في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم بايع على الاسلام فقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الاسلام (ان الله) أي الذي له الاحاطة الكاملة (يعلم ما تفعلون) من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله تعالى لنقض العهد مثلا فقال (ولا تكونوا) أي في نقض العهد (كالتي نقضت غزلها) اى ما غزلته فهو مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) أى ابرام واحكام وقوله تعالى (انكاثا) جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل والحبل قال مقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها رائطة وقيل ريطة وتلقب بجعراء وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل اصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن وكان هذا دأبها وقال السدي كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة تغزل فاذا أبرمت غزلها نقضته وقال مجاهد نقضت حبلها بعد ابرامها اياه وقال قتادة لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد ابرامه لقلتم ما أحمق هذه وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده وقال في قوله تعالى (تتخذون ايمانكم دخلا بينكم) خيانة وغدرا انتهى والدخل ما يدخل في الشيء على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل ان يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه وانما كانوا يفعلون ذلك (ان) أى بسبب ان (تكون) او مخافة ان تكون وتكون يجوز ان تكون تامة فتكون (امة) اى جماعة فاعلها وان تكون ناقصة فتكون امة اسمها و (هي) مبتدأ و (اربى) اى أكثر (من امة) خبره والجملة في محل نصب على الحال على الوجه الاول وفي موضع الخبر على الثاني واربى مأخوذ من ربا الشيء يربو اذا زاد وهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الاولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك (انما يبلوكم الله) الذي له الملك كله أى يختبركم (به) اى بما امركم به ليختبر ليظهر للناس تمسككم بالوفاء وانحلالكم عنه اعتمادا على كثرة انصاركم وقلة انصار من نقضتم عهده من المؤمنين وغيرهم مع قدرته سبحانه وتعالى على ما يريد فيوشك ان يعاقب بالمخالفة فيضعف القوي ويقل الكثير ويكثر القليل (وليبينن لكم) أي اذا تجلى لفصل القضاء (يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أى اذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب فاحذروا يوم العرض على مالك السموات والارض وان من نوقش الحساب يهلك (ولو شاء الله) أي الملك الاعلى الذي لا أمر لاحد معه ان يجعلكم أمة واحدة لا خلاف بينكم في اصول الدين ولا فروعه (لجعلكم أمة واحدة) اى متفقة على أمر واحد وهو دين الاسلام (ولكن) لم يشأ ذلك بل شاء اختلافكم فهو تعالى (يضل من يشاء) عدلا منه تعالى لانه تام الملك ولو كان الذي اضله على أحسن الحالات (ويهدي) بفضله (من يشاء) ولو كان على أخس الحالات والاحوال فبذلك تكونون مختلفين لا يسئل عما يفعل سبحانه وتعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) في الدنيا فيجازي المحسن باحسانه ويعاقب المسيء بعدله

او بمعنى على كما في قوله تعالى يخرون للاذقان ويقرأ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجرا كبيرا) قال ذلك هنا بلفظ كبيرا وقال في الكهف

تعالى • ولما حذر سبحانه وتعالى عن نقض العهد والأيمان مطلقا قال تعالى (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا) أى فسادا ومكرا وخديعة (بينكم) وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الأيمان والا لزم التكرار الخالى عن الفائدة فى موضع واحد بل المراد نهى أولئك الأقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض ايمان مخصوصة أقدموا عليها ولهذا المعنى قال المفسرون المراد نهى الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد لان قوله تعالى (فتزل) أى فيكون ذلك سببا لان تزل (قدم) هى فى غاية العظمة (بعد ثبوتها) اى عن مركزها التى كانت به من دين او دنيا فلا يصير لها قرار فتسقط عن مرتبتها الا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وبشرائعه • (تنبيه) • فتزل منصوب باضمار ان على جواب النهى وزلل القدم مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء بعد عافية او سقط فى ورطة بعد سلامة او محنة بعد نعمة (وتذوقوا السوء) أى العذاب فى الدنيا (بما) أى بسبب ما (صددتم) اى أنفسكم ومنعتم غيركم بأيمانكم التى قد أردتم بها الافساد وخفاء الحق (عن سبيل الله) أى دينه وذلك انه من نقض العهد سهل على غيره طرق نقض العهد فيستن به (ولكم) مع ذلك (عذاب عظيم) أى ثابت غير منفك اذا متم على ذلك ثم أكد سبحانه وتعالى هذا التحذير بقوله تعالى (ولا تشتروا) أى ولا تكلفوا أنفسكم لجاجا وتركا للنظر أن تأخذوا وتستبدلوا (بعهد الله) الذى له الكمال كله (ثمنا قليلا) أى من حطام الدنيا وان كنتم ترونه كثيرا ثم علل قلته بقوله تعالى (انما عند الله) أى الذى له الجلال والاكرام من ثواب الدارين (هو خير لكم) ولا يعدل عن الخير الى غيره الا اعوج ناقص العقل ثم شرط علم خيريته لكونهم من ذوى العلم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز فتعلمون فضل ما بين العوضين • ثم بين ذلك بقوله تعالى (ما عندكم) أى من متاع الدنيا ولذاتها (ينفد) أى يفنى فصاحبه منغص العيش أشد ما يكون به اغتباطا بانقطاعه (وما عند الله) أى الذى له الامر كله من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (باق) أى دائم روى عن ابى موسى الاشعرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقرأ ابن كثير باقى فى الوقف بالياء والباقون بغير ياء واما فى الوصل فالجميع بالتنوين (ولنجزين الذين صبروا) على الوفاء بما يرضيه من الاوامر والنواهى فى السراء والضراء (أجرهم) أى ثواب صبرهم (بأحسن ما كانوا يعملون) أى بجزاء أحسن من أعمالهم او يجزيهم على أحسن أعمالهم وذلك لان المؤمن قد يأتى بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك ان الواجبات والمندوبات مما يثاب على فعلها الا على فعل المباحات وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون قبل الجيم أى ولنجزين نحن والباقون بالياء أى وليجزين الله ثم انه تعالى رغب المؤمنين فى الايمان بكل ما كان من شرائع الاسلام بقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن) اذ لا اعتداد بأعمال الكفار فى استحقاق الثواب وانما المتوقع عليها تخفيف العذاب (فان قيل) من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة من ذكر او انثى (اجيب) بانه ذكر دفعا للتخصيص بأحد الفريقين واختلف فى قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) فقال سعيد بن جبير وعطاء هى الرزق الحلال وقال مقاتل هى

بلفظ حسنا موافقة للفواصل قبلها وبعدها (قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين) ان قلت لم ثنى الآية هنا وافردها فى قوله وجعلناها وابنها آية (قلت) لتباين الليل

العيش فى الطاعة وقال الحسن هى القناعة لان عيش المؤمن فى الدنيا وان كان فقيرا أطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم ان رزقه من عند الله تعالى وذلك بتقديره وتدبيره تعالى وعرف ان الله تعالى محسن كريم حكيم يضع الاشياء فى محلها فكان المؤمن راضيا بقضاء الله وبما قدره له ورزقه اياه وعرف أن مصلحته فى ذلك القدر الذى رزقه فاستراحت نفسه من الكدر والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر والجاهل بهذه الاصول فدائم الحرص على طلب الرزق فيكون أبدا فى حزن وتعب وعناء وحرص فى الدنيا ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا ان عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال السدى الحياة الطيبة انما تحصل فى القبر لان المؤمن يستريح بالموت من كد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة هى الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلاك وسعادة بلا شقاوة فاثبت بهذا ان الحياة الطيبة لا تكون الا فى الجنة ولا مانع من ان المؤمن الكامل يحصل جميع ذلك ثم ان الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى (ولنجزينهم أجرهم) اى فى الدنيا والآخرة (باحسن ما كانوا يعملون) اى من الطاعة وقد سبق تفسيره ولما قال تعالى ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون أرشده الى العمل الذى به تخلص أعماله من الوسواس بقوله تعالى (فاذا قرأت القرآن) اى أردت قراءته (فاستعذ) اى ان شئت جهرا وان شئت سرا قال الشافعى رضى الله تعالى عنه والاسرار أولى فى الصلاة وفى قول يجهر كما يفعل خارج الصلاة (بالله) اى سل الذى له الكمال كله ان يعيذك (من الشيطان) اى المحترق باللعنة (الرجيم) اى المطرود عن الرحمة من أن يصدك بوساوسه عن اتباعه ويدخل فى ذلك جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم باقدار الله تعالى على ذلك وقيل المراد ابليس خاصة والاستعاذة بالله تعالى هى الاعتصام به والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته وظاهر الآية وجوب الاستعاذة واليه ذهب عطاء سواء كانت القراءة فى الصلاة أم فى غيرها واتفق سائر الفقهاء على أنها سنة فى الصلاة وغيرها والصارف لهذا الامر عن الوجوب أحاديث كثيرة منها القراءة بدون ذكر تعوذ كحديث البخارى وغيره عن أبى سعيد بن المعلى رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما منعك أن تجيبنى قال كنت أصلى قال ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم قال لاعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن الحمد لله رب العالمين وفى رواية الموطا انه صلى الله عليه وسلم نادى أبيا وأنه قال له كيف تقرأ اذا افتتحت الصلاة قال أبى فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى أتيت الى آخرها وظاهر الآية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبى هريرة واليه ذهب مالك وداود الظاهرى قالوا لان قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصل الوسواس فى قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أو لا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقى الثواب مخلصا والذى ذهب اليه الاكثرون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار ان الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية اذا أردت ان تقرأ القرآن فاستعذ بالله وتبعتهم على ذلك فلهذا قدرت ذلك

والنهار من كل وجه ولتكررهما فناسبهما التثنية بخلاف عيسى مع أمه فانه جزء منها ولا تكرر فيهما فناسبهما الافراد (قوله وجعلنا آية النهار مبصرة) اى مضيئة لان

فى الآية الكريمة ومثل ذلك قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ومثله من الكلام اذا أكلت فسم أى اذا أردت ان تأكل فقل بسم الله الرحمن الرحيم واذا سافرت فتأهب أى اذا أردت السفر فتأهب وأيضا الوسوسة انما تحصل فى اثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها ‌• ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف فى ابدان الانسان أزال الله تعالى ذلك الوهم وبين انه لاقدرة له البتة الاعلى الوسوسة بقوله تعالى (أنه ليس له سلطان) اى بحيث لا يقدر المسلط عليه على الانفكاك عنه (على الذين آمنوا) اى بتوفيق ربهم لهم (وعلى ربهم) وحده (يتوكلون) اى على أوليائه المؤمنين به والمتوكلين عليه فانهم لايقبلون منه ولايطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته وعن سفيان الثورى قال ليس له سلطان على ان يحملهم على ذنب لايغفر لهم ثم وصل تعالى بذلك ما أفهمه من ان له سلطانا على غيرهم بقوله (انما سلطانه) اى الذى يتمكن به غاية التمكن بامكان الله تعالى له (على الذين يتولونه) اى يحبونه ويطيعونه (والذين هم به) اى بالله تعالى (مشركون) وقيل الضمير راجع الى الشيطان والمعنى هم بسببه مشركون بالله ‌• ولما كان المشركون اذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ناسخة لها يقولون ان محمدا يستهزئ باصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ماهو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه نزل (واذا بدلنا) اى بقدرتنا بالنسخ (آية) سهلة كالعدة بأربعة أشهر وعشر وقتال الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار أو شاقة كتحريم الخمر وايجاب الصلوات الخمس فجعلناها (مكان آية) شاقة كالعدة بحول ومصابرة عشرة من الكفار أو سهلة كالآيات المتضمنة لاباحة الخمر والتبديل رفع الشئ ووضع غيره مكانه (والله) اي الذى له الاحاطة الشاملة (أعلم بما ينزل) من المصالح بحسب الاوقات والاحوال بنسخ أو غيره (قالوا) اى الكفار (انما انت) يا محمد (مفتر) اى متقول على الله تعالى تأمر بشئ ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب اذا والله أعلم بما ينزل اعتراض والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف اى هو أعلم بجميع ذلك ومصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قولهم انما أنت مفتر اى اذا كان هو أعلم بما ينزل فمالهم ينسبون محمدا الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ (بل أكثرهم) وهم الذين يستمرون على الكفر (لايعلمون) حكمة فائدة النسخ والتبديل ولايميزون الخطأ من الصواب فان الله تعالى أعلم بمصالح العباد كما ان الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بغيرها بضد تلك الشربة ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله تعالى (قل) لمن واجهك بذلك منهم (نزله) اى القرآن بحسب التدريج لاجل اتباع المصالح باحاطة علم المتكلم به (روح القدس) اى جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس المطهر من المآثم (من ربك بالحق) اى متلبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) اى ليثبت بالقرآن قلوب الذين آمنوا فيزدادوا ايمانا ويقينا (وهدى) اى بيانا واضحا (وبشرى

(قوله كنفى النهار لا يبصر (قوله كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) لاينافى قوله وكفى بنا حاسبين لان فى يوم القيامة مواقف مختلفة ففى موقف يكل الله حسابهم الى أنفسهم وعلمه محيط به

للمسلمين)

للمسلمين) اى المنقادين لحكمك (فان قيل) ظاهر الآية ان القرآن لا ينسخ بالسنة لقوله تعالى
واذا بدلنا آية مكان آية اذ مقتضاه ان الآية لا تنسخ الا بأخرى (أجيب) بان هذه الآية دالت
على انه تعالى يبدل آية بآية ولا دلالة فيها على انه لا يبدل آية الا بآية وأيضا فجبريل عليه
السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالآية * ولما كان المشركون يقولون ان محمدا انما يتعلم هذه
القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمى مثله وليس هو من عند الله كما يزعم نزل قوله
تعالى (ولقد نعلم) اى علما مستمرا (أنهم يقولون انما يعلمه بشر) واختلف فى البشر الذى قال
المشركون ان النبى صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل هو عبد لبنى عامر بن لؤى يقال له يعيش
كان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل عبد لبنى الحضرمى صاحب كتب
وكان اسمه جبرا فكانت قريش تقول عبد بنى الحضرمى يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدا وقيل
كان بمكة نصرانى أعجمى اللسان اسمه بلعام ويقال ابن ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان
الفارسى وبالجملة فلا فائدة فى تعداد هذه الاسماء والحاصل ان القوم اتهموه بانه يتعلم هذه
الكلمات من غيره ثم انه يظهرها من نفسه ويزعم انه انما عرفها بالوحى وهو كاذب فيه فأجاب
الله تعالى عنه تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب بقوله تعالى
(لسان الذى يلحدون) اى يميلون اليه أو يشيرون (اليه) أى انه يعلمه (أعجمى) اى لا يعرف
لغة العرب وهو مع ذلك ألكن فى التأدية غير مبين (وهذا) أى القرآن (لسان عربى مبين)
اى ذو بيان وفصاحة فكيف يعلمه أعجمى وروى ان الرجل الذى كانوا يشيرون اليه أسلم
وحسن اسلامه (ان الذين لا يؤمنون) اى لا يصدقون كل تصديق معترفين (بآيات الله) اى
الذى له العظمة كلها (لا يهديهم الله) اى لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان (ولهم عذاب أليم)
اى مؤلم فى الآخرة ثم أخبر الله تعالى ان الكفار هم المفترون بقوله تعالى (انما يفترى الكذب
الذين لا يؤمنون بآيات الله) اى القرآن بقولهم هذا من قول البشر (وأولئك) اى البعداء
البغضاء (هم الكاذبون) اى الكاملون فى الكذب لان تكذيب آيات الله أعظم من الكذب
أو اولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به فى كل شئ لا يحجبهم عنه مروأة ولا دين * ولما
ذكر تعالى الذين لا يؤمنون مطلقا أتبعهم صنفا منهم هم أشد كفرا بقوله تعالى (من) اى
أى مخلوق وقع له أنه (كفر بالله) اى الذى له صفات الكمال بان قال أو عمل ما يدل على الكفر
(من بعد ايمانه) بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم (الا من أكره) اى على التلفظ بالكفر فتلفظ
به (وقلبه مطمئن بالايمان) فلا شئ عليه لان محل الايمان هو القلب روى ان قريشا أكرهوا
عمارا وأباه ياسرا وأمه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا انك أسلمت من أجل
الرجال فقتلت وقتل ياسر وهما أول قتيل فى الاسلام وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرها
وهو كاره بقلبه فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بانه كفر فقال صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا
امتلأ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم
وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول مالك ان عادوا فقل لهم
مثل ما قلت * (تنبيه) * فى الآية دليل على اباحة التلفظ بالكفر وان كان الافضل أن يتجنب

وفى صورة تجاسبهم هو
وقيل هو الذى يحاسبهم
وقوله كفى بنفسك
لا غير اليوم عليك حسيبا اى
يكفيك أنك شاهد على
نفسك بذنوبها فهو توبيخ
لا تعويض وتقريع

عنه اعزاز الدين كما فعله أبواه ولما روى ان مسيلمة أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد فقال رسول الله قال فما تقول فىّ قال أنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد فقال رسول الله قال فما تقول فىّ قال أنا أصم فاعاد عليه ثلاثا فاعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة الله وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيأ له واختلف الائمة فى وقوع الطلاق بالاكراه فقال الشافعى وأحمد رحمهما الله تعالى لا يقع طلاق المكره وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقع واستدل الشافعى بقوله تعالى لا اكراه فى الدين ولا يمكن ان يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره اى لا أثر له ولا عبرة به وقال عليه الصلاة والسلام رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وقال أيضا لا طلاق فى اغلاق اى اكراه وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له وهذا قد طلقها وأجيب بان الآية مخصوصة بغير ذلك جمعا بين الادلة (ولكن من شرح بالكفر صدرا) اى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضى به (فعليهم غضب) اى غضب لم تبين جهة عظمه لكونه (من الله) أى الملك الاعظم (ولهم) أى بظواهرهم وبواطنهم (عذاب عظيم) فى الآخرة لارتدادهم على أعقابهم (ذلك) أى الوعيد العظيم (بانهم) أى بسبب أنهم (استحبوا) أى أحبوا حبا عظيما (الحيوة الدنيا) الكائنة الحاضرة الفانية فآثروها (على الآخرة) الباقية الفاخرة لانهم رأوا ما فيه المؤمنون من الضيق والكافر ون من السعة (وأن الله) أى الذى له الغنى المطلق (لا يهدى القوم الكافرين) أى لا يرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم للعمل (أولئك) أى البعداء البغضاء (الذين طبع الله) أى الملك الذى لا أمر لاحد معه (على قلوبهم) أى ختم عليها واستوثق ولما كان التفاوت فى السمع نادرا وحده بقوله تعالى (وسمعهم) أو بمعنى اسماعهم ليناسب قوله تعالى (وأبصارهم) فصاروا بعدم انتفاعهم بهذه المشاعر كانهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون (وأولئك) أى الاباعد من كل خير (هم الغافلون) عما يرادبهم من العذاب فى الآخرة (لاجرم) أى لاشك (انهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى أكمل الناس خسارة لان الله تعالى وصفهم بست صفات الاولى انهم استوجبوا غضب الله تعالى الثانية انهم استوجبوا العذاب الاليم الثالثة انهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة الرابعة أن الله تعالى حرمهم من الهداية الخامسة انه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين عن العذاب الشديد يوم القيامة اذ كل واحدة من هذه الصفات من أعظم الاحوال المانعة من الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم انه تعالى انما أدخل الانسان فى الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعته سعادات الآخرة فاذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب حكم تعالى عليهم بالخسران ولما ذكر تعالى حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من أكره على الكفر ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن بقوله تعالى (ثم ان ربك) اى المحسن اليك (للذين هاجروا) الى المدينة الشريفة بالولاية والنصر وقوله تعالى (من بعد ما فتنوا) قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء على اسناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفاء وكسر التاء على فعل ما لم يسم فاعله وجه القراءة الاولى انه عاد الضمير على المؤمنين فالمعنى

حساب العبد الى نفسه
وقيل من يرد مناقشته فى
الحساب يحاسبه بنفسه
ومن يرد مسامحته يكل
حسابه اليه (قوله واذا أردنا
أن نهلك قرية أمرنا مترفيها)
اى أردنا منهم الفسق

فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول ظاهراً وأنهم لما صبروا على عذاب المشركين فكأنهم فتنوا أنفسهم وان عاد على المشركين فهو ظاهر أى فتنوا المؤمنين لان أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الايمان فبين تعالى أنهم هاجروا (ثم جاهدوا وصبروا) على الطاعة (ان ربك من بعدها) أى الفتنة (لغفور) أى بليغ الاكرام (رحيم) فهو يغفر لهم ويرحمهم *(تنبيه)* حذف خبر ان الاولى لدلالة خبر الثانية عليه أو مقدر بعامل (يوم) أى اذكر يوم (تأتى كل نفس) أى وان عظم جرمها (تجادل) أى تحاجج (عن نفسها) أى لا يهمها غيرها وهو يوم القيامة (فان قيل) ما معنى النفس المضافة الى النفس (أجيب) بانه يقال لعين الشئ وذاته نفسه وفى نقيضه غيره والنفس الجملة كما هى فالنفس الاولى هى الجملة والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسى نفسى ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء الذين أضلونا وما كنا مشركين (وتوفى كل نفس) صالحة أو غير صالحة (ما عملت) اى جزاء من جنسه (وهم لا يظلمون) اى شيأ ولما هدد تعالى الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة هددهم أيضا بآفات الدنيا وهى الوقوع فى الجوع والخوف بقوله تعالى (وضرب الله) اى المحيط بكل شئ (مثلا) ويبدل منه (قرية) هى مكة والمراد أهلها (كانت آمنة) اى ذات أمن ويأمن بها أهلها فى زمن الخوف قال تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم والامن فى مكة كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض دون اهل مكة فانهم كانوا أهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم (مطمئنة) اى قارة باهلها لا يحتاجون فيها الى نجعة وانتقال بسبب زيادة الامن بكثرة العدد وقوة المدد وكف الله تعالى الناس عنها ووجود ما يحتاج اليه أهلها (فان قيل) الاطمئنان هو الامن فيلزم التكرار (أجيب) بان قوله تعالى آمنة اشارة الى الامن وقوله تعالى مطمئنة اى لا يحتاجون فيها الى نجعة كما مر وقيل اشارة تعالى بذلك الى الصحة لان هواء ذلك البلد كان ملائما لامزجتهم فلذلك اطمأنوا اليه واستقروا قالت العقلاء ثلاثة ليس لها نهاية الامن والصحة والكفاية (يأتيها) أى على سبيل التجدد والاستمرار (رزقها رغدا) اى واسعا طيبا (من كل مكان) بر وبحر بتيسير الله تعالى * ولما كانت النعمة تجر الى البطر غالبا نبه تعالى على ذلك بقوله تعالى (فكفرت بانعم الله) اى الذى له الكمال كله وأنعم جمع نعمة قال الزمخشرى على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع وقال قطرب هى جمع نعم والنعم النعمة يقال هذه أيام نعم وطعم فلا تصوموا وقيل جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس (فان قيل) الانعم جمع قلة فكان تلك القرية كفرت بانواع قليلة من نعم الله فعذبها الله تعالى فلم يقل تعالى كفرت بنعم عظيمة فاستوجبوا العذاب (أجيب) بان المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى فان كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فبكفران النعم الكثيرة أولى وبان الله تعالى أنعم عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا فى ايذائه (فأذاقها الله) اى المحيط بكل شئ (لباس الجوع) بعد رغد العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة وقيل ان القرية غير مكة

أو أوامرناهم بالطاعة أو كثرناهم ففسقوا يقال أمرته وآمرته بالقصر والمد فى كثرته وقيده بالمترفين وان كان الامر لا يختص بهم لان صلاحهم أو فسادهم مستلزم اصلاح

لانهم اضر بتهم الملكة ومثل مكة يكون غيرمكة (والخوف) بسرايا النبي صلى الله عليه وسلم
• (تنبيه) • استعير الذوق لادراك أثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع
والخوف وأوقع الاذاقة عليه بالنظر الى المستعار له كقول كثير عزة

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا • غلقت لضحكته رقاب المال

فانه استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه وأضاف اليه
الغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظرا الى المستعار له ولو نظر الى المستعار
لقال ضافي الرداء أي سابغه ومعنى البيت اذا ضحك المسؤل ضحكة أيقن السائل بذلك التبسم
استرقاق رقاب ماله وانه يعطي بلا خلاف وقد ينظر الى المستعار له كقوله

ينازعني ردائي عبد عمرو • رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لي الشطر الذي ملكت يميني • ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الرداء للسيف ثم قال فاعتجر نظرا الى المستعار ولو نظر الى المستعار منه لقال تعالى في
الآية وكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير ضافي الرداء اذا تبسم ضاحكا وهذا نهاية
ما يقال في الاستعارة وقال ابن عطية لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الاعشى

اذا ما الضجيع ثنى جيدها • تثنت عليه فكانت لباسا

ومثله قوله تعالى هن لباس لكم وانتم لباس لهن ومثله قول الشاعر

وقد لبست بعد الزبير مجاشع • لباس التي حاضت ولم تغسل الدما

كأن العار لما باشرهم والتصق بهم كانهم نسوة وقوله تعالى فأذاقها نظير قوله تعالى ذق انك أنت
العزيز الكريم ونظير قول الشاعر • دونك ما جنيت فاحس وذق • وقوله تعالى (بما كانوا
يصنعون) يجوز أن تكون ما مصدرية اي بسبب صنعهم أو بمعنى الذي والعائد محذوف أي
بسبب الذي كانوا يصنعونه والواو في يصنعون عائد على أهل البلد وقيل قرية نظيره قوله تعالى
أوهم قائلون بعد قوله تعالى وكم من قرية أهلكناها ولما ذكر الله تعالى المثل ذكر الممثل له
فقال تعالى (ولقد جاءهم) اي أهل هذه القرية (رسول منهم) من نسبهم يعرفونه بأصله ونسبه
وهو محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فأخذهم العذاب) قال ابن عباس يعني الجوع الذي كان
بمكة وقيل القتل الذي كان يوم بدر (وهم ظالمون) اي في حال تلبسهم بالظلم كقوله تعالى الذين
تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة وقرأ نافع
وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال قد عند الجيم والباقون بالادغام ثم قال تعالى
(فكلوا) اي أيها المؤمنون (مما رزقكم الله) قال ابن عباس يريد من الغنائم وقال الكلبي ان
رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النساء
والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم فاذن في الحمل اليهم فحمل الطعام اليهم فقال الله تعالى
كلوا مما رزقكم الله قال الرازي والقول ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية
انما حرم عليكم الميتة يعني أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا مما رزقكم الله (حلالا طيبا)
وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم • ولما أمرهم تعالى بأكل الحلال أمرهم بشكر
النعمة بقوله تعالى (واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) اي تطيعون • (تنبيه) • رسمت

نعمة

غيرهم او فسادة (قوله من
كان يريد العاجلة) الآية
• ان قلت قضيته ان من لم
يترك الدنيا يكون من
أهل النار وليس كذلك
(قلت) المراد من لم يرد
باسلامه وعبادته الا الدنيا •

نعمة بالتاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهاء والباقون بالتاء والكسائي يقف بالامالة وتقدم تفسير قوله تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) في سورة البقرة فلا اعادة في تفسير ذلك وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة فمن اضطر في الوصل بكسر النون والباقون بالضم •(تنبيه)• حصر المحرمات في هذه الاشياء الاربعة مذكور أيضا في سورة الانعام عند قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الآية وفي سورة المائدة في قوله تعالى أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم واجمعوا على أن المراد بقوله تعالى الا ما يتلى عليكم هو قوله تعالى في سورة البقرة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وقوله تعالى في المائدة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم فهذه الاشياء داخلة في الميتة ثم قال تعالى وما ذبح على النصب وهو أحد الاشياء الداخلة تحت قوله تعالى وما أهل به لغير الله فثبت أن هذه السور الاربعة دالة على حصر المحرمات في هذه الاربعة سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فان سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله بالمدينة فمن أنكر حصر التحريم في هذه الاربعة الا ما خصه الاجماع والدلائل العقلية القاطعة كان في محل أن يخشى عليه لان هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات في هذه الاربعة كان مشروعا ثابتا في أول زمان مكة وآخره وأول زمان المدينة وأنه تعالى أعاد هذا البيان في هذه السور الاربعة قطعا للاعذار وازالة للشبهة • ولما حصر تعالى المحرمات في هذه الاربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الاربعة تارة وفي النقصان عنها أخرى بقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) لما لم يحله الله ولم يحرمه فانهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا فقد زادوا في المحرمات وزادوا أيضا في المحللات لانهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فبين الله تعالى أن المحرمات هي هذه الاربعة وبين أن الاشياء التي يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله تعالى •(تنبيه)• في انتصاب الكذب وجهان أحدهما قال الكسائي ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال لا تقولوا لكذا وكذا كذا وكذا (فان قيل) حمل الآية على هذا يؤدي الى التكرار لان قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) عين ذلك (أجيب) بان قوله تعالى لما تصف ألسنتكم الكذب ليس فيه بيان أنه كذب على الله فأعاده ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره في القرآن كثير وهو أنه تعالى يذكر كلاما ويعيده بعينه مع فائدة زائدة الثاني أن تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما وقيل اللام في لتفتروا لام العاقبة كما في قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا (فان قيل) ما معنى وصف ألسنتهم الكذب (أجيب) بان ذلك من فصيح الكلام وبليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه واذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولهم وجهها يصف الجمال أي هي جميلة وعينها تصف السحر أي هي ساحرة فلما أرادوا المبالغة

وهذا لا يكون الا كافرا او منافقا (قوله وما كان عطاء ربك محظورا) أي ممنوعا • فان قلت كيف قال ذلك مع انا نشاهد الواحد لا يقدر على دانق وأخر معه الالوف (قلت)

فى وصف الوجه بالجمال و وصف العين بالسحر عبروا بذلك * ثم انه تعالى أوعد المفترين بقوله تعالى (ان الذين يفترون على الله) اى الذى له الكمال كله (الكذب) منكم ومن غيركم (لا يفلحون) اى لا يفوزون بخير لان المفترى يفترى لتحصيل مطلوب فنفى الله تعالى عنه الفلاح لانه الفوز بالخير والنجاح ثم بين تعالى ان ماهم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب بقوله تعالى (متاع قليل) اى منفعة قليلة تنقطع عن قرب لفنائه وان امتد ألف عام (ولهم) بعده (عذاب أليم) اى مؤلم فى الآخرة * ولما بين تعالى ما يحل و يحرم لاهل الاسلام أتبعه ببيان ما يختص اليهود به من المحرمات بقوله تعالى (وعلى الذين هادوا) اى اليهود (حرمنا) عليهم عقوبة لهم بعداوتهم وكذبهم على ربهم (ماقصصنا عليك) يا أجل المرسلين (من قبل) اى فى سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وما ظلمناهم) اى بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا) اى دائما طبعا لهم وخلقا مستقرا (أنفسهم) خاصة (يظلمون) بالبغى والكفر فضيقنا عليهم معاملة بالعدل وعاملنا كم أنتم حيث ظلمتم بالفضل فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة * ولما بين تعالى هذه النعمة الدنيوية عطف عليها نعمة هى أكبر منها جدا استجلابا لكل ظالم و بين عظمتها بحرف التراخى فقال تعالى (ثم ان ربك) اى المحسن اليك (للذين عملوا السوء) وهو يتناول كل مالا ينبغى فعله فيشمل الكفر وسائر المعاصى (بجهالة) اى بسببها أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله و بقضائه وعدم التدبر فى العواقب فكل من عمل سوأ انما يفعله بالجهالة أما الكفر فلأن أحدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا لانه لولم يعتقد كونه حقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه وأما المعصية فلأن العالم لم تصدر منه المعصية مالم تصر الشهوة غالبة للعقل فثبت أن كل من عمل السوء فانما يقدم عليه بسبب الجهالة (ثم تابوا من بعد ذلك) اى الذنب ولو كان عظيما واقتصروا على ما أذن فيه خالقهم (وأصلحوا) بالاستمرار على ذلك (ان ربك) اى المحسن اليك بتسهيل دينك وتيسيره (من بعدها) اى التوبة (لغفور) اى بليغ الستر لما عملوا من السوء (رحيم) اى بليغ الرحمة محسن بالاكرام فضلا منه ونعمة * ولما دعاهم الله تعالى الى مكارم الاخلاق ونهاهم عن مساويها بقبوله لمن أقبل اليه وكان ابراهيم عليه الصلاة والسلام رئيس الموحدين لا جرم ذكره الله تعالى فى آخر هذه السورة ووصفه بتسع صفات الصفة الاولى قوله تعالى (ان ابراهيم كان أمة) اى لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد الا متفرقة فى أشخاص كثيرة كقول القائل

وليس لله (اى من الله) بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

اى أن يجمع صفاتهم فى شخص واحد وقال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة واحدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده وعن شهر بن حوشب لم تبق الارض الا وفيها أربعة عشر يدفع الله تعالى بهم عن أهل الارض الا زمن ابراهيم فانه كان وحده وقيل أمة فعلة بمعنى مفعول كالدخلة والنخبة من أمه اذا قصده واقتدى به فان الناس كانوا يؤمونه للاستفادة و يقتدون بسيره كقوله

المراد بالمطاعم هنا الرزق والله سوى فى ضمانه بين العباد المطيع والعاصى من العباد فلا تفاوت بينهم فى اصل الرزق وانما التفاوت بينهم فى مقادير الاملاك وانما لم يمنع الله الكفار الرزق

تعالى انى جاعلك للناس اماما وقرأ هشام ان ابراهام وملة ابراهام بالالف بعد الهاء فيهما وقرأ الباقون بالياء فيهما الصفة الثانية قوله تعالى (قانتا لله) اى مطيعا لله قائما باوامره الصفة الثالثة قوله تعالى (حنيفا) اى مائلا عن الباطل قال ابن عباس انه أول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحى وهذه السنة الحنيفية الصفة الرابعة قوله تعالى (ولم يك من المشركين) اى انه عليه الصلاة والسلام كان من الموحدين فى الصغر والكبر وقد ابطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا أحب الآفلين ثم كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى ان القوه فى النار وذلك دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربى الذى يحيى ويميت ثم طلب من الله تعالى ان يريه كيف يحيى الموتى ليحصل له زيادة الطمأنينة قال الرازى ومن وقف على علم القرآن علم ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان غريقا فى بحر علم التوحيد الصفة الخامسة قوله تعالى (شاكرا لأنعمه) فان قيل لفظ الانعم جمع قلة ونعمة الله تعالى على ابراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال شاكرا لانعمه (اجيب) بانه ذكر القلة للتنبيه على انه كان لا يخل بشكر القليلة فكيف بالكثيرة وروى انه عليه الصلاة والسلام كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فاخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له ان بهم جذاما فقال لهم الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على انه عافانى وابتلاكم بهذا البلاء الصفة السادسة قوله تعالى (اجتباه) اى اصطفاه للنبوة واختاره لخلته الصفة السابعة قوله تعالى (وهداه الى صراط مستقيم) اى وهداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم ونظيره قوله تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه الصفة الثامنة قوله تعالى (وآتيناه فى الدنيا حسنة) قال قتادة حببه للناس حتى ان أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه اما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر واما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق القول ان الله تعالى أجاب دعاءه فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقال آخرون هو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل اولادا ابرارا على الكبر الصفة التاسعة قوله تعالى (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) فى الجنة (فان قيل) لم لم يقل تعالى فى اعلى مقامات الصالحين (اجيب) بانه تعالى حكى عنه انه قال رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين فقال تعالى هنا وانه فى الآخرة لمن الصالحين تنبيها على انه تعالى اجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لا ينفى ان يكون فى اعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك فى آية اخرى وهى قوله تعالى وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴿ ولما وصف الله تعالى ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى اتباعه مشيرا الى علو مرتبته بحرف التراخى بقوله تعالى (ثم أوحينا اليك) يا أشرف الرسل وقيل اتى بثم للتراخى اى لتراخى أيامه عن أيام ابراهيم عليهما افضل الصلاة والسلام (ان اتبع ملة ابراهيم) فى التوحيد والدعوة اليه بالرفق وايراد الدلائل مرة بعد اخرى والمجادلة مع كل احد على حسب فهمه ولا بعد فى ان يفهم ذلك الهجرة أيضا وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقوله تعالى

كما منعهم الهداية لان فى منعه هلاكهم وقيام الحجة لهم بان يقولوا لو أمهلتنا ورزقتنا لبقينا احياء فآمنا ولانه لو منعهم الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة لكان

(حنيفا) حال من النبي صلى الله عليه وسلم ويصح ان يكون حالا من ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (وما كان من المشركين) كرره ردا على من زعم من اليهود والنصارى انهم على دينه وقوله سبحانه وتعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) فيه قولان الاول روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة وقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوما واحدا وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيأ من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد الا اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل عليهم السبت وشدد عليهم فيه ثم جاء عيسى عليه السلام أيضا بالجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم أى اليهود بعد عيدنا فاتخذوا الاحد وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى كتب يوم الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا فيه وهدانا الله له فهم لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد (فان قيل) هل في العقل وجه يدل على ان الجمعة أفضل من السبت والاحد فان أهل الملل اتفقوا على انه تعالى خلق العالم في ستة أيام وبدأ تعالى بالخلق والتكوين في يوم الاحد وتم في يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك الاعمال فعينوا يوم السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدأ الخلق والتكوين يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدنا فهذان الوجهان معقولان لنا فما وجه جعل يوم الجمعة عيدا (اجيب) بان يوم الجمعة هو يوم التمام والكمال وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه القول الثانى اختلافهم في السبت هو انهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة (وان ربك) أى المحسن اليك بطواعية أصحابك لك (ليحكم بينهم) أى هؤلاء المختلفين (يوم القيامة) وهو يوم اجتماع جميع الخلائق (فيما كانوا فيه يختلفون) فيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بين الشئ الذى أمره بمتابعته فيه بقوله تعالى (ادع) أى كل من تمكن دعوته ممن بعثت اليه (الى سبيل ربك) أى المحسن اليك بتسهيل السبيل الذى تدعو اليه واتساعه وهو الاسلام الذى هو الملة الحنيفية (بالحكمة) أى المعاملة المحكمة وهو الدليل الواضح المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) اى بالدعاء الى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المقنعة والعبارات النافعة فالاولى لدعوى خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوى عوامهم (وجادلهم) أى وجادل معانديهم (بالتى) أى بالمجادلة التى (هى أحسن) كالدعاء الى الله تعالى بآياته والدعاء الى حججه بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير غلظ ولا تعسف فان ذلك أنفع في تسكين لهبهم وتبيين شبههم وقيل المراد بالحكمة القرآن أى ادعهم بالقرآن والموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة وفى الامر بالمجادلة التى هى أحسن الاعراض عن أذاهم وعدم التقصير في تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق وعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف وقيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام القسم الاول العلماء الكاملون وهم أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين

ذلك من صفات البخلاء والله منزه عن ذلك لانه حكيم كريم ولان اعطاء الرزق لجميع العباد عدل وعدل الله عام وهبة الهداية فضل والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء (قوله

يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء هم المشار اليهم بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة أى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثانى أصحاب النظرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم أوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله تعالى والموعظة الحسنة أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة القسم الثالث أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله تعالى وجادلهم بالتى هى أحسن اى حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه (ان ربك) المحسن اليك بالتخفيف عنك (هو أعلم) اى من كل من يتوهم فيه علم (بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى فهو سبحانه وتعالى أعلم بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكانك تضرب فى حديد بارد فما عليك الا البلاغ والدعوة وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس ذلك اليك وهذا قبل الامر بالقتال وذكر فى قوله تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أقوال أحدها وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء وأبى بن كعب والشعبى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا انفه واذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث فى بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال اما انها لو أكلته لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من ان يدخل شيأ من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه نظر الى شئ لم ينظر الى شئ قط أوجع لقلبه منه فقال النبى صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانى ما علمتك الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى ان أدعك حتى تحشر من أفواج شتى اما والله لئن ظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين منهم مكانك فنزلت فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أراد وكفر عن يمينه وقال المسلمون أيضا لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم احد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين الا مثل به الا حنظلة بن الراهب فان أباه أبا عامر الراهب كان مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن ظفرنا عليهم لنزيدن عليهم يعنى على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب باحد القول الثانى ان هذا كان قبل الامر بالسيف والجهاد حتى كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبتدؤا بالقتال وهو قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا وفى هذه الآية أمر الله تعالى ان يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا القول الثالث ان المقصود من هذه الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعى وابن سيرين قال الرازى وحمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب فى كلام الله وهو فى غاية البعد بل الاصوب عندى ان يقال انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق الى الدين الحق باحدى الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم ان تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم

لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا) قال ذلك هنا ثم قال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ثم قال ولا تجعل مع الله الها

واستلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة وذلك مما يوحش قلوبهم ويوحش صدورهم ويحمل أكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك الداعي المحق اذا سمع تلك السفاهات لابد وان يحمله طبعه على تاديب اولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا أمر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه (فان قيل) فهل تقدحون فيما روى أنه عليه الصلاة والسلام ترك العزم على ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية (أجيب) بانه لا حاجة الى القدح في تلك الرواية لان تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية وذلك لا يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى *(تنبيه)* أمر الله تعالى برعاية العدل والانصاف في هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب المرتبة الاولى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به أي ان رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله تعالى ورحمته وفي قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على ان الاولى له أن لا يفعل كما أنك اذا قلت للمريض ان كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه أن الاولى بك أن لا تأكل فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض أن الاولى تركه المرتبة الثانية الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وهذا تصريح بان الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة أفضل من القسوة والانتفاع أفضل من الانتقام وقرأ الهو قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون برفعها المرتبة الثالثة هو الامر الجازم بالترك وهو قوله تعالى (واصبر) لانه في المرتبة الثانية ذكر ان الترك خير وأولى وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر في هذا المقام *ولما كان الصبر في هذا المقام شديدا شاقا ذكر بعده ما يفيد سهولته بقوله تعالى (وما صبرك الا بالله) أي الملك الاعظم الذي شرع لك هذا الشرع الاقوم فذلك بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الاصلي ثم ذكر بعده ما هو السبب الجزئي القريب بقوله سبحانه وتعالى (ولا تحزن عليهم) أي في شدة كفرهم فتبالغ في الحرص الباخع للنفس (ولا تك في ضيق) ولو قل كما أوح اليه بتنوين التحقير (مما يمكرون) اي من استمرار مكرهم بك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وكانك به وقد أتى فاصبر فان الله معزك ومظهر دينك وقرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بفتحها *(تنبيه)* هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة فكان المعنى ولا يكن الضيق فيك الا أن الفائدة في قوله تعالى ولا تك في ضيق هو أن الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى المرتبة الرابعة قوله تعالى (ان الله) اي الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه (مع الذين اتقوا) اي وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المعاصي (والذين هم محسنون) في أعمالهم والشفقة على خلقه وهذا يجري مجرى التهديد لان في المرتبة الاولى رغبة في ترك الانتقام على سبيل الرمز وفي الثانية عدل عن الرمز

الى

يوما آخر فتاق في جهنم صدحو راولا تكرار فيها لان الاولى في الدنيا والثالثة في الآخرة وانما طاب فيهما للنبي صلى الله عليه وسلم على الراجح والمراد به غيره كما في آية اما يبلغن عندك

الى التصريح وهو قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفى المرتبة الثالثة أمر بالصبر على سبيل الجزم وفى هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعد على فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا أى عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون أى فى ترك أصل الانتقام فكأنه تعالى قال ان أردت ان أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين وهذه المعية بالرحمة والفضل والتربية وفى قوله تعالى اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله وفى قوله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق الله تعالى قيل لهرم بن حيان عند قرب وفاته أوص فقال ان الوصية فى المال ولا مال لى ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل *(تنبيه)* قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم الى لهو خير للصابرين منسوخ بآية السيف قال الرازى وهذا فى غاية البعد لان المقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب فى كيفية الدعوى الى الله تعالى وترك التعدى وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الاشياء بآية السيف وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية حديث موضوع قال الرازى فى آخر هذه السورة يقول مصنف الكتاب الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعانى فى غيب الغيب مكنونة والاسرار فيما وراء أقفال العزة مخزونة وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس الا لله تعالى ذى الاكرام والاجلال

سورة الاسراء وتسمى سبحان وبنى اسرائيل مكية

الاوان كادوا الآيات الثمان مائة وعشر آيات أو احدى عشرة وألف وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف واربعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك المالك لجميع الامر (الرحمن) لكل ما أوجده بما رباه (الرحيم) لمن خصه بالتزام العمل بما يرضاه وقوله تعالى (سبحان) اسم بمعنى التسبيح الذى هو التنزيه وقد يستعمل علما له فيقطع عن الاضافة ويمنع من الصرف للعلمية وزيادة الالف والنون قال الاعشى فى مدحه عامر بن الطفيل

قد قلت لما جاءنى فخره * سبحان من علقمة الفاخر

أى العجب منه اذ يفخر والعرب تقول سبحان من كذا اذا تعجبوا منه الشاهد فى سبحان حيث جعله علما على التنزيه فمنعه الصرف وعلقمة المذكور صحابى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ فاسلم وبايع واستعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حوران فمات بها (الذى أسرى بعبده) هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو أشرف عباده على الاطلاق وأحقهم بالاضافة اليه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى أسرى بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى (ليلا) نصب على الظرف والاسراء سير الليل وفائدة ذكره الاشارة بتنكيره الى تقليل مدته فكان هذا الامر الجليل فى جزء يسير من الليل والى أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج فى الاسراء والعروج الى سدرة المنتهى وسماع الكلام من العلى

الكبر أحدهما او كلاهما
واما الثانية فخطاب للنبى
صلى الله عليه وسلم أيضا
وهو المراد به وذلك ان
امرأة بعثت صبيا اليه
مرة بعد اخرى سألته
قميصا ولم يكن عليه ولا له

الا على الى رياضة بصيام ولا غيره بل كان مهيأ لذلك متأهلا له فاقامه تعالى من الفرش الى العرش (من المسجد الحرام) اى بعينه وهو الذى يدل عليه ظاهر لفظ القرآن وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل بالبراق وقيل كان نائما فى الحطيم وقيل فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب قال البقاعى وهو قول الجمهور والمراد بالمسجد حينئذ الحرم لانه فناء المسجد (الى المسجد الاقصى) اى بيت المقدس الذى هو بعيد المسافة حينئذ وأبعد المسجدين الاعظمين مطلقا من مكة المشرفة بينهما أربعون ليلة فصلى بالانبياء كلهم ابراهيم وموسى ومن سواهما على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ورأى من آياتنا الكبرى ماقدرناله كما سيأتى فى حديث المعراج ورجع بين أظهركم الى المسجد الاقرب منكم فى ذلك الجزء اليسير من الليل وأنتم تضربون أكباد الابل فى هذه المسافة شهرا ذهابا وشهرا ايابا ثم وصفه تعالى بما يقتضى تعظيمه وانه أهل للقصد بقوله تعالى (الذى باركنا حوله) اى بما النامن العظمة بالمياه والاشجار وقال مجاهد سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحى ومنه يحشر الناس يوم القيامة وموطن العبادات ومعدن الفواكه والارزاق والبركات وبارك تعالى حوله لاجله فما ظنك به نفسه فهو أبلغ من باركنا فيه ثم منه الى السموات العلا الى سدرة المنتهى الى مالم ينله بشر غيره صلى الله عليه وسلم قال البقاعى ولعل حذف ذكر المعراج من القرآن هنا لقصور أفهامهم عن ادراك أدلته لو أنكروه بخلاف الاسراء فانه أقام دليله عليهم بما شاهدوه من الامارات التى وصفها لهم وهم قاطعون بانه صلى الله عليه وسلم لم يرها قبل ذلك فلما بان صدقه بما ذكر من الامارات أخبر بعد ذلك من أراد الله تعالى بالمعراج * ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الاسراء بقوله تعالى (لنريه) بعينه وقلبه (من آياتنا) أى عجائب قدرتنا السماوية والارضية كما أرينا أباه الخليل عليه السلام ملكوت السموات والارض (انه) أى الله (هو السميع) لجميع الاقوال (البصير) أى العالم بأحوال عباده فيكرم و يقرب من شاء منهم وقيل انه أى هذا العبد الذى اختصصناه بالاسراء هو أى خاصة السميع اى اذنا وقلبا بالاجابة لنا والاذعان لاوامرنا البصير بصرا و بصيرة بدليل ما أخبر به من الآيات وصدقه من الدلالات حتى نعت ماسألوه عنه من بيت المقدس ومن أمر عيرهم وغيرهما مما هو مشهور فى قصة الاسراء واختلف هل أسرى بروحه أو بجسده صلى الله عليه وسلم فعن عائشة رضى الله تعالى عنها انها كانت تقول مافقدت جسد النبى صلى الله عليه وسلم ولكن أسرى بروحه والاكثرون على أنه أسرى بجسده فى اليقظة وتواترت الاخبار الصحيحة على ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التى تربط فيها الانبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن قال جبريل عليه السلام أصبت الفطرة قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بى الى السماء الثانية

قميص غيره فنزعه ودفعه اليه فدخل وقت الصلاة فلم يخرج فى الدين فدخل عليه أصحابه فرأوه على تلك الصفة فلاموه على ذلك فانزل الله فتقعد ملوما أى يلومك الناس محسورا

قوله الذى هو الخ كلام غير مستقيم اه

فاستفتح

فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث اليه قال
قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بي الى
السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد
أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف واذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي
ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل
ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب بي
ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل
ومن معك قال محمد فقيل قد أرسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهرون فرحب بي
ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل
ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بي
ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل
ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم فاذا هو مستند
الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى
السدرة المنتهى فاذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله
ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها قال صلى الله عليه وسلم
فأوحى الى عبده ما أوحى وفرض علي في كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت الى
موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك
فاسأله التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك واني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى
ربي فقلت له أي رب خفف عن أمتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى فقال ما فعلت فقلت
قد حط عني خمسا قال ان أمتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لان أمتك
لا تطيق ذلك قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمسا خمسا حتى قال يا محمد هي
خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها
كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها
كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله
التخفيف لامتك فان أمتك لا تطيق فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت رواه الشيخان
وروي أنه قال بعد ذلك ولكن أرضى وأسلم فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتي وخففت
عن عبادي ثم أدخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك وروي أنه لما وصل الى
سدرة المنتهى فاذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذان يا جبريل قال
أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع الى البيت المعمور
ثم أوتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فاخترت اللبن فقال هي الفطرة التي أنت
عليها وأمتك قال ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة يوم فرضت فمررت على موسى وساق
الحديث ومنها ما رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم رأيت ربي عز وجل قال هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم

أي مكشوفا وقيل مقطوع
عن الخروج الى الجماعة
(قوله اما يلغن عندك
الكبر أحدهما أو كلاهما)
فانتذكر عندك انهما
يكبران في بيته وكنفه
ويكونان كلا عليه لا كافل

ليلة أسرى به الى بيت المقدس قال والشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة الزقوم ومنها
ما رواه قتادة عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن
ليلة الاسراء به قال بينا أنا فى الحطيم و ربما قال فى الحجر مضطجع ومنهم من قال بين النائم
واليقظان وذكر بين رجلين وأتيت بطشت من ذهب مملوأة حكمة وايمانا فشق من النحر
الى مراق البطن واستخرج قلبى فغسل ثم حشى ثم أعيد وقال سعيد وهشام ثم غسل البطن
بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة ثم أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون
البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته وساق بقية الحديث ومنها ما روى أنه صلى
الله عليه وسلم كان نائما فى بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فاسرى به ورجع من ليلته وقص
القصة على أم هانئ وقال مثل لى النبيون فصليت بهم وقام ليخرج الى المسجد فتشبثت أم
هانئ بثوبه فقال مالك قالت أخشى أن يكذبك الناس وقومك ان أخبرتهم قال وان كذبونى
فخرج اليهم وروى أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به فكان بذى طوى
قال يا جبريل ان قومى لا يصدقونى قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس
وعائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كانت ليلة أسرى بى فاصبحت بمكة فظعت
بامرى وعرفت أن الناس يكذبونى فروى أنه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلا حزينا فمر به
أبو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شئ قال نعم اسرى بى الليلة قال الى أين
قال الى بيت المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم فقال أبو جهل يا معشر بنى كعب
ابن لؤى هلموا فانفضت اليه المجالس فجاؤا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتنى
قال نعم انى قد أسرى بى الليلة قالوا الى أين قال الى بيت المقدس قالوا ثم اصبحت بين أظهرنا
قال نعم فمن بين مصفق و واضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى
رجال الى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا هل لك فى صاحبك يزعم أنه اسرى به الليلة الى بيت
المقدس قال أوقد قال قالوا نعم قال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا تصدقه على ذلك قال انى
لاصدقه على أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء فى غدوة أو روحة فسمى الصديق قال وفى
القوم من كان يأتى المسجد الاقصى فقالوا فهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الاقصى قال نعم
قال فذهبت أنعت وأنعت فمازلت أنعت حتى التبس على قال فجئ بالمسجد وأنا أنظر اليه
حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب
ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهى أهم الينا هل لقيت منها شيأ قال نعم مررت على عير بنى
فلان وهى بالروحاء وقد أضلوا بعيرا لهم وهم فى طلبه وفى رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته
وشربته ثم وضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء فى القدح حين رجعوا اليه قالوا هذه
آية قال ومررت بعير بنى فلان وفلان وفلان راكبان قعودا لهما فنفر بعيرهما منى فرمى بفلان
فانكسرت يده فاسألوهما عن ذلك قالوا وهذه آية قالوا فاخبرنا عن عيرنا متى تجئ قال مررت
بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وما حملها وما أحمالها ومن فيها فقال هيئتها كذا وكذا وفيها فلان
وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه
آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيأ وبينه حتى أتوا كداء

لهما غيره وربما كان منهما
من الشاق ما كان
اتيا لهما منه فى حال الصغر
(قوله ولا تقربوا الزنا) هو
أعم من ان يقال ولا تزنوا
لفيد النهى عن مقدمات
الزنا كاللمس والقبلة

فجلسوا

فروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش وأحوالهم بالضد من أحوال سائر الخلق وقال قتادة يكونون فى أسراب لهم حتى اذا زالت الشمس عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم والثانى ان معناه لاثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدا وفى كتب الهيئة ان أكثر حال الزنج كذلك وحال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك قال الكلبى هم عراة يفرش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى وقال الزمخشرى وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا أحدهم يفرش احدى أذنيه ويلبس الاخرى فلما قرب طلوع الشمس سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشى على ثم أفقت فلما طلعت الشمس فاذا هى فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونى سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لايلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض وقوله تعالى (كذلك) فيه وجوه الاول ان معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها الثانى ان أمره كما وصفناه من رفعة المكان وبسطة الملك قال البغوى والصحيح ان معناه كما حكم فى القوم الذين هم عند غروب الشمس كذلك فى القوم الذين هم عند مطلعها (وقد أحطنا بما لديه) أى عند ذى القرنين من الآلات والجند وغيرهما (خبرا) أى علما تعلق بظواهره وخفاياه والمعنى ان كثرة ذلك بلغت مبلغا لايحيط به الا علم اللطيف الخبير (ثم) ان ذا القرنين لما بلغ المغرب والمشرق (أتبع سببا) آخر من جهة الشمال فى ارادة ناحية السد مخرج يأجوج ومأجوج واستمر آخذا فيه (حتى اذا بلغ) فى مسيره ذلك (بين السدين) أى بين الجبلين وهما جبلا أرمينية وأذربيجان وقيل جبلان فى أواخر الشمال وقيل هذا المكان فى منقطع بلاد الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج قال الرازى والاظهر ان موضع السد فى ناحية الشمال سد الاسكندر ما بينهما كما سيأتى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضمها وهما لغتان معناهما واحد وقال عكرمة ما كان من صنع بنى آدم فهو السد بالفتح وما كان من صنع الله فهو بالضم وقاله أبو عمرو وقيل بالعكس (وجد من دونهما) أى بقربهما من الجانب الذى هو أدنى منهما الى الجهة التى أتى منها ذو القرنين (قوما) أى أمة من الناس لغتهم فى غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم عن بقية البلاد فهم كذلك (لايكادون) أى لايقربون (يفقهون) أى يفهمون (قولا) ممن مع ذى القرنين فهما جيدا كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرأ حمزة والكسائى بضم الياء وكسر القاف والباقون بفتحهما وقال ابن عباس لايفقهون كلام أحد ولايفهم الناس كلامهم واستشكل بقولهم (قالوا ياذا القرنين) وأجيب بانه تكلم عنهم مترجم ممن هو يجاورهم ويفهم كلامهم (ان يأجوج ومأجوج) وهما اسمان أعجميان لقبيلتين فلم ينصرفا وقرأ عاصم بهمزة ساكنة بعد الياء والميم والباقون بالالف فيهما وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوءها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام قال الضحاك هم جيل من الترك قال السدى الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنان

بالساعة (قوله وما تلك
بيمينك يا موسى) فان قلت
ما فائدة سؤاله تعالى لموسى
مع انه أعلم بما فى يده (قلت)
فائدته تأنيسه وتخفيف
ما حصل عنده من دهشة
الخطاب وهيبة الاجلال

وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على احدى وعشرين قبيلة وبقيت قبيلة واحدة فهم الترك سموا الترك لانهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج وقال ابن عباس فى رواية عطاء هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء وروى عن حذيفة مرفوعا ان يأجوج أمة ومأجوج أمة وكل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون فى خراب الارض وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الارز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع فى السماء وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد وصنف منهم يفرش احدى اذنيه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير الا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية ومنهم ان ثبت لهم مخالب فى أظفارهم وأضراسهم كأضراس السباع وعن على رضى الله تعالى عنه أنه قال منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط فى الطول وقال كعب هم نادرة فى ولد آدم وذلك أن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الاب دون الام وذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله تعالى انى باعثك الى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهم طول الارض احداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الارض احداهما فى القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى فى قطر الارض الايسر يقال لها تاويل وأمم فى وسط الارض منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين بأى قوة أكاثرهم وبأى لسان أناطقهم قال الله تعالى انى سأطوقك وأبسط لك لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شئ وألبسك الهيبة فلا يروعنك شئ وأسخر لك النور والظلمة واجعلهما من جنودك يهديك النور من امامك وتحفظك الظلمة من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيه الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان واحد فدعاهم الى الله تعالى والى عبادته فمنهم من آمن ومنهم من كفر ومنهم من صد عنه فعمد الى الذين تولوا عنه وأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته فجند من أهل المغرب جندا عظيما فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل فعمل فيهم كعمله فى ناسك ثم مضى حتى انتهى الى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجند منها جنودا كعمله فى الامتين ثم أخذ ناحية الارض اليسرى فأتى تاويل فعمل فيها كعمله فيما قبلها ثم عمد الى الامم التى وسط الارض فلما كان مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الانس يا ذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم أى وهم يأجوج ومأجوج (مفسدون فى الارض) يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح خلقه الله فى الارض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا يشك أنهم سيملكون الارض ويظهرون عليها ويفسدون فيها وقال الكلبى فسادهم انهم كانوا يخرجون أيام الربيع الى أرضهم فلا يدعون فيها شيئا أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا

وقت التكلم معه أو اعترافه بكونها عصا وازدياد علمه بذلك فلا يعترضه شك اذا قلبها الله ثعبانا انها كانت عصا ثم انقلبت ثعبانا بقدرة الله تعالى (قوله هى عصاى) هو جواب موسى

قوله أربعمائة ألف فى الجمل أربعة آلاف وقوله آدم احتلم فيه أنه ما احتلم نبى قط فان صح ما هنا فمعناه فاض منيه حال نومه لامتلائه وعافه اه مصحح

احتملوه وأدخلوه أرضهم وقد بالغوا واقرا منهم أذى شديدا وقتلا وقيل فسادهم انهم
كانوا يأكلون الناس وقيل معناه انهم سيفسدون في الارض بعد خروجهم (فهل نجعل
لك خرجا) أي جعلا من المال وقرأ حمزة والكسائي بفتح الراء وألف بعدها والباقون بسكون
الراء ولا ألف بعدها فقيل هما بمعنى وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك (على أن
تجعل) في جميع ما (بيننا وبينهم) من الارض التي يمكن توصلهم الينا منها بما آتاك الله من
المكنة (سدا) أي حاجزا بين هذين الجبلين فلا يصلون الينا وقرأ نافع وابن عامر وشعبة برفع
السين والباقون بالنصب (قال) لهم ذو القرنين (ما مكني فيه ربي) أي المكن الذي ما ترونه
من الاموال والرجال والتوصل الى جميع الممكن للمخلوق (خير) من خراجكم الذي تريدون
بذله كما قال سليمان عليه السلام فما آتاني الله خير مما آتاكم وقرأ ابن كثير بنون مفتوحة
بعد الكاف وبعدها نون مكسورة والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة (فأعينوني
بقوة) أي اني لا أريد المال بل أعينوني بأيديكم وقوتكم وبالآلات التي أتقوى بها في فعل
ذلك فإن ما معي انما هو للقتال وما يكون من أسبابه لا لمثل هذا (أجعل بينكم) أي بين ما تختصون
به (وبينهم ردما) أي حاجزا حصينا موثقا بعضه فوق بعض من التلاصق والتلاحم وهو
أعظم من السد من قولهم ثوب ردم اذا كان رقاعا فوق رقاع قالوا وما تلك القوة قال فعلة
وصناع يحسنون البناء قالوا وما تلك الآلات قال (آتوني) أي أعطوني (زبر الحديد) أي
قطعه وهو جمع زبرة كغرفة وغرف قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة فأتوه به
وبالحطب فحفر له الاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان
من زبر الحديد بينها الحطب والفحم (حتى اذا ساوى) أي بذلك البناء (بين الصدفين) أي بين
جانبي الجبلين أي سوى بين طرفي الجبلين سميا بذلك لانهما يتصادفان أي يتقابلان من قولهم
صادفت الرجل لاقيته وقابلته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع الصاد والدال وشعبة
برفع الصاد وسكون الدال والباقون بنصب الصاد والدال ثم وضع المنافخ وألقى النار في
الحطب والفحم و(قال) أي للعملة (انفخوا) فنفخوا (حتى اذا جعله) أي الحديد (نارا) أي
كالنار (قال آتوني) أي أعطوني (أفرغ عليه قطرا) أي أصب النحاس المذاب على الحديد
المحمي فصبه عليه فدخل في خلال الحديد مكان الحطب لان النار أكلت الحطب حتى لزم
الحديد النحاس فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا قال الزمخشري قيل ما بين
السدين مائة فرسخ وروي ان عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتي ذراع وعن قتادة
قال ذكر لنا ان رجلا وفي رواية عن رجل من أهل المدينة قال يا رسول الله قد رأيت سد
يأجوج ومأجوج قال انعته لي قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وهذه معجزة
عظيمة ان كان نبيا أو كرامة ان لم يكن لان هذه الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار
لم يقدر الحيوان ان يقرب منها والنفخ عليها لا يكون الا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تلك
الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها حتى تمكنوا من العمل فيها (تنبيه) قطرا
هو المتنازع فيه وهذه الآية أشهر أمثلة النحاة في باب التنازع وبها تمسك البصريون على
ان اعمال الثاني من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى اذ لو كان قطرا مفعول

(فان قلت) لم زاد عليه آتوني على الخ (قلت) قال ابن عباس رضي الله عنهما انه مثل سؤالا ما تصنع بها فاجاب بذلك أو ذكر ذلك خوفا من انه يوهم بالقائها كالأمر بالقاء التعليق

آتوني لا ضمير مفعول افرغ حذرا من الالباس ثم قال تعالى (فما) أي فتسبب عن ذلك انه لما أكمل عمل الردم واحكمه ما (اسطاعوا) أي يأجوج ومأجوج وغيرهم (ان يظهروه) أي يعلوا ظهره لعلوه وملاسته وقرأ حمزة بتشديد الطاء والباقون بالتخفيف (وما استطاعوا له نقبا) أي خرقا لصلابته وسمكه وزيادة التاء هنا تدل على ان العلو عليه اصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل فانهم ولو احتالوا ببناء درج من جانبهم أو وضع تراب حتى ظهروا عليه لم ينفعهم ذلك لانهم لا حيلة لهم على النزول من الجانب الآخر ويؤيده أنهم انما يخرجون في آخر الزمان بنقبه لا بظهورهم عليه ولا ينافي نفي الاستطاعة لنقبه ما رواه الامام احمد والترمذي في التفسير وابن ماجه في الفتن عن ابي رافع عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون اليه كأشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى فيستثني فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس الحديث وفي حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش عن النبي صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ورويا عن ابي هريرة وفيه مثل هذا وعقد تسعين لان هذا في آخر الزمان ثم انه قيل فما قال حين فراغه قيل (قال هذا) أي السد يعني الاقدار عليه (رحمة) أي نعمة (من ربي) أي المحسن الي باقداري عليه ومنع العادية (فاذا جاء وعد ربي) بقرب قيام الساعة أو بوقت خروجهم (جعله دكا) أي مدكوكا مبسوطا روي أنهم يخرجون على الناس فيتبعون المياه ويتحصن الناس في حصونهم منهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الارض وعلونا من في السماء قسوة وعلوا فيبعث الله تعالى عليهم نغفا في رقابهم وفي رواية في آذانهم فيهلكون قال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ان دواب الارض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا أخرجه الترمذي قوله قسوة وعلوا أي غلظة وفظاظة وتكبرا والنغف دود يخرج في أنوف الابل والغنم وقوله وتشكر من لحومهم شكرا يقال شكرت الشاة تشكر شكرا حين امتلأ ضرعها لبنا والمعنى أنها تمتلئ أجسادها لحما وتسمن وعن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة من النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال غير الدجال اخوفني عليكم ان يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم وانه شاب قطط أي شديد الجعودة وقيل حسن الجعودة عينه طافية أي بارزة وقيل مخسوفة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف انه خارج من خلة بين الشام والعراق فعاث أي أفسد يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما لبثه في الارض قال أربعون يوما

أو لئلا ينسب اليه التعب
في حملها مع ان المقام مقام
البسط اللائق بذا الكلام مع
الرب تعالى ولهذا بسط في
نفس الجواب اذ كان يكفي
فيه ان يقول عصا (قوله
واضمم يدك الى جناحك)

يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذى
كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم قال لا اقدروا له قدره اى واليوم الثانى والثالث كذلك وسكت
عن ذلك للعلم به من الاول قلنا يا رسول الله وما اسراعه فى الارض قال كالغيث استدبرته الريح
فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والارض فتنبت
وتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت درا واسبغه ضروعها وأملأها خواصر ثم يأتى القوم
فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شئ من أموالهم
ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا
شابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك
فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء فى دمشق بين مهرودتين
اى حلتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه مثل جمان
كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه حتى يدركه
بباب لد قرية بالشام قريبة من الرملة فيقتله ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه
فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك اذ أوحى الله تعالى الى عيسى
عليه السلام انى قد أخرجت عبادا لى لا يدان لاحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ويبعث
يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها
ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور
لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله تعالى فيرسل
الله تعالى عليهم النغف فى رقابهم وهو بالتحريك دود يكون فى أنوف الابل والغنم كما مر واحدتها
نغفة فيصبحون فرسى اى قتلى الواحد فريس ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه الى الارض
فلا يجدون فى الارض موضع شبر الا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى
الله فيرسل الله تعالى عليهم طيرا كأعناق البخت فتحملهم حيث شاء الله تعالى ثم يرسل الله تعالى
عليهم مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الارض حتى يتركها كالزلفة وهى بالتحريك جمعها
زلف مصانع الماء ويجمع على المزالف أيضا اى فتصير الارض كأنها مصنعة من مصانع الماء
وقيل كالمرآة وقيل الزلفة الروضة وقيل بالقاف ايضا ثم يقال للارض انبتى ثمرتك وردى بركتك
فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل وهو بتحريك الراء
والسين من الابل والغنم من عشرة الى خمسة وعشرين حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام
من الناس وهو مهموز الجماعة الكثيرة واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة
من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينما هم كذلك اذ بعث الله تعالى عليهم ريحا طيبة
فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها
تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة (وكان وعد ربى) الذى وعد به فى خروج يأجوج ومأجوج
واخراجهم الارض وافسادهم اياها قرب قيام الساعة (حقا) كائنا لا محالة ولذلك أعقب تعالى
على هذه القصة آخر حكاية ذى القرنين وفى القصة ان ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفى
بشهرزور وذكر بعضهم أن عمره كان نيفا وثلاثين سنة سبحان من يدوم عزه وبقاؤه ثم انه تعالى

جعل هنا الجناح مضموما
اليه وفى القصص مضموما
فى قوله واضمم اليك
جناحك لان المراد به هنا
ما بين العضد الى الابط من
اليد اليسرى وبه ثم الكف من
اليد اليمنى فلا تنافى (قوله

قادرا عاطفا على ما تقديره فقد بان أمر ذي القرنين اي بيان وصدق في قوله فاذا جاء وعد ربي فانه
اذا جاء وعدنا جعلناه بقدرتنا التي نؤتيها اليأجوج ومأجوج دكا فاخرجناهم على الناس بعد
خروج الدجال (وتركنا بعضهم) اي يأجوج ومأجوج (يومئذ) اي حين يخرجون (يموج) اي
يضطرب (في بعض) كموج البحر أو يموج بعض الخلق في بعض فيضطربون ويختلطون انسهم
وجنهم حيارى ويؤيده (ونفخ في الصور) أي القرن النفخة الثانية لقوله تعالى (فجمعناهم)
اي الخلائق في مكان واحد يوم القيامة قال البقاعي ويجوز أن تكون هذه الفاء فاء الفصيحة
فيكون المراد النفخة الاولى أي ونفخ فمات الخلائق كلهم فبليت أجسامهم وتفتت عظامهم
كما كان من تقدمهم ثم نفخ الثانية فجمعناهم من التراب بعد تمزقهم فيه وتفرقهم في أقطار
الارض بالسيول والرياح وغير ذلك (جمعا) فاحضناهم دفعة واحدة كلمح البصر وحشرناهم
الى الموقف للحساب ثم الثواب والعقاب (وعرضنا) اي أظهرنا (جهنم يومئذ) اي اذ جمعناهم
لذلك (للكافرين عرضا) ظاهرة لهم بكل ما فيها من الاهوال وهم لا يجدون لهم عنها مصرفا
• ثم وصفهم بما أوجب لهم ذلك بقوله تعالى (الذين كانت) كونا كأنه جبلة لهم (أعينهم)
وهو بدل من الكافرين (في غطاء عن ذكري) اي عن القرآن فهم لا يهتدون به وعما جعلنا
على الارض من زينة دليلا على الساعة بافنائه ثم احيائه واعادته بعد ابدائه (وكانوا) بما
جعلناهم عليه (لا يستطيعون سمعا) اي لا يقدرون أن يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم
ما يتلو عليهم بغضا له فلا يؤمنون به • ولما بين تعالى أمر الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر
وعن استماع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أتبعه بقوله تعالى (أفحسب الذين كفروا أن
يتخذوا عبادي) من الاحياء كالملائكة وعزير والمسيح والاموات كالاصنام (من دوني)
وقوله تعالى (أولياء) اي اربابا مفعول ثان ليتخذوا والمفعول الثاني لحسب محذوف والمعنى
أظنوا أن الاتخاذ المذكور ينفعهم ولا يغضبني ولا أعاقبهم عليه كلا وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح
الياء والباقون بسكونها وهم على مراتبهم في المد ولما كان معنى الاستفهام الانكاري ليس
الامر كذلك حسن جدا قوله تعالى مؤكدا لاجل انكارهم (انا أعتدنا جهنم) التي تقدم
أنا عرضناها لهم (للكافرين) اي هؤلاء وغيرهم (نزلا) اي هي معدة لهم كالنزل المعد للضيف
وهذا على سبيل التهكم ونظيره قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم • ثم ذكر تعالى ما فيه تنبيه على
جهل القوم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (هل ننبئكم) اي نخبركم وأدغم
الكسائي لام هل في النون والباقون بالاظهار (بالاخسرين أعمالا) اي الذين أتعبوا أنفسهم
في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا واختلفوا فيهم فقال ابن عباس وسعد بن
أبي وقاص هم اليهود والنصارى وهو قول مجاهد قال سعد بن أبي وقاص أما اليهود فكذبوا
محمدا صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة فقالوا لا طعام فيها ولا شراب انتهى
قال البقاعي وكذا قال اليهود لان الفريقين أنكروا الحشر الجسماني وخصوا ما لهم روحاني وقيل
هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع • (تنبيه) • أعمالا تمييز للاخسرين جمع عمل
وان كان مصدرا لتنوع أعمالهم ثم وصفهم تعالى بضد ما يدعونه لانفسهم من نجاح السعي
واحسان الصنع فقال تعالى (الذين ضل) اي ضاع وبطل (سعيهم في الحيوة الدنيا) لكفرهم

(تنبيه)

اذهب الى فرعون) قال
ذلك هنا وقال في الشعراء
ان ائت القوم الظالمين
قوم فرعون وفي القصص
فذانك برهانان من ربك
الى فرعون وملئه اقتصر
في طه على فرعون لانه

• (تنبيه) • محل الموصول الجر نعتا أو بدلا أو بيانا أو النصب على الذم أو الرفع على الخبر المحذوف فانه جواب السؤال ومعنى خسرانهم أنه مثلهم بمن يشتري سلعة يرجو فيها ربحا فخسر وخاب سعيه كذلك أعمال هؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم مع ضلالهم فبطل جدهم واجتهادهم في الحياة الدنيا (وهم يحسبون) أي يظنون وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر (أنهم يحسنون صنعا) أي عملا يجازون عليه لاعتقادهم أنهم على الحق • ثم بين تعالى السبب في بطلان سعيهم بقوله تعالى (أولئك) أي البعداء البغضاء (الذين كفروا بآيات ربهم) أي بدلائل توحيده من القرآن وغيره (ولقائه) أي رؤيته لانه يقال لقيت فلانا أي رأيته (فان قيل) اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر وذلك في حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله تعالى كما قال بعض المفسرين (أجيب) بان لفظ اللقاء وان كان عبارة عن الوصول الا أن استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذي يقول ان المراد لقاء ثواب الله قال لا يتم الا بالاضمار وحمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج الى الاضمار ثم قال تعالى (فحبطت) أي فتسبب عن جحدهم الدلائل بطلت (أعمالهم) فصارت هباء منثورا فلا يثابون عليها وفي قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قولان أحدهما انا نزدري بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار تقول العرب ما لفلان عندي وزن أي قدر لخسته وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا الثاني لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيآت وقال أبو سعيد الخدري تأتي ناس بأعمالهم يوم القيامة عندهم في التعظيم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيأ فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ولما كان هذا السياق في الدلالة على ان لهم جهنم أوضح من الشمس قال تعالى (ذلك) أي الامر العظيم الذي بيناه من وعيدهم (جزاؤهم) ثم بين ذلك الجزاء بقوله تعالى (جهنم) وصرح بالسببية بقوله تعالى (بما كفروا) أي بما أوقعوا التغطية للدلائل (واتخذوا آياتي) الدالة على وحدانيتنا (ورسلي) المؤيدين بالمعجزات الظاهرات (هزوا) أي مهزوا بهما فلم يكتفوا بالكفر الذي هو طعن في الالهية حتى ضموا اليه الهزو الذي هو أعظم احتقارا • ولما بين سبحانه وتعالى ما لاحد قسمي أهل الجمع تنفيرا عنهم بين ما للآخرين على تقدير الجواب لسؤال يقتضيه الحال ترغيبا في اتباعهم والاقتداء بهم بقوله (ان الذين آمنوا) أي باشروا الايمان (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الخصال (كانت لهم) أي في علم الله قبل أن يخلقوا البناء أعمالهم على الاساس (جنات) أي بساتين (الفردوس) أي أعلى الجنة وأوسطها والاضافة اليه للبيان روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وقال كعب ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها وقال كعب الفردوس هو

الاصل بالنسبة الى قوم مع
سبق طه وا كتفى في الشعراء
بذكره في الاضافة عن
ذكره مفردا وجمع بينهما
في القصص ليوافق قوله
فذانك برهانان في التعدد
(قوله واحلل عقدة من

بستان الجنة الذى فيه الاعناب وقال مجاهد هو البستان بالرومية وقال الزجاج هو بالرومية منقول الى لفظ العربية وقال عكرمة هى الجنة بلسان الحبش وقال الضحاك هى الجنة الملتفة الاشجار (نزلا) اى منزلا كما كان السعير والاغلال لا ولئك نزلا وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة (لا يبغون) اى لا يريدون أدنى ارادة (عنها حولا) اى تحويلا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى دار أخرى ٭ ولما ذكر تعالى فى هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشرح فيها أقاصيص الاولين والآخرين نبه على حال كمال القرآن بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف الخلق للخلق (لو كان البحر) اى ماؤه على عظمته عندكم (مدادا) وهو اسم لما يمد به الشئ كالحبر للدواة والسليط للسراج (لكلمات) اى لكتب كلمات (ربى) اى المحسن الى (لنفد) اى فنى مع الضعف فناء لا تدارك له (البحر) لانه جسم متناه (قبل أن تنفد) اى تفنى وتفرغ (كلمات ربى) لان معلوماته تعالى غير متناهية والمتناهى لا يفى البتة بغير المتناهى وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث ٭ ولما لم يكن أحد غيره يقدر على امداد البحر قال تعالى (ولو جئنا بمثله) اى بمثل البحر الموجود (مددا) اى زيادة ومعونة ونظيره قوله تعالى ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال البغوى وابن عباس قالت اليهود تزعم يا محمد انا قد أوتينا الحكمة وفى كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ثم تقول وما أوتيتم من العلم الاقليلا فانزل الله تعالى هذه الآية وقال البيضاوى وسبب نزولها أن اليهود قالوا فى كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وتقرؤن وما أوتيتم من العلم الاقليلا انتهى وقال فى الكشاف يعنى ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله وقيل لما نزل وما أوتيتم من العلم الاقليلا قالت اليهود أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ فانزل الله تعالى هذه الآية ٭ ولما كانوا ربما قالوا ما لك لا تحدث من هذه الكلمات بكل ما سألناك عنه قال الله تعالى (قل) يا خير الخلق لهم (انما أنا بشر) فى استبداد القدرة على ايجاد المعدوم والاخبار بالغيب (مثلكم) اى لا أمر لى ولا قدرة الا ما يقدرنى ربى عليه ولكن (يوحى الى) اى من الله تعالى الذى خصنى بالرسالة كالوحى الى الرسل قبلى (انما الهكم) الذى يجب أن يعبد (اله واحد) لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها قادر على ما يريد لا منازع له لم يؤخر جواب ما سألتمونى عنه من عجز ولا من جهل هذا الذى يعنى كل أحد علمه وأما ما سألتم عنه فى أمر الروح والقصتين فتعالى فامر لوجه لمقو ما ضركم جهله (فمن) اى فتسبب عن وحدته المستلزمة لقدرته أنه من (كان يرجوا لقاء ربه) اى يخاف المصير اليه وقيل يأمل رؤيته والرجاء يكون بمعنى الخوف والامل جميعا قال الشاعر

فلا كل ما ترجوا من الخير كائن ٭ ولا كل ما ترجوا من الشر واقع

فجمع بين المعنيين (فليعمل عملا) ولو قليلا (صالحا) يرتضيه الله (ولا يشرك) اى ولا يكن ذلك العمل مبنيا الا على الاساس وهو أن لا يشرك ولو بطريق الرياء (بعبادة ربه احدا) فاذا فعل ذلك استلزم خيار علوم الدنيا والآخرة روى ان جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى لاعمل

ـسان) قال ذلك هضما وقال
فى الشعراء ولا ينطلق
لسانى فقال الله ص وانى
هرون هو أفصح منى
لسانا صرح بعقد اللسان
فى طه لسبقها وكنى عنها
فى الشعراء لما يقرب من

بجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قائل منهم هذه الشمس والله
قد أشرقت فقال آخر والله وهذه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا
وقالوا ما هذا الا سحر مبين والاورق من الابل الذي في لونه بياض الى سواد وهو أطيب الابل
لحما كما قاله الجوهري ومنها ما روى عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم
وجاء بطشت من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فافرغها في صدري ثم أطبقه ثم اخذ بيدي وعرج
بي الى السماء فلما جئنا الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال ومن هذا قال
جبريل قال هل معك أحد قال نعم معي محمد قال فارسل اليه قال نعم ففتح قال فلما علونا السماء
الدنيا فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل
شماله بكى فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم
وهذه الاسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل اليمين منهم أهل الجنة والاسودة التي عن
شماله أهل النار واذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ثم عرج بي جبريل حتى أتى
الى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا فقال أنس
ابن مالك فذكر أنه وجد في السموات آدم وادريس وموسى وعيسى وابراهيم ولم يبين كيف
منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر
جبريل ورسول الله صلى الله عليهما وسلم بادريس فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال
فقلت من هذا قال انه ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح
قال قلت من هذا قال هذا موسى فقال ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ
الصالح قال فقلت من هذا قال عيسى ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي
الصالح قال فقلت من هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب أخبرني ابن حزم ان ابن عباس
كان يقول كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى اسمع فيه صرير
الاقلام وروى معمر عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بالبراق ليلة أسرى
به مسرجا ملجما فاستصعب عليه فقال جبريل أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله
منه فارفض عرقا وقال ابن زيد عن أبيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهيت الى
بيت المقدس قال جبريل باصبعه فخرق بها الحجر وشد به البراق وفي رواية أنه جاء جبريل
بالبراق الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له يا محمد اركب فركبه صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل
وطار به البراق في الهواء فاخترق به الجو فعطش صلى الله عليه وسلم واحتاج الى الشرب
فاتاه جبريل باناءين اناء من لبن واناء من خمر وذلك قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول
اللبن فقال له جبريل عليه السلام أصبت الفطرة أصاب الله تعالى بك أمتك ولذلك كان صلى
الله عليه وسلم يتأول اللبن بالعلم فلما وصل الى السماء الدنيا استفتح الى أن قال ثم عرج بي الى
سدرة المنتهى وأخبره جبريل ان أعمال بني آدم تنتهي الى تلك السدرة وانها مقر الارواح فهي
نهاية لما ينزل مما هو فوقها وثم ايضا لما يعرج اليها مما هو دونها وبها مقام جبريل عليه السلام
فنزل صلى الله عليه وسلم عن البراق وجيء اليه بالرفرف وهو نظير المحفة عندنا فقعد عليه وسلمه

بالمطوق وعن النابغة وهم
الاولى (قوله ولقد صرفنا في
هذا القرآن) قال ذلك هنا
بحذف للناس اكتفاء
بذكره قبل بلفظ وكل انسان
الزمناه طائره في عنقه وقاله
بعد بذكره لتميز عن الدين

جبريل الى الملك النازل بالرفرف فسأله الصحبة ليأنس به فقال له لا أقدر لو خطوت خطوة لاحترقت فما منا الا له مقام معلوم وما أسرى الله بك يا محمد الا ليريك من آياته فلا تغفل فودعه وانصرف مع ذلك الملك والرفرف والملك يمشي به الى أن ظهر لمستوى سمع فيه صرير الاقلام في الالواح وهي تكتب ما يجري به الله تعالى في خلقه وما تنسخه الملائكة من أعمال عباده قال تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ثم زج بي في النور زجة فافرده الملك الذي كان معه وتأخر عنه فلم يره معه فعلم أن الرفرف ما تدلى الا ليكون البراق له مكان لا يتعداه كجبريل لما بلغ الى المكان الذي لا يتعداه وقف وكذلك الرفرف لما وصل الى مقام لا يتعداه زج به في النور فغمره النور من جميع نواحيه وأعطى علما آخر لم يكن يعلمه قبل ذلك عن وحي من حيث لا يدري وجهته وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني وأنا في الحجر وقريش تسألني عن مسرى فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط فرفعه الله الي لانظر اليه فما سألوني عن شيء الا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الانبياء فاذا موسى قائم يصلي فاذا رجل جعد كأنه من رجال شنوأة واذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي واذا ابراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فالتفت اليه فبدأني بالسلام وعن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبني قريش قمت الى الحجر فجلى الله لي بيت المقدس وذكر الحديث وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلي في قبره (فان قيل) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف تصلي الانبياء بعد الموت وهم في دار الآخرة (اجيب) بان صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء عليهم السلام ببيت المقدس يحتمل أن الله تعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم ان الله تعالى أراه اياهم في السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وأما مروره بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الاحمر فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج وأما حكم صلاة الانبياء وهم في الدار الآخرة فهم في حكم الشهداء بل هم أفضل منهم وقد قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء فالانبياء بعد الموت أولى وأما حكم صلاتهم فيحتمل أنها بالذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة قال تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد في الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل أن الله تعالى خصهم بخصائص في الآخرة كما خصهم في الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم منها أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بحقائق الامور وروى عن شريك بن عبد الله قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم وساق حديث المعراج بقصته قال فاذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان قال ما هذان يا جبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به في السماء فاذا هو

بجريان ذكرهما معا قبل وقاله في الكهف بذكره ايضا لعدم ذكره قبل وبعد وقدم اي قوله للناس على قوله في هذا القرآن هنا الا في الآية الثالثة اهتماما بالتمييز المذكورين بالناس لانهم

بنهر آخر عليه نهر من لؤلؤ وزبرجد فضرب يده فاذا هو مسك أذفر قال ما هذا يا جبريل قال هو الكوثر الذى خبألك ربك وذكر فى آخر حديثه أنه صلى الله عليه وسلم قال فى آخر الحديث ثم علا بى حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه كقاب قوسين أو أدنى فاوحى اليه وذكرت عائشة ان الذى دنا فتدلى جبريل عليه السلام وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة النجم (فان قيل) قوله تعالى لنريه من آياتنا يدل على انه تعالى ما أراه الا بعض الآيات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال فى حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض أى ملكهما فيلزم أن يكون معراج ابراهيم أفضل من معراج محمد عليهما السلام (أجيب) بانه لما أضيفت تلك الآيات الى الله تعالى دل على انها أفضل مما رآه ابراهيم * (تنبيه) * قال النووى فى شرح مسلم قد جاء فى رواية شريك فى حديثه أوهام أنكرها عليه العلماء فيها منها قوله وذلك قبل ان يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه وان الاسراء أقل ما قيل فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا ٣ وقال الطبرانى كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهرى كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين قال ابن اسحق أسرى به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل وقيل كان الاسراء فى رجب ويقال فى رمضان قال النووى وأشبه الاقوال قول الزهرى وابن اسحق ومما يدل على أنه أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى أسرى بعبده ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق وهو اسم للدابة وهى التى ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به واشتقاقه من البرق لسرعته أولشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألؤ نوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط فى الامور وتعاطى الاسباب وان ذلك لا يقدح فى التوكل اذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير قال لى اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعنى فطرة الاسلام وجعل اللبن علامة الفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها أم الخبائث وجالبة لانواع الشر وقوله ثم عرج بى حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فيه بيان الادب ان استأذن ان يقول أنا فلان ولا يقول أنا فقط فانه مكروه وفيه أن للسماء أبوابا وبوابين عليها حرسا وقول بواب السماء وقد أرسل اليه وفى الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه للاستواء وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة وقوله فاذا أنا بآدم وذكر جماعة من الانبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وان كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الانسان فى وجهه اذا أمن عليه من الاعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فاذا أنا بابراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ذهب بى الى السدرة المنتهى هكذا وقع فى هذه الرواية بالالف واللام وفى باقى الروايات الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من

قوله عليه نهر الخ هكذا فى النسخ ولعله محرف عن قوله عليه جنابذ من لؤلؤ وزبرجد اه

الاصل فى التكليف ولهذا اقتصر عليهم فى غالب الآيات كقوله يا أيها الناس وقوله من بعد ما بيناه للناس وقوله الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وعكس فى الكهف لمناسبة قوله قبل

٣ قوله الطبرانى فى بعض النسخ الحربى بدله اه مصحح

المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهى اليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونه ينتهى اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل وقوله واذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهى الجرة الكبيرة التى تسع قربتين أو أكثر وقوله فرجعت الى ربى قال النووى معناه رجعت الى الموضع الذى ناجيته منه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم أزل أرجع بين موسى وبين ربى معناه بين موضع مناجاة ربى وقوله ففرض على أمتى خمسين صلاة الى قوله فوضع عنى خمسا وفى رواية شطرها وفى رواية عشرا ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف وأما رواية العشر فهو رواية شريك ورواية الخمس رواية قتادة وهو أثبت من شريك والمراد حط عنى خمسا الى آخره ثم قال هى خمس وهن خمسون يعنى خمسين فى الاجر والثواب لان الحسنة بعشر أمثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشئ قبل فعله وفى الحديث انه شق صدره ليلة المعراج وقد شق صدره أيضا فى صغره وهو عند حليمة التى كانت ترضعه فالمراد بالشق الثانى زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله أتيت بطشت من ذهب قد يتوهم انه يجوز استعمال الذهب لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهم مباح لهم استعمال الذهب أو لعل هذا كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ حكمة وايمانا فافرغها فى صدرى قد يقال الحكمة والايمان من المعانى والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك (أجيب) بانه يحتمل أنه جعل فى الطشت شئ يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما تسمى ايمانا وحكمة لكونه سببا لها وهذا من أحسن المجاز وقوله فى صفة آدم فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد وقد فسر فى الحديث بانه نسم بنيه يعنى أرواح بنيه (فان قيل) أرواح المؤمنين فى السماء وأما أرواح الكفار فتحت الارض السفلى فكيف تكون فى السماء (أجيب) بانه يحتمل ان أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو فى السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبى صلى الله عليه وسلم فاخبر بما رأى وقوله اذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على حال الكافر منهم وقوله فى ادريس مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح قد اتفق المؤرخون انه هو اخنوخ جد نوح فيكون جد النبى صلى الله عليه وسلم كما أن ابراهيم جده فكان ينبغى أن يقول بالنبى الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم (وأجيب) بانه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو جد نوح قاله القاضى عياض وقال النووى ليس فى هذا الحديث ما يمنع كون ادريس أبا نبينا صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وان كان ابنا لان الانبياء اخوة والمؤمنون اخوة انتهى وانما أطلت فى بيان ذلك لان الكلام مع الاحبة يحلو ولولا خوف الملال ما اقتصرت على ذلك فقد قال بعض المفسرين لا أعلم فى الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التى فضل بها كافة الانبياء ما تضمنته هذه السورة ولكن فى هذا القدر كفاية لاولى الالباب ● ولما ثبت بهذه الخارقة ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن نفسه المقدسة من عظيم القدرة وما جاء صلى الله عليه وسلم

مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة الآية (قوله تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) ضمير فيهن عائد الى السموات والارض والسبع وهو التنزيه شامل للتسبيح

من الآيات البينات في هذا الوقت اليسير أتبعه ما منح في السير من مصر الى الارض المقدسة من الآيات في مدد طوال لموسى عليه الصلاة والسلام الذي كان أعظم الانبياء بركة على هذه الامة ليلة الاسراء لما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم اليه من مراجعة الله تعالى في تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين الى خمس مع أجر خمسين فقال (وآتينا) أي بعظمتنا (موسى الكتاب) أي التوراة (وجعلناه) اي الكتاب بما لنا من العظمة (هدى لبني اسرائيل) بالحمل على العدل في التوحيد والاحكام وأسرينا بموسى عليه السلام وبقومه من مصر الى بلاد المسجد الاقصى فأقاموا سائرين اليها أربعين سنة ولم يصلوا ومات كل من خرج الا المتقين الموفين بالعهد فقد بان الفضل بين الاسراءين كما بان الفضل بين الكتابين فذكر الاسراء أولا دليل على حذف مثله ثانيا وايتاء الكتاب ثانيا دليل على حذف مثله أولا فالآية من الاحتباك ثم نبه على ان المراد من ذلك كلمة التوحيد اعتقادا وعبادة بقوله تعالى (ألا) أي لئلا (يتخذوا) على قراءة أبي عمرو بالياء على الغيبة وقرأ غيره بالتاء على ان لا تتخذوا كقولك كتبت اليه أن افعل كذا (من دوني وكيلا) أي ربا تكلون اليه أموركم وذلك هو التوحيد فلا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا نعمة أعظم من أن يصير المرء يقاني بحر التوحيد وأن لا يعوّل في أمر من الامور الا على الله تعالى فان نطق نطق بذكر الله وان تفكر تفكر في دلائل تنزيه الله وان طلب طلب من الله فيكون كله لله وبالله والى الله وقوله تعالى (ذرية) نصب على الاختصاص في قراءة أبي عمرو وعلى النداء عند الباقين أي يا ذرية (من حملنا) اي في السفينة بعظمتنا على ظهر ذلك الماء الذي طبق ما تحت أديم السماء ونبه تعالى على شرفهم وتمام نعمتهم بقوله تعالى (مع نوح) ففي ذلك تذكير بانعام الله تعالى عليهم وانجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح لانه كان معه في السفينة ثلاث بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك قال البقاعي لان الصحيح ان من كان معه من غير ذريته ماتوا ولم يعقبوا ولم يقل ذرية نوح ليعلم انهم عقب أولاده المؤمنين لتكون تلك منة اخرى ثم انه تعالى أثنى على نوح حثا على الاقتداء به في التوحيد كما اقتدى به آباؤهم في ذلك بقوله تعالى (انه كان عبدا شكورا) أي مبالغا في الشكر الذي هو صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه لما خلق له روى انه عليه الصلاة والسلام كان اذا أكل قال الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني وفي رواية انه يسمي اذا أكل ويحمد اذا فرغ واذا شرب قال الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظمأني واذا اكتسى قال الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني واذا احتذى قال الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني واذا قضى حاجته قال الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه وفي رواية انه كان يقول الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعته في جسدي وأخرج عني أذاه وفي رواية انه كان اذا أراد الافطار عرض طعامه على من مر به فان وجده محتاجا آثره به ※ ولما ذكر تعالى انعامه على بني اسرائيل بانزال التوراة عليهم وبأنه جعل التوراة هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداه بل وقعوا في الفساد بقوله تعالى (وقضينا) اي وأوحينا (الى بني اسرائيل) أي الى بني عبدنا يعقوب عليه السلام الذي كان أطوع أهل زمانه وحيا مقطوعا مثبوتا ٣ (في الكتاب) أي التوراة التي قد أوصلناها اليهم على

٣ قوله دليل على حذف مثله اولا هكذا في الاصول التي بايدينا والظاهر ان هنا سقطا والتقدير دليل على حذف مثله ثانيا وذكر ايتاء الكتاب ثانيا دليل على حذف مثله اولا الخ اه مصححه

بلسان المقال كما في المؤمنين وبلسان الحال كما في سائر الموجودات اذ كل موجود يدل على قدرته تعالى وفي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز عند الشافعي رضي الله عنه

٣ قوله مثبوتا هنا وفيما سيأتي قريبا القياس مثبتا لانه من أثبت الرباعي اه مصححه

لسان موسى عليه السلام وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ وقوله تعالى (لتفسدن) جواب قسم محذوف ويجوز أن يجرى القضاء المثبوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له كأنه قال وأقسمنا لتفسدن (في الارض) أي أرض الشام قاله السيوطي وقال الرازي أرض مصر ويوافق الاول قول البقاعي أي المقدسة التي كأنها اشرفها هي الارض (مرتين) اي افسادتين قال في الكشاف اولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس ارميا حين انذرهم بسخط الله تعالى والاخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى بن مريم وقال البيضاوي الاولى مخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا وقيل أرميا وثانيتهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام (ولتعلن) أي بما صرتم اليه من البطر انسيان المنعم (علوا كبيرا) بالظلم والتمرد لانه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم (فاذا جاء وعد اولاهما) اى أولى مرتى الفساد وهو الوقت الذى حددناهم الانتقام فيه (بعثنا عليكم عبادا لنا) اى لابد ان لكم بهم كما قال تعالى (اولى باس شديد) اى اصحاب قوة في الحرب واختلف فيهم فقال في الكشاف سنحاريب وجنوده وقيل بختنصر وقال ابن عباس جالوت قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا وقال البيضاوي عبادا لنا بختنصر عامل لهراسف على بابل وجنوده وقيل جالوت الخزرى وهو بخاء فزاى مفتوحتين فراء نسبة الى الخزر وهو ضيق العين وصغرها وهو الذى قتله داود وجيل من الناس وذكر الرازي في ذلك قولين الاول ان الله تعالى سلط عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى أرض نفسه فبقوا هنالك في الذل الثاني ان الله تعالى ألقى الرعب من بنى اسرائيل في قلوب المجوس فلما كثرت المعاصى فيهم أزال الله ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وافنائهم واهلاكهم وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال افسدوا المرة الاولى فارسل الله عليهم جالوت فقتلهم وأفسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر وعن ابن مسعود قال كان أول الفساد من قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك القبط وعن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال الاولى قتل زكريا والاخرى قتل يحيى قاله الرازي واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الاقوام باعيانهم بل المقصود هو انهم لما أكثروا من المعاصى سلط الله عليهم أقواما فقتلوهم وافنوهم ثم قال الله تعالى (فجاسوا) أى ترددوا لطلبكم (خلال الديار) أى وسطها للقتل والغارة قال البيضاوي فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أولوا البعث بالتخلية انتهى وفي ذلك تعريض بالزمخشري فانه قال في كشافه (فان قلت) كيف جاز ان يبعث الله تعالى الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه (قلت) معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم على ان الله عز وجل اسند بعث الكفرة عليهم الى نفسه فهو كقوله تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (وكان) أى ذلك البعث ووعد العقاب به (وعدا مفعولا) أى قضاء كائنا لازما لا شك في وقوعه ولا بد ان يفعل (ثم رددنا لكم الكرة) أى الدولة والغلبة (عليهم) حتى تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد في زمن داود بقتله جالوت وذلك بعد مائة سنة (وأمددناكم باموال) تستعينون بها على قتال عدوكم (وبنين) تتقوون بهم (وجعلناكم أكثر) من عدوكم (نفيرا) أى عشيرة تنفر

(ان قلت) يمنع من شموله للثانى قولهم ولكن لا تفقهون تسبيحهم لانه مفقود لنا (قلت) الخطاب فيه للكفار وهم لم يفقهوا تسبيح الموجودات لانهم أثبتوا لله شريكا وزوجا وولدا بل

عكم

معكم عند ارادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو * ولما حكى الله تعالى عنهم أنهم لما عصوا سلط الله عليهم أقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبي ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر أنهم ان أطاعوا الله فقد أحسنوا الى أنفسهم وان أصروا على المعصية فقد أساؤا على أنفسهم وقد تقرر في العقول أن الاحسان الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى (ان أحسنتم) أي بفعل الطاعة على حسب الامر في الكتاب الداعي الى العدل والاحسان (أحسنتم لانفسكم) اي لان ثوابها لها (وان أسأتم) بارتكاب المحرمات والافساد (فلها) أي الاساءة لان وبالها عليها قال النحويون وانما قال وان أسأتم فلها للتقابل والمعنى فاليها أو فعليها كما مر مع ان حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها بان ربك أوحى لها أي اليها * (تنبيه) * قال أهل الاشارات هذه الآية تدل على ان رحمة الله غالبة على غضبه بدليل أنه تعالى لما حكى عنهم الاحسان ذكره مرتين فقال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال تعالى وان أسأتم فلها ولولا ان جانب الرحمة غالب والالما كان كذلك ثم قال (فاذا جاء وعد الآخرة) أي ثانية في الافساد وهو الوقت الذي حدد لله الانتقام فيه (ليسوؤا) اي بعثنا عليكم عبادا لنا ليسوؤا (وجوهكم) اي يجعل آثار الاساءة بائنة فيها وحذف متعلق اللام لدلالة الاول عليه وقرأ الكسائي بعد اللام بنون مفتوحة على التوحيد والضمير فيه لله والباقون بالياء مفتوحة وأما الهمزة التي بعد الواو التي بعد السين فقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وحفص بضم الهمزة ومدها والباقون بفتح الهمزة ولامد وقوله تعالى (وليدخلوا المسجد) عطف على ليسوؤا والمراد بالمسجد الاقصى الذي سقناكم اليه من مصر في تلك المدد الطوال وأعطيناكم بلاده بالتدريج وجعلناه محل عزكم وأمنكم ثم جعلناه محلا لاكرام أشرف خلقنا بالاسراء به اليه وجمع أرواح النبيين كلهم فيه وصلاته بهم وهذا تعريض بتهديد قريش بانهم ان لم يرجعوا بدل الله أمنهم في الحرم خوفا وعزهم ذلا وأدخل عليهم جنود الا قبل لهم بها وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل اكرام لا اهانة ببركة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (كما دخلوه) اي الاعداء (أول مرة) بالسيف وبقهروا جميع جنودكم دفعة واحدة (وليتبروا) أي يهلكوا ويدمروا مع التقطيع والتفريق (ما علوا) أي عليه من ذلك وقيل ما مصدرية أي مدة علوهم (تتبيرا) أي اهلا كما قال الزجاج وكل شئ جعلته مكسرا مفتتا فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره ومنه قوله تعالى ان هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال الرازي وهذه المرة الاخيرة هي اقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام قال البيضاوي وذلك بان سلط عليهم الفرس مرة اخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه حردون وقيل بردوس قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم جمع قربان فوجد فيه دما يغلي فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ماصدقتموني فقتل عليه الوفا منهم فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقوني ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم ثم قال يا يحيى اي خطايا بالدمه

هم غافلون عن أكثر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد (قوله اذ اذا كنا عظاما ورفاتا الآية) أعادها بعينها آخر السورة وليس تكرارا لان الاولى من كلامهم في الدنيا حين أنكروا

قوله والالما كذا بالنسخ والمناسب حذف والا اه مصح

قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله قبل أن لا يبقى أحد منهم فهدأ أي سكن وقال الواحدي فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه اليه فسبى بني اسرائيل وخرب بيت المقدس قال الرازي أقوال التواريخ تشهد ان بختنصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود ملك الروم يقال له قسطنطين الملك والله أعلم بأحوالهم ولا يتعلق غرض من اغراض تفسير القرآن بمعرفة اعيان هؤلاء الاقوام انتهى * ولما انقضى ذلك كان كأنه قيل هل بقي لهم نصرة على عدوهم فقال تعالى (عسى ربكم أن يرحمكم) يا بني اسرائيل بعد انتقامه منكم فترد الدولة اليكم ثم بعد أن أطمعهم فزعهم بقوله تعالى (وان عدتم) أي الى المعصية (عدنا) أي الى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى قال القفال انما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الاعراف خبرا عن بني اسرائيل واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ثم قال وانهم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والانجيل فعاد الله تعالى عليهم بالتعذيب على أيدي العرب فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ثم الباقي منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى (وجعلنا) أي بعد ذلك بعظمتنا (جهنم) أي التي تلقى داخلها بالتجهم والكراهة (للكافرين) وذكر الوصف الظاهر موضع الضمير لبيان تعلق الحكم به على سبيل الرسوخ سواء في ذلك هم وغيرهم وقوله تعالى (حصيرا) يحتمل أن يكون فعيلا بمعنى الفاعل أي جعلنا جهنم حاصرا لهم ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول أي جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى ان عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا انه قد يتفلت بعض الناس عنه والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص منه اما بالموت واما بطريق آخر وأما عذاب الآخرة فانه يكون حاصرا للانسان محيطا به لا رجاء في الخلاص عنه فهؤلاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدا * ولما بين سبحانه وتعالى كتاب موسى عليه السلام الذي أنزل عليه فيما بين مصر وبيت المقدس في تلك المدة المتطاولة وجعله هدى لبني اسرائيل صادق الوعد والوعيد بين تعالى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه منه في سبب مسيره اليه في ذلك ووصفه بثلاثة أنواع من الصفات الاولى قوله تعالى (ان هذا القرآن) أي الجامع لكل حق والفارق بين كل ملتبس (يهدي للتي) أي الى الطريق التي (هي أقوم) أي أصوب من كل طريق فقوله تعالى للتي هي أقوم نعت لموصوف محذوف كما تقرر ويصح أن يقدر الملة والشريعة أي يهدي الى الملة والشريعة التي هي أقوم الملل والشرائع ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله تعالى ادفع بالتي هي أحسن وقيل الى الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا اله الا الله * (تنبيه) * لفظ أفعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله أكبر أي الله الكبير وكقولنا الاشج والناقص أعدلا بني مروان فأقوم يحتمل أن يكون كذلك وأن يبقى على ظاهره * الصفة الثانية قوله تعالى (ويبشر المؤمنين) أي الراسخين في هذا الوصف ولهذا قيدهم بيانا لهم بقوله (الذين) أي يصدقون ايمانهم بأنهم (يعملون) أي على

البعث والثانية من كلام الله حين جازاهم على كفرهم وانكارهم البعث فقال مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا الآية وقال هنا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وفي الكهف ذلك

سبيل

سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم (الصالحات) من التقوى والاحسان (أن لهم أجرا كبيرا) هو الجنة والنظر الى وجه الله تعالى وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة (فان قيل) قال هنا أجرا كبيرا وفي الكهف أجرا حسنا (أجيب) بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبل وبعد في كل منهما الصفة الثالثة قوله تعالى (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا) أي أحضرنا وهيأنا (لهم عذابا أليما) وهو النار في الآخرة وهو عطف على أن لهم أجرا كبيرا والمعنى أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم نظيره قولك بشرت زيدا بانه سيعطى وبان عدوه سيمنع (فان قيل) كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب (أجيب) بان هذا مذكور على سبيل التهكم أو انه من باب اطلاق أحد الضدين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها أو على يبشر باضمار يخبر (فان قيل) هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة (أجيب) بان أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين وبان بعضهم قال لن تمسنا النار الا أياما معدودات فهم بذلك صاروا كالمنكرين للآخرة * ولما بين سبحانه وتعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم والانسان قد يقدم على ما لا فائدة فيه بينه بقوله تعالى (ويدع الانسان بالشر) عند ضجره على نفسه وأهله وماله (دعاءه) اى مثل دعائه (بالخير) ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك روى أنه صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة أسيرا فاقبل يئن في الليل فقالت له مالك فبكى وشكا ألم القد فأرخت كتافه فهرب فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فاعلم بشأنه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يديها تتوقع أن يقطع الله تعالى يدها فندم النبي صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انما أنا بشر أغضب كما يغضبون فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له وقيل المراد النضر بن الحرث حيث قال اللهم انصر خير الحزبين اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الى آخره فاجاب الله تعالى دعاءه وضربت رقبته يوم بدر صبرا وكان بعضهم يقول ائتنا بعذاب الله وآخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل ولاعتقاد أن محمدا كاذب فيما يقول وقيل المراد أن الانسان قد يبالغ في الدعاء طالبا الشئ قد يعتقد أن خيره فيه مع أن ذلك الشئ منبع لشره وضرره وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشئ وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها كما قال تعالى (وكان الانسان) أي الجنس (عجولا) أي يسارع الى كل ما يخطر بباله ولا ينظر الى عاقبته وقيل المراد آدم عليه السلام لما انتهى الروح الى سرته ذهب لينهض فسقط *(تنبيه)* حذفت واو ويدع أي التي هي لام الفعل خطا في جميع المصاحف ولا موجب لحذفها لفظا في العربية لكنها لما كانت لا تظهر في اللفظ حذفت في الخط ونظيره قوله تعالى سندع الزبانية وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المنادى فما تغن النذر قال الفراء ولو كانت ذلك بالواو والياء لكان صوابا وقال الرازي أقول هذا يدل على انه سبحانه وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الواو والياء في أكثر ألفاظ القرآن وعدم اثباتهما في هذه المواضع المعدودة يدل على أن هذا القرآن نقل كما سمع وان أحدا لم يتصرف

جزاؤهم جهنم بما كفروا اكتفاء هنا بزيادة جهنم ولتقدم ذكر جهنم بالاشارة وهي وان تقدمت في الكهف لم يكتف بالاشارة بل جمع بينها وبين العبارة لاقتران الوعيد بالوعد

فيه بعد دار فهمه وقوة عقله * ولما بين تعالى ما أوصل من نعم الدين وهو القرآن أتبعه بما وصل
اليهم من نعم الدنيا فقال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) دالتين على تمام العلم وشمول القدرة آية
الليل كالآيات المتشابهة وآية النهار كالمحكمة فكما ان المقصود من التكليف لا يتم الا بذكر
المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يتيسر الانتفاع به الا بهاتين الآيتين (فمحونا) أي بعظمتنا
الباهرة (آية الليل) أي طمسنا نورها بالظلام لتسكنوا فيه فجعلناها لا يبصر فيها المرئيات كما
لا يبصر الكتاب اذا محي (وجعلنا) بما لنا من القدرة (آية النهار مبصرة) أي مبصرا فيها
بالضوء فلا تزال هذه الدار الناقصة في تنقل من نور الى ظلمة ومن الظلمة الى النور كما ان الانسان
بجبلته التي يدعو اليها طبعه وتأتيه الداعي اليه عقله من انتقال من نقصان الى كمال ومن كمال الى
نقصان كما ان القمر الذي هو أنقص من الشمس كذلك قال ابن عباس جعل الله نور الشمس
سبعين جزأ ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزأ فجعلها مع نور الشمس وحكى
أن الله تعالى أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي
فيه النور وسأل ابن الكوا عليا رضي الله عنه عن السواد الذي في القمر قال هو أثر المحو
(تنبيه) المراد من الآيتين بعض الليل والنهار فالاضافة للبيان أي انه تعالى جعلهما دليلين
للخلق على مصالح الدين والدنيا اما الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما
متعاقبين على الدوام وهو من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين بذاتهما بل لا بد لهما من
فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما في الدنيا فلان مصالح الدنيا لا تتم الا بالليل
والنهار فلولا الليل ما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف وقيل
الليل والنهار ظرفان والتقدير وجعلنا آيتين في الليل والنهار والمراد بالآيتين على هذا اما
الشمس والقمر واما تكوير هذا على هذا وهذا على هذا ثم ذكر تعالى بعض المنافع المرتب على
ذلك بقوله تعالى (لتبتغوا) أي تطلبوا طلبا شديدا (فضلا من ربكم) أي المحسن اليكم فيهما
بضياء هذا تارة ونور هذا أخرى (ولتعلموا) بفصل هذا عن هذا (عدد السنين والحساب) لان
الحساب يبنى على أربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين والعدد للسنين والحساب
لما دون السنين وهي الشهور والايام والساعات وبعد هذه المراتب الاربعة لا يحصل الا
التكرار كما انهم رتبوا العدد على أربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات والالوف وليس
بعدها الا التكرار ولما ذكر تعالى أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان
على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا وقد ذكر تعالى في
آيات كثيرة منافعهما كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وكقوله تعالى جعل
لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله وشرح تعالى حالهما وفصل ما فيهما من
وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك تفصيلا نافعا وتبيانا
كاملا فلا جرم قال تعالى (وكل شيء) أي لكم اليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم (فصلناه
تفصيلا) أي بيناه تبيينا وهو كقوله تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء وكقوله تعالى ونزلنا
عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وقوله تدمر كل شيء بأمر ربها وانما ذكر تعالى تفصيلا لاجل
توكيد الكلام وتقريره فكأنه قال فصلناه حقا ولما بين تعالى انه أوصل الى الخلق أصناف

بالجنات في قوله ان الذين
آمنوا وعملوا الصالحات
كانت لهم جنات الفردوس
نزلا ليكون الوعد والوعيد
ظاهرين للمستمعين (قوله
ولقد فضلنا بعض النبيين
على بعض وآتينا داود زبورا)

الاشياء النافعة لهم فى الدنيا والدين مثل آيتى الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم بوجوه النعم وذلك يقتضى وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسؤلا عن اعماله وأقواله كما قال تعالى (وكل انسان ألزمناه) أى بعظمتنا (طائره) أى عمله الذى قدرناه عليه من خير وشر لان العرب كانوا اذا أرادوا الاقدام على عمل من الاعمال وأرادوا أن يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير أو الى عمل شر اعتبروا أحوال الطير وهو انه يطير بنفسه أو يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهو يطير متيامنا أو متياسرا أو صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التى كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية الشئ باسم لازمه فقوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه أى وكل انسان ألزمناه عمله (فى عنقه) الذى هو محل التزين بالقلادة ونحوها ومحل الشين بالغل ونحوه فان كان عمله خيرا كان كالقلادة والحلى فى العنق وهذا مما يزينه وان كان عمله شرا كان كالغل فى عنقه وهو مما يشينه وقال مجاهد ما من مولود يولد الا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد قال الرازى والتحقيق فى هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والفهم والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك المقدار وأن ينصرف عنه بل لا بد وأن يصل اليه ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدرة كانها تطير اليه وتصير اليه فلهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله تعالى ألزمناه طائره فى عنقه كناية عن كل ما قدره الله ومعنى فى عنقه حصوله له فهو لازم له واصل اليه غير منصرف عنه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة انتهى ملخصا ثم قال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا) أى مكتوبا فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فاما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة وقوله تعالى (يلقاه منشورا) صفتان لكتابا وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف على البناء للمفعول من لقيته كذا أى استقبلته به والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف وأمال الالف بعد القاف حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ثم انه اذا لقى كتابه يوم القيامة يوم العرض قيل له (اقرأ كتابك) أى بنفسك (كفى بنفسك اليوم) الذى تكشف فيه المستور وتظهر جميع الامور (عليك حسيبا) أى حاسبا بليغا فانك تعطى القدرة على قراءته أميا كنت أو قارئا ولا ترى فيه زيادة ولا نقصا ولو لا تقدر أن تنكر منه حرفا وان أنكره لسانك شهدت عليك اركانك فيا لها من قدرة باهرة وقوة قاهرة ونصفة ظاهرة قال الحسن عدل والله فى حقك من جعلك حسيب نفسك وقال السدى يقول الكافر يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلنى أحاسب نفسى فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (فان قيل) قد قال تعالى وكفى بنا حاسبين فكيف الجمع فى ذلك (أجيب) بان المراد بالحسيب هنا الشهيد أى كفى بنفسك اليوم شاهدا

(ان قلت) لم خص داود بالذكر (قلت) لانه اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الانبياء وهو الرسالة والكتابة والخطابة والخلافة والملك والقضاء فى زمن واحد قال تعالى وشددنا ملكه الآية

عليك أو ان القيامة مواقف مختلفة ففي موقف يكل الله تعالى حسابهم الى أنفسهم وعلمه محيط بهم وفي آخر يحاسبهم هو وقوله تعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) لان ثواب اهتدائه له لا ينجى غيره (ومن ضل فانما يضل عليها) أى اثمه عليها فلا يضر في ضلاله سواه كما قال الكلبي دلالة على ان العبد متمكن من الخير والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه أصلا لان قوله تعالى من اهتدى الى آخره انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد أما المجبور على احد الطرفين الممنوع عن الطرف الثانى فهذا لا يليق به هذا مذهب أهل السنة والجماعة فاتبعه ترشد ثم انه تعالى أعاد تقرير أن كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله تعالى (ولا تزر) أى نفس (وازرة) أى آثمة أى لا تحمل (وزر) نفس (أخرى) بل انما تحمل وزرها فقط (فان قيل) ورد أن المظلوم يأخذ من حسنات الظالم فاذا لم يوف يؤخذ من سيآت المظلوم وتطرح على الظالم (أجيب) بأن ذلك بسببه فهو كفعله (فان قيل) قد ورد أن الميت يعذب ببكاء أهله (أجيب) بأن ذلك محمول على ما اذا أوصى بذلك وكان ذلك الفعل كقول طرفة بن العبد

اذا مت فانعيني بما أنا أهله • وشقي على الجيب يا ابنة معبد

وعليه حمل الجمهور الاخبار الواردة بتعذيب الميت على ذلك (فان قيل) ذنب الميت فيما اذا أوصى أو أمر بذلك فلا يختلف عذابه بامتثالهم وعدمه (أجيب) بأن الذنب على السبب يعظم بوجود المسبب وشاهده من سن سنة سيئة الخ وقال الشيخ أبو حامد ان ما ذكر محمول على الكافر وغيره من أهل الذنوب ثم قال تعالى (وما كنا) أى على مالنا من القدرة (معذبين) أحدا (حتى نبعث رسولا) يبين له ما يجب عليه فمن بلغته دعوته فخالف أمره واستكبر عن اتباعه عذبناه بما يستحقه وهذا أمر قد تحقق بارسال آدم عليه السلام ومن بعده من الانبياء الكرام عليهم السلام في جميع الامم قال تعالى ولقد أرسلنا في كل أمة رسولا وقال تعالى وان من أمة الا خلا فيها نذير فان دعوتهم الى الله تعالى قد انتشرت وعمت الاقطار واشتهرت (فان قيل) الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسول لان معهم أدلة العقل التى بها يعرف الله تعالى وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه واستحقاقهم العذاب لاغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا لاغفال الشرائع التى لا سبيل اليها الا بالتوقيف والعمل بها لا يصح الا بعد الايمان (أجيب) بان بعثة الرسول من جملة التنبيه على النظر والايقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا انا كنا عن هذا غافلين فهلا بعثت الينا رسولا ينبهنا على النظر في أدلة العقل وفي الآية دليل على أن لا وجوب قبل الشرع •(فائدة)• في حكم أهل الفترتين بين نوح وادريس وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة عشر قسما ستة سعداء وأربعة أشقياء وثلاثة تحت المشيئة • فاما السعداء فقسم وحد الله تعالى بنور وجده في قلبه كقس بن ساعدة فانه كان يقول اذا سئل هل لهذا العالم اله البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام يدل على المسير وقسم وحد الله تعالى بما تجلى لقلبه من النور الذى لا يقدر على دفعه وقسم ألقى في نفسه واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به في عالم الغيب وقسم اتبع ملة حق ممن تقدمه وقسم طالع في كتب الانبياء فعرف شرف محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به وقسم آمن بنبيه الذى أرسل اليه وأدرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به فله أجران معا وأما الاشقياء فقسم عطل لا عن نظر بل عن تقليد

وقسم

وقال يا داود انا جعلناك خليفة في الارض الآية (ان قلت) لم ذكر الزبور هنا وعرفه في قوله ولقد كتبنا في الزبور (قلت) يجوز أن يكون الزبور من الاعلام التى تستعمل بال وبدونها

وقسم عطل بعدما أثبت لا عن استقصاء بنظر وقسم أشرك عن تقليد محض وقسم علم الحق وعانده * واما الذى تحت المشيئة فقسم عطل فلم يقر بوجوده عن نظر قاصر لضعف فى مزاجه وقسم أشرك عن نظر أخطأ فيه وقسم عطل بعدما أثبت لا عن نظر بلغ فيه أقصى القوة هكذا قسم محيي الدين بن عربي فى الباب العاشر من الفتوحات المكية نقل ذلك عنه شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ونقل عن السيوطى ان أبوى النبى صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجيا ولا يعذب ويدخل الجنة قال وهذا مذهب لا خلاف فيه بين المحققين من أئمتنا الشافعية فى الفقه والاشاعرة فى الاصول ونص على ذلك الامام الشافعى رضى الله عنه وتبعه على ذلك الاصحاب قال السيوطى وقد ورد فى الحديث أن الله تعالى أحيا أبويه حتى آمنا به وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادى وأبو القاسم بن عساكر وأبو حفص بن شاهين والسهيلى والقرطبى والطبرى وابن المنير وابن سيد الناس وابن ناصر الدين الدمشقى والصفدى وغيرهم والاولى لنا الامساك عن ذلك فان الله تعالى لم يكلفنا بذلك ونكل الامر فى ذلك الى الله تعالى ونقول كما قال النووى لما سئل عن طائفة ابن عربى تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون * ولما أشار تعالى الى عذاب المخالفين قرر أسبابه وعرف أنها بقدره وان قدره لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى (واذا أردنا) أن نحيي قرية الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة ألقينا فى قلوب أهلها امتثال أوامرنا والتقييد باتباع رسلنا واذا أردنا (ان نهلك قرية) فى الزمن المستقبل (أمرنا) أى بعالنا من القدرة التامة الشاملة (مترفيها) أى منعميها الذين لهم الامر والنهى قال الاكثرون أمرهم الله تعالى بالطاعة والخير على لسان رسله (ففسقوا فيها) أى خرجوا عن طاعة الله ورسوله وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون الا أن هذا مجاز ومعناه أنه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضى ما ذكرناه ان المأمور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه الا أن المأمور به قيام وقراءة فكذا هنا لما قال أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصانى وخالفنى فان هذا كلام لا يفهم منه أنى أمرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فيكون كونها مأمورا بها مخالفة فلهذه الضرورة تركنا هذا الظاهر انتهى قال الرازى ولقائل أن يقول كما أن قوله أمرته فعصانى يدل على أن المأمور به شئ غير المعصية من حيث ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فكذلك قوله أمرته ففسق يدل على ان المأمور به غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان به فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به كما أن كونه معصية ينافى كونها مأمورا بها فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق وهذا الكلام فى غاية الظهور فلم أدرلم أصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت أن الحق ما ذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالاعمال الصالحة وهى الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا وأقدموا على الفسق (فحق عليها القول) أى الذى توعدناهم به على

كالعباس والفضل أو نكره هنا بمعنى آتيناه بعض الزبور وهى الكتب أو أراد به ما فيه ذكر النبى صلى الله عليه وسلم من الزبور فسمى بعض الزبور زبورا كما سمى بعض القرآن قرآنا فى قوله تعالى

لسان رسولنا (فدمرناها تدميرا) أى أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم وخص
المترفين بالذكر لأن غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع الى الحماقة وأقدر على الفجور وقيل معناه كثرنا
وروى الطبرانى وغيره حديثا خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج والسكة
بكسر السين وتشديد الكاف الطريقة المصطفة من النخل والمأبورة الملقحة قال ذلك الجوهرى
وروى أن رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى أرى أمرك هذا حقيرا
فقال صلى الله عليه وسلم انه سيأمر أى سيكثر ويكبر وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى
الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد
اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بين اصبعيه الابهام والتى تليها
قالت زينب قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث أى الشر والويل
يقال لمن وقع فى مهلكة أو أشرف أن يقع فيها وقوله تعالى (وكم أهلكنا) أى عما لنا من العظمة
و بين مدلول كم بقوله تعالى (من القرون) أى المكذبين (من بعد نوح) كعاد وثمود من الامم
الماضية يخوف به الكفار أى كفار مكة قال عبد الله بن أبى أوفى القرن عشرون ومائة سنة
وقيل مائة سنة وروى عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازنى ان النبى صلى الله عليه وسلم
وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم مازلنا نعد له حتى تمت له
مائة سنة ثم مات وقال الكلبى القرن ثمانون سنة وقيل أربعون ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى
الله عليه وسلم (وكفى بربك) أى المحسن اليك (بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أى عالما بيواطنها
وظواهرها فكم من انسان كنتم ترونه من أكابر الصالحين ثم استقرت عاقبته على خلاف ذلك
وكم من شخص ترونه مجتهدا فى العبادة فاذا خلا بارز ربه بالعظائم وتقديم الخبير لتقديم متعلقه
ولما قرر أنه سبحانه وتعالى عالم ببواطن عباده وظواهرهم قسمهم الى قسمين الاول قوله تعالى
(من كان يريد العاجلة) أى الدنيا مقصورا عليها همه (عجلنا له فيها) أى العاجلة بأن نفيض
عليه من منافعها (ما نشاء) أى من البسط والتقتير (لمن نريد) أى ان نفعل به ذلك فقيد تعالى
الامر بقيدين أحدهما تقييد المعجل بارادته ومشيئته والثانى تقييد المعجل له بارادته وهكذا
الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضا منه وكثير منهم يتمنون ذلك
البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة * (تنبيه) * لمن نريد بدل بعض من
كل من الضمير فى له باعادة العامل تقديره لمن نريد تعجيله له ويقال ان الآية فى المنافقين كانوا
يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها وهذا هو
المناسب لقوله تعالى (ثم جعلنا له جهنم يصلاها) أى فى الآخرة (مذموما) أى مفعولا به الذم
(مدحورا) أى مدفوعا مطرودا مبعدا وان ذكره البيضاوى بصيغة قيل * ثم ذكر تعالى القسم
الثانى وشرط فيه ثلاثة شروط الاول قوله تعالى (ومن أراد الآخرة) أى أراد بعمله ثواب
الآخرة فانه ان لم ينو ذلك لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وقوله
صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات الثانى قوله تعالى (وسعى لها سعيها) وذلك يقتضى أن
يكون ذلك العمل من باب القرب والطاعات وكثير من الضلال يتقربون بعبادة الاوثان ولهم
فيها تأويلات أحدها انهم يقولون اله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على اظهار

(قوله قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) وهو آخر ما في قسمناه قاله هنا بالضمير لقرب مرجعه وهو الرب فى قوله وربك اعلم وقال فى سبا قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله بالاسم الظاهر لبعد مرجع

عبوديته

عبوديته وخدمته ولكن غاية قدرتنا أن نشتغل بعبادة بعض المقربين من عباد الله بأن نشتغل بعبادة كوكب أو ملك من الملائكة ثم ان الملك أو الكوكب يشتغل بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق وهذه طريقة فاسدة فلا جرم أنه لم ينتفع بها ثانيها انهم قالوا اتخذنا هذه التماثيل على صورة الانبياء والاولياء والمراد من عبادتها أن تصير تلك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله وهذا الطريق أيضا فاسد فلا جرم لم ينتفع بها ثالثها أنه نقل عن أهل الهند أنهم يتقربون الى الله تعالى بقتل أنفسهم تارة وباحراق أنفسهم أخرى وهذه الطريقة أيضا فاسدة فلا جرم لم ينتفع بها وكذا القول في جميع الفرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة الثالث قوله تعالى (وهو مؤمن) لان الشرط في كون أعمال البر مقتضية للثواب هو الايمان فان لم يوجد لم يحصل المشروط وعن بعض المتقدمين من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية ثم انه تعالى أخبر عند وجود هذه الشروط بقوله تعالى (فأولئك) أى الجامعون للشرائط الثلاثة (كان سعيهم مشكورا) أى مقبولا مثابا عليه بالتضعيف وبعضهم يفتح له أبواب الدنيا مع ذلك كداود وسليمان عليهما السلام ويستعمله فيها بما فيه مرضاة الله تعالى وبعضهم يزويها عنه كرامة له لا هوانا به فربما كان الفقر خيرا له وأعون على مراده فالحاصل أنها ان وجدت عند الولى لم تشرفه وان عدمت عنه لم تحقره وانما التشريف وغيره عند الله تعالى بالاعمال

(تنبيه) كل من أتى بفعل اما أن يقصد به تحصيل خيرات الدنيا واما أن يقصد به خيرات الآخرة واما أن يقصد به مجموعهما واما أن لا يقصد به واحدا منهما فان قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط فالله ذكر حكم هذين القسمين في هذه الآية وأما القسم الثالث فينقسم الى ثلاثة أقسام اما أن يكون طلب الآخرة راجحا أو مرجوحا أو يكون الطلبان متعادلين فان كان طلب الآخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه رأيان أحدهما أنه غير مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى أنه قال أنا أغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه وأيضا طلب رضوان الله اما أن يكون سببا مستقلا لكونه باعثا لهم على ذلك الفعل وداعيا اليه واما أن لا يكون فان كان الاول امتنع أن يكون لغيره مدخل فى ذلك البعث والدعاء لان الحكم اذا أسند الى سبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثانى فيكون الداعى الى ذلك الفعل هو المجموع وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله لان المجموع الحاصل من الشئ ومن غيره يجب أن يكون مغايرا لطلب رضوان الله فوجب أن لا يكون مقبولا الرأى الثانى أنه مقبول لان طلب الآخرة لما كان راجحا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولا وأما اذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين أو كان طلب الدنيا راجحا فقد اتفقوا على أنه غير مقبول الا أنه على كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة وأما القسم الرابع وهو الاقدام على الفعل من غير داع فهذا مبنى على أن صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعى أم لا فالذين يقولون انه يتوقف على حصول الداعى قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا لا يتوقف قالوا هذا

الضمير لواتى به والمراد فيهما قل ادعوا الذين زعمتم آلهة من دون الله أى غيره لينفعوكم بزعمكم (فان قلت) كيف قال من دونه مع ان المشركين ما زعموا غير الله العابدون

الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لأنه عبث * ثم إنه تعالى قال (كلا) أي من الفريقين مريد الدنيا ومريد الآخرة (نمد) أي بالعطاء ثم أبدل من كلا قوله تعالى (هؤلاء) أي الذين طلبوا الدنيا نمد (وهؤلاء) أي الذين طلبوا الآخرة نمد (من عطاء ربك) أي المحسن إليك إن ضيق على مؤمن فبالحماية من الدنيا الفانية التي إنما هي لعب ولهو وإن وسع فبالاستعمال فيها على حسب ما يرضيه (وما كان عطاء ربك) أي الموجد لك المدبر لأمرك (محظورا) أي ممنوعا في الدنيا عن مؤمن ولا كافر بل هو ملء السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس والجواهر والأنهار وأقوات الناس والبهائم وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه ليلا ونهارا ولم يكن لهم شغل سوى ذلك لأعياهم ولم يقدروا عليه فسبحان الجواد المعطي المانع ثم إنه تعالى أمر بالنظر في عطائه هذا على وجه مرغب في الآخرة مزهد في الدنيا بقوله تعالى (انظر) أي أيها الإنسان أو يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فأوسعنا على مؤمن وقترنا على مؤمن آخر وأوسعنا على كافر وقترنا على كافر آخر وبين سبحانه وتعالى وجه الحكمة في التفاوت في سورة الزخرف بقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات الآية وقال تعالى في آخر سورة الأنعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات * (تنبيه) * كيف نصب إما على التشبيه بالظرف وإما على الحال وهي معلقة لانظر بمعنى فكر أو أبصر ولما نبه تعالى على أن ما نراه من التفضيل إنما هو ببعض قدرته أخبر أن ما بعد الموت كذلك بقوله تعالى (وللآخرة أكبر) أي أعظم (درجات وأكبر تفضيلا) من درجات الدنيا ومن تفضيلها فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا فإن كان الإنسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب الآخرة أحرى لأنها دار المقامة روي أن قوما من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله تعالى عنه فخرج الإذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو إنما أوتينا من قبلنا إنهم دعوا ودعينا يعني إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة * ولما بين تعالى أن الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العذاب ومنهم من يريد طاعة الله وهم أهل الثواب ثم شرط في ذلك ثلاثة شروط فصل تلك المجملات وبدأ أولا بشرح حقيقة الإيمان وأشرف أجزاء الإيمان هو التوحيد ونفي الشريك والأضداد بقوله تعالى (لا تجعل مع الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (إلها آخر) قيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره والأولى أنه للإنسان فيكون خطابا عاما لكل من يصلح أن يخاطب به (فتقعد) أي فيتسبب عن ذلك أن تقعد أي تصير في الدنيا بل الآخرة (مذموما مخذولا) لأن المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان ولأنه قد ثبت بالدليل أنه لا إله ولا مدبر إلا الله تعالى فحينئذ تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم إلى غير الله فاستحق الذم والخذلان * (تنبيه) * قال الواحدي قوله تعالى فتقعد انتصب لأنه وقع بعد الفاء جوابا للنهي وانتصابه بإضمار أن كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك والتقدير لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء وإنما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء وأن الثاني

الله بل مع الله على وجه
الشرك (قلت) في الكلام
تقديم وتأخير تقديره قل
ادعوا الذين من دون الله
زعمتم أنهم شركاؤكم قوله وما
منعنا أن نرسل بالآيات إلا
أن كذب بها الأولون) أي

مسبب عن الاول كما تقرر * ولما ذكر تعالى ما هو الركن الاعظم في الايمان أتبعه بذكر ما هو من شعائر الايمان وشرائعه وذلك أنواع الاول أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى ويحترز عن عبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى (وقضى) أى أمر (ربك) أى المحسن اليك وقوله تعالى (ألا تعبدوا) أى أنت وجميع أهل دعوتك وهم جميع الناس (الا اياه) فيه وجوب عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله تعالى فكان هو المستحق للعبادة لا غيره * (تنبيه) * روى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية كان الاصل ووصى ربك فالتصقت احدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لان خلاف قضاء الله ممتنع وهذا القول كما قاله الرازي بعيد جدا اذ لو فتح هذا الباب لارتفع الامان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم في الدين ويندفع ما قاله بما فسر قضى به * ولما أمر تعالى بعبادة نفسه أتبعه بالامر ببر الوالدين بقوله تعالى (وبالوالدين) أى وأحسنوا أى وأوقعوا الاحسان بهما (احسانا) أى بان تبروهما ليكون الله معكم فانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون * (تنبيهان) * أحدهما المناسبة بين الامر بعبادة الله تعالى والامر ببر الوالدين من وجوه الاول أن السبب الحقيقي لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهر هو الابوان فامر الله تعالى بتعظيم السبب الحقيقي ثم أتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهري الثاني ان الموجود اما قديم واما محدث ويجب أن تكون معاملة الانسان مع الموجود القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله واحق الخلق بالشفقة الابوان لكثرة انعامهما على الانسان فقوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وقوله تعالى وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة على خلق الله الثالث ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى وقد يكون بعض المخلوقين منعما عليك وشكره ايضا واجب لقوله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس لاحد من الخلائق نعمة على الانسان مثل الابوين لان الولد قطعة من الوالدين قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني وأيضا شفقة الوالدين على الولد عظيمة وايصال الخير الى الولد منهما أمر طبيعي واحترازهما عن ايصال الضرر اليه أمر طبيعي أيضا فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة بل هي أكبر من كل نعمة تصل من الانسان الى الانسان وأيضا حال ما يكون الانسان في غاية الضعف ونهاية العجز يكون انعام الابوين في ذلك الوقت واصلا الى الولد واذا وقع الانعام على هذا الوجه كان موقعه عظيما وأيضا فايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فكان الانعام فيه أتم وأكمل فثبت بهذه الوجوه أنه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فلهذا بدأ الله بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله تعالى وبالوالدين احسانا (فان قيل) الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لانفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود دون خوله

وما منعنا ان نرسل وسولا بالآيات التى اقترحها أهل مكة على النبى صلى الله عليه وسلم كجعل الصفا ذهبا وازالة جبال مكة الا تكذيب الاولين ابزرعوها بها أى بالآيات اقترحوها

فى عالم الآفات والمخافات فأى انعام للابوين على الولد حتى ان بعض المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول هو الذى أدخلنى فى عالم الكون والفساد وعرضنى للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لابى العلاء المعرى ماذا نكتب على قبرك فقال اكتبوا على قبرى هذا جناية أبى على وما جنيت على أحد وقال فى ترك التزوج والولد

وتركت فيهم نعمة العدم التى • فيهم لقد سبقت نعيم العاجل
ولو أنهم ولدوا لعانوا شدة • ترمى بهم فى موبقات الآجل

وقيل لاسكندر استاذك أعظم منة عليك أم والدك فقال أستاذى أعظم منة لانه تحمل أنواع الشدائد عند تعليمى فأوقعنى فى نور العلم وأما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فأخرجنى الى آفات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المأثورة المشهورة خير الآباء من علمك (أجيب) بانه وان كان فى أول الامر طلب لذة الوقاع الا أن الاهتمام بايصال الخيرات اليه ودفع الآفات عنه من أول دخوله فى الوجود الى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يصل اليه من جهات الخيرات والمبرات فسقطت تلك الشبهات (التنبيه الثانى) ان لفظ الآية يدل على معان كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة فى الاحسان الى الوالدين منها أنه تعالى قال فى الآية المتقدمة ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ثم أردفه بهذه الآية المشتملة على الاعمال التى بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة وجعل من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التى تفيد سعادة الآخرة ومنها انه تعالى بدأ بذكر الامر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث ببر الوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة فى تعظيم هذه الطاعة ومنها انه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام بهما ومنها انه تعالى قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم اى احسانا عظيما كاملا لان احسانهما اليك قد بلغ الغاية العظيمة فوجب أن يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات لا تحصل المكافأة لان انعامهما عليك على سبيل الابتداء وفى الامثال المشهورة ان البادئ بالبر لا يكافأ ولما كان سبحانه وتعالى عالما بما فى الطباع من ملال الولد لهما عند أخذهما فى السن قال تعالى (اما) مؤكدا بادخال ما على ان الشرطية لزيادة التقرير لمعنى اهتماما بشأن الوالدين (يبلغن عندك الكبر) أى كأن يضطرا اليك فى حالة الضعف والعجز فلا يكون لهما كافل غيرك فيصيرا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله (أحدهما أو كلاهما) وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الغين وكسر النون فالالف ضمير الوالدين لتقدم ذكرهما وأحدهما بدل منه وكلاهما عطف عليه فاعلا أو بدلا (فان قيل) هلا كان كلاهما توكيدا لا بدلا (أجيب) بانه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدا لاثنين فوجب أن يكون مثله (فان قيل) لم لا يجوز أن يكون أحدهما بدلا وكلاهما توكيدا ويكون ذلك عطفا للتوكيد على البدل (أجيب) بان العطف يقتضى المشاركة فجعل أحدهما بدلا والآخر توكيدا خلاف الاصل وقرأ الباقون بغير ألف وفتح النون والاعراب على هذا ظاهر وجميع القراء يشددون النون ثم انه تعالى أمر الانسان فى حق والديه بخمسة أشياء الاول منها قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) أى

قوله هذا جناية أبى الخ الذى فى ابن خلكان انه بيت شعر وهو
هذا جناه أبى على • وما جنيت على احد
اه مصححه

على رسلهم لما أرسلناها فأهلكناهم ولو أرسلناها الى هؤلاء لكذبوا بها واستحقوا الهلاك وقد حكمنا بامهالهم ليتم أمر النبى صلى الله عليه وسلم ولا نعجل بالعقوبة (فان قلت)

لا

لا تضجر منهما قال الزجاج أف معناه النتن وهذا قول مجاهد لانه قال معنى قوله فلا تقل لهما أف أى لا تتقذرهما كما انهما كانا لا يتقذران منك حين كنت تخرأ وتبول وفى رواية اخرى عن مجاهد اذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف فلقد بالغ سبحانه وتعالى بالوصية بهما حيث شفع الاحسان اليهما بتوحيده ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الامر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى ادنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ومع احوال لا يكاد يدخل صبر الانسان معها فى الاستطاعة وقد قال صلى الله عليه وسلم اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة يوجد ريحها من مسيرة الف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء ان الكبرياء لله رب العالمين وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال لا يقوم الى خدمتهما عن كسل وقرأ نافع وحفص بالتنوين فى الفاء مع الكسر وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين الثانى قوله تعالى (ولا تنهرهما) اى لا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى واما السائل فلا تنهر (فان قيل) المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بالاولى فما فائدة ذكره (اجيب) بان المراد بالمنع من التأفيف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع الانتهار المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما الثالث قوله تعالى (وقل لهما قولا كريما) اى حسنا جميلا طيبا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو ان يقول يا ابتاه يا اماه وسئل سعيد بن المسيب رضى الله عنه عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ وعن عطاء انه قال هو ان يتكلم معهما بشرط أن لا يرفع اليهما بصره ولا يشتد اليهما نظره وذلك أن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم (فان قيل) ابراهيم الخليل عليه السلام قال لابيه انى أراك وقومك فى ضلال مبين مع انه عليه السلام من أعظم الناس أدبا وحلما وكرما (أجيب) بأن حق الله تعالى مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم عليه السلام على ذلك الايذاء انما كان تقديما لحق الله تعالى والرابع قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أى لا من أجل الامتثال للامر وخوف العار فقط بل من أجل الرحمة بهما بان لا تزال تذكر نفسك بالاوامر والنواهى وبما تقدم لهما من الاحسان اليك والمقصود المبالغة فى التواضع وهذه استعارة بليغة قال القفال وفى تقريره وجهان الاول ان الطائر اذا أراد ضم فرخه اليه للتربية خفض له جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية فكأنه قال للولد اكفل والديك بان تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك والثانى أن الطائر اذا أراد الطيران نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع واذا أراد ترك الطيران خفض جناحيه فجعل خفض الجناح كناية عن التواضع واللين (فان قيل) كيف أضاف الجناح الى الذل والذل لا جناح له (أجيب) بوجهين الاول أنه أضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذا هنا المراد اخفض لهما جناحك الذليل الثانى أن مدار الاستعارة على الخيلات فهنا تخيل للذل جناحا خفيضا كما جعل لبيد للشمال يدا وللقرة زماما فى قوله

كيف قال وما منعنا الى آخره مع انه تعالى لا يمنعه عن ارادته مانع (قلت) المنع هنا مجاز عن الترك كانه قال وما سبب ترك الارسال بالآيات الا تكذيب الاولين (قوله وآتينا ثمود

وغداة ريح قد كشفت وقرة ❊ اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فاثبت للشمال يدا وللقرة زماما ووضع زمامها فى يد الشمال فكذا هنا ومن ظريف ما حكى أن أبا تمام لما نظم قوله

لا تسقنى ماء الملام فاننى ❊ صب قد استعذبت ماء بكائى

جاءه رجل بقصعة وقال له أعطنى شيأ من ماء الملام فقال له حتى تأتينى بريشة من جناح الذل يريد أن هذا مجاز استعارة كذلك وقال بعضهم

واشوا جناحى ثم بلوه بالندى ❊ فلم أستطع من حبهم أن أطيرا

الخامس قوله تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى لا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لها وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك هذا اذا كانا مسلمين فان كانا كافرين فان الدعاء لهما بالرحمة منسوخ بقوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى بل يدعو الله تعالى لهما بالهداية والارشاد فاذا هداهما فقد رحمهما وسئل بعضهم عن بر الوالدين فقال لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أوداثهما من بعدهما لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه ❊(تنبيه)❊ قد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها ما روى عن أبى هريرة أنه قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحسن الناس بصحبتى فقال أمك ثم أمك ثم أباك ثم أباك ثم أدناك فادناك ٣ ومنها عنه أيضا أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه قيل من يا رسول الله قال من ادرك والديه أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة ومنها ما روى عنه أيضا انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزى ولد والده الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ومنها ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص انه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد فقال أحى والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد ومنها ما رواه الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين ومنها ما روى عن أبى الدرداء أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فاحفظ ان شئت أو ضيع ومنها ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه انه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب الى الله تعالى قال الصلاة على وقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال ذلك تواصل اليه ولا شئ أنفع لهم من الاستغفار ولو كان شئ أفضل منه لأمركم به فى الوالدين ولقد كرر الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز الوصية بالوالدين ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب ان البار بوالديه لا يموت ميتة سوء ومنها ما روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيتهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما ومنها ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

(الناقة مبصرة) أى دالة كما يقال الدليل مرشد وهاد (فان قلت) ما وجه ارتباط هذا بما قبله (قلت) لما أخبر بان الاولين كذبوا بالآيات المقترحة عين منها ناقة صالح لان آثار ديارهم

٣ قوله من أحسن الناس الخ هكذا بالاصول التى بايدينا والذى فى صحيح مسلم من أحق الناس بحسن الصحبة قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك وذكر روايات أخرى ليس منها هذه الرواية فليحرر لفظ الحديث اهـ مصححه

قوله أنفع لهم هكذا فى الاصول ولو جرى على ما قبله لافرد ولعله راجع الى الاموات المفهومين من الميت اهـ

رغم انف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم أنف رجل أدرك أبويه الكبر فلم يدخلاه الجنة ومنها ماروي ان رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وانه يأخذ ماله فدعاه فاذا هو شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال انه كان ضعيفا وانا قوي وفقيرا وانا غني فكنت لا امنعه شيأ من مالي واليوم انا ضعيف وهو قوي وانا فقير وهو غني ويبخل علي بماله فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مامن حجر ولا مدر يسمع بهذا الا بكى ثم قال للولد انت ومالك لابيك وشكا اليه آخر سوء خلق امه فقال لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة اشهر قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين ارضعتك حولين قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها واظمأت لك نهارها قال لقد جازيتها قال مافعلت قال حججت بها على عنقي قال ماجزيتها وعن ابن عمر انه رأى رجلا في الطواف يحمل امه ويقول

انا لها مطية لاتذعر ● اذا الركائب نفرت لاتنفر
ماحملت وارضعتني اكثر ● الله ربي ذو الجلال الاكبر

تظنني جزيتها يا ابن عمر قال لا والله ولا زفرة واحدة ● ولما كان ماذكر في حق الوالدين عسرا جدا يحذر من التهاون به اشار بقوله تعالى (ربكم) اى المحسن اليكم في الحقيقة فانه هو الذي عطف عليكم من يربيكم وهو الذي اعانهم على ذلك (اعلم) اى من كل احد (بما في نفوسكم) من قصد البر بهما وغيره فلا يظهر احدكم غير مايبطن فان ذلك لا ينفعه ولا ينجيه الا ان يحمل نفسه على مايكون سببا لرحمتهما (ان تكونوا صالحين) اى متقين محسنين في نفس الامر والصلاح استقامة الفعل على مايدعو الدليل اليه ● واشار تعالى الى انه لايكون ذلك الا بمجاهدة النفس وترجيعها كرة بعد كرة بقوله تعالى (فانه كان للاوابين) اى الرجاعين الى الخير مرة اثر مرة بعد جماح أنفسهم عنه (غفورا) اى بالغ الستر لمن وقع منه تقصير فرجع عنه فانه مغفور له ● ولما حث تعالى على الاحسان للوالدين بالخصوص عم بالامر بالاحسان لكل ذي قرابة ورحم وغيره بقوله تعالى (وآت ذا القربى) من جهة الاب والام وان بعد (حقه) والخطاب لكل أحد أن يؤتي أقاربه حقوقهم من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محتاجين وهو موسر لزمه الانفاق عليهم عند الامام أبي حنيفة وقال الشافعي لايلزم الا نفقة الوالد على ولده والولد على والده فقط وقيل المراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم (و) آت (المسكين) حقه وان لم يكن قريبا (و) آت (ابن السبيل) وهو المسافر المنقطع عن ماله ليكون متقبلا محسنا ● ولما رغب تعالى في البذل وكانت النفس قلما يكون فعلها قواما بين الافراط والتفريط أتبع ذلك بقوله تعالى (ولا تبذر) بتفريق المال سرفا وبذله فيما لا ينبغي وقد كانت الجاهلية تبذر اموالها في الفخر والسمعة وتذكر ذلك في أشعارها فأمر الله تعالى بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف اليه وفي قوله تعالى (تبذيرا) تنبيه على أن الارتفاع عن ساحة التبذير أولى من الهبوط الى مضيق الشح والتقتير والتبذير بسط اليد في المال على حسب الهوى وقد سئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال في غير حقه وأما الجود فهو اتباع أمر الله تعالى في حقوق المال وعن مجاهد لو انفق الانسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرا ولو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا

الهالكة باقية في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها اصادرهم وواردهم (قوله فظلموا بها) أي بالناقة الباء ليست للتعدية لان الظلم يتعدى بنفسه فالمعنى فظلموا أنفسهم بقتلها أي

وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير وعن عبد الله بن عمر قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ما هذا السرف يا سعد قال أوفي الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير باضافته اياه الى أفعال الشياطين بقوله تعالى (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) أي على طريقتهم أوهم اخوانهم وأصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف أوهم قرناؤهم وهم في النار على سبيل التوعد ثم انه تعالى بين صفة الشيطان بقوله تعالى (وكان الشيطان) أي هذا الجنس البعيد من كل خير المحترق بكل شر (لربه) أي الذي أحسن اليه بايجاده وتربيته (كفورا) أي ستورا لما يقدر على ستره من آياته الظاهرة ونعمته الباهرة مع الجحد فلا ينبغي أن يطاع لانه لا يدعو الا الى مثل فعله قال بعض العلماء خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الاسلام وتوهين أهله واعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيها على قبح افعالهم في هذا الباب وقوله تعالى (واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) نزل في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب وكانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم في الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك لانتظار رزق من الله يرجوه أن يأتيه فيعطيه (فقل لهم) أي في حالة الاعراض (قولا ميسورا) أي ذا يسر بشرح صدورهم ويبسط رجاءهم لان ذلك أقرب الى طريق المتقين المحسنين قال أبو حيان روي انه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه الآية اذا لم يكن عنده ما يعطي وسئل يقول يرزقنا الله تعالى واياكم من فضله انتهى وقد وقع هذا الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سببا للابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب ثم أمر تعالى نبيه بما وصف له عباده المؤمنين في الانفاق في سورة الفرقان بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فقال تعالى (ولا تجعل يدك) أي بالبخل (مغلولة) أي كأنها بالمنع مشدودة بالغل (الى عنقك) أي لا تستطيع مدها أي لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط (ولا تبسطها) بالبذل (كل البسط) فتبذر بحيث لا يبقى في يدك شيء ذكر الحكماء في كتب الاخلاق أن لكل خلق طرفي افراط وتفريط وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط فالبخل افراط في الامساك والتبذير افراط في الانفاق وهما مذمومان والمعتدل هو الوسط وعن جابر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبي فقال يا رسول الله ان أمي تستكسيك درعا أي قميصا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبي من ساعة الى ساعة هذا متعلق بمحذوف أي أخر سؤالك من ساعة ليس لنا فيها درع الى ساعة يظهر لنا فيها درع فعد الينا فذهب الى أمه فقالت له قل له ان أمي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا أي في ازار ونحوه فأذن بلال بالصلاة فانتظروه فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك

ولا تبسطها كل البسط فتعطي جميع ما عندك * (تنبيه) * ما ذكره عن جابر تبعا للكشاف والبيضاوي والرازي وغيرهم قال الولي العراقي لم أقف عليه وكذا قال الحافظ ابن حجر وقد يقال من حفظ حجة على من لم يحفظ (فتقعد) اى توجد كالمقعد (ملوما) أي بليغ الرسوخ فيما يلام بسببه عند الله لان ذلك مما نهى الله عنه عند نفسك وعند الناس لانه يلوم نفسه وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال بالكلية (محسورا) اى منقطعا بك لذهاب ما تقوى به قال القفال شبه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار من المال كانه مطية تحمل الانسان الى آخر الشهر والسنة كما أن ذلك البعير يحمله و يبلغه الى آخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك الانسان اذا أنفق مقدار ما يحتاج اليه في مدة شهر في أقل منه بقي في وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل ذلك لحقه اللوم من أهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات معاشه ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (ان ربك) اى المحسن اليك (يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) البسط دون غيره (ويقدر) اى يضيقه سواء قبض يده أم بسطها الا ان الرب هو الذي يربي المربوب و يقوم باصلاح مهماته ورفع درجاته على مقدار الصلاح في الصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض لان ذلك هو الصلاح قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء (انه كان بعباده خبيرا) أي بالغ الخبر (بصيرا) أي بالغ البصر بما يكون من كل من القبض والبسط لهم مصلحة ومفسدة فالتفاوت في انه ربي العباد ليس لاجل بخل بل لاجل رعاية مصلحة لا يعلمها العبد فسبحان المتصرف في عباده كيف يشاء * ولما أتم سبحانه وتعالى الوصية بالاصول وما تبع ذلك أوصى بالفروع بقوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم) فذكرهم بلفظ الولد الذي هو داعية الى الحنو والعطف (خشية املاق) أي فقر متوقع لم يقع بعد ثم وصل بذلك استئنافا بقوله تعالى (نحن نرزقهم واياكم) فقدم ضمير الاولاد لكون الاملاق مترقبا من الانفاق عليهم ثم علل تعالى ذلك بما هو أعم منه فقال تعالى (ان قتلهم) أي مطلقا لهذا أو لغيره (كان خطأ) أي اثما (كبيرا) أي عظيما وقرأ ابن كثير بفتح الطاء ومد بعدها مدا متصلا وقرأ ابن ذكوان بفتح الخاء والطاء ولا مد بعد الطاء والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء قال الرماني الخطء بكسر ثم سكون لا يكون الا تعمدا الى خلاف الصواب والخطأ أي محركا قد يكون من غير تعمد وانما وجب بر الاولاد لامور أحدها أنهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين وانما وجب بر الوالدين مكافأة لما صدر منهما من أنواع البر الى الولد الثاني أن امتناع الآباء من البر بالاولاد يقتضي خراب العالم الثالث أن قرابة الولادة قرابة الجزئية والبعضية وهي من أعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح وقسوة في القلب وذلك من أعظم الاخلاق الذميمة فرغب الله تعالى في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة وعبر تعالى بالاولاد ليشمل الاناث فان العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة عليهم وأيضا كانوا يخافون أنهن بعد كبرهن تفقد أكفاؤهن فيحتاجون الى انكاحهن من غير أكفاء وفي ذلك عار شديد فنهاهم الله تعالى عن ذلك فان

والدلالات وفيما قبل الآيات والشهيرة المقترحة (قوله والشهيرة المعونة في القرآن) * ان قلت ليس في القرآن امن شهيرة (قلت) فيه اضمار تقديره والشهيرة المعونة المذكورة

الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور والاناث وأما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر وقد يخاف أيضا في العاجزين من البنين وكما أنه سبحانه وتعالى يفتح أبواب الرزق على الذكور فكذلك على الاناث ه ولما كان في قتل الاولاد سعي من البخل وفي فعل الزنا داع من الاسراف أتبعه به فقال تعالى (ولا تقربوا الزنا) أدنى قرب ولو بفعل شئ من مقدماته وانما أتى تعالى بالقربان تعظيما له لما فيه من المفاسد الجارة الى الفتن بالقتل وتضييع النسب والتسبب في ايجاد نفس بالباطل وغير ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكدا ابلاغا في التنفير عنه لما للنفس من شدة الداعية اليه (انه كان فاحشة) أى فعلة ظاهرة القبح زائدته وقد نهى الله تعالى عن الفحشاء في قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء الآية (وساء) أى وبئس الزنا (سبيلا) أى طريقا طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى عن القتل مطلقا عن التقييد بالاولاد بغير حق بقوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) أى بالاسلام والعهد (الا بالحق) وهو المبيح للقتل من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بالله بعد ايمانه أو زنى بعد احصانه أو قتل نفسا بغير حق ومثل انتقال المسلم من دين الاسلام الى دين الكفر انتقال كافر من دين الى دين آخر سواء كان ذلك الدين يقر عليه أم لا ومن ذلك قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وقوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا واختلف الفقهاء في أشياء غير ذلك منها ان تارك الصلاة كسلا هل يقتل فعند الشافعي يقتل بشروط معلومة وعند أبي حنيفة لا يقتل التارك كالزاني ومنها أن عمل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجب قتل الفاعل كالزاني وعند أبي حنيفة لا يوجبه ومنها أن الساحر اذا قال قتلت فلانا بسحري عمدا هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجبه وعند أبي حنيفة لا يوجبه ومنها أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعي يوجب وعند أبي حنيفة لا يوجب ومنها أن الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل اختلفوا فيه في زمان أبي بكر رضي الله عنه ومنها أن اتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند أكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجبه ولكل ممن ذكر أدلة يستدل بها رضي الله تعالى عنهم أجمعين ثم قال تعالى (ومن قتل مظلوما) أى بأى ظلم كان من غير أن يرتكب ما يبيح قتله (فقد جعلنا لوليه) أى سواء كان قريبا أم بعيدا (سلطانا) أى أمرا متسلطا به وقوله تعالى (فلا يسرف في القتل) قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب أى أيها الولى والباقون بالياء على الغيبة أى الولى وفسر الاسراف بوجوه الاول ان يقتل القاتل وغير القاتل وذلك ان أولياء المقتول كانوا اذا قتل واحد من قبيلة شريفة قتلوا خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وحكم بقتل القاتل وحده الثاني ان الاسراف هو ان لا يرضى بقتل القاتل فان الجاهلية كانوا يقصدون أشرف القبائل ثم يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل الثالث ان الاسراف هو ان لا يكتفي بقتل القاتل بل يقتله ثم يمثل به ويقطع أعضاءه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل لان جملة على هذه المعاني مشتركة في كونها اسرافا واختلف في رجوع الهاء الى ماذا في قوله تعالى (انه كان منصورا)

فقال

في القرآن أو معناه الملعون آكلوها وهم الكفرة أو الملعونة بمعنى المذمومة وهي مذمومة في القرآن بقوله تعالى ان شجرت الزقوم طعام الاثيم وبقوله تعالى طلعها

فقال مجاهد راجعة الى المقتول فى قوله تعالى ومن قتل مظلوما اى ان المقتول منصور فى الدنيا بايجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقال قتادة راجعة الى المقتول اى انه منصور على القاتل باستيفاء القصاص أو الدية فليكتف بهذا القدر ولا يطمع فى الزيادة وقيل راجعة الى القاتل الظالم اى ان القاتل يكتفى منه باستيفاء القصاص ولا يطلب منه زيادة لانه منصور من عند الله تعالى فى تحريم طلب الزيادة منه أو انه اذا عوقب فى الدنيا بازيد مما فعل نصر فى الآخرة وقيل راجعة الى الدم وقيل الى الحق * ولما ذكر تعالى النهى عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهى عن اتلاف الاموال لان اعز الاشياء بعد النفوس الاموال وأحق الناس بالنهى عن اتلاف أموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهى عن اتلاف أموالهم بقوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم) عبر بالقربان الذى هو قبل الاخذ تعظيما للمقام فهو أبلغ من قوله تعالى ولا تأكلوها اسرافا وبدارا وفى تفسير قوله تعالى (الا بالتى هى أحسن) وجهان الاول الا بالتصرف الذى ينميه ويكثره الثانى روى مجاهد عن ابن عباس انه قال اذا احتاج أكل بالمعروف واذا أيسر قضاه فان لم يوسر فلا شئ عليه والولى يتقى ولايته على اليتيم (حتى يبلغ أشده) وهو ايناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالى ذلك فى آية أخرى وهى قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم * ولما نهى سبحانه وتعالى عن ثلاثة أشياء وهى الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر الاول قوله تعالى (وأوفوا بالعهد) اى اذا عاهدتم الله تعالى على فعل المأمورات وترك المنهيات أو الناس على فعل أو قول جائز وفى تفسير قوله تعالى (ان العهد كان مسؤلا) وجوه الاول ان يراد ان صاحب العهد كان مسؤلا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه كقوله تعالى واسئل القرية ثانيها ان العهد كان مسؤلا اى مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفى ثالثها ان يكون هذا تخييلا كان يقال للعهد لم نكثت وهلا أوفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة باى ذنب قتلت وكقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين والمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره الامر الثانى قوله تعالى (وأوفوا الكيل اذا كلتم) اى لغيركم فان كلتم لانفسكم فلا جناح عليكم ان نقصتم عن حقكم ولم توفوا الكيل الامر الثالث قوله تعالى (وزنوا) اى وزنا متلبسا (بالقسطاس) اى ميزان العدل الذى هو أقوم الموازين وزاد فى تأكيد معناه فقال (المستقيم) دون شئ من الحيف * (تنبيه) * القسطاس رومى عرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لان الاعجمى اذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم فى الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا وقرأ حفص وحمزة والكسائى بكسر القاف والباقون بضمها (ذلك) اى الامر العالى الرتبة الذى أخبرنا كم به من الايفاء بالتمام والكمال (خير) لكم فى الدارين الدنيا والآخرة من التطفيف بالكيل أو الوزن من حيث ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة وان تراءى لكم ان التطفيف خير (وأحسن تأويلا) اى عاقبة فى الدارين اما فى الدنيا فلانه اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء فى الزمان

كأنه رؤس الشياطين أو الغورية بمعنى المبعدة لان اللعن لغة الطرد والابعاد وهذه الشجرة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة لانها فى قعر جهنم وهذا الابعاد مذكور

القليل وكم رأينا من الفقراء من اشتهر واعند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة انقلبت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم واما فى الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الاليم والتأويل وهو تفعيل من الاول وهو الرجوع وأفعل التفضيل هنا الاستعمال النصفة بارخاء العنان اى على تقدير ان يكون فى كل منهما خير فهذا المعنى الذى ذكرناه أزيد خيرا والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون * ولما شرح الله تعالى الاوامر الثلاثة عاد الى ذكر النواهى فنهى عن ثلاثة أشياء أولها قوله تعالى (ولا تقف) اى لا تتبع أيها الانسان (ما ليس لك به علم) من قول أو فعل وحاصله يرجع الى النهى عن الحكم بما لا يكون معلوما وهو قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة واختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس لا تشهد الا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك وقال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم وقيل المراد النهى عن القذف وقيل المراد النهى عن الكذب وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم وتقليدهم لأسلافهم لان الله تعالى نسبهم فى تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال تعالى ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس وقيل القفو هو البهت وأصله من القفا كأنه يقال خلفه وهو فى معنى الغيبة قال صلى الله عليه وسلم من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال رواه الطبرانى وغيره وردغة بسكون الدال وفتحها عصارة أهل النار وقال الكميت

ولا أرمى البرىء بغير ذنب * ولا أقفو الحواصن ان قفينا

يعنى قفينا المفعول والحواصن النساء العفائف واللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد *(تنبيه)* يقال قفوت أثر فلان أقفو اذا اتبعت أثره وسميت قافية الشعر قافية لانّ البيت يقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار أقدام الناس أو آثار أقدامهم ويستدلون بها على أحوال الناس وقال تعالى ثم قفينا على آثارهم برسلنا وسمى القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان فان من يتبعه يقفوه (فان قيل) ان هذه الآية تدل على منع القياس فانه لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم (أجيب) بان ذلك عام دخله التخصيص فان الحكم فى الدين بمجرد الظن جائز باجماع الامة وبان المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعيا أم ظنيا واستعماله بهذا المعنى شائع ذائع وقد استعمل فى مسائل كثيرة منها ان العمل بالفتوى عمل بالظن ومنها ان العمل بالشهادة عمل بالظن ومنها الاجتهاد فى طلب القبلة ولا يفيد الا الظن ومنها قيم المتلفات وأرش الجنايات لا سبيل اليها الا بالظن ومنها الفصد والحجامة وسائر المعالجات تبنى على الظن ومنها بعث الحكمين فى الشقاق قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم ومنها ان الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ويبنى على هذا الظن أحكام كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن فى مقابر المسلمين ومنها الاعتماد على صدق الاصدقاء وعداوة الاعداء كلها مظنونة وبناء الامر على تلك الظنون وقال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بأن الظن معتبر فبطل قول من يقول انه لا يجوز بناء الامر على الظن ثم علل تعالى النهى مخوفا

في القرآن بقوله تعالى
أم انحصر تفرج في أصل
العلم (قوله أرأيتك هذا
الذى كرمت علىّ) قاله هنا
بتكرير الخطاب كنظيره
في أرأيتكم فى الانعام
لدلالته على ان المخاطب به

بقوله تعالى (ان السمع والبصر) وهما طريقا الادراك (والفؤاد) الذى هو آلة الادراك ثم هوّل تعالى الامر بقوله تعالى (كل أولئك) اى هذه الاشياء العظيمة العالية المنافع البديعة التكوين •(تنبيه)• أولاء وجميع أسماء الاشارة يشار بها للعاقل وغيره كقول الشاعر

ذم المنازل بعد منزلة اللوى • والعيش بعد أولئك الايام

يجوز فى ذم فتح الميم وكسرها وضمها وقوله بعد منزلة اللوى اى بعد مفارقتها والاضافة فى منزلة اللوى للبيان وهو ممدود ولكن قصره هنا للضرورة والعيش عطف على المنازل والايام صفة لاسم الاشارة أو عطف بيان له (كان عنه) اى بوعد لاخلاف فيه (مسؤلا) بسؤال يخصه •(تنبيه)• ظاهر الآية يدل على ان الجوارح مسؤلة وفيه وجوه الاول ان معناه ان صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤل لان السؤال لا يصح الا ممن كان عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان كقوله تعالى واسئل القرية اى أهلها والمعنى انه يقال للانسان لم سمعت مالم يحل سماعه ولم نظرت مالم يحل نظره ولم عزمت على مالم يحل لك العزم عليه الثانى ان تقدير الآية ان أولئك الاقوام كلهم مسؤلون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفى الطاعة أم فى المعصية وكذا القول فى بقية الاعضاء وذلك لان الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها فى مصالحها فان استعملها فى الخيرات استوجب الثواب وان استعملها فى المعاصى استحق العقاب الثالث ان الله تعالى يخلق الحياة فى الاعضاء ثم انها تسئل لقوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فكذلك لا يبعد ان يخلق العقل والحياة والنطق فى هذه الاعضاء ثم انها تسئل وروى عن شكل بن حميد قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به فاخذ بيدى ثم قال قل أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى قال فحفظتها قال سعد المنى ماؤه النهى الثانى قوله تعالى (ولا تمش فى الارض) اى جنسها (مرحا) اى ذا مرح وهو شدة الفرح والمراد من الآية النهى عن ان يمشى الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة قال الزجاج ولا تمش فى الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى فى سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال تعالى فى سورة لقمان واقصد فى مشيك واغضض من صوتك وقال تعالى فيها ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ثم علل تعالى النهى عن ذلك بقوله تعالى (انك لن تخرق الارض) اى تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك (ولن تبلغ الجبال طولا) اى بتطاولك وهو تهكم بالمختال لان الاختيال حماقة مجردة لا تفيد شيأ ليس فى التذلل وفى ذلك اشارة الى ان العبد ضعيف لا يقدر على خرق أرض ولا وصول الى جبال فهو محاط به من فوقه ومن تحته بنوعين من الجمادات وهو أضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله محصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوى وقيل ذكر ذلك لان من مشى مختالا يمشى مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تنقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال

أمر عظيم وهو هنا كذلك لانه اعتصم الله فمن بقوله لاحتنكن ذريته الا قليلا اغواءا كثرهم (قوله فمن أوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا) ان قلت لم خصهم

طولا ان مشيت على صدور وقد مرّ بك قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الارض تطوى له انا لنجهد أنفسنا وانه غير مكترث وقوله تعالى (كل ذلك) اشارة الى ما نهى عنه مما تقدم فان الذى تقدم منهيات ومأمورات وجملة ذلك من قوله تعالى لا تجعل مع الله الها آخر الى هنا خمسة وعشرون وها أنا أسردها لك تسهيلا عليك فاولها لا تجعل مع الله الها آخر وثانيها وثالثها وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه لاشتماله على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهى عن عبادة غيره رابعها وبالوالدين احسانا خامسها فلا تقل لهما أف سادسها ولا تنهرهما سابعها وقل لهما قولا كريما ثامنها واخفض لهما جناح الذل من الرحمة تاسعها وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا عاشرها وآت ذا القربى حقه حادى عشرها والمسكين ثانى عشرها وابن السبيل ثالث عشرها ولا تبذر تبذيرا رابع عشرها فقل لهم قولا ميسورا خامس عشرها ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك سادس عشرها ولا تبسطها كل البسط سابع عشرها ولا تقتلوا أولادكم ثامن عشرها ولا تقتلوا النفس تاسع عشرها ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا عشروها فلا يسرف فى القتل حادى عشريها وأوفوا بالعهد ثانى عشريها وأوفوا الكيل ثالث عشريها وزنوا بالقسطاس المستقيم رابع عشريها ولا تقف ما ليس لك به علم خامس عشريها ولا تمش فى الارض مرحا فكل هذه تكليفات بعضها أوامر وبعضها نواه فالمنهى عنه هو الذى قال تعالى فيه (كان سيئه عند ربك مكروها) أى يبغضه والعاقل لا يفعل ما يكرهه المحسن اليه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة وقرأ الباقون بضم الهمزة والهاء مضمومة من غير تنوين والمعنى على هذا ظاهر أى ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها وأما على القراءة الاولى فسيئة خبر كان وأنث حملا على معنى كل ثم قال مكروها حملا على لفظها وقال الزمخشرى ان السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيئا الا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلا تفرق بين اسنادها الى مذكر ومؤنث وفى نصب مكروها أوجه أحدها أنه خبر ثان لكان الثانى أنه بدل من سيئة وضعف بان البدل بالمشتق قليل الثالث أنه حال من الضمير المستقر فى عند ربك لوقوعه صفة لسيئة الرابع أنه نعت لسيئة وانما ذكر وصف سيئة لان تأنيثه وتأنيث موصوفه مجازى ورد بان ذلك انما يجوز حيث أسند الى المؤنث المجازى أما اذا أسند الى ضميره فلا نحو الشمس طالعة فلا يجوز طالع وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى الاحكام المتقدمة فى الاوامر والنواهى (مما أوحى اليك) يا أشرف الخلق (ربك) أى المحسن اليك (من الحكمة) التى هى معرفة الحق لذاته والخير للعمل به وانما سميت هذه الامور حكمة لوجوه الاول ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة فالآتى بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بانه يكون داعيا الى دين الرحمن

الثانى

...ذلك مع ان أصحاب
...الشمال كذلك (قلت) لان
أصحاب الشمال اذا
نظروا الى ما فى كتابهم من
...الفضائح والقبائح أخذهم
...من الحياء والخجل والخوف

الثانى ان هـذه الاحكام المذكورة فى هـذه الآيات شرائع واجبـة الرعاية فى جميع الاديان
والملل ولا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار الثالث ان الحكمة
عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به كما مرت الاشارة اليـه فالامر بالتوحيد عبارة عن
القسم الاول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب عليها ولا ينصرف عنها
فثبت ان الاشياء المذكورة من هذه الآيات عين الحكمة وعن ابن عباس رضى الله تعالى
عنهما ان هذه الآيات كانت فى ألواح موسى عليه السلام وجعل سبحانه وتعالى فاتحتها قوله
تعالى لا تجعل مع الله الها آخر وخاتمتها قوله تعالى (ولا تجعل مع الله الها آخر) تنبيها على ان
التوحيد مبدأ الامور ومنتهاها وان من قصد بفعل أو ترك غيره ضاع سعيه وانه رأس الحكمة
وملاكها ورتب عليه ماهو عائدة الشرك فى قوله تعالى أولا لا تجعل مع الله أى فى الدنيا وثانيا
ماهو نتيجته فى العقبى فقال (فتلقى) أى فيفعل بك فى الآخرة فى المحشر (فى جهنم) من الاسراع
فيه وعدم القدرة على التدارك فعل من ألقى من عال حال كونك (ملوما) أى تلوم نفسك
(مدحورا) أى مبعدا من رحمة الله * (تنبيه) * ذكره سبحانه وتعالى فى الآية الاولى بقوله
تعالى مذموما مخذولا وفى هـذه الآية ملوما مدحورا والفرق بين الذم واللوم هو أن يذكر له
ان الفعل الذى أقدم عليه قبيح ومنكر فهـذا معنى كونه مذموما ثم يقال له فعلت هذا الفعل
القبيح وما الذى حملك عليه فهذا هو اللوم فاول الامر يصير مذموما وآخره يصير ملوما والفرق
بين المخذول والمدحور هو ان المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت أعضاؤه اى ضعفت
والمدحور هو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة فكونه مخذولا عبارة عن ترك
اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته فيصير أول الامر مخذولا وآخره
مدحورا وقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين) خطاب للذين قالوا الملائكة بنات الله
والهمزة للانكار أى أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بافضل الاولاد وهم البنون ولم
يجعل فيهم نصيبا لنفسه (واتخذ من الملائكة اناثا) أى بنات لنفسه وهذا خلاف ما عليه
معقولكم وعادتكم فان العبيد لا يستأثرون باجود الاشياء واصفاها من الشوائب ويكون
أردؤها وأدونها للسادات (انكم لتقولون قولا عظيما) باضافة الاولاد اليه لان اثبات الولد
يقتضى كونه تعالى مركبا من الابعاض والاجزاء وذلك يقدح فى كونه قديما واجب الوجود
لذاته وأيضا فبتقدير ثبوت الولد فقد جعلوا أشرف القسمين لانفسهم وأخس القسمين لله
تعالى وهـذا جهل عظيم وأيضا جعلوا الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله الذين منهم من
يقدر على حمل الارض وقلب اسفلها على أعلاها اناثا فى غاية الرخاوة * ولما كان فى هـذا من
البيان مالا يخفى على انسان ولم يرجعوا اشار الى أن اهم مثل هـذا الاعراض عن امثال هـذا
البيان فقال تعالى (ولقد صرفنا) أى بينا بيانا عظيما بانواع طرق البيان من العبر والحكم
والامثال والاحكام والحجج والاعلام فى قوالب الوعد والوعيد والامر والنهى والمحكم والمتشابه
الى غير ذلك (فى هذا القرآن) أى فى مواضع منه من الامثال كما قال تعالى ولقد صرفنا للناس
فى هذا القرآن من كل مثل قيل لفظة فى زائدة كما فى قوله تعالى وأصلح لى فى ذريتى وردبان فى
لا تزاد وماذكرناه أول كما يأتى ان شاء الله تعالى فى الاحقاف والتصريف لغة صرف الشئ من

ما يوجب انقباض المتكلم
عن اقامة الحروف
فتكون قراءتهم كلا قراءة
وامر اصحاب اليمين على
العكس واما قوله تعالى
ولا يظلمون فتيلا فما لذلك
كل الناس لا الى اصحاب

جهة الى أخرى ثم صار كناية من التبيين قاله أبو حيان وقوله تعالى (ليذكروا) متعلق بصرفنا وقرأ حمزة والكسائى بسكون الذال ورفع الكاف من غير تشديد من الذكر الذى هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما (وما يزيدهم) أى التصريف (الا نفورا) أى تباعدا عن الحق وقلة طمانينة اليه وعن سفيان كان اذا قرأها قال زادنى ذلك لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا • ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء المشركين ولا تيأس من رجوع بعضهم (لو كان معه آلهة كما تقولون) من هذه الاقوال التى لو قالها أعظمكم فى حق أدناكم وهو يريد بها حقيقتها لصار ضحكة للعباد (اذا لابتغوا) أى طلبوا طلبا عظيما (الى ذى العرش) أى صاحب السرير الاعظم المحيط الذى من ناله كان منفردا بالتدبير (سبيلا) أى طريقا سالكا يوصلون به اليه ليقهروه ويزيلوا ملكه كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض أو ليتخذوا عنده يدا تقربهم اليه وقرأ ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وادغم ابو عمرو الشين من العرش فى السين بخلاف عنه ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه فقال عز من قائل (سبحانه) اى تنزه التنزه الاعظم عن كل شائبة نقص (وتعالى) اى علا اعلى العلو بصفات الكمال (عما يقولون) اى من هذه النقائص التى لا يرضاها لنفسه احد من عقلاء خلقه (علوا) اى تعاليا (كبيرا) اى متباعدا غاية البعد عما يقولون فانه تعالى فى اعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجوب والبقاء لذاته •(تنبيه)• جعل العلو مصدر التعالى ومصدره تعاليا كما قدرته فهو المراد ونظيره قوله تعالى والله انبتكم من الارض نباتا (فان قيل) ما الفائدة فى وصف ذلك العلو بالكبير (اجيب) بان المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والاضداد والانداد منافاة بلغت فى القوة والكمال الى حيث لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته وبين الممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغنى والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم استأنف تعالى بيان عظمة هذا التنزيه مقرونا بالوصف بالكمال فقال (تسبح) اى توقع التنزيه الاعظم (له) اى الاله الاعظم الذى تقدم وصفه بالجلال والاكرام خاصة (السموات السبع والارض) اى السبع (ومن فيهن) اى من ذوى العقول (وان) اى وما واغرق فى النفى فقال (من شئ) اى ذى عقل اوغيره (الا يسبح بحمده) اى يقول سبحان الله العظيم وبحمده او يقول سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس وان من شئ حى الا يسبح بحمده وقال قتادة يعنى الحيوانات والناميات وقال عكرمة الشجرة تسبح والاسطوانة تسبح وعن المقداد بن معدى التراب يسبح مالم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح والورقة تسبح مادامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح والماء يسبح مادام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح والثوب يسبح مادام جديدا فاذا وسخ ترك التسبيح وقال السيوطى فى جواب سؤال عن ذلك

قد خصصت آية الاسرى بمتصف • وصف الحياة كرطب الزرع والشجر
فيابس مات لا تسبيح منه كذا • ما زال عن موضع كالقطع للحجر

الميت خاصة وانما خصهم ذلك لانهم يعلمون انهم لا يظلمون ويعتقدون ذلك بخلاف اصحاب الشمال فانهم يعتقدون او يظنون انهم يظلمون (قوله وما منع الناس أن

وقال ابراهيم النخعي وان من شيء جماد وحي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقال مجاهد كل الاشياء تسبح لله تعالى حيوانا كانت أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده يدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود كنا نعد الآيات بركة وانتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فادخل يده صلى الله عليه وسلم في الاناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين اصابعه صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وعن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت اني لاعرفه الآن وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ له المنبر تحول اليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه وساره بشيء ففي هذه الاحاديث دليل على ان الجمادات تتكلم وانها تسبح وقال بعض اهل المعاني تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال حيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح قال البغوي والاول أصح وهو المنقول عن السلف وقال ابن عادل ان القول الاول أصح لما دلت عليه الاحاديث وانه منقول عن السلف قال البغوي واعلم ان لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي ان يوكل علمه اليه (ولكن لا تفقهون) أي لا تفهمون (تسبيحهم) أي لانه ليس بلغتكم (انه كان حليما غفورا) * ولما ذكر سبحانه وتعالى اثبات الالهية اتبعه بذكر تقرير النبوة بقوله تعالى (واذا قرأت القرآن) أي الذي لا يدانيه واعظ ولا يساويه مفهم وهو تبيان لكل شيء (جعلنا) أي بما لنا من العظمة (بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أي يحجب قلوبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم والانتفاع به قال قتادة هو الاكنة فالمستور بمعنى الساتر كقوله تعالى كان وعده مأتيا مفعول بمعنى فاعل وقيل مستورا عن أعين الناس فلا يرونه وفسره بعضهم بالحجاب عن الاعين الظاهرة كما روي عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت تبت يدا ابي لهب جاءت امرأة ابي لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع ابي بكر رضي الله عنه فلم تره فقالت لابي بكر اين صاحبك لقد بلغني انه هجاني فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ به رأسه فقال ابو بكر ما رأتك يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (على قلوبهم أكنة) أي اغطية كراهة (أن يفقهوه) أي يفهموه أي يفهموا القرآن حق فهمه (وفي آذانهم وقرا) أي شيأ ثقيلا يمنع سماعهم وعن اسماء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ومعه ابو بكر اذ اقبلت امرأة ابي لهب ومعها فهر تريد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تقول مذمما أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا فقال أبو بكر يا رسول الله معها فهر اخشاها عليك فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت وما رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت اني رأيت قريشا قد علمت اني ابنة سيدها وان صاحبك هجاني فقال ابو بكر لا ورب الكعبة ورب هذا البيت ما هجاك وروي ابن عباس ان أبا سفيان والنضر بن الحرث وابا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون حديثه فقال النضر يوما

يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) قال ذلك هنا وقاله في الكهف بزيادة ويستغفروا ربهم لان المعنى هنا ما منعهم عن الايمان بمحمد الا قولهم أبعث الله بشرا رسولا

ما أرى ما يقول محمد غير أنى أرى شفتيه يتحرك بشئ وقال أبو سفيان انى لا أرى بعض ما يقوله الا حقا وقال أبو جهل هو مجنون وقال أبو لهب هو كاهن وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهى فى سورة الكهف انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وفى سورة النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفى حم الجاثية أفرأيت من اتخذ الهه هواه الى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين (واذا ذكرت ربك) أى المحسن اليك واليهم (فى القرآن وحده) أى مع الاعراض عن آلهتهم كأن قلت وأنت تتلو القرآن لا اله الا الله ‌• (تنبيه) ‌• فى نصب وحده وجهان أحدهما أنه منصوب على الحال وان كان معرفة لفظا لانه فى قوة النكرة اذ هو فى معنى منفردا والثانى أنه منصوب على الظرف (ولوا على أدبارهم نفورا) اى هربا من استماع التوحيد ‌• (تنبيه) ‌• فى نفورا وجهان أحدهما مصدر من غير اللفظ مؤكد لان التولى والنفور بمعنى والثانى أنه حال من فاعل ولوا وهو حينئذ جمع نافر كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير فى ولوا يعود الى الكفار وقيل يعود الى الشياطين وان لم يجر لهم ذكر قال المفسرون ان القوم كانوا عند استماع القرآن على أقسام منهم من كان اذا سمعه آذاه وعند استماعه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه ويساره اخوان من ولد قصى يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ومنهم من كان اذا سمع من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا واجمين لا يفهمون منه شيأ ومنهم من اذا سمع آيات فيها ذكر الله تعالى وذم المشركين ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس ‌• ولما كانوا ربما ادعوا السمع والفهم فشككوا بعض من لم يرسخ ايمانه أتبعه تعالى بقوله تعالى (نحن أعلم) اى من كل عالم (بما يستمعون) اى يبالغون فى الاصغاء والميل لقصد السمع (به) من الآذان والقلوب أو بسببه ولاجله من الهزء بك وبالقرآن (اذ يستمعون) اى يصغون بجهدهم (اليك) اى الى قراءتك (واذ) اى حين (هم) ذو (نجوى) اى يتناجون بان يرفع كل منهم بصره الى صاحبه بعد اعراضهم عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف النجوى بقوله تعالى (اذ) وهو بدل من اذ قبله (يقول الظالمون) وقولهم (ان) اى ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) اى مخدوعا مغلوبا على عقله وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا أن يتخذ طعاما ويدعو اليه أشراف قريش من المشركين ففعل ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فابوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبى صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوى الى الله تعالى يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا (فان قيل) انهم لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يصح أن يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا (أجيب) بان معناه ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة بكسر التنوين فى الوصل والباقون بالضم ثم قال تعالى (انظر كيف ضربوا) اى هؤلاء الضلال (لك الامثال) التى هى أبعد شئ من صفتك من قولهم كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون (فضلوا) عن الحق فى جميع ذلك (فلا) اى فتسبب عن ذلك أنهم لا (يستطيعون سبيلا) اى وصولا الى طريق الحق ‌• ولما جرت

هلا بعث ملكا وجعلوا ان التجانس يورث التآنس والتغاير يورث التنافر والمعنى فى الكهف ما منعهم عن الايمان والاستغفار الا ان تأتيهم سنة الاولين فزاد فيها

عادة

عادة القرآن باثبات التوحيد والنبوّة والمعاد وقدم الدلالة على الاوّلين وختم باثبات جهلهم
فى النبوّة مع ظهورها أتبع ذلك أمراً جليا فى ضلالهم عن السبيل فى أمر المعاد وقرره غاية
التقرير وحرره أتم تحرير قال تعالى معجباً منهم (وقالوا) اى المشركون المنكرون للتوحيد
والنبوّة والبعث مع اعترافهم بأنا ابتدأنا خلقهم ومشاهدتهم فى كل وقت انا نحيى الارض
بعد موتها اوقولهم (أئذا) استفهام انكارى كانهم على ثقة من عدم ما ينكرونه والعامل فى
اذا فعل من لفظ مبعوثون لا هو فان ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها فالمعنى أنبعث اذا (كنا) اى
بجملة أجسامنا كونا لازما (عظاما ورفاتا) اى حطاما مكسرا مفتتا أو غبارا وقال الفراء هو
التراب وهو قول مجاهد ويؤيده أنه قد يكرر فى القرآن ترابا وعظاما ويقال للتبن الرفات لانه
دقاق الزرع (أئنا لمبعوثون) حال كوننا مخلوقين (خلقا جديدا)* (تنبيه)* تقرير شبهة هؤلاء
الضلال هى أن الانسان جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت فى جوانب العالم واختلطت تلك
الاجزاء بسائر أجزاء العالم فالاجزاء المائية مختلطة بمياه العالم والاجزاء الترابية مختلطة بالتراب
والاجزاء الهوائية مختلطة بالهواء فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى وكيف يعقل
عود الحياة اليها بأعيانها مرة أخرى هذا تقرير شبهتهم (أجيب) عنها بانها لا تتم الا بالقدح فى
كمال علم الله تعالى وفى كمال قدرته فانه تعالى قادر على كل الممكنات فهو قادر على اعادة التأليف
والتركيب والحياة والعقل الى تلك الاجزاء بأعيانها فمن سلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت
عنه هذه الشبهة بالكلية* ولما كان كأنه قيل فماذا يقال لهم فى الجواب فقال (قل) لهم
يا أشرف الخلق لا تكونوا رفاتا بل (كونوا) أصلب من التراب (حجارة) أى هى فى غاية اليبس
(أو حديدا) أى زائدا على يبس الحجارة لشدة اتصال الاجزاء* (تنبيه)* ليس المراد به أمر
الزام بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل أتطمع فى
وأنا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى (أو خلقا) غير ذلك (مما
يكبر) أى يعظم عظمة كبيرة (فى صدوركم) أى مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد
شئ منها فان الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأكثر
المفسرين انه الموت فانه ليس فى نفس ابن آدم شئ أكبر من الموت أى لو كنتم الموت بعينه
لاميتنكم ولابعثنكم وقيل السموات والارض والجبال لانها من أعظم المخلوقات (فسيقولون)
تماديا فى الاستهزاء (من يعيدنا) اذا كنا كذلك (قل الذى فطركم) أى ابتدأ خلقكم (أول مرة)
ولم تكونوا شيأ يعيدكم بالقدرة التى ابتدأكم بها فكما لم تعجز تلك القدرة عن البداءة فهى لا تعجز
عن الاعادة (فسينغضون) أى يحركون (اليك رؤسهم) تعجبا واستهزاء كانهم فى شدة جهلهم على
غاية البصيرة من العلم بما يقولون والنغض والانغاض تحريك بارتفاع وانخفاض (ويقولون)
استهزاء (متى هو) أى البعث والقيامة قال الرازى واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا
بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التى تقدمت ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا
فى نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبعث فانه لما ثبت بالدليل العقلى كونه ممكن الوجود
فى نفسه وجب الاعتراف بامكانه فاما أنه متى يوجد فذلك لا يمكن اثباته من طريق العقل بل
انما يمكن اثباته بالدليل السمعى فان أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الى

ويستغفرون ادبهم لاتصاله بقوله سنة الاولين وهم قوم نوح وهود وصالح وشعيب حيث امروا بالاستغفار فنوح قال استغفروا ربكم انه كان غفارا وهود قال ياقوم استغفروا ربكم ثم

معرفته لانه تعالى يعرف الذى آن انه لا يطلع أحدا من الخلق على وقته المعين فقال تعالى ان الله
عنده علم الساعة وقال انما علمها عند ربى وقال تعالى ان الساعة آتية أكاد أخفيها فلاجرم
قال تعالى (قل عسى أن يكون قريبا) قال المفسرون عسى من الله واجب ومعناه أنه قريب
اذ كل آت قريب وأمال عسى وعسى حمزة والكسائى امالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين
والباقون بالفتح وقوله تعالى (يوم يدعوكم) بدل من قريبا والمعنى عسى أن يكون البعث يوم
يدعوكم أى بالنداء الذى يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال تعالى يوم ينادى المناد من
مكان قريب روى أن اسرافيل ينادى أيها الاجسام البالية والعظام النخرة والاجزاء
المتفرقة عودى كما كنت (فتستجيبون) أى تجيبون والاستجابة موافقة الداعى فيما دعا اليه
وهى الاجابة الا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة فهى آكد من الاجابة واختلف فى معنى
قوله تعالى (بحمده) فقال ابن عباس بأمره وقال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم
وينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك فيحمدونه حين لا ينفعهم
الحمد وقال قتادة بمعرفته وطاعته وقال أهل المعانى تستجيبون بحمده اى تستجيبون حامدين
كما تقول جاء بغضبه اى جاء غضبان وركب الامير بسيفه اى وسيفه معه وقال الزمخشرى
بحمده حال منهم اى حامدين وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بركوب مايشق
عليه فيأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر يعنى أنك تحمل عليه وتقسر عليه قسرا حتى
انك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد عليه (وتظنون ان) اى ما (لبثتم الا قليلا) اى مع
استجابتكم وطول لبثكم ولشدة ماترون من الهول فعندها تستقصرون مدة لبثكم فى الدنيا
وتحسبونها يوما أو بعض يوم وعن قتادة تحاقرت الدنيا فى أنفسهم حين عاينوا الآخرة وقال
الحسن معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل فهذا يرجع الى
استقلال مدة اللبث فى الدنيا وقيل المراد استقلال مدة لبثهم فى برزخ القيامة لانه لما كان
عاقبة أمرهم الدخول فى النار استقصروا لبثهم فى برزخ القيامة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم
باظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالادغام ولما ذكر تعالى الحجة اليقينية فى صحة
المعاد وهو قوله تعالى قل الذى فطركم أول مرة قال تعالى (وقل) يا محمد (لعبادى) اى المؤمنين
لان لفظ العباد فى أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون
القول وقال تعالى فادخلى فى عبادى وقال تعالى عينا يشرب بها عباد الله (يقولوا) للكفار
الذين كانوا يؤذونهم الكلمة (التى هى أحسن) ولا يكافئوهم على سفههم بل يقولون يهديكم الله
وكان هذا قبل الاذن بالقتال وقيل نزلت فى عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله تعالى
بالعفو وقيل أمر المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا الخلة التى هى أحسن وقيل الاحسن قول لا اله
الا الله ثم علل تعالى بقوله تعالى (ان الشيطان) اى البعيد عن الرحمة المحترق باللعنة (ينزغ بينهم)
اى يفسد ويغرى بعضهم على بعض ويوسوس لهم لتقع بينهم المشارة والمشاقة وأصل النزغ
الطعن وهم غير معصومين فيوشك ان يأتوا بما لا يناسب الحال ثم علل تعالى هذه العلة بقوله
تعالى (ان الشيطان كان) اى فى قديم الزمان وأصل الطبع كونا هو مجبول عليه (للانسان
عدوا) اى بليغ العداوة (مبينا) اى بين العداوة ثم فسر تعالى التى هى أحسن بما علمهم ربهم

توبوا اليه يرسل السماء
عليكم مدرارا وصالح قال
فاستغفروه ثم توبوا اليه
ان ربى قريب مجيب وشعيب
قال واستغفروا ربكم ثم
توبوا اليه ان ربى رحيم
ودود (قوله قال كفى بالله

من

من النصفة بقوله تعالى (ربكم أعلم بكم) فعلم أن قوله تعالى ان الشيطان الى آخره جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن أبو عمرو الميم واخفاها عند الباء بخلاف عنه وكذا أعلم بمن ثم استأنف تعالى (ان يشأ) اى رحمتكم (يرحمكم) اى بهدايتكم (أو ان يشأ) تعذيبكم (يعذبكم) اى باضلالكم فلا تحتقروا أيها المؤمنون المشركين فتقطعوا بانهم من أهل النار فتعيروهم بذلك فانه يجر الى غيظ القلوب فلا فائدة لان الخاتمة مجهولة ولا تجاوزوا فيهم ما أمركم الله به من قول وفعل * ثم رقى الله الخطاب الى أعلى الخلق ورأس أهل الشرع ليكون من دونه أولى بالمعنى منه فقال تعالى (وما أرسلناك) اى مع ما لنا من العظمة الغنية عن كل شئ (عليهم وكيلا) اى حفيظا وكفيلا تقسرهم على ما يرضى الله وانما أرسلناك على حسب ما نأمرك به بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بمداراتهم وقد مر أن هذا قبل الاذن بالقتال * ولما أمرهم بأن ينسبوا الاعلمية بهم اليه تعالى أخبر بما هو أعم من ذلك قاصرا الخطاب على أعلم خلقه بقوله تعالى (وربك) أى المحسن اليك بأن جعلك أكمل الخلق (أعلم بمن في السموات والارض) فعلمه غير مقصور عليكم بل متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات فيعلم تعالى حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المفاسد والمصالح ويعلم اختلاف صورهم وأديانهم وأخلاقهم وأحوالهم وجميع ما هم عليه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فيفضل بعض الناس على بعض على حسب احاطة علمه وشمول قدرته وبعض النبيين على بعض كما قال تعالى (ولقد فضلنا) بما لنا من العظمة (بعض النبيين) سواء كانوا رسلا أم لا (على بعض) بعد أن جعلنا الكل فضلا لتقوى كل منهم واحسانه فخصصنا كلا منهم بفضيلة كموسى بالكلام وابراهيم بالخلة ومحمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء فلا ينكر أحد من العرب أو بني اسرائيل أو غيرهم تفضيلنا لهذا النبي الكريم الذي صدرنا السورة بتفضيله على جميع الخلائق فانا نفعل ما نشاء بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على أصله بمد على الهمزة وبوسط وبقصر (وآتينا) موسى التوراة و(داود زبورا) وعيسى الانجيل فلم يبعد أيضا أن نؤتي محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ولم يبعد أن نفضله على جميع الخلق (فان قيل) ما السبب في تخصيص داود عليه السلام بالذكر هنا (أجيب) بأوجه الاول انه تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال وآتينا داود زبورا يعني ان داود أوتي ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على أن الفضل الذي ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال الثاني انه تعالى كتب في الزبور أن محمدا خاتم الانبياء وأن أمة محمد خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته (فان قيل) هلا عرفه كقوله ولقد كتبنا في الزبور (أجيب) بأن التنكير هنا يدل على تعظيم حاله لان الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب وكان معنى التنكير أنه كامل في كونه كتابا ويجوز أن يكون زبورا علما فاذا دخلت عليه أل كقوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور كانت للمح الاصل كعباس والعباس وفضل والفضل الثالث ان كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون الى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبي بعد

شهيدا بيني وبينكم) قال ذلك هنا بتقديم شهيدا على بيني وبينكم وقاله في العنكبوت بالعكس لان ما هنا جاء على الاصل من تقديم المعمول وما في العنكبوت جاء على خلاف

موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله عليهم كلامهم بانزال الزبور على داود وروى البخاري في التفسير عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه لتسرج فكان يقرأ قبل ان يفرغ اى القرآن قال البقاعي ومن اعظم المناسبات لتخصيص داود عليه السلام وزبوره بالذكر هنا ذكر البعث الذي هذا مقامه فيه صريحا وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك اما البعث فلا ذكر له فيها أصلا وأما النار فلم يذكر شئ مما يدل عليها الا الجحيم في موضع واحد وأما الزبور فذكر فيه النار والهاوية والجحيم في غير موضع انتهى وقرأ حمزة بضم الزاي والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم) أنهم آلهة (من دونه) اى من سواه كالملائكة وعزير والمسيح وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي بضم اللام من قل وكسرها عاصم وحمزة كل هذا في حال الوصل وأما الابتداء فالجميع ابتدؤا بهمزة مضمومة (فلا يملكون كشف الضر) اى البؤس الذي من شأنه أن يعرض الجسم كله (عنكم) حتى لا يدعوا شيأ منه (ولا تحويلا) له الى غيركم فقال ابن عباس انها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقيل ان قوما عبدوا نفرا من الجن فأسلم النفر من الجن وبقي أولئك القوم متمسكين بعبادتهم فنزلت فيهم هذه الآية وقيل ان المشركين اصابهم قحط شديد حتى اكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فنزل قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه وليس المراد الاصنام لانه تعالى قال في وصفهم (أولئك الذين يدعون) اى يدعونهم الكفار ويتألهونهم (يبتغون) اى يطلبون طلبا عظيما (الى ربهم) اى المحسن اليهم (الوسيلة) اى المنزلة والدرجة والقربة لاعمالهم الصالحة وابتغاء الوسيلة الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم ٭ (تنبيه) ٭ أولئك مبتدأ وخبره يبتغون ويكون الموصول نعتا أو بيانا أو بدلا والمراد باسم الاشارة الانبياء أو الملائكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو العباد لهم ويكون العائد على الذين محذوفا والمعنى أولئك الانبياء الذين يدعونهم المشركون لكشف ضرهم يبتغون الى ربهم الوسيلة (أيهم أقرب) أي يتسابقون بالاعمال مسابقة من يطلب كل منهم أن يكون اليه أقرب ولديه أفضل (ويرجون رحمته) رغبة فيما عنده (ويخافون عذابه) فهم كغيرهم موصوفون بالعجز والحاجة فكيف يدعونهم آلهة وقيل معناه ان الكفار ينظرون أيهم أقرب الى الله تعالى فيتوسلون به ثم علل خوفهم بامر عام بقوله تعالى (ان عذاب ربك) أي المحسن اليك برفع انتقام الاستئصال منه عن أمتك (كان) أي كونا لازما (محذورا) جديرا بان يحذر لكل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم لما شوهد من اهلاكه للقرون الماضية ولما قال تعالى ان عذاب ربك كان محذورا بين بقوله تعالى (وان) أي وما (من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) أي كل قرية أي أهلها لابد وان يرجع حالهم الى أحد أمرين اما الاهلاك بالموت والاستئصال واما العذاب بالقتل وأنواع البلاء وقال مقاتل أما الصالحة فبالموت وأما الطالحة فبالعذاب وقال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن

الله

الاصل ابتهل وصف الاصل ابتهل وصف اسم يبدأ به وهو قوله تعالى بعلم اسم يبدأ به وهو قوله تعالى (قوله خالق السموات والارض) اولم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض قادر) وفي الاحقاف بلفظ بقادر وفي يس اوليس الذي خلق

الله تعالى في هلاكها (كان ذلك) أي الامر العظيم (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ (مسطورا) أي مكتوبا قال عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال وما أكتب قال القدر ما كان وما هو كائن الى أبد الابد أخرجه الترمذي * ولما كان كفار قريش قد تكرر اقتراحهم للآيات وكان صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على ايمان كل أحد يحب أن الله تعالى يجيبهم الى مقترحهم طمعا في ايمانهم فاجاب الله تعالى بقوله (وما منعنا) أي على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها شئ ولا يمنعها مانع (أن نرسل بالآيات) أي التي اقترحوها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك في قولهم فاتنا بآية كما أرسل الاولون وقال آخرون ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآيات وقال سعيد بن جبير انهم قالوا انك تزعم انه كان قبلك أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من أحيا الموتى فاتنا بشئ من هذه المعجزات فكان كأنه لا آيات عندهم سوى ذلك (الا) علمنا في عالم الشهادة بما وقع من (أن كذب بها) أي المقترحات (الاولون) وعلمنا في عالم الغيب ان هؤلاء مثل الاولين ان الشقي منهم لا يؤمن بالمقترحات كما لم يؤمن بغيرها وانه يقول فيها ما قال في غيرها من انها سحر ونحو ذلك والسعيد لا يحتاج في ايمانه اليها فكم أجبنا أمة الى مقترحها فما زاد ذلك أهل الضلالة منهم الا كفرا فاخذناهم لان سنتنا جرت انا لا نمهل بعد الاجابة الى المقترحات من كذب بها قال ابن عباس سال اهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحي الجبال عنهم ليزرعوا تلك الاراضي فطلب صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فاوحى الله تعالى اليه ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط ان لم يؤمنوا اهلكتهم فقال صلى الله عليه وسلم لا اريد ذلك فتفضل الله تعالى برحمته هذه الامة وتشريفها على الامم السالفة بعدم استئصالها لما يخرج من اصلاب كفرتها من خاص عباده فلهذا السبب ما اجابهم الله تعالى الى مطلوبهم فقال جل ذكره بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وامر ثم ذكر تعالى من تلك الآيات التي اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما ارسلت اليهم فاهلكوا ما ذكره تعالى بقوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة) حالة كونها (مبصرة) اي مضيئة بينة جديرة بان يستبصر بها كل من شاهدها فيستدل بها على صدق قول ذلك النبي (فظلموا بها) أي ظلموا أنفسهم بتكذيبها وقال ابن قتيبة جحدوا بانها من الله تعالى فاهلكناهم فكيف تمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى وخص تعالى هذه الآية بالذكر لان آثار اهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ثم قال تعالى (وما نرسل بالآيات) أي المقترحات وغيرها (الا تخويفا) للمرسل اليهم بها فان خافوا نجوا والا اهلكوا بعذاب الاستئصال من كذب بالآيات المقترحات وبعذاب الآخرة من كذب بغيرها كالمعجزات وآيات القرآن فامر من بعث اليهم مؤخر الى يوم القيامة (فان قيل) المقصود الاعظم من اظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدعي فكيف حصر المقصود من اظهارها في التخويف (أجيب) بانه لما كان هو الحامل والغالب على التصديق فكأنه هو المقصود ولما طلب القوم من النبي صلى الله عليه وسلم تلك الآيات المقترحات وأجاب الله تعالى بان اظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجراءة أولئك الكفار بالطعن فيه وان يقولوا له لو كنت رسولا حقا من

السموات والارض بقادر لان ما هنا خبر أن وما في يس خبر ليس وخبرها تدخله الباء وما في الاحقاف خبر ان وكان القياس عدم دخول الباء فيه لكنها دخلته تشبيها للم بليس في

عند الله لا تيت بهذه المعجزات التي اقترحناها كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء فعند هذا قوى الله تعالى قلبه وبين له انه ينصره ويؤيده فقال تعالى (و) اذكر يا أشرف الخلق (اذ قلنا لك ان ربك) أي المتفضل بالاحسان اليك بالرفق لامتك (أحاط بالناس) علما وقدرة فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فلا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا تهتم باقتراحهم وامض فيما أمرك به من تبليغ الرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك كما وعدك بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقيل ان المراد بالناس أهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم روى أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول اللهم اني أسألك عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر وكان صلى الله عليه وسلم يقول حين ورد بدرا والله كأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما أوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم عطف تعالى على وما نرسل بالآيات قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك) أي التي شاهدتها ليلة الاسراء (الا فتنة) أي امتحانا واختبارا (للناس) لانه صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان قد آمن به وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كانت امتحانا وروى البخاري في التفسير عن ابن عباس انه قال هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وتقدم أنه قول الاكثر منهم سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وما قاله بعضهم من ان الرؤيا تدل على انها رؤيا منام ضعيف اذ لا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة يقال رأيته بعيني رؤية ورؤيا ﴿فائدة﴾ قال بعض العلماء كانت اسراآته صلى الله عليه وسلم أربعا وثلاثين مرة واحدة بجسده والباقي بروحه رؤيا رآها قال ومما يدل على أن الاسراء ليلة فرض الصلاة كانت بالجسم ما ورد في بعض طرق الحديث أنه صلى الله عليه وسلم استوحش لما زج به في النور ولم ير معه أحدا اذ الارواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش قال ومما يدلك على أن الاسراء كان بجسمه ما وقع له من العطش فان الارواح المجردة لا تعطش ولما كان قد أخبر صلى الله عليه وسلم ان شجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم وكان ذلك في غاية الغرابة ضمها الى الاسراء في ذلك بقوله تعالى (والشجرة الملعونة في القرآن) لان فيها امتحانا أيضا بل قال بعض المفسرين هي على التقديم والتأخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس واختلف في هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم المذكورة في قوله تعالى ان شجرة الزقوم طعام الاثيم فكانت الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين الاول أن أبا جهل قال زعم صاحبكم ان نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال وقودها الناس والحجارة ثم يقول في النار شجرة والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر والثاني قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا منه فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات وما قدر والله حق قدره من قال ذلك فان الله تعالى قادر على أن يجعل الشجر من جنس لا تأكله النار فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد

الترك

(قوله لقد علمت
النبي
ما أنزل هؤلاء الارب
السموات والارض بصائر)
ان قلت كيف قال موسى
عليه السلام لفرعون
ذلك مع ان فرعون لم يعلم
ذلك لانه لو علم ذلك لم يقل

الترك يتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت فى النار فيذهب الوسخ وبقيت سالمة لا تعمل فيها النار وترى النعامة تبلع الجمر وتبلع الحديد المحمر باحماء النار فلا يضرها ثم أقرب من ذلك انه تعالى جعل فى الشجر نارا فلا تحرقه قال تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا (فان قيل) ليس فى القرآن لعن هذه الشجرة (أجيب) عن ذلك بوجوه الاول المراد لعن الكفار الذين يا كلونها لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وانما وصفت بلعن أصحابها على المجاز الثانى ان العرب تقول لكل طعام ضار انه ملعون الثالث ان اللعن فى اللغة الابعاد ولما كانت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الخير سميت ملعونة وقيل ان الشجرة الملعونة فى القرآن هى اليهود لقوله تعالى لعن الذين كفروا الآية وقيل هى الشيطان وقيل أبو جهل وعن ابن عباس هى الكشوث التى تتلوى بالشجر تجعل فى الشراب ه ولما ذكر سبحانه وتعالى أنه يرسل بالآيات تخويفا قال هنا أيضا (ونخوفهم فما يزيدهم) اى الكافرين والتخويف بالقرآن (الاطغيانا كبيرا) اى تجاوزا للحد هو فى غاية العظم فبتقدير أن يظهر الله تعالى لهم المعجزات التى اقترحوها لم يزدادوا بها الا تماديا فى الجهل والعناد فاقتضت الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات فانهم قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم فكيف يخاف قوم هذه حالهم بارسال ما يقترحون من الآيات ه ولما نازع القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد أما الكبر فلان تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد وأما الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة فبين تعالى ان هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا ابليس على الخروج عن الايمان والدخول فى الكفر بقوله تعالى (واذ) اى واذكر اذ (قلنا) بما لنا من العظمة التى لا ينقض مرادها (للملائكة) حين خلقنا أباك آدم وفضلناه (اسجدوا لآدم) اى امتثالا لامرى (فسجدوا الا ابليس) اى ابى أن يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه ما يعلمه من قدرة الله وعظمته وذلك معنى قوله تعالى (قال) اى منكرا متكبرا (أأسجد) اى خضوعا (لمن خلقت) حال كون اصله (طينا) فكفر بنسبته لنا الى الجور متخيلا انه أفضل من آدم عليه السلام من حيث ان الفروع ترجع الى الاصول وان النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم وذهب عنه ان الطين أنفع من النار وعلى تقدير التنزل فالجواهر كلها من جنس واحد والله تعالى هو الذى أوجدها من العدم يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الاعراض وقد ذكر الله تعالى هذه القصة فى سبع سور وهى البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم فى البقرة ولعل هذه القصة انما كررت تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان فى محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه فكأنه تعالى يقول ألا ترى ان أول الانبياء هو آدم عليه السلام ثم انه كان فى محنة شديدة من ابليس وان الكبر والحسد كل منهما بلية عظيمة ومحنة عظيمة للخلق وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا ولم يدخل ورش وابن كثير بينهما ألفا ولورش أيضا ابدال الثانية ألفا واذا وقف حمزة سهل الثانية كقراءة ابن كثير وقرأ هشام بالتحقيق فى الثانية والتسهيل وادخال ألف بينهما وقرأ الباقون

لموسى عليه السلام
مسحورا بل كان يؤمن به
(قلت) معناه لقد علمت
لو نظرت نظرا صحيحا ولكنك
معاند مكابر تخشى فوات
دعوى الالهية لو صدقتنى
(قوله وانى لاظنك يافرعون

بتحقيقهما بلا ادخال * ولما أخبر تعالى بتكبره كان كأنه قيل ان هذه الوقاحة عظيمة واجتراء على الجناب الاعلى فهل كان منه غير ذلك قيل (قال أرايتك) أى أخبرنى وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش وجه ثان وهو ان يبدلها ألفا وأسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق (هذا الذى كرمت على) لم كرمته على مع ضعفه وقوّتى فكأنه قيل لقد أتى بالغاية فى اساءة الادب فما كان بعد هذا فقيل قال مقسما لاجل استبعاد ان يجترئ أحد هذه الجراءة على الملك الاعلى (لئن أخرتن) أى أيها الملك الاعلى تاخيرا ممتدا (الى يوم القيامة) حيا متمكنا وجواب القسم الموطأة باللام (لأحتنكن) أى بالاغواء (ذريته) أى لاستولين عليهم استيلاء من جعل فى حنك الدابة الاسفل حبلا يقودها به فلا تأبى عليه وقرأ نافع وأبو عمرو بزيادة ياء بعد النون فى أخرتنى عند الوصل وحذفها فى الوقف وأثبتها ابن كثير وصلا ووقفا وحذفها الباقون وقفا ووصلا اتباعا للرسم * ولما علم أنه لا يقدر على الجميع قال (الا قليلا) وهم أولياؤك الذين حفظتهم منى كما قال تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان (فان قيل) كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق بذرية آدم (أجيب) بأوجه الاول انه سمع الملائكة يقولون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فعرف هذه الاحوال الثانى انه وسوس الى آدم ولم يجد له عزما فقال الظاهر ان أولاده يكونون مثله فى ضعف العزم الثالث انه عرف انه مركب من قوة بهيمية شهوية وقوة وهمية شيطانية وقوة عقلية ملكية وقوة سبعية غضبية وعرف ان بعض تلك القوى تكون هى المستولية فى بعض أول الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل فى آخر الامر ومن كان كذلك كان ماذكره ابليس لازما له ثم كأنه قيل لقد أطال عدو الله الاجتراء فما قال له ربه بعد ذلك فقيل (قال) مهدا له (اذهب) أى امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سوّلت له نفسه وتقدم فى الحجر انه انما يؤخر الى يوم الوقت المعلوم وهو يوم ينفخ فى الصور لا انه يؤخر الى يوم القيامة كما طلب وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء الموحدة فى الفاء وأظهرها الباقون * ولما حكم تعالى بشقاوته وشقاوة من أراد طاعته له تسبب عنه قوله تعالى (فمن تبعك منهم) أى أولاد آدم عليه السلام (فان جهنم) اى الطبقة النارية التى تجهم داخلها (جزاؤكم) أى جزاؤك وجزاء اتباعك تجزون ذلك (جزاء موفورا) أى مكملا وافيا بما تستحقون على أعمالكم الخبيثة * ولما طلب ابليس اللعين من الله تعالى الامهال الى يوم القيامة لاجل ان يحتنك ذرية آدم ذكر الله تعالى له أشياء الاول اذهب أى امض كأمر فانى أمهلتك هذه المدة وليس من الذهاب الذى هو ضد المجئ * الثانى قوله تعالى (واستفزز) أى استخف (من استطعت منهم) أن تستفزه وهم الذين سلطناك عليهم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله تعالى فهو من جند ابليس وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب الثالث قوله تعالى (واجلب) أى صح (عليهم) من الجلبة وهى الصياح (بخيلك ورجلك) واختلفوا فى الخيل والرجل على أقوال الاول روى أبو الضحى عن ابن عباس انه قال كل راكب وراجل فى معصية الله تعالى وعلى هذا فخيله ورجله كل من شاركه فى الدعاء الى المعصية الثانى يحتمل ان يكون لابليس جيش من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل الثالث ان المراد منه ضرب المثل

كما

مثبورا) اى هالكا
أو مطرودا أو خاسرا (ان
قلت) كيف قال له لاظنك
مع انه يعلم انه مثبور
(قلت) الظن هنا بمعنى
العلم كما فى قوله تعالى الذين
يظنون انهم ملاقوا ربهم

كناية الرجل الجد في الامر جدا بالخيل والرجل قال الرازي وهذا أقرب وقال الزمخشري هو كلام ورد مورد التمثيل مثل في تسلطه على من يغويه بمغوار وقع على قوم فصوّت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم والخيل تقع على الفرسان قال صلى الله عليه وسلم يا خيل الله اركبي وقد تقع على الافراس خاصة وقرأ حفص عن عاصم بكسر الجيم وسكنها الباقون جمع راجل كصاحب وصحب وراكب وركب ورجل بالكسر والضم لغتان مثل حدث وحدث وهو مفرد اريد به الجمع * الرابع قوله تعالى (وشاركهم في الاموال والاولاد) أما المشاركة في الاموال فقال مجاهد هو كل ما اصيب من حرام او انفق في حرام وقال قتادة هو جعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وقال الضحاك هو ما يذبحونه لآلهتهم وقال عكرمة هو تبتيكهم آذان الانعام وقيل هو جعلهم من أموالهم شيأ لغير الله كقولهم هذا لله وهذا لشركائنا ولا منافاة بين جميع هذه الاقوال وأما المشاركة في الاولاد فقال عطاء عن ابن عباس هو تسمية الاولاد بعبد شمس وعبد العزى وعبد الحرث وعبد الدار ونحوها وقال الحسن هو انهم هوّدوا اولادهم ونصروهم ومجسوهم وروي عن جعفر بن محمد ان الشيطان يقعد على ذكر الرجل فاذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل ويقال في جميع هذه الاقوال أيضا ما تقدم وروي ان رجلا قال لابن عباس ان امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن وفي الآثار ان ابليس لما خرج الى الارض قال يارب أخرجتني من الجنة لاجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته قال أنت مسلط قال لا استطيعه الا بك فزدني قال استفزز من استطعت منهم بصوتك قال آدم يارب سلطت ابليس علي وعلى ذريتي واني لا أستطيعه الا بك قال لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظونه قال زدني قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال زدني قال التوبة مفروضة ما دام الروح في الجسد فقال زدني فقال يا عبادي الذين أسرفوا الآية وفي الطبراني ابليس قال يارب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قرآني قال الشعر قال فما كتابي قال الوشم قال ومن رسولي قال الكهنة قال فما طعامي قال ما لم يذكر عليه اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال وأين مسكني قال الحمامات قال وأين مجلسي قال الاسواق قال وما حبائلي قال النساء قال وما أذاني قال المزمار * الخامس قوله تعالى (وعدهم) أي من المواعيد الباطلة ما يستخفهم ويغرهم من ذلك وعدهم بان لا جنة ولا نار ومن ذلك شفاعة الآلهة والكرامة على الله تعالى بالانساب الشريفة وتسويف التوبة وايثار العاجل على الآجل ونحو ذلك وقوله تعالى (وما يعدهم الشيطان) من باب الالتفات واقامة الظاهر مقام المضمر ولو جرى على سنن الكلام الاول لقال وما تعدهم بالتاء من فوق وقوله تعالى (الا غرورا) فيه أوجه أحدها انه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر والاصل الا وعدا غرورا الثاني انه مفعول من أجله اي ما يعدهم من الاماني الكاذبة الا لاجل الغرور الثالث انه مفعول به على الاتساع أي ما يعدهم الا الغرور نفسه والغرور تزيين الباطل بما يظن انه حق (فان قيل) كيف ذكر الله تعالى هذه الاشياء لابليس وهو يقول ان الله لا يأمر بالفحشاء (اجيب) بان هذا على طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وكقول القائل اعمل

وانما عبر بالظن ليقابل قول فرعون له لاظنك مسحورا كأنه قال ان ظننتني مسحورا فانا أظنك مثبورا (قوله يخرون للاذقان) كرره لان الاول وقع في حال

ماشئت فسوف ترى وكما يقال اجهد جهدك فسوف ترى ما ينزل بك * ولما قال الله تعالى له افعل ما تقدر عليه قال تعالى (ان عبادي) أي الذين اهلتهم للاضافة الى نفسي وانجو عبوديتي بالتقوى والاحسان (ليس لك عليهم سلطان) اى فلا تقدر ان تغويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر فإني وفقتهم للتوكل علي فكفيتهم أمرك (وكفى بربك) اى الموجد لك (وكيلا) أى حافظا لهم منك * ولما ذكر تعالى انه الوكيل الذى لا كافي غيره اتبعه ببعض افعاله الدالة على ذلك بقوله تعالى (ربكم) أى المتصرف فيكم هو (الذى يزجي) اى يجري (لكم الفلك) ومنها التي حملكم فيها مع أبيكم نوح عليه الصلاة والسلام (في البحر لتبتغوا) اى لتطلبوا (من فضله) الربح وأنواع الامتعة التي لا تكون عندكم ثم انه تعالى علل ذلك بقوله عز وجل (انه) أى فعل سبحانه وتعالى ذلك لانه (كان) أى ازلا وأبدا (بكم رحيما) حيث هيأ لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من أسبابه * (تنبيه) * الخطاب في قوله ربكم وفي قوله تعالى انه كان بكم عام في حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها وأما قوله تعالى (واذا مسكم الضر) اى الشدة (في البحر) خطاب للكفار بدليل قوله تعالى (ضل) أى غاب عن ذكركم وخواطركم (من تدعون) أى تعبدون من الآلهة (الا اياه) وحده فاخلصتم له الدعاء لعلمكم أنه لا ينجيكم سواه (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم بالتدريج (الى البر أعرضتم) عن الاخلاص له ورجعتم الى الاشراك (وكان الانسان) أى هذا النوع (كفورا) أى جحودا للنعم بسبب انه عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره وقوله تعالى (أفأمنتم) الهمزة فيه للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم من البحر فأمنتم بعد خروجكم منه (أن نخسف بكم جانب البر) نغيبكم في أى جانب كان منه لان قدرتنا على التغييب في الماء والتراب على السواء فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله تعالى في جميع الجوانب (أو) أمنتم أن (نرسل عليكم) من جهة الفوق شيئا من أمرنا (حاصبا) أى نمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم لوط قال الله تعالى انا أرسلنا عليهم حاصبا وقيل الحاصب الريح (ثم لا تجدوا لكم) أيها الناس (وكيلا) ينجيكم من ذلك ولا من غيره كما لم تجدوا في البحر وكيلا غيره (أم أمنتم) أي جاوزت بكم الغباوة حدها فلم تجوزوا ذلك (أن نعيدكم فيه) أى البحر الذى يضطركم الى ذلك فنقسركم عليه وان كرهتم (تارة أخرى) بأسباب تضطركم الى أن ترجعوا فتركبوه (فنرسل عليكم قاصفا من الريح) أى ريحا شديدة لا تمر بشيء الا قصفته فتكسر فلككم (فنغرقكم) في البحر الذى أعدناكم فيه بقدرتنا (بما كفرتم) أى بسبب اشراككم وكفرانكم نعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى مطالبا يطالبنا بما فعلنا بكم * (تنبيه) * تارة بمعنى مرة وكرة فهي مصدر وتجمع على تير وتارات قال الشاعر

وانسان عيني يحسر الماء تارة * فيبدو وتارات يجم فيغرق

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ان نخسف او نرسل ان نعيدكم فنرسل فنغرقكم بجميع هذه الخمسة بنون العظمة والباقون بياء الغيبة والقراءة الاولى على سبيل الالتفات من الغائب في قوله تعالى ربكم الى آخره والقراءة الثانية على سنن ما تقدم من الغيبة * ثم ان الله تعالى ذكر نعمة

السجود والثاني في حال البكاء والاول واقع في قراءة القرآن أو سماعه والثاني في غير ذلك

* (سورة الكهف) *

(قوله قيما) * ان قلت ما فائدة ذكره بعد قوله ولم

اخرى رفيعة جليلة على الانسان وذكر فيه أربعة أنواع النوع الاول قوله تعالى (ولقد كرمنا) أى بعظمتنا تكريما عظيما (بنى آدم) وحذف متعلق التكريم فلهذا اختلف المفسرون فيه فقال ابن عباس كل شئ يأكل بفيه الا ابن آدم فانه يأكل بيده وعن الرشيد انه أحضر طعاما عنده فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له جاء فى تفسير جدك ابن عباس ولقد كرمنا بنى آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فاحضرت الملاعق فردها وأكل باصابعه وروى عن ابن عباس انه قال بالعقل وقال الضحاك بالنطق والتمييز وقيل على سائر الطين بالنمو وعلى النامى بالحياة وعلى سائر الحيوان بالنطق وقال عطاء بتعديل القامة وامتدادها والدواب منكبة على وجوهها قال بعضهم وينبغى ان يشترط مع هذا شرط وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية والحسية والحركية والا فالاشجار أطول قامة من الانسان وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بان سخر لهم سائر الاشياء وقيل بانهم خير أمة أخرجت للناس وقيل بحسن الصورة قال تعالى وصوركم فاحسن صوركم ولما ذكر الله تعالى خلقة الانسان وهى ولقد خلقنا الانسان الآية قال فتبارك الله أحسن الخالقين قال الرازى فان شئت فتأمل عضوا واحدا من أعضاء الانسان وهى العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض العين ثم أحاط بذلك البياض سواد الاشفار ثم أحاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق ذلك البياض سواد الشعر وليكن هذا المثال الواحد انموذجا لك فى هذا الباب انتهى واستدل أيضا لشرف الانسان بان الموجود اما أن يكون أزليا وأبديا وهو الله تعالى واما أن لا يكون لا أزليا ولا أبديا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا أخس الاقسام واما أن يكون أزليا ولا يكون أبديا وهذا ممتنع الوجود لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه واما أن لا يكون أزليا ولكنه يكون أبديا وهو الانسان والملك ولا شك ان هذا القسم أشرف من القسم الثانى والثالث وذلك يقتضى كون الانسان أشرف من أكثر المخلوقات * النوع الثانى قوله تعالى (وحملناهم فى البر) على الدواب وغيرها (و) فى (البحر) على السفن وغيرها من حملته حملا اذا جعلت له ما يركبه او حملناهم فيهما حتى لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم فى الماء * النوع الثالث قوله تعالى (ورزقناهم من الطيبات) أى المستلذات من الثمرات والاقوات وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين فان الانسان انما يتغذى بالطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما لا يحصل الا للانسان * النوع الرابع قوله تعالى (وفضلناهم) فى أنفسهم باحسان الشكل وفى صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة الدارين (على كثير ممن خلقنا) أى بعظمتنا التى خلقناهم بها وأكد الفعل بالمصدر اشارة الى اعزازهم فى الفضيلة فقال تعالى (تفضيلا) * (تنبيه) * ظاهر الآية يدل على فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل وقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهو قول ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدى فى بسيطه وقال الكلبى فضلوا على جميع الخلائق كلهم الا على

يجعل له عوجا لان نفى العوج يستلزم الاقامة (قلت) فائدته التاكيد فى وصف كتاب الله العظيم أو معنى قيما انه قائم على الكتب السماوية كلها مصدقا لها ناسخا

طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وأشباههم وقال قوم فضلوا على جميع الخلق وعلى جميع الملائكة كلهم وقد يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى هل أنبئكم على من تنزل الشياطين الى قوله تعالى وأكثرهم كاذبون أى كلهم وروى جابر يرفعه قال لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان والاولى كما قاله بعض المفسرين كالبغوى وابن عادل أن يقال عوام الملائكة أفضل من عوام المؤمنين وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة قال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال المؤمن أكرم على الله من الملائكة عنده رواه البغوى ورواه الواحدى فى بسيطه (فان قيل) قال تعالى فى أول الآية ولقد كرمنا بنى آدم وقال فى آخرها وفضلناهم فلا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والالزم التكرار (أجيب) بأنه تعالى فضل الانسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم انه سبحانه وتعالى عرضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة * ولما ذكر تعالى أنواع كرامات الانسان فى الدنيا شرح أحوال درجاته فى الآخرة بقوله تعالى (يوم) أى اذكر يوم (ندعوا) أى بتلك العظمة (كل أناس) أى منكم (بامامهم) الامام فى اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبى امام أمته والخليفة امام رعيته والقرآن امام المسلمين وامام القوم هو الذى يقتدون به فى الصلاة وذكروا فى تفسير الامام هنا أقوالا أحدها امامهم نبيهم روى ذلك مرفوعا عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فينادى يوم القيامة يا أمة ابراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الانبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ثم ينادى الاتباع يا اتباع نمرود يا أتباع فرعون يا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر الثانى أن امامهم كتابهم الذى أنزل عليهم فينادى فى القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الانجيل الثالث امامهم كتاب أعمالهم قال تعالى وكل شئ أحصيناه فى امام مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب اماما قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير أن الامام جمع أم وان الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم دون آبائهم وان الحكمة فيه رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وأن لا تفتضح أولاد الزنا قال وليت شعرى أيهما أبدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته قال ابن عادل وهو معذور لان أما لا يجمع على امام هذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب (فمن أوتى) أى من المدعوين (كتابه) أى كتاب عمله (بيمينه) وهم السعداء أولو البصائر فى الدنيا (فأولئك يقرؤن كتابهم) ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه من الحسنات (ولا يظلمون) بنقص حسنة تامن ظالم ما (فتيلا) أى شيأ فى غاية القلة والحقارة بل يزدادون بحسب اخلاص النيات وطهارة الاخلاق وزكاء الاعمال *(تنبيه)* الفتيل القشرة التى فى شق النواة تسمى بذلك لانه اذا رام الانسان اخراجه انفتل وهذا مثل يضرب للشئ الحقير التافه ومثله القطمير وهو

لبعض شراحها وتعقب بأنه يقدر تقديره لكن جعله قيما (قوله فنعم) اى الحزبين (قوله فنعم اى لنعامه علم ظهور الخ) اى ومشاهدة (قوله وثامنهم كلبهم) الواو فيه زائدة وقيل مستأنفة وقيل واو

الغلالة التى فى ظهر النواة والنقير وهى النقرة التى فى ظهر النواة وروى مجاهد عن ابن عباس قال الفتيل هو الوسخ الذى يفتله الانسان بين سبابته وابهامه (فان قيل) لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أهل الشمال يقرؤنه (أجيب) بان أصحاب الشمال اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة فيستولى الخوف على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزون عن القراءة الكاملة وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم على أحسن الوجوه ثم لا يقنعون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارئ لاهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا منهم ثم قال الله تعالى (ومن كان منهم فى هذه) أى الدار (أعمى) أى ضالا يعمل فى الافعال فعل الاعمى فى أخذ الاعيان لا يهتدى الى أخذ ما ينفعه وترك ما يضره ولا يميز بين حسن وقبيح (فهو فى الآخرة أعمى) أى أشد عمى مما كان عليه فى هذه الدار لا ينجح له قصد ولا يهتدى لصواب ولم يقل تعالى أشد عمى كما يقال فى الخلق اللازمة لحالة واحدة مثل العور والحمرة والسواد ونحوها لان هذا مراد به عمى القلب الذى من شانه التزايد والحدوث فى كل لحظة شيأ بعد شئ (وأضل سبيلا) لان هذه الدار دار الاكتساب والترقى فى الاسباب وأما تلك فليس فيها شئ من ذلك وقال عكرمة جاء نفر من أهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال اقرؤا ما قبلها فقرؤا ربكم الذى يزجى لكم الفلك الى قوله تفضيلا فقال ابن عباس من كان أعمى فى هذه النعم التى قد رأى وعاين فهو فى الآخرة التى لم يعاين ولم ير أعمى وأضل سبيلا وعلى هذا فالاشارة فى قوله هذه الى النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة وحمل بعضهم العمى الثانى على عمى العين والبصر كما قال تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة فى عقوبتهم ولما عدد تعالى فى الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه وأتبعها بذكر درجات الخلق فى الآخرة وشرح أحوال السعداء أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء عن الاغترار بوسواس أرباب الضلال والانخداع بكلماتهم المشتملة على المكر والتلبيس فقال تعالى (وان كادوا) أى قاربوا فى هذه الحياة الدنيا بمالهم فى أنفسهم من عصمة الله تعالى لك ولما كانت ان هذه هى المخففة من الثقيلة أتى باللام الفارقة بينها وبين النافية بقوله تعالى (ليفتنونك) أى ليخالطونك مخالطة تميلك الى جهة قصدهم لكثرة خداعهم واختلف فى سبب نزول هذه الآية فروى عطاء عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال وما هن قالوا أن لا نجبى فى الصلاة بفتح الجيم والباء الموحدة المشددة أى لا ننحنى فيها ولا نكسر أصنامنا الا بايدينا ٣ وأن لا تمتعنا من اللات والعزى سنة من غير أن نعبدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما أن تكسروا أصنامكم بايديكم فذلك لكم وأما الطاغية يعنى اللات والعزى فانى غير ممتعكم بها وفى رواية وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله صلى الله

الثمانية كما فى قوله وفتحت أبوابها وقال الزمخشرى وغيره هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الصفة الواقعة حالا عن المعرفة تقول جاءنى رجل

٣ قوله وان لا تمتعنا الخ هكذا بالاصول التى بايدينا والذى فى حاشية العلامة الجمل نقلا عن البيضاوى وعن الخازن أيضا وأن تمتعنا باللات سنة الخ وهو المناسب لقوله الآتى فانى غير ممتعكم اه مصححه

عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا يا رسول الله انا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا مالم تعط غيرنا فان خشيت أن تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فانزل الله تعالى هذه الآية وقال سعيد بن جبير كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الاسود فمنعه قريش وقالوا لا ندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث صلى الله عليه وسلم نفسه ما على أن أفعل ذلك والله يعلم اني لها لكاره بعد أن يدعوني حتى استلم الحجر فانزل الله تعالى هذه الآية وروى ان قريشا قالوا له اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت وان كادوا ليفتنونك (عن الذي أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى) أي لتتقول (علينا غيره) أي مالم نقله (واذا) أي لو ملت الى ما دعوك اليه (لاتخذوك) أي بغاية الرغبة (خليلا) أي لو الوك وصافوك وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم ومن يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى ولكنك أبصرت رشدك فلزمت أمر الله واستمروا على عداهم اتماما لتفضيلنا لك على كل مخلوق (ولولا أن ثبتناك) أي على الحق بعصمتنا اياك (لقد كدت) أي قاربت (تركن) أي تميل (اليهم) أي الى الاعداء (شيئا) أي ركونا (قليلا) لهمتك في هدايتهم وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعناك أن تقرب من الركون فضلا من أن تركن اليهم لان كلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره تقول لولا زيد لهلك عمرو ومعناه ان وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو فكذلك ههنا قوله تعالى ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم معناه لولا حصل تثبيت الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان تثبيت الله مانعا من حصول قرب الركون وهذا صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم باجابتهم مع قوة الداعي اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه (اذا) أي لو قاربت الركون الموصوف اليهم (لاذقناك ضعف) عذاب (الحيوة وضعف) عذاب (الممات) أي مثلي ما يعذب غيرك في الدنيا والآخرة وكان أصل الكلام عذابا ضعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وضعف الممات عذاب القبر والسبب في تضعيف هذا العذاب ان أقسام نعمة الله تعالى في حق الانبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وقيل الضعف من أسماء العذاب (ثم لا تجد لك) أي وان كنت أعظم الخلق وأعلاهم مرتبة وهمة (علينا نصيرا) أي مانعا يمنعك من عذابنا واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى (وان) أي وانهم (كادوا) أي الاعداء (ليستفزونك) أي ليزعجونك بعداواتهم (من الارض ليخرجوك منها) فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا أبا القاسم ان الانبياء انما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام آمنا بك واتبعناك وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج الا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله يمنعك منهم فعسكر

ومعه آخر ومررت بزيد وبيده سيف ومنه قوله وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم وفائدتها توكيد اتصال الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت

رسول

رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذى الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشام فيدخلون فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع وهذا قول الكلبى وعلى هذا فالآية مدنية والمراد بالارض أرض المدينة وقال قتادة ومجاهد الارض أرض مكة والآية مكية هم المشركون أن يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى أمره بالهجرة فخرج بنفسه قال ابن عادل تبعا للرازى وهذا أليق بالآية لان ماقبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وهذا اختيار الزجاج وكثير فى التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله تعالى أو ينفوا من الارض أى من مواضعهم وقوله تعالى حكاية عن أخى يوسف فلن أبرح الارض يعنى الارض التى كان قصدها لطلب الميرة (فان قيل) قال تعالى وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك يعنى أهل مكة فالمراد أهلها فذكر تعالى أنهم أخرجوه وقال تعالى وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف الجمع بينهما على القول الثانى (أجيب) بانهم هموا باخراجه وهو صلى الله عليه وسلم ماخرج بسبب اخراجهم وانما خرج بامر الله تعالى وحينئذ فلا تناقض (واذا) أى واذا أخرجوك (لايلبثون خلافك) أى بعد اخراجك لو أخرجوك (الا) زمنا (قليلا) وقد كان كذلك على القول الثانى فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته وعلى القول الاول قتل منهم بنى قريظة وأجلى بنى النضير بقليل وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بفتح الخاء وسكون اللام والباقون بكسر الخاء وفتح اللام وبعدها ألف قال الشاعر

عفت الديار (أى اندرست) خلافهم أى (خلفهم) فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

الشواطب النساء اللاتى يشققن الجريد ليعملن منه الحصير والشطب والشواطب سعف النخل الاخضر يصف دروس ديار الاحبة بعدهم وانها غير مكنوسة كأنما بسط فيها سعف النخل ولما أخبر بذلك أعلم أنه سنة فى جميع الرسل بقوله تعالى (سنة) أى كسنة أو سننا بك سنة (من قد أرسلنا قبلك) أى فى الازمان الماضية كلها (من رسلنا) أنا نهلك كل أمة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم والسنة لله واضافتها الى الرسل لانها من أجلهم ويدل عليه قوله تعالى (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى تغييرا ولما قرر تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الالهيات والمعاد والنبوات أردفها بذكر الامر بالطاعة وأشرف الطاعة بعد الايمان الصلاة فلذلك قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (أقم الصلوة) بفعل جميع أركانها وشرائطها بحيث تصير كأنها قائمة بنفسها فانها سالب العبادة لما فيها من المناجاة والاعراض عن كل غير وفناء عن كل سوى بما أشرق من أنوار الحضرة التى قد اضمحل اليها كل فان وفى ذلك اشارة عظيمة الى ان الصلاة أعظم ناصر على الاعداء الذين يريدون بمكرهم استفزاز الاولياء ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ثم عين له الاوقات بقوله تعالى (لدلوك الشمس) فى هذه اللام قولان أحدهما انها بمعنى بعد أى بعد دلوك الشمس ومثله قول متمم

فلما تفرقنا كأنى ومالكا * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

والثانى انها على بابها لانها انما تجب بزوال الشمس والدلوك مصدر دلكت الشمس وفيه أقوال أحدها انه الزوال وهو قول ابن عباس وابن عمر وجابر وأكثر التابعين ويدل لذلك قوله

مستقر (قوله لا مبدل لكلماته) أى من البشر والافالله يبدلها قال تعالى ماننسخ من آية أوننسها نأت بخير منها أومثلها وقال واذا بدلنا آية مكان آية الآية (قوله فان شاء

صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقول أهل اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة والثاني انه الغروب وهو قول ابن مسعود ونقله الواحدي في البسيط عن علي رضي الله تعالى عنه وبه قال ابراهيم النخعي والضحاك والسدي وهو اختيار الفراء وكما يقال للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة يقال لها أيضا اذا غربت دالكة لانها في الحالين زائلة قال الازهري والثالث انه من الزوال الى الغروب وقال في القاموس دلكت الشمس غربت أو اصفرت أو مالت أو زالت عن كبد السماء فخينئذ في هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من استعمال المشترك في معانيه أما في الظهر والمغرب فواضح لما مر وأما العصر فلان أول وقتها أول أخذ الشمس في الاصفرار وأدل دليل على ذلك أنه تعالى غيا الاقامة لوقت العشاء بقوله تعالى (الى غسق الليل) أي ظلمته وهو وقت صلاة عشاء الآخرة والغاية أيضا هنا داخلة لما سياتي وقد أجمعوا على أن المراد من قوله تعالى (وقرآن الفجر) أي صلاة الصبح وهو منصوب قيل على الاغراء أي وعليك بقرآن الفجر ورد بان أسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقال الفراء انه منصوب بالعطف على الصلاة في قوله تعالى أقم الصلاة والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر وحينئذ تدخل الصلوات الخمس في هذه الآية قال ابن عادل كالرازي وحمل كلام الله تعالى على ما يكون أكثر فائدة أولى انتهى وسميت صلاة الصبح قرآنا لاشتمالها عليه وان كانت بقية الصلوات أيضا مشتملة عليه لانه يطول فيها في القراءة ما لا يطول في غيرها فالمقصود من قوله تعالى وقرآن الفجر الحث على طول القراءة فيها أكثر من غيرها لان التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره ولما كان القيام عن المنام يشق على مرغبا مظهرا غير مضمر لان المقام مقام تعظيم فقال (ان قرآن الفجر كان مشهودا) أي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار قال الرازي ثم ان ملائكة الليل اذا صعدت قالت يا رب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار يا ربنا أتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى لملائكته اشهدوا باني قد غفرت لهم وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا وهذا يدل على ان التغليس أولى من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الوقت ففي ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرة ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار وأما اذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت التنوير فهنالك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فقوله كان مشهودا يدل على ان التغليس أفضل وأيضا الانسان اذا شرع في صلاة الصبح من أول هذا الوقت فكانت الظلمة القوية في العالم فاذا امتدت القراءة في أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة مناسبة

للموت

فليؤمن ومن شاء فليكفر) ان قلت في هذه اباحة للكفر (قلت) لا لان هذا انما ذكر تهديدا لهم بناء على ان الضمير في شاء لمن وعليه الجمهور والمعنى فمن شاء الله ايمانه آمن

للموت والعدم والضوء مناسب للحياة والوجود فالانسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود ومن السكون الى الحركة وهذه الحالة العجيبة تشهد العقول بأنه لا يقدر على هذا التقليب الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة فحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة ويتخلص من مرض قلبه فان اكثر الخلق وقعوا في أمراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى اذا كانت مملوأة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما كان يقوى مرضه فلا يعود الى الصحة الا بعلاجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في اكثر الامر لان الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى في ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه وان لم يقدر على ازالته فانه يسعى في تقليله وفي تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستوليا على الخلق ولا علاج له الا بالدعوى الى معرفة الله سبحانه وتعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لا جرم أن الانبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض فحملوا الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم لانه مما ينفع في ازالة هذا المرض * ثم حث سبحانه وتعالى على التهجد لافضليته وأرشديته بقوله عز من قائل (ومن الليل) أي وعليك أو وقم بعض الليل (فتهجد به) أي واترك الهجود للصلاة يقال هجد وتهجد نام ليلا وهجد وتهجد سهر فهو من الاضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد قاله في الصحاح والضمير في به للقرآن والمراد من الآية قيام الليل للصلاة النافلة فلا يحصل التهجد الا بصلاة تفعل بعد نوم وكانت فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته في الابتداء بقوله تعالى يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا ثم نسخ بما في آخرها ثم نسخ بما في الصلوات الخمس وبقي قيام الليل على الاستحباب بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقي الوجوب في حقه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى (نافلة لك) أي زيادة لك مختصة بك وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن على فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل والصحيح أنه نسخ في حقه أيضا ودليل النسخ رواه مسلم وقد وردت أحاديث كثيرة في قيام الليل منها ما روي عن المغيرة بن شعبة أنه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ومنها ما روي عن زيد بن خالد الجهني أنه قال لارمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة ٣ فلهذا قيل انه أكثر الوتر وهو أحد قولي الشافعي والمرجح عنده ان اكثره احدى عشرة ركعة لما رواه أبو سلمة أنه سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على احدى عشرة ركعة أي وترا يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت عائشة رضي الله تعالى عنها فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة ان عيني تنام ولا ينام قلبي ومنها ما روي عن أنس بن مالك قال

ومن شاء كفره كذبه على ان الضمير فيه لله كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما (قوله يحلون فيها من أساور من ذهب) ان قلت ان لبس الذهب في الدنيا حرام على الرجال فكيف وعد الله

٣ قوله فذلك الخ هكذا بالاصل والمعدود هنا احدى عشرة ركعة الا ان كان المراد بقوله ثم أوتر انه أتى بثلاث ركعات فليحرر الحديث اه مصححه

ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل مصليا الا رأيناه وما نشاء ان نراه نائما الا رأيناه وفي رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيأ ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيأ ثم قال تعالى (عسى أن يبعثك ربك) اى المحسن اليك (مقاما محمودا) اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله واجب قال أهل المعاني لان لفظة عسى تفيد الاطماع ومن أطمع انسانا في شئ ثم حرمه كان عارا والله أكرم من ان يطمع احدا في شئ ثم لا يعطيه ذلك وأما المقام المحمود فقال الواحدى أجمع المفسرون على انه مقام الشفاعة كما قال صلى الله عليه وسلم في هذه الآية هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى وقال حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد فلا تتكلم نفس فاول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فقال هذا هو المراد من قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ويدل للاول أحاديث منها ماروى عن أبى هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل نبى دعوة مستجابة وانى اختبأت دعوتى شفاعتى لامتى وهى نائلة منكم ان شاء الله تعالى من مات لا يشرك بالله شيأ ومنها ماروى عن جابر انه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة ومنها ماروى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب أكله من الشجرة وقد نهى عنها ولكن ائتوا نوحا أول نبى بعثه الله الى أهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب بسؤال ربه بغير علم ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب قتله النفس ولكن ائتوا عيسى عبد الله وكلمته قال فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال فيأتونى فاستأذن على ربى فيؤذن لى فاذا رأيته وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى فيقول ارفع رأسك يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فارفع رأسى فاثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم أشفع فيحد لى حدا فاخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فاقع ساجدا فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى ثم يقول ارفع يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فارفع رأسى فاثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم اشفع فيحد لى حدا فاخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال فلا أدرى في الثالثة أو الرابعة فاقول يارب مابقى الا من حبسه القرآن اى وجب عليه الخلود وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مقاما محمودا يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق سل فتعطى

المؤمنين بها في الجنة
(قلت) عادة ملوك الفرس
والروم لبس الاساور
والتيجان دون من عداهم
فلذلك وعدالله المؤمنين
بها لانهم ملوك الآخرة
(قوله ودخل جنته)

واشفع

واشفع تشفع ليس أحد الا تحت لوائك والاخبار في الشفاعة كثيرة وفي هذا القدر كفاية لاولي البصائر جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا من أهلها الداخلين تحت شفاعة سيد الانبياء والمرسلين آمين واختلف أهل التفسير في قوله تعالى (وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) فقال ابن عباس والحسن أدخلني مدخل صدق المدينة وأخرجني مخرج صدق مكة نزل حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقال الضحاك أخرجني مخرج صدق من مكة آمنا من المشركين وأدخلني مدخل صدق ظاهرا عليها بالفتح وقال مجاهد أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب علي من حقها مخرج صدق وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخلني مدخل صدق الجنة وأخرجني مخرج صدق من مكة وقيل ادخلني في القبر مدخل صدق ادخالا مرضيا وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق اخراجا ملقى بالكرامة والجامع لهذه الاقوال ما جرى عليه البقاعي في تفسيره بقوله في كل مقام تريد ادخالي فيه حسي ومعنوي دنيا وأخرى مدخل صدق يستحق الداخل فيه ان يقال له أنت صادق في قولك وفعلك فان ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها وأخرجني من كل ما تخرجني منه مخرج صدق انتهى والمراد من المدخل والمخرج الادخال والاخراج ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لا يرى فيهما ما يكره ثم سأل الله تعالى ان يرزقه التقوية بالحجة وبالقهر والقدرة فقال (واجعل لي من لدنك) اي عندك (سلطانا نصيرا) اي حجة ظاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه انه يعصمه من الناس بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقال تعالى ألا ان حزب الله هم الغالبون وقال تعالى ليظهره على الدين كله وقال تعالى ليستخلفنهم في الارض ووعده تعالى ليظهره على الدين ووعده تعالى لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له وعنه صلى الله عليه وسلم انه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال انطلق فقد استعملتك على أهل الله فكان شديدا على المريبين المنافقين لينا على المؤمنين وقال والله لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة الا منافقا فقال أهل مكة يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد اعرابيا جافيا فقال صلى الله عليه وسلم اني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها فأعز الله تعالى الاسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير ثم أمره الله تعالى أن يخبر بالاجابة بقوله تعالى (وقل) لاوليائك وأعدائك (جاء الحق) وهو ما أمرني به ربي وأنزله الي (وزهق) أي اضمحل وبطل وهلك (الباطل) وهو كل ما يخالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالى (ان الباطل) أي وان ارتفعت له دولة وصولة (كان) في نفسه بجبلته وطبعه (زهوقا) أي لا يبقى بل يزول على أسرع الوجوه وقت ٣ وأسرع رجوع قضاء قضاه الله تعالى من الازل روى البخاري في التفسير عن ابن مسعود قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل فيجعل الصنم ينكب لوجهه وعن ابن عباس كانت لقبائل العرب أصنام يحجون اليها وينحرون لها

أفردها بعد تثنيتها البدل على الحصر أي لا جنة له غيرها ولا نصيب له في جنة غيره ولم يقصد جنة معينة من الجنتين بل جنس ما كان له في الدنيا (قوله ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها)* ان قلت

٣ قوله على أسرع الوجوه وقت هكذا بالنسخ ولعل الظاهر وقتا بالنصب فليحرر اه مصححه

فشكا البيت الى الله تعالى فقال أى رب الى متى تعبد هذه الاصنام حولى دونك فاوحى الله تعالى الى البيت انى ساحدث لك نوبة جديدة فاملؤك خدودا سجدا يدفون اليك دفيف النسور ويحنون اليك حنين الطير الى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية * ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح جاء جبريل عليه السلام وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم ألقها فجعل يأتى صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة فى عينه ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعا وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال يا على ارم به فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد ورمى به فكسره فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون ما رأينا رجلا أسحر من محمد قال الزمخشرى وشكاية البيت والوحى اليه تخييل وتمثيل * ولما بين سبحانه وتعالى الالهيات والنبوات والحشر والنشر والبعث واثبات القضاء والقدر ثم أتبعه بالامر بالصلاة ونبه على ما فيها من الاسرار وكان القرآن هو الجامع لجميع ذلك أتبعه ببيان كونه شفاء ورحمة بقوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) أى ما هو شفاء فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمريض *(تنبيه)* فى من هذه ثلاثة أوجه أحدها لبيان الجنس قاله الزمخشرى والبيضاوى وابن عطية وأبو البقاء ورد عليهم أبو حيان بان التى للبيان لابد ان يتقدمها ما تبينه لا ان تتقدم عليه وهنا قد وجدت تقدمها عليه الثانى أنها للتبعيض وأنكره الحوفى لانه يلزم ان لا يكون بعضه شفاء وأجاب أبو البقاء بان منه ما يشفى من المرض وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحى الذى لدغ بالفاتحة فشفى من المرض فيكون التبعيض بالنسبة للامراض الجسمانية والا فهو كله شفاء للابدان وللقلوب من الاعتقادات وغيرها الثالث أنها لابتداء الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح (و) من العجيب ان هذا الشفاء (لا يزيد الظالمين) وهم الذين يضعون الشئ فى غير موضعه باعراضهم عما يجب قبوله (الا خسارا) اى نقصانا لانه اذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم أعرضوا عنه فكان اعراضهم ذلك زيادة فى كفرهم كما ان قبول المؤمنين له واقبالهم على تدبره زيادة فى ايمانهم وفى الدارمى عن قتادة قال ما جالس أحد القرآن فقام عنه الا بزيادة أو نقصان ثم قرأ هذه الآية * ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلى فى وقوع هؤلاء الكافرين الجاهلين الضالين فى أودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم أن ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال تعالى (واذا أنعمنا) أى بمالنا من العظمة (على الانسان) أى هذا النوع هؤلاء وغيرهم وقال ابن عباس ان الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة قال الرازى وهذا بعيد بل المراد أى نوع الانسان اذا أنعمنا عليه (أعرض) أى عن ذكرنا ودعائنا اذ شأن نوع الانسان أنه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله متمردا عن طاعة الله كما قال تعالى ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى (ونأى) عن ذكر الله (بجانبه) اى لوى عطفه وبعد نفسه كأنه مستغن بأمره ويجوز ان يكون كناية عن الاستكبار لانه من عادة المستكبرين ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشئ أن يوليه عرض وجهه وقرأ ابن ذكوان بالف ممدودة بعد النون وتأخير الهمزة مثل جاء وفى هذه القراءة تخريجان أحدهما من ناء ينوء اى نهض والثانى انه مقلوب من نأى فيكونان بمعنى قال ابن عادل ولكن متى أمكن عدم القلب فهو أولى وقرأ الباقون بالهمزة بعد النون

كيف قال الكافر ذلك وهو ينكر البعث (قلت) معناه ولئن رددت الى ربى على زعمك ليعطينى هنالك خيرا منها ونظيره قوله فى فصلت ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وعبر

وألف بعد همزة وأمال الالف بعد الهمزة السوسي وشعبة وخلاد محضة بخلاف عن السوسي وأمالها ورش بين بين وأمال الهمزة والنون محضة خلف والكسائي وفتح الباقون (وإذا مسه الشر) اى هذا النوع وان قل (كان يؤسا) اى شديد اليأس مما يهده من رحمة ربه والحاصل أنه ان فاز بالنعمة والدولة اغتر بها ونسي ذكر الله وان بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله فهذا المسكين محروم أبدا عن ذكر الله تعالى ونظيره قوله تعالى فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن وكذلك ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الامن حفظه الله وشرفه بالاضافة اليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل كل) من الشاكر والكافر (يعمل على شاكلته) اى طريقته التي تشاكل روحه وتشاكل ما طبعناه عليه من خير أو شر (فربكم) اى فتسبب عن ذلك ان الذي خلقكم وصوركم (أعلم) من كل أحد (بمن هو) منكم (أهدى سبيلا) اى أوضح طريقا واتباعا للحق فيشكر ويصبر احتسابا بانه يعطيه الثواب وبمن هو منكم أضل سبيلا فيجعل له العقاب لانه يعلم ما طبعهم عليه في أصل الخلقة وغيره تعالى انما يعلم أمور الناس في طرائقهم بالتجربة وقد روى الامام أحمد لكن بسند منقطع عن أبي الدرداء رضى الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا واذا سمعتم برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا فانه يصير الى ما جبل عليه * واختلف في سبب نزول قوله تعالى (ويسئلونك) اى تعنتا وامتحانا (عن الروح) فعن عبد الله بن مسعود قال بينما أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض اسألوه عن الروح وقال بعضهم لاتسألوه لايجيء بشيء تكرهونه فقال بعضهم لنسألن فقام رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت فقلت انه يوحى اليه فقمت فلما انجلى عنه قال ويسئلونك عن الروح (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) قال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لاتسألوه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا فقالوا ان محمدا نشأ فينا بالصدق والامانة وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها أولم يجب عن شيء منها فليس بنبي وان أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحد فهو نبي فاسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الاول ما كان أمرهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض ومغربها وعن الروح فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثنتي عشرة ليلة وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لايخبرنا بشيء حتى حزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولاتقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ونزل في الفتية أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب ويسئلونك عن ذي القرنين ونزل في الروح ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وقول الرازي ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه

هنا بردت ونم برجعت توسعة في التعبير عن الشيء بتساو بين (قوله ان ترني أنا اقل منك مالا وولدا) فائدة ذكر أنا في مثل ذلك حصر الخبر في المبتدا كما في قوله الى أنا

وذكر من جملة ذلك كيف يليق به أن يقول انى لا أعرف هذه المسئلة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة مع جمهور الخلق غير لائق لان ذلك كان علامة على نبوته قال الزمخشرى فبين لهم القصتين وأبهم امر الروح وهو مبهم فى التوراة فندموا على سؤالهم انتهى واختلفوا فى الروح الذى وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس أنه جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة وروى عن على أنه قال ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورؤس وليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق الى الله تعالى عند الحجب السبعين وأقرب الى الله تعالى وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد منه عيسى فانه روح الله تعالى وكلمته ومعناه أنه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى وقال بعضهم هو الروح المركب فى الخلق الذى يحيا به الانسان قال البغوى وهو الاصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم هو الدم ألا ترى أن الحيوان اذا مات لا يفوت منه الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس وقال قوم عرض وقال قوم هو جسم لطيف وقال بعضهم الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى أنه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج ذهب الكل قال البغوى وأولى الاقاويل أن يوكل علمه الى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله تعالى لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله تعالى قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا اى فى جنب علم الله تعالى * (تنبيه) * اختلف فى المخاطب بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فانهم يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير وقيل عام روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم انت معنا فيه فقال نحن وأنتم لم نؤت من العلم الا قليلا فقالوا ما أعجب شانك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده الآية قال الزمخشرى وليس ما قالوه بلازم لان القلة والكثرة يدوران مع الاضافة فيوصف الشئ بالقلة مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته فالحكمة التى أوتيها العبد خير كثير فى نفسها الا انها اذا اضيفت الى علم الله فهى قليلة وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح ولكن لم يخبر به لان ترك اخباره كان علما لنبوته قال البغوى والاول أصح أن الله استأثر بعلمه انتهى وعن ابى يزيد لقد مضى النبى صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقال الرازى قوله تعالى قل الروح من امر ربى من فعل ربى وهذا الجواب يدل على انهم سألوه أن الروح قديمة او حادثة فقال بل هى حادثة وانما حصلت بفعل الله وتكوينه وايجاده ثم احتج على احداث الروح بقوله وما اوتيتم من العلم الا قليلا بمعنى ان الروح فى مبدأ الفطرة

ربك وقوله انى انا الله (قوله وخير ثوابا وخير عقبا) خير هنا ليست على بابها اذ غير الله لا يثيب ولا يعقب فى طاعته العاقبة فيكون الله خيرا منه ثوابا وعقبا او ذلك على

تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم تحصل المعارف والعلوم فهى لاتزال تكون فى التغير من حال الى حال وفى التبديل من نقصان الى كمال والتغير والتبدل من امارات الحدوث فقوله قل الروح من امر ربى يدل على انهم سالوه ان الروح هل هى حادثة اوقديمة فاجاب بانها حادثة واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه وهو المراد من قوله تعالى قل الروح من امر ربى ثم استدل على حدوث الارواح بتغيرها من حال الى حال وهو المراد بقوله وما أوتيتم من العلم الا قليلا فهذا ماتقوله فى هذا الباب انتهى وهو نص لطيف ولما بين سبحانه وتعالى أنهم ما آتاهم من العلم الا قليلا بين انه لوشاء ان يأخذ منهم ذلك القليل أيضا اقدر عليه بقوله تعالى (ولئن شئنا) اى ومشيئتنا لا يتعاظمها شئ واللام موطئة للقسم وأجاب عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط فقال (لنذهبن) اى بما لنا من العظمة ذهابا محققا (بالذى أوحينا اليك) بان نمحو احفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وان كان أمرا مخالفا للعادة الا أنه تعالى قادر عليه (ثم) اى بعد الذهاب به (لا تجد لك به علينا وكيلا) اى لاتجد من تتوكل عليه فى رد شئ منه واعادته مسطورا محفوظا وقوله تعالى (الا رحمة من ربك) استثناء متصل لانه مندرج فى قوله وكيلا والمعنى الا أن يرحمك ربك فيرده عليك اومنقطع فتقدر لكن عند البصريين او بل رحمة من ربك عند الكوفيين والمعنى ولكن رحمة من ربك او بل رحمة من ربك بتركه غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن قال الرازى وهذا تنبيه على ان لله تعالى على جميع العلماء نوعين من المنة احدهما تسهيل ذلك العلم عليهم والثانى ابقاء حفظه عليهم فعلى كل ذى علم ان لايغفل عن هاتين النعمتين وعن القيام بشكرهما وهما منة من الله تعالى عليه بحفظ العلم ورسوخه فى صدره ومنته عليه فى بقاء المحفوظ (فان قيل) كيف يذهب القرآن وهو كلام الله تعالى (أجيب) بان المراد محو مافى المصاحف واذهاب مافى الصدور وقال عبد الله بن مسعود اقرؤا القرآن قبل ان يرفع فانه لاتقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف مافى صدور الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع مافى صدورهم فيصبحون لايحفظون شيأ ولايجدون فى المصاحف شيأ ثم يفيضون فى الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال لاتقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دوى تحت العرش كدوى النحل فيقول الرب مالك فيقول يارب أتلى ولايعمل بى وفى رواية لابن مسعود أول ماتفقدون من دينكم الامانة وآخر ماتفقدون الصلاة وليصلين قوم ولادين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما ومافيكم منه شئ فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا وتعلمه أبناؤنا ويعلمه ابناؤنا أبناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع مافى القلوب وقوله تعالى (ان فضله كان) أى ولم يزل (عليك كبيرا) فيه قولان احدهما المراد منه ان فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك ثانيهما أن المراد أن فضله كان عليك كبيرا بسبب انه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود وقد أنعم عليك أيضا بابقاء العلم والقرآن عليك ونزل حين قال الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم لونشاء لقلنا مثل هذا القرآن (قل) أى لهؤلاء البعداء (لئن اجتمعت الانس) الذين تعرفونهم وتعرفون ما أوتوا من البلاغة والحكمة والذين لاتعرفونهم (والجن) الذين يأتون كهانهم ويعلمونهم ببعض المغيبات عنهم

سبيل الفرض والتقدير (قوله وحشرناهم) الخ به ماضيا مع ان ما قبله مضارعا بدونهما ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة يدل على ان حشرهم كان قبل التسيير والبروز

٣ قوله مع أن ما قبله الخ هكذا بالاصل ولعل استقامة العبارة أن يقال مع أن ما قبله مضارع لان قوله ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة يدل الخ

وغيرهم وترك الملائكة لانهم لا عهد لهم بشئ من التحدى ولانهم كانوا وسايط (على ان ياتوا بمثل هذا القرآن) فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى (لا ياتون بمثله) أى لا يقدرون على ذلك فالقرآن معجز فى النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام فى أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله *(تنبيه)* فى قوله تعالى لا يأتون بمثله قولان أظهرهما انه جواب القسم الموطأه باللام والثانى أنه جواب الشرط واعتذر واعن رفعه بان الشرط ماض فهو كقوله

*وان أتاه خليل (اى فقير) يوم مسغبة * يقول لا غائب مالى ولا حرم

لان الشرط وقع ماضيا وناقشه أبو حيان بان هذا ليس مذهب سيبويه ولا الكوفيين والمبرد لان مذهب سيبويه فى مثله ان النية به التقديم ومذهب الكوفيين والمبرد انه على حذف الفاء وهذا لمذهب ثالث قال به بعض الناس (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) اى معينا بضم أقوى مافيه الى أقوى مافى صاحبه *(تنبيه)* قد تقدم فى سورة البقرة أن الله تعالى قال فأتوا بسورة من مثله وقدمنا الكلام على ذلك وفى وجه كون القرآن معجزا قولان أحدهما أنه معجز فى نفسه والثانى أنه ليس فى نفسه معجزا الا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته وكانت الدواعى متوفرة على الاتيان بهذه المعارضة فمع التقديرات المذكورة يكون نقض العادة فيكون معجزا والقول الاول أظهر (ولقد صرفنا) اى بينا بوجوه مختلفة زيادة فى التقرير والبيان (للناس فى هذا القرآن من كل مثل) اى من كل معنى هو كالمثل فى غرابته ووقوعه موقعا فى الانفس وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها وقيل صفة لمحذوف اى مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا (فأبى أكثر الناس) وهم من هم فى صورة الناس ككفار قريش قد سلبوا معانيهم (الا كفورا) اى جحودا (فان قيل) كيف جاز فأبى أكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا (أجيب) بان أبى متاول بالنفى كانه قيل فلم يرضوا الا كفورا * ولما تبين بالدليل اعجاز القرآن على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتحير فى أذيال الحيرة وذكروا من ذلك ستة أنواع من المعجزات أولها (وقالوا) اى كفار قريش ومن والاهم (لن نؤمن لك حتى تفجر) أى تفجيرا عظيما (لنا من الارض ينبوعا) أى عينا غزيرة الماء من شأنها ان تنبع بالماء ولا ينضب ماؤها وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم المشددة ثانيها قولهم (أو تكون لك) أنت وحدك (جنة من نخيل وعنب) أى وأشجار عنب عبر عنها بالثمرة لان الانتفاع منه بغيرها قليل (فتفجر الانهار) الجارية (خلالها) اى وسطها (تفجيرا) اى تشقيقا والفجر شق الظلام عن عمود الصبح والفجور شق جلباب الحياء بما يخرج الى الفساد ثالثها قولهم (أو تسقط السماء) اى نفسها (كما زعمت) فيما تتوعدنا به (علينا كسفا) اى قطعا جمع كسفة وهى القطعة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بنصب السين مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر والباقون بسكونها مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر وهو نصب على الحال فى القراءتين جميعا كانه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة رابعها قولهم (أو تأتى) معك (بالله) اى الملك الاعظم

(والملائكة

ليعاينوا تلك الاهوال والعظائم كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك (قوله مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها) ان قلت كيف قال ذلك مع ان

(والملائكة قبيلا) أي عيانا ومقابلة تنظر اليه لا يخفى علينا شيء منه وقال البغوي هو جمع قبيلة أي أصناف الملائكة قبيلة قبيلة قال ابن عباس كفيلا أي يكفلون بما تقول خامسها قولهم (أو يكون لك) أي خاصة (بيت من زخرف) أي ذهب كامل الحسن والزينة سادسها قولهم (أو ترقى) أي تصعد (في السماء) درجة درجة ونحن ننظر اليك صاعدا (ولن نؤمن) أي نصدق مذعنين (لرقيك) أي أصلا (حتى تنزل) وحققوا معنى كونه من السماء بقولهم (علينا كتابا) ومعنى كونه في رق أو نحوه بقولهم (نقرؤه) يأمرنا فيه باتباعك روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وابا البختري بن هشام وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام والعاصي بن وائل ونبيها ومنبها ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك يكلمونك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن أنهم بدا لهم في أمره بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم أن رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا الشرف عليكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر لامر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد فان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلادا وأشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشأم والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به وان تقبلوه فهو حظكم وان تردوه أصبر لامر الله قالوا فان لم تفعل فسل ربك أن يبعث ملكا يصدقك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فاسقط السماء كما زعمت أن ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل ذلك بكم فقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أمية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب وقال له عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله لا أومن

الصغائر نكفر باجتناب
الكبائر قوله ان تجتنبوا
كبائر ما تنهون عنه نكفر
عنكم سيآتكم
(قلت) الآية الأولى في حق
الكافرين بدليل قوله
ترى المجرمين والثانية

بك ابدا حتى تتخذ الى السماء سلما ترقى به وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فانزل الله هذه الآية وفيها اشارة الى أنه ليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها اذ لو فتح هذا الباب لزم أن لا ينتهى الامر فيه الى مقطع وكلما أتى النبى صلى الله عليه وسلم بمعجز اقترحوا عليه بمعجز آخر ولا ينتهى الامر فيه الى حد ينقطع منه عناد المعاندين وتعنت الجاهلين مع أنه صلى الله عليه وسلم أعطى من الآيات والمعجزات ما أغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الاصابع وما أشبه ذلك ● ولما تم تعنتهم وكان لسان الحال طالبا من الله تعالى الجواب عنه أمر الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء البعداء والاشقياء (سبحان ربى) أى تعجبا من اقتراحاتهم وتنزيها لله من أن يأتى أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد فى القدرة وقرأ ابن كثير وابن عامر بصيغة الماضى والباقون قل بصيغة الامر و (هل كنت الابشرا) لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر (رسولا) كما كان من قبلى من الرسل وكانوا لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله تعالى على أيديهم بما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى يتخيروها هذا هو الجواب المجمل وأما التفصيلى فقد ذكر فى آيات أخر كقوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ولو فتحنا عليهم بابا ونحو ذلك ● ولما مر بما تضمن أنه كاخوانه من الرسل فى كونه بشرا أتبعه قوله عطفا على قال أو وقالوا (وما منع الناس) أى قريشا ومن قال بقولهم لما لهم من الاضطراب (أن يؤمنوا) أى لم يبق لهم مانع من الايمان والجملة مفعول منع (اذ جاءهم الهدى) أى الدليل القاطع على الايمان وهو القرآن وغيره من الادلة وقرأ أبو عمرو وهشام بادغام ذال اذ عند الجيم والباقون بالاظهار وأمال الالف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان محضة واذا وقف حمزة على جاءهم سهل الهمزة مع المد والقصر (الا أن قالوا) فاعل منع أن قالوا أى منكرين عليه غاية الانكار متعجبين متهكمين (أبعث الله بشرا رسولا) لان الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لانك بشر ولو بعث الله تعالى رسولا الى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجابهم الله تعالى بقوله (قل) أى لهؤلاء المطرودين عن الرحمة (لو كان فى الارض ملائكة يمشون) عليها كالآدميين (مطمئنين) أى مستوطنين فيها كالبشر (لنزلنا عليهم) مرة بعد مرة كما فعلنا فى تنزيل جبريل عليه السلام على الانبياء من البشر وحقق الامر بقوله تعالى (من السماء ملكا رسولا) يعلمهم الخير ويهديهم المراشد لتمكنهم من التلقى منه لما كانتهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى الحكمة لان رسول كل جنس ينبغى أن يكون منهم اذ الشئ عن شكله أفهم وبه آنس واليه أحن وله آلف الا من فضله الله تعالى بتغلب روحه على نفسه وبتغلب عقله على شهوته فاقدره بذلك على التلقى من الملك كالمرسلين ثم أجابهم الله تعالى جوابا آخر بقوله عز وجل (قل كفى بالله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما وأمال الالف حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح و بين اللفظين والباقون بالفتح (شهيدا بينى وبينكم) على أنى رسوله اليكم ليظهر المعجزات على وفق دعواهم

فى حق المؤمنين لان اجتناب الكبائر لا يتحقق مع وجود الكفر او يقال الاولى فى حق المؤمنين ايضا لكن يجوز ان تكتب الصغائر ايضا على العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه

وانى بلغت ما أرسلت به اليكم وانكم عاندتم ومن يشهد الله على صدقه فهو صادق فعند ذلك قول القائل بان الرسول يجب أن يكون ملكا الا انسانا تحكم فاسد لا يلتفت اليه *(تنبيه)* شهيدا نصب على الحال أو التمييز ثم انه تعالى ذكر ما هو كالتهديد والوعيد بقوله تعالى (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم أنهم لا يشكرون هذا الا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق * ولما تقدم أنه تعالى أعلم بالمهتدى والضال عطف عليه قوله تعالى (ومن يهد الله) بأن يخلق الهداية فى قلبه (فهو المهتدى) لا يمكن أحدا غيره أن يضله *(تنبيه)* أثبت نافع وأبو عمرو الياء بعد الدال مع الوصل دون الوقف وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يضلل فلن تجد لهم) أى الضالين (أولياء) يهدونهم (من دونه) ولا ينفعونهم بشئ أراد الله تعالى غيره ولما كان يوم القيامة يظهر الله فيه لكل أحد ما كان يعمله نبه على ذلك بقوله تعالى (ونحشرهم) بنون العظمة أى نجمعهم بكره (يوم القيامة) الذى هو محط الحكمة (على وجوههم) سحبا بين عليها اهانة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا قال تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أى يمشون عليها روى أبو هريرة رضى الله عنه قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم قال حكماء الاسلام ان الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الانوار وحضرة الاله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة الى الدنيا لا جرم كان حشرهم على وجوههم وأما قوله تعالى (عميا وبكما وصما) فقد استشكله شخص على ابن عباس فقال أليس قد قال الله تعالى ورأى المجرمون النار وقال تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقال تعالى دعوا هنالك ثبورا وقال تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وقال تعالى حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال تعالى هنا عميا وبكما وصما أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه الاول قال ابن عباس عميا لا يرون شيأ يسرهم صما لا يسمعون شيأ يسرهم بكما لا ينطقون بحجة الثانى قال فى رواية عطاء عميا عن النظر أى عما جعله الله تعالى لاوليائه وبكما عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثناء الله تعالى عليهم الثالث قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون يصيرون عميا بكما صما أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون الرابع أنهم يكونون رائين سامعين ناطقين فى الموقف ولولا ذلك لما قدروا أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا الالزام بحجة الله تعالى عليهم الا أنهم اذا أخذوا يذهبون من الموقف الى النار جعلهم الله تعالى عميا بكما صما قال الرازى والجواب الاول أولى لان الآيات السابقة تدل على أنهم فى النار يبصرون ويسمعون ويصيحون ثم بين تعالى مكانهم بقوله عز وجل (مأواهم جهنم) تسعر عليهم (كلما خبت) اى أخذ لهبها فى السكون عندما كلها لحومهم وجلودهم (زدناهم سعيرا) توقدا باعادة الجلود واللحوم ملتهبة مستعرة كأنهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جزاهم الله تعالى بأن لا يزالوا على الاعادة والافناء وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر باظهار تاء التأنيث عند الزاى وأدغمها الباقون ثم بين علة تعذيبهم ليرجع منهم من قضى بسعادته بقوله تعالى (ذلك) أى العذاب العظيم (جزاؤهم بأنهم) اى أهل الضلالة (كفروا بآياتنا) القرآنية وغيرها

فيعلم قدر نعمة الله وعليه
(قوله الا ابليس كان من الجن) * ان قلت هذا يدل على ان ابليس من الجن وهو مناف لقوله فى البقرة واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس

وكانوا كل يوم يزددون كفرا وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا (وقالوا) انكارا لقدرتنا (أئذا كنا عظاما ورفاتا) ممزقين في الارض ثم كرروا الانكار كأنهم على ثقة من أمرهم هذا الذي بطلانه أوضح من الشمس بقولهم (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فنحن نريهم جزاء على هذا الانكار المكرر الخلق الجديد في جلودهم ولحومهم مكررا كل لحظة قال تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ثم أتبعه بقاطع في بيان جهلهم بقوله تعالى (أولم يروا) اي يعلموا بعيون بصائرهم علما هو كالرؤية بعيون أبصارهم لما قام عليه من الدلائل بعضه من الشواهد الجلائل (أن الله الذي خلق السموات) جمعها لما دل على ذلك من الحس ولما لم تكن الارض مثل ذلك أفردها مريدا الجنس الصالح للجميع بقوله تعالى (والارض) على كبر أجرامها وعظم احكامها وقوله تعالى (قادر على أن يخلق مثلهم) فيه قولان الاول المعنى قادر على أن يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظة المثل كما يقوله المتكلمون ان الاعادة مثل الابتداء الثاني أن المراد قادر على أن يخلق عبيدا آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله تعالى ويأت بخلق جديد وقوله تعالى ويستبدل قوما غيركم قال الواحدي والقول هو الاول لانه أشبه بما قبله ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور ان البعث والقيام أمر ممكن الوجود في نفسه أردفه ببيان أن لوقوعه في الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله تعالى (وجعل لهم أجلا لا ريب) أي لا شك (فيه) وهو الموت أو القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) أي بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا الا الكفر والجحود ولما قال الكفار لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا فطلبوا اجراء الانهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم ويتسع عيشهم بين تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم بقوله تعالى (قل) اي لهؤلاء المتعنتين (لو أنتم) اي دون غيركم (تملكون خزائن) عبر بصيغة منتهى الجموع لان المقام جدير بالمبالغة (رحمة ربي) اي خزائن رزقه وسائر نعمه وذلك غير متناه (اذا لامسكتم) اي لوقع منكم الامساك عن الانفاق في بعض الوجوه التي تحتاجونها (خشية) اي مخافة عاقبة (الانفاق) اي الموصل الى الفقر فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على الشح والدناءة وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح وقول البيضاوي تبعا للزمخشري أنتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده قال الزمخشري تقديره لو تملكون يجري فيه على مذهب الكوفيين من أن لو يليها الفعل مضمرا كما يليها ظاهرا والبصريون يمنعون ايلاءها مضمرا الا في شذوذ كقول حاتم لو ذات سوار لطمتني واصل هذا المثل ان امرأة عطلاء من الحلي والهيئة لطمت حاتما على نحر الناقة وقالت له بقسوة انا أردنا فصدها والفصد عندهم أن يقطع عرق من عروق ٣ ثم يجمع دمها فيشوى وقيل أصله ان المرأة المذكورة لطمت رجلا فقال لو ذات سوار لطمتني لاحتملتها فصار مثلا يضرب للكريم يلطمه الدنيء ثم استدل على صحة هذا المفروض بالشاهد من مضمون قولهم (وكان) اي جبلة وطبعا (الانسان) اي الذي من شأنه الانس بنفسه فهو لذلك لا يعقل الامور حق عقلها (قتورا) اي بخيلا (تنبيه) فتح الياء في ربي نافع وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد (فان قيل) قد يوجد في جنس الانسان من هو جواد كريم (أجيب) بمن

وجوه

فانه يدل على انه من الملائكة في ذلك قولان (قلت) أحدهما انه من الجن الظاهر هذه الآية ولانه له ذرية كفرة ولانه أكفر الكفرة بخلاف الملائكة لا ذرية لهم ولا يعصون

٣ قوله عرق من عروق هكذا بالنسخ ولعله عرق من عروق البعير أو نحو ذلك اهـ مصححه

وجوه الاول ان الاصل فى الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لابد وأن يحبس مابه يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه الا أنه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت أن الاصل فى الانسان البخل الثانى أن الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وليخرج عن عهدة الواجب فهو فى الحقيقة ما أنفق الا ليأخذ العوض فهو فى الحقيقة بخيل الثالث أن المراد بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ولما قدم سبحانه وتعالى أن أكثر الناس جحدوا الآيات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم بضلاله لايمكن هداه شرع يسلى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بما اتفق لمن قبله من الانبياء بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) اى واضحات واختلف فى هذه الآيات فقال ابن عباس والضحاك هى العصا واليد البيضاء والعقدة التى كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال مجاهد وعطاء هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات وقال البقاعى وهى كما فى التوراة العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم ثم البرد الكبار التى أنزلها الله تعالى مع النار المضطرمة فكانت تهلك كل مامرت عليه من نبات وحيوان ثم الجراد ثم الظلمة ثم موت الابكار من الآدميين وجميع الحيوان ثم قال وقد نظمتها ليهون حفظها فقلت

عصا قمل موت البهائم ظلمة * جراد دم ثم الضفادع والبرد
وموت بكور الآدمى وغيره * من الحى آتاه الذى عز وانفرد

قال وكأنه عد اليد مع العصا آية ولم تفرد اليد لانه ليس فيها ضرر عليهم اه وقال البيضاوى هى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الطور على بنى اسرائيل وذكر محمد بن كعب القرظى الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات وقال كان الرجل منهم مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين والمرأة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجرا وقال بعضهم هى آيات الكتاب وهى أحكام يدل عليها ماروى عن صفوان ان يهوديا قال لصاحبه تعال نسأل هذا النبى فقال الآخر لا تقل نبى فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لا تشركوا بالله شيأ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبرىء الى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت فقبلوا يده وقالوا نشهد انك نبى قال فما يمنعكم أن تتبعونى قالوا ان داود دعا ربه أن لا يزال فى ذريته نبى وانا نخاف ان اتبعناك أن تقتلنا اليهود وقال الرازى اعلم أنه تعالى ذكر فى القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام احدها أنه تعالى أزال العقدة من لسانه قيل فى التفسير ذهب أعجمه وصار فصيحا ثانيها انقلاب العصا حية ثالثها تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها رابعها اليد البيضاء وخمسة أخرى وهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعاشر شق البحر وهو قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر والحادى عشر الحجر وهو قوله تعالى أن اضرب بعصاك الحجر والثانى عشر اظلال الجبل وهو قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة والثالث عشر انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه

الله ما امرهم لانهم عقول مجردة لا شهوة لهم ولا معصية الا عن شهوة فالاستثناء فى تلك الآية منقطع وتابعها وهو المختار أنه من الملائكة قبل أن يعصى الله تعالى فلما

والرابع عشر والخامس عشر قوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات والسادس عشر الطمس على أموالهم حجارة من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير روى أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تعالى تسع آيات بينات فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فاذا بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفوم وعدس وحمص كلها حجارة وقوله تعالى (فاسئل) اي يا أعظم خلقنا (بني اسرائيل) يجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ويجوز أن يكون الخطاب له خاصة وأمره بالسؤال لهم ليتبين له كذبهم مع قومهم اي فاسأل بني اسرائيل عامة الذين نبهوا قريشا على السؤال عن الروح كما في بعض الروايات وعن أهل الكهف وذي القرنين وعن حديث موسى عليه السلام والمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه (اذ) اي عن ذلك حين (جاءهم) أي جاء آباءهم فوقع لهم من التكذيب بعد اظهار المعجزات الباهرات ما وقع لك (فقال) اي فذهب الى فرعون فأمره بارسالهم معه فأبى فأظهر له الآيات واحدة بعد أخرى فتسبب عن ذلك صدق ما يقتضيه الحال وهو أن قال (له فرعون) عتوا واستكبارا (اني لاظنك يا موسى مسحورا) اي مخدوعا مغلوبا على عقلك فكل ما يأتي عنك فهو من آثار السحر وهذا كما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقال في موضع آخر ساحر وانهم ربما أطلقوا اسم المفعول مريدين اسم الفاعل مبالغة لانه كالخبر عن الفعل وفي الامر بسؤال اليهود تنبيه على ضلالهم ولما لم يؤمن فرعون على تواتر تلك الآيات وعظمها كانه قيل فما قال موسى عليه السلام فقيل (قال) لفرعون (لقد علمت) بفتح التاء لغير الكسائي وقرأ الكسائي بضمها على اخباره عن نفسه (ما أنزل هؤلاء) اي الآيات (الا رب السموات والارض) اي خالقهما ومدبرهما حال كون هذه الآيات (بصائر) اي بينات يبصر بها صدق وأما السحر فانه لا يخفى انه خيال لا حقيقة له ولكنك تعاند ❁ (تنبيه) ❁ قوله تعالى هؤلاء الكلام عليه من جهة الهمزتين كالكلام على هؤلاء ان كنتم في البقرة وقد تقدم الكلام على ذلك ❁ ثم حكى الله تعالى ان موسى قال لفرعون (واني) اي وان ظننتني يا فرعون مسحورا (لاظنك يا فرعون مثبورا) اي ملعونا مطرودا ممنوعا من الخير فاسد العقل فعارضه موسى بذلك وشتان بين الظنين فان ظن فرعون كذب صرف لعناده لرب العالمين لوضوح مكابرته للبصائر التي كشف عنه ابيها الغطاء فهي أوضح من الشمس وظن موسى عليه السلام قريب الى الصحة واليقين من تظاهر أماراته لان هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل أنها من عند الله وفي أنه تعالى أظهرها لاجل تصديق وأنت منكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والبغي والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور (فأراد) اي فتسبب عن هذا الذي هو موجب للايمان في العادة الا ان فرعون أراد (أن يستفزهم) اي يستخف موسى ومن آمن معه ويخرجهم فيكونوا كالماء اذا سال من قولهم فز الجرح اذا سال (من الارض) بالنفي والقتل ليتمكن منهم كما أراد هؤلاء أن يستفزونك منها

سماه مسحورا لما رآه منه مما ... روى ذلك عن ابن عباس كما روى عنه أيضا انه كان من خزان الجنة قوم من جماعة من الملائكة يسمون الجن فكان الملائكة ... كان في بمعنى ساحرا او المعنى سابق علمه تعالى او من

ليتمكن

للتمكن مما هم عليه من الكفر والعناد ثم أخذ تعالى يحذرهم سطواته بما فعل بمن كان قبلهم وأكثر منهم وأشد بقوله تعالى (فأغرقناه) اى فتسبب عن ذلك ان رددنا كيده فى نحره كما قال تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل تلك الارض خالصة لموسى ولقومه فادخله البحر حين أدخل بنى اسرائيل فانجاهم وأغرق آل فرعون (ومن معه جميعا) كما جرت به سنة الله تعالى فيمن عاند بعد أن رأى الخوارق وكفر النعمة وأفرط فى البغى بعد ظهور الحق فليحذر هؤلاء مثل ذلك ولا سيما اذا اخرج رسولنا من بين أظهرهم ففى هذه الآية وأمثالها بشارة له صلى الله عليه وسلم فى ان الله تعالى يسلك به فى النصرة والتمكن سبيل اخوانه من الرسل عليهم الصلاة والسلام (وقلنا من بعده) أى الاغراق (لبنى اسرائيل) الذين كانوا تحت يده أذل من العبيد لتقواهم واحسانهم (اسكنوا الارض) اى التى أراد أن يستفزكم منها (فاذا جاء) اى مجيأ محققا (وعد الآخرة) اى القيامة بعد أن سكنتم الارض أحياء ودفنتم فيها أمواتا (جئنا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (بكم) منها (لفيفا) اى بعثناكم واياهم مختلطين لا حكم لاحد على آخر ولا دفع لاحد عن آخر على غير الحالة التى كانت فى الدنيا ثم ميزنا بعضكم عن بعض ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى ولقد صرفنا قوله عز وجل (وبالحق) أى من المعانى الثابتة التى لا مرية فيها لا بغيره (أنزلناه) نحن أى القرآن فهو ثابت لا يزول كما أن الباطل هو الذاهب الزائل وهذا القرآن الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء واثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ويشتمل أيضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها النقض والتغيير والتحريف وأيضا هذا القرآن تكفل الله تعالى بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (وبالحق) لا بغيره (نزل) هو ووصل اليهم على لسانك بعد انزاله عليك كما أنزلناه وأعضاء محفوظا لم يطرأ عليه طارئ فليس فيه من تحريف ولا تبديل كما وقع فى كتاب اليهود الذين سألهم قومك ثم قال تعالى (وما أرسلناك) يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة (الا مبشرا) للمطيع (ونذيرا) للعاصى من العقاب فلا عليك الا التبشير والانذار لا ما يقترحونه عليك من المعجزات فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شئ ثم ان الله تعالى أخبر أن الحكمة فى انزال القرآن مفرقا بقوله عز وجل (وقرآنا) أى وفصلنا أو وأنزلنا قرآنا (فرقناه) أى أنزلناه منجما فى أوقات متطاولة قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا الى السماء السفلى ثم فصل فى السنين التى نزل فيها قال قتادة كان بين أوله وآخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ينزل جملة (لتقرأه على الناس) أى عامة (على مكث) اى مهل وتؤدة ليفهموه (ونزلناه) من عندنا بما لنا من العظمة (تنزيلا) بعضه اثر بعض مفرقا بحسب الوقائع لانه أتقن فى فصلها وأعون على الفهم لطول التأمل لما نزل من نجومه فى مدة ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعانى ثم ان الله تعالى هددهم على لسان نبيه

الجن الذين هم من الملائكة فالاستثناء متصل ولا منافاة بين الآيتين (قوله أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الشيطان وذريته ليسوا أولياء بل أعداء لان الاولياء هم الاصدقاء (قلت)

صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) لهؤلاء الضالين (آمنوا به) أى القرآن (أولا تؤمنوا) فالايمان به غير محتاج اليكم ولا موقوف عليكم لانكم ان آمنتم به كان الحظ لكم والا لم تضروا الا أنفسكم فاختاروا ما تريدون فان ايمانكم بالقرآن لا يزيده كمالا وامتناعكم منه لا يورثه نقصانا وقوله تعالى (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أى من قبل انزاله ممن آمن به من بنى اسرائيل تعليل له أى ان لم يؤمنوا به وأنتم أهل جاهلية وشرك فان خيرا منكم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع قد آمنوا به وصدقوه وثبت عندهم أنه النبى العربى الموعود فى كتبهم (اذا يتلى عليهم) أى القرآن (يخرون للاذقان) منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدئ الانسان بالخرور الى السجود فاقرب الاشياء من وجهه الى الارض الذقن وقيل ان الاذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود فى الخشوع والخضوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ فى تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب فى معرض المبالغة فقد أتى بغاية التعظيم وقيل ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض فى معرض السجود كالمغشى عليه فيكون حينئذ خروره على الذقن فقوله يخرون للاذقان كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون (أجيب) بان المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى كأنهم يسقطون (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان ولم يقل على الاذقان (أجيب) بأن العرب تقول اذا خر الرجل فوقع لوجهه خر للذقن ثم بين أن ذلك ليس سقوطا اضطراريا من كل جهة بقوله تعالى (سجدا) اى يفعلون ذلك لما يعلمون من خيفته بما أوتوا من العلم السالف وما فى قلوبهم من الاذعان والخشية للرحمن (ويقولون) اى على وجه التجديد المستمر (سبحان ربنا) تنزيها له عن خلف الوعد (ان) اى انه (كان) أى كوننا لا ينفك (وعد ربنا) أى المحسن الينا بالايمان وما تبعه من وجوه العرفان (لمفعولا) أى دون خلف ولا بد أن يأتى جميع ما وعد به فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن عليه ومن الثواب والعقاب وهو تعريض بقريش حيث كانوا يستهزؤن بالوعيد فى قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا فهو عما معناه الطعن فى قدرة الله تعالى القادر على كل شئ وقوله تعالى (ويخرون للاذقان يبكون) كرره لاختلاف الحال والسبب فان الاول للشكر عند انجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) أى سماع القرآن (خشوعا) أى خضوعا وتواضعا ولين قلب ورطوبة عين * ولما طالت الكلمات فى المناظرة مع المشركين ومنكرى النبوات والجواب عن شبهاتهم أتبعها ببيان كيف يدعون الله ويطيعونه وكيف يذكرونه فى وقت الاشتغال باداء العبودية فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات ليلة وهو ساجد يا الله يا رحمن فسمعها أبو جهل وهم لا يعرفون الرحمن فقال ان محمدا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر مع الله تعالى يقال له الرحمن فانزل الله تعالى هذه الآية اى ان شئتم قولوا يا الله وان شئتم قولوا يا رحمن وعن عائشة رضى الله تعالى عنها

قالت

المراد بالولاية هنا اتباع الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصى فالولاية مجاز من هذا لانه من لوازمها

(قوله ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه فاعرض عنها) قاله هنا بالفاء الدالة على التعقيب لانها هنا فى الاحياء من

قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعاء يقول يا الله يا رحمن فسمعه أهل مكة فاقبلوا عليه فأنزل الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية وعن ابن عباس ان ذكر الرحمن كان في القرآن قليلا في أول ما أنزل وكان الذين قد أسلموا من اليهود يسوءهم قلة ذلك لكثرته في التوراة كابن سلام وابن يامين وابن صوريا وغيرهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فنزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فقال قريش ما بال محمد كان يدعو الها واحدا وهو الآن يدعو الهين ما نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة فنزل وهم بذكر الرحمن هم كافرون ونزل أيضا قوله تعالى قالوا وما الرحمن وفرح مؤمنو أهل الكتاب وهو قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب أي مشركي قريش من ينكر بعضه وعن ابن عباس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الى آخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أمان من السرقة فان رجلا من المهاجرين تلاها حين أخذ مضجعه فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا فوضع الكارة ففعل ذلك ثلاث مرات فضحك صاحب الدار فقال اني أحصنت بيتي (فان قيل) اذا قال الرجل ادع زيدا أو عمرا فهم منه كون زيد مغايرا لعمرو فيوهم كون الله تعالى غير الرحمن وحينئذ تقوى شبهة أبي جهل لعنه الله تعالى (أجيب) بأن الدعاء هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والتسمية تتعدى الى مفعولين يقال دعوته زيدا ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال دعوت زيدا والله والرحمن المراد بهما الاسم لا المسمى وأو للتخيير فمعنى الآية ادعوا باسم الله أو ادعوا باسم الرحمن أي اذكروا بهذا الاسم أو اذكروا بذلك الاسم فقوله ادعوا الله ينبه على ما لزم في كرمه بحكم الوعد من افاضة الرحمة والكرم وأيضا تخصيص هذين الاسمين بالذكر يدل على أنهما أشرف من سائر الاسماء وتقديم اسم الله على اسم الرحمن يدل على أن قولنا الله أعظم الاسماء وتقدم الكلام على ذلك في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم والتنوين في قوله تعالى (أيا ما تدعوا) عوض عن المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد والمعنى أيا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله تعالى (فله الاسماء الحسنى) لانه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها أحسن الاسماء أنها مستقلة بمعاني التمجيد والتقديس والتعظيم وقد تقدم ذكر الاسماء الحسنى في الاعراف عند قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وبعض الاحاديث الواردة في فضلها فليراجع ووقف حمزة والكسائي على الالف بعد الياء ووقف الباقون على الالف بعد الميم واختلف في تفسير ونزول قوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) فروي عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى اليه ولا تجهر بصلاتك فيسمعه المشركون فيسبوا الله تعالى عدوا بغير علم ولا تخافت بها فلا تسمع أصحابك (وابتغ بين ذلك سبيلا) وروي أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة فكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر لم تخفي صوتك فقال أناجي ربي وقد علم حاجتي وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبي صلى

ذكروا
الكفار فانهم ذكروا
فاعرضوا وغضبوا فلما ذكروا
وقاله في الصحيحة ثم بدالة
على التراخي لان ماهذا الذي
الاصوات من الكفار فانهم
ذكروا مرة بعد أخرى ثم

الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا وعمر أن يخفض صوته قليلا وقيل معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار وقيل ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها وأبي هريرة ومجاهد قالت عائشة هي الدعاء وروى هذا مرفوعا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية انما ذلك في الدعاء والمسئلة قال عبد الله بن شداد كان اعراب من بني تميم اذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون فأنزل الله تعالى هذه والمخافتة خفض الصوت والسكون يقال صوت خفيت أي خفيض ويقال للرجل اذا مات قد خفت أي انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يسمع نفسه كما روى عن ابن مسعود أنه قال من لم يخافت لم يسمع أذنيه وقد مدح الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال عز من قائل ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وبعضهم قال الآية منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية قال الرازي وهو بعيد • ولما أمر الله تعالى أنه لا يذكر ولا ينادى الا بأسمائه الحسنى علم كيفية التحميد بقوله تعالى (وقل الحمد لله) اى الملك الاعظم ثم ذكر سبحانه وتعالى من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة أنواع الاول قوله تعالى (الذي لم يتخذ) اى لكونه محيطا بالصفات الحسنى (ولدا) والسبب فيه وجوه الاول أن الولد هو الشئ المتولد من جزء من أجزاء ذلك الشئ فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد الثاني أن كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد أفاض تلك النعم على عبيده الثالث أن الولد هو الذي يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام في كل الاوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الاطلاق • النوع الثاني من الصفات السلبية قوله تعالى (ولم يكن له) بوجه من الوجوه (شريك في الملك) والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك لم يعرف حينئذ أن هذه النعم والمنافع حصلت منه أو من شريكه فلا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر • النوع الثالث قوله تعالى (ولم يكن له ولي من الذل) أي ولم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته والسبب في اعتباره أنه لو جاز عليه ولي يلي أمره كان مستوجبا لاعظم أنواع الحمد ومستحقا لاقسام الشكر فنفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا أو اضطرارا أو ما يعاونه ويقويه ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذي يستحق جنس الحمد لانه كامل الذات المنفرد بالايجاد المنعم على الاطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) أي وعظمه تعظيما على نفي اتخاذ الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده في صفاته روى الامام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول آية العز الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك الى آخر السورة وعن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدونه في السراء والضراء

اعرضوا الملوت فلم يؤمنوا (قوله نسيا حوتهما) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الناسي يوشع وحده (قلت) نسب النسيان اليهما مجاز والمراد احدهما

ومن

صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس مجلسا ذكر فيه الله تعالى وحذر قومه ما أصاب من
كان قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه فى مجلسه اذا قام وقال أنا والله يامعشر قريش أحسن
حديثا منه فهلموا فانا أحدثكم بأحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم قال ان
قريشا بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط الى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن
محمد وصفته فانهم أهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ماليس عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى
قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال لهم اليهود سلوه عن ثلاثة عن فتية
ذهبوا فى الدهر الاول فان حديثهم عجيب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها
وسلوه عن الروح وماهى فان اخبركم فهو نبى والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا
قد جئنا كم بفصل ما بيننا وبين محمد واخبراهم بما قالته اليهود فجاؤا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا
عنه فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لم ينزل عليه وحى وشق
عليه ذلك ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله بسورة اهل الكهف وفيها معاتبة الله تعالى
اياه على حزنه عليهم وفيها خبر اولئك الفتية وخبر الرجل الطواف ثم بدأ بالفتية فقال (اذ)
اى واذكر اذ (أوى الفتية) وهم اصحاب الكهف المسؤل عنهم جمع فتى وهو الشاب الكامل
والشباب اقبل الى الحق واهدى للسبيل من الشيوخ (الى الكهف) خائفين على ايمانهم من
قومهم الكفار واختلفوا فى سبب مصيرهم الى الكهف فقال محمد بن اسحق بن يسار مرج
أهل الانجيل وكثرت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت
وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من
الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم
فلا يترك فى قرية نزلها احدا الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام او يقتله ثم نزل مدينة اهل
الكهف وهى افسوس فلما نزل بها كبر على اهل الايمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل وجه
واتخذ شرطا من الكفار وامرهم ان يتبعوهم فى اماكنهم ويخرجوهم اليه فخيروهم بين
القتل وبين عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى ان يعبد
غير الله تعالى فيقتل فلما راى ذلك اهل الشدة فى الايمان جعلوا يسلمون انفسهم للعذاب والقتل
فيقتلون ويقطعون ثم جعل ما قطع من اجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب
من ابوابها حتى عظمت الفتنة فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة
والصيام والدعاء والتسبيح وكانوا من أشراف المدينة ومن أشراف الروم وكانوا ثمانية نفر
بكوا وتضرعوا الى الله تعالى وجعلوا يقولون ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة
وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلى لهم أدركهم
الشرط فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون ويتضرعون الى الله تعالى فقالوا لهم ما خلفكم
عن أمر الملك انطلقوا اليه ثم خرجوا ان فعوا أمرهم الى دقيانوس فقالوا تجمع الناس للذبح
لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزؤن بك ويعصون أمرك فلما سمع ذلك بعث اليهم

التبذ ـــكر مولان فى ذكره
قصد زيادة المواجهة
بالعتاب على ترك الوصية مرة
ثانية (قوله مالم تستطع)
جاء فى الاول بالتاء على

فاتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم في التراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الارض وتجعلوا أنفسكم اسوة لسراة أهل مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لآلهتنا واما أن أقتلكم فقال له كبيرهم واسمه مكسلمينا ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته لن ندعو من دونه الها أبدا له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصا ابدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير وأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع ما بدا لك وقال أصحابه مثل ما قال فلما قالوا ذلك أمر الملك بنزع لباسهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سافرغ لكم وأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل لكم ذلك الا أني أراكم شبابا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه وترجعون الى عقولكم ثم أمر بهم فاخرجوا من عنده وانطلق الى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا اذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فائتمروا بينهم أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة فيمكثوا فيه ويعبدوا الله تعالى حتى اذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم الى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى اذا أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا جانبي أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد الى الكهف وهو قريب من البلد قال ابن اسحق فلبثوا فيه ليس لهم عمل غير الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء وجه الله تعالى وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا وكان من أجملهم وأجلدهم وكان اذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقه وينطلق الى المدينة فيشتري لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكروا أصحابه بشيء ثم يرجع الى أصحابه فلبثوا في ذلك ما شاء الله أن يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الايمان وكان تمليخا يشتري لاصحابه طعامهم فرجع الى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل وأخبرهم ان الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا من عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون ويتضرعون ويتعوذون من الفتنة ثم ان تمليخا قال لهم يا اخوتاه ارفعوا رؤسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤسهم وأعينهم تفيض من الدمع فطعموا وذلك مع غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم كذلك اذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابهم ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظمائه وعظماء المدينة لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا

الاصل وقد اشكل قطع بعدها تقتضيه الاه الفرع ويعكس ذلك في قوله فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا لان مفعول

ان بي غضباً عليهم بجهلهم ما جهلوا من أمري ما كنت لأجهل عليهم انهم تابوا وعبدوا الهي فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة فقد كنت أجلت لهم أجلاً ولو شاؤا لرجعوا في ذلك الاجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضباً شديداً ثم أرسل الى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم وقال اخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني فقالوا له أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها في أسواق المدينة ثم انطلقوا فارتقوا الى جبل يدعى بنطاوس فلما قالوا ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدري ما يصنع بالفتية فألقى الله تعالى في قلبه أن يسد باب الكهف عليهم وأراد الله تعالى أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم ان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعاً وعطشاً ويكون كهفهم الذي اختاروه قبراً لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله تعالى أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم ان رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما اتفقا أن يكتبا شأن الفتية وخبرهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان وقالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من يفتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات وقومه وقرون بعده كثيرة وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم لما أووا الى الكهف (فقالوا) أي عقب استقرارهم فيه (ربنا آتنا من لدنك) أي من عندك (رحمة) توجب لنا المغفرة والرزق والامن من عدوك (وهيئ لنا من أمرنا) أي من الامر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار (رشداً) الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفي تفسير الآية وجهان الاول أن التقدير هيئ لنا أمراً ذا رشد أي حتى نصير بسببه راشدين مهتدين الثاني اجعل أمرنا رشداً كله كقولك رأيت منك رشداً ولما أجابهم سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بقوله تعالى (فضربنا) أي عقب هذا القول وبسببه (على آذانهم) حجاباً يمنع السماع أي أنمناهم نومة لا تنبههم الاصوات الموقظة فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم بين تعالى انه انما ضرب على آذانهم (في الكهف) أي المعهود وهو ظرف مكان وقوله تعالى (سنين) ظرف زمان وقوله تعالى (عدداً) أي ذوات عدد يحتمل التكثير والتقليل فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار وقال الزجاج اذا قل الشيء فهم مقدار عدده فلم يحتج الى أن يعد واذا كثر احتاج الى أن يعد (ثم بعثناهم) أي أيقظناهم من ذلك النوم (لنعلم) أي علم مشاهدة وقد سبق نظير هذه الآية في القرآن كثيراً منها ما سبق في سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفي آل عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقد نبهنا على ذلك في محله (أي الحزبين) أي الفريقين المختلفين في مدة لبثهم (أحصى لما لبثوا أمداً) واختلفوا في الحزبين المختلفين فقال عطاء عن ابن عباس المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكاً بعد ملك وأصحاب الكهف وقال مجاهد الحزبان من الفتية أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا

قوله بنطاوس كذا في أكثر النسخ وفي بعض بنطاوس بالهاء وفي الجمل بالجيم وفي حياة الحيوان منطاوس والعلم عند الله اه مصححه

الاول اشتمل على حرف وفعل وفاعل ومفعول فناسبه الحذف تخفيفاً بخلاف مفعول الثاني فانه اسم واحد وهو قوله نقباً فناسبه البقاء على الاصل (قوله فاردت ان اعيبها)

فى أمهم كم لبثوا ويدل له قوله تعالى قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول وقال الفراء ان طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم * (تنبيه) * أحصى فعل ماض أى أيهم ضبط أمر أوقات لبثهم واما من جعله أفعل تفضيل فقال فى الكشاف ليس بالوجه السديد وذلك ان بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس ونحو أعدى من الجرب وأفلس من ابن المذلق شاذ والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به ثم قال الله تعالى (نحن) اى بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة (نقص عليك) يا أشرف الخلق (نبأهم) أى خبرهم العظيم قصا ملتبسا (بالحق) أى الصدق (انهم فتية) أى شبان (آمنوا بربهم) أى المحسن اليهم الذى تفرد بخلقهم ورزقهم ثم وصفهم الله تعالى بقوله (وزدناهم) بعد ان آمنوا (هدى) بما قذفناه فى قلوبهم من المعارف (وربطنا على قلوبهم) أى قويناها فصار ما فيها من القوى مجتمعا غير مبدد. كانت حالهم فى الجلوة حالهم فى الخلوة (اذ قاموا) اى وقت قيامهم بين يدى الجبار دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا ربنا رب السموات والارض) وذلك لانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله تعالى هؤلاء الفتية حتى عصوا ذلك الجبار وأقروا بربوبية الله تعالى وصرحوا بالبراءة من الشرك والانداد بقولهم (لن ندعو من دونه الها) لان ما سواه عاجز والله (لقد قلنا اذا) اى اذا دعونا من دونه غيره (شططا) اى قولا ذا بعد عن الحق جدا وقال مجاهد كانوا أبناء عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم انى لاجد فى نفسى شيأ ما أظن أن أحدا يجده قالوا ما تجد قال أجد فى نفسى ان ربى رب السموات والارض قالوا نحن كذلك فى انفسنا فقاموا جميعا فقالوا ربنا رب السموات والارض وقال عطاء قالوا ذلك عند قيامهم من النوم قال الرازى وهو بعيد لان الله تعالى استأنف قصتهم بقوله تعالى نحن نقص عليك وقال عبيد بن عمير كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التى يعبدونها وقد قذف الله تعالى فى قلوب الفتية الايمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد ايمانه فقالوا فى أنفسهم نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى الى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا ان يكون على مثل أمره من غير ان يظهر ذلك ثم خرج آخر فخرجوا كلهم جميعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ثم يفشى كل واحد سره الى صاحبه ففعلوا فاذاهم جميعا على الايمان واذا بكهف فى الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض (هؤلاء قومنا) وان كانوا أسن منا وأقوى وأجل فى الدنيا (اتخذوا من دونه آلهة) أشركوهم معه تعالى لشبهة واهية (لولا) أى هلا (يأتون عليهم بسلطان) اى دليل (بين) اى ظاهر مثل ما انا نحن على تقرير معبودنا بالادلة القاطعة فتسبب عن عجزهم عن دليل أنهم أظلم الظالمين فلذلك قالوا (فمن أظلم) اى لا أحد أظلم (ممن افترى) اى تعمد (على الله) اى الملك

قاله الخضر فى خرق السفينة
وقال فى قتل الغلام فاردنا
ان يبدلهما ربهما خيرا
منه وفى اقامة جدار اليتيمين
فاراد ربك ان يبلغا
اشدهما ويستخرجا
كنزهما الان الاول فى الظاهر

وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا اله الا الله وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الكلام الى الله تعالى أربع لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت أخرجه مسلم وروى أن قول العبد الله أكبر خير ٣ من الدنيا وما فيها وعن عمرو بن شعيب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه وقل الحمد لله الآية يقال أفصح الصبي في منطقه فهم ما يقول وعن عبد الله بن كعب قال افتتحت التوراة بفاتحة سورة الانعام وختمت بخاتمة هذه السورة وأما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة بني اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية فحديث موضوع

سورة الكهف مكية

الا واصبر نفسك الآية وهي مائة وعشر آيات وألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

(بسم الله) الذي لا كفء له ولا شريك (الرحمن) الذي أقام عباده على أوضح الطرق بانزال هذا الكتاب (الرحيم) بتفضيل من اختصه بالصواب وهو قوله تعالى (الحمد لله) تقدم الكلام عليه مستقصى في أول الفاتحة (الذي أنزل على عبده الكتاب) أي القرآن رتب تعالى استحقاق الحمد على انزاله تنبيها على أنه أعظم انعامه وخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان انزال القرآن نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم أما كونه نعمة عليه فلان الله تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام وأسرار أحوال الملائكة والانبياء وأحوال القضاء والقدر وتعلق أحوال العالم السفلي بأحوال العالم العلوي وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ولا شك أن ذلك من أعظم النعم وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات فكل أحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فوجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته أن يحمدوه على هذه النعم الجزيلة وقال تعالى على عبده لما في كل من الوصف بالعبودية والاضافة اليه سبحانه وتعالى من الاعلام بتشريفه واشارة الى أنه الذي أسرى به الى حضرات مجده ليريه من آياته • ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين الاول قوله تعالى (ولم يجعل له) أي فيه (عوجا) أي اختلافا وتناقضا كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والجملة حال من الكتاب الوصف الثاني قوله تعالى (قيما) قال ابن عباس يريد مستقيما أي معتدلا لا افراط فيه ولا تفريط قال الرازي وهذا عندي مشكل لانه لا معنى لنفي الاعوجاج الا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار بل الحق أن المراد من كونه قيما كونه سببا لهداية الخلق وأنه يجري مجرى

٣ قوله خير من الدنيا في بعض النسخ خير له من الدنيا

كنظيره في قوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وقيل نسي موسى تفقد الحوت ويوشع ان يخبره بخبره (قوله حتى اذا ركبا في السفينة خرقها) قاله بغير فاء وقال بعد حتى

من يكون فيه الاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم المشفق القائم بمصالحهم وقال قبل ذلك ان الشيء يجب أن يكون كاملا في ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب أن يكون تاما في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عنه كمال الغير فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا في ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة في صفة الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين فقوله لا ريب فيه اشارة الى كونه في نفسه بالغا في الصحة وعدم الاخلال الى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق ولكمال حالهم فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله تعالى لا ريب فيه وقوله تعالى قيما قائم مقام قوله تعالى هدى للمتقين واختلف النحويون في نصب قوله تعالى قيما على أوجه الاول قال في الكشاف لا يجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله تعالى ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله تعالى أنزل فهو داخل في حيز الصلة وانه لا يجوز قال ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا جعله قيما لانه تعالى اذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة قال فان قلت فما فائدة الجمع بين نفي العوج واثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر قلت فائدته التأكيد ورب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح الوجه الثاني انه حال ثانية والجملة المنفية قبله حال أيضا كما مر وتعدد الحال لذي حال واحد جائز والتقدير أنزله غير جاعل له عوجا قيما الوجه الثالث أنه حال أيضا ولكنه بدل من الجملة قبله لانها حال وابدال المفرد من الجملة اذا كانت بتقدير مفرد جائز ولما ذكر تعالى أنه أنزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بما ذكر أردفه ببيان ما لاجله أنزله بقوله عز وجل (لينذر) أي يخوف الكتاب الكافرين (بأسا) أي عذابا (شديدا من لدنه) أي صادرا من عنده وقرأ شعبة باسكان الدال وكسر النون والهاء وصلة الهاء بياء والباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء وابن كثير على أصله بضم الهاء في الوصل بواو (ويبشر المؤمنين) اي الراسخين في هذا الوصف وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء التحتية وسكون الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم التحتية وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة (الذين يعملون الصالحات) وهي ما أمر به خالصا له وذلك الثبات على مفتاح الايمان (أن لهم) أي بسبب أعمالهم (أجرا حسنا) هو الجنة حال كونهم (ماكثين فيه أبدا) بلا انقطاع أصلا فان الابد زمان لا آخر له وقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) معطوف على قوله تعالى لينذر بأسا شديدا من لدنه والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام في حق كل كافر والثاني خاص بمن أثبت لله ولدا وعادة القرآن جارية بأنه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيها على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا هذا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر اثبات الولد لله تعالى

(تنبيه) الذين أثبتوا لله ولدا ثلاث طوائف الاولى كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله الثانية النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله الثالثة اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ثم انه تعالى أنكر على القائلين ذلك من وجهين الاول قوله تعالى (مالهم به) أي القول (من علم) أي أصلا لانه مما لا يمكن أن يتعلق العلم به لانه لا وجود له ولا يمكن وجوده ثم قرر تعالى هذا المعنى

اذا الفاء فلا ما نقله بالفاء لانه جعل خرقها جزاء الشرط ظم بعج لقيا جمل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء وجزاء الشرط قوله قال اقتلت نفسا

وأكده بقوله (ولا لآبائهم) الذين يتخبطون بتقليدهم في الدين حق في هذا الذي لا يرضيه عاقل ولو أخطؤا في تصرف دنيوي لم يتبعوهم فيه (فان قيل) اتخاذ الله ولدا محال في نفسه فكيف قيل مالهم به من علم (أجيب) بأن انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد لا يكون لانه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ونظيره قوله تعالى ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به الوجه الثاني (كبرت) أي مقالتهم (كلمة) أي ما أكبرها من كلمة وفي قرر فظاظة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى (تخرج من أفواههم) أي لم يكفهم خطورها في أنفسهم وترددها في صدورهم حتى تلفظوا بها وكأن صدورهم بها على وجه التكرير كما يشير اليه التعبير بالمضارع *(تنبيه)* سميت هذه كلمة كما يسمون القصيدة كلمة * ثم بين تعالى ما أفهمه الكلام من أنه كما أنهم لا علم لهم بذلك لا علم لاحد به أصلا لانه لا وجود له فقال تعالى (ان) أي ما (يقولون الا كذبا) أي قولا لا حقيقة له بوجه من الوجوه * ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ايمان قومه شفقة عليهم وغيرة على المقام الالهي الذي ملأ قلبه تعظيما خفض عليه سبحانه وتعالى بقوله تعالى (فلعلك باخع) أي قاتل (نفسك) من شدة الغم والوجد وأشار تعالى الى شدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم وعظيم مباعدتهم بقوله عز من قائل (على آثارهم) أي حين تولوا عن التوحيد وعن اجابتك (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) أي القرآن المتجدد تنزيله على حسب التدريج (أسفا) منك على ذلك والاسف شدة الحزن والغضب (فان قيل) ذلك يدل على حدوث القرآن (أجيب) بانه محمول على الالفاظ وهي حادثة * ثم بين سبحانه وتعالى علة ارشاده الى الاعراض عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ للبشارة والنذارة بانهم لم يخرجوا عن مراده تعالى وأن الايمان لا يقدر على ادخاله قلوبهم غيره بقوله عز وجل (انا) أي انا لا نفعل ذلك لانا (جعلنا ما على الارض) من الحيوان والنبات والشجر والانهار والمعادن وغير ذلك وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الارض وبالجملة فليس في الارض الا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات الشامل للشجر والحيوان وأشرف أنواع الحيوان الانسان (زينة لها) أي الارض قيل المراد أهلها أي زينة لاهلها قال الرازي ولا يمتنع أن يكون ما تحسن به الارض زينة لها كما جعل الله السماء مزينة بالكواكب * ولما أخبر تعالى بزينتها أخبر تعالى بعلته بقوله تعالى (لنبلوهم) أي نعاملهم معاملة المختبر (أيهم أحسن عملا) باخلاص الخدمة لربه فيصير ما كانوا منهم ظاهرا فان الله تعالى يعلم السر وأخفى لتقام به عليهم الحجة على ما يتعارفونه بينهم بان من أطاع ووافق الامر فيما نال من الزينة حاز المثوبة ومن اجترأ على مخالفة الامر بما آتاه منها استحق العقوبة فكأنه تعالى يقول يا محمد اني خلقت الارض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون ويتمردون ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فانت أيضا يا محمد لا ينبغي أن تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى أن تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق * ثم انه تعالى لما بين أنه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل أن يبقى الانسان فيها متنعما بها أبدا زهد فيها بقوله تعالى (وانا لجاعلون ما عليها) من

(قوله لقد
زاكية بغير نفس)
جئت شيئا امرا) قاله بلفظ
الامر لانه العيب والعيب
كما يكون في الخير يكون في
الشر وقاله بعد قتل
الغلام بلفظ نكرا لانه

جميع تلك الزينة لا يصعب علينا شئ منه (صعيدا) اى فتاتا (جرزا) اى يابسا لا ينبت ونظيره
قوله تعالى كل من عليها فان وقوله تعالى فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا
وتخصيص الاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا أن سائر الآيات على أن الارض أيضا
لا تبقى كما قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض * ولما ان القوم تعجبوا فى قصة أصحاب
الكهف وسألوها النبى صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان قال تعالى (أم حسبت) اى
ظننت على ما لك من العقل الرزين والرأى الرصين (ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا
عجبا) على ما زعم من تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب والواقع انهم كانوا من
العجائب ليسوا بعجب بالنسبة الى كثرة آياتنا فان من كان قادرا على تخليق السموات والارض
كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة وأكثر فى النوم
والكهف الغار الواسع فى الجبل واختلف فى الرقيم فقيل هو اسم كلبهم قال أمية بن أبى الصلت

* وليس بها الا الرقيم مجاورا *

وصيدهم (وهو بكسر الصاد مفعول مجاورا أى فناءهم) والقوم فى الكهف هجد (أى نوم)
وقيل هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم وقصصهم وجعل على باب الكهف قال البغوى
وهذا أظهر الاقاويل وقيل ان الناس رقموا حديثهم نقرا فى الجبل وقيل هو الوادى الذى فيه
الكهف وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون غير أصحاب الكهف
كانوا ثلاثة يطلبون الكلأ أو نحوه لاهلهم فأخذهم المطر فأووا الى الكهف فانحطت صخرة
وسدت عليهم بابه فقال أحدهم اذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته فقال واحد
استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل منهم وسط النهار وعمل فى بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل
أجرهم فغضب أحدهم وترك أجره فوضعته فى جانب البيت فربى بقرا فاشتريت فصيلة
والفصيلة ولد الناقة اذا انفصل عن أمه فبلغت ما شاء الله فرجع الى بعد حين شيخا ضعيفا
لا أعرفه وقال ان لى عندك حقا وذكره حتى عرفته فدفعتها اليه جميعا اللهم ان كنت فعلت ذلك
لوجهك فافرج عنا فانصدع عنهم الجبل حتى رأوا الضوء والصدع الشق والصداع وجع الرأس
وقال آخر كان فى فضل وأصاب الناس شدة فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفا فقلت والله ما هو
دون نفسك فأبت وعادت ثم رجعت ثلاثا ثم ذكرت ذلك لزوجها فقال أجيبى له وأغيثى عيالك
فأتت وسلمت الى نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت لها ما لك فقالت أخاف الله
تعالى فقلت لها خفتيه فى الشدة ولم أخفه فى الرخاء فتركتها وأعطيتها ملتمسها اللهم ان كنت
فعلته لوجهك فافرج عنا فانصدع حتى تعارفوا وقال الثالث كان لى أبوان هرمان وكان لى
غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع الى غنمى فحبسنى ذات يوم غيم فلم أرجع حتى أمسيت
فأتيت أهلى وأخذت محلبى فحلبت فيه ومضيت اليهما فوجدتهما نائمين فشق على أن أوقظهما
فوقفت جالسا محلبى على يدى حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك
الكريم فافرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك النعمان بن بشير وقد قدمنا سبب
نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله تعالى ويسئلونك عن الروح * وذكر محمد بن اسحق سبب نزول
هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحرث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله

لا يكون الا فى الشر وقتل
النفس اعظم من مجرد خرق
السفينة فتناسب كل
ما هو فيه ولذلك قال فى خرق
السفينة ألم أقل انك
لن وفى قتل الغلام ألم أقل

الاعظم (كذبا) بنسبة الشريك اليه تعالى ثم قال بعض الفتية لبعض (واذ) اى وحين (اعتزلتموهم) اى قومكم (وما يعبدون) أى واعتزلتم معبودهم وقولهم (الا الله) يجوز ان يكون استثناء منه متصلا على ما روى انهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما كان أهل مكة وان يكون منقطعا وقيل هو كلام معترض اخبار من الله تعالى عن الفتية بانهم لم يعبدوا غير الله تعالى (فأووا الى الكهف) اى الغار الذى فى الجبل (ينشر) اى يبسط (لكم) ويوسع عليكم (ربكم) اى المحسن اليكم (من رحمته) ما يكفيكم به المهم من أمركم فى الدارين (ويهيئ لكم من أمركم) اى الذى من شأنه ان يهمكم (مرفقا) اى ما ترتفقون به وتنتفعون وجزموا بذلك لخلوص نيتهم وقوة وثوقهم بفضل الله وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائى لا يذكر فى مرفق الانسان الذى فى اليد الا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيز فى الامر وفى اليد وقيل هما لغتان الا ان الفتح أقيس والكسر أكثر والخطاب فى قوله تعالى (وترى الشمس) للنبى صلى الله عليه وسلم او لكل أحد وليس المراد ان من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة فى المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه انك لو رأيتهم لرأيتهم على هذه الصورة (اذا طلعت تزاور) أى تميل (عن كهفهم ذات اليمين) اى ناحيته (واذا غربت تقرضهم) اى تعدل فى سيرها عنهم (ذات الشمال) أى فلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم لان الله تعالى زواها عنهم وقيل ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله وقرأ السوسى بامالة ألف ترى المنقلبة بعد الراء فى الاصل بخلاف عنه والباقون بالفتح فى الوصل وهم على اصولهم فى الوقف وأبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو تزاور بتشديد الزاى وتخفيف الراء مضمومة وابن عامر بسكون الزاى ولا ألف بعدها وتشديد الواو على وزن تحمر والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الزاى والواو ولا خلاف فى ضم الراء ولما بين انه تعالى حفظهم من حر الشمس بين انه انعشهم بروح الهواء والطفهم بسعة الموضع فى فضاء الغار فقال تعالى (وهم فى فجوة منه) اى فى وسط الكهف ومتسعه ينالهم برد الريح ونسيمها ثم بين تعالى نتيجة هذا الامر الغريب فى النبا العجيب بقوله تعالى (ذلك) اى المذكور العظيم (من آيات الله) اى دلائل قدرته (من يهد الله) اى الذى له الملك كله بخلق هذه الهداية فى قلبه كأصحاب الكهف (فهو المهتد) فى اى زمان كان فلن تجد له مضلا مغويا وفى ذلك اشارة الى ان اهل الكهف جاهدوا فى الله واسلموا له وجوههم فلطف بهم واعانهم وارشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة وان كل من سلك طريق المهتدين الراشدين فهو الذى اصاب الفلاح واهتدى الى السعادة وقرأ نافع وابو عمرو بزيادة ياء بعد الدال فى الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وقفا ووصلا (ومن يضلل) أى يضله الله تعالى ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه (فلن تجد له وليا) أى معينا (مرشدا) اى يرشده للحق ثم انه تعالى عطف على ما مضى بقية أمرهم بقوله تعالى (وتحسبهم) اى لو رأيتهم ايها المخاطب (ايقاظا) اى منتبهين لان اعينهم مفتحة للهواء

افاد محض والثالث
انعام محض وفى الثانى
افاد من حيث القتل
وانعام من حيث التبديل
فاسنده الى نفسه وربه كذا
قيل فى الاخير والاوجه
ما قيل فيه انه عبر عن نفسه

لانه يكون ابق اما جمع يقظ بكسر القاف (وهم رقود) اى نيام جمع راقد قال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن انهم ايقاظ والدليل عليه قوله تعالى (ونقلبهم) أى فى ذات حال نومهم تقلبا كثيرا بحسب ما يتفعهم كما يكون النائم (ذات) اى فى الجهة التى هى صاحبة (اليمين) منهم (وذات الشمال) لينال روح النسيم جميع أبدانهم ولا يتأثر ما يلى الارض منها بطول المكث

* (تنبيه) * اختلف فى مقدار مدة التقليب فعن أبى هريرة ان لهم فى كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون رقودا على ايمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء قال الرازى وهذه التقديرات لا سبيل للعقل اليها ولفظ القرآن لايدل عليها وماجاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف انتهى ولهذا قلت بحسب ما ينفعهم وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فائدة تقليبهم لئلا تأكل الارض لحومهم ولا ثيابهم اه قال الرازى وهذا أعجب من ذلك لانه تعالى لما قدر على ان يمسك حياتهم ثلثمائة سنة وأكثر أفلا يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب اه وهذا ليس بعجيب لان القدرة صالحة لذلك وأكثر بحسب العادة وأما امساك أرواحهم فهو خرق للعادة فلا يقاس عليه (وكلبهم باسط ذراعيه) أى يديه اى ملقيهما على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب قال المفسرون كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهما * (تنبيه) * باسط اسم فاعل ماض واعمال على حكاية الحال والكسائى يعمله ويستشهد بالآية الكريمة وأكثر المفسرين على أن الكلب من جنس الكلاب وروى عن ابن جريج أنه كان أسدا ويسمى الاسد كلبا فان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبى لهب فقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فافترسه الاسد وقال ابن عباس كان كلبا أغر واسمه قطمير وعن على اسمه ريان واختلف فى قوله تعالى (بالوصيد) فقال ابن عباس هو باب الكهف وقيل العتبة قال السدى والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وانما أراد موضع الباب والعتبة وقال الزجاج الوصيد فناء البيت وفناء الدار قال الشاعر

بارض فضاء لايسد وصيدها * على ومعروفى بها غير منكر

وقال مجاهد والضحاك الوصيد الكهف (لو اطلعت عليهم) بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين أى وهم على تلك الحالة (لوليت منهم) حال وقوع بصرك عليهم (فرارا) لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة وجعل لهم من الجلالة تدبيرا منه لما أراده منهم حتى لا يصل اليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله (ولملئت منهم رعبا) أى فزعا واختلف فى ذلك الرعب كان لماذا فقال الكلبى لان اعينهم منفتحة كالمستيقظ الذى يريد ان يتكلم وهم نيام وقيل من وحشة المكان وقيل لكثرة شعورهم وطول اظفارهم وتقلبهم من غير حس كالمستيقظ وقيل ان الله تعالى منعهم بالرعب حتى لا يراهم احد وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم

فيه بلفظ الجمع تنبيها على انه من العظماء فى علوم الحكمة فلم يقدم على القتل الا لحكمة عالية (قوله وجدها تغرب فى عين حمئة) ان قلت الشمس فى السماء

رقادا فاخرجتهم وقرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام بعد الميم والباقون بتخفيفها والسوسي
بابدال الهمزة ياء على اصله وقفا ووصلا وحمزة في الوقف فقط وقرأ ابن عامر والكسائي
رعبا بضم العين والباقون بسكونها (وكذلك) أي كما فعلنا بهم ماذكرنا آية (بعثناهم) اي
أيقظناهم آية (ليتساءلوا بينهم) اي ليسأل بعضهم بعضا عن احوالهم في نومهم ويقظتهم
فيتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم فيزدادوا يقينا على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به
أمر البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم (قال قائل منهم) مستفهما من اخوانه (كم لبثتم)
نائمين في هذا الكهف من ليلة أو يوم وهذا يدل على ان هذا القائل استشعر طول لبثهم مما رأى
من هيئتهم أو بغير ذلك من الامارات (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لانهم دخلوا الكهف
طلوع الشمس وبعثوا آخر النهار فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم فلما نظروا الى
طول أظفارهم وشعورهم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) فأحالوا العلم على الله تعالى قال ابن عباس
القائل ذلك هو رئيسهم تمليخا رد علم ذلك الى الله تعالى وعلم أن مثل هذا التغير لا يحصل الا في
الايام الطويلة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند المثناة والباقون بالادغام
ثم لما علموا أن الامر ملتبس عليهم لا طريق لهم الى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا (فابعثوا
أحدكم بورقكم هذه) اي بفضتكم وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الراء والباقون
بكسرها والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ويدل عليه ما روي أن عرفجة اتخذ
أنفا من ورق ويقال لها الرقة وفي الحديث في الرقة ربع العشر (الى المدينة) اي التي خرجتم
منها وهي مدينة طرسوس وهذه الآية تدل على أن السعي في امساك الزاد أمر مهم مشروع
وانه لا يبطل التوكل على الله تعالى اذ حقيقة التوكل على الله تعالى تهيئة الاسباب واعتقاد
أن لا مسبب للاسباب الا الله تعالى فحمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأي المتوكلين على الله
دون المتوكلين على الانفاقات على ما في أوعية القوم من النفقات ومنه قول عائشة رضي الله
تعالى عنها لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه أوثق عليك نفقتك وما حكي عن بعض
صعاليك العلماء أنه كان شديد الحب الى أن يرزق حج بيت الله الحرام وعلم منه ذلك فكان
مياسير أهل بلده كلما عزم قوم على حج أتوه ان يصحبهم وألحوا عليه فيعتذر اليهم ويحمد
لهم بذلهم فاذا انفضوا عنه قال لمن عنده ما لهذا السفر الا شيآن شد الهميان والتوكل على
الرحمن (فلينظر أيها أزكى طعاما) قال ابن عباس يريد ما حل من الذبائح لان عامة أهل
بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالما فقولهم أيها
أزكى طعاما اي ايها ابعد عن الغصب وكل سبب حرام وقيل أيها أطيب وألذ وقيل ايها
أرخص قال الزجاج قولهم أيها رفع بالابتداء وأزكى خبره وطعاما تمييز ولا بد هنا من حذف
اي اي اهلها أزكى اي احل وقيل لا حذف والضمير عائد على الاطعمة المدلول عليها من
السياق (فليأتكم) ذلك الاحد (برزق منه) لنا كل (وليتلطف) اي وليكن في ستر وكتمان
في دخول المدينة وشراء الاطعمة حتى لا يعرف (ولا يشعرن) اي ولا يخبرن (بكم احدا) من
أهل المدينة (انهم) اي اهل المدينة (ان يظهروا) اي يطلعوا عالين (عليكم يرجموكم) اي

الرابعة وهي بقدر كرة
الارض مائة وستين او
وخمسين اووعشرين مرة
فكيف تسعها عين في
الارض تغرب فيها (قلت)
المراد وجدها في ظنه كما
يرى راكب البحر الشمس

يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير فى القرآن كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله لارجمنك وقوله أن ترجمون وقال الزجاج اى يقتلوكم بالرجم والرجم اخبث أنواع القتل (او يعيدوكم فى ملتهم) ان لنتم لهم (ولن تفلحوا اذا) اى ان رجعتم الى ملتهم (ابدا) بل تكونوا خاسرين قال بعض العلماء ولاخوف على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين الامرين أحدهما مافيه هلاك النفس وهو الرجم الذى هو أخبث أنواع القتل والآخر هلاك الدين (فان قيل) أليس انهم لو أكرهوا على الكفر حتى أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا أبدا (أجيب) بأنهم خافوا أنهم لو بقوا على الكفر مظهرين له فقد يميل بهم ذلك الى الكفر الحقيقى فكان خوفهم بسبب هذا الاحتمال (فان قيل) ما النكتة فى العدول عن واحد كم الى أحدكم وكل ذلك دال على الوحدة (أجيب) بان النكتة فيه أن العرب اذا قالوا أحد القوم أرادوا به فردا منهم واذا قالوا واحد القوم أرادوا رئيسهم والمراد فى القصة أى واحد كان والقرآن الكريم أنزل بلغتهم فراعى ما راعوا (وكذلك) اى ومثل مافعلنا بهم ذلك الامر العظيم من الربط على قلوبهم والستر والحماية من الطالبين لهم والحفظ لاجسادهم على مر الزمان وتعاقب الحدثان وغير ذلك (أعثرنا) أى أطلعنا غيرهم (عليهم) يقال عثرت على كذا علمته وأصله أن من كان غافلا عن شئ فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العثر سببا لحصول العلم فاطلق السبب على المسبب بقوله تعالى (ليعلموا) متعلق باعثرنا والضمير قيل يعود على مفعول أعثرنا المحذوف تقديره اعثرنا الناس وقيل يعود الى أهل الكهف وهذا هو الظاهر (ان وعد الله) الذى له صفات الكمال بالبعث للروح والجسم معا (حق) لان قيامهم بعد نومهم يتقلبون نيفا وثلثمائة سنة مثل من مات ثم بعث قال بعض العارفين علامة اليقظة بعد النوم علامة البعث بعد الموت ولما كان من الحق ماقديداخله شك قال تعالى (وان) اى وليعلموا أن (الساعة) اى آتية (لاريب) اى لاشك (فيها) * (تنبيه) * اختلف فى السبب الذى عرف الناس واقعة أصحاب الكهف فقال محمد بن اسحق ان ملك تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس فلما ملك بقى فى ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب الناس فى مملكته فكانوا أحزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع الى الله تعالى وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على اهل الحق ويقولون لاحياة الا الحياة الدنيا وانما تبعث الارواح ولا تبعث الاجساد وجعل الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه ودأب ليله ونهاره زمانا يتضرع الى الله تعالى ويبكى أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم ثم ان الله تعالى الذى يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية اصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها ويستجيب لعبده تندوسيس ويتم نعمته عليه وان يجمع من كان تبدد من المؤمنين وألقى الله فى نفس رجل من تلك البلد الذى فيه الكهف أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف فيبنى به حظيرة

لغنمه

قوله يقال له تندوسيس قوله بقال له تندوسيس الذى فى حياة الحيوان يقال تاودوسيوس فليحرر اه

طالعه وغاربه فيه فذو القرنين انتهى الى آخر البنيان فى جهة الغرب فوجدعينا واسعة فظن ان الشمس تغرب فيها (فان قلت) ذو القرنين كان نبيا او تقيا حكيما

لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة حتى اذا نزعاها على فم الكهف وفتحا باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهري الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة انفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون لها اذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا في ألوانهم شئ يكرهونه كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون ان ملكهم دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم انبئنا بما قال الناس في شأننا عشية أمس عند الجبار وهم يظنون انهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد تخيل لهم انهم قد ناموا أطول ما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك في أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا التمستم بالمدينة وهو يريد ان يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا انطلق الى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذي يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتغ لنا طعاما واتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق متخوفا ان يراه احد من أهلها فيعرفه ولا يشعر ان دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لاهل الايمان اذا كان أمر الايمان ظاهرا فلما رآها عجب وجعل ينظر اليها مستخفيا وينظر يمينا وشمالا ثم ترك الباب وتحول لباب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك فجعل يخيل اليه ان المدينة ليست بالتي كان يعرفها ورأى ناسا كثيرا محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل اليه انه حيران ثم رجع الى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ياليت شعري ما هذا اما عشية أمس فكان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها واما اليوم فانها ظاهرة لعلي حالم ثم يرى انه ليس بنائم فاخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا ورأى انه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدرات المدينة ويقول في نفسه والله ما ادري ما هذا اما عشية امس فليس على وجه الارض انسان يذكر عيسى بن مريم الا قتل واما اليوم فاسمع كل انسان يذكر عيسى ولا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه ليست المدينة التي اعرف والله ما اعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى فقال اسمها افسوس فقال في نفسه لعل بي مسا او امرا اذهب عقلي والله يحق لي ان اسرع الخروج منها قبل ان اخزى فيها او يصيبني شر فاهلك ثم انه أفاق فقال والله لو عجلت الخروج من هذه المدينة قبل أن يفطن بي لكان أكيس فدنا من

فكيف خفي عليه هذا حتى وقع في ظنه ما يستحيل وقوعه (قلت) الانبياء والحكماء لا يبعد ان يقع منهم مثل ذلك الا ترى الى ظن موسى فيما انكره على الخضر وأيضا فالله

الذين يبيعون الطعام فاخرج الورق التي كانت معه فاعطاها رجلا منهم فقال بعني بهذا الورق
طعاما فاخذها الرجل فنظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها الى رجل من
أصحابه فنظر اليها ثم الى آخر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل ويتعجبون منها ثم
جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض ان هذا اصاب كنزا مخبأ في الارض منذ زمان
ودهر طويل فلما رآهم تمليخا يتشاورون من اجله فرق فرقا شديدا وجعل يرتعد ويظن أنهم
فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون ان يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل أناس آخرون
يأتونه فيتعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق أفضلوا علي قد اخذتم ورقي فامسكوها وأما
طعامكم فليس لي حاجة به فقالوا من أنت يا فتى وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز
الاولين وانت تريد ان تخفيه انطلق معنا وارنا وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وانك ان لم
تفعل نأت بك السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال ما وجدت شيئا وقال قد
وقعت في كل شيء احذر منه قالوا يا فتى انك والله لا تستطيع ان تكتم ما وجدت فجعل تمليخا
لا يدري ما يقول لهم وخاف حتى انه لم يرد اليهم جوابا فلما راوه لا يتكلم اخذوا كساءه
وطرحوه في عنقه وجعلوا يقودونه في سكك المدينة حتى سمع من فيها فقيل اخذ رجل عنده
كنز واجتمع عليه اهل المدينة صغيرهم وكبيرهم جعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ما هذا
الفتى من اهل هذه المدينة وما رأيناه قط وما نعرفه فجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم فلما اجتمع
عليه اهل المدينة وكان متيقنا ان اباه واخوته في المدينة وانه من عظماء اهلها وانهم سيأتونه
اذا سمعوا به فيخلصونه وقام كالحيران ينظر متى يأتيه بعض اهله فيخلصه من بين ايديهم اذ
اختطفوه وانطلقوا به الى رئيسي المدينة ومدبريها اللذين يدبران امرها وهما رجلان صالحان
اسم احدهما اريوس واسم الآخر اسطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا انه ينطلق به الى
دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من
المجنون وجعل تمليخا يبكي ويرفع راسه الى السماء وقال اللهم اله السماء واله الارض افرغ
اليوم علي صبرا وأولج معي روحا منك تؤيدني بها عند هذا الجبار وجعل يقول في نفسه فرق
ما بيني وبين اخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت ويا ليتهم يأتوني فنقوم جميعا بين يدي هذا الجبار فانا
كانوا افقنا على الايمان بالله سبحانه وتعالى وان لا نشرك به شيئا ولا نفترق في حياة ولا موت
فلما انتهى به الى الرجلين الصالحين ورأى انه لم يذهب به الى دقيانوس افاق وسكن عنه
البكاء فاخذ اريوس واسطيوس الورق فنظرا اليها وعجبا منها ثم قال احدهما اين الكنز الذي
وجدت يا فتى فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن
والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم فقال احدهما من انت فقال تمليخا اما انا فكنت ارى
اني من اهل هذه المدينة قالوا فمن أبوك ومن يعرفك بها فانبأهم باسم ابيه فلم يجدوا احدا
يعرفه ولا اباه فقال له احدهما انت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غير
انه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس
بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا حتى ينفلت منكم فقال له احدهما ونظر اليه نظرا شديدا
اتظن انا نرسلك ونصدقك بان هذا مال ابيك ونقش هذه الورق وضربها اكثر من ثلثمائة سنة

قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين وكر الارض بحيث تسع عين الناظر الشمس فلم لا يجوز ذلك ولم نعلم به انصور وقولنا عن الاحاطة بذلك (قوله فلا نقيم لهم وزنا)

وأنت غلام شاب وتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ وشمط كما ترى وحولك سراة هذه
المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار
واني لأظنني سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته
فلما قال ذلك قال لهم تمليخا أنبئوني عن شيء أسألكم عنه فان فعلتم صدقتكم عما عندي فقالوا
سل لا نكتمك شيأ قال ما فعل الملك دقيانوس قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الارض ملكا
يسمى دقيانوس ولم يكن الا ملكا هلك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة فقال
تمليخا اني اذا لحيران وما هو يصدقني أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية وان الملك أكرهنا
على عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا فلما انتبهنا خرجت لاشترى
طعاما وأتجسس الاخبار فاذا أنا كما ترون فانطلقوا معي الى الكهف الذي في جبل ينجلوس
أريكم أصحابي فلما سمع اريوس ما يقول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله تعالى جعلها
الله تعالى لكم على يد هذا الغلام فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فانطلق معه اريوس
واسطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا
اليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر
الذي كان يأتي فيه فظنوا أنه قد أخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك
ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا أنهم رسل الجبار
دقيانوس بعث اليهم ليأتوا بهم فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم
بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فانه الآن بين يدي الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما
هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة اذا هم باريوس وأصحابه وقوف على باب الكهف
فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر
كله فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله تعالى ذلك الزمن الطويل وانما أوقظوا ليكونوا آية
للناس وتصديقا للبعث وليعلم الناس ان الساعة آتية لا ريب فيها ثم دخل على اثر تمليخا اريوس
فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء أهل
المدينة ففتح التابوت عندهم فوجد فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما مكسلمينا ومحشلمينا
وتمليخا ومطرونس وكشطونس ويبورنس ويطونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس
الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد
عليهم بالحجارة وانا كتبنا أسماءهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم ان عثر عليهم فلما قرؤه عجبوا
وحمدوا الله تعالى الذي أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله تعالى وتسبيحه
ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر اريوس
وأصحابه سجودا وحمدوا الله تعالى الذي أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأنبأهم
الفتية عن الذي لقوه من ملكهم دقيانوس ثم ان اريوس وأصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم
الصالح تندوسيس ان عجل لعلك تنظر الى آية من آيات الله جعلها الله تعالى على ملكك
وجعلها آية للعالمين ليكون لهم نورا وضياء وتصديقا بالبعث فاعجل الى فتية بعثهم الله تعالى
وكان قد توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة فلما أتى الملك الخبر قام ورجع اليه عقله وذهب

القيامة وزنا) اى قدرا
لحقارتهم وليس المراد ولا
تنصب لهم ميزانا لان الميزان
انما ينصب ليوزن به
الحسنات في مقابلة
السيآت والكافر لا حسنة

همه فقال أحمد الله رب السموات والارض وأعبدك وأسبح لك تطولت على ورحمتني فلم تطفئ النور الذى جعلته لآبائى ولعبد الصالح قسطنطينوس الملك فلما نبئ به أهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى أتوا مدينة أفسوس فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية تندوسيس فرحوا به وخر ساجدا على وجوههم وقام تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم قالوا له نستودعك الله السلام عليك ورحمة الله وبركاته وحفظك وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم وقام الملك تندوسيس اليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه فى المنام وقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فامر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد على ان يدخل عليهم وقيل ان تمليخا لما حمل الى الملك الصالح قال له الملك من أنت قال انا رجل من أهل هذه المدينة وذكر انه خرج أمس او منذ أيام وذكر منزله وأقواما لم يعرفهم احد وكان الملك قد سمع ان فتية فقدوا فى الزمان الاول وأن اسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانته فدعا باللوح فنظر فى اسمائهم فاذا اسمه مكتوب فذكر اسماء الآخرين فقال تمليخا هم اصحابى فلما سمع الملك ذلك ركب هو ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى ادخل على اصحابى وابشرهم فانهم ان رأوكم معى ارعبتموهم فدخل فبشرهم فقبضت روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا اليهم ثم وقع التنازع فى امرهم بين اهل المدينة كما قال تعالى (اذ يتنازعون) اى اهل المدينة (بينهم امرهم) اى أمر الفتية فى البناء حولهم (فقالوا) اى الكفار (ابنوا عليهم) اى حولهم (بنيانا) يسترهم فانهم كانوا على ديننا وقوله تعالى (ربهم اعلم بهم) يجوز ان يكون من كلام الله تعالى وان يكون من كلام المتنازعين فيهم (قال الذين غلبوا على امرهم) اى امر الفتية وهم المؤمنون (لنتخذن عليهم) اى حولهم (مسجدا) يصلى فيه وفعل ذلك على باب الكهف وقيل ان بعضهم قال الاولى ان يسد باب الكهف عليهم لئلا يدخل أحد عليهم ولا يقف على أحوالهم انسان وقال الآخرون بل الاولى أن يبنى على باب الكهف مسجدا وهذا القول يدل على أن اولئك الاقوام كانوا عارفين بالله ومعترفين بالعبادة والصلاة وقيل تنازعوا فى مقدار مكثهم وقيل فى عددهم واسمائهم * (تنبيه) * بنيانا يجوز ان يكون مفعولا به جمع بنيانة وان يكون مصدرا * ولما ذكر اصحاب الكهف عند النبى صلى الله عليه وسلم وقع الاختلاف فى عددهم كما قال تعالى (سيقولون) اى الخائضون فى قصتهم من اهل الكتاب والمؤمنين فقال بعض اهل الكتاب (ثلاثة رابعهم كلبهم) اى هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم بانضمامه اليهم (ويقولون) اى بعضهم (خمسة سادسهم كلبهم) فهذان القولان لنصارى نجران وقيل الاول قول اليهود والثانى قول النصارى (فان قيل) لم جاءت سين الاستقبال فى الاول دون الاخيرين (اجيب) بان فى ذلك وجهين ان تدخل الاخيرين فى حكم السين

لموا ما عملوا أما من خفت موازينه فامه هاوية فهو فى من غلبت سيآته على حسناته من المؤمنين فانه يدخل النار لكن لا يخلد فيها

كما تقول قد أكرم وأنتم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا وان تريد بفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له ٭ ولما كان قولهم ذلك بغير علم كان (رجما بالغيب) أي ظنا في الغيبة عنهم فهو راجع الى القولين معا ونصب على المفعول له أي لظنهم ذلك (ويقولون) أي المؤمنون (سبعة وثامنهم كلبهم) قال أكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق ويدل عليه وجوه الاول انه تعالى لما حكى قوله ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال بعده (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) وأتبع القولين الاولين بقوله تعالى رجما بالغيب وتخصيص الشئ بالوصف يدل على ان الحال في الباقي بخلافه فوجب ان يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الاولان وان يكون القول الثالث مخالفا لهما في كونه رجما بالغيب الوجه الثاني ان الواو في قوله تعالى وثامنهم هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا من المعرفة في نحو قولك جاءني رجل ومعه آخر لتوكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر فكانت هذه الواو دالة على ان الذين كانوا في الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم وقول محمد بن اسحق انهم كانوا ثمانية مردود فكأن الله تعالى حكى اختلافهم وتم الكلام عند قوله ويقولون سبعة ثم حقق هذا القول بقوله تعالى وثامنهم كلبهم والثامن لا يكون الا بعد السبع وهذه الواو يسمونها واو الثمانية لان العرب تعد فتقول واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية لان العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة ونظيره هذه الآية في ثلاث آيات وهو قوله تعالى والناهون عن المنكر وقوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها لان أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وقوله تعالى ثيبات وأبكارا قال القفال وقولهم واو الثمانية ليس بشئ بدليل قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر الواو في النعت الثامن اه وقد يجاب بان ذلك يجري على الغالب الوجه الثالث انه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضي انه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكان ابن عباس يقول أنا من أولئك العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول كانوا سبعة قال الرازي واسماؤهم تمليخا مكسلمينا مشلينا وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك وعن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان الملك يستشير هؤلاء الستة لينصر في مهماته والسابع كشفططيونش وهو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال هم مكسلمينا وتمليخا ومرطونس ويدنونس ودونواس وكفشططونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم افسوس ٭ (تنبيه) ٭ في الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة كما تقدم تقديره فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه وقيل الاقوال الثلاثة لاهل الكتاب والقليل منهم أي ولا علم بذلك الا في قليل منهم وأكثرهم على الظن ٭ ثم انه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعها بان نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين عن المراء وعن الاستفتاء أما النهي عن المراء فبقوله تعالى (فلا تمار) أي تجادل (فيهم) اي في شأن الفتية (الا مراء) اي جدالا (ظاهرا) أي غير متعمق فيه وهو ان تقص عليهم ما في القرآن من غير أن تكذبهم في تعيين ذلك العدد ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب

٭(سورة مريم عليها السلام)٭
(قوله يرثني ويرث من آل يعقوب) اي يرث العلم والنبوة لا المال لخبر نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا صدقة وورث يتعدى

الا بالتي هي أحسن واما النهي عن الاستفتاء فقوله تعالى (ولا تستفت فيهم) أي ولا تسأل (منهم) اى من أهل الكتاب اليهود (أحدا) عن قصتهم سؤال مسترشد لانه لما ثبت أنه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم وفيها أوحى اليك مندوحة عن غيره ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤل عنه وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم الاخلاق * ولما سأل أهل مكة عن خبر أهل الكهف فقال النبي صلى الله عليه وسلم أخبركم به غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوما وفي رواية اخرى أربعين يوما نزل (ولا تقولن لشئ) أي لاجل شئ تعزم عليه (انى فاعل ذلك) الشئ (غدا) اى فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (الا ان يشاء الله) أي الا متلبسا بمشيئته بأن تقول ان شاء الله والسبب في ذلك ان الانسان اذا قال سأفعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد ان يموت قبل مجيء الغد ولم يبعد أيضا ان بقي حيا ان يعيقه عن ذلك الفعل سائر العوائق فاذا لم يقل ان شاء الله صار كاذبا في ذلك الوعد والكذب منفر لا يليق بالانبياء عليهم الصلاة والسلام فلهذا السبب وجب عليه ان يقول ان شاء الله حتى اذا تعذر عليه الوفاء بذلك الوعد لم يصر كاذبا ولم يحصل التنفير * (تنبيه) * قال كثير من الفقهاء اذا قال الرجل لامرأته أنت طالق ان شاء الله لم يقع عليه الطلاق لانه لما علق وقوع الطلاق على مشيئته تعالى لم يقع عليه الطلاق الا اذا علمنا حصول المشيئة ومشيئة الله تعالى غيب لا سبيل لنا الى العلم بحصولها الا اذا علمنا أن متعلق المشيئة وقع وهو الطلاق وعلى هذا لا يعرف حصول المشيئة الا اذا وقع الطلاق ولا يعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفت المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور فلهذا لا يقع الطلاق وقيل المراد الا أن يشاء الله أي الا ان يأذن لك الله تعالى في ذلك القول والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك انك تفعل الفعل الفلاني الا أن يأذن لك الله تعالى في ذلك الاخبار وقد احتج القائلون بان المعدوم شئ بهذه الآية لان الشئ الذى سيفعله غدا معدوم في الحال فوجب تسمية المعدوم بانه شئ (واجيب) بان هذا الاستدلال لا يفيد الا ان المعدوم يسمى بكونه شيأ وعندنا ان السبب فيه انه سيصير شيأ يجوز تسميته بكونه شيأ في الحال كما قال تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه والمراد سيأتي أمر الله واختلف في معنى قوله تعالى (واذكر ربك اذا نسيت) فقال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه اذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس لو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى في رفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة اوشهر او اسبوع او يوم وعن طاوس لا يقدر على الاستثناء الا في مجلسه وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة وعند عامة الفقهاء انه لا أثر له في الكلام مالم يكن موصولا واحتج ابن عباس بان قوله اذا نسيت غير مختص بوقت غير معين بل هو متناول لكل الاوقات وظاهره ان الاستثناء لا يجب ان يكون متصلا أما عامة الفقهاء فقالوا لو جوزنا ذلك للزم أن لا يستقر شئ من العقود والايمان يحكى ان المنصور بلغه ان أبا حنيفة خالف ابن عباس في الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له الامام أبو حنيفة هذا يرجع عليك لانك تأخذ البيعة بالايمان أفترضى ان يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضى عنه واستدل له بان الآيات الكثيرة دالة على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال تعالى أوفوا بالعقود وقال تعالى وأوفوا بالعهد

قوله بوقت غير معين كذا بالنسخ والمناسب حذف غير اهـ مصحح

نفسه ومن وقد جمع بينهما في الآية وقيل من للتبعيض لا للتعدية لان آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء وعلى الاول المراد من آل يعقوب الانبياء لانهم الذين لا يورثون الا العلم

فاذا أتى بالعقد أو العهد وجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل هذه الآيات خالفنا الدليل فيما اذا كان الاستثناء متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل أن الاستثناء وحده لا يفيد شيأ فهو جار مجرى بعض الكلمة الواحدة فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة فاذا لم يكن متصلا أفاد الالتزام التام فوجب الوفاء بذلك الملتزم وقيل ان قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله قال عكرمة واذكر ربك اذا غضبت وقال وهب مكتوب في الانجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب وقال الضحاك والسدى هذا في الصلاة المنسية قال الرازى وتعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام الكلام في هذه القصة وجعله مستأنفا يصير الكلام مبتدأ منقطعا وذلك لا يجوز وفى قوله تعالى (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) وجوه الاول أن يكون قوله تعالى الا ان يشاء الله ليس بحسن تركه وذكره أولى من تركه وهو قوله لأقرب من هذا رشدا والمراد منه ذكر هذه الجملة الثانى أنه لما وعدهم بشئ وقال معه ان شاء الله فيقول وعسى أن يهدين ربى لشئ أحسن وأكمل مما وعدتكم به الثالث أن قوله عسى ان يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا اشارة الى قصة أصحاب الكهف اى لعل الله يؤتيني من البينات والدلائل على صحة نبوتى وصدقى فى ادعاء النبوة ما هو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من قصة أصحاب الكهف وقد فعل الله تعالى ذلك حين آتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك • ثم شرع تعالى فى آية هى آخر الآيات المذكورة فى قصة أصحاب الكهف بقوله تعالى (ولبثوا فى كهفهم) اى نياما (ثلثمائة) اى مدة ثلثمائة (سنين) قال بعضهم وهذه السنون الثلثمائة عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها تسع سنين وقد ذكرت فى قوله (وازدادوا تسعا) اى تسع سنين لان التفاوت بين الشمسية والقمرية فى كل مائة سنة ثلاث سنين لان السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية عشرة أيام واحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة فالثلثمائة سنة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية قال الرازى وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن أن يقال لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم فى النوم بعد ذلك تسع سنين وقرأ حمزة والكسائى بغير تنوين فى الوصل والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان لثلثمائة لانه لما قال ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة لم يعرف انها أيام أو شهور أو سنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان ذلك عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير اى لبثوا سنين ثلثمائة وأما وجه القراءة الاولى فهو أن الواجب فى الاضافة أن يقال ثلثمائة سنة الا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله تعالى بالاخسرين أعمالا وحذف مميز تسع لدلالة ما تقدم عليه اذ لا يقال عندى ثلثمائة درهم وتسعة الا وأنت تعنى تسعة دراهم ولو أردت ثيابا أو نحوها لم يجز لانه الغاز • ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم اذا نازعوه فى مدة لبثهم فى الكهف بقوله تعالى (قل الله أعلم بما لبثوا) اى فهو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل ان أهل الكتاب قالوا ان المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلثمائة سنين وازدادوا تسع سنين فرد الله تعالى عليهم ذلك وقال الله أعلم بما لبثوا

قوله ما هو أعظم كذا بالنسخ ولعل الاولى الى ما اه مصححه

والنبوة (قوله ان يكون لى غلام) الى آخره (ان قلت) كيف استبعد زكريا ذلك وانكره (قلت) لم يقله انكارا بل ليجاب بما أجيب به عن طلبه الولد وهو قوله تعالى يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى فيزداد الموقنون ايقانا ويرتدع المبطلون

يعني بعد قبض ارواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله (له غيب السموات والارض) اى
ما غاب فيهما وخفي من احوال اهلهما فالغيب ما يغيب عن ادراكك والله عز ذكره لا يغيب
عن ادراكه شئ فيكون عالما بهذه الواقعة لا محالة وقوله تعالى (أبصر به واسمع) كلمة تذكر في
التعجب اى ما ابصر الله تعالى بكل موجود وما اسمعه بكل مسموع (ما لهم) أى اهل
السموات والارض (من دونه) اى الله (من ولي) اى ناصر (ولا يشرك في حكمه) اى في
قضائه (أحدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا لانه غني بذاته عن كل أحد وقيل الحكم هنا علم
الغيب اى لا يشرك في علم غيبه احدا وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية قبل الشين وبسكون الكاف على
نهى كل احد عن الاشراك والباقون بالتحتية وضم الكاف *(تنبيه)* احتج اصحابنا
رحمهم الله تعالى بهذه القصة على صحة القول بالكرامة للاولياء وقد قدمنا معرفة الولي في
سورة يونس عند قوله تعالى ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فمما يدل على جواز
كرامات الاولياء القرآن والاخبار والآثار والمعقول * اما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات
الحجة الاولى قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها الحجة
الثانية قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم سالمين من الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع
سنين وأن الله تعالى كان يعصمهم من حر الشمس ومن الناس من تمسك أيضا في هذه المسئلة
بقوله تعالى قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك على أنه غير
السيد سليمان والسيد جبريل * وأما الاخبار فكثيرة منها ما اخرج في الصحيح عن أبي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصبي في زمن
جريج وصبي آخر اما عيسى فقد عرفتموه وأما جريج فكان رجلا عابدا في بني اسرائيل وكانت
له أم فكان يوما يصلي اذ اشتاقت اليه أمه فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي الصلاة خير
أم رؤيتها ثم يصلي فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى تم ثلاث مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد
ذلك على أمه فقالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات وكانت زانية في بني اسرائيل فقالت
لهم أنا أفتن جريجا حتى يزني بي فأتته فلم تقدر على شئ وكان هناك راع يأوي بالليل الى
صومعته فلما أعياها جريج راودت الراعي على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدي هذا من
جريج فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه ثم مسح الغلام قال أبو هريرة كأني أنظر
الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام من أبوك فقال الراعي فندم القوم على
ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا نبني لك صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم وبناها كما
كانت وأما الصبي الآخر فان امرأة كان معها صبي لها ترضعه اذ مر بها شاب جميل ذو شارة
فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله ثم مر بها امرأة ذكروا انها
سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها
فقالت له أمه في ذلك فقال ان الراكب جبار من الجبابرة فكرهت ان أكون مثله وان هذه
قيل لها زنيت ولم تزن وقيل لها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي الله فأحببت ان أكون
مثلها ومنها خبر الغار وهو مشهور في الصحيح عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم فآواهم المبيت الى غار فدخلوه

فانحدرت

أو قاله تعجب فرح وسرور
لا تعجب انكار واستبعاد
ويعقوب المذكور هو أبو
يوسف وقيل هو أخو
زكريا وقيل هو أخو
عمران أبي مريم عليهم
السلام (قوله قال رب

فانحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدت عليهم باب الغار وقد ذكرت ذلك عند قوله تعالى كانوا من آياتنا عجبا ومنها قوله صلى الله عليه وسلم رب اشعث اغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لابره ولم يفرق من شئ وشئ فيما يقسم به على الله تعالى ومنها ماروى عن سعيد بن المسيب عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها التفتت البقرة وقالت انى لم أخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا وأبو بكر وعمر ومنها ماروى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل سمع رعدا أوصوتا فى السحاب ان اسق حديقة فلان قال فغدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان بن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لانى سمعت صوتا فى السحاب أن اسق حديقة فلان قال اما اذ قلت فانى أجعلها أثلاثا فاجعل لنفسى ولاهلى ثلثا واجعل للمساكين وابناء السبيل ثلثا وانفق عليها ثلثا وأما الآثار فكثيرة أيضا ولنبدأ منها ببعض مانقل انه ظهر على يد الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم ببعض ماظهر على يد بعض الصحابة أما أبو بكر رضى الله تعالى عنه فمن كراماته أنه لما حملت جنازته الى باب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك يارسول الله هذا أبو بكر بالباب فاذا بالباب قد فتح واذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب الى الحبيب وأما عمر رضى الله تعالى عنه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته النوع الاول ماروى انه لما بعث جيشا وأمر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينما عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح فى خطبته وهو على المنبر ياسارية الجبل الجبل قال على بن أبى طالب رضى الله عنه كتبت تاريخ هذه الكلمة فلما قدم رسول ذلك الجيش فقال ياأمير المؤمنين عدونا يوم الجمعة فى وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح ياسارية الجبل فاسندنا ظهورنا الى الجبل فهزم الله تعالى الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قال الرازى قلت سمعت بعض المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه قال لابى بكر وعمر أنتما منى بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لاجرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم النوع الثانى ماروى أن نيل مصر كان فى الجاهلية يقف فى كل سنة مرة واحدة فكان لايجرى حتى تلقى فيه جارية حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص الى عمر فكتب عمر على خرقة ايها النيل ان كنت تجرى بامر الله فاجر وان كنت انما تجرى بامرك لاحاجة بنا اليك فالقيت تلك الخرقة فى النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك النوع الثالث لما وقعت الزلزلة فى المدينة فضرب عمر بالدرة على الارض وقال اسكنى باذن الله فسكنت وماحدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك الوقت النوع الرابع وقعت النار فى بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة يانار اسكنى باذن الله فالقوها فى النار فانطفأت فى الحال النوع الخامس ماروى ان رسول ملك الروم جاء الى عمر وطلب داره فظن ان داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو فى الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب الى الصحراء راى عمر وضع درته تحت رأسه ونام على التراب فتعجب الرسول من ذلك وقال اهل المشرق والمغرب يخافون هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال فى نفسه ان وجدته خاليا فاقتله واخلص

قوله ولم يفرق من شئ الخ أى بين شئ الخ اه

اجعل لى آية) الآية أى علامة (ان قلت) كيف طلب العلامة على وجود الولد بعد ما بشره الله به (قلت) ليبادر الى الشكر ويتعجل السرور اذا حمل

الناس منه فلما رفع السيف أخرج الله تعالى من الارض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف
من يده وانتبه عمر ولم يرشيأ فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم قال الرازى واقول هذه
الواقعة رويت بالآحاد وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه
عن التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وغلب الممالك والدول ولو نظرت فى كتب
التواريخ علمت أنه لم يتفق لاحد من أول عهد عمر الى الآن ما تيسر له فانه مع غاية بعده عن
التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولاشك ان هذا من أعظم الكرامات وأما عثمان
رضى الله تعالى عنه فاشياء كثيرة منها ما روى عن أنس قال سرت فى الطريق فوقعت عينى
على امرأة ثم دخلت على عثمان فقال مالى أراكم تدخلون على وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت
أجاء الوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة ومنها انه لما طعن
بالسيف فاول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو
السميع العليم ومنها أن جهجاها الغفارى انتزع العصا من يد عثمان فكسرها على ركبته
فوقعت الاكلة فى ركبته وأما على رضى الله تعالى عنه فاشياء كثيرة أيضا منها ما روى ان واحدا
من محبيه سرق وكان عبدا أسود فاتى به الى على فقال أسرقت فقال بلى فقطع يده فانصرف
من عند على فلقيه سلمان الفارسى وابن الكواء فقال ابن الكواء من قطع يدك فقال له أمير
المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال له سلمان عجبا قطع يدك وتمدحه
فقال ولم لا أمدحه وقد قطع يدى بحق وخلصنى من النار فسمع سلمان ذلك فاخبر به عليا فدعا
الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السماء ارفع
الرداء عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برئت وأما ما روى عن بعض الصحابة فشئ كثير ونذكر
منها شيأ قليلا منها ما روى محمد بن المنكدر عن سفينة قال ركبت البحر فانكسرت سفينتى التى
كنت فيها وركبت لوحا من ألواحها فطرحنى اللوح فى خيسة فيها اسد فخرج الاسد الى يريدنى
فقلت يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتقدم الاسد الى ودلنى على
الطريق ثم همهم فظننت انه يودعنى ورجع ومنها ما روى ثابت عن أنس ان اسيد بن حضير
ورجلا آخر من الانصار تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة لهما حتى ذهب من
الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وكان فى يد كل واحد منهما عصا
فاضاءت عصا احدهما لهما حتى مشيا فى ضوء ثم لما افترقت بهما الطريق اضاءت للآخر
عصاه فمشى حتى بلغ منزله ومنها ما روى انه قيل لخالد بن الوليد ان فى عسكرك من يشرب الخمر
فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقى رجلا على فرس ومعه خمر فقال ما هذا قال خل فقال
خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى اصحابه فقال أتيتكم بخمر ما شربت العرب مثلها فلما
فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ما جئتنا الا بخل فقال والله هذا دعاء خالد ومنها الواقعة المشهورة
وهى ان خالد بن الوليد أكل كفا من السم على اسم الله وما ضره ومنها ما روى ان ابن عمر كان فى بعض
أسفاره فلقى جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال
انما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو انه لم يخف غير الله لما سلط عليه شئ ومنها ما روى ان النبى
صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى فى غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا

لا يظهر فى أول الملوك قوله
فاراد معرفته أول وجوده
جعل الله آية وجوده عجزه
عن كلام الناس (قوله
ولم يكن جبارا عصيا)
قال ذلك هذا وقال بعده

باسم الله الاعظم ومشوا على الماء وفى كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أراد مطالعتها وأما الدلائل العقلية على جواز الكرامات فمن وجوه

الاول أنه صلى الله عليه وسلم قال حاكيا عن رب العزة من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة فجعل ايذاء الولى قائما مقام ايذائه وتأكد هذا بالخبر المشهور وأنه تعالى يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى استسقيتك فما سقيتنى استطعمتك فما أطعمتنى فيقول يارب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين فيقول ان عبدى فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندى وكذا فى السقى والاطعام فدلت هذه الاخبار على أن أولياء الله يبلغون هذه الدرجات العالية والمراتب الشريفة فاذا جاز اتصال العبد الى هذه الدرجات فأى بعد أن يعطيه الله تعالى كسرة خبز أو جرعة ماء أو يسخر له كلبا أو دودة

الوجه الثانى أنه صلى الله عليه وسلم قال عن رب العزة ما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وقلبا ولسانا ويدا ورجلا فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يمشى وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق فى سمعهم نصيب لغير الله تعالى لما قال أنا سمعه وأنا بصره وهذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء عنقود من العنب أو شربة من الماء فلما أوصل برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فأى بعد فى أن يعطيه رغيفا واحدا أو شربة من الماء فى مفازة

الوجه الثالث لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك اما لاجل أن الله تعالى ليس أهلا لان يفعل مثل هذا الفعل أو لاجل أن المؤمن ليس أهلا لان يعطيه الله هذه العطية والاول قدح فى قدرة الله تعالى وهو كفر والثانى باطل فان معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته والمواظبة على ذكره وتقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من اعطاء رغيف واحد فى مفازة وتسخير حية أو أسد فلما أعطاه المحبة والذكر والشكر من غير سؤال أولى من أن يعطيه شربة ماء فى مفازة فأى بعد فيه

واحتج المنكر للكرامات بوجوه الاول أن ظهور الفعل الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلا على النبوة فلو حصل لغير النبى لبطلت هذه الدلالة

الوجه الثانى أن الله تعالى قال وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بان الولى ينتقل من بلد الى بلد بعيد لاجل هذا الوجه طعن فى هذه الآية وأيضا ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا فى أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال ان الولى ينتقل من بلد نفسه الى الحج فى اليوم الواحد

الوجه الثالث أن هذا الولى الذى يظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان درهما واحدا فهل يطالب بالبينة أم لا فان طالبناه بها كان عبثا لان ظهور الكرامة عليه يدل على أنه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظنى وان لم يطالب بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعى فهذا يدل على أن القول بالكرامة باطل

وأجيب عن الاول بان الناس اختلفوا هل يجوز للولى دعوى الولاية فقال قوم من المحققين انه لا يجوز فعلى هذا الفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية وعلى القول بالجواز الفرق بينهما ان النبى يدعى المعجزة ويقطع بها والولى اذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لان المعجز يجب ظهوره والكرامة

ولم يجعلنى جبارا شقيا الانالت الاول فى حق يحيى والثانى فى حق عيسى عليهما السلام (قوله وسلام عليه يوم ولد) قاله هنا فى قصة يحيى منكرا وقال بعد فى قصة عيسى والسلام

لايجب ظهورها وأجيب عن الثانى بان قوله تعالى وتحمل اثقالكم الى آخره محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثنيات من ذلك العموم المتعارف وأجيب عن الثالث بان التمسك بالامور النادرة لايعول عليه فى الشرع فلا ينافى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعى ومع هذا فصاحب الكرامة يجب عليه ان يكون خائفا وجلا ولهذا قال المحققون أكثر ما حصل الانقطاع عن حضرة الله انما وقع فى مقام الكرامات فلاجرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أشد أنواع البلاء والذى يدل على ان الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه الاول ان الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه وتعالى فالفرح بالكرامات فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور الوجه الثانى ان من اعتقد فى نفسه انه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم فى قلبه ومن كان لعمله وقع عظيم فى قلبه كان جاهلا اذ لو عرف ربه لعلم ان كل طاعات الخلق فى جنب جلاله تقصير وكل شكر فى جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهى فى مقابلة عزته حيرة وجهل وجدت فى بعض الكتب انه قرئ فى مجلس الاستاذ أبى على الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة ان الحق رفع عملك ان لايبقى عندك منه شئ فى نظرك فان بقى عملك فى نظرك فهو غير مرفوع وان لم يبق عملك فى نظرك فهو مرفوع مقبول الوجه الثالث ان صاحب الكرامة انما وجد الكرامة لاظهار الذل والتضرع فى حضرة الله تعالى فاذا ترفع وتكبر وتجبر بسبب الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات فهذا طريق يؤدى ثبوته الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول فى آخر كل واحد منها ولا فخر اى لا أفتخر بهذه الكرامات وانما أفتخر بالمكرم والمعطى الوجه الرابع انه تعالى وصف عباده المخلصين بقوله تعالى ويدعوننا رغبا اى فى ثوابنا ورهبا اى من عذابنا وقيل رغبا فى وصالنا ورهبا من عقابنا قال بعض المحققين والاحسن ان يقال رغبا فينا ورهبا عنا وفى هذا القدر كفاية لأولى الالباب جعلنا الله تعالى وأحبابنا من أهل ولايته بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث انها من المغيبات بالاضافة الى النبى صلى الله عليه وسلم على انه وحى معجز أمره ان يداوم درسه ويلازم أصحابه بقوله تعالى (واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك) اى القرآن واتبع ما فيه واعمل بما فيه (لامبدل لكلماته) اى لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره وقال بعضهم مقتضى هذا أن لايتطرق النسخ اليه وأجاب بان النسخ فى الحقيقة ليس تبديلا لان المنسوخ ثابت فى وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وهذا لايحتاج اليه مع التفسير المذكور (وان تجد من دونه) اى الله (ملتحدا) اى ملجأ فى البيان والارشاد وقيل ان لم تتبع القرآن ونزل فى عيينة بن حصن الفزارى لما أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان الفارسى وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ثم ينسجه فقال له أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها فان أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك الا هؤلاء

على قوم ولست معه قالان الاول من الله والقليل منه كثير والثانى من عيسى وال الاستغراق او العهد كما فى قوله تعالى كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول اى ذلك

اى كما قال قوم نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون فنهم حتى تتبعك أو اجعل لنا مجلسا او اجعل لهم مجلسا (واصبر نفسك) اى احبسها وثبتها (مع الذين يدعون ربهم) ونظير هذه الآية قد سبق فى سورة الانعام وهو قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ففى تلك الآية نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفى هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم وفى قوله تعالى (بالغدوة والعشى) وجوه الاول انهم مواظبون على هذا العمل فى كل الاوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشى الا شتم الناس الثانى المراد صلاة الفجر والعصر الثالث ان المراد الغداة وهو الوقت الذى ينتقل فيه الانسان من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة والعشى هو الوقت الذى ينتقل الانسان فيه من الحياة الى الموت ومن اليقظة الى النوم والانسان العاقل يكون فى هذين الوقتين كثير الذكر لله تعالى عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه وقرأ ابن عامر بضم الغين المعجمة وسكون الدال وبعدها واو مفتوحة والباقون بفتح الغين والدال وألف بعدها والرسم فى المصحف بالواو هنا وفى سورة الانعام (يريدون) بعبادتهم (وجهه) تعالى اى رضاه وطاعته لا شيأ من اعراض الدنيا (ولا تعد) اى تنصرف (عيناك عنهم) الى غيرهم وعبر بالعينين عن صاحبهما فنهى صلى الله عليه وسلم ان يصرف بصره ونفسه عنهم لاجل رغبته فى مجالسة الاغنياء لعلهم يؤمنون وقوله تعالى (تريد زينة الحيوة الدنيا) فى موضع الحال اى انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك فى زينة الحياة الدنيا ولما بالغ تعالى فى أمره فى مجالسة الفقراء من المسلمين بالغ فى النهى عن الالتفات الى أقوال الاغنياء والمتكبرين بقوله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) اى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا اى عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) اى فى طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) اى اسرافا وباطلا وهذا يدل على ان أشر أحوال الانسان ان يكون قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون مملوأ من الهوى الداعى الى الاشتغال بالخلق لان ذكر الله تعالى نور وذكر غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله تعالى وما سواه فهو ممكن الوجود لذاته والامكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب اذا أشرق فيه ذكر الله تعالى فقد حصل فيه النور والضوء والاشراق واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب اذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة والاعراض عن الحق هو المراد بقوله تعالى أغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق هو المراد بقوله تعالى واتبع هواه روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال كنت جالسا فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العرى وقارئ يقرأ من القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما الذى كنتم تصنعون قلنا يا رسول الله كان واحد يقرأ من القرآن ونحن نسمع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت ان أصبر نفسى معهم ثم جلس وسطنا وقال أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة فتدخلون الجنة قبل الاغنياء

السلام الموجه اليه فى موجه الى (قوله فارسلنا اليها روحنا) اى جبريل (فان قلت) كيف قال ذلك مع ان اتفاق العلماء على ان الوحى لم ينزل على امرأة ولهذا قالوا فى قوله

بمقدار خمسمائة سنة * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بان لا يلتفت الى
أولئك الاغنياء الذين قالوا ان طردت الفقراء آمنا بك قال تعالى بعده (وقل الحق) اى وقل
لهؤلاء ولغيرهم هذا الذى جئتكم به فى أمر أهل الكهف وغيرهم من هذا الوجه المرئى
المعرى عن العوج الظاهر الاعجاز الباهر الحجج الحق كائنا (من ربكم) المحسن اليكم فى
أمر أهل الكهف وغيرهم من صبر نفسى مع المؤمنين والاعراض عن سواهم وغير ذلك
لا ما قوى فى أمرهم و يجوز ان يكون الحق مبتدأ وخبره الجار بعده (فمن شاء) اى منكم
ومن غيركم (فليؤمن) بهذا الذى قصصناه فيهم وفى غيرهم فهو مقبول مرغوب فيه وان كان
فقير الرث الهيئة ولم ينفع الا نفسه (ومن شاء) منكم ومن غيركم (فليكفر) فهو أهل لان
يعرض عنه ولا يلتفت اليه وان كان أغنى الناس وأحسنهم هيئة وان تعاظمت هيئته
وهذا لا يقتضى استقلال العبد بفعله كما تقول المعتزلة نعن ابن عباس فى معنى الآية من شاء
الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر ونقل عن على رضى الله عنه انه قال هذه الصيغة
تهديد ووعيد اى فهى كقوله تعالى اعملوا ما شئتم فان الله تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين
ولا يستضر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود على المؤمن وضرر الكفر يعود على الكافر
كما قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها ولما هدد السامعين بما حاصله
اختار كل امرئ لنفسه ما يجده غدا عند الله أتبعه بذكر الوعيد والافعال الباطلة وبذكر
الوعد على الايمان والاعمال الصالحة أما الوعيد فقوله تعالى (انا أعتدنا) اى هيأنا بما لنا
من العظمة والقدرة (للظالمين) اى لمن أنف عن قبول الحق لاجل ان الذين قبلوه فقراء
ومساكين وكذا كل من لم يؤمن (نارا) وهى الجحيم ثم وصف الله تعالى تلك النار بصفتين الاولى
قوله تعالى (أحاط بهم) كلهم (سرادقها) اى فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل
هو الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل حائط من نار والمراد انه لا مخلص لهم منها
ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها من غير النار بل هى محيطة من كل الجوانب وقيل
هو دخان يغشاهم قبل دخولهم النار يحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط الصفة الثانية
قوله تعالى (وان يستغيثوا) اى يطلبوا الغوث (يغاثوا بماء) ووصف هذا الماء بصفتين
الاولى قوله تعالى (كالمهل) وهو كما فى حديث مرفوع دردى الزيت وعن ابن مسعود انه
دخل بيت المال وأخرج نقاعة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو
المهل وقال أبو عبيدة والاخفش كل شئ أذبته من نحاس أو ذهب أو فضة فهو المهل وقيل
انه الصديد والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل ان تكون هذه الاستغاثة لانهم
طلبوا ماء الشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ويحتمل
ان يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال
تعالى حكاية عنهم أفيضوا علينا من الماء وقال تعالى فى آية أخرى سرابيلهم من قطران
وتغشى وجوههم النار فاذا استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذى يعم كل أبدانهم
كالقميص والصفة الثانية للماء قوله تعالى (يشوى الوجوه) اى اذا قرب الى الفم للشرب
فكيف بالفم والجوف ثم وصل تعالى بذلك ذمه فقال تعالى (بئس الشراب) اى ذلك الماء الذى

وأوحينا الى ام موسى انه
وحى الهام وقيل وحى
منام (قلت) لان العلماء قالوا ان
الوحى لم ينزل على امرأة
فقد قال مقاتل فى قوله
وأوحينا الى ام موسى انه
كان وحيا بواسطة جبريل

هو كالمهل لان المقصود من شرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبالغ فى احراق الانسان مبلغا عظيما ثم عطف عليه ذم النار المعدة لهم بقوله تعالى (وساءت) اى النار وقوله تعالى (مرتفقا) تمييز منقول من الفاعل اى قبح مرتفقها وهو مقابل لقوله تعالى الآتى فى الجنة وحسنت مرتفقا والافاى ارتفاق فى النار ولما ذكر تعالى وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين فقال تعالى (ان الذين آمنوا) ولما كان الايمان هو الاذعان للاوامر عطف عليه ما يحقق ذلك بقوله تعالى (وعملوا الصالحات) ثم عظم جزاءهم بقوله تعالى (انا لا نضيع) اى بوجه من الوجوه (أجر من أحسن عملا) وهذه الجملة خبر ان الذين وفيه اقامة الظاهر مقام المضمر والمعنى أجرهم اى نثيبهم بما تضمنه (أولئك لهم جنات عدن) اى اقامة فكأنه قيل فما لهم فيها فقيل (تجرى من تحتهم) اى من تحت منازلهم (الانهار) وذلك لان أفضل المساكن ما كان يجرى فيه الانهار أو الماء فكأنه قيل ثم ماذا فقيل (يحلون فيها) وبنى الفعل للمجهول لان المقصود وجود التحلية وهى لعزتها انما يؤتى بها من الغيب فضلا من الله تعالى ولما كانت نعم الله لا يحصى نوع منها قال تعالى مبعضا (من أساور) جمع اسورة كاحمرة جمع سوار كما يلبس ذلك ملوك الدنيا من جبابرة الكفرة فى بعض الاقاليم كاهل فارس وقيل من زائدة وقيل للابتداء ومن فى قوله تعالى (من ذهب) للبيان صفة لاساور وتنكيرها لتعظيم جنسها عن الاحاطة به وقيل للتبعيض ولما كان اللباس جزاء العمل فكان موجودا عندهم أسند الفعل اليهم فقال (ويلبسون ثيابا خضرا) لان الخضرة أحسن الالوان وأكثرها طراوة ثم وصفها بقوله تعالى (من سندس) وهو ما رق من الديباج (واستبرق) وهو ما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على ان فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين وفى آية أخرى بطائنها من استبرق فيكون الغليظ بطانة للرقيق ثم استأنف الوصف عن حال جلوسهم فيها بانه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى (متكئين فيها) اى لانهم فى غاية الراحة (على الارائك) جمع أريكة وهى السرير فى الحجلة وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس ثم مدح هذا بقوله تعالى (نعم الثواب) اى الجزاء الجنة ولو لم يكن لها وصف غير ما عمهم فكيف ولها من الاوصاف ما لا يعلم حق علمه الا الله تعالى والى ذلك اشار بقوله تعالى (وحسنت) اى الجنة كلها وبين ذلك بقوله تعالى (مرتفقا) اى مقرا ومرتفقا ومجلسا ولما افتخر الكفار باموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين بين الله تعالى ان ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال ان يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا واما الذى يجب الافتخار به فطاعة الله تعالى وعبادته وهى حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور بقوله تعالى (واضرب لهم) اى لهؤلاء الاغنياء المتجبرين الذين يستكبرون على المؤمنين ويطلبون طردهم لضعفهم وفقرهم (مثلا) لما آتاهم الله من زينة الحياة الدنيا واعتمدوا عليه وركنوا اليه ولم يشكروا من آتاهم اياه عليه بل أداهم الى الافتخار والتكبر على من زوى ذلك عنهما كراماه وصيانة عنه (رجلين) الى آخر الآية واختلف فى سبب نزولها فقيل نزلت فى رجلين من أهل مكة من بنى مخزوم أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر كافر وهو الاسود بن عبد ياليل وهما ابنا عبد الاسد بن عبد ياليل . وقيل

والمتفق عليه انما هو وحى الرسالة لا مطلق الوحى والوحى هنا انما هو بشارة الولد لا بالرسالة (قوله انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) هو ان قالت كيف ذلك مع انه تامت سميم

مثال لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه شبههما برجلين من بني اسرائيل أخوين
أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس وقال مقاتل تمليخا والآخر كافر واسمه
فطروس وقال وهب قطفير وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة والصافات وكانت
قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراساني قال كانا رجلين شريكين لهما
ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتقاسماها فاشترى
أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار واني مشتر
منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال صاحبه
اللهم ان فلانا بنى دارا بألف دينار واني اشتريت منك دارا في الجنة بألف دينار فتصدق بها
ثم تزوج صاحبه امرأة فانفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم اني أخطب اليك من نساء
الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم اني
اشتري خدما ومتاعا من الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت
صاحبي لعله ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في حشمه فقام اليه فنظر
اليه الآخر فعرفه فقال له فلان قال نعم قال ما شأنك قال أصابتني حاجة بعدك فأتيت لتعينني
بخير قال فما فعل مالك وقد اقتسمنا مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن
المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيئا فطرده وروى انه لما أتاه أخذ بيده فجعل يطوف
به ويريه أموال نفسه فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين أي اذكر لهم خبر رجلين (جعلنا
لأحدهما جنتين) أي بستانين يستر ما فيهما من الاشجار من يدخلهما (من أعناب) لانها من
أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها
ثم انه تعالى وصف الجنتين بصفات الصفة الاولى قوله تعالى (وحففناهما) أي أطفناهما
من جوانبهما (بنخل) لانها من أشجار البلاد الحارة وتصبر على الحرور بما منعت عن الاعناب
بعض أسباب العاهات وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل فكان النخل
كالاكليل من وراء العنب ❊(تنبيه)❊ الحفاف الجانب وجمعه أحفة يقال أحف به القوم
أي أطافوا بجوانبه الصفة الثانية قوله تعالى (وجعلنا بينهما) أي أرض الجنتين (زرعا)
ليحصل شمول الآفة للكل لان زمان الزرع ومكانه غير زمان أثمار الشجر ومكانه وذلك هو
العمدة في القوت فكانت الجنتان أرضا جامعة لخير الفاكهة وأفضل الاقوات وعمارتهما
متواصلة متشابكة لم يتوسطهما ما يقطعهما ويفصل بينهما مع سعة الاطراف وتباعد الاكناف
وحسن الهيئات والاوصاف الصفة الثالثة قوله تعالى (كلتا) أي كل واحدة من
(الجنتين) المذكورتين (آتت أكلها) أي ما يطلب منها ويؤكل من ثمر وحب كاملا غير
منسوب شيء منهما الى نقص ولا رداءة وهو معنى (ولم تظلم) أي ولم تنقص (منه شيئا) كما يعهد
في سائر البساتين فان الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالبا والظلم النقصان تقول الرجل ظلمني
حقي أي نقصني ❊(تنبيه)❊ كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد
معرفة يؤكد به مؤنثان معرفتان وانما اذا أضيفا الى المظهر كانا بالالف في الاحوال
الثلاثة كقولك جاءني كلا أخويك ورأيت كلا أخويك ومررت بكلا أخويك وجاءني كلتا

انما يتعوذ من الفاسق لا من التقي (قلت) معناه ان كنت ممن يتقي الله فانت تنتهي عني بتعوذي به منك وقيل ظنته رجلا اسمه تقي وكان فاجرا فتعوذت منه (قوله ليهب

أختيك ورأيت كلتا أختيك ومررت بكلتا أختيك وإذا أضيفا الى المضمر كانا في الرفع بالالف وفي الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالالف في الاحوال الثلاثة أيضا فقوله تعالى آتت أكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظه مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز الصفة الرابعة قوله تعالى (وفجرنا خلالهما نهرا) اى وسطهما او بينهما ومنه قوله تعالى ولأوضعوا خلالكم ومنه يقال خللت القوم اى دخلت القوم وذلك ليدوم شربهما ويستغنيا عن المطر عند القحط ويزيد بهاؤهما الصفة الخامسة قوله تعالى (وكان له) اى صاحب الجنتين (ثمر) اى أنواع من المال سوى الجنتين قال ابن عباس من ذهب وفضة وغير ذلك من أثمر ماله اذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة خاصة أي كان مع الجنتين أشياء من الاموال ليكون متمكنا من العمارة بالاعوان والآلات وجميع ما يريد وقرأ أبو عمرو ثمرها وثمره الآتي بسكون الميم فيهما بعد ضم الثاء المثلثة وقرأ عاصم بفتح المثلثة والميم فيهما والباقون بضم المثلثة والميم فيهما ذكر أهل اللغة ان الضم أنواع المال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب وكان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وأنشد للحرث بن حلزة

ولقد رأيت معاشرا • قد أثمروا مالا وولدا

وقال النابغة

مهلا فداء لك الاقوام كلهم • وما أثمر من مال ومن ولد

(فقال) أي هذا الكافر (لصاحبه) أي المسلم المجعول مثلا للفقراء المؤمنين (وهو) أي صاحب الجنتين (يحاوره) أي يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع افتخارا عليه وتقبيحا لحاله بالنسبة اليه والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح الركون الى الدنيا (أنا أكثر منك مالا) لما ترى من جناتي وغيري وقرأ نافع بعد الالف بعد النون والباقون بالقصر هذا في الوصل وأما في الوقف فبالالف للجميع وسكن قالون وأبو عمرو والكسائي هاء وهو وضمها الباقون ورقق ورش راء يحاوره (وأعز نفرا) أي ناسا يقومون معي في المهمات وينفعون عند الضرورات لان ذلك لازم لكثرة المال غالبا وترى أكثر الاغنياء من المسلمين وان لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم فان ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه (ودخل جنته) بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها وأفرد الجنة لارادة الجنس ودلالة ما أفاده الكلام من أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة والاشارة الى انه لا جنة له غيرها لانه لا حظ له في الآخرة (وهو) أي والحال أنه (ظالم لنفسه) لاعتماده على ماله والاعراض عن ربه ثم استأنف بيان ظلمه بقوله تعالى (قال ما أظن أن تبيد) أي تنعدم (هذه) أي الجنة (أبدا) لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بجهله ثم زاد في الطغيان والبطر بقصر النظر على الحاضر فانكر البعث بقوله (وما أظن الساعة قائمة) أي كائنة استلذاذا بما هو فيه واخلادا اليه واعتمادا عليه وقوله (ولئن رددت الى ربي) الحسن الى ق هذه الدار في الساعة اقسام منه على انه ان رد الى ربه على سبيل الفرض والتقدير وعلى ما يزعم صاحبه أن الساعة قائمة (لاجدن خيرا منها) اى من هذه الجنة (منقلبا) أي مرجعا لانه لم يعطني الجنة في الدنيا الا ليعطيني في الآخرة أفضل منها قال ذلك طمعا وتمنيا على الله وادعاء

ك) اى ايب ربك
غلاما وقرئ لأهب لك
بتقدير انما أنا رسول
ربك يقول لك أرسلته
رسولا اليك لاهب لك
فيكون حكاية عن الله
لامن قول جبريل أو باسناد

اكرامه عليه ومكانته عنده وانه ما أولاه الجنتين الا لاستحقاقه واستئهاله وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله انلى عنده للحسنى لأوتين مالا وولدا (قال له صاحبه) أى المؤمن (وهو) أى والحال أن ذلك الصاحب (يحاوره) أى يراجعه منكرا عليه (أكفرت بالذى خلقك من تراب) أى خلق أصلك آدم من تراب لان خلق أصله سبب فى خلقه فكان خلقه خلقا له (ثم من نطفة) متولدة من أغذية أصلها تراب هى مادتك القريبة (ثم سواك) أى عدلك بعد أن أولدك وطورك فى أطوار النشأة (رجلا) أى كملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعل كفره بالبعث كفرا بالله تعالى لان منشأ الشك فى كمال قدرة الله تعالى ولذلك ترتب الانكار على خلقه اياه من التراب فان من قدر على بدء خلقه مرة قدر على أن يعيده منه ولما أنكر على صاحبه أخبر عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه فقال مؤكدا لاجل انكار صاحبه مستدركا لاجل كفرانه (لكنا) أصله لكن أنا نقلت حركة الهمزة الى النون وحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها كما قال القائل

وترمينني بالطرف أى أنت مذنب • وتقلينني لكن اياك لا أقلى

أى لكن أنا لا أقليك ولما كان سبحانه وتعالى لا شئ أظهر منه ولا شئ أبطن منه أشار الى ذلك بجعله اياه ضميرا قبل الذكر فقال (هو) أى الظاهر أتم ظهور فلا يخفى أصلا ويجوز أن يكون الضمير للذى خلقك (الله) أى المحيط بصفات الكمال (ربى) وحده لم يحسن الى خلقا ورزقا أحد غيره وهذا اعتقادى فى الماضى والحال وقرأ ابن عامر باثبات الالف بعد النون وقفا ووصلا لاتباع المرسوم والباقون باثبات الالف بعد النون وقفا وحذفها وصلا (فان قيل) قوله لكنا استدراك لماذا (أجيب) بانه لقوله أكفرت فكأنه قال لاخيه أكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر وذكر القفال فى قول المؤمن (ولا أشرك بربى) أى المحسن الى فى عبادتى (أحدا) وجوها أحدها انى لا أرى الفقر والغنى الا منه فاحمده اذا أعطى وأصبر اذا ابتلى ولا أكفر عند ما ينعم على ولا أرى كثرة الاموال والاعوان من نفسى وذلك لان الكافر لما اغتر بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكا فى اعطاء العز والغنى وثانيها لعل ذلك الكافر مع كونه منكرا للبعث كان عابد صنم فبين هذا المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء وثالثها ان هذا الكافر لما عجز الله تعالى عن البعث والحشر فقد جعله مساويا للخلق فى هذا العجز واذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر (ولولا اذ) أى وهلا حين (دخلت جنتك قلت) عند اعجابك بها ما يدل على تفويضك الامر فيها وفى غيرها الى الله تعالى وهو (ما شاء الله) أى الامر ما شاء الله او ما شاء الله كائن على ان ما موصولة اى وأى شئ شاء الله كان على أنها شرطية والجواب محذوف اى اقرارا بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها وقرأ ابن ذكوان وحمزة بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف حمزة وهشام على شاء أبدل الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر وأظهر اذ عند الدال نافع وابن كثير وعاصم والباقون بالادغام وهلا قلت (لا قوة الا بالله) اعترافا بالعجز على نفسك والقدرة لله وأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها فبمعونة الله تعالى واقداره أو لا يقوى أحد فى بدنه ولا فى غير ذلك الا بالله وفى الحديث من اعطى خيرا من

الهبة الى جبريل مجازا أى لا كون سببا فى هبة الولد بواسطة نفخى فى درعك فهو من قول جبريل (قوله ولم أك بغيا) لم يقل بغية لما قاله ابن الانبارى من ان بغيا غالب فى النساء

اهل او مال فيقول عند ذلك ما شاء الله لا قوة الا بالله لم يرفيه مكروها ثم ان المؤمن لما اعلم الكافر بالايمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال (ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا) اى من جهة المال والولد ويحتمل أن يكون أنا فصلا وأن يكون تأكيدا للمفعول الأول وقرأ قالون وابو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا وقوله تعالى (فعسى ربى) اى المحسن الى (أن يؤتين) من خزائن رزقه (خيرا من جنتك) اما فى الدنيا واما فى الآخرة لايمانى جواب الشرط (ويرسل عليها) اى جنتك (حسبانا) جمع حسبانة اى صواعق (من السماء فتصبح) بعد كونها قرة العين بما تزيه من الاشجار والزروع (صعيدا زلقا) اى ارضا ملساء باستئصال نباتها واشجارها فلا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم وقوله (او يصبح ماؤها غورا) اى غائرا فى الارض لا تناله الايدى والدلاء مصدر وصف به كالزلق (فلن تستطيع) انت (له) اى للماء الغائر (طلبا) يصير بحيث لا تقدر على رده الى موضعه ثم انه اخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال (وأحيط) اى وقعت الاحاطة بالهلاك وبنى للمفعول لان التنكيد حاصل باحاطة الهلاك من غير نظر الى فاعل مخصوص والدلالة على سهولته (بثمره) اى الرجل المشرك كله واستؤصل هالكا ما فى السهل منه وما فى الجبل وما يصبر منه على البرد والحر وما لا يصبر قال بعض المفسرين ان الله تعالى ارسل عليها نارا فاهلكتها وغار ماؤها (فاصبح يقلب كفيه) ندما ويضرب احداهما على الاخرى تحسرا فتقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما يكنى عن ذلك بعض الكف والسقوط فى اليد لانه فى معنى الندم فعدى تعديته كأنه قيل فاصبح يندم (على ما انفق فيها) اى فى عمارتها او غمائها (وهى خاوية) اى ساقطة (على عروشها) اى دعائمها التى كانت تحتها فسقطت على الارض وسقطت هى فوقها وقوله تعالى (ويقول) عطف على يقلب او حال من ضميره (يا) للتنبيه (ليتنى) تمنيا لرد ما فاته عليه نحو ذهول عقله ودهشته وعدم اعتماده على الله تعالى من غير اشراك بالاعتماد على الفانى (لم اشرك بربى أحدا) كما قال له صاحبه فندم حيث لا ينفعه الندم على ما فرط فى الماضى لاجل ما فاته على الدنيا لا حرصا على الايمان لحصول الفوز فى العقبى لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدة (فان قيل) ان هذا الكلام يوهم ان جنته انما هلكت بشؤم شركه وليس مرادا لان أنواع البلاء أكثرها انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وأيضا لما قال يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا فقد ندم على الشرك ورغب فى التوحيد فوجب أن يصير مؤمنا فلم قال تعالى بعده (ولم تكن له فئة) أى جماعة من نفره الذين افتخر بهم ولا من غيرهم (ينصرونه) مما وقع فيه (من دون الله) عند هلاكها (وما كان) هو (منتصرا) بنفسه بل ليس الامر فى ذلك الا لله وحده (أجيب) عن الاول بانه لما عظمت حسراته لاجل أنه أنفق عمره فى تحصيل الدنيا وكان معرضا فى عمره كله من طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقى محروما من الدنيا والدين وعن

وقالت تقول العرب رجل بنى فخر كوا التاء فيه اجراء مجرى حائض وعاقر وهو فعيل بمعنى فاعل فذكروا التاء فيه كما قال فى قوله ان رحمة الله قريب من المحسنين أوله وافقه

الثانى بانه انما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو انما رغب فى ذلك لاجل طلب الدنيا فلذلك لم يقبل الله توحيده وقرأ حمزة والكسائى يكن بالتحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث ولما انتج هذا المثل قطعا أنه لا أمر لغير الله تعالى المرجو لنصر أوليائه بعد ذلهم ولا غناهم بعد فقرهم ولا ذلال أعدائهم بعد عزهم وكبرهم وافقارهم بعد اغناهم وحده وان غيره انما هو كالخيال لا حقيقة له صرح بذلك فى قوله تعالى (هنالك) أى فى مثل هذه الشدائد العظيمة (الولاية لله) أى الذى له الكمال كله وقرأ حمزة والكسائى بكسر الواو أى الملك والباقون بفتحها أى النصرة وقوله تعالى (الحق) قرأه أبو عمرو والكسائى برفع القاف على الاستئناف والقطع تعليلا تنبيها على ان فزعهم فى مثل هذه الازمان اليه تعالى دون غيره برهان قاطع على انه الحق وما سواه باطل وان الفخر بالعرض الزائل من أجهل الجهل وان المؤمنين لا يضيعهم فقر ولا يسوغ طردهم لاجله وانه يوشك ان يعود فقرهم غنى وضعفهم قوة وقرأه الباقون بخفضها على الوصف اى الثابت الذى لا يحول يوما ولا يزول ولا يغفل ساعة ولا ينام ولا ولاية لغيره بوجه (هو خير ثوابا) من ثواب غيره لو كان يثيب (وخير عقبا) أى عاقبة للمؤمنين وقرأ عاصم وحمزة بسكون القاف والباقون بضمها ونصب على التمييز ولما تم المثل لدنياهم الخاصة بهم التى ابطرتهم فكانت سببا لشقاوتهم وهم يحسبون انها عين اسعادهم ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس فى قلة ثوابها وسرعة فنائها وان من تكبر كان اخس منها فقال (واضرب) اى صير (لهم) اى لهؤلاء الكفار المغترين بالعرض الفانى المفتخرين بكثرة الاموال والاولاد وعزة النفر وقوله تعالى (مثل الحيوة الدنيا) مفعول اول ثم ذكر المثل بقوله تعالى (كماء) وهو المفعول الثانى (انزلناه) بعظمتنا وقدرتنا وقال تعالى (من السماء) تنبيها على بليغ القدرة فى امساكه فى العلو وانزاله فى وقت الحاجة (فاختلط) اى فتعقب وتسبب عن انزاله انه اختلط (به نبات الارض) اى التف بسببه حتى خالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه كما قال تعالى فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وقيل اختلط ذلك الماء بالنبات حتى روى واهتز ونما وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الارض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة فى كثرته ثم اذا انقطع ذلك بالمطر مدة جف ذلك النبات (فاصبح هشيما) اى يابسا متفرقة اجزاؤه (تذروه) اى تنسفه وتفرقه (الرياح) فتذهب به والمعنى انه تعالى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرقته الرياح حتى يصير عما قليل كأنه بقدرة الله تعالى لم يكن وقرأ حمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع (وكان الله) أى المختص بصفات الكمال (على كل شئ) من دون ذلك وغيره انشاء وافناء واعادة (مقتدرا) أزلا وأبدا يتكون به أولا وتنميه وسطا وابطاله آخرا فاحوال الدنيا أيضا كذلك تظهر أولا فى غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط الى أن تنتهى الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشئ ليس للعاقل أن يبتهج به * (تنبيه) * قوله تعالى فاصبح يجوز أن يكون على بابه فان أكثر ما يطرق من الآفات صباحا كقوله تعالى فاصبح يقلب كفيه ويجوز أن يكون بمعنى صار من غير تقييد بصباح كقول القائل

(قوله وقوله الفواصل) انى نذرت للرحمن صوما الآية مرتب على مقدر بينه وبين الشرط تقديره فاما ترين من البشر احدا فسألك الكلام فقولى انى نذرت الآية وبهذا

أصبحت لا أحمل السلاح ولا • أملك رأس البعير ان نفرا

• ولما بين سبحانه وتعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين بقوله تعالى (المال والبنون زينة الحيوة الدنيا) ادخال هذا الجزئي تحت هذا الكلي فينعقد به قياس بين الانتاج وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ولما كانت زينة الحياة الدنيا سريعة الانقضاء والانقراض أنتج انتاجا بديهيا ان المال والبنون سريع الانقضاء والانقراض وما كان كذلك فانه يقبح بالعاقل أن لا يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له في نظره وزنا وهذا برهان ظاهر باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الاموال • ثم ذكر تعالى مايدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الاغنياء فقال (والباقيات الصالحات خير) أى من الزينة الفانية لان خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي وهذا معلوم بالضرورة لاسيما وقد ثبت أن خيرات الدنيا حقيرة خسيسة وأن خيرات الآخرة رفيعة شريفة والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات أقوالا أحدها أنها سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وزاد بعضهم ولا حول ولا قوة الا بالله والغزالي في تفسير غير الزيادة وجه لطيف فقال روى أن من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فاذا قال والحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله أكبر صارت أربعين وتحقيق القول فيه أن مراتب الثواب أعظمها هو الاستغراق في معرفة الله تعالى وفي محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزها عن كل مالا يليق به وكل مالا ينبغي فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك الحمد لله فقد أقر بان الحق سبحانه وتعالى مع كونه منزها عن كل مالا ينبغي فهو المبتدئ لكل ماينبغي ولافاضة كل خير وكمال فقد تضاعفت درجات المعرفة فلاجرم قلنا بمضاعفة الثواب فاذا قال مع ذلك لا اله الا الله فقد أقر بان الذى تنزه عن كل مالا ينبغي وهو المبتدئ لكل ماينبغي ليس في الوجود موجود هكذا الا هو الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلاجرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال العبد والله اكبر فمعنى انه أكبر أنه اعظم من ان يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة فلاجرم صارت درجات الثواب اربعة وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر أحب الي مما طلعت عليه الشمس وعن أبي سعيد الخدرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هن يارسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله ثانيها أنها الصلوات الخمس ثالثها أنها الطيب من القول رابعها وهو أعمها وأولاها أنها اعمال الخيرات التي تبقى ثمراتها أبد الآباد فيندرج في ذلك الصلوات واعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة الا بالله والكلام الطيب وغير ذلك من كل عمل وقول دعاك لمحبة الله تعالى ومعرفته وخدمته وأما مادعاك من قول اوعمل الى الاشتغال باحوال الخلق فهو خارج عن ذلك لان كل ماسوى الحق فهو فان لذاته فكان الاشتغال به والانفاق عليه باطلا وسعيا ضائعا

سقط ماقبل في ان قولها فلن أكلم اليوم انسيا كلام بعد النذر اذ هو بهذا التقدير من تمام النذر لا بعده (قوله وأوصاني بالصلوة والزكوة) ءان قلت كيف أمر بذلك مع انه

وأما الحق فانه هو الباقي الذي لا يقبل الزوال لاجرم كان الاشتغال بمحبته ومعرفته وطاعته وخدمته هو الذي يبقى بقاء لا يزول ه ولما كان أهم ما الى من حصل البقاء ليس لكفايته بل لمن يحفظها له وقت حاجته قال تعالى (عند ربك) أى المحسن اليك بالمواهب العالية المواقب وخير من المال والبنين في العاجل والآجل (ثوابا وخير) من ذلك كله (أملا) أى من جهة ما يرجوه فيها من الثواب ويرجوه فيها من الامل لان ثوابها الى بقاء آملها كل ساعة في تحقق وعلو وارتقاء وآمل المال والبنين فان أحوج ما يكون اليهما وعن قتادة كل ما أريد به وجه الله تعالى خير ثوابا أى مما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الامل لان صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة ه ولما بين سبحانه وتعالى خساسة الدنيا وشرف الآخرة أردفه بأحوال يوم القيامة وذكر منها أنواعا النوع الاول قوله تعالى (ويوم) أى واذكر لهم يوم (نسير) بايسر أمر (الجبال) عن وجه الارض بعواصف القدرة كما نسير نبات الارض بعد أن حصدناه بالرياح كما قال تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ه (تنبيه) ه ليس في لفظ الآية ما يدل الى أين تسير قال الرازي ويحتمل أن يقال ان الله يسيرها الى الموضع الذي يريده ولم يبين ذلك لخلقه والحق ان المراد ان الله تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ولقوله وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم التاء الفوقية وفتح الياء التحتية بعد السين على فعل مالم يسم فاعله ورفع الجبال باسناد تسير اليها كما في قوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون بالنون المضمومة وكسر الياء التحتية بعد السين باسناد فعل التسيير اليه تعالى نفسه ونصب الجبال لكونه مفعول نسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتبارا بقوله تعالى وحشرناهم والمعنى واحد لانها اذا سيرت فمسيرها ليس الا الله تعالى ه النوع الثاني قوله تعالى (وترى الارض) بكمالها (بارزة) لا غار فيها ولا صدع ولا جبل ولا نبت ولا شجر ولا ظل فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله تعالى لاترى فيها عوجا ولا أمتا وقيل انها ابرزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها كأنها هي بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف كما قال تعالى وألقت ما فيها وتخلت وقال تعالى وأخرجت الارض أثقالها النوع الثالث قوله تعالى (وحشرناهم) أى الخلائق قهرا الى الموقف الذي تنكشف فيه المخبآت وتظهر الفضائح والمغيبات ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير والناقد فيه بصير (فلم نغادر) أى نترك (منهم) أى الاولين والآخرين (أحدا) لانه لا ذهول ولا عجز ونظيره قوله تعالى قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم (فان قيل) لم جيء بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى (أجيب) بان ذلك يقال للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال العظائم كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك ه ولما ذكر تعالى حشرهم وكان من المعلوم أنه للعرض ذكر كيفية ذلك العرض فقال بانيا الفعل للمفعول على طريقة كلام القادرين ولان المخوف العرض لا لكونه من معين (وعرضوا على ربك) المحسن اليك برفع أوليائك وخفض أعدائك وقوله تعالى (صفا) حال أى مصطفين واختلف في تفسيره على وجوه الاول أن تعرض الخلق كلهم صفا واحدا الاتساع الارض ظاهرين لا يحجب

كان طفلا وخطاب
التكليف انما يكون بعد
البلوغ والتمييز (قلت)
ذلك لا يدل على انه أوصاه
بأداء الزكاة في الحال بل
أوصاه في الحال بالاداء
بعد البلوغ والتمييز أوان

بعضهم بعضا ثانيها الا يبعدان يكونوا صفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي تكون بعضها خلف بعض وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى صفا صفوفا كقوله تعالى يخرجكم طفلا أى أطفالا ثالثها المراد بالصف القيام كما في قوله تعالى فاذكروا اسم الله عليها صواف أى قياما وقيل كل امة صف ويقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أى فرادى حفاة عراة غرلا وليس المراد حصول المساواة من كل وجه لانهم خلقوا صغارا ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد ما مر ويقال لمنكرى البعث (بل زعمتم أن) أى انا (لن نجعل لكم موعدا) أى مكانا ووقتا نجمعكم فيه هذا الجمع فننجز لكم ما وعدناكم به على ألسنة رسلنا فكنتم مع التعزز على المؤمنين بالاموال والانصار منكرين البعث والقيامة فالآن قد تركتم الاموال والانصار فى الدنيا وشاهدتم ان القيامة والبعث حق وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ألا وان اول خلق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام الا وانه سيجاء برجال من امتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فاقول يارب اصحابى فيقول انك لاتدرى ما احدثوا بعدك فاقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم قال فيقال لى انهم لم يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم وفى رواية فاقول سحقا سحقا وقوله غرلا اى قلفا الغرلة القلفة التى تقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا اى بعدا قال بعض العلماء المراد بهؤلاء الذين ارتدوا من العرب بعده وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض فقال الامر أشد من ان يهمهم ذلك زاد النسائى فى رواية لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير واربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث اصبحوا وتمسى حيث امسوا (ووضع) بعد العرض المستعقب للجمع بادنى اشارة (الكتاب) المضبوط فيه دقائق الاعمال وجلائلها على وجه بين لايخفى على قارئ ولا غيره شئ منه فيوضع كتاب كل انسان فى يده اما فى اليمين واما فى الشمال والمراد الجنس وهو صحف الاعمال (فترى المجرمين مشفقين) اى خائفين خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة من الخلق (مما فيه) من قبائح اعمالهم وسوء افعالهم واقوالهم (ويقولون) عندما يرون ما فيه من السيآت وقولهم (يا) للتنبيه (ويلتنا) أى هلكتنا وهو مصدر لافعل له من لفظه كناية على انه لانديم لهم اذ ذاك الا الهلاك (مال هذا الكتاب) أى أى شئ له حال كونه على غير حال الكتب فى الدنيا (لايغادر) أى لايترك (صغيرة ولا كبيرة) من ذنوبنا وقال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمسيس والقبلة والكبيرة الزنا (الا احصاها) أى عدها واثبتها فى هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقوله تعالى انا كنا نستنسخ

الله صبيه عقب ولادته نالفا مميزا بدليل قوله ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما انه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول فى عيسى عليهما السلام وهو أقرب الى

ما كنتم تعملون * (تنبيه) * ادخال التاء في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة قال بعض العلماء احتجبوا من الصغائر قبل الكبائر لان الصغائر هي التي جرتهم الى الكبائر واحترزوا من الصغائر حذرا من أن تقعوا في الكبائر وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فانضجوا خبزهم وان محقرات الذنوب لموبقات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أي مثبتا في كتابهم (ولا يظلم ربك) أي الذي رباك بخلق القرآن (أحدا) منهم ولا من غيرهم في كتاب ولا عقاب ولا ثواب بل يجازي الاعداء بما يستحقونه تعذيبا لهم ويجازي أولياءه الذين عادوهم بما يستحقون تنعيما لهم روى الامام أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله انه سافر الى عبد الله بن أنيس مسيرة شهر يستأذنه فاستأذن عليه قال فخرج بطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته قلت حديث بلغني عنك انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص فخشيت أن تموت قبل أن أسمعه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله عز وجل الناس أو قال العباد حفاة عراة بهما قلت وما بهما قال ليس معهم شئ ثم ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لاحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق ولا ينبغي لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولاحد من أهل النار عليه حق حتى أقتص منه حتى اللطمة قال فقلنا كيف وانا نأتي حفاة عراة بهما قال بالحسنات والسيآت وروى الرازي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يحاسب الله الناس في القيامة على ملة يوسف وأيوب وسليمان فيدعو المملوك فيقال ماشغلك عني فيقول جعلتني عبدا الآدمي فلم يفرغني فيدعو يوسف فيقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك ان عبدني فيؤمر به الى النار ثم يدعو المبتلى فاذا قال شغلتني بالبلاء دعا أيوب فيقول قد ابتليت هذا باشد من بلائك فلم يمنعه ذلك من عبادتي ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع ما آتاه الله تعالى من الغنى والسعة فيقول ماعملت فيما آتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى سليمان فيقول هذا عبدي آتيته أكثر مما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لن تزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن جسده فيم أبلاه وعن عمره فيم أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه كيف عمل به * ولما كان المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا باموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المذكورة في قوله تعالى (واذ) أي واذكر اذ (قلنا للملائكة) الذين هم أطوع شئ لاوامرنا المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر باصله ونسبه وقال خلقتني من نار وخلقته من طين وأنا أشرف منه في الاصل والنسب فكيف أسجد له وكيف أتواضع له وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف نجالس هؤلاء الفقراء مع أنا أناس من أنساب شريفة وهم من أنساب باذلة ونحن أغنياء وهم فقراء ذكر الله تعالى هذه القصة تنبيها على أن هذه الطريقة هي نفسها طريقة ابليس حين أمره الله تعالى في جملة الملائكة بقوله تعالى (اسجدوا لآدم) سجود انحناء بلا وضع جبهة تحية له

ظاهر قوله مادمت حيا انها أوصاه بذلك الا بعد بلوغه وتمييزه (فان قلت) الزكاة انما تجب على الاغنياء وعيسى لم تزل فقيرا الابسا كساء مدة مكثه في الارض مع علمه تعالى بحاله

(فسجدوا الا ابليس كان من الجن) قيل هم نوع من الملائكة فالاستثناء متصل وقيل هو منقطع وابليس أبو الجن فله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لا ذرية لهم وكررت هذه القصة لهذا المقصود المذكور قال البيضاوي وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن أي انما يكرر لمناسبة ذلك المحل الذي يذكر فيه (ففسق) أي خرج بتركه السجود (عن أمر ربه) أي سيده ومالكه المحسن اليه والفاء للسببية وفيه دليل على ان الملك لا يعصي البتة وانما عصى ابليس لانه كان خبيثا في أصله والكلام المستقصى فيه تقدم في سورة البقرة ثم انه تعالى حذر من اتباعه بقوله تعالى (أفتتخذونه) الخطاب لآدم وذريته والهاء هنا وفيما يأتي لابليس والهمزة للانكار والتعجب أي بعد ما فسق باستكباركم فطرده لاجلكم فيكون ذلك سببا لان تتخذوه (وذريته) شركائي (أولياء) لكم (من دوني) تطيعونهم بدل طاعتي وقوله تعالى (وهم لكم عدو) أي أعداء حال ولما كان هذا الفعل أجدر شئ بالذم وصل به قوله تعالى (بئس للظالمين بدلا) من الله ابليس وذريته وكان الاصل لكم ولكنه أبرز الضمير ليعلق الفعل بالوصف لافادة التعميم روى مجاهد عن الشعبي قال اني لقاعد يوما اذ أقبل جمال فقال أخبرني هل لابليس زوجة قلت ان ذلك لعرس ما شهدته ثم ذكرت قوله تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني فعلمت أن لا تكون ذرية الا من زوجة فقلت نعم وقال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل انه يدخل ذنبه في دبره فيبيض البيضة فتنفلق عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو والايمان الكاذبة ومدح السلع وثبر وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا ينفخ في احليل الرجل وعجز المرأة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلا وداسم وهو الذي اذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله دخل معه واذا أكل ولم يسم الله أكل معه قال الاعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا وخاصمتهم ثم اذكر فأقول داسم داسم وعن عثمان بن أبي العاص قال قلت يا رسول الله ان الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فاذهبه الله عني وعن أبي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فادناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيأ قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت قال الاعمش أراه قال فيلتزمه واختلفوا في عود الضمير في قوله تعالى (ما أشهدتهم) على وجوه أحدها وهو الذي ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما أشهدت الذين اتخذوهم أولياء (خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) اى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى اقتلوا أنفسكم نفي احضار ابليس وذريته خلق السموات والارض واحضار بعضهم خلق

فكيف أوصانيا (قلت) المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصي لا زكاة المال (قوله وان الله ربي وربكم) قال ذلك هنا وقال في الزخرف وان الله هو ربي

بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين) اى
الذين يضلون الناس ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا بالاضلالهم وذما لهم (عضدا) اى
اعوانا وناصر قال الرازي وهو الاقوى عندي ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للنبي
صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد عن مجالسك هؤلاء الفقراء من عندك فلا نؤمن بك فكأنه تعالى
قال ان هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم
بدليل اني ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا
والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم أقدموا على الاقتراح الفاسد قال والذي يؤكد هذا ان
الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات فالاقرب في هذه الآية هو أولئك الكفار وهو
قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين أولئك الكفار وثالثها أن يكون المراد من قوله
ما أشهدتهم الى آخره دون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الازل من أحوال السعادة
والشقاوة فكأنه قيل انهم السعيد من حكم الله بسعادته والشقي من حكم الله بشقاوته في
الازل وأنتم غافلون عن أحوال الازل فانه تعالى قال ما أشهدتهم الى آخره واذا جهلتم هذه
الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالذل والدناءة بل
ربما صار الامر في الدنيا والآخرة على العكس مما حكمتم به ولما قرر تعالى ان القول الذي
قالوه في الافتخار على الفقراء اقتدوا فيه بابليس عاد بعده الى التهويل بأهوال القيامة فقال
(ويوم) التقدير واذكر لهم يا محمد يوم عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة (يقول) اى الله يوم
القيامة لهؤلاء الكفار تهكما بهم وقرأ حمزة بالنون والباقون بالياء (نادوا شركائي) اى ما عبد
من دوني وقيل ابليس وذريته ثم بين تعالى ان الاضافة ليست على حقيقتها بل توبيخ لهم فقال
تعالى (الذين زعمتم) انهم شركائي أو شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي (فدعوهم) تماديا في الجهل
والضلال (فلم يستجيبوا لهم) اى فلم يغيثوهم استهانة بهم واشتغالا بانفسهم فضلا عن أن
يعينوهم (وجعلنا بينهم) ى المشركين والشركاء (موبقا) اى واديا من أودية جهنم يهلكون
فيه جميعا وهو من وبق بالفتح هلك نقل ابن كثير عن عبد الله بن عمر انه قال هو واد عميق فرق
به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلال وقال الحسن البصري عداوة اى يؤل بهم الى
الهلاك والتلف كقول عمر رضي الله تعالى عنه لا يكون حبك كلفا ولا بغضك تلفا اى لا يكن
حبك يجر الى الكلف ولا بغضك يجر الى التلف وقيل الموبق البرزخ البعيد اى وجعلنا بين
هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه السارى لفرط بعده لانهم في قعر
جهنم وهم في أعلى الجنان ولما قرر سبحانه وتعالى مالهم مع شركائهم ذكر حالهم في استمرار جهلهم
فقال تعالى (ورأى المجرمون) اى العريقون في الاجرام (النار) من مكان بعيد (فظنوا) ظنا
(انهم مواقعوها) اى مخالطوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة لشدة ما يسمعون من
تغيظها وزفيرها كما قال تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فان مخالطة
الشئ لغيره اذا كانت قوية متناهية يقال لها مواقعة (ولم) اى والحال انهم لم (يجدوا عنها مصرفا)
اى مكانا ينصرفون اليه لان الملائكة تسوقهم اليها والموضع موضع التحقيق ولكن ظنهم
جريا على عادتهم في الجهل كما قالوا اتخذ الله ولدا لبغير علم وما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن

لو تركه بزيادة هؤلاء تعالى
ذكر قصة عيسى عليه
السلام هنا مستوفاة
فاغنى ذلك عن التأكيد
بخلافه ثم ولذلك قال هنا
فويل للذين كفروا وفي
الزخرف فويل للذين ظلموا

الساعة قائمة ان نظن الاظنا وما نحن بمستيقنين مع قيام الادلة التى لاشك فيها وقيل الظن
هنا بمعنى العلم واليقين • ولما افتخر هؤلاء الكفار على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم واتباعهم
وبين الله تعالى بالوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبههم باطلة ذكر فيه المثلين المتقدمين ثم قال
بعده (ولقد صرفنا) وأظهر نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم الدال وادغمها الباقون (فى
هذا القرآن) اى القيم الذى لاعوج فيه مع جمعه للمعانى (للناس) اى المزلزلين والثابتين
وقوله تعالى (من كل مثل) صفة لمحذوف اى مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا أو اناحولنا الكلام
وصرفناه فى كل وجه من وجوه المعانى وألبسناه من العبارات الرائقة والاساليب المتناسقة
ما صار به فى غرابته كالمثل يقبله كل من سمعه وتضرب به آباط الابل فى سائر البلاد بين
العباد فتسريه قلوبهم وتلهج به ألسنتهم فلم يقبلوه ولم يتركوا المجادلة الباطلة كما قال تعالى
(وكان الانسان أكثر شئ) يتأتى منه الجدل وميزالاكثرية بقوله تعالى (جدلا) أى خصومة
قال بعض المحققين والآية دالة على أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جادلوهم فى الدين لان
المجادلة لاتحصل الامن الطرفين ولهذا قيل أراد بالانسان الكافر وقيل الآية على العموم
قال ابن الخازن وهو الاصح وكذا قال البغوى فعن على رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله تعالى عنها ليلة فقال
الا تصليان فقلت يارسول الله أنفسنا بيد الله فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى
الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيأ ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول
وكان الانسان أكثر شئ جدلا وقال ابن عباس أراد النضر بن الحرث وجداله فى القرآن
وقال الكلبى أراد به خلفا الجمحى • ولما بين سبحانه وتعالى اعراضهم بين موجبه عندهم فقال
تعالى (وما منع الناس) أى الذين جادلوا بالباطل الايمان هكذا كان الاصل ولكنه عبر عن
هذا المفعول الثانى بقوله (أن يؤمنوا) ليفيد التجديد وذمهم على الترك (اذ) أى حين (جاءهم
الهدى) أى القرآن على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وعطف على المفعول الثانى معبرا بمثل
ما مضى للماضى قوله تعالى (ويستغفروا ربهم) أى لامانع لهم من الايمان ولامن الاستغفار
والتوبة • ولما كان الاستثناء مفرغا أتى بالفاعل فقال (الا أن) أى طلب أن (تأتيهم سنة
الاولين) أى سنتنا فيهم وهى الاهلاك المقدر عليهم (أو) طلب أن (يأتيهم العذاب قبلا) أى
مقابلة وعيانا وهو القتل يوم بدر وقيل عذاب الآخرة وقرأ الكوفيون برفع القاف والباء
الموحدة والباقون بكسر القاف وفتح الباء الموحدة • ولما كان ذلك ليس الى الرسول وانما هو
الى الله تعالى نبه بقوله تعالى (وما نرسل المرسلين الامبشرين) بالثواب على أفعال الطاعة
(ومنذرين) بالعقاب على أفعال المعصية فطلب منهم الظالمون من أممهم ماليس اليهم
(ويجادل الذين كفروا) اى يجددون الجدال كلما أتاهم أمر من قبلنا (بالباطل) من قولهم
ما أنتم الابشر مثلنا ولو كنتم صادقين لأتيتم بما يطلب منكم مع ان ذلك ليس كذلك اذ ليس
لاحد غير الله من الامر شئ (ليدحضوا به) اى ليبطلوا بجدالهم (الحق) اى القرآن والمعجزات
المثبتة لصدقهم (واتخذوا آياتى) اى القرآن (وما أنذروا) اى وانذارهم أو والذى أنذروا به
من العقاب (هزوا) اى استهزاء وقرأ حفص بالواو وقفا ووصلا وحمزة بالواو وقفا لاوصلا

اذ الكفر أشد قبحا من
الظلم فكان وصفهم
ذكر بالكفر فى المثل الذى
استوفى فيه قصة عيسى
أنسب من المثل الذى أجمل
فيه قصته وقال هنا أسمع
بهم وأبصر وعكس

وسكن الزاي حمزة ورفعها الباقون ولحمزة في الوقف أيضا النقل ❊ ولما حكى الله تعالى عن الكفار أحوالهم الخبيثة وصفهم بما يوجب الخزي بقوله تعالى (ومن أظلم) أى لا أحد أظلم وهو استفهام على سبيل التقرير (ممن ذكر بآيات ربه) اى المحسن اليه بها وهي القرآن (فأعرض عنها) تاركا لما يعرف من تلك العلامات العجيبة وما يوجب ذلك الاحسان من الشاكر (ونسي ما قدمت يداه) من الكفر والمعاصي فلم يتفكر في عاقبتها ثم علل تعالى ذلك الاعراض بقوله تعالى (انا جعلنا على قلوبهم) فجمع رجوعا الى أسلوب واتخذوا آياتي لانه أنص على ذم كل واحد (أكنة) اى أغطية مستعلية عليها استعلاء يدل سياق العظمة على أنه لايدع شيأ من الخير يصل اليها فهي لاتعي شيأ من آياتنا ودل تذكير الضمير وافراده على أن المراد بالآيات القرآن فقال (أن) أى كراهة أن (يفقهوه) أى يفهموه (وفي آذانهم وقرا) أى ثقلا فهم لايسمعون حق السمع ولا يعون حق الوعي (وان تدعهم) أى تكرر دعاءهم كل وقت (الى الهدى) لتنجيهم بما عندك من الحرص والجد على ذلك (فلن يهتدوا) أى بسبب دعائك (اذا) أى اذ دعوتهم (أبدا) لان الله تعالى حكم عليهم بالضلال فلا يقع منهم ايمان ثم قال تعالى (وربك) مشيرا بهذا الاسم الى ما اقتضاه حال الوصف من الاحسان (الغفور) أى البليغ المغفرة الذي يستر الذنوب اما بمحوها واما بالحلم عنها الى وقت آخر (ذو الرحمة) أى الموصوف بالرحمة الذي يعامل وهو قادر مع موجبات الغضب معاملة الراحم بالاكرام ثم استشهد تعالى على ذلك بقوله تعالى (لو يؤاخذهم) أى هؤلاء الذين عادوك وهو عالم انهم لايؤمنون أو يعاملهم معاملة المؤاخذ (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) أى في الدنيا (بل لهم موعد) وهو اما يوم القيامة واما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح (لن يجدوا من دونه) أى الموعد (موئلا) أى ملجأ ينجيهم منه فاذا جاء موعدهم أهلكناهم فيه بأول ظلمهم وآخره وقوله تعالى (وتلك) مبتدأ وقوله تعالى (القرى) أى الماضية من عاد وثمود ومدين وقوم لوط وأشكالهم صفته لان أسماء الاشارة توصف بأسماء الاجناس والخبر (أهلكناهم) والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم (لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى وقتا معلوما لايستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون وقرأ شعبة بفتح الميم واللام اى لهلاكهم وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام اى لاهلاكهم ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى واذ قلنا للملائكة (واذ) اى واذكر لهم حين (قال موسى لفتاه) يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام وانما قال فتاه لانه كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يأخذ منه العلم وقيل فتاه عبده وفي الحديث ليقل أحدكم فتاى وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي ❊ (تنبيه) ❊ أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الاحبار أنه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وهو قد كان نبيا قبل موسى بن عمران قال البغوي والاول أصح واحتج له القفال بان الله تعالى لم يذكر في كتابه موسى الا أراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا آخر يسمى موسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور في العرف عن أبي حنيفة هذا الرجل المعين فلو ذكرنا هذا الاسم

في الكهف لان معناه هنا انه تعالى ذكر قصص الانبياء فاستعملها وتدبرها واستعمل النظر فيها بسبر ذلك ومعناه في الكهف انه تعالى له غيب السموات والارض فاجمل

وأردنا به رجلا سواء قصدناه مثل ان تقول قال أبو حنيفة الدينوري وعن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني اسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله ونوف البكالي هو نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي ويقال انه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الاحبار نقله ابن كثير وحجة الذين قالوا موسى هذا غير صاحب التوراة أنه يقال بعد أن أنزل عليه التوراة وكلمه بلا واسطة وخصه بالمعجزات الباهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها لاكثر أكابر الانبياء يبعد ان يبعثه بعد ذلك الى التعلم والاستفادة (وأجيب) بانه لا يبعد أن يكون العالم الكامل في كثرة العلوم يجهل بعض العلوم فيحتاج في تعلمها الى من هو دونه وهو أمر متعارف روى البخاري حديث ان موسى قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل أي الناس أعلم قال انا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه فاوحى الله تعالى اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال يارب فكيف لي به قال تاخذ حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فاخذ حوتا فجعله في مكتل ثم قال (لا أبرح) أي لا أزال أسير في طلب العبد الذي أعلمني ربي بفضله (حتى أبلغ مجمع البحرين) أي ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلي الشرق قاله قتادة أي المكان الجامع لذلك فالقاه هنالك (أو أمضي حقبا) أي دهرا طويلا في بلوغه ان لم أظفر به بمجمع البحرين الذي جعله ربي موعدا لي في لقائه والحقب قال في القاموس ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة والسنون انتهى فساروا وتزودا حوتا مشويا في مكتل كما أمر به فكانا يأكلان منه الى ان بلغا المجمع كما قال تعالى (فلما بلغا مجمع بينهما) اي بين البحرين قال لفتاه اذا فقدت الحوت فاخبرني وناما واضطرب الحوت في المكتل وخرج وسقط في البحر فلما استيقظا (نسيا حوتهما) اي نسي يوشع حمله عند الرحيل ونسي موسى عليه السلام تذكيره وقيل الناسي يوشع فقط وهو على حذف مضاف اي نسي أحدهما كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (فاتخذ) الحوت (سبيله في البحر) اي جعله بجعل الله (سربا) اي مثل السرب وهو الشق الطويل لا نفاذ له وذلك ان الله تعالى أمسك عن الحوت جري الماء فانجاب عنه فبقي كالكوة لم يلتئم ووجد ما تحته وقد ورد في حديثه في الصحيح ان الله تعالى أحياه وأمسك عن موضع جريه في الماء فصار طاقا لا يلتئم وكان المجمع كان مجدا فظن عليه السلام ان المطلوب امامه أو ظن المراد بمجمع البحرين آخر فسارا (فلما جاوزا) ذلك المكان بالسير بقية يومهما وليلتهما واستمرا الى وقت الغداء من ثاني يوم (قال) موسى عليه السلام (لفتاه آتنا) اي أحضر لنا (غداءنا) وهو ما يؤكل أول النهار لنتقوى به على ما حصل لنا من الاعياء ولذلك وصل به قوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) اي تعبا ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله تعالى به فقوله هذا اشارة الى السفر الذي وقع بعد مجاوزتهما الموعد او مجمع البحرين ونصبا مفعول بلقينا (قال) له فتاه (أرأيت) اي ما دهاني وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ولورش وجه آخر وهو ابدالها حرف مد وأسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق (اذ أوينا الى الصخرة) التي بمجمع البحرين (فاني نسيت الحوت) اي نسيت ان أذكر لك أمره ثم علل عدم ذكره بقوله (وما أنسانيه الا الشيطان) بوسواسه وقرأ حفص بضم الهاء وأمال الالف الكسائي محضة وورش بين بين وبالفتح والباقون بالفتح وقوله (ان أذكره) الان في محل نصب على البدل من هاء أنسانيه بدل اشتمال اي

بصوتك في الذكر في خلواته وتدبرها بحيث تصل الى معرفته واجمع بين قلبك ولسانك وجسدك فناسب تقديم السمع هنا والبصر ثم (قوله استغفر الله) فان قلت الاستغفار

أنسانيه ان أذكره (واتخذ سبيله) اى طريقه الذى ذهب فيه (فى البحر عجبا) وهو كونه كالسرب معجزة لموسى أو الخضر وذكره الآن مانع من ان يكون للشيطان عليه سلطان على ان هذا النسيان ليس مفوتا للطاعة بل فيه ترقية لهما فى معراج المقامات العالية لوجدان التعب بعد المكان الذى فيه البغية وحفظ الماء منجابا على طول الزمان وغير ذلك من الآيات الظاهرة وقوله تعالى انما سلطانه على الذين يتولونه مبين ان السلطان الحمل على المعاصى وقوله وما أنسانيه الا الشيطان ان أذكره اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقد كان فى هذه القصة خوارق منها احياء الحوت ومنها ايجاد ما كان أكل منه ومنها امساك الماء عن مدخله وقد اتفق لنبينا صلى الله عليه وسلم نفسه وأتباعه ببركته مثل ذلك أما اعادة ما أكل من الحوت المشوى وهو جنبه فقد روى البيهقى فى أواخر دلائل النبوة عن اسامة بن زيد رضى الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم أتى بشاة مشوية فقال لبعض أصحابه ناولنى ذراعها وكان أحب الشاة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها ثم قال ناولنى ذراعها فناوله ثم قال ناولنى ذراعا فقال يارسول الله انما هما ذراعان وقد ناولتك فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو سكت مازلت تناولنى ذراعا ما قلت لك ناولنى ذراعا فقد أخبر صلى الله عليه وسلم انه لو سكت أوجد الله تعالى ذراعا ثم ذراعا وهكذا وأما احياء الحوت المشوى ففى قصة الشاة المشوية المسمومة ان ذراعها أخبر النبى صلى الله عليه وسلم انه مسموم فهذا أعظم من عود الحياة من غير نطق وكذا حنين الجذع وتسليم الحجر وتسبيح الحصى ونحو ذلك أعظم من عود الحياة الى ما كان حيا وروى البيهقى فى الدلائل عن عمرو بن سواد قال قال الشافعى ما أعطى الله تعالى نبيا ما أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم قلت أعطى عيسى عليه السلام احياء الموتى فقال أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم احياء الجذع الذى كان يخطب الى جنبه حين هيئ له المنبر حن الجذع حتى سمع صوته فهذا أكبر من ذلك انتهى وقد ورد أشياء كثيرة من احياء الموتى له صلى الله عليه وسلم ولبعض أمته وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه انه قال كنا فى الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتته امرأة ومعها ابن لها فاضاف المرأة الى النساء وأضاف ابنها الينا فلم يلبث ان أصابه وباء المدينة فمرض أياما ثم قبض فغمضه النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بجهازه فلما أردنا ان نغسله قال ائت أمه فاعلمها فجاءت حتى جلست عند قدميه فاخذت بهما ثم قالت اللهم انى أسلمت لك تطوعا وخالفت الاوثان زهدا وهاجرت اليك رغبة اللهم لا تشمت بى عبدة الاوثان ولا تحملنى من هذه المصيبة ما لا طاقة لى بحملها قال فوالله ما انقضى كلام المرأة حتى حرك قدميه وألقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم وحتى هلكت أمه وأما آية الماء فرجعها الى صلابته ولا فرق بين جموده بعدم الانثلام بعد الانخراق وبين جموده وصلابته بالامتناع من الانخراق وقد جهز عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه جيشا واستعمل عليه العلاء بن الحضرمى فحصل لهم حر شديد وجهدهم العطش قال بعض الجيش فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ثم مد يده وما نرى فى السماء شيأ فوالله ما حط يده حتى بعث الله تعالى ريحا وأنشأ سحابا فافرغت حتى ملأت الغدر والشعاب فشربنا وسقينا واستقينا ثم أتينا عدونا وقد جاوز خليجا فى البحر

الكافر حرام فكيف وعد ابراهيم عليه السلام بالاستغفار مع انه أباه كافر (قلت) معناه سأسال الله لك توبة تنال بها مغفرته يعنى الاسلام والاستغفار للكافر بهذا الوجه جائز

الى

الى جزيرة فوقف على الخليج وقال يا على يا عظيم يا حليم يا كريم ثم قال أجيزوا بسم الله فاجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا فاصبنا العدو عليه فقتلنا وأسرنا وسبينا ثم أتينا الخليج فقال مثل مقالته فاجزنا وما يبل الماء حوافر دوابنا والاخبار في ذلك كثيرة * ولما قال فتاه ذلك كأنه قيل فما قال موسى عليه السلام حينئذ (قال) له (ذلك) اى الامر العظيم من فقد الحوت (ما كنا نبغ) اى نريد من هذا الامر المغيب عنا فان الله تعالى جعله موعدا في لقاء الخضر وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير بفتحها وصلا ووقفا والباقون بالحذف (فارتدا على آثارهما) اى فرجعا في الطريق الذي جا آ فيه يقصانها (قصصا) اى يتبعان اثرهما اتباعا أو مقتصين حتى يأتيا الصخرة قال البقاعى يدل على ان الارض كانت رملا لا علم فيه فالظاهر والله أعلم انه مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي ركب في سفينته للتعدية كما في الحديث فان الطير لا يشرب من الملح ومن المشهور في بلاد رشيد ان الامر كان عندهم وان عندهم سمكا ذاهب الشق يقولون انه من نسل تلك السمكة والله أعلم انتهى وتقدم عن قتادة أنه ملتقى بحر فارس والروم وقال محمد بن كعب طنجة وقال أبي بن كعب افريقية وقيل البحران موسى والخضر لانهما كانا بحرى علم قال ابن عادل وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين فان صح في الخبر الصحيح شئ فذاك والا فالاولى السكوت عنه انتهى ثم استمرا يقصان حتى انتهيا الى موضع فقد الحوت (فوجدا عبدا من عبادنا) مضافا الى حضرة عظمتنا قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذي جاء في التواريخ وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس قيل كان من بنى اسرائيل وقيل من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب سمى بذلك لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز تحته خضراء والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمى خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله روى ان موسى عليه السلام رأى الخضر مسجى ثوبا فسلم عليه فقال الخضر وانى بارضك السلام قال انا موسى أتيتك تعلمني مما علمت رشدا وفي رواية لقيه مسجى بثوب مستلقيا على قفاه بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه وفي رواية لقيه وهو يصلى ويروى لقيه وهو على طنفسة خضراء على كبد البحر وروى ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك فقال وعليك السلام يا نبى بنى اسرائيل فقال موسى ما عرفك هذا فقال الذي بعثك الى وكان الخضر في أيام أفريدون وكان على مقدمة ذى القرنين الاكبر وبقى الى أيام موسى وقيل ان موسى سأل ربه اى عبادك أحب اليك قال الذي يذكرنى ولا ينسانى قال فاى عبادك أقضى قال الذي يقضى بالحق ولا يتبع الهوى فقال فاى عبادك أعلم قال الذي يبتغى علم الناس الى علمه عسى ان يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان في عبادك أعلم منى فادللنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال كيف لى به قال تأخذ حوتا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك (آتيناه) بعظمتنا (رحمة من عندنا) اى وحيا ونبوة وكونه نبيا هو قول الجمهور وقيل انه ليس بنبي قال البغوى عند أكثر أهل العلم اى فمنهم انه ولى (وعلمناه من لدنا) اى مما يختص بنا من العلم وهو الاخبار عن الغيوب ... ای علما يجرى على غير قوانين العادات على انه ليس بمستغرب عند

كان يقول اللهم وفقه للاسلام او تب عليه واهده اوانه وعده ذلك على انه يسلم و يستغفر له بعد اسلامه او انه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر (قوله وناديناه من

أهل الاصطفاء (علماً) قذفناه في قلبه بغير واسطة وأهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة
العلم اللدني قال بعضهم العبد في الرياضيات يتزين الظاهر بالعبادات وتخلي النفس عن العلائق
وعن الاخلاق الرذيلة بتحليتها بالاخلاق الجميلة صارت القوى الحسية والخيالية ضعيفة
فاذا ضعفت قويت القوى العقلية وأشرقت الانوار الالهية في جوهرة العقل وحصلت
المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكر والتأمل وهذا هو المسمى بالعلوم
اللدنية ثم أورد سبحانه وتعالى القصة على طريق الاستئناف على تقدير سؤال السائل عن كل
كلام يرشد اليه ما قبله وذلك انه من المعلوم ان الطالب للشخص اذا لقيه كلمه لكن لا يعرف عين
ذلك الكلام فقال لم ٣ كأنه سأل عن ذلك (قال له موسى) طالبا منه على سبيل التأدب والتلطف
باظهار ذلك في قالب الاستئذان (هل أتبعك) أي اتباعا بليغا حيث توجهت والاتباع الاتيان
بمثل فعل الغير لمجرد كونه آتيا به وبين انه لا يطلب منه غير العلم بقوله (على أن تعلمن) أثبت الياء
نافع وأبو عمرو وصلا لا وقفا وابن كثير وصلا ووقفا والباقون بالحذف وزاد في التعطف بالاشارة
الى انه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان بل جوامع منه يسترشد بها الى باقيه فقال
(مما علمت) وبناه للمفعول لعلم المتخاطبين لكونهما من المخلصين بان الفاعل هو الله تعالى
وللاشارة الى سهولة كل أمر الى الله تعالى (رشدا) اي علما يرشدني الى الصواب فيما أقصده
وقرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين * ولما أتم موسى عليه
السلام العبارة عن السؤال (قال) له الخضر عليه السلام (انك) يا موسى (لن تستطيع معي
صبرا) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها لا تصح ولا تستقيم وفتح
الياء من معي صبرا في المواضع الثلاثة حفص وسكنها الباقون ثم علل عدم الصبر معه
واعتذر عنه بقوله (وكيف تصبر) يا موسى (على ما لم تحط به خبرا) أي وكيف تصبر على أمور
وأنت نبي ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك أن يصبر اذا رأى ذلك بل يبادر ويأخذ
في الانكار وخبرا مصدر لمعنى لم تحط به اي لم تخبره حقيقته (قال) له موسى عليه السلام آتيا
بنهاية التواضع لمن هو اعلم منه ارشادا لما ينبغي في طلب العلم رجاء تسهيل الله تعالى له النفع
به (ستجدني) فأكد الوعد بالسين ثم أخبر تعالى انه قوى تأكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه
بصعوبة الامر على الوجه الذي تقدم الحث عليه في هذه السورة في قوله تعالى ولا تقولن لشيء
اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ليعلم أنه منهاج الانبياء فقال (ان شاء الله) أي الذي له صفات
الكمال (صابرا) على ما يجوز الصبر عليه ثم زاد التأكيد بقوله عطفا بالواو على صابرا البادي
التمكن في كل من الوصفين (ولا أعصي) اي وغير عاص (لك أمرا) تأمرني به غير مخالف
لظاهر أمر الله تعالى * (تنبيه) * دلت هذه الآية الكريمة على ان موسى عليه السلام
راعى انواعا كثيرة من الادب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر منها أنه جعل نفسه
تبعا له بقوله هل أتبعك ومنها انه استأذن في اثبات هذه التبعية كأنه قال هل تأذن لي أن أجعل
نفسي تبعا لك وهذه مبالغة عظيمة في التواضع ومنها قوله صلى الله عليه وسلم على أن تعلمني وهذا
اقرار منه على نفسه بالجهل وعلى استاذه بالعلم ومنها قوله مما علمت وصيغة من للتبعيض فطلب
منه تعليم بعض ما علم وهذا أيضا اقرار بالتواضع كأنه يقول لا أطلب منك أن تجعلني مساويا

٣ قوله لم الخ كذا بالاصل وليتأمل اه مصحح

(جانب الطور الايمن) اي الذي يلي يمين موسى حين اقبل من مدين (قوله ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) ان قلت هرون كان أكبر من موسى فما معنى هبته له (قلت) معناه ان

لك

لك في العلم بل أطلب منك أن تعطيني جزأ من أجزاء علمك ومنها ان قوله مما علمت اعتراف منه بان الله تعالى علمه ذلك العلم ومنها قوله رشدا طلب منه الارشاد والهداية ومنها قوله ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ومنها انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف أولا ان موسى صاحب التوراة وهو الرسول الذي كلمه الله من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيا في طلب العلم باعظم أبواب المبالغة في التواضع وذلك يدل على ان هذا هو اللائق به لان كل من كانت احاطته بالعلوم التي علم ما فيها من البهجة والسعادة أكثر كان طلبه لها أشد فكان تعظيمه لارباب العلم أكمل وأشد وكل ذلك يدل على ان الواجب على المتعلم اظهار التواضع بكل الغايات وأما المعلم فان رأى ان في التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وارشادا الى الخير فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور وذلك يمنعه من التعلم وروى ان موسى عليه السلام لما قال هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا قال له الخضر كفى بالتوراة علما وببني اسرائيل شغلا فقال له موسى الله أمرني بهذا (قال) له الخضر (فان اتبعتني) اى صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار اليه الا أنه شرط عليه شرطا فقال (فلا تسألني عن شيء) أقوله أو أفعله (حتى أحدث لك) خاصة (منه ذكرا) اى حتى أبدأك بوجه صوابه فانى لا أقدم على شيء الا وهو صواب جائز في نفس الامر وان كان ظاهره غير ذلك فقبل موسى شرطه رعاية لادب المتعلم من العالم ولما تشارطا وتراضيا على الشرط تسبب عن ذلك قوله تعالى (فانطلقا) اى موسى والخضر عليهما السلام على الساحل فانتهيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فمازالا يطلبان سفينة يركبان فيها واستمرا (حتى اذا ركبا في السفينة) التي مرت بهما وأجاب الشرط بقوله (خرقها) اى أخذ الخضر فأسا فخرق السفينة بان قلع لوحا أو لوحين من ألواحها من جهة البحر لما بلغت اللجة ولم يقترن خرق بالفاء لانه لم يكن مسببا عن الركوب ثم استأنف قوله (قال) أي موسى عليه السلام منكرا لذلك لما في ظاهره من الفساد باتلاف المال المفضي الى فساد أكبر منه باهلاك النفوس ناسيا لما عقد على نفسه على انه لو لم ينس لم يترك الانكار كما فعل عند قتل الغلام لان مثل ذلك غير داخل في الوعد لان المستثنى شرعا كالمستثنى وضعا (أخرقتها) وبين عذره في الانكار بما في غاية التحرق من الفظاعة فقال (لتغرق أهلها) فان خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي الى غرق أهلها وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية مفتوحة وفتح الراء ورفع اللام من أهلها والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الراء ونصب لام أهلها ثم قال له موسى والله (لقد جئت شيئا امرا) اى عظيما منكرا (قال) الخضر (ألم أقل انك) ياموسى (لن تستطيع معي صبرا) فذكره بما قال له عند الشرط (قال) موسى (لا تؤاخذني) ياخضر (بما نسيت) اى غفلت عن التسليم لك وترك الانكار عليك قال ابن عباس انه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام اى وهي التورية بالشيء عن الشيء وفي الخبر ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب اى سعة فكأنه نسي شيأ آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كانت الاولى من موسى

الله تعالى انعم على موسى
عليه السلام باجابته دعوته
فيه حيث قال واجعل لي
وزيرا من اهلي هرون اخي
الآية فمعنى هبته جعله
عضدا له وناصرا ومعينا
(قوله وعمل صالحا) قال هنا

نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى لا تكلفنى مشقة يقال أرهقه عسرا وأرهقته عسرا اى كلفته ذلك يقول لا تضيق على أمرى ولا تعسر متابعتك على ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وعاملنى باليسر ولا تعاملنى بالعسر وعسرا مفعول ثان لترهقنى من أرهقته كذا اذا حملته اياه وغشاه به وما فى بما نسيت مصدرية أو بمعنى الذى والعائد محذوف وروى ان الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروى ان موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشا به الخرق وروى ان الخضر أخذ قدحا من زجاج ورقع به خرق السفينة (فان قيل) قول موسى عليه السلام أخرقتها لتغرق أهلها ان كان صادقا فى هذا دل ذلك على صدور ذنب عظيم من الخضر ان كان نبيا وان كان كاذبا دل ذلك على صدور الذنب من موسى وأيضا فقد التزم موسى ان لا يعترض عليه وجرت العهود المذكورة بذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك ذنب (أجيب) بان كلامهما صادق فيما قال موسى بحسب ما عنده أما موسى عليه السلام فانه ما خطر له قط ان يعاهد على ان لا ينهى عما يعتقده منكرا وأما الخضر فانه عقد على ما فى نفس الامر انه لا يقدم على منكر (فانطلقا) بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب (حتى اذا لقيا غلاما) قال ابن عباس لم يبلغ الحنث (فقتله) حين لقيه كما دلت عليه الفاء العاطفة على الشرط قال البغوى فى القصة انهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فاخذ غلاما ظريفا وضىء الوجه فاضجعه ثم ذبحه بالسكين قال السدى كان أحسنهم وجها كان وجهه يتوقد حسنا قال البغوى وروينا انه أخذ رأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وأشار بيده باصابعه الثلاثة الابهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروى انه رضخ رأسه بالحجارة وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله وكونه لم يبلغ الحنث هو قول الاكثرين وقال الحسن كان رجلا قال شعيب الجبائى وكان اسمه جيسور وقال الكلبى كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلجئ الى أبويه وقال الضحاك كان غلاما يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه وعن ابى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لارهق أبويه طغيانا وكفرا قال الرازى وليس فى القرآن كيف لقيه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان او كان منفردا وهل كان مسلما او كافرا وهل كان بالغا او صغيرا وكان اسم الغلام بالصغير اليق وان احتمل الكبير الا ان قوله بغير نفس اليق بالبالغ منه بالصبى لان الصبى لا يقتل وان قتل قال البقاعى الا ان يكون شرعهم لا يشترط البلوغ وقال ابن عباس ولم يكن نبى الله يقول اقتلت نفسا زاكية بغير نفس الا وهو صبى قال الرازى ايضا وكيفية قتله هل قتله بان حز رأسه او بان ضرب رأسه بالجدار او بطريق آخر فليس فى القرآن ما يدل على شئ من هذه الاقسام انتهى ثم اجاب الشرط بقوله مشعرا بان شروعه فى الانكار لهذا اسرع (قال) موسى (اقتلت) يا خضر (نفسا زاكية بغير نفس) قتلتها ليكون قتلها لها قودا وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بالف بعد الزاى وتخفيف الياء التحتية والباقون بغير الف بعد الزاى وتشديد التحتية قال الكسائى الزاكية والزكية لغتان ومعنى هذه الطهارة وقال ابو عمرو الزاكية التى لم تذنب والزكية التى اذنبت ثم تابت ثم استأنف قوله (لقد) اظهر لدال نافع وابن كثير

وقال فى الفرقان وعمل عملا صالحا لانه تعالى اوجز هنا فى ذكر المعاصى فاوجز فى التوبة واطال ثم فاطال (قوله لقد احصاهم وعدهم عدا) ان قلت ما فائدة ذكر

وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون (جئت) فيه قلت ايا ما (شيأ) وصرح بالانكار في قوله (نكرا) لان مباشرة القتل سبب ولهذا قال بعضهم النكر أعظم من الامر في القبح لان قتل الغلام أعظم من خرق السفينة لانه يمكن ان لا يحصل الغرق وأما هنا فقد حصل الاتلاف قطعا والنكر ما أنكرته العقول ونفرت منه النفوس فهو أبلغ في القبح من الامر وقيل الامر أعظم لان خرق السفينة يؤدي الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة برفع الكاف والباقون بسكونها ولما كانت هذه ثانية (قال) له الخضر (ألم أقل لك انك) يا موسى (لن تستطيع معي صبرا) وهذا عين ما ذكره في المسئلة الاولى الا انه هنا زاد لفظة لك (فان قيل) لم زادها هنا (أجيب) بانه زادها مكافحة بالعتاب على رفض الوصية ووسما بقلة الصبر والثبات لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير أول مرة قال ابن الاثير المكافحة المدافعة والمضاربة والاشمئزاز من اشمأز الرجل أي انقبض قلبه قال البغوي وفي القصة ان يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه (قال) موسى حياء منه لما أفاق بتذكيره ما حصل من فرط الوجد لامر الله تعالى فذكر انه ما تبعه الا بامر الله تعالى (ان سألتك عن شيء بعدها) أي بعد هذه المرة وأعلم بشدة ندمه من الانكار بقوله (فلا تصاحبني) أي لا تتركني أتبعك بل فارقني ثم علل ذلك بقوله (قد بلغت) وأشار الى أن ما وقع منه من الاخلال بالشرط من أعظم الخوارق التي اضطر اليها فقال (من لدني) أي من قبلي (عذرا) باعتراضي مرتين واحتمالك لي فيهما وقد أخبر الله بحسن حالك في غزارة علمك فحسم بهذه الطريقة من حيث انه احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك ولو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الاعاجيب وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر أحدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة أي حياء واشفاق فقال ان سألتك الى آخره وقرأ نافع بضم الدال وتخفيف النون وقرأ شعبة كذلك الا انه يشم الدال فتصير ساكنة قريبة من الضم والباقون بضم الدال وتشديد النون (فانطلقا) أي موسى والخضر يمشيان لينظر الخضر أمرا يتفق فيه ما عنده من علمه وورش يغلظ اللام في لفظ انطلقا على أصله بعد قتل الغلام (حتى اذا أتيا أهل قرية) قال ابن عباس هي انطاكية وقال ابن سيرين هي الايلة وهي أبعد أرض الله من السماء وعبر عنها بالقرية دون المدينة لانه أدل على الذم وقيل برقة وعن أبي هريرة بلدة بالاندلس (استطعما أهلها) أي طلبا من أهل القرية أي يطعموهما وفي الحديث انهما كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم (فأبوا أن يضيفوهما) أي أن ينزلوهما ويطعموهما يقال ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض وضيفه وأضافه أنزله وجعله ضيفا (فان قيل) الاستطعام ليس من عادة الكرام وكيف قدم عليه موسى والخضر وقد حكى الله تعالى عن موسى أنه قال عند ورود ماء مدين رب اني لما أنزلت الي من خير فقير (أجيب) بأن اقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند الخوف من الضرر الشديد (فان قيل) لم قال حتى اذا أتيا أهل

العد بعد الاحصاء انما ان
الاحصاء هو والحصر
والحصر لا يكون الا بعد
معرفة العدد (قلت) له
معنى ثالث وهو العلم كقوله
واحصى كل شىء عددا اى
علم عدد كل شىء فالمعنى هنا

قرية استطعما أهلها ولم يقل استطعماهم (أجيب) بأن التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر

ليت الغراب غداة ينعب دائبا ● كان الغراب مقطع الاوداج

وعن قتادة شر القرى التي لا تضيف الضيف (فائدة) قال الرازي وفي كتب الحكايات ان أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا يا رسول الله جئناك بهذا الذهب اجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فأتوا أن يضيفوهما أي أتيناهم لاجل الضيافة حتى يندفع عنا هذا اللوم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب في كلام الله تعالى وذلك يوجب القدح في الالهية فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ولما أبوا أن يضيفوهما انصرفا (فوجدا فيها) أي القرية ولم يقل فيهم ايذانا بأن المراد وصف القرية بسوء الطبع (جدارا) أي حائطا مائلا مشرفا على السقوط ولذا قال (يريد أن ينقض) أي يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب داري تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير الارادة للمشارفة كما استعير الهم والعزم في قوله

يريد الرمح صدر أبي براء ● ويعدل عن دماء بني عقيل

وقول الآخر ان دهرا يلف شملي بجمل ● لزمان يهم بالاحسان

ففي البيت الاول دليل على استعارة الارادة للمشارفة وفي الثاني دليل على استعارة الهم لها وجمل اسم محبوبته يقول ان دهرا يجمع بيني وبينها لزمان قصده الاحسان لا الاساءة ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله تعالى أن يقول له كن فيكون وقوله تعالى قالتا أتينا طائعين قال الزمخشري ولقد بلغني ان بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر وقيل ان الله تعالى خلق للجدار حياة وارادة كالحيوان (فأقامه) أي سواه وفي حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده فأقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه وقال سعيد بن جبير مسح الجدار بيده فاستقام وذلك من معجزاته وقال السدي بل طينا وجعل يبني الحائط فشق ذلك على موسى عليه السلام (فان قيل) الضيافة من المندوبات فتركها ترك مندوب وذلك غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذي لاجله ترك العهد الذي التزمه في قوله ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني وأيضا مثل الغضب لاجل ترك الاكل في ليلة واحدة لا يليق بأدون الناس فضلا عن كليم الله تعالى (أجيب) بأن تلك الحالة كانت حالة افتقار واضطرار الى الطعام فلاجل تلك الضرورة نسي موسى عليه السلام ما قاله فلا جرم (قال) موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أي لطلبت على عملك أجرة تصرفها في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف التاء بعد اللام وكسر الخاء وأظهر ابن كثير الذال عند التاء على أصلها وأدغمها أبو عمرو والباقون بتشديد التاء وفتح الخاء وأظهر حفص الذال على أصله وأدغمها الباقون ● ولما كان كلام موسى هذا

لقد علمه وعدهم هذا

● (سورة طه) ●

(قوله وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا الآية) (إن قلت) فكيف حكى الله تعالى قول موسى عليه السلام لأهله ... مندوبة

منشؤها السؤال (قال) له الخضر (هذا) اى هذا الانكار على ترك الاجر (فراق بينى وبينك) وقيل ان موسى عليه السلام لما شرط انه ان سأله بعد ذلك سؤالا آخر حصل به الفراق حيث قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى فلما ذكر هذا السؤال فارقه وهذا فراق بينى وبينك اى هذا الفراق الموعود الموعود (فان قيل) كيف ساغ اضافة بين الى غير متعدد (اجيب) بان سوغ ذلك تكريره بالعطف بالواو الا ترى انك لو قتصرت على قولك المال بينى لم يكن كلاما حتى تقول بيننا او بينى وبين فلان ثم قال له الخضر (سأنبئك) اى ساخبرك يا موسى قبل فراقك (بتأويل) اى بتفسير (ما لم تستطع عليه صبرا) لان هذه المسائل الثلاثة مشتركة فى شئ واحد وهو ان احكام الانبياء عليهم الصلاة والسلام مبنية على الظواهر كما قال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر والخضر ما كانت احكامه مبنية على ظواهر الامور بل كانت مبنية على الاسباب الخفية الواقعة فى نفس الامر وذلك لان الظاهر فى اموال الناس وفى ارواحهم انه يحرم التصرف فيها والخضر تصرف فى اموال الناس وفى ارواحهم فى المسئلة الاولى وفى الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لان الاقدام على خرق السفينة وقتل الانسان من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف محرم والاقدام على اقامة ذلك الجدار المائل فى المسئلة الثالثة تحمل للتعب والمشقة من غير سبب ظاهر ثم اخذ الخضر فى تأويل ذلك مبتدئا بالمسئلة الاولى بقوله (اما السفينة) اى التى احسن الينا اهلها فخرقتها (فكانت لمساكين) عشرة اخوة خمسة زمنى وخمسة (يعملون فى البحر) اى يؤاجرون ويكتسبون واحتج الشافعى رضى الله عنه بهذه الآية على ان حال الفقير اشد فى الحاجة والضرر من حال المسكين لان الله تعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون تلك السفينة (فاردت ان اعيبها) اى ان اجعلها ذات عيب بان تفوت منفعتها بذلك الساعة من نهار وتكلف اهلها لوحا او لوحين يسدونها بذلك اخف عليهم من ان تفوتهم منفعتها بالكلية كما يعلم من قوله (وكان وراءهم) اى امامهم كقوله تعالى ومن ورائهم برزخ وقيل خلفهم وكان طريقهم فى رجوعهم عليه (ملك) كان كافرا واسمه الجلندى وقال محمد بن اسحق اسمه سولة بن خليد (٣) الازدى وقيل اسمه هدد بن بدد (يأخذ كل سفينة) اى صالحة وحذف التقييد بذلك للعلم به (غصبا) من اصحابها ولم يكن عند اصحابها علم به فاذا مرت به تركها لعيبها فاذا جاوزته اصلحوها فانتفعوا بها قيل سدوها بقارورة وقيل بالقار (فان قيل) قوله فاردت ان اعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه ان يتأخر عن السبب فلم قدم عليه (اجيب) بان النية به التأخير وانما قدم للعناية ولان خوف الغصب ليس هو السبب وحده ولكن مع كونها للمساكين فلما كان كل من الغصب والمسكنة سبب الفعل قدمها على الغصب اشارة الى ان اقوى السببين الحاملين على فعله الرأفة بالمساكين * ثم شرع فى تأويل المسئلة الثانية بقوله (واما الغلام) الذى قتلته (فكان ابواه مؤمنين) التثنية للتغليب يريد اباه وامه فغلب المذكر وهو شائع ومثله العمران قيل ان ذلك الغلام كان يقطع الطريق ويقدم على الافعال المنكرة وكان ابواه يحتاجان الى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات وكان يصير سببا لوقوعهما فى الفسق وربما ادى ذلك

اختارها وفى النقل والقصص بعبارات مختلفة وهذه الصيغة تسع الامر واسمه فطيب اسلمت عبارة موسى عليه السلام فيها (قلت) مبه فى الاعراف فى قصة موسى

(٣) قوله سولة بن خليد الخ هكذا فى النسخ والذى فى البيضاوى منوار بن جلندى الازدى فليحرر اه

الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا الا انه علم منه أنه لو صار بالغا لحصلت فيه هذه المفاسد وفي الحديث انه طبع كافرا ولو عاش لارهقهما ذلك كما قال (فخشينا) أي خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم (أن يرهقهما) أي يغشيهما ويلحقهما (طغيانا وكفرا) أي فيتبعانه في ذلك (فان قيل) هل يجوز الاقدام على قتل الانسان بمثل ذلك (أجيب) بانه اذا تأكد ذلك بوحي من الله تعالى جاز وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب اليه كيف قتله أي كيف قتل الخضر الغلام وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب اليه ان علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل رواه بمعناه مسلم ولما ذكر ما يلزم على تقدير بقائه من الفساد تسبب عنه قوله (فأردنا) أي بقتله واراحتهما من شره (أن يبدلهما ربهما) أي المحسن اليهما باعطائهما وأخذه قال مطرف فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي كان فيه هلاكهما فليرض كل امرئ بقضاء الله تعالى فان قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ولهذا أبدلهما الله تعالى (خيرا منه زكاة) أي طهارة وبركة من الذنوب والاخلاق الرديئة وصلاحا وتقوى (وأقرب رحما) أي رحمة وعطفا عليهما وقيل هو من الرحم والقرابة قال قتادة أي أوصل للرحم وأبر للوالدين قال الكلبي أبدلهما الله تعالى جارية فتزوجها نبي من الانبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الامم وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال أبدلهما الله تعالى جارية ولدت سبعين نبيا وقال ابن جريج أبدلهما بغلام مسلم وقرأ نافع وابو عمرو أن يبدلهما بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال وقرأ ابن عامر رحما برفع الحاء والباقون بالسكون ثم شرع في تأويل المسألة الثالثة بقوله (وأما الجدار) اي الذي اشرت باخذ الاجر عليه (فكان لغلامين) ودل على كونهما دون البلوغ بقوله (يتيمين) وكان اسم أحدهما أصرم والآخر صريم ولما كانت القرية لاتساعها في الاصطلاح المدينة وكان التعبير بالقرية أولا أليق عبر بها لانها مشتقة من معنى الجمع فكان أليق بالذم في ترك الضيافة ولما كانت المدينة بمعنى محل الاقامة عبر بها فقال (في المدينة) فكان التعبير بها أليق للاشارة به الى أن الناس يمرون فيها فينهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز كما قال (وكان تحته كنز لهما) فان ذلك أقتضاه احتسابا واختلف في ذلك الكنز فعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان ذهبا وفضة رواه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه والذم على كنزهما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدي زكاتهما وما يتعلق بهما من الحقوق وعن سعيد بن جبير قال كان الكنز صحفا فيها علم رواه الحاكم وصححه وعن ابن عباس قال كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا اله الا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه قال البغوي وهذا قول اكثر اهل التفسير وروي ايضا ذلك مرفوعا قال الزجاج الكنز اذا أطلق ينصرف

الى

عليه السلام مثل هذا السؤال مع جوابه وجوابه ثم يأتي هنا (قوله فلما أتاها) قاله هنا وفي القصص بلفظ أتى وفي النمل بلفظ جاء لانهما وان كانا بمعنى واحد

الى كنز المال ويجوز عند الفقيه أن يقال عنه كنز علم وهذا اللوح كان جامعا لهما وقوله
(وكان أبوهما صالحا) فيه تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه فيراعى وتراعى ذريته
وكان سياحا واسمه كاشح قال ابن عباس حفظا لصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الاب
الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر ان الله تعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده
وعشيرته واهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم قال سعيد بن المسيب اني
أصلي فاذكر ولدي فازيد في صلاتي وعن الحسن أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما
بم حفظ الله الغلامين قال بصلاح ابيهما قال فابي وجدي خير منه قال قد أنبأنا الله أنكم قوم
خصمون وذكروا ايضا أن ذلك الاب الصالح كان من الذين تضع الناس الودائع عنده فيردها
اليهم (فاراد ربك أن يبلغا) أي الغلامان (أشدهما) أي الحلم وكمال الرأي (ويستخرجا
كنزهما) لينتفعا به وينفعا الصالحين ● (تنبيه) ● أسند الارادة في قوله فاردت أن أعيبها الى
نفسه لانه المباشر للتعييب وثانيا في قوله فاردنا الى الله والى نفسه لان التبديل باهلاك الغلام
وايجاد الله تعالى بدله وثالثا في قوله فاراد ربك الى الله وحده لانه لا مدخل له في بلوغ الغلامين
أولان الاول في نفسه شر والثالث خير والثاني ممتزج أولانه لما ذكر العيب أضافه الى ارادة
نفسه ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم
يقدم على هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لاجل صلاح أبيهما
أضافه الى الله تعالى لان التكفل بصلاح الابناء لرعاية حق الآباء ليس الا لله تعالى
أولاختلاف حال العارف في الالتفات الى الوسايط (فان قيل) اليتيمان هل احد منهما عرف
حصول ذلك الكنز تحت ذلك الجدار أم لا فان كان الاول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار
وان كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز ومعرفته والانتفاع به
(وأجيب) لعلهما كانا جاهلين به الا أن وصيهما كان عالما به ثم ان ذلك الوصي غاب وأشرف
ذلك الجدار في غيبته على السقوط ولما قرر الخضر هذه الجوابات قال (رحمة من ربك) أي
انما فعلت هذه الافعال لغرض أن تظهر رحمة الله لانها بأسرها ترجع الى حرف واحد وهو
تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى كما تقرر (وما فعلته) اي شيأ من ذلك (عن أمري) اي
عن اجتهادي ورأيي بل بامر من له الامر وهو الله تعالى ● (تنبيه) ● احتج من ادعى نبوة الخضر
بامور احدها قوله تعالى آتيناه رحمة من عندنا والرحمة هي النبوة قال تعالى وما كنت ترجو
أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك والمراد من هذه الرحمة النبوة قال الرازي ولقائل ان
يقول سلمنا ان النبوة رحمة ولكن لا يلزم ان تكون كل رحمة نبوة الثاني قوله تعالى وعلمناه
من لدنا علما وهذا يقتضي ان الله تعالى علمه بلا واسطة تعليم معلم ولا ارشاد مرشد وكل من علمه
الله تعالى بلا واسطة البشر وجب ان يكون نبيا يعلم الامور بالوحي من الله تعالى قال الرازي
وهذا الاستدلال ضعيف لان العلوم الضرورية تحصل ابتداء من الله وذلك لا يدل على النبوة
الثالث ان موسى عليه السلام قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت والنبي لا يتبع غير نبي في
التعلم قال الرازي وهذا ايضا ضعيف لان النبي لا يتبع غير نبي في العلوم التي باعتبارها صار
نبيا اما في غير تلك العلوم فلا الرابع انه اظهر على موسى الترفع حيث قال وكيف تصبر على ما لم

تغاير بينهما لفظا وتوسعة
في التعبير عن الشيء
وخص ... بين ... اي
بهذه السورة لكثرة التعبير
بالابتداء فيها وما جاء في الغل
لكثرة التعبير بالجمع فيها
والحق ما في القصص ... في

فخطيه خيرا مما مر موسى فانه اظهر له التواضع حيث قال ولا اعصى لك امرا وهذا يدل على انه كان فوق موسى ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق نبي قال الرازي وهذا ايضا ضعيف لانه يجوز ان يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها الخامس قوله وما فعلته عن امري والمعنى اني فعلته بوحي من الله وهذا يدل على النبوة قال الرازي وهذا ايضا ضعيف ظاهر الحجة السادس ما روى ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك قال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل فقال موسى من عرفك هذا قال الذي بعثك الي وهذا يدل على أنه انما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون الا مع النبوة قال الرازي ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والالهامات انتهى وبالجملة فاكثرهم على أنه نبي كما مر واختلفوا اهل هو حي أو ميت فقيل ان الخضر والياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم قال البغوي وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة وذلك ان ذا القرنين دخل الظلمة ليطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل فاغتسل وشرب وشكر الله تعالى واخطأ ذو القرنين الطريق وذهب آخرون الى انه ميت لقوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعدما صلى العشاء ليلة ارأيتكم ليلتكم هذه فان راس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض احد ولو كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعده ولما بين لموسى سر تلك القضايا قال له (ذلك) اي هذا التأويل العظيم (تأويل ما لم تسطع) يا موسى (عليه صبرا) وحذف تاء الاستطاعة هنا تخفيفا فان استطاع واسطاع بمعنى واحد ● (تنبيه) ● من فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعمله ولا يبادر الى انكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سرا لا يعرفه وان يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم ويراعي الادب في المقال وان ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق اصراره ثم يهاجره وروى ان موسى لما اراد ان يفارق الخضر قال له اوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه للعمل به ● ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها انها طواف في الارض لطلب العلم عقبها بقصة من طاف الارض لطلب الجهاد وقدم الاولى اشارة الى علو درجة العلم لانه أساس كل سعادة وقوام كل امرئ فقال عاطفا على ويجادل الذين كفروا بالباطل (ويسئلونك) اي اليهود وقيل مشركو مكة بإشارة اليهود (عن ذي القرنين) وذكروا في سبب تسميته بذلك وجوها الاول قال أبو الطفيل سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين اكان نبيا أم ملكا قال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا أمر قومه بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فأمرهم بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى فسمي ذا القرنين وفيكم مثله يعني نفسه الثاني انه انقرض في وقته قرنان من الناس الثالث أنه كانت صفحتا رأسه من نحاس الرابع كان على رأسه ما يشبه القرنين الخامس كان لتاجه قرنان السادس أنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها السابع كان له قرنان اي ضفيرتان الثامن ان الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتمده الظلمة من ورائه التاسع أنه لقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا لانه ينطح اقرانه العاشر أنه رأى في المنام كأنه صعد الفلك وتعلق بطرفي الشمس وقرنيها اي جانبيها فسمي بذلك

ﻁه لقرب ما بينهما أي من حيث قوله انا موسى انى انا ربك وقوله في القصص يا موسى انى انا الله وان اختلف محلهما فلا في ذلك في الفعل (قوله ان الساعة آتية) قاله في الفتح

لهذا السبب الحادي عشر أنه كان له قرنان تواريهما العمامة الثاني عشر أنه دخل النور والظلمة وذكروا في اسمه أيضاً وجوها الاول اسمه مرزبان اليوناني من ولد يونان بن يافث ابن نوح الثاني اسمه اسكندر بن فيلقوس الرومي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه أقصى المشرق والمغرب وأمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه الثالث شمر بن عمير بن افريقيس الحميري وهو الذي بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وافتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما ◦ ملكا علا في الارض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغي ◦ أسباب ملك من كريم سيد

واختلفوا في نبوته مع الاتفاق على ايمانه فقال بعضهم كان نبيا واحتجوا على ذلك بوجوه الاول قوله تعالى انا مكنا له في الارض وحمل على التمكين في الدين والتمكين الكامل في الدين هو النبوة الثاني قوله تعالى وآتيناه من كل شئ سببا وهذا يدل على أنه تعالى آتاه من النبوة سببا الثالث قوله تعالى ياذا القرنين اما أن تعذب الخ والذي يتكلم الله معه لابد أن يكون نبيا ومنهم من قال انه كان عبدا صالحا ملكه الله تعالى الارض وأعطاه الله سبحانه وتعالى الملك والحكمة وألبسه الهيبة وقد قالوا ملك الارض مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمروذ وبختنصر ومنهم من قال انه كان ملكا من الملائكة عن عمر رضي الله تعالى عنه انه سمع رجلا يقول ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة والاكثر على القول الثاني ويدل له قول علي رضي الله تعالى عنه المتقدم ◦(تنبيه)◦ قد قدمنا ان اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح والمراد من قوله تعالى ويسئلونك عن ذي القرنين هو ذلك السؤال ثم قال الله تعالى (قل) أي لهؤلاء المتعنتين (سأتلوا) أي أقص قصا متتابعا في مستقبل الزمان أعلى الله تعالى به (عليكم) أي أيها البعداء والضمير في قوله تعالى (منه) لذي القرنين وقيل لله تعالى (ذكرا) أي خبرا كافيا لكم في تعرف أمره جامعا لمجامع ذكره (انا مكنا له في الارض) أي مكناله أمره من التصرف فيها كيف شاء يصل بها الى جميع مسالكها ويظهر بها على سائر ملوكها (وآتيناه) بعظمتنا (من كل شئ) يحتاج اليه في ذلك (سببا) أي وصلة توصله اليه من العلم والقدرة والآلة (فأتبع سببا) أي سلك طريقا نحو المغرب قال البقاعي ولعله بدأ به لان باب التوبة فيه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو واتبع في المواضع الثلاثة بتشديد التاء الفوقية ووصل الهمزة قبل الفوقية والباقون بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية واستمر متبعا له (حتى اذا بلغ) في ذلك السير (مغرب الشمس) أي موضع غروبها (وجدها تغرب في عين حمئة) أي ذات حمأة وهي الطين الاسود أي بلغ موضعا في الغرب لم يبق بعده شئ من العمران وجد الشمس كأنها تغرب في وهدة مظلمة وغروبها في رأي العين كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغرب في البحر اذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر والا فهي أكبر من الارض مرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الارض قال البيضاوي ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك اذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال وجدها تغرب ولم

قوله لذي القرنين وقيل لله تعالى كذا في نسخ المؤلف لاالقاضي كيد وقاله في تفسيره باثباتها الا انها زادها الكاتب والطبري نقلا كذا اذا كان انما يحتاج اليه اذا كان الضمير شيئا كما في الطبري والخازن في تفاسيرهم والظاهرون ان كرحهم الا الذين الكافرون

بقيل كانت تغرب وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وابن عامر بألف بعد الحاء وياء مفتوحة بعد الميم
عن أبي ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت
فقال أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب في عين حمئة وقرأ
الباقون بغير ألف بعد الحاء وبعد الميم همزة مفتوحة وانه روى ان ابن عباس كان عنده معاوية
فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ
أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار وسأله كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك
نجده في التوراة (ووجد عندها) أي عند تلك العين على الساحل المتصل بها (قوما) أي أمة قال
ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب أي
تغرب وقيل كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما يلفظه البحر كانوا كفارا فخيره الله تعالى بين
أن يعذبهم أو يدعوهم الى الايمان كما حكى ذلك بقوله تعالى (قلنا يا ذا القرنين) اما بواسطة الملك
ان كان نبيا أو بواسطة نبي زمانه ان لم يكن أو باجتهاد في شريعته (اما أن تعذب) بالقتل على
كفرهم (واما أن تتخذ) أي بغاية جهدك (فيهم حسنا) بالارشاد وتعليم الشرائع وقيل خيره بين
القتل والاسر وسماه حسنا في مقابلة القتل ويؤيد الاول قوله (قال أما من ظلم) باستمراره على
الكفر فانا نرفق به حتى نيأس منه ثم نقتله والى ذلك أشار بقوله (فسوف نعذبه) بوعد لا خلف
فيه بعد طول الدعاء والترفق وقال قتادة كان يطبخ من كفر في القدور وهو العذاب المنكر
(ثم يرد الى ربه) في الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) أي شديدا جدا في النار وتقدم في نكرا
سكون الكاف وضمها (وأما من آمن وعمل صالحا) تصديقا لما أخبر به من تصديقه (فله)
في الدارين (جزاء الحسنى) أي الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الهمزة بعد الزاي
منونة وتكسر في الوصل لالتقاء الساكنين قال الفرا نصبه على التفسير أي لجهة النسبة
وقيل منصوب على الحال أي فله المثوبة الحسنى مجزيا بها والباقون بضم الهمزة من غير تنوين
فالاضافة للبيان قال المفسرون والمعنى على قراءة النصب فله الحسنى جزاء كما تقول له هذا
الثوب هبة وعلى قراءة الرفع وجهان الاول فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هي الايمان
والعمل الصالح والثاني فله جزاء المثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهورة
كقوله ولدار الآخرة وأمال ألف الحسنى حمزة والكسائي محضة وأبو عمرو بين بين وورش
بالفتح والامالة بين بين (وسنقول) بوعد لا خلف فيه بعد اختباره بالاعمال الصالحة (له) أي
لاجله (من أمرنا) أي ما نأمره به (يسرا) أي قولا غير شاق من الصلاة والزكاة والخراج
والجهاد وغيرها وهو ما يطيقه ولا يشق عليه مشقة كثيرة (ثم أتبع) لارادة طلوع مشرق
الشمس (سببا) من جهة الجنوب يوصله الى المشرق واستمر فيه لا يمل ولا تغلبه أمة مر عليها
(حتى اذا بلغ) في مسيره ذلك (مطلع الشمس) أي الموضع الذي تطلع عليه أولا من المعمور من
الارض (وجدها تطلع على قوم) قال الجلال المحلي هم الزنج وقوله تعالى (لم نجعل لهم من
دونها) أي الشمس (سترا) فيه قولان الاول انه لا شيء لهم من سقف ولا جبل يمنع من وقوع شعاع
الشمس عليهم لان أرضهم لا تحمل بناء كما قال الرازي ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس
ويظهرون عند غروبها فيكونون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش وعند

غروبها

بخلاف نبيك (قوله فلا
يصدنك عنها من لا يؤمن
بها) فهو عنها وبها الساعة
والنهي ظاهرا من لا يؤمن
بها وحقيقة وهي عليه
السلام اذ المقصود نهيه
وهي عن التكذيب

العمل لله فاذا اطلع عليه سرني فقال ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا وروى أنه قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فانا منه برىء هو للذى عمله وعن سعيد بن فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الله تبارك وتعالى الناس ليوم لاريب فيه نادى مناد من كان يشرك فى عمل عمله لله فليطلب ثوابه منه فان الله تعالى اغنى الشركاء عن الشرك والآية جامعة لخلاصتى العلم والعمل وهما التوحيد والاخلاص فى الطاعة

* (خاتمة) * روى فى فضائل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها ما رواه الترمذى وغيره من قرأها عند مضجعه كان له نور يتلألأ فى مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نور يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وقال البيضاوى وعنه عليه السلام من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ولكن الذى رواه الامام أحمد من قرأ أول سورة الكهف كانت له نورا من فرقه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وروى البغوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه الى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء فنسأل الله تعالى أن ينور قلوبنا وأبصارنا وان يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا بسوء أفعالنا وأن يفعل ذلك بوالدينا وأولادنا وأقاربنا وأصحابنا ومشايخنا وجميع اخواننا المسلمين وأحبابنا آمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما الى يوم الدين

سورة مريم عليها السلام مكية

وهى ثمان وتسعون آية وسبعمائة واثنان وستون كلمة
وثلاثة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

(بسم الله) المنزه عن كل شائبة نقص القادر على كل ما يريد (الرحمن) الذى عم نواله سائر مخلوقاته (الرحيم) بسائر خلقه واختلف فى تفسير قوله تعالى (كهيعص) قال ابن عباس هو اسم من اسماء الله تعالى وقال قتادة هو اسم من اسماء القرآن وقيل هو اسم الله الاعظم وقيل هو اسم السورة وقيل قسم أقسم الله به وعن الكلبى هو ثناء أثنى الله به على نفسه ومنه معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق ايديهم عالم ببريته صادق فى وعده وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم والصاد من صادق وقيل انه من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه وقد تقدم الكلام على

التصريح وفى القصص بكناية مبهمة لدلالة ذلك الكناية على ما زاد قوله اذ اوحينا الى امك ما يوحى) ان قلت هذا مجمل فما فائدته (قلت) فائدته الاشارة الى انه ليس كل الامور مما

ذلك فى اول سورة البقرة وقرأ نافع بامالة الهاء والياء بين بين وأمالهما محضة شعبة والكسائى وأمال الهاء محضة أبو عمرو وابن عامر وحمزة وللسوسى فى الياء خلاف فى الامالة محضة والفتح والباقون وهم ابن كثير وحفص بفتحهما بلا خلاف ولجميع القراء فى العين المد والتوسط وقوله تعالى (ذكر) مبتدأ محذوف الخبر تقديره مما يتلى عليكم ذكر أو خبر محذوف المبتدا تقديره المتلو ذكر أو هذا ذكر (رحمت ربك) وقوله تعالى (عبده) مفعول رحمة لانها مصدر بنى على التاء لانها دالة على الوحدة ورسمت بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ووقف بالتاء على الرسم الباقون وقوله تعالى (زكريا) بيان له (تنبيه) اعلم انه تعالى ذكر فى هذه السورة قصص جملة من الانبياء الاولى هذه القصة وهى قصة زكريا فيحتمل أن المراد من قوله تعالى رحمة ربك أنه عنى عبده زكريا ثم فى كونه رحمة وجهان أحدهما انه يكون رحمة على أمته لانه هداهم الى الايمان والطاعة والثانى أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى لما شرع له صلى الله عليه وسلم طريقته فى الاخلاص والابتهال فى جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لطفا داعيا له ولامته الى تلك الطريقة فكان زكريا رحمة ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التى رحم بها عبده زكريا (اذ نادى ربه نداء) مشتملا على دعاء (خفيا) اى سرا جوف الليل لانه أسرع الى الاجابة وان كان الجهر والاخفاء عند الله سيان ٣ وقيل اخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى زمن الشيخوخة وقيل أسره من مواليه الذين خافهم وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء فى صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات (فان قيل) من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيا (أجيب) بوجهين الاول انه أتى باقصى ما قدر عليه من رفع الصوت الا ان صوته كان ضعيفا لنهاية ضعفه بسبب الكبر فكان نداء نظرا الى القصد خفيا نظرا الى الواقع الثانى أنه دعا فى الصلاة لان الله تعالى أجابه فى الصلاة لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك وكون الاجابة فى الصلاة يدل على كون الدعاء فيها فيكون النداء فيها اخفاء (تنبيه) فى ناصب اذ ثلاثة أوجه أحدها انه ذكر ولم يذكر الحوفى غيره والثانى رحمة ولم يذكر الجلال المحلى غيره وذكر الوجهين أبو البقاء والثالث أنه بدل من زكريا بدل اشتمال لان الوقت مشتمل عليه ثم كأنه قيل ماذا قال النداء فقيل (قال رب) بحذف الاداة للدلالة على غاية القرب (انى وهن) اى ضعف جدا (العظم منى) اى هذا الجنس الذى هو اقوى ما فى بدنى ولو جمع لاوهم انه وهن مجموع عظامه لا جميعها وقوله (واشتعل الرأس) اى منى (شيبا) تمييز محول عن الفاعل اى انتشر الشيب فى شعره كما ينتشر شعاع النار فى الحطب وانى اريد ان ادعوك (ولم اكن بدعائك) اى بدعائى اياك (رب شقيا) اى خائبا فيما مضى فلا تخيبنى فيما يأتى وان كان ما ادعو به فى غاية البعد فى العادة لكنك فعلت مع ابى ابراهيم مثله فهو دعاء وشكر واستعطاف ثم عطف على قوله انى وهن قوله (وانى خفت الموالى) اى الذين يلوننى فى النسب كبنى العم أن يسيئوا الخلافة (من ورائى) أى فى بعض الزمان الذى بعدى (وكانت امرأتى عاقرا) لا تلد أصلا بما دل عليه فعل الكون

وهى الى النساء كالنبوة ونحوها او التعظيم والتفخيم آولا كما فى قوله فغشاها ما غشى والبيان ثانيا كقوله تعالى ان الله فيه الآية (قوله ثم رجعنا الى من) كذا هنا بلفظ الرجع وقال

٣ قوله سيان هكذا بالاصول ولعله على لغة من يلزم المثنى الالف أو يجعل كان شانية والجملة خبرها اه مصححه

(فهب لى) اى فتسبب عن شيخوختى وضعفى وتعويدك لى بالاجابة وخوفى من سوء خلافة أقاربى ويأسى عن الولد عادة بعقم امرأتى وبلوغى من الكبر حد الاسر الذى معه أنى أقول لك يا قادرا على كل شئ هب لى (من لدنك) اى من الامور المستبطنة المستغربة التى عندك لم تجرها على مناهج العادات والاسباب المطردات (وليا) اى ابنا من صلبى (يرثنى) فى جميع ما أنا فيه من العلم والنبوة والعمل (ويرث) زيادة على ذلك (من آل يعقوب) جدّ أمّنا خصصتهم به من المنح وفضلتهم به من النعم ومحاسن الاخلاق ومعالى الشيم فان الانبياء لا يورثون المال وقيل يرثنى الحبورة أى العلم بتحبير الكلام وتحسينه فانه كان حبرا هو بالفتح والكسر وهو أفصح يقال للعالم بتحبير الكلام وتحسينه وهو يعقوب بن اسحق عليهما السلام وقيل يرثنى العلم ويرث من آل يعقوب النبوة ولفظ الارث يستعمل فى المال وفى العلم والنبوة أما فى المال فلقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأما فى النبوة فلقوله تعالى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب الآية وقال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء ولان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وخص اسم يعقوب اقتداء به نفسه اذ قال ليوسف عليه السلام ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ولان اسرائيل قد صار علما على الاسباط كلهم وكانت قد غلبت عليهم الاحداث وقرأ أبو عمرو والكسائى بجزم الثاء المثلثة فيهما على أنهما جواب الامر اذ تقديرهما ان تهب يرث والباقون بالضم فيهما على انهما صفة (واعترض) بان زكريا دعا الله تعالى ان يهبه ولدا يرثه مع أن يحيى قتل قبله فلم يجبه الى ارثه منه (وأجيب) بان اجابة دعاء الانبياء غالبة لا لازمة فقد يتخلف لقضاء الله تعالى بخلافه كما فى دعاء ابراهيم عليه السلام فى حق أبيه وكما فى دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله وسألته ان لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها ولما كان من قضاء الله تعالى وقدره أن يوجد يحيى نبيا صالحا ثم يقتل استجيب دعاء زكريا فى ايجاده دون ارثه ٭ ولما ختم دعاءه بقوله (واجعله رب) اى ايها المحسن الى (رضيا) اى مرضيا عندك اجابه الله تعالى بقوله تعالى (يا زكريا انا نبشرك بغلام) يرث كما سألت ثم (اسمه يحيى) وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة وكذلك فى آخر السورة ٭ (تنبيه) ٭ يحيى اسم اعجمى ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وقيل منقول من الفعل المضارع كما سموا بيعمر وانما تولى تعالى تسميته تشريفا له قال تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) اى مسمى بيحيى قال قتادة والكلبى لم يسم احد قبله بيحيى ٭ (تنبيه) ٭ سميا مأخوذ من السمو وفيه دلالة لقول البصريين ان الاسم من السمو ولو كان من الوسم لقيل وسميا وقال سعيد بن جبير وعطاء لم نجعل له شبيها ومثلا كما قال تعالى هل تعلم له سميا اى مثلا والمعنى انه لم يكن له مثل لانه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وردّ هذا لان هذا يقتضى تفضيله على الانبياء قبله كابراهيم وموسى وليس كذلك وقيل لم يكن له ميل الى أمر النساء لانه كان سيدا وحصورا وعن ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولدا ثم كأنه قيل فما قال فى جواب هذه البشارة العظيمة فقيل (قال) عالما بصدقها طالبا لتأكيدها والتلذذ بترديدها بهل ذلك من امرأته

قوله فرددناه بلفظ الرد فى القصص فرددناه بلفظ الرد لانهما وان اتحدا معنى لكن خص الرجع بما هنا لتقاوم ثقل الرجع خفة قصة الكاف والرد بالقصص لتقاوم خفة الرد ثقل ضمة الهاء وليوافق قوله انا رادوه

قوله يرث كما سألت هذا يناقض ما قدمه من أنه لم يجب الى ارثه لتخلفه بكونه قتل قبل والده وعبارة العلامة الجلال قوله يرث كما سألت قد يستشكل بانه سال ولدا يرث منه ولم يفعل ذلك لقتل يحيى فى حياة زكريا والجواب ان المراد وراثة العلم والنبوة ولو فى حياة زكريا ثم ذكر الجواب الذى تقدم فى الشرح اه

او من غيرها وهل اذا كان منها يكونان على حالتهما من الكبر او غيرها غيرها انتش ولا بعل (رب) أيها المحسن الى باجابة الدعاء دائما (أنى) اى من أين وكيف وعلى أى حال (يكون لى غلام) يولد لى فى غاية القوة والنشاط والكمال فى الذكورة (وكانت) اى والحال انه كانت (امرأتى) اذ كانت شابة (عاقرا) غير قابلة للولد وأنا وهى شابان فلم يأتنا ولد لاختلال أحد السببين فكيف بها وقد أيست قال الجلال المحلى بلغت ثمانا وتسعين سنة (وقد بلغت) انا (من الكبر عتيا) من عتا يبس أى نهاية السن قال الجلال المحلى مائة وعشرين سنة وبما تقرر سقط ما قيل لم تعجب زكريا عليه السلام بقوله أنى يكون لى غلام مع أنه هو الذى طلب الغلام وقرأ حفص وحمزة والكسائى عتيا وصليا وجثيا بكسر عين الاول وصاد الثانى وجيم الثالث وضم الباقون وأما بكيا فكسر الباء الموحدة حمزة والكسائى وضمها الباقون وأصل عتى عتوو كسرت التاء تخفيفا وقلبت الواو الاولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغم فيها وانما استعجب للولد من شيخ فان وعجوز عاقر اعترافا بان المؤثر فيه كمال القدرة وان الوسائط عند المحققين ملغاة ولذلك (قال) اى الله تعالى كما قال الاكثر وذلك لان زكريا انما كان يخاطب الله ويسأله بقوله رب انى وهن العظم منى أو الملك المبلغ للبشارة تصديقا له لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى وأيضا فانه لما قال وقد بلغت من الكبر عتيا قال (كذلك) اى الامر كذلك فهو خبر مبتدا محذوف ثم علله بقوله (قال ربك) اى الذى عودك بالاحسان فدل ذلك على أنه كلام الملك قال ابن عادل ويمكن أن يجاب بانه يحتمل أن يحصل النداآن نداء الله تعالى ونداء الملك ثم ذكر مقول القول فقال (هو) اى خلق يحيى منكما على هذه الحالة (على) اى خاصة (هين) اى بان أرد عليك قوة الجماع وافتق رحم امرأتك للعلوق (وقد خلقتك) اى قدرتك وصورتك وأوجدتك (من قبل ولم) اى والحال أنك لم (تك شيأ) بل كنت معدوما صرفا وفيه دليل على ان المعدوم ليس بشئ ولاظهار الله تعالى هذه القدرة العظيمة ألهمه السؤال ليجاب بما يدل عليها وقرأ حمزة والكسائى بعد القاف بنون بعدها الف والباقون بعد القاف بتاء مضمومة ولما تاقت نفسه الى سرعة المبشر به (قال رب اجعل لى) على ذلك (آية) اى علامة تدلنى على وقوعه (قال آيتك) على وقوع ذلك (الا تكلم الناس) اى لا تقدر على كلامهم بخلاف ذكر الله تعالى (ثلاث ليال) اى بأيامها كما فى آل عمران ثلاثة أيام حال كونك (سويا) من غير خرس ولا مرض وجعلت الآية الدالة عليه سكوت ثلاثة ايام ولياليهن من غير ذكر الله دلالة على اخلاصه وانقطاعه بكليته الى الله تعالى دون غيره (فخرج) عقب اعلام الله تعالى له بهذا (على قومه من المحراب) اى من المسجد وهم ينتظرونه أن يفتح لهم الباب متغيرا لونه فانكروه وهو منطلق اللسان بذكر الله تعالى منحبس عن كلام الناس فقالوا مالك (فاوحى اليهم) اى اشار بشفتيه من غير نطق وقال مجاهد كتب لهم فى الارض (ان سبحوا) اى اوجدوا التنزيه والتقديس لله تعالى بالصلاة وغيرها (بكرة وعشيا) اى أوائل النهار وأواخره على العادة فلم يمنعه من كلامهم حمل امرأته بيحيى قال الجلال المحلى وبعد ولادته بسنتين قال الله

(قوله وسلك لكم فيها سبلا) قاله هنا بلفظ سلك وقاله فى الزخرف بلفظ جعل لان لفظ السلوك مع السبل اكثر استعمالا من جعل فخص به طه لتقدمها

تعالى له (يا يحيى خذ الكتاب) ى التوراة (بقوة) اى بجد ثم ان الله تعالى وصفه بصفات * الاولى قوله تعالى (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس النبوة (صبيا) قال الجلال المحلى تبعا للبغوى ابن ثلاث سنين اى أحكم الله عقله فى صباه واستنبأه وقيل المراد بالحكم الحكمة وفهم التوراة فقرأ التوراة وهو صغير قال البغوى وعن بعض السلف من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتى الحكم صبيا * الصفة الثانية قوله تعالى (وحنانا) اى وآتيناه رحمة وهيبة ووقارا ورقة قلب ورزقا وبركة (من لدنا) اى من عندنا بلا واسطة تعليم ولا تجربة * الصفة الثالثة قوله تعالى (وزكاة) اى وآتيناه طهارة فى دينه قال ابن عباس يعنى بالزكاة الطاعة والاخلاص وقال قتادة هى العمل الصالح وقال الكلبى يعنى صدقة تصدق الله بها على أبويه * الصفة الرابعة قوله تعالى (وكان) اى بجبلته وطبعه (تقيا) اى مخلصا مطيعا وروى أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها * الصفة الخامسة قوله تعالى (وبرا بوالديه) اى بارا لطيفا بهما محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا * الصفة السادسة قوله تعالى (ولم يكن جبارا) اى متكبرا والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان رأس العبادة معرفة الانسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به التكبر والترفع ولذلك لما تجبر ابليس وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن المؤمنين وقيل الجبار هو الذى لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من التعظيم والذهاب بنفسه من أنه لا يلزمه قضاء حق لاحد وقيل هو كل من عاقب على غضب نفسه * الصفة السابعة قوله تعالى (عصيا) أى عاقا أو عاصى ربه وهو أبلغ من العاصى كما أن العليم أبلغ من العالم * الصفة الثامنة قوله تعالى (وسلام عليه) منا (يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) * فان قيل لم خص هذه الاوقات الثلاثة (أجيب) بوجوه الاول قال محمد بن جرير الطبرى وسلام عليه يوم ولد أى أمان من الله تعالى عليه يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم ويوم يموت أى أمان من الله من عذاب القبر ويوم يبعث أى ومن عذاب الله يوم القيامة الثانى قال ابن عيينة أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت يرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث فيرى فى محشر عظيم فاكرم الله تعالى يحيى عليه السلام فخصه بالسلام فى هذه المواطن الثالث قال عبد الله بن نفطويه وسلام عليه يوم ولد أى أول ما يرى فى الدنيا ويوم يموت أى أول يوم يرى فيه أمر الآخرة ويوم يبعث حيا أى أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة وانما قال حيا تنبيها على كونه من الشهداء لانه قتل وقد قال تعالى أحياء عند ربهم يرزقون * (فروع) * الاول هذا السلام يمكن أن يكون من الله وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين ففيه دلالة على تشريفه لان الملائكة لا يسلمون الا عن أمر الله تعالى * الثانى ليحيى مزية فى هذا السلام على ما لسائر الانبياء كقوله تعالى سلام على نوح سلام على ابراهيم لانه تعالى قال يوم ولد وليس

وجمل الزخرف ليوافق التعبير به قبل مرة وبعد مرارا (قوله قالوا آمنا برب هرون وموسى) أخر موسى عن هرون مع ان هرون كان وزيرا له لموافقة الفواصل (قوله لا يموت

كذلك سائر الانبياء الثالث روى ان عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام أنت أفضل
منى لان الله تعالى قال سلام عليه وأنا سلمت على نفسى قال الرازى وهذا ليس بقوى لان سلام
عيسى على نفسه يجرى مجرى سلام الله تعالى على يحيى لان عيسى معصوم لا يفعل الا ما أمر
الله تعالى انتهى ولكن بين السلامين مزية *(تنبيه)* هذه القصة قد ذكرت فى آل عمران
بقوله تعالى كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا الى أن قال هنالك دعا زكريا ربه
قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم لان زكريا
عليه السلام لما رأى خرق العادة فى حق مريم طمع فى حق نفسه فدعا وقد وقعت المخالفة فى
ذكرما هنا وهنالك فى الالفاظ من وجوه الاول منها ان الله تعالى صرح فى آل عمران بان
المنادى هو الملائكة بقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب وفى هذه السورة
الاكثر على أن المنادى بقوله تعالى يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى هو الله تعالى
(وأجيب) بان الله تعالى هو المبشر سواء كان بواسطة أم لا الثانى انه قال تعالى فى آل عمران
أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر فذكر أولا كبر سنه ثم عقر امرأته وفى هذه
السورة قال أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا وأجيب بان
الواو لا تقتضى الترتيب الثالث قال فى آل عمران وقد بلغنى الكبر وقال هنا وقد بلغت من
الكبر عتيا وأجيب بان ما بلغك فقد بلغته الرابع قال فى آل عمران آيتك ألا تكلم الناس
ثلاثة أيام الا رمزا وقال هنا ثلاث ليال سويا وأجيب بأن الآيتين دلتا على ان المراد ثلاثة
أيام بلياليهن كامر * القصة الثانية قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام ولما كانت قصة
عيسى عليه السلام أغرب من قصة يحيى لان خلق الولد من شخصين فانيين أقرب الى مناهج
العادات من خلق الولد لامن أب البتة وأحسن طرق التعليم والفهم الاخذ من الاقرب
فالاقرب مرتقيا الى الاصعب فالاصعب أشار الى ذلك بتغيير السياق فقال عاطفا على ما تقديره
اذكر هذا لهم (واذكر) بلفظ الامر (فى الكتاب) أى القرآن (مريم) أى قصتها وهى ابنة عمران
خالة يحيى كما فى الصحيح من حديث أنس بن مالك بن صعصعة الانصارى فى حديث الاسراء فلما
خلصت فاذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة ثم أبدل من مريم بدل اشتمال فقال (اذ) أى اذكر
ما اتفق لها حين (انتبذت) أى كلفت نفسها أن اعتزلت وانفردت (من أهلها) حالة (مكانا
شرقيا) أى شرقى بيت المقدس وقال الرازى شرقى دارها وعن ابن عباس انى لاعلم خلق الله
تعالى لاى شئ اتخذت النصارى الشرق قبلة لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذت ميلاد عيسى
قبلة واقتصر الجلال المحلى على الشرق من الدار وتردد البيضاوى بينهما فقال شرقى بيت
المقدس أو شرقى دارها انتهى ويحتمل أن يكون شرقى بيت المقدس هو شرقى دارها فلا
مخالفة (فاتخذت) أى اخذت بقصد وتكلف ودل على قرب المكان بالاتيان بالجار فقال (من
دونهم) اى أدنى مكان من مكانهم (حجابا) اى أرسلت سترا تستتر به لغرض صحيح وليس
بمذكور واختلف المفسرون فيه على وجوه أحدها أنها طلبت الخلوة كيلا تشتغل عن
العبادة ثانيها انها عطشت فخرجت الى المفازة تستقى ثالثها انها كانت فى منزل زوج اختها

قوله (ولا يحيى) أى لا يموت
فيها موتا متصلا ولا يحيى
حياة متصلة بل كلما مات
فى شدة العذاب اعيد حيا
لدوم العذاب وانما قرر
ذلك لان الموت والحياة

زكريا

زكريا وفيه محراب على حدة تسكنه وكان زكريا اذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت ان تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفجرت لها الشمس فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك كما قال تعالى (فأرسلنا) لأمر يدل على عظمتنا (اليها روحنا) اى جبريل عليه السلام ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب لئلا يشتبه عليها الامر فتقتل نفسها غما (فتمثل لها) اى تشبح بشين معجمة ثم باء موحدة ثم حاء مهملة وهو روحاني بصورة الجسماني (بشرا سويا) في خلقه حسن الشكل رابعها أنها قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشئ يسترها وكانت تتحول من المسجد الى بيت خالتها اذا حاضت وتعود اليه اذا طهرت فبينما هي في مغتسلها أتاها جبريل بعد لبسها ثيابها متمثلا بصورة شاب أمرد سوى الخلق تستأنس بكلامه اذ لو أتاها في الصورة الملكية لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه قال البيضاوي ولعله لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها اى مع أمنها الفتنة لعفتها قال الرازي وكل هذه الوجوه محتملة وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها ولما رأت مريم جبريل نحوها (قالت اني أعوذ) اى أعتصم (بالرحمن) ربي الذي رحمته عامة لجميع خلقه (منك) اى أن تقربني وفتح ياء اني نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد لما تفرست فيه بما أنارالله تعالى من بصيرتها وأصفى من سريرتها التقوى قالت (ان كنت تقيا) اى مؤمنا مطيعا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله اى فاني عائذة منك أو نحو ذلك دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها (فان قيل) انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت تقيا (أجيب) بان هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمني اى ينبغي أن يكون ايمانك مانعا لك من الظلم كذلك هنا ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور وهذا في نهاية الحسن لانها علمت أنها لا تؤثر الاستعاذة الا في التقي وهو كقوله تعالى وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين اى ان شرط الايمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال وقيل كان في ذلك الزمان انسان فاجر يتبع النساء اسمه تقي فظنت مريم ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك فاستعاذت منه قال الرازي والاول هو الوجه ولما علم جبريل عليه الصلاة والسلام خوفها (قال) مجيبا لها بما معناه انك لست ممن تخشين أن يكون منهم امؤ كدا لاجل استعاذتها (انما أنا رسول ربك) اى الذي عذت به فأنا لست متهما بل متصف بما ذكرت وزيادة الرسالة وعبر باسم الرب المقتضي للاحسان لطفا بها ولان هذه السورة متصدرة بالرحمة ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده وقوله (لأهب لك) قرأ ورش وأبو عمرو وقالون بخلاف عنه بالياء اى ليهب الله تعالى لك وقرأ الباقون بالهمز أي لاهب انا لك وفي مجازه وجهان الاول أن الهبة لما جرت على يديه بان كان هو الذي ينفخ في جيبها بامر الله تعالى جعل نفسه كانه هو الذي وهب لها واضافة الفعل الى من هو سبب مستعمل قال الله تعالى في الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس الثاني أن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة ثم بين الموهوب بقوله (غلاما) اى ولدا ذكرا في غاية القوة والرجولية ثم وصفه بقوله (زكيا) اى نبيا طاهرا من كل ما يدنس البشر ناميا على الخير والبركة (قالت) مريم (أنى) أى من أين

لايخفى ان الشخص

(قوله لا تخاف دركا ولا تخشى) اى لا تخاف ادراك فرعون ولا تخشى غرقا في البحر والا فالخوف والخشية مترادفان وغاير بينهما لفظا

وكيف (يكون لى غلام) اى (ولم يمسسنى بشر) بنكاح (ولم اك بغيا) أى زانية فتعجبت مما بشرها به جبريل عليه السلام لانها قد عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون الا من رجل والعادة عند أهل المعرفة معتبرة فى الامور وان جوزوا خلاف ذلك فى القدرة فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة للعبادة ومن يكون كذلك لابد أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك وبما تقرر سقط ما قيل قولها ولم يمسسنى بشر يدخل تحته قولها ولم أك بغيا ولهذا اقتصر عليه فى سورة آل عمران بقولها قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر فلم تذكر البغى ويجوز أن يقال انها أفردت ذكر البغى مع دخوله فى الكلام الاول لانه أعظم ما فى بابه فهو نظير قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال (قال) لها جبريل عليه السلام الامر (كذلك) من خلق غلام منك بغير أب ولما كان لسان الحال قائلا كيف يكون بغير سبب أجاب جبريل بقوله (قال ربك هو) أى المذكور وهو ايجاد الولد على هذه الهيئة (على) وحدى لا يقدر عليه غيرى (هين) أى بان ينفخ بامرى جبريل فيك فتحملى به ولنكون ما ذكر فى معنى العلة عطف عليه (ولنجعله) بما لنا من العظمة (آية للناس) أى علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية فى يحيى عليه السلام وبه تمام القسمة الرباعية فى خلق البشر فانه أوجده من أنثى بلا ذكر وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم عليه السلام لا من ذكر ولا أنثى وبقية أولاده من ذكر وأنثى معا (ورحمة منا) على العباد يهتدون به (وكان) ذلك كله (أمرا مقضيا) به فى علمى وقوله تعالى (فحملته) فيه حذف تقديره فنفخنا فيها فحملته دل على ذلك قوله تعالى فى سورة التحريم ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا واختلف فى النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لهذه الآية ولانه تعالى قال ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الا فيما أخرجه الدليل وفى حق آدم النافخ هو الله تعالى قال تعالى فنفخت فيه من روحى فكذا ههنا وقال بعضهم النافخ جبريل لان الظاهر من قول جبريل عليه السلام لاهب لك على أحد القراءتين أنه النافخ واختلف فى كيفية نفخه فقيل ان جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ فى جيبها فحملت حين لبسته وقيل مد الى جيب درعها أصابعه ونفخ فى الجيب وقيل نفخ فى كم قميصها وقيل فى فيها وقيل نفخ جبريل نفخا من بعيد فوصل النفخ اليها فحملت بعيسى فى الحال وقيل نفخ فى ذيلها فدخلت النفخة فى صدرها فحملت فجاءت أختها امرأة زكريا تزورها فلما التزمتها عرفت أنها حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا انى وجدت ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وقيل حملت وهى بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل قال الرازى وليس فى القرآن ما يدل على شئ من هذه الاقوال المذكورة * ثم عقب بالحمل قوله (فانتبذت به) أى فاعتزلت به وهو فى بطنها حالة (مكانا قصيا) أى بعيدا من أهلها أو من المكان الشرقى وأشار الى قرب الولادة من الحمل بفاء التعقيب فى قوله (فأجاءها) أى فألجأها وأجاءها (المخاض) وهو تحرك الولد فى بطنها للولادة

رعاية البلاغة (قوله واضل فرعون قومه وما هدى) ان قلت مصدره يغنى عن عجزه فكيف ذكر العجز (قلت) المعنى وما هداهم بعد ما اضلهم فان المضل قد يهدى بعد اضلاله او ما هدى

(الى جذع النخلة) وهو ما برز منها من الارض ولم يبلغ الاغصان وكان تعريفه لانه لم يكن في تلك البلاد الباردة غيرها فكانت كالعلم لما فيها من العجب لان النخل من أقل الاشجار صبرا على البرد ولعلها ألجئت اليها دون غيرها من الاشجار على كثرتها لمناسبة حال النخلة لها لانها لا تحمل الا بالالقاح من ذكر النخل فحملها بمجرد هزها أنسب شئ باتيانها بولد من غير والد فكيف اذا كان ذلك في غير وقته وكانت يابسة مع ما لها فيها من المنافع بالاستناد اليها والاعتماد عليها وكون رطبها خرسة للنفساء وغاية في نفعها وغير ذلك والخرسة بخاء معجمة مضمومة طعام النفساء وهو مراد الجوهري بقوله طعام الولادة قال ابن عباس الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر النساء وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى له لانه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولد لستة أشهر ولما كان ذلك أمرا صعبا عليها جدا كان كأنه قيل يا ليت شعري ما كان حالها فقيل (قالت) لما حصل عندها من خوف العار (يا ليتني مت) وأشارت الى استغراق الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جار (قبل هذا) اى الامر العظيم وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي مت بكسر الميم والباقون بالضم (وكنت نسيا) اى شيأ من شأنه أن يطرح وينسى (منسيا) اى متروكا بالفعل لا يخطر على بال (فان قيل) لم قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ان الله تعالى بعث جبريل عليه السلام اليها ووعدها بان يجعلها وولدها آية للعالمين (أجيب) عن ذلك باجوبة الاول أنها تمنت ذلك استحياء من الناس فانساها الاستحياء بشارة الملائكة بعيسى الثاني أن عادة الصالحين اذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك كما روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه نظر الى طائر على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر وددت أني ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر رضي الله عنه أنه اخذ تبنة من الارض فقال يا ليتني هذه التبنة ولم اكن شيأ وعن علي رضي الله عنه يوم الجمل ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالا لم تلده امه فثبت ان هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الامر عليهم الثالث لعلها قالت ذلك لئلا يقع في المعصية من يتكلم فيها والا فهي راضية بما بشرت به وقرأ حفص وحمزة نسيا بفتح النون والباقون بالكسر وقوله تعالى (فناداها من تحتها) قرأه نافع وحفص وحمزة بكسر من وجر التاء من تحتها والباقون بفتح من ونصب تحتها وأمال الف ناداها حمزة والكسائي امالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وفي المنادي اوجه احدها انه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ثانيها انه جبريل عليه السلام وانه كالقابلة للولد ثالثها ان المنادي على القراءة بالفتح هو عيسى وعلى القراءة بالكسر هو جبريل وهو مروي عن ابن عيينة وعاصم قال الرازي والاول اقرب وصدر به البيضاوي واقتصر الجلال المحلي على الثاني والمعنى على الاول ان الله تعالى انطقه لها حين ولدته تطييبا لقلبها وازالة للوحشة عنها حتى تشاهد في اول الامر ما بشرها به جبريل من علو شأن ذلك الولد وعلى الثاني ان الله تعالى ارسله اليها ليناديها بهذه الكلمات كما ارسل اليها في اول الامر تذكيرا للبشارات المتقدمة والضمير في تحتها للسيدة مريم وعلى تقدير ان يكون المنادي هو

قوله اواضلهم عن الدين نفسه وما هداهم طريقا في البحر (قوله يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن) وان قلت المواعدة انما كانت لموسى عليه

عيسى فهو ظاهر وان كان جبريل فقيل انه كان تحتها يقبل الولد كالقابلة وقيل تحتها اسفل من مكانها وقيل الضمير فيه للنخلة اى ناداها من تحتها (أن لا تحزنى) يجوز فى أن ان تكون مفسرة لتقدمها ما هو بمعنى القول ولا على هذا ناهية وحذف النون للجزم وأن تكون الناصبة ولا حينئذ نافية وحذف النون للنصب ومحل أن اما نصب او جر لانها على حذف حرف الجر أى فناداها بكذا (قد جعل ربك) اى المحسن اليك (تحتك) فى هذه الارض التى لاماء جار فيها (سريا) اى جدولا من الماء تطيب به نفسك قال الرازى اتفق المفسرون الا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السرى هو النهر والجدول سمى بذلك لان الماء يسرى فيه واما الحسن وابن زيد فانهما جعلا السرى هو عيسى والسرى هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه اى اشرافهم واحتج من قال هو النهر بان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن السرى فقال هو الجدول وبقوله تعالى فكلى واشربى فدل على أنه النهر حتى يضاف الماء الى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من قال انه عيسى بان النهر لا يكون تحتها بل الى جنبها ولا يجوز أن يجاب عنه بان المراد انه جعل النهر تحت أمرها يجرى بامرها ويقف بامرها كقول فرعون وهذه الانهار تجرى من تحتى لان هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى لم يحتج الى هذا المجاز وأيضا فانه موافق لقوله وجعلنا ابن مريم وأمه آية (وأجيب) بان المكان المستوى اذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت

(تنبيه) اذا قيل بان السرى هو النهر ففيه وجهان الاول قال ابن عباس ان جبريل ضرب برجله الارض وقيل عيسى فظهر عين ماء عذب وجرى وقيل كان هناك ماء جار قال ابن عادل والاول أقرب لان قوله قد جعل ربك تحتك سريا يدل على الحدوث فى ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشأنها وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله فيه الماء وحييت النخلة اليابسة وأورقت وأثمرت وأرطبت قال أبو عبيدة والفراء السرى هو النهر مطلقا وقال الاخفش هو النهر الصغير (وهزى اليك) اى أوقعى الهز وهو جذب بتحريك (بجذع النخلة) اى التى انت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها (تساقط عليك) من أعلاها (رطبا جنيا) طريا آية أخرى عظيمة روى أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل الله تعالى لها رأسا وخوصا ورطبا وقرأ حمزة بفتح التاء والسين مخففة وفتح القاف وحفص بضم التاء وفتح السين مخففة وكسر القاف والباقون بفتح التاء وتشديد السين مفتوحة وفتح القاف *(تنبيه)* الباء فى بجذع زائدة والمعنى هزى اليك جذع النخلة كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة وقال الاخفش يجوز أن يكون على معنى هزى اليك رطبا بجذع النخلة اى على جذعها ورطبا تمييز وجنيا صفته والرطب اسم جنس لرطبة بخلاف تخم فانه جمع لتخمة والفرق أنهم التزموا تذكيره فقالوا هو الرطب وتأنيث ذلك فقالوا هى التخم فذكروا الرطب باعتبار الجنس وأنثوا التخم باعتبار الجمعية قال ابن عادل وهو فرق لطيف والرطب ما قطع قبل يبسه وجفافه وخص الرطب بالذكر قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل وهذه الافعال الخارقة للعادة كرامات

السلام لالهم فكيف اضيفت اليهم (قلت) لما كانت لانزال كتاب بلا بسم اذ فيه صلاح دنياهم واخراهم اضيفت اليهم (قوله وما لهذه الآية) أعجلك عن قومك ياموسى)

لمريم أو ارهاص لعيسى وفي ذلك تنبيه على أن من قدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر أن يحبلها من غير فحل وتطييب لنفسها فلذلك قال (فكلي) اي من الرطب (واشربي) من السرى أو كلي من الرطب واشربي من عصيره (وقري عينا) اي وطيبي نفسك وارفضي عنها ما أحزنها وقدم الاكل على الشرب لان حاجة النفساء الى الرطب أشد من احتياجها الى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدم (فان قيل) ان مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش لان الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن روى انه أجيعت شاة فقدم اليها علف وعندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها خوفا من الذئب ثم كسر رجلها وقدم اليها العلف فتناولت العلف مع ألم البدن فدل ذلك على ان ألم الخوف أشد من ألم البدن واذا كان كذلك فلم قدم ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف (أجيب) بان هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج الا الى التذكير مرة أخرى وقيل قري عينا بولدك عيسى وقيل بالنوم فان المهموم لا ينام وقوله (فاما) فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة (ترين) حذفت منه لام الفعل وعينه وألقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين (من البشر أحدا) ينكر عليك (فقولي) يا مريم لذلك المنكر جوابا له مع التأكيد تنبيها على البراءة لان البرىء يكون ساكتا لاطمئنانه والمرتاب يكثر كلامه وحلفه (اني نذرت للرحمن) اي الذي عمت رحمته (صوما) اى اى امساكا عن الكلام في شأنه وغيره مع الاناسي بدليل (فلن أكلم اليوم انسيا) فان كلامي يقبل الرد والمجادلة ولكن يتكلم عني المولود الذي كلامه لا يقبل الدفع وأما أنا فانزه نفسي عن مجادلة السفهاء قالوا ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها فلا أكلم الا الملائكة أو الخالق بالتسبيح والتقديس وسائر أنواع الذكر وقيل صياما لانهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزا في شرعهم وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا قال القفال لعله يجوز لان الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر بذكر الله تعالى قربة ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس وروى أنه دخل أبو بكر رضي الله عنه على امرأة قد نذرت أن لا تتكلم فقال أبو بكر ان الاسلام قد هدم هذا فتكلمي *(تنبيه)* اختلفوا في أنها هل قالت لهم اني نذرت للرحمن صوما فقال قوم انها ما تكلمت معهم بذلك لانها كانت مأمورة بانها تأتي بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها سكتت وأشارت برأسها وقال آخرون انها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم انها نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا بعد هذا الكلام (فأتت) اى فلما سمعت هذا الكلام اشتد قلبها وزال حزنها فأتت (به) أي عيسى (قومها) وان كان فيهم قوة المحاولة لكل ما يريدون اتيان البرىء الموقن بان الله معه حالة كونها (تحمله) غير مبالية بأحد ولا مستحيية واختلفوا في أنها كيف أتت به فقيل ولدته ثم حملته في الحال الى قومها وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها الى غار ومكثت فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته الى قومها فكلمها في الطريق

الآية (ان قلت) هذا سؤال عن سبب العجلة فان موسى لما واعده الله تعالى حضور جانب الطور لأخذ التوراة اختار من قومه سبعين رجلا يصحبونه الى ذلك ثم سبقهم شوقا الى ربه تعالى

فقال يا أماه أبشري فاني عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين قال الرازي وليس في القرآن ما يدل على التعيين ثم كأنه قيل فلما أتت به قومها ماذا قالوا لها فقيل (قالوا يا مريم) ما هذا الولد لان حالها في اتيانها به أمر عجيب (لقد جئت شيأ فريا) اي عظيما منكرا فيكون ذلك منهم على وجه الذم فهو من أفرى الجلد يقال أفريت الاديم اذا قطعته على جهة الافساد لا من فريته يقال فريته قطعته على جهة الاصلاح ويدل على أن مرادهم الاول قولهم بعده (يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء) اي زانيا (وما كانت أمك بغيا) اي زانية فمن أين لك هذا الولد لان هذا القول ظاهره التوبيخ وفي هرون هذا أربعة أقوال أحدها انه رجل صالح من بني اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح والمراد انك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا وروى أن هرون هذا لما مات تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمى هرون من بني اسرائيل تبركا باسمه سوى سائر الناس شبهوها به على معنى انا ظننا أنك مثله في الصلاح وليس المراد منه الاخوة في النسب كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وروى المغيرة بن شعبة قال لما قدمت نجران سألوني فقالوا انكم تقرؤن يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون بانبيائهم والصالحين قبلهم قال ابن كثير وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهرون نسبا فان بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على من عنده أدنى علم وكأنه غره في أول التوراة ان مريم أخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم نجى الله تعالى موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه وجنوده فاعتقد أن هذه هي تلك وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح المتقدم الثاني أنه هرون أخو موسى لانها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم وللهمداني يا أخا همدان اي يا واحدا منهم الثالث انه كان فاسقا في بني اسرائيل فنسبت اليه اي شبهوها به الرابع انه كان لها أخ من أبيها يسمى هرون من صلحاء بني اسرائيل فعيرت به قال الرازي وهذا هو الاقرب لوجهين الاول ان الاصل في الكلام الحقيقة فيحمل الكلام على أخيها المسمى بهرون الثاني انها أضيفت اليه ووصف أبواها بالصلاح فحينئذ يصير التوبيخ أشد لان من كان حال أبويه وأخيه بهذا الحال يكون صدور الذنب منه أفحش (فأشارت اليه) اي لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت الى عيسى عليه السلام انه هو الذي يجيبكم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة أشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وعن السدي لما أشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا أشد من زناها ثم (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) لم يبلغ سن هذا الكلام الذي لا يقوله الا الاكابر العقلاء بل الانبياء والتعبير بكان يدل على انه عند الاشارة اليه لم يتوجهوا الى أن يكلموه بل حين سمع المحاورة ورأى الاشارة بدا منه قول خارق لعادة الرضعاء بل الصبيان روى انه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابة يمينه وقيل كلمهم ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان * (تنبيه) * في كان هذه أقوال أحدها انها زائدة وهو قول أبي عبيد أي كيف نكلم من في المهد صبيا على هذا نصب

على ... وأمرهم بلداته فهو تب على ذلك فكيف طابق الجواب في الآية السؤال (قلت السؤال) تضمن شيئين انكار الحملة والسؤال عن سببها فبدأ موسى بالاعتذار عما انكره تعالى عليه بانه لم يوجد

على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور الواقع صلة ثانيها أنها تامة بمعنى حدث ووجد والتقدير كيف تكلم من وجد صبيا وصبيا حال من الضمير في كان قال الرازي وهذا هو الاقرب الثالث انها بمعنى صار أي كيف نكلم من صار في المهد صبيا وصبيا على هذا خبرها (فان قيل) كيف عرفت مريم من حال عيسى انه يتكلم (أجيب) بان جبريل أو عيسى عليه السلام لما ناداها من تحتها أن لا تحزني وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت صار ذلك كالتنبيه لها على ان المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحي الى زكريا أو اليها على سبيل الكرامة واختلفوا في المهد فقيل هو حجرها لما روي أنها اخذته عليه السلام في خرقة فاتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فاشارت اليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل بعد حتى يعدّ لها المهد وقيل هو المهد بعينه والمعنى كيف نكلم صبيا سبيله أن ينام في المهد وقال وهب أتى زكريا مريم عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك ان كنت أمرت بها فوصف نفسه بثمان صفات * الصفة الاولى (قال اني عبد الله) أي الملك الاعظم الذي له صفات الكمال لا أتعبد لغيره وفي ذلك اشارة الى أن عبد الله لا يتخذ الها من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى * الصفة الثانية قوله تعالى (آتاني الكتاب) واختلف في ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لان الالف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال أبو مسلم هو الانجيل لان الالف واللام ههنا للجنس وقال قوم التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق (٣) واقتصر البيضاوي على الاول والبقاعي على الثالث وزاد عليه والزبور وغيرها من الصحف * الصفة الثالثة قوله (وجعلني نبيا) واختلف في معنى ذلك فقيل معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيا وأتى بلفظ الماضي لجعل المحقق وقوعه كالواقع كما في قوله تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وقيل هو اخبار عما كتب في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد وقال الاكثرون أوتي الانجيل وهو صغير طفل وكان يعقل عقل الرجال وقال الحسن ألهم التوراة وهو في بطن امه * الصفة الرابعة قوله (وجعلني مباركا) بانواع البركات (أينما) أي في أي مكان (كنت) وذكروا في تفسير المبارك وجوها أحدها ان البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير ومعناه وجعلني ثابتا على دين الله تعالى مستقرا عليه ثانيها انما كان مباركا لانه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم الى طريق الحق فان ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله روى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سلمت أم عيسى عيسى الى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه اليك على ان لا تضربه فقال له المعلم اكتب فقال أي شيء اكتب فقال اكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد فعلاه بالدرة ليضربه فقال يا مؤدب لا تضربني ان كنت لا تدري فاسألني فانا أعلمك الالف من آلاء الله والباء من بهائه والجيم من جماله والدال من أداء الحق الى الله تعالى ثالثها البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلني في جميع الاحوال منجحا مفلحا لاني مادمت أبقى في الدنيا أكون مستعليا على الغير بالحجة فاذا جاء الوقت المعلوم أكرمني الله تعالى بالرفع الى السماء رابعها مباركا على الناس من حيث يحصل بسبب دعائه احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وعن قتادة أن امرأة رأته وهو يحيي الموتى ويبرئ الاكمه

منه الا تقدم بستر لا يعتد به عادة ثم عقبه العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله وعجلت اليك رب لترضى (قوله ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي) اى ترك ولهذا

(٣) قوله واقتصر البيضاوي على الاول الذي في البيضاوي تفسير الكتاب بالانجيل وهو الثاني هنا فلعل مراده بالاول جعل أل للجنس اه

والابرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدى أرضعت به فقال عيسى مجيبا لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جبارا شقيا * (تنبيه) * قوله أينما كنت يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل انه عاد الى حال الصغر و زوال التكليف * الصفة الخامسة قوله (وأوصانى بالصلوة) لطهرة للنفس (والزكوة) طهرة للمال فعلا فى نفسى وأمرا لغيرى (مادمت حيا) ليكون ذلك حجة على من ادعى أنه اله لأنه لا شبهة فى أن من يصلى الى اله ليس باله (فان قيل) كيف يؤمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلا والقلم مرفوع عن الصغير لقوله صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الحديث (أجيب) بوجهين الاول أن ذلك لا يدل على أنه تعالى أوصاه بادائهما فى الحال بل بعد البلوغ فيكون المعنى أوصانى بادائهما فى وقت وجوبهما على وهو وقت البلوغ الثانى أن عيسى لما انفصل صيره الله بالغا عاقلا تام الخلقة و يدل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما أنه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول فى عيسى عليه السلام قال الرازى وهذا أقرب الى ظاهر اللفظ لقوله مادمت حيا فهذا يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه فى جميع زمان حياته (فان قيل) لو كان الامر كذلك لكان القوم حين رأوه رأوا شخصا كامل الاعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجيبا فكان ينبغى أن لا يتعجبوا (أجيب) بانه تعالى جعله مع صغر جثته قوى التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان فى الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل * الصفة السادسة قوله (وبرا) أى وجعلنى بارا ولما كان السياق لبراءة والدته قال (بوالدتى) أى التى أكرمها الله تعالى باحصان الفرج والحمل بى من غير ذكر وفى ذلك اشارة الى تنزيه أمه عن الزنا اذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها * الصفة السابعة قوله (ولم يجعلنى جبارا) متعاظما (شقيا) أى عاصيا بان أفعل فعل الجبارين بغير استحقاق انما أفعل ذلك بمن يستحق و روى عن عيسى عليه السلام أنه قال قلبى لين وانى ضعيف فى نفسى وعن بعض العلماء لا أجد العاق الا جبارا شقيا ولا أجد سيئ الملكة الا مختالا فخورا وتلا وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا * الصفة الثامنة قوله (والسلام) من الله (على) فلا يقدر أحد على ضررى (يوم ولدت) فلا يضرنى شيطان (ويوم أموت) فلا يضرنى أيضا ومن يولد و يموت فليس باله (ويوم أبعث حيا) يوم القيامة كما تقدم فى يحيى عليه السلام وفى ذلك اشارة الى أنه فى البشرية مثله سواء لم يفارقه أصلا الا فى كونه من غير ذكر واذا كان جنس السلام عليه كان أتباعه كذلك ولم يبق لاعدائه الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على من اتبع الهدى بمعنى ان العذاب على من كذب وتولى (ذلك) أى الذى تقدم نعته بقوله انى عبد الله الى آخره هو (عيسى ابن مريم) لا ما يصفه النصارى بقولهم انه الله أو ابنه أو اله ثالث فهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الابلغ والطريق البرهانى حيث جعل الموصوف باضداد ما يصفونه وفى ذلك تنصيص على انه ابن هذه المرأة وقوله تعالى (قول الحق) قرأ عاصم وابن عامر بنصب اللام على أنه مصدر مؤكد والباقون بالرفع على أنه خبر محذوف أى هو قول الحق الذى لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة ثم عجب تعالى من ضلالهم

قال بعد وعصى آدم ربه فغوى (قوله فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) * ان قلت الخطاب لآدم وحواء فكيف قال فتشقى دون فتشقيا (قلت) قال ذلك لان الرجل قيم امرأته

فيه بقوله تعالى (الذى فيه يمترون) أى يشكون شكا يتكلفون ويجادلون به فتقول اليهود ساحر وتقول النصارى ابن الله مع ان أمه امرأة ٣ فى غاية الوضوح ليس موضعا للشك أصلا ثم دل على كونه حقا فى كونه ابنا لامه مريم لا غيرها بقوله ردا على من ضل (ما كان) أى ما صح ولا يتأتى ولا يتصور فى العقول ولا يصح ولا يأتى لانه من المحال لكونه يلزم منه الحاجة (لله) الغنى عن كل شئ (أن يتخذ من ولد) وأكد بمن لان المقام يقتضى النفى العام * ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار الى ذلك بالتنزيه العام بقوله تعالى (سبحانه) أى تنزه عن كل نقص أى من احتياج الى ولد أو غيره ثم علل ذلك بقوله عز وجل (اذا قضى أمرا) أى أى أمر كان أى أراد أن يحدثه (فانما يقول له كن) أى يريده ويعلق قدرته به وقوله تعالى (فيكون) قرأه ابن عامر بنصب النون بتقدير أن أو على الجواب والباقون بالرفع بتقدير هو وقوله (وان الله ربى وربكم) اخبار عن عيسى عليه السلام انه قال ذلك وقرأ ابن عامر والكوفيون بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها بتقدير حذف حرف الجر متعلق بما بعده والتقدير ولان الله ربى وربكم (فاعبدوه) وحده لتفرده بالاحسان كما أعبده كقوله تعالى وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا والمعنى لوحدانيته أطيعوه وقيل انه عطف على الصلاة والتقدير وأوصانى بالصلاة وبأن الله واليه ذهب الفراء (هذا) أى الذى أمرتكم به (صراط) أى طريق (مستقيم) أى يقود الى الجنة وقرأ قنبل بالسين وخلف باشمام الصاد والباقون بالصاد الخالصة واختلف فى قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) فقيل هم النصارى واختلافهم فى عيسى أهو ابن الله أو اله معه أو ثالث ثلاثة وسموا أحزابا لانهم تحزبوا ثلاث فرق فى أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية وقيل هم اليهود والنصارى جعله بعضهم ولدا وبعضهم كذابا وقيل هم الكفار الشامل لليهود والنصارى وغيرهم من الذين كانوا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عادل وهذا هو الظاهر لانه لا تخصيص فيه ويؤيده قوله تعالى (فويل للذين كفروا) أى شدة عذاب لهم (من مشهد يوم عظيم) أى حضور يوم القيامة وأهواله وقوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) أى بهم صيغتا تعجب بمعنى ما أسمعهم وما أبصرهم (يوم يأتوننا) فى الآخرة لان حالهم فى شدة السمع والبصر جديرة بأن يتعجب منها فيندمون حيث لا ينفعهم الندم ويتمنون المحال من الرجوع الى الدنيا ليتداركوا فلا يجابون الى ذلك بل يسلك بهم فى كل ما يؤذيهم ويهلكهم ويرديهم وقوله تعالى (لكن الظالمون) من اقامة الظاهر مقام المضمر اشعارا بانهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر والاصل ولكنهم (اليوم) أى فى الدنيا (فى ضلال مبين) أى بين بذلك الضلال صموا عن سماع الحق وعموا عن ابصاره أى اعجب منهم يا مخاطب فى سمعهم وأبصارهم فى الآخرة بعد ان كانوا فى الدنيا صما عميا وقيل معناه التهديد بما سيسمعونه وسيبصرون ما يسوءهم ويصدع قلوبهم ثم ان الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه بقوله (وأنذرهم) أى خوفهم (يوم الحسرة) هو يوم القيامة يتحسر فيه المسئ على ترك الاحسان والمحسن على عدم الازدياد من الاحسان لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد يموت الا ندم قالوا وما ندمه يا رسول الله قال ان كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وان كان مسيئا ندم أن لا يكون

---

٣ قوله مع أن أمه امرأة الخ هكذا بالاصول ولعل الظاهر مع أن أمره الخ اه مصححه

فشقاؤه يتضمن شقاءها كما ان سعادته تتضمن سعادتها أو لانه رعاية للفواصل أو لانه أراد بالشقاء الشقاء فى طلب القوت واصلاح المعاش وذلك وظيفة الرجل دون

نزع وفي قوله تعالى (اذ قضى الامر) وجوه أحدها اذ قضى الامر ببيان الدلائل وشرح أمر
الثواب والعقاب ثانيها اذ قضى الامر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف ثالثها اذ قضى
الامر فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت كما روى ان
النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى اذ قضى الامر فقال حين يجاء بالموت على صورة
كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرح وأهل النار غما الى
غم وقوله تعالى (وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) جملتان حاليتان وفيهما قولان أحدهما انهما
حالان من الضمير المستتر في قوله في ضلال مبين أي استقروا في ضلال مبين على هاتين الحالتين
السيئتين والثاني انهما حالان من مفعول أنذرهم أي أنذرهم على هذه الحالة وما بعدها وعلى
الاول يكون قوله وأنذرهم اعتراضا والمعنى وهم في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة وهم
لا يصدقون بذلك اليوم ولما كان الارث هو حوز الشئ بعد موت أهله وكان سبحانه وتعالى
قد قضى بموت الخلائق أجمعين وانه تعالى يبقى وحده عبر عن ذلك بالارث مقررا به مضمون
الكلام السابق فقال مؤكدا تكذيبا لقولهم ان الدهر لا يزال هكذا حياة لناس وموت
لآخرين (انا نحن) بعظمتنا التي اقتضت ذلك (نرث الارض) فلا ندع بها شيأ من عاقل ولا غيره
ولما كان العاقل أقوى من غيره صرح به بعد دخوله فقال (ومن عليها) أي من العقلاء بان
نسلبهم جميع ما في أيديهم (والينا) لا الى غيرنا (يرجعون) فنجازيهم باعمالهم القصة الثالثة
قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر في الكتاب ابراهيم) أي خبره وقرأ
هشام ابراهام بالف بعد الهاء والباقون بالياء وانما أمر الله تعالى نبيه بالذكر لذلك لانه صلى
الله عليه وسلم ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلده مشتغلين بالتعلم ومطالعة الكتب فاذا أخبر
عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك اخبارا عن الغيب ومعجزا
باهرا دالا على نبوته وانما ذكر الاعتبار بقصة ابراهيم عليه السلام لوجوه الاول ان منكرى
التوحيد الذين أثبتوا توحيدا ومعبودا سوى الله تعالى فريقان منهم من أثبت معبودا
غير الله تعالى حيا عاقلا وهم النصارى ومنهم من أثبت معبودا غير الله تعالى جمادا ليس
بحى ولا عاقل وهم عبدة الاوثان والفريقان وان اشتركا في الضلال الا أن ضلال عبدة
الاوثان أعظم فلما بين الله تعالى ضلال الفريق الاول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم
عبدة الاوثان الثاني أن ابراهيم عليه السلام كان أبا العرب وكانوا مقرين بعلو
شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم
الا من سفه نفسه فكأنه تعالى قال للعرب ان كنتم مقلدين لابيكم على قولكم انا وجدنا
آباءنا على أمة فاشرف آبائكم وأعلاهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة
الاصنام والاوثان وان كنتم مستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها ابراهيم عليه
السلام لتعرفوا فساد عبادة الاوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم اما تقليدا واما استدلالا
الثالث ان كثيرا من الكفار في زمان النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون نترك دين آبائنا
وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وهو أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل
ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ثم قال تعالى في صفة ابراهيم (انه كان) جبلة وطبعا

المرأة قوله وعصى آدم ربه فغوى) • ان قلت هل يجوز ان يقال كان آدم عاصيا غاويا أخذا من ذلك (قلت) لا اذ لا يلزم من جواز اطلاق الفعل جواز اطلاق اسم الفاعل الاترى

(صديقا)

(صديقا) أى بليغ الصدق فى نفسه فى أقواله وأفعاله اى كان من أول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة وسيأتى الكلام على قوله بل فعله كبيرهم هذا وانى سقيم فى محله ولما كانت مرتبة النبوة أرفع من مرتبة الصديقية قال تعالى (نبيا) أى استنبأه الله تعالى اذ لا رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده وقوله تعالى (اذ قال) بدل من ابراهيم وما بينهما اعتراض أو متعلق بكان أو بصديقا نبيا أى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين قال (لابيه) آزر هاديا له من تيه الضلال بعبادة الاصنام مستعطفا له فى كل جملة بقوله (يا أبت) والتاء عوض عن ياء الاضافة ولا يجمع بينهما وقرأ ابن عامر بفتح التاء فى الوصل والباقون بكسرها وأما الوقف فوقف ابن كثير وابن عامر بالهاء والباقون بالتاء ثم ان الله تعالى حكى عنه أيضا أنه تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام النوع الاول قوله (لم تعبد) مريدا بالاستفهام المجاملة والتلطف والرفق واللين والادب الجميل فى نصحه له كاشفا الامر غاية الكشف بقوله (ما لا يسمع ولا يبصر) أى ليس عنده قابلية لشئ من هذين الوصفين ليرى ما أنت فيه من خدمته أو يجيبك اذا ناديته حالا أو مآلا (ولا يغنى عنك شيئا) فى جلب نفع ودفع ضر فوصف الاوثان بصفات ثلاث كل واحدة منها قادحة فى الالهية وبيان ذلك من وجوه أحدها أن العبادة غاية التعظيم فلا تستحق الا لمن له غاية الانعام وهو الاله الذى منه أصول النعم وفروعها على ما تقرر فى تفسير قوله وان الله ربى وربكم وكما انه لا يجوز الاشتغال بشكر ما لم تكن منه نعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها وثانيها أنها اذا لم تسمع ولا تبصر ولا تميز من يطيعها عمن يعصيها فاى فائدة فى عبادتها وهذا تنبيه على ان الاله يجب أن يكون عالما بكل المعلومات وثالثها أن الدعاء مخ العبادة فاذا لم يسمع الوثن دعاء الداعى فاى منفعة فى عبادته واذا لم يبصر تقرب من يتقرب اليه فاى منفعة فى ذلك التقرب ورابعها ان السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون افضل واكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل عبودية الاخس وخامسها ان كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فاى فائدة فى عبادتها وسادسها اذا كانت لا تحفظ نفسها عن الكسر والافساد حين جعلها ابراهيم عليه السلام جذاذا فاى رجاء فيها للغير فكانه عليه السلام قال ليست الالهية الا لرب يسمع ويبصر ويجيب دعوة الداعى اذا دعاه النوع الثانى قوله (يا أبت انى قد جاءنى) من المعبود الحق (من العلم ما لم يأتك) منه (فاتبعنى) اى تسبب من ذلك انى اقول لك وجوبا على النهى عن المنكر ونصيحة لما لك على من الحق اجتهد فى تبعى (اهدك صراطا) اى طريقا (سويا) اى مستقيما كما انى لو كنت معك فى طريق محسوس واخبرتك ان امامنا مهلكا لا ينجو منه احد وأمرتك ان تسلك مكانا غير ذلك لاطعتنى ولو عصيتنى فيه عذلك كل احد غاية النوع الثالث قوله (يا أبت لا تعبد الشيطان) فان الاصنام ليس لها دعوة اصلا والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقا على لسان كل ولى له فتعين ان يكون الآمر بذلك الشيطان فكأنه هو المعبود بعبادتها فى الحقيقة ثم علل هذا النهى بقوله (ان الشيطان) البعيد من كل خير المحترق باللعنة (كان للرحمن عصيا) بالقوة من حين خلق وبالفعل من حين امر بالسجود لابيك آدم عليه السلام فابى فهو عدو لله

انه يجوز أن يقال تبارك الله دون متبارك ويجوز ان يقال تاب الله على آدم دون تائب (قوله ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) اى حياة فى ضيق وشدة (ان قلت)

تعالى وهو المطيع للعاصي لشيء عاص لذلك الشيء لان صديق العدو عدو (فان قيل) هذا القول يتوقف على اثبات امور احدها اثبات الصانع وثانيها اثبات الشيطان وثالثها ان الشيطان عاص ورابعها انه لما كان عاصيا لم تجز طاعته وخامسها ان الاعتقاد الذي كان عليه آزر مستفاد من طاعة الشيطان ومن شأن الدلالة التي تورد على الشخص أن تكون مركبة من مقدمات معلومة يسلمها الخصم ولعل ابراهيم كان منازعا في هذه المقدمات وكيف والمحكي عنه انه ما كان يثبت الها سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الرحمن واذا لم يسلم وجوده فكيف يسلم أن الشيطان عاص للرحمن وبتقدير تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه (واجيب) بان الحجة المعول عليها في ابطال مذهب آزر هو قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ وهذا الكلام جرى مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة فيسقط السؤال ❊ النوع الرابع قوله (يا ابت اني أخاف) لمحبتي لك وغيرتي عليك (ان يمسك عذاب) اي كائن (من الرحمن) الذي هو مولى كل من تولاه لعصيانك اياه (فتكون) اي فتتسبب عن ذلك ان تكون (للشيطان وليا) اي ناصرا وقرينا في النار ولما دعا ابراهيم عليه السلام اباه الى التوحيد وذكر الدلائل على فساد عبادة الاوثان واردف تلك الدلائل بالوعظ البليغ واورد كل ذلك مقرونا بالرفق واللطف قابله ابوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه لم يذكر في مقابلة حجته الا أن (قال اراغب انت عن الهتي) باضافتها الى نفسه فقط اشارة الى مبالغته في تعظيمها والرغبة عن الشيء تركه عمدا فاصر على ادعاء الهيتها جهلا وتقليدا وقابل قوله بالرفق يا ابت بالعنف حيث لم يقل يا بني بل قال (يا ابراهيم) وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم بقوله مقسما (لئن لم تنته) عما انت عليه (لارجمنك) اي لاقتلنك أو لارجمنك بالحجارة حتى تموت او تبعد عني او بالكلام القبيح فاحذرني (واهجرني) اي ابعد عني بالمفارقة من الدار والبلد وهي كهجرة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اي تباعد عني (مليا) اي دهرا طويلا لكي لا اراك وقيل اهجرني بالقول ولا تخاطبني دهرا طويلا لا جل ما صدر منك من هذا الكلام وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتأسية فيما كان يلقى من الاذى ويقاسي من قومه من العناء ومن عمه ابي لهب من الشدائد باعظم آبائه وأقاربهم به شبها فلما سمع ابراهيم عليه السلام كلام أبيه اجاب بامرين احدهما أن (قال) مقابلا لما كان منه من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة العقل والعلم (سلام عليك) توديع ومتاركة اي سلمت مني لا اصيبك بمكروه ما لم أومر فيك بشيء فانه لم يؤمر بقتاله على كفره كقوله لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وهذا يدل على جواز متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج وعلى انه يحسن مقابلة الاساءة بالاحسان ويجوز ان يكون دعاء له بالسلامة استمالة الا ترى انه وعده بالاستغفار فيكون سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه كقوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم استأنف قوله (ساستغفر لك ربي) اي المحسن الي بان اطلب لك منه غفران ذنوبك بان يوفقك للاسلام (انه كان بي حفيا) اي مبالغا في اكرامي مرة بعد مرة وكرة في اثر كرة وقد وفى بوعده بقوله

فمن نرى امرضين عن الايمان في اخصب عيشة (قالت) قال ابن عباس المراد بالمعيشة الضنك الحياة في المعصية وان كان في رخاء ونعمة وروى انها عذاب القبر او المراد بها

المذكور في الشعراء واغفر لابي وهذا قبل ان يتبين له انه عدو لله كما ذكر في براءة وثانيهما أنه قال له انقياداً لامر أبيه (واعتزلكم) اي جميعاً بترك بلادكم واشار الى ان من شرط المعبود ان يكون اهلاً للمناداة في الشدائد بقوله (وما تدعون) اي تعبدون (من دون الله) الذي له الكمال كله فمن اقبل عليه وحده اصاب ومن اقبل على غيره ولو طرفة عين فقد خاب وخسر (وادعوا) اي اعبد (ربي) وحده لاستحقاقه ذلك مني ولم يقيد الاعتزال بزمن بل أشار الى انهم ما داموا على هذا الدين هو معتزل لهم ثم دعا لنفسه بما نبههم به على خسة مسعاهم فقال غير جازم باجابة دعوته وقبول عبادته اجلالاً لربه وهضماً لنفسه (عسى الا اكون بدعاء ربي) المتفرد بالاحسان الي (شقيا) اي كما شقيتم بعبادة الاصنام فانها لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم ولما رأى من أبيه ومعاشريه ما رأى عزم على غربة مشقة النوى مختار الغربة في البلاد على غربة الاضداد فكان كما قال الامام ابو سليمان الخطابي

وما غربة الانسان في شقة النوى * ولكنها والله في عدم الشكل
واني غريب بين بست واهلها * وان كان فيها اسرتي وبها اهلي

وحقق ما عزم عليه فبين سبحانه وتعالى تحقيق رجائه واجابة دعائه فقال (فلما اعتزلهم) أي بالهجرة الى الارض المقدسة (وما يعبدون من دون الله) لم يضره ذلك ديناً ولا دنيا بل نفعه وعوضه الله اولاداً كما قال تعالى (وهبنا له) كما هو الشأن في كل من ترك شيئاً لله (اسحق) ولداً له لصلبه من زوجته العاقر العقيم بعد تجاوزها سن اليأس وأخذه هو في السن الى حد لا يولد لمثله (ويعقوب) ولد اسحق وخصهما بالذكر للزومهما محل اقامته وقيامهما بعد موته بخلافته فيه وأما اسمعيل عليه السلام فكان الله سبحانه وتعالى هو المتولي لتربيته بعد نقله رضيعاً الى المسجد الحرام واحيائه تلك المشاعر العظام فافرده بالذكر جاعلاً له أصلاً برأسه بقوله بعد واذكر في الكتاب اسمعيل فترك ذكره مع اسحق الذي هو أخوه لذلك ثم صرح بما وهب للاولاد جزاء على هجرته بقوله تعالى (وكلا) أي منهما (جعلنا نبيا) عالي المقدار ويخبر بالاخبار العظيمة كما جعلنا ابراهيم عليه السلام نبياً (ووهبنا لهم) كلهم (من رحمتنا) أي شيئاً عظيماً من النسل الطاهر والذرية الطيبة واجابة الدعاء واللطف في القضاء والبركة في المال والاولاد وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) وهو الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهو العطية واستجاب الله تعالى دعوته في قوله تعالى واجعل لي لسان صدق في الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الاديان كلهم فقال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في غيره أولها انه اعتزل عن الخلق على ما قال وأعتزلكم وما تدعون من الله فلا جرم بارك الله له في أولاده فقال ووهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ثانيها انه تبرأ من أبيه كما قال عز وجل فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه لا جرم سماه الله أبا المسلمين فقال ملة أبيكم ابراهيم ثالثها تل ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال تعالى وتله للجبين لا جرم فداه الله تعالى على ما قال وفديناه بذبح عظيم رابعها أسلم نفسه فقال أسلمت لرب العالمين فجعل الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه فقال يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم خامسها أشفق على هذه الامة فقال ربنا

عبثه في جهنم (قوله ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) الكلمة قوله تعالى سبقت رحمتي غضبي أو قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم أو قوله تعالى

قال ما هي قال تقبض روحي فاوحى الله تعالى اليه ان اقبض روحه فقبض روحه وردها اليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة في سؤالك قبض الروح قال لاذوق كرب الموت وغمته فاكون اشد استعدادا له ثم قال له ادريس ان لي اليك حاجة أخرى قال وما هي قال ترفعني الى السماء لانظر اليها والى الجنة والنار فاذن الله تعالى له في ذلك فرفعه فلما قرب من النار قال لي اليك حاجة قال وما تريد قال تسأل مالكا ان يفتح أبوابها فاردها ففعل ثم قال كما أريتني النار فارني الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتح ففتح أبوابها فادخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود الى مكانك فتعلق بشجرة وقال ما اخرج منها فبعث الله تعالى ملكا حكما بينهما فقال له الملك مالك لا تخرج قال ان الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته وقال وان منكم الا واردها وقد وردتها وقال وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فاوحى الله تعالى الى ملك الموت باذني دخل الجنة وباذني لا يخرج فهو حي هنالك وقال آخرون بل رفع الى السماء وقبض روحه وقال كعب الاحبار ان ادريس سار ذات يوم في حاجة فاصابه وهج الشمس فقال يا رب اني مشيت يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرفه فقال يا رب خففت عني حر الشمس فما الذي قضيت فيه فقال تعالى ان عبدي ادريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فاجبته قال يا رب اجعل بيني وبينه خلة فاذن له حتى أتى ادريس فكان ادريس يسأله فكان مما سأله أن قال له اني اخبرت انك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي ليؤخر أجلي فازداد شكرا وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال له لي حاجة اليك لي صديق من بني آدم تشفع بي اليك لتؤخر أجله فقال ليس ذلك الي ولكن ان احببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر في ديوانه فقال انك كلمتني في انسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك قال لا أجده يموت الا عند مطلع الشمس قال اني أتيتك وتركته هنالك قال فانطلق فلا أراك تجده الا وقد مات فوالله ما بقي من أجل ادريس شيء فرجع الملك فوجده ميتا ولما انقضى كشف هذه الاخبار العلية المقدار الجليلة الاسرار شرع سبحانه وتعالى ينسب أهلها باشرف نسبهم ويذكر المنعم عليهم فقال عز من قائل (أولئك) اى العالو الرتبة الشرفاء النسب المذكورون في هذه السورة من لدن زكريا الى ادريس وهو مبتدأ وقوله (الذين أنعم الله عليهم) بما خصهم به من مزيد القرب اليه وعظيم المنزلة لديه صفة له وقوله تعالى (من النبيين) اى المصطفين بالنبوة الذين أنبأهم الله تعالى بدقائق الحكم ورفع محالهم بين الامم بيان لهم وهو في معنى الصفة وما بعده الى جملة الشرط صفة للنبيين فقوله (من ذرية ادم) اى ادريس اقرب منه لانه جد أبي نوح (وممن حملنا مع نوح) في السفينة اى ابراهيم ابن ابنه سام (ومن ذرية ابراهيم) اى اسمعيل واسحق ويعقوب (و) من ذرية (اسرائيل) وهو يعقوب اى موسى وهرون وزكريا ويحيى وكذا عيسى لان مريم من ذريته (وممن هدينا) الى أقوم الطرق (واجتبينا) للنبوة والكرامة اى من جملتهم وخبر أولئك (اذا تتلى عليهم) من اى تال كان (آيات الرحمن خروا سجدا) للمنعم عليهم تقربا اليه لما

الواصلون أو بالاول الذين مازالوا على الصراط المستقيم وبالثاني الذين لم يكونوا على الصراط المستقيم ثم ساروا عليه أو بالاول أهل دين الحق في الدنيا وبالثاني المهتدون الى

لهم من البصائر النيرة فى ذكر نعمه عليهم واحسانه اليهم (وبكيا) خوفا منه وشوقا اليه فكونوا مثلهم * (تنبيه) * سجدا حال مقدرة قال الزجاج لانهم وقت الخرور ليسوا سجدا وهو جمع ساجد وبكيا جمع باك وليس بقياس بل قياس جمعه على فعلة كقاض وقضاة ولم يسمع فيه هذا الاصل وأصل بكيا بكويا قلبت الواو ياء والضمة كسرة واختلف فى هذا السجود فقال بعضهم انه الصلاة وقال بعضهم سجود التلاوة على حسب ما ثبت من ندبه قال الرازى ثم يحتمل ان يكون المراد سجود القرآن ويحتمل انهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بسجود فيفعلون ذلك لاجل ذكر السجود فى الآية انتهى وروى ابن ماجه وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المزنى قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى يا صالح هذه القراءة فاين البكاء وعن ابن عباس اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ما اغرورقت عين بمائها الا حرم الله تعالى على النار جسدها وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يلج النار من بكى من خشية الله وقال العلماء يدعو فى سجدة التلاوة بما يليق بآيتها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك ان أكون من المتكبرين عن أمرك واذا قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلنى من الباكين اليك الخاشعين لك وان قرأ هذه قال اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهتدين الباكين عند تلاوة آيات كتابك وقرأ حمزة والكسائى بكيا بكسر الباء والباقون بضمها * ولما وصف سبحانه وتعالى هؤلاء الانبياء بصفة المدح ترغيبا للناس فى التأسى بهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال (فخلف من بعدهم) اى فى بعض الزمان الذى بعد هؤلاء الاصفياء سريعا (خلف) فى غاية الرداءة من أولادهم يقال خلفه اذا أعقبه خلف سوء باسكان اللام والخلف بفتح اللام الصالح كما قالوا وعد فى ضمان الخير ووعيد فى ضمان الشر وفى الحديث فى الله خلف من كل هالك وفى الشعر

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

وقال السدى أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وقال قتادة فى (أضاعوا الصلوة) تركوا الصلاة المفروضة وقال ابن مسعود وابراهيم أخروها عن وقتها وقال سعيد بن المسيب هو ان لا يصلى الظهر حتى يأتى العصر ولا يصلى العصر حتى تغرب الشمس (واتبعوا الشهوات) اى المعاصى قال ابن عباس هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمور واستحلوا نكاح الاخت من الاب وقال مجاهد هؤلاء قوم يظهرون فى آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض فى الاسواق والازقة (فسوف يلقون غيا) وهو كما قال وهب وابن عباس واد فى جهنم بعيد قعره تستعيذ منه أوديتها كما رواه الحاكم وصححه وقيل هو الخسران وقيل هو الشر كقول القائل

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

على الغى متعلق بلائما وقيل يلقون جزاء الغى كقوله يلق أثاما اى مجازاة الآثام * (تنبيه) * قوله تعالى يلقون ليس معناه يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية * ولما أخبر

طريق الجنة فى العقبى فكأنه قيل ستعاون من الناجى فى الدنيا والفائز فى الآخرة

* (سورة الانبياء عليهم السلام) *

(قوله اقترب للناس حسابهم)

تعالى من هؤلاء بالخيبة فتح لهم باب التوبة وحداهم الى نيل هذه الطوبة بقوله (الا من تاب) اى عما هو عليه من الضلال وبادر بالاعمال وحافظ على الصلوات وكف نفسه عن الشهوات (وآمن) بما أخذ عليه به العهد (وعمل) بعد ايمانه تصديقا له (صالحا) من الصلوات والزكوات وغيرها (فاولئك) العالو الهمم الطاهرو الشيم (يدخلون الجنة) التي وعد المتقون (ولا يظلمون) من ظالم ما (شيأ) من أعمالهم (فان قيل) الاستثناء دل على انه لابد من التوبة والايمان والعمل الصالح وليس الامر كذلك لان من تاب من كفره ولم يدخل وقت الصلاة أو كانت المرأة حائضا فانه لا يجب عليهم الصلاة والزكاة أيضا غير واجبة وكذلك الصوم فهذا لو مات في ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع انه لم يصدر منه عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح (أجيب) بان هذه الصورة نادرة والاحكام انما تناط بالاعم الاغلب • (تنبيه) • في هذا الاستثناء وجهان قال ابن عادل أظهرهما انه متصل وقال الزجاج هو منقطع وهذا بناء منه على ان المضيع للصلاة من الكفار ووافق الزجاج الجلال المحلي • ولما ذكر تعالى في التائب انه يدخل الجنة وصفها بامور أحدها قوله تعالى (جنات عدن) أى اقامة لا يظعن عنها بوجه من الوجوه وصفها بالدوام على خلاف وصف الجنان في الدنيا التي لا تدوم ثم بين تعالى انها (التي وعد الرحمن عباده) الذين هو أرحم بهم وقوله (بالغيب) فيه وجهان أحدهما ان الباء حالية وفي صاحب الحال احتمالان أحدهما ضمير الجنة وهو عائد الموصول أى وعدها وهي غائبة عنهم لا يشاهدونها والثاني عباده أى وهم غائبون عنها لا يرونها انما آمنوا بها بمجرد الاخبار منه والوجه الثاني أن الباء سببية أى بسبب تصديق الغيب وبسبب الايمان به • ولما كان من شأن الوعود الغائبة على ما يتعارفه الناس بينهم احتمال عدم الوقوع بين أن وعده ليس كذلك بقوله تعالى (انه كان) أى كونا هو سنة ماضية (وعده مأتيا) أى مقصودا بالفعل فلا بد من وقوعه فهو كقوله ان كان وعد ربنا لمفعولا ثانيها قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا) وهو فضول الكلام وما لا طائل تحته وفيه تنبيه ظاهر على تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله تعالى عنه الدار الآخرة التي لا تكليف فيها وقد مدح الله تعالى أقواما بقوله واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا وقوله تعالى (الا سلاما) الاستثناء منقطع اى ولكن يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ويجوز ان يراد باللغو مطلق الكلام قال في القاموس لغا لغوا تكلم فيكون الاستثناء متصلا اى لا يسمعون فيها كلاما الا كلاما يدل على السلامة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ثالثها قوله تعالى (ولهم رزقهم فيها) اى على ما يتمنونه ويشتهونه على وجه لا بد من اتيانه ولا كلفة عليهم فيه ولا منة عليهم به (بكرة وعشيا) اى على قدرهما في الدنيا اذ ليس في الجنة نهار ولا ليل بل ضوء ونور ابدا وقيل انهم يعرفون النهار برفع الحجب والليل بارخائها (فان قيل) المقصود من هذه الآيات وصف الجنة باحوال مستعظمة ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا ليس من الامور المستعظمة (اجيب) بوجهين الاول قال الحسن أراد الله تعالى ان يرغب كل قوم بما أحبوه

(ان قلت) كيف وصف الحساب بالقرب وقد مضى من وقت هذا الاخبار اكثر من تسعمائة عام ولم يوجد (قلت) معناه انه قريب عند الله وان كان بعيدا عندنا كقوله انهم

في الدنيا فلذلك ذكر أساور الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم والارائك التي هي الحجال المضروبة على الاسرة وكانت عادة أشراف اليمن ولاشيء كان أحب الى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك الثاني أن المراد دوام الرزق تقول أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين وقيل المراد رفاهية العيش وسعة الرزق أي لهم رزقهم متى شاؤا ولما بانت بهذه الاوصاف دار الباطل أشار الى علو رتبتها وما هو سببها بقوله تعالى (تلك الجنة) باداة البعد لعلو قدرها وعظم أمرها (التي نورث من عبادنا) أي نعطي عطاء الارث الذي لا كد فيه ولا استرجاع وتبقى له الجنة كما يبقى للوارث مال الموروث وقيل تنقل تلك المنازل عمن لو أطاع لكانت له الى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل النقل ارثا قاله الحسن (من كان تقيا) أي المتقين من عباده (فان قيل) الفاسق المرتكب للكبائر لم يوصف بذلك الوصف فلا يدخلها (أجيب) بان الآية تدل على أن الجنة يدخلها المتقي وليس فيها دلالة على ان غير المتقي لا يدخلها وأيضا صاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه انه متق عن الكفر فقد صدق عليه أنه متق واذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متق وجب أن يدخل الجنة فدلالة الآية على أن صاحب الكبيرة يدخلها أولى من أن تدل على انه لا يدخلها واختلف في سبب نزول قول جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم (وما نتنزل الا بامر ربك) فقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت الآية وقال مجاهد أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال لعلي أبطأت قال قد فعلت قال ولم لا أفعل وأنتم لا تتسوكون ولا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم وقال وما نتنزل الا بامر ربك فنزلت وقال قتادة والكلبي احتبس جبريل عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح وسبب سؤالهم عن ذلك ما روي ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسألونهم عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم وسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن ثلاث فلم يعرف فسلوه عنهن فان أخبركم عن خصلتين فاتبعوه فسألوه عن قصة أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فلم يدر كيف يجيب فوعدهم ان يجيبهم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي عنه أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما فشق ذلك عليه مشقة عظيمة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي صلى الله عليه وسلم أبطأت حتى ساء ظني واشتقت اليك قال اني اليك أشوق ولكني عبد مأمور واذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فنزلت هذه الآية وأنزل قوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله وسورة الضحى (فان قيل) قوله تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا كلام الله وقوله وما نتنزل الا بامر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل (أجيب) بانه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كقوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وهذا كلام الله تعالى ثم عطف عليه قوله وان الله ربي وربكم فاعبدوه ثم علل جبريل قوله ذلك بقوله (له ما بين أيدينا) اي أمامنا من أمور الآخرة (وما خلفنا) أي من أمور الدنيا (وما بين ذلك)

يرونه بعيدا ونراه قريبا وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون أو انه قريب بالنسبة الى ما مضى من الزمان أو ان المراد قرب الكل واحد في قيه ويؤيده خبر من مات

اى ما يكون من هذا الوقت الى قيام الساعة اى له علم ذلك جميعه وقيل ما بين ذلك ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة وقيل ما بين أيدينا ما بقي من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها وما بين ذلك مدة حياتنا وقيل ما بين أيدينا بعد أن نموت وما خلفنا قبل ان نخلق وما بين ذلك مدة الحياة وقيل ما بين أيدينا الارض اذا أردنا النزول اليها وما خلفنا السماء وما ننزل منها وما بين ذلك الهواء يريد ان ذلك كله لله فلا نقدر على شئ الا بأمره (وما كان ربك) المحسن اليك (نسيا) بمعنى ناسيا اى تاركا لك بتأخير الوحى عنك لقوله تعالى ما ودعك ربك وما قلى اى وما كان امتناع النزول الا لامتناع الامر به وما كان ذلك عن ترك الله تعالى لك وتوديعه اياك ثم استدل على ذلك بقوله (رب السموات والارض وما بينهما) فلا يجوز عليه النسيان اذ لابد ان يمسكهما حالا بعد حال والا لبطل الامر فيهما وفيمن يتصرف والآية دالة على ان الله تعالى الحريب لكل شئ حصل بينهما ففعل العبد مخلوق له تعالى لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض •(تنبيه)• يجوز فى رب أن يكون بدلا من ربك وأن يكون خبر مبتدا مضمر أى هو رب وقوله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم مرتب على ما تقدم أى لما عرفت أن ربك لا ينساك فاعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغى من مثلك واصطبر عليها ولا تتشوش بابطاء الوحى وهزء الكفار بك (فان قيل) لم لم يقل واصطبر على عبادته لانها صلته فكان حقه تعديه بعلى (أجيب) بانه ضمن معنى الثبات لان العبادة ذات تكاليف قل من يثبت لها فكأنه قيل اثبت لها مصطبرا كقولك للمحارب اصطبر لقرنك ثم علل ذلك بقوله (هل تعلم له سميا) قال ابن عباس هل تعلم له مثلا أى نظيرا فيما يقتضى العبادة والذى يقتضيها كونه منعما باصول النعم وفروعها وهى خلق الاجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه وتعالى واذا كان قد أنعم عليك بغاية الانعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهى العبادة وقال الكلبى هل تعلم أحدا تسمى الله غيره فانهم وان كانوا يطلقون لفظ الاله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله تعالى على شئ ولما أمر الله تعالى بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلا سأل وقال هذه العبادة لا منفعة فيها فى الدنيا وأما فى الآخرة فقد أنكرها بعضهم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر ان الاشتغال بالعبادة يفيد فلهذا حكى الله سبحانه وتعالى قول منكرى الحشر فقال تعالى (ويقول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا) قال الكلبى نزلت فى أبى بن خلف حين أخذ عظاما بالية ففتها بيده ويقول زعم لكم محمد انا نبعث بعد ما نموت وقيل نزلت فى أبى جهل وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى أقام الدليل على صحة البعث بقوله (أولا يذكر الانسان) اى الجترئ بهذا الانكار على ربه (أنا خلقناه من قبل) اى من قبل جدله (ولم يك شيأ) أصلا وأنا بمقتضى ذلك قادرون على اعادته فلا ينكر ذلك قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة فى البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه اذ لا شك ان الاعادة ثانيا أهون من الايجاد أولا ونظيره قوله تعالى قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وقوله تعالى وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بسكون الذال وضم الكاف مخففة والباقون بفتح الذال المشددة وكذا الكاف (فان قيل) كيف أمر الله الانسان بالتذكر مع ان التذكر هو

(قوله قامت قيامته) (قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) قاله هنا بلفظ من ربهم وفى الشعراء بلفظ من الرحمن لان الرب يأتى مضافا بخلاف الرحمن لم يأت مضافا غالبا

العلم بحاله من قبل ثم تخلله ما هو (أجيب) بان المراد أولا يتفكر فيعلم خصوصا اذا قرئ أولا يذكر مشددا أما اذا قرئ مخففا فالمراد أولا يعلم ذلك من حال نفسه لان كل أحد يعلم انه لم يكن حيا في الدنيا ثم صار حيا ثم انه تعالى لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه أولها قوله تعالى (فوربك) اى المحسن اليك بالانتقام منهم (لنحشرنهم) بعد البعث (والشياطين) الذين يضلونهم بان نحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة وفائدة القسم أمران أحدهما ان العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين والثاني في اقسام الله باسمه مضافا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشأنه ورفع منه كما رفع من شأن السماء والارض في قوله تعالى فورب السماء والارض انه لحق والواو في والشياطين يجوز ان تكون للعطف وبمعنى مع وهو أولى ثانيها قوله تعالى (ثم لنحضرنهم) بعد طول الوقوف (حول جهنم) من خارجها ليشاهد السعداء الاحوال التي نجاهم الله تعالى منها وخلصهم فيزدادوا الذلك غبطة الى غبطتهم وسرورا الى سرورهم ويشمتوا باعداء الله وأعدائهم فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم وقوله تعالى (جثيا) حال مقدرة من مفعول لنحضرنهم وهو جمع جاث جمع على فعول نحو قاعد وقعود وجالس وجلوس وأصله جثوو بواوين أو جثوى من جثا يجثو ويجثي لغتان (فان قيل) هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية ولان العادة جارية بان الناس في مواقف مطالبات الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من القلق أو لما يدهمهم من شدة الامر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم واذا كان هذا حاصلا للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار (اجيب) بانهم يكونون من وقت الحشر الى وقت الحضور على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد ذلهم وقرأ حفص وحمزة والكسائي جثيا وعتيا وصليا بكسر أولها والباقون بضمه ثالثها قوله تعالى (ثم لننزعن) اى لنأخذن أخذا بشدة وعنف (من كل شيعة) اى فرقة مرتبطة بمذهب واحد (أيهم أشد على الرحمن) الذي غمرهم بالاحسان (عتيا) اى تكبرا متجاوز الحد والمعنى ان الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمردا في كفره خص بعذاب عظيم لان عذاب الضال المضل يجب ان يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص باصل العذاب ولذلك قال تعالى في جميعهم (ثم لنحن أعلم) من كل عالم (بالذين هم) بظواهرهم وبواطنهم (أولى بها) اى بجهنم (صليا) اى دخولا واحتراقا فنبدأ بهم ولا يقال أولى الاجمع اشتراكهم وأصله صلوى من صلى بكسر اللام وفتحها (تنبيه) في اعراب أيهم أشد أقوال كثيرة أظهرها عند جمهور المعربين وهو مذهب سيبويه ان أيهم موصولة بمعنى الذي وان حركتها حركة بناء بنيت عند سيبويه لخروجها عن النظائر وأشد خبر مبتدإ مضمر والجملة صلة لايهم وأيهم وصلتها في محل نصب مفعول بها ولاي أحوال اخر بعضها ذكرتها في شرح القطر ولما كلفوا بهذا الاعلام المؤكد بالاقسام من ذي الجلال والاكرام جديرين باصغاء الافهام الى ما توجه اليها من الكلام التفت الى مقام الخطاب انهاء للعموم فقال تعالى (وان) اى وما (منكم) أيها الناس أحد

ولموافقة ما هنا قوله بعد
قل ربي يعلم القول وموافقة
تالي الشعرا قوله بعد وان
ربك لهو العزيز الرحيم
اذ الرحمن والرحيم أخوان
(فان قلت) كيف وصف
الذكر بالحدوث مع ان

(الا واردها كان) ذلك الورود (على ربك) الموجد لك المحسن اليك (حتما مقضيا) اى حتمه وقضى به لا يتركه والورود موافاة المكان واختلفوا فى معنى الورود هنا فقال ابن عباس والاكثرون الورود ههنا هو الدخول والكناية راجعة الى النار وقالوا يدخلها البر والفاجر ثم ينجى الله المتقين فيخرجهم منها ويدل على ان الورود هو الدخول قوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار ان نافع بن الازرق مارى ابن عباس فى الورود فقال ابن عباس هو الدخول وقال نافع ليس الورود الدخول فقال ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع أما والله أنا وأنت سنردها وأنا أرجو ان يخرجنى الله منها وما أرى الله يخرجك منها بتكذيبك ويدل عليه أيضا قوله تعالى (ثم ننجى الذين اتقوا) اى الكفر منها ولا يجوز أن يقول ثم ننجى الذين اتقوا (ونذر الظالمين) بالكفر (فيها جثيا) على الركب الاول الكل واردون والاخبار المروية دالة على هذا القول روى أن عبد الله بن رواحة قال أخبر الله تعالى عن الورود ولم يخبر بالصدر فقال صلى الله عليه وسلم يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجى الذين اتقوا فدل على أن ابن رواحة فهم من الورود الدخول ولم ينكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وعن جابر أنه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الورود الدخول ولا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما حتى ان للنار ضجيجا من بردها ولان حرارة النار ليست بطبعها فالاجزاء الملاصقة لابدان الكفار يجعلها الله تعالى محرقة مؤذية والاجزاء الملاصقة لاجزاء المؤمنين يجعلها بردا وسلاما كما فى حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها وكما فى الكوز الواحد من الماء كان يشرب به القبطى فيكون دما ويشرب به الاسرائيلى فيكون ماء عذبا وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة وقال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال قد وردتموها وهى خامدة وشامدة بخامية أى ساكنة وروى بالجيم أى باردة ولا بد من ذلك فى الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا فى النار مع المعاقبين (فان قيل) فاذا لم يكن على المؤمنين عذاب فى دخولهم فما الفائدة فى ذلك الدخول (أجيب) بوجوه أحدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منها ثانيها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها ثالثها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين رابعها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقيل المراد بالذين يردونها من تقدم ذكرهم من الكفار فكنى عنهم أولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة وعلى هذا القول فلا يدخل النار مؤمن واستدل له بقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها والمبعد عنها لا يوصف بانه واردها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها وبقوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون وروى عن مجاهد من حم من المؤمنين فقد وردها وفى الخبر الحمى كير من جهنم وهى حظ المؤمن من النار وفى رواية الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء وقوله من فيح جهنم اى وهجها وحرها وقال ابن مسعود وان منكم الا واردها يعنى القيامة والكناية راجعة اليها قال البغوى

الذكر الا ... فى هو القرآن وهو قديم (قلت) المراد انه محدث انزاله أو انه ذكر غير القرآن وأضيف الى الرب لانه آمر به وهاديه (قوله وأسروا النجوى) (ان قلت) كيف قال ذلك

والاول أصح وعليه أهل السنة وروى انه يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير وفى رواية من ايمان وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له اذهب فادخل الجنة قال فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى فيرجع فيقول وجدتها ملأى فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشر أمثالها فيقول له أتسخر بى وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة وقوله حتى بدت نواجذه اى أنيابه وأضراسه وقيل هى أعلى الاسنان وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب ناس من أهل التوحيد فى النار حتى يكونوا حمما ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على باب الجنة قال فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء فى حمالة السيل الحمم الفحم والغثاء كل ما جاء به السيل وقرأ الكسائى ننجى بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم ❊ ولما أقام تعالى الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث قال تعالى عطفا على قوله ويقول الانسان (واذا تتلى عليهم) اى الناس من المؤمنين والكفار من اى تال كان (آياتنا) اى القرآن حال كونها (بينات) اى واضحات وقيل مرتبات الالفاظ ملخصات المعانى وقيل ظاهرات الاعجاز (قال الذين كفروا) بآيات ربهم البينة جهلا منهم ونظرا الى ظاهر الحياة الدنيا الذى هو مبلغهم من العلم (للذين آمنوا) اى لاجلهم أو مواجهة لهم اعراضا عن الاستدلال بالآيات بالاقبال على هذه الشبهة الواهية وهى المفاخرة بالمكاثرة فى الدنيا من قولهم (اى الفريقين) نحن بما لنا من الاتساع أم أنتم بما لكم من خشونة العيش ورثاثة الحال ولو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن من حالنا لان الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين فى الذل وأعداءه المعرضين عن خدمته فى العز والراحة وانما كان الامر بالعكس فان الكفار كانوا فى النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا فى ذلك الوقت فى الخوف والقلة هذا حاصل شبهتهم والقائل ذلك هو النضر بن الحرث وذووه من قريش للذين آمنوا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكان فيهم قشافة وفى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويلبسون خير ثيابهم فقالوا للمؤمنين اى الفريقين (خير مقاما) اى موضع قيام أو اقامة على قراءة ابن كثير بضم الميم والباقون بفتحها فى كلتا القراءتين يحتمل أن يكون اسم مصدر واسم مكان اما من قام ثلاثيا أو من أقام ❊ (تنبيه) ❊ قالوا زيد خير من عمرو وشر من بكر ولم يقولوا أخير منه ولا أشر منه لان هاتين اللفظتين كثر استعمالهما فحذفت همزتاهما ولم يثبتا الا فى فعل التعجب فقالوا ما أخير زيدا وأشرر بعمرو وما أخير زيدا وما أشر عمرا والعلة فى اثباتهما فى فعل التعجب ان استعمال هذين اللفظين اسما أكثر من استعمالهما فعلا فحذفت الهمزة فى موضع الكثرة وبقيت على أصلها فى موضع القلة (وأحسن نديا) اى مجمعا ومتحدثا والندى المجلس يقال ندى وناد والجمع الاندية ومنه وتأتون فى ناديكم المنكر وقال تعالى فليدع ناديه ويقال

مع أن النجوى المسارة (قلت) بالغوا فى اخفاء المسارة بحيث لم يفهم أحد تناجيهم وسارهم تفصيلا ولا اجمالا (قوله وما أرسلنا قبلك) قال هذا مستأنف من تتمة ما قبلها

ندوت القوم أندوهم اذا جمعتهم فى مجلس ومنه دار الندوة وكانت تجمع القوم بها فلو اذالك الامتحان بالانعام والاحسان دليلا على رضا الرحمن مع التكذيب والكفران وغفلوا عن أن فى ذلك مع التكذيب بالبعث تكذيبا بآيات اهدوت منا من القدرة على العقاب باحلال النقم وسلب النعم ولو شئنا لاهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به (وكم أهلكنا قبلهم) ثم بين ابهام كم بقوله (من قرن) شاهدوا ديارهم ورأوا آثارهم (هم) اى أهل تلك القرون (أحسن) من هؤلاء (أثاثا) اى أمتعة (ورئيا) اى ومنظرا فلو دل حصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيب الله لوجب أن لا يصل الى هؤلاء نعم فى الدنيا وقرأ قالون وابن ذكوان بابدال الهمزة ياء وادغامها فى الياء وقفا ووصلا واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء وله فيها الادغام والاظهار • (تنبيه) • كم مفعول أهلكنا قدم وجب التقديم لان له صدر الكلام لانها اما استفهامية او خبرية وهى محمولة على الاستفهامية اى كثيرا من القرون أهلكنا ومن قرن تمييز لكم مبين لها وانما سمى أهل كل عصر قرنا لانهم يتقدمون من بعدهم وقول البيضاوى وهم احسن صفة لكم تبع فيه الزمخشرى وغيره ورد بان كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها فهم أحسن فى محل جر صفة لقرن وجمعه نظرا للمعنى لان القرن مشتمل على أفراد كثيرة • ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهؤلاء المبعدين ردا عليهم وقطعا لمعاذيرهم وهتكا لشبههم هذا الذى افتخرتم به لا يدل على حسن الحال فى الآخرة بل على عكس ذلك فقد جرت عادته تعالى انه (من كان فى الضلالة) مثلكم كونا راسخا بسط له فى الدنيا وطيب عيشه فى ظاهر الحال فيها ونعم بانواع الملاذ وقوله (فليمدد له الرحمن مدا) أمر بمعنى الخبر معناه فندعه فى طغيانه ونمهله فى كفره بالبسط فى الآثار والسعة فى الديار والطول فى الاعمار وانفاقها فيما يستلذ به من اكل وزار ولا يزال يمد له استدراجا (حتى اذا رأوا) اى كل من كفر باعينهم (ما يوعدون) من قبل الله (اما العذاب) فى الدنيا بايدى المؤمنين وغيرهم او فى البرزخ (واما الساعة) أى القيامة التى هم بها مكذبون وعن الاستعداد لها معرضون ولا شئ يشبه أهوالها وخزيها ونكالها (فسيعلمون) اذا رأوا ذلك (من هو شر مكانا) اى من جهة المكان الذى قوبل به المقام فى قولهم خير مقاما (وأضعف جندا) اى اقل ناصرا أهم أم المؤمنون اى أضعف من جهة الجند اى الذى أشير به الى الندى فى قولهم وأحسن نديا لانهم فى النار والمؤمنون فى الجنة فهذا رد عليهم فى قولهم اى الفريقين خير مقاما واحسن نديا (ويزيد الله الذين اهتدوا) الى الايمان (هدى) بما ينزل عليهم من الآيات عوض ما زوى عنهم من الدنيا اكراما لهم عندنا بما بسط للضلال اهوانا لهم عليه • واشار الى ان مثل ما خذل أولئك بالنوال وفق هؤلاء لمحاسن الاعمال باقلال الاموال فقال عز من قائل (والباقيات الصالحات) أى الطاعات والمعارف التى شرحت لها الصدور وأنارت بها القلوب وأوصلت الى علام الغيوب (خير عند ربك) مما متع به الكفرة والخيرية هنا فى مقابلة قولهم أى الفريقين خير مقاما وقيل الباقيات الصالحات هى الصلوات وقيل التسبيح روى أبو الدرداء قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأخذ عودا يابسا وأزال الورق عنه ثم قال ان قول لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله يحط الخطايا كما يحط ورق

من قوله قبل ما آمنت قبلهم من قرية وقاله بعد ذكرها جريا على الاصل (قوله فاسئلوا اهل الذكر) أمر مشركى مكة بان يسألوا اهل الذكر اى اهل الكتاب عمن مضى من الرسل هل

هذه الشجرة الرجح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن الباقيات الصالحات وهي من كنوز الجنة فكان أبو الدرداء يقول لأعملن ذلك ولأكثرن عمله حتى إذا رآني الجهال حسبوا أني مجنون قال الرازي والقول الأول أولى لأنه تعالى إنما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها فلا تختص ببعض العبادات فهي أمرها باقية صالحة نظرا إلى أثرها الذي هو الهداية ثم بين تعالى خيريتها بقوله تعالى (ثوابا) أي من جهة الثواب (وخير مردا) أي من جهة العاقبة يوم الحسرة (فإن قيل) لا يجوز أن يقال هذا خير إلا والمراد أنه خير من غيره والذي عليه الكفار لا خير فيه أصلا (أجيب) بأن المراد خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاما وأحسن نديا وقيل هو كقولهم الصيف أحر من الشتاء بمعنى أنه في حره أبلغ منه في برده فالكفرة يردون إلى فناء وخسارة والمؤمنون إلى ربح وبقاء ولما ذكر تعالى الدلائل أولا على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها أورد عليهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنا في القول بالحشر فقال تعالى (أفرأيت الذي) أي الذي يعرض عن هذا اليوم ويزيد على ذلك بأن (كفر بآياتنا) الدالات على عظمتنا بالدلالات البينات (وقال) جرأة منه وجهلا (لأوتين) أي والله لأوتين في الساعة على تقدير قيامها (مالا وولدا) أي عظيمين فلم يكفه في جهله تعجيز القادر حتى ضم إليه اقتدار العاجز وقرأ حمزة والكسائي وولدا وكذا ولدا في جميع ما في هذه السورة بضم الواو وسكون اللام والباقون بفتح الواو واللام في الجميع يقال ولد وولد كما يقال عرب وعرب وعدم وعدم أما القراءة بفتحتين فواضحة وهو اسم مفرد قائم مقام الجمع وأما قراءة الضم والإسكان فقيل هي كالتي قبلها في المعنى وقيل بل هي جمع لولد نحو أسد وأسد وأنشدوا على ذلك

ولقد رأيت معاشرا • قد أثمروا مالا وولدا

وأنشدوا شاهدا على أن الولد والولد مترادفان قول الآخر

فليت فلانا كان في بطن أمه • وليت فلانا كان ولد حماره

ولما كان ما ادعاه لا علم به إلا لأحد أمرين لا علم له بواحد منهما أنكر قوله ذلك بقوله تعالى (أطلع الغيب) الذي هو غائب عن كل مخلوق فهو في بعده عن الخلق كالعالي الذي لا يمكن أحدا منهم الاطلاع إليه وتفرد به الواحد القهار (أم اتخذ) أي بغاية جهده (عند الرحمن عهدا) عاهده عليه بأن يؤتيه ما ذكر بطاعة فعلها على وجهها ليفي سبحانه وتعالى فيه عند قوله وقيل في العهد كلمة الشهادة وعن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول وعن الكلبي هل عهد الله إليه أن يؤتيه ذلك وعن الحسن رحمه الله تعالى نزلت في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في العاص بن وائل قال خباب بن الأرت كان لي عليه دين فاقتضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا أكفر بمحمد حيا ولا ميتا ولا حين تبعث قال فإني إذا مت بعثت قلت نعم قال إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك وقيل صاغ له خباب حليا فاقتضاه الأجر فقال إنكم تزعمون أنكم تبعثون وأن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا فأنا أقضيك ثم فإني أوتى مالا وولدا فأعطيك حينئذ ثم إنه سبحانه وتعالى بين من حاله ضد ما ادعاه فقال تعالى (كلا) وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطإ أي هو مخطئ فيما يقوله ويتمناه (سنكتب) أي نحفظ عليه (ما يقول) فنجازيه به في الآخرة وقيل نأمر الملائكة حتى يكتبوا عليه ما يقوله (ونمد له من العذاب مدا)

كانوا بشرا أو ملائكة (فإن قلت) كيف أمرهم بذلك مع أنهم قالوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه (قلت) لا مانع من ذلك إذ الإخبار بعدم الإيمان بشيء لا يمنع أمرهم بالإتيان

اى نزيده بذلك عذابا فوق عذاب كفره وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه) بموته (ما يقول) اى ما عنده من المال والولد (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لا يصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا فضلا أن يؤتى ثم زائدا قال تعالى ولقد جئتمونا فرادى وقيل فردا رافضا لهذا القول منفردا عنه ولما تكلم سبحانه وتعالى فى مسئلة الحشر والنشر تكلم الآن فى الرد على عباد الاصنام فقال (واتخذوا) اى كفار قريش (من دون الله) اى الاوثان (آلهة) يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) اى منعة بحيث يكونون لهم شفعاء وانصارا ينقذونهم من الهلاك ثم اجاب تعالى بقوله تعالى (كلا) ردع وانكار لتعززهم بها (سيكفرون بعبادتهم) اى ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا كقوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وفى آية اخرى ما كانوا ايانا يعبدون وقيل اراد بذلك الملائكة لانهم كانوا يكفرون بعبادتهم ويتبرؤن منهم ويخصمونهم وهو المراد من قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وقيل ان الله تعالى يحيي الاصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ويجوز ان يراد الملائكة والاصنام (ويكونون عليهم ضدا) اى أعوانا واعداء (فان قيل) لم وحده وهو خبر عن جمع (أجيب) بانه اما مصدر فى الاصل والمصادر موحدة مذكرة واما لانه مفرد فى معنى الجمع قال الزمخشرى والضد العون وحد توحيد قوله عليه الصلاة والسلام وهم يد على من سواهم لاتفاق كلمتهم وأنهم كشئ واحد لفرط تضامهم وتوافقهم انتهى والحديث رواه أبو داود وغيره والشاهد فيه قوله يد حيث لم يقل أيد ولما ذكر تعالى حال هؤلاء الكفار مع آلهتهم فى الآخرة ذكر بعده حالهم مع الشياطين فى الدنيا وأنهم يتولونهم وينقادون اليهم فقال تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم (ألم تر) اى تنظر (أنا أرسلنا) اى سلطنا (الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا) الاز والهز والاستفزاز أخوات ومعناها التهييج وشدة الازعاج اى تغريهم على المعاصى وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات (فلا تعجل عليهم) اى تطلب عقوبتهم بان يهلكوا او يبيدوا حتى تستريح انت والمسلمون من شرورهم (انما نعد لهم عدا) اى ليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم الا أيام محصورة وانفاس معدودة ونظيره قوله تعالى ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ وعن ابن عباس كان اذا قرأها بكى وقال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق أهلك وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد وقيل نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها او كثيرها وقيل نعد الاوقات الى وقت الاجل المعين لكل أحد الذى لا يتطرق اليه الزيادة والنقصان ثم بين تعالى ما سيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين فى كيفية الحشر فقال (يوم) اى واذكر يوم (نحشر المتقين) باعمالهم (الى الرحمن) اى الى محل كرامته وقوله تعالى (وفدا) حال اى وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم والوفد الجماعة الوافدون يقال وفد يفد وفدا ووفودا ووفادة اى قدم على سبيل التكرمة فهو فى الاصل مصدر ثم أطلق على الاشخاص كالصف وقال أبو البقاء وفد جمع وافد مثل ركب وراكب

وصحب

به ولو سلم فهم وان لم يؤمنوا بكتاب اهل الكتاب لكن النقل المتواتر من اهل الكتاب فى امر يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم ولمن لا يؤمن به (قوله ولا ينصرون) اى لا يعينون (قوله وجعلنا

وصحب وصاحب وهذا الذي قاله ليس بمذهب سيبويه لان فاعلا لايجمع على فعل عند سيبويه وأجازه الاخفش وجرى عليه الجلال المحلي فقال وفد جمع وافد بمعنى راكب انتهى وقال ابن عباس وفدا ركبانا وقال أبو هريرة على الابل وقال على رضي الله تعالى عنه والله ما يحشرون على أرجلهم ولكن فوق نوق رحالها الذهب ونجائب سروجها يواقيت ان هموا بها سارت وان هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) بكفرهم (الى جهنم) وقوله تعالى (وردا) حال اى مشاة باهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق الى الماء وقيل عطاشا قد تقطعت أعناقهم من شدة العطش لان من يرد الماء لايرد الا بعطش وحقيقة الورود المسير الى الماء وقوله تعالى (لا يملكون الشفاعة) الضمير فيه للعباد المدلول عليها بذكر المتقين والمجرمين وقيل للمتقين وقيل للمجرمين وقوله تعالى (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) استثناء متصل على القولين الاولين منقطع على الثالث والمعنى أن الشافعين لايشفعون الا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا كقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى ويدخل في ذلك أهل الكبائر من المسلمين اذ كل من اتخذ عند الرحمن عهدا وجب دخوله فيه وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهدا وهو التوحيد فوجب دخوله تحته ويؤيده ما روى عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم ان يتخذ عند كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك بانى أشهد ان لا اله الا أنت وحدك لاشريك لك وان محمدا عبدك ورسولك فلا تكلني الى نفسي فانك ان تكلني الى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير وانى لا أثق الا برحمتك فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة فظهر أن المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه الدلالة على ثبوت الشفاعة لاهل الكبائر ° ولما رد سبحانه وتعالى على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من أثبت له ولدا بقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) اى قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيأ ادا) قال ابن عباس اى منكرا وقال قتادة اى عظيما وقال ابن خالويه الادو الادة العجب وقيل العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر وآدني أثقلني وعظم على وقرأ (تكاد السموات) نافع والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وقرأ (ينفطرن منه) أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففا والباقون بعد الياء بتاء وفتح الطاء مشددة يقال انفطر الشئ وتفطر اى تشقق وقراءة التشديد أبلغ لان التفعل مطاوع فعل والانفعال مطاوع فعل ولان أصل التفعل التكلف (وتنشق الارض) اى تخسف بهم (وتخر الجبال هدا) اى تسقط وتنطبق عليهم (أن) اى من اجل أن (دعوا للرحمن ولدا) قال ابن عباس وكعب فزعت السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت ان تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا (فان قيل) كيف يؤثر القول في انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال

من الماء كل شئ حي) ° ان قلت كيف قال ذلك الشامل لقوله في النور والله خلق كل دابة من ماء مع ان لنا أشياء أحياء لم تخلق من الماء وهم الملائكة والجن وآدم وناقة صالح اذ الملائكة خلقت من نور والجن من

(أجيب) بوجوه الاول أن الله تعالى يقول كدت افعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها لولا حلمى وانى لا اعجل بالعقوبة الثانى ان يكون استعظاما للكلمة وتهويلا وتصوير الاثرها فى الدين وهدمها لقواعده واركانه الثالث ان السموات والارض والجبال تكاد ان تفعل كذلك لو كانت تعقل هذا القول ثم نفى الله تعالى عن نفسه الولد بقوله تعالى (وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا) اى ما يليق به اتخاذ الولد لان ذلك محال اما الولادة المعروفة فلا مقالة فى امتناعها وأما التبنى فان الولد لابد وأن يكون شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى لان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض اما من سرور او استعانة او ذكر جميل وكل ذلك لا يصح فى حق الله تعالى (ان) اى ما (كل من فى السموات والارض) اى ان كل معبود من الملائكة فى السموات والارض من الناس منهم العزير وعيسى (الا آتى الرحمن) اى ملتجئ الى ربوبيته (عبدا) منقادا مطيعا ذليلا خاضعا كما يفعل العبيد ومن المفسرين كالجلال المحلى من حمله على يوم القيامة خاصة والاول أولى لانه لا تخصيص فى الآية (لقد احصاهم) اى حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوزه وعلمه وقبضته وقدرته وكلهم تحت تدبيره وقهره (وعدهم عدا) اى عد اشخاصهم وأيامهم وأنفاسهم وأفعالهم فان كل شئ عنده بمقدار لا يخفى عليه شئ من أمورهم (وكلهم آتيه) اى كل واحد منهم يأتيه (يوم القيامة فردا) اى وحيدا ليس معه من الدنيا شئ من مال او نصير يمنعه * ولما رد سبحانه وتعالى على اصناف الكفرة وبالغ فى شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر احوال المؤمنين فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) اى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها من قرابة او صداقة او اصطناع معروف أو غير ذلك روى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبدا يقول لجبريل احببت فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء قد أحب الله فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم توضع له المحبة فى الارض واذا أبغض الله العبد قال مالك لا أحسبه الا قال فى البغض مثل ذلك والسين فى سيجعل اما لان السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك اذا قوى الاسلام والمعنى سيحدث لهم فى القلوب مودة واما ان يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الله الى خلقه بما يظهر من حسناتهم وروى عن كعب قال مكتوب فى التوراة لا محبة لاحد فى الارض حتى يكون ابتداؤها من السماء من الله عز وجل ينزلها على اهل السماء ثم على اهل الارض ومصداق ذلك فى القرآن قوله سيجعل لهم الرحمن ودا وقال ابو مسلم معناه يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء * ولما ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة التوحيد والنبوة والحشر والرد على فرق المبطلين بين تعالى انه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله (فانما يسرناه) اى القرآن (بلسانك) اى العربى اى لولا أنه تعالى نقل قصصهم الى اللغة العربية لما تيسر ذلك لك (لتبشر به المتقين) اى المؤمنين (وتنذر) اى تخوف (به قوما لدا) جمع ألد اى جدل بالباطل وهم كفار مكة ثم انه تعالى ختم السورة بموعظة عظيمة بليغة فقال تعالى (وكم) اى كثيرا (اهلكنا قبلهم من قرن) اى أمة من الامم الماضية بتكذيب الرسل لانهم اذا تأملوا وعلموا أنه لابد من زوال الدنيا وانه لابد فيها من الموت وخافوا سوء

العاقبة

نارا ادم من تراب وناقة صالح من حجر لا من ماء (قلت) المراد به البعض كما فى قوله تعالى وأوتيت من كل شئ وقوله وجاءهم الموج من كل مكان او الكل مخلوق من الماء لان الله خلق قبل

العاقبة فى الآخرة كانوا الى الحذر من المعاصى اقرب * ثم أكد ذلك بقوله تعالى (هل تحس) اى ترى وقيل تجد (منهم من احد او تسمع لهم ركزا) اى صوتا خفيا الاصل الحس بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا اثر اى فكما اهلكنا اولئك نهلك هؤلاء * (تنبيه) * الركز الصوت الخفى دون نطق بحروف ولا فم ومنه ركز الرمح اى غيبه فى الارض وأخفاه * ومنه الركاز وهو المال المدفون لخفائه واستتاره والحديث الذى ذكره البيضاوى تبعا للزمخشرى وهو من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى وعيسى ومريم وسائر الانبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى حديث موضوع

سورة طه عليه الصلاة والسلام مكية

وهى مائة وخمس وثلاثون آية وعدد كلماتها الف وثمانمائة واحدى واربعون كلمة وعدد حروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان واربعون حرفا وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السورة التى ذكرت فيها البقرة من الذكر الاول واعطيت طه ويس والطواسين من الواح موسى واعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التى ذكرت فيها البقرة من تحت العرش واعطيت المفصل نافلة

(بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) الذى عم نعمه على خلقه اجمعين (الرحيم) الذى خص بجنته عباده المؤمنين وقرأ (طه) شعبة وحمزة والكسائى باماله الطاء والهاء وافقهم ورش وابو عمرو على امالة الهاء محضة ولم يمل ورش محضة الا هذه الهاء وقد تقدم الكلام فى الحروف المقطعة فى اول سورة البقرة وفى هذه هنا قولان الصحيح انها من ثلاث وقيل انها كلمة مفيدة اما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه فى اول سورة البقرة والذى زادوه هنا امورا احدها قال الثعالبى الطاء شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه اقسم بالجنة والنار ثانيها يحكى عن جعفر الصادق الطاء طهارة اهل البيت والهاء هدايتهم ثالثها قال سعيد بن جبير هذا افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادى رابعها طمع الشفاعة للامة وهادى الخلق الى الملة خامسها الطاء من الطهارة والهاء من الهداية فكأنه قيل يا طاهرا من الذنوب يا هاديا الى علام الغيوب سادسها الطاء طول القراء والهاء هيبتهم فى قلوب الكفار قال تعالى سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب سابعها الطاء بتسعة فى الحساب والهاء بخمسة تكون اربعة عشر ومعناها يا أيها البدر واما على القول الثانى فقيل معنى طه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى * ثم قال سعيد بن جبير بالنبطية وقال قتادة بالسريانية وقال عكرمة بالحبشية وقال الكلبى بلغة عك وهو بتشديد الكاف ابن عدنان أخو معد وحكى الكلبى انك لو قلت فى عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه وقال السدى معناه يا فلان وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان يقوم فى تهجده على احدى رجليه فأمر أن يطأ الارض بقدميه معا وقال الكلبى لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى بمكة اجتهد فى العبادة حتى كان يراوح بين قدميه فى الصلاة لطول قيامه وكان يصلى الليل كله فانزل الله عليه هذه الآية وأمره ان يخفف على نفسه فقال تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن

خلق الانسان جوهرة
ونظر اليها نظر هيبة
فاستحالت ماء فخلق من
ذلك الماء جميع المخلوقات
او خلقهم من الماء اما
بواسطة او بغيرها ولهذا
قيل انه تعالى خلق

(لتشقى) اى لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل اى خفف عن نفسك فقد ورد انه صلى الله عليه وسلم صلى الليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا ما أنزلناه لتنهك نفسك بالصلاة وتذيقها المشقة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وروى انه كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقيل لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا انك لتشقى حيث تركت دين آبائك اى لتتعنى وتتعب وما أنزل عليك القرآن يا محمد الا لشقائك فنزلت واصل الشقاء في اللغة العناء وقيل المعنى انك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله تعالى وما أنت عليهم بوكيل اى انك لا تؤاخذ بذنبهم وقيل ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت مقهورا تحت ذل الاعداء فكأنه تعالى قال لا تظن انك تبقى أبدا على هذه الحالة بل يعلو امرك و يظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل لتصير معظما مكرما وقرأ حمزة والكسائي بالامالة وأبو عمرو بين بين و ورش بين اللفظين والفتح عنده ضعيف جدا وكذلك جميع رؤس آى هذه السورة من ذوات الياء وقوله تعالى (الا تذكرة) استثناء منقطع اى لكن انزلناه تذكرة قال الزمخشرى فان قلت هل يجوز ان يكون تذكرة بدلا من محل لتشقى قلت لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذى الا فيه بمعنى لكن (لمن يخشى) اى لمن في قلبه خشية و رقة يتأثر بالانذار أو لمن علم الله تعالى منه أن يخشى بالتخويف منه فانه المنتفع به وقوله تعالى (تنزيلا) بدل من اللفظ بفعله الناصب له (ممن خلق الارض) اى من الله الذى خلق الارض (والسموات العلى) اى العالية الرفيعة التى لا يقدر على خلقها فى عظمها غير الله تعالى والعلى جمع عليا كقولهم كبرى وكبر وصغرى وصغر وقدم الارض على السموات لانها أقرب الى الحس واظهر عنده من السموات ثم اشار الى وجه احداث الكائنات وتدبير امرها بان قصد العرش وأجرى منه الاحكام والتقادير وانزل منه الاسباب على ترتيب ومقادير حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال تعالى (الرحمن على العرش) وهو سرير الملك (استوى) اى استواء يليق به فانه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان واذا خلق الله الخلق لا يحتاج الى مكان فهو بالصفة التى كان لم يزل عليها وتقدم الكلام على ذلك فى سورة الاعراف مستوفى فراجعه ثم استدل سبحانه وتعالى على كمال قدرته بقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى) فهو مالك لما فى السموات من الشمس والقمر والنجوم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى وهو التراب الندى والمراد الارضون السبع لانها تحته وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهى الصخرة التى ذكر الله تعالى فى قصة لقمان فتكن فى صخرة والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى لا يعلمه الا الله عز وجل وذلك الثور فاتح فاه فاذا جعل الله تعالى البحار بحرا واحدا سالت فى جوف ذلك الثور فاذا وقعت فى جوفه يبست وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة و ورش بين اللفظين وكذا جميع رؤس آى السورة من ذوات الراء ولما كانت القدرة تابعة للارادة وهى لا تنفك عن العلم عقب

ذات

الملائكة من ريح خلقها
من الماء والجن من نار
خلقهم من الماء وآدم من
تراب خلقه من الماء (قوله
كل نفس ذائقة الموت)
الى قوله والينا ترجعون
اى الى الجنة او النار

ذلك باحاطة علمه تعالى بجليات الامور وخفياتها على حد سواء فقال تعالى (وان تجهر بالقول) اى تعلن بالقول فى ذكر او دعاء فالله تعالى غنى عن الجهر به (فانه يعلم السر واخفى) قال الحسن فى السر ما اسر الرجل الى غيره واخفى من ذلك ما اسر فى نفسه وعن ابن عباس السر ما تسر فى نفسك واخفى من السر ما يلقيه الله تعالى فى قلبك من بعد ولا تعلم انك ستحدث به نفسك لانك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما اسررت اليوم وما تسر غدا وقال على ابن ابى طلحة عن ابن عباس السر ما اسر ابن آدم فى نفسه واخفى ما خفى عليه مما هو فاعله قبل ان يعلمه وقال مجاهد السر العمل الذى يسر من الناس واخفى الوسوسة وقيل السر هو العزيمة واخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه وقال زيد بن اسلم يعلم اسرار العباد واخفى سره من عباده فلا يعلمه احد ولما ذكر صفاته وحد نفسه فقال تعالى (الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) التسعة والتسعون الوارد بها الحديث والحسنى تأنيث الاحسن وفضل اسماء الله تعالى على سائر الاسماء فى الحسن لدلالتها على معان هى اشرف المعانى وافضلها روى ان لله تعالى اربعة آلاف اسم ألف لا يعلمها الا هو وألف لا يعلمها الا الله والملائكة وألف لا يعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابعة فالمؤمنون يعلمونها فثلثمائة فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى القرآن تسعة وتسعون منها ظاهرة وواحد مكنون من أحصاها دخل الجنة وذكر فى لا اله الا الله فضائل كثيرة اذكر بعضها واسأل الله تعالى ان يجعلنا ومحبينا من أهلها روى انه صلى الله عليه وسلم قال أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء أستغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل ان يخلق السموات والارض وهو يقول أشهد ان لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر اسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله وعن أنس قال صلى الله عليه وسلم ما زلت أشفع الى ربى ويشفعنى واشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يا رب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله فقال يا محمد ليست لك ولا لاحد وعزتى وجلالى لا أدع أحدا فى النار قال لا اله الا الله وقال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق فقال الحاء حلمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله عز وجل بحلمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا أعذب بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وروى عن موسى عليه السلام انه قال يا رب علمنى شيأ أذكرك به قال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيأ تخصنى به قال يا موسى لو أن السموات السبع ومن فوقهن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انها لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما أعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال فى السوق لا اله الا الله وحده

قال ذلك هنا بالواو موافقة للتعبير بها فيما زاده هنا بقوله ونبلوكم بالشر والخير فتنة وقاله فى العنكبوت بثم لدلالتها على تراخى الرجوع المذكور وعن بلوى الدنيا ولم يتقدم ما

لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا في الجنة قال الرازي وفي التذكرة ينبغي لاهل لا اله الا الله ان يعظموا في أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والحلاوة والحرمة فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرمة فهو فاجر وكذاب * وحكي ان بشرا الحافي رأى كاغدا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك فرأى في النوم كأنه نودي يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة * وذكر ان صيادا كان يصيد السمك وكانت ابنته تطرحها في الماء وتقول انما وقعت في الشبكة لغفلتها الهنا تلك الصبية كانت ترحم غفلتها وكانت تلقيها مرة أخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة الشيطان وأخرجنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منه والقنا في بحار رحمتك مرة أخرى وعن محمد بن كعب القرظي قال قال موسى الهي اي خلقك أكرم عليك قال الذي لا يزال لسانه رطبا من ذكري قال فاي خلقك أعظم قال الذي يلتمس الى علمه علم غيره قال فاي خلقك أعدل قال الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس قال وأي خلقك اعظم جرما قال الذي يتهمني وهو الذي يسألني ثم لا يرضى بما قسمت له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما لا تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أفعالنا وأعمالنا وعن الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال اين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادي مناد اين الحامدون الله كثيرا على كل حال ثم يكون الحساب على من بقي الهنا نحن حمدناك واثنينا عليك بمقدار طاقتنا ومنتهى قدرتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين * ولما عظم الله تعالى حال القرآن وحال رسوله صلى الله عليه وسلم بما كلفه أتبع ذلك بما يقوي قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من ذكر احوال الانبياء تقوية لقلبه في الابلاغ كقوله تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لان فتنته كانت أعظم الفتن ليتسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويصبر على تحمل المكاره فقال تعالى (وهل أتاك حديث موسى) وهذا يحتمل لان يكون هذا اول ما اخبره من امر موسى فقال وهل أتاك اي لم يأتك الى الآن فتنبه له وهذا قول الكلبي ويحتمل ان يكون قد اتاه ذلك في الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد اتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس وهذا وان كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الخبر في نفسه وهذه الصورة ابلغ في ذلك كقولك لصاحبك هل بلغك عني كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يومئ اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل موسى لا من قبل الله تعالى وقيل ان هل بمعنى قد وجرى على ذلك الجلال المحلي تبعا للبغوي وقوله تعالى (اذ رأى) يجوز ان يكون منصوبا بالحديث وهو الظاهر ويجوز ان ينصب باذكر مقدرا اي واذكر اذ رأى (نارا) وذلك ان موسى عليه السلام استأذن شعيبا عليه السلام في الرجوع من مدين الى مصر لزيارة والدته واخته فاذن له فخرج باهله وماله وكانت أيام شتاء واخذ على غير الطريق مخافة

تعجب بواو وحذف ثم مازاده هنا اختصارا (قوله بل فعله كبيرهم هذا) قاله استهزاء وتهكما بهن استفهموا الافعاله هو نفسه أو انه لما كان الحامل له على الفعل تعظيمهم

ملوك الشام وامرأته حامل فى شهرها لاتدرى ليلا تضع او نهارا فسار فى البرية غير عارف بطرقها فالجأه المسير الى جانب الطور الغربى الايمن فى ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد قيل كانت ليلة جمعة واخذت امرأته فى الطلق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وجعل يقدح زنده فلا يورى فابصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) اى أقيموا فى مكانكم والخطاب لامرأته وولدها والخادم ويجوز ان يكون للمرأة وحدها خرج على ظاهر لفظ الاهل فان الاهل يقع على الجمع وايضا قد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيما وقرأ حمزة بضم الهاء فى الوصل والباقون بالكسر (انى آنست) اى أبصرت (نارا) والايناس الابصار البين الذى لا شبهة فيه ومنه انسان العين لانه يتبين به الشئ والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل ابصار ما يؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان متيقنا حققه لهم بكلمة انى ليوطن انفسهم ولما كان الاتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال (لعلى آتيكم منها بقبس) اى شعلة فى رأس فتيلة او عود ونحو ذلك وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء فى انى ولعلى الآتية والباقون بالسكون الا ابن عامر ففتح لعلى مع من ذكروهم على مراتبهم فى المد (أو اجد على النار هدى) اى هاديا يدلنى على الطريق ومعنى الاستعلاء فى على النار ان اهل النار يستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه فى مررت بزيد انه لصوق بمكان يقرب من زيد أو لان المصطلين بها اذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها وقال بعضهم النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهى التى فى الشجر الاخضر كما قال تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهى نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل ايضا النار أربعة أحدها نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام ثانيها لها حرقة بلا نور وهى نار جهنم أعاذنا الله تعالى منها ثالثها لها الحرقة والنور وهى نار الدنيا رابعها لا حرقة ولا نور وهى نار الاشجار (تنبيه) ان وصلت هدى بقلما فليس فيها الا التنوين للجميع وان وقف عليها فهم على أصولهم فى الفتح والامالة وبين اللفظين (فلما أتاها) اى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتقد كاضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة يغير ضوء النار قال ابن مسعود كانت الشجرة سمرة خضراء وقال مقاتل وقتادة والكلبى كانت من العوسج وقال وهب كانت من العليق وقيل من العناب قال أكثر المفسرين ان الذى رآه موسى لم يكن نارا بل كان من نور الرب تعالى وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما ذكر بلفظ النار لان موسى عليه السلام حسبه نارا فلما دنا منها سمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب ظن موسى انها نار أوقدت فاخذ من دقاق الحطب وهو الحشيش اليابس ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن باسرع من خمودها كأنها لم تكن ثم رمى موسى ببصره الى فروعها فاذا خضرتها ساطعة فى السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى عليه السلام ذلك وضع يده على عينيه وألقيت عليه السكينة (نودى ياموسى انى

للاصنام وكان كبيرها
أبعثه على الفعل لمزيد
تعظيمهم له أسند الفعل
اليه لانه السبب فيه (قوله
يا نار كونى بردا وسلاما
على ابراهيم) فان قلت
كيف خاطب النار مع انها

أنا ربك) قال وهب نودي من الشجرة فقيل ياموسى فاجاب سريعا ولم يدر من دعاه فقال اني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فاين أنت فقال انا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب اليك منك فعلم ان ذلك لا ينبغي الا لله تعالى فايقن به وقيل انه سمع بكل اجزائه حتى ان كل جارحة منه كانت أذنا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة من اني على تقدير الباء اي باني لان النداء يوصل بها تقول ناديته بكذا وأنشد الفارسي قول الشاعر

ناديت باسم ربيعة بن مكدم • ان المنوه باسمه الموثوق

وجوز ابن عطية ان تكون بمعنى لاجل وليس بظاهر والباقون بالكسر اما على اضمار القول كما هو رأي البصريين اي فقيل واما لان النداء في معنى القول عند الكوفيين وقوله تعالى انا يجوز ان يكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبران ويجوز أن يكون توكيدا للضمير المنصوب ويجوز أن يكون فصلا وروى ابن مسعود مرفوعا في قوله تعالى (فاخلع نعليك) انهما كانا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ فامر بخلعهما صيانة للوادي المقدس وقال عكرمة ومجاهد انما أمر بذلك ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة فيناله بركتها ويدل لذلك انه قال تعالى عقبه (انك بالوادي المقدس) اي المطهر أو المبارك فخلعهما وألقاهما من وراء الوادي هذا ما قاله أهل التفسير وذكر أهل الاشارة في ذلك وجوها أحدها ان النعل في النوم يعبر بالزوجة وقوله فاخلع نعليك اشارة الى انه لا يلتفت بخاطره الى الزوجة والولد وان لا يبقى مشغول القلب بامرهما ثانيها المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه أمره ان يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى فلا يلتفت الى المخلوقات ثالثها ان الانسان حال الاستدلال على وجود الصانع لا يمكنه ان يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل ان يقول العالم المحسوس محدث وكل ما كان كذلك فله مؤثر ومدبر وصانع فهاتان المقدمتان شبيهتان بالنعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر في الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب ان لا يبقى ملتفتا الى تلك المقدمتين فكانه قيل لا تكن مشتغل الخاطر بتلك المقدمتين فانك وصلت الى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله تعالى وقوله تعالى (طوى) بدل أو عطف بيان وقرأه هنا وفي النازعات نافع وابن كثير وأبو عمرو بغير تنوين فهو ممنوع من الصرف باعتبار البقعة مع العلمية وقيل لانه معدول عن طاو فهو مثل عمر للعدل عن عامر وقيل انه اسم أعجمي ففيه العلمية والعجمة والباقون بالتنوين فهو مصروف باعتبار المكان ففيه العلمية فقط وعند هؤلاء ليس باعجمي وقوله تعالى (وأنا اخترتك) اي اصطفيتك للرسالة من قومك قرأ حمزة بتشديد النون من أنا وقرأ اخترناك بنون بعدها ألف بلفظ الجمع والباقون بتاء مضمومة وقوله تعالى (فاستمع لما يوحى) اي اليك مني فيه نهاية الهيبة والجلالة كأنه تعالى قال لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا اليه وفي قوله تعالى وأنا اخترتك نهاية اللطف والرحمة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف • (تنبيه) • يجوز في لام لما ان تتعلق باستمع وهو أولى وان تكون مزيدة في المفعول على حد قوله تعالى ردف لكم وجوز الزمخشري ان يكون ذلك من باب التنازع ونازعه أبو حيان بانه لو كان كذلك لاعاد الضمير مع الثاني فكان يقول فاستمع له لما يوحى وأجيب عنه بان مراده

(قلت) خطاب لا لتعقل والتكوين التمويل لا يختص بمن يعقل كما قال تعالى يا جبال أوبي معه وقال فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها وقال وقيل يا أرض ابلعي ماءك الآية (قوله وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين)

التعلق المعنوى من حيث الصلاحية وأما تقدير الصناعة فلا يعنه وقوله تعالى (انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى) بدل مما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذى هو منتهى العلم والامر بالعبادة التى هى كمال العمل وفى هذه الآية دلالة على ان علم أصول الدين مقدم على علم الفروع لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وأيضا فالفاء فى قوله تعالى فاعبدنى تدل على ان عبادته انما لزمت لالهيته وخص الصلاة بالذكر وأفردها فى قوله تعالى (وأقم الصلوة لذكرى) للعلة التى أناط بها اقامتها وهو تذكير المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وقيل لذكرى لانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها وقيل لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أولذكر صلاتى لما روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها اذا ذكرها ان الله يقول وأقم الصلاة لذكرى وقيل لأن أذكرك بالثناء والمدح واجعل لك عليها لسان صدق عليا وقيل لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى * ولما خاطب تعالى موسى عليه السلام بقوله تعالى فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى أتبعه بقوله تعالى (ان الساعة آتية) اى كائنة (أكاد أخفيها) قال أكثر المفسرين معناه أكاد أخفيها من نفسى فكيف يعلمها غيرى من الخلق وكيف أظهرها لكم ذكر تعالى على عادة العرب اذا بالغوا فى كتمان الشئ يقول الرجل كتمت سرى من نفسى اى أخفيته غاية الاخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شئ والمعنى فى اخفائها التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى فى اخفاء وقت الموت لان الله تعالى وعد قبول التوبة فاذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصى الى ان يقرب ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصى بتعريف وقت موته فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية فاذا لم يعلم وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصى أو يتوب منها فى كل وقت خوف معاجلة الاجل وقال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله تعالى كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد اى لا أريد أن أفعله وقال الحسن ان أكاد من الله واجب فمعنى قوله تعالى أكاد أخفيها اى أنا أخفيها عن الخلق كقوله تعالى عسى أن يكون قريبا اى هو قريب وقيل أكاد صلة فى الكلام والمعنى ان الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه * فما ان يكاد قرنه يتنفس

اى فما ان يتنفس قرنه وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) اى تعمل من خير أو شر متعلق بآتية واختلف فى المخاطب بقوله تعالى (فلا يصدنك) اى يصرفنك (عنها من لا يؤمن بها) فقيل وهو الاقرب كما قاله الرازى انه موسى عليه السلام لان الكلام أجمع خطاب له وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم واختلف أيضا فى عود هذين الضميرين على وجهين أحدهما قال أبو مسلم لا يصدنك عنها اى عن الصلاة التى أمرتك بها من لا يؤمن بها اى بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثانى الى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه ثانيهما قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أى عن الايمان بها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة وهذا أولى لان الضمير يعود

قاله هنا بلفظ الاخسرين وفى الصافات بلفظ الاسفلين لان ما هنا تقدمه ان ابراهيم كادهم وانهم كادوه وانه غلبهم فى الكيد فخسرت تجارتهم حيث كسر اصنامهم ولم

الى أقرب المذكورات وههنا الاقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم انما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا * (تنبيه) * المقصود من ذلك نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صد موسى وفيه وجهان أحدهما ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على حمله على المسبب الثاني ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم لا أرينك ههنا المراد نهي المخاطب عن حضوره لان رؤيته هو فاعل [illegible] مسببة عن الحضور كأن صد الكافر مسبب عن الرخاوة والضعف في الدين فقيل لا تكن رخوا بل كن شديدا صليبا حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه (واتبع هواه) اي ميل نفسه الى اللذات المحبوبة المخدجة لقصر نظره عن غيرها وخالف أمر الله (فتردى) اي فتهلك ان انصددت عنها وما في قوله تعالى (وما تلك بيمينك) مبتدأ استفهامية وتلك خبره وبيمينك حال من معنى الاشارة وقوله تعالى (يا موسى) تكرير لانه ذكره قبل في قوله تعالى نودي يا موسى وبعد في مواضع كأنها يا موسى لزيادة الاستئناس والتنبيه (فان قيل) السؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة في ذلك (أجيب) بان في ذلك فوائد الاولى توقيفه على انها عصا حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لا يشك أنه يعرفه ويريد أن ينضم اقراره بلسانه الى معرفته بقلبه الثانية ان يقرر عنده انها خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها الثالثة انه تعالى لما أراه تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه كلام نفسه ثم أورد عليه التكليف الشاق وذكر له المعاد وختم ذلك بالتهديد العظيم فصير موسى عليه السلام ودهش فقيل له وما تلك بيمينك يا موسى وتكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة (فان قيل) هذا خطاب من الله تعالى لموسى بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم (أجيب) بالمنع فقد خاطبه في قوله تعالى فأوحى الى عبده ما أوحى الا أن الذي ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الى الخلق والذي ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يؤهل له أحد من الخلق وأيضا ان كان موسى تكلم معه فأمة محمد يخاطبون الله تعالى في كل يوم خمس مرات على ما قاله صلى الله عليه وسلم المصلي يناجي ربه والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد يوم القيامة بالتسليم والتكريم لقوله تعالى سلام قولا من رب رحيم * (تنبيه) * قوله تعالى وما تلك اشارة الى العصا وقوله تعالى بيمينك اشارة الى اليد وفي هذا نكت ذكرها الرازي رحمه الله تعالى الاولى أنه تعالى لما أشار اليهما جعل كل واحد منهما معجزة قاهرة وبرهانا ساطعا ونقلهما من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين مرة الى قلب العبد فاي عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى السعادة بالطاعة ونور المعرفة ثانيها ان بالنظر الاول الواحد صار الجماد ثعبانا فبلع سحر السحرة فاي عجب لو صار القلب ثعبانا فبلع سحر النفس الامارة بالسوء ثالثها ان العصا كانت في يمين موسى عليه السلام فبسبب بركته انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن فاذا حصلت ليد موسى

مراده [illegible] بلغوا من اجرائهم فناسب ذكر الاخسرين وما في والصافات تقدمه قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه في الجحيم فاججوا نارا عظيمة وبنوا بنيانا عظيما ورفعوا ابراهيم اليه ورموه منه

عليه

عليه السلام هذه المنزلة فاى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعى الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية * ولما سأل تعالى موسى عليه السلام عن ذلك اجاب باربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال أولها (قال هى عصاى) وقد تم الجواب بذلك الا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض ثانيها قوله (أتوكأ) أى أعتمد (عليها) اذا مشيت واذا اعييت واذا وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة ثالثها قوله (وأهش) أى أخبط ورق الشجرة (بها) ليسقط (على غنمى) لتأكله فبدأ عليه السلام أولا بمصالح نفسه فى قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته فى قوله أهش بها على غنمى وكذلك فى القيامة يقول نفسى نفسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل فى الدنيا الا باصلاح أمر الامة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضا بامته فيقول أمتى أمتى رابعها قوله (ولى فيها مآرب) جمع مأربة بتثليث الراء حوائج ومنافع (أخرى) كحمل الزاد والسقى وطرد الهوام وانما أجمل فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله تعالى مرة أخرى ويطول امر المكالمة بسبب ذلك وقيل انقطع لسانه بالهيبة فاجمل وقيل اسم العصا نبعة وقيل فى المآرب كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا طلب كسره لواه بالشعبتين واذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها اداوته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل والزندين بفتح الزاى تثنية زند وزندة والزند العود الاعلى الذى تقدح به النار والزندة السفلى فيها ثقب فاذا اجتمعا قيل زندان ولم يقل زندتان واذا قصر رشاؤه وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا ويكونان شمعتين بالليل واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فاورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وروى عن ابن عباس أنها كانت تماشيه وتحدثه ولما ذكر موسى هذه الجوابات لربه (قال) له (ألقها) اى اتبذها (ياموسى فالقاها فاذا هى حية) اى ثعبان عظيم (تسعى) اى تمشى على بطنها سريعا وهنا نكت خفية احداها أنه عليه السلام لما قال ولى فيها مآرب أخرى أراد الله تعالى أن يعرفه ان فيها مآرب لا يفطن لها ولا يعرفها وانها أعظم من سائرها وأربى ثانيها كان فى رجله شئ وهو النعل وفى يده شئ وهو العصا فالرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فقال أولا فاخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال ألقها وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه تعالى قال انك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك طالبا لحظك فلا تكن خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب تكن خالصا لى ثالثها ان موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال صفته لما وصل الى الحضرة ولم يكن معه الا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى أمكنه الوصول الى الحضرة فانت فى ألف وقر من المعاصى فكيف يمكنك الوصول الى جنابه (فان قيل) كيف قال هنا حية وفى موضع آخر جان وهى الحية الخفيفة الصغيرة وقال فى موضع آخر ثعبان وهو اكبر ما يكون من الحيات (اجيب) بان الحية اسم جنس يقع على الذكر

الى اسفل فرفعه الله
وجعلهم فى النار من
الاسفلين وردهم فى العقبى
اسفل السافلين فناسب
ذكر الاسفلين (قوله
وايوب اذ نادى ربه) الآية
ختم القصة هنا بقوله من

والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات كما مر والجان الدقيق وفي ذلك وجهان أحدهما انها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جلدها حتى صارت ثعبانا فاريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها الثاني أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان لقوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان قال وهب لما ألقى العصا على وجه الارض نظر اليها فاذا هي حية تسعى صفراء من أعظم ما يكون من الحيات تمشي بسرعة لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا صارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا يهتز وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بانيابها ويسمع لانيابها صرير يقعقع فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم نودي ياموسى ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف (قال) تعالى له (خذها) أي بيمينك (ولا تخف) وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيدان فلما قال تعالى له خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله أن يكشف يده وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له الملك أرأيت ان أذن الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيأ قال لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت وكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فاذا هي عصا كما كانت ويده في شعبتيها في الموضع الذي كان يضعها اذا توكأ عليها كما قال تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) وقد أظهر الله تعالى في هذه العصا معجزات لموسى عليه السلام منها انقلاب العصا حية ومنها وضع يده في فمها من غير ضرر ومنها انقلابها خشبة مع الامارات التي تقدمت * (تنبيه) * في نصب سيرتها أوجه أحدها أن تكون منصوبة على الظرف أي في سيرتها أي طريقتها ثانيها على البدل من ها سنعيدها بدل اشتمال لان السيرة الصفة أي سنعيدها صفتها وشكلها ثالثها على اسقاط الخافض أي الى سيرتها وقيل غير ذلك (فان قيل) لما نودي ياموسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم انه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلماذا خاف (اجيب) عن ذلك باوجه احدها ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وهذا معلوم بدلائل العقول ثانيها انما خافها لانه عليه السلام عرف مالقي آدم عليه السلام منها ثالثها ان مجرد قوله ولا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فانه ما اظهر الرغبة في الجنة ولا النفرة عن النار وقوله تعالى (واضمم يدك) اي اليمنى (الى جناحك) اي جنبك الايسر تحت العضد في الابط (تخرج بيضاء) اي نيرة مشرقة تضيء كشعاع الشمس تغشي البصر لابد فيه من حذف والتقدير واضمم يدك تنضم وأخرجها تخرج فحذف من الاول والثاني وابقى مقابليهما ليدلا على ذلك ايجازا واختصارا وانما احتيج الى هذا لانه لا يترتب على مجرد الضم الخروج وبيضاء حال من فاعل تخرج وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بتخرج وروي عن ابن عباس الى جناحك الى صدرك والاول اولى كما قال الرازي لانه يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جانباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر سميا بذلك لانه يجنحهما اي يميلهما

عندنا وخصها في ص بقوله هنا لان ايوب بالغ هناك في التضرع بقوله وانت ارحم الراحمين فبالغ تعالى في الاجابة فناسب ذكر من عندنا لان عندنا يدل على انه تعالى تولى ذلك

عند

عند الطيران وجناحا الانسان عضداه فعضداه يشبهان جناحي الطير ولانه قال تخرج بيضاء
ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى والسوء الرداءة والقبح في كل شيء فكنى
به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شيء الى العرب ولهم عنه نفرة عظيمة
واسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديرا بان يكنى عنه ولا ترى أحسن ولا اظرف ولا أخف
للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه يروى ان موسى عليه السلام كان شديد الادمة فكان
اذا أدخل يده اليمنى في جيبه فادخلها في ابطه الايسر وأخرجها فكانت تبرق مثل البرق
وقيل مثل الشمس من غير مرض ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول من غير نور وقوله تعالى (آية
أخرى) أي معجزة ثانية حال من ضمير تخرج كبيضاء وقوله تعالى (لنريك) متعلق بما دل عليه
آية أي دللنا بها لنريك وقوله تعالى (من آياتنا الكبرى) أي العظمى على رسالتك متعلق
بمحذوف على أنه حال من الكبرى والكبرى مفعول ثان لنريك والتقدير لنريك الكبرى
حال كونها من آياتنا أي بعض آياتنا واختلف أي الآيتين أعظم في الاعجاز فقال الحسن اليد
لانه تعالى قال لنريك من آياتنا الكبرى والذي عليه الاكثر أن العصا أعظم اذ ليس في اليد
الا تغير اللون وأما العصا ففيها تغير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة
والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم اعادتها عصا بعد ذلك فقد وقع التغير في كل هذه
الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى فقد ثبت انه عائد الى
الكلام وانه غير مختص باليد (فان قيل) لم لم يقل تعالى من آياتنا الكبر (أجيب) بان ذلك
ذكر لرؤس الآي وقيل فيه اضمار معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى وهذا التقدير
يقوي قول القائل بأن اليد أعظم آية ولما أظهر سبحانه وتعالى لموسى هذه الآيات عقبها
بامره بالذهاب الى فرعون بقوله تعالى (اذهب) أي رسولا (الى فرعون) وبين تعالى العلة في
ذلك بقوله تعالى (انه طغى) أي جاوز الحد في كفره الى أن ادعى الالهية ولهذا خصه الله تعالى
بالذكر مع انه عليه السلام مبعوث الى الكل قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام
اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فانك بعيني وسمعي وان معك يدي ونصري واني
ألبسك جبة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمرك أبعثك الى خلق ضعيف من خلقي بطر
نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي أقسم بعزتي لولا الحجة التي
وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه رسالتي
وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي
لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمي في كلام طويل قال فسكت موسى عليه السلام سبعة أيام
لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك فعند ذلك (قال رب اشرح لي صدري) أي
وسعه لتحمل الرسالة قال ابن عباس يريد حتى لا أخاف غيرك والسبب في هذا السؤال ما حكى
الله تعالى عنه في موضع آخر بقوله قال رب اني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق
لساني وذلك أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون اللعين خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة
جنوده وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه
حتى يعلم ان أحدا لا يقدر على مضرته الا باذن الله تعالى واذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة

ص ولا مبالغة في
بقعة ولا مبالغة في صنعه فناسب ذكر عدم
دلالته على ما دل عليه
عندنا (قوله فنفخنا فيها)
أي في جيب درعها بحذف
مضافين ولهذا ذكر الضمير
في التحريم فقال فنفخنا

شوكته وكثرة جنوده وقيل اشرح لي صدري بالفهم عنك ما أنزلت على من الوحى (ويسر) أى سهل (لى أمرى) أى ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة الى فرعون وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالله تعالى هو الميسر له (فان قيل) قوله لى فى اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ما جدواه والامر مستتم مستتب بدونه (أجيب) بانه قد أبهم الكلام اولا فقال اشرح لى ويسر لى فعلم ان ثم مشروحا وميسرا ثم بين ورفع الابهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لامره من أن يقول اشرح صدرى ويسر امرى على الايضاح الساذج لانه تكرير للمعنى الواحد من طريق الاجمال والتفصيل (واحلل عقدة من لسانى) قال ابن عباس كان فى لسانه عليه السلام رتة وذلك ان موسى عليه السلام كان فى حجر فرعون ذات يوم فى صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته ان هذا عدوى وأراد ان يقتله فقالت له آسية انه صبى لا يعقل ولا يميز وفى رواية ان أم موسى لما فطمته ردته الى فرعون فنشأ موسى فى حجر فرعون وامرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو ذات يوم يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب يلعب به اذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير بضربه وهم بقتله فقالت آسية أيها الملك انه صغير لا يعقل جربه ان شئت فجاءت بطشتين فى أحدهما جمر وفى الآخر جوهر فاراد ان يأخذ الجوهر فاخذ جبريل بيد موسى عليه السلام فوضعها على النار فاخذ جمرة فوضعها فى فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة وقيل قربا اليه تمرة وجمرة فأخذ الجمرة فجعلها فى فيه فاحترق لسانه ويروى ان يده احترقت وان فرعون اجتهد فى علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال الى أى رب تدعونى قال الى الذى ابرأ يدى وقد عجزت عنها وعن بعضهم انهم لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون فى قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة وقيل كان ذلك التعقد خلقة فسأل الله تعالى ازالته واختلفوا فى انه لم طلب حل تلك العقدة فقيل لئلا يقع خلل فى أداء الوحى وقيل لئلا يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا يلتفتوا اليه وقيل لاظهار المعجزة كما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا فى حقه فكذا اطلاق لسان موسى معجز فى حقه واختلفوا فى زوال العقدة بكمالها فقيل بقى بعضها لقوله وأخى هرون هو أفصح منى لسانا وقول فرعون ولا يكاد يبين وكان فى لسان الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما رتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثها من عمه موسى وقال الحسن زالت بالكلية لقوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى وضعف هذا الرازى بانه عليه السلام لم يقل واحلل العقد من لسانى بل قال واحلل عقدة من لسانى فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله قال والحق أنه انحل أكثر العقد وبقى منها شئ وقال الزمخشرى وفى تنكير العقدة ولم يقل واحلل عقدة لسانى انه طلب حل بعضها ارادة أن يفهم عنه فهما جيدا أى ولذا قال (يفقهوا) أى يفهموا (قولى) عند تبليغ الرسالة ولم يطلب الفصاحة الكاملة ومن لسانى صفة للعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لسانى (تنبيه) استدل على أن فى النطق فضيلة عظيمة بوجوه أولها قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان فماهية الانسان هى الحيوان الناطق ثانيها اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير

فيه (قوله فاعبدون
وتقطعوا) قال ذلك هنا
وقال فى المؤمنين فاتقون
فتقطعوا لان الخطاب هنا
للكفار فامرهم بالعبادة
التى هى التوحيد ثم قال
وتقطعوا بالواو لا بالفاء لان

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقالوا اما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مرسلة أى لو ذهب النطق اللسانى لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل فى البهائم وقالوا المرء باصغريه قلبه ولسانه وقالوا المرء مخبوء تحت لسانه ثالثها ان فى مناظرة آدم عليه السلام مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض * ولما رأى موسى عليه السلام أن التعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة قربة عظيمة فى الدعاء الى الله تعالى طلب المعاونة على ذلك بقوله (واجعل لى وزيرا) اى معينا على الرسالة ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال محمد صلى الله عليه وسلم ان لى فى السماء وزيرين وفى الارض وزيرين فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الارض أبو بكر وعمر وقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله تعالى بالملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان نوى خيرا أعانه وان أراد شرا كفه وقال أنوشروان لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير * ولما كان التعاون على الدين منقبة عظيمة أراد أن لا تحصل هذه الدرجة الا لاهله فقال (من أهلى) اى أقاربى وقوله (هرون) قال الجلال المحلى مفعول ثان وقوله (أخى) عطف بيان وذكر غيره أعاريب غير ذلك لا حاجة لنا بذكرها *(تنبيه)* الوزير مشتق من الوزر لانه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر لان الملك يعتصم برأيه ويلجئ اليه أموره أو من الموازرة وهى المعاونة قال الرازى وكان هرون مخصوصا بأمور منها الفصاحة لقول موسى هو أفصح منى لسانا ومنها الرفق لقول هرون يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ومنها أنه كان أكبر سنا منه وقال ابن عادل كان أكبر سنا من موسى بأربع سنين وكان أفصح لسانا منه وأجمل وأوسم أبيض اللون وكان موسى آدم اللون أقنى جعدا * ولما طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يجعل هرون وزيراله طلب منه ان يشد ازره بقوله (اشدد به أزرى) اى أقوّى به ظهرى (وأشركه فى أمرى) اى فى النبوّة والرسالة وقرأ ابن عامر بسكون الياء من أخى وهمزة مفتوحة من أشدد وهو على مرتبته فى المد وهمزة مضمومة من أشركه وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وأشركه بهمزة مفتوحة والباقون بسكون الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وفتح الهمزة من أشركه ثم انه تعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال (كى نسبحك) تسبيحا (كثيرا) قال الكلبى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك والتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته عما لا يليق به (ونذكرك) ذكرا (كثيرا) أى نصفك بصفات الكمال والجلال والكبرياء وجوز أبو البقاء أن يكون كثيرا نعتا لزمان محذوف أى زمانا كثيرا (انك كنت بنا بصيرا) أى عالما بانا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك أو بصيرا بان الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتى فى النبوة اليها أو بصيرا بوجوه مصالحنا فاعطنا ما هو الاصلح لنا * ولما سأل موسى عليه السلام ربه تلك الامور المتقدمة وكان من المعلوم أن قيامه بما كلف به لا يتم الا باجابته اليها لا جرم (قال) الله تعالى (قد أوتيت سؤلك يا موسى) أى أعطيت جميع ما التمسته منا عليك لما فيه من

مدخولها ليس مرتبا على ما قبلها بل هو واقع قبله ومن قال الخطاب مع المؤمنين فمناه دوموا على العبادة والخطاب ثم للنبى وامته بدليل قوله قبل يا أيها الرسل كلوا من

وجوه المصالح (ولقد مننا عليك مرة أخرى) أى أنعمنا عليك فى وقت آخر وفى ذلك تنبيه على امور أحدها كأنه تعالى قال انى راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال ثانيها انى كنت ربيتك فلو منعتك الآن كان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى ثالثها انا أعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك الدرجة العالية وهى منصب النبوة فكيف يليق بمثل هذه التربية المنع عن المطلوب (فان قيل) لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن هذه اللفظة مؤذية والمقام مقام تلطف (أجيب) بانه انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصل اليها ما كان مستحقا لشىء منها بل انما خصه الله تعالى بها لمحض فضله واحسانه (فان قيل) لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة (أجيب) بانه لم يعن بمرة أخرى واحدة من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير ثم بين تلك المنة وهى ثمانية أولها قوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك) وحيا لا على وجه النبوة اذ المرأة لا تصلح للقضاء ولا للامامة ولا تلى عند أكثر العلماء تزويج نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل على ذلك قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم والوحى جاء لا بمعنى النبوة فى القرآن كثيرا قال تعالى وأوحى ربك الى النحل واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه أحدها انه رؤيا رأتها أم موسى وكان تأويلها وضع موسى فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده عليها ثانيها انه عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة ثالثها المراد خطور البال وغلبته على القلب (فان قيل) هذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بان الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لاجل الصيانة عن الثانى (اجيب) بانها لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان الالقاء فى البحر الى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون رابعها لعله أوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة أو مراسلة واعترض على هذا بان الامر لو كان كذلك لما لحقها الخوف (وأجيب) بان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان أمره بالذهاب اليه مرارا خامسها لعل بعض الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك الخبر وانتهى ذلك الخبر الى امه سادسها لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا وأما قوله تعالى (ما يوحى) فمعناه ما لا يعلم الا بالوحى أو ما ينبغى ان يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام ويبدل منه (ان اقذفيه) اى ألقيه (فى التابوت) اى ألهمناها أن اجعليه فى التابوت (فاقذفيه) أى موسى بالتابوت (فى اليم) اى نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) اى شاطئه والامر بمعنى الخبر والضمائر كلها لموسى فالمقذوف فى البحر والملقى الى الساحل هو موسى فى جوف التابوت حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر النظم الذى هو أم اعجاز القرآن والقانون الذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم ما يجب على المفسر (تنبيه) اليم البحر والمراد به هنا نيل مصر فى قول الجميع واليم اسم يقع على النهر والبحر العظيم قال الكشاف والساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لان

الطيبات الآية والانبياء وأنتم مأمورون بالتقوى ثم قال فتقطعوا أمرهم بالفاء أى فظهر منهم التقطع بعد هذا القول والمراد
1 منهم (قوله وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون)

الماء يحمله أى يكسره اذا علاه وقوله تعالى (يأخذه عدو لى وعدو له) أى فرعون جواب فليلقه وتكرير عدو للمبالغة أولان الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع أى سيصير عدوا له بعد ذلك فانه لم يكن فى ذلك الوقت بحيث يعادى روى انها اتخذت تابوتا قال مقاتل ان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون وجعلت فى التابوت قطنا محلوجا ووضعته فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية بنت مزاحم اذا بتابوت يجرى به الماء فأمر فرعون الغلمان والجوارى باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدو الله حبا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه كما قال تعالى (والقيت عليك محبة منى) وهذه هى المنة الثانية قال الزمخشرى منى لا يخلو اما أن يتعلق بالقيت فيكون المعنى على أنى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهو صفة لمحبة أى محبة خالصة او واقعة منى قد ركزتها أنا فى القلوب وزرعتها فيها فلذلك احبك فرعون وآسية حتى قالت قرة عين لى ولك لا تقتلوه وروى انه كان على وجهه مسحة جمال وفى عينه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من يراه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا المنة الثالثة قوله تعالى (ولتصنع على عينى) أى تربى على رعايتى وحفظى لك فانا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشئ بعينه اذا اعتنى به ويقول للصانع اصنع هذا على عينى أنظر اليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتى *(تنبيه)* ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتلطف بك ولتصنع أو على الجملة السابقة باضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك وقرأ بفتح الياء نافع وابن كثير وابو عمرو وسكنها الباقون المنة الرابعة قوله تعالى (اذ تمشى اختك) والعامل فى اذ ألقيت أو تصنع ويجوز ان يكون بدلا من اذ اوحينا واستشكل بان الوقتين مختلفان متباعدان (وأجيب) بانه يصح مع اتساع الوقت كما يصح ان يقول لك الرجل لقيت فلانا سنة كذا فتقول وانا لقيته اذ ذاك وربما لقيه هو فى اولها وانت فى آخرها (فتقول هل أدلكم على من يكفله) يروى ان اخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وذلك انه كان لا يقبل ثدى امرأة فقالت لهم ذلك فقالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها فذلك قوله تعالى (فرجعناك الى أمك كى تقر عينها) بلقائك ورؤيتك (ولا تحزن) أى هى بفراقك أو انت بفراقها وفقدان اشفاقها وروى أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهى التى أشفقت عليه وطلبت له المراضع المنة الخامسة قوله تعالى (وقتلت نفسا) قال ابن عباس هو الرجل القبطى الذى قتله خطأ بأن وكزه حين استغاثه الاسرائيلى اليه قال الكسائى كان عمره اذ ذاك اثنتى عشرة سنة (فنجيناك من الغم) أى من غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون كما قال تعالى فى آية فاصبح فى المدينة خائفا يترقب بالمهاجرة الى مدين المنة السادسة قوله تعالى (وفتناك فتونا) قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه فى محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها أولها ان أمه حملته فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه فى البحر فى التابوت ثم منعه الرضاع الامن ثدى أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطى وخروجه الى مدين خائفا (فان قيل) انه تعالى عدد أنواع مننه على

أى ممتنع عليهم الرجوع (ان قلت) كيف قال ذلك مع انه لابد من رجوعهم الى الله (قلت) معناه لا يرجعون عن الكفر الى الايمان او لا يرجعون بعد اهلاكهم الى الدنيا وقيل

موسى في هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع وفتناك فتونا (أجيب) بجوابين الاول فتناك
أي خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب اذا أردت تخليصه من الفضة أونحوها الثاني
ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه
قال تعالى فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى ألم أحسب الناس أن
يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا
وليعلمن الكاذبين ولما كان التشديد في المحنة يوجب كثرة الثواب عده الله تعالى من جملة
النعم وتقدم تفسير ابن عباس وهو قريب من ذلك (فان قيل) هل يصح اطلاق الفتان على
الله تعالى اشتقاقا من قوله تعالى وفتناك فتونا (أجيب) بانه لا يصح لانه صفة ذم في العرف
وأسماء الله تعالى توقيفية لاسيما فيما يوهم مالا ينبغي المنة السابعة قوله تعالى (فلبثت سنين
في أهل مدين) والتقدير وفتناك فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم عند شعيب
عليه السلام وتزوجت بابنته وهي اما عشر أو ثمان لقوله على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت
عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر
سنين مهر امرأته فانه قضى أوفى الاجلين والآية دالة على انه لبث عشر سنين وليس فيها ما ينفي
الزيادة على العشر كما قاله الرازي وان قال ابن عادل يرده قوله تعالى فلما قضى موسى الاجل
اي الاجل المشروط عليه في تزويجه وسار بأهله ومدين بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر
(ثم جئت على قدر) اي على القدر الذي قدرت أنك تجيء فيه لان أكلمك وأستنبئك غير مستقدم
وقته المعين ولا مستأخر وقال عبد الرحمن بن كيسان على رأس أربعين سنة وهو القدر الذي يوحى
فيه للانبياء وهذا قول أكثر المفسرين أي على الموعد الذي وعده الله وقدر أنه يوحى اليه بالرسالة
وهو أربعون سنة وكرر تعالى قوله (يا موسى) عقب ماهو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك المنة
الثامنة قوله تعالى (واصطنعتك) اي اخترتك (لنفسي) لاسيرك في أوامري لئلا تشتغل الا
بما أمرتك به وهو اقامة حجتي وتبليغ رسالتي وأن تكون في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك
ولا لغيرك ثم بين تعالى ماله اصطنعه وهو الابلاغ والاداء بقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك
بآياتي) أي بمعجزاتي وقال ابن عباس الآيات التسع التي بعث بها موسى وقيل انها العصا واليد
لانهما اللذان جرى ذكرهما في هذا الموضع ولم يذكر انه عليه السلام أوتي قبل مجيئه الى
فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقي فرعون فالتمس منه آية غيرها تين الآيتين قال تعالى حكاية عن
فرعون ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين
ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين وقال تعالى فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه (فان
قيل) كيف أطلق لفظ الجمع على الاثنين (أجيب) بان العصا كانت آيات انقلابها حيوانا
ثم انها في أول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم
كانت تصير ثعبانا وهذه آية أخرى ثم انه عليه السلام كان يدخل يده في فمها فما كانت تضره
فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها آية
وشعاعها آية أخرى ثم زوالها بعد ذلك آية أخرى فدل ذلك على انها كانت آيات كثيرة
وقيل الآيات العصا واليد وحل عقدة لسانه وقيل معناه أمدكما بآياتي وأظهر على أيديكما

فلا
معنى حرام وواجب
حينئذ زائدة أي واجب
رجوعهم (قوله ان الذين
سبقت لهم منا الحسنى
أولئك عنها مبعدون) أي
عن جهنم (ان قلت) كيف
يكونون مبعدين عنها وقد

من الآيات ما تنزاح به العلل من فرعون وقومه (ولا تنيا) اي لا تفترا ولا تقصرا (في ذكري) اي بتسبيح وغيره فان من ذكر جلال الله استخف غيره فلا يخاف أحدا وتقوى روحه بذلك الذكر فلا تضعف في مقصوده ومن ذكر الله لابد وأن يكون ذاكرا احسانه وذاكرا انه لا يفتر في أداء أوامره وقيل لا تنيا في ذكري عند فرعون بان تذكرا لفرعون وقومه أن الله لا يرضى منهم الكفر وتذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وقيل المراد بالذكر تبليغ الرسالة (اذهبا الى فرعون انه طغى) اي بادعاء الربوبية *(تنبيه)* ذكر الله تعالى المذهوب اليه هنا وهو فرعون وحذفه في قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي اختصارا في الكلام وقال القفال فيه وجهان أحدهما ان قوله اذهب أنت واخوك بآياتي يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به أحدهما دون الآخر والثاني أن قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي أمر بالذهاب الى كل الناس من بني اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله تعالى اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده واستبعد هذا بل الذهابان متوجهان الى واحد وقد حذف من كل من الذهابين ما أثبته في الآخر وقيل انه حذف المذهوب اليه من الاول وأثبته في الثاني وحذف المذهوب به وهو بآياتي من الثاني وأثبته في الاول (فقولا له قولا لينا) اي مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى فانه دعوة في صورة عرض ومشورة (فان قيل) لم أمر الله تعالى باللين مع الكافر الجاحد (أجيب) بان من عادة الجبار اذا أغلظ عليه في الوعظ يزداد عتوا وتكبرا فأمر باللين حذرا من أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليهما واحتراما لما له من حق التربية وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لا هرم بعده وملكا لا يزول الا بالموت وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته واذا مات دخل الجنة فأعجبه ذلك وكان لا يقطع أمرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذي دعاه اليه موسى وقال أردت ان اقبل منه فقال له هامان كنت أرى ان لك عقلا ورأيا أنت رب تريد أن تكون مربوبا وأنت تعبد تريد ان تعبد فغلبه على رأيه وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) متعلق باذهبا أو قولا اي باشرا الامر على رجائكما وطمعكما مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوقه ويسعى باقصى وسعه قال الزمخشري ولا يستقيم أن يراد ذلك في حق الله تعالى اذ هو عالم بعواقب الامور وعن سيبويه كل ما ورد في القرآن من لعل وعسى فهو من الله واجب بمعنى انه يستحيل بقاء معناه في حق الله تعالى وقال الفراء ان لعل بمعنى كي فتفيد العلية كما تقول اعمل لعلك تأخذ أجرتك *(فائدة)* قرأ رجل عند يحيى بن معاذ فقولا له قولا لينا فبكى يحيى وقال الهي هذا برك بمن يقول أنا الاله فكيف برك بمن يقول أنت الاله (فان قيل) ما الفائدة في ارسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه تعالى بانه لا يؤمن (اجيب) بان ذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة واظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم ولذلك قدم الاول أي ان لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا اقل من ان يتوهمه فيخشى ويروى عن كعب انه قال والذي يحلف به كعب انه لمكتوب في التوراة فقولا له قولا لينا وسأقسي

قال وان منكم الا واردها وورودها يقتضي القرب منها (قلت) معناه مبعدون عن ألمها وعذابها مع ورودهم لها او معناه مبعدون عنها بعد ورودها بالانجاء المذكور بعده

قلبه فلا يؤمن واقد تذكر فرعون وخشى حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق وقال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين ثم ان موسى وهرون (قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط) أى يعجل (علينا) بالعقوبة (أو أن يطغى) أى يجاوز الحد فى الاساءة علينا (فان قيل) لما تكرر الامر من الله تعالى له بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على معصية (أجيب) بان الامر ليس على الفور فسقط السؤال وهذا من أقوى الدلائل على أن الامر لا يقتضى الفور (فان قيل) قوله تعالى قالا ربنا يدل على أن المتكلم موسى وهرون ولم يكن هرون هناك حاضرا (أجيب) بان الكلام كان مع موسى الا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فى تلك الحالة وان كان موسى وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما فى قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل روى ان القائل عبدالله ابن أبى وحده (فان قيل) ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى فاجابه الله تعالى بقوله قد أوتيت سؤلك ياموسى وهذا يدل على انه تعالى قد شرح صدره ويسر له ذلك الامر فكيف قال بعده اننا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر (اجيب) بان شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهى وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق اليها السهو والتحريف وذلك شئ آخر غير الخوف (قال) الله تعالى لهما (لا تخافا اننى معكما) حافظكما وناصركما (اسمع وأرى) اى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل فافعل ما يوجبه حفظى ونصرى وقال ابن عباس اسمع دعاءكما فاجيبه وأرى ما يراد بكما فامنع فلست بغافل عنكما فلا تهتما وقال القفال قوله تعالى أسمع وأرى يحتمل ان يكون مقابلا لقوله تعالى يفرط علينا أو أن يطغى يفرط علينا بان لا يسمع منا أو أن يطغى بان يقتلنا قال تعالى اننى معكما أسمع كلامكما فاسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ماتكرهانه ثم انه سبحانه وتعالى أعاد ذلك التكليف فقال (فأتياه) لانه سبحانه وتعالى قال فى المرة الاولى اذهبا الى فرعون وفى الثانية قال اذهب أنت وأخوك وفى الثالثة قال اذهب الى فرعون وفى الرابعة قال ههنا فاتياه (فان قيل) انه تعالى أمرهما فى الثانية بان يقولا له قولا لينا وههنا أمرهما بقوله تعالى (فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بنى اسرائيل) اى الى الشام (ولا تعذبهم) اى خل عنهم من استعمالك اياهم فى اشغالك الشاقة كالحفر والبناء وحمل الثقيل وقطع الصخور وكان فرعون يستعملهم فى ذلك مع قتل الاولاد وفى هذا تغليظ من وجوه الاول قوله انا رسولا ربك وهذا يقتضى انقياده لهما والتزامه طاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع الثانى قولهما فارسل معنا بنى اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال أيضا الثالث قولهما ولا تعذبهم الرابع قولهما (قد جئناك بآية من ربك) فما الفائدة فى التليين اولا والتغليظ ثانيا (اجيب) بان الانسان اذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ حيث لم ينفع التليين (فان قيل) أليس الاولى ان يقولا انا رسولا ربك قد جئناك بآية فارسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجز مقرونا بالدعاء للرسالة أولى من تاخيره عنه (اجيب) بان هذا اولى لانهم ماذكرا مجموع الدعاوى ثم استدلا

الورود (قوله وما ارسلناك الارحمة للعالمين) • ان قلت كيف قال ذلك مع ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن رحمة للكافرين بل نقمة اذ لولا ارساله اليهم ما عذبوا بكفرهم لقوله تعالى وما كنا

على ذلك المجموع بالمعجز وقولهما قد جئناك بآية من ربك قال الزمخشري هذه الجملة جارية من الجملة الاولى وهي انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير لان دعوى الرسالة لا تثبت الا ببينتها التي هي مجيء الآية (فان قيل) ان الله تعالى قد اعطاهما آيتين هما العصا واليد ثم قال تعالى اذهب أنت واخوك بآياتي وذلك يدل على ثلاث آيات وقالا هنا قد جئناك بآية من ربك وذلك يدل على انها كانت واحدة فكيف الجمع (اجاب) القفال بأن معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كأنهما قالا قد جئناك ببينات من عند الله ثم يجوز ان يكون ذلك حجة واحدة او حججا كثيرة وتقدم الجواب عن التثنية والجمع وان في العصا واليد آيات وقوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) يحتمل ان يكون من كلام الله تعالى كأنه تعالى قال فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى ويحتمل ان يكون كلام الله قد تم عند قوله قد جئناك بآية من ربك وقوله تعالى بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الله في الدنيا والآخرة او ان سلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين وقال بعضهم ان على بمعنى اللام اي والسلام لمن اتبع الهدى كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وقال تعالى في موضع آخر ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها (انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب) ما جئنا به (وتولى) أعرض عنه قال البيضاوي ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لان التهديد في أول الامر أهم وأنجع وبالواقع أليق • ولما أتياه وقالا انا رسولا ربك وبلغاه ما أمرا به (قال) لهما (فمن ربكما يا موسى) انما نادى موسى وحده بعد مخاطبته لهما معا اما لان موسى هو الاصل في الرسالة وهرون تبع وردء ووزير واما لان فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التي كانت في لسان موسى عليه الصلاة والسلام ويعلم فصاحة أخيه بدليل قوله هو أفصح مني لسانا فاراد أن يفحمه ويدل عليه قول فرعون ولا يكاد يبين واما لانه حذف المعطوف للعلم به اي يا موسى وهرون قاله ابو البقاء ثم ان فرعون لم يشتغل مع موسى بالبطش والايذاء لما دعاه الى الله تعالى مع انه كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر بل خرج معه في المناظرة لانه لو آذاه لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع في المناظرة وذلك يدل على ان السفاهة من غير حجة لم يرضه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي الاسلام والعلم • (تنبيه) • قال ههنا فمن ربكما يا موسى وقال في سورة الشعراء وما رب العالمين وهو سؤال عن الماهية فهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة قال ابن عادل والاقرب أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول اني انا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام اظهر وجلا ته عدل الى طلب الماهية لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (فان قيل) لم قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما (أجيب) بأنه أثبت نفسه ربا في قوله ألم نربك فينا وليدا فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال أنا ربك فلم تدعي ربا آخر وهذا يشبه كلام نمروذ حين قال له ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال له نمروذ انا أحيي وأميت فلم تكن الاماتة التي ذكرها ابراهيم هي الاماتة مع الاحياء التي عارضه نمروذ بها الا في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله

(قلت) بل كان رحمة للكافرين معذبين حتى نبعث رسولا أيضا من حيث ان عذاب الاستئصال اخر عنهم بسببه او كان رحمة عامة من حيث انه جاء بما يسعدهم ان اتبعوه ومن لم يتبعه فهو

تعالى ذكر فرعون هذا الكلام أى انا الرب الذى ربيتك ومعلوم ان الربوبية التى ادعاها
موسى عليه السلام غير الربوبية فى المعنى وأنه لامشاركة بينهما ثم كأنه قيل فما أجاب به
موسى فقيل (قال) مستدلا على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات (ربنا الذى أعطى كل شئ)
أى من الانواع (خلقه) أى صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين
الهيئة التى تطابق الابصار والاذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذلك الانف واليد
والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه أو اعطى كل
حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجرة زوجين والبعير والناقة كذلك
والرجل والمرأة كذلك فلم يزاوج منهما شيأ غير جنسه وما هو على خلاف خلقه (ثم هدى)
أى ثم عرف الله تعالى الحيوان الكائن من المخلوق كيف يرتفق بما أعطى وكيف يتوصل اليه
قال الزمخشرى ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين
الانصاف وكان طالبا للحق * ولما خاف فرعون أن يزيد موسى فى اظهار تلك الحجة فيظهر
للناس صدقه (قال) لموسى (فما بال) أى حال (القرون) أى الامم (الاولى) كقوم نوح وهود
ولوط وصالح فى عبادتهم الاوثان فانها كانت تعبد الاوثان وتنكر البعث فمن شقى منهم ومن
سعد أراد أن يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بهذه الحكايات فلم يلتفت اليه فلذلك (قال
علمها عند ربى) استأثر به لا يعلمه الا هو وما أنا الا عبد مثلكم لا أعلم منه الا ما أخبرنى به علام
الغيوب وعلم أحوال هذه القرون مثبت عند ربى (فى كتاب) هو اللوح المحفوظ ويجوز أن
يكون ذلك تمثيلا لتمكنه فى علمه تعالى بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة ويؤيده قوله
(لا يضل ربى ولا ينسى) والضلال أن يخطئ الشئ فى مكانه فلم يهتد اليه والنسيان أن يذهب
عنه بحيث لا يخطر بباله وهما محالان على علام الغيوب بخلاف العبد الذليل والبشر الضئيل
أى لا يضل تعالى ولا ينسى كما تضل أنت وتنسى يا مدعى الربوبية بالجهل والوقاحة ثم
عاد الى تتميم كلامه الاول وابراز الدلائل الظاهرة على الوحدانية فقال (الذى جعل لكم)
فى جملة الخلق (الارض مهادا) أى فراشا (تنبيه) هذا الموصول فى محل رفع صفة لربى
وخبر محذوف تقديره هو أو منصوب على المدح وقرأ عاصم وحمزة هنا وفى سورة الزخرف
مهدا بفتح الميم وسكون الهاء أى مهدها مهدا أو تمهدونها فهى لهم كالمهد وهو ما يمهد للصبى
وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعدها وهو اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد
(وسلك) أى سهل (لكم فيها سبلا) اى طرقا بين الجبال والاودية والبرارى تسلكونها من أرض
الى أرض لتبلغوا منافعها (وانزل من السماء ماء) أى مطرا وعدل بقوله (فاخرجنا به) عن
لفظ الغيبة الى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيها على ظهور ما فيه من
الدلالة على كمال قدرته والحكمة وايذانا بأنه مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لمشيئته وعلى هذا
نظائره كقوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها امن
خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق (أزواجا) اى أصنافا
سميت بذلك لانها مزدوجة مقترنة بعضها مع بعض وقوله تعالى (من نبات) بيان وصفة
لازواجا وكذلك (شتى) وهو جمع شتيت من شت الامر تفرق كمرضى جمع مريض وجرحى

المقصر او المراد بالرحمة الرحيم وهو صلى الله عليه وسلم كان رحيما بالكفار ايضا الا ترى انهم لما شجوه وكسروا رباعيته حتى خر مغشيا عليه قال بعد افاقته اللهم اهد قومى

جمع

جمع جريج فالفه للتانيث أي ازواجا متفرقة ويجوز ان يكون صفة للنبات فانه من حيث انه مصدر فى الاصل يستوى فيه الواحد والجمع أى انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس و بعضها للبهائم فلذلك قال تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) والانعام جمع نعم وهى الابل والبقر والغنم يقال رعت الانعام و رعيتها والامر للاباحة وتذكير النعمة والجملة حال من ضمير أخرجنا أى مبيحين لكم الاكل ورعى الانعام أى و بقية الحيوانات (ان فى ذلك) أى فيما ذكرت من هذه النعم (لآيات) أى لعبرا (لأولى النهى) اى أصحاب العقول جمع نهية كغرفة وغرف سمى به العقل لانه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح • ولما ذكر سبحانه وتعالى منافع الارض والسماء بين انها غير مطلوبة لذاتها بل هى مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال (منها) اى الارض (خلقناكم) • (فان قيل) انما خلقنا من النطفة على ما بين فى سائر الآيات (اجيب) باوجه احدها انه لما خلق اصلنا آدم عليه السلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب حسن اطلاق ذلك علينا ثانيها ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم الطمث وهما متولدان من الاغذية والغذاء اما حيوانى او نباتى والحيوانى ينتهى الى نباتى والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافى كوننا مخلوقين من النطفة ثالثها ما روى ابن مسعود ان ملك الارحام يأتى الى الرحم حين يكتب اجل المولود و رزقه والارض التى يدفن فيها فانه يأخذ من تراب تلك البقعة وينثره على النطفة ثم يدخلها فى الرحم وأخرج ابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال ان الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة (وفيها نعيدكم) اى مقبورين بعد الموت (ومنها نخرجكم) اى عند البعث (تارة) اى مرة (اخرى) اى بتأليف اجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب ونردهم كما كانوا احياء ونخرجهم الى المحشر يوم يخرجون من الاجداث سراعا • ولما كان المقام لتعظيم القدرة عطف عليه قوله تعالى (ولقد اريناه) اى ابصرناه (آياتنا كلها) اى التسع المختصة بموسى عليه السلام ٣ وهى العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل (فكذب) بها وزعم انها سحر (وابى) ان يسلم (فان قيل) قوله تعالى كلها يفيد العموم والله تعالى ما اراه جميع الآيات فان من جملة الآيات ما اظهرها على ايدى الانبياء قبل موسى عليه السلام و بعده (اجيب) بان لفظ الكل وان كان للعموم قد يستعمل فى الخصوص مع القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ أو يقال ان موسى عليه السلام اراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء فكذب فرعون بالكل او يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى سبحانه وتعالى ذلك على الوجه الذى يلزم ثم كانه قيل كيف صنع فى تكذيبه وابائه فقيل (قال) حين علم حقيقة ما جاء به موسى وظهور ه وخاف ان يتبعه الناس ويتركوه وهن فى نفسه وهنا عظيما (اجئتنا لتخرجنا من ارضنا) اى الارض التى نحن مالكوها ويكون لك الملك فيها انصارت قرائنه ترعد خوفا مما جاء به موسى لعلمه وايقانه أنه على الحق وان المحق لو اراد قود الجبال لانقادت له وان مثله لا يخذل ولا يذل ناصره وانه غالبه على ملكه لا محالة ثم خيل لاتباعه ان

قوله (فانهم لا يعلمون) قوله قل ربى احكم) ان قلت ما فائدة قوله بالحق (قلت) ليس المراد بالحق هنا نقيض الباطل بل المراد ما وعده الله تعالى اياه من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين

٣ قوله وهى العصا الخ فيه أن الحجر ونتق الجبل كانا بعد غرق فرعون وعبارة الجمل وتقدم ان ثمانية منها فى الأعراف الاولى والثانية قوله فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده الخ والثالثة قوله ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات وخمسة فى قوله فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وواحدة فى سورة يونس قوله ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم اهـ

ذلك سحر بقوله (بسحرك ياموسى) فكان ذلك مع ما القوه من عادتهم في الضلال صارفا لهم عن اتباع ما راوه من البيان ثم اظهر لهم انه يعارضه بمثل ما اتى به بقوله (فلنأتينك بسحر مثله) اى مثل سحرك يعارضه (فاجعل بيننا وبينك موعدا) اى من الزمان والمكان (لانخلفه) اى لانجعله خلفنا (نحن ولا أنت) اى لانجاوزه ولما كان كل من الزمان والمكان لاينفك عن الآخر قال (مكانا) وآثر ذكر المكان لاجل وصفه بقوله (سوى) أي عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوى مسافة الفريقين اليه فانظر الى هذا الكلام الذى زوقه ونمقه وصنعه بما اوقف به قومه عن السعادة واستمر يقودهم بعناده حتى أوردهم البحر فاغرقهم ثم في غمرات النار أحرقهم وقيل معنى سوى اى سوى هذا المكان وقرأ شعبة وابن عامر وحمزة والكسائى بضم السين والباقون بكسرها وأمال شعبة وحمزة والكسائى في الوقف محضة والباقون بالفتح وقيل المراد بالوعد الوعد لان الاخلاف لايلائم الزمان والمكان اى بل الوعد هو الذى يصح وصفه بالخلف وعدمه والى هذا المحاجاة مختار بينهم ورد عليهم بقوله (قال موعدكم يوم الزينة) فانه لايطابقه * (تنبيه) * يحتمل ان قوله قال موعدكم يوم الزينة ان يكون من قول فرعون فبين الوقت وأن يكون من قول موسى عليه السلام وهذا أظهر كما قال الرازى لوجوه الاول انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا الثانى وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضى اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالحق الذى يعرف ان اليد له لا المبطل الذى يعرف انه ليس معه الا التلبيس الثالث ان قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون لموسى وهرون لزم اما أن نحمله على التعظيم أو ان أقل الجمع اثنان فالاول لايليق بحال فرعون معهما والثانى غير جائز فاذا جعلناه من موسى عليه السلام استقام الكلام واختلف في يوم الزينة فقال مجاهد وقتادة النيروز وقال ابن عباس وسعيد ابن جبير هو يوم عاشوراء وقيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة وقيل يوم كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون ذلك اليوم وبنى قوله (وان يحشر) للمفعول لان القصد الجمع لكونه من معين (الناس) اى يجتمعوا (ضحى) اى وقت الضحوة فيكون أظهر لما يعمل وأجلى فلا يأتى الليل الا وقدقضى الامر وعرف الحق من المبطل ويكثر التحديث بذلك في كل بدو وحضر ويشيع في جميع اهل الوبر والمدر (فتولى) اى اعرض (فرعون) عن موسى الى تهيئة ما يريد من الكيد بعد توليه عن الانقياد لامر الله تعالى (فجمع كيده) اى مكره وحيلته وخداعه الذى دبره على موسى عليه السلام بجمع من يحصل بهم الكيد وهم السحرة حشرهم من كل فج وكان أهل مصر أسحر أهل الارض واكثرهم ساحرا وكانوا في ذلك الزمان أشد اعتناء بالسحر وامهر ما كانوا واكثر (ثم أتى) للميعاد الذى وقع القرار عليه بمن حشره من السحرة والجنود ومن تبعهم من الناس مع توفر الدواعى على الاتيان للعيد والنظر الى تلك المغالبة التى لم يكن مثلها ولما تشوق السامع الى ما كان من موسى عليه السلام عند ذلك استأنف تعالى الخبر عنه بقوله تعالى (قال لهم) اى لاهل الكيد والعناد وهم السحرة وغيرهم (موسى) حين رأى اجتماعهم ناصحا لهم (ويلكم) يا أيها الناس الذين خلقكم الله تعالى لعبادته (لاتفتروا) اى لاتتعمدوا

(على

و وعده لا يكون الا حقا ونظيره قوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق او ان قوله بالحق تأكيد لما في التصريح بالصفة من المبالغة وان كانت لازمة لافعل

(على الله كذبا) باشراك أحد معه (فيسحتكم) قال مقاتل يهلككم وقال قتادة يستأصلكم (بعذاب) من عنده وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وكسر الحاء من الاسحات وهو لغة نجد وتميم والباقون بفتحهما من السحت لغة الحجاز (وقد خاب من افترى) كما خاب فرعون فانه افترى واحتال ليبقى الملك له فلم ينفعه (فتنازعوا) أي تجاذب السحرة (أمرهم بينهم) لما سمعوا هذا الكلام علما منهم أنه لا يقدر أن يواجه فرعون بمثله في جمع جنوده واتباعه ثم يسلم منه الا من الله تعالى معه (وأسروا النجوى) قال الكلبي قالوا سرا ان غلبنا موسى اتبعناه وقال محمد بن اسحق لما قال لهم موسى لا تفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر وبالغوا في اخفاء ذلك فان النجوى الاسرار اي لا يظهر فرعون وأتباعه على ذلك فكأنه قيل ما قالوا حين انتهى تنازعهم فقيل (قالوا) أي السحرة (ان هذان لساحران) أي موسى وهرون وقرأ ابن كثير وحفص بسكون النون من ان وشددها الباقون وقرأ أبو عمرو بالياء بعد الذال والباقون بالالف على لغة من يجعل ألف المثنى لازما في كل حال قال أبو حيان وهي لغة لطوائف من العرب بني الحرث بن كعب و بعض كنانة وخثعم وزبيد و بني النضر و بني الهجيم ومراد وعذرة وقال شاعرهم * تزود مني بين أذناه ضربة * يريد أذنيه وقال آخر

ان أباها وأبا أباها * قد بلغا في المجد غايتاها

وقيل تقدير الآية انه هذا فحذف الهاء وذهب جماعة الى أن حرف ان ههنا بمعنى نعم أي نعم هذان روى أن أعرابيا سأل ابن الزبير شيأ فحرمه فقال لعن الله ناقة حملتني اليك فقال ابن الزبير ان وصاحبها أي نعم وشدد ابن كثير النون فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفا من غلبتهما وتثبيطا للناس عن اتباع موسى وهرون (يريدان) أي بعاية ولان من دعوى الرسالة وغيرها (أن يخرجاكم) أيها الناس (من أرضكم) هذه التي ألفتموها وهي وطنكم خلفا عن سلف (بسحرهما) الذي أظهراه لكم وغيره * ولما كان كل حزب بما لديهم فرحين قالوا (ويذهبا بطريقتكم المثلى) مؤنث الامثل وهو الافضل أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب باظهار مذهبهما واعلاء دينهما لقوله تعالى اني أخاف أن يبدل دينكم وقيل أراد أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل فانهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى أرسل معنا بني اسرائيل وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث انهم قدوة لغيرهم (فأجمعوا كيدكم) أي من السحر وغيره فلا تدعوا منه شيأ الا جئتم به وقرأ أبو عمرو بهمزة الوصل بين الفاء والجيم وفتح الميم والباقون بهمزة مقطوعة وكسر الميم (ثم ائتوا) أي للقاء موسى وهرون (صفا) أي مصطفين لانه أهيب في صدور الرائين *(تنبيه)* اختلفوا في عدد السحرة فقال الكلبي كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط وسبعون من بني اسرائيل وقال عكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال وهب خمسة عشر ألفا وقال السدي بضعة وثلاثون ألفا وقال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفا وقيل اثني عشر ألفا مع كل منهم على كل قول حبل وعصا وأقبلوا عليه اقبالة واحدة وظاهر القرآن لا يدل على شئ من هذه الاقوال * ولما كان التقدير فن أتى كذلك فقد استعلى عطف عليه قوله (وقد أفلح

ونظيره في عكسه من صفة الذم قوله و يقتلون الانبياء بغير حق

(سورة الحج)

(قوله يوم ترونها)* ان قلت كيف جمعها وافرد بعد في قوله وترى الناس سكارى

اليوم) فى هذا الجمع الذى ما اجتمع مثله قط (من استعلى) أى فاز بالمطلوب من غلب فلما أتى
السحرة موسى (قالوا) له متأدبين لان لين القول مع الخصم ان لم ينفع لم يضر بل نفعهم قال
بعضهم ولذلك رزقهم الله تعالى الايمان ببركته (ياموسى اما أن تلقى) أى ما معك مما تناظرنا به
أولا (واما أن نكون نحن (أول من ألقى) ما معه (قال) لهم موسى عليه السلام مقابلا
لادبهم بأحسن منه ولانه فهم أن مرادهم الابتداء وليكون هو الآخر فتكون له العاقبة
بتسليط معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها شك لا ألقى أنا أولا (بل ألقوا) أنتم أولا فانتهزوا
الفرصة لان ذلك كان مرادهم عما أفهموه من تغيير السياق والتصريح بالاول فألقوا ما معهم
من الحبال والعصى (فاذا حبالهم وعصيهم) أى التى ألقوها قد فاجأت أنه (يخيل اليه) تخييلا
مبتدأ (من سحرهم) أى الذى قد فاقوا به أهل الارض (أنها) لشدة اضطرابها (تسعى) ه (فان
قيل) كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام بل ألقوا فيأمرهم بما هو سحر (أجيب)
بأن ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله تعالى فأتوا
بسورة من مثله أى ان كنتم صادقين وفى القصة انهم لما ألقوا الحبال والعصى أخذوا أعين
الناس فرأى موسى والقوم كأن الارض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلا من كل جانب
ورأوا أنها تسعى وقيل لطخوها بالزئبق فلما وقعت عليها الشمس اضطربت فخيل اليهم انها
تتحرك وقرأ ابن ذكوان تخيل بالتاء الفوقية على التأنيث والباقون بالياء على اسناده الى ضمير
الحبال (فأوجس) أى أحس (فى نفسه خيفة موسى) عليه الصلاة والسلام (فان قيل) كيف
استشعر الخوف وقد عرض عليه المعجزات الباهرات كالعصا واليد ثم ان الله تعالى قال له بعد
ذلك اننى معكما أسمع وأرى فكيف وقع الخوف فى قلبه (أجيب) بأوجه أحدها أنه خاف من
جهة أن سحرهم من جنس معجزته أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا به الثانى أنه خوف
طبع البشرية مثل ما خاف من عصاه أول ما رآها كذلك الثالث لعله كان مأمورا أن لا يفعل
شيأ الا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحى فى ذلك الجمع
فيبقى الخجل ثم انه أزال ذلك الخوف بقوله تعالى (قلنا لا تخف) من شئ من أمرهم ولا غيره
ثم علل ذلك بقوله تعالى وأكده أنواعا من التأكيد لاقتضاء الحال الانكار أن يغلب أحد
ما أظهروا من سحرهم لعظمه (انك أنت) خاصة (الاعلى) أى الغالب غلبة ظاهرة لا شبهة فيها
(وألق ما فى يمينك) أبهمه ولم يقل عصاك تحقيرا لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق
العويد الذى فى يدك أو تعظيما لها أى لا تحتفل بكثرة هذه الاجرام وعظمها فان فى يمينك ما هو
أعظم منها أى العصا وهى التى قلنا لك أول ما شرفناك بالمناجاة وما تلك بيمينك ياموسى ثم أريناك
منها ما أريناك (تلقف) أى تبتلع بقوة واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك (ما صنعوا) أى
فعلوه بعد تدريب كثير وممارسة طويلة فلما ألقاها صارت أعظم حية من حياتهم ثم أخذت
تزداد عظما حتى ملأت الوادى ثم صعدت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت وأكلت كل
ما عملوه فى الميلين والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه
فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى فأخذها فاذا هى عصا كما كانت ونظرت السحرة فاذا
هى لم تدع من حبالهم وعصيهم شيأ الا أكلته وعرفوا أنه ليس بسحر وأصل تلقف تتلقف

(قلت) لان الرؤية الاولى
متعلقة بالزلزلة وكل الناس
يرونها والثانية متعلقة
بكون الناس سكارى فلا
بد من جعل كل واحد رائيا
بانهم (قوله كلما أرادوا
ان يخرجوا منها من غم

حذفت احدى التاءين وتاء المضارعة فتحتمل التأنيث على اسناد الفعل الى العصا والخطاب على اسناد الفعل الى السبب وقرأ ابن ذكوان برفع الفاء على الحال أو الاستئناف والباقون بسكونها وحفص بسكون اللام وتخفيف القاف على أنه من لقفته بمعنى تلقفته (انما) أى الذى (صنعوا) اى زوروا وافتعلوا وهالك أمره (كيد ساحر) أى كيد سحرى لا حقيقة له ولا ثبات وقرأ حمزة والكسائى بكسر السين وسكون الحاء بمعنى ذى سحر أو بتسمية الساحر سحرا على المبالغة أو باضافة الكيد الى السحر للبيان كقولهم علم فقه والباقون بفتح السين وكسر الحاء وألف بينهما (فان قيل) لم وحد الساحر ولم يجمع (أجيب) بان القصد من هذا الكلام معنى الجنسية لا معنى العدد فلو جمع خيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله تعالى (ولا يفلح الساحر) اى هذا الجنس (حيث أتى) اى كيفما سار وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان وقيل معناه حيث احتال فانه انما يفعل ما لا حقيقة له (فان قيل) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا (أجيب) بانه قال هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك ان الكلام على هذا الوجه أبلغ ثم انه امتثل ما أمره به ربه من القاء العصا فكان ما وعده به سبحانه من تلقفها ما صنعوا من غير أن يظهر عليها زيادة فى ثخن ولا فى غيره مع أن حبالهم وعصيهم كانت شيأ كثيرا فعلم كل من رأى ذلك حقيقته وبطلان ما فعل السحرة فبادر السحرة منهم الى الخضوع لامر الله تعالى ساجدين مبادرة من كأنه ألقاه ملق على وجهه ولذلك قال تعالى بعد ان ذكر مكرهم واجتهادهم فى معارضة موسى عليه السلام وحذف ذكر الالقاء وما سببه من التلقف لان مقصود السورة القدرة على تليين القلوب القاسية (فألقى السحرة) أى فألقاهم ما رأوا من أمر الله تعالى بغاية السرعة وبايسر أمر (سجدا) على وجوههم لله تعالى توبة مما صنعوا وانما ما لفرعون بسجودهم وتعظيم ما رأوا وذلك لانهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا فعل موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين الذى ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله لا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود قال الاصبهانى سبحان الله ما أعظم شأنهم ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين فكأن قائلا قال هذا فعلهم فماذا قالوا فقيل (قالوا آمنا برب هرون وموسى) ولم يقولوا آمنا برب العالمين لان فرعون ادعى الربوبية فى قوله انا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ما علمت لكم من اله غيرى فلو أنهم قالوا ذلك لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لا بغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل على ذلك أنهم لم يقتصروا على موسى بل قدموا هرون لان فرعون ربى موسى فى صغره فلو اقتصروا على موسى أو قدموا ذكره فربما توهم ان المراد فرعون وذكر هرون على الاستتباع وقيل قدموه لكبر سنه أو لروى الآية فسبحان الله ما أعظم أمرهم كانوا أول النهار سحرة يقرون لفرعون بالربوبية وآخره شهداء بررة روى أنهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى

أعدوا فيها) قال ذلك هنا بذكر من ثم وفى السجدة بدونه موافقة لما قبلهما اذ ما هنا تقدمه قوله قطعت لهم ثياب من نار الآية وما هناك لم يتقدمه الا قوله فمأواهم النار (قوله وذوقوا

في صدورهم منازلهم التي يصيرون اليها في الجنة فكأنه قيل ما قال لهم فرعون حينئذ فقيل (قال) لهم (آمنتم) أي بالله (له) أي مصدقين أو متبعين لموسى (قبل أن آذن لكم) في ذلك قال ذلك ايهاما بانه سيأذن فيه ليقف الناس عن المبادرة الى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء الاذن ثم استأنف قوله معللا تخييلا لاتباعه صدا لهم عن الاقتداء بالسحرة (انه) أي موسى (لكبيركم) أي معلمكم (الذي علمكم السحر) أي فلم تتبعوه لظهور الحق بل لارادتكم شيأ من المكر وافقتموه عليه قبل حضوركم في هذا الموطن وهذا على عادته في تخييل أتباعه بما يوقفهم عن اتباع الحق ❊ ولما خيلهم شرع يزيدهم حيرة بتهديد السحرة فقال مقسما (فلأقطعن) أي بسبب ما فعلتم (أيديكم) على سبيل التوزيع (وأرجلكم) أي من كل رجل يدا ورجلا وقوله (من خلاف) حال بمعنى مختلفة أي الايدي اليمنى والارجل اليسرى (ولأصلبنكم) وعبر عن الاستعلاء بالظرف اشارة الى تمكينهم في المصلوب عليه تمكين المظروف في ظرفه فقال (في جذوع النخل) تشنيعا لقتلكم وردعا لامثالكم (ولتعلمن أينا) يريد نفسه لعنه الله وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له واللام مع الايمان في كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين وفيه تبجح باقتداره وقهره وما ألفه وضرى به من تعذيب الناس بانواع العذاب وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به لان موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء وقيل يريد رب موسى الذي آمنوا به (أشد عذابا وأبقى) اي أدوم على مخالفته (فان قيل) ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية وقصدها له وآل الامر أن استغاث بموسى من شرها وعجزه عن دفعها كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ في وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ بموسى في قوله أينا أشد عذابا وأبقى (أجيب) بانه كان في أشد الخوف في قلبه الا أنه يظهر الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجا لامره ❊ قال الرازي ومن استقرى أحوال العالم علم ان العاجز قد يفعل أمثال هذه الاشياء ومما يدل على معاندته قوله انه لكبيركم الذي علمكم السحر لانه كان يعلم ان موسى ما خالطهم البتة وما لقيهم وكان يعلم من سحرته استاذ كل واحد منهم وكيف حصل ذلك العلم ثم انه كان يقول مع ذلك هذه الاشياء ثم كأنه قيل فما قالوا له فقيل (قالوا) له (لن نؤثرك) أي نختارك (على ما جاءنا) على لسان موسى (من البينات) التي عاينّاها وعلمنا أنه لا يقدر أحد على مضادتها ❊ ولما بدؤا بما يدل على الخالق من الفعل ترقوا الى ذكره بعد معرفته بفعله اشارة الى علو قدره فقالوا (والذي) أي ولا نؤثرك بالاتباع على الذي (فطرنا) أي ابتدأ خلقنا اشارة الى شمول ربوبية الله تعالى لهم وله ولجميع الناس وتنبيها على عجز فرعون عند من استخفه وفي جميع أقوالهم هذه من تعظيم الله تعالى عبارة واشارة وتحقير فرعون أمر عظيم ❊ (تنبيه) ❊ قد علم مما تقرر ان والذي معطوف على ما وانما أخر واذكر الباري تعالى لانه من باب الترقي من الادنى الى الاعلى وقيل الواو قسم والموصول مقسم به وجواب القسم محذوف أي وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق ❊ ولما تسبب عن ذلك انهم لا يبالون به وعلموا أن ما يفعله بهم هو باذن الله تعالى قالوا له (فاقض) أي فاصنع في حكمك الذي تقضيه (ما أنت قاض) أي فاقض الذي أنت قاضيه ثم علوا ذلك بقولهم (انما تقضي) أي تصنع بنا ما تريد ان قدرك الله تعالى عليه (هذه الحيوة الدنيا) النصب على الاتساع أي انما

عذاب الحريق) تقديره وقيل لهم ذوقوا كما في السورة وخص ما هنا بالحذف لطول الكلام وما في السورة بالذكر لقصره وموافقة لذكر القول قبله كقوله ام يقولون افتراه

حكمك

حكمت فيها على الجسد خاصة فهي ساعة تعقبها راحة ونحن لا نخاف الا من يحكم على الروح
وان فني الجسد فذلك هو العذاب الشديد الدائم ثم عللوا انعظيم الله تعالى واستهانتهم بفرعون
بقولهم (انا آمنا بربنا) أي المحسن الينا طول أعمارنا مع اساءتنا بالكفر وغيره (ليغفر لنا) من
غير نفع يلحقه بالفعل أو ضرر يدركه بالترك (خطايانا) التي قابلنا بها احسانه ثم خصوا بعد
العموم فقالوا (وما أكرهتنا عليه) وبينوا ذلك بقولهم (من السحر) لتعارض المعجزة فانه
كان الاكمل لنا عصيانك فيه لان الله تعالى أحق بان يتقى (فان قيل) كيف قالوا ذلك وقد جاؤا
مختارين يحلفون بعزة فرعون ان لهم الغلبة (أجيب) بانه قد روى ان رؤساء السحرة كانوا
اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقون من بني اسرائيل أكرههم فرعون على تعلم السحر
وروى أنهم رأوا موسى عليه السلام نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون ان الساحر اذا نام
بطل سحره فهذا لا نقدر على معارضته فأبى عليهم وأكرههم على المعارضة وقيل ان الملوك في ذلك
الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونه تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحداثا
ليعلمهم ليكون في كل وقت من يحسنه * ولما كان التقدير فربنا اهل التقوى واهل المغفرة
عطفوا عليه مستحضرين لكماله (والله) اى الجامع لصفات الكمال (خير) جزاء منك فيما
وعد تنابه (وابقى) ثوابا وعقابا قال ابو حيان والظاهر ان الله تعالى سلمهم من فرعون ويؤيده
قوله تعالى ومن اتبعكما الغالبون وقال الرازي ليس في القرآن ان فرعون فعل باولئك القوم
المؤمنين ما اوعدهم ولم يثبت في الاخبار وقال البقاعي سيأتي في آخر الحديد ما هو صريح في
نجاتهم ثم عللوا هذا الحكم بقولهم (انه) اى الامر والشان (من يأت ربه) اى الذى رباه
واحسن اليه بان اوجده وجعل له جميع ما يصلحه (مجرما) بان يموت على كفره (فان له جهنم)
دار الاهانة (لا يموت فيها) فيستريح من عذابها بخلاف عذابك فان آخره الموت وان طال (ولا
يحيى) فيها حياة هنيئة وبها يندفع ما قيل ان الجسم الحي لا بد أن يبقى اما حيا أو ميتا فخلوه عن
الوصفين محال وقال بعضهم ان لنا حالة ثالثة وهي كحالة المذبوح قبل أن يهدأ فلا هو حي لانه قد
ذبح ذبحا لا تبقى الحياة معه ولا هو ميت لان الروح لم تفارقه بعد فهي حالة ثالثة (ومن يأته) أى
ربه الذى قد أوجده ورباه (مؤمنا) اى مصدقا به (قد) ضم الى تصديق الايمان أنه (عمل) اى
في الدنيا (الصالحات) أى التى أمر بها فكان صادق الايمان مستلزما لصالح الاعمال (فأولئك)
أى العالو الرتبة (لهم الدرجات العلى) جمع علياء مؤنث أعلى التى لا نسبة لدرجاتك التى
أوعدتنا اليها ثم بينوها بقولهم (جنات عدن) أى أعدت للاقامة وهيئت فيها أسبابها
(تجرى من تحتها الانهار) أى من تحت غرفها وأسرتها وأرضها اذ لا يراد موضع منها الا نجرى
فيه نهر الاجرى وقولهم (خالدين فيها) حال والعامل فيها معنى الاشارة أو الاستقرار (وذلك
جزاء) كل (من تزكى) اى تطهر من أدناس الكفر * (تنبيه) * هذه الآيات الثلاث وهي من
قوله انه من يأت ربه مجرما الى هنا يحتمل أن تكون من كلام السحرة كما تقرر وأن تكون ابتداء
كلام من الله تعالى وقوله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى ان أسر بعبادى) عطف على قوله
ولقد أريناه آياتنا وفيه دليل على أن موسى عليه السلام كثر مستجيبوه فاراد الله تعالى تمييزهم
من طبقة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسرى بهم ليلا والسرى اسم لسير الليل والاسراء

وقوله وقالوا أئذا ضللنا
وقل يتوفاكم (قوله ان الله
يدخل الذين آمنوا وعملوا
الصالحات جنات تجرى من
تحتها الانهار) كرره لانه لما
ذكر حكم أحد الخصمين
وهو فالذين كفروا قطعت

مثله والحكمة في السرى بهم لئلا يشاهدهم العدو فيمنعهم عن مرادهم أو ليكون ذلك عائقا لفرعون عن طلبه وتتبعه أو ليكون اذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عليه الصلاة والسلام عسكر فرعون لعنه الله فلا يهابونهم وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون وهمزة وصل بعدها من سرى والباقون بسكون النون وهمزة قطع بعدها من أسرى لغتان أى أسر ببنى اسرائيل من أرض مصر الى لينت قلب فرعون لهم حتى أذن لهم فى مسيرهم بعد أن كان قد أبى أن يطلقهم او يكف عنهم العذاب فاقصد بهم ناحية بحر القلزم (فاضرب) اى اجعل (لهم) بالضرب بعصاك (طريقا فى البحر) والمراد بالطريق الجنس فانه كان لكل سبط طريق وقوله (يبسا) صفة لطريقا وصف به لما يؤل اليه لانه لم يكن يبسا الا بعد أن مرت عليه الصبا فجففته كما روى وقيل فى الاصل مصدر وصف به مبالغة وقيل جمع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد مبالغة فلما امتثل ما أمر به وأيبس الله تعالى له الارض واراد المرور بها قال الله تعالى له (لا تخاف دركا) اى أن يدركك فرعون (ولا تخشى) غرقا وقرأ حمزة بجزم الفاء ولا ألف بينها وبين الخاء على ان يكون نهيا مستأنفا والباقون برفع الفاء والف بينها وبين الخاء على انه مستأنف فلا محل له من الاعراب او انه فى محل نصب على الحال من فاعل اضرب اى اضرب غير خائف (فأتبعهم فرعون بجنوده) اى وهو معهم على كثرتهم وعلوهم وقوتهم وعزتهم فكانوا كالتابع الذى لا معنى له بدون متبوعه والمتبوع بنو اسرائيل وذلك ان موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم اول الليل فاخبر فرعون بذلك فقص اثرهم والمعنى فاتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثانى وقيل ان الباء زائدة (فغشيهم) اى فرعون وقومه (من اليم) اى البحر (ما غشيهم) اى امر لا تحتمل العقول وصفه فاهلكهم وقطع دابرهم ولم يبق منهم أحدا وما شاك أحدا من عبادنا المستضعفين شوكة (وأضل فرعون قومه) أى بدعائهم الى عبادته (وما هدى) أى ما أرشدهم وهذا تكذيب لفرعون وتهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد

•(تنبيه)• لا بأس بذكر شئ من هذه القصة فنقول قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان بنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وكان يوسف عليه الصلاة والسلام عهد اليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يعرفوا مكانها حتى دلتهم عجوز على موضع العظم فأخذوه وقال موسى عليه الصلاة والسلام للعجوز احتكمى أى انظرى لك شيأ اطلبه فقالت أكون معك فى الجنة فلما خرجوا اتبعهم فرعون وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال هنا أمرت فأوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى ادخلوا فيه فقالوا كيف وهى رطبة فدعا ربه فهبت عليها الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر وأقبل فرعون الى تلك الطرق فقال له قومه ان موسى قد سحر البحر كما ترى وكان على فرس حصان فأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة فسار جبريل بين يدى فرعون فابصر الحصان الفرس فاقتحم بفرعون على اثرها فصاحت الملائكة فى الناس الحقوا حتى اذا لحق آخرهم وكادوا أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم

فغرقوا

اسم شباب من نار لم يكن بها
الآخر
من ذكر حكم التلعم
لمقارنته وان تقدم ذكره
الآية
(قوله فكلوا منها)
كرره لان الاول مرتب على
ذبح بهيمة الانعام الشاملة

فغرقوا جميعا فرجع بنو اسرائيل حتى ينظروا اليهم وقالوا يا موسى ادع الله تعالى يخرجهم لنا
حتى ننظر اليهم فلفظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس أن جبريل قال
يا محمد لو رأيتني وانا أدس في في فرعون الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله تعالى فغشيهم
من اليم ما غشيهم * ولما أنعم الله تعالى على قوم موسى عليه السلام بانواع النعم ذكر أولادهم
تلك النعم فناداهم بقوله تعالى (يا بني اسرائيل) والمنادى من وجد من اليهود في زمن النبي صلى
الله عليه وسلم وخوطبوا بما انعم به على اجدادهم زمن موسى عليه السلام ولاشك ان ازالة
الضرر يجب تقديمها على ايصال المنفعة الدينية وايصال المنفعة الدينية أعظم من ايصال
المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ تعالى بازالة الضرر بقوله (قد أنجيناكم من عدوكم) فان فرعون كان
ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والخراج والاعمال الشاقة ثم ثنى بذكر المنفعة
الدينية بقوله تعالى (وواعدناكم جانب الطور الايمن) أي الذي على أيمانكم في توجهكم هذا
الذي وجوهكم فيه الى بيت أبيكم ابراهيم عليه السلام وهو جانبه الذي يلي البحر وناحية مكة
والايمن ووجه المنفعة فيه أنه أنزل في ذلك القرب عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم
ثلث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله تعالى (ونزلنا عليكم) بعد انزال هذا الكتاب في هذه المواعدة
لانعاش أرواحكم (المن) أي الترنجبين (والسلوى) أي الطير السماني بتخفيف الميم والقصر
وقوله تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أمر اباحة ان فسر الطيب باللذيذ لان المن
والسلوى من لذائذ الاطعمة وان فسر بالحلال لان الله تعالى أنزله اليهم ولم تمسه يد الآدميين
فهو أمر ايجاب وقرأ حمزة والكسائي قد أنجيتكم وواعدتكم ما رزقتكم بتاء مضمومة
بعد الجيم من أنجينا و بعد الدال من وعدنا و بعد القاف من رزقنا ولا ألف في الثلاثة
والباقون بالنون وألف بعدها في الثلاثة وأسقط أبو عمرو الالف قبل العين من وعدنا وأثبتها
الباقون * ثم زجرهم عن العصيان بقوله تعالى (ولا تطغوا فيه) اي فيما رزقناكم بالاخلال
بشكره والتعدي بما حده الله لكم فيه من السرف والبطر والمنع عن المستحقين وقرأ الكسائي
(فيحل) بضم الحاء اي ينزل والباقون بكسرها اي يجب (عليكم غضبي) اي عقوبتي (ومن
يحلل عليه غضبي فقد هوى) اي هلك وقيل شقي وقيل وقع في الهاوية وقرأ الكسائي بضم
اللام الاولى وكسرها الباقون * ولما كان الانسان محل الزلل وان اجتهد رجاه واستعطفه
بقوله سبحانه (واني لغفار) اي ستار بالذيل العفو (لمن تاب) اي رجع عن ذنوبه من
الشرك وما يقاربه (وآمن) بكل ما يجب الايمان به (وعمل صالحا) تصديقا لايمانه (ثم اهتدى)
باستمراره على ذلك الى موته * (فائدة) * اعلم أنه تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا
وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والامر أما وصف كونه غافرا فقوله
تعالى غافر الذنب وأما كونه غفورا فقوله تعالى وربك الغفور وأما كونه غفارا فقوله تعالى
واني لغفار لمن تاب وآمن وأما الغفران فقوله تعالى غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله تعالى وان
ربك لذو مغفرة للناس وأما صيغة الماضي فقوله تعالى في حق داود عليه السلام فغفرنا له وأما
صيغة المستقبل فقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا
وقوله تعالى في حق نبينا صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وأما لفظ

البدن والبقر والغنم والثاني
مرتب على ذبح البدن خاصة
وان وافقه في الحكم ذبح
الآخرين (قوله اذن للذين
يقاتلون) اي اذن للذين
يريدون ان يقاتلوا في القتال

الاستغفار فقوله تعالى استغفروا ربكم ويستغفرون لمن في الارض ويستغفرون للذين آمنوا (وههنا نكتة لطيفة) وهي ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام اذا كثر منه الظلم ولله تعالى في مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى قال ان كنت ظالما فأنا غافر وان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت ظلاما فأنا غفار فيجب على كل من ارتكب معصية كبيرة أو صغيرة أن يتوب منها لهذه الآية ودلت على أن العمل الصالح غير داخل في الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف يغاير المعطوف عليه ❁ ولما أمر تعالى موسى عليه السلام بحضور الميقات مع قوم مخصوصين قال المفسرون هم السبعون الذين اختارهم الله تعالى من جملة بني اسرائيل ليذهبوا معه الى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم موسى ثم عجل موسى عليه السلام من بينهم شوقا الى ربه وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه الى الجبل فقال تعالى له (وما أعجلك عن قومك) أي لمجيء ميعاد أخذ التوراة (ياموسى قال) مجيبا لربه تعالى (هم أولاء) أي بالقرب مني يأتون (على أثري) أي ماشين على آثار مشيي قبل أن ينطمس وما تقدمتهم الا بخطا يسيرة لايعتد بها عادة وليس بيني وبينهم الا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم على بعض (وعجلت اليك رب لترضى) أي لتزداد عني رضا فان المسارعة الى امتثال أمرك والوفاء بعهدك يوجب مرضاتك ❁ (تنبيه) ❁ في الآية سؤالات الاول قوله تعالى وما أعجلك استفهام وهو على الله تعالى محال وأجيب عنه بانه كان في صورة الاستفهام ولا مانع منه الثاني أن موسى عليه السلام لايخلو اما أن يكون ممنوعا من ذلك التقدم أو لم يكن فان كان الاول كان التقدم معصية وان لم يكن فلا انكار وأجيب عنه بانه عليه السلام لعله ما وجد نصا في ذلك فاجتهد فاخطأ في اجتهاده فاستوجب العتاب الثالث قوله وعجلت والعجلة مذمومة أجيب عنه بانها ممدوحة في الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم الرابع قوله لترضى يدل على أنه انما فعل ذلك ليحصل الرضا واذا لم يكن راضيا عنه وجب أن يكون ساخطا عليه وذلك لايليق بحال الانبياء عليهم السلام أجيب عنه بان المراد تحصيل دوام الرضا أو زيادته كامر الخامس قوله اليك يقتضي كون الله تعالى في جهة لان الى لانتهاء الغاية وأجيب عنه بانا اتفقنا على أن الله تعالى لم يكن في الجبل فالمراد مكان وعدك السادس قوله تعالى ما أعجلك عن قومك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلب زيادة رضاك او التشوق الى كلامك واما قوله هم أولاء على أثري فغير منطبق عليه كما ترى أجيب عنه بان سؤال الله تعالى يتضمن شيئين احدهما انكار نفس العجلة والثاني السؤال عن سبب التقدم فاجاب عن السؤال عن العجلة لانها اهم فقال وعجلت اليك رب لترضى (قال) تعالى (فانا) اى تسبب عن عجلتك عنهم انا (قد فتنا) اى ابتلينا (قومك من بعدك) اى بعد فراقك لهم بعبادة العجل وهم الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة الف وما نجا من عبادة العجل منهم الا اثنا عشر الفا (واضلهم السامري) باتخاذ العجل والدعاء الى عبادته فاطاعه بعضهم وامتنع بعضهم والسامري منسوب الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لهم السامرة وقيل كان علجا من اهل كرمان وقع الى مصر وقيل كان من قوم يعبدون البقر جيران لبني اسرائيل ولم يكن منهم واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا (فرجع موسى) لما اخبره ربه بذلك (الى قومه)

(قوله الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله) الاستثناء فيه منقطع بمعنى لكن أخرجوا بقولهم ربنا الله اوهو من باب تعقيب المدح

بعدما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ليال من ذى الحجة واخذ التوراة (غضبان) عليهم (أسفا) اى حزينا بما فعلوا (قال) أى لقومه لما رجع اليهم مستعطفا لهم (يا قوم) وانكر عليهم بقوله (ألم يعدكم ربكم) اى الذى احسن اليكم (وعدا حسنا) اى بانه ينزل عليكم كتابا حافظا ويكفر عنكم خطاياكم وينصركم على اعدائكم الى غير ذلك من اكرامه ولما جرت العادة بان طول الزمان ناقض للعزائم مغير للعهود كما قال ابو العلاء احمد بن سليمان المعرى

لا أنسينك ان طال الزمان بنا * وكم حبيب تمادى عهده فنسى

قال لهم (أفطال عليكم العهد) اى زمن لطف الله تعالى بكم فتغيرتم بما فارقتكم عليه كما تغير أهل الرذائل والانحلال فى العزائم لضعف العقول وقلة التدبر (أم أردتم) اى بالنقض مع قرب العهد وذكر الميثاق (أن يحل) اى يجب (عليكم) بسبب عبادة العجل (غضب من ربكم) المحسن اليكم اى وكلا الامرين لم يكن أما الاول فواضح وأما الثانى فلا يظن باحد ارادته والحاصل انه يقول فعلتم ما لا يفعله عاقل (فأخلفتم) اى فتسبب عن فعلكم ذلك ان أخلفتم (موعدى) اى وعدكم اياى بالثبات على الايمان بالله والقيام على ما أمركم به ولما تشوف السامع الى جوابهم استأنف ذكره فقال (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) اى بان ملكنا أمرنا اذ لو خلينا وأمرنا ولم يسول لنا السامرى لما أخلفناه واختلف فى هذا المجيب على وجهين الاول هم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا اى بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان الفاعل لذلك آباءهم لاهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضا على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع النفرة وزيادة الفتنة الثانى ان هذا قول عبدة العجل والمراد أن غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب فمخلف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كالمالك لنا (فان قيل) كيف كان رجوع قريب من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة عجل يعرف فسادها بالضرورة (أجيب) بان هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس وقرأ عاصم ونافع بفتح الميم وحمزة والكسائى بضمها والباقون بكسرها وثلاثتها فى الاصل لغات فى مصدر ملكت الشئ ثم ان القوم فسروا العذر الحامل لهم على ذلك الفعل فقالوا (ولكنا حملنا) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بضم الحاء وكسر الميم مشددة وأبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بفتح الحاء والميم مخففة (أوزارا) اى أثقالا (من زينة القوم) اى حلى قوم فرعون استعارها منهم بنو اسرائيل بسبب عرس وقيل استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها عند الخروج مخافة أن يعلموا به وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد غرقهم فاخذوه قال البيضاوى ولعلهم سموها أوزارا لانها آثام فان الغنائم لم تكن تحل بعد ولانهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن أن يأخذ من مال الحربى (فقذفناها) اى فى النار (فكذلك ألقى السامرى) اى ما كان معه اما من المال أو من أثر الرسول روى أن موسى عليه السلام لما وعده ربه أن يكلمه استخلف على قومه أخاه هرون وأجلهم ثلاثين يوما وذهب فصامهن ليلهن ونهارهن ثم كره أن يكلم ربه وريح فمه متغير فمضغ شيأ من نبات الارض فقال له ربه أوما علمت ان ريح الصائم أطيب من ريح المسك

بما يشبه الذم كقول الشاعر
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب
اى ان كان فيهم عيب فهو
هذا وهذا ليس بعيب

ارجع فصم عشرا وقيل انهم أقاموا بعدمفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين بايامها وقالوا قد كملت العدة فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع اليهم ساءهم ذلك وكان هرون قد خطبهم وقال انكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار فاحفروا حفرة وألقوها فيها ثم أوقدوا عليها نارا فلا تكون لنا ولا لهم وكان السامرى قد رأى أثر فقبض منه قبضة فمر بهرون فقال له يا سامرى ألا تلقى ما فى يدك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها على شئ الا أن تدعو الله اذا ألقيتها أن يكون ما أريد فألقاها ودعا له هرون فقال أريد أن يكون عجلا فاجتمع ما فى الحفرة وصار عجلا فهذا معنى قوله تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا) من ذلك الحلى المذاب مجوف ليس فيه روح (له خوار) أى صوت يسمع قال ابن عباس لا والله ما كان له صوت قط وانما كان الريح يدخل فى دبره فيخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك وقيل انه صاغه ووضع التراب بعد صوغه فى فيه (فقالوا) أى السامرى ومن افتتن به أول ما رأوه مشيرين الى العجل (هذا الهكم واله موسى فنسى) أى فتنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور أو فنسى السامرى اى ترك ما كان عليه من الايمان (أفلا يرون) اى قالوا ذلك فتسبب عن قولهم علمهم عن رؤية (أن) اى انه (لا يرجع اليهم قولا) والاله لا يكون ابكم (ولا يملك لهم ضرا) فيخافوه كما كانوا يخافون فرعون فيقولون ذلك خوفا من ضرره (ولا نفعا) فيقولون ذلك رجاء له (ولقد قال لهم هرون من قبل) اى قبل رجوع موسى مستعطفا لهم (يا قوم انما فتنتم) اى وقع اختباركم فاختبرتم فى صحة ايمانكم وصدقكم فيه وثباتكم عليه (به) اى بهذا العجل فى اخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة وأكد لاجل انكارهم فقال (وان ربكم) اى الذى أخرجكم من العدم ورباكم بالاحسان (الرحمن) وحده الذى فضله عام ونعمه شاملة فليس على بر ولا فاجر نعمة الا وهى منه تعالى قبل أن يوجد العجل وهو كذلك بعده ومن رحمته قبول التوبة فخافوا نزع نعمه بمعصيته وارجوا اسباغها بطاعته (فاتبعونى) بغاية جهدكم فى الرجوع اليه (وأطيعوا أمرى) اى فى الثبات على الدين (قالوا لن نبرح عليه) اى العجل (عاكفين) اى مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) فداهنهم فهم رأيه وكان معظمهم قد ضل فلم يكن معه من يقوى بهم فخاف أن يجاهدهم الكفارة لا يفيد ذلك شيأ مع ان موسى لم يأمره بجهاد من ضل وانما قال له واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فرأى من الاصلاح اعتزالهم الى ان يأتى * (تنبيه) * انما قال هرون ذلك شفقة على نفسه وعلى الخلق اما شفقته على نفسه فلانه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأمورا من عند اخيه بقوله اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى وذلك لا يجوز أوحى الله تعالى الى يوشع ابن نون انى مهلك من قومك اربعين الفا من خيارهم ومائتى الف من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار قال انهم لم يغضبوا لغضبى وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه غير الله فليس من الله فى شئ ومن اصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن النعمان ابن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وعن عبد الله بن ابى اوفى قال خرجت اريد النبى

فلا عيب فيهم (قوله ولولا دفع الله الناس) الآية (ان قلت) اى منة على المؤمنين فى حفظ الصوامع والبيع والصلوات اى الكنائس من الهدم حتى امتن عليهم

صلى الله عليه وسلم فاذا ابو بكر وعمر عنده فجاء صغير يبكي فقال لعمر ضم الصبي اليك فانه ضال فاخذه عمر واذا ام الصبي تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال النبي صلى الله عليه وسلم ادرك المرأة فناداها فجاءت واخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك اترون هذه رحيمة بولدها قالوا يا رسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذي نفسي بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها واقد سلك هرون في موعظته أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى النبوة بقوله فاتبعوني ثم دعاهم رابعا بقوله وأطيعوا امرى وهذا هو الترتيب الجيد لانه لابد قبل كل شئ من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هي الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت أن هذا الترتيب أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا ولما ذكر تعالى ما قال هرون تشوفت النفس الى علم ما قال موسى فقيل (قال يا هرون) أنت نبي الله وأخي ووزيري وخليفتي فانت اولى الناس بان ألومه وأحقهم بان أعاتبه (ما منعك اذ) اي حين (رأيتهم ضلوا) عن طريق الهدى واتبعوا سبيل الردى (ألا تتبعن) في سيرتي من الاخذ على يد الظالم طوعا او كرها *(تنبيه)* لا مزيدة للتأكيد لان الداخل اذا زيد في كلام كان نافيا ضد مضمونه فيفسد اثبات المضمون ونفى الضد فيكون ذلك في غاية التأكيد وأثبت الياء بعد النون ابن كثير وقفا ووصلا وأثبتها نافع وأبو عمرو وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا (أفعصيت) اي فتكبرت عن اتباعي فتسبب عن ذلك أنك عصيت (أمري) وأخذ بلحيته وبرأسه يجره اليه غضبا لله تعالى فكأنه قيل ما قال له فقيل (قال) مجيبا له مستعطفا بذكر أول وطن ضمهما بعد نفخ الروح مع ماله من الرقة والشفقة (يا ابن أم) فذكرها خاصة وان كان شقيقه لانها يسوءها ما يسوءه وهي أرق من الاب وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح الميم وكسرها ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) اي بشعرهما * ثم علل ذلك بقوله (اني خشيت أن تقول) اذا اشددت عليهم حتى يصل الامر الى القتال (فرقت بين بني اسرائيل) بفعلك هذا الذي لم يحدث مثله من كان معك وضعفك عن ردهم (ولم ترقب قولي) اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولم تقل واردهم ولو أدى الامر الى السيف * ولما فرغ من نصيحة أقرب الناس اليه وأحقهم بنصيحته وحفظه على الهدى اذ كان رأس الهداة تشوف السامع الى ما كان من غيره فاستأنف تعالى ذكره بقوله (قال) اي موسى عليه السلام لرأس أهل الضلال معرضا عن أخيه بعد قبول عذره جاعلا ما نسب اليه سببا لسؤاله عن الحامل له عليه (فما خطبك) اي أمرك هذا العجب العظيم الذي حملك على ما صنعت وأخبرني ربي انك أضللتهم به (يا سامري قال) السامري مجيبا له (بصرت) من البصر والبصيرة (بما لم يبصروا به) اي رأيت ما لم ير بنو اسرائيل وعرفت ما لم يعرفوا وقال ابن عباس علمت ما لم يعلموا ومنه قولهم رجل بصير اي عالم قاله أبو عبيدة واراد أنه راى جبريل عليه السلام فاختص من موضع حافر دابته قبضة من تراب كما قال (فقبضت) اي فكان ذلك سببا لان قبضت (قبضة) اي مرة من القبض أطلقها على المقبوض تسمية للمفعول بالمصدر (من أثر) فرس

(قلت) المنة عليهم بذلك ان الصوامع والبيع فيها في حرمهم وحفظهم لان أهلها محترمون او المراد لهدمت صوامع وبيع في زمن عيسى عليه السلام

ذلك (الرسول) اى المعهود (فنبذتها) اى فى الحلى الملقى فى النار أو فى العجل (وكذلك) اى وكما
سولت لى نفسى أخذ أثره (سولت) اى حسنت وزينت (لى نفسى) نبذها فى الحلى فنبذتها
وكان منها ما كان ولم يدعنى الى ذلك داع ولا حملنى عليه حامل غير التسويل * (تنبيه) * كون
المراد بالرسول جبريل عليه السلام هو ما عليه عامة المفسرين وأراد بأثره التراب الذى أخذه
من موضع حافر دابته لما رآه يوم فلق البحر وعن على رضى الله تعالى عنه ان جبريل عليه
السلام لما نزل ليذهب بموسى الى الطور أبصره السامرى من بين الناس واختلفوا فى انه
كيف اختص السامرى برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين الناس فقال ابن عباس
فى رواية الكلبى انما عرفه لانه رباه فى صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد
بنى اسرائيل فكانت المرأة اذا ولدت طرحت ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ
الملائكة الولدان ويربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن أخذه
جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه
حتى عرفه فلما رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به يعنى رأيت ما لم
يروه ومن فسر الابصار بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام
له خاصية الاحياء قال أبو مسلم ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون فههنا وجه
آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به فقد
يقول الرجل ان فلانا يقفو أثر فلان ويقتص أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير أن موسى
عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الامر الذى دعاه الى اضلال القوم فى
العجل قال بصرت بما لم يبصروا به اى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت
قبضة من أثرك ايها الرسول اى شيأ من دينك فقذفته اى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه
السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة وانما أورد لفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل
لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الامير فى كذا او بماذا يأمر الامير وأما دعاؤه ان موسى رسول
مع جحده وكفره فعلى مذهب من حكى الله عنه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون
وان لم يؤمنوا بالانزال قال الرازى وهذا القول الذى ذكره ابو مسلم ليس فيه الا انه يخالف
المفسرين ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه أحدها أن جبريل عليه السلام ليس معهودا
باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول
لارادة جبريل كأنه تكليف بعلم الغيب وثانيها أنه لا بد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر
دابة الرسول والاضمار خلاف الاصل وثالثها أنه لا بد من التعسف فى بيان ان السامرى
كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته وكيف عرف أن تراب حافر فرسه
له هذا الاثر والذى ذكروه من ان جبريل هو الذى رباه فبعيد لان السامرى ان عرف انه
جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى نبى صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ما عرفه
حال البلوغ فأى منفعة له فى كون جبريل مربيا له حال الطفولية فى حصول تلك المعرفة * ثم ان
موسى عليه السلام لما سمع من السامرى ما ذكر (قال) له (فاذهب) اى فتسبب عن فعلك أن
أقول لك اذهب من بيننا وحيث ذهبت (فان لك فى الحيوة) اى ما دمت حيا (أن تقول) لكل

من

وكان أى فى زمن موسى عليه السلام ومساجد فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فالامتنان على اذعان أهل الاديان الثلاثة لاهل المؤمنين خاصة لقوله وكذب

من رأيته (لا مساس) أى لا تمسنى ولا أمسك فلا تقدر أن تنفك عن ذلك فكان يهيم فى البرية مع الوحوش والسباع واذا مس أحدا أو مسه أحد حما جميعا عاقبه الله تعالى بذلك وكان اذا لقى أحدا يقول لا مساس أى لا تقربنى ولا تمسنى وقال ابن عباس لا مساس لك ولولدك حتى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس احد من غيرهم احدا منهم حما جميعا فى ذلك الوقت (وان لك) بعد الممات (موعدا) للثواب ان تبت والعقاب ان ابيت (لن تخلفه) قرأ ابن كثير وابو عمرو بكسر اللام اى لن تغيب عنه والباقون بفتحها اى بل تبعث اليه فلا انفكاك لك عنه كما انك فى الحياة لا تقدر ان تنفك عن النفرة من الناس فاختر لنفسك ما يحلو * ولما ذكر ما لالله الحق من القدرة التامة فى الدارين اتبعه عجز العجل فقال (وانظر الى الهك) أى بزعمك (الذى ظلت) اى دمت فى مدة يسيرة جدا بما اشار اليه تخفيف التضعيف فان اصله ظللت بلامين اولاهما مكسورة حذفت تخفيفا (عليه عاكفا) اى مقيما تعبده (لنحرقنه) اى بالنار وبالمبرد قال البقاعى كما سلف عن نص التوراة وكان معنى ذلك انه احماه حتى لان فهان على المبارد اه (ثم لننسفنه) اى لنذرينه اذا صار حثالة (فى اليم) اى فى البحر الذى أغرق الله تعالى فيه آل فرعون ثم يجمع الله تعالى حثالته التى هى من حليهم فيحميها فى نار جهنم و يكوى بها ويجعلها من أشد العذاب عليهم وأكد الفعل اظهار العظمة الله تعالى الذى أمره بذلك وتحقيقا للصدق فى الوعد فقال (نسفا) قال الجلال المحلى وفعل موسى عليه السلام بعد ذبحه ما ذكره انتهى وعلى هذا الايصح أن يبرد بالمبرد قال الرازى ويمكن أن يقال صار لحما ودما وذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها ولما أراهم بطلان ما هم عليه بالعيان أخبرهم بالحق على وجه الحصر فقال (انما الهكم الله) اى الجامع لصفات الكمال ثم كشف المراد من ذلك وحققه بقوله (الذى لا اله الا هو) اى لا يصلح لهذا المنصب أحد غيره لانه (وسع كل شئ) وقوله (علما) تمييز محول عن الفاعل اى أحاط علمه بكل شئ فكل شئ اليه مفتقر وهو غنى عن كل شئ وأما العجل الذى عبدوه فلا يصلح للالهية بوجه ولا فى عبادته شئ من حق * ولما شرح الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا على هذا الاسلوب الاعظم والسبيل الاقوم كان كأنه قيل هل يعاد شئ من القصص على هذا الاسلوب البديع والمثال الرفيع فقيل نعم (كذلك) اى مثل هذا القص العالى فى هذا النظم العزيز الغالى كقصة موسى ومن ذكر معه (نقص عليك من أنباء) اى أخبار (ما قد سبق) من الامم زيادة فى علمك واجلالا لمقدارك وتسلية لقلبك واذهابا لحزنك بما اتفق للرسل من قبلك وتكثيرا لبيناتك وزيادة فى معجزاتك وليعتبر السامع ويزداد المستبصر فى دينه بصيرة وتتأكد الحجة على من عاند وكابر (وقد آتيناك) اى أعطيناك تشريفا لك وتعظيما لقدرك (من لدنا) اى من عندنا (ذكرا) اى كتابا هو القرآن وفى تسمية القرآن بالذكر وجوه أحدها أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم وثانيها أنه يذكر فيه أنواع آلاء الله ونعمائه وفيه التذكير والموعظة وثالثها فيه الذكر والشرف لك ولقومك كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وسمى الله تعالى كل كتاب أنزله ذكرا فقال فاسئلوا أهل الذكر والتنكير فيه للتعظيم فانه مشتمل على أسرار كتب الله تعالى المنزلة (من أعرض عنه) فلم يؤمن به (فانه يحمل يوم

العالم بقل وبنو
موسى) اسرائيل او قوم موسى
لان قوم موسى لم يكذبوه بل غيرهم عطفا على قوم نوح
وهم القبط او الابهام فى
بناء الفعل للمفعول للتفخيم

القيامة وزرا) اى حملا ثقيلا من الاثم (خالدين فيه) اى فى عذاب الوزر (وساء) اى وبئس (لهم) اى ذلك الحمل (يوم القيامة) وقوله (حملا) تمييز مفسر للضمير فى ساء والمخصوص بالذم محذوف تقديره وزرهم واللام للبيان ومن أقبل عليه كان مذكرا له بكل ما يريد من العلوم النافعة ويبدل من يوم القيامة (يوم ينفخ فى الصور) اى القرن النفخة الثانية وقرأ أبو عمرو بنون الاولى مفتوحة وضم الفاء على اسناد الفعل الى الآمر به تعظيما له او الى النافخ والباقون بياء مضمومة وفتح الفاء (ونحشر المجرمين) اى الكافرين (يومئذ زرقا) اى عيونهم مع سواد وجوههم لان زرقة العيون أبغض شئ من ألوان العيون الى العرب لان الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين وقيل المراد العمى لان حدقة من يذهب نور بصره تزرق وقيل عطاشا حال كونهم (يتخافتون) اى يخفضون أصواتهم (بينهم) لما يملأ صدورهم من الرعب والهول والخفت خفض الصوت واخفاؤه (ان) اى يقول بعضهم لبعض ما (لبثتم) اى مكثتم (الا عشرا) اى من الليالى بأيامها فى الدنيا وقيل فى القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة قالوا ذلك اما استقصارا لمدة الراحة فى جنب ما بدا لهم من المخاوف لان أيام السرور قصار واما لانها ذهبت عنهم وانقضت والذاهب وان طالت مدته قصير بالانتهاء ومنه توقيع عبد الله بن المعتز أطال الله تعالى بقاءك كفى بالانتهاء قصرا واما لاستطالتهم الآخرة فانه يستقصر اليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس الى لبثهم فى الآخرة كما قال تعالى كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسئل العادين واما غلطا ودهشة قال الله تعالى (نحن أعلم) اى من كل أحد (بما يقولون) فى ذلك اليوم اى ليس كما قالوا (اذ يقول أمثلهم) اى أعدلهم (طريقة) اى رأيا او عملا فى الدنيا فيما يحسبون (ان) اى ما (لبثتم الا يوما) اى مبدأ الآحاد لا مبدأ العقود كما قال تعالى فى آية أخرى يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون فلا يزالون فى افك وصرف عن الحق فى الدارين لان الانسان يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه ولما وصف سبحانه وتعالى أمر يوم القيامة حكى سؤال من لا يؤمن بالحشر فقال تعالى (ويسئلونك) يا أشرف الخلق (عن الجبال) كيف تكون يوم القيامة قال ابن عباس نزلت فى مشركى مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء ولما كان مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر فلا جرم أمره الله تعالى بالجواب مقرونا بحرف التعقيب بقوله (فقل) لهم (ينسفها ربى نسفا) لان تأخير البيان فى مثل هذه المسئلة الاصولية غير جائز وأما المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر هناك فى نحو قوله تعالى يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير بغير حرف التعقيب والنسف التذرية وقيل القلع الذى يقلعها من أصلها ويجعلها هباء منثورا قال الخليل ينسفها يذهبها او يطيرها وفى ضمير (فيذرها) قولان احدهما انه ضمير الارض أضمرت للدلالة عليها كقوله تعالى ما ترك على ظهرها من دابة والثانى ضمير الجبال وذلك على حذف مضاف اى فيذر مراكزها ومقارها ويذر يجوز أن يكون بمعنى يجعلها فيكون (قاعا) حالا وأن يكون بمعنى يترك التصييرية فيتعدى الاثنين فقاعا مفعول ثانيهما والقاع

والتعظيم اى وكذب وعصى ايضا مع وضوح آياته وظهور معجزاته فما ظنك بغيره قوله (اهلكنا) فكأين من قرية اهلكتها قال ذلك هنا وقال بعد وكأين من قرية أمليت

هو المكان المستوى وقيل الارض التى لابناء فيها ولانبات وفى قوله تعالى (صفصفا) قولان أحدهما الارض الملساء والثانى المستوية والقاع والصفصف قريبان من الترادف وجمع القاع أقوع وأقواع وقيعان (لاترى فيها) اى الارض او مواضع الجبال (عوجا) اى انخفاضا (ولا أمتا) اى ارتفاعا بوجه من الوجوه وعبر هنا فى العوج بالكسر وهو للمعانى ولم يعبر بالفتح الذى توصف به الاعيان فان الارض أو مواضع الجبال أعيان لامعان تنبيها لامر جاج على أبلغ وجه بمعنى انك لو جمعت أهل الخبرة بتسوية الارض لاتفقوا على الحكم باستوائها ثم لو جمعت أهل الهندسة لحكموا بعقاييسهم العلمية فيها الحكم باعتدال ذلك (يومئذ) اى يوم اذ نسفت الجبال (يتبعون) اى الناس بعد القيام من القبور بغاية جهدهم (الداعى) اى الى المحشر وهو اسرافيل يضع الصور على فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن (لاعوج له) اى الداعى فى شئ من قصدهم اليه لانه ليس فى الارض ما يحوجهم الى التعويج ولا يمنع الصوت من النفوذ على السواء وقيل لاعوج لدعائه وهو من المقلوب اى لاعوج لهم عن دعاء الداعى لايزيغون عنه يمينا ولاشمالا ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعا (وخشعت الاصوات) اى سكنت وذلت وتطامنت لخشوع اهلها (للرحمن) الذى عمت نعمه فيرجى كرمه ويخشى نقمه (فلا) اى فتسبب عن خشوعها أنك لا (تسمع الاهمسا) اخفى ما يكون من الاصوات وقيل اخفى شئ من أصوات الاقدام فى نقلها الى المحشر كصوت اخفاف الابل فى مشيها (يومئذ) اى اذ كان ماتقدم (لاتنفع الشفاعة) احدا (الامن أذن له الرحمن) ان يشفع له (ورضى له قولا) ولو الايمان المجرد قال ابن عباس يعنى قال لا اله الا الله فهذا يدل على أنه لايشفع لغير المؤمن ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير اذنه علل ذلك كما علله فى آية الكرسى بقوله (يعلم ما بين أيديهم) أى الخلائق من أمور الآخرة (وما خلفهم) من امور الدنيا وقيل ما بين أيديهم ما قدموا وما خلفهم ما خلفوا من الاعمال (ولا يحيطون به علما) أى لايحيط علمهم بمعلوماته وقيل الضمير الى ما أى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لايعلمونه وقيل راجع الى الله تعالى أى ولايحيطون بالله علما ولما ذكر خشوع الاصوات أتبعه خضوع ذويها فقال تعالى (وعنت الوجوه) اى ذلت وخضعت فى ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وخص الوجوه بالذكر مع أن المراد الاشخاص لشرف الوجوه ولانها أول ما يظهر فيها الذل (للحى) الذى هو مطلع على الدقائق والجلائل (القيوم) الذى لايغفل عن التدبير ومجازاة كل نفس بما كسبت روى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اطلبوا اسم الله الاعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الرازى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم (وقد خاب) اى خسر خسارة ظاهرة (من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله والظلم الشرك به ولما شرح الله تعالى أحوال القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال (ومن يعمل من الصالحات) اى الى أمره الله تعالى بها بحسب طاقته لانه لن يقدر الله أحد حق قدره ولن يشاد الدين أحد الا غلبه (وهو مؤمن) ليكون بناؤها على الاساس كما فى قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات (فلا يخاف ظلما) اى بزيادة فى سيآته (ولاهضما) اى بنقص من حسناته قاله ابن عباس وقيل لايؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها وعبر

لها مع ان فعلها قبلهما اذ ما هنا زائدة معنى الاهلاك بقوله فاملیت للذين كفروا ثم اخذتهم اى امهلتهم ثم اخذتهم وما بعده تقدمه ويستعجلونك بالعذاب وهو يدل على ان

تعالى بالقبول اشارة الى قبول الاعمال وجعلها سببا لذلك الحال وأما غير المؤمن فلو عمل امثال الجبال لم يكن لها وزن وقوله تعالى (وكذلك) معطوف على قوله تعالى وكذلك نقص اى ومثل انزال ماذكر (أنزلناه) اى القرآن (قرآنا) جامعا لجميع المعانى المقصودة ثم وصفه تعالى بامرين أحدهما قوله تعالى (عربيا) اى بلسان العرب ليفهموه ويقفوا على اعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر الثانى قوله تعالى (وصرفنا فيه من الوعيد) اى كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعد بهما يتعلق بشكره وتصريفه يقتضى بيان الاحكام فلذلك قال تعالى (لعلهم يتقون) أى يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات فتصير التقوى لهم ملكة (أو يحدث لهم ذكرا) أى عظة واعتبارا حين يسمعونها فيثبطهم عنها ولهذه النكتة أسند التقوى اليهم والاحداث الى القرآن (فتعالى الله) فى ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا يماثل ذاته وصفاته ذاتهم وصفاتهم (الملك) الذى لا يعجزه شئ فلا ملك فى الحقيقة غيره (الحق) اى الثابت الملك فلا زوال لكونه ملكا فى زمن ما ولعظمة ملكه وحقية ذاته وصفاته صرف خلقه على ماهم عليه من الامور المتباينة * ولما شرح الله تعالى كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين انه سبحانه وتعالى متعال عن كل مالا ينبغى موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك صان رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى فلذلك قال تعالى (ولا تعجل بالقرآن) أى بقراءته (من قبل أن يقضى اليك وحيه) من الملك النازل به اليك من حضرتنا كما انا لم نعجل بانزاله عليك جملة بل رتلناه لك ترتيلا ونزلناه اليك تنزيلا مفصلا تفصيلا وموصلا توصيلا فاستمع له ملقيا جميع تأملك اليه ولا تساوقه بالقراءة فاذا فرغ فاقرأه فانا نجمعه فى قلبك ولا نكلفك المساوقة بتلاوته (وقل رب) أيها المحسن الى بافاضة العلوم على (زدنى علما) أى سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال فان ما أوحى اليك تناله لامحالة روى الترمذى عن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما والحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال اللهم زدنى علما ويقينا ولما قال تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ذكر هذه القصة انجازا للوعد فقال تعالى (ولقد عهدنا) بما لنا من العظمة (الى آدم) أبى البشر أى وصيناه أن لا يأكل من الشجرة وانما عطفها على قوله تعالى وصرفنا فيه من الوعيد للدلالة على أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقهم راسخ بالنسيان (من قبل) أى فى زمن من الازمان الماضية قبل هؤلاء الذين تقدم فى هذه السورة ذكر نسيانهم واعراضهم (فنسى) عهدنا وأكل منها (ولم نجد له عزما) أى تصميم رأى وثبات على الامر اذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزله الشيطان ولم يستطع تغريره قال البيضاوى ولعل ذلك كان فى بدء أمره قبل أن يجرب الامور ويذوق اريها وشريها اه والارى العسل والشرى الحنظل قال البغوى قال أبو أمامة الباهلى لو وزن حلم آدم بحلم ولده لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقال البيضاوى وعن النبى صلى الله عليه وسلم لو وزنت احلام بنى آدم بحلم ادم لرجح حلمه وقد قال تعالى ولم نجد له عزما قال ابن الاثير والحلم بالكسر الاناة والتثبت فى الامور (فان قيل) ما المراد بالنسيان (اجيب) بانه يجوز أن يراد بالنسيان الذى هو نقيض الذكر وانه لم يعن

بالوصية

العذاب لم يأتهم فى الوقت عن ذكر الاهلاك فى الاول والاملاء فى الثانى (قوله ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ان قلت ما فائدة ذكرها مع ان القلوب

بالوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعا عن الانسان بل كان يؤاخذ به وانما رفع عنا وكان الحسن يقول ما عصى أحد قط الا بنسيان وان يراد الترك وانه ترك ما أوصى به من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها وقيل نسي عقوبة الله تعالى وظن أنه نهي تنزيه * (تنبيه) * هذا هو المرة الخامسة من قصة آدم في القرآن أولها في البقرة ثم في الاعراف ثم في الحجر ثم في الكهف ثم ههنا وقوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس) تقدم الكلام على ذلك مفصلا في سورة البقرة وقوله تعالى (أبى) جملة مستأنفة لانها جواب سؤال مقدر أي ما منعه من السجود فاجيب بانه أبى ومفعول الاباء يجوز أن يكون مرادا وقد صرح به في الآية الاخرى في قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين وحسن حذفه هنا كون العامل رأس فاصلة ويجوز أن لا يراد أصلا وان المعنى أنه من أهل الاباء والعصيان من غير نظر الى متعلق الاباء ما هو (فقلنا) بسبب امتناعه بعد أن حلمنا عليه ولم نعاجله بالعقوبة (يا آدم ان هذا) الشيطان الذي تكبر عليك (عدو لك ولزوجك) حواء بالمد لانها منك وسبب تلك العداوة وجوه الاول ان ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله في حق آدم حسده فصار عدوا له الثاني ان آدم عليه السلام كان شابا عالما لقوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه أثبت فضيلته بفضيلة أصله وذلك جهل والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم الثالث ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة (فان قيل) لم قال تعالى (فلا يخرجنكما من الجنة) مع أن المخرج لهما منها هو الله تعالى (أجيب) بانه لما كان هو الذي فعل بوسوسته ما ترتب عليه الخروج صح ذلك (فان قيل) لم قال تعالى (فتشقى) أي فتتعب وتنصب في الدنيا ولم يقل فتشقيا (أجيب) بوجهين أحدهما أن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على كونه رأس فاصلة وعن سفيان بن عيينة قال لم يقل فتشقيا لانها اذا دخلت معه فوقع المعنى عليهما جميعا وعلى أولادهما جميعا كقوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء ويا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم فدخلوا في المعنى معه وانما كلم النبي وحده الثاني أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لان الرجل هو الساعي على زوجته روي أنه اهبط الى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه ويحتاج بعد الحرث الى الحصد والطحن والخبز وغير ذلك مما يحتاج اليه وعن الحسن قال عني به شقاء الدنيا فلا تلقى ابن آدم الا شقيا ناصبا أي ولو أراد شقاوة الآخرة ما دخل الجنة بعد ذلك * ولما كان الشبع والري والكسوة والسكن هي الامور التي يدور عليها كفاف الناس ذكر تعالى حصول هذه الاشياء في الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفي لاضدادها بقوله تعالى (ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ) أي تعطش (فيها ولا تضحى) أي لا يحصل لك حر شمس الضحى لانتفاء الشمس في الجنة بل أهلها في ظل ممدود وهذه الاشياء كأنها تفسير للشقاء المذكور في قوله تعالى فتشقى (فوسوس) أي فتعقب تحذيرنا هذا من غير بعد في زمان أن

في الصدور (قلت فائدته المبالغة في التأكيد كما في قوله يقولون بأفواههم او القلب هنا بمعنى العقل كما قيل به في قوله ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب اي عقل فقيل فائدة التقييد

وسوس (اليه الشيطان) المحترق المطرود وهو ابليس اى أنهى اليه الوسوسة وأما وسوس له فمعناه لاجله فالذلك عدى تارة باللام فى قوله تعالى فوسوس لهما وتارة بالى ثم بين تعالى تلك الوسوسة ماهى بقوله تعالى (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى على الشجرة التى ان أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لا يبلى) أى لا يبيد ولا يفنى قال الرازى واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله تعالى فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا فى دوام الراحة بقوله تعالى هل أدلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله تعالى فيه آدم هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك الامر على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس لعنه الله وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه الصلاة والسلام مع كمال عقله وعلمه بان الله مولاه وناصره ومربيه وعلمه بان ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بعداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بانه الناصر له والمربى ومن تأمل هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع له منه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله ذلك وقدره انتهى ويدل على ذلك ماثبت فى الحديث الصحيح روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك فى جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم عليه السلام أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الالواح فيها بيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل ان يخلقنى قال موسى باربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومنى على أن عملت عملا كتب الله على ان أعمله قبل ان يخلقنى باربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء وقال كل شئ بقدر حتى العجز والكيس ثم كان ابليس قال لآدم بلسان الحال أو المقال مشيرا الى الشجرة التى نهى عنها ما بينك وبين الملك الدائم الا أن تأكل منها (فأكلا) أى فتسبب عن قوله وتعقب ان أكل (منها) هو وزوجته متبعين لقوله ناسيين لما عهد اليهما الامر قدره الله فى الازل (فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع سوآتهما كما قال صغت قلوبكما أى فظهر لكل منهما قبله وقبل الآخر ودبره وسمى كل منهما سوأة لان انكشافه يسوء صاحبه (وطفقا يخصفان) أى أخذا يلزقان (عليهما من ورق الجنة) ليستترا به قال ابن عادل وهو ورق التين (وعصى آدم) بالاكل من الشجرة وان كان انما فعل المنهى نسيانا الا ان عظم مقامه وعلو رتبته يقتضيان له مزيد الاعتناء ودوام المراقبة (ربه) المحسن اليه بالم ينله أحد من بنيه من تصويره له بيده واسجاد ملائكته له ومعاداة من

الاحتراز عن القول الضعيف بان العقل فى الدماغ (قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الرسول انسان أوحى اليه بشرع وأمر بتبليغه والنبى انسان

عاداه (فغوى) أى فعل مالم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وقيل حيث طلب الخلد بأكل مانهى عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز الى الذل ومن الراحة الى التعب قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لانه انما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه فيقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاوده ويعتاده *(تنبيه)* تمسك بعضهم بقوله تعالى وعصى آدم ربه فغوى فى صدور الكبيرة عنه من وجهين الاول ان العاصى اسم للذم فلا يطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه الثانى أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشاد ومثل هذا لا يتناول الا الفاسق المنهمك فى فسقه وأجيب بان المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب وقد يكون بالمندوب فانك تقول أمرته فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى واذا كان كذلك لم يمتنع اطلاق اسم العصيان على آدم بكونه للمندوب وان كان وصف تارك المندوب بانه عاص مجاز وأجاب أبو مسلم الاصبهانى بانه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذا القول فى غوى قال الرازى والاولى عندى فى هذا الباب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد تقدم شرح ذلك فى البقرة وقيل بل أكل من الشجرة متأولا وهو لا يعلم أن الشجرة التى نهى الله عنها شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل انما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة فهو كما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين أى يرونها بالاضافة الى علو أحوالهم كالسيآت (ثم اجتباه ربه) أى اختاره واصطفاه (فتاب عليه) أى قبل توبته واعاد عليه بالعفو والمغفرة (وهدى) اى هداه لرشده حتى رجع الى الندم والاستغفار *ولما كانت دار الملوك لا تحتمل مثل ذلك وان كان قد هيأه بالاجتباء لها قال على طريق الاستئناف (قال) الرب سبحانه وتعالى الذى انتهكت حرمة داره (اهبطا) اى آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما (منها) اى الجنة (جميعا) وقيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس فقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) يكون على التفسير الاول بعض الذرية لبعض عدو من ظلم بعضهم لبعض وعلى الثانى آدم وذريته وابليس وذريته وقوله تعالى (فاما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما المزيدة (يأتينكم منى هدى) اى كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) الذى أسعفته به من أوامر الكتاب والرسول (فلا يضل) اى بعد ذلك عن طريق السداد فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة قال ابن عباس من قرأ القرآن واتبع مافيه هداه الله تعالى من الضلالة ووقاه الله تعالى يوم القيامة سوء الحساب وذلك ان الله تعالى يقول فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى *ولما وعد تعالى من اتبع الهدى اتبعه بوعيد من أعرض فقال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فان له معيشة ضنكا) والضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر فكأنه قال له معيشة ذات ضنك واختلف فى ذلك فقال أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى وابن مسعود المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر وروى أبو هريرة أن عذاب القبر للكافر قال قال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ليسلط عليه فى قبره تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية

أوحى اليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه فهو أعم من الرسول (قوله وانما يدعون من دونه هو الباطل) قاله هنا بنا كيده بهو وقاله فى لقمان بدونه لموافقة كل منهما ما قبله لان ما هنا

لكل حية تسعة رؤس يخدشونه و يلسعونه و ينفخون في جسمه الى يوم يبعثون وقال الحسن وقتادة والكلبي هو الضيق في الآخرة في جهنم فان طعامهم الضريع والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وقال ابن عباس المعيشة الضنك هي أن يضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشئ منها وعن عطاء المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب وروى عن على رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة وان لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله وذلك ان مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله تعالى وعلى قسمته فهو ينفق مارزقه الله تعالى بسماح وسهولة فيعيش عيشا رفيعا كما قال تعالى فلنحيينه حياة طيبة والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذى لا يزال يطمح به الى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذى يقبض يده عن الانفاق فعيشه ضنك وحاله مظلمة قال صلى الله عليه وسلم لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى اليه ثالثا ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب و يتوب الله على من تاب متفق عليه قال بعض الصوفية لا يعرض أحد عن ذكر ربه الا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه وقال تعالى استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الآية وقال تعالى وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا ثم ذكر حال المعرض في الآخرة بقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال ابن عباس اذا خرج من القبر خرج بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمى ولعله جمع بذلك بين هذا و بين قوله تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا وقال عكرمة عمى عليه كل شئ الا جهنم وفي لفظ قال لا يبصر الا النار وعن مجاهد المراد بالعمى عدم الحجة و يؤيد الاول قوله تعالى (قال رب لم حشرتنى أعمى) في هذا اليوم (وقد كنت بصيرا) اى في الدنيا أو في أول هذا اليوم فكانه قيل بم أجيب فقيل (قال) له ربه (كذلك) اى مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال (أتتك اياتنا) واضحة نيرة (فنسيتها) فعميت عنها وتركتها غير منظور اليها (وكذلك) اى ومثل تركك اياها (اليوم تنسى) أى تترك في العمى والعذاب (وكذلك) أى ومثل هذا الجزاء الشديد (نجزى من أسرف) في متابعة هواه فتكبر عن متابعة أوامرنا (ولم يؤمن) بل كذب (بآيات ربه) وخالفها (ولعذاب الآخرة أشد) مما نعذبهم به في الدنيا والقبر لعظمه (وأبقى) فانه غير منقطع ولما بين الله تعالى أن من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة اتبعه بما يعتبر به المكلف من الافعال الواقعة في الدنيا بمن كذب الرسل فقال (أفلم يهد) أى يبين بيانا يقود الى المقصود (لهم) أى لهؤلاء الذين أرسلت اليهم أعظم رسلى وفاعل يهد مضمون قوله (كم أهلكنا) وقال أبو البقاء الفاعل مادل عليه أهلكنا اى اهلاكنا والجملة مفسرة له وقال الزمخشرى فاعل لم يهد الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه ونظيره قوله تعالى وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين اى تركنا عليه هذا الكلام و يجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول انتهى وكم خبرية مفعول أهلكنا (قبلهم من القرون) اى بتكذيبهم لرسلنا حال كونهم (يمشون) اى هؤلاء العرب من اهل مكة وغيرهم (في مساكنهم) اى في سفرهم الى الشام ويشاهدون آثار هلاكهم (ان في ذلك) اى الاهلاك العظيم الشان

تقدمه تاكيدات بعضها بان و بعضها باللام و بعضها بضمير الفصل وهذا قال شيخنا فانه ثم واهذا قال هذا وان الله لهو الغنى الحميد وقال ثم ان الله هو الغنى الحميد (قوله وما جعل عليكم في الدين من حرج)

المتوالى فى كل أمة (لآيات) عظيمات بينات (لأولى النهى) أى لذوى العقول الناهية عن التغافل والتعامى • ولما هددهم باهلاك الماضين ذكر سبب التأخير عنهم بقوله تعالى (ولولا كلمة) أى عظيمة قاضية نافذة (سبقت) اى فى أزل الآزال (من ربك) الذى عودك بالاحسان بتأخير العذاب عنهم الى الآخرة فانه يعامل بالحلم والاناة (لكان) اى العذاب (لزاما) اى لازما أعظم لزوم لهم فى الدنيا مثل ما نزل بعاد وثمود ولكن نمهلهم لتردمن شئنا منهم ونخرج من أصلاب بعضهم من يؤمن وانما فعلنا ذلك اكراما لك ورحمة لامتك فيكثر اتباعك فيعملوا الخيرات فيكون ذلك زيادة فى شرفك والى ذلك الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فارجو أن أكون أكثرهم تابعا وفى رفع قوله تعالى (وأجل مسمى) وجهان أظهرهما عطفه على كلمة أى ولولا أجل مسمى لكان العذاب لازما لهم وهذا ما صدر به البيضاوى والثانى أنه معطوف على الضمير المستتر فى كان وقام الفصل بخبرها مقام التأكيد واقتصر الجلال المحلى على هذا وجوزه الزمخشرى والبيضاوى وفى هذا الاجل المسمى قولان أحدهما ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر والثانى ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك العذاب وهذا كما قال الرازى أقرب قال أهل السنة له تعالى بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة اما قديمة فيلزم قدم الفعل واما حادثة فيلزم افتقارها الى علة أخرى ويلزم التسلسل ثم انه تعالى لما أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بانه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر فقال (فاصبر على ما يقولون) لك من الاستهزاء وغيره وهذا كله كان فى أول الامر ثم نسخ بآية القتال (وسبح) أى صل وقوله تعالى (بحمد ربك) حال أى وأنت حامد لربك على انه وفقك لذلك وأعانك عليه (قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح (وقبل غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) أى ساعاته (فسبح) أى صل المغرب والعشاء وقوله تعالى (وأطراف النهار) معطوف على محل من آناء المنصوب أى صل الظهر لان وقتها يدخل بزوال الشمس فهو طرف النصف الاول وطرف النصف الثانى قال ابن عباس دخلت الصلوات الخمس فى ذلك وقيل المراد الصلوات الخمس والنوافل لان الزمان اما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين وأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيما قبل فبقى قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل وقال أبو مسلم لا يبعد حمل التسبيح على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الاوقات (فان قيل) النهار له طرفان فكيف قال وأطراف النهار ولم يقل طرفى النهار (أجيب) بوجهين أظهرهما انه انما جمع لانه يلزم فى كل نهار ويعود والثانى ان أقل الجمع اثنان وقرأ قوله تعالى (لعلك ترضى) ابو بكر والكسائى بضم التاء اى ترضى بما تنال من الثواب كقوله تعالى وكان عند ربه مرضيا وقرأ الباقون بفتحها اى ترضى بما تنال من الشفاعة قال تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا والمعنى على القراءتين لا يختلف لان الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد أرضاه • ولما كانت النفس ميالة الى الدنيا مرهونة بالحاضر من فانى العطايا وكان تخليها عن ذلك هو الموصل الى حريتها

(ان قلت) كيف لا حرج فيه مع ان فى قطع يد بسرقة ربع دينار ورجم محصن بزنا مرة ووجوب صوم شهرين متتابعين بافساد يوم من رمضان بوطء ونحو ذلك حرجا (قلت)

المؤذن بعلو همتها قال تعالى مؤكدا لما ذا تأبه صوبة ذلك (ولا تمدن) مؤكدا له بالنون الثقيلة (عينيك) أى لا تطول نظرهما بعد النظرة الاولى المعفو عنها (الى ما متعنا به) فى هذه الحياة الفانية (أزواجا) أى أصنافا (منهم) أى الكفرة استحسانا له وتمنيا أن يكون لك مثله والامتاع الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح وقوله تعالى (زهرة الحيوة الدنيا) أى زينتها وبهجتها منصوب بمحذوف دل عليه متعنا أو به على تضمنه معنى أعطينا فأزواجا مفعول أول وزهرة هو الثانى وذكر ابن عادل غير هذين الوجهين سبعة أوجه لا حاجة لنا بذكرها ثم علل تعالى تمتعهم بقوله تعالى (لنفتنهم فيه) أى لنفعل بهم فعل المختبر فيكون سبب عذابهم فى الدنيا بالعيش الضنك الماضى وفى الآخرة بالعذاب الاليم فصورته تغر من لم يتأمل معناه حق التأمل فما أنت فيه خير مما هم فيه (ورزق ربك) فى الجنة (خير) مما أوتوه فى الدنيا (وأبقى) أى أدوم أو ما رزقته من نعمة الاسلام والنبوة أولان أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال خير وأبقى قال الزمخشرى لان الله تعالى لا ينسب الى نفسه الا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث والحرام لا يسمى رزقا انتهى وهذا جار على مذهبه المخالف لاهل السنة من أن الحرام لا يسمى رزقا وقال أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أى لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا وقال أبو رافع نزلت هذه الآية فى ضيف نزل بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى يبيع أو يسلف الى مدة فقال والله لا أفعل الا برهن فأخبرته بقوله فقال صلى الله عليه وسلم انى لامين فى السماء وانى لامين فى الارض احمل اليه درعى الحديد فنزل قوله ولا تمدن عينيك وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وقال أبو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى بن مريم عليه السلام لا تتخذوا الدنيا دارا فتتخذكم لها عبيدا ولما أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتزكية النفس أمره بأن يأمر أهله بالصلاة بقوله عز وجل (وأمر أهلك بالصلوة) أى أمر أهل بيتك والتابعين لك من أمتك بالصلاة كما كان أبوك اسمعيل عليه السلام يدعوهم الى كل خير اذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا الى فت أرباب الثروة وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلى رضى الله عنهما كل صباح ويقول الصلاة (واصطبر) أى داوم (عليها لا نسئلك) أى نكلفك (رزقا) لنفسك ولا لغيرك (نحن نرزقك) وغيرك كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ففرغ بالك لامور الآخرة وفى معناه قول الناس من كان فى عمل الله كان الله فى عمله وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ما عند السلطان قرأ ولا تمدن عينيك الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله وعن بكر بن عبد الله المزنى كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله

المراد بالدين التوحيد ولا حرج فيه بل فيه تخفيف فانه يكفر ما قبله من الشرك وان امتد ولا يتوقف الاتيان به على زمان أو مكان معين أو أن كل ما يقع فيه الانسان من

ثم يتلو هذه الآية (والعاقبة) أي الجميلة المحمودة (للتقوى) أي لأهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك واتقوني ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر والعاقبة للمتقين ولا معونة على الرزق وغيره بشيء يوازي الصلاة فقد كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر أي بالباء الموحدة أي اذا أحزنه فزع الى الصلاة قال ثابت وكان الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذا نزل بهم أمر فزعوا الى الصلاة وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى تفرغ لعبادتي املأ صدرك غنى وأسد فقرك وان لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به هموم أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك وعن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الآخرة همه جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة * ثم انه تعالى بعد هذه الوصية حكى عنهم شبها بقوله تعالى (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) فكأنه من لوازم قوله تعالى فاصبر على ما يقولون وهو قولهم لولا أي هلا يأتينا بآية وقال في موضع آخر لوما تأتينا بآية كما أرسل الاولون * ثم أجاب الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله (أولم تأتهم بينة) أي بيان (ما في الصحف الاولى) من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية المشتمل عليه القرآن من أنباء الامم الماضية واهلاكهم بتكذيب الرسل فما يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بالفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير (ولو أنا أهلكناهم) معاملة لهم في عصيانهم (بعذاب من قبله) اي هذا القرآن المذكور في الآية الماضية ومذكور بها وفي قوله تعالى ولا تعجل بالقرآن وفي مثنى السورة في ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى أو من قبل محمد صلى الله عليه وسلم (لقالوا) اي يوم القيامة (ربنا) يا من هو متصف بالاحسان الينا (لولا) أي هلا ولم لا (أرسلت الينا رسولا) يأمرنا بطاعتك (فنتبع) اي فيتسبب عنه أن نتبع (آياتك) التي تعجبنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب بهذا الذل (ونخزى) بالمعاصي التي عملناها على جهل فلاجل ذلك أرسلناك اليهم واقتنابك الحجة عليهم * ولما علم بهذا أن ايمانهم كالممتنع وجدالهم لا ينقطع بل ان جاءهم الهدى طعنوا فيه وان عذبوا قبله تظلموا كان كأنه قيل فما الذي نفعل معهم فقيل (قل) لهم (كل) اي كل مني ومنكم (متربص) اي منتظر ما يؤول اليه أمري وامركم (فتربصوا) فانتم كالبهائم ليس لكم تأمل (فستعلمون) اي عما قريب بوعد لا خلف فيه وهو يوم القيامة (من أصحاب الصراط) اي الطريق (السوي) اي المستقيم (ومن اهتدى) اي من الضلال فحصل على جميع ما ينفعه واجتنب جميع ما يضره أنحن أم أنتم قال ابن عادل عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بالفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا طوبى لامة ينزل عليها هذا وطوبى لالسن تتكلم بهذا وطوبى لاجواف تحمل هذا وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا يس وطه انتهى ولم يذكر لذلك سندا وأما ما رواه البيضاوي

قوله مغفرة يعني تجاوز في المعاصي بتوبة أو كفارة الشرع أو رخصة او المراد نفي الحرج الذي كان في زمن بني اسرائيل

(سورة المؤمنون)

(قوله ثم انكم بعد ذلك

تبع الزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار فحديث موضوع

سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام مكية

قال الرازي باجماع وهي مائة واحدى أو ثنتا عشرة آية وألف ومائة وستون كلمة وأربعة آلاف وثمان وتسعون حرفا

(بسم الله) الحكم العدل الذي تمت قدرته وعم أمره (الرحمن) الذي ساوى بين خلقه في رحمة ايجاده (الرحيم) الذي نجى من شاء من عباده في معاده قال أبو جعفر بن الزبير في برهانه لما تقدم قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى قوله فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى قال تعالى (اقترب) أي قرب (للناس حسابهم) أي في يوم القيامة أي فلا تمدن عينيك الى ذلك فاني جعلته فتنة وأشار بصيغة الافتعال الى مزيد القرب لانه لا أمة بعد هذه ينتظر أمرها وأخر الفاعل تهويلا لتذهب النفس في تعيينه كل مذهب (فان قيل) كيف وصف ذلك اليوم بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول أكثر من تسعمائة عام (أجيب) بانه مقترب عند الله والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ولان كل آت وان طالت أوقات استقباله وترقبه قريب وانما البعيد هو الذي وجد وانقرض قال الشاعر

فلا زال ما تهواه أقرب من غد • ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

ولان ما بقي من الدنيا أقصر واقل مما سلف منها بدليل انبعاث خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه الموعود ببعثه في آخر الزمان وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه وقال صلى الله عليه وسلم ختمت النبوة بي كل ذلك لاجل ان الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي وعن ابن عباس ان المراد بالناس المشركون وهو من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين وهو قوله تعالى (وهم) اي والحال انهم (في غفلة) اي عن الحساب (معرضون) عن التاهب لهذا اليوم لا يتفكرون في عاقبتهم ولا يتفطنون لما يرجع اليه خاتمة امرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسيء وأيضا ان هذه الآية نزلت في كفار مكة ولما اخبر تعالى عن غفلتهم واعراضهم دل على ذلك بقوله (ما يأتيهم) واغرق في النفي بقوله (من ذكر) اي وحي ينبههم عن سنة الغفلة والجهالة وقوله تعالى (من ربهم) صفة ذكر او صلة ليأتيهم (محدث) انزاله اي ما يحدث الله تعالى من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به وبهذا سقط احتجاج المعتزلة بان القرآن حادث لهذه الآية وقيل معناه ان الله تعالى يحدث الامر بعد الامر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الاحكام وغيرها من الامور والوقائع وقيل الذكر المحدث ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن وأضافه اليه لان الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى (الا استمعوه) أي قصدوا اسماعه وهو أجد الجد وأحق الحق (وهم) أي والحال

انهم

لميتون) «فان قلت لم ذكره باللام دون قوله بعده ثم انكم يوم القيامة تبعثون مع ان المذكورين ينكرون البعث دون الموت (قلت) لما كان العطف بثم المحتاج اليه

انهم (يلعبون) أي يفعلون فعل اللاعبين بالاستهزاء والسخرية لتناهي غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر في الامور والتفكر في العواقب (لاهية) أي غافلة معرضة (قلوبهم) عن ذكر الله *(تنبيه)* قوله تعالى وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفتان او متداخلتان * ولما ذكر تعالى ما يظهرونه في حالة الاستماع من اللهو واللعب ذكر ما يخفونه بقوله تعالى عطفا على استمعوه (وأسروا) اى الناس المحدث عنهم (النجوى) اى بالغوا في اسرار كلامهم وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو وأسروا للايماء بانهم ظالمون فيما أسروا به او مبتدأ والجملة المتقدمة خبره والمعنى وهؤلاء اسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بانه ظلم وقيل جاء على لغة من قال أكلوني البراغيث وقيل منصوب المحل على الذم ثم بين تعالى ما تناجوا به بقوله تعالى (هل) اى فقالوا في تناجيهم هذا متعجبين من ادعائه النبوة مع مماثلته لهم في البشرية هل (هذا) الذي أتاكم بهذا الذكر (الا بشر مثلكم) اى في خلقه واخلاقه من الاكل والشرب والحياة والممات فكيف يختص عنكم بالرسالة ما هذا الذي جاءكم به مما لا تقدرون على مثله الا سحر لا حقيقة له فحينئذ تسبب عن هذا الانكار قولهم (أفتأتون السحر وأنتم) اى والحال انكم (تبصرون) باعينكم انه بشر مثلكم فكانهم استدلوا بكونه بشرا على كذبه في ادعاء النبوة والرسالة لاعتقادهم ان الرسول لا يكون الا ملكا واستلزموا منه ان ما جاء به من الخوارق كالقرآن سحر فانكروا حضوره (فان قيل) لم أسروا هذا الحديث وبالغوا في اخفائه (أجيب) بان ذلك كان يشبه التشاور فيما بينهم والتحاور في طلب الطريق الى هدم أمره وعادة المتشاورين في خطب ان لا يشركوا أعداءهم في مشورتهم ويجتهدوا في طي سرهم عنهم ما أمكن واستطيع ومنه قول الناس استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان قال البقاعي فيا لله العجب من قوم رأوا ما أعجزهم فلم يجوزوا ان يكون ذلك عن الرحمن الداعي الى الفوز بالجنان وجزموا أنه من الشيطان الداعي الى الهوان باصطلاء النيران والعجب ايضا أنهم أنكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم ما يخص الله تعالى به بعض الناس عن بعض من الذكاء والفطنة وحسن الخلائق والاخلاق والقوة والصحة وطول العمر وسعة الرزق ونحو ذلك انتهى ولا عجب فانما عقول اضلها باريها ثم كانه قيل فماذا يقال لهؤلاء فقال (قل) لهم (ربي) المحسن الى (يعلم القول) سواء كان سرا ام جهرا كائنا (في السماء والارض) على حد سواء لانه لا مسافة بينه وبين شيء من ذلك (وهو السميع العليم) فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون (فان قيل) هلا قيل يعلم السر لقوله تعالى وأسروا النجوى (أجيب) بان القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من ان يقول يعلم السر كما ان قوله يعلم السر آكد من ان يقول يعلم سرهم (فان قيل) لم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله تعالى قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض ولم يقل يعلم القول كما هنا (أجيب) بانه ليس بواجب أن يأتي بالآكد في كل موضع ولكن يجيء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجيء بالحسن في موضع وبالاحسن في غيره ليفتن الكلام افتنانا ويجمع الغاية وما دونها على أن اسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا انهم أسروا النجوى فكانه

هذا يقتضي الاشتراك في الحكم اغتني به عن التاكيد باللام (قوله لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تاكلون) قاله هنا بالجمع وبالواو وقاله في الزخرف لكم فيها فاكهة كثيرة

أراد ان يقول ان ربى يعلم ما أسر وه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة ثم قصد وصف ذاته بانه أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض فهو كقوله تعالى علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقرأ حفص وحمزة والكسائى قال بصيغة الماضى بالاخبار عن الرسول والباقون قل بصيغة الامر ❊ ثم انه تعالى بين أن المشركين اقتسموا القول فى النبى صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله بقوله تعالى (بل قالوا) اى قال بعضهم هذا الذى قاله لكم (أضغاث احلام) اى اخلاط احلام رآها فى النوم وقال بعضهم (بل افتراه) اى اختلقه من عند نفسه ونسبه الى الله تعالى وقال بعضهم (بل هو) اى النبى صلى الله عليه وسلم (شاعر) فما جاءكم به شعر والشاعر يخيل ما لا حقيقة له لغيره أو أنهم كلهم أضربوا عن قولهم هو سحر الى أنه تخاليط أحلام ثم الى انه كلام مفترى من عنده ثم الى انه قول شاعر وهكذا المبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد قال الزمخشرى ويجوز أن يكون تنزيلا من الله تعالى لاقوالهم فى درج الفساد وان قولهم الثانى أفسد من الاول والثالث افسد من الثانى وكذا الرابع افسد من الثالث ❊ ثم انهم لما قدحوا فى اعظم المعجزات طلبوا آية غيره فقالوا (فليأتنا) دليلا على رسالته (بآية كما) اى مثل ما (أرسل الاولون) بالآيات كتسبيح الجبال وتسخير الريح وتفجير الماء واحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وصحة التشبيه من حيث ان الارسال يتضمن الاتيان بالآية قال الله تعالى مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) اى قبل مشركى مكة (من قرية) اى من اهل قرية اتتهم الآيات (أهلكناها) باقتراح الآيات لما جاءتهم (أفهم يؤمنون) اى لو جئتهم بها وهم أعتى منهم وفيه دليل على ان عدم الاتيان بالمقترح للابقاء عليهم اذ لو أتى به لم يؤمنوا واستوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم ❊ ولما بين تعالى بطلان ما اقترحوا به فى رسوله صلى الله عليه وسلم بكونه بشرا قال تعالى عاطفا على آمنت مجيبا عن قولهم هل هذا الا بشر مثلكم (وما أرسلنا قبلك) اى فى جميع الزمان الذى تقدم زمانك فى جميع طوائف البشر (الا رجالا) اى لم نرسل الملائكة الى الاولين انما ارسلنا رجالا (نوحى اليهم) مثلك ثم انه تعالى امر المشركين أن يسألوا أهل الكتاب بقوله تعالى (فاسئلوا أهل الذكر) وانما احالهم على هؤلاء لانهم كانوا لا ينكرون ان الرسل كانوا بشرا وان أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالذكر القرآن اى فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين ولا همزة بعدها وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ❊ ثم نبه تعالى على انهم غير محتاجين فيه الى السؤال بما قد كان بلغهم على الاجمال من أحوال موسى وعيسى وابراهيم واسمعيل وغيرهم عليهم السلام بقوله تعالى معبرا باداة الشك محركا لهم على المعالى (ان كنتم) اى بجبلاتكم (لا تعلمون) اى لا أهلية لكم فى اقتناص علم بل كنتم اهل تقليد محض وتبع صرف ❊ ولما بين تعالى انه صلى الله عليه وسلم على سنة من مضى من الرسل فى كونه رجلا بين انه على سنتهم فى جميع الاوصاف التى حكم بها على البشر فى العيش والموت فنبه على الاول بقوله تعالى (وما جعلناهم) اى الذين اخترنا بعثتهم الى الناس ليأمروهم باوامرنا (جسدا) اى ذوى جسد ولحم ودم متصفين بانهم (لا يأكلون الطعام) بل جعلناهم اجسادا يأكلون ويشربون وليس ذلك بمانع من

منها تأكلون بالافراد وحذف الواو وموافقة لما قبلهما اذ ما هنا تقدمه جنات بالجمع وما بعد الواو معطوف على مقدر تقديره منها تدخرون ومنها تأكلون وما فى الزخرف تقدمه جنة

ايساهم

ارسالهم *(فائدة)* قال ابن فارس في المجمل وفي كتاب الخليل ان الجسد لا يقال لغير الانسان وتوحيد الجسد لارادة الجنس كأنه قيل ذوي ضرب من الاجساد او على حذف المضاف اي ذوي جسد كما مر او تأويل الضمير لكل واحد وهو جسم ذو لون قال البيضاوي ولذلك اي ولكون الجسد جسما ذا لون لا يطلق على الماء والهواء وهو في الماء مبني على انه لا لون له وانما يتلون بلون ظرفه او مقابله لانه جسم شفاف لكن قال الامام الرازي بل له لون ويرى ومع ذلك لا يحجب عن رؤية ما وراءه *ثم نبه على الثاني بقوله تعالى* (وما كانوا خالدين) اي باجسادهم بل ماتوا كما مات الناس قبلهم وبعدهم وانما امتازوا عن الناس بما أتيهم عن الله تعالى ورسولكم صلى الله عليه وسلم ليس بخالد فتربصوا كما اشار اليه ختم طه فانه متربص بكم وأنتم عاصون الملك الذي اقترب حسابه لخلقه وهو مطيع له (ثم صدقناهم الوعد) اي الذي وعدناهم باهلاكهم وهذا مثل قوله تعالى واختار موسى قومه في حذف الجار والاصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال وصدقني سن بكره والاصل في هذا المثل ان اعرابيا عرض بعيرا للبيع فقال له المشتري ما سنه قال بكر فاتفق انه ند فقال لصاحبه هدع هدع وهذه اللفظة مما يسكن بها صغار الابل لا البكار فقال المشتري صدقني سن بكره واعرض فصار مثلا *(تنبيه)* اشار تعالى باداة التراخي الى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ثم أحل بهم سطوته وأراهم عظمته (فأنجيناهم) اي الرسل (ومن نشاء) وهم المؤمنون أو من في ابقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو واحد من ذريته ولذلك حميت به العرب من عذاب الاستئصال (وأهلكنا المسرفين) اي المشركين لان المشرك مسرف على نفسه (لقد انزلنا اليكم) يا معشر قريش (كتابا) اي القرآن (فيه ذكركم) اي شرفكم وصيتكم كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك أو فيه مكارم الاخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء وحسن الذكر كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الامانة والسخاء وما اشبه ذلك وقيل فيه ذكر ما تحتاجون اليه من امر دينكم اولانه نزل بلغتكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد (افلا تعقلون) فتؤمنوا به وفي ذلك حث على التدبر لان الخوف من لوازم العقل (وكم قصمنا) اي اهلكنا (من قرية) اي اهلها بغضب شديد لان القصم افظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وقوله تعالى (كانت ظالمة) اي كافرة صفة لاهلها وصفت بها لما أقيمت مقامهم ثم بين الغنى عنها بقوله تعالى (وانشأنا بعدها) اي بعد اهلاك اهلها (قوما آخرين) مكانهم *ثم بين حالها عند احلال البأس بها بقوله تعالى* (فلما أحسوا) اي ادرك اهلها بحواسهم (بأسنا) اي عذابنا (اذاهم منها) اي القرية (يركضون) هاربين منها مسرعين راكضين دوابهم لما ادركتهم مقدمة العذاب والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه اركض برجلك أو مشبهين بهم من فرط اسراعهم بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لهم لنخرجنكم من ارضنا اولتعودن في ملتنا فناداهم لسان الحال تقريعا او تشفيا الحالهم (لا تركضوا) او المقال والقائل ملك أو من ثم من المؤمنين (وارجعوا) الى قريتكم (الى ما أترفتم) اي نعمتم (فيه) من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة والترفه *ولما كان اعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن قال* (ومساكنكم) اي التي كنتم تفتخرون بها على

بالتوحيد في قوله وتلك الجنة وليس في فاكهة الجنة الا الاكل فناسب الجمع والواو وهنا والافراد وحذف الواو ثم (قوله وشجرة تخرج من طور سيناء) المراد بها شجرة الزيتون

الضمنيا بما أو سمعتم من فنائهم أو علمتم من بنائهم أو حضرتم من مشاهدها (لعلكم تسئلون) وفي هذا تهكم بهم وتوبيخ أي ارجعوا الى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم فيقولوا لكم بم تأمرون وماذا ترسمون أو شيأ من دنياكم على العادة أو تسئلون في الايمان كما كنتم تسئلون فتأبوا بما عندكم من الانفة والحمية والعظمة أو في المهمات كما تكون الرؤساء في مقاعدهم العلية ومراتبهم السنية فيجيبون سائلهم بما شاؤا * ولما كان كأنه قيل بم أجابوا هذا القائل قيل (قالوا) حين لا نفع اقرارهم عند نزول البأس (يا ويلنا) اشارة الى انه حل بهم لانه ينادى بالقريب ترفقا به كما يقول الشخص لمن يضربه يا سيدى كأنه يستغيث به ليكف عنه وذلك غباوة منهم وعمى عن الذى أحله بهم لانهم كالبهائم لا ينظرون الا السبب الاقرب ثم عللوا احلاله بهم تأكيدا لترفقهم بقولهم (انا كنا) جبلة وطبعا (ظالمين) حيث كذبنا الرسل وعصينا أمر ربنا فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف لفوات محله وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان هذا قرية حضور بفتح الحاء وبالضاد المعجمة وهي وسحول قريتان قريبتان من اليمن تنسب اليهما الثياب وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين وروى حضور بعث الله اليهم نبيا فقتلوه فسلط الله تعالى عليهم بختنصر كما سلطه الله على أهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى انه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يا لثارات الانبياء وهي بفتح اللام وبمثلثة وهمزة ساكنة أي يا لأهل ثاراتهم أي الطالبة بدمهم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فندموا وقالوا ذلك (فما) أي فتسبب عن احلالنا بهم ذلك البأس انه ما (زالت تلك) الدعوى البعيدة عن الخير والسلامة وهي قولهم يا ويلنا (دعواهم) يرددونها الا دعوى لهم غيرها لان الويل ملازم لهم غير منفك عنهم وترفقهم له غير نافعهم (حتى جعلناهم حصيدا) كالزرع المحصود بالمناجل بأن قتلوا بالسيف * (تنبيه) * حصيد على وزن فعيل بمعنى مفعول ولذلك لم يجمع لانه يستوى فيه الجمع وغيره (خامدين) أي ميتين كخمود النار اذا طفئت وصارت رمادا (فان قيل) كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل (أجيب) بأن حكم الاثنين الاخيرين حكم الواحد لان معنى قولك جعلته حلوا حامضا جعلته جامعا للطعمين وكذلك معنى ذلك جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود أو خامدين صفة لحصيدا أو حال من ضميره ثم نبههم سبحانه وتعالى على النظر في خلق السموات والارض وما بينهما ليعتبروا فقال تعالى (وما خلقنا السماء) على علوها واحكامها (والارض) على عظمها واتساعها (وما بينهما) مما دبرناه لقيام المنافع من أصناف البدائع وغرائب الصنائع (لاعبين) أي عابثين كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب وانما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكيرا لذوى الاعتبار وتسببا لما ينتظم به أمر العباد في المعاش والمعاد * ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله فقال عز وجل (لو أردنا) أي بما لنا من العظمة (أن نتخذ لهوا) أي ما يتلهى به ويلعب وقيل هو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى (لاتخذناه

(فان قلت) لم خصهما بطور سيناء مع ان الفرج من غيرها ايضا (قلت) أصلها منه ثم نقلت الى غيره (قوله فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا) قال ذلك هنا بتقديم الصفة

من

من لدنا) أى من عندنا مما يليق ان ينسب لحضرتنا من الحور العين والملائكة بما لنا من تمام القدرة وكمال العظمة (ان كنا فاعلين) ذلك الكمال نفعله لانه لا يليق بجنابنا فلم نرده وقوله تعالى (بل نقذف) اى نرمى (بالحق) اى الايمان (على الباطل) اى الكفر اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب بل شاننا ان نرمى بالحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى من عداد اللهو (فيدمغه) اى يذهبه واستعار لدحض الباطل بالحق القذف والدمغ تصويرا لابطاله به واهدار ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة ووجه استعارة القذف والدمغ لما ذكران أصل استعمالهما فى الاجسام ثم استعير القذف لدحض الباطل بالحق والدمغ لاذهاب الباطل فالمستعار منه حسى والمستعار له عقلى (فاذا هو) فى الحال (زاهق) أى ذاهب والزهوق ذهاب الروح وذكره الترشيح المجاز من اطلاق القذف على دحض الباطل ثم عطف على ما أفادته اذا قوله تعالى (ولكم) أى واذا لكم أيها المبطلون (الويل) أى العذاب الشديد (مما تصفون) الله تعالى به مما تهوى أنفسكم كالزوجة والولد * (تنبيه) * ما اما مصدرية او موصولة أو موصوفة * ولما حكى الله تعالى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها بان أغراضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين بقوله تعالى (وله من فى السموات) أى الاجرام العالية وهى ما تحت العرش وجمع السماء لاقتضاء تفخيم الملك ذلك ولما كانت عقولهم لا تدرك تعدد الارض وحدها فقال (والارض) أى له ذلك خلقا وملكا فانه منزه عن طاعتهم لانه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات وعبر بمن تغليبا للعقلاء وقوله تعالى (ومن عنده) أى وهم الملائكة باجماع الامة ولان الله تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر مبتدأ خبره (لا يستكبرون عن عبادته) بنوع كبر طلبا ولا ايجادا وخصهم بالذكر لكرامتهم عليه تنزيلا لهم منزلة المقربين عند الملك * (تنبيه) * هذه العندية للشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكانه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم وعلو مراتبهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن عبادته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته (و) مع ذلك أيضا (لا يستحسرون) أى لا يعيون وانما جىء بالاستحسار الذى هو أبلغ من الحسور تنبيها على أن عباداتهم من ثقلها ودوامها حقيقة بان يستحسر منها ولا يستحسرون ولا يطلبون أن ينقطعوا عنها فانتج ذلك قوله تعالى (يسبحون) أى ينزهون المستحق للتنزيه بانواع التنزيه من الاقوال والافعال (الليل والنهار) اى جميع آناتهم دائما (لا يفترون) اى عن ذلك وقتا من الاوقات فهو منهم كالنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل * ولما كانوا عند هذا البيان جديرين بان يبادروا الى التوحيد فلم يفعلوا كانوا حقيقين بعد الاعراض عنهم بالتوبيخ والتهكم والتعنيف فقال تعالى (أم اتخذوا) اى بل اتخذوا فام بمعنى بل للانتقال والهمزة لانكار اتخاذهم (آلهة من الارض) ومعنى نسبتها الى الارض الايذان بانها الاصنام التى تعبد فى الارض لان الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ومن ذلك حديث الامة التى قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أين ربك فاشارت الى السماء فقال انها مؤمنة لانه فهم منها ان مرادها نفى الآلهة الارضية التى هى الاصنام لا اثبات ان السماء مكان الله تعالى ويجوز ان يراد آلهة من جنس الارض لانها اما ان تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من

على من قومه وقاله بعد
بالعكس لانه اقتصر فى صلة
الموصول على الفعل
والفاعل وفيما بعد طالت
فيه الصلة بزيادة العطف
على الصلة مرة بعد أخرى
فقدم عليها من قومه لان ه

بعض جواهر الارض (هم ينشرون) اى يحيون الموتى لا يقدرون على ذلك وهم وان لم يصرحوا بذلك لزم من ادعائهم لها آلهة أنهم يقدرون على ذلك فان من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات فالمراد به تجهيلهم والتهكم بهم وللمبالغة فى ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص الانتشار بهم ثم انه سبحانه وتعالى أقام البرهان القطعى على نفى ان غيره برهان التمانع وهو أشد برهان لاهل الكلام فقال (لو كان فيهما) اى السموات والارض اى فى تدبيرهما (آلهة الا الله) اى غير الله تعالى (لفسدتا) أى لخرجتا عن نظامهما المشاهد لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو ابن سعيد الاشدق كان والله أعز على من دم ناظرى ولكن لا يجتمع فحلان فى شول وهذا ظاهر وأما طريقة التمانع فقال المتكلمون القول بوجود الهين مفض الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلابد أن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر أراد تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أولا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وذلك أيضا محال لان الذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات واذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات دليل على وحدانية الله تعالى والدلائل السمعية على الوحدانية كثيرة فى القرآن * ولما أفاد هذا الدليل انه لا يجوز ان يكون المدبر للسموات والارض الا واحدا وان ذلك الواحد لا يكون الا الله تعالى قال (فسبحان الله) اى فتسبب عن ذلك تنزه المتصف بصفات الكمال (رب) اى خالق (العرش) اى الكرسى المحيط بجميع الاجسام الذى هو محل التدابير ومنشأ التقادير (عما يصفون) اى الكفار الله به من الشريك له وغيره ثم بين تعالى ذلك بقوله عز وجل (لا يسئل) اى من سائل ما (عما يفعل) لعظمته وقوة سلطانه واذا كانت عادة الملوك والجبابرة ان لا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبا واجلالا مع جواز الخطا والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب الارباب خالقهم ورازقهم أولى بان لا يسئل عن أفعاله مع ما علم واستقر فى العقول من ان ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة ولا يجوز عليه تعالى الخطا (وهم يسئلون) لانهم مملوكون مستعبدون خطاؤن فما أخلقهم بان يقال لهم لم فعلتم فى كل شئ فعلوه * ولما قام الدليل ووضح السبيل واضمحل كل قال وقيل وانمحقت الاباطيل كرر تعالى (أم اتخذوا من دونه آلهة) كرره استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم واظهارا لجهلهم * ولما كان جوابهم اتخذناها ولا نرجع أمر الله تعالى نبيه بجوابهم فقال (قل هاتوا برهانكم) على ما ادعيتموه من عقل أو نقل كما أتيت أنا ببرهان النقل المؤيد بالعقل * ولما كان تعالى لا يؤاخذ بمخالفة العقل ما لم ينضم اليه دليل النقل أتبعه قوله مشيرا الى ما بعث الله تعالى به الرسل من الكتب (هذا ذكر) أى موعظة وشرف (من معى) وهم من آمن بى وهو القرآن

تأخيره عن المفعول مطلب وتوسطه بينه وبين ما قبله ركيك (قوله ولو شاء الله لانزل ملائكة) قاله هنا بلفظ الله وفى فصلت بلفظ ربنا موافقة لما قبلهما اذ ما هنا تقدمه لفظ الله

قوله اى الكرسى تبع فيه الجلال المحلى وكتب عليه الجمل قوله الكرسى لا حاجة لهذا بل الاولى ابقاء العرش على ظاهره لان التحقيق انه جسم مغاير للكرسى اه

الذى عجزتم عن معارضته (وذكر) اى وهذا ذكر (من قبلى) من الامم الماضية وهو التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها الا الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ٭ ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلا عن حجة ذمهم الله تعالى على جهلهم بمواضع الحق فقال تعالى (بل أكثرهم) اى هؤلاء المدعوين (لا يعلمون الحق) فلا يميزون بينه و بين الباطل بل أكثرهم جهلة والجهل أصل الشر والفساد (فهم) اى فتسبب عن جهلهم ما اقتضاه السورة من أنهم (معرضون) عن التوحيد واتباع الرسل ٭ ولما كان الارسال بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدم كان الرسالة لا يقوم بها كل واحد فكذلك الارسال لا يصلح له كل زمن أثبت الجار فى قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك) وأغرق فى النفى فقال (من رسول) فى جميع الاولين (الا يوحى اليه) من عندنا (انه لا اله الا أنا فاعبدون) وهذا مقرر لما سبقه من آى التوحيد وقال تعالى الا أنا ولم يقل نحن لئلا يجعلوا ذلك توسيلة الى ما ادعوه من تعدد الآلهة ولذلك قال فاعبدون بالافراد وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء ٭ ولما بين سبحانه وتعالى بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد بقوله (وقالوا اتخذ) اى تكلف كما يتكلف من لا يكون له ولد (الرحمن) اى الذى كل موجود من فيض نعمه (ولدا) نزل فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وقيل نزل ذلك فى اليهود حيث قالوا انه تعالى صاهر الجن فكانت منهم الملائكة كما حكى الله تعالى عنهم قولهم وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى (سبحانه) اى تنزه عن ان يكون له ولد فان ذلك يقتضى المجانسة بينه و بين الولد ولا تصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيق (بل) اى الذين جعلوهم له ولدا وهم الملائكة (عباد) من عباده أنعم عليهم بالايجاد كما أنعم على غيرهم لا أولاد فان العبودية تنافى الولدية (مكرمون) بالعصمة من الزلل ولذلك فسر الاكرام بقوله تعالى (لا يسبقونه) اى لا يسبقون اذنه (بالقول) اى لا يقولون شيأ حتى يقوله كما هو شأن العبيد المؤدبين (وهم بامره) اذا أمرهم (يعملون) لا بغيره لانهم فى غاية المراقبة له تعالى فجمعوا فى الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة ثم علل اخباره بذلك بعلمه بما هذا المخبر به مندرج فيه بقوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) اى ما عملوا وما هم عاملون لا تخفى عليه تعالى خافية مما قدموا وأخروا ثم صرح تعالى بلازم الجملة الاولى فقال (ولا يشفعون) اى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (الا لمن ارتضى) فلا تطمعوا فى شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى قال ابن عباس والضحاك الا لمن ارتضى اى لمن قال لا اله الا الله فسقط بذلك قول المعتزلة ان الشفاعة فى الآخرة لا تكون لاهل الكبائر ثم صرح بلازم الجملة الثانية فقال (وهم من خشيته) أى لا من غيرها (مشفقون) أى خائفون وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق خوف مع اعتناء فان عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وان عدى بعلى فبالعكس ٭ ولما نفى تعالى الشريك مطلقا ثم مقيدا بالولدية أتبعه التهديد على ادعائه بتعذيب المتبوع الموجب لتعذيب التابع بقوله تعالى (ومن يقل منهم) أى من الخلائق حتى العباد المكرمين الذين وصف

دون ربنا وما فى فصلت قدمه لفظ الرب فى رب العالمين سابقا على لفظ الله فناسب ذكر الله هنا وذكر الرب ثم (قوله فبعدا للقوم الظالمين) قاله هنا بالتعريف وقال بعد فبعدا لقوم

كرامتهم وقرب منزلتهم عنده واثنى عليهم (انى اله من دونه) اى الله اى غيره والذى قال ذلك كما قال الجلال المحلى هو ابليس دعا الى عبادة نفسه وأمر بطاعتها (فذلك) اى الذى لا يصلح للتقريب اصلا (نجزيه جهنم) لظلمه (كذلك) اى مثل هذا الجزاء الفظيع جدا (نجزى الظالمين) اى المشركين ❁ ثم انه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة على وجود الصانع فذكر منها ستة أنواع النوع الاول قوله تعالى (أولم ير) اى يعلم (الذين كفروا) علما هو كالمشاهدة (ان السموات والارض كانتا) ولم يقل كن لان المراد جماعة السموات وجماعة الارض (رتقا) قال ابن عباس والضحاك كانتا شيأ واحدا ملتزقتين زبدة واحدة (ففتقناهما) اى فصلنا بينهما بالهواء والرتق فى اللغة السد والفتق الشق قال كعب خلق الله السموات والارض بعضها على بعض ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها وقال مجاهد والسدى كانت السموات رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال عكرمة وعطية كانت السموات رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق او السموات باسرها على ان لها مدخلا فى الامطار وانما قال تعالى رتقا على التوحيد وهو نعت للسموات والارض لانه مصدر والكفرة وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم بالنظر او باستفسار من العلماء ومطالعة الكتب وقرأ ابن كثير ألم بغير واو بين الهمزة ولم والباقون بالواو بين الهمزة واللام النوع الثانى من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا) اى خلقنا بما اقتضته عظمتنا (من الماء) الماء هو الدافق وغيره (كل شئ حى) مجازا فى النبات وحقيقة فى الحيوان (فان قيل) قد خلق الله تعالى بعض ما هو حى من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة (أجيب) بان هذا خرج مخرج الاغلب والاكثر اى ان اكثر ما خلق الله خلق من الماء وبقاؤه بالماء وقيل المراد بالماء ما نزل من السماء او نبع من الارض (أفلا يؤمنون) مع ظهور هذه الآيات الواضحات بتوحيدى النوع الثالث من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فى الارض رواسى) اى جبالا ثوابت كراهة (ان تميد) اى تتحرك (بهم) قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة فى الماء فارساها الله واثبتها بالجبال النوع الرابع من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فيها) اى فى الرواسى (فجاجا) اى مسالك واسعة سهلة ثم ابدل منها (سبلا) اى مذللة للسلوك ولولا ذلك لتعسر أو تعذر الوصول الى بعض البلاد (لعلهم يهتدون) الى منافعهم من ديارهم وغيرها والى ما فيها من دلائل الوحدانية النوع الخامس من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا السماء) وافردها مع ارادة الجنس لان أكثر الناس لا يشاهدون منها الا السماء الدنيا ولان الحفظ للشئ الواحد أتقن (سقفا) اى للارض كالسقف للبيت (محفوظا) اى عن السقوط بالقدرة وعن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بالمشيئة وعن الشياطين بالشهب (وهم) اى أكثر الناس (عن آياتها) اى من الكواكب الكبار والصغار والرياح والامطار وغير ذلك من الدلائل التى تفوت الانحصار الدالة على قدرتنا على كل ما نريد من البعث وغيره وعلى عظمتنا بالتفرد بالالهية وغير ذلك من أوصاف الكمال من الجلال والجمال (معرضون) لا يتفكرون فيما فيها من السير والتدبير وغير ذلك فيعلمون ان خالقها

لاشريك

لا يؤمنون بالتنكير لان الاول لقوم صالح بقرينة قوله فاخذتهم الصيحة فعرفهم تعريف عهد وتنكير الثانى لخلوه عن قرينة تقتضى تعريفه وموافقة لتنكير ما قبله

لا شريك له النوع السادس من الدلائل قوله تعالى (وهو) أى لا غيره (الذى خلق الليل والنهار) ثم اتبعهما أعظم آيتهما بقوله تعالى (والشمس) التى هى أعظم آية النهار (والقمر) الذى هو أعظم آية الليل (كل) اى من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم (فى فلك) اى مستدير كالطاحونة فى السماء (يسبحون) اى يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء وللتشبيه به أتى بضمير جمع من يعقل والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا اى كل واحد منهم او كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا ولان الغرض الدلالة على الجنس * ونزل لما قال الكفار ان محمدا سيموت (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) اى البقاء فى الدنيا (أفان) اى أيتمنون موتك فان (مت فهم الخالدون) فيه الاولى ليسوا بخالدين فالجملة الاخيرة هى محل الاستفهام الانكارى وفى معنى ذلك قول فروة بن مسيك الصحابى

وقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بكسر الميم والباقون بضمها ثم بين تعالى أن احدا لا يبقى فى هذه الدنيا بقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) اى ذائقة مرارة الموت اى مرارة مفارقة روحها جسدها فلا يفرح احد ولا يحزن لموت احد بل يشتغل بما يهمه واليه الاشارة بقوله تعالى (ونبلوكم) اى نعاملكم معاملة المبتلى المختبر ليظهر فى عالم الشهادة الشاكر والصابر والمؤمن والكافر كما هو عندنا فى عالم الغيب بان نخالطكم (بالشر) وهو المضار الدنيوية من الفقر والالم وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين (والخير) وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكن من المرادات وقوله تعالى (فتنة) مفعول له اى لننظر أتصبرون وتشكرون ام لا كما يفتن الذهب اذا اريد تصفيته بالنار عما خالطه من الغش فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى يشكر على المنح ويصبر على المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (والينا) بعد الموت لا الى غيرنا (ترجعون) فنجازيكم بما فعلتم ثم عطف تعالى على قوله واسروا النجوى قوله تعالى (واذا رآك) اى وانت أشرف الخلق (الذين كفروا ان) أى ما (يتخذونك) اى حال الرؤية (الا هزوا) اى مهزوا به يقولون انكارا واستصغارا (أهذا الذى يذكر آلهتكم) اى بسوء والذكر يكون بالخير والشر فاذا دلت القرينة على احدهما اطلق عليه وذكر العدو لا يكون الا بسوء (وهم) اى والحال انهم (بذكر الرحمن) اى اذا ذكر لهم الرحمن (هم كافرون) وذلك انهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن الا مسيلمة وهم الثانية للتأكيد ونزل فى استعجالهم العذاب (خلق الانسان من عجل) كانه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته والعرب تقول للذى يكثر منه الشئ خلقت منه كقولك خلق زيد من الكرم فجعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة فى لزومه له ولذلك قيل انه على القلب اى خلق العجل من الانسان ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجال الوعد وقال سعيد بن جبير والسدى لما دخل الروح فى رأس آدم وعينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح الى رجليه عجلا الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان من عجل والمراد بالانسان آدم وأورث أولاده العجلة وقال قوم معناه خلق الانسان يعنى آدم

وهو قرونا آخرين (قوله واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم) وما فى سبا بلفظ بصيرمنا سبقلبا قبلهما انما هنا تقدمه ابناه الكتاب وجعل مريم وابنها آية والعلم بهما انسب من

عليه السلام من تعجيل فى خلق الله تعالى اياه لان خلقه كان بعد خلق كل شئ فى آخر النهار يوم الجمعة فاسرع فى خلقه قبل مغيب الشمس قال مجاهد فلما احيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس وقيل بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها وقال قوم من عجل أى من طين قال الشاعر

والنبع فى الصخرة الصماء منبته ● والنخل ينبت بين الماء والعجل

ثم قال تعالى مهددا المكذبين (سأريكم آياتى) اى مواعيدى بالعذاب (فلا تستعجلون) اى تطلبون أن أوجد العجلة بالعذاب أو غيره فانى منزه عن العجلة التى هى من جملة نقائصكم لانها ارادة الشئ قبل أوانه (فان قيل) لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله خلق الانسان من عجل وقوله تعالى وكان الانسان عجولا أليس هذا من تكليف مالا يطاق (اجيب) بان هذا كما ركب فيه الشهوة وامره ان يغلبها لانه اعطاه القدرة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقد أراهم بعض آياته وهو القتل يوم بدر (ويقولون) فى استهزائهم (متى هذا الوعد) اى باتيان الآيات من الساعة ومقدماتها او غيرها (ان كنتم) فيما توعدون به (صادقين) اى عريقين فى هذا الوصف يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء ثم بين تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم بقوله تعالى (لو يعلم الذين كفروا) وذكر المفعول به بقوله تعالى (حين) اى وقت (لا يكفون) اى لا يدفعون (عن وجوههم) التى هى أشرف اعضائهم (النار) استسلاما وعجزا (ولا عن ظهورهم) التى هى اشد اجسامهم السياط (ولا هم ينصرون) اى لا يمنعون من العذاب فى القيامة وجواب لو محذوف والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا العذاب ولا قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (بل تأتيهم) اى القيامة (بغتة) اى فجأة (فتبهتهم) اى تحيرهم يقال فلان مبهوت اى متحير (فلا يستطيعون ردها) اى لا يطلبون طوع ذلك لهم فى ذلك الوقت ليأسهم منه (ولا هم ينظرون) اى يمهلون لتوبة أو معذرة ● ولما كان التقدير ساقهم هذا باستهزائهم بك أتبعه مايدل على ان الرسل فى ذلك شرع واحد تسلية له صلى الله عليه وسلم فقال عاطفا على واذا رآك (ولقد استهزئ برسل من قبلك) اى كثيرين فلك بهم اسوة وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة فى الوصل بكسر الدال والباقون بالضم واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء ساكنة (فحاق) اى نزل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك ● ولما أعلم الله تعالى أن الكفار فى الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم بسائر ما وصفهم به أتبعه بانهم فى الدنيا أيضا لولا ان الله تعالى يحرسهم و يحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف المرسلين للمستهزئين (من يكلؤكم) اى يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) اى من عذابه ان نزل بكم اى لا احد يفعل ذلك (بل هم عن ذكر ربهم) اى القرآن (معرضون) لا يتفكرون فيه ولا يخطرونه ببالهم فضلا ان يخافوا بأسه (ام) فيها معنى الهمزة للانكار اى أ(لهم آلهة) موصوفة بانها تمنعهم مما يسوءهم (من دوننا) ليس لهم ذلك ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال تعالى (لا يستطيعون) اى الآلهة (نصر أنفسهم) فكيف ينصرون عابديهم (ولا هم) اى الكفار (منا) اى من عذابنا (يصحبون) اى يجارون يقال صحبك الله اى

قوله ونحوها وما هنالك تقدمه بصرهما

قوله والنار الحديد والبصر بالالة الحديد ازيب من العلم

قوله بل جاءهم بالحق (وأكثرهم للحق كارهون) نزل فى كفار مكة والمراد بالحق التوحيد (ان قلت)

حفظك وأجارك (بل متعنا هؤلاء) اى الكفار على حقارتهم (وآباءهم) من قبلهم بالنعم
استدراجا (حتى طال عليهم العمر) اى امتدت بهم ايام الدنيا بالروح والطمأنينة فحسبوا أن
لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم فاغتروا بذلك وذلك طمع فارغ
وأمل كاذب وغلط ورش اللام بخلاف عنه (أفلا يرون) اى يعلمون علما هو فى وضوحه مثل
الرؤية بالبصر (أنا نأتى الأرض) اى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) بتسليط المسلمين عليها
واظهارهم على اهلها بقتل بعض ورد بعض عن دينه الى الاسلام فهم فى نقص وأولياؤنا فى
زيادة (أفهم الغالبون) اى مع مشاهدتهم لذلك ام أولياؤنا ولما كرر سبحانه وتعالى فى القرآن
الادلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم اتبعه بقوله تعالى (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء المشركين
(انما أنذركم) اى أخوفكم (بالوحى) اى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا انه من قبل
نفسى (ولا يسمع الصم الدعاء) اى من يدعوهم (اذا ما ينذرون) اى يخوفون فهم لتركهم العمل
بما سمعوه كالصم (فان قيل) الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قيل اذا
ما ينذرون (أجيب) بانه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم اسماعهم اذا
أنذروا اى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة وعلى التصام عن آيات الانذار وقرأ ابن
عامر ولا تسمع بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ونصب ميم الصم على الخطاب النبوى
والباقون بالياء التحتية وفتح الميم ورفع ميم الصم وفى الدعاء واذا همزتان مختلفتان من كلمتين
الاولى مفتوحة والثانية مكسورة قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية
بين الهمزة والياء والباقون بتحقيق الهمزتين وهذا فى حال الوصل فان وقف على الهمزة الاولى
فالجميع يبتدؤن الثانية بالتحقيق ويقف حمزة وهشام بابدال الهمزة ألفا مع المد والتوسط
والقصر (ولئن مستهم) اى أصابتهم (نفحة) اى دفعة خفيفة وفى ذلك مبالغات ذكر المس وما فى
النفحة من معنى القلة فان أصل النفح هبوب رائحة الشئ والتاء الدالة على المرة (من عذاب
ربك) المحسن اليك بنصرك عليهم من الذى ينذرون به (ليقولن) وقد أذهلهم أمرها (يا ويلنا)
الذى لا نرى بحضرتنا الآن غيره (انا كنا ظالمين) دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقروا بالظلم
ثم ذكر تعالى بعض ما يفعل فى حساب الساعة من العدل فقال عاطفا على قوله تعالى بل تأتيهم
بغتة (ونضع الموازين القسط) اى ذوات العدل (ليوم القيامة) اى فيه وانما جمع الموازين
لكثرة من توزن أعمالهم ويجوز أن يرجع الى الموزونات وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد
الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال بالعدل والصحيح الذى عليه أئمة السلف ان الله
تعالى يضع ميزانا حقيقة توزن به أعمال العباد وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان ويروى
ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فاراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فغشى عليه
ثم أفاق فقال الهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات قال يا داود انى اذا رضيت عن عبدى
ملأتها بتمرة (فان قيل) كيف توزن الاعمال مع أنها أعراض (أجيب) بان فيه طريقين
احدهما أن توزن صحائف الاعمال فتوضع صحائف الحسنات فى كفة وصحائف السيآت
فى كفة والثانى أن توضع فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيآت جواهر
سود مظلمة (فان قيل) هذه الآية يناقضها قوله تعالى فى الكفار فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا

كيف قال ذلك مع انهم كانوا كارهين للتوحيد (قلت) كان فيهم من ترك الايمان به انفة وتكبرا من توبيخ قومهم ولئلا يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن ابى طالب وغيره

(أجيب) بان المراد منه انا لا نكرمهم ولا نعظمهم (فلا تظلم نفس شيئا) اى من نقص حسنة أو زيادة سيئة (وان كان) اى العمل (مثقال) اى وزن (حبة من خردل) او أصغر منه وانما مثل به لانه غاية عندنا فى القلة وقرأ نافع برفع اللام على ان كان تامة والباقون بالنصب وكذا فى لقمان (أتينا بها) اى بوزنها ولما كان حساب الخلائق كلهم فى كل ما صدر منهم أمرا باهرا للعقل حقيرا عند عظمته قال (وكفى بنا) اى بما لنا من العظمة (حاسبين) اى محصين فى كل شئ فلا يكون فى الحساب أحد مثلنا فنبه تعالى بذلك على التوعد من جهة ان معناه انه لا يروج عليه شئ من خداع ولا يقبل غلطا ولا يضل ولا ينسى الى غير ذلك من كل ما يلزم منه نوع لبس وشوب نقص والوعد من جهة انه مطلع على حسن قصد وان دق وخفى ● ولما تكلم سبحانه وتعالى فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع فى قصص الانبياء عليهم السلام تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض وذكر منها عشرا ● القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد آتينا موسى وهرون) اى أخاه الذى سأل ربه أن يشد أزره به (الفرقان) اى التوراة الفارقة بين الحق والباطل و بين الحلال والحرام (وضياء) بها لاظلام معه اى ليستضاء بها فى ظلمات الحيرة والجهل وقرأ قنبل بعد الضاد بهمزة مفتوحة ممدودة والباقون بياء بعدها ألف (وذكرا) اى عظة (للمتقين) أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر ويراد بالضياء على هذين التوراة ثم بين المتقين بوصفهم بقوله تعالى (الذين يخشون) اى يخافون خوفا عظيما (ربهم) اى المحسن اليهم بعد الايجاد بالتربية وأنواع الاحسان (بالغيب) عن الناس اى فى الخلاء عنهم أو بالغيب قبل ان يكشف لهم الحجاب فى الجنة (وهم من الساعة) التى توضع فيها الموازين وقد أعرض عنها الجاهلون مع كونها أعظم حامل على كل خير ومباعد عن كل ضير (مشفقون) اى خائفون لانهم لقيامها محققون ولنصب الموازين فيها عالمون ● ولما ذكر تعالى فرقان موسى عليه السلام وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به حثهم على كتابهم الذى هو أشرف منه بقوله تعالى (وهذا) أى القرآن وأشار اليه باداة القرب ايماء الى سهولة تناوله عليهم (ذكر) أى موعظة (مبارك) أى كثير خيره (أنزلناه) على أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأنتم له منكرون) أى جاحدون استفهام توبيخ ● القصة الثانية قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد آتينا) بما لنا من العظمة (ابراهيم رشده) أى صلاحه وهداه (من قبل) أى من قبل موسى وهرون ومحمد صلى الله وسلم عليهم وقيل من قبل استنبائه أو بلوغه حيث قال انى وجهت وجهى (وكنا به) ظاهرا وباطنا (عالمين) بانه أهل لما آتيناه لانه جبلة خير جامع لمحاسن الاوصاف ومكارم الاخلاق والخصال يدوم على الرشد و يترقى فيه الى أعلى درجاته لما طبعناه عليه وفى ذلك اشارة الى أنه فعله تعالى باختيار وحكمة وانه عالم بالجزئيات وتعلق (اذ قال) أى ابراهيم (لابيه وقومه) بعالمين اشارة الى أن قوله لما كان باذن منا ورضا الناصر له وهو وحده على قومه كلهم ولو لم يكن برضينا لمنعناه منه بنصر قومه عليه وتمكين النار منه ثم ذكر

(قوله لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) اى البعث قاله هنا بتأخير هذا عما قبله وقاله فى النمل بالعكس جريا على القياس هنا من تقديم المرفوع على المنصوب وعكس ثم بيانا للجواز تقديم

مقول القول فى قوله منكرا عليهم محقر الاصنامهم (ماهذه التماثيل) أى الصور التى
صنعتموها مماثلين بها مافيه روح الله جاعلين لها مالا يكون الالمن لامثل له وهى الاصنام (التى
أنتم لها) أى لاجلها وحدها مع كثرة مايشابهها وماهو أفضل منها (عاكفون) اى مقيمون
على عبادتها (فان قيل) هلا قال عليها عاكفون كقوله تعالى يعكفون على أصنام لهم
(أجيب) بان اللام للاختصاص لا للتعدية ولو قصد التعدية لعداه بصلته التى هى على ثم انه
تعالى ذكر جوابهم له بما لزم الاستفهام عن السؤال بانهم (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين)
فاقتدينا بهم لاحجة لنا غير ذلك فانظر ما اقبح التقليد وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حتى
استدرجهم الى ان قلدوا اباءهم فى عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم وهم معتقدون انهم
على شئ وجادون فى نصرة مذهبهم ويجادلون أهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد مسبة
ان عبدة الاصنام منهم والتقليد ان جاز فانما يجوز لمن علم فى الجملة انه على حق ولذا (قال)
ابراهيم عليه السلام (لقد كنتم) وأكده بقوله (أنتم) لاجل صحة العطف لان الضمير المرفوع
المتصل حكمه حكم جزء الفعل والعطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع ونحوه اسكن
أنت وزوجك الجنة (وآباؤكم) اى من قبلكم (فى ضلال مبين) فبين ان المقلدين
والمقلدين جميعا منخرطون فى سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين الى
غير دليل بل الى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم ان يكون ماهم عليه ضلالا بقوا
متعجبين من تضليله اياهم فلذا (قالوا) ظنا منهم انه لم يقل لهم ذلك على ظاهره (أجئتنا) فى هذا
الكلام (بالحق) الذى يطابقه الواقع (أم أنت من اللاعبين) اى تقوله على وجه المزاح
والملاعبة لا على وجه الجد (قال) عليه السلام بانيا على ما تقديره ليس كلامى لعبا بل هو جد
وهذه التماثيل ليست أربابا (بل ربكم) اى الذى يستحق منكم اختصاصه بالعبادة (رب
السموات والارض) أى مدبرهن القائم بمصالحهن (الذى فطرهن) أى خلقهن على غير مثال
سبق وأنتم وتماثيلكم مما فيهما من مصنوعاته أنتم تشهدون بذلك اذا رجعتم الى عقولكم
مجردة عن الهوى وقيل الضمير فى فطرهن للتماثيل قال الزمخشرى وكونه للتماثيل أدخل
فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم (وأنا على ذلكم) أى الامر البين من أنه ربكم وحده فلا
تجوز عبادة غيره (من الشاهدين) أى الذين يقدرون على اقامة الدليل على ما يشهدون به لم
يشهدوا الا على ما هو عندهم مثل الشمس لا كما فعلتم انتم حين اضطركم السؤال الى الضلال
* ولما أقام البرهان على اثبات الاله الحق أتبعه البرهان على ابطال الباطل بقوله (وتالله)
وهو قسم والاصل فى القسم الباء الموحدة والواو بدل منها والتاء بدل من الواو وفيها مع كونها
بدلا زيادة على التأكيد التعجب (لأكيدن أصنامكم) أى لاجتهدن فى كسرها والتأكيد
وما فى التاء من التعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه لان ذلك كان امرا مقنوطا منه
لصعوبته وتعذره ولعمرى ان مثله صعب متعذر فى كل زمان خصوصا فى زمن نمروذ مع عتوه
واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه ولكن * اذا الله سنى عقد شئ تيسرا * ولما
كان عزمه على ايقاع الكيد فى جميع الزمان الذى يقع فيه تولّيهم فى اى جزء تيسر له منه اسقط

المنصوب على المرفوع
وخص ما هنا بتأخيره هذا
جريا على الاصل بلا مقتض
لخلافه وما هناك بتقديمه
اهتماما به من منكرى
البعث ولهذا قالوا بعده
ان هذا الا أساطير الاولين

الجار فقال (بعد ان تولوا مدبرين) اى بعد ان تدبروا منطلقين الى عيدكم قال مجاهد وقتادة
انما قال ابراهيم هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك الا رجل واحد فافشاه عليه وقالوا سمعنا
فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وقال السدى كان لهم فى كل سنة مجمع عيد فكانوا اذا رجعوا من
عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال ابو
ابراهيم له يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا اعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض
الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم أشتكى برجلى فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء
الناس تالله لاكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الآلهة وهى فى بهو
عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم الى جنبه أصغر منه والاصنام بعضها الى جنب بعض كل
صنم يليه أصغر منه الى باب البهو واذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا
اذا رجعنا وقد بركت الاصنام الآلهة عليه أكلنا منه فلما نظر ابراهيم اليهم والى ما بين
ايديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم يجيبوه قال لهم ما لكم
لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفاس فى يده حتى لم يبق الا الصنم
الاكبر علق الفاس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل (فجعلهم جذاذا) أى فتاتا وقرأ
الكسائى بكسر الجيم والباقون بضمها (الا كبيرا لهم) فانه لم يكسره ووضع الفاس فى عنقه
وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من
حديد ورصاص وخشب وحجر وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه
ياقوتتان تتقدان (لعلهم) اى هؤلاء الضلال (اليه) اى ابراهيم (يرجعون) عند الزامه
بالسؤال فتقوم عليهم الحجة فلما عادوا الى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال (قالوا من فعل
هذا) الفعل الفاحش (بآلهتنا انه لمن الظالمين) حيث وضع الاهانة فى غير موضعها فان
الآلهة حقها الاكرام لا الاهانة والانتقام (قالوا) اى الذين سمعوا قول ابراهيم وتالله لاكيدن
أصنامكم (سمعنا فتى) اى شابا من الشباب (يذكرهم) أى يعيبهم ويسبهم (يقال له ابراهيم)
اى هو الذى نظن انه صنع هذا فلما بلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه (قالوا فأتوا به) الى
بيت الاصنام (على أعين الناس) اى جهرة والناس ينظرون اليه نظر الاختصاص حتى كأنه
ماش على أبصارهم متمكن منها تمكن الراكب على المركوب (لعلهم يشهدون) عليه بانه
الذى فعل بالآلهة هذا الفعل كرهوا ان يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون
عذابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) منكرين عليه (أأنت فعلت هذا) الفعل الفاحش
(بآلهتنا يا ابراهيم) * (تنبيه) * هنا همزتان مفتوحتان من كلمة فالقراء اجمع على
تحقيق الاولى وأما الثانية فيسهلها نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وأدخل
بينهما الفا قالون وأبو عمرو والباقون بتحقيقهما وعدم الادخال بينهما ثم (قال) ابراهيم
متهكما بهم وملزما بالحجة (بل فعله كبيرهم) غيرة أن يعبد معه من هو دونه وتقييده بقوله (هذا)
اشارة الى الذى تركه من غير كسر ولما أخبرهم ولم يكن احد رآه حتى يشهد على فعله وكانوا قد
ألفوهم بعبادتهم ووضع الطعام لهم محل من يعقل تسبب عنه أمرهم بسؤالهم فقال

(قوله سيقولون لله) قاله هنا
بلفظ لله وبعد بلفظ الله
مرتين لانه فى الاول وقع
فى جواب مجرور باللام
فى قوله قل لمن الارض
فطابقه بجره باللام بخلاف
ذلك فى الاخيرين فانهما

(فاسئلوهم)

(فاسئلوهم) أى عن الفاعل ليخبروكم به وقوله (ان كانوا ينطقون) اى على زعمكم انهم آلهة يضرون وينفعون فيه تقديم جواب الشرط أى فان قدروا على النطق أمكنت عنهم القدرة والا فلا فأراهم عجزهم عن النطق وفى ضمنه أنا فعلت ذلك روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه أختى وقال فى حديث الشفاعة ويذكر كذباته أى انه لم يتكلم بكلمات صورتها صورة الكذب وان كان حقا فى الباطن الا هذه الكلمات وقيل فى قوله انى سقيم أى سأسقم وقيل سقيم القلب أى مغتم بضلالتكم وقوله لسارة هذه أختى أى فى الدين وقوله بل فعله كبيرهم هذا روى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله بل فعله ويقول معناه بل فعله من فعله وقوله كبيرهم هذا مبتدأ وخبر قال البغوى وهذه التأويلات لنفى الكذب والاولى هو الاول للحديث فيه ويجوز أن يكون الله تعالى قد أذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف عليه السلام حتى نادى مناديه فقال أيتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا وقال الرازى الحديث محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب أى تسمية المعاريض كذبا لما أشبهت صورتها صورته وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين وترك الهمزة وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وبعدها همزة مفتوحة وقيل الوقف على بل فعله ثم يبتدئ بقوله كبيرهم هذا ولما اضطرهم الدليل أن يحققوا أنهم على محض الباطل (فرجعوا الى أنفسهم) بالتفكر (فقالوا) أى بعضهم لبعض (انكم أنتم الظالمون) لكونكم وضعتم العبادة فى غير موضعها لا ابراهيم فانه أصاب باهانتها (ثم نكسوا على رؤسهم) أى انقلبوا غير مستحيين مما يلزمهم من الاقرار بالسفه الى المجادلة له بعدما استقاموا بالمراجعة من قولهم نكس المريض اذا عاد الى حاله الاول شبه عودهم الى الباطل بصورة جعل أسفل الشئ مستعليا على أعلاه ثم انهم قالوا فى مجادلتهم عن شركائهم والله (لقد علمت) يا ابراهيم (ما هؤلاء) لا صحبهم ولا بريحهم (ينطقون) أى فكيف تأمرنا بسؤالهم ولما تسبب عن قولهم هذا اقرارهم بأنهم لا فائدة فيهم اتجه لابراهيم عليه السلام الحجة عليهم (قال) منكرا عليهم موبخا لهم (أفتعبدون من دون الله) أى بدله (ما لا ينفعكم شيئا) من رزق وغيره لترجوه (ولا يضركم) شيأ اذا لم تعبدوه لتخافوه (أف) أى تبا وقبحا (لكم ولما تعبدون من دون الله) اى غيره وقرأ نافع وحفص بتنوين الفاء مكسورة وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين ۞ ولما تسبب عن فعلهم هذا وضوح انه لا يقر به عاقل أنكر عليهم ووبخهم بقوله (أفلا تعقلون) قبح صنيعكم وأنتم شيوخ قد مرت بكم الدهور وحنكتكم التجارب ۞ ولما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل (قالوا) عادلين الى العناد واستعمال القوة الحسية (حرقوه) بالنار لتكونوا قد فعلتم فيه فعلا أعظم مما فعل بآلهتكم (وانصروا آلهتكم) التى جعلها جذاذا (ان كنتم فاعلين) نصرتها قال ابن عمران الذى قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه هيزون فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام وروى ان نمروذ وقومه حين هموا باحراقه

(١) قوله فى جواب قل انما وقوله ألم تكن آياتى تتلى عليكم) ذكره بعد قوله قد كانت آياتى تتلى عليكم لان ذلك فى الدنيا عند نزول العذاب وهو يوم الحرب عند بعضهم و يوم

(٢) قوله فى جواب عن الادم هكذا بالاصل وهو غير مستقيم فلعله فى جواب عن اللادم فليتأمل اه مصحح

حبسوه في بيت ثم بنوا عليه بيتا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له أصلاب الحطب من أصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لاجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تغزل وتشتري بغزلها الحطب احتسابا في دينها وكان الرجل يوصي بشراء الحطب والقائه فيه فلما جمعوا ما أرادوا وأشعلوا في كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى كان الطير يمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها وأوقدوا عليه سبعة أيام فلما أرادوا أن يلقوا ابراهيم لم يعلموا كيف يلقوه فجاءهم ابليس عليه اللعنة فعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا الى ابراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه في المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك يلقى في النار وليس في أرضك من يعبدك غيره فأذن لنا في نصرته فقال عز وجل انه خليلي وليس لي خليل غيره وأنا الهه ليس له اله غيري فان استغاث بأحد منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وان لم يدع أحدا غيري فانا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فلما أرادوا القاءه في النار أتاه خازن المياه فقال ان أردت أخمدت النار وأتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت النار في الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة لي اليكم حسبي الله ونعم الوكيل وروي عن كعب الاحبار ان ابراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به في المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال يا ابراهيم ألك حاجة قال أما اليك فلا فقال جبريل فاسأل ربك فقال ابراهيم عليه السلام حسبي من سؤالي علمه بحالي وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم قال كعب الاحبار جعل كل شيء يطفئ النار عنه الا الوزغ فانه كان ينفخ في النار وعن أم شريك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الاوزاغ وقال كان ينفخ على ابراهيم * ولما أراد الله تعالى الذي له القوة جميعا سلامته منها قال تعالى (قلنا يا نار كوني) بارادتنا التي لا يتخلف عنها مراد (بردا) قال ابن عباس لو لم يقل (وسلاما) لمات ابراهيم من بردها وفي الآثار انه لم يبق يومئذ نار في الارض الا طفئت فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم ولو لم يقل تعالى (على ابراهيم) لبقيت ذات برد أبدا والمعنى كوني ذات برد وسلام على ابراهيم فبولغ في ذلك حتى كأن ذاتها برد وسلام والمراد ابردي فيسلم منك ابراهيم أو ابردي بردا غير ضار قال السدي فأخذت الملائكة بضبعي ابراهيم فأقعدوه على الارض فاذا بعين ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من ابراهيم الا وثاقه قالوا وكان ابراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال ابراهيم ما كنت أياما قط أنعم مني في الايام التي كنت في النار وقال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة ابراهيم فقعد فيها الى جنب ابراهيم يؤنسه قال وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت ان النار لا تضر أحبابي ثم نظر نمروذ وأشرف على النار من صرح له فرآه جالسا في روضة

بدر عنه بعضهم وهذا في الآخرة وهو في الجحيم بدليل قوله ربنا أخرجنا منها

* (سورة النور) *

(قوله الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)

والملك قاعد الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا ابراهيم بالهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك و بين ما أرى هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال هل تخشى ان قمت فيها أن تضرك قال لا قال قم فاخرج منها فقام ابراهيم يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج اليه قال له من الرجل الذى رأيته معك فى مثل صورتك قاعدا الى جنبك قال ذاك ملك الظل أرسله الى ربى ليؤنسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت الا عبادته وتوحيده انى ذابح له أربعة آلاف بقرة قال اذا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه الى دينى فقال لا أستطيع ترك ملكى ولكن أذبحها له فذبحها له نمروذ ثم كف عن ابراهيم ومنعه الله تعالى منه وكان ابراهيم اذ ذاك ابن ست عشرة سنة واختاروا المعاقبة بالنار لانها أهول ما يعاقب به وافظعه ولذلك جاء فى الحديث لا يعذب بالنار الا خالقها وقيل ان الله تعالى نزع عنها طبعها الذى طبعها عليه من الحر والاحراق وابقاها على الاضاءة والاشراق والاشتعال كما كانت والله على كل شئ قدير فدفع عن ابراهيم حرها كما يدفع ذلك عن خزنة جهنم (وأرادوا به كيدا) اى مكرا فى اضراره بالنار و بعد خروجه منها (فجعلناهم) اى عاملناهم الجلال (الاخسرين) اى أخسر من كل خاسر عاد سعيهم برهانا قاطعا على انهم على الباطل وابراهيم على الحق وموجبا لزيادة درجته واستحقاقهم أشد العذاب وقد ارسل الله تعالى على نمروذ وعلى قومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت فى دماغه بعوضة فاهلكته * (فائدة) * وقع مثل هذه القصة لبعض اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو ابو مسلم الخولانى طلبه الاسود العنسى لما ادعى النبوة فقال له اتشهد انى رسول الله قال ما أسمع قال اتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم فامر بنار فالقى فيها ثم وجده قائما يصلى فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما وقدم المدينة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فاجلسه عمر بينه و بين ابى بكر رضى الله عنهم وقال عمر الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بابراهيم خليل الله (ونجيناه ولوطا) من نمروذ وقومه من أرض العراق (الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) وهى الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والانهار ومنها بعث أكثر الانبياء قال أبى بن كعب بارك الله فيها وسماها مباركة لان ما من ماء عذب الا و ينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس أى يهبط من السماء الى الصخرة ثم يتفرق فى الارض قاله أبو العالية وعن قتادة ان عمر رضى الله تعالى عنه قال لكعب الاحبار ألا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب انى وجدت فى كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين ان الشام كنز الله فى أرضه وبها كنزه من عباده وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم قال محمد بن اسحق استجاب لابراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمروذ وملئهم وآمن به لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارح وهاران هو أخو ابراهيم وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارح وآمنت به أيضا سارة وهى بنت عمه وهى سارة بنت هاران الاكبر عم ابراهيم فخرج من كوثى وهى بضم الكاف ومثلثة قال ابن الاثير هى كوثى العراق وهى سرة

(ان قلت) لم قدمت المرأة فى آية حد الزنا وأخرت فى آية حد السرقة (قلت) لان الزنا انما يتولد من شهوة الوقاع وهى فى المرأة أقوى وأكثر والسرقة انما تتولد من الجسارة

السواد وبها ولد ابراهيم الخليل عليه السلام وخرج مهاجرا الى ربه ومعه لوط وسارة كما قال تعالى فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى فخرج يلتمس القرار بدينه والامان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ماشاء الله ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج من مصر الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهى برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهى على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله تعالى نبيا الى أهلها وماقرب منها فذلك قوله تعالى ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين أى كما أنجيناك أنت يا أشرف الخلق ويا أفضل أولاده وصديقك أبا بكر رضى الله تعالى عنه الى طيبة التى شرفناها بك وبثثنا من أنوارها فى أرجاء الارض وأقطارها مالم نبث مثله قط وباركنا فيها للعالمين بالخلفاء الراشدين وغيرهم من العلماء والصالحين الذين انبثت خيراتهم العملية والعلمية والمالية فى جميع الاقطار ولما ولد لابراهيم عليه السلام فى حال شيخوخته وعجز امرأته مع كونها عقيما وكان ذلك دالا على الاقتدار على البعث الذى السياق كله له قال تعالى (ووهبناله) دالا على ذلك بنون العظمة (اسحق) أى من شبه العدم وترك شرح حاله لتقدمه أى فكان ذلك دليلا على اقتدارنا على مانريد لاسيما من اعادة الخلق فى يوم الحساب ثم انه قد يظن أنه لتولده بين شيخ فان وعجوز عقيم كان على حالة من الضعف لايولد لمثله معها انفى ذلك بقوله تعالى (ويعقوب نافلة) أى ولد الاسحق زيادة على مادعابه ابراهيم عليهما السلام ثم نمى سبحانه وتعالى أولاد يعقوب وهو اسرائيل وذرياتهم الى أن ساموا النجوم عدة وباروا الجبال شدة (وكلا) من هؤلاء الاربعة وهم ابراهيم ولوط واسحق ويعقوب وعظم رتبتهم بقوله تعالى (جعلنا صالحين) أى مهيئين لطاعتهم لله تعالى لكل مايرونه أويرادون له أو يراد منهم * ثم لما ذكر انه تعالى أعطاهم رتبة الصلاح فى أنفسهم ذكر انه تعالى أعطاهم رتبة الاصلاح لغيرهم فقال تعالى معظما لامامتهم (وجعلناهم أئمة) أى أعلاما ومقاصد يقتدى بهم فى الدين لما آتيناهم من العلم والنبوة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة بين الهمزة والياء ويجوز ابدالها عندهم ياء خالصة ولايدخلون بينهما شيأ وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين وادخال ألف بينهما بخلاف عنه فى الادخال وعدمه والباقون بتحقيق الهمزتين من غير ادخال بلا خلاف (يهدون) أى يدعون الناس ويقفونه للهداية (بأمرنا) أى باذننا (وأوحينا اليهم) أيضا (فعل) أى أن يفعلوا (الخيرات) ليحثوهم عليها فيتم كمالهم بانضمام العلم الى العمل قال البقاعى ولعله تعالى عبر بالفعل دلالة على انهم امتثلوا كل مايوحى اليهم وقال الزمخشرى أصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات وكذلك اقام الصلاة وايتاء الزكاة انتهى وقوله تعالى (واقام الصلوة وايتاء الزكوة) من عطف الخاص على العام تعظيما لشأنهما لان الصلاة تقرب العبد الى الحق تعالى والزكاة احسان الى الخلق قال الزجاج الاضافة فى الصلاة عوض من تاء التأنيث يعنى فيكون من الغالب لامن القليل (وكانوا لنا) دائما جبلة وطبيعة (عابدين) أى موحدين مخلصين فى العبادة ولذلك قدم الصلة * القصة الثالثة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولوطا) أى وآتينا لوطا أو واذكر لوطا ثم استأنف قوله تعالى (آتيناه حكما) أى نبوة وعملا محكما بالعلم وقيل فصلا بين الخصوم (وعلما) مزينا بالعمل مما ينبغى علمه

والقوة والجراءة وهى فى الرجل أقوى وأكثر (فان قلت) لم قدم الرجل فى قوله الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة (قلت) لان تلك الآية فى النكاح والمرأة هى الاصل فيه لطلبها وحفظه

للانبياء (ونجيناه من القرية) أى قرية سدوم (التى كانت) قبل انجائنا له منها (تعمل) أى
أهلها الاعمال (الخبائث) من اللواط والرمى بالبندق واللعب بالطيور والتضارط فى أنديتهم
وغيرذلك وانما وصف القرية بصفة أهلها وأسندها اليها على حذف المضاف واقامته مقامه
ويدل عليه (انهم كانوا) أى بما جبلوا عليه (قوم سوء) أى ذوى قدرة على الشر بانهماكهم
فى الاعمال السيئة (فاسقين) أى خارجين من كل خير (وأدخلناه) دونهم (فى رحمتنا) أى فى
الاحوال السنية والاقوال العلية والافعال الزكية التى هى سبب للرحمة العظمى ومسببة عنها
ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه من الصالحين) أى الذين سبقت لهم منا الحسنى أى لما جبلناه
عليه من الخير * القصة الرابعة قصة نوح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ونوحا) أى
واذكر نوحا (اذ) أى حين (نادى) أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك بقوله رب لا تذر على
الارض من الكافرين ديارا ونحوه من الدعاء (من قبل) أى من قبل لوط ومن تقدمه
(فاستجبنا) أى أردنا الاجابة وأوجدناها بعظمتنا (له) فى ذلك النداء ثم تسبب عن ذلك قوله
تعالى (فنجيناه وأهله) أى الذين دام ثباتهم على الايمان وهم من كان معه فى السفينة (من
الكرب العظيم) أى من أذى قومه ومن الغرق والكرب الغم الشديد قاله السدى وقال
أبو حيان الكرب أقصى الغم والاخذ بالنفس وهو هنا الغرق عبر عنه باول أحوال ماخذ
الغريق (ونصرناه) أى منعناه (من القوم) أى المتصفين بالقوة (الذين كذبوا بآياتنا) من أن
يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على (انهم كانوا قوم سوء) أى لا عمل لهم الا ما يسوء (فاغرقناهم
أجمعين) لاجتماع الامرين تكذيب الحق والانهماك فى الشر لم يجتمعا فى قوم الا وأهلكهم
الله تعالى * القصة الخامسة قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة فى قوله تعالى
(وداود وسليمان) ابنه أى اذكرهما واذكر شأنهما (اذ) أى حين (يحكمان فى الحرث) الذى
أنبت الزرع وهو من اطلاق اسم السبب على المسبب كالسماء على المطر والنبت قال ابن عباس
وأكثر المفسرين كان ذلك كرما قد تدلت عناقيده وقال قتادة كان زرعا قال ابن الخازن
وهو أشبه بالعرف (اذ نفشت) أى انتشرت ليلا بغير راع (فيه غنم القوم) فرعته قال قتادة
النفش فى الليل والعمل فى النهار (وكنا لحكمهم) أى الحكمين والمتحاكمين اليهما (شاهدين)
أى كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه وقال الفراء جمع الاثنين فقال لحكمهم
و يريد داود وسليمان لان الاثنين جمع وهو مثل قوله تعالى فان كان له اخوة فلامه السدس
وهو يريد أخوين قال ابن عباس وقتادة وذلك ان رجلين دخلا على داود عليه السلام
أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع ان هذا انفلتت غنمه ليلا
فوقعت فى حرثى فافسدته فلم تبق منه شيأ فاعطاه داود رقاب الغنم بالحرث فخرجا فمرا على
سليمان عليه السلام فقال كيف قضى بينكما فاخبراه فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة
لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا و روى أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فاخبر بذلك داود
فدعاه فقال كيف تقضى و يروى انه قال بحق النبوة والابوة الا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق
بالفريقين قال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فينتفع بدرها ونسلها وصوفها و يبذر صاحب

الآية فى حكم النكاح والرجل هو الاصل فيه لانه الراغب والبادئ بالطلب بخلاف الزنا فان الامر فيه بالعكس غالبا (قوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته) كرره لاختلاف

الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته دفع الى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت كما قال تعالى (ففهمناها) أى الحكومة (سليمان) أى علمناه القضية وألهمناه اياها (تنبيه) يجوز أن تكون حكومتهما بوحى الا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان ويجوز أن تكون باجتهاد الا أن اجتهاد سليمان أشبه بالصواب (فان قيل) ما وجه كل واحدة من الحكومتين (أجيب) بان وجه حكومة داود ان الضرر وقع بالغنم فسلمت بجنايتها الى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة فى العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه وعند الشافعى يبيعه فى ذلك أو يفديه ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث ووجه حكومة سليمان انه جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن تزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا وأبق من يده انه يضمن بالقيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر ترادا (فان قيل) لو وقعت هذه الواقعة فى شريعتنا ما حكمها (أجيب) بان أبا حنيفة وأصحابه لا يرون فيه ضمانا بالليل أو بالنهار الا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار أى هدر رواه الشيخان وغيرهما والشافعى وأصحابه يوجبون الضمان بالليل اذ المعتاد ضبط الدواب ليلا ولذلك قضى النبى صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطا وأفسدته فقال على أهل الاموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل ولما كان ذلك ربما أوهم شيأ فى أمر داود نفاه بقوله تعالى (وكلا) أى منهما (آتينا حكما) أى نبوة وعملا موسسا على حكمة (وعلما) مؤيدا بصالح العمل وعن الحسن لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا ولكنه تعالى أثنى على سليمان عليه السلام لصوابه وعلى داود باجتهاده انتهى وهذا على الرأى الثانى وعليه أكثر المفسرين وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حكم الحاكم فاجتهد فاصاب فله أجران واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر وهل كل مجتهد مصيب أو المصيب واحد لا بعينه رأيان أظهرهما الثانى وان كان مخالفا لمفهوم الآية اذ لو كان كل مجتهد مصيبا لم يكن للتقسيم فى الحديث معنى وقوله صلى الله عليه وسلم واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر لم يرد به انه يؤجر على الخطا بل يؤجر على اجتهاده فى طلب الحق لان اجتهاده عبادة والاثم فى الخطا عنه موضوع * (فائدة) * من أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن احداهما فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انما ذهب بابنك فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فاخبرتاه فقال ائتونى بالسكين أشقه بينكما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى أخرجاه فى الصحيحين ثم انه تعالى ذكر لداود وسليمان بعض معجزات فمن بعض معجزات الاول ما ذكره بقوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) مع صلابتها وعظمها (يسبحن) معه أى يقدسن الله معه الحال وشئنا بلطفنا الحرث والغنم تكلمه بصواب الحكم وقال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر وقوله تعالى

الاجوبة فيه اذ جواب الاول محذوف تقديره لفضحكم وجواب الثانى قوله لمسكم فيما افضتم الى آخره وجواب الثالث محذوف تقديره لعجل لكم العذاب وجواب الرابع

قوله ماذ كي منكم من أحد ابدا (قوله قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم) ان قلت ما فائدة ذكر من في غض البصر دون حفظ الفرج (قلت) فائدته

(والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقال وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذا الطير وقال قتادة يسبحن اى يصلين معه اذا صلى وقيل كان داود اذا فتر يسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق اليه وقيل يسبحن بلسان الحال وقيل يسبح من رآها تسير معه بتسيير الله تعالى فلما حملت على التسبيح وصفت به (وكنا فاعلين) أى من شأننا الفعل لامثال هذه الافاعيل ولكل شئ تريده فلا تستكثروا علينا أمرا وان كان عندكم عجبا وقد اتفق نحو هذا لغير واحد من هذه الامة كان مطرف بن عبد الله بن الشخير اذا دخل بيته سبحت معه آنيته وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان الطعام يسبح بحضرته والحصى وغيره (وعلمناه صنعة لبوس) أى صنعة الدروع التى تلبس فى الحرب قال قتادة أول من صنع هذه الدروع وسردها واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح وقد ألان الله تعالى لداود الحديد فكان يعمل منه بغير نار كأنه طين قال البغوى وهو أى اللبوس فى اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل فى الاسلحة كلها وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب وقوله تعالى (لكم) متعلق بعلم أو صفة للبوس وقوله تعالى (لتحصنكم من بأسكم) بدل منه بدل اشتمال باعادة الجار ومرجع الضمير يختلف باختلاف القراآت فقرأ شعبة بالنون فالضمير لله تعالى وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء على التأنيث فالضمير للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع وقرأ الباقون بالياء التحتية فالضمير لداود أو للبوس وقوله تعالى (فهل أنتم شاكرون) أى لنا على ذلك أمر أخرجه فى صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع ومن بعض معجزات الثانى ما ذكره بقوله (ولسليمان) أى وسخرنا لسليمان (الريح) قال البغوى وهو هواء يتحرك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر للحس بحركته والريح تذكر وتؤنث (عاصفة) أى شديدة الهبوب (فان قيل) قد قال تعالى فى موضع آخر تجرى بأمره رخاء والرخاء اللين (أجيب) بأنها كانت تحت أمره ان أراد أن تشتد اشتدت وان أراد أن تلين لانت وقيل كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وقوله تعالى (تجرى بأمره) أى بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاول أو حال من ضميرها (الى الارض التى باركنا فيها) أى الشام وذلك أنها كانت تجرى بسليمان وأصحابه الى حيث شاء سليمان ثم يعود الى منزله بالشام قال وهب بن منبه كان سليمان عليه السلام اذا خرج الى مجلسه عكفت عليه الطير وقام اليه الجن والانس حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما يقعد عن الغزو ولا يسمع فى ناحية من الارض بملك الا أتاه حتى يذله فكان اذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى اذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا فى روحته وشهرا فى غدوته الى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء بالزرع فما تحركها ولا تثير ترابها ولا تؤذى طائرا وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى ابريسم وكان يوضع له منبر من الذهب فى وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسى من ذهب وفضة تقعد الانبياء عليهم السلام على كراسى

الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح ومن الرواح الى الغروب وقال سعيد بن جبير كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي تجلس الانس مما يليه ثم تليهم الجن ثم تظلهم الطير ثم تحملهم الريح وقال الحسن لما شغلت الخيل نبي الله سليمان حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فابدله الله مكانها خيرا منها واسرع وهي الريح تجري بامره كيف شاء فكان يغدو من ايليا فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحها ببابل وقال ابن زيد كان له مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن الف بيت تركب معه فيه الجن والانس تحت كل ركن الف شيطان يرفعون ذلك الركن فاذا ارتفعت اتت الريح الرخاء فسارت به وبهم يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ولا يدري القوم الا وقد اظلهم معه الجيوش (وكنا) اى ازلا وابدا بالاحاطة العظمة (بكل شئ) اى من هذا وغيره من امره وغيره (عالمين) ومن علمنا ان ذلك لا يزيدهم الا تواضعا وكما سخرنا الريح له سخرناها للنبي صلى الله عليه وسلم ليالي الاحزاب قال حذيفة رضي الله عنه حتى كانت تقذفهم بالحجارة ما تجاوز عسكرهم فهزمهم الله تعالى بها وردوا بغيظهم لم ينالوا خيرا وأعطى صلى الله عليه وسلم أعم مما أعطى جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقد أعطى صلى الله عليه وسلم التصرف في العالم العلوي الذي جعل الله تعالى منه الفيض على العالم السفلي بالاختراق لطباقه باسرائه تارة وبامساك المطر لما دعا بسبع كسبع يوسف عليه السلام وبارساله اخرى كما في احاديث كثيرة واتى مع ذلك بمفاتيح خزائن الارض كلها فردها صلى الله عليه وسلم (ومن) اى وسخرنا لسليمان من (الشياطين) الذين هم اكفر شئ تمردا وعتوا (من يغوصون له) اى يدخلون في البحر فيخرجون منه الجواهر وغيرها من المنافع وذلك بان اكثفنا اجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص في الماء معجزة في معجزة وقد خنق نبينا صلى الله عليه وسلم العفريت الذي جاءه بشهاب من نار وامسر جماعة من اصحابه رضي الله تعالى عنهم عفاريت اتوا الى تمر الصدقة وامكنهم الله تعالى منهم (ويعملون عملا دون ذلك) اى سوى الغوص كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية (وكنا لهم حافظين) اى حتى لا يخرجوا عن امره وقال الزجاج معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان من عادة الشياطين اذا عملوا عملا بالنهار وفرغوا منه قبل الليل أفسدوه وخربوه وفي القصة ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان ليعمل له عملا قال له اذا فرغ من عمله قبل الليل فاشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه ‹ القصة السادسة قصة ايوب عليه السلام المذكور في قوله تعالى (وايوب) اى واذكر ايوب ويبدل منه (اذ نادى ربه) قال وهب بن منبه كان ايوب عليه السلام رجلا من الروم وهو ايوب بن اموص بن رزاح بن روم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم وكانت امه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكانت له البثنية من ارض البلقاء من اعمال حوران من ارض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من اصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل افضل منه في العدة والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وعبد وولد

الدلالة على ان حكم النظر أخف من حكم الفرج اذ يحل النظر الى بعض اعضاء المحارم ولا يحل شئ من فروجهن (قوله ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن) الآية (ان

ومال ويحمل آلة كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان او ثلاث أو أربع أو خمس وفوق ذلك وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم ويكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لانعم الله مؤديا لحق الله تعالى قد امتنع من عدو الله ابليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من اليمن يقال له اليفن ورجلان من بلده يقال لاحدهما بلدد والآخر صافر وكانوا كهولا وكان ابليس لا يحجب عن شيء من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام فحجب من أربع فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها الا من استرق السمع فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على ايوب عليه السلام وذلك حين ذكره الله تعالى واثنى عليه فادركه البغي والحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال الهي نظرت في امر عبدك ايوب فوجدته عبدا انعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج من طاعتك قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله ابليس حتى وقع على الارض ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فاني قد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما اذا شئت تحولت اعصارا من نار واحرقت كل شيء آتي عليه قال له ابليس فات الابل ورعاتها فاتى الابل وقد وضعت رؤسها ورعت في مراعيها فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها أحد الا احترق فاحرق الابل ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم جاء عدو الله ابليس في صورة قيمة على قعود الى أيوب فوجده قائما يصلي فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت ابلك فاحرقتها ومن فيها غيري قال أيوب الحمد لله الذي أعطانيها وهو أخذها وانها مال الله أعارنيها وهو أولى بها اذا شاء تركها واذا شاء نزعها وقديما كنت وطنت نفسي ومالي على الفناء قال ابليس فان الله ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيأ وما كان أيوب الا في غرور ومنهم من يقول لو كان اله أيوب يقدر على أن يصنع شيأ لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال أيوب الحمد لله حين اعطاني وحين نزع مني عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود في التراب وعريانا أحشر الى الله عز وجل ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعطاك الله وتجزع حين قبض الله عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله تعالى فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فاخرجك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا ذليلا فقال لهم ماذا عندكم من القوة فاني لم أكلم قلبه قال عفريت عندي من القوة ما اذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح الا خرجت روحه قال ابليس فات الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها وصاح صيحة فتجثمت أمواتا من عند آخرها وماتت رعاتها ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى أيوب وهو يصلي فقال له مثل القول الاول فرد عليه أيوب مثل الرد الاول ثم رجع ابليس

(قلت) لم ترك ذكر الاعمام والاخوال مع ان حكمهما ما استفى (قلت) تركهما كما ترك تحرم الرضاع او امهاتهما من بني الاخوان وبني الاخوات بالاولى او بالمساواة.

الى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فانى لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندى من القوة ما اذا اشئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شئ تأتى عليه قال فأت الفدادين والحرث فانطلق حين شرع الفدادون فى الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شئ من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الحرث الى أيوب وهو قائم يصلى فقال له مثل قوله الاول فرد عليه أيوب مثل رده الاول وجعل ابليس يهلك أمواله مالا مالا حتى مر على آخره كلما انتهى اليه هلاك مال من أمواله حمد الله تعالى وأحسن الثناء عليه ورضى عنه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى لم يبق له مال فلما رأى ابليس انه قد افنى ماله ولم ينجح منه بشئ صعد سريعا حتى وقف فى الموقف الذى يقف فيه وقال الهى ان أيوب يرى انك ما متعته بولده فانت تعطيه المال فهل أنت مسلطى على ولده فانها المصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله ابليس حتى جاء بنى أيوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم حتى تداعى من قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضا ويرميهم بالخشب والحجارة حتى مثل بهم كل مثلة ورفع القصر فقلبه فصاروا منكبين وانطلق الى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه فاخبره وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكبين على رؤسهم تسيل دماؤهم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت امعاؤهم لقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق قلب أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال ليت أمى لم تلدنى فاغتنم ابليس ذلك فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث أيوب ان فاء وأبصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته الى الله عز وجل وهو أعلم فوقف ابليس خاسئا ذليلا وقال الهى انما هوّن على أيوب المال والولد انه يرى انك ما متعته بنفسه فانت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله وكان الله عز وجل أعلم به لم يسلطه عليه الا رحمة لايوب ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعالمين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب فى مصلاه ساجدا فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها سائر جسده فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم ووقعت فيه حكة فحك باظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى بقى لحمه وتقطع وتغير وأنتن وأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهى رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام فكانت تختلف اليه بما يصلحه وتلزمه ولما رأى الثلاثة من أصحابه وهم اليفن وبلدد وصابر ما ابتلاه الله تعالى به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلقوا اليه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب الى الله تعالى من الذنب الذى عوقبت عليه قال وحضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم انكم تكلمتم أيها الكهول

والجواب بانه لم يذكر من المستثنى الاصل اشتراك هو وابنه فى العرصة لان من لم يشاركه ابنه فيها كالم واندال قد يصف محرمه عندابنه وهو ليس بمحرم لها فيفضى الى الفتنة ينقض بان

وانتم أحق بالكلام منى لاسنانكم ولكنكم تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ومن الامر أجمل من الذى أتيتم وقد كان لايوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ألم تعلموا انه أيوب نبى الله وخيرته وصفوته من أهل الارض الى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على انه قد سخط شيأ من امره منذ ما آتاه الله ما آتاه الى يومكم هذا ولا انه نزع شيأ منه من الكرامة التى أكرمه بها ولا ان أيوب قال على الله غير الحق فى طول ما صحبتموه الى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذى ازرى به عندكم ووضعه فى انفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلى المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لاولئك على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان ايوب ليس من الله بهذه المنزلة الا انه أخ آخيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكى معه ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على أرشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول فقد كان فى عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عى ولا بكم وانهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الالباء العالمون بالله ولكنهم اذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لله واجلالا له فاذا استفاقوا من ذلك استبقوا الى الله بالاعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين وانهم لابرار برآء ومع المقصرين المفرطين وانهم لا كياس أقوياء فقال أيوب ان الله سبحانه وتعالى يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير فمتى نبتت فى القلب يظهرها الله تعالى على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة واذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون عليه من الله تعالى نور الكرامة ثم أعرض عنهم أيوب عليه السلام يعنى الثلاثة وقال أتيتمونى غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل ان تضربوا فكيف بى لو قلت تصدقوا على بأموالكم لعل الله أن يخلصنى أو قربوا قربانا لعل الله أن يتقبله ويرضى عنى وانكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم انكم عوفيتم باحسانكم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله تعالى بالعافية التى ألبسكم وقد كنتم فيما خلا توقروننى وأنا مسموع كلامى معروف حقى منتصف من خصمى فاصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام وأنتم كنتم أشد على من مصيبتى ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستعينا به مستغفرا متضرعا اليه فقال يارب لاى شئ خلقتنى ليتنى اذ كرهتنى لم تخلقنى ياليتنى عرفت الذنب الذى أذنبت والعمل الذى عملت فصرفت وجهك الكريم عنى لو كنت أمتنى فالحقتنى بآبائى فالموت كان أجمل بى ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللارملة قيما الهى أنا عبد ذليل ان أحسنت فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتى جعلتنى للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع بى بلاء لو سلطته على جبل ضعف من حمله فكيف يحمله ضعفى فان قضاءك هو الذى أذلنى وان سلطانك هو الذى

افضاء الفتنة بأنفه ابا بعوانهن فقد يذكر ابو

أسقمني وأنحل جسمي ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء في
فادلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه
ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده
أظله غمام حتى ظن أصحابه انه عذاب ثم نودي يا أيوب ان الله تعالى يقول ها أنا قد دنوت منك
ولم أزل منك قريبا قم فادل بعذرك وتكلم بحجتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك وقم
مقام جبار يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغي أن يخاصمني الا جبار مثلي لقد منتك
نفسك يا أيوب أمرا ما يبلغ مثله قوتك أين انت مني يوم خلقت الارض فوضعتها على أساسها
هل كنت معي تمد باطرافها هل أنت علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شيء وضعت أكنافها
أبطاعتك حمل الماء الارض أم بحكمتك كانت الارض للماء غطاء أين كنت مني يوم رفعت
السماء سقفا في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها هل تبلغ من حكمتك
ان تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها اين أنت مني يوم أنبعت
الانهار وسكرت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت
الارحام حتى بلغت مدتها اين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل
تدري على أي شيء أرسيتها ام بأي مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها ام هل تدري
أين الماء الذي أنزلت من السماء ام هل تدري من اي شيء أنشئ السحاب ام هل تدري اين
خزانة الثلج ام اين جبال البرد أم اين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل واين خزانة الريح
وبأي لغة تتكلم الاشجار من جعل العقول في أجواف الرجال ومن شق الاسماع والابصار
ومن دانت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الارزاق بحكمته في كلام كثير
يدل على كمال قدرته ذكرها لايوب فقال أيوب عليه الصلاة والسلام كل شأني وكل لساني وكل
عقلي ورأيي وضعفت قوتي عن هذا الامر الذي تعرض لي يا الهي قد علمت ان كل الذي ذكرت
صنع يدك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت مما لا يعجز عنك شيء ولا يخفى عليك
خافية أذلني البلاء يا الهي فتكلمت فكان البلاء هو الذي أنطقني فليت الارض انشقت بي
فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخط ربي وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك انما تكلمت
حين تكلمت لتعذرني وسكت حين سكت لترحمني كلمة زلت مني فلم أعد قد وضعت يدي على
فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي أعوذ بك اليوم منك واستجير بك من
جهد البلاء فأجرني واستغيث بك من عقابك فاغثني وأستعين بك على أمري فاعني وأتوكل
عليك فاكفني واعتصم بك فاعصمني واستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشيء تكرهه مني قال
الله تعالى يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك فقال أيوب (اني) قد (مسني
الضر) بتسليطك الشيطان علي في بدني وأهلي ومالي وقد طمع الآن في ديني وذلك انه زين
لامرأة أيوب ان تأمره ان يذبح لصنم فانه يبرأ ثم يتوب فقطن لذلك وحلف ليضربنها ان
برأ مائة جلدة وقال وهب لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين وروى عن أنس يرفعه ان أيوب
لبث ببلائه ثمان عشرة سنة وقال كعب سبع سنين وقال الحسن مكث أيوب مطروحا
على كناسة لبني اسرائيل سبع سنين وشهرا يختلفون في الدواء ولا يقرب به أحد غير امرأته

البعل محرمه عند ابنه الاخر وليس بمحرم لها

(قوله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا)

رحمة صبرت معه تحمد الله معه اذا حمد وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه فلما غلب أيوب ابليس ولم يستطع منه شيأ اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال فقال لها أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال هل تعرفيني قالت لا فقال لها أنا اله الارض وأنا الذي صنعت بصاحبك لانه أطاع اله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان من مال وولد وأراها اياهم ببطن الوادي الذي لقيها فيه قال وهب وقد سمعت أنه انما قال لها لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم عليه لعوفي مما به من البلاء وفي بعض الكتب ان ابليس قال لها اسجدي لي سجدة حتى أرد عليك المال والاولاد وأعافي زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم ان الله عافاه ليضربنها مائة جلدة وعند ذلك قال مسني الضر من طمع ابليس في سجود حرمتي ودعائه اياها واياي الى الكفر (وأنت) أي والحال انت (أرحم الراحمين) فافعل بي ما يفعل الرحمن بالمضرور وهذا تعريض بسؤال الرحمة حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح فكان ذلك ألطف في السؤال فهو أجدر بالنوال ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتي على العصي فقال لها ألطفت في السؤال لا جرم لاردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا ثم ان الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها وأراد ان يبر يمين أيوب فأمره ان يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال تعالى في آية أخرى وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وروى ان ابليس اتخذ تابوتا وجعل فيه أدوية وجلس على طريق امرأة أيوب يداوي الناس فمرت به امرأة أيوب فقالت له ان لي مريضا أفتداويه قال نعم ولا أريد شيأ الا ان يقول اذا شفيته انت شفيتني فذكرت ذلك لايوب فقال هو ابليس قد خدعك وحلف ان شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة وقال وهب وغيره كانت امرأة ايوب تعمل للناس وتجيئه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلا يستعملها أحد فالتمست له يوما من الايام ما تطعمه فما وجدت شيأ فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته فحينئذ قال مسني الضر وقال قوم انما قال ذلك حين قصد الدود الى قلبه ولسانه فخشي ان يمتنع عن الذكر والفكر وقال حبيب بن أبي ثابت لم يدع الله تعالى بالكشف حتى ظهرت له ثلاثة أشياء أحدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاآ اليه ولم تبق الا عيناه ورأيا أمرا عظيما فقالا لو كان عند الله لك منزلة ما أصابك هذا والثاني ان امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها وحملت اليه طعاما والثالث قول ابليس اني أداويه على أن يقول أنت شفيتني وقيل ان ابليس وسوس اليه ان امرأته زنت فقطعت ذؤابتها فحينئذ عيل صبره وحلف ليضربنها مائة جلدة وقيل معناه مسني الضر من شماتة الاعداء وقيل قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فردها الى موضعها وقال كلي جعلني الله تعالى طعامك فعضته عضة زاد ألمها على جميع ما قاسى من عض الديدان (فان قيل) ان الله تعالى سماه صابرا وقد

أظهر الشكوى والجزع بقوله انى مسنى الضر ومسنى الشيطان بنصب (اجيب) بان هذا ليس بشكاية انما هو دعاء بدليل قوله تعالى (فاستجبنا له) والجزع انما هو الشكوى الى الخلق وأما الشكوى الى الله تعالى فلا تكون جزعا ولا ترك صبر كما قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى الى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روى ان جبريل عليه السلام دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال كيف تجدك قال أجدنى مغموما أجدنى مكروبا وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها حين قالت وارأساه بل أنا وارأساه وروى ان امرأة أيوب قالت له يوما لو دعوت الله فقال لها كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحى من الله ان أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى ثم ذكر سبب عن الاجابة قوله تعالى (فكشفنا) اى بعالنا من العظمة (ما به من ضر) بان أمرناه ان يركض برجله فتنبع له عين من ماء كما قال تعالى اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فركض برجله فانفجرت له عين ماء فدخل فيها فاغتسل فاذهب الله تعالى كل ما كان به من البلاء بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فامره ان يضرب برجله الارض مرة أخرى ففعل فنبع عين ماء بارد فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كاصح ما يكون من الرجال وأجلهم فاقبلت امرأته تلتمسه فى مضجعه فلم تجده فقامت كالواهة ثم جاءت اليه وهى لا تعرفه فقالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا قال نعم ومالى لا أعرفه فتبسم وقال أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته قال ابن عباس فوالذى نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى ردّ لهما كل ما كان لهما كما قال تعالى (وآتيناه أهله) اى أولاده الذكور والاناث بان أحيوا له وكل من الصنفين ثلاث أو سبع (ومثلهم معهم) اى من زوجته رحمة وزيد فى شبابها هذا ما دل عليه أكثر المفسرين وقيل آتاه الله تعالى المثل من نسل ماله وولده الذى رده اليه اى فولد له من ولده نوافل وقال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين وروى الضحاك عن ابن عباس رد الى امرأته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقال قوم آتى الله تعالى أيوب فى الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فاما الذين هلكوا فانهم لم يردوا عليه فى الدنيا وقال عكرمة قيل لايوب ان أهلك لك فى الآخرة وان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه أهله فى الآخرة ومثلهم معهم فى الدنيا وروى عن أنس يرفعه كان لايوب أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فافرغت احداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الاخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض وروى ان الله تعالى بعث اليه ملكا فقال ان ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج الى أندرك فخرج اليه فارسل عليه جرادا من ذهب قيل انه لما اغتسل وخرج الدود منه جعل الله تعالى له أجنحة فطارت فجعلها الله تعالى جرادا من ذهب وأمطرت عليه فطارت واحدة فاتبعها وردها الى أندره فقال له الملك اما يكفيك ما فى أندرك فقال هذا بركة من بركات ربى ولا أشبع من بركته وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من

(ان قلت) كيف قال ذلك مع انه اكره من صلى الزنا

ذهب يغتسل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك وقوله تعالى (رحمة) مفعول له أي نعمة عظيمة وتخصيصها بقوله تعالى (من عندنا) بحيث لا يشك من ينظر ذلك أنا ما فعلناه إلا رحمة منا له وإن غيرنا لا يقدر على ذلك (وذكرى) أي عظة عظيمة (للعابدين) أي كلهم ليتأسوا به فيصبروا إذا ابتلوا ولا يظنوا أن ذلك إنما نزل بهم لهوانهم ويشكروا فيثابوا كما أثيب وقيل لرحمتنا العابدين فإنا نذكرهم بالإحسان ولا ننساهم * القصة السابعة قصة إسمعيل وإدريس وذي الكفل المذكورة في قوله تعالى (وإسمعيل) أي واذكر إسمعيل بن إبراهيم عليهما السلام الذي سخرنا له من الماء بواسطة الروح الأمين ما عاش به صغيرا بعد ما كان هالكا لا محالة ثم جعلناه طعام طعم وشفاء سقم داخلا وصلناه وهو كبير من الذبح حين رأى أبوه في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء وحي وفديناه بذبح عظيم (و) اذكر (إدريس) أي ابن شيث بن آدم عليهم السلام الذي أحييناه بعد موته ورفعناه مكانا عليا وهو أول نبي بعث من بني آدم عليه السلام وتقدمت قصته في سورة مريم (و) اذكر (ذا الكفل) سمي بذلك قال عطاء لأن نبيا من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله تعالى إليه إني أريد أن أقبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل لمن تكفل لك أن يصلي بالليل لا يفتر ويصوم بالنهار لا يفطر ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه ففعل ذلك فقام شاب فقال أنا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى به فشكر الله له ونبأه فسمي ذا الكفل وقال مجاهد لما كبر اليسع قال لو أني استخلفت رجلا من الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل قال فجمع الناس فقال من يتقبل مني ثلاثا أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب فقام رجل فقال أنا فاستخلفه فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام بالليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا ما فعلوا وجعل يطول حتى ذهبت القائلة فقال إذا رحت فأتني فإني آخذ حقك فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلم يجده فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من أنت فقال الشيخ المظلوم ففتح له وقال ألم أقل لك إذا قعدت فأتني فقال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني قال فانطلق فإذا جلست فأتني وفاتته القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض أهله لا تدعوا أحدا يقرب من هذا الباب حتى أنام فإنه قد شق علي النعاس فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت يدق عليه الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلي فلم تؤت فانظر من أين أتيت فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا بالرجل معه في البيت فقال أتنام والخصوم ببابك فقال أعدو الله قال نعم أعييتني ففعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله تعالى فسمي ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به وقيل إن إبليس جاءه وقال إن لي غريما يمطلني فأحب أن تقوم معي وتستوفي حقي منه فانطلق معه حتى

حرام وإن لم يرد التصبغ (قات) الشرط هنا

اذا كان فى السوق خلاه وذهب وروى انه اعتذر اليه وقال صاحبى هرب وقيل ان ذا الكفل رجل كفل ان يصلى كل ليلة مائة ركعة الى أن يقبضه الله تعالى فوفى به واختلفوا فى انه هل كان نبيا فقال الحسن كان نبيا وعن ابن عباس انه الياس وقيل هو زكريا وقيل هو يوشع بن نون وقال أبو موسى لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا ولما قرن الله تعالى بين هؤلاء الثلاثة استأنف مدحهم بقوله تعالى (كل) اى كل واحد منهم (من الصابرين) على ما ابتليناه به فآتيناهم ثواب الصابرين (وادخلناهم فى رحمتنا) اى فعلنا بهم من الاحسان ما يفعله الراحم عن يرحمه على وجه عمهم من جميع جهاتهم فكانت ظرفا لهم ثم علل ذلك بقوله تعالى (انهم من الصالحين) اى لكل ما يرضاه تعالى منهم يعنى أنهم جبلوا جبلة خير فعملوا على مقتضى ذلك فكانوا من الكاملين فى الصلاح وهم الانبياء لان صلاحهم معصوم عن كدر الفساد القصة الثامنة قصة يونس عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (وذا النون) اى واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ويبدل منه (اذ ذهب مغاضبا) واختلفوا فى معنى ذلك فقال الضحاك مغاضبا لقومه وهو رواية العوفى وغيره عن ابن عباس قال كان قوم يونس يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فاوحى الله تعالى ٣ الى شعيب النبى عليه السلام ان سر الى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا الى هؤلاء فانى القى فى قلوبهم الرعب حتى يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة أنبياء فقال يونس فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره ان يخرج فقال يونس هل امرك الله باخراجى قال لا قال فهل سمانى لك قال لا قال فههنا أنبياء غيرى اقوياء فالحوا عليه فخرج من بينهم مغاضبا للنبى والملك ولقومه فاتى بحر الروم فركبه وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب عن قومه مغاضبا لربه اذ كشف عن قومه العذاب بعدما وعدهم به وكره ان يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع به العذاب عنهم وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وان يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله تعالى وفى بعض الاخبار انه كان من عادة قومه ان يقتلوا من جرب عليه الكذب فخشى ان يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فغضب والمغاضبة ههنا من المفاعلة التى تكون من واحد كالمسافرة والمعاقبة فمعنى قوله مغاضبا اى غضبانا وقال الحسن انما غاضب ربه من أجل انه امره بالمسير الى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم اليه فسأل ربه ان ينظره ليتأهب فقيل له ان الامر أسرع من ذلك حتى سأله ان ينظره الى ان يأخذ نعلا ليلبسها فلم ينظره وكان فى خلقه ضيق فذهب مغاضبا وعن ابن عباس قال أتى جبريل يونس فقال انطلق الى أهل نينوى فانذرهم قال التمس دابة قال الامر اعجل من ذلك فغضب فانطلق الى السفينة وقال وهب ان يونس كان عبدا صالحا وكان فى خلقه ضيق فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه وخرج هاربا فلذلك أخرجه الله تعالى من أولى العزم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم (فظن ان لن نقدر عليه) اى لن نقضى عليه بالعقوبة قاله مجاهد وقتادة والضحاك وقال عطاء وكثير من العلماء معناه فظن ان لن نضيق عليه الحبس من قوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده

لامه قوم لا خروجه بخروج الغالب من أن اكراههن

٣ قوله شعيب هكذا بالاصول ولعله شعياء اذ هو الذى كان فى عهد حزقيل كما يعلم اه مصححه

ويقدر وعن ابن عباس انه دخل على معاوية فقال لقد ضربتني امواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم اجد لنفسي خلاصا الا بك قال وما هي يا معاوية فقرأ هذه الآية فقال او يظن نبي الله ان لن يقدر عليه قال هذا من القدر الذي معناه الضيق لا من القدرة وقال ابن زيد هو استفهام معناه أفظن انه يعجزربه فلا يقدر عليه (فنادى) اى فاقتضت حكمتنا ان عاتبناه حتى يدنو لم فالقى نفسه في البحر فالتقمه الحوت فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة وقال عطاء سبعة ايام وقيل ان الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة وقيل بلغ به تخوم الارض السابعة ومعناه ان يكون له طعاما فنادى (في الظلمات) ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وقيل في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات وقوله يخرجهم من النور الى الظلمات وقيل ابتلع حوته حوتا اكبر منه فجعل في ظلمتي بطن الحوتين وظلمة البحر (ان لا اله الا أنت) ولما نزهه عن الشريك عمم فقال تعالى (سبحانك) اى تنزهت عن كل نقص فلا يقدر على الانجاء مما انا فيه الا انت ثم أفصح بطلب الخلاص بقوله ناسبا الى نفسه من النقص ما نزه الله عن مثله (اني كنت من الظالمين) اى في خروجي من بين قومي قبل الاذن فاعف عني كما هي سيرة القادرين روي عن ابي هريرة مرفوعا اوحى الله تعالى الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فاخذه ثم هوى به الى مسكنه في البحر فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا فاوحى الله تعالى اليه ان هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح وهو في بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بارض غريبة وفي رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد اليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا فيه عند ذلك فامر الحوت فقذفه في الساحل كما قال تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم فذلك قوله تعالى (فاستجبنا له) اى اجبناه (ونجيناه من الغم) اى من تلك الظلمات بتلك الكلمات (وكذلك) اى وكما نجيناه (ننجي المؤمنين) من كربهم اذا استغاثوا بنا داعين قال الرازي في اللوامع وشرط كل من يلتجئ الى الله ان يبدأ بالتوحيد ثم بعده بالتسبيح والثناء ثم بالاعتراف والاستغفار والاعتذار وهذا شرط كل داع اه وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه والله الا اقراره على نفسه بالظلم وقرأ ابن عامر وابو بكر بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم على ان اصله ننجي حذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية في تظاهرون وهي وان كانت فاء فحذفها اوقع من حذف حرف المضارعة الذي لمعنى وقيل هو ماض مجهول اسند الى ضمير المصدر وهو النجاء وقرأ الباقون بنونين الثانية مخفاة عند الجيم * (تنبيه) * اختلفوا في متى كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس كانت بعد ان أخرجه الله تعالى من بطن الحوت بدليل قوله تعالى في سورة والصافات فنبذناه بالعراء ثم ذكر بعده وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وقال آخرون انها كانت من قبل بدليل قوله تعالى وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون * القصة التاسعة قصة زكريا

انما يكون مع ارادتهن التحصن ولو ورده على سبب

عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى (وزكريا) أي واذكر زكريا ويبدل منه (اذ نادى
ربه) نداء الحبيب القريب فقال (رب) باسقاط أداة البعد (لا تذرني فردا) أي وحيدا من غير
ولد كريرث ما آتيتني من الحكمة (وانت) اي والحال انك (خير الوارثين) اي الباقي بعد
فناء خلقك وكثيرا ما تمنع ارث بعض عبيدك عبيدا آخرين فانت الحقيق بان تفعل في ارثي
من العلم والحكمة ما احب فتهب لي ولدا تمن علي به (فاستجبنا له) بعظمتنا وان كان في حد من
السن لا حراك به معه وزوجه في حال من العقم لا يرجى معه حبلها فكيف وقد يئس زكريا من
البأس ولذلك عبر بما يدل على العظمة فقال تعالى (ووهبنا له يحيى) ولدا وارثا نبيا حكيما عظيما
(واصلحنا له) خاصة من بين اهل ذلك الزمان (زوجه) اي جعلناها صالحة لكل خير خاصة له
فاصلحناها للولادة بعد عقمها واصلحناها لزكريا بعد ان كانت سيئة الخلق وهو ان الجاهلية كانوا
فاصلحناها له ورزقناها حسن الخلق (انهم) اي الانبياء الذين سماهم الله في هذه السورة وقيل
زكريا وزوجه ويحيى (كانوا) اي جبلة وطبعا (يسارعون في الخيرات) اي الطاعات بالغون
في الاسراع بها مسابقة من يسابق آخر ودل على عظيم افعالهم بقوله تعالى (ويدعوننا)
مستحضرين لجلالنا وعظمتنا وكمالنا (رغبا) اي طمعا في رحمتنا (ورهبا) اي خوفا من عذابنا
(وكانوا) اي جبلة وطبعا (لنا) خاصة (خاشعين) اي خائفين خوفا عظيما يحملهم على الخضوع
والانكسار قال مجاهد الخشوع هو الخوف اللازم للقلب وقيل متواضعين وسئل الاعمش
عن هذه الآية فقال اما اني سألت ابراهيم فقال الا تدري قلت افدني قال بينه وبين الله اذا
ارخى ستره عليه واغلق بابه فلير الله منه خيرا لعلك ترى انه يأكل خشنا ويلبس خشنا ويطأطئ
رأسه ❊ القصة العاشرة قصة مريم وابنها عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (والتي) اي
واذكر مريم التي (احصنت فرجها) اي حفظته من الحلال والحرام حفظا يحق له ان يذكر
ويتحدث به كما قال تعالى حكاية عنها ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا لان ذلك غاية في العفة
والصيانة والتخلي عن الملاذ الى الانقطاع الى الله تعالى بالعبادة مع ما جمعت مع ذلك من الامانة
والاجتهاد في متانة الديانة والصحيح انها ليست بنبية (فنفخنا فيها من روحنا) اي امرنا جبريل
حتى نفخ في جيب درعها فاحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها واضاف الروح اليه تعالى
تشريفا لعيسى عليه السلام كبيت الله وناقة الله ❊ ثم بين تعالى ما خص مريم وعيسى من
الآيات فقال تعالى (وجعلناها وابنها) اي قصتهما او حالهما ولذلك وحد قوله (آية للعالمين)
من الجن والانس والملائكة وان من تامل حالهما تحقق كمال قدرة الله تعالى (فان قيل) هلا
قال تعالى آيتين كما قال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين (اجيب) بما تقدم وبان الآية كانت
فيهما واحدة وهي انها اتت به من غير فحل وههنا آخر القصص ❊ ولما دل ما مضى من قصص
هؤلاء الانبياء عليهم السلام انهم كلهم متفقون على التوحيد الذي هو اصل الدين قال تعالى
(ان هذه) اي ملة الاسلام (امتكم) اي دينكم ايها المخاطبون اي يجب ان تكونوا عليها حال
كونها (امة) قال البغوي واصل الامة الجماعة التي هي على مقصد واحد له فجعل الشريعة
امة لاجتماع اهلها على مقصد واحد ثم اكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله تعالى (واحدة)
فابطل ما سوى الاسلام من الاديان (وانا ربكم) أي المحسن اليكم لا غيري في كل زمان فاني

لا أنيم على طول الدهر ولا يشغلني شأن عن شأن (فاعبدون) دون غيري فانه لا كفء لي
• ثم ان بعضهم خالف الامر بالاجتماع كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وتقطعوا) اى
بعض المخاطبين (أمرهم بينهم) اى تفرقوا أمر دينهم مختلفين فيه وهم طوائف اليهود
والنصارى قال الكلبي فرقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض
•(تنبيه)• الاصل وتقطعتم الا ان الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه
ينعى عليهم ما أفسدوه الى آخرين ويقبح عليهم فعلهم عندهم ويقول لهم ألا ترون الى عظيم
ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما يتوزع الجماعة
الشئ ويقتسمونه بينهم فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم
فرقا وأحزابا شتى ثم توعدهم بقوله تعالى (كل) اى من هذه الفرق وان بالغ في التمرد (الينا)
يوم القيامة (راجعون) فنحكم بينهم فيتسبب عن ذلك أنا نجازيهم اقامة للعدل فنعطي كلا
من المحق التابع لاصفيائنا والمبطل المائل الى الشياطين أعدائنا ما يستحقه وذلك هو معنى
قوله تعالى فارقا بين المحسن والمسئ محققا للعدل وتشويقا الى الفضل (فمن يعمل) اى منهم
الآن (من الصالحات وهو) اى والحال انه (مؤمن) اى بانٍ بعمله على الاساس الصحيح (فلا
كفران) اى لا جحود (لسعيه) بل يشكر ويثاب عليه •(تنبيه)• قوله تعالى فلا كفران
نفي الجنس ليكون أبلغ من ان يقول فلا نكفر سعيه (وانا له) اى لسعيه (كاتبون) اى
مثبتون في صحيفة عمله وما أثبتناه فهو غير ضائع فلا يفقد منه شيأ قل أو جل ومن المعلوم ان
قسيمه وهو من يعمل من السيآت وهو كافر فلا نقيم له وزنا ومن يعمل منها وهو مؤمن فهو
تحت مشيئتنا قال البقاعي ولعله حذف هذين القسمين ترغيبا في الايمان • ولما كان هذا غير
صريح في ان هذا الرجوع بعد الموت بينه بقوله تعالى (وحرام) اى ممنوع (على قرية) اى
أهلها (أهلكناها) اى بالموت (أنهم لا يرجعون) اى الينا بان يذهبوا تحت التراب باطلا من
غير احساس بل الينا بموتهم رجعوا فحبسناهم في البرزخ منعمين أو معذبين نعيما أو عذابا
دون النعيم والعذاب الاكبر •(تنبيه)• ما قدرناه في الآية هو ما جرى عليه البقاعي والذي
قدره الزمخشري ان معنى أهلكناها عزمنا على اهلاكها أو قدرنا اهلاكها ومعنى الرجوع
الرجوع من الكفر الى الاسلام والانابة فتكون لا مزيدة والذي قدره الجلال المحلي ان
لا زائدة اى يمتنع رجوعهم الى الدنيا فيكون الاهلاك بالموت وهذا قريب مما قاله ابن عباس
فانه قال وحرام على قرية أهلكناها ان يرجعوا بعد الهلاك فجعل لا زائدة قال البغوي وقال
آخرون الحرام بمعنى الواجب فعلى هذا يكون لا ثابتا ومعناه واجب على أهل قرية أهلكناهم
اى حكمنا باهلاكهم ان لا تتقبل أعمالهم لانهم لا يرجعون اى لا يتوبون والدليل على هذا
المعنى انه تعالى قال في الآية التي قبلها ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران
لسعيه أى يتقبل عمله ثم ذكر هذه الآية عقبه وبين ان الكافر لا يتقبل عمله انتهى والذي
قدره البيضاوي قريب مما قدره الزمخشري وكل هذه التقادير صحيحة لكن الاول أظهر
وقرأ شعبة وحمزة والكسائي بكسر الحاء وسكون الراء والباقون بفتح الحاء والراء وألف بعد
الراء قال البغوي وهما لغتان مثل حل وحلال وقوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج

يكرهون اماءهم على الزنا
مع ارادتهن التحصن

وماجوج) متعلق كما قال الزمخشري بحرام وحتى غاية له لان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام أي فهي الابتدائية لا الجارة ولا العاطفة والمحكي هو الجملة الشرطية وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان اسم قبيلتين من جنس الانس ويقدر قبله مضاف أي سدهما وذلك قرب الساعة يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج وقرأهما عاصم بهمزة ساكنة والباقون بالالف ثم عبر عن كثرتهم التي لا يعلمها الا هو سبحانه وتعالى بقوله تعالى (وهم) أي والحال أنهم (من كل حدب) أي نشز عال من الارض (ينسلون) أي يسرعون من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب وفي العبارة ايماء الى أن الارض كرة وقيل الضمير راجع الى الناس المسوقين الى المحشر روى عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم ما تتذاكرون قلنا نتذاكر الساعة قال انها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم (واقترب الوعد الحق) أي يوم القيامة قال حذيفة لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة (فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) قال الكلبي شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم *(تنبيه)* فاذا هي اذا للمفاجأة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هي شاخصة أو فهي شاخصة كان سديدا قال سيبويه والضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعني القصة ان أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك وقال الزمخشري هي ضمير مبهم توضحه الابصار وتفسره كما فسر الذين ظلموا وأسروا النجوى وقولهم (يا ويلنا) اي هلاكنا متعلق بمحذوف تقديره يقولون يا ويلنا ويقولون في موضع الحال من الذين كفروا يا للتنبيه (قد كنا) اي في الدنيا (في غفلة من هذا) اي اليوم حيث كذبنا وقلنا انه غير كائن ثم أضربوا عن الغفلة فقالوا (بل كنا ظالمين) أنفسنا بعدم اعتقاده وواضعين الشيء في غير موضعه حيث أعرضنا عن تأمل دلائله والنظر في مخايله وكذبنا الرسل وعبدنا الاوثان وقوله تعالى (انكم) خطاب لاهل مكة وأكده لانكارهم مضمون الخبر (وما تعبدون من دون الله) اي غيره من الاوثان (حصب جهنم) اي وقودها وهو ما يرمى به اليها وتهيج به من حصبه يحصبه اذا رماه بالحصب والحصب في لغة أهل اليمن الحطب وقال عكرمة هو الحطب بالحبشية قال الضحاك يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصب وقوله تعالى (أنتم لها واردون) اي داخلون استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على ان ورودهم لاجلها (لو كان هؤلاء) اي الاوثان (آلهة) اي كما زعمتم (ما وردوها) اي ما دخل الاوثان وعابدوها النار وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة في الوصل بعد تحقيق الاولى والباقون

قوله او ان بمعنى اذ كما في قوله تعالى وذروا ما بقي من الربا

بتصفيقهما (وكل) اى من العابدين والمعبودين (فيها) اى فى جهنم (خالدون) لا انفكاك لهم
عنها بل يحمى بكل منهم نارها على الآخر (فان قيل) لم قرنوا بآلهتهم (أجيب) بانهم لا يزالون
لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من
العذاب لانهم قدروا انهم يستشفعون بهم فى الآخرة وينتفعون بشفاعتهم فاذا صادفوا
الامر على عكس ما قدروا لم يكن شئ أبغض اليهم منهم (فان قيل) اذا عنيت بما تعبدون
الاوثان فما معنى قوله تعالى (لهم فيها زفير) اى تنفس عظيم على غاية من الشدة والمدة كاد
تخرج معه النفس (أجيب) بانهم اذا كانوا هم وأوثانهم فى قرن واحد جاز أن يقال لهم زفير
وان لم يكن الزافرون الاهم دون الاوثان للتغليب ولعدم الالباس (وهم فيها لا يسمعون)
شيأ لشدة غليانها وقال ابن مسعود فى هذه الآية اذا بقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت
من نار ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت أخرى عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيأ ولا يرى
أحد منهم ان أحدا يعذب فى النار غيره وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد ان كنتم مؤمنين وقوله وانتم الاعلون ان كنتم
وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر
ابن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون
من دون الله الآية فاقبل عبد الله بن الزبعرى السلمى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم
فاخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته
لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم
قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنوا
مليح عبدوا الملائكة فقال صلى الله عليه وسلم بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فانزل
الله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) اى الحكم بالموعدة البالغة فى الحسن فى الازل
ومنهم من ذكروا ممن أضل باحد منهم الكفار فامروه أم لا (أولئك) اى العالو الرتبة (عنها)
اى جهنم (مبعدون) برحمة الله تعالى لانهم أحسنوا فى العبادة واتقوا وهل جزاء الاحسان
الا الاحسان وفى رواية عن ابن عباس ان ابن الزبعرى لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك
سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون
وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة
ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية وقد أسلم ابن الزبعرى بعد ذلك رضى الله تعالى عنه
ومدح النبى صلى الله عليه وسلم وادعى جماعة ان المراد من الآية الاصنام لان الله تعالى قال
وما تعبدون من دون الله ولو أراد الملائكة والناس لقال ومن تعبدون يروى ان عليا رضى
الله تعالى عنه قرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد
وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ثم اقيمت الصلاة فقام يجر رداءه وهو يقول
(لا يسمعون حسيسها) اى حركتها البالغة وصوتها الشديدة كيف يعادونه لان الحس مطلق
الصوت أو الصوت الخفى كما قاله البغوى فاذا زادت حروفه زاد معناه فذكر ذلك بدلا من
مبعدون أو حال من ضميره للمبالغة فى ابعادهم عنها (وهم) اى الذين سبقت لهم منا الحسنى
(فى ما اشتهت أنفسهم) فى الجنة كما قال تعالى وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين والشهوة

طلب النفس اللذة (خالدون) اى دائما أبدا فى غاية التنعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به • (فائدة) • فى هنا مقطوعة من ما ولما كان معنى ذلك ان سرورهم ليس له زوال أكده بقوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) قال الحسن هو حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن عباس هو النفخة الاخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض وقال ابن جريج هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقال سعيد بن جبير هو أن تطبق جهنم وذلك بعد أن يخرج الله تعالى منها من يريد أن يخرجه (وتتلقاهم) أى تستقبلهم (الملائكة) قال البغوى على أبواب الجنة يهنئونهم وقال الجلال المحلى عند خروجهم من القبور ولا مانع أنها تستقبلهم فى الحالين ويقولون لهم (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) أى هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم به فى الدنيا فابشروا فيه بجميع ما يسركم • ولما كانت هذه الافعال على غاية من الاهوال تتشوف بها النفس الى معرفة اليوم الذى تكون فيه قال تعالى (يوم) أى تكون هذه الاشياء يوم (نطوى السماء) طيا فتكون كأنها لم تكن ثم صور طيها بما يعرفونه فقال مشبها للمصدر الذى دل عليه الفعل (كطى السجل) واختلف فى السجل فقال بعضهم هو الكاتب الذى له الطى والقدرة على مكتوبه (للكتاب) أى القرطاس الذى يكتبه ويرسله الى أحد وقال السدى هو ملك يكتب أعمال العباد وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذه الاقوال اسم للصحيفة المكتوب فيها وقال ابن عباس ومجاهد والاكثرون السجل الصحيفة والمعنى كطى الصحيفة على مكتوبها والطى هو الدرج وهو ضد النشر وانما وقع هذا الاختلاف لان السجل يطلق على الكتاب وعلى الكاتب قاله فى القاموس وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الكاف والتاء على الجمع والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبين الكاف والتاء ألف على الافراد فقراءة الافراد لمقابلة لفظ السماء والجمع للدلالة على ان المراد الجنس فجميع السموات تطوى روى عن ابن عباس انه قال يطوى الله تعالى السموات السبع بما فيها من الخليقة والارضين السبع بما فيها من الخليقة يطوى ذلك كله بيمينه اى بقدرته حتى يكون ذلك بمنزلة خردلة وروى عن ابن عباس انه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم محشورون الى الله حفاة عراة غرلا اى غير مختونين (كما بدأنا أول خلق نعيده) اى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم عراة غرلا غير مختونين نعيدهم يوم القيامة نظيره قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة (وعدا) وأكد ذلك بقوله تعالى (علينا) وزاده بقوله تعالى (انا كنا) اى أزلا وأبدا على حالة لا تحول (فاعلين) اى شأننا ان نفعل ما نريد لا كلفة علينا فى شئ من ذلك ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع كتب الله تعالى المنزلة والذكر أم الكتاب الذى عنده ومعناه من بعد ما كتب ذكره فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس والضحاك الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة • وقال الشعبى الزبور كتاب داود والذكر التوراة وقيل الزبور كتاب داود عليه السلام والذكر القرآن وبعد بمعنى قبل كقوله تعالى وكان وراءهم ملك أى أمامهم وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها اى قبله وقرأ حمزة بضم

[قوله ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) قاله مؤمنين]

[قوله والذكر أم الكتاب هذا ساقط فى بعض النسخ ويحتاج فيه الى أن بعد بمعنى قبل كما فى الآتى قريبا اهـ مصححه]

الزاى والباقون بفتحها (ان الارض) اى أرض الجنة (يرثها عبادى) وحقق ذلك ما أفادته اضافتهم اليه بقوله تعالى (الصالحون) اى المتحققون باخلاق أهل الذكر المقبلون على وجهم الموحدون له المشفقون من الساعة الراهبون من سطوته الراغبون فى رحمته الخاشعون له فهذا عام فى كل صالح وقال مجاهد هى أمة محمد صلى الله عليه وسلم دليله قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقال ابن عباس أراد ان أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز المسلمين وقيل أراد بالارض الارض المقدسة وقيل أراد جنس الارض الشامل لبقاع أرض الدنيا كلها ولأرض المحشر والجنة وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى وجرى على هذا البقاعى فى تفسيره وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها (ان فى هذا) اى القرآن كما قاله البغوى (لبلاغا) اى وصولا الى البغية فان من اتبع القرآن وعمل به وصل الى ما يرجو من الثواب وقيل بلاغا أى كفاية يقال فى هذا الشئ بلاغ و بلغة اى كفاية والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر وقال الرازى هذا اشارة الى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة (لقوم عابدين) اى عاملين به وقال ابن عباس عالمين قال الرازى والاولى انهم الجامعون بين أمرين لان العلم كالشجر والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن وقال كعب الاحبار هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان ولما كان هذا مشيرا الى ارشادهم فكان التقدير فما أرسلناك الا لاسعادهم عطف عليه قوله تعالى (وما أرسلناك) اى على حالة من الاحوال (الا) على حال كونك (رحمة للعالمين) كلهم أهل السموات وأهل الارض من الجن والانس وغيرهم طائعهم بالثواب وعاصيهم بتأخير العقاب الذى كانت تستأصل الامم به فنحن نمهلهم ونترفق بهم اظهارا لشرفك واعلاء لقدرك ثم نرد كثيرا منهم الى دينك ونجعلهم من أكابر أنصارك وأعاظم أعوانك بعد طول ارتكابهم الضلال وارتباكهم فى أشراك المحال ومن أعظم ما يظهر فيه هذا الشرف فى عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم يجمع الله تعالى الاولين والآخرين وتقوم الملائكة صفوفا والثقلان وسطهم ويموج بعضهم فى بعض من شدة ماهم فيه يطلبون من يشفع لهم فيقصدون أكابر الانبياء نبيا نبيا عليهم الصلاة والسلام فيحيل بعضهم على بعض وكل منهم يقول لست لها حتى يأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها ويقوم معه لواء الحمد فيشفعه الله تعالى وهو المقام المحمود الذى يغبطه به الاولون والآخرون فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق أجمعين ولما أورد تعالى على الكفار الحجج فى ان لا اله سواه وبين انه أرسل رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بأمره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد) اى ما يوحى الى فى أمر الاله الا وحدانيته وما الهكم الا اله واحد لم يوح الى فيما تدعون من الشركة غير ذلك فالاول من قصر الصفة على الموصوف والثانى من قصر الموصوف على الصفة والمخاطب بهما من يعتقد الشركة فهو قصر قلب وقال الزمخشرى انما لقصر الحكم على شئ أو لقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم وانما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية لان انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما

هنا بلغ مقابلة على خط المؤلف والحكم وقابله بعد جيد فوملات

الحكم الواحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية انتهى ❁ ولما كان الوحى الوارد على هذه السنن موجبا ان يخلصوا التوحيد لله تعالى قال صلى الله عليه وسلم (فهل أنتم مسلمون) اى منقادون لما يوحى الى من وحدانية الاله والاستفهام بمعنى الامر اى أسلموا (فان تولوا) اى لم يقبلوا ما دعوتهم اليه (فقل) اى لهم (آذنتكم) اى أعلمتكم بالحرب كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فاحس منهم بغدرة فنبذ اليهم العهد وأشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعا بذلك وقوله (على سواء) حال من الفاعل والمفعول اى مستوين فى الاعلام به لم اطوه عن أحد منكم ولا استبد به دونكم لتتاهبوا (وان) اى وما (أدرى أقريب) جدا بحيث يكون قربه على ما تعارفونه (أم بعيد ما توعدون) من غلب المسلمين عليكم أو عذاب الله أو القيامة المشتملة عليه وان ذلك كائن لا محالة ولا بد أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وان كنت لا أدرى متى يكون ذلك لان الله تعالى لم يعلمنى علمه ولم يطلعنى عليه وانما يعلمه الله تعالى (انه) تعالى (يعلم الجهر من القول) اى مما يجهرون به من المطاعن وغير ذلك ونبه تعالى على ذلك فان من أحوال الجهر ان ترتفع الاصوات جدا بحيث تختلط ولا يميز بينها ولا يعرف كثير من حاضريها ما قاله أكثر القائلين فاعلم سبحانه وتعالى انه لا يشغله صوت عن آخر ولا يفوته شئ من ذلك ولو كثر (ويعلم ما تكتمون) مما تضمرونه فى صدوركم من الاحقاد للمسلمين ونظير ذلك قوله تعالى فى أول السورة قل ربى يعلم القول فى السماء والارض ومن لازم ذلك المجازاة عليه بما يحق لكم من تعجيل وتأجيل فستعلمون كيف تخيب ظنونكم ويتحقق ما أقول فتنطقون حينئذ بانى صادق ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن فهو من أبلغ التهديد فانه لا أبلغ من التهديد بالعلم ❁ ولما كان الامهال قد يكون نعمة وقد يكون نقمة قال (وان) أى وما (أدرى) أن يكون تأخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون أم (لعله) أى تأخير العذاب (فتنة) أى اختبار (لكم) ليظهر ما يعلمه منكم من السر لغيره لان حالكم حال من يتوقع منه ذلك (ومتاع) لكم تتمتعون به (الى حين) أى بلوغ مدة آجالكم التى ضربها لكم فى الازل ثم يأخذكم بغتة وأنتم لا تشعرون ❁ ولما كان لله أن يفعل ما يشاء من عدل وفضل وكان من العدل جواز تعذيب الله تعالى الطائع وتنعيم المؤمن العاصى وكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية فى البيان لهم وهم قد بلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه أمر الله تعالى أن يفوض الامر اليه تسلية له بقوله تعالى (قل رب) أيها المحسن الى (احكم) أى انجز الحكم بينى وبين قومى (بالحق) اى بالامر الذى يحق لكل منا من نصر وخذلان وقرأ حفص بفتح القاف وألف بعدها وفتح اللام بصيغة الماضى على حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم والباقون بضم القاف وسكون اللام بصيغة الامر (فان قيل) كيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احكم بالحق والله تعالى لا يحكم الا بالحق (أجيب) بان الحق ههنا بمعنى العذاب فكأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر ونظيره قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وقال أهل المعانى معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه والله تعالى يحكم بالحق طلب أم لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب فى حكمه الحق

اتصال ما هنا بما قبله اشد اذ قوله بعلمه عطفه

(وربنا) اى المحسن الينا أجمعين (الرحمن) اى العام الرحمة لنا ولكم بادرارها علينا ولولا عموم رحمته لاهلكنا أجمعين وان كنا نحن أطعناه لانا لا نقدره حق قدره ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة (المستعان) اى المطلوب منه العون (على ما تصفون) من كذبكم على الله تعالى فى قولكم اتخذ الله ولدا وعلى فى قولكم ساحر وعلى القرآن فى قولكم شعر قال الرازى روى انه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك فى حروبه ولم يذكر له سندا وأما ما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ اقترب حاسبه الله حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن فحديث موضوع والله تعالى أعلم بالصواب

سورة الحج مكية

الا ومن الناس من يعبد الله على حرف الآيتين والا هذان خصمان الست آيات فمدنيات وهى ثمان وقيل خمس أوست أوسبع وسبعون آية

المتقين مصروف الى الجمل السابقة من قوله

(بسم الله) أى الذى اقتضت عظمته خضوع كل شئ (الرحمن) الذى عم برحمته كل موجود (الرحيم) الذى خص بفضله من شاء من عباده * ولما ختمت السورة التى قبل هذه بالترهيب من الفزع الاكبر وطى السماء واتيان ما يوعدون وكان أعظم ذلك يوم الدين افتتحت هذه السورة بالامر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم بقوله تعالى (يا أيها الناس) أى الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم ان أريد ان ذلك عام والافهم وغيرهم (اتقوا) أى احذروا عقاب (ربكم) أى المحسن اليكم بانواع الاحسان بان تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية الطاعات * ولما أمرهم بالتقوى علل ذلك مرهبا لهم بقوله تعالى (ان زلزلة الساعة) أى حركتها الشديدة للاشياء على الاسناد المجازى فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله ويصح ان يكون الى المفعول فيه على طريق الاتساع فى الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها واختلف فى وقتها فعن الحسن انها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبى عند طلوع الشمس من مغربها الذى هو أقرب الساعة (شئ عظيم) اى أمر كبير وخطر جليل وحادث هائل لا تحتمل العقول وصفه وهذه الزلزلة نفسها فكيف بجميع ما يحدث فى ذلك اليوم الذى لا بد لكم من الحشر فيه الى الله تعالى ليجازيكم على ما كان منكم لا ينسى منه نقير ولا قطمير (يوم ترونها) اى الزلزلة أو الساعة أو كل مرضعة أضمرها قبل الذكر تهويلا للامر وترويعا للنفس (تذهل) بسبب ذلك (كل مرضعة) اى بالفعل اى تنسى وتغفل حائرة مدهوشة والعامل فى يوم تذهل (فان قيل) لم قال تعالى مرضعة ولم يقل مرضع (أجيب) بان المرضعة هى التى فى حال الارضاع ملقمة ثديها للطفل والمرضع التى شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها به فقال مرضعة ليدل على أن ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت ثديها انتزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة (عما أرضعت) عن ارضاعها أو عن

الذى أرضعته وهو الطفل فما مصدرية أو موصولة (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تسقطه قبل التمام رعبا وفزعا *(تنبيه)* هذا ظاهر على القول الثانى وهو قول علقمة والشعبى على أن ذلك يكون عند طلوع الشمس من مغربها وأما على القول الاول وهو قول الحسن على أن ذلك يوم القيامة كيف يكون ذلك فقيل هو تصوير لهولها قاله البيضاوى وقال البقاعى فى المرضعة هى من ماتت مع ابنها رضيعا وفى ذات الحمل من ماتت حاملا فان كل أحد يقوم على ما مات عليه وهذا أولى فانى فى حال كتابتى فى هذا المحل حضر عندى سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى نفعنا الله تعالى ببركته فذكرت له هذين القولين فانشرح صدره لترجيح هذا الثانى وذلك يوم تاسوعاء من شهر الله المحرم سنة ست وخمسين وتسعمائة وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما فى بطنها بغير تمام ويؤيد أن هذه الزلزلة تكون بعد البعث ما روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد فى رواية والخير فى يديك فينادى بصوت ان الله يأمرك ان تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يارب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وساق بقية الآية وهو (وترى الناس سكارى) اى لما هم فيه من الدهشة والحيرة ثم بين الله تعالى ان ذلك ليس بسكر حقيقة بقوله تعالى (وما هم بسكارى) اى من الشراب ولما نفى ان يكونوا سكارى من الشراب أثبت ما أوجب لهم تلك الحالة بقوله (ولكن عذاب الله) ذى العزة والجبروت (شديد) فهو الذى أوجب ان يظن بهم السكر لان هوله أذهب عقولهم وطير تمييزهم ثم الحديث عند آخر الآية فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد فى رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الواحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى الثور الابيض أو كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود وفى رواية كالرقمة فى ذراع الحمار وانى أرجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا وفى رواية انى لارجو ان تكونوا ثلثى أهل الجنة وروى عمران بن حصين رضى الله عنه ان هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق ليلا فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلا نرأ كثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اى يوم ذلك قالوا الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث بعث النار وذلك نحو حديث ابى سعيد وزاد فيه ثم قال يدخل من امتى سبعون ألفا الجنة بغير حساب قال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وسكون الكاف فيهما والباقون بضم السين وفتح الكاف وبعد الكاف ألف وأمال الالف بعد الراء ابو عمرو وحمزة والكسائى محضة وورش بين بين والباقون بالفتح ونزل فى النضر بن الحرث وكان كثير الجدل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول

وابن عطية الى آخره وفيه

الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الاولين وكان ينكر البعث واحياء من صار ترابا (ومن الناس) اى المكذبين (من) لايسعى فى اعلاء نفسه وتهذيبها فيكذب فيوبق بسوء عمله لانه (يجادل فى الله) اى فى قدرته على ذلك اليوم وفى غير ذلك بعد ان جاء العلم بها اجتراء على سلطانه العظيم (بغير علم) بل بالباطل الذى هو جهل صرف فيترك اتباع الهداة (و يتبع) بغاية جهده فى جداله (كل شيطان) محترق بالسوء مبعد باللعن (مريد) اى متجرد للفساد ولا شغل له غيره قال البيضاوى وأصله العرى اى عن الساتر (كتب) اى قدر وقضى على سبيل الحتم الذى لابد منه تعبيرا باللازم عن الملزوم (عليه) اى على ذلك الشيطان (انه) اى الشأن (من تولاه) اى فعل معه فعل الولى مع وليه باتباعه والاقبال على مايزينه (فانه يضله) بما يبغض اليه من الطاعات فيخطئ سبيل الخير (ويهديه) اى بما يزين له من الشهوات الحاملة على الزلات (الى عذاب السعير) اى النار ثم ألزم الحجة منكرى البعث بقوله تعالى (ياأيها الناس) اى كافة ويجوز ان يراد به المنكر فقط (ان كنتم فى ريب) اى شك وتهمة وحاجة الى البيان (من البعث) وهو قيام الاجسام بارواحها كما كانت قبل مماتها فتفكروا فى خلقكم الاولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم انه سبحانه وتعالى ذكر مراتب الخلقة الاولى أمورا سبعة المرتبة الاولى قوله تعالى (فانا خلقناكم) بقدرتنا التى لا يتعاظمها شئ (من تراب) لم يسبق له اتصاف بالحياة وفى الخلق من تراب وجهان أحدهما انا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه الصلاة والسلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب الثانى من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية وغذاء الحيوان ينتهى الى النبات قطعا للتسلسل والنبات انما يتولد من الارض والماء فصح قوله تعالى انا خلقناكم من تراب المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم من نطفة) وحالها أبعد شئ عن حال التراب فانها بيضاء سائلة لزجة صافية كما قال تعالى من ماء دافق واصلها الماء القليل قاله البغوى وأصل النطف الصب قاله البيضاوى المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم من علقة) اى قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان ولاشك ان بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة المرتبة الرابعة قوله تعالى (ثم من مضغة) اى قطعة لحم صغيرة وهى فى الاصل قدر ما يمضغ (مخلقة) اى مسواة لا نقص فيها ولا عيب يقال خلق السواك والعود سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء (وغير مخلقة) اى وغير مسواة فكأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ماهو كامل الخلقة وأملس من العيوب ومنها ماهو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم هذا قول قتادة والضحاك وقال مجاهد المخلقة الولد الذى يخرج حيا وغير المخلقة السقط وقال قوم المخلقة المصورة وغير المخلقة غير المصورة وهو الذى يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله بن مسعود موقوفا عليه قال ان النطفة اذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه وقال اى رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها فى الرحم دما ولم تكن نسمة وان قال مخلقة قال الملك اى رب ذكر أم انثى وشقى ام سعيد ما الاجل ما العمل ما الرزق باى ارض تموت فيقال له اذهب الى أم الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها فى ام

معطوفان بالواو فناسب ذكرها للعطف وذكر

الكتاب فينسخها فلا يزاد فيه ولا ينقص منه حتى يأتي على آخره فمنها الذي أخرجاه في الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي او سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذي لا إله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها فكأنه تعالى يقول انما نقلنا كم من حال الى حال ومن خلقة الى خلقة (لنبين لكم) بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على خلق البشر من التراب والماء أولا ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين التراب والماء وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما قادر على اعادة ما أبداه بل هو أدخل في القدرة من تلك واهون في القياس وورود الفعل غير معدى الى المبين اعلام بان أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يحيط به الوصف ولا يكتنهه الذكر (ونقر في الارحام) اى من ذلك الذي خلقناه (ما نشاء) اتمامه (الى أجل مسمى) هو وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه آخر أربع سنين بحسب قوة الارحام وضعفها وقوة المخلقات وضعفها وكثرة تغذيه من الدماء وقلته الى غير ذلك من أحوال وشؤن لا يعلمها الا بارئها جلت قدرته وتعالت عظمته وما لم نشا اقراره مجته الارحام وأسقطته دون التمام أو نحرقه فيضمحل المرتبة الخامسة قوله تعالى (ثم نخرجكم طفلا) وهو معطوف على نبين ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين احدهما ان نبين قدرتنا والثاني ان نقر في الارحام من نقر حتى تولدوا في حال الطفولية من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر وجميع الحواس لتستلاتم لكم أمهاتكم بكبر أجرامكم وعظم أجسامكم المرتبة السادسة قوله تعالى (ثم) اى نمد أجلكم (لتبلغوا) بهذا الانتقال في اسنان الاجسام من الرضاع الى المراهقة الى البلوغ الى الكهولة (أشدكم) اى الكمال والقوة وهو ما بين الثلاثين الى الاربعين جمع شدة كالانعم جمع نعمة كأنه شدة في الامور المرتبة السابعة قوله تعالى (ومنكم من يتوفى) اى عند بلوغ الاشد أو قبله (ومنكم من يرد) بالشيخوخة وبناه للمجهول اشارة الى هوانه عليه لاستبعاده لولا تكرار المشاهدة عند الناظر لتلك القوة والنشاط وحسن التواصل بين أعضائه والارتباط (الى أرذل) اى أخس (العمر) وهو سن الهرم فتنقص جميع قواه (لكيلا يعلم من بعد علم) كان أوتيه (شيأ) اى يعود كهيئته الاولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر من عرفه حتى يسأل عنه من ساعته يقول الناس من هذا فتقول فلان فما يلبث لحظة الا سأل عنه (فان قيل) هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أجيب) بان معنى قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجري مجرى العقوبة ولذلك قال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكن قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقد علم بعود الانسان في ذهاب العلم وصغر الجسم الى نحو ما كان عليه في ابتداء الخلق قطعا أن الذي أعاده الى ذلك قادر على اعادته بعد الممات ولما تم هذا الدليل على

الحكم لبعضان الآيات المبينات نزلت في المناظرين

الساعة بحكم المقدمات وأصح النتائج وكان اول الايجاد فيه غير مشاهد ذكر الله تعالى دليلا آخر على البعث مشاهدا بقوله (وترى الارض هامدة) أي يابسة ساكنة سكون الميت (فاذا أنزلنا) اي بما لنا من القدرة (عليها الماء اهتزت) أي تحركت وتأهلت لاخراج النبات (وربت) اي ارتفعت وذلك اول ما يظهر منها للعين وزادت ونمت بما يخرج منها من النبات الناشئ عن التراب والماء وقوله تعالى (وأنبتت) مجاز لان الله تعالى هو المنبت واضيف الى الارض توسعا اي أنبتت بتقديرنا الامور المنبتة (من كل زوج) اي صنف (بهيج) اي حسن تضيره من اشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ومقاديرها قال الجلال المحلي من زائدة ولم أرمن ذكر ذلك من المفسرين * (تنبيه) * في الآية اشارة الى أن النبات كما يتوجه من نقص الى كمال فكذلك الانسان المؤمن يترقى من نقص الى كمال ففي المعاد يصل الى كماله الذي اعد له من البقاء والغنى والعلم والصفاء والخلود في دار السلام مبرأ عن عوارض هذا العالم * ولما قرر سبحانه هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر امورا خمسة احدها قوله تعالى (ذلك) اي المذكور من بدء الخلق الى آخر احياء الارض (بان) اي بسبب ان تعلموا ان (الله) اي الجامع لاوصاف الكمال (هو) اي وحده (الحق) اي الثابت الدائم وما سواه فان ثانيها قوله تعالى (وأنه يحيي الموتى) اي قادر على ذلك والا لما احياء النطفة والارض الميتة ثالثها قوله تعالى (وانه على كل شئ) من الخلق وغيره (قدير) انما امره اذا اراد شيأ أن يقول له كن فيكون رابعها قوله تعالى (وان الساعة) التي تقدم ذكرها وتقدم التحذير منها وهي حشر الخلائق كلهم (آتية لا ريب) اي لا شك (فيها) اي بوجه من الوجوه عما دل عليها الاسبيل الى انكاره بقول من لا مرد لقوله وهو حكيم لا يخلف ميعاده ولا يسوغ بوجه أن يترك عباده بغير حساب خامسها قوله تعالى (وأن الله يبعث) بالاحياء (من في القبور) بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخلف وقد وعد الساعة والبعث فلا بد ان يفي بما وعده ونزل في ابي جهل بن هشام كما قاله ابن عباس (ومن الناس من يجادل) اي بغاية جهده (في الله) اي في قدرته وما يجمعه هذا الاسم الشريف من صفاته بعد هذا البيان الذي لا مثل له ولا خفاء فيه (بغير علم) أتاه عن الله تعالى على لسان أحد من اصفيائه أعم من ان يكون كتابا أو غيره (ولا هدى) ارشده اليه أعم من كونه بضرورة أو استدلال (ولا كتاب منير) له نور منه صح لديه انه من الله تعالى ومن المعلوم انه بانتفاء هذه الثلاثة لا يكون جداله الا بالباطل وقيل قوله تعالى ومن الناس كرر كما كررت سائر الاقاصيص وقيل الاول في المقلدين وهذا في المقلدين وقوله تعالى (ثاني عطفه) حال اي لاوي عنقه تكبرا عن الايمان كما قال تعالى واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا والعطف في الاصل الجانب عن يمين او شمال وقوله تعالى (ليضل عن سبيل الله) علة للجدال وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بضمها (فان قيل) على قراءة الضم ما كان غرضه في جداله الضلال لغيره عن سبيل الله فكيف علل به وما كان على قراءة الفتح مهتديا حتى اذا جادل خرج بالجدال عن الهدى الى الضلال (أجيب) عن الاول بان جداله لما أدى الى الضلال جعل كأنه غرضه وعن الثاني بان الهدى لما كان معرضا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال الباطل جعل كالخارج من الهدى

في الجلالين السابقة وباذ كر بعد حال عن ذلك فناسبه

الى الضلال ه ولما ذكر فعله وثمرته ذكر ما أعد له عليه فى الدنيا بقوله تعالى (له فى الدنيا خزى)
اى اهانة وذل وان طال زمن استدراجه بتنعيمه حق على الله ان لا يرفع شيأ من الدنيا الا
وضعه وما أعد له عليه فى الآخرة بقوله تعالى (ونذيقه يوم القيامة) الذى يجمع فيه الخلائق
بالاحياء بعد الموت (عذاب الحريق) اى الاحراق بالنار وعن الحسن قال بلغنى ان احدهم
يحرق فى اليوم سبعين ألف مرة و يقال له حقيقة او مجازا (ذلك) اى العذاب العظيم (بما
قدمت يداك) اى بعملك ولكن جرت عادة العرب ان تضيف الاعمال الى اليد لان بها أكثر
العمل واضافة ما يؤدى اليه الى الكل (وأن) اى و بسبب أن (الله ليس بظلام) اى بذى ظلم ما
(للعبيد) وانما هو مجازيهم على أعمالهم او ان المبالغة لكثرة العبيد ه ونزل فى قوم من
الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا قدم المدينة فصح
بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا او ولدت امرأته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت
به خيرا واطمأن به وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت الاشرا فينقلب عن دينه (ومن
الناس من يعبد الله) اى يعمل على سبيل الاستمرار والتجدد بما أمر الله به من طاعته (على
حرف) فهو من زلزلة كزلزلة من يكون على حرف شفير او جبل اوغيره لا استقرار له و كالذى
على طرف من العسكر فان رأى غنيمة استقر وان توهم خوفا طار وفر وذلك معنى قوله تعالى
(فان أصابه خير) اى من الدنيا (اطمأن به) اى بسببه وثبت على ما هو عليه (وان أصابته
فتنة) اى محنة وسقم فى نفسه وماله (انقلب على وجهه) اى رجع الى الكفر وعن أبى سعيد
الخدرى ان رجلا من اليهود أسلم فاصابته مصائب فتشاءم بالاسلام فاتى النبى صلى الله عليه
وسلم فقال أقلنى فقال ان الاسلام لا يقال فنزلت ه ولما كان انقلابه هذا مفسدا لدنياه
ولآخرته قال تعالى (خسر الدنيا) بفوات ما أمله منها او يكون ذلك سبب التقتير عليه قال
تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت
أرجلهم وروى ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه (والآخرة) بالكفر ثم عظم مصيبته
بقوله تعالى (ذلك) اى الامر العظيم (هو) اى لا غيره (الخسران المبين) اى البين اذ لا خسران
مثله ثم بين هذا الخسران الذى رده اليه ما كان فيه قبل الايمان الحرفى بقوله تعالى (يدعوا) اى
يعبد حقيقة أو مجازا (من دون الله) اى غيره من الصنم (ما لا يضره) ان لم يعبده (وما لا ينفعه)
ان عبده (ذلك) اى الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الحق والرشاد استعير الضلال البعيد
من ضلال من أبعد فى التيه ضالا فطالت و بعدت مسافة ضلاله ه ولما كان الاحسان جالبا
للانسان لان الله جبلت على حب من أحسن اليها بين ان ما قيل فى جلب النفع انما هو
على سبيل الفرض فقال تعالى (يدعو لمن) اى من (ضره) بكونه معبودا لانه يوجب القتل
والخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (أقرب من نفعه) الذى يتوقع منه بعبادته وهو
الشفاعة والتوسل بها الى الله تعالى ه (تنبيه) ه علم مما تقرر ان اللام فى لمن مزيدة كما قال
الجلال المحلى (فان قيل) الضر والنفع منفيان عن الاصنام مثبتان لها فى الآيتين وهذا
متناقض (اجيب) بان المعنى اذا حصل ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى سفه الكافر بانه
يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله انه ينتفع به حين يستشفع

الاستئناف والحذف
(قوله مثل نون كشكاة)

به ثم يوم القيامة يقوم هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالاصنام ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التى ادعاها لها وقيل الآية الاولى فى الاصنام والثانية فى الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون اليهم بدليل قوله تعالى (لبئس المولى) اى الناصر هو (ولبئس العشير) اى الصاحب هو قال الرازى وهذا الوصف بالرؤساء أليق لان ذلك لا يكاد يستعمل فى الاوثان فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء ٭ ولما بين سبحانه وتعالى حال الكفار عقبه بحال المؤمنين بقوله تعالى (ان الله) اى الجامع لجميع صفات الكمال المنزه عن جميع شوائب النقص (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم فى الايمان (جنات تجرى من تحتها) اى فى اى مكان من أرضها (الانهار) ٭ ولما بين سبحانه وتعالى حال الفريقين قال تعالى (ان الله) اى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يفعل ما يريد) من اكرام من يطيعه واهانة من يعصيه لا دافع له ولا مانع وقوله تعالى (من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) فيه اختصار والمعنى ان الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه فالضمير راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) لم يجر له ذكر فى هذه الآية (أجيب) بان فيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان فى قوله تعالى ان الله يدخل الذين آمنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله وقيل الضمير راجع الى من فى أول الآية لانه المذكور ومن حق الكناية ان ترجع الى المذكور اذا أمكن ذلك وعلى هذا المراد بالنصر الرزق قال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بنى بكر فقال من ينصرنى نصره الله اى من يعطنى أعطاه الله فكأنه قال من كان يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة (فليمدد بسبب) اى بحبل (الى السماء) اى سقف بيته يشده فيه وفى عنقه (ثم ليقطع) اى ليختنق به بأن يقطع نفسه من الارض كما فى الصحاح وقيل فليمدد حبلا الى سماء الدنيا ثم ليصعد عليه فيجتهد فى دفع نصر النبى صلى الله عليه وسلم على الاول او يحصل رزقه على الثانى وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام والباقون بسكونها (فلينظر) ببصره وبصيرته (هل يذهبن) وان اجتهد (كيده) فى عدم نصرة النبى صلى الله عليه وسلم او فى تحصيل رزقه (ما يغيظ) من ذلك والمعنى فليختنق غيظا فلا بد من نصره صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته او ان ذلك لا يغلب القسمة فان الارزاق بيد الله لا تنال الا بمشيئة الله سبحانه وتعالى وهذا كما قال لمن أدبر عنه أمر فجزع اضرب برأسك الجدار ان لم ترض هذا مت غيظا ونحو ذلك والحاصل انه ان لم يصبر طوعا صبر كرها واختلف فى سبب نزول هذه الآية على القول الاول فذكروا فيها وجوها أحدها كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على الكفار يستبطئون ما وعد الله ورسوله من النصر فنزلت ثانيها قال مقاتل نزلت فى نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف ان الله لا ينصر محمدا فينقطع الذى بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ثالثها ان حساده واعداءه كثيرة وكانوا يتوقعون ان لا ينصر وان لا يعينه على اعدائه فى شاهدوا ان الله نصره غاظهم ذلك (وكذلك) اى ومثل ما أنزلنا هذه الآيات لبيان حكمها واظهار أسرارها (أنزلناه) اى

اى مثل صفة نوره تعالى كصفة نور مشكاة فيها

القرآن الباقي وقوله تعالى (آيات بينات) اي معجز انظمها كما كان معجزا حكمها احال وقوله تعالى (وان الله) اي الموصوف بالاكرام كما هو موصوف بالانتقام (يهدي) اي بآياته (من يريد) اي هدايته اي يثبته على الهدى معطوف على محل أنزلناه ولما قال تعالى وان الله يهدي من يريد أتبعه ببيان من يهديه ومن لا يهديه وبدأ بالقسم الاول بقوله (ان الذين آمنوا) بالله ورسوله وعبر بالفعل ليشمل الاقرار باللسان الذي هو أدنى وجوه الايمان ثم شرع في القسم الثاني بقوله تعالى (والذين هادوا) اي انتحلوا دين اليهودية (والصابئين) وهم فرقة من النصارى سميت بذلك قيل لنسبتها الى صابئ عم نوح عليه السلام وقيل لخروجهم عن دين الى دين آخر واطلاق الصابئة على هذا هو المشهور وتارة يوافقونهم في أصول دينهم فتحل مناكحتهم وتارة يخالفونهم فلا تحل مناكحتهم وتطلق ايضا على قوم أقدم من النصارى يعبدون الكواكب السبعة ويضيفون الآثار اليها وينفون الصانع المختار فهؤلاء لا تحل مناكحتهم وقد أفتى الاصطخري والمحاملي بقتلهم لما استفتى القاهر الفقهاء فيهم فبذلوا له أموالا كثيرة فتركهم والبلاء قديم وقرأ نافع بالياء التحتية بعد الباء والباقون بهمزة مكسورة بعد الباء الموحدة (والنصارى) اي الذين انتحلوا دين النصرانية (والمجوس) قال قتادة هم عبدة الشمس والقمر والنيران قال (والذين أشركوا) هم عبدة الاوثان قال مقاتل الاديان كلها ستة واحد للرحمن وهو الاسلام وخمسة للشيطان وقيل خمسة أربعة للشيطان وواحد للرحمن بجعل الصابئين مع النصارى لانهم فرع منهم كما مر على المشهور وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة البقرة (ان الله) الذي هو أحكم الحاكمين (يفصل بينهم يوم القيامة) بادخال المؤمنين الجنة وغيرهم النار وأدخلت ان على كل واحد من جزأي الجملة لزيادة التأكيد ونحوه قول جرير

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتيم

ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الله) اي الجامع لجميع صفات الكمال (على كل شيء) من الاشياء كلها (شهيد) اي عالم به علم مشاهدة (ألم تر) اي تعلم (أن الله يسجد له) اي يخضع منقادا لامره سبحانه مسخرا لما يريد منه تسخير من هو في غاية الاجتهاد في العبادة والاخلاص فيها (من في السموات ومن في الارض) ان خصصت بذلك العاقل لانهم خضوع غيره من باب اولى وان ادخلت غير العاقل فبالتغليب ثم اتبعه بأشرف ما ذكر مما لا يعقل لان كلا منها عبد من دون الله او عبد شيء منه فقال تعالى (والشمس والقمر والنجوم) من الاجرام العلوية فعبد الشمس حمير والقمر كنانة والدبران تميم والشعرى لخم والثريا طيئ وعطارد اسد قاله ابو حيان روي عن عمرو بن دينار قال سمعت رجلا يطوف بالبيت ويبكي فاذا هو طاوس فقال اعجبت من بكائي قلت نعم قال ورب الكعبة ان هذا القمر ليبكي من خشية الله ولا ذنب له * ثم اتبع ذلك أعلى الذوات السفلية فقال (والجبال) اي التي قد نحتت منها الاصنام (والشجر) اي التي عبد بعضها (والدواب) اي التي عبد منها البقر كل هذه الاشياء تنقاد لامر الله ولا تأبى عن تدبيره (وكثير من الناس) وهم المؤمنون بزيادة الخضوع سجودا هو منه عبادة مشروعة تحقق له

مصباح المصباح في زجاجة
هي القنديل والمصباح

الثواب (وكثير) اى من الناس (حق عليه العذاب) وهم الكافرون لانهم أبوا السجود المتوقف على الايمان (ومن يهن الله) اى يشقه (فماله من مكرم) اى مسعد لانه لاقدرة لغيره أصلا (ان الله) اى الملك الاعظم (يفعل مايشاء) من الاكرام والاهانة لامانع له من ذلك نقل عن على رضى الله تعالى عنه انه قيل له ان رجلا يتكلم فى المشيئة فقال له على يا عبد الله خلقك الله لمايشاء أو لماشئت قال بل لمايشاء قال فيمرضك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيشفيك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه عيناك بالسيف * ولما بين تعالى أن الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر كيفية اختصامهم بقوله تعالى (هذان خصمان) اى المؤمنون خصم والكفار الخمسة خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف (اختصموا) اى اوقعوا الخصومة بغاية الجهد (فى ربهم) اى دينه وروى عن قيس بن عباد قال سمعت اباذر يقسم قسما ان هذه الآية هذان خصمان اختصموا فى ربهم نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه فى الصحيحين وعن ابن عباس قال لما بارز على وحمزة وعبيدة عتبة وشيبة والوليد قالوا لهم تكلموا نعرفكم قال أنا على وهذا حمزة وهذا عبيدة فقالوا أكفاء كرام فقال على أدعوكم الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عتبة هلم للمبارزة فبارز على شيبة فلم يلبث أن قتله وبارز حمزة عتبة فقتله وبارز عبيدة الوليد فصعق عليه فأتى على فقتله فنزلت وعن قتادة نزلت الآية فى المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم قال المسلمون كتابنا يقضى على الكتب كلها ونبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء فنحن أولى بالله منكم وعن ابن عباس أنها نزلت كذلك لكن قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله منكم آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وانكم تعرفون نبينا وكتابنا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم فى ربهم وقيل المؤمنون والكافرون من أى ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار لماروى عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فمالى لايدخلنى الا ضعفاء الناس وسقطهم فقال الله عز وجل للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار انما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ولكل واحدة منكما ملؤها وعن عكرمة فقالت النار خلقنى الله لعقوبته وقالت الجنة خلقنى الله لرحمته وهذا القول بعيد عن السياق لان الله تعالى ذكر جزاء الخصمين بقوله تعالى (فالذين كفروا) وهو الفصل بينهم المعنى بقوله تعالى ان الله يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت) اى قدرت (لهم) على مقادير جثثهم (ثياب من نار) اى نيران تحيط بهم احاطة الثياب سابغة عليهم كما كانوا يسبلون الثياب فى الدنيا تفاخرا وتكبرا وعن ابراهيم التيمى انه قال سبحان من قطع من النار ثيابا وعن سعيد بن جبير قال قطعت من

ا لفتيلة الموقوفة والمشكاة الانبوبة فى

نحاس ولتس من الآنية شىء اذا حمى أشد حرارة منه وقال فى قوله (يصب) اى اذا ادخلوها
(من فوق رؤسهم الحميم) قال ابن النحاس يذاب على رؤسهم ولكن المشهور انه الماء الحار وعن
ابن عباس * لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها والجملة حال من الضمير فى لهم أو خبر
ثان وقرأ أبو عمرو وفى الوصل بكسر الهاء والميم وقرأ حمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون
بكسر الهاء وضم الميم هذا فى الوصل فان وقف على رؤسهم فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم
وحمزة على أصله فى الوقف على رؤسهم بتسهيل الهمزة (يصهر) اى يذاب (به) من شدة حرارته
(ما فى بطونهم) من شحم وغيره (والجلود) فيكون أثره فى الباطن والظاهر سواء وقال ابن عباس
يسقون ماء اذا دخل بطونهم أذابها والجلود مع البطون (ولهم مقامع) جمع مقمعة بكسر
ثم فتح وهو عمود حديد وقيل سوط يضرب به الوجه والرأس ليرد المضروب عن مراده ردا
عنيفا ثم نفى المجاز بقوله تعالى (من حديد) اى يقمعون بها روى أبو سعيد الخدرى عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن مقمعا من حديد وضع فى الارض فاجتمع الثقلان ما أقلوه
من الارض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان (كلما أرادوا أن يخرجوا
منها) اى من تلك الثياب أو من النار (من غم) اى كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم
من الغم والكرب الذى يأخذ بأنفسهم (أعيدوا فيها) اى ردوا اليها بالمقامع وعن الحسن انهم
يضربون بلهب النار فترفعهم حتى اذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين
خريفا وعن الفضيل بن عياض قال والله ما طمعوا فى الخروج لان الارجل مقيدة والايدى
موثقة ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها وعن الحسن قال كان عمر يقول أكثروا ذكر النار
فان حرها شديد وقعرها بعيد وان مقامعها من حديد (و) قيل لهم (ذوقوا عذاب الحريق)
اى البالغ نهاية الاحراق * ولما ذكر تعالى ما لأحد الخصمين وهم الكافرون أتبعه ما للآخر
وهم المؤمنون وغير الاسلوب فيه حيث لم يقل والذين آمنوا عطفا على الذين كفروا وأسند
الادخال فيه الى الله تعالى وأكده بان احمادا لحال المؤمنين وتعظيما لشأنهم فقال (ان الله) اى
الذى له الامر كله (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من
الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم فى الايمان (جنات تجرى) اى دائما (من تحتها
الانهار) اى المياه الواسعة أينما أردت من أرضها اجرى لك نهر فى مقابلة ما يجرى من فوق رؤس
أهل النار عن معاوية عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة بحر الماء وبحر العسل
وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الانهار بعد أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح (يحلون فيها)
من حليت المرأة اذا لبست الحلى فى مقابلة ما بزّ الحسن بواطن الكفرة وظواهرهم وقوله تعالى
(من أساور) صفة مفعول محذوف اى حليا من أساور ومن زائدة أو تبعيضية وأساور جمع
أسورة وهى جمع سوار * ولما كان المقصود الحث على التقوى المطلية الى الانعام بالفضل شوّق
اليه بأعلى ما يعرف من الحلية فقال (من ذهب) وقوله تعالى (ولؤلؤ) معطوف على أساور لا على
ذهب لانه لم يعهد السوار منه الا أن يراد المرصعة وعن أبى موسى الاشعرى أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما

* قوله وعن ابن عباس فى بعض النسخ وعن أبى سعيد فليحرر اهـ مصححه

التبديل قيام المعنى

وسا

وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الارداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن وعن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان ادنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقرأ نافع وعاصم بنصب الهمزة الثانية مع التنوين عطفا على محل أساور أو باضمار الناصب مثل ويؤتون والباقون بالخفض مع التنوين وابدل الهمزة الاولى الساكنة حرف مد السوسي وأبو بكر هذا حالة الوصل وأما الوقف لحمزة فيبدل الاولى واوا وكذا الثانية تبدل واوا وله أيضا فيها الروم وقوله تعالى (ولباسهم فيها حرير) وهو الابريسم المحرم لبسه على الرجال المكلفين في الدنيا في مقابلة ثياب الكفار كما كان لباس الكفار في الدنيا حريرا ولباس المؤمنين دون ذلك وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله بن الزبير عن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تلبسوا الحرير فان من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة قال ابن كثير قال عبد الله بن الزبير ومن لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى ولباسهم فيها حرير انتهى وفي الصحيحين ايضا عن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة قال البقاعي فيوشك المتشبه بالكفار في لباسهم ان يلحقه الله بهم فلا يموت مسلما اه والاولى ان يحمل ذلك على أنه لا يلبسه مع السابقين فان من مات على الاسلام لا بد من دخوله الجنة او على من استحله من الرجال المكلفين (وهدوا) اى في الدنيا (الى الطيب من القول) قال ابن عباس هو شهادة ان لا اله الا الله وقيل هو لا اله الا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقال السدي هو القرآن وقال عطاء هو قول أهل الجنة الحمد لله الذي صدقنا وعده (وهدوا الى صراط الحميد) اى طريق الله المحمود دينه فكان فعلهم حسنا كما كان قولهم حسنا فدخلوا الجنة التي هي أشرف دار عند خير جار وحلوا فيها أشرف الحلي كما تحلوا في الدنيا باشرف الطرائق عكس الكفار فانهم آثروا الفاني لحضوره وأعرضوا عن الباقي مع شرفه لغيابه فدخلوا نارا كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ثم ذكر تعالى بعد ما فصل بين الفريقين حرمة البيت وعظم جرم من صد عنه فقال تعالى (ان الذين كفروا) اى أوقعوا هذا الفعل الخبيث وصح عطف (ويصدون) وان كان مضارعا على الماضي لان المضارع قد لا يلاحظ منه زمان معين من حال أو استقبال بل يكون المقصود منه الدلالة على مجرد الاستمرار كما يقال فلان يحسن الى الفقراء لا يراد حال والاستقبال وانما يراد استمرار وجود الاحسان منه فالصدود منهم مستمر دائم للناس (عن سبيل الله) اى عن طاعته باقسامهم طرف مكة يقول بعضهم ان بمحمد خرج فينا ساحر وآخر يقول شاعر وآخر يقول كاهن فلا تسمعوا منه فانه يريد ان يردكم عن دينكم حتى قال من أسلم لم يزالوا بي حتى جعلت في أذني الكرسف مخافة ان أسمع شيأ من كلامهم وكانوا يؤذون من أسلم الى غير ذلك من أعمالهم (و) يصدون عن (المسجد الحرام) أن تقام شعائره من الطواف بالبيت والصلاة والحج والاعتمار عمن هو أهل ذلك من أوليائه ثم وصفه بما يبين شديد ظلمهم في الصد عنه بقوله تعالى (الذي جعلناه) بما لنا من العظمة (للناس) اى كلهم ثم بين جعله لهم بقوله تعالى (سواء العاكف) اى المقيم (فيه والباد) اى الطارئ من البادية وهو الجائي اليه من غربة وقال بعضهم يدخل في العاكف الغريب اذا جاء للتعبد وان لم يكن

كذا في نور مصباح في مشكاة في زجاجة (فان قلت) لم مثل

من أهله قال الزمخشري وقد استشهد بهذا أصحاب أبي حنيفة قائلين ان المراد بالمسجد الحرام
مكة على امتناع جواز بيع دور مكة واجارتها انتهى وأيضا هو مذهب ابن عمر وعمر بن
عبد العزيز واسحق الحنظلي المعروف بابن راهويه قال البيضاوي وهو مع ضعفه معارض
بقوله تعالى الذين اخرجوا من ديارهم الآية وشرى عمر دار السجن فيها من غير نكير انتهى
ووجه الرازي الضعف بقوله لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام
او في الاكثر فلا يلزم ما ذكر ويحتمل ان يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من
الاوقات من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات انتهى
واستدل ايضا للجواز بقوله صلى الله عليه وسلم لما قال له أسامة بن زيد يارسول الله أتنزل غدا
بدارك بمكة فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع أودور وكان عقيل ورث أبا طالب دون علي
وجعفر لانهما كانا مسلمين ولا يورث الا ما كان للميت مالكا له قال الروياني ويكره بيعها
واجارتها للخروج من الخلاف ونازعه النووي في مجموعه وقال انه خلاف الاولى لانه لم يرد فيه
نهي مقصود والاول كما قال الزركشي هو المنصوص بل اعترض على النووي فانه صرح
بكراهة بيع المصحف والشطرنج ولم يرد في ذلك نهي مقصود •(تنبيه)• محل الخلاف بين
العلماء في بيع نفس الارض أما البناء فهو مملوك يجوز بيعه بلا خلاف اى اذا لم يكن من أجزاء
ارضها قيل ان اسحق الحنظلي ناظر الشافعي رضي الله تعالى عنه بمكة في بيع دور مكة فاستدل
الشافعي بما مر واستدل هو على المنع بقوله حدثني بعض التابعين بانها لا تباع فقال له الشافعي
لو قام غيرك مقامك لأمرت بفرك أذنيه اقول لك قال الله ورسوله تقول حدثني بعض التابعين
وقال الرازي فقال اسحق فلما علمت ان الحجة لزمتني تركت قولي وقرأ حفص سواء بالنصب على
انه ثاني مفعولي جعلناه اى جعلناه مستويا العاكف فيه والباد والباقون بالرفع على ان
الجملة مفعول ثان لجعلناه ويكون للناس حالا من الهاء ويصح ان يكون حالا من المستكن في
للناس بجعله مفعولا ثانيا لجعلنا وقرأ ورش وأبو عمرو البادي باثبات الياء بعد الدال وصلا
لا وقفا وأثبتها ابن كثير وقفا ووصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يرد فيه) اى المسجد
الحرام (بالحاد بظلم) اى بميل الى الظلم والالحاد العدول عن القصد وأصله الحاد الحافر وقيل
الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شئ منهي عنه من قول أو فعل حتى شتم
الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام أو ارتكاب شئ من محظورات الاحرام من قتل صيد
أو قطع شجر وقال ابن عباس هو ان تقتل فيه من لا يقتلك او تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد
هو تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال سعيد بن جبير احتكار الطعام بمكة بدليل
ماروى يعلى بن أمية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احتكار الطعام في الحرم الحاد
وعن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله بلى والله وعن عبد الله بن عمر انه كان له فسطاطان
احدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد ان يعاتب اهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال
كنا نحدث ان من الالحاد فيه أن يقول الرجل لا والله و بلى والله •(تنبيه)• قوله بالحاد بظلم
حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا
عن القصد ظالما (نذقه من عذاب اليم) اى مؤلم اى بعضه وخبر أن محذوف لدلالة جواب

الله نوره اى معرفته في
قلب المؤمن بنور المصباح

الشرط

الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم فكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك فينبغي لمن كان فيه ان يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده ولما ذكر تعالى الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت أتبعه التذكير به فقال تعالى (واذ) اى واذكر اذ (بوأنا لابراهيم مكان البيت) اى جعلنا له مكان البيت مبوأ اى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة فان البيت رفع الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فاعلم الله ابراهيم عليه السلام مكانه بريح ارسلها يقال لها الخجوج كنست ما حوله فبناه على اسه القديم وقيل بعث الله تعالى له سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا ابراهيم ابن على دورى فبنى عليه وعن عطاء بن أبي رباح قال لما اهبط الله آدم عليه السلام كان رجلاه في الارض ورأسه في السماء يسمع تسبيح أهل السماء ودعاءهم ويأنس اليهم فهابت الملائكة منه حتى شكت الى الله تعالى في دعائها وقيل في صلاتها فاخفضه الله تعالى الى الارض فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش

دون نور الشمس مع ان نورها أتم (قلت) لان

وقيل أول من بنى البيت ابراهيم لما روى وورد في الصحيحين عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله اى مسجد وضع أولا قال المسجد الحرام قلت ثم اى قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة ثم فسر التبوئة بقوله تعالى (ان لا تشرك بي شيأ) فابتدأ بأساس العبادة ورأسها وعطف على النهي قوله تعالى (وطهر بيتي) اى عن كل ما لا يليق به من الاوثان والاقذار وطواف عريان به كما كانت العرب تفعل (للطائفين) اى الذين يطوفون بالبيت (فان قيل) كيف يكون النهي عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة (أجيب) بان التبوئة لما كانت مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل تعبدنا ابراهيم قلنا له لا تشرك بي شيأ وطهر بيتي للطائفين وقال ابن عباس للطائفين بالبيت من غير أهله (والقائمين) اى المقيمين (والركع السجود) اى المصلين من الكل وقال غيره القائمين هم المصلون لان المصلي لا بد أن يكون في صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود قال البيضاوي ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على ان كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت (وأذن في الناس) اى اعلمهم وناد فيهم (بالحج) وهو قصد البيت على سبيل التكرار للعبادة المخصوصة بالمشاعر المنصوصة وفي المأمور بذلك قولان أحدهما وعليه أكثر المفسرين أنه ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له أذن في الناس بالحج قال يا رب وما يبلغ صوتي قال عليك الاذان وعلى البلاغ فصعد ابراهيم الصفا وفي رواية أخرى أبا قبيس وفي أخرى على المقام قال ابراهيم كيف اقول قال جبريل قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى وفي رواية أخرى صعد على الصفا فقال يا أيها الناس ان الله كتب عليكم حج هذا البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والارض فما بقي شئ سمع صوته الا أقبل يلبي يقول لبيك اللهم لبيك وفي رواية أخرى ان الله يدعوكم الى حج بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من النار فاجابه يومئذ من كان في اصلاب الرجال وأرحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر أو شجر أو أكمة أو تراب قال مجاهد فما حج انسان ولا يحج احد حتى تقوم الساعة الا وقد اسمعه ذلك النداء فمن اجاب مرة حج مرة ومن اجاب مرتين او أكثر فيحج مرتين او أكثر بتلك المقدار وفي رواية فنادى على جبل أبي قبيس

يا أيها الناس ان ربكم بنى بيتا وأوجب الحج عليكم اليه فاجيبوا ربكم والتفت بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا فاجابه كل من كتب له ان يحج من أصلاب الرجال وارحام الامهات لبيك اللهم لبيك وعن ابن عباس قال لما امر الله ابراهيم بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى القول الثاني ان المأمور بذلك هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختاره أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بان ما جاء في القرآن وأمكن حمله على ان محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى لان قوله تعالى واذ بوأنا تقديره واذكر يا محمد اذ بوأنا فهو في حكم المذكور فاذا قال تعالى وأذن فاليه يرجع الخطاب امر أن يفعل ذلك في حجة الوداع روى عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا وجواب الامر (يأتوك) اى يأتوا بيتك الذى بنيته لذلك مجيبين لصوتك باذنك سامعين طائعين مخبتين خاشعين من أقطار الارض كما يجيبون صوت الداعى من قبلنا اذا دعاهم بعد الموت بمثل ذلك (رجالا) اى مشاة على ارجلهم جمع راجل كقائم وقيام (و) ركبانا (على كل ضامر) اى بعير مهزول وهو يطلق على الذكر والانثى * (تنبيه) * على كل ضامر حال معطوف على حال كأنه قال رجالا وركبانا وقوله تعالى (يأتين) صفة لكل ضامر لانه فى معنى الجمع (من كل فج) اى طريق واسع بين جبلين (عميق) اى بعيد روى سعيد بن جبير باسناده عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشى سبعمائة من حسنات الحرم قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال كل حسنة بمائة ألف حسنة وفي هذا دلالة على ان المشى افضل من الركوب وفى ذلك خلاف بين الائمة محله كتب الفقه * ولما كان الانسان ميالا الى الفوائد مشوقا الى جزيل العوائد علل الاتيان بما يرغبه فيهما من فضله مايقصده من امر المعاش بقوله تعالى (ليشهدوا) اى يحضروا حضورا تاما (منافع لهم) واختلف فى تلك المنافع فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهى ان يتجروا فى أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهى العفو والمغفرة وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو كما قال الرازى أولى فيأتون لتلك المنافع ينتقلون من مشعر من مشاعر الحج الى مشعر ومن مشهد الى مشهد مجموعين بالدعوة خاشعين بالهيبة خائفين من السطوة راجين للمغفرة ثم يتفرقون الى منازلهم ومواطنهم ويتوجهون الى مساكنهم كالسائرين الى مواقف الحشر يوم البعث والنشر المتفرقين الى دارى النعيم والجحيم فيا أيها المصدقون بان خليلنا ابراهيم عليه السلام نادى بالحج فاجابه بقدرتنا كرامة له من أراد الله تعالى حجه على بعد أقطارهم وتنائى دارهم ممن كان موجودا فى ذلك الزمان وممن كان فى ظهور الآباء والامهات الاقربين والابعدين صدقوا ان الداعى من قبلنا بالنفخ فى الصور يجيبه كل من كان على ظهرها ممن حفظنا له جسده أو سلطنا عليه الارض فمزقناه حتى صار ترابا وما بين ذلك لان الكل علينا يسير قال الزمخشرى وعن أبى حنيفة رحمه الله انه كان يفاضل بين العبادات كلها قبل ان يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهده من تلك الخصائص * ولما كانت المنافع لا تطيب ولا تثمر الا بالتقوى وكان الحامل على التقوى ذكر الله تعالى قال تعالى (ويذكروا اسم الله) اى الجامع لجميع الكمالات بالتكبير وغيره عند الذبح وغيره وقيل كنى بالذكر عن الذبح لان

القصد وتمثيل النور فى القلب والقلب فى الصدر

ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيها على ان المقصود مما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسمه
* واختلف فى الايام المعلومات فى قوله تعالى (فى أيام معلومات) فالذى عليه أكثر المفسرين وهو
اختيار الشافعى وأبى حنيفة انه عشر ذى الحجة واحتجوا بأنها معلومة عند الناس بحرصهم
على علمها من أجل ان وقت الحج فى آخرها ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة
والمشعر الحرام وكذلك الذبائح وقت منها وهو يوم النحر وعن ابن عباس أنها أيام التشريق
وقيل يوم عرفة الى آخر أيام التشريق وقيل يوم النحر الى آخر أيام التشريق واستدل لهذا
بقوله تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) وهى الابل والبقر والغنم من الهدايا والضحايا اى
يذكر واسم الله تعالى عند نحرها ونحر الضحايا والهدايا يكون فى هذه الايام وتقدم الكلام
على الايام المعدودات فى سورة البقرة عند قوله تعالى واذكروا الله فى أيام معدودات وقوله
تعالى (فكلوا منها) اى من لحومها أمر اباحة وذلك أن الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم
هداياهم شيأ فأمر الله تعالى بمخالفتهم واتفق العلماء على أن الهدى اذا كان تطوعا يجوز
للمهدى أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله فى قصة حجة الوداع
فأتى على بيدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى
الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر على ما غبر اى ما بقى وأشركه فى بدنه ثم أمر من كل بدنة
ببضعة اى بقطعة فجعلت فى قدر فطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها أخرجه مسلم
واختلفوا فى الهدى الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج
وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدى أن يأكل شيأ منه قال الشافعى رضى الله عنه
لا يأكل منه شيأ وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر رضى الله عنهما لا يأكل
من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال احمد واسحق وقال مالك يأكل من
هدى التمتع ومن كل هدى وجب عليه الا من فدية الاذى وجزاء الصيد والنذر وعن اصحاب
ابى حنيفة انه يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى
(واطعموا البائس) اى الذى اصابه بؤس اى شدة (الفقير) اى المحتاج امر ايجاب وقد
قيل به فى الاول (ثم ليقضوا تفثهم) اى يزيلوا أوساخهم وشعثهم كقص الشارب والاظفار
ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال (وليوفوا نذورهم) من الهدايا والضحايا (وليطوفوا)
طواف الافاضة الذى به تمام التحلل (بالبيت العتيق) اى القديم لانه أول بيت وضع للناس
وقال ابن عباس سمى عتيقا لان الله تعالى أعتقه من تسلط الجبابرة فكم من جبار سار اليه
ليهدمه فمنعه الله تعالى منه (فان قيل) قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع (أجيب) بانه ما قصد التسلط
على البيت وانما تحصن به ابن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه ابرهة فعل
به ما فعل وقيل لان الله تعالى اعتقه من الغرق فانه رفع فى أيام الطوفان وقال مجاهد لانه لم يملك
قط وقيل بيت كريم اى العتيق بمعنى الكريم من قولهم عتاق الخيل والطير والطواف ينقسم الى
ثلاثة هذا وهو يدخل وقته بعد الوقوف وهذا لا يجبر تركه بدم لانه ركن الثانى طواف الوداع ووقته
عند ارادة السفر من مكة وهو واجب يجبر تركه بدم الثالث طواف القدوم وهو مستحب للحاج
والحلال اذا قدم مكة روت عائشة رضى الله تعالى عنها ان أول شئ بدأ به حين قدم النبى صلى

والصدر فى البدن كالمصبا
والمصباح فى المشكاة والمش

الله عليه وسلم انه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج أبو بكر وعمر مثله وقرأ ابن ذكوان وليوفوا وليطوفوا بكسر اللام فيهما والباقون باسكانها وفتح أبو بكر الواو من وليوفوا وشدد الفاء وقوله تعالى (ذلك) خبر مبتدأ مقدر اى الامر أو الشأن ذلك المذكور كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم اذا أراد الخوض في معنى آخر قال هذا وقد كان كذا (ومن يعظم) اى بغاية جهده (حرمات الله) ذي الجلال والاكرام كلها وهي ما لا يحل انتهاكه من مناسك الحج وغيرها وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها اقامتها واتمامها وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل (فهو) اى التعظيم الحامل له على امتثال الامر فيها على وجهه واجتناب المنهي عنه كالذبح بذكر اسم غير الله والطواف عريانا (خير) كائن (له عند ربه) اى الذي أسدى اليه كل ما هو فيه من النعم في الآخرة ومن انتهكها فهو شر عليه عند ربه ثم انه تعالى بين احكام الحج بقوله تعالى (وأحلت لكم الانعام) اى أكلها بعد الذبح وهي الابل والبقر والغنم (الا ما يتلى) اى على سبيل التجدد مستمرا (عليكم) تحريمه في قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الآية فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا والتحريم لما عرض من الموت ونحوه فحافظوا على حدوده واياكم ان تحرموا مما احل شيأ كتحريم عبدة الاوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك وان تحلوا مما حرم الله شيأ كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك ولما فهم من ذلك حل السوائب ونحوها وتحريم المذبوح للانصاب وكان سبب ذلك كله الاوثان تسبب عنه قوله تعالى (فاجتنبوا) اى بغاية الجهد اقتداء بأبيكم ابراهيم عليه السلام الذي تقدم الايصاء له بمثل ذلك عند جعل البيت له مباءة (الرجس) اى القذر الذي من حقه ان يجتنب من غير أمر ثم بينه وميزه بقوله تعالى (من الاوثان) اى الذي هو الاوثان كما تجتنب الانجاس فهو بيان للرجس وتمييز له كقولك عندي عشرون من الدراهم وسمى الاوثان رجسا وكذا الخمر والميسر والازلام على طريق التشبيه يعني انكم كما تنفرون بطباعكم من الرجس وتجتنبونه فعليكم ان تنفروا عن هذه الاشياء مثل تلك النفرة ونبه على هذا المعنى بقوله تعالى رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه جعل العلة في اجتنابه انه رجس والرجس مجتنب وقوله تعالى (واجتنبوا قول الزور) تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان رأس الزور لان المشرك زاعم ان الوثن تحق له العبادة كأنه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا منه شيأ لتماديه في القبح والسماجة وما ظنك بشئ من قبيله عبادة الاوثان والزور من الزور والازورار وهو الانحراف كما ان الافك من أفكه اذا صرفه فان الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل قول الزور قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم وقيل هو قول المشركين في تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وقيل هو شهادة الزور لما روى أبو داود والترمذي انه صلى الله عليه وسلم صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه الكريم وقال عدلت شهادة الزور والاشراك بالله قالها ثلاثا ثم تلا هذه الآية وقوله تعالى (حنفاء لله) اى مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه (غير مشركين به) تأكيد لما قبله وهما حالان من الواو (ومن يشرك) اى يوقع شيأ من الشرك (بالله) الذي له العظمة كلها بشئ

في الزجاجة والزجاجة هي القنديل وهذا التمثيل

من

من الاشياء في وقت من الاوقات (فكأنما خر) اى سقط (من السماء) اعلاه ما كان فيه من
أوج التوحيد وسفول ما انحط اليه من حضيض الاشراك (فتخطفه الطير) اى تأخذه بسرعة
وهو نازل في الهواء قبل ان يصل الى الارض (أو تهوى به الريح) اى حيث لم يجد في الهواء
ما يمسكه (في مكان) من الارض (سحيق) بعيد فهو لا يرجى خلاصه * (تنبيه) * قال الزمخشري
يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فان كان تشبيها مركبا فكأنه قال من أشرك
بالله تعالى فقد اهلك نفسه هلاكا ليس بعده هلاك بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء
فاختطفته الطير فتفرق مزعا في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح
البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان في علوه بالسماء والذي ترك الايمان وأشرك بالله
بالساقط من السماء والاهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطوح به
في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة اه قوله يطوح به
الباء مزيدة للتأكيد قال الجوهري طوحه اى توهه وذهب به ههنا وههنا وقرأ نافع بفتح
الخاء وتشديد الطاء والباقون باسكان الخاء وتخفيف الطاء ثم عظم ما تقدم من التوحيد وما
هو مسبب عنه بالاشارة بأداة البعد فقال تعالى (ذلك) اى الامر العظيم الكبير من راعاه فاز
ومن حاد عنه خاب ثم عطف عليه ما هو أعم من هذا القدر فقال تعالى (ومن يعظم شعائر الله)
جمع شعيرة وهي البدن التي تهدى للحرم لانها من معالم الحج بان يختار عظام الاجرام حسانا
سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس
فيهن الهدي والاضحية والرقبة وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما انه اهدى نجيبة
طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنا
فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابي
جهل في أنفه برة من ذهب وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها
وجلالها ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها واهدائها الى بيته المعظم أمر عظيم لابد أن يقام
به ويسارع فيه (فانها) اى تعظيمها ناشئ (من تقوى القلوب) فمن للابتداء فان جعلت
تبعيضية فلابد من حذف تقديره فان تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه
المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديره لانه لابد من راجع من الجزاء الى من ليرتبط به وانما
ذكرت القلوب لانها مراكز التقوى التي اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الاعضاء
وسميت تلك البدن شعائر لاشعارها بما يعرف به أنها هدي كطعن حديدة بسنامها قال البقاعي
ولعله ماخوذ من الشعر لانها اذا جرحت قطع شئ من شعرها او أزيل عن محل الجرح فيكون
من الازالة (لكم فيها) اى البدن (منافع) كركوبها والحمل عليها بما لا يضرها وعن ابراهيم من
احتاج الى ظهرها ركب ومن احتاج الى لبنها شرب وقال أصحاب الرأي لا يركبها الا اذا اضطر
اليها (الى أجل مسمى) وهو وقت نحرها (ثم محلها) اى مكان حل نحرها (الى البيت العتيق) اى
عنده والمراد الحرم جميعه وقيل المراد بالشعائر المناسك ومشاهد الحج وبالمنافع الاجر والثواب
في قضاء المناسك الى انقضاء آجالها وبمحلها محل الناس من احرامهم الى البيت يطوفون به
طواف الزيارة (ولكل أمة) اى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم (جعلنا منسكا) اى متعبدا

لا يستقيم الا فيما ذكرناه
لان نور المعرفة آلات

وقربانا يتقربون به الى الله تعالى وقرأ حمزة والكسائي منسكا هنا وفي اخر السورة بكسر السين في الموضعين فيكون بمعنى الموضع والباقون بفتحها مصدر بمعنى النسك (ليذكروا اسم الله) اي الملك الاعلى وحده على ذبائحهم وقرابينهم لانه الرازق لهم وحده فيقولون عند النحر الله أكبر لا اله الا الله والله أكبر اللهم منك واليك ثم علل الذكر بالنعمة تنبيها على التفكر فيها فقال تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) فوجب شكره لذلك عليهم وفيه تنبيه على ان القربان يجب ان يكون من الانعام (فالهكم) اي الذي شرع هذه المناسك كلها (اله واحد) وان اختلفت فروع شرائعه ونسخ بعضها بعضا واذا كان واحدا وجب اختصاصه بالعبادة فلذا قال تعالى (فله) وحده (اسلموا) اي انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم في كل ما أمر به أونهى عنه (وبشر المخبتين) اي المطيعين المتواضعين من الخبت وهو المطمئن من الارض وقيل هم الذين لايظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا ثم بين علاماتهم بقوله تعالى (الذين اذا ذكر الله) اي الذي له الجلال والجمال (وجلت) اي خافت خوفا مزعجا (قلوبهم) فيظهر عليهم الخشوع والتواضع لله تعالى (والصابرين) الذين صار الصبر عادتهم (على ما أصابهم) من الكلف والمصائب ولما كان ذلك قد يشغل عن الصلاة قال تعالى (والمقيمي الصلوة) في أوقاتها والمحافظة عليها وان حصل لهم من المشاق بأفعال الحج وغيره ما عسى ان يحصل ولذلك عبر بالوصف دون الفعل اشارة الى انه لايقيمها على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل الا الراسخ في حبها فهم لما تمكن حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها كأنهم دائما في صلاة (ومما رزقناهم ينفقون) في وجوه الخير من الهدايا التي يغالون في أثمانها وغير ذلك احسانا الى خلق الله تعالى ولما قدم تعالى الحث على التقرب بالانعام كلها وكانت الابل أعظمها خلقا واجلها في انفسهم أمرا خصها بالذكر فقال تعالى (والبدن) اي الابل المعروفة جمع بدنة كخشب وخشبة وانتصابه بفعل يفسره (جعلناها لكم من شعائر الله) اي من اعلام دينه التي شرعها الله تعالى وقيل لانها تشعر وهي ان تطعن بحديدة في سنامها ليعلم بذلك انها هدي (لكم فيها خير) اي نفع في الدنيا وثواب في العقبى كما قال ابن عباس دنيا وأخرى وروى الترمذي وحسنه عن عائشة رضي الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما عمل ابن آدم يوم النحر عملا احب الى الله من اراقة الدم وانه ليؤتى يوم القيامة بقرونها واظلافها واشعارها وان الدم ليقع من الله بمكان قبل ان يقع الى الارض فطيبوا بها نفسا وروى الدارقطني في السنن عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد وعن بعض السلف أنه لم يملك الا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له في ذلك فقال سمعت ربي يقول لكم فيها خير (فاذكروا اسم الله عليها) اي على ذبحها بالتكبير حال كونها (صواف) اي قائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث (فاذا وجبت جنوبها) اي سقطت على الارض بزوال أرواحها فلا حركة لها أصلا من وجب الحائط وجبة سقط ووجبت الشمس وجبة غربت قال ابن كثير وقد جاء في حديث مرفوع ولا تعجلوا النفوس أن تزهق وقوله تعالى (فكلوا منها) اي اذا كانت تطوعا أمر اباحة دفعا لما

يتوقف هو على اجتماعها كالذهن

قد يظن أنه يحرم الا كل منها للامر بتقريبها لله تعالى (واطعموا القانع) اى المتعرض للسؤال بخشوع وانكسار (والمعتر) اى السائل وقيل بالعكس وهو قول الشافعى رحمه الله تعالى قال فى كتاب اختلاف الحديث القانع هو السائل والمعتر هو الزائر وقيل القانع هو الجالس فى بيته المتعفف الذى يقنع بما يعطى ولا يسأل ولا يتعرض والمعتر المتعرض وقيل القانع هو المسكين والمعتر الذى ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة فيجىء الى القوم فيتعرض لهم لاجل لحمهم (كذلك) أى مثل هذا التسخير العظيم الذى وصفناه من نحرها قياما (سخرناها) بعظمتنا التى لولاها ما كان ذلك (لكم) وذللناها ليلا ونهارا مع عظمها وقوتها تاخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها ولو شئنا لجعلناها وحشية لم تطق ولم تكن باعجز من بعض الوحش التى هى أصغر منها جرما وأقل قوة (لعلكم تشكرون) انعامنا عليكم لتعرفوا أن ما ذللها لكم الا الله تعالى فيكون حالكم حال من يرجو شكره فتوقعوا الشكر بان لا تحرموا منها الا ما حرم عليكم ولا تحلوا منها الا ما أحل وتهدوا منها ما حث على اهدائه وتتصرفوا بحسب ما أمركم ولما حث تعالى على التقرب بها مذكورا اسمه عليها قال تعالى (لن ينال الله) الذى له صفات الكمال (لحومها) المأكولة (ولا دماؤها) المهراقة أى لا يرفعان اليه (ولكن يناله التقوى منكم) أى يرفع اليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الايمان كما قال تعالى والعمل الصالح يرفعه أى يقبله وقيل كان أهل الجاهلية اذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت * ثم كرر سبحانه وتعالى التنبيه على عظيم تسخيرها منبها على ما أوجب عليهم به بقوله تعالى (كذلك) أى التسخير العظيم (سخرها لكم) بعظمته وغناه عنكم (لتكبروا الله على ما هداكم) أى أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه كأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا فاختصر الكلام بان ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعديته * ثم وعد من امتثل الامر بقوله تعالى (وبشر المحسنين) أى المخلصين فيما يفعلونه ويذرونه كما قال تعالى من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذى يفعل الحسن من الاعمال ويتمسك به فيصير محسنا الى نفسه بتوفير الثواب عليه وقال ابن عباس الموحدين وقوله تعالى (ان الله) أى الذى لا كفء له (يدفع عن الذين آمنوا) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الدال وفتح الفاء والباقون بضم الياء وفتح الدال وبعدها ألف وكسر الفاء أى يبالغ فى الدفع مبالغة من يغالب فيه ولم يذكر الله تعالى ما يدفعه عنهم حتى يكون أعظم وأفخم وأعم وان كان فى الحقيقة أنه يدفع باس المشركين فلذلك قال تعالى بعده (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (لا يحب) أى لا يكرم كما يفعل المحب (كل خوان) فى أمانته (كفور) لنعمته وهم المشركون قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذه صفته وقال مقاتل يدفع عن الذين آمنوا بمكة حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى قتلهم سرا فنهاهم عن ذلك ثم أذن الله تعالى لهم فى قتالهم بقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) أى المشركين والمأذون لهم فيه وهو القتال محذوف لدلالة يقاتلون عليه (بانهم) أى بسبب أنهم (ظلموا) فكانوا يأتونه صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول

والفهم والعقل واليقظة وغيرها من الصفات

لهم اصبروا فانى لم أومر بالقتال حتى هاجر فانزلت وهى أول آية نزلت فى القتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية وقيل نزلت فى قوم باعيانهم مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فاذن الله لهم فى قتال الكفار الذين منعوهم من الهجرة بانهم ظلموا واعتدوا عليهم بالايذاء وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم بضم الهمزة والباقون بفتحها * ولما كان التقدير فان الله أراد اظهار دينه بهم عطف عليه قوله تعالى (وان الله) أى الذى هو الملك الاعلى (على نصرهم لقدير) وفى ذلك وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) الى الشعب والحبشة والمدينة (بغير حق) أوجب ذلك ما أخرجوا (الا أن يقولوا) أى بقولهم (ربنا الله) وهذا القول حق والاخراج به اخراج بغير حق ونظير ذلك قوله تعالى هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله * (تنبيه) * الذين أخرجوا مجرور نعت للذين يقاتلون أو بدل منه أو منصوب على المدح أو مرفوع خبر مبتدا محذوف (ولولا دفع الله) أى المحيط بكل شئ علما (الناس بعضهم ببعض) أى بتسليط المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمانهم وعلى متعبداتهم كما قال تعالى (لهدمت) أى خربت (صوامع) وهى معابد صغار للرهبان مرتفعة (وبيع) كنائس للنصارى (وصلوات) أى كنائس لليهود وسميت بها لانها يصلى فيها وقيل هى كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوتا (ومساجد) للمسلمين (يذكر فيها) أى هذه المواضع المذكورة (اسم الله) العلى العظيم (كثيرا) وتنقطع العبادات بخرابها وقيل الضمير يرجع للمساجد فقط تشريفا لها بان ذكر الله يحصل فيها كثيرا (فان قيل) لم قدم الصوامع والبيع فى الذكر على المساجد (أجيب) بانها أقدم فى الوجود وقيل أخرها فى الذكر كما فى قوله تعالى ومنهم سابق بالخيرات ولان الذكر آخر العمل فلما كان نبينا صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمتنا خير الامم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون والسابقون وقيل أخرها لتكون بعيدة عن الهدم قريبة من الذكر وقرأ نافع دفاع بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح الدال وسكون الفاء وقرأ نافع وابن كثير لهدمت بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وأظهر التاء عند الصاد نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها الباقون (ولينصرن الله) أى الملك الاعظم (من ينصره) أى ينصر دينه وأولياءه كائنا من كان منهم أو من غيرهم وقد أنجز الله تعالى وعده بان سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم (ان الله) أى الذى لا كفء له (لقوى) أى على ما يريد (عزيز) أى منيع فى سلطانه وقدرته وقوله تعالى (الذين ان مكناهم) أى بما لنا من القدرة (فى الارض) باعلائهم على ضدهم (أقاموا الصلوة) أى التى هى عماد الدين الدالة على المراقبة والاعراض عن تحصيل الفانى (وآتوا الزكوة) أى المؤذنة بالزهد فى الحاصل منه المؤذن بعمل النفس للرحيل (وأمروا بالمعروف) أى الذى أمر الله تعالى ورسوله به (ونهوا عن المنكر) أى الذى نهى الله ورسوله عنه وصف للذين هاجروا وهو اخبار من الله تعالى بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين والانصار رضى الله تعالى عنهم وعن عثمان رضى الله تعالى عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد ان الله تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا * (تنبيه) * فى ذلك دليل على صحة خلافة الائمة الاربعة

الهيئة كان نور القنديل يتوقف على اجتماع

الخلفاء الراشدين اذلم يجتمع ذلك غيرهم من المهاجرين واذا ثبت ذلك وجب أن يكونوا على الحق ولا يجوز حمل الآية على أمير المؤمنين على وحده لان الآية دالة على الجمع وعن الحسن هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين منصوب بدل من قوله تعالى من ينصره (ولله) أى الملك الاعلى (عاقبة الامور) أى آخر أمور الخلق ومصيرها اليه فى الآخرة فلا يكون لاحد فيها أمر حتى انه لا ينطق أحد الا باذن منه ولما بين سبحانه وتعالى فيما تقدم اخراج الكفار للمؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن فى مقاتلتهم وضمن لرسوله صلى الله عليه وسلم النصرة وبين ان لله عاقبة الامور أردفه بما يجرى مجرى التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فى الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم) أى قبل قومك (قوم نوح) وتأنيث قوم باعتبار المعنى وتحقير المكذبين فى قدرته وان كانوا من أشد الناس (وعاد) أى ذو والابدان الشداد قوم هود (وثمود) أولو الابنية الطوال فى السهول والجبال قوم صالح (وقوم ابراهيم) المتجبرون المتكبرون (وقوم لوط) الانجاس بما لم يسبقهم اليه أحد من الناس (وأصحاب مدين) أرباب الاموال المجموعة من خزائن الضلال فانت يا أشرف الخلق لست بأوحدى فى التكذيب فان هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك * ولما كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات المرئية ثم المسموعة بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه فكان تكذيبه فى غاية البعد غير سبحانه وتعالى الاسلوب تنبيها على ذلك وعلى ان الذين أطبقوا على تكذيبه القبط وأما قومه فما كذبه منهم الا أناس يسير فقال تعالى (وكذب موسى) وفى ذلك أيضا تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية (فأمليت للكافرين) اى أمهلتهم بتأخير العقاب عنهم الى الوقت الذى ضربته لهم وعبر عن طول الاملاء باداة التراخى لزيادة التأسية فقال تعالى (ثم أخذتهم) أخذ عزيز مقتدر ثم نبه سبحانه وتعالى بالاستفهام فى قوله تعالى (فكيف كان نكير) أى انكارى لافعالهم على أنه كان فى أخذهم عبر وعجائب وأهوال وغرائب حيث أبدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا والاستفهام للتقرير أى وهو واقع موقعه فليحذر هؤلاء الذين أتيتهم باعظم ما أتى به رسول قومه مثل ذلك فان لم يؤمنوا بك فعلت بهم كما فعلت بهؤلاء وان كانوا أمكن الناس فلا يحزنك أمرهم *(تنبيه)* أثبت ورش الياء بعد الراء من نكير فى الوصل وحذفها الباقون وقفا ووصلا (وكأين) اى وكم (من قرية) وقيل معنى كأين رب وقوله تعالى (أهلكتها) قرأه ابو عمرو بعد الكاف بتاء فوقية مضمومة والباقون بعد الكاف بنون وبعدها ألف والمراد اهلها بدليل قوله تعالى (وهى) اى والحال أنها (ظالمة) اى أهلها بكفرهم ويحتمل أن يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحت هلاكها هلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل هلاك من فيها وان كان الاول أقرب (فهى) أى فتسبب عن اهلاكها أنها (خاوية) أى منهدمة ساقطة أى جدرانها (على عروشها) أى سقوفها اذ كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم فهو عرش والخاوى الساقط من خوى النجم اذا سقط أو الخالى من خوى المنزل اذا خلا من اهله وخوى بطن الحامل *(تنبيه)* قوله على عروشها لا يخلو من أن يتعلق بخاوية فيكون المعنى انها ساقطة على عروشها اى سقوفها اى تقصفت الاخشاب

القنديل والزيت والفتيلة وغيرها اولان نور الشمس

أولا من كثرة الامطار وغير ذلك من الاضرار فسقطت ثم سقط عليها الجدران فسقطت فوق السقوف أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها واما أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هي خاوية وهي على عروشها اى قائمة مظلة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت الى الارض فصارت في قرار الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة وقوله فهي خاوية جملة معطوفة على اهلكناها لا على وهي ظالمة فانها حال كما قدرته والاهلاك ليس حال خرابها فلا محل لها ان نصبت كأين بمقدر يفسره أهلكناها لانها معطوفة على جملة اهلكناها كما مر وهي مفسرة لا محل لها وان رفعت كاين بالابتداء فمحلها رفع خبرا ثانيا لكاين والخبر الاول اهلكناها (و) كم من (بئر معطلة) اى متروكة بموت اهلها (وقصر مشيد) اى رفيع خال بموت اهله * (تنبيه) * علم مما قدرته ان بئر معطوف على قرية وهو يقوى على ان عروشها بمعنى مع أوجه [٣] وروى ان هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهي بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها مات وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح وأمروا عليهم جهلس بن جلاس وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما فارسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان عليه السلام نبيا فقتلوه فاهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم وقوله تعالى (أفلم يسيروا) أى كفار مكة (في الارض) يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفر ليروا مصارع من اهلكهم الله تعالى بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا وان يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كان لم يسافروا ولم يروا (فتكون) أى فتسبب عن سيرهم أن تكون (لهم قلوب) واعية (يعقلون بها) ما رأوه بابصارهم مما نزل بالمكذبين قبلهم (أو) اى أو يكون لهم ان كانوا عمي الابصار كما دل عليه جعل هذا قسيما (آذان يسمعون بها) أخبارهم بالاهلاك وخراب الديار فيعتبروا (فانها) أى القصة (لا تعمى الابصار) ويجوز أن يكون الضمير مبهما يفسره الابصار وفي تعمى راجع اليه والمعنى ان ابصارهم صحيحة سالمة لا عمى فيها وانما العمى لقلوبهم كما قال تعالى (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ولا يعتد بعمى الابصار فانه ليس بعمى بالاضافة الى عمى القلوب (فان قيل) فاي فائدة في ذكر الصدور (أجيب) بان الذي قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة للبصر وهو ان تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة وتمثيل فلما أريد اثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الابصار احتاج هذا التصوير الى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر ان مكان العمى هو القلوب لا الابصار كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت لان محل المضاء هو لا غيره فكأنك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهوا مني ولكن تعمدت به اياه بعينه تعمدا قيل لما نزل قوله تعالى ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة اعمى فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) الذي توعدتهم به تكذيبا واستهزاء (و) الحال انه (لن يخلف الله) اى الذي لا كفء له (وعده) لامتناع الخلف فيه وفي خبره سبحانه وتعالى فيصيبهم

ما

يشرق متوجها الى العالم السفلي ونور المعرفة يشرق

[٣] قوله وهو يقوى الخ هكذا بالاصول التي بايدينا ولعل الظاهر وهو يقوى أن على عروشها اه مصححه

ما وعدهم به ولو من بعد حين لكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة وقد أنجزه يوم بدر (وان يوما عند ربك) اى المحسن اليك بتأخير العذاب عنهم اكراما لك من أيام الآخرة بالعذاب (كألف سنة مما تعدون) فى الدنيا وطول ايامه حقيقة أو من حيث ان أيام الشدائد مستطالة وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وكأين من قرية أمليت لها) اى امهلتها كما امهلتكم (وهى ظالمة) كظلمكم بالاستعجال وغيره (ثم اخذتها) اى بالعذاب والمراد اهلها (والى المصير) اى المرجع فينقطع كل حكم دون حكمى ففيه وعيد وتهديد (فان قيل) لم قال فكأين من قرية اهلكتها بالفاء وقال هنا بالواو (أجيب) بان الاولى وقعت بدلا عن قوله تعالى فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدم من الجملتين المعطوفتين بالواو أعنى قوله تعالى وان يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون * ولما كان الاستعجال لا يطلب من الرسول وانما يطلب من المرسل أمره الله تعالى بان يديم لهم التخويف والانذار بقوله تعالى (قل) اى لهم ولا يصدنك عن دعائهم ما اخبرناك به من عملهم (يا ايها الناس) اى جميعا من قومك وغيرهم (انما أنا لكم نذير مبين) اى بين الانذار والاقتصار على الانذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لان صدر الكلام وسياقه للمشركين وانما ذكر المؤمنين وثوابهم بقوله (فالذين آمنوا) اى اقروا بالايمان (وعملوا) اى تصديقا للدعواهم ذلك (الصالحات لهم مغفرة) اى لما فرط منهم (ورزق) اى فى الدنيا بالغنائم وغيرها وفى الآخرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (كريم) اى لا خسة فيه ولا دناءة بانقطاع ولا غيره زيادة فى غيظهم * ولما كان فى سياق الانذار قال معبرا بالماضى زيادة فى التخويف (والذين سعوا) اى اوقعوا السعى ولو مرة واحدة (فى آياتنا) اى القرآن بابطالها (معجزين) من اتبع النبى صلى الله عليه وسلم اى ينسبونهم الى العجز ويثبطونهم عن الايمان او مقدرين عجزنا عنهم وقرأ ابن كثير وابو عمرو بتشديد الجيم بعد العين على انها حال مقدرة والباقون بالف بعد العين وتخفيف الجيم اى مسابقين مشاقين للساعين فيها بالتثبيط (أولئك) البعداء البغضاء (أصحاب الجحيم) اى النار الشديدة التأجج ملازمين لها لا ينفكون عنها لما سعوا فيه لكنهم سموا فيها ليعلموا انهم هم العاجزون * ولما لاح من ذلك ان الشيطان ألقى شبها يفاترون فيها بجدالهم فى دين الله الذى امر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باظهاره وتقريره واشهاره عطف عليه تسلية له صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وما ارسلنا) اى بعظمتنا (من قبلك) ثم اكد الاستغراق بقوله تعالى (من رسول) وهو نبى أمر بالتبليغ (ولا نبى) وهو من لم يؤمر بالتبليغ وهذا هو المشهور فمعنى أرسلنا اوحينا فالنبى اعم من الرسول ويدل عليه ما رواه الامام احمد من أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الانبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قيل فكم الرسل فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل كما هو ظاهر الآية الرسول من جمع الى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبى غير الرسول من لا كتاب له وقيل يمكن حمل الآية عليه أيضا والرسول من يأتيه الكتاب والنبى يقال له ولمن يوحى اليه فى المنام (الا اذا تمنى) أى تلا على الناس ما أمره الله تعالى به أو حدثهم به واشتهى فى نفسه أن يقبلوه حرصا منه على ايمانهم شفقة عليهم (ألقى الشيطان) من التشبيه والتخييلات (فى أمنيته) اى فى تلاوته أو حديثه واشتهاه أن يقبل ما يتلقفه

متوجها الى العالم العلوى
كنور المصباح ولكثرة نفع

منه أولياؤه فيجادلون به أهل الطاعة ليضلوهم وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا كما يفعل هؤلاء فيما يفترون به في وجه الشريعة أصولا وفروعا من قولهم في القرآن شعر وسحر وكهانة وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم ان ما قتله الله تعالى بالموت حتف أنفه أولى بالاكل مما ذبحه وقولهم نحن أهل الله وسكان حرمه ولا نخرج من الحرم فنقف في الحج بالمشعر الحرام وتقف الناس بعرفة ونحن نطوف في ثيابنا وكذا من ولدناه وأما غيرنا فلا يطوف الاعار يا ذكرا كان أو أنثى الا أن يعطيه أحدنا ما يلبسه ونحو ذلك مما يريدون أن يطفؤا به نور الله تعالى وكذا تأويلات الباطنية والاتحادية وانظارهم التي الحدوا فيها يضل الله تعالى بها من يشاء ثم يمحوها من أراد من عباده وما أراد من أمره (فينسخ) أي فيتسبب عن القائه أنه ينسخ (الله) أي المحيط بكل شيء علما وقدرة (ما يلقي الشيطان) فيبطله بايضاح أمره (ثم يحكم الله آياته) أي ثم يجعلها جلية فيما يريد منها وأدل دليل على ان هذا هو المراد من الافتتاح بالمعاجزة في الآيات الختام بقوله عطفا على ما تقديره فالله على ما يشاء قدير (والله عليم) باحوال خلقه (حكيم) فيما يفعله بهم وقيل انه صلى الله عليه وسلم حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم لما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن يأتيه من الله تعالى شيء لم ينفروا عنه وتمنى ذلك فانزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى أن قال تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءة السورة كلها وسجد في آخرها وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وابو أحيحة سعيد بن العاص فانهما اخذا حفنة من البطحاء ورفعاها على جبهتهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا باحسن الذكر وقالوا قد عرفنا أن الله تعالى يحيي ويميت ويرزق ولكن هذه آلهتنا تشفع لنا عنده فاذا جعل لهم محمد نصيبا فنحن معه فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله تعالى خوفا شديدا فانزل الله تعالى هذه الآية تعزية له وكان به رحيما وسمع بذلك من كان بارض الحبشة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش وقيل قد اسلمت اهل مكة فرجع اكثرهم الى عشائرهم وقالوا هم أحب الينا حتى اذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا يتحدثون به من اسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل أحد منهم الا بجوار مستخفيا فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله تعالى فغير

الزيت وخلوصه عما يخالطه غالبا وقع التشبيه

ذلك قال الرازي هذه رواية عامة المفسرين الظاهرية أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا على البطلان بالقرآن والسنة والمعقول أما القرآن فبوجوه أحدها قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ثانيها قوله تعالى قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الي ثالثها قوله تعالى وما ينطق عن الهوى وأما السنة فهو ما روي عن محمد بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل فقد روى البخاري في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها وسجد المسلمون والكفار والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق وأما المعقول فمن وجوه أحدها أن من جوز على النبي صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان النبي كان معظم سعيه في نفي الاوثان ثانيها قوله تعالى فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول صلى الله عليه وسلم أقوى من نسخ هذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فاذا أراد الله تعالى احكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى ثالثها وهو أقوى الوجوه لو جوزنا ذلك ارتفع الايمان عن شرعه ولجوزنا في كل واحد من الاحكام والشرائع أن يكون كذلك فيبطل قوله تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لا فرق في العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه وزاد الرازي أدلة أخرى على ذلك ثم قال وقد عرفنا ان هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها وخبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والنقلية المتواترة انتهى وهذا هو الذي يطمئن اليه القلب وان أطنب ابن حجر العسقلاني في صحتها ثم قال وحينئذ فيتعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق الخ انتهى وعلى القول بها قد سلك العلماء في ذلك مسالك أحسنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتل القرآن فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث سمعه من دنا اليه فظنها من قوله وأشاعها وقال البيضاوي بعد أن ذكر بعض هذه القصة وهو مردود عند المحققين وان صح فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه انتهى قال ابن الاثير والغرانيق هنا الاصنام وهي في الاصل الذكور من طير الماء واحدها غرنوق وغرنيق سمي به لبياضه قال وكانوا يزعمون أن الاصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تعلو الى السماء وترتفع وقيل تمنى أي قرأ كقول حسان في حق عثمان بن عفان

تمنى كتاب الله أول ليلة ٭ تمنى داود الزبور على رسل

أي على تأن وتمهل ٭ ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حكم به من تمكين الشيطان من هذا الالقاء ذكر العلة في ذلك بقوله تعالى (ليجعل ما يلقي الشيطان) أي في المتلو أو المحدث به من تلك الشبهة في قلوب أوليائه على التفسير الاول وعلى الثاني وغيره يؤول بما يناسبه (فتنة) اى اختبارا وامتحانا (للذين في قلوبهم مرض) اى شك ونفاق (والقاسية) اى الجافية (قلوبهم) عن قبول الحق وهم المشركون (وان الظالمين) اى الواضعين لاقوالهم وافعالهم في غير

في نوره دون نور الشمس مع
انه اتم من نور المصباح

مواضعها كفعل من هو في الظلام (لفي شقاق) اى خلاف لكونهم في شق غير شق حزب الله بعاجزتهم في الآيات بتلك الشبهة التي تلقوها من الشيطان و جادلوا بها أولياء الرحمن (بعيد) عن الصواب لتصغي اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون وعلى ثبوت ذكر القصة و جرى عليه الجلال المحلي قال انهم في خلاف طويل مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث جرى على لسانه ذكر آلهتهم بما يرضيهم ثم أبطل ذلك (وليعلم الذين أوتوا العلم) باتقان حججه واحكام براهينه وضعف شبه العاجزين (أنه) أي النبي الذي تلوته أو تحدثت به (الحق) أى الثابت الذي لا يمكن زواله (من ربك) أى المحسن اليك بتعليمك اياه (فيؤمنوا به) لما ظهر لهم من صحته بما ظهر من ضعف تلك الشبهة (فتخبت) اى تطمئن وتخضع (له قلوبهم) وتسكن به نفوسهم (وان الله) بجلاله وعظمته (لهادي الذين آمنوا) في جميع ما يلقيه أولياء الشيطان (الى صراط مستقيم) اى قويم وهو الاسلام يصلون به الى معرفة بطلانه حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة فيوصلهم ذلك الى سعادة الدارين (ولا يزال الذين كفروا) اى وجد منهم الكفر وطبعوا عليه (في مرية) اى شك (منه) قال ابن جريج اى من القرآن وقيل مما ألقى الشيطان على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها وقيل من الدين وهو الصراط المستقيم (حتى تأتيهم الساعة) اى القيامة وقيل أشراطها وقيل الموت (بغتة) أى فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) قال عكرمة والضحاك لا ليل بعده وهو يوم القيامة والاكثرون على أنه يوم بدر وسمي عقيما لانه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم التي لا تأتي بخير وقيل لانه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه و يقوى التفسير الاول قوله تعالى (الملك يومئذ) أى يوم القيامة (لله) أى المحيط بجميع صفات الكمال وحده ولما كان كانه قيل ما معنى اختصاصه به وكل الايام له قيل (يحكم بينهم) أى المؤمنين والكافرين بالامر الفصل الذي لا حكم فيه ظاهرا ولا باطنا لغيره كما ترونه الآن بل يمشي فيه الامر على أتم شئ من العدل (فالذين آمنوا وعملوا) أى وصدقوا ادعواهم الايمان بان عملوا (الصالحات) وهي ما أمرهم الله به (في جنات النعيم) فضلا منه ورحمة لهم بما رحمهم الله تعالى من توفيقهم للاعمال الصالحات (والذين كفروا) أى ستروا ما أعطيناهم من المعرفة بالادلة على وحدانيتنا (وكذبوا بآياتنا) أى ساعين بما أعطيناهم من الفهم في تعجيزها بالمجادلة بما يوحي اليهم أولياؤهم من الشياطين من الشبه (فاولئك) أى البعداء عن أسباب الكرم (لهم عذاب مهين) أى شديد بسبب ما سعوا في اهانة آياتنا معاجزين اعزازا لأنفسهم بعقائد بآياتنا والتكبر عن آياتنا (فان قيل) لم أدخل الفاء في خبر الثاني دون الاول (أجيب) بان في ذلك تنبيها على ان اثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى وان عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم ولذلك قال لهم عذاب ولم يقل هم في عذاب ولما كان المؤمنون في حصر مع الكفار رغبهم الله في الهجرة بقوله تعالى (والذين هاجروا في سبيل الله) أى فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب مرضاته من مكة الى المدينة (ثم قتلوا) في الجهاد بعد الهجرة وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف وألحق به مطلق الموت فضلا منه بقوله تعالى (أو ماتوا) أى من غير قتل (ليرزقنهم الله) أى

قوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا في مرية منه) الى قوله تعالى (ولا يعلم من ذكره) [illegible]

الجامع لصفات الكمال (رزقا حسنا) هو رزق الجنة من حين تفارق أرواحهم أشباحهم لانهم أحياء عند ربهم (وان الله) اى الملك الاعلى القادر على الاحياء كما قدر على الاماتة (لهو خير الرازقين) فانه يرزق بغير حساب يرزق الخلق عامة البار منهم والفاجر (فان قيل) الرازق فى الحقيقة هو الله تعالى لا رازق للخلق غيره فكيف قال لهو خير الرازقين (أجيب) بان غير الله يسمى رازقا على المجاز كقولهم رزق السلطان الجيش اى أعطاهم أرزاقهم وان كان الرازق فى الحقيقة هو الله تعالى ولما كان الرزق لا يتم الا بحسن الدار وكان ذلك من أفضل الرزق قال تعالى دالا على ختام التى قبل (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) هو الجنة يكرمون فيه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا ينالهم فيها مكروه وقيل هو خيمة فى الجنة من درة بيضاء لها سبعون ألف مصراع وقرأ نافع بفتح الميم اى دخولا أو مكان دخول والباقون بالضم أى ادخالا أو مكان ادخال (وان الله) اى الذى عمت رحمته وتمت عظمته (لعليم) اى بمقاصدهم وما عملوا لما يرضيه وغيره (حليم) عما قصروا فيه من طاعته وما فرطوا فى جنبه تعالى فلا يعاجل احدا بالعقوبة روى ان طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فانزل الله تعالى هاتين الآيتين (ذلك) اى الامر المقرر من صفات الله تعالى الذى قصصناه عليك (ومن عاقب) اى جازى من المؤمنين (بمثل ما عوقب به) ظلما من المشركين اى قاتلهم كما قاتلوه فى الشهر الحرام (ثم بغى عليه) اى ظلم باخراجه من منزله قال مقاتل نزلت فى قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من محرم فقال بعضهم لبعض ان أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون وكرهوا قتالهم وسألوهم ان يكفوا عن القتال لاجل الشهر الحرام فابى المشركون فقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصرهم الله تعالى عليهم فذلك قوله تعالى (لينصرنه الله) اى الذى لا كفء له (ان الله) اى الذى أحاط بكل شئ قدرة وعلما (لعفو) عن المؤمنين (غفور) لهم (فان قيل) لم سمى ابتداء فعلهم عقوبة مع ان العذاب من العقب وهو منتف فى الابتداء (أجيب) بانه اطلق عليه ذلك للتعلق الذى بينه وبين الثانى كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم وكما فى قوله كما تدين تدان (فان قيل) كيف طابق ذكر العفو الغفور فى هذا الموضع مع ان ذلك الفعل جائز للمؤمنين لانهم مظلومون (أجيب) بان المنتصر لما اتبع هواه فى الانتقام واعرض عما ندب الله تعالى له بقوله تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور وبقوله تعالى فمن عفا وأصلح فاجره على الله وبقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى فكان فى اعراضه عما ندب اليه نوع اساءة أدب فكأنه تعالى قال عفوت عن هذه الاساءة وغفرتها له فانى انا الذى اذنت له فيها وفى ذكر العفو تنبيه على انه تعالى قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده (ذلك) اى النصر (بان الله) اى المتصف بجميع صفات الكمال (يولج) اى يدخل لاجل مصالح العباد المعنى والحس (الليل فى النهار) فيصير ظلامه بضيائه ولو شاء الله تعالى مؤاخذة الناس لجعله سرمدا فتعطلت مصالح النهار (ويولج النهار فى الليل) فينسخ ضياءه بظلامه ولولا ذلك لتعطلت مصالح الليل أو بان يدخل كلا منهما فى الآخر

(ان قلت) لم عطف البيع على التجارة مع شمولها له

فيزيد به وذلك من أثر قدرته التي بها النصر (وأن الله) بجلاله وعظمته (سميع) لكل ما يقال (بصير) لكل ما يفعل دائم الاتصاف بذلك فهو غير محتاج الى سكون الليل ليسمع ولا لضياء النهار ليبصر لانه سبحانه وتعالى منزه عن الاغراض * ولما وصف تعالى نفسه بما ليس لغيره علله بقوله تعالى (ذلك) اى الاتصاف بتمام القدرة وشمول العلم (بان الله) اى القادر على كل ما أراد (هو) وحده (الحق) اى الثابت الواجب الوجود (وأن ما يدعون) اى يعبد المشركون (من دونه) وهو الاصنام (هو الباطل) الزائل وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بالتاء على الخطاب للمشركين والباقون بالياء على الغيبة وانه ذممة طوعهم من مافى الرسم (وان الله) لكونه هو الحق الذى لا كفء له (هو) وحده (العلى) اى العالى على كل شئ بقدرته (الكبير) وكل ما سواه سافل حقير تحت قهره وامره * ثم انه سبحانه وتعالى استدل على كمال قدرته بامور ستة الاول قوله تعالى (ألم تر) اى أيها المخاطب (أن الله) اى المحيط قدرة وعلما (أنزل من السماء ماء) اى مطرا بان يرسل رياحا تثير سحابا فيمطر على الارض الماء (فتصبح الارض) اى بعد أن كانت مسودة يابسة ميتة جامدة (مخضرة) حيث بانه مهتزة نامية بما فيه رزق العباد وعمارة البلاد (فان قيل) لم قال تعالى فتصبح ولم يقل فاصبحت (أجيب) بان ذلك لنكتة وهى افادة بقاء المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم على فلان عام كذا فاروح واغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع (فان قيل) لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام (أجيب) بانه لو نصب لاعطى عكس ما هو الغرض لان معناه اثبات الاخضرار فينقلب بالنصب الى نفى الاخضرار ووجه ذلك بان النصب بتقدير أن وهو علم الاستقبال فيجعل الفعل مترقبا والرفع جزم باثباته مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر انى أنعمت عليك فتشكر فان نصبته فانت ناف لشكره شاك فى تفريطه فيه وان رفعته فانت مثبت لشكره وهذا وأمثاله مما يجب أن يتنبه له من اتسم بالعلم فى علم الاعراب وتوقير أهله (ان الله) اى الذى له تمام النعم وكمال العلم (لطيف) بعباده فى اخراج النبات بالماء (خبير) اى بمصالح الخلق ومنافعهم فانه مطلع على السرائر وان دقت فلا يستبعد عليه احياء من أراد بعد موته وقال ابن عباس لطيف بارزاق عباده خبير بما فى قلوبهم من القنوط الامر الثانى قوله تعالى (له ما فى السموات) اى التى أنزل منها الماء (وما فى الارض) اى التى استقر فيها ملكا وخلقا (وان الله) اى الذى له الاحاطة التامة (لهو) اى وحده (الغنى) فى ذاته عن كل شئ (الحميد) اى المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله الامر الثالث قوله تعالى (ألم تر) اى أيها المخاطب (أن الله) ذا الجلال والاكرام (سخر لكم) فضلا منه (ما فى الارض) كله من مسالكها وفجاجها وما فيها من حيوان وجماد وزرع وثمار فلولا تسخيره تعالى الابل والبقر مع قوتهما حتى تذللهما الضعيف من الناس لما انتفع بهما أحد منهم الامر الرابع قوله تعالى (والفلك) اى وسخر لكم الفلك اى السفن ثم بين تسخيرها بقوله (تجرى فى البحر) العجاج الملتطم بالامواج بريح طيبة للركوب والحمل (بامره) اى باذنه الامر الخامس قوله تعالى (ويمسك السماء) اى كراهة (أن تقع على الارض) التى تحتها مع علوها وعظمها وكونها بغير عمد تعتمد عليه (الا باذنه) اى بمشيئته فيقع ذلك يوم القيامة حين يريد طى هذا العالم وايجاد عالم البقاء (ان الله) اى الذى له الخلق والامر (بالناس) اى على ظلمهم (لرؤف) اى عالم

(قلت) لان التجارة هى التصرف فى المال لقصد

بحفظ

يحفظ من سرائرهم (رحيم) اى حيث هيألهم أسباب الاستدلال وفتح لهم ابواب المنافع ودفع عنهم أبواب المضار (وهو) اى وحده (الذى أحياكم) اى عن الجمادية بعد أن أوجدكم من العدم (ثم يميتكم) اى عند انقضاء آجالكم ليكون الموت واعظا لاولى البصائر منكم (ثم يحييكم) اى يوم البعث للثواب والعقاب واظهار العدل فى الجزاء (ان الانسان) اى المشرك (لكفور) اى لبليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به فهو جاحد لنعمة الله وقال ابن عباس هو الاسود بن عبد الاسد وأبو جهل والعاص بن وائل وأبى بن خلف قال الرازى والاولى تعميمه فى كل المنكرين (لكل أمة) اى فى كل زمان (جعلنا منسكا) قال ابن عباس شريعة يتعبدون بها (هم ناسكوه) اى عاملون بها وروى عنه أنه قال عيدا وقال مجاهد وقتادة موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة وقرأ حمزة والكسائى منسكا بكسر السين والباقون بفتحها (فلا ينازعنك فى الامر) اى أمر الذبائح نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مالكم تأكلون مما تقتلون ولا تأكلون مما قتله الله تعالى يعنون الميتة وقال الزجاج هو نهى له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم كما تقول لا يضاربنك فلان اى فلا تضاربه وهذا جائز فى الفعل الذى لا يكون الا بين اثنين معناه لا تنازعهم انت (وادع) اى أوقع الدعوة لجميع الخلق (الى ربك) المحسن اليك اى الى دينه ثم علل ذلك بقوله (انك) مؤكدا له بحسب ما عندهم من الانكار (لعلى هدى) اى دين واضح (مستقيم) هو دين الاسلام (وان جادلوك) اى فى أمر الدين بعد ان ظهر الحق ولزمت الحجة (فقل الله) اى الملك المحيط بالعز والعلم (اعلم بما تعملون) من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليه وهذا وعيد فيه رفق وكان ذلك قبل الامر بالقتال ولما امر الله تعالى بالاعراض عنهم وكان ذلك شديدا على النفس لتشوفها الى النصرة رجاه فى ذلك بقوله تعالى مستأنفا تحذيرا لهم (الله) اى الذى لا كفء له (يحكم بينكم) اى بينك مع أتباعك وبينهم (يوم القيامة) الذى هو يوم التغابن (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ومن نصر ذلك اليوم لم يبال بما حل به فهو كقوله وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون قال البغوى والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين الى خلاف ماذهب اليه الآخر (ألم تعلم أن الله) بجلال عزه وعظيم سلطانه (يعلم ما فى السماء والارض) فلا يخفى عليه شئ (ان ذلك) اى ما ذكر (فى كتاب) كتب فيه كل شئ حكم بوقوعه قبل وقوعه كتب بجزائه وهو اللوح المحفوظ (ان ذلك) اى علم ما ذكر (على الله) وحده (يسير) اى سهل لان علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على السواء (ويعبدون) اى المشركون على سبيل التجدد والاستمرار (من دون الله) اى من أدنى رتبة من رتبه الذى قامت جميع الدلائل على احتوائه على جميع صفات الكمال وتنزهه عن شوائب النقص (مالم ينزل به سلطانا) اى حجة واحدة من الحجج وهو الاصنام (وماليس لهم به علم) حصل لهم من ضرورة العقل واستدلاله بالحجة (وما للظالمين) اى الذين وضعوا التعبد فى غير موضعه لارتكابهم لهذا الامر العظيم الخطر وأكد النفى واستغرق المنفى باثبات الجار فقال تعالى (من نصير) اى ينصرهم من الله لا مما أشركوه به ولا من غيره فيدفع عنهم عذابه او يقرر مذهبهم (واذا تتلى) اى على سبيل التجدد والمبالغة من اى تال كان (عليهم آياتنا) اى

الربح هو البيع اعم من ذلك
فعطف عليها التلا بنحوه م

من القرآن حال كونها (بينات) لا خفاء فيها عند من له بصيرة في شيء مما دعت اليه من الاصول والفروع (تعرف في وجوه الذين كفروا) اي تلبسوا بالكفر (المنكر) اي الانكار الذي هو منكر في نفسه فيظهر اثره في وجوههم من الكراهة والعبوس لما حصل لهم من الغيظ ثم بين ما لاح في وجوههم بقوله تعالى (يكادون يسطون) اي يوقعون السطوة بالبطش والعنف (بالذين يتلون عليهم آياتنا) اي الدالة على اسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا القاضية بوحدانيتنا مع كونها بينات في غاية الوضوح في انها كلامنا لما فيها من الحكم والبلاغة التي عجزوا عنها ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقابلهم بالوعيد بقوله تعالى (قل أفأنبئكم) اي أفاخبركم خبرا عظيما (بشر من ذلكم) باكره اليكم من القرآن المتلو عليكم وقوله تعالى (النار) كأنه جواب سائل قال ما هو فقيل النار اي هو النار ويجوز أن تكون مبتدأ خبره (وعدها الله الذين كفروا) جزاء لهم فبئس الموعد هي (وبئس المصير) اي النار ولما بين تعالى انه لا حجة لعابد غيره اتبعه بان الحجة قائمة على ان ذلك الغير في غاية الحقارة فقال تعالى مناديا اهل العقل منبها تنبيها عاما (يا أيها الناس ضرب مثل) حاصله أن من عبد شيئا من الاصنام أحقر منكم (فاستمعوا) اي أنصتوا (له) وتدبروه ثم فسره بقوله تعالى (ان الذين تدعون) اي تعبدون وتدعونهم في حوائجكم وتجعلونهم آلهة (من دون الله) اي الملك الاعلى من هذه الاصنام التي أنتم بها مفترون (لن يخلقوا ذبابا) اي لا قدرة لهم على ذلك في زمن من الازمان على حال من الاحوال مع صغره فكيف بما هو أكبر منه (ولو اجتمعوا) اي الذين زعمتوهم شركاء (له) اي الخلق فهم في هذا أمثالكم ● (تنبيه) ● محل ولو اجتمعوا له النصب على الحال كانه قال تعالى يستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزل الله تعالى في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خدعهم بخداعه [3] حيث وصفوا بالالهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والاحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله وأصغره وأحقره ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم ان هذا الخلق الاقل الاذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا كما قال تعالى (وان يسلبهم الذباب) اي الذي تقدم أنهم لا قدرة لهم على خلقه وهو غاية في الحقارة (شيئا) اي من الاشياء جل أو قل (لا يستنقذوه منه) لعجزهم فكيف يجعلونهم شركاء لله هذا أمر مستغرب عبر عنه بضرب مثل ● (تنبيه) ● الذباب مفرد وجمعه القليل أذبة والكثير ذبان مثل غراب وأغربة وغربان وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلون الاصنام بالزعفران ورؤسها بالعسل ويغلقون عليها الابواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله وعن ابن زيد كانوا يحلون الاصنام باليواقيت واللآلئ وأنواع الجواهر ويطيبونها بالوان الطيب فربما يسقط شيء منها فيأخذه طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استرداده منه (ضعف الطالب) قال الضحاك هو العابد (والمطلوب) المعبود وقال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذي على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل على العكس الطالب الصنم والمطلوب الذباب اي لو طلب الصنم ان يخلق الذباب لعجز عنه ولما أنتج هذا جهلهم بالله عز وجل عبر عنه بقوله تعالى (ما قدروا الله)

اي

القصور على سبيع العبارة أو اريد بالعبارة الشبر القصد

[3] قوله خدعهم بخداعه في نسخة خزمهم بخزاعه اه

اى الذى له الكمال كله (حق قدره) اى ما عظموه حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث اشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه (ان الله) اى الجامع لصفات الكمال (لقوى) على خلق الممكنات باسرها (عزيز) اى لا يغلبه شئ وآلهتهم التى يعبدونها عاجزة عن أقلها مقهورة من أذلها قال الكلبى فى هذه الآية وفى نظيرها فى سورة الانعام انها نزلت فى جماعة من اليهود مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن أسد وغيرهم حيث قالوا ان الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والارض وأجناس خلقها استلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا لهم ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب قال الرازى واعلم ان منشأ هذه الشبهة هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية وتنزيه افعاله عن مشابهة سائر الافعال أعنى عن الغرض والدواعى واستحقاق المدح والذم خلاف ما يقوله المعتزلة قال ابو القاسم الانصارى رحمه الله تعالى فهو سبحانه وتعالى خير النعت عزيز الوصف فالاوهام لا تصوره والافكار لا تقدره والعقول لا تمثله والازمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده صمدى الذات سرمدى الصفات ولما ذكر سبحانه وتعالى ما يتعلق بالالهيات ذكر ما يتعلق بالنبوات بقوله تعالى (الله) اى الملك الاعلى (يصطفى) اى يختار ويختص (من الملائكة رسلا) كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم الصلاة والسلام (ومن الناس) كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم نزلت حين قالت المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فاخبر تعالى ان الاختيار اليه يختار من يشاء من خلقه (ان الله) أى الذى له الجلال والجمال (سميع) لقالتهم (بصير) بمن يتخذه رسولا (يعلم ما بين أيديهم) اى الرسل (وما خلفهم) اى علمه محيط بما هم مطلعون عليه وبما غاب عنهم فلا يعلمون شيأ الا باذنه (والى الله) أى وحده تعالى (ترجع) بغاية السهولة (الامور) يوم يتجلى لفصل القضاء فيكون أمره ظاهرا لا خفاء فيه ولا يصدر شئ من الاشياء الا على وجه العدل الظاهر لكل احد ولا يكون لاحد التفات الى غيره وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم ولما أثبت سبحانه وتعالى أن الملك والامر له وحده خاطب المقبلين على دينه وهم الخلص من الناس بقوله تعالى (يا ايها الذين امنوا) أى كلبسوا بالايمان (اركعوا) تصديقا لايمانكم (واسجدوا) أى صلوا الصلاة التى شرعتها لكم فانها رأس العبادة ليكون دليلا على صدقكم فى الاقرار بالايمان (تنبيه) انما خص هذين الركنين فى التعبير عن الصلاة لانهما لمخالفتهما الهيآت المعتادة هما الدالان على الخضوع فحسن التعبير بهما وذكر عن ابن عباس ان الناس كانوا فى أول الاسلام يركعون ولا يسجدون وقيل كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود حتى نزلت هذه الآية ولما خص أفضل العبادة عم بقوله تعالى (واعبدوا) أى بانواع العبادة (ربكم) أى المحسن اليكم بكل نعمة دينية ودنيوية ولما ذكر عموم العبادة أتبعها ما قد يكون أعم منها مما صورته صورتها أو قد يكون بلا نية فقال (وافعلوا الخير) أى كله من القرب كصلة الارحام وعيادة المريض ونحو ذلك من معالى الاخلاق بنية و بغير نية

الربح وبالبيع البيع مطلقا (قوله والله خالق كل

حتى يكون لكم ذلك عادة فيخف عليكم عمله قاله تعالى قال أبو حيان بدأ تعالى بخاص وهو الصلاة ثم بعام وهو واعبدوا ربكم ثم باعم وهو وافعلوا الخير (لعلكم تفلحون) أى افعلوا هذا كله وأنتم راجون الفلاح وهو الفوز بالبقاء فى الجنة طامعون فيه غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم وقال الامام أبو القاسم الانصارى لعل كلمة ترج تشعر بأن الانسان قلما يخلو فى أداء فريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذى أتى به مقبول عند الله والعواقب مستورة وكل ميسر لما خلق له * (تنبيه) * اختلف فى سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية فذهب قوم الى أنه يسجد عندها وهو قول عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق لظاهر ما فيها من الامر بالسجود وقول البيضاوى ولقوله صلى الله عليه وسلم فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأهما حديث ضعيف رواه الترمذى وضعفه وذهب قوم الى أنه لا يسجد وهو قول سفيان الثورى وقول أبى حنيفة وأصحابه لانهم يقولون قرن السجود بالركوع فى ذلك فدل ذلك على انها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة * ولما كان الجهاد أساس العبادة وهو مع كونه حقيقة فى جهاد الكفار صالح لان يعم كل أمر بمعروف ونهى عن منكر بالمال والنفس بالقول والفعل بالسيف وغيره وكل جهاد فى تهذيب النفس واخلاص العمل ختم به فقال تعالى (وجاهدوا فى الله) أى لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كاهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وقول البيضاوى وعنه عليه الصلاة والسلام انه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر حديث رواه البيهقى وضعف اسناده وقال غيره لا أصل له قيل أراد بالاصغر جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس (حق جهاده) اى باستفراغ الطاقة فى كل ما أمر به من جهاد العدو والنفس على الوجه الذى امر به من الحج والغزو وغيرهما (فان قيل) ما وجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد فى الله أو حق جهادكم فى الله كما قال تعالى وجاهدوا فى الله (أجيب) بان الاضافة تكون بادنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لاجله صحت اضافته اليه وعن مجاهد عن الكلبى ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم * ولما أمر الله تعالى بهذه الاوامر أتبعها بعض ما يجب به شكره وهو كالتعليل لما قبله فقال تعالى (هو اجتباكم) أى اختاركم لدينه ولنصرته وجعل الرسالة فيكم والرسول منكم وجعله أشرف الرسل ودينه أشرف الاديان وكتابه أعظم الكتب وجعلكم لكونكم أتباعه خير الامم (وما جعل عليكم فى الدين) أى الذى اختاره لكم (من حرج) أى من ضيق وشدة وهو أن المؤمن لا يبتلى بشئ من الذنوب الا جعل الله تعالى له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بانواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك ٣ فليس فى دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفقه الله تعالى وسهله عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة والفطر للمريض والمسافر وغير ذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا أمرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم رواه البخارى وعن ابن عباس أنه قال الحرج ما كان على بنى اسرائيل من الآصار التى كانت عليهم وضعها الله تعالى عن هذه الامة

٣ قوله فليس فى دين الاسلام كذا فى النسخ وهى عبارة غير مستقيمة أو فيها سقط والصواب فى نحو اداتها ان يقال فليس فى دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص منه من الذنوب والآصار بل المخرج من الذنوب بما سبق من التوبة ونحوها لمن وفقه الله ومن الآصار بالتسهيل عند الضرورات كالقصر الخ اه

الامة وقوله تعالى (ملة أبيكم) نصب بنزع الخافض وهو الكاف أو على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف أى وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الاغراء أى اتبعوا ملة أبيكم أو على الاختصاص أى أعنى بالدين ملة أبيكم كقولك الحمد لله الحميد وقوله تعالى (ابراهيم) عطف بيان (فان قيل) لم كان ابراهيم أبا للامة كلها (أجيب) بأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أبا لامته لان أمة الرسول فى حكم أولاده واختلف فى عود ضمير (هو) على قولين أحدهما أنه يعود على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وان لكل نبي دعوة مستجابة ودعوة ابراهيم عليه السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته والثانى أنه يعود على الله تعالى فى قوله تعالى هو اجتباكم وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال ان الله تعالى (سماكم المسلمين من قبل) أى فى كل الكتب المنزلة التى نزلت قبل انزال هذا القرآن (وفى هذا) أى وسماكم فى هذا القرآن الذى أنزل عليكم من بعد انزال تلك الكتب وهذا القول كما قال الرازى أقرب لانه تعالى قال (ليكون الرسول شهيدا عليكم) أى يوم القيامة أنه بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) أى ان رسلهم بلغتهم فبين أنه تعالى سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله تعالى وانما كانوا شهداء على الناس لسائر الانبياء لانهم لم يفرقوا بين أحد منهم وعلموا ان أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك صحت شهادتهم وقبلها الحكم العدل وعن كعب أعطيت هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال تعالى ادعونى أستجب لكم وعن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قال لم يذكر الله بالايمان والاسلام غير هذه الامة ذكرها بهما وكررهما جميعا ولم يسمع بامة ذكرت بالاسلام والايمان غيرها وعن مكحول ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تسمى الله عز وجل باسمين سمى بهما أمتى هو السلام وسمى أمتى المسلمين وهو المؤمن وسمى أمتى المؤمنين • (تنبيه) • فى الآية دليل على أن شهادة غير المسلم ليست مقبولة • ولما ندبهم تعالى ليكونوا خير الامم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فأقيموا الصلوة) التى هى أركان قلوبكم وصلة ما بينكم وبين ربكم أى داوموا عليها (وآتوا الزكوة) التى هى طهرة أبدانكم وصلة بينكم وبين اخوانكم (واعتصموا بالله) أى المحيط بجميع صفات الكمال فى جميع ما أمركم به من المناسك التى تقدمت وغيرها ثم علل تعالى أهليته بقوله تعالى (هو) أى وحده (مولاكم) أى المتولى لجميع أموركم فهو ينصركم على كل من يعاديكم بحيث أن تتمكنوا من اظهار هذا الدين من مناسك الحج وغيرها ثم علل الامر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله تعالى (فنعم المولى) أى هو (ونعم النصير) أى الناصر لكم لانه تعالى اذا تولى أحدا كفاه كل ما أهمه واذا نصر أحدا أعلاه عن كل من خاصمه ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته الحديث انه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت وهذا نتيجة التقوى وما قبله من أفعال الطاعة دليلها فقد انطبق آخر السورة على أولها ورد مقطعها على مطلعها وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطى من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى حديث موضوع

ان غيرها مثلها كما شمله قوله فى الانبياء وجعلنا من

سورة المؤمنين مكية

وهي مائة وثمان أو تسع عشرة آية وألف وثمانمائة وأربعون
كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة حرف

(بسم الله) الذي له الامر كله (الرحمن) الذي عم انعامه (الرحيم) الذي خص من أراد بالايمان عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل فانزل عليه يوما فمكث ساعة حتى سري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم أرضنا وارض عنا ثم قال لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر آيات قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة روى هذا الحديث الترمذي وغيره وأنكره النسائي وغيره *(تنبيه)* قال الزمخشري قد نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (فان قيل) ما المؤمن (أجيب) بانه في اللغة هو المصدق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين أحدهما ان كل من نطق بالشهادتين واطأ قلبه لسانه فهو مؤمن والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها الا البر التقي دون الفاسق *ثم انه تعالى حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبعة الصفة الاولى كونهم مؤمنين الصفة الثانية المذكورة في قوله تعالى (الذين هم) أي بضمائرهم وظواهرهم (في صلاتهم خاشعون) قال ابن عباس مخبتون أذلاء وقيل خائفون وقيل متواضعون وعن قتادة الخشوع الزام موضع السجود روى الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي رافعا بصره الى السماء فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره الى نحو مسجده أي موضع سجوده وكان الرجل اذا قام الى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره الى شيء أو يحدث نفسه بشيء من شأن الدنيا وقيل هو جمع الهمة لها والاعراض عما سواها ومن الخشوع أن يستعمل الادب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده وثيابه والتشبيك والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والاختصار وتقليب الحصى روى الترمذي لكن بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم ابصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ونظر الحسن الى رجل يعبث بالحصى وهو يقول اللهم زوجني الحور العين فقال بئس الخاطب انت تخطب وانت تعبث وعنه انه قال كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة أسرع وعن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله وهو في الصلاة فلا صلاة له وروي انه صلى الله عليه وسلم قال انما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها وقال صلى الله عليه وسلم كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وقال من لم تنهه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا فينبغي

الماء كل شئ حى (قلت)

للشخص ان يحتاط فى صلاته لبوقعها على التمام فان بعض العلماء اختار الامامة فقيل
له فى ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة ان يعاتبنى الشافعى وان قرأتها ان يعاتبنى أبو حنيفة
فاخترت الامامة طلبا للخلاص من هذا الخلاف (فان قيل) لم أضيفت الصلاة اليهم
(أجيب) بان الصلاة وصلة بين الله وبين عباده والمصلى هو المنتفع بها وحده وهى عدته
وذخيرته فهى صلاته وأما الله تعالى فهو غنى متعال عن الحاجة اليها والانتفاع بها * الصفة
الثالثة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم) اى بضمائرهم التى تتبعها ظواهرهم (عن
اللغو) قال ابن عباس عن الشرك (معرضون) اى تاركون وقال الحسن عن المعاصى وقال
الزجاج هو كل باطل ولهو وما لا يحمد من القول والفعل وقيل هو كل ما لا يعنى الشخص من
قول أو فعل وهو ما يستحق ان يسقط و يلغى فمدحهم الله تعالى بانهم معرضون عن هذا اللغو
والاعراض عنه هو بان لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه كما قال تعالى واذا مروا باللغو
مروا كراما اى اذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه * الصفة الرابعة
المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم للزكوة فاعلون) اى مؤدون *(تنبيه)* الزكاة اسم
مشترك بين عين ومعنى فالعين هو القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى المستحق والمعنى
فعل المزكى الذى هو التزكية وهو المراد هنا لانه ما من مصدر الا و يعبر عن معناه بالفعل
ويقال لمحدثه فاعل تقول للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية
و يجوز ان يراد بالزكاة العين و يقدر مضاف محذوف وهو الاداء وقيل الزكاة هنا هى العمل
الصالح لان هذه السورة مكية وانما فرضت الزكاة بالمدينة سنة اثنتين من الهجرة قال البقاعى
والظاهر ان التى فرضت بالمدينة هى ذات النصب وان أصل الزكاة كان واجبا بمكة كما قال
تعالى فى سورة الانعام وآتوا حقه يوم حصاده انتهى * الصفة الخامسة المذكورة فى قوله
تعالى (والذين هم لفروجهم) فى الجماع ومقدماته (حافظون) اى دائما لا يتبعونها شهواتها
والفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام ثم استثنى من ذلك قوله تعالى
(الا على أزواجهم) اللاتى استحقوا أبضاعهن بعقد النكاح ولعلو الذكر عبر بعلى ونظيره
كان زياد على البصرة اى واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا
وقيل على بمعنى من وجرى على ذلك البغوى (أو ما ملكت ايمانهم) رقابه من الاماء (فان
قيل) هلا قال تعالى أو من ملكت (أجيب) بانه انما عبر بما لقرب الاماء مما لا يعقل لنقصهن
عن الحرائر الناقصات عن الذكر ولانه اجتمع فيها وصفان أحدهما الانوثة وهى مظنة
نقصان العقل والاخرى كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع قال البغوى والآية
فى الرجال خاصة لان المرأة لا يجوز لها ان تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) على ذلك
اذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الاتيان فى غير المأتى وفى حال الحيض أو النفاس أو نحو
ذلك كوطء الامة قبل الاستبراء فانه حرام ومن فعله فانه ملوم (فمن ابتغى) اى طلب متعديا
(وراء ذلك) العظيم المنفعة الذى وقع استثناؤه بزنا أو لواط أو استمناء بيد أو بهيمة أو غيرها
(فأولئك) المبعدون من الفلاح (هم العادون) اى المبالغون فى تعدى الحدود عن سعيد
ابن جبير قال عذب الله تعالى أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم اى فى أيديهم وقيل يحشرون

لان القدرة فيها أعظم
واعجب منها الى غيرها (قوله

وأيديهم حبالى والصفة السادسة المذكورة في قوله تعالى (والذين هم لاماناتهم) اى في الفروج وغيرها سواء كانت بينهم وبين الله تعالى كالصلاة والصيام أو بينهم وبين الخلق كالودائع والبضائع أوفي المعاني الباطنة كالاخلاص والصدق (وعهدهم راعون) اى حافظون بالقيام والرعاية والاصلاح والعهد ما عقده الشخص على نفسه فيما يقربه الى ربه ويقع أيضا على ما أمر الله تعالى به كقوله تعالى الذين قالوا ان الله عهد الينا * (تنبيه) * سمى الشئ المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها وقال تعالى وتخونوا أماناتكم وانما تؤدى العيون لا المعانى ويخان المؤتمن عليها لا الامانة في نفسها وقرأ ابن كثير لامانتهم بغير ألف بين النون والتاء على الافراد لأمن الالباس أولانها في الاصل مصدر والباقون بالالف على الجمع * الصفة السابعة المذكورة في قوله تعالى (والذين هم على صلواتهم) التي وصفوا بالخشوع فيها (يحافظون) اى يواظبون عليها ولا يتركون شيأ من مفروضاتها ولا مسنوناتها ويجتهدون في كمالاتها جهدهم ويؤدونها في أوقاتها (فان قيل) كيف كرر الصلاة أولا وآخرا (أجيب) بانهما ذكران مختلفان فليس بمكرر وصفوا أولا بالخشوع في صلاتهم وآخرا بالمحافظة عليها وذلك ان لايسهوا عنها ويؤدوها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوطنوا أنفسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي ان تتم به أوصافها وأيضا فقد وحدت أولا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة اى صلاة كانت وجمعت آخرا على غير قراءة حمزة والكسائي فان غيرهما قرأ بالجمع وأما هما فقرآ بالافراد لتفاد المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة وصلاة الجنازة والعيدين والكسوفين والاستسقاء والوتر والضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل * ولما ذكر تعالى مجموع هذه الصفات العظيمة ذكر جزاءهم فقال تعالى (أولئك) اى البالغون من الاحسان أعلى مكان (هم الوارثون) اى المستحقون لهذا الوصف فهم يرثون منازل أهل الجنة في الجنة روى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وقال مجاهد لكل واحد منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فاما المؤمن فيبنى منزله الذي له في الجنة ويهدم منزله الذي له في النار وأما الكافر فيهدم منزله الذي في الجنة ويبنى منزله الذي له في النار وقال بعض المفسرين معنى الوراثة هو ان يؤل أمرهم الى الجنة وينالوها كما يؤل أمر الميراث الى الوارث (الذين يرثون الفردوس) وهو أعلى الجنة عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون عرش الرحمن فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس اللهم بجاه محمد صلى الله عليه وسلم أن تجعلنا ووالدينا وأحبابنا من أهله (هم فيها خالدون) أى لايخرجون منها ولا يموتون وأنث الفردوس بقوله تعالى فيها على تأويث الجنة وهو البستان الواسع الجامع لاصناف الثمر روي أن الله تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفي رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد

فمنهم من يمشي على بطنه) الآية فيه مجاز التغليب

الفاكهة

حيث استعمل من وهي لمن يعقل في غيرها لوقوعه

الثنا كهة وجيد الريحان وروى أن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده ثم قال وعزتي لايدخلها مدمن خمر ولاديوث والمراد أن الله تعالى لم يكل ذلك الى غيره من ملك من الملائكة والجنة مخلوقة الآن قال تعالى أعدت للمتقين ولما أمر سبحانه وتعالى بالعبادات في هذه الآيات والاشتغال بعبادة الله لايصح الا بعد معرفة الله تعالى عقبها بذكر مايدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا الاول الاستدلال بتقلب الانسان في أدوار الخلقة وأدوار الفطرة وهي تسع مراتب الاولى قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) اى آدم (من سلالة) هي من سللت الشئ من الشئ اى استخرجته منه وهو خلاصته وقال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقوله تعالى (من طين) متعلق بسلالة وقيل المراد بالانسان هذا النوع والسلالة قال مجاهد من بني آدم وقال عكرمة هو الماء يسيل من الظهر والعرب تسمي النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لانهما مسلولان منه المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم جعلناه) أى نسله فحذف المضاف (نطفة) أى منيا من الصلب والترائب بأن خلقناه منها (في قرار مكين) أى مستقر حصين هو الرحم *(تنبيه)* مكين في الاصل صفة للمستقر في الرحم وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم) أى بعد تراخ في الزمان وعلو في الرتبة والعظمة (خلقنا) أى بما لنا من العظمة (النطفة) أى البيضاء جدا (علقة) حمراء دما غليظا شديد الحمرة جامدا غليظا المرتبة الرابعة قوله تعالى (فخلقنا) أى بما لنا من القوة والقدرة العظيمة (العلقة مضغة) أى قطعة لحم قدر ما يمضغ لاشكل فيها ولاتخطيط المرتبة الخامسة قوله تعالى (فخلقنا المضغة) أى بتقليبها بما شئنا لها من الحرارة والامور اللطيفة الغامضة (عظاما) من رأس ورجلين ومابينهما المرتبة السادسة قوله تعالى (فكسونا) بما لنا من قوة الاختراع تلك (العظام لحما) بما ولدنا منها ترجيعا لها الى ما قبل كونها عظاما فسترنا تلك العظام وقويناها وشددناها بالروابط والاعصاب وقرأ ابن عامر وأبو بكر عظما والعظم بفتح العين واسكان الظاء من غير ألف على التوحيد اكتفاء باسم الجنس عن الجمع والباقون بكسر العين وفتح الظاء وألف بعدها على الجمع قال الجلال المحلي وخلقنا في المواضع الثلاثة بمعنى صيرنا المرتبة السابعة قوله تعالى (ثم أنشأناه) أى هذا المحدث عنه بعظمتنا (خلقا آخر) أى خلقا مباينا للخلق الاول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع ظاهره وباطنه بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطره وغرائب حكمه لاتدرك بوصف الواصف ولاتبلغ بشرح الشارح وثم لما بين الخلقين من التفاوت قال الزمخشري وقد احتج به أبو حنيفة رحمه الله فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده فقال يضمن البيضة ولايرد الفرخ لانه خلق آخر سوى البيضة اه ولما كان هذا التفصيل لتطوير الانسان سببا لتعظيم الخالق قال تعالى (فتبارك الله) اى تنزه عن كل شائبة نقص وحاز جميع صفات الكمال وأشار الى جمال الانسان بقوله تعالى (أحسن الخالقين) اى المقدرين وتمييز أحسن محذوف اى خلقا روى عن عمر رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا آخر

قال فتبارك الله أحسن الخالقين وروى ان عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول
الله صلى الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل املائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
اكتب هكذا نزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فانا نبي يوحى الي فلحق بمكة كافرا
ثم أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن
الخطاب فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت
يا عمر وكان عمر يقول وافقني ربي في أربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولي
لهن أو ليبدلنه الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن الآية والرابع قلت
فتبارك الله أحسن الخالقين فقال هكذا نزل قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة
لعمر والشقاوة لعبد الله بن سعد بن أبي سرح فانه قيل انه مات كافرا قال الله تعالى يضل به
كثيرا ويهدي به كثيرا المرتبة الثامنة قوله تعالى (ثم انكم بعد ذلك) اى الامر العظيم من
الوصف بالحياة والمد في العمر في آجال متفاوتة ما بين طفل ورضيع ومحتلم شديد وشاب نشيط
وكهل عظيم وشيخ هرم الى ما بين ذلك من شؤن لا يحيط بها الا اللطيف الخبير (لميتون) اى
لصائرون الى الموت لا محالة ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت وهو ميت دون اسم الفاعل وهو
مائت فانه للحدوث لا للثبوت المرتبة التاسعة قوله تعالى (ثم انكم يوم القيامة) اى الذي
تجمع فيه جميع الخلائق (تبعثون) للحساب والجزاء * النوع الثاني من الدلائل الاستدلال
بخلق السموات وهو قوله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم) في جميع جهة الفوق في ارتفاع
لا تدركونه حق الادراك (سبع طرائق) أى سموات جمع طريقة لانها طرق الملائكة
ومتعلقاتهم وقيل الافلاك لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها وقيل لانها طرق بعضها
فوق بعض كطارقة النعل وكل شئ فوقه مثله فهو طريقة (وما كنا) أى بما لنا من العظمة
(عن الخلق) أى الذي خلقناه تحتها (غافلين) أى ان تسقط عليهم فتهلكهم بل نمسكها كآية
ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ولا مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال
والاختلاف وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى أمرها وما قدرناه لها من الكمال حسب ما اقتضته
الحكمة وتعلقت به المشيئة * النوع الثالث من الدلائل الاستدلال بنزول الامطار وكيفية
تأثيرها في النبات وهو قوله تعالى (وأنزلنا من السماء) أى من جرمها وهو ظاهر اللفظ وعليه
أكثر المفسرين أو من السحاب وسماه سماء لعلوه (ماء بقدر) اى بقدر ما يكفيهم لما شئتم في
الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة ويسلمون معه من المضرة اذ لو كان فوق ذلك
لاغرقت البحار الامطار ولو كان دون ذلك لادى الى جفاف النبات والاشجار (فاسكناه) اى
فجعلناه ثابتا مستقرا (في الارض) كقوله تعالى فسلكه ينابيع في الارض وعن ابن عباس
عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون نهر الهند
وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين
واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل فاستودعها الجبال
وأجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس من أصناف معايشهم فاذا كان عند خروج
يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبريل فرفع من الارض القرآن والعلم كله والحجر الاسود

تفصيلا لما يعمهما وهو كل دابة وفيه أيضا مجاز

من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء وذلك قوله تعالى (وانا على ذهاب به لقادرون) قدرة هي في نهاية العظمة فانا كما قدرنا على ايجاده واختراعه نقدر على رفعه وازالته وزواله فاذا رفعت هذه الاشياء كلها من الارض فقد أهلها خير الدين والدنيا قال البغوى وروى هذا الحديث الامام الحسن بن سفيان عن عثمان بن سعيد عن سابق الاسكندرى عن سلمة بن على عن مقاتل بن حيان *(تنبيه)* في تنكير ذهاب ايماء الى تكثير طرقه وفيه ايذان باقتدار المذهب وأنه لا يتعايا عليه شئ اذا أراده وهو أبلغ في الايعاد من قوله تعالى قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفاده اذا لم تشكر ثم انه تعالى سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده هذه النعمة الحاصلة من الماء بقوله تعالى (فانشأنا) أى فاخرجنا وأحيينا (لكم) خاصة لا لنا (به) أى بذلك الماء الذى جعلنا منه كل شئ حى (جنات) أى بساتين (من نخيل وأعناب) صرح بهذين الصنفين لشرفهما ولانهما أكثر ما عند العرب من الثمار وسمى الاول باسم شجرته لكثرة ما فيها من المنافع المقصودة بخلاف الثانى فانه المقصود من شجرته وأشار الى غيرهما بقوله تعالى (لكم) اى خاصة (فيها) اى الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) اى ومن الجنات من ثمارها وزروعها (تأكلون) رطبا ويابسا وتمرا وزبيبا وقوله تعالى (وشجرة) عطف على جنات اى وأنشأنا لكم شجرة اى زيتونة (تخرج من طور سيناء) وهو الجبل الذى كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه السلام بين مصر وايلة وقيل بفلسطين وفى رواية أخرى طور سينين ولا يخلو اما أن يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء أو سينين واما ان يكون اسم الجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فمن أضاف فمن كسر سين سيناء وهو نافع وابن كثير وأبو عمرو فقد منع الصرف للتعريف والعجمة والتأنيث لانها بقعة وفعلاء لا تكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن قرأ بفتح السين وهم الباقون لم يصرفه لان الالف للتأنيث كصحراء قال مجاهد معناه البركة أى من جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن أى الجبل الحسن وقال الضحاك هو بالنبطية ومعناه الحسن وقال عكرمة بالحبشية وقال مقاتل كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سيناء وسينين بلغة النبط وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (تنبت) بضم التاء الفوقية وكسر الباء الموحدة من الرباعى والباقون بفتح الفوقية وضم الموحدة من الثلاثى فقوله تعالى (بالدهن) تكون الباء على الاول زائدة وعلى الثانى معدية قال المفسرون وانما أضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منه تشعبت فى البلاد وانتشرت لان معظمها هناك قال بعض المفسرين وانما عرف الدهن لانه أجل الادهان وأكملها وهو فى الاصل مائع لزج خفيف يتقطع ولا يختلط بالماء الذى هو أصله فيسرج ويدهن به وقوله تعالى (وصبغ للآكلين) عطف على الدهن اى ادام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت قيل انها أول شجرة نبتت بعد الطوفان ووصفها الله تعالى بالبركة فى قوله تعالى توقد من شجرة مباركة * النوع الرابع من الدلائل الاستدلال باحوال الحيوانات وهو قوله تعالى (وان لكم فى الانعام) وهى الابل والبقر والغنم (لعبرة) عظيمة تعتبرون بها وتستدلون بها على البعث وغيره (نسقيكم مما فى بطونها) اى اللبن نجعله لكم شرابا نافعا للبدن موافقا للشهوة تلذذون به من

التنبيه اذا اسناد ما ذكر الى الملبية زحف لا مشى

بين الفرث والدم (ولكم فيها) أى جماعة الانعام وقدم الجار تعظيما لمنافعها حتى كأن غيرها عدم (منافع كثيرة) باستسلامها لما يراد منها مما لا يتيسر من أصغر منها وبأولادها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وغير ذلك من آثارها (ومنها تأكلون) اى وكما تنتفعون بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضا بسهولة من غير امتناع ما من شئ من ذلك ولو شاء لمنعها وسلطها عليكم ولو شاء لجعل لحمها لا ينضج أو جعله قذرا لا يؤكل ولكنه بقدرته وعلمه هيأها لما ذكر وذللها (وعليها) أى الانعام الصالحة للحمل وهى الابل والبقر وقيل المراد الابل خاصة لانها هى المحمول عليها فى العادة وقرنها بالفلك التى هى السفن فى قوله تعالى (وعلى الفلك تحملون) لانها سفائن البر كما يحمل على الفلك فى البحر فيحمل على هذه فى البر قال ذو الرمة فى الصيدح
• سفينة بر تحت خدى زمامها • قال الزمخشرى يريد صيدحه أى ناقته لان اسمها كان صيدح قال

رأيت الناس ينتجعون غيثا • فقلت لصيدح انتجعى بلالا

يريد بلال بن أبى بردة الاشعرى والى الكوفة ولما بين سبحانه وتعالى دلائل التوحيد أردفها بذكر القصص كما هو العادة فى سائر السور مبتدئا بقصة نوح عليه السلام فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (نوحا) وهو الاب الثانى بعد آدم عليهما الصلاة والسلام وكان اسمه يشكر وسمى نوحا لوجوه أحدها لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فاهلكهم الله تعالى بالطوفان فندم على ذلك ثانيها لمراجعته ربه فى شان ابنه ثالثها أنه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك (الى قومه) وهم جميع أهل الارض لتواصل ما بينهم لكونهم على لغة واحدة محصورين لا لأنه أرسل الى الخلق كافة لان ذلك من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء (فقال) أى فتسبب عن ذلك ان قال (يا قوم) ترفقا بهم (اعبدوا الله) وحده لانه الهكم وحده لاستحقاقه لجميع خلال الكمال واستانف على سبيل التعليل قوله (ما لكم من اله) اى معبود بحق (غيره) فلا تعبدوا سواه (أفلا تتقون) اى أفلا تخافون عقوبته ان عبدتم غيره وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء والباقون بضمهما (فقال) اى فتسبب عن ذلك أن كذبوه بان قال (الملأ) اى الاشراف الذين تملأ رؤيتهم الصدور عظمة (الذين كفروا من قومه) لعوامهم (ما هذا) اى نوح عليه السلام (الا بشر مثلكم) اى فلا يعلم ما لا تعلمون فانكروا ان يكون بعض البشر نبيا ولم ينكروا ان يكون بعض الطين انسانا وبعض الماء علقة وبعض العلقة مضغة الى آخره فكأنه قيل ما حمله على ذلك فقالوا (يريد ان يتفضل) يتكلف الفضل بادعاء مثل هذا (عليكم) لتكونوا أتباعا له ولا خصوصية له دونكم (ولو شاء الله) اى الملك الاعلى الارسال اليكم وعدم عبادة غيره (لأنزل) كذلك (ملائكة) رسلا بابلاغ الوحى الينا قال الزمخشرى وما أعجب شان الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر ورضوا للالوهية بحجر (ما سمعنا بهذا) اى الذى دعا اليه نوح من التوحيد (فى آبائنا الاولين) اى الامم الماضية (ان) اى ما (هو الا رجل به جنة) اى جنون ولاجله يقول ما يدعيه (فتربصوا به) اى فتسبب عن الحكم بجنونه انا نامركم بالكف عنه لانه لا حرج على مجنون (حتى) اى الى (حين) لعله يفيق

لكنه يشبه فى السفر
(قوله والذين لم يبلغوا

وإعوتنه فكأنه قيل فما قال فقيل (قال) عندما يئس من فلاحهم (رب انصرني) أى أعنى عليهم (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم لى فإن تكذيب الرسول استخفاف بالمرسل (فأوحينا) أى فتسبب عن دعائه أن أوحينا (إليه أن اصنع الفلك) أى السفينة (بأعيننا) أى انه لا يغيب عنا شئ من أمرك ولا من أمرهم وإن تعرف قدرتنا على كل شئ فتثق بحفظنا ولا تخف شيأ من أمرهم روى انه لما أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر قال الجوهرى جؤجؤ الطائر والسفينة صدرهما والجمع الجآجئ ولما كان لا يعلم الصنعة قال تعالى (ووحينا) أى وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع فإن جبريل علمه عمل السفينة ووصف كيفية اتخاذها وقد تقدم الكلام عليها مستوفى فى سورة هود (فإذا جاء أمرنا) أى بالهلاك عقب فراغك منها أو بالركوب (وفار التنور) قال ابن عباس وجه الارض وفى القاموس التنور الكانون يخبز فيه ووجه الارض وعن قتادة أنه أشرف موضع فى الارض أى أعلاه وعن على طلع الفجر وعن الحسن أنه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء إليه وقيل هو مثل كقولهم حمى الوطيس والاقرب كما قال الرازى وعليه أكثر المفسرين هو التنور المعروف بتنور الخبازة فيكون له فيه آية روى أنه قيل لنوح إذا رأيت الماء يفور فى التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الاولى من الهمزتين المفتوحتين من كلمتين وحقق الاولى وسهل الثانية ورش وقنبل (فاسلك) أى أدخل (فيها) أى السفينة (من كل زوجين) من الحيوانات (اثنين) ذكرا وأنثى وقرأ حفص بتنوين اللام من كل أى من كل نوع زوجين فزوجين مفعول واثنين تأكيد والباقون بغير تنوين فاثنين مفعول ومن متعلق باسلك وفى القصة ان الله تعالى حشر لنوح السباع والطير وغيرهما فجعل يضرب بيده فى كل جنس فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الانثى فيحملهما فى السفينة وروى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض (وأهلك) أى وأهل بيتك من زوجك وأولادك (إلا من سبق عليه) لا له (القول منهم) بالهلاك وهو زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم الثلاثة وفى سورة هود ومن آمن وما آمن معه إلا قليل قيل كانوا ستة رجال ونساءهم وقيل جميع من كان فى السفينة ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء (ولا تخاطبنى) أى بالسؤال فى النجاة (فى الذين ظلموا) أى كفروا ثم علل ذلك بقوله تعالى (إنهم مغرقون) أى قد حتم القضاء عليهم لظلمهم بالاشراك والمعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له فإنه تعالى بعد ان أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا الا ضلالا ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق الا ان يجعلوا عبرة للمعتبرين ونحن نكرمك عن سؤال لا يقبل ولقد بالغ سبحانه وتعالى حيث اتبع النهى عنه الامر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم بقوله تعالى (فإذا استويت) أى اعتدلت (أنت ومن معك) أى من البشر وغيرهم (على الفلك) ففرغت من امتثال الامر بالحمل (فقل الحمد لله) أى الذى لا كفء له لانه مختص بصفات الحمد (الذى نجانا) بحملنا فيه

(وان قالت) الحلم منكم كيف أمر الله تعالى

[illegible]

ويحتمله [illegible] القارئين وقرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي [illegible]
والباقون بضم الميم وفتح الزاي أي محل [illegible] ثم أنه تعالى أمره [illegible]
بالثناء عليه المطابق لمسألته وهو قوله تعالى (وأنت خير المنزلين) لأنه [illegible]
[illegible] ولما أمر [illegible] كانت هذه القصة من أغرب القصص حث على تدبرها [illegible]
(إن في ذلك) أي الأمر العظيم من أمر نوح والسفينة وإهلاك الكفار (لآيات) أي دلالات
على قدرة الله تعالى وصدق الأنبياء في أن المؤمنين هم المفلحون وأنهم الوارثون للأرض [illegible]
الظالمين وإن عظمت شوكتهم واشتدت صولتهم (وإن كنا) بما لنا من العظمة والوصف الثابت
لنا العلي بتمام القدرة (لمبتلين) أي فاعلين فعل المختبر المبتلي بإرسال الرسل ليظهر
في عالم الشهادة الصالح منهم من غيره ثم ابتلي الصالحين منهم بعد بعضهم [illegible]
[illegible] ويعلي [illegible] ثم يجعل لهم العاقبة كما قال تعالى والعاقبة للمتقين * (تنبيه) إن
إن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن واللام هي الفارقة ثم القصة الثانية قصة هود
وقيل صالح عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ثم أنشأنا) أي أحدثنا وأحيينا (من
بعدهم) أي من بعد إهلاكهم (قرنا) أي قوما (آخرين) هم عاد قوم هود وقيل ثمود قوم
صالح (فأرسلنا) أي تعقيب انتهاء إهلاكهم وتسبب عنه أنا أرسلنا (فيهم رسولا منهم) هو هود
وقيل صالح قال البغوي والأول هو الأظهر وهو المروي عن ابن عباس ويشهد له حكاية الله
قول هود واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على إثر قصة نوح
في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء ثم بين تعالى ما أرسله به بقوله تعالى (أن اعبدوا
الله) أي وحده ولأنه لا مكافئ له ثم دل على الاستغراق بقوله تعالى (ما لكم من إله غيره
أفلا تتقون) أي [illegible] هذه الحالة التي أنتم عليها [illegible] فتؤمنون [illegible]
[illegible] بضم [illegible] والباقون بكسرها [illegible]
(وقال الملأ) أي الأشراف الذين تملأ رؤيتهم الصدور (من قومه الذين كفروا) [illegible]
[illegible] والاتصاف [illegible] (وكذبوا بلقاء الآخرة) [illegible]
[illegible] (وأترفناهم) [illegible] في الحياة الدنيا [illegible]

[illegible]

يأمركم به (أئنكم إذا) أي إن أطعتموه (لخاسرون) أي مغبونون لكونكم فضلتم مثلكم
عليكم بما يدعيه ثم بينوا انكارهم بقولهم (أيعدكم أنكم إذا متم) ففارقت أرواحكم أجسادكم
(وكنتم) أي وكانت أجسادكم (ترابا) باستيلاء التراب على ما دون عظامكم (وعظاما) مجردة عن
اللحوم والأعصاب (أنكم مخرجون) أي من تلك الحالة التي صرتم إليها فراجعون إلى ما كنتم
عليه من الحياة على ما كان لكم من الأجسام * (تنبيه) * قوله تعالى مخرجون خبر أنكم الأولى
وأنكم الثانية تأكيد لها لما طال الفصل ثم استأنفوا التصريح بما دل عليه الكلام من
استبعاد ذلك فقالوا (هيهات هيهات) اسم فعل ماض بمعنى مصدر أي بعد بعدا جدا وقال ابن
عباس هي كلمة بعد أي بعيد ثم كأنه قيل لأي شيء هذا الاستبعاد فقيل (لما توعدون) من
الإخراج من القبور (فإن قيل) ما توعدون هو المستبعد ومن حقه أن يرفع بهيهات كما ارتفع به
في قوله * فهيهات هيهات العقيق وأهله * فما هذه اللام (أجيب) بأن الزجاج قال في تفسيره البعد
لما توعدون فنزل منزلة المصدر وصح أن تكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت
بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام في هيت لك لبيان المهيت به أو أن اللام زائدة للبيان * (فائدة) *
وقف البزي والكسائي على هيهات الأولى والثانية بالهاء والباقون بالتاء على المرسوم وقولهم
(إن هي) ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله إن الحياة (إلا حياتنا الدنيا) ثم وضع
هي موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها ويبينها ومنه هي النفس تتحمل ما حملت والمعنى لا حياة
إلا هذه الحياة لأن إن النافية دخلت على هي التي بمعنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت
لا التي نفت ما بعدها نفي الجنس (نموت ونحيا) أي يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون
بعدهم وقيل يموت قوم ويحيا قوم وقيل تموت الآباء وتحيا الأبناء وقيل في الآية تقديم وتأخير
أي نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت كما قالوا (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت
فكأنه قيل فما هذا الكلام الذي يقوله فقيل كذب ثم حصروا أمره في الكذب فقالوا (إن)
أي ما (هو إلا رجل افترى) أي تعمد (على الله) أي الملك الأعلى (كذبا) فلا يلتفت إليه
(وما نحن له بمؤمنين) أي بمصدقين فيما يخبرنا به من البعث والرسالة فكأنه قيل فما قال فقيل
(قال رب) أي أيها المحسن إلي بالرسالة وبإرسالي إليهم وبغيره من أنواع النعم (انصرني) أي
أوقع لي النصر (بما كذبون) فأجابه ربه بأن (قال عما قليل) من الزمان وما زائدة وأكدت
القلة بزيادتها (ليصبحن) أي ليصيرن (نادمين) أي على كفرهم وتكذيبهم إذا عاينوا العذاب
(فأخذتهم الصيحة) أي صيحة العذاب والهلاك كائنة (بالحق) أي الأمر الثابت من العذاب
الذي لا يمكن مدافعته لهم ولا لغيرهم غير الله تعالى فماتوا وقيل صيحة جبريل عليه السلام
ويكون القوم ثمود على الخلاف السابق (فجعلناهم) بسبب الصيحة (غثاء) أي مطروحين
ميتين كما يطرح الغثاء شبهوا في دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلي واسود من الورق
والعيدان ومنه قوله فجعله غثاء أحوى أي أسود يابسا * ولما كان هلاكهم على هذا الوجه
سببا لهوانهم عبر عنه بقوله تعالى (فبعدا) أي هلاكا وطردا عن الرحمة (للقوم الظالمين) الذين
وضعوا قوتهم التي كان يجب عليهم بذلها في نصر الرسل في خذلانهم * (تنبيه) * يحتمل هذا الدعاء
عليهم والإخبار عنهم ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل وبعدا وسحقا ودفرا وتحويقا
ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه نصبت

الامر في الحقيقة لاوليائهم ليؤدبوهم (قوله واذا

بافعال لا يستعمل اظهارها • القصة الثالثة المذكورة في قوله تعالى (ثم أنشأنا) أي بعظمتنا التي لا يضرها تقديم ولا تأخير (من بعدهم) أي من بعد من قدمنا ذكره من نوح والقرن الذي بعده (قروناً) أي أقواماً (آخرين) فهو سبحانه وتعالى تارة يقص علينا في القرآن مفصلاً كما تقدم وتارة يقص مجملاً كما هنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام وعن ابن عباس بني اسرائيل ثم انه تعالى أخبر بأنه لم يعجل على أحد منهم قبل الاجل الذي أجل لهم بقوله تعالى (ما تسبق من أمة أجلها) أي الذي قدرناها بأن تموت قبله (وما يستأخرون عنه • (تنبيه) • ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى ومن زائدة (ثم أرسلنا رسلنا تترا) أي متتابعين بين كل اثنين زمان طويل وقرأ أبو عمرو رسلنا بسكون السين والباقون برفعها وقرأ تترا ابن كثير وأبو عمرو في الوصل بتنوين الراء على أنه مصدر بمعنى التواتر وقع حالاً والباقون بغير تنوين • ولما كان كأنه قيل فكان ماذا قيل (كلما جاء أمة رسولها) أي بما أمرناه من التوحيد (كذبوه) أي كما فعل هؤلاء بك لما أمرتهم بذلك • (تنبيه) • أضاف الرسول مع الارسال الى الرسل ومع المجيء الى المرسل اليهم لان الارسال الذي هو مبدأ الامر منه والمجيء الذي هو منتهاه اليهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والواو والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المد (فأتبعنا) القرون بسبب تكذيبهم (بعضهم بعضاً) في الاهلاك فلم يبق عند الناس منهم الا أخبارهم كما قال تعالى (وجعلناهم أحاديث) أي أخباراً يسمعونها ويتعجب منها ليكونوا عظة للمستبصرين فيعلموا أنه لا يفلح الكافرون ولا يخيب المؤمنون وما أحسن قول القائل

ولا شيء يدوم فكن حديثاً • جميل الذكر فالدنيا حديث

والاحاديث تكون جمعاً للحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكون جمعاً للاحدوثة التي هي مثل الاعجوبة والاضحوكة وهي ما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً وهو المراد هنا • ولما تسبب عن تكذيبهم هلاكهم المقتضي لبعدهم قال تعالى (فبعداً لقوم) أي أقوياء على ما يطلب منهم (لا يؤمنون) أي لا يوجد منهم ايمان وان جرت عليهم الفصول الاربعة لانه لا مزاج لهم معتدل • القصة الرابعة قصة موسى وهرون عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ثم أرسلنا) أي بما لنا من العظمة (موسى وأخاه هرون بآياتنا) قال ابن عباس الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والسنين ونقص الثمرات (وسلطان مبين) أي حجة بينة وهي العصا وأفردها بالذكر لانها قد تعلق بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها او كونها حارساً وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلواً ورشاء فجعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضائل فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ويجوز أن يراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لانها وان شاركت آيات سائر الانبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قول موسى عليه السلام وان يراد بالسلطان المبين المعجزات وبالآيات الحجج وان يراد بها المعجزات فانها آيات النبوة وحجة بينة على ما يدعيه النبي قال الرازي واعلم ان

الآية

بلغ الاطفال منكم الحلم) الآية خصها بقوله

الآية تدل على أن معجزات موسى كانت معجزات هرون أيضاً وأن النبوّة كما كانت مشتركة
بينهما فكذلك المعجزات (إلى فرعون وملائه) أي وقومه ولكن لما كان الأطراف لا يخافون
الأشراف عدهم عدماً وبين الواضح أن التقدير أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وأشار بقوله
تعالى (فاستكبروا) إلى أنهم أوجدوا الكبر عن الاتباع فيما دعوهم إليه عقب الإبلاغ من
غير تأمل ولا تثبت وطلبوا أن لا يكونوا تحت أمر من دعاهم وأشار بالكون إلى فساد جبلتهم
بقوله تعالى (وكانوا قوماً) أي أقوياء (عالين) أي متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم ولما تسبب
عن استكبارهم وعلوهم انكارهم للاتباع قال تعالى (فقالوا أنؤمن) أي بالله تعالى مصدقين
(لبشرين مثلنا) أي في البشرية والأكل والشرب وغيرهما مما يعتري البشر كما قال من
تقدمهم (وقومهما) أي والحال أن قومهما أي بني اسرائيل (لنا عابدون) خضوعاً وتذللاً أي
في غاية الذل والانقياد كالعبيد فنحن أعلى منهما بهذا أو لأنه كان يدعي الالهية فادعى للناس
العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة (فكذبوهما) أي فرعون وملؤه موسى وهرون
(فكانوا) أي فرعون وملؤه بسبب تكذيبهم (من المهلكين) أي بالغرق ببحر القلزم ولم تغن
عنهم قوتهم في أنفسهم ولا قوتهم على خضوع بني اسرائيل واستعبادهم ولا ضر بني اسرائيل
ضعفهم عن دفاعهم ولا ذلهم لهم وصغارهم في أيديهم ولما كان ضلال بني اسرائيل بعد انقاذهم
من عبودية فرعون وقومه أعجب قال تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد آتينا) أي
بعظمتنا (موسى الكتاب) أي التوراة (لعلهم) أي قوم موسى وهرون عليهما السلام
(يهتدون) من الضلالة إلى المعارف والأحكام ولا يصح عود الضمير إلى فرعون وملئه لأن
التوراة إنما أوتيها بنو اسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى
الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى * القصة الخامسة قصة عيسى عليه السلام المذكورة
في قوله تعالى (وجعلنا) أي بعظمتنا وقدرتنا (ابن مريم) نسبه إليها تحقيقاً لكونه لا أب له
وكونه بشراً محمولاً في البطن مولوداً لا يصلح لرتبة الالهية وزاد في تحقيق ذلك بقوله (وأمه)
وقال تعالى (آية) ولم يقل آيتين لأن الآية فيهما واحدة ولادته من غير فحل ويحتمل أن الآية
الأولى حذفت لدلالة الثانية عليها والتقدير وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية لأن الله تعالى جعل
مريم آية لأنها حملته من غير ذكر وقال الحسن قد تكلمت في صغرها كما تكلم عيسى وهو قولها
هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلقم ثدياً قط * (تنبيه) * قال بعض
المفسرين ولعل في ذلك إشارة إلى أنه تكلمت به آية القدرة على إيجاد الانسان بكل اعتبار من
غير ذكر ولا أنثى وهو آدم عليه السلام ومن ذكر بلا أنثى وهي حواء عليها السلام ومن أنثى
بلا ذكر وهو عيسى عليه السلام ومن الزوجين وهو بقية الناس (وآويناهما) أي بعظمتنا
(إلى ربوة) أي مكان عال من الأرض * (تنبيه) * قد اختلف في هذه الربوة فقال عطاء عن ابن
عباس هي بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب قال كعب هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية
عشر ميلاً وقال عبد الله بن سلام هي دمشق وقال أبو هريرة هي الرملة وقال السدي هي أرض
فلسطين وقال ابن زيد هي مصر وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء والباقون بضم الراء (ذات
قرار) أي منبسطة مستوية واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) أي ماء جار ظاهر تراه

يبين الله لكم آياته بالاضافة
اليه وختم ما قبلها وما

قوله تكلمت به آية القدرة
لعله تكملت به آية القدرة
والله العليم كذا بهامش

العيون * (تنبيه) * قد اختلف فى زيادة ميم معين واصالتها فوجه من جعلها مفعولا أنه مدرك بالعين لظهوره من عانه اذا أدركه بعينه نحو ركبه اذا ضربه بركبته ووجه من جعله فعيلا أنه نفاع لظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة قيل سبب الايواء أنها فرت بابنها الى الربوة وبقيت بها اثنتى عشرة سنة ثم رجعت الى أهلها بعد ما مات ملكهم وههنا آخر القصص وقد اختلف فى المخاطب بقوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) على وجوه أحدها أنه محمد صلى الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة ثانيها أنه عيسى عليه السلام لانه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل امه ثالثها أنه كل رسول خوطب بذلك ووصى به لانه تعالى فى الازل متكلم آمر ناه ولا يشترط فى الامر وجود المأمورين بل الخطاب ازلا على تقدير وجود المخاطبين فقول البيضاوى لا على انهم خوطبوا بذلك دفعة لانهم ارسلوا فى أزمنة مختلفة بل على معنى ان كلا منهم خوطب به فى زمانه تبع فيه الكشاف فان المعتزلة أنكروا قدم الكلام فحملوا الآية على خلاف ظاهرها وأنت خبير بأن عدم اشتراط ما ذكر انما هو فى التعلق المعنوى لا التنجيزى الذى الكلام فيه فانه مشروط فيه ذلك وانما خاطب جميع الرسل بذلك ليعتقد السامع ان أمرا خوطب به جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه وهذا كما قال الرازى أقرب لانه روى عن ام عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده صلى الله عليه وسلم الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رده صلى الله عليه وسلم وقال من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها من مالى فأخذه ثم انها جاءته فقالت يا رسول الله لم رددته فقال صلى الله عليه وسلم بذلك أمرت الرسل أن لا تأكل الا طيبا ولا تعمل الا صالحا والمراد بالطيب الحلال وقيل طيبات الرزق الحلال الصافى القوام فالحلال هو الذى لا يعصى الله تعالى فيه والصافى هو الذى لا ينسى الله فيه والقوام هو الذى يمسك النفس ويحفظ العقل وقيل المراد بالطيب المستلذ أى ما تستلذه النفس من المأكل والمشرب والفواكه ويشهد له مجيئه على عقب قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين واعلم أنه سبحانه وتعالى كما قال للمرسلين يا أيها الرسل كلوا من الطيبات قال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ودل سبحانه وتعالى على ان الحلال عون على الطاعة بقوله تعالى (واعملوا صالحا) فرضا ونفلا سرا وجهرا غير خائفين من أحد غير الله تعالى ثم حثهم على دوام المراقبة بقوله تعالى (انى بما) أى بكل شئ (تعملون عليم) أى بالغ العلم فأجازيكم عليه وقرأ (وان هذه) بكسر الهمزة الكوفيون على الاستئناف والباقون بفتحها على تقدير واعلموا أن هذه أى ملة الاسلام وخفف النون ساكنة ابن عامر وشددها مفتوحة الباقون (أمتكم) أى دينكم أيها المخاطبون أى يجب أن تكونوا عليها حال كونها (أمة واحدة) لا شتات فيها أصلا فما دامت موحدة فهى مرضية (وأنا ربكم) أى المحسن اليكم بالخلق والرزق وحدى فمن وحدنى نجا ومن أشرك بى غيرى هلك (فاتقون) أى فاحذرون (فتقطعوا) أى الامم وانما أضمرهم لوضوح ارادتهم لان الآية التى قبلها قد صرحت بأن الانبياء ومن نجاهم أمة واحدة لا خلاف بينهم فعلم قطعا أن الضمير للامم ومن نشأ بعدهم ولذلك كان النظر الى الامر

بعدها بقوله يبين الله لكم الآيات بالتعريف

الذي كان واحداً أمهم فقدم وقوله (أمرهم) أي دينهم بعد ان كان مجتمعاً متصلا (بينهم) وقوله تعالى (زبرا) حال من فاعل تقطعوا أي أحزاباً متخالفين فصاروا فرقاً كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الاديان المختلفة جمع زبور بمعنى الفرقة وقيل معنى زبرا كتباً أي تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب (كل حزب) أي فرقة من المتحزبين (بما لديهم) أي عندهم من ضلال وهدى وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (فرحون) أي مسرورون فضلا عن أنهم راضون وقوله تعالى (فذرهم) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي اترك كفار مكة (في غمرتهم) أي ضلالتهم شبهها بالماء الذي يغمر القامة لانهم مغمورون فيها (حتى حين) أي الى أن يقتلوا أو يموتوا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره ولما كان الموجب لغرورهم ظنهم ان حالهم في بسط الارزاق من الاموال والاولاد حالة رضا عنهم أنكر ذلك عليهم تنبيها لمن سبقت له السعادة وكتبت له الحسنى وزيادة فقال تعالى (أيحسبون) أي أيضعف عقولهم وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (أنما نمدهم) أي نعطيهم ونجعله مدداً لهم (به من مال) نيسره لهم (وبنين) نمتعهم بهم ثم أخبر عن أن بقوله تعالى (نسارع) أي نعجل (لهم) أي به (في الخيرات) لا نفعل ذلك (بل لا يشعرون) أنهم في غاية البعد عن الخيرات نستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال تعالى في موضع آخر فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون وروي عن زيد بن ميسرة أنه قال أوحى الله تعالى الى نبي من الانبياء أيفرح عبدي أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له مني ويجزع أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له مني وعن الحسن انه لما أتى عمر رضي الله عنه بسواري كسرى فأخذهما ووضعهما في يد سراقة بن مالك فبلغا منكبيه فقال عمر اللهم اني قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يصيب مالا لينفقه في سبيلك فزويت ذلك عنه ثم ان أبا بكر كان يحب ذلك اللهم لا يكون ذلك مكراً منك ثم تلا أيحسبون الآية ولما ذكر أهل الافتراق ذكر أهل الوفاق ووصفهم بأربع صفات الاولى قوله تعالى (ان الذين هم) أي ببواطنهم (من خشية ربهم) أي الخوف العظيم من المحسن اليهم المنعم عليهم (مشفقون) أي دائمون على الحذر الصفة الثانية قوله تعالى (والذين هم بآيات ربهم) أي القرآن (يؤمنون) أي يصدقون الصفة الثالثة قوله تعالى (والذين هم بربهم) أي الذي لا محسن اليهم غيره (لا يشركون) أي شيأ من شرك في وقت من الاوقات كما لم يشركه في الاحسان اليهم أحد ولما أثبت لهم الايمان الخالص نفى عنهم العجب بقوله تعالى (والذين يؤتون) أي يعطون (ما آتوا) أي ما أعطوا من الصدقة والاعمال الصالحة وهذه الصفة الرابعة (وقلوبهم وجلة) أي شديدة الخوف أن لا يقبل منهم ولا ينجيهم من عذاب الله ثم علل ذلك بقوله تعالى (أنهم الى ربهم) أي الذي طال احسانه اليهم (راجعون) بالبعث فيجازيهم على النقير والقطمير ويجزيهم بكل قليل وكثير وهو الناقد البصير ولا تنفع هنالك الندامة وليس هنالك الا الحكم العدل والحكم القاطع من جهة مالك الملك قال الحسن البصري المؤمن جمع ايماناً وخشية والمنافق جمع اساءة وامناً ثم أثبت لهم ما أفهم ان ضده لاضدادهم بقوله تعالى (أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) أي

بال لانهم سماتهم بشلان
علامات يمكننا الوقوف

قوله ثم أخبر عن أن الخ أي لان ما موصولة فكان حقها ان تكتب مفصولة لكن وصلت اتباعاً لرسم المصحف والعائد محذوف تقديره نسارع لهم به أو فيه افاده الجمل اه مصححه

يبادرون الى الاعمال الصالحة قبل الموت * ولما ذكر تعالى كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر أنه تعالى لا يكلف أحدا فوق طاقته بقوله تعالى (ولا نكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها فمن لم يستطع أن يصلي الفرض قائما فليصل قاعدا ومن لم يستطع أن يصلي قاعدا فليصل مضطجعا ومن لم يستطع أن يصوم رمضان فليفطر لان مبنى المخلوق على العجز (ولدينا) أى وعندنا (كتاب ينطق بالحق) بما عملته كل نفس وهو اللوح المحفوظ تسطر فيه الاعمال وقيل كتب الحفظة ونظيره قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فشبه تعالى الكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرف بما فيه كما يعرف بنطق الناطق اذا كان محقا (فان قيل) ما فائدة ذلك الكتاب مع ان الله تعالى يعلم ذلك اذ لا يخفى عليه خافية (أجيب) بأن الله تعالى يفعل ما يشاء وقد يكون في ذلك حكمة لا يطلع عليها الا هو تعالى (وهم) أى الخلق كلهم (لا يظلمون) أى لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد في سيئاتهم * ثم ذكر حال الكفار فقال تعالى (بل قلوبهم) أى الكفرة من الخلق (في غمرة) أى جهالة قد أغرقتها (من هذا) أى القرآن أو الذى وصف به حال هؤلاء أو من كتاب الحفظة (ولهم أعمال من دون ذلك) المذكور للمؤمنين (هم) أى الكفار (لها) أى لتلك الاعمال الخبيثة (عاملون) أى لابد أن يعملوها فيعذبون عليها لما سبق لهم من الشقاوة (حتى اذا أخذنا مترفيهم) أى رؤساءهم وأغنياءهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فابتلاهم الله تعالى بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والقذر والاولاد (اذا هم يجأرون) أى يصيحون ويستغيثون ويجزعون وأصل الجأر رفع الصوت بالتضرع قاله البغوى فكأنه قيل فهل يقبل اعتذارهم أو يرحم انكسارهم فقيل لا بل يقال لهم بلسان الحال أو المقال (لا تجأروا اليوم) فان الجأر غير نافع لكم * ثم علل ذلك بقوله تعالى (انكم منا لا تنصرون) أى بوجه من الوجوه ومن عدم نصر الله لم يجد له ناصرا ولا فائدة للجأر الا اظهار الجزع ثم علل عدم نصرهم بقوله تعالى (قد كانت آياتى) أى من القرآن (تتلى عليكم) أى من أوليائى وهم الهداة النصحاء (فكنتم) كونا هو كالجبلة (على أعقابكم) عند تلاوتها (تنكصون) أى تعرضون مدبرين عن سماعها والعمل بها والنكوص الرجوع القهقرى (مستكبرين) عن الايمان واختلف في عود الضمير في (به) فقال ابن عباس بالبيت الحرام وشهرة استكبارهم وافتخارهم أنهم قوامه أغنت عن سبق ذكره وذلك أنهم يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف وقيل بالقرآن فلم يؤمنوا به وقوله تعالى (سامرا) نصب على الحال أى جماعة يتحدثون بالليل حول البيت وقوله تعالى (تهجرون) قرأه نافع بضم التاء وكسر الجيم من الاهجار وهو الافحاش اى تفحشون وتقولون الخنى ذكر انهم كانوا يسبون النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والباقون بفتح التاء وضم الجيم اى تعرضون عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الايمان وعن القرآن وترفضونه او تسمون القرآن سحرا وشعرا * ثم انه تعالى لما وصف حالهم رد عليهم بأن بين أن اقدامهم على هذه الامور لابد أن يكون لاحد أمور أربعة أحدها

عليها وهى فى الاولى من
قبل صلوة الفجر وبين

ان

أن لا يتأملوا في دليل نبوته وهو المراد من قوله تعالى (أفلم يدبروا القول) أي القرآن الدال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأصل يدبروا يتدبروا أدغمت التاء في الدال ثانيها أن يعتقدوا ان ما جاء به الرسول أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله تعالى (أم جاءهم) في هذا القول (ما لم يأت آباءهم الاولين) الذين بعد اسمعيل وقبله ثالثها ان لا يكونوا عالمين بأمانته وحسن حاله قبل ادعائه النبوة وهو المراد من قوله تعالى (أم لم يعرفوا رسولهم) أي الذي أتاهم بهذا القول الذي لا قول مثله وهم يعرفون نسبه وصدقه وأمانته وما جاءهم به من معالي الاخلاق حتى انهم لا يجدون فيه اذا تحققت الحقائق نقيصة يذكرونها ولا وصمة يستحلونها كما دلت عليه الاحاديث الصحاح منها حديث أبي سفيان بن حرب الذي في أول البخاري في سؤال هرقل ملك الروم له عن شأنه صلى الله عليه وسلم وقد اتفقت كلمتهم عليه بتسميته الامين (فهم) اى فتسبب عن جهلهم به أنهم (له) أي نفسه أو القول الذي أتى به (منكرون) فيكونوا ممن جهل الحق لجهل حال الآتي به وفي هذا غاية التوبيخ لهم بجهلهم وبغباوتهم بأنهم يعرفون أنه أصدق الخلق وأعلاهم في كل معنى جميل ثم كذبوه رابعها أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا انما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله تعالى (أم يقولون) أي بعد تدبر ما أتى به وعدم عثورهم فيه على وجه من وجوه الطعن (به) اى رسولهم (جنة) أي جنون فلا يوثق به * ولما كانت هذه الاقسام منفية عنه فانهم أعرف الناس بهذا النبي الكريم وانه أكملهم خلقا وأشرفهم خلقا وأطهرهم شيما وأعظمهم هما وأرجحهم عقلا وأمتنهم رأيا وأرضاهم قولا وأصوبهم فعلا اضرب عنها وقال تعالى (بل) أي لم ينكصوا عند سماع الآيات ويسمروا ويهجروا لاعتقاد شيء مما مضى وانما فعلوا ذلك لان هذا الرسول الكريم (جاءهم بالحق) أي القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الاسلام وقال الجلال المحلي الاستفهام فيه للتقرير بالحق من صدق النبي ومجيء الرسل للامم الماضية ومعرفة رسولهم بالصدق والامانة وان لا جنون به و بل للانتقال (وأكثرهم) أي والحال ان أكثرهم (للحق كارهون) متابعة للاهواء الردية والشهوات البهيمية عنادا وانما قيد تعالى الحكم بالاكثر لان بعضهم يتركه جهلا وتقليدا وخوفا من أن يقال صبا أو بعضهم يتبعه توفيقا من الله تعالى وتأييدا ثم بين تعالى ان اتباع الهوى يؤدي الى الفساد العظيم بقوله تعالى (ولو اتبع الحق) أي القرآن (أهواءهم) بان جاء بما يهوونه من الشرك والولد لله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (لفسدت السموات) على علوها واحكامها (والارض) على كثافتها وانتظامها (ومن فيهن) على كثرتهم وانتشارهم وقوتهم أي خرجت عن نظامها المشاهد بسبب ادعائهم تعدد الآلهة لوجود التمانع في الشيء عادة عند تعدد الحاكم كما سبق تقريره في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (بل أتيناهم) بعظمتنا (بذكرهم) اي بالقرآن الذي فيه ذكرهم وشرفهم وقيل بالذكر الذي تمنوه بقولهم لو أن عندنا ذكرا من الاولين (فهم عن ذكرهم) اى الذي هو شرفهم (معرضون) لا يلتفتون اليه ثم بين تعالى ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا لنفرتهم بقوله تعالى (أم تسألهم) أي على ما جئتهم به (خرجا) اي أجرا وقرأ حمزة والكسائي بفتح الراء وبعدها ألف والباقون بسكون الراء ولما كان الانكار معناه النفي حسن موقع فاء السببية في قوله تعالى

تضعون ثيابكم من
الظهيرة ومن بعد صلوة

(فخراج ربك) اى رزقه فى الدنيا وثوابه فى العقبى (خير) لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم وقرأ ابن عامر بسكون الراء والباقون بفتحها وألف بعدها قال ابو عمرو بن العلاء الخرج ماتبرعت به والخراج مالزمك اداؤه قال الزمخشرى والوجه ان الخرج اخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة اى الرقبة فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعنى ام تسالهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير وقوله تعالى (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية خراجه ❊ ولما زيف سبحانه وتعالى طريق القوم اتبعه بصحة ماجاء به الرسول عليه السلام بقوله تعالى (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) تشهد عقولهم السليمة على استقامته لاعوج فيه يوجب اتهامهم له كما تشهد له به العقول الصحيحة فمن سلكه أوصله الى الغرض فحاز كل شرف ❊ (تنبيه) ❊ قد ألزمهم الله تعالى الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم فان الذى أرسل اليهم رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم وأنه لم يعرض له حتى يدعى مثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل له سلما الى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم الى دين الاسلام الذى هو الصراط المستقيم الامع ابراز المكنون من أدوائهم وهو اخلالهم بالتدبر والتأمل من غير برهان (وان الذين لايؤمنون بالآخرة) اى بالبعث والثواب والعقاب (عن الصراط) اى الذى لاصراط غيره لانه لاموصل الى القصد غيره (لناكبون) اى عادلون منحرفون فى سائر أحوالهم سائرون على غير منهج أصلا بل خبط عشواء (ولو رحمناهم) اى عاملناهم معاملة المرحوم فى ازالة ضرره وهو معنى قوله تعالى (وكشفنا مابهم من ضر) اى جوع أصابهم بمكة سبع سنين (للجوا) اى عادوا وتمادوا (فى طغيانهم) الذى كانوا عليه قبل هذا (يعمهون) اى يترددون (ولقد أخذناهم بالعذاب) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسنى يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فقد أكلوا القرث والعظام والعلهز وشكا اليه الضرع فادع الله تعالى أن يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فانزل الله تعالى هذه الآية ❊ (تنبيه) ❊ العلهز وبر يخلط بدماء الحلم فيؤكل فى الجدب والعلهز أيضا القراد الضخم وشكا بعض الاعراب الى النبى صلى الله عليه وسلم السنة فقال

ولاشئ مما يأكل الناس عندنا ❊ سوى الحنظل العامى والعلهز الفسل

وليس لنا الا اليك فرارنا ❊ وأين فرار الناس الا الى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسقى لرفع هذه المحن فقال الله تعالى عنهم (فما استكانوا) اى خضعوا خضوعا هو كالجبلة لهم وأصله طلب السكون (لربهم) اى المحسن اليهم عقب المحنة (وما يتضرعون) اى يجددون الدعاء بالخضوع والذل والخشوع فى كل وقت بحيث يكون لهم عادة بل هم على ماجبلوا عليه من الاستكبار والعتو (حتى اذا فتحنا عليهم بابا) اى صاحب (عذاب شديد) قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وهو قول مجاهد وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة (اذاهم فيه) اى ذلك الباب مطروحون لايقدرون منه على نوع

العشاء وفى الاخيرة من بيوتكم

وفيه تنبيه على أنهم أنكروا شيأ لا ينكره عاقل ٭ ولما كانوا مقرين بذلك أخبر تعالى عن جوابهم قبل جوابهم ليكون من دلائل النبوة وأعلام الرسالة بقوله تعالى استئنافا (سيقولون) اى قطعا ذلك كله (لله) اى المختص بصفات الكمال ثم انه تعالى أمره بقوله (قل) اى لهم اذا قالوا لك ذلك منكرا عليهم (أفلا تذكرون) اى فى ذلك المركوز فى طباعكم المقطوع به عندكم ما غفلتم عنه من تمام قدرته وباهر عظمته فتصدقوا بما أخبر به من البعث الذى هو دون ذلك وتعلموا أنه لا يصلح شئ منها وهو ملكه أن يكون شريكا له تعالى ولا ولدا وتعلموا ان القادر على الخلق ابتداء قادر على الاحياء بعد الموت وأنه لا يصح فى الحكمة أصلا أن يترك البعث لان أقلكم لا يرضى بترك حساب عبيده والعدل بينهم وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء الثانية فى الذال ٭ ثانيها قوله تعالى (قل) اى لهم (من رب) اى خالق ومدبر (السموات السبع) كما تشاهدون من حركاتها وسيرا فلا كها (ورب العرش) اى الكرسى (العظيم) كما قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض (سيقولون لله) اى الذى له كل شئ هو رب ذلك لا جواب لهم غير ذلك ولما تأكد الامر وزاد الوضوح حسن التهديد على التمادى فقال تعالى (قل) اى منكرا عليهم (أفلا تتقون) اى تحذرون عبادة غيره ٭ ثالثها قوله (قل) أمره الله تعالى بعد ما قررهم بالعالمين العلوى والسفلى أن يقررهم بما هو أعم وأعظم وهو قوله تعالى (من بيده) اى من تحت قدرته ومشيئته (ملكوت كل شئ) من انس وجن وغيرهما والملكوت الملك البليغ قال ابن الاثير كانت العرب اذا كان السيد فيهم أجار أحدا لا يخفر جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يعاب عليه ولو أجار ما أفاد ولهذا قال تعالى (وهو يجير) اى يمنع ويغيث من شاء فيكون فى حرز لا يقدر أحد على الدنو من ساحته (ولا يجار عليه) اى ولا يمكن أحدا أبدا أن يجير جوارا يكون مستعليا عليه بان يكون على غير مراده بل يأخذ من أراد وان نصره جميع الخلائق ويعلى من أراد وان تمالت عليه كل المصائب فتبين كالشمس أنه لا شريك يمانعه ولا ولد يضارعه وانه السيد العظيم الذى لا أعظم منه الذى له الخلق والامر ولا معقب لحكمه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ثم ألهبهم الى المبادرة الى الاعتراف به وهيجهم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) اى فى عداد من يعلم ولذلك استأنف قوله تعالى (سيقولون لله) اى الذى بيده ذلك خاصا به ٭(تنبيه)٭ سيقولون لله الاولى لا خلاف فيها وأما الثانية والثالثة فقرأ أبو عمرو سيقولون الله بزيادة همزة الوصل مع التفخيم فيهما ورفع الهاء والباقون بغير همز الوصل مع الترقيق وكسر الهاء والتقدير ذلك كله لله ٭ ولما كان جوابهم بذلك يقتضى انكار توقفهم فى الاقرار بالبعث استأنف قوله تعالى (قل) اى لهم منكرا عليهم (فأنى تسحرون) اى فكيف بعد اقراركم بهذا كله تخدعون وتصرفون عن الحق وكيف يخيل لكم أنه باطل ٭ ولما كان الانكار بمعنى النفى حسن قوله تعالى (بل) اى ليس الامر كما يقولون بل (أتيناهم بالحق) اى بالصدق من التوحيد والوعد بالنشور (وانهم لكاذبون) فى كل ما ادعوه من الولد والشريك وغيرهما مما بين القرآن فساده ومن أعظم كذبهم قولهم اتخذ الرحمن ولدا قال تعالى ردا عليهم (ما اتخذ الله) اى الذى لا كفء

الآيتين بقوله بيده الله
لكم الآيات واما بلوغ

الاطفال لم يذكره
علامات يمكننا الوقوف

له (من ولد) اى لا من الملائكة ولا من غيرهم لما قام من الادلة على غناه وانه لا يجانسه شيء ولما كان الولد أخص من مطلق الشريك قال تعالى (وما كان معه) اى بوجه من الوجوه (من اله) يشابهه فى الالوهية (اذا) لو كان معه اله آخر (لذهب كل اله بما خلق) بالتصرف فيه وحده ليتميز ماله عما لغيره (فان قيل) اذا لا تدخل الا على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله تعالى لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل (أجيب) بان الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف لدلالة قوله تعالى وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين (ولعلا بعضهم) اى بعض الآلهة (على بعض) اذا تخالفت أوامرهم فلم يرض أحدهم أن يضاف ما خلقه الى غيره ولا أن يمضى فيه أمر على غير مراده كما هو مقتضى العادة فلا يكون المغلوب الها لعجزه ولا يكون مجبرا غير مجار عليه بيده وحده ملكوت كل شيء ولما طابق الدليل الالزامى نفى الشريك نزه نفسه الشريفة بما هو نتيجة ذلك من قوله تعالى (سبحان الله) اى المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن شائبة كل نقص (عما يصفون) من كل ما لا يليق بجنابه المقدس من الانداد والاولاد لما سبق من الدليل على فساده ثم أقام دليلا آخر على كماله بوصفه بقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) اى ما غاب وما شوهد وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى برفع الميم على أنه خبر مبتدا محذوف تقديره هو والباقون بالخفض على أنه صفة لله ثم رتب على هذا الدليل قوله تعالى (فتعالى) اى تعاظم (عما يشركون) معه من الآلهة ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل رب) اى أيها المحسن الى (اما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة اى ان كان لابد أن (ترينى) لان ما والنون للتأكيد (ما يوعدون) من العذاب فى الدنيا والآخرة (رب فلا تجعلنى) باحسانك الى (فى القوم الظالمين) اى قرينا لهم فى العذاب (فان قيل) كيف يجوز أن يجعل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم (أجيب) بانه يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه واخباتا له واستغفاره صلى الله عليه وسلم اذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن فى قول أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وليتكم ولست بخيركم كان يعلم انه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما ذكر ربه مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة فى التضرع (وانا) اى بما لنا من العظمة (على أن نريك) اى قبل موتك (ما نعدهم) من العذاب (لقادرون) لكنا نؤخره علما بان بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون وهو صادق بما قتل يوم بدر أو فتح مكة ثم كأنه قال فماذا أفعل فيما أعلم من أمرهم فقال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن) اى من الاقوال والافعال بالصفح والمداراة (السيئة) اذاهم اياك وهذا قبل الامر بالقتال فهى منسوخة وقيل محكمة لان المداراة محثوث عليها ما لم تؤد الى نقصان دين أو مروأة (نحن أعلم بما يصفون) فى حقك وحقنا فلو شئنا لمنعناهم منه أو عاجلناهم بالعذاب وليس أحد بأغير منا فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل * ولما أدب سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بان يدفع بالتى هى أحسن علمه ما يقوى على ذلك بقوله تعالى (وقل رب) اى أيها المحسن الى (أعوذ بك) اى التجئ اليك

(من همزات الشياطين) أى أن يصلوا الى بوساوسهم وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على المشى وانما جمع همزات لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف اليه (وأعوذ بك رب) أى أيها المربى لى (أن يحضرون) فى حال من الاحوال خصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الاجل لانها أحرى الاحوال وهم انما يحضرون بالسوء ولو لم تصل الى وساوسهم فان بعدهم بركة وعن جبير بن مطعم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمرو ولا أدرى أى صلاة هى فقال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود لان الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق والمتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه ويحتاج الى أن ينفخ والموتة الجنون والجنون يصير فى الدنيا كالميتة ثم ان الله تعالى أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة الى الدنيا عند معاينة الموت بقوله تعالى (حتى) وهى هنا كما قال الجلال المحلى ابتدائية أو متعلقة بيصفون أو بكاذبون كما قال الزمخشرى وقدم المفعول ليذهب الوهم فى فاعله كل مذهب فقال (اذا جاء أحدهم الموت) فكشف له الغطاء وظهر له الحق ولاحت له بوارق العذاب ولم يبق فى شئ من ذلك ارتياب (قال) متحسرا على ما فرط فيه من الايمان والطاعة مخاطبا لملائكة العذاب على عادة جهله ووقوفه مع المحسوس من دأب البهائم (رب ارجعون) أى ردونى الى الدنيا دار العمل ويجوز أن يكون الجمع له تعالى وللملائكة أو للتعظيم على عادة مخاطبات الاكابر سيما الملوك كقوله * ألا فارحمونى يا اله محمد * وقوله * فان شئت حرمت النساء سواكم * أو القصد تكرير الفعل للتأكيد لانه فى معنى ارجعنى كما قيل فى قفا وأطرقا فانه بمعنى قف قف وأطرق أطرق * ولما كان فى تلك الحالة مع وصوله الى الغرغرة ليس على القطع من اليأس قال (لعلى أعمل) أى لأن أكون على رجاء من أن أعمل (صالحا فيما تركت) أى ضيعت من الايمان بالله وتوابعه فيدخل فى الاعمال الاعمال البدنية والمالية وعنه صلى الله عليه وسلم اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان بل قدوما على الله وأما الكافر فيقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال قتادة ما تمنى أن يرجع الى أهله ولا عشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر اذا رأى العذاب وقال ابن كثير كان العلاء بن زياد يقول لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت واستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى * ولما كان القضاء قد قطع بانه لا يرجع ولو رجع لم يعمل بطاعة الله عز وجل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون قال الله تعالى له ردعا ورد الكلامه (كلا) أى لا يكون شئ من ذلك وكأنه قيل فما حكم ما قال فقيل (انها كلمة) والمراد بالكلمة فى اللغة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض رب ارجعون الى آخره (هو قائلها) وقد عرف منه الخداع بها والكذب فهى كما عهد منه لا حقيقة لها فلا يجاب اليها ولا تسمع منه وهو لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسليط الندم (ومن ورائهم) أى أمامهم والضمير للجماعة (برزخ)

عاينها بل تقرر تعنى لى بعله بذلك خصها بقوله يسبب

أى

اى حاجز حائل بينهم وبين الرجعة واختلف فى معناه فقال مجاهد حجاب بينهم وبين الرجوع الى الدنيا وقال قتادة بقية الدنيا وقال الضحاك البرزخ ما بين الموت الى البعث وقيل هو الموت وقيل هو القبر هم فيه (الى يوم يبعثون) وهو يوم القيامة وفى هذا اقناط كلى من الرجوع الى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجوع فيه الى حياة تكون فى الآخرة (فاذا نفخ فى الصور) اى القرن روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنها النفخة الاولى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود أنها النفخة الثانية قال يؤخذ بيد العبد والامة يوم القيامة فينصب على رؤس الاولين والآخرين ثم ينادى منادٍ هذا فلان بن فلان فمن كان له قبله حق فليأت الى حقه فيفرح المرء أن يكون له حق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منهم ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفى رواية عطاء عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم اى لا يتفاخرون بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون بها فى الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا من أنت ومن اى قبيل أنت ولم يرد أن الانسان ينقطع نسبه (فان قيل) قد قال تعالى هنا ولا يتساءلون وقال تعالى فى موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (أجيب) بان ابن عباس قال ان للقيامة أحوالا ومواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون افاقة فيتساءلون وقيل التساؤل بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (فمن ثقلت موازينه) اى بالاعمال المقبولة قال البقاعى ولعل الجمع لان لكل عمل ميزانا يعرف أنه لا يصلح لغيره وذلك أدل دليل على القدرة (فأولئك) اى خاصة قال أيضا ولعله جمع للبشارة بكثرة الناجى بعد أن أفرد للدلالة على كثرة الاعمال او على عموم الوزن لكل فرد (هم المفلحون) اى الفائزون بالنجاة والدرجات العلا (ومن خفت موازينه) لاعراضه عن تلك الاعمال المؤسسة على الايمان (فأولئك) خاصة (الذين خسروا أنفسهم) لاهلاكهم اياها باتباعها شهواتها فى دار الاعمال وشغلها باهوائها عن مراتب الكمال وقوله تعالى (فى جهنم خالدون) بدل من الصلة أو خبر ثان لاولئك وهى دار لا ينفك أسيرها ولا يطفى سعيرها ثم استأنف قوله تعالى (تلفح) اى تغشى بشدة حرها وسمومها ولهيبها (وجوههم النار) فتحرقها فما ظنك بغيرها واللفح كالنفح الا أنه أشد تأثيرا (وهم فيها كالحون) اى عابسون قد شمرت شفاههم العليا والسفلى عن أسنانهم وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته وقوله تعالى (ألم تكن آياتى) اى من القرآن على اضمار القول اى يقال لهم ألم تكن آياتى (تتلى عليكم) اى تتابع لكم قراءتها فى الدنيا شيأ فشيأ (فكنتم بها تكذبون) ثم استأنف جوابه بقوله تعالى (قالوا ربنا) اى المسبغ علينا نعمه (غلبت علينا شقوتنا) اى ملكتنا بحيث صارت أحوالنا مؤدية الى سوء العاقبة (وكنا) اى بما جبلنا عليه (قوما ضالين) فى ذلك عن

الله لكم آياته بالاضافة اليه (قوله واتقوا الله من

الحق أقويا في موجبات الشقوة فكانت سببا للضلال عن طريق السعادة (ربنا) يا من عودنا بالاحسان (أخرجنا منها) أي من النار تفضلا منك على عادة فضلك وردنا الى دار الدنيا لنعمل ما يرضيك (فإن عدنا) الى مثل ذلك الضلال (فإنا ظالمون) لأنفسنا ثم استأنف جوابهم بأن (قال) لهم بلسان مالك بعد قدر الدنيا مرتين كما يقال للكلب (اخسؤا) أي انزجروا زجر الكلاب وانطردوا طرد الكلاب ساكتين سكوت هوان (فيها) أي النار (ولا تكلمون) أصلا فإنكم لستم بأهل للخطاب لأنكم لم تزالوا متصفين بالظلم فييأس القوم بعد ذلك ولا يتكلموا بكلمة إلا الزفير والشهيق والعواء كعواء الكلاب وقال القرطبي إذا قيل لهم ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض فأطبقت عليهم وعن ابن عباس ان لهم ست دعوات إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فيجابون حق القول مني فينادون ألفا ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم فينادون ألفا يا مالك ليقض علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فينادون ألفا ربنا أخرجنا منها فيجابون أولم تكونوا أقسمتم فينادون ألفا أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فينادون ألفا رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها ولا تكلمون ثم لا يكون لهم الا الزفير والشهيق والعواء ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه كان) أي كونا ثابتا (فريق) أي ناس قد استضعفتموهم (من عبادي) وهم المؤمنون (يقولون) مع الاستمرار (ربنا) أي أيها المحسن الينا بالخلق والرزق (آمنا) أي أوقعنا الايمان بجميع ما جاءتنا به الرسل (فاغفر لنا) أي استر ما زل لنا (وارحمنا) أي افعل بنا فعل الراحم (وأنت خير الراحمين) لأنك تخلص برحمتك من كل شقاء وهوان (فاتخذتموهم) أي فتسبب عن ايمانهم انكم اتخذتموهم (سخريا) أي تسخرون منهم وتستهزؤن بهم وقرأ نافع وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بالكسر وهو مصدر سخر كالسخر الا أن في ياء النسب زيادة قوة في الفعل كما قيل الخصوصية في الخصوص وعن الكسائي والفراء ان المكسور من الهزء والمضموم من السخرة والعبودية أي تسخرونهم وتستعبدونهم قال الزمخشري والأول مذهب الخليل وسيبويه انتهى وأظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص والباقون بالادغام (حتى أنسوكم ذكري) أي بأن تذكروني فتخافوني وأضاف ذلك اليهم لأنهم كانوا السبب فيه لفرط اشتغالهم بالاستهزاء بهم (وكنتم منهم تضحكون) استهزاء بهم نزلت في كفار قريش كانوا يستهزؤن بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب ولما تشوقت النفس بعد العلم بما فعل بأعدائهم الى جزائهم قال الله تعالى (اني جزيتهم اليوم) أي بالنعيم المقيم (بما صبروا) أي على عبادتي ولم يشغلهم عنها اشتغالهم بأذاكم كما يشغلكم عنها التذاذكم بإهانتهم فازوا دونكم وهو معنى قوله تعالى (انهم هم الفائزون) أي بمطلوبهم الناجون من عذاب النار وقرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها على أنه مفعول ثان لجزيتهم ثم ان الله تعالى (قال) لهم على لسان الملك المأمور بسؤالهم تبكيتا وتوبيخا لأنهم كانوا يظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما حصلوا في النار وأيقنوا أنها دائمة وانهم فيها مخلدون سألهم (كم لبثتم في الارض) على تلك الحال في الدنيا التي

الدعاء الآية ان قلت
كيف أباح الله تعالى بذلك

كنتم تعبدون وتهاونوا (عدد سنين) أنتم فيها ظاهرون ولاعدائكم قاهرون وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي قل كم بضم القاف وسكون اللام على الامر للملك أو لبعض رؤساء أهل النار والباقون بفتح القاف واللام وألف بينهما خبرا وتقدم توجيهه وأظهر الثاء المثلثة عند التاء المثناة فوق نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها فيها الباقون (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) يشكون في ذلك (فان قيل) كيف يصح في جوابهم ان يقولوا ذلك ولا يقع من أهل النار الكذب (أجيب) بانهم نسوا ذلك لكثرة ماهم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا (فاسئل العادين) اى الملائكة المحصين أعمال الخلق واعمارهم قال ابن عباس أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل قالوا ذلك تصغيرا للبثهم وتحقيرا لها بالاضافة الى ما وقعوا فيه من دوام العذاب قال بعضهم

ألا ان أيام الشقاء طويلة ٭ كما ان أيام السرور قصار

وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين وترك الهمز بعدها وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ثم (قال) الله تعالى لهم على لسان الملك (ان) اى ما (لبثتم) أى في الدنيا (الا قليلا) لان الواحد وان طال مكثه في الدنيا فانه يكون قليلا في جنب ما يلبث في الآخرة (لو أنكم كنتم تعلمون) أى في عداد من يعلم في ذلك الوقت لما آثرتم الفاني على الباقي ولا قبلتم على ما ينفعكم واتركتم أفعالكم التي لا يرضاها عاقل ولكنكم كنتم في عداد البهائم وقرأ حمزة والكسائي قل أمرا والباقون قال خبرا والبحث تقدم مثله وتوجيه قال وقل ثم وبخهم الله تعالى على تغافلهم بقوله تعالى (أفحسبتم انما خلقناكم) على مالنا من العظمة وقوله تعالى (عبثا) حال أى عابثين كقوله لاعبين أو مفعول له أى ما خلقناكم للعبث ولم يدعنا الى خلقكم الا حكمة اقتضت ذلك وهي أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي (و) حسبتم (أنكم الينا لا ترجعون) في الآخرة للجزاء وروى البغوي بسنده عن أنس أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه في أذنه أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء الفوقية وكسر الجيم والباقون بضم الفوقية وفتح الجيم ٭ ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه عما يقوله ويصفه به المشركون بقوله تعالى (فتعالى الله) أى الذي له الجلال والجمال علوا كبيرا عن العبث وغيره مما لا يليق به (الملك) اى المحيط بالحل والعقد ملكا وقدرة وسياسة وحفظا ورعاية (الحق) اى الذي لا يتطرق الباطل اليه في شئ في ذاته ولا في صفاته فلا زوال له ولا لملكه (لا اله الا هو) فلا يوجد له نظير أصلا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فهو متعال عن سمات النقص والعبث ثم زاد في التعيين والتأكيد والتفرد بوصفه بصفة لا يدعيها غيره بقوله تعالى (رب العرش) اى لسرير المحيط بجميع الكائنات الذي تنزل منه محكمات الاقضية والاحكام ولذا وصفه بالكرم فقال (الكريم) أو لنسبته الى أكرم الاكرمين ٭ ولما بين سبحانه وتعالى انه الملك الحق لا اله الا هو أتبعه بان من ادعى الها آخر فقد ادعى باطلا بقوله تعالى (ومن يدع مع الله) اى الملك الذي لا كفء له (الها آخر) يعبده (لا برهان له به) اى بسبب دعائه

للقواعد من النساء ومن العاجز العجز من الشباب

بذلك اذا اجتهد في اقامة برهان على ذلك لم يجد ثم ذكر ان من قال ذلك بجزاؤه لعقاب العظيم بقوله تعالى (فانما حسابه) اى جزاؤه الذى لا يمكن زيادته ولا نقصه (عند ربه) اى الذى رباه ولم يربه أحد سواه الذى هو أعلم بسريرته وعلانيته فلا يخفى عليه شئ من أمره ❊ ولما افتتح السورة بقوله قد أفلح المؤمنون ختمها بقوله (انه لا يفلح الكافرون) اى لا يسعدون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ❊ ولما شرح الله تعالى أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته بقوله تعالى (وقل رب) اى أيها المحسن الى (اغفر وارحم) اى أكثر من هذين الوصفين (وأنت خير الراحمين) فمن رحمته أفلح بما وفقته له من امتثال ما أشرت اليه أول السورة فكان من المؤمنين وكان من الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فقد انطبق على الاول هذا الآخر بفوز كل مؤمن وخيبة كل كافر فنسأل الله تعالى ان يكون لنا ولوالدينا ولاحبابنا ارحم راحم وخير غافر انه المتولى للسرائر والمرجو لاصلاح الضمائر وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت حديث موضوع وقوله أيضا تبعا للزمخشرى روى ان أول سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح قال شيخ شيخنا ابن حجر حافظ عصره لم أجده

سورة النور مدنية

❊(وهى ثنتان أو أربع وستون آية)❊

(بسم الله) الذى تمت كلمته فبهرت قدرته (الرحمن) لذى ظهرت الحقائق كلها بشمول رحمته (الرحيم) الذى شرف من اختاره بخدمته قوله تعالى (سورة) خبر لمبتدا محذوف تقديره هذه سورة أى عظيمة أو سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف أى فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ثم رغب في امتثال ما فيها مبينا أن تنوينها للتعظيم بقوله تعالى (أنزلناها) أى بما لنا من العظمة وتمام العلم والقدرة (وفرضناها) أى قدرنا ما فيها من الحدود وقيل أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الراء لكثرة الفروض والباقون بالتخفيف (وأنزلنا فيها آيات) من الحدود والاحكام والمواعظ والامثال وغيرها (بينات) أى واضحات الدلالة (لعلكم تذكرون) أى تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد ثم انه تعالى ذكر في السورة أحكاما كثيرة ❊ الحكم الاول قوله تعالى (الزانية والزانى) اى غير المحصنين لرجمهما بالسنة وأل فيما ذكر موصولة وهو مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء في خبره وهو (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) اى ضربة يقال جلده اذا ضرب جلده ويزاد على ذلك بالسنة تغريب عام والرقيق على النصف مما ذكر ولا رجم عليه لانه لا يتنصف واعلم ان الزنا من الكبائر ويدل عليه أمور أحدها ان الله تعالى قرنه

قوله غيرة الرجل

بالشرك وقتل النفس فى قوله تعالى ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ثانيها قوله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ثالثها ان الله تعالى أوجب المائة فيه بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم وروى حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يا معشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة أما اللاتى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما اللاتى فى الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله قال قلت يا رسول الله اى الذنب أعظم عند الله قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أى قال أن تزنى بحليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقها لذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون والزنا ايلاج حشفة أو قدرها من مقطوعها من الذكر المتصل الاصلى من الآدمى الواضح ولو أشل وغير منتشر وكان ملفوفا فى خرقة بقبل محرم فى نفس الامر لعينه خال عن الشبهة المسقطة للحد مشتهى طبعا بان كان فرج آدمى حى ولا يشترط ازالة البكارة حتى لو كانت غوراء وأدخل الحشفة فيها ولم يزل بكارتها ترتب عليه حد الزنا بخلاف التحليل لابد فيه من ازالة البكارة لقوله صلى الله عليه وسلم حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك واختلف فى اللواط هل يطلق عليه اسم الزنا أو لا فقال بعضهم يطلق عليه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان والذى عليه اكثر أصحابنا أنه غير داخل تحت اسم الزنا لانه لو حلف لا يزنى فلاط لم يحنث والحديث محمول على الاثم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان وللشافعى فى حده قولان أصحهما أن الفاعل ان كان محصنا فانه يرجم والا فيجلد مائة ويغرب عاما وأما المفعول فلا يتصور فيه احصان فيجلد ويغرب والقول الثانى يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا أم لا لما روى عن ابن عباس انه قال من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به وأما اتيان البهائم فحرام باجماع الائمة واختلف فى عقوبته على أقوال أحدها حد الزنا فيرجم الفاعل المحصن ويجلد غيره ويغرب والثانى أنه يقتل محصنا كان أو غير محصن لما روى عن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه والثالث وهو الاصح انه يعزر لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس بضعف اسناده وهو وان ثبت فهو معارض بما روى انه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذبح الحيوان الا لمأكله وأما السحاق من النساء واتيان المرأة الميتة والاستمناء باليد فلا يشرع فيه شئ من ذلك الا التعزير والمقيم للحد هو الامام أو نائبه وللسيد ان يقيم الحد على رقيقه ولا يجوز الشفاعة فى اسقاط الحد ولا تركه ولا تخفيفه كما قال تعالى (ولا تأخذكم) اى على اى حال من الاحوال (بهما رأفة) اى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة والباقون بسكونها والسوسى على أصله من البدل وقيل معنى الرأفة ان يخففوا الضرب (فى دين الله) اى الذى شرعه لكم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها روى ان عمر رضى الله عنه جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يا بنى ان الله تعالى لم يأمرنا بقتلها وقد

(قال) المراد بالشباب الزائدة على مايسـ... غرهن

ضربت فاوجعت ثم انه سبحانه وتعالى زاد فى الحض على ذلك بقوله تعالى (ان كنتم تؤمنون بالله) اى الذى هو أرحم الراحمين فانه ما شرع ذلك الا رحمة للناس عموما وللزانين خصوصا فلا تزيدوا فى الحد ولا تنقصوا منه شيأ وفى الحديث يؤتى بوال نقص من الحدود سوطا فيقول رحمة لعبادك فيقال له أنت أرحم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به الى النار وعن أبى هريرة اقامة حد بارض خير من مطر أربعين ليلة ثم اتبع ذلك بما رهبه بقوله تعالى (واليوم الآخر) الذى يحاسب فيه على النقير والقطمير والخفى والجلى (وليشهد) اى وليحضر (عذابهما) اى حدهما اذا أقيم عليهما (طائفة من المؤمنين) والطائفة الفرقة التى يمكن ان تكون حلقة وأقلها ثلاثة أو أربعة وهى صفة غالبة كانها الجماعة الحافة حول الشئ وعن ابن عباس فى تفسيرها أربعة الى أربعين رجلا من المصدقين بالله تعالى وعن الحسن عشرة وعن قتادة ثلاثة فصاعدا وعن عكرمة رجلان فصاعدا وعن مجاهد اقلها رجل فصاعدا وقيل رجلان وفضل قول ابن عباس لان الاربعة هى الجماعة التى يثبت بها الزنا ولا يجب على الامام حضور رجم ولا على الشهود لانه صلى الله عليه وسلم امر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما وانما خص المؤمنين بالحضور لان ذلك فضح والفاسق بين صلحاء قومه اخجل ويشهد له قول ابن عباس الى اربعين رجلا من المصدقين بالله ❊(تنبيه)❊ الضرب يكون بسوط لا جديد يجرح ولا خلق لا يؤلم ويفرق بين السياط على اعضائه ولا يجمعها فى موضع واحد واتفقوا على انه يتقى المهالك كالوجه والبطن والفرج ويضرب على الراس لقول ابى بكر رضى الله عنه اضرب على الراس فان الشيطان فيه ولا يشد يده وينزع الثياب التى تمنع الم الضرب كالفرو ولو فرق سياط الحد تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل ان يضرب كل يوم سوطا او سوطين فان فرق وضرب والالم موجود كفى وان وجب الحد على حامل لا يقام عليها حتى تضع وترضعه حتى يفطم ويندب ان يحفر للمراة الى صدرها ان ثبت زناها بالبينة لا باقرارها ولا يندب للرجل مطلقا وان وجب الحد على المريض نظر ان كان يرجى زواله كصداع انتظر او لا يرجى كالزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط بل بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام جلده واما فى حال الحر والبرد الشديدين فان كان الحد رجما لم يؤخر لان النفس مستوفاة وان كان جلدا اخر الى اعتدال الهواء ويقبل رجوع الزانى عن اقراره ولو فى أثناء الحد واذا مات فى الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين ❊ الحكم الثانى قوله تعالى (الزانى لا ينكح) اى لا يتزوج (الا زانية أو مشركة) اى المعلوم اتصافه بالزنا مقصور نكاحه على زانية أو مشركة (والزانية لا ينكحها) اى لا يتزوجها (الا زان أو مشرك) اى والمعلوم اتصافها بالزنا مقصور نكاحها على زان أو مشرك اذ الغالب أن المائل الى الزنا لا يرغب فى نكاح الصوالح والمسافحة لا يرغب فيها الصلحاء فان المشاكلة علة الالفة والانضمام والمخالفة سبب النفرة والافتراق وقال بعضهم الجنسية علة الضم والمشاكلة سبب المواصلة والمخالفة توجب المباعدة وتحرم المؤالفة وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وعن على رضى الله تعالى عنه انه خطب أهل الكوفة

وسمعت العجوز تقاعسدا لكبرة قعودها قاله ابن

بعد ثلاثة أيام من مقدمه عليهم فقال يا أهل الكوفة قد علمنا شراركم من خياركم فقالوا كيف وما لك الا ثلاثة أيام فقال كان معنا شرار وخيار فانضم خيارنا الى خياركم وشرارنا الى شراركم وعن الشعبي انه قال ان لله ملكا موكلا بجمع الاشكال بعضها الى بعض وقال القائل

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه • فكل قرين بالمقارن يقتدى

فان قيل لم قدمت الزانية على الزاني أولا ثم قدم عليها ثانيا (أجيب) بان تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هي المادة التي منها انشأت الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا وأولا في ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه الراغب فيه والخاطب ومنه يبدو الطلب (وحرم ذلك) أى نكاح الزاني والزانية تحريما لا مثوبة فيه (على المؤمنين) واختلف العلماء في معنى الآية وحكمها فقال قوم منهم مجاهد وعطاء وقتادة والزهري والشعبي ورواية عن ابن عباس قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا مخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فنزلت هذه الآية وحرم ذلك على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وقال عكرمة نزلت في نساء كن بمكة وبالمدينة لهن رايات يعرفن بهن منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي وكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مأكلة فاراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل منهم النبي صلى الله عليه وسلم في نكاح أم مهزول فاشترطت أن تنفق عليه فنزلت هذه الآية وروى عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي وكان يحمل الاسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة وكان بمكة بغي يقال لها عناق وكانت صديقة له في الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنا فقالت فانكحني فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناقا فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد على شيأ فنزل الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها على وقال لا تنكحها أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود بالفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصا في حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم منهم سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزاني لا يزني الا بزانية أو مشركة والزانية لا تزني الا بزان أو مشرك وقال يزيد بن هرون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك وان جامعها وهو محرم فهو زان وعن عائشة رضي الله عنها ان الرجل اذا زنى بامرأة ليس له ان يتزوجها لهذه الآية واذا باشرها كان زانيا وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول اذا تزوج الزاني الزانية فهما زانيان أبدا وقال الحسن الزاني المجلود لا ينكح الا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها الا زان مجلود وقال سعيد بن المسيب وجماعة منهم الشافعي رحمه الله تعالى ان حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية فنسخها الله تعالى بقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم وهو جمع أيم وهي من لا زوج لها فدخلت

قتيبة (قوله ولا على انفسكم ان تأكلوا من

الزانية في أيامى المسلمين واحتج من جوز نكاح الزانية بما روى عن جابر ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان امرأتي لا تمنع يد لامس قال طلقها قال فاني أحبها وهي جميلة قال استمتع بها وفي رواية غيره أمسكها اذا وقد أجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه وعنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ضرب رجلا وامرأة زنيا وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام ولما نفر سبحانه وتعالى عن نكاح من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة نهى عن الرمي به فقال تعالى (والذين يرمون) أي بالزنا (المحصنات) جمع محصنة وهي هنا المسلمة الحرة المكلفة العفيفة وهذا هو الحكم الثالث والذي يدل على أن المراد الرمي بالزنا أمور أحدها تقدم ذكر الزنا ثانيها أنه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على أن المراد بالرمي رميها بضد ذلك ثالثها انعقاد الاجماع على انه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنا ورابعها قوله تعالى (ثم لم يأتوا) أي الى الحكام (بأربعة شهداء) أي ذكور ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير مشروط الا في الزنا وشرط القاذف الذي يحد بسبب القذف التكليف والاختيار والتزام الاحكام والعلم بالتحريم وعدم اذن المقذوف وأن يكون غير أصل وألفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فمن الصريح قوله لرجل أو امرأة زنيت او زنيت او يا زاني او يا زانية ولو كسر التاء في خطاب الرجل وفتحها في خطاب المرأة او زنيت في الجبل ومن الكناية زنأت وزنأت في الجبل بالهمز فان نوى بذلك القذف كان قذفا والا فلا ومن التعريض يا ابن الحلال واما انا فلست بزان فهذا ليس بقذف وان نواه (فان قيل) اذا كان ذلك القذف يشمل الذكر والانثى فلم كانت الآية الكريمة في الاناث فقط (أجيب) بان الكلام في حقهن أشنع وتنبيها على عظيم حق أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها وحد القاذف الحر ثمانون كما قال تعالى (فاجلدوهم) اي أيها المؤمنون من الائمة ونوابهم (ثمانين جلدة) لكل واحد منهم لكل محصنة وحد القاذف الرقيق ولو مبعضا أو مكاتبا أربعون جلدة على النصف من الحر لآية النساء فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فهذه الآية مخصوصة بتلك اذ لا فرق بين الذكر والانثى ولا بين حد الزنا وحد القذف ويدل على ان المراد بالآية الاحرار قوله تعالى (ولا تقبلوا لهم) اي بعد قذفهم (شهادة) اي شهادة كانت (أبدا) للحكم بافترائهم لان العبد لا تقبل شهادته وان لم يقذف ولما كان التقدير انهم قد افتروا عطف عليه تحذيرا من الاقدام عليه من غير تثبت (وأولئك) اي الذين تقدم ذمهم بالقذف فتزلت رتبتهم جدا (هم الفاسقون) اي المحكوم بفسقهم الثابت لهم هذا الوصف وان كان القاذف منهم محقا في نفس الامر وفي ذلك دليل على ان القذف من الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب كبيرة واختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة وحكم هذا الاستثناء المذكور في قوله (الا الذين تابوا) اي رجعوا عما وقعوا فيه من القذف وغيره وندموا عليه وعزموا على ان لا يعودوا (من بعد ذلك) اي الامر الذي أوجب ابعادهم فذهب قوم الى ان القاذف ترد شهادته بنفس القذف فاذا تاب وصلح حاله كما قال تعالى (وأصلحوا)

بيوتكم) اي من بيوت أولادكم وعيالكم والا

اي

اى بعد التوبة بمضى مدة يظن بها حسن الحال وهى سنة يعتبر بها حال التائب بالفصول الاربعة التى تكشف الطبائع (فان الله) اى الذى له صفات الكمال (غفور) اى ستور لهم ما اقدموا عليه لرجوعهم عنه (رحيم) اى يفعل بهم من الاكرام فعل الراحم بالمرحوم فى قبول الشهادة وقبلت شهادته سواء قبل الحد او بعده و زال عنه اسم الفسق وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى رد الشهادة والى الفسق ويروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وجمع من الصحابة و به قال مالك والشافعى وذهب قوم الى ان شهادة المحدود فى القذف لا تقبل ابدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله واولئك هم الفاسقون و يروى ذلك عن النخعى وشريح و به قال اصحاب الراى قالوا بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحد قال الشافعى هو قبل ان يحد شر منه حين يحد لان الحدود كفارات فكيف يردبها الى احسن حاليه وذهب الشعبى الى ان حد القذف يسقط بالتوبة (فان قيل) اذا قلتم بالاول فما معنى قوله تعالى ابدا (اجيب) بان معنى ابدا ما دام مصرا على القذف لان ابد كل انسان مدته على ما يليق بحاله كما يقال لا تقبل شهادة الكافر ابدا يراد بذلك ما دام على كفره فاذا اسلم قبلت شهادته ٭(تنبيهان)٭ الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين او اربع كالزنا فيه قولان اصحهما انه يثبت برجلين بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه واذا شهد على فعل الزنا يجب ان يذكر الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية لابيه فيظنه زنا ويجب الحد وان يقول فى شهادته رايت ذكره يدخل فى فرجها وان لم يقل دخول الميل فى المكحلة لكن قوله ذلك اولى فلو شهدوا مطلقا انه زنى لم يقبلوا لانهم ربما يرون المفاخذة زنا ويشترط ايضا ان يفسر فى اقراره كالشهود ويصح رجوعه عن الاقرار ولو فى اثناء الحد كما مر ولا فرق فى قبول الشهادة بين ان يجىء الشهود متفرقين او مجتمعين كما قاله الشافعى وقال ابو حنيفة اذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد القذف ولو شهد على الزنا اقل من اربعة او اربعة وفيهم الزوج لم يثبت الزنا وعليهم الحد لان شهادة الزوج لا تقبل فى حق زوجته قال ابن الرفعة فى الكفاية لامرين احدهما ان الزنا تعرض لمحل حق الزوج فان الزانى يستمتع بالمنافع المستحقة له فشهادته فى حقها تتضمن اثبات جناية الغير على ما هو مستحق له فلم تسمع كما اذا شهد انه جنى على عبده والثانى ان من شهد بزنا زوجته فنفس شهادته تدل على اظهار العداوة لان زناها يوغر صدره بتلطيخ فراشه وادخال العير عليه وعلى ولده وهو ابلغ من مؤلم الضرب وفاحش السب ولو قذف رجل وجاء باربعة فساق شهدوا على المقذوف بالزنا لم يحدوا لان شرائط الشهادة بالزنا قد وجدت عند القاضى الا انها لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة فى نفى الحد عن المشهود عليه فكذلك اوجبنا اعتبارها فى نفى الحد عنهم ٭ ولما كان لفظ المحصنات عاما للزوجات وكان لهن حكم غير ما تقدم وهو الحكم الرابع افردهن بقوله (والذين يرمون) اى بالزنا (ازواجهم) اى من المؤمنات والكافرات الحرائر والاماء (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون على صحة ما قالوه (الا انفسهم) اى غير انفسهم وهذا ربما يفهم انه اذا كان الزوج احد الاربعة كفى وهذا المفهوم معطل لكونه حكاية حال واقعة لا شهود فيها وقوله تعالى فى الآية قبلها ثم لم ياتوا باربعة شهداء فانه يقتضى كون الشهداء غير الرامى بالزنا ولعله استثناء من الشهداء لان

فانتفاء الحرج عن اكل الانسان من بيته معلوم

اما انه يكون بلفظ الشهادة ومذهب الشافعي أنه لا يقبل في ذلك كما قدمناه (فشهادة أحدهم)
اى فالواجب شهادة أحدهم على من رماها أو فعليهم شهادة أحدهم (أربع شهادات) من
خمس في مقابلة أربعة شهداء (بالله) اى مقرونة بهذا الاسم الكريم الاعظم الموجب
لاستحضار جميع صفات الجلال والجمال (انه لمن الصادقين) أي فيما قذفها به وقرأ حفص
وحمزة والكسائي برفع العين على أنه خبر شهادة والباقون بنصبها على المصدر (والخامسة أن
لعنت الله) أي الملك الاعظم (عليه) أي القاذف نفسه (ان كان من الكاذبين) فيما رماها به
وقرأ نافع بتخفيف ان ساكنة ورفع لعنة والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب لعنة
ورسمت لعنة بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ووقف الباقون
بالتاء واذا وقف الكسائي أمال الهاء هذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عنه
وحصول الفرقة بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله صلى الله عليه وسلم المتلاعنان لا يجتمعان أبدا
وبتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة ونفي الولد ان تعرض له فيه وثبوت حد الزنا
على المرأة بقوله تعالى (ويدرأ) أي يدفع (عنها) اى المقذوفة (العذاب) اى المعهود وهو
الحد الذي اوجبه عليها كما تقدم (ان تشهد اربع شهادات) من خمس (بالله) الذي له جميع
الاسماء الحسنى والصفات العليا كما تقدم في الزوج (انه لمن الكاذبين) فيما قاله عليها
(والخامسة) من الشهادات (ان غضب الله) الذي له الامر كله (عليها ان كان من الصادقين)
اى فيما رماها به روى البخاري في تفسيره وغيره عن ابن عباس ان هلال بن امية قذف امرأته
عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم البينة او حد
في ظهرك فقال يا رسول الله اذا رأى احدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي
صلى الله عليه وسلم يقول البينة او حد في ظهرك فقال هلال بن أمية والذي بعثك بالحق اني
لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه والذين
يرمون أزواجهم حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهما
فجاآ فقام هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول والله يعلم ان أحدكما كاذب فهل
منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة أوقفوها وقالوا انها موجبة قال ابن
عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت
وقال النبي صلى الله عليه وسلم أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج
الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من
كتاب الله لكان لي ولها شأن وقد روى البخاري أيضا عن سهل بن سعد ان سبب نزولها قصة
مثل هذه لعويمر رضي الله عنه وقد تقدم انه لا يمتنع ان يكون للآية الواحدة عدة أسباب معا
أو متفرقة * (تنبيه) * خصت المرأة بالغضب لانه أبلغ من اللعن الذي هو الطرد لانه قد يكون
بسبب غير الغضب وسبب التغليظ عليها الحث على اعترافها بالحق لما يصدق الزوج من
القرينة من انه لا يتجشم فضيحة أهله المستلزم لفضيحته الا وهو صادق ولانها مادة الفساد
وخالطة الانساب ويشترط في اللعان امر القاضي وتلقينه كلماته في الجانبين فيقول قل أشهد

(قوله فاذا دخلتم بيوتا) (أنفسكم) اى مسلموا على

باالله

بالله الخ لان اللعان يمين والمين لا يعتد بها قبل استحلاف القاضي وان غلب فيه معنى الشهادة فهي لا تؤدى عنده الا باذنه وان يتأخر لعانها عن لعانه لان لعانها لاسقاط الحد الذي وجب عليها بلعان الزوج كما علم مما مر ويلاعن أخرس باشارة مفهمة او كتابة ويكرر كلمة الشهادة أربعا أو يكتبها مرة ويشير اليها أربعا ويصح اللعان بالعجمية وان عرف العربية ويشترط الولاء بين الكلمات الخمس فيؤثر الفصل الطويل ولا يشترط الولاء بين لعاني الزوجين ولو أبدل لفظ شهادة بحلف ونحوه أو لفظ غضب بلعن أو عكسه أو ذكره قبل تمام الشهادة لم يصح ذلك ويصح ان يتلاعنا قائمين وان يغلظ اللعان بزمان وهو بعد عصر الجمعة فيؤخر اليه ان لم يكن طلب اكيد والا فبعد عصر أي يوم كان وبمكان عند أشرف بلد اللعان فبمكة بين الحجر الاسود والمقام وهو المسمى بالحطيم والمدينة على المنبر وبيت المقدس عند الصخرة وغيرها على منبر الجامع وتلاعن حائض بباب المسجد وذمي في بيعة للنصارى وكنيسة لليهود وبيت نار لمجوس لانهم يعظمونها لا بيت أصنام وثني لانه لا حرمة له وقرأ حفص والخامسة الاخيرة بالنصب والباقون بالرفع وقرأ نافع بتخفيف النون ساكنة وكسر الضاد ورفع الهاء من الاسم الجليل والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب الضاد وخفض الهاء ‎•‎ ولما حرم سبحانه وتعالى بهذه الجمل الاعراض والانساب فصان بذلك الدين والاموال علم أن التقدير فلولا أنه سبحانه خير الغافرين وخير الراحمين لما فعل بكم ذلك ولفضح المذنبين وأظهر سرائر المستخفين ففسد النظام فعطف على هذا الذي علم تقديره قوله تعالى (ولولا فضل الله) أي بماله من الكرم والاتصاف بصفات الكمال (عليكم ورحمته) أي بكم بالستر في ذلك (وان الله) أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلما (تواب) بقبوله التوبة في ذلك وغيره ذلك (حكيم) بحكم الامور فيمنعها من الفساد بما يعلم من عواقب الامور لفضح كل عاص ولم يوجب أربعة شهداء بستر الكم ‎•‎ الحكم الخامس قصة الافك المذكورة في قوله تعالى (ان الذين جاؤ بالافك) اى أسوأ الكذب سمي افكا لكونه مصروفا عن الحق من قولهم أفك الشيء اذا صرفه عن جهته وذلك ان عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبويها كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم فمن رماها بسوء فقد قلب الامر عن أحسن وجوهه الى أقبح افضائه (فان قيل) لم ترك تسميتها (أجيب) بانه تركه تنزيها لها عن هذا المقال وابعادا لصون جانبها العلي عن هذا المراد وقوله تعالى (عصبة) خبران أي جماعة أقلهم عشرة وأكثرهم أربعون وكذا العصابة وقوله تعالى (منكم) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعائشة وصفوان ممن يعد منكم فعداد المسلمين يريد عبد الله بن أبي وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى (لا تحسبوه شرا لكم) مستأنف اى لا تنشأ عنه فتنة ولا يصدقه أحد (بل هو خير لكم) لاكتسابكم به الثواب العظيم لانه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة وظهور كرامتكم على الله تعالى بانزال ثمان عشرة آية في براءتكم وتعظيم شأنكم وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتبرئة لام المؤمنين رضوان الله تعالى عليها وتطهير لاهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به

قوله ولولا السلام اى من الله علينا وعلى عباد الله

فلم يحبه أذناه وعدة الطائف للسامعين والتالين الى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأملها ولما كان لا شفاء لغيظ الانسان أعظم من انتصار الملك الديان له علل ذلك بقوله تعالى (لكل امرئ منهم) أى الآفكين (ما اكتسب) أى بخوضه فيه (من الاثم) الموجب اشقائه (والذى تولى كبره) أى معظمه (منهم) أى من الخائضين وهو ابن أبي فانه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو هو وحسان ومسطح فانهما تابعاه بالتصريح به والذى بمعنى الذين على هذا (له عذاب عظيم) فى الآخرة أو فى الدنيا بان جلدوا وصار ابن أبي مطرودا مشهورا بالنفاق وحسان أعمى أشل اليدين ومسطح مكفوف البصر

(تنبيه) قصة الافك مروية فى الصحيح والسنن وغيرهما شهيرة جدا ولكن نذكر منها طرفا تبركا بذكر النبى صلى الله عليه وسلم وبذكر السيدة عائشة وأبويها رضى الله تعالى عنهم فنقول عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب فكنت أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى واذا عقد لى من جزع أظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعدما سار الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت انهم سيفقدونى فيرجعون الى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن معطل السلمى ثم الذكوانى رضى الله تعالى عنه قد عرس من وراء الجيش فادلج فأصبح عند منزلى فرأى سواد انسان نائم فعرفنى حين رآنى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى والله ما كلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول فهلك من هلك وكان الذى تولى كبر الافك منهم عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك ولا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبنى فى وجعى انى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى انما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذى يريبنى فيه ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل ان تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الاولى فى البرية وكنا نتأذى بالكنف ان نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم

مسطح

العالمين فان الملائكة تردعليكم هذا

مسطح حين فرغنا من شأننا نمشى فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها
بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت يا هنتاه أولم تسمعى ما قال قالت وما قال فأخبرتنى
بقول أهل الافك فازددت مرضا على مرضى فلما رجعت الى بيتى دخل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له أتأذن لى ان آتى أبوى قالت وأنا أريد ان أستيقن الخبر من
قبلهما قالت فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوى فقلت لامى يا أماه ماذا يتحدث
الناس قالت يا بنية هونى عليك فوالله ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر
الا أكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى
أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى قالت ودعا رسول الله صلى الله عليه
وسلم على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله
قالت فأما أسامة فأشار على النبى صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم لهم فى
نفسه من الود فقال أسامة هم أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله الا خيرا وأما على فقال
يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله
صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أى بريرة هل رأيت من شئ يريبك قالت والذى بعثك بالحق ان
رأيت عليها أمرا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى
الداجن فتأكله قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى
ابن سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل
قد بلغنى أذاه فى أهلى والله ما علمت على أهلى الا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ولم
يدخل على أهلى الا معى قالت فقام سعد أخو بنى عبد الاشهل فقال أنا يا رسول الله أعذرك فان
كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام
سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن حملته الحمية فقال
لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن تقتله فقام
أسيد بن حضير ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك ٣ منافق
تجادل عن المنافقين قال فتثاور الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله
صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا
وسكت قالت فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم قالت وأصبح أبواى عندى
وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لى دمع حتى انى لاظن أن البكاء فالق كبدى
فبينما أبواى جالسان عندى وأنا أبكى فاستأذنت على امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست
تبكى معى قالت فبينما نحن على ذلك اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس
قالت ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى اليه فى شأنى بشئ قالت
فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة انه بلغنى عنك كذا
وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه فان
العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم
مقالته قلص دمعى حتى لا أحس منه بقطرة فقلت لابى أجب رسول الله فيما قال فقال انى والله

ان لم يكن بها أحد والا
فقولوا السلام عليكم (قوله

٣ قوله كأنك منافق هكذا
بالاصول والذى فى صحيح
البخارى فانك بالفاء اهـ
مصححه

ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لأمى أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فيما قال فقالت أمى والله ما أدرى ما أقول لرسول الله فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ
من القرآن كثيرا والله لقد علمت ما سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن
قلت لكم انى بريئة لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى منه بريئة لتصدقونى
فوالله لا أجد لى ولا لكم مثلا الا ما قال العبد الصالح ابو يوسف ولم اذكر اسمه حين قال فصبر
جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت واضطجعت على فراشى والله يعلم حينئذ انى
بريئة والله مبرئى ببراءتى ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحيا يتلى لشأنى
فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى فىّ بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم
مجلسه ولا خرج أحد من اهل البيت حتى انزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه عند
الوحى من البرحاء حتى انه ليتحدر منه العرق مثل الجمان فى اليوم الشاتى من ثقل الذى انزل فاحذر الذين يخالفون عن أمره) • ان قلت كيف
عليه فسجى بثوب فوالله ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفس ابوى
ستخرجان فرقا من أن يأتى الله بتحقيق ما قال الناس فلما سرى عنه وهو يضحك فكان أول
كلمة تكلم بها أن قال ابشرى يا عائشة قد برأك الله فكنت أشد ما كنت غضبا فقال لى أبواى
قومى اليه فقلت والله لا اقوم اليه ولا أحمده ولا احمدكما ولا احمد الا الله الذى انزل براءتى
لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وأنزل الله تعالى ان الذين جاؤا العشر آيات كلها فقال
أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد الذى قال لعائشة ما قال فأنزل الله ولا يأتل أولو الفضل
منكم الى قوله غفور رحيم فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه بلى والله انى لأحب أن يغفر الله
لى فرجع النفقة الى مسطح التى كان ينفقها عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمرى فقالت زينب ما علمت
أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت الا خيرا قالت عائشة وهى التى
تسامينى من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع قالت عائشة والله ان الرجل
الذى قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذى نفسى بيده ما كشفت كنف أنثى قط قالت ثم
قتل بعد ذلك فى سبيل الله تعالى قالت ولما نزل عذرى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر
ذلك وتلا القرآن وضرب عبد الله بن أبى ومسطحا وحسان وحمنة الحد قال عروة وكانت
عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول انه الذى قال

فان أبى ووالده وعرضى • لعرض محمد منكم وقاء

وقال الحافظ ابو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب وأنكر قوم أن يكون حسان خاض فى الافك
وجلد فيه وروى عن عائشة أنها برأته من ذلك انتهى وقال غيره والله لا أظن به ذلك اصلا
وان جاءت تسميته فى الصحيح فقد يخطئ الثقة لأسباب لا تحصى كما يعرف ذلك من مارس نقل
الاخبار وكيف يظن به ذلك ولا شغل له الا مدح النبى صلى الله عليه وسلم والمدافعة عنه والذم
لأعدائه وقد شهد النبى صلى الله عليه وسلم ان جبريل معه وهو القائل يمدح عائشة ويكذب
من نقل عنه ذلك

حصان رزان ماتزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا * نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب * كرام المساعي مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها * وطهرها من كل شين وباطل
وان كان مابلغت عني قلته * فلا رفعت سوطي الي اناملي
فكيف وودي ماحييت ونصرتي * لآل رسول الله زين المحافل
له رتبة عال على الناس فضلها * تقاصر عنها سورة المتطاول

وفي هذا القدر كفاية لاولي الالباب فان في هذه القصة عبرة لمن اعتبر فان أهل الافك استمروا في هذا اكثر من شهر والله تعالى عالم بما يقولون وان قولهم يكاد يقطع الاكباد في احب خلقه اليه وهو قادر على تكذيبهم عند اول ماخاضوا فيه ولكنه سبحانه اراد للناس رفع الدرجات ولآخرين الهلكات ولا باس ببيان غريب هذه الالفاظ التي وقعت في هذه القصة من كلام عائشة وغيرها قولها اذن اي اعلم بالرحيل وقولها فقدت عقد الي من جزع أظفار هو نوع من الخرز وهو الجزع اليماني المعروف وقولها لم يهبلن اي لم يكثر لحمهن من السمن فيثقلن وقولها انما يأكلن العلقة من الطعام وهو بضم العين أي البلغة من الطعام وهي قدر مايمسك الرمق وقولها ليس بها منهم داع ولا مجيب أي ليس بها أحد لا من يدعو ولا من يرد جوابا وقولها فتيممت اي قصدت وقولها فادلج من وراء الجيش فادلج التعريس نزول المسافر بالليل للراحة والادلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله وقولها باسترجاعه هو قول القائل انا لله وانا اليه راجعون قولها فخمرت اي غطيت وجهي بجلبابي اي ازاري وقولها موغرين في نحر الظهيرة الوغر شدة الحر وكذلك نحر الظهيرة اي اولها وقولها والناس يفيضون اي يخوضون ويتحدثون وقولها وهو يريبني يقال رابني الشئ يريبني اي تشككت فيه وقولها ولا ارى من النبي اللطف اي الرفق بها واللطف في الافعال الرفق وفي الاقوال لين الكلام وقولها حين نقهت اي افقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غائط وبول واصله المكان الواسع الخالي والمرط كساء من صوف او خز وقولها فقالت تعس مسطح اي خسر وقولها ياهنتاه اي يابلهاء كأنها نسبتها الى البله وقلة المعرفة وقولها لايرقأ اي لاينقطع وقول بريرة ان رأيت بمعنى النفي اي مارأيت منها امرا اغمصه عليها بالصاد المهملة اي أعيبه والداجن الشاة التي تألف البيت وتقيم به وقوله صلى الله عليه وسلم من يعذرني أي ان أنا كافئته على سوء صنيعه ان عاتبت أو عاقبت فلا تلوموني على ذلك وقولها ولكن حملته الحمية اي حملة الغضب والانفة والتعصب على الجهل للقرابة وقولها فتثاور الحيان اي ثار وانهضوا للقتال والمخاصمة وقولها فلم يزل يخفضهم اي يهون عليهم ويسكت وقوله صلى الله عليه وسلم ان كنت ألممت قيل هو من اللمم وهو صغار الذنوب قيل معناه مقاربة الذنب من غير فعل وقولها قلص دمعي اي انقطع جريانه قوله مارام اي مابرح من مكانه والبرحاء الشدة والجمانة الدرة وجمعه جمان وقولها فسري عنه اي كشف عنه وقول زينب احمي سمعي وبصري اي امنعهما عن ان اخبر بما لم اسمع ولم ابصر وقولها

صدى خالف بعض مع انه يتعدى بنفسه (قلت) ضمن

وهي التي كانت تساميني من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله تعالى اي منعها الله من الوقوع في الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت كنف انثى اي ستر انثى وقول حسان في عائشة حصان بفتح الحاء امرأة حصان اي متعففة رزان اي ثابتة ما تزن اي ترمى ولا تتهم بريبة اي امر يريب الناس وتصبح غرثى اي خائفة الموت والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة والمعنى انها لا تغتاب احدا ممن هو غافل وقرأ الا تحسبوه وتحسبونه ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها ولما اخبر سبحانه وتعالى بعقاب اهل الافك وكان في المؤمنين من سمعه وسكت ومنهم من سمعه فتحدث به متعجبا من قائله او مستثبتا في امره ومنهم من كذبه اتبعه سبحانه وتعالى بعتابهم في اسلوب خطابهم مثنيا على من كذبه فقال سبحانه وتعالى مستأنفا محرضا (لولا) اي هلا ولم لا (اذ) اي حين (سمعتموه) ايها المدعون للايمان (ظن المؤمنون) اي منكم (والمؤمنات) وكان الاصل ظننتم اي ايها العصبة ولكنه التفت الى الغيبة تنبيها على التوبيخ وصرح بالنساء ونبه على الوصف المقتضي لحسن الظن تعريفا للذي ظن السوء من وما الخائنة (بانفسهم) حقيقة (خيرا) وهم ومن كذب عليها فقطعوا ببراءتها لان الانسان لا يظن في الناس الا ما هو متصف به او باخوانهم لان المؤمنين كالجسد الواحد وذلك نحو ما روي ان ابا ايوب الانصاري قال لام ايوب الا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان كنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوأ قال لا قالت ولو كنت انا بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير مني وصفوان خير منك (وقالوا هذا افك مبين) اي كذب بين (فان قيل) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بانفسكم خيرا وقلتم ولم عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر (أجيب) بان ذلك مبالغة في التوبيخ على طريقة الالتفات وليصرح بلفظ الايمان دالا على ان الاشتراك فيه يقتضي ان لا يصدق مؤمن على اخيه ولا مؤمنة على اختها قول عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على ان حق المؤمن اذا سمع قالة في اخيه ان يبني الامر فيها على الظن لا على الشك وان يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير هذا افك مبين هكذا اللفظ المصرح ببراءة ساحته لا يقول كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الادب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما يسمعه باخوانه ❊ ثم علل سبحانه وتعالى كذب الآفكين بان قال موبخا لمن اختلقه واذاعه ملقنا لمن يذبه الى ظن الخير (لولا) اي هلا ولم لا (جاؤا عليه باربعة شهداء) كما تقدم ان القذف لا يباح الا بها (فاذ) اي حين (لم يأتوا بالشهداء) اي الموصوفين (فاولئك) اي البعداء من الصواب (عند الله هم الكاذبون) قد جعل الله التفصيل بين الرمي الصادق والرمي الكاذب بثبوت شهادة الشهود الاربعة وانتفائها والذين رموا عائشة لم تكن لهم بينة على قولهم فقامت عليهم الحجة وكانوا عند الله اي في حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الافك فلم يجدوا في دفعه وانكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة في التنكيل به اذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين فكيف بام المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حبيبة حبيب رب العالمين ❊ ولما بين الله سبحانه وتعالى الدليل

بخلاف معنى يعرض
أو يعدل فعداه تعديته

الى كذب الخائضين فى هذا الكلام وانهم استحقوا اللام قال عاطفا على لولا الماضية التى للتحضيض (ولولا) التى هى لامتناع الشئ لوجود غيره (فضل الله) اى المحيط بصفات الكمال (عليكم ورحمته) اى معاملته لكم بمزيد الانعام والاكرام اللازم للرحمة (فى الدنيا) بقبول توبته والمعاملة بالحلم (والآخرة) بالعفو عن يريد أن يعفو عنه منكم (لمسكم) اى عاجلكم (فى ما أفضتم) اى أيها العصبة اى خضتم (فيه) من حديث الافك (عذاب عظيم) اى يحتقر معه اللوم والجلد *(فائدة)* فى مقطوعة فى الرسم من ما كما ترى ثم بين تعالى وقت حلول العذاب وزمان تعجيله بقوله تعالى (اذ) اى مسكم حين (تلقونه) اى تجتهدون فى تلقى اى قبول هذا الكلام الفاحش والقائه (بالسنتكم) اى يرويه بعضكم عن بعض وذلك ان الرجل منهم كان يلقى الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا يتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم الى بعض وحذفت من الفعل احدى التاءين (وتقولون بافواهكم) اى كلاما مختصا بالافواه فهو كلام لا حقيقة له فلا يمكن ارتسامه فى القلب بنوع دليل وأكد هذا المعنى بقوله تعالى (ما ليس لكم به علم) اى بوجه من الوجوه وتنكيره للتحقير (فان قيل) القول لا يكون الا بالفم فما معنى قوله تعالى بافواهكم (أجيب) بان معناه أن الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب فيترجم عنه اللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجرى على ألسنتكم ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب كقوله تعالى يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم (وتحسبونه) بدليل سكوتكم عن انكاره (هينا) اى لا اثم فيه (وهو) اى والحال أنه (عند الله) اى الذى لا يبلغ أحد مقدار عظمته (عظيم) فى الوزر واستجرار العذاب فهذه ثلاثة آثام مرتبة علق بها مس العذاب العظيم تلقى الافك بالسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك وهو عند الله تعالى عظيم (ولولا) اى وهلا ولم لا (اذ) اى حين (سمعتموه قلتم) من غير توقف ولا تلعثم (ما يكون) اى ما ينبغى وما يصح (لنا أن نتكلم بهذا) اى القول المخصوص ويجوز أن تكون الاشارة الى نوعه فان قذف آحاد الناس محرم فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة أكمل الخلق (فان قيل) كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم (أجيب) بان الظروف تنزل من الشئ منزلة نفسه لوقوعه فيها وأنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها (فان قيل) اى فائدة فى تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا (أجيب) بان الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم (فان قيل) ما معنى يكون والكلام بدونه ملتئم لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا (أجيب) بان معناه ينبغى ويصح اى ما ينبغى لنا أن نتكلم بهذا وما يصح لنا كما تقدم تقريره ونحوه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق وقوله تعالى (سبحانك) تعجب من أن يخطر ذلك بالبال فى حال من الاحوال (فان قيل) ما معنى التعجب فى كلمة التسبيح (أجيب) بان الاصل فى ذلك أن يسبح الله تعالى عند رؤية المتعجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه وقيل تنزيه فهو منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء القذفة وعن أن لا يعاقبهم وعن أن تكون حرمة نبيه صلى الله عليه وسلم فاجرة قال البيضاوى فان فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود الزواج بخلاف كفرها فانه لا ينفر اى ولهذا كانت امرأة نوح ولوط كافرتين وهذا

اوعن متعلقه محذوف تقديره ويعرضون

يقتضي حل نكاح الكتابية مع أنه الأفضل له صلى الله عليه وسلم لانها تكره صحبته ولانه اشرف من أن يضع ماءه في رحم كافرة بنكاح ولقوله تعالى وأزواجه أمهاتهم ولا يجوز أن تكون الكافرة أم المؤمنين ولخبر سألت ربي أن لا أزوج الامن كانت معي في الجنة فاعطاني رواه الحاكم وصحح اسناده اما التسري بالكافرة فلا يحرم لانه صلى الله عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بني قريظة ولا يشكل تعليلهم السابق من أنه اشرف أن يضع ماءه في رحم كافرة لان القصد بالنكاح اصالة التوالد فاحتيط له وبانه يلزم منه ان تكون الزوجة المشركة ام المؤمنين بخلاف الملك فيهما (هذا بهتان) اى كذب يبهت من يواجه به ويحيره لشدة ما يفعل في القوى الباطنة لانه في غاية الغفلة عنه لكونه أبعد الناس منه ثم هونه بقوله (عظيم) لعظمة المبهوت عليه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها • ولما كان هذا كله وعظا لهم واستصلاحا ترجمه بقوله (يعظكم الله) اى يرقق قلوبكم الذي له الكمال كله فيمهل بحلمه ولا يهمل بحكمته (أن) اى كراهة أن (تعودوا لمثله أبدا) أى ما دمتم أحياء مكلفين ثم عظم هذا الوعظ بقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) أى متصفين بالايمان راسخين فيه فانكم لا تعودون فان الايمان يمنع عنه وهذا تهييج وتقريع لا أنه يخرج عن الايمان كما تقول المعتزلة (فان قيل) هل يجوز أن يسمى الله واعظا كقوله تعالى يعظكم الله (أجيب) بانه لا يجوز كما قاله الرازي قال كما لا يجوز أن يسمى الله معلما كقوله تعالى الرحمن علم القرآن لان أسماء الله تعالى توقيفية (ويبين الله) أى بما له من صفات الكمال والاكرام (لكم الآيات) أى الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا (والله) أى المحيط بجميع الكمال (عليم) أى بما يأمر به وينهى عنه (حكيم) لا يضع شيأ الا في أحكم مواضعه وان دق عليكم فهم ذلك فلا تتوقفوا في أمر من أوامره • ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب بينه بقوله تعالى (ان الذين يحبون) أى يريدون وعبر بالحب اشارة الى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته الا محب له ولا يحبه الا بعيد عن الاستقامة (أن تشيع) أن تنتشر بالقول أو الفعل (الفاحشة) الفعلة الكبيرة القبح (في الذين آمنوا) اى بنسبتها اليهم وهم العصبة وقيل المنافقون (لهم عذاب أليم في الدنيا) اى بالحد للقذف (والآخرة) اى بالنار لحق الله تعالى ان لم يتب (والله) اى المتجمع لصفات الجلال والجمال (يعلم) اى له العلم التام فهو يعلم مقادير الاشياء ما ظهر منها وما بطن وما الحكمة في اظهاره او ستره او غير ذلك من جميع الامور (وانتم لا تعلمون) اى ليس لكم علم من انفسكم فاعملوا بما علمكم فلا تجاوزوه ولا تضلوا وقيل معناه يعلم ما في قلب من يحب أن تشيع الفاحشة فيجازيه عليها وأنتم لا تعلمون ذلك وقيل والله يعلم انتفاء الفاحشة عنهم وأنتم ايها العصبة لا تعلمون وجودها فيهم وقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) اى بكم تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة ولذا عطف عليه (وان الله) اى الذي له القدرة التامة فسبقت رحمته غضبه (رؤف رحيم) على حصول فضله ورحمته وجواب لولا محذوف كأنه قال لعذبكم واستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة قال الرازي ويجوز أن يكون الخطاب عاما وقيل الجواب في قوله تعالى ما زكى منكم من احد وقرأ رؤف نافع وابن كثير وابن عامر

أو وتعدلون أو هي زائدة على قول الأخفش

وحفص بمد الهمزة والباقون بقصرها (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات) اى طرق (الشيطان) بتزيينه أى لا تسلكوا مسالكه فى اشاعة الفاحشة ولا فى غيرها (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه) اى المتبع (يأمر بالفحشاء) اى بالقبائح من الافعال (والمنكر) اى ما أنكره الشرع وهو كل ما يكرهه الله تعالى وقرأ قنبل وابن عامر وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (ولولا فضل الله) أى الذى لا اله غيره (عليكم ورحمته) أى بكم بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وتشريع الحدود المكفرة لها (ما زكى) اى ما طهر من ذنبها (منكم من أحد أبدا) آخر الدهر والآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا أخبر الله أنه لولا فضل الله ورحمته ما صلح منكم من أحد وقال ابن عباس الخطاب للذين خاضوا فى الافك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذى فعل بالتوبة منه (ولكن الله) اى العالم بالسوال خلقه (يزكى) أى يطهر (من يشاء) من الذنوب بقبول التوبة منها (والله سميع) أى لاقوالهم (عليم) اى بما فى قلوبهم (ولا يأتل) أن يحلف افتعال من الالية وهو القسم (أولو الفضل) اى أصحاب الغنى (منكم والسعة أن) اى أن لا (يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا) عنهم فى ذلك (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) اى على عفوكم وصفحكم واحسانكم الى من أساء اليكم قال المفسرون نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه حيث حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبى بكر رضى الله تعالى عنه وكان يتيما فى حجره وكان ينفق عليه فلما فرط منه ما فرط قال لهم أبو بكر قوموا لستم منى ولست منكم وكفى بذلك داعيا فى المنع فان الانسان اذا أحسن الى قريبه وكافأه بالاساءة كان أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من أجنبى قال الشاعر

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة • على المرء من وضع الحسام المهند

فقال له مسطح نشدتك الله والاسلام والقرابة لا تحوجنا الى أحد فما كان لنا أول الامر من ذنب فقال ألم تتكلم فقال قد كان بعض ذلك عجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا أيها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الارض وناس من الصحابة أقسموا أن لا يتصدقوا على من تكلم بشئ من الافك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبى بكر وقرأ عليه الآية فلما وصل الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم (والله غفور رحيم) أى مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه قال بلى يا رب انى أحب أن تغفر لى فذهب أبو بكر الى بيته وأرسل الى مسطح وأصحابه وقال قبلت ما أنزل الله تعالى على الرأس والعين وانما فعلت بكم ما فعلت اذ سخط الله عليكم أما اذ عفا عنكم فمرحبا بكم وجعل له مثل ما كان له وقال والله لا أنزعها أبدا وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك أن هذا أعظم من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكفار ومجاهدة النفس أشد من مجاهدة الكفار ولهذا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (ان الذين يرمون المحصنات) أى العفائف (الغافلات) أى عن الفواحش وعن السليمات الصدور والنقيات القلوب بأن لا يقع فى قلوبهن فعلها اللاتى ليس

فهن دهاء ولا مكر لانهن لم يجربن الامور ولم يرزن الاحوال فلا يفطن لما تفطن له المجربات العارفات قال في ذلك القائل متغزلا

ولقد لهوت بطفلة ميالة • بلهاء تطلعني على أسرارها

وكذلك البله من الرجال في قوله صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وقيل البله هم الراضون بنعيم الجنة والفطناء لم يرضوا الا بالنظر الى وجهه الكريم (المؤمنات) بالله ورسوله (لعنوا في الدنيا والآخرة) اى عذبوا في الدنيا بالحد وفي الآخرة بالنار (ولهم عذاب عظيم) لعظم ذنوبهم قال مقاتل هذا خاص في عبد الله بن ابي ابن سلول المنافق وروى انه قيل لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله في الدنيا والآخرة فقال ذلك لعائشة رضي الله تعالى عنها خاصة قال الزمخشري ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما اوعد به العصاة لم تر ان الله عز وجل قد غلظ في شئ تغليظه في افك عائشة رضوان الله عليها ولا انزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما اقدم عليه ما انزل فيه على طرق مختلفة واساليب مفتنة كل واحد منها كاف في بابه ولو لم تنزل الا هذه الثلاث آيات لكفي بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة وبان السنتهم وايديهم وارجلهم تشهد عليهم كما قال تعالى (يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون) اى من قول وفعل وهو يوم القيامة بما افكوا وبهتوا فانه تعالى يوفيهم جزاءهم الحق كما قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) اى جزاءهم الواجب الذين هم اهله (ويعلمون) عند ذلك (أن الله هو الحق المبين) حيث حقق لهم جزاء الذى كانوا يشكون فيه فاوجز في ذلك واشبع وفصل واجمل واكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين وعبدة الاوثان الا ما هو دونه في الفظاعة وما ذلك الا لامر عظيم وعن ابن عباس انه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض في أمر عائشة وهذا منه مبالغة وتعظيم لامر الافك ولقد برأ الله تعالى أربعة باربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد فقال تعالى وشهد شاهد من أهلها الآية وبرأ موسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها عليه الصلاة والسلام حين نادى (١) من تحتها انى عبد الله الآية وبرأ عائشة رضى الله تعالى عنها بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات فانظر كيف بينها وبين تبرئة اولئك وما ذلك الا لاظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على انافة محل سيد ولد آدم وخيرة الاولين والآخرين وحجة الله على العالمين ومن أراد أن يتحقق عظمة شانه وتقدم قدمه واحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الافك وليتامل كيف غضب الله تعالى له في حرمته وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه وقال قوم ليس لمن قذف عائشة وبقية أزواج النبى صلى الله عليه وسلم توبة لان الله تعالى لم يذكر في قذفهن توبة وما ذكر من أول السورة فذاك في قذف غيرهن (فان قيل) ان كانت عائشة هي المرادة فكيف قيل المحصنات (أجيب) بانها المكانت أم المؤمنين جمعت ارادة لها ولبناتها من نساء الامة الموصوفات

بالاحصان

(١) قوله من تحتها كذا بالنسخ والذى في الكشاف من جحرها اه مصحح

بالاحصان والفضلة والايمان ولذا قيل ان هذا حكم كل قاذف مالم يتب (فان قيل) ما معنى قوله تعالى هو الحق المبين (أجيب) بان معناه ذو الحق المبين اى العادل الظاهر العدل الذى لاظلم فى حكمه والمحق الذى لايوصف بباطل ومن هذه صفته كان له أن يجازى المحسن على احسانه والمسىء على اساءته فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه وقرأ يشهد حمزة والكسائى بالياء التحتية والباقون بالفوقية ويوم ناصبه الاستقرار الذى تعلق به لهم وقرأ أبو عمرو يوفيهم الله بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا كله فى الوصل وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم (الخبيثات) اى من النساء والكلمات (للخبيثين) من الناس (والخبيثون) اى من الناس (للخبيثات) اى مما ذكر (والطيبات) اى مما ذكر (للطيبين) اى من الناس (والطيبون) اى منهم (للطيبات) اى مما ذكر فاللائق بالخبيث مثله وبالطيب مثله (أولئك) اى الطيبون والطيبات من النساء ومنهم صفوان وعائشة (مبرؤن مما يقولون) اى الخبيثون والخبيثات من النساء وقيل عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى فان كان له اخوة أى اخوان (لهم) اى الطيبين والطيبات من النساء على الاول ولصفوان وعائشة على الثانى (مغفرة) اى عفو عن الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة وروى ان عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تفتخر باشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها ان جبريل عليه السلام أتى بصورتها فى سرقة من حرير وقال النبى صلى الله عليه وسلم هذه زوجتك وروى انه أتى بصورتها فى راحته ومنها أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها ومنها أنه قبض صلى الله عليه وسلم ورأسه الشريف فى حجرها ومنها انه دفن فى بيتها ومنها انه كان ينزل عليه الوحى وهو معها فى لحاف ومنها ان براءتها نزلت من السماء ومنها أنها ابنة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه وخلقت طيبة ووعدت بمغفرة ورزق كريم وكان مسروق رحمه الله تعالى اذا روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قال حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء الحكم السادس ماذكره بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم) اى التى تسكنونها فان المؤجر والمعير لايدخلان الا باذن وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها وفى قوله تعالى (حتى تستأنسوا) وجهان أحدهما أنه من الاستئناس الظاهر الذى هو خلاف الاستيحاش لان الذى يطرق باب غيره لايدرى أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه فاذا أذن له فقد استأنس والمعنى حتى يؤذن لكم كقوله تعالى لاتدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم وهذا من باب الكناية والارداف لان هذا النوع من الاستئناس يردف الاذن فوضع موضع الاذن والثانى أن يكون من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف استفعال من أنس الشىء اذا أبصره ظاهرا مكشوفا والمعنى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا ومنه قولهم استأنس هل ترى أحدا واستأنست فلم أر أحدا اى تعرفت واستعلمت وقال الخليل بن أحمد الاستئناس الاستبصار من قولهم آنست نارا أى أبصرت وقيل هو أن يتكلم بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح يؤذن أهل البيت وعن أبى أيوب الانصارى قال يارسول الله ما الاستئناس

قال ان يتكلم الرجل (وتسلموا على أهلها) كان يقول الواحد السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان أذن له دخل والا رجع قال قتادة المرة الاولى للتسميع والثانية ليتهيأ والثالثة ان شاء أذن وان شاء رد وهذا من محاسن الآداب فان أول مرة ربما منعهم بعض الاشتغال من الاذن وفى الثانية ربما كان هناك مانع يقتضى المنع فان لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ولهذا كان الاولى فى الاستئذان ثلاثا أن لا تكون متصلة بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقت ما ولا بد من اذن صريح اذا كان الداخل أجنبيا أو قريبا غير محرم سواء كان الباب مغلقا أم لا وان كان محرما فان كان ساكنا مع صاحبه فيه لم يلزمه الاستئذان ولكن عليه أن يشعر بدخوله بتنحنح أو شدة وطء أو نحو ذلك ليستتر العريان فان لم يكن ساكنا فان كان الباب مغلقا لم يدخل الا باذن وان كان مفتوحا فوجهان والاوجه الاستئذان وعن أبى موسى الاشعرى انه أتى باب عمر فقال السلام عليكم أأدخل قالها ثلاثا ثم رجع وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الاستئذان ثلاثا واستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أألج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة يقال لها روضة قومى الى هذا فعليه فانه لا يحسن ان يستأذن قولى له يقول السلام عليكم أأدخل فسمع الرجل فقالها فقال ادخل وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب صاحب البيت مع امرأته فى لحاف واحد فصد الله عز وجل عن ذلك وعلم ما هو الاحسن الاجمل وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به وباب الاستئذان من ذلك قال الزمخشرى بينا أنت فى بيتك اذ رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا اسلام ولا جاهلية وهو عن يسمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أين الاذن الواعية (ذلكم خير لكم) اى من تحية الجاهلية ومن أن تدخلوا من غير استئذان روى ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أأستأذن على أمى قال نعم قال انه ليس لها خادم غيرى أأستأذن عليها كلما دخلت قال أتحب ان تراها عريانة قال الرجل لا قال فاستأذن وقوله تعالى (لعلكم تذكرون) متعلق بمحذوف اى أنزل عليكم وقيل بين لكم هذا ارادة أن تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به فى باب الاستئذان وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (فان لم تجدوا فيها) اى البيوت (أحدا) يأذن لكم فى دخولها (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) اى حتى يأتى من يأذن لكم فان المانع من الدخول فيها ليس الاطلاع على العورات فقط وانما شرع لئلا يوقف على الاحوال التى تطويها الناس فى العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ولانه تصرف فى ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه والا أشبه الغصب والتغلب (وان قيل لكم ارجعوا) اى بعد الاستئذان (فارجعوا) اى اذا كان فى البيت أحد وقال لكم ارجعوا فارجعوا (هو) اى الرجوع (أزكى) اى أطهر وأصلح (لكم) من الوقوف على الابواب منتظرين لان هذا مما يجلب الكراهة ويقدح فى قلوب الناس خصوصا اذا كانوا ذوى مروأة مرتاضين بالآداب الحسنة اذا ونهى عن ذلك لأدائه الى الكراهة ويجب الانتهاء عن كل ما يؤدى اليها من قرع الباب

بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس وعن أبي عبيد رحمه الله تعالى ما قرعت بابا على عالم قط وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون وعن قتادة رحمه الله تعالى اذا لم يؤذن له لا يقعد وراء الباب فان للناس حاجات وان حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يأتي باب الانصاري لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن فيخرج الرجل فيقول يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أخبرتني فيقول هكذا أمرنا ان نطلب العلم فاذا وقف فلا ينظر من شق الباب اذا كان الباب مردودا لما روى عن أبي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اطلع في بيت قوم فقد حل لهم أن يفقؤا عينه وفي رواية للنسائي قال لو ان امرأ اطلع عليك بغير اذن فخذفته ففقأت عينه ما كان عليك جناح ولو عرض أمر في دار من حريق أو هدم أو هجوم سارق أو ظهور منكر يجب انكاره جاز الدخول بغير اذن (والله) اي الذي لا يخفى عليه شئ (بما تعملون) من الدخول باذن و بغير اذن (عليم) فيجازيكم عليه * ولما نزلت آية الاستئذان قالوا يا رسول الله كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها انسان فانزل الله تعالى (ليس عليكم جناح) اي اثم (ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة) اي بغير استئذان منكم وذلك كبيوت الخانات والربط المسبلة (فيها متاع) اي منفعة (لكم) والمنفعة فيها بالنزول وأنواع المتاع والاتقاء من الحر والبرد ونحو ذلك وقال ابن زيد هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالاسواق يدخلها للبيع والشراء وهو المنفعة وقال ابراهيم النخعي ليس على حوانيت الاسواق اذن وكان ابن سيرين رحمه الله تعالى اذا جاء الى حانوت السوق يقول السلام عليكم أأدخل ثم يلج وقال عطاء هي البيوت الخربة والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها (والله يعلم ما تبدون) اي تظهرون (وما تكتمون) اي تخفون في دخول غير بيوتكم من قصد صلاح أو غيره وفي ذلك وعيد من الله تعالى لمن دخل لفساد أو تطلع على عورات وسيأتي انهم اذا دخلوا بيوتهم سلموا على أنفسهم والحكم السابع حكم النظر المذكور في قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) اي عما لا يحل لهم نظره (ويحفظوا فروجهم) اي عما لا يحل لهم فعله بها *(تنبيه)* من للتبعيض والمراد غض البصر عما لا يحل كما مر والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش ان تكون مزيدة وأباه سيبويه (فان قيل) لم دخلت من في غض البصر دون حفظ الفرج (أجيب) بان في ذلك دلالة على أن المراد ان أمر النظر أوسع بدليل جواز النظر للمحارم فيما عدا ما بين السرة والركبة وأما نظر الفروج فالامر فيه ضيق وكفاك فرقا ان أبيح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه ويجوز ان يراد مع حفظها عن الافضاء الى ما لا يحل حفظها عن الابداء وعن ابن زيد كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا الا هذا فانه أراد به الاستتار (فان قيل) لم قدم غض البصر على حفظ الفرج (أجيب) بان البلوى فيه أشد وروى عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فقال اصرف بصرك وعن

بريدة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الثانية أخرجه أبو داود والترمذي وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ولا المرأة الى عورة المرأة ولا يفضي الرجل الى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة الى المرأة في ثوب واحد (ذلك) أي غض البصر وحفظ الفرج (أزكى) أي خير (لهم) لما فيه من البعد عن الريبة سئل الشيخ الشبلي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى يغضوا من أبصارهم فقال أبصار الرؤس عن المحرمات وأبصار القلوب عن المحرمات ثم أخبر سبحانه وتعالى بانه خبير بأحوالهم وأفعالهم بقوله تعالى (ان الله) أي الملك الذي لا يخفى عليه شيء (خبير بما يصنعون) بسائر حواسهم وجوارحهم فعليهم اذا عرفوا ذلك ان يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) عما لا يحل لهن نظره (ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن فعله بها روي عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحرث اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه وقوله تعالى (ولا يبدين) أي يظهرن (زينتهن) أي لغير محرم والزينة خفية وظاهرة فالخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الاذن والقلائد في العنق فلا يجوز للمرأة اظهارها ولا يجوز للاجنبي النظر اليها والمراد من الزينة مواضعها من البدن وذكر الزينة للمبالغة في الامر بالصون والستر لان هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر اليها (الا ما ظهر منها) أي من الزينة الظاهرة واختلف أهل العلم في هذه الزينة التي استثناها الله تعالى فقال سعيد بن جبير وجماعة هي الوجه والكفان وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه هي الثياب وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي الكحل والخاتم والخضاب في الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للاجنبي النظر اليها ان لم يخف فتنة في أحد وجهين وعليه الاكثر وانما رخص في هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لانه ليس بعورة في الصلاة وما بدنها عورة فيها ولان سترها فيه حرج فان المرأة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشي في الطرقات وخاصة الفقيرات والوجه الثاني يحرم لانه محل الفتنة ورجح حسما للباب (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أي يسترن الرؤس والاعناق والصدور بالمقانع فان جيوبهن كانت واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فامرن بان يسدلنها من قدامهن حتى تغطيها ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور وتسميتها بها باسم ما يليها ويلابسها ومنه قولهم ناصح الجيب بالحاء والصاد أي سليم الصدر وقولك ضربت بخمارها على جيبها كقولك ضربت بيدي على الحائط اذا وضعتها عليه قالت عائشة رضي الله تعالى عنها يرحم الله تعالى نساء المهاجرات لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها والمرط كساء من صوف أو خز

أوكان وقيل هو الازار وقيل هو الدرع وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وعاصم بضم الجيم والباقون بكسرها وكرر قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) لبيان من يحل له الابداء ومن لا يحل له اى الزينة الخفية التى لم يبح لهن كشفها فى الصلاة ولا للاجانب وهى ماعدا الوجه والكفين (الا لبعولتهن) اى فانهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا الى جميع بدنهن حتى الفرج ولو الدبر ولكنه يكره وقال ابن عباس لا تضعن الجلباب والخمار الا لازواجهن (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن) فيجوز لهؤلاء أن ينظروا الى الزينة الخفية ولا ينظروا الى ما بين السرة والركبة وانما سومح فى الزينة الخفية لاولئك المذكورين فى الآية للحاجة المضطرة الى مداخلتهم ومخالطتهم ولقلة الفتنة من جهتهم ولما فى الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وتحتاج المرأة الى صحبتهم فى الاسفار للنزول والركوب وغير ذلك (أو نسائهن) اى المؤمنات فان الكافرات لا يتحرجن عن وصفهن للرجال فلا يجوز للمسلمة أن تتجرد من ثيابها عند (١) النساء الكافرات لانهن أجنبيات عن الدين فكن كالرجال الاجانب لكن يجوز أن ترى الكافرة منها ما يبدو عند المهنة وقد كتب عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمامات مع المسلمات وقيل النساء كلهن وللعلماء فى ذلك خلاف *(تنبيه)* العورة على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة أما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنه ماعدا ما بين السرة والركبة وكذلك المرأة مع المرأة وأما المرأة مع الرجل أو الرجل مع المرأة فلا ينظر أحدهما من الآخر شيأ وقيل يجوز للاجنبى أن ينظر الى وجهها وكفيها اذا أمن الفتنة ولم تكن شهوة وقيل يجوز لها أن تنظر منه ماعدا ما بين السرة والركبة ويجوز لمن أراد أن يخطب حرة أن ينظر وجهها وكفيها وهى تنظر منه اذا أرادت أن تتزوج به ماعدا ما بين السرة والركبة وان أراد أن يتزوج بامة جاز أن ينظر منها ماعدا ما بين السرة والركبة ويحرم ان ينظر بشهوة ويحرم النظر بشهوة لكل منظور اليه الا لمن أراد أن يتزوج بها والا حليلته ويباح النظر من الاجنبى لمعاملة وشهادة حتى يجوز النظر الى الفرج للشهادة على الزنا والولادة والى الثدى للشهادة على الرضاع وتعليم ومداواة بقدر الحاجة وكل ما حرم نظره متصلا حرم نظره منفصلا كشعر عانة من رجل أو قلامة ظفر من أجنبية ويحرم اضطجاع رجلين أو امرأتين فى ثوب واحد اذا كانا عاريين وان كان كل منهما فى جانب من الفراش للخبر المتقدم ويجب التفريق بين ابن عشر سنين واخوته وأخواته فى المضجع اذا كانا عاريين وتسن مصافحة الرجلين والمرأتين لخبر ما من مسلمين يلتقيان و يتصافحان الا غفر لهما قبل أن يتفرقا وتكره مصافحة من به عاهة كجذام أو برص والمعانقة والتقبيل فى الرأس للنهى عن ذلك الا القادم من سفر أو تباعد عهد ويسن تقبيل الطفل ولو لغير أبويه شفقة ولا بأس بتقبيل وجه الميت الصالح ويسن تقبيل يد الحى لصلاح أو علم أو زهد أو نحو ذلك ويكره لغنى أو وجاهة أو نحو ذلك وقوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهن) يعم الاماء والعبيد فيحل نظر العبد العفيف غير المبعض والمشترك والمكاتب الى سيدته العفيفة لما روى أبو داود انه صلى الله عليه وسلم أتى

(١) قوله عند النساء الخ كذا فى نسخ وفى بعض عند الكافرة لانها أجنبية فى الدين فكانت كالرجل الاجنبى اه مصحح

قوله الا لمن أراد أن يتزوج بها عمومه يشمل الامة وقد قال فيها ويحرم أن ينظر بشهوة فليحرر اه

فاطمة رضى الله تعالى عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى ما النبي صلى الله عليه وسلم ما تلقى قال صلى الله عليه وسلم انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وعن عائشة انها قالت لعبدها ذكوان انك اذا وضعتني في القبر وخرجت فانت حر وأما الفاسق والمبعض والمشترك والمكاتب فكالاجنبي بل قيل ان المراد بالآية الاماء وعبد المرأة كالاجنبي وبه قال ابن المسيب آخرا وقال لا تغرنكم آية النور فان المراد بها الاماء (أو التابعين) اى الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم (غير أولى الاربة) اى أصحاب الحاجة الى النساء (من الرجال) اى ليس لهم همة الى ذلك ولا حاجة لهم في النساء لانهم بله لا يعرفون شيأ من أمرهن وقيل هم شيوخ صلحاء اذا كانوا معهن غضوا أبصارهم وقيل هم الممسوحون سواء كان حرا أم لا وهو ذاهب الذكر والانثيين أما ذاهب الذكر فقط أو الانثيين فقط فكالفحل وعن أبى حنيفة لا يحل امساك الخصيان واستخدامهم وبيعهم وشراؤهم قال الزمخشرى فان قلت روى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصى فقبله قلت لا يقبل فيما تعم به البلوى الاحديث مكشوف وان صح فلعله قبله ليعتقه أو لسبب من الاسباب انتهى وعندنا يجوز جميع ذلك اذ لا مانع منه وقيل المراد بأولى الاربة هو المخنث وقرأ ابن عامر وشعبة بنصب الراء على الاستثناء والحال والباقون بكسرها على الوصفية وقوله تعالى (أو الطفل) بمعنى الاطفال وضع الواحد موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبينه ما بعده وهو قوله تعالى (الذين لم يظهروا) اى لم يطلعوا (على عورات النساء) للجماع فيجوز لهن أن يبدين لهم ما عدا ما بين السرة والركبة قال امام الحرمين رحمه الله تعالى اذا لم يبلغ الطفل حدا يحكى ما يراه فكالعدم أو بلغه من غير شهوة فكالمحرم أو بشهوة فكالبالغ (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) وذلك ان المرأة كانت تضرب برجلها الارض ليتقعقع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال وقيل كانت تضرب باحدى رجليها على الاخرى ليعلم أنها ذات خلخالين فنهين عن ذلك لان ذلك يورث ميلا في الرجال واذا وقع النهى عن اظهار صوت الحلى فمواضع الحلى أبلغ في النهى وأوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه فلذلك قال تعالى (وتوبوا الى الله) اى الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (جميعا أيه المؤمنون) اى عما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره * وشروط التوبة أن يقلع الشخص عن الذنب ويندم على ما مضى منه ويعزم على ان لا يعود اليه ويرد الحقوق لاهلها وقرأ ابن عامر في الوصل أيه المؤمنون بضم الهاء لانها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها والباقون بفتحها وأما الوقف فوقف ابو عمرو والكسائى بالالف بعد الهاء ووقف الباقون على الهاء ساكنة (لعلكم تفلحون) اى تفوزون من ذلك بقبول التوبة منه وفى الآية تغليب الذكور على الاناث وعن ابن عباس توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة (فان قيل) على هذا قد صحت التوبة بالاسلام لانه يجب

ماقبله لما هي هذه التوبة (أجيب) بأن بعض العلماء قال ان من أذنب ذنبا ثم تاب منه لزمه كلما ذكره أن يجدد التوبة لانه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه على عدم العود الى أن يلقى الله تعالى والذى عليه الاكثر أنه لا يلزمه تجديدها وعن أبي بردة أنه سمع الاغر يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس توبوا الى ربكم فانى أتوب الى ربى كل يوم مائة مرة وعن ابن عمر قال انا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول رب اغفر لى وتب علىّ انك أنت التواب الغفور مائة مرة وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يسقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة * ولما نهى عما يفضى الى السفاح المخل بالنسب المقتضى للالفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية الى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بالحكم الثامن وهو الامر بالنكاح المذكور فى قوله تعالى (وأنكحوا الايامى منكم) جمع أيم والايامى واليتامى أصلهما أيايم ويتايم فقلبا والأيم هى من ليس لها زوج بكرا كانت أو ثيبا ومن ليس له امرأة فيشمل ذلك الذكر والانثى قال الشاعر

فان تنكحى انكح وان تتأيمى * وان كنت أفتى منكم أتأيم

أى أقرب الى الشباب منك وأتأيم بالرفع على أنه جواب ان تتأيمى وما بينهما جملة معترضة والمعنى أوافقك فى حالتى التزوج والتأيم وان كنت أقرب الى الشباب منك وعنه صلى الله عليه وسلم اللهم انا نعوذ بك من العيمة والغيمة والايمة والقزم والقرم العيمة شهوة اللبن والغيمة العطش والايمة شهوة النكاح مع الخلو من الزوجية والقزم البخل والقرم شهوة اللحم وهذا فى الاحرار والحرائر وأما غيرهم فهو قوله تعالى (والصالحين) أى المؤمنين (من عبادكم) وهو من جموع عبد (وامائكم) والخطاب للاولياء والسادة وهذا الامر أمر ندب فيستحب لمن تاقت نفسه للنكاح ووجد أهبته أن يتزوج ومن لم يجد أهبته استحب له أن يكسر شهوته بالصوم لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه وجاء أى قاطع لشهوته لان الوجاء بكسر الواو نوع من الخصاء وهو أن ترض عروق الانثيين وتترك الخصيتان كما هما فشبه الصوم فى قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذى يقطع النسل والباءة بالمد مؤن النكاح وهى المهر وكسوة فصل التمكين ونفقة يومه فان لم تنكسر شهوته بالصوم فلا يكسرها بالكافور ونحوه بل يتزوج ويكره لغير التائق ان فقد الاهبة أو وجدها وكان به علة كهرم فان وجدها ولا علة به وهو غير تائق فالتخلى للعبادة أفضل من النكاح ان كان متعبدا فان لم يتعبد فالنكاح أفضل من تركه لقوله صلى الله عليه وسلم من أحب فطرتى فليستن بسنتى وهى النكاح وعنه صلى الله عليه وسلم من كان له مال يتزوج به فلم يتزوج فليس منا وعنه صلى الله عليه وسلم اذا تزوج أحدكم عج شيطانه يا ويلاه عصم ابن آدم منى ثلثى دينه والاحاديث فى ذلك كثيرة وربما كان واجب الترك اذا أدى الى معصية أو مفسدة وعنه صلى الله عليه وسلم اذا أتى على أمتى مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة والترهب على رؤس

أن يكاتبه فأبى فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين فأداها وقتل يوم حنين في الحرب وأركانها أربعة رقيق وصيغة وعوض وسيد وشرط في السيد كونه مختارا أهل تبرع وولاء وكتابة المريض مرض الموت محسوبة من الثلث فإن خلف مثلي قيمته صحت الكتابة في كله أو مثل قيمته صحت في ثلثيه أو لم يخلف غيره صحت في ثلثه وشرط في الرقيق اختيار وعدم صبا وجنون وأن لا يتعلق به حق آدمي لازم وشرط في الصيغة لفظ يشعر بالكتابة كأن يقول السيد لعبده كاتبتك على ألفين في شهرين كل شهر ألف فإذا أديتهما فأنت حر فيقول العبد قبلت ذلك فلا يصح عقدها إلا مؤجلا منجما بنجمين فأكثر كما جرى عليه الصحابة فمن بعدهم فلا بد من بيان قدر العوض وصفته وعدد النجوم وقسط كل نجم فلا تجوز عند الشافعي رضي الله تعالى عنه بنجم واحد ولا بحال لأن العبد لا يملك شيئا فعقدها بحال يمنع من حصول الغرض لأنه لا يقدر على أداء البدل عاجلا وعند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه تجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لأن الله تعالى لم يذكر التنجيم وقياسا على سائر العقود وهي سنة لا واجبة وإن طلبها الرقيق لئلا يتعطل أثر الملك وتتحكم المماليك على الملاك بطلب رقيق أمين قوي على الكسب وبهما فسر الشافعي الخير في الآية واعتبرت الأمانة لئلا يضيع ما يحصله فلا يعتق والطلب والقدرة على الكسب ليوثق بتحصيل النجوم روي أنه صلى الله عليه وسلم قال ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الأداء والناكح يريد العفاف والمجاهد في سبيل الله فإن فقدت هذه الشروط أو بعضها فهي مباحة إذ لا يقوى رجاء العتق بها ولا تكره بحال لأنها عند فقد ما ذكر قد تفضي إلى العتق نعم إن كان الرقيق فاسقا بسرقة أو نحوها وعلم سيده أنه لو كاتبه مع العجز عن الكسب اكتسب بطريق الفسق لم يبعد تحريمها حينئذ لتضمنها التمكين من الفساد وتصح على عوض قليل وكثير ويجب أن يحط عنه قبل عتقه شيئا متمولا من النجوم أو يدفعه إليه من جنسها أو من غيرها كما قال تعالى (وآتوهم) أمر للسادة (من مال الله الذي آتاكم) ما يستعينون به في أداء ما التزموه لكم أيها السادة وفي معنى الإيتاء حط شيء متمول مما التزموه بل الحط أولى من الدفع لأن القصد بالحط الإعانة على العتق وهي محققة فيه موهومة في الدفع إذ قد يصرف المدفوع في جهة أخرى وكون ذلك في النجم الأخير أولى منه فيما قبله لأنه أقرب إلى العتق يروى أن عمر رضي الله تعالى عنه كاتب عبدا له يكنى أبا أمية وهو أول عبد كوتب في الإسلام فأتاه بأول نجم فدفعه إليه عمر وقال استعن به على كتابتك فقال لو أخرته إلى آخر نجم فقال أخاف أن لا أدرك ذلك وكونه ربعا من النجوم أولى فإن لم تسمح به نفسه فكونه سبعا أولى روى حط الربع النسائي وغيره وحط السبع مالك عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه وعند أبي حنيفة أمر للمسلمين على جهة الوجوب بإعانتهم للمكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال كقوله وفي الرقاب ولما بين تعالى ما يصح من تزويج العبيد والإماء أتبع ذلك بالحكم العاشر وهو الإكراه على الزنا المذكور في قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) أي إماءكم (على البغاء) أي الزنا كان لعبد الله بن أبي رأس المنافقين ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله صلى

الله عليه وسلم فنزلت وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤاجرون اماءهم فلما جاء الاسلام قالت مسيكة لمعاذة ان هذا الامر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد آن لنا أن ندعه فانزل الله هذه الآية وروى أنه جاءت احدى الجاريتين يوما ببرد وجاءت الاخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله لا نفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنا فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكيا اليه فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وأمتى (ان أردن تحصنا) أى تعففا عنه وهذه الارادة محل الاكراه فلا مفهوم للشرط لان الاكراه لا يتصور الا عند ارادة التحصن فأما اذا لم ترد المرأة التحصن فانها تبغى بالطبع طوعا وكلمة ان وايثارها على اذا ايذان بان الباغيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر ولان الكلام ورد على سبب وهو الذى ذكر فى سبب نزول الآية فخرج النهى على صورة صفة السبب وان لم تكن شرطا فيه وقال الحسين بن الفضل فى الآية تقديم وتأخير تقديرها وأنكحوا الايامى منكم ان أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا) اى تطلبوا من أموال الدنيا بكسبهن وأولادهن (ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور) اى لهن (رحيم) بهن وكان الحسن اذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن اى لا للمكره الا اذا تاب (فان قيل) ان المكرهة غير آثمة فلا حاجة الى المغفرة (أجيب) بان الزنا لا يباح بالاكراه فهى آثمة لكن لا حد عليها للاكراه ولما ذكر تعالى فى هذه السورة هذه الاحكام وصف القرآن بصفات ثلاث أحدها قوله تعالى (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) اى الآيات التى بينت فى هذه السورة وأوضحت فيها الاحكام والحدود وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بكسر الياء التحتية والباقون بفتحها لانها واضحات تصدقها الكتب المتقدمة والعقول السليمة من بين بمعنى تبين أو لانها بينت الاحكام والحدود ثانيها قوله تعالى (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) اى من جنس امثالهم اى وقصة عجيبة مثل قصصهم وهى قصة عائشة رضى الله تعالى عنها فانها كقصة يوسف ومريم عليهما السلام ثالثها قوله تعالى (وموعظة للمتقين) اى ما وعظ به فى قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقوله تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون الخ وفى قوله تعالى لولا اذ سمعتموه قلتم الخ وفى قوله تعالى يعظكم الله أن تعودوا الخ وتخصيصها بالمتقين لانهم المنتفعون بها واختلف فى معنى قوله تعالى (الله نور السموات والارض) فقال ابن عباس الله هادى أهل السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقال الضحاك منور السموات والارض فقال نور السماء بالملائكة ونور الارض بالانبياء وقال مجاهد مدبر الامور فى السموات والارض وقال أبى بن كعب والحسن وأبو العالية مزين السموات والارض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبياء والعلماء والمؤمنين ويقال بالنبات والاشجار وقيل معناه الانوار كلها منه كما يقال فلان رحمة أى منه الرحمة وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل

اذا سار عبد الله من مرو ليلة ۞ فقد سار منها نورها وجمالها

وسبب هذا الاختلاف ان النور في الاصل كيفية تدركها الباصرة أولا وبواسطتها سائر
المبصرات كالكيفية الفائضة من النيران على الاجرام الكثيفة المحاذية لها وهو بهذا
المعنى لا يصح اطلاقه على الله تعالى الا على ضرب من التجوز كالامثلة المتقدمة أو على تقدير
مضاف كقولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات
والارض ونور السموات والارض الحق شبهه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله تعالى الله ولي
الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور أي من الباطل الى الحق وأضاف النور الى
السموات والارض لاحد معنيين اما الدلالة على سعة اشراقه وفشو اضاءته حتى تضيء له
السموات والارض واما أن يراد أهل السموات والارض وانهم يستضيئون به واختلف أيضا
في معنى قوله تعالى (مثل نوره) فقال ابن عباس مثل نوره الذي أعطى المؤمن اى مثل نور الله
في قلب المؤمن وهو النور الذي يهتدى به كما قال تعالى فهو على نور من ربه وقال الحسن وزيد
ابن أسلم أراد بالنور القرآن وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل
أراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الانوار الى نفسه تفضلا أى صفة نوره
العجيبة الشأن في الاضاءة (كمشكوة) اى كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة
(فيها مصباح) اى سراج ضخم ثاقب (المصباح في زجاجة) اى قنديل من زجاج شامي أزهر
وانما ذكر الزجاجة لان النور وضوء النار فيها أبين من كل شئ وضوءه يزيد في الزجاج ثم وصف
الزجاجة بقوله تعالى (الزجاجة كأنها) اى النور فيها (كوكب درى) اى مضئ شبهها في
الضوء باحدى الدرارى من الكواكب الخمسة العظام وهي المشاهير المشترى والزهرة
والمريخ وزحل وعطارد (فان قيل) لم شبه بالكواكب ولم يشبه بالشمس والقمر (أجيب)
بانهما يلحقهما الخسوف والكسوف والكواكب لا يلحقها ذلك وقرأ أبو عمرو والكسائي
بكسر الدال من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام والباقون بضمها منسوب الى الدراى اللؤلؤ في
صفائه وحسنه وان كان الكوكب أكثر ضوأ من الدر لكن يفضل الكواكب بصفائه كما
يفضل الدر سائر الحب وهمز مع المد أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي والباقون بغير همز وكل
من أهل الهمز على مرتبته في المد (توقد من شجرة مباركة زيتونة) اى ابتداء توقده من شجرة
الزيتون المتكاثر نفعه بان رويت فتيلة المصباح بزيت الشجرة وهي شجرة كثيرة البركة
وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن به وهو ادام وهو أصفى الادهان وأضوأها
وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح التاء والواو وبتشديد القاف على وزن تفعل على الماضي اى
المصباح وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بضم التاء الفوقية وتخفيف القاف اى المصباح
(لا شرقية ولا غربية) اى ليست بشرقية وحدها لا تصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية
وحدها فلا تصيبها الشمس اذا طلعت بل هي مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند
طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها أضوأ
وهذا كما يقال فلان ليس أسود ولا أبيض اى ليس أسود خالصا ولا أبيض خالصا بل اجتمع فيه
كل واحد منهما وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض اى اجتمع فيه الحلاوة والحموضة هذا قول
ابن عباس والاكثرين وقال السدى وجماعة معناه أنها ليست في مقنأة لا تصيبها الشمس ولا

فى مضحاة لا يصيبها الظل فهى لا تضرها شمس ولا ظل والمقناة بقاف فنون فهمزة وهى بفتح النون وضمها المكان الذى لا تطلع عليه الشمس وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى وفى الحديث لا خير فى شجرة فى مقنأة ولا فى نبات فى مقنأة ولا خير فيهما فى مضحى قال ابن حجر العسقلانى لم أجده وقيل معناه انها معتدلة ليست فى شرق تصيبها الحر ولا فى غرب يضرها البرد وقيل معناه هى شامية لان الشام وسط الارض لا شرقى ولا غربى وقيل ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لانها لو كانت فى الدنيا لكانت شرقية أو غربية وانما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره (يكاد زيتها) اى من صفائه (يضىء ولو لم تمسسه نار) اى يكاد يتلألأ ويضىء بنفسه من غير نار (نور على نور) اى نور المصباح على نور الزجاجة * (تنبيه) * اختلف أهل العلم فى معنى هذا التمثيل فقال بعضهم وقع التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الاحبار أخبرنى عن قوله تعالى مثل نوره كمشكاة قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضىء ولو لم تمسسه نار وروى سالم عن عمر فى هذه الآية قال المشكاة جوف النبى صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى جعله الله تعالى فيه لا شرقية ولا غربية لا يهودى ولا نصرانى توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور قلب ابراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليهما وسلم وقال محمد بن كعب القرظى المشكاة ابراهيم والزجاجة اسمعيل عليهما السلام والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال تعالى وسراجا منيرا توقد من شجرة مباركة وهى ابراهيم عليه السلام سماه مباركا لان أكثر الانبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية يعنى ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لان اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى قبل المشرق يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى اليه نور على نور نبى من نسل نبى نور محمد على نور ابراهيم عليهما السلام وقال بعضهم وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن روى أبو العالية عن أبى بن كعب قال هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعل الله من الايمان والقرآن فى قلبه توقد من شجرة مباركة وهى الاخلاص لله وحده فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر فهى خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا اذا طلعت ولا اذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شىء من الفتن فهو بين أربع خلال ان أعطى شكر وان ابتلى صبر وان حكم عدل وان قال صدق يكاد زيتها يضىء اى يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته اياه نور على نور قال أبى أى فهو يتقلب فى خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوأ على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبى قوله تعالى نور على نور يعنى ايمان المؤمن وعمله وقال السدى نور الايمان ونور القرآن وقال الحسن وابن زيد هذا مثل للقرآن فالمصباح

هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه
ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء تكاد حجة القرآن تتضح وان لم
يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول
القرآن فازدادوا بذلك نورا على نور (يهدي الله لنوره) قال ابن عباس دين الاسلام وقيل
القرآن (من يشاء) فان الاسباب بدون مشيئته لاغية وقيل يوفق الله لاصابة الحق من نظر
وتدبر بعين عقله والانصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة اليه يمينا وشمالا ومن لم
يتدبر فهو كالاعمى سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس (ويضرب) اي يبين
(الله الامثال للناس) تقريبا للافهام وتسهيلا للادراك (والله بكل شيء عليم) معقولا كان
أو محسوسا ظاهرا كان أو خفيا وفيه وعيد لمن تدبرها ولم يكترث بها وقوله تعالى (في بيوت)
يتعلق بما قبله اي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما ترى في
المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت أو بما بعده وهو يسبح أي يسبح رجال في
بيوت وفي قوله فيها تكرير كقوله في بيوت كقوله زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف كقوله
تعالى في تسع آيات اي سبحوا في بيوت والبيوت هي المساجد قال سعيد بن جبير عن ابن عباس
قال المساجد بيوت الله في الارض وهي تضيء لاهل السماء كما تضيء النجوم لاهل الارض
وقيل المراد بالبيوت المساجد الثلاثة وقيل المراد أربعة مساجد لم يبنها الا نبي الكعبة بناها
ابراهيم واسمعيل عليهما السلام فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما
السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء بناهما النبي صلى الله عليه وسلم وأتى فيها بجمع الكثرة
دون جمع القلة للتعظيم (أذن الله أن ترفع) قال مجاهد تبنى نظيره قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم
القواعد من البيت وقال الحسن تعظم أي فلا يذكر فيها الفحش من القول وتطهر من
الانجاس والاقذار وقوله تعالى (ويذكر فيها اسمه) عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في
أفعاله والمباحثة في أحكامه وقال ابن عباس يتلى فيها كتابه (يسبح) أي يصلي (له فيها بالغدو
والآصال) اي بالغداة والعشي قال أهل التفسير أراد به الصلوات المفروضة فالتي تؤدى
بالغداة صلاة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لان اسم الاصيل
يقع على هذا الوقت وقيل أراد به الصبح والعصر قال صلى الله عليه وسلم من صلى البردين دخل
الجنة أراد صلاة الصبح وصلاة العصر وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلاة الضحى وروى
من مشى الى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ومن مشى الى تسبيح
الضحى لا ينصبه الا اياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على اثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين
وقرأ ابن عامر وشعبة بفتح الباء الموحدة والباقون بكسرها (رجال لا تلهيهم تجارة) اي معاملة
رابحة وقيل المراد بالتجارة الشراء لقوله تعالى (ولا بيع عن ذكر الله) اطلاقا لاسم الجنس
على النوع كما تقول رزق فلان تجارة صالحة اذا اتجه له بيع صالح أو شراء وعلى الاول ذكر
مبالغة للتعظيم والتعميم بعد التخصيص وقيل التجارة لاهل الجلب تقول تجر فلان في كذا
أي جلب * (تنبيه) * قوله تعالى رجال فاعل يسبح بكسر الباء وعلى فتحها نائب الفاعل له

ورجال فاعل فعل مقدر جواب سؤال مقدر كأنه قيل من يسبحه وحذف من قوله تعالى (واقام الصلوة) الهاء تخفيفا اى واقامة الصلاة وأراد أداءها فى وقتها لان من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمى الصلاة وانما ذكر اقام الصلاة مع ان المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لانه تعالى أراد باقامة الصلاة حفظ المواقيت روى سالم عن ابن عمر أنه كان فى السوق فاقيمت الصلاة فقام الناس واغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية (وايتاء الزكوة) قال ابن عباس اذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها أى فيخرجون ما يجب اخراجه من المال للمستحقين وقيل هى الاعمال الصالحة ومع ما هم عليه (يخافون يوما) هو يوم القيامة (تتقلب) اى تضطرب (فيه القلوب) بين النجاة والهلاك (والابصار) بين ناحيتى اليمين والشمال وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه فى الدنيا من الشك الى اليقين وتنفتح الابصار من الاغطية وقوله تعالى (ليجزيهم الله) متعلق بيسبح أو بلا تلهيهم أو يخافون (أحسن ما عملوا) فى الطاعات فرضها ونفلها اى ثوابه الموعود لهم من الجنة وأحسن بمعنى حسن (ويزيدهم من فضله) ما لم يستحقوه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وقوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الاحسان وكمال جوده فكانه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالجد والاجتهاد فى الطاعة ومع ذلك يكونون فى نهاية الخوف فالله سبحانه وتعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم و يزيدهم الفضل الذى لا حد له فى مقابلة خوفهم وقوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب) أى حالهم على ضد ذلك فان أعمالهم التى يحسبونها صالحة نافعة عند الله تعالى يجدونها لاغية مخيبة فى العاقبة كسراب وهو ما يرى فى الفلاة وقت الضحى الاكبر شبيها بالماء الجارى وهو ليس بماء ولكن الذى ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا وقيل هو الشعاع الذى يرى نصف النهار فى شدة الحر فى البرارى الذى يخيل للناظر انه الماء السارب أى الجارى فاذا قرب منه انفش فلم ير شيأ وأما الآل فانما يكون أول النهار كانه ماء بين السماء والارض وقال البغوى والآل ما ارتفع عن الارض وهو شعاع يرى بين السماء والارض بالغدوات شبه بالمرآة ترفع فيها الشخوص يرى فيها الصغير كبيرا والقصير طويلا والرقراق يكون بالعشاء وهو ما ترقرق من السراب اى جاء وذهب وقوله تعالى (بقيعة) جمع قاع وهى أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام قاله فى القاموس وقيل القيعة بمعنى القاع وهو الارض المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب وقال الفراء جمع قاع كجار وجيرة وقال الفارسى جمعه قيعة وقيعان (يحسبه) اى يظنه (الظمآن) أى العطشان الشديد العطش من ضعف العقل (ماء) فيقصده ولا يزال سائرا (حتى اذا جاءه) اى ما قدر أنه ماء وقيل جاء الى موضع السراب (لم يجده شيأ) عما حسبه ووجه التشبيه أن الذى يأتى به الكافران كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد ان له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق عليه العقاب مع أنه يعتقد ان له ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصة القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه

فيشبه حاله حال الظمآن الذى اشتدت حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب فى البر تعلق به قلبه فاذا جاءه لم يجده شيأ فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فاذا احتاج الى عمله لم يجده شيأ ولا ينفعه وقال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا (فان قيل) قوله تعالى حتى اذا جاءه يدل على كونه شيأ وقوله تعالى لم يجده شيأ مناقض له (أجيب) بان معناه لم يجده شيأ نافعا كما يقال فلان ما عمل شيأ وان كان قد اجتهد أو أنه اذا جاء موضع السراب لم يجد السراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كانه ضباب وهباء فاذا قرب منه رق وانتشر وصار كالهواء (ووجد الله عنده) اى ووجد عقاب الله الذى توعد به الكفار أو وجد زبانية الله أو وجده محاسبا اياه أو قدم على الله (فوفاه حسابه) اى جزاء عمله قيل نزلت فى عتبة ابن ربيعة فانه قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين فى الجاهلية ثم كفر بالاسلام قال ابن الخازن والاصح أن الآية عامة فى حق جميع الكفار (والله سريع الحساب) لانه تعالى عالم بجميع المعلومات فلا يشغله محاسبة واحد عن واحد وفى هذا رد على المشبهة قبحهم الله تعالى لانه تعالى لو كان متكلما بآلة كما يقولون لما صح ذلك وقوله تعالى (أو كظلمات) عطف على كسراب على حذف مضاف واحد تقديره أو كذى ظلمات ودل على هذا المضاف قوله تعالى اذا أخرج يده لم يكد يراها فالكناية تعود الى المضاف المحذوف وهو قول أبى على وقال غيره على حذف مضافين تقديره أو كاعمال ذى ظلمات فقدر ذى ليصح عود الضمير اليه فى قوله تعالى اذا أخرج يده وقدر أعمال ليصح تشبيه أعمال الكفار باعمال صاحب الظلمة اذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمة وأو للتخيير فان أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والامواج والسحاب أو للتنويع فان أعمالهم ان كانت حسنة فكالسراب وان كانت قبيحة فكالظلمات أو للتقسيم باعتبار وقتين فانها كالظلمات فى الدنيا وكالسراب فى الآخرة وقوله تعالى (فى بحر لجى) صفة لظلمات فيتعلق بمحذوف واللجى منسوب الى اللج وهو معظم البحر وقيل منسوب الى اللجة بالتاء وهى أيضا معظمه فاللجى هو العميق الكثير الماء وقوله تعالى (يغشاه) اى يغطى هذا البحر ويعلوه (موج) كائن (من فوقه موج) أى أمواج مترادفة متراكمة (من فوقه) اى الموج الثانى المركوم وقوله تعالى (سحاب) اى غيم غطى النجوم وحجب أنوارها صفة أخرى لبحر وقوله تعالى (ظلمات) أى من البحر والموجين والسحاب خبر مبتدا مضمر تقديره هذه ظلمات أو تلك ظلمات ويجوز أن يكون ظلمات مبتدأ والجملة من قوله تعالى (بعضها فوق بعض) خبره قاله الحوفى (فان قيل) لا مسوغ للابتداء بهذه النكرة (أجيب) بانها موصوفة تقديرا أى ظلمات كثيرة متكاثفة وقرأ البزى سحاب بلا تنوين وجر ظلمات وقنبل بتنوين سحاب وبجر ظلمات والبزى جعل الموج المتراكم بمنزلة السحاب وأما قنبل فانه جعل ظلمات بدلا من ظلمات الاولى والباقون بتنوين سحاب وظلمات بالرفع فيهما (اذا أخرج) اى الكائن فى هذا البحر بدلالة المعنى وان لم يجر له ذكر (يده) وهى أقرب ما يرى اليه فى هذه الظلمات (لم يكد) أى الكائن فيه (يراها) اى لم يقرب من رؤيتها فضلا عن أن يراها كقول ذى الرمة

إذا غير النأي (أي البعد وفي نسخة الهجر) المحبين لم يكد
رسيس الهوى (أي ثابته بمعنى الهوى الثابت) من حب مية يبرح

أي يزول والمعنى لم يقرب من البراح فضلا عن أن يبرح * (تنبيه) * في كيفية هذا التشبيه وجوه أحدها قال الحسن إن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمة ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب كذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل ثانيها قال ابن عباس شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث ثالثها أن الكافر لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ويعتقد أنه يدري فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات الثلاث رابعها قلب مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم خامسها أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة إصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده أظهر الدلائل لم يفهمه (ومن لم يجعل الله) أي الملك الأعظم (له نورا فما له من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وإيمانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادي له لأنه تعالى قادر على ما يريده * ولما وصف تعالى أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد بقوله تعالى (ألم تر) أي تعلم علما يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة بالوحي والاستدلال (أن الله) أي الحائز لصفات الكمال (يسبح له) أي ينزهه عن كل شائبة نقص (من في السموات والأرض) لأن التسبيح لا يرى بالبصر بل يعلم بالقلب وهذا استفهام والمراد به التقرير والبيان وهذا التسبيح إما أن يكون المراد منه دلالة خلق هذه الأشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال أو يكون المراد منه في حق البعض الدلالة على التنزيه وفي حق الباقين النطق باللسان قال الرازي والأول أقرب لأن القسم الثاني متعذر لأن في الأرض من لا يكون مكلفا لا يسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لا يسبح أيضا بهذا المعنى كالكفار وأما القسم الثالث وهو أن يقال إن من في السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان وأما الذين في الأرض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على لسان الدلالة فهذا يقتضي استعمال اللفظ الواحد في الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز أي عند أكثر العلماء فلم يبق إلا القسم الأول وهو أن هذه الأشياء مشتركة في أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله تعالى وقدرته وإلهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيها توسعا (فإن قيل) فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء (أجيب) بأن خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى لأن العجائب والغرائب في خلقهم أكثر وهي العقل والنطق والفهم * ولما كان أمر الطير دلالته أعجب ولأنها قد تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم من فيهما خصها بالذكر من جملة الحيوان بقوله تعالى (والطير صافات) أي باسطات أجنحتها في جو السماء لا شبهة في أنه لا يمسكها إلا الله تعالى وإمساكها في الجو مع أنها أجرام ثقيلة وإقداره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته تعالى واختلف في عود الضمائر في قوله تعالى (كل) أي من المخلوقات (قد علم صلاته وتسبيحه) على قولين أحدهما أنها كلها عائدة على كل أي كل قد علم هو صلاة نفسه وتسبيحها قال ابن عادل وهذا أولى لتوافق الضمائر ثانيهما أن الضمير في علم عائد إلى الله تعالى

من العقلاء يعجزون عن أمثال تلك الحيل واذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يقال انها تسبح الله تعالى وتثني عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التي تعرفها الناس و يؤيد هذا قوله تعالى ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقوله صلى الله عليه وسلم ان نوحا عليه السلام أوصى بنيه عند موته بلا اله الا الله فان السموات السبع والارضين السبع لو كن في حلقة مبهمة قصمتهن وسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شئ وبها يرزق كل شئ وقال الغزالي في الاحياء يروى أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون قال فقلت وما هي يا رسول الله فقال قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر الى أن تصلي الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا يسبح الله الى يوم القيامة لك ثوابه ثم نبه سبحانه وتعالى بقوله (ولله ملك السموات والارض) على أن الكل منه لان كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجد الا عند الانتهاء الى القديم الواجب الوجود ويدخل في هذا جميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم وفي قوله تعالى (والى الله) أي الذي له الاحاطة بكل شئ (المصير) دليل على المعاد وأنه لا بد من مصير الكل اليه بعد الفناء والرؤية في قوله تعالى (ألم تر) بصرية (أن الله) أي ذا الجلال والجمال (يزجي سحابا) أي يسوقه برفق بعد أن أنشأه من العدم تارة من السفل وتارة من العلو ضعيفا رقيقا متفرقا قال أبو حيان وهو اسم جنس واحده سحابة والمعنى يسوق سحابة الى سحابة وهو معنى قوله تعالى (ثم يؤلف بينه) أي يجمع أجزاءه بعد أن كان قطعا في جهات مختلفة فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة (ثم يجعله ركاما) في غاية العظمة متراكما بعضه على بعض بعد أن كان في غاية الرقة (فترى) أي في تلك الحالة المستمرة (الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) أي من فتوقه التي حدثت بالتراكم وانعصار بعضه في بعض (فان قيل) بين انما تدخل على مثنى فما فوقه فلم دخلت هنا على مفرد (أجيب) بأن المراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير على حكمه أو على حذف مضاف أي بين أجزائه كما مر وبين قطعه فان كل قطعة سحابة وقرأ السوسي فترى في الوصل بالامالة بخلاف عنه والباقون بالفتح وأما في الوقف فأبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح (وينزل من السماء) أي من الغمام وكل ما علا فهو سماء (من جبال فيها) أي في السماء وهي السحاب الذي صار بعد تراكمه كالجبال وقوله تعالى (من برد) بيان للجبال والمفعول محذوف أي ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها من برد بردا فمن الاولى لابتداء الغاية باتفاق والثانية للتبعيض والثالثة للبيان ويجوز أن تكون الثانية لابتداء الغاية أيضا ومجرورها بدل من الاولى باعادة العامل والتقدير وينزل من جبال أي من جبال فيها فهو بدل اشتمال والاخيرة للتبعيض واقعة موقع المفعول (فان قيل) ما معنى من جبال فيها من برد (أجيب) بأن فيه معنيين أحدهما أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الارض جبال حجر وليس في العقل ما ينفيه الثاني أن يراد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون واخفائها عند الزاي وتخفيف الزاي

والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ثم بين تعالى أن ذلك باختياره وإرادته بقوله الحق (فيصيب به) أي بكل من البرد والمطر على وجه النقمة أو الرحمة (من يشاء) أي من الناس وغيرهم (ويصرفه عن من يشاء) صرفه عنه (فائدة) عن مقطوعة من من في الرسم ثم نبه تعالى على ما هو غاية في العجب في ذلك مما في الماء من النور الذي ربما أرسله صاعقة فاحرقت ما لا تحرق النار بقوله تعالى (يكاد) أي يقرب (سنا) أي ضوء (برقه) وهو اضطراب النور في خلاله (يذهب) أي هو ملتبسا (بالأبصار) أي الناظرة له أي يخطفها لشدة لمعانه وتلألئه فتكون قوة البرق دليلا على تكاثف السحاب وبشيرا بقوة المطر ونذيرا بنزول الصواعق واعلم أن البرق الذي صفته كذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره يقتضي ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن إلا بقدرة قادر حكيم • ثم ذكر تعالى ما هو أدل على الاختيار بقوله تعالى مترجما لما يشتمل ما مضى وزيادة (يقلب الله) أي الذي له الأمر كله بتحويل الظلام ضياء والضياء ظلاما والنقص تارة والزيادة أخرى مع المطر تارة والصحو أخرى (الليل والنهار) فينشأ عن ذلك التقلب من الحر والبرد والنمو والتنويع واليبس ما يبهر العقول ولهذا قال منبها على النتيجة (إن في ذلك) الأمر العظيم الذي ذكر من جميع ما تقدم (لعبرة) أي دلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزيهه عن الحاجة وما يفضي إليها (لأولي الأبصار) أي لأصحاب البصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده • ولما استدل تعالى أولا بأحوال السماء والأرض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا بأحوال الحيوانات بقوله تعالى (والله) أي الذي له العلم الكامل والقدرة الشاملة (خلق كل دابة) أي حيوان (من ماء) وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وكسر لام كل والباقون بفتح اللام والخاء ولا ألف بينهما ونصب لام كل (فإن قيل) كثير من الحيوانات لم يخلق من الماء كالملائكة خلقوا من النور وهم أعظم الحيوانات عددا وكذا الجن وهم مخلوقون من النار وخلق آدم من التراب كما قال تعالى خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح كما قال تعالى فنفخنا فيه من روحنا ونرى كثيرا من الحيوانات يتولد لا من نطفة (أجيب) بوجوه أحدها ما قال القفال أن من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء فهي مخلوقة لله تعالى ثانيها أن أصل جميع المخلوقات من الماء على ما روي أن أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم قسم ذلك الماء فخلق منه النار والهواء والنور والتراب والمقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة فكان أصل الخلقة الماء فلهذا ذكره الله تعالى ثالثها المراد من الدابة التي تدب على وجه الأرض ومسكنها هنالك فتخرج الملائكة والجن رابعها لما كان الغالب من هذه الحيوانات كونها مخلوقة من الماء إما لأنها متولدة من النطفة وإما لأنها لا تعيش إلا بالماء أطلق عليها لفظ كل تنزيلا للغالب منزلة الكل (فإن قيل) لم نكر الماء في قوله تعالى من ماء وعرفه في قوله تعالى من الماء كل شيء حي (أجيب) بأنه جاء ههنا منكرا لأن المعنى خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة وعرفه في قوله تعالى من الماء كل شيء حي لأن المقصود هنالك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة (فمنهم) أي الدواب (من يمشي على بطنه) كالحية

والحيتان والديدان واستعير المشي للزحف على البطن كما قالوا في الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال فلان ما مشى له أمر أو هي بذلك المشاكلة بذكر الزاحف مع الماشي (ومنهم من يمشي على رجلين) أي فقط كالآدمي والطير (ومنهم من يمشي على أربع) أي من الايدي والارجل كالنعم والوحش (فان قيل) لم حصر القسمة في هذه الثلاثة أنواع من المشي وقد نجد من يمشي على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والحيوان الذي له أربع وأربعون رجلا الذي يسمى دخال الاذن (أجيب) بان هذا القسم الذي لم يذكر كالنادر فكان ملحقا بالعدم وقال النقاش انما اكتفى بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر من أربع لان جميع الحيوان انما اعتماده على أربع وهي قوائم مشيه وكثرة الارجل لبعض الحيوان زيادة في الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه الى جميعها أو بان قوله تعالى (يخلق الله ما يشاء) كالتنبيه على سائر الاقسام (فان قيل) لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب (أجيب) بانه قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع * (تنبيه) * انما أطلق من على غير العاقل لاختلاطه بالعاقل في المفصل بمن وهو كل دابة وكان التعبير بمن أولى ليوافق اللفظ * ولما كانت هذه الادلة ناظرة الى البعث أتم نظر وكانوا منكرين له أكد ذلك بقوله تعالى (ان الله) أي الذي له الكمال المطلق (على كل شيء) من ذلك وغيره (قدير) لانه القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فأي عقل يقف عليها وأي خاطر يصل الى ذرة من أسرارها بل هو الذي يخلق ما يشاء كيف يشاء ولا يمنعه منه مانع * ولما اتضح بهذا ما لله تعالى من صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقامت أدلة الوحدانية على ساق واتسقت براهين الالوهية أي اتساق قال تعالى مترجما لتلك الادلة (لقد أنزلنا) أي في هذه السورة وما تقدمها بما لنا من العظمة (آيات) أي جمالا من الحكم والاحكام والادلة والامثال (مبينات) للحقائق بأنواع الدلائل التي لا خفاء فيها (والله) أي الملك الاعظم (يهدي من يشاء) من عباده (الى صراط) طريق (مستقيم) هو دين الاسلام الموصل الى دار الحق والفوز بالجنة * ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يفعلوه بقلوبهم فقال تعالى (ويقولون) أي الذين ذمهم الله تعالى (آمنا بالله) أي الذي أوضح لنا جلاله وعظمته وكماله (وبالرسول) أي الذي علمنا كمال رسالته وعمومها باقامة عليها من الادلة (وأطعنا) أي وأوجدنا الطاعة لله ولرسوله ثم عظم المخالفة بين الفعل والقول بأداة البعد فقال تعالى (ثم يتولى) أي يرتد بانكار القلب ويعرض عن طاعة الله ورسوله ضلالا منهم عن الحق (فريق منهم) أي ناس يقصدون الفرقة من هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (من بعد ذلك) أي القول السديد المؤكد مع الله الذي هو أكبر من كل شيء ومع رسوله الذي هو أشرف الخلائق (وما أولئك) أي البعداء البغضاء الذين صاروا بتوليهم في محل البعد (بالمؤمنين) أي المعهودين الموافقة قلوبهم ألسنتهم (فان قيل) انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولي فكيف يصح أن يقول في جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع أن

المتولي

المتولى فريق منهم (أجيب) بان قوله تعالى وما أولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لا الى الجملة الاولى ولو رجع الى الجملة الاولى لصح و يكون معنى قوله تعالى ثم يتولى فريق منهم أى يرجع هذا الفريق الى الباقى فيظهر بعضهم لبعض الرجوع كما أظهروه وبينهم ولما فضحهم بما أخفوه من نواياهم قبح عليهم ما أظهروه فقال تعالى معبرا بأداة التحقيق (واذا دعوا) أى الفريق الذين ادعوا الايمان من أى داع كان (الى الله) أى الى ما نصب الملك الاعظم من أحكامه (ورسوله) وأفرد الضمير فى قوله تعالى (ليحكم) وقد تقدمه اسمان وهما الله ورسوله فهو كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه لان حكم رسوله هو حكمه قال الزمخشرى كقولك أعجبنى زيد وكرمه تريد كرم زيد ومنه قوله

ومنهل من الفلا فى أوسطه * غلسته قبل القطا وفرطه

أى قبل فرط القطا (بينهم) أى بما أراه الله (اذا فريق منهم) أى ناس مجبولون على الاذى (معرضون) أى فاجؤا الاعراض اذا كان الحق عليهم لعلمهم بانك لا تحكم لهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه (وان يكن لهم) أى على سبيل الفرض (الحق) أى بلا شبهة (يأتوا اليه) أى الرسول (مذعنين) أى منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم لانهم يعلمون أنه دائر مع الحق لهم وعليهم فليس انقيادهم لطاعة الله ورسوله * (تنبيه) * قوله تعالى اليه يجوز تعليقه بيأتوا لان أتى وجاء قد جاءا معديين بالى ويجوز أن يتعلق بمذعنين لانه بمعنى مسرعين فى الطاعة وصححه الزمخشرى قال لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص ومذعنين حال ثم قسم تعالى الامر فى عدولهم عن حكومته صلى الله عليه وسلم اذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب بقوله تعالى (أفى قلوبهم مرض) أى نوع فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال أو مرتابين فى نبوته بقوله تعالى (أم ارتابوا) أى أن رأوا منك تهمة فزالت ثقتهم و يقينهم بك أو خائفين الحيف فى قضائه بقوله تعالى (أم يخافون أن يحيف) أى يجور (الله) أى الغنى عن كل شئ لان له كل شئ (عليهم ورسوله) أى الذى لا ينطق عن الهوى * ثم أضرب عن القسمين الاخيرين لتحقيق القسم الاول بقوله تعالى (بل أولئك) أى البعداء البغضاء (هم الظالمون) أى الكاملون فى الظلم ووجه التقسيم أن امتناعهم اما لخلل فيهم أو فى الحاكم والثانى اما أن يكون محققا عندهم أو متوقعا وكل منهما باطل لان منصب نبوته وفرط أمانته يمنعه فتعين الاول وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم الى الحيف والفصل لنفى ذلك عن غيرهم (فان قيل) اذا خافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله فقد ارتابوا فى الدين واذا ارتابوا ففى قلوبهم مرض والكل واحد فأى فائدة فى التعديد (أجيب) بان قوله تعالى فى قلوبهم مرض اشارة الى النفاق وقوله تعالى أم ارتابوا اشارة الى أنهم بلغوا فى حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (فان قيل) هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة أم (أجيب) بانه تعالى نبههم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان فى قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيهم شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول وكل واحد من ذلك كفر ونفاق واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت فى بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا فى أرض فقال اليهودى نتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق نتحاكم الى كعب بن الاشرف فان محمدا

يحيف علينا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد مضت قصتها في سورة النساء وقال الضحاك نزلت
في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي رضي الله تعالى عنه أرض فتقاسماها فوقع الى علي ما لا
يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعني أرضك فباعه اياها وتقابضا فقيل للمغيرة اخذت سبخة
لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض أرضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فقال علي بل
اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه الى أن يخاصمه الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلا نأتيه ولا أحاكم اليه فانه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف
علي فنزلت الآية وقال الحسن نزلت في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر
• ولما نفى تعالى عنهم الايمان الكامل بما وصفهم به كان كأنه سئل عن حال المؤمنين فقال تعالى
(انما كان) أي دائما (قول المؤمنين) أي العريقين في ذلك الوصف (اذا دعوا) أي من أي
داع كان (الى الله) أي الى ما أنزل الملك الذي لا كفء له من أحكامه (ورسوله) الذي لا ينطق
عن الهوى (ليحكم) اي الرسول (بينهم) بما أراه الله تعالى أي حكومة من الحكومات لهم
وعليهم (أن يقولوا سمعنا) أي الدعاء (وأطعنا) أي بالاجابة لقول رسوله صلى الله عليه وسلم
وهذا ليس على طريق الخبر ولكنه تعليم أدب الشرع بمعنى ان المؤمنين ينبغي أن يكونوا
هكذا (وأولئك) أي العالو الرتبة (هم المفلحون) الذين وصفهم الله تعالى في أول المؤمنين
وهذا يدل على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد انكاره
لما لا ينبغي ولما رتب تعالى الفلاح على هذا النوع الخاص أتبعه عموم الطاعة بقوله تعالى
(ومن يطع الله) أي الذي له الامر كله (ورسوله) أي فيما ساءه وسره (ويخش الله) أي فيما صدر
عنه من الذنوب في الماضي ليحمله ذلك على كل خير (ويتقه) اي الله فيما بقي من عمره بان يجعل
بينه وبين ما يسخطه وقاية من المباحات فيتركها ورعا (فأولئك) اي العالو الرتبة
(هم الفائزون) بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم وعن ابن
عباس في تفسير هذه الآية ومن يطع الله في فرائضه ورسوله في سننه ويخش الله على ما مضى من
ذنوبه ويتقه فيما يستقبل وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت عليه هذه الآية وقرأ
أبو عمرو وشعبة وخلاد ويتقه بسكون الهاء بخلاف عن خلاد وقالون باختلاس كسرة الهاء
وحفص بسكون القاف وقصر كسرة الهاء والباقون وخلاد في أحد وجهيه باشباع كسرة
الهاء • ولما ذكر تعالى ما رتب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن ذكر حال
المنافقين بقوله تعالى (وأقسموا بالله) اي الذي له الكمال المطلق وقوله تعالى (جهد أيمانهم)
جهد اليمين مستعار من جهد نفسه اذا بلغ أقصى وسعها وذلك اذا بالغ في اليمين وبلغ غاية
شدتها ووكادتها وعن ابن عباس من قال بالله فقد بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها (لئن أمرتهم)
أي أمر من الامور (ليخرجن) عما هم متلبسون به من خلافه كائنا ما كان وذلك ان المنافقين
كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا
ولئن أقمت أقمنا وان أمرتنا بالجهاد جاهدنا فقال الله تعالى (قل) أي لهم (لا تقسموا) أي
لا تحلفوا فان العلم بما أنتم عليه لا يحتاج الى الاقسام وههنا قد تم الكلام ولو كان قسمهم
صادقا لما نهوا عنه لان من حلف على القيام بالبر لا ينهى عنه فثبت أن قسمهم كان لنفاقهم

وكان باطنهم يخالف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقد قبح قال المتنبي

وفي اليمين على ما أنت واعده * ما دل أنك في الميعاد متهم

وفي رفع قوله تعالى (طاعة معروفة) ثلاثة أوجه أحدها أنه خبر مبتدأ مضمر تقديره أمرنا طاعة أو المطلوب طاعة ثانيها أنه مبتدأ والخبر محذوف أي أمثل أو أولى أو خير أي طاعة معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم خير من قسمكم الذي لا تصدقون فيه ثالثها طاعة مبتدأ أي هذه الحقيقة ومعروفة هو الخبر أي معروفة منكم ومن غيركم وإرادة الحقيقة هو الذي سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها إلا أن العموم الذي تصلح له قد تخصص بإرادة الحقيقة كما قالوه في أعرف المعارف والمعنى أن الطاعة وإن اجتهد العبد في إخفائها لا بد أن تظهر مخايلها على شمائله وكذا المعصية لأنه ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها رواه الطبراني عن عثمان وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال لو أن رجلا دخل بيتا في جوف بيت فأدمن هناك عملا أوشك الناس أن يتحدثوا به وما من عامل عمل عملا إلا كساه الله رداء عمله إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر وعن سعيد لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا من كان (إن الله) أي الذي له الإحاطة بكل شيء (خبير بما تعملون) أي لا يخفى عليه شيء من سرائركم فإنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم * ولما نبه تعالى على خداعهم وأشار إلى عدم الاغترار بإيمانهم أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا إلى الإعراض عن عقوبتهم بقوله تعالى (قل) أي لهم (أطيعوا الله) أي الذي له الكمال المطلق (وأطيعوا الرسول) أي الذي له الرسالة المطلقة ظاهرا وباطنا وقوله تعالى (فإن تولوا) أي عن طاعته حذف إحدى التاءين خطابا لهم أي فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم (فإنما عليه) أي محمد صلى الله عليه وسلم (ما حمل) أي ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة وإذا أدى فقد خرج من عهدة التكليف (وعليكم) أي وأما أنتم فعليكم (ما حملتم) أي ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه وإن تطيعوه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى فالنفع والضر عائد إليكم (وإن تطيعوه) بالإقبال على كل ما يأمركم به (تهتدوا) أي إلى كل خير (وما على الرسول) أي من جهة غيره (إلا البلاغ) أي وما الرسول إلا ناصح وهاد وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفع في قبولكم ولا عليه ضرر في توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية ومعنى (المبين) كونه مقرونا بالآيات والمعجزات وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال على المنبر من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب وقال أبو أمامة الباهلي عليكم بالسواد الأعظم فقال رجل ما السواد الأعظم فنادى أبو أمامة هذه الآية في سورة النور فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وقوله تعالى (وعد الله) أي الذي له الإحاطة بكل شيء (الذين آمنوا منكم وعملوا) أي تصديقا لإيمانهم (الصالحات) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة أو له ولمن معه ومن للبيان بها كد غاية التأكيد بلام القسم لما عند أكثر الناس من الريب في ذلك بقوله تعالى (ليستخلفنهم في الأرض) أي أرض العرب والعجم بأن يديم أمانهم وينفذ أحكامهم فيهم

متصرفين في الارض تصرف الملوك في مماليكهم (كما استخلف الذين من قبلهم) أي من الامم من بني اسرائيل وغيرهم من كل من حصلت له مكنة وظفر على الاعداء بعد الضعف الشديد كما كتب في الزبور ان الارض يرثها عبادي الصالحون وكما قال موسى عليه السلام ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقرأ أبو بكر بضم التاء الفوقية وكسر اللام والباقون بفتح التاء واللام (وليمكنن لهم) اى في الباطن والظاهر (دينهم الذي ارتضى لهم) وهو دين الاسلام وتمكينه تثبيته وتوطيده واضافه اليهم اشارة الى رسوخ أقدامهم فيه وانه الذي لا ينسخ ولما بشرهم بالتمكين أشار لهم الى مقداره بقوله تعالى (وليبدلنهم من بعد خوفهم) اى الذي كانوا عليه (أمنا) وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال صلى الله عليه وسلم لا تصبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محتبيا ليس فيه حديدة وأنجز الله تعالى وعده وأظفرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعض بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الاكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا واستعبدوا أبناء القياصرة وتمكنوا شرقا وغربا مكنة لم تحصل قبلهم لامة من الامم كما قال صلى الله عليه وسلم ان الله زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها ولما قتلوا عثمان رضي الله عنه وخرجوا على علي ثم ابنه الحسن نزع الله ذلك الامن كما أشير اليه بمن وتنكير أمنا وجاء الخوف واستمر يتطاول ويزداد قليلا قليلا الى ان صار في زماننا هذا الى أمر عظيم وذلك تصديق لقوله عليه أفضل الصلاة والسلام الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكا ثم تصير بزيزى قطع سبيل وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها والثلاثون خلافة أبي بكر سنتان وخلافة عمر عشرة وخلافة عثمان اثنتا عشرة وخلافة علي ستة والبزيزى بكسر الباء وتشديد الزاى الاولى والقصر السلب والتغلب وقوله قطع سبيل نصب اما عطف بيان لقوله بزيزى أو بدل منه وقرأ ابن كثير وأبو بكر بسكون الباء الموحدة وتخفيف الدال والباقون بفتح الموحدة وتشديد الدال ثم اتبع ذلك بنتيجته بقوله تعالى تعليلا للتمكين وما معه (يعبدونني) اى وحدي وقوله تعالى (لا يشركون بي شيأ) حال من الواو اى يعبدونني غير مشركين (فان قيل) فما محل يعبدونني (أجيب) بانه مستأنف لا محل له كأن قائلا قال ما لهم مستخلفين ويؤمنون فقال يعبدونني ويجوز أن يكون حالا عن وعدهم اى وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم واخلاصهم فمحله النصب ولما كان التقدير فمن ثبت على دين الاسلام وانقاد لاحكامه واستقام نال هذه البشرى عطف عليه قوله تعالى (ومن كفر) أي ارتد وكفر هذه النعمة (بعد ذلك) أي بعد الوعد أو الخلافة (فأولئك) اى البعداء من الخير (هم الفاسقون) أي الخارجون عن الدين خروجا كاملا لا يقبل معه معذرة ولا يقال لصاحبه عثرة بل تقام عليهم الاحكام بالقتل وغيره ولا يراعى منهم ملام ولا تأخذهم رأفة عند انتقام كما تقدم أول السورة فيمن لزمه الجلد وقيل المراد بالكفر كفران النعمة لا الكفر بالله وقوله تعالى فأولئك هم الفاسقون أي العاصون لله وقوله تعالى

(وأقيموا

(وأقيموا الصلوة) اى فانها قوام ما بينكم وبين ربكم معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول قال الزمخشري وليس ببعيد ان يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وان طال لان حق المعطوف ان يكون غير المعطوف عليه (وآتوا الزكوة) فانه انتظام ما بينكم وبين اخوانكم (وأطيعوا الرسول) اى فى كل حال يأمركم به وكررت طاعة الرسول تأكيدا لوجوبها (لعلكم ترحمون) اى لتكونوا على رجاء من الرحمة ممن لا راحم فى الحقيقة غيره والفاعل فى قوله تعالى (لا تحسبن) ضمير المخاطب اى لا تحسبن أيها المخاطب (الذين كفروا) اى وان ازدادت كثرتهم على العدو وتجاوزت عظمتهم الحد (معجزين) اى لاهل ودنا وقيل لنا (فى الارض) اى فانهم مأخوذون لا محالة وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على الغيبة قال النحاس ما علمت أحدا من أهل العربية بصريا ولا كوفيا الا وهو يلحن قراءة حمزة فمنهم من يقول هى لحن لانه لم يأت الا بمفعول واحد ليحسبن وأجيب عن ذلك من وجهين أحدهما ان المفعول الاول محذوف تقديره ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الا ان حذف أحد المفعولين ضعيف عند البصريين ومنه قول عنترة

ولقد نزلت فلا تظنى غيره * منى بمنزلة المحب المكرم

اى فلا تظنى غيره واقعا والثانى ان المفعولين هما قوله معجزين فى الارض قاله الكوفيون وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وكسرها الباقون وقوله تعالى (ومأواهم النار) أى مسكنهم معطوف على لا يحسبن الذين كفروا معجزين كأنه قيل الذين كفروا لا يفوتون أهل ودنا أو لا يفوتوننا ومأواهم النار والمراد بهم المقسمون عليه بالله جهد أيمانهم هو ولما كانت سكنى الشئ لا تكون الا بعد المصير اليه قال تعالى (ولبئس المصير) اى المرجع مصيرها فكيف اذا كان على وجه السكنى واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية فقال ابن عباس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر رضى الله تعالى عنه وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك فنزلت وقال مقاتل نزلت فى أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت فكرهته فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت واللام فى ليستأذنكم للامر وملك اليمين يشمل العبيد والاماء قال بعض المفسرين هذا الخطاب وان كان ظاهره للرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث قال الرازى والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى لان النساء فى باب العورة أشد حالا من الرجال فهو كتحريم الضرب بالقياس على حرمة التأفيف وقال ابن عباس هى فى الرجال والنساء اى البالغين أو من قاربوا البلوغ يستأذنون على كل حال فى الليل والنهار لدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتطرق بذلك الى مساءتكم واختلف العلماء فى هذا الامر فقيل للندب وقيل للوجوب واستظهر (والذين) أى وليستأذنكم الذين ظهروا على عورات النساء ولكنهم (لم يبلغوا الحلم) وقيده بقوله تعالى (منكم) ليخرج الكفار والارقاء وعبر عن البلوغ بالاحتلام لانه أقوى دلالته (ثلاث مرات) فى اليوم والليلة وقيل ثلاث

استئذانات في كل مرة فان لم يحصل الاذن رجع المستأذن كما تقدم المرة الاولى من الاوقات الثلاث (من قبل صلاة الفجر) لانه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم (و) المرة الثانية (حين تضعون ثيابكم) أي التي للخروج بين الناس (من الظهيرة) أي شدة الحر وهو انتصاف النهار (و) المرة الثالثة (من بعد صلاة العشاء) لانه وقت الانفصال من ثياب اليقظة والاتصال بثياب النوم وخص هذه الاوقات لانها ساعات الخلوة ووضع الثياب والالتحاف باللحاف وأثبت من في الموضعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه واسقطها في الاوسط دلالة على استغراقه لانه غير منضبط ثم علل ذلك بقوله تعالى (ثلاث عورات) أي اختلالات في التستر والتحفظ (لكم) لانها ساعات وضع الثياب والخلوة قال البيضاوي وأصل العورة الخلل ومنها اعور المكان ورجل أعور واذا بدا فيه خلل انتهى وسميت هذه الاوقات عورات لان الانسان يضع فيها ثيابه فربما تبدو عورته وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي في الوصل ثلاث بالنصب بتقدير أوقات منصوبا بدلا من محل ما قبله قام المضاف اليه مقامه والباقون بالرفع على انها خبر مبتدا مقدر بعده مضاف وقام المضاف اليه مقامه أي هي أوقات ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده * ثم بين سبحانه وتعالى حكم ما عدا ذلك بقوله تعالى مستأنفا (ليس عليكم) أي في ترك الامر (ولا عليهم) أي المماليك والصبيان في ترك الاستئذان (جناح) أي اثم وأصله الميل في الدخول عليكم في جميع الساعات (بعدهن) أي بعد هذه الاوقات الثلاثة اذا هجموا عليكم ثم علل الاباحة في غيرها مخرجا لغيرهم بقوله تعالى (طوافون عليكم) أي لعمل ما تحتاجون في الخدمة كما أنتم طوافون عليهم لعمل ما يصلحهم ويصلحكم في الاستخدام (بعضكم) طواف (على بعض) لعمل ما يعجز عنه الآخر أو يشق عليه فلو عم الامر بالاستئذان لادى الى الحرج (فان قيل) بم رفع بعضكم على بعض (أجيب) بانه رفع بالابتداء وخبره على بعض أي طواف على بعض وحذف لان طوافون يدل عليه ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمرا لتلك الدلالة (كذلك) أي كما بين ما ذكر (يبين الله) أي بما له من احاطة العلم والقدرة (لكم) أيها الامة (الآيات) في الاحكام وغيرها بعلمه وحكمته (والله) أي الذي له الاحاطة العامة بكل شئ (عليم) بكل شئ (حكيم) فيما يريده فلا يقدر أحد على نقضه وختم الآية بهذا الوصف يدل على انها محكمة لم تنسخ واختلف في ذلك فقال الزمخشري عن ابن عباس انه قال آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الاذن واني لآمر جاريتي أي زوجتي ان تستأذن علي وسأله عطاء أأستأذن على أختي قال نعم وان كانت في حجرك تمونها وتلا هذه الآية وعنه ثلاث آيات جحدهن الناس الاذن كله وقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فقال الناس أعظمكم بيتا وقوله واذا حضر القسمة وعن ابن مسعود عليكم ان تستأذنوا على آبائكم وامهاتكم واخواتكم وعن الشعبي ليست منسوخة فقيل له ان الناس لا يعملون بها فقال الله المستعان وعن سعيد بن جبير ان الناس يقولون هي منسوخة والله ما هي منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها وقال قوم هي منسوخة روى البغوي عن ابن عباس انه قال لم يكن للقوم ستور ولا حجاب فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرونهم على حالة لا يحبونها فأمروا بالاستئذان وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور

فعل

فلعل الرواية اختلفت عن ابن عباس * ولما بين تعالى حكم الصبيان والارقاء الذين هم أطوع الامر وأقبل لكل خير أتبعه حكم البالغين من الاحرار بقوله تعالى (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) أى اذا بلغ أطفالكم الاحرار بلوغ السن الذى يكون فيه انزال المنى سواء رأى منيا أم لا واختلف فى ذلك السن فقال عامة العلماء هو خمس عشرة سنة أى قريبة تحديدية لا فرق فى ذلك بين الذكر وغيره وقال أبو حنيفة هو ثمانى عشرة سنة فى الغلام وسبع عشرة سنة فى الجارية وعن على رضى الله عنه أنه تعتبر القامة وتقدر بخمسة أشبار وبه أخذ الفرزدق فى قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره * وسما فادرك خمسة الاشبار

واعتبر غيره الانبات أى للعانة وعن عثمان رضى الله تعالى عنه أنه سأل عن غلام له فقال هل اخضر ازاره أى نبت شعر عانته فأسند الاخضرار الى الازار على المجاز ولانه مما اشتمل عليه الازار ونبات العانة الخشن عندنا علامة على بلوغ ولد الكافر فقط أما اذا رأى المنى فى وقت امكانه وهو استكمال تسع سنين قريبة فانا نحكم ببلوغه سواء كان ذكرا أم أنثى مسلما أم كافرا وأما الخنثى فلابد أن يمنى من فرجيه أو يحيض بالفرج ويمنى من الذكر (فليستأذنوا) أى على غيرهم فى جميع الاوقات (كما استأذن الذين من قبلهم) أى من الاحرار الكبار الذين جعلوا قسيما للمماليك فلا يدخل فى ذلك الارقاء فلا يستدل بذلك على أن العبد البالغ يستأذن على سيدته وقيل المراد الذين كانوا مع ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام (كذلك) أى كما بين لكم ماذكر (يبين الله) أى الذى له الاحاطة والقدرة (لكم) أيتها الامة (آياته) أى دلالاته (والله) أى الذى يعلم السر وأخفى (عليم) أى باحوال خلقه (حكيم) أى فيما دبر لهم قال سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه فانما أنزلت هذه الآية فى ذلك وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته فقال نعم ان لم تفعل رأيت منها ما تكره وعن أنس قال لما كانت صبيحة يوم احتلمت دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فاخبرته انى قد احتلمت فقال لا تدخل على النساء فما أتى على يوم كان أشد منه * ولما ذكر تعالى اقبال الشباب فى تعيين حكم الحجاب أتبعه الحكم عند ادبار الشباب فى اتقاء الظاهر من الثياب بقوله تعالى (والقواعد من النساء) أى اللاتى قعدن عن الولد والحيض من الكبر فلا يلدن ولا يحضن واحدتهن قاعد بلا هاء وقيل قعدن عن الازواج وهو معنى قوله (اللاتى لا يرجون نكاحا) أى لا يردن الرجال لكبرهن قال ابن قتيبة سميت المرأة قاعدا اذا كبرت لانها تكثر القعود وقال ربيعة هن العجز اللواتى اذا رآهن الرجل استقذرهن فاما من كان فيها بقية من جمال وهى محل الشهوة فلا تدخل فى هذه الآية (فليس عليهن جناح) أى حرج فى (أن يضعن ثيابهن) أى الظاهرة فوق الثياب الساترة بحضرة الرجال كالجلباب والرداء والقناع فوق الخمار أما الخمار فلا يجوز وضعه لما فيه من كشف العورة (غير متبرجات بزينة) أى من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء اظهار زينتهن ثم ان الزينة الخفية فى قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو غير قاصدات بالوضع التبرج والتبرج هو أن تظهر المرأة محاسن ما ينبغى لها أن تستره * ولما ذكر الله تعالى الجائز عقبه بالمستحب بعثا منه على اختيار أفضل الاعمال وأحسنها بقوله تعالى (وأن يستعففن) أى فلا يلقين الرداء أو الجلباب (خير لهن) من الالقاء كقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى وأن تصدقوا خير لكم

أبعد من التهمة (والله) اى الذى جلت عظمته (سميع) لقولكم (عليم) بما فى قلوبكم
واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ليس على الاعمى حرج) اى فى مؤاكلة غيره (ولا على
الاعرج حرج ولا على المريض حرج) كذلك فقال ابن عباس لما أنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا
لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمى والعرج
وقالوا الطعام أفضل الاموال وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل والاعمى لا يبصر
موضع الطعام الطيب والاعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام
والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفى من الطعام حقه فانزل الله تعالى هذه الآية وعلى هذا
تكون على بمعنى فى اى ليس فى الاعمى اى ليس عليكم فى مؤاكلة الاعمى والاعرج والمريض
حرج وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون
عن مؤاكلة الاصحاء لان الناس يستقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم وعن عكرمة كانت
الانصار فى أنفسها قزازة فكانت لا تأكل من هذه البيوت اذا استغنوا وكان هؤلاء يقولون
الاعمى ربما أكل أكثر وربما سبقت يده الى ما سبقت عين آكليه اليه وهو لا يشعر والاعرج
ربما أخذ فى مجلسه مكان اثنين فيضيق على جليسه والمريض لا يخلوا من رائحة تؤذى أو جرح
يبض أو نحو ذلك فنزلت وقال مجاهد نزلت الآية ترخيصا لهؤلاء فى الاكل من بيوت من سمى
الله فى هذه الآية وذلك ان هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام فاذا لم يكن عنده
ما يطعمهم ذهب بهم الى بيت أبيه وبيت أمه وبعض من سمى الله تعالى فى هذه الآية فكان
أهل الزمانة يتحرجون من هذا الطعام ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره فنزلت الآية وقال
سعيد بن المسيب كان المسلمون اذا غزوا خلفوا أمناءهم ويدفعون اليهم مفاتيح أبوابهم
ويقولون قد أحللنا لكم ان تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها
وهم غيب فانزل الله تعالى هذه الآية رخصة لهم وقال الحسن نزلت رخصة لهؤلاء فى التخلف
عن الجهاد وقال تم الكلام عند قوله تعالى ولا على المريض حرج وقوله تعالى (ولا على أنفسكم
ان تأكلوا من بيوتكم) كلام مستأنف منقطع عما قبله (فان قيل) اى فائدة فى اباحة أكل
الانسان طعامه فى بيته (أجيب) بان المراد من البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل
فيه بيوت الاولاد لان بيت ولده كبيته قال صلى الله عليه وسلم أنت ومالك لابيك وقال صلى الله
عليه وسلم ان أطيب ما يأكل المؤمن كسبه وان ولده من كسبه وقيل لما نزل قوله تعالى
ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قالوا لا يحل لاحد منا ان يأكل عند أحد فانزل الله تعالى
ولا على أنفسكم ان تأكلوا من بيوتكم اى لا حرج عليكم ان تأكلوا من بيوتكم (أو بيوت
آبائكم) اى وان بعدت أنسابهم قال البقاعى ولعله جمع لذلك فانها مربا كم وحرمتها حرمتكم
(أو بيوت أمهاتكم) كذلك وقدم الاب لانه أجل وهو حاكم بيته دائما والمال له (أو بيوت
اخوانكم) اى من الابوين أو الاب أو الام بالنسب أو الرضاع فانهم من أولى من رضى بذلك
بعد الوالدين لانهم منكم وهم أولياء بيوتهم (أو بيوت اخواتكم) فانهن بعدهم من أولى البيت
فان كن متزوجات فلا بد من اذن الزوج (أو بيوت أعمامكم) فانهم شقائق آبائكم سواء كانوا
أشقاء أو لاب أم لام ولو أفرد العم لتوهم انه الشقيق فقط فانه أحق بالاسم (أو بيوت عماتكم)

فانهن

قلنهن بعد الاعتام لضعفهن ولانهن ربما كان أولياء بيوتهن الازواج (أو بيوت أخوالكم) لانهم شقائق أمهاتكم (أو بيوت خالاتكم) أخرهن لما ذكر في العمات (أو ما ملكتم مفاتحه) قال ابن عباس يعني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه ان يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر وملك المفاتح كونها في يده وحفظه وقال الضحاك يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم لان السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن لقوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويجوز ان تكون الذي يفتح به وقال عكرمة اذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس ان يطعم الشئ اليسير وقال السدى الرجل يولى طعام غيره ويقوم عليه فلا بأس ان يأكل منه وقيل أو ما ملكتم مفاتحه ما خزنتموه عندكم وقال مجاهد وقتادة من بيوت أنفسكم مما ادخرتم وملكتم (أو صديقكم) أى أو بيوت اصدقائكم والصديق هو الذى صدق في المودة ويكون واحدا وجمعا وكذا الخليط والقطين والعدو قال ابن عباس نزلت في الحرث بن عمرو خرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل طعامك بغير اذنك فانزل الله هذه الآية ويحكى عن الحسن انه دخل داره واذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص واطائب الاطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء فاذا حضر مولاها فاخبرته أعتقها سرورا بذلك وعن جعفر بن محمد من عظم حرمة الصديق ان جعله الله تعالى في الانس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والاب والابن والاخ وعن ابن عباس الصديق أكبر من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والمعنى يجوز الاكل من بيوت من ذكر وان لم يحضروا اذا علم رضا صاحب البيت باذن أو قرينة ظاهرة الحال فان ذلك يقوم مقام الاذن الصريح ولذلك خص هؤلاء فانهم يعتادون التبسط بينهم وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم اليه طعام فاستأذن صاحبه في الاكل منه (فان قيل) اذا كان ذلك لا بد فيه من العلم بالرضا فحينئذ لا فرق بينهم وبين غيرهم (أجيب) بان هؤلاء يكفي فيهم أدنى قرينة بل ينبغي أن يشترط فيهم أن لا يعلم عدم الرضا بخلاف غيرهم لا بد فيه من صريح الاذن أو قرينة قوية هذا ما ظهر لى ولم أر من تعرض لذلك وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والاكل من طعامه بغير اذنه لهذه الآية واحتج أبو حنيفة بهذه الآية على ان من سرق من ذى رحم محرم أنه لا يقطع لان الله تعالى أباح لهم الاكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنهم (فان قيل) فيلزم ان لا يقطع اذا سرق من مال صديقه (أجيب) بان من سرق من ماله لا يكون صديقا له وقيل ان هذا كان أول الاسلام ثم نسخ فلا دليل له فيه وقرأ بيوتكم وبيوت وبيوتا ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بالكسر وقرأ حمزة والكسائى امهاتكم في الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم وكسر الميم حمزة وفتحها الباقون ولما ذكر تعالى محل الاكل ذكر حاله بقوله تعالى (ليس عليكم جناح) اى اثم (ان تأكلوا جميعا) اى مجتمعين (أو أشتاتا) أى

متفرقين واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال الاكثرون نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة وكانوا يتحرجون ان يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره الى الليل فان لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة وقال عطاء عن ابن عباس كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه فيقول والله اني لأجنح اي أتحرج ان آكل معك وأنا غني وأنت فقير فنزلت هذه الآية وقال عكرمة وأبو صالح نزلت في قوم من الانصار كانوا لا يأكلون اذا نزل بهم ضيف الا مع ضيفهم فرخص لهم في ان يأكلوا كيف شاؤا مجتمعين أو أشتاتا متفرقين وقال الكلبي كانوا اذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما وحده وكذلك الزمن والمريض فبين الله تعالى لهم ان ذلك غير واجب وقيل تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الاكل وزيادة بعضهم على بعض ●(تنبيه)● جميعا حال من فاعل تأكلوا وأشتاتا عطف عليه وهو جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت روي ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا نأكل ولا نشبع قال فلعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه وروي انه صلى الله عليه وسلم قال كلوا جميعا ولا تتفرقوا واذكروا اسم الله فان البركة مع الجماعة ● ولما بين تعالى مواطن الاكل وكيفيته ذكر الحال التي عليها الداخل الى تلك المواطن او غيرها بقوله تعالى (فاذا دخلتم) أي بسبب ذلك أو غيره (بيوتا) أي من هذه البيوت (فسلموا على أنفسكم) أي على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة بجعل أنفس المؤمنين كالنفس الواحدة كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم وقال ابن عباس اذا لم يكن في البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وقال قتادة اذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق بالسلام ممن سلمت عليهم واذا دخلت بيتا لا أحد فيه فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا ان الملائكة ترد عليه (تحية من عند الله) اي ثابتة بامره مشروعة من لدنه (مباركة) اي لانه يرجى بها زيادة الخير والثواب (طيبة) اي تطيب بها نفس المستمع والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله ووصفها بالبركة والطيب لانها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله تعالى زيادة الخير وطيب الرزق وعن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وقيل تسع سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا قال لي لشيء تركته لم تركته وكنت واقفا على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال متى لقيت من أمتي أحدا فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الابرار الاوابين ●(تنبيه)● تحية منصوب على المصدر من معنى فسلموا فهو من باب قعدت جلوسا فكأنه قال فحيوا تحية وقال القفال وان كان في البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وكرر قوله تعالى (كذلك يبين الله) أي الذي أحاط علمه بكل شيء (لكم الآيات) ثالثا لمزيد التأكيد وتفخيم الاحكام المختتمة به وفصل الاولين بما هو المقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال تعالى (لعلكم تعقلون) اي عن الله أمره ونهيه وأدبه ● ولما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل

موطن

موطن فحسب الاقامة فيه و يهجرما عداه من الاوطان قال تعالى (انما المؤمنون) أى الكاملون
فى الايمان (الذين آمنوا بالله) أى الملك الاعلى (ورسوله) اى ظاهرا وباطنا (واذا كانوا معه)
أى الرسول صلى الله عليه وسلم (على أمر جامع) اى يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة جمعة
أو عيد أو جماعة أو تشاور فى أمر نزل و وصف الامر بالجمع للمبالغة أو من الاسناد المجازى
لانه لما كان سببا فى جمعهم نسب الفعل اليه مجازا (لم يذهبوا) أى يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا
عما اجتمعوا له لعذر لهم (حتى يستأذنوه) قال الكلبى كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض فى
خطبته بالمنافقين و يعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا
ولم يصلوا وان أبصرهم أحد لبثوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الآية فكان المؤمن بعد نزولها
لا يخرج لحاجة حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن
قال مجاهد ان اذن الامام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم كذلك كل أمر اجتمع عليه
المسلمون مع الامام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه الا باذن وهذا اذا لم يكن سبب يمنعه من المقام
فان حدث سبب يمنعه من المقام كأن يكونوا فى المسجد فتحيض منهم امرأة أو يجنب الرجل
أو يعرض له مرض فلا يحتاج الى الاستئذان • ولما كان اعتبار الاذن كالمصدق لصحة كمال
الايمان والمميز للمخلص فيه أعاده مؤكدا على أسلوب أبلغ بقوله تعالى (ان الذين يستأذنونك)
اى تعظيما لك و رعاية للادب (أولئك) أى العالو الرتبة (الذين يؤمنون بالله) اى الذى له الامر
كله (ورسوله) فانه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وان الذاهب بغير اذن ليس كذلك • ولما
نص على الاستئذان تسبب عن ذلك اعلامه صلى الله عليه وسلم بما يفعل اذ ذاك بقوله تعالى
(فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) وهو ما تشتد الحاجة اليه (فأذن لمن شئت منهم) بالانصراف
اى ان شئت فأذن وان شئت فلا تأذن ففى ذلك تفويض الامر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
واستدل به على أن بعض الاحكام مفوض الى رأيه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب
وذلك انه استأذن فى غزوة تبوك فى الرجوع الى أهله فأذن له وقال انطلق فوالله ما أنت بمنافق
يريد أن يسمع المنافقون ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد اذا استأذنه أصحابه أذن
لهم واذا استأذناه أبى فوالله ما نراه يعدل قال ابن عباس ان عمر استأذن النبى صلى الله عليه
وسلم فى العمرة فأذن له ثم قال يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك ولما كان فى الاستئذان
ولو لعذر قصور لان فيه تقديم الامر الدنيا على أمر الدين أمره الله تعالى بأن يستغفر لهم بقوله
تعالى (واستغفر لهم الله) اى الذى له الامر كله بعد الاذن ليكون ذلك شاملا لمن صحت دعواه
وغيره ثم علل ذلك ترغيبا فى الاستغفار وتطييبا للقلوب أهل الاوزار بقوله تعالى (ان الله) اى
الذى لا يخفى عليه شئ (غفور) اى لفرطات العباد (رحيم) اى بالتفضل عليهم • ولما ظهرت هذه
السورة بعمومها وهذه الآيات بخصوصها من شرف الرسول صلى الله عليه وسلم ما ابهر العقول
صرح بتفخيم شأنه وتعظيم مقامه بقوله تعالى (لا تجعلوا) اى يا أيها الذين آمنوا (دعاء الرسول
بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال سعيد بن جبير و جماعة معناه لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد
ولا بكنيته فتقولوا يا أبا القاسم بل نادوه وخاطبوه بالتوقير فقولوا يا رسول الله يا نبى الله وعلى
هذا يكون المصدر مضافا للمفعول وقال المبرد والقفال لا تجعلوا دعاءه اياكم كدعاء بعضكم لبعض

ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه أبو عبد الله في البيع في صحيحه وأما قول البيضاوي تبعا للكشاف من قرأ سورة النور أعطي من الاجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي فهو حديث موضوع

سورة الفرقان مكية

الا قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله الها آخر الى رحيما فمدني وآيها سبع وسبعون آية وثمانمائة واثنان وسبعون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانون حرفا

(بسم الله) الذي له الحجة البالغة (الرحمن) الذي عم الخلق بنعمه (الرحيم) الذي وسعت رحمته كل شيء (تبارك) قال الزجاج تفاعل من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ومنه تبارك الله وفيه معنيان تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله وعن ابن عباس كان معناه جاء بكل بركة وخير وقال الضحاك تبارك تعاظم ولا يستعمل الا لله تعالى ولا يتصرف فيه ثم وصف ذاته الشريفة بما يدل على ذلك بقوله تعالى (الذي نزل الفرقان) اي القرآن والفرقان مصدر فرق بين الشيئين اذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل ولانه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعض في الانزال ألا ترى قوله تعالى وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث (على عبده) أي محمد صلى الله عليه وسلم وأضافه الى نفسه اضافة تشريف وفي عود ضمير (ليكون) ثلاثة أوجه أحدها أنه يعود على الذي نزل أي ليكون الذي نزل الفرقان نذيرا الثاني أنه يعود على الفرقان أي ليكون الفرقان نذيرا وأضاف الانذار اليه كما أضاف الهداية اليه في قوله تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم قال ابن عادل وهو بعيد لان المنذر والنذير من صفات الفاعل المخوف ووصف القرآن به مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى الثالث أنه يعود على عبده اي ليكون عبده محمد صلى الله عليه وسلم (للعالمين نذيرا) اي وبشيرا وهذا أحسن الوجوه معنى وصناعة لقربه مما يعود عليه والضمير يعود على أقرب مذكور وللعالمين متعلق بنذيرا وانما قدم لاجل الفواصل ونذيرا بمعنى منذر أي مخوف ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الانذار كالنكير بمعنى الانكار ومنه قوله تعالى فكيف كان عذابي ونذر (تنبيه) المراد بالعالمين قال البقاعي اي المكلفين كلهم من الجن والانس والملائكة اه ولكن في ارساله للملائكة خلاف بين العلماء فقد نقل الجلال المحلي في شرحه على جمع الجوامع الاجماع على أنه لم يرسل اليهم وغيره صرح بأنه أرسل اليهم ومن حفظ حجة على من لم يحفظ (فان قيل) قوله تعالى تبارك يدل على كثرة الخير والبركة فالمذكور عقيبه لا بد وأن يكون مبينا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق ذكره بهذا الموضع (أجيب) بان الانذار يجري مجرى تأديب الولد (١) كما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان رجوع الخلق الى الله تعالى أكثر وكانت السعادة الاخروية أتم وأكثر وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات الى المنافع العاجلة لانه تعالى لما وصف نفسه أن يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر منافع الدنيا البتة وقوله تعالى (الذي له ملك السموات والارض) اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه وتعالى حال حدوثها وانه تعالى

(قوله تبارك) هذه كلمة لا تستعمل الا لله بلفظ الماضي وذكرت في هذه

(١) قوله كما انه الخ كذا في النسخ ولا يخفى ما فيه والذي يستفاد من أطرافه أن يقال فالولد كلما بالغ والده في تأديبه كان رجوعه اليه أكثر وأتم لسعادته وكذلك الخلق كلما بالغ خالقهم في انذارهم كان رجوعهم اليه اكثر وأتم لسعادتهم الاخروية اه

هو المتصرف فيها كيف يشاء فلا انكار أن يرسل رسولا الى كل من فيها * (تنبيه) * يجوز في
الذي الرفع نعتا للذي الاول أو بيانا أو بدلا أو خبر المبتدأ المحذوف والنصب على المدح وما بعده
يدل على أنه من تمام الصلة فليس أجنبيا فلا يضر الفصل به بين الموصول الاول والثاني اذا
جعلنا الثاني تابعا له (ولم يتخذ ولدا) اى هو الفرد أبدا ولا يصح أن يكون غيره تعالى معبودا
ووارثا للملك عنه وهذا رد على النصارى (ولم يكن له شريك في الملك) اى هو المنفرد بالالوهية
واذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه عن كل من سواه تعالى ولم يشتغل قلبه الا برحمته
واحسانه وفيه رد على الوثنية القائلين بعبادة النجوم والاوثان * ولما نفى تعالى الشريك
فكأن قائلا يقول ههنا أقوام يعترفون بنفي الشريك والشركاء والانداد ومع ذلك يقولون
بخلق أفعال أنفسهم فرد الله تعالى عليهم بقوله (وخلق كل شئ) اى من شأنه أن يخلق ومنه
افعال العباد والخلق هنا بمعنى الاحداث اى احدث كل شئ احداثا مراعى فيه التقدير
والتسوية (فقدره تقديرا) اى هيأه لما يصلح له مثاله أنه خلق الانسان على هذا الشكل
المقدر الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان
وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة وسمى احداث الله خلقا لانه لا يحدث شيأ لحكمة
الا على وجه التقدير من غير تفاوت فاذا قيل خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك أحدث وأوجد
من غير نظر الى وجه الاشتقاق فكأنه قيل وأوجد كل شئ فقدره تقديرا في ايجاده ولم يوجده
متفاوتا ولو حمل خلق كل شئ على معناه الاصلي من التقدير لصار الكلام وقدر كل شئ فقدره
فلم يصر له كبير فائدة وقيل فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء الى أمد معلوم واختلف في
عود الضمير في قوله تعالى (واتخذوا من دونه) اى الله تعالى اى غيره (آلهة) على ثلاثة
اوجه أحدها أنه يعود على الكفار الذين تضمنهم لفظ العالمين ثانيها أنه يعود على من ادعى
لله شريكا وولدا لدلالة قوله تعالى ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ثالثها انه يعود على
المنذرين لدلالة نذيرا عليهم * ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بصفات الجلال والعزة
والعلو أردفه بتزييف مذهب من يعبد غيره من وجوه منها أنها ليست خالقة للاشياء بقوله
تعالى (لا يخلقون شيأ) والاله يجب أن يكون قادرا على الخلق والايجاد ومنها أنها مخلوقة بقوله
تعالى (وهم يخلقون) والمخلوق محتاج والاله يجب أن يكون غنيا وغلب العقلاء على غيرهم لان
الكفار كانوا يعبدون العقلاء كعزير والمسيح والملائكة وغيرهم كالكواكب والاصنام
التي ينحتونها ويصورونها ومنها أنها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا بقوله تعالى (ولا يملكون)
اى لا يستطيعون (لانفسهم ضرا) اى دفعه (ولا نفعا) اى جلبه ومن كان كذلك فليس باله
ومنها انها لا تقدر على موت ولا حياة ولا نشور بقوله تعالى (ولا يملكون موتا ولا حياة) اى اماتة
لاحد واحياء لاحد (ولا نشورا) اى بعثا للاموات فيجب أن يكون المعبود قادرا على ايصال
الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لا يكون كذلك يجب أن لا يصلح للالهية
* (تنبيه) * احتج أهل السنة بقوله تعالى لا يخلقون شيأ على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لانه
تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيأ وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن

السورة في ثلاثة مواضع
تعظيما لله تعالى وخصت
مواضعها بذكره لعظم
ما بعدها الاول ذكر الفرقان

يعبد

يعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الهاء وابتكلم تعالى أولا على التوحيد وثانيا في الرد على عبدة غيره تكلم ثالثا في مسئلة النبوة وحكى شبه الكفار في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم * الشبهة الاولى قوله تعالى (وقال الذين كفروا) اى مظهر والوصف الذي حملهم على هذا القول وهو ستر ما ظهر لهم ولغيرهم كالشمس والاجتهاد في اخفائه (ان) اى ما (هذا) اى القرآن (الا افك) اى كذب مصروف عن وجهه (افتراه) اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه) أى القرآن (قوم آخرون) اى من غير قومه وهم اليهود فانهم يلقون اليه أخبار الامم وهو يعبر عنها بعبارته وقيل عذاس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وأبو فكيهة الرومي كانوا بمكة من أهل الكتاب فزعم المشركون أن محمدا يأخذ منهم فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (فقد جاؤا) اى قائلو هذه المقالة (ظلما) وهو جعل الكلام المعجز افكا مختلقا متلقفا من اليهود وجعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب (وزورا) اى بهتوه بنسبة ما هو بريء منه اليه وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام * (تنبيه) * جاء وأتى يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته وظلما مفعول به وقيل انه على اسقاط الخافض اى جاؤا بظلم * الشبهة الثانية قوله تعالى (وقالوا أساطير الاولين) أى ما سطره الاولون من أكاذيبهم جمع أسطورة بالضم كأحدوثة أو اسطار (اكتتبها) اى تطلب كتابتها له من ذلك القوم وأخذها والمعنى ان هذا القرآن ليس من الله تعالى انما هو مما سطره الاولون الاول كأحاديث رستم واسفنديار استنسخها محمد من أهل الكتاب (فهي) اى فتسبب عن تكلفه ذلك أنها (تملى عليه) اى تقرأ عليه ليحفظها (بكرة) قبل أن تنتشر الناس (وأصيلا) اى عشيا حين يأوون الى مساكنهم أو دائما ليتكلف حفظها بالانتساخ لانه أمي لا يقدر أن يكرر من الكتاب أو ليكتب وهذا كما ترى لا يقوله من له مسكة في عقل أو مروأة كيف وهو يدعوهم الى المعارضة ولو بسورة من مثله وفيهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء وهم أكثر منه مالا وأعظم أعوانا ولا يقدرون على شئ منه (فان قيل) كيف قيل اكتتبها فهي تملى عليه وانما يقال أمليت عليه فهو يكتبها (اجيب) بوجهين أحدهما أراد اكتتابها وطلبه فهي تملى عليه الثاني انها كتبت له وهو أمي فهي تملى اى تلقى عليه من كتاب ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب وقرأ فهي قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها ثم أمره الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) اى دالا على بطلان ما قالوه ومهددا لهم (أنزله الذي يعلم السر) اى الغيب (في السموات والارض) لانه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه أخبارا عن مغيبات مستقبلة وأشياء مكنونة لا يعلمها الا عالم الاسرار فكيف تجعلونه أساطير الاولين مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور وكذلك باطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تبهتونه به وهو يجازيكم على ما علم منكم وعلم منه (فان قيل) كيف يطابق هذا قوله تعالى (انه كان) اى أزلا وأبدا (غفورا رحيما) أجيب بانه لما كان ما تقدمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه لانه لا يوصف بالرحمة والمغفرة الا القادر على العقوبة أو هو تنبيه على انهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا

وهو القرآن المشتمل على معاني جميع كتب الله والثانية ذكر النبي صلى الله عليه وسلم رحمة اطبة

ولكن صرف ذلك عنهم لانه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل * الشبهة الثالثة قوله تعالى (وقالوا مالهذا الرسول) أى مالهذا الذى يزعم الرسالة وفيه استهانة وتهكم وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم كأنهم قالوا مالهذا الزاعم أنه رسول ونحوه قول فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون اى ان صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا (يأكل الطعام) أى كما نأكل (ويمشى) أى ويتردد (فى الاسواق) لطلب المعاش كما نمشى فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة يعنون انه يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب والتعيش وكذلك كانوا يقولون له لست انت بملك لانك تأكل الطعام والملك لا يأكل ولان الملك لا يتسوق وأنت تتسوق وما قالوه فاسد لان أكله الطعام لكونه آدميا ومشيه فى الاسواق لتواضعه وكان ذلك صفته فى التوراة ولم يكن صخابا فى الاسواق وليس شئ من ذلك ينافى النبوة ولانه لم يدع أنه ملك من الملوك ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا الى اقتراح أن يكون انسانا معه ملك حتى يسانده فى الانذار والتخويف فقالوا (لولا) أى هلا (أنزل اليه ملك) أى يصدقه ويشهد له (فيكون معه نذيرا) أى داعيا ثم نزلوا أيضا الى أنه ان لم يكن مرفودا بملك فليكن مرفودا بكنز فقالوا (أو يلقى اليه كنز) أى ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج الى المشى فى الاسواق لطلب المعاش ثم نزلوا فاقتنعوا بان يكون رجلا له بستان فقالوا (أو تكون له جنة) أى بستان (يأكل منها) أى ان لم يلق اليه كنز فلا أقل أن يكون له بستان كالمياسير فيتعيش بريعه وقرأ حمزة والكسائى بالنون أى نأكل نحن منها فيكون له مزية علينا بها والباقون بالياء وقوله تعالى (وقال الظالمون) وضع فيه الظاهر موضع المضمر اذ الاصل وقالوا تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا (ان) اى ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) أى مخدوعا مغلوبا على عقله وقيل مصروفا عن الحق * ولما أنهى تعالى ما ذكر من أقوالهم الناشئة عن ضلالهم التفت سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له بقوله تعالى (انظر) أى يا أفضل الخلق (كيف ضربوا لك الامثال) أى بالمسحور والمحتاج الى ما ينفقه والى ملك يقوم معك بالامر (فضلوا) أى بذلك عن جميع طرق الهدى (فلا يستطيعون) أى فى الحال ولا فى المآل بسبب الضلال (سبيلا) أى سلوك سبيل من السبل الموصلة الى ما يستحق أن يقصد بل هم فى مجاهل موحشة وفيافى مهلكة * ولما أثبت انهم لا علم لهم ولا قدرة ولا يمن ولا بركة أثبت لنفسه سبحانه وتعالى ما يستحق من الكمال الذى يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء بقوله تعالى (تبارك) أى ثبت ثباتا مقترنا باليمن والبركة لاثبات الا هو (الذى ان شاء) فانه لا مكره له (جعل لك) أى فى الدنيا (خيرا من ذلك) أى من الذى قالوه على طريق التهكم من الكنز والبستان وقوله تعالى (جنات) بدل من خيرا ويجوز أن يكون منصوبا باضمار أعنى ثم وصفها بقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) أى تكون أرضها عيونا نابعة أى فى أى موضع أريد منه اجراء نهر جرى فهى لا تزال ريا تغنى صاحبها عن كل حاجة ولا تحوجه فى استمرارها الى سقى (ويجعل لك قصورا) أيضا وهى جمع قصر وهو المسكن الرفيع قال المفسرون القصور هى البيوت المشيدة والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومتنزها ويجوز أن تكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل جنات فى الآخرة وقصورا فى الدنيا ولم يشأ الله سبحانه وتعالى ما أشار اليه فى هذه الآية الشريفة فى هذه الدنيا الفانية وأخره الى الآخرة

الله له فيه وروى لولاك
يا محمد ما خلقت الكائنات
والثالث ذكر العروج
والشمس والقمر والليل

الباقية وقد عرض عليه سبحانه وتعالى ماشاء في ذلك في الدنيا فأباه روي أنه عليه الصلاة والسلام قال عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما أو قال ثلاثا أو نحو هذا فاذا جعت تضرعت اليك واذا شبعت حمدتك وشكرتك وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهبا جاءني ملك فقال ان ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك ان شئت نبيا عبدا وان شئت نبيا ملكا فنظرت الى جبريل عليه السلام فأشار الى أن ضع نفسك فقلت نبيا عبدا قالت وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئا ويقول آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وعن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام معه فقال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك أن يعطيك مفاتيح كل شيء لم يعطه أحدا قبلك ولا يعطيه أحدا بعدك من غير أن ينقصك مما أدالك شيئا فقال صلى الله عليه وسلم بل يجمعها لي في الآخرة فنزل تبارك الذي ان شاء الآية وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة برفع اللام من يجعل وفيه وجهان أحدهما أنه مستأنف والثاني أنه معطوف على جواب الشرط لان الشرط اذا وقع ماضيا جاز في جوابه الجزم والرفع كقوله

وان أتاه خليل يوم مسئلة ۞ يقول لا غائب مالي ولا حرم

والباقون بالجزم ويجوز في يجعل لك اذا أدغمت أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع ۞ ثم أضرب سبحانه وتعالى عن كلامهم في حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (بل) أي لا يظنوا أنهم كذبوا بما جئت به لانهم لا يعتقدون فيك كذبا بل (كذبوا بالساعة) أي القيامة فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوي وظنوا أن الكرامة انما هي بالمال فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فلا يتكلفون النظر والفكر ولهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل (وأعتدنا) أي والحال انا أعتدنا أي هيأنا بما لنا من العظمة (لمن كذب) من هؤلاء وغيرهم (بالساعة سعيرا) أي نارا شديدة الاتقاد بما أعظموا الحريق في قلوب من كذبوهم من الانبياء وأتباعهم وعن الحسن أن السعير اسم من أسماء جهنم ۞ (تنبيه) ۞ احتج أهل السنة على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين وعلى أن النار وهي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية (اذا رأتهم من مكان بعيد) وهو أقصى ما تمكن رؤيتها منه وقال الكلبي والسدي من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة روي أنه صلى الله عليه وسلم قال من كذب على متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قالوا وهل لها من عينين قال نعم ألم تسمع قوله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد وقال البيضاوي تبعا للزمخشري اذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه الصلاة والسلام لا تراءى ناراهما اي لا تتقاربان بحيث تكون احداهما بمرأى من الاخرى على المجاز انتهى وهذا تاويل المعتزلة بناء منهم على ان الرؤية مشروطة بالحياة بخلاف الاشاعرة فانهم يجوزون رؤيتها حقيقة كتغيظها وزفيرها في قوله تعالى (سمعوا لها تغيظا) اي غليانا كالغضبان اذا غلى صدره من الغضب (وزفيرا) اي صوتا شديدا ذلا امتناع من انها تكون رائية مغتاظة زافرة واشار البيضاوي الى ذلك بعد ما ذكر بقوله هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية

والنهار ولولاها ماوجد في الارض حيوان ولا نبات (قوله وخلق كل شيء فقدره تقديرا) ۞ ان قلت الخلق

أمكن ان يخلق الله فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقال الجلال المحلي وسماع التغيظ رؤيته وعلمه انتهى قال عبد الله بن عمر تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الاخر لوجهه وقيل اذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار للانتقام منهم فنسب اليها على حذف مضاف (واذا ألقوا) أي طرحوا طرح اهانة (منها) أي النار (مكانا) ثم وصفه تعالى بقوله تعالى (ضيقا) زيادة في فظاعتها قال ابن عباس يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح (مقرنين) اى مصفدين زيادة قد قرنت أيديهم الى أعناقهم من الاغلال وقد قيل الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله تعالى الجنة بان عرضها السموات والارض وجاء في الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله تعالى على أهل النار أنواع الضيق والارهاق حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصا كما مر عن ابن عباس أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهو منقول أيضا عن ابن عمرو وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذي نفسي بيده انهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم الى أعناقهم ويقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم * (تنبيه) * مكانا منصوب على الظرف ومنها في محل نصب على الحال من مكانا لانه في الاصل صفة له ومقرنين حال من مفعول ألقوا وقرأ ابن كثير ضيقا بسكون الياء والباقون بكسر الياء مشددة (دعوا هنالك) اى في ذلك المكان البغيض البعيد عن الرفق (ثبورا) قال ابن عباس ويلا وقال الضحاك هلاكا فيقولون واثبوراه هذا حينك وزمانك لانه لا منادم لهم غيره وليس يحضر أحد منهم سواه قال البغوي وفي الحديث ان أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقال لهم (لا تدعوا اليوم) اى أيها الكفار (ثبورا واحدا) لانكم لا تموتون اذا حلت بكم أسباب العذاب والهلاك (وادعوا ثبورا كثيرا) أي هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة أو ادعوا أدعية كثيرة وقال الكلبي نزل هذا كله في أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبه * ولما وصف تعالى العقاب المعد للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة بقوله تعالى (قل) أي لهؤلاء البعداء البغضاء (أذلك) اى المذكور من الوعيد وصفة النار (خير أم جنة الخلد) أي الاقامة الدائمة (التي وعد المتقون) اى وعدها الله تعالى لهم فالراجع الى الموصول وهو هاء وعدها محذوف (فان قيل) كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول القائل السكر أحلى أم الصبر (أجيب) بأنه يحسن في معرض التقريع كما اذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فضربه ويقول له هذا خير أم ذلك قال أبو مسلم جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (فان قيل) الجنة اسم لدار الخلد فأي فائدة في قوله تعالى جنة الخلد (أجيب) بأن الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ وهذا من هذا البيان أو للتمييز عن جنات الدنيا ثم حقق تعالى أمرها تأكيدا للبشارة بقوله (كانت لهم جزاء) أي ثوابا على أعمالهم بفضل الله تعالى وكرمه (ومصيرا) أي مرجعا (فان قيل) ان الجنة

هو التقدير ومنه قولهم واذ تخلق من الطين فكيف جمع بينهما (قلت) الخلق من الله هو الايجاد فصح

ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعدما صارت كذلك فلم قال تعالى كانت (أجيب) من وجهين الاول ان ما وعده الله تعالى فهو في تحققه كالواقع الثاني انه كان مكتوبا في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم (فان قيل) لم جمع تعالى بين الجزاء والمصير (اجيب) بأن ذلك كقوله تعالى نعم الثواب وحسنت مرتفقا فمدح الثواب ومكانه كما قال تعالى بئس الشراب وساءت مرتفقا فذم العقاب ومكانه لان النعيم لا يتم للمتنعم الا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة والا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء • (تنبيه) • المتقي يشمل من اتقى الكفر وان لم يتق المعاصي وان كان غيره أكمل • ثم ذكر تعالى تنعمهم فيها بعد ان ذكر نعيمهم بقوله تعالى (لهم فيها) أي الجنة (ما يشاؤن) من كل ما تشتهيه أنفسهم كما قال تعالى ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم وفيها ما تشتهي الانفس (فان قيل) أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لابد وأن يريدوها فاذا سألوها ربهم فان أعطاها لهم لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة وان لم يعطها لهم قدح ذلك في قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن (اجيب) بأن الله تعالى يزيل هذا الخاطر عن قلوب أهل الجنة ويشتغلون بما هم فيه من اللذات عن الالتفات الى حال غيرهم وقوله تعالى (خالدين) منصوب على الحال اما من فاعل يشاؤن واما من فاعل لهم لوقوعه خبرا او العائد على ما محذوف أي لهم فيها الذي يشاؤنه حال كونهم خالدين وقوله تعالى (كان على ربك) أي وعده لهم ما ذكر (وعدا) يدل على أن الجنة جعلت لهم بحكم الوعد والتفضل لا بحكم الاستحقاق وقوله تعالى (مسؤلا) أي مطلوبا بالخلاف في السائل فالاكثر على ان المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما منكم من يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه بها احدى ثلاث اما ان يعجل له دعوته واما أن يدخرها له في الآخرة واما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا اذا نكثر قال الله تعالى أكثر وروى انه يدعى بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه الله تعالى بين يديه فيقول عبدي فيقول نعم يارب فيقول اني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعوني اما انك لم تدعني بدعوة الا استجبت لك أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك ففرجت عنك فيقول نعم يارب فيقول اني عجلتها لك في الدنيا ودعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك فلم تر فرجا قال نعم يارب فيقول اني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا ودعوتني في حاجة أقضيها لك في يوم كذا وكذا فقضيتها فيقول نعم يارب فيقول اني عجلتها لك في الدنيا ودعوتني في يوم كذا وكذا في حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها فيقول نعم يارب فيقول اني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن الا بين له اما ان يكون عجل له في الدنيا واما أن يكون ادخر له في الآخرة فيقول المؤمن في هذا المقام ياليته لم يكن عجل له شيء من دعائه وروى لا تعجلوا في الدعاء فانه لا يهلك مع الدعاء أحد وروى ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة وروى يستجاب لاحدكم ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي وروى لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يارسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت فلم يستجب لي

قوله كقوله تعالى هو الخ الكاف للتنظير لا للتمثيل اه مصححه

الجمع بينه وبين التقدير ولو سلم انه التقدير لساغ الجمع بينهما لاختلافهما لفظا كما في قوله تعالى أولئك

فيستحسر أى يمل عند ذلك ويدع الدعاء فليدع الانسان وهو موقن بالاجابة وقال محمد بن كعب القرظى الطالب من الملائكة للمؤمنين سألوا ربهم للمؤمنين بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وقيل ان المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعة الله كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

ولما ذكر تعالى حالهم فى أنفسهم أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه بقوله تعالى (ويوم) أى واذكر لهم يوم (نحشرهم) أى المشركين وقرأ ابن كثير وحفص بالياء والباقون بالنون واختلف فى المراد بقوله تعالى (وما يعبدون من دون الله) أى غيره فقال الاكثرون من الملائكة والجن والمسيح وعزير وغيرهم وقال عكرمة والضحاك والكلبى من الاصنام فقيل لهم كيف يخاطب الله تعالى الجماد بقوله تعالى (فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) أى أوقعتموهم فى الضلال بأمركم اياهم بعبادتكم (أم هم ضلوا السبيل) أى طريق الحق بأنفسهم فاجابوا بوجهين أحدهما انه تعالى يخلق الحياة فيها ويخاطبها ثانيهما أن يكون ذلك بالكلام النفسانى لا بالقول اللسانى بل بلسان الحال كما ذكره بعضهم فى تسبيح الجماد وكلام الايدى والارجل ويجوز أن يكون السؤال عاما لهم جميعا (فان قيل) كيف صح استعمال ما فى العقلاء (أجيب) على الاول بأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم الا ترى انك تقول اذا أردت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعنى أطويل أم قصير فقيه أم طبيب وقال تعالى والسماء وما بناها ولا أنتم عابدون ما أعبد وأما على القول الثانى فواضح وأما على القول الثالث فغلب غير العاقل لغلبة عبادة أو تحقيرا (فان قيل) ما فائدة هذا السؤال مع ان الله تعالى كان عالما فى الازل بحال المسؤل عنه (أجيب) بان هذا سؤال تقريع للمشركين كما قال لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله وقرأ ابن عامر فنقول بالنون والباقون بالياء وقرأ أأنتم نافع وابن كثير بتسهيل الثانية وادخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام وورش وابن كثير بتسهيل الثانية ولا ألف بينها وبين الاولى ولورش وجه آخر وهو ابدال الثانية ألفا وهشام بتسهيل الثانية وتحقيقها مع الادخال والباقون بتحقيقهما وقرأ هؤلاء ام هم نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بابدال الهمزة من أم ياء خالصة والباقون بتحقيقها (قالوا سبحانك) أى تنزيها لك عما لا يليق بك أو تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة أو أنبياء معصومون فما أبعدهم عن الضلال الذى هو مختص بابليس وجنوده أو جمادات وهى لا تقدر على شئ أو اشعارا بانهم الموسومون بتسبيحه وتوحيده فكيف يليق بهم اضلال عبيده (ما كان ينبغى) أى يستقيم (لنا أن نتخذ) أى نتكلف ان نأخذ باختيارنا بغير ارادة منك (من دونك) أى غيرك (من أولياء) للعصمة أو لعدم القدرة فكيف يستقيم لنا ان نأمر بعبادتنا (فان قيل) ما فائدة انتم وهم وهلا قيل أأضللتم عبادى هؤلاء ام ضلوا السبيل (أجيب) بان السؤال ليس عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه (تنبيه) من أولياء مفعول أول ومن زائدة لتأكيد النفى وما قبله المفعول الثانى ولما تضمن كلامهم انا لم نضلهم ولم نحملهم على الضلال

عليهم صلوات من ربهم ورحمة (قوله واتخذوا من دونه آلهة) قاله هنا

حسن الاستدراك بقولهم (ولكن متعتهم وآباءهم) وهو ان ذكروا سببه أى انعمت عليهم وعلى آبائهم من قبلهم بانواع النعم والصحة وطول العمر فى الدنيا فجعلوا ذلك ذريعة الى ضلالهم عكس القضية (حتى نسوا الذكر) أى تركوا الايمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه (وكانوا) أى فى علمك بما قضيت عليهم فى الازل (قوما بورا) اى هالكين وهو مصدر يوصف به ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع او جمع بائر كعائذ وعوذ وقوله (فقد كذبوكم) فيه التفات الى العبدة بالاحتجاج والالزام على حذف القول والمعنى فقد كذب المعبودون العابدين (بما تقولون) اى بسبب ما تقولون اى ايها العابدون من انهم يستحقون العبادة وانهم يشفعون لكم وانهم اضلوكم ولما تسبب عن تخليهم عن عبدتهم انه لا نفع فى ايديهم ولا ضر قال تعالى (فما يستطيعون) اى المعبودون (صرفا) اى شيأ من الاشياء عن احد من الناس لا انتم ولا غيركم من عذاب ولا غيره بوجه حيلة ولا شفاعة ولا مفاداة (ولا نصرا) اى منعا لكم من الله تعالى ان اراد بكم سوأ وهذا الحصر قوله تعالى لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا وقرأ حفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (ومن يظلم) أى بالشرك (منكم) اى ايها المكلفون (نذقه) اى بما لنا من العظمة (عذابا كبيرا) اى شديدا فى الدنيا بالقتل او الاسر او ضرب الجزية وفى الآخرة بنار جهنم * روى الضحاك عن ابن عباس انه قال لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم ما لهذا الرسول الى آخرها انزل الله تعالى (وما ارسلنا قبلك) اى يا اشرف الخلق احدا (من المرسلين الا) وحالهم (انهم ليأكلون الطعام) كما تأكل ويأكل غيرك من الآدميين (ويمشون فى الاسواق) كما تفعل فهذه عادة مستمرة من الله تعالى فى كل رسله وهم يعلمون ذلك بالسماع من أخبارهم وهذا تأكيد من الله تعالى لانهم لا يكذبونه صلى الله عليه وسلم وقيل معنى الآية وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا قد قيل لهم مثل هذا انهم يأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق كما قال تعالى فى موضع آخر ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك (وجعلنا) أى بالعطاء والمنع بما لنا من العظمة (بعضكم) أى ايها الناس (لبعض فتنة) أى بلية والمعنى انه تعالى ابتلى المرسلين بالمرسل اليهم ويناصبونهم والعداوة لهم وأقاويلهم الخارجة عن حد الانصاف وجعل الغنى فتنة للفقير والصحيح فتنة للمريض والشريف فتنة للوضيع يقول الثانى من كل مالى لا أكون كالاول وقال ابن عباس جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم فتتبعوا الهدى أم لا وقال مقاتل نزلت هذه الآية فى أبى جهل والوليد بن عقبة والعاصى بن وائل والنضر بن الحرث وذلك أنهم رأوا أباذر وابن مسعود وعمارا وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة ومن دونهم قد أسلموا قبلهم فقالوا أنسلم فنكون مثل هؤلاء وقيل جعلناك فتنة لهم لانك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم اليك وطاعتهم لك للدنيا فتكون ممزوجة بالدنيا وانما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوى وقوله تعالى (أتصبرون) أى على ما تسمعون مما ابتليتم به استفهام بمعنى الامر أى اصبروا (وكان ربك) أى المحسن اليك احسانا لم يحسنه الى أحد سواك لا سيما بجعلك نبيا عبدا (بصيرا) أى بكل شئ فهو عالم بالانسان قبل الامتحان لم يفده ذلك علما لم يكن عنده ولكن يعلم ذلك شهادة كما يعلم

بالغيبة وقاله فى مريم ويس بلفظ الله موافقة لما قبله فى المواضع الثلاثة

قوله ويناصبونهم الخ فى بعض النسخ ويناصبونهم لهم العداوة اه مصحح

الغيب ولتقوم عليهم بذلك الحجة لا يضيق من صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم فان صبرك عليها سعادتك وفوزك فى الدارين روى انه صلى الله عليه وسلم قال اذا نظر أحدكم من فضل عليه فى المال والجسم فلينظر الى من هو دونه فى المال والجسم وروى انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ● الشبهة الرابعة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يخافون البعث قال الفراء الرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا أى لا تخافون لله عظمة (لولا) أى هلا ولم لا (أنزل) أى على أى وجه كان من أى منزل كان (علينا الملائكة) كما نزلت عليه فيما يزعم وكانوا رسلا الينا وتخبرنا بصدقه (أو نرى ربنا) بما له علينا من الاحسان وبما لنا نحن من العظمة بالقوة بالاموال وغيرها فيأمرنا بما يريد من غير حاجة الى واسطة قال الله ردا عليهم (لقد استكبروا) أى تعظموا (فى) شأن (أنفسهم) أى أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد فى قلوبهم واعتقدوه كما قال تعالى ان فى صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه (وعتوا) أى تجاوزوا الحد فى الظلم (عتوا كبيرا) أى بالغا أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات الظاهرة فأعرضوا عنها واقترحوا لانفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامع النفوس القدسية واللام جواب قسم محذوف وفى فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ تعجب ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم ● ثم بين تعالى انهم حالهم عند بعض ما طلبوا بقوله تعالى (يوم يرون الملائكة) أى يوم القيامة وقال ابن عباس عند الموت (لا بشرى) أى من البشر أصلا (يومئذ) وقوله تعالى (للمجرمين) أى الكافرين اما ظاهر فى موضع ضمير واما لانه عام فقد تناولهم بعمومه بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة ● (تنبيه) ● فى نصب يوم أوجه أحدها أنه منصوب باضمار فعل يدل عليه قوله تعالى لا بشرى أى يمنعون البشرى يوم يرون الثانى باذكر فيكون مفعولا به الثالث يعذبون مقدرا ولا يجوز أن يعمل فيه نفس البشرى لوجهين أحدهما أنها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله والثانى أنها منفية بلا وما بعد لا لا يعمل فيما قبلها وقوله (ويقولون) أى فى ذلك الوقت (حجرا محجورا) عطف على المدلول وهو يقول الكفرة لهم حينئذ هذه الكلمة استعاذة وطلبا من الله تعالى أن يمنع لقاء الملائكة عنهم مع انهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه وهم اذا رأوهم عند الموت او يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو والشدة النازلة أو نحو ذلك حجرا محجورا يضعونها موضع الاستعاذة فهم يقولون ذلك اذا عاينوا الملائكة قال سيبويه يقول الرجل للرجل تفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهى من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه عنه فلا يلحقه وكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وقال ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة الا من قال لا اله الا الله وقيل اذا خرج الكفار من قبورهم تقول الملائكة لهم حرام محرم عليكم أن تكون لكم البشرى ولما كان المريد لابطال شئ لشدة كراهته له لا يقنع فى ابطاله بغيره بل يأتيه بنفسه فيبطله عبر تعالى بقوله (وقدمنا) أى وعمدنا بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة فى ذلك

(قوله ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا) قدم الضر على النفع

اليوم الذي يرون فيه الملائكة سواء كان في الدنيا أم في الآخرة (الى ما عملوا من عمل) اي من مكارم الاخلاق من الجود وصلة الرحم واغاثة الملهوف ونحو ذلك (فجعلناه) لكونه لم يؤسس على الايمان وانما هو للهوى والشيطان (هباء) وهو ما يرى في شعاع الشمس الداخل من كوة مما يشبه الغبار (منثورا) اى مفرقا اى مثله في عدم النفع اذ لا ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه في الدنيا فتكون النار مستقرهم ومقيلهم ولما بين حال اضدادهم وهم المؤمنون بقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ) اى يوم اذ يرون الملائكة (خير مستقرا) من الكفار (وأحسن مقيلا) منهم والمستقر المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون والمقيل المكان الذي يأوون اليه للاسترواح الى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن كما ان المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب روى انه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار قال ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقال ابن عباس في هذه الآية الحساب في ذلك اليوم في أوله وقال يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون قدر ما بين العصر الى غروب الشمس *(تنبيه)* في أفعل هنا قولان أحدهما أنها على بابها من التفضيل والمعنى ان المؤمنين خير في الآخرة مستقرا من مستقر الكفار وأحسن مقيلا من مقيلهم ولو فرض ان يكون لهم ذلك أو على انهم خير في الآخرة منهم في الدنيا والثاني ان يكون لمجرد الوصف من غير مفاضلة ومن ذلك المعنى قوله تعالى ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الارائك متكؤن ذكروا في تفسير الشغل افتضاض الابكار وانما سمي مكان دعتهم واستراحتهم الى الحور مقيلا مع انه لا نوم في الجنة على طريق التشبيه * ثم عطف تعالى على قوله يوم يرون قوله تعالى (ويوم تشقق السماء) اى كل سماء (بالغمام) اى كما تشقق الارض بالنبات فيخرج من خلال شقوقها وهو غيم أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الا لبني اسرائيل في تيههم *(تنبيه)* في هذه الباء ثلاثة أوجه أحدها انها سببية اى بسبب الغمام يعني بسبب طلوعه منها ونحوه السماء منفطر به كأنه الذي تنشق به السماء الثاني أنها للحال اى ملتبسة بالغمام الثالث انها بمعنى عن اى عن الغمام كقوله تعالى يوم تشقق الارض عنهم سراعا والباء وعن يتعاقبان تقول رميت عن القوس وبالقوس وقرأ أبو عمرو والكوفيون بتخفيف الشين والباقون بتشديدها ثم أشار تعالى الى جهل من طلب نزول الملائكة دفعة واحدة بقوله تعالى (ونزل الملائكة) اى بالتدريج بأمر حتم لا يمكنهم التخلف عنه بأمر من الامور وغيره من الذين طلبوا ان يروهم في حال واحد (تنزيلا) في أيديهم صحائف الاعمال قال ابن عباس تتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الارض من الجن والانس ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل سماء الدنيا ومن أهل الارض جنا وانسا ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على السماء التي قبلها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش (فان قيل) ثبت ان نسبة الارض الى سماء الدنيا كحلقة في فلاة فكيف تسع الارض هؤلاء (أجاب) بعض المفسرين بان الملائكة تكون في الغمام والغمام يكون مقر الملائكة ويجوز ان الله تعالى

لمناسبة ما بعده من تقديم الموت على الحياة (قوله كانت لهم جزاء ومصيرا)

يوسع الارض حتى تسع الجميع وقرأ ابن كثير بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الزاى ورفع اللام ونصب الملائكة والباقون بنون واحدة والزاى مشددة ونصب اللام ورفع الملائكة ثم بين تعالى ان ذلك اليوم لا يقضى فيه غيره بقوله تعالى (الملك يومئذ) اى اذ تشقق السماء بالغمام ثم وصف الملك بقوله تعالى (الحق) اى الثابت ثباتا لا يمكن زواله ثم أخبر عنه بقوله تعالى (للرحمن) اى العام الرحمة فى الدارين ومن عموم رحمته وحقيقة ملكه أن يسر قلوب أهل وده بتعذيب أهل عداوته الذين عادوهم فيه لتضييعهم الحق باتباع الباطل ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل أحد الجنة (فان قيل) مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة فى قوله تعالى يومئذ (أجيب) بان فى ذلك اليوم لا مالك له سواه لا فى الصورة ولا فى المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام (وكان) اى ذلك اليوم الذى تظهر فيه الملائكة الذى طلب الكفار رؤيتهم له (يوما على الكافرين عسيرا) اى شديد العسر والاستعار • (تنبيه) • هذا الخطاب يدل على انه لا يكون على المؤمنين عسيرا جاء فى الحديث انه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا وقوله تعالى (ويوم يعض الظالم) اى المشرك لفرط تأسفه لما يرى فيه من الاهوال معمول لمحذوف أو معطوف على يوم تشقق وأل فى الظالم تحتمل العهد والجنس لكن قال ابن عباس أراد بالظالم عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الاصنع طعاما ودعا اليه جيرانه وأشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ودعا الناس ودعا النبى صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال النبى صلى الله عليه وسلم ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله فقال عقبة أشهد أن لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله فاكل صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان عقبة صديقا لابى بن خلف فلما أتى ابى بن خلف قال له يا عقبة صبأت فقال لا والله ما صبأت ولكن دخل على رجل فابى ان يأكل طعامى الا ان أشهد له فاستحييت ان يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له فطعم والشهادة ليست فى نفسى فقال ما أنا بالذى أرضى منك أبدا الا ان تأتيه وتبصق فى وجهه وتطأ قفاه وتلطم وجهه وعينيه فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك عقبة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا أمر عليا رضى الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الانصارى وأما أبى بن خلف فقتله النبى صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد طعنه فى المبارزة فرجع الى مكة ومات قال الضحاك لما بصق عقبة فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم عاد بصاقه فى وجهه فاحترق خداه فكان أثر ذلك فيه حتى مات وقال الشعبى كان عقبة خليل أمية فاسلم عقبة فقال أمية وجهى من وجهك حرام ان بايعت محمدا فكفر وارتد فانزل الله تعالى ويوم يعض الظالم اى عقبة (على يديه) قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت ولا يزال هكذا كلما أكلها نبتت وقال المحققون هذه اللفظة للتحسر والغم يقال عض أنامله وعض على يديه وهو لا يشعر حال كونه مع هذا الفعل (يقول) اى يجدد فى كل لحظة قوله (يا ليتنى اتخذت) اى أرغمت نفسى وكلفتها ان آخذ فى الدنيا (مع الرسول) اى محمد صلى

• ان قلت كيف قال فى وصف الجنة ذلك مع انها لم تكن حينئذ جزاء ومصيرا

الله عليه وسلم (سبيلا) اى طريقا الى الهدى * ولما تأسف على مجانبة الرسول ندم على مصادقة غيره بقوله (يا ويلتى) اى يا هلاكى الذى ليس لى منادم غيره لانه ليس بحضرتى سواه (ليتنى لم اتخذ فلانا) اى أبيا (خليلا) اى صديقا أوافقه فى أعماله لما عاينت من سوء عاقبتها فكنى عن اسمه وان أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم عليه لا محالة فجعله كناية عنه وقرأ أبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وأظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص وادغمها الباقون ثم استأنف قوله الذى يتوقع كل سامع أن يقوله (لقد) اى والله لقد (أضلنى عن الذكر) اى عمى على طريق القرآن الذى لا ذكر فى الحقيقة غيره وصرفنى عنه والجملة فى موضع العلة لما قبلها (بعد اذ جاءنى) ولم يكن لى منه مانع يردنى عن الايمان به وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال والباقون بالادغام وقوله تعالى (وكان الشيطان) اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل الشيطان أو الى كل من كان سببا للضلال من عتاة الجن والانس (للانسان خذولا) اى شديد الخذلان يورده ثم يسلمه الى أكره ما يكون لا ينصره ولو أراد ما استطاع بل هو فى شر من ذلك لان عليه اثمه فى نفسه ومثل اثم من أضله

(تنبيه) حكم هذه الآية عام فى كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما أن يحذيك واما أن تبتاع منه واما أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك واما أن تجد ريحا خبيثة وقال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وقال صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقى * ولما ذكر تعالى أقوال الكفرة ذكر قول رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقال الرسول يا رب) اى أيها المحسن الى بانواع الاحسان وعبر باداة البعد هضما لنفسه ومبالغة فى التضرع (ان قومى) اى قريشا الذين لهم قوة ومنعة (اتخذوا هذا القرآن) اى المقتضى للاجماع عليه والمبادرة اليه (مهجورا) اى متروكا بعيدا لم يؤمنوا به ولم يتقبلوه وأعرضوا عن استماعه *(تنبيه)* أشار بصيغة الافتعال الى أنهم عالجوا أنفسهم فى تركه لما يرون من حسن نظمه ويذوقون من لذيذ معانيه ورائق أساليبه ولطيف عجائبه وبديع غرائبه وأكثر المفسرين على أن هذا القول وقع من النبى صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أنه يقوله فى الآخرة كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد الآية والاول أولى لان قوله تعالى (وكذلك) اى كما جعلنا لك عدوا من مشركى قومك (جعلنا لكل نبى) من الانبياء قبلك رفعة لدرجاتهم (عدوا من المجرمين) اى من المشركين تسلية له صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى يقول له فاصبر كما صبروا ولا يكون ذلك الا اذا وقع ذلك القول منه (وكفى بربك) اى المحسن اليك (هاديا) اى يهدى بك من قضى بسعادته (ونصيرا) اى ينصرك على من حكم بشقاوته

(تنبيه) احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه تعالى خلق الخير والشر لان قوله تعالى جعلنا لكل نبى عدوا يدل على أن تلك العداوة من جعل الله تعالى وتلك العداوة كفر (فان قيل) قوله تعالى يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا كقول نوح عليه السلام رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا فكان المقصود من هذا انزال العذاب فكذلك

(قلت) انما قال ذلك لان ما وعد الله به نهو فى تحققه كأنه قد كان أو انه كان فى

ماههنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله تعالى بالرحمة في قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين
(أجيب) بأن نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم وأما النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر
هذا لم يدع عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا كان ذلك كالامر
له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فافترقا الشبهة الخامسة لمنكري النبوة ما حكاه الله تعالى
عنهم بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) اى الذين غطوا اعداوة وحسدا ما تشهد عقولهم بصحته
من أن القرآن كلام الله تعالى لاعجازه لهم مفرقا فضلا عن كونه مجتمعا (لولا) اى هلا (نزل عليه
القرآن) اى نزل كثير بمعنى أخبر لئلا يناقض قولهم (جملة) وأكدوا بقولهم (واحدة)
اى من أوله الى آخره كما أنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود لتحقق
أنه من عند الله تعالى ويزول عنا ما نتوهمه من أنه الذي يرتبه قليلا قليلا وهذا الاعتراض
في غاية السقوط لان الاعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو منفرقا مع أن للتفريق فوائد منها ما أشار
اليه بقوله تعالى (كذلك) اى انزلناه شيأ فشيأ على هذا الوجه العظيم الذى أنكروه (لنثبت)
اى نقوى (به فؤادك) اى قلبك فنفهمه ونحفظه لان المتلقن انما يقوى قلبه على حفظ العلم
شيأ فشيأ وجزأ عقب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لتعيا بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم
فارقت حاله حال داود وموسى وعيسى عليهم السلام حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم
كانوا قارئين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فانزله الله عليه منجما في عشرين سنة
وقيل في ثلاث وعشرين سنة وأيضا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين
ولان بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتاتى ذلك الا فيما أنزل مفرقا (فان قيل) ذا في كذلك
يجب أن يكون اشارة الى شئ تقدمه والذى تقدم هو انزاله جملة فكيف فسر كذلك بانزلناه
مفرقا (أجيب) بان الاشارة الى الانزال المفرق الا الى جملة والدليل على فساد هذا الاعتراض
ايضا أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه وتحدوا بسورة واحدة من أصغر السور
فابرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا الى المحاربة ثم
قالوا هلا نزل جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته وقوله تعالى
(ورتلناه ترتيلا) معطوف على الفعل الذى تعلق به كذلك كأنه قال تعالى كذلك فرقناه
ورتلناه ترتيلا ومعنى ترتيله قال ابن عباس بيناه بيانا والترتيل التبيين في تؤدة وتثبت وقال
السدي فصلناه تفصيلا وقال مجاهد بعضه في اثر بعض وقال الحسن تفريقا آية بعد آية
وقصة عقب وقعة ويجوز أن يكون المعنى وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى ورتل
القرآن ترتيلا اى اقرأه بترتل وتثبت ومنه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها في صفة قراءته
لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها وقيل هو أن نزله مع كونه متفرقا على
تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهى عشرون سنة ولم نفرقه في مدة متقاربة ولما كان التقدير
قد بطل ما أتوا به من هذا الاعتراض عطف عليه (ولا يأتونك) اى يا أشرف الخلق اى
المشركون (بمثل) اى باعتراض في ابطال أمرك يخيلون به لعقول الضعفاء يجتهدون في
تحسينه وتحسينه وتدقيقه حتى يصير عندهم في غاية الحسن والرشاقة لفظا ومعنى (الا جئناك)
في جوابه (بالحق) اى الذى لا محيد عنه فيزهق ما أتوا به لبطلانه فسمى ما يوردون من الشبه

اللوح المحفوظ ان الجنة
جزأوهم وصيرهم (قوله

مثلا

مثلا وهي مايدفع به الشبهة (وأحسن) أي من مثلهم (تفسيرا) أي بيانا وتفصيلا ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقى اليك كنز أو تكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن جملة واحدة الا أعطيناك نحن من الاحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته * ثم بين تعالى حال هؤلاء المعاندين في الآخرة بقوله تعالى (الذين) أي هم الذين (يحشرون) أي يجمعون قهرا ماشين مقلوبين (على وجوههم) مسحوبين (الى جهنم) أي كأنهم لم ينظروا في الدنيا بعين الانصاف فان الآخرة مرآة الدنيا مهما عمل هنا رآه هنالك كما أن الدنيا مزرعة الآخرة مهما عمل فيها جنى ثمره هنالك روى البخاري ان رجلا قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة وروى البيهقي يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الوجوه وصنف على الاقدام * ولما وصف الله تعالى المتعنتين في أمر القرآن بهذا الوصف استأنف الاخبار عنهم بقوله تعالى (أولئك) أي البعداء البغضاء (شر) أي شر الخلق (مكانا) هو جهنم (وأضل سبيلا) أي اخطأ طريقا من غيرهم وهو كفرهم * ولما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وذكر ذلك في معرض التسلية له صلى الله عليه وسلم ذكر قصص جماعة من الانبياء وعرفه تكذيب أممهم زيادة في تسليته * القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد آتينا) أي بما لنا من العظمة (موسى الكتاب) أي التوراة (وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا) أي معينا (فان قيل) كونه وزيرا كالمنافي لكونه شريكا له في النبوة والرسالة (أجيب) بأنه لا منافاة بين النبوة والرسالة والوزارة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء متعددون ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا (تنبيه) * هرون بدل أو بيان أو منصوب على القطع ووزيرا مفعول ثان وقيل حال والمفعول الثاني معه ويدل على رسالة هرون عليه السلام قوله تعالى (فقلنا اذهبا الى القوم) أي الذين فيهم قوة وقدرة على ما يحاولونه وهم القبط فرعون وقومه (الذين كذبوا بآياتنا) فذهبا اليهم بالرسالة فكذبوهما (فدمرناهم تدميرا) أي أهلكناهم اهلاكا أي فأنت يا محمد لست أول من كذب من الرسل فلك أسوة بمن قبلك (فان قيل) الفاء للتعقيب والاهلاك لم يحصل عقب بعثة موسى وهرون اليهم بل بعده بمدة مديدة (أجيب) بأن فاء التعقيب محمولة هنا على الحكم بالاهلاك لا على الوقوع أو على أنه على ارادة اختصار القصة فاقتصر على حاشيتيها أي أولها وآخرها لانهما المقصودان من القصة بطولها أعني الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم * (تنبيه) * قوله تعالى كذبوا بآياتنا ان حملنا تكذيب الآيات على الآيات الالهية فهو ظاهر وان حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ وان كان للماضي فالمراد به المستقبل * القصة الثانية قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وقوم) أي ودمرنا قوم (نوح لما كذبوا الرسل) كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا أو كانت تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع بالقوة لان

أرأيت من اتخذ الهه هواه) * ان قال لم آخر

المعجزات هي البرهان على صدقهم وهي متساوية الاقدام في كونها خوارق لا يقدر على معارضتها فالتكذيب بشيء منها تكذيب للجميع أو لم يروا بعثة الرسل أصلا كالبراهمة وهم قوم يمنعون بعثة الرسل نسبوا الى رجل يقال له برهام قد مهد لهم ذلك وقرره في عقولهم ولانهم علوا تكذيبهم بانه من البشر لزمهم تكذيب كل رسول من البشر • ثم بين تعالى تدميرهم بقوله تعالى (أغرقناهم) قال الكلبي أمطرنا عليهم السماء أربعين يوما واخرج ماء الارض ايضا في تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا (وجعلناهم) اى قوم نوح في ذلك (للناس آية) اى لمن بعدهم عبرة ليعتبر كل من سلك طريقهم (وأعتدنا) اى هيأنا في الآخرة (للظالمين) اى للكافرين وكان الاصل لهم ولكنه تعالى اظهر تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (عذابا أليما) اى مؤلما سوى ما يحل بهم في الدنيا • القصة الثالثة قصة هود عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وعادا) اى ودمرنا عادا قوم هود بالريح • القصة الرابعة قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وثمودا) اى ودمرنا ثمودا قوم صالح بالصيحة • القصة الخامسة المذكورة في قوله تعالى (وأصحاب الرس) اى البئر التي هي غير مطوية اى مبنية قال ابن جرير والرس في كلام العرب كل محفور مثل البئر والقبر اى ودمرناهم بالخسف واختلف في نبيهم فقيل شعيب وقيل غيره كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم فهلكوا جميعا وقال الكلبي الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فاهلكهم الله تعالى وفلج بفتح الفاء واللام والجيم قرية عظيمة بناحية اليمن من مساكن عاد وبسكون اللام واد قريب من البصرة وقيل الرس الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل أصحاب حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ قيل هو بتاء فوقية فخاء معجمة أو مهملة وبياء تحتية وجيم وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فاصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فاهلكوا (وقرونا) اى ودمرنا قرونا (بين ذلك) اى الامر العظيم المذكور وهو بين كل أمتين من هذه الامم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك وبحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود ثم قال الله تعالى (كثيرا) وناهيك بما يقول فيه سبحانه وتعالى انه كثير وأسند البغوي في تفسير أمة وسطا في البقرة عن أبي سعيد الخدري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة العصر فما ترك شيئا الى يوم القيامة الا ذكره في مقامه ذلك حتى اذا كانت الشمس على رؤس النخل واطراف الحيطان قال انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقي من يومكم هذا الا وان هذه الامة توفي سبعين أمة هي آخرها وا كرمها على الله عز وجل ثم انه تعالى قال تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتاسية وبيانا لشريعته بالعفو عن أمته (وكلا) اى من هذه الامم (ضربنا) اى بينا له (الامثال) حتى وضح له السبيل وقام من غير شبهة الدليل (وكلا تبرنا تتبيرا) اى أهلكنا اهلاكا وقال الاخفش كسرنا تكسيرا وقال الزجاج كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته (ولقد أتوا) اى هؤلاء المكذبون من قومك (على القرية التي

هو امع انه المفعول الاول (قال) للعناية بتقديم الاول

أمطرت) أي وقع امطارها من لا يقدر على الامطار وهو الله تعالى امطرها بالحجارة ولذا قال تعالى (مطر السوء) مصدر ساءه وهي قرى قوم لوط قال البغوي كانت خمس قرى فاهلك الله تعالى أربعا منها باهلها الفاحشة ونجت واحدة منها وهي صغر وكان أهلها لا يعملون ذلك العمل الخبيث (فان قيل) لم عبر تعالى بالقرية وهي قرى (أجيب) بانه تعالى قال ذلك تحقيرا لشأنها في جنب قدرته تعالى واهانة لمن يريد عذابه ولانها كلهم على الفاحشة جميعهم حتى كانوا كأنهم شئ واحد وقوله تعالى (أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون) اي لا يخافون (نشورا) اي بعثا بعد الموت لانه استقر في أنفسهم اعتقادهم التكذيب بالآخرة واستمروا عليه قرنا بعد قرن حتى تمكن منهم ذلك تمكينا لا ينفع معه الاعتبار الا من شاء الله (واذا رأوك) اي مع مايعلمون من صدق حديثك وكرم أفعالك ولو لم تأتهم بمعجزة فكيف وقد أتيتهم بما بهر العقول (ان) اي ما (يتخذونك الا هزوا) اي مهزوا بك وعبر تعالى بالمصدر اشارة الى مبالغتهم في الاستهزاء مع شدة بعده صلى الله عليه وسلم عن ذلك يقولون (أهذا الذي بعث الله رسولا) اي في دعواه محتقرين له أن تأتيه الرسالة وقولهم (ان) مخففة من الثقيلة اي انه (كاد ليضلنا) اي يصرفنا (عن آلهتنا) اي عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء الى التوحيد وكثرة مايورد مما يسبق الى الذهن انها حجج ومعجزات (لولا أن صبرنا) اي بما لنا من الاجتماع والتعاضد (عليها) اي على التمسك بعبادتها قال الله تعالى (وسوف يعلمون) اي في حال لا ينفعهم فيه العمل ولا العلم وان طالت مدة الامهال في التمكين (حين يرون العذاب) عيانا في الآخرة (من أضل سبيلا) اي أخطأ طريقا أهم أم المؤمنون * ولما كان صلى الله عليه وسلم حريصا على رجوعهم ولزوم ما ينفعهم واجتناب مايضرهم سلاه تعالى بقوله تعالى متعجبا من حالهم (أرأيت) اي أخبرني (من اتخذ الهه هواه) اي أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا ينظر دليلا (فان قيل) لم أخر هواه والاصل قولك اتخذ الهوى الها (أجيب) بانه ماهو الا تقديم المفعول الثاني على الاول للعناية كما تقول علمت منطلقا زيدا لفضل عنايتك بالمنطلق * ولما كان لا يقدر على صرف الهوى الا الله تعالى تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله تعالى (أفأنت تكون عليه وكيلا) اي حافظا تحفظه من اتباع هواه لا قدرة لك على ذلك (أم تحسب أن أكثرهم) اي هؤلاء المدعوين (يسمعون) اي سماع من ينزجر ولو كان غير عاقل كالبهائم (أو يعقلون) اي كالبهائم مايرون وان لم يكن لهم سمع حتى تطمع في رجوعهم باختيارهم من غير قسر (فان قيل) انه تعالى لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث اليهم الرسول فان من شرط التكليف العقل (أجيب) بانه ليس المراد أنهم لا يعقلون شيأ بل المراد انهم لم ينتفعوا بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما أنت أعمى وأصم (فان قيل) لم خص الاكثر بذلك دون الكل (أجيب) بانه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق فكابر استكبارا وخوفا على الرياسة * ولما كان هذا الاستفهام مفيدا للنفي استأنف ما أفهمه بقوله تعالى (ان) اي ما (هم الا كالانعام) اي في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات (بل هم أضل) اي منها (سبيلا) لانها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن اليها ممن يسيء اليها وتطلب ماينفعها

قوله وبخت نصر الخ كذا في بالنسخ التي بايدينا والصواب ونجت واحدة منها كما يدل عليه كلام الجلال اه مصحح

(قوله كقولك علمت فاضلا زيدا) انما بادة ميتا ذكر الصفة مع ان الموصوف مؤنث نظرا

ويجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو اعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى * ولما بين تعالى جهل المعرضين عن دلائل التوحيد وبين فساد طريقهم ذكر أنواعا من الدلائل على وجود الصانع أولها الاستدلال بالنظر الى حال الظل مخاطبا رأس المخلصين الناظرين هذا النظر حثا لاهل وده على مثل ذلك بقوله تعالى (ألم تر) اى تنظر (الى ربك) اى الى صنعه وقدرته (كيف مد الظل) وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس يجعله ممدودا لانه ظل لا شمس معه كما قال تعالى فى ظل الجنة وظل ممدود اذ لم يكن معه شمس وان كان بينهما فرق وهو الليل لان ظل الارض الممدود على قريب من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس عما قابل قرصها من الارض حتى امتد بساطه وضرب فسطاطه كما حجب ظل ضلالهم أنوار عقولهم وغطى طباعهم نفوذ اسماعهم (ولو شاء لجعله) اى الظل (ساكنا) اى دائما ثابتا لا يزول ولا تذهبه الشمس لاصقا باصل كل مظل من جبل وبناء وشجر غير منبسط فلم ينتفع به أحد سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا لكنه تعالى لم يشأ بل جعله متحركا بايسوق الشمس له وقال أبو عبيدة الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفىء ما نسخ الشمس وهو بعد الزوال سمى فيأ لانه فاء من جانب المشرق الى جانب المغرب (ثم جعلنا الشمس عليه) اى الظل (دليلا) اى ان الناس يستدلون بالشمس وأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتا فى مكان أو زائلا ومتسعا أو متقلصا فلولم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والاشياء تعرف باضدادها (ثم قبضناه) اى الظل (الينا) اى الى الجهة التى أردنا لا يقدر أحد غيرنا أن يحوله الى جهة غيرها والقبض جمع المنبسط من الشئ ومعناه ان الظل يعم جميع الارض قبل طلوع الشمس فاذا طلعت قبض الله الظل (قبضا يسيرا) اى على مهل وفى هذا القبض اليسير شيأ بعد شئ من المنافع ما لا يعد ولا يحصى ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا وقيل المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهى الاجرام التى تلقى الظلال وقوله تعالى يسيرا كقوله تعالى حشر علينا يسير (فان قيل) ثم فى هذين الموضعين كيف موقعها (أجيب) بان موقعها بيان تفاضل الامور الثلاثة كان الثانى أعظم من الاول والثالث أعظم منهما تشبيها لتباعد ما بينهما فى الفضل بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت * ولما تضمنت هذه الآية الليل والنهار وهو النوع الثانى قال تعالى مصرحا بهما (وهو) اى ربك المحسن اليك وحده (الذى جعل) دليلا على الحق واظهارا للنعمة على الخلق (لكم الليل) اى الذى تكامل بمد الظل (لباسا) اى ساترا للاشياء شبه ظلامه باللباس فى ستره (والنوم سباتا) اى راحة للابدان بقطع المشاغل هو عبارة عن كونه موتا أصغر طاويا لما كان من الاحساس قاطعا لما كان من الشعور والتقلب فيه دلائل لاهل البصائر قال البغوى وغيره وأصل السبت القطع وفى جعله تعالى ذلك من الفوائد الدينية والدنيوية ما لا يعد ولا يحصى وكذا فى قوله تعالى (وجعل) اى وحده (النهار نشورا) اى

منشورا

الى معنى البلدة وهو المكان لا الى لفظها والمعرفيه لا الى لفظ وتقدم فى تخفيف الاقط

منشورا فيه لابتغاء الرزق وغيره وفى ذلك اشارة الى أن النوم واليقظة أنموذجان للموت والنشور ويحكى ان لقمان قال لابنه يابنى كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر * ثم ذكر النوع الثالث بقوله تعالى (وهو) اى وحده (الذى أرسل الرياح) وقرأه ابن كثير بالافراد لارادة الجنس وقرأه الباقون بالجمع لكونها تارة صبا وتارة دبورا وتارة شمالا وتارة جنوبا وغير ذلك ويسن الدعاء عند هبوب الريح ويكره سبها لخبر الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه أبو داود وغيره باسناد حسن وقوله تعالى (نشرا) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم النون والشين اى ناشرات للسحاب وقرأه ابن عامر بضم النون وسكون الشين على التخفيف وقرأه عاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين جمع بشور بمعنى مبشر وقرأه حمزة والكسائى بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر وصف به (بين يدى رحمته) اى قدام المطر ولما كان الماء مسببا عما تحمله الريح من السحاب أتبعه به بقوله تعالى (وأنزلنا) اى بما لنا من العظمة (من السماء) اى من السحاب أو الجرم المعهود (ماء) ثم أبدل منه بيانا للنعمة به فقال تعالى (طهورا) اى طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره كما قال تعالى فى آية أخرى ليطهركم به فهو اسم لما يتطهر به كالوضوء لما يتوضأ به وكالسحور اسم لما يتسحر به والفطور اسم لما يفطر به قال صلى الله عليه وسلم فى البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته أراد به المطهر فالماء المطهر لانه يطهر الانسان من الحدث والخبث وذهب بعض الائمة الى أن الطهور هو الطاهر حتى جوز ازالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل ورد بانه لو جاز ازالة النجاسة بها لجاز ازالة الحدث بها وذهب بعضهم الى أن الطهور ما يتكرر به التطهير كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر حتى جوز الوضوء بالماء الذى يتوضأ به مرة بعد مرة ورد بان فعولا يأتى اسما للآلة كسحور لما يتسحر به كما مر فيجوز أن يكون طهور كذلك ولو سلم اقتضاؤه التكرر فالمراد جمعا بين الادلة ثبوت ذلك لجنس الماء أو فى المحل الذى كان يمر عليه فانه يطهر كل جزء منه فان الصحابة رضى الله عنهم لم يجمعوا الماء فى أسفارهم القليلة الماء بل عدلوا عنه الى التيمم (لنحيى به) اى بالماء (بلدة ميتا) اى بالنبات وذكر ميتا باعتبار المكان (ونسقيه) اى بالماء وهو من أسقاه مزيد سقاه وهما لغتان قال ابن القطاع سقيتك شرابا وأسقيتك والله تعالى أسقى عباده وأرضه (مما خلقنا أنعاما) أى ابلا وبقرا وغنما (وأناسى كثيرا) جمع انسان وأصله أناسين فابدلت النون ياء وأدغمت فيها الياء أو جمع انسى وقدم تعالى النبات لان به حياة الانعام والانعام على الانسان لان بها كمال حياته (فان قيل) لم خص الانعام من بين ما خلق من الحيوان (أجيب) بان الطير والوحش تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام ولانها قنية الاناسى وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقى أنعامهم كالانعام بسقيهم (فان قيل) لم نكر الانعام والاناسى ووصفها بالكثرة (أجيب) بان جل الناس منيخون بالقرب من الاودية والانهار ومنابع الماء فبهم غنية عن سقى السماء وأعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشون الا بما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله تعالى لنحيى به

الآية احياء الارض وسقى الانعام على سقى الاناسى لان حياة الاناسى بحياة

بالمدة مبتاير يدبه بعض بلادهؤلاء المتبعدين عن مظان المياه واختلف فى عود الهاء فى قوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم) على ثلاثة أوجه أولها قال الجمهور انها ترجع الى المطر أى صرفنا نزول الماء من وابل وطل وغير ذلك مرة بيلد ومرة ببلدة أخرى قال ابن عباس ما عام بامطر من عام آخر ولكن الله تعالى يصرفه فى الارض وقرأ هذه الآية وهذا كما روى مرفوعا ما من ساعة من ليل أو نهار الا والسماء تمطر فيها فيصرفه الله تعالى حيث يشاء وروى عن ابن مسعود يرفعه قال ليس من سنة بامطر من أخرى ولكن الله تعالى قسم هذه الارزاق فجعلها فى السماء الدنيا فى هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم واذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافى والبحار وروى أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره فى كل عام لانه لا يختلف ولكن يختلف فيه البلاد ثانيها قال أبو مسلم الضمير راجع الى المطر والسحاب والظلال وسائر ما ذكره الله من الادلة ثالثها صرفنا هذا القول بين الناس فى القرآن وفى سائر الكتب والصحف التى أنزلت على الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو ذكر انشاء السحاب وانزال المطر (ليذكروا) اى ليتفكروا ويعلموا كمال القدرة وحق النعمة ويقوموا بشكره *(تنبيه)* أصل يذكروا يتذكروا أدغمت التاء فى الذال وقرأ حمزة والكسائى بسكون الذال ورفع الكاف مخففة والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين (فأبى) اى لم يرد (أكثر الناس) اى بعبادتهم (الا كفورا) اى جحودا للنعمة وقلة الاكتراث بها او كفرانها وهو أنهم اذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وهو بفتح النون وهمزة آخره وقت النجم الفلانى على عادة العرب فى اضافة المطر الى الانواء فيكره أن يقول ذلك لايهامه ان النوء فاعل المطر حقيقة فان اعتقد أنه الفاعل له حقيقة كفر روى زيد بن خالد الجهنى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية فى أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادى من هو مؤمن بى وكافر بى فاما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب وأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب وأفاد تعليق الحكم بالباء أنه لو قال مطرنا فى نوء كذا لم يكره ونقل الشافعى عن بعض الصحابة أنه كان يقول عند المطر مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها (ولو شئنا لبعثنا) اى بمالنا من العظمة ونفوذ الكلمة (فى كل قرية نذيرا) أى رسولا ينذرهم من البشر أو الملائكة أو غيرهم كما قسمنا المطر عليها وانما قصرنا الامر عليك وعظمناك به وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) فيما قصدوا من التنفير عن الدعاء بما يبدونه من المقترحات أو يظهرون لك من المداهنة أو من القلق من صادع الانذار ويخيلون لك انك لو أقللت منه رجوا أن يوافقوك وقابل ذلك بالتشدد والتصبر (وجاهدهم) أى بالدعاء (به) أى القرآن الذى تقدم التحدث عنه فى قوله تعالى ولقد صرفناه أو بترك طاعتهم المدلول عليه بقوله تعالى فلا تطع أو بالسيف والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان (جهادا كبيرا) أى جامعا لكل المجاهدات الظاهرة والباطنة

أرضهم وأسماءهم فقدم
ماهو سبب حياتهم ومعاشهم
ولان سقى الارض بماء

لان

لان فى ذلك اقبال كثير من الناس اليك واجتماعهم عليك فيقوى أمرك ويعظم خطبك
وتضعف شوكتهم وتنكسر سورتهم فان مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الاعداء
بالسيف * ثم ذكر النوع الرابع بقوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين) أى الماءين الواسعين
الكبيرين بان خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته تعالى يفصل بينهما ويمنعهما
التمازج (هذا عذب) أى حلو سائغ (فرات) أى شديد العذوبة بالغ الغاية فيها حتى يضرب
الى الحلاوة ولا فرق بين ما كان منه على وجه الارض وما كان فى بطنها (وهذا ملح) اى شديد
الملوحة (أجاج) اى مر محرق بملوحته ومرارته لا يصلح لسقى ولا شرب * (تنبيه) * أشار تعالى
باداة القرب فى الموضعين تنبيها على وجود الوصفين مع شدة المقاربة لا يلتبس أحدهما بالآخر
حتى انه اذا حفر على شاطئ البحر الملح بالقرب جدا منه خرج الماء عذبا (وجعل) اى الله تعالى
(بينهما برزخا) اى حاجزا من قدرته مانعا من اختلاطهما ثم انه تعالى أتم تقرير النعمة فى
منعهما من الاختلاط بالكلمة التى جرت عادتهم بقولها عند التعوذ تشبيها لكل منهما
بالمتعوذ بقوله تعالى (وحجرا محجورا) فكان كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه
ويقول له ذلك كما قال تعالى لا يبغيان اى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالملوحة أو العذوبة
فانتفاء البغى كالتعوذ ههنا ثم جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ
منه وهو من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة (فان قيل) لا وجود للبحر العذب
فكيف ذكره الله تعالى هنا (أجيب) بان المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون ومن
البحر الاجاج البحار الكبار * ثم ذكر النوع الخامس بقوله تعالى (وهو) اى وحده (الذى
خلق من الماء) اى المنى من الرجل والمرأة (بشرا) اى انسانا (فجعله) اى بعد ذلك بالتطوير فى
اطوار الخلقة والتدوير فى أدوار التربية (نسبا) اى ذكرا ينسب اليه (وصهرا) أى انثى
يصاهر بها فقسم هذا الماء بعد التطوير الى ذكر وأنثى كما جعل ذلك الماء قسمين عذبا وملحا
ونحوه هذا قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وقيل النسب ما لا يحل نكاحه
والصهر ما يحل نكاحه فالنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها قال البغوى وقيل
وهو الصحيح النسب من القرابة والصهر الخلطة التى تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح
وقد ذكر الله تعالى أنه حرم بالنسب سبعا فى قوله تعالى فى النساء حرمت عليكم أمهاتكم
(وكان ربك) أى المحسن اليك بارسالك وانزال هذا الذكر اليك (قديرا) حيث خلق من مادة
واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطبائع متباعدة وجعله قسمين ذكرا وأنثى وربما يخلق من
نطفة واحدة توأمين ذكرا وأنثى فهو يوفق من يشاء فيجعله عذب المذاق سهل الاخلاق
ويخذل من يشاء فيجعله مر الاخلاق كثير الشقاق غريقا فى النفاق * ولما ذكر تعالى
دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فقال تعالى (ويعبدون) أى هؤلاء الكفرة (من دون
الله) أى مما يعلمون أنه فى الرتبة دون الله المستجمع لصفات الكمال والعظمة بحيث انه لا ضر
ولا نفع الا وهو بيده (ما لا ينفعهم) بوجه من الوجوه ان عبدوه فى ازالة كربة (ولا يضرهم)
فى ازالة نعمة من نعم الله تعالى عليهم ان تركوه (وكان الكافر) أى مع علمه بضعفه وعجزه (على
ربه) أى المحسن اليه لا غيره (ظهيرا) اى معينا للشيطان من الانس والجن على أولياء الله

الطرسابق فى الوجود على
(قوله ما لا
ينفعهم ولا يضرهم) قدم
النفع فى الآية سابق على الضر فى الوجود

تعالى روى أنها نزلت فى أبى جهل ويجوز أن يراد بالظهير الجماعة كقوله تعالى والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا يكون المراد بالكافر الجنس فان بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور دين الله قال تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى وهذا أولى لان خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ ولانه أوفق لظاهر قوله تعالى ويعبدون من دون الله وقيل معناه وكان الذى يفعل هذا الفعل وهو عبادة مالا ينفع ولا يضر على ربه هينا مهينا من قولهم ظهرت به اذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت اليه وهو نحو قوله تعالى أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم * ولما كان التقدير تسلية له صلى الله عليه وسلم فالزم ما نأمرك به ولا يحزنك بردهم عما هم فيه فانا ما أرسلناك عليهم وكيلا عطف عليه قوله تعالى (وما أرسلناك) بأشرف الخلق بما لنا من العظمة (الا مبشرا) بالثواب على الايمان والطاعة (ونذيرا) اى مخوفا بالعقاب على الكفر والمعصية * ثم كأنه قيل فماذا أقول لهم اذا طعنوا فى الرسالة فقال تعالى (قل) اى لهم يا أكرم الخلق حقيقة وأعدلهم طريقة محتجا عليهم بازالة ما يكون موضعا للتهمة (ما أسئلكم عليه) اى على تبليغ ما أرسلت به (من أجر) فتتهمونى أنى أدعوكم لاجله اذ لا غرض لى الا نفعكم ثم أكد هذا المعنى بقوله تعالى مستثنيا الان الاستثناء معيار العموم (الا من) اى الا أجر من (شاء أن يتخذ) اى يكلف نفسه ويخالف هواه ويجعل له (الى ربه سبيلا) فانه اذا اهتدى بهدايته به كان لى مثل أجره لانفع لى من جهتكم الا هذا فان سميتم هذا أجرا فهو مطلوبى ولا مرية فى أنه لا ينقص أحدا شيئا من دنياه فأفاد فائدتين الاولى أنه لا طمع له أصلا فى شئ ينقصهم والثانية اظهار الشفقة البالغة حيث لم يقصد بنفعتهم الموصلة لهم الى ربهم ثوابا لنفسه وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من يشاء أن يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل وجرى على هذا الجلال المحلى وقال ابن عادل فى الاول نظر لانه لم يسند السؤال المنفى فى الظاهر الى الله تعالى انما أسنده الى المخاطبين فكيف يصح هذا التقدير انتهى وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الثانية ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيق الهمزتين * ولما بين تعالى أن الكفار يتظاهرون على ايذائه وأمره ان لا يطلب منهم أجرا أمره أن يتوكل عليه فى دفع جميع المضار وجلب جميع المنافع بقوله تعالى (وتوكل) أى أظهر العجز والضعف واستسلم واعتمد فى أمرك كله ولا سيما فى مواجهتهم بالانذار وفى ردهم من عنادهم (على الحى الذى لا يموت) فلا ضياع لمن توكل عليه فانه الحقيق بان يتوكل عليه دون الاحياء الذين يموتون فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم وعن بعض السلف انه قرأها فقال لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق (وسبح) متلبسا (بحمده) أى نزهه عن كل نقص مثبتا له كل كمال وقيل صل له شكرا على نعمه وقيل قل سبحان الله والحمد لله وحده وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى (وكفى به بذنوب عباده) أى ما ظهر منها وما بطن وكل ما سواه عبد (خبيرا) أى عالما مطلقا فلا يخفى عليه خافية شئ منها وان دق فلا عليك ان آمنوا أو كفروا وهذه الكلمة يراد بها المبالغة يقال كفى بالعلم كمالا وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك اى لا تحتاج معه الى غيره لانه تعالى خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وهذا وعيد شديد ولما أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله

النفع على الضر موافقة
لقوله قبل هذا عذب فرات
وهذا ملح اجاج (قوله قل

(لا أسألكم عليه) أي على
ابلاغ ما أنزل على من أجر
الا من شاء أن يتخذ الى ربه

عليه وسلم أن يتوكل عليه وصف تعالى نفسه بأمور منها أنه حي لا يموت ومنها أنه عالم بجميع المعلومات ومنها أنه قادر على كل الممكنات وهو قوله تعالى (الذي خلق السموات والارض) على عظمهما (وما بينهما) من الفضاء والعناصر والعباد وأعمالهم من الذنوب وغيرها ألا يعلم من خلق وقوله تعالى (في ستة أيام) أي من أيام الدنيا تعجيب للغبي الجاهل وتدريب للفطن العالم في الحلم والاناة والصبر على عباد الله تعالى في دعوتهم (فان قيل) الايام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال تعالى في ستة أيام (أجيب) بانه تعالى خلقها في مدة مقدارها هذه الايام (فان قيل) يلزم على هذا قدم الزمان وهو ممنوع (أجيب) بان الله تعالى خلق هذه المدة أولا ثم خلق السموات والارض فيها بمقدار ستة أيام فلا يلزم من ذلك قدم الزمان وقيل في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة وهو بعيد لان التعريف لابد وأن يكون بامر معلوم لا بامر مجهول (فان قيل) لم قدر الخلق والايجاد بهذا المقدار (أجيب) بانه يجب على المكلف أن يقطع الطمع عن مثل هذا فانه بحر لا ساحل له من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بثمانية والشهور باثني عشر والسموات بالسبع وعدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات والحدود والكفارات فالاقرار بان كل ما قاله الله حق هو الدين والواجب ترك البحث عن هذه الاشياء وقد نص الله تعالى على ذلك في قوله عز وجل وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا جواب أيضا عن أنه لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انما خلقها في ستة أيام وهو قادر أن يخلقها في لحظة واحدة تعليما لخلقه الرفق والتثبت وقيل اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين وعن مجاهد أول الايام يوم الاحد وآخرها يوم الجمعة * ولما كان تدبير هذا الملك أمرا باهرا أشار اليه باداة التراخي بقوله تعالى (ثم استوى على العرش) أي شرع في التدبير لهذا الملك الذي اخترعه وأوجده ولا يجوز أن يفسر بالاستقرار لانه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث ويقتضي التركيب وكل ذلك على الله محال (فان قيل) يلزم من ذلك أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وقد قال تعالى وكان عرشه على الماء (أجيب) بان كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات وهو في اللغة سرير الملك وفي رفع قوله تعالى (الرحمن) أوجه أحدها أنه خبر الذي خلق أو خبر مبتدا مضمر أي هو الرحمن ولهذا أجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش ثم يبتدئ الرحمن أي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم الا له أو يكون بدلا من الضمير في استوى وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي واختلف في معنى الباء في قوله تعالى (فاسئل به) على قولين أحدهما أنها على بابها وهي متعلقة بالسؤال والمراد بقوله (خبيرا) أي عالما يخبرك بحقيقته هو الله تعالى ويكون من التجريد كقوله رأيت به أسدا والمعنى فاسأل الله الخبير بالاشياء قال الزمخشري أو فاسأل بسؤاله خبيرا كقولك رأيت به أسدا أي برؤيته انتهى قال الكلبي فقوله به يعود الى ما ذكر من خلق

السموات والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله تعالى لانه لادليل فى العقل على كيفية خلق السموات والارض والاستواء على العرش ولا يعلمها أحد الا الله تعالى والثانى أن تكون الباء بمعنى عن امامطلقا واما مع السؤال خاصة كهذه الآية وكقول علقمة بن عبدة

فان تسألونى بالنساء فاننى ٭ خبير بأدواء النساء طبيب

والضمير فى به لله وخبيرا من صفات الملك وهو جبريل عليه السلام فعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل وانما قدم لرؤس الآى وحسن النظم وقال ابن جرير الباء فى به صلة والمعنى فاسأله خبيرا وخبيرا نصب على الحال وقيل به يجرى مجرى القسم كقوله تعالى واتقوا الله الذى تساءلون به وقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى تعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون مانعرف الرحمن الا الذى باليمامة يعنون مسيلمة الكذاب وكان يقال له رحمن اليمامة وقيل فاسأل بسبب سؤالك اياه خبيرا عن هذه الامور وكل أمر تريده فيخبرك بحقيقة أمره ابتداء ومآلا ومآلا فلا يضيق صدرك بسبب هؤلاء المدعوين فانه ما أرسلك الا وهو عالم بهم فسيعلى كعبك عليهم ويحسن لك العاقبة وقرأ ابن كثير والكسائى بالنقل وكذا يقرأ حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وفتح الهمزة ولما ذكرته لى احسانه اليهم وانعامه عليهم ذكر ما أبدوه من كفرهم فى موضع شكرهم بقوله (واذا قيل لهم) أى من أى قائل قال هؤلاء الذين يتقلبون فى نعمه (اسجدوا) أى اخضعوا بالصلاة وغيرها (للرحمن) أى الذى لانعمة لكم الامنه (قالوا وما الرحمن) متجاهلين فى معرفته فضلا عن كفر نعمته معبرين باداة مالايعقل وقال ابن عربى انما عبروا بذلك اشارة الى جهلهم بالصفة دون الموصوف ثم عجبوا من أمره بذلك منكرين عليه بقولهم (أنسجد لما تأمرنا) فعبروا عنه بعد التجاهل فى أمره والانكار على الداعى اليه أيضا باداة مالايعقل (وزادهم) أى هذا الامر الواضح المقتضى للاقبال والسكون شكر النعمة وطمعا فى الزيادة (نفورا) أى عن الايمان والسجود ٭(تنبيه) ٭ هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة يسن للقارئ والمستمع والسامع أن يسجد عند قراءتها أو سماعها وقرأ واذا قيل لهم هشام والكسائى بالاشمام وضم القاف مع سكون الياء والباقون بكسر القاف وقرأ لما يأمرنا حمزة والكسائى بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية وأبدل ورش والسوسى الهمزة وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا ٭ ولما حكى تعالى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود وذكر مالو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن قال عز من قائل (تبارك) أى ثبت ثباتا لانظير له (الذى جعل فى السماء) التى تقدم أنه اخترعها واختلف فى معنى قوله (بروجا) فقال الزجاج ومجاهد وقتادة هى النجوم الكبار سميت بروجا لظهورها وقال عطية العوفى هى القصور فيها الحرس كما قال تعالى ولو كنتم فى بروج مشيدة وقال عطاء عن ابن عباس هى الاثنا عشر التى هى منازل الكواكب السبعة السيارة وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت فالحمل والعقرب بيتا المريخ والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد والسرطان بيت القمر والاسد

اى الى ثوابه سبيلا اى فاما
اده على ذلك فهو استثناء
منقطع وأما الاستثناء فى قوله
لا أسئلكم عليه أجرا الا

بيت

بيت الشمس والقوس والحوت بيتا المشترى والجدى والدلو بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على الطبائع الاربعة فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات فالحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية (وجعل فيها) أى السماء وقيل البروج (سراجا) أى شمسا وقرأ حمزة والكسائى بضم السين والراء على الجمع للتنبيه على عظمته فى ذلك من حيث انه أعظم من ألوف من السرج فهو قائم مقام الوصف كما فى الذى بعده كما سيأتى وقيل المراد بالجمع الشمس والكواكب الكبار والباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على التوحيد (وقمرا منيرا) أى مضيئا بالليل ولما ذكر تعالى هاتين الآيتين ذكر ما هما آيتاه بقوله تعالى (وهو الذى جعل الليل) أى الذى آيته القمر (والنهار) أى الذى آيته الشمس (خلفة) أى ذوى حالة معروفة فى الاختلاف فيأتى هذا خلف ذاك بضد ماله من الاوصاف وقال ابن عباس والحسن يعنى خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر قال شقيق جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال فاتتنى الصلاة الليلة قال أدرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك فان الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة (لمن أراد أن يذكر) اى يتذكر آلاء الله ويتفكر فى صنعه فيعلم أنه لابد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد وقرأ حمزة بسكون الذال وضم الكاف مخففة من ذكر بمعنى تذكر والباقون بفتح الكاف والذال مشددتين (أو أراد شكورا) اى شكر نعمة ربه عليه من الاتيان بكل منهما بعد الآخر لاجتناء ثمراتهما ولو جعل أحدهما دائما لفاتت مصالح الآخر ولحصلت السآمة والملل منه والتوانى فى الامور المقدرة بالاوقات وفتر العزم الذى انما يثيره لتداركها دخول وقت آخر وغير ذلك من الامور التى أحكمها العلى الكبير وعن الحسن من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له فى الليل مستعتب ومن فاته بالليل كان له فى النهار مستعتب ولما ذكر الله تعالى عباده الذى خذلهم بتسليط الشيطان عليهم فصاروا حزبا ولم يضفهم الى اسم من اسمائه ايذانا باهانتهم لهوانهم عنده أشار الى عباده الذين أخلصهم لنفسه بقوله تعالى (وعباد الرحمن) فأضافهم اليه رفعة لهم وان كان الخلق كلهم عباده وأضافهم الى وصف الرحمة الابلغ الذى أنكره أولئك تبشيرا لهم ثم وصفهم بضد ما وصف به المتكبرين عن السجود اشارة الى أنهم تخلقوا من هذه الصفة التى أضيفوا اليها بصفات كثيرة الصفة الاولى قوله تعالى (الذين يمشون) وقال تعالى (على الارض) تذكيرا بما يصيرون اليه وحثا على السعى فى معالى الاخلاق (هونا) أى هينين أو مشيا هينا مصدر وصف به مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون والمثل اذا عز أخوك فهن والمعنى اذا عاسر فياسر والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ووقار لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ولذلك كره بعض العلماء الركوب فى الاسواق لقوله تعالى ويمشون فى الاسواق

(تنبيه) عباد مرفوع بالابتداء وفى خبره وجهان أحدهما الجملة الاخيرة فى آخر السورة أولئك يجزون وبه بدأ الزمخشرى والذين يمشون وما بعده صفات للمبتدأ والثانى أن الخبر

المودة فى القربى منسوخ بقوله تعالى قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله على ما روى عن

الذين يمشون * الصفة الثانية (وإذا خاطبهم الجاهلون) أي بما يكرهون (قالوا سلاما) أي تسلما منكم لا نجاهلكم ومتاركة لا خير بيننا ولا شر اي فنتسلم منكم تسلما فأقيم السلام مقام التسلم وقيل قالوا سدادا من القول اي يسلمون فيه من الاثم والايذاء وليس المراد التحية لان المؤمنين لم يؤمروا بالسلام على المشركين وعن أبي العالية نسختها آية القتال ولا حاجة الى ادعاء النسخ بآية القتال ولا غيرها لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الادب والمروأة والشرع بعينه وأسلم للعرض والورع وأطلق الخطاب اعلاما بأن أكثر خصال الجاهل وهو الذي يخالف العلم والحكمة الجهل وهو السفه وقلة الادب من قوله

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

* ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه وهي الصفة الثالثة بقوله تعالى (والذين يبيتون) من البيتوتة قال الزجاج كل من أدركه الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا والمعنى يبيتون (لربهم) اي المحسن اليهم (سجدا) على وجوههم في الصلاة وقدمه لانه أنهى الخضوع وأخر عنه قوله تعالى (وقياما) اي على اقدامهم وان كان تطويل القيام أفضل للروي وتخصيص البيتوتة لان العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء قال الزمخشري والظاهر أنه وصف لهم باحياء الليل أو أكثره وقيل من قرأ شيأ من القرآن في صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقال ابن عباس من صلى بعد العشاء ركعتين فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وعن عثمان ابن عفان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى عشاء الآخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلى الصبح في جماعة كان كقيام ليلة * ولما ذكر تعالى تهذيبهم للخلق والخالق وصفهم الله تعالى أنهم مع ذلك خائفون وجلون وهي الصفة الرابعة بقوله تعالى (والذين يقولون ربنا) اي المحسن الينا (اصرف عنا عذاب جهنم) قال ابن عباس يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول ثم علل سؤالهم بقوله تعالى (ان عذابها كان) اي كونا جبلت عليه (غراما) اي هلاكا وخسرانا ملحا لازما لا ينفك عنه كما قال

ان يعاقب يكن غراما وان يعـ * ـط جزيلا فانه لا يبالي

ومنه الغريم لملازمته والحاحه فهم يبتهلون الى الله تعالى في صرف العذاب عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استقرار أحوالهم * ولما ثبت لهم هذا الوصف أنتج قوله تعالى (انها ساءت) اي تناهت هي في كل ما يحصل منه سوء وهي في معنى بئست في جميع المذام (مستقرا) اي موضع استقرار (ومقاما) اي موضع اقامة * (تنبيه) * ساءت في حكم بئست كما مر ففيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها ويجوز أن تكون ساءت بمعنى أحزنت ففيها ضمير اسم ان ومستقرا حال أو تمييز والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين أو مترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم * ولما ذكر تعالى أعمالهم وأقوالهم اتبع ذلك بذكر انفاقهم وهو الصفة الخامسة بقوله تعالى (والذين اذا أنفقوا) اي الخلق أو الخالق في واجب أو مستحب أو مباح (لم يسرفوا) اي لم يجاوزوا الحد في النفقة بالتبذير

ابن عباس رضي الله عنهما
أو هو استثناء منقطع كما
عليه المحققون تقديره
لكن اذكركم المودة

فيضيعوا

فيضيعوا الاموال في غير حقها (ولم يقتروا) اى لم يضيقوا فيضيعوا الحقوق (وكان) اى انفاقهم (بين ذلك) اى الاسراف والاقتار (قواما) اى وسطا * (تنبيه) * اسم كان ضمير يعود على الانفاق المفهوم من قوله تعالى انفقوا وخبرها قواما وبين ذلك معمول له وقيل غير ذلك وذكر المفسرون في الاسراف والتقتير وجوها أحدها قال الرازى وهو الاقوى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقتير وبمثله أمر صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط اذ يقال ما عال من اقتصد وسأل رجل بعض العلماء ما البناء الذى لا سرف فيه قال ما سترك من الشمس وأكنك من المطر قال فما الطعام الذى لا سرف فيه قال ما سد الجوعة قال فما اللباس الذى لا سرف فيه قال ما ستر عورتك وأدفأك من البرد ثانيها وهو قول ابن عباس الاسراف النفقة في معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى وقال مجاهد لو أنفق أحد مثل جبل أبى قبيس ذهبا في طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو أنفق صاعا في معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفقوا في معاصى الله ولم يمسكوا عما ينبغى وأنشدوا

ذهاب المال في حمد وخير * ذهاب لا يقال له ذهاب

وسمع رجل رجلا يقول لا خير في الاسراف فقال لا اسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن اليه فقال وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء بكلام كثير حسن فقال ابن لعبد الملك انما هو كلام أعده لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر فسأله عن نفقته وأحواله فقال النفقة بين الشيئين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه يا بنى هذا أيضا مما أعده * وثالثها السرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا وان كان من حلال لانه يؤدى الى الخيلاء وكسر قلوب الفقراء فكانت الصحابة لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويقيهم من الحر والبرد وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه كفى سرفا أن لا يشتهى الرجل شيأ الا اشتراه فأكله وقرأ نافع وابن عامر يقتروا بضم التحتية وكسر الفوقية من اقتر وابن كثير وأبو عمرو بفتح التحتية وكسر الفوقية والكوفيون بفتح التحتية وضم الفوقية * ولما ذكر تعالى ما تحلوا به من أصول الطاعات أتبعه بذكر ما تخلوا عنه من أمهات المعاصى التى هى الفحشاء والمنكر وهو الصفة السادسة بقوله تعالى (والذين لا يدعون) اى رحمة لانفسهم واستعمالا للعدل (مع الله) اى الذى اختص بصفات الكمال (الها آخر) اى دعاء جليا بالعبادة ولا خفيا بالرياء ولما نفى عنهم ما يوجب قتل أنفسهم بخسارتهم اياها أتبعه نفى قتل غيرهم بقوله سبحانه (ولا يقتلون النفس) رحمة للخلق وطاعة للخالق ولما كان من الانفس ما لا حرمة له بين المراد بقوله تعالى (التى حرم الله) اى منع من قتلها (الا بالحق) اى بان تعمل ما يبيح قتلها ولما ذكر القتل الجلى أتبعه الخفى بتضييع نسب الولد بقوله تعالى (ولا يزنون) اى رحمة للمزنى بها ولا قاربها ان تنتهك حرماتهم مع رحمته لنفسه على ان الزنا أيضا جار الى القتل والفتن وفيه التسبب الى ايجاد نفس بالباطل كما أن القتل سبب الى

في القربى (قوله واجعلنا للمتقين اماما) لم يقل ائمة رعاية للفواصل أو تقديره واجعل كل واحد منا اماما

اعدامها بذلك وقد روى في الصحيح عن عبد الله بن مسعود انه سأل النبي صلى الله عليه وسلم
اى الذنب أعظم وفي رواية أى أكبر عند الله قال أن تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم أى قال ان
تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال ثم اى قال ان تزاني حليلة جارك فانزل الله تصديق ذلك
والذين لايدعون مع الله الها آخر الآية (وقد استشكل) تصديق هذه الآية للخبر من حيث
ان الذي فيه قتل خاص وزنا خاص والتقييد بكونه أكبر والذي فيها مطلق القتل والزنا من
غير تعرض لعظم (وأجيب) بدفع الاشكال بانها انطقت بتعظيم ذلك من سبعة أوجه الاول
الاعتراض بين المبتدا الذي هو وعباد الرحمن وما عطف عليه والخبر الذي هو أولئك يجزون
الغرفة على احدى الروايتين بذكر هذه الثلاثة خاصة وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال
على الاعظام الثاني الاشارة باداة البعد في قوله تعالى (ومن يفعل ذلك) اى هذا الفعل العظيم
القبيح مع قرب المذكورات فدل على ان البعد من رتبتها فهو اشارة الى جميع ما تقدم لانه
بمعنى ما ذكر فلذلك وحده وأدغم لام يفعل في الذال أبو الحرث والباقون بالاظهار الثالث
التعبير بالقى مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى في قوله (يلق أثاما) دون يأثم ويلق اثما
اى جزاء اثمه الرابع التقييد بالمضاعفة في قوله تعالى مستأنفا (يضاعف) بالسهل أمر (له
العذاب) جزاء ما أتبع نفسه هواها الخامس التهويل بقوله تعالى (يوم القيامة) الذي هو
أهول من غيره بالايقاس السادس الاخبار بالخلود الذي أقل درجاته أن يكون مكثا طويلا
بقوله تعالى (ويخلد فيه) وقرأ يضاعف ويخلد ابن عامر وشعبة برفع الفاء والدال والباقون
بجزمهما وأسقط الالف من يضاعف مع تشديد العين ابن كثير وابن عامر فالجزم على أنهما
بدلان من يلق بدل اشتمال والرفع على الاستئناف السابع التصريح بقوله تعالى (مهانا)
فاما أعظم الامر من هذه الاوجه علم أن كلا من هذه الذنوب كبير واذا كان الاعم كبيرا كان
الاخص المذكور أعظم من مطلق الاعم لانه زاد عليه بما صار به خاصا فثبت بهذا أنها كانت
وان قتل الولد والزنا بحليلة الجار أكبر مما ذكر فوجد تصديق الآية للخبر وقرأ حفص مع ابن
كثير بصلة الهاء بالياء من فيه قبل مهانا (فان قيل) ذكر أن من صفات عباد الرحمن صفات
حسنة كيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا
فلو كان الترتيب بالعكس كان أولى (أجيب) بان الموصوف بتلك الصفات السابقة قد يكون
متمسكا بالشرك تدينا وبقتل الموؤدة تدينا وبالزنا تدينا فبين تعالى أن المرء لا يصير بتلك
الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب تلك الكبائر وأجاب الحسن بان المقصود من ذلك
التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال تعالى وعباد الرحمن الذين لايدعون
مع الله الها آخر وأنتم تدعون ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وأنتم تزنون ولما
اتم تعالى تهديد الفجار على هذه الاوزار اتبعه ترغيب الابرار الى العزيز الغفار بقوله تعالى
(الا من تاب) اى رجع عن كل شئ كان فيه من هذه النقائص (وآمن) اى أوجد الاساس
الذي لا يثبت عمل بدونه وهو الايمان وأكد رجوعه بقوله تعالى (وعمل عملا صالحا) اى
مؤسسا على اساس الايمان (فان قيل) العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فذكرهما
قبل العمل الصالح يستغنى عنه (أجيب) بانهما أفردا بالذكر لعلو شأنهما (تنبيه) اختلف

(قوله ويلقون فيها تحية وسلاما) جمع بين التحية والسلام مع انهما بمعنى لقوله تعالى تحيتهم يوم

فى هذا الاستثناء على وجهين أحدهما أنه استثناء متصل وهو مادل عليه كلام الجمهور لانه من الجنس والثانى أنه منقطع ورجحه أبو حيان معللا بان المستثنى منه محكوم عليه بانه يضاعف له العذاب فيصير التقدير الامن تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف بخلافه فى المنقطع فان التقدير لكن من تاب الى آخره فلا يلقى عذابا البتة ووجه كلام الجمهور بان ماذكر ليس بلازم اذ المقصود الاخبار بان من فعل كذا فانه يحل به ماذكر الا أن يتوب وأما اصابة أصل العذاب وعدمه فلا تعرض فى الآية له ثم زاد تعالى فى الترغيب بالاتيان بالفاء ربطا للجزاء بالشرط دليلا على انه سببه فقال تعالى (فاولئك) اى العالو المنزلة (يبدل الله) اى الذى له العظمة والكبرياء (سيآتهم حسنات) قال ابن عباس ومجاهد هذا التبديل فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا احصانا وعفة فكانه تعالى يبشرهم بتوفيقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب وقال الزجاج ان السيئة بعينها لا تصير حسنة فالتأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب مع التوبة حسنة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيآت وقال سعيد بن المسيب ومكحول ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا هو ظاهر الآية ويدل له ماروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لأعلم آخر رجل يخرج من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال له اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فيعرض عليه صغارها فيقال له عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم فلا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له ان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يارب قد عملت أشياء لا أراها هنا قال أبو هريرة فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه (وكان الله) اى الذى له الجلال والاكرام على الاطلاق أزلا وأبدا (غفورا) اى ستورا الذنوب لكل من تاب بهذا الشرط (رحيما) به بان يعامله بالاكرام كما يعامل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة روى البخارى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أهل الشرك ولما نزل صدرها قال أهل مكة قد عدلنا بالله وقتلنا النفس التى حرم الله وأتينا الفواحش فانزل الله الامن تاب الى رحيما وروى البخارى فى التفسير ان ناسا من أهل الشرك كانوا قتلوا فاكثروا وزنوا فاكثروا فاتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذى تقول وتدعو اليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت هذه الآية ونزل قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله (ومن تاب) اى عن ذنوبه غير ماذكر (وعمل) تصديقا لادعائه التوبة (صالحا) ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفا ورغب سبحانه فى ذلك بقوله تعالى معللا أنه يصل الى الله (فانه يتوب) اى يرجع واصلا (الى الله) اى الذى له صفات الكمال فهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (متابا) اى مرجعا مرضيا عند الله بان يرغبه تعالى فى الاعمال الصالحة فلا يزال كل يوم فى زيادة نيته وعمله فيخف عليه ما كان ثقيلا ويتيسر عليه ما كان عسيرا ويسهل عليه ما كان صعبا كما مر فى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ولا يزال

يلقونه سلام ونظيره تحية أهل الجنة فى الجنة السلام لان المراد هنا بالتحية سلام بعضهم على بعض أو سلام.

كذلك حتى يحبه فيكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله الذى يمشى بها ان يوفقه للخيرة فلا يسمع الا ما يرضيه وهكذا * ولما وصف سبحانه وتعالى عباده بانهم تحلوا باصول الفضائل وتخلوا عن أمهات الرذائل ورغب فى التوبة لان الانسان لعجزه لا ينفك عن النقص مدحهم بصفة أخرى وهى الصفة المذكورة فى قوله تعالى (والذين لا يشهدون) اى لا يحضرون (الزور) اى القول المنحرف عن الصدق كذبا كان أو مقاربا له فضلا عن أن يتفوهوا به للخبر فلا يسمعوا أو يقروا عليه فى مواعظ عيسى ابن مريم عليه السلام اياكم ومجالسة الخاطئين ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللهو والغناء وعن مجاهد أعياد المشركين ثم عطف عليه بما هو أعم منه بقوله تعالى (واذا مروا باللغو) اى الذى ينبغى أن يطرح من الكلام القبيح وغيره (مروا كراما) اى آمرين بالمعروف ناهين عن المنكرات تعلق بهم أمر أو نهى اشارة أو عبارة على حسب ما يرونه نافعا فان لم يتعلق بهم ذلك كانوا معرضين عنه مكرمين أنفسهم من الوقوف عليه والخوض فيه لقوله تعالى واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به وعن الحسن لم تسفههم المعاصى وقيل اذا سمعوا من الكفار الاذى أعرضوا عنه * ثم ذكر الصفة الثامنة بقوله تعالى (والذين اذا ذكروا) اى ذكرهم غيرهم كائنا من كان لانهم يعرفون الحق بنفسه لا بقائله (بآيات ربهم) اى الذى وفقهم لتذكر احسانه اليهم فى حسن تربيته لهم بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة (لم يخروا) اى لم يسقطوا (عليها صما) اى غير واعين لها (وعميانا) اى غير متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر كابى جهل والاخنس بن شريق بل خروا سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية فالمراد من النفى نفى الحال وهى صما وعميانا دون الفعل وهو الخرور فالمراد نفى القيد دون المقيد كما تقول لا يلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء * الصفة التاسعة المذكورة فى قوله تعالى (والذين يقولون) اى علما منهم بعد اتصافهم بجميع ما مضى انهم اهل للامامة (ربنا هب لنا من أزواجنا) اللاتى قرنتهن بنا كما فعلت بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم فمدحت أزواجه فى كلامك القديم وجعلت مدحهن يتلى على تعاقب الازمان والسنين (وذرياتنا قرة أعين) لنا بان نراهم مطيعين لك ولا شئ أسر للمؤمن من أن يرى حبيبه يطيع الله تعالى وعن محمد بن كعب ليس شئ أقر لعين المؤمن من ان يرى زوجته وأولاده يطيعون الله وعن ابن عباس هو الولد اذا رآه يكتب الفقه وخصوا الازواج والذرية بذلك لان الاقربين أولى بالمعروف * (تنبيه) * من فى قوله تعالى من أزواجنا يحتمل ان تكون بيانية كأنه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وذرياتنا ومعناه ان اجعلهم لهم قرة أعين وهو من قولهم رأيت منك اسدا اى أنت اسد وان تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة واصلاح وأتوا بجمع القلة فى أعين لان المتقين الذين يفعلون الطاعة ويسرون بها قليلون فى جنب العاصين وقيل سألوا ان يلحق الله بهم أزواجهم وذرياتهم فى الجنة ليتم لهم سرورهم ووحد

القرة

الملائكة عليهم والسلام سلام الله عليهم لقوله تعالى سلام قولا من رب رحيم أو المراد بالتحية اكرام الله

القرة لانه مصدر وأصلها من البرد لان العرب تتأذى من الحر وتتروح الى البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن ويقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار وقال الازهرى معنى قرة الاعين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه عن النظر الى غيره وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بالف بعد الياء على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (واجعلنا للمتقين اماما) اى أئمة يقتدون بنا فى أمر الدين باضافة العلم والتوفيق للعمل فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أو أرادوا واجعل كل واحد منا أو أرادوا جمع آم كصائم وصيام أو أرادوا اجعلنا اماما واحدا لاتحادنا واتفاق كلمتنا وعن بعضهم فى الآية مايدل على ان الرياسة فى الدين يحسن أن تطلب ويرغب فيها وقال الحسن نقتدى بالمتقين ويقتدى المتقون بنا وقيل هذا من المقلوب اى واجعل المتقين لنا اماما واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم وهو قول مجاهد وقيل نزلت هذه الآية فى العشرة المبشرين بالجنة * ولما بين تعالى صفات المتقين المخلصين بين بعد ما احسانه اليهم بقوله تعالى (أولئك) اى العالو الرتبة العظيمة العظيمو المنزلة (يجزون) اى فضلا من الله تعالى على ما وفقهم له من هذه الاعمال الزاكية والاحوال الصافية (الغرفة) اى الغرفات وهى العلالى فى الجنة فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقيل هى من أسماء الجنة * ولما كانت القرب فى غاية التعب لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع البدن رغب فيها بان جعلها سببا لهذا الجزاء بقوله تعالى (بما صبروا) اى أوقعوا الصبر على أمر ربهم ومرارة غربتهم بين الجاهلين فى أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم وغير ذلك من معانى خلالهم * ولما كان المنزل لا يطيب الا بالكرامة والسلامة قال تعالى (ويلقون فيها) اى الغرفة (تحية) اى دعاء بالحياة من بعضهم لبعض ومن الملائكة الذين لا يرد دعاؤهم ولا يمترى فى اخبارهم لانهم عن الله تعالى ينطقون وذلك على وجه الاعظام والاكرام مكان ما اهانهم عباد الشيطان وقيل ملكا وقيل بقاء دائما (وسلاما) اى من الله والملائكة وغيرهم وسلامة من كل آفة مكان ما أصابوهم بالمصائب * اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا من أهل رحمتك وارزقنا ما رزقتهم فى دار رضوانك يا أرحم الراحمين وقرأ حمزة والكسائى وشعبة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من لقى كما قال تعالى فسوف يلقون غيا والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف اى يجعلهم الله تعالى لاقين بايسر أمر كما قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا (خالدين فيها) اى الغرفة لا يموتون ولا يخرجون مكان ما أزعجوهم من ديارهم حتى هاجروا ودل على علو أمرها وعظيم قدرها بابرازمدحها فى مظهر التعجب بقوله تعالى (حسنت) اى ما أحسنها (مستقرا) اى موضع استقرار (ومقاما) اى موضع اقامة وهذا مقابل ساءت مستقرا فى الاعراب * ولما شرح سبحانه وتعالى صفات المتقين وأثنى عليهم من أجلها وشرح ثوابهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) اى لكفار مكة (ما يعبأ) اى ما يصنع (بكم) أيها الكافرون من عبأت الجيش اولا يعتد بكم (ربى) اى المحسن الى والمكرم برحمانيته المخصص لى بالاحسان برحيميته وانما خص بالاضافة لاعترافه دونهم (لولا دعاؤكم) اى عبادتكم وما متضمنة لمعنى الاستفهام

لهم بالهدايا والتحف وبالسلام سلامه عليهم بالقول ولو سلم انهما بمعنى فساغ الجمع بينهما الا انه لاختلافهما لفظا كما مر نظيره

وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل وأي عبء يعبأ بكم لولا عبادتكم
وطاعتكم إياه كما قال تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (فقد كذبتم) بما أخبرتكم
به حيث خالفتموه وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وقال قوم ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم ربي
لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال تعالى ما يفعل الله بعذابكم إن
شكرتم وآمنتم لولا دعاؤكم أي تضرعكم في الشدائد كما قال تعالى فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله
مخلصين له الدين وقوله تعالى فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ويجوز أن تكون
ما نافية وجرى على ذلك الجلال المحلي (فسوف) أي فتسبب عن تكذيبكم أن يجازيكم على
ذلك ولكنه مع قدرته واختياره وقته لا يعاجلكم بل (يكون) جزاء هذا التكذيب عند
انقضاء ما ضرب لكم من الآجال (لزاما) أي لازما يحيق بكم لا محالة فاعتقدوا وتهيؤوا لذلك
اليوم فكل آت قريب وكل بعيد عندكم قريب عنده وعن مجاهد هو القتل يوم بدر وأنه لوزم
بين القتلى لزاما قتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون وعن ابن مسعود خمس قد مضين الدخان
والقمر والروم والبطشة واللزام وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن من قرأ سورة

الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب

فيها وأدخل الجنة بغير حساب حديث

موضوع والله

أعلم

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث أوله سورة الشعراء)

الجزء الثالث من السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير للشيخ الامام الخطيب الشربيني قدس الله روحه وعم بالرحمة ضريحه

آمين

م

وبهامشه فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لشيخ الاسلام ومحقق الانام الحبر الفاضل والبحر الوافر الكامل الامام أبي يحيى زكريا الانصاري تغمده الله تعالى برحمته وأفاض علينا من سيب فضله الجاري

فهرسة الجزء الثالث من تفسير العلامة الخطيب الشربيني

(تمت)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء مكية الا قوله والشعراء الى اخرها فمدنى

وهى مائتان وست وعشرون آية وألف ومائتان وسبع وتسعون كلمة وخمسة آلاف وخمسمائة واثنان وأربعون حرفا روى البغوى عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه السلام (بسم الله) الذى دل على كلامه على عظمة شأنه وعز مرامه (الرحمن) الذى لا يعجل على من عصاه (الرحيم) الذى يحيى قلوب أهل وده بالتوفيق لما يرضاه (طسم) قال ابن عباس عجزت العلماء عن علم تفسيرها وفى رواية عنه أنه قسم وهو من أسماء الله تعالى وقال قتادة اسم من أسماء القرآن وقال مجاهد اسم السورة وقال محمد بن كعب القرظى أقسم بطوله وسناه وملكه ولهذا الاختلاف قال الجلال المحلى الله أعلم بمراده بذلك وقد قدمنا الكلام على أوائل السور فى أول سورة البقرة وقرأ حمزة والكسائى وشعبة بامالة الطاء والباقون بالفتح وأظهر حمزة النون من سين عن الميم وأدغمها الباقون وهى فى مصحف عبد الله بن مسعود ط س م مقطوعة من بعضها (تلك) اى هذه الآيات العالية المرام الحائزة أعلى مراتب التمام المؤلفة من هذه الحروف التى تتناطقون بها وكلمات ألسنتكم (آيات الكتاب) اى القرآن الجامع لكل فرقان (المبين) أى الظاهر اعجازه المظهر الحق من الباطل • ولما كان عنده صلى الله عليه وسلم من مزيد الشفقة وعظيم الرحمة على قومه قال تعالى تسلية له (لعلك باخع) أى هالك (نفسك) غما وأسفا من أجل (ألا يكونوا) اى قومك (مؤمنين) اى راسخين فى الايمان اى لا تبالغ فى الحزن والاسف فان هذا الكتاب فى غاية البيان فى نفسه والابانة للغير وقد تقدم فى غير موضع انه ليس عليك

•(سورة الشعرا)•

(قوله ان فى ذلك لآية الخ) كرره فى ثمانية مواضع ٣ أولها فى قصة موسى ثم ابراهيم ثم نوح ثم هود ثم صالح ثم لوط ثم شعيب

٣ قوله أولها فى قصة موسى صوابه أولها فى محمد صلى الله عليه وسلم ثم موسى ويسقط ما فى آخر العبارة كانه لم من الكرمانى وهو الموافق للواقع اه

الا البلاغ ولو شئنا لهديناهم طوعا أو كرها والبخع أن يبلغ بالذبح البخاع بالخاء وبالباء وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذابح ولعل للاشفاق أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من ايمان قومك فصبره وعزاه وعرفه أن حزنه وغمه لا ينفع كما أن وجود الكتاب ووضوحه لا ينفع ثم انه تعالى أعلمه بان كل ما هم فيه انما هو بارادته بقوله تعالى (ان نشأ ننزل عليهم) وعبر بالمضارع فيهما اعلاما بدوام القدرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون الثانية واخفائها عند الزاى وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى ثم قال تعالى محققا للمراد (من السماء) اى التى جعلنا فيها ابراجا للمنافع وأشار الى تمام القدرة بتوحيدها بقوله تعالى (آية) أى قاهرة كما فعلنا ببعض من قبلهم بنتق الجبل ونحوه *(تنبيه)* هنا همزتان مختلفتان أبدل نافع وابن كثير وأبو عمرو والهمزة الثانية المفتوحة بعد المكسورة ياء خالصة وحققها الباقون ثم أشار تعالى الى تحقق هذه الآية بالتعبير بالماضى فى قوله تعالى عطفا على ننزل لانه فى معنى أنزلنا (فظلت) اى عقب الانزال من غير مهلة (أعناقهم) اى التى هى موضع الصلابة وعنها تنشأ حركات الكبر والاعراض (لها خاضعين) اى منقادين *(تنبيه)* خاضعين خبر عن اعناقهم واستشكل جمعه جمع سلامة لانه مختص بالعقلاء وأجيب عنه باوجه أحدها ان المراد بالاعناق رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالاعناق كما يقال لهم الرؤس والنواصى والصدور قال القائل

* فى محفل من رؤس الناس مشهود *

ثانيها انه على حذف مضاف أى فظل أصحاب الاعناق ثم حذف وبقى الخبر على ما كان عليه قبل حذف المخبر عنه مراعاة للمحذوف ثالثها أنه لما أضيف الى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم كما يكتسب التأنيث بالاضافة لمؤنث فى قوله

* كما شرقت صدر القناة من الدم *

رابعها قال الزمخشرى أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فاقحمت الاعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله كقولهم ذهبت أهل اليمامة كان الاهل غير مذكور ونوزع فى التنظير لان أهل ليس مقحما البتة لانه المقصود بالحكم خامسها أنها عوملت معاملة العقلاء كقوله تعالى ساجدين وطائعين فى يوسف والسجدة وقيل انما قال تعالى خاضعين لموافقة رؤس الآى لتكون على نسق واحد (وما يأتيهم) أى الكفار (من ذكر) اى موعظة أو طائفة من القرآن يذكرون به فيكون سبب ذكرهم وشرفهم (من الرحمن) اى الذى أنكروه مع احاطة نعمه بهم (محدث) اى بالنسبة الى تنزيله وعلمهم به وأشار تعالى الى دوام كبرهم بقوله تعالى (الا كانوا عنه معرضين) اى اعراضا هو صفة لهم لازمة * ولما كان حال المعرض عن الشئ حال المكذب به قال تعالى (فقد) اى فتسبب عن هذا الفعل منهم أنه قد (كذبوا) أى بالذكر بعد اعراضهم وأمعنوا فى تكذيبه بحيث أدى بهم الى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمنا فى قوله تعالى (فسيأتيهم) اى اذا مسهم عذاب الله تعالى يوم بدر ويوم القيامة (أنباء) اى عظيم أخبار وعواقب (ما) اى العذاب الذى (كانوا به يستهزؤن) اى يهزؤن من أنه كان حقا أو باطلا وكان حقيقا بان يصدق ويعظم أمره أو يكذب فيستخف أمره ثم قال تعالى معجبا منهم (أولم يروا الى الارض) اى على سعتها واختلاف نواحيها ونبه على كثرة ما صنع من جميع الاصناف بقوله تعالى (كم أنبتنا) اى بما لنا من العظمة (فيها) بعد أن كانت يابسة ميتة لا نبات فيها (من كل زوج) اى صنف متشاكل بعضه لبعض فلم يبق صنف

قوله من رؤس الناس فى الكشاف من نواصى الناس اه

ثم فى ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وان لم يذكر صريحا (قوله فقولا انا رسول رب العالمين) * ان قلت كيف افرد رسول مع انه خبر متعدد والقياس

يليق بهم في العاجلة الا أكثرنا من الانبات منه (كريم) اى كثير المنافع محمود العواقب وهو صفة لكل ما يحمد و يرضى وهو ضد اللئيم وههنا يحتمل معنيين أحدهما النبات على نوعين نافع وضار فذكر كثرة ما أنبت فى الارض من جميع أصناف النبات النافع وخلى ذكر الضار والثانى أن يعم جميع النبات نافعه وضاره و يصفهما جميعا بالكرم و ينبه على أنه تعالى ما أنبت شيأ الا فيه فائدة لان الحكيم لا يفعل فعلا الا لحكمة بالغة وان غفل عنها الغافلون ولم يتصل الى معرفتها العاقلون ❁ ولما كان ذلك باهرا للعقل منبها له فى كل حال على عظيم اقتدار صانعه وبديع اختياره وصل به قوله تعالى (ان فى ذلك) اى الامر العظيم (لآية) اى دلالة على كمال قدرته تعالى (فان قيل) حين ذكر الازواج دل عليها بكلمتى الكثرة والاحاطة وكان لا يحصيها الا عالم الغيب فكيف قال ان فى ذلك لآية وهلا قال لآيات (أجيب) بوجهين أحدهما أن يكون ذلك مشارا به الى مصدر أنبتنا فكأنه قال ان فى ذلك الانبات لآية ثانيهما أن يراد ان فى كل واحد من تلك الازواج لآية (و) الحال انه (ما كان أكثرهم) اى البشر (مؤمنين) فى علم الله تعالى وقضائه فلذلك لا ينفعهم مثل هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان زائدة (وان) اى والحال ان (ربك) اى الذى أحسن اليك بالارسال وحضرك قلوب الاصفياء وزوى عنك الاداء الاشقياء (لهو العزيز) اى ذو العزة ينتقم من الكافرين (الرحيم) يرحم المؤمنين ❁ ولما كان مع ما ذكر فى ذكر القصص تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم فيما يقاسيه من الاذى والتكذيب وكان موسى عليه السلام قد اختص بالكتاب الذى ما بعد القرآن مثله والآيات التى ما أتى بمثلها أحد قبله بدأ بذكره فقال تعالى (واذ) اى واذكر اذ (نادى ربك) اى المحسن اليك بكل ما يمكن الاحسان به فى هذه الدار ثم ذكر المنادى بقوله تعالى (موسى) اى حين رأى الشجرة والنار واختلف أهل السنة فى النداء الذى سمعه موسى عليه السلام أهو الكلام القديم أو صوت من الاصوات قال أبو الحسن الاشعرى رضى الله تعالى عنه هو الكلام القديم فكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الذوات مع أن الدليل دال على انها معلومة ومرئية فى الآخرة من غير كيف ولا جهة فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحرف والصوت مع أنه مسموع وقال الماتريدى هو من جنس الحروف والاصوات وأما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك النداء كان بحروف وأصوات علم به موسى من قبل الله تعالى فصار معجزا علم به موسى أن الله تعالى مخاطب له فلم يحتج مع ذلك لواسطة ثم ذكر تعالى ما له النداء بقوله تعالى (ان) اى بان (ائت القوم) اى الذين فيهم قوة وأى قوة (الظالمين) رسولا ووصفهم بالظلم لكفرهم واستعبادهم بنى اسرائيل وذبح أولادهم وقوله تعالى (قوم فرعون) اى معه بدل أو عطف بيان للقوم الظالمين وقوله تعالى (ألا يتقون) استئناف أتبعه ارساله اليهم للانذار تعجيبا من افراطهم فى الظلم واجترائهم عليه ❁ ولما كان من المعلوم أن من أتى الناس بما يخالف أهواءهم لم يقبل (قال رب) اى أيها الرفيق بى (انى أخاف أن يكذبون) اى فلا يترتب على اتيانى اليهم أثر فاجعل لى قبولا ومهابة تحرسنى بها عمن يريدنى بسوء وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (ويضيق صدرى) من تكذيبهم لى (ولا ينطلق لسانى) باداء الرسالة للعقدة التى فيه بواسطة تلك الجمرة التى لذعته فى الطفولية (فأرسل) أى

(قلت) رسولا كما فى طه الرسول بمعنى الرسالة وهى مصدر وتطلق على المتعدد وغيره أو تقديره ان كل واحد منا رسول رب العالمين أو أفرده نظرا الى موسى

فتسلب
١٠٤

فتسبب عن ذلك الذى اعتذرت به عن المبادرة الى الذهاب عند الامر طلب الارسال (الى هرون) أخى ليكون لى عضدا على ما أمضى له من الرسالة فيحتمل أن تكون تلك العقدة باقية عند الرسالة وأن تكون قد زالت عند الدعوة ولكن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع الذين اوتوا سلاطة الالسنة و بسطة المقال وهرون كان بتلك الصفة فاراد أن يقرن به و يدل عليه قوله تعالى وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ومعنى فارسل الى هرون أرسل اليه جبريل واجعله نبيا وأزرنى به واشدد به عضدى وهذا الكلام مختصر وقد بسطه فى غير هذا الموضع وقد أحسن فى الاختصار حيث قال فارسل الى هرون فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء ومثله فى تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا حيث اقتصر على ذكر طرفى القصة أولها وآخرها وهما الانذار والتدمير ودل بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها وهو انهم قوم كذبوا بآيات الله فاراد الله الزام الحجة عليهم فبعث اليهم رسولين فكذبوهما فاهلكهم (فان قيل) كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره ربه بأمر فلا يقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل وقد علم أن الله تعالى عليم بحاله (أجيب) بانه قد امتثل وتقبل ولكنه التمس من ربه أن يعضده باخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه ثم التمس بعد ذلك وتمهيد العذر فى التماس المعين على تنفيذ الامر ليس بتوقف فى امتثال الامر ولا بتعلل فيه وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل ثم زاد فى الاعتذار فى طلب العون خوفا من أن يقتل قبل تبليغ الرسالة بقوله (ولهم على ذنب) اى تبعة ذنب فحذف المضاف أو سمى باسمه كما يسمى جزاء السيئة سيئة وهو قتله القبطى وسماه ذنبا على زعمهم وهذا اختصار قصته المبسوطة فى مواضع (فاخاف) بسبب ذلك (أن يقتلون) اى يقتلونى به (قال) الله تعالى (كلا) اى ارتدع عن هذا الكلام فانه لا يكون شئ مما خفت لا قتل ولا غيره وكأنه لما كان التكذيب مع ما قام عليه من الصدق من البراهين المقوية اصاحبها الشارحة لصدره المعلية لامره متعدما وقد أجبناك الى الاعانة بأخيك (فاذهبا) اى أنت وأخوك متعاضدين الى ما أمرتك به مؤيدين (بآياتنا) الدالة على صدقكما *(تنبيه)* فاذهبا عطف على مادل عليه حرف الردع من الفعل كأنه قيل ارتدع عما تظن فاذهب أنت وأخوك بآياتنا (انا) اى بما لنا من العظمة (معكم مستمعون) اى سامعون لانه تعالى لا يوصف بالمستمع على الحقيقة لان الاستماع جار مجرى الاصغاء والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية ومنه قوله تعالى قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ويقال استمع الى حديثه وسمع حديثه أصغى اليه وأدركه بحاسة السمع ومنه قوله عليه الصلاة والسلام من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه البرم وهو الكحل المذاب ويروى البيرم وهو بزيادة الياء (فان قيل) لم قال معكم بلفظ الجمع وهما اثنان (أجيب) بانه تعالى أجراهما مجرى الجمع تعظيما لهما أو معكما ومع بنى اسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون (فأتيا) اى فتسبب عن ذهاب ما ذكرت بالحراسة والحفظة الى أقول لكما ائتيا (فرعون) نفسه وان عظمت مملكته وجلت جنوده (فقولا) اى ساعة وصولكما له وان هنتده (انا رسول

لانه الاصل وهرون تبع له (قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين) فان قلت كيف قال موسى وأنا من الضالين والنبى لا يكون ضالا (قلت) أراد وأنا من الجاهلين أو من الناسين

رب العالمين) اى المحسن الى جميع الخلق المدبر لهم مصالحهم (فان قيل) هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله تعالى انا رسولا ربك (أجيب) بان الرسول يكون بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وأما ههنا فهو اما لانه مصدر بمعنى الرسالة والمصدر يوحد ومن مجيء رسول بمعنى الرسالة قوله

لقد كذب الواشون مافهت عندهم * بسر ولا أرسلتهم برسول

اى برسالة والواشون الساعون بالكذب عند ظالم (١) ومافهت بمعنى ماتكلمت واما لانهم ماذوا شريعة واحدة فنزلا منزلة رسول واما لانه من وضع الواحد موضع التثنية لتلازمهما فصارا كالشيئين المتلازمين كالعينين واليدين وقال أبو عبيدة يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع تقول العرب هذا رسولى ووكيلى وهذان رسولى ووكيلى وهؤلاء رسولى ووكيلى كما قال تعالى وهم لكم عدو ثم ذكر له ماقصد من الرسالة اليه فقال معبرا باداة التفسير لان الرسول فيه معنى الرسالة التى تتضمن القول (أن) اى بان (أرسل) اى خل وأطلق وأعاد الضمير على معنى رسول فقال (معنا بنى اسرائيل) اى قومنا الذين استعبدتهم ظلما ولا سبيل لك عليهم نذهب بهم الى الارض المقدسة التى وعدنا الله تعالى بها على ألسنة الانبياء من ابائنا عليهم الصلاة والسلام وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة وثلاثين الفا وروى أن موسى رجع مصر وعليه جبة صوف وفى يده عصاه ومكتل معلق فى رأس العصا فيه زاده فدخل دار نفسه وأخبر هرون بان الله تعالى أرسلنى الى فرعون وأرسل اليك حتى ندعو فرعون الى الله تعالى فخرجت أمهما وصاحت وقالت ان فرعون يطلبك ليقتلك فلو ذهبتما اليه قتلكما فلم يمتنع بقولها وذهبا الى باب فرعون ليلا ودقا الباب ففزع البوابون وقالوا من بالباب وروى أن البواب اطلع عليهما وقال من بالباب ومن أنتما فقال موسى انا رسول رب العالمين فذهب البواب الى فرعون وقال ان مجنونا بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون ائذن له لعلنا نضحك منه وقيل لم يؤذن لهما الى سنة فدخلا عليه وأديا رسالة الله عز وجل فعرف فرعون موسى لانه نشأ فى بيته فلما عرفه (قال) لمنكرا عليه (ألم نربك) حذف فأتيا فرعون فقالا له ذلك لانه معلوم لا يشتبه وهذا النوع من الاختصار كثير فى القرآن (فينا) اى فى منازلنا (وليدا) اى صغيرا قريبا من الولادة بعد فطامه (ولبثت فينا) اى فى عزنا باعتبار انقطاعك الينا وتعززك بنا (من عمرك سنين) ثلاثين سنة فما أتاك علمك من الحق ينبغى أن يمنعك من مواجهتنا بمثل هذا وكانه عبر بما يفهم النكد كناية عن مدة مقامه عنده بانها كانت نكدة لانه وقع فيما كان يخافه وفاته ما كان يحتاط به من ذبح الاطفال وكان موسى يلبس من ملابس فرعون ويركب من مراكبه وكان يسمى ابنه وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء والباقون بالادغام ولما ذكر ما يحمله على الحياء منه ذكره ذنبا يخاف من عاقبته فقال مهولا له بالكناية (وفعلت فعلتك) اى من قتل القبطى ثم أكد نسبته الى ذلك مشيرا الى انه عامله بالحلم تخجيلا له فقال (التى فعلت وأنت) اى والحال انك (من الكافرين) قال الحسن والسدى من الكافرين بالهك ومعناه على ديننا هذا الذى تعيبه وقال أكثر المفسرين اى الجاحدين لنعمتى عليك بالتربية وعدم الاستعباد بقوله دينالك

(١) اى او غيره كميت اه

كقوله ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى أو من المخطئين لا من المتعمدين كما يقال ضل عن الطريق اذا عدل عن الصواب الى الخطا (قوله وما رب العالمين)

فيكافأتنا

فكافأتنا ان قتلت منا نفسا او كفرت بنعمتنا وهذا رواية العوفى عن ابن عباس وقال ان فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية (قال) له موسى مجيبا على طريقة النشر المشوّش واتقاء وعد الله تعالى بالسلامة (فعلتها اذا) اى اذ قتلته (وأنا من الضالين) اى من الجاهلين بأن ذلك يؤدى الى قتله أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل قال ابن جرير والعرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال وقيل لاأعرف دينا فانا واثق من كل جهة حتى يوجهنى ربى الى ماشاء (ففررت) اى فتسبب عن فعلها انى فررت (منكم) اى منك السطوتك ومن قومك لاغرائهم اياك على (لما خفتكم) على نفسى أن تقتلونى بذلك القتيل الذى قتلته خطأ وأنا ابن اثنى عشرة سنة مع كونه كافرا مهدر الدم (فوهب لى ربى) الذى أحسن الى بتربيتى عندكم تحت كنف أمى آمنة على مما أحدثتم من الظلم (حكما) اى علما وفهما وقيل نبوة (وجعلنى من المرسلين) اى فاجتهد الآن جهدك فانى لاأخافك القتل ولاغيره ولما اجتمع فى كلام فرعون منّ وتعيير بدأ بجوابه عن التعيير ولانه الاخير فكان أقرب ولانه أهم وهو معنى ماتقدم من أنه على طريقة النشر المشوّش بأن يبدأ بالاخير قبل الاول ولهذا كرّ على امتنانه عليه بالتربية فابطله من أصله موبخا له مبكتا منكرا عليه غير انه حذف حرف الانكار اجمالا فى القول واحسانا فى الخطاب وأبى أن تسمى نعمته الا نقمة بقوله (وتلك) اى التربية الشنيعة العظيمة فى الشناعة التى ذكرتها (نعمة تمنها على أن عبدت) اى تعبيدك وتذليلك قومى (بنى اسرائيل) اى جعلتهم عبيدا ظلما وعدوانا وهم أبناء الانبياء وسلفهم يوسف عليه السلام عليكم من المنة باحياء نفوسكم أولا وعتق رقابكم ثانيا مالاتقدرون له على جزاء أصلا ثم ما كفاك ذلك حتى فعلت مالم يفعله مستعبد فامرت بقتل أبنائهم فكان ذلك سبب وقوعى اليك لاسلم من ظلمك ولو لم تفعل ذلك لكفلنى أهلى ولم يلقونى فى اليم فكيف تمن على بذلك وقيل معناه انك تدعى أن بنى اسرائيل عبيدك ولامنة للمولى على العبد فى تربيته وقال الحسن انك استعبدت بنى اسرائيل فاخذت أموالهم وأنفقت منها على فلانعمة لك بالتربية وقيل ان الذى تولى تربيتى هم الذين استعبدتهم فلامنة لك على لان التربية كانت من قبل أمى ومن قومى ليس لك الا مجرد الاسم وهذا مايعد انعاما (فان قيل) لم جمع الضمير فى منكم وخفتكم مع افراده فى تمنها وعبدت (اجيب) بان الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله كما مرت الاشارة اليه بدليل قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد ﴿ ولما قال له بوابه ان ههنا من يزعم انه رسول رب العالمين وأدخله عليه (قال) له (فرعون) عند دخوله حائدا عن جوابه منكرا الخالقه على سبيل التجاهل كما أنكر هؤلاء الرحمن متجاهلين وهم أعرف الناس بغالب أفعاله كما كان فرعون يعرف لقول موسى عليه الصلاة والسلام لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر (ومارب العالمين) اى الذى زعمت أنك رسوله وانما أتى بما دون من لانها يسئل بها عن طلب الماهية كقولك ما العنقاء ﴿ ولما كان جواب هذا السؤال لايمكن تعريفه الا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب فى ذاته عدل موسى عليه السلام الى جواب ممكن فأجاب بصفاته تعالى كما قال تعالى اخبارا عنه

لم يقل فرعون ومن رب
العالمين لانه كان منكرا
لوجود الرب فلا تنكر
عليه التعبير عنه بما (قوله
رب السموات والارض
وما بينهما ان كنتم موقنين)

(قال رب) اى خالق ومبدع ومدبر (السموات) كلها (والارض) وان تباعدت أجرامها
بعضها من بعض (وما بينهما) اى بين السموات والارض فاعاد ضمير التثنية على جمعين
اعتبارا بالجنسين وخصه بهذه الصفات لانها أظهر خواصه وآثاره وفيه ابطال لدعواه أنه
اله ومعنى قوله (ان كنتم موقنين) اى ان كان يرجى منكم الايقان الذى يؤدى اليه النظر
الصحيح نفعكم هذا الجواب والا لم ينفع أو ان كنتم موقنين بشئ قط فهذا أولى ماتوقنون به
لظهوره وانارة دليله ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق (قال) فرعون (لمن
حوله) من أشراف قومه قال ابن عباس وكانوا خمسمائة رجل عليهم الاسورة وكانت للملوك
خاصة (الا تستمعون) جوابه الذى لم يطابق السؤال سألته عن حقيقته وهو يجيبنى بالفاعلية
ولما كان يمكن أن يعتقد أن السموات والارضين واجبة لذاتها فهى غنية عن الخالق (قال)
لهم موسى زيادة فى البيان (ربكم ورب آبائكم الاولين) فعدل عن التعريف بخالقية
السموات والارض الى التعريف بكونه تعالى خالقهم وخالق آبائهم اذ لا يمكن أن يعتقد فى
نفسه وفى آبائه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لان المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد
العدم وعدموا بعد الوجود وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته واستحال وجوده
الا بالمؤثر فكان التعريف بهذا الاثر أظهر ولكن فرعون لم يكتف بذلك ولهذا (قال
ان رسولكم) على طريق التهكم اشارة الى أن الرسول ينبغى أن يكون أعقل الناس ثم زاد
الامر بقوله (الذى أرسل اليكم) اى وأنتم أعقل الناس (لمجنون) لا يفهم السؤال فضلا
عن أن يجيب عنه فكيف يصلح للرسالة من الملوك فلما قال ذلك عدل موسى عليه السلام
الى طريق ثالث أوضح من الثانى بان (قال رب المشرق والمغرب) اى الشروق والغروب
ووقتهما وموضعهما (وما بينهما) من المخلوقات لان التدبير المستمر على هذا الوجه العجيب
لا يتم الا بتدبير مدبر قادر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع نمروذ فانه
استدل أولا بالاحياء والاماتة وهو الذى ذكره موسى عليه الصلاة والسلام بقوله ربكم ورب
آبائكم الاولين فأجابه نمروذ انا أحيى وأميت فقال ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من
المغرب فبهت الذى كفر وهو الذى ذكره موسى عليه السلام بقوله رب المشرق والمغرب وأما
قوله (ان كنتم تعقلون) فكأنه عليه السلام قال ان كنت من العقلاء عرفت أنه لا جواب عن
سؤالك الا ما ذكرت لك لانك طلبت منى تعريف حقيقته ولا يمكن تعريف حقيقته بنفس
حقيقته ولا باجزاء حقيقته فلم يبق الا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته وقد عرفت حقيقته
بآثار حقيقته فمن كان عاقلا يقطع بأنه لا جواب عن سؤالك الا ما ذكرته لك فلما انقطع فرعون
عن الجواب ولزمته الحجة تكبر عن الحق وعدل الى التخويف بأن (قال لئن اتخذت الها
غيرى لاجعلنك من المسجونين) اى واحدا ممن هم فى سجنى على ما تعلم من حالى فى اقتدارى
ومن سجونى وفظاعتها ومن حال من فيها من شدة الحصر والغلظ فى الطر قال الكلبى كان سجنه
أشد من القتل لانه كان يأخذ الرجل فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الارض بعيدة العمق وحده
لا يسمع ولا يبصر فيها شيأ وقرأ ابن كثير وحفص وعاصم باظهار الذال عند التاء والباقون
بالادغام ثم ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا ليعلق فرعون قلبه به فيعدل عن وعيده بان

(ان قلت) كيف علق كونه رب السموات والارض بكون فرعون وقومه كانوا موقنين مع ان هذا الشرط منتف والربوبية ثابتة (قلت)

قال

(قال) مدافعا بالتي هي أحسن ارخاء العنان لازادة البيان معنى لا يبقى معه عذر ولا نسيان لان من العادة الجارية السكون الى الانصاف والرجوع الى الحق والاعتراف (أولو) أي أتسجنني ولو (جئتك بشيء مبين) أي هل يحسن أن يذكر هذا مع اقتداري على أن آتيك بشيء دال بين يدلان على وجود الله تعالى وعلى أني رسوله فعند ذلك (قال) طمعا في أن يجد موضعا للتكذيب أو التلبيس (فأت به) أي تسبب عن قولك هذا أني أقول ائت بذلك الشيء (ان كنت من الصادقين) أي فيما ادعيت من الرسالة * (تنبيه) * الواو في أولو جئتك واو الحال وليتها الهمزة بعد حذف الفعل كما علم من التقرير (فان قيل) كيف قطع الكلام عما لا تعلق له بالاول وهو قوله أولو جئتك بشيء مبين أي بآية بينة والمعجز لا يدل على ذلك كدلالة سائر ما تقدم (أجيب) بانه يدل عما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى أنه صادق في ادعاء الرسالة فالذي ختم به كلامه ما تقدم (فألقى) أي فتسبب عن ذلك وتعقبه أن ألقى موسى (عصاه) التي تقدم في غير سورة ان الله تعالى أراه اياها ولم يصرح باسمها اكتفاء بضميره لانه غير ملتبس (فاذا هي ثعبان) أي حية في غاية الكبر (مبين) أي ظاهر ثعبانيته روي انها لما انقلبت حية ارتفعت الى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون تقول ياموسى مرني بما شئت ويقول فرعون أسألك بالذي أرسلك الا ما أخذتها فأخذها فعادت عصا (فان قيل) كيف قال هنا ثعبان مبين وفي آية أخرى فاذا هي حية تسعى وفي آية ثالثة كأنها جان والجان مائل الى الصغر والثعبان الى الكبر (أجيب) بان الحية اسم الجنس ثم لكبرها صارت ثعبانا وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ويحتمل أنها كانت صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا ثم ان موسى عليه السلام لما أراه آية العصا قال فرعون هل غيرها قال نعم (ونزع يده) أي التي كانت احترقت لما أخذ الجمرة وهو في حجر فرعون وبذل فرعون جهده في علاجها بجميع من قدر عليه من الاطباء فعجزوا عن ابرائها نزعها من جيبه بعد أن أراه اياها على ما يعهده منها ثم أدخلها في جيبه (فاذا هي) بعد النزع (بيضاء للناظرين) يضيء الوادي من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس يغشي البصر ويسد الافق فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر أمورا أولها أنه (قال للملا حوله) لما رضع له الامر بعدم على عقولهم خوفا من ايمانهم (ان هذا لساحر عليم) أي شديد المعرفة بالسحر وحوله حال من الملا ومفعول القول قوله ان هذا لساحر عليم ولما أوقعهم بما جبلهم به أحماهم لانفسهم فقال ملقيا الجلباب الالهية لما قهره من سلطان المعجزة (يريد أن يخرجكم من أرضكم) أي هذه التي هي قوامكم (بسحره) أي بسبب ما أتى به فانه يوجب استتباع الناس فيتمكن مما يريد ثم قال لقومه الذين كان يزعم أنهم عبيده وأنه الههم مادل على انه حارت قواه فخطا عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه لما استولى عليه من الدهش والحيرة حتى جعل نفسه مأمورا بعد أن كان يدعي كونه آمرا بل الها قادرا (فماذا تأمرون) أي في مدافعته عما يريد بنا (قالوا) أي الملأ الذين كانوا حوله (أرجه وأخاه) أي أخر أمرهما ومناظرتهما الى اجتماع السحرة ولم يأمر بقتلهما ولا بما يقاربه فسبحان من يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده فيهابه كل شيء ولا يهاب هو غير خالقه وقرأ قالون بغير

معناه ان كنتم موقنين ان السموات والارض وما بينهما موجودات وهذا الشرط موجود أو ان نافية موجود (ان قلت) ذكر لاشرطية

همز واختلاس كسرة الهاء وورش والكسائى بغير همز واشباع حركة كسرة الهاء وابن كثير وهشام بالهمزة الساكنة وصلة الهاء مضمومة وأبو عمرو بالهمزة وضم الهاء مقصورة وابن ذكوان بالهمزة وكسر الهاء مقصورة وعاصم وحمزة بغير همز واسكان الهاء (وابعث فى المدائن حاشرين) أى رجالا يحشرون السحرة وأصل الحشر الجمع بكره وقيل ان فرعون أراد قتل موسى فقالوا له لا تفعل فانك ان تقتله دخلت الناس شبهة فى أمره ولكن أخره واجمع له سحرة ليقاوموه ولا يثبت له عليك حجة وعارضوا قوله ان هذا الساحر عليم بقولهم (يأتوك بكل سحار) أى بليغ فى السحر فجاؤا بكلمة الاحاطة وصيغة المبالغة ليطامنوا من نفسه ويسكنوا من بعض قلقه (عليم) أى متناه فى العلم به بعد ما تناهى فى السحر به وعبر بالبناء للمفعول فى قوله (فجمع السحرة) اشارة الى عظمة مملكته أى بايسر أمر لما له عندهم من العظمة (لميقات يوم معلوم) أى فى زمانه ومكانه وهو ضحى يوم الزينة كما مر فى طه وعن ابن عباس وافق يوم السبت من أول يوم من سنتهم وهو يوم النيروز (وقيل) أى يقول من يقبل لكونه عن فرعون (للناس) أى عامة وقوله (هل أنتم مجتمعون) فيه استبطاء لهم فى الاجتماع والمراد منه استعجالهم واستحثاثهم كما يقول الرجل لغلامه هل أنت منطلق اذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق كأنما يخيل له ان الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول تابط شرا اسم شاعر

هل أنت باعث دينار لحاجتنا * أو عبد رب أخا عون بن مخراق

أى هل أنت حث على ارسال دينار أو عبد رب اسمى رجلين والثانى منصوب على محل الاول وأخا عون منادى أو عطف بيان له وعليه اقتصر الكشاف (لعلنا نتبع السحرة) أى فى دينهم (ان كانوا هم الغالبين) أى لموسى فى دينه ولا نتبع موسى فى دينه وليس غرضهم اتباع السحرة وانما الغرض الكلى أن لا يتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لانهم اذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى وقيل أرادوا بالسحرة موسى وهرون وقالوا ذلك على طريق الاستهزاء وعبر بالفاء فى قوله (فلما جاء السحرة) أى الذين كانوا فى جميع بلاد مصر ايذانا بسرعة حشرهم لضخامة ملكه ونفوذ عظمته (قالوا لفرعون) مشترطين الاجر فى حال الحاجة الى الفعل ليكون ذلك أجدر بحسن الوعد ومجاز القصد (أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين) موسى وأتوا باداة الشك مع جزمهم بالغلبة تخوفا بقاله بانه ان لم يحسن فى وعدهم لم ينصحوا له (قال) مجيبا الى ما سألوا (نعم) لكم ذلك وقرأ الكسائى بكسر العين والباقون بالفتح وزادهم بما لا أحسن منه عند أهل الدنيا مؤكدا بقوله (وانكم اذا) أى اذا غلبتم (لمن المقربين) أى عندى وذلك اذا هنا زيادة فى التأكيد ولما قال لهم فرعون ذلك قالوا لموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين (قال لهم موسى) أى مريد الابطال سحرهم لانه لا يتمكن منه الا بالقائهم (ألقوا ما أنتم ملقون) فان قيل كيف أمرهم بفعل السحر أجيب بانه لم يرد بذلك أمرهم بالسحر والتمويه بل الاذن بتقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلا به الى اظهار الحق (فالقوا) أى فتسبب عن قول موسى عليه السلام وتعقبه أن ألقوا (حبالهم وعصيهم) أى التى أعدوها للسحر (وقالوا) مقسمين (بعزة فرعون) وهى من أيمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله ولا يصح فى الاسلام الا الحلف بالله تعالى أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته كقولك واقسم والرحمن ورب العرش

السموات والارض وما بينهما مستوعب جميع المخلوقات فما فائدة قوله ربكم ورب آبائكم وقوله رب المشرق والمغرب (قلت) فائدة بيّنهما

قوله اى هل أنت عبارة الكشاف يريد ابعثه الينا سريعا ولا تبطئ به اهـ

وعزة الله وقدرة الله وجلال الله وعظمة الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحلفوا
بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ولا تحلفوا الا بالله ولا تحلفوا بالله الا وأنتم صادقون
ولقد استحدث الناس في هذا الباب في اسلامهم جاهلية نسيت لها الجاهلية الاولى وذلك أن
الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شئ لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس
سلطانه فاذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف ثم انهم أكدوا
يمينهم بأنواع من التوكيد بقولهم (انا لنحن) أي خاصة لا نستثنى (الغالبون) وذلك لفرط
اعتقادهم في أنفسهم أو لاتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى) أي فتسبب عن
صنع السحرة وتعقبه أن ألقى (موسى عصاه) التي جعلت آية له وتسبب عن القائه قوله تعالى
(فاذا هي تلقف) أي تبتلع في الحال بسرعة وهمة (ما يأفكون) أي ما يقلبونه عن وجهه
وحقيقته بسحرهم وكيدهم ويزورونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم انها حيات تسعى بالتمويه
على الناظرين أو افكهم سمى تلك الاشياء افكا مبالغة وقرأ حفص بسكون اللام وتخفيف
القاف وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف وشدد البزي التاء في الوصل وخففها الباقون
(فألقى السحرة) أي عقب فعلها من غير تلبث (ساجدين) أي فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كان
ملقيا ألقاهم من قوة اسراعهم لعلمهم بأن هذا من عند الله فأسوا أتقياء بررة بعد ما جاؤا في
صبح ذلك اليوم سحرة كفرة روى انهم قالوا ان يك ما جاء به موسى سحرا فلن يغلب وان يك من
عند الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه تلقفت ما أتوا به علموا انه من عند الله فآمنوا وعن
عكرمة أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء واعلم أنه عبر عن الخرور بالالقاء لانه ذكر مع الالقاآت
فسلك به طريقة المشاكلة وفيه أيضا مع مراعاة المشاكلة انهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا
ان رموا بأنفسهم الى الارض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا (فان قيل) فاعل الالقاء
ما هو لو صرح به (أجيب) بأنه الله تعالى بما خولهم من التوفيق أو ايمانهم أو ما عاينوا من المعجزة
الباهرة قال الزمخشري ولك أن لا تقدر فاعلا لان ألقوا بمعنى خروا وسقطوا ولما كان كأنه
قيل هذا فعلهم فما كان قولهم قيل (قالوا آمنا برب العالمين) اى الذي دعا اليه موسى عليه
السلام أول ما تكلم وقولهم (رب موسى وهرون) عطف بيان لرب العالمين لان
فرعون كان يدعى الربوبية فأرادوا أن يعزلوه ومعنى اضافته اليهما في ذلك المقام أنه الذي دعا
اليه موسى وهرون عليهما السلام ولما آمن السحرة بأجمعهم لم يأمن فرعون ان يقول قومه ان
هؤلاء السحرة على كثرتهم وبصيرتهم لم يؤمنوا الا عن معرفة بصحة امر موسى عليه السلام
فيسلكون طريقهم فلبس على القوم وبالغ في التنفير عن موسى من وجوه احدها ان (قال
آمنتم له) اى لموسى (قبل أن آذن) اى أنا (لكم) فسارعتكم الى الايمان به دالة على ميلكم
اليه (تنبيه) ههنا همزتان مفتوحتان قرأ الجميع بابدال الثانية ألفا وحقق الثانية حمزة
والكسائي وشعبة وسهلها الباقون غير حفص فانه اسقط الاولى والثانية عنده هي المبدلة
ثانيها قوله (انه لكبيركم الذي علمكم السحر) وهذا التصريح بما رمز به أولا وتعريض منه بانهم
فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى وقصروا في السحر ليظهروا أمر موسى والا ففي قوة
السحر أن تفعلوا مثل ما فعل ثالثها قوله (فلسوف تعلمون) وهو وعيد وتهديد شديد رابعها قوله

في الاستدلال على وجود الصانع اما الاول فلان أقرب ما الى الانسان نفسه وما يشاهده من تغييراته وتنقلاته من ابتداء

همز واختلاس كسرة الهاء وورش والكسائي بغير همز واشباع حركة كسرة الهاء وابن كثير وهشام بالهمزة الساكنة وصلة الهاء مضمومة وأبو عمرو بالهمزة وضم الهاء مقصورة وابن ذكوان بالهمزة وكسر الهاء مقصورة وعاصم وحمزة بغير همز واسكان الهاء (وابعث في المدائن حاشرين) أي رجالا يحشرون السحرة وأصل الحشر الجمع بكره وقيل ان فرعون أراد قتل موسى فقالوا له لا تفعل فانك ان تقتله دخلت الناس شبهة في أمره ولكن أخره واجمع له سحرة ليقاوموه ولا يثبت له عليك حجة وعارضوا قوله ان هذا الساحر عليم بقولهم (يأتوك بكل سحار) أي بليغ في السحر فجاؤا بكلمة الاحاطة وصيغة المبالغة ليطامنوا من نفسه ويسكنوا من بعض قلقه (عليم) أي متناه في العلم به بعد ما تناهى في السحر به وعبر بالبناء للمفعول في قوله (فجمع السحرة) اشارة الى عظمة مملكة أي بأيسر أمر لما له عندهم من العظمة (لميقات يوم معلوم) أي في زمانه ومكانه وهو ضحى يوم الزينة كما مر في طه وعن ابن عباس وافق يوم السبت من أول يوم من سنتهم وهو يوم النيروز (وقيل) أي يقول من يقبل لكونه عن فرعون (للناس) أي عامة وقوله (هل أنتم مجتمعون) فيه استبطاء لهم في الاجتماع والمراد منه استعجالهم واستحثاثهم كما يقول الرجل لغلامه هل أنت منطلق اذا أراد أن يحركه منه ويحثه على الانطلاق كأنما يخيل له ان الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول تأبط شرا اسم شاعر

هل أنت باعث دينار لحاجتنا • أو عبد رب أخا عون بن مخراق

أي هل أنت حث على ارسال دينار أو عبد رب اسمي رجلين والثاني منصوب على محل الاول وأخا عون منادى أو عطف بيان له وعليه اقتصر الكشاف (لعلنا نتبع السحرة) أي في دينهم (ان كانوا هم الغالبين) أي لموسى في دينه ولا نتبع موسى في دينه وليس غرضهم اتباع السحرة وانما الغرض الكلي أن لا يتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لانهم اذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى وقيل أرادوا بالسحرة موسى وهرون وقالوا ذلك على طريق الاستهزاء وعبر بالفاء في قوله (فلما جاء السحرة) أي الذين كانوا في جميع بلاد مصر ايذانا بسرعة حشرهم لضخامة ملكه وفور عظمته (قالوا لفرعون) مشترطين الاجر في حال الحاجة الى الفعل ليكون ذلك أجدر بحسن الوعد بمجاز القصد (أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين) موسى وأتوا باداة الشك مع جزمهم بالغلبة تخويفا له بأنه ان لم يحسن في وعدهم لم ينصحوا له (قال) مجيبا الى ما سألوا (نعم) لكم ذلك وقرأ الكسائي بكسر العين والباقون بالفتح وزادهم بما لا أحسن منه عند أهل الدنيا مؤكدا بقوله (وانكم اذا) أي اذا غلبتم (لمن المقربين) أي عندي ولنا اذا هنا زيادة في التأكيد ولما قال لهم فرعون ذلك قالوا لموسى اما أن تلقي واما أن نكون نحن الملقين (قال لهم موسى) أي مريد الابطال سحرهم لانه لا يتمكن منه الا بالقائهم (ألقوا ما أنتم ملقون) فان قيل كيف أمرهم بفعل السحر أجيب بأنه لم يرد بذلك أمرهم بالسحر والقويه بل لاذن بتقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلا به الى اظهار الحق (فألقوا) أي فتسبب عن قول موسى عليه السلام وتعقبه أن ألقوا (حبالهم وعصيهم) أي التي أعدوها للسحر (وقالوا) مقسمين (بعزة فرعون) وهي من أيمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله ولا يصح في الاسلام الا الحلف بالله تعالى أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته كقولك والله والرحمن ورب العرش

السموات والارض وما بينهما مستوعب جميع المخلوقات فما فائدة قوله ربكم ورب آبائكم وقوله رب المشرق والمغرب (قلت) فائدة بينهما

قوله أي هل أنت عبارة الكشاف يريد ابعثه الينا سريعا ولا تبطئ به اه

وعزة الله وقدرة الله وجلال الله وعظمة الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسيت لها الجاهلية الأولى وذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شيء لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف ثم إنهم أكدوا يمينهم بأنواع من التوكيد بقولهم (إنا لنحن) أي خاصة لا نستثني (الغالبون) وذلك لفرط اعتقادهم في أنفسهم أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى) أي فتسبب عن صنع السحرة وتعقبه أن ألقى (موسى عصاه) التي جعلت آية له وتسبب عن إلقائه قوله تعالى (فإذا هي تلقف) أي تبتلع في الحال بسرعة وخفة (ما يأفكون) أي ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم ويزورونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى بالتمويه على الناظرين أو إفكهم سمى تلك الأشياء إفكا مبالغة وقرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف وشدد البزي التاء في الوصل وخففها الباقون (فألقي السحرة) أي عقب فعلها من غير تلبث (ساجدين) أي فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كان ملقيا ألقاهم من قوة إسراعهم لعلمهم بأن هذا من عند الله فأمسوا أتقياء بررة بعد ما جاؤا في صبح ذلك اليوم سحرة كفرة روي أنهم قالوا إن يك ما جاء به موسى سحرا فلن يغلب وإن يك من عند الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه تلقفت ما أتوا به علموا أنه من عند الله فآمنوا وعن عكرمة أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء لأنه ذكر مع الإلقاءات فسلك به طريقة المشاكلة وفيه أيضا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا (فإن قيل) فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به (أجيب) بأنه الله تعالى بما خولهم من التوفيق أو إيمانهم أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة قال الزمخشري ولك أن لا تقدر فاعلا لأن ألقوا بمعنى خروا وسقطوا ولما كان كأنه قيل هذا فعلهم فما كان قولهم قيل (قالوا آمنا برب العالمين) أي الذي دعا إليه موسى عليه السلام أول ما تكلم وقولهم (رب موسى وهرون) عطف بيان لرب العالمين لأن فرعون كان يدعي الربوبية وأرادوا أن يعزلوه ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام أنه الذي دعا إليه موسى وهرون عليهما السلام ولما آمن السحرة بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول قومه إن هؤلاء السحرة على كثرتهم وبصيرتهم لم يؤمنوا إلا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون طريقهم فلبس على القوم وبالغ في التنفير عن موسى من وجوه أحدها أن (قال آمنتم له) أي لموسى (قبل أن آذن) أي أنا (لكم) فسارعتكم إلى الإيمان به دالة على ميلكم إليه (تنبيه) ههنا همزتان مفتوحتان قرأ الجميع بإبدال الثانية ألفا وحقق الثانية حمزة والكسائي وشعبة وسهلها الباقون غير حفص فإنه أسقط الأولى والثانية عنده هي المبدوء بها ثانيها قوله (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) وهذا التصريح بما رمز به أولا وتعريض منه بأنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى وقصروا في السحر ليظهروا أمر موسى وإلا ففي قوة السحرة أن يفعلوا مثل ما يفعل ثالثها قوله (فلسوف تعلمون) وهو وعيد وتهديد شديد رابعها قوله

في الاستدلال على وجود الصانع أما الأول فلأن أقرب ما إلى الإنسان نفسه وما يشاهده من تغيراته وتنقلاته من ابتداء

(لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أي يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى (ولاصلبنكم أجمعين) وهذا الوعيد من اعظم الاهلاكات ثم انهم اجابوا عن هذه الكلمات من وجهين الاول قولهم (قالوا لاضير) أي لاضرر علينا وخبر لا محذوف تقديره في ذلك (انا) أي بفعلك ذلك فينا ان قدرك الله تعالى عليه (الى ربنا) الذى أحسن الينا بالهداية بعد موتنا باى وجه كان (منقلبون) اى راجعون في الآخرة الثانى قولهم (انا نطمع) اى نرجو (ان يغفر) اى يستر سترا بليغا (لنا ربنا خطايانا) اى التى قدمناها على كثرتها ثم عللوا طمعهم مع كثرة الخطايا بقولهم (أن كنا) اى كوننا هو لنا كالجبلة (اول المؤمنين) أى من اهل هذا المشهد او من رعية فرعون او من اهل زمانهم ولما ظهر من امر فرعون ماشاهدوه وخيف ان يقع منه ببنى اسرائيل وهم الذين آمنوا او كانوا في قوم موسى عليه السلام ما يؤدى الى الاستئصال امره الله تعالى ان يسرى بهم كما قال تعالى (واوحينا) اى بما لنا من العظمة حين اردنا فصل الامر والمجاز الموعود (الى موسى أن اسر) ليلا (بعبادى) وذلك بعد سنين اقام بين اظهرهم يدعوهم الى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا الاعتوا وفسادا وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون ووصل الهمزة بعدها من سرى وقرأ الباقون بسكون النون وقطع الهمزة بعدها ثم علل امره له بالسير في الليل بقوله تعالى (انكم متبعون) أى لانظن انهم لكثرة مارأوا من الآيات يكفون عن اتباعكم فاسرع بالخروج لتبعدوا عنهم الى الموضع الذى قدرت في الازل أن يظهر بحرى والمراد توافقهم عند البحر ولم يكن اتباعهم عن موسى لعدم تاثره به والمعنى انى بنيت تدبير أمركم وامرهم على ان تتقدموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم ويسلكوا مسلككم من طريق البحر فاطبقه عليهم روى أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى ان اجمع بنى اسرائيل كل اربعة أبيات في بيت ثم اذبحوا الجداء واضربوا بدمائها أبوابكم فانى سآمر الملائكة أن لايدخلوا بيتا على بابه دم وآمرهم بقتل أبكار القبط واخبزوا خبزا فطيرا فانه أسرع لكم ثم اسر بعبادى حتى تنتهى الى البحر فيأتيك أمرى وروى أن قوم موسى قالوا لقوم فرعون ان لنا في هذه الليلة عيدا ثم استعاروا منهم حليهم بهذا السبب ثم خرجوا بتلك الاموال في الليل الى جانب البحر فلما سمع فرعون ذلك جمع قومه وتبعهم كما قال تعالى (فارسل فرعون) اى لما اصبح وعلم بهم (فى المدائن حاشرين) اى رجالا يجمعون الجنود بقوة وسطوة وان كرهوا يقولون تقوية لقلوبهم وتحريكا لهممهم (ان هؤلاء) اشارة باداة القرب تحقيرا لهم الى انهم في القبضة وان بعدوا لما بهم من العجز وبال فرعون من القوة فليسوا بحيث يخاف قوتهم (لشرذمة) اى طائفة وقطعة من الناس (قليلون) اى بالنسبة الى ما لنا من الجنود التى لاتحصى فذكرهم أولا بالاسم الدال على القلة بالشرذمة وهى الطائفة القليلة ومنها قولهم ثوب شرذم للذى يلى وتقطع قطعا ثم جعلهم قليلا بالوصف ثم جمع القليل ليجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة مع انهم كانوا ستمائة ألف وسبعين الفا وسماهم بشرذمة قليلين وذلك بالنسبة لما ارسله خلفهم فان الذى ارسله فرعون فى اثرهم الف الف وخمسمائة الف ملك مسور ومع كل ملك الف وخرج فرعون فى جمع عظيم وكان مقدمته سبعمائة الف كل رجل على حصان وعلى راسه

ولادته واما الثانى فلما تضمنه ذكر المشرق والمغرب وما بينهما من بديع الحكمة فى تصريف الليل والنهار وتقديم

بيضة وعن ابن عباس خرج فرعون فى ألف ألف حصان سوى الاناث فلذلك استقل قوم موسى
قال الزمخشرى ويجوز أن يريد بالقلة الذلة والقماءة ولا يريد قلة العدد والمعنى انهم لقلتهم
لا يبالى بهم ولا يتوقع عليهم غلبتهم وعلوهم ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا كما
قال تعالى عنهم (وانهم لنا لغائظون) أى بما يفعلونه من أنفسهم وبما استعاروه من الزينة
من الاوانى الذهب والفضة وفاخر الكسوة فلا رحمة فى قلوبهم بجمعهم (وانا لجميع حذرون)
أى من عادتنا الحذر والتيقظ واستعمال الحزم فى الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى
حسم فساده وهذه معاذير اعتذر بها الى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه
وقرأ ابن ذكوان والكوفيون بالف بعد الحاء والباقون بغير ألف قال ابو عبيدة والزجاج هما
بمعنى واحد يقال رجل حذر وحذور وحاذر بمعنى وقيل بل بينهما فرق فالحذر المتيقظ والحاذر
الخائف وقيل الاول للتجدد لانه اسم فاعل والثانى للثبات لانه صفة مشبهة وقيل الحاذر المتسلح
الذى له شوكة السلاح وهو أيضا من الحذر لان ذلك انما يفعل حذرا يحكى انه كان يتصرف فى
خراج مصر وانه يجزئه أربعة أجزاء أحدها الوزرائه وكتابه وجنده والثانى لحفر الانهار وعمل
الجسور والثالث له ولولده والرابع يفرق فى المدن فان لحقهم ظمأ أو ظما أو استبحار أو فساد غلة
أو موت عوامل قواهم به ويروى انه قصده قوم فقالوا انحتاج الى أن نحفر خليجا لنعمر ضياعنا
فاذن فى ذلك واستعمل عليهم عاملا فاستكثر ما حصل من خراج تلك الناحية الى بيت المال فسأل
عن مبلغ ما أنفقوه فى خليجهم فاذا هو مائة ألف دينار فامر بحملها اليهم فامتنعوا من قبولها
فقال اطرحوها عليهم فان الملك اذا استغنى بمال الرعية يعنى رعيته افتقر وان الرعية اذا
استغنت بمال ملكهم استغنى واستغنوا هو ولما كان التقدير فاطاعوا أمره ونفروا على كل
صعب وذلول عطف عليه قوله تعالى بما آل اليه امرهم (فاخرجناهم) اى فرعون وجنوده بما لنا
من القدرة من مصر ليلحقوا بموسى وقومه اخراجا حثيثا بما لا يسع أحد بالخروج منه (من
جنات) أى بساتين كانت على جانبى النيل يحق لها أن تذكر (وعيون) اى أنهار جارية فى الدور من
النيل وقيل عيون تخرج من الارض لا يحتاج معها الى نيل ولا مطر (وكنوز) أى أموال ظاهرة
من الذهب والفضة وسميت كنوزا لانها لم يعط حق الله منها وما لم يعط حق الله تعالى منه فهو كنز
وان كان ظاهرا قيل كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق فى عنق كل فرس
طوق من ذهب (ومقام) من المنازل (كريم) أى مجلس حسن للامراء والوزراء يحفه اتباعهم
وعن الضحاك المنابر وقيل السرر فى الحجال وذكر بعضهم انه كان اذا قعد على سريره وضع بين
يديه ثلثمائة كرسى من ذهب يجلس عليها الاشراف عليهم الاقبية من الديباج مخوصة بالذهب
(كذلك) اى اخراجنا كما وصفنا (وأورثناها) أى تلك النعم السنية بمجرد خروجهم بالقوة وبعد
اغراق فرعون وجنوده بالفعل (بنى اسرائيل) أى جعلناهم بحيث يرثونها الا انا لم نبق لهم مانعا
يمنعهم منها بعد ان كانوا مستعبدين بين أيدى اربابها واستشكل ارثهم لها بالفعل لقوله تعالى
فى الدخان قوما آخرين وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى ذلك المحل بل قيل ان بنى
اسرائيل لم يرجعوا الى مصر بعد ذلك ولما وصف تعالى الاخراج وصف أثره بقوله تعالى مرتبا
عليه بالفعل وعلى الايراث بالقوة (فاتبعوهم) أى جعلوا أنفسهم تابعة لهم (مشرقين) أى

الفصول بطلوع الشمس
من المشرق وغروبها من
المغرب على تقدير مستقيم
فى فصول السنة (ان قلت)
لم قال او لا ان كنتم موقنين

داخلين فى وقت شروق الشمس بطلوعها صبيحة الليلة التى سار فيها بنو اسرائيل ولولا تقدير العزيز العليم بخرق ذلك للعادة لم يكن ذلك على حكم العادة فى أقل من عشرة أيام فانه تعجز الملوك عن مثله واستمروا الى ان لحقوهم عند بحر القلزم (فلما تراءى الجمعان) أى رأى كل منهما الآخر (قال أصحاب موسى) ضعفا وعجزا استصحابا لما كانوا فيه عندهم من الذل ولانهم أقل منهم بكثير بحيث يقال ان طليعة آل فرعون كانت على عدد بنى اسرائيل وذلك محقق لتقليل فرعون لهم وكانه عبر عنهم باصحاب دون بنى اسرائيل لانه كان قد آمن كثير من غيرهم (انا لمدركون) اى يدركنا فرعون وقومه وقد صرنا بين سدين العدو وراءنا والبحر امامنا ولا طاقة لنا بذلك (قال) اى موسى عليه السلام وثوقا بوعد الله تعالى له (كلا) اى لا يدركونكم أصلا ثم علل ذلك تسكينا لهم بقوله (ان معى ربى) اى بنصره فكأنهم قالوا وماعساه يفعل وقد وصلونا قال (سيهدين) اى يدلنى على طريق النجاة روى ان مؤمن آل فرعون كان بين يدى موسى عليه السلام فقال أين تذهب فهذا البحر امامك وقد غشيك آل فرعون قال أمرت بالبحر ولعلى أومر بما اصنع (فاوحينا) اى فتسبب عن كلامه الدال على المراقبة انا أوحينا اوتره باسم الكليم جزاء له على ثقته به سبحانه وتعالى فقال تعالى (الى موسى) وفسر الوحى الذى فيه معنى القول بقوله تعالى (ان اضرب بعصاك البحر) اى الذى امامكم وهو بحر القلزم الذى يتوصل اهل مصر منه الى الطور والى مكة المشرفة وما والاها وقيل النيل فضرب به (فانفلق) بسبب ضربه لما ضربه امتثالا لامر ربه وصار اثنى عشر فرقا على عدد اسباطهم (فكان كل فرق) اى جزء وقسم عظيم منه (كالطود) اى الجبل فى اشرافه وطوله وصلابته بعدم السيلان (العظيم) المتطاول فى السماء الثابت فى قعره لا يتزلزل لان الماء كان منبسطا فى أرض البحر فلما انفلق وانكشفت فيه الطريق انضم بعضه الى بعض فاستطال وارتفع فى السماء بين تلك الاجزاء مسالك سلكوها لم يبتل منها سرج الراكب قال الزجاج لما انتهى موسى الى البحر هاجت الريح والبحر يرمى بموج كالجبال فقال يوشع يا كليم الله يا ابن امرأة عمران قد غشينا فرعون والبحر امامنا فقال موسى ههنا فخاض يوشع الماء وجاز البحر ما يوارى حافر دابته الماء وقال الذى يكتم ايمانه يا كليم الله أين أمرت قال ههنا فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقيه ثم أقحمه البحر فارتسب فى الماء وصنع القوم مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدرى كيف يصنع فاوحى الله اليه ان اضرب بعصاك البحر فضرب به فانفلق فصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق فان الرجل على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده روى ان موسى قال عند ذلك يا من كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ وهذا معجز عظيم من وجوه أحدها ان تفرق ذلك الماء معجز وثانيها ان اجتماع ذلك الماء فوق كل فرق منه حتى صار كالجبل معجز أيضا وثالثها انه ثبت فى الخبر انه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذى تكامل معه عدد بنى اسرائيل وهذا معجز ثالث ورابعها ان جعل الله فى تلك الجدران المائية كوى ينظر بعضهم الى بعض وهذا معجز رابع وخامسها ان ابقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب آل فرعون فطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص موسى عليه السلام وهذا معجز خامس * (فائدة) * لكل من جميع القراء فى الراء من فرق الترقيق والتفخيم

وانا

وثانيا ان كنتم تعقلون (قالت) لاطعمهم اولا بقوله ان كنتم موقنين فلما رأى عنادهم خاطبهم بقوله ان كنتم تعقلون وعارض به

ولما كان التقدير وأدخلنا كل شعب منهم في طريق من تلك الطرق عطف عليه (وأزلفنا) أي قربنا بعظمتنا (ثم) أي هنالك (الآخرين) أي فرعون وقومه حتى سلكوا مسالكهم وقال أبو عبيدة وأزلفنا أخلفنا ومنه ليلة المزدلفة أي ليلة الجمع * عن عطاء بن السائب ان جبريل عليه السلام كان بين بني اسرائيل وقوم فرعون وكان يسوق بني اسرائيل ويقول ليلحق آخركم باولكم ويستقبل القبط ويقول رويدكم ليلحق آخركم أولكم (وأنجينا موسى ومن معه) وهم من تبعه من قومه وغيرهم (أجمعين) أي لم نقدر على احد منهم الهلاك بل اخرجناهم من البحر على هيئته المذكورة (ثم اغرقنا الآخرين) أي فرعون وقومه اجمعين بانطباق البحر عليهم لما تم دخولهم البحر وخروج بني اسرائيل منه ويقال هذا البحر بحر القلزم وقيل هو بحر من وراء مصر يقال له اساف (ان في ذلك) أي الامر العظيم العالي الرتبة من قصة موسى وفرعون وما فيها من العظات (لآية) أي علامة عظيمة دالة على قدرة الله تعالى لان احدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته وكون وقوعه مصلحة في الدين والدنيا وعلى صدق موسى لكونه معجزة له وعلى التحذير عن مخالفة امر الله تعالى ورسوله عليه السلام وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لانه قد يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على ان له اسوة بموسى وغيره (وما كان اكثرهم) أي أهل مصر الذين شاهدوها والذين وعظوا بسماعها (مؤمنين) أي متصفين بالايمان الثابت اما القبط فما آمن منهم الا السحرة ومؤمن آل فرعون وامرأة فرعون والمرأة التي دلتهم على عظام يوسف عليه السلام واما بنو اسرائيل فكان كثير منهم متزلزلا يتعنت كل قليل ويقول ويفعل ما هو كفر حتى تداركهم الله تعالى على يدي موسى عليه السلام ومن بعده واول ما كان من ذلك سؤالهم اثر مجاوزة البحر ان يجعل لهم الها كالاصنام التي مروا عليها واما غيرهم ممن تاخر عنهم فحالهم معروف وامرهم مشاهد مكشوف فقد سالوه بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة (وان ربك) أي المحسن اليك باعلاء امرك واستنقاذ الناس من ظلام الجهل على يدك (لهو العزيز) أي القادر على الانتقام من كل فاجر (الرحيم) بعباده لانه تعالى افاض عليهم نعمه وكان قادرا على ان يهلكهم فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله ولما اتم سبحانه وتعالى ما اراد من قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد صلى الله عليه وسلم ان تلك المحن التي اصابته كانت حاصلة لموسى اتبعه دلالة على رحمته وزيادة في تسلية نبيه قصة ابراهيم عليه السلام وهي القصة الثانية بقوله تعالى (واتل) أي اقرأ قراءة متتابعة يا اشرف الخلق (عليهم) أي كفار مكة وقوله تعالى (نبأ) أي خبر (ابراهيم) قراءة نافع وابن كثير وابو عمرو في الوصل بتسهيل الهمزة الثانية وحققها الباقون وفي الابتداء بالثانية الجميع يحققون ويبدل منه (اذ) أي حين (قال لابيه وقومه) منبها لهم على ضلالهم لا مستعلما لانه كان عالما بحقيقة حالهم ولكنه سألهم بقوله (ما) أي أي شيء (تعبدون) أي تواظبون على عبادته ليريهم ان ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجر ما مالك وانت تعلم ان ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال (قالوا) في جوابه (نعبد اصناما) فان قيل قوله عليه السلام ما تعبدون سؤال عن المعبود فحسب فكان القياس ان يقولوا اصناما كقوله تعالى ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو وكذا

قول فرعون ان رسولكم الذي أرسل اليكم المجنون (قوله لاجعلنك من المسجونين) ان قلت لم عدل اليه عن لاسجننك مع انه اخصر منه (قلت)

قوله تعالى ماذا قال ربكم قالوا الحق وكقوله تعالى ماذا انزل ربكم قالوا خيرا (اجيب) بان هؤلاء قد اجابوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين فاشتملت على جواب ابراهيم عليه السلام وعلى ما قصدوه من اظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار الا تراهم كيف عطفوا على قولهم نعبد (فنظل لها عاكفين) ولم يقتصروا على زيادة نعبده وحده ومثاله ان تقول لبعض الشطار ما تلبس في بلادك فيقول البس البرد الاتحمي فاجر ذيله بين جواري الحي وانما قالوا انظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل يقال ظل يفعل كذا اذا فعل بالنهار والعكوف الاقامة على الشيء ثم ان ابراهيم عليه السلام (قال) منبها على فساد مذهبهم (هل يسمعونكم) اى يسمعون دعاءكم او يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة (اذ) اى حين (تدعون) عليه فعلى الاول هي متعدية لواحد اتفاقا وعلى الثاني هي متعدية لاثنين قامت الجملة المقدرة مقام الثاني وهو قول الفارسي وعند غيره الجملة المقدرة حال وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال عند التاء والباقون بالادغام (أو ينفعونكم) ان عبدتموهم (أو يضرون) اى يضرونكم ان لم تعبدوهم ولما أقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام عليهم هذه الحجة الباهرة وهو ان الذى يعبدونه لا يسمع دعاءهم حتى يعرف مقصودهم ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف يعبد ما هذه صفته ولم يجدوا ما يدفعون به حجته الا التقليد (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك) اى مثل فعلنا هذا الفعل العالى الشان ولو لم يكن عندهم من تعبدهم شيء من ذلك ثم صوروا حالة آبائهم في نفوسهم تعظيما لامرهم بقولهم (يفعلون) اى فنحن نفعل كما فعلوا فانهم حقيقون منا بان لا نخالفهم مع سبقهم لنا الى الوجود فهم أرصن منا عقولا وأعظم تجربة فلولا انهم رأوا ذلك حسنا ما واظبوا عليه وهذا تقليد محض خال عن أدنى نظر كما تفعل البهائم والطير في تبعها الاولها ثم ان ابراهيم عليه السلام (قال) معرضا عن جواب كلامهم لما رآه ساقطا لا يرتضيه عاقل (أفرأيتم) اى تسبب عن قولكم هذا انى أقول لكم أرأيتم اى ان لم تكونوا رأيتموهم رؤية موجبة للصحة في أمرهم فانظروهم نظرا شافيا (ما كنتم تعبدون) اى مواظبين على عبادتهم (أنتم وآباؤكم الاقدمون) أى الذين هم أقدم ما يكون فان التقدم والاولية لا يكون برهانا على الصحة والباطل لا ينقلب حقا بالقدم (فانهم عدو لى) اى اعداء لى وانما وحده على ارادة الجنس ويجيء العدو والصديق في معنى الواحد والجماعة قال القائل

وقوم على ذوى مئرة ٭ أراهم عدوا وكانوا اصديقا

ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو تشبيها بالمصادر كالحنين والصهيل وقيل هو من المقلوب أراد انى عدو لهم فان من عاديته فقد عاداك وقرأ نافع أفرأيتم بتسهيل الهمزة التى هى عين الكلمة ولورش أيضا ابدالها ألفا واسقطها الكسائى وحققها الباقون (فان قيل) لم قال فانهم عدو لى ولم يقل فانها عدو لكم (أجيب) بانه عليه السلام صور المسألة فى نفسه بمعنى انى فكرت فى امرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها وأراهم انها نصيحة نصح بها نفسه فاذا تفكروا قالوا ما نصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك ادعى الى القبول وأبعث الى الاستماع منه ولو قال فانهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ولانه دخل فى باب من التعريض وقد

لارادة تعريف العهد اى لا جعلنك ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان اذا سجن انسانا طرحه فى هوة عميقة وظلمة لا يبصر فيها ولا يسمع (قوله انا الى ربنا منقلبون)

يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لانه يتامل فيه فربما قاده التامل الى التقبل ومنه ما يحكى عن الشافعي رضي الله عنه ان رجلا واجهه بشيء فقال لو كنت بحيث انت لاحتجت الى ادب وسمع رجل ناسا يتحدثون في الحجر فقال ما هو بيتي ولا بيتكم وقوله (الا رب العالمين) اي مدبر هذه الاكوان كلها يصح ان يكون استثناء منقطعا بمعنى انهم عدو لي لا اعبدهم لكن رب العالمين فاني اعبده وان يكون متصلا على ان الضمير لكل معبود عبدوه وكان من آبائهم من عبد الله تعالى فكانه قال الا رب العالمين فانه ليس بعدو لي بل هو وليي ومعبودي * ثم شرع يصفه بما هم به عالمون من انه على الضد الاقصى من كل ما عليه اصنامهم بقوله (الذي خلقني) اي اوجدني على هيئة التقدير والتصوير (فهو) اي فتسبب عن تفرده بخلق انه هو لا غيره (يهدين) اي لي الرشاد ولا يعلم باطن المخلوق ويقدر على التصرف فيه غير خالقه ولا يكون خالقه الا سميعا بصيرا ضارا نافعا له الكمال كله وذكر الخلق بالماضي لانه لا يتجدد في الدنيا والهداية بالمضارعة لتجددها وتكررها لانه تعالى لما اتم خلقه ونفخ فيه الروح عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع الى كل ما يصلحه ويعينه والا فمن هداه الى ان يغتذي بالدم في البطن امتصاصا ومن هداه الى معرفة الثدي عند الولادة والى معرفة مكانه ومن هداه الكيفية الارتضاع الى غير ذلك دينا ودنيا (والذي) اي (هو) لا غيره (يطعمني ويسقين) اي يرزقني ويغذيني بالطعام والشراب ولو اراد أعدمهما آكل وما اشرب أو أصابني بآفة لا أستطيع معها أكلا ولا شربا ونبه بذكر الطعام والشراب على ما عداهما *(تنبيه)* يجوز في والذي يطعمني ويسقين أن يكون مبتدأ وخبره محذوف لدلالة ما قبله عليه وكذا الذي بعده ويجوز أن تكون أوصافا للذي خلقني ودخول الواو جائز كقوله

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة في المزدحم

وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على ان كل واحدة من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم (واذا مرضت) اي باستيلاء بعض الاخلاط على بعض لما بينهما من التنافر الطبيعي (فهو) اي وحده (يشفين) اي بسبب تعديل المزاج بتعديل الاخلاط وقسرها على الاجتماع لا بطبيب ولا غيره (فان قيل) لم اضاف المرض الى نفسه مع أن المرض والشفاء من الله تعالى (اجيب) بانه قال ذلك استعمالا لحسن الادب كما قال الخضر عليه السلام فأردت أن أعيبها وقال فاراد ربك أن يبلغا أشدهما وأجاب الرازي بان أكثر أسباب المرض تحدث بتفريط الانسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ومن ثم قال الحكماء لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا التخم وبان الشفاء محبوب وهو من اصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم وكان مقصود ابراهيم عليه السلام تعديد النعم ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه الى الله تعالى ولا ينتقض ذلك باسناد الاماتة اليه كما سيأتي فان الموت ليس بضرر لان شرط كونه ضررا وقوع الاحساس به وحال الموت لا يحصل الاحساس به انما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض ولان الارواح اذا كملت في العلوم والاخلاق كان بقاؤها في هذه الاجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض (والذي يميتني) يقبض روحي في الدنيا لخلاصي من آفاتها (ثم يحيين) للمجازاة في الآخرة كما شفاني من المرض ولهذا التراخي بين الموت

قاله هنا بحذف لام التأكيد وفي الزخرف باثباتها لان ماهنا كلام المعرفة حين آمنوا ولا عموم فيه فناسبه عدم التأكيد وما في

والاحياء أى بتم هنا لان الاماتة فى الدنيا والاحياء فى الآخرة ولما ذكر البعث ذكر ما يترتب
عليه بقوله (والذى أطمع) هضما للنفس واطراحا للاعمال (أن يغفر) أى يمحو أو يستر (لى
خطيئتى) أى تقصيرى عن أن أقدره حق قدره (يوم الدين) أى الجزاء روى ان عائشة قالت قلت
يارسول الله ان ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه قال
لا ينفعه انه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين وهذا كله احتجاج من ابراهيم على قومه
انه لا يصلح للالهية الا من يفعل هذه الافعال (فان قيل) لم قال والذى أطمع والطمع عبارة
عن الظن والرجاء وهو عليه السلام كان قاطعا بذلك (اجيب) بان فى ذلك اشارة الى ان الله
تعالى لا يجب عليه لاحد شئ فانه يحسن منه تعالى كل شئ ولا اعتراض لاحد عليه فى فعله (فان
قيل) لم أسند الى نفسه الخطيئة مع أن الانبياء معصومون (أجيب) بان مجاهدا قال هى قوله انى
سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هى اختى ورد بان هذه معاريض كلام وتخييلات
للكفرة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار والاولى فى الجواب ان استغفار الانبياء تواضع
منهم لربهم وهضم لانفسهم ويدل عليه قوله أطمع ولم يجزم القول بالمغفرة وفيه تعليم لاممهم
وليكون لطفا لهم باجتنابهم المعاصى والحذر منها وطلب المغفرة مما يفرط منهم (فان قيل) لم
علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وانما المغفرة فى الدنيا (اجيب) بان أثرها يتبين يومئذ وهو
الآن خفى لا يعلم ولما حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام ثناءه على ربه ذكر بعد ذلك دعاءه
ومسألته بقوله (رب) أى أيها المحسن الى (هب لى حكما) أى علما متقنا بالعلم وقال ابن عباس
معرفة حدود الله وأحكامه وقال الكلبى النبوة لان النبى ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله ثم
بين ان الاعتماد انما هو على محض الكرم فان من نوقش الحساب عذب بقوله (وألحقنى
بالصالحين) أى الذى جعلتهم أئمة للمتقين فى الدنيا والآخرة وهم الانبياء والمرسلون وقد أجابه
الله تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين وفى ذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء
من المهمات (فان قيل) لم لم يقتصر ابراهيم عليه السلام على الثناء ولاسيما روى عنه انه قال
حسبى من سؤالى علمه بحالى (اجيب) بانه عليه السلام انما ذكر ذلك حين اشتغاله بدعوة الخلق
الى الحق لانه قال فانهم عدو لى الا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء لما أن الشارع لابد له
من تعليم الشرع فاما حين خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع اقتصر على قوله حسبى من
سؤالى علمه بحالى * (تنبيه) * الالحاق بالصالحين ان يوفقه لعمل ينتظم به فى جملتهم أو يجمع
بينه وبينهم فى المنزلة والدرجة فى الجنة ثم انه عليه السلام طلب زيادة فى الآخرة بقوله (واجعل
لى لسان صدق) أى ذكرا جميلا وقبولا عاما وثناء حسنا بما أظهرت من خصال الخير (فى
الآخرين) أى من الناس الذين يوجدون بعدى الى يوم الدين لأكون للمتقين اماما فيكون
لى مثل اجورهم فان من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة قال
ابن عباس أعطاه الله تعالى بقوله وتركنا عليه فى الآخرين ان أهل الاديان يتولونه ويثنون
عليه وقد جعله الله شجرة مباركة فرع منها الانبياء الذين أحيا الله تعالى بهم ذكره الذى من
أعظمه ما كان على لسان أعظمهم النبى الامى صلى الله عليه وسلم من قوله اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم الى آخره ولما طلب عليه السلام سعادة الدنيا وكان لا نفع لها

الزخرف عام لمن ركب سفينة
أو دابة فناسبه التأكيد
(قوله فلا تراءى الجمعان)
ان قلت قضيته ان كل جمع
منهما رأى الآخر لان

الا

الا بتصالها بسعادة الآخرة التي هي الجنة طلبها بقوله (واجعلني) اى مع ذلك كله بفضلك ورحمتك (من ورثة جنة النعيم) لان فيها النظر الى وجه الله الكريم وهو السعادة الكبرى وشبهها بالارث الذى يحصل بغير اكتساب اشارة الى أنه الامتثال الا بمنه وكرمه لا بشئ من ذلك ولما دعا لنفسه ثنى باحق الخلق ببره بقوله (واغفر لابى) بالهداية والتوفيق الى الايمان لان المغفرة مشروطة بالايمان وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله واغفر لابى كانه دعاء له بالايمان وقيل ان أباه وعده بالاسلام لقوله تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فدعا له قبل أن يتبين له انه عدو لله كما سبق فى سورة التوبة وقيل ان أباه قال له انه على دينه باطنا وعلى دين نمروذ ظاهرا تقية وخوفا فدعا له لاعتقاده ان الامر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ولذلك قال فى دعائه (انه كان من الضالين) فلولا اعتقاده فيه انه فى الحال ليس بضال لما قال ذلك وقيل ان الاستغفار للكفار لم يكن ممنوعا اذ ذاك (ولا تخزنى) اى تفضحنى (يوم يبعثون) اى العباد (فان قيل) كان قوله واجعلنى من ورثة جنة النعيم كافيا عن هذا وايضا قال تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين فما كان نصيب الكفار فقط كيف يخافه المعصوم (اجيب) بان حسنات الابرار سيئات المقربين فكذا درجات الابرار خزى المقربين وخزى كل واحد بما يليق به ولما نبه عليه السلام على ان المقصود هو الآخرة صرح بالتعزية فى الدنيا بقوله (يوم لا ينفع) اى احدا (مال) اى يفتدى به أو يبذله لشافع أو ناصر وقاهر (ولا بنون) ينتصر بهم أو يعتضد فكيف بغيرهم وفى استثناء قوله (الا من) أوجه أحدها انه منقطع وجرى عليه الجلال المحلى اى لكن من (أتى الله بقلب سليم) فانه ينفعه ذلك الثانى انه مفعول به لقوله تعالى لا ينفع اى لا ينفع المال والبنون الا هذا الشخص فانه ينفعه ماله المصروف فى وجوه البر وبنوه الصلحاء لانه علمهم وأحسن اليهم الثالث انه بدل من المفعول المحذوف ومستثنى منه اذ التقدير لا ينفع مال ولا بنون أحدا من الناس الا من كانت هذه صفته واختلف فى القلب السليم على أوجه قال الرازى أصحها أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والاخلاق الرذيلة الثانى انه الخالص من الشرك والنفاق وهو قلب المؤمن وجرى على هذا الجلال المحلى وأكثر المفسرين فان الذنوب قل أن يسلم منها أحد وهذا معنى قول سعيد بن المسيب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن فان قلب الكافر والمنافق مريض قال تعالى فى قلوبهم مرض الثالث انه الذى سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم الرابع انه هو اللديغ اى القلق المنزعج من خشية الله لكن قال الزمخشرى ان القولين الاخيرين من بدع التفاسير وقوله تعالى (وازلفت الجنة) حال من واو يبعثون ومعنى ازلفت قربت اى قربت الجنة (للمتقين) فتكون قريبة من موقف السعداء ينظرون اليها ويفرحون بانهم المحشورون اليها زيادة الى شرفهم (وبرزت الجحيم) اى كشفت وظهرت النار الشديدة (للغاوين) اى الكافرين فيرونها مكشوفة ويحشرون على انهم المسوقون اليها زيادة فى هوانهم * (تنبيه) * فى اختلاف الفعلين ترجيح لجانب الوعد على الوعيد حيث قال فى حق المتقين وأزلفت اى قربت وفى حق الغاوين وبرزت اى اظهرت ولا يلزم من الظهور القرب (وقيل لهم) تبكيتا وتنديما وتوبيخا وابهم القائل ليصلح لكل احد تصغيرا لهم ولان المراد نفس القول لا كونه

العراق تفاعل مع ان كلا
منهما لم يرالآخر لانه
تعالى أرسل فيما أبيض
لحال بينهما حتى منع
الرؤية (قلت) العراق

من معين (أينما) أى أين الذى (كنتم تعبدون) فى الدنيا من حقر معبوداتهم بقوله تعالى (من دون) أى من أدنى رتبة من رتب (الله) أى الملك الذى لا كفء له وكنتم تزعمون انهم يشفعون لكم ويقونكم شر هذا اليوم (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (او ينتصرون) بدفعه عن انفسهم (فكبكبوا) أى فتسبب عن عجزهم ان القوا (فيها) أى فى مهواة الجحيم (هم) أى الاصنام وما شابهها من الشياطين ونحوهم (والغاوون) أى الذين ضلوا بهم والكبكبة تكرار الكب لتكرير معناه كأن من ألقى فى النار ينكب مرة بعد اخرى حتى يستقر فى قعرها وقال الزجاج طرح بعضهم فوق بعض وقال القتيبى القوا على رؤسهم (وجنود ابليس) وهم اتباعه ومن اطاعه من الانس والجن وقيل ذريته (اجمعون) ولما لم يتمكنوا من قول فى جواب استفهامهم قبل القائهم (قالوا) أى العبدة (وهم فيها) أى الجحيم (يختصمون) أى مع المعبودات وقولهم (تالله) أى الذى له جميع الكمال (ان كنا لفى ضلال مبين) أى ظاهر جدا لمن كان له قلب سليم معمول القول وما بينهما وهو وهم فيها يختصمون جملة حالية معترضة بين القول ومعموله وقيل ان الاصنام تنطق وتخاصم العبدة ويؤيده الخطاب فى قولهم (اذ) أى حين (نسويكم برب العالمين) فى استحقاق العبادة * (تنبيه) * اذ منصوب اما بمبين او بمحذوف أى ضللنا فى وقت تسويتنا لكم بالله فى العبادة (وما اضلنا) أى ذلك الضلال المبين عن الطريق البين (الا المجرمون) أى الاولون الذين اقتدينا بهم من رؤسائنا وكبرائنا كما فى آية اخرى ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا وعن ابن جريج ابليس وابن آدم الاول وهو قابيل وهو اول من سن القتل وانواع المعاصى (فما) أى فتسبب عن ذلك انه ما (لنا) اليوم وزادوا فى تعميم النفى بزيادة الجارة فقالوا (من شافعين) يكونون سببا لادخالنا الجنة كالمؤمنين تشفع لهم الملائكة والنبيون (ولا صديق حميم) أى قريب يشفع لنا يقول ذلك الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون والصديق هو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما اهمك مع موافقة الدين وعن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الرجل ليقول فى الجنة ما فعل صديقى فلان وصديقه فى الجحيم فيقول الله تعالى اخرجوا له صديقه الى الجنة فيقول من بقى فى النار فما لنا من شافعين ولا صديق حميم قال الحسن استكثروا من الاصدقاء المؤمنين فان لهم شفاعة يوم القيامة (فان قيل) لم جمع الشافع ووحد الصديق (أجيب) بأن الشفعاء كثيرون فى العادة رحمة له وحسبة وان لم يسبق له بأكثرهم معرفة وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما أهمك قال الزمخشرى فاعز من بيض الانوق انتهى قال الجوهرى الانوق على فعول طير وهو الرخمة وفى المثل أعز من بيض الانوق لانها محرزة فلا يكاد يظفر بها لان أوكارها فى رؤس الجبال والاماكن الصعبة البعيدة وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال اسم لا معنى له أى لا يوجد ولما وقعوا فى هذا الهلاك وانتفى عنهم الخلاص تسبب عنه تمنيهم المحال فقالوا (فلو أن لنا كرة) أى رجعة الى الدنيا (فنكون من المؤمنين) أى الذين صار الايمان لهم وصفا لازما فازلفت لهم الجنة * (تنبيه) * انظر ما أحسن ما رتب ابراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر

يستعمل بمعنى التقابل كما فى خبر المؤمن والكافر لا يتراءيان أى لا يتدانيان ولا يتقابلان (قوله ما تعبدون) قاله فى قصة

ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الاقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم صور المسئلة فى نفسه دونهم حتى تخلص منها الى ذكر الله عز وجل فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وانشائه الى حين وفاته مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته ثم اتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الاوابين ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله تعالى وعقابه وما يدفع اليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة الى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا (ان فى ذلك) أى المذكور من قصة ابراهيم وقومه (لآية) اى عظة على بطلان الباطل وحقوق الحق (وما) أى والحال انه ما (كان أكثرهم) أى الذين شهدوا منهم هذا الامر العظيم الذى سمعوه عنه (مؤمنين) اى بحيث صار الايمان صفة لهم ثابتة وفى ذلك أعظم تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم (وان ربك) اى المحسن اليك بارسالك وهداية الامة بك (لهو العزيز) أى القادر على ايقاع النقمة بكل من خالفه حين يخالفه (الرحيم) اى الفاعل فعل الراحم فى امهاله العصاة مع ادرار النعم ودفع النقم وارسال الرسل ونصب الشرائع لكى يؤمنوا أو أحد من ذريتهم * ولما أتم سبحانه وتعالى قصة الاب الاعظم الاقرب ابراهيم عليه السلام أتبعها بقصة الاب الثانى وهو نوح عليه السلام وهى القصة الثالثة مقدما لها على غيرها لما له من القدم فى الزمان اعلاما بان البلاء قديم ولانها أدل على صفتى الرحمة والنقمة اللتين هما أثر الغرة بطول الاملاء لهم على طول مدتهم ثم تعميم النقمة مع كونهم جميع أهل الارض فقال (كذبت قوم نوح) وهم أهل الارض كلها من الآدميين قبل اختلاف الامم بتفرق اللغات (المرسلين) اى بتكذيبهم نوحا عليه السلام لانه اقام الدليل على نبوته بالمعجزة ومن كذب بالمعجزة فقد كذب بجميع المعجزات لتساوى اقدامها فى الدلالة على صدق الرسول وقد سئل الحسن البصرى عن ذلك فقال من كذب واحدا من الرسل فقد كذب الكل لان الاخير جاء بما جاء به الاول * (تنبيه) * القوم يؤنث باعتبار معناه ولذا يصغر على قويمة ويذكر باعتبار لفظه وتذكيره اشهر واختير التأنيث هنا للتنبيه على أن فعلهم أخس الافعال والى انهم مع عتوهم وكثرتهم كانوا عليه سبحانه وتعالى أهون شئ وأضعفه بحيث جعلهم هباء منثورا وكذا من بعدهم ولاجل التسلية عبر بالتكذيب فى كل قصة (اذ) أى حين (قال لهم أخوهم) أى فى النسب لا فى الدين (نوح) وذكر الاخوة زيادة فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وأشار تعالى الى حسن أدب نوح عليه السلام مع قومه واستجلابهم برفقه ولينه بقوله لهم (ألا تتقون) الله بان تجعلوا بينكم وبينه وبين الحفظة وقاية بطاعته بالتوحيد وترك الالتفات الى غيره ثم علل أهليته للامر عليهم بقوله (انى لكم) أى مع كونى أخاكم يسرنى ما يسركم ويسوءنى ما يسوءكم (رسول) أى من عند خالقكم فلا مندوحة لى عما أمرت به (أمين) أى مشهور بالامانة بينكم لا غش عندى كما تعاودن ذلك منى على طول خبرتكم لى ثم تسبب عن ذلك الرفق الجزم بالامر فقال (فاتقوا الله) أى أوجدوا الخوف والحذر والتحرز الذى اختص بالجلال والجمال لتحوزوا أصل السعادة فتكونوا من أهل الجنة (وأطيعون) فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته ثم نفى عن نفسه التهمة بعد أن أثبت أمانته بقوله (وما أسئلكم عليه) اى على هذا الحال الذى اتيتكم به واشار الى الاغراق فى النفى بقوله (من اجر)

ابراهيم هنا بدون ذكر ذا وفى والصافات بذكر لان ما لمجرد الاستفهام فاجابوا بقولهم نعبد أصناما وماذا فيه مبالغة تضمنه

لتظنوا انى جعلت الدعاء سببا لذلك ثم اكد النفى بقوله (ان) اى ما (اجرى) اى ثوابى فى دعائى لكم (الا على رب العالمين) اى الذى دبر جميع الخلائق وربا هم وقرأ نافع وابو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء فى اجرى فى المواضع الخمسة فى هذه السورة والباقون بالسكون ولما انتفت التهمة تسبب عن انتفائها اعادة ما قدمه اعلاما بالاهتمام به زيادة فى الشفقة عليهم فقال (فاتقوا الله) اى الذى حاز جميع صفات العظمة (واطيعون) ولما اقام الدليل على نصحه وامانته (قالوا) اى قومه منكرين عليه ومنكرين لاتباعه استنادا الى الكبر الذى ينشأ عنه بطر الحق وغمص الناس اى احتقارهم (انؤمن لك) اى لاجل قولك هذا وما اوتيته من اوصافك (و) الحال انه قد (اتبعك الارذلون) اى فيكون ايماننا بك سببا لاستوائنا معهم والرذالة الخسة والذلة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من اهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة والصناعة لاتزرى بالديانة وهكذا كانت قريش تقول فى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومازالت اتباع الانبياء كذلك حتى كادت من سماتهم واماراتهم الا ترى الى هرقل حين سال اباسفيان عن أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ضعفاء الناس واراذلهم قال مازالت أتباع الانبياء كذلك وعن ابن عباس هم الغاغة وعن عكرمة الحاكة والاساكفة وعن مقاتل السفلة * ولما كانت هذه الشبهة فى غاية الركاكة لان نوحا بعث الى جميع قومه فلا يختلف الحال بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب وخستها اجابهم بقوله (قال وما) اى اى شئ (علمى بما كانوا يعملون) قبل أن يتبعونى أى مالى وللبحث عن سرائرهم وانما قال هذا لانهم قد طعنوا مع استرذالهم فى ايمانهم وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وانما آمنوا هوى وبديهة كما حكى الله عنهم فى قوله الذين هم أراذلنا بادى الرأى ثم أكد انه لا يبحث عن بواطنهم بقوله (ان) أى ما (حسابهم) أى فى الماضى والآتى (الا على ربى) أى المحسن الى فهو محاسبهم ومجازيهم وأما أنا فلست بمحاسب ولا مجاز (لو تشعرون) اى لو كان لكم نوع شعور واعلم ذلك فلم تقولوا ما قلتم مما هو دائر على امور الدنيا فقط ولا نظر له الى يوم الحساب فان الغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى * ولما اوهم قولهم هذا استدعاء طرد هؤلاء الذين آمنوا معه وتوقيف ايمانهم عليه حيث جعلوا اتباعهم المانع عنه اجابهم بقوله عليه السلام (وما) اى ولست (انا بطارد المؤمنين) اى الذين صار الايمان لهم وصفا راسخا فلم يرتدوا عنه للطمع فى ايمانكم ولا لغيره من اتباع شهواتكم ثم علل ذلك بقوله (ان انا الا نذير) اى محذر لا وكيل فاتش على البواطن ولا متعنت على الاتباع (مبين) اوضح ما ارسلت به فلا ادع فيه لبسا وقرأ قالون بمد أنا فى الوصل بخلاف عنه والباقون بالقصر ولما اجابهم بهذا الجواب وقد ايسوا مما راموه ولم يكن منهم الا التهديد بان (قالوا لئن لم تنته) ثم سموه باسمه جفاء وقلة ادب بقولهم (يا نوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) قال مقاتل والكلبى من المقتولين بالحجارة وقال الضحاك من المشتومين فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم فلذلك (قال) شاكيا الى الله ما هو أعلم به منه توطئة للدعاء عليهم معرضا عن تهديدهم له صبرا واحتسابا لأنه من لازم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر (رب) اى ايها المحسن الى (ان قومى كذبون) اى فيما جئت به فليس الغرض من هذا اخبار الله تعالى

معنى التوبيخ فلما وبخهم لم يجيبوه زاد على التوبيخ فقال أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فذكر فى كل سورة

بالتكذيب

بالتكذيب لعلمه بانه عالم الغيب والشهادة ولكنه اراد لا ادعوك عليهم لما آذونى وانما ادعوك لاجلك ولاجل دينك ولانهم كذبوك فى وحيك ورسالتك (فافتح) اى احكم (بينى وبينهم فتحا) اى حكما يكون لى فيه فرج وبه من المضيق مخرج فاهلك المبطلين (ونجنى ومن معى) اى فى الدين (من المؤمنين) مما تعذب به الكافرين * ثم لما كان فى اهلاكهم وانجائه من بديع الصنع ما يجل عن الوصف اظهره فى مظهر العظمة بقوله تعالى (فانجيناه ومن معه) اى الذين اتبعوه فى الدين على ضعفهم وقلتهم (فى الفلك) اى السفينة وجمعه فلك قال الله تعالى وترى الفلك فيه مواخر فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن اسد وقال تعالى (المشحون) اى الموقور المملوء من الناس والطير والحيوان لان سلامة المملوء جدا اغرب * ولما كان اغراقهم كلهم من الغرائب عظمه باداة البعد فقال تعالى (ثم اغرقنا بعد) اى بعد انجاء نوح ومن معه (الباقين) اى من بقى على الارض ولم يركب معه فى السفينة على قوتهم وكثرتهم (ان فى ذلك) اى الامر العظيم من الدعاء والامهال ثم الانجاء والاهلاك (لآية) اى عظة لمن شاهد ذلك او سمع به (وما) اى والحال انه ما (كان اكثرهم) اى العالمين بذلك (مؤمنين) وقد كان ينبغى لهم اذ فاتهم الايمان بمحض الدليل ان يبادروا بالايمان حين رأوا اوائل العذاب (وان ربك) المحسن اليك بارسالك وتكثير أتباعك وتعظيم اشياعك (لهو العزيز) اى القادر بعزته على كل من قسرهم على الطاعة واهلاكهم فى أول أوقات المعصية (الرحيم) اى الذى يخص من شاء من عباده بخالص ووداده * ولما فرغ من ذكر قصة نوح عليه السلام شرع فى قصة هود عليه السلام وهى القصة الرابعة فقال تعالى (كذبت عاد) اى تلك القبيلة التى مكن الله تعالى لها فى الارض بعد قوم نوح (المرسلين) بالاعراض عن معجزة هود عليه السلام ثم سلى محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (اذ) اى حين (قال لهم أخوهم) أى فى النسب لا فى الدين (هود) بصيغة العرض تأدبا معهم وتلطفا بهم (ألا تتقون) أى يكون منكم تقوى لربكم الذى خلقكم فتعبدونه ولا تشركون به مالا يضركم ولا ينفعكم ثم علل ذلك بقوله (انى لكم رسول) أى فهو الذى حملنى على ان أقول لكم ذلك (أمين) اى لا أكتم عنكم شيئا مما أمرت به ولا أخالف شيئا منه (فاتقوا) أى فتسبب عن ذلك أنى أقول لكم اتقوا (الله) اى الذى هو أعظم من كل شئ (وأطيعون) اى فى كل ما آمركم به من طاعة الله وترك معاصيه ومخالفته * ثم نفى عن نفسه التهمة فى دعائه لهم بقوله (وما) اى والحال انى ما (أسئلكم عليه) اى دعائى لكم (من أجر) فتتهمونى به وانما أنا رسول داع (ان) أى ما (أجرى) اى ثوابى (الا على رب العالمين) فهو الذى يثيب العبد على عمله * ولما فرغ من دعائهم الى الايمان أتبعه انكار بعض ما هم عليه لان حالهم حال الماحى لذلك الطوفان الذى أهلك الحيوان وأهدم البنيان بقوله لهم (أتبنون بكل ريع) جمع ريعة وهو فى اللغة المكان المرتفع ومنه قولهم كم ريع أرضك وهو ارتفاعها وقال ابن عباس الريع كل شرف وقال مجاهد هو الفج بين الجبلين وقال الضحاك هو كل طريق (آية) اى علامة على شدتكم لانه لو كان لهداية أو نحوها لكفى بعض ذلك ولكنكم (تعبثون) بمن يمر فى الطريق الى هود عليه السلام وتسخرون منه والجملة حال من ضمير تبنون وقيل كانوا يبنون الاماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم فنهوا عن ذلك ونسبوا الى العبث وقال سعيد بن

(قوله ما يناسب ما ذكر فيها (الى قوله ثم الذى خلقنى) الذى يعين زاده وعقب الذى فى الاطعام والسقى لانهما مما يصدران من الانسان عادة فيقال زيد يطعم ويسقى

جمع برج هي بروج الحمام لانهم كانوا يلعبون بالحمام ثم ذكرهم بزوال الدنيا بقوله (وتتخذون مصانع) قال مجاهد قصورا مشيدة وقال الكلبي هي الحصون وقال قتادة هي مآخذ الماء يعني الحياض واحدها مصنعة ولما كان هذا الفعل حال الراجي للخلود قال لهم (لعلكم) أي كأنكم (تخلدون) فيها فلا تموتون ثم بين لهم أفعالهم الخبيثة بقوله (واذا بطشتم) أي أردتم البطش بأحد بضرب أو قتل (بطشتم جبارين) أي من غير رأفة قال البغوي والجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب * (تنبيه) * انما قدرنا الارادة لئلا يتحد الشرط والجزاء وجبارين حال ولما خوفهم هود عليه السلام بهذا الانكار وهو أن اتخاذ الابنية العالية يدل على حب الدنيا واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو وهي ممتنعة الحصول للعبد خوفهم بهذا الانكار عقاب الجبار تسبب عن ذلك قوله (فاتقوا الله) أي الذي له صفات الجلال والاكرام (وأطيعون) زيادة في دعائهم الى الآخرة وزجر لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالشرف والتجبر ثم وصل هذا الوعظ بما يؤكد القبول بأن نبههم على نعم الله تعالى عليهم بقوله (واتقوا الذي أمدكم) أي جعل لكم مددا وهو اتباع الشيء ما يقوي به على الانتظام (بما تعلمون) أي ليس فيه نوع خفاء حتى تتعللوا عن تقييده بالشكر ثم فصل ذلك المجمل بقوله (أمدكم بانعام) نعينكم على الاعمال وتأكلون منها وتبيعون (وبنين) يعينونكم على ما تريدون عند العجز (وجنات) أي بساتين ملتفة الاشجار بحيث تستر داخلها (وعيون) أي أنهارا تشربون منها وتسقون أنعامكم وبساتينكم ثم خوفهم بقوله (اني أخاف عليكم) قال ابن عباس ان عصيتموني أي فانكم قومي يسوءني ما يسوءكم (عذاب يوم عظيم) في الدنيا والآخرة فانه كما قدر على الانعام فهو قادر على الانتقام وتعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب * ولما بالغ عليه السلام في وعظهم وتنبيههم على نعم الله تعالى حيث أجملها ثم فصلها مستشهدا بعلمهم وذلك انه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال أمدكم بما تعلمون ثم عددها عليهم وعرفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته وانه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة قادر على الانتقام منكم ولم يقدروا الله تعالى حق قدره (قالوا) له راضين بما هم عليه (سواء علينا أوعظت) أي خوفت وحذرت (أم لم تكن من الواعظين) فانا لا نرعوي عما نحن فيه (فان قيل) لو قيل أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد (أجيب) بأن ذلك لتواخي القوافي أو لان المعنى ليس واحدا بل بينهما فرق لان المراد سواء علينا فعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ وقرأ قوله تعالى (ان) أي ما (هذا) أي الذي جئتنا به (الا خلق الاولين) نافع وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الخاء واللام أي ما هذا الذي نحن فيه الا عادة الاولين في حياة ناس وموت آخرين وعافية قوم وبلاء آخرين وقرأ الباقون بفتح الخاء وسكون اللام أي ما هذا الا كذب الاولين (وما نحن بمعذبين) أي على ما نحن عليه لانا أهل قوة وشجاعة ونجدة وبلاغة وبراعة ولما تضمن هذا التكذيب تسبب عنه قوله تعالى (فكذبوه) ثم تسبب عن تكذيبهم قوله تعالى (فاهلكناهم) في الدنيا بريح صرصر وسيأتي بيانه ان شاء الله تعالى في سورة الحاقة (ان في ذلك) أي الاهلاك في كل قرن للمكذبين والانجاء للمصدقين (لآية) أي عظيمة لمن بعدهم

قد كرنا كهذا اعلامات ذلك منه تعالى لا من غيره بخلاف الخلق والموت والحياة فلا تصدر من غير الله ويجوز في الذي خلق في النصب نعتا للرب

على أنه تعالى فاعل ذلك وحده وانه مع أوليائه ومن كان معه لا يذل وانه على أعدائه ومن كان عليه لا يعز (وما كان أكثرهم) أى أكثر من كان بعدهم (مؤمنين) أى فلا تحزن أنت يا أشرف الرسل على من أعرض عن الايمان (وان ربك) أى المحسن اليك بارسالك وغيره من النعم (لهو العزيز) فى انتقامه ممن عصاه (الرحيم) فى انعامه واكرامه واحسانه مع عصيانه وكفرانه وارسال المرسلين وتأييدهم بالآيات المعجزة * ثم اتبع قصة هود عليه السلام قصة صالح عليه السلام وهى القصة الخامسة بقوله تعالى (كذبت ثمود) وهم أهل الحجر (المرسلين) وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار المثناة عند المثلثة والباقون بالادغام وأشار تعالى الى زيادة التسلية بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تأمل ولا توقف بقوله تعالى (اذ) أى حين (قال لهم أخوهم) أى فى النسب لا فى الدين (صالح) بصيغة العرض تأدبا معهم وتلطفا بهم كقول من تقدم قبله (ألا تتقون) الله ثم علل ذلك بقوله (انى لكم رسول) من رب العالمين فلذلك عرضت عليكم هذا لانى مأمور بذلك (أمين) فى جميع ما أرسلت به اليكم من خالقكم الذى لا أحد أرحم منه بكم ثم تسبب عن قوله انى لكم رسول قوله (فاتقوا الله) أى الذى له الغنى المطلق (وأطيعون) فيما أتيت به من عند الله ثم نفى عنه ما قد يتوهم ممن لا عقل له بقوله (وما أسئلكم عليه) أى ما جئتكم به واغرق فى النفى بقوله (من أجر) ثم زاد فى تأكيد هذا النفى بقوله (ان) أى ما (أجرى) على أحد (الا على رب العالمين) فهو المتفضل المنعم على خلقه ثم شرع ينكر عليهم أكل خيره وعبادة غيره بقوله (أتتركون) أى من أيدى النوائب التى لا يقدر عليها الا الله تعالى (فى ما ههنا) أى فى بلادكم هذه من النعم حالة كونكم (آمنين) لا تخافون وأنتم تبارزون الملك القهار بالعظائم * (فائدة) * تكتب فى ما ههنا فى مقطوعة عن ما ثم فسر ما أجمله بقوله (فى جنات) أى بساتين تستر الداخل فيها وتخفيه لكثرة أشجارها (وعيون) تسقيها مع ما لها من البهجة وغير ذلك من المنافع (وزروع) أى من سائر الانواع (ونخل طلعها) أى ما يطلع منها من الثمر (هضيم) قال ابن عباس هو اللطيف ومنه قولهم كشح هضيم وقيل هو الجواد الكريم من قولهم يد هضوم اذا كانت تجود بما لديها وقال أهل المعانى هو المنضم بعضه الى بعض فى وعائه قبل أن يظهر والطلع عنقود الثمر قبل خروجه من الكم وقال الزمخشرى الطلع هو الذى يطلع من النخلة كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو والقنو هو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه (فان قيل) لم قال ونخل بعد قوله فى جنات والجنة تتناول النخل أول شئ كما يتناول النعم الابل كذلك من بين الازواج حتى انهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون الا النخيل كما يذكرون النعم ولا يريدون الا الابل قال زهير تسقى جنة سحقا * وسحقا جمع سحوق ولا يوصف به الا النخل (أجيب) بوجهين أحدهما أنه خص النخل بافراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على انفراده عنها بفضله عليها الثانى أن يريد بالجنات غيرها من الشجر لان اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل * ولما ذكر ما أنعم الله تعالى به عليهم أتبعه أفعالهم الخبيثة بقوله (وتنحتون) أى والحال أنكم تنحتون اظهارا للقدرة (من الجبال) وقرأ (بيوتا) ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بكسرها وقرأ (فرهين) ابن عامر والكوفيون بألف بعد الفاء أى حاذقين وقرأ الباقون بغير ألف أى

العالمين او بدلا أو عطف بيان او باضمار اعنى والرفع خبر الضمير أى هو الذى او مبتدا خبره الجملة بعده ودخلت عليه الفاء على مذهب الاخفش من جواز

بطرين لا لحاجتكم الى شيء من ذلك (فاتقوا) أي فتسبب عن ذلك أني أقول لكم اتقوا (الله) الذي له جميع العظمة بأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية باتباع أوامره واجتناب زواجره (وأطيعون) أي في كل ما أمرتكم به عنه فاني لا آمركم الا بما يصلحكم (ولا تطيعوا أمر المسرفين) أي المجاوزين للحدود وقال ابن عباس المشركين وقال مقاتل هم التسعة الذين عقروا الناقة * (تنبيه) * استعير الطاعة التي هي انقياد للآمر لامتثال الامر أو جعل الامر مطاعا على المجاز الحكمي والمراد الآمر ومنه قولهم لك علي أمرة مطاعة وقوله تعالى وأطيعوا أمري * ثم وصف المسرفين بما بين سرفهم بقوله (الذين يفسدون في الارض) بالمعاصي (ولا يصلحون) أي ولا يطيعون الله في أمرهم به (فان قيل) فما فائدة ولا يصلحون بعد قوله يفسدون (أجيب) بأن في ذلك دلالة على خلوص فسادهم فليس فيه شيء من الصلاح كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطا ببعض الصلاح * ولما عجزوا عن الطعن في شيء مما دعاهم اليه عدلوا الى التخييل على عقول الضعفاء بأن (قالوا انما أنت من المسحرين) قال مجاهد وقتادة من المسحورين المخدوعين أي ممن سحر مرة بعد مرة أي حتى غلب على عقله وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أي من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب ولست بملك وعلى هذا يكون قولهم (ما أنت الا بشر مثلنا) تأكيدا له قيل المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة أي فما وجه خصوصيتك عنا بالرسالة (فأت بآية) أي علامة تدل على صدقك (ان كنت من الصادقين) أي الراسخين في الصدق فقال لهم صالح ما تريدون قالوا نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبا فأخذ صالح يتفكر فقال له جبريل صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها في العظم وعن أبي موسى رأيت مصدرها فاذا هو ستون ذراعا فلما رآها (قال) لهم صالح (هذه ناقة) أخرجها ربي من الصخرة كما اقترحتم (لها شرب) أي نصيب من الماء في يوم معلوم (ولكم شرب يوم) أي نصيب من الماء في يوم (معلوم) لا زحام بينكم وبينها وعن قتادة اذا كان يوم شربها شربت ماءهم ولا تشرب في يومهم ماء (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر ثم خوفهم بما تسبب عن عصيانهم بقوله (فيأخذكم) أي بسببكم (عذاب يوم عظيم) بسبب ما حل فيه من العذاب فهو أبلغ من وصف العذاب بالعظيم وأشار الى سرعة عصيانهم بفاء التعقيب في قوله (فعقروها) أي قتلوها بضرب ساقها بالسيف وأسند العقر الى كلهم لان عاقرها انما عقر برضاهم فكأنهم فعلوا ذلك (فأصبحوا) أي فتسبب عن عقرهم لها أنهم أصبحوا حين رأوا مخايل العذاب (نادمين) على عقرها من حيث انه يفضي الى العقاب والهلاك لا من حيث انه معصية الله ورسوله وليس على وجه التوبة أو كان ذلك عند رؤية البأس فلم ينفعهم (فأخذهم العذاب) أي العذاب الموعود على عقرها (ان في ذلك) أي ما تقدم في هذه القصة من الغرائب (لآية) أي دلالة عظيمة على صحة ما أمروا به عن الله (وما) أي والحال انه مع ذلك ما (كان أكثرهم مؤمنين) بل استمروا على ما هم عليه (وان ربك) أي المحسن اليك بأحسن الاخلاق (لهو العزيز) أي فلا يخرج شيء عن قبضته وارادته (الرحيم) أي في كونه لم يهلك أحدا حتى يرسل اليهم رسولا يبين لهم ما يرضيه الله تعالى وما يسخطه * ثم أتبع قصة صالح عليه السلام قصة

ودخولها على خبر المبتدا نحو زيد فاضربه وقيل دخلت عليه لما تضمنه المبتدأ من معنى الشرط لكونه موصولا ورد بان الموصول هنا معين لا عام

لوط

لوط عليه السلام وهي القصة السادسة فقال (كذبت) أي كتكذيب من تقدم كأنهم تواصوا به (قوم لوط المرسلين) لان من كذب رسولا كما مضى فقد كذب الكل ثم بين اسراعهم في الضلال بقوله تعالى (اذ) أي حين (قال لهم أخوهم) أي في البلد لا في الدين ولا في النسب لانه ابن أخي ابراهيم عليهما السلام وهما من بلاد الشرق من أرض بابل وكأنه عبر بالاخوة لاختياره لمجاورتهم ومناسبتهم بمصاهرتهم واقامته بينهم في مدينتهم مدة مديدة وسنين عديدة واتيانه بالاولاد من نسلهم مع موافقته لهم في انه قروي ثم بينه بقوله تعالى (لوط) بصيغة العرض كغيره مما تقدم (ألا تتقون) الله فتجعلون بينكم وبين سخطه وقاية ثم علل ذلك بقوله (اني لكم) أي خاصة (رسول) فلا تسعني المخالفة (أمين) لا غش عندي ولا خيانة ثم تسبب عن ذلك قوله (فاتقوا الله) أي الملك العظيم فانه قادر على ما يريد فلا تعصوه (وأطيعون) أي لان طاعتي سبب نجاتكم لاني لا آمركم الا بما يرضيه ولا أنهاكم الا عما يغضبه ثم نفى عن نفسه ما يتوهم كما تقدم لغيره بقوله (وما أسئلكم عليه) أي الدعاء الى الله تعالى (من أجر) أي فتتهموني بسببه (ان أجري الا على رب العالمين) أي المحسن اليكم بايجادكم ثم بتربيتكم ثم وبخهم ووعظهم بقوله (أتأتون الذكران) وقوله (من العالمين) يحتمل عوده الى الآتي أي أنتم من جملة العالمين مخصوصون بهذه الصفة وهي اتيان الذكور ولم يفعل هذا الفعل غيركم من الناكحين من الخلق ويحتمل عوده الى المأتي أي انتم اخترتم الذكران من العالمين كالاناث منهم وعلى هذا يحتمل أن يراد الذكران من الآدميين ومن غيرهم توغلا في الشر وتجاهرا بالتهتك قال البقاعي وان يراد الآدميون وجرى عليه البغوي وأكثر المفسرين أي تريدون الذكران من أولاد آدم مع كثرة الاناث وغلبتهن (وتذرون) أي تتركون لهذا الغرض (ما خلق لكم) أي للنكاح (ربكم) أي المحسن اليكم وقوله (من أزواجكم) يصلح أن يكون تبيينا أي وهن الاناث وأن يكون للتبعيض ويكون المخلوق لذلك هو القبل وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم ثم كأنهم قالوا نحن لم نترك نساءنا أصلا ورأسا وان كانوا قد فهموا ان مراده تركهن حال الفعل في الذكور فقال مضربا عن مقالهم لما أرادوا به حيدة عن الحق وتماديا في الفجور (بل أنتم قوم عادون) أي متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل والحيوانات أو مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذلك أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمة ﴿ ولما اتضح الحق عندهم وعرفوا ان لا وجه لهم في ذلك وانقطعت حجتهم (قالوا) مقسمين (لئن لم تنته) وسموه باسمه جفاء وغلظة بقولهم (يا لوط) أي عن مثل انكارك هذا علينا (لتكونن من المخرجين) أي ممن أخرجناه من بلدنا على وجه فظيع من تعنيف واحتباس أملاك كما هو حال الظلمة اذا أجلوا بعض من يغضبون عليه وكما كان يفعل بعض أهل مكة بمن يريد المهاجرة وفي هذا اشارة الى أنه غريب عندهم وأن عادتهم المستمرة نفي من اعترض عليهم (قال) مجيبا لهم (اني) مؤكدا لمضمون ما يأتي به (لعملكم من القالين) أي المبغضين غاية البغض لا أقف عن الانكار عليه بالايعاد ﴿ (تنبيه) ﴿ قوله من القالين أبلغ من أن يقول اني لعملكم قال كما تقول فلان من العلماء فيكون أبلغ من قولك فلان عالم لانك تشهد له بكونه معدودا في زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم والقلى البغض الشديد

(قوله وإذا مرضت) لم يقل أمرضني كما قال قبله خلقني ويهدين لانه كان في معرض الثناء على الله تعالى وتعداد نعمه فاضاف ذلك اليه تعالى ثم أضاف

البغض بقلى الفؤاد والكبد والقالى المبغض كما قال القائل

و والله مافارقتكم قاليا لكم * ولكن ما يقضى فسوف يكون

ثم انه عليه السلام دعا الى الله تعالى بقوله (رب نجنى وأهلى) وقوله (مما يعملون) يحتمل أن يريد من عقوبة عملهم قال الزمخشري وهو الظاهر و يحتمل أن يريد بالتنجية العصمة ثم ان الله تعالى قبل دعاءه كما قال تعالى (فنجيناه وأهله) مما عذبناهم به باخراجنا له من بلدهم حين استحقاقهم له ولم نؤخره عنهم الى حين خروجهم الالاجله وأكد بقوله تعالى (أجمعين) اشارة الى أنه نجى أهل بيته ومن تبعه على دينه ثم استثنى تعالى من أهل بيته قوله تعالى (الا عجوزا) وهى امرأته كائنة (فى) حكم (الغابرين) أى الماكثين الذين تلحقهم الغبرة بما يكون من الداهية فانها لم تنجها القضاء له بذلك فى الازل لكونها لم تتابعه فى الدين ولم تخرج معه وكانت مائلة الى القوم راضية بفعلهم وقيل انها خرجت فاصابها حجر فى الطريق فاهلكها (فان قيل) كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة فكيف استثنيت الكافرة منهم (أجيب) بأن الاستثناء انما وقع من أهل بيته كما مرت الاشارة اليه وفى هذا الاسم لها معهم مشركة بحق الزواج وان لم تشاركهم فى الايمان (فان قيل) فى الغابرين صفة لها كأنه قيل الا عجوزا فى الغابرين غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم (أجيب) بان معناه الا عجوزا مقدرا غبورها أو فى حكمهم كما مرت الاشارة اليه (ثم دمرنا) أى أهلكنا (الآخرين) أى المؤخرين عن اتباع لوط وفى التعبير بلفظ الآخرين اشارة الى تاخرهم من كل وجه ثم لما كان المراد بقوله تعالى دمرنا حكمنا بتدميرهم عطف عليه قوله (وأمطرنا عليهم مطرا) قال وهب بن منبه الكبريت والنار وقال قتادة أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة من السماء فاهلكتهم (فساء مطر المنذرين) اللام فيه للجنس حتى يصح وقوع المضاف الى المنذرين فاعل ساء وذلك لان فاعل فعل الذم أو المدح يجب ان يكون معرفا بلام الجنس أو مضافا الى المعرف بلام الجنس ليحصل الابهام المقصود ثم التفصيل ولا ياتى ذلك فى لام العهد والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم (ان فى ذلك) أى انجاء لوط ومن معه واهلاك هؤلاء الكفار الفجار (لآية) أى دلالة عظيمة على ما يصدق الرسل فى جميع ترغيبهم وترهيبهم * ولما كان من أتى بعد هذه الامم كقريش ومن بعدهم قد علموا أخبارهم ونظروا الى تلك الاخبار نظر الديار والتوسم فى الآثار قال تعجبا من حالهم فى ضلالهم (وما) أى والحال أنه ما (كان أكثرهم مؤمنين) بما وقع لهؤلاء (وان ربك) وحده (لهو العزيز) أى فى بطشه لاعدائه (الرحيم) فى لطفه باوليائه * ثم أتبع قصة لوط عليه السلام بقصة شعيب عليه السلام وهى القصة السابعة قال تعالى (كذب أصحاب الايكة) أى الغيضة ذات الارض الجيدة التى تبتلع الماء فتنبت الشجر الكثير الملتف (المرسلين) لتكذيبهم شعيبا عليه السلام فيما أتى به من المعجزة المساوية فى خرق العادة وعجز المتحدين بها عن مقاومتها البقية المعجزات الآتى بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ليكة بلام مفتوحة من غير ألف وصل وياء ساكنة ولا همزة قبلها وفتح تاء التأنيث والباقون باسكان اللام وقبلها وصل وبعد اللام همزة مفتوحة بعدها ياء ساكنة وخفض تاء التأنيث قال أبو عبيدة وجدنا فى بعض التفاسير الفرق بين ليكة والايكة

المرض الى نفسه تادبا مع الله كما فى قول الخضر فاردت ان أعيبها وانما اضاف الموت الى الله تعالى فى قوله والذى يميتنى لكونه سببا للقائه الذى هو من أعظم

فقيل

فقيل ليكة هو اسم للقرية التى كانوا فيها والأيكة البلاد كلها فصار الفرق بينهما شبيها بما بين مكة وبكة ثم بين تعالى وقت تكذيبهم بقوله تعالى (اذ) أى حين (قال لهم شعيب) برفق ولطف (ألا تتقون) الله الذى تفضل عليكم بنعمه ولم يقل أخوهم شعيب لانه لم يكن من أهل الايكة فى النسب لانهم كانوا أهل بدو وكان عليه السلام قرويا لان الله تعالى لم يرسل نبيا الا من أهل القرى تشريفا لهم لان البركة والحكمة فى الاجتماع ولذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التعرب بعد الهجرة وقال من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة ولما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا لانه كان منهم وكان الله تعالى بعثه الى قومه أهل مدين وأصحاب الايكة ثم أكد ما قاله بقوله (انى) واشار الى تبشيرهم ان أطاعوه بقوله (لكم رسول) أى من عند الله فهو أمرنى أن أقول لكم ذلك (أمين) أى لا خيانة عندى ولا غش فلذلك أبلغ جميع ما أرسلت به ولذلك تسبب عنه قوله (فاتقوا الله) أى المحسن اليكم بهذه الفيضة وغيرها (وأطيعون) لما ثبت من نصحى لكم ثم ذكر ما ذكر من تقدمه من الانبياء من نفى ما يتوهم أن لهم رغبة فى أجرة على دعائهم فقال (وما أسئلكم عليه) أى دعائى لكم الى الايمان بالله تعالى (من أجر) ثم زاد فى البراءة من الطمع فى أحد من الخلق بقوله (ان) أى ما (أجرى الا على رب العالمين) أى المحسن الى الخلائق كلهم فانا لا أرجو أحدا سواه ثم نصحهم بقوله (أوفوا الكيل) أى أتموه اتماما لا شبهة فيه اذا كلتم كما توفونه اذا اكتلتم (ولا تكونوا من المخسرين) أى الناقصين لحقوق الناس فى الكيل والوزن كما قال تعالى ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون أى الكيل واذا كالوهم أى كالوا لهم أو وزنوهم أى وزنوا لهم يخسرون ينقصون الكيل أو الوزن (وزنوا) أى لانفسكم ولغيركم (بالقسطاس) أى الميزان الاقوم وأكد معناه بقوله (المستقيم) وقيل هو بالرومية العدل وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر القاف والباقون بالضم * (تنبيه) * الكيل على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذى هو الايفاء بقوله تعالى اوفوا الكيل ونهى عن المحرم الذى هو التطفيف بقوله تعالى ولا تكونوا من المخسرين ولم يذكر الزائد لانه ان فعله فقد أحسن وان لم يفعله فلا اثم عليه والوزن فى ذلك كالكيل ولهذا عمم فيما نهى عن النقص بقوله (ولا تبخسوا) أى تنقصوا (الناس أشياءهم) أى فى كيل أو وزن أو غير ذلك ثم اتبع ذلك بما هو أعم بقوله (ولا تعثوا) أى لا تتصرفوا (فى الارض) من غير تأمل حال كونكم (مفسدين) أى فى المال أو غير ذلك كقطع الطريق والقتل ثم خوفهم بعد أن وعظهم ونهاهم عن الفساد من سطوة الجبار ما حل بمن هو أعظم منهم بقوله (واتقوا الذى خلقكم) أى من نطفة فاعدامكم أهون شئ عليه وأشار الى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله (والجبلة) أى الجماعة والامم (الاولين) الذين كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة كأنهم الجبال قوة وصلابة لاسيما قوم هود الذين بلغت بهم الشدة حتى قالوا من أشد منا قوة وقد أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ثم انهم أجابوه بالقدح فى الرسالة أولا وباستصغار الوعيد ثانيا بان (قالوا انما أنت من المسحرين) أى الذين كرر سحرهم مرة بعد أخرى حتى اختلط وافصار كلامهم على غير نظام أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى فى صالح عليه السلام أى فانت بعيد من الصلاحية للرسالة

(قوله الا من أتى الله بقلب سليم) أى من الكفر والعصيان فينفعه ماله الذى أنفقه فى الخير وولده الصالح بدعائه كما جاء فى خبر اذا مات ابن آدم انقطع

ثم أشاروا الى عدم صلاحية البشر لهاء طلقا ولو كانوا أعقل الناس بقولهم (وما أنت الا بشر مثلنا) أى فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك وأتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين متناقضين منافيين للرسالة مبالغة فى تكذيبه ولهذا قالوا (وان نظنك لمن الكاذبين) أى فى دعواك *(تنبيه)* مذهب البصريين ان ان هذه هى المخففة من الثقيلة أى وانا نظنك والذى يقتضيه السياق ترجيح مذهب الكوفيين هنا فى أن ان نافية فانهم أرادوا باثبات الواو فى وما أنت المبالغة فى نفى ارساله بتعداد ما ينافيه فيكون مرادهم أنه ليس انا نظن يتوجه الى غير ذلك الكذب وهو أبلغ من اثبات الظن به ثم ان شعيبا عليه السلام كان توعدهم بالعذاب ان لم يؤمنوا فقالوا (فأسقط علينا كسفا) أى قطعا (من السماء) أى السحاب أو الحقيقة (ان كنت من الصادقين) أى العريقين فى الصدق المشهورين فيما بين أهله لنصدقك فيلزم من أمرك انا بانفاذ الوقاية من العذاب *(تنبيه)* انظر الى حسن نظر شعيب عليه السلام كيف هددهم بما لله عليهم من القدرة فى خلقهم وخلق من كانوا أشد منهم قوة وأهلاكهم بانواع العذاب لما عصوه بتكذيب رسلهم وقرأ حفص بفتح السين والباقون بالسكون وهنا همزتان مكسورتان فقالون والبزى يسهل الهمزة الاولى مع المد والقصر وأسقطها أبو عمرو مع المد والباقون بتحقيق الاولى (قال) لهم شعيب فى جوابهم (ربى أعلم بما تعملون) فيجازيكم به فان شاء عجل لكم العذاب وان شاء أخره الى أجل معلوم وأما أنا فليس على الا البلاغ وأنا مأمور به فلم أخوفكم من نفسى ولا ادعيت قدرة على عذابكم فطلبكم ذلك منى مضموم الى ظلمكم بالتكذيب (فكذبوه) أى استمروا على تكذيبه (فأخذهم) أى فتسبب عن تكذيبهم ان أخذهم (عذاب يوم الظلة) وهى سحابة على نحو ما طلبوا من قطع السماء روى ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعا وسلط عليهم الرمض وهو شدة الحر مع سكون الريح فاخذ بانفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا شراب فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فاظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا وروى أن شعيبا بعث الى امتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فاهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة (انه كان عذاب يوم عظيم) وقدمنا أن تعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب (ان فى ذلك) أى الامر العظيم من الانجاء المطرد لكل رسول ومن أطاعه والاخذ المطرد لمن عصاه فى كل عصر بكل قطر بحيث لا يشذ من الفريقين انسان قاص ولا دان (لآية) أى دلالة واضحة عظيمة على صدق الرسل وأن يكونوا جديرين بتصديق العباد لهم فى جميع ما قالوه من البشائر والنذائر بان الله تعالى يهلك من عصاه وينجى من والاه لانه الفاعل المختار لما يريد (وما كان أكثرهم) أى أكثر قومك كما كان من قبلهم (مؤمنين) مع أنك قد أتيت قومك بما لا يكون معه شك لو لم يكن لهم بك معرفة قبل ذلك فكيف وهم عارفون بانك كنت قبل الرسالة أصدقهم لهجة واعظمهم أمانة وأغزرهم عقلا وأعلاهم همة وأبعدهم عن كل ذى دنس (وان ربك) أى المحسن اليك بكل ما يعلى شأنك ويوضح برهانك (لهو العزيز) فلا يعجزه احد (الرحيم) بالامهال لكى يؤمنوا أو أحد من ذريتهم وهذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديدا للمكذبين له (فان قيل)

عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له (قوله وأزلفت الجنة للمتقين) أى قربت (ان قلت) كيف قربت مع انها لم تنتقل من

كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر (أجيب) بأن كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلي بحق على أن نفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختتم بما اختتمت به ولأن في التكرير تقرير المعاني في الأنفس وتثبيتا لها في الصدور ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا بترديد ما يراد حفظه منها وكلما زاد ترديده كان أمكن في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الانصات للحق وقلوب غلف عن تدبره فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا أو يشق ذهنا أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدا وفي ذلك دلالة على أن البعثة مقصورة على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى ثوابه ويبعده عن عقابه وأن الأنبياء متفقون على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع مبرؤون عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية ولما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء عليهم السلام أتبعه بما يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وإنه) أي الذكر الذي أتاهم بهذه الأخبار وهم عنه معرضون وله تاركون (لتنزيل رب العالمين) أي الذي رباهم بشمول علمه وعظيم قدرته بما يعجز عن أقل شيء منه غيره (نزل به) أي نجوما على سبيل التدريج من الأفق الأعلى الذي هو محل البركات وعبر عن جبريل عليه السلام بقوله (الروح) دلالة على أنه مادة خير وأن الأرواح تحيا بما ينزله من الهدى وقال تعالى (الأمين) إشارة إلى كونه عليه السلام معصوما من كل دنس فلا يمكن منه خيانة (على قلبك) يا أشرف الرسل ففي هذا تقرير لحقية تلك القصص وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن الأخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحيا من الله تعالى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بتخفيف الزاي والروح الأمين برفعهما والباقون بتشديد الزاي والروح الأمين بنصبهما (فإن قيل) لم قال على قلبك وهو إنما نزل عليه (أجيب) بأنه ذكر ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ والرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغير ولأن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الأعضاء فمسخرة له ويدل على ذلك الكتاب والسنة والمعقول فمن الكتاب قوله تعالى نزل به الروح الأمين على قلبك واستحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب قال الله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ومن المعقول أن القلب إذا غشي عليه وقطع سائر الأعضاء لم يحصل به الشعور وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات وإذا فرح القلب أو حزن تغير حال الأعضاء عند ذلك ولأن المعاني الروحانية إنما تنزل أولا على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق ثم تتصعد منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المخيلة ولما كان السياق في هذه السورة للتحذير قال تعالى معللا للجملة التي قبله (لتكون من المنذرين) أي المخوفين المحذرين لمن أعرض عن الإيمان وفعل ما نهي عنه من المعاصي وقوله تعالى (بلسان عربي) يجوز أن يتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يتعلق بنزل فيكون المعنى

مكانها (قلت) فيه قلب أي وأزلفت المتقون إلى الجنة كما يقول الحاج إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا (قوله فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) جمع الشافع وأفرد

نزله باللسان العربي لينذر به لانه لو نزله باللسان الاعجمي لتجافوا عنه أصلا ولقالوا ما نصنع بما
لا نفهمه فيتعذر الانذار به قال ابن عباس لسان قرشي ليفهموا ما فيه ولما كان في العربي
ما قد يشكل على بعض العرب قال تعالى (مبين) أي بين في نفسه كاشف لما يراد منه غير تارك
لبسا عند من تدبره على ما يتعارفه العرب في مخاطباتها من سائر لغاتها بحقائقها ومجازاتها
على اتساع اراداتها وتباعد مراميها في محاوراتها وحسن مقاصدها في كناياتها واستعاراتها
ومن يحيط بذلك حق الاحاطة غير العليم الحكيم الخبير البصير ولما كان الاستكثار من الادلة
مما يسكن النفوس وتطمئن به القلوب قال تعالى (وانه) أي هذا القرآن أصوله وكثيرا من
قصصه وأمهات فروعه (لفي زبر) أي كتب (الاولين) كالتوراة والانجيل وقيل وانه أي
محمدا ونعته لفي كتب الاولين (أولم يكن لهم) أي لكفار مكة ذلك (آية) أي على صحة القرآن
أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية ورفع آية على أنها الاسم والخبر لهم
والباقون بالياء التحتية ونصب آية على أنها خبر وقوله تعالى (أن يعلمه) أي هذا الذي يأتي به
نبينا من عندنا هو واسمها (علماء بني اسرائيل) أي يعرفونه بنعته المذكور في كتبهم والمعنى أولم
يكن لهؤلاء المنكرين علم بني اسرائيل علامة ودلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأن
العلماء الذين كانوا من بني اسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم كعبد الله بن سلام وابن
يامين وثعلبة وأسد وأسيد قال الله تعالى واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا
من قبله مسلمين قال ابن عباس بعث أهل مكة الى اليهود بالمدينة فسألوهم عن محمد صلى الله
عليه وسلم فقالوا ان هذا لزمانه وانا نجد في التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه
* (فائدة) * خط في المصحف علماء بواو وقيل الالف على لغة من يميل الالف الى الواو وعلى هذه
اللغة كتبت الصلوة والزكوة والربوا قال الله تعالى (ولو نزلناه) أي القرآن على ما هو عليه
من الحكمة والاعجاز (على بعض الاعجمين) أي على رجل ليس بعربي اللسان أو بلغة العجم
(فقرأه عليهم) أي كفار مكة (ما كانوا به مؤمنين) لفرط عنادهم واستكبارهم أو لعدم فهمهم
واستنكافهم من اتباع العجم وقالوا ما نفقه قولك وجعلوه عذرا لجحودهم ونظيره ولو جعلناه
قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته * (تنبيه) * الاعجمين جمع أعجمي بياء النسب على التخفيف
بحذفها من الجمع ولكونه جمع أعجمي جمع جمع سلامة لانه حينئذ ليس من باب أفعل فعلاء
بخلاف ما لو كان جمع أعجم فان مؤنثه عجماء بوزن أفعل فعلاء وهو عند البصريين لا يجمع
هذا الجمع الا ضرورة كقوله * حلائل أسودين وأحمرينا * وقال ابن عطية جمع أعجم يقال
الاعجمون جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وان كان عربي النسب يقال له أعجم وذلك يقال
للحيوانات ومنه قوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار وأسند الطبري عن عبد الله بن
مطيع أنه كان واقفا بعرفة وتحته جمل فقال جملي هذا أعجم ولو أنه أنزل عليهم ما كانوا يؤمنون
ولما كان ذلك محل تعجب وكانه ربما ظن له أن الامر على خلاف حقيقته قرر مضمونه وحققه
بقوله تعالى (كذلك) أي مثل ادخالنا التكذيب به بقراءة الاعجم (سلكناه) قال ابن عباس
والحسن ومجاهد أدخلنا الشرك والتكذيب (في قلوب المجرمين) أي كفار مكة بقراءة النبي
صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أن الكل بقضاء الله تعالى وقدره وقيل الضمير في سلكناه عائد

الصديق لكثرة الشفعاء
عادة وقلة الصديق ولهذا
قال الشافعي رضي الله
عنه
لما في زمانك من ترجو مودته
ولا صديق اذا جار الزمان وفي

الى القرآن قال ابن عادل وهو الظاهر أى سلكناه فى قلوب المجرمين كما سلكناه فى قلوب المؤمنين ومع ذلك لم يجمع فيهم وفى جملة (لا يؤمنون به) وجهان أحدهما الاستئناف على جهة البيان والايضاح لما قبله والثانى أنها حال من الضمير فى سلكناه أى سلكناه غير مؤمن به أى من أجل ماجبلوا عليه من الاجرام وجعل على قلوبهم من الطبع والختام (حتى يروا العذاب الاليم) أى الملجئ للايمان فحينئذ يؤمنون حيث لا ينفعهم الايمان ويطلبون الامان حيث لا أمان ولما كان اتيان الشر فجأة أشد قال تعالى (فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) باتيانه (فيقولوا) أى تأسفا وانتسلاما وتلهفا فى تلك الحالة اعلامهم بانه لا طاقة به بوجه (هل نحن منظرون) أى مفسوح لنا فى آجالنا فنسمع ونطيع (فان قيل) مامعنى التعقيب فى فيأتيهم بغتة فيقولوا (أجيب) بأنه ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فى الوجود وانما المعنى ترتبها فى الشدة كأنه قيل لا يؤمنون بالقرآن حتى يكون رؤيتهم للعذاب مماهو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة مماهو أشد منه وهو سؤالهم النظرة مثال ذلك أن تقول لمن تعظه ان أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله فانه لا يقصد بهذا الترتيب ان مقت الله يوجد عقب مقت الصالحين وانما قصدك الى ترتيب شدة الامر على المسيء فانه يحصل له بسبب الاساءة مقت الصالحين مماهو أشد من مقتهم وهو مقت الله وترى ثم تقع فى هذا الاسلوب فيحل موقعها • ولما أوعدهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا الى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب قال الله تعالى (أفبعذابنا) أى وقد تبين لهم كيف أخذنا للامم الماضية والقرون الخالية والاقوام العاتية (يستعجلون) أى بقولهم أمطر علينا حجارة أسقط علينا كسفا من السماء ونحو ذلك (أفرأيت) أى هب أن الامر كما يعتقدون من طول عيشهم فى النعيم فاخبرنى (ان متعناهم) أى فى الدنيا برغد العيش وصافى الحياة (سنين ثم جاءهم) أى بعد تلك السنين المتطاولة والدهور المتواصلة (ما كانوا يوعدون) من العذاب (ما) أى أى شئ (أغنى عنهم) أى فيما أخذهم من العذاب (ما كانوا يمتعون) برفع العذاب أو تخفيفه أى لم يغن عنهم طول التمتع شيأ ويكون كأنهم لم يكونوا فى نعيم قط وعن ميمون بن مهران انه لقى الحسن فى الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظنى فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال له ميمون لقد وعظت فأبلغت (وما أهلكنا من قرية) أى من القرى السالفة بعذاب الاستئصال (الا لها منذرون) أى رسل لهم ومن تبعهم من أمته ومن سمعوا من الرسل بأخبارهم مع أممهم من قبلهم ثم علل الانذار بقوله تعالى (ذكرى) أى تنبيها عظيما على مافيه النجاة أو جعل المنذرين نفس الذكرى كما قال تعالى قد أنزلنا اليكم ذكرا رسولا وذلك اشارة الى امعانهم فى التذكير حتى صاروا اياه (وما كنا ظالمين) أى فى اهلاك شئ منها لانهم كفروا نعمتنا وعبدوا غيرنا بعد الاعذار اليهم ومتابعة الحجج ومواصلة الوعيد *(تنبيه)* الواو فى قوله وما كنا واو الحال من نون أهلكنا (فان قيل) كيف عزلت الواو عن الجملة بعد الا ولم تعزل عنها فى قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم (أجيب) بأن الاصل عزل الواو لان الجملة صفة لقرية واذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما فى قوله تعالى سبعة وثامنهم كلبهم • ولما كان الكفرة يقولون ان محمدا كاهن وما يتنزل عليه من جنس ماتتنزل به الشياطين أكذبهم الله سبحانه وتعالى بقوله (وما تنزلت به

وعش فريدا ولا تركن الى أحد فاقد نعيت فى فياك وكفى

(قوله الا تتقون) الى قوله العالمين ذكر فى خمسة مواضع هنا قصة نوح

الشياطين) أى ليكون سحرا أو كهانة أو شعرا أو أضغاث أحلام كما يقولون (وما ينبغى) أى وما يصح (لهم) أن يتنزلوا به (وما يستطيعون) أى التنزل به وان اشتدت معاجلتهم على تقدير أن يكون لهم قابلية لذلك ثم علل هذا بقوله تعالى (انهم عن السمع) أى لكلام الملائكة (لمعزولون) أى محجوبون بالشهب. ولما كان القرآن داعيا الى الله تعالى ناهيا عن عبادة غيره تسبب عن ذلك قوله تعالى (فلا تدع مع الله) أى الحائز لكمال الصفات (الها آخر فتكون) أى فيتسبب عن ذلك أن تكون (من المعذبين) من القادر على ما يريد بأيسر أمر وأسهله وهذا خطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لانه معصوم من ذلك قال ابن عباس يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق لدى وأعزهم على ولئن اتخذت الها غيرى لاعذبنك فيكون الوعيد أزجر له ويكون هو أقبل وروى محمد بن اسحق بسنده عن على رضى الله عنه أنه قال لما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم (وأنذر عشيرتك الاقربين) دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا على ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الاقربين وضقت بذلك ذرعا وعرفت أنى متى أناديهم بهذا الامر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءنى جبريل فقال يا محمد إلا تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك فاصنع لى صاعا من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرنى به ثم دعوتهم اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا دعانى بالطعام الذى صنعته فجئت به فلما وضعته تناول صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها فى نواحى الصحفة ثم قال كلوا بسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشئ من حاجة وايم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا وايم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بادره أبو لهب فقال سحركم محمد صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا على ان هذا الرجل قد سبقنى الى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل ان أكلمهم فأعد لنا الطعام مثل ما صنعت ثم اجمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعانى بالطعام فقدمته ففعل كما فعل بالامس فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا بنى عبد المطلب انى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله ان أدعوكم اليه فأيكم يوازرنى على أمرى ويكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم فأحجم القوم عنها جميعا فقلت وأنا أحدثهم سنا أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه قال فأخذ برقبتى ثم قال ان هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لابى طالب قد أمرك ان تسمع لعلى وتطيع وعن ابن عباس لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل اذا لم يستطع ان يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد ان تغير عليكم أكنتم مصدقى قالوا نعم ما جربنا عليك الا الصدق قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد قال أبو لهب تبا لك ما جمعتنا الا لهذا ثم قام فنزلت تبت أى خسرت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب وفى رواية فخرج رسول الله صلى الله عليه

وهود وصالح ولوط وشعيب
(قوله فاتقوا الله وأطيعون)
ذكره مكررا فى ثلاثة
مواضع فى قصة نوح
وهود وصالح تأكيدا (ان
قلت) لم خصت الثلاثة

وسلم حتى صعد الصفا فهتف ياصباحاه فقالوا من هذا فاجتمعوا اليه فقال أرأيتم ان أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي الى آخر ما مر وعن أبي هريرة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله هذه الآية فقال يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيأ يا بني عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيأ يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيأ يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيأ ويا فاطمة بنت محمد سلي ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيأ وروى أبو يعلى عن الزبير بن العوام أن قريشا جاءته فحذرهم وأنذرهم فسألوه آيات سليمان في الريح وداود في الجبال وعيسى في احياء الموتى ونحو ذلك وأن يسير الجبال ويفجر الانهار ويجعل الصخرة ذهبا فأوحى الله تعالى اليه وهم عنده فلما سرى عنه أخبرهم ان أعطي ما سألوه ولكنه ان أراهم فكفروا عوجلوا فاختار صلى الله عليه وسلم الصبر عليهم ليدخلهم الله باب الرحمة فلما كانت النذارة انما هي للمشركين أمر بضدها لاضدادهم بقوله تعالى (واخفض جناحك) أي لن غاية اللين وذلك لان الطائر اذا أراد أن يرتفع رفع جناحيه واذا أراد أن ينحط كسرهما وخفضهما فجعل ذلك مثلا في التواضع ومنه قول بعضهم

وأنت الشهير بخفض الجناح * فلا تك في رفعه أجدلا

ينهاه عن التكبر بعد التواضع (لمن اتبعك من المؤمنين) أي سواء كانوا من الاقربين أم من الابعدين (فان قيل) المتبعون للرسول هم المؤمنون والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما معنى قوله تعالى لمن اتبعك من المؤمنين (أجيب) بوجهين أحدهما أن تسميتهم قبل الدخول في الايمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك الثاني ان يريد بالمؤمنين المصدقين بالسنتهم وهم صنفان صنف صدق واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وصنف ما وجد منه الا التصديق فقط اما أن يكونوا منافقين أو فاسقين والفاسق والمنافق لا يخفض لهما الجناح فمن على هذا للتبعيض وان أريد عموم الاتباع فهي للتبيين واختلف في الواو في قوله تعالى (فان عصوك) على أوجه أحدها انه ضمير الكفار أي فان عصاك الكفار في أمرك لهم بالتوحيد الثاني انه ضمير العشيرة وهذا أقرب كما جرى عليه السلف والجلال المحلي الثالث انه ضمير المؤمنين أي فان عصاك المؤمنون في فروع الاسلام وبعض الاحكام بعد تصديقك والايمان برسالتك وهذا كما قال ابن عادل في غاية البعد (فقل) أي تاركا لما كنت تعاملهم من اللين (اني بريء) أي منفصل غاية الانفصال (مما تعملون) أي من العصيان الذي أنذرته منه القرآن (وتوكل) أي فوض في عصمتك ونجاتك وجميع أمورك (على العزيز) أي القادر على الدفع عنك والانتقام منهم (الرحيم) أي الذي نصرك عليهم برحمته وقرأ نافع وابن عامر فتوكل بالفاء على الابدال من جواب الشرط والباقون بالواو ثم أتبع الامر بالتوكل الوصف المقتضي لجميع أوصاف الكمال بقوله تعالى (الذي يراك) أي بصرا وعلما (حين تقوم) من نومك الى التهجد وقال مجاهد أي يراك أينما كنت وقال أكثر المفسرين كما قاله البغوي حين تقوم الى الصلاة أي من نوم أو غيره (و) يرى (تقلبك) في الصلاة قائما وقاعدا وراكعا وساجدا (في الساجدين) قال عكرمة عن ابن عباس أي في المصلين وقال مقاتل مع المصلين في الجماعة يقول يراك حين تقوم وحدك للصلاة

بالتأكيد دون قصة لوط وشعيب قلت اكتفاء عنه في قصة لوط بقوله اني لعملكم من القالين وفي قصة شعيب بقوله واتقوا

ويراك اذا صليت مع المصلين جماعة وقال مجاهد يرى تقلب بصرك في المصلين فانه كان يبصر من خلفه كما يبصر من امامه وروى أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم انى لأراكم من وراء ظهرى وقال عطاء عن ابن عباس أراد وتقلبك في أصلاب الانبياء من نبي الى نبي حتى أخرجك في هذه الامة وقيل ترددك في تصفح احوال المتهجدين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون وتستبطن سرائرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لآخرتهم كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير (انه هو) أى وحده (السميع) أى لجميع أقوالكم (العليم) أى بجميع ما تسرونه وتعلنونه من أعمالكم وشمول العلم يستلزم تمام القدرة فصار كأنه قال انه السميع البصير العليم القدير تثبيتا للتوكل عليه ولما بين سبحانه وتعالى أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين أكد ذلك بان بين أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يصح أن ينزلوا عليه من وجهين ذكرهما بقوله تعالى (هل أنبئكم) أى أخبركم خبرا جليلا نافعا فى الدين عظيم الجدوى فى الفرقان بين أولياء الرحمن واخوان الشيطان (على من تنزل) وتتردد (الشياطين) حين تسترق السمع ولما كان كأنه قيل نعم أشار الى أحد الوجهين بقوله تعالى (تنزل) على سبيل التدريج والتردد (على كل أفاك) أى كذاب (أثيم) أى فاجر مثل مسيلمة الكذاب وغيره من الكهنة وأشار الى ثانى الوجهين بقوله تعالى (يلقون السمع) أى الافاكون ٣ يلقون السمع الى الشياطين فيتلقون وحيهم اليهم أو يلقون المسموع من الشياطين الى الناس فيضمون اليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها كما جاء فى الحديث الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة ولا كذلك محمد صلى الله عليه وسلم فانه أخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وقد طابق كلها ويجوز أن يعود الضمير على الشياطين ومعنى القائهم السمع انصاتهم الى الملا الاعلى قبل ان يرجموا فيخطفون منهم بعض المغيبات ويوحونه الى أوليائهم أو يلقون الشئ المسموع الى الكهنة (وأكثرهم) أى الفريقين (كاذبون) أما الشياطين فانهم يسمعونهم مالم يسمعوا وأما الافاكون فانهم يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم (فان قيل) كيف قال وأكثرهم كاذبون بعد ما حكم عليهم أن كل واحد منهم أفاك (أجيب) بان الافاكين هم الذين يكثرون الكذب لانهم الذين لا ينطقون الا بالكذب فاراد ان هؤلاء الافاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى وأكثرهم مفتر عليه ولما قال الكفار لم لا يجوز أن يقال الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ثم انه تعالى فرق بين محمد عليه الصلاة والسلام وبين الكهنة ذكر ما يدل على الفرق بينه وبين الشعراء بقوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) أى الضالون المائلون عن السنن الاقوم الى كل فساد يجر الى الهلاك واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك بل هم الساجدون الباكون الزاهدون رضى الله تعالى عنهم وقرأ نافع بسكون التاء الفوقية وفتح الباء الموحدة والباقون بتشديد الفوقية وكسر الموحدة ولما قرر حال اتباعهم علم منه انهم هم أغوى منهم لتهتكهم فى شهوة اللقلقة باللسان حتى حسن لهم

الذى خلقكم لاستلزامه اه (قوله فى قصة صالح ما أنت الا بشر) قاله فيها بلا واو وقاله فى قصة شعيب بواو لانه هنا بدل عما قبله وثم معطوف

قوله أى الافاكون كذا بالنسخ والمناسب لما قبله أى الافاكون وقوله وأما الافاكون كذلك اه مصحح

على ما قبله وخصت الاولى بالبدل لان صالحا قال فى الخطاب فقالوا فى الجواب وأكثر شعيب فى الخطاب فأكثروا فى الجواب (قوله

الزور والبهتان دل على ذلك بقوله تعالى (ألم تر) أى تعلم (أنهم) أى الشعراء ومثل حالهم بقوله تعالى (فى كل واد) من أودية القول من المدح والهجو والتشبيب والرثاء والمجون وغير ذلك (يهيمون) أى يسيرون سير الهائم حائرين وعن طريق الحق حائدين كيفما جرهم القول انجروا من القدح فى الانساب والتشبيب بالحرم والهجو ومدح من لا يستحق المدح ونحو ذلك ولذلك قال تعالى (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) أى لانهم لا يقصدونه وانما ألجأهم اليه الفن الذى سلكوه فأكثر أقوالهم لا حقائق لها وقيل انهم يمدحون الجود والكرم ويحثون عليه ولا يفعلونه ويذمون البخل ويصرون عليه ويهجون الناس بأدنى شئ صدر منهم * (تنبيه) * قال المفسرون أراد شعراء الكفار كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر مقاتل أسماءهم فقال منهم عبد الله بن الزبعرى السهمى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى وأمية بن أبى الصلت الثقفى تكلموا بالكذب والباطل وقالوا نحن نقول كما قال محمد وقالوا الشعر واجتمع اليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين هجوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويروون عنهم قولهم فذلك قوله تعالى يتبعهم الغاوون وهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين وقال قتادة هم الشياطين ثم انه تعالى لما وصف شعراء الكفار بهذه الاوصاف استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجتنبون شعر الجاهلية ويهجون الكفار وينافحون عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك فقال تعالى (الا الذين آمنوا) أى بالله ورسوله (وعملوا) أى تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى التى شرعها الله تعالى ورسوله (وذكروا الله) مستحضرين ماله من الكمال (كثيرا) أى لم يشغلهم الشعر عن الذكر روى ان كعب بن مالك قال للنبى صلى الله عليه وسلم ان الله قد أنزل فى الشعر ما أنزل فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذى نفسى بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عمرة القضاء وابن رواحة يمشى بين يديه وهو يقول

خلوا بنى الكفار عن سبيله * اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهب الخليل عن خليله

فقال له عمر يا ابن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول شعرا فقال النبى صلى الله عليه وسلم خل عنه يا عمر فهى أسرع فيهم من نضح النبل وعن البراء ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم قريظة لحسان اهج المشركين فان جبريل معك وعن عائشة رضى الله عنها قالت ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اهجوا قريشا فانه أشد عليهم من رشق النبل فارسل الى ابن رواحة فقال اهجهم فلم يرض فارسل الى كعب بن مالك ثم أرسل الى حسان بن ثابت فقال حسان قد آن لكم أن ترسلوا الى هذا الاسد ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الاديم فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تعجل فان أبا بكر أعلم قريش بانسابها وان لى فيهم نسبا حتى يخلص لك نسبى فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله لقد أخلص لى نسبك والذى بعثك بالحق لأسلنك منهم كما يسل الشعر من العجين قالت عائشة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ان روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت

عن الله ورسوله قالت وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هجاهم حسان فشفى واشتفى قال حسان

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمدا برا حنيفا * رسول الله شيمته الوفاء
فان أبي ووالدتي وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء
فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء
وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس له كفاء

وورد في مدح الشعر عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان من الشعر حكمة وعن ابن عباس قال جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال هل معك من شعر أمية ابن أبي الصلت شئ قال نعم قال هيه فانشده بيتا فقال هيه حتى أنشده مائة بيت وعن جابر بن سمرة قال جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون شيأ من أمر الجاهلية فربما تبسم معهم وعن عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح وعن الشعبي كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة وعن ابن عباس انه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشده فروى انه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي واستنشده القصيدة التي أولها

أمن آل نعمى أنت غاد مبكر * غداة غد أم رائح فمهجر

فانشد ابن ربيعة القصيدة الى آخرها وهي قريبة من سبعين بيتا ثم ان ابن عباس أعاد القصيدة جميعا وكان حفظها بمرة واحدة * ثم بين سبحانه وتعالى حال المؤمنين على الشعر وهو انتصارهم من المشركين بقوله تعالى (وانتصروا) أي بهجوهم الكفار (من بعد ما ظلموا) بهجو الكفار اياهم لانهم بدؤا بالهجاء ثم أوعد شعراء المشركين وغيرهم من الكفار بقوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا) بالشرك وهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي منقلب) أي مرجع (ينقلبون) أي يرجعون بعد الموت قال ابن عباس الى جهنم والسعير وفي هذا تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الاطلاق والتعميم وفي أي منقلب ينقلبون من الابهام والتهويل وقد تلا أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد اليه هذه الآية اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها وروى الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الاول وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي تذكر فيها البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله أعطاني السبع مكان التوراة وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الشعراء كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وابراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب) ان قلت كيف أخذهم العذاب بعد ما ندموا على العذاب خيانتهم وقد قال صلى الله

سورة النمل مكية

وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية وألف ومائة وتسع وأربعون
كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفا

(بسم الله) الذي كمل علمه فبهرت حكمته (الرحمن) الذي عم بالهداية باوضح البيان (الرحيم) الذي من بجنات النعيم على من اتبع الصراط المستقيم (طس) قال ابن عباس هو اسم من أسماء الله عز وجل وقد سبق الكلام في حروف الهجاء عليه وقرأ حمزة والكسائي وشعبة بامالة الطاء والباقون بالفتح (تلك) أي هذه الآيات العالية المقام البعيدة المرام البديعة النظام (آيات القرآن) أي الكامل في قرآنيته الجامع للاصول الناشر للفروع الذي لا خلل فيه ولا فصم ولا صدع ولا وصم (وكتاب مبين) أي مظهر الحق من الباطل (فان قيل) كيف صح أن يشار لاثنين أحدهما مؤنث والآخر مذكر باسم الاشارة المؤنث ولو قلت تلك هند وزيد لم يجز (أجيب) من ثلاثة أوجه أحدها أن المراد بالكتاب هو الآيات لان الكتاب عبارة عن الآيات المجموعة فلما كانا شيأ واحدا صحت الاشارة اليهما باشارة الواحد المؤنث الثاني أنه على حذف مضاف أي وآيات كتاب مبين الثالث أنه لما ولي المؤنث ما تصح الاشارة به اليها اكتفي به وحسن ولو ولي المذكر لم يحسن ألا ترى أنك تقول جاءتني هند وزيد ولو أخرت هند لم يجز تانيث الفعل وقرأ ابن كثير بالنقل وصلا وابتداء وحمزة في الوقف لا غير والباقون بغير نقل وقوله تعالى (هدى وبشرى) يجوز أن يكونا منصوبين على المصدر بفعل مقدر من لفظهما أي يهدي هدى ويبشر بشرى وأن يكونا في موضع الحال من آيات والعامل فيهما ما في تلك من معنى الاشارة وأن يكونا خبرا بعد خبر وان يكونا خبري مبتدا مضمر أي هو هدى من الضلالة وبشرى (للمؤمنين) أي المصدقين به بالجنة كقوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما ولهذا اختص به المؤمنين وقيل المراد بالهدى الدلالة وانما خصه بالمؤمنين لانه ذكر مع الهدى البشرى والبشرى انما تكون للمؤمنين أو لانهم تمسكوا به كقوله تعالى انما أنت منذر من يخشاها أو لانه يزيد في هداهم كقوله تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ولما كان وصف الايمان خفيا وصفهم بما يصدقه من الامور الظاهرة بقوله تعالى (الذين يقيمون الصلوة) أي بجميع حدودها الظاهرة والباطنة من المواقيت والطهارات والشروط والاركان والخشوع والمراقبة والاحسان اصلاحا لما بينهم وبين الخالق (ويؤتون الزكوة) أي احسانا فيما بينهم وبين الخلائق (وهم بالآخرة هم يوقنون) أي يوجدون الايقان حق الايجاد بالاستدلال ويجددونه في كل حين بما يوجدمنهم من الاقدام على الطاعة والاحجام عن المعصية وأعيدهم لما فصل بينه وبين الخبر ولما أفهم التخصيص ان ثم من يكذب بها ذكره بقوله تعالى (ان الذين لا يؤمنون) أي لا يوجدون الايمان ولا يجددونه (بالآخرة زينا) أي بعظمتنا التي لا يمكن دفاعها (لهم أعمالهم) أي القبيحة بتركيب الشهوة حتى أعرضوا عن الخوف من عاقبتها مع ظهور قباحتها والاسناد اليه حقيقي عند أهل السنة لانه الموجد الحقيقي والى الشيطان مجاز سببي وعند المعتزلة بالعكس قال الزمخشري في تفسيره ان اسناده الى الشيطان حقيقة واسناده الى الله عز وجل مجاز (فهم) أي فتسبب عن ذلك أنهم (يعمهون) أي يتحيرون ويترددون في أودية الضلال ويتمادون في ذلك فهم كل لحظة في خبط جديد بعمل غير سديد

عليه وسلم الندم توبة (قلت) ندمهم كان بعد معاينة العذاب وهي ليست وقت التوبة كما قال تعالى وليست التوبة للذين يعملون

قوله فان قيل كيف صح الخ الظاهر ان الاشارة الى الآيات المؤنث المضاف للقرآن المعطوف عليه وكتاب فلا يرد ما قاله اه
مصححه

(أولئك) أى البعداء البغضاء (الذين لهم) أى خاصة (سوء العذاب) أى أشده فى الدنيا بالخوف والقتل (وهم فى الآخرة هم الاخسرون) أى أشد الناس خسارة لانهم خسروا اما الاخسارة مثله لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم * ولما وصف تعالى القرآن بما اقتضى بيان أهل الفوز والخسران ذكر حال المنزل عليه وهو النبى صلى الله عليه وسلم مخاطباله بقوله تعالى (وانك) أى وأنت يا اشرف الخلق وأعلمهم وأعظمهم واحكمهم (لتلقى القرآن) اى اتؤتاه وتلقنه اى يلقى عليك بشدة (من لدن) اى من عند (حكيم) اى بالغ الحكمة فلا شئ من أفعاله الا وهو فى غاية الاتقان (عليم) اى عظيم العلم واسعه تامه شامله والجمع بينهما مع أن العلم داخل فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل والاشعار بان علوم القرآن منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ماليس كذلك كالقصص والاخبار عن المغيبات ثم شرع فى بيان تلك العلوم بقوله تعالى (اذ قال موسى) أى اذكر قصته حين قال (لاهله) اى زوجته بنت شعيب عليه السلام عند مسيره من مدين الى مصر وهى القصة الاولى من قصص هذه السورة قال الزمخشرى روى أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته وقد كنى الله تعالى عنها بالاهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله امكثوا وكانا يسيران ليلا وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفى مثل هذا الحال يقوى الناس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة وأمن الطريق ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال (انى آنست) أى أبصرت ابصارا حصل لى به الانس وزال عنى الوحشة (نارا سآتيكم منها بخبر) أى عن حال الطريق وكان قد أضلها او عبر بلفظ الجمع كما فى قوله امكثوا (فان قيل) كيف جاء بسين التسويف (أجيب) بأن ذلك عدة لاهله انه يأتيهم به وان أبطأ الاتيان أو كانت المسافة بعيدة (فان قيل) قال هنا سآتيكم منها بخبر وفى سورة الآتية لعلى آتيكم منها بخبر وهما كالمتدافعين لان أحدهما ترج والآخر تيقن (أجيب) بأن الراجى قد يقول اذا قوى رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويز الحقيقة (أو آتيكم بشهاب قبس) أى شعلة نار فى رأس فتيلة أو عود قال البغوى وليس فى الطرف الآخر نار وقال بعضهم الشهاب شئ ذو نور مثل العمود والعرب تسمى كل شئ أبيض ذى نور شهابا والقبس القطعة من النار وقرأ الكوفيون بشهاب بالتنوين على أن القبس بدل منه أو وصف له لانه بمعنى المقبوس والباقون باضافة الشهاب اليه لانه يكون قبسا وغير قبس فهو من اضافة النوع الى جنسه نحو ثوب خز اذ الشهاب شعلة من النار والقبس قطعة منها يكون فى عود أو غيره كما مر (فان قيل) لم جاء بأو دون الواو (أجيب) بأنه بنى الرجاء على أنه ان لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده وما أدراه حين قال ذلك انه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعا وهما العزان عز الدنيا وعز الآخرة ثم انه عليه السلام علل اتيانه بذلك اذ هما لا انها ليلة باردة بقوله (لعلكم تصطلون) أى لتكونوا فى حال من يرجى أن يستدفئ بذلك من البرد والطاء بدل من تاء الافتعال من صلى بالنار بكسر اللام وفتحها (فلما جاءها) أى تلك التى ظنها نارا (نودى) من قبل الله تعالى (أن بورك) أن هى المفسرة لان النداء فيه معنى القول والمعنى قيل له بورك أو المصدرية أى بان بورك وقوله تعالى (من فى النار)

البينات وقيل كان ندمهم ندم خوف من العقاب العاجل لا ندم توبة فلم ينفعهم (قوله وأكثرهم الكاذبون) الضمير للافاكين

اى موسى (ومن حولها) أى الملائكة هو نائب الفاعل لبورك والاصل بارك الله من فى النار ومن حولها وهذا تحية من الله عز وجل لموسى بالبركة ومذهب أكثر المفسرين ان المراد بالنار النور وذكر بلفظ النار لان موسى حسبه نارا أو من فى النار هم الملائكة وذلك أن النور الذى رآه موسى عليه السلام كان فيه الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس ومن حولها هو موسى لانه كان بالقرب منها ولم يكن فيها وقال سعيد بن جبير كانت النار بعينها والنار احدى حجب الله تعالى كما جاء فى الحديث حجابه النار لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه الحديث ❁ (تنبيه) ❁ بارك يتعدى بنفسه وبحرف الجر يقال باركك الله وبارك عليك وبارك فيك وبارك لك وقال الشاعر

فبوركت مولودا وبوركت ناشئا ❁ وبوركت عند الشيب اذ أنت اشيب

قال الزمخشرى والظاهر انه عام فى كل من فى تلك الارض وفى ذلك الوادى وحواليهما من ارض الشام ولقد جعل الله تعالى ارض الشام الموسومة بالبركات لكثرة مبعث الانبياء وكفاتهم احياء وامواتا ومهبط الوحى عليهم وخصوصا تلك البقعة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام وقوله تعالى (وسبحان الله رب العالمين) من تمام ما نودى به لئلا يتوهم من سماع كلامه تشبيها وللتعجب من عظمة الله فى ذلك الامر فانه اتاه النداء كما ورد من جميع الجهات فسمعه بجميع الحواس أو تعجب من موسى لما دعاه من عظمته ❁ ولما تشوفت النفس الى تحقق الامر تصريحا قال تعالى تمهيدا لما اراد سبحانه اظهاره على يد موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات (ياموسى انه) اى الشان العظيم الجليل الذى لا يبلغ وصفه وجملة (انا الله) اى البالغ فى العظمة ما تقصر عنه الاوهام مفسرة له او المتكلم وانا خبر والله بيان له ثم وصف تعالى نفسه بوصفين يدلان على ما يفعله مع موسى عليه السلام احدهما (العزيز) اى الذى يصل الى سائر ما يريد ولا يرده عن مراده راد والثانى (الحكيم) اى الذى يفعل كل ما يفعله بحكمة وتدبير (فان قيل) هذا النداء يجوز ان يكون من عند غير الله تعالى فكيف علم موسى أنه من الله تعالى (اجيب) بانه سمع الكلام المنزه عن شائبة كلام المخلوقين لان النداء اتاه من جميع الجهات وسمعه بجميع الحواس كما مر فعلم بالضرورة انه صفة الله سبحانه وتعالى ثم ارى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام آية تدل على قدرته ليعلم علم شهود وهى قوله تعالى (وألق عصاك) فألقاها كما مر فصارت فى الحال كما آذنت به الفاء حية عظيمة جدا ومع كونها فى غاية العظم فى نهاية الخفة والسرعة فى اضطرابها عند محاولتها ما تريد (فلما رآها تهتز) أى تضطرب فى تحركها مع كونها فى غاية الكبر (كأنها جان) أى حية صغيرة فى خفتها وسرعتها فلا ينافى ذلك كبر جثتها (ولى) أى موسى عليه السلام ثم ان التولية مشتركة بين معان فلذا بين المراد منها بقوله تعالى (مدبرا) أى التفت هاربا منها مسرعا جدا لقوله تعالى (ولم يعقب) أى لم يرجع على عقبه ولم يلتفت الى ما وراءه بعد توليه ❁ (تنبيه) ❁ قال الزمخشرى وألق عصاك معطوف على بورك لان المعنى نودى أن بورك من فى النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير لنودى والمعنى قيل له بورك من فى النار وقيل له ألق عصاك انتهى وانما احتاج الى تقدير وقيل له ألق لتكون جملة خبرية مناسبة للجملة الخبرية التى عطفت عليها لانه يرى فى العطف تناسب الجمل المتعاطفة والصحيح كما قاله أبو حيان أنه لا يشترط ذلك ❁ ولما تشوفت النفس الى ما قيل له عند هذه الحالة أجيب بأنه قيل له

وهم الكذابون (فان قلت) كيف قال اكثرهم بعد ما حكم بان كل افاك اثيم اى فاجر (قلت) الضمير فى اكثرهم للشياطين

(يا موسى لا تخف) أى منها ولا من غيرها ثقة بى ثم علل هذا النهى بقوله تعالى مبشرا بالامن والرسالة (انى لا يخاف لدى) أى عندى (المرسلون) أى من حية وغيرها لانهم معصومون من الظلم ولا يخاف من الملك العدل الا الظالم وقوله تعالى (الا من ظلم) فيه وجهان أحدهما أنه استثناء منقطع لان المرسلين معصومون من المعاصى وهذا هو الصحيح والمعنى لكن من ظلم من سائر الناس فانه يخاف الا من تاب كما قال تعالى (ثم بدل) أى بتوبته (حسنا بعد سوء) وهو الظلم الذى كان عمله أى جعل الحسن بدل السوء كالسحرة الذين آمنوا بعد ذلك بموسى عليه السلام (فانى) أرحمه بسبب أنى (غفور) أى من شأنى أن أمحو الذنوب محوا يزيل جميع آثارها (رحيم) أى أعامله معاملة الراحم البليغ الرحمة والثانى أنه استثناء متصل وللمفسرين فيه عبارات قال الحسن ان موسى ظلم بقتل القبطى ثم تاب فقال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى وقال غيره ان ذلك محمول على ما يصدر من الانبياء من ترك الافضل وقال بعض النحويين الا ههنا بمعنى ولا أى لا يخاف لدى المرسلون ولا المذنبون التائبون كقوله تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا أى ولا الذين ظلموا * ثم أراه الله تعالى بعد هذه الآية آية أخرى ذكرها بقوله تعالى (وأدخل يدك فى جيبك) أى فتحة ثوبك وهو ما قطع منه ليحيط بعنقك وكان عليه مدرعة صوف لا كم لها وقيل الجيب القميص لانه يجاب أى يقطع (تخرج بيضاء) أى بياضا عظيما نيرا جدا له شعاع كشعاع الشمس وكانت الآية الاولى عصا فى يده يقلب جوهرها الى جوهر آخر حيوانى وهذه فى يده نفسها يقلب عرضها التى كانت عليه الى عرض آخر نورانى ثم نفى عنها ان يكون ذلك بسبب آفة بقوله تعالى (من غير سوء) اى برص ولا غيره من الآفات وقوله تعالى (فى تسع آيات) كلام مستأنف وحرف الجر فيه متعلق بمحذوف والمعنى اذهب فى تسع آيات (الى فرعون وقومه) كقول القائل

فقلت الى الطعام فقال منهم * فريق يحسد الانس الطعاما

ويجوز أن يكون بمعنى والق عصاك وادخل يدك فى تسع آيات وعدادهن ولقائل أن يقول كانت الآيات احدى عشرة آية ثنتان منها العصا واليد والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم وقيل فى بمعنى من أى من تسع آيات فتكون العصا واليد من التسع ثم علل ارساله اليهم بالخوارق بقوله تعالى (انهم كانوا قوما فاسقين) أى خارجين عن طاعتنا (فلما جاءتهم آياتنا) أى على يد موسى عليه السلام (مبصرة) أى بينة واضحة هادية الى الطريق الاقوم (قالوا هذا سحر) أى خيال لا حقيقة له (مبين) أى واضح فى أنه خيال (وجحدوا بها) أى أنكروا كونها آيات موجبات لصدقه مع علمهم ببطلانهم لان الجحود الانكار مع العلم (واستيقنتها أنفسهم) اى علموا أنها من عند الله تعالى وتخالج علمها صميم قلوبهم فكانت ألسنتهم مخالفة لما فى قلوبهم ولذلك أسند الاستيقان الى النفس ثم علل جحدهم ووصفهم لها بخلاف وصفها بقوله تعالى (ظلما وعلوا) اى شركا وتكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى (فانظر) يا أشرف الخلق (كيف كان عاقبة المفسدين) وهو الاغراق فى الدنيا بأيسر سعى وأيسر أمر فلم يبق منهم عين تطرف ولم

لا لأنا كاذبون ولو سلم فالانا كون هم الذين يكثرون الكذب لانهم الذين لا ينطقون الا بالكذب ٣

(سورة النمل)

٣ قوله ولو سلم الخ يتأمل فى ذلك اه مصححه

يرجع منهم مخبر على كثرتهم وعظمتهم وقوتهم والاحراق في الآخرة بالنار المؤبدة * القصة الثانية قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد آتينا) اي بما لنا من العظمة (داود وسليمان) ابنه وهما من اتباع موسى عليهم السلام وبعده بازمان متطاولة (علما) أي جزأ من العلم عظيما من منطق الطير والدواب وتسبيح الجبال وغير ذلك لم نؤته لاحد من قبلهما * ولما كان التقدير فعملا بمقتضاه عطف عليه قوله (وقالا) شكرا عليه ودلالة على شرف العلم وتنبيها لاهله على التواضع (الحمد) اى الاحاطة بجميع اوصاف الكمال (لله) أى الذى لا كفء له (الذى فضلنا) أى بما آتانا من النبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والانس وغير ذلك (على كثير من عباده المؤمنين) أى ممن لم يؤت علما أو مثل علمهما وفى ذلك تحريض للعالم أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله و يعتقد أنه وان فضل على كثير فقد فضل عليه كثير فلا يتكبر ولا يفتخر و يشكر الله تعالى و ينفع به المسلمين كما نفعه الله تعالى به ثم انه تعالى أشار الى فضل سليمان بانه جمع الى ما آتاه ما كان منح به اباه بقوله تعالى (وورث سليمان داود) أباه عليهما السلام دون سائر أولاده وكان لداود تسعة عشر ابنا فاعطى سليمان ما أعطى داود من الملك وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين قال مقاتل كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه وكان داود اشد تعبدا من سليمان وكان سليمان شاكرا لنعم الله تعالى عليه (وقال) تحدثا بنعمة ربه ومنبها على ما شرفه الله تعالى به ليكون أجدر فى قبول الناس ما يدعوهم اليه من الخير (يا أيها الناس علمنا) أى أنا وأبى بأيسر أمر وأسهله (منطق الطير) أى فهم ما يريده كل طائر اذا صوت فسمى صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه كما يفهم من كلام الناس روى عن كعب الاحبار أنه قال صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب * وصاحت فاختة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال فانها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول استغفروا الله يا مذنبين وصاح طيطوى فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول كل حى ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول قدموا خيرا تجدوه وهدرت حمامة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال فانها تقول سبحان ربى الاعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمرى فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول سبحان ربى الاعلى قال والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شئ هالك الا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربى القدوس ويقول ايضا سبحان ربى المذكور بكل لسان والبازى يقول سبحان ربى وبحمده وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال فانه يقول الرحمن على العرش استوى وروى عن فرقد السبخى قال مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لاصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل قالوا الله ونبيه أعلم قال يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وهو بالفتح والمد التراب وقال أبو عبيد هو الدروس وفى حديث صفوان اذا دخلت بيتى فاكلت رغيفة

(قوله تلك آيات القرآن وكتاب مبين) ان قلت الكتاب المبين هو القرآن فكيف عطفه عليه مع ان العطف يقتضى المغايرة (قلت) المغايرة تصدق بالمغايرة

وشربت عليه فعلى الدنيا العفاء وروى أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس انا سائلوك عن سبعة أشياء فان أخبرتنا آمنا وصدقنا قال اسألوا تفقها ولا تسألوا تعنتا قالوا أخبرنا ما يقول القنبر فى صفيره والديك فى صعيقه والضفدع فى نقيقه والحمار فى نهيقه والفرس فى صهيله وما يقول الزرزور والدراج قال نعم أما القنبر فيقول اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد وأما الديك فيقول اذكروا الله يا غافلين وأما الضفدع فيقول سبحان المعبود فى لجج البحار وأما الحمار فيقول اللهم العن العشار وأما الفرس فيقول اذا التقى الصفان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما الزرزور فيقول اللهم انى أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق وأما الدراج فيقول الرحمن على العرش استوى قال فأسلم اليهود وحسن اسلامهم ويروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن على قال اذا صاح النسر قال ابن آدم عش ما شئت آخره الموت واذا صاح العقاب قال فى البعد من الناس انس واذا صاح القنبر قال الهى العن مبغضى آل محمد واذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد ولا الضالين كما يمد القارئ وقول سليمان عليه السلام (وأوتينا من كل شئ) أى تؤتاه الانبياء والملوك قال ابن عباس من أمر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والانس والرياح (ان هذا) أى الذى أوتيناه (لهو الفضل المبين) أى البين فى نفسه لكل من ينظره الموضح لعلو قدر صاحبه روى أن سليمان أعطى ملك مشارق الارض ومغاربها فملك أربعين سنة وستة أشهر جميع أهل الدنيا من الجن والانس والدواب والطير والسباع وأعطى مع ذلك منطق الطير وفى زمانه صنعت الصنائع العجيبة فقوله ان هذا لهو الفضل المبين تقرير لقوله الحمد لله الذى فضلنا والمقصود منه الشكر والحمد كما قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر (فان قيل) كيف قال علمنا وأوتينا وهو كلام المتكبر (أجيب) بوجهين الاول أنه يريد نفسه وأباه كما مر الثانى أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا ولما كان هذا مجرد خبر أتبعه ما يصدقه بقوله تعالى (وحشر) أى جمع جمعا حتما بقهر وسطوة واكراه بأيسر أمر (لسليمان جنوده) ثم بين ذلك بقوله تعالى (من الجن) وبدأ بهم لعسر جمعهم ثم ثنى بقوله تعالى (والانس) لشرفهم ثم اتبع من يعقل بما لا يعقل بقوله (والطير) فقدم القسم الاول لشرفه ٣ وذلك كان فى مسير له فى بعض الغزوات (فهم) أى فتسبب عن مسيره بذلك انهم (يوزعون) اى يكفون بحبس أولهم على آخرهم بادنى أمر وأسهله ليتلاحقوا فيكون ذلك أجدر بالهيبة وأعون على النصرة وأقرب الى السلامة قال قتادة كان على كل صنف من جنوده وزعة ترد أولاها على آخرها لئلا يتقدموا فى المسير قال والوازع الحابس وهو النقيب وقال مقاتل يوزعون اى يساقون وقال السدى يوقفون وقيل يجمعون واصل الوزع الكف والمنع قال محمد بن كعب القرظى كان معسكر سليمان عليه السلام مائة فرسخ خمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير وقيل نسجت له الجن بساطا من ذهب وحرير فرسخا فى فرسخ وكان يوضع كرسيه وسطه فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة فتقعد الانبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة والناس حولهم والجن والشياطين حول الناس والوحش حولهم وتظلهم الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليهم

الشمس

لفظا ومعنى وباللفظ فقط وهذا من الثانى كما فى قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ فهو هنا من الاول

٣ قوله فقدم القسم الاول الخ غير ظاهر فليتأمل اه مصححه

الشمس وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة يعني حرة وسبعمائة
سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به مسيرة شهر وأوحى اليه وهو يسير
بين السماء والارض اني قد زدت في ملكك أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء الا جاءت به
الريح فأخبرتك به فيحكى أنه مر بحراث فقال لقد أوتي آل داود ملكا عظيما فالقته الريح في
أذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال اني مشيت اليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة
واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود واستمر سائرا بمن معه (حتى اذا أتوا) اي اشرفوا
(على وادي النمل) روى عن كعب الاحبار انه قال كان سليمان اذا ركب حمل أهله وخدمه
وحشمه وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد وقدور عظام تسع كل قدر عشرة من الابل
يطبخ الطباخون ويخبز الخبازون واتخذ ميادين للدواب فتجري بين يديه وهو بين السماء
والارض والريح تهوي بهم فسار من اصطخر يريد اليمن فمر بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم
فقال سليمان هذه دار هجرة نبي يخرج في آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ولما
وصل الى مكة رأى حول البيت اصناما تعبد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت
فاوحى الله تعالى الى البيت ما يبكيك فقال يارب ابكاني ان هذا نبي من انبيائك وقوم من
اوليائك مروا علي فلم يهبطوا ولم يصلوا عندي والاصنام تعبد حولي من دونك فاوحى الله تعالى
اليه لا تبك فاني سوف املؤك وجوها سجدا وانزل فيك قرآنا جديدا وابعث منك نبي آخر
الزمان أحب انبيائي الي وأجعل فيك عمارا من خلقي يعبدونني وافرض على عبادي فريضة
يزفون اليك زفيف النسور الى وكرها ويحنون اليك حنين الناقة الى ولدها وحنين الحمامة الى
بيضها واطهرك من الاوثان وعبدة الشياطين ثم مر سليمان حتى مر بوادي السدير من
الطائف فاتى على وادي النمل هكذا قال كعب انه واد بالطائف قال البقاعي وهو الذي تميل
اليه النفس فانه معروف عندهم الى الآن بهذا الاسم وقال قتادة ومقاتل هو واد بالشام
وجرى عليه البيضاوي وقيل واد كانت تسكنه الجن واولئك النمل مراكبهم وقال نوف الحميري
كان نمل ذلك الوادي مثل الذباب وقيل كان كالبخاتي وقال البغوي والمشهور أنه النمل الصغير
(فائدة) وقف الكسائي على وادي بالياء والباقون بغير ياء (فان قيل) لم عدى أتوا بعلى (أجيب)
بأنه يتوجه على معنيين أحدهما ان اتيانهم كان من فوق فاتى بحرف الاستعلاء والثاني أن
يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشيء اذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن
ينزلوا عند مقطع الوادي لانهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم ولما كانوا
في أمر مهول منظره وقربوا من ذلك الوادي (قالت نملة) قال الشعبي كانت تلك النملة ذات
جناحين وقيل كانت نملة عرجاء فنادت (يا أيها النمل ادخلوا) أي قبل وصول ما أرى من الجيش
(مساكنكم) ثم عللت أمرها فقالت (لا يحطمنكم) أي يكسرنكم ويهشمنكم أي لا تبرزوا
فيحطمكم فهو نهي لهم عن البروز في صورة نهيه وهو أبلغ من التصريح بنهيهم لان من نهى
أميرا عن شيء كان لغيره أشد نهيا (سليمان وجنوده) أي لانهم لكثرتهم اذا صاروا في هذا
الوادي استعلوا عليه فضيقوه فلم يدعوا فيه موضع شبر خاليا (وهم) اي سليمان وجنوده
(لا يشعرون) اي بحطمهم لكم لاشتغالهم بما هم فيه من أحوال السير وقولها هذا يدل على

(ان قلت) لم قدم القرآن هنا على الكتاب وعكس في الحجر (قلت) جريا على قاعدة العرب في تفننهم في الكلام (قوله ساكنكم)

علمها بأنهم لو شعروا بهم ما آذوهم لأنهم اتباع نبي فهم رحماء وانما خاطبتهم خطاب من يعقل لأنها لما جعلت قائلة والنمل مقولا له كما يكون في أولى العقل أجرت خطابهم والنمل اسم جنس معروف واحده نملة ويقال نملة ونمل بضم النون وسكون الميم ونملة ونمل بضمهما وعن قتادة انه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوني عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله تعالى حاضرا وهو غلام حديث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم انثى فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة كانت انثى فقيل له من أين عرفت فقال من كتاب الله وهو قوله قالت نملة ولو كانت ذكرا لقال قال نملة قال الزمخشري وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والانثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة انثى وهو وهي انتهى ورده أبو حيان فقال ولحاق التاء في قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة بل يصح أن يقال في الذكر قالت نملة لان النمل وان كان بالتاء هو مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث وما كان كذلك كاليمامة والقملة مما بينه في الجمع وبين واحده تاء التأنيث من الحيوان فانه يخبر عنه اخبار المؤنث ولا يدل كونه يخبر عنه اخبار المؤنث على كونه ذكرا او انثى لان التاء دخلت فيه للفرق لا للدلالة على التأنيث الحقيقي بل دالة على الواحد من هذا الجنس قال وكان قتادة بصيرا بالعربية وكونه أفحم يدل على معرفته باللسان اذ علم أن النملة يخبر عنها اخبار المؤنث وان كانت تطلق على الانثى والذكر اذ لا يتميز فيه أحد هذين ولحاق العلامة لا يدل فلا يعلم التذكير والتأنيث الا بوحي من الله اه وقال الطيبي العجب من أبي حنيفة ان ثبت ذلك عنه لان النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر والانثى وأطال الكلام في ذلك (فان قيل) كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والارض (أجيب) بان من جنوده ركبانا ومنهم مشاة على الارض تطوى لهم أو ان ذلك كان قبل تسخير الريح لسليمان ويروى أن سليمان لما بلغ وادي النمل حبس جنده حتى دخل النمل بيوتهم فقد روي انه سمع كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية (فائدة) قال أهل المعاني في كلام هذه النملة أنواع من البلاغة نادت ونبهت وسمت وأمرت ونصت وحذرت وخصت وعمت وأشارت وأعذرت ووجهه نادت يا نبهت ها سمت النمل أمرت ادخلوا نصت مساكنكم حذرت لا يحطمنكم خصت سليمان عمت وجنوده أشارت وهم أعذرت لا يشعرون ولما كان هذا أمرا معجبا لما فيه من جزالة الالفاظ وجلالة المعاني تسبب عنه قوله (فتبسم ضاحكا من قولها) اي لما أوتيته من الفصاحة والبيان سرورا بها وبما وصفته به من العدل في أنه وجنوده لا يؤذي أحدا وهم يعلمون وبما آتاه الله من سمعه كلام النملة واحاطته بمعناه * (تنبيه) * ضاحكا حال مؤكدة لانها مفهومة من تبسم وقيل هي حال مقدرة فان التبسم ابتداء الضحك وقيل التبسم قد يكون للغضب ومنه تبسم تبسم الغضبان فضاحكا مبين له قال عنترة

لما رآني قد قصدت أريده * أبدى نواجذه لغير تبسم

وقال الزجاج أكثر ضحك الانبياء التبسم وقوله ضاحكا أي متبسما وعن عائشة رضي الله عنها قالت ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته انما كان يتبسم وعن عبد الله بن الحرث بن جبير قال ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى

الله

منها بخبر) ان قلت كيف قال هنا ذلك وفى طه لعلى آتيكم وأحدهما قطع والآخر ترج والقضية واحدة (قلت) قد يقول

الله عليه وسلم وقيل كان أوله التبسم وآخره الضحك ثم حمد الله تعالى على هذه النعمة وسأل ربه توفيق شكره لما تذكر ما أولاه به سبحانه وتعالى بحسن تربيته من فهم كلامها الى ما أنعم عليه من غير ذلك (وقال رب) اى أيها المحسن الى (أوزعنى) اى ألهمنى (أن أشكر نعمتك) وقيل معناه لغة اجعلنى أزع شكر نعمتك اى أكفه وأمنعه حتى لا يفلت منى فلا أزال شاكرا وأزع بفتح الزاى أصله أوزع فحذفت واوه كما في دع * ولما افهم ذلك تعلق النعمة به حققه بقوله (التى أنعمت علىّ) وافهم قوله (وعلى والدىّ) ان امه كانت ايضا تعرف منطق الطير وانما ادرج ذكر والديه لان النعمة على الولد نعمة على الوالدين خصوصا النعمة الراجعة الى الدين فانه اذا كان تقيا نفعهما بدعائه وشفاعته ودعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له وقالوا رضى الله عنك وعن والديك *(تنبيه)* الشكر لغة فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث انه منعم على الشاكر او غيره سواء كان ذكرا باللسان ام اعتقادا أو محبة بالجنان ام عملا وخدمة بالاركان كما قال القائل

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدى ولسانى والضمير المحجبا

وعرفا صرف العبد جميع ما انعم الله تعالى به عليه من السمع وغيره الى ما خلق لاجله وهذا المن حفته العناية الربانية نسأل الله الكريم الفتاح أن يجعلنا ممن يلحظنا بعنايته روى عن داود عليه السلام أنه قال يارب كيف أشكرك والشكر نعمة اخرى منك أحتاج عليها الى شكر آخر فأوحى الله تعالى اليه ياداود اذا علمت أن ما بك من نعمة فمنى فقد شكرتنى والشكر ثلاثة أشياء الاول معرفة النعمة بمعنى احضارها فى الخاطر بحيث تتميز عنده لان انعمة فرب جاهل تحسن اليه وتنعم عليه وهو لا يدرى فلا جرم أنه لا يصح منه الشكر الثانى قبول النعمة بتلقيها من المنعم باظهار الفقر والفاقة فان ذلك شاهد بقبولها حقيقة الثالث الثناء بها بان تصف المنعم بالجود والكرم ونحوه مما يدل على حسن تلقيك لها واعترافك بنزول مقامك فى الرتبة عن مقامه فان اليد العليا خير من اليد السفلى * ولما علم من كلامه أن الشاكر هو المستغرق فى الثناء على المنعم بما يجب عليه من العمل بحسب ما يقدر عليه وكان ذلك العمل مما يجوز أن يكون زين لذلك العبد كونه حسنا وهو ليس كذلك قال عليه السلام مشيرا الى هذا المعنى (وأن أعمل صالحا) اى فى نفس الامر وقيده بقوله (ترضاه) لان العمل الصالح قد لا يرضاه المنعم لنقص فى العامل كما قيل

اذا كان المحب قليل حظ * فحسناته الاذنوب

وقوله (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق العبد والمعنى أدخلنى فى جملتهم وأثبت اسمى فى أسمائهم واحشرنى فى زمرتهم قال ابن عباس يريد مع ابراهيم واسحق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين (فان قيل) درجات الانبياء أفضل من درجات الصالحين والاولياء فما السبب فى أن الانبياء يطلبون جعلهم من الصالحين وقد تمنى يوسف عليه السلام بقوله فاطر السموات والارض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين وقال ابراهيم هب لى حكما وألحقنى بالصالحين (أجيب) بان الصالح الكامل هو الذى لا يعصى الله تعالى ولا يفعل معصية ولا يهم بمعصية وهذه

الراجى اذا قوى رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه عدم الجزم (قوله أن بورك من فى النار ومن حولها) المراد بالنار

درجة عالية * ثم ان سليمان عليه السلام لما وصل الى المنزل الذى قصده تفقد أحوال جنوده كما تقتضيه العناية بامور الملك (وتفقد الطير) اى طلبها و بحث عنها و التفقد طلب ما فقد ومعنى الآية طلب ما فقد من الطير (فقال مالى لا أرى الهدهد) اى أهو حاضر (أم كان من الغائبين) أم منقطعة كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولم يره لساتر أو غيره فقال مالى لا أراه ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له وهذا يدل على أنه تفقد جماعة من الجند وتحقق غيبتهم وشك فى غيبته وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج الى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب من الجن والانس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ عسكره مائة فرسخ فحملتهم الريح فلما وافى الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم وكان ينحر فى كل يوم مدة مقامه بمكة خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة وقال لمن حضر من أشراف قومه ان هذا المكان يخرج منه نبى عربى صفته كذا وكذا يعطى النصر على جميع ما ناواه وتبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده فى الحق سواء لا تأخذه فى الله لومة لائم قالوا فبأى دين يدين يا نبى الله قال بدين الحنيفية فطوبى لمن أدركه وآمن به قالوا كم بيننا وبين خروجه يا نبى الله قال مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فانه سيد الانبياء وخاتم الرسل فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج منها صباحا وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول ليصلى و يتغدى فلما نزل قال الهدهد ان سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فانظر الى طول الدنيا وعرضها ففعل ذلك فنظر يمينا وشمالا فرأى بستانا لبلقيس فمال الى الخضرة فوقع فيه فاذا هو بهدهد فهبط عليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن عنفير فقال عنفير هدهد اليمن ليعفور سليمان من أين أقبلت والى أين تريد قال أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان بن داود فقال ومن سليمان قال ملك الانس والجن والشياطين والطير والوحوش والرياح فمن أين أنت قال أنا من هذه البلاد قال ومن ملكها قال امرأة يقال لها بلقيس وان لصاحبكم ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه فانها ملكت اليمن كله وتحت يدها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل فهل أنت منطلق معى حتى تنظر الى ملكها قال أخاف أن يفقدنى سليمان فى وقت الصلاة اذا احتاج الى الماء قال الهدهد اليمانى ان صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة فانطلق معه ونظر الى بلقيس وملكها وغاب الى وقت العصر وكان نزول سليمان على غير ماء قال ابن عباس وكان الهدهد دليل سليمان على الماء وكان يعرف الماء ويرى الماء تحت الارض كما يرى فى الزجاجة و يعرف بعده وقربه فينقر الارض ثم تجىء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب و يستخرجون الماء قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الازرق انظر ما تقول ان الصبى منا يصنع الفخ و يحثو عليه التراب فيجىء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع فى عنقه فقال له ابن عباس ويحك ان القدر اذا جاء حال بين البصر وفى رواية اذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمى البصر قال القائل

هى المقادير فدعنى والقدر ٣ * ان كنت أخطأت فما أخطا القدر

عند الاكثر النور وهن فيها وهى وهن حولها الملائكة او العكس اى بان بارك الله من فى مكان النور ومن

٣ قوله هى المقادير الخ المحفوظ هى المقادير فلمنى اوفذر اه مصححه

اذا أراد الله أمرا بامرئ • وكان ذا عقل وسمع وبصر
يعمي الجهل فيعمى قلبه • وسمعه وعقله ثم البصر
حتى اذا أنفذ فيه حكمه • رد عليه عقله ليعتبر
لا تقل لما جرى كيف جرى • كل شئ بقضاء وقدر

فلما دخل على سليمان وقت الصلاة سأل الانس والجن والشياطين عن الماء فلم يعلموه فتفقد الهدهد فلم يجده فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فقال اصلح الله الملك ما أدري أين هو وما أرسلته مكانا فغضب سليمان عند ذلك وقال (لأعذبنه) أي بسبب غيبته فيما لم آذن فيه (عذابا شديدا) أي مع بقاء روحه ردعا لامثاله (أو لأذبحنه) أي بقطع حلقومه أي تأديبا لغيره (أو ليأتيني بسلطان مبين) اى حجة واضحة واختلفوا في تعذيبه الذي أوعده به على اقوال قال البغوي اظهرها ان عذابه ان ينتف ريشه وذنبه و يلقيه في الشمس ممعطا لا يمتنع من النمل والذباب ولا من هوام الارض انتهى وقيل تعذيبه ان يؤذيه بما لا يحتمله ليعتبر به ابناء جنسه وقيل كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه وقيل ان يطلى بالقطران ويشمس وقيل ان يلقى للنمل تأكله وقيل ايداعه القفص وقيل التفريق بينه و بين الفه وقيل لالزمنه صحبة الاضداد قال الزمخشري وعن بعضهم اضيق السجون معاشرة الاضداد وقيل لالزمنه خدمة أقرانه ثم دعا العقاب سيد الطير فقال له علي بالهدهد الساعة فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر الدنيا كالقصعة بين يدي احدكم فالتفت يمينا وشمالا فاذا بالهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده فقال بحق الله الذي قواك واقدرك علي الا مارحمتني ولم تتعرض لي بسوء فولى عنه العقاب وقال له و يلك ثكلتك أمك ان نبي الله قد حلف ان يعذبك او ليذبحنك قال فما استثنى قال بلى قال او ليأتيني بسلطان مبين ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهى الى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له ويلك اين غبت في يومك هذا فلقد توعدك نبي الله وأخبروه بما قال فقال الهدهد وما استثنى نبي الله عليه السلام قالوا بلى قال أو ليأتيني بسلطان مبين قال فنجوت اذا ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه فقال العقاب قد أتيتك به يا نبي الله (فمكث) أى الهدهد وقوله تعالى (غير بعيد) صفة للمصدر أي مكثا غير بعيد فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الارض تواضعا لسليمان فلما دنا منه أخذ برأسه فمده اليه وقال له أين كنت لأعذبنك عذابا شديدا فقال له الهدهد يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ثم سأله فقال ما الذي أبطأك عني (فقال أحطت) أي علما (بما لم تحط به) أي أنت مع اتساع علمك وامتداد ملكك ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه وتنبيها له على أن في أدنى خلقه واضعفه من أحاط علما بما لم يحط به لتتحاقر اليه نفسه ويتصاغر اليه علمه و يكون لطفا في ترك الاعجاب الذي هو فتنة العلماء والاحاطة بالشئ

قوله لا تقل الخ كذا بالنسخ وهو لا يوافق ما قبله في الوزن اه مصحح

قوله بارك مكانه هو البقعة المباركة في قوله تعالى نودي من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة وبارك يتعدى بنفسه

علما أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم قالوا وفيه دليل على بطلان قول الرافضة ان الامام لا يخفى عليه شئ ولا يكون فى زمانه أحد أعلم منه وقيل الضمير فى مكث لسليمان وقيل غير بعيد صفة للزمان أى زمانا غير بعيد وقرأ عاصم بفتح الكاف والباقون بضمها وهما لغتان الا أن الفتح أشهر (وجئتك) أى الآن (من سبإ بنبا) أى خبر عظيم (يقين) أى محقق وقرأ أبو عمرو والبزى سبأ بفتح الهمزة من غير تنوين جعلاه اسما للقبيلة أو البقعة فمنعاه من الصرف للعلمية والتأنيث والباقون بالجر والتنوين جعلوه اسما للحى أو المكان قال البغوى وجاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن سبإ فقال رجلا كان له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة فقال سليمان وماذا قال (انى وجدت امرأة تملكهم) وهى بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان وكان أبوها ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكا هو آخرهم وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول للملوك الاطراف ليس أحد منكم كفؤا لى وأبى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن فولدت بلقيس ولم يكن له ولد غيرها قال البغوى وجاء فى الحديث ان أحد أبوى بلقيس كان جنيا فلما مات أبو بلقيس طمعت فى الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون وملكوا عليهم رجلا وافترقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من أرض اليمن ثم ان الرجل الذى ملكوه أساء السيرة فى أهل مملكته حتى كان يمد يده الى حرم رعيته ويفجر بهن فاراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فارسلت اليه تعرض نفسها عليه فاجابها وقال ما منعنى ان أبتدئك بالخطبة الا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك أنت كفؤ كريم فاجمع رجال قومى واخطبنى منهم فجمعهم وخطبها اليهم فقالوا الا نراها تفعل ذلك فقال لهم انها قد ابتدأتنى وأنا أحب ان تسمعوا قولها فجاؤها فذكروا لها قالت نعم احببت الولد فزوجوها منه فلما زفت اليه خرجت فى اناس كثير من حشمها فلما جاءته أسقته الخمر حتى سكر ثم جزت رأسه وانصرفت من الليل الى منزلها فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلا ورأسه منصوب على باب دارها فعلموا أن تلك المناكحة كانت حيلة مكر وخديعة منها فاجتمعوا اليها وقالوا انت بهذا الملك احق من غيرك فملكوها وعن الحسن عن ابى بكرة قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة وقوله (واوتيت) يجوز ان يكون معطوفا على تملكهم وجاز عطف الماضى على المضارع لان المضارع بمعناه اى ملكتهم ويجوز ان يكون فى محل نصب على الحال من مرفوع تملكهم وقد معها مضمرة عند من يرى ذلك وقوله (من كل شئ) عام مخصوص بالعقل لانها لم تؤت ما اوتيه سليمان فالمراد من كل شئ يحتاج اليه الملوك من الآلة والعدة (ولها عرش) اى سرير (عظيم) اى ضخم لم اجد لاحد مثله طوله ثمانون ذراعا وعرضه اربعون ذراعا وارتفاعه ثلاثون ذراعا مضروب من الذهب والفضة مكلل بالدر والياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر والزمرد وقوائمه من الياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر والزمرد عليه سبعة ابواب على كل باب بيت مغلق (فان قيل) كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان وايضا

كما هنا وبعلى ولكافي قوله وباركنا عليه وعلى اسحق وباركنا فيها (قوله وقومه وباركنا فيها) قاله هنا بدون واني عصاك ذكران وفى القصص بذكرهما لان ما هنا تقدمه

كيف

كيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الرحمن في الوصف بالعظم (اجيب) عن الاول بانه يجوز ان يستعظم حالها الى حال سليمان واستعظم لها ذلك العرش ويجوز ان لا يكون لسليمان مثله وان عظمت مملكته في كل شئ كما يكون لبعض امراء الاطراف شئ لا يكون مثله للملك الذى ملك عليهم و يستعبدهم وعن الثانى بانه وصف عرشها بالعظم بالنسبة الى عروش ابناء جنسها من الملوك ووصف عرش الرحمن بالعظم تعظيم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض (فان قيل) كيف خفى على سليمان تلك المملكة العظيمة مع ان الانس والجن كانوا فى طاعته فانه عليه السلام كان ملك الدنيا كلها مع انه لم يكن بين سليمان و بين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الامسيرة ثلاثة ايام (اجيب) بان الله تعالى اخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما اخفى مكان يوسف على يعقوب ولما كان الهدهد فى خدمة اقرب اهل ذلك الزمان الى الله تعالى حصل له من النورانية ما قال مستانفا (وجدتها وقومها) اى كلهم على ضلال كبير وذلك انهم (يسجدون للشمس) مبتدئين ذلك (من دون الله) اى من ادنى رتبة للملك الاعظم الذى لا مثل له (وزين لهم الشيطان اعمالهم) اى هذه القبيحة حتى صاروا يظنونها حسنة ثم تسبب عن ذلك انه اعماهم عن طريق الحق فلهذا قال (فصدهم عن السبيل) اى الذى لا سبيل الى الله غيره وهو الذى بعث به انبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام ثم تسبب عن ذلك ضلالهم فلهذا قال (فهم) اى بحيث (لا يهتدون) اى لا يوجد لهم هدى بل هم فى ضلال صرف وعمى محض (ألا يسجدوا لله) اى ان يسجدوا لله فزيدت لا وادغم فيها نون ان كما فى قوله تعالى لئلا يعلم اهل الكتاب والجملة فى موضع مفعول يهتدون باسقاط الى هذا اذا قرئ بالتشديد وهى قراءة غير الكسائى واما الكسائى فقرأ بتخفيف الا فالا فيها تنبيه واستفتاح وما بعدها حرف نداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال

الا يا اسلمى يادارى على البلى * ولا زال منهلا بجرعائك القطر

ويقف الكسائى على ألا وعلى يا وعلى اسجدوا واذا ابتدأ اسجدوا ابتدأ بالضم ثم وصف الله تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من الاتصاف بكمال القدرة والعلم حثا على السجود له وردا على من يسجد لغيره سبحانه وتعالى بقوله (الذى يخرج الخبء) وهو مصدر بمعنى المخبوء من المطر والنبات وغيرهما وخصه بقوله (فى السموات والارض) لان ذلك منتهى مشاهدتنا فننظر ما يكون فيهما بعد ان لم يكن من سحاب ومطر ونبات وتوابع ذلك من الرعد والبرق وما يشرق من الكواكب و يغرب الى غير ذلك من الرياح والحر والبرد ومالا يحصيه الا الله تعالى (و يعلم ما يخفون) فى قلوبهم (وما يعلنون) بالسنتهم وقرأ الكسائى وحفص بالتاء الفوقية فيهما والباقون بالتحتية فالخطاب ظاهر على قراءة الكسائى لان ما قبله أمرهم بالسجود وخاطبهم به والغيبة على قراءة الباقين ظاهرة أيضا لتقدم الضمائر الغائبة فى قوله أعمالهم وصدهم وفهم وأما قراءة حفص فتاويلها انه خرج الى خطاب الحاضرين بعد أن أتم قصة أهل سبأ ويجوز أن تكون التفاتا على أنه نزل الغائب منزلة الحاضر فخاطبه ملتفتا اليه وقوله (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) أى الذى هو أول الاجرام وأعظمها والمحيط بجملتها يحتمل أن يكون من كلام الهدهد استدراكا لما وصف

قوله بعد أن وهو بورك فى من عطف الفعل عليه وما هناك لم يتقدمه قول بعد أن ذكرت ان الجملة أن القصة لم تكن جملة معطوفة على جملة أن

عرش بلقيس بالعظم وأن يكون من كلام الله تعالى ردا عليه في وصفه عرشها بالعظم فبين العظمتين بون عظيم (فان قيل) من أين للهدهد التهدي الى معرفة الله ووجوب السجود له وانكار سجودهم للشمس واضافته الى الشيطان وتزيينه (أجيب) بأنه لا يبعد أن يلهمه الله تعالى ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها خصوصا في زمن نبي سخرت له الطيور وعلم منطقها وجعل ذلك معجزة له وهذه آية سجدة واختلف في محلها هل هو هذه الآية أو عند قوله قبلها وما يعلنون الجمهور على الاول ٭ ولما فرغ الهدهد من كلامه (قال) له سليمان (سننظر) أي نختبر ما قلته (أصدقت) فيه فنعذرك (أم كنت من الكاذبين) أي معروفا بالانخراط في سلكهم فانه لا يجترئ على الكذب عندي الا من كان عريقا في الكذب فهو أبلغ من أم كذبت وأيضا لمحافظة الفواصل ٭ ثم شرع فيما يختبره به فكتب له كتابا على الفور في غاية الوجازة قصدا للاسراع في ازالة المنكر على تقدير صدق الهدهد بحسب الاستطاعة ودل على اسراعه في كتابته بقوله جوابا له (اذهب بكتابي هذا) فكأنه كان مهيأ عنده فدفعه اليه وأمره بالاسراع فطار كأنه البرق ولهذا أشار بالفاء في قوله (فألقه اليهم) أي الذين ذكرت أنهم يعبدون الشمس وذلك للاهتمام بأمر الدين وقرأ أبو عمرو وشعبة وخلاد بخلاف عنه فألقه بسكون الهاء واختلس الكسرة قالون وهشام بخلاف عنه والباقون باشباع الكسرة (م) قال له اذا ألقيته اليهم (تول) أي تنح (عنهم) الى مكان تسمع فيه كلامهم ولا يصلون معه اليك (فانظر ماذا يرجعون) أي يردون من الجواب وقال ابن زيد في الآية تقديم وتأخير مجازها اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم أي انصرف الى فأخذ الهدهد الكتاب وأتى الى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام قال قتادة فوافاها في قصرها وقد غلقت الابواب وكانت اذا رقدت غلقت الابواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها فألقى الكتاب على نحرها وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقال مقاتل حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون اليه حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها وقال وهب بن منبه وابن زيد كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع فاذا نظرت اليها سجدت لها فجاء الهدهد الى الكوة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم بها فلما استبطأت الشمس قامت تنظر اليها فرمى بالصحيفة اليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لان ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أن الذي أرسل الكتاب أعظم ملكا منها وقرأت الكتاب وتأخر الهدهد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد ألف مقاتل وعن ابن عباس قال كان مع بلقيس مائة ألف قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل الملك دون الملك الاعظم وقال قتادة ومقاتل كان أهل مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف فلما جاؤا أخذوا مجالسهم (قالت) لهم بلقيس (يا أيها الملأ) وهم أشراف الناس وكبراؤهم (اني ألقي الي) أي بالقاء ملق على وجه غريب (كتاب)

(قوله ياموسى اني انا الله) قال ذلك هنا لا تخف) وقال في القصص أقبل ولا تخف ٢ وهي اني لا يخاف

٢ قوله وهي اني الخ هكذا بالاصل وعبارة الكرماني قوله لا تخف وفي القصص أقبل ولا تخف خصت هذه السورة بقوله لا تخف لانه بني على ذكر الخوف كلام يليق به وهو قوله اني لا يخاف لدي المرسلون وفي القصص اقتصر على قوله لا تخف ولم يبن عليه كلام فزيد قبله أقبل ليكون في مقابلة مدبرا أي أقبل آمنا غير مدبر ولا تخف خصت هذه السورة به اه وبه تعلم ما أسقطه الناسخ من عبارته اه مصححه

أي صحيفة مكتوب فيها كلام وجيز جامع قال الزمخشري وكانت كتب الانبياء جملا لا يطنبون ولا يكثرون ولما حوى هذا الكتاب من الشرف أمرا باهرا لم يعهد مثله وصفته بقولها (كريم) وقال عطاء والضحاك سمته كريما لانه كان مختوما وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال كرامة الكتاب ختمه وكان عليه السلام يكتب الى العجم فقيل له انهم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم فاصطنع له خاتما وعن ابن المقفع من كتب الى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به وقال مقاتل كريم أي حسن وعن ابن عباس أي شريف لشرف صاحبه وقيل سمته كريما لانه كان مصدرا بسم الله الرحمن الرحيم ثم بينت عن الكتاب فقالت (انه من سليمان) ثم بينت المكتوب فيه فقالت (وانه بسم الله الرحمن الرحيم الا تعلوا على) قال ابن عباس لا تتكبروا على وقيل لا تتعظموا ولا تترفعوا على اى لا تمتنعوا عن الاجابة فان ترك الاجابة من العلو والتكبر (وأتوني مسلمين) أي منقادين خاضعين فهو من الاستسلام أو مؤمنين فهو من الاسلام (فان قيل) لم قدم سليمان اسمه على البسملة (أجيب) بانه لم يقع منه ذلك بل ابتدأ الكتاب بالبسملة وانما كتب اسمه عنوانا بعد ختمه لان بلقيس انما عرفت كونه من سليمان بقراءة عنوانه كما هو المعهود ولذلك قالت انه بسم الله الرحمن الرحيم أي ان الكتاب فالتقديم واقع في حكاية الحال واعلم أن قوله بسم الله الرحمن الرحيم مشتمل على اثبات الصانع واثبات كونه عالما قادرا حيا مريدا حكيما رحيما قال الطيبي وقال القاضي هذا كلام في غاية الوجازة مع اثبات كمال الصانع واثبات كمال الدلالة على المقصود لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الاله وصفاته صريحا أو التزاما والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل والامر بالاسلام الذي هو جامع لامهات الفضائل ولما سكتوا عن الجواب (قالت) لهم (يا أيها الملأ) ثم بينت ما داخلها من الرعب من صاحب هذا الكتاب بقولها (أفتوني) أي تكرموا على بالابانة عما أفعله (في أمري) هذا الذي أجيب به هذا الكتاب جعلت الشورى فتوى توسعا لان الفتوى الجواب في الحادثة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بابدال الهمزة واوا والباقون بتحقيقها وفي الابتداء الجميع بالتحقيق ثم عللت أمرها لهم بقولها (ما كنت قاطعة أمرا) أي فاعلته وفاصلته غير مترددة فيه (حتى تشهدون) أفادت بذلك أن شأنها دائما مشاورتهم في كل جليل وحقير فكيف بهذا الامر الخطير وفي ذلك استعطافهم بتعظيمهم واجلالهم وتكريمهم ودلالة على غزارة عقلها وحسن أدبها ثم انهم أجابوها عن ذلك بأن (قالوا) مائلين الى الحرب (نحن أولوا قوة) أي بالمال والرجال (وأولوا) أي أصحاب (بأس) عزم في الحرب (شديد والامر) اى في كل من المصادمة والمسالمة راجع وموكول (اليك فانظري) أي بسبب أنه لا نزاع معك (ماذا تأمرين) فانا نطيعك ونتبع أمرك ولما علمت ان من سخر له الطير على هذا الوجه لا يعجزه شئ يريده (قالت) جوابا لما أحست في جوابهم من ميلهم الى الحرب والحرب سجال لا يدرى عاقبتها (ان الملوك) أي مطلقا فكيف بهذا النافذ الامر العظيم القدر (اذا دخلوا) عنوة بالقهر (قرية أفسدوها) أي بالنهب والتخريب (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أي أهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الامر ثم أكدت هذا المعنى بقولها (وكذلك) أي ومثل هذا الفعل العظيم الشأن (يفعلون)

لدى المرسلون فناسبه الحذف وما هنالك لم يبن الحذف على شئ فناسبه زيادة عليه شئ اقبل جبرا لهوا يكون في مقابلة مدبرا اى اقبل آمنا غير مدبر ولا تخف (قوله انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم) ان

أى هو خلق اهم مستقر فى جميعهم فكيف بمن تطيعه الوحوش والطيور وغيرهما * (تنبيه) * هذه الجملة من كلامها وهو كما قال ابن عادل الظاهر ولهذا جعلت عليه فتكون منصوبة بالقول ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى تصديقا لها فهى استئنافية لا محل لها من الاعراب وهى معترضة بين قوليها ولما بينت ما فى المصادمة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسالمة بقولها (وانى مرسلة اليهم) أى الى سليمان وقومه (بهدية) وهى العطية على طريق الملاطفة وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وساست فقالت لمن لا من قومها انى مرسلة الى سليمان وقومه بهدية أصانعهم بها عن ملكى فاختبره بها أملك هو أم نبى فان يكن ملكا قبل الهدية وانصرف وان يكن نبيا لم يقبل الهدية ولم يرضها منا الا أن نتبعه على دينه فذلك قولها (فناظرة بم) أى بأى شئ (يرجع المرسلون) فاهدت اليه وصفا ووصائف قال ابن عباس ألبستهم لباسا واحدا كى لا يعرف ذكر من أنثى وقال مجاهد ألبست الجوارى لباس الغلمان وألبست الغلمان لباس الجوارى واختلف فى عددهم فقال ابن عباس مائة وصيف ومائة وصيفة وقال مجاهد ومقاتل مائة غلام ومائتا جارية وقال قتادة أرسلت اليه بلبنات من ذهب فى حرير وديباج وقال ثابت البنانى أهدت اليه صفائح الذهب فى أوعية الديباج وقيل كانت أربع لبنات من ذهب وقال وهب وغيره عمدت بلقيس الى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجوارى لباس الغلمان الاقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجوارى وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب وفى أعناقهم أطواقا من ذهب وفى آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بانواع الجواهر وغواشيها من الديباج الملونة وبعثت اليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع وأرسلت المسك والعنبر وعمدت الى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت اليه رجالا من قومها أصحاب رأى وعقل وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية وقالت ان كنت نبيا فميز بين الوصف والوصائف وأخبر بما فى الحقة قبل ان تفتحها واثقب الدرة ثقبا مستويا وأدخل خيطا فى الخرزة المثقوبة من غير علاج انس ولا جن وأمرت بلقيس الغلمان اذا كلمهم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وامرت الجوارى ان يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم قالت للرجل انظر الى الرجل اذا دخلت عليه فان نظر اليك نظر غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فانا أعز منه وان رأيت الرجل بشاشا لطيفا فاعلم انه نبى مرسل فتفهم قوله ورد الجواب فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعا الى سليمان فاخبره الخبر كله فامر سليمان عليه السلام الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذى هو فيه الى تسعة فراسخ ميدانا واحدا بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميادين حائطا شرفها من الذهب والفضة ففعلوا ثم قال أى الدواب أحسن مما رأيتم فى البر والبحر قالوا يانبى الله انا رأينا دواب فى بحر كذا وكذا منقطة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص قال على بها الساعة فأتوا بها فقال شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات

الذهب

(فان قلت) كيف وجه صحة الاستثناء به مع ان الانبياء معصومون من المعاصى (قلت) الاستثناء منقطع اى لكن من ظلم من غير الانبياء فانه يخاف فذن

الذهب والفضة والقو الها علو فتهافيها ثم قال للجن على بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم عن يمين الميدان ويساره ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره ووضع له اربعة آلاف كرسى على يمينه ومثلها على يساره وامر الشياطين ان يصطفوا صفوفا فراسخ وامر الانس فاصطفوا صفوفا فراسخ وامر الوحوش والسباع والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه ويساره فلما دنا القوم من الميدان ونظروا الى ملك سليمان ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت انفسهم ورموا ما معهم من الهدايا وفى بعض الروايات ان سليمان لما امر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة امرهم ان يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضع اللبنات التى معهم فلما راى الرسل موضع اللبنات خاليا وكل الارض مفروشة خافوا ان يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم فى ذلك الموضع الخالى فلما رأوا الشياطين نظروا الى منظر عجيب ففزعوا فقالت لهم الشياطين جوزوا فلا بأس عليكم فكانوا يمرون على كردوس من الجن والانس والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان فنظر اليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طلق وقال ما وراءكم فاخبره رئيس القوم بما جاؤا له واعطاه كتاب الملكة فنظر فيه وقال أين الحقة فاتى بها فحركها وجاء جبريل عليه السلام فاخبره بما فى الحقة فقال ان فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجة الثقب فقال لرسول صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط فى الخرزة فقال سليمان عليه السلام من لى بثقبها فسال سليمان الانس ثم الجن فلم يكن عندهم علم بذلك ثم سال الشياطين فقالوا أرسل الى الارضة فجاءت الارضة فاخذت شعرة فى فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان سلى حاجتك قالت تصير رزقى فى الشجر فقال لك ذلك وروى انها جاءت دودة تكون فى الصفصاف فقالت أنا أدخل الخيط فى الثقب على أن يكون رزقى فى الصفصاف فجعل لها ذلك فاخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر ثم قال من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط فقالت دودة بيضاء أنا لها يا رسول الله فاخذت الدودة الخيط فى فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان سلى حاجتك قالت تجعل رزقى فى الفواكه قال لك ذلك ثم ميز بين الجوارى والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وايديهم فجعلت الجارية تاخذ الماء من الآنية باحدى يديها ثم تجعله على اليد الاخرى ثم تضرب به الوجه والغلام ياخذ من الآنية بيديه ويضرب بهما وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهر الساعد وكانت الجارية تصب الماء صبا وكان الغلام يحدر الماء على ساعده حدرا فميزبينهم بذلك ثم رد سليمان الهدية كما قال تعالى (فلما جاء) اى الرسول الذى بعثته والمراد به الجنس قال ابو حيان وهو يقع على الجمع والمفرد والمذكر والمؤنث (سليمان) ورفع اليه ذلك (قال) اى سليمان عليه السلام للرسول ولمن فى خدمته استصغارا لما معه (أتمدونن) اى انت ومن معك ومن ارسلك (بمال) وانما قصدى لكم لاجل الدين تحقيرا لامر الدنيا واعلاما بانه لا التفات له نحوها بوجه ولا يرضيه شئ دون طاعة الله تعالى وقرأ نافع وابو عمرو باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير باثبات الياء وصلا ووقفا وحمزة بادغام النون الاولى

تاب وبدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم او متصل بمحل الظلم على ما يصدر من الانبياء من ترك الافضل او الاجرى ولا كان قوله لئلا يكون للناس

في الثانية وإثبات الياء وصلا ووقفا ثم تسبب عن ذلك قوله استصغارا لما معهم (فما آتاني الله) أي الملك الأعظم من الحكمة والنبوة والملك وهو الذي يغرق في مطيعه عن كل شيء سواه فهما سأله أعطاه وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء في الوصل وأثبتها وصلا ووقفا وقالون وأبي عمرو وحفص أيضا إثباتها وقفا والباقون بحذف الياء وقفا ووصلا وأمالها حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين (خير) أي أفضل (مما آتاكم) أي من الملك الذي لا دين ولا نبوة فيه (بل أنتم) أي بجهلكم بالدين (بهديتكم) أي بإهداء بعضكم إلى بعض (تفرحون) وأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتي لأن الله تعالى قد أمكنني فيها وأعطاني منها ما لم يعط أحدا ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد (ارجع) أي بهديتهم وجمع في قوله (إليهم) إكراما لنفسه وصيانة لاسمها عن التصريح بضميرها وتعظيما لكل من يهتم بأمرها ويطيعها (فلنأتينهم بجنود لا قبل) أي لا طاقة (لهم بها) أي بمقابلتها (ولنخرجنهم منها) أي من أرضهم وبلادهم وهي سبأ (أذلة وهم صاغرون) أي ذليلون لا يملكون شيئا من المنعة (فإن قيل) فلنأتينهم ولنخرجنهم قسم فلا بد أن يقع (أجيب) بأنه معلق على شرط محذوف لفهم المعنى أي إن لم يأتوني مسلمين قال وهب وغيره من أهل الكتب لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان قالت لهم قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة فبعثت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعلته داخل سبعة أبواب داخل قصرها وقصرها داخل سبعة قصور وأغلقت الأبواب وجعلت عليها حراسا يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وبسرير ملكي لا يخلص إليه أحد حتى آتيك ثم أمرت مناديا ينادي في أهل مملكتها تؤذنهم بالرحيل وتجهزت للمسير فارتحلت في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يد كل قيل ألوف كثيرة قال ابن عباس كان سليمان رجلا مهيبا لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسئل عنه فخرج يوما فجلس على سرير ملكه فرأى رهجا قريبا منه فقال ما هذا قالوا بلقيس وقد نزلت منا على مسيرة فرسخ فأقبل سليمان حينئذ على جنوده بأن (قال) لهم (يا أيها الملأ) أي الأشراف (أيكم) وفي الهمزتين ما تقدم (يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) أي مؤمنين وقال ابن عباس طائعين واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها فقال أكثرهم لأن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها وقيل ليريها قدرة الله تعالى بعض ما خصه به من العجائب الدالة على عظيم القدرة وصدقه في دعوى النبوة في معجزة يأتي بها في عرشها وقال قتادة لأنه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد بالعظم فأحب أن يراه وقال ابن زيد يريد أن يأمر بتنكيره وتغييره يختبر بذلك عقلها (قال عفريت من الجن) وهو المارد القوي قال وهب اسمه كودي وقيل ذكوان وقال ابن عباس العفريت الداهي وقال الضحاك هو الخبيث وقال الربيع الغليظ وقال الفراء القوي الشديد وقيل إن الشياطين أقوى من الجن وإن المردة أقوى من الشياطين وإن العفريت أقوى منهما قال بعض المفسرين العفريت من الرجال الخبيث المنكر وقيل هو صخر الجني وكان بمنزلة جبل يضع

عليهم حجة إلا الذين ظلموا وإنما خص المرسلين بالذكر لأن الكلام في قصة موسى وكان من المرسلين وإلا فسائر الأنبياء كذلك وإن لم يكن

قدمه عندمنتهى طرفه وقوله تعالى (أنا آتيك به) قرأه في الموضعين نافع باثبات الالف من أنا وصلا ووقفا والباقون وصلا لا وقفا ثم بين سرعة اسراعه بقوله (قبل أن تقوم من مقامك) اى الذى تجلس فيه للقضاء قال ابن عباس كان له غداة كل يوم مجلس يقضى فيه الى نصف النهار ثم اوثق الامر وأكده بقوله (وانى عليه) اى على الاتيان به سالما (لقوى) اى على حمله لا يحصل عجزى عنه (أمين) اى على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان عليه السلام أريد أسرع من ذلك (قال الذى عنده علم من الكتاب) المنزل وهو علم الوحى والشرائع وقيل كتاب سليمان وقيل اللوح المحفوظ والذى عنده علم من الكتاب جبريل قال البقاعى ولعله التوراة والزبور انتهى وفى ذلك اشارة الى أن من خدم كتاب الله حق الخدمة كان الله تعالى معه كما ورد فى شرعنا كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها أى انه يفعل له ما يشاء * واختلفوا فى تعيينه فقال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا كاتب سليمان وقيل اسمه اسطوم وكان صديقا عالما يعلم اسم الله الاعظم الذى اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى وقيل ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام وعن ابن لهيعة بلغنى أنه الخضر عليه السلام (أنا آتيك به) ثم بين فضله على العفريت بقوله (قبل أن يرتد) اى يرجع (اليك طرفك) اى بصرك اذا طرفت أجفانك فارسلته الى منتهاه ثم رددته فالطرف تحريك أجفانك اذا نظرت فوضع فى موضع النظر ولما كان الناظر موصوفا بارسال الطرف فى نحو قوله

وكنت اذا أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر

وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد روى ان آصف قال لسليمان مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله تعالى الملائكة فحملوا السرير من تحت الارض يخدون خدا حتى انخرقت الارض بالسرير بين يدى سليمان وقال الكلبى خر آصف ساجدا ودعا باسم الله الاعظم فغار عرشها تحت الارض حتى نبع تحت كرسى سليمان بقدرة الله تعالى وقيل كانت المسافة شهرين وقال سعيد بن جبير يعنى من قبل أن يرجع اليك أقصى من ترى وهو أن يصل اليك من كان منك على مد بصرك وقال قتادة قبل أن يأتيك الشخص من مد البصر وقال مجاهد يعنى ادامة النظر حتى يرد البصر خاسئا قال الزمخشرى ويجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدة المجىء به كما تقول لصاحبك افعل ذلك فى لحظة وفى ردطرف والتفت ترنى وما أشبه ذلك تريد السرعة انتهى * واختلفوا فى الدعاء الذى دعا به آصف فقال مجاهد ومقاتل ياذا الجلال والاكرام وقال الكلبى ياحى ياقيوم وروى ذلك عن عائشة رضى الله عنها وروى عن الزهرى قال دعاء الذى عنده علم من الكتاب يا الهنا واله كل شئ الها واحدا لا اله الا أنت ائتنى بعرشها وعن الحسن يا ألله يا رحمن وقال محمد بن المنكدر انما هو سليمان قال له عالم من بنى اسرائيل آتاه الله تعالى علما وفهما أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك قال سليمان هات قال أنت النبى ابن النبى وليس أحد أوجه عند الله منك فان دعوت الله كان عندك فقال صدقت ففعل ذلك فجىء بالعرش فى الوقت قال الرازى وهذا القول

قوله والباقون وصلا لا وقفا كذا فى الاصول واصله وقفا لا وصلا وليحرر اه مصححه

(قوله بعضهم مرسلا) (قوله وأدخل يدك الآية) قاله هنا بلفظ أدخل وفى القصص بلفظ اسلك لان الادخال أبلغ من السلوك لان

أقرب واستدل لذلك بوجوه منها ان سليمان كان أعرف بالكتاب من غيره لانه هو النبي فكان صرف اللفظ اليه أولى ومنها أن احضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق ومنها انه قال هذا من فضل ربي فظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان (فلما رآه) اى رأى سليمان العرش (مستقرا عنده) اى حاصلا بين يديه (قال) شاكرا لربه لما آتاه الله تعالى من هذه الخوارق (هذا) اى الاتيان المحقق (من فضل ربي) اى المحسن الى لا بعمل أستحق به شيأ فانه أحسن الى باخراجي من العدم وتطوالى بتوفيق للعمل فكل عمل نعمة يستوجب على بها الشكر ولذلك قال (ليبلوني) اى ليختبرني (أأشكر) فاعترف بكونه فضلا (أم أكفر) بظني انى أوتيته باستحقاق * (تنبيه) * ههنا همزتان مفتوحتان فنافع وسهل الهمزة الثانية وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام ولم يدخل ورش وابن كثير ولورش أيضا ابدالها ألفا والباقون بالتحقيق وعدم الادخال ثم زاد في حث نفسه على الشكر بقوله (ومن شكر) اى أوقع الشكر لربه (فانما يشكر لنفسه) فان نفعه لها وهو أن يستوجب تمام النعمة ودوامها لان الشكر قيد للنعمة الموجودة وجلب للنعمة المفقودة (ومن كفر) اى بالنعمة (فان ربي) اى المحسن الى بتوفيق لما أنا فيه من الشكر (غني) عن شكره لا يضره تركه شيأ (كريم) اى بادرار الانعام عليه فلا يقطعه عنه بسبب عدم شكره ولما حصل العرش عنده (قال) عليه السلام (نكروا) اى غيروا (لها عرشها) اى سريرها الى حالة تنكره اذا رأته قال قتادة ومقاتل هو أن يزاد فيه وينقص وروى انه جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه وجعل مكان الجوهر الاحمر أخضر ومكان الاخضر أحمر اختبارا لعقلها كما اختبرتنا بالوصفاء والوصائف والدرة وغير ذلك واليه أشار بقوله (ننظر أتهتدي) اى الى معرفته فيكون ذلك سببا للهداية في الدين (أم تكون من الذين) شأنهم أنهم (لا يهتدون) بل هم في غاية الغباوة ولا يتجدد لهم اهتداء وقال وهب ومحمد بن كعب الحامل لسليمان على ذلك أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي له اسرار الجن لان أمها كانت جنية واذا ولدت له ولدا لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده فاساؤا الثناء عليها ليزهدوه فيها فقالوا ان في عقلها شيأ وان رجليها كحافر الحمار وانها شعراء الساقين فاراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر الى قدميها ببناء الصرح ثم أشار الى سرعة مجيئها اشارة الى خضوعها بالتعبير بالفاء في قوله (فلما جاءت) وكانت قد وضعت عرشها في بيت خلف سبعة أبواب ووكلت به حراسا أشداء (قيل) لها وقد رأت عرشها بعد تنكيره (أهكذا عرشك) اى مثل هذا عرشك (قالت كأنه هو) قال مقاتل عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها وقال عكرمة كانت حكيمة لم تقل نعم خوفا من أن تكذب ولم تقل لا خوفا من التكذيب فقالت كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر وقيل اشتبه عليها أمر العرش لانها خلفته في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فقيل لها فانه عرشك فما أغنى عنك اغلاق الابواب وقوله تعالى (وأوتينا العلم من قبلها) فيه وجهان

نافعا أكثرهم وقالون
نافع السوسى وناسب
ناقض الآيات في قوله
أدخل كثير من غير سوف
فخرج بهاء اى معها
وتسع آيات

أحدهما انه من كلام بلقيس فالضمير في قبلها راجع للمعجزة والحالة الدال عليها السياق والمعنى وأوتينا العلم بنبوة سليمان من قبل ظهور هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة وذلك لما رأت قبل ذلك من امر الهدهد ورد الهدية والرسل من قبلها من قبل الآية في العرش (وكنا مسلمين) اى منقادين طائعين لامر سليمان والثانى انه من كلام سليمان واتباعه فالضمير في قبلها عائد على بلقيس فكان سليمان وقومه قالوا انها قد أصابت في جوابها وهي عاقلة وقد رزقت الاسلام ثم عطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم يعنى بالله تعالى وبقدرته على مايشاء من قبل هذه المرأة في مثل علمها وغرضهم من ذلك شكر الله تعالى في ان خصهم بمزيد التقديم في الاسلام قاله مجاهد وقيل معناه وأوتينا العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله تعالى واختلف في فاعل قوله عز وجل (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) على ثلاثة أوجه أحدها ضمير البارى تعالى والثانى ضمير سليمان عليه السلام اى منعها ما كانت تعبد من دون الله وهو الشمس وعلى هذا فما كانت تعبد منصوب على اسقاط الخافض اى وصدها الله تعالى أو سليمان عما كانت تعبد من دون الله قاله الزمخشرى مجوزا له قال أبو حيان وفيه نظر من حيث ان حذف الجار ضرورة كقوله * تمرون الديار فلم تعوجوا * وقد تقدم آيات كثيرة من هذا النوع والثالث أن الفاعل هو ما كانت اى صدها ما كانت تعبد عن الاسلام اى صدها عبادة الشمس عن التوحيد وقوله تعالى (انها كانت من قوم كافرين) استئناف أخبر الله تعالى انها كانت من قوم يعبدون الشمس فنشأت بينهم ولم تعرف العبادة ولم تعرف الا عبادة الشمس ولما تم ذلك فكأنه قيل هل كان بعد ذلك اختبار فقيل نعم (قيل لها) اى قائل من جنود سليمان عليه السلام فلم يعكها الخالية (ادخلى الصرح) وهو سطح من زجاج أبيض شفاف تحته ماء جار فيه سمك اصطنعه سليمان لما قالت له الشياطين ان رجليها كحافر الحمار وهي شعراء الساقين فاراد أن ينظر الى ساقيها من غير أن يسئلها كشفهما وقيل الصرح صحن الدار أجرى تحته الماء وألقى فيه كل شئ من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والانس وقيل اتخذ صحنا من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع فكان الواحد اذا رآه ظنه ماء (فلما رأته حسبته لجة) وهي معظم الماء (وكشفت عن ساقيها) لتخوضه فنظر اليها سليمان فرآها أحسن الناس ساقا وقدما الا انها كانت شعراء الساقين فلما رأى سليمان ذلك صرف نظره عنها وناداها بأن (قال) لها (انه) اى هذا الذى ظننته ماء (صرح ممرد) أى مملس ومنه الامرد لملاسة وجهه من الشعر (من) اى كائن من (قوارير) اى زجاج وليس بماء ثم ان سليمان دعاها الى الاسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح فاجابت بان (قالت رب) اى أيها المحسن الى (انى ظلمت نفسى) اى بما كنت فيه من العمى بعبادة غيرك عن عبادتك (وأسلمت مع سليمان لله) اى مقرة له بالالوهية والربوبية على سبيل الوحدانية ثم رجعت اشارة للعجز عن معرفة الذات حق المعرفة الى الافعال التى هى بحر المعرفة فقالت (رب العالمين) فعمت بعد أن خصت اشارة الى الترقى من حضيض دركات العمى الى أوج

مرسلا الى فرعون وناسب
اسلك قلتها وهي سلوك
اليد وضم الجناح المسبب
عنهما بقوله فذانك برهانان
من ربك الى فرعون (قوله

درجات الهدى وقيل انها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت فى نفسها ان سليمان يريد أن يغرقنى وكان القتل أهون من هذا فقولها ظلمت نفسى اى بذلك الظن واختلفوا فى أمرها بعد اسلامها هل تزوجها سليمان عليه السلام فالذى عليه أكثر المفسرين فيما رأيت انه تزوج بها وكره ما رأى من شعر ساقيها فسأل الانس ما يذهب هذا فقالوا الموسى فقالت المرأة لا تمسنى حديدة قط فسأل الجن فقالوا لا ندرى فسأل الشياطين فقالوا انا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وامر الجن فابتنوا لها بارض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا قال الطيبى سلحين وبينون وغمدان قال فى النهاية هو بضم الغين وسكون الميم البناء العظيم وكان يزورها فى الشهر مرة و يقيم عندها ثلاثة أيام و ولدت له وقيل انها لما أسلمت قال لها سليمان اختارى رجلا من قومك أن أزوجك له قالت ومثلى يا نبى الله ينكح الرجال وقد كان لى فى قومى من الملك والسلطان ما كان قال نعم انه لا يكون فى الاسلام الا ذلك ولا ينبغى لك ان تحرمى ما أحل الله فقالت ان كان ولا بد فزوجنى ذا تبع ملك همدان فزوجه بها ثم ردها الى اليمن وسلط زوجها ذا تبع على اليمن وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع ولم يزل أميرا حتى مات سليمان عليه السلام فلما أن حال الحول وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى اذا كان فى جوف اليمن صرخ باعلى صوته يا معشر الجن ان الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذى تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان وقيل ان الملك وصل الى سليمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فسبحان من يدوم ملكه و بقاؤه ولما أتم سبحانه وتعالى قصة سليمان وداود عليهما السلام ذكر قصة صالح عليه السلام وهى القصة الثالثة بقوله تعالى (ولقد أرسلنا) اى بما لنا من العظمة (الى ثمود أخاهم) اى من القبيلة (صالحا) ثم ذكر المقصود من الرسالة بما لا أعدل منه ولا أحسن بقوله (ان اعبدوا الله) اى الملك الاعظم وحده ولا تشركوا به شيأ ثم تعجب منهم بما أشارت اليه الفاء واذا المفاجأة من المبادرة الى الافتراق بما يدعو الى الاجتماع بقوله (فاذا هم) اى ثمود (فريقان) و بين بقوله تعالى (يختصمون) انهم فرقة افتراق بكفر وايمان لا فرقة اجتماع فى هدى وعرفان ففريق صدق صالحا واتبعه وفريق استمر على شركه وكذبه وكل فريق يقول أنا على الحق وخصمى على الباطل ثم استعطف صالح عليه السلام على المكذبين بان (قال) لهم (يا قوم لم تستعجلون) اى اتطلبون العجلة بالاتيان (بالسيئة) اى التى مساءتها ثابتة وهى العقوبة التى أنذرت بها من كفر (قبل) الحالة (الحسنة) من الخيرات التى أبشركم بها فى الدنيا والآخرة ان آمنتم والاستعجال طلب الاتيان بالامر قبل الوقت المضروب واستعجالهم لذلك بالاصرار على سببه وقولهم ائتنا بما تعدنا وكانوا يقولون ان العقوبة التى يعدها صالح ان وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله تعالى توبتنا ويدفع العذاب عنا فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب عقولهم واعتقادهم فقال (لولا) اى هلا ولم لا (تستغفرون الله) اى تطلبون غفرانه قبل نزول العذاب فان استعجال الخير أولى من استعجال الشر (لعلكم ترحمون) تنبيها لهم على

الى فرعون وقومه) قال هنا بلفظ وقومه وفى القصص بلفظ وملئه لان الملأ أشراف القوم ولم يوصفوا ثم بما وصف به

الخطافيما قالوه فان العذاب اذا نزل بهم لاتقبل توبتهم *(تنبيه)* وصف العذاب بانه سيئة مجازا امالان العقاب من لوازمه أولانه يشبهه فى كونه مكروها وأما وصف الرحمة بانها حسنة فقيل حقيقة وقيل مجاز ثم ان صالحا عليه السلام لماقرر لهم هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد بان (قالوا) فظاظة وغلظة (اطيرنا) أى تشاءمنا (بك وبمن معك) اى وبمن آمن بك وذلك ان الله تعالى قد امسك عنهم المطر فى ذلك الوقت وقحطوا فقالوا حل بنا هذا الضرر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك قال الزمخشرى كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيمن وان مر بارحا تشاءم قال الجوهرى السنيح والسانح ماولاك ميامنه من ظبى أوطائر اوغيرهما و برح الظبى بروحا اذا ولاك مياسره يمر من ميامنك الى مياسرك والعرب تتطير بالبارح وتتفاءل بالسانح فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله تعالى وقسمته *(تنبيه)* أصل اطيرنا تطيرنا أدغمت التاء فى الطاء واجتلبت همزة وصل ثم أجابهم صالح عليه السلام بان (قال) لهم (طائركم) أى مايصيبكم من خير وشر (عند الله) أى الملك الاعظم المحيط بكل شئ علما وقدرة وهو قضاؤه وقدره وليس شئ منه بيد غيره وسمى طائرا لسرعة نزوله بالانسان فانه لاشئ أسرع من قضاء محتوم وقال ابن عباس الشؤم أتاكم من عند الله تعالى بكفركم وقيل طائركم عملكم عند الله سمى طائرا لسرعة صعوده الى السماء ومنه قوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه (بل أنتم قوم تفتنون) قال ابن عباس تختبرون بالخير والشر كقوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة وقال محمد بن كعب تعذبون وقيل يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم بالتطير ولما أخبر الله تعالى عن عامة هذا الفريق بالشر نبه على بعض شرهم بقوله تعالى (وكان فى المدينة) اى مدينة ثمود وهى الحجر (تسعة رهط) اى رجال وانما جاز تمييز التسعة بالرهط لانه فى معنى الجماعة فكأنه قيل تسعة أنفس أورجال كما قدرته والفرق بين الرهط والنفر أن الرهط من الثلاثة الى العشرة أومن السبعة الى العشرة والنفر من الثلاثة الى التسعة وأسماؤهم عن وهب الهذيل بن عبد رب غنم بن غنم رياب بن مهرج مصدع بن مهرج عمير بن كردبة عاصم بن مخرمة سبيط بن صدقة سمعان بن صفى قدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من ابناء أشرافهم ورأسهم قدار بن سالف وهو الذى تولى عقر الناقة وقوله (يفسدون فى الارض) اشارة الى عموم فسادهم ودوامه وقوله (ولا يصلحون) يحتمل أن يكون مؤكدا للاول ويحتمل أن لايكون وهو الاولى لان بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح فنفى عنهم ذلك فليس شأنهم الا الفساد المحض الذى لايخالطه شئ من الصلاح ولما اقتضى السياق السؤال عن بعض حالهم أجاب بقوله (قالوا تقاسموا) اى قال بعضهم لبعض احلفوا (بالله) أى الملك العظيم (لنبيتنه) أى صالحا (واهله) اى من آمن به لنهلكن الجميع ليلا فان البيات مباغتة العدو ليلا *(تنبيه)* محل تقاسموا جزم على الامر و يجوز أن يكون فعلا ماضيا وحينئذ يجوز أن يكون مفسرا لقالوا كأنه قيل ما قالوا فقيل تقاسموا ويجوز أن يكون حالا على اضمار قد أى قالوا ذلك متقاسمين واليه ذهب الزمخشرى (ثم لنقولن) أى بعد اهلاك صالح ومن معه (لوليه) اى المطالب بدمه ان بقى منهم أحد (ماشهدنا) أى ماحضرنا (مهلك) أى اهلاك

القوم هنا من قوله فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها فناسب ذكر القوم هنا وذكر الاثم (قوله وأوتينا من كل شئ) النون نون

(أهله) أى أهل ذلك الولى فضلا عن ان نكون باشرنا أو أهل صالح عليه السلام فضلا عن أن
نكون شهدنا مهلكه أو باشرنا قتله ولا موضع اهلاكه وقرأ حمزة والكسائى بعد اللام من
لنبيتنه بتاء فوقية مضمومة و بعد الياء التحتية بتاء فوقية مضمومة وبعد اللام من لنقولن
بتاء فوقية مفتوحة وضم اللام بعد الواو والباقون بعد اللام من لنقولن بنون مفتوحة
ونصب اللام من لنقولن وقرأ عاصم مهلك بفتح الميم والباقون بضمها وكسر اللام حفص
وفتحها الباقون ولما صمموا على هذا الامر وظنوا أنفسهم على المبالغة فى الحلف بقولهم
(وانا لصادقون) اى فى قولنا ما شهدنا مهلك أهله ذلك (فان قيل) كيف يكونون صادقين
وقد جحدوا ما فعلوا فاتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه (أجيب) على التفسير الثانى بانهم
اعتقدوا انهم اذا بيتوا صالحا و بيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ثم قالوا ما شهدنا مهلك اهله
فذكروا أحدهما كانوا صادقين لانهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما وفى هذا دليل قاطع
على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم الا انهم
قصدوا قتل نبى الله ولم يرضوا لانفسهم أن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق فى خبرهم حيلة
يتقصون فيها عن الكذب *ولما كان منهم عمل من لم يظن ان الله عالم به قال تعالى محذرا أمثالهم
عن امثال ذلك (ومكروا مكرا) وهو ما أخفوه من تدبيرهم الفتك بصالح واهله (ومكرنا
مكرا) اى جزيناهم على مكرهم بتعجيل العقوبة (وهم لا يشعرون) أى لا يجدون لهم
شعورا بما قدرناه عليهم شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة وقيل ان الله تعالى أخبر صالحا
بمكرهم فتحرز عنهم فذلك مكر الله تعالى فى حقهم (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) فى ذلك (انا
دمرناهم) أى اهلكناهم (وقومهم أجمعين) روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر
فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاثة فنحن نفرغ منه ومن اهله قبل
الثلاثة فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله
تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا الى الشعب فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم
يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل الله تعالى بهم و بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه
بصيحة جبريل عليه السلام ورمتهم الملائكة بحجارة يرونها ولا يرونهم وقال ابن عباس أرسل
الله تعالى الملائكة تلك الليلة الى دار صالح يحرسونه فاتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم
فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم وقال مقاتل نزلوا
فى سفح الجبل ينتظر بعضهم بعضا ليأتوا دار صالح فجثم عليهم الجبل فاهلكهم واهلك الله
تعالى قومهم بالصيحة (فتلك بيوتهم) أى ثمود كلهم (خاوية) اى خالية من خوى البطن اذا
خلا أو ساقطة منهدمة من خوى النجم اذا سقط *(تنبيه)* خاوية منصوب على الحال
والعامل فيها معنى اسم الاشارة وقرأ الكوفيون أنا دمرناهم بفتح الهمزة اما على حذف
حرف الجر أى لانا دمرناهم واما أن يكون خبر مبتدأ محذوف أى هى أنا دمرناهم اى العاقبة
تدميرنا اياهم وقيل غير ذلك والباقون بكسر الهمزة على الاستئناف وهو تفسير للعاقبة وقرأ
ورش وأبو عمرو وحفص بيوتهم بضم الباء الموحدة وكسرها الباقون ولما ذكر تعالى هلاكهم
اتبعه بقوله تعالى (بما ظلموا) أى بسبب ظلمهم وهو عبادتهم من لا يستحق العبادة وتركهم من

الجمع وفى سليمان نفسه وأباه أو نون العظمة مراعاة لجانب الملك لانه كان ملكا مع كونه نبيا (ان قلت) كيف سوى

يستحقها ثم زاد في التهويل بقوله تعالى (ان في ذلك) اى هذا الامر الباهر للعقول الذى فعل بثمود (لآية) أى عبرة عظيمة ولكنها (لقوم يعلمون) قدرتنا فيتعظون أما من لا علم عنده فقد نادى على نفسه في عداد البهائم * ولما ذكر تعالى الذين أهلكهم اتبعه بذكر الذين نجاهم فقال (وانجينا) أى بعظمتنا وقدرتنا (الذين آمنوا) وهم الفريق الذين كانوا مع صالح كلهم (وكانوا يتقون) أى متصفين بالتقوى أيضا فكأنهم مجبولون عليه فيجعلون بينهم وبين ما يسخط الله وقاية من الاعمال الصالحة * ولما ذكر تعالى قصة صالح عليه السلام اتبعها قصة لوط عليه السلام وهى القصة الرابعة بقوله تعالى (ولوطا) وهو اما منصوب عطفا على صالحا أى وارسلنا لوطا واما عطفا على الذين آمنوا أى وانجينا لوطا واما باذكر مضمرة ويدل منه على هذا (اذ) اى حين (قال لقومه) أى الذين كان سكن فيهم لما فارق عمه ابراهيم الخليل عليهما السلام وصاهرهم وكانوا يأتون الاحداث منكرا موبخا (أتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية في الفحش (وانتم تبصرون) من بصر القلب اى تعلمون فحشها واقتراف القبائح من العالم بقبحها اقبح أو يبصرها بعضكم من بعض لانهم كانوا في ناديهم يرتكبونها معلنين لا يستتر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة وانهماكا في المعصية قال الزمخشري وكان أبا نواس بنى على مذهبهم قوله

و بح باسم ما تأتى وذرني من الكنى * فلا خير في اللذات من دونها ستر

او تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم (فان قيل) اذا فسر تبصرون بالعلم وبعده بل انتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء جهلاء (اجيب) بانهم يفعلون فعل الجاهلين بانها فاحشة مع علمهم بذلك او يجهلون العاقبة او ان المراد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها ثم عين ما أبهمه بقوله (أئنكم لتأتون) وقال (الرجال) اشارة الى أن فعلتهم هذه مما يعيي الوصف ولا يبلغ كنه قبحها ولا يصدق ذو عقل أن احدا يفعلها ثم علل ذلك بقوله (شهوة) نزولا لهم الى رتبة البهائم التى ليس فيها قصد ولد ولا اعفاف وقال (من دون النساء) اشارة الى انهم أساؤا من الطرفين في الفعل والترك وقوله (بل انتم قوم تجهلون) تقدم في جواب تبصرون تفسيره (فان قيل) تجهلون صفة لقوم والموصوف لفظه لفظ الغائب فهلا طابقت الصفة الموصوف (اجيب) بانه قد اجتمعت الغيبة والمخاطبة فغلبت المخاطبة لانها اقوى وارسخ اصلا من الغيبة وقرأ أئنكم نافع وابن كثير وابو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة كالياء وحققها الباقون وادخل بينهما قالون وابو عمرو ألفا وهشام بخلاف عنه ولما بين تعالى جهلهم بين انهم اجابوا بما لا يصلح أن يكون جوابا بقوله تعالى (فما كان جواب قومه) اى لهذا الكلام الحسن لما لم يكن لهم حجة ولا شبهة في دفعه (الا ان قالوا) عدولا الى المغالبة وتماديا في الخبث (اخرجوا آل لوط) أى اهله وقالوا (من قريتكم) منا عليه باسكانه عندهم وعللوا ذلك بقولهم (انهم اناس يتطهرون) أى يتنزهون عن القاذورات كلها فينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا انكارهم وعن ابن عباس هو استهزاء اى قالوه تهكما بهم ولما وصلوا في الخبث الى هذا الحد سبب سبحانه وتعالى عن قولهم وفعلهم قوله تعالى (فانجيناه واهله) أى كلهم من أن يصلوا اليهم باذى و يلحقهم من عذابنا (الا امرأته قدرناها) أى قضينا عليها وجعلناها

منه في قوله من كل شئ وبين في قول الهدهد بالقيس في قول الهدهد (قلت) وأوتيت من كل شئ وأوتيت الفرق بينهما انه أوتيت من كل شئ من اسباب الدنيا

بتقديرنا (من الغابرين) اى الباقين فى العذاب وقرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (وامطرنا عليهم مطرا) هو حجارة السجيل اى اهلكتهم بذلك تسبب عنه قوله (فساء) أى فبئس (مطر المنذرين) بالعذاب مطرهم ولما أتم سبحانه وتعالى هذه القصص الدالة على كمال قدرته وعظيم شأنه وما خص به رسله من الآيات والانتصار من البعداء أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحمده على هلاك الامم الخالية بقوله (قل) يا أفضل الخلق (الحمد) أى الوصف بالاحاطة بصفات الكمال (لله) على اهلاك هؤلاء البعداء البغضاء وأن يسلم على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك بقوله تعالى (وسلام على عباده الذين اصطفى) أى اصطفاهم واختلف فيهم فقال مقاتل هم الانبياء والمرسلون بدليل قوله تعالى وسلام على المرسلين وقال ابن عباس فى رواية أبى مالك هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين *(تنبيه)* سلام مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه دعاء ولما بين أنه تعالى أهلكهم ولم تغن عنهم آلهتهم من الله شيأ قال تعالى (آلله) اى الذى له الجلال والاكرام (خير) أى لعباده الذين اصطفاهم وانجاهم (أم ما يشركون) اى الكفار من الآلهة خير لعبادها فانهم لا يغنون عنهم شيأ *(تنبيه)* لكل من القراء السبعة فى هاتين الهمزتين وجهان الاول تحقيق همزة الاستفهام وابدال همزة الوصل ألفا مع المد والثانى تحقيق همزة الاستفهام أيضا وتسهيل همزة الوصل مع القصر وقرأ أبو عمرو وعاصم يشركون بالياء التحتية بالغيبة حملا على ما قبله من قوله تعالى وأمطرنا عليهم مطرا وما بعده من قوله تعالى بل أكثرهم والباقون بالتاء الفوقية على الخطاب وهو التفات للكفار بعد خطاب نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا تبكيت للمشركين بحالهم لانهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيأ على شئ الا لزيادة خير ومنفعة فقيل لهم هذا الكلام تنبيها لهم على نهاية ضلالهم وجهلهم وتهكما بهم وتسفيها لرأيهم اذ من المعلوم أنه لا خير فيما أشركوه رأسا حتى يوازنوا بينه وبين من هو مبتدأ كل خير وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأها قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم * ثم عدد سبحانه وتعالى أنواعا من الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله الاول منها قوله تعالى (أم من خلق السموات والارض) أى التى هى أصول الكائنات ومبادى المنافع (فان قيل) ما الفرق بين ام وام فى أم ما يشركون وأم من خلق السموات (اجيب) بان تلك متصلة لان المعنى ايهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال آلله خير أم الآلهة قال بل أم من خلق السموات والارض خير تقريرا لهم بان من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شئ (وانزل لكم) أى لاجلكم خاصة وانتم تكفرون به وتنسبون ما تفردبه من ذلك لغيره (من السماء ماء) هو للارض كالماء الدافق للارحام (فانبتنا به حدائق) جمع حديقة وهى البستان وقيل القطعة من الارض ذات الماء قال الراغب سميت بذلك تشبيها بحدقة العين فى الهيئة وحصول الماء فيها وقال غيره سميت بذلك لاحداق الجدران بها قاله ابن عادل وليس بشئ لانه يطلق عليها ذلك مع عدم الجدران (ذات بهجة) اى بهاء وحسن ورونق وسرور على تقارب اصولها مع اختلاف انواعها وتباين طعومها واشكالها ومقاديرها والوانها ولما اثبت الانبات له نفاه عن غيره بقوله تعالى (ما كان)

فقط لعطف ذلك على قالكم وسلبان أوقى من كل شئ من اسباب الدين والدنيا لعطف ذلك على المعجزة وهى منطق الطير

أى ماصح وما تصور بوجه من الوجوه (أن تنبتوا شجرها) أى شجر تلك الحدائق (أإله مع الله) اعانه على ذلك أى ليس معه اله (بل هم) أى فى ادعائهم معه سبحانه شريكا (قوم يعدلون) أى عن الحق الذى لامرية فيه الى غيره وقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر ونظير هذه الآية أول سورة الانعام • الثانى منها قوله تعالى (أمن جعل الارض قرارا) وهو بدل من أمن خلق السموات وحكمه حكمه ومعنى قرارا لاتميد باهلها وكان القياس يقتضى أن تكون هادئة أو مضطربة كما يضطرب ماهو معلق فى الهواء ولكن الله تعالى أبدى بعضها من الماء بحيث يتأتى استقرار الانسان والدواب عليها (وجعل خلالها) أى وسطها (أنهارا) أى جارية على حالة واحدة فلو اضطربت الارض أدنى اضطراب لتغيرت مجارى المياه ثم ذكر تعالى سبب القرار بقوله تعالى (وجعل لها رواسى) أى جبالا أثبت بها الارض على ميزان دبره سبحانه وتعالى فى مواضع من أرجائها بحيث اعتدلت جميع جوانبها فامتنعت من الاضطراب • ولما كان بعض مياه الارض عذبا وبعضها مالحا مع القرب جدا بين الله تعالى ان أحدهما لم يختلط بالآخر بقوله تعالى (وجعل بين البحرين) أى العذب والملح (حاجزا) من قدرته يمنع أحدهما أن يختلط بالآخر (أإله مع الله) أى المحيط علما وقدرة معين له على ذلك (بل أكثرهم) أى الذين ينتفعون بهذه المنافع (لايعلمون) توحيد ربهم بل هم كالبهائم لاعراضهم عن هذا الدليل الواضح • (تنبيه) • فى قراءة أإله مثل أئنكم • الثالث منها قوله تعالى (أمن يجيب المضطر) أى المكروب وهو الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر الى اللجاء والتضرع الى الله تعالى (اذا دعاه) وقت اضطراره وعن ابن عباس هو المجهود وعن السدى هو الذى لاحول له ولاقوة (فان قيل) هذا يعم كل مضطر وكم مضطر يدعو فلا يجاب (أجيب) بان اللام فيه للجنس لا للاستغراق ولا يلزم منه اجابة كل مضطر وقوله تعالى (ويكشف السوء) كالتفسير للاستجابة وانه لايقدر أحد على كشف ماوقع له من فقر الى غنى ومرض الى صحة الا القادر الذى لايعجزه شئ والقاهر الذى لاينازع والاضافة فى قوله تعالى (ويجعلكم خلفاء الارض) بمعنى فى أى يخلف بعضكم بعضا لايزال يجدد ذلك باهلاك قرن وانشاء آخر الى قيام الساعة (أإله مع الله) أى الملك الذى لاكفؤ له ثم استأنف التبكيت تعظيما لهم واجهابه بقوله تعالى (قليلا ماتذكرون) أى تتعظون وقرأ أبو عمرو وهشام بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالخطاب وفيه ادغام التاء فى الذال وما زائدة لتقليل القليل • الرابع منها قوله تعالى (أمن يهديكم) أى يرشدكم الى مقاصدكم (فى ظلمات البر) أى بالنجوم والجبال والرياح (والبحر) بالنجوم والرياح (ومن يرسل الرياح) أى التى هى دلائل السير (نشرا) أى تنشر السحاب وتجمعها (بين يدى رحمته) أى التى هى المطر تسمية للمسبب باسم السبب والرياح التى يهتدى بها فى المقاصد أربع التى من تجاه الكعبة الصبا ومن ورائها الدبور ومن جهة يمينها الجنوب ومن شمالها الشمال ولكل منها طبع فالصبا حارة يابسة والدبور باردة رطبة والجنوب حارة رطبة والشمال باردة يابسة وهى ريح الجنة التى تهب على أهلها جعلنا الله ووالدينا ومشايخنا وأصحابنا ومن انتفع بشئ من هذا التفسير ونفعنا بالمغفرة منهم وقرأ حمزة والكسائى وابن كثير الريح بالافراد والباقون بالجمع وقرأ نافع وابن كثير وأبو

(قوله لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه) توعد سليمان الهدهد بذلك مع انه غير مكلف بيانا لكونه خص بذلك كما خص بتعلم منطقه (قوله فالقه

عمرو نشرا بضم النون والشين وابن عامر بضم النون وسكون الشين وحمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين وعاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين • ولما انكشف بما مضى من الآيات ما كانوا فيه من ظلامهم من واهي الشبهات واتضحت الأدلة ولم يبق لأحد في شيء من ذلك علة كرر سبحانه وتعالى الانكار في قوله تعالى (أإله مع الله) أي الذي كمل علمه (تعالى الله) أي الفاعل القادر المختار (عما يشركون) به غيره وأين رتبة العجز من رتبة القدرة • الخامس منها قوله تعالى (أمن يبدأ الخلق) أي كله في الأرحام من نطفة ماء ثم منهم ومالم تعلمو (ثم يعيده) أي بعد الموت لأن الاعادة أهون (فان قيل) كيف قيل لهم ثم يعيده ولم يعترفوا بالاعادة (أجيب) بأنهم كانوا مقرين بالابتداء ودلالته على الاعادة ظاهرة قوية لأن الاعادة أهون عليه من الابتداء فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لا عذر لهم في انكار الاعادة لقيام البراهين عليها ولما كان الامطار والانبات من أدل ما يكون على الاعادة قال مشيرا اليهما على وجه عم جميع ما مضى (ومن يرزقكم من السماء) أي بالمطر والحر والبرد وغيرها مما له سبب في التكوين أو التلوين (والارض) أي بالنبات والمعادن والحيوان وغيرهما مما لا يعلمه الا الله تعالى وعبر عنهما بالرزق لأن به تمام النعمة (أإله مع الله) أي الذي له صفات الجلال والاكرام • ولما كانت هذه كلها براهين ساطعة ودلائل قاطعة أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أعراضا عنهم بقوله تعالى (قل) أي لهؤلاء المدعين للعقول (هاتوا برهانكم) أي حجتكم على نفي شيء من ذلك عن الله تعالى أو على اثبات شيء منه لغيره (ان كنتم صادقين) أي في أنكم على حق في أن مع الله تعالى غيره وأضاف تعالى البرهان اليهم تبكيتا بهم وتنبيها على أنهم أبعدوا في الضلال وأغرقوا في المحال ثم انهم سألوه عن وقت قيام الساعة فنزل (قل) أي لهم (لا يعلم من في السموات والارض) من الملائكة والناس (الغيب) أي ما غاب عنهم وقوله تعالى (الا الله) استثناء منقطع أي لكن الله يعلمه ولما كان الله تعالى منزها عن أن يحويه مكان جعل الاستثناء هنا منقطعا (فان قيل) من حق المنقطع النصب (أجيب) بأنه رفع بدلا على لغة بني تميم يقولون ما في الدار أحد الا حمار يريدون ما فيها الا حمار كأن أحدا لم يذكر ومنه قولهم ما أتاني زيد الا عمرو وما أعانه اخوانكم الا اخوانه (فان قيل) ما الداعي الى المذهب التميمي على الحجازي (أجيب) بأنه دعت اليه حاجة سرية حيث أخرج المستثنى مخرج قوله الا اليعافير بعد قوله ليس بها أنيس • الا اليعافير والا العيس • ليؤول المعنى الى قولك ان كان الله ممن في السموات والارض فهم يعلمون الغيب بمعنى أن علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم كما أن معنى ما في البيت ان كانت اليعافير أنيسا ففيها أنيس ابتاء عن خلوها عن الانيس ويصح أن يكون متصلا والظرفية في حقه تعالى مجاز بالنسبة الى علمه وان كان فيه جمع بين الحقيقة والمجاز كما قال به امامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه وان منعه بعضهم ومن ذلك قول المتكلمين الله تعالى في كل مكان على معنى أن علمه في الاماكن كلها فكأن ذاته فيها وعلى هذا فيرتفع على البدل والصفة والرفع أفصح من النصب لأنه منفي وعن عائشة رضي الله تعالى عنها من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وعن بعضهم أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحدا لئلا يأمن أحد من عبيده مكره وقوله تعالى (وما يشعرون) صفة

لأهل

اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) • فان قلت اذا تولى عنهم فكيف يعرف جوابهم (قلت) معناه ثم تول عنهم يسيرا بحيث لا يرونك

لاهل السموات والارض نفى ان يكون لهم علم بالغيب وان اجتمعوا وتعاونوا (أيان) أى أى وقت (يبعثون) أى ينشرون وقوله تعالى (بل) بمعنى هل (أدرك) أى بلغ وتناهى (علمهم في الآخرة) أى بها حتى سألوا عن وقت مجيئها ليس الامر كذلك (بل هم فى شك) أى ريب (منها) كمن تحير فى الامر لا يجد عليه دليلا (بل هم منها عمون) لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم وهذا وان اختص بالمشركين ممن فى السموات والارض نسب الى جميعهم كما يسند فعل البعض الى الكل (فان قيل) هذه الاضرابات الثلاثة ما معناها (أجيب) بأنها تنزيل لأحوالهم وصفهم أولا بانهم لا يشعرون بوقت البعث ثم بانهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بانهم يخبطون فى شك ومرية فلا يزيلونه والازالة مستطاعة ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه لا يخطر بباله حقا ولا باطلا ولا يفكر فى عاقبة وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون ووصفهم باستحكام علمهم فى أمر الآخرة تهكما وقرأ أبو عمرو وابن كثير بقطع الهمزة مفتوحة وسكون اللام قبلها وسكون الدال بعدها والباقون بكسر اللام واسقاط الهمزة بعدها وتشديد الدال وبعدها ألف بمعنى تتابع حتى استحكم أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا فى الهلاك وقوله تعالى (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا) أى نحن وآباؤنا الذين طال العهد بهم (لمخرجون) كالنبات والعامل فى اذا محذوف يدل عليه لمخرجون تقديره نبعث ونخرج لان بين يدى عمل اسم المفعول فيه عقبات وهى همزة الاستفهام وانا ولام الابتداء وواحدة منها كافية فكيف اذا اجتمعت والمراد الاخراج من الارض أو من حال الفناء الى حال الحياة وتكرير حرف الاستفهام بادخاله على اذا وانا جميعا انكار على انكار وجحود عقب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والضمير فى انا لهم ولآبائهم لان كونهم ترابا قد تناولهم وآباءهم * (تنبيه) * آباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل بالخبر مقام الفصل بالتوكيد وقرأ نافع بالخبر فى اذا وبالاستفهام فى أئنا وابن عامر والكسائى بالاستفهام فى الاول والخبر فى الثانى وزادا فيه نونا ثانية وباقى القراء بالاستفهام فى الاول والثانى وهم على مذاهبهم من التسهيل والتحقيق والمد والقصر فمذهب قالون وأبى عمرو التسهيل فى الهمزة الثانية وادخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام ومذهب ورش وابن كثير التسهيل وعدم الادخال ومذهب هشام الادخال وعدمه مع التحقيق ومذهب الباقين التحقيق وعدم الادخال ثم أقام الكفار الدليل فى زعمهم على ذلك فقالوا تعليلا لاستبعادهم (لقد وعدنا هذا) أى الاخراج من القبور كما كنا أول مرة (نحن وآباؤنا من قبل) أى قبل محمد فقد مرت الدهور على هذا الوعد ولم يقع منه شئ فذلك دليل على انه لا حقيقة له فكأنه قيل فما فائدة المراد به فقالوا (ان) أى ما (هذا الا أساطير الاولين) أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى كتبوها ولا حقيقة لها * (تنبيه) * أساطير الاولين جمع أسطورة بالضم أى ما سطر من الكذب (فان قيل) لم قدم فى هذه الآية هذا على نحن وآباؤنا وفى آية أخرى قدم نحن وآباؤنا على هذا (أجيب) بان التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المقصود بالذكر وان الكلام انما سيق لاجله ففى احدى الآيتين دل على أن ايجاد البعث هو الذى تعمد بالكلام وفى الاخرى على أن

(قوله فانظر ماذا يرجعون) (قوله من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) قدم سليمان اسمه على اسم الله تعالى مع ان المناسب عكسه لانه عرف أن بلقيس تعرف

ايجاد المبعوث بذلك الصدد ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم بما في صورة التهديد بقوله تعالى (قل سيروا في الارض) أي أيها العمى الجاهلون (فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) بانكارهم وهي هلاكهم بالعذاب فانكم ان نظرتم وتأملتم أخبارهم حق التأمل أسرع بكم ذلك الى التصديق فنجوتم والاهلكتم كما هلكوا وأراد بالمجرمين الكافرين (فان قيل) فلم يقل عاقبة الكافرين (اجيب) بان هذا يحصل به التخويف لكل العصاة ثم ان الله تعالى صبر نبيه صلى الله عليه وسلم على ما يناله من جهلاتهم وعماهم عن السبيل الذي هدى اليه الدليل بقوله تعالى (ولا تحزن عليهم) أي في عدم ايمانهم فانما عليك البلاغ (ولا تكن في ضيق مما يمكرون) أي لا تهتم بمكرهم عليك فانا ناصرك عليهم وجاعل تدميرهم في تدبيرهم كطغاة قوم صالح • (تنبيه) • الضيق الحرج يقال ضاق الشئ ضيقا وضيقا بالفتح والكسر ولهذا قرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بالفتح ولما أشار تعالى الى انهم لم يقروا في المبالغة في التكذيب بالساعة وجها أشار تعالى الى أنهم في التكذيب بالوعيد بالساعة وغيرها من عذاب الله أشد مبالغة بقوله تعالى (ويقولون) بالمضارع المؤذن بالتجدد كل حين والاستمرار (متى هذا الوعد) أي العذاب والبعث والجازاة الموعود بها وهو وعد اظهار الحيثية ثم بكابه (ان كنتم) أي أنت ومن تبعك (صادقين) فيه ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله تعالى (قل) لهم (عسى أن يكون ردف لكم) أي تبعكم وردفكم ولحقكم فاللام مزيدة على هذا للتأكيد كالباء في قوله ولا تلقوا بايديكم ويصح أن يكون تضمن ردف معنى فعل فتعدى باللام نحو دنا وقرب وأردف وبهذا فسره ابن عباس وقد عدي بمن في قول القائل

فلما ردفنا من عمير وصحبه • تولوا سراعا والمنية تعنق

يعني دنونا من عمير (بعض الذي تستعجلون) أي فحصل لهم القتل يوم بدر وباقي العذاب يأتي بعد الموت • (تنبيه) • عسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجازم بها وانما يطلقون اظهارا لوقارهم واشعارا بان الرمز منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله ووعيده ولما كان التقدير فان ربك لا يعجل على هذا العاصي بالانتقام مع تمام قدرته عطف عليه (وان ربك) أي المحسن اليك بالحلم على أمتك (لذو فضل) أي تفضل وانعام (على الناس) أي كافة (ولكن أكثرهم لا يشكرون) أي لا يعرفون حق النعمة له ولا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم العذاب قال ابن عادل وهذه الآية تبطل قول من قال لا نعمة لله على كافر (وان ربك) أي والحال انه (ليعلم ما تكن) أي تضمر وتسر وتخفي (صدورهم) أي الناس كلهم فضلا عن قومك (وما يعلنون) أي يظهرون من عداوتك وغيرها فيجازيهم على ذلك (وما من غائبة في السماء والارض) أي في أي موضع كان منهما وأفردهما دلالة على ارادة الجنس الشامل لكل فرد • (تنبيه) • في هذه التاء قولان أحدهما أنها للمبالغة كراوية وعلامة في قولهم ويل للشاعر من راوية السوء كأنه تعالى قال وما من شئ شديد الغيبوبة والخفاء الا وقد علمه الله تعالى والثاني أنها كالتاء الداخلة على المصادر نحو العاقبة والعافية قال الزمخشري ونظيرها الذبيحة والنطيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات (الا في كتاب) هو اللوح المحفوظ كتب فيه ذلك قبل ايجاده لانه لا يكون شئ الا بعلمه وتقديره (مبين) أي ظاهر لمن ينظر فيه من الملائكة

اسمه دون اسم الله تعالى لخاف انه تستخف باسم الله تعالى أو لما يقع نظرها عليه أو كان اسمه على عنوان الكتاب واسم الله تعالى في باطنه (قوله قال

• ولما

ولما تمم تعالى الكلام فى اثبات المبدا والمعاد ذكر بعده ما يتعلق بالنبوة بقوله تعالى (ان هذا القرآن) أى الآتى به هذا النبى الامى الذى لم يعرف قبله علما ولا خالط عالما (يقص على بنى اسرائيل) أى الموجودين فى زمان نبينا صلى الله عليه وسلم (أكثر الذى هم فيه يختلفون) أى من أمر الدين وان بالغوا فى كتمه كقصة الزانى المحصن فى اخفائهم أن حده الرجم وقصة عزير والمسيح واخراج النبى صلى الله عليه وسلم ذلك مما فى توراتهم فصح بحقيقته على لسان من لم يلم بعلم قط نبوته صلى الله عليه وسلم لان ذلك لا يكون الا من عند الله ثم وصف تعالى فضل هذا القرآن بقوله تعالى (وانه لهدى) أى من الضلالة لما فيه من الدلائل على التوحيد والحشر والنشر والنبوة وشرح صفات الله تعالى (ورحمة) أى نعمة واكرام (للمؤمنين) أى الذين طبعهم على الايمان فهو صفة لهم راسخة كما أنه للكافرين وقر فى آذانهم وعمى فى قلوبهم ٭ ولما ذكر تعالى دليل فضله أتبعه دليل عدله بقوله تعالى (ان ربك) أى المحسن اليك بما لم يصل اليه أحد (يقضى بينهم) أى بين جميع المختلفين (بحكمه) أى الذى هو أعدل حكم وأتقنه وأنفذه (فان قيل) القضاء والحكم شئ واحد فقوله تعالى يقضى بينهم بحكمه أى بما يحكم به كقوله يقضى بقضائه ويحكم بحكمه (أجيب) بأن معنى قوله تعالى بحكمه أى بما يحكم به وهو عدله لانه لا يقضى الا بالعدل فسمى المحكوم به حكما أو أراد بحكمته (وهو) أى والحال أنه هو (العزيز) أى فلا يرد له أمر (العليم) فلا يخفى عليه سر ولا جهر فلما ثبت له تعالى العلم والحكمة والعظمة والقدرة تسبب عن ذلك قوله تعالى (فتوكل على الله) أى ثق به لتدع الامور كلها اليه وتستريح من تحمل المشاق وثوقا بنصره ثم علل ذلك بقوله تعالى (انك على الحق المبين) أى البين فى نفسه الموضح لغيره فصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله تعالى ونصره وقوله تعالى (انك لا تسمع الموتى) تعليل آخر للامر بالتوكل من حيث انه يقطع طمعه من معاضدتهم وانما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم فى قوله تعالى (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) أى معرضين (فان قيل) ما معنى قوله تعالى ولوا مدبرين (أجيب) بانه تأكيد لحال الاصم لانه اذا تباعد عن محل الداعى بأن تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته وقرأ ابن كثير ولا يسمع بالياء التحتية المفتوحة وفتح الميم الصم برفع الميم والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم الصم بالنصب وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو الهمزة الثانية من الدعاء اذا كالياء مع تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم فى المد ثم قطع طمعه فى ايمانهم بقوله تعالى (وما أنت بهادى العمى) أى فى أبصارهم وبصائرهم هداية موصلة الى المقصود (عن ضلالتهم) أى عن الطريق بحيث تحفظهم عن أن يزلوا عنه أصلا فان هذا لا يقدر عليه الا الحى القيوم وقرأ حمزة تهدى بتاء فوقية وسكون الهاء والعمى بنصب الياء والباقون بالباء الموحدة مكسورة وفتح الهاء بعدها ألف والعمى بكسر الياء ٭ ولما كان هذا ربما أوقف عن دعائهم رجاء فى انقيادهم وارعوائهم بقوله تعالى (ان) أى ما (تسمع) أى سماع انتفاع على وجه الكمال فى كل حال (الا من يؤمن) أى من علمنا أنه يصدق (بآياتنا) بأن جعلنا فيه قابلية السمع ثم تسبب عنه قوله دليلا على ايمانه (فهم مسلمون) أى مخلصون فى غاية الطواعية لك كما فى قوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن أى جعله سالما خالصا ثم ذكر تعالى ما يوعدون مما تقدم

الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك) القائل كاتب سليمان واسمه آصف (ان قلت) كيف قدر

استعجالهم له استهزاء بقوله تعالى (واذا وقع القول عليهم) أى مضمون القول وهو ما وعدوا به من قيام الساعة والعذاب ووقوعه حصوله أو أطلق المصدر على المفعول أى المقول (أخرجنا) أى بما لنا من العظمة (لهم) حين مشارفة العذاب والساعة وظهور اشراطها حين لا تنفع التوبة (دابة من الارض) وهى الجساسة جاء فى الحديث ان طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب وروى ان لها أربع قوائم وزغبا وريشا وشعرا أصفر على ريش الفرخ وريشا وجناحين وعن ابن جريج فى وصفها فقال رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير وأذنها اذن فيل وقرنها قرن أيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وخفها خف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وروى أنها لا تخرج الا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أى يبلغ السحاب وعن أبى هريرة فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام وعن على رضى الله تعالى عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج الا ثلثها وروى انه صلى الله عليه وسلم سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فبينما هم يمشون اذ ربت بهم الارض فبيناهم كذلك اذ خرج ... الاخرى وجهها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارا وقيل تخرج من الصفا ولما كان التعبير بالدابة يفهم انها كالحيوانات العجم لا كلام لها قال (تكلمهم) أى بالعربية كما قاله مقاتل بكلام يفهمونه بلسان طلق ذلق فتقول (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) أى ان الناس كانوا لا يوقنون بخروجى لان خروجها من الآيات وتقول ألا لعنة الله على الظالمين وعن السدى تكلمهم ببطلان الاديان كلها سوى دين الاسلام وعن ابن عمر تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المشرق ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك وروى أنها تخرج من اجياد وروى بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب الارض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلى المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتضرب المؤمن فى مسجده او فيما بين عينيه بعصا موسى فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة فى وجهه حتى يضىء لها وجهه او تترك وجهه كأنه كوكب درى وتكتب بين عينيه مؤمن وتنكت الكافر بالخاتم فى انفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر وروى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم انف الكافر بالخاتم ثم تقول لهم يا فلان انت من اهل الجنة ويا فلان انت من اهل النار وعن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال ستا طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة وخاصة احدكم وامر العامة وقال صلى الله عليه وسلم ان اول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على اثرها وقال صلى الله عليه وسلم للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجا باقصى اليمن فيفشو ذكرها فى البادية ولا يدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم بينا الناس يوما فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عز وجل يعنى المسجد الحرام لم يرعهم الا وهى فى ناحية المسجد تدنو وتدنو قال الراوى ما بين الركن الاسود

مع انه خفى على مالم يقدر عليه سليمان مع انه نبى قادر على احضار عرش بلقيس فى طرفة عين (قالت يجوز ان يخفى على النبى

الى باب بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فى وسط من ذلك فارفض الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم ولت فى الارض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى ان الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلى فيقبل عليها بوجهه فتسمه فى وجهه فيتجاور الناس فى ديارهم و يصطحبون فى أسفارهم و يشتركون فى الاموال و يعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر وعن على رضى الله تعالى عنه انه قال ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية يشير الى أنها رجل والاكثرون على أنها دابة وعن ابن عباس انه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاى هذه وعن ابى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يا رسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين وقال وهب وجهها وجه الرجل وسائر خلقها خلق الطير فتخبر من يراها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون وقرأ الكوفيون بفتح الهمزة من أن على تقدير الباء أى بأن الناس الخ والباقون بكسرها على الاستئناف (ويوم نحشر) أى الناس على وجه الاكراه قال أبو حيان الحشر الجمع على عنف (من كل أمة) أى قرن (فوجا) أى جماعة (ممن يكذب بآياتنا) أى وهم رؤساؤهم المتبوعون (فهم يوزعون) اى يجمعون يرد آخرهم الى أولهم وأطرافهم على أوساطهم ليتلاحقوا ولا يشذ منهم أحد ولا يزالون كذلك (حتى اذا جاؤا) الى مكان الحساب (قال) أى الله تعالى لهم (أكذبتم) أى أنبيائى (بآياتى) التى جاؤا بها (و) الحال أنكم (لم تحيطوا بها) أى من جهة تكذيبكم (علما) أى من غير فكر ولا نظر يؤدى الى الاحاطة بما فى معانيها وما أظهرت لاجله حتى تعلموا انها تستحقه وما يليق بها لدليل الامر به فيه وأم فى قوله تعالى (أماذا) منقطعة وتقدم حكمها وماذا يجوز أن يكون برمته استفهاما منصوبا بتعملون الواقع خبرا عن كنتم وأن تكون ما استفهامية مبتدأ وذا موصول خبره والصلة (كنتم تعملون) وعائده محذوف أى أى شئ الذى كنتم تعملونه (ووقع القول) أى وجب العذاب الموعود (عليهم بما ظلموا) اى بسبب ما وقع منهم من الظلم من صريح التكذيب وما نشأ عنه من الضلال فى الاقوال والافعال (فهم لا ينطقون) قال قتادة كيف ينطقون ولا حجة لهم نظيره قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون وقيل لا ينطقون لان أفواههم مختومة ثم انه تعالى لما خوفهم باحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد والحشر وعلى النبوة مبالغة فى الارشاد الى الايمان والمنع من الكفر فقال (ألم يروا) عيانا لهم على قدرتنا على بعثهم بعد الموت وعلى كل ما أخبرناهم به (انا جعلنا) أى بعظمتنا الدالة على نفوذ مرادنا وفعلنا بالاختيار (الليل) أى مظلما (ليسكنوا فيه) عن الانتشار (والنهار مبصرا) أى يبصر فيه ليتصرفوا فيه و يبتغوا من فضل الله فحذف من الاول ما ثبت نظيره فى الثانى ومن الثانى ما ثبت نظيره فى الاول اذ التقدير جعلنا الليل مظلما كما مر ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ليتصرفوا فيه كما مر فحذف مظلما لدلالة مبصرا وليتصرفوا لدلالة ليسكنوا فيه وقوله تعالى مبصرا كقوله تعالى آية النهار مبصرة وتقدم الكلام على ذلك فى الاسراء قال

بكرامة لا يشاركها فيها النبى
كاخصت مريم بانها كانت
ترزق من فاكهة الجنة
وزكريا لم يرزق منها ولم يلزم

الزمخشري فان قلت ما للتقابل لم يراع في قوله تعالى ليسكنوا ومبصرا حيث كان أحدهما علة والآخر حالا قلت هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف لان معنى مبصرا ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب وأجاب غيره بان السكون في الليل هو المقصود ولانه وسيلة الى جلب المنافع الدينية والدنيوية (ان في ذلك) أي هذا المذكور (لآيات) أي دلالات بينة على التوحيد والبعث والنبوة وغير ذلك وخص المؤمنين بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) لانهم المنتفعون به وان كانت الادلة للكل كقوله تعالى هدى للمتقين ولما ذكر الى هذا الحشر الخاص والدليل على مطلق الحشر ذكر الحشر العام بقوله تعالى (ويوم ينفخ) اى بايسر امر (في الصور) اى القرن ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام (ففزع) اى فصعق كما قال تعالى في آية اخرى فصعق (من في السموات ومن في الارض) اى كلهم فماتوا والمعنى انه يلقى عليهم الفزع الى ان يموتوا وقيل ينفخ اسرافيل في الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين (فان قيل) لم قال الله تعالى ففزع ولم يقل فيفزع (اجيب) بان في ذلك نكتة وهي الاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وانه كائن لا محالة واقع على اهل السموات والارض لان الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به والمراد فزعهم عند النفخة الاولى حين يصعقون (الا من شاء الله) اى المحيط علما وقدرة وعزة وعظمة ان لا يفزع روى انه صلى الله عليه وسلم سال جبريل عنهم فقال هم الشهداء يتقلدون اسيافهم حول العرش وعن ابن عباس هم الشهداء لانهم احياء عند ربهم لا يصل الفزع اليهم وعن مقاتل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت عليهم السلام ويروى ان الله تعالى يقول لملك الموت خذ نفس اسرافيل ثم يقول الله تعالى من بقي يا ملك الموت فيقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت بقي جبريل وميكائيل وملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس ميكائيل ثم يقول الله تعالى من بقي يا ملك الموت فيقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت بقي جبريل وملك الموت فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول يا جبريل من بقي فيقول تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والاكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الفاني قال يا جبريل لا بد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه فيروى أن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم ويروى انه يبقى مع هؤلاء الاربعة حملة العرش ثم روح اسرافيل ثم روح ملك الموت وعن الضحاك هم رضوان والحور ومالك والزبانية عليهم السلام وقيل عقارب النار وحياتها (وكل) اى من فزع ومن لم يفزع (أتوه) اى بعد ذلك للحساب بنفخة اخرى يقيمهم بها وفي ذلك دليل على تمام قدرته تعالى في كونه اتاهم بعد ما اماتهم (داخرين) اى صاغرين وقرأ حفص وحمزة بقصر الهمزة وفتح التاء على انه فعل ماض ومفعوله الهاء فالتعبير به لتحقق وقوعه والباقون بمد الهمزة وضم التاء على انه اسم فاعل مضاف للهاء وهذا حمل على معنى كل وهي مضافة تقديرا اى وكلهم ولما ذكر تعالى دخورهم اتبعه بدخور ما هو اعظم منهم بقوله تعالى (وترى الجبال) اى تبصرها وقت النفخة والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لكونه انفذ الناس بصرا وأنورهم بصيرة او لكل احد (تحسبها) اى تظنها (جامدة) اى قائمة ثابتة في مكانها لا تتحرك لان الاجرام الكبار اذا تحركت في سمت واحد لا تكاد تتبين حركتها (وهي تمر) اى تسير حتى تقع على الارض فتستوي بها مبثوثة ثم تصير كالعهن ثم تصير هباء

من ذلك فضلها على زكريا
وقد نقل ان النبي عليه
السلام كان اذا أراد
الخروج الى الغزاة قال

مبثورا

سنتووا وأشار تعالى الى ان سيرها خفى وان كان حثيثا بقوله تعالى (مر السحاب) اى مرا
سريعا لايدرك على ما هو عليه لانه اذا أطبق الجو لايدرك سيره مع انه لاشك فيه والا لم
تنكشف الشمس بلا لبس وكذلك كبير الجرم أو كثير العدد يقصر عن الاحاطة به لبعد ما بين
اطرافه ولكثرته البصر والناظر الحاذق يظنه واقفا وقرأ تحسبها بكسر السين نافع وابن كثير
وابو عمرو والكسائى وفتحها الباقون وقوله تعالى (صنع الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله
اضيف الى فاعله بعد حذف عامله اى صنع الله ذلك صنعا ثم زاد فى التعظيم بقوله دالا على تمام
الاحكام فى ذلك الصنع (الذى أتقن) اى احكم (كل شئ) صنعه ولما ثبت هذا على هذا الوجه
المتقن والنظام الامكن انتج قطعا قوله تعالى (انه) اى الذى اتقن هذه الامور (خبير بما
يفعلون) اى عالم بظواهر الاحوال وبواطنها فيجازيهم عليها كما قال تعالى (من جاء بالحسنه)
اى الكاملة وهى الايمان وعن ابن عباس الحسنة كلمة الشهادة (فله خير) اى افضل (منها)
مضاعفا اقل ما يكون عشرة اضعاف الى ما لا يعلمه الا الله تعالى وقيل له خير حاصل من جهتها
وهو الجنة وفسر الجلال المحلى الحسنة بلا اله الا الله وقال فى فله خير منها اى بسببها فليس
للتفضيل اذ لا فعل خير منها وهذا يناسب القول الثانى (وهم) اى الجاؤن بها (من فزع يومئذ)
اى يوم اذ وقعت هذه الاحوال العظيمة (آمنون) اى حتى لا يحزنهم الفزع الاكبر وقرأ
يفعلون ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الخطاب
وقرأ وهم من فزع يومئذ آمنون الكوفيون بتنوين العين والباقون بغير تنوين وهو أعم فانه
يقتضى الامن من جميع فزع ذلك اليوم وأما قراءة التنوين فتحتمل معنيين من فزع واحد
وهو خوف العذاب وأما ما يلحق الانسان من الرعب ومشاهدته فلا ينفك منه أحد ومن
فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف وهو خوف النار وقرأ نافع والكوفيون بفتح الميم
من يومئذ والباقون بكسرها (فان قيل) أليس قال تعالى فى أول الآية ففزع من فى السموات
ومن فى الارض الا من شاء الله فكيف نفى الفزع ههنا (أجيب) بأن الفزع الاول لا يخلو منه
أحد عند الاحساس بشدة تقع أو هول يفجأ الا ما استثنى وان كان المحسن آمنا من لحاق
الضرر به وأما الثانى فهو الخوف من العذاب (ومن جاء بالسيئة) أى التى لا سيئة مثلها وهى
الشرك لقوله تعالى (فكبت) أى بأيسر أمر (وجوههم فى النار) بان وليتها مع انه ورد فى
الصحيح ان مواضع السجود التى أشرفها الوجه لا سبيل للنار عليها والوجه أشرف ما فى الانسان
فاذا اهان كان ما سواه أولى بالهوان والمكبوب عليه منكوس ويقال لهم تبكيتا (هل) اى
ما (تجزون الا) جزاء (ما كنتم تعملون) اى من الشرك والمعاصى • (تنبيه) • جعل مقابلة
الحسنة بالثواب والسيئات بالعقاب من جملة احكامه للاشياء واتقانه لها واجرائه لها على
قضايا الحكمة انه عليم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب ذلك فانظر
الى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه وأخذ بعضه بحجزة بعض كأنما أفرغ افراغا
واحدا ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق والادعاء ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه
وسلم أن يقول لقومه (انما أمرت) اى بأمر من لا يرد له امر (أن أعبد) اى بجميع ما آمركم به
(رب) اى موجد ومدبر (هذه البلدة) اى مكة التى تخرج الدابة منها فيفزع كل من رآها ثم

لقراءة المهاجرين والانصار
فان الله
ادعو الثابالنصرة
بنصرنا بدعائكم ولم يكونوا
افضل منه مع ان كرامة
التبع من جملة كرامة

تؤمن أهل السعادة أخصه بذلك لا أعبد شيئا مما تعبدونه (الذي حرمها) أي جعلها الله تعالى حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها احد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها وإنما خص مكة بهذه الاضافة تشريفا لها وتعظيما لشأنها قال احترازا عما قد يتوهم (وله كل شئ) أي من غيرها مما أشركتموه به وغيره خلقا وملكا ولما كانوا ربما قالوا نحن نعبده بعبادة من نرجوه يقربنا اليه زلفى عين له الدين الذي تكون به العبادة بقوله (وأمرت) أي مع الأمر بالعبادة له وحده (أن أكون) أي كونا هو في غاية الرسوخ (من المسلمين) أي المنقادين لجميع ما يأمر به كتابه أتم انقياد ثابتا على ذلك غاية الثبات (وأن) أي وأمرت أن (أتلو القرآن) عليكم تلاوة الدعوة الى الايمان أو أن أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه في تلاوته شيئا فشيئا (فمن اهتدى) أي باتباع هذا القرآن الداعي الى الجنان (فإنما يهتدي لنفسه) أي لأجلها لأن ثواب هدايته له (ومن ضل) أي عن الايمان الذي هو الطريق المستقيم (فقل) أي له كما تقول لغيره (إنما أنا من المنذرين) أي المخوفين له عواقب صنعه فلا على من وبال ضلاله شئ إذ ما على الرسول الا البلاغ وقد بلغت (وقل) أي انذارا لهم وترغيبا وترجية وترهيبا (الحمد) أي الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أي الذي له العظمة كلها على نعمة النبوة وعلى ما علمني ووفقني للعمل به (سيريكم آياته) القاهرة في الدنيا كوقعة بدر وخروج دابة الارض وفي الآخرة بالعذاب الاليم (فتعرفونها) أي فتعرفون أنها آيات الله ولكن حين لا تنفعكم المعرفة (وما ربك) أي المحسن اليك بجميع ما أقامك فيه من هذه الامور العظيمة والاحوال الجسيمة (بغافل عما تعملون) أي فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته عن أعمالكم وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب لأن المعنى عما تعمل أنت وأتباعك من الطاعة وهم من المعصية والباقون بالياء على الغيبة وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أن من قرأ طس كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وابراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا اله الا الله حديث موضوع

سورة القصص مكية

الا قوله تعالى إن الذي فرض الآية نزلت بالجحفة والا الذين آتيناهم الكتاب الى لا نبتغي الجاهلين وهي سبع أو ثمان وثمانون آية وألف وأربعمائة واحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف وثمانمائة حرف وتسمى سورة موسى عليه السلام لاشتمالها على قصته فقط من حين ولد الى أن أهلك الله تعالى فرعون وخسف بقارون كما سميت سورة نوح وسورة يوسف لاشتمالهما على قصتهما ولا يقال سميت بذلك لذكر القصص فيها في قوله تعالى فلما جاءه وقص عليه القصص لأن سورة يوسف فيها ذكر القصص مرتين الاولى نقص عليك أحسن القصص والثانية قوله تعالى لقد كان في قصصهم فكانت سورة يوسف أولى بهذا الاسم وأيضا فكانت سورة هود أولى بهذا الاسم لأنه ذكر فيها قصص سبعة أنبياء وهذه ليس فيها الا قصة واحدة فكان ينبغي العكس وأن تسمى سورة هود القصص وهذه سورة موسى (بسم الله) الذي اختص بالكبرياء والعظمة (الرحمن) الذي عم بنعمه أهل الايمان والكفران (الرحيم) الذي

المتبوع ويحكى ان العلم الذي كان عند آصف هو اسم الله الاعظم فدعا به فاجيب في الحال وهو عند اكثر العلماء كما قال

خص بنعمه بعد البعث أهل الايمان (طسم) تقدم الكلام على أوائل السور أول البقرة (تلك) أى هذه الآيات العالية الشان (آيات الكتاب) أى المنزل على قلبك الجامع لجميع المصالح الدنيوية والاخروية والاضافة بمعنى من (المبين) أى المظهر الحق من الباطل (نتلوا) أى نقص قصا متتابعا متوالياً بعضه فى اثر بعض (عليك) بواسطة جبريل عليه السلام (من نبا) أى خبر (موسى وفرعون بالحق) أى بالصدق الذى يطابقه الواقع ﴿تنبيه﴾ يجوز أن يكون مفعول نتلو محذوفا دلت عليه صفته وهى من نبا موسى تقديره نتلو عليك شيأ من نبا موسى ويجوز أن تكون من مزيدة على رأى الاخفش أى نتلو عليك نبأ موسى وبالحق يجوز أن يكون حالا من فاعل نتلو ومن مفعوله أى نتلو عليك بعض خبرهما ملتبسين أو ملتبسا بالحق ثم نبه على أن هذا البيان كما سبق انما ينفع أولى الاذعان بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) وغيرهم لا ينتفع بذلك ولما كان كأنه قيل ما المقصود من هذا قال (ان فرعون) ملك مصر الذى ادعى الالهية (علا) أى بادعاء الالهية وتجبره على عباد الله وقهره اياهم (فى الارض) أى أرض مصر واطلاقها يدل على تعظيمها وانها كجميع الارض لاشتمالها على ما قل أن يشتمل عليه غيرها (وجعل) أى بما جعلنا له من نفوذ الكلمة (أهلها) أى أهل الارض المرادة (شيعا) أى فرقا تتبع كل فرقة شيأ يتبعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه أو اصنافا فى استخدامه يستخدم صنفا فى بناء وصنفا فى حفر وصنفا فى حرث ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء وهم بنو اسرائيل والقبط وقوله تعالى (يستضعف طائفة منهم) يجوز فيه ثلاثة أوجه أن يكون حالا من فاعل جعل أى جعلهم كذلك حالة كونه مستضعفا طائفة منهم وأن يكون صفة لشيعا وان يكون استئنافا بيانا لحال الاهل الذين جعلهم فرقا وأصنافا وهم بنو اسرائيل الذين كانت حياة جميع أهل مصر على يدى واحد منهم وهو يوسف عليه السلام وفعل معهم من الخير ما لم يفعله والد مع ولده ومع ذلك كافؤه فى أولاده وأولاد اخوته بان استعبدوهم ثم ما كفاهم ذلك حتى ساموهم على يدى هذا العنيد سوء العذاب قال البقاعى وهذا حال الغرباء بينهم قديما وحديثا ثم بين الاستضعاف بقوله تعالى (يذبح أبناءهم) أى عند الولادة وكل بذلك اناسا ينظرون كلما ولدت امرأة ذكرا ذبحوه وسبب ذلك ان كاهنا قال له سيولد مولود فى بنى اسرائيل يذهب ملكك على يديه فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاما فقتلهم وبقى هذا العذاب فى بنى اسرائيل سنين كثيرة وكان ذلك من غاية حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وان كذب فما وجه القتل (ويستحيي نساءهم) اى يريد حياة الاناث فلا يذبحهن وقال السدى ان فرعون رأى فى منامه نارا اقبلت من بيت المقدس الى مصر فاحرقت القبط دون بنى اسرائيل فسال عن رؤياه فقيل له يخرج من هذا البلد من بنى اسرائيل رجل يكون هلاك مصر على يديه فامر بقتل الذكور وقيل ان الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه فسمع فرعون ذلك فامر بذبح بنى اسرائيل (انه) اى فرعون (كان من المفسدين) فلذلك اجترأ على قتل خلق كثير من اولاد الانبياء لتخيل فاسد قال وهب ذبح فرعون فى طلب موسى سبعين الفا من بنى اسرائيل وقوله تعالى (ونريد أن نمن) عطف على قوله ان فرعون علا فى الارض لانها نظيرة تلك فى وقوعها

البذنجي اسم الله وقيل
ياحي ياقيوم وقيل ياذا
الجلال والاكرام وقيل
ياالله يارحمن وقيل ياالهنا
واله كل شيء واحدا لا اله

تفسير النبأ موسى وفرعون وقصصاله ونريد حكاية حال ماضية اى نعطى بقدرتنا وعلمنا ما يكون جديرا ان نمن به (على الذين استضعفوا) اى حصل استضعافهم واهانتهم بهذا الفعل الشنيع ولم يراقب فيهم مولاهم (فى الارض) اى ارض مصر فذلوا واهينوا ونريهم فى انفسهم وأعدائهم فوق ما يحبون وفوق ما يأملون (ونجعلهم أئمة) أى مقدمين فى الدين والدنيا علماء يدعون الى الجنة عكس ما يأتى من عاقبة آل فرعون وقال مجاهد دعاة الى الخير وقال قتادة ولاة وملوكا لقوله تعالى وجعلكم ملوكا وقيل يقتدى بهم فى الخير (ونجعلهم) أى بعظمتنا وقدرتنا (الوارثين) أى لملك مصر لا ينازعهم فيه أحد من القبط يخلفونهم فى مساكنهم (ونمكن) أى نوقع التمكين (لهم فى الارض) أى كلها لاسيما أرض مصر والشام باهلاك أعدائهم وتأبيد ملكهم وتأييدهم بكليم الله ثم بالانبياء من بعده صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بحيث يسلطهم بسببهم على من سواهم بما نؤيدهم به من الملائكة ونظهر لهم من الخوارق (ونرى) أى بما لنا من العظمة (فرعون) أى الذى كان هذا الاستضعاف منه (وهامان) وزيره (وجنودهما) أى الذين كانا يتوصلان بهم الى ما يريدانه من الفساد فيقوى كل منهم بالآخر فى الارض فعلوا وطغوا وقوله تعالى (منهم) أى المستضعفين متعلق بنرى أو بنريد لا بيحذرون لان ما بعد الموصول لا يعمل فيما قبله (ما كانوا يحذرون) أى من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم وقرأ حمزة والكسائى ويرى بالياء مفتوحة وفتح الراء مع الامالة وسكون الياء بعد الراء ورفع فرعون وهامان وجنودهما مضارع رأى مسندا الى فرعون وما عطف عليه فلذلك رفعوا وقرأ الباقون بالنون مضمومة وكسر الراء وفتح الياء بعدها ونصب الاسماء الثلاثة مضارع أرى فلذلك نصب فرعون وما عطف عليه مفعولا أول وما كانوا هو الثانى ثم ذكر تعالى أول نعمة من بها على الذين استضعفوا بقوله تعالى (وأوحينا) اى وحى الهام أو منام (الى أم موسى) لا وحى نبوة قال قتادة قذفنا فى قلبها واسمها يوحانذ وهى بنت لاوى بن يعقوب وهذا هو الذى أمضينا فى قضائنا أن يسمى بهذا الاسم وأن يكون هلاك فرعون وزوال ملكه على يده بعد ان ولدته وخافت أن يذبحه الذابحون (أن أرضعيه) ما كنت آمنة عليه ولم يشعر بولادته غير أخته قيل أرضعته ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر وقيل ثلاثة اشهر كانت ترضعه فى حجرها وهو لا يبكى ولا يتحرك وقد روى أنها أرضعته ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى مطلى من داخله بالقار (فاذا خفت عليه) أى منهم أن يصيح فيسمع فيذبح (فالقيه) أى بعد ان تضعيه فى شئ يقيه من الماء (فى اليم) وهو البحر ولكن اراد هنا النيل (ولا تخافى) اى لا يتجدد لك خوف اصلا من ان يغرق او يموت من ترك الرضاع (ولا تحزنى) اى ولا يوجد لك حزن لوقوع فراقه (فان قيل) ما المراد بالخوفين حتى اوجب احدهما ونهى عن الآخر (اجيب) بان الخوف الاول هو الخوف عليه من القتل لانه كان اذا صاح خافت عليه ان يسمع الجيران صوته فينموا عليه واما الثانى فالخوف من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع فى بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون فى تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف (فان قيل) ما الفرق بين الخوف والحزن (اجيب) بان الخوف غم يلحق الانسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والاخطار به فنهيت عنهما جميعا واومنت بالوحى

(قوله وهامان) حقيقة المعية
الاتفاق فى الزمان وهامان
كان ... قبلها وانما لم تقل
بدل مع هامان ...

اماوجدت ما يساء بها او يطمئن قلبها او يملؤها غبطة وسرورا وهو رده اليها كما قال تعالى (انا رادوه اليك) فازال مقتضى الخوف والحزن ثم زادها بشرى واى بشرى بقوله تعالى (وجاعلوه من المرسلين) اى الذين هم خلاصة المخلوقين * وروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال ان بنى اسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ولم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم الى أن انجاهم الله تعالى على يد نبيه وكليمه قال ابن عباس ان ام موسى لما تقارب ولادتها وكانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بحبالى بنى اسرائيل مصافية لام موسى فلما ضربها الطلق أرسلت اليها فقالت قد نزل بى ما نزل فلينفعنى حبك اياى اليوم قال فعالجت قبالها فلما أن وقع موسى عليه السلام بالارض هالها نور بين عينى موسى فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى قلبها ثم قالت لها يا هذه ما جئت اليك حين دعوتنى الا ومن ورائى قتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذا حبا شديدا ما وجدت حب شئ مثل حبه فاحفظى ابنك فانى أراه هو عدونا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاؤا الى بابها ليدخلوا على ام موسى فقالت اخته يا أماه هذا الحرس بالباب فلفت موسى فى خرقة و وضعته فى التنور وهو مسجور وطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع قال فدخلوا فاذا التنور مسجور وام موسى لم يتغير لها لون فقالوا ما ادخل عليك القابلة فقالت هى مصافية لى دخلت على زائرة فخرجوا من عندها فرجع اليها عقلها فقالت لاخت موسى فاين الصبى قالت لا ادرى فسمعت بكاء الصبى من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فاحتملته قال ثم ان ام موسى لما رأت الحاح فرعون فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله تعالى فى نفسها ان تتخذ له تابوتا صغيرا فقال لها النجار ما تصنعين بهذا التابوت قالت ابن لى اخبؤه فى هذا التابوت وكرهت الكذب قال ولم قالت اخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت انطلق النجار الى الذباحين ليخبرهم بامر موسى عليه السلام فلما هم بالكلام امسك الله تعالى لسانه فلم ينطق الكلام وجعل يشير بيديه فلم يدر ما يقول فلما اعياهم امره قال كبيرهم اضربوه فضربوه واخرجوه فلما اتى النجار الى موضعه رد الله تعالى لسانه فتكلم فانطلق ايضا يريد الامناء فاتاهم ليخبرهم فاخذ الله تعالى لسانه و بصره فلم ينطق الكلام ولم يبصر شيأ فضربوه واخرجوه فوقع فى واد يهوى فيه فجعل لله عليه ان رد لسانه وبصره ان لا يدل عليه وان يكون معه يحفظه حيثما كان فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه لسانه و بصره فخر لله ساجدا فقال يارب دلنى على هذا العبد الصالح فدل عليه فخرج من الوادى وآمن به وصدقه وعلم ان ذلك من الله عز وجل * وقال وهب بن منبه لما حملت ام موسى بموسى كتمت امرها عن جميع الناس فلم يطلع على حبلها احد من خلق الله وذلك شئ ستره الله لما اراد ان يمن به على بنى اسرائيل فلما كانت السنة التى يذبح فيها بعث فرعون القوابل وتقدم اليهن وفتشن تفتيشا لم يفتش قبل ذلك وحملت أم موسى فلم تكبر بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها وكانت القوابل لا يتعرضن لها فلما كانت الليلة التى ولدته فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد الا اخته مريم فلما خافت عليه عملت له تابوتا مطبقا ثم القته فى البحر ليلا (فالتقطه) بالتابوت صبيحة

سلميان لانها كانت ملكة فلم تذكر عبارة تدل على انها صارت مسلمة له وان كان الواقع باسلامها ذلك (قوله واصبح الذين

الابل (آل) اى اعوان (فرعون) فوضعوه بين يديه قال ابن عباس وغيره كان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها الى فرعون وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها اطباء مصر والسحرة فنظروا فى امرها فقالوا له ايها الملك لاتبرأ الامن قبل البحر يوجد فيه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون الى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم واقبلت ابنة فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواريها تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن اذ اقبل النيل بالتابوت تضرب به الامواج فقال فرعون ان هذا الشئ فى البحر قد تعلق بالشجر فائتونى به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فاذا هى بصبى صغير فى مهده واذا نور بين عينيه وقد جعل الله تعالى رزقه فى ابهامه يمصه لبنا فالقى الله تعالى لموسى المحبة فى قلب آسية واحبه فرعون وعطف عليه واقبلت بنت فرعون فلما اخرجوا الصبى من التابوت عمدت بنت فرعون الى ما يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته الى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون ايها الملك انا نظن ان ذلك المولود الذى تحذر منه من بنى اسرائيل هو هذا رمى به فى البحر فرقا منك فاقتله فهم فرعون بقتله فقالت آسية قرة عين لى ولك واستوهبت موسى من فرعون وكانت لاتلد فوهبه لها وقال فرعون اما انا فلا حاجة لى فيه وفى حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قال يومئذ هو قرة عين لى كما هو لك لهداه الله كما هداها قال الزمخشرى وهذا على سبيل الفرض والتقدير اى لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ولاسلم كما اسلمت هذا ان صح الحديث تأويله والله اعلم بصحته انتهى ثم قال لآسية ما تسميه قالت سميته موسى لانا وجدناه فى الماء والشجر فمو هو الماء وسى هو الشجر فذلك قوله تعالى فالتقطه آل فرعون (ليكون لهم عدوا) اى بطول خوفهم منه بجعل الفتنة لهم فى دينهم وحملهم على الحق وقتل رجالهم (وحزنا) أى بزوال ملكهم لانه يظهر فيهم الآيات التى يهلك الله تعالى بها من يشاء منهم ويستعبد نساءهم ثم يظفر بهم حتى يهلكهم الله تعالى بالغرق على يده اهلاك نفس واحدة فيعم الحزن والنواح أهل ذلك الاقليم كله (تنبيه) فى هذه اللام الوجهان المشهوران أحدهما أنها العلة المجازية دون الحقيقية لانهم لم يكن داعيهم الى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكن المحبة والتبنى غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لاجله وهو الاكرام الذى هو نتيجة المجئ والتأدب الذى هو ثمرة الضرب للتأدب وتحريره ان هذه اللام حكمها حكم الاسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما استعير الاسد لمن يشبه الاسد والثانى أنها للعاقبة والصيرورة لانهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا ولكن صار عاقبة أمره الى ذلك وقرأ حمزة والكسائى بضم الحاء وسكون الزاى والباقون بفتحهما وهما لغتان بمعنى واحد كالعدم والعدم ثم بين تعالى ان هذا الفعل لا يفعله الا احمق مقهور أو مغفل مخذول لا يكاد يصيب بقوله تعالى (ان فرعون وهامان) وزيره (وجنودهما) اى كلهم على

امنوا) قاله هنا بالفظ الجمع وفى سورة السجدة بلفظ الجمع هنا موافقة لما بعده هنا ولما قبله وبعده ثم فيها وزنه افعل هنا وفعل ثم حيث

طبع واحد (كانوا خاطئين) أى فى كل شئ فلا بدع منهم أن قتلوا الوفا لاجله ثم اخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون أو مذنبين فعاقبهم الله تعالى بان ربى عدوهم على أيديهم وقال وهب لما وضع التابوت بين يدى فرعون فتحه فوجد فيه موسى فلما نظر اليه قال كيف أخطأ هذا الغلام الذبح وكان فرعون قد استنكح امرأة من بنى اسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الانبياء عليهم السلام وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وهى المذكورة فى قوله تعالى (وقالت امرأت فرعون) أى له وهى قاعدة بجنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وانما أمرت أن تذبح الولدان لهذه السنة فدعه (قرت عين لى) أى به (ولك) أى يا فرعون لانهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه وروى أنها قالت انه أتانا من أرض أخرى ليس من بنى اسرائيل ولما أثبتت له انه ممن تقر به العيون قالت (لا تقتلوه) أى لا أنت بنفسك ولا أحد من تأمره بذلك ثم عللت ذلك واستأنفت بقولها (عسى أن ينفعنا) ولو كان له أبوان معروفان فان فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك لما رأت من النور بين عينيه وارتضاعه من ابهامه لبنا وبرء البرصاء بريقه (أو نتخذه ولدا) أى اذا كان لم يعرف له أبوان فيكون نفعه أكثر فانه أهل لان تتشرف به الملوك * (تنبيه) * التاء فى قرت عين مجرورة وقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وهى خبر مبتدإ مضمر أى هو قرة عين والعامة من القراء والمفسرين وأهل العلم على ذلك ونقل ابن الانبارى بسنده الى ابن عباس انه وقف على لا أى هو قرة عين لى فقط ولك لا أى ليس هو لك قرة عين ثم يبتدئ بقوله تقتلوه وقال ابن عادل وهذا لا ينبغى أن يصح عنه وكيف يبقى تقتلوه من غير نون رفع ولا مقتض لحذفها فلذلك قال الفراء هو لحن وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) جملة حالية من كلام الله تعالى أى لا شعور لهم أصلا لان من لا يكون له علم الا بالاكتساب فكيف اذا كان مطبوعا على قلبه واذا كانوا كذلك فلا شعور لهم بما يؤول اليه أمرهم معه من الامور الهائلة المؤدية الى هلاك المفسدين وقيل ان ذلك من كلام امرأة فرعون كأنها لما رأت ملأه أشاروا بقتله قالت له افعل أنت ما أقول لك وقومك لا يشعرون أنا التقطناه قاله الكلبى * ولما أخبر الله تعالى عن حال من لقيه أخبر عن حال من فارقه بقوله تعالى (وأصبح) أى عقب الليلة التى حصل فيها فراقه (فؤاد أم موسى) اى قلبها الذى زاد احتراقه شوقا وخوفا وحزنا وهذا يدل على انها ألقته ليلا واختلف فى معنى قوله (فارغا) فقال أكثر المفسرين خاليا من كل هم الا من هم موسى عليه السلام وقال الحسن أى ناسيا الوحى الذى أوحاه الله تعالى اليها حين أمرها ان تلقيه فى البحر ولا تخاف ولا تحزن والعهد الذى عهد أن يرده اليها ويجعله من المرسلين فجاءها الشيطان وقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله فالقيته فى البحر وأغرقتيه وقال الزمخشرى أى صفرا من العقل والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش ونحوه قوله تعالى وأفئدتهم هواء أى جوف لا عقول فيها وذلك ان القلوب مراكز العقول ألا ترى الى قوله تعالى فتكون لهم قلوب يعقلون بها وقوله تعالى (ان) هى المخففة من الثقيلة واسمها محذوف اى انها (كادت) أى قاربت (لتبدى) اى يقع منها الاظهار لكل ما كان من أمره مصرحة (به) أى بأمر موسى

قال هنا بعد فانجيناه وأهله وأمطرنا وقال ثم قيل وقرينا وبه دوقمنا (قوله أإله مع الله) ذكر هنا فى خمسة مواضع متوالية

عليه السلام من أنه ولدها وقال عكرمة عن ابن عباس كادت تقول وا ابناه وقال مقاتل لما رأت
التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها وقال الكلبي
كادت تظهر انه ابنها حين سمعت الناس يقولون لموسى بعد ما شب موسى ابن فرعون فشق عليها
فكادت تقول هو ابني وقيل ان الهاء عائدة الى الوحي اي كادت لتبدي بالوحي الذي اوحى الله
تعالى اليها أن يرده عليها وجواب (لولا أن ربطنا) محذوف أي لابدت به كقوله تعالى وهم بها
لولا أن رأى برهان ربه والمعنى لولا ان ربطنا (على قلبها) بالعصمة والصبر والتثبت وقوله تعالى
(لتكون من المؤمنين) متعلق بربطنا اي من المصدقين بوعد الله تعالى وهو قوله تعالى انا
رادوه اليك ثم أخبر تعالى عن فعلها في تعرف خبره بعد ان أخبر عن كتمها بقوله تعالى (وقالت)
أي امه (لاخته) اي بعد ان أصبحت على تلك الحالة قد خفي عليها أمره (قصيه) اي اتبعي أثره
وتتبعي خبره او بصرا ففعلت (فبصرت) أي أبصرت (به عن جنب) اي مكان بعيد
اختلاسا (وهم لا يشعرون) جملة حالية ومتعلق الشعور محذوف أي أنها اخته وأنها ترقبه بل
هم في غاية الغفلة التي هي في غاية البعد عن رتبة الالهية أو انها تقصه أو أنه سيكون لهم عدوا
وحزنا ثم ذكر تعالى أخذ الاسباب في رده بقوله تعالى (وحرمنا) أي منعنا بعظمتنا (عليه
المراضع) جمع مرضعة وهي من تكترى للارضاع من الاجانب اي حكمنا بمنعه من الارتضاع
منهن فاستعير التحريم للمنع لانه منع فيه رحمة قال الرازي في اللوامع تحريم منع لا تحريم شرع
(من قبل) اي من قبل أن تأمر أمه اخته بما أمرتها به أو قبل قصها أثره أو قبل ولادته في
حكمنا وقضائنا وهو أنه تعالى غير طبعه عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرتضع أو أحدث في لبنهن
طعما ينفر عنه طبعه أو وضع في لبن امه لذة تعوّد بها فكان يكره لبن غيرها فلما رأت اخت
موسى التي أرسلتها امه في طلبه أنه لا يقبل ثدي امرأة وفي القصة ان موسى مكث ثمان ليال
لا يقبل ثديا ويصيح فقالوا لها هل عندك مرضعة تدلينا عليها لعله يقبل ثديها قال ابن عباس
ان امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة فكلما أتوه بمرضعة لم يأخذ ثديها
فدنت اخته منه بعد نظرها له (فقالت) لما رأتهم في غاية الاهتمام برضاعه (هل) لكم حاجة في
أني (ادلكم على اهل بيت) ولم تقل على امرأة لتوسع دائرة النظر (يكفلونه لكم) اي
يأخذونه ويتولونه ويقومون بجميع مصالحه من الرضاع وغيره لاجلكم ثم ابعدت التهمة
عن نفسها فقالت هي امرأة قتل ولدها فاحب شئ اليها أن تجد صغيرا ترضعه ثم زادتهم رغبة
بقولها (وهم له ناصحون) اي ثابت نصحهم له لا يغشونه نوعا من الغش قال البغوي والنصح
ضد الغش وهو تصفية العمل من شوائب الفساد قال السدي لما قالت ذلك أخذوها وقالوا
قد عرفت هذا الغلام فدلينا على اهله فقالت ما اعرفه وقالت انما اردت وهم للملك ناصحون
فتخلصت منهم بذلك قال ابن عادل وهذا يسمى عند اهل البيان الكلام الموجه ومثله لما سئل
بعضهم وكان بين اقوام بعضهم يحب عليا دون غيره وبعضهم يحب أبا بكر وبعضهم عمر
وبعضهم عثمان رضي الله تعالى عنهم فقيل له ايهم احب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
من كانت ابنته تحته وقيل لما تفرسوا انها عرفته قالت انما قلت هذا رغبة في سرور الملك
واتصالنا به وقيل انهم لما قالت ذلك قالوا لها من فقالت امي قالوا ولامك ابن قالت نعم هرون

وختم الاول بقوله بل هم قوم يعدلون والثانية بقوله بل اكثرهم لا يعلمون والثالثة بقوله قليلا ما تذكرون والرابعة بقوله

وكان ولد في سنة لا يقتل فيها قالوا صدقت فاتبعناها فانطلقت الى امها فاخبرتها بحال ابنها وجاءت بها اليهم فلما وجد الصبي ريح امه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه ريا فقالوا اقيمي عندنا فقالت لا اقدر على فراق بيتي ان رضيتم ان اكفله في بيتي والا فلا حاجة لي به واظهرت الزهد فيه نفيا للتهمة فرضوا بذلك فرجعت به الى بيتها فذلك قوله تعالى (فرددناه الى امه) ثم علله بقوله تعالى (كي تقر عينها) اي تبرد وتستقر واصل قرة العين من القر وهو البرد اي بردت ونامت بخلاف سخنت عينه يقال اقر الله تعالى عينك من الفرح واسخنها من الحزن فلهذا قالوا دمعة الفرح باردة ودمعة الحزن حارة هذا قول الاصمعي قال ابو تمام

فاما عيون العاشقين فاسخنت • واما عيون الشامتين فقرت

وقال ابو العباس ليس كما قال الاصمعي بل كل دمع حار فمعنى اقر الله تعالى عينك صادفت سرورا فنامت وذهب سهرها وصادفت ما يرضيك اي بلغك الله اقصى امانيك حتى تقر عينك من النظر الى غيره استغناء ورضا بما في يديك (ولا) اي وكي لا (تحزن) اي بفراقه (ولتعلم) اي علما هو عين اليقين كما كانت عالمة به علم اليقين وعلم شهادة كما كانت عالمة به علم غيب (أن وعد الله) اي الامر الذي وعدها به الذي له الكمال كله في حفظه وارساله (حق) اي هو في غاية الثبات في مطابقة الواقع (ولكن اكثرهم) اي اكثر آل فرعون وغيرهم (لا يعلمون) ان وعد الله حق فيرتابون فيه او لا يعلمون ان الله وعدها رده اليها قال الضحاك لما قبل ثديها قال هامان انك لأمه قالت لا قال فماله قبل ثديك من بين النسوة قالت ايها الملك اني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن فما شم ريحي صبي الا اقبل على ثديي قالوا صدقت فلم يبق احد من آل فرعون الا اهدى اليها واتحفها بالذهب والجوهر واجرى عليها اجرها قال السدي وكانوا يدفعون اليها كل يوم دينارا (فان قيل) كيف حل لها ان تأخذ الاجر على ارضاع ولدها منه (أجيب) بانها ما كانت تأخذه على انه أجر على الرضاع ولكنه مال حربي كانت تأخذه على الاستباحة فمكث عندها الى أن فطمته واستمر عند فرعون يأكل من مأكوله ويشرب من مائه ويلبس من ملبوسه الى أن كمل كما قال تعالى حكاية عنه في سورة الشعراء ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين (ولما بلغ أشده) وهو ثلاثون سنة أو وثلاث كما قال مجاهد وغيره (واستوى) اي بلغ أربعين سنة كما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل اعتدل في السن وتم استحكامه بانتهاء شبابه وهو من العمر ما بين احدى وعشرين سنة الى اثنين وأربعين (آتيناه) اي ابتداء من غير اكتساب أصلا خرقا للعادة اسوة اخوانه من الانبياء (حكما) أي عملا محكما بالعلم (وعلما) اي فقها في الدين تهيئة لنبوته وارصادا لرسالته وقيل المراد بالعلم علم التوراة والحكم السنة قال الزمخشري وحكمة الانبياء سنتهم قال الله تعالى واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة وقيل معناه آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان لا يفعل فعلا يستجهل فيه قال البقاعي واختار الله تعالى هذا السن للارسال ليكون من جملة الخوارق لانه يكون ابتداء الانتكاس الذي قال الله تعالى فيه ومن نعمره اي الى اكمال سن الشباب ننكسه في الخلق اي نوقفه فلا يزداد بعد ذلك في قواه الظاهرة ولا الباطنة شيء أولا يوجد فيه غريزة لم تكن موجودة أصلا عشر سنين ثم يأخذ في النقصان هذه عادة الله في جميع بني آدم الا الانبياء

تعالى الله عما يشركون والخلاصة بقوله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين اى عدلوا وأول الذنوب العدول عن الحق ثم لم

قوله فان قيل كيف حل لها الخ في حاشية الجمل والظاهر أن هذا السؤال لا يرد من اصله لانه لم يكن اذ ذاك شرع حتى تلتزم حكمه وعلى فرض أن يكون فليس بلازم أن يكون كشرعنا لجواز أن يكون له تفاريع اخر اه مصححه

عليهم الصلاة والسلام فانهم في حد الوقوف يؤتون من بحار العلوم ما يقصر عنه الوصف بقدر الكتاب بل غريزة يغرزها الله تعالى فيهم حينئذ ويؤتون من قوة الابدان أيضا بمقدار ذلك في اشتكاس غيرهم يكون غوهم وكذا من ألحقه الله تعالى بهم من صالحي أتباعهم كما قال تعالى (وكذلك) اى مثل هذا الجزاء العظيم (نجزى المحسنين) اى كلهم على احسانهم ولما أخبر تعالى بتهيئته للنبوة أخبر بما هو سبب لهجرته وكانت سنة بعد ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى (ودخل) اى موسى عليه السلام (المدينة) قال السدى هى مدينة منف من أرض مصر وقال مقاتل كانت قرية تدعى حابين على رأس فرسخين من مصر وقيل مدينة عين شمس وقيل غير ذلك (على حين غفلة من أهلها) وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة وقال محمد بن كعب القرظى دخلها فيما بين المغرب والعشاء وقيل يوم عيد لهم وهم مشتغلون فيه بلهوهم وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فاخافوه فلا يدخل قرية الا على تغفل واختلف فى السبب الذى من أجله دخل المدينة فى هذا الوقت قال السدى وذلك أن موسى كان يسمى ابن فرعون فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه فركب فرعون يوما وليس عنده موسى فلما جاء موسى قيل له ان فرعون قد ركب فركب فى اثره فادركه المقيل بارض منف فدخلها نصف النهار وليس فى طرقها أحد وقال ابن اسحق كان لموسى شيعة من بنى اسرائيل يسمعون منه ويقتدون برأيه فلما عرف ماهو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم فى دينهم فاخافوه فكان لايدخل قرية الا خائفا مستخفيا وقال ابن زيد ولما علا موسى فرعون بالعصا فى صغره فاراد فرعون قتله فقالت امرأته هو صغير فترك قتله وأمر باخراجه من مدينته فلم يدخل عليهم الا بعد ان كبر وبلغ أشده (فوجد فيها) أى المدينة (رجلين يقتتلان) أى يفعلان مقدمات القتل مع الملازمة من الضرب والخنق وهما اسرائيلى وقبطى ولهذا قال تعالى مجيبا لمن كان يسأل عنهما وهو ينظر اليهما (هذا من شيعته) اى من بنى اسرائيل (وهذا من عدوه) اى من القبط قال مقاتل كانا كافرين الا أن أحدهما من القبط والآخر من بنى اسرائيل لقول موسى عليه السلام انك لغوى مبين والمشهور أن الاسرائيلى كان مسلما قيل انه السامرى والقبطى طباخ فرعون فكان القبطى يسخر الاسرائيلى ليحمل الحطب الى المطبخ وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص الى أحد من بنى اسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع وكان بنو اسرائيل عزوا بمكان موسى لكونه ربيب الملك مع ان مرضعته منهم لايظنون أن سبب ذلك الا الارضاع (فاستغاثه) أى طلب منه (الذى من شيعته) أن يغيثه (على الذى من عدوه) فغضب موسى عليه السلام واشتد غضبه وقال لاقبطى خل سبيله فقال انما أخذته ليحمل الحطب الى مطبخ أبيك فنازعه فقال القبطى لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى عليه السلام قد أوتى بسطة فى الخلق وشدة فى القوة والبطش (فوكزه موسى) أى دفعه بجمع كفه والفرق بين الوكز واللكز أن الاول بجمع الكف والثانى باطراف الاصابع وقيل بالعكس وقيل اللكز فى الصدر والوكز فى الظهر (فقضى) أى فاوقع القضاء الذى هو القضاء على الحقيقة وهو الموت الذى لاينجو منه مخلوق (عليه) فقتله وفرغ منه وكل شئ فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه وخفى

قوله حابين كذا فى جميع الاصول التى بايدينا وفى حاشية الجمل وقيل هى قرية يقال لها حاتم خنان على فرسخين من مصر اه مصححه

وعلوا ولو علوا ما علوا ثم لم يتذكروا فيعلوا بالنظر والاستدلال فاشركوا من غير حجة وبرهان قل لهم ياعبدها توا برهانكم ان

هذا

هذا على الناس لما هم فيه من الغفلة فلم يشعر به أحد فندم موسى عليه السلام عليه ولم يكن
قصده القتل فدفنه في الرمل (قال هذا) أي قتله (من عمل الشيطان) أي لاني لم أومر به على
الخصوص ولم يكن من قصدي وان كان المقتول كافرا حربيا ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر
منه بقوله (انه عدو) فينبغي الحذر منه (مضل) لا يقود الى خير أصلا (مبين) أي عداوته
واضلاله في غاية البيان ما في شئ منهما خفاء ولما لم يكن في قتله الا الندم لعدم اذن خاص (قال
رب) أي أيها المحسن الى (انى ظلمت نفسي) أي بالاقدام على ما لم تأمرني به بالخصوص وان كان
مباحا (فاغفر) أي امح هذه الهفوة عينها واثرها (لى) أي لاجلى لا تؤاخذني (فغفر) أي أوقع
المحو لذلك كما قال اكراما (له انه هو) أي وحده (الغفور) أي البالغ في صفة الستر لكل من
يريد (الرحيم) أي العظيم الرحمة بالاحسان بالتوفيق الى الاعمال المرضية لمقام الالهية
ولاجل أن هذه صفته رده الى فرعون وقومه حين أرسله اليهم فلم يقدروا على مؤاخذته بذلك
بقصاص ولا غيره بعد أن نجاه منهم قبل ارساله على غير قياس ثم شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم
بها عليه بأن (قال رب) أي أيها المحسن الى (بما أنعمت على) أي بسبب انعامك على بالمغفرة وغيرها
(فلن أكون) أي ان عصمتني (ظهيرا) أي عونا وعشيرا وخليطا (للمجرمين) قال ابن عباس
للكافرين وهو اما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه
كالولد مع الوالد وكان يسمى ابن فرعون وأما مظاهرة من تؤول مظاهرته الى الجرم والاثم كما في
مظاهرة الاسرائيلي المؤدية الى القتل الذي لم يؤمر به وهذا نحو قوله تعالى ولا تركنوا الى الذين
ظلموا وعن عطاء أن رجلا قال له ان أخي يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه قال فمن الرأس يعني من
يكتب له قال خالد بن عبد الله القسري قال فأين قول موسى وتلا هذه الآية وفي الحديث ينادي
مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فيجمعون في
تابوت من حديد فيرمى بهم في جهنم وقول ابن عباس يدل على أن الاسرائيلي الذي أعانه موسى
عليه السلام كان كافرا وهو قول مقاتل وقال قتادة انى لا أعين بعدها على خطيئة وقيل بما
أنعمت على من القوة فلن استعملها الا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والايمان بك قال
ابن عباس لم يستثن أي لم يقل فلن أكون ان شاء الله تعالى فابتلى به في اليوم الثاني كما قال تعالى
(فأصبح في المدينة) أي التي قتل القتيل فيها (خائفا) أي بسبب قتله له (يترقب) أي ينتظر
ما ينالهم من جهة القتيل قال البغوي والترقب انتظار المكروه وقال الكلبي ينتظر متى يؤخذ
به (فاذا) أي ففجأه (الذي استنصره) أي طلب نصرته من شيعته (بالامس) أي اليوم الذي
يلي يوم الاستصراخ (يستصرخه) أي يطلب ان يزيل ما يصرخ بسببه من الضرمن قبطي
آخر كان يظلمه فكأنه قيل فما قال له موسى بعدما أوقعه فيما يكره فقيل (قال له) أي لهذا
المستصرخ (موسى انك لغوي) أي صاحب ضلال بالغ (مبين) أي واضح الضلال غير خفيه
لكون ما وقع بالامس لم يكفك عن الخصومة لمن لا تطيقه وان كنت مظلوما ثم دنا منهما
لينصره (فلما أن أراد) أي شاء شاءة مزيدة (أن يبطش) أي موسى عليه السلام (بالذي هو
عدو لهما) أي لموسى والاسرائيلي لانه لم يكن على دينهما ولان القبط كانوا أعداء بني اسرائيل
بأن يأخذه بعنف وسطوة لتخلص الاسرائيلي منه (قال) أي الاسرائيلي الغوي لاجل ما رأى

كنتم صادقين قوله ان ربك
يقضي بينهم بحكمه) هو
ما يحكم به وهو العدل والا
فالقضاء والحكم واحد
(قوله ان في ذلك لآيات

من غضبه وتكلمه له ظانا انه يريد البطش به (يا موسى) ناداه باسمه (أتريد أن تقتلني) اي اليوم وانا من شيعتك (كما قتلت نفسا بالامس) اي من شيعة اعدائنا والذي يدل على أن الاسرائيلي هو الذي قال له هذا الكلام السياق وعليه الاكثرون لانه لم يعلم بقتل القبطي غير الاسرائيلي وقيل انما قال موسى للفرعوني انك لغوي مبين بظلمك ويناسبه قوله (ان) اي ما (تريد الا أن تكون جبارا) اي قاهرا عاليا فلا يليق ذلك الا بقول الكافر اوان الاسرائيلي لما ظن قتله قال ذلك وقد قيل في الاسرائيلي انه كان كافرا قال ابو حيان وشان الجبار أن يقتل بغير حق (في الارض) اي التي تكون بها فلا يكون فوقك احد (وما تريد) اي تتخذ ذلك ارادة (أن تكون) اي كونا هو لك كالجبلة (من المصلحين) اي العريقين في الصلاح فان الصلح بين الناس لا يصل الى القتل على هذه الصورة فلما سمع القبطي هذا ترك الاسرائيلي وكان القبط لما قتل ذلك القبطي ظنوا في بني اسرائيل فاغروا فرعون بهم وقالوا ان بني اسرائيل قتلوا منا رجلا فخذ لنا بحقنا فقال ابغوا الى قاتله ومن يشهد عليه فان الملك وان كان صفوه مع قومه لا يستقيم له ان يقضي بغير بينة ولا تثبت فلما قال هذا الغوي هذه المقالة علم القبطي ان موسى عليه السلام هو الذي قتل الفرعوني فانطلق الى فرعون فاخبره بذلك فامر فرعون بقتل موسى قال ابن عباس فلما ارسل فرعون الذباحين لقتل موسى اخذوا الطريق الاعظم (وجاء رجل) اي ممن يحب موسى عليه السلام واختلف في اسمه فقيل حزقيل مؤمن آل فرعون وقيل شمعون وقيل شمعان وكان ابن عم فرعون (من اقصى المدينة) اي ابعدها مكانا (يسعى) اي يسرع في مشيه فاخذ طريقا قريبا حتى سبق الى موسى فاخبره وأنذره حتى أخذ طريقا آخر فكأنه قيل فما قال الرجل له فقيل (قال) مناديا لموسى باسمه تعطفا وازالة للبس (يا موسى ان الملأ) اي اشراف القبط الذين في أيديهم الحل والعقد لان لهم القدرة على الامر والنهي (يأتمرون بك) أي يتشاورون في شأنك (ليقتلوك) حتى وصل حالهم في تشاورهم الى أن كلا منهم يأمر الآخر ويأتمر بأمره لانهم سمعوا انك قتلت صاحبهم (فاخرج) أي من هذه المدينة ثم علل ذلك بقوله على سبيل التأكيد ازيل ما يطرقه من احتمال عدم القتل لكونه عزيزا عند الملك (اني لك من الناصحين) أي العريقين في نصحك (فخرج) أي موسى عليه السلام مبادرا (منها) أي المدينة لما علم صدق قوله بما تحققه من القرائن حال كونه (خائفا) على نفسه من آل فرعون (يترقب) أي يكثر الالتفات بادارة رقبته في الجهات ينظر هل يتبعه أحد ثم دعا الله تعالى بأن (قال رب) أي أيها المحسن الي بالنجاة وغير ذلك من وجوه البر (نجني) أي خلصني (من القوم الظالمين) أي الذين يضعون الامور في غير مواضعها فيقتلون من لا يستحق القتل مع قوتهم فاستجاب الله تعالى دعاءه فوفقه لسلوك الطريق الاعظم نحو مدين فكان ذلك سبب نجاته وذلك ان الذين انتدبوا اليه قطعوا بأنه لا يسلك الطريق الاكبر جريا على عادة الخائفين الهاربين وفي القصة أن فرعون لما بعث في طلبه قال اركبوا ثنيات الطريق فانتشروا فيها ظنوا يمينا وشمالا ففاتهم (ولما توجه) أي أقبل بوجهه قاصدا (تلقاء) أي الطريق الذي يلاقي سالكه أرض (مدين) قال ابن عباس خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه الى الله تعالى ومشى من غير معرفة فهداه الله تعالى الى مدين وقيل وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة لانهم من ولد مدين بن ابراهيم وكان

يؤمنون) خص القوم المؤمنين بالذكر مع ان غيرهم مثلهم لانهم المنتفعون بالآيات (قوله ويوم ينفخ في الصور

من

من بنى اسرائيل سميت البلدة باسمه فخرج ولم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى وقيل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق قال ابن اسحق خرج من مصر الى مدين خائفا بلا زاد ولا ظهر وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام الا ورق الشجر (قال عسى) أى جدير وحقيق (ربى) أى المحسن الى (أن يهدينى سواء) أى أعدل ووسط (السبيل) أى الطريق الذى يطلعنى الله تعالى عليها من غير اعوجاج وقال ذلك قبل أن يعرف الطريق اليها قيل فلما دعا جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به الى مدين قال المفسرون خرج موسى من مصر ولم يكن له طعام الا ورق الشجر والبقل حتى ترى خضرته فى بطنه وما وصل الى مدين حتى وقع خف قدميه قال ابن عباس وهو أول ابتلاء من الله تعالى لموسى عليه السلام (ولما ورد) أى وصل (ماء مدين) وهو بئر كان يسقى منها الرعاة مواشيهم (وجد عليه) أى الماء (امة) أى جماعة كثيرة (من الناس) مختلفين (يسقون) أى مواشيهم (ووجد من دونهم) أى فى مكان سواهم أسفل من مكانهم (امرأتين) عبر بذلك لما جعل لهما سبحانه من المروأة ومكارم الاخلاق كما يعلم من أمعن النظر فيما يذكر عنهما (تذودان) أى تحبسان وتمنعان أغنامهما اذا فزعت من العطش الى الماء حتى يفرغ الناس ويخلو لهما البئر وقال الحسن تكفان الغنم لئلا تختلط بغنم الناس وقال قتادة تكفان الناس عن أغنامهما وقيل لئلا يختلطن بالرجال وقيل كانتا تذودان عن وجوههما نظر الناظرين لتسترهما وقيل غير ذلك فكأنه قيل فما قال موسى لهما فقيل (قال) لهما رحمة لهما (ما خطبكما) أى ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس (قالتا لا نسقى) أى مواشينا وحذف للعلم به (حتى يصدر) أى ينصرف ويرجع (الرعاء) أى عن الماء خوف الزحام فنسقى وقرأ أبو عمرو وابن عامر بفتح الياء وضم الدال والباقون بضم الياء وكسر الدال مضارع اصدر يعدى بالهمزة *(تنبيه)* المفعول محذوف أى يصدرون مواشيهم والرعاء جمع راع مثل تاجر وتجار أى نحن امرأتان لا يليق أن نزاحم الرجال فاذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) أى لا يستطيع لكبره أن يسقى فاضطررنا الى ما ترى *(تنبيه)* اختلف فى أبيهما فقال مجاهد والضحاك والسدى والحسن أبوهما هو شعيب النبى عليه السلام وانه عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته وقال وهب وسعيد بن جبير هو يثرون ابن أخى شعيب وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعد ما كف بصره فدفن بين المقام وزمزم وقيل رجل ممن آمن بشعيب قالوا فلما سمع موسى قولهما رحمهما فاقتلع صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها الا جماعة من الناس وقال ابن اسحق ان موسى زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين ويروى أن القوم لما رجعوا بأغنامهم غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه الا عشرة نفر وقيل أربعون وقيل مائة فجاء موسى ورفع الحجر وحده وسقى غنم المرأتين ويقال انه سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكانت لا ينزعها الا أربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض ودعا فيه بالبركة فروى منه جميع الغنم (فان قيل) كيف ساغ لنبى الله تعالى شعيب أن يرضى لابنتيه الرعى بالماشية (أجيب) بأن الناس اختلفوا فيه هل هو شعيب أو غيره واذا قلنا انه هو كما عليه الاكثر فليس ذلك بمحظور فلا يأباه الدين والناس مختلفون فى ذلك بحسب المروأة وعادتهم فيها متباينة

فنزع) قاله هنا بلفظ فنزع وفى الزمر بلفظ سيق وفى الزمر ... لما بعده وهو موافقة هنا لما بعده وهو من فزع يومئذ منون وفى الزمر لما قبله وهو انك

وأحوال العرب والبدو وتباين أحوال العجم والحضر لاسيما اذا دعت الى ذلك ضرورة (فسقى)
أي موسى عليه السلام (لهما) والمفعول محذوف أي غنمهما الماء لهما ورحمة لهما انتهاز الفرصة
الاجر وكرم الخلق في مساعدة الضعيف مع ما به من النصب والجوع وسقوط خف القدم ولكنه
رحمهما وأغاثهما وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده وما آتاه الله
تعالى من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة (ثم تولى) أي انصرف جاعلا ظهره يلي ما كان
يليه وجهه (الى الظل) أي ظل سمرة فجلس في ظلها ليقيل ويستريح مقبلا على الخالق بعد
ما قضى من نصيحة الخلائق وهو جائع قال الضحاك لبث سبعة أيام لم يذق طعاما الا بقل الارض
(فقال رب اني) وأكد الافتقار بالالصاق باللام دون الى بقوله (لما أنزلت الي من خير) قليل أو
كثير غث أو سمين (فقير) أي محتاج سائل ه (تنبيه) ه لما أنزلت متعلق بفقير قال الزمخشري
عدى فقير باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب ويحتمل اني فقير من الدنيا لاجل ما أنزلت الي من
خير الدين وهو النجاة من الظالمين وليس في الشكوى الى الغني المطلق نقص قال ابن عباس
سأل الله تعالى فلقة خبز يقيم بها صلبه وقال الباقر لقد قالها وانه لمحتاج الى شق تمرة وقال
سعيد بن جبير عن ابن عباس لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه وانه كان قد بلغ به من
الضر ان اخضر بطنه من أكل البقل وضعف حتى لصق بطنه الشريف بظهره وانما قال ذلك
في نفسه مع ربه وهو اللائق به وقيل رفع به صوته لاستماع المرأتين وطلب الطعام وهذا لا يليق
بموسى عليه السلام فانظر الى هذا النبي عليه السلام وهو خلاصة ذلك الزمان ليكون لك في ذلك
اسوة وتجعله اماما وقدوة وتقول ما لقي الانبياء والصالحون من الضيق والاهوال في سجن الحياة
الدنيا صونا لهم منها وإكراما من ربهم عنها رفعة لدرجاتهم واستهانة لها وان ظنه الجاهل المغرور
على غير ذلك وفي القصة ترغيب في الخير وحث على المعاونة على البر وبعث على بذل المعروف
مع الجهد فلما رجعتا الى أبيهما سريعا قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما
قالتا وجدنا رجلا صالحا رحيما فسقى لنا أغنامنا فقال لاحداهما اذهبي فادعيه لي (فجاءته
احداهما) ممتثلة أمر أبيها وقوله (تمشي) حال وقوله (على استحياء) حال أخرى أي مستحيية
اما من جاءته واما من تمشي قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ليست بسلفع من النساء
خراجة ولاجة ولكن جاءته مستترة وضعت كم درعها على وجهها استحياء ثم استأنف الاخبار
بما تشوف اليه السامع بقوله تعالى (قالت) وأكدت اعلاما بما لابيها من الرغبة الى لقائه
(ان أبي) وصورت حاله بالمضارع قولها (يدعوك ليجزيك) أي يعطيك مكافأة لك لان المكافأة
من شيم الكرام (أجر ما سقيت لنا) أي مواشينا قال ابن اسحق اسم الكبرى صفورا
والصغرى ليى وقيل ليا وقال غيره صفرا وصفيرا وقال الضحاك صافورا وقال الاكثرون التي
جاءت لموسى الكبرى وقال الكلبي هي الصغرى قال الرازي وليس في القرآن دلالة على شيء من
هذه التفاصيل (فان قيل) في الآية اشكالات احدها كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل
بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية فان ذلك يورث التهمة العظيمة وقال صلى الله عليه
وسلم اتقوا مواضع التهم وثانيها أنه سقى أغنامهما تقربا الى الله تعالى فكيف يليق به أخذ
الاجرة عليه وذلك غير جائز في الشريعة وثالثها أنه عرف فقرهما وفقر أبيهما وانه عليه السلام

حيث ادعى الصدق اولا وعبر فيهما بالماضي دون المضارع مع انه انسب لاشعار بتحقق الفزع والصدق ووقوعهما اذ

كان

كان في نهاية القوة بحيث يمكنه الكسب بأقل سعي فكيف يليق بمروأة مثله طلب الاجرة على ذلك القدر من الشيخ الفاني الفقير والمرأة الفقيرة ورابعها كيف يليق بالنبي شعيب عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة الى رجل شاب قبل العلم بكون الرجل عفيفاً أو فاسقاً (أجيب) عن الاول بأن الخبر يعمل فيه بقول المرأة فان الخبر يعمل فيه بقول الواحد حراً كان أو عبداً ذكراً كان أو أنثى وهي ما كانت مخبرة الا عن أبيها وأما المشي مع المرأة بعد الاحتياط والتورع فلا بأس به وعن الثاني بأن المرأة لما قالت ذلك لموسى عليه السلام ما ذهب اليهم طلباً للاجرة بل للتبرك بذلك الشيخ الكبير لما روي أنه لما دخل على شعيب عليه السلام اذا هو بالعشاء مهيأ فقال اجلس يا شاب فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذلك ألست بجائع قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وانا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضاً من الدنيا وفي رواية لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ بالمعروف ثمناً فقال له شعيب لا والله يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام فأكل وأيضاً فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ الى حيث ما كان يطيق تحمله ففعل ذلك اضطراراً وهو الجواب عن الثالث فان الضرورات تبيح المحظورات وعن الرابع بأن شعيباً عليه السلام كان يعلم طهارة ابنته وبراءتها اما بوحي أو بغيره فكان يأمن عليها قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقام يمشي والجارية امامه فهبت الريح فوصفت ردفها فكره موسى عليه السلام أن يرى ذلك منها فقال لها امشي خلفي أو قال موسى اني من عنصر ابراهيم فكوني خلفي حتى لا يرفع الريح ثيابك فارى ما لا يحل وفي رواية كوني خلفي ودليني على الطريق برمي الحصا لان صوت المرأة عورة (فان قيل) لم خشي موسى عليه السلام أن يكون ذلك أجرة له على عمله ولم يكره مع الخضر عليه السلام ذلك حين قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً أجيب بأن أخذ الاجرة على الصدقة لا يجوز وأما الاستئجار ابتداء فغير مكروه (فلما جاءه) أي موسى شعيباً (وقص) أي موسى عليه السلام (عليه) أي شعيب عليه السلام (القصص) أي حدثه حديثه مع فرعون وآله في كفرهم وطغيانهم واذلالهم لعباد الله تعالى * (تنبيه) * القصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص قال الضحاك قال له من أنت يا عبد الله قال أنا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم وقتل القبطي وانهم يطلبونه ليقتلوه ثم ان شعيباً عليه السلام امنه بأن (قال) له (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أي فان فرعون لا سلطان له بأرضنا (فان قيل) ان المفسرين قالوا ان فرعون يوم ركب خلف موسى ركب في ألف ألف وستمائة ألف والملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام (أجيب) بأن هذا ليس بمحال وان كان نادراً ولما امنه واطمأن (قالت احداهما) أي المرأتين وهي التي دعته الى أبيها مشيرة بالنداء بأداة البعد الى استصغارها لنفسها وجلالة أبيها (يا أبت استأجره) أي اتخذه أجيراً يرعى أغنامنا (ان خير من استأجرت القوي الأمين) أي خير من استعملت من قوي على العمل الشيء من الأشياء وأداء الامانة قال أبو حيان وقولها قول حكيم جامع لا يزاد عليه لانه اذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والامانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك وقد استغنت

الماضي أدل على ذلك من المضارع (قوله وكل أتوه داخرين) ان قلت كيف قال داخرين أي صاغرين

بارسال هذا الكلام الذى ساقه مساق المثل والحكمة أن تقول استأجره لقوته وأمانته وانما جعل خير من استأجرت اسما والقوى الامين خبرا مع أن العكس أولى لان العناية هى سبب التقديم وقد صدقت حتى جعل اهاماهو أحق بان يكون خبر اسما وورود الفعل بلفظ الماضى للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف وعن ابن عباس أن شعيبا اخذته الغيرة فقال وما علمك بقوته وأمانته فذكرت اقلال الحجر ونزع الدلو وانه صوب أى خفض رأسه حين بلغته رسالة أبيها اليه وأمرها بالمشى خلفه وعن ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف فى قوله عسى أن ينفعنا وأبو بكر فى عمر ولما أعلمته ابنته بذلك (قال) لموسى عليه السلام عند ذلك (انى أريد) ياموسى والتأكيد لان الغريب قلما يرغب فيه أول ما يقدم لاسيما من الرؤساء اتم الرغبة (أن أنكحك احدى ابنتى هاتين) أى الحاضرتين اللتين سقيت لهما اليتأملهما فينظر من يقع اختياره عليه منهما ليعقد له عليها قال أكثر المفسرين انه زوجه الصغرى منهما وهى التى ذهبت لطلب موسى واسمها صفورا على خلاف تقدم فى اسمها وقوله هاتين فيه دليل على أنه كان له غيرهما وقوله (على أن تأجرنى ثمانى حجج) اما من اجرته اذا كنت له أجيرا كقولك أبوته اذا كنت له أبا وثمانى حجج ظرفه اى ترعى غنمى ثمانى حجج واما من اجرته كذا اذا أثبته اياه قاله الفراء اى تجعل ثوابى من تزويجها أى تجعل اجرى على ذلك ثوابى ثمانى حجج تقول العرب أجرك الله يأجرك اى أثابك ومنه تعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم أجركم الله ورحمكم وثمانى حجج مفعول به ومعناه رعية ثمانى حجج (فان قيل) كيف صح أن ينكحه احدى ابنتيه من غير تمييز (أجيب) بان ذلك لم يكن عقدا ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه ولو كان عقدا لقال أنكحتك ولم يقل انى أريد ان أنكحك وقد مرت الاشارة الى ذلك والحجج السنون واحدها حجة (فان أتممت عشرا) اى عشر سنين وقوله (فمن عندك) يجوز ان يكون فى محل رفع خبر المبتدا المحذوف تقديره فهى من عندك او نصب أى فقد زدتها من عندك أو تفضلت بها من عندك وليس ذلك بواجب عليك *(تنبيه)* هذا اللفظ يدل على ان العقد وقع على اقل الاجلين والزيادة كالتبرع فالعقد وقع على معين ودلت الآية على ان العمل قد يكون مهرا كالمال وعلى ان عقد النكاح لا يفسد بالشروط التى لا يوجبها العقد ان كان وقع شرط هذه الزيادة فى العقد * ولما ذكر ذلك اراد ان يعلمه ان الامر بعد الشرط بينهما على المسامحة فقال (وما أريد ان اشق عليك) اى ادخل عليك مشقة بمناقشة ومراعاة أوقات ولا فى اتمام عشر ولا غير ذلك ثم أكد معنى المساهلة بقوله (ستجدنى) وفتح الياء نافع عند الوصل والباقون بسكونها ثم استثنى على قاعدة أنبياء الله واوليائه فى المراقبة على سبيل التبرك بقوله (ان شاء الله) أى الذى له جميع الامر (من الصالحين) قال عمر اى فى حسن الصحبة والوفاء بما قلت أى وكل ما تريده من كل خير وقيل اراد الصلاح على العموم (فان قيل) كيف ينعقد العقد بهذا الشرط ولو قلت أنت طالق ان شاء الله لم تطلق (اجيب) بان هذا انما يختلف بالشرائع أو ان ذلك ذكر للتبرك (قال) اى موسى عليه السلام (ذلك) اى الذى ذكرته وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليه (بينى وبينك) اى قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا انا عما شرطت على ولا أنت عما شرطت على نفسك *(تنبيه)* ذلك مبتدأ والظرف خبره وأضيفت بين لمفرد

اذلا بعد البعث مع ان النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ماتوا عزيز بن مكرمين (قات)

المراد صغار العبودية والرق وذلهما الاذل الذنوب والمعاصي وذلك يعم الخلق كلهم كما في قوله ان كل من

لتكررها وعطفت بالواو ولو قلت المال لزيد فعمرو لم يجز والاصل ذلك بيننا كما مر ففرق بالعطف ثم فسر ذلك بقوله (أيما) أي أي (الاجلين) فما زائدة (قضيت) أي فرغت أطولهما الذي هو العشر او اقصرهما الذي هو الثمان (فلا عدوان) اى اعتداء بسبب ذلك ولا لأحد (علي) في طلب أكثر منه لانه كما لا تجب الزيادة على العشر لا تجب الزيادة على الثمان (فان قيل) تصور العدوان انما هو في أحد الاجلين الذي هو اقصر وهو المطالبة بتتمة العشر فما معنى تعليق العدوان بهما جميعا (اجيب) بان معناه كما انى ان طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانا لاشك فيه فكذلك ان طولبت بالزيادة على الثمان أراد بذلك تقرير أمر الخيار وانه ثابت مستقر وان الاجلين على السواء اما هذا واما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء وأما التتمة فموكلة الى رأيي ان شئت أتيت بها والا لم أجبر عليها وكأنه أشار بنفي صيغة المبالغة الى أنه لا يؤاخذ لسعة صدره وطهارة أخلاقه بمطلق العدوان (والله) أي الملك الاعظم (على ما نقول) أي كله في هذا الوقت وغيره (وكيل) قال ابن عباس ومقاتل شهيد فيما بيني وبينك وقيل حفيظ وعن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة أي الاجلين قضى موسى فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال قضى أكثرهما وروى عن أبي ذر مرفوعا اذا سئلت اى الاجلين قضى موسى فقل خيرهما واذا سئلت فاى المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما وقضى أوفاهما وقال وهب أنكحه الكبرى وروى عن شداد بن أوس مرفوعا بكى شعيب عليه السلام حتى عمي فرد الله تعالى عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله تعالى عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله تعالى عليه بصره وقال له ما هذا البكاء أشوقا الى الجنة أم خوفا من النار قال لا يا رب ولكن شوقا الى لقائك فاوحى الله تعالى اليه ان يكن ذلك فهنيئا لك يا شعيب لذلك أخدمتك موسى كليمي ولما تم العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه واختلفوا في تلك العصا فقال عكرمة خرج بها آدم من الجنة فاخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلا فدفعها اليه وقال آخرون كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الانبياء وكان لا يأخذها غير نبي الا أكلته فصارت من آدم الى نوح ثم الى ابراهيم حتى وصلت الى شعيب وكانت عصي الانبياء عليهم الصلاة والسلام عنده فاعطاها موسى وقال السدي كانت تلك العصا استودعها اياه ملك في صورة رجل فامر ابنته أن تأتيه بعصا فدخلت فاخذت العصا فاتت بها فلما رآها شعيب قال لها اردي هذه العصا وأتيه بغيرها فدخلت فالقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا يقع في يدها الا هي حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فاعطاها موسى فأخذها موسى معه ثم ان الشيخ ندم فقال كانت وديعة فذهب في اثره فطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه وقال هي عصاي فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فلقيهما ملك في صورة رجل فحكم أن تطرح العصا فمن حملها فهي له فطرح موسى العصا فعالجها الشيخ فلم يطقها فاخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ وروى ان شعيبا عليه السلام كان عنده عصي الانبياء فقال لموسى بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي فاخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم تزل الانبياء تتوارثها حتى وقعت الى شعيب فمسها وكان مكفوفا فضن أي بخل بها فقال خذ

غيرها فما وقع في يده الا هي سبع مرات فعلم ان له شأنا وعن الحسن ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي موسى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلأ وان كان بها كثيرا الا أن فيها تنينا أخشاه عليك فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على اثرها فاذا عشب وريف لم ير مثله فنام فاذا بالتنين قد اقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا (فلما قضى موسى الاجل) أى أتمه وفرغ منه وزوجه ابنته قال مجاهد مكث بعد ذلك عند صهره عشرا أخرى فأقام عنده عشرين سنة ثم ان شعيبا عليه السلام أراد أن يجازي موسى على رعيته اكراما له وصلة لابنته فقال له انى وهبت لك من الجداء التى تضعها أغنامى هذه السنة كل ابلق وبلقاء فأوحى الله تعالى الى موسى فى المنام أن اضرب بعصاك الماء الذى فى مستقى الاغنام قال فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الاغنام منه فما أخطأت واحدة منها الا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب ان ذلك رزق ساقه الله عز وجل الى موسى وامرأته فوفى له بشرطه وسلم الاغنام اليه ثم ان موسى استأذنه فى العود الى مصر فأذن له فخرج (وسار باهله) أى امرأته راجعا الى أقاربه بمصر (آنس) أى أبصر من بعيد (من جانب الطور) اسم جبل (نارا) آنسه رؤيتها وكان فى البرية فى ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق حينئذ (قال لاهله امكثوا) أى ههنا وقرأ حمزة فى الوصل بضم الهاء قبل همزة الوصل وعبر موسى عليه السلام بضمير المذكور لعل كان معه بنون فغلبهم على امرأته وقد ذكرت غير ذلك فى السورة التى قبل هذه ثم علل ذلك بقوله مؤكدا الاستبعاد أن يكون فى ذلك المكان القفر وفى ذلك الوقت الشديد البرد نار (انى آنست نارا) فتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون كأنه قيل فماذا تعمل بها فقال معبرا بالترجى لانه اليق بالتواضع (لعلى آتيكم منها) أى من عندها (بخبر) أى عن الطريق لانه كان قد أخطأها (أو جذوة) أى قطعة وشعلة (من النار) وقال قتادة ومقاتل هو العود الذى احترق بعضه (تنبيه) من النار صفة لجذوة ولا يجوز تعلقها بآتيكم كما تعلق به منها لان هذه النار هى النار المذكورة والعرب اذا قدمت نكرة وأرادت اعادتها اعادتها مضمرة أو معرفة بأل العهدية وقد جمع الامرين هنا وقرأ عاصم بفتح الجيم وحمزة بضمها والباقون بالكسر وكلها لغات وجمعها جذى ثم استأنف قوله (لعلكم تصطلون) أى لتكونوا على رجاء من أن تقربوا من النار فتعطفوا عليها التدفؤ وهذا دليل على أن الوقت كان شتاء (فلما أتاها) أى النار وبنى (نودى) للمفعول لان آخر الكلام يدل دلالة واضحة على أن المنادى هو الله تعالى ولما كان نداؤه تعالى لا يشبه نداء غيره بل يكون من جميع الجهات ومع ذلك قد يكون لبعض المواضع مزيد شرف بوصف من الاوصاف اما بأن يكون اول السماع منه أو غير ذلك أو يكون باعتبار موسى عليه السلام قال (من شاطئ الوادى) فمن لابتداء الغاية وقوله تعالى (الايمن) صفة للشاطئ أو للوادى والايمن من اليمن وهو البركة أو من اليمين المعادل لليسار من العضوين ومعناه على هذا بالنسبة الى موسى أى الذى

في السموات والارض الا آت الرحمن عبدا (قوله انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة الذى حرمها) محرماتها

بلى يمينك دون يسارك والشاطئ صفة الوادى والنهر أى جانبه وطرفه وكذا الشط والسيف والساحل كما بجمع فى وجمع الشاطئ أشطاء قاله الراغب وشاطأ فلان ماشيته سار بها على الشاطئ وقوله تعالى (فى البقعة المباركة) متعلق بنودى أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ ومعنى المباركة جعلها الله تعالى مباركة لان الله تعالى كلم موسى عليه السلام هنالك وبعثه نبيا وقال عطاء يريد المقدسة وقوله تعالى (من الشجرة) بدل من شاطئ الوادى باعادة الجار بدل اشتمال لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ قال البقاعى ولعل الشجرة كانت كبيرة فلما وصل اليها دخل النور من طرفها الى وسطها ادخلها وراءه بحيث توسطها فسمع وهو فيها الكلام من الله تعالى حقيقة وهو المتكلم سبحانه وتعالى لا الشجرة قال القشيرى وحصل الاجماع على انه عليه السلام سمع تلك الليلة كلام الله تعالى ولو كان ذلك نداء الشجرة لكان المتكلم الشجرة وقال التفتازانى فى شرح المقاصد ان اختيار حجة الاسلام انه سمع كلامه الازلى بلا صوت ولا حرف كما ترى ذاته فى الآخرة بلا كم ولا كيف واختلف فى الشجرة ما هى فقال ابن مسعود كانت سمرة خضراء وقال قتادة ومقاتل والكلبى كانت عوسجة وقال وهب من العليق وعن ابن عباس انها العناب ثم ذكر المنادى به بقوله تعالى (أن ياموسى) وأن هى مفسرة لا مخففة (انى انا الله) أى المستجمع للاسماء الحسنى والصفات العليا وفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون ثم وصف نفسه سبحانه وتعالى بقوله (رب العالمين) أى خالق الخلائق أجمعين ومربيهم قال البيضاوى هذا وان خالف ما فى طه والنمل فى اللفظ فهو طبقه فى المقصود انتهى وقال ابن عادل واعلم انه تعالى قال فى سورة النمل نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وقال ههنا انى أنا الله رب العالمين وقال فى سورة طه انى أنا ربك ولا منافاة بين هذه الاشياء فهو تعالى ذكر الكل الا أنه تعالى حكى فى كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء ثم ان الله تعالى امره ان يلقى عصاه ليريه آية بقوله تعالى (وان الق عصاك) أى لاريك فيها آية فالقاها فصارت فى الحال حية عظيمة وهى مع عظمها فى غاية الخفة (فلما رآها) أى العصا (تهتز) اى تتحرك (كأنها) فى سرعتها وخفتها (جان) أى حية صغيرة (ولى مدبرا) خوفا منها ولم يلتفت الى جهتها وهو معنى قوله تعالى (ولم يعقب) أى موسى عليه السلام وذلك كناية عن شدة التصميم على الهرب والاسراع فيه خوفا من الادراك فى الطلب فقيل له (ياموسى أقبل) أى التفت وتقدم اليها (ولا تخف) ثم أكد له الامر لما الآدمى مجبول عليه من النفرة وان اعتقد صحة الخبر بقوله تعالى (انك من الآمنين) أى العريقين فى الامن كعادة اخوانك من المرسلين فانه لا يخاف لدى المرسلون ثم زاده طمأنينة بقوله تعالى (اسلك) أى ادخل على الاستقامة مع الخفة والرشاقة (يدك فى جيبك) أى القطع الذى فى ثوبك وهو الذى يخرج منه الرأس او هو الكم كما يدخل السلك وهو الخيط الذى ينظم فيه الدر (تخرج بيضاء) بياضا عظيما يكون له شأن خارق للعادات (من غير سوء) أى عيب من أثر الطريق الذى عجز فرعون عن مداواته او غيره فخرجت ولها شعاع كشعاع الشمس يعشى البصر *(تنبيه)* قد ذكر هذا المعنى بثلاث عبارات احداها هذه وثانيتها واضمم يدك الى جناحك وثالثها وأدخل يدك فى جيبك (واضمم اليك جناحك) أى يديك المبسوطتين تتقى بهما الحية كالخائف

من تتقه برصيدها وغيره

(سورة القصص)

(قوله وأوحينا الى ام موسى ان ارضعيه) الآية

بادخال اليمنى تحت عضد اليسرى وبالعكس أو بادخالهما فى الجيب فيكون تكريرا لمعنى آخر وهو ان يكون ذلك فى وجه العدو اظهر جراءة ومبدأ لظهور معجزة ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا حية استعارة من حال الطائر لانه اذا خاف نشر جناحيه وارخاهما واذا أمن واطمأن ضمهما اليه ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أن كاتبا له كان يكتب بين يديه فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر فقام وضرب بقلمه الارض فقال له عمر خذ قلمك واضمم اليك جناحك وليفرخ روعك فانى ما سمعتها من احد أكثر مما سمعتها من نفسى ومعنى قوله تعالى (من الرهب) من اجل الرهب أى اذا اصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم اليك جناحك تجلدا وضبطا لنفسك جعل الرهب الذى كان يصيبه سببا وعلة فيما أمر به من ضم جناحه اليه وقال الفراء أراد بالجناح العصا ومعناه اضمم اليك عصاك قال البغوى وقيل الرهب الكم بلغة حمير قال الاصمعى سمعت بعض الاعراب يقول اعطنى ما فى رهبك أى فى كمك ومعناه اضمم اليك يدك واخرجها من الكم لانه تناول العصا ويده فى كمه انتهى قال الزمخشرى معترضا هذا القول ومن بدع التفاسير أن الرهب الكم بلغة حمير وانهم يقولون اعطنى ما فى رهبك وليت شعرى كيف صحته فى اللغة وهل سمع من الاثبات الثقات الذين ترضى عربيتهم ثم ليت شعرى كيف وقعه فى الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل على ان موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة الا زرمانقة من صوف لا كمين لها انتهى ويحتمل أن يكون لها كم قصير فمن نفى نظر الى قصره ومن أثبت نظر الى اصله وحينئذ لا تعارض وفى البغوى عن ابن عباس ان الله تعالى أمره أن يضم يده الى صدره ليذهب عنه الروع وما ناله من الخوف عند معاينة الحية وقال وما من خائف بعد موسى عليه السلام الا اذا وضع يده على صدره زال خوفه وقال مجاهد وكل من فزع فضم جناحه اليه ذهب عنه الفزع وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الراء والهاء وحفص بفتح الراء وسكون الهاء والباقون بضم الراء وسكون الهاء والكل لغات ولما تم كونه آية بانقلابها الى البياض ثم رجوعها الى لونها قال الله تعالى (فذانك) أى العصا واليد البيضاء وشدد ابن كثير وأبو عمرو النون وخففها الباقون (برهانان) أى سلطانان وحجتان قاهرتان مرسلان (من ربك) أى المحسن اليك لا يقدر على مثلهما غيره (الى فرعون وملئه) اى وانت مرسل بهما اليهم كلما أردت ذلك وجدته لأنهما يكونان لك هنا فى هذه الحضرة فقط (فان قيل) لم سميت الحجة برهانا (أجيب) بان ذلك لبياضها وانارتها من قولهم للمرأة البيضاء برهرهة بتكرير العين واللام معا والدليل على زيادة النون قولهم أبره الرجل اذا جاء بالبرهان ونظيره تسميتهم اياها سلطانا من السليط وهو الزيت لانارتها ثم علل الارسال اليهم على وجه اظهارها والآيات لهم واستمرارها بقوله (انهم كانوا) أى جبلة وطبعا (قوما) أى أقوياء (فاسقين) أى خارجين عن الطاعة فكانوا أحقاء أن يرسل اليهم ولما قال تعالى فذانك برهانان الى آخره تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين الى فرعون وقومه فعند ذلك طلب من يعينه بان (قال رب) أى أيها المحسن الى (انى قتلت منهم نفسا) هو القبطى السابق وأنت تعلم أنى ما خرجت الا هاربا منهم لاجلها (فأخاف) ان بدأتهم بمثل ذلك

(ان

هى من مميز باب الايجاز لاشتمالها على امرين ونهيين وخبرين متضمنين بشارتين فى اسهل نظم واسلس لفظ

(أن يقتلون) به لو حدى وعربق وثقل لسانى فى اقامة الحجج فاخاف أن يفوت المقصود بقتلى
ولا يغنى من ذلك الا أنت وان لسانى فيه عقدة (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا) اى من
جهة اللسان للعقدة التى كانت حصلت له من وضع الجمرة فى فيه وهو طفل فى كفالة فرعون
وقيل كانت من أصل الخلقة والفصاحة لغة الخلوص ومنه فصح اللبن خلص من رغوته
وفصح الرجل جادت لغته وأفصح تكلم بالعربية (فارسله) اى بسبب ذلك (معى ردأ) أى
معينا من ردأت فلانا بكذا أى جعلته له قوة وعاضدا وردأت الحائط اذا دعمته بخشب
أو كبش يدفعه أن يسقط وقرأ نافع بنقل حركة الهمزة الى الدال وحذف الهمزة والباقون
بسكون الدال وتنوين الهمزة بعدها ولما كان له عليه من العطف والشفقة ما يقصر
الوصف عنه نبه على ذلك باجابة السؤال بقوله (يصدقنى) أى بان يخلص بفصاحته ما قلته
ويبينه ويقيم الادلة عليه حتى يصير كالشمس وضوحا فيكون مع تصديقه لى بنفسه سببا فى
تصديق غيره لى وقرأ عاصم وحمزة بضم القاف على الاستئناف أو الصفة لردأ والباقون
بالسكون جوابا للامر قال الرازى ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت او يقول
للناس صدق موسى وانما هو ان يخلص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ويجيب عن الشبهات
ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد وفائدة الفصاحة انما تظهر فى ذلك لا فى مجرد
قوله صدقت قال السدى نبيان وآيتان أقوى من نبى واحد وآية واحدة وهذا ظاهر
من جهة العادة وأما من جهة الدلالة فلا فرق بين معجز ومعجزين ثم علل سؤاله هذا بقوله
(انى أخاف أن يكذبون) أى فرعون وقومه ولسانى لا يطاوعنى عند الحاجة (قال) الله تعالى له
مجيبا لسؤاله (سنشد عضدك) اى أمرك (باخيك) أى سنقويك ونعينك به (ونجعل لكما
سلطانا) أى ظهورا عظيما وغلبة لهم بالحجج والهيبة لاجل ما ذكرت من الخوف (فلا) أى
فتسبب عن ذلك أنهم لا (يصلون اليكما) بنوع من أنواع الغلبة (بآياتنا) اى نجعل ذلك بسبب
ما يظهر على أيديكما من الآيات العظيمة بنسبتها الينا ولذلك كانت النتيجة (أنتما ومن اتبعكما)
من قومكما وغيرهم (الغالبون) أى لا غيركم وهذا يدل على أن فرعون لم يصل الى السحرة
بشئ مما هددهم به لانهم من أكبر الاتباع الباذلين أنفسهم فى الله تعالى وليس فى القرآن
ما يدل على أنه فعل بهم ما أوعدهم به قال البقاعى وكأنه حذف أمرهم هنا لانه فى بيان
امر فرعون وجنوده بدليل ما كرر من ذكرهم وقد كشفت العاقبة عن أن السحرة ليسوا
من جنوده بل من حزب الله تعالى وجنده ومع ذلك فقد أشار اليهم بهذه الآية والتى بعدها اه
ولما كان التقدير فاتاهم كما أمره الله تعالى وعاضده أخوه كما أخبر الله تعالى ودعاهم الى
الله تعالى وأظهرا ما أمرا به من الآيات بنى عليه مبينا بالفاء سرعة امتثاله (فلما جاءهم) أى
فرعون وقومه ولما كانت رسالة هرون عليه السلام انما هى تأييد لموسى عليه السلام أشار الى
ذلك بالتصريح باسم الجائى بقوله تعالى (موسى بآياتنا) أى التى أمرناه بها الدالة على جميع
الآيات للتساوى فى خرق العادة حال كونها (بينات) أى فى غاية الوضوح (قالوا) أى فرعون
وقومه (ما هذا) أى الذى أظهرته من الآيات (الا سحر مفترى) أى مختلق لا أنه معجزة من
عند الله ثم ضموا اليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم (وما سمعنا) أى ما حدثنا (بهذا) أى الذى

(فان قلت) واوجز عبارة
ما فائدة وحى الله تعالى الى
ام موسى بارضاعه مع انها
ترضعه طبعا وان لم تؤمر

تدعونا اليه وتقولهمن الرسالة عن الله تعالى (فى آبائنا) وأشاروا الى البدعة التى أضلت كثيرا من الخلق وهى تحكيم عوائد التقليد لاسيما عند تقادمها على القواطع فى قولهم (الاولين) وقد كذبوا وافتروا لقد سمعوا بذلك على أيام يوسف عليه السلام

* وما بالعهد من قدم * فقد قال لهم الذى آمن ياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب الى قوله ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات (و) لما كذبوه وهم الكاذبون (قال) لهم (موسى ربى) أى المحسن الى (أعلم) أى عالم (بمن جاء بالهدى) أى الذى أذن الله تعالى فيه وهو حق فى نفسه (من عنده) فيعلم أنى محق وانتم مبطلون وقرأ ابن كثير بغير واو قبل القاف لانه قاله جوابا لمقالهم والباقون بالواو لان المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما ليميز صحيحهما من فاسدهما (ومن تكون له) أى لكونه منصورا مؤيدا (عاقبة الدار) أى الراحة والسكن والاستقرار (فان قيل) العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسميا عاقبة الدار لان الدنيا اما أن تكون خاتمتها بخير او بشر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر (أجيب) بان الله تعالى قد وضع الدنيا مجازا الى الآخرة وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها الا الخير وما خلقهم الا لاجله ليبلغوا خاتمة الخير وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لانها من نتائج تحريف الفجار وقرأ حمزة والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث * ثم علل ذلك بما أجرى الله تعالى به عادته فقال معلما بان المخذول هو الكاذب اشارة الى أنه الغالب لكون الله تعالى معه مؤكدا لما استقر فى الانفس من أن القوى لا يغلبه الضعيف (انه لا يفلح) اى لا يظفر ولا يفوز (الظالمون) أى الكافرون الذين يمشون كما يمشى من هو فى الظلام بغير دليل (وقال فرعون) جوابا لهذا الترغيب والترهيب (يا أيها الملأ) أى الاشراف معظما لهم استجلابا لقلوبهم (ما علمت لكم من اله غيرى) فتضمن كلامه نفى الهية غيره واثبات الهية نفسه فكأنه قال مالكم من اله الا أنا كما قال الله تعالى قل أتنبؤن الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض أى بما ليس فيهن وذلك ان العلم تابع للموجود لا يتعلق به الا على ما هو عليه فاذا كان الشئ معدوما لم يتعلق به موجودا فمن ثم كان انتفاء العلم بوجوده انتفاء لوجوده فعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده ويجوز ان يكون على ظاهره وان الها غيره معلوم عنده ولكنه مظنون بدليل قوله وانى لاظنه من الكاذبين واذا ظنه كاذبا فى اثباته الها غيره ولم يعلمه كاذبا فقد ظن ان فى الوجود الها غيره ولو لم يكن المخذول ظانا ظنا كاليقين بل عالما بصحة قول موسى لقول موسى عليه السلام له لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر * ثم تسبب عن جهله قوله لوزيره معلما له صنعة الآجر لانه أول من عمله قال عمر رضى الله تعالى عنه حين سافر الى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر ما علمت ان أحدا بنى بالآجر غير فرعون (فاوقد لى) وأضاف الايقاد اليه اعلاما بانه لابد منه (ياهامان) وهو وزيره (على الطين) أى المتخذ لبناء ليصير آجرا ثم تسبب عن الايقاد قوله (فاجعل لى) أى منه (صرحا) اى قصرا عاليا وقيل منارة وقال الزجاج هو كل بناء متسع مرتفع (لعلى أطلع) أى اتكلف الطلوع (الى اله موسى) أى الذى يدعو اليه فانه ليس فى الارض أحد بهذا الوصف الذى ذكره فانا اطلبه فى السماء موهما لهم انه مما يمكن الوصول

قوله (قال) امرها بذلك بارضاعه لبائف لبنها الا يقبل ثدى غيرها بعد وقوعه فى يد فرعون ولو لم يأمرها به

قوله ولو لم يكن المخذول الخ لم يذكر جواب لو على ما فى النسخ التى بايدينا وقد ذكره الكشاف بقوله لما تكلف ذلك البنيان العظيم فراجعه اه مصححه

اليه وهو قاطع بخلاف ذلك ولكنه يقصد المدافعة من وقت الى وقت قال اهل السير لما امر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع العمال والفعلة حتى اجتمع خمسون الف بناء سوى الاتباع والاجراء ومن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب ويضرب المسامير فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان احد من الخلق اراد الله تعالى ان يفتنهم فيه فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه فامر بنشابة فضرب بها نحو السماء فردت اليه وهي ملطخة دما فقال قد قتلت اله موسى وكان فرعون يصعد على البراذين فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقع منها قطعة على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف الف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق احد ممن عمل فيه بشئ الا هلك ثم زادهم شكا بقوله مؤكدا لاجل رفع ما استقر في الانفس من صدق موسى عليه السلام (واني لاظنه) اى موسى عليه السلام (من الكاذبين) اى دأبه ذلك وفرعون هو الذي قد لبس وكذب ووصف اصدق اهل ذلك الزمان بصفة نفسه العريقة في العدوان (واستكبر) اى اوجد الكبر بغاية الرغبة فيه (هو) بقوله هذا الذي صدهم به عن السبيل (وجنوده) باعراضهم لشدة رغبتهم في الكبر على الحق والاتباع للباطل (في الارض) اى ارض مصر قال البقاعي ولعله عرفها اشارة الى انه لو قدر على ذلك في غيرها فعل (بغير الحق) أي بغير استحقاق قال البقاعي والتعبير بالتعريف يفيد ان التعظيم بنوع من الحق ليس بكبر وان كانت صورته كذلك واما تكبره سبحانه فهو بالحق كله قال صلى الله عليه وسلم فيما حكاه عن ربه الكبر يائي ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما القيته في النار (وظنوا) اى فرعون وجنوده ظنا بنوا عليه اعتقادهم في اصل الدين الذي لا يكون الا بقاطع (انهم الينا) اى الى حكمنا خاصة الذي يظهر عند انقطاع الاسباب (لا يرجعون) بالنشور وقرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم والباقون بضم الياء وفتح الجيم * ولما تسبب عن ذلك اهلاكهم قال تعالى (فاخذناه وجنوده) كلهم أخذ قهر ونقمة وذلك علينا هين واشار تعالى الى احتقارهم بقوله تعالى (فنبذناهم) اى طرحناهم (في اليم) اى البحر المالح فغرقوا فكانوا على كثرتهم وقوتهم كحصيات صغار قذفها الرامي الشديد الذراع من يده في البحر ونحو ذلك قوله تعالى والقيناه فيها رواسي شامخات وقوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة * ولما تسبب عن هذه الآيات من العلوم ما لا تحيط به الفهوم قال تعالى (فانظر) اى ايها المعتبر بالآيات الناظر فيها نظر اعتبار (كيف كان عاقبة) اى آخر أمر (الظالمين) حيث صاروا الى الهلاك فحذر قومك عن مثلها وفي هذا اشارة الى أن كل ظالم تكون عاقبته هكذا ان صابره المظلوم المحق ورابطه حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين * ولما كان من سن سنة حسنة كان له أجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة قال الله تعالى (وجعلناهم) أى في الدنيا (أئمة) أى قدوة للضلال بالحمل على الاضلال وقيل بالتسمية كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا او بمنع الالطاف الصارفة عنه (يدعون) اى يوجدون الدعاء لمن اغتر بحالهم فضل بضلالهم (الى النار) أى الى موجباتها من الكفر والمعاصي وأما أئمة

وربما كانت تسترضع له مرضعة فيفوت المقصود (قوله فاذا خفت عليه) (قوله ولا تخاف) ان فالقيه في اليم

الحق فانما يدعون الى موجبات الجنة من فعل الطاعات والنهي عن المنكرات جعلنا الله تعالى واحبابنا منهم بمحمد وآله * ولما كان الغالب من حال الائمة النصرة وقد اخبر عن خذلانهم في الدنيا قال تعالى (ويوم القيامة) أي الذي هو يوم التغابن (لا ينصرون) أي لا يكون لهم نوع نصرة تدفع العذاب عنهم (واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) أي طردا عن الرحمة ودعاء عليهم بذلك من كل من سمع خبرهم بلسانه ان خالفهم او بفعله الذي يكون عليهم مثل وزره ان وافقهم وانما قال الله تعالى الدنيا ولم يقل الحياة قال البقاعي لان السياق لتحقير أمرهم ودناءة شأنهم (ويوم القيامة هم) أي خاصة ومن شاكلهم (من المقبوحين) أي المبعدين أيضا المخزيين مع قبح الوجوه والاشكال والشناعة في الاقوال والافعال والاحوال من القبح الذي هو ضد الحسن من قولهم قبح الله العدو وأبعده عن كل خير وقال أبو عبيدة من المهلكين قال البقاعي فيا ليت شعري أي صراحة بعد هذا في أن فرعون عدو الله في الآخرة كما كان عدو الله في الدنيا فلعنة الله على من يقول انه مات مؤمنا وانه لا صراحة في القرآن بانه من اهل النار وعلى من يشك في كفره بعدما ارتكبه من جلي امره انتهى وقد قدمت الكلام في سورة يونس على قول فرعون وأنا من المسلمين * ثم انه تعالى أخبر عن اساس امامة بني اسرائيل مقسما عليه مع الافتتاح بحرف التوقع بقوله (ولقد آتينا) أي بما لنا من الجلال والكمال (موسى الكتاب) أي التوراة الجامعة للهدى والخير في الدارين قال ابو حيان وهو أول كتاب نزلت فيه الفرائض والاحكام (من بعد ما اهلكنا القرون الاولى) اي من قوم نوح الى قوم فرعون وقوله تعالى (بصائر للناس) حال من الكتاب جمع بصيرة وهي نور القلب أي أنوار القلوب فيبصر بها الحقائق ويميز بين الحق والباطل كما ان البصر نور العين الذي تبصر به (وهدى) اي للعامل بها الى كل خير (ورحمة) أي نعمة هنيئة شريفة لانها قائدة اليهما ولما ذكر حالها ذكر حالهم بعد انزالها بقوله تعالى (لعلهم يتذكرون) أي ليكون حالهم حال من يرجى تذكره * ثم ان الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وما كنت) اي يا أفضل الخلق (بجانب الغربي) قال قتادة بجانب الجبل الغربي وقال الكلبي بجانب الوادي الغربي اي الوادي من الطور الذي رأى موسى عليه السلام فيه النار وهو ما يلي البحر من جهة الغرب على يمين المتوجه الى ناحية مكة المشرفة من ناحية مصر فناداه فيه العزيز الجبار وهو ذو طوى (اذ) أي حين (قضينا) أي أوحينا (الى موسى الامر) أي أمر الرسالة الى فرعون وقومه وما يريد أن يفعل من ذلك في أوله في أثنائه وآخره مجملا فكان كل ما أخبرنا به مطابقا تفصيله لاجماله (وما كنت) أي بوجه من الوجوه (من الشاهدين) لتفاصيل ذلك الامر الذي أجملناه لموسى عليه السلام حتى تخبر به كله على هذا الوجه الذي أتيناك به في هذه الاساليب المعجزة ولا شك أن معرفتك لذلك من قبيل الاخبار عن المغيبات التي لا تعرف الا بالوحي ولذلك استدرك عنه بقوله تعالى (ولكنا) أي بما لنا من العظمة (أنشأنا) بعد ما أهلكنا أهل ذلك الزمان الذين علموا هذه الامور بالمشاهدة وهم السبعون المختارون للميقات أو بالاخبار كلهم (قرونا) أي أمما كثيرة بعد موسى عليه السلام (فتطاول) أي بمروره وعلوه (عليهم العمر) أي ولكنا أوحينا اليك أنا أنشأنا قرونا

(قلت) جواب الشرط محذوف وجوابه هنا الالقاء وعدم الخوف وكل منهما محذوف فيصدق بقوله فاذا خفت

مختلفة

مختلفة بعد موسى عليه السلام فتطاولت عليهم المدد فنسوا العهود واندرست العلوم وانقطع الوحي فحذف المستدرك وهو أوحينا وأقام سببه وهو الانشاء مقامه على عادة الله تعالى في اختصاراته فهذا الاستدراك شبيه بالاستدراكين بعده (فان قيل) ما الفائدة في اعادة قوله تعالى وما كنت من الشاهدين بعد قوله وما كنت بجانب الغربي لانه ثبت بذلك أنه لم يكن شاهدا لان الشاهد لابد أن يكون حاضرا (أجيب) بأن ابن عباس قال التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت ما شاهدت تلك الوقائع فانه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم وحمزة في الوقف بضم الهاء وسكون الميم والباقون في الوصل بكسر الهاء وضم الميم * ولما نفى العلم عن ذلك بطريق الشهود نفى سبب العلم بذلك بقوله تعالى (وما كنت ثاويا) أي مقيما اقامة طويلة مع الملازمة بمدين (في أهل مدين) أي قوم شعيب عليه السلام كمقام موسى وشعيب فيهم (تتلوا) أي تقرأ (عليهم) تعلما منهم (آياتنا) العظيمة التي منها قصتهم لتكون ممن يتمهر بامور الوحي ويتعرف دقيق أخباره فيكون خبرهم وخبر موسى عليه السلام معك (ولكنا كنا مرسلين) اياك رسولا وأنزلنا عليك كتابا فيه هذه الاخبار تتلوها عليهم ولولا ذلك ما علمتها ولم تخبرهم بها (وما كنت بجانب الطور) أي بناحية الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام (اذ) أي حين (نادينا) أي أوقعنا النداء لموسى عليه السلام فأعطيناه التوراة وأخبرناه بما لا يمكن الاطلاع عليه الا من قبلنا أو من قبله ومن المشهور أنك لم تطلع على شيء من ذلك من قبله لانك ما خالطت أحدا ممن حمل تلك الاخبار عن موسى عليه السلام ولا أحدا حملها ممن حملها عنه ولكن كان ذلك الينا ننزله ومعنى قوله تعالى (ولكن) أي أنزلنا ما أردنا وأرسلناك به (رحمة من ربك) لك خصوصا وللخلق عموما وقيل اذ نادينا يا موسى خذ الكتاب بقوة وقال وهب قال موسى يا رب أرني محمدا قال انك لن تصل الى ذلك وان شئت ناديت أمته وأسمعتك صوتهم قال بلى يا رب فقال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم وقال أبو زرعة نادى يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وروى عن ابن عباس ورفعه بعضهم قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الامهات لبيك اللهم لبيك ان الحمد لله والنعمة لك والملك لا شريك لك قال الله تعالى يا أمة محمد ان رحمتي سبقت غضبي وعفوي عقابي قد أعطيتكم قبل أن تسألوني وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني وقد غفرت لكم من قبل أن تستغفروني من جاء يوم القيامة بشهادة أن لا اله الا الله وان محمدا عبدي ورسولي دخل الجنة وان كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر * (تنبيه) * قال البيضاوي لعل المراد به أي بقوله تعالى وما كنت بجانب الطور اذ نادينا وقت ما أعطاه التوراة وبالاول أي قوله تعالى وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا حين استنبأه لانهما المذكوران في القصة وقوله تعالى (لتنذر) أي لتحذر تحذيرا كثيرا (قوما) أي أهل قوة ونجدة ليس بهم عائق عن أعمال الخير العظيمة الا الاعراض عنك وهم العرب ومن في ذلك الزمان من الخلق يتعلق بالفعل المحذوف (ما أتاهم) وعم النفي بزيادة الجار في قوله تعالى (من نذير) وزيادة الجار في قوله تعالى (من قبلك) يدل على الزمن القريب وهو زمن الفترة بينه

عليه لا يخاف عليه وذلك
تناقض (قلت) معناه فاذا
خفت عليه القتل فالقيه
في اليم ولا تخاف عليه
الغرق فلا تناقض (ان

وبين عيسى عليهما الصلاة والسلام وهو خمسمائة وخمسون سنة ونحو هذا قوله تعالى لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم وقيل ليس المراد زمن الفترة بل ما بينه وبين اسمعيل عليهما السلام على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني اسرائيل وما حوالهم (لعلهم يتذكرون) أي يتعظون (ولولا أن تصيبهم) أي في وقت من الاوقات (مصيبة) أي عظيمة (بما قدمت أيديهم) أي من المعاصي التي قضينا بأنهم لا يعفى عنها (فيقولوا ربنا) أي أيها المحسن الينا (لولا) أي هلا ولم لا (أرسلت الينا) أي على وجه التشريف لنا لنكون على علم بأنا ممن يعتني الملك الاعلى به (رسولا) وأجاب التحضيض الذي شبه بالامر لكون كل منهما باعثا على الفعل بقوله تعالى (فنتبع) أي فيتسبب عن ارسال رسولك أن نتبع (آياتك ونكون) أي كونا هو في غاية الرسوخ (من المؤمنين) أي المصدقين لك في كل ما أتى به عنك رسولك * (تنبيه) * لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف تقديره كما قال الزجاج ما أرسلنا اليهم رسولا يعني ان الحامل على ارسال الرسل ازاحة عللهم بهذا القول فهو كقوله تعالى لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل والثانية تحضيضية وتتبع جوابها كالامر فلذلك نصب باضمار أن (فان قيل) كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الارسال لا القول لدخول حرف الامتناع عليها دونه (أجيب) بأن القول هو المقصود بأن يكون سببا للارسال ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب للارسال بواسطة القول فادخلت عليها لولا وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويؤل معناه الى قولك ولولا قولهم هذا اذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ولكن اختيرت هذه الطريقة لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلا على كفرهم وقد عاينوا ما ألجؤا به الى العلم اليقيني ببطلان دينهم لم يقولوا لولا أرسلت الينا رسولا بل انما يقولون اذا نالهم العقاب وانما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الايمان بخالقهم عز وجل وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى وهو كقوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه * ولما كان التقدير ولكنا أرسلناك بالحق لقطع حجتهم هذه بنى عليه (فلما جاءهم) أي أهل مكة (الحق) أي الذي هو أعم من الكتاب والسنة وما يقاس عليهما وهو في نفسه جدير بأن يقبل لكونه في الذروة العليا من الثبات فكيف وهو (من عندنا) على ما لنا من العظمة وهو على لسانك وأنت أعظم الخلق (قالوا) أي أهل الدعوة من العرب وغيرهم تعنتا وكفرا به (لولا) أي هلا ولم لا (أوتي) أي هذا الآتي بما يزعم أنه الحق من الآيات (مثل ما أوتي موسى) من الآيات كاليد البيضاء والعصا وغيرهما من كون الكتاب أنزل عليه جملة واحدة قال الله تعالى (أولم يكفروا) أي العرب ومن بلغته الدعوة من بني اسرائيل ومن كان مثلهم في البشرية والعقل في زمن موسى (بما أوتي موسى) عليه السلام (من قبل) أي من قبل مجيء الحق على لسان محمد صلى الله عليه وسلم * ولما كان كأنه قد قيل ما كان كفرهم به قيل (قالوا) أي فرعون وقومه ومن كفر من بني اسرائيل (ساحران) أي موسى وأخوه عليهما السلام (تظاهرا) أي أعان كل منهما صاحبه على سحره حتى صار سحرهما معجزا فغلبا جميع السحرة وتظاهر الساحرين من تظاهر السحرين على قراءة الكوفيين

(قلت) ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر في الآية (قلت) الخوف غم يصيب الانسان لأمر

بكسر السين وسكون الحاء وقرأ الباقون بفتح السين وكسر الحاء وألف بينهما
• (تنبيه) • يجوز أن يكون الضمير لمحمد وموسى عليهما الصلاة والسلام قال البقاعي وهو أقرب وذلك لانه روى أن قريشا جاءت الى اليهود فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فاخبروهم أن نعته في كتابهم فقالوا هذه المقالة فيكون الكلام استئنافا بالجواب من كأنه قال ما كان كفرهم بهما فقيل قالوا أى العرب الرجلان ساحران أو الكتابان ساحران ظاهر أحدهما الآخر مع علم كل ذي لب أن هذا القول زيف لانه لو كان شرط اعجاز السحر التظاهر لكان سحر فرعون أعجز اعجاز لانه تظاهر عليه جميع سحرة بلاد مصر وعجزوا عن معارضة ما أظهر موسى عليه السلام من آياته كالعصا وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد دعا أهل الارض من الجن والانس الى معارضة كتابه وأخبرهم أنهم عاجزون ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فعجزوا عن آخرهم • ولما تضمن قولهم ذلك الكفر صرحوا به (وقالوا) أى كفار قريش (انا بكل) أى من الساحرين أو السحرين اللذين تظاهرا بهما وهما ما أتيا به من عند الله (كافرون) جراءة على الله تعالى وتكبرا على الحق ثم قال الله تعالى (قل) أى لهم الزاما ان كنتم صادقين في اني ساحر وكتابي سحر وكذلك موسى عليه السلام (فأتوا بكتاب من عند الله) أى الملك الاعلى الاعلى (هو) أى الذي تأتون به (أهدى منهما) أى من الكتابين وقوله (أتبعه) أى وأترككما جواب الامر وهو فأتوا (ان كنتم) أى أيها الكفار (صادقين) أى في انا ساحران فأتوا بما ألزمتكم به قال البيضاوي وهذا من الشروط التي يراد بها الالزام والتبكيت ولعل مجيء حرف الشك للتهكم بهم (فان لم يستجيبوا لك) أى دعاءك الى الكتاب الاهدى فحذف المفعول للعلم به ولان فعل الاستجابة يتعدى بنفسه الى الدعاء وباللام الى الداعي فاذا عدي اليه حذف الدعاء غالبا كقول القائل

وداع (أى ورب داع) دعا يا من يجيب الى الندا • فلم يستجبه عند ذاك مجيب

الشاهد في يستجبه حيث عداه الى الداعي وحذف الدعاء والتقدير فلم يستجب دعاءه (فاعلم) أنت (أنما يتبعون) أى بغاية جهدهم فيما هم عليه من الكفر والتكذيب (أهواءهم) أى دائما وأكثر الهوى مخالف للهدى فهم ضالون غير مهتدين بل هم أضل الناس وذلك معنى قوله تعالى (ومن أضل ممن اتبع) أى بغاية جهده (هواه) أى لا أحد أضل منه فهو استفهام بمعنى النفي وقوله تعالى (بغير هدى من الله) في موضع الحال للتوكيد والتقييد فان هوى النفس قد يوافق الهدى (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) أى وان كانوا أقوى الناس لاتباعهم أهواءهم (ولقد وصلنا) قال ابن عباس بينا وقال الفراء أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضا (لهم) أى خاصة فكان تخصيصهم بذلك منة عظيمة يجب عليهم شكرها (القول) أى القرآن قال مقاتل بينا لكفار مكة بما في القرآن من أخبار الامم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم وقال ابن زيد وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا (لعلهم يتذكرون) أى ليكون حالهم حال من يرجى لهم أن يرجعوا الى عقولهم فيجدوا فيها طبع فيها ما يذكرهم بالحق ثم كأنه قيل هل تذكر منهم أحد قيل نعم أهل الكتاب الذين هم أهله حقا تذكروا وذلك معنى قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) أى قبل القرآن

قوله الجواب من كذا بالاصل وليتأمل اه مصحح

يتوقعه في المستقبل والحزن فيما يصيبه لامر وقع ومضى

(قوله قال هذا من عمل الشيطان) الآيتين (ان قلت) كيف جعل موسى

أو قبل محمد صلى الله عليه وسلم (هم به) أي بما تقدم (يؤمنون) أيضا نزل في جماعة أسلموا من اليهود عبد الله بن سلام وأصحابه وقال مقاتل هم أهل الانجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير هم أربعون رجلا قدموا مع جعفر من الحبشة على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا يا نبي الله ان لنا أموالا فان أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فنزل فيهم ذلك الى قوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون وعن ابن عباس نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام ثم وصفهم الله تعالى بقوله تعالى (واذا يتلى) أي تجدد تلاوة القرآن (عليهم قالوا) أي مبادرين لذلك (آمنا به) ثم عللوا ذلك بقولهم (انه الحق) أي الكامل الذي ليس وراءه الا الباطل مع كونه (من ربنا) أي المحسن الينا ثم عللوا مبادرتهم بقولهم (انا كنا من قبله) أي قرآن (مسلمين) أي منقادين غاية الانقياد مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه نبي حق (أولئك) أي العالو الرتبة (يؤتون أجرهم مرتين) أي لايمانهم به غيبا وشهادة أي بالكتاب الاول ثم بالكتاب الثاني (بما صبروا) أي بسبب صبرهم على دينهم وقال مجاهد نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذوا وعن أبي بردة عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها ورجل كان من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعبد أحسن عبادة الله تعالى ونصح لسيده ولما كان الصبر لا يتم الا بالاتصاف بالمحاسن والانقلاع من المساوي قال تعالى عاطفا على يؤمنون مشيرا الى تجديد هذه الافعال كل حين (ويدرؤن) أي يدفعون (بالحسنة) من الاقوال والافعال (السيئة) أي فيمحونها وقال ابن عباس يدفعون بشهادة أن لا اله الا الله الشرك وقال مقاتل يدفعون بما سمعوا من الاذى والشتم من المشركين أي بالصفح والعفو (ومما رزقناهم) أي بعظمتنا لا بحول منهم ولا قوة قليلا كان أو كثيرا (ينفقون) أي يتصدقون معتمدين في الخلف على الذي رزقهم ولما ذكر الله أن السماح بما تضن النفوس به من فضول الاموال من امارات الايمان أتبعه أن خزن ما تبذله الانفس من فضول الاقوال من علامات العرفان بقوله تعالى (واذا سمعوا اللغو) أي ما لا ينفع في دين ولا دنيا من شتم وتكذيب وتعيير ونحوه (أعرضوا عنه) تكرما عن الخنى وقيل اللغو القبيح من القول وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون لهم تبا لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم (وقالوا) وعظا وتسميعا لقائله (لنا) خاصة (أعمالنا) لا تسألون عن شيء منها ولا تتبعون (ولكم) أي خاصة (أعمالكم) لا نطالب بشيء منها فنحن لا نشتغل بالرد عليكم (سلام عليكم) متاركة لهم وتوديعا ودعاء لهم بالسلامة عما هم فيه لا سلام تحية واكرام ونظير ذلك واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم أكد ذلك تعالى بقوله تعالى حاكيا عنهم (لا نبتغي) أي لا نتكلف أنفسنا أن نطلب (الجاهلين) أي لا نريد شيئا من أموالهم وأقوالهم أو غير ذلك من خلالهم وقيل لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه قيل نسخ ذلك بالامر بالقتال وهو بعيد لان ترك المسافهة مندوب اليه وان كان

القتال

قتل القبطي الكافر من عمل الشيطان وسماه ظالما لنفسه واستغفر منه (قلت) انما جعل ذلك من عمل الشيطان فلكونه

القتال واجبا * ونزل في حرصه صلى الله عليه وسلم على ايمان عمه أبي طالب (انك لا تهدي من أحببت) أي نفسه أو هدايته بخلق الايمان في قلبه روى سعيد بن المسيب عن ابيه أنه قال لما حضرت أباطالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أباجهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي امية أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها ويعيدانه بتلك الكلمة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وابى أن يقول لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك مالم أنه عن ذلك فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم انك لا تهدي من أحببت الآية وفي مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالتوحيد فقال له لولا ان تعيرني نساء قريش تقول انما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله تعالى الآية وروى أن أباطالب قال عند موته يامعشر بني هاشم أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ياعم تأمرهم بالنصيحة لانفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد ياابن أخي قال أريد منك كلمة واحدة فانك في آخر يوم من أيام الدنيا تقول لا اله الا الله أشهد لك بها عند الله قال يا بن أخي قد علمت انك صادق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكني سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وعبد مناف (فان قيل) قال الله تعالى في هذه الآية انك لا تهدي من أحببت (ولكن الله يهدي من يشاء) وقال تعالى في آية أخرى وانك لتهدي الى صراط مستقيم (اجيب) بانه لا تنافي بينهما فان الذي أثبته وأضافه اليه الدعوة والذي نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدر وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس (وهو أعلم) أي عالم (بالمهتدين) أي الذين قد هيأهم لتطلب الهدى عند خلقه لهم سواء كانوا من اهل الكتاب أم من العرب أقارب كانوا أم أباعد ثم حكى الله تعالى عن كفار قريش شبهة تتعلق باحوال الدنيا بقوله تعالى (وقالوا ان نتبع الهدى) أي الاسلام فوحد الله تعالى من غير شرك (معك) وأنت على ما أنت عليه من مخالفة الناس (نتخطف) أي من أي خاطف أراد بالا ناصر لنا في كثير من غير نصير (من أرضنا) كما تتخطف العصافير لمخالفة كافة العرب لنا ولا يد لنا بالنسبة الى كثرتهم ولا قوتهم فيسرعوا الينا فيتخطفونا أي يقصدون خطفنا واحدا واحدا فانه لا طاقة لنا على ادامة الاجتماع وأن لا يشذ بعضنا عن بعض قال المبرد والخطف الانتزاع بسرعة نزلت في الحرث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا لنعلم أن الذي تقوله حق ولكنا ان اتبعناك على دينك وخالفنا العرب بذلك وانما نحن أكلة رأس خفنا أن تخرجنا العرب من أرضنا مكة ثم رد الله تعالى عليهم هذه الشبهة وألقمهم الحجر بقوله تعالى (أولم نمكن) أي غاية التمكين (لهم) أي في أوطانهم ومحل سكناهم بمالنا من القدرة (حرما آمنا) أي ذا أمن يأمن فيه كل خائف حتى الطير من كواسرها والوحش من جوارحها حتى ان سيل الحل لا يدخل

كان الاولى له تأخير قوله الى زمن آخر فلعله ترك المندوب لخوفه من عمل الشيطان واما نسبته ظلما فمن حيث انه حرم نفسه

الحرم بل اذا وصل اليه عدل عنه وروى أن مكة كانت فى الجاهلية لا يعرض بها ظلم ولا بغى
ولا يبغى فيها أحد الا أخرجته وكان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه فيها فلا يهيجه ولا يتعرض
له بسوء وروى الازرقى فى تاريخ مكة عن حويطب بن عبد العزى قال كان فى الكعبة حلق
يدخل الخائف يده فيها فلا يريبه أحد فجاء خائف ليدخل يده فاجتذبه رجل فشلت يده فلقد
رأيته فى الاسلام وانه لأشل وعن ابن عباس قال أخذ رجل ذودا ابن عم له فأصابه فى الحرم
فقال ذودى فقال اللص كذبت قال فاحلف فحلف عند المقام فقام رب الذود بين الركن والمقام
باسطا يديه يدعو فما برح مقامه يدعو حتى ذهب عقل اللص وجعل يصيح بمكة مالى ولفلان رب
الذود فبلغ ذلك عبد المطلب فجمع الذود ودفعه الى المظلوم فخرج به وبقى الآخر حتى وقع
من جبل فتردى فأكلته السباع وعن ابن جريج ان غير قريش من العرب كانوا يطوفون
بالبيت عراة الا ان أعارتهم قريش ثيابا فجاءت امرأة لها جمال فطافت عريانة فرآها رجل
فأعجبته فدخل فطاف الى جنبها فأدنى عضده من عضدها فالتزقت عضده بعضدها فخرجا من
المسجد هاربين فزعين على وجوههما لما أصابهما من العقوبة فلقيهما شيخ من قريش
فأفتاهما أن يعودا الى المكان الذى أصابا فيه الذنب فيدعوان ويخلصان أن لا يعودا فعادا
ودعوا وأخلصا النية فافترقت أعضادهما فذهب كل واحد منهما فى ناحية وعن عبد العزيز
ابن رواد ان قوما انتهوا الى ذى طوى فاذا ظبى قد دنا منهم فأخذ رجل منهم بقائمة من قوائمه
فقال له أصحابه ويحك أرسله فجعل يضحك وأبى أن يرسله فبعر الظبى وبال ثم أرسله فناموا
فى القائلة ثم انتبهوا فاذا بحية منطوقة على بطن الرجل الذى أخذ الظبى فلم تنزل الحية عنه
حتى كان منه من الحدث مثل ما كان من الظبى وعن مجاهد قال دخل قوم مكة تجارا من الشام
فى الجاهلية فنزلوا ذا طوى فاختبزوا ملة لهم ولم يكن معهم ادام فرمى رجل منهم ظبية من
ظباء الحرم وهى حولهم ترعى فقاموا اليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها فبينما قدرهم على
النار يغلى لحمها اذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فاحرقت القوم جميعا ولم تحرق
ثيابهم ولا أمتعتهم وعن أيوب بن موسى ان امرأة فى الجاهلية كان معها ابن عم لها صغير
فقالت له يا بنى انى اغيب عنك وانى أخاف أن يظلمك أحد فان جاءك ظالم بعدى فان لله بمكة بيتا
سيمنعك فجاء رجل فذهب به فاسترقه فلما رأى الغلام البيت عرفه بالصفة فنزل يشتد حتى
تعلق بالبيت فجاء سيده فمد يده اليه ليأخذه فيبست يده فمد الاخرى فيبست فاستفتى فأفتى أن
ينحر عن كل واحدة من يديه بدنة ففعل فأطلقت يداه وترك الغلام وخلى سبيله وعن أبى ربيع
ابن سالم الكلاعى أن رجلا من كنانة بن هذيل ظلم ابن عم له فخوفه بالدعاء فى الحرم فقال هذه
ناقتى فلانة اركبها فاذهب اليه فاجتهد فى الدعاء فى الحرم فجاء فى الحرم فى الشهر الحرام فقال
اللهم انى أدعوك جاهدا مضطرا على ابن عمى فلان ترميه بداء لا دواء له ثم انصرف فوجد ابن
عمه قد رمى فى بطنه فصار مثل الزق فما زال ينتفخ حتى انشق وعن عمر رضى الله عنه انه سأل
رجلا من بنى سليم عن ذهاب بصره فقال يا أمير المؤمنين كنا بنى ضبعاء عشرة وكان لنا ابن عم
فكنا نظلمه فكان يذكرنا الله والرحم فلما رأى أنا لا نكف عنه انتهى الى الحرم فى الاشهر الحرم
فجعل يرفع يديه ويقول

الثواب بترك المندوب أو من حيث انه قال ذلك على سبيل الانقطاع الى الله والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقه وان لم يكن

لاهم أدعوك دعاء جاهدا * اقتل بني ضبعاء الا واحدا
ثم اضرب الرجل ودعه قاعدا * أعمى اذا قيد يعني القائدا

قال فمات اخوتي التسعة في تسعة أشهر في كل شهر واحد وبقيت أنا فعميت ورماني الله عز وجل في رجلي فليس يلائمني قائد فقال عمر رضي الله تعالى عنه جعل الله هذا في الجاهلية اذ لا دين حرمة حرمها الله وشرفها ليرجع الناس عن انتهاك ما حرم مخافة تعجيل العقوبة فلما جاء الدين صار التوعد للساعة ويستجيب الله تعالى ان يشاء فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وانما أكثرت من هذه الحكايات ليكون الداخل للحرم على حذر فان الله تعالى حماه ومكن أهله في الحرم الذي امنه بحرمة البيت وأمن قطانه بحرمته وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناجدون وهم آمنون في حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذي زرع والثمرات والارزاق تجبى اليهم كما قال تعالى (يجبى) أي يجمع ويحمل (اليه) أي خاصة دون غيره من جزيرة العرب (ثمرات كل شيء) من النبات الذي بأرض العرب من ثمر البلاد الحارة كالبسر والرطب والنبق والباردة كالعنب والتفاح والرمان والخوخ فاذا خولهم الله تعالى ما خولهم من الامن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للخوف والتخطف ويسلبهم الامن اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة الاسلام واسناد الامن الى أهل الحرم حقيقة والى الحرم مجاز * (تنبيه) * معنى الكلية هنا الكثرة كقوله تعالى وأوتيت من كل شيء ولكن في تعبيره بالمضارع وما بعده اشارة الى الاستمرار وانه يأتي اليه بعد ذلك من كل ما في الارض من المال ما لم يخطر لاحد منهم ببال وقرأ نافع بالتاء الفوقية والباقون بالياء التحتية وأمال حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ثم نبه تعالى بيان الرزق من عنده بقوله تعالى (رزقا من لدنا) أي فلا صنع لاحد فيه بل هو محض تفضل * (تنبيه) * انتصاب رزقا على المصدر من معنى يجبى أو الحال من ثمرات لتخصيصها بالاضافة كما تنصب عن النكرة المخصصة وان جعلته اسما للمرزوق انتصب على الحال من ثمرات (ولكن أكثرهم) أي أهل مكة وغيرهم ممن لا هداية له (لا يعلمون) أي ليس لهم قابلية للعلم حتى يعلموا انا نحن الفاعلون لذلك بل هم جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا وقيل انه متعلق بقوله تعالى من لدنا أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون ان ذلك رزق من عند الله اذ لو علموا لما خافوا غيره ثم بين تعالى ان الامر بالعكس فانهم أحقاء بأن يخافوا من بأس الله تعالى على ما هم عليه بقوله تعالى (وكم أهلكنا من قرية) أي من أهل قرية وأشار الى سبب الاهلاك بقوله تعالى (بطرت معيشتها) أي وقع منها البطر في زمن عيشها الرخي الواسع فكان حالهم كحالكم في الامن وادرار الرزق فلما بطروا معيشتهم أهلكناهم ومعنى بطرهم لها قال عطاء انهم أكلوا رزق الله وعبدوا غيره وقيل البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه * (تنبيه) * انتصاب معيشتها اما بحذف الجار وايصال الفعل كما في قوله تعالى واختار موسى قومه أو بتقدير حذف ظرف الزمان وأصله بطرت أيام معيشتها واما بتضمين بطرت معنى كفرت أو خسرت أو على التمييز أو على التشبيه بالمفعول به وهو قريب من سفه نفسه (فتلك مساكنهم) خاوية (لم تسكن

ثم ذنب وأما استغفاره من ذلك فمعناه اغفر لي ترك هذا المندوب (قوله وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) قاله هنا بتقديم

من بعدهم بعد أن طال ما تمالوا بها وعمروها وزخرفوها وزفوا فيها الابكار وفرحوا بالاعمال الكبار (الا) سكونا (قليلا) قال ابن عباس لم يسكنها الا المسافرون ومار والطريق يوما أو ساعة من ليل أو نهار ثم تصير يبابا موحشة كالقفار بعد أن كانت متنعمة الفناء ببيض الصفاح وسمر القنا قال الزمخشري ويحتمل ان شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها الا قليلا (وكنا) أي ازلا وابدا (نحن) لا غيرنا (الوارثين) منهم اذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم قال القائل

تتخلف الآثار عن أصحابها ۞ حينا ويدركها الفناء فتتبع

(وما كان ربك) أي المحسن اليك بالاحسان بارسالك الى الناس (مهلك القرى) أي هذا الجنس كله بجرم وان عظم (حتى يبعث في أمها) أي أعظمها وأشرفها (رسولا) لان غيرها تبع لها ولم يشترط كونه من أمها فقد كان عيسى عليه السلام من الناصرة وبعث الى بيت المقدس (يتلوا عليهم) أي أهل القرى كلهم (آياتنا) الدالة على ما ينبغي لنا من الحكمة وعلى ما لنا من الاعجاز على نفوذ الكلمة وباهر العظمة الزاما للحجة وقطعا للمعذرة لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا ولذلك لما أردنا عموم الخلق بالرسالة جعلنا الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم الخاتم للانبياء من أم القرى كلها وهي مكة البلد الحرام (وما كنا مهلكي القرى) أي كلها بعد الارسال (الا وأهلها ظالمون) أي عريقون في الظلم بالعصيان بترك ثمرات الايمان وتكذيب الرسل (وما أوتيتم من شئ) أي من أسباب الدنيا (فمتاع) أي فهو متاع (الحياة الدنيا) تتمتعون به أيام حياتكم وليس بعودة نفعه الى غيرها فهو آيل الى فساد وان طال زمن التمتع به (وزينتها) أي فهو زينة الحياة الدنيا التي هي كلها فضلا عن زينتها الى فناء فليست هي ولا شئ منها بازلي ولا أبدي (وما عند الله) أي الملك الاعلى وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت (خير) على تقدير مشاركة ما في الدنيا له في الخيرية في ظنكم لان الذي عنده أطيب وأكثر وأشهى وازهى (و) هو مع ذلك كله (أبقى) لانه وان شارك متاع الدنيا في انه لم يكن ازليا فهو ابدي وهذا جواب عن شبهتهم فانهم قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى ان ذلك خطأ عظيم لان ما عند الله خير وابقى من وجهين الاول ان المنافع هناك اعظم والثاني انها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر وأما أنها أبقى فلانها دائمة غير منقطعة ومن قابل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فظهر بهذا ان منافع الدنيا لا نسبة لها الى منافع الآخرة فلا جرم نبه على ذلك بقوله تعالى (أفلا يعقلون) ان الباقي خير من الفاني فيستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير فمن لم يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا فانه يكون خارجا عن حد العقل قال ابن عادل ورحم الله الشافعي حيث قال من أوصى بثلث ماله لاعقل الناس صرف ذلك الثلث الى المشتغلين بطاعة الله تعالى لان اعقل الناس من اعطى القليل واخذ الكثير وما هم الا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله تعالى انما اخذه من هذه الآية انتهى وقرأ أبو عمرو بالياء وهو ابلغ في الموعظة لاشتماله على الالتفات للاعراض به عن خطابهم والباقون بالتاء على الخطاب جريا على ما تقدم (أفمن وعدناه) على عظمتنا في الغنى والقدرة والصدق (وعدا حسنا) لا شئ أحسن منه في موافقته للامنية وبقائه وهو الجنة

وجل على من اقصى المدينة
وعكس فى يس قيل
موافقة هنا لقوله قبل
او جذوة من النار و هنا ما

فان حسن الوعد بحسن الموعود ولذلك سمى الله تعالى الجنة بالحسنى (فهو لاقيه) أى مدركه لامتناع الخلف فى وعده ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية (كمن متعناه متاع الحيوة الدنيا) أى الذى هو مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستعقب للتحسر على الانقطاع وعن ابن عباس ان الله تعالى خلق الدنيا وجعل اهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع (ثم هو) مع ذلك كله (يوم القيامه) الذى هو يوم التغابن من خسر فيه لم يربح أصلا (من المحضرين) اى المقهورين على الحضور الى مكان يود لو افتدى منه بملء الارض ذهبا لم يقبل منه قال قتادة يحضره المؤمن والكافر قال مجاهد نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى جهل وقال محمد بن كعب نزلت فى حمزة وعلى وفى أبى جهل وقال السدى نزلت فى عمار والوليد بن المغيرة ●(تنبيه)● ثم للتراخى حال الاحضار عن حال التمتع فى الزمان أو الرتبة وقرأ ثم هو قالون والكسائى بسكون الهاء والباقون بالضم (ويوم) أى واذكر يوم (يناديهم) اى ينادى الله هؤلاء الذين يضلون الناس ويصدون عن سبيل الله (فيقول) اى الله تعالى (أين شركائى) من الاوثان وغيرهم ثم بين أنهم لا يستحقون هذا الاسم بقوله تعالى (الذين كنتم) اى كونا عريقين فيه (تزعمون) أنها تشفع ليدفعوا عنكم وعن أنفسهم فيخلصكم من هذا الذى نزل بكم ●(تنبيه)● تزعمون مفعولاه محذوفان أى تزعمونهم شركائى (قال الذين حق) أى ثبت ووجب (عليهم القول) أى بدخول النار وهم رؤس الضلالة وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وغيره من آيات الوعيد وقولهم (ربنا هؤلاء) اشارة للاتباع (الذين اغوينا) أى أوقعنا الاغواء وهو الاضلال بهم صفته والعائد حذف وقولهم (اغويناهم) اى فغووا باختيارهم (كما غوينا) اى نحن فهؤلاء مبتدأ والذين اغوينا صفته والراجع الى الموصول محذوف واغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره اغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا يعنون انا لم نغو الا باختيارنا لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم والجاء او دعونا الى الغى وسولوه لنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لان اغواءنا لهم لم يكن الا وسوسة وتسويلا لا قسرا والجاء فلا فرق اذا بين غينا وغيهم وان كان تسويلنا لهم داعيا الى الكفر فقد كان فى مقابلته دعاء الله تعالى لهم الى الايمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وبما بعث اليهم من الرسل وأنزل اليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر وناهيك بذلك صارفا عن الكفر وداعيا الى الايمان وهذا معنى ما حكاه الله تعالى عن الشيطان ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ●(تنبيه)● اعترض أبو على على الزمخشرى فى هذا الاعراب بان الخبر ليس فيه زيادة فائدة على ما فى صفته (فان قلت) قد وصل الخبر بقوله كما غوينا وفيه زيادة (قلت) الزيادة بالظرف لا تصيره أصلا فى الجملة لان الظروف فضلات ثم انه أعرب هو هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا خبره وأغويناهم مستأنف وأجاب أبو البقاء وغيره عن الاول بان الظروف قد تلزم كقولك زيد عمرو قائم فى داره ثم أشاروا بقولهم (تبرأنا اليك) أى من أمورهم الى أنه لا لوم علينا فى الحقيقة بسببهم فهو تقرير للجملة الاولى ولهذا خلت عن العاطف وعلى تقدير اغوائنا

ثم بتقديم من أقصى المدينة لما روى ان الرجل واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل حبيب كان يعبد الله فى جبل فلما سمع خبر الرسل

اهم (ما كانوا ايانا) اى خاصة (يعبدون) بل كانوا يعبدون الاوثان بما زينت اهم اهواؤهم وان كان لنا فيه نوع دعاء اليه وحث عليه فاقل ما نريد أن يوزع العذاب على من كان سببا فى ذلك وقيل ما مصدرية متصلة بتبرأنا اى تبرأنا من عبادتهم ايانا • ولما لم يلتفت الى هذا الكلام منهم بل عد عدما لانه لاطائل تحته أشير الى الاعراض عنه لانه لا يستحق جوابا كما قيل رب قول جوابه السكوت بقوله تعالى (وقيل) أى ثانيا للاتباع تهكما بهم واظهارا لعجزهم الملزوم لتصيرهم وعظم تأسفهم وذكر ذلك بصيغة المجهول للاستهانة بهم وانهم من الذل والصغار بحيث يجيبون كل آمر كائنا من كان (ادعوا) اى كلكم (شركاءكم) اى الذين ادعيتم جهلا شركتهم ليدفعوا عنكم العذاب (فدعوهم) تعللا بما لا يغنى وتمسكا بما يتحقق انه لا يجدى لفرط الغباوة واستيلاء الحيرة والدهشة (فلم يستجيبوا لهم) اى لم يجيبوهم لعجزهم عن الاجابة والنصرة قال ابن عادل والاقرب أن هذا على سبيل التقريع لانهم يعلمون انه لا فائدة فى دعائهم (ورأوا) أى هم (العذاب) عالمين بانه مواقعهم لا مانع له عنهم فكان الحال حينئذ مقتضيا لان يقال من كل من يراهم (لو أنهم كانوا يهتدون) اى يحصل منهم هداية ساعة من الدهر تأسفا على امرهم وتمنيا لخلاصهم ولو أن ذلك كان فى طاقتهم وجواب لو محذوف اى لنجوا من العذاب ولما رأوه اصلا قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ما أبصروه فى الآخرة (ويوم يناديهم) اى الله تعالى وهم بحيث يسمعهم الداعى وينفذهم البصر قد برزوا لله جميعا من كان منهم عاصيا ومن كان منهم مطيعا فى صعيد واحد قد اخذ بانفاسهم الزحام وتراكبت الاقدام على الاقدام والجمهم العرق وعمهم الغرق (فيقول ماذا) اى اوضحوا وعينوا جوابكم الذى (أجبتم المرسلين) اليكم • (تنبيه) • ويوم معطوف على الاول فانه تعالى يسأل عن اشراكهم به ثم تكذيبهم الانبياء ولما لم يكن لهم قدم صدق ولا سابق حق بما أتتهم الرسل به من الحجج لم يكن لهم جواب الا السكوت وهو المراد بقوله تعالى (فعميت) أى خفيت واظلمت (عليهم الانباء) أى الاخبار المنجية (يومئذ) التى هى من العظمة بحيث يحق لها فى ذلك اليوم أن تذكر • (تنبيه) • الاصل فعموا عن الانباء لكنه عكس مبالغة ودلالة على ان ما يحضر الذهن انما يفيض ويرد عليه من خارج واذا أخطأه لم يكن له حيلة الى استحضاره واذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام فى ذلك اليوم يفوضون الى علم الله تعالى فما ظنك بالضلال فلهذا قال تعالى (فهم لا يتساءلون) أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة أو للعلم بانه مثله هذا حال من أصر على كفره (فاما من تاب) عنه وقوله تعالى (وآمن) تصريح بما علم التزاما فان الكفر والايمان ضدان لا يمكن ترك أحدهما الا بأخذ الآخر وقوله تعالى (وعمل صالحا) لاجل أن يكون مصدقا لدعواه باللسان (فعسى) اذا فعل ذلك (أن يكون من المفلحين) عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح • ولما كان كأنه قيل ما لاهل القسم الاول لا يتوخون النجاة من ضيق ذلك البلاء الى رحب هذا الرجاء وكان الجواب ربك منعهم من ذلك أو ماله لم يقطع لهذا القسم بالفلاح كما قطع لاهل القسم الاول بالشقاء كان الجواب (وربك يخلق ما يشاء ويختار) لا موجب عليه ولا مانع له (ما كان لهم الخيرة) اى أن يفعلوا

(قوله ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) • ان قلت لا يليق ... مستحى لا ... موسى لم يسق ... شعيب طلب الاجر فكيف

ويفعل لهم كل ما يختارونه * (تنبيه) * الخيرة بمعنى التخير كالطيرة بمعنى التطير وظاهره نفي الاختيار عنهم رأسا قال البيضاوي والامر كذلك عند التحقيق فان اختيار العبد مخلوق منوط بدواع لا اختيار لهم فيها وقال الرازي في اللوامع وفيه دليل على ان العبد في اختياره غير مختار ولهذا أهل الرضا حطوا الرحال بين يدي ربهم وسلموا الامور اليه بصفاء التفويض بصدق فان امرهم اونهاهم بادروا وان أصابهم سهام المصائب العظام صابروا وان أعزهم أعزوا أنفسهم وأكرموا وان أذاهم رضوا وسلموا فلا يرضيهم الا ما يرضيه ولا يريدون الا ما يريده فيمضيه قال القائل

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنه ولا متقدم
اجد الملامة في هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلمني اللوم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا * ما من يهون عليك ممن يكرم

وقيل ما موصولة مفعول ليختار والراجع محذوف والمعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة اي الخير والصلاح (سبحان الله) تنزيها له ان يزاحمه احد او ينازع اختياره اختيار (وتعالى) اي علا علوا لا تبلغ العقول توجيه كنهه مداه (عما يشركون) اي عن اشراكهم او مشاركة ما يشركونه به * ولما كانت القدرة لا تتم الا بالعلم قال تعالى (وربك) أي المحسن اليك المتولي أمر تربيتك (يعلم ما تكن) أي تخفي وتستر (صدورهم) من كونهم يؤمنون على تقدير ان تأتيهم آيات مثل آيات موسى عليه السلام او لا يؤمنون ومن كون ما أظهر من اظهر الايمان بلسانه خالصا او مشوبا ومن كونهم يخفون عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم (وما يعلنون) أي يظهرون من ذلك كل ذلك لديه سواء فلا يكون اهم مراد الا بخلقه (فان قيل) هلا اكتفى بقوله تعالى ما تكن صدورهم عن قوله وما يعلنون (اجيب) بان علم الخفي لا يستلزم علم الجلي اما لبعد او لغط او اختلاط اصوات يمنع تمييز بعضه عن بعض أو غير ذلك * ولما كان علمه تعالى بذلك انما هو لكونه الها واحدا فردا صمدا وكان غيره لا يعلم من علمه الا ما علمه قال تعالى (وهو الله) اي المستأثر بالالهية الذي لا سمي له الذي لا يحيط الواصفون بكنه عظمته ثم شرح معنى الاسم الاعظم بقوله تعالى (لا اله الا هو) وهذا تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات ثم علل ذلك بقوله تعالى (له) اي وحده (الحمد) اي الاحاطة باوصاف الكمال (في الاولى والآخرة) لانه المولي للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا (فان قيل) الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة (أجيب) بانهم يحمدونه بقولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة وفي الحديث يلهمون التسبيح والتقديس (وله الحكم) اي القضاء النافذ في كل شئ وقال ابن عباس حكم لاهل الطاعة بالمغفرة ولاهل المعصية بالشقاء (واليه) لا الى غيره (ترجعون) أي بايسر أمر يوم النفخ في الصور لبعثرة ما في القبور بالبعث والنشور ومع أنكم الآن راجعون في جميع أحكامكم اليه ومقصورون عليه ان شاء امضاها وان أراد ردها ولواها في الآية غاية التقوية لقلوب المطيعين ونهاية الزجر والردع للمتمردين ثم بين سبحانه وتعالى بعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه بقوله تعالى (قل) أي يا أفضل الخلق لاهل مكة (أرأيتم) أي اخبروني

اجاب دعوة شعيب في قول ابنته ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا (قلت) يجوز ان يكون اجاب دعوته لوجه الله

(ان جعل الله) اى الملك الاعلى (عليكم الليل) أى الذى به اعتدال حر النهار (سرمدا) أى دائما (الى يوم القيامة) لا نهار معه (من اله غير الله) أى العظيم الشأن الذى لا كفء له (يأتيكم بضياء) اى بنهار تطلبون فيه المعيشة (أفلا تسمعون) أى ما يقال لكم سماع اصغاء وتدبر (قل أرأيتم ان جعل الله) اى الذى له الامر كله (عليكم النهار) اى الذى توازن حرارته برطوبة الليل فيتم بها اصلاح النبات وغير ذلك من جميع المقدورات (سرمدا) اى دائما (الى يوم القيامة) لا ليل فيه (من اله غير الله) اى الجليل ليس له مثل (يأتيكم بليل) أى ينشأ منه ظلام (تسكنون فيه) استراحة عن متاعب الاشغال (فان قيل) هلا قيل بنهار تتصرفون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه (أجيب) بانه تعالى ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لان المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعايش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء أفلا تسمعون لان السمع يدرك ما لا يدرك البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل (أفلا تبصرون) لان غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون قال البقاعى فالآية من الاحتباك ذكر الضياء أولا دليلا على حذف الظلام ثانيا والليل والسكون ثانيا دليلا على حذف النهار والانتشار أولا ولما كان التقدير ومن رحمته جعل لكم السمع والابصار لتتدبروا آياته وتبصروا فى مصنوعاته عطف عليه (ومن رحمته) اى التى وسعت كل شئ لا من غيرها من خوف أو رجاء أو تعلق غرض من الاغراض (جعل لكم الليل والنهار) آيتين عظيمتين دبرهما بهما جميع مصالحكم فجعل آية الليل (لتسكنوا فيه) فلا تسعوا فيه لمعاشكم (و) جعل آية النهار مبصرة (لتبتغوا من فضله) بان تسعوا فى معاشكم بجهدكم قال البقاعى فالآية من الاحتباك ذكر أولا السكون دليلا على حذف السعى فى المعاش ثانيا وذكر الابتغاء من فضله ثانيا دليلا على حذف عدم السعى فى المعاش أولا (ولعلكم تشكرون) أى وليكون حالكم حال من يرجى منه الشكر لما يتجدد لكم من تقلبهما من النعم المتوالية التى لا يحصرها الا خالقها وأما الآخرة فلما كانت غير مبنية على الاسباب وكانت الجنة لا تعب فيها بوجه كان لا حاجة فيها الليل (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) تقريع بعد تقريع للاشعار بانه لا شئ اجلب لغضب الله تعالى من الاشراك به كما أنه لا شئ أدخل فى مرضاته من توحيده اللهم فكما ادخلتنا فى أهل توحيدك فادخلنا فى الناجين من وعيدك ومتعنا بالنظر الى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ويحتمل أن يكون الاول لتقرير فساد رأيهم والثانى لبيان أنه لم يكن عن سند وانما كان محض تشه وهوى أو أنه ذكر الثانى كما قال الجلال المحلى ليبنى عليه (ونزعنا) اى أخرجنا وأفرد نايقة وسطوة (من كل امة شهيدا) اى وهو رسولهم يشهد عليهم بما قالوه (فقلنا) اى فتسبب عن ذلك ان قلنا للامم (هاتوا برهانكم) اى دليلكم القطعى الذى فزعتم فى الدنيا اليه وعولتم فى شرككم عليه كما هو شأن ذوى العقول انهم لا يبنون شيأ على غير أساس (فعلموا) اى بسبب هذا السؤال لما اضطروا ولم يجدوا لهم سندا (ان الحق) فى الالهية (لله) اى الملك الذى له الامر كله لا يشاركه فيه أحد (وضل) اى غاب (عنهم) غيبة الضائع (ما كانوا يفترون) اى يقولونه قول الكاذب المتعمد للكذب لكونه لا دليل عليه ولا شبهة للغلط فيه (ان قارون) ويسمى فى التوراة قورح (كان من قوم موسى) قال أكثر المفسرين كان

تعالى على وجه البر والمعروف لا لطلب الاجر وان سمى فى الدعوة أجرا (قوله ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) قاله هنا بلفظ الصالحين

ابن عمه لان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث بن لاوى وقال ابن اسحق كان قارون عم موسى فكان أخا عمران وهما ابنا يصهر ولم يكن فى بنى اسرائيل اقرأ للتوراة من قارون ولكنه نافق كما نافق السامرى وكان يسمى النور لحسن صورته وعن ابن عباس كان ابن خالته (فبغى عليهم) اى تجاوز الحد فى احتقارهم بما خولناه فيه قيل كان عاملا لفرعون على بنى اسرائيل وكان يبغى عليهم ويظلمهم وقال قتادة بغى عليهم بكثرة المال ولم يرع لهم حق الايمان بل استخف بالفقراء وقال الضحاك بغى عليهم بالشرك وقال شهر بن حوشب زاد فى طول ثيابه شبرا روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء وقال القفال طلب الفضل عليهم وان يكونوا تحت يده وقال ابن عباس تكبر عليهم وتجبر وقال الكلبى حسد هرون عليه السلام على الحبورة روى أهل الاخبار ان قارون كان أعلم بنى اسرائيل بعد موسى وهرون وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه ان الله تعالى أوحى الى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا فى أرديتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكرون اذا نظروا اليها السماء ويعلمون أنى منزل منها كلامى فقال موسى عليه السلام يارب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا فان بنى اسرائيل تحقر هذه الخيوط فقال الله تعالى ياموسى ان الصغير من أمرى ليس بصغير فان لم يطيعونى فى الامر الصغير لم يطيعونى فى الامر الكبير فدعاهم موسى عليه السلام وقال ان الله تعالى يأمركم أن تعلقوا فى أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لكى تذكروا ربكم اذا رأيتموها ففعل بنو اسرائيل ما أمرهم به واستكبر قارون ولم يفعل وقال انما يفعل هذا الارباب بعبيدهم لكى يتميزوا عن غيرهم وكان هذا بدء عصيانه وبغيه ❁ ولما قطع الله تعالى لبنى اسرائيل البحر وأغرق فرعون جعل الحبورة لهرون عليه الصلاة والسلام فحصلت له النبوة والحبورة وكان له القربان والذبح وكان لموسى عليه السلام الرسالة فوجد قارون لذلك فى نفسه وقال ياموسى لك الرسالة ولهرون الحبورة ولست فى شئ لا أصبر أنا على هذا فقال موسى عليه السلام والله ماصنعت ذلك لهرون بل الله تعالى جعلها له فقال قارون والله لا أصدقك حتى ترينى بيانه فجمع موسى عليه السلام رؤساء بنى اسرائيل وأمرهم أن يجئ كل رجل منهم بعصا فجاؤا بها فحزمها وألقاها موسى عليه السلام فى قبة له كان يعبد الله تعالى فيها وكان ذلك بأمر الله تعالى ودعا موسى عليه السلام أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون عليه السلام وقد اهتزلها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى عليه السلام ياقارون ألا ترى ماصنع لهرون عليه السلام فقال والله ماهذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون ومعه ناس كثير وولى هرون عليه السلام الحبورة وهى رياسة الذبح والقربان وكانت بنو اسرائيل يأتون بهداياهم الى هرون عليه السلام فيضعها فى المذبح وتنزل نار من السماء فتأكلها واعتزل قارون باتباعه وكان كثير المال والتبع من بنى اسرائيل فكان لا يأتى موسى عليه السلام ولا يجالسه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان قارون كان من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى ❁ ولما ذكر الله تعالى بغيه ذكر سببه الحقيقى

وفى والصافات بلفظ الصابرين لان ماهنا من كلام شعيب وهو المناسب للمعنى هنا اذ المعنى ستجدنى من الصالحين فى

بقوله تعالى (وآتيناه من الكنوز) اى الاموال المدفونة المذخورة فضلا عن الظاهرة التى هى بصدد الانفاق منها ما عساه يعرض من المهمات (ما) اى الذى أوتى شيأ كثيرا لا يدخل تحت حصر حتى (ان مفاتحه) اى مفاتح الاغلاق التى هو مدفون فيها وراء أبوابها (لتنوء) اى تميل بجهد ومشقة بثقلها (بالعصبة) اى الجماعة الكثيرة التى تعصب اى يقوى بعضهم بعضا (اولى) اى أصحاب (القوة) اى تميلهم من اثقالها اياهم * (تنبيه) * فى المبالغة بالتعبير بالكنوز والمفاتح والنوء والعصبة الموصوفة ما يدل على أنه أوتى من ذلك ما لم يؤته أحد ممن هو فى عداده وكل ذلك مما تستبعده العقول فلذلك وقع التأكيد واختلفوا فى عدد العصبة فقال مجاهد ما بين العشرة الى خمسة عشر وقال الضحاك عن ابن عباس ما بين الثلاثة الى العشرة وقال قتادة ما بين العشرة الى الاربعين وقيل أربعون رجلا وقيل سبعون وروى عن ابن عباس قال كان يحمل مفاتحه أربعون رجلا أقوى ما يكون من الرجال وقال جرير عن منصور عن خيثمة قال وجدت فى الانجيل ان مفاتح خزائن قارون وقر ستين بغلا ما يزيد فيها مفتاح على اصبع لكل مفتاح كنز ويقال كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما أثقلت عليه جعلت من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر على طول الاصابع وكانت تحمل معه اذا ركب على أربعين بغلا وفى الباء فى بالعصبة وجهان أنها للتعدية كالهمزة ولا قلب فى الكلام والمعنى لتنىء المفاتح العصبة الاقوياء كما تقول أجأته وجئت به وأذهبته وذهبت به والثانى قال أبو عبيدة ان فى الكلام قلبا والاصل لتنوء العصبة بالمفاتح اى لتنهض بها كقولهم عرضت الناقة على الحوض * ولما ذكر الله تعالى بغيه ذكر وقته بقوله تعالى (اذ قال له قومه) اى من بنى اسرائيل (لا تفرح) اى بكثرة المال فرح بطر فان الفرح بالعرض الزائل يدل على الركون اليه وذلك يدل على نسيان الآخرة وعلى غاية الجهل وقلة التأمل بالعواقب قال ابن عباس كان فرحه ذلك شركا لانه ما كان يخاف معه عقوبة الله عز وجل (ان الله) اى الذى له صفات الكمال (لا يحب) أى لا يعامل معاملة المحب (الفرحين) اى البطرين الاشرين الراسخين فى الفرح بما يفنى الذين لا يشكرون الله تعالى بما أعطاهم فان فرحهم يدل على سقوط الهمم كما قال تعالى ولا تفرحوا بما آتاكم وقال القائل فى ذلك

* واست بمفراح اذا الدهر سرنى * وقال آخر

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا يفرح بالدنيا الا من رضى بها واطمأن فاما من قلبه الى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح (وابتغ) اى اطلب طلبا تجتهد نفسك فيه (فيما آتاك الله) اى الملك الذى الامر كله بيده من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بان تقوم بشكر الله فيما أنعم الله عليك وتنفقه فى رضا الله تعالى فيجازيك بالجنة (ولا تنس) اى ولا تترك (نصيبك من الدنيا) قال مجاهد لا تترك أن تعمل فى الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لان حقيقة نصيب الانسان من الدنيا أن يعمل للآخرة وقال السدى بالصدقة وصلة الرحم وقال على رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك ان تطلب بها الآخرة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة

ـــن العشرة والوفاء بالعهد وهناك فى كلام اسمعيل وهو المناسب للمعنى ثم اذا المعنى ستجدنى من الصابرين على الذبح

قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذى نفس محمد بيده مابعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة والنار وعن ميمون الازدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وقال الحسن أمر أن يقدم الفضل ويمسك مايغنيه وقال منصور بن زاذان قوتك وقوت أهلك (وأحسن) اى أوقع الاحسان بدفع المال الى المحاويج والانفاق فى جميع الطاعات ويدخل فى ذلك الاعانة بالجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر (كما أحسن الله) الجامع لصفات الكمال (اليك) بأن تعطى عطاء من لايخاف الفقر كما أوسع الله عليك (ولا تبغ) اى ولا ترد ارادة تما (الفساد فى الارض) بتقتير ولا تبذير ولا تكبر على عباد الله تعالى ولا تحقير ثم أتبع ذلك علته مؤكدا لان أكثر المفسدين يبسط لهم فى الدنيا وأكثر الناس يستبعد أن يبسط فيها لغير محبوب فقيل (ان الله) اى العالم بكل شئ القدير على كل شئ (لايحب المفسدين) اى لايعاملهم معاملة من يحبه وقيل ان القائل له هذا موسى عليه السلام وقيل مؤمنو قومه وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ مافيه مزيد لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه كفر النعمة بأن (قال) اى قارون فى الجواب (انما أوتيته) أى هذا المال (على علم) حاصل (عندى) فانه كان أعلم بنى اسرائيل بالتوراة اى فرآنى له أهلا ففضلنى بهذا المال عليكم كما فضلنى بغيره وقيل هو علم الكيمياء وقال سعيد بن المسيب كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوفنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان ذلك سبب أمواله وقيل على علم عندى بالتصرف فى التجارات والزراعات وأنواع المكاسب ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله تعالى (أولم يعلم ان الله) اى بما له من صفات الجلال والعظمة والكمال (قد أهلك) وقوله تعالى (من قبله من القرون) فيه تنبيه على أنه لم يتعظ مع مشاهدته للمهلكين الموصوفين مع قرب الزمان وبعده وقوله تعالى (من هو أشد منه قوة) اى فى البدن والمعانى من العلم وغيره والانصار والخدم (وأكثر جمعا) فى المال والرجال آخرهم فرعون الذى شاهده فى ملكه وحقق أمره يوم هلكه فيه تعجيب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك لانه قرأ فى التوراة وكان أعلمهم بها وسمعه من حفاظ التواريخ واختلف فى معنى قوله عز وجل (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) فقال قتادة يدخلون النار بغير سؤال ولا حساب وقال مجاهد لاتسأل الملائكة عنهم لانهم يعرفونهم بسيماهم وقال الحسن لايسئلون سؤال استعلام وانما يسئلون سؤال توبيخ وتقريع وقيل المراد ان الله تعالى اذا عاقب المجرمين فلا حاجة به الى سؤالهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها لانه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة الى السؤال (فان قيل) كيف الجمع بين هذا وبين قوله تعالى فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون (أجيب) بحمل ذلك على وقتين وقال أبو مسلم السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتوبيخ والتقريع وقد يكون للاستعتاب قال ابن عادل وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله تعالى ثم لايؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون هذا يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (فخرج) اى فتسبب عن تجبره واغتراره بماله أن خرج (على قومه) اى الذين نصحوه فى الاقتصاد فى شأنه والاكثار فى

(قوله فأرسله معى ردأ يصدقنى) اى يوضح حججى وتؤيدها بما رزقه الله من فصاحة اللسان (قوله ربى أعلم بمن جاء بالهدى)

الجود على اخوانه وقوله تعالى (فى زينته) فيه دليل على أنه خرج باظهر زينته وأكملها وليس فى القرآن الا هذا القدر والناس ذكروا وجوها مختلفة فقال ابراهيم النخعى انه خرج هو وقومه فى ثياب حمر وصفر وقال ابن زيد فى تسعين ألفا عليهم المعصفرات وقال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الارجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الارجوان ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال * ولما كان كانه قيل ماذا قال قومه له قيل (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا) منهم لسفول هممهم وقصور نظرهم على الفانى لكونهم أهل جهل وان كان قولهم من باب الغبطة لا من باب الحسد الذى هو تمنى زوال نعمة المحسود (ياليت لنا) اى نتمنى تمنيا عظيما أن نؤتى من اى مؤت كان وعلى اى وصف كان (مثل ما أوتى قارون) اى من هذه الزينة وما تسبب عنه من العلم حتى لا نزال أصحاب أموال ثم عظموها بقولهم مؤكدين لها لهم ان ثم من يريد ان ينكر عليهم (انه لذو حظ) أى نصيب وبخت من الدنيا (عظيم) بما أوتيه من العلم الذى كان سببا الى جمع هذا المال وهؤلاء الراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وان يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ودل على جهلهم وفضل العلم الربانى وحقارة ما أوتى قارون من المال والعلم الظاهر الذى أدى الى اتباعه قوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم) وهم أهل الدين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى الاحبار من بنى اسرائيل وقال مقاتل أوتوا العلم بما وعد الله فى الآخرة فقالوا للذين تمنوا (ويلكم) وويل أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك ما يضر وهو منصوب بمحذوف اى ألزمكم الله ويلكم (ثواب الله) اى الجليل العظيم (خير) اى من هذا الحطام الذى أوتيه قارون فى الدنيا بل من الدنيا وما فيها ومن فاته الخير حل به الويل ثم بينوا مستحقه تعظيما له وترغيبا للسامع فى حاله بقولهم (لمن آمن وعمل) تصديقا لايمانه (صالحا) ثم بين تعالى عظمة هذه النصيحة وعلو قدرها بقوله تعالى (ولا يلقاها) اى هذه النصيحة التى قالها أهل العلم وهى الزهد فى الدنيا والرغبة فيما عند الله أو الجنة المثاب بها (الا الصابرون) اى على اداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار الذين صار الصبر لهم خلقا * ولما تسبب عن نظره هذا الذى أوصله الى الكفر بربه أخذه بالعذاب أشار الى ذلك بقوله سبحانه وتعالى (فخسفنا) اى بما لنا من العظمة (به وبداره الارض) روى أنه كان يؤذى موسى عليه الصلاة والسلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد الا عتوا وتجبرا ومعاداة لموسى حتى بنى دارا وجعل بابها من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بنى اسرائيل يغدون اليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويضاحكونه قال ابن عباس نزلت الزكاة على موسى عليه السلام فأتاه قارون فصالحه عن كل ألف دينار بدينار وعن كل ألف درهم بدرهم وعن كل ألف شاة بشاة فلم تسمح بذلك نفسه فجمع بنى اسرائيل وقال لهم ان موسى قد أمركم بكل شئ فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت كبيرنا فامرنا بما شئت قال آمركم ان تجيئوا بفلانة البغى فنجعل لها جعلا حتى تقذف موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرج عليه بنو اسرائيل ورفضوه فدعاها فجعل لها قارون ألف

قال هنا بزيادة الباء وبعد بدونها تقوية للعامل هنا بحسب الظاهر لضعفه عن العمل وحذفه بعد اكتفاء بدلالة الاول عليه

درهم وقيل ألف دينار وقيل طشتا من ذهب وقيل قال لها انى أمونك وأخلطك بنسائى على ان تقذفى موسى بنفسك غدا اذا حضر بنو اسرائيل فلما كان من الغد وكان يوم عيد لهم قام موسى عليه السلام خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال له قارون ولو كنت أنت قال ولو كنت أنا قال ان بنى اسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة قال ادعها فان قالت فهو كما قالت فلما أن جاءت قال لها موسى يا فلانة انا فعلت بك ما يقول هؤلاء فعظم عليها وسألها بالذى فلق البحر لبنى اسرائيل وأنزل التوراة الاصدقت فتداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت فى نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من ان أوذى رسول الله فقالت لا كذبوا ولكن جعل لى قارون جعلا على ان أرميك بنفسى فخر موسى ساجدا يبكى ويقول اللهم ان كنت رسولك فاغضب لى فاوحى الله تعالى اليه انى أمرت الارض ان تطيعك فمرها بما شئت فقال موسى عليه السلام يا بنى اسرائيل ان الله بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلبث مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا ولم يبق مع قارون الا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فاخذت الارض باقدامهم وفى رواية كان على فراشه وسريره فاخذته حتى غيبت سريره ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الاوساط ثم قال يا أرض خذيهم فاخذتهم الى الاعناق وقارون وصاحباه فى كل ذلك يتضرعون الى موسى ويناشده قارون بالله والرحم حتى روى انه ناشده سبعين مرة وموسى فى كل ذلك لا يلتفت اليه لشدة غضبه ثم قال يا أرض خذيهم فانطبقت عليهم الارض فاوحى الله تعالى اليه ما أغلظ قلبك استغاث بك سبعين مرة فلم ترحمه وعزتى وجلالى لو دعانى مرة واحدة لاجبته وفى بعض الآثار لا أجعل الارض بعدك طوعا لاحد قال قتادة خسف به فهو يتجلجل فى الارض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها الى يوم القيامة قال وأصبح بنو اسرائيل يتناجون فيما بينهم ان موسى انما دعا على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وباموا له فاياكم يا أمة هذا النبى ان تردوا ما آتاكم به من الرحمة فتهلكوا وان كنتم أقرب الناس اليه فان قارون كان من أقارب موسى عليه السلام فان الانبياء عليهم السلام كما انهم لا يوجدون الهدى فى قلوب العدا فكذلك لا يمنعونهم من الردى ولا يشفعون الا لمن ارتضى (فما) أى فتسبب عنه انه ما (كان له) أى لقارون وأكد النفى لما استقر فى الاذهان ان الاكابر منصورون بزيادة الجار فى قوله تعالى (من فئة) أى أعوان وأصل الفئة الجماعة من الطير كأنها سميت بذلك لكثرة رجوعها وسرعتها الى المكان الذى ذهبت منه (ينصرونه من دون الله) أى غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك (وما كان من المنتصرين) أى الممتنعين منه من قولهم نصره من عدوه فانتصر اذا منعه منه فامتنع ولما خسف به واستبصر الجهال الذين هم كالبهائم لا يرون الا المحسوسات ذكر حالهم بقوله (وأصبح) أى وصار ولكنه ذكر لمقابلة المساء (الذين تمنوا) أى أرادوا ارادة عظيمة بغاية الشفقة أن يكونوا (مكانه) أى تكون حاله ومنزلته فى الدنيا لهم (بالامس) أى الزمان الماضى القريب وان لم يكن يلى يومهم الذى هم فيه فالامس قد يذكر ولا يراد به اليوم الذى قبل يومك ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة (يقولون ويكأن الله يبسط) أى يوسع (الرزق لمن يشاء من عباده) بحسب

(قوله الى اطلع الى اله موسى) قاله هنا بحذف ابلغ الاسباب اسباب السموات وقاله فى غافر بذكره لان ما هنا تقدمه

مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه (ويقدر) أى يضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء منه وفتنة ووى اسم فعل بمعنى أعجب أى أنا والكاف بمعنى اللام وهذه الكلمة والتى بعدها متصلة باجماع المصاحف واختلف القراء فى الوقف فالكسائى وقف على الياء قبل الكاف ووقف أبو عمرو على الكاف ووقف الباقون على النون وعلى الهاء وحمزة يسهل الهمزة فى الوقف على أصله وأما الوصل فلا خلاف فيه بينهم ولما لاح لهم من واقعته ان الرزق انما هو بيد الله اتبعوه ما دل على انهم اعتقدوا أيضا ان الله قادر على ما يريد من غير الرزق كما هو قادر على الرزق من قولهم (لولا ان من الله) أى تفضل الملك الاعظم (علينا) بجوده ولم يعطنا ما أعطيناه من الكنوز على مثل حاله (لخسف بنا) مثل ما خسف به (ويكأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله تعالى كقارون والمكذبين لرسله وبما وعدهم من ثواب الآخرة وقوله تعالى (تلك الدار الآخرة) اشارة تعظيم وتفخيم لشأنها أى تلك الدار التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها وتلك مبتدأ والدار صفته والخبر (نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض) بالبغى (ولا فسادا) بعمل المعاصى فلم يعلق تعالى الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلوب اليهما كما قال تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون وعن على رضى الله تعالى عنه ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال ذهبت الامانى ههنا وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه انه كان يرددها حتى قبض قال الزمخشرى ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون متعلقا بقوله تعالى ان فرعون علا فى الارض وبقوله تعالى ولا تبغ الفساد فى الارض فيقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله تعالى (والعاقبة) أى المحمودة (للمتقين) أى عقاب الله تعالى بعمل طاعته كما تدبره على والفضيل وعمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهم ولما بين تعالى ان الدار الآخرة ليست لمن يريد علوا فى الارض ولا فسادا بل هى للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل فقال تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) من عشرة أضعاف الى سبعين الى سبعمائة ضعف الى ما لا يحيط به الا الله تعالى (ومن جاء بالسيئة) وهى ما نهى الله تعالى عنه ومنه اخافة المؤمنين (فلا يجزى) أى من أى جاز واظهر ما فى هذا الفعل من الضمير العائد على من بقوله تعالى (الذين عملوا السيئات) تصويرا لحالهم وتقبيحا لها وتنفيرا من عملها (الا) جزاء (ما كانوا يعملون) أى مثله وهذا من فضل الله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزى السيئة الا بمثلها ويجزى الحسنة بأكثر منها كما مر (فان قيل) قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها كرر ذكر الاحسان واكتفى فى ذكر الاساءة بمرة واحدة وفى هذه الآية كرر الاساءة واكتفى فى ذكر الاحسان بمرة واحدة فما السبب فى ذلك (أجيب) بان هذا المقام مقام ترغيب فى الدار الآخرة فكانت المبالغة فى النهى عن المعصية مبالغة فى الدعوة الى الآخرة وأما الآية الاخرى فهى شرح حالهم فكانت المبالغة فى ذكر محاسنهم أولى (فان قيل) كيف انه تعالى لا يجزى السيئة الا بمثلها مع ان المتكلم بكلمة الكفر اذا مات فى الحال عذب أبد الآباد (أجيب) بانه كان على عزم انه لو عاش أبدا لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه (ان الذى فرض) أى أنزل (عليك القرآن) قاله أكثر المفسرين وقال عطاء أوجب عليك العمل بالقرآن وقال أبو على فرض عليك أحكامه وفرائضه (لرادك الى معاد) أى

معاد

ما طاب لكم من الرغبة من غير ذكر الارض وغيرها فناسبه الحذف وما هنالك تقدمه أو ان يظهر فى الارض الفساد فناسبه

معاد ليس لغيرك من البشر وهو المقام المحمود الذي وعدك ان يبعثك فيه وتنكير المعاد لذلك وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس يعني الى الموت وقال الزهري وعكرمة الى يوم القيامة وقيل الى الجنة وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعني الى مكة وهو قول مجاهد وقال القتيبي معاد الرجل بلده ينصرف ثم يعود الى بلده وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار مهاجرا الى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن ورجع الى الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة اشتاق اليها فأتاه جبريل عليه السلام فقال اشتقت الى بلدك ومولدك قال نعم قال فان الله تعالى يقول ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قال الرازي وهذا أقرب لان ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل له العود اليه وذلك لا يليق الا بمكة وان كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب قال أهل التحقيق وهذا آخر ما دل على نبوته لانه اخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزا ونزل جوابا لقول كفار مكة انك لفي ضلال مبين (قل) أي للمشركين (ربي أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب في المعاد يعني نفسه (ومن هو في ضلال مبين) يعنيهم وما يستحقونه من العذاب في معادهم فهو الجائي بالهدى وهم في الضلال • (تنبيه) • من جاء منصوب بمضمر أي يعلم أو باعلم ان جعلناها بمعنى عالم وأعلمناها اعماله (وما كنت ترجوا) أي في سالف الدهر بحال من الاحوال (أن يلقى) أي ينزل على وجه لم تقدر على رده (اليك الكتاب) أي يوحى اليك القرآن قال البيضاوي أي سيردك الى معاد كما ألقي اليك الكتاب وما كنت ترجوه وهو ظاهر على أن المراد بالمعاد مكة وقوله تعالى (الا رحمة) استثناء منقطع أي لكن ألقي اليك الكتاب رحمة (من ربك) أي فاعطاك القرآن وقيل متصل قال الزمخشري هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقي اليك الكتاب الا رحمة فيكون استثناء من الاحوال أو من المفعول له (فلا تكونن ظهيرا) أي معينا (للكافرين) على دينهم الذي دعوك اليه قال مقاتل وذلك حين دعي الى دين آبائه فذكره الله تعالى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه (ولا يصدنك عن آيات الله) أي قراءتها والعمل بها (بعد اذ أنزلت اليك) أي لا ترجع اليهم في ذلك (وادع) أي أوجد الدعاء (الى ربك) أي الى عبادته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) أي باعانتهم ولم يؤثر الجازم في الفعل لبنائه بخلافه في يصدنك فانه حذف منه نون الرفع اذ أصله يصدونك حذفت نون الرفع للجازم ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين (ولا تدع) أي تعبد (مع الله) أي الجامع لجميع صفات الكمال (الها آخر) (فان قيل) هذا وما قبله لا يقع منه صلى الله عليه وسلم فما فائدة ذلك النهي (أجيب) بانه ذكر للتهييج وقطع اطماع المشركين عن مساعدته لهم أو ان الخطاب وان كان معه لكن المراد غيره كما في قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك ثم علل ذلك بقوله تعالى (لا اله الا هو) أي لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع الا هو كقوله تعالى رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا فلا يجوز اتخاذ اله سواه ثم علل وحدانيته بقوله تعالى (كل شيء هالك الا وجهه) أي ذاته فان الوجه يعبر به عن الذات وقال أبو العالية الا ما أريد به وجهه وقيل الا ملكه واختلفوا في قوله تعالى هالك فمن الناس من فسر الهلاك باخراجه عن كونه منتفعا به بالاماتة أو بتفريق الاجزاء وان كانت أجزاؤه باقية فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه

مقابلته بالسماء في قوله أبلغ الاسباب أسباب السموات (قوله واني لأظنه من الكاذبين) قال ذلك هنا وقال في غافر واني لأظنه

بل خروجه عن كونه منتفعا به ومنهم من قال معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك فى ذاته فان كل ما عداه تعالى ممكن الوجود قابل للعدم فكان قابلا للهلاك فاطلق عليه اسم الهالك نظرا الى هذا الوجه وعلى هذا يحمل قول الشافعى فى بحر الكلام سبعة لا تفنى العرش والكرسى واللوح والقلم والجنة والنار باهلهما من ملائكة العذاب والحور العين والارواح (له الحكم) أى القضاء النافذ فى الخلق (واليه) وحده (ترجعون) أى فى جميع أحوالكم فى الدنيا وبالنشور من القبور للجزاء فى الآخرة فيجزيكم باعمالكم وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من قوله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طسم القصص كان له من الاجر بعدد من صدق بموسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات الا شهد له يوم القيامة انه كان صادقا حديث موضوع

سورة العنكبوت مكية

الا عشر آيات من أولها الى قوله تعالى وليعلمن المنافقين قال الحسن فانها مدنية وهى سبع وستون آية وألف وتسعمائة واحدى وثمانون كلمة وأربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفا (بسم الله) الذى أحاط بجميع القوة فاعز جنده (الرحمن) الذى شمل جميع العباد بنعمه (الرحيم) بجميع خلقه وقوله تعالى (الم) سبق القول فيه فى أول البقرة ووقوع الاستفهام بعده دليل على استقلاله بنفسه فيكون اسما للسورة أو للقرآن أو لله أو أنه سر استاثر بعلمه الله تعالى أو استقلاله بما يضمر معه بتقديره مبتدأ أو خبرا وغيره مما مر قبل سورة البقرة وقيل فى الم أشار بالالف الدال على القائم الاعلى المحيط ولام الوصلة وميم التمام بطريق الرمز الى انه تعالى أرسل جبريل الى محمد عليهما الصلاة والسلام ولما قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة وادع الى ربك وكان فى الدعاء اليه الحراب والضراب والطعان لان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا مامورين بالجهاد فشق على البعض ذلك فقال تعالى (أحسب الناس) أى كافة (أن يتركوا) أى أظنوا انهم يتركون بغير اختبار وابتلاء فى وقت ما بوجه من الوجوه

• (تنبيه) • ان يتركوا سد مسد مفعولى حسب عند الجمهور (أن) أى بان (يقولوا) أى بقولهم (آمنا وهم) أى والحال انهم (لا يفتنون) أى يختبرون بما تميز به حقيقة ايمانهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات وأنواع المصائب فى الانفس والاموال ليتبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب ولينالوا بالصبر عليها عوالى الدرجات فان مجرد الايمان وان كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى العذاب واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال الشعبى نزلت فى اناس كانوا بمكة قد أقروا بالاسلام ثم هاجروا فتبعهم الكفار فمنهم من قتل ومنهم من نجا فانزل الله تعالى هاتين الآيتين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال انها نزلت فى عمار بن ياسر وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام كانوا يعذبون بمكة وقال ابن جريج نزلت فى عمار بن ياسر كان يعذب فى الله عز وجل وقال مقاتل نزلت فى مهجع ابن عبد الله مولى عمر كان أول قتيل قتل من المسلمين يوم بدر فقال صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى الى باب الجنة من هذه الامة فجزع عليه أبواه وامرأته فانزل الله تعالى فيهم هذه الآية وقيل وهم لا يفتنون بالاوامر والنواهى وذلك ان الله تعالى أمرهم

في

كاذبا موافقة ٣ لاروى هنا وعلى الاصل بلا معارض ثم (قوله وما كنت بجانب الغربى) الآيتان قالت أوليها بغنى عن قوله وما كنت

٣ قوله لاروى المناسب للفواصل اهـ مصحح

فى الابتداء بمجرد الايمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشق على بعض فانزل الله تعالى هذه الآية ثم عزاهم فقال (ولقد فتنا الذين من قبلهم) أى من الانبياء والمؤمنين فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل وابتلى بنو اسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب فذلك سنة قديمة جارية فى الامم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافه (فليعلمن الله) أى الذى له الكمال كله (الذين صدقوا) فى ايمانهم علم مشاهدة للخلق والا فالله تعالى لا يخفى عليه خافية (وليعلمن الكاذبين) فيه أى فيظهر الله الصادقين من الكاذبين فى الايمان (فائدة) لبعض الهيين

للهوى آية (أى علامة) بها يعرف الصا • دق فى عشقه من الكذاب

سهر الليل دائما ونحول الـ • ـجسم والموت فى رضا الاحباب

(أم حسب) أى ظن (الذين يعملون السيئات) أى الشرك والمعاصى فان العمل يعم أعمال القلوب والجوارح (أن يسبقونا) أى يفوتونا فلا ننتقم منهم وهذا ساد مسد مفعولى حسب وأم منقطعة والاضراب فيها لان هذا الحساب أبطل من الاول لان صاحب ذلك يقدر ان لا يمتحن لايمانه وصاحب هذا يظن ان لا يجازى بمساويه ولهذا عقبه بقوله تعالى (ساء ما يحكمون) اى بئس الذى يحكمونه أو حكما يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم • ولما بين بقوله أحسب الناس أن يتركوا ان العبد لا يترك فى الدنيا سدى و بين فى قوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات ان من ترك ما كلف به يعذب عذابا بين ان من يعترف بالآخرة و يعمل لها لا يضيع عمله بقوله تعالى (من كان يرجو لقاء الله) أى الملك الاعلى قال ابن عباس ومقاتل من كان يخشى البعث والحساب والرجاء بمعنى الخوف وقال سعيد بن جبير من كان يطمع فى ثواب الله (فان أجل الله) أى الوقت المضروب للقائه (لآت) أى لجاء لا محالة فانه لا يجوز عليه اخلاف الوعد (فان قيل) كيف وقع فان أجل الله لآت جوابا للشرط (أجيب) بانه اذا كان وقت اللقاء آتيا كان اللقاء آتيا لا محالة كما تقول من كان يرجو لقاء الملك فان يوم الجمعة قريب اذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة وقال مقاتل يعنى يوم القيامة لكائن ومعنى الآية ان من يخشى الله تعالى و يأمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم كما قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا (وهو السميع) أى لما قالوه (العليم) بما من صدق فيما قال ومن كذب فيثيب و يعاقب على حسب ما ه قال الرازى وههنا لطيفة وهى أن للعبد أمورا هى أصناف حسناته عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع وانما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الاشياء يجعل الله تعالى لمسموعه ما لا اذن سمعت ولمرئيه ما لا عين رأت ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب بشر كما وصف فى الخبر فى وصف الجنة اه • (تنبيه) لم يذكر الله تعالى من الصفات غير هذين الصفتين كالعزيز والحكيم وذلك لانه سبق القول فى قوله أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وسبق الفعل بقوله تعالى وهم لا يفتنون و بقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا و بقوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما يدرك بالبصر ومنه ما لا يدرك به كالعلم عامر والعلم يشملهما • ولما بين تعالى أن التكليف حسن واقع وان عليه وعدا وايعادا ليس لهما

من الشاهدين (قلت) لا اذ صدق ارادها ما كنت بالمهد حاضرا حين أحكمنا الى موسى الوحى ومعنى وما كنت من الشاهدين أى

دافع بين ان طلب الله تعالى ذلك من المكلف ليس لنفع يعود اليه بقوله تعالى (ومن جاهد) أى بذل جهده فى جهاد حرب أونفس حتى كانه يسابق آخر فى الاعمال الصالحة (فانما يجاهد لنفسه) لان منفعة جهاده له لا لله تعالى فانه غنى مطلق كما قال تعالى (ان الله) أى المتصرف فى عباده بما شاء (لغنى عن العالمين) أى الانس والجن والملائكة وعن عباداتهم ومثل هذا كثير فى القرآن كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه وقوله تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم فينبغى للعبد أن يكثر من العمل الصالح ويخلصه لان من عمل شيأ لا يطلب به ملكا ولم يعلم ان الملك يراه يحسن العمل ويتقنه واذا علم ان عمله لنفسه لا لاحد يكثر منه نسأل الله الكريم الفتاح أن يوفقنا العمل الصالح وأن يفعل ذلك باهلينا وذريتنا ومحبينا بمحمد وآله * ولما بين تعالى حال المسىء مجملا بقوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا اشارة الى التعذيب مجملا وذكر حال المحسن بقوله تعالى ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه وكان التقدير فالذين جاهدوا والذين عملوا السيئات لنجزينهم أجمعين ولكنه طواه لان السياق لاهل الرجاء عطف عليه قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى فى الشدة والرخاء على حسب طاقتهم وفى ذلك اشارة الى ان رحمته تعالى أتم من غضبه وفضله أتم من عدله وأشار بقوله تعالى (لنكفرن عنهم سيئاتهم) الى ان الانسان وان اجتهد لابد من أن يزل عن الطاعة لانه مجبول على النقص فالصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما مالم تؤت الكبائر والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان ونحو ذلك مما وردت به الاخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم المختار فالصغائر تكفر بعمل الصالحات وأما الكبائر فتكفر بالتوبة * ولما بشرهم بالعفو عن العقاب أتم البشرى بالامتنان بالثواب فقال عاطفا على ما قدرته ولنثبتن لهم حسناتهم (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء ما عملوه وهو الصالحات وأحسن نصب بنزع الخافض وهو الباء * ولما كان من جملة العمل الصالح الاحسان الى الوالدين ذكر ذلك بقوله تعالى (ووصينا الانسان بوالديه) أى وان عليا (حسنا) أى برا بهما وعطفا عليهما أى وصيناه بايتاء والديه حسنا أو بايلاء والديه حسنا لانهما سبب وجود الولد وسبب بقائه بالتربية المعتادة والله تعالى سبب له فى الحقيقة بالارادة وسبب بقائه بالاعادة للسعادة فهو أولى بان يحسن العبد حاله معه فيطيعهما مالم يأمرا بمعصية الله كما قال تعالى (وان جاهداك لتشرك بى) وقوله تعالى (ما ليس لك به علم) أى لا علم لك بالهيته موافق للواقع فلا مفهوم له أو انه اذا كان لا يجوز أن يتبع فيما لا يعلم صحته فبالاولى أن لا يتبع فيما يعلم بطلانه (فلا تطعهما) فى ذلك كما جاء فى الحديث لا طاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى ولا بد من اضمار القول ان لم يضمر قبل ثم علل ذلك بقوله تعالى (الى مرجعكم) أى من آمن منكم ومن كفر ومن بر والديه ومن عق ثم تسبب عنه قوله تعالى (فانبئكم بما كنتم تعملون) أى أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فاجازيكم عليها نزلت هذه الآية فى سعد بن أبى وقاص الزهرى وأمه حمنة بنت أبى سفيان بن امية بن عبد شمس روى أنها لما سمعت باسلامه قالت له يا سعد بلغنى انك قد صبأت فوالله لا يظلنى سقف بيت من الضح وهو بكسر الضاد المعجمة وبحاء مهملة الشمس والريح وان الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد وكان أحب أولادها اليها فابى سعد ولبثت ثلاثة أيام

الملاحتين فتنهم شعيب عليهم السلام فاختلفت القصتان (قوله وما أوتيتم من شئ) قاله هنا بالواو وفى

لا

لاتنتقل من الضح ولاتأكل ولاتشرب فلم يطعها سعد بل قال والله لو كان لها مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم جاء سعد الى النبي صلى الله عليه وسلم وشكا اليه فنزلت هذه الآية وهي التي في لقمان والتي في الاحقاف فأمره صلى الله عليه وسلم ان يداريها ويترضاها بالاحسان وروي أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه هاجر مع عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل بن هشام والحرث ابن هشام أخواه لامه أسماء بنت مخرمة امرأة من بني تميم بن حنظلة فنزلا بعياش وقالا له ان من دين محمد صلة الارحام وبر الوالدين وقد تركت امك لاتأكل ولاتشرب ولاتأوي بيتا حتى تراك وهي أشد حبا لك منا فاستشار عمر فقال هما يخدعانك ولك على أن أقسم مالي بيني وبينك فمازالا به حتى أطاعهما وعصى عمر فقال عمر أما اذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فان رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا الى البيداء قال أبو جهل ان ناقتي قد كلت فاحملني معك قال نعم فنزل ليوطئ لنفسه وله فأخذاه وشداه وأوثقاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به الى أمه فقالت لاتزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد فنزلت رضي الله تعالى عنه وأرضاه ونفعنا به في الدنيا والآخرة * ولما كان التقدير فالذين أشركوا وعملوا السيئات لندخلنهم في المفسدين ولكنه طواه لدلالة السياق عليه عطف عليه زيادة في الحث على الاحسان الى الوالدين قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا) تحقيقا لايمانهم (الصالحات لندخلنهم في الصالحين) أي الانبياء والاولياء بأن نحشرهم معهم او ندخلهم وهم الجنة والصلاح منتهى درجات المؤمنين ومتمنى أنبياء الله والمرسلين * ولما بين سبحانه وتعالى المؤمن بقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وبين الكافر بقوله تعالى وليعلمن الكاذبين بين أنه بقي قسم ثالث مذبذب بقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي في الله) بأن عذبهم الكفرة على الايمان (جعل فتنة الناس) اى أذاهم له بما يصيبه من أذيتهم في منعه عن الايمان الى الكفر (كعذاب الله) اى في الصرف عن الكفر الى الايمان (ولئن) لام قسم (جاء نصر) اى للمؤمنين (من ربك) اى بفتح وغنيمة (ليقولن) حذف منه نون الرفع لتوالي النونات والواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين (انا كنا معكم) في الايمان فاشركونا في الغنيمة وأما عند الشدة فيهربون كما قال الشاعر

وما أكثر الاصحاب حين تعدهم * ولكنهم في النائبات قليل

قال الله تعالى (أوليس الله باعلم) اى بعالم (بما في صدور) اى قلوب (العالمين) من الايمان والنفاق (وليعلمن الله الذين آمنوا) اى بقلوبهم (وليعلمن المنافقين) فيجازي الفريقين واللام في الفعلين لام قسم * ولما بين الفرق الثلاثة وأحوالهم ذكر ان الكافر يدعو من يقول آمنت الى الكفر بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) اى ظاهرا وباطنا (للذين آمنوا) اى ظاهرا او باطنا لم تحملون الاذى والذل (اتبعوا سبيلنا) اى الذي نسلكه في ديننا تدفعوا عن أنفسكم ذلك فقالوا انخاف من عذاب الله تعالى على خطيئة اتباعكم فقالوا لهم اتبعونا (ولنحمل خطاياكم) ان كان ذلك خطيئة أو ان كان بعث ومؤاخذة قال الجلال المحلي والامر بمعنى الخبر وهو أولى من قول البيضاوي وانما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم

الشورى بالتفاؤل لان ماهنا لم يتعلق بما قبله كبير تعلق فناسب الاتيان فيه بالواو المقتضية لمطلق الجمع

بالاتباع مبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الاوزار عنهم ان كان تشجيعا للمؤمنين على الاتباع وبهذا الاعتبار رد عليهم وكذبهم بقوله (وماهم) اى الكفار (بحاملين من خطاياهم) أى المؤمنين (من شئ انهم لكاذبون) فى ذلك قال الزمخشرى وترى فى المتسمين بالاسلام من يستن باولئك فيقول لصاحبه اذا أراد ان يشجعه على ارتكاب بعض العظائم افعل هذا واثمه فى عنقى وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم ومنه مايحكى أن أباجعفر المنصور رفع اليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال ياأمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى قال وماهى قال شفاعتك يوم القيامة فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله اياك وهؤلاء فانهم قطاع الطريق فى المأمن (فان قيل) كيف سماهم الله تعالى كاذبين والقاضمنوا اشياء علم الله تعالى انهم لايقدرون على الوفاء به وضامن مالايعلم اقتداره على الوفاء به لايسمى كاذبا لاحين ضمن ولاحين عجز لانه فى الحالين لايدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشئ لاعلى ماهو عليه (أجيب) بان الله تعالى شبه حالهم حيث علم ان ماضمنوه لاطريق لهم الى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده لاعلى ماعليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لاعلى ماعليه المخبر عنهم ويجوز أن يراد انهم كاذبون لانهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشئ وفى قلوبهم نية الخلف * (تنبيه) * من الاولى للتبيين والثانية مزيدة والتقدير وماهم بحاملين شيأ من خطاياهم (فان قيل) قال الله تعالى وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ ثم قال الله تعالى (وليحملن) أى الكفرة (أثقالهم) أى اثقال ما اقترفته أنفسهم (وأثقالا مع أثقالهم) اى اثقالا بقولهم للمؤمنين اتبعوا سبيلنا وباضلالهم مقلديهم فكيف الجمع بينهما (أجيب) بان قول القائل حمل فلان عن فلان يريد ان حمل فلان خف فان لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيأ فقوله تعالى وماهم بحاملين من خطاياهم يعنى لايرفعون عنهم خطيئة بل يحملون اوزار انفسهم وأوزارا بسبب اضلالهم كقوله صلى الله عليه وسلم من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير ان ينقص من وزره شئ وقال تعالى فى آية اخرى ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم من غير ان ينقص من اوزار من تبعهم شئ (وليسئلن يوم القيامة) اى سؤال توبيخ وتقريع (عما كانوا يفترون) أى يختلقون من الاكاذيب والاباطيل واللام فى الفعلين لام قسم وحذف فاعلهما الواو ونون الرفع * ولما كان السياق للابتلاء والامتحان والصبر على الهوان ذكر من الرسل الكرام عليهم السلام من طال صبره على البلاء ولم يفتر عزمه عن نصيحة العباد بقوله تعالى (ولقد ارسلنا نوحا) اى اول رسل الله الى المخالفين من العباد وهو معنى (الى قومه) وعمره اربعون سنة فان الكفر كان قد عم اهل الارض وكان عليه السلام اطول الانبياء ابتلاء بهم ولذلك قال الله تعالى مسببا عن ذلك ومتعقبا (فلبث فيهم) اى بعد الرسالة (الف سنة الا خمسين عاما) يدعوهم الى توحيد الله تعالى فكذبوه (فاخذهم الطوفان) اى الماء الكثير فغرقوا (وهم ظالمون) قال ابن عباس مشركون وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ولتابعيه رضى الله تعالى عنهم وتثبيت لهم وتهديد لقريش قال ابن عباس كان عمر نوح عليه السلام ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين سنة ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد

وماهذا الا متعلق بما قبله أشد تعلق لانه عقب مالهم من المخافة بمالهم من الامنة فناسب الاتيان فيه بالفاء المقتضية

الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وروى عن ابن عباس أنه بعث وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة وعاش بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة فان كان هذا محفوظا عن ابن عباس فيضاف الى لبثه فى قومه وهو تسعمائة وخمسون سنة فيكون قد عاش ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والازرقى حديثا مرسلا ان قبره بالمسجد الحرام وقيل ببلدة البقاع يعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك وعن وهب أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة والآية تدل على خلاف قول الاطباء العمر الانسانى لايزيد على مائة وعشرين سنة ويسمونه العمر الطبيعى قال الرازى ونحن نقول ليس طبيعيا بل هو عطاء الهى وأما العمر الطبيعى فلا يدوم عنده ولا نجده فضلا عن مائة او أكثر (فان قيل) هلا قال تسعمائة سنة وخمسين ولم جاء التمييز أولا بالسنة وثانيا بالعام (أجيب) عن الاول بان ما أورده الله تعالى أحكم لانه لو قيل كاذكر لجاز أن يتوهم اطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك وكأنه قال تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد الا أن ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة وفيه نكتة أخرى وهى ان القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيتا له فكان ذكر رأس العدد الذى لارأس أكبر منه أوقع وأوصل الى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وعن الثانى بان تكرير اللفظ الواحد فى الكلام الواحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة الا اذا وقع ذلك لاجل غرض تنتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك والطوفان لغة ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام أو نحو ذلك قال العجاج وعم طوفان الظلام الاثأبا (فانجيناه) اى نوحا عليه السلام (وأصحاب السفينة) أى الذين كانوا فيها من الغرق وكانوا ثمانية وسبعين نفسا نصفهم ذكور ونصفهم اناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم وعن محمد بن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمسة نسوة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم (وجعلناها) أى السفينة أو الحادثة والقصة (آية) أى عبرة وعلامة على قدرة الله تعالى وعلمه وانجائه للطائع واهلاكه للعاصى (للعالمين) اى لمن بعدهم من الناس ان عصوا رسولهم فانه لم يقع فى الدهر حادثة أعظم منها ولا أغرب ولا أشهر فى تطبيق الماء جميع الارض بطولها والعرض واغراق جميع ما عليها من حيوان انسان وغيره ولما ذكر تعالى قصة نوح وكان بلاء ابراهيم عليه السلام عظيما فى قذفه فى النار واخراجه من بلاده اتبعه به بقوله تعالى (وابراهيم) وهو منصوب اما باذكر أو بكون (اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) اى خافوا عقابه بدل اشتمال لان الاحيان تشتمل ما فيها او اما معطوفا على نوحا واذ ظرف لارسلنا اى أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغا صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى (ذلكم) اى الامر العظيم الذى هو اخلاصكم فى عبادتكم له وتقواكم (خير لكم) أى من كل شئ (ان كنتم تعلمون) اى فى عداد من يتجدد له علم فينظر فى الامور بنظر العلم دون نظر الجهل ولما أمرهم بما تقدم ونفى العلم عن جهل خيريته دل عليه بقوله (انما تعبدون من دون الله) أى غيره (أوثانا) اى أصناما لاتستحق العبادة لانها حجارة منحوتة لاشرف لها

(قوله فناع الحياة للتعقيب) (قوله وزينتها) قال هنا الدنيا وزينتها وفى الشورى بزيادة وزينتها لانها هنا السبقة بعدفيه لان ماهنا لسبقه قصد فيه ذكر جميع ما بسط

(وتخلقون) اى تصورون بايديكم (افكا) اى شيأ مصروفا عن وجهه فانه مصنوع وأنتم تسمونه باسم الصانع ومربوب وأنتم تسمونه ربا أو تقولون كذبا فى تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله ثم ان الله تعالى نفى عنها النفع بقوله تعالى (ان الذين تعبدون) ضلالا وعدولا عن الحق الواضح (من دون) اى غير (الله) الذى له الملك كله (لا يملكون لكم رزقا) اى شيأ من الرزق الذى لا قوام لكم بدونه وأنتم تعبدونها فكيف بغيركم فتسبب عن ذلك قوله تعالى (فابتغوا) اى اطلبوا (عند الله) اى الذى له صفات الكمال (الرزق) اى كله فانه لا شئ منه الا وهو بيده (فان قيل) لم نكر الرزق فى قوله تعالى لا يملكون لكم رزقا وعرفه فى قوله تعالى فابتغوا عند الله الرزق (أجيب) بانه نكره فى معرض النفى اى لا رزق عندهم أصلا وعرفه عند الاثبات عند الله تعالى اى كل رزق عنده فاطلبوه منه وأيضا الرزق من الله معروف لقوله تعالى وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها والرزق من الاوثان غير معلوم فنكره لعدم حصول العلم به (واعبدوه) اى عبادة يقبلها وهى ما كانت خالصة من الشرك (واشكروا) اى أوقعوا الشكر (له) خاصة على ما أفاض عليكم من النعم ثم علل ذلك بقوله تعالى (اليه) وحده (ترجعون) أى معنى فى الدنيا والآخرة فانه لا حكم فى الحقيقة لاحد سواه وحسا بالنشر والحشر بايسر أمر فيثيب الطائع ويعذب العاصى * ولما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال (وان تكذبوا) اى وان تكذبونى (فقد) اى فيكفيكم فى الوعظ والتهديد معرفتكم بانه قد (كذب امم) اى فى الازمان الكائنة (من قبلكم) اى من قبلى من الرسل فجرى الامر فيهم على سنن واحد لم يختلف قط فى نجاة المطيع للرسول وهلاك العاصى له ولم يضر ذلك الرسول شيأ وما أضروا به الا أنفسهم (وما على الرسول) أن يقهركم على التصديق بل ما عليه (الا البلاغ المبين) الموضح مع ظهوره فى نفسه بالامرية بحيث لا يبقى فيه شك باظهار المعجزة واقامة الادلة على الوحدانية * (تنبيه) * فى المخاطب بهذه الآية والآيات بعدها الى قوله تعالى فما كان جواب قومه وجهان * الاول أنه قوم ابراهيم عليه السلام لان القصة له فكأن ابراهيم عليه السلام قال لقومه ان تكذبونى فقد كذب أمم من قبلكم وانما أتيت بما على من التبليغ فان الرسول ليس عليه الا التبليغ والبيان (فان قيل) ان ابراهيم عليه السلام لم يسبقه الا قوم نوح وهم امة واحدة (أجيب) بان قبل قوم نوح أيضا كان أقوام كقوم ادريس وقوم شيث وآدم وأيضا فان نوحا عليه السلام عاش أكثر من ألف سنة وكان القرن يموت ويجئ أولاده والآباء يوصون الابناء بالامتناع من الاتباع فكفى بقوم نوح أمما ولقد عاش ادريس ألف سنة فى قومه الى أن رفع الى السماء وآمن به ألف انسان منهم على عدد سنيه وأعقابهم على التكذيب * الثانى ان الآية مع قوم محمد صلى الله عليه وسلم لان هذه القصص أكثرها المقصود منه تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفا من التعذيب فقال فى أثناء حكاياتهم يا قوم ان تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام هلكوا فان كذبتم فانى أخاف عليكم أن يقع بكم ما وقع بغيركم وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى والبقاعى وهذه الآية تدل كما قال ابن عادل على أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة لان الرسول اذا بلغ شيأ ولم يبينه فلم يأت بالبلاغ المبين (أولم يروا) اى ينظروا (كيف يبدئ الله) اى

من رزق أعراض الدنيا
فذكرو بيتها مع المتاع
لان ذلك جميع استوعبا
المتاع ما لابد منه فى الحياة
من ماكول ومشروب

الذى له كل كمال (الخلق) اى يخلقهم الله تعالى ابتداء نطفة ثم مضغة ثم علقة (ثم) هو لا غيره (يعيده) اى الخلق كما كان (ان ذلك) اى المذكور من الخلق الاول والثانى (على الله) اى الجامع لكل كمال المنزه عن كل شائبة نقص (يسير) فكيف ينكرون الثانى (فان قيل) متى رأى الانسان بدء الخلق حتى يقال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق (أجيب) بان المراد بالرؤية العلم الواضح الذى هو كالرؤية فالعاقل يعلم أن البدء من الله تعالى لان الخلق الاول لا يكون من مخلوق والالما كان الخلق الاول خلقا اول فهو من الله تعالى (فان قيل) علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق ولم يقل اولم يروا أن الله خلق او بدأ الخلق والكيفية غير معلومة (اجيب) بان هذا القدر من الكيفية معلوم وهو أنه خلقه ولم يك شيأ مذكورا وانه خلقه من نطفة هى من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف فى حصول العلم بامكان الاعادة (فان قيل) لم أبرز اسمه تعالى فى ان ذلك على الله يسير ولم يقل ان ذلك عليه كما قال ثم يعيده من غير ابراز (أجيب) بانه مع اقامة البرهان على أنه يسيرأكده باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضا بكون ذلك يسيرا فان الانسان اذا سمع لفظ الله وفهم معناه انه الحى القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شئ محيط بذرات كل نافذ الارادة يقطع بجواز الاعادة وقرأ حمزة والكسائى وخلف تروا بالتاء على الخطاب على تقدير القول والباقون بالياء على الغيبة ✽ ولما ساق تعالى هذا الدليل الذى حاج به الخليل قومه قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء الذين تعبدوا بما تقلدوا بمذاهب آبائهم (سيروا) ان لم تقتدوا بابيكم ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتتأملوا ما أقام من الدليل القاطع والبرهان الساطع (فى الارض) ان لم يكفكم النظر فى أحوال بلادكم (فانظروا) أى نظر اعتبار (كيف بدأ) ربكم الذى خلقكم ورزقكم (الخلق) من الحيوان والنبات والزروع والاشجار وغير ذلك مما تضمنته الجبال والسهول (ثم الله) اى الحائز لجميع صفات الكمال (ينشئ النشأة الآخرة) بعد النشأة الاولى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعد الشين ممدودة قبل الهمزة والباقون بسكون الشين والهمزة بعد الشين ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) لان نسبة الاشياء كلها اليه واحدة (فان قيل) ابرز اسم الله فى الآية الاولى عند البدء فقال كيف يبدئ الله وأضمره عند الاعادة وههنا أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة فقال ثم الله ينشئ (أجيب) بانه فى الآية الاولى لم يسبق ذكر الله تعالى بفعل حتى يسند اليه البدء فقال كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده اكتفاء بالاولى وفى الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله تعالى فاكتفى به ولم يبرزه وأما اظهاره عند الانشاء ثانيا فقال ثم الله ينشئ مع أنه كان يكفى أن يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فلحكمة بالغة وهى انه مع اقامة البرهان على امكان الاعادة أظهر اسمه حتى يفهم به صفات كماله ونعوت جلاله فيقطع بجواز الاعادة فقال ثم الله مظهرا ليقع فى ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ ارادته فيعترف بوقوع بدئه وجواز اعادته (فان قيل) قال فى الاولى أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق بلفظ المستقبل وههنا قال فانظروا كيف بدأ الخلق بلفظ الماضى فما الحكمة (أجيب) بان الدليل الاول هو الدليل النفسى الموجب للعلم وهو موجب للعلم ببدء الخلق وأما الدليل الثانى فمعناه ان كان ليس لكم علم بان الله يبدئ الخلق فانظروا الى الاشياء المخلوقة فيحصل

ومأكول ومشروب وملبوس ومسكن ومنكوح والزينة ما يتجمل به الانسان وحذفه فى الشورى اختصارا (قوله ورأوا العذاب لو أنهم كانوا

يجدون) جواب لو محذوف تقديره لما رأوا العذاب ولا يصح أن يكون جوابها أو دليله ما قبلها لان من ترى العذاب يكون ضالا

لكم العلم بان الله بدأ خلقا ويحصل من هذا القدر العلم بانه ينشئ كما بدأ ذلك (فان قيل) قال في هذه الآية ان الله على كل شئ قدير وقال في الاولى ان ذلك على الله يسير فما فائدته (أجيب) بان فيه فائدتين الاولى ان الدليل الاول هو الدليل النفسي وهو وان كان موجبا للعلم التام ولكن عند انضمام الدليل الآفاقي اليه يحصل العلم التام لانه بالنظر الى نفسه علم حاجته الى غيره و وجوده منه فيتم علمه بان كل شئ من الله تعالى فقال عند تمام الدليل ان الله على كل شئ قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو الاعادة على الله يسير الثانية أن العلم الاول أتم وان كان الثاني اعم وكون الاعم يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا له بدليل قولك لمن يحمل مائة رطل انه قادر عليه فاذا استثقلت عن حمله عشرة أرطال تقول ذلك سهل يسير عليه فنقول كان التقدير ان لم يحصل لكم العلم التام بان هذه الامور عند الله سهلة يسيرة فسيروا في الارض لتعلموا انه مقدور ونفس كونه مقدورا كاف في امكان الاعادة ولما تم الدليل على الاعادة أنتج لا محالة أنه (يعذب) أي بعدله (من يشاء) تعذيبه أي منكم ومن غيركم في الدنيا والآخرة (ويرحم) أي بفضله ورحمته (من يشاء) رحمته فلا يسوءه (فان قيل) لم قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى سبقت رحمتي غضبي (أجيب) بان السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الايعاد وعقبه بالرحمة فذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده وهذا تحقيق قوله وحق سبقت غضبي (واليه) وحده (تقلبون) أي تردون بعد موتكم بايسر سعي (وما أنتم بمعجزين) ربكم عن ادراككم (في الارض) كيف انقلبتم في ظاهرها او باطنها او اختلف في معنى قوله تعالى (ولا في السماء) لان الخطاب مع الآدميين وهم ليسوا في السماء فقال الفراء معناه ولا من في السماء بمعجز ان عصى كقول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه

فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء

أراد ومن يمدحه وينصره فاضمر من يريد أنه لا يعجز أهل الارض من في الارض ولا أهل السماء من في السماء فالمعنى ان من في السماء عطف بتقدير أن يعصي وقال الفراء وهذا من غوامض العربية وقال قطرب وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء لو كنتم فيها كقول القائل ما يفوتني فلان هنا ولا في البصرة أي ولا في البصرة لو كان بها وكقوله تعالى ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض اي على تقدير أن تكونوا فيها وقال ابن عادل وأبعد من ذلك من قدر موصولين محذوفين اي وما أنتم بمعجزين من في الارض من الجن والانس ولا من في السماء من الملائكة فكيف تعجزون خالقهما وعلى قول الجمهور يكون المفعول محذوفا اي وما أنتم بمعجزين اي فائتين ما يريد الله تعالى وقال البقاعي ويمكن أن يكون له نظر الى قصة نمروذ وبنائه الصرح الذي أراد به التوصل الى السماء لاسيما والآيات مكتنفة بقصة ابراهيم عليه السلام من قبلها ومن بعدها ولما أخبرهم بانهم مقدور عليهم وكان ربما توهم أن غيرهم ينصرهم صرح بنفيه في قوله تعالى (وما لكم) اي أجمعين وأشار الى سفول رتبة كل من سواه بقوله تعالى (من دون الله) اي غيره وأكد النفي باثبات الجار بقوله (من ولي) اي قريب يحميكم لاجل القرابة (ولا نصير) ينصركم من عذابه ولما بين الاصلين التوحيد والاعادة وقررهما بالبرهان هدد كل من خالفه على سبيل التفصيل بقوله تعالى (والذين كفروا) اي ستروا

ماأظهرت لهم أنوار العقول (بآيات الله) اى بسبب دلائل الملك الاعظم المرئية والمسموعة التى لاأوضح منها (ولقائه) بالبعث بعد الموت الذى أخبر به وأقام الدليل عليه (أولئك) أى البعداء البغضاء (يئسوا) أى متحققين يأسهم من الآن بل من الازل لانهم لم يرجوا لقاء الله يوما ولا قال قائل منهم رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين (من رحمتى) أى من أن أفعل بهم من الاكرام بدخول الجنة وغيرها فعل الراحم (وأولئك لهم عذاب أليم) أى مؤلم بالغ ألمه (فان قيل) هلا اكتفى بقوله تعالى أولئك مرة واحدة (أجيب) بان ذلك كرر تفخيما للامر فاليأس وصف لهم لان المؤمن دائما يكون راجيا خائفا وأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف وعن قتادة ان الله تعالى ذم قوما هانوا عليه فقال أولئك يئسوا من رحمتى وقال لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون فينبغى للمؤمن أن لا ييأس من روح الله ولا من رحمته وأن لا يأمن عذابه وعقابه فصفة المؤمن أن يكون راجيا لله خائفا ثم ان الله تعالى أخبر عن فظاظة قوم ابراهيم وتكبرهم بقوله تعالى (فما كان جواب قومه) لما أمرهم بالتوحيد وتقوى الله تعالى (الا أن قالوا) أى قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين (اقتلوه او حرقوه) بالنار (فان قيل) كيف سمى قولهم اقتلوه أو حرقوه جوابا مع أنه ليس بجواب (أجيب) عنه من وجهين أحدهما أنه خرج مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب وانما معناه لا أقابل بالجواب وانما أقابل بالسيف وثانيهما أن الله تعالى أراد بيان ضلالتهم وأنهم ذكروا ما ليس بجواب فى معرض الجواب فبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا وذلك أن من لا يجيب غيره وسكت لا يعلم أنه يقدر على الجواب أم لا لجواز أن يكون سكوته عن الجواب لعدم الالتفات وأما اذا أجاب بجواب فاسد علم انه قصد الجواب وما قدر عليه ثم انهم استقر رأيهم على الاحراق فجمعوا الحطب الى أن ملؤا ما بين الجبال وأضرموا فيه النار حتى احرقت ما دنا منها بعظيم الاشتعال وقذفوه فيها بالمنجنيق (فأنجاه الله) بماله من كمال العظمة (من النار) اى من احراقها وأذاها ونفعته بان أحرقت وثاقه (ان فى ذلك) أى ماذكر من أمره وما اشتملت عليه قصته من الحكم (لآيات) أى براهين قاطعة فى الدلالة على جميع أمر الله من تصرفه فى الاعيان والمعانى لكون النار لم تحرقه وأحرقت وثاقه وكل ما مر عليها من طائر واخمادها مع عظمتها فى زمان يسير وانشاء روض مكانها وروى أنه لم ينتفع فى ذلك اليوم الذى ألقى فيه ابراهيم عليه السلام بالنار وذلك لذهاب حرها (لقوم يؤمنون) أى يصدقون بتوحيد الله وقدرته لانهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها (وقال) أى ابراهيم عليه السلام غير هائب لتهديدهم بقتل أو غيره (انما اتخذتم) أى أخذتم باصطناع وتكلف وأشار الى عظمة الله وعلو شأنه (من دون الله) الذى كل شئ تحت قهره (أوثانا) أى أصناما تعبدونها وما مصدرية (مودة بينكم) أى توادّدتم على محبتها (فى الحيوة الدنيا) بالاجتماع عندها والتواصل فى أمرها بالتناصر والتعاضد كما يتفق ناس على مذهب فيكون ذلك سبب تصادقهم وهذا دال على أن جمع الفسوق لاهل الدنيا هو العادة المستمرة وان الحب فى الله والاجتماع لعزيز جدا لما فيه من قطع علائق الدنيا وشهواتها التى زينت للناس على ما فيها من الالباس وعظيم الباس وقرأ نافع

لا يهتدى بها (قوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) الآيتين ختم آية الليل بقوله أفلا تسمعون وآية النهار بقوله

وابن عامر وشعبة مودة بالنصب والتنوين و بينكم بنصب النون فنصب مودة على أنه مفعول له أى لأجل مودة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى برفع مودة من غير تنوين وكسر النون على أن مودة خبر مبتدا محذوف أى هى مودة والباقون بنصب مودة من غير تنوين وكسر النون وهذا أيضا كاعراب المنونة * ولما أشار الى هذا النفع الذى هو فى الحقيقة ضر أتبع ذلك ما يعقبه من الضر البالغ معبرا باداة البعد بقوله (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) فينكر كل منكم محاسن أخيه و يتبرأ منه تلعن الاتباع القادة وتلعن القادة الاتباع كما قال تعالى (و يلعن بعضكم بعضا) وتنكرون كلكم عبادة الاوثان تارة اذا تحققتم انها ضرر لانفع لها وتقرون بها أخرى طالبين نصرتها راجين منفعتها وتنكر الاوثان عبادتكم وتجحد منفعتكم (ومأواكم) أى جميعا أنتم والاوثان (النار وما لكم من ناصرين) يخرجونكم منها * ثم بين تعالى أول من آمن بابراهيم بقوله تعالى (فآمن له) اى لأجل دعائه له مع ما رأى من الآيات (لوط) وكان ابن أخيه هاران وهو أول من صدقه من الرجال (وقال) أى ابراهيم عليه السلام لما هو جدير بالانكار من الهجرة لصعوبتها (انى مهاجر) أى خارج من أرضى وعشيرتى على وجه الهجر فمنتقل ومنحاز (الى ربى) أى الى أرض ليس فيها أنيس ولا عشير ولا من ترجى نصرته ولا من تنفع مودته فهاجر من كوثى من سواد الكوفة الى حران ثم منها الى الارض المقدسة فكانت هجرتان ومن ثم قالوا لكل نبى هجرة ولابراهيم عليه السلام هجرتان وهو أول من هاجر فى الله وكان معه فى هجرته لوط وامرأته سارة قال مقاتل وكان اذ ذاك ابن خمس وسبعين سنة (فان قيل) لم لم يقل انى مهاجر الى حيث أمرنى ربى مع أن المهاجرة توهم الجهة (أجيب) بأن هذا القول ليس فى الاخلاص كقوله الى ربى لأن الملك اذا صدر منه أمر برواح الاجناد ثم ان واحدا منهم سار الى ذلك الموضع لغرض نفسه فقد هاجر الى حيث أمره الملك ولكن ليس مخلصا لوجهه فلذا قال مهاجر الى ربى يعنى بوجهى الى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلبا للجهة وانما هو طلب لله ثم علل ذلك بما يسليه عن فراق أرضه وأهل وده من ذوى رحمه وأنسابه بقوله (انه هو) أى وحده (العزيز) أى فهو جدير باعزاز من انقطع اليه (الحكيم) فهو اذا أعز أحدا منعته حكمته من التعرض له بالاذلال بفعل أو مقال * ولما كان التقدير فاعززناه بما ظن بنا عطف عليه قوله (ووهبنا له) أى بعظيم قدرتنا شكرا على هجرته (اسحق) من زوجته سارة رضى الله تعالى عنها التى جمعت الى العقم فى شبابها اليأس فى كبرها (ويعقوب) من ولده اسحق عليهما السلام (فان قيل) لم لم يذكر اسمعيل عليه السلام وذكر اسحق وعقبه (أجيب) بأن هذه السورة لما كان السياق فيها للامتحان وكان ابراهيم عليه السلام قد ابتلى فى اسمعيل بفراقه مع امه ووضعهما فى مضيعة من الارض لا أنيس فيها لم يذكره تصريحا فى سياق الامتنان وأفرد اسحق لانه لم يبتل فيه بشئ من ذلك لان الامتنان به لكون أمه عجوزا عقيما أكبر وأعظم لانها أعجب وذكر اسمعيل تلويحا فى قوله تعالى (وجعلنا) أى بعزتنا وحكمتنا (فى ذريته) من ولده اسحق واسمعيل عليهما السلام (النبوة) فلم يكن بعده نبى أجنبى عنه بل جميع الانبياء من ذرية اسحق الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فانه من ذرية اسمعيل قاله بعض العلماء (فان قيل) ان الله تعالى جعل فى ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يسوى بين أولاده فكيف

أفلا تبصرون لمناسبة
الليل المظلم الساكن
للسماع ومناسبة النهار
للابصار وانما قدم
السمع للابصار ايماء لترجيح
الليل على النهار

صارت النبوة فى ولد اسحق عليه السلام أكثر (أجيب) بأن الله تعالى قسم الزمان من وقت ابراهيم الى يوم القيامة قسمين والناس أجمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله تعالى فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحدا بعد واحد ومجتمعين فى عصر واحد كلهم من ذرية اسحق عليه السلام ثم فى القسم الثانى من الزمان أخرج من ذرية ولده اسمعيل عليه السلام واحدا اجتمع فيه ما كان فيهم وأرسله الى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين أولاد اسحق أكثر من أربعة آلاف سنة ولا يبعد أن تبقى الخلق على دين ذريته اسمعيل ذلك المقدار (والكتاب) فلم ينزل كتاب الا على أولاده (فان قيل لم أفرد الكتاب مع انها أربعة التوراة والانجيل والزبور والفرقان (أجيب) بانه أفرده ليدل مع تناوله جنسية الكتب الاربعة انه لا شئ يستحق أن يكتب الا ما أنزل فيها أو كان واجعا اليها ولو جمع لم يفد هذا المعنى (وآتيناه أجره) على هجرته (فى الدنيا) بما خصصناه به مما لا يقدر عليه غيرنا من سعة الرزق ورغد العيش وكثرة الولد والعزم فى الشيخوخة وكثرة النسل والثناء الحسن والمحبة من جميع الخلق وغير ذلك قال الرازى وفى الآية لطيفة وهى ان الله تعالى بدل جميع أحوال ابراهيم عليه السلام فى الدنيا باضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار كان وحيدا فريدا فبدل الله تعالى وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ولما كان أولا بعث الى قومه وأقاربه الاقربين ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله تعالى أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعلت فيهم النبوة والكتاب وكان أولا لا جاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله تعالى من المال والجاه حتى كان له من المواشى ما علم الله تعالى عدده حتى قيل انه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق الذهب وأما الجاه فصار بحيث تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الانبياء الى يوم القيامة فصار معروفا بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملا حتى قال قائلهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا الكلام لا يقال الا للمجهول عند الناس (وانه فى الآخرة) أى التى هى الدار ومحل الاستقرار (لمن الصالحين) أى الذين خصصناهم بالسعادة وجعلنا لهم الحسنى وزيادة قال ابن عباس مثل آدم ونوح وفى اعراب قوله تعالى (ولوطا) ما تقدم فى اعراب نصب ابراهيم (اذ) أى حين (قال لقومه) أهل سدوم الذين سكن فيهم وصاهرهم وانقطع اليهم فصاروا قومه حين فارق عمه الخليل ابراهيم عليهما السلام منكرا ما رأى من حالهم وقبيح فعالهم مؤكدا له (أئنكم لتأتون الفاحشة) وهى أدبار الرجال المجاوزة للحد فى القبح فكأنها لذلك لا فاحشة غيرها ثم علل كونها فاحشة استئنافا بقوله (ما سبقكم بها) وهى حالة مبينة لعظيم جراءتهم على المنكر أى غير مسبوقين به وأغرق فى النفى بقوله (من أحد) وزاد بقوله (من العالمين) أى كلهم من الانس والجن أى فضلا عن خصوص الناس ثم كرر الانكار تأكيدا لتجاوز قبحها الذى ينكرونه بقوله (أئنكم لتأتون الرجال) اتيان الشهوة وعطف عليها ما ضموه اليها من المناكر بقوله (وتقطعون السبيل) أى طريق المارة بالقتل وأخذ المال بفعلكم الفاحشة بمن يمر بكم فترك الناس المر بكم أو تقطعون سبيل النساء بالاعراض عن الحرث واتيان ما ليس بحرث (وتأتون فى ناديكم المنكر) أى تفعلون فى مقصد نكم فعل الفاحشة بعضكم ببعض وهو مما تنكره الشرائع والمروآت والعقول وأنتم لا تتحاشون عن شئ

الانسان فيه فيقوم الى تحصيل ما هو مضطر اليه من عبادة وغيرها بنشاط وخفة الا ترى أن الجنة نهارها دائم اذ لا تعب فيها

منه في المجمع الذي يجتمع فيه الانسان من فعل خلاف الاولى من غير أن يستحيي بعضكم من بعض قال ابن عباس المنكر هو الحذف بالحصا والرمي بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازرار والسباب والتضارط في مجالسهم والفحش والمزاح وعن عائشة رضي الله تعالى عنها كانوا يتضارطون وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة في ناديهم بذلك العمل وكل معصية فاظهارها أقبح من سترها ولذلك جاء من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له ولا يقال للمجلس ناديا الا ما دام فيه أهله فاذا قاموا عنه لم يسم ناديا وعن مكحول في أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الاصابع بالحناء وحل الازرار والصفير والحذف واللوطية ودل على عنادهم بقوله تعالى مسببا عن هذه الفضائح بالنهي عن تلك القبائح (فما كان جواب قومه) أي الذين فيهم قوة ونجدة بحيث يخشى شرهم ويتقى أذاهم لما أنكر عليهم ما أنكر (الا أن قالوا) عنادا وجهلا واستهزاء (ائتنا بعذاب الله) وعبروا بالاسم الاعظم زيادة في الجراءة (ان كنت من الصادقين) أي في استقباح ذلك وان العذاب نازل بفاعليه (فان قيل) قال قوم ابراهيم عليه السلام اقتلوه أو حرقوه وقال قوم لوط ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين وما هددوه مع أن ابراهيم كان أعظم من لوط فان لوطا كان من قومه (أجيب) بأن ابراهيم كان يقدح في دينهم ويشتم آلهتهم ويعدد صفات نقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يغني والسب في الدين صعب فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم الى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون ان هذا واجب من الدين فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم ابراهيم كلام ابراهيم فقالوا انك تقول ان هذا حرام والله يعذب عليه فان كنت صادقا فائتنا بالعذاب (فان قيل) ان الله تعالى قال في موضع آخر فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وقال هنا فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله فكيف الجمع (أجيب) بأن لوطا كان ثابتا على الارشاد مكررا على النهي والوعيد فقالوا أولا ائتنا ثم لما كثر ذلك منه ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ولما أيس منهم طلب النصرة من الله بأن (قال) أي لوط عليه السلام معرضا عنهم مقبلا بكليته على المحسن اليه (رب) أي أيها المحسن الي (انصرني على القوم) أي الذين فيهم من القوة ما لا طاقة لي بهم معه (المفسدين) أي العاصين باتيان الرجال ووصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب واشعارا بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب * ولما دعا لوط على قومه بقوله رب الى آخره استجاب الله دعاءه وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين كما قال تعالى (ولما جاءت) وأسقط أن لأنه لم يتصل القول بأول المجيء بل كان قبله السلام والضيافة وعظم الرسل بقوله تعالى (رسلنا) أي من الملائكة تعظيما لهم في أنفسهم (ابراهيم بالبشرى) أي باسحق ولدا له ويعقوب ولدا لاسحق عليهما السلام (قالوا) أي الرسل عليهم السلام لابراهيم عليه السلام بعد أن بشروه وتوجهوا نحو سدوم (انا مهلكوا أهل هذه القرية) أي قرية سدوم والاضافة لفظية لأن المعنى على الاستقبال ثم عللوا ذلك بقولهم (ان أهلها كانوا ظالمين) أي عريقين في هذا الوصف فلا حيلة في رجوعهم عنه (فان قيل) قال تعالى في قوم نوح فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ففي ذلك اشارة الى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وهنا قال ان أهلها كانوا ظالمين ولم يقل

يحتاج الى الدليل المصرح (قوله ويكأن) أصلها انه أعداد بعد لاتصال كل منهما بالآخر وروى عما لم يتصل به قال سيبويه كغيره انها اصله

وهم

وهم ظالمون (أجيب) بانه لا فرق في الموضعين في كونهما مهلكين وهم مصرين على الظلم لكن هنالك الاخبار من الله تعالى عن الماضي حيث قال فأخذهم وهم عند الوقوع في العذاب ظالمون وههنا الاخبار من الملائكة عن المستقبل حيث قالوا انا مهلكو فذكروا ما أمروا به فان الكلام عن الملك بغير اذنه سوء أدب وهم كانوا ظالمين في وقت الامر وكونهم يبقون كذلك لا علم لهم به ولما قالت الملائكة لابراهيم عليه السلام ذلك قال لهم مؤكدا تنبيها على حالة ابن أخيه (ان فيها لوطا) ولم يقل عليه السلام ان منهم لوطا لانه نزيل عندهم فاذا جاء بالتصريح بالسؤال عنه (قالوا) أى الرسل عليهم السلام له (نحن أعلم) منك (بمن فيها) أى من لوط وغيره (لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) أى الباقين في العذاب وهم الفجرة لتمرنها معهم الفجرة وقرأ حمزة والكسائي بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم بعدها والباقون بفتح النون وتشديد الجيم بعدها (ولما أن جاءت رسلنا لوطا) أى المعظمون بنا (سيء) أى حصلت له المساءة والغم (بهم) أى بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء لما رأى من حسن أشكالهم وهو يظن انهم من الناس لانهم جاؤا من عند ابراهيم عليه السلام اليه على صورة البشر روى انهم كانوا يجالسون مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصا فاذا مر بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه كان أولى به قيل انه كان يأخذ ماله وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم ولهم قاض بذلك ولهذا يقال أجور من قاضي سدوم (وضاق) أى بأعمال الحيلة في الدفع عنهم (بهم ذرعا) أى ذرعه أى طاقته والاصل في ذلك أن من طالت ذراعه نال ما لا يناله قصيرها يضرب مثلا في العجز والقدرة ولما رأوه على هذه الحالة خففوا عليه (وقالوا) له (لا تخف) انا رسل ربك لاهلاكهم (ولا تحزن) أى على تمكنهم منا أو على أحد ممن يهلك فانه ليس في أحد منهم خير يؤسف عليه بسببه فانهم وصلوا في الخبث الى حد لا مطمع في الرجوع عنه مع ملازمتهم لعاتهم من غير ملال ولا ضجر ثم عللوا ذلك بقولهم مبالغين في التأكيد (انا منجوك) أى مبالغون في انجائك وقولهم (وأهلك) منصوب على محل الكاف (الا امرأتك كانت من الغابرين) فان قيل القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها ذلك فكيف كانت من الغابرين معهم أجيب بان الدال على الشر كفاعله كما ان الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت كأحدهم (فان قيل) ما مناسبة قولهم انا منجوك لقولهم لا تخف ولا تحزن فان خوفه ما كان على نفسه (أجيب) بان لوطا لما ضاق عليهم وحزن لاجلهم قالوا له لا تخف أى علينا ولا تحزن لاجلنا فانا ملائكة ثم قالوا له يا لوط خفت علينا وحزنت لاجلنا ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا انا منجوك وأهلك وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم ثم انهم بعد بشارة لوط بالتنجية قالوا له (انا منزلون) أى لا محالة (على أهل هذه القرية رجزا) أى عذابا (من السماء) فهو عظيم وقعه شديد صدعه واختلف في ذلك الرجز فقيل حجارة وقيل نار وقيل خسف وعلى هذا يكون المراد ان الامر بالخسف والقضاء به من السماء وقرأ ابن عامر

وهى كلمة تدل على الندم وقال الاخفش أصلها ويلك وأن قبله منصوب باضمار اعلم اى اعلم ان الله فعلى الاول يوقف على

بفتح النون وتشديد الزاي والباقون بسكون النون وتخفيف الزاي * (تنبيه) * كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع ابراهيم عليه السلام فقدموا البشارة على انزال العذاب ثم قالوا انا منجوك ثم قالوا انا منزلون ولم يهملوا التحية فلم يقولوا انا منجوك لانك نبي أو عابد وعللوا الاهلاك فقالوا (بما كانوا يفسقون) أي يخرجون في كل وقت من دائرة العقل والحياء كقولهم هناك ان أهلها كانوا ظالمين * ولما كان التقدير ففعلت رسلنا ما وعدوه به من الانجاء واهلاك جميع قراهم وتركناها كان لم يسكنها أحد عطف عليه قوله تعالى (ولقد تركنا) اي بما لنا من العظمة (منها) أي من تلك القرى (آية) أي علامة على قدرتنا على كل ما نريد (بينة) أي ظاهرة قال ابن عباس منازلهم الخربة وقال قتادة هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الامة وقال مجاهد هو ظهور الماء الاسود على وجه الارض * (فائدة) * اتفق القراء على ادغام الدال في التاء * (تنبيه) * في هذه الآية اشارة الى غفلة المخاطبين بهذه القصة من العرب وغيرهم وأنه ليس بينهم و بين الهدى الا تفكرهم في أمرهم مع الانخلاع من الهوى وانما يكون ذلك (لقوم يعقلون) أي يتدبرون فعدم من لم يستبصر بذلك غير عاقل * (تنبيه) * ههنا أسئلة الاول كيف جعل الآية في نوح وابراهيم عليهما السلام بالنجاة فقال فانجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية وقال فانجاه الله من النار ان في ذلك لآيات وجعل ههنا الهلاك آية الثاني ما الحكمة في قوله تعالى في السفينة جعلناها آية ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة الثالث ما الحكمة في قوله تعالى هناك للعالمين وقال ههنا لقوم يعقلون (أجيب) عن الاول بان الآية في ابراهيم كانت في النجاة لان في ذلك الوقت لم يكن اهلاك وأما في نوح فلان الانجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب الهي ومابه النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق له بعده أثر محسوس في البلاد فجعل الباقي آية وأما ههنا فنجاة لوط لم تكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الامر الباقي ههنا البلاد وهناك السفينة (وههنا لطيفة) وهي ان الله تعالى آية قدرته موجودة في الانجاء والاهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لانها أثر الرحمة وأخر آيات الهلاك لانها اثر الغضب ورحمته سابقة وعن الثاني بأن الانجاء بالسفينة لا يفتقر الى أمر آخر وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديارهم المعمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وانما ذلك بارادة قادر يخصصه بمكان دون مكان و بزمان دون زمان فهي بينة لا يمكن الجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة أمرها يكون كذلك فيقال له فلو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كانت تحصل لهم النجاة ولو سلط الله تعالى عليهم الريح العاصفة كيف تكون أحوالهم وعن الثالث بأن السفينة موجودة معلومة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال السفينة يتذكرون بها حالة نوح واذا ركبوها يطلبون من الله النجاة منه ولا يثق أحد بمجرد السفينة بل يكون دائما مرتجف القلب متضرعا الى الله تعالى طالبا للنجاة وأما اثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه الا من مر بها و يصل اليها و يكون له عقل يعلم ان ذلك من الله تعالى وارادته بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان دون زمان ولما كان شعيب عليه

السلام

وبه قرأ الكسائي ووقف على الثاني على الثاني ويك وبه قرأ ابو عمرو والجمهور يقفون على ويكأن تبعا للرسم

السلام ايضا اقتداء بتلى بتكذيب قومه اتبع قصته بقصة لوط بقوله تعالى (والى مدين) اى ولقد ارسلنا او بعثنا الى مدين (اخاهم) اى من النسب والبلد (شعيبا) ومدين قيل اسم رجل فى الاصل وحصل له ذرية فاشتهر فى القبيلة كتميم وقيس وغيرهما وقيل اسم ماء نسب القوم اليه فاشتهر فى القوم قال الرازى والاول كانه اصح لان الله تعالى اضاف الماء الى مدين بقوله تعالى ولما ورد ماء مدين ولو كان اسما للماء لكانت الاضافة غير صحيحة او غير حقيقية والاصل فى الاضافة التغاير والحقيقة (فان قيل) قال تعالى فى نوح ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقدم نوحا فى الذكر وعرف القوم بالاضافة اليه وكذلك فى ابراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولا وأضاف اليهم أخاهم شعيبا فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأن الاصل فى الجميع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان الرسل لا تبعث الى غير معينين وانما تبعث الرسل الى قوم محتاجين الى الرسل فيرسل الله تعالى اليهم من يختاره غير ان قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بنبيهم عليه السلام فقيل قوم نوح وقوم لوط فاما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال تعالى والى عاد أخاهم هودا والى مدين أخاهم شعيبا (فقال) أى فتسبب عن ارساله وبعثه ان قال (يا قوم اعبدوا الله) أى الملك الاعلى وحده ولا تشركوا به شيأ فان العبادة التى فيها اشراك ظاهرا أو خفى عدم لان الله تعالى أغنى الشركاء فهو لا يقبل الا ما كان له خالصا (فان قيل) لم يذكر عن لوط عليه السلام انه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن شعيب ذلك (أجيب) بان لوطا كان من قوم ابراهيم وفى زمانه وكان ابراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق من ابراهيم فلم يحتج لوط الى ذكره وانما ذكر ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها وان كان هو أيضا يأمر بالتوحيد اذ ما من رسول الا و يكون أكثر كلامه فى التوحيد وأما شعيب فكان بعد انقراض ذلك الزمن وذلك القوم فكان هو أصلا فى التوحيد فبدأ به ولما كان السياق لاقامة الادلة على البعث الذى هو من مقاصد السورة قال (وارجوا اليوم الآخر) أى وافعلوا ما ترجون به العاقبة فاقيم المسبب مقام السبب أو أمروا بالرجاء والمراد اشتراط ما يسوغه من الايمان كما يؤمر الكافر بالشرعيات على ارادة الشرط وقيل هو من الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا فى الارض) حال كونكم (مفسدين) أى متعمدين الفساد ولما تسبب عن هذا النصح وتعقبه تكذيبهم تسبب عنه وتعقبه اهلاكهم تحقيقا لان أهل السيآت لا يسبقونا قال تعالى (فكذبوه) فى ذلك (فان قيل) ما حكاه الله تعالى عن شعيب أمر ونهى والامر لا يكذب ولا يصدق فان من قال لغيره اعبد الله لا يقال له كذبت (أجيب) بأن شعيبا كان يقول الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فارجوه والفساد محرم فلا تقربوه وهذه فيها اخبارات فكذبوه فيما أخبر به (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة وعن الضحاك صيحة جبريل لان القلوب رجفت بها (فأصبحوا فى دارهم) أى فى بلدهم أو دورهم فاكتفى بالواحد ولم يجمع لامن اللبس (جاثمين) أى باركين على الركب ميتين (فان قيل) قال تعالى فى الاعراف وههنا فأخذتهم الرجفة وقال فى هود فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة (أجيب) بانه لا تعارض بينهما فان الصيحة

ويجوزون الوقف عليه بهاء السكت

(سورة العنكبوت)

(قوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا) اى برا اذا

كانت سببا للرجفة لان جبريل لما صاح تزلزلت الارض من صيحته فرجفت قلوبهم
والاضافة الى السبب لا تنافى الاضافة الى سبب السبب (فان قيل) ما الحكمة فى انه تعالى اذا
قال فاخذتهم الصيحة قال فى ديارهم وحيث قال فاخذتهم الرجفة قال فى دارهم (أجيب) بأن
المراد من الدار هو الديار والاضافة الى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع وأن تكون بلفظ
الواحد اذا أمن اللبس كما مر وانما اختلف اللفظ للطيفة وهى ان الرجفة هائلة فى نفسها فلم
تحتج الى تهويلها وأما الصيحة فغير هائلة فى نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى
أحدثت الزلزلة فى الارض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيئتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة
عند كل احد فلم تحتج الى معظم لامرها ولما كان معنى ختام قصة مدين فاهلكناهم عطف على
ذلك المعنى قوله تعالى (وعادا) أى وأهلكنا أيضا عادا (وثمودا) مع ما كانوا فيه من العتو
والتكبر والعلو لان من المقاصد العظيمة الدلالة على اتباع بعض هذه الامم بعضا فى الخير
والشر على نسق والجرى بهم فى اهلاك المكذبين وانجاء المصدقين طبقا عن طبق وقرأ حمزة
وحفص فى الوصل وثمود بغير تنوين على تأويل القبيلة وفى الوقف بسكون الدال والباقون
بالتنوين وفى الوقف بالالف (وقد تبين لكم) أى ما حل بهم (من مساكنهم) أى ما وصف من
هلاكهم وما كانوا فيه من شدة الاجسام وسفه الاحلام وعلو الاهمام وتقرب الاذهان
وعظم الشان عند مروركم بتلك المساكن ونظركم اليها فى ذهابكم فى التجارة الى الشام
فصرفوا فى الاقبال على الاستمتاع بالعرض الفانى من هذه الدنيا فاملوا بعيدا وبنوا مشيدا
ولم يغن عنهم شئ من ذلك شيأ من أمر الله (وزين لهم الشيطان) البعيد من الرحمة المحترق
باللعنة بقوة احتياله ومحبوب ضلاله ومحاله (أعمالهم) أى الفاسدة من الكفر والمعاصى
فاقبلوا بكليتهم عليها (فصدهم) أى فتسبب عن ذلك صدهم (عن السبيل) أى منعهم عن سلوك
الطريق الذى لا طريق الا هو لكونه يوصل الى النجاة وغيره يوصل الى الهلاك * ولما كان
ذلك ربما ظن لفرط غباوتهم قال (وكانوا مستبصرين) أى معدودين بين الناس من البصراء
العقلاء * ولما كان فرعون ومن ذكر معه من العتو بمكان لا يخفى لما أوتوا من القوة بالاموال
والرجال قال (وقارون) أى وأهلكنا قارون وقومه لان وقوعه فى أسباب الهلاك أعجب
لكونه من بنى اسرائيل ولانه ابتلى بالمال والعلم فكان ذلك سبب اعجابه فتكبر على موسى
وهرون عليهما السلام فكان ذلك سبب هلاكه (وفرعون وهامان) وزيره الذى أوقد له على
الطين فباع سعادته لكونه ذنبا لغيره (ولقد جاءهم) من قبل (موسى بالبينات) أى بالحجج
الظاهرات التى لم تدع لبسا (فاستكبروا) أى طلبوا أن يكونوا أكبر من كل كبير بأن كانت
أفعالهم أفعال من يطلب ذلك (فى الارض) بعد مجئ موسى عليه السلام اليهم أكثر مما كانوا
قبله (وما كانوا سابقين) أى فائتين بل أدركهم أمر الله من سبق طالبه اذا فاته (فكلا)
أى فتسبب عن تكذيبهم أن كلا (أخذنا) أى بما لنا من العظمة (بذنبه) أى أخذ عقوبة
ليعلم انه لا احد يعجزنا (فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا) أى ريحا عاصفا فيها حصباء كقوم لوط
وعاد (ومنهم من أخذته الصيحة) أى التى تظهر شدتها الريح الحاملة لها الموافقة لقصدها
فترجف لعظمتها الارض كمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) أى غيبناه فيها كقارون

حسن ذكرها وفى
الاحقاف حسنا وحذفه
فى لقمان مع ان الثلاثة
نزلت فى سعد بن مالك
وهو سعد بن ابى وقاص

وجماعته

وجماعته (ومنهم من أغرقنا) بالغمر فى الماء كقوم نوح وفرعون وقومه وعذاب قوم صالح المعد فى الاغراق والمعد فى الخسف فتارة يهلك بريح تقذف بالحجارة من السماء كقوم لوط اومن الارض كعاد (وما كان الله) اى الذى لاشئ من الجلال والكمال الاله (ليظلمهم) اى فيعذبهم بغير ذنب (ولكن كانوا انفسهم) لاغيرها (يظلمون) بارتكاب المعاصى ولم يقبلوا النصح مع تحذيرهم ولا خافوا العقوبة على ضعفهم * ولما بين تعالى انه أهلك من اشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ولم ينفعه معبوده مثل تعالى اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا فقال (مثل الذين اتخذوا) أى تكلفوا أن اتخذوا (من دون الله) أى الذى لا كفء له فرضوا بالدون الذى لا ينفع ولا يضر عوضا عمن لا تكتنفه الاوهام والظنون (أولياء) ينصرونهم بزعمهم من معبودات وغيرها فى الضعف والوهن (كمثل العنكبوت) أى الدابة المعروفة ذات الارجل الكثيرة الطوال (اتخذت بيتا) أى تكلفت أخذه فى صنعتها ليقيها الردى ويحميها البلاء كما تكلف هؤلاء اصطناع أربابهم ليقوهم ويحفظوهم بزعمهم فكان ذلك البيت مع تكلفها فى أمره وتعبها الشديد فى شأنه فى غاية الوهن (وان) أى والحال ان (أوهن البيوت) أى أضعفها (لبيت العنكبوت) لايدفع عنها حرا ولا بردا كذلك الاصنام لاتنفع عابديها (لو كانوا يعلمون) أى لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وان أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن وأيضا انه اذا صح تشبيه ما اعتمدوه فى دينهم ببيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الاديان لو كانوا يعلمون أى لو كان لهم نوع ما من العلم لانتفعوا به ولعلموا أن هذا مثلهم فأبعدوا عن اعتقاد ما هذا مثلهم ولقائل أن يقول مثل المشرك الذى يعبد الوثن بالقياس الى المؤمن الذى يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتا بالاضافة الى رجل يبنى بيتا بآجر وجص أو ينحته من صخر وكان أوهن البيوت اذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت كذلك الاديان اذا استقريتها دينا دينا عبادة الاوثان (فان قيل) لم مثل تعالى باتخاذ العنكبوت ولم يمثل بنسجها (أجيب) بان نسجها فيه فائدة لولاه لما حصلت وهو اصطياد الذباب به من غير أن يفوتها ما هو أعظم منه واتخاذهم الاوثان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ولكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التى هى خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت * (تنبيه) * نون عنكبوت أصلية والواو والتاء مزيدتان بدليل جمعه على عناكب وتصغيره عنيكب ويذكر ويؤنث فمن التأنيث قوله تعالى اتخذت ومن التذكير قول القائل

على هطالهم منهم بيوت * كأن العنكبوت هو ابتناها

وهذا مطرد فى أسماء الاجناس تذكر وتؤنث وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص البيوت بضم الباء والباقون بكسرها * ولما كان ضرب المثل بالشئ لا يصح الا من العالم بذلك الشئ قال الله تعالى (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (يعلم ما) أى الذى (يدعون) أى يعبدون (من دونه) أى غيره (من شئ) أى سواء كان صنما أم انسيا أم جنيا (وهو العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه وقرأ أبو عمرو وعاصم يدعون بالياء التحتية والباقون بالفوقية * ولما ذكر مثلهم وما تتوقف صحته عليه كان كأنه قيل على وجه التعظيم هذا المثل مثلهم فعطف عليه قوله

قوله وعذاب قوم صالح الخ كذا فى جميع الاصول التى بايدينا وهو غير مستقيم اه

على خلاف فيه لان الوصية هنا وفى الاحقاف جاءت فى سياق الاجمال وفى لقمان جاءت مفصلة لما تقدمها من

تعالى اشارة الى أمثال القرآن كلها تعظيما لها وتنبيها على جليل قدرها وعلو شأنها (وتلك الامثال) أى العالية عن أن تنال بنوع احتيال ثم استأنف قوله تعالى (نضربها) أى بما لنا من العظمة بيانا (للناس) أى تصويرا للمعانى المعقولات بصور المحسوسات لعلها تقرب من عقولهم فينتفعوا بها وهكذا حال التشبيهات كلها هى طرق الى افهام المعانى المحتجبة فى الاستار تبرزها وتكشف عنها وتصورها روى أن الكفار قالوا كيف يضرب خالق الارض والسموات الامثال بالهوام والحشرات كالذباب والبعوض والعنكبوت فقال الله تعالى مجهلا لهم (وما يعقلها) أى حق تعقلها فينتفع بها (الا العالمون) أى الذين هيؤا للعلم وجعل طبعا لهم عما بث فى قلوبهم من أنواره وأشرق فى صدورهم من أسراره فهم يضعون الاشياء مواضعها روى الحرث بن أبى اسامة عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العالم الذى عقل عن الله وعمل بطاعته واجتنب سخطه قال البغوى والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالاول يريد أمثال القرآن التى يشبه بها أحوال كفار هذه الامة بأحوال كفار الامم المتقدمة ولما قدم تعالى أنه لا معجز له سبحانه ولا ناصر لمن خذله استدل على ذلك بقوله تعالى (خلق الله) أى الذى لا يدانى فى عظمته (السموات والارض بالحق) أى الامر الذى يطابقه الواقع أو بسبب اثبات الحق وابطال الباطل او بسبب انه محق غير قاصد به باطلا فان المقصود بالذات من خلقهما افاضة الجود والدلالة على ذاته وصفاته كما اشار اليه بقوله تعالى (ان فى ذلك لآية) اى دلالة ظاهرة على قدرته تعالى (للمؤمنين) واختص المؤمنون بذلك لانهم المنتفعون به ثم خاطب تعالى راس اهل الايمان بقوله تعالى (اتل ما اوحى اليك من الكتاب) اى القرآن الجامع لكل خير لتعلم ان نوحا ولوطا وغيرهما كانوا على ما انت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى اقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ولما ارشد تعالى الى مفتاح العلم دل على قانون العمل بقوله تعالى (واقم الصلوة) اى التى هى احق العبادات ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الصلوة تنهى) اى توجد النهى وتجدده للمواظب على اقامتها بجميع حدودها (عن الفحشاء) اى عن الخصال التى بلغ قبحها (والمنكر) وهو ما لا يعرف فى الشرع (فان قيل) كم من مصل يرتكب الفحشاء (اجيب) بأن المراد الصلاة التى هى الصلاة عند الله تعالى المستحق بها الثواب بأن يدخل فيها مقدما للتوبة النصوح متقيا لقوله تعالى انما يتقبل الله من المتقين و يصليها خاشعا بالقلب والجوارح فقد روى عن حاتم كأن رجلى على الصراط والجنة عن يمينى والنار عن شمالى وملك الموت من فوقى واصلى بين الخوف والرجاء ثم يحوطها بعد ان يصليها ولا يحبطها فهى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر وقال ابن مسعود وابن عباس ان الصلاة تنهى وتزجر عن معاصى الله عز وجل فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وقيل من كان مراعيا للصلاة جره ذلك الى ان ينتهى عن السيآت يوما ما فقد روى انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل فقال ان صلاته لتردعه ٣ وروى ان فتى من الانصار كان يصلى معه الصلوات ولا يدع شيأ من الفواحش الاركبه فوصف له فقال ان صلاته ستنهاه فلم

يلبث

كلام لقمان لابنه ولان قوله بعدها ان اشكرلى ولوالديك قائم مقامه فحسن حذفه (قوله وان جاهداك) قال ذلك هنا لتشبيه (كذا)

٣ قوله لتردعه هكذا بالاصول باللام ولعله تحريف والصواب ستردعه بالسين فليحرر اه مصححه

يلبث ان تاب وقال ابن عوف معنى الآية ان الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر مادام فيها وعلى كل حال فان المراعى للصلاة لابد أن يكون ابعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها وايضا فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضى أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها كما تقول ان زيدا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكر وانما تريد ان هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء العموم وقيل المراد بالصلاة القرآن كما قال تعالى ولا تجهر بصلاتك أى بقراءتك وأراد به من يقرأ القرآن فى الصلاة فالقرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا يقرأ القرآن الليل كله و يصبح سارقا قال ستنهاه قراءته * ولما كان الناهى فى الحقيقة انما هو ذكر الله أتبع ذلك بقوله تعالى (ولذكر الله أكبر) أى لان ذكر المستحق لكل صفات كمال أكبر من كل شئ فذكر الله تعالى أفضل الطاعات قال صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير من اعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم و يضربوا أعناقكم قالوا وماذاك يارسول الله قال ذكر الله وسئل صلى الله عليه وسلم أى العبادة أفضل عند الله درجة يوم القيامة قال الذاكرون الله كثيرا قالوا يارسول الله ومن الغازين فى سبيل الله فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر و يختضب دما لكان الذاكر الله كثيرا أفضل منه درجة وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على جبل فى طريق مكة يقال له جمدان فقال سيروا هذا جمدان سبق المفردون قالوا وما المفردون يارسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات أو والصلاة اكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله كما قال تعالى فاسعوا الى ذكر الله وانما قال ولذكر الله اكبر ليستقل بالتعليل كأنه قال والصلاة اكبر لانها ذكر الله وعن ابن عباس ولذكر الله تعالى اياكم برحمته اكبر من ذكركم اياه بطاعته وقال عطاء ولذكر الله اكبر من أن تبقى معه معصية (والله) أى المحيط علما وقدرة (يعلم) أى فى كل وقت (ما تصنعون) من الخير والشر فيجازيكم على ذلك * ولما بين تعالى طريقة ارشاد المشركين بين طريقة ارشاد أهل الكتاب بقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب) أى اليهود والنصارى ظنا منكم أن الجدال ينفع أو يزيد فى اليقين أو يردوا حدا عن ضلال مبين (الا بالتى) أى بالمجادلة التى (هى أحسن) كمعارضة الخشونة باللين والغضب بالكظم والدعاء الى الله تعالى بآياته والتنبيه على حججه كما قال تعالى ادفع بالتى هى أحسن (الا الذين ظلموا منهم) بأن حاربوا وأبوا أن يقروا بالجزية فجادلوهم بالسيف الى أن يسلموا أو يعطوا الجزية وقيل الا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الا الذين اثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة وعن قتادة الآية منسوخة بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا مجادلة أشد من السيف * ولما بين تعالى عن موجب الخلاف أمر بالاستعطاف بقوله تعالى (وقولوا) أى ان قبل الاقرار بالجزية اذا أخبروكم بشئ مما فى كتبهم (آمنا بالذى أنزل الينا) أى من هذا الكتاب المعجز (وأنزل اليكم) من كتبكم أى لانه فى أصله حق وان كان قد نسخ منه ما نسخ وان حدثوكم بشئ منه وليس عندكم ما يصدقه ولا ما يكذبه فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم لـ

وقال فى اتمان على أن تشركى موافقة هنا لفظا لفظ اللام فى قوله ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه وجلا على الفق

روى أبو داود انه صلى الله عليه وسلم قال لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم أى فان هذا أدعى الى الانصاف وأنفى للخلاف * ولما لم يكن هذا جامعا للفريقين أتبعه بما يجمعه بقوله تعالى (والهنا والهكم واحد) أى لا اله لنا غيره وان ادعى بعضكم عزيرا والمسيح (ونحن له) خاصة (مسلمون) أى خاضعون منقادون أتم انقياد فيما يأمرنا به بعد الاصول من الفروع سواء كانت موافقة لفروعكم كالتوجه بالصلاة لبيت المقدس أو ناسخة كالتوجه الى الكعبة ولا نتخذ الاحبار والرهبان أربابا من دون الله انا أخذ ما يشرعونه لنا مخالفا الكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم (وكذلك) أى ومثل ذلك الانزال الذى أنزلناه الى أنبيائهم من التوراة وغيرها (أنزلنا اليك الكتاب) اى القرآن مصدقا لسائر الكتب الالهية وهو تحقيق لقوله تعالى (فالذين آتيناهم الكتاب) أى التوراة كعبد الله بن سلام وغيره (يؤمنون به) اى بالقرآن (ومن هؤلاء) اى اهل مكة او ممن فى عهده صلى الله عليه وسلم من اهل الكتابين (من يؤمن به) وهم مؤمنو اهل مكة وأهل الكتابين (وما يجحد) أى ينكر قال قتادة والجحود انما يكون بعد المعرفة (بآياتنا) اى التى جاوزت أقصى غايات العظمة حتى انها استحقت الاضافة الينا (الا الكافرون) أى اليهود ظهر لهم أن القرآن حق والجائى به محق وجحدوا ذلك وهذا تنفير لهم عما هم عليه يعنى انكم آمنتم بكل شئ وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة الا هذه المسئلة الواحدة وبانكارها تلحقون بهم وتبطلون مزاياكم فان الجاحد بآية يصير كافرا (و) أى وأنزلنا اليك الكتاب والحال أنك ما (كنت تتلوا) أى تقرأ أصلا (من قبله) أى هذا الكتاب الذى أنزلناه اليك واكد استغراق الكتب بقوله تعالى (من كتاب) اصلا (ولا تخطه) اى تجدد وتلازم خطه وصور الخط واكده بقوله (بيمينك) * (فان قيل) ما فائدة قوله بيمينك (اجيب) بانه ذكر اليمين التى هى اقوى الجارحتين وهى التى يزاول بها الخط زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتبا الاترى انك اذا قلت فى الاثبات رايت الامير يخط هذا الكتاب بيمينه كان اشد لاثباتك انه تولى كتبه فكذلك النفى وفى ذلك اشارة الى انه لا تحدث الريبة فى امره الا بالمواظبة القوية التى ينشأ عنها الملكة فكيف اذا لم يحصل اصل الفعل ولذلك قال تعالى (اذا) أى لو كنت ممن يخط ويقرأ (لارتاب) اى شك (المبطلون) اى اليهود فيك وقالوا الذى فى التوراة انه امى لا يقرأ ولا يكتب اولارتاب مشركو مكة وقالوا لعله تعلمه اوالتقطه من كتب الاولين وكتبه بيده (فان قيل) لم سماهم مبطلين ولو لم يكن اميا وقالوا ليس بالذى نجده فى كتبنا لكانوا صادقين محقين ولكان اهل مكة ايضا على حق فى قولهم لعله تعلمه اوكتبه بيده فانه رجل كاتب قارئ (اجيب) بانه سماهم مبطلين لانهم كفروا به وهو امى بعيد من الريب فكأنه قال هؤلاء المبطلون فى كفرهم به لو لم يكن اميا لارتابوا أشد الريب فحينئذ ليس بقارئ ولا كاتب فلا وجه لارتيابهم وايضا سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا اميين ووجب الايمان بهم وما جاؤا به لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات فهب انه قارئ كاتب فما لهم لم يؤمنوا به من الوجه الذى آمنوا منه بموسى وعيسى على أن المنزل اليهم معجز وهذا المنزل

بطريق التضمين فى لقمان اذ التقدير وان حلاك على ان تشرك بى (قوله فان فيهم الف سنة الاخمسين عاما) ان قلت ما فائدة العدول الى ما قاله عن تسعمائة وخمسين مع انه عادة الحساب

معجز فاذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا وهو أى ومبطلون حيث لم يؤمنوا وهو غير أمى ولما كان التقدير ولكنه لاريب لهم أصلا ولا شبهة لقولهم انه باطل قال تعالى (بل هو) أى القرآن الذى جئت به وارتابوا فيه فكانوا مبطلين لذلك على كل تقدير (آيات) أى دلالات (بينات) أى واضحات جدا فى الدلالة على صدقك (فى صدور الذين أوتوا العلم) أى المؤمنين يحفظونه فلا يقدر أحد على تحريف شئ منه لبيان الحق لديهم وفى ذلك اشارة الى ان خفاءه عن غيرهم وقال ابن عباس وقتادة بل هو يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ذو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لانهم يجدونه بنعته ووصفه فى كتبهم (وما يجحد) وكان الاصل به ولكنه أشار الى عظمته بقوله تعالى (بآياتنا) أى ينكرها بعد المعرفة على مالها من العظمة باضافتها الينا والبيان الذى لا يجهله أحد (الا الظالمون) أى المتوغلون فى الظلم المكابرون (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى ههنا الا الظالمون ومن قبل قال الا الكافرون (أجيب) بان مامن حرف ولا حركة فى القرآن الا وفيه فائدة ثم ان العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل الى أكثرها وما أوتى البشر من العلم الا قليلا ولكن الحكمة هنا أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم ان لكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد صلى الله عليه وسلم فتكونوا كافرين فلفظ الكافر هنالك أبلغ فمنعهم عن ذلك استنكافهم عن الكفر ثم بعد بيان المعجزة قال لهم ان جحدتم هذه الآية لزمكم انكار ارسال الرسل فتلتحقون فى أول الامر بالمشركين حكما وتلتحقون عند جحد هذه الآيات بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين أى مشركين كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم فهذا اللفظ ههنا أبلغ ولما كان التقدير جحدوها بما لهم من الرسوخ فى الظلم ولم يعدوها آيات فضلا عن كونها بينات عطف عليه قوله تعالى (وقالوا) موهمين مكرا اظهار النصفة بأدنى ما يدل على الصدق (لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم على أى وجه كان من وجوه الانزال (آية) تكون بحيث تدل قطعا على صدق الآتى بها (من ربه) أى الذى يدعى احسانه اليه كما أنزل على الانبياء قبله كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام ليستدل بها على صدق مقاله وصحة ما يدعيه من حاله وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص آيات بالجمع لان بعده قل انما الآيات بالجمع اجماعا والباقون آية بالافراد لان غالب ما جاء فى القرآن كذلك ولما كان هذا انكار الشمس بعد شروقها ومكابرة فيما تحدى به من المعجزات بعد حقوقها أشار اليه بقوله تعالى (قل) أى لهم ارخاء للعنان حتى كأنك ما أتيتهم بشئ (انما الآيات عند الله) أى الذى له الامر كله ينزل أيتها شاء فلا يقدر على انزال شئ منها غيره فانما الاله هو لا سواه ولو شاء أن ينزل ما يقترحونه لفعل (وانما أنا نذير مبين) أى فليس من شأنى الا الانذار وابانته بما أعطيته من الآيات وليس لى أن أقترح عليه الآيات فأقول أنزل على آية كذا دون آية كذا على ان المقصود من الآيات الدلالة على الصدق وهى كلها فى حكم آية واحدة فى ذلك ولم يذكر البشارة لانه ليس من أسلوبها وقوله تعالى (أولم يكفهم) جواب لقولهم لولا أنزل عليه آيات من ربه أى ان كانوا طالبين للحق غير متعنتين آية مغنية عن كل آية (أنا أنزلنا) أى بما لنا من العظمة (عليك الكتاب) أى القرآن الجامع لسعادة الدارين بحيث صار خلقا لك (يتلى عليهم) اى تجدد متابعة قراءته عليهم شيئا بعد شئ فى كل مكان وفى كل زمان من كل مقال مصدقا لما فى

(قوله) فائدته تسلية النبي صلى الله عليه وسلم اذ القصة مسوقة لتسليته بما ابتلي به نوح عليه السلام من مكابدة أمته

الكتب القديمة من نعتك وغيره من الآيات الدالة على صدقك فاعظم به آية باقية لا تزول ولا
تضمحل اذ كل آية سواه منقضية ماضية وتكون فى مكان دون مكان فالقرآن أتم من كل معجزة
لوجوه الاول ان تلك المعجزات وجدت وما دامت فان قلب العصا ثعبانا واحياء الميت لم يبق لنا
منه أثر فلو أنكره واحد لم يمكن اثباتها معه بدون الكتاب وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد
فيقال ائت بآية من مثله الثانى أن قلب العصا ثعبانا كان فى آن واحد ولم يره من لم يكن فى ذلك
المكان وأما القرآن فقد وصل الى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد *(وههنا لطيفة)* وهى
أن آيات نبينا صلى الله عليه وسلم كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لان من جملتها انشقاق
القمر وهو يعم الارض لان الخسوف اذا وقع عم وذلك لان نبوته كانت عامة لا تختص بقطر
دون قطر وغاض بحيرة ساوة فى قطر وسقط ايوان كسرى فى قطر وانهدمت الكنيسة بالروم فى
قطر آخر اعلاما بأنه يكون أمرا عاما الثالث ان غير هذه المعجزة يقول الكافر المعاند هذا سحر
وعمل يد والقرآن لا يمكن هذا القول فيه وقال أبو العباس المرسى خشع بعض الصحابة من
سماع بعض اليهود يقرأ التوراة فعوتبوا اذ تخشعوا من غير القرآن وهم انما تخشعوا من
التوراة وهى كلام الله تعالى فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهى والغناء *ولما
كان هذا القرآن أعظم من كل آية يقترحونها قال تعالى (ان فى ذلك) أى انزال الكتاب على هذا
الوجه البعيد المنال البديع المثال (لرحمة) أى نعمة عظيمة فى كل لحظة وتطهيرا لخبث النفوس
فى كل لمحة (وذكرى) أى عظة مستمرا تذكرها * ولما عم بالقول خص من حيث النفع فقال
(لقوم يؤمنون) لانهم المنتفعون بذلك *ولما كان من المعلوم أنهم يقولون نحن لا نصدق أن
هذا الكتاب من عند الله فضلا عن أن نكتفى به قال تعالى (قل) أى جوابا لما قد يقولونه من نحو
هذا (كفى بالله) أى الحائز لجميع العظمة وسائر الكمالات (بينى وبينكم شهيدا) انى قد بلغتكم
ما أرسلت به اليكم ونصحتكم وأنذرتكم وأنتم قابلتمونى بالجحد والتكذيب وقد صدقنى
بالمعجزات وروى أن كعب بن الاشرف وغيره قالوا يا محمد من يشهد لك أنك رسول الله فنزلت ثم
وصف الشهيد وعلل كفايته بقوله (يعلم ما فى السموات) أى كلها (والارض) اى كذلك لا يخفى
عليه شئ من ذلك فهو عليم بما تنسبونه اليه من التقول عليه وبما أنسبه أنا اليه من هذا
القرآن الذى يشهد لى به عجزكم عنه فهو شاهدى والله فى الحقيقة هو الشاهد لى فيه بالثناء على
والشهادة لى بالصدق لانه قد ثبت بالعجز عنه أنه كلامه *ولما بين تعالى الطريقين فى ارشاد
الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد الى الكامل الشامل لهما والانكار العام فقال (والذين
آمنوا بالباطل) أى وهو ما يعبد من دون الله (وكفروا بالله) أى الذى يجب الايمان به والشكر
له لان له الكمال كله وكل ما سواه هالك ليس له من ذاته الا العدم (أولئك) أى البعداء البغضاء
(هم الخاسرون) أى العريقون فى الخسارة فانهم خسروا أنفسهم أبد الآبدين (فان قيل) قوله
أولئك هم الخاسرون يقتضى الحصر فمن آمن بالباطل وكفر بالله فمن يأتى باحدهما دون
الآخر لا يكون كذلك (أجيب) بانه يستحيل أن يكون الآتى باحدهما لا يكون آتيا بالآخر
لان المؤمن بما سوى الله تعالى مشرك لانه جعل غير الله مثله وغير الله عاجز ممكن باطل فيكون
الله تعالى كذلك ومن كفر بالله تعالى وأنكره فيكون قائلا بان العالم واجب الوجود لذاته

فى أطول المدد فكان ذكرا أقصى العقود الذى لا يعقد فى مراتب أكثر منه وأفضى الى العدد أنهر وهو استطالة المقصود

فيكون

فيكون قائل الايمان بغير الله فيكون اثباتا لغير الله وايمانا به (فان قيل) اذا كان الايمان بما سواه كفرا به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد (أجيب) بان فيه فائدة غيرها وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الاول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول بالباطل قبيح * ولما أنذرهم صلى الله عليه وسلم وأوعدهم بالعذاب لما لم يؤمنوا أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) نزلت فى النضر بن الحرث حين قال فامطر علينا حجارة من السماء ان كنت من الصادقين ويجعلون تأخيره عنهم شبهة لهم فيما يزعمون من التكذيب (ولولا أجل مسمى) قد ضرب لوقت عذابهم فلا تقدم فيه ولا تأخر (لجاءهم العذاب) وقت استعجالهم لان القدرة تامة والعلم محيط (وليأتينهم بغتة) أى فجأة فى الدنيا كوقعة بدر وفى الآخرة عند نزول الموت بهم (وهم لا يشعرون) بل هم فى غاية الغفلة عنه والاشتغال بما ينسيه ثم زاد فى التعجب من جهلهم بقوله تعالى مبدلا (يستعجلونك بالعذاب) أى يطلبون منك ايقاعه بهم ناجزا ولو كان فى غير وقته الاليق به ولو علموا ما هم صائرون اليه لقنعوا أنهم لم يخلقوا فضلا عن أن يستعجلوا ولاعملوا جميع جهدهم فى الخلاص منه (وان جهنم) التى هى من عذاب الآخرة (لمحيطة بالكافرين) أى ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب أوهى كالمحيطة بهم الآن لاحاطة الكفر والمعاصى التى توجبها بهم وأتى بالظاهر موضع المضمر تنبيها على ما استحقوا به عذابها وتعميما لكل من اتصف به ثم ذكر تعالى كيفية احاطة جهنم بقوله عز وجل (يوم يغشاهم العذاب) أى يلحقهم ويلصق بهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) فعلم بذلك احاطته من جميع الجوانب (فان قيل) لم خص الجانبين ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام (أجيب) بان المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الاربعة فان من يدخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد من أسفل فى العادة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة بل تنطفئ الشعلة التى تحت القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولم يقل من فوق رؤسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل ذكر المضاف اليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق (أجيب) بان نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرأس أم من موضع آخر عجب لان طبع النار الصعود الى فوق فلهذا لم يخصه بالرؤس وأما بقاء النار تحت القدم فهو عجب والا فمن جوانب القدم فى الدنيا تكون الشعلة فذكر العجيب وهو ما تحت الارجل حيث لم ينطفئ بالدوس وأما فوق فعلى الاطلاق وقوله تعالى (ونقول) قرأ نافع والكوفيون بالياء أى الموكل بالعذاب من ملائكته بامره والباقون بالنون أى نأمر بالعذاب * ولما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والاهانة (ذوقوا ما كنتم تعملون) جعل ذلك عين ما كانوا يعملون مبالغة ٣ بطريق اسم المسبب على السبب فان عملهم كان سببا لعذابهم وهذا كثير فى الاستعمال * ولما ذكر تعالى حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما فى الانذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا فى ايذاء المؤمنين ومنعهم من العبادة قال تعالى (يا عبادى

السامع عدم صبره وفيه فائدة أخرى وهى نفى توهم ارادة المجاز باطلاق لفظ تسع المائة والخمسين على أكثرها فان هذا

٣ قوله بطريق اسم المسبب هكذا بالاصول ولعله باطلاق اسم المسبب اه مصححه

الذين آمنوا) فشرفهم بالاضافة اليه (ان أرضي واسعة) أي في الذات والرزق وكل ماتريدون من الرزق ان لم تتمكنوا بسبب هؤلاء المعاندين الذين يفتنونكم في دينكم قال مقاتل والكلبي نزلت في ضعفاء مسلمي مكة يقول الله تعالى ان كنتم في ضيق بمكة من اظهار الايمان فاخرجوا منها فان أرض المدينة واسعة آمنة وقال مجاهد ان أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها وقال سعيد بن جبير اذا عمل في أرض بالمعاصي فاخرجوا منها فان أرضي واسعة وكذا يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر الى حيث تتهيأ له العبادة ولكن صارت البلدان في زماننا كلها متساوية فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقرأ بفتح الياء ابن عامر والباقون بتسكينها وقيل نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا نخشى ان هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فانزل الله تعالى هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج وقال مطرف ابن عبد الله أرضي واسعة يعني رزقي لكم واسع فاخرجوا روى الثعلبي عن الحسن البصري مرسلا من فر بدينه من أرض الى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما *(تنبيه)* قوله تعالى يا عبادي لا يدخل فيه الكافر لوجوه الاول قوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يدخل في قوله تعالى يا عبادي الثاني قوله تعالى يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الثالث أن العباد مأخوذ من العبادة والكافر لا يعبد الله فلا يدخل في قوله تعالى يا عبادي وانما يختص بالمؤمنين الذين يعبدونه الرابع الاضافة بين الله تعالى والعبد يقول العبد الهي و يقول الله عبدي (فان قيل) اذا كان عباده لا يتناول الا المؤمنين فما الفائدة في قوله الذين امنوا مع أن الوصف انما يذكر لتمييز الموصوف كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون يا أيها الرجال العقلاء تمييزا بين الكافر والجاهل (أجيب) بأن الوصف يذكر لا لتمييز بل لمجرد بيان ان فيه الوصف كما يقال الانبياء المكرمون والملائكة المطهرون مع ان كل نبي مكرم وكل ملك مطهر وانما يقال لبيان ان فيهم الاكرام والطهارة ومثله قولنا الله العظيم فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون * ولما كانت الاقامة بمكة قبل الفتح مؤدية الى الفتنة قال تعالى (فاياي) أي خاصة بالهجرة الى أرض تأمنون فيها (فاعبدون) أي وحدون وان كان بالهجرة وكانت هجرة الاهل والاوطان شديدة (فان قيل) قوله تعالى يا عبادي يفهم منه كونهم عابدين فما الفائدة في الامر بالعبادة (أجيب) بان فيه فائدتين احداهما المداومة أي يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل الثانية الاخلاص أي يا من تعبدني اخلص العمل لي ولا تعبد غيري (فان قيل) ما معنى الفاء في فاعبدون (أجيب) بان الفاء جواب شرط محذوف لان المعنى ان أرضي واسعة فان لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها * ولما أمر الله تعالى عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وان بعدت وشق عليهم ترك الاوطان ومفارقة الاخوان خوفهم بالموت ليهون عليهم الهجرة بقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أي كل نفس مفارقة ما ألفته حتى بدنها الملابسة وآنسها وآنسته فان أطاعت ربها أنجت نفسها ولم تنقصها الطاعة من الاجل شيئا والا أوبقت نفسها ولم تزدها المعصية في الاجل شيئا فاذا اقدر الانسان انه ميت سهلت عليه الهجرة فانه ان لم يفارق بعض

التوهم مع ذكر الالف والاستثناء منقطع أو أبعد وجاء المميز الاول بلفظ السنة والثاني بلفظ العام لكراهة التكرار (قوله ان

ما ألفه

مألوفه بما فارق كل مألوفه بالموت وقد ورد أكثروا من ذكر هادم اللذات أي الموت فانه ما ذكر في
قليل أي من العمل الا كثره ولا ذكر في كثير أي من أمل الدنيا الا قلله وما أهون أمر الهجرة عند
من رضي في دينه بنقص شيء من الأشياء حثا على الاستعداد بغاية الجهد في التزود للمعاد بقوله
تعالى (ثم الينا ترجعون) على أيسر وجه فنجازي كلا منكم بما عمل وقرأ أبو بكر بالياء التحتية
والباقون بالتاء الفوقية (والذين آمنوا وعملوا) أي تصديقا لايمانهم (الصالحات لنبوئنهم)
أي لننزلنهم (من الجنة غرفا) أي بيوتا عالية قال البقاعي تحتها قاعات واسعة وقرأ حمزة
والكسائي بعد النون بثاء مثلثة ساكنة وبعدها واو مكسورة وبعد الواو ياء مفتوحة أي
لنثوينهم أي لنقيمنهم من الثواء وهو الاقامة يقال ثوى الرجل اذا أقام فيكون انتصاب غرفا
لاجرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض اتساعا أي في غرف أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم
كقوله لأقعدن لهم صراطك والباقون بعد النون بباء موحدة وبعدها واو مشددة وبعد الواو
همزة مفتوحة وعلى هذه القراءة فانتصابها على أنها مفعول ثان لان بوأ يتعدى لاثنين قال الله
تعالى تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ويتعدى باللام قال تعالى واذ بوأنا لابراهيم • ولما
كانت العلالي لا تروق الا بالرياض قال تعالى (تجري من تحتها الانهار) ومن المعلوم انه لا يكون
في موضع أنهار الا أن يكون فيه بساتين كبار وزروع ورياض وأزهار فيشرفون عليها من
تلك العلالي • ولما كانت بحالة لا نكر فيها يوجب هجرة في لحظة تما كني عنه بقوله تعالى
(خالدين فيها) أي لا يبغون عنها حولا ثم عظم أمرها وشرف قدرها بقوله تعالى (نعم أجر
العاملين) اي هذا الاجر وهذا في مقابلة قوله تعالى للكفار ذوقوا ما كنتم تعملون ثم وصفهم
بما يرغب في الهجرة بقوله تعالى (الذين صبروا) أي أوجدوا هذه الحقيقة حتى استقرت عندهم
فكانت سجية لهم فأوقعوها على كل شاق من التكاليف من هجرة وغيرها فان الانسان قل أن
ينفك عن أمر شاق ينبغي الصبر عليه ثم رغب في الاستراحة بالتفويض اليه بقوله تعالى (وعلى
ربهم) أي المحسن اليهم وحده لا على أهل ولا وطن (يتوكلون) أي يوجدون التوكل ايجادا
مستمرا التجديد كل مهم يعرض لهم • ولما أشار بالتوكل الى أنه الكافي في أمر الرزق في الوطن
والغربة لا مال ولا أهل قال عاطفا على ما تقديره فكأين من متوكل عليه كفاه ولم يحوجه الى
أحد سواه فليبادر من أنقذه من الكفر وهداه الى الهجرة طلبا لرضاه (وكأين من دابة) أي
كثير من الدواب العاقلة وغيرها (لا تحمل) أي لا تطيق أن تحمل (رزقها) أي لا تدخر شيئا
لساعة أخرى لانها قد لا تدرك نفع ذلك وقد تدركه وتتوكل وعن الحسن لا تدخر انما تصبح
فيرزقها الله تعالى وعن ابن عيينة ليس شيء يخبأ الا الانسان والنملة والفارة وعن بعضهم قال
رأيت البلبل يدخر في حضنه ويقال للعقعق مخابئ الا أنه ينساها أو لا تجده أو لا تطيق حمله
لضعفها ثم كأنه قيل فمن يرزقها فقيل (الله) أي المحيط علما وقدرة المتصف بكل كمال (يرزقها)
على ضعفها وهي لا تدخر (واياكم) مع قوتكم وادخاركم واجتهادكم لا فرق بين ترزيقه لها على
ضعفها وعدم ادخارها وترزيقه لكم على قوتكم وادخاركم فانه هو المسبب وحده فان
الفريقين تارة يجدون وتارة لا يجدون فصار الادخار وعدمه غير معتد به ولا منظور اليه وقرأ
ابن كثير بعد الكاف بألف وبعد الالف همزة مكسورة والباقون بعد الكاف همزة مفتوحة

الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق) نكر الرزق أولا ثم عرفه ثانيا لانه أراد بذلك ان

وبعدها ياء مشددة وقف أبو عمرو على الياء ووقف الباقون على النون وحمزة في الوقف يسهل الهمزة على أصله ❊(تنبيه)❊ كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي التي تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ثم لم تكتب الا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب لان كأي تستعمل غير مركبة كما يقول القائل رأيت رجلا كأي رجل يكون وحينئذ لا يكون كأي مركبا فاذا كان كأي ههنا مركبا كتب بالنون للتمييز (وهو السميع) لاقوالكم نخشى الفقر والضيعة (العليم) بما في ضمائركم واختلف في سبب نزول هذه الآية فعن ابن عمر أنه قال دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطا من حوائط الانصار فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقط الرطب بيده ويأكل فقال كل يا ابن عمر قلت لا اشتهيه يا رسول الله قال لكني اشتهيه وهذه صبح رابعة لم أطعم طعاما ولم اجده فقلت يا رسول الله ان الله المستعان فقال يا ابن عمر لو سألت ربي لاعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافا مضاعفة ولكني أجوع يوما وأشبع يوما فكيف بك يا ابن عمر اذا عمرت وبقيت في حثالة من الناس يخبؤن رزق سنة ويضعف اليقين فنزلت وكأين من دابة وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وآذاهم المشركون هاجروا الى المدينة فقالوا كيف نخرج الى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا ويسقينا فنزلت وعن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يدخر شيأ وقال صلى الله عليه وسلم لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وقال صلى الله عليه وسلم أيها الناس ليس شئ يقربكم الى الجنة ويباعدكم من النار الا وقد أمرتكم به وليس شئ يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة الا وقد نهيتكم عنه وان الروح الامين نفث روعي انه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله فانه لا يدرك ما عند الله الا بطاعته (ولئن) اللام لام قسم (سألتهم) اى كفار مكة وغيرهم (من خلق السموات والارض) وسواهما على هذا النظام العظيم (وسخر الشمس والقمر) لاصلاح الاقوات ومعرفة الاوقات وغير ذلك من المنافع (ليقولن الله) أي الذي له جميع صفات الكمال لما تقرر في نظرهم من ذلك وتلقوه من آبائهم موافقة للحق في نفس الامر (فانى) أي فكيف ومن أي وجه (يؤفكون) أي يصرفون عن توحيده بعد اقرارهم بذلك (فان قيل) ذكر في السموات والارض الخلق وفي الشمس والقمر التسخير (أجيب) بان مجرد خلق السموات والارض آية ظاهرة بخلاف خلق الشمس والقمر فانهما لو كانا في موضع واحد لا يتحركان ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء فاذا الحكمة الظاهرة في تحريكهما وتسخيرهما ولما كان قد يشكل على ذلك التفاوت في الرزق عند من لم يتأمل حق التأمل فيقول ما بال الخلق متفاوتين في الرزق قال تعالى (الله) أي بما له من الاحاطة بصفات الكمال (يبسط الرزق) بقدرته التامة امتحانا (لمن يشاء من عباده) على حسب ما يعلم من بواطنهم (ويقدر) أي يضيق (له) بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاء فظهر من ذلك قدرته وحكمته وأنت ترى الملوك وغيرهم من الاقوياء يفاوتون في الرزق بين عمالهم بحسب ما يعلمون من علمهم الناقص باحوالهم فما ظنك بملك الملوك العالم بما لا تدنو من ساحته ظنون ولا شكوك كما قال

الذين تعبدون من دون الله لا يستطيعون أن يرزقوكم فابتغوا شيأ من الرزق كله فانه هو عند الله الرزق كله فانه هو الرزاق لا غيره أقوله فانظروا

تعالى (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (بكل شئ) أى من المرزوقين ومن الارزاق وكيف يمنع أو يساق او غير ذلك (عليم) يعلم مقادير الحاجات والارزاق فهو على ذلك كله قدير يعلم ما يصلح العباد من ذلك وما يفسدهم و يعطيهم بحسب ذلك ان شاء وكم رام بعض الاقوياء اغناء فقير او افقار غنى فكشف الحال عن فساد ما راموا من الانتقال * ولما قال الله تعالى الله يبسط الرزق ذكر اعترافهم بذلك بقوله تعالى (ولئن) اللام لام قسم (سألتهم من نزل من السماء ماء) بعد ان كان مضبوطا فى جهة العلو (فأحيى به الارض) الغبراء وأشار باثبات الجار الى قرب الانبات من زمان الممات فقال (من بعد موتها) فصارت خضراء تهتز بعد أن لم يكن لها شئ من ذلك (ليقولن الله) معترفين بانه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ثم انهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يقدر على شئ من ذلك فلما ثبت أنه الخالق بدأ واعادة كما يشاهد فى كل زمان قال منبها على عظمة صفاته اللازم من اثباتها اصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (قل) يا أفضل الخلق متعجبا منهم فى جحودهم كيف يقرون بما يلزمهم التوحيد ثم لا يوحدون (الحمد لله) الذى لا سمى له وليس لغيره احاطة من الاشياء فلزمتهم الحجة بما أقروا به من احاطته وهم لا يثبتون ذلك باعراضهم (بل أكثرهم لا يعقلون) فيناقضون حيث يقرون بانه المبدئ لكل ما عداه ثم انهم يشركون به غيره مما هم معترفون بانه خالقه فهم لا يعرفون معنى الحمد حيث لم يعملوا به ومنهم من آمن بعد ذلك فكان فى الذروة من كمال العقل فى التوحيد الذى يلزمه سائر الفروع ومنهم من كان دون ذلك فكان نفى العقل عنه مقيدا بالكمال * ولما تبين بهذه الآيات ان الدنيا مبنية على الفناء والزوال والتقلع والارتحال وصح ان السرور بها فى غير موضعه فلذلك قال مشيرا بعد سلب العقل عنهم الى أنهم فيها كالبهائم يتمارجون (وما هذه الحيوة الدنيا) محقرها بالاشارة ولفظ الدناءة مع الاشارة الى هذا الاعتراف فهذا الاسم كاف فى الالزام بالاعتراف بالاخرى (الا لهو) وهو الاستمتاع بلذات الدنيا (ولعب) وهو العبث وسميت بهما لانها فانية وقيل اللهو الاعراض عن الحق واللعب الاقبال على الباطل (فان قيل) قد قال تعالى فى الانعام وما الحياة الدنيا ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا وما هذه الحياة فما فائدته (أجيب) بان المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا فاحيا به الارض من بعد موتها فقال هذه والمذكور قبلها هنالك الآخرة حيث قال يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال تعالى وما الحياة الدنيا (فان قيل) ما الحكمة فى تقديمه هنالك اللعب على اللهو وههنا اخر اللعب عن اللهو (أجيب) بانه لما كان المذكور من قبل هنالك الآخرة واظهارهم للحسرة ففى ذلك الوعد يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخذ الابعد وههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس الى الاقبال عليها والاستغراق فيها اللهم الا لمانع يمنع من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها أو لعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا وكان الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو ولما كانوا ينكرون الحياة بعد الموت أخبر على سبيل التأكيد أنه لا حياة غيرها بقوله تعالى (وان الدار الآخرة لهى) أى خاصة (الحيوان) أى الحياة التامة الباقية (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنالك وللدار الآخرة خير وقال ههنا وان الدار الآخرة لهى الحيوان (أجيب) بانه لما

كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) * وان قلت كيف أظهر لفظ الله أولا ثم أضمره ثانيا مع ان القياس العكس (قلت)

كان الحاصل هناك حال اظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج الى وازع قوى فقال الآخرة خير ولما كان الحال هنا حال الاشتغال بالدنيا احتاج الى وازع قوى فقال لا حياة الا حياة الآخرة والحيوان مصدر حى وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوا وبه سمى ما فيه حياة حيوانا وهو أبلغ من الحياة لما فى بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها ههنا ولما كانوا قد غلطوا فى الدارين كليهما فنزلوا كل واحدة منهما غير منزلتها فعدوا الدنيا وجودا دائما على هذه الحالة وعدوا الآخرة عدما لا وجود لها بوجه قال تعالى (لو كانوا يعلمون) أى لم يؤثروا عليها الدنيا التى أصلها عدم الحياة والحياة فيها عارضة سريعة الزوال (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى الانعام أفلا يعقلون وقال ههنا لو كانوا يعلمون (أجيب) بان المثبت هناك كون الآخرة خيرا ولانه ظاهر لا يتوقف الا على العقل والمثبت هنا أن لا حياة الا حياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف الا بعلم نافع (فاذا) أى فتسبب عن عدم عقلهم المستلزم لعدم علمهم انهم اذا (ركبوا) البحر (فى الفلك) أى السفن (دعوا الله) أى الملك الاعلى (مخلصين) بالتوحيد (له الدين) معرضين عن الشرك بالقلب واللسان حيث لا يذكرون الا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بانه لا يكشف الشدائد الا هو (فلما نجاهم) أى الله سبحانه وتعالى موصلا لهم (الى البر اذا هم) أى حين الوصول الى البر (يشركون) به كما كانوا فهذا اخبار عنهم بانهم عند الشدائد مقرون أن القادر على كشفها هو الله عز وجل وحده فاذا زالت عادوا الى كفرهم قال عكرمة كان أهل الجاهلية اذا ركبوا فى البحر حملوا معهم الاصنام فاذا اشتد عليهم الريح القوها فى البحر وقالوا يارب يارب وقال الرازى فى اللوامع وهذا دليل على أن معرفة الرب فى فطرة كل انسان وانهم ان غفلوا فى السراء فلا شك أنهم يلوذون اليه فى حال الضراء انتهى فعلم أن الاشتغال بالدنيا هو الصاد عن كل خير وان الانقطاع عنها معين للفطرة الاولى المستقيمة ولهذا تجد الفقراء أقرب الى كل خير وفى اللام فى قوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) وجهان أظهرهما أن اللام فيه لام كى أى يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة فيكون ذلك فعل من لا عقل له أصلا وهم يتحاشون عن مثل ذلك والثانى كونها للامر (وليتمتعوا) باجتماعهم على عبادة الاصنام وتوادهم عليها وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر وعاصم بالكسر وهى محتملة للوجهين المتقدمين والباقون بالسكون وهى ظاهرة فى الامر فان كانت اللام الاولى للامر فقد عطف أمرا على مثله (فان قيل) كونها للامر مشكل اذ كيف يأمر الله تعالى بالكفر وهو متوعد عليه (أجيب) بان ذلك على سبيل التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وان كانت للعلة فقد عطف كلاما على كلام فيكون المعنى لا فائدة لهم فى الاشراك الا الكفر والتمتع بما يستمتعون به فى العاجلة من غير نصيب فى الآخرة (فسوف يعلمون) يومئذ ما يحل بهم من العقاب ● ولما كان الانسان يكون فى البحر على أخوف ما يكون وفى بيته يكون على آمن ما يكون لاسيما اذا كان بيته فى بلد حصين فلما ذكر الله المشركين عند الخوف الشديد ورأوا انفسهم فى تلك الحالة راجعة الى الله ذكرهم حالهم عند الامن العظيم بقوله تعالى (أولم يروا) أى أهل مكة بعيون بصائرهم (أنا جعلنا) بعظمتنا لهم (حرما) وقال (آمنا) لانه لا خوف على من دخله فلما أمن كل من دخله كان كأنه هو نفسه الامن وهو حرم

تنبيها على عظم امتنانهم أى اعادتهم لانهم التى ينكرها الكافر فناسب ذكر الظاهر للايضاح (قوله وما أنتم بمعجزين فى الارض

مكة فانها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم وهى حصينة بحصن الله وآمنة موجبة
للتوحيد والاخلاص لانكم فى أخوف ما أنتم دعوتم الله وفى آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله
وهذا متناقض لان دعاءكم فى ذلك الوقت على سبيل الاخلاص فما كان الا لقطعكم بأن النعمة
من الله لا غير وهذه النعمة العظيمة التى حصلتم وقد اعترفتم بأنها لا تكون الا من الله فكيف
تكفرون بها والاصنام التى قلتم فى حال الخوف انها لا أمن لها كيف آمنتم بها فى حال الامن
(و) الحال انه (يتخطف الناس من حولهم) أى من حول من فيه من كل جهة قتلا وسبيا مع
قلة من بمكة وكثرة من حولهم فالذى خرق العادة فى فعل ذلك حتى صار على هذا السنن قادر على
أن يعكس الحال فيجعل من بالحرم متخطفا ومن حوله آمنا أو يجعل الكل فى الخوف على منهاج
واحد (أفبالباطل) من الشياطين والاديان وغيرهما (يؤمنون) والحال أنه لا يشك عاقل فى
بطلانه (وبنعمة الله) التى أحدثها لهم من الانجاء وارسال محمد صلى الله عليه وسلم (يكفرون)
حيث جعلوا موضع شكرهم له على النجاة وغيرها اشراكهم بعبادة غيره (ومن أظلم) أى أشد
وضعا للاشياء فى غير مواضعها (ممن افترى) أى تعمد (على الله كذبا) أى أى كذب كان من
الشرك وغيره كما كانوا يقولون اذا فعلوا فاحشة وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها (أو كذب
بالحق) أى النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن المعجز المبين على لسان هذا الرسول الامين الذى
ما أخبر خبرا الا طابقه الواقع (لما) أى حين (جاءه) من غير امهال الى أن ينظر ويتأمل بل سارع
الى التكذيب أول ما سمعه وقوله تعالى (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) استفهام تقرير
لمثواهم كقوله

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح

قال بعضهم ولو كان استفهاما ما أعطاه الخليفة مائة من الابل وحقيقته أن الهمزة همزة
الانكار دخلت على النفى فرجع الى معنى التقرير والمعنى أما لهذا الكافر المكذب مثوى فى
جهنم حتى اجترأ مثل هذه الجراءة (والذين جاهدوا) أى أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على ما دل
عليه بالمفاعلة (فينا) أى بسبب حقنا ومراقبتنا خاصة بلزوم الطاعات من جهاد الكفار
وغيرهم من كل ما ينبغى الجهاد فيه بالقول والفعل فى الشدة والرخاء ومخالفة الهوى عند هجوم
الفتن وشدائد المحن مستحضرين لعظمتنا (لنهدينهم) مما نجعل لهم من النور الذى لا يضل من
صحبه هداية تليق بعظمتنا (سبلنا) أى طريق السير الينا وهى الطريق المستقيمة والطريق
المستقيمة هى التى توصل الى رضا الله عز وجل قال سفيان بن عيينة اذا اختلف الناس فانظروا
ما عليه أهل الثغور فان الله تعالى قال والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال الحسن الجهاد
مخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به
وقال سهل بن عبد الله والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وقال أبو سليمان الدارانى
والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم الى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما يعلم وفق لما لم يعلم وقيل
ان الذى نرى من جهلنا بما لم نعلم انما هو من تقصيرنا فيما نعلم وقيل المجاهدة هى الصبر على الطاعة
وقرأ أبو عمرو بسكون الباء الموحدة والباقون بضمها (وان الله) أى بعظمته وجلاله وكبريائه
(لمع المحسنين) أى المؤمنين بالنصرة والمعونة فى دنياهم والمغفرة والثواب فى عقباهم * رواه

ولا فى السماء) قال ذلك
هنا واقتصر فى الشورى
على فى الارض لان ما هنا
خطاب لقوم فيهم النمرود
الذى حاول الصعود الى

البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة العنكبوت كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المؤمنين والمنافقين فهو حديث موضوع ورواه ابن عادل عن أبى امامة عن أبي بن كعب

سورة الروم مكية

وهى ستون آية وتسعمائة وتسع عشرة كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى علك الامر كله (الرحمن) الذى رحم الخلق كلهم بنصب الدلائل (الرحيم) الذى لطف بأوليائه وقوله تعالى (الم) تقدم الكلام على ذلك فى أول سورة البقرة وقال البقاعى لما ختم سبحانه وتعالى التى قبلها بأنه مع المحسنين قال الم مشيرا بألف القيام والعلو ولام الوصلة وميم التمام الى ان الله الملك الاعلى القيوم أرسل جبريل عليه الصلاة والسلام الذى هو وصلة بينه وبين أنبيائه عليهم السلام الى أشرف خلقه محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث لاتمام مكارم الاخلاق بوحى اليه وحيا معلما بالشاهد والغائب فيأتى الامر على ما أخبر به دليلا على صحة رسالته وكمال علم مرسله وشمول قدرته ووجوب وحدانيته (غلبت الروم) وهم أهل كتاب غلبتهم فارس وليسوا أهل كتاب بل يعبدون الاوثان (فى أدنى الارض) أى أقرب أرض الروم الى فارس بالجزيرة التقى فيها الجيشان والبادى بالغزو الفرس (وهم) أى الروم (من بعد غلبهم) أضيف المصدر الى المفعول أى غلبة فارس اياهم (سيغلبون) فارس (فى بضع سنين) وهو ما بين الثلاث الى التسع أو العشر فالتقى الجيشان فى السنة السابعة من الالتقاء الاول وغلبت الروم فارس * وسبب نزول هذه الآية على ما ذكره المفسرون انه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودون أن تغلب فارس لان أهل فارس كانوا مجوسا أميين والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشا الى الروم واستعمل عليه رجلا يقال له شهريار وبعث قيصر جيشا واستعمل عليه رجلا يدعى بحنس فالتقى مع شهريار باذرعات وبصرى وهى أدنى الشأم الى أرض العرب فغلبت فارس الروم وبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكره أن تظهر الاميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح كفار مكة وقالوا للمسلمين انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من أهل الروم ولنظهرن عليكم فنزلت هذه الآية فخرج أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه الى الكفار فقال فرحتم بظهور اخوانكم فلا تفرحوا فوالله لتظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقال له أبى بن خلف الجمحى كذبت يا أبا فصيل فقال أبو بكر أنت أكذب يا عدو الله فقال اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه والمناحبة المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما فان ظهرت الروم على فارس غرمت وان ظهرت فارس غرمت وجعلا الاجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فقال ما هكذا ذكرت انما البضع ما بين الثلاث الى التسع فزايده فى الخطر ومادّه فى الاجل فخرج أبو بكر فلقى أبيا فقال لعلك ندمت قال لا فقال أزايدك فى الخطر وأمادّك فى الاجل فاجعلها مائة قلوص

السماء فاخبرهم بعجزهم وانهم لا يفوتون الله لا فى الارض ولا فى السماء وما فى الشورى خطاب لمن لم يحاول الصعود الى السماء

الى

الى تسع سنين وقيل الى سبع سنين قال قد فعلت فلما خشى أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال انى أخاف أن تخرج من مكة فأقم لى كفيلا فكفله له ابنه عبد الله بن أبي بكر فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج الى أحد أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه وقال والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلا فأعطاه كفيلا ثم خرج الى أحد ثم رجع أبي بن خلف فمات بمكة من جراحته التى جرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم وقيل كان يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي وجاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة وان القرآن من عند الله لانه انبأ عن علم الغيب الذى لا يعلمه الا الله تعالى (فان قيل) كيف صحت المناحبة وانما هى قمار (أجيب) بان قتادة رحمه الله تعالى قال كان ذلك قبل تحريم القمار قال الزمخشرى ومذهب أبي حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة فى دار الحرب بين المسلمين والكفار وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر رضى الله عنه بينه وبين أبي بن خلف ❊ ولما كان تغلب ملك على ملك من الامور الهائلة وكان الاخبار به قبل كونه أهول ذكر علة ذلك بقوله تعالى (لله) أى وحده (الامر من قبل) أى قبل دولة فارس على الروم ثم دولة الروم على فارس (ومن بعد) أى بعد دولة الروم عليهم ودولتهم على الروم ❊ ولما أخبر تعالى بهذه المعجزة أخبر بمعجزة أخرى بقوله تعالى (ويومئذ) أى تغلب الروم على فارس (يفرح المؤمنون) أى العريقون فى هذا الوصف من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم (بنصر الله) أى الذى لا راد لامره الروم على فارس وقد فرحوا بذلك وعلموا به يوم وقوعه يوم بدر بنزول جبريل عليه السلام بذلك فيه مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه قال السدى فرح النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك وعن أبي سعيد الخدرى وافق ذلك يوم بدر وفى هذا اليوم نصر المؤمنون (ينصر من يشاء) من ضعيف وقوى لانه لا مانع له ولا يسئل عما يفعل فالغلبة لا تدل على الحق بل الله قد يزيد ثواب المؤمن فيبتليه ويسلط عليه الاعادى وقد يختار تعجيل العذاب الادنى دون العذاب الاكبر قبل يوم المعاد (وهو العزيز) فلا يعز من عادى ولا يذل من والى وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بالضم ولما كان السياق لبشارة المؤمنين قال (الرحيم) فيخصهم بالاعمال الزكية والاخلاق المرضية (وعد الله) أى الذى له جميع صفات الكمال مصدر مؤكد ناصبه مضمر أى وعدهم الله ذلك وعدا بظهور الروم على فارس (لا يخلف الله) أى الذى له الامر كله (وعده) به وهذا مقرر لمعنى هذا المصدر ويجوز أن يكون قوله تعالى لا يخلف الله وعده حالا من المصدر فيكون كالمصدر الموصوف فهو مبين للنوع كأنه قيل وعد الله وعدا غير مخلف (ولكن أكثر الناس) لجهلهم وعدم تفكرهم (لا يعلمون) ذلك وقوله تعالى (يعلمون) بدل من قوله تعالى لا يعلمون وفى هذا الابدال من النكتة انه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل وبين وجود العلم الذى لا يجاوز الدنيا (ظاهرا من الحيوة الدنيا) يفيد ان للدنيا ظاهرا وباطنا فظاهرها ما يعرفه الجهال من أمر معايشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وكيف

وقيل خطاب للمؤمنين بقرينة قوله وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير وقد حذفنا هنا للاختصار

يبنون ويعرشون قال الحسن ان احدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه وهو لا يخطئ وهو لا يحسن يصلي وامثال هذا الهم كثير وهو وان كان عند اهل الدنيا عظيما فهو عند الله حقير فلذلك حقره لانهم مازادوا فيه على ان ساووا البهائم في ادراكها ما ينفعها فتستجلبه بضروب من الحيل وما يضرها فتدفعه بانواع من الخداع واما علم باطنها وهو انها مجاز الى الآخرة يتزود منها بالطاعة فهو ممدوح وفي تنكير الظاهر اشارة الى انهم لا يعلمون الا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها (وهم) أي هؤلاء الموصوفون خاصة (عن الآخرة) اي التي هي المقصودة بالذات وما خلقت الدنيا الا للتوصل بها اليها ليظهر الحكم بالقسط وجميع صفات العز والكبر والجلال والاكرام (هم غافلون) اي في غاية الاستغراق والاضراب عنها بحيث لا تخطر في خواطرهم ٭(تنبيه)٭ هم الثانية يجوز ان تكون مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر هم الاولى وان تكون تكريرا للاولى وغافلون خبر الاولى واية كانت فذكرها مناد على انهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها ومحلها وانها منهم تنبع واليهم ترجع (اولم يتفكروا) اي يجتهدوا في اعمال الفكر وقوله تعالى (في انفسهم) يحتمل ان يكون ظرفا كانه قيل اولم يحدثوا الفكر في انفسهم اي في قلوبهم الفارغة من التفكر والتفكر لا يكون الا في القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك وان يكون صلة أي أولم يتفكروا في أحوالها خصوصا فيعلموا ان من كان منهم قادرا كاملا لا يخاف وعده وهو انسان ناقص فكيف بالاله الحق ويعلموا ان الذي ساوى بينهم في الايجاد من العدم وطورهم في أطوار الصور وفاوت بينهم في القوى والقدر وبين أحوالهم في الطول والقصر وسلط بعضهم على بعض بأنواع الضرر ومات أكثرهم مظلوما قبل القصاص والظفر لابد في حكمته البالغة من جمعهم للعدل بينهم في جزاء من وفى أو غدر أو شكر او كفر ففي ذلك دلالة على وحدانية الله تعالى وعلى الحشر ٭ ثم ذكر تعالى نتيجة ذلك وعلله بقوله في اسلوب التأكيد لاجل انكارهم وعلى التقرير الاول يكون المتفكر فيه (ماخلق الله) اي بعز جلاله وعلو كماله (السموات والارض) على ماهما عليه من النظام المحكم والقانون المتقن قال البقاعي وافرد الارض لعدم دليل حسي أو عقلي يدلهم على تعددها بخلاف السماء اه وقد يرد هذا بقوله تعالى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن (وما بينهما) من المعاني التي بها كمال منافعهما (الا) خلقا متلبسا (بالحق) اي الامر الثابت الذي يطابقه الواقع فاذا ذكر البعث الذي هو مبدأ الآخرة التي هذا اسلوبها وجد الواقع في تصوير النطف ونفخ الروح وتمييز الصالح منهما للتصوير من الفاسد يطابق ذلك واذا تدبر النبات بعد أن كان هشيما قد نزل عليه الماء فنزها واهتز وربا وجده مطابقا لأمر البعث واذا ذكر القدرة فرأى اختلاف الليل والنهار وسير الكواكب الصغار والكبار وامطار الامطار واجراء الانهار ونحو ذلك من الاسرار رآه مطابقا لكل ما يخطر بالبال ولما كان عندهم ان هذا الوجود حياة وموت لا الى نفاد قال تعالى (واجل) لابد ان ينتهي اليه (مسمى) اي في العلم من الازل لذلك يفنى عند انتهائه وبعده البعث ٭ ولما كانوا ينكرون انهم على كفر اكد قوله تعالى (وان كثيرا من الناس) مع ذلك على وضوحه (بلقاء ربهم) اي الذي ملأهم احسانا برجوعهم في الآخرة الى العرض عليه للثواب والعقاب (لكافرون) اي لا يؤمنون بالبعث

قوله في الزمر وما هم بمعجزين (قوله فانجاه الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) قاله هنا بالجمع وقاله بعد في قوله

بعد الموت (فان قيل) ما الفائدة في قوله تعالى ههنا وان كثيرا من الناس وقال من قبل ولكن أكثر الناس (أجيب) بأن فائدته انه من قبل لم يذكر دليلا على الاصلين وههنا قد ذكر الدلائل الراسخة والبراهين اللائحة ولاشك فى ان الايمان بعد الدليل أكثر من الايمان قبل الدليل فبعد الدليل لابد ان يؤمن من ذلك جمع فلا يبقى الا كثر كما هو فقال بعد اقامة الدليل وان كثيرا وقال قبله ولكن أكثر الناس لانه بعد الدليل لا يمكن الذهول عنه وهو السموات والارض لان من البعيد أن يذهل الانسان عن السماء التى فوقه والارض التى تحته فلم يذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمثالهم وحكاية أشكالهم فقال (أولم يسيروا فى الارض) أى سير اعتبار وقوله تعالى (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الامم وهى اهلاكهم بتكذيبهم رسلهم تقرير لسيرهم فى أقطار الارض ونظرهم الى آثار المدمرين كعاد وثمود (كانوا أشد منهم) أى العرب (قوة) أى فى أبدانهم وعقولهم (وأثاروا الارض) أى حرثوها وقلبوها للزرع والغرس والمعادن والمياه وغير ذلك (وعمروها) أى أولئك السالفون (أكثر مما عمروها) أى هؤلاء الذين أرسلت اليهم بل ليس لهم من اثارة الارض وعمارتها كبير أمر فان بلاد العرب انما هى فى جبال سود وفيافى غبر فما هو الا تهكم بهم وبيان اضعف حالهم فى دنياهم التى لا فخر لهم بغيرها (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج الظاهرات مثل ما أتاكم به رسولنا من وعودنا الصادقة وأمورنا الخارقة كامر الاسراء وما أظهر فيه من الغرائب كالاخبار بأن العير تقدم فى يوم كذا يقدمها جمل صفته كذا وغرائره كذا فظهر كذلك وما آمنتم به كما لم يؤمن من كان أشد منكم قوة (فما) أى تسبب انه ما (كان الله) أى على ماله من أوصاف الكمال مريدا (ليظلمهم) بأن يفعل معهم فعل من تعدونه أنتم ظالما بأن يهلكهم فى الدنيا ثم يقتص منهم فى القيامة قبل اقامة الحجة عليهم بارسال الرسل بالبينات (ولكن كانوا) بغاية جهدهم (أنفسهم) أى خاصة (يظلمون) أى يجددون الظلم لها بايقاع الضر موقع جلب النفع (ثم كان عاقبة) أى آخر أمر (الذين أساؤا) وقوله تعالى (السوأى) تأنيث الاسوأ وهو الاقبح كما أن الحسنى تأنيث الاحسن والمعنى انهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار ثم كان عاقبتهم السوأى الا انه وضع المظهر موضع المضمر أى العقوبة التى هى اسوأ العقوبات فى الآخرة وهى جهنم التى أعدت للكافرين وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عاقبة بالرفع على انها اسم كان والسوأى خبرها والباقون بالنصب على انها خبر كان وقيل السوأى اسم لجهنم كما ان الحسنى اسم للجنة واساءتهم (أن) أى بان (كذبوا بآيات الله) اى القرآن وقيل تفسير السوأى ما بعده وهو قوله تعالى أن كذبوا أى ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب حملتهم تلك السيئات على ان كذبوا بآيات الله (وكانوا بها) مع كونها أبعد شئ عن الهزء (يستهزؤن) أى يستمرون على ذلك بتجديده فى كل حين

* ولما كان حاصل ما مضى انه تعالى قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء صرح بذلك فى قوله تعالى (الله) أى المحيط علما وقدرة (يبدؤا الخلق) أى بدأ منه ما رأيتم وهو يجدد فى كل وقت ما يريد من ذلك كما تشاهدون (ثم يعيده) أى خلقهم بعد موتهم احياء ولم يقل يعيدهم رده الى الخلق (ثم اليه يرجعون) للجزاء فيجزيهم باعمالهم وقرأ أبو عمرو وشعبة بالياء على الغيبة على النسق الماضى والباقون بالتاء على الخطاب أى اليه ترجعون معنى فى أموركم كلها فى الدنيا

خلق الله السموات والارض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين بالتوحيد دلالات ما هنا اشارة الى اثبات النبوة القاطعة بالنبيين وهم

وان كنتم لقصور النظر تنسبونه للاسباب وحسابعد قيام الساعة وهي أبلغ من القراءة الاولى لانه أنص على المقصود * ولما ذكر الرجوع اتبعه بعض أحواله بقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة) سميت بذلك اشارة الى عظيم القدرة عليها مع كثرة الخلائق على ما هم فيه من العظماء والكبراء والرؤساء (يبلس المجرمون) أي يسكت المشركون لانقطاع حجتهم فالابلاس أن يبقى يائسا ساكتا متحيرا يقال ناظرته فابلس ومنه الناقة المبلاس أي التي لا ترغو وقال مجاهد مفتضحون وقال قتادة المعنى ييأس المشركون من كل خير * ولما كان الساكت ربما أغناه عن الكلام غيره نفى ذلك بقوله تعالى محققا له بجعله ماضيا (ولم يكن) ومعناه لا يكون (لهم من شركائهم) أي ممن أشركوهم بالله وهم الاصنام (شفعوا) ينقذونهم مما هم فيه ليتبين لهم غلطهم وسفههم المفرط في قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله * ولما ذكر تعالى حال الشفعاء معهم ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله تعالى (وكانوا بشركائهم) أي خاصة (كافرين) أي متبرئين منهم بانهم ليسوا بآلهة وقيل كانوا في الدنيا كافرين بسببهم وكتب شفعاء في المصحف بواو قبل الالف كما كتب علماء بني اسرائيل وكذلك كتب السوأى بالف قبل الياء اثباتا للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها (ويوم تقوم الساعة) أي وبالله من يوم وزاد في تهويله بقوله تعالى (يومئذ يتفرقون) أي المؤمنون الذين يفرحون بنصر الله والكافرون فرقة لا اجتماع بعدها هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل سافلين كما قال عز من قائل (فاما الذين آمنوا) أي اقروا بالايمان بالسنتهم (وعملوا) تصديقا لاقرارهم (الصالحات فهم) أي خاصة (في روضة) وهي أرض عظيمة جدا منبسطة واسعة ذات ماء غدق ونبات معجب بهيج هذا أصلها في اللغة قال الطبري ولا تجد أحسن منظرا ولا أطيب نشرا من الرياض اهـ والتنكير لابهام أمرها وتفخيمه والروضة عند العرب كل أرض ذات نبات وماء ومن أمثالهم أحسن من بيضة في روضة يريدون بيضة النعامة (يحبرون) قال أبو بكر بن عياش التيجان على رؤسهم وقال أبو عبيدة يسرون أي على سبيل التجدد كل وقت سرورا تشرق له الوجوه وتبسم الافواه وتزهر العيون فيظهر حسنها وبهجتها فتظهر النعمة بظهور آثارها على أسهل الوجوه وأيسرها وقال ابن عباس يكرمون وقال قتادة ينعمون وقال الاوزاعي عن يحيى بن كثير يحبرون هو السماع في الجنة وقال الاوزاعي اذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة الا وردت وقال ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من اسرافيل فاذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر الجنة وما فيها من النعيم وفي آخر القوم اعرابي قال يا رسول الله هل في الجنة من سماع قال نعم يا اعرابي ان في الجنة نهرا حافتاه الابكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين باصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الدارمي فسألت أبا الدرداء بم يتغنين قال بالتسبيح وروي ان في الجنة لاشجارا عليها اجراس من فضة فاذا اراد اهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش فتقع في تلك الاجراس باصوات لو سمعها اهل الدنيا لماتوا طربا (واما الذين كفروا) اي غطوا ما كشفته أنوار العقول (وكذبوا) عنادا (بآياتنا) التي لا اصدق منها ولا أضوأ من انوارها بما لها من عظمتنا وهو القرآن (ولقاء الآخرة) أي بالبعث وغيره (فاولئك) اي البغضاء

كثيرون فناسب الجمع وما بعد اشارة الى التوحيد وهو الله القائم بواحد وهو لا شريك له (قوله وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة

البعداء (في العذاب) الكامل لا غيره (محضرون) أى مدخلون لا يغيبون عنه (فسبحان الله)
أى سبحوا الله تعالى بمعنى صلوا (حين تمسون) أى حين تدخلون فى المساء وفيه صلاتان المغرب
والعشاء (وحين تصبحون) أى تدخلون فى الصباح وفيه صلاة الصبح وقوله تعالى (وله الحمد
فى السموات والارض) اعتراض ومعناه يحمده أهلهما وقوله تعالى (وعشيا) عطف على حين
وفيه صلاة العصر (وحين تظهرون) أى تدخلون فى الظهيرة وفيه صلاة الظهر قال نافع بن
الازرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس فى مواقيتها فى القرآن فقرأ هاتين الآيتين وقال
جمعت الآيتان الصلوات الخمس ومواقيتها وانما اختص هذه الاوقات مع ان أفضل الاعمال
أدومها لان الانسان لا يقدر ان يصرف جميع اوقاته الى التسبيح لانه محتاج الى ما يعيشه من
مأكول ومشروب وغير ذلك فخفف الله عنه العبادة فى غالب الاوقات وأمره بها فى أول النهار
ووسطه وآخره وفى أول الليل ووسطه فاذا صلى العبد ركعتى الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين
وكذلك باقى الركعات وهن سبع عشرة مع ركعتى الفجر فاذا صلى الانسان الصلوات الخمس
فى أوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار بقى عليه سبع ساعات من جميع
الليل والنهار وهى مقدار النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيكون قد صرف جميع أوقاته
بالتسبيح فى العبادة أو بمعنى نزهوه من السوء بالثناء عليه بالخير فى هذه الاوقات لما يتجدد فيها
من نعم الله تعالى الظاهرة عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وعنه
عن النبى صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت
أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به الا أحد قال مثل ما قال وزاد عليه وعنه عن النبى صلى الله
عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله
وبحمده سبحان الله العظيم وعن جويرية بنت الحرث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى
عنها أنه خرج ذات غداة من عندها وكان اسمها برة فحوله رسول الله صلى الله عليه وسلم فسماها
جويرية فكره أن يقال خرج من عند برة فخرج وهى فى مسجدها أى مصلاها فرجع بعد
ما تعالى النهار فقال ما زلت فى مجلسك هذا منذ خرجت بعد قالت نعم فقال لقد قلت بعدك أربع
كلمات ثلاث مرات لو وزنت بكلماتك لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة
عرشه ومداد كلماته وعن سعد بن أبى وقاص قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
أيعجز أحدكم أن يكتسب فى كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكتسب كل يوم
ألف حسنة قال يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف خطيئة وفى غير
رواية مسلم ويحط بغير ألف ولما كان الانسان عند الاصباح يخرج من سنة النوم الى سنة
الوجود وهى اليقظة وعند العشاء يخرج من اليقظة الى النوم أتبعه الاحياء والاماتة حقيقة
بقوله تعالى (يخرج الحى) كالانسان والطائر (من الميت) كالنطفة والبيضة (ويخرج الميت)
كالبيضة والنطفة (من الحى) على عكس ذلك أو يعقب الحياة الموت وبالعكس وقيل يخرج
المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن (ويحيى الارض) أى بالماء وإخراج النبات (بعد
موتها) أى يبسها (وكذلك) أى ومثل هذا الاخراج (تخرجون) بأيسر أمر من الارض بعد

لمن الصالحين) ان قلت قال
ذلك فى معرض المدح
لابراهيم عليه السلام او
الامتنان عليه واجر الدنيا
فان منقطع بخلاف أجر

تفرق أجسامكم فيها أحياء للبعث والحساب وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي الميت بكسر الياء المشددة والباقون بالسكون وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان بخلاف عنه بفتح التاء قبل الخاء وضم الراء على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول (ومن آياته) أي ومن جملة علامات توحيده وكمال قدرته (أن خلقكم) أي أصلكم وهو آدم عليه السلام (من تراب) لم يكن له أصلا اتصاف ما بحياة أو أنه خلقكم من نطفة والنطفة من الغذاء والغذاء إنما يتولد من الماء والتراب (ثم) أي بعد اخراجكم منه (اذا أنتم بشر تنتشرون) في الارض كقوله تعالى وبث منهما رجالا كثيرا ونساء * (تنبيه) * الترتيب والمهلة ههنا ظاهران فانهم يصيرون بشرا بعد أطوار كثيرة وتنتشرون حال واذا هي الفجائية الا ان الفجائية أكثر ما تقع بعد الفاء لانها تقتضي التعقيب ووجه وقوعها مع ثم بالنسبة الى ما يليق بالحالة الخاصة أي بعد تلك الاطوار التي قصها علينا في موضع آخر من كونها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما مجردا ثم عظاما مكسوا لحما فاجأ البشرية والانتشار (ومن آياته) أي على ذلك (أن خلق لكم) أي لاجلكم ليبقى نوعكم بالتوالد وفي تقديم الجار وهو قوله تعالى (من أنفسكم) أي جنسكم بعد ايجادها من ذات أبيكم آدم عليه السلام (أزواجا) اناثا من شفع لكم دلالة ظاهرة على حرمة التزوج من غير الجنس كالجن قال البقاعي والتعبير بالنفس أظهر في كونها من بدن الرجل أي لخلق حواء من ضلع آدم (لتسكنوا) مائلين (اليها) بالشهوة والالفة من قولهم سكن اليه اذا مال وانقطع واطمأن اليه ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها قال ابن عادل والصحيح أن المراد من جنسكم كما قال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم ويدل عليه قوله تعالى لتسكنوا اليها يعني أن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما الى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه اليه * ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم الا بدوام الالفة قال تعالى (وجعل) أي صير بسبب الخلق على هذه الصفة (بينكم مودة) أي معنى من المعاني يوجب أن لا يحب أحد من الزوجين أن يصل الى صاحبه شئ يكرهه (ورحمة) أي معنى يحمل كلا على أن يجتهد للآخر في جلب الخير ودفع الضر وقيل المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد تمسكا بقوله تعالى ذكر رحمة ربك عبده زكريا وقوله تعالى ورحمة منا (ان في ذلك) أي الذي تقدم من خلق الازواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع (لآيات) أي دلالات واضحات على قدرة فاعله وحكمته (لقوم يتفكرون) اي يستعملون أفكارهم على القوانين المحررة ويجتهدون في ذلك فيعلمون ما في ذلك من الحكم * ولما بين تعالى دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق بقوله تعالى (ومن آياته) أي الدالة على ذلك (خلق السموات) على علوها واحكامها (والارض) على اتساعها واتقانها وقدم السماء على الارض لان السماء كالذكر لها ولما أشار الى دلائل الانفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الانفس بقوله تعالى (واختلاف ألسنتكم) أي لغاتكم من العربية والعجمية وغيرهما ونغماتكم وهيآتها فلا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس ولا جهارة ولا شدة ولا رخاوة ولا لكنة ولا فصاحة ولا غير ذلك من صفات النطق وأشكاله وأنتم من نفس واحدة (و) اختلاف (ألوانكم) من أبيض وأسود وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الالوان وأنتم

الآخرة فيكف ذكره دون أجر الآخرة (قلت) بل ذكره أيضا في قوله وانه في الآخرة لمن الصالحين اذ المعنى انه في الآخرة أجر الصالحين

بنو

بنو رجل واحد وهو آدم عليه السلام والحكمة في ذلك أن الانسان يحتاج الى التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الاصوات وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز بين كل واحد بشكله وحليته وصورته ولو اتفقت الصور والاصوات وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية فيعروك الخطأ في التمييز بينهما فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وتفرعوا من أصل فذرهم على الكثرة التي لا يعلمها الا الله تعالى مختلفون متفاوتون ولما كان هذا مع كونه في غاية الوضوح لا يختص بجنس من الخلق دون غيره قال (ان في ذلك) أي الامر العظيم العالي الرتبة في بيانه وظهور برهانه (لآيات) أي دلالات واضحات جدا على وحدانيته تعالى (للعالمين) أي ذوي العقول والعلم ولا يختص به صنف منهم دون صنف من جن ولا انس ولا غيرهم فهذا وجه حكمة قوله تعالى هنا العالمين وفيما تقدم بقوله تعالى لقوم يتفكرون وقرأ حفص وحده بكسر اللام ● ولما ذكر تعالى بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الاعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة في النهار طلبا للرزق كما قال تعالى (ومن آياته) الدالة على القدرة والعلم (منامكم) أي نومكم ومكانه وزمانه الذي يغلبكم بحيث لا تستطيعون له دفعا (بالليل والنهار) قيلولة (وابتغاؤكم من فضله) أي منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبيعية وطلب معاشكم فيهما فان كثيرا ما يكسب الانسان بالليل أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين وهما الواوان اشعارا بان كلا من الزمانين وان اختص باحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ويؤيده آيات أخر كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وقوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة ويكون التقدير هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله وأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفضل اشارة الى ان العبد ينبغي ان لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع منها قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله وقوله تعالى ولتبتغوا من فضله ● (تنبيه) ● قدم الله تعالى المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر لان الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون الا لحاجة فلا يتعب الا محتاج في الحال أو خائف من المآل (ان في ذلك) أي الامر العظيم العلي الرتبة من ايجاد النوم بعد النشاط والنشاط بعد النوم الذي هو الموت الاصغر وايجاد كل من الملوين بعد اعدامهما والجد في الابتغاء بعد المفارقة في التحصيل (لآيات) عديدة على القدرة والعلم لا سيما البعث (لقوم يسمعون) أي من الدعاة والنصاح سماع تفهم واستبصار فان الحكمة فيه ظاهرة ● (تنبيه) ● قال هنا آيات لقوم يسمعون وقال تعالى من قبل لقوم يتفكرون وقال تعالى للعالمين لان المنام بالليل والابتغاء يظن الجاهل أو الغافل انهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله

وانما كاملا لكن أخره مراعاة للفواصل وأجره في الدنيا قيل هو الثناء الحسن والمحبة من الناس وقيل هو البركة التي باركها

تعالى فلم يقل آيات للعالمين ولان الامرين الاولين وهما اختلاف الالسنة والالوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الامور المفارقة فالنظر اليهما لا يدوم لزوالهما فى بعض الاوقات ولا كذلك اختلاف الالسنة والالوان فانه ما يدومان بدوام الانسان فجعلهما آيات عليه وأما قوله تعالى لقوم يتفكرون فان من الاشياء ما يعلم من غير تفكر ومنها ما يكفى فيه مجرد الفكرة ومنها ما يحتاج الى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد ومنها ما يحتاج بعض الناس فى تفهمه الى أمثال حسية كالاشكال الهندسية لان خلق الازواج لا يقع لاحد أنه بالطبع الا اذا كان جامد الفكر فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد وقد يحتاج الى مرشد معين للفكر فقال لقوم يسمعون ويجعلون بالهم من كلام المرشد * ولما ذكر تعالى العرضيات اللازمة للانفس والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق بقوله تعالى (ومن آياته) الدالة على عظيم قدرته (يريكم البرق) أى اراءته كم له على هيئات وكيفيات طالما شاهدتموها تارة تأتى بما يضر وتارة بما يسر كما قال تعالى (خوفا) أى للاخافة من الصواعق المحرقة (وطمعا) أى وللاطماع فى المياه العذبة (وينزل من السماء ماء) أى الذى لا يمكن لاحد غيره دعواه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (فيحيى به) أى بذلك الماء خاصة لان أكثر الارض لا يسقى بغيره (الارض) أى بالنبات الذى هو لها كالروح لجسد الانسان (بعد موتها) أى يبسها (ان فى ذلك) أى الامر العظيم العالى القدر (لآيات) لا سيما على القدرة على البعث (لقوم يعقلون) أى يتدبرون فيستعملون عقولهم فى استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع * (تنبيه) * كما قدم السماء على الارض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الارض وهو الانبات والاحياء وكما أن فى انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك فى تقديم الرعد والبرق على المطر منفعة وهى أن البرق اذا لاح فالذى لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له والذى له صهريج أو مصنع يحتاج الى الماء أو زرع يسوى مجارى الماء وأيضا أهل البوادى لا يعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم ان دلائل البرق وفوائده وان لم تظهر للمقيمين فى البلاد فهى ظاهرة للبادين فلهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنا آيات لقوم يعقلون وفيما تقدم لقوم يتفكرون (أجيب) بأنه لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى الاوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لان المطرد أقرب الى الطبيعة من المختلف والبرق والمطر ليس أمرا مطردا غير مختلف بل يختلف اذ يقع ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة يكون قويا وتارة يكون ضعيفا فهو أظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن كان له عقل وان لم يتفكر تفكرا تاما * ثم ذكر تعالى من لوازم السماء والارض قيامهما بقوله تعالى (ومن آياته) أى على تمام القدرة وكمال الحكمة (أن تقوم السماء والارض بأمره) قال ابن مسعود قامتا على غير عمد بأمره أى بارادته فان الارض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء فى علوها يتعجب من علوها وثباتها من

الله تعالى فيه وفى ذريته
(قوله ولا تجادلوا أهل
الكتاب الا بالتى هى احسن
الا الذين ظلموا منهم) ان
قلت كيف قال الا الذين

غير عمد وهذا من اللوازم فان الارض لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه وانما أفرد السماء والارض لان السماء الاولى والارض الاولى لا تقبل النزاع لانهما مشاهدة مع صلاحية اللفظ بالكل لانه جنس • (تنبيه) • ذكر تعالى من كل باب أمرين أما من الانفس فقوله تعالى خلقكم وخلق لكم واستدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والارض فقال تعالى خلق السموات والارض ومن لوازم الانسان اختلاف اللسان واختلاف الالوان ومن عوارض الآفاق البرق والامطار ومن لوازمهما قيام السماء والارض لان الواحد يكفى للاقرار بالحق والثانى يفيد الاستقرار ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام بلى ولكن ليطمئن قلبى (فان قيل) ما الفائدة فى قوله تعالى هنا ومن آياته أن تقوم وقال تعالى قبله ومن آياته يريكم البرق ولم يقل أن يريكم ليصير كالمصدر (أجيب) بأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل ولم يذكر معه الحروف المصدرية (فان قيل) ما الحكمة فى أنه تعالى ذكر ست دلائل وذكر فى أربع منها ان فى ذلك لآيات ولم يذكر فى الاول وهو قوله تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا فى الآخر وهو قوله ومن آياته أن تقوم السماء والارض (أجيب) عن ذلك أما عن الاول فلان قوله بعده ومن آياته أن خلق لكم أيضا دليل الانفس فخلق الانفس وخلق الازواج من باب واحد على ما تقدم من أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير والتوكيد فلما قال فى الثانية ان فى ذلك لآيات كان عائدا اليهما وأما فى قيام السماء والارض فلانه ذكر فى الآيات السماوية أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون وذلك لظهورها فلما كان فى أول الامر ظاهرا ففى آخر الامر بعد سرد الادلة يكون أظهر فلم يميز أحدا فى ذلك عن الآخر ثم انه تعالى لما ذكر الدليل على القدرة والتوحيد ذكر مدلوله وهو قدرته على الاعادة بقوله تعالى (ثم اذا دعاكم) وأشار الى هوان ذلك القول عنده بقوله عز وجل (دعوة) أى واحدة (من الارض) بأن ينفخ اسرافيل فى الصور للبعث من القبور فيقول أيها الموتى اخرجوا (اذا أنتم تخرجون) أى منها أحياء بعد اضمحلالكم بالموت والبلاء فلا تبقى نسمة من الاولين والآخرين الا قامت تنظر كما قال تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون (فان قيل) بم يتعلق من الارض بالفعل أم بالمصدر (أجيب) بهيهات اذا جاء نهر الله وهو الفعل بطل نهر معقل وهو المصدر وثم أما التراخى زمانه أو لعظم ما فيه (فان قيل) ما الفرق بين اذا واذا (أجيب) بأن الاولى للشرط والثانية للمفاجأة وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط ولذلك نابت مناب الفاء فى جواب الاولى • (تنبيه) • قال ههنا اذا أنتم تخرجون وقال تعالى فى خلق الانسان أولا ثم اذا أنتم بشر تنتشرون لان هناك يكون خلق وتقدير وتدريج حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه فاذا هو بشر وأما فى الاعادة فلا يكون تدريج وتراخ بل يكون بدء خروج فلم يقل ههنا ثم • ولما ذكر تعالى الآيات التى تدل على القدرة على الحشر الذى هو الاصل الآخر والوحدانية التى هى الاصل الاول أشار اليهما بقوله تعالى (وله من فى السموات والارض) ملكا وخلقا (كل له قانتون) قال ابن عباس كل له مطيعون فى الحياة والفناء والموت والبعث وان عصوا فى العبادة وقال الكلبى هذا خاص بمن كان منهم مطيعا ونفس السموات والارضين له وملكه فكل له منقادون فلا شريك له أصلا

ظاهره ان جميع أهل الكتاب ظالمون لانهم كافرون قال تعالى والكافرون هم الظالمون (قلت) المراد بالظلم هنا

ثم ذكر المدلول الآخر بقوله تعالى (وهو الذي يبدؤ الخلق) أي على سبيل التجديد كما تشاهدون • وأشار الى تعظيم الاعادة باداة التراخي فقال (ثم يعيده) أي بعد الموت للبعث وفي قوله تعالى (وهو أهون عليه) قولان أحدهما أنها للتفضيل على بابها وعلى هذا يقال كيف يتصور التفضيل والاعادة والبداءة بالنسبة الى الله تعالى على حد سواء وفي ذلك أجوبة أحدها أن ذلك بالنسبة الى اعتقاد البشر باعتبار المشاهدة من أن اعادة الشيء أهون من اختراعه لاحتياج الابتداء الى اعمال فكر غالبا وان كان هذا منتفيا عن الباري سبحانه وتعالى فخوطبوا بحسب ما ألفوه ثانيها أن الضمير في عليه ليس عائدا على الله تعالى انما يعود على الخلق أي والعود أهون على الخلق أي أسرع لان البداءة فيها تدريج من طور الى طور الى أن صارت انسانا والاعادة لا تحتاج الى هذه التدريجات فكأنه قيل وهو أقصر عليه وأيسر وأقل انتقالا والمعنى يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم بمعنى أن يقوموا نطفا ثم علقا ثم مضغا الى أن يصيروا رجالا ونساء وهي رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ثالثها أن الضمير في عليه يعود على المخلوق بمعنى والاعادة أهون على المخلوق أي اعادته شيأ بعدما أنشأه هذا في عرف المخلوقين فكيف ينكرون ذلك في جانب الله تعالى والثاني أن أهون ليس للتفضيل بل هي صيغة بمعنى هين كقولهم الله أكبر أي كبير وهي رواية العوفي عن ابن عباس وقد يجيء أفعل بمعنى الفاعل كقول الفرزدق

ان الذي سمك السماء بنى لنا • بيتا دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة وعود الضمير على الباري تعالى أولى ليوافق الضمير في قوله تعالى (وله المثل) أي الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة الشاملة قال ابن عباس هو أنه ليس كمثله شيء وقال قتادة هو أنه لا اله الا هو وقال البيضاوي ومن فسره بلا اله الا الله أراد به الوصف بالوحدانية (الاعلى) أي الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه • ولما كان الخلق اقصورهم مقيدين بما لهم به نوع مشاهدة قال (في السموات والارض) اي اللتين خلقهما ولم يستعصيا عليه فكيف يستعصي عليه شيء فيهما (وهو) أي وحده (العزيز) أي الذي اذا أراد شيأ كان له في غاية الانقياد كائنا ما كان (الحكيم) أي الذي اذا اراد شيأ أتقنه فلم يقدر غيره الى التوصل الى بعض شيء منه ولا تتم حكمة هذا الكون على هذه الصورة الا بالبعث بل هو الحكمة العظمى ليصل كل ذي حق الى حقه بأقصى التحرير • ولما بان من هذا أنه تعالى المنفرد بالملك بشمول العلم وتمام القدرة وكمال الحكمة اتصل بحسن أمثاله واحكام مقاله وفعاله قوله تعالى (ضرب) اي جعل (لكم) بحكمته أيها المشركون في أمر الاصنام وبيان ابطال من يشرك بها وفساد قوله بأجلى ما يكون من التقرير (مثلا) مبتدأ (من أنفسكم) التي هي أقرب الاشياء اليكم ثم بين المثل بقوله تعالى (هل لكم) أي يا من عبدوا مع الله غيره (مما) أي من بعض ما (ملكت أيمانكم) أي من العبيد والاماء الذين هم بشر مثلكم وعم في النفي الذي هو المراد بالاستفهام بزيادة الجار بقوله تعالى (من شركاء) أي في حالة من الحالات يسوغ لكم بذلك أن تجعلوا لله شركا (في ما رزقناكم) من الاموال وغيرها مع ضعف ملككم فيه • (فائدة) • في مقطوعة من ما (فأنتم) أي يا معاشر الاحرار والعبيد (فيه) أي الشيء الذي

وقعت

الامتناع من قبول عقد الذمة او نقض العهد بعد قبوله (قوله فاحيا به الارض من بعد موتها) قاله هنا بذكر من وفي

وقعت فيه الشركة (سواء) فيكون أنتم وهم شركاء يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم (فان قيل) أى فرق بين من الاولى والثانية والثالثة فى قوله تعالى من أنفسكم (أجيب) بأن الاولى للابتداء كأنه قال أخذ مثلا وانتزعه من أقرب شئ منكم وهى من أنفسكم ٣ ولم يبعد والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفى ثم بين المساواة بقوله تعالى (تخافونهم) أى معاشر السادة فى التصرف فى ذلك الشئ المشترك (كخيفتكم أنفسكم) أى كما تخافون بعض من تشاركونه ممن يساويكم فى الحرية والعظمة أن تتصرفوا فى الامر المشترك بشئ لا يرضيه وبدون اذنه وظهر أن حالكم فى عبيدكم مثال له فيما أشركتم وهم به موضح لبطلانه فاذا لم ترضوا هذا لأنفسكم وهو أن تستوى عبيدكم معكم فى الملك فكيف ترضونه لخالقكم فى هذه الشركاء التى زعمتموها فتسوونها به وهى من أضعف خلقه أفلا تستحيون (كذلك) أى مثل هذا التفصيل العالى (نفصل الآيات) أى نبينها فان التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها (لقوم يعقلون) أى يتدبرون هذه الدلائل بعقولهم والامر لا يخفى بعد ذلك الا على من لا عقل له (بل اتبع الذين ظلموا) أى أشركوا فانهم وضعوا الشئ فى غير موضعه فعل الماشى فى الظلام (أهواءهم) وهى ما تميل اليه نفوسهم (بغير علم) أى جاهلين لا يكفهم شئ فان العالم اذا اتبع هواه ربما ردعه علمه ثم بين تعالى ان ذلك بارادته بقوله تعالى (فمن يهدى من أضل الله) أى الذى له الامر كله أى لا يقدر أحد على هدايته (وما لهم من ناصرين) أى مانعين يمنعونهم من عذاب الله لا من الاصنام ولا من غيرها ولما تعززت الادلة وانتصبت الاعلام أقبل تعالى على خلاصة خلقه ايذانا بأنه لا يفهم ذلك حق فهمه غيره بقوله سبحانه (فأقم وجهك) أى قصدك كله (للدين) أى أخلص دينك لله قاله سعيد بن جبير وقال غيره سدد عملك والوجه ما يتوجه اليه وقيل أقبل بكلك على الدين عبر بالوجه عن الذات كقوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه أى ذاته بصفاته وقوله تعالى (حنيفا) حال من فاعل أقم أو مفعوله أو من الدين ومعنى حنيفا أى مائلا اليه مستقيما عليه مائلا عن كل شئ لا يكون فى قلبك شئ آخر وهذا قريب من معنى قوله تعالى ولا تكونن من المشركين وقوله تعالى (فطرت الله) أى خلقته منصوب على الاغراء أو المصدر بما دل عليه ما بعدها وهى بتاء مجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء ثم أكد ذلك بقوله تعالى (التى فطر الناس) قال ابن عباس خلق الناس (عليها) وهو دينه وهو التوحيد قال صلى الله عليه وسلم ما من مولود الا وهو يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه فقوله على الفطرة أى العهد الذى أخذه عليهم بقوله تعالى ألست بربكم قالوا بلى وكل مولود فى العالم على ذلك الاقرار وهى الحنيفية التى وقعت الخلقة عليها وان عبد غيره قال الله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ولكن لا عبرة بالايمان الفطرى فى أحكام الدنيا وانما يعتبر الايمان الشرعى المأمور به وهذا قول ابن عباس وجماعة من المفسرين وقيل الآية مخصوصة بالمؤمنين وهم الذين فطرهم الله تعالى على الاسلام وروى عن عبد الله بن المبارك قال معنى الحديث أن كل مولود يولد على فطرته أى على خلقته التى جبل عليها فى علم الله تعالى من السعادة والشقاوة فكل منهم صائر فى العاقبة

البقرة والمائدة بعدفها موافقة لما قبله هنا ف

٣ قوله وهى من انفسكم هكذا بالاصول ولعل من زائدة اه مصحح

الى ما فطر عليه وعامل فى الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن علامات الشقاء أن يولد بين يهوديين
أو نصرانيين فيحملانه لشقائه على اعتقاد دينهما وقيل معنى الحديث أن كل مولود يولد فى
مبدأ الفطرة على الخلقة أى الجبلة السليمة والطبع المتهيئ لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر
على لزومها لان هذا الدين موجود حسنه فى العقول وانما يعدل عنه من يعدل الى غيره لآفة
من الآفات والتقليد فمن يسلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره ذكر هذه المعانى أبو سليمان
الخطابى فى كتابه ولما كانت سلامة الفطرة أمرا مستمرا قال تعالى (لا تبديل لخلق الله) أى
الملك الاعلى الذى لا كفء له فلا يقدر أحد أن يغيره فمن حمل الفطرة على الدين قال معناه
لا تبديل لدين الله فهو خبر بمعنى النهى أى لا تبدلوا دين الله قاله مجاهد وابراهيم والمعنى الزموا
فطرة الله أى دين الله واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك ومن حملها على الخلقة قال معناه
لا تبديل لخلق الله أى ما جبل عليه الانسان من السعادة والشقاوة فلا يصير السعيد شقيا
ولا الشقى سعيدا وقال عكرمة معناه تحريم اخصاء البهائم أى فى غير المأكول وفى المأكول
الكبير أما المأكول الصغير فانه يجوز ويلحق بالخصى المحرم كل تغيير محرم كالوشم (ذلك) أى
الشأن العظيم (الدين القيم) أى المستقيم الذى لا عوج فيه توحيد الله تعالى (ولكن أكثر
الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين المستقيم لعدم تدبرهم وقوله تعالى (منيبين) أى راجعين
(اليه) تعالى فيما أمر به ونهى عنه حال من فاعل أقم قال الزمخشرى فان قلت لم وحد الخطاب
أولا ثم جمع قلت خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا وخطاب الرسول خطاب لامته مع
ما فيه من التعظيم للامام ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص (واتقوه) أى خافوه فانكم وان
عبدتموه فلا تأمنوا أن تزيغوا عن سبيله (وأقيموا الصلوة) أى داوموا عليها وعلى أدائها فى
أوقاتها (ولا تكونوا من المشركين) أى لا تكونوا ممن يدخل فى عدادهم بموادة أو معاشرة
أو عمل تشابهونهم فيه فانه من تشبه بقوم فهو منهم وهو عام فى كل مشرك سواء كان بعبادة
صنم أو نار أو غير ذلك وقوله تعالى (من الذين) بدل من المشركين باعادة الجار (فرقوا دينهم)
أى الذى هو الفطرة الاولى فعبد كل قوم منهم شيأ ودانوا دينا غير دين من سواهم وهو معنى
(وكانوا شيعا) أى فرقا مختلفين كل واحدة منهم تتشايع من دان بدينها على من خالفهم حتى
كفر بعضهم بعضا واستباحوا الدماء والاموال فعلم قطعا أنهم كلهم ليسوا على الحق وقرأ
حمزة والكسائى بالف بعد الفاء وتخفيف الراء والباقون بغير ألف وتشديد الراء فعلى القراءة
الاولى فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به ولما كان هذا أمرا يتعجب من وقوعه زاده
عجبا بقوله تعالى استئنافا (كل حزب) أى منهم (بما لديهم) أى عندهم (فرحون) أى
مسرورون ظنا منهم أنهم صادفوا الحق وفازوا به دون غيرهم ولما بين تعالى التوحيد
بالدليل وبالمثل بين أن لهم حالة يعترفون بها وان كانوا ينكرونها فى وقت وهى حالة الشدة
بقوله تعالى (واذا مس الناس ضر) أى قحط وشدة (دعوا ربهم) أى الذى لم يشركوه فى
الاحسان اليهم أحد (منيبين) أى راجعين من جميع ضلالاتهم (اليه) أى دون غيره علما منهم
بانه لا فرج لهم عند شئ غيره قال الرازى فى اللوامع فى أواخر العنكبوت وهذا دليل على أن
معرفة الرب فى فطرة كل انسان وأنهم ان غفلوا فى السراء فلا شك أنهم يلوذون اليه فى حال

الضراء

قوله من عباده ومن السماء بخلاف ذلك فى البقرة والجاثية (قوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) ان قلت المجاهدة فى دين الله انما تكون

الضراء (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) أى خلاصا من ذلك الضر (اذا فريق منهم بربهم) أى المحسن اليهم دائما المجدد لهم هذا الاحسان من هذا الضر (يشركون) أى فاجأ فريق منهم الاشراك بربهم الذى عافاهم فاذا الفجائية وقعت جواب الشرط لانها كالفاء فى أنها للتعقيب ولا تقع أول كلام وقد يجامعها الفاء زائدة (فان قيل) ما الحكمة فى قوله ههنا اذا فريق منهم وقال فى العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ولم يقل فريق (أجيب) بان المذكور هناك ضر معين وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة الى الخلق قليل والذى لا يشرك منهم بعد الخلاص فرقة منهم فهم فى غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقا لقلة من خرج من الشرك وأما المذكور ههنا الضر مطلقا فيتناول ضر البحر والامراض والاهوال والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس قد يكونون قد وقعوا فى ضر ما فتخلصوا منه والذى لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الانواع اذا جمع فهم خلق عظيم وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر باجمعهم فلما كان الناجى من الضر المؤمن جمعا كثيرا سمى الباقى فريقا وقوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) يجوز أن تكون اللام فيه لام كى وان تكون لام الامر ومعناه التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا هذا خطاب تهديد بقوله تعالى (فتمتعوا فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم فى الآخرة وفى هذا التفات من الغيبة (أم أنزلنا عليهم سلطانا) أى دليلا واضحا قاهرا أو ذا سلطان أى ملكا معه برهان فقوله تعالى (فهو يتكلم) على الاول كلاما مجازيا وعلى الثانى كلاما حقيقيا وعلى كل الحالين هو جواب للاستفهام الذى تضمنته أم المنقطعة (بما) أى بصحة ما (كانوا به يشركون) أى فيأمرهم بالاشراك بحيث لا يجدوا بدا من متابعته لتزول عنهم الملامة وهذا الاستفهام بمعنى الانكار أى ما أنزلنا بما يقولون سلطانا قال ابن عباس حجة وعذرا وقال قتادة كتابا يتكلم بما كانوا به يشركون أى ينطق بشركهم ولما بين تعالى حال المشرك الظاهر شركه بين تعالى حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته للدنيا بقوله تعالى (واذا) معبرا باداة التحقيق اشارة الى أن الرحمة أكثر من النقمة واسند الفعل اليه فى مقام العظمة اشارة الى سعة جوده فقال (أذقنا الناس رحمة) أى نعمة من خصب وكثرة مطر وغنى ونحوه لا سبب لها الا رحمتنا (فرحوا بها) أى فرح بطر مطمئنين من زوالها ناسين شكر من أنعم بها ولا ينبغى ان يكون العبد كذلك (فان قيل) الفرح بالرحمة مأمور به قال تعالى بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة (أجيب) بانه هناك فرحوا برحمة الله من حيث انها مضافة الى الله وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم اذا كان من الله تعالى (وان تصبهم سيئة) أى شدة من جدب وقلة مطر وفقر ونحوهم (بما قدمت أيديهم) من السيآت (اذا هم يقنطون) أى ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمنين فانهم يشكرونه عند النعمة ويرجونه عند الشدة وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر النون بعد القاف والباقون بالفتح (أولم يروا) أى يعلموا (أن الله يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) امتحانا (ويقدر) أى يضيق لمن يشاء ابتلاء وهذا شأنه دائما مع الشخص

بعد الهداية فكيف جعل الهداية تقتضى غرتها (قلت) معناه جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبلنا المعرفة الاحكام وحقائقها

الواحد في اوقات متعاقبة متباعدة متقاربة ومع الاشخاص ولو في الوقت الواحد فلو اعتبروا حال قبضه سبحانه لم يبطروا ولو اعتبروا حال بسطه لم يقنطوا بل كان حالهم الصبر في البلاء والشكر في الرخاء والاقلاع عن السيئة التي نزل بسببها القضاء ولما لم تغن عن أحد منهم في استجلاب الرزق قوته وغزارة عقله ودقة مكره وكثرة حيله ولا صره ضعفه وقلة عقله وعجز حيلته وكان ذلك أمرا عظيما ومنزعا مع شدة ظهوره وجلالته خفيا دقيقا قال بعضهم

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ۞ وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

أشار سبحانه الى عظمته بقوله مؤكدا لان عملهم في شدة اهتمامهم بالسعي في الدنيا عمل من يظن أن تحصيله انما هو على قدر الاجتهاد في الاسباب (ان في ذلك) أي الامر العظيم من الاقتار في وقت والاغناء في آخر والتوسيع على شخص والتقتير على آخر والامن من زوال الحاضر من النعم مع تكرر المشاهدة للزوال في النفس والغير واليأس من حصولها عند المحنة مع كثرة وجدان الفرج وغير ذلك من أسرار آلائه (لآيات) أي دلالات واضحات على الوحدانية لله تعالى وتمام العلم وكمال القدرة وانه لا فاعل في الحقيقة الا هو ولكن (لقوم) اي ذوي همم وكفاية القيام بما يحق لهم أن يقوموا به (يؤمنون) أي يوجدون هذا الوصف ويديمون تجديده كل وقت لما يتواصل عندهم من قيام الادلة بادامة التأمل والامعان والتفكر والاعتماد في الرزق على من قال ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر أي من طالب علم فيعان عليه فلا يفرحون بالنعم اذا حصلت خوفا من زوالها اذا أراد القادر ذلك ولا ييأسون بها اذا زالت رجاء في اقبالها فضلا من الرازق لأن أفضل العبادة انتظار الفرج بل همهم بما عليهم من وظائف العبادة واجبها ومندوبها ومعرضون عما سوى ذلك وقد وكلوا أمر الرزق الى من تولى أمره وفرغ من قسمه وقام بضمانه وهو القدير العليم ولما أفهم ذلك عدم الاكتراث بالدنيا لان الاكتراث بها لا يزيدها والتهاون بها لا ينقصها قال تعالى لمخاطبا لأعظم المتأهلين لتنفيذ أوامره (فآت) ياخير الخلق (ذا القربى) أي القرابة (حقه) أي من البر والصلة لانه أحق الناس بالبر صلة الرحم جودا وكرما (والمسكين) سواء كان ذا قرابة أم لا (وابن السبيل) وهو المسافر كذلك من الصدقة وأمة النبي صلى الله عليه وسلم تبع له في ذلك ۞ (تنبيه) ۞ عدم ذكر بقية الاصناف يدل على أن ذلك في صدقة التطوع ودخل الفقير من باب أولى لانه أسوأ حالا من المسكين (فان قيل) كيف تعلق قوله تعالى فآت ذا القربى حقه بما قبله حتى جيء بالفاء (اجيب) بانه لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك وقد احتج أبو حنيفة بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم اذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب وعند الشافعي رضي الله عنه لا نفقة بالقرابة الا على الولد والوالدين قاس سائر القرابة على ابن العم لانه لا ولادة بينهم ۞ ولما أمر بالايثار رغب فيه بقوله تعالى (ذلك) اي الايثار العالي الرتبة (خير للذين يريدون وجه الله) اي ذاته أو جهته وجانبه اي يقصدون بمعروفهم اياه خالصا لوجهه كقوله تعالى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى اي يقصدون جهة التقرب الى الله تعالى لا جهة أخرى والمعنيان متقاربان ولكن الطريقة مختلفة (وأولئك) العالوا الرتبة لغناهم عن كل فان (هم المفلحون) اي الفائزون الذين لا يشوب فلاحهم شيء وأما غيرهم فخائب آمله لم

أو جاهدوا في نيل درجة أنهديهم الى أعلى منها قال تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وقال ويزيد الله الذين اهتدوا هدى

ينفق فواضح وأما من أنفق على وجه الربا فقد خسر ماله وأبقى عليه وباله كما قال تعالى (وما آتيتم من ربوا) اى مال على وجه الربا المحرم بزيادة فى المعاملة أو المكروه بعطية يتوقع بها مزيد مكافأة وكان هذا مما حرم على النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى ولا تمنن تستكثر اى لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيته تشريفا له وكرامة للناس فسمى باسم المطلوب من الزيادة فى المعاملة قال بار بوان فالحرام كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه أو يجر منفعة والذى ليس بحرام أن يستدعى بهديته أو بهبته أكثر منها وقرأ ابن كثير بقصر الهمزة بمعنى ما جئتم به من اعطاء ربا والباقون بمدها (ليربو) اى يزيد ويكثر ذلك (فى أموال الناس) اى يحصل فيه زيادة تكون أموال الناس ظرفا لها فهو كناية عن أن الزيادة التى يأخذها المرابى من أموالهم لا يملكها أصلا وقرأ نافع بتاء الخطاب بعد اللام مضمومة وسكون الواو والباقون بالياء التحتية مفتوحة وفتح الواو (فلا يربو) اى يزكو وينمو فلا ثواب فيه (عند الله) اى الملك الأعلى الذى له الغنى المطلق وصفات الكمال وكل ما لا يربو عند الله فهو ممحوق لا وجود له فما له الى فناء وان كثر يمحق الله الربوا ويربى الصدقات • ولما ذكر ما زيادته نقص أتبعه ما نقصه زيادة بقوله (وما آتيتم) اى أعطيتم (من زكوة) اى صدقة وعبر عنها بذلك ليفيد الطهارة والزيادة اى تطهرون بها أموالكم من الشبه وأبدانكم من مواد الخبث وأخلاقكم من الغل والدنس • ولما كان الاخلاص عزيزا أشار الى عظمته بتكريره بقوله عز وجل (تريدون) اى بها (وجه الله) اى عظمة الملك الأعلى فيعرفون من حقه ما يتلاشى عندهم كل ما سواه فيخلصون له (فأولئك هم المضعفون) اى ذوو الاضعاف الذين ضاعفوا أموالهم فى الدنيا بسبب ذلك بالحفظ والبركة وفى الآخرة بكثرة الثواب عند الله من عشر أمثال الى ما لا حصر له ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار • ولما وضح بهذا أنه لا زيادة الا فيما يزيده الله ولا نقص الا فيما يختاره الله بين تعالى ذلك بطريق لا أوضح منه بقوله تعالى (الله) اى بعظيم جلاله لا غيره (الذى خلقكم) اى أوجدكم على ما أنتم عليه من التقدير لا تملكون شيأ (ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم) اى ممن أشركتم بالله (من يفعل من ذلكم) مشيرا الى علو رتبته بأداة البعد وخطاب الكل • ولما كان الاستفهام الانكارى التوبيخى فى معنى النفى قال مؤكدا له مستغرقا لكل ما يمكن منه ولو قل جدا (من شئ) اى يستحق هذا الوصف الذى تطلقونه عليه • ولما لزمهم قطعا أن يقولوا لا وعزتك ما لهم ولا لاحد منهم فعل شئ من ذلك قال تعالى معرضا عنهم منزها لنفسه الشريفة (سبحانه) اى تنزه تنزها لا يحيط به الوصف من أن يكون محتاجا الى شريك (وتعالى) اى علا علوا لا تصل اليه العقول (عما يشركون) فى أن يفعلوا شيأ من ذلك • (تنبيه) • يجوز فى خبر الجلالة الكريمة وجهان أظهرهما أنه الموصول بعدها والثانى أنه الجملة من قوله تعالى هل من شركائكم والموصول صفة والراجع من ذلكم لانه بمعنى من افعاله ومن الاولى والثانية يفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم النفى فكل منها مستقلة بتأكيد لتعجيز الشركاء وقرأ حمزة والكسائى بتاء الخطاب والباقون بالياء التحتية • ولما بين لهم تعالى من حقارة شركائهم ما كان حقهم

•(سورة الروم)• (قوله أو لم يسيروا) قاله هنا وفى فاطر وأول المؤمن بالواو وفى آخرها بالفاء لان ما هنا موافق لما قبله وهو أو لم يتفكروا ولما بعده

به أن يرجعوا ان لم يفعلوا أتبعه ما أصابهم به على غير ما كان في أسلافهم عقوبة لهم على قبح
ما ارتكبوا استعظاما للتوبة بقوله تعالى (ظهر الفساد) اى النقص في جميع ما ينفع الخلق
(في البر) بالقحط والخوف وقلة المطر ونحو ذلك (والبحر) بالغرق وقلة الفوائد من الصيد
ونحوه من كل ما كان يحصل منه وقلة المطر كما تؤثر في البر تؤثر في البحر فتخلو أجواف
الاصداف من اللؤلؤ وذلك لان الصدف اذا جاء المطر يرتفع على وجه الماء وينفتح فما وقع
فيه من المطر صار لؤلؤا وقالوا اذا انقطع القطر عميت دواب البحر وقيل المراد بالبر البوادي
والمفاوز وبالبحر المدائن والقرى التي على المياه الجارية قال عكرمة العرب تسمي المصر
بحرا تقول أجدب البر وانقطعت مادة البحر ثم بين سببه بقوله تعالى (بما كسبت أيدي
الناس) اى بسبب شؤم ذنوبهم ومعاصيهم كقوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت
أيديكم قال ابن عباس الفساد في البر قتل أحد ابني آدم أخاه وفي البحر غصب الملك الجبار
السفينة قال الضحاك كانت الارض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة الا وجد عليها
ثمرة وكان ماء البحر عذبا وكان لا يقصد الاسد البقر والغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت
الارض وشاكت الاشجار وصار ماء البحر ملحا زعاقا وقصد الحيوانات بعضها بعضا وقال
قتادة هذا قبل مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم امتلأت الارض ظلما فلما بعث الله تعالى محمدا
صلى الله عليه وسلم رجع راجعون من الناس وقيل أراد بالناس كفار مكة ❁ ولما ذكر تعالى
علية البدائية ثنى بعلية الجزائية بقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذي عملوا) كرما وحلما
ويعفو عن كثير اما أصلا ورأسا واما عن المعاجلة به ويؤخره الى وقت ما في الدنيا أو الآخرة
وقرأ قنبل بالنون بعد اللام والباقون بالياء التحتية ثم ثلث بالعلة الغائية بقوله تعالى (لعلهم
يرجعون) اى عما هم عليه ❁ ولما بين تعالى حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد
أقوالهم بين لهم ضلال أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم بقوله تعالى لنبيه
محمد صلى الله عليه وسلم (قل) اى لهؤلاء الذين لا هم لهم سوى الدنيا (سيروا في الارض) فان
سيركم الماضي لكونه لم تصحبه عبرة عدم (فانظروا) نظر اعتبار (كيف كان عاقبة الذين من
قبل) اى من قبل أيامكم لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية فتعلموا أن الله تعالى أذاقهم وبال
أمرهم وأوقعهم في حفائر مكرهم (كان أكثرهم مشركين) اى فلذلك أهلكناهم ولم تغن
عنهم كثرتهم وأنجينا المؤمنين وما ضرتهم قلتهم ❁ ولما نهى الله تعالى الكفار عما هم عليه أمر
المؤمنين بما هم عليه وخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فانه
أمر به أشرف الانبياء بقوله تعالى (فأقم وجهك للدين القيم) اى المستقيم وهو دين الاسلام
(من قبل أن يأتي يوم) اى عظيم (لا مرد له) اى لا يقدر أن يرده أحد وقوله تعالى (من الله)
يجوز أن يتعلق بيأتي أو بمحذوف يدل عليه المصدر أي لا يرده من الله أحد والمراد به يوم
القيامة لا يقدر أحد على رده من الله وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ) اى اذ يأتي
(يصدعون) اى يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير ثم أشار الى التفرق بقوله تعالى
(من كفر) اى منهم (فعليه كفره) اى وبال كفره (ومن عمل صالحا) اى بالايمان وما يترتب
عليه (فلأنفسهم يمهدون) اى يوطئون منازلهم في القبور وفي الجنة بل وفي الدنيا فان الله

تعالى

وهو أثاروا وما في فاطر
موافق أيضا لما قبله وهو
ولن تجد لسنة الله تحويلا
ولما بعده وهو وما كان
الله وما في أول المؤمن

تعالى يعزهم بعز طاعته *(تنبيه)* أظهر قوله تعالى صالحا ولم يضمر لئلا يتوهم عود الضمير على من كفر وبشارة بان أهل الجنة كثير وان كانوا قليلا لان الله تعالى هو مولاهم فهو من كيم وأفرد الشرط وجمع الجزاء في قوله تعالى فلانفسهم يمهدون اشارة الى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته وفيه ترغيب في العمل من غير نظر الى مساعد وبانه ينفع نفسه وغيره لان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وأقل ما ينفع والديه وشيخه في ذلك العمل وقوله تعالى (ليجزى) اى الله سبحانه وتعالى الذى أنزل هذه السورة لبيان انه ينصر أولياءه لاحسانه لانه مع المحسنين ولذلك اقتصر هنا على ذكرهم بقوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) اى تصديقا لايمانهم (من فضله) علة ليمهدون أو ليصدعون والاقتصار على جزاء الموصوفين للاشعار بانه المقصود بالذات والاكتفاء عن فحوى قوله تعالى (انه لا يحب الكافرين) فانه فيه اثبات البغض لهم فيعذبهم والمحبة للمؤمنين فيثيبهم وتأكيد اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم الى التصريح بهم تعليل لهم وقوله تعالى من فضله دال على أن الاثابة بمحض الفضل *ولما ذكر تعالى ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر انه بسبب العمل الصالح لان الكريم لا يذكر لاحسانه عوضا ويذكر لاضداده سببا لئلا يتوهم به الظلم قال تعالى (ومن آياته) أى دلالاته الواضحة (ان يرسل الرياح مبشرات) اى بالمطر كما قال تعالى نشرا بين يدى رحمته اى قبل المطر وقيل مبشرات بصلاح الاهوية والاحوال فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى الريح بالافراد على ارادة الجنس والباقون بالجمع وهى الجنوب والشمال والصبا الثلاث رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقوله تعالى (وليذيقكم) اى بها (من رحمته) اى من نعمته من المياه العذبة والاشجار الرطبة وصحة الابدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها الا خالقها معطوف على مبشرات على المعنى كانه قيل ليبشركم وليذيقكم أو على علة محذوفة دل عليها مبشرات أو على يرسل باضمار فعل معلل دل عليه اى وليذيقكم أرسلها (ولتجرى الفلك) اى السفن فى جميع البحار وما جرى مجراها عند هبوبها وانما زاد (بامره) لان الريح قد تهب ولا تكون موافقة فلا بد من ارساء السفن والاحتيال لحبسها وربما عصفت وأغرقتها (ولتبتغوا) اى تطلبوا (من فضله) من رزقه بالتجارة فى البحر (ولعلكم) اى ولتكونوا اذا فعل بكم ذلك على رجاء من أنكم (تشكرون) على ما أنعم عليكم من نعمه ودفع عنكم من نقمه *(تنبيه)* قال تعالى فى ظهر الفساد ليذيقهم بعض الذى عملوا وقال ههنا وليذيقكم من رحمته فخاطبهم ههنا تشريفا ولان رحمته قريب من المحسنين وحينئذ فالمحسن قريب فيخاطب والمسىء بعيد فلم يخاطب وقال هنالك بعض الذى عملوا فاضاف ما أصابهم الى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن الى رحمته فقال تعالى من رحمته لان الكريم لا يذكر لرحمته واحسانه عوضا فلا يقول أعطيتك لانك فعلت كذا بل يقول هذا لك منى وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندى وأيضا فلو قال أرسلت بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة وأما اذا قال من رحمته كان غاية البشارة وأيضا فلو قال بما فعلتم لكان ذلك موهما لنقصان ثوابهم فى الآخرة وأما

وهو موافق لما قبله والذين يدعون من دونه وما فى آخرها موافق لما قبله وهو فى آيات الله تشكرون ولما بعده وهو فا

فى حق الكفار فاذا قال بما فعلتم أنبأ عن نقصان عقابهم وهو كذلك وقال هنالك لعلهم يرجعون وقال هنا ولعلكم تشكرون قالوا واشارة الى توفيقهم للشكر فى النعم وعطف على النعم قوله تعالى (ولقد أرسلنا) اى بما لنا من القوة وقال تعالى (من قبلك رسلا) تنبيها على أنه خاتم النبيين بتخصيص ارسال غيره بما قبل زمانه وقال (الى قومهم) اعلاما بان أمر الله اذا جاء لا ينفع فيه قريب ولا بعيد (فجاؤهم بالبينات) فانقسم قومهم الى مسلمين ومجرمين (فانتقمنا) اى فكانت معاداة المسلمين للمجرمين فينا سببا لانا انتقمنا بما لنا من العظمة (من الذين أجرموا) اى أهلكنا الذين كذبوهم لاجرامهم وهو قطع ما أمرناهم بوصله ، ولما كان محط الفائدة الزامه سبحانه لنفسه بما تفضل به قدمه تعجيلا للسرور وتطييبا للنفوس فقال تعالى (وكان) اى على سبيل الثبات والدوام (حقا علينا) أى بما أوجبناه بوعدنا الذى لا خلف فيه (نصر المؤمنين) اى العريقين فى ذلك الوصف فى الدنيا والآخرة ولم يزل هذا دأبنا فى كل ملة على مدى الدهر فليعتقد هؤلاء مثل هذا وليأخذوا المثل ذلك أهبة لينظروا من المغلوب وهل ينفعهم شئ روى الترمذى وحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه الا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا قوله تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين قال البقاعى فالآية من الاحتباك اى وهو أن يؤتى بكلامين يحذف من كل منهما شئ يكون نظيره ما يستدل بما أثبت فى كل على ما حذف من الآخر فحذف أولا الاهلاك الذى هو أثر الخذلان لدلالة النصر عليه وثانيا الانعام لدلالة الانتقام عليه ، ثم نبه تعالى على كمال قدرته فهو الناصر للمؤمنين بقوله تعالى (الله) اى وحده (الذى يرسل) مرة بعد أخرى (الرياح) مضطربة هائجة بعد ان كانت ساكنة (فتثير سحابا) اى تزعجه وتنشره (فيبسطه) بعد اجتماعه (فى السماء) أى جهة العلو (كيف يشاء) فى اى ناحية شاء قليلا تارة كسير ساعة وكثيرا أخرى كسير أيام على حسب ارادته واختياره لا مدخل فيه لطبيعة ولا غيرها (ويجعله) اذا أراد (كسفا) اى قطعا غير متصل بعضها ببعض اتصالا يمنع نزول الماء وقرأ ابن عامر بسكون السين بخلاف عن هشام والباقون بفتحها (فترى) بسبب ارسال الله له أو بسبب جعله ذا مسام وفروج يا من هو من أهل الرؤية أو يا أشرف خلقنا الذى لا يعرف هذا حق معرفته سواه (الودق) اى المطر (يخرج من خلاله) اى السحاب الذى هو اسم جنس فى حالتى الاتصال والانفصال (فاذا اصاب) اى الله (به) اى بالودق (من) اى أرض من (يشاء) ونبه على ان ذلك فضل منه لا يجب عليه لاحد شئ أصلا بقوله تعالى (من عباده) اى الذين لم تزل عبادته واجبة عليهم جديرون بملازمة شكره والخضوع لامره (اذاهم يستبشرون) اى يظهر عليهم البشر وهو السرور الذى تشرق له البشرة حال الاصابة ظهورا بالغا عظيما بما يرجونه مما يحدث عنه من الاثر النافع من الخصب والرطوبة والليونة ، ثم بين تعالى عجزهم بقوله تعالى (وان) اى والحال أنهم (كانوا) فى الزمن الماضى (من قبل ان ينزل عليهم) أى المطر وقرأ أبو عمرو وابن كثير بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى وقوله تعالى (من قبله) من باب التكرير والتأكيد كقوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ومعنى التوكيد

اغنى عنهم فناسب فيه الفاء وفى الثلاثة قبله الواو (قوله كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة) قاله هنا بحذف كانوا

فيه الدلالة على ان عهدهم بالمطر قد تطاول بعدما استحكم يأسهم وقوله تعالى (لمبلسين) اشارة الى انه تمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اهتمامهم بذلك وقيل الاولى ترجع الى المطر والثانية الى انشاء السحاب فلا تأكيد (فانظر الى أثر رحمت الله) والرحمة هي الغيث واثرها هو النبات وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بألف بعد الثاء المثلثة والباقون بغير ألف ورسمت رحمت هذه مجرورة فوقف ابن كثير وابو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء (كيف يحيي) أي الله (الارض) باخراج النبات (بعد موتها) اي يبسها (ان ذلك) أي القادر العظيم الشأن الذي قدر على احياء الارض (لمحيي الموتى) كلها من الحيوانات والنباتات أي مازال قادرا على ذلك كما قال تعالى (وهو على كل شئ) من ذلك وغيره (قدير) لان نسبة القدرة منه سبحانه وتعالى الى كل ممكن على حد سواء ولما بين أنهم عند توقف الخير يكونون آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين ان تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بقوله تعالى (ولئن أرسلنا) أي بعد وجود هذا الاثر الحسن (ريحا) عقيما (فرأوه) أي الاثر لان الرحمة هي الغيث وأثرها هو النبات أو الزرع لدلالة السياق عليه (مصفرا) فبدد وأخذ في التلف من شدة يبس الريح اما بالحر أو البرد وقيل رأوا السحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر ويجوز أن يكون الضمير للريح من التعبير بالسبب عن المسبب *(تنبيه)* اللام موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط وقوله تعالى (لظلوا) أي اصاروا (من بعده) اى اصفراره (يكفرون) أي بيأسهم من روح الله جواب سد مسد الجزاء ولذلك فسر بالاستقبال *(تنبيه)* سمى النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه أحدها أن النافعة كثيرة الانواع كثيرة الافراد فجمعها لان في كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولا تهب الريح الضارة في أعوام بل الضارة لا تهب في الدهور ثانيها أن النافعة لا تكون الا رياحا وأما الضارة فنفخة واحدة تقتل كريح السموم ثالثها جاء في الحديث أن ريحا هبت فقال عليه الصلاة والسلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا اشارة الى قوله تعالى فارسلنا عليهم الريح العقيم وقوله تعالى ريحا صرصرا الى قوله تنزع الناس *ولما علم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وجوه الادلة و وعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه الا فرارا وكفرا واصرارا قال تعالى (فانك لا تسمع الموتى) أي ليس في قدرتك اسماع الذين لا حياة لهم فلا نظر ولا سمع أو موتى القلوب اسماعا ينفعهم لانه مما اختص به الله تعالى وهؤلاء مثل الاموات لان الله تعالى قد ختم على مشاعرهم (ولا تسمع الصم) أي الذين لا سماع لهم (الدعاء) اذا دعوتهم *ولما كان الاصم قد يحس بدعائك اذا كان مقبلا بحاسة بصره قال تعالى (اذا ولوا) وذكر الفعل ولم يقل ولت اشارة الى قوة التولي لئلا يظن انه أطلق على الجانبين مثلا ولهذا قال تعالى (مدبرين) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية في الوصل والباقون بالتحقيق واذا وقف حمزة وهشام على الدعاء أبدلا الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر (وما أنت بهادي العمي) أي بموجد لهم هداية (عن ضلالتهم) اذا ضلوا عن الطريق وقرأ حمزة بتاء الخطاب مفتوحة وسكون الهاء والعمي بنصب الياء والباقون بالباء الموحدة مكسورة وفتح الهاء والعمي بالخفض *(تنبيه)* قد جعل الله تعالى الكافر بهذه الصفات وهو انه شبهه أولا بالميت وارشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن

قبل قوله من قبلهم وحذف
الواو بعده وقاله في فاطر
بحذف كانوا أيضا وبذكر
الواو وفي أوائل غافر بذكر
كانوا دون الواو وزيادة هم

ثم بالاصم وارشاد الاصم صعب فانه لا يسمع الكلام وانما يفهم بالاشارة والافهام بالاشارة صعب ثم بالاعمى وارشاد الاعمى أيضا صعب فانك اذا قلت له مثلا الطريق عن يمينك فانه يدور الى يمينه لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب فارشاد الاصم أصعب ولهذا تكون المعاشرة مع الاعمى اسهل من المعاشرة مع الاصم الذى لا يسمع لان غايته الافهام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالاشارة فان المعدوم والغائب لا اشارة اليه فبدأ أولا بالميت لانه أعلى ثم بالادون منه وهو الاصم وقيده بقوله تعالى اذا ولوا مدبرين ليكون أدخل فى الامتناع لان الاصم وان كان يفهم فانما يفهم بالاشارة فاذا ولى لا يكون نظره الى المشير فامتنع افهامه بالاشارة أيضا ثم بادنى منه وهو الاعمى لماص ثم قال تعالى (ان) أى ما (تسمع) أى سماع افهام وقبول (الا من يؤمن بآياتنا) أى القرآن فاثبت للمؤمن استماع الآيات فلزم أن يكون المؤمن حيا سميعا بصيرا لان المؤمن ينظر فى البراهين ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الافعال الحسنة ويفعل ما يجب عليه (فهم مسلمون) أى مطيعون كما قال تعالى عنهم وقالوا سمعنا وأطعنا ولما أعاد تعالى دليل الآفاق بقوله تعالى الله الذى يرسل الرياح أعاد دليلا من دلائل الانفس وهو خلق الآدمى وذكر أحواله بقوله تعالى (الله) أى الجامع لصفات الكمال (الذى خلقكم من ضعف) اى ماءذى ضعف لقوله تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين (ثم جعل من بعد ضعف) آخر وهو ضعف الطفولية (قوة) اى قوة الشباب (ثم جعل من بعد قوة ضعفا) أى ضعف الكبر (وشيبة) اى شيب الهرم وهى بياض فى الشعر يحصل أوله فى الغالب فى السنة الثالثة والاربعين وهو اول سن الاكتهال والاخذ فى النقص بالفعل بعد الخمسين الى أن يزيد النقص فى الثالثة والستين وهو أول سن الشيخوخة ويقوى الضعف الى ماشاء الله تعالى وقرأ عاصم وحمزة بخلاف عن حفص بفتح الضاد فى الثلاثة وهو لغة تميم والباقون بالضم وهو لغة قريش * ولما كانت هذه هى العادة الغالبة وكان الناس متفاوتين فيها وكان من الناس من يطعن فى السن وهو قوى وأنتج ذلك كله أنه لابد أن يكون التصرف بالاختيار مع شمول العلم وتمام القدرة قال تعالى (يخلق ما يشاء) اى من هذا وغيره (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدير) على ما يشاء (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنا وهو العليم القدير وقوله تعالى من قبل وهو العزيز الحكيم والعزة اشارة الى كمال القدرة والحكمة اشارة الى كمال العلم فقدم القدرة هناك على العلم (أجيب) بان المذكور هناك الاعادة بقوله تعالى وهو أهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم لان الاعادة بقوله تعالى كن فيكون فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو الاطوار والاحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم ان قوله تعالى وهو العليم القدير فيه تبشير وانذار لانه اذا كان عالما باحوال الخلق يكون عالما باحوال المخلوق فان عملوا خيرا علمه وان عملوا شرا علمه ثم اذا كان قادرا وعلم الخير أثاب واذا علم الشر عاقب ولما كان العلم بالاحوال قبل الاثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة والعلم قدم العلم وأما الآية الاخرى فالعلم بتلك الاحوال قبل العقاب فقال وهو العزيز الحكيم * ولما ثبتت قدرته تعالى على البعث وغيره عطف على قوله أول السورة ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (ويوم تقوم الساعة)

اى

وفى آخرها بحذف الجميع ٣ لان ما فى أواثلها وفى الثلاث قبله الواو وقوله وقع فيه قصة نوح وهى مبسوطة فيه فناسب

٣ قوله لان ما فى أوائلها الخ كذا بالاصل الذى بايدينا وهو غير مستقيم فليحرر اه مصحح

أي القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة أو اعلاما بتيسيرها على الله تعالى وصارت علما عليها بالغلبة كالكوكب للزهرة (يقسم) أي يحلف (المجرمون) أي الكافرون وقوله تعالى (ما لبثوا) جواب قوله تعالى يقسم وهو على المعنى إذ لو حكى قولهم بعينه لقيل ما لبثنا أي في الدنيا (غير ساعة) استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا في الآخرة وقال مقاتل والكلبي ما لبثوا في قبورهم غير ساعة كما قال تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها وكما قال تعالى كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وفي حديث رواه الشيخان ما بين النفختين أربعون وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام (كذلك) أي مثل ذلك الصرف عن حقائق الأمور إلى شكوكها (كانوا) في الدنيا كونا هو كالجبلة لهم (يؤفكون) أي يصرفون عن الحق في الدنيا وقال مقاتل والكلبي كذبوا في قولهم غير ساعة كما كذبوا في الدنيا أن لا بعث والمعنى أن الله تعالى أراد أن يفضحهم فحلفوا على شيء تبين لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه * ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم بقوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان) وهم الملائكة والأنبياء والمؤمنون (لقد لبثتم في كتاب الله) أي فيما كتب الله لكم في سابق علمه وقضائه أو في اللوح المحفوظ أو فيما وعد به في كتابه من الحشر والبعث فيكون في كتاب الله متعلق بلبثتم وقال مقاتل وقتادة فيه تقديم وتأخير معناه وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان لقد لبثتم (إلى يوم البعث) وفي ترد بمعنى الباء فردوا ما قاله هؤلاء الكفار وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم (فهذا يوم البعث) الذي أنكرتموه وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالإدغام * (تنبيه) * سبب اختلاف الفريقين أن الموعود بوعد إذا ضرب له أجل إن علم أن مصيره إلى النار وهو الكافر يستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء في القبور وإن علم أن مصيره إلى الجنة وهو المؤمن فيستكثر المدة ولا يريد تأخيره فيختلف الفريقان وفي هذه الفاء قولان أظهرهما أنها عاطفة هذه الجملة على لبثتم وقال الزمخشري هي جواب شرط مقدر أي إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث أي فقد تبين بطلان ما قلتم * ولما كان التقدير قد أتى فقد تبين أنه كما كتبه عالمين فلو كان لكم نوع من العلم لصدقتمونا في أخبارنا به فنفعكم ذلك الآن عطف عليه قوله تعالى (ولكنكم كنتم) أي كونا هو كالجبلة لكم في إنكاركم له (لا تعلمون) أي ليس لكم علم أصلا لتفريطكم في طلب العلم من أبوابه والتوصل إليه بأسبابه فلذلك كذبتم به فاستوجبتم جزاء ذلك التكذيب اليوم * ولما كانت الآيات دالة على أن هذه الدار دار عمل وأن الآخرة دار جزاء وأن البرزخ حائل بينهما فلا يكون في واحدة منهما ما للأخرى تسبب عن ذلك قوله تعالى (فيومئذ) أي إذ يقع ذلك ويقول الذين أوتوا العلم تلك المقالة (لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) في إنكارهم له (ولا هم يستعتبون) أي لا يطلب منهم الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى كما دعوا إليه في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فأعتبته أي استرضاني فأرضيته وقرأ الكوفيون لا ينفع بالياء التحتية لأن المعذرة بمعنى العذر ولأن تأنيثها غير حقيقي وقد فصل بينهما والباقون بالتاء الفوقية * ثم أشار تعالى إلى إزالة

فيه البسط وحذف الجميع
في أواخرها اختصار
لدلالة ذلك عليه وما هنا
وفي فاطر اختصر فيهما
القصة فناسب فيهما

الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار وانه لم يبق من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم تقصير بقوله تعالى (ولقد ضربنا) أى جعلنا (للناس فى هذا القرآن) اى فى هذه السورة وغيرها (من كل مثل) أى معنى غريب هو أوضح وأثبت من اعلام الجبال فى عبارة هى أرشق من سائر الامثال فان طلبوا شيأ آخر غير ذلك فهو عناد محض لان من كذب دليلا حقا لا يصعب عليه تكذيب الدلائل بل لا يجوز للمستدل أن يشرع فى دليل آخر بعد ذكره دليلا جيدا مستقيما ظاهر الاشكال عليه وعانده الخصم وهذا من العالم فكيف بالنبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام ذكروا أنواعا من الدلائل (أجيب) بانهم سردوها سردا ثم قرروا افرادا لكن يقول الدليل عليه من وجوه الاول كذا والثانى كذا والثالث كذا وفى مثل هذا عدم الالتفات الى عناد المعاند لانه يريد تضييع الوقت كى لا يتمكن المستدل من الاتيان بجميع ما وعد من الدليل فتنحط درجته والى هذا أشار بقوله تعالى (ولئن) اللام لام قسم (جئتهم) يا أفضل الخلق (بآية) مثل العصا واليد لموسى عليه السلام (ليقولن الذين كفروا) منهم (ان) أى ما (أنتم الا مبطلون) أى أصحاب أباطيل (فان قيل) لم وحد فى قوله تعالى جئتهم وجمع فى قوله تعالى ان أنتم (أجيب) بان ذلك لنكتة وهى انه تعالى أخبر فى موضع آخر فقال ولئن جئتهم بكل آية أى جاءت بها الرسل فقال الكفار ما أنتم أيها المدعون الرسالة كلكم الا كذا وقال الجلال المحلى ان أنتم اى محمد واصحابه واما الذين آمنوا فيقولون نحن بهذه الآية مؤمنون (كذلك) أى مثل هذا الطبع العظيم (يطبع الله) اى الذى له العظمة والكمال (على قلوب الذين لا يعلمون) توحيد الله (فان قيل) من لا يعلم شيأ أى فائدة فى الاخبار عن الطبع على قلبه (أجيب) بان معناه أن من لا يعلم الآن فقد طبع على قلبه من قبل ثم انه تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فاصبر) اى على انذارهم مع هذا الجفاء والرد بالباطل والاذى فان الكل فعلنا لم يخرج منه شئ عن ارادتنا (ان وعد الله) أى الذى له الكمال كله بنصرك واظهار دينك على الدين كله وفى كل ما وعد به (حق) اى ثابت جدا يطابقه الواقع كما يكشف عنه الزمان وتأتى به مطايا الحدثان * ولما كان التقدير فلا تعجل عطف عليه قوله تعالى (ولا يستخفنك) أى يحملنك على الخفة ويطلب أن تخف باستعجال النصر خوفا من عواقب تأخيره وتنفيرك عن التبليغ (الذين لا يوقنون) اى أذى الذين لا يصدقون بوعدنا من البعث والحشر وغير ذلك تصديقا ثابتا فى القلب بل هم اما شاكون وأدنى شئ يزلزلهم لكن يعبد الله على حرف أو مكذبون فهم بالغون فى العداوة والتكذيب حتى انهم لا يصدقون فى وعد الله بنصر الروم على فارس كانهم على ثقة وبصيرة من أمرهم فى أن ذلك لا يكون فاذا صدق الله وعده فى ذلك باظهاره عن قرب علموا كذبهم عيانا وعلموا ان كان لهم علم أن الوعد بالساعة لاقامة العدل على الظالم والعود بالفضل على المحسن كذلك يأتى وهم صاغرون ويحشرون وهم داخرون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فقد انعطف آخر السورة على أولها واتصل به اتصال القريب بالقريب وها أنا أسأل الله تعالى القريب المجيب أن يغفر ذنوب من كتب هذا وهو محمد الشربينى الخطيب ويفعل ذلك بوالديه وأولاده ومشايخه وكل محب له وحبيب

الاختصار لكن ذكرت الواو فى فاطر موافقة لذكرها قبل وبعد (قوله ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) الآية

وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الروم كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله بين السماء والارض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته حديث موضوع رواه الثعلبي في تفسيره والله تعالى أعلم بالصواب

سورة لقمان مكية

الا ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام الآيتين وهي أربع أو ثلاث وثلاثون آية وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة وألفان ومائة وعشرة أحرف

(بسم الله) أي الذي وسع كل شيء رحمة وعلما (الرحمن) الذي شملت نعمته سائر بريته (الرحيم) باوليائه فخصهم بمعرفته قوله تعالى (الم) تقدم الكلام عليه في أول سورة البقرة وقيل انه أشار بذلك الى أن الله الملك الاعلى أرسل جبريل عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم بوحي ناطق من الحكم والاحكام بما لم ينطق به من قبله امام ولا يلحقه في ذلك نبي مدى الايام فهو المبدأ وهو الختام والى ذلك أومأ بتعبيره باداة البعد في قوله تعالى (تلك) أي الآيات التي هي من العلو والعظمة بمكان (آيات الكتاب) أي الجامع لجميع أنواع الخير (الحكيم) بوضع الاشياء في حواق مراتبها فلا يستطاع نقص شيء من ابرامه ولا معارضة شيء من كلامه الدال ذلك على تمام علم منزله وشمول عظمته وقدرته والاضافة بمعنى من وقوله تعالى (هدى ورحمة) بالرفع وهي قراءة حمزة خبر مبتدا مضمر هي أو هو وقرأ الباقون بالنصب على الحال من آيات والعامل ما في اسم الاشارة من معنى الفعل وقال تعالى (للمحسنين) اشارة الى أن رحمة الله قريب من المحسنين فانه تعالى قال في البقرة ذلك الكتاب ولم يقل الحكيم وههنا قال الحكيم لانه لما زاد ذكر وصف في الكتاب زاد ذكرا من أحواله فقال هدى ورحمة وقال هنالك هدى للمتقين فقوله تعالى هدى في مقابلة قوله تعالى الكتاب وقوله تعالى ورحمة في مقابلة قوله تعالى الحكيم ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكمة كقوله تعالى في عيشة راضية أي ذات رضا وقوله تعالى هنالك للمتقين وقوله تعالى هنا للمحسنين لانه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيأ آخر قال للمتقين أي يهدي به من يتقي الشرك والعناد وههنا زاد قوله تعالى ورحمة فقال للمحسنين كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فناسب زيادة قوله تعالى ورحمة ولان المحسن يتقي وزيادة ثم وصف المحسنين بقوله تعالى (الذين يقيمون الصلوة) أي يجعلونها كأنها قائمة بسبب اتقان جميع ما أمر به فيها وندب اليه ودخل فيها الحج لانه لا يعظم البيت في كل يوم خمس مرات الا معظم له بالحج فعلا أو قوة (ويؤتون الزكوة) أي كلها فدخل فيها الصوم لانه لا يؤدي زكاة الفطر الا من صامه فعلا أو قوة ولما كان الايمان أساس هذه الاركان وكان الايمان بالبعث جامعا لجميع أنواعه وحاملا على سائر وجوه الاحسان قال تعالى (وهم بالآخرة) اي التي تقدم ان المجرمين عنها غافلون (هم يوقنون) أي يؤمنون بها ايمان موقن فهو لا يفعل شيأ ينافي الايمان ولا يغفل عنه طرفة عين فهو في الذروة العليا من ذلك فهو يعبد الله تعالى كأنه يراه فآية البقرة بداية وهذه نهاية ولما كانت هذه الخلال امهات الافعال الموجبة للكمال وكانت مساوية من وجه لآية البقرة ختمها بختامها بعد ان زمها بزمامها فقال (اولئك) اى العالو الرتبة الحائزون من منازل

ختمها بقوله لقوم يتفكرون لان الفكر يؤدي الى الوقوف على المعاني المطلوبة من التآنس والتجانس بين الاشياء

القرب اعظم رتبة (على هدى) اى متمكنون منه تمكن المستعلى على الشئ وقال (من ربهم) تذكير الهم بانه لولا احسانه لما وصلوا الى شئ ليلزموا تمريغ الجباه على الاعتاب خوفا من الاحجاب (واولئك هم المفلحون) اى الظافرون بكل مراد ه ولما بين سبحانه وتعالى حال من تحلى بهذا الحال فترقى الى حلية اهل الكمال بين حال اضدادهم بقوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) اى ما يلهى عما يعنى كالاحاديث التى لا اصل لها والاساطير التى لا اعتبار فيها والمضاحك وفضول الكلام (فان قيل) ما معنى اضافة اللهو الى الحديث (اجيب) بان معناها التبيين وهى الاضافة بمعنى من وان يضاف الشئ الى ما هو منه كقوله جبة خز باب ساج والمعنى من يشترى اللهو من الحديث لان اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبين بالحديث والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء فى الحديث الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش ويجوز أن تكون الاضافة بمعنى من التبعيضية كانه قيل ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى هو اللهو وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث ابن كلدة كان يتجر فيأتى الحيرة ويشترى أخبار العجم ويحدث بها قريشا ويقول ان محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الاكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فانزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد يعنى شراء المغنيات والمغنين ووجه الكلام على هذا التأويل من يشترى ذات أو ذا لهو الحديث وقيل كان النضر يشترى المغنيات ولا يظفر باحد يريد الاسلام الا انطلق به الى قينة فيقول أطعميه واسقيه وغنيه ويقول هذا خير لك مما يدعوك اليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه وعن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام وفى مثل هذا نزلت الآية وما من رجل يرفع صوته بالغناء الا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بارجلهما حتى يكون هو الذى يسكت وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب وكسب المزمار وقال مكحول من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيما عليه حتى يموت لم أصل عليه ان الله تعالى يقول ومن الناس من يشترى لهو الحديث الآية وعن الحسن وغيره قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ومعنى يشترى لهو الحديث يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن وقال أبو الصهباء سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال هو الغناء والله الذى لا اله الا هو يرددها ثلاث مرات وقال ابراهيم النخعى الغناء ينبت النفاق فى القلب قال وكان أصحابنا يأخذون بافواه السكك يخرقون الدفوف وقال ابن جريج لهو الحديث هو الطبل وقال الضحاك هو الشرك وقال قتادة هو كل لهو ولعب وقيل الغناء منفدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب (ليضل عن سبيل الله) أى الطريق الواضح الموصل للملك الاعلى المستجمع لصفات الكمال ضد ما كان عليه المحسنون من الهدى وقرأ ابن كثير وابو عمرو بفتح الياء قبل الضاد من الضلالة بمعنى ليثبت على ضلاله والباقون بضمها ونكر قوله تعالى (بغير علم) ليفيد السلب العام لكل نوع من انواع العلم أى لانه لا علم بشئ من حال السبيل ولا حال غيرها ليتحقق اطلاق العلم عليه

كالزوجين ثم قال ومن آياته خلق السموات والارض الآية وختمها بقوله للعالمين لان الكل تظلهم السماء وتقلهم الارض

(فان)

(فان قيل) ما معنى قوله تعالى بغير علم (أجيب) بانه تعالى لما جعله مشتريا لهو الحديث بالقرآن قال يشترى بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ونحوه قوله تعالى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين أى وما كانوا مهتدين بالتجارة وبصرا بها (ويتخذها) أى السبيل التى لا أشرف منها مع ما ثبت له من الجهل المطلق (هزوا) أى مهزوا بها وقرأ حمزة والكسائى وحفص بنصب الذال عطفا على يضل والباقون بالرفع على يشترى وسكن حمزة زاى هزوا وضمها الباقون * ولما انفتح هذا الشقاء الدائم بينه بقوله تعالى (أولئك) أى هؤلاء البعداء البغضاء (لهم عذاب مهين) لاهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه * ولما كان الانسان قد يكون غافلا فاذا نبه انتبه نبه سبحانه وتعالى على ان هذا الانسان المنهمك فى أسباب الخسران لا يزداد على ممر الزمان الا مفاجأة لكل ما يرد عليه من البيان بقوله تعالى (واذا تتلى عليه آياتنا) أى تجدد عليه تلاوتها أى تلاوة القرآن من كل تال كان (ولى) أى بعد السماع مطلق التولية سواء أكان على الجانبية أو مدبرا (مستكبرا) أى طالبا الكبر موجدا له بالاعراض عن الطاعة (كان) أى كانه (لم يسمعها) فهو لم يزل على حالة الكبر (كان فى أذنيه وقرا) أى صمما يستوى معه تكليم غيره له وسكوته * (تنبيه) * جملتا التشبيه حالان من ضمير ولى أو الثانية بيان للاولى وقرأ نافع بسكون الذال والباقون بضمها * ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال تعالى (فبشره) أى أعلمه (بعذاب أليم) أى مؤلم وذكر البشارة تهكم به وهو النضر بن الحرث كما مرت الاشارة اليه * ولما بين تعالى حال المعرض عن سماع الآيات بين حال من يقبل على تلك الآيات بقوله تعالى (ان الذين آمنوا) أى أوجدوا الايمان (وعملوا) أى تصديقا له (الصالحات لهم جنات) أى بساتين (النعيم) أى نعيم جنات فعكس للمبالغة كما أن لهؤلاء العذاب المهين ووحد العذاب وجمع الرحمة اشارة الى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب ولما كان ذلك قد لا يكون دائما وكان السرور بشئ قد ينقطع قال تعالى (خالدين فيها) أى دائما وقوله تعالى (وعد الله) أى الذى لا شئ أجل منه مصدر مؤكد لنفسه لان قوله تعالى جنات فى معنى وعدهم الله تعالى ذلك وقوله تعالى (حقا) مصدر مؤكد لغيره أى لمضمون تلك الجملة الاولى وعاملهما مختلف فتقدير الاولى وعد الله ذلك وعدا وتقدير الثانية أحق ذلك حقا فاكد نعيم الجنات ولم يؤكد العذاب المهين (وهو العزيز) أى فلا يغلبه شئ (الحكيم) أى الذى لا يضع شيأ الا فى محله * ولما ختم بصفتى العزة وهى غاية القدرة والحكمة وهى ثمرة العلم دل عليهما باتقان أفعاله بقوله تعالى (خلق السموات) على علوها وكبرها وضخامتها (بغير عمد) وقوله تعالى (ترونها) فيه وجهان أحدهما انه راجع الى السموات اذ ليست بعمد أصلا وأنتم ترونها كذلك بغير عمد الثانى انه راجع الى العمد ومعناه بغير عمد مرئية وعلى كلا الوجهين هى ثابتة لا تزول وليس ذلك الا بقدرة قادر مختار * (تنبيه) * أكثر المفسرين ان السموات مبسوطة كصحف مستوية لقوله تعالى يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب وقال بعضهم انها مستديرة وهو قول جميع المهندسين والغزالى رحمه الله تعالى حيث قال ونحن نوافقهم فى ذلك فان لهم عليه دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز وان كان فى الباب خبر يؤول بما

وكل منهم متميز بالطبقة يمتاز بها عن غيره وهذا مشترك فى معرفته جميع العالمين ثم قال ومن آياته منامكم بالليل والنهار

يحمله فضلا عن أن ليس فى القرآن والخبر مايدل على ذلك صريحا بل فيه مايدل على الاستدارة كقوله تعالى كل فى فلك يسبحون والفلك اسم لشئ مستدير بل الواجب أن السموات سواء كانت مستديرة او صفيحة مستقيمة هى مخلوقة لله تعالى باختيار لا بايجاب وطبع * ولما ذكر تعالى العمد المقلة ذكر الاوتاد المقرة بقوله تعالى (وألقى فى الارض) اى التى انتم عليها جبالا (رواسى) والعجب انها من فوقها و جميع الرواسى التى تعرفونها تكون من تحت تثبتها عن (أن تميد) اى تتحرك (بكم) كما هو شان ما على ظهر الماء (وبث) اى فرق (فيها من كل دابة) وقوله تعالى (وأنزلنا) اى بمالنا من القوة (من السماء ماء) فيه التفات عن الغيبة * ولما تسبب عن ذلك تدبير الاقوات وكان من آثار الحكمة التابعة للعلم دل عليه بقوله تعالى (فانبتنا) اى بمالنا من العلو فى الحكمة (فيها) أى الارض بخلط الماء بترابها (من كل زوج) اى صنف من النبات متشابه (كريم) بماله من البهجة والنضرة الجالبة للسرور وفى هذا دليل على عزته التى هى كمال القدرة وحكمته التى هى كمال العلم ومهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله تعالى (هذا) اى الذى تشاهدونه كله (خلق الله) اى الذى له جميع الكمال فلا كفء له فان ادعيتم ذلك (فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) اى غيره بكتهم بان هذه الاشياء العظيمة مما خلقه تعالى وانشاه فأرونى ما خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة * (تنبيه) * ما استفهام انكار مبتدأ وذا بمعنى الذى بصلته خبره وأرونى معلق عن العمل وما بعده سد مسد المفعولين ثم اضرب عن تبكيتهم بقوله تعالى (بل) منبها على أن الجواب ليس لهم خلق هكذا كان الاصل ولكنه قال تعالى (الظالمون) اى العريقون فى الظلم تعميما وتنبيها على الوصف الذى اوجب لهم كونهم (فى ضلال) عظيم جدا محيط بهم (مبين) اى فى غاية الوضوح وهو كونهم يضعون الاشياء فى غير مواضعها لانهم فى مثل الظلام لانورلهم لانحجاب شمس الانوار عنهم بجبل الهوى فلا حكمة لهم ثم انه تعالى لما نفاها عنهم اثبتها لبعض أوليائه بقوله تعالى (ولقد آتينا) بمالنا من العظمة والحكمة (لقمان) وهو عبد من عبيدنا المطيعين لنا (الحكمة) وهو العلم المؤيد بالعمل أو العمل المحكم بالعلم قال ابن قتيبة لا يقال لشخص حكيم حتى تجتمع له الحكمة فى القول والفعل قال ولا يسمى المتكلم بالحكمة حكيما حتى يكون عاملا بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى العقل والفهم والفطنة واختلف فى نسبه وفى سبب حكمته فقيل هو لقمان بن باعورا ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته وقيل كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وادرك داود عليه السلام واخذ عنه العلم وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال الا اكتفى اذا كفيت وقيل كان قاضيا فى بنى اسرائيل واكثر الاقاويل انه كان حكيما ولم يكن نبيا اخرج ابن ابى حاتم عن وهب ابن منبه انه سئل أكان لقمان نبيا قال لالم يوح اليه وكان رجلا حكيما وعن ابن عباس لقمان لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان راعيا أسود ورزقه الله تعالى العتق ورضى قوله ووصيته فقص أمره فى القرآن لتمسكوا بوصيته وقال ابن المسيب كان أسود من سودان مصر خياطا وقال مجاهد كان عبدا أسود غليظ الشفتين مشقق القدمين وقيل كان نجارا وقيل كان راعيا وقيل كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة حطب وقال عكرمة والشعبى كان نبيا

وختمها بقوله لقوم يسمعون لان من سمع سماع تدبر أن النوم من صنع الله الحكيم لا يقدر على اجتلابه اذا امتنع

وقيل

وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وعنه انه قال لرجل ينظر اليه ان كنت تراني
أسود فقلبي أبيض وعن عكرمة قال كان لقمان أهون مملوك على سيده وأول ماروى من
حكمته أنه بينما هو مع مولاه اذ دخل المخرج وأطال فيه الجلوس فنادى لقمان ان طول
الجلوس على الحاجة يتيجع منه الكبد ويكون منه الباسور ويصعد الحر الى الرأس فخرج
وكتب حكمته على الحش قال وسكر مولاه فخاطر قوما على أن يشرب ماء بحيرة فلما أفاق عرف
ماوقع منه فدعا لقمان فقال لمثل هذا كنت أخبؤك قال اجمعهم فلما اجتمعوا قال على أي شئ
خاطرتموه قالوا على أن يشرب ماء هذه البحيرة قال فان لها موادا فاحبسوا موادها عنه قال
وكيف نستطيع أن نحبس موادها قال فكيف يستطيع أن يشربها ولها مواد وأخرج
الحكيم الترمذي في نوادر الاصول عن أبي مسلم الخولاني قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان لقمان كان عبدا كثير التفكر حسن الظن كثير الصمت أحب الله فأحبه الله فمن عليه
بالحكمة نودي بالخلافة قبل داود فقيل له يالقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الارض تحكم
بين الناس قال لقمان ان أجبرني ربي قبلت فاني اعلم أنه ان فعل ذلك أعانني وعلمني وعصمني
وان خيرني اخترت العافية ولم أسأل البلاء فقالت الملائكة يالقمان لم قال لان الحاكم بأشد
المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان فيخذل أو يعان فان أصاب فبالحرى أن ينجو وان
أخطأ أخطأ طريق الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلا فهو خير من أن يكون شريفا ضائعا ومن
يخير الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه
فنام نومة فاعطى الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ثم نودي داود بعده بالخلافة فقبلها ولم يشترط
مااشترط لقمان فوقع في الذي حكاه الله عنه فصفح الله تعالى عنه وتجاوز وكان لقمان يوازره
اي يساعده بعلمه وحكمته فقال داود طوبى لك يالقمان اوتيت الحكمة فصرفت عنك البلية
واوتي داود الخلافة فابتلي بالذنب والفتنة وأخرج ابن ابي حاتم عن قتادة قال خير الله تعالى
لقمان بين الحكمة والنبوة فاختار الحكمة فاتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة فاصبح
ينطق بها فقيل له كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك فقال انه لو ارسل الى
بالنبوة عزمة لرجوت فيها الفوز منه ولكنت ارجو ان اقوم بها ولكنه خيرني فخفت ان
اضعف عن النبوة فكانت الحكمة احب الى وروى انه دخل على داود وهو يصنع الدروع
وقد لين الله له الحديد كالطين فاراد ان يسأله فادركته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها وقال نعم
لبوس الحرب انت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود بحق ماسميت حكيما وروى
ان مولاه امره بذبح شاة وبان يخرج منها اطيب مضغتين فاخرج اللسان والقلب ثم امره
بمثل ذلك وأن يخرج اخبث مضغتين فاخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال هما
اطيب مافيها اذا طابا وأخبث مافيها اذا خبثا وروى انه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة
فقال الست فلانا الراعي فبم بلغت مابلغت قال بصدق الحديث وأداء الامانة وترك
مالايعنيني وعن ابن المسيب انه قال لاسود لاتحزن فانه كان من خير الناس ثلاثة من
السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان كان أسود نوبيا ذا مشافر وروى سادات السودان
أربعة لقمان الحبشي والنجاشي وبلال ومهجع وعن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في العزلة وواحد في الصمت وقال لقمان لامال كصحة

ولا على دفعه اذا ورد بما لم
ان له صانعا مدبرا ثم قال
ومن آياته يريكم البرق
الآية وختمها بقوله لقوم
يعقلون لان العقل ملاك

ولا نعيم كطيب نفس وقال ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع * ولما كانت الحكمة هي
الاقبال على الله قال الله تعالى (أن اشكر لله) أي وقلنا له أن اشكر لله على ما أعطاك من
الحكمة (ومن يشكر) أي يجدد الشكر ويتعاهده بنفسه كائنا من كان (فانما يشكر
لنفسه) أي لان ثواب شكره له (ومن كفر) أي النعمة (فان الله غني) عن الشكر
وغيره (حميد) أي له جميع المحامد وان كفره جميع الخلق (و) اذكر (اذ قال لقمان لابنه
وهو يعظه يا بني) تصغير اشفاق وقرأ حفص بفتح الياء وسكنها ابن كثير وكسرها الباقون
(لا تشرك بالله) أي الملك الاعظم (ان الشرك) أي بالله (لظلم عظيم) فرجع اليه
وأسلم ثم قال له ايضا يا بني اتخذ تقوى الله تعالى تجارة يأتيك الفرج من غير بضاعة يا بني احضر
الجنائز ولا تحضر العرس فان الجنائز تذكر الآخرة والعرس يشهيك الدنيا يا بني لا تأكل شبعا
من شبع فانك أن تلقيه للكلب خير من أن تأكله يا بني لا تكونن أعجز من هذا الديك الذي
يصوت بالاسحار وأنت النائم على فراشك يا بني لا تؤخر التوبة فان الموت يأتي بغتة يا بني لا ترغب
في ود الجاهل فترى انك ترضى عمله يا بني اتق الله ولا ترى الناس انك تخشى ليكرموك بذلك
وقلبك فاجر يا بني ما ندمت على الصمت قط فان الكلام اذا كان من فضة كان السكوت من ذهب
يا بني اعتزل الشر كما يعتزلك فان الشر للشر خلق يا بني اياك وشدة الغضب فان شدة الغضب
ممحقة لفؤاد الحكيم يا بني عليك بمجالس العلماء واسمع كلام الحكماء فان الله تعالى يحيي القلب
الميت بنور الحكمة كما يحيي الارض بوابل المطر فان من كذب ذهب ماء وجهه ومن ساء خلقه
كثر غمه ونقل الصخور من مواضعها أيسر من افهام من لا يفهم يا بني لا ترسل رسولا جاهلا
فان لم تجد حكيما فكن رسول نفسك يا بني لا تنكح أمة غيرك فتورث بنيك حزنا طويلا يا بني
يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حليم يا بني اختر المجالس على عينك فاذا رأيت المجلس
يذكر فيه اسم الله عز وجل فاجلس معهم فانك ان تك عالما ينفعك علمك وان تك غبيا يعلموك
وان يطلع الله عز وجل عليهم برحمة تصبك معهم يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر فيه الله
تعالى فانك ان تكن عالما لا ينفعك علمك وان تكن غبيا يزيدوك غباوة وان يطلع الله تعالى
عليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم يا بني لا يأكل طعامك الا الاتقياء وشاور في أمرك العلماء
يا بني ان الدنيا بحر عميق وقد غرق فيها ناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله وحشوها
الايمان بالله وشراعها التوكل على الله لعلك أن تنجو ولا أراك ناجيا يا بني اني حملت الجندل
والحديد فلم أحمل شيئا أثقل من جار السوء وذقت المرارة كلها فلم أذق أشد من الفقر يا بني كن
ممن لا يبتغي محمدة الناس ولا يكسب مذمتهم فنفسه منهم في غنى والناس منه في راحة يا بني ان
الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله يحيي
القلوب بنور الحكمة كما يحيي الارض الميتة بوابل السماء يا بني لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم
يا بني اذا أردت ان تواخي رجلا فاغضبه قبل ذلك فان أنصفك عند غضبه والا فاحذره يا بني
انك منذ نزلت الى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدار أنت اليها تسير أقرب من دار
أنت عنها تباعد يا بني عود لسانك أن يقول اللهم اغفر لي فان لله ساعات لا ترد يا بني اياك والدين
فانه ذل النهار وهم الليل يا بني ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته وخف الله خوفا لا يؤيسك

لامر وهو المؤدي الى العلم
(قوله
فيه اذكر وغيره
وهو أهون عليه) ذكر
الضمير فيه مع انه راجع
الى الاعادة المأخوذة من

من

من رحمته اه وانما أكثرت من ذلك لعل الله ينفعني ومن طالعه بذلك وسيأتي في كلام الله تعالى زيادة على ذلك واقتصرت على هذا القدر والا فمواعظه لابنه لو أراد شخص الاكثار منها لجعل منها مجلدات فقد أخرج ابن أبي الدنيا عن حفص بن عمر الكندي قال وضع لقمان عليه السلام جرابا من خردل الى جنبه وجعل يعظ ابنه موعظة ويخرج خردلة فنفد الخردل فقال يابني وعظتك موعظة لو وعظتها جبلا لتفطر فتفطر ابنه فسبحان من يعز و يذل ويغني ويفقر ويشفي ويمرض ويرفع من يشاء وان كان عبدا فلا بدع أن يخص محمدا صلى الله عليه وسلم ذا النسب العالي والمنصب المنيف بالرسالة من بين قريش وان لم يكن من أهل الدنيا المتعظمين بها ولما ذكر سبحانه ما أوصى به ولده من شكر المنعم الاول الذي لم يشركه في ايجاده أحد وذكر ما عليه الشرك من الفظاعة والشناعة أتبعه وصيته سبحانه للولد بالوالد لكونه المنعم الثاني بالسببية في وجوده بقوله تعالى (ووصينا الانسان بوالديه) أي أمرناه ان يبرهما و يطيعهما و يقوم بهما ثم بين تعالى السبب في ذلك بقوله تعالى (حملته امه وهنا) أي حال كونها ذات وهن بحمله و بالغ بجعلها نفس الوهن دلالة على شدة ذلك الضعف (على وهن) أي ضعف الحمل وضعف الطلق وضعف الولادة ثم أشار الى مالها عليه من المنة بعد ذلك بالشفقة وحسن الكفالة وهو لا يملك لنفسه شيأ بقوله تعالى (وفصاله) أي فطامه من الرضاعة بعد وضعه (في عامين) تقاسي فيهما في منامه وقيامه مالا يعلمه حق علمه الا الله تعالى (فان قيل) وصى الله تعالى بالوالدين وذكر السبب في حق الام مع ان الاب وجد منه أكثر من الام لانه حمله في صلبه سنين و رباه بكسبه سنين فهو أبلغ (أجيب) بان المشقة الحاصلة للام أعظم فان الاب حمله خفيفا لكونه من جملة جسده والام حملته ثقيلا آدميا مودعا فيها و بعد وضعه وتربيته ليلا ونهارا و بينهما مالا يخفى من المشقة ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن قال له من أبر أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم أباك وقوله تعالى (أن اشكرلي) لاني المنعم في الحقيقة (ولوالديك) اي لكوني جعلتهما سببا لوجودك والاحسان بتربيتك تفسير لوصينا او علة له ثم علل الامر بالشكر محذرا بقوله تعالى (الي) لا الى غيري (المصير) فأحاسبك على شركك ومعاصيك وعن القيام بحقوقهما قال سفيان بن عيينة في هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر لله ومن دعا لوالديه في ادبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين * ولما ذكر تعالى وصيته بهما واكد حقهما اتبعه الدليل على ما ذكر لقمان من قباحة الشرك بقوله تعالى (وان جاهداك) اي مع ما امرتك به من طاعتهما (على ان تشرك بي) وقوله تعالى (ماليس لك به علم) موافق للعلم لانه لا يمكن ان يدل علم من انواع العلوم على شئ من الشرك بل العلوم كلها دالة على الوحدانية * ولما قرر ذلك على هذا المنوال البديع قال مسببا عنه (فلا تطعهما) اى في ذلك ولو اجتمعا على المجاهدة لك عليه بل خالفهما وان أدى الامر الى السيف فجاهدهما به لان أمرهما بذلك مناف للحكمة حامل على محض الجور والسفه ففيه تنبيه لقريش على محض الغلط في التقليد لآبائهم في ذلك وربما أفهم ذلك الاعراض عنهما بالكلية فلهذا قال تعالى (وصاحبهما في الدنيا) اى في أمورها التي لا تتعلق بالدين مادمت حيا بهما (معروفا) ببرهما ان كانا على دين يقران عليه ومعاملتهما بالحلم والاحتمال وما

في قوله وهو
لفظ يعيده
الذي يبدأ الخلق ثم يعيده
نظرا الى المعنى دون اللفظ
وهو جمعه أورده كما نظر
اليه في قوله لنحيي به بلدة

تقتضيه مكارم الاخلاق ومعالى الشيم * ولما كان ذلك قد يجر الى نوع وهن فى الدين بعض محاباة نفى ذلك بقوله تعالى (واتبع) أى بالغ فى أن تتبع (سبيل) أى دين وطريق (من أناب) أى أقبل خاضعا (الىّ) لم يلتفت الى عبادة غيرى وهم المخلصون فان ذلك لا يخرجك عن برهما ولا عن توحيد الله تعالى ولا عن الاخلاص له *(تنبيه)* فى هذا حث على معرفة الرجال بالحق وأمر بمحك المشايخ وغيرهم على محك الكتاب والسنة فمن كان عمله موافقا لهما اتبع ومن كان عمله مخالفا لهما اجتنب واذا كان مرجع أمورهم كلها اليه فى الدنيا ففى الآخرة كذلك كما قال تعالى (ثم الىّ) أى فى الآخرة (مرجعكم فانبئكم) أى أفعل فعل من يبالغ فى التعقيب والاختبار عقب ذلك وتبيينه لان ذلك أنسب شئ للحكمة وتعقب كل شئ بحسب ما يليق به (بما كنتم تعملون) أى تجددون عمله من صغير وكبير وجليل وحقير فاجازى من أريد وأغفر لمن أريد فاعد لذلك عدته ولا تعمل عمل من ليس له مرجع يحاسب فيه ويجازى على مثاقيل الذر من اعماله والآيتان معترضتان فى تضاعيف وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النهى عن الشرك كانه قال تعالى وصينا بمثل ما وصى به وذكر الوالدين للمبالغة فى ذلك فانهما مع انهما تلوا البارى فى استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يتبعا فى الاشراك فما ظنكم بغيرهما ونزولهما فى سعد بن ابى وقاص وامه مكثت لاسلامه ثلاثا لم تطعم فيها شيأ ولذلك قيل من أناب الى هو ابو بكر الصديق رضى الله عنه فان سعدا أسلم بدعوة أبى بكر له ثم ان ابن لقمان قال لابيه يا ابت ان عملت الخطيئة حيث لا يرانى احد كيف يعلمها الله تعالى فقال (يابنى) مجيبا له مستعطفا مصغرا له بالنسبة الى حمل شئ من غضب الله تعالى (انها) أى الخطيئة (ان تك) وأسقط النون لغرض الايجاز فى الايصاء (مثقال) أى وزن ثم حقرها بقوله (حبة) وزاد فى ذلك بقوله (من خردل) اى ان تكن فى الصغر كحبة الخردل وقرأ نافع مثقال بالرفع على أن الهاء ضمير الخطيئة كما مر أو القصة وكان تامة وتانيثها لاضافة المثقال الى الحبة كقول الاعشى

وتشرق بالقول الذى قد ذكرته * كما شرقت صدر القناة من الدم

والشرق الغصة يقال شرق بريقه اى غص والشاهد فى شرقت حيث انثه لاضافة الصدر الى القناة وصدرها ما فوق نصفها ثم أثبت النون فى قوله مبينا عن صغرها (فتكن) اشارة الى ثباتها فى مكانها ولبزداد شوق النفس الى محط الفائدة ويذهب الوهم كل مذهب معبرا عن أعظم الخفاء وأتم الاحوال (فى صخرة) أى صخرة كانت ولو أنها أشد الصخور وأخفاها ولما أخفى وضيق أظهر ووسع ورفع وخفض ليكون اعظم لضياعها لحقارتها بقوله (أو فى السموات) اى فى اى مكان منها على سعة ارجائها وتباعد انحائها واعاد أو نصا على ارادة كل منهما على حدته بقوله (أو فى الارض) أى كذلك وهذا كما ترى لا ينفى أن تكون الصخرة فيهما أو فى غيرهما أو فى أحدهما وأخرج ابن أبى حاتم عن على بن رباح انه لما وعظ لقمان ابنه وقال انها ان تك الآية أخذ حبة من خردل فأتى بها الى اليرموك فألقاها فى عرضه ثم مكث ماشاء الله تعالى ثم ذكرها وبسط يده فأقبل بها ذباب حتى وضعها فى راحته وقال بعض المفسرين المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهى لا فى الارض ولا فى السماء وقال الزمخشرى فيه اضمار تقديره

(قوله ميتا أى مكانا ميتا) قوله أولم يروا أن الله يبسط الرزق) قال هنا بلفظ أولم يروا وفى الزمر بلفظ أولم يعلموا لان بسط الرزق مما يرى فناسب ذكر الرؤية

ان تكن فى صخرة أو فى موضع آخر فى السموات أو فى الارض وقيل هذا من تقديم الخاص وتأخير العام وهو جائز فى مثل هذا التقسيم وقيل خفاء الشئ يكون بطرق منها أن يكون فى غاية الصغر ومنها أن يكون بعيدا ومنها أن يكون فى ظلمة ومنها أن يكون وراء حجاب فاذا امتنعت هذه الامور فلا يخفى فى العادة فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط بقوله ان تك مثقال حبة من خردل اشارة الى الصغر وقوله فتكن فى صخرة اشارة الى الحجاب وقوله أو فى السموات اشارة الى البعد فانها أبعد الابعاد وقوله أو فى الارض اشارة الى الظلمات فان جوف الارض أظلم الاماكن وقوله (يأت بها الله) أبلغ من قول القائل يعلمها الله لان من يظهر له شئ ولا يقدر على اظهاره لغيره يكون حاله فى العلم دون حال من يظهر له الشئ ويظهره لغيره فقوله يأت بها الله أى يظهرها للاشهاد يوم القيامة فيحاسب بها عاملها (ان الله) أى الملك العظيم (لطيف) أى نافذ القدرة يتوصل علمه الى كل خفى عالم بكنهه وعن قتادة لطيف باستخراجها (خبير) أى عالم ببواطن الامور فيعلم مستقرها روى فى بعض الكتب ان هذه آخر كلمة تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها فمات قال الحسن معنى الآية هو الاحاطة بالاشياء صغيرها وكبيرها ولما نبهه على احاطة علمه سبحانه واقامته للحساب أمره بما يدخره لذلك توسلا اليه وتخشعا لديه وهو رأس ما يصلح به العمل ويصحح التوحيد ويصدقه بقوله (يا بنى) مكررا للمناداة تنبيها على فرط النصيحة لفرط الشفقة (أقم الصلوة) أى بجميع حدودها وشروطها ولا تغفل عنها تسببا فى نجاة نفسك وتصفية سرك فان اقامتها وهو الاتيان بها على النحو المرضى مانعة من الخلل فى العمل ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لانها الاقبال على من وحدته فاعتقدت انه الفاعل وحده واعرضت عن كل ما سواه لانه فى التحقيق عدم ولهذا الاقبال والاعراض كانت ثابتة للتوحيد وبهذا يعلم ان الصلاة كانت فى سائر الملل غير ان هيآتها اختلفت وترك ذكر الزكاة تنبيها على انه من حكمته والحكمة تخليه وتخلى ولده من الدنيا حق ما يكفيهم لقوتهم ولما أمره بتكميله فى نفسه توفية لحق الحق عطف على ذلك تكميله لغيره بقوله (وأمر بالمعروف) أى كل من تقدر على أمره تهذيبا لغيرك وشفقة على نفسك تخليص أبناء جنسك (وانه) أى كل من قدرت على نهيه (عن المنكر) حبا لاخيك ما تحب لنفسك تحقيقا للنصيحة وتكميلا لعبادتك ومن هذا الطراز قول أبى الاسود رحمه الله تعالى

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فان انتهت عنه فانت حكيم

لانه أمره أولا بالمعروف وهو الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر فاذا أمر نفسه ونهاها ناسب أن يأمر غيره وينهاه وهذا وان كان من قول لقمان الا انه لما كان فى سياق المدح له كنا مخاطبين به (فان قيل) كيف قدم فى وصيته لابنه الامر بالمعروف على النهى عن المنكر وحين أمر ابنه قدم النهى عن المنكر على الامر بالمعروف فقال لا تشرك بالله ثم قال أقم الصلوة (أجيب) بأنه كان يعلم ان ابنه معترف بوجود الاله فما أمره بهذا المعروف بل نهاه عن المنكر الذى ترتب على هذا المعروف وأما ابنه فأمره أمرا مطلقا والمعروف يقدم على المنكر * ولما كان القابض على دينه فى غالب الازمان كالقابض على الجمر قال له (واصبر) صبرا عظيما بحيث تكون مستعليا (على ما) أى الذى (أصابك) أى فى عبادتك وغيرها من الامر بالمعروف وغيره

وما فى الزمر تقدمه او تبيته على علم فناسب ذكر العلم (قوله ولتجرى الفلك بامره) قال ذلك هنا وقاله فى الجاثية بزيادة فيه لان

قوله فان قيل الخ لا يخفى ما فيه فتأمل

سواء أكان بواسطة العباد أم لا كالمرض وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة وختمها بالصبر لانهما ملاك الاستعانة قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وأخرج أحمد عن هشام بن عروة عن أبيه قال مكتوب فى الحكمة يعنى حكمة لقمان عليه السلام لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسطا تكن أحب الى الناس ممن يعطيهم العطايا وقال مكتوب فى الحكمة أو فى التوراة الرفق رأس الحكمة وقال مكتوب فى التوراة كما ترحمون ترحمون وقال مكتوب فى الحكمة كما تزرعون تحصدون وقال مكتوب فى الحكمة أحبب خليلك وخليل أبيك وقيل للقمان أى الناس شر قال الذى لا يبالى ان يراه الناس مسيأ ومن حكمته انه قال أقصر عن الحاجة ولا أنطق فيما لا يعنينى ولا أكون مضحا كامن غير عجب ولا مشاء الغير أرب ومنها من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزا والذل فى طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية ومنها انه كان يقول ثلاثة لا يعرفون الا فى ثلاثة مواطن الحليم عند الغضب والشجاع عند الحرب وأخوك عند حاجتك اليه ۞ ولما كان ما أحكمه لولده عظيم الجدوى وجعل ختامه الصبر الذى هو ملاك الاعمال نبه بذلك بقوله على سبيل الاستئناف أو التعليل (ان ذلك) أى الامر العظيم الذى أوصيتك به لاسيما الصبر على المصائب (من عزم الامور) أى معزوماتها تسمية لاسم المفعول أو الفاعل بالمصدر أى الامور المقطوع بها المفروضة أو القاطعة الجازمة بجزم فاعلها ثم حذره عن الكبر معبرا عنه بلازمه لان نفى الاعم نفى للاخص بقوله (ولا تصعر خدك) أى لا تمله متعمدا امالته بامالة العنق متكلفا لها صرفا عن الحالة القاصدة قال أبو عبيدة وأصل الصعر داء يصيب البعير يلوى منه عنقه وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم بغير ألف بعد الصاد وتشديد العين والباقون بالف بعد الصاد وتخفيف العين والرسم يحتملهما فانه رسم بغير ألف وهما لغتان لغة الحجاز التخفيف وتميم التثقيل ۞ ولما كان ذلك قد يكون لغرض من الاغراض التى لا تدوم أشار الى المقصود بقوله (للناس) بلام العلة أى لا تفعل ذلك لاجل الامالة عنهم وذلك لا يكون الا تهاونا بهم من الكبر بل أقبل عليهم بوجهك كله مستبشرا منبسطا من غير كبر ولا عتو وعن ابن عباس لا تتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك اذا كلموك وقيل هو الرجل يكون بينك وبينه الشحنة فيلقاك فتعرض عنه وقيل هو الذى اذا سلم عليه لوى عنقه تكبرا وقيل معناه لا تحتقر الفقير ليكن الفقير والغنى عندك سواء ثم اتبع ذلك ما يلزمه بقوله (ولا تمش) وأشار بقوله (فى الارض) الى أن أصله تراب وهو لا يقدر أن يعدوه وسيصير اليه وأوقع المصدر موقع الحال والعلة فى قوله (مرحا) أى اختيالا وتبخترا أى لا تكن منك هذه الحقيقة لان ذلك مشى أشر بطر متكبر فهو جدير بأن يظلم صاحبه ويفحش ويبغى بل امش هونا فان ذلك يفضى بك الى التواضع فتصل الى كل خير فترفق بك الارض اذا صرت فى بطنها (ان الله) أى الذى له الكبرياء والعظمة (لا يحب) أى يعذب (كل مختال) أى مراء للناس فى مشيه متبختر يرى له فضلا على الناس (فخور) على الناس بنفسه يظن ان اسباغ النعم الدنيوية من محبة الله تعالى له وذلك من جهله فان الله يسبغ نعمه على الكافر الجاحد فينبغى للعارف أن لا يتكبر على عباده فان الكبر هو الذى تردى به سبحانه فمن نازعه فيه قصمه ۞ ولما كان النهى عن ذلك أمرا بضده قال (واقصد) أى اقتصد واسلك

(قوله وان كانوا من قبل أن
الذى ينصركم الصبر
وهو الصبر حيث قال الله
الضمير وثم تقدم له مرجع
ماهنا لم يتقدم له مرجع

الطريق

الطريق الوسطى (في مشيك) بين ذلك قواما أى ليكن مشيك قصدا لا تخيلا ولا اسراعا أى بين مشيين لا تدب ديب المتماوتين ولا تثب وثب الشطار قال صلى الله عليه وسلم سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن وأما قول عائشة فى عمر رضى الله تعالى عنهما كان اذا مشى أسرع فانما أرادت السرعة المرتفعة عن ديب المتماوت وقال عطاء امش بالوقار والسكينة لقوله تعالى يمشون على الارض هونا وعن ابن مسعود كانوا ينهون عن وثب اليهود ودبيب النصارى والقصد فى الافعال كالقسط فى الاوزان قاله الرازى فى اللوامع وهو المشى الهون الذى ليس فيه تصنع للخلق لا تواضع ولا تكبر (واغضض) أى انقص (من صوتك) لئلا يكون صوتك منكرا او تكون برفع الصوت فوق الحاجة كالاذان فهو مأمور به وكانت الجاهلية يتمدحون برفع الصوت قال القائل

جهير الكلام جهير العطاس * جهير الروى جهير النغم

وقال مقاتل اخفض من صوتك (فان قيل) لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى (أجيب) بأن رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوته وربما يخرق الغشاء الذى داخل الاذن وأما سرعة المشى فلا تؤذى وان آذت فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ولان المشى يؤذى آلة المشى والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فان الكلام ينتقل من السمع الى القلب ولا كذلك المشى وأيضا فلان قبح القول أقبح من قبح الفعل وحسنه أحسن لان اللسان ترجمان القلب ولما كان رفع الصوت فوق الحاجة منكرا كما ان خفضه دونها تماوت وتكبر وكان قد أشار الى النهى عن هذا بين فافهم أن الطرفين مذمومان علل النهى عن الاول بقوله (ان أنكر) أى أفظع وأبشع وأوحش (الاصوات) كلها المشتركة فى المكاره برفعها فوق الحاجة وأخلى الكلام من لفظ التشبيه وأخرجه مخرج الاستعارة تصويرا للصوت الرافع صوته فوق الحاجة بصورة النهاق وجعل المصوت كذلك حمارا مبالغة فى التهجين وتنبيها على أنه من الكراهة بمكان فقال (لصوت الحمير) أى هذا الجنس لما له من العلو المفرط من غير حاجة فان كل حيوان قد يفهم من صوته انه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو لغير ذلك والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق بصوت أوله زفير وآخره شهيق وهما فعل أهل النار وأفرد الصوت ليكون نصا على ارادة الجنس لئلا يظن ان الاجتماع شرط فى ذلك ولذكر الحمار مع ذلك من بلاغة الشتم والذم ما ليس لغيره ولذلك يستهجن التصريح باسمه بل يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون الطويل الاذنين كما يكنى عن الاشياء المستقذرة وقد عد فى مساوى الآداب ان يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من ذوى المروأة ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وان بلغت منه الرحلة واما ركوبه صلى الله عليه وسلم فلمخالفته عادتهم واظهاره التواضع من نفسه وأما الرفع مع الحاجة فغير مذموم فانه ليس بمستنكر ولا مستبشع (فان قيل) كيف يفهم كونه أنكر الاصوات مع ان حز المنشار بالمبرد ودق النحاس بالحديد أشد صوتا (أجيب) من وجهين الاول ان المراد أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد السؤال والثانى ان الصوت الشديد لحاجة ومصلحة لا يستبشع ولا ينكر صوته كما مرت الاشارة اليه

يغزل عليهم من قبله لمبلسين) فائدة ذكر من قبله بعد قوله من قبل أن ينزل عليهم التأكيد وقيل الضمير فيه لارسال الرياح أو للسحاب.

بخلاف صوت الحمير قال موسى بن أعين سمعت سفيان الثوري يقول في قوله تعالى ان أنكر الاصوات لصوت الحمير قال صياح كل شئ تسبيح لله تعالى الا الحمار وقال جعفر الصادق في ذلك هي العطسة القبيحة المنكرة وقال وهب تكلم لقمان باثني عشر ألف كلمة من الحكمة أدخلها الناس في كلامهم قال خالد الربعي كان لقمان عبدا ومن حكمته أنه دفع اليه مولاه شاة فقال له اذبحها وأتني بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ثم دفع اليه شاة أخرى فقال اذبحها وأتني بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال ليس شئ أطيب منهما اذا طابا ولا أخبث منهما اذا خبثا وقد مرت الاشارة الى ذلك ومن حكمته أنه قال لابنه يا بني لا ينزل بك امر رضيته أو كرهته الا جعلت في الضمير منك أن ذلك خير لك ثم قال لابنه يا بني ان الله قد بعث نبيا هلم حتى نأتيه فنصدقه فخرج على حمار وابنه على حمار وتزودا ثم سارا أياما وليالي حتى لقيتهما مفازة فأخذا أهبتهما لها فدخلا فسارا ما شاء الله تعالى حتى ظهرا وقد تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد واستبطآ حماريهما فنزلا وجعلا يشتدان على سوقهما فبينما هما كذلك اذ نظر لقمان امامه فاذا هو بسواد ودخان فقال في نفسه السواد الشجر والدخان العمران والناس فبينما هما يشتدان اذ وطئ ابن لقمان على عظم ناتئ على الطريق فخر مغشيا عليه فوثب اليه لقمان وضمه الى صدره واستخرج العظم باسنانه ثم نظر اليه لقمان فذرفت عيناه فقال يا أبت انت تبكي وأنت تقول هذا خير لي وقد نفد الطعام والماء وبقيت أنا وأنت في هذا المكان فان ذهبت وتركتني على حالي ذهبت بهم وغم ما بقيت وان أقمت معي متنا جميعا فقال يا بني أما بكائي فرقة الوالدين وأما ما قلت كيف يكون هذا خيرا فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ثم نظر لقمان أمامه فلم ير ذلك الدخان والسواد واذا بشخص أقبل على فرس أبلق عليه ثياب بياض وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسحا فلم يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريبا فتوارى عنه ثم صاح به أنت لقمان قال نعم قال أنت الحكيم قال كذلك يقال قال ما قال لك ابنك قال يا عبد الله من أنت أسمع كلامك ولا أرى وجهك قال أنا جبريل أمرني ربي بخسف هذه القرية ومن فيها فأخبرت انكما تريدانها فدعوت ربي ان يحبسكما عني بما شاء فحبسكما بما ابتلى به ابنك ولولا ذلك لخسفت بكما مع من خسفت ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم ابنه فاستوى قائما ومسح بيده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعاما وعلى الذي كان فيه الماء فامتلأ ماء ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير فاذا هما في الدار التي خرجا بعد أيام وليال منها وعن عبد الله بن دينار ان لقمان قدم من سفر فلقي غلامه في الطريق فقال ما فعل ابي فقال مات قال الحمد لله ملكت أمري قال ما فعلت أمي قال ماتت قال ذهب همي قال ما فعلت امرأتي قال ماتت قال جدد فراشي قال ما فعلت اختي قال ماتت قال سترت عورتي قال ما فعل أخي قال مات قال انقطع ظهري وعن أبي قلابة قال قيل للقمان أي الناس أصبر قال صبر لا معه أذى قيل فأي الناس أعلم قال من ازداد من علم الناس الى علمه قيل فأي الناس خير قال الغني قيل الغني من المال قال لا ولكن الغني من التمس عنده خير وجد والا أغنى نفسه عن الناس وعن سفيان قيل للقمان أي الناس شر قال الذي لا يبالي ان يراه الناس مسيئا وعن عبد الله بن زيد قال قال

فلا تكرار (قوله الله الذي خلقكم من ضعف) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الضعف صفة والمخاطبون لم يخلقوا من صفة بل من

لقمان الا ان يد الله على افواه الحكماء لا يتكلم أحدهم الا ما هيأ الله تعالى له ولما استدل سبحانه بقوله تعالى خلق السموات بغير عمد على الوحدانية وبين بحكمة لقمان ان معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة استدل ثانيا على الوحدانية بالنعم بقوله تعالى (ألم تروا) أى تعلموا علما هو فى ظهوره كالمشاهدة (ان الله) أى الحائز لكل كمال (سخر لكم) أى لاجلكم (ما فى السموات) من الانارة والاظلام والشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر والبرد وغير ذلك من الانعامات مما لا يحصى كما قال والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره (و) سخر لكم (ما فى الارض) من البحار والثمار والآبار والانهار والدواب والمعادن وغير ذلك مما لا يحصى (واسبغ) أى أوسع وأتم (عليكم) وقوله تعالى (نعمه) قرأه نافع وأبو عمرو وحفص بفتح العين وبعد الميم هاء مضمومة والباقون بسكون العين وبعد الميم تاء مفتوحة منونة ومعناها الجمع أيضا كقوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها واختلف فى قوله عز وجل (ظاهرة وباطنة) على أقوال فقال عكرمة عن ابن عباس النعمة الظاهرة القرآن والاسلام والباطنة ما ستر عليك من الذنوب ولم يعجل عليك بالنقمة وقال الضحاك الظاهرة حسن الصورة وتسوية الاعضاء والباطنة المعرفة وقال مقاتل الظاهرة تسوية الخلق والرزق والاسلام والباطنة ما ستر من الذنوب وقال الربيع الظاهرة الجوارح والباطنة القلب وقال عطاء الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقال مجاهد الظاهرة ظهور الاسلام والنصر على الاعداء والباطنة الامداد بالملائكة وقال سهل بن عبد الله الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته وقيل الظاهرة تمام الرزق والباطنة حسن الخلق وقيل الظاهرة الامداد بالملائكة والباطنة القاء الرعب فى قلوب الكفار وقيل الظاهرة الاقرار باللسان والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك ويروى فى دعاء موسى عليه السلام الهى دلنى على أخفى نعمتك على عبادك فقال أخفى نعمتى عليهم النفس ويروى ان أيسر ما يعذب به أهل النار الاخذ بالانفاس ونزل فى النضر بن الحرث وأبى بن خلف واشباههم كانوا يجادلون النبى صلى الله عليه وسلم فى الله تعالى وفى صفاته (ومن الناس) أى أهل مكة (من يجادل) اى يحاجج فلا اهوا أعظم من جداله ولا كبر مثل كبره ولا ضلال مثل ضلاله وأظهر زيادة التشنيع على هذا المجادل بقوله تعالى (فى الله) اى المحيط علما وقدرة ثم بين تعالى مجادلته أنها (بغير علم) أى مستفاد من دليل بل بالفاظ فى ركاكة معانيها لعدم اسنادها الى حس ولا عقل ملحقة بأصوات الحيوانات العجم فكان بذلك حمارا تابعا للهوى (ولا هدى) أى من رسول عهد منه سداد الاقوال والافعال بما أبدى من المعجزات والآيات البينات فوجب أخذ أقواله مسلمة وان لم يظهر معناها (ولا كتاب) اى من الله تعالى ثم وصفه بما هو لازم له بقوله تعالى (منير) أى بين غاية البيان بل انما يجادل بالتقليد كما قال تعالى (واذا قيل) أى من اى قائل كان (لهم) اى المجادلين هذا الجدال (اتبعوا ما أنزل الله) اى الذى خلقكم وخلق آباءكم الاولين (قالوا) جمودا لا نفعل (بل نتبع) وان أتيتنا بكل دليل (ما وجدنا عليه آباءنا) لانهم أثبت منا عقولا وأقوم قيلا وأهدى سبيلا فهذه المجادلة فى غاية القبح فان النبى صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى كلام الله وهم

(قلت) المراد بالضعف الضعيف من اطلاق المصدر على اسم الفاعل كقولهم رجل عدل اى ضعيف وهى الماء أو التراب

يأخذون بكلام آبائهم و بين كلام الله تعالى و بين كلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله تعالى وكلام الجهال (أولو) اى أيتبعونهم ولو (كان الشيطان) أى البعيد من الرحمة المحترق باللعنة (يدعوهم) الى الضلال فيوبقهم فيما يسخط الرحمن فيؤديهم ذلك (الى عذاب السعير) وجواب لو محذوف مثل لاتبعوه والاستفهام للانكار والتعجب والمعنى ان الله تعالى يدعوهم الى الثواب والشيطان يدعوهم الى العذاب وهم مع هذا يتبعون الشيطان * ولما بين تعالى حال المشرك والمجادل في الله بين تعالى حال المسلم المستسلم لامر الله تعالى بقوله تعالى (ومن يسلم) أى في الحال والاستقبال (وجهه) اى قصده وتوجهه وذاته كلها (الى الله) اى الذى له صفات الكمال بان فوض أمره اليه فلم يبق لنفسه أمر أصلا فهو لا يتحرك الا بامر من أوامره سبحانه (وهو) اى والحال انه (محسن) اى مخلص بباطنه كما أخلص بظاهره فهو دائما في حال الشهود (فقد استمسك) اى أوجد الامساك بغاية ما يقدر عليه من القوة في تأدية الامور (بالعروة الوثقى) اى اعتصم بالعهد الاوثق الذى لا يخاف انقطاعه لان أوثق العرا جانب الله تعالى فان كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له وهذا من باب التمثيل مثل حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق جبل فاحتاط لنفسه بان استمسك باوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه (فان قيل) كيف قال ههنا ومن يسلم وجهه الى الله فعداه بالى وقال في البقرة بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فعداه باللام (أجيب) بان أسلم يتعدى تارة باللام وتارة بالى كما يتعدى أرسل تارة باللام وتارة بالى قال تعالى وأرسلناك للناس رسولا وقال تعالى كما أرسلنا الى فرعون رسولا (والى الله) اى الملك الاعلى (عاقبة الامور) أى مصير جميع الاشياء اليه كما ان منه باديتها وانما خص العاقبة لانهم مقرون بالبادية * ولما بين تعالى حال المسلم رجع الى بيان حال الكافر فقال تعالى (ومن كفر) اى ستر ما أداه اليه عقله من أن الله تعالى لا شريك له وأن لا قدرة أصلا لاحد سواه ولم يسلم وجهه اليه (فلا يحزنك) اى يهمك ويوجعك (كفره) كائنا من كان فانه لم يفتك شئ فيه ولا معجز لنا ليحزنك ولا تبعة عليك بسببه في الدنيا وفي الآخرة وأفرد الضمير في كفره اعتبارا بلفظ من لارادة التنصيص على كل فرد وفي التعبير هنا بالماضي وفي الاول بالمضارع بشارة بدخول كثير في هذا الدين وانهم لا يرتدون بعد اسلامهم وترغيب في الاسلام لكل من كان خارجا عنه فالآية من الاحتباك ذكر الحزن ثانيا دليلا على حذف ضده أولا وذكر الاستمساك أولا دليلا على حذف ضده ثانيا (الينا) أى في الدارين (مرجعهم فننبئهم) أى بسبب احاطتنا بأمرهم وعقب رجوعهم (بما عملوا) اى ونجازيهم عليه ان أردنا (ان الله) اى الذى لا كفء له (عليم) أى محيط العلم بما له من الاحاطة باوصاف الكمال (بذات الصدور) أى لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أسرت صدورهم (نمتعهم) أى نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا (قليلا) اى الى انقضاء آجالهم فان كل آت قريب وان ما يزول بالنسبة الى ما يدوم قليل (ثم نضطرهم) أى نلجئهم ونردهم في الآخرة (الى عذاب غليظ) أى شديد ثقيل لا ينقطع عنهم أصلا ولا يجدون لهم منه محيصا من جهة من جهاته فكأنه في شدته وثقله جرم عظيم غليظ جدا اذا برك على شئ لا يقدر على الخلاص منه ثم انه تعالى لما سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى فلا يحزنك كفره أى لا تحزن على تكذيبهم فان

عادل فعناه من ضعيف وهو النطفة (قوله لقد لبثتم في كتاب الله) اى لبثتم في كتاب الله أو في قبوركم في علم كتاب الله أو في خبره أو قضاء الله (قوله

صدقك وكذبهم يتبين عن قريب وهو رجوعهم اليها على أنه لا يتأخر الى ذلك اليوم بل يتبين قبل يوم القيامة كما قال تعالى (ولئن) اللام لام قسم (سألتهم من خلق السموات) اى بأسرها ومن فيها (والارض) كذلك وقوله تعالى (ليقولن الله) اى المسمى بهذا الاسم حذف منه نون الرفع لتوالى الامثال وواو الضمير لالتقاء الساكنين فقد أقروا بان كل ما أشركوا به بعض خلقه ومصنوع من مصنوعاته ٭ ولما تبين بذلك صدقه صلى الله عليه وسلم وكذبهم قال الله تعالى مستأنفا (قل الحمد) أى الاحاطة بجميع أوصاف الكمال (لله) أى الذى له الاحاطة الشاملة من غير تقييد بخلق الخافقين ولا غيره على ظهور الحجة عليهم بالتوحيد (بل أكثرهم لا يعلمون) اى ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك ٭ ولما أثبت لنفسه سبحانه الاحاطة بأوصاف الكمال استدل على ذلك بقوله تعالى (لله) أى الملك الاعظم (ما فى السموات) كلها (والارض) كذلك ملكا وخلقا فلا يستحق العبادة فيهما غيره ٭ ولما ثبت ذلك أنتج قطعا قوله تعالى (ان الله) أى الذى لا كفء له (هو) اى وحده (الغنى) مطلقا لان جميع الاشياء له ومحتاجة اليه وليس محتاجا الى شئ أصلا (الحميد) أى المستحق لجميع المحامد لانه المنعم على الاطلاق المحمود بكل لسان من ألسنة الاحوال والاقوال لانه هو الذى أنطقها ومن قيد الخرس أطلقها ٭ ولما قال تعالى لله ما فى السموات والارض أوهم تناهى ملكه لانحصار ما فى السموات والارض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين تعالى انه لا حد ولا ضبط لمعلوماته ومقدوراته الموجبة لحمده بقوله تعالى (ولو أن ما فى الارض) أى كلها ودل على الاستغراق وتقضى كل فرد فرد من أفراد الجنس بقوله تعالى (من شجرة) حيث وحدها (اقلام) اى والشجرة بعدها من بعدها على سبيل المبالغة سبع شجرات وأن ما فى الارض من البحر مداد لتلك الاقلام (والبحر) اى والحال أن البحر (يمده) أى يكون مدادا له وزيادة فيه (من بعده) أى من ورائه (سبعة أبحر) تكتب بتلك الاقلام وذلك المداد الذى الارض كلها له دواة (ما نفدت كلمات الله) وفنيت الاقلام والمداد قال المفسرون نزل بمكة قوله تعالى ويسئلونك عن الروح الآية فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه أحبار اليهود فقالوا يا محمد بلغنا أنك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا أفعنيتنا أم قومك فقال صلى الله عليه وسلم كلا قد عنيت فقالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ فقال صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله تعالى قليل وقد آتاكم ما ان عملتم به انتفعتم قالوا يا محمد كيف تزعم هذا وأنت تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فكيف يجتمع هذا علم قليل وخير كثير فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال قتادة ان المشركين قالوا ان القرآن وما يأتى به محمد يوشك أن ينفد فينقطع فنزلت (فان قيل) كان مقتضى الكلام أن يقال ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد (أجيب) بانه أغنى عن ذكر المداد قوله تعالى يمده لانه من مد الدواة وأمدها جعل البحر الاعظم بمنزلة الدواة وجعل الابحر السبعة مملوأة مدادا فهى تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع والمعنى ولو أن أشجار الارض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله ما نفدت كلماته ونفدت الاقلام والمداد كقوله تعالى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لان المحصور لا يفى بما ليس بمحصور

ولاهم يستعتبون) أى لا يطلب منهم الاعتاب أى الرجوع الى الله (ان قلت) كيف قال ذلك مع قوله فى فصلت وان يستعتبوا

فيالها من عظمة لاتتناهى ومن كبرياء لايجارى ولايضاهى (فان قيل) لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس (أجيب) بانه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لايبقى من جنس الشجر ولا واحدة الا وقد بريت أقلاما (فان قيل) الكلمات جمع قلة والموضع موضع التكثير لا التقليل فهلا قيل كلم الله (أجيب) بان معناه أن كلماته لا تفى بها البحار فكيف بكلمه وقرأ أبو عمرو والبحر بنصب الراء وذلك من وجهين أحدهما العطف على اسم ان أى ولو أن البحر وعده الخبر والثانى النصب بفعل مضمر يفسره يمده والواو حينئذ للحال والجملة حالية ولم يحتج الى ضمير رابط بين الحال وصاحبها للاستغناء عنه بالواو والتقدير ولو أن الذى فى الارض حال كون البحر ممدودا بكذا وقرأ الباقون برفع الراء وذلك من وجهين أيضا أحدهما العطف على ان وما فى حيزها والثانى انه مبتدأ ويمده الخبر والجملة حالية والرابط الواو *(تنبيه)* قوله تعالى سبعة ليس لانحصارها فى سبعة وانما الاشارة الى المدد والكثرة ولو بالف بحر وانما خصت السبعة بالذكر من بين الاعداد لانها عدد كثير يحصر المعدودات فى العادة ويدل على ذلك وجهان الاول ان المعلوم عند كل أحد لحاجته اليه هو الزمان والمكان فالزمان منحصر فى سبعة أيام والمكان منحصر فى سبعة أقاليم ولان الكواكب السيارة سبعة والمنجمون ينسبون اليها أمورا فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة فى العادة فاستعملت فى كل كثير ومنه قوله صلى الله عليه وسلم المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء الثانى ان فى السبعة معنى يخصها ولذلك كانت السموات سبعا والارضون سبعا وأبواب جهنم سبعا وأبواب الجنة ثمانية لانها الحسنى وزيادة فالزيادة هى الثامن لان العرب عند الثامن يزيدون واوا تقول القراء انها واو الثمانية وليس ذلك الا للاستئناف لان العدد تم بالسبعة ثم بين نتيجة ذلك بقوله تعالى (ان الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (عزيز) أى كامل القدرة لانهاية لمقدوراته (حكيم) أى كامل العلم لانهاية لمعلوماته *(تنبيه)* قد علم مما تقرر أن الآية من الاحتباك ذكر الاقلام دليل على حذف مدادها وذكر السبعة فى مبالغة الابحر دليلا على حذفها فى الاشجار * ولما ختم تعالى بهاتين الصفتين بعد اثبات القدرة على الابداع من غير انتهاء ذكر بعض آثارها فى البعث بقوله تعالى (ما خلقكم) أى كلكم فى عزته وحكمته الا كخلق نفس واحدة وأعاد النافى نصا على كل واحد من الخلق والبعث على حدته بقوله تعالى (ولا بعثكم) أى كلكم (الا كنفس) أى كبعث نفس وبين الافراد تحقيقا للمراد تأكيد السهولة بقوله تعالى (واحدة) فان كلماته مع كونها غير نافدة نافذة وقدرته مع كونها باقية بالغة فنسبة القليل والكثير الى قدرته على حد سواء لانه لايشغله شأن عن شأن ثم دل على ذلك بقوله تعالى مؤكدا (ان الله) أى الملك الأعلى (سميع) أى بالغ السمع يسمع كل مسموع (بصير) أى بليغ البصر يبصر كل مبصر لايشغله شئ عن شئ * ولما قرر تعالى هذه الآية الخارقة دل عليها بأمر محسوس يشاهد كل يوم مرتين بقوله تعالى (ألم تر) وهو يحتمل وجهين أحدهما أن يكون الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه الأكثر وكأنه تعالى ترك الخطاب مع غيره لان من هو غيره من الكفار لافائدة فى الخطاب معهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم تبع له والوجه الثانى المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب

فاهم من المتقين حيث سماهم هنا مطلوبا منهم الاعتاب وثم طالبين له (قلت) معنى قوله ولاهم

ولا يعين أحدا فيقول بجمع عظيم يامسكين الى الله مصيرك فمن نصيرك ولماذا تقصيرك (أن الله) أى بجلاله وعز كماله (يولج) أى يدخل ادخالا لامرية فيه (الليل فى النهار) فيغيب فيه بحيث لا يرى شئ منه فاذا النهار قد عم الارض كلها أسرع من اللمح (ويولج النهار) أى يدخله كذلك (فى الليل) فيخفى حتى لا يبقى له أثر فاذا الليل قد طبق الآفاق مشارقها ومغاربها فى مثل الطرف فميز سبحانه كلا منهما من الآخر بعد اضمحلاله فكذلك الخلق والبعث فى قدرته بعزته وحكمته لبلوغ سمعه ونفوذ بصره (وسخر الشمس) آية للنهار يدخل الليل فيه (والقمر) أى آية لليل كذلك ثم استأنف ما سخرا فيه بقوله تعالى (كل) أى منهما (يجرى) اى فى فلكه سائرا مقاديا وبالغا ومنتهيا (الى أجل مسمى) لا يتعداه فى منازل معروفة فى جميع الفلك لا يزيد ولا ينقص هذا فى الشهر مرة وتلك فى السنة مرة لا يقدر واحد منهما أن يتعدى طوره ولا أن ينقص دوره ولا أن يغير سيره *(تنبيه)* قال تعالى يولج بصيغة المستقبل وقال فى الشمس والقمر وسخر بصيغة الماضى لان ايلاج الليل فى النهار أمر يتجدد كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى حتى عاد كالعرجون القديم وقال ههنا الى أجل وفى الزمر لأجل لان المعنيين لائقان بالحرفين فلا عليك فى أيهما وقع قال الاكثرون هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل عام * ولما كان الليل والنهار محل الافعال بين أن ما يقع فى هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى عليه بقوله تعالى (وان الله) أى بما له من صفات الكمال (بما تعملون) اى فى كل وقت على سبيل التجدد (خبير) أى لا يخفى عليه شئ منه لانه الخالق له كله دقه وجله * ولما ثبت بهذه الاوصاف الحسنى والافعال العليا أنه لا موجود بالحقيقة الا الله تعالى قال تعالى (ذلك) اى المذكور (بأن) أى بسبب أن (الله) اى الذى لا عظيم سواه (هو) وحده (الحق) أى بسبب أنه الثابت فى ذاته الواجب من جميع جهاته المستحق للعبادة (وان ما يدعون) أى هؤلاء المختوم على مداركهم وأشار الى سفول رتبتهم بقوله تعالى (من دونه) أى غيره (الباطل) أى المعدم فى حد ذاته لا يستحق أن تضاف اليه الالهية بوجه من الوجوه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص يدعون بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وان مقطوعة من ما فى الرسم (وأن الله) أى الملك الاعظم وحده (هو العلى) على خلقه بالقهر فله الصفات العليا والاسماء الحسنى (الكبير) أى العظيم فى ذاته وصفاته * ولما قال تعالى ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر ذكر آية سماوية وأشار الى السبب والمسبب ذكر بعده آية أرضية تدل على باهر قدرته وكمال نعمته وشمول انعامه وأشار الى السبب والمسبب بقوله تعالى (ألم تر) وفى المخاطب بذلك ما تقدم (أن الفلك) اى السفن كبارا وصغارا (تجرى) اى بكم حاملة ما تعجزون عن نقل مثله فى البر (فى البحر) اى على وجه الماء (بنعمت الله) أى بانعام الملك الاعلى المحيط علما وقدرة المحسن اليكم بتعليم صنعتها حتى تهيأت لذلك على يد أبيكم نوح العبد الشكور عليه السلام وقيل نعمة الله هنا هى الريح التى تحرك بامر الله (ليريكم من آياته) اى عجائب قدرته ودلائله التى تدلكم على أنه الحق الذى أثبت بوجوب وجوده ما ترون من الاحمال الثقال على وجه الماء الذى ترسب فيه الابرة فما دونها (ان فى ذلك) اى الامر الهائل البديع الرفيع (لآيات) اى دلالات

ويستعتبون اى ولاهم يقالون عثراتهم بالرد الى الدنيا ومعنى قوله وان يستعتبوا فما هم من المعتبين اى ان يستقيلوا

واضحات على ماله من صفات الكمال (لكل صبار) على المشاق فيبعث نفسه فى التفكر فى عدم غرقه وفى سيره الى البلاد الشاسعة والاقطار البعيدة وفى كون سيره ذهابا وايابا تارة بريحين وتارة بريح واحدة وفى انجاء أبيه نوح عليه السلام ومن أراد الله تعالى من خلقه بها واغراق غيرهم من جميع أهل الارض وفى غير ذلك من شؤنه وأموره (شكور) اى مبالغ فى كل من الصبر والشكر لانهما الايمان كما ورد الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وعلم من صيغة المبالغة فى كل منهما أنه لا يعرف فى الرخاء من عظمة الله ما كان يعرفه فى الشدة الامن طبعهم الله تعالى على ذلك ووفقهم له وأعانهم عليه ولهذا قال تعالى وقليل من عبادى الشكور وها أنا أسأل الله الحنان المنان من فضله أن يجعلنى منهم ويفعل ذلك بأهلى وأحبابى فانه كريم جواد ولما ذكر تعالى ان فى ذلك لآيات ذكر أن الكل معترفون غير أن البصير يدركه أولا ومن فى بصيرته ضعف لا يدركه أولا كما قال تعالى (واذا غشيهم) اى علاهم وهم فى الفلك حتى صار كالمغطى لهم (موج) اى هذا الجنس وأفرده لشدة اضطرابه واتيانه شيأ فى اثر شئ متتابعا يركب بعضه بعضا كأنه شئ واحد وأصله من الحركة والازدحام واختلف فى قوله تعالى (كالظلل) فقال مقاتل كالجبال وقال الكلبى كالسحاب والظلل جمع ظلة شبه بها الموج فى كثرتها وارتفاعها (فان قيل) كيف جعل الموج وهو واحد كالظلل وهو جمع (أجيب) بان الموج يأتى منه شئ بعد شئ فلما صاروا الى هذه الحالة (دعوا الله) اى مستحضرين لما يقدر عليه الانسان من كماله بجلاله وجماله عالمين بجميع مضمون الآية السابقة من حقيته وعلوه وكبريائه وبطلان مايدعونه من دونه (مخلصين له الدين) اى الدعاء بان ينجيهم لا يدعون شيأ سواه بانفسهم ولا قلوبهم لما اضطرهم الى ذلك (فلما نجاهم) أى خلصهم من تلك الاهوال (الى البر) نزلوا عن تلك المرتبة التى أخلصوا فيها الدين وانقسموا قسمين (فمنهم) اى تسبب عن نعمة الانجاء انه كان منهم (مقتصد) أى عدل موف فى البر بما قد عاهد الله عليه فى البحر من التوحيد له بمعنى أنه ثبت على ذلك وهم قليل كما دل عليه التصريح بالتبعيض قيل نزلت فى عكرمة بن أبى جهل هرب فى عام الفتح الى البحر فجاءتهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن نجانى الله من هذه لأرجعن الى محمد صلى الله عليه وسلم ولاضعن يدى فى يده فسكنت الريح فرجع عكرمة الى مكة فاسلم وحسن اسلامه وقال مجاهد مقتصد فى القول مضمر للكفر وقال الكلبى مقتصد فى القول اى من الكفار لان بعضهم كان أشد قولا وأعلى فى الافتراء من بعض ومنهم جاحد للنعمة ملاق لجلباب الحياء فى التصريح بذلك وهو الاكثر كما دل عليه ترك التصريح فيه بالتبعيض (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون وقال هنا فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد (أجيب) بانه لما ذكر ههنا أمرا عظيما وهو الموج الذى كالجبال بقى أثر ذلك فى قلوبهم فخرج منهم مقتصد وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الامر فذكر اشراكهم حيث لم يبق عندهم أثر وقوله تعالى (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار) أى غدار فانه نقض للعهد الفطرى أى لما كان فى البحر والختر أشد الغدر (كفور) اى للنعم فى مقابلة قوله تعالى ان فى ذلك لآيات اى يعترف بها الصبار الشكور ويجحدها الختار الكفور فالصبار فى موازنة الختار لفظا ومعنى والكفور فى موازنة

ضمامهم من القالين فلا تنافى

(سورة لقمان)

(قوله كأن لم يسمعها كأن فى اذنيه وقرا) قاله هنا بزيادة

الشكور كذلك أما الفظا ففيه ما فظاهر وأما كون الختار في موازنة الصبار معنى فلان الختار هو الغدار الكثير الغدر أو شديد الغدر مثال مبالغة من الختر وهو أشد الغدر والغدر لا يكون الا من قلة الصبر لأن الصبور لا يعهد منه الاضرار فانه يصبر ويفوض الامر الى الله تعالى وأما الغدار فيعاهدك ولا يصبر على العهد فينقضه وأما ان الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر ● ولما ذكر تعالى الدلائل من أول السورة الى هنا وعظ بالتقوى بقوله تعالى (يا أيها الناس) اى عامة وقيل أهل مكة (اتقوا ربكم) اى الذى لا محسن اليكم غيره (واخشوا) اى خافوا (يوما) لا يشبه الأيام ولا يعد هول البحر ولا غيره عند أدنى هول من أهواله شيأ بوجه (لا يجزى) اى لا يقضى ولا يغنى (والد عن ولده) والراجع الى الموصوف محذوف اى لا يجزى فيه وفى التعبير بالمضارع اشارة الى ان الوالد لا تزال تدعوه الوالدية الى الشفقة على الولد ويتجدد عنده العطف والرقة والمفعول اما محذوف لانه أشد فى النفى واما مدلول عليه بما فى الشق الذى بعده وقوله تعالى (ولا مولود) عطف على والد أو مبتدأ خبره (هو جازٍ عن والده) أى فيه (شيأ) من الجزاء وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بان لا يجزى وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة (ان وعد الله) اى الذى له معاقد العز والجلال (حق) اى ان هذا اليوم الذى هذا شانه هو كائن لان الله تعالى وعد به ووعده حق وقيل ان وعد الله حق بان لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيأ لانه وعد بان لا تزر وازرة وزر اخرى ووعد الله حق (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) بزخرفها ورونقها فانها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق (ولا يغرنكم بالله) اى الذى لا أعظم منه ولا مكافئ يمنع ولا يته معكم (الغرور) اى الكثير الغرور المبالغ فيه وهو الشيطان الذى لا أحقر منه لما جمع من البعد والطرد والاحتراق مع عداوته بما يزين لكم من أمرها ويلهيكم به من تعظيم قدرها وينسيكم كيدها وغدرها وتعبها وأذاها فيوجب ذلك لكم الاعراض عن ذلك اليوم فلا تعدونه معادا فلا تتخذون له زادا لما اقترن بغرور من حلم الله تعالى وامهاله قال سعيد بن جبير الغرة بالله أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة ● وروى أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى قيام الساعة وانى قد ألقيت حبا فى الارض فمتى السماء تمطر وحمل امرأتى أذكر أم أنثى وما أعمل غدا واين أموت فنزل قوله تعالى (ان الله) أى بما له من العظمة وجميع أوصاف الكمال (عنده) أى خاصة (علم الساعة) أى وقت قيامها لا علم لغيره بذلك اصلا (وينزل الغيث) أى فى أوانه المقدر له والمحل المعين له فى علمه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (ويعلم ما فى الارحام) أى من ذكر أو أنثى أحى أو ميت تام أو ناقص (وما تدرى نفس) أى من الانفس البشرية وغيرها (ماذا تكسب غدا) أى من خير أو شر وربما عزم على شئ وتفعل خلافه (وما تدرى نفس باى أرض تموت) اى كما لا تدرى فى أى وقت تموت ويعلمه الله تعالى وروى ابن أبى حاتم عن مجاهد قال جاء رجل من أهل البادية فقال يارسول الله ان امرأتى حبلى فاخبرنى ماتلد وبلادنا مجدبة فاخبرنى متى ينزل الغيث وقد علمت متى ولدت فاخبرنى متى أموت فانزل الله تعالى هذه الآية وعن عكرمة أن رجلا يقال له الوارث من بنى حازن ٣ جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم

كان فى اذنيه وقرا وفى الجاهلية بجذفهم انهما نزلا فى النضر بن الحرث حيث كان يعدل عن سماع القرآن الى اللهو

٣ قوله من بنى حازن هكذا بالاصول وليحرر اه مصححه

فقال يا محمد متى قيام الساعة وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد
وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت
فنزلت هذه الآية وعن قتادة قال خمس من الغيب استأثر الله بهن فلم يطلع عليهن ملكا
مقربا ولا نبيا مرسلا ان الله عنده علم الساعة فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في
أي سنة ولا في أي شهر أليلا أم نهارا وينزل الغيث فلا يعلم أحد متى ينزل أليلا أم نهارا ويعلم
ما في الارحام فلا يعلم أحد ما في الارحام أذكر أم أنثى أحمر أم أسود ولا تدري نفس ماذا تكسب
غدا أخيرا أم شرا وما تدري نفس بأي أرض تموت ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه
من الارض أفي بحر أم في بر أم سهل أم جبل وعن أحمد وابن أبي شيبة موقوفا على شهر بن
حوشب ان ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه
فقال الرجل من هذا فقال ملك الموت فقال فكأنه يريدني فمر الريح ان تحملني وتلقيني بالهند
فأمر سليمان الريح فحملته الى بلاد الهند فوق سحابة فلما استقر فيها قبض روحه ملك الموت
عليه السلام ثم جاء الى سليمان عليه السلام فسأله عن نظره الى الرجل فقال ملك الموت كان
دوام نظري اليه تعجبا منه اذ أمرت أن اقبض روحه بالهند وهو عندك وعن ابن عمر قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله لا يعلم ما في غد الا الله
ولا متى تقوم الساعة الا الله ولا ما في الارحام الا الله ولا متى ينزل الغيث الا الله وما تدري نفس
بأي أرض تموت الا الله وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رجلا قال يا رسول الله متى
الساعة قال ما المسؤل عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثكم بأشراطها اذا ولدت الامة ربتها
فذلك من أشراطها واذا كانت الحفاة العراة رؤس الناس فذلك من أشراطها واذا تطاول رعاء
الغنم في البنيان فذلك من أشراطها وخمس من الغيب لا يعلمهن الا الله ثم تلا ان الله عنده علم
الساعة الى آخر الآية وعن أبي أمامة أن اعرابيا وقف على النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر على
ناقة له عشراء فقال يا محمد ما في بطن ناقتي هذه فقال له رجل من الانصار دع عنك رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهلم الي حتى أخبرك وقعت أنت عليها وفي بطنها ولد منك فأعرض عنه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم قال ان الله يحب كل حيي كريم ويبغض كل فاحش لئيم متفحش ثم أقبل على
الاعرابي فقال خمس لا يعلمهن الا الله ان الله عنده علم الساعة الآية وعن سلمة بن الاكوع قال
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة حمراء اذ جاء رجل على فرس فقال له من أنت قال أنا
رسول الله قال متى الساعة قال غيب وما يعلم الغيب الا الله قال ما في بطن فرسي قال غيب
وما يعلم الغيب الا الله قال فمتى تمطر قال غيب وما يعلم الغيب الا الله وعن ابن عمر أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال أوتيت مفاتيح كل شئ الا الخمس ان الله عنده علم الساعة الآية وعن ابن مسعود
قال أوتي نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شئ غير خمس ان الله عنده علم الساعة الآية
وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لم يعم على نبيكم الا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية
في آخر لقمان ان الله عنده علم الساعة الى آخر السورة وعن ربعي قال حدثني رجل من بني عامر
أنه قال يا رسول الله هل بقي من العلم شئ لا تعلمه فقال لقد علمني الله خيرا وان من العلم ما لا يعلمه الا
الله الخمس ان الله عنده علم الساعة الآية وعن بنت معوذ قالت دخل علي رسول الله صلى الله

وسماع الغناء لانه تعالى بالغ في ذمه هنا فناسب زيادة ذلك بخلاف ما في الجاثية (قوله ووصينا الانسان بوالديه) الآية (ان قلت)

عليه

عليه وسلم صبيحة عرسي وعندي جاريتان تغنيان وتقولان وفينا نبي يعلم ما في غد فقال أما هذا فلا تقولاه ما يعلم ما في غد الا الله وعن أبي عزة الهذلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له اليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تدري نفس بأي أرض تموت وعن أبي مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في مجلس فيه أصحابه جاءه جبريل في غير صورته يحسبه رجلا من المسلمين فسلم فرد عليه السلام ثم وضع يده على ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله ما الاسلام قال ان تسلم وجهك لله وتشهد أن لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة قال فاذا فعلت ذلك فقد أسلمت قال نعم ثم قال ما الايمان قال أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والموت والحياة بعد الموت والجنة والنار والحساب والميزان والقدر خيره وشره قال فاذا فعلت ذلك فقد آمنت قال نعم ثم قال ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان كنت لا تراه فانه يراك قال فاذا فعلت ذلك فقد أحسنت قال نعم ثم قال فمتى الساعة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله خمس من الغيب لا يعلمها الا الله ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت (ان الله) أي المختص بأوصاف الكمال (عليم) أي شامل العلم للامور كلها كلياتها وجزئياتها فاثبت العلم المطلق لنفسه سبحانه بعد أن نفاه عن الغير في هذه الخمس (خبير) أي يعلم خبايا الامور وخفايا الصدور كما يعلم ظواهرها وجلاياها كل عنده على حد سواء فهو الحكيم في ذاته وصفاته ولذلك أخفى هذه المفاتيح عن عباده لانه لو أطلعهم عليها لفات كثير من الحكم باختلال هذا النظام على ما فيه من الاحكام فقد انطبق آخر السورة باثبات العلم والخبر مع تقرير أمر الساعة التي هي مفتاح الدار الآخرة على أولها المخبر بحكمة صفته التي من علمها حق علمها وتخلق بها دعت اليه وحضت عليه لاسيما الايقان بالآخرة كان حكيما فسبحان من هذا كلامه وتعالى كبرياؤه وعز مرامه وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطي من الحسنات عشرا بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر حديث موضوع

كيف وقعت الآيتان في أثناء وصية لقمان لابنه قلت هما من الجمل الاعتراضية التي لا محل لها من الاعراب اعترض بهما

سورة السجدة مكية

وهي ثلاثون آية وستمائة وثمانون كلمة وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفا

(بسم الله) ذي الجلال والاكرام (الرحمن) بعموم البشارة والنذارة (الرحيم) الذي أسكن في قلوب أحبابه الشوق اليه والخضوع بين يديه وتقدم في البقرة وغيرها الكلام على (الم) ومما ينبغي أنه اشارة الى ان الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام الى محمد الفاتح الخاتم صلى الله عليه وسلم بكتاب معجز دال باعجازه على صحة رسالته ووحدانية من أرسله وسرد سبحانه هذه الاحرف في أوائل أربع من هذه السور وزادت على الطواسين بواحدة اشارة الى ان هذه المعاني في غاية الثبات لا انقطاع لها ولما كان المقصود في التي قبلها اثبات الحكمة لمنزل هذا الكتاب الذي فيه تبيان كل شئ أخبر سبحانه وتعالى عن هذا بأنه من عنده بقوله تعالى (تنزيل الكتاب)

أي الجامع لكل هدى على ماترون من التدريج من السماء (لاريب) أي لاشك (فيه) لان نافى الشك هو الاعجاز معه لاينفك عنه فكل مائة ولونه عما يخالف ذلك تعنت أوجهل من غير ريب حال كونه (من رب العالمين) اى الخالق لهم المدبر لهم المحسن اليهم فلا يجوز فى عقل ولا يخطر فى بال ولا يقع فى وهم ولا يتصور فى خيال انه يصل شئ من كتابه تعالى الى هذا النبى الكريم بغير أمره ولا يقبل ان شيأ منه ليس بقول الله تعالى ثم لا يقبل أنه من كلامه ولكنه أخذه من بعض أهل الكتاب لان هذا لا يفعل مع بعض الملوك فكيف بملك الملوك فكيف بمن هو عالم بالسر والجهر محيط علمه بالخفى والجلى ●(تنبيه)● فى تنزيل الكتاب اعرابات مختلفة وأظهرها ماجرى عليه الجلال المحلى من أن تنزيل الكتاب مبتدأ ولاريب فيه خبر أول ومن رب العالمين خبر ثان وقوله تعالى (أم يقولون) أي مع ذلك الذى لا يمترى فيه عاقل (افتراه) أي تعمد تكذيبه أم فيه هى المنقطعة والاضراب للانتقال لا للابطال وقيل الميم صلة أي أتقولون افتراه وقوله تعالى (بل هو الحق) أى الثابت ثباتا لا يضاهيه ثبات شئ من الكتب قبله اضراب ثان ولو قيل بأنه اضراب ابطالى لنفس افتراه وحده لكان صوابا وعلى هذا يقال كل ما فى القرآن اضراب فهو اضراب انتقالى الا هذا فانه يجوز أن يكون ابطاليا لانه ابطال لقولهم أى ليس هو كما قالوا مفترى بل هو الحق وفى كلام الزمخشرى ما يرشد الى هذا فانه قال والضمير فى فيه راجع الى مضمون الجملة كأنه قيل لاريب فى ذلك أى فى كونه من رب العالمين قال ابن عادل ويشهد لوجاهته أم يقولون افتراه لأن قولهم هذا مفترى انكار لان يكون من رب العالمين وكذلك قوله بل هو الحق من ربك وما فيه من تقرير انه من عند الله وهذا أسلوب صحيح محكم انتهى وقوله تعالى (من ربك) أى المحسن اليك بانزاله واحكامه حال من الحق والعامل فيه محذوف على القاعدة وهو العامل أيضا فى (لتنذر) ويجوز أن يكون العامل فى لتنذر غيره أى أنزله لتنذر (قوما) أى ذوى قوة وجلد ومنعة (ما أتاهم من نذير) أى رسول فى هذه الازمان القريبة لقول ابن عباس ان المراد الفترة ويؤيده اثبات الجار فى قوله تعالى (من قبلك) ولما ذكر تعالى علة الانزال أتبعه علة الانذار بقوله تعالى (لعلهم يهتدون) أى ليكون حالهم فى مجارى العادات حال من ترجى هدايته الى كمال الشريعة وأما التوحيد فلا عذر لاحد فيه مع اقامة الله تعالى من حجة العقل ومع ما أتقنته الرسل عليهم الصلاة والسلام آدم فمن بعده من أوضح النقل بآثار دعواتهم وبقايا دلالاتهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن أبيه أبى وأبوك فى النار وغير ذلك من الادلة الدالة على ان من مات قبل دعوته على الشرك فهو فى النار لكن ذكر بعض العلماء أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى أحيا له أبويه وأسلما على يديه ولا بدع فى ذلك فان الله تعالى أكرمه باشياء لا تحصره ولما ذكر تعالى الرسالة وبين ما على الرسول من الدعاء الى التوحيد واقامة الدليل قال (الله) أى الحاوى لجميع صفات الكمال وحده (الذى خلق السموات) كلها (والارض) بأسرها (وما بينهما) من المنافع العينية والمعنوية (فى ستة أيام) كما يأتى تفصيله فى فصلت ان شاء الله تعالى (ثم استوى على العرش) وهو فى اللغة سرير الملك استواء يليق به تعالى لم تعهدوا مثله وهو أنه تعالى أخذ فى تدبيره وتدبير ما حواه بنفسه لا شريك له ولا نائب فيه ولا وزير كما تعهدون من ملوك الدنيا اذا امتنعت ممالكهم وتباعدت أطرافها

بين كلامين متصلين معنى
تأكيدا لما فى وصية لقمان
لابنه من النهى عن الشرك
(فان قلت) لم فصل بين
الوصية ومنهواها بقوله

وتناهت أقطارها (ما لكم من دونه) لان كل ما سواه دونه وتحت قهره ودل على عموم النفي بقوله تعالى (من ولي) أي يلي أموركم ويقوم بمصالحكم وينصركم اذا حل بكم شيء مما تحذرون به (ولا شفيع) يشفع عنده في تدبيركم أوفي أحد منكم بغير اذن (أفلا تتذكرون) هذا فتؤمنون ٭ ولما نفى أن يكون له وزير أو شريك في الخلق ذكر كيف يفعل في هذا الملك العظيم الذي أبدعه فقال مستأنفا مفسرا للمراد بالاستواء (يدبر الامر) أي كل أمر هذا العالم بان يفعل في ذلك فعل الناظر في أدباره لاتقان خواتمه ولوازمه كما نظر في اقباله لاحكام فواتحه وعوازمه لا يكل شيأ منه الى أحد من خلقه قال الرازي في اللوامع وهذا دليل على ان استواءه على العرش بمعنى اظهاره القدرة والعرش مظهر التدبير لا مقر لمدبره ولما كان المقصود للقرب افهامه وتدبير ما يمكن مشاهدتهم له من العالم قال تعالى مفردا (من السماء) أي فينزل ذلك الامر الذي أتقنه كما يتقن من ينظر في أدبار ما يعمله (الى الارض) أي غير متعرض الى ما فوق ذلك على أن السماء تشمل كل عال فيدخل جميع العالم العلوي والارض تشمل كل ما سفل فيشمل ذلك العالم السفلي ٭ (تنبيه) ههنا همزتان مكسورتان فقالون وابن كثير يسهل الاولى كالياء مع المد والقصر وورش وقنبل يسهل الثانية ولهما ابدالها من غير مد وأسقط أبو عمرو الاولى مع المد والقصر والباقون بتحقيقهما ٭ ولما كان الصعود أشق من النزول على ما جرت به العوائد فكان بذلك مستبعدا أشار الى ذلك بقوله تعالى (ثم يعرج) أي يصعد (اليه) أي بصعود الملك الى الله تعالى أي الى الموضع الذي شرفه أو أمره بالكون فيه كقوله تعالى اني ذاهب الى ربي ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ونحو ذلك أو الى الموضع الذي ابتدأ منه نزول التدبير الى السماء كأنه صاعد في معارج وهي الدرج على ما تتعارفون بينكم في أسرع من لمح البصر (في يوم) أي من أيام الدنيا (كان مقداره) لو كان الصاعد واحدا منكم على ما تعهدون (ألف سنة مما تعدون) من سنيكم التي تعهدون قال البقاعي والذي دل على هذا التقدير شيء من العرف وشيء من اللفظ أما اللفظ فالتعبير بكان مع انتظام الكلام بدونه الوارد بغير ذلك وأما العرف فهو ان الانسان المتمكن يبني البيت العظيم العالي في سنة مثلا فاذا فرغه صعد اليه خادمه الى أعلاه في أقل من درجتين من درج الرمل فلا تكون نسبة ذلك من زمن بنائه الا جزأ ولا يعد هذا وهو خلق محتاج فما ظنك بمن خلق الخلق في ستة أيام ولو شاء لخلقهم في لحظة وهو غني عن كل شيء قادر على كل شيء انتهى فنزول الامر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو ما بين السماء والارض فان مسافته خمسمائة سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة ويعرج في خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة كأنه قال تعالى يقول لو سار أحد من بني آدم لم يقطعه الا في ألف سنة والملائكة يقطعونه في يوم واحد هذا في وصف عروج الملك من الارض الى السماء وأما قوله تعالى تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاراد مدة المسافة من الارض الى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل عليه السلام فسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا قاله مجاهد والضحاك وورد انه صلى الله عليه وسلم قال بين السماء والارض خمسمائة عام ثم قال أتدرون ما الذي فوقها قلنا الله ورسوله اعلم قال سماء أخرى أتدرون كم بينهما قلنا الله ورسوله اعلم قال خمسمائة

حاشيته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين (قلت) خصهما اللام بزيادة التأكيد لما تكابده من في الوصية المشاق (قوله ولو أن ما في

عام حتى عد سبع سموات ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك قلنا الله ورسوله اعلم قال العرش ثم قال أتدرون ما بينه و بين السماء السابعة قلنا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام ثم قال ما هذه تحتكم قلنا الله ورسوله اعلم قال أرض أتدرون ما تحتها قلنا الله ورسوله اعلم قال أرض أخرى أتدرون كم بينهما قلنا الله ورسوله اعلم قال مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين ثم قال أيم الله لو دليتم بحبل لهبط على علم الله وقدرته وروى مثل السموات والارض فى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة وان فضل الكرسى على السموات والارض كفضل الفلاة على تلك الحلقة وقوله تعالى وسع كرسيه السموات والارض يدل على ان الكرسى محيط بالكل وقيل مقدار ألف سنة وخمسين ألف سنة كلها فى القيامة ومعناه حينئذ يدبر الامر من السماء الى الارض مدة أيام الدنيا ثم يعرج أى يرجع الامر والتدبير اليه بعد فناء الدنيا فى يوم كان مقداره ذلك وذلك اليوم يتفاوت فهو على الكافر كخمسين ألف سنة وعلى المؤمن دون ذلك بل جاء فى الحديث انه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا وقيل ان ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة فقوله فى يوم كان مقداره ألف سنة يعنى يدبر الامر فى زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون شهر منه وكم يكون سنة منه وكم يكون دهر منه وعلى هذا فلا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لان ذلك اذا كان اشارة الى دوام نفاذ الامر فسواء يعبر بألف سنة أو بخمسين ألف سنة لا يتفاوت الا أن المبالغة بالخمسين أكثر وسيأتى بيان فائدتها فى موضعها ان شاء الله تعالى ● ولما تقرر هذا من عالم الاشباح والخلق ثم عالم الارواح والامر بين انه تعالى عالم بما كان وما يكون بقوله تعالى (ذلك) أى الاله الواحد القهار (عالم الغيب والشهادة) أى ما غاب عن الخلق ومنه الذى تقدمت مفاتيحه وما حضر وظهر فيدبر أمرهما (العزيز) أى الغالب على أمره (الرحيم) على العباد فى تدبيره وفيه ايماء بأنه تعالى يراعى المصالح تفضلا واحسانا ● ولما ذكر تعالى الدليل على الوحدانية من الآفاق بقوله تعالى خلق السموات والارض وما بينهما ذكر الدليل عليها من الانفس بقوله تعالى (الذى أحسن كل شئ خلقه) قال ابن عباس أتقنه وأحكمه فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت الى حسن وأحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وقال مقاتل علم كيف يخلق كل شئ من قول القائل فلان يحسن كذا اذا كان يتقنه وقيل خلق كل حيوان على صورة لم يخلق البعض على صورة البعض وقيل معناه أحسن الى كل خلقه وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام فعلا ماضيا والجملة صفة للمضاف أو المضاف اليه والباقون بسكونها على انه بدل من كل شئ بدل اشتمال والضمير عائد على كل شئ ● ولما كان الحيوان أشرف الاجناس وكان الانسان أشرفه خصه بالذكر ليقوم دليل الوحدانية بالانفس كما قام بالآفاق فقال دالا على البعث (وبدأ خلق الانسان) أى آدم عليه السلام (من طين) قال الرازى ويمكن أن يقال الطين ماء وتراب مجتمعان فالآدمى أصله منى والمنى أصله غذاء والاغذية اما حيوانية أو نباتية والحيوانية ترجع الى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذى هو الطين (ثم جعل نسله) أى ذريته (من سلالة) أى نطفة سميت سلالة لانها تسل من الانسان أى تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل هذا

الارض من شجرة اقلام) المطابق الآية (ان قلت) الاجهر لاولها ان يقال وما فى الارض من مداد فلم عدل عنه الى قوله والبحر يمده من

على التفسير الاول لان آدم كان من الطين ونسله من سلالة (من ماء مهين) أى ضعيف وعلى التفسير الثانى هو أن أصله من طين ثم يوجد من ذلك الاصل سلالة هى ماء مهين وهو نطفة الرجل وأشار الى عظمة ما بعد ذلك من خلقه وتطويره بقوله تعالى (ثم سواه) قومه بتصوير أعضائه وابداع المعانى على ما ينبغى (ونفخ فيه) أى آدم (من روحه) أى جعله حيا حساسا بعد ان كان جمادا واضافة الروح الى الله تعالى اضافة تشريف كبيت الله وناقة الله فيا له من شرف ما أعلاه ففيه اشعار بأنه خلق عجيب وان له شأنا له مناسبة ما الى الحضرة الربوبية قال البيضاوى ولاجله أى ولاجل كون ان له شأنا الى آخره روى من عرف نفسه فقد عرف ربه هذا الحديث لا أصل له وبتقدير أن له أصلا ليس معناه ماذكر بل معناه من عرف نفسه وتأمل فى حقيقتها عرف ان له صانعا موجدا له واليه أشار بقوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح فى الجسد مخاطبا للذرية بقوله تعالى (وجعل لكم) بعد ان كنتم نطفا امواتا (السمع) أى لتدركوا به ما يقال لكم (والابصار) أى لتدركوا بها الاشياء على ما هى عليه (والافئدة) أى القلوب المودعة غرائز العقول (فان قيل) ما الحكمة فى تقديم السمع على البصر والبصر على الافئدة (أجيب) بأن الانسان يسمع أولا كلاما فينظر الى قائله ليعرفه ثم يتفكر بقلبه فى ذلك الكلام ليفهم معناه (فان قيل) ما الحكمة فى ذكره المصدر فى السمع وفى البصر والفؤاد الاسم ولهذا جمع الابصار والافئدة ولم يجمع السمع لان المصدر لا يجمع (أجيب) بأن السمع قوة واحدة ولها محل واحد وهو الاذن ولا اختيار لها فيه وان الصوت من أى جانب كان واصل اليه ولا قدرة للاذن على تخصيص السمع بادراك البعض دون البعض وأما البصر فمحله العين ولها فيه اختيار فانها تتحرك الى جانب المرئى دون غيره وكذلك الفؤاد محله الادراك وله نوع اختيار يلتفت الى ما يريد دون غيره فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له والعين كالاصل وقوة الابصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته فذكر فى السمع المصدر الذى هو القوة وفى الابصار والافئدة الاسم الذى هو محل القوة ولان السمع قوة واحدة لها محل واحد ولهذا لا يسمع الانسان فى زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويرى فى زمان واحد صورتين فأكثر ويتبينهما (فان قيل) لم قدم السمع ههنا وقدم القلب فى قوله تعالى فى البقرة ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم (أجيب) بانه تعالى عند الاعطاء ذكر الادنى ثم ارتقى الى الاعلى فكأنه قال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذى يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها ولما لم يبادروا الى الايمان عند التذكير بهذه النعم الجسام قال تعالى (قليلا ما تشكرون) أى تشكرون شكرا قليلا فما مزيدة مؤكدة للقلة وقوله تعالى (وقالوا) معطوف على ما سبق منهم فانهم قالوا محمد ليس برسول والاله ليس بواحد والبعث ليس بممكن فدل على صحة الرسالة بنفى الريب عن الكتاب ثم على الوحدانية بشمول القدرة واحاطة العلم بابداع الخلق على وجه هو نعمة لهم وختم بالتعجب من كفرهم وكان استبعادهم للبعث الذى هو الثابت الاصل من أعظم كفرهم وهو قولهم (أئذا) أى أنبعث اذا (ضللنا) أى غبنا (فى الارض) أى صرنا ترابا مخلوطا بتراب الارض لا نتميز منه

(قلت) بعد مسبعة ابحر استغنى عن المداد بقوله يمده من مد الدواة وأمدها أى زادها مدادا فجعل البحر المحيط بمنزلة الدواة والابحر السبعة مملوءة مدادا ابدا لا ينقطع فصار نظير ما قلتم

قوله محله الادراك فى نسخة محل الادراك وهى ظاهرة اه مصححه

وأصله من ضل الماء في اللبن اذا ذهب فيه وقوله‍م (أئنا لفي خلق جديد) أي يجدد خلقنا
استفهام انكاري زيادة في الاستبعاد (فان قيل) انه تعالى ذكر الرسالة من قبل وذكر دليلها
وهو التنزيل الذي لاريب فيه وذكر الوحدانية وذكر دليلها وهو خلق السموات والارض
وخلق الانسان من طين * ولما ذكر انكارهم الحشر لم يذكر الدليل (أجيب) بأنه ذكر دليله
أيضا وهو ان خلق الانسان ابتداء دليل على قدرته على الاعادة ولهذا استدل تعالى على
انكار الحشر بالخلق الاول ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله تعالى الذي أنشأها أول مرة وايضا
خلق السموات والارض كما قال أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق
مثلهم بلى وقرأ نافع والكسائي أئذا ضللنا في الارض انا الاول بالاستفهام والثاني بالخبر وقرأ
ابن عامر الاول بالخبر والثاني بالاستفهام والباقون بالاستفهام فيهما ومذهب قالون وأبي
عمرو في الاستفهام تسهيل الثانية وادخال الالف بينها وبين همزة الاستفهام وورش وابن
كثير بتسهيل الثانية من غير ادخال وهشام بتسهيل الثانية وتحقيقها مع الادخال والباقون
بتحقيقهما من غير ادخال وقوله تعالى (بل هم بلقاء ربهم كافرون) أي جاحدون اضراب عن
الاول أي ليس انكارهم لمجرد الخلق ثانيا بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا
بالخلق الثاني لما اعترفوا بالعذاب والثواب أو يكون المعنى لم ينكروا البعث لنفسه بل
لكفرهم بلقاء الله فانهم كرهوه فأنكروا المفضي اليه ثم بين لهم ما يكون من الموت الى
العذاب بقوله تعالى (قل) أي يا أفضل الخلق لهم (يتوفاكم) أي يقبض أرواحكم (ملك الموت
الذي وكل بكم) أي بقبض أرواحكم وهو عزرائيل عليه السلام والتوفي استيفاء العدد
معناه أنه يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحد من العدد الذي كتب عليه الموت وروي ان ملك
الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها صاحبها ما احب من غير مشقة فهو يقبض
انفس الخلق من مشارق الارض ومغاربها وله اعوان من ملائكة الرحمة وأعوان من
ملائكة العذاب وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما خطوة ملك الموت ما بين المشرق
والمغرب وقال مجاهد جعلت الارض مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وفي بعض الاخبار
ان ملك الموت على معراج بين السماء والارض فتنزع أعوانه روح الانسان فاذا بلغ ثغرة
نحره قبضه ملك الموت وعن معاذ بن جبل ان لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب
وهو يتصفح وجوه الناس فما من أهل بيت الا وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين فاذا
رأى انسانا قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة وقال الآن يزار بك عسكر الموتى فيصير
ماتى لا روح في شيء منه وهو على حاله كاملا لا نقص في شيء منه يدعى الخلل بسببه فاذا كان هذا
فعل عبد من عبيده تعالى بمعرفه في ذلك فقام به كما ترونه مع ان ممازجة الروح للبدن أشد من
ممازجة تراب البدن لبقية التراب لانه ربما يستدل بعض الحذاق على بعض ذلك بنوع دليل من
شم ونحوه فكيف يستبعد شيء من الاشياء على رب العالمين ومدبر الخلائق أجمعين نسأل الله
تعالى أن يقبضنا على التوحيد وان يستعملنا في طاعته ما أحيانا ويفعل ذلك باهلنا وأحبائنا
* ولما قام هذا البرهان القطعي على قدرته التامة علم أن التقدير ثم يعيدكم خلقا جديدا كما كنتم
أول مرة فحذفه كما هو عادة القرآن في حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدع داع الى ذكره

ونظيره قوله تعالى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي الآية واشار بلو الى ان البحار غير موجودة أي لو مدت البحار الموجودة

وعطف

وعطف عليه قوله تعالى (ثم الى ربكم) أى الذى ابتدأ خلقكم وتربيتكم وأحسن اليكم غاية الاحسان (ترجعون) أى تصيرون اليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم * ولما قرر دليل البعث بما لاخفاء فيه ولالبس شرع فى بعض أحواله بقوله تعالى (ولو ترى) أى تبصر (اذ المجرمون) أى الكافرون (ناكسوا رؤسهم) أى مطأطئوها خوفا وخجلا وحزنا وذلا (عند ربهم) المحسن اليهم المتوحد بتدبيرهم قائلين بغاية الذل والرقة (ربنا) أى المحسن الينا (أبصرنا) أى ما كنا نكذب به (وسمعنا) منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه (فارجعنا) بما لك من هذه الصفة المقتضية للاحسان الى الدنيا دار العمل (نعمل صالحا) فيها (انا موقنون) أى ثابت لنا الآن الايقان بجميع ما أخبرنا به عنك فلا ينفعهم ذلك ولا يرجعون وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا والمخاطب يحتمل أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم شفاء لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ويحتمل ان يكون عاما واذ على بابها من المضى لان لو تصرف المضارع للمضى وانما جئ هنا ماضيا لتحقق وقوعه نحو أتى أمر الله وجعله أبو البقاء مما وقع فيه اذ موقع اذا ولاحاجة اليه وقوله تعالى (ولو شئنا) أى بما لنا من العظمة (لآتينا كل نفس) أى مكلفة لان الكلام فيها (هداها) فتهتدى بالايمان والطاعة باختيار منها جواب عن قولهم ربنا أبصرنا وسمعنا وذلك ان الله تعالى قال انى لو أردت منكم الايمان لهديتكم فى الدنيا ولما لم اهدكم تبين انى ما أردت ولا شئت ايمانكم فلا أردكم وهذا صريح فى الدلالة على صحة مذهب أهل السنة حيث قالوا ان الله تعالى ما أراد الايمان من الكافر وما شاء منه الا الكفر (ولكن) لم أشأ ذلك لانه (حق القول منى) وأنا من لايخاف الميعاد لان الاخلاف اما لعجز أو نسيان أو حاجة ولاشئ من ذلك يليق بجنابى ولا يحل بساحتى وأكد لاجل انكارهم فقال مقسما (لأملأن جهنم) أى التى هى محل اهانتى (من الجنة) أى الجن طائفة ابليس وكأنه تعالى انثهم تحقيرا لهم عند من يستعظم أمرهم وبدأ بهم لاستعظامهم لهم ولانهم الذين أضلوهم (والناس أجمعين) حيث قلت لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين فلذلك شئت كفر الكافر وعصيان العاصى بعد ان جعلت لهم اختيارا وغيبت العاقبة عنهم فصار الكسب ينسب اليهم ظاهرا والخلق فى الحقيقة والمشيئة لى * ولما تسبب عن هذا القول الصادق أنه لامحيص بهم عن عذابهم قال لهم الخزنة اذا دخلوا جهنم (فذوقوا) العذاب (بما) أى بسبب ما (نسيتم لقاء يومكم) وحققه وبين ذلك بقوله تعالى (هذا) أى بترككم الايمان به (انا نسيناكم) أى عاملناكم بما لنا من العظمة ولكم من الحقارة معاملة الناسى لكم نتركنا كم فى العذاب (وذوقوا عذاب الخلد) أى المختص بانه لا آخر له (بما) أى بسبب ما (كنتم تعملون) أى من الكفر والتكذيب وانكار البعث * ولما ذكر تعالى علامة أهل الكفران ذكر علامة أهل الايمان بقوله تعالى (انما يؤمن بآياتنا) أى الدالة على عظمتنا (الذين اذا ذكروا بها) أى من أى مذكر كان فى اى وقت كان (خروا سجدا) اى بادروا الى السجود مبادرة من كأنه سقط من غير قصد خضعا لله من شدة تواضعهم وخشيتهم واخباتهم خضوعا ثابتا دائما (وسبحوا) اى اوقعوا التسبيح به عن كل شائبة نقص متلبسين (بحمد ربهم) أى قالوا سبحان الله وبحمده وقيل صلوا بامر ربهم * ولما تضمن هذا تواضعهم صرح به فى قوله

سمعنا أبصرنا أخرى وذكر السمعة ليس للبصر بل للمبالغة وانما خصت بالذكر لكثرة ما يعدها كالكواكب العبارة

تعالى (وهم لا يستكبرون) اى عن الايمان والطاعة كما يفعل من يصير مستكبرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التى فيها السجدة فيسجد ونسجد حتى ما يجد احدنا مكانا لموضع جبهته فى غير وقت الصلاة وعن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل ابليس يبكى يقول ياويلتى امر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وامرت بالسجود فابيت فلى النار وهذه من عزائم سجود القرآن فتسن للقارئ والمستمع والسامع ❊ ولما كان المتواضع ربما ينسب الى الكسل نفى ذلك عنهم مبينا لما تضمنته الآية السالفة من خوفهم بقوله تعالى (تتجافى) اى ترتفع وتنبو (جنوبهم عن المضاجع) عبر به عن ترك النوم قال ابن رواحة

نبى تجافى جنبه عن فراشه ❊ اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والمضاجع جمع المضجع وهو الموضع الذى يضطجع عليه يعنى الفراش وهم المتهجدون الذين يقومون الصلاة قال انس نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى صلى الله عليه وسلم وعن انس ايضا قال نزلت فى اناس من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون صلاة المغرب الى صلاة العشاء قال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة وعنه صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء فى جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلى الفجر فى جماعة كان كقيام ليلة وعن أنس كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء وعنه أيضا قال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم راقدا قط قبل العشاء ولا متحدثا بعدها فان هذه الآية نزلت فى ذلك وعن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال هم الذين لا ينامون قبل العشاء فاثنى عليهم فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة ان تغلبه عينه فوقته قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير وعن مالك بن دينار قال سألت انسا عن هذه الآية فقال كان قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الاولين يصلون المغرب ويصلون بعدها الى العشاء الآخرة فنزلت هذه الآية فيهم وعن ابن أبى حازم قال هى ما بين المغرب والعشاء صلاة الاوابين وعن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع قال قيام العبد من الليل وعن معاذ بن جبل أيضا قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فاصبحت يوما قريبا منه وهو يسير فقلت يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار قال لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيأ وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل من جوف الليل ثم قرأ تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ يعملون ثم قال ألا أخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه الجهاد ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله فقلت بلى يا نبى الله فاخذ بلسانه فقال كف عنك هذا فقلت يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم الا حصائد السنتهم وعن كعب قال اذا حشر الناس نادى مناد هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع أين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ثم يخرج عنق من نار فيقول أمرت بثلاث بمن جعل

والسموات والارضين وغيرها ولانها اعدد تنحصر فيها المعدودات الكثيرة اذ كل احد يحتاج فى حاجته الى زمان ومكان والزمان

مع الله الها آخر وبكل جبار عنيد وبكل معتد لا نا أعرف بالرجل من الوالد بولده والمولود بوالده ويؤمر بفقراء المسلمين الى الجنة فيحبسون فيقولون تحبسونا ما كان لنا أموال وما كنا أمراء وعن أبى امامة الباهلى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم وقربة الى ربكم وتكفير للسيئات ومنهاة عن الآثام ومطردة للداء وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه بين حبه وأهله الى صلاته رغبة فيما عندى وشفقا مما عندى ورجل غزا فى سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه من الانهزام وما عليه فى الرجوع فرجع حتى هريق دمه وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه فقالت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا وعن على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن ربيعة الجرشى قال يجمع الله الخلائق يوم القيامة فى صعيد واحد فيكونون ماشاء الله أن يكونوا ثم ينادى مناد سيعلم أهل الجمع لمن يكون العز اليوم والكرم ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا فيقومون وفيهم قلة ثم يلبث ماشاء الله أن يلبث ثم يعود فينادى المنادى سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم أكثر من الاولين ثم يلبث ماشاء الله أن يلبث ثم يعود وينادى سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ليقم الحامدون على كل حال فيقومون وهم أكثر من الاولين وأخرج ابن جرير عن ابن عباس تتجافى جنوبهم عن المضاجع يقول تتجافى لذكر الله اما فى الصلاة واما فى قيام أو قعود أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله ❊ ولما كان هجران المضجع قد يكون لغير العبادة بين أنه لها بقوله تعالى مبينا لحالهم (يدعون) اى داعين (ربهم) الذى عودهم باحسانه ثم علله بقوله تعالى (خوفا) اى من سخطه وعقابه فان أسباب الخوف من نقائصهم كثيرة سواء أعرفوا سببا يوجب خوفا أولا لانهم لا يأمنون مكر الله لانه يفعل ما يشاء (وطمعا) فى رضاه الموجب لثوابه وقال ابن عباس خوفا من النار وطمعا فى الجنة وعبر به دون الرجاء اشارة الى أنهم لشدة معرفتهم بنقائصهم لا يعدون أعمالهم شيأ بل يطلبون فضله بغير سبب وان كانوا مجتهدين فى طاعته ❊ ولما كانت العبادة تقطع غالبا عن التوسع فى الدنيا بما دعت نفس العابد الى التمسك بما فى يده خوفا من نقص العبادة عند الحاجة وصفهم الله تعالى بقوله تعالى (ومما رزقناهم) اى بعظمتنا لا بحول منهم ولا قوة (ينفقون) من غير اسراف ولا تقتير فى جميع وجوه القرب التى شرعناها لهم فلا يبخلون بما عندهم اعتمادا على الخلاق الرزاق الذى ضمن الخلق فهم بما ضمن لهم أوثق منهم بما عندهم ❊ ولما ذكر تعالى جزاء المستكبرين ذكر جزاء المتواضعين بقوله عز من قائل (فلا تعلم نفس) اى من جميع النفوس مقربة ولا غيرها (ما أخفى) اى خبئ (لهم) اى لهؤلاء المذكورين من مفاتيح الغيوب وخزائنها كما كانوا يخفون أعمالهم فى الصلاة فى جوف الليل وبالصدقة وبغير ذلك وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بالفتح ❊ ولما كانت العين لا تقر

قهم فى سبعة ايام والمكان فى سبعة أقاليم (فان قات) المقصود هنا التفخيم والتعظيم فكيف أتى بجمع القلة فى قوله كلمات الله

فتهجع الاعين والامن والسرور قال تعالى (من قرة أعين) اى من شئ نفيس تقربه أعينهم لاجل ما أقلقوها عن قرارها بالنوم ثم صرح بما أفهمته فاء السبب بقوله تعالى (جزاء) اى أخفاها لهم لجزائهم (بما) اى بسبب ما (كانوا يعملون) اى من الطاعات فى دار الدنيا روى البخارى فى التفسير عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال أبو هريرة اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم الآية وعن ابن مسعود قال انه لمكتوب فى التوراة لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع مالم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلم ملك مقرب ولا نبى مرسل وانه لفى القرآن فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وعن ابن عمر قال ان الرجل من أهل الجنة ليجيء فيشرف عليه النساء فيقلن يافلان بن فلان ما أنت بمن خرجت من عندها باولى بك منا فيقول ومن أنتن فيقلن نحن من اللاتى قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانو يعملون وعن عامر بن عبد الواحد قال بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكان سبعين سنة ثم يلتفت فاذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له قد آن لك ان يكون لنا منك نصيب فيقول من أنت فتقول أنا مزيد فيمكث معها سبعين سنة ويلتفت فاذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول قد آن لك ان يكون لنا منك نصيب فيقول من أنت فتقول أنا التى قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وعن سعيد بن جبير قال يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم التحف من الله من جنات عدن ماليس فى جناتهم وذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وعن كعب قال ساصف لكم منزل رجل من أهل الجنة كان يطلب حلالا ويأكل حلالا حتى لقى الله تعالى على ذلك فانه يعطى يوم القيامة قصرا من لؤلؤة واحدة ليس فيها صدع ولا وصل فيها سبعون ألف غرفة وأسفل الغرف سبعون ألف بيت كل بيت سقفه صفائح الذهب والفضة ليس بموصول ولولا ان الله تعالى سخرله النظر لذهب بصره من نوره غلظ الحائط خمسة عشر ميلا وطوله فى السماء سبعون ميلا فى كل بيت سبعون ألف باب يدخل عليه فى كل بيت من كل باب سبعون ألف خادم لايراهم من فى هذا البيت ولا يراهم من فى هذا البيت فاذا خرج من قصره سار فى ملكه مثل عمر الدنيا يسير فى ملكه عن يمينه وعن يساره ومن ورائه وأزواجه معه وليس معه ذكر غيره ومن بين يديه ملائكة قد حضروا له وبين أزواجه ستر وبين يديه ستر ووصاف ووصائف قد أنهموا ما يشتهى وما تشتهى أزواجه ولا يموت هو ولا أزواجه ولا خدامه أبدا نعيمهم يزداد كل يوم من غير أن يبلى الاول وقرة عين لا تنقطع أبد الابد يدخل عليه فيه روعة أبدا وعن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده لو أن أحد أهل الجنة رجل أضاف آدم فن دونه فوضع لهم طعاما وشرابا حتى خرجوا من عنده لا ينقصه ذلك شيأ مما أعطاه الله وعن سهل بن سعد قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصف الجنة حتى انتهى ثم قال فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال تتجافى جنوبهم عن المضاجع الآيتين قال القرطبى انهم أخفوا اعمالا وأخفى لهم ثوابا فقدموا على الله فقرت تلك الاعين وعن أبى اليمان قال الجنة مائة درجة أولها درجة

(قلت) جمع القلة هنا ابلغ فى المقصود لان جمع القلة اذا لم يتقدمها ذكر من الاعاظم والمداد فكيف يتقدمه جمع الكثرة (قوله

فضة

فضة وأرضها فضة وحصاها فضة وآنيتها فضة وترابها المسك والثانية ذهب وأرضها ذهب وحصاها ذهب وآنيتها ذهب وترابها المسك والثالثة لؤلؤ وأرضها اللؤلؤ وحصاها اللؤلؤ وآنيتها اللؤلؤ وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وتلا هذه الآية فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين الآية وعن المغيرة بن شعبة يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم ان موسى عليه السلام سال ربه فقال أي رب أي أهل الجنة أدنى منزلة فقال رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل فيقول كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا فيقول نعم أي رب قد رضيت فيقال له فان لك هذا وعشرة أمثاله معه فيقال قد رضيت أي رب فيقال له فان لك هذا وما اشتهت نفسك ولذت عينك فقال موسى اي رب فاي أهل الجنة أرفع منزلة قال اياها أردت وسأحدثك عنهم اني غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال ومصداق ذلك في كتاب الله فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين * ونزل في علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه والوليد بن عقبة بن ابي معيط اخي عثمان لامه حين تنازعا فقال الوليد بن عقبة لعلي اسكت فانك صبي وانا شيخ وانا والله ابسط منك لسانا واحد منك سنانا واشجع جنانا واملأ منك حشوا في الكتيبة فقال له علي اسكت فانك فاسق (أفمن كان مؤمنا) اي راسخا في التصديق بجميع ما اخبرت به الرسل (كمن كان فاسقا) اي راسخا في الفسق خارجا عن دائرة الاذعان وقال تعالى (لا يستوون) ولم يقل تعالى لا يستويان لانه لم يرد مؤمنا واحدا ولا فاسقا واحدا بل اراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين فلا يستوي جمع من هؤلاء بجمع من اولئك ولا فرد بفرد قال قتادة لا يستوون لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة * ولما نفي استواءهم اتبعه حال كل على سبيل التفصيل وبدأ بحال المؤمن بقوله تعالى (اما الذين آمنوا وعملوا) اي تصديقا لايمانهم (الصالحات) اي الطاعات (فلهم جنات المأوى) اي التي يأوي اليها المؤمنون فانها المأوى الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة وهي نوع من الجنات قال الله تعالى ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى سميت بذلك لما روي عن ابن عباس قال تأوي اليها ارواح الشهداء وقيل هي عن يمين العرش (نزلا) اي عدادا لهم أول قدومهم قال البقاعي كما يهيأ للضيف على ما لاح اي عند قدومه (بما) أي بسبب ما (كانوا يعملون) من الطاعات فان أعمالهم من رحمة ربهم واذا كانت هذه الجنات نزلا فما ظنك بما بعد ذلك هو لعمري ما اشار اليه قوله صلى الله عليه وسلم ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهم كل لحظة في زيادة لان قدرة الله تعالى لا نهاية لها فاياك ان تخادع او يغرك ملحد ثم ثنى بحال الكافر بقوله تعالى (واما الذين فسقوا) اي خرجوا عن دائرة الايمان الذي هو معدن التواضع واهل للمصاحبة والملازمة (فمأواهم النار) اي التي لا صلاحية فيها للايواء بوجه من الوجوه ملجؤهم ومنزلهم اي فالنار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين (كلما أرادوا) اي وهم مجتمعون فكيف اذا اراد بعضهم (أن يخرجوا منها) بان يخيل اليهم ما يظنون به القدرة على الخروج منها كما كانوا يخرجون نفوسهم من محيط الادلة ومن دائرة الطاعات الى ميدان المعاصي والزلات فيعالجون الخروج فاذا

كل يجري الى اجل مسمى) قاله هنا بلفظ الى وفي فاطر والزمر بلفظ اللام لان ما هنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهي اليه الخلق

ظنوا انه تيسر لهم وهم بعد في غمراتها (اعيدوا فيها) فهو عبارة عن خلودهم فيها (وقيل لهم) اى من اى قائل وكل بهم (ذوقوا عذاب النار) اهانة لهم وزيادة في تغيظهم وقوله تعالى (الذى كنتم به تكذبون) صفة لعذاب وجوز ابو البقاء ان يكون صفة للنار قال وذكر على معنى الجحيم والحريق ● ولما كان المؤمنون الآن يتمنون اصابتهم بشئ من الهوان قال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) اى عذاب الدنيا قال الحسن هو مصائب الدنيا واسقامها وقال عكرمة الجوع بمكة سبع سنين اكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر (دون العذاب الاكبر) وهو عذاب الآخرة فان عذاب الدنيا لا نسبة له الى عذاب الآخرة (فان قيل) ما الحكمة في مقابلة الادنى بالاكبر والادنى انما هو في مقابلة الاقصى والاكبر انما هو في مقابلة الاصغر (أجيب) بانه حصل في عذاب الدنيا أمران أحدهما أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضا أمران أحدهما أنه بعيد والآخر أنه عظيم كبير لكن العرف في عذاب الدنيا هو أنه الذى يصلح للتخويف فان العذاب الآجل وان كان قليلا فلا يحترز عنه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد اذا كان آجلا وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل وأما في عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما ذكر فقال في عذاب الدنيا العذاب الادنى ليحترز العاقل ولو قال تعالى ولنذيقنهم من العذاب الاصغر ما كان ليحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال في عذاب الآخرة الاكبر لذلك المعنى ولو قال من العذاب الابعد الاقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه من الكبر (لعلهم يرجعون) الى الايمان أى من بقى منهم بعد بدر (فان قيل) ما الحكمة في هذا الترجى وهو على الله تعالى محال (أجيب) بوجهين أحدهما معناه لنذيقنهم اذاقة الراجى كقوله تعالى انا نسيناكم يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت اليه أصلا كذلك ههنا والثانى نذيقنهم العذاب اذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن ذكر بآيات ربه) أى القرآن (ثم أعرض عنها) فلم يتفكر فيها وثم لاستبعاد الاعراض عنها مع فرط وضوحها وارشادها الى أسباب السعادة بعد التذكر بها عقلا كما في بيت الحماسة

وما يكشف الغماء الا ابن حرة ● يرى غمرات الموت ثم يزورها

أى لا يكشف الامر العظيم الا رجل كريم موصوف بما ذكر والغماء بتشديد الميم والمد أى في مدة اقتحام الحرب والشاهد في قوله ثم يزورها اذ المعنى انه استبعد ان يزور غمرات الموت بعد ان رآها واستيقنها واطلع على شدتها (انا من المجرمين) أى الكافرين (منتقمون) وعبر بصيغة العظمة تنبيها على ان الذى يحصل لهم من العذاب لا يدخل تحت الوصف على مجرد العداد في الظالمين فكيف اذا كانوا أظلم الظالمين والجملة الاسمية تدل على دوام ذلك عليهم في الدنيا اما باطنا فالاستدراج بالنعم واما ظاهرا فباحلال النقم وفي الآخرة بدوام العذاب على عمر الآباد ● ولما قرر الاصول الثلاثة وعاد الى الاصل الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة في قوله تعالى لتنذر قوما ما أتاهم من نذير بين أنه ليس بدعا من الرسل بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى الجامع للاحكام وهو التوراة فكان قبلك رسل مثلك وذكر موسى عليه السلام

وهما قوله ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقوله اتقوا الله ربكم واخشوا يوما الآية فناسب

السلام اقرب به من النبي صلى الله عليه وسلم وهو أول من انزل عليه كتاب من أنبياء بني اسرائيل
بعد فترة كثيرة من الانبياء بينه وبين يوسف عليهما السلام ولم يختر عيسى عليه السلام للذكر
والاستدلال لان اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته واما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى
عليه السلام فذكر المجمع عليه (فلا تكن في مرية) واختلف في الهاء في قوله تعالى (من لقائه)
على أقوال أحدها أنها عائدة على موسى عليه السلام والمصدر مضاف لمفعوله اى من لقائك
موسى ليلة الاسراء وامتحن المبرد الزجاج في هذه المسئلة فاجاب بما ذكر قال ابن عباس وغيره
المعنى فلا تكن في شك من لقاء موسى فانك تراه وتلقاه روى ابن عباس عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال رأيت ليلة أسري بي موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوأة
ورأيت عيسى رجلا مربوعا الى الحمرة والبياض سبط الرأس ورأيت مالكا خازن النار
والدجال في آيات أراهن الله اياه وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيت على
موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الاحمر وهو يصلي في قبره (فان قيل) قد صح في حديث
المعراج أنه رآه في السماء السادسة ومراجعته في أمر الصلاة فكيف الجمع بين هذين
الحديثين (أجيب) بانه يحتمل أن تكون رؤيته في قبره عند الكثيب الاحمر قبل صعوده
الى السماء وذلك في طريقه الى بيت المقدس فلما صعد الى السماء السادسة وجده هنالك
قد سبقه لما يريده الله تعالى وهو على كل شئ قدير (فان قيل) كيف تصح منه الصلاة
في قبره وهو ميت وقد سقط عنه التكليف وهو في الدار الآخرة وهي ليست دار عمل وكذلك
رأى النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الانبياء وهم يحجون (أجيب) عن ذلك باجوبة
الاول أن الانبياء أفضل من الشهداء والشهداء أحياء عند ربهم فلا يبعد أن يحجوا
ويصلوا كما صح في الحديث وأن يتقربوا الى الله تعالى بما استطاعوا لانهم وان كانوا قد توفوا
لكنهم بمنزلة الاحياء في هذه الدار التي هي دار العمل الى أن تفنى ويفضوا الى دار الجزاء
التي هي الجنة الجواب الثاني أنه صلى الله عليه وسلم رأى حالهم التي كانوا عليها في حياتهم
ومثلوا له كيف كانوا وكيف كان حجهم وصلاتهم الجواب الثالث أن التكليف وان ارتفع
عنهم في الآخرة لكن الذكر والشكر والدعاء لا يرتفع قال الله تعالى دعواهم فيها سبحانك
اللهم وقال صلى الله عليه وسلم يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس فالعبد يعبد ربه تعالى في
الجنة أكثر مما كان يعبده في دار الدنيا وكيف لا يكون ذلك وقد صار مثل حال الملائكة الذين
قال الله تعالى في حقهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون غاية ما في الباب أن العبادة ليست
عليهم بتكليف بل هي مقتضى الطبع ثانيها أن الضمير يعود الى الكتاب وحينئذ يجوز أن
تكون الاضافة للفاعل اى من لقاء الكتاب لموسى أو المفعول أى من لقاء موسى الكتاب لان
اللقاء تصح نسبته الى كل منهما لان من لقيك فقد لقيته قال السدي المعنى فلا تكن في مرية
من لقائه اى تلقي موسى كتاب الله تعالى بالرضا والقبول ثالثها أنه يعود على الكتاب
على حذف مضاف اى من لقاء مثل كتاب موسى رابعها أنه عائد على ملك الموت عليه السلام
لتقدم ذكره خامسها عوده على الرجوع المفهوم من قوله الى ربكم ترجعون اى لا تكن
في مرية من لقاء الرجوع سادسها أنه يعود على ما يفهم من سياق الكلام مما ابتلي به موسى

ذكر الى الدالة على الانتهاء والمعنى لا يزال كل من الشمس والقمر جاريا حتى ينتهي الى آخر وقت جريه المسمى له وما في فاطر

من الابتلاء والامتحان قاله الحسن أى لا بد أن تلق ما لقى موسى من قومه واختار موسى عليه السلام لحكمة وهى أن أحدا من الانبياء لم يؤذه من قومه الا الذين لم يؤمنوا وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى عليه السلام فان من لم يؤمن به آذاه كفرعون ومن امن به من بنى اسرائيل آذاه أيضا بالمخالفة فطلبوا أشياء مثل رؤية الله جهرة وكقولهم اذهب أنت وربك فقاتلا وأظهر هذه الاقوال ان الضمير اما لموسى واما للكتاب واختلف فى الضمير أيضا فى قوله تعالى (وجعلناه) على قولين احدهما يرجع الى موسى اى وجعلنا موسى (هدى) أى هاديا (لبنى اسرائيل) كما جعلناك هاديا لامتك والثانى انه يرجع الى الكتاب اى وجعلنا كتاب موسى هاديا كما جعلنا كتابك كذلك (وجعلنا منهم) اى من أنبيائهم واحبارهم (أئمة يهدون) اى يرفعون البيان ويعملون على حسبه (بأمرنا) اى بما أنزلنا فيه من الاوامر كذلك جعلنا من امتك صحابة يهدون كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أصحابى كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بتسهيل الهمزة قبل الميم ولهم ايضا ابدالها ياء وحققها الباقون ومد هشام بين الهمزتين بخلاف عنه وقوله تعالى (لما صبروا) قرأ حمزة والكسائى بكسر اللام وتخفيف الميم اى بسبب صبرهم على دينهم وعلى البلاء من عدوهم ولاجله وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم اى حين صبرهم على ذلك وان كان الصبر أيضا انما هو بتوفيق الله تعالى (وكانوا بآياتنا) الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا لما لها من العظمة (يوقنون) اى لا يرتابون فى شئ منها ولا يعملون فعل الشاك فيها بالاعراض ● ولما أفهم قوله تعالى منهم انه كان منهم من يضل عن امر الله قال الله تعالى (ان ربك) اى المحسن اليك بارسالك ليعظم ثوابك (هو) اى وحده (يفصل بينهم) اى بين الهادين والمهديين والضالين والمضلين (يوم القيامة) بالقضاء الحق (فيما كانوا فيه يختلفون) اى من امر الدين لا يخفى عليه شئ منه وأما غير ما اختلفوا فيه فالحكم فيه لهم أو عليهم وما اختلفوا فيه لا على وجه القصد فيقع فى محل العفو ● ولما اعاد ذكر الرسالة اعاد ذكر التوحيد بقوله تعالى (أولم يهد) اى يبين كما رواه البخارى عن ابن عباس (لهم كم أهلكنا) اى كثرة من اهلكنا (من قبلهم من القرون) الماضين من المعرضين عن الآيات ونجينا من آمن بها وقوله تعالى (يمشون) حال من ضمير لهم (فى مساكنهم) اى فى اسفارهم الى الشأم وغيرها كمساكن عاد وثمود وقوم لوط فيعتبروا (ان فى ذلك) اى الامر العظيم (لآيات) اى دلالات على قدرتنا (أفلا يسمعون) سماع تدبر واتعاظ فيتعظوا بها (أولم) اى أيقولون فى انكار البعث أئذا ضللنا فى الارض ولم (يروا أنا) بما لنا من العظمة (نسوق الماء) اى من السماء أو الارض (الى الارض الجرز) اى التى جرز نباتها اى قطع باليبس والتهشم أو بأيدى الناس فصارت ملساء لا نبات فيها وفى البخارى عن ابن عباس انها التى لا تمطر الامطار الا يغنى عنها شيأ ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز ويدل عليه قوله تعالى (فنخرج به) من اعماق الارض بذلك الماء (زرعا) اى نبتا لا ساق له باختلاط الماء بالتراب وقيل الجرز اسم موضع باليمن (تأكل منه انعامهم) اى من حبه وورقه وتبنه وحشيشه (وانفسهم) اى من الحبوب والاقوات وقدم الانعام لوقوع الامتنان بها لان بها قوامهم فى معايشهم وابدانهم ولان الزرع غذاء للدواب لا بد منه واما غذاء الانسان فقد يصلح للحيوان

والزمر خال عن ذلك اذ ما فى
فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق
ولا انتهائه وما فى الزمر ذكر
مع انتهائه فناسب ذكر
اللام او قبله والمعرف

فكان

فكان الحيوان يأكل الزرع ثم الانسان يأكل من الحيوان (فان قيل) فى سورة عبس قدم ما للانسان اولا فما الحكمة (اجيب) بان السياق فيها الطعام الانسان الذى هو نهاية الزرع حيث قال فلينظر الانسان الى طعامه ثم قال فانبتنا فيها حبا وذكر من طعامه من العنب وغيره ما لا يصلح للانعام فقدمه وهذا السياق لمطلق اخراج الزرع واول صلاحه انما هو لاكل الانعام ولا يصلح للانسان ولما كانت هذه الآية مبصرة قال (افلا يبصرون) هذا فيعلمون أنا نقدر على اعادتهم بخلاف الآية الماضية فانها كانت مسموعة فقال افلا يسمعون ثم ولما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون) اى مع هذا البيان الذى ليس معه خفاء (متى هذا الفتح) اى يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين واعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة (ان كنتم صادقين) اى عريقين فى الصدق بالاخبار بانه لابد من وقوعه حتى نؤمن اذا رأيناه قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى لهؤلاء الجهلة (يوم الفتح) اى الذى تستهزؤن به وهو يوم القيامة (لا ينفع الذين كفروا) اى غطوا آيات ربهم التى لا خفاء بها سواء فى ذلك أنتم وغيركم ممن اتصف بهذا الوصف (ايمانهم) لانه ليس ايمانا بالغيب (ولا هم ينظرون) أى يمهلون فى ايقاع العذاب بهم لحظة ما من منتظر ما (فان قيل) قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جوابا عن سؤالهم (أجيب) بانه كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالا منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فاجيبوا على حسب ما علم من غرضهم فى سؤالهم فقيل لهم لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الايمان واستنظرتم فى ادراك العذاب فلم تنظروا (فان قيل) فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره ان لا ينفعهم الايمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناسا يوم بدر (أجيب) بان المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم ايمانهم فى حال القتل كما لم ينفع فرعون ايمانه حال ادراك الغرق وقوله تعالى (فاعرض عنهم) اى لا تبال بتكذيبهم (وانتظر) أى انزال العذاب بهم (انهم منتظرون) أى بك حادث موت أو قتل فيستريحون منك كان ذلك قبل الامر بقتالهم وقيل انتظر عذابهم بيقينك انهم منتظرونه بلفظهم استهزاء كما قالوا فأتنا بما تعدنا وعن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الفجر يوم الجمعة الم تنزيل اى فى الركعة الاولى وهل أتى على الانسان أى فى الركعة الثانية وعن جابر قال كان النبى صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ تبارك والم تنزيل ويقول هما يفضلان على كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة ومن قرأهما كتب له سبعون حسنة ورفع له سبعون درجة وعن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الم تنزيل أعطى من الاجر كمن أحيا ليلة القدر وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عنه صلى الله عليه وسلم من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام قال شيخ شيخنا ابن حجر لم أجده والله تعالى أعلم بالصواب

سورة الاحزاب مدنية

وهى ثلاث وسبعون آية وألف ومائتان وثمانون كلمة وخمسة آلاف وتسعمائة وتسعون حرفا

يجرى كل مماذكر لبلوغ اجل (قوله ان الله عنده علم الساعة) الآية اضاف فيها العلم الى نفسه فى الثلاثة من الخمسة المذكورة

وعن ابى ذر قال قال ابي بن كعب كم تعدون سورة الاحزاب قال ثلاثا وسبعين آية قال والذى يحلف به أبي بن كعب ان كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم اراد أبي أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن واما ما حكى ان تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض (بسم الله) الذى مهما أراد كان (الرحمن) الذى شملت رحمته كل موجود بالكرم والجود (الرحيم) لمن توكل عليه بالعطف عليه ٭ونزل فى أبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وابى الاعور عمرو بن سفيان السلمى لما قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبى رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد أعطاهم النبى صلى الله عليه وسلم الامان على أن يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح وطعمة بن ابيرق فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل ان لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك فشق على النبى صلى الله عليه وسلم قولهم فقال عمر يا رسول الله ائذن لى فى قتلهم فقال انى قد أعطيتهم الامان فقال عمر اخرجوا فى لعنة الله وغضبه وأمر النبى صلى الله عليه وسلم عمر أن يخرجهم من المدينة (يا أيها النبى اتق الله) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال ان أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبى صلى الله عليه وسلم الى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم وخوفه المنافقون من اليهود بالمدينة ان لم يرجع قتلوه فانزل الله تعالى يا أيها النبى اتق الله أى دم على التقوى كما يقول الرجل لغيره وهو قائم قم قائما أى اثبت قائما فسقط بذلك ما يقال الامر بالشئ لا يكون الا عند اشتغال المأمور بغير المأمور به اذ لا يصح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبى صلى الله عليه وسلم كان متقيا لان الامر بالمداومة يصح فى ذلك فيقال للجالس اجلس هنا حتى آتيك ويقال للساكت قد أحسنت فاسكت تسلم اى دم على ما انت عليه وايضا من جهة العقل ان المتقى منه عادة على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالتقوى بالاول ولا بالثانى واما الثالث فالمخلص لا يامنه ما دام فى الدنيا فكيف والامور البدنية شاغلة فالآدمى فى الدنيا تارة مع الله والاخرى مقبل على ما لا بد منه وان كان معه الله ولهذا أشار بقوله عليه الصلاة والسلام انما أنا بشر مثلكم يوحى الى يعنى يرفع الحجاب عنى وقت الوحى ثم أعود اليكم كأنى منكم فأمر بتقوى توجب ادامة الحضور وقال الضحاك معناه اتق الله ولا تنقض الذى بينك وبينهم وقيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد الامة

وفى العلم عن العبادة فى الاخيرين منهم امع ان الحسنة سواء فى اختصاص الله تعالى بعلمها واقتضاء علم العباد بها لان الثلاثة

٭(تنبيه)٭ جعل الله تعالى نداء نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبى والرسول فى قوله تعالى يا أيها النبى اتق الله يا أيها النبى لم تحرم يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك وترك نداءه باسمه كما قال تعالى يا آدم يا موسى يا عيسى يا داود كرامة وتشريفا وتنويها بفضله (فان قيل) ان لم يوقع اسمه فى النداء فقد اوقعه فى الاخبار فى قوله تعالى محمد رسول الله وما محمد الا رسول (أجيب) بان ذلك لتعليم الناس أنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والاخبار ألا ترى الى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الاخبار كيف ذكره بنحو ما ذكر

في النداء لقد جاءكم رسول من أنفسكم وقال الرسول يا رب لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة والله ورسوله أحق أن يرضوه النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ان الله وملائكته يصلون على النبي وقرأ نافع النبيء بالهمز والباقون بغير همز ❊ ولما وجه اليه صلى الله عليه وسلم الامر بخشية الولي الودود أتبعه النهي عن الالتفات نحو العدو الحسود بقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) في شيء من الاشياء لم يتقدم اليك من الخالق فيه أمر وان لاح لك خوف أو برق رجاء فخافهم واحترس منهم فانهم أعداء الله تعالى وأعداء المؤمنين لا يريدون الا المضارة والمضادة قال أبو حيان سبب نزولها أنه روي انه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان يحب اسلام اليهود فتابعه ناس على النفاق وكان يلين لهم جانبه وكانوا يظهرون النصائح من طريق المخادعة فنزلت تحذيرا منهم وتنبيها على عداوتهم انتهى وبهذا سقط ما قيل لم خص الكافر والمنافق بالذكر ولان ذكر غيرهما لا حاجة اليه لانه لا يكون عنده الا مطاعا ولان كل من طلب من النبي صلى الله عليه وسلم طاعته فهو كافر أو منافق لان من يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ايجاب معتقدا أنه ان لم يفعله يعاقبه يحق يكون كافرا وقرأ أبو عمرو والدوري عن الكسائي الكافرين بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح ❊ ثم علل تعالى الامر والنهي بما يزيل الهموم ويوجب الاقبال عليهما واللزوم بقوله تعالى (ان الله) اي بعظيم كماله (كان) أزلا وأبدا (عليما) اي شامل العلم (حكيما) اي بالغ الحكمة فهو تعالى لم يأمرك بأمر الا وقد علم ما يترتب عليه وأحكم اصلاح الحال فيه ❊ ولما كان ذلك مفهما المخالفة كل ما يدعو اليه كافر وكان الكافر ربما دعا الى شيء من مكارم الاخلاق قيده بقوله تعالى (واتبع) اي بغاية جهدك (ما يوحى) اي يلقى القاء خفيا كما يفعل المحب مع حبيبه (اليك من ربك) اي المحسن اليك باصلاح جميع أمرك وأتى موضع الضمير بالظاهر ليدل على الاحسان في التربية ليقوى على امتثال ما أمرت به الآية السالفة ❊ ولما أمره باتباع الوحي رغبه فيه بالتعليل بأوضح من التعليل الاول في أن مكرهم خفي بقوله تعالى مذكرا بالاسم الاعظم بجميع ما يدل عليه من الاسماء الحسنى زيادة في التقوى على الامتثال مؤكدا للترغيب (ان الله) اي بعظمته وكماله (كان) أزلا وأبدا (بما يعملون) اي الفريقان من المكايد وان دق (خبيرا) اي فلا تهتم بشأنهم فانه سبحانه كافيكه وان تعاظم وقرأ أبو عمرو بما يعملون خبيرا وبما يعملون بصيرا بالياء على الغيبة على ان الواو ضمير الكفرة والمنافقين والباقون بالتاء على الخطاب فيهما ❊ ولما كان الآدمي موضع الحاجة قال تعالى (وتوكل) اي دع الاعتماد على التدبير في أمورك واعتمد فيها (على الله) اي المحيط علما وقدرة فانه يكفيك في جميع أمورك (وكفى بالله) الذي له الامر كله على الاطلاق (وكيلا) اي موكولا اليه الامور كلها فلا تلتفت في شيء من أمرك الى غيره لانه ليس لك قلبان تصرف كل واحد منهما الى واحد كما قال تعالى (ما جعل الله) أي الذي له الحكمة البالغة والعظمة الباهرة (لرجل) اي لاحد من بني آدم ولا غيره وعبر بالرجل لانه اقوى جسما وفهما فيفهم غيره من باب اولى واشار الى التأكيد بقوله تعالى (من قلبين) وأكد الحقيقة وقررها وجلاها وصورها بقوله تعالى (في جوفه) اي ما جمع الله تعالى قلبين في جوف لان القلب

الاولى أمرها أعظم وأفخم نعمت بالاضافة اليه تعالى والاخيرين من صفات العبد فخصا بالاضافة اليهم مع أنه اذا اتقى عزم

معدن الروح الحيوانى المتعلق للنفس الانسانى أولا ومنبع القوى باسرها ومدبر البدن باذن الله تعالى وذلك يمنع التعدد (وما جعل ازواجكم اللائى) باح لكم القبح بهن (تظاهرون منهن) كما يقول الانسان للواحدة منهن انت على كظهر أمى (امهاتكم) بما حرم عليكم من الاستمتاع بهن حتى تجعلوا ذلك على التأبيد وترتبوا على ذلك أحكام الامهات كلها (وما جعل ادعياءكم) جمع دعى وهو من يدعى لغير ابيه (أبناءكم) حقيقة لتجعل لهم ارثكم ويحرم عليكم حلائلهم وغير ذلك من أحكام الابناء والمعنى ان الله سبحانه وتعالى كما لم ير فى حكمته ان يجعل للانسان قلبين لانه لا يخلو أن يفعل باحدهما مثل ما يفعل بالآخر من افعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج اليها وأما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك فذلك يؤدى الى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما ظانا موقنا شاكا فى حالة واحدة لم ير أيضا ان تكون المرأة الواحدة أما الرجل زوجا له لان الام مخدومة مخفوض لها الجناح والمرأة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة وهما حالتان متنافيتان ولم ير أيضا أن يكون الرجل الواحد دعى الرجل وابنا له لان البنوة اصالة فى النسب وعراقة فيه والدعوة الصاق عارض بالتسمية لا غير ولا يجتمع فى الشئ الواحد أن يكون اصيلا غير اصيل وهذا مثل ضربه الله تعالى فى زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبى صغيرا وكانت العرب فى جاهليتها يتغاورون ويتسابون فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فلما تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم وهبته له وطلبه أبوه وعمه فخير فاختار النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أبوه وعمه يا زيد أتختار العبودية على الربوبية قال ما أنا بمفارق هذا الرجل فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصه عليه أعتقه وتبناه قبل الوحى وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة قال المنافقون تزوج امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فانزل الله تعالى هذه الآية فيه وكذا قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وروى ان رجلا كان يسمى أبا معمر حميد بن معمر الفهرى وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع فقالت قريش ما حفظ أبو معمر هذه الاشياء الا وله قلبان وكان يقول لى قلبان أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد فلما هزم الله تعالى المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم فلقيه أبو سفيان وهو معلق احدى نعليه بيده والاخرى فى رجله فقال له ما فعل الناس فقال له بين مقتول وهارب فقال له فما بال احدى نعليك فى رجلك والاخرى فى يدك فقال ما ظننت الا أنهما فى رجلى فأكذب الله تعالى قوله وقولهم وضربه مثلا فى الظهار والتبنى وعن ابن عباس كان المنافقون يقولون لمحمد قلبان فأكذبهم الله تعالى وقيل سها فى صلاته فقالت اليهود له قلبان قلب مع اصحابه وقلب معكم وعن الحسن نزلت فى أن الواحد يقول لى نفسان نفس تأمرنى ونفس تنهانى (فان قيل) ما وجه تعدية الظهار واخواته بمن (اجيب) بان الظهار كان طلاقا فى الجاهلية فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما يتجنبون المطلقة فكان قولهم تظاهر منها تباعد منها جهة الظهار فلما تضمن معنى التباعد منها عدى بمن (فان قيل) ما معنى قولهم أنت على كظهر أمى (أجيب) بانهم ارادوا ان يقولوا أنت على حرام كبطن أمى فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطن الذى ذكره يقارب ذكر الفرج لانه عمود البطن

علمها لكان اتقاء علم
ما عداهما من الخمسة أولى
(فان قلت) لم قال تعالى باى
أرض تموت ولم يقل باى
وقت تموت مع ان كلا منهما

ومنه

ومنه حديث عمر يجيء به أحدهم على عمود بطنه أراد على ظهره ووجه آخر وهو ان اتيان المرأة وظهرها الى السماء كان محرما عندهم محظورا وكان أهل المدينة يقولون اذا أتيت المرأة ووجهها الى الارض جاء الولد أحول فلقصد المطلق منهم الى التغليظ في تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعله كظهر أمه وهو منكر وزور وفيه كفارة كما سيأتي ان شاء الله تعالى في سورة المجادلة وقرأ ابن عامر والكوفيون اللائي بالهمزة المكسورة والياء بعدها في الوصل وسهل الياء كالهمزة ورش والبزي وأبو عمرو مع المد والقصر وعن أبي عمرو والبزي أيضا ابدالها ياء ساكنة مع المد لاغير وقالون وقنبل بالهمز ولا ياء بعدها وقرأ تظاهرون عاصم بضم التاء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء مخففة وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء والظاء مخففتين وألف بعد الظاء وفتح الهاء مخففة وابن عامر كذلك الا أنه يشدد الظاء والباقون بفتح التاء والظاء والهاء مع تشديد الظاء والهاء ولا ألف بعد الظاء وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى كل ما ذكر او الى الاخير (قولكم بأفواهكم) اى مجرد قول لسان من غير حقيقة كالهذيان (والله) اى المحيط علما وقدرة وله جميع صفات الكمال (يقول الحق) اى ما له حقيقة الثابت الذي يوافق ظاهره باطنه فلا قدرة لاحد على نقضه فان أخبر عن شيء فهو كما قاله (وهو) اى وحده (يهدي السبيل) اى يرشد الى سبيل الحق ٭ ولما كان كانه قيل فما نقول اهدنا الى سبيل الحق قال تعالى (ادعوهم) اى الادعياء (لآبائهم) اى الذين ولدوهم ان علموا ولذا قال زيد بن حارثة قال صلى الله عليه وسلم من دعي الى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام وأخرجه الشيخان عن سعد بن أبي وقاص ثم علل تعالى ذلك بقوله تعالى (هو) اى هذا الدعاء (أقسط) اى أقرب الى العدل من التبني وان كان انما هو لازيد الشفقة على المتبنى والاحسان اليه (عند الله) اى الجامع لصفات الكمال وعن ابن عمر ان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ادعوهم لآبائهم الآية وقيل كان الرجل في الجاهلية اذا أعجبه جلد الرجل وظرفه ضمه الى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب اليه فيقال فلان ابن فلان أما اذا جهلوا فهو ما ذكر بقوله تعالى (فان لم تعلموا آباءهم) لجهل اصلي أو طارئ (فاخوانكم) أي فهم اخوانكم (في الدين) ان كانوا دخلوا في دينكم اى قولوا لهم اخوانا (ومواليكم) ان كانوا محررين اى قولوا موالي فلان وعن مقاتل ان لم تعلموا لهم أبا فانسبوهم اخوانكم في الدين اى أن تقول عبد الله وعبد الرحمن وعبيد الله وأشباههم من الاسماء وان يدعى الى اسم مولاه وقيل مواليكم أولياؤكم في الدين ٭ ولما كان عادتهم الخوف مما سبق من أحوالهم على النهي لشدة ورعهم أخبرهم انه تعالى أسقط عنهم ذلك لكونه خطأ وساقه على وجه يعم ما بعد النهي أيضا بقوله تعالى (وليس عليكم جناح) اى اثم وميل واعوجاج وعبر بالظرف ليفيد ان الخطأ لا اثم فيه بوجه ولو عبر بالباء لظن ان فيه اثما ولكن يعفى عنه فقال تعالى (فيما أخطأتم به) اى من الدعاء بالبنوة والمظاهرة أو في شيء قبل النهي أو بعده ودل قوله تعالى (ولكن ما) اى الاثم فيما (تعمدت قلوبكم) على زوال الحرج أيضا فيما وقع بعد النهي على سبيل النسيان أو سبق اللسان ودل تأنيث الفعل على انه لا يتعمد بعد البيان الشافي

غير معلوم لغيره بل نفي العلم بالزمان أولى لان من الناس من يدعي علمه بخلاف المكان (قلت) انما خص المكان بنفي علمه لان الكون

الاقلب فيه رخاوة الانوثة ودل جمع الكثرة على عموم الاثم ان لم يفته التعمد *(تنبيه)* يجوز في ماهذه وجهان أحدهما ان تكون مجرورة المحل عطفا على ما المجرورة قبلها بفي والتقدير ولكن الجناح فيما تعمدت كما مرت الاشارة اليه والثاني أنها مرفوعة المحل بالابتداء والخبر محذوف تقديره تؤاخذون به أو عليكم فيه الجناح ونحوه ولما كان هذا الكرم خاصا بما تقدم عمم سبحانه وتعالى بقوله (وكان الله) أزلا وأبدا (غفورا) اى من صفته الستر البليغ على المذنب التائب (رحيما) به ولما نهى تعالى عن التبني وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبنى زيد بن حارثة مولاه لما اختاره على أبيه وعمه كما مر علل تعالى النهي فيه بالخصوص بقوله تعالى دالا على أن الامر أعظم من ذلك (النبي) اى الذي ينبئه الله تعالى بدقائق الاحوال في بدائع الاقوال ويرفعه دائما في مراقي الكمال ولا يريد أن يشغله بولد ولا مال (أولى بالمؤمنين) اى الراسخين في الايمان فغيرهم أولى في كل شئ من أمور الدين والدنيا لما حازه من الحضرة الربانية (من أنفسهم) فضلا عن آبائهم في نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مامن مؤمن الا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فاى مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا فان ترك دينا أو ضياعا فليأتني فانا مولاه وعن جابر انه صلى الله عليه وسلم كان يقول أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأيما رجل مات وترك دينا فالي ومن ترك مالا فهو لورثته وعن أبي هريرة قال كان المؤمن اذا توفي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل هل عليه دين فان قالوا نعم قال هل ترك وفاء لدينه فان قالوا نعم صلى عليه وان قالوا لا قال صلوا على صاحبكم وانما لم يصل عليه صلى الله عليه وسلم أولا فيما اذا لم يترك وفاء لان شفاعته صلى الله عليه وسلم لا ترد وقد ورد ان نفس المؤمن محبوسة عن مقامها الكريم مالم يوف دينه وهو محمول على من قصر في وفائه في حال حياته اما من لم يقصر لفقره مثلا فلا كما أوضحت ذلك في شرح المنهاج في باب الرهن وانما كان صلى الله عليه وسلم أولى بهم من أنفسهم لانه لايدعوهم الا الى العقل والحكمة ولا يأمرهم الا بما ينجيهم وأنفسهم انما تدعوهم الى الهوى والفتنة فتأمرهم بما يرديهم فهو يتصرف فيهم تصرف الآباء بل أعظم بهذا السبب الرباني فأي حاجة الى السبب الجسماني (وأزواجه أمهاتهم) أي المؤمنين أي مثلهن في تحريم نكاحهن ووجوب احترامهن وطاعتهن اكراما له صلى الله عليه وسلم لا في حكم الخلوة والنظر والظهار والمسافرة والنفقة والميراث وهو صلى الله عليه وسلم أب للرجال والنساء وأما قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم فمعناه ليس أحد من رجالكم ولد صلبه وسيأتي ذلك ويحرم سؤالهن الا من وراء حجاب وسيأتي ما يتعلق بذلك ان شاء الله تعالى في محله وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بغلام وهو يقرأ في المصحف النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم فقال ياغلام حكها فقال هذا مصحف أبي فذهب اليه فسأله فقال انه كان يلهيني القرآن ويلهيك الصفق بالاسواق ومعنى ذلك ان هذا كان يقرأ أولا ونسخ لما روى عن عكرمة انه قال كان في الحرف الاول النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم وعن الحسن قال في القراءة الاولى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقوله تعالى (وأولوا الارحام)

في مكان دون مكان في وسع الانسان واختياره فاعتقاده علم مكان دونه أقرب بخلاف الزمان ولان لامكان دون الزمان

أى القرابات بانواع النسب من البنوة وغيرها (بعضهم أولى) بحق القرابة (ببعض) اى فى التوارث ثم نسخ لما كان فى صدر الاسلام فانهم كانوا فيه يتوارثون بالحلف والنصرة فيقول ذمتى ذمتك ترثنى وأرثك ثم نسخ بالاسلام والهجرة ثم نسخ بآية المواريث وبالآية التى فى آخر الانفال وأعادها تأكيدا فان آية المواريث مقدمة ترتيبا ونزولا على آية الانفال وآية الانفال على هذه كذلك وقوله تعالى (فى كتاب الله) يحتمل ان ذلك فى اللوح المحفوظ أو فيما أنزل وهو هذه الآيات المذكورة أو فيما فرض الله ✽ ولما بين انهم أولى لسبب القرابة بين المفضل عليه بقوله تعالى (من) اى هم أولى بسبب القرابة من (المؤمنين) الانصار من غير قرابة مرجحة (والمهاجرين) اى ومن المهاجرين المؤمنين من غير قرابة كذلك وقوله تعالى (الا أن تفعلوا) استثناء منقطع كما جرى عليه الجلال المحلى اى لكن أن تفعلوا (الى أوليائكم معروفا) بوصية فجائز ويجوز أن يكون استثناء من أعم العام كما قاله الزمخشرى فى معنى النفع والاحسان كما تقول القريب أولى من الاجنبى الا فى الوصية تريد انه أحق منه فى كل نفع من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير ذلك الا فى الوصية والمراد بفعل المعروف التوصية لانه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بالى لانه فى معنى تسدوا والمراد بالاولياء المؤمنون والمهاجرون للولاية فى الدين (كان ذلك) اى ما ذكر من آيتى ادعوهم والنبى أولى وقيل أول ما نسخ من الآيات الارث بالايمان والهجرة ثانيا (فى الكتاب) اى اللوح المحفوظ والقرآن (مسطورا) قال الاصبهانى وقيل فى التوراة قال البقاعى لان فى التوراة اذا نزل رجل بقوم من أهل دينه فعليهم أن يكرموه ويواسوه وميراثه لذوى قرابته فالآية من الاحتباك أثبت وصف الايمان أولا دليلا على حذفه ثانيا ووصف الهجرة ثانيا دليلا على حذف النصرة أولا (واذ) اى واذكر حين (أخذنا) بعظمتنا (من النبيين ميثاقهم) اى عهودهم فى تبليغ الرسالة والدعاء الى الدين القيم فى المنشط والمكره وفى تصديق بعضهم لبعض وفى اتباعك فيما أخبرنا به فى قولنا لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وقولهم أقررنا ✽ ولما ذكر ما أخذ على جميع الانبياء من العهد فى ابلاغ ما يوحى اليهم والعمل بمقتضاه ذكر ما أخذ عليهم ٣ من العهد فى التبليغ بقوله تعالى (ومنك) اى فى قولنا فى هذه السورة اتق الله واتبع ما يوحى اليك وفى المائدة يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فلا تهتم بمراعاة عدو ولا خليل حقير ولا جليل ✽ ولما أتم المراد اجمالا وهو ما وخصه صلى الله عليه وسلم من ذلك العموم مبتدئا به اقرارا له صلى الله عليه وسلم كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث بيانا للتشريف ولانه المقصود بالذات اتبعه بقية أولى العزم الذين هم اصحاب الكتب ومشاهير أرباب الشرائع ورتبهم على ترتيبهم فى الزمان لانه لم يقصد المفاضلة بينهم بالنسبة بالمتقدمين والمتأخرين قال (ومن نوح) أول الرسل الى المخالفين (وابراهيم) أبى الانبياء (وموسى) أول أصحاب الكتب من بنى اسرائيل (وعيسى ابن مريم) ختام أنبياء بنى اسرائيل ونسبه الى أمه منادا على من ضل فيه بدعوى الالوهية وبالتوبيخ والتسجيل بالفضيحة ✽ (تنبيه) ✽ ذكر هذه الخمسة من عطف الخاص على العام كما علم مما تقرر وقوله تعالى (وأخذنا) اى بعظمتنا فى ذلك (منهم ميثاقا غليظا) اى شديدا بالوفاء بما حملوه

قوله ثم نسخ لما كان الخ عبارة البيضاوى وهو نسخ لما كان الخ وهى واضحة اه مصحح

تأثيرا فى جانب العصمة والسقم أو تأثيره فيهما أكثر

✽ (سورة السجدة) ✽

(قوله يدبر الامر من السماء الى الارض الآية)

٣ قوله أخذ عليهم كذا بالنسخ بايدينا والصواب عليه صلى الله عليه وسلم اه مصحح

وهو الميثاق الاول وانما كرر لزيادة وصفه بالغلظ وهو استعارة من وصف الاجرام والمراد عظم الميثاق وجلالة شأنه في بابه وقيل الميثاق الغليظ اليمين بالله على الوفاء بما حملوه ثم أخذ الميثاق (ليسئل) أى الله تعالى يوم القيامة (الصادقين) اى الانبياء الذين صدقوا عهدهم (عن صدقهم) اى عما قالوه لقومهم تبكيتا للكافرين بهم وقيل ليسأل المصدقين للانبياء عن تصديقهم لان من قال للصادق صدقت كان صادقا في قوله وقيل ليسأل الانبياء ما الذى اجابتهم به أممهم وقيل ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم بقلوبهم وقوله تعالى (واعد للكافرين عذابا اليما) اى مؤلما معطوف على أخذنا من النبيين لان المعنى ان الله تعالى أكد على الانبياء الدعوة الى دينه لاجل اثابة المؤمنين واعد للكافرين عذابا أليما ويجوز أن يعطف على مادل عليه ليسأل الصادقين كأنه قال أثاب المؤمنين وأعد للكافرين وقيل انه قد حذف من الثانى ما أثبت مقابله في الاول ومن الاول ما أثبت مقابله في الثانى والتقدير ليسأل الصادقين عن صدقهم فاثابهم ويسأل الكافرين عما كذبوا به رسلهم وأعد لهم عذابا أليما ثم حقق الله تعالى ماسبق اوهم من الامر بتقوى الله تعالى بحيث لا يبقى معه الخوف من احد بقوله تعالى (يا يها الذين منوا اذكروا) ورغبهم في الشكر بذكر الاحسان والتصريح بالاسم الاعظم بقوله تعالى (نعمة الله) اى الملك الاعلى الذى لا كفء له (عليكم) اى لتشكروه عليها بالقوة لا مره وعبر بالنعمة لانها المقصودة بالذات والمراد انعامه يوم الاحزاب وهو يوم الخندق ثم ذكر وقت تلك النعمة لزيادة في تصويرها البذكراهم ما كان فيه منها بقوله تعالى (اذ) اى حين (جاءتكم جنود) اى الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وقرأنافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام (فارسلنا) اى تسبب عن ذلك انا لما رأينا عجزكم عن مقاتلتهم ومقاومتهم أرسلنا (عليهم ريحا) وهى ريح الصبا قال عكرمة قالت الجنوب للشمال ليلة الاحزاب انطلقى ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الشمال ان الحرة لاتسرى بالليل فكانت الريح التى ارسلت اليهم الصبا لماروى ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور لان الصبا ريح فيها روح ماهبت على محزون الازال حزنه (وجنودا) اى وارسلنا جنودا من الملائكة (لم تروها) وكانوا ألفا ولم تقاتل يومئذ فبعث الله عليهم تلك الليلة ريحا باردة فقلعت الاوتاد وقطعت اطناب الفساطيط واطفأت النيران واكفأت القدور وجالت الخيل بعضها على بعض وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حى يقول يابنى فلان هلم الى واذا اجتمعوا عنده قالوا النجاء النجاء فانهزموا من غير قتال لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب (وكان الله) اى الذى له جميع صفات الجلال والجمال (بما يعملون) اى الاحزاب من التحزب والتجمع والمكر وغير ذلك (بصيرا) اى بالغ الابصار والعلم * (تنبيه) * قال البخارى قال موسى بن عقبة كانت غزوة الخندق وهى الاحزاب في شوال السنة اربع وروى محمد بن اسحق عن مشايخه قال دخل حديث بعضهم في بعض ان نفرا من اليهود منهم سلام ابن ابى الحقيق وحيى بن اخطب وكنانة بن الربيع بن ابى الحقيق وهودة بن قيس وابو عمار الوائلى في نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الاحزاب على رسول الله صلى

ان قلت لم قال هنا اى يوم كان مقداره ألف سنة وفى المعارج كان مقداره خمسين ألف سنة (قلت) المراد باليوم هنا

الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر يهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه قالوا دينكم خير من دينه وأنتم اولى بالحق منه فهم الذين قال الله تعالى فيهم ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت الى قوله تعالى وكفى بجهنم سعيرا فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجمعوا على ذلك ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤا غطفان فدعوهم الى ذلك وأخبروهم انهم سيكونون معهم عليه وان قريشا قد بايعوهم على ذلك فاجابوهم فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جمعوا له من الامر ضرب الخندق على المدينة وكان الذى اشار به على النبي صلى الله عليه وسلم سلمان الفارسي رضي الله عنه وكان أول مشهد شهده سلمان رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر فقال يا رسول الله انا كنا بفارس اذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى أكملوه وأحكموه قال أنس رضي الله عنه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فاذا المهاجرون فى غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجزع قال

اللهم ان العيش عيش الآخره ٭ فاغفر للانصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له

نحن الذين بايعوا محمدا ٭ على الجهاد ما بقينا أبدا

قال البراء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى أغبر بطنه وهو يقول

والله لولا الله ما اهتدينا ٭ ولا تصدقنا ولا صلينا

فانزلن سكينة علينا ٭ وثبت الاقدام ان لاقينا

ان الالى قد بغوا علينا ٭ اذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته أبينا أبينا فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش فى عشرة آلاف من الاحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان حتى نزلت بمجمع الاسيال من رومة بين الجرف والغابة وأقبلت غطفان فى ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل من هوازن وانضافت لهم اليهود من قريظة والنضير حتى نزلوا الى جانب احد وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا الى الآطام ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم الا الترامى بالنبل والحجارة وكان بنو غطفان من أعلى الوادى من قبل المشرق وقريش من أسفل الوادى من قبل المغرب كما قال تعالى (اذ جاؤكم) وهو بدل من اذ جاءتكم (من فوقكم) أى من أعلى الوادى (ومن أسفل منكم) أى من أسفل الوادى (واذ) أى واذكر حين

مدة عروج الله تعالى ٣ أى مدة عروج تدبيره وأمره من الارض الى السماء الدنيا وبه ثم مدة عروج الملائكة من الارض الى العرش أو المراد

٣ قوله مدة عروج الله الخ هكذا بالاصل وفيه ان العروج مسند الى ضمير الامر لا الى الله اه مصحح

قوله ان الالى قد بغوا هكذا فى جميع النسخ وليس بموزون وتحريره ان الذين قد بغوا علينا كما فى شرح المواهب اه

(زاغت الابصار) أي مالت عن سداد القصد فعل الواله الجزع بما حصل لهم من الغفلة الحاصلة من الرعب وقوله تعالى (وبلغت القلوب الحناجر) جمع حنجرة وهي منتهى الحلقوم كناية عن شدة الرعب والخفقان قال البقاعي ويجوز وهو الاقرب أن يكون ذلك حقيقة بجذب الطحال والرئة لها عند ذلك بانتفاخهما الى أعلى الصدر ولهذا يقال للجبان انتفخ سحره اي رئته فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينة بن حصن والى الحرث بن عمرو وهما قائدا غطفان فاعطاهما ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فيه فقالا يا رسول الله أشيء أنزل الله تعالى به لا بد لنا من عمل به أم أمر تحبه فتصنعه أم شيء تصنعه لنا قال لا والله بل لكم والله ما أصنع ذلك الا لاني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم من كل جانب فاردت ان أكسر عنكم شوكتهم فقال له سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الاوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله تعالى بالاسلام وأعزنا الله تعالى بك نعطيهم أموالنا ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فقال صلى الله عليه وسلم أنت وذلك فتناول سعد رضي الله تعالى عنه الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة ثم قال ليجهدوا علينا فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدوهم محاصرهم ولم يكن بينهم قتال الا فوارس من قريش عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو محارب بن فهر قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني كنانة فقالوا تهيؤا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه فلما رأوه قالوا والله ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا مكانا من الخندق ضيقا فضربوا خيولهم فاقتحمت فيه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج علي رضي الله تعالى عنه في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم وكان عمرو بن عبد ود قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أحدا فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال له علي يا عمرو انك كنت تعاهد الله تعالى لا يدعوك رجل من قريش الى خصلتين الا أخذت منه احداهما قال له أجل قال له علي فاني أدعوك الى الله تعالى والى رسوله صلى الله عليه وسلم والى الاسلام قال لا حاجة لي بذلك قال فاني ادعوك الى البراز قال ولم يا ابن اخي فوالله ما أحب أن أقتلك قال علي ولكني والله أحب أن أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي وخرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان أصابه سهم فمات بمكة ونوفل بن عبد الله المخزومي وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يا معشر العرب قتلة أحسن من هذه فنزل اليه علي رضي الله تعالى عنه فقتله فغلب المسلمون على جسده فسألوا رسول الله

به في الموضعين يوم القيامة ومقداره ألف سنة من حساب أهل الدنيا اذا تولى الحساب فيه الله تعالى وخمسين ألف سنة لو تولى فيه

صلى الله عليه وسلم أن يبيعهم جسده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حاجة لنا في جسده وثمنه فشأنكم به فخلى بينهم وبينه * ولما شاء عن هذا تقلب القلوب وتجدد ذهاب الافكار كل مذهب عبر بالمضارع الدال على دوام التجدد بقوله تعالى (وتظنون بالله) الذى له صفات الكمال (الظنونا) أى أنواع الظن فظن المخلصون الثبت القلوب ان الله تعالى منجز وعده في اعلاء دينه أو ممتحنهم فخافوا الزلل وروى ان المسلمين قالوا بلغت القلوب الحناجر فهل من شئ نقوله فقال صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا وأما الضعاف القلوب والمنافقون فقالوا ما حكى الله عنهم فيما سيأتى وقرأ نافع وابن عامر الظنونا هنا والرسولا والسبيلا في آخر السورة باثبات الالف في الثلاثة وقفا ووصلا وأبو عمرو وحمزة بحذف الالف وقفا ووصلا قال الزمخشرى وهو القياس والباقون بالالف في الوقف دون الوصل زادوها في الفاصلة كما زادوها في القافية قال * أقلى اللوم عاذل والعتابا * ورسم الثلاثة بالالف * ولما كانت الشدة في الحقيقة انما هى للثابت لانه ما عنده الا الهلاك أو النصرة قال تعالى (هنالك) اى في ذلك الوقت العظيم البعيد الرتبة (ابتلى المؤمنون) اختبروا فظهر الخالص من المنافق والثابت من المتزلزل (وزلزلوا) اى حركوا وأزعجوا بما يرون من الاهوال بتظافر الاعداء مع الكثرة وتطاير الاراجيف (زلزالا شديدا) فثبتوا بتثبيت الله تعالى لهم على عدوهم وعن صفية قالت مر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيننا وبينهم من يدفع عنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا الينا عنهم اذا أتانا آت قالت فقلت يا حسان ان هذا اليهودى يطوف بنا كما ترى بالحصن وانى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قالت فلما قال ذلك ولم أر عنده شيأ احتجزت ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه الا أنه رجل قال مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم واتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم ثم ان نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى قد أسلمت وان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فانما الحرب خدعة فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى قريظة وكان لهم نديما في الجاهلية فقال لهم يا بنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم ان قريشا وغطفان جاؤا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه وان قريشا وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلدكم وبه أموالكم وأولادكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه الى غيره وان قريشا وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم بغيره ان رأوا نهزة وغنيمة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا

الحساب غير الله أو المراد به كألف سنة في حق خواص المؤمنين وحين ألف سنة في حق عوامهم أو المراد انه كألف سنة

مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم
محمدا صلى الله عليه وسلم حين تناجزوه قالوا لقد أشرت برأي ونصح ثم خرج حتى أتى قريشا
فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدا
وقد بلغني أمر رأيت أن حقا علي أن أبلغكم نصحا لكم فاكتموا علي قالوا نفعل قال تعلموا
أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على
ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم
فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم فأرسل إليهم أن نعم فإن
بعثت إليكم اليهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدا ثم خرج حتى
أتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهموني
قالوا صدقت قال فاكتموا علي قالوا نفعل ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مثل
ما حذرهم فلما كانت ليلة السبت في شوال سنة خمس وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله
عليه وسلم أرسل أبو سفيان ورؤس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر
من قريش وغطفان فقالوا إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى
نناجز محمدا صلى الله عليه وسلم ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت وهو يوم
لا نعمل فيه شيئا وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك
بالذي نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا صلى
الله عليه وسلم فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتدت عليكم أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا
والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد صلى الله عليه وسلم فلما رجعت إليهم الرسل بالذي
قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان تعلمن والله أن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود
لحق فأرسلوا إلى بني قريظة إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فإن كنتم تريدون
القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا إن الذي ذكر لكم
نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصة انتهزوها وإن يكن غير ذلك
انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان أنا والله
لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم وخذل الله تعالى بينهم وبعث الله تعالى عليهم
الريح في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم فلما انتهى إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم قال من يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا
بخبرهم أدخله الله تعالى الجنة قال حذيفة فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم وما قام منا رجل ثم صلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال ألا من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل
القوم على أن يكون رفيقي في الجنة فما قام رجل من شدة الخوف وشدة البرد فلما لم يقم
أحد دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا حذيفة فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني
فقلت لبيك يا رسول الله وقمت حتى أتيته وإن جنبي ليضطربان فمسح رأسي ووجهي ثم قال ائت
هؤلاء القوم حتى تأتيني بخبرهم ولا تحدثن شيئا حتى ترجع إلي ثم قال اللهم احفظه من بين يديه

في حق المؤمن وتحسين
في حق الكافر
الحسنة
(قوله الذي أحسن كل شيء
خلقه) أي يكون الادم
وقعها (فإن قلت) كيف

ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فاخذت سهمي وشددت على اسلابي ثم انطلقت امشي نحوهم كأني امشي في حمام فذهبت فدخلت في القوم وقد أرسل الله عليهم ريحا وجنود الله تعالى تفعل فيهم ما تفعل وأبو سفيان قاعد يصطلي فاخذت سهما فوضعته في كبد قوسي فاردت أن أرميه ولو رميته لاصبته فذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تحدثن شيأ حتى ترجع فرددت سهمي في كنانتي فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله تعالى بهم لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء قام فقال يا معشر قريش ليأخذ كل منكم بيد جليسه فلينظر من هو فاخذت بيد جليسي فقلت من أنت قال سبحان الله أما تعرفني أنا فلان فاذا رجل من هوازن فقال أبو سفيان يا معشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف واخلفنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره وبلغنا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فاني مرتحل ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله الا وهو قائم وسمعت غطفان بما فعلت قريش فاستمروا راجعين الى بلادهم قال فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأني أمشي في حمام فاتيته وهو قائم يصلي فلما أخبرته الخبر ضحك حتى بدت انيابه في سواد الليل قال فلما اخبرته وفرغت قررت وذهب عني الدفا فادناني النبي صلى الله عليه وسلم فانامني عند رجليه وألقى على طرف ثوبه وألصق صدري ببطن قدميه فلم أزل نائما حتى أصبحت فقال قم يا نومان ثم ان الله تعالى بين حال غير الثابتين بقوله تعالى (واذ يقول المنافقون) معتب بن قشير وقيل عبد الله بن أبي واصحابه (والذين في قلوبهم مرض) اى ضعف اعتقاد (ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) اى باطلا استدرجنا به الى الانسلاخ عما كنا عليه من دين آبائنا والى الثبات على ما صرنا اليه بعد ذلك الانسلاخ بما وعدنا به من ظهور هذا الدين على الدين كله والتمكين في البلاد حتى في حفر الخندق فانه قال انه أبصر بما برق له من ضوء صخرة سلمان مدينة صنعاء من اليمن وقصور كسرى من الحيرة من أرض فارس وقصور الشام من ارض الروم وان تابعيه ليظهرون على ذلك كله وقد صدق الله وعده في جميع ذلك حتى في لبس سراقة بن مالك بن جعشم سوار كسرى بن هرمز كما هو مذكور في دلائل النبوة للبيهقي وكذبوا في شكهم ففاز المصدقون وخاب الذين هم في ريبهم يترددون (واذ قالت طائفة منهم) اى من المنافقين وهم أوس بن قيظي واصحابه (يا اهل يثرب) اى المدينة وقال أبو عبيدة يثرب اسم ارض ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في ناحية منها وفي بعض الاخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تسمى المدينة يثرب وقال هي طابة كأنه كره تلك اللفظة فعدلوا عن هذا الاسم الذي وسماها به النبي صلى الله عليه وسلم الى الاسم الذي كانت تدعى به قديما مع نهيه عنه واحتمال قبحه باشتقاقه من التثريب الذي هو اللوم والتعنيف وقال اهل اللغة يثرب اسم المدينة وقيل اسم البقعة التي فيها المدينة وامتناع صرفها اما للعلمية والوزن أو العلمية والتأنيث وأما يترب بالمثناة وفتح الراء فموضع آخر باليمن قال الشاعر

وعدت وكان الخلف منك سجية ۞ مواعيد عرقوب أخاه بيترب

وقال آخر

وقد وعدتك موعدا لو وفت به ۞ مواعيد عرقوب أخاه بيترب

قال ذلك هنا مع ان في مخلوقاته تعالى قبيحا كالشرور والمعاصي
(قلت) أحسن بمعنى اتقن واحكم أو أحسن بمعنى علم

وقرأ (لا مقام) حفص بضم الميم أى لا اقامة (لكم) فى مكان القتال ومصارعة الابطال والباقون بفتحها أى لا مكان لكم تنزلون وتقيمون فيه (فارجعوا) الى منازلكم عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقيل عن القتال الى منازلكم * ولما بين تعالى هؤلاء الذين هتكوا الستر وبنوا أمرهم فيه من سقوط الامر أتبعهم آخرين تستروا ببعض الستر متمسكين باذيال النفاق خوفا من أهوال الشقاق بقوله تعالى (ويستأذن) أى يجدد كل وقت طلب الاذن لاجل الرجوع الى البيوت والسكون مع النساء (فريق منهم) أى طائفة شأنها الفرقة (النبى) فى الرجوع وقد رأوا ما حواه من علو المقدار بما له من حسن الخلق والخلق وما له من جلالة الشمائل وكرم الخصائل وهم بنو حارثة وبنو سلمة (يقولون) أى فى كل قابل مؤكدين لعلمهم بكذبهم وتكذيب المؤمنين قولهم (ان بيوتنا) أتوا بجمع الكثرة اشارة الى كثرة أصحابهم من المنافقين (عورة) أى غير حصينة بها خلل كبير يمكن كل من أراد من الاحزاب أن يدخلها ايدخلها منه وقيل قصيرة الجدران فاذا ذهبنا اليها حفظناها منهم وكفينا من يأتى الينا من مفسديهم حمايته لاين وذبا عن الاهلين وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بالكسر ثم أكذبهم الله تعالى بقوله تعالى (وما) أى والحال أنها ما (هى بعورة) فى ذلك الوقت الذى قالوا هذا فيه ولا يريدون بذهابهم حمايتها (ان) أى ما (يريدون) باستئذانهم (الا فرارا) من القتال * ولما كانت عنايتهم مشتدة ملازمة دورهم فاظهروا اشتداد العناية بحمايتها زورا بين تعالى ذلك بقوله تعالى (ولو دخلت) أى بيوتهم أو المدينة وانث الفعل نصا على المراد واشارة الى ان ما نسب اليهم جدير بالضعف وأتى باداة الاستعلاء بقوله تعالى (عليهم) اشارة الى أنه دخول غلبة (من اقطارها) اى جوانبها كلها بحيث لا يكون لهم مكان الهرب وحذف الفاعل للايماء بان دخول هؤلاء الاحزاب ودخول غيرهم من العساكر سيان فى اقتضاء الحكم المرتب عليه (ثم سئلوا) من اى سائل كان (الفتنة) اى الشرك ومقاتلة المسلمين وقرأ (لاتوها) نافع وابن كثير بقصر الهمزة لجاؤها وفعلوها والباقون بالمد اى لاعطوها اجابة لسؤال من سألهم (وما تلبثوا بها) اى ما احتبسوا عن الفتنة (الا يسيرا) اى لاسرعوا الى الاجابة للشرك طيبة بها نفوسهم فعلم بذلك انهم لا يقصدون الا الفرار لا حفظ البيوت من المضار وهذا قول اكثر المفسرين وقال الحسن المراد بالفتنة الخروج من البيوت سمى بذلك لان الانسان لا يخرجه من بيته الا الموت او ما هو يقاربه فكأنه فتنة وعلى هذا يكون الضمير فى بها راجعا للبيوت او المدينة اى ما لبثوا بالبيوت أو بالمدينة بعد اعطاء الكفر الا يسيرا حتى هلكوا (ولقد كانوا) اى هؤلاء الذين اسرعوا الاجابة الى الفرار (عاهدوا الله) الذى لا أجل منه (من قبل) اى من قبل غزوة الخندق (لا يولون الادبار) اى لا ينهزمون وقال يزيد بن رومان هم بنو حارثة هموا يوم احد ان يفشلوا مع بنى سلمة فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله تعالى ان لا يعودوا لمثلها وقال قتادة هم أناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر فرأوا ما اعطى الله تعالى اهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن اشهدنا الله قتالا لنقاتلن فساق الله تعالى اليهم ذلك وقال مقاتل والكلبى هم سبعون رجلا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا اشترط لربك ولنفسك

كما يقال فلان لا يحسن شيأ
اى لا يعلمه فمعناه يكون
الادم علم خالق كل شئ
ويقصها علم كل شئ خلقه

ماشئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وازواجكم وأولادكم قالوا واذا فعلنا ذلك فمالنا يارسول الله قال لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة قالوا قد فعلنا فذلك عهدهم قال البغوي وهذا القول ليس بمرضي لان الذين بايعوا ليلة العقبة كانوا سبعين نفرا ليس فيهم شاك ولا من يقول مثل هذا القول وانما الآية في قوم عاهدوا الله تعالى ان يقاتلوا ولا يفروا فنقضوا العهد انتهى ولما كان الانسان قد يتهاون بالعهد لاعراض المعاهد عنه قال تعالى (وكان عهد الله) المحيط بصفات الكمال (مسؤلا) أي عن الوفاء به ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) اى لهم وأكد انطفهم نفع الفرار (لن ينفعكم الفرار) في تأخير آجالكم في وقت من الاوقات الذي ما كان استنفذتكم الا به (ان فررتم من الموت أو القتل) اى الذي كتب لكم لان الاجل ان كان قد حضر لم يتأخر بالفرار والا لم يقصره الثبات كما كان على رضي الله تعالى عنه يقول اذا دهم الامر وتوقد الجمر واشتد من الحرب الحر

أي يومي من الموت أفر * يوم لا يقدر أو يوم قدر

وذلك ان أجل الله الذي جعله محيطا بالانسان لا يقدر ان يتعداه أصلا (واذا) أى ان فررتم (لا تمتعون) في الدنيا بعد فراركم (الا قليلا) أى مدة آجالكم وهي قليل فالعاقل لا يرغب في شيء قليل يفوت عليه شيأ كثيرا * ولما كان ربما يقولون بل ينفعنا الا نا طالما رأينا من هرب فسلم ومن ثبت فاصطلم أمره الله تعالى بالجواب عن هذا بقوله تعالى (قل) أى لهم منكرا عليهم (من ذا الذي يعصمكم) أى يجيركم ويمنعكم (من الله) المحيط بكل شيء قدرة وعلما في حال الفرار وقبله وبعده (ان أراد بكم سوأ) أى هلاكا أو هزيمة فيرد ذلك عنكم (أو) يصيبكم بسوء ان (أراد) أى الله (بكم رحمة) أى خيرا من امهالكم الا انه أثرها والمعنى هل احترزتم في جميع أعماركم عن سوء أراده فنفعكم الاحتراز أو اجتهد غيره في منعكم رحمة منه فتم له أمره أو أوقع الله بكم شيأ من ذلك فقدر أحد مع بذل الجهد على كشفه بدون اذنه ويمكن ان تكون الآية من الاحتباك ذكر السوء أولا دليلا على حذف ضده ثانيا وذكر الرحمة ثانيا دليلا على حذف ضدها أولا وهذا بيان لقوله تعالى لن ينفعكم الفرار وقوله تعالى (ولا يجدون لهم) أى في وقت من الاوقات (من دون الله) اى غيره (وليا) أى يواليهم فينفعهم بنوع نفع (ولا نصيرا) أى ينصرهم من أمره فيرد ما أراده بهم من السوء عنهم تقرير لقوله تعالى من ذا الذي يعصمكم من الله الآية * ولما أخبرهم تعالى بما علم مما أوقعوه من أسرارهم وأمره صلى الله عليه وسلم بوعظهم حذرهم بدوام علمه بمن يخون منهم بقوله تعالى (قد يعلم الله) الذي له احاطة الجلال والجمال (المعوقين منكم) أى المثبطين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) أى ساكني المدينة (هلم) أى ائتوا واقبلوا (الينا) ودعوهم من ان ناحيتهم مما يقام فيها القتال ويواظب فيها على صالح الاعمال قال قتادة هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يثبطون أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون لاخوانهم ما محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتقمهم أبو سفيان واصحابه دعوا الرجل فانه هالك وقال مقاتل نزلت في المنافقين وذلك أن اليهود أرسلت الى المنافقين

قوله من سلالة من ماء مهين) قاله هنا بلفظ من ماء مهين وفي المؤمنين بلفظ من طين لان المذكور هنا صفة

وقالوا ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه فانهم ان قدروا عليكم في هذه المرة لم يبقوا منكم أحدا فانا أشفق عليكم أنتم اخواننا وجيراننا فهلم الينا فاقبل عبد الله بن أبي وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبي سفيان ومن معه وقالوا ما ترجون من محمد ما عنده خير ما هو الا أن يقتلنا هنا انطلقوا بنا الى اخواننا يعني اليهود فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين الا ايمانا واحتسابا *(تنبيه)* هلم اسم صوت بمعنى به فعل متعد مثل احضر واقرب واهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة وبلغتهم جاء القرآن العزيز وأما بنو تميم فتقول هلم يا رجل هلما يا رجلان هلموا يا رجال (ولا) أي والحال انهم لا (يأتون البأس) أي الحرب او مكانها (الا قليلا) أي للرياء والسمعة بقدر ما يراهم المخلصون فاذا اشتغلوا بالمعاركة وكفى كل منهم ما ليه تسللوا عنه لواذا وعاذوا بمن لا ينفعهم من الخلق عياذا (أشحة) أي يفعلون ما تقدم والحال ان كلا منهم شحيح (عليكم) أي بحصول نفع منهم أو من غيرهم نفس او مال *(تنبيه)* أشحة جمع شحيح وهو جمع لا يقاس اذ قياس فعيل الوصف الذي عينه ولامه من واد واحد أن يجمع على أفعلاء نحو خليل واخلاء وضنين واضناء وقد سمع أشحاء وهو القياس والشح البخل وصفهم الله تعالى بالبخل ثم بالجبن بقوله تعالى (فاذا جاء الخوف) أي بمجيء أسبابه من الحرب ومقدماتها (رأيتهم) اى أيها المخاطب وقوله تعالى (ينظرون) في محل حال من مفعول رأيتهم لان الرؤية بصرية وبين بعدهم حسا ومعنى بحرف الغاية بقوله تعالى (اليك) أي حال كونهم (تدور) فهي اما حال ثانية واما حال من ينظرون (أعينهم) اى زائغة عينا وشمالا بادارة الطرف ثم شبهها في سرعة تقلبها لغير قصد صحيح بقوله تعالى (كالذي) اى كدوران عين الذي (يغشى عليه) مبتدأ غشيانه (من الموت) أي من معالجة سكراته خوفا ولواذا بك وذلك لان قرب الموت وغشية أسبابه تذهب عقله وتشخص بصره فلا يطرف (فاذا ذهب الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) أي تناولوكم تناولا صعبا بانواع الاذى ناسين ما وقع منهم عن قرب من الجبن والخور واصل السلق البسط بقهر اليد أو اللسان ومنه سلق امرأته أي بسطها وجامعها قال القائل

فقد هي لنا المضجع * فان شئت سلقناك * وان شئت على أربع

والسليقة الطبيعة المباينة والسليق المطمئن من الارض (بألسنة حداد) ذربة قاطعة فصيحة بعد ان كانت عند الخوف في غاية اللجلجة لا تقدر على الحركة من قلة الريق ويبس الشفاه وهذا الطلب العرض الفاني من الغنيمة وغيرها يقال للخطيب الذرب اللسان الفصيح مسلاق وقال ابن عباس سلقوكم أي عضهوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة وقال قتادة بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة ويقولون اعطونا فانا شهدنا معكم القتال ولسنا باحق بالغنيمة منا ثم بين المراد بقوله تعالى (أشحة) اى شحا مستعليا (على الخير) أي المال الذي عندهم وفي اعتقادهم انه لا خير غيره لا يريدون أن يصل شيء منه اليكم ولا يفرقهم شيء منه فهم عند الغنيمة أشح قوم وعند البأس أجبن قوم * ولما وصفهم تعالى بهذه الصفات الدنيئة أخبر تعالى ان أساسها الذي نشأت عنه عدم الوثوق بالله تعالى لعدم الايمان فقال (أولئك) أي البعداء البغضاء (لم يؤمنوا) اى لم يوجد منهم ايمان بقلوبهم وان أقرت به ألسنتهم (فأحبط الله)

ذرية آدم والمذكور ثم صفة آدم (قوله ونفخ فيه من روحه) المراد بروحه جبريل والا فالله

اى

أي بجلاله وتفرده في كبريائه وكماله (أعمالهم) التي كانوا أتوا بها مع المسلمين أي فأظهر بطلانها إذ لم تثبت لهم الأعمال فبطل وقال قتادة أبطل الله تعالى جهادهم (وكان ذلك) أي الإحباط (على الله) بما له من صفات العظمة (يسيرا) أي هينا لتعلق الإرادة به وعدم ما يمنعه وقوله تعالى (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) يجوز أن يكون مستأنفا أي هم من الخوف بحيث أنهم لا يصدقون أن الأحزاب قد ذهبوا عنهم ويجوز أن يكون حالا من أحد الضمائر المتقدمة إذا صح المعنى بذلك ولو بعد العامل قاله أبو البقاء والمعنى أن هؤلاء المنافقين يحسبون الأحزاب يعني قريشا وغطفان واليهود لم يتفرقوا عن قتالهم من غاية الجبن عند ذهابهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كقوله تعالى ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر (وإن يأت الأحزاب) بعد ما ذهبوا كرة أخرى (يودوا) أي يتمنوا (لو أنهم بادون في الأعراب) أي كائنون في البادية بين الأعراب الذين هم عندهم في محل نقص وعن تذكرهم مخالطتهم ثم ذكر حال فاعل بادون بقوله تعالى (يسألون) كل وقت (عن أنبائكم) أي أخباركم العظيمة مع الكفار وما آل إليه أمركم جريا على ما هم عليه من النفاق ليبقوا لهم عندكم وجها كأنهم مهتمون بكم يظهرون بذلك تحرقا على غيبتهم عن هذه الحرب (ولو) أي والحال أنهم لو (كانوا) هؤلاء المنافقون (فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال (ما قاتلوا) معكم (إلا قليلا) نفاقا كما فعلوا قبل ذهاب الأحزاب من حضورهم معكم تارة واستئذانهم في الرجوع إلى منازلهم أخرى • ولما أخبر تعالى عنهم بهذه الأحوال التي هي غاية في الدناءة أقبل عليهم إقبالا يدلهم على تناهي الغضب بقوله تعالى مؤكدا محققا لأجل إنكارهم (لقد كان لكم) أيها الناس كافة الذين المنافقون في غمارهم (في رسول الله) الذي جلاله من جلاله وكماله من كماله (أسوة) أي قدوة (حسنة) أي صالحة وهو المؤتسى به أي المقتدى به كما تقول في البيضة عشرون منا حديدا أي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد أو أن فيه خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه وأوذي بضروب الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك واستنوا بسنته • (تنبيه) • الأسوة اسم وضع موضع المصدر وهو الائتساء فالأسوة من الائتساء كالقدوة من الاقتداء وائتسى فلان بفلان أي اقتدى به وقرأ عاصم بضم الهمزة والباقون بكسرها وهما لغتان كالعدوة والعدوة والقدوة والقدوة وقوله تعالى (لمن كان) أي كونا كأنه جبلة له (يرجو الله) أي في جبلته أنه يجدد الرجاء مستمرا للذي لا عظيم في الحقيقة سواه فيؤمل إسعاده ويخشى إبعاده تخصيص بعد التعميم للمؤمنين أي أن الأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان يرجو الله قال ابن عباس يرجو ثواب الله وقال مقاتل يخشى الله (واليوم الآخر) أي يخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال (وذكر الله) أي الذي له صفات الكمال وقيده بقوله تعالى (كثيرا) تحقيقا لما ذكر في معنى الرجاء الذي به الفلاح أو أن المراد به الدائم في حال السراء والضراء • ولما بين تعالى حال المنافقين ذكر حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب بقوله تعالى (ولما رأى المؤمنون) أي الكاملون في الإيمان (الأحزاب) أي الذين أدهشت رؤيتهم القلوب

منزه عن الروح الذى يقوم به الجسد ويكون به الحياة واضافه الى نفسه تشريفا واشعارا بانه خلق عجيب مناسب للمقام

(قالوا) أى مع ما حصل لهم من الزلزال وتعاظم الاهوال (هذا) أى الذى نراه من الهول (ما وعدنا الله) أى الذى له الامر كله من تصديق دعوانا الايمان بالبلاء والامتحان (ورسوله) المبلغ بنحو قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم أحسب الناس أن يتركوا وامثال ذلك ثم قالوا فى مقابلة قول المنافقين ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا (وصدق الله) أى الذى له صفات الكمال (ورسوله) أى الذى كماله من كماله أى ظهر صدقهما فى عالم الشهادة فى كل ما وعدا به من السراء والضراء كما رأيناه وهما صادقان فيما غاب عنا كما وعدا به من نصر وغيره واظهار الاسمين للتعظيم والتيمن بذكرهما قال بعض المفسرين ولو أعيدا مضمرين لجمع بين البارى تعالى واسم رسوله صلى الله عليه وسلم فكان يقال وصدقا وقد رد صلى الله عليه وسلم على من جمعهما بقوله من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى وأنكر عليه بقوله بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله قصدا الى تعظيم الله تعالى وقيل انما رد عليه لانه وقف على يعصهما واستشكل بعضهم الاول بقوله حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما فقد جمع بينهما فى ضمير واحد (وأجيب) بانه صلى الله عليه وسلم أعرف بقدر الله تعالى منا فليس لنا أن نقول كما يقول وقد يقال اذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فالله جل وعلا أولى وحينئذ فالقائل بانه انما رد عليه لانه وقف على يعصهما أولى ولما كان هذا قولا يمكن أن يكون لسانيا فقط كقول المنافقين أكذب ظن المنافقين ذلك بقوله تعالى شاهدا لهم (وما زادهم) أى ما رأوه من أمرهم او الرعب (الا ايمانا) بالله ورسوله (وتسليما) بجميع جوارحهم فى جميع القضاء والقدر ثم وصف الله تعالى بعض المؤمنين بقوله تعالى (من المؤمنين) أى المذكورين سابقا وغيرهم (رجال) أى فى غاية العظمة عند ما وصفهم بقوله تعالى (صدقوا ما عاهدوا الله) المحيط علما وقدرة (عليه) أى اقاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به (فمنهم من قضى نحبه) أى نذره بان قاتل حتى استشهد كحمزة ومصعب ابن عمير وأنس بن النضر والنحب النذر استعير للموت لانه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان وقيل النحب الموت أيضا قال قتادة قضى نحبه اى أجله وقيل قضى نحبه أى بذل جهده فى الوفاء بالعهد من قول العرب نحب فلان فى سيره يومه وليلته أى اجتهد وقيل قضى نحبه قتل يوم بدر أو يوم احد روى أن أنسا قال غاب عمى انس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن اشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال اللهم انى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء يعنى أصحابه وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ثم تقدم واستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو الى أين واها لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل قال انس بن مالك فوجدنا فى جسده بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم فوجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد الا أخته ببنانه قال أنس كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه (ومنهم) اى الصادقين (من ينتظر) اى الشهادة كعثمان وطلحة (وما بدلوا) اى العهد ولا غيروه (تبديلا) أى شيأ من التبديل روى ان ممن لم يقتل فى عهد النبى صلى الله

(قوله قل يتوفاكم ملك الموت) هو عزرائيل قال ذلك هنا وقال فى الانعام توفته رسلنا وفى الزمر

عليه وسلم طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وفعل ما لم يفعله غيره لزم النبي صلى الله عليه وسلم فلم يفارقه وذب عنه ووقاه بيده حتى شلت اصبعه قال اسمعيل بن قيس رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وعن معاوية سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول طلحة ممن قضى نحبه وعن طلحة لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الآية كلها فقام اليه رجل فقال يا رسول الله من هؤلاء فقال أيها السائل هذا منهم وعنه ايضا ان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الاعرابي جاهل سله عن قضى نحبه من هو وكانوا لا يجترؤن على مسئلته يهابونه ويوقرونه فسأله الاعرابي فاعرض عنه ثم سأله فاعرض عنه ثم انى طلعت من باب المسجد فقال أين السائل عن قضى نحبه قال الاعرابي أنا فقال هذا ممن قضى نحبه وهذا يقوى القول بان المراد بالنحب بذل الجهد فى الوفاء بالعهد وعن خباب بن الارت قال هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله نبتغى وجه الله فوجب أجرنا على الله فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيأ منهم مصعب ابن عمير قتل يوم احد فلم يوجد له شئ يكفن فيه الا نمرة فكنا اذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه منها واذا وضعناها على رجليه خرج رأسه منها فقال صلى الله عليه وسلم ضعوها مما يلى رأسه واجعلوا على رجليه من الاذخر قال ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها أينعت اى ادركت ونضجت له ثمرته او يهدبها اى يجتنيها وهذا كناية عما فتح الله تعالى لهم من الدنيا وعن زيد بن ثابت قال لما نسخنا المصحف من المصاحف فقدت آية من سورة الاحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد الا مع خزيمة بن ثابت الانصارى الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فالحقتها الى سورتها فى المصحف (ليجزى الله) أى الذى يريد اظهار جميع صفاته يوم البعث للخاص والعام ظهورا تاما (الصادقين) اى فى الوفاء بالعهد وادعاء انهم آمنوا به (بصدقهم) اى فيعلى امرهم وينعمهم فى الآخرة فالصدق سبب وان كان فضلا منه لانه الموفق له •(تنبيه)• فى لام ليجزى وجهان أحدهما انها لام العلة والثانى انها لام الصيرورة وفيما تتعلق به أوجه اما بصدقوا واما بزادهم واما بما بدلوا وعلى هذا جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لان كلا الفريقين مسوق الى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنهما استويا فى طلبهما والسعى لتحصيلهما (ويعذب المنافقين) اى الذين أخفوا الكفر وأظهروا الاسلام فى الدارين بكذبهم فى دعواهم الايمان المقتضى لبيع النفس والمال (ان شاء) بان يميتهم على نفاقهم (او يتوب عليهم) ان شاء بان يهديهم الى التوبة فيتوبوا فالكل بارادته •(تنبيه)• جواب ان شاء مقدر وكذا مفعول شاء اى ان شاء تعذيبهم عذبهم وقرأ قالون والبزى وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الثانية وابدلاها أيضا حرف مد وحققها الباقون وفى الابتداء بالثانية الجميع بالتحقيق • ولما كانت توبة المنافقين مستبعدة لما يرون من صلابتهم فى الخداع وخبث سرائرهم قال مبطلا ذلك كله على وجه •

الله يتوفى الانفس ولا منافاة لان الله هو المتوفى حقيقة وأمر بخلقه الموت وأمر الرسايط بنزع الروح منهم

التأكيد (ان الله) اى بماله من الجلال والجمال (كان) ازلا وابدا (غفورا) لمن تاب (رحيما) بهم بين تعالى بعض ما جزاهم الله تعالى بصدقهم بقوله تعالى (ورد الله) اى بماله من صفات الكمال (الذين كفروا) وهم من تحزب من العرب وغيرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بلادهم عن المدينة ومضايقة المؤمنين حال كونهم (بغيظهم) أى متغيظين لم يشف صدورهم بنيل ما ارادوا بل تفرقوا عن غيظ ثل حال كونهم (لم ينالوا خيرا) لا من الدين ولا من الدنيا بل ذلا وندامة فهو حال ثانية أو حال من الحال الاولى فهى متداخلة (وكفى الله) اى الذى له العزة والكبرياء (المؤمنين القتال) بما ألقى فى قلوبهم من الداعية للانصراف الريح والجنود من الملائكة وغيرهم منهم نعيم بن مسعود لما تقدم من الحيلة التى فعلها قال سعيد ابن المسيب لما كان يوم الاحزاب حصر النبى صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة حتى خاص الى كل امرئ منهم الكرب وحتى قال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم انى أنشدك عهدك ووعدك اللهم انك ان تشأ لا تعبد فبينما هم على ذلك اذ جاء نعيم بن مسعود الاشجعى وكان يأمنه الفريقان جميعا فخذل بين الناس فانطلق الاحزاب منهزمين من غير قتال فذلك قوله تعالى وكفى الله المؤمنين القتال (وكان الله) اى الذى له صفات الكمال ازلا وابدا (قويا) على احداث ما يريده (عزيزا) غالبا على كل شئ ولما أتم الله تعالى حال الاحزاب اتبعه حال من عاونوهم بقوله تعالى (وانزل الذين ظاهروهم) أى عاونوا الاحزاب (من اهل الكتاب) وهم بنو قريظة ومن دخل معهم فى حصنهم من بنى النضير (من صياصيهم) اى حصونهم متعلق بانزل ومن لابتداء الغاية والصياصى جمع صيصية وهى الحصون والقلاع والمعاقل ويقال لكل ما يمتنع به ويتحصن فيه صيصية ومنه قيل لقرن الثور والظبى ولشوكة الديك صيصية عن سعيد بن جبير قال كان يوم الخندق بالمدينة فجاء ابو سفيان بن حرب ومن تبعه من قريش ومن تبعه من كنانة وعيينة بن حصن ومن تبعه من غطفان وطليحة ومن تبعه من بنى أسد وبنو الاعور ومن تبعهم من بنى سليم وقريظة كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا ذلك وظاهروا المشركين فانزل الله تعالى فيهم وانزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وكانت غزوة بنى قريظة فى آخر ذى القعدة سنة خمس من الهجرة وعن موسى بن عقبة انها فى سنة أربع قال العلماء بالسير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صح فى الليلة التى انصرف الاحزاب راجعين الى بلادهم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عن الخندق الى المدينة ووضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس والسرج فقال ما هذا يا جبريل قال من متابعة قريش فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن سرجه فقال يا رسول الله ان الملائكة لم تضع السلاح ان الله تعالى يامرك بالسير الى بنى قريظة وانا عامد اليهم فان الله دقهم دق البيض على الصفا وانهم لك طعمة فاذن فى الناس أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلى العصر الا فى بنى قريظة وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن ابى طالب برايته اليهم وابتدرها الناس فسار على حتى اذا دنا من الحصون سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع حتى لقى رسول الله

غيرملك الموت اعوان له ينزعونها من الاظافير الى الحلقوم وملك الموت ينزعها من الحلقوم فمعت

صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك ان لا تدنو من هؤلاء الاخباث قال اظنك
سمعت لي منهم أذى قال نعم يا رسول الله قال لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيأ فلما دنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال يا اخوان القردة هل اخزاكم الله وانزل بكم نقمته
قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على اصحابه قبل أن يصل
الى بني قريظة قال هل مر بكم أحد قالوا مر بنا دحية بن خليفة على بغلة شهباء عليها قطيفة
من ديباج قال صلى الله عليه وسلم ذاك جبريل بعث الى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم
ويقذف في قلوبهم الرعب ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة نزل على بئر من
آبارها فتلاحق به الناس فأتاه رجال من بعد صلاة العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة فصلوا العصر بها بعد
العشاء الآخرة فما عابهم الله تعالى بذلك ولا عنفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حيي
ابن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن
أسد بما كان عاهده فلما أيقنوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى
يناجزهم قال كعب بن أسد يا معشر يهود انه قد نزل بكم من الامر ما نزل واني عارض عليكم
خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا وما هي قال نبايع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين
لكم أنه نبي مرسل وانه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دياركم وابنائكم واموالكم
ونسائكم قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره قال فاذا أبيتم هذا فهلم فلنقتل
أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رجالا مصلتين السيوف ولم نترك
وراءنا اثقالا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد واصحابه فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا أحدا
ولا شيأ نخشى عليه وان نظهر فلعمري لتصدت النساء والابناء قالوا انقتل هؤلاء المساكين فما
خير العيش بعدهم قال فان أبيتم هذه فان الليلة ليلة السبت فعسى أن يكون محمد واصحابه
قد امنوا فانزلوا لعلنا ان نصيب منهم غرة قالوا انفسد سبتنا ونحدث فيه مالم يكن أحدث فيه
من كان قبلنا فتركهم قال علماء السير وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين
ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزلون على حكمي فأبوا
وكانوا قد طلبوا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الاوس
يستشيرونه في أمرهم فارسله رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فلما رأوه قام اليه الرجال
والنساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم فقالوا يا أبا لبابة أترى ان ننزل على حكم محمد قال
نعم وأشار بيده الى حلقه يعني انه يقتلكم قال ابو لبابة فوالله ما زالت قدماي حتى قد عرفت
اني خنت الله ورسوله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
ارتبط في المسجد الى عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني حتى يتوب الله تعالى علي مما
صنعت وعاهد الله تعالى لا يطأ بني قريظة أبدا ولا يراني الله تعالى في بلد خنت فيه الله ورسوله
فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وأبطأ عليه قال أما لو جاءني لاستغفرت له فاما اذا
فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
تنزلون على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فقال سعد حكمت فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى

الاضافات كلها (قوله انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا الآية) ان قلت كيف قال

قوله لتصدت كذا نسخ وفي غيرها اخرى لتصدن اه مصحح

ونساؤهم فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق
ثم استنزلهم وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق المدينة خندقا
وأعناقهم وهم من ثمانمائة الى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير
أى الله تعالى (في قلوبهم الرعب) حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم
سبى كما قال الله تعالى (فريقا تقتلون) وهم الرجال يقال كانوا ستمائة (وتأسرون فريقا)
وهم النساء والذرارى يقال كانوا سبعمائة وخمسين ويقال تسعمائة (فان قيل) ما فائدة
تقديم المفعول في الاول حيث قال تعالى فريقا تقتلون وتأخيره في الثانى حيث قال وتأسرون
فريقا (أجيب) بان الرازى قال ما من شئ من القرآن الا وله فائدة منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر
والذى يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالاهم فالاهم والاقرب فالاقرب والرجال
كانوا مشهورين وكان القتل وارداً عليهم وكان الاسراء هم النساء والذرارى ولم يكونوا
مشهورين والسبى والاسر أظهر من القتل لانه يبقى فيظهر لكل أحد انه أسير فقدم من المحلين
ما اشتهر على الفعل القائم به ومن الفعلين ما هو أشهر قدمه على المحل الخفى انتهى وقرأ
ابن عامر والكسائى الرعب بضم العين والباقون بسكونها ولما ذكر الناطق بقسميه ذكر
الصامت بقوله تعالى (وأورثكم أرضهم) من الحدائق والمزارع (وديارهم) أى حصونهم
لانه يحامى عليها ما لا يحامى على غيرها (وأموالهم) من النقد والماشية والسلاح والاثاث
وغيرها فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم للفارس ثلاثة اسهم للفرس سهمان وللفارس سهم
كالراجل ومن ليس له فرس سهم واخرج منها الخمس وكانت الخيل ستة وثلاثين فرسا وكان هذا
أول فئ وضع فيه السهمان وجرى على سننه في المغازى واصطفى رسول الله صلى الله عليه
وسلم من سباياهم ريحانة بنت عمرو بن قريظة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض
عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله تتركنى في ملكك فهو أخف على
وعليك فتركها وكانت حين سباها كرهت الاسلام وأبت الا اليهودية فعزلها رسول الله صلى
الله عليه وسلم ووجد في نفسه من أمرها فبينما هو مع اصحابه اذ سمع وقع نعلين خلفه فقال ان
هذا لثعلبة بن سعية يبشرنى باسلام ريحانة فجاءه فقال يا رسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك
روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الانصار فقالت الانصار في
ذلك فقال انكم في منازلكم وقال عمر أما تخمس كما خمست يوم بدر قال لا انما جعلت هذه طعمة
لى دون الناس قال رضينا بما صنع الله ورسوله وأنزل الله تعالى توبة أبى لبابة على رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو في بيت أم سلمة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقالت مم تضحك
يا رسول الله أضحك الله تعالى سنك فقال تيب على أبى لبابة فقالت الا أبشره بذلك يا رسول الله
قال بلى ان شئت فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت يا أبا لبابة
أبشر فقد تاب الله تعالى عليك فثار الناس اليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله
صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده فلما مر عليه خارجا الى الصبح أطلقه ومات سعد بن معاذ
بعد انقضاء غزوة بنى قريظة قالت عائشة فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر
فوالذى نفس محمد بيده انى لأعرف بكاء عمر من بكاء أبى بكر وانى لفى حجرتى قالت وكانوا كما قال

ذلك مع ان المؤمنين ليسوا منحصرين فيمن اتصف بهذه الصفة ولا هذه الصفة شرط في تحقق الايمان (قلت) المراد

الله

الله تعالى رجاء بينهم واختلف في تفسير قوله تعالى (وأرضا) اى وأورثكم أرضا (لم تطؤها) فعن مقاتل انها خيبر وعليه أكثر المفسرين وعن الحسن فارس والروم وعن قتادة كنا نحدث انها مكة وعن عكرمة كل أرض تفتح الى يوم القيامة ومن بدع التفسير أنه أراد نساءهم انتهى * ولما كان ذلك أمرا باهرا سهله بقوله تعالى (وكان الله) اى أزلا وأبدا بما له من صفات الكمال (على كل شئ) هذا وغيره (قديرا) اى شامل القدرة روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا اله الا الله وحده أعز جنده ونصر عبده وغلب الاحزاب وحده فلا شئ بعده ولما أرشد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم الى جانب ما يتعلق بجانب التعظيم لله تعالى بقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فانهن أولى الناس بالشفقة ولهذا قدمهن في النفقة فقال (يا أيها النبي قل لازواجك) اى نسائك (ان كنتن) اى كونا راسخا (تردن) اى اختيارا على (الحيوة) ووصفها بما يزهد فيها ذوى الهمم ويذكر من له عقل بالآخرة بقوله تعالى (الدنيا) اى ما فيها من السعة والرفاهية والنعمة (وزينتها) اى المنافية لما امرني به ربي من الاعراض عنه واحتقاره من امرها الانها ابغض خلقه اليه لانها قاطعة عنه (فتعالين) اصله ان الآمر يكون اعلى من المامور فيدعوه ان يرفع نفسه اليه ثم كثر حتى صار معناه أقبل وهو هنا كناية عن الاخبار والارادة بعلاقة ان المخبر يدنو الى من يخبره (أمتعكن) أي بما أحسن به اليكن من متعة الطلاق وهى واجبة لزوجة لم يجب لها نصف مهر فقط بأن وجب لها جميع المهر أو كانت مفوضة لم توطأ ولم يفرض لها شئ صحيح اما في الاولى فلان المهر في مقابلة منفعة بضعها وقد استوفاها الزوج فتجب للايحاش المتعة وأما في الثانية فلان المفوضة لم يحصل لها شئ فيجب لها متعة للايحاش بخلاف من وجب لها النصف فلا متعة لها الا انه لم يستوف منفعة بضعها فيكفي نصف مهرها للايحاش هذا اذا كان الفراق لا بسببها وسن أن لا تنقص عن ثلاثين درهما أو ما قيمته ذلك وأن لا تبلغ نصف المهر فان تراضيا على شئ فذاك والا قدرها قاض باجتهاده بقدر حالهما من يساره واعساره ونسبها وصفاتها قال تعالى ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره (وأسرحكن) أي من حبالة عصمتي (سراحا جميلا) أي طلاقا من غير مضارة ولا نوع حطة ولا مقاهرة (وان كنتن) أي بما لكن من الجبلة (تردن الله) أي الآمر بالاعراض عن الدنيا (ورسوله) أي المؤتمر بما أمره به من الانسلاخ عنها المبلغ للعباد جميع ما أرسله به من أمر الدنيا والدين لا يدع منه شيأ لما له عليكن وعلى سائر الناس من الحق بما يبلغهم عن الله تعالى (والدار الآخرة) أي التى هى الحيوان بما لها من البقاء والعلو والارتقاء (فان الله) بما له من جميع صفات الكمال (أعد) أي في الدنيا والآخرة (للمحسنات منكن) أى اللاتى يفعلن ذلك (أجرا عظيما) تستحقر دونه الدنيا وزينتها ومن للبيان لانهن كلهن محسنات قال المفسرون سبب نزول هذه الآية ان نساء النبي صلى الله عليه وسلم سألنه من عرض الدنيا شيأ وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى أن لا يقربهن شهرا ولم يخرج الى أصحابه فقالوا ما شأنه وكانوا يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فقال عمر لأعلمن لكم شأنه قال فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت

بذكروا وعظوا وبالسجود
والخشوع والخضوع
والتواضع في قبول الموعظة
وذلك شرط في تحقيق
الايمان أو المراد المؤمن

يارسول الله أطلقتهن قال لا فقلت يارسول الله انى دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم انك لم تطلقهن قال نعم ان شئت فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزل قوله تعالى واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم فكنت أنا الذى استنبط ذلك الامر وأنزل الله تعالى آية التخيير وكان تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع نسوة خمس من قريش عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبى سفيان وأم سلمة بنت أبى أمية وسودة بنت زمعة وأربع من غير القرشيات زينب بنت جحش الاسدية وميمونة بنت الحرث الهلالية وصفية بنت حيى بن أخطب الخيبرية وجويرية بنت الحرث المصطلقية فلما نزلت آية التخيير عرض عليهن رضى الله تعالى عنهن ذلك وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة رأس المحسنات اذ ذاك وكانت أحب أهله فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤى الفرح فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعنها على ذلك قال قتادة فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك وقصره عليهن فقال تعالى لا تحل لك النساء من بعد وعن جابر بن عبد الله قال دخل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لاحد منهم فاذن لابى بكر فدخل ثم أقبل عمر ثم استأذن فاذن له فوجد النبى صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا قال فقال لاقولن شيأ أضحك النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال هن حولى كما ترى يسألننى النفقة فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول لا تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ أبدا ليس عنده ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين يوما ثم نزلت هذه الآية يا أيها النبى قل لازواجك حتى بلغ للمحسنات منكن أجرا عظيما قال فبدأ بعائشة فقال يا عائشة انى أعرض عليك أمرا لا أحب ان تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك قالت وما هو يارسول الله فتلا عليها الآية فقالت أفيك يارسول الله استشير أبوى بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت قال لا تسألنى امرأة منهن الا أخبرتها ان الله لم يبعثنى معنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا قوله واجما أى مهتما والواجم الذى أسكته الهم وعلته الكآبة وقيل الوجوم الحزن وقوله فوجأت عنقها أى دققته وقوله لم يبعثنى معنتا العنت المشقة والصعوبة وروى الزهرى ان النبى صلى الله عليه وسلم أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهرا قال الزهرى فاخبرنى عروة عن عائشة قالت فلما مضت تسع وعشرون أعدهن دخل على فقلت يارسول الله انه مضى تسع وعشرون أعدهن فقال ان الشهر تسع وعشرون ﴿ (تنبيه) ﴾ اختلف العلماء فى هذا الخيار هل كان ذلك تفويض الطلاق اليهن حتى يقع بنفس الاختيار أو لا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم الى انه لم يكن تفويض الطلاق وانما خيرهن على انهن اذا اخترن الدنيا فارقهن لقوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن ويدل عليه انه لم يكن جوابهن على الفور فانه قال لعائشة لا تعجلى حتى تستشيرى أبويك وفى تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور وذهب آخرون الى انه

الكامل ايمانا (قوله أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) المراد بالفاسق هنا الكافر لقرينة التفصيل بعده والا فالفاسق

كان

كان تفويض طلاق ولو اخترن أنفسهن كان طلاقا واختلف العلماء فى حكم التخيير فقال عمر وابن مسعود وابن عباس اذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شئ ولو اختارت نفسها وقع طلقة واحدة وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان والشافعى وأصحاب الرأى الا ان عند أصحاب الرأى انه يقع طلقة بائنة اذا اختارت نفسها وعند الآخرين رجعية وقال زيد بن ثابت اذا اختارت الزوج تقع طلقة واحدة وان اختارت نفسها فثلاث وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن على أنها اذا اختارت زوجها تقع طلقة واحدة رجعية وان اختارت نفسها فطلقة بائنة وأكثر العلماء على انها اذا اختارت زوجها لا يقع شئ وعن مسروق قال ما أبالى خيرت امرأتى واحدة أو مائة أو ألفا بعد أن تختارنى قال الرازى وهنا مسائل منها هل كان هذا التخيير واجبا على النبى صلى الله عليه وسلم أم لا والجواب ان التخيير كان قولا واجبا من غير شك لانه ابلاغ للرسالة لان الله تعالى لما قال له قل لهن صار من الرسالة وأما التخيير معنى فيبنى على ان الامر للوجوب أم لا والظاهر أنه للوجوب ومنها ان واحدة منهن لو اختارت نفسها وقلنا انها لا تبين الا بابانة النبى صلى الله عليه وسلم فهل كان يجب على النبى صلى الله عليه وسلم الطلاق أم لا الظاهر نظرا الى منصب النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يجب لان الخلف فى الوعد من النبى صلى الله عليه وسلم غير جائز بخلاف أحدنا فانه لا يلزمه شرعا الوفاء بما يعد ومنها أن المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا الظاهر انها لا تحرم والا لم يكن التخيير ممكنا لها من التمتع بزينة الدنيا ومنها أن من اختارت الله ورسوله هل كان يحرم على النبى صلى الله عليه وسلم طلاقها أم لا الظاهر الحرمة نظرا الى منصب الرسول صلى الله عليه وسلم على معنى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يباشره أصلا لا بمعنى انه لو أتى به لعوقب أو عوتب انتهى ٭ ولما خيرهن واخترن الله ورسوله هددهن الله للتوقى عما يسوء النبى صلى الله عليه وسلم وأوعدهن بتضعيف العذاب بقوله تعالى (يا نساء النبى) أى المختارات له لما بينه وبين الله تعالى عما يظهر شرفه (من يأت منكن بفاحشة) أى سيئة من قول أو فعل كالنشوز وسوء الخلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك وقال ابن عباس المراد هنا بالفاحشة النشوز وسوء الخلق وقيل هو كقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وقرأ ابن كثير وشعبة (مبينة) بفتح الياء التحتية أى ظاهر فحشها والباقون بكسرها أى واضحة ظاهرة فى نفسها (يضاعف لها العذاب) أى بسبب ذلك (ضعفين) أى ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه وانما ضوعف عذابهن لان ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن وأقبح لان زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة ولذلك كان ذم العقلاء للعاصى العالم أشد منه للعاصى الجاهل لان المعصية من العالم أقبح ولذلك جعل حد الحر ضعفى حد العبد وعوتب الانبياء بما لم يعاتب به غيرهم وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى بالياء التحتية وألف بعد الضاد وتخفيف العين مفتوحة العذاب بالرفع وابن كثير وابن عامر بالنون ولا ألف بعد الضاد وتشديد العين مكسورة العذاب بالنصب وأبو عمرو بالياء وتشديد العين مفتوحة العذاب بالرفع وقوله تعالى (وكان ذلك على الله يسيرا) فيه ايذان بأن كونهن نساء النبى صلى الله عليه وسلم ليس يغنى عنهن شيأ وكيف يغنى عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب فكان داعيا الى تشديد الامر عليهن غير صارف عنه ٭ ولما

مؤمن ونظيره أفنجعل المسلمين كالمجرمين أم حسب الذين اجترحوا السيآت الآية اذا مس كل مجرم ومسى كافرا (قوله وذوقوا

بين تعالى زيادة عقابهن أتبعه زيادة ثوابهن بقوله تعالى (ومن يقنت) أى يطع (منكن لله) الذى هو أهل لان لايلتفت الى غيره (ورسوله) الذى لا ينطق عن الهوى فلا تخالفه فيما أمر به ولا تختار عيشا غير عيشه (وتعمل) أى مع ذلك بجوارحها (صالحا) أى فى جميع ما أمر به سبحانه أونهى عنه فلا تقتصر على عمل القلب (نؤتها أجرها مرتين) أى مثلى ثواب غيرهن من النساء قال مقاتل مكان كل حسنة عشرين حسنة قرة على الطاعة ومرة لطلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق وطيب المعاشرة والقناعة * (تنبيه) * قوله تعالى نؤتها أجرها مرتين فى مقابلة قوله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين وفيه لطيفة وهى أنه عند ايتاء الاجر ذكر المؤتى وهو الله تعالى وعند العذاب لم يصرح بالمعذب بل قال يضاعف وهذا اشارة الى كمال الرحمة والكرم وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية فى يعمل ويؤتها حملا على لفظ من وهو الاصل والباقون بالتاء الفوقية فى يعمل على معنى من والنون فى نؤتها على ان فيه ضمير اسم الله تعالى (واعتدنا) أى هيأنا بما لنا من العظمة (لها) أى بسبب قناعتها مع النبى صلى الله عليه وسلم المريد للتخلى من الدنيا التى يبغضها الله تعالى مع ما فى ذلك من توفير الحظ فى الآخرة (رزقا كريما) أى فى الدنيا والآخرة زيادة على أجرها أما فى الدنيا فلان ما رزقهن منه يوفقن لصرفه على وجه يكون فيه أعظم الثواب ولا يخشى من أجله نوع عقاب وأما فى الآخرة فلا يوصف ولا يحد ولا ينكد فيه أصلا ولا كد وهذا ما جرى عليه البقاعى وهو أولى مما جرى عليه كثير من المفسرين من الاقتصار على رزق الجنة وعلله الرازى بقوله تعالى ووصف رزقا بكونه كريما مع ان الكريم لا يكون وصفا الا للرازق وذلك اشارة الى ان الرزق فى الدنيا مقدر على ايدى الناس فان التاجر يسترزق من السوقة والعاملون والصناع من المستعملين والملوك من الرعية والرعية منهم فالرزق فى الدنيا لا يأتى بنفسه انما هو مسخر للغير يكتسبه ويرسله الى الاعيان وأما فى الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك فى الظاهر فهو الذى يأتى بنفسه فلأجل هذا لا يوصف فى الدنيا بالكريم الا الرازق وفى الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق انتهى * ولما ذكر تعالى ان عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة الى الاماء قال تعالى (يا نساء النبى لستن كأحد) قال البغوى ولم يقل كواحدة لان الاحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث والمعنى لستن كجماعة واحدة (من) جماعات (النساء) اذا تقصيت جماعة النساء واحدة واحدة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة ومنه قوله تعالى والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم يريد بين جماعة واحدة منهم تسوية بين جميعهم فى أنهم على الحق المبين وقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله وقوله تعالى فما منكم من أحد عنه حاجزين والحمل على الافراد بان يقال ليست كل واحدة منكن كواحدة من آحاد النساء صحيح بل أولى ليلزم تفضيل الجماعة بخلاف الحمل على الجمع وعن ابن عباس معنى لستن كأحد من النساء يريد ليس قدركن عندى مثل قدر غيركن من النساء الصالحات انتن أكرم على وثوابكن أعظم لدى * ولما كان المعنى بل أنتن اعلى النساء ذكر شرط ذلك بقوله تعالى (ان اتقيتن) الله تعالى أى جعلتن بينكن وبين غضب الله تعالى وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم وقاية ثم سبب عن هذا النهى قوله تعالى (فلا تخضعن) أى اذا

عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) قال ذلك هنا وقال فى سبأ التى كنتم بها تكذبون ذكر الوصف والضمير هنا نظرا للمضاف

تكلمن بحضرة اجنبى (بالقول) اى بان يكون لينا عذبا رخيما والخضوع التطامن والتواضع واللين ثم سبب عن الخضوع قوله تعالى (فيطمع) أى فى الخيانة (الذى فى قلبه مرض) أى فساد وريبة من فسق ونفاق أو نحو ذلك وعن زيد بن على قال المرض مرضان مرض زنا ومرض نفاق وعن ابن عباس أن نافع بن الازرق قال له أخبرنى عن قوله تعالى فيطمع الذى فى قلبه مرض قال الفجور والزنا قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم أما سمعت الاعشى وهو يقول

حافظ للفرج راض بالتقى ٭ ليس ممن قلبه فيه مرض

والتعبير بالطمع للدلالة على ان أمنيته لا سبب لها فى الحقيقة لان اللين فى كلام النساء خلق لهن لا تكلف فيه وأريد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم التكلف للاتيان بضده بل المرأة مندوبة الى الغلظة فى المقالة اذا خاطبت الاجانب لقطع الاطماع ٭ ولما نهاهن عن الاسترسال مع سجية النساء فى رخاوة الصوت امرهن بضده بقوله تعالى (وقلن قولا معروفا) اى يعرف انه بعيد عن محل الطمع من ذكر الله وما تحتجن اليه من الكلام مما يوجب الدين والاسلام بتصريح وبيان من غير خضوع ٭ ولما امرهن بالقول وقدمه لعمومه اتبعه الفعل بقوله تعالى (وقرن) أى اسكن واملكن دائما (فى بيوتكن) فمن كسر القاف وهم غير نافع وعاصم جعل الماضى قرر بفتح العين ومن فتحه وهو نافع وعاصم فهو عنده قرر بكسرها وهما لغتان قال البغوى وقيل وهو الاصح انه أمر من الوقار كقولهم من الوعد عدن ومن الوصل صلن أى كن أهل وقار وسكون من قوله وقر فلان يقر وقورا اذا سكن واطمأن انتهى ومن فتح القاف نقل فتح الراء ومن كسرها رقق الراء وعن محمد بن سيرين قال نبئت انه قيل لسودة زوج النبى صلى الله عليه وسلم مالك لا تحجين ولا تعتمرين كما تفعل أخواتك فقالت قد حججت واعتمرت وأمرنى الله أن أقر فى بيتى فوالله لا أخرج من بيتى حتى أموت قال فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى خرجت بجنازتها ٭ واختلف فى معنى التبرج فى قوله تعالى (ولا تبرجن) فقال مجاهد وقتادة هو التكسر والتغنج وقال ابن جريج هو التبختر وقيل هو ابراز الزينة وابراز المحاسن للرجال وقرأ البزى بتشديد التاء فى الوصل والباقون بالتخفيف واختلف أيضا فى معنى قوله تعالى (تبرج الجاهلية الاولى) فقال الشعبى هى ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وقال أبو العالية هى زمن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام كانت المرأة تتخذ قميصا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلقها منه وقال الكلبى كان ذلك فى زمن نمروذ الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشى وسط الطريق ليس عليها شئ غيره وتعرض نفسها على الرجال وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال الجاهلية الاولى فيما بين نوح وادريس عليهما السلام وكانت ألف سنة وان بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان رجال الجبل صباحا وفى النساء دمامة وكان نساء السهل صباحا وفى الرجال دمامة وان ابليس أتى رجلا من أهل السهل وأجر نفسه منهم فكان يخدمهم واتخذ شيأ مثل الذى يزمر به الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حوله فأتوه وهم يستمعون اليه واتخذوا عيدا يجتمعون اليه فى السنة فيتبرج النساء للرجال ويتزين الرجال لهن وان رجلا من أهل الجبل هجم عليهم فى عيدهم ذلك فرأى النساء

وهو العذاب وأنثه ما ثم نظرا للمضاف اليه وهو النار وخص ما هنا بالتذكير لان النار وقعت موقع ضميرها المتقدم ذكرها

وصباحهم فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فمضوا اليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة بينهم فذلك قوله تعالى ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وقال قتادة ما قبل الاسلام وقيل الجاهلية الاولى ما ذكرنا والجاهلية الاخرى قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان وقيل الجاهلية الاولى ما كانوا عليه قبل الاسلام والجاهلية الاخرى جاهلية الفسوق في الاسلام ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم لابي ذر كما في الصحيحين انك فيك جاهلية كفر واسلام وقول البيضاوي عن أبي الدرداء قال ابن حجر لم أجده عن أبي الدرداء وقيل قد تذكر الاولى وان لم تكن لها أخرى كقوله تعالى وأنه أهلك عادا الاولى ولم تكن لها أخرى * ولما أمرهن بلزوم البيوت للتخلية عن الشوائب أرشدهن الى التحلية بالرغائب بقوله تعالى (وأقمن الصلوة) أي فرضا ونفلا وصلة لما بينكن وبين الخالق ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (وآتين الزكوة) احسانا الى الخلائق وفي هذا بشارة بالفتوح وتوسيع الدنيا عليهن فان العيش وقت نزولها كان ضيقا عن القوت فضلا عن الزكاة * ولما أمرهن بخصوص ما تقدم لانهما أصل الطاعات البدنية والمالية ومن اعتنى بهما حق الاعتناء جرتاه الى ما وراءهما عم وجمع في قوله تعالى (وأطعن الله) أي الذي له صفات الكمال (ورسوله) أي الذي لا ينطق عن الهوى فيما أمر به ونهى عنه (انما يريد الله) أي الذي هو ذو الجلال والاكرام بما أمركن به ونهاكن عنه من الاعراض عن الزينة وما يتبعها والاقبال عليه (ليذهب) أي لاجل أن يذهب (عنكم الرجس) أي الاثم الذي نهى الله تعالى عنه النساء قاله مقاتل وقال ابن عباس يعني عمل الشيطان وما ليس فيه رضا الرحمن وقال قتادة يعني السوء وقال مجاهد الرجس الشك وقوله تعالى (أهل البيت) في ناصبه أوجه أحدها النداء أي يا أهل البيت أو المدح أي أمدح أهل البيت أو الاختصاص أي أخص أهل البيت كما قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث والاختصاص في المخاطب أقل منه في المتكلم وسمع منك الله نرجو الفضل والاكثر انما هو في المتكلم كقولها

نحن بنات طارق * نمشي على النمارق

وقولهم

نحن بني ضبة أصحاب الجمل * الموت أحلى عندنا من العسل

وقولهم نحن العرب أقرى الناس للضيف واختلف في أهل البيت والاولى فيهم ما قال البقاعي انهم كل من يكون من الزام النبي صلى الله عليه وسلم من الرجال والنساء والازواج والاماء والاقارب وكلما كان الانسان منهم أقرب وبالنبي صلى الله عليه وسلم أخص وألزم كان بالارادة أحق وأجدر ويؤيده قول البيضاوي وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما رضي الله تعالى عنهم لما روي انه عليه الصلاة والسلام خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فجاءت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت والاحتجاج بذلك على عصمتهم وكون اجماعهم حجة ضعيف وعن ابن عباس انهم نساء النبي صلى الله عليه وسلم لانهن في بيته وتلا قوله تعالى واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت في بيتي أنزل انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت قالت فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال هؤلاء أهل بيتي فقلت يا رسول الله اما أنا

والضمير لا يوصف فناسب التذكير وفي سبا لم يتقدم ذكر النار ولا ضميرها فناسب التأنيث (قوله ويقولون متى هذا الفتح)

من أهل البيت فقال بلى ان شاء الله وقال زيد بن أرقم أهل بيته من حرم الصدقة بعده آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس قال الرازى والاولى أن يقال هم أولاده وازواجه والحسن والحسين وعلى منهم لانه كان من أهل بيته لمعاشرته بنت النبى صلى الله عليه وسلم وملازمته له ولما استعار للمعصية الرجس استعار للطاعة الطهر ترغيبا لاصحاب الطباع السليمة والعقول المستقيمة فى الطاعة وتنفيرا لهم عن المعصية بقوله تعالى (ويطهركم) أى يفعل فى طهركم الصيانة عن جميع القاذورات الحسية والمعنوية فعل المبالغ فيه وزاد ذلك عظما بالمصدر بقوله تعالى (تطهيرا) وعن ابن عباس قال شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتى كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاة فيقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا الصلاة رحمكم الله كل يوم خمس مرات ثم بين تعالى ما أنعم الله به عليهن من أن بيوتهن مهابط الوحى بقوله تعالى (واذكرن) أى فى أنفسكن ذكرا دائما واذكرنه لغيركن على جهة الوعظ والتعليم (ما يتلى) اى يتابع ويوالى ذكره (فى بيوتكن) اى بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم الذى خيركن وقوله تعالى (من آيات الله) اى القرآن بيان للموصول فيتعلق بأعنى ويجوز أن يكون حالا اما من الموصول واما من عائده المقدر فيتعلق بمحذوف أيضا واختلف فى قوله تعالى (والحكمة) فقال قتادة يعنى السنة وقال مقاتل أحكام القرآن ومواعظه (ان الله) أى الذى له جميع العظمة (كان) أى ولم يزل (لطيفا) أى يوصل الى المقاصد بلطائف الاضداد (خبيرا) أى بجميع خلقه يعلم ما يسرون وما يعلنون لا تخفى عليه خافية فيعلم من يصلح لبيت النبى صلى الله عليه وسلم ومن لا وما يصلح الناس دينا ودنيا وما لا يصلحهم والطرق الموصلة لكل ما قضاه وقدره وان كانت على غير ما يألفه الناس من انقطع الى الله كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها ولقد صدق الله تعالى وعده فى لطفه وحقق بره فى خبره بأن فتح على نبيه صلى الله عليه وسلم خيبر ففاض بها من رزقه الواسع ولما توفى نبيه صلى الله عليه وسلم ليحميه من زهرة الحياة الدنيا فتح الفتوحات الكبار من بلاد فارس والروم ومصر وما بقى من اليمن ثم اتسع جميع الاقطار الشرق والغرب والجنوب والشمال ومكن أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم من كنوز تلك البلاد وذخائر أولئك الملوك حتى صار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يكيلون المال كيلا وزاد الامر حتى دون عمر رضى الله تعالى عنه الدواوين وفرض للناس عامة أرزاقهم حتى للرضعاء وكان أولا لا يفرض للمولود حتى يفطم فكانوا يستعجلون بالفطام فنادى مناديه لا تعجلوا أولادكم بالفطام فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام وفاوت بين الناس فى العطاء بحسب القرب من النبى صلى الله عليه وسلم والبعد منه وبحسب السابقة فى الاسلام والهجرة ونزل الناس منازلهم بحيث أرضى جميع الناس حتى قدم عليه خالد بن عرفطة فسأله عما وراءه فقال تركتهم يسألون الله تعالى أن يزيد فى عمرك من أعمارهم قال عمر انما هو حقهم وأنا أسعد بأدائه اليهم وانى لاعلم بنصيحتى كل من طوقنى الله أمره فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من مات غاشا لرعيته لم يرح ريح الجنة فكان فرضه لازواج النبى صلى الله عليه وسلم اثنى عشر ألفا لكل واحدة وهى نحو ألف دينار

(ان قلت) هذا سؤال عن وقت الفتح وهو يوم القيامة فكيف طابقه الجواب بقوله قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم (قلت)

فى كل سنة وأعطى عائشة خمسة وعشرين ألفا لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها فأبت ان تأخذ الا ما تأخذه صواحباتها وروى عن برزة بنت رافع قالت لما خرج العطاء أرسل عمر الى زينب بنت جحش بالذى لها فلما أدخل اليها قالت غفر الله لعمر غيرى من اخواتى أقوى على قسم هذا منى قالوا هذا كله لك قالت سبحان الله ثم قالت صبوه واطرحوا عليه ثوبا ثم قالت لى ادخلى يديك واقبضى منه قبضة فاذهبى بها الى بنى فلان وبنى فلان من ذوى رحمها وأيتامها فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب قالت برزة بنت رافع غفر الله لك يا أم المؤمنين والله لقد كان لنا فى هذا المال حق قالت فلكم ما تحت الثوب قالت فوجدنا تحته خمسمائة وثمانين درهما ثم رفعت يديها الى السماء وقالت اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بعد عامى هذا فماتت قال البقاعى ذكر ذلك البلاذرى فى كتاب فتوح البلاد انتهى ❊ وعن مقاتل قال قالت أم سلمة بنت أبى أمية ونسيبة بنت كعب الانصارية للنبى صلى الله عليه وسلم ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء فى شىء من كتابه نخشى أن لا يكون فيهن خير فأنزل الله تعالى (ان المسلمين والمسلمات) أى الداخلين فى الاسلام المنقادين لحكم الله فى القول والعمل ❊ ولما كان الاسلام مع كونه أكمل الاوصاف وأعلاها يمكن أن يكون بالظاهر فقط اتبعه المحقق له وهو اسلام الباطن بالتصديق التام بغاية الاذعان فقال عاطفا له ولما بعده من الاوصاف التى يمكن اجتماعها بالواو للدلالة على تمكن الجامعين لهذه الاوصاف فى كل وصف منها (والمؤمنين والمؤمنات) أى المصدقين بما يجب أن يصدق به ❊ ولما كان المؤمن المسلم قد لا يكون فى أعماله مخلصا قال (والقانتين والقانتات) أى المخلصين فى ايمانهم واسلامهم المداومين على الطاعة ❊ ولما كان القنوت قد يطلق على الاخلاص المقتضى للمداومة وقد يطلق على مطلق الطاعة قال (والصادقين والصادقات) أى فى ذلك كله من قول وعمل ❊ ولما كان الصدق وهو اخلاص القول والعمل عن شوب يلحقه أو شىء يدنسه قد لا يكون دائما قال مشيرا الى ان ما لا يكون دائما لا يكون صدقا فى الواقع (والصابرين والصابرات) أى على الطاعات وعن المعاصى ❊ ولما كان الصبر قد يكون سجية دل على صرفه الى الله بقوله تعالى (والخاشعين والخاشعات) أى المتواضعين لله تعالى بقلوبهم وجوارحهم ❊ ولما كان الخشوع والخضوع والاخبات والسكون لا يصح مع توفير المال فانه سكون اليه قال معلما انه اذ ذاك لا يكون على حقيقته (والمتصدقين والمتصدقات) بما وجب فى أموالهم وبما استحب سرا وعلانية تصديقا لخشوعهم ❊ ولما كان بذل المال قد لا يكون مع الايثار اتبعه ما يعين عليه بقوله تعالى (والصائمين والصائمات) أى فرضا ونفلا للايثار بالقوت وغير ذلك ❊ ولما كان الصوم يكسر شهوة الفرج وقد يثيرها قال تعالى (والحافظين فروجهم والحافظات) أى عما لا يحل لهم وحذف مفعول الحافظات لتقدم ما يدل عليه والتقدير والحافظاتها وكذلك والذاكرات وحسن الحذف رؤس الفواصل ❊ ولما كان حفظ الفرج وسائر الاعمال لا يكاد يوجد الا بالذكر وهو الذى يكون عنده المراقبة الموصلة الى المحاضرة المحققة للمشاهدة المحيية للفناء قال تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) أى بقلوبهم وألسنتهم فى كل حالة ومن علامات الاكثار من الذكر اللهج به عند الاستيقاظ من النوم وقال مجاهد لا يكون العبد من

لما كان سؤالهم سؤال تكذيب واستهزاء بيوم القيامة لا سؤال استفهام أجيبوا بالتهديد المطابق للتكذيب والاستهزاء

الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضطجعا وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال سبق المفردون قالوا وما المفردون قال الذاكرون الله تعالى كثيرا والذاكرات قال عطاء بن أبي رباح من فوض أمره الى الله عز وجل فهو داخل في قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات ومن اقر بان الله تعالى ربه ومحمدا صلى الله عليه وسلم رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل في قوله تعالى والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله تعالى في الفرض والرسول صلى الله عليه وسلم في السنة فهو داخل في قوله تعالى والقانتين والقانتات ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله تعالى والصادقين والصادقات ومن صبر على الطاعات وعن المعصية وعلى الرزية فهو داخل في قوله تعالى والصابرين والصابرات ومن صلى ولم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله تعالى والخاشعين والخاشعات ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله تعالى والمتصدقين والمتصدقات ومن صام في كل شهر أيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فهو داخل في قوله تعالى والصائمين والصائمات ومن حفظ فرجه عن الحرام فهو داخل في قوله تعالى والحافظين فروجهم والحافظات ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله تعالى والذاكرين الله كثيرا والذاكرات (أعد الله) أي الذي لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره مع انه لا يعاظمه شئ (لهم مغفرة) أي لما اقترفوه من الصغائر لانهم مكفرات بفعل الطاعات والآية عامة وفضل الله تعالى واسع • ولما ذكر تعالى الفضل بالتجاوز أتبعه الفضل بالكرم والرحمة بقوله تعالى (وأجرا عظيما) أي على طاعتهم والآية وعد لهن ولامثالهن بالاثابة على الطاعة والتدرع بهذه الخصال وروى أن سبب نزول هذه الآية أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف ان لا تقبل منا طاعة فانزل الله تعالى هذه الآية روى أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقالت هل نزل فينا شئ من القرآن قلن لا فاتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ان النساء لفي خيبة وخسار قال ومم ذلك قالت لانهن لا يذكرن بخير كما تذكر الرجال فانزل الله عز وجل هذه الآية وقيل لما نزل في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما نزل قال نساء المسلمين فما نزل فينا شئ فنزلت • (تنبيه) • عطف الاناث على الذكور لاختلاف جنسيهما والعطف فيه ضروري لاختلافهما ذاتا وعطف الزوجين وهو مجموع المؤمنين والمؤمنات على الزوجين وهو مجموع المسلمين والمسلمات لتغاير وصفيهما وليس العطف فيه بضروري بخلافه في الاول لان اختلاف الجنس أشد من اختلاف الصفة وفائدة العطف عند تغاير الاوصاف الدلالة على أن اعداد المعد من المغفرة والاجر العظيم أي تهيئته للمذكورين للجمع بين هذه الصفات فصار المعنى ان الجامعين والجامعات لهذه الطاعات العشر أعد الله تعالى لهم مغفرة وأجرا عظيما وقوله تعالى (وما كان) اى وما صح (لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا) اى اذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعالى لتعظيم أمره والاشعار بانه قضاء الله تعالى نزلت في زينب بنت جحش الاسدية

لا لبيان حقيقة الوقت وانما فسر الفتح بفتح مكة او يوم بدر لأن المراد ان المقتولين لم ينفعهم ايمانهم حال القتل كما بان

وأخيها عبد الله بن جحش وأمها أمية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم لما خطب النبي صلى الله عليه وسلم زينب على مولاه زيد بن حارثة وكان اشترى زيدا فى الجاهلية بعكاظ فاعتقه وتبناه فلما خطب النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد بن حارثة أبت وقالت أنا ابنة عمتك يارسول الله فلا أرضاه لنفسى وكانت بيضاء جميلة فيها حدة وكذلك كره أخوها ذلك رواه الدارقطنى بسند ضعيف وقيل فى ام كلثوم بنت عقبة وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فزوجها من زيد (ان تكون لهم الخيرة من أمرهم) اى أن يختاروا من أمرهم شيا بل يجب عليهم ان يجعلوا اختيارهم تبعا لاختيار الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم *(تنبيه)* الخيرة مصدر من تخير كالطيرة من تطير على غير قياس وجمع الضمير فى قوله تعالى لهم وفى قوله تعالى من أمرهم لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث انهما فى سياق النفى ويجوز أن يكون الضمير فى من أمرهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وجمع للتعظيم كما جرى عليه البيضاوى وقرأ أن يكون الكوفيون وهشام بالياء التحتية والباقون بالفوقية ولانه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ومن عصاه فقد عصى الله تعالى كما قال تعالى (ومن يعص الله) اى الذى لا أمر لاحد معه (ورسوله) أى الذى معصيته معصية الله تعالى لكونه بينه وبين الخلق فى بيان ما أرسل به اليهم وقوله تعالى (فقد ضل) قرأه قالون وابن كثير وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام وزاد ذلك بقوله تعالى (ضلالا مبينا) أى فقد أخطأ خطأ ظاهر الاخفاء فيه فالواجب على كل أحد أن يكون معه صلى الله عليه وسلم فى كل ما يختاره وان كان فيه أعظم المشقات عليه تخلقا بقول الشاعر

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى * متأخر عنه ولا متقدم

وأهنتنى فاهنت نفسى عامدا * ما من يهون عليك ممن يكرم

فلما نزلت هذه الآية رضيت زينب بذلك وجعلت أمرها بيد النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك أخوها فانكحها صلى الله عليه وسلم زيدا فدخل بها وساق اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة دنانير وستين درهما وخمارا ودرعا وازارا وملحفة وخمسين مدا من الطعام وثلاثين صاعا من تمر ومكثت عنده حينا ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى زيدا ذات يوم لحاجة فابصر زينب قائمة فى درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش فوقعت فى نفسه وأعجبه حسنها فقال سبحان الله مقلب القلوب وانصرف فلما جاء زيد ذكرت ذلك له ففطن زيد فالقى فى نفس زيد كراهتها فى الوقت فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى أريد ان أفارق صاحبتى قال مالك أرابك منها شئ قال لا والله يارسول الله مارأيت منها الا خيرا ولكنها تتعاظم على لشرفها وتؤذينى بلسانها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أمسك عليك زوجك يعنى زينب بنت جحش واتق الله فى أمرها فانزل الله تعالى (واذ تقول للذى أنعم الله) اى الملك الذى له كل الكمال (عليه) وتولى نبيه عليه الصلاة والسلام اياه وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام ثم بين تعالى منزلته من النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وأنعمت عليه) أى بالعتق والتبنى حيث استشارك فى فراق زوجته التى أخبرك الله تعالى أنه يفارقها وتصير زوجتك (أمسك عليك زوجك) أى زينب رضى الله عنها (واتق الله) الذى

فرعون بخلاف الطاقاه
الذين آمنوا بعد الامر
فالجواب بذلك مطابق
للسؤال من غير تاويل

له

(سورة الاحزاب)

(قوله يا أيها النبي) لم يقل في ندائه يا محمد كما قال في نداء غيره يا موسى يا عيسى يا داود بل عدل الى يا أيها النبي اجلالا له وتعظيما كما قال

له بجميع العظمة في جميع أمرك (وتخفي) أي والحال انك تخفي أي تقول قولا مخفيا ما (في نفسك) أي ما اخبرك الله من أنها ستصير احدى زوجاتك عند طلاق زيد (ما الله مبديه) أي مظهره بحمل زيد على تطليقها وان أمرته بامساكها وتزوجك بها وأمرك بالدخول عليها وهذا دليل على انه ما أخفى غير ما أعلمه الله تعالى من انها ستصير زوجته عند طلاق زيد لان الله تعالى ما أبدى غير ذلك ولو أخفى غيره لابداه سبحانه لانه لا يبدل قوله وقول ابن عباس كان في قلبه حبها بعيد وكذا قول قتادة ود أنه لو طلقها زيد وكذا قول غيرهما كان في قلبه لو فارقها زيد تزوجها ولما ذكر تعالى اخفاءه ذلك ذكر علته بقوله تعالى عاطفا على تخفي (وتخشى الناس) اي من ان تخبر بما اخبر الله تعالى به فيصوبوا اليك سهام الظنون لاسيما اليهود والمنافقون وقال ابن عباس والحسن تستحييهم وقيل تخاف لائمة الناس أن يقولوا امره بطلاق امرأته ثم نكحها (والله) اي والحال ان الذي لا شيء أعظم منه (أحق ان تخشاه) اي وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته في ان تؤخر شيئا اخبرك به حتى يأتيك فيه امر قال عمر وابن مسعود وعائشة ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد عليه من هذه وروى عن مسروق قال قالت عائشة لو كتم النبي صلى الله عليه وسلم شيئا مما اوحي اليه لكتم هذه الآية وتخفي في نفسك ما الله مبديه ويؤيد ما مر ما روى سفيان بن عيينة عن علي عن زيد ابن جدعان قال سألني علي بن الحسين زين العابدين ما يقول الحسن في قوله تعالى وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه قال قلت يقول لما جاء زيد الى النبي صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله اني اريد ان اطلقها فقال له أمسك عليك زوجك فقال علي ابن الحسين ليس كذلك كان الله تعالى قد اعلمه انها ستكون من ازواجه وان زيدا سيطلقها فلما جاء زيد وقال اني أريد ان اطلقها قال له امسك عليك زوجك فعاتبه الله تعالى وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك انها ستكون من أزواجك وهذا هو اللائق والاليق بحال الانبياء عليهم السلام وهو مطابق للتلاوة لان الله تعالى أعلم انه يبدي ويظهر ما اخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا) أي حاجة من زواجها والدخول بها وذلك بانقضاء عدتها منه لانه به يعرف انه لا حاجة له فيها وانه قد تقاصرت عنها همته والا راجعها (زوجناكها) أي ولم نحوجك الى ولي من الخلق يعقد لك عليها تشريفا لك ولها بما لنا من العظمة التي خرقنا بها عوائد الخلق حتى اذعن لذلك كل من علم به وسرت به جميع النفوس ولم يقدر منافق ولا غيره على الخوض في ذلك ببنت شفة مما يوهنه ويؤثر فيه فلو كان الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها أو ارادة طلاقها لكان يظهر ذلك لانه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره فدل على أنه انما عوتب على اخفاء ما أعلمه الله تعالى من أنها ستكون زوجة له وانما أخفاه استحياء أن يقول لزيد ان التي تحتك وفي نكاحك ستكون امرأتي قال البغوي وهذا هو الاولى والاليق وان كان الآخر وهو انه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها لا يقدح في حال الانبياء عليهم السلام لان العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه من مثل هذه الاشياء ما لم يقصد فيه المأثم لان الود وميل النفس من طبع البشر وقوله أمسك عليك زوجك واتق الله أمر بالمعروف وهو خشية الاثم فيه وقوله والله أحق ان تخشاه لم يرد به انه لم يكن

يخشى الله فيما سبق فانه عليه الصلاة والسلام قال أما اخشاكم لله واتقاكم له ولكن المعنى
الله أحق ان تخشاه وحده ولا تخشى أحدا معه فانت تخشاه وتخشى الناس أيضا ولكنه
لما ذكر الخشية من الناس ذكر ان الله أحق بالخشية في عموم الاحوال وفي جميع الاشياء
انتهى وذكر قضاء الوطر ليعلم ان زوجة المتبنى تحل بعد الدخول بها اذا طلقت وانقضت
عدتها روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لزيد اذهب فاذكرها علي قال فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال
فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما استطيع ان أنظر اليها لان رسول الله صلى الله عليه وسلم
ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت يا زينب ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم
يذكرك قالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي فقامت الى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول
الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير اذن قال ولقد رأيتنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول
الله كيف وجدت أهلك قال فما أدري أنا أخبرته ان القوم خرجوا أو أخبرني قال فانطلق حتى
دخل البيت فذهبت أدخل معه فالقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب وعن أنس رضي الله عنه
قال ما أولم النبي صلى الله عليه وسلم على شيء من نسائه ما أولم على زينب أولم بشاة وفي رواية أكثر
وأفضل ما أولم على زينب قال ثابت فما أولم قال أطعمهم خبزا ولحما حتى تركوه قال أنس رضي
الله عنه كانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن اهاليكن
وزوجني الله من فوق سبع سموات وقال الشعبي كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم
اني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن جدي وجدك واحد وانكحنيك الله في
السماء وان السفير جبريل عليه السلام وأخرج ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبان
قال جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت زيد بن حارثة يطلبه وكان زيد يقال له زيد ابن محمد
فربما فقده رسول الله صلى الله عليه وسلم الساعة فيقول أين زيد فجاء منزله يطلبه فلم يجده
وتقوم اليه زينب بنت جحش زوجته فضلا فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقالت
ليس هو ههنا يا رسول الله فادخل فأبى أن يدخل فأعجبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فولى
وهو يهمهم بشيء لا يكاد يفهم منه الا ربما أعلن بسبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب
فجاء زيد الى منزله فأخبرته امرأته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منزله فقال زيد ألا قلت له
ان يدخل قالت قد عرضت ذلك عليه فأبى قال فسمعت شيئا منه قالت سمعته حين ولى تكلم
بكلام لا أفهمه وسمعته يقول سبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب فجاء زيد حين أتى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول بلغني انك جئت منزلي فهلا دخلت يا رسول الله
امر زينب أعجبتك فأفارقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امسك عليك زوجك فما استطاع
زيد اليها سبيلا بعد ذلك اليوم فيأتي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره فيقول امسك
عليك زوجك ففارقها زيد واعتزلها وانقضت عدتها فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس
يتحدث مع عائشة اذ أخذته غشية فسري عنه وهو يتبسم ويقول من يذهب الى زينب

وانما عدل
بأيها الرسول
عن وصفه الى محمد في
الاخبار عنه في قوله محمد
رسول الله وقوله وما محمد
الا رسول ليعلم الناس انه

يبشرها

يذكر ان الله زوجنيها من السماء وقرأ واذ تقول للذي الآية قالت عائشة فأخذني ما قرب وما بعد لما يبلغنا من جمالها وأخرى هي أعظم الامور وأشرفها زوجها الله من السماء وقالت هي تفتخر علينا بذا ولما ذكر تعالى التزويج على ماله من العظمة ذكر علته بقوله تعالى (لكي لا يكون على المؤمنين حرج) أي ضيق واثم (في أزواج أدعيائهم) أي الذين تبنوهم وأجروهم في تحريم أزواجهم مجرى أزواج البنين على الحقيقة (اذا قضوا منهن وطرا) أي حاجة بالدخول بهن ثم الطلاق وانقضاء العدة * (فائدة) * لام مقطوعة في الرسم من لكي * (تنبيه) * الادعياء جمع دعي وهو المتبنى أي زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنيته ليعلم أن زوجة المتبنى حلال للمتبني وان كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة ابن الصلب لا تحل للأب (وكان أمر الله) من الحكم بتزويجها وان كرهت وتركت اظهار ما أخبرك الله تعالى به كراهية للمقالة واستحياء من ذلك وكذا كل أمر يريده سبحانه (مفعولا) أي قضاء الله تعالى ماضيا وحكمه نافذ في كل ما أراده لا معقب لحكمه (ما كان على النبي) أي الذي منزلته من الله تعالى الاطلاع على ما لا يطلع عليه غيره من الخلق (من حرج فيما فرض) أي قدر (الله) بما له من صفات الكمال وأوجبه (له) لانه لم يكن على المؤمنين مطلقا حرج في ذلك فكيف برأس المؤمنين وقوله تعالى (سنة الله) منصوب بنزع الخافض أي كسنة الله (في الذين خلوا من قبل) من الانبياء عليهم السلام أنه لا حرج عليهم فيما أحل لهم قال الكلبي ومقاتل أراد داود عليه السلام حين جمع بينه وبين المرأة التي هويها فكذلك جمع بين محمد وبين زينب وقيل أراد بالسنة النكاح فانه من سنة الانبياء عليهم السلام فكان من كان من الانبياء عليهم السلام هذا سنتهم فقد كان لسليمان ابن داود عليهما السلام ألف امرأة وكان لداود مائة امرأة (وكان أمر الله) أي قضاء الملك الاعظم في ذلك وغيره (قدرا) وأكده بقوله تعالى (مقدورا) أي لا خلف فيه ولا بد من وقوعه في حينه الذي حكم بكونه فيه وقوله تعالى (الذين) نعت للذين قبله (يبلغون) أي الى أممهم (رسالات الله) أي الملك الاعظم سواء كانت في نكاح أم غيره (ويخشونه) أي يخبرون بكل ما أخبرهم به (ولا يخشون أحدا) قل أو جل (الا الله) فلا يخشون قالة الناس فيما أحل الله لهم (وكفى بالله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (حسيبا) أي حافظا لاعمال خلقه ومحاسبهم ولما أفاد هذا كله ان الدعي ليس ابنا وكانوا قد قالوا لما تزوج زينب كما رواه الترمذي عن عائشة تزوج حليلة ابنه قال تعالى (ما كان) أي بوجه من الوجوه (محمد) أي على كثرة نسائه وأولاده (أبا أحد من رجالكم) لا مجازا بالتبني ولا حقيقة بالولادة فثبت بذلك انه يحرم عليه زوجة الابن ولم يقل تعالى من بنيكم لانه لم يكن له في ذلك الوقت [illegible] ابن ذكر أعلمه تعالى أنه سيولد له ابنه ابراهيم عليه السلام مع ما كان له قبله من البنين الطاهر والطيب والقاسم لانه لم يبلغ أحد منهم الحلم عليهم السلام قال البيضاوي ولو بلغوا لكانوا رجاله لا رجالهم انتهى وهذا اعتماد على ان المراد التبني وقال البغوي والصحيح انه أراد بأحد من رجالكم الذين لم يلدهم انتهى ومع هذا الاول أوجه كما جرى عليه البقاعي * ثم لما نفى تعالى أبوته عنهم قال (ولكن) كان في علم الله غيبا وشهادة (رسول الله) أي الملك الاعظم الذي كل من سواه عبده (وخاتم النبيين) أي آخرهم الذي ختمهم لان رسالته عامة ومعها اعجاز القرآن فلا حاجة مع ذلك الى

رسول الله ليلا فقعد وبذلك ويدعونه (قوله النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) أي في الحرمة والاحترام ونحوها

استنباء ولا ارسال وذلك مقتضى لئلا يبلغ له ولد اذ لو بلغ له ولد لاق بمنصبه ان يكون نبيا كراماله
لانه أعلى النبيين رتبة وأعظمهم شرفا وليس لاحد من الانبياء كرامة الا وله مثلها وأعظم منها
ولو صار أحد من ولده رجلا لكان نبيا بعد ظهور نبوته وقد قضى الله تعالى ان لا يكون بعده نبي
اكراماله روى أحمد وابن ماجه عن أنس وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال في ابنه ابراهيم عليه السلام لو عاش لكان صديقا نبيا وللبخاري نحوه عن البراء بن عازب
وللبخاري من حديث ابن أبي أوفى لو قضى أن يكون بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبي لعاش ابنه
ولكن لا نبي بعده وقال ابن عباس رضي الله عنه يريد لو لم اختم به النبيين لجعلت له ابنا يكون من
بعده نبيا وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه لما حكم أنه لا نبي بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير
رجلا وقيل من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم اذ هو كالوالد لولد ليس له غيره
والحاصل أنه لا يأتي بعده نبي مطلقا بشرع جديد ولا يتجدد بعده مطلقا استنباء وهذه الآية
مثبتة لكونه خاتما على أبلغ وجه وأعظمه وذلك أنها في سياق الانكار بأن يكون بينه وبين
أحد من رجالهم بنوة حقيقية أو مجازية ولو كانت بعده لاحد لم يكن ذلك الا لولده ولان فائدة
اثبات النبي تتميم شئ لم يأت به من قبله وقد حصل به صلى الله عليه وسلم التمام فلم يبق بعد ذلك
مرام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وأما تجديد ما وهي مما أحدث بعض الفسقة فالعلماء كافون
فيه لوجود ما خص به صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن المعجز الذي من جمعه فكأنما جمعه من
الله عز وجل لوقوع التحقق والقطع بانه لا يقدر غيره أن يقول شيأ منه فمهما حصل ذهول عن
ذلك قرره من يريد الله تعالى من العلماء فيعود الاستبصار كما روى في بعض الآثار علماء أمتي
كأنبياء بني اسرائيل وأما اتيان عيسى عليه السلام بعد تجديد الهدى لجميع ما وهي من أركان
المكارم فلاجل فتنة الدجال ثم طامة يأجوج ومأجوج ونحو ذلك مما لا يستقل باعبائه غير
نبي وما أحسن قول حسان بن ثابت في مرثية لابراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم

مضى ابنك محمود العواقب لم يشب ... بعيب ولم يذمم بقول ولا فعل
رأى انه ان عاش ساواك في العلا ... فآثر أن يبقى وحيدا بلا مثل

وقال الغزالي في آخر كتابه الاقتصاد ان الامة فهمت من هذا اللفظ ومن قرائن أحواله صلى الله
عليه وسلم انه أفهم عدم نبي بعده أبدا وعدم رسول بعده أبدا وانه ليس فيه تأويل ولا تخصيص
وقال ان من أوله بتخصيص النبيين باولي العزم من الرسل ونحو هذا فكلامه من أنواع
الهذيان لا يمنع الحكم بتكفيره لانه مكذب لهذا النص الذي أجمعت الامة على أنه غير مؤول
ولا مخصوص انتهى وقد بان بهذا ان اتيان عيسى عليه السلام غير قادح في هذا النص فانه من
أمته صلى الله عليه وسلم المقررين لشرعه وهو قد كان نبيا قبله لم يتجدد له شئ لم يكن فلم يكن
ذلك قادحا في الختم وهو مثبت لشرف نبينا صلى الله عليه وسلم اذ لولاه لما وجد وذلك أنه لم يكن
لنبي من الانبياء شرف الا وله صلى الله عليه وسلم مثله أو أعلى منه وقد كانت الانبياء تأتي مقررة
لشريعة موسى عليه السلام مجددة لها فكان المقرر لشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم المتبع
لملته من كان ناسخا لشريعة موسى صلى الله عليه وسلم وقرأ عاصم بفتح التاء والباقون بكسرها
فالفتح اسم للآلة التي يختم بها كالطابع والقالب لما يطبع به ويقلب فيه والكسر

جعلهن الله كالامهات ولم
يجعل نبيه كالاب حتى قال
ما كان محمد أبا أحد من
رجالكم لانه تعالى اراد ان
أمته يدعون ازواجه

على

على انه اسم فاعل وقال بعضهم هو بمعنى المفتوح يعنى بمعنى آخرهم لانه ختم النبيين فهو خاتمهم (وكان الله) أى الذى له كل صفة كمال أزلا وأبدا (بكل شئ) من ذلك وغيره (عليما) فيعلم من يليق بالختم ومن يليق بالبدء قال الاستاذ ولى الدين الملوى فى كتابه حسن النفوس فى سؤال القبر واختصاصه صلى الله عليه وسلم بالاحدية والحمدية علما وصفة برهان على ختمه اذ الحمد مقرون بانقضاء الامور مشروع عنده وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وروى أبو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مثلى ومثل الانبياء كمثل قصر أحكم بنيانه ترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه الا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها فكنت انا موضع تلك اللبنة ختم بى البنيان وختم بى الرسل وقال عليه الصلاة والسلام ان لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى يمحو الله تعالى بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الله تعالى الناس على قدمى وأنا العاقب والعاقب الذى ليس بعده نبى ● ولما كان ما أثبته لنفسه سبحانه وتعالى من احاطة العلم مستلزما للاحاطة باوصاف الكمال قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا ذلك بالسنتهم (اذكروا الله) الذى هو أعظم من كل شئ تصديقا لدعواكم ذلك (ذكرا كثيرا) قال ابن عباس لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة الا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فانه لم يجعل له حدا ينتهى اليه ولم يعذر أهله فى تركه الا مغلوبا على عقله وأمرهم به فى الاحوال فقال تعالى فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم وقال تعالى اذكروا الله ذكرا كثيرا أى بالليل والنهار والبر والبحر والصحة والسقم فى السر والعلانية وقال مجاهد الذكر الكثير أن لا ينساه أبدا فيعم ذلك سائر الاوقات وسائر ما هو أهله من التقديس والتهليل والتمجيد (وسبحوه بكرة وأصيلا) أى أول النهار وآخره خصوصا وتخصيصهما بالذكر للدلالة على فضلهما على سائر الاوقات لكونهما مشهودين كافراد التسبيح من جملة الاذكار لانه العمدة فيها وقال البغوى وسبحوه أى صلوا له بكرة أى صلاة الصبح وأصيلا يعنى صلاة العصر وقال الكلبى وأصيلا يعنى صلاة الظهر والعصر والعشاءين وقال مجاهد معناه قولوا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله فعبر بالتسبيح عن اخواته وقيل المراد من قوله تعالى ذكرا كثيرا هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والمحدث ● وعن أنس لما نزل قوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبى وقال ابو بكر رضى الله عنه يارسول الله ما انزل الله تعالى عليك خيرا الا اشركنا فيه انزل الله تعالى (هو الذى يصلى عليكم) أى يرحمكم (وملائكته) اى يستغفرون لكم فالصلاة من الله تعالى رحمة ومن الملائكة استغفار للمؤمنين فذكر صلاته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح قال السدى قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام أيصلى ربنا فكبر هذا الكلام على موسى فاوحى الله تعالى اليه قل لهم انى اصلى وان صلاتى رحمتى وقد وسعت رحمتى كل شئ وقيل الصلاة من الله هى اشاعة الذكر الجميل له فى عباده وقيل الثناء عليه واستغفار الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين ترحم عليهم وهو سبب للرحمة من حيث انهم مجابو الدعوة فقد اشتركت الصلاتان واللفظ المشترك يجوز استعماله فى معنييه معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ جائز قال الرازى وينسب هذا القول للشافعى رحمه الله تعالى وهو غير بعيد وذلك لان الرحمة والاستغفار مشتركان فى العناية بحال

بأشرف ما تنادى به النساء وهو الام واشرف ما ينادى به النبى صلى الله عليه وسلم لفظ الرسول لا الاب ولانه تعالى جعلهن كالامهات

المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية * ولما كان فعل الملائكة منه وباذنه قال تعالى (ليخرجكم) أى ليديم اخراجه اياكم بذلك (من الظلمات) أى الكفر والمعصية (الى النور) الى الايمان والطاعة أو ليخرجكم من الجهل الموجب للضلال الى العلم المثمر للهدى (وكان) أى أزلا وأبدا (بالمؤمنين) أى الذين صار الايمان وصفا لهم (رحيما) أى بليغ الرحمة بتوفيقهم حيث اعتنى باصلاح أمرهم واستعمل فى ذلك ملائكته المقربين فحملهم ذلك على الاخلاص فى الطاعات فرفع لهم الدرجات فى روضات الجنات (تحيتهم) أى المؤمنين (يوم يلقونه) أى يرون الله تعالى (سلام) أى يسلم الله تعالى عليهم ويسلمهم من جميع الآفات وروى عن البراء بن عازب قال تحيتهم يوم يلقونه سلام يعنى يلقون ملك الموت فلا يقبض روح مؤمن الا يسلم عليه وعن ابن مسعود قال اذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقيل تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم حين يخرجون من قبورهم (وأعد) أى والحال انه أعد (لهم) أى بعد السلامة الدائمة (أجرا كريما) هو الجنة وتقدم ذكر الكريم فى الرزق (فان قيل) الاعداد انما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة الى الشئ عليه واما الله تعالى فغير محتاج ولا عاجز حيث يلقاه يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل (أجيب) بان الاعداد للاكرام لا للحاجة قال البيضاوى ولعل اختلاف النظم لمحافظة الفواصل والمبالغة فيما هو أهم (يا أيها النبى) أى الذى نخبره بما لا يطلع عليه غيره (انا أرسلناك) أى بعظمتنا الى سائر خلقنا (شاهدا) أى عليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالتهم او شاهدا للرسل بالتبليغ وهو حال مقدرة أو مقارنة لقرب الزمن (ومبشرا) أى لمن آمن بالجنة (ونذيرا) أى لمن كذب بالنار (وداعيا الى الله) أى الى توحيده وطاعته وقوله تعالى (باذنه) حال أى متلبسا بتسهيله ولا يريد حقيقة الاذن لانه مستفاد من أرسلناك (وسراجا) أى مثله فى الاهتداء به وبالبصائر فيجلى ظلمات الجهل بالعلم للمبصر ارائع لزلل كما يجلى النور الحسى نور الابصار (منيرا) أى نيرا على من اتبعه فيصير فى أعظم ضياء ومن تخلف عنه كان فى أشد ظلام وعبر به دون الشمس مع ان الشمس أشد اضاءة من السراج لان نور الشمس لا يؤخذ منه شئ والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة اذا انطفأ الاول يبقى الذى أخذ منه وكذلك ان غاب النبى صلى الله عليه وسلم كان كل صحابى سراجا يؤخذ منه نور الهداية كما قال صلى الله عليه وسلم أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم قال ابن عادل وفى هذا الخبر لطيفة وهى ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يجعل اصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لان النجم لا يؤخذ منه نور بل له فى نفسه نور اذا غرب لا يبقى نور يستفاد منه فكذلك الصحابى اذا مات فالتابعى يستنير بنور النبى صلى الله عليه وسلم فلا يؤخذ الا قول النبى صلى الله عليه وسلم وفعله فانوار المجتهدين كلهم من النبى صلى الله عليه وسلم ولو جعلهم كالسرج والنبى صلى الله عليه وسلم كان سراجا كان للمجتهد ان يستنير بمن اراد منهم ويأخذ النور ممن اختار وليس كذلك فان مع نص النبى صلى الله عليه وسلم لا يعمل بقول الصحابى بل يؤخذ النور من النبى صلى الله عليه وسلم ولا يؤخذ من الصحابى فلم يجعله سراجا * (تنبيه) * جوز الفراء ان يكون الاصل وتاليا سراجا ويعنى بالسراج القرآن وعلى هذا فيكون من عطف

اجلالا لنبيه ولا يطمع
احد فى نكاحهن بعده ولو
جعله أبا المؤمنين لكان
ابا للمؤمنات ايضا فيحرمن
عليه وذلك ينافى اجلاله

الصفات

الصفات وهي لذات واحدة لان التالى هو المرسل وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على محذوف مثل فراقب احوال أمتك ولم يقل انذر المعرضين اشارة للكرم وقوله تعالى (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) كقوله تعالى أعد لهم أجرا عظيما والعظيم والكبير متقاربان * ولما أمره سبحانه وتعالى بما يسرهم نهاه عما يضر بقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) اى لا تترك ابلاغ شئ مما أنزلت اليك من الانذار وغيره كراهة لشئ من مقالهم وافعالهم في أمر زينب وغيرها فانك نذيرهم وزادهم على ما في أول السورة محط الفائدة في قوله مصرحا بما اقتضاه ماقبله (ودع) أى اترك على حالة حسنة لك وأمر جميل بك (أذاهم) فلا تحسب له حسابا أصلا وامر بعليه فان الله تعالى دافع عنك لانك داع باذنه (وتوكل على الله) اى الملك الاعلى (وكفى بالله) اى الذى له الاحاطة الكاملة (وكيلا) اى حافظا قال البغوى وهذا منسوخ بآية القتال ولما بدأ الله تعالى بتاديب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر ما يتعلق بجانب الله تعالى بقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله وثنى بما يتعلق بجانب من هو تحت يده من أزواجه الشريفات بقوله تعالى بعده يا أيها النبي قل لازواجك وثلث بما يتعلق بذكر العامة بقوله تعالى يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا وكان تعالى كلما ذكر لنبيه مكرمة وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه فلذلك بدأ في ارشاد المؤمنين بجانب الله تعالى فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات) اى عقدتم على الموصوفات بهذا الوصف الشريف المقتضى لغاية الرغبة فيهن وأتم الوصلة بينكم وبينهن ثم كما ثلث في تاديب النبي صلى الله عليه وسلم بجانب الامة ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بهم فقال بعد هذا يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (فان قيل) اذا كان هذا ارشادا بما يتعلق بجانب من هو من خواص المرأة فلم خص المطلقات اللاتى طلقن قبل المسيس بقوله تعالى (ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن) أى تجامعوهن أطلق المس على الجماع لانه طريق له كما سمى الخمر اثما لانها سببه (أجيب) بان هذا ارشاد الى اعلى درجات المكرمات ليعلم منها مادونها وبيانه ان المرأة اذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكيد العهد ولهذا قال تعالى في حق الممسوسة وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا فاذا أمر الله تعالى بالتمتع والاحسان مع من لا مودة بينه وبينها غاظنك بمن حصلت المودة بالنسبة اليها بالافضاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما وهذا كقوله تعالى فلا تقل لهما أف ولو قال لا تضربهما ولا تشتمهما ظن انه حرام لمعنى يختص بالضرب أو الشتم لهما فاما اذ قال لا تقل لهما أف علم منه معان كثيرة فكذلك ههنا أمر بالاحسان مع من لا مودة معها فعلم منه الاحسان الى الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه وقرأ حمزة والكسائى بضم التاء والف بعد الميم والباقون بفتح التاء ولا ألف بعد الميم * ولما كانت العدة حقا للرجال وان كانت لا تسقط باسقاطهم لما فيها من حق الله تعالى قال تعالى (فما لكم عليهن من عدة) اى ايام يتربصن فيها بأنفسهن (تعتدونها) اى تحصونها وتستوفونها بالاقراء وغيرها فتعتدونها صفة لعدة وتعتدونها اما من العدد واما من الاعتداد أى تحسبونها أو تستوفون عددها من قولك عد الدراهم فاعتدها اى استوفى عددها نحو كلته فاكتال ووزنته فاتزن (فان قيل) ما الفائدة في الاتيان بثم وحكم من

وتعظيمه ولانه تعالى جعله اولى بنا من انفسنا وذلك اعظم من الاب في القرب والحرمة اذ لا اقرب الى الانسان من نفسه ولان

طلقت على الفور بعد العقد كذلك (أجيب) بان ذلك ازاحة لما قد يتوهم ان تراخى الطلاق ريثما تمكن الاصابة كما يؤثر فى النسب فيؤثر فى العدة وظاهره يقتضى عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة وتخصيص المؤمنات والحكم عام للتنبيه على ان شان المؤمن ان لا ينكح الا مؤمنة تخيرا لنطفة المؤمن وفى هذه الآية دليل على ان تعليق الطلاق قبل النكاح لا يصح لان الله تعالى رتب الطلاق بكلمة ثم وهى للتراخى حتى لو قال لاجنبية اذا نكحتك فانت طالق أو كل امرأة أتزوجها فهى طالق فنكح لا يقع الطلاق وهو قول على وابن مسعود وجابر ومعاذ وعائشة رضى الله تعالى عنهم وبه قال أهل العلم منهم الشافعى وأحمد رضى الله تعالى عنهما وروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال يقع الطلاق وهو قول ابراهيم النخعى وأصحاب الرأى وقال ربيعة ومالك والاوزاعى ان عين امرأة يقع وان عمم فلا يقع وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال كذبوا على ابن مسعود رضى الله عنه ان كان قالها فزلة من عالم فى الرجل يقول ان تزوجت فلانة فهى طالق يقول الله تعالى اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ولم يقل اذا طلقتموهن ثم نكحتموهن وروى عطاء عن جابر لا طلاق قبل النكاح وقوله تعالى (فمتعوهن) اى أعطوهن ما يستمتعن به محله كما قال ابن عباس رضى الله عنهما اذا لم يكن سمى لها صداقا والا فلها نصف الصداق ولا متعة لها وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فنصف ما فرضتم اى فلا متعة لها مع وجوب نصف الفرض واختلف فى المتعة هل هى واجبة أو مندوبة وهى عندنا واجبة بشروط وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى فتعالين أمتعكن وعند بعض الائمة انها مندوبة وقال بعضهم هى مندوبة عند استحقاقها نصف المهر واجبة عند عدمه وذهب بعضهم الى انها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية (وسرحوهن سراحا جميلا) اى خلوا سبيلهن بالمعروف من غير ضرار وليس لكم عليهن عدة وقيل السراح الجميل أن لا يطالب بما دفعه اليها بأن يخلى لها جميع المهر وقوله تعالى (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) اى مهورهن لان المهر أجر على البضع بيان لا يثار الافضل له لا لتوقف الحل عليه وليفيد احلال المملوكة بكونها مسبية بقوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله) اى الذى له الامر كله (عليك) مثل صفية بنت حيى النضيرية وريحانة القرظية وجويرية بنت الحرث الخزاعية مما كان فى أيدى الكفار وتقييد الاقارب بكونهن مهاجرات معه فى قوله تعالى (وبنات عمك) اى الشقيق وغيره (وبنات عماتك) اى نساء قريش ولما بدأ بالعمومة لشرفها أتبعها قوله تعالى (وبنات خالك) جاريا فى الافراد والجمع على ذلك النحو (وبنات خالاتك) من نساء بنى زهرة وقال البقاعى ويمكن فى ذلك احتمال عجيب وهو وبنات عمك وبنات أعمامك وبنات عماتك وبنات عمتك وبنات خالك وبنات أخوالك وبنات خالاتك وبنات خالتك انتهى وقوله تعالى (اللاتى هاجرن معك) يحتمل تقييد الحل بذلك فى حقه خاصة ويعضده ما روى الترمذى والحاكم عن ام هانئ بنت أبى طالب انها قالت فى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت اليه فعذرنى ثم أنزل الله تعالى انا أحللنا لك أزواجك الآية فلم أكن لأحل له لانى لم أهاجر كنت من الطلقاء اى الاسراء الذين أطلقوا من الاسر وخلى سبيلهم قال ابن عادل ثم نسخ شرط الهجرة فى التحليل انتهى ثم ان الله تعالى ذكر ما خص

من الآباء من يتبرأ من ابنه ولا يمكنه أن يتبرأ من نفسه ولا أخذنا من النبيين (قوله وان أخذنا من النبيين ميثاقهم) الآية فيها عطف الخاص على العام وقدم

به نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وامرأة) اى حرة (مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى) اى الذى أعلينا قدره بما خصصناه به (أن يستنكحها) أى يوجد نكاحه لها بجعلها من منكوحاته فتصير له بمجرد ذلك بلا مهر ولا ولى ولا شهود وخرج بالمؤمنة الكتابية فلا تحل له لانها تكره صحبته ولانه أشرف من أن يضع ماءه فى رحم كافرة ولقوله تعالى وأزواجه أمهاتهم ولا يجوز أن تكون المشركة أم المؤمنين ولخبر سألت ربى أن لا أزوج الا من كان معى فى الجنة فأعطانى رواه الحاكم وصحح اسناده وأما التسرى بالكتابية فلا يحرم عليه قال الماوردى لانه صلى الله عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بنى قريظة واستشكل بهذا تعليلهم السابق بانه أشرف من أن يضع ماءه فى رحم كافرة وأجيب بان القصد بالنكاح أصالة التوالد فاحتيط له وبانه يلزم فيه أن تكون الزوجة المشركة أم المؤمنين بخلاف الملك فيهما وخرج بالحرة الرقيقة وان كانت مؤمنة لان نكاحها معتبر بخوف العنت وهو معصوم وبفقدان مهر حرة ونكاحه غنى عن المهر ابتداء وانتهاء وبرق الولد ومنصبه صلى الله عليه وسلم منزه عنه *(تنبيه)* فى نصب امرأة وجهان أحدهما أنه عطف على مفعول أحللنا اى وأحللنا لك امرأة موصوفة بهذين الشرطين قال أبو البقاء وقد رده قوم وقالوا أحللنا ماض وان وهبت وهو صفة المرأة مستقبل فاحللنا فى موضع جوابه وجواب الشرط لا يكون ماضيا فى المعنى قال وهذا ليس بصحيح لان معنى الاحلال ههنا الاعلام بالحل اذا وقع الفعل على ذلك كما تقول أبحت لك أن تكلم فلانا ان سلم عليك والثانى أنه نصب بمقدر تقديره ونحل لك امرأة وفى قول الله تعالى ان وهبت ان أراد اعتراض الشرط على الشرط والثانى هو قيد فى الاول ولذلك نعربه حالا لان الحال قيد ولهذا اشترط الفقهاء أن يتقدم الثانى على الاول فى الوجود فلو قال لزوجته ان اكلت ان ركبت فانت طالق فلا بد أن يتقدم الركوب على الاكل وهذا لتحقيق الحالية والتقييد كما ذكر اذ لو لم يتقدم لخلا جزء من الاكل غير مقيد بركوب فلهذا اشترط تقدم الثانى ولكن يشترط أن لا يكون ثم قرينة تمنع من تقدم الثانى على الاول كقوله لامرأة ان تزوجتك ان طلقتك فعبدى حر لا يتصور هنا تقدم الطلاق على التزوج قال بعض المفسرين وقد عرض لى اشكال على ما قاله الفقهاء بهذه الآية وذلك أن الشرط الثانى ههنا لا يمكن تقدمه فى الوجود بالنسبة الى الحكم بالنبى صلى الله عليه وسلم لا أنه لا يمكن عقلا وذلك أن المفسرين فسروا قوله تعالى ان أراد بمعنى قبل الهبة لان بالقبول منه صلى الله عليه وسلم يتم نكاحه وهذا لا يتصور تقدمه على الهبة اذ القبول متأخر فان العصمة كانت فى تأخر ارادته عن هبتها ولما جاء أبو حيان الى هنا جعل الشرط الثانى مقدما على الاول على القاعدة العامة ولم يستشكل شيأ مما ذكر قال ذلك البعض وقد عرضت هذا الاشكال على جماعة من أعيان زماننا فاعترفوا به ولم يظهر عنه جواب الا ما قدمته من أنه ثم قرينة مانعة من ذلك كما مثلته آنفا * ولما كان ربما يتوهم أن غير النبى صلى الله عليه وسلم يشاركه فى هذا المعنى قال الله منبها على الخصوصية (خالصة لك) وزاد المعنى بيانا بقوله تعالى (من دون المؤمنين) اى من الانبياء وغيرهم *(تنبيهات)* الاول فى اعراب خالصة وفيه أوجه أحدها أنه منصوب على الحال من فاعل وهبت اى حالة كونها خالصة لك دون غيرك ثانيها أنه نعت مصدر مقدر اى

النبى صلى الله عليه وسلم فى الذكر على مشاهير الانبياء لبيان شرفه وفضله عليهم صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وانما قدم نوحا عليه

هبة خالصة فنصبه بوهبت ثالثها انه حال من امرأة لانها وصفت فتخصصت وهو بمعنى الاول واليه ذهب الزجاج وقيل فيه غير ذلك والمعنى اناحللنالك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق *(التنبيه الثانى)* فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة فى حق الامة وفيه خلاف فقال سعيد بن المسيب والزهرى ومجاهد وعطاء لا ينعقد الا بلفظ الانكاح أو التزويج وبه قال مالك وربيعة والشافعى ومعنى الآية ان اباحة الوطء بالهبة وحصول التزويج بلفظها من خواصه صلى الله عليه وسلم وقال النخعى وأبو حنيفة وأهل الكوفة ينعقد بلفظ الهبة والتمليك وان معنى الآية ان تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة من امهات المؤمنين لاتحل لغيرك أبدا بالتزويج (واجيب) بان هذا التخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فان ازواجه صلى الله عليه وسلم كان من خالصات له وما من فالتخصيص فائدة *(التنبيه الثالث)* فى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم هل كانت عنده امرأة منهن فقال عبد الله بن عباس ومجاهد لم يكن عند النبى صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها منه ولم يكن عنده امرأة الا بعقد نكاح او ملك يمين وقوله تعالى وهبت نفسها على طريق الشرط والجزاء وقال غيرهما بل كانت وهو به وهو ظاهر الآية واختلفوا فيها فقال الشعبى هى زينب بنت خزيمة الهلالية يقال لها ام المساكين وقال قتادة هى ميمونة بنت الحرث وقال على بن الحسين والضحاك ومقاتل هى ام شريك بنت جابر من بنى اسد وقال عروة بن الزبير هى خولة بنت حكيم من بنى سليم *(التنبيه الرابع)* فى ذكر شئ من خصائصه صلى الله عليه وسلم وقد ذكرت منها اشياء كثيرة بشرح الصدر بها فى شرح التنبيه فلا اطيل بذكرها هنا ولكن اذكر منها طرفا يسيرا تبركا بمركة صاحبها عليه افضل الصلاة والسلام فانذكرها مستحب قال النووى فى روضته ولا يبعد القول بوجوبها لئلا يرى الجاهل بعض الخصائص فى الخبر الصحيح فيعمل به اخذا بأصل التاسى فوجب بيانها لتعرف وهى اربعة انواع * احدها الواجبات وهى أشياء كثيرة منها الضحى والوتر والاضحية وفى الحديث مايدل على أن الواجب أقل الضحى وقياسه أن الوتر كذلك * ومنها السواك لكل صلاة والمشاورة لذوى الاحلام فى الامر وتخيير نسائه بين مفارقته طلبا للدنيا واختياره طلبا للآخرة ولا يشترط الجواب لهن فورا فلو اختارته واحدة لم يحرم عليه طلاقها أو كرهته توقفت الفرقة على الطلاق وليس قولها اخترت نفسى بطلاق كما مرت الاشارة اليه ولم تزوجها بعد الفراق * النوع الثانى المحرمات وهى أشياء كثيرة منها الزكاة والصدقة وتعلم الخط والشعر ومد العين الى متاع الدنيا وخائنة الاعين وهى الايماء بما يظهر خلافه دون الخديعة فى الحرب وامساك من كرهت نكاحه * ومنها نكاح الكتابية لا التسرى بها كما مر ولا يحرم عليه أكل الثوم ونحوه ولا الاكل متكئا * النوع الثالث التخفيفات والمباحات وهى كثيرة جدا منها تزويج من شاء من النساء لمن شاء ولو لنفسه بغير اذن من المرأة ووليها متوليا الطرفين وزوجه الله تعالى وأبيح له الوصال وصفى المغنم ويحكم ويشهد لولده ولو لنفسه وأبيح له نكاح تسع وقد تزوج صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ومات عن تسع قال الائمة وكثرة الزوجات فى حقه صلى الله عليه وسلم للتوسعة فى تبليغ الاحكام عنه الواقعة سرا مما لا يطلع عليه الرجال او نقل محاسنه الباطنة فانه صلى الله عليه وسلم تكمل له الظاهر والباطن

قوله لتشرع لكم من الدين ما وصى به نوحا لانه اسبقت لوصف ما بعث به نوح من العهد القديم وما بعث به نبينا من العهد الحديث

وحرم عليه الزيادة عليهن ثم نسخ وسيأتي ذلك ان شاء الله تعالى وينعقد نكاحه محرما وبلفظ الهبة ايجابا لا قبولا بل يجب لفظ النكاح أو التزويج لظاهر قوله تعالى ان أراد النبي أن يستنكحها ولا مهر للواهبة له وان دخل بها وتجب اجابته على امرأة رغب فيها ويجب على زوجها طلاقها لينكحها • النوع الرابع الفضائل وهي كثيرة لا تدخل تحت الحصر منها تحريم منكوحاته على غيره سواء كن موطوآت أم لا مطلقات باختيارهن أم لا وتحريم سراريه وهن اماؤه الموطوآت بخلاف غير الموطوآت وتقدم ان نساءه أمهات المؤمنين لا المؤمنات بخلافه صلى الله عليه وسلم فانه أبو الرجال والنساء وتقدم الكلام على قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وان ثوابهن وعقابهن مضاعف ومنها انه يحرم سؤالهن الا من وراء حجاب وأفضلهن خديجة ثم عائشة وأفضل نساء العالمين مريم بنت عمران اذ قيل بنبوتها ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خديجة ثم عائشة ثم آسية امرأة فرعون وأما خبر الطبراني خير نساء العالمين مريم بنت عمران ثم خديجة بنت خويلد ثم فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ثم آسية امرأة فرعون فاجيب عنه بان خديجة انما فضلت فاطمة باعتبار الامومة لا باعتبار السيادة وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ومنها أنه أول النبيين خلقا وأفضل الخلق على الاطلاق وخص بتقديم نبوته فكان نبيا وآدم منجدل في طينته وبتقديم أخذ الميثاق عليه وبانه أول من قال بلى وقت ألست بربكم وبخلق آدم وجميع المخلوقات من أجله وبكتابة اسمه الشريف على العرش والسموات والجنات وسائر ما في الملكوت وبشق صدره الشريف وبجعل خاتم النبوة بظهره بازاء قلبه وبحراسة السماء من استراق السمع والرمي بالشهب وباحياء أبويه حتى آمنا به وبانه أول من تنشق عنه الارض يوم القيامة وأول من يقرع باب الجنة وأول شافع وأول مشفع وأكرم بالشفاعات الخمس يوم القيامة • أولها العظمى في الفصل بين أهل الموقف حين يفزعون اليه بعد الانبياء • الثانية في ادخال خلق الجنة بغير حساب جعلنا الله وأحبابنا منهم • الثالثة في ناس استحقوا دخول النار فلا يدخلونها • الرابعة في ناس دخلوا النار فيخرجون منها • الخامسة في رفع درجات ناس في الجنة وكلها ثبتت بالاخبار وخص منها بالعظمى ودخول خلق من امته الجنة بغير حساب وهي الثانية قال النووي في روضته ويجوز أن يكون خص بالثالثة والخامسة أيضا ونصر بالرعب مسيرة شهر وجعلت له الارض مسجدا وترابها طهورا وأحلت له الغنائم وأرسل الى الكافة ورسالة غيره خاصة وأما عموم رسالة نوح عليه السلام بعد الطوفان فلانحصار الباقين فيمن كان معه في السفينة وهو أكثر الانبياء أتباعا وأمته خير الامم وأفضلها أصحابه وأفضلهم الخلفاء الاربعة على ترتيبهم في الخلافة ثم باقي العشرة وهي معصومة لا تجتمع على ضلالة وصفوفهم كصفوف الملائكة ولها فضائل كثيرة على سائر الامم • منها أنها أول من يدخل الجنة بعد الانبياء عليهم السلام • ومنها وضع الاصر وليلة القدر والجمعة ورمضان على أحد قولين ونظر الله تعالى اليهم ومغفرته لهم أول ليلة منه وطيب خلوف فم صائمه عنده تعالى واستغفار الملائكة عليهم السلام في ليله ونهاره وأمر الله تعالى الجنة أن تتزين لهم وردّ صدقاتهم الى فقرائهم والغرة والتحجيل من أثر الوضوء وسلسلة الاسناد والحفظ عن ظهر قلب وأخذ العلم عن الاحداث والمشايخ وكتابه صلى

وما بعث به من توسطهما من الانبياء المشاهير فكان تقدم نوح فيها أشد مناسبة للمقصود (قوله وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) فائدة

الله عليه وسلم معجز محفوظ من التغيير والتبديل وأقيم بعده حجة على الناس ومعجزات سائر الانبياء انقرضت وشريعته مؤبدة ناسخة لغيرها من الشرائع وتطوعه قاعدا كقائم ويحرم رفع الصوت فوق صوته قال القرطبي وكره بعضهم رفعه عند قبره صلى الله عليه وسلم ولا تبطل صلاة من خاطبه بالسلام وتجب اجابته في الصلاة ولو بالفعل ولا تبطل ويحرم نداؤه من وراء الحجرات ويحرم نداؤه باسمه كيا محمد صلى الله عليه وسلم لا بكنيته كيا أبا القاسم ويحرم التكني بكنيته مطلقا وقيل يختص بزمنه وقيل على من اسمه محمد وكان يتبرك ويستشفى ببوله ودمه وفضلاته النازلة من الدبر لا ترى بخلافها من القبل والذي صحح به بعض المتأخرين طهارتها وهو الصواب وأولاد بناته ينسبون اليه وأعطى جوامع الكلم وكان يؤخذ عن الدنيا عند تلقى الوحي ولا يسقط عنه التكليف ورؤيته في النوم حق ولا يعمل بها فيما يتعلق بالاحكام لعدم ضبط النائم والكذب عمدا عليه كبيرة ولا يجوز الجنون على الانبياء ولا الاحتلام ولا تأكل الارض لحومهم وفي هذا القدر كفاية ومن أراد الزيادة على ذلك فعليه بكتب الخصائص فان العلماء قد صنفوا في ذلك تصانيف وأنا أسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يشفعه فينا ويدخلنا معه الجنة ويفعل ذلك بأهلينا ومشايخنا واخواننا ومحبينا ولا يحرمنا زيارته ولا رؤيته قبل الممات ولما كان التخصيص لا يصح ولا يتصور الا من محيط العلم بان هذا الامر ما كان لغير المخصوص تام القدرة لمنع غيره من ذلك قال تعالى (قد) اى أخبر بالثبات هذا أمر يخصك غيرهم لانا قد (علمنا ما فرضنا) اى قدرنا بعظمتنا (عليهم) اى على المؤمنين (في أزواجهم) أي من شرائط العقد وأنهم لا تحل لهم امرأة بلفظ الهبة منها ولا بدون ولى وشهود وهذا عام لجميع المؤمنين المتقدمين والمتأخرين (و) في (ما ملكت أيمانهم) من الاماء بشراء وغيره بان تكون الامة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية وان تستبرأ قبل الوطء وقيل المراد ان أحدا غيرك لا يملك رقبة بهبتها النفسها منه فيكون أحق من سيدها * ولما فرغ من تعليل الدونية علل التخصيص لفا ونشرا مشوشا بقوله تعالى (لكيلا يكون عليك حرج) أي ضيق في شيء من أمر النساء حيث أحللنا لك أنواع المنكوحات وزدناك الواهبة فلكي لا متعلق بخالصة وما بينهما اعتراض ومن دون متعلق بخالصة كما تقول خلص من كذا (وكان الله) اى المتصف بصفات الكمال أزلا وأبدا (غفورا رحيما) اى بليغ الستر على عباده * ولما ذكر تعالى ما فرض في الازواج والاماء الشامل للعدل في عشرتهن وكان صلى الله عليه وسلم أعدل الناس فيهما وأشدهم لله خشية وكان يعدل بينهن ويعتذر مع ذلك عن ميل القلب الذي هو خارج عن طوق البشر بقوله اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله تعالى (ترجى) اى تؤخر وتترك مصاحبتها (من تشاء منهن وتؤوى) اى تضم (اليك من تشاء) وتضاجعها وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بياء ساكنة بعد الجيم من الارجاء اى تؤخرها مع أفعال تكون بها راجية لعطفك والباقون بهمزة مضمومة وهو مطلق التأخير (ومن ابتغيت) اى طلبت (ممن عزلت) اى من القسمة (فلا جناح عليك) اى في وطئها وضمها اليك

(تنبيه) اختلف المفسرون في معنى هذه الآية فأشهر الاقوال أنها في القسم بينهن وذلك أن التسوية بينهن في القسم كانت واجبة عليه فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار

اعادته الثاكيد أو المراد بالميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا وعليه فلا اعادة ولا اختلاف المنافقين (قوله ويعذب

اليه فيهن وقال ابن زيد نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب بعضهن زيادة في النفقة فهجرهن النبي صلى الله عليه وسلم شهرا حتى نزلت آية التخيير فأمره الله عز وجل أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة وان يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك من اختارت الله ورسوله على أنهن امهات المؤمنين وأن لا ينكحن أبدا وعلى أن يؤوي اليه من يشاء ويرجي من يشاء فيرضين قسم لهن أو لم يقسم قسم لبعضهن دون بعض أو فضل بعضهن في النفقة والقسمة فيكون الامر في ذلك اليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة الى أمته نسبة السيد المطاع والرجل وان لم يكن نبيا فالزوجة في ملك نكاحه والنكاح عليها رق فكيف زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة اليه فاذاهن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات واختلفوا هل اخرج أحدا منهن عن القسم فقال بعضهم لم يخرج احدا منهن عن القسم بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما جعل الله له من ذلك يسوي بينهن في القسم الا سودة فانها رضيت بترك حقها من القسم وجعلت يومها لعائشة وقيل أخرج بعضهن روى جرير عن منصور عن أبي رزين قال لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن فقلن يا رسول الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا فنزلت هذه الآية فأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن وآوى اليه بعضهن فكان ممن آوى عائشة وحفصة وزينب وام سلمة وكان يقسم بينهن سواء وارجأ منهن خمسا ام حبيبة وميمونة وسودة وصفية وجويرية فكان لا يقسم لهن ما شاء وقال مجاهد ترجي من تشاء منهن اى تعزل من تشاء منهن بغير طلاق وترد اليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد وقال ابن عباس تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال الحسن تترك نكاح من شئت من نساء أمتك قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتي يهبن أنفسهن لك فتؤويها اليك وتترك من تشاء فلا تقبلها وروى هشام عن أبيه قال كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن انفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة أما تستحيي المرأة ان تهب نفسها للرجل فلما نزلت ترجي من تشاء منهن قلت يا رسول الله ما أرى ربك الا يسارع في هواك (ذلك) أى التفويض الى مشيئتك (ادنى) أى أقرب (أن) أى الى أن (تقر أعينهن) أى بما حصل لهن من عشرتك الكريمة وهو كناية عن السرور والطمأنينة بلوغ المراد لان من كان كذلك كانت عينه قارة ومن كان مهموما كانت عينه كثيرة التقلب هذا اذا كان من القرار بمعنى السكون ويجوز ان يكون من القر الذى هو ضد الحر لان المسرور تكون عينه باردة والمهموم تكون عينه حارة ولذلك يقال للصديق أقر الله تعالى عينك وللعدو سخن الله عينك (ولا يحزن) أى بالفراق وغيره مما يحزن من ذلك (ويرضين) لعلمهن ان ذلك من الله تعالى (بما آتيتهن) أى من الاجور ونحوها من نفقة وقسم وايثار وغيرها ثم أكد ذلك بقوله تعالى (كلهن) أى ليس منهن واحدة الا هي كذلك لان حكم كلهن فيه سواء ان سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وان رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن نفوسهن وزاد ذلك تأكيدا لما في ذلك من الغرابة بقوله تعالى (والله) أى بماله

(ان شاء) فان قلت
المنافقين ان شاء
كيف علق عذابهم بمشيئته
مع ان عذابهم متيقن
الوقوع لقوله تعالى ان
المنافقين في الدرك الاسفل

من الاحاطة بصفات الكمال (يعلم ما في قلوبكم) أي الخلائق كلهم فلا بدع أن يعلم ما في قلوب هؤلاء (وكان الله) أي أزلا وأبدا (عليما) أي بكل شيء من يطيعه ومن يعصيه (حليما) لا يعاجل من عصاه بل يديم احسانه اليه في الدنيا فيجب أن يتقى لعلمه وحلمه فعلمه موجب للخوف منه وحلمه مقتض للاستحياء منه وأخذ الحليم شديد فينبغي لعبده المحب له ان يحلم عمن يعلم تقصيره في حقه فانه سبحانه يأجره على ذلك بان يحلم عنه فيما علمه منه ويرفع قدره ويعلي ذكره وروى البخاري في التفسير عن معاذ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ترجي من تشاء الآية قلت لها ما كنت تقولين قالت كنت أقول له ان كان ذاك الي فاني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا * ولما أمره الله تعالى بالتخيير وخيرهن واخترن الله ورسوله زاد الله تعالى سرورهن بقوله تعالى (لا تحل لك النساء من بعد) أي بعد من معك من هؤلاء التسع اللاتي اخترنك شكرا من الله لهن لكونهن لما نزلت آية التخيير اخترن الله ورسوله فحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن بقوله تعالى (ولا أن تبدل بهن) أي هؤلاء التسع وأغرق في النفي بقوله تعالى (من) أي شيئا من (أزواج) أي بأن تطلقهن أي هؤلاء المعينات أو بعضهن وتأخذ بدلها من غيرهن (ولو أعجبك حسنهن) أي النساء المغايرات لمن معك قال ابن عباس يعني أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب فلما استشهد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهي عن ذلك وقرأ أبو عمرو ولا تحل لك بالتاء الفوقية والباقون بالياء التحتية وشدد البزي التاء من ان تبدل *(تنبيه)* في الآية دليل على اباحة النظر الى من يريد نكاحها لكن من غير العورة في الصلاة فينظر الرجل من الحرة الوجه والكفين ومن الامة ما عدا ما بين السرة والركبة واحتج لذلك بقوله صلى الله عليه وسلم للمغيرة وقد خطب امرأة انظر اليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما أي تدوم المودة والالفة رواه الحاكم وصححه وقوله تعالى (الا ما ملكت يمينك) استثناء من النساء لانه يتناول الازواج والاماء أي فتحل لك وقد ملك بعدهن مارية وولدت له ابراهيم ومات واختلفوا هل ابيح له النساء من بعد قالت عائشة ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احل الله له النساء أي فنسخ ذلك وابيح له ان ينكح اكثر منهن بآية انا احللنا لك ازواجك (فان قيل) هذه الآية متقدمة وشرط الناسخ ان يكون متأخرا (اجيب) بانها مؤخرة في النزول مقدمة في التلاوة وهذا أصح الاقوال وقال أنس مات على التحريم وقال عكرمة والضحاك معنى الآية لا تحل لك النساء بعد التي احللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها وقيل لابي بن كعب لو مات نساء النبي صلى الله عليه وسلم أكان يحل له ان يتزوج فقال وما يمنعه من ذلك قيل قوله تعالى لا تحل لك النساء من بعد قال انما احل الله تعالى له ضربا من النساء فقال يا أيها النبي انا احللنا لك أزواجك ثم قال لا تحل لك النساء من بعد قال أبو صالح امر أن لا يتزوج اعرابية ولا غريبة ويتزوج من نساء قومه من بنات العم والعمة والخال والخالة ان شاء ثلثمائة وقال مجاهد معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات ولا أن تبدل بهن يقول ولا ان تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى وقال ابن زيد في قوله تعالى ولا ان تبدل بهن من ازواج كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بازواجهم

يقول

صـ ن ا.ا.ا (قلت) معناه ان شاء عذابهم وقد شاء او ان شاء موتهم على النفاق

(قوله يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة)

يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي تنزل لي عن امرأتك وانزل لك عن امرأتي فأنزل الله تعالى ولا أن تبدل بهن من أزواج يعني تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته الا ما ملكت يمينك فلا بأس أن تبادل بجاريتك من شئت فاما الحرائر فلا روى عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال دخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وسلم بغير اذن ومعه عائشة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عيينة أين الاستئذان قال يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر مذ أدركت ثم قال من هذه الحميراء الى جنبك فقال هذه عائشة أم المؤمنين فقال عيينة أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد حرم ذلك فلما خرج قالت عائشة من هذا يا رسول الله قال هذا أحمق مطاع وانه على ماترين لسيد قومه • ولما أمر تعالى في هذه الآيات بأشياء ونهى عن أشياء وحد حدودا حذر من التهاون بشيء منها ولو بنوع تأويل بقوله تعالى (وكان الله) أي الذي لا شيء أعظم منه وهو المحيط بجميع صفات الكمال (على كل شيء رقيبا) أي حافظا عالما بكل شيء قادرا عليه فتحفظوا أمركم ولا تتخطوا ما حد لكم وهذا من أشد الاشياء وعيدا • ولما ذكر حالة النبي صلى الله عليه وسلم مع امته في قوله تعالى يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ذكر حالهم معه من الاحترام له صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أي ادعوا الايمان صدقوا ادعاءكم فيه بأن (لا تدخلوا بيوت النبي) اي الذي تأتيه الانباء من علام الغيوب بما فيه رفعته في حال من الاحوال أصلا (الا) في حال (ان يؤذن لكم) اي ممن له الاذن في بيوته صلى الله عليه وسلم منه أو ممن يأذن له في الدخول بالدعاء (الى طعام) اي أكله حال كونكم (غير ناظرين) اي منتظرين (اناه) اي نضجه وهو مصدر أنى يأني وقرأ هشام وحمزة والكسائي بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح • ولما كان هذا الدخول بالاذن مطلقا وكان يراد تقييده قال تعالى (ولكن اذا دعيتم) اي ممن له الدعوة (فادخلوا) اي لاجل ما دعاكم له ثم تسبب عنه قوله تعالى (فاذا طعمتم) اي أكلتم طعاما أو شربتم شرابا (فانتشروا) اي اذهبوا حيث شئتم في الحال ولا تمكثوا بعد الاكل أو الشرب لا مستريحين لقرار الطعام (ولا مستأنسين لحديث) اي طالبين الانس لاجله • (فائدة) • قال الحسن حسبك بالثقلاء أن الله لم يتجوز في أمورهم وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت حسبك بالثقلاء ان الله تعالى لم يحتملهم ثم علل ذلك بقوله تعالى معبرا بالخطاب الى جميعهم معظما له باداة البعد (ان ذلكم) اي الامر الشديد وهو المكث بعد الفراغ (كان يؤذي النبي) اي الذي هيأناه لسماع ما تنبئه به مما يكون سبب شرفكم وعلوكم في الدارين فاحذروا أن تشغلوه عن شيء منه ثم تسبب عن ذلك المانع له من مواجهتهم له بما يزيد اذاه بقوله تعالى (فيستحيي منكم) اي بان يأمركم بالانصراف (والله) اي الذي له جميع الامر (لا يستحيي من الحق) اي لا يفعل فعل المستحيي فيؤديه ذلك الى ترك الامر به • (تنبيه) • قال أكثر المفسرين نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب حين بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما روى ابن شهاب قال أخبرني أنس بن مالك انه كان ابن عشر سنين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال فكانت أمهاتي توطئني على خدمة النبي صلى الله عليه وسلم فخدمته عشر سنين وتوفي وأنا ابن عشرين سنة فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين

الا ينبغي المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق (ان ذلك) لم تخص الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم

أنزل وكان أول ما أنزل في بناء رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش أصبح النبي صلى الله عليه وسلم بها عروسا فدعا القوم وأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقي رهط منهم عند النبي صلى الله عليه وسلم فأطالوا المكث فقام النبي صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا فمشى النبي صلى الله عليه وسلم ومشيت حتى جاء عتبة حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يخرجوا فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ورجعت معه حتى إذا بلغ حجرة عائشة فظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينه الستر ونزلت آية الحجاب وقال أبو عثمان واسمه الجعد عن أنس قال فدخل يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وأرخى الستر واني لفي الحجرة وهو يقول يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم الى قوله تعالى والله لا يستحيي من الحق وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون عليه قبل الطعام الى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم فنزلت الآية يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الآية وروى أبو يعلى الموصلي عن أنس قال بعثتني أم سليم برطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته بين يديه فأصاب منه ثم أخذ بيدي فخرجنا وكان حديث عهد بعرس زينب بنت جحش فمر بنساء من نسائه وعندهن رجال يتحدثون فهنينه وهنأه الناس فقالوا الحمد لله الذي أقر بعينك يا رسول الله فمضى حتى أتى عائشة فإذا عندها رجال قال فكره ذلك وكان إذا كره الشيء عرف في وجهه قال فأتيت أم سليم فأخبرتها فقال أبو طلحة لئن كان كما قال ابنك ليحدثن أمر قال فلما كان من العشي خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر ثم تلا هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا الآية وروى البخاري وغيره عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم عروسا بزينب فقالت لي أم سليم لو أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية فقلت لها افعلي فعمدت الى تمر وأقط وسمن فاتخذت حيسة في برمة وأرسلت بها معي اليه فقال لي ضعها ثم أمرني فقال ادع لي رجالا سماهم وادع لي من لقيت ففعلت الذي أمرني فرجعت فإذا البيت غاص بأهله وفي رواية الترمذي أن الراوي قال قلت لأنس كم كانوا قال زهاء ثلثمائة فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على تلك الحيسة وتكلم بما شاء الله تعالى ثم يدعو عشرة عشرة يأكلون منه ويقول لهم اذكروا اسم الله تعالى وليأكل كل رجل مما يليه حتى تصدعوا كلهم عنها قال الترمذي فقال لي يا أنس ارفع فرفعت فما أدري حين وضعت كانت أكثر أو حين رفعت فخرج مني من خرج وبقي قوم يتحدثون فنزلت ◦ ولما كان البيت يطلق على المرأة الملازمة له عادة أعاد الضمير عليه مرادا به النساء استخداما فقال تعالى (وإذا سألتموهن) أي الأزواج (متاعا) أي شيئا من آلات البيت (فاسئلوهن) أي ذلك المتاع كائنين وكائنات (من وراء حجاب) أي ستر يسترهن عنكم ويستركم عنهن وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها (ذلكم) أي الأمر العالي الرتبة (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أي من وساوس الشيطان والريب لأن العين وزيرة القلب فإذا

(قلت) اما الاول فلا نعرف شاهدين من الزواجر الرادعة عن الذنوب ما يشاهده
بتضعيف العقوبة على الذنب والمثوبة وعلى الطاعة

لم تر العين لم يشته القلب فأما اذا رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر روى ابن شهاب عن عروة عن عائشة ان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل اذا تبرزن الى المناصع وهو صعيد أفيح فكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله عز وجل الحجاب وعن أنس قال قال عمر وافقت ربي في ثلاثة قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فأنزل الله تعالى واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله تعالى آية الحجاب قال وبلغني معاتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه قال فدخلت عليهن فجعلت استقريهن واحدة واحدة فقلت والله لتنتهن أو ليبدلنه الله تعالى أزواجا خيرا منكن حتى أتيت على زينب فقالت يا عمر اما كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت قال فخرجت فأنزل الله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن الآية ❊ ولما بين تعالى للمؤمنين الادب أكده بما يحملهم على ملاطفة نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وما كان) أي وما صح وما استقام (لكم) في حال من الاحوال (ان تؤذوا رسول الله) فله اليكم من الاحسان ما يستوجب به منكم غاية الاكرام والاجلال فضلا عن الكف عن الاذى فلا تؤذوه بالدخول الى شيء من بيوته بغير اذنه أو المكث بعد فراغ الحاجة ولا بغير ذلك ❊ ولما كان قد قصر صلى الله عليه وسلم عليهن ثم أحل له غيرهن قصرهن الله عليه بقوله تعالى (ولا ان تنكحوا) أي فيما يستقبل من الزمان (أزواجه من بعده) أي فراقه بموت أو طلاق سواء أدخل بها أم لا (أبدا) زيادة لشرفه واظهارا لمزيته ولانهن أمهات المؤمنين ولانهن أزواجه في الجنة ولان المرأة في الجنة مع آخر أزواجها كما قاله ابن القشيري روى ان هذه الآية نزلت في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال لئن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنكحن عائشة قال مقاتل بن سليمان هو طلحة بن عبيد الله فأخبر الله تعالى ان ذلك محرم وقال (ان ذلكم) أي الايذاء بالنكاح وغيره (كان عند الله) أي القادر على كل شيء (عظيما) أي ذنبا عظيما (فان قيل) روى معمر عن الزهري أن العالية بنت ظبيان التي طلقها النبي صلى الله عليه وسلم تزوجت رجلا وولدت له (أجيب) بأن ذلك كان قبل تحريم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على الناس وقيل لا تحرم غير الموطوأة لما روى ان أشعث بن قيس تزوج المستعيذة في أيام عمر فهم برجمهما فأخبر بانه صلى الله عليه وسلم فارقها قبل أن يمسها فترك من غير نكير فأما اماؤه صلى الله عليه وسلم فيحرم منهن الموطوآت على غيره اكراما له بخلاف غير الموطوآت وقيل لا تحرم الموطوآت أيضا ❊ ونزل فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان تبدوا) أي بألسنتكم وغيرها (شيئا) أي من ذلك أو غيره (أو تخفوه) في صدوركم (فان الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (كان) أي أزلا وأبدا به هكذا كان الاصل ولكنه أتى بما يعمه وغيره فقال (بكل شيء) أي من ذلك وغيره (عليما) فهو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم وان بالغتم في كتمه فيجازي عليه من ثواب وعقاب

غيرهن ولان في نكاحهن أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وذنب من آذى رسول الله أعظم من ذنب غيره وأما الثاني فلانهن

وفى هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة فى الوعيد * ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب فنزل قوله تعالى (لا جناح) اى لا اثم (عليهن فى آبائهن) دخولا وخلوة من غير حجاب سواء كان الاب من النسب أو من الرضاع (ولا أبنائهن) أى من البطن أو لرضاعة (ولا اخوانهن) لان عارهن عارهم فلا فرق أن يكونوا من النسب أو الرضاع (ولا أبناء اخوانهن) فانهن بمنزلة آبائهم (ولا أبناء أخواتهن) فانهن بمنزلة أمهاتهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة فى الوصل وحققها الباقون وفى الابتداء بالثانية الجميع بالتحقيق (ولا نسائهن) أى المسلمات القريب منهن والبعيد بمنزلة واحدة وأما الكافرات فهن بمنزلة الاجانب من الرجال لكن رجح النووى انه يجوز ان تنظر منها ما يبدو عند المهنة (ولا ما ملكت أيمانهن) من العبيد لانهم لما لهن عليهم من السلطان يبعد منهم الريبة هيبة لهن مع مشقة الاحتجاب عنهم * (تنبيه) * قدم تعالى الآباء لان اطلاعهم على بناتهم أكثر وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات فى حال صغرهن ثم الابناء ثم الاخوة وذلك ظاهر وانما الكلام فى بنى الاخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الاخوات لان بنى الاخوات آباؤهم ليسوا بمحارم خالات أبنائهم وبنى الاخوة آباؤهم محارم ايضا ففى بنى الاخوات مفسدة ما وهى ان الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك فى بنى الاخوة (فان قيل) لم يذكر الله تعالى من المحارم الاعمام والاخوال فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن (أجيب) عن ذلك بوجهين أحدهما ان ذلك معلوم من بنى الاخوة وبنى الاخوات لان من علم ان بنى الاخ للعمات محارم علم ان بنات الاخ للاعمام محارم وكذلك الحال فى أمر الخالة وثانيهما أن الاعمام ربما يذكرون بنات الاخ عند أبنائهم وهم غير محارم وكذلك الخال فى ابن الخال وذكر ملك اليمين بعد هذا كله لان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة وقوله تعالى (واتقين) عطف على محذوف اى امتثلن ما أمرتن به واتقين (الله) أى الذى لا شئ أعظم منه فلا تقربن شيأ مما يكرهه وانما أمرهن لان الريبة من جهة النساء أكثر لانه لا يكاد الرجل يتعرض الا اذا ظن بها الاجابة لما يرى من مخايلها ومخايل أشكالها * ولما كان الخوف لا يعظم الا ممن كان حاضرا مطلعا قال (ان الله) أى العظيم الشأن (كان) أى أزلا وأبدا (على كل شئ) من أفعالكن وغيرها (شهيدا) أى لا يغيب عنه شئ وان دق فهو مطلع عليكن حال الخلوة لا تخفى عليه خافية * ولما أمر تعالى بالاستئذان وعدم النظر الى نسائه احتراما له كمل بيان حرمته بقوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبى) أى محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس أراد أن الله تعالى يرحم النبى والملائكة يدعون له وعن ابن عباس أيضا يصلون يبركون والصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال أبو العالية صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء * (تنبيه) * بيان كمال حرمته فى ذلك ان حالاته منحصرة فى حالتين حالة خلوة فذكر ما يدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبى وحالة تكون فى ملا والملأ اما الملأ الاعلى واما الملأ الادنى اما احترامه فى الملا الاعلى فان الله وملائكته يصلون عليه وأما احترامه فى الملا الادنى فقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) أى ادعوا له بالرحمة (وسلموا تسليما) أى حيوه بتحية الاسلام وأظهروا شرفه بكل ما تصل

أشرف من سائر النساء بقربهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت الطاعة منهن أشرف كما أن المعصية منهن أقبح (قوله

قدرتكم

قدرتكم اليه من حسن متابعته وكثرة الثناء الحسن عليه والانقياد لامره في كل ما يأمر به
ومنه الصلاة والسلام عليه بألسنتكم وروى عبد الرحمن بن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة
فقال الا أهدي لك هدية سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت بلى فأهدها الي قال قلنا
يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى
آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وروى أبو حميد الساعدي انهم
قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صل على محمد
وازواجه وذريته كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم
وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وروى ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة وروى أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا وروى عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم انه جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقلنا انا نرى البشرى في وجهك
فقال جاءني جبريل فقال يا محمد ان ربك يقرئك السلام ويقول أما يرضيك أن لا يصلي عليك
أحد من أمتك الا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا وروى
عامر بن ربيعة انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة
ما صلى علي فليقلل العبد من ذلك أو ليكثر وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صلى
علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيآت ورفعت له عشر
درجات وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله ملائكة
سياحين في الارض يبلغوني عن أمتي السلام •(تنبيه)• دلت الآية على وجوب الصلاة على
النبي صلى الله عليه وسلم لان الامر للوجوب قالوا وقد أجمع العلماء أنها لا تجب في غير الصلاة
فتعين وجوبها فيها والمناسب لها من الصلاة التشهد آخرها فتجب في التشهد آخر الصلاة أي
بعده وهو مذهب الشافعي واحدى الروايتين عن أحمد فالقائل بوجوبها في العمر مرة في
غيرها محجوج باجماع من قبله ولحديث كيف نصلي عليك اذا نحن صلينا عليك في صلاتنا فقال
قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم الى آخره وقيل تجب كلما ذكر
واختاره الطحاوي من الحنفية والحليمي من الشافعية اقول جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم
رقي المنبر فلما رقي الدرجة الاولى قال آمين ثم رقي الثانية فقال آمين ثم رقي الثالثة فقال آمين
فقالوا يا رسول الله سمعناك تقول آمين ثلاث مرات فقال لما رقيت الدرجة الاولى جاءني
جبريل فقال شقي عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يغفر له فقلت آمين ثم قال شقي عبد أدرك
والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة فقلت آمين ثم قال شقي عبد ذكرت عنده ولم يصل عليك فقلت
آمين وفي رواية رقي المنبر فقال آمين آمين آمين قيل يا رسول الله ما كنت تصنع هذا فقال قال لي
جبريل رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما لم يدخلاه الجنة فقلت آمين ثم قال رغم أنف
عبد دخل عليه رمضان لم يغفر له فقلت آمين ثم قال رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك
فقلت آمين وكذلك قوله وسلموا أمر فيجب السلام ولم يجب في غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا
في التشهد سلام عليك أيها النبي الخ وذكر في السلام المصدر للتأكيد ولم يذكره في الصلاة لانها

ان المسلمين والمسلمات
والمؤمنين والمؤمنات ان
قلت لم عطف أحدهما
على الآخر مع انهما

كانت مؤكدة بقوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبي وأقل الصلاة عليه اللهم صل على محمد وأكملها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وآل ابراهيم اسمعيل واسحق وأولادهما *(فائدة)* كل الانبياء من بعد ابراهيم عليه السلام من ولد اسحق الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فانه من نسل اسمعيل ولم يكن من نسله نبي غيره وخص ابراهيم عليه السلام بالذكر لان الرحمة والبركة لم يجتمعا لنبي غيره فقال الله تعالى رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت (فان قيل) اذا صلى الله وملائكته عليه فاى حاجة به الى صلاتنا (أجيب) بان الصلاة عليه ليست لحاجته اليها والا فلا حاجة الى صلاة الملائكة مع صلاة الله تعالى عليه وانما هو اظهار وتعظيمه وشفقة علينا ليثيبنا عليه ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا وفي رواية أخرى وملائكته سبعين وتجوز الصلاة على غيره تبعا له وتكره استقلالا لانه في العرف صار شعارا لذكر الرسل ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل وان كان عزيزا جليلا ولما أمر الله تعالى باحترام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم نهى عن ايذاء نفسه وايذاء رسوله بقوله تعالى (ان الذين يؤذون الله) أي الذي لا أعظم منه ولا نعمة عندهم الا من فضله (ورسوله) أي الذي استحق عليهم بما يخبرهم به عن الله تعالى ما لا يقدرون على القيام بشكره (لعنهم الله) أي أبعدهم وأبغضهم (في الدنيا) بالحمل على ما يوجب السخط (والآخرة) بادخال دار الاهانة كما قال تعالى (وأعد لهم عذابا مهينا) أي ذا اهانة وهو النار ومعنى يؤذون الله يقولون فيه ما صورته أذى وان كان تعالى لا يلحقه ضرر ذلك حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله من اتخاذ الانداد ونسبة الولد والزوجة اليه قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فاما اليهود فقالوا عزير ابن الله وقالوا يد الله مغلولة وقالوا ان الله فقير ونحن أغنياء وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والاصنام شركاؤه وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق باهون على من اعادته وأما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وعن أبي هريرة أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الامر أقلب الليل والنهار معنى الحديث انه كان من عادة العرب في الجاهلية أن يسبوا الدهر ويذموه عند النوازل لاعتقادهم ان الذي يصيبهم من أفعال الدهر فقال تعالى انا الدهر أي انا الذي أحل بهم النوازل وأنا فاعل لذلك الذي تنسبونه للدهر في زعمكم وقيل معنى يؤذون الله يلحدون في أسمائه وصفاته وقيل هم أصحاب التصاوير وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة وليخلقوا حبة أو شعيرة ويحتمل أن يكون ذلك على حذف مضاف أي أولياء الله كقوله تعالى واسئل القرية قال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وقال من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ومعنى الاذى هو مخالفة أمر الله وارتكاب معاصيه ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم والله عز وجل

متعددا شرعا (قلت) ليسا بضدين مطلقا بل هما متعددان صدقا لا مفهوما كما هو الشأن في الفرق بين الاسلام والايمان الشرعيين اذ

منزه

منزه عن أن يلحقه أذى من أحد وقال بعضهم اتى بالجلالة تعظيما والمراد يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى انما يبايعون الله وأما ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس انه شج وجهه وكسرت رباعيته وقيل ساحر شاعر مجنون ولما كان من أعظم اذاه اذى من تابعه وكان الاتباع لكونهم غير معصومين يتصور أن يؤذوا على الحق قال تعالى مقيدا للكلام (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) اى الراسخين فى صفة الايمان (بغير ما اكتسبوا) أى بغير شئ واقعوه مستحقين له حتى أباح أذاهم (فقد احتملوا) أى كلفوا انفسهم أن حملوا (بهتانا) أى كذبا وفجورا زائدا على الحد موجبا للحيرة فى الدنيا والآخرة (واثما مبينا) أى ذنبا ظاهرا جدا موجبا للعقاب فى الآخرة *(تنبيه)* اختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت فى على بن أبى طالب كانوا يؤذونه ويسمعونه وقيل نزلت فى شأن عائشة وقال الضحاك والكلبى نزلت فى الزناة الذين كانوا يمشون فى طريق المدينة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن فيغمزون المرأة فان سكتت اتبعوها وان زجرتهم انتهوا عنها ولم يكونوا يطلبون الا الاماء ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الامة لان زى الكل كان واحدا يخرجن فى درع وخمار الحرة والامة فشكوا ذلك الى أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات الآية ثم نهى الحرائر ان يتشبهن بالاماء بقوله تعالى (يا أيها النبى) ذكره بالوصف الذى هو منبع المعرفة والحكمة (قل لازواجك) بدأ بهن لما لهن به من الوصلة بالنكاح (وبناتك) ثنى بهن لما لهن من الوصلة ولهن فى القسمين من الشرف وأخرهن عن الازواج لان أزواجه يكفيهن مرهن (ونساء المؤمنين يدنين) اى يقربن (عليهن) أى على وجوههن وجميع أبدانهن فلا يدعن شيأ منها مكشوفا (من جلابيبهن) ولا يتشبهن بالاماء فى لباسهن اذا خرجن لحاجتهن بكشف الشعور ونحوها ظنا ان ذلك اخفى لهن وأستر والجلباب القميص وثوب واسع دون الملحفة تلبسه المرأة والملحفة ما ستر اللباس والخمار وهو كل ما غطى الرأس وقال البغوى الجلباب الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار وقال حمزة الكرمانى قال الخليل كل ما يستر به من دثار وشعار وكساء فهو جلباب والكل تصح ارادته هنا فان كان المراد القميص فادناؤه اسباغه حتى يغطى بدنها ورجليها وان كان ما يغطى الرأس فادناؤه ستر وجهها وعنقها وان كان المراد ما يغطى الثياب فادناؤه تطويله وتوسيعه بحيث يستر جميع بدنها وثيابها وان كان المراد ما دون الملحفة فالمراد ستر الوجه واليدين وقال ابن عباس وعبيدة أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤسهن ووجوههن بالجلابيب الا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر ولما أمر تعالى بذلك علله بقوله تعالى (ذلك) اى الستر (أدنى) اى أقرب من تركه فى (أن يعرفن) انهن حرائر بما يميزهن عن الاماء (فلا) اى فيتسبب عن معرفتهن أن لا (يؤذين) ممن يتعرض للاماء فلا يشتغل قلبك عن تلقى ما يرد عليك من الانباء الالهية قال ابن عادل ويمكن أن يقال المراد يعرفن انهن لا يزنين لان من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة أى فى الصلاة لا يطمع فيها انها تكشف عورتها فيعرض لهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن انتهى ولما رفع تعالى لهذا الامر خفف عاقبة ما كان فيه من التشبه بالاماء فاخبرهن تعالى بوسع كرمه وجوده بقوله تعالى (وكان

الاسلام الشرعى هو التلفظ بالشهادتين بشرط تصديق القلب بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم والايمان الشرعى عكس ذلك ويكفى

الله) اى الذى له الكمال المطلق أزلا وأبدا (غفورا) أى لما سلف منهن من ترك الستر فهو محاء للذنوب عينا وأثرا (رحيما) بهن اذ سترهن وعن يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه قال البغوى قال أنس مرت بعمر جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع أتتشبهين بالحرائر ألقى القناع ويظهر أن عمر انما فعل ذلك خوفا من أن تلتبس الاماء بالحرائر فلا يعرف الحرائر فيعود الامر كما كان * ولما كان المؤذون بما مضى وغيره أهل النفاق ومن داناهم حذرهم بقوله تعالى مؤكدا دفعا لظنهم دوام الحلم عليهم (لئن لم ينته) عن الاذى (المنافقون) أى الذين يبطنون الكفر ويظهرون الاسلام (والذين فى قلوبهم مرض) أى غل مقرب من النفاق حامل على المعاصى (والمرجفون فى المدينة) المؤمنين أى بالكذب وذلك ان ناسا منهم كانوا اذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذيعون فى الناس أنهم قد قتلوا أو هزموا ويقولون قد أتاكم العدو ونحو ذلك وأصل الرجفة التحريك من الرجفة وهى الزلزلة سمى به الاخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) أى لنسلطنك عليهم بالقتل والجلاء أو بما يضطرهم الى طلب الجلاء وقوله تعالى (ثم لا يجاورونك) أى يساكنونك (فيها) أى المدينة عطف على لنغرينك وثم للدلالة على ان الجلاء ومفارقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم ما يصيبهم (الا قليلا) أى زمانا أو جوارا قليلا ثم يخرجون منها وقيل نسلطك عليهم حتى تقتلهم وتخلى منهم المدينة وقوله تعالى (ملعونين) اى مبعدين عن الرحمة حال من فاعل يجاورونك قاله ابن عطية والزمخشرى وأبو البقاء (أينما ثقفوا) أى وجدوا (أخذوا وقتلوا) ثم أكده بالمصدر بغضا فيهم وارهابا لهم بقوله تعالى (تقتيلا) أى الحكم فيهم هذا على وجه الامر به وقوله تعالى (سنة الله) أى المحيط بجميع العظمة مصدر مؤكد أى سن الله ذلك (فى الذين خلوا من قبل) أى فى الامم الماضية وهو أن يقتل الذين نافقوا الانبياء وسعوا فى وهنهم بالارجاف ونحوه أينما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله) اى طريقة الملك الاعظم (تبديلا) اى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يتبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الاقوال اما الافعال اذا وقعت والاخبار فلا تنسخ * ولما بين تعالى حالهم فى الدنيا انهم ملعونون ومهانون ويقتلون أراد ان يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها بقوله (يسئلك) يا اشرف الخلق (الناس) اى المشركون استهزاء منهم وتعنتا وامتحانا (عن الساعة) اى متى تكون فى اى وقت (قل) اى لهم فى جوابهم (انما علمها عند الله) الذى أحاط علمه بجميع الاشياء (وما يدريك) أى أى شئ يعلمك امر الساعة ومتى يكون قيامها أنت لا تعرفه (لعل الساعة) اى التى لا ساعة فى الحقيقة غيرها لما لها من العجائب (تكون) اى توجد وتحدث على وجه مهول عجيب (قريبا) اى فى زمن قريب قال البقاعى ويجوز ان يكون التذكير لاجل الوقت لان السؤال عنها انما هو عن تعيين وقتها قال البخارى فى الصحيح اذا وصفت صفة المؤنث قلت قريبة واذا جعلته ظرفا او بدلا ولم ترد الصفة نزعت الهاء من المؤنث وكذلك لفظها فى الاثنين والجمع للذكر والانثى * ثم استأنف الاخبار بحال السائلين عنها بقوله تعالى (ان الله) اى الملك الاعلى (لعن) اى ابعد ابعادا عظيما من رحمته (الكافرين) اى الساترين لما من شأنه ان يظهر مما دلت عليه العقول السليمة من امرها (واعد)

في المصاف المقتضى للاختلاف اختلافهما مفهوما وان تحدا صدقا (قوله ما كان محمد ابا احد من رجالكم) الآية

أي أوجدوها (لهم) من الآن (سعيراً) أي ناراً شديدة الاضطرام والتوقد لتكذيبهم بها
وبغيرها مما أوضح لهم أدلته (خالدين) أي مقدراً خلودهم (فيها) أي السعير وأعاد عليها
الضمير مؤنثاً لأنها مؤنثة أو لأنه في معنى جهنم وقوله تعالى (أبداً) بيان لإرادة الحقيقة لئلا
يتوهم بالخلود المكث الطويل (لا يجدون ولياً) أي يتولى أمراً مما يصيبهم بشفاعة أو غيرها
(ولا نصيراً) ينصرهم وقوله تعالى (يوم) معمول لخالدين أي مقدراً خلودهم فيها على تلك الحال
يوم (تقلب) أي تقليباً كثيراً (وجوههم في النار) أي ظهراً لبطن كاللحم يشوى بالنار حالة
كونهم (يقولون) وهم في محل الجزاء وقد فات المحل القابل للعمل متمنين بقولهم (يا ليتنا
أطعنا) أي في الدنيا (الله) أي الذي لا أمر لأحد معه لما لا يدركون تلافيه لأنهم لا يجدون
ما يقدرون أنه يبرد غلتهم من ولي ولا نصير ولا غيرهما سوى هذا التمني ولما كان المقام
للمبالغة في الإذعان والخضوع أعادوا العامل بقولهم (وأطعنا الرسول) أي الذي بلغنا
عنه حتى لا نبتلى بهذا العذاب * (تنبيه) * تقدم الكلام على القراءة في الرسولا
والسبيلا أول السورة عند الظنونا (وقالوا) أي الأتباع منهم لما لم ينفعهم شيء متبرئين بالدعاء
على من أضلهم بما لا يبرئ عليلاً ولا يشفي غليلاً (ربنا) أي أيها المحسن إلينا وأسقطوا أداة
النداء على عادة أهل الخصوص بالحضور زيادة في التوثيق بإظهار أنه لا واسطة لهم إلا ذلهم
وانكسارهم (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر وقرأ ابن عامر
بألف بعد الدال وكسر التاء على جمع الجمع للدلالة على الكثرة والباقون بغير ألف بعد الدال
وفتح التاء على أنه جمع تكسير غير مجموع بألف وتاء (فأضلونا) أي فتسبب عن ذلك أنهم أضلونا
بما كان لهم من نفوذ الكلمة (السبيلا) أي طريق الهدى فأحالوا ذلك على غيرهم كما هي عادة
المخطئ من الإحالة على غيره مما لا ينفعه ثم كأنه قيل فما تريدون لهم فقالوا مبالغين في الرقة
للاستعطاف بإعادة الرب (ربنا) أي المحسن إلينا (آتهم ضعفين من العذاب) أي مثلي عذابنا
لأنهم ضلوا وأضلوا (والعنهم لعناً كبيراً) أي اطردهم عن محال الرحمة طرداً متناهياً وقرأ
عاصم بالباء الموحدة أي لعناً هو أشد اللعن وأعظمه والباقون بالثاء المثلثة أي كثير العدد
* ولما بين تعالى أن من يؤذي الله ورسوله يلعن ويعذب أرشد المؤمنين إلى الامتناع من
الإيذاء بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أي صدقوا بما يتلى عليهم (لا تكونوا) بإيذائكم
رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر زينب وغيره كوناً هو كالطبع لكم (كالذين آذوا موسى)
من قومه بني إسرائيل آذوه بأنواع الأذى كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم حين قسم قسماً
فتكلم فيه بعضهم فقال لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر واختلفوا فيما أوذي به موسى
فروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من
جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما تستر هذا التستر إلا من عيب
بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا كما قال تعالى (فبرأه)
أي فتسبب عن أذاهم أن برأه (الله) الذي له صفات الجلال والكمال (مما قالوا) فخلا يوماً وحده
ليغتسل فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها فعدا الحجر بثوبه فجمع
موسى عليه السلام وأخذ عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى

هو جواب عن سؤال مقدر تقديره أحمد أبو زيد بن حارثة فأجيب بنفي الأعم المستلزم لنفي الأخص إذ لو اقتصر على قوله ما كان

ملأ من بني اسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه واستتر به وطفق بالحجر يضربه بعصاه فوالله ان بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا والادرة عظم الخصية لنفخة فيها وقوله يجمح أي أسرع وقوله ندبا هو بفتح النون والدال واصله اثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد فشبه به الضرب بالحجر وقال قوم ايذاؤهم اياه انه لما مات هرون في التيه ادعوا على موسى انه قتله فأمر الله الملائكة عليهم السلام حتى مروا به على بني اسرائيل فعرفوا انه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا وقال أبو العالية هو أن قارون استأجر مومسة أي زانية لتقذف موسى بنفسها على رأس الملا فعصمها الله تعالى وبرأ موسى من ذلك وكان ذلك سبب الخسف بقارون ومن معه وقال عبد الله بن مسعود لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا في القسمة فاعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وأعطى ناسا كذا الناس من العرب وآثرهم في القسمة فقال رجل هذه قسمة والله ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت والله لأخبرن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصرف ثم قال فمن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ثم قال يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر والصرف بكسر الصاد صبغ أحمر يصبغ به الاديم ولما كان قصدهم بهذا الاذى اسقاط وجاهته قال تعالى (وكان) أي موسى عليه السلام كونا راسخا (عند الله) أي الذي لا يذل من والاه (وجيها) أي معظما رفيع القدر ذا وجاهة يقال وجه الرجل يوجه فهو وجيه اذا كان ذا جاه وقدر قال ابن عباس كان عظيما عند الله تعالى لا يسأله شيأ الا أعطاه وقال الحسن كان مجاب الدعوة وقيل كان محببا مقبولا ولما نهاهم عن الاذى أمرهم بالنفع ليصيروا ذوي وجاهة عنده مكررا النداء استعطافا واستظهارا للاهتمام بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أي ادعوا ذلك (اتقوا الله) أي صدقوا دعواكم بمخافة من له جميع العظمة فاجعلوا لكم وقاية من سخطه بأن تبذلوا له جميع ما أودعكم من الامانة (وقولوا) في حق النبي صلى الله عليه وسلم في أمر زينب وغيرها وفي حق بناته ونسائه وفي حق المؤمنين ونسائهم وغير ذلك (قولا سديدا) قال ابن عباس صوابا وقال قتادة عدلا وقال الحسن صدقا وقال عكرمة هو قول لا اله الا الله وقيل مستقيما (يصلح لكم أعمالكم) قال ابن عباس يتقبل حسناتكم وقال مقاتل يزكي أعمالكم (ويغفر لكم ذنوبكم) أي يمحها عينا وأثرا فلا يعاقب عليها ولا يعاتب (ومن يطع الله) أي الذي لا أعظم منه (ورسوله) أي الذي عظمته من عظمته في الاوامر والنواهي (فقد فاز) وأكد ذلك بقوله تعالى (فوزا عظيما) أي ظفر بجميع مراداته وعيش في الدنيا حميدا وفي الآخرة سعيدا ولما أرشد الله تعالى المؤمنين الى مكارم الاخلاق وأدب النبي صلى الله عليه وسلم بأحسن الآداب بين ان التكليف الذي وجهه الله تعالى الى الانسان أمر عظيم بقوله تعالى (انا عرضنا الامانة) واختلف في هذه الامانة المعروضة فقال ابن عباس أراد بالامانة الطاعة من الفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده عرضها (على السموات والارض والجبال) على أنهم ان أدوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم وقال ابن مسعود الامانة أداء الصلوات وايتاء الزكوات وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل في المكيال والميزان وأشد من هذا

محمد ابا احد لقيل وماذا يلزم منه فقد كان للانبياء بنات فجيء بنفي الابوة بعيدا للاستدراك بانه رسول الله وخاتم النبيين (فان

كله الودائع وقال مجاهد الامانة الفرائض وحدود الدين وقال ابو العالية ما امروا به ونهوا عنه وقال زيد بن أسلم هو الصوم والغسل من الجنابة وما يخفى من الشرائع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أول ما خلق الله تعالى من الانسان فرجه وقال هذه أمانتي استودعتكها فالفرج أمانة والعين أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا ايمان لمن لا أمانة له وقال بعضهم هي أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا في شيء قليل ولا كثير وهي رواية الضحاك عن ابن عباس وجماعة من التابعين وأكثر السلف ان الله تعالى عرض هذه الامانة على السموات والارض والجبال فقال لهن أتحملن هذه الامانة بما فيها قلن وما فيها فقال ان أحسنتن جوزيتن وان عصيتن عوقبتن (فابين) على عظم اجرامها وقوة ار كانها وسعة أرجائها (أن يحملنها) أي قلن لا يارب نحن مسخرات لامرك لا نريد ثوابا ولا عقابا (وأشفقن منها) أي وقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لله تعالى أن لا يقوموا بها لا معصية ومخالفة وكان العرض عليهن تخييرا لا الزاما ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها فالجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة ساجدة له كما قال تعالى للسموات والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقال في الحجارة وان منها لما يهبط من خشية الله وقال تعالى ألم تر ان الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال الآية وقال بعض أهل العلم ركب الله فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الامانة حتى عقلن الخطاب وأجبن بما أجبن وقال بعضهم المراد بالعرض على السموات والارض هو العرض على أهل السموات والارض عرضها على من فيها من الملائكة كقوله تعالى واسئل القرية أي أهلها وقيل المراد المقابلة أي قابلنا الامانة مع السموات والارض والجبال فرجحت الامانة قال البغوي والاول أصح وهو قول أكثر العلماء *(تنبيه)* قوله تعالى فابين أتى بضمير هذه لضمير الاناث لان جمع تكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك وانما ذكر ذلك لئلا يتوهم أنه قد غلب المؤنث وهو السموات على المذكر وهو الجبال (فان قيل) ما الفرق بين اباتهن واباء ابليس في قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين (أجيب) بان الاباء هناك كان استكبارا لان السجود كان فرضا وههنا استصغارا لان الامانة كانت عرضا وانما امتنعن خوفا كما قال تعالى وأشفقن منها أي خفن من الامانة أن لا يؤدينها فيلحقهن العقاب (وحملها الانسان) أي آدم قال الله تعالى لآدم اني عرضت الامانة على السموات والارض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها قال يارب وما فيها قال ان أحسنت جوزيت وان أسأت عوقبت فتحملها آدم عليه السلام وقال بين اذني وعاتقي فقال الله تعالى اما اذا تحملت فسأعينك اجعل لبصرك حجابا فاذا خشيت ان تنظر لما لا يحل فارخ عليه حجابه واجعل للسانك لحيين وغلاقا فاذا خشيت فاغلق واجعل لفرجك سترا فاذا خشيت فلا تكشفه على ما حرمت عليك قال مجاهد فما كان بين ان تحملها وبين ان أخرج من الجنة الا مقدار ما بين الظهر والعصر وحكى النقاش باسناده عن ابن مسعود انه قال مثلت الامانة بصخرة ملقاة ودعيت السموات والارض والجبال اليها فلم يقربوا منها وقالوا لا نطيق حملها وجاء آدم عليه السلام من غير ان يدعى وحرك الصخرة وقال لو أمرت بحملها لحملتها فقلن

قلت) كيف صح نفي الابوة عنه وقد كان ابا الطيب والطاهر والقاسم وابراهيم (قلت) قد قيد النفي بقوله من رجالكم لان اضافة

أحمل حملها الى ركبتيه ثم وضعها وقال والله لو أردت ان أزداد لازددت فقلن له أحمل فحملها الى حقويه وقال والله لو أردت أن أزداد لازددت فقلن له احمل فحملها حتى وضعها على عاتقه فاراد أن يضعها فقال له الله تعالى مكانك فانها فى عنقك وعنق ذريتك الى يوم القيامة (انه كان ظلوما جهولا) قال ابن عباس ظلوما لنفسه جهولا بأمر الله تعالى وما احتمل من الامانة وقال الكلبى ظلوما حين عصى ربه جهولا لا يدرى ما العقاب فى ترك الامانة وقال مقاتل ظلوما لنفسه جهولا بعاقبة ما تحمل وذكر الزجاج وغيره من أهل المعانى فى قوله تعالى وحملها الانسان قولا آخر فقالوا ان الله تعالى ائتمن آدم واولاده على شئ وائتمن السموات والارض والجبال على شئ فالامانة فى حق بنى آدم ماذكرنا من الطاعة والقيام بالفرائض والامانة فى حق السموات والارض والجبال هى الخضوع والطاعة لما خلقن له وقوله تعالى فابين أن يحملنها أى أبين الامانة يقال فلان حمل الامانة أى اثم فيها بالخيانة قال تعالى وليحملن أثقالهم انه كان ظلوما جهولا حكى عن الحسن على هذا التأويل أنه قال وحملها الانسان يعنى الكافر والمنافق حملا الامانة أى خانا فيها والاول قول السلف وهو الاولى وقيل المراد بالامانة العقل والتكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن وباباتهن الاباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد وبحمل الانسان قابليته واستعدادها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلى هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه فان من فوائد العقل أن يكون مهيمنا على القوتين حافظا لهما عن التعدى ومجاوزة الحد ومعظم مقصود التكليف تعديلهما وكسر سورتهما وعن أبى هريرة قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاء أعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من أعظم الامانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى الى امرأته وتفضى اليه ثم ينشر سرها وقوله تعالى (ليعذب الله) أى الملك الاعظم متعلق بعرضنا المترتب عليه حمل الانسان (المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى المضيعين الامانة * (تنبيه) * لم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وأعاده فى قوله تعالى (ويتوب الله) أى بماله من العظمة (على المؤمنين والمؤمنات) أى المؤدين للامانة ولو قال تعالى ويتوب على المؤمنين والمؤمنات كان المعنى حاصلا ولكنه أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف * ولما ذكر تعالى فى الانسان وصفين الظلوم والجهول ذكر تعالى من اوصافه وصفين بقوله تعالى (وكان الله) أى على ماله من الكبرياء والعظمة (غفورا) للمؤمنين حيث عفا عن فرطاتهم (رحيما) بهم حيث أثابهم بالعفو على طاعتهم مكرما لهم بانواع الكرم * وما رواه البيضاوى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الاحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الامان من عذاب القبر حديث موضوع رواه الثعلبى

الرجال الى الفضا طبين
بخرج ابناءه لانهم رجاله
لا رجالهم ولان المفهوم
منهم بقرينة المقام الرجال
البالغون وابناؤه ليسوا

سورة سبا مكية

الا ويرى الذين أوتوا العلم الآية وهي اربعة أو خمس وخمسون آية وثمانمائة وثلاث وثمانون كلمة واربعة آلاف وخمسمائة واثنا عشر حرفا (بسم الله) أي الذي من شمول قدرته اقامة الحساب (الرحمن) أي الذي من عموم رحمته ترتيب الثواب والعقاب (الرحيم) أي الذي من على أهل كرامته بطاعته حتى لا عقاب يلحقهم ولا عتاب * ولما ختم السورة التي قبل هذه بصفتي المغفرة والرحمة بدأ هذه بقوله (الحمد لله) أي ذي الجلال والجمال على هذه النعمة * (فائدة) * السور المفتتحة بالحمد خمس سورتان في النصف الاول وهما الانعام والكهف وسورتان في النصف الاخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة هي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الاول ومع النصف الثاني الاخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة في قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فان الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالاعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما ندوم به فلنا حالتان الابداء والاعادة وفي كل حالة له تعالى نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال في النصف الاول الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى هو الذي خلقكم من طين فاشار الى الايجاد الاول وقال في السورة الثانية الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا فيها فاشار الى الشكر على نعمة الابقاء فان الشرائع بها البقاء ولولا شرع تنقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ووقعت المنازعات وأدت الى التقاتل والشقاق وقال ههنا الحمد لله (الذي له ما في السموات وما في الارض) ملكا وخلقا اشارة الى نعمة الايجاد الثاني بدليل قوله تعالى (وله) أي وحده (الحمد) أي الاحاطة بالكمال (في الآخرة) أي ظاهر الكل من يجمعه الحشر وله كل ما فيها لا يدعي أحد ذلك في شئ منه ظاهرا ولا باطنا وقال في سورة الملائكة الحمد لله فاطر السموات والارض اشارة الى نعمة الابقاء بدليل قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا أي يوم القيامة يرسلهم الله تعالى مسلمين على المسلمين كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وقال تعالى عنهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر نعمتين أشار بقوله تعالى الحمد لله رب العالمين الى النعمة العاجلة وأشار بقوله تعالى مالك يوم الدين الى النعمة الآجلة فرتب الافتتاح والاختتام عليهما (فان قيل) قد ذكرتم أن الحمد ههنا اشارة الى النعم التي في الآخرة فلم ذكر الله تعالى السموات والارض (أجيب) بأن نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله تعالى النعم المرئية وهي ما في السموات وما في الارض ثم قال وله الحمد في الآخرة ليقابل نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وقيل الحمد في الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال تعالى وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن والحمد لله الذي صدقنا وعده وتقدم الكلام على الحمد لغة واصطلاحا والشكر كذلك في اول الفاتحة فتح الله علينا بكل خير وفعل ذلك باحبابنا ولما تقرر أن الحكمة لا تتم الا بايجاد الآخرة قال تعالى (وهو الحكيم) أي الذي بلغت حكمته النهاية التي لا مزيد عليها والحكمة هي العلم بالامور

كذلك اذ لو كان له ابن بالغ لكان نبيا فلا يكون هو خاتم النبيين (فان قلت) كيف قال تعالى وخاتم النبيين وعيسى عليه

على وجه الصواب متصلا بالعمل على وفقه (الخبير) أى البليغ الخبر وهو العلم بظواهر الامور وبواطنها حالا ومآلا ثم بين كمال خبره بقوله تعالى (يعلم ما يلج) أى يدخل (فى الارض) أى هذا الجنس من المياه والاموال والاموات وغيرها (وما يخرج منها) من المياه والمعادن والنبات وغيرها (وما ينزل من السماء) أى من هذا الجنس من قرآن وملائكة وماء وحرارة وبرودة وغير ذلك (وما يعرج فيها) من الكلام الطيب قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والملائكة والاعمال الصالحة قال تعالى والعمل الصالح يرفعه * (تنبيه) * قدم ما يلج فى الارض على ما ينزل من السماء لان الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانيا وقال تعالى ما يعرج فيها ولم يقل ما يعرج اليها اشارة الى قبول الاعمال الصالحة لان كلمة الى للغاية فلو قال وما يعرج اليها لفهم الوقوف عند السموات فقال وما يعرج فيها ليفهم نفوذه فيها وصعوده منها ولهذا قال فى الكلم الطيب اليه يصعد الكلم الطيب لان الله تعالى هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول اليه (وهو) أى والحال أنه وحده مع كثرة نعمه المقيمة للابدان (الرحيم) أى المنعم بانزال الكتب وارسال الرسل لاقامة الاديان وغير ذلك (الغفور) أى المحاء للذنوب للمفرطين فى شكر نعمته مع كثرتها أو فى الآخرة مع ماله من سوابق هذه النعم الفائتة للحصر * (تنبيه) * قدم تعالى صفة الرحمة على صفة الغفور ليعلم أن رحمته سبقت غضبه * ثم بين تعالى أن هذه النعمة التى يستحق الله تعالى بها الحمد وهى نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال (وقال الذين كفروا) أى ستروا ما دلتهم عليه عقولهم من براهينها الظاهرة (لا تأتينا الساعة) أى أنكروا مجيئها أو استبطؤا ارها استهزاء بالوعد به وقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهم (بلى) رد لكلامهم وايثار لما نفوه (وربى) أى المحسن الى بما عنى به معكم وبما خصنى من تنبيئى وارسالى اليكم الى غير ذلك من أمور لا يحصيها الا هو (لتأتينكم) أى الساعة لتظهر فيها ظهورا تاما الحكمة بالعدل والفضل وغير ذلك من عجائب الحكم والفضل وقوله تعالى (عالم الغيب) قرأه نافع وابن عامر برفع الميم على هو عالم الغيب أو مبتدأ وخبره ما بعده وابن كثير وأبو عمرو وعاصم بجره نعتا لربى وقرأ حمزة والكسائى بعد العين بلام ألف مشددة وخفض الميم (لا يعزب) أى لا يغيب (عنه مثقال) أى وزن (ذرة) أى من ذات ولا معنى والذرة النملة الحمراء الصغيرة جدا صارت مثلا فى أقل القليل فهى كناية عنه * وقرأ الكسائى بكسر الزاى والباقون بضمها وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض) فيه لطيفة وهى أن الانسان له جسم وروح فالاجسام أجزاؤها فى الارض والارواح فى السماء فقوله تعالى فى السموات اشارة الى علمه بالارواح وما فيها من الملائكة وغيرهم وقوله تعالى ولا فى الارض اشارة الى علمه بالاجسام وما فى الارض من غيرها فاذا علم الارواح والاجسام قدر على جمعهما فلا استبعاد فى الاعادة وقوله تعالى (ولا أصغر) أى ولا يكون شئ أصغر (من ذلك) أى المثقال (ولا أكبر) أى منه (الا فى كتاب مبين) أى بين هو اللوح المحفوظ جملة مؤكدة لنفى العزوب (فان قيل) فأى حاجة الى ذكر الاكبر فان من علم الاصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الاكبر (أجيب) بأنه تعالى أراد بيان اثبات الامور فى الكتاب فلو اقتصر على الاصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغار لكونها محل النسيان وأما الاكبر فلا ينسى فلا حاجة الى اثباته فقال

السلام ينزل بعده وهو نبى (قلت) معنى كونه خاتم النبيين انه لا يتنبأ أحد بعده وعيسى نبى قبله وحين ينزل يكون عاملا

الاثبات فى الكتاب ليس كذلك فان الاكبر أيضا مكتوب * ثم بين علة ذلك كله بقوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى وانه ما خلق الاكوان الا لاجل الانسان فلا يدعه بغير جزاء ثم بين تعالى جزاءهم بقوله تعالى (أولئك) أى العالو الرتبة (لهم مغفرة) أى لزلاتهم وهفواتهم لان الانسان المبنى على النقصان لا يقدر أن يقدر العظيم السلطان حق قدره (ورزق كريم) أى جليل عزيز دائم لذيذ نافع شهى لا كدر فيه وهو رزق الجنة

(تنبيه) ذكر تعالى فى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أمرين الايمان والعمل الصالح وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم فالمغفرة جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور له لقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من قال لا اله الا الله ومن فى قلبه وزن ذرة من ايمان والرزق الكريم على العمل الصالح وهذا مناسب فان من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه لا بد وأن ينعم عليه وقوله تعالى كريم بمعنى ذى كرم أو مكرم أو لانه يأتى من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فانه ان لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتى غالبا (فان قيل) ما الحكمة فى تمييز الرزق بانه كريم ولم يصف المغفرة (أجيب) بان المغفرة واحدة وهى للمؤمنين وأما الرزق فمنه شجرة الزقوم والحميم ومنه الفواكه والشراب الطهور فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها ولما بين تعالى حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين فى ذلك اليوم بقوله سبحانه (والذين سعوا) أى فعلوا فعل الساعى (فى آياتنا) أى القرآن بالابطال وتزهيد الناس فيها وقوله تعالى (معجزين) قرأه ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف بعد العين وتشديد الجيم أى مثبطين عن الايمان من اراده والباقون بالف بعد العين وتخفيف الجيم وكذا فى آخر السورة أى مسابقين كى يفوتونا (أولئك) المقهورون عن أن يبلغوا مرادا بعجزهم (لهم عذاب) وأى عذاب (من رجز) أى سيئ العذاب (أليم) أى مؤلم وقرأ ابن كثير وحفص أليم بالرفع على أنه صفة لعذاب والباقون بالجر على انه صفة لرجز قال الرازى قال هنالك لهم رزق كريم ولم يقل بمن التبعيضية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق من جنس كريم وقال ههنا لهم عذاب من رجز أليم بلفظة صالحة للتبعيض وذلك اشارة الى سعة الرحمة وقلة الغضب وقوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم) أى الذى قذفه الله تعالى فى قلوبهم سواء كانوا ممن أسلم من العرب أو أهل الكتاب وقيل مؤمنو أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل الصحابة ومن شايعهم فيه وجهان أحدهما انه عطف على ليجزى أى وليعلم الذين أوتوا العلم والثانى انه مستأنف أخبر عنهم بذلك (الذى أنزل اليك من ربك) أى المحسن اليك بانزاله (هو الحق) أى انه من عند الله تعالى

(تنبيه) الذى أنزل هو المفعول الاول وهو ضمير فصل والحق مفعول ثان لان الرؤية علمية وقوله تعالى (ويهدى الى صراط) أى طريق (العزيز الحميد) فى فاعله وجهان أظهرهما انه ضمير الذى أنزل وهو القرآن والثانى ضمير اسم الله تعالى وهاتان الصفتان يفيدان الرهبة والرغبة العزيز يفيد التخويف والانتقام من المكذب والحميد يفيد الترغيب فى الرحمة للمصدق (وقال الذين كفروا) أى قال بعضهم على وجه التعجب لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (ينبئكم) أى يخبركم اخبارا الا أعظم منه بما هو من

بشر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (قوله وسراجا منيرا) * ان قلت كيف شبهه الله تعالى نبيه بالسراج دون الشمس مع

العجب الخارج عما نفعله أنكم (إذا مزقتم) أي قطعتم وفرقتم بعد موتكم وقوله تعالى (كل ممزق) يحتمل أن يكون اسم مفعول أي كل تمزيق فلم يبق شيء من أجسادكم مع شيء بل صار الكل بحيث لا يميز بين ترابه وتراب الأرض ويحتمل أن يكون ظرف مكان بمعنى إذا مزقتم وذهبت بكم الرياح والسيول كل مذهب (إنكم لفي خلق جديد) أي تنشرون خلقا جديدا بعد أن تكونوا رفاتا وترابا والهمزة في قوله (أفترى) أي تعمد (على الله) أي الذي لا أعظم منه (كذبا) أي بالإخبار بخلاف الواقع وهو عاقل صحيح القصد همزة استفهام فالقراء الجميع يحققونها واستغنى بها عن همزة الوصل فإنها تحذف لأجلها فلذلك تثبت هذه الهمزة ابتداء ووصلا قال البغوي هذه ألف استفهام دخلت على ألف الوصل فلذلك نصبت (أم به جنة) أي جنون يحكي به ذلك واستدل الجاحظ بهذه الآية على أن الكلام ثلاثة أقسام صدق وكذب ولا صدق ولا كذب ووجه الدلالة منه على القسم الثالث أن قولهم أم به جنة لا جائز أن يكون كذبا لأنه قسيم الكذب وقسيم الشيء غيره ولا جائز أن يكون صدقا لأنهم لم يعتقدوه فثبت قسم ثالث (وأجيب) عنه بأن المعنى أم لم يفتر ولكن عبر عن هذا بقولهم أم به جنة لأن المجنون لا افتراء له * (تنبيه) * قوله افترى يحتمل أن يكون من تمام قول الكافرين أولا أي من كلام القائلين هل ندلكم ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب للقائل هل ندلكم كأن القائل لما قال له هل ندلكم على رجل قال له هل افترى على الله كذبا إن كان يعتقد خلافه أم به جنة أي جنون إن كان لا يعتقد خلافه * ولما كان الجواب ليس به شيء من ذلك عطف عليه قوله تعالى (بل الذين لا يؤمنون) أي لا يوجدون الإيمان لأنهم طبعوا على الكفر بالآخرة أي المشتملة على البعث والعذاب (في العذاب) أي في الآخرة (والضلال البعيد) أي عن الصواب في الدنيا فرد الله تعالى عليهم ترديدهم وأثبت لهم سبحانه ما هو أفظع من القسمين فقوله تعالى بل الذين كفروا في العذاب في مقابلة قولهم أفترى على الله كذبا وقوله تعالى والضلال البعيد في مقابلة قولهم أم به جنة وكلاهما مناسب أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذ إلى أنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوا الكذب إلى البريء وأما الضلال فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه في الإيذاء فإنه لا يشهد عليه بأنه يعذب وإنما ينسبه إلى عدم الهداية فبين تعالى أنهم هم الضالون * ثم وصف ضلالهم بالبعد ووصف الضلال به للإسناد المجازي لأن من يسمى المهدي ضالا يكون أضل والنبي صلى الله عليه وسلم هادي كل مهتد * ولما ذكر تعالى الدليل على كونه عالم الغيب وكونه مجازيا على السيئات والحسنات ذكر دليلا آخر فيه التهديد والتوحيد بقوله تعالى (أفلم يروا) أي ينظروا (إلى ما بين أيديهم) أي أمامهم (وما خلفهم) وذلك إشارة إلى جميع الجوانب من كلا الخافقين فقوله تعالى (من السماء والأرض) دليل التوحيد فإنهما يدلان على الوحدانية ويدلان على الحشر والإعادة لأنهما يدلان على كمال القدرة لقوله تعالى أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم وأما دليل التهديد فقوله تعالى (إن نشأ) أي بما لنا من العظمة (نخسف بهم الأرض) أي كما فعلنا بقارون وذويه لأنه ليس نفوذ بعض أفعالنا فيه بأولى من غيره (أو نسقط عليهم كسفا) أي قطعا (من السماء) فنهلكهم بها وقرأ

انهما أتم (قال) المراد بالسراج هنا الشمس كما قال تعالى وجعل الشمس سراجا أو شبهه بالسراج لأنه تفرع منه بهدايته جميع

حفص بفتح السين والباقون بسكونها * (تنبيه) * في قوله تعالى أفلم يروا الرأيان المشهور ان
قدره الزمخشري أفعموا فلم يروا وغيره يدعي أن الهمزة مقدمة على حرف العطف وقوله من
السماء بيان للموصول فيتعلق بمحذوف ويجوز أن يكون حالا فيتعلق به أيضا قيل وثم حال
محذوفة تقديره أفلم يروا الى كذا مقهورا تحت قدرتنا أو محيطا بهم فيعلموا انهم حيث كانوا
فان أرضي وسماي محيطة بهم لا يخرجون من اقطارها وأنا القادر عليهم وقرأ حمزة والكسائي
ان يشأ يخسف بهم الارض أو يسقط بالياء في الثلاثة كقوله تعالى افترى على الله كذبا والباقون
بالنون وأدغم الكسائي الفاء في الباء وأظهرها الباقون (ان في ذلك) أي فيما ترون من
السماء والارض (لآية) أي علامة بينة تدل على قدرتنا على البعث (لكل عبد) أي متحقق
انه مربوب ضعيف مسخر لما يراد منه (منيب) أي فيه قابلية الرجوع الى ربه بقلبه * ولما
ذكر تعالى من ينيب من عباده وكان من جملتهم داود عليه السلام كما قال ربه فاستغفر ربه
وخر راكعا وأناب ذكره بقوله تعالى (ولقد آتينا) أي أعطينا اعطاء عظيما دالا على نهاية
المكنة بما لنا من العظمة (داود منا فضلا) أي النبوة والكتاب او الملك أو جميع ما أوتي من
حسن الصوت وتليين الحديد وغير ذلك مما خص به وهذا الاخير أولى * (تنبيه) * قوله تعالى
منا فيه اشارة الى بيان فضل داود عليه السلام لان قوله تعالى ولقد آتينا داود منا فضلا
مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل آتى الملك زيدا خلعة فاذا قال القائل آتاه منه خلعة
يفيد انه كان من خاص ما يكون له فكذلك ايتاء الله تعالى الفضل عام لكن النبوة من عنده
خاص بالبعض ونظيره قوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان فان رحمة الله تعالى
واسعة تصل الى كل أحد لكن رحمته في الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه وقوله
تعالى (يا جبال) محكي بقول مضمر ثم ان شئت قدرته مصدرا او يكون بدلا من فضل على جهة
تفسيره به كأنه قيل آتيناه فضلا قولنا يا جبال وان شئت قدرته فعلا وحينئذ لك وجهان ان
شئت جعلته بدلا من آتينا معناه آتيناه قلنا يا جبال وان شئت جعلته مستأنفا (أوبي) أي
رجعي (معه) بالتسبيح اذا سبح أمر من التأويب وهو الترجيع وقيل التسبيح بلغة الحبشة
وقال العيني أصله من التأويب في السير وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلا كأنه يقول أوبي
النهار كله بالتسبيح معه وقال وهب نوحي معه وقيل سيري معه وقوله تعالى (والطير) منصوب
باجماع القراء السبعة واختلف في وجه نصبه على أوجه أحدها أنه عطف على محل جبال لانه
منصوب تقديرا الان كل منادى في موضع نصب الثاني أنه عطف على فضلا قاله الكسائي
ولا بد من حذف مضاف تقديره آتيناه فضلا وتسبيح الطير الثالث انه منصوب باضمار فعل
أي وسخرنا له الطير قاله أبو عمرو * (تنبيه) * لم يكن الموافق له في التأويب منحصرا في الطير
والجبال ولكن ذكر الجبال لان الصخور للجمود والطير للنفور وكلاهما تستبعد منه
الموافقة فاذا وافقته هذه الاشياء فغيرها أولى ثم من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم
التي هي أشد قسوة قال المفسرون كان داود عليه الصلاة والسلام اذا نادى بالنياحة اجابته
الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه فصدى الجبال الذي يسمعه الناس اليوم من ذلك
وقيل كان داود اذا تخلل الجبال فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح وقيل

العلماء كما يتفرع من السراج سرج لا تحصى بخلاف الشمس (قوله يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم

كان داود اذا لحقه فتور اسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطا له وقال وهب بن منبه كان يقول للجبال سبحي وللطير أجيبي ثم يأخذ في تلاوة الزبور بين ذلك بصوته الحسن فلا يرى الناس منظرا أحسن من ذلك ولا يسمعون شيأ أطيب منه وذلك كما كان الحصى يسبح في كف نبينا صلى الله عليه وسلم وكف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكما كان الطعام يسبح في حضرته الشريفة وهو يؤكل وكما كان الحجر يسلم عليه وأسكفة الباب وحوائط البيت تؤمن على دعائه وحنين الجذع مشهور وكما كان الضب يشهد له والجمل يشكو اليه ويسجد بين يديه ونحو ذلك وكما جاء الطائر الذي يسمى الحمرة تشكو الذي أخذ بيضها فأمره النبي صلى الله عليه وسلم برده رحمة لها ولما ذكر تعالى طاعة أكثف الارض وألطف الحيوان الذي أنشأه الله تعالى منها ذكر سبحانه وتعالى ما أنشأه من ذلك الاكثف وهو أصلب الاشياء بقوله تعالى (وألنا له الحديد) أي الذي ولدناه من الجبال جعلناه في يده كالشمع والعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة وذلك في قدرة الله تعالى يسير وكان سبب ذلك ما روى في الاخبار أن داود عليه السلام لما ملك بني اسرائيل كان من عادته أن يخرج للناس متنكرا فاذا رأى رجلا لا يعرفه تقدم اليه يسأله عن داود ويقول له ما تقول في داود والحكم هذا أي رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيرا فقيض الله تعالى له ملكا في صورة آدمي فلما رآه داود تقدم اليه على عادته يسأله فقال الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود ذلك وقال ما هي يا عبد الله فقال انه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى أن يسبب له سببا يستغني به عن بيت المال يتقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع وانه أول من اتخذها يقال انه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم فيأكل ويطعم منها عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين ويقال انه كان يعمل كل يوم درعا يبيعه بستة آلاف درهم فينفق منها ألفين على نفسه وعياله ويتصدق بأربعة آلاف درهم على فقراء بني اسرائيل وانما اختار الله تعالى له ذلك لانه وقاية للروح التي هي من أمره ويحفظ الآدمي المكرم عند الله تعالى من القتل فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما لان القوس والسيف وغيرهما من السلاح ربما يستعمل في قتل النفس المحرمة بخلاف الدرع قال صلى الله عليه وسلم كان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده ثم ذكر سبحانه وتعالى علة الالانة بصيغة الامر اشارة الى أن عمله كان لله تعالى بقوله عز من قائل (أن اعمل سابغات) أي دروعا طوالا واسعات يجرها لابسها على الارض وذكر الصفة يعلم منها الموصوف واختلف في معنى قوله سبحانه وتعالى (وقدر في السرد) أي نسج الدروع يقال لصانعه الزراد والسراد فقيل قدر المسامير في حلق الدروع أي لا تجعل المسامير غلاظا فتكسر الحلق ولا دقاقا فتتقلقل فيها ويقال السرد المسمار في الحلقة يقال درع مسرودة أي مسمورة الحلق وقدر في السرد اجعله على القصد وقدر الحاجة وقيل اجعل كل حلقة مساوية لاختها مع كونها ضيقة لئلا ينفذ منها سهم ولتكن في تخنها بحيث لا يقطعها سيف ولا تثقل على الدراع فتمنعه خفة التصرف وسرعة الانتقال في الكر والفر والطعن والضرب في البرد والحر والظاهر كما قال البقاعي انه لم يكن في حلقها مسامير لعدم الحاجة بالالانة الحديد اليها والا لم يكن بينه وبين غيره فرق ولا كان

(قوله مؤمنات عملت وبينات
مثلهن فيما ذكر في الآية
لغالب والا فالكتابيات
لمؤمنات خرج مخرج
طلقتموهن) الآية التقييد

للدلالة كبير فائدة وقد أخبر بعض من رأى ما نسب اليه بغير مسامير وقال الرازى يحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد وقوله تعالى وقدر فى السرد أى انك غير مأمور به أمر ايجاب انما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقى الايام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل ولا تشتغل بجميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحا) أى انتم مخلوقين الا للعمل الصالح فاعملوا ذلك واكثروا منه وأما الكسب فقدروا فيه ثم أكد طلب العمل الصالح بقوله تعالى (انى بما تعملون بصير) أى مبصر فأجازيكم به يريد به داود وآله *(تنبيه)* كما ألان الله تعالى لداود عليه السلام الحديد ألان لنبينا صلى الله عليه وسلم فى الخندق تلك الكدية وذلك بعد ان لم تكن المعاول تعمل فيها وبلغت غاية الجهد منهم فضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربة واحدة وفى رواية رش عليها ماء فعادت كثيبا أهيل لا ترد فأسا وتلك الصخرة التى أخبره سلمان عنها أنها كسرت فؤسهم ومعاولهم وعجزوا عنها فضربها صلى الله عليه وسلم ثلاث ضربات كسر فى كل ضربة ثلثها وبرقت مع كل ضربة برقة كبر معها التكبيرة وأضاءت للصحابة رضى الله تعالى عنهم ما بين لابتى المدينة بحيث كانت فى النهار كأنها مصباح فى جوف بيت مظلم فسألوه عن ذلك فأخبرهم صلى الله عليه وسلم ان احدى الضربات أضاءت له صنعاء من أرض اليمن حتى رأى أبوابها من مكانه ذلك وأخبره جبريل عليه السلام أنها ستفتح على أمته وأضاءت له الاخرى قصور الحيرة البيض كأنها أنياب الكلاب وأخبر أنها مفتوحة لهم وأضاءت له الاخرى قصور الشام الحمر كأنها أنياب الكلاب وأخبر بفتحها عليهم فصدقه الله تعالى فى جميع ما قال وأعظم من ذلك قضاب الخشب له عليه السلام حتى صار سيفا أقوى من جيد الحديد وذلك أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرجونا فصار فى يده سيفا قائمه منه فقاتل به فكان يسمى العرجون ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده حتى قتل وهو عنده وعن الواقدى أنه انكسر سيف سلمة بن أسلم يوم بدر فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيبا كان فى يده من عراجين رطاب فقال اضرب به فاذا هو سيف جيد فلم يزل عنده حتى قتل والحام داود للحديد ليس بأعجب من الحام النبى صلى الله عليه وسلم اليد معوذ بن عفراء لما قطعها أبو جهل يوم بدر فأتى بها يحملها فى يده الاخرى فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وألصقها فالتصقت وصحت مثل أختها كما نقله البيهقى وغيره ومعجزاته صلى الله عليه وسلم لا تحصر وانما أذكر بعضها تبركا بذكره صلى الله عليه وسلم وأسأل الله تعالى ان يحشرنا فى زمرته ويفعل ذلك بأهلينا ومحبينا ولما أتم الله تعالى المراد من آيات داود عليه السلام أتبعها ببعض آيات ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام لمشاركته فى الانابة بقوله تعالى (ولسليمان) أى عوضا عن الخيل التى عقرها الله تعالى (الريح) قرأ شعبة الريح بالرفع على الابتداء والخبر فى الجار قبله أو محذوف والباقون بالنصب باضمار فعل أى وسخرنا (غدوها) أى سيرها من الغدوة بمعنى الصباح الى الزوال (شهر) أى تحمله وتذهب به وبجميع عسكره من الصباح الى نصف النهار مسيرة شهر (ورواحها) أى من الزوال الى

عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك) افرد العم والخال وجمع العمات والخالات لان العم والخال بوزن مصدرين وهما الضم

الغروب (شهر) أى مسيرته فكانت تسير به فى يوم واحد مسيرة شهر بن قال الحسن كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر و بينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وهذا كما سخر الله تعالى الريح لنبينا صلى الله عليه وسلم فى غزوة الاحزاب فكانت تهد خيامهم وتضرب وجوههم بالتراب والحجارة وهى لا تجاوز عسكرهم الى أن هزمهم الله تعالى بها وكما حملت شخصين من الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى غزوة تبوك فالقتهما بجبل طيئ وتحمل من أراد الله تعالى من اولياء أمته كما هو فى غاية الشهرة ونهاية الكثرة واما امر الاسراء والمعراج فهو من الجلالة والعظم بحيث لا يعلمه الا الله تعالى مع ان الله تعالى حرقه فى ايات السماء بحبس المطر تارة وارساله أخرى ولما ذكر تعالى الريح أتبعها ماهو من أسباب تكوينه بقوله تعالى (وأسلنا) أى أذبنا بما لنا من العظمة (له عين القطر) أى النحاس حتى صار كأنه عين ماء فأجريت ثلاثة أيام بلياليهن تجرى الماء وعمل الناس الى اليوم مما أعطى سليمان (ومن الجن) أى الذين سترناهم عن العيون من الشياطين وغيرهم عطف على الريح أى وسخرنا له من الجن (من يعمل بين يديه) أى قد أمكنه الله تعالى منهم غاية الامكان فى غيبته وحضوره (باذن) أى بامر (ربه) أى بتمكين المحسن اليه (ومن يزغ) أى يمل (منهم عن أمرنا) أى عن امره الذى هو من أمرنا (نذقه من عذاب السعير) أى النار أى فى الآخرة وقيل فى الدنيا بأن يضرب به ملك بسوط منها ضربة تحرقه وهذا كما أمكن نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك العفريت فخنقه وهم بربطه حتى تلعب به صبيان المدينة ثم تركه تأدبا مع أخيه سليمان عليه السلام فيما سأل الله تعالى فيه وأما الاعمال التى يدور عليها اقامة الدين فاغنانا الله تعالى فيها عن الجن بالملائكة الكرام عليهم السلام وسلط جماعة من صحابته على جماعة من مردة الجان منهم أبو هريرة رضى الله تعالى عنه لما وكله النبى صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ومنهم أبى بن كعب قبض على شخص منهم كان يسرق من تمره وقال لقد علمت الجن ما فيهم من هو أشد منى ومنهم معاذ بن جبل لما جعله النبى صلى الله عليه وسلم على صدقة المسلمين فاتاه شيطان يسرق وتصور له بصور منها صورة فيل فضبطه والتفت يداه عليه وقال له يا عدو الله فشكا له الفقر وأخبره أنه من جن نصيبين وانهم كانت لهم المدينة فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم أخرجهم منها وسأله أن يخلى عنه على أن لا يعود ومنهم بريدة ومنهم أبو أيوب الانصارى رضى الله تعالى عنه ومنهم زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه صارع الشيطان فصرعه عمر ومنهم عمار بن ياسر قاتل الشيطان فصرعه عمار وأدمى أنف الشيطان بحجر ذكر ذلك البيهقى فى الدلائل وأما عين القطر فهى مما تضمنه قول النبى صلى الله عليه وسلم أعطيت مفاتيح خزائن الارض والملك فى الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فاخترت أن أكون نبيا عبدا أجوع يوما وأشبع يوما الحديث فشمل ذلك اللؤلؤ الرطب الى عين الذهب المصفى الى مادون ذلك وروى الترمذى وقال حسن عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك واذا شبعت شكرتك وحمدتك وللطبرانى باسناد حسن عن ابن عباس ان اسرافيل أتى النبى صلى الله عليه وسلم بمفاتيح خزائن الارض

والقال والمصدر يستوى فيه المفرد والجمع بخلاف العقد والظلالة ولا يرد على ذلك جمع العم والخال فى قوله فى النور او بيوت اعمامكم

وقال

وقال ان الله أمرني ان أعرض عليك ان تسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فان شئت نبيا ملكا وان شئت نبيا عبدا فاومأ الى جبريل عليه السلام أن تواضع فقال نبيا عبدا ورواه ابن حبان في صحيحه مختصرا من حديث أبي هريرة وله في الصحيح عن جابر ابن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق على قطيفة من سندس وفي البخاري في غزوة أحد عن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أعطيت مفاتيح خزائن الارض أو مفاتيح الارض هذا ما يتعلق بالارض وقد زيد صلى الله عليه وسلم على ذلك بان أيده ربه سبحانه بالتصرف في خزائن السماء تارة بشق القمر وتارة برجم النجوم وتارة باختراق السموات وتارة بحبس المطر وتارة بارساله الى غير ذلك مما قد أكرمه الله تعالى به مما لا يحيط به الا الله عز وجل صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وحشرنا ومحبينا معهم في دار كرامته ولما أخبر تعالى أنه سخر لسليمان الجن ذكر حالهم في أعمالهم بقوله تعالى (يعملون له) أي في أي وقت شاء (ما يشاء) أي عمله (من محاريب) أي ابنية مرتفعة غير مساجد يصعد اليها بدرج سميت بذلك لانها يذب عنها ويحارب عليها او مساجد والمحراب مقدم كل مسجد ومجلس وبيت وكان مما عملوه له بيت المقدس ابتدأه داود عليه السلام ورفعه قامة رجل فاوحى الله تعالى اليه اني لم اقض ذلك على يديك ولكن ابن لك اسمه سليمان عليه السلام اقضي تمامه على يده فلما توفاه الله تعالى استخلف سليمان عليه السلام فاحب اتمام بناء بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الاعمال فخص كل طائفة منهم بعمل يستصلحه له فارسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والمها الابيض من معادنه وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها اثني عشر ربضا وأنزل على كل ربض سبطا من الاسباط وكانوا اثني عشر سبطا فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجه الشياطين فرقا يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدر الصافي من البحر وفرقا يقتلعون الجواهر من الحجارة من أماكنها وفرقا يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها فاتي من ذلك بشئ لا يحصيه الا الله تعالى ثم أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحا واصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلئ فبنى المسجد بالرخام الابيض والاصفر والاخضر وعمده باساطين المها الصافي وسقفه بالواح الجواهر الثمينة وفصص سقفه وحيطانه باللآلئ والياقوت وسائر الجواهر وبسط أرضه بالواح الفيروزج فلم يكن يومئذ في الارض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد وكان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع أحبار بني اسرائيل فاعلمهم أنه بناه لله تعالى وان كل شئ فيه خالص لله تعالى واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيدا الله تعالى روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثا فاعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة سأله حكما يصادف حكمه فاعطاه اياه وسأله ملكا لا ينبغي لاحد من بعده فاعطاه اياه وسأله أن لا يأتي هذا البيت أحد يصلي فيه ركعتين الا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك قالوا فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ

او بيوت أخر الحكام لانهم ما اليها مصدرين حقيقة فالتعبير هنا حقيقة فيهما وتم شبههما (قوله لا جناح عليهن في ابائهن) الآية

ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدر والياقوت وسائر الجواهر الى دار ملكه من ارض العراق وبنى الشياطين باليمن لسليمان حصونا كثيرة عجيبة من الصخر (وتماثيل) جمع تمثال وهو كل شئ مثلته بشئ أى كانوا يعملون له تماثيل أى صورا من نحاس وزجاج ورخام ونحو ذلك (فان قيل) كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير * (أجيب) * بان هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لانه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب وعن أبى العالية لم يكن اتخاذ التصاوير اذ ذاك محرما ويجوز أن تكون غير صور الحيوان كصور الاشجار ونحوها لان التمثال كل ما صور على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان أو بصور محذوفة الرؤس روى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فى أعلاه فاذا أراد أن يصعد بسط الاسدان له ذراعيهما واذا قعد أظله النسران باجنحتهما وقيل كانوا يتخذون صور الانبياء والملائكة والصالحين فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة قيل ان هذا كان اول الامر فلما تقادم الزمن قال لهم ابليس ان آباءكم كانوا يعبدون هذه الصور فعبدوا الاصنام ولم تكن التصاوير ممنوعة فى شريعتهم كما أن عيسى عليه السلام كان يتخذ صورا من الطين فينفخ فيها فتكون طيرا (وجفان) أى قصاع وصحاف يؤكل فيها واحدتها جفنة (كالجواب) جمع جابية وهى الحوض الكبير يجبى اليه الماء أى يجتمع يقال كان يجلس على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها وقرأ ورش وأبو عمرو باثبات الياء بعد الباء الموحدة فى الوصل دون الوقف وابن كثير باثباتها وقفا ووصلا والباقون بالحذف وقفا ووصلا * ولما ذكر القصاع على وجه يتعجب منه ذكر ما يطبخ فيه طعام تلك الجفان بقوله تعالى (وقدور راسيات) أى ثابتات ثباتا عظيما لانها لكبرها كالجبال لها قوائم لا يحركن من أماكنها العظمهن ولا يبدلن ولا يعطلن وكان يصعد عليها بالسلالم وكانت باليمن * ولما ذكر المساكن وما يتبعها أتبعها الامر بالعمل بقوله تعالى (اعملوا) أى وقلنا لهم اعملوا أى تنعموا واعملوا ودل على مزيد قربهم بحذف أداة النداء وعلى شرفهم بالتعبير بالآل بقوله تعالى (آل داود) وقوله تعالى (شكرا) يجوز فيه أوجه أحدها أنه مفعول به أى اعملوا الطاعة سميت الصلاة ونحوها شكرا لسدها مسده ثانيها أنه مصدر من معنى اعملوا كأنه قال اشكروا شكرا بعملكم أو اعملوا اعمل شكر ثالثها أنه مفعول من أجله أى لاجل الشكر واقتصر على هذا البقاعى رابعها أنه مصدر واقع موقع الحال أى شاكرين خامسها أنه منصوب بفعل مقدر من لفظه تقديره واشكروا شكرا سادسها انه صفة لمصدر اعملوا تقديره اعملوا عملا شكرا أى ذا شكر * (تنبيه) * كما قال تعالى عقب قوله سبحانه أن اعمل سابغات اعملوا صالحا قال عقب ما تعمله الجن له اعملوا آل داود شكرا اشارة الى أنه لا ينبغى أن يجعل الانسان نفسه مستغرقة فى هذه الاشياء وانما الاكثار من العمل الصالح الذى يكون شكرا وقوله تعالى (وقليل) خبر مقدم وقوله تعالى (من عبادى) صفة له وقوله تعالى (الشكور) مبتدأ والمعنى ان العامل بطاعتى الشكور الدواعى بظاهره وباطنه من قلبه ولسانه ويديه على الشكر بان يصرف جميع ما أنعم الله تعالى به عليه فيما يرضيه قليل ومع ذلك لا يوفى حقه لان توفيقه للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لا الى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن

(ان قلت) كيف ذكر فيها الاقارب ولم يذكر الاسم والخال مع ان حكمهم حكمهم فى رفع الجناح

الشكور عبر بصيغة فعول اشارة الى أن من يقع منه مطلق الشكر كثير وأقل ذلك حال الاضطرار وقيل المراد من آل داود عليه السلام هو داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيتهما عليهما السلام قال جعفر بن سليمان سمعت ثابتا يقول كان داود عليه السلام نبي الله صلى الله عليه وسلم قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار الا وانسان من آل داود عليه السلام قائم يصلي وقال صلى الله عليه وسلم في الصلاة النافلة أفضل الصلاة صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وقال في صوم التطوع أفضل الصيام صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما وروى عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلا يقول اللهم اجعلني من القليل فقال عمر ما هذا الدعاء فقال اني سمعت الله يقول وقليل من عبادي الشكور فأنا أدعو أن يجعلني من ذلك القليل فقال عمر كل الناس أعلم من عمر ولما كان الموت مكتوبا على كل أحد قال تعالى (فلما قضينا) وحقق صفة القدرة بأداة الاستعلاء بقوله تعالى (عليه) أي سليمان عليه السلام (الموت) قال أهل العلم كان سليمان يتحنث في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه فلما دنا أجله لم يصبح الا رأى في محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله تعالى فسألها ما اسمك فتقول كذا وكذا فيقول لأي شيء خلقت فتقول لكذا وكذا فيؤمر بها فتقلع فان كانت تنبت لغرس غرسها وان كانت تنبت لدواء كتب ذلك حتى نبتت الخروبة فقال لها ما أنت قالت الخروبة قال لأي شيء نبت قالت لخراب مسجدك قال عليه السلام ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في حائط له ثم قال اللهم عم على الجن موتي حتى تعلم الانس أن الجن لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموهون على الناس أنهم يعلمون الغيب وقال لملك الموت اذا أمرت بي فأعلمني فقال أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئا على عصاه فقبض الله روحه وهو متكئ عليها وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى وكان للمحراب كوى بين يديه وخلفه فكانت الجن تعمل الأعمال الشاقة التي كانوا يعملون في حياته وينظرون الى سليمان عليه السلام فيرونه قائما متكئا على عصاه فيحسبونه حيا فلا ينكرون خروجه الى الناس لطول صلاته فمكثوا يدأبون له بعد موته حولا كاملا حتى أكلت الأرضة عصا سليمان فخر ميتا فعلموا بموته حينئذ كما قال تعالى (ما دلهم على موته الا دابة الأرض) أي الأرضة لأنا جعلناها من سعة العلم ووفور الهيبة ونفوذ الأمر ما تمكن به من اخفاء موته عنهم (تأكل منسأته) قال البخاري يعني عصاه فالمنسأة العصا اسم آلة من نسأه أخره كالمكسحة والمكنسة من نسأت الغنم أي زجرتها وسقتها ومنه نسأ الله في أجله أي أخره وقرأ نافع وأبو عمرو بعد السين بألف وابن ذكوان بعد السين بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مفتوحة بعد السين فاذا وقف حمزة سهل الهمزة وقيل لم يكن شيطان ينظر اليه في صلاته الا احترق فمر به شيطان فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر فاذا سليمان قد خر ميتا ففتحوا عنه فاذا العصا قد أكلتها الأرضة (فلما خر) أي سقط على الأرض بعد أن قصمت الأرضة عصاه (تبينت الجن) أي علمت علما يقينا لا يقدرون معه على تدبيج وتلبيس

(قوله انا
(قلت) قد مر مثل هذا
السؤال وجوابه في النور
في قوله ولا يبدين زينتهن
الآية فراجعه

وانفضح أمرهم وظهر ظهورا تاما (أن) أي أنهم (لو كانوا) أي الجن (يعلمون الغيب) أي علمه (ما لبثوا) أي أقاموا حولا (في العذاب المهين) من ذلك العمل الذي كانوا مسخرين فيه ويجوز أن تكون أن تعليلية ويكون التقدير تبين حال الجن فيما يظن بهم من أنهم يعلمون الغيب لأنهم الخ وسبب علمهم مدة كونه ميتا قبل ذلك أنهم وضعوا الارضة على موضع من العصا فأكلت منها يوما وليلة مقدارا وحسبوا على ذلك النحو فوجدوا المدة سنة قال ابن عباس فشكر الجن الارضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشب * (تنبيه) * قد تقدم أن كل شيء أثبت لمن قبل نبينا صلى الله عليه وسلم من الانبياء عليهم السلام من الخوارق ثبت له مثله أو أعظم منه أماله نفسه أو لاحد من أمته وهذا الذي ذكر لسليمان عليه السلام من حفظه بعد موته سنة لا يميل قد ثبت مثله لشخص من هذه الامة من غير شيء يعتمد عليه قال القشيري في رسالته في باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا وقال أبو عمران الاصطخري رأيت أبا تراب في البادية قائما ميتا لا يمسكه شيء انتهى * (فائدة) * روي ان سليمان عليه السلام كان عمره ثلاثا وخمسين سنة ومدة ملكه أربعون سنة وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ في بناء بيت المقدس لاربع سنين مضين من ملكه وروي ان داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل أن يتم فوصى به الى سليمان عليه السلام فأمر الشياطين باتمامه * ولما بقي من عمره سنة سأل الله تعالى أن يعمي عليهم موته حتى يفرغوا منه وليبطل دعواهم علم الغيب وروي ان افريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا منه ضرب الاسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعد يدنو منه * ولما بين تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان عليهما السلام بين حال الكافرين لانعمه بحكاية أهل سبأ فقال تعالى (لقد كان لسبا) أي القبيلة المشهورة روى ابو سبرة النخعي عن ابي قرة بن مسيك القطيعي قال قال رجل يا رسول الله أخبرني عن سبا كان رجلا او امرأة او ارضا قال كان رجلا من العرب وله عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتشاءم منهم اربعة فاما الذين تيامنوا فكندة والاشعريون والازد ومذحج وانمار وحمير فقال رجل وما انمار قال الذين منهم خثعم وبجيلة واما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان وسبا يجمع هذه القبائل كلها والجمهور على ان جميع العرب ينقسمون الى قسمين قحطانية وعدنانية فالقحطانية شعبان سبأ وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر وأما قضاعة فمختلف فيها فبعضهم نسبها الى قحطان وبعضهم الى عدنان قيل ان قحطان اول من قيل له انعم صباحا وابيت اللعن قال بعضهم وجميع العرب منسوب الى اسمعيل بن ابراهيم وليس بصحيح فان اسمعيل عليه السلام نشأ بين جرهم بمكة وكانوا عربا والصحيح ان العرب العاربة كانوا قبل اسمعيل عليه السلام ومنهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم والعماليق يقال ان اميما كان ملكا ويقال انه اول من سقف البيوت بالخشب المنشور وكانت الفرس تسميه ادم الاصغر وبنوه قبيلة يقال لها وبار هلكوا بالرمل اساله الله عليهم فاهلكهم وطم مناهلهم وفي ذلك يقول بعض الشعراء

وكر دهر على وبار * فهلكت عنوة وبار

واسم سبا عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وسمي سبا قيل لانه اول من سبا في العرب قاله السهيلي ويقال انه اول من تتوج وذكر بعضهم انه كان مسلما وله شعر يشير فيه

(أطعنا سادتنا وكبراءنا) عطف الثاني على الاول مع انهما بمعنى لتغايرهما لفظا كقوله فلان عاقل ولبيب وقول الشاعر

قوله عن ابي قرة الخ كذا بالنسخ ولعل الصواب عن فروة بن فروة ففي القاموس فروة بن مسيك صحابي اهـ مصحح

بوجود النبي صلى الله عليه وسلم وقال في سليمان عليه السلام

سيملك بعدنا ملك عظيم • نبي لا يرخص في الحرام
ويملك بعده منهم ملوك • يدينوه القياد بكل دام
ويملك بعدهم منا ملوك • يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبي • تقي مخبت خير الانام
يسمى أحمدا ياليت اني • أعمر بعد مبعثه بعام
فاعضده وأحبوه بنصري • بكل مدجج وبكل رامي
متى يظهر فكونوا ناصريه • ومن يلقاه يبلغه سلامي

وقرأ البزي وأبو عمرو بعد الموحدة بهمزة مفتوحة من غير تنوين لانه صار اسم قبيلة وقنبل بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مكسورة منونة واذا وقف حمزة وهشام ابدلا الهمزة ألفا ولهما أيضا الروم مع التسهيل وقرأ (في مساكنهم) اى التي هي في غاية الكثرة حمزة وحفص بسكون السين وفتح الكاف ولا ألف بينهما اشارة الى انه لشدة اتصال المنافع والمرافق كالمسكن الواحد وقرأ الكسائي كذلك الا أنه يكسر الكاف والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الكاف اشارة الى أنها في غاية الملاءمة لهم واللين وكانت بارض مأرب من بلاد اليمن قال حمزة الكرماني قال ابن عباس على ثلاثة فراسخ من صنعاء (آية) أى علامة ظاهرة على قدرتنا ثم فسر الآية بقوله تعالى (جنتان عن يمين وشمال) أى عن يمين الوادي وشماله قد أحاطت الجنتان بذلك الوادي وقيل عن يمين من أتاهما وشماله (فان قيل) كيف عظم الله تعالى جنتي أهل سبأ وجعلهما آية ورب قرية من قرى العراق يحتف بها من الجنات ماشئت (أجيب) بانه لم يرد بستانين اثنين فحسب وانما أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدتهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال تعالى جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب فكانت أخصب البلاد وأطيبها وأكثرها ثمارا حتى كانت المرأة تضع على رأسها مكتلا فتطوف به بين الاشجار فيمتلئ المكتل من جميع أنواع الفواكه من غير أن تمس شيأ بيدها مما يتساقط فيه من الثمر وقوله تعالى (كلوا من رزق ربكم) أى المحسن اليكم الذي أخرج لكم منهما ما تشتهون (واشكروا له) أى خصوه بالشكر بالعمل في كل ما يرضيه ليديم لكم النعمة حكاية لما قال لهم نبيهم أو لسان الحال أو دلالة بانهم كانوا أحقاء بان يقال لهم ذلك ثم استأنف تعظيم ذلك بقوله (بلدة طيبة) أى حسنة التربة ليس بها سباخ حسنة الهواء سليمة من الهوام ليس فيها بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا عقرب ولا حية يمر الغريب بها وفي ثيابه القمل فيموت من طيب هوائها وأشار الى انه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره بقوله تعالى (ورب غفور) أى لذنب من شكره وتقصيره فلا يعاقب عليه ولا يعاتب قال البقاعي وأخبرني بعض أهل اليمن أنها اليوم مفازة قرب صنعاء قال وفي بعضها عنب يعمل منه زبيب كبار جدا في مقدار ربلي بلاد الشام وهو في غاية الصفاء كأنه قطع المصطكي ولم أر له نوى أصلا انتهى • ولما تسبب عن هذا الانعام

معاذ الله من كذب ومين
وتقدم تطمين
(قوله وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) • ان
قلت الانسان هنا آدم

بطرهم الموجب لاعراضهم عن الشكر دل على ذلك بقوله تعالى (فأعرضوا) أى عن الشكر فكفروا قال وهب أرسل الله تعالى الى سبا ثلاثة عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم نعم الله تعالى عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا من نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا ان استطاع ولما تسبب عن اعراضهم مقتهم بينه بقوله تعالى (فأرسلنا عليهم سيل العرم) جمع عرمة وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره الى وقت حاجته اى سيل واديهم فاغرق جنتيهم وأموالهم قال ابن عباس رضى الله عنهما ووهب وغيرهما كان ذلك السد بنته بلقيس وذلك انهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم فسد بالعرم وهو المسناة بلغة حمير فسدت ما بين الجبلين وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت من دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثنى عشر مخرجا على عدة انهارهم يفتحونها اذا احتاجوا الى الماء واذا استغنوا سدوها فاذا جاء المطر اجتمع اليه ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الاعلى ففتح فجرى ماؤه فى البركة فكانوا يسقون من الباب الاعلى ثم من الثانى ثم من الثالث الاسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة فكانت تقسمه بينهم على ذلك فبقوا على ذلك بعدها مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله تعالى عليهم جرذا يسمى الخلد فنقب السد من أسفله فاغرق الماء جنتيهم وأموالهم وخرب أرضهم قال وهب وكانوا فيما يزعمون ويجدون فى علمهم وكهانتهم انه يخرب سدهم فارة فلم يتركوا فرجة بين حجرين الا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمانه وما أراد الله تعالى بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فارة حمراء كبيرة الى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة فدخلت فى الفرجة التى كانت عندها فتغلغلت فى السد فنقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون ذلك فلما جاء السيل وجد خللا فدخل فيه حتى اقتلع السد وفاض على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل ففرقوا ومزقوا كل ممزق حتى صاروا مثلا عند العرب يقولون صار بنو فلان أيدى سبا وتفرقوا أيادى سبا أى تفرقوا وتبددوا قيل والأوس والخزرج منهم قال البقاعى وكان ذلك فى الفترة التى كانت بين عيسى ونبينا صلى الله عليهما وسلم (تنبيه) فى العرم أقوال غير ما ذكر أحدها أنه من باب اضافة الموصوف لصفته فى الاصل اذ الاصل السيل العرم والعرم الشديد وأصله من العرامة وهى الشراسة والصعوبة الثانى أنه من باب حذف الموصوف واقامة صفته مقامه تقديره فأرسلنا عليهم سيل المطر العرم اى الشديد الكثير الثالث ان العرم اسم للوادى الذى كان فيه الماء نفسه قال ابن الاعرابى العرم السيل الذى لا يطاق وقيل كان ماء أحمر أرسله الله تعالى عليهم من حيث شاء الرابع انه اسم للجرذ وهو الفار وقيل هو الخلد وانما أضيف اليه لانه تسبب عنه كما مر (وبدلناهم بجنتيهم) اى جعلنا لهم بدلهما (جنتين) هما فى غاية ما يكون من مضادة جنتيهم ولذلك فسرهما بقوله تعالى اعلاما بان اطلاق الجنتين عليهما مشاكلة لفظية للتهكم بهم (ذواتى أكل خمط) اى ثمر بشع والخمط الاراك وثمره يقال له البرير هذا قول أكثر المفسرين وقال المبرد والزجاج كل نبت قد أخذ طعما من المرارة حتى لا يمكن أكله فهو خمط وقال ابن الاعرابى الخمط ثمر شجر يقال له فسوة الضبع على صورة الخشخاش لا ينتفع به وعن أبى عبيدة كل شجر ذى شوك وقرأ

عليه السلام فكيف وصفه بظلوم وجهول وهما صيغتا مبالغة (قلت) لجلالة قدره ورفعة محله كان ظلمه لنفسه بما صدر منه

أبو عمرو أكل بغير تنوين والباقون بالتنوين وسكن الكاف نافع وابن كثير وضمها الباقون
قال البغوى فمن جعل الخمط اسما للمأكول فالتنوين فى أكل أحسن ومن جعله أصلا وجعل
الأكل ثمره فالاضافة فيه ظاهرة والتنوين سائغ تقول العرب فى بستان فلان أعناب كرم
وأعناب كرم فتصف الأعناب بالكرم لانها منه وقوله تعالى (وأثل) أى وذوات أثل (وشئ
من سدر قليل) معطوفان على أكل لا على خمط فان الأثل هو الطرفاء ولا ثمر له وقيل هو شجر
يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عودا وقيل هو نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمر الا فى
بعض الأوقات يكون عليه شئ كالعفص أخضر فى طعمه وطبعه والسدر شجر معروف وهو
شجر النبق وينتفع بورقه لغسل اليد ويغرس فى البساتين ولم يكن هذا من ذاك بل كان سدرا
بريا لا ينتفع به ولا يصلح ورقه لشئ ولهذا قال بعضهم السدر سدران سدر له ثمرة غضة لا تؤكل
ولا ينتفع بورقه فى الاغتسال وهو الضال وسدر له ثمرة تؤكل وهى النبق ويغسل بورقه والمراد
فى الآية الأول وقال قتادة كان شجرهم خير الشجر فغيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم
• (تنبيه) • قد بحث فى شرح المنهاج على أن الباء فى الابدال والتبديل والتبدل والاستبدال
هل تدخل على المتروك أو على المأخوذ عند قول المنهاج ، لو أبدل ضادا بظاء • (ذلك) أى الجزاء
العظيم بالتبديل (جزيناهم) بما لنا من العظمة (بما كفروا) أى غطوا الدليل الواضح وهو
ما جاءت به الرسل اذ روى أنه بعث اليهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم وقيل بكفرانهم النعمة (وهل
يجازى) أى مثل هذا الجزاء الذى هو على وجه العقاب (الا [redacted] كفور) أى الا البليغ
فى الكفر وقال مجاهد يجازى أى يعاقب ويقال فى العقوبة يجازى وفى المثوبة يجزى قال
الفراء المؤمن يجزى ولا يجازى أى يجزى الثواب بعمله ولا يكافأ بسيآته وقال بعضهم المجازاة
تقال فى النقمة والجزاء فى النعمة لكن قوله تعالى ذلك جزيناهم يدل على أن يجزى فى النقمة
أيضا قال ابن عادل ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهى فى أكثر الأمر تكون
ما بين اثنين يوجد من كل واحد جزاء فى حق الآخر وفى النعمة لا تكون مجازاة لأن الله تعالى
مبتدئ بالنعم وقيل المؤمن تكفر سيآته بحسناته والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما
يفعله من السوء وليس لقائل أن يقول لم قيل وهل يجازى الا الكفور على اختصاص
الكفور بالجزاء والجزاء عام للمؤمن والكافر لأنه لم يرد الجزاء العام انما أراد الخاص وهو العقاب
بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه ألا ترى أنك لو قلت جزيناهم بما كفروا وهل
يجازى الا الكافر والمؤمن لم يصح ولم يسد كلاما فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل وأن
الصحيح الذى لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالنون مضمومة وكسر الزاى الكفور بالنصب والباقون
بالياء المضمومة ونصب الزاى الكفور بالرفع • ولما تم الخبر عن الجنات التى بها القوام نعمة
ونقمة أتبعه مواضع السكان بقوله تعالى (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (بينهم) أى بين
سبا وهم باليمن (وبين القرى التى باركنا فيها) أى بالتوسعة على أهلها بالماء والشجر وغيرهما
وهى قرى الشام التى يسيرون اليها للتجارة (قرى ظاهرة) أى متواصلة من اليمن الى الشام
(وقدرنا فيها السير) أى بحيث يقيلون فى واحدة ويبيتون فى أخرى الى انتهاء سفرهم

وجهله وان قل الاخفش
من غيره أو لتعدى
ضررهما الى جميع الناس
لاخراجهم من الجنة
بواسطته

ولا يحتاجون فيه الى حمل زاد وماء من سبا الى الشام وقيل كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبا الى الشام فلا يحملون شيأ مما جرت به عوائد السفار فكان سيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم فاذا ساروا نصف يوم وصلوا الى قرية ذات مياه وأشجار وقال قتادة كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتشتغل بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكتلها من الثمار فكان ما بين اليمن والشام كذلك فهي حقيقة بان يقال لاهلها والنازلين بها على سبيل الامتنان بلسان القال أو الحال (سيروا) ودل على تقاربها جدا قوله تعالى (فيها) ودل على كثرتها وطول مسافتها وصلاحيتها للسير أي وقت أريد مقدما لما هو أدل على الامن وأعدل للسير في البلاد الحارة بقوله تعالى (ليالي) وأشار الى كثرة الظلال والرطوبة والاعتدال الذي يمكن معه السير في جميع النهار بقوله تعالى (وأياما) اى في اى وقت شئتم والى عظيم أمانها في كل وقت بالنسبة الى كل مسلم بقوله (آمنين) اى لا تخافون في ليل أو نهار وان طالت مدة سفركم فيها أو سيروا فيها الليالي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها الا الامن فلا تخافون عدوا ولا جوعا ولا عطشا وقيل سيرون فيها ان شئتم ليالي وان شئتم اياما لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا لعدم علم العدو بسيرهم و بعضها يسلك نهارا لئلا يقصدهم العدو اذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة ولما انقضى الخبر عن هذه الاوصاف التي تستدعي غاية الشكر لما فيها من الالطاف دل على بطرهم للنعمة بانهم جعلوها سببا للضجر والملال بقوله تعالى (فقالوا) اى على وجه الدعاء (ربنا بعد بين أسفارنا) اى الى الشام اى اجعلها مفاوز ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وتزود الازواد والماء فبطروا النعمة وملوا العافية كبني اسرائيل لما طلبوا الثوم والبصل فاجابهم الله تعالى بتخريب القرى المتوسطة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بتشديد العين ولا ألف قبلها فعل طلب والباقون بالف قبل العين وتخفيف العين وقرئ بلفظ الخبر على انه شكوى منهم لبعد سفرهم افراطا في الترفه وعدم الاعتداد بما أنعم الله عليهم فيه (وظلموا) حيث عدوا النعمة نقمة والاحسان اساءة (أنفسهم) بالكفر (فجعلناهم) اى بما لنا من العظمة (أحاديث) اى عبرة لمن بعدهم يتحدث الناس بهم تعجبا وضرب مثل فيقولون ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا ايادي سبا قال كثير

ايادي سبا يا عز ما كنت بعدكم ● فلم يحل للعينين بعدك منظر

(ومزقناهم كل ممزق) اى فرقناهم في كل جهة من البلاد كل التفريق قال الشعبي لما غرقت قراهم تفرقوا في البلاد أما غسان فلحقوا بالشام ومر الازد الى عمان وخزاعة الى تهامة ومر خزيمة الى العراق والاوس والخزرج الى يثرب وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الاوس والخزرج (ان في ذلك) أي المذكور (لآيات) اى عبرا ودلالات بينة جدا على قدرة الله تعالى على التصرف فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض بالايجاد والاعدام للذوات والصفات والخسف والمسخ فانه لا فرق بين خارق وخارق وعلى ان بطرهم لتلك النعمة حتى ملوها ودعوا بازالتها دليل على ان الانسان ما دام حيا فهو في نعمة يجب عليه شكرها كائنة ما كانت وان كان يراها بلية لانه لما طبع عليه من القلق كثيرا ما يرى النعم

● (سورة سبا) ●

(قوله أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم) ما بين يدي الناس كل ما يقع نظره عليه من غير ان

نعما واللذة المآ ولذلك ختم الآية بالصبر صيغة المبالغة بقوله تعالى (لكل صبار) على طاعة الله وعن معصيته (شكور) لنعمه قال مقاتل يعنى المؤمن من هذه الامة صبور على البلاء شكور على النعماء قال مطرف هو المؤمن اذا أعطى شكر واذا ابتلى صبر وقرأ قوله تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس) اى الذى هو من البلس وهو ما لا خير عنده أو الابلاس وهو اليأس من كل خير ليكون ذلك أبلغ فى التبكيت والتوبيخ (ظنه) قرأه الكوفيون بتشديد الدال بعد الصاد اى ظن فيهم ظنا حيث قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك ولا تجد أكثرهم شاكرين فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم اياه والباقون بالتخفيف اى صدق عليهم فى ظنه بهم اى على أهل سبا كما قاله أكثر المفسرين حين رأى انهما كهم فى الشهوات أو الناس كلهم كما قاله مجاهد اى حين رأى أباهم آدم ضعيف العزم أو ما ركب فيهم من الشهوة والغضب أو سمع من الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها فقال لاضلنهم ولاغوينهم أو الكفار ومنهم سبا كما قاله الجلال المحلى (فاتبعوه) اى بغاية الجهد على الطبع وقوله (الا فريقا من المؤمنين) استثنا متصل على قول مجاهد ومنقطع على قول غيره وقال السدى عن ابن عباس رضى الله عنه يعنى المؤمنين كلهم لان المؤمنين لم يتبعوه فى أصل الدين وتقليلهم بالاضافة الى الكفار أو الا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه فى العصيان وهم المخلصون قال ابن قتيبة ان ابليس لعنه الله تعالى لما سأل النظرة فانظره الله تعالى وقال لاغوينهم ولاضلنهم لم يكن مستيقنا وقت هذه المقالة ان ما قاله فيهم يتم وانما قاله ظنا فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم ولما كان ذلك ربما أوهم ان لابليس أمرا بنفسه نفاه بقوله تعالى (وما) اى والحال انه ما (كان) أصلا (له عليهم) اى الذين اتبعوه ولا غيرهم وأغرق فيما هو الحق من النفى بقوله تعالى (من سلطان) اى تسلط قاهر بشئ من الاشياء بوجه من الوجوه لانه مثلهم فى كونه عبدا عاجزا مقهورا ذليلا خائفا مدحورا قال القشيرى هو مسلط ولو أمكنه ان يضل غيره أمكنه ان يمسك على الهداية نفسه والمعنى ان الامر لله وحده (الا) اى لكن نحن سلطناه عليهم بسلطاننا وملكناه قيادهم بقهرنا وعبر عن القدر الذى هو سبب العلم بالعلم فقال (لنعلم) اى بما لنا من العظمة (من يؤمن) اى يوجد الايمان لله (بالآخرة) اى ليتعلق علمنا بذلك فى عالم الشهادة فى حال تميزه تعلقا تقوم به الحجة فى مجارى عادات البشر كما كان متعلقا به فى عالم الغيب (ممن هو منها) اى الآخرة (فى شك) بهو لا يجدد لها ايمانا أصلا لان الشك ظرف له محيط به وانما استعار الا موضع لكن اشارة الى أنه مكنه تمكينا تاما صار به كأن له سلطانا حقيق

(تنبيه) قال الرازى ان علم الله تعالى من الازل الى الابد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه فان العلم صفة كاشفة يظهر فيها كل ما فى نفس الامر فعلم الله تعالى فى الازل ان العالم سيوجد فاذا وجد علمه موجودا بذلك العلم واذا عدم علمه معدوما كذلك المرآة المصقولة الصافية يظهر فيها صورة زيد ان قابلها ثم اذا قابلها عمرو تظهر فيها صورته والمرآة لم تتغير فى ذاتها ولا تبدلت فى صفاتها وانما التغير فى الخارجيات فكذا هنا قوله الا لنعلم اى ليقع فى العلم صدور الكفر من الكافر والايمان من المؤمن وكان علم الله تعالى انه سيكفر زيد ويؤمن عمرو وقال البغوى المعنى الا لنميز المؤمن من الكافر وأراد علم الوقوع

وما يحول وجهه اليه خلفهم كل ما لا يقع نظره عليه حتى يحول نظره اليه فيهم الجهات كلها لا ذكر (ان قلت) هل

والظهور وقد كان معلوما عنده بالغيب وقوله تعالى (وربك) اى المحسن اليك باخزاء الشيطان بنبوتك واجتنابه عن أمتك (على كل شئ) من المكلفين وغيرهم (حفيظ) اى حافظ أتم حفظ فحقيق ذلك ان الله تعالى قادر على منع ابليس عنهم عالم بما سيقع فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة اذ الجاهل بالشئ لا يمكنه حفظه ولا العاجز • ولما بين تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد الى خطابهم فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل) اى يا أعلم الخلق باقامة الادلة لهؤلاء الذين أشركوا من لا يشك في حقارته من له أدنى مسكة (ادعوا الذين زعمتم) اى انهم آلهة كما تدعون الله تعالى لاسيما في وقت الشدائد وحذف مفعولى زعم وهما ضميرهم وآلهة تنبيها على استهجان ذلك واستبشاعه وليس المذكور في الآية مفعول زعم ولا قائما مقام المفعول لفساد المعنى وبين حقارتهم بقوله تعالى (من دون الله) اى الذى حاز جميع العظمة والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم ان صحت دعواكم ثم أجاب عنهم اشعارا بتعين الجواب وانه لا يقبل المكابرة فقال (لا يملكون مثقال ذرة) من خير أو شر (في السموات ولا في الارض) اى في أمر ما وذكرهما للعموم العرفي أو لان آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالاصنام أو لان الاسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم • ولما كان هذا ظاهرا في نفي الملك الخاص عن ثبوت المشاركة نفى المشاركة أيضا بقوله تعالى مؤكدا تكذيبا لهم فيما يدعونه (ومالهم) اى الآلهة (فيهما) اى في السموات والارض ولا في غيرهما ولا فيما فيهما واغرق في النفي بقوله تعالى (من شرك) اى شركة لا خلقا ولا ملكا (وماله) اى الله (منهم) وأكد النفي باثبات الجار فقال (من ظهير) اى معين على شئ مما يريده من تدبير أمرهما وغيرهما فكيف يصح مع هذا العجز ان يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجى ويعبدوا كما يعبد • ولما كان قد بقى من اقسام النفع الشفاعة وكان المقصود منها أثرها لا عينها نفاه بقوله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده) اى فلا تنفعهم شفاعة كما يزعمون اذ لا تنفع الشفاعة عند الله (الا لمن أذن له) اى وقع منه اذن له على لسان من شاء من جنوده بواسطة واحدة أو أكثر في ان يشفع في غيره وفي ان يشفع فيه غيره وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بضم الهمزة والباقون بفتحها وقوله تعالى (حتى اذا فزع عن قلوبهم) غاية لمفهوم الكلام من ان ثم انتظار اللاذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن وانه لا يطلق الاذن الا بعد ملى من الزمان وطول من التربص ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز من قائل رب السموات والارض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا كأنه قيل يتوقعون ويتربصون مليا فزعين ذاهلين حتى اذا فزع عن قلوبهم اى كشف الفزع عن قلوبهم اى كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في اطلاق الاذن (قالوا) اى قال بعضهم لبعض (ماذا قال ربكم) اى في الشفاعة ذاكرين صفة الاحسان امرجع اليهم رجاؤهم فتسكن بذلك قلوبهم (قالوا) قال القول (الحق) اى الثابت الذى لا يمكن ان يبدل بل يطابق الواقع فلا يكون شئ يخالفه وهو الاذن

الايمان والشمائل كما ذكره في قوله لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم (قلت) لانه

في

فى الشفاعة لمن ارتضى منهم وهم المؤمنون (وهو العلى الكبير) اى ذو العلو فلا رتبة الا دون رتبته والكبرياء فليس لملك ولا نبى ان يتكلم ذلك اليوم الا باذنه روى البخارى فى التفسير عن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر فى السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ووصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين اصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل ان يلقيها وربما القاها قبل ان يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى من السماء وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله أن يوحى بالامر وتكلم بالوحى أخذت السماء رجفة او قال رعدة شديدة خوفا من الله تعالى فاذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه الله تعالى من وحيه بما اراد ثم يمر جبريل عليه السلام على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل عليه السلام قال الحق وهو العلى الكبير فيقولون كلهم مثل ما يقول جبريل عليه السلام فينتهى جبريل عليه السلام بالوحى حيث أمره الله تعالى وقال مقاتل والكلبى والسدى كانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة وخمسين سنة وقيل ستمائة سنة لم تسمع الملائكة فيها وحيا فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كلم جبريل عليه السلام بالرسالة الى محمد صلى الله عليه وسلم فلما سمعت الملائكة ظنوا أنها الساعة لان محمدا صلى الله عليه وسلم عند أهل السموات من أشراط الساعة فصعقوا مما سمعوا خوفا من قيام الساعة فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم قالوا الحق يعنى الوحى وهو العلى الكبير وقال الحسن وابن زيد حتى اذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت اقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة ماذا قال ربكم فى الدنيا قالوا الحق فاقروا به حيث لم ينفعهم الاقرار ● ولما سلب تعالى عن شركائهم ان يملكوا شيأ من الاكوان وأثبت جميع الملك له وحده امر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان يقررهم بما يلزم منه ذلك بقوله تعالى (قل من يرزقكم من السموات) أى بالمطر (والارض) أى بالنبات وافرد الارض لانهم لا يعلمون غيرها ثم امره تعالى أن يتولى الاجابة بقوله تعالى (قل الله) اى ان لم يقولوا رازقنا الله تعالى فقل انت ان رازقكم الله وذلك للاشعار بانهم يقرون به بقلوبهم الا انهم ربما أبوا ان يتكلموا به لان الذى تمكن من صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم افواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ولانهم ان تفوهوا بان الله تعالى رازقهم لزمهم ان يقال لهم فمالكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ألا ترى الى قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار حتى قال فسيقولون الله ثم قال تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال فكأنهم كانوا يقرون بالسنتهم مرة

وجد هذا ما يغنى عن ذكره ما من لفظ العموم والسماء والارض بخلافه ثم (قوله ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب) قاله هنا

ومرة يتلعثمون عنادا وفرارا وحذرا من الزام الحجة ونحوه قوله عز وجل قل من رب السموات والارض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا وامره بان يقول لهم بعد الالزام والالجام الذى ان لم يزد على اقرارهم بالسنتهم لم يتقاصر عنه (وانا واياكم) اى أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والارض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة (لعلى هدى) اى فى متابعة ما ينبغى ان يعمل مستعلين عليه (أو فى ضلال) عن الحق (مبين) اى بين فى نفسه داع لكل أحد الى معرفة انه ضلال وهذا ليس على طريق الشك لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك انه على هدى ويقين وان الكفار على ضلال مبين وانما هذا الكلام جار على ماتخاطب به العرب من استعمال الانصاف فى محاوراتهم على سبيل الفرض والتقدير ويسميه أهل البيان الاستدراج وهو ان يذكر لمخاطبه أمرا يسلمه وان كان بخلاف ما يذكر حتى يصغى الى ما يلقيه اليه اذ لو بدأه بما يكره لم يصغ ونظيره قولهم أخزى الله الكاذب منى ومنك ومثله قول حسان رضى الله تعالى عنه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا سفيان

أتهجوه ولست له بكفء ❊ فشركما لخيركما الفداء
فان أبى ووالدتى وعرضى ❊ لعرض محمد منكم وقاء

مع العلم لكل أحد انه صلى الله عليه وسلم خير خلق الله كلهم ❊ (تنبيه) ❊ ذكر تعالى فى الهدى كلمة على وفى الضلال كلمة فى لان المهتدى كانه مرتفع مطلع فذكره بكلمة التعالى فكانه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال منغمس فى الظلمة غريق فيها فاتى بكلمة فى فكانه منغمس فى ظلام مرتبك فيه لايدرى أين يتوجه قال البغوى وقال بعضهم أو بمعنى الواو والالف فيه صلة كانه يقول وانا واياكم لعلى هدى وفى ضلال مبين يعنى نحن على الهدى وأنتم فى الضلال (قل) اى لهم (لاتسئلون) اى من سائل ما (عما أجرمنا) اى لاتؤاخذون به (ولانسئل) اى فى وقت من الاوقات من سائل ما (عما تعملون) اى من الكفر والتكذيب وهذا ادخل فى الانصاف وأبلغ فى التواضع حيث أسندوا الاجرام الى أنفسهم والعمل الى المخاطبين (وقيل) المراد بالاجرام الصغائر والزلات التى لايخلو منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصى العظام (قل) اى لهم (يجمع بيننا ربنا) اى يوم القيامة (ثم يفتح) اى يحكم (بيننا بالحق) اى الامر الثابت الذى لا يقدر أحد منا ولا منكم على التخلف عنه وهو العدل والفضل من غير ظلم ولا ميل فيدخل المحقين الجنة والمبطلين النار (وهو الفتاح) اى الحاكم الفاصل فى القضايا المغلقة البليغ الفتح لما انغلق فلا يقدر أحد على فصد (العليم) اى البليغ العلم بكل دقيق وجليل فلا تخفى عليه خافية (قل) اى لهم (أرونى) اى اعلمونى (الذين ألحقتم به) اى بالله (شركاء) اى فى العبادة هل يخلقون وهل يرزقون وقوله تعالى (كلا) اى لايخلقون ولا يرزقون ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسره بابطال المقايسة كما قال ابراهيم عليه السلام أف لكم ولما تعبدون من دون الله بعد ما حجهم وقد نبه على تفاحش غلطهم بقوله تعالى (بل هو الله العزيز) اى الغالب على أمره الذى لامثل له وكل شئ يحتاج اليه (الحكيم) اى المحكم لكل ما يفعله فلا يستطيع أحد نقض شئ منه فكيف يكون له شريك وأنتم ترون ماترون له من هاتين الصفتين المنافيتين لذلك ❊ (تنبيه) ❊ فى

بتوحيد آية وقال بعد ان
فى ذلك لآيات لكل صبار
شكور بجمعها الا ان ماهنا
اشارة الى احياء الموتى
وما يناسب التوحيد

هذا الضمير وهو هو قولان أحدهما انه عائد الى الله تعالى أى ذلك الذى ألحقتم به شركاء هو الله والعزيز الحكيم صفتان والثانى انه ضمير الامر والشان والله مبتدأ والعزيز الحكيم خبران والجملة خبر هو (فان قيل) ما معنى قوله أرونى وكان يراهم ويعرفهم (أجيب) بانه أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم فى الحاق الشركاء بالله تعالى وأن يقاس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على استحالة القياس اليه والاشراك به ● ولما بين تعالى مسئلة التوحيد شرع فى الرسالة بقوله سبحانه وتعالى (وما أرسلناك) اى بعظمتنا (الا كافة للناس) اى ارسالا عاما شاملا لكل ما شمله ايجادنا فكافة حال من الناس قدم للاهتمام وقول البيضاوى ولا يجوز جعلها حالا من الناس اى لان تقديم حال المجرور عليه كتقديم المجرور على الجار رده أبو حيان بقوله هذا ما ذهب اليه الجمهور وذهب أبو على وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون الى جوازه وهو الصحيح انتهى وهذا هو الذى ينبغى اعتقاده ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم كان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة ومن أمثلة أبى على زيد خيرما يكون خير منك والتقدير زيد خير منك خير ما يكون وأنشد

اذا المرء أعيته المطالب ناشئا ● فمطلبها كهلا عليه شديد

أى فمطلبها عليه كهلا وأنشد أيضا

تسليت طرا عنكم بعد بينكم ● بذكراكم حتى كانكم عندى

اى عنكم طرا وقيل انه حال من كاف أرسلناك والمعنى الا جامعا للناس فى الابلاغ والكافة بمعنى الجامع والهاء فيه للمبالغة كهى فى علامة وراوية قاله الزجاج وقيل ان كافة صفة لمصدر محذوف تقديره الا ارسالة كافة قال الزمخشرى الا ارسالة عامة لهم محيطة بهم لانها اذا شملتهم فقد كفتهم ان يخرج منها أحد منهم قال أبو حيان أما كافة بمعنى عامة فالمنقول عن النحويين انها لا تكون الا حالا ولم يتصرف فيها بغير ذلك فجعلها صفة لمصدر محذوف خروج عما نقلوا ولا يحفظ أيضا استعمالها صفة لموصوف محذوف قال البقاعى وأما الجن فحالهم مشهور أى انه أرسل اليهم واما الملائكة فالدلائل على الارسال اليهم فى غاية الظهور انتهى وهذا هو اللائق بعموم رسالته وان خالف فى ذلك الجلال المحلى فى شرحه على جمع الجوامع وفى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم فضيلة على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فلئن كان داود عليه السلام فضل بطاعة الجبال له والطير والانة الحديد وسليمان عليه السلام بما ذكر له فقد فضل محمد صلى الله عليه وسلم نبينا بارساله الى الناس كافة والحصا سبح فى كفه والجبال أمرت بالسير معه ذهبا وفضة والحمرة شكت اليه أخذ فراخها أو بيضها والضب شهد له بالرسالة والجمل شكا اليه وسجد له والاشجار أطاعته والاحجار سلمت عليه وائتمرت بامره وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر وانما ذكرت ذلك تبركا بذكره صلى الله عليه وسلم وأنا أسأل الله تعالى ان يشفعه فى وفى والدى وجميع أحبابى وبقية المسلمين أجمعين ● ولما كانت البشارة هى الخبر الاول الصدق السار وكان فى ذكرها ردلقولهم فى الكذب والجنون قال تعالى (بشيرا) أى مبشرا للمؤمنين بالجنة (ونذيرا) أى منذرا للكافرين بالعذاب (ولكن أكثر الناس) أى كفار مكة (لا يعلمون) فيحملهم جهلهم على مخالفتك ● ولما سلب عنهم العلم اتبعه دليله بقوله تعالى معبرا بصيغة

بعد اشارة الى سبا القبيلة تفرقت فى البلاد وصاروا فرقا فناسب الجمع (قوله يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) أى

المضارع الدال على ملازمة التكرير للاعلام بانه على سبيل الاستهزاء لا الاسترشاد (ويقولون) من فرط جهلهم بعاقبة ما يوعدونه (متى هذا الوعد) اى البشارة والنذارة فى يوم الجمع وغيره قسموه وعدا زيادة فى الاستهزاء * ولما كان قول الجماعة أجدر بالقبول وأبعد عن الرد من قول الواحد اشار الى زيادة جهلهم بقوله تعالى (ان كنتم) اى أيها النبى وأتباعه (صادقين) اى متمكنين فى الصدق (قل لكم) اى أيها الجاحدون الاجلاف الذين لا يجوّزون الممكنات ولا يتدبرون ما أوضحها من الدلالات (ميعاد يوم) اى لا يحتمل القول وصف عظمه لما يأتى فيه لكم من العقاب سواء كان يوم الموت كما قاله الضحاك أو البعث كما قاله أكثر المفسرين (لا تستأخرون) اى لا يوجد تأخركم (عنه ساعة) لان الآتى به عظيم القدرة محيط العلم ولذلك قال (ولا تستقدمون) اى لا يوجد تقدمكم لحظة فما دونها ولا تتمكنون من طلب ذلك (فان قيل) كيف انطبق هذا جوابا عن سؤالهم (أجيب) بانهم ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له الا تعنتا لا استرشادا فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا لمجيء السؤال على سبيل الانكار والتعنت وانهم مرصدون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخرا عنه ولا تقدما عليه (وقال الذين كفروا) مؤكدين قطعا للاطماع عن دعائهم (لن نؤمن) اى نصدق أبدا وصرحوا بالمنزل عليه صلى الله عليه وسلم بالاشارة فقالوا (بهذا القرآن) اى وان جمع جميع الحكم والمقاصد المتضمنة لبقية الكتب (ولا بالذى بين يديه) اى قبله من الكتب التوراة والانجيل وغيرهما بل نحن قانعون بما وجدنا عليه آباءنا وذلك لما روى ان كفار مكة سألوا بعض أهل الكتاب فاخبروهم ان صفة هذا النبى عندهم فى كتبهم فاغضبهم ذلك وقرنوا الى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله فى الكفر بها فكفروا بها جميعا وقيل الذى بين يديه يوم القيامة والمعنى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله وأن يكون ما دل عليه من الاعادة للجزاء حقيقة * ثم أخبر عن عاقبة أمرهم وما لهم فى الآخرة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أو للمخاطب (ولو) أى والحال انك لو (ترى) أى يوجد منك رؤية لحالهم (اذ الظالمون) أى الذين يضعون الاشياء فى غير محالها فيصدقون آباءهم لاحسانهم بما هو كدر من غير دليل ولا يصدقون ربهم الذى لا نعمة عندهم ولا عند آبائهم الا منه (موقوفون) أى بعد البعث بايدى جنوده أو غيرها بايسر أمر منه (عند ربهم) أى فى موضع المحاسبة (يرجع بعضهم) أى على وجه التخاصم عداوة كان سببها موادة فى الدنيا بطاعة بعضهم لبعض فى معاصى الله تعالى (الى بعض القول) أى بالملامة والمباكتة والمخاصمة * (تنبيه) * مفعول ترى وجواب لو محذوفان للعلم أى لو ترى حال الظالمين وقت وقوفهم راجعا بعضهم الى بعض القول لرأيت حالا فظيعة وأمرا منكرا ويرجع حال من ضمير موقوفون والقول مفعول يرجع لانه يتعدى قال تعالى فان رجعك الله وقوله تعالى (يقول الذين استضعفوا) اى وقع استضعافهم ممن هو فوقهم فى الدنيا وهم الاتباع فى تلك الحال على سبيل اللوم (للذين استكبروا) اى أوجدوا الكبر وطلبوه بما وجدوا من أسبابه التى أدت الى استضعافهم للاولين وهم الرؤس المتبوعون (لولا أنتم) اى لولا ضلالكم وصدكم ايانا عن الايمان (لكنا مؤمنين) اى باتباع الرسول تفسير لقوله تعالى يرجع فلا محل له قال ابن عادل وأنتم بعد لولا مبتدأ على أصح المذاهب وهذا هو الافصح أعنى وقوع

تقوشا من ابنة أو صوبا من غماس أو زجاج أو رخام (ان قلت) كيف اجاز سليمان عليه السلام عمل الصور (قلت) يجوز

ضمائر الرفع بعد لولا اى وغيره فصيح خلافا للمبرد حيث جعل خلاف هذا لحنا وانه لم يرد الا في قول زياد وكم موطن لولاى والاقيس جعل الياء ضمير نصب أو جر قام مقام ضمير الرفع وسيبويه يجعله ضمير جر * ولما لم يتضمن كلامهم سوى قضية واحدة ذكر الجواب عنها بقوله تعالى (قال الذين استكبروا) على طريق الاستئناف (للذين استضعفوا) ردا عليهم وانكارا لقولهم انهم هم الذين صدوهم (أنحن) خاصة (صددناكم) اى منعناكم (عن الهدى بعد اذ جاءكم) اى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام لم نفعل ذلك لان المانع ينبغى ان يكون أرجح من المقتضى حتى يعمل عمله والذى جاء به الرسل هو الهدى والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيأ يوجب الامتناع من قبول ما جاؤا به فلم يصح تعللكم بالمانع وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال عند الجيم والباقون بالادغام وأمال الالف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان وفتحها الباقون وكذا الاظهار والادغام فى اذ تأمروننا واذا وقف حمزة على جاءكم سهل الهمزة مع المد والقصر وله أيضا ابدالها ألفا مع المد والقصر (بل كنتم) اى جبلة وخلقا (مجرمين) اى كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا (فان قيل) اذ واذا من الظروف اللازمة للظرفية فلم وقعت اذ مضافا اليها (أجيب) بانه قد اتسع فى الزمان ما لم يتسع فى غيره فاضيف اليها الزمان كما أضيف الى الجمل فى قولك جئتك بعد اذ جاء زيد وحينئذ ويومئذ * ولما انكر المستكبرون بقولهم أنحن صددناكم ان يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين واثبتوا بقولهم بل كنتم مجرمين ان ذلك بكسبهم واختيارهم كر عليهم المستضعفون كما قال تعالى (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) ردا لانكارهم صدهم (بل) اى الصاد لنا (مكر الليل والنهار) اى الواقع فيهما من مكركم فابطلوا اضرابهم باضرابهم كأنهم قالوا ما كان الاجرام من جهتنا بل من جهة مكركم بنا ليلا ونهارا (اذ تأمروننا ان نكفر بالله) اى الملك الاعظم بالاستمرار على ما كنا عليه قبل اتيان الرسل (ونجعل له أندادا) اى شركاء نعبدهم من دونه (فان قيل) لم قيل قال الذين استكبروا بغير عاطف وقيل وقال الذين استضعفوا (أجيب) بان الذين استضعفوا مر أولا كلامهم فجىء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ثم جىء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الاول * (تنبيه) * يجوز رفع مكر من ثلاثة أوجه أحدها الفاعلية تقديره بل صدنا مكركم فى هذين الوقتين كما مر الثانى ان يكون مبتدأ خبره محذوف اى مكر الليل صدنا الثالث العكس اى سبب كفرنا مكركم واضافة المكر الى الليل والنهار اما على الاسناد المجازى كقولهم ليل ماكر والعرب تضيف الفعل الى الليل والنهار على توسع الكلام كقول الشاعر * ونمت وما ليل المطى بنائم * فيكون مصدرا مضافا للمرفوع واما على الاتساع فى الظرف فجعل كالمفعول به فيكون مصدرا مضافا للمفعول قال ابن عادل وهذا أحسن من قول من قال ان الاضافة بمعنى فى اى مكر فى الليل لان ذلك لم يثبت فى محل النزاع وقيل مكر الليل والنهار طول السلامة وطول الامل فيهما كقوله تعالى فطال عليهم الامد فقست قلوبهم * (تنبيه) * قوله تعالى أولا يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل وقوله تعالى فى الآيتين الاخيرتين وقال الذين استكبروا وقال الذين استضعفوا بلفظ الماضى مع أن السؤال والمراجعة فى القول لم يقع أشار به الى أن ذلك

ان يكون عملها جائزا فى شريعتهم وان يكون غير جائز فى شريعتهم وهو جائز فى شريعتنا أيضا (قوله صور الحيوان وهو جائز لقد كان لسبا فى مساكنهم آية)

لابد من وقوعه فان الامر الواجب الوقوع كأنه وقع كقوله تعالى انك ميت وانهم ميتون وأما الاستقبال فعلى الاصل (وأسروا) أى الفريقان (الندامة) من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون فى قوله تعالى اذ الظالمون موقوفون يندم المستكبرون على ضلالهم واضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين (لما) أى حين (رأوا العذاب) أى حين رؤية العذاب أخفاها كل عن رفيقه مخافة التعيير وقيل معنى الاسرار الاظهار وهو من الاضداد أى أظهروا الندامة قال ابن عادل ويحتمل أن يقال انهم لما تراجعوا فى القول رجعوا الى الله تعالى بقولهم أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا وأجيبوا بأن لامرد لكم فأسروا ذلك القول وقوله تعالى (وجعلنا الاغلال) أى الجوامع التى تغل اليد الى العنق (فى أعناق الذين كفروا) بهم الاتباع والمتبوعين جميعا وكان الاصل فى أعناقهم ولكن جاء بالظاهر تنويها بذمهم وللدلالة على ما استحقوا به الاغلال وهذا اشارة الى كيفية عذابهم (هل يجزون) أى بهذه الاغلال (الا) أى الاجزاء ما (كانوا يعملون) اى على سبيل التجديد والاستمرار * ولما كان فى هذا تسلية أخروية للنبى صلى الله عليه وسلم اتبعه التسلية الدنيوية بقوله تعالى (وما أرسلنا) اى بعظمتنا (فى قرية) وأكد النفى بقوله تعالى (من نذير الا قال مترفوها) رؤساؤها الذين لاشغل لهم الا التنعم بالفانى حتى أكسبهم البغى والطغيان ولذلك قالوا لرسلهم (انا بما أرسلتم به) اى أيها المنذرون (كافرون) اى واذا قال المتنعمون ذلك تبعهم المستضعفون (وقالوا) اى المترفون أيضا مفتخرين (نحن أكثر أموالا وأولادا) اى فى هذه الدنيا ولو لم يرض منا ما نحن عليه ما رزقنا ذلك فاعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ولولا ان المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا (وما نحن بمعذبين) اى ان الله تعالى قد أحسن الينا فى الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا فى الآخرة ثم ان الله سبحانه وتعالى بين خطأهم بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى لهم (ان ربى) اى المحسن الى بالانعام بالسعادة الباقية (يبسط الرزق) اى يوسعه فى كل وقت أراده بالاموال والاولاد وغيرها (لمن يشاء) امتحانا (ويقدر) اى يضيقه على من يشاء ابتلاء بدليل مقابلته بيبسط وهذا هو الطباق البديعى فالرزق فى الدنيا لا تدل سعته على رضا الله تعالى ولا ضيقه على سخطه فربما وسع على العاصى وضيق على المطيع وربما عكس وربما وسع عليهما وضيق عليهما وكم من موسر شقى وكم من معسر تقى (ولكن أكثر الناس) اى كفار مكة (لا يعلمون) اى ليس لهم علم فيتدبروا به ما ذكرنا من الامر فيعلمون انه ليس كل موسع عليه فى دنياه سعيدا فى عقباه ولا كل مضيق عليه فى دنياه شقيا * ثم بين تعالى فساد استدلالهم بقوله سبحانه وتعالى (وما أموالكم) أى أيها الخلق الذى أنتم من جملتهم وان كثرت وكرر النافى تصريحا بابطال كل على حياله فقال (ولا أولادكم) كذلك (بالتى) أى بالاموال والاولاد التى (تقربكم عندنا) أى على مالنا من العظمة (زلفى) أى درجة علية وقربة مكينة * (تنبيه) * قوله تعالى بالتى تقربكم صفة للاموال والاولاد كما تقرر لان جمع التكسير غير العاقل يعامل معاملة المؤنثة الواحدة وقال الفراء والزجاج انه حذف من الاول لدلالة الثانى عليه قالا والتقدير وما أموالكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتى تقربكم ولا حاجة الى هذا

جنتان) وحد الآية مع ان الجنتين آيتان لتماثلهما فى الدلالة واتحاد جهتهما كقوله وجعلنا ابن مريم وأمه آية (قوله وانا أو اياكم

ونقل

ونقل عن الفراء ما تقدم من ان التى صفة للاموال والاولاد معا وهو الصحيح وجعل الزمخشرى التى صفة لموصوف محذوف قال ويجوز ان تكون التى هى التقوى وهى المقربة عند الله تعالى زلفى وحدها اى ليست أموالكم ولا أولادكم بتلك الموصوفة عند الله بالتقريب قال ابو حيان ولا حاجة الى هذا الموصوف انتهى وزلفى مصدر من معنى الاول اذ التقدير تقربكم قربى وقال الاخفش زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتى تقربكم عندنا تقريبا وأمال الهاء حمزة والكسائى محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (الا من آمن وعمل صالحا) اى تصديقا بالايمانه على ذلك الاساس استثناء من مفعول تقربكم اى الاموال والاولاد لا تقرب أحدا الا المؤمن الصالح الذى ينفق ماله فى سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح أو من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف اى الا أموال وأولاد من آمن وعمل صالحا (فأولئك) اى العالو الرتبة (لهم جزاء الضعف) اى ان يأخذوا جزاءهم مضاعفا فى نفسه من عشرة أمثاله الى ما لا نهاية له (بما عملوا) فان أعمالهم ثابتة محفوظة باساس الايمان ثم زاد وقال تعالى (وهم فى الغرفات) أى العلالى المبنية فوق البيوت فى الجنات زيادة على ذلك (آمنون) أى ثابت أمانهم دائما لا خوف عليهم من شئ من الاشياء أصلا وأما غيرهم وهم المرادون بما بعده فاموالهم وأولادهم وبال عليهم وقرأ حمزة بسكون الراء ولا ألف بعد الفاء على التوحيد على ارادة الجنس ولعدم اللبس لانه معلوم أن لكل أحد غرفة تخصه وقد أجمع على التوحيد فى قوله تعالى يجزون الغرفة ولان لفظ الواحد أخف فوضع موضع الجمع مع أمن اللبس والباقون بضم الراء وألف بعد الفاء على الجمع جمع سلامة وقد أجمع على الجمع فى قوله تعالى لنبوئنهم من الجنة غرفا ثم بين حال المسئ وهو من يبعده ماله وولده من الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى (والذين يسعون) أى يجددون السعى من غير توبة باموالهم وأولادهم (فى ابطال (آياتنا) أى حججنا على ما لها من عظمة لانتسابها الينا (معجزين) أى طالبين تعجيزها اى تعجيز الآتين بها عن انفاذ مرادهم بها بما يلقون من الشبه فيضلون غيرهم بما أوسعنا عليهم وأعززناهم به من الاموال والاولاد (أولئك) أى هؤلاء البعداء البغضاء (فى العذاب) أى المزيل للعذوبة (محضرون) اى يحضرهم فيه الموكلون بهم من جندنا على أهون وجه وأسهله (قل) أى يا أشرف الخلق لجميع الخلق وصمم هؤلاء (ان ربى) اى المحسن الى بهذا البيان وغيره (يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) متى شاء (من عباده) امتحانا (ويقدر) أى يضيقه (له) بعد البسط ابتلاء قال البيضاوى فهذا فى شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق فى شخصين فلا تكرار ولما بين بهذا البسط أن فعله بالاختيار بعد ان بين بالاول كذبهم فى أنه سبب للسلامة من النار دل على أنه الفاعل لا غيره بقوله تعالى (وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه) أى فهو يعوضه لا معوض سواه اما عاجلا بالمال أو بالقناعة التى هى كنز لا ينفد واما آجلا بالثواب الذى كل خلف دونه وعن سعيد بن جبير ما كان فى غير اسراف ولا تقتير فهو يخلفه وعن الكلبى ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم فى خير من نفقة فهو يخلفه على المنفق اما أن يعجل له فى الدنيا واما أن يدخر له فى الآخرة وعن مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد فان الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع

لعل هدى أو فى ضلال مبين) ان قلت ما معنى التشكيك فى ذلك (قلت) هذا من اجراء المعلوم مجرى المجهول بطريق اللف

ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر ولا يتأول وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه فان هذا في الآخرة ومعنى الآية وما كان من خلف فهو منه فدل ذلك على انه مختص بالاخلاف لا أنه ضمن الاخلاف لكل ما ينفق على أى وجه كان وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى أنفق ينفق عليك وأسلم يا ابن آدم أنفق أنفق عليك وعن أبي هريرة أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا وعنه أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما نقصت أحدا صدقة من مال وما زاد الله رجلا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله عز وجل وعن عبد الحميد بن الحسن الهلالى قال أنبأنا محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى الرجل به عرضه كتب له بها صدقة قلت ما معنى وقى به عرضه قال ما أعطى الشاعر وذا اللسان المتقى وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامنا الا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية الله عز وجل قوله قلت ما معنى مقول عبد الحميد لمحمد بن المنكدر (وهو خير الرازقين) فان قيل قوله تعالى خير الرازقين ينبئ عن كثرة الرازقين ولا رازق الا الله تعالى (أجيب) بان الله تعالى هو خير الرازقين الذين يغذونهم هذا الغذاء ممن يقيهم الله تعالى فيضيفون الرزق اليهم لان كل من يرزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق عبده أو رجل يرزق عياله فهو واسطة لا يقدر الا على ما قدره الله وأما هو سبحانه فهو يوجد المعدوم ويرزق من يطيعه ومن يعصيه ولا يضيق رزقه باحد ولا يشغله فيه أحد عن أحد وعن بعضهم الحمد لله الذى أوجدنى وجعلنى ممن يشتهى فيجد فكم من مشته لا يجد وواجد لا يشتهى وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى فهو يخلفه وهو بسكون الهاء والباقون بالضم * ولما بين تعالى ان حال النبي صلى الله عليه وسلم كحال من تقدمه من الانبياء وحال قومه كحال من تقدم من الكفار وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم بين ما يكون عاقبة حالهم بقوله تعالى (ويوم نحشرهم) أى نجمعهم جمعا بكره بعد البعث وعم التابع والمتبوع بقوله تعالى (جميعا) فلم نغادر منهم أحدا وقرأ حفص يحشرهم ثم يقول بالياء والباقون بالنون * ولما كانت مواقف الحشر طويلة وزلازله مهولة قال تعالى (ثم نقول للملائكة) اى توبيخا للكافرين واقناطا مما يرجون منهم من الشفاعة (أهؤلاء) اى الضالون وأشار الى انه لا ينفع من العبادة الا ما كان خالصا بقوله تعالى (اياكم) اى خاصة (كانوا يعبدون) فهذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر

* اياك أعنى واسمعى يا جاره * ونحوه قوله عز وجل أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير والغرض ان يقول ويقولوا ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشد وتعييرهم أبلغ وخجلهم أعظم ولذلك (قالوا) اى الملائكة متبرئين منهم مفتتحين بالتنزيه تخضعا بين يدى البراءة خوفا (سبحانك) اى ننزهك تنزيها يليق بجلالك عن ان يستحق أحد غيرك ان يعبد (أنت ولينا) اى معبودنا الذى لا وصلة بيننا وبين أحد الا بامره (من دونهم)

والنشر المرتب وأوف الوضعين بمعنى الواو والتقدير وانا لعلى هدى وانتم فى ضلال مبين وانما جاء ذلك لارادة

اى

اى ليس بيننا و بينهم ولاية بل عداوة وكذا كل من تقرب الى شخص بمعصية الله تعالى فانه يقسى الله تعالى قلبه عليه و يبغضه فيه فيجانبه و يعاديه ثم أضربوا عن ذلك ونفوا انهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم (بل كانوا يعبدون الجن) اى ابليس وذريته الذين زينوا لهم عبادتنا من غير رضا منا بذلك وكانوا يدخلون فى أجواف الاصنام ويخاطبونهم ويستجيرون بهم فى الاماكن المخوفة ومن هذا تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة وقيل صورت الشياطين لهم صورة قوم من الجن وقالوا هذه صور الجن فاعبدوها ثم استأنفوا قولهم (أكثرهم) اى الانس (بهم) اى الجن (مؤمنون) اى راسخون فى الاشراك لا يقصدون بعبادتهم غيرهم وقيل الضمير الاول للمشركين والاكثر بمعنى الكل وقيل منهم من يقصد بعبادته بتزيين الجن غيرهم وهم مع ذلك يصدقون ما يرد عليهم من اخبارات الجن على ألسنة الكهان وغيرهم مع ما يرون فيها من الكذب فى كثير من الاوقات * ولما بطلت تمسكاتهم وانقطعت تعلقاتهم تسبب عن ذلك تقريعهم الناشئ عن تنديمهم بقوله تعالى بلسان العظمة (فاليوم) اى يوم مخاطبتهم بهذا التبكيت وهو يوم الحشر (لا يملك) اى شيأ من الملك (بعضكم لبعض) اى من المقربين والمبعدين (نفعا ولا ضرا) بل تنقطع الاسباب التى كانت فى دار التكليف من دار الجزاء التى المقصود فيها تمام اظهار العظمة لله وحده على أتم الوجوه (فان قيل) قوله تعالى نفعا مفيد للحسرة فما فائدة ذكر الضر مع انهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك (أجيب) بان العبادة لما كانت تقع لدفع ضرر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين انه ليس فيهم ذلك الوجه الذى يحسن لاجله عبادتهم وقوله تعالى (ونقول) اى فى ذلك الحال من غير امهال (للذين ظلموا) اى بوضع العبادة فى غير موضعها عند ادخالهم النار (ذوقوا عذاب النار التى كنتم) اى جبلة وطبعا (بها تكذبون) عطف على لا يملك مبين للمقصود من تمهيده (فان قيل) قوله ههنا التى كنتم بها صفة للنار وفى السجدة وصف العذاب فجعل المكذب هنا النار وجعل المكذب فى السجدة العذاب وهم كانوا يكذبون بالكل فما فائدته أجيب بانهم كانوا هناك ملتبسين بالعذاب مترددين فيه بدليل قوله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون فوصف لهم ما لابسوه وهنا لم يلابسوه بعد لانه عقب حشرهم وسؤالهم فهو أول ما رأوا النار فقيل لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون (واذا تتلى عليهم) اى فى وقت من الاوقات من اى تال كان (آياتنا) اى من القرآن حال كونها (بينات) اى واضحات بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (قالوا ما هذا) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (الا رجل) اى مع كونه واحدا هو مثل واحد من رجالكم وتزيدون أنتم عليه بالكثرة (يريد ان يصدكم) بهذا الذى يتلوه (عما كان يعبد آباؤكم) من الاصنام اى لا قصد له الا ذلك لتكونوا له اتباعا فعارضوا البرهان بالتقليد (وقالوا ما هذا) اى القرآن وقيل القول بالوحدانية (الا افك) اى كذب مصروف عن وجهه (مفترى) باضافته الى الله تعالى كقوله تعالى فى حقهم أئفكا آلهة دون الله تريدون وكقولهم للرسول أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا (وقال الذين كفروا) اى ستروا ما دلت عليه العقول من جهة القرآن (للحق) اى الهدى الذى لا أثبت منه باعتبار كمال الحقية فيه (لما جاءهم) من غير نظر ولا تامل (ان) أى ما

الانصاف فى الجدال وهو أو أوصل الى الغرض أو المعنى باقية على معناها وانا لمهتدون أو ضالون وأنتم كذلك وانما جاء

(هذا) اى الثابت الذى لاشئ أثبت منه (الا سحر) اى خيال لاحقيقة له (مبين) اى ظاهر قال ابن عادل وهذا انكار للتوحيد وكان مختصا بالمشركين وأما انكار القرآن والمعجزة فكان متفقا عليه بين المشركين وأهل الكتاب فقال تعالى وقال الذين كفروا على العموم انتهى ولم يحملهم على ذلك الا الحظوظ النفسانية والعلق الشهوانية قال الطفيل بن عمرو الدوسى ذو النور لقد أكثروا على فى أمره صلى الله عليه وسلم حتى حشوت فى اذنى ماء الكرفس خوفا من ان يخلص الى شئ من كلامهم فيفتننى ثم أراد الله تعالى لى الخير فقلت واثكل أمى انى والله للبيب عاقل شاعر ولى معرفة بنقد الكلام من حسنه فمالى لا أسمع منه فان كان حقا تبعته وان كان باطلا كنت منه على بصيرة أو كما قال قال فقصدت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت اعرض على ما جئت به فلما عرضه على قلت بأبى وأمى ما سمعت قولا قط هو أحسن منه ولا أمرا أعدل منه فما توقفت فى ان أسلمت ثم سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى ان يدعو له الله تعالى ان يعطيه آية يعينه بها على قومه فلما أشرف على حاضر قومه كان له نور فى جبهته فخشى ان يظنوا انها مثلة فدعا الله تعالى بتحويله فتحول فى طرف سوطه فأعانه الله تعالى على قومه فأسلموا * (تنبيه) * فى تكرير الفعل وهو قال والتصريح بذكر الكفرة وما فى لامى الذين والحق من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى لما من المفاجأة الى البت بهذا القول انكار عظيم للقول وتعجيب بليغ منه * ولما بارزوا بهذا القول من غير أثارة من علم ولا خبر من سمع بين ذلك بقوله تعالى (وما) اى قالوا ذلك والحال أنا ما (آتيناهم) اى هؤلاء العرب (من كتب) أصلا لانهم لم ينزل عليهم قط قبل القرآن كتاب وأتى بصيغة الجمع مع تأكيد النفى قبل كتابك الجامع (يدرسونها) أى يجددون دراستها كل حين فيها دليل على صحة الاشراك (وما أرسلنا) أى ارسالا لا شبهة فيه لمناسبته لما لنا من العظمة (اليهم) أى خاصة بمعنى أن ذلك الرسول مأمور بهم بأعيانهم فهم مقصودون بالذات لا أنهم داخلون فى عموم أو مقصودون من باب الامر بالمعروف فى جميع الزمان الذى (قبلك) اى قبل رسالتك الجامعة لكل رسالة (من نذير) اى ليكون عندهم قول منه يدعوهم الى الاشراك أو ينذرهم على تركه وهذا فى غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم) اى من قوم نوح ومن بعدهم بادروا الى ما بادر اليه هؤلاء من التكذيب لان التكذيب كان فى طباعهم لما عندهم من الجلافة والكبر (وما بلغوا) أى هؤلاء (معشار ما آتيناهم) أى عشرا صغيرا مما آتينا أولئك من القوة فى الابدان والاموال والمكنة فى كل شئ من العقول وطول الاعمار والخلو من الشواغل (فكذبوا) اى بسبب ما طبعوا عليه من العناد (رسلى) اليهم (فكيف كان نكير) اى انكارى على المكذبين لرسلى بالعقوبة والاهلاك أى هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء من مثله ولا تكرير فى كذب لان الاول للتكثير أى فعلوا التكذيب كثيرا فكان سببا لتكذيب الرسل والثانى للتكذيب أو الاول مطلق والثانى مقيد ولذلك عطف عليه (قل انما أعظكم) أى أرشدكم وأنصح لكم (بواحدة) أى بخصلة واحدة هى (أن تقوموا) أى توجهوا نفوسكم الى تعرف الحق وعبر بالقيام اشارة الى الاجتهاد (لله) أى الذى لا أعظم منه على وجه الاخلاص واستحضار ما له من العظمة بما له لديكم من الاحسان لا لارادة المغالبة حال كونكم (مثنى) اى اثنين اثنين قال البقاعى وقدمه اشارة

كذلك التعريض بضلالهم كقول الرجل لخصمه اذا اراد تكذيبه ان أحدنا لكاذب (قوله وما أرسلنا فى قرية من نذير) لم يقل

الى

لى ان أغلب الناس ناقص العقل (وفرادى) اى واحدا واحدا من وثق بنفسه فى رصانة عقله واصابة رأيه قام وحده ليكون أصفى لسره وأعون على خلوص فكره ومن خاف عليه ضم اليه آخر ليذكره اذا نسى ويقومه اذا زاغ ولم يذكر غيرهما من الاقسام لان الازدحام يشوش الخواطر ويخلط القول ولما كان ما طلب منهم هذا الاجل عظيما جديرا بان يهتم له هذا الاهتمام أشار اليه باداة التراخى بقوله تعالى (ثم تتفكروا) اى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به لتعلموا حقيقته (ما بصاحبكم) أى رسولكم الذى أرسل اليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم (من جنة) أى جنون يحمله على ذلك (ان) أى ما (هو) أى المحدث عنه بعينه (الا نذير) اى خالص انذاره (لكم بين يدى) اى قبل حلول (عذاب شديد) اى فى الآخرة ان عصيتموه روى البخارى عن ابن عباس انه قال صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال يا صباحاه فاجتمعت اليه قريش فقالوا ما لك فقال أرأيتم لو أخبرتكم ان العدو يصبحكم أو يمسيكم اما كنتم تصدقونى قالوا بلى قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك ألهذا جمعتنا فانزل الله تعالى تبت يدا أبى لهب وتب ولما انتفى عنهم بهذا ما تخيلوا به بقى امكان أن يكون لغرض أمر دنيوى فنفاه بقوله تعالى (قل) اى لهم يا أشرف الخلق (ما) أى مهما (سألتكم من أجر) أى على دعائى لكم من الانذار والتبليغ (فهو لكم) أى لا أريد منه شيأ وهو كناية عن انى لا أسألكم على دعائى لكم الى الله تعالى أجرا أصلا بوجه من الوجوه فاذا ثبت أن الدعاء ليس لغرض دنيوى وان الداعى أرجح الناس عقلا ثبت ان الذى حمله على تعريض نفسه لتلك الاخطار العظيمة انما هو أمر الله تعالى الذى له الامر كله (ان) اى ما (أجرى) أى ثوابى (الا على الله) أى الذى لا أعظم منه فلا ينبغى لذى همة أن يطلب شيأ الا من عنده (وهو) اى والحال انه (على كل شئ شهيد) أى حفيظ مهيمن يعلم العالم باحوالى فيعلم صدقى وخلوص نيتى وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص اجرى فى الوصل بفتح الياء والباقون بالسكون (قل) أى لمن أنكر التوحيد والرسالة والحشر (ان ربى) أى المحسن الى بانواع الاحسان (يقذف بالحق) أى يلقيه الى انبيائه أو يرمى به الباطل الى أقطار الآفاق فيكون وعدا باظهار الاسلام وافشائه (علام الغيوب) أى ما غاب عن خلقه فى السموات والارض ٭(تنبيه)٭ فى رفع علام أوجه أظهرها انه خبر ثان لان أو خبر مبتدا مضمر أو بدل من الضمير فى يقذف وقال الزمخشرى رفع محمول على محل ان واسمها أو على المستكن فى يقذف يعنى بقوله محمول على محل ان واسمها النعت الا أن ذلك ليس مذهب البصريين لانهم لم يعتبروا المحل الا فى العطف بالحرف بشروط عند بعضهم ويريد بالحمل على الضمير فى يقذف أنه بدل منه لا أنه نعت له لان ذلك انفرد به الكسائى وقرأ حمزة وشعبة بكسر الغين والباقون بالضم (قل) لهؤلاء (جاء الحق) اى الاسلام وقيل القرآن وقيل كل ما ظهر على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وقيل المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد من جاء الحق اى ظهر الحق لان كل ما جاء فقد ظهر وأكد تكذيبا لهم فى ظنهم انهم يغلبون بقوله تعالى (وما) أى والحال انه ما (يبدئ الباطل) اى الذى أنتم عليه من الكفر (وما يعيد) أى ذهب فلم تبق منه بقية مأخوذ من هلاك الحى فانه اذا هلك لم يبق له ابداء

فيه من قبلك أو قبلك كاف غيرها لان ماهنا اخبار مجرد وفى غيره اخبار النبى صلى الله عليه وسلم وتسلية له (قوله ولا أسأل

ولا اعادة فجعلوا قولهم لا يبدئ ولا يعيد مثلا فى الهلاك ومنه قول عبيد

أقفر من اهله عبيد • أصبح لا يبدى ولا يعيد

والمعنى جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى جاء الحق وزهق الباطل وعن ابن مسعود دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد وقيل الباطل ابليس اى ما ينشئ خلقا ولا يعيده والمنشئ والباعث هو الله تعالى وعن الحسن لا يبدئ لاهله خيرا ولا يعيده اى لا ينفعهم فى الدنيا والآخرة وقال الزجاج اى شئ ينشئه ابليس و يعيده فجعله للاستفهام وقيل للشيطان الباطل لانه صاحب الباطل ولانه هالك كما قيل له الشيطان من شاط اذا هلك وحينئذ يكون غير منصرف وان جعلته من شطن كان منصرفا • ولما لم يبق بعد هذا الا أن يقولوا عنادا أنت ضال لست بمجنون ولا كذب ولكنك قد عرض لك ما أضلك عن المحجة قال له تعالى (قل) اى لهؤلاء المعاندين على سبيل الاستعطاف بما فى قولك من الانصاف وتعليم الأدب (ان ضللت) اى عن الطريق على سبيل الفرض (فانما أضل على نفسى) اى اثم اضلالى عليها (وان اهتديت فبما) اى فاهتدائى انما هو بما (يوحى الى ربى) اى المحسن الى من القرآن والحكمة لا بغيره فلا يكون فيه ضلال لانه لا حظ للنفس فيه أصلا (فان قيل) أين التقابل بين قوله تعالى فانما أضل على نفسى وقوله تعالى فبما يوحى الى ربى وانما كان يقال فانما أضل على نفسى وان اهتديت فانما اهتدى لها كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وقوله تعالى فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها أو يقال فانما أضل لنفسى (أجيب) بانهما متقابلان من جهة المعنى لان النفس كل ما عليها فهو بسببها لانها الامارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربه وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسنده الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به وفتح الياء من ربى عند الوصل نافع وأبو عمرو والباقون بالسكون وهم على مراتبهم فى المد ثم علل الضلال والهداية بقوله تعالى (انه) اى ربى (سميع) اى لكل ما يقال (قريب) اى يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وان أخفاه • ولما أبطل تعالى شبههم وختم من صفاته بما يقتضى البطش بمن خالفه عطف على ولو ترى اذ الظالمون (ولو ترى) اى تبصر يا أشرف الخلق (اذ فزعوا) اى عند الموت أو البعث أو يوم بدر وجواب لو محذوف نحو رأيت امرا عظيما (فلا) اى فتسبب عن ذلك الفزع أنه لا (فوت) اى لهم منا لانهم فى قبضتنا ثم حقر أمرهم بالبناء للمفعول بقوله تعالى (وأخذوا) اى عند الفزع من كل من نأمره بأخذهم سواء أكان قبل الموت أم بعده (من مكان قريب) اى القبور أو من الموقف الى النار أو من صحراء بدر الى القليب وقال الكلبى من تحت أقدامهم • وقيل اخذوا من ظهر الارض الى بطنها وحيثما كانوا فهم من الله تعالى قريب لا يفوتونه والعطف على فزعوا أو لا فوت (وقالوا) اى عند الاخذ ومعاينة الثواب والعقاب (آمنا به) اى القرآن الذى قالوا انه افك مفترى أو محمد صلى الله عليه وسلم الذى قالوا انه ساحر (وأنى) اى وكيف ومن أين

(لهم

عما تعملون) لم يذكر به
كنتم كما قاله فى غيره
لان قوله هنا تعملون وقع
فى مقابلة أجرمنا فى قوله
قل لا تسئلون عما أجرمنا

(لهم التناوش) اى تناول الايمان تناولا سهلا (من مكان بعيد) اى عن محله اذهو فى الآخرة ومحله فى الدنيا ولا يمكن الا برجوعهم الى الدنيا التى هى دار العمل وهذا تمثيل لحالهم فى طلبهم أن ينفعهم ايمانهم فى ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين ايمانهم فى الدنيا بحال من أراد أن يتناول شيأ من غلوة كما يتناوله الآخر من قدر ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه (فان قيل) كيف قال تعالى من مكان بعيد وقد قال تعالى فى كثير من المواضع ان الآخرة من الدنيا قريب وسمى الله تعالى الساعة قريبة فقال اقتربت الساعة اقترب للناس حسابهم لعل الساعة قريب (اجيب) بان الماضى كالامس الدابر وهو من أبعد ما يكون اذ لا وصول اليه والمستقبل وان كان بينه وبين الحاضر سنون فانه آت فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها ويوم القيامة فى الدنيا قريب لاتيانه وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائى بعد الالف بهمزة مضمومة والباقون بعد الالف بواو مضمومة فمعناه على هذا كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الايمان والتوبة قد كان قريبا فى الدنيا فضيعوه وأما من همز فقيل معناه هذا أيضا ❁ وقيل التناؤش بالهمز من التنؤش الذى هو حركة فى ابطاء يقال جاء منتئشا اى مبطئا متأخرا والمعنى من أين لهم الحركة فيما لا حيلة لهم فيه قال ابن عباس يسألون الرد فيقال وأنى لهم الرد الى الدنيا من مكان بعيد اى من الآخرة الى الدنيا وأمال أبو حفص حمزة والكسائى وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وقد) اى كيف لهم ذلك والحال أنهم قد (كفروا به) اى بالذى طلب منهم ان يؤمنوا به محمد صلى الله عليه وسلم اوالقرآن أو البعث (من قبل) اى فى دار العمل (و) الحال انهم حال كفرهم (يقذفون) اى يرمون (بالغيب) ويتكلمون بما يظهر لهم فى الرسول صلى الله عليه وسلم من المطاعن وهو قولهم ساحر وشاعر وكاهن وفى القرآن سحر شعر كهانة وقال قتادة يعنى يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار (من مكان بعيد) اى ما غاب علمه عنهم غيبة بعيدة وهذا تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرمى شيأ ولا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن فى لحوقه (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) اى من نفع الايمان يومئذ والنجاة من النار والفوز بالجنة أو من الرد الى الدنيا كما حكى عنهم ارجعنا نعمل صالحا ❁ وقرأ ابن عامر والكسائى بضم الحاء وهو المسمى بالاشمام والباقون بكسرها (كما فعل) أى بأيسر وجه (بأشياعهم) اى أشباههم من كفرة الامم ومن كان مذهبه مذهبهم (من قبل) أى من قبل زمانهم فان حالهم كان كحالهم ولم يحتمل أمر ناقى أمة من الامم بل كان كلما كذبت أمة رسولها أخذناها فاذا أذقناهم بأسنا ذعنوا وخضعوا فلم يقبل منهم ذلك ولا نفعهم شيأ لا بالكف عن اهلاكهم ولا لادراكهم شيأ من الخير بعد اهلاكهم ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ثم علل عدم الوصول الى قصدهم بقوله تعالى مؤكدا لانكارهم ان يكون عندهم شئ من شك فى شئ من امرهم (انهم كانوا) اى فى دار القبول (فى شك) اى فى جميع ما تخبرهم به رسلنا عنا من الجزاء والبعث وغير ذلك (مريب) اى موقع فى الريبة فهو بليغ فى بابه كما يقال عجب عجيب او هو واقع فى الريب كما يقال شعر شاعر اى ذو شعر فهو اسم فاعل من أراب اى أتى بالريب اودخل فيه وأربته اى أوقعته فى الريب ونسبة الارابة الى الشك مجاز قال الزمخشرى الا أن بينهما فرقا وهو أن المريب من المتعدى منقول

أى أذنبنا وضمير أجرمنا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره صدر منه ذنب معفى فعبر عنه بالماضى والمخاطب فى أتعملون

ممن يصح أن يكون مريبا من الاعيان الى المعنى ومن اللازم منقول من صاحب الشك الى الشك كما تقول شعر شاعر انتهى وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سبا لم يبق نبى ولا رسول الا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا حديث موضوع

سورة فاطر مكية

وهى ست واربعون آيه وسبعمائة وسبع وتسعون كلمة وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفا وهى ختام السور المفتتحة باسم الحمد التى فصلت فيها النعم الاربع التى هى أمهات النعم المجموعة فى الفاتحة وهى الايجاد الاول ثم الابقاء الاول ثم الايجاد الثانى المشار اليه بسورة سبا ثم الابقاء الثانى الذى هو أتمها وأحكمها وهو الختام المشار اليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء الدال عليه بانتهاء القدرة واحكمها المفصل أمر منتهاها فى فريقى السعادة والشقاوة تفصيلا شافيا على انه استوفى فى هذه السورة النعم الاربع كما يأتى بيانه فى محله (بسم الله) الذى أحاطت دائرة قدرته بالممكنات (الرحمن) الذى عم الخلق بعموم الرحمة (الرحيم) الذى شرف اهل الكرامة بدوام المراقبة ❁ ولما أثبت سبحانه فى التى قبلها الحشر الذى هو الايجاد الثانى وكان الحمد يكون بالمنع والاعدام كما يكون بالاعطاء والانعام قال تعالى ما هو نتيجة ذلك (الحمد) اى الاحاطة باوصاف الكمال اعداما وايجادا (لله) اى وحده ❁ ولما كان الايجاد من العدم أدل دليل على ذلك قال تعالى دالا على استحقاقه للمحامد (فاطر السموات والارض) اى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق قاله ابن عباس أو شاقهما لنزول الارواح من السماء وخروج الاجساد من الارض وعن مجاهد عن ابن عباس ما كنت أدرى ما فاطر السموات والارض حتى اختصم الى اعرابيان فى بئر فقال احدهما أنا فطرتها اى ابتدأتها ❁ (تنبيه) ❁ ان جعلت اضافة فاطر محضة كان نعتا وان جعلتها غير محضة كان بدلا وهو قليل من حيث انه مشتق ❁ ولما كانت الملائكة عليهم السلام مثل الخافقين فى أن كلا منهم مبدع من العدم على غير مثال سبق من غير مادة وكان لا طريق لعامة الناس الى معرفتهم الا الخبر أخبر عنهم بعد ما أخبر عما طريقه المشاهدة بقوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) اى وسايط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون رسالته بالوحى والالهام والرؤية الصادقة وبينه وبين خلقه يوصلون اليهم آثار صنعه (أولى) اى اصحاب (أجنحة) يهيؤهم لما يراد منهم ثم وصفها بقوله تعالى (مثنى) اى جناحين جناحين لكل واحد من صنف منهم (وثلاث) اى ثلاثة ثلاثة لصنف آخر منهم (ورباع) اى أربعة اربعة لصنف آخر منهم فهم متفاوتون بتفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون ويسرعون بها نحو ما وكلهم الله تعالى عليه فيتصرفون فيه على ما أمرهم به وانما لم تنصرف هذه الصفات لتكرر العدل فيها وذلك انها عدلت عن ألفاظ الاعداد من صيغ الى صيغ اخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حاذمة (يزيد فى الخلق ما يشاء) اى يزيد فى خلق الاجنحة وفى غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته والاصل الجناحان لانهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الاصل وذلك

اقوى

الكفار وكفرهم واقع فى الحال وفى المستقبل ظاهر افعبر عنه بالمضارع فلا يناسبه كنتم مع ان الخطاب فى ذلك واقع

أقوى للطيران وأعون عليه (فان قيل) قياس الشفع من الاجنحة ان يكون في كل شق نصفه فما صورة الثلاثة (اجيب) بان الثالث لعله يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة أو لعله لغير الطيران قال الزمخشري فقد مر بي في بعض الكتب ان صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بهما أجسادهما وجناحان يطيرون بهما في الامر من امور الله تعالى وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله تعالى انتهى وروى ابن ماجه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينتثر من رأسه الدر والياقوت وروى انه عليه السلام سأل جبريل ان يتراءى له في صورته فقال انك لن تطيق ذلك فقال اني أحب أن تفعل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مقمرة فأتاه جبريل في صورته فغشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده واحدى يديه على صدره والاخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت أرى أن شيأ من الخلق هكذا فقال جبريل فكيف لو رأيت اسرافيل عليه السلام له اثنا عشر ألف جناح جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وان العرش على كاهله وانه ليتضاءل الاحايين لعظمة الله تعالى حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى يزيد في الخلق ما يشاء وهو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن وقيل هو الخط الحسن وعن قتادة الملاحة في العينين والآية كما قال الزمخشري مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الاعضاء وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان ولباقة في التكلم وحسن تأن في مزاولة الامور وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف ثم علل تعالى ذلك كله بقوله مؤكدا لاجل انكارهم البعث (ان الله) أي الجامع لجميع أوصاف الكمال (على كل شيء قدير) وتخصيص بعض الاشياء دون بعض انما هو من جهة الارادة قال أبو جعفر بن الزبير لما أوضحت سورة سبأ انه سبحانه مالك السموات والارض ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة أوضحت هذه السورة ان ذلك خلقه كما هو ملكه وأنه الاهل للحمد والمستحق اذ الكل خلقه وملكه وتجردت سورة سبأ التعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه وتجردت هذه للتعريف بالاختراع والخلق ولما وصف سبحانه نفسه المقدسة بالقدرة الكاملة دل على ذلك بما يشاهده كل أحد في نفسه من السعة والضيق مع العجز عن دفع شيء من ذلك أو اقتناصه وقال مستأنفا أو معللا مستنتجا (ما) أي مهما وهي شرطية (يفتح الله) أي الذي لا يكافئه شيء (للناس) لان كل ما في الوجود لاجلهم (من رحمة) أي من الارزاق الحسية والمعنوية من اللطائف والمعارف التي لا تدخل تحت حصر قلت أو كثرت فيرسلها (فلا ممسك لها) أي الرحمة بعد فتحه كما يعلمه كل احد في نفسه من أنه اذا حصل له خير لا يعدمه من يود أنه لم يحصل ولو قدر على ازالته لازاله ولا يقدر على تأثير ما فيه (وما يمسك فلا مرسل له) بطلقه واختلاف الضميرين لان الموصول الاول مفسر بالرحمة والثاني مطلق يتناولها والغضب وفي ذلك اشعار بان رحمته سبقت غضبه ولما كان ربما ادعى أحد فجور ارسال الرحمة أو النقمة انه هو الممسك قال تعالى (من بعده) أي امساكه أو ارساله (وهو) أي هو فاعل ذلك والحال انه هو وحده

في الدنيا والمطالب في غيره
تموتم فينبئكم بما كنتم
تعملون واقع في الآخرة
فناسب التعبير بكنتم
(قوله بل كانوا يعبدون

(العزيز) اى القادر على الامساك والارسال الغالب على كل شئ ولا غالب له (الحكيم) اى الذى يفعل فى كل من الامساك والارسال وغيرهما ما يقتضيه علمه به ويتقن ما اراده على قوانين الحكمة فلا يستطاع نقض شئ منه * ولما بين ما يشاهده كل أحد فى نفسه انه المنعم وحده أمر بذكر نعمته بالاعتراف أنها منه فان الذكر يعود الى الشكر وهو قيد الموجود وصيد المعدوم المفقود قال (يا أيها الناس) اى الجميع لان جميعهم مغمورون فى نعمة الله تعالى وعن ابن عباس يريد يا أهل مكة (اذكروا) بالقلب واللسان (نعمت الله) اى الذى لا منعم فى الحقيقة سواه (عليكم) اى فى دفع ما دفع عنكم من المحن وصنع ما صنع لكم من المنن اشكروه ولا تكفروه * (تنبيه) * نعمت هنا مجرورة فى الرسم وقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء واذا وقف الكسائى أمال الهاء * ولما أمر بذكر نعمته أكد الشعر بأنه منه وحده على وجه بين عزته وحكمته بقوله تعالى منبها لمن غفل موبخا لمن جدورادا على أهل القدر الذين يدعون أنهم يخلقون أفعالهم ومنبها على نعمة الايجاد الاول (هل من خالق) أى للنعم وغيرها (غير الله) أى فليس لغيره فى ذلك مدخل يستحق أن يشرك به * وقرأ حمزة والكسائى بكسر الراء نعتا لخالق على اللفظ ومن خالق مبتدأ مزاد فيه من والباقون بالرفع وفيه ثلاثة أوجه أحدها أنه خبر المبتدا والثانى أنه صفة لخالق على الموضع والخبر اما محذوف واما يرزقكم والثالث أنه مرفوع باسم الفاعل على جهة الفاعلية لان اسم الفاعل قد اعتمد على أداة الاستفهام * ولما كان جواب الاستفهام قطعا لا بل هو الخالق وحده قال منبها على نعمة الابقاء الاول بقوله تعالى (يرزقكم) أى وحده فنعمة الله تعالى مع كثرتها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء * ولما كانت كثرة الرزق كما هو مشاهد مع وحدة المنبع أدل على العظمة قال (من السماء) أى بالمطر وغيره (والارض) اى بالنبات وغيره * ولما بين تعالى انه الرازق وحده قال (لا اله الا هو فأنى تؤفكون) أى من أين تصرفون عن توحيده مع اقراركم بأنه الخالق الرازق وتشركون المنحوت به له الملكوت * ولما بين تعالى الاصل الاول وهو التوحيد ذكر الاصل الثانى وهو الرسالة بقوله تعالى (وان يكذبوك) أى يا أشرف الخلق فى مجيئك بالتوحيد والبعث والحساب والعقاب وغير ذلك (فقد كذبت رسل من قبلك) فى ذلك (فان قيل) ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يعقب الشرط وهذا سابق له (أجيب) بأن معناه وان يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك فوضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أعنى بالتكذيب عن التأسى (فان قيل) ما معنى التنكير فى رسل (أجيب) بأن معناه فقد كذبت رسل أى رسل ذوو عدد كثير وأولوا آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك وهذا أسلى له وأحث على المصابرة قال القشيرى وفى هذا اشارة للحكماء وأرباب القلوب مع العوام والاجانب من هذه الطريقة فانهم لا يقبلون منهم الا القليل وأهل الحقائق أبدا منهم فى مقاساة الاذية والعوام أقرب الى هذه الطريقة من القراء المتعنتين ثم بين من حيث الاجمال ان المكذب فى العذاب وأن المكذب له الثواب بقوله تعالى (والى الله) أى وحده لان له الامور كلها (ترجع الامور)

الجن) * ان قلت كيف قالت الملائكة فى حق المشركين ذلك مع انه لم ينقل عن أحد منهم انه عبد الجن (قلت) معناه

اي

أى فى الآخرة فيجازيكم وإياهم على الصبر والتكذيب ثم بين تعالى الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى (يا أيها الناس) ولما كانوا ينكرون البعث أكد قوله تعالى (ان وعد الله) أى الذى له صفات الكمال بكل ما وعد به من البعث وغيره (حق) أى ثابت لا خلف فيه وقد وعد أنه يردكم اليه فى يوم تنقطع فيه الأسباب ويعرض عن الأحساب والأنساب (فلا تغرنكم) أى بأنواع الخداع من اللهو والزينة (الحيوة الدنيا) فانه لا يليق بذى همة علية اتباع الدنى والرضا بالدون الزائل عن العالى الدائم (ولا يغرنكم بالله) أى الذى لا يخلف الميعاد وهو الكبير المتعال (الغرور) أى الذى لا يصدق فى شئ وهو الشيطان العدو ولذلك استأنف قوله تعالى مظهرا فى موضع الإضمار (ان الشيطان) أى المحترق بالغضب البعيد عن الخير (لكم) أى خاصة (عدو) فهو فى غاية الفراغ لأذاكم يتصوب بمكايده كلها اليكم وبما سبق له مع أبيكم آدم عليه السلام بما وصل أذاه اليكم وأيضا من عادى أباك فقد عاداك فاجتهدوا فى الهرب منه ولا توالوه كما قال تعالى (فاتخذوه) أى بغاية جهدكم (عدوا) أى فى عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدن منكم الا ما يدل على معاداته ومناصبته فى سركم وجهركم قال القشيرى ولا تقوى على عداوته الا بدوام الاستعانة بالرب فانه لا يغفل عن عداوتك فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة ثم علل عداوته بقوله (انما يدعوا حزبه) أى الذين يوسوس لهم فيعرضهم لاتباعه والاعراض عن الله تعالى (ليكونوا) باتباعه كونا راسخا (من أصحاب السعير) وهذا غرضه لا غرض له سواه ولكنه يجتهد فى تعمية ذلك عنهم بأن يقرر فى نفوسهم جانب الرجاء وينسيهم جانب الخوف ويريهم أن التوبة فى أيديهم ويسوف لهم بها بالفسحة فى الأمل والابعاد فى الأجل للإفساد فى العمل والرحمن انما يدعو عباده ليكونوا من أهل النعيم كما قال تعالى والله يدعو الى دار السلام * ثم بين تعالى ما حال حزب الشيطان بقوله تعالى (الذين كفروا لهم عذاب شديد) أى فى الدنيا بفوات ما يأملونه مع تفرقة قلوبهم وانسداد بصائرهم وسفالة هممهم حتى انهم رضوا أن يكون الههم حجرا وفى الآخرة بالسعير التى دعاهم الى صحبتها ثم بين حزبه تعالى بقوله سبحانه (والذين آمنوا وعملوا) اى تصديقا لايمانهم (الصالحات) من صلاة وزكاة وصوم وغير ذلك من المأمورات (لهم مغفرة) اى ستر لذنوبهم فى الدنيا ولولا ذلك لافتضحوا وفى الآخرة بحيث لا عقاب ولا عتاب ولولا ذلك لهلكوا (وأجر كبير) هو الجنة والنظر الى وجهه الكريم فالمغفرة فى مقابلة الايمان فلا يؤبد مؤمن فى النار والأجر الكبير فى مقابلة العمل الصالح * ونزل كما قال ابن عباس فى أبى جهل ومشركى العرب (أفمن زين له سوء عمله) اى قبحه الذى من شأنه أن يسوء صاحبه حالا أو مآلا بأن غلب وهمه وهواه على عقله (فرآه) اى السيئ بسبب التزيين (حسنا) اى عملا صالحا (فان) اى السبب فى رؤية الأشياء على غير ما هى عليه أن (الله) اى الذى له الأمر كله (يضل من يشاء) فلا يرى شيأ على ما هو به فيقدم على الهلاك البين وهو يراه عين النجاة (ويهدى من يشاء) فلا يشكل عليه أمر ولا يفعل الا حسنا * (تنبيه) * من موصول مبتدأ وما بعده صلته والخبر محذوف واختلف فى تقديره فقدره الكشاف تذهب نفسك عليهم حسرات لدلالة قوله تعالى تسلية له صلى الله عليه وسلم حيث حزن

انهم كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادة غير الله فالمراد بالجن الشياطين على ان

على إصرارهم بعد اتيانه بكل آية ظاهرة وحجة قاهرة (فلا تذهب نفسك عليهم) اى لاجلهم (حسرات) اى لاجل حسراتك المترادفة لاجل اعراضهم جمع حسرة وهى شدة الحزن على ما فات من الامر وقدره الزجاج وأضله الله كمن هداه وقدره غيرهما كمن تزين له وهو أحسن لموافقته لفظا ومعنى ونظيره أفمن كان على بينة من ربه اى كمن هو أعمى أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى وقال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية فى أصحاب الاهواء والبدع قال قتادة منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم فاما أهل الكبائر فليسوا منهم لانهم لا يستحلون الكبائر (ان الله) اى المحيط بجميع صفات الكمال (عليم) اى بالغ العلم (بما يصنعون) فيجازيهم عليه ثم عاد تعالى الى البيان بقوله سبحانه (والله) اى الذى له صفات الكمال لا شئ غيره من طبيعة ولا غيرها (الذى أرسل الرياح) اى أوجدها من العدم فهبوبها دليل على الفاعل المختار لان الهواء قد يسكن وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك الى اليمين وقد يتحرك الى الشمال وفى حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر مؤثر مقدر وقوله تعالى (فتثير سحابا) عطف على ارسل لان أرسل بمعنى المستقبل فلذلك عطف عليه وأتى بارسل لتحقق وقوعه وبتثير لتصور الحال واستحضار الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة كقوله تعالى أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ولما أسند فعل الارسال اليه تعالى وما يفعله يكون بقوله تعالى كن فلا يبقى فى العدم لا زمانا ولا جزأ من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة تكونه فكأنه كان ولانه فرغ من كل شئ فهو قدر الارسال فى الاوقات المعلومة الى المواضع المعينة ولما أسند فعل الاثارة الى الريح وهى تؤلف فى زمان فقال تثير اى على هيئتها وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع وقوله تعالى (فسقناه) فيه التفات عن الغيبة (الى بلد ميت) أى لا نبات بها وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بتشديد الياء والباقون بالتخفيف (فأحيينا به) اى بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكر المطر حيث أقيم مقامه أو بالسحاب فانه سبب السبب أو الصائر مطرا (الارض) بالنبات والكلا (بعد موتها) اى يبسها (تنبيه) العدول فى سقنا وأحيينا من الغيبة فى قوله تعالى والله الذى أرسل الرياح الى ما هو أدخل فى الاختصاص وهو التكلم فيهما لما فيهما من مزيد الصنع والكاف فى قوله تعالى (كذلك) فى محل رفع اى مثل احياء الموات (النشور) للاموات ووجه الشبه من وجوه أولها ان الارض الميتة قبلت الحياة كذلك الاعضاء تقبل الحياة ثانيها كما أن الريح يجمع السحاب المتقطع كذلك تجمع الاعضاء المتفرقة ثالثها كما أنا نسوق الريح والسحاب الى البلد الميت كذلك نسوق الروح الى الجسد الميت (فان قيل) ما الحكمة فى اختياره هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له فى كل شئ آية تدل على أنه واحد (اجيب) بانه تعالى لما ذكر كونه فاطر السموات والارض وذكر من الامور السماوية الارواح وارسالها بقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا ذكر من الامور الارضية الرياح وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه فقال هل مررت بوادى أهلك محلا ثم مررت به يهتز فقال نعم فقال فكذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته فى خلقه وقيل يحيى الله الخلق

الكرماني يجزم بأنهم عبدوا الجن أيضا

(سورة فاطر)

(قوله والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه

ثم يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق * ولما كان الكافرون يتعززون بالاصنام كما قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والذين آمنوا بألسنتهم غير مواطئة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال تعالى الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا بين تعالى ان لا عزة الا لله بقوله سبحانه (من كان) أي في وقت من الاوقات (يريد العزة) أي الشرف والمنعة (فلله العزة جميعا) أي في الدنيا والآخرة والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله تعالى فلله العزة جميعا موضعه استغناء به عنه لدلالته عليه لان الشئ لا يطلب الا من عند صاحبه ومالكه ونظيره قولك من أراد النصيحة فهي عند الابرار تريد فليطلبها عندهم الا انك أقمت ما يدل عليه مقامه وقال قتادة من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله تعالى ومعناه الدعاء الى طاعة من له العزة أي فليطلب العزة من عند الله بطاعته كما يقال من كان يريد المال فالمال لفلان أي فليطلبه من عنده * ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الايمان والعمل الصالح بقوله تعالى (اليه) أي لا الى غيره (يصعد الكلم الطيب) قال المفسرون هو قول لا اله الا الله وقيل هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وعن ابن مسعود قال اذا حدثتكم حديثا أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عز وجل ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وتبارك الله الا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يحيى بها وجه رب العالمين ومصداقه من كتاب الله عز وجل قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب وقيل الكلم الطيب ذكر الله وعن قتادة اليه يصعد الكلم الطيب أي يقبل الله الكلم الطيب وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن وعن الحاكم موقوفا وعن الثعلبي مرفوعا أنه صلى الله عليه وسلم قال هو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر اذا قالها العبد عرج بها الملك الى السماء فحيا بها وجه الرحمن فاذا لم يكن عمل صالح لم تقبل (والعمل الصالح يرفعه) اى يقبله فصعود الكلم الطيب والعمل الصالح مجاز عن قبوله تعالى اياهما أو صعود الكتبة بصحفهما والمستكن في يرفعه لله تعالى وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة وقال سفيان بن عيينة العمل الصالح هو الخالص يعني الاخلاص سبب قبول الخيرات من الاقوال والافعال لقوله تعالى فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا فجعل نقيض الصالح الشرك والرياء *(تنبيه)* صعود الكلم الطيب والعمل الصالح مجاز عن قبوله تعالى اياهما أو صعود الكتبة بصحفهما والمستكن في يرفعه لله تعالى وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة أو للكلم فان العمل لا يقبل الا بالتوحيد والعمل فانه يحقق الايمان ويقويه قال الرازي في اللوامع العلم لا يتم الا بالعمل كما قيل العلم يهتف بالعمل فان اجاب والا ارتحل انتهى وقد قيل

لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق ما يقول فعاله

فاذا وزنت مقاله بفعاله * فتوازنا فاخاء ذاك جماله

وقال الحسن الكلم الطيب ذكر الله تعالى والعمل الصالح أداء فرائضه فمن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب

الى بالمصيت) الآية (ان قلت) لم عبر بالمضارع وهو تصوير بين ماضيين (قلت) الاشارة الى استحضار تلك الصورة البديعة وهي

وصدقته الاعمال فمن قال حسنا وعمل غير صالح رد الله تعالى عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه الله ‌* ولما بين ما يحصل العزة من علو الهمة بين ما يكسب المذلة ويوجب النقمة من رديء الهمة بقوله تعالى (والذين يمكرون) أي يعملون على وجه المكر أي الستر المكرات (السيئات) اي مكرات قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وتداورهم الرأي في احدى ثلاث حبسه وقتله واجلائه كما قال تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك الآية وقال الكلبي معناه يعملون السيئات وقال مقاتل يعني الشرك وقال مجاهد هم أصحاب الرياء (لهم عذاب شديد) اي لا يؤبه دونه بما يمكرون (ومكر أولئك) اي البعداء من الفلاح (هو) اي وحده دون مكر من يريد بمكره الظفر فان الله ينفذه ويعلي امره (يبور) أي يفسد ولا ينفذ اذ الامور مقدرة فلا تتغير بسبب مكرهم كما دل عليه بقوله تعالى (والله خلقكم من تراب) اي بتكوين أبيكم آدم منه فرجه من جبالا يمكن لغيره تمييزه ثم احاله عن ذلك الجوهر اصلا ورأسا واليه الاشارة بقوله تعالى (ثم) اي بعد ذلك في الزمان والرتبة خلقكم (من نطفة) اي جعلها اصلا ثانيا من ذلك الاصل الترابي اشد امتزاجا منه (ثم) بعد ان أنهى التدبير زمانا ورتبة الى النطفة التي لا مناسبة بينها وبين التراب دلالة على كمال القدرة والفعل بالاختيار (جعلكم أزواجا) أي بين ذكور واناث دلالة هي اظهر مما قبلها على الاختيار وعن قتادة زوج بعضكم بعضا ‌* (تنبيه) ‌* يصح أن يقال كما قال ابن عادل خلقكم خطاب مع الناس وهم أولاد ادم عليه السلام وكلهم من تراب ومن نطفة لان كلهم من نطفة والنطفة من غذاء والغذاء ينتهي بالآخرة الى الماء والتراب فهم من تراب صار نطفة ‌* ولما بين تعالى بقوله سبحانه خلقكم من تراب كمال قدرته بين بقوله سبحانه (وما تحمل من انثى ولا تضع) أي حملا (الا) اي مصحوبا (بعلمه) اي في وقته ونوعه وشكله وغير ذلك من شأنه مختصا بذلك كله حتى عن امه التي هي أقرب اليه فلا يكون الا بقدرته فما شاء أتمه وما شاء أخرجه كمال علمه ثم بين نفوذ ارادته بقوله تعالى (وما يعمر من معمر) اي وما يزاد في عمر من مصغره الى الكبر انما سماه معمرا باعتبار ما هو صائر اليه فمعناه وما يعمر من أحد وفي عود ضمير قوله تعالى (ولا ينقص من عمره) قولان أحدهما انه يعود على معمر آخر لان المراد بقوله تعالى من معمر الجنس فهو يعود عليه لفظا لا معنى لانه بعد أن فرض كونه معمرا استحال أن ينقص من عمره نفسه كما يقال لفلان عندي درهم ونصفه اي نصف درهم آخر والثاني انه يعود على المعمر نفسه لفظا ومعنى والمعنى انه اذا ذهب من عمره حول أحصي وكتب ثم حول آخر كذلك فهذا هو النقص واليه ذهب ابن عباس وابن جبير وابو مالك ومنه قول الشاعر

حياتك أنفاس تعد فكلما ‌* مضى نفس منك انتقصت به جزأ

وقال الزمخشري هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بافهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم وانه لا يلتبس عليهم احالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس المستفيض يقولون لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه الا بحق قال وفيه تأويل آخر وهو انه لا يطول عمر انسان ولا يقصر الا في كتاب وصورته أن يكتب في اللوح ان حج فلان أو غزا فعمره

ثارة الرياح السحاب الدالة على القدرة الباهرة حتى كأن السامع يشاهدها وليس الماضي كذلك

أربعون

أربعون سنة وان حج وغزا فعمره ستون سنة فاذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر واذا افرد احدهما فلم يتجاوز به الاربعون فقد نقص عن عمره الذي هو الغاية وهو الستون واليه اشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ان الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الاعمار وعن كعب انه قال حين طعن عمر رضي الله تعالى عنه لو ان عمر دعا الله لأخر في أجله فقيل لكعب اليس قد قال الله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فقال هذا اذا حضر الاجل فاما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص وقرأ هذه الآية وقد استفاض على الالسنة اطال الله تعالى بقاءك وفسح في مدتك وما اشبهه وعن سعيد بن جبير يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب في اسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة ايام حتى يأتي على آخره وعن قتادة المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة والكتاب في قوله تعالى (الا في كتاب) اى مكتوب فيه عمر فلان كذا وكذا وعمر فلان كذا ان عمل كذا وعمره كذا ان لم يعمل كذا هو اللوح المحفوظ قاله ابن عباس قال الزمخشري ويجوز ان يراد بكتاب الله علم الله تعالى أو صحيفة الانسان ✽ ولما كان ذلك أمرا لا يحيط به العقل ولا يحصره الحد فكان في عداد ما ينكره الجهلة قال تعالى مؤكدا له مهولا له (ان ذلك) اى الامر العظيم من كتب الآجال كلها وتقديرها (على الله) اى الذي له جميع العزة (يسير) اى هين وقوله تعالى (وما يستوي البحران هذا عذب) اى طيب حلو لذيذ ملائم طبعه (فرات) أي بالغ العذوبة (سائغ شرابه) أي شربه مري سهل انحداره لما فيه من اللذة والملاءمة للطبع (وهذا ملح اجاج) اى جمع الى الملوحة المرارة فلا يسوغ شرابه بل لو شرب لآلم الحلق واج في البطن ما هو كالنار ضرب مثلا للمؤمن والكافر وقوله تعالى (ومن كل) اى الملح والعذب (تأكلون) اى من السمك المتنوع الى أنواع تفوت الحصر (لحما طريا) اى شهي المطعم (وتستخرجون) اى من الملح دون العذب (حلية تلبسونها) اى نساؤكم من الجواهر الدر والمرجان وغيرهما ذكر استطرادا في صفة البحرين وما فيهما من النعم وتمام التمثيل والمعنى كانهما وان اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث انهما لا يتساويان فيما هو مقصود بالذات من الماء فانه خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته فلا يتساوى المؤمن والكافر وان اتفق اشتركا كهما في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة لاختلافهما فيما هو الخاصة العظمى وهي بقاء احدهما على الفطرة الاصلية دون الآخر وقيل تخرج الحلية منهما كما هو ظاهر قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان قال البغوي لانه قد يكون في البحر الاجاج عيون عذبة تمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من ذلك انتهى ✽ (فائدة) ✽ عاب المبرد وغيره قول الشافعي رضي الله تعالى عنه كل ماء من بحر عذب أو مالح فالتطهر به جائز وقالوا انه لحن وانما يقال ملح كما قال تعالى وهذا ملح أجاج وهم مخطئون في ذلك كما قيل

وكم من عائب قولا صحيحا ✽ وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه ✽ على قدر القريحة والفهوم

قال النووي وأجاب أصحابنا بأجوبة أصحها أن فيه اربع لغات ملح ومالح ومليح وملاح بضم الميم وتخفيف اللام قال عمر بن أبي ربيعة

(قوله وما يعمر من معمر) أي من أحد وسماه معمرا بما يصير اليه (قوله عشناها الوانا) قال هشام بتأنيث الضمير لعوده الى الثمرات

ولو تفلت في البحر والبحر مالح ● لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

وقال آخر

وللرزق أسباب تروح وتغتدي ● وإني منها شاسع غاذ ورائح
قنعت بثوب العدم من حلة الغنى ● ومن بارد عذب زلال بمالح

وقال محمد بن حازم

تلونت ألوانا علي كثيرة ● وشابط عذبا من اخائك مالح

وقال خالد بن يزيد بن معاوية في رملة بنت الزبير

ولو وردت ماء وكانت قبيله ● مليحا شربنا ماءه باردا عذبا

وقال الخطابي يقال ماء ملاح كما يقال اجاج وزعاق وزلال قال وانما نزل الشافعي من اللغة العالية التي هي أدنى للايضاح وحسما للاشكال والالتباس لئلا يتوهم متوهم أنه أراد بالملح المذاب فيظن ان الطهارة به جائزة وثاني الاجوبة أن الشافعي امام في اللغة فقوله فيها حجة وثالثها أن هذه اللفظة ليست من كلام الشافعي ولم يذكرها بل من كلام المزني وهذا ليس بشئ وكيف ينسب الخطأ الى المزني وعنه مندوحة وقولهم لم يذكرها الشافعي غير صحيح وقد أنكره البيهقي وقال بل سمى الشافعي البحر مالحا في كتابين أمالي الحج والمناسك الكبير ●(فائدة)● أخرى وهي أن ابن عمر قال في البحر التيمم أحب الي منه وقال بحر كم هذا نار وتحت النار بحر حتى عد سبعة أبحر وسبعة أنوار ولكن روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من لم يطهره البحر فلا طهره الله ويؤول كلام ابن عمر بأنه سيصير يوم القيامة نارا أو بأنه مهلك كهلاك النار ولما كان الاكل والاستخراج من المنافع العامة عم الخطاب ● ولما كان استقرار شئ في البحر دون غرق امرا غريبا لكنه صار لشدة الفه لا يقوم بادراك أنه من أكبر الآيات دلالة على القادر المختار الا أهل البصائر خص بالخطاب فقال (وترى الفلك) أي السفن سمي فلكا لدورانه وسفينة لقشره الماء وقدم الظرف في قوله تعالى (فيه) لانه أشد دلالة على ذلك (مواخر) أي جواري مستدبرة الريح شاقة للماء بجريها هذه مقبلة وهذه مدبرة وجهها الى ظهر هذه بريح واحدة يقال مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لانها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لانها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ثم علق بالمخر معللا قوله تعالى (لتبتغوا) اى تطلبوا طلبا شديدا (من فضله) اى الله بالتوصل بذلك الى البلاد الشاسعة لاتجار وغيرها ولو جعلها ساكنة لم يترتب عليها ذلك ولم يجر به ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه (ولعلكم تشكرون) اى ولتكونوا حالكم بهذه الدالة على عظيم قدرة الله تعالى ولطفه حال من يرجى شكره ●(تنبيه)● حرف لرجاء مستعار لمعنى الارادة الا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل كأنما قيل لتبتغوا ولتشكروا ● ولما ذكر تعالى اختلاف الذوات الدالة على بديع صنعه أتبعه اختلاف الازمنة الدالة على بديع قدرته بقوله تعالى (يولج) أى يدخل الله (الليل في النهار) فيصير الظلام ضياء ● ولما كان هذا الفعل في غاية الاعجاب وكان لكثرة تكراره قد صار مألوفا فغفل عما فيه من الدلالة على تمام القدرة نبه عليه باعادة

وقال ثانيا مختلف ألوانها بتأنيثه أيضا لعوده الى الجبال وقال ثالثا مختلف ألوانه بتذكيره لعوده

الفصل بقوله تعالى (ويولج النهار فى الليل) فيصير ما كان ضياء ظلاما وتارة يكون التوالج بقصر هذا وطول هذا فدل كل ذلك على أنه تعالى فاعل بالاختيار * ولما ذكر الليل والنهار ذكر ما ينشأ عنهما بقوله تعالى (وسخر الشمس والقمر) ثم استأنف قوله تعالى (كل) أى منهما (يجرى) أى فى فلكه (لأجل) أى لأجل أجل (مسمى) مضروب له لا يقدر أن يتعداه فاذا جاء ذلك الاجل غرب هكذا كل يوم الى أن يأتى الاجل الاعظم فيختل هذا النظام باذن الملك العلام وتقوم الناس ليوم الزحام وتكون الامور العظام * ولما ذكر سبحانه أنه الفاعل المختار القادر على ما يريد بما يشاهده كل أحد فى نفسه وفى غيره وختم بما تكرر مشاهدته فى كل يوم مرتين أنتج ذلك قطعا قوله تعالى معظما باداة البعد وميم الجمع (ذلكم) أى العالى المقدار الذى فعل هذه الافعال كلها (الله) الذى له صفة كل كمال ثم نبههم على أنه لا مدبر لهم سواه بخبر آخر بقوله تعالى (ربكم) أى الموجد لكم من العدم المربى بجميع النعم لا رب لكم سواه ثم استأنف قوله تعالى (له) أى وحده (الملك) أى كله وهو مالك كل شئ (والذين تدعون) أى تعبدون (من دونه) اى غيره وهم الاصنام وغيرها وكل شئ دونه (ما يملكون) فى حال من الاحوال وأغرق فى النفى بقوله تعالى (من قطمير) وهو كما روى عن ابن عباس لفافة النواة وهى القشرة الرقيقة الملتفة عليها كناية عن أدنى الاشياء فكيف بما فوقه فليس لهم شئ من الملك والآية من الاحتباك ذكر الملك أولا دليلا على حذفه ثانيا والملك ثانيا دليلا على حذفه أولا وقيل القطمير هو القمع وقيل ما بين القمع والنواة وفى النواة على الاول أربعة أشياء يضرب بها المثل فى القلة الفتيل وهو ما فى شق النواة والقطمير وهو اللفافة والنقير وهو ما فى ظهر النواة والرقروق وهو ما بين القمع والنواة ثم بين ذلك بقوله تعالى (ان تدعوهم) أى المعبودات من دونه دعاء عبادة أو استعانة (لا يسمعوا دعاءكم) أى لانهم جماد (ولو سمعوا) أى على سبيل الفرض والتقدير (ما استجابوا لكم) أى لعدم قدرتهم على الانتفاع * ولما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة ووجود الضرر منهم فى الآخرة بقوله سبحانه (ويوم القيامة) أى حين ينطقهم الله تعالى (يكفرون بشرككم) أى باشراككم فينكرونه ويتبرؤن منه بقولهم ما كنتم ايانا تعبدون كما حكى الله تعالى ذلك عنهم فى آية أخرى (ولا ينبئك) أى يخبرك أيها السامع بالامر مخبر هو (مثل خبير) أى عالم به أى ان الخبير بالامر وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به لانه لا يمكن الطعن فى شئ مما أخبر به بخلاف غيره والمعنى ان هذا الذى أخبرتكم به من حال الاوثان هو الحق لانى خبير بما أخبرت به * ولما اختص تعالى بالملك ونفى عن شركائهم النفع أنتج ذلك قوله تعالى (يا أيها الناس) أى كافة (أنتم) أى خاصة (الفقراء) وقوله سبحانه (الى الله) اعلام بانه لا افتقار الا اليه ولا اتكال الا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرا اليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار الى غيره (فان قيل) لم عرف الفقراء (أجيب) بانه قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم اليه هم جنس الفقراء وان كانت الخلائق كلهم مفتقرين اليه من الناس وغيرهم لان الفقر يتبع الضعف وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله تعالى على الانسان بالضعف فى قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وقال تعالى الله الذى خلقكم

الى بعض المفهوم من لفظ من فى قوله ومن الناس والدواب والانعام (قوله ان الله بعباده لخبير بصير)

من ضعف ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء قال القشيري والفقر على ضربين فقر خلقة وفقر صفة فالاول عام فكل حادث مفتقر الى خالقه في أول حال وجوده ليبديه وينشئه وفي ثانيه ليديمه ويبقيه وأما فقر الصفة فهو التجرد ففقر العوام التجرد عن المال وفقر الخواص التجرد عن الاعلال فحقيقة الفقر المحمود تجرد السر عن المعلولات ولما ذكر العبد بوصفه الحقيقي أتبعه ذكر الخالق باسمه الاعظم فقال (والله هو الغني) أي المستغني على الاطلاق فلا يحتاج الى أحد ولا الى عبادة أحد من خلقه وانما أمرهم بالعبادة لاشفاقه تعالى عليهم ففي هذا رد على المشركين حيث قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان الله لعله محتاج الى عبادتنا حتى أمرنا بها أمرا بالغا وهددنا على تركها مبالغا (فان قيل) قد قابل الفقر بالغنى فما فائدة قوله تعالى (الحميد) أي المحمود في صنعه بخلقه (أجيب) بانه لما أثبت فقرهم اليه وغناه عنهم وليس كل غني نافعا بغناه الا اذا كان الغني منعما جوادا واذا جاد وانعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بانعامه أن يحمدوه وقوله تعالى (ان يشأ يذهبكم) أي جميعا بيان لغناه وفيه بلاغة كاملة لان قوله تعالى ان يشأ يذهبكم أي ليس اذهابكم موقوفا الا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج اليه فان المحتاج الى الشيء لا يقال فيه ان شاء فلان هدم داره وانما يقال لولا حاجة السكنى الى الدار لبعتها ثم انه تعالى زاد على بيان الاستغناء بقوله تعالى (ويأت بخلق جديد) أي ان كان يتوهم متوهم أن بهذا الملك كماله وعظمته فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر أن يخلق خلقا جديدا أحسن من هذا وأجمل وعن ابن عباس يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيأ (وما ذلك) أي الامر العظيم من الاذهاب والاتيان (على الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال خاصة (بعزيز) أي بممتنع ولا شاق وهو محمود عند الاعدام كما هو محمود عند الايجاد (فان قيل) استعمل تعالى العزيز تارة في القائم بنفسه فقال تعالى في حق نفسه وكان الله قويا عزيزا وقال في هذه السورة عزيز غفور واستعمله تارة في القائم بغيره فقال تعالى وما ذلك على الله بعزيز وقال تعالى عزيز عليه ما عنتم فهل هما بمعنى واحد أو بمعنيين (أجيب) بان العزيز في اللغة هو الغالب والفعل اذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة الى ذلك الفعل فقوله تعالى وما ذلك على الله بعزيز أي ذلك الفعل لا يغلبه بل هو هين على الله تعالى وقوله سبحانه عزيز عليه ما عنتم أي يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب وقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فيه حذف الموصوف للعلم به اي ولا تحمل نفس آثمة اثم نفس أخرى (فان قيل) كيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم (أجيب) بان تلك الآية في الضالين المضلين فانهم يحملون أثقال اضلالهم وكل ذلك أوزارهم وليس فيها شيء من أوزار غيرهم (وان تدع) أي نفس (مثقلة) أي بالوزر (الى حملها) أي من الوزر أحدا ليحمل بعضه (لا يحمل) اي من حامل ما (منه شيء) أي لا طواعية ولا كرها بل لكل امرئ شأن يغنيه (ولو كان) ذلك الداعي او المدعو للحمل (ذا قربى) لمن دعاه (فان قيل) ما الفرق بين معنى قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى ومعنى قوله تعالى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء (اجيب) بان الاول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه

قاله هنا بلفظ الله لعدم تقدم ذكره وبزيادة اللام موافقة لقوله بعد ان ربنا الغفور شكور

وانه لايؤاخذ نفسا بغير ذنبها والثانى فى ان لاغياث يومئذ بمن استغاث حتى ان نفسا قد اثقلتها
الاوزار لودعت الى ان يخفف بعض وزرها لم تجب ولم تغث وان كان الداعى او المدعو بعض
قرابتها من اب اوولد او اخ وقال ابن عباس يلقى الاب والام ابنه فيقول يابنى احمل عنى بعض
ذنوبى فيقول لااستطيع حسبى ما على *(تنبيه)* اضمر الداعى او المدعو بدلالة ان تدع
عليه * ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمعهم ذلك فلم ينفعهم نزل (انما تنذر)
اى انذارا يفيد الرجوع عن الغى (الذين يخشون ربهم) اى المحسن اليهم فيوقعون هذا الفعل
فى الحال ويواظبون عليه فى الاستقبال ولما كان أولى الناس عقلا واعلاهم همة من كان
غيبه مثل حضوره قال تعالى (بالغيب) وهو حال من الفاعل اى يخشونه غائبين عنه
أو من المفعول اى غائبا عنهم * ولما كانت الصلاة جامعة للخضوع الظاهر والباطن فكانت
أشرف العبادات وكانت اقامتها بمعنى حفظ جميع حدودها فى كل حال أدل الطاعات على
الاخلاص قال تعالى معبرا بالماضى لان مواقيت الصلاة مضبوطة (وأقاموا) اى دليلا على
خشيتهم (الصلوة) فى أوقاتها الخمسة ومايتبع ذلك من السنن (ومن تزكى) اى تطهر اى بفعل

وقاله فى الشورى بالضمير لتقدم لفظ الله وبحذف اللام لعدم مايقتضى ذكرها (قوله لايمسنا فيها نصب ولا

الطاعات وترك المعاصى (فانما يتزكى لنفسه) اذ نفعه لها (والى الله) اى الذى لا اله غيره
(المصير) اى المرجع كما كان منه المبدأ فيجازى كلا على فعله * ثم لما بين تعالى الهدى والضلالة
وهدى الله تعالى المؤمن ولم يهد الكافر ضرب لهما مثلا بقوله تعالى (ومايستوى الاعمى)
اى عن الهدى (والبصير) بالهدى اى المؤمن والكافر وقيل الجاهل والعالم وقيل هما مثلان
للصنم ولله تعالى (ولا الظلمات) اى الكفر (ولا النور) أى الايمان أوولا الباطل ولا الحق
(ولا الظل) أى الجنة (ولا الحرور) اى النار أو ولا الثواب ولا العقاب *(تنبيه)* قال ابن
عباس الحرور الريح الحارة بالليل والسموم بالنهار وقيل الحرور تكون بالنهار مع الشمس
وقيل السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار وقوله تعالى (ومايستوى الاحياء
ولا الاموات) تمثيل آخر للمؤمن والكافر أبلغ من الاول ولذلك كرر الفعل وقيل للعلماء
والجهال *(تنبيه)* زيادة لا فى الثلاثة لتأكيد نفى الاستواء وجاء ترتيب هذه المنفيات
على أحسن الوجوه فانه تعالى لما ضرب الاعمى والبصير مثلين للمؤمن والكافر عقبهما بما كل
منهما فيه والكافر فى ظلمة والمؤمن فى نور لان البصير وان كان حديد البصر لابد له من ضوء
يبصر فيه وقدم الاعمى لان البصير فاصلة فحسن تأخيره ولما تقدم الاعمى فى الذكر ناسب تقديم
ما فيه فلذلك قدمت الظلمة على النور ولان النور فاصلة ثم ذكر مالكل منهما فللمؤمن الظل
وللكافر الحرور وأخر الحرور لاجل الفاصلة كما مر وقولنا لاجل الفاصلة أولى من قول
بعضهم لاجل السجع لان القرآن ينبو عن ذلك وقد منع الجمهور أن يقال فى القرآن سجع
وانما كرر الفعل فى قوله تعالى ومايستوى الاحياء مبالغة فى ذلك لان المنافاة بين الحياة
والموت أتم من المنافاة المتقدمة وقدم الاحياء لشرف الحياة ولم يعد لا تأكيدا فى قوله
تعالى الاعمى والبصير وكررها فى غيره لان منافاة مابعده أتم فان الشخص الواحد قد يكون
بصيرا ثم يصير أعمى فلا منافاة الا من حيث الوصف بخلاف الظل والحرور والظلمات والنور
فانها متنافية أبدا لا يجتمع اثنان منها فى محل فالمنافاة بين الظل والحرور وبين الظلمة والنور

دائمة (فان قيل) الحياة والموت بمنزلة العمى والبصر فان الجسم قد يكون متصفا بالحياة ثم يتصف بالموت (أجيب) بان المنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الاعمى والبصير لان الاعمى والبصير يشتركان فى ادراكات كثيرة ولا كذلك الحى والميت فالمنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الاعمى والبصير لانه قابل الجنس بالجنس وقد يوجد فى أفراد العميان من يساوى بعض أفراد البصراء كاعمى ذكى له بصيرة يساوى بصيرا بليدا فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الافراد وجمع الظلمات لانها عبارة عن الكفر والضلال وطرقهما كثيرة متشعبة ووحد النور لانه عبارة عن التوحيد وهو واحد فالتفاوت بين كل فرد من أفراد الظلمة وبين هذا الفرد الواحد والمعنى الظلمات كلها لا يوجد فيها ما يساوى هذا الواحد ثم نبه سبحانه بقوله تعالى (ان الله) أى القادر على المفاوتة بين هذه الاشياء وعلى كل شئ عاله من الاحاطة من صفات الكمال (يسمع من يشاء) على أن الخشية والقسوة انما هما بيده تعالى وان الانذار انما هو وان قضى باتفاعه فيتيقظ ويجيب (وما أنت) أى بنفسك من غير اقدار الله تعالى لك (بمسمع) أى بوجه من الوجوه (من فى القبور) اى الحسية أو المعنوية اسماعا ينفعهم بل الله يسمعهم ان شاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (ان) أى ما (أنت الا نذير) أى تنبه القلوب الميتة بقوارع الانذار ولست بوكيل تقهرهم على الايمان ثم بين تعالى أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه انما هو باذن الله تعالى وارساله بقوله تعالى (انا) اى بما لنا من العظمة (أرسلناك) أى الى هذه الامة (بالحق) أى الامر الكامل فى الثبات الذى يطابقه الواقع فان من نظر الى كثرة ما أوتيه من الدلائل علم مطابقة الواقع لما يأمر به ❊(تنبيه)❊ يجوز فى قوله تعالى بالحق أوجه أحدها أنه حال من الفاعل أى أرسلناك محقين أو من المفعول أى محقا أو نعت لمصدر محذوف أى ارسالا ملتبسا بالحق ويجوز أن يكون صلة لقوله تعالى (بشيرا) أى لمن أطاع (ونذيرا) أى لمن عصى (وان) أى وما (من امة الا خلا) أى سلف (فيها نذير) أى نبى ينذرها ❊(تنبيه)❊ الامة الجماعة الكثيرة قال تعالى وجد عليه أمة من الناس يسقون ويقال لكل أهل عصر أمة والمراد ههنا أهل العصر (فان قيل) كم من أمة فى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم لم يخل فيها نذير (أجيب) بان آثار النذارة اذا كانت باقية لم تخل من نذير الى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم (فان قيل) كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير فى آخر الآية بعد ذكرهما (أجيب) بانه لما كانت النذارة مشفوعة من البشارة لا محالة دل ذكرها على ذكرها لاسيما وقد اشتملت الآية على ذكرهما أو لان الانذار هو المقصود والاهم من البعثة (وان يكذبوك) أى أهل مكة (فقد كذب الذين من قبلهم) أى ما أتتهم به رسلهم عن الله تعالى (جاءتهم) أى الامم الخالية (رسلهم بالبينات) أى الآيات الواضحات والدالة على صحة الرسالة من المعجزات وغيرها (وبالزبر) اى الامور المكتوبة كصحف ابراهيم عليه السلام (وبالكتاب) أى جنس الكتاب كالتوراة والانجيل (المنير) أى الواضح فى نفسه الموضح لطريق الخير والشر كما أنك أتيت قومك بمثل ذلك وان كانت طريقتك أوضح وأظهر وكتابك أنور وأجهر وأظهر وأشهر وفى هذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم حيث علم ان غيره كان مثله فى تكذيبه وكان محتملا لاذى

يمسنا فيها لغوب) الفرق بين النصب واللغوب ان النصب تعب البدن واللغوب تعب النفس وفرق الزمخشرى بينهما بان النصب التعب

القوم * (تنبيه) * لما كانت هذه الاشياء في جنسهم أسند المجيء بها اليهم اسنادا مطلقا وان
كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبر والكتاب * ولما سلاه الله
تعالى هدد من خالفه وعصاه بما فعل في تلك الامم الماضية بقوله تعالى (ثم أخذت) اي
بانواع الاخذ (الذين كفروا) اي ستروا تلك الآيات المنيرة بعد طول صبر الرسل عليهم الصلاة
والسلام عليهم ودعائهم لهم (فكيف كان نكير) اي انكاري عليهم بالعقوبة
والاهلاك اي هو واقع موقعه * (تنبيه) * أثبت ورش الياء بعد الراء في الوصل دون الوقف
والباقون بغير ياء وقفا ووصلا * ولما ذكر تعالى الدلائل ولم ينتفعوا قطع الكلام معهم
والتفت الى غيرهم بقوله تعالى (ألم تر) اي تعلم اي ايها المخاطب (أن الله) اي الذي
له جميع صفات الكمال (أنزل من السماء ماء) كما ان السيد اذا نصح بعض عبيده ولم ينزجر
يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا و يكرر ما ذكره للاول و يكون فيه اشعار بان الاول فيه
نقيصة لا يصلح للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة وأيضا فلا يخرج الى كلام
أجنبي عن الاول بل يأتي بما يقاربه لئلا يسمع الاول كلام الآخر فيترك التفكر فيما كان
وقوله تعالى (فأخرجنا) اي بما لنا من القدرة والعظمة (به) أي بالماء (ثمرات) أي متعددة
الانواع فيه التفات من الغيبة الى التكلم وانما كان ذلك لان المنة بالاخراج أبلغ من انزال
الماء وقوله تعالى (مختلفا) نعت لثمرات وقوله تعالى (ألوانها) فاعل به ولولا ذلك لانث مختلفا
ولكنه لما أسند الى جمع تكسير غير عاقل جاز تذكيره ولو أنث فقيل مختلفة كما تقول اختلفت
ألوانها جاز أي مختلفة الاجناس من الرمان والتفاح والعنب وغيرها مما لا يحصر أو الهيآت
من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها فالذي قدر على المفاوتة بينها وهي من ماء واحد لا يستبعد
عليه ان يجعل الدلائل بالكتاب وغيره نورا لشخص وعمى لآخر * ولما ذكر تعالى تنوع ما من
الماء وقدمه لانه الاصل في التكوين أتبعه التكوين من التراب الذي هو أيضا شيء واحد
بقوله تعالى ذاكرا ما هو أصلب الارض وأبعدها عن قابلية التكوين (ومن الجبال
جدد) قال الجلال المحلي رحمه الله تعالى جمع جدة طريق في الجبل وغيره وقال الزمخشري
الجدد الخطط والطرائق وقال أبو الفضل الجدة ما تخالف من الطرائق لون ما يليها ومنه
جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني
ظهره وبطنه (بيض وحمر) وصفر وقوله تعالى (مختلف) صفة لجدد وقوله تعالى (ألوانها) فاعل
به كما مر في نظيره ويحتمل معنيين أحدهما أن البياض والحمرة يتفاوتان بالشدة والضعف فرب
أبيض أشد من أبيض وأحمر أشد من أحمر فنفس البياض مختلف وكذا الحمرة فلذلك جمع
ألوانها فيكون من باب المشكك والثاني ان الجدد كلها على لونين بياض وحمرة فالبياض
والحمرة وان كانا لونين الا أنهما جمعا باعتبار محالهما وقوله تعالى (وغرابيب سود) فيه ثلاثة أوجه
أحدها أنه معطوف على حمر عطف ذي لون على ذي لون ثانيها أنه معطوف على بيض ثالثها
واقتصر عليه الجلال المحلي أنه معطوف على جدد أي صخور شديدة السواد قال الجلال المحلي
يقال كثيرا أسود غربيب وقليلا غربيب أسود وقال البغوي أي سود غرابيب على التقديم
والتأخير يقال أسود غربيب أي شديد السواد تشبيها بلون الغراب أي طرائق سود وعن

والغروب القشور والحاصل
بالنصب وورد بان انتفاء
الثاني معلوم من انتفاء
الاول (قوله ربنا أخرجنا

عكرمة هي الجبال الطوال السود وقال الزمخشري الغربيب تأكيد للاسود ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع ووجهه أن يضمر المؤكد قبله فيكون الذي بعده مفسرا لما أضمر كقول النابغة الجعدي

والمؤمن العائذات الطير غمسحها ٭ ركبان مكة بين الغيل والسند

هما موضعان والمؤمن اسم لله وهو مجرور بالقسم والعائذات منصوب بالمؤمن والمراد بها الحمام لما عاذت بمكة والحجبات اليها حرم التعرض لها والطير منصوب بالبدل أو بعطف البيان ووجه الاستدلال بذلك أن الطير دال على المحذوف وهو مفعول المؤمن والعائذات الطير قال أبو حيان وهذا لا يصح الا على مذهب من يجوز حذف المؤكد ومن النحويين من منعه وهو اختيار ابن مالك ورد عليه بأن هذا ليس هو التأكيد المختلف في حذف مؤكده لان هذا من باب الصفة والموصوف ومعنى تسمية الزمخشري له توكيدا من حيث انه لا يفيد معنى زائدا وانما يفيد المبالغة والتوكيد في ذلك اللون والنحويون قد سموا الوصف اذا لم يفد غير الاول توكيدا فقالوا وقد يجيء لمجرد التوكيد نحو قوله تعالى نفخة واحدة والهين اثنين والتوكيد المختلف في حذف مؤكده انما هو في باب التوكيد الصناعي ومذهب سيبويه جوازه وقال ابن عادل والاولى فيه أن يسمى توكيدا لفظيا اذ الاصل سود غرابيب سود ٭ ولما ذكر تعالى ما الاغلب فيه الماء مما استحال الى أمر آخر بعد مس الماء واتبعه التراب الصرف ختم بما الاغلب فيه التراب مما استحال الى ما هو في غاية البعد من التراب فقال (ومن الناس والدواب) ولما كانت الدابة في الاصل اسما لما دب على الارض ثم غلب اطلاقه على ما يركب قال (والانعام) ليعم الكل صريحا (مختلف ألوانه) اى ألوان ذلك البعض الذي أفهمته من (كذلك) اى مثل الثمار والاراضي منه ما هو ذو لون ومنه ما هو ذو لونين أو أكثر ٭ ولما قال تعالى ألم تر بمعنى ألم تعلم ان الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله واعلام قدرته وآثار صنعه وما خلق من الفطر المختلفة الاجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته من أنه فاعل بالاختيار فهو يفعل ما يشاء قال تعالى (انما يخشى الله) اى الذي له جميع صفات الكمال (من عباده العلماء) قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد انما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني فالخشية بقدر معرفة المخشي والعالم يعلم الله فيخافه ويرجوه وهذا دليل على ان العالم أعلى درجة من العابد لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم بين تعالى ان الكرامة بقدر التقوى والتقوى بقدر العلم لا بقدر العمل فمن ازداد منه علما ازداد منه خشية وخوفا ومن كان علمه به أقل كانت خشيته أقل قال عليه الصلاة والسلام اني لاعلمكم بالله وأشدكم له خشية وقال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وقال مسروق كفى بالمرء علما أن يخشى وكفى بالمرء جهلا ان يعجب بعلمه وقال رجل للشعبي أفتني أيها العالم فقال له العالم من خشي الله تعالى قال السهروردي في الباب الثالث من معارفه فينتفي العلم عمن لا يخشى الله تعالى كما اذا قال انما يدخل الدار بغدادي فينتفي دخول غير البغدادي الدار وقيل نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى أثرت فيه (فان قيل) هل يختلف المعنى اذا قدم المفعول في هذا الكلام أو اخر (أجيب) بانه يختلف فانك اذا قدمت اسم الله

تعالى

نعمل صالحا غير الذي كا(نوا) نعمل) ٭ ان قلت الوصف بغير الذي كانعمل يوهم انهم كانوا عملوا صالحا غير الذي

تعالى وأخرت العلماء كان المعنى ان الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم فاذا عملت على العكس انقلب المعنى الى أنهم لا يخشون الا الله كقوله تعالى ولا يخشون أحدا الا الله وهما معنيان مختلفان *(تنبيه)* رسم العلماء بالواو وقوله تعالى (ان الله) اى المحيط بالجلال والاكرام (عزيز) اى غالب على جميع أمره (غفور) أى لذنوب من أراد من عباده تعليل لوجوب الخشية لدلالته على انه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى * ولما بين سبحانه العلماء بالله تعالى وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه بقوله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) أى يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديدنهم وعن مطرف هي آية القراء وعن الكلبي يأخذون بما فيه وقيل يعلمون ما فيه و يعملون به وعن السدى هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن عطاء هم المؤمنون (وأقاموا الصلاة) اى أداموها (وأنفقوا مما رزقناهم) من زكاة وغيرها (سرا وعلانية) قيل السر في المسنون والعلانية في المفروض *(تنبيه)* أشار تعالى بقوله سبحانه وتعالى يتلون كتاب الله الى الذكر وبقوله تعالى وأقاموا الصلاة الى العمل البدنى و بقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناهم الى العمل المالى وفي هاتين الآيتين الشريفتين حكمة بالغة وهي أن قوله تعالى انما يخشى الله اشارة الى عمل القلب وقوله تعالى الذين يتلون اشارة الى عمل اللسان وقوله وأقاموا الصلاة اشارة الى عمل الجوارح ثم ان هذه الاشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله تعالى وقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناهم بمعنى الشفقة على خلقه وقوله تعالى سرا وعلانية حث على الانفاق كيفما تهيأ فان تهيأ سرا فذاك والا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء فان ترك الخير مخافة ذلك هو عين الرياء ولما أحل الله تعالى هؤلاء بالمحل الاعلى بين حالهم بقوله تعالى (يرجون) أى في الدنيا والآخرة (تجارة) أى بما عملوا (لن تبور) أى تكسد وتهلك بل هي باقية لانها رفعت الى من لا تضيع اليه الودائع وهي رابحة رابحة لكونه تعالى تام القدرة شامل العلم له الغنى المطلق (ليوفيهم أجورهم) أى جزاء أعمالهم بالثواب (ويزيدهم من فضله) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى سوى الثواب مالم ترعين ولم تسمع أذن ويحتمل أن يزيدهم النظر اليه تعالى كما جاء في تفسير الزيادة وهذا هو النعمة العظمى (انه غفور شكور) قال ابن عباس رضى الله عنهما يغفر الذنب العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم وقيل غفور عند اعطاء الاجر شكور عند اعطاء الزيادة *(تنبيه)* في خبر ان من قوله ان الذين يتلون كتاب الله وجهان أحدهما أنه الجملة من قوله تعالى يرجون تجارة أى ان التالين يرجون ولن تبور صفة تجارة وليوفيهم متعلق بيرجون أو بتبور أو بمحذوف أى فعلوا ذلك ليوفيهم وعلى الوجهين الاولين يجوز أن تكون لام العاقبة والثاني ان الخبر انه غفور شكور وجوز هذا الزمخشري على حذف العائد أى غفور لهم وعلى هذا فيرجون حال من أنفقوا أى أنفقوا ذلك راجين * ولما بين تعالى الاصل الاول وهو وجود الله تعالى الواحد بالدلائل في قوله تعالى الله الذى يرسل الرياح وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ذكر الاصل الثاني وهو الرسالة بقوله تعالى (والذى أوحينا) أى بما لنا من العظمة (اليك من الكتاب) أى الجامع خير الدارين *(تنبيه)* من الكتاب يجوز أن تكون من للبيان كما

طلبوا مع انهم لم يعملوا صالحا قط بل سيئات (ات) قالوا بزعمهم انهم كانوا يعملون صالحا كما قال تعالى

يقال أرسل الى فلان من الثياب جملة وأن تكون للجنس وأن تكون لابتداء الغاية كما يقال جاءنى كتاب من الامير وعلى كل فالكتاب يمكن أن يراد به اللوح المحفوظ يعنى الذى أوحينا من اللوح المحفوظ (هو الحق) أى الكامل فى الثبات ومطابقة الواقع ويمكن ان يراد به القرآن وهو ما اقتصر عليه الجلال المحلى يعنى الارشاد والتبيين الذين أوحينا اليك من القرآن ويمكن أن تكون من للتبعيض وهو فصل أو مبتدأ وقوله تعالى (مصدقا لما بين يديه) أى لما تقدمه من الكتب حال مؤكدة لان الحق لا ينفك عن هذا التصديق وهذا تقرير لكونه وحيا لان النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يكن قارئا كاتبا وأتى ببيان ما فى كتاب الله لا يكون ذلك الا بوحى من الله تعالى (فان قيل) لم لم يجعل ما تقدم مصدقا للقرآن (أجيب) بان القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بانه وحى وأما ما تقدم فلا بد فيه من معجزة تصدقه *(تنبيه)* قوله تعالى هو الحق آكد من قول القائل الذى أوحينا اليك حق من وجهين أحدهما أن التعريف للخبر يدل على أن الامر فى غاية الظهور لان الخبر فى الاكثر يكون نكرة الثانى أن الاخبار فى الغالب تكون اعلاما بثبوت أمر لا يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغى أن يكون عارفا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به فاذا كان الخبر معلوما فتكون الاخبار للنسبة فتعرف باللام كقولنا ان زيدا العالم فى هذه المدينة اذا كان علمه مشهورا (ان الله) اى الذى له جميع صفات الكمال (بعباده لخبير) أى عالم أدق العلم وأتقنه ببواطن أحوالهم (بصير) أى بظواهر أمورهم وبواطنها أى فهو يسكن الخشية والعلم فى القلوب على قدر ما أوتوا من الكتاب فى علمه فانت أحقهم بالكمال لانك أخشاهم وأتقاهم فلذلك آتيناك هذا الكتاب المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للدلالة على أن العمدة فى ذلك الامور الروحانية وقوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب) فى معناه وجهان أحدهما انا أوحينا اليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أى حكمنا بتوريثه أو قال تعالى أورثناه وهو يريد نورثه فعبر عنه بالماضى لتحققه وقال مجاهد أورثنا أعطينا لان الميراث اعطاء واقتصر على هذا الجلال المحلى وقيل أورثنا أخرنا ومنه الميراث لانه تأخر عن الميت ومعناه أخرنا القرآن من الامم السالفة وأعطيناكموه وأهلناكم له *(تنبيه)* أكثر المفسرين على أن المراد بالكتاب القرآن وقيل ان المراد جنس الكتاب (الذين اصطفينا) اى اخترنا (من عبادنا) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد بالعباد أمة محمد صلى الله عليه وسلم أى من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم الى يوم القيامة ونقل ابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله تعالى أورث امة محمد صلى الله عليه وسلم كل كتاب أنزله اى لان الله تعالى اصطفاهم على سائر الامم وجعلهم امة وسطا ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بكرامة الانتماء الى أفضل رسله تعالى وحمل الكتاب الذى هو أفضل كتب الله تعالى ثم قسمهم بقوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه) اى فى التقصير بالعمل به (ومنهم مقتصد) اى يعمل به فى أغلب الاوقات (ومنهم سابق بالخيرات) وهو من يضم الى العمل به التعليم والارشاد الى العمل وروى أسامة بن زيد فى هذه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم من هذه الامة وروى أبو عثمان النهدى قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ على المنبر ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وروى أبو

وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا نعمل غير الذى كنا نحسبه صالحا فنعمله (قوله فان تجد لسنت الله تبديلا

الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الآية وقال
أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم
لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ قوله تعالى الحمد لله الذي أذهب
عنا الحزن الآية وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله عز وجل ثم
اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية فقالت يا بني كلهم في الجنة اما السابق
بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالجنة واما المقتصد فمن اتبع اثره من اصحابه حتى لحق بهم واما الظالم فمثلي ومثلكم فجعلت
نفسها معنا وقال مجاهد والحسن فمنهم ظالم لنفسه هم اصحاب المشأمة ومنهم مقتصد هم اصحاب
الميمنة ومنهم سابق بالخيرات السابقون المقربون من الناس كلهم وعن ابن عباس رضي الله
عنهما قال السابق المؤمن المخلص والمقتصد المرائي والظالم الكافر نعمة الله تعالى غير الجاحد لها
لانه تعالى حكم للثلاثة بدخول الجنة وقيل الظالم هو الراجح السيآت والمقتصد هو الذي
تساوت سيآته وحسناته والسابق هو الذي رجحت حسناته وقيل الظالم هو الذي ظاهره خير
من باطنه والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه والسابق من باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم
هو الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه والمقتصد هو الموحد الذي يمنع جوارحه من المخالفة
بالتكليف والسابق هو الموحد الذي ينسيه التوحيد غير التوحيد وقيل الظالم صاحب
الكبيرة والمقتصد صاحب الصغيرة والسابق المعصوم وقيل الظالم التالي للقرآن غير العالم به
والعامل به والمقتصد التالي العالم غير العامل والسابق التالي العالم العامل وقيل الظالم الجاهل
والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقال جعفر الصادق بدأ بالظالم اخبارا بأنه لا يتقرب اليه الا
بكرمه وان الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لانهم بين الخوف والرجاء ثم ختم
بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم في الجنة وقال أبو بكر الوراق رتبهم هذا الترتيب على
مقامات الناس لان أحوال العبد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة فاذا عصى دخل في حيز
الظالمين فاذا تاب دخل في جملة المقتصدين فاذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة دخل
في عداد السابقين وقيل غير ذلك والله أعلم ولما كان هذا ليس في قوة العبد في مجاري العادات
ولا يوجد بالكسب والاجتهاد اشار الى عظمته بقوله تعالى (باذن الله) اى بتمكين من له القدرة
التامة والعظمة العامة والفعل بالاختيار وجميع صفات الجمال والجلال والكمال وتسهيله
وتيسيره لئلا يأمن احد مكره تعالى قال الرازي في اللوامع ثم من السابقين من يبلغ محل القرب
فيستغرق في وحدانيته تعالى (ذلك) أي ايراثهم الكتاب او السبق او الاصطفاء (هو الفضل
الكبير) ولما ذكر الله سبحانه وتعالى احوالهم بين جزاءهم ومآلهم بقوله تعالى مستأنفا جوابا
لمن سأل عن ذلك (جنات عدن) اى اقامة بلا رحيل لانه لا سبب للرحيل عنها وقوله تعالى
(يدخلونها) اى الثلاثة اصناف خبر جنات عدن ومن دخلها لم يخرج منها لانه لا شيء يخرجه ولا
هو يريد الخروج منها وقرأ أبو عمرو بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء ولما كان
الداخل الى مكان أول ما ينظر الى ما فيه من النفائس قال تعالى (يحلون فيها) أي يلبسون على
سبيل التزين والتحلي (من أساور) أي بعض أساور (من ذهب) فمن الاولى للتبعيض والثانية

ولن تجد لسنت الله تحويلا) ان قلت التبديل تغيير الشيء عما كان عليه مع بقاء مادته والتحويل

للتبيين وقوله تعالى (ولؤلؤا) عطف على ذهب أى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفة اللؤلؤ وقرأ عاصم ونافع بالنصب عطفا على محل من أساور والباقون بالجر * (تنبيه) * أساور جمع أسورة وهو جمع سوار وذكر الاساور من بين سائر الحلى فى مواضع كثيرة كقوله تعالى وحلوا أساور من فضة يدل على كون المتحلى غير مبتذل فى الاشغال لان كثرة الاعمال باليد فاذا حليت بالاساور علم الفراغ من الاعمال ولما كانت هذه الزينة لا تليق الا على اللباس الفاخر قال تعالى (ولباسهم فيها حرير وقالوا) أى ويقولون عند دخولهم وعبر عنه بالماضى تحقيقا له (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حزن النار وقال قتادة حزن الموت وقال مقاتل لانهم كانوا لا يدرون ما يصنع بهم وقال عكرمة حزن السيآت والذنوب وخوف رد الطاعات وقال القاسم حزن زوال النعم وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال القيامة وقال الكلبى ما كان يحزنهم فى الدنيا من أمر يوم القيامة وقال سعيد بن جبير الحزن فى الدنيا وقيل هم المعيشة وقال الزجاج اذهب الله تعالى عن أهل الجنة كل الاحزان ما كان منها لمعاش أو معاد اى وهذا أولى الكل قال عليه الصلاة والسلام ليس على أهل لا اله الا الله وحشة فى قبورهم ولا فى منشرهم وكأنى بأهل لا اله الا الله ينفضون التراب عن رؤسهم و يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ثم قالوا (ان ربنا) أى المحسن الينا مع اساءتنا (لغفور) أى محاء للذنوب عنا وآثار الصنفين الاولين ولغيرهما من المذنبين (شكور) للصنف الثالث ولغيره من المطيعين * (تنبيه) * ذكر الله تعالى عن هذه الثلاثة ثلاثة أمور كلها تفيد الكرامة الاول قولهم الحمد لله فان الحامد يثاب الثانى قولهم ربنا فان الله تعالى اذا نودى بهذا اللفظ استجاب للمنادى ما لم يكن يطلب ما لا يجوز الثالث قولهم غفور شكور والغفور اشارة الى ما غفر لهم فى الآخرة بحمدهم فى الدنيا والشكور اشارة الى ما يعطيهم الله ويزيدهم بسبب حمدهم فى الآخرة وقولهم (الذى أحلنا دار المقامة) أى الاقامة اشارة الى ان الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل منها الى منزلة القبور ومن القبور الى منزلة العرصة التى فيها الجمع ومنها التفريق الى دار البقاء اما الى الجنة واما الى النار أجارنا الله تعالى ومحبينا منها وقولهم (من فضله) أى بلا عمل منا فان حسناتنا انما كانت منا منه تعالى اذ لا واجب عليه متعلق بأحلنا ومن اما للعلة واما لابتداء الغاية وقولهم (لا يمسنا فيها) أى فى وقت من الاوقات (نصب ولا يمسنا فيها لغوب) حال من مفعول أحلنا الاول أو الثانى لان الجملة مشتملة على ضمير كل منهما وان كان الحال من الاول أظهر والنصب التعب والمشقة واللغوب الفتور الناشئ عنه وعلى هذا فيقال اذا انتفى السبب انتفى المسبب فاذا قيل لم آكل فيعلم انتفاء الشبع فلا حاجة الى قوله ثانيا فلم أشبع بخلاف العكس الا ترى انه يجوز لم أشبع ولم آكل والآية الكريمة على ما تقرر من نفى السبب ثم نفى المسبب فما فائدته أجيب بأن النصب هو تعب البدن واللغوب هو تعب النفس وقيل اللغوب الوجع وحينئذ فالسؤال زائل وأجاب الرازى بجواب قال ابن عادل ليس بذاك فتركته ولما بين تعالى ما هم فيه من النعمة فى دار السرور التى قال فيها القائل

علياء لا تنزل الاحزان ساحتها * لو مسها حجر مسته سراء

بين ما لاعدائهم من النقمة زيادة فى سرورهم بما قاسوا فى الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم

نقله من مكان الى آخر فكيف قال ذلك مع ان سنة الله لا تبدل ولا تحول

بقوله تعالى (والذين كفروا) أي ستروا مادلت عليه عقولهم من شموس الآيات وأنوار
الدلالات (لهم نار جهنم) أي بما تجهموا أولياء الله الدعاة اليه (لا يقضى) أي يحكم (عليهم)
أي بموت ثان (فيموتوا) أي فيتسبب عن القضاء موتهم فيستريحوا كقوله تعالى ونادوا يا مالك
ليقض علينا ربك أي بالموت فنستريح بل العذاب دائم *(تنبيه)* نصب فيموتوا باضمار أن
*ولما كانت الشدائد في الدنيا تنفرج وان طال أمدها قال تعالى (ولا يخفف عنهم) وأغرق في
النفي بقوله تعالى (من عذابها) أي جهنم *(تنبيه)* في الآية لطائف الاولى أن العذاب في
الدنيا ان دام قتل وان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسدا لا يحس به المعذب فقال عذاب
نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا اما ان يفنى واما ان يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب
فيه دائم الثانية وصف العذاب بأنه لا يفتر ولا ينقطع ولا بأقوى الاسباب وهو الموت حتى يتمنوه
ولا يجابون كما قال تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك أي بالموت الثالثة ذكر في المعذبين
الاشقياء انه لا يقضى عذابهم ولم يقل تعالى نزيدهم عذابا وفي المثابين قال تعالى يزيدهم من فضله
وقوله تعالى (كذلك) اما مرفوع المحل أي الامر كذلك واما منصوبه أي مثل ذلك الجزاء
العظيم (نجزي كل كفور) أي كافر بالله تعالى وبرسله وقرأ أبو عمرو بياء مضمومة وفتح الزاي
ورفع كل والباقون بنون مفتوحة وكسر الزاي ونصب كل (وهم) أي فعل ذلك بهم والحال انهم
(يصطرخون فيها) أي يوجدون الصراخ فيها بغاية ما يقدرون عليه من الجهد في الصياح من
البكاء والتوجع يقولون (ربنا) أي أيها المحسن الينا (أخرجنا) أي من النار (نعمل صالحا) ثم
فسروه وبينوه بقولهم (غير الذي كنا نعمل) في الدنيا (فان قيل) هلا اكتفى بقولهم نعمل صالحا
كما اكتفى به في قولهم فارجعنا نعمل صالحا وما فائدة زيادة غير الذي كنا نعمل على أنه يوهم انهم
يعملون صالحا آخر غير الصالح الذي عملوه (أجيب) بأن فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير
الصالح مع الاعتراف به وأما الوهم فزائل بظهور حالهم في الكفر وظهور المعاصي ولانهم كانوا
يحسبون أنهم على سيرة صالحة كما قال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا فقالوا أخرجنا
نعمل صالحا غير الذي كنا نحسبه صالحا فنعمله فيقال لهم توبيخا وتقريعا (أولم نعمركم) أي نطل
أعماركم مع اعطائنا لكم العقول ولم نعاجلكم بالاخذ (ما) أي زمانا (يتذكر فيه من تذكر)
قال عطاء وقتادة والكلبي ثماني عشرة سنة وقال الحسن أربعون سنة وقال ابن عباس ستون
سنة وروى ذلك عن علي وروى البزار أنه صلى الله عليه وسلم قال العمر الذي أعذر الله تعالى
فيه الى ابن آدم ستون سنة وروى البخاري انه صلى الله عليه وسلم قال من عمره الله ستين سنة
فقد أعذر اليه في العمر وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه انه صلى الله
عليه وسلم قال أعمار أمتي ما بين الستين الى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك وقوله تعالى (وجاءكم
النذير) عطف على أولم نعمركم لانه في معنى قد عمرناكم كقوله ألم نربك ثم قال ولبثت وقال تعالى
ألم نشرح لك صدرك ثم قال تعالى ووضعنا عنك وزرك اذ هما في معنى ربيناك وشرحنا واختلف
في النذير فقال الاكثرون هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل القرآن وقال عكرمة وسفيان بن
عيينة ووكيع هو الشيب والمعنى أولم نعمركم حتى شبتم ويقال الشيب نذير الموت وفي الاثر
ما من شعرة تبيض الا قالت لاختها استعدي فقد قرب الموت *ولما تسبب عن ذلك ان عذابهم

(قلت) أراد بالاول ان العذاب لا يبدل بغيره وبالثاني انه لا يحول عن مستحقه الى غيره ويجمع بينهما

لا ينفك قال تعالى (فذوقوا) أي ما أعددناه لكم من العذاب دائماً أبداً (فما للظالمين) أي الذين
وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها (من نصير) أي في وقت الحاجة حتى يرفع العذاب
عنهم قال البقاعي وهذا عام في كل ظالم * ولما كان تعالى عالماً بكل ما خفي وما ثبت قال تعالى (ان
الله) أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً (عالم غيب السموات والارض) لا تخفى عليه خافية فلا
يخفى عليه تعالى أحوالهم وقوله تعالى (انه عليم بذات الصدور) تعليل له لانه اذا علم مضمرات
الصدور وقبل أن يعلمها أربابها حتى تكون غيباً محضاً كان أعلم بغيره ويعلم انكم لو مدت أعماركم
لم ترجعوا عن الكفر أبداً ولو رددتم لعدتم لما نهيتم عنه وانه لا مطمع في صلاحكم * ولما كان
من أنشأ شيأً كان أعلم به قال تعالى (هو) أي وحده لا شركاؤكم ولا غيرهم (الذي جعلكم) أيها
الناس (خلائف في الارض) أي يخلف بعضكم بعضاً وقيل جعلكم أمة واحدة خلفت من
قبلها ورأت فيمن قبلها ما ينبغي أن تعتبر به وقال القشيري أهل كل عصر خليفة عمن تقدمهم فمن
قوم هم لسلفهم جمال ومن قوم هم أراذل وأسافل * (تنبيه) * خلائف جمع خليفة وهو الذي
يقوم بعد الانسان بما كان قائماً به والخلفاء جمع خليف قاله الاصبهاني (فمن كفر فعليه كفره)
أي وبال كفره (ولا) أي والحال أنه لا (يزيد الكافرين) أي المغطين للحق (كفرهم) أي الذي
هم متلبسون به ظانون أنه يسعدهم وهم راسخون فيه غير منتقلين عنه (عند ربهم) أي المحسن
اليهم (الا مقتا) أي غضباً لان الكافر السابق كان ممقوتاً (ولا يزيد الكافرين) أي العريقين
في صفة التغطية للحق (كفرهم الا خساراً) أي للآخرة لان العمر كرأس مال من اشترى به رضا
الله تعالى ربح ومن اشترى به سخط الله تعالى خسر * ولما بين أنه سبحانه هو الذي استخلفهم أكد
بيان ذلك عندهم بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطرهم الى الاعتراف بقوله تعالى (قل) أي
لهم (أرأيتم) أي أخبروني (شركاءكم) أضافهم اليهم لانهم وان كانوا جعلوهم شركاء لم ينالوا
شيأً من شركته لانهم ما نقصوه شيأً من ملكه وانما شاركوا العابدين في أموالهم بالسوائب
وغيرها وفي أعمالهم فهم شركاؤهم بالحقيقة لا شركاؤه ثم بين المراد من عدهم لهم شركاء بقوله
تعالى (الذين تدعون) أي تعبدون (من دون الله) أي غيره وهم الاصنام الذين زعمتم انهم شركاء
الله تعالى (أروني) أي أخبروني (ماذا) أي الذي أو أي شيء (خلقوا من الارض) أي ان صح لكم
دعوى الشركة فيهم والانفاد عاؤكم ذلك فيهم كذب محض وانكم تدعون أنكم أبعد الناس منه
في الامور الهينة فكيف بمثل هذا (أم لهم شرك) أي شركة مع الله تعالى وان قلت (في السموات)
أي أروني ماذا خلقوا لكم من السموات فالآية من الاحتباك حذف أولاً الاستفهام عن
الشركة في الارض لدلالة مثله في السماء ثانياً عليه وحذف الامر بالاراءة ثانياً لدلالة مثله أولاً
عليه (أم آتيناهم كتاباً) ينطق على انا اتخذناهم شركاء (فهم) الاحسن في هذا الضمير أن يعود على
الشركاء لتناسق الضمائر وقيل يعود على المشركين قاله مقاتل فيكون التفاتاً من خطاب الى
غيبة (على بينة) أي حجة (منه) بان لهم معي شركة ولما كان التقدير لا شيء لهم من ذلك قال تعالى
منبهاً على ذميم أحوالهم وسفه آرائهم وخسة هممهم ونقصان عقولهم (بل ان) أي ما (يعد
الظالمون) أي الواضعون الاشياء في غير موضعها (بعضهم بعضاً) أي الاتباع للمتبوعين بان
شركاءهم تقربهم الى الله تعالى زلفى وأنهم تشفع وتضر وتنفع (الا غروراً) أي باطلاً ولما بين

هذا تتميم التهديد المبني على القبح مذكره في قوله تعالى ولا يحيق المكر السيء الا باهله

تعالى

تعالى حقارة الاصنام بين عظمته سبحانه بقوله تعالى (ان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (يمسك السموات) أى على كبرها وعلوها (والارض) أى على سعتها وبعدها عن التماسك على ما تشاهدون وقوله تعالى (أن تزولا) أى برجة عظيمة وزلزلة كبيرة يجوز أن يكون مفعولا من أجله أى كراهة أن تزولا وقيل لئلا تزولا ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا على اسقاط الخافض أى يمنعهما من ان تزولا ويجوز ان يكون بدل اشتمال أى يمنع زوالهما لان ثباتهما على ما هما عليه على غير القياس لولا شامخ قدرته وباهر عزته وعظمته فان ادعيتم عنادا أن شركاءكم لا يقدرون على الخلق لعلة من العلل فادعوهم لازالة ما خلق الله تعالى ولما كان فى هذا دليل على انهما حادثتان زائلتان اتبعه ما هو ابين منه بقوله تعالى معبرا باداة الامكان (ولئن) لام قسم (زالتا) أى بزلزلة خراب او غير ذلك وقوله تعالى (ان) أى ما (امسكهما من احد من بعده) جواب القسم الموطأ بلام القسم وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب القسم ولذلك كان فعل الشرط ماضيا وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى والجملة سدت مسد الجوابين فيه تجوز فالمراد بسدها مسدهما انها تدل عليهما لا انها قائمة مقامهما اذ يلزم أن تكون معمولة وغير معمولة لانها باعتبار جواب القسم لا محل لها من الاعراب وباعتبار جواب الشرط لها محل ومن فى من أحد مزيدة لتأكيد الاستغراق وفى من بعده لابتداء الغاية والمعنى أحد سواه أو من بعد الزوال (انه كان) أى أزلا وأبدا (حليما) اذ أمسكهما وكانتا جديرتين بان تهدا هدا كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا لانه لا يستعجل الا من يخاف الفوت فينتهز الفرصة (غفورا) أى محاء للذنوب من رجع اليه وأقبل بالاعتراف عليه فلا يعاقبه ولا يعاتبه ولما بلغ كفار مكة ان أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم (وأقسموا) أى كفار مكة (بالله) أى الذى لا يقسم بغيره (جهد ايمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لئن جاءهم نذير) أى رسول (ليكونن أهدى من احدى الامم) أى اليهود والنصارى وغيرهم أى أية واحدة منها لما رأوا من تكذيب بعضها بعضا اذ قالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ (فلما جاءهم نذير) أى على ما شرطوا وزيادة وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى كانوا يشهدون أنه خيرهم نفسا وأشرفهم نسبا وأكرمهم خلقا (ما زادهم) أى مجيئه شيأ مما هم عليه من الاحوال (الا نفورا) أى تباعدا عن الهدى لانه كان سببا فى زيادتهم فى الكفر كالابل التى كانت نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بسبب دعائه نفرة فصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها فتبين أنه لا عهد لهم مع ادعائهم انهم أوفى الناس ولا صدق عندهم مع جزمهم بانهم أصدق الخلق ثم علل نفورهم بقوله تعالى (استكبارا) أى طلبا لايجاد الكبر لانفسهم (فى الارض) أى التى من شأنها السفول والتواضع والخمول فلم يكن نفورهم لامر محمود ولا مباح ويجوز أن يكون استكبارا بدلا من نفورا وأن يكون حالا أى حال كونهم مستكبرين قاله الاخفش وقوله تعالى (ومكر السيء) فيه وجهان أظهرهما أنه عطف على استكبارا والثانى أنه عطف على نفورا وهذا من اضافة الموصوف الى صفته فى الاصل اذ الاصل والمكر السيء والبصريون يؤولونه على حذف موصوف أى العمل السيء أى الذى من شأنه أن يسوء صاحبه وغيره وهو اراداتهم لاهانة أمر النبى صلى الله عليه

•(سورة يس)•

(قوله انا اليكم مرسلون) قاله هنا بغير تاكيد باللام لانه ابتداء اخبار وقاله

وسلم ليطفئوا نور الله عز وجل وقال الكلبي هو اجتماعهم على الشرك وقتل النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ حمزة في الوصل بهمزة ساكنة أي بنية الوقف اشارة الى تدقيقهم المكر واتقانه واخفائه جهدهم والباقون بهمزة مكسورة واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء وأدغم الياء الاولى في الياء الثانية ووقف الباقون بهمزة ساكنة (ولا) أي والحال أنه لا (يحيق) أي يحيط احاطة لازمة ضارة (المكر السيئ) أي الذي هو عريق في السوء (الا بأهله) أي وان آذى غير أهله لكنه لا يحيط بذلك الغير (فان قيل) كثيرا ما نرى الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك (أجيب) بأجوبة أحدها أن المكر في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي صلى الله عليه وسلم من العزم على القتل والاخراج ولم يحق الا بهم حيث قتلوا يوم بدر وغيره ثانيها أنه عام وهو الاصح ويدل له قول الزهري بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فان الله تعالى يقول وقرأ هذه الآية ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا يقول الله تعالى انما بغيكم على أنفسكم ولا تنكثوا ولا تعينوا ناكثا قال الله تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه ثالثها أن الاعمال بعواقبها ومن مكر بغيره ونفذ فيه المكر عاجلا في الظاهر فهو في الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك كمثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى (فهل ينظرون) أي ينتظرون (الا سنت الاولين) أي سنة الله تعالى فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلهم والمعنى فهل ينتظرون الا أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار ولما كان هذا النظر يحتاج الى صفاء في اللب وذكاء في النفس عدل عن ضميرهم الى خطاب أعلى الخلق بقوله تعالى (فلن تجد) أي في وقت من الاوقات (لسنت الله) أي طريقة الملك الاعظم التي شرعها وحكم بها وهي اهلاك العاصين وانجاء الطائعين (تبديلا) أي من أحد يأتي بسنة غيرها تكون بدلا لها لانه تعالى لا مكافئ له (ولن تجد لسنت الله) أي الذي لا أمر لاحد معه (تحويلا) أي من حالة الى أخف منها لانه لا مرد لقضائه (فائدة) رسم سنت لسنت لسنت الثلاثة بالتاء المجرورة كما رأيت ووقف أبو عمرو وابن كثير والكسائي بالهاء والباقون بالتاء واذا وقف الكسائي أمال الهاء على أصله ولما ذكر الله تعالى الاولين وسنته في اهلاكهم نبههم بتذكير حال الاولين بقوله تعالى (أولم يسيروا) أي فيما مضى من الزمان (في الارض) أي التي ضربوا في المتاجر بالسير اليها في الشأم واليمن والعراق (فينظروا) أي فيتسبب عن ذلك السير أنه يتجدد لهم نظر واعتبار يوما من الايام فان العاقل من اذا رأى شيأ تفكر فيه حتى يعرف ما ينطق به لسان حاله ان خفي عنه ما جرى من مقاله وأشار بسوقه في أسلوب الاستفهام الى أنه لعظمه خرج من أمثاله فاستحق السؤال عن حاله (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (الذين من قبلهم) أي على أي حالة كان آخر أمرهم ليعلموا أنهم ما أخذوا الا بتكذيب الرسل عليهم السلام فيحذروا أن يفعلوا مثل أفعالهم فيكون حالهم كحالهم فانهم كانوا يمرون على ديارهم ويرون آثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم وكانوا أطول منهم أعمارا وأشد اقتدارا ومع هذا لم يكذبوا مثل محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم يا أهل مكة كفرتم بمحمد ومن قبله عليهم السلام (وكانوا) أي أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا والحال أنهم كانوا (أشد منهم) أي من هؤلاء (قوة وما كان الله) أي الذي له جميع العظمة وأكد الاستغراق في النفي بقوله تعالى

(ليعجزه)

بعد ما تأكد بهم الانه بعد انكار جواب بعد انكار وتكذيب فاحتيج الى التأكيد (قوله وما لى لا أعبد الذى فطرنى واليه

(ليعجزه) أي مريد الان يعجزه ولما انتفت ارادة العجز عنه انتفى العجز بطريق الاولى وأبلغ في
التأكيد بقوله تعالى (من شئ) أي قل أوجل وعمم ما يصل اليه ادراككنا بقوله تعالى (في
السموات) أي جهة العلو وأكد بقوله عزوجل (ولا في الارض) أي جهة السفل (انه كان) أي
أزلا وأبدا (عليما) أي بالاشياء كلها حقيرها وجليلها (قديرا) أي كامل القدرة أي فلا يريد شيأ
الا كان ولما كانوا يستعجلون بالتوعد استهزاء كقولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك
فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم على ان التقدير ولو عاملكم الله تعالى معاملة
المؤاخذ لعجل اهلاككم عطف عليه قوله تعالى اظهار الحكم مع العلم (ولو يؤاخذ الله) أي
بماله من صفات العلو (الناس) أي المكلفين (بما كسبوا) أي من المعاصي (ماترك على
ظهرها) أي الارض (من دابة) أي نسمة تدب عليها كما كان في زمن نوح عليه السلام أهلك الله
تعالى ما على ظهر الارض الا من كان في السفينة مع نوح (فان قيل) اذا كان الله تعالى يؤاخذ
الناس بما كسبوا فما بال الدواب (أجيب) بان المطر انعام من الله في حق العباد واذا لم يستحقوا
الانعام قطعت الامطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الارض فيموت جميع الحيوانات وبأن
خلقة الحيوانات نعمة والمعاصي تزيل النعم وتحل النقم والدواب أقرب النعم لان المفرد أولا
ثم المركب والمركب اما أن يكون معدنا واما أن يكون ناميا والنامي اما أن يكون حيوانا أو نباتا
والحيوان اما انسان أو غير انسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للانسان
(فان قيل) كيف يقال لما عليه الخلق من الارض وجه الارض وظهر الارض مع أن الظهر
مقابله الوجه فهو كالتضاد (أجيب) بأن الارض كالدابة الحاملة للاثقال والحمل يكون على
الظهر وأما وجه الارض فلان الظاهر من باب والبطن والباطن من باب فوجه الارض ظهر
لانه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن (ولكن) لم يعاملهم معاملة المؤاخذ المناقش بل يحلم
عنهم فهو (يؤخرهم) أي في الحياة الدنيا ثم في البرزخ (الى أجل مسمى) أي سماه في الازل لانقضاء
أعمارهم ثم يبعثهم من قبورهم وهو تعالى لا يبدل القول لديه لما له من صفات الكمال (فاذا جاء
أجلهم) أي الفناء الاعدامي قبض كل واحد منهم عند أجله أو الايجادي الابقائي بعث كل منهم
لجزائه بعمله (فان الله) أي الذي له الصفات العليا (كان) ولم يزل (بعباده) الذين أوجدهم ولا
شريك له في ايجاد واحد منهم بجميع ذواتهم وأحوالهم (بصيرا) أي بالغ البصر والعلم بمن
يستحق العذاب ومن يستحق الثواب قال ابن عباس يريد أهل طاعته وأهل معصيته وما رواه
البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الملائكة دعته يوم
القيامة ثمانية أبواب الجنة ان ادخل من أي الابواب شئت حديث موضوع

سورة يس مكية

وهي ثلاث وثمانون آية وسبعمائة وتسعة وعشرون كلمة
وثلاثة آلاف حرف

وتسمى أيضا القلب والدافعة والقاضية والمعممة تعم صاحبها بخير الدارين وتدفع عنه كل سوء
وتقضي له كل حاجة والبيضاوي ذكر هذه التسمية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال شيخنا القاضي

البعث اليوم مع علمه بان الله
فطرهم واياه واليه يرجع
هو وهم فلم يقل الذى
فطرنا واليه نرجع او فطركم

زكريا لم أره ولكن المثبت مقدم على النافى (بسم الله) أى الذى جل ملكه عن أن يحاط بمقداره (الرحمن) الذى جعل انذاره يوم الجمع رحمة عامة (الرحيم) الذى أنار قلوب أوليائه بالاجتهاد ليوم لقائه وقوله تعالى (يس) كالم فى المعنى والاعراب وقال ابن عباس يس قسم وروى عن شعبة ان معناه يا انسان بلغة طيئ على ان أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثرة النداء به كما قيل م الله فى أيمن الله وقال أكثر المفسرين يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم قاله الحسن وسعيد بن جبير وجماعة وقال أبو العالية يا رجل وقال أبو بكر الوراق يا سيد البشر قال ابن عادل فى ذكر هذه الحروف أوائل السور أمور تدل على انها غير خالية من الحكمة لكن علم الانسان لا يصل اليها والذى يدل على أنها فيها حكمة هو أن الله عز وجل ذكر من الحروف نصفها وهى أربعة عشر حرفا نصف ثمانية وعشرين حرفا هى جميع الحروف التى فى لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ثم ان الله تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الالف الى الذال والتسعة الاخيرة من الفاء الى الياء وعشرة فى الوسط من الراء الى الغين وذكر من القسم الاول حرفين الالف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الاخير حرفين هما الالف واللام وذكر سبعة ولم يترك من القسم الاول من حروف الحلق والصدر الا واحدا لم يذكره وهو الخاء ولم يذكر من القسم الاخير من حروف الشفة الا واحدا لم يتركه وهو الميم والعشر الاوسط ذكر منه حرفا وترك حرفا فترك الزاى وذكر الراء وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين وليس لها أمر يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة لكنها غير معلومة وهب ان واحدا يدعى فيه شيأ فماذا يقول فى كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن وق وص وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه وبعضها بثلاثة أحرف كالم وطسم والر وبعضها بأربعة أحرف كسورة المر والمص وبعضها بخمسة أحرف كسورة حم عسق وكهيعص وهب أن قائلا يقول ان هذه اشارة بان الكلام اما حرف واما فعل واما اسم والحرف كثيرا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وان للشرط وغيرها والفعل والاسم والحرف جاءت ثلاثة أحرف كالى وعلى فى الحرف والى وعلى فى الاسم وألا يألو بالواو وعلا يعلو فى الفعل والاسم والفعل جاآ على أربعة أحرف والاسم خاصة جاء على ثلاثة أحرف وأربعة وخمسة كجمل وصعد وجردحل فجاء فى القرآن اشارة الى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل فى تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر الا الله تعالى ومن أعلمه الله تعالى به واذا علم هذا فالعبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية وكل واحد منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم أما القلبية مع انها ابعد عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا وانما وجب الايمان به والاعتقاد معا كالصراط الذى هو ادق من الشعر واحد من السيف ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الاعمال التى لا ثقل لها فى نظر الناظر وكيفية الجنة والنار فان هذه الاشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى وانما المعلوم بالعقل امكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله تعالى

وصدق

قوله هما الالف واللام هكذا بالنسخ ولعل صوابه الفاء والواو كما بهامش بعض النسخ اه مصححه

ترجعون) قائله الجلال من آخر المدينة (ان كانت) كيف أضاف الفطرة الى نفسه والرجوع الذى هو

وصدق الرسل وكذلك في العبادات البدنية الخارجية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات والحكمة في ذلك ان العبد اذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة فلا يكون الاتيان الا لمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي للفائدة وان لم يؤمر كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزا هو لك فانه ينقلها وان لم يؤمر واذا علم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه اذا تكلم به العبد علم انه لا يعقل غير الانقياد لامر المعبود الالهي فاذا قال حم طس يس علم انه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما امر به انتهى كلام ابن عادل بحروفه وهو كلام دقيق وقرأ يس بامالة الياء شعبة وحمزة والكسائي والباقون بالفتح وأظهر النون من يس عند واو (والقرآن) قالون وابن كثير وابو عمرو وحفص وحمزة وأدغم الباقون وهي واو القسم أو العطف ان جعل يس مقسما به ثم وصف القرآن بقوله تعالى (الحكيم) أي المحكم بعظيم النظم وبديع المعاني وقوله تعالى (انك لمن المرسلين) أي الذين حكمت عقولهم على دواعي نفوسهم فصاروا بما وهبهم الله من القوة النورانية وبما تخلقوا به من أوامره ونواهيه كالملائكة الذين تقدم ذكرهم في السورة الماضية انهم رسله جواب القسم وهو رد على الكفار حيث قالوا لست مرسلا (فان قيل) المطلب يثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة بالاقسام (اجيب) بأوجه اولها ان العرب كانوا يتقون الايمان الفاجرة وكانوا يقولون ان الايمان الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ثم انهم كانوا يقولون ان النبي صلى الله عليه وسلم يصيبه من آلهتهم وهي الكواكب عذاب والنبي صلى الله عليه وسلم يحلف بامر الله وانزال كلامه عليه باشياء مختلفة وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم ارفع شانا وامنع مكانا فكان ذلك يوجب اعتقادا انه ليس بكاذب ثانيها ان المتناظرين اذا وقع بينهما كلام وغلب احدهما الآخر بتمشية دليله واسكته يقول المغلوب انك قررت هذا بقوة جدالك وانت خبير في نفسك بضعف مقالتك وتعلم ان الامر ليس كما تقول وان أقمت عليه الدليل صورة وعجزت انا عن القدح فيه وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر لان الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الاول فلا يجد أمرا الا اليمين فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم أقام البراهين وقالت الكفرة ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين فالتمسك بالايمان لعدم فائدة الدليل ثالثها ان هذا ليس بمجرد الحلف بل دليل خرج في صورة اليمين لان القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك (فان قيل) لم لم يذكر في صورة الدليل وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين (اجيب) بان الدليل اذا ذكر في صورة اليمين واليمين لا يقع ولا سيما من العظيم الاعلى الا على امر عظيم والامر العظيم تتوفر الدواعي على الاصغاء اليه فلصورة اليمين يقبل عليه السامع لكونه دليلا شافيا يسر به الفؤاد فيقع في السمع وفي القلب وقوله تعالى (على صراط) اى طريق واسع واضح (مستقيم) اى هو التوحيد والاستقامة في الامر يجوز ان يكون متعلقا بالمرسلين تقول ارسلت عليه كذا قال تعالى وارسل عليهم طيرا

واليه ترجعون (قلت) لان الخلق والايجاد نعمة من الله توجب الشكر والبعث بعد الموت للجزاء وعيد من

ابابيل وان يكون متعلقا بمحذوف على انه حال من الضمير المستكن في لمن المرسلين لوقوعه خبرا وان يكون حالا من المرسلين وان يكون خبرا ثانيا لانك وقرأ قنبل سراط بالسين عوضا عن الصاد وخلف بالاشمام وهو بين الصاد والزاى والباقون بالصاد الخالصة ولما كان كأنه قيل ماهذا الذي ارسل به كان كأنه قيل جوابا هو القرآن الذي وقع الاقسام به وهو (تنزيل) او حال كونه تنزيل (العزيز) اى المتصف بجميع صفات الجلال (الرحيم) اى الحاوى لجميع صفات الاكرام الذي ينعم على من يشاء من عباده بعد الانعام بايجادهم فهو الواحد المنفرد في ملكه وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي تنزيل بالنصب على الحال كما مر أو باضمار أعني والباقون بالرفع على انه خبر مبتدأ مضمر كما مر ولما ذكر تعالى المرسل وهو الله تعالى والمرسل وهو النبي صلى الله عليه وسلم والمرسل به وهو القرآن ذكر المرسل اليهم بقوله تعالى (لتنذر قوما) أي ذوى بأس وقوة وذكاء وفطنة (ما أنذر) اى لم تنذر أصلا (آباؤهم) أي لم ينذروا في زمن الفترة (فهم) أي بسبب زمان الفترة (غافلون) أي عن الايمان والرشد وقوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) فيه وجوه أشهرها أن المراد بالقول هو قوله تعالى لقد حق القول مني لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ثانيها أن معناه لقد سبق في علمه تعالى أن هذا يؤمن وهذا لا يؤمن فحق القول اى وجب وثبت بحيث لا يبدل بغيره كما قال تعالى ما يبدل القول لدى ثالثها المراد لقد حق القول الذي قاله الله تعالى على لسان الرسل من التوحيد وغيره (فهم) أي بسبب ذلك (لا يؤمنون) أي بما يأتى اليهم من الانذار بل يزيدهم عمى استكبارا في الارض ومكر السيء ونزل في أبي جهل وصاحبه (انا جعلنا في أعناقهم أغلالا) اى بان تضم اليها الايدى لان الغل يجمع اليد الى العنق وذلك ان أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمدا صلى الله عليه وسلم يصلى ليرضخن رأسه فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به فلما رفعه أثبتت يده الى عنقه ولزق الحجر بيده الى عنقه فلما رجع الى أصحابه واخبرهم بما رأى سقط الحجر فقال رجل من بني مخزوم انا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلى ليرميه بالحجر فاعمى الله تعالى بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه فرجع الى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له ما صنعت فقال ما رأيته ولقد سمعت كلامه وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لا كلني فانزل الله تعالى هذه الآية ووجه المناسبة لما تقدم انه لما قال تعالى لقد حق القول على أكثرهم وتقدم أن المراد به البرهان وقال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من ارسال الحجر وهو مضطر الى الايمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلا وقال أهل المعاني هذا على طريق المثل ولم يكن هناك غل أراد منعناهم عن الايمان بموانع فجعل الاغلال مثلا لذلك فهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغنى عنهم الآيات والنذر بتمثيلهم بالذين غلت أيديهم وقال الفراء معناه حبسناهم عن الانفاق في سبيل الله كقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك معناه ولا تمسكها عن النفقة ومناسبة هذا لما تقدم أن قوله تعالى فهم لا يؤمنون يدخل فيه انهم لا يصلون لقوله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم اى صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون واختلف في عود الضمير في قوله تعالى (فهى الى الاذقان) على وجهين أشهرهما انه عائد على

الله يوجب الزجر فاضاف ما يقتضى الشكر الى نفسه لانه أليق بايمانه وما يقتضى الزجر اليهم لانه أليق بكفرهم (قوله ان

الاغلال

الاغلال لانها هي المحدث عنها ومعنى هذا الترتيب بالفاء أن الغل لغلظه وعرضه يصل الى الذقن لانه يلبس العنق جميعه قال الزمخشري والمعنى انا جعلنا في أعناقهم اغلالا ثقالا بحيث تبلغ الى الاذقان فلم تمكن المغلول معها من أن يطاطئ رأسه ثانيهما ان الضمير يعود الى الايدي واليه ذهب الطبري وعليه جرى الجلال المحلي لان الغل لا يكون الا في العنق واليدين ودل على الايدي وان لم تذكر الملازمة المفهومة من هذه الآلة اعني الغل وقرأ قالون وابو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها والاذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين (فهم مقمحون) اي رافعو رؤسهم غاضون ابصارهم في انهم لا يلتفتون لفتة الى الحق ولا يعطفون اعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤسهم له والاقماح رفع الراس الى فوق كالاقناع وهو من قمح البعير رأسه اذا رفعها بعد الشرب اما لبرودة الماء واما لكراهة طعمه ٭ ولما كان الرافع رأسه غير ممنوع من النظر أمامه قال تعالى (وجعلنا) اي بعظمتنا (من بين أيديهم) اي الوجه الذي يمكنهم علمه (سدا) فلا يسلكون طريق الاهتداء ٭ ولما كان الانسان اذا انسدت عليه جهة مال الى اخرى قال تعالى (ومن خلفهم) اي الوجه الذي هو خفي عنهم (سدا) فلا يرجعون الى الهداية فصارت كل جهة يلتفتون ليها منسدة فصار والذلك لا يمكنهم النظر الى الحق ولا الخلوص اليه فلذلك قال تعالى (فاغشيناهم) اي جعلنا على ابصارهم بما لنا من العظمة غشاوة (فهم) اي بسبب ذلك (لا يبصرون) اي لا يتجدد لهم هذا الوصف من ابصار الحق وما ينفعهم بصر ظاهر ولا بصيرة باطنة وأيضا الانسان مبدؤه من الله تعالى ومصيره اليه فعمى الكافرين بان لا يبصروا ما بين أيديهم من المصير الى الله تعالى وما خلفهم من الدخول في الوجود بخلق الله تعالى لكن أحاط بهم السد فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم وورائهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل وأيضا فان السالك اذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع فاذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه والموضع الذي هو فيه لا يكون موضع اقامة هلك (فان قيل) ذكر السد من بين الايدي ومن الخلف ولم يذكره من اليمين والشمال فما الحكمة في ذلك (أجيب) بأنهم اذا قصدوا السلوك الى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين الى شئ ومولين عن شئ فصار ما اليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله تعالى السد هنالك فيمنعه من السلوك فكيفما توجه الكافر يجعل الله تعالى بين يديه سدا وقرأ حمزة والكسائي وحفص سدا بفتح السين في الموضعين وهو لغة فيه والباقون بالضم ٭ ولما منعوا بذلك حس البصر أخبر عن حس السمع بقوله تعالى (وسواء عليهم) اي مستو ومعتدل غاية الاعتدال (أأنذرتهم) اي بما أخبرناك به من الزواجر المانعة للكفر (أم لم تنذرهم لا يؤمنون) لانهم ممن علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون وقد سبق أيضا في البقرة تفسيره والكلام على الهمزتين ثم بين الله تعالى الاول الناجي لانه المقصود بالذات بقوله تعالى (انما تنذر) اي انذارا ينفع المنذر فيتأثر عنه النجاة (من اتبع الذكر) اي القرآن بالتأمل فيه والعمل به (وخشي الرحمن) اي خاف عقابه (بالغيب) اي قبل موته ومعاينة أهواله أو في سريرته ولا يغتر برحمته فانه تعالى كما هو رحمن رحيم منتقم جبار (فبشره) اي بسبب خشيته بالغيب (بمغفرة) أي لذنوبه وان عظمت

(كانت الا صيحة واحدة) ذكره مرتين وليس بتكرار لان الاولى هي النفخة التي تموت بها الخلق

وتكررت • ولما حصل العلم بمحو الذنوب عينها وأثرها قال تعالى (وأجر كريم) اى هو الجنة فانها دار لا كدر فيها بوجه والمقصود منها هو النظر لوجهه الكريم اللهم متعنا وحبينا بالنظر الى وجهك الكريم • ولما ذكر تعالى خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو احياء الموتى بقوله تعالى (انا نحن) اى بما لنا من العظمة التى لا تضاهى (نحي الموتى) اى كلهم حسا بالبعث ومعنى بالانقاذ اذا اردنا من ظلمة الجهل (ونكتب) اى جملة عند نفخ الروح وشيأ فشيأ بعده فلا يتعدى التفصيل شيأ فى ذلك الاجمال (ما قدموا) اى واخروا من جميع افعالهم واقوالهم واحوالهم من صالح وغيره فاكتفى باحدهما لدلالة الآخر عليه كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر اى والبرد وقيل المعنى ما اسلفوا من الاعمال صالحة كانت او فاسدة كقوله تعالى بما قدمت ايديهم اى بما قدموا فى الوجود واوجدوه وقيل نكتب نياتهم فانها قبل الاعمال وقوله تعالى (وآثارهم) فيه وجوه احدها وهو مبنى على التفسير الاخير وهو كتب النيات المراد بالآثار الاعمال ثانيها ما سنوا من سنة حسنة وسيئة فالحسنة كالكتب المصنفة والقناطر المبنية والسيئة كالظلامات المستمرة التى وضعها الظلمة والكتب المضلة قال صلى الله عليه وسلم من سن فى الاسلام سنة حسنة فعمل بها من بعده كان له اجرها ومثل اجر من عمل بها من غير ان ينقص من اجورهم شيأ ومن سن فى الاسلام سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير ان ينقص من اوزارهم شيأ ثالثها خطاهم الى المساجد لما روى ابو سعيد الخدرى قال شكت بنو سلمة بعد منازلهم عن المسجد فانزل الله تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم فقال صلى الله عليه وسلم ان الله يكتب خطواتكم ومشيكم ويثيبكم عليها وقال صلى الله عليه وسلم اعظم الناس اجرا فى الصلاة ابعدهم ممشى والذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الامام اعظم اجرا من الذى يصلى ثم ينام (فان قيل) الكتابة قبل الاحياء فكيف اخر فى الذكر حيث قال تعالى نحي الموتى ونكتب ولم يقل نكتب ما قدموا ونحييهم (اجيب) بان الكتابة معظمة لامر الاحياء لان الاحياء ان لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة فى نفسها ان لم يكن هناك احياء ولا اعادة لا يبقى لها اثر اصلا والاحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لامره فلهذا قدم الاحياء لانه تعالى قال انا نحن وذلك يفيد العظمة والجبروت والاحياء العظيم يختص بالله تعالى والكتابة دونه تقرير التعريف الامر العظيم وذلك مما يعظم ذلك الامر العظيم ولما كان ذلك الامر ربما اوهم الاقتصار على ما ذكر من احوال الآدميين دفع ذلك بقوله تعالى (وكل شئ) من امور الدنيا والآخرة (احصيناه) اى قبل ايجاده بعلمنا القديم احصاء وحفظا وكتبناه (فى امام) وهو اللوح المحفوظ (مبين) اى لا يخفى فيه شئ من جميع الاحوال والاقوال فهو تعميم بعد تخصيص لانه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه بل كل شئ محصى فى امام مبين وهذا يفيد ان شيأ من الاقوال والافعال لا يعزب عن علم الله تعالى ولا يفوته كقوله تعالى وكل شئ فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر يعنى ليس ما فى الزبر منحصرا فيما فعلوه بل كل شئ مكتوب لا يبدل فان القلم جف بما هو كائن فلما قال تعالى نكتب ما قدموا بين ان قبل ذلك كتابة اخرى فان الله تعالى كتب عليهم انهم سيفعلون كذا وكذا ثم اذا فعلوا كتب عليهم انهم فعلوه وقيل ان ذلك مؤكد لمعنى

والثانيـة هي التي يحيابها
انخلق (قوله لا الشمس
ينبغي لها أن تدرك القمر)
ان قلت كيف اتى تعالى

قوله تعالى ونكتب لان من يكتب شيأ في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال تعالى نكتب ونحفظ ذلك في امام مبين وهو كقوله تعالى علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى وقوله سبحانه وتعالى (واضرب) بمعنى واجعل (لهم) وقوله تعالى (مثلا) مفعول أول وقوله تعالى (أصحاب) مفعول ثان والاصل واضرب لهم مثلا مثل أصحاب (القرية) فترك المثل وأقيم الاصحاب مقامه في الاعراب كقوله تعالى واسئل القرية قال الزمخشري وقيل لا حاجة الى الاضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلا أو مثل أصحاب القرية بهم قال المفسرون المراد بالقرية انطاكية وقوله تعالى (اذ جاءها) الخ بدل اشتمال من أصحاب القرية أي اذ جاء أهلها (المرسلون) أي رسل عيسى عليه السلام واضافه الى نفسه في قوله تعالى (اذ أرسلنا اليهم اثنين) لانه فعل رسوله عليه السلام واذ أرسلنا الخ بدل من اذ الاولى وفي هذا لطيفة وهي أن في القصة أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم الى انطاكية فقال تعالى ارسال عيسى عليه السلام هو ارسالنا ورسول رسول الله باذن الله رسول الله فلا تقهم يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وانما هم رسل الله تعالى فتكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله تعالى اذ أرسلنا ويؤيد هذا مسئلة فقهية وهي ان كل وكيل للوكيل باذن الموكل عند الاطلاق وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل اياه وينعزل اذا عزله الموكل الاول * (تنبيه) * في بعث الاثنين حكمة بالغة وهي أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام باذن الله تعالى فكان عليهما انهاء الامر اليه والاتيان بما أمر الله تعالى والله سبحانه عالم بكل شيء لا يحتاج الى شاهد يشهد عنده وأما عيسى عليه السلام فبشر فأمر الله تعالى بارسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى عليه السلام حجة تامة وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم في الوصل وحمزة والكسائي بضمهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما لو وقف فحمزة بضم الهاء والباقون بكسرها والجميع في الوقف بسكون الميم (فكذبوهما) أي مع ما لهما من الآيات لان من المعلوم انا ما أرسلنا رسولا الا كان معه من الآيات ما مثله آمن عليه البشر سواء كان عنا من غير واسطة أو كان بواسطة رسولنا كما كان للطفيل بن عمرو الدوسي ذي النور بن لما ذهب الى قومه وسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون له آية فكانت نورا في جبهته ثم سأل أن تكون في غير وجهه فكانت في سوطه * ولما كان التظافر على الشيء أقوى لشأنه وأعون على ما يراد منه تسبب عن ذلك قوله تعالى (فعززنا) أي قوينا (بثالث) يقال عزز المطر الارض أي قواها ولبدها ويقال لتلك الارض العزاز وكذا كل أرض صلبة وتعزز لحم الناقة أي صلب وقوي والمفعول محذوف أي فقويناهما بثالث أو فغلبناهما بثالث لان المقصود من البعثة نصرة الحق لا نصرتهما والكل كانوا مقوين للدين بالبرهان قال وهب اسم المرسلين يحيى ويونس واسم الثالث شمعون وقال كعب الرسولان صادق وصدوق والثالث سلوم وقرأ شعبة بتخفيف الزاي الاولى والباقون بتشديدها والزاي الثانية ساكنة بلا خلاف (فقالوا انا اليكم مرسلون) وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل اليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا حبيبا النجار يرعى غنما فسلما عليه فقال من أنتما فقالا رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم من عبادة الاوثان الى عبادة الرحمن فقال أمعكما آية قالا نعم نشفي المريض

الادراك عن الشمس للقمر دون عكسه (قلت) لان سير القمر اسرع لانه يقطع فلكه في شهر والشمس

وتبرئ الأكمه والأبرص باذن الله تعالى فقال ان لى ابنا مريضا منذ سنين قالا فانطلق بنا ننظر حاله فأتى بهما الى منزله فمسحاه فقام فى الوقت باذن الله تعالى صحيحا ففشا الخبر فى المدينة وآمن حبيب النجار وشفى الله تعالى على أيديهما كثيرا من المرضى وكان لهم ملك اسمه انطيخس وكان من ملوك الروم فانتهى الخبر اليه فدعاهما فقال لهما من أنتما فقالا رسولا عيسى عليه السلام قال وفيم جئتما قالا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر الى عبادة من يسمع ويبصر قال أولنا اله دون آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال قوما حتى أنظر فى أمركما وأمر بحبسهما وجلد كل واحد منهما مائة جلدة فلما كذبا وضربا بعث عيسى عليه السلام رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما لينصرهما فدخل البلد متنكرا وجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به وأوصلوا خبره الى الملك فدعاه فرضى عشرته وأنس به وأكرمه ثم قال له ذات يوم أيها الملك بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن وضربتهما حين دعوا الى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما فقال الملك حال الغضب بينى وبين ذلك قال فان رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ما عندهما فدعاهما الملك فقال لهما شمعون من أرسلكما الى ههنا قالا الله تعالى الذى خلق كل شئ وليس له شريك فقال لهما شمعون فصفاه وأوجزا قالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال لهما شمعون وما آيتكما قالا ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة فمازالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما فى حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب الملك فقال شمعون للملك أرأيت ان سألت الهك يصنع مثل هذا حتى يكون لك الشرف ولالهتك فقال الملك ليس لى عنك سر ان الهنا الذى نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون اذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويصلى كثيرا ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم ثم قال الملك لهما ان قدر الهكما الذى تعبدانه على احياء ميت آمنا به وبكما قالا الهنا قادر على كل شئ فقال الملك ان هنا ميتا مات منذ سبعة أيام ابن لدهقان وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائبا فجاؤا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو ربه سرا فقام الميت وقال انى دخلت سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله تعالى ثم قال فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسنا يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن الثلاثة قال شمعون وهذان وأشار الى صاحبيه فتعجب الملك لما علم شمعون أن قوله أثر فى الملك أخبره بالحال ودعاه فآمن الملك وآمن قوم وكفر آخرون فمن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا وقيل ان ابنة الملك كانت قد توفيت ودفنت فقال شمعون للملك اطلب من هذين الرجلين أن يحييا ابنتك فطلب الملك منهما ذلك فقاما وصليا ودعوا الله تعالى وشمعون معهما فى السر فأحيا الله تعالى المرأة ثم انشق القبر عنها فخرجت وقالت أسلموا فانهما صادقان قالت ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت من الرسولين أن يرداها الى مكانها فذرا ترابا على رأسها فعادت الى قبرها كما كانت وقال ابن اسحق عن كعب ووهب بل كفروا واجتمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبا وهو على باب المدينة الاقصى فجاء يسعى اليهم يذكرهم ويدعوهم الى طاعة المرسلين (قالوا) أى أهل القرية للرسل (ما أنتم) أى وان زاد عددكم (الا بشر مثلنا) لا مزية لكم علينا فما وجه الخصوصية لكم فى كونكم

لا تقطع فلكها الا فى سنة فكانت جديرة بان توصف بنفى الادراك لبطء سيرها والقمر خليقا بان يوصف

رسلا

وسلادونا فجعلوا كونهم بشرا مثلهم دليلا على عدم الارسال وهذا عام فى المشركين قالوا فى حق محمد صلى الله عليه وسلم أأنزل عليه الذكر من بيننا وقد استوينا فى البشرية فلا يمكن الرجحان فرد الله عليهم بقوله سبحانه الله أعلم حيث يجعل رسالاته وبقوله تعالى الله يجتبى اليه من يشاء الى غير ذلك * (تنبيه) * رفع بشر لانتقاض النفى المقتضى اعمال ما بالا ثم قالوا (وما أنزل الرحمن) أى العام الرحمة فعموم رحمته مع استوائنا فى عبوديته يقتضى أن يسوى بيننا فى الرحمة فلا يخصكم بشئ دوننا وأغرقوا فى النفى بقولهم (من شئ) أى وحى ورسالة (ان) أى ما (أنتم الا تكذبون) أى فى دعوى رسالته حالا وما لا (قالوا) أى الرسل (ربنا) أى الذى أحسن الينا (يعلم) أى ولهذا يظهر على أيدينا الآيات (انا اليكم لمرسلون) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجرى مجرى القسم وزادوا اللام المؤكدة لانه جواب عن انكارهم (وما علينا) أى وجوبا من قبل من أرسلنا (الا البلاغ المبين) أى المؤيد بالادلة القطعية من الحجج القولية والفعلية بالمعجزات وهى ابراء الاكمه والابرص واحياء الميت وغيرها فما كان جوابهم بعد هذا الا أن (قالوا انا تطيرنا) أى تشاءمنا (بكم) وذلك أن المطر حبس عنهم فقالوا أصابنا هذا بشؤمكم ولاستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له ونفرتهم عنه قالوا (لئن لم تنتهوا) أى عن مقالتكم هذه (لنرجمنكم) أى لنقتلنكم قال قتادة بالحجارة وقيل لنشتمنكم وقيل لنقتلنكم شر قتلة (وليمسنكم منا) أى لا من غيرنا (عذاب أليم) كأنهم قالوا لا نكتفى برجمكم بحجر وحجرين بل نديم ذلك عليكم الى الموت وهو العذاب الأليم أو يكون المراد وليمسنكم بسبب الرجم منا عذاب أليم أى مؤلم وان قلنا الرجم الشتم فكأنهم قالوا ولا يكفينا الشتم بل شتم يؤدى الى الضرب والايلام الحسى واذا فسرنا أليم بمعنى مؤلم ففعيل بمعنى مفعل قليل ويحتمل أن يقال هو من باب قوله تعالى عيشة راضية أى ذات رضا أى عذاب ذو ألم فيكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير ثم أجابهم المرسلون بأن (قالوا طائركم) أى شؤمكم الذى أحل بكم البلاء (معكم) وهو أعمالكم القبيحة التى منها تكذيبكم وكفركم فأصابكم الشؤم من قبلكم وقال ابن عباس والضحاك حظكم من الخير والشر والهمزة فى قوله تعالى (أئن ذكرتم) أى وعظتم وخوفتم همزة استفهام وجواب الشرط محذوف أى تطيرتم وكفرتم فهو محل الاستفهام والمراد به التوبيخ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الثانية وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا وورش وابن كثير بغير ادخال والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال * ولما كان ذلك لا يصح أن يكون سببا للتطير بوجه أضربوا عنه بقولهم (بل) أى ليس الامر كما زعمتم فى أن التذكير سبب التطير بل (أنتم قوم) أى غركم ما آتاكم الله من القوة على القيام فيما تريدون (مسرفون) أى عادتكم الخروج عن الحدود والطغيان فعوقبتم لذلك * ولما كان السياق لان الامر بيد الله تعالى فلا هادى لمن يضل ولا مضل لمن هدى فهو يهدى البعيد فى البقعة والنسب اذا أراد ويضل القريب فيهما اذا أراد وكان بعد الدار ملزوما فى الغالب لبعد النسب قدم مكان المجى على فاعله بيانا لان الدعاء انفع لاقصى ولم ينفع الادنى فقال تعالى (وجاء من أقصى) أى أبعد بخلاف ما مر فى القصص ولاجل هذا الغرض عدل عن التعبير بالقرية وقال (المدينة) لانها أدل على الكبر المستلزم بعد الاطراف وجمع الاخلاط ولما بين الفاعل بقوله تعالى (رجل)

(قوله بالسبق ا لمر عقه بعيره) (قوله وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) أى ذرية أهل مكة او ذرية قوم نوح عليه السلام فى

بين اهتمامه بالنهى عن المنكر ومسابقته الى ازالته كما هو الواجب بقوله تعالى (يسعى) اى يسرع فى مشيه فوق المشى ودون العدو وحرصا على نصيحة قومه *(تنبيه)* فى تنكير الرجل مع انه كان معلوما معروفا عند الله تعالى فائدتان (الاولى) أن يكون تعظيما لشأنه أى رجل كامل فى الرجولية (الثانية) أن يكون مفيدا ليظهر من جانب المرسلين أمر رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال انهم تواطؤا والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الاصنام وقال السدى كان قصارا وقال وهب كان يعمل الحرير وكان سقيما قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند أقصى باب فى المدينة وكان مؤمنا وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده حين صار من العلماء بكتاب الله تعالى ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته وقوله يسعى تبصير للمسلمين وهداية لهم ليبذلوا جهدهم فى النصح * ولما تشوفت النفس الى الداعى الى اتيانه بينه بقوله تعالى (قال) واستعطفهم بقوله تعالى (ياقوم) وامرهم بمجاهدة النفوس بقوله (اتبعوا المرسلين) اى فى عبادة الله تعالى وحده فجمع بين اظهار دينه واظهار النصيحة فقوله اتبعوا نصيحة وقوله المرسلين اظهار ايمانه وقدم اظهار النصيحة على اظهار الايمان لانه كان ساعيا فى النصيحة واما الايمان فكان قد آمن من قبل وقوله يسعى يدل على ارادته النصح (فان قيل) ما الفرق بين مؤمن آل فرعون حيث قال اتبعونى اهدكم وهذا قال اتبعوا المرسلين (اجيب) بان هذا الرجل جاءهم وفى اول مجيئه نصحهم ولم يعلموا سيرته فقال اتبعوا هؤلاء الذين اظهروا لكم الدليل واوضحوا لكم السبيل واما مؤمن آل فرعون فكان فيهم ونصحهم مرارا فقال اتبعونى فى الايمان بموسى وهرون عليهما السلام واعلموا انه لو لم يكن خيرا لما اخترته لنفسى وانتم تعلمون أنى اخترته ولم يكن الرجل الذى جاء من اقصى المدينة يعلمون اتباعه لهم * ولما قال لهم اتبعوا المرسلين كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال (اتبعوا من لا يسألكم اجرا) اى اجرة لان الخلق فى الدنيا سالكون طريق الاستقامة والطريق اذا كان فيه دليل وجب اتباعه وعدم الاستماع من الدليل لا يحسن الا عند احد امرين اما لطلب الدليل الاجرة واما لعدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفة الطريق لكن هؤلاء لا يطلبون اجرة (وهم مهتدون) عالمون بالطريق المستقيم الموصلة الى الحق فهب أنهم ليسوا بمرسلين أليسوا بمهتدين فاتبعوهم وقوله تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) أصله ومالكم لا تعبدون ولكنه صرف الكلام عنه ليكون الكلام أسرع قبولا حيث اراد لهم ما اراد لنفسه والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم الى عبادة غيره ولذلك قال (واليه ترجعون) دون واليه أرجع مبالغة فى التهديد وفى العدول عن مخاصمة القوم الى حال نفسه مبالغة فى الحكمة وهى أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم لم يكن فى البيان مثل قوله مالى لانه لما قال مالى فاحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل واحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لانه أعلم بحال نفسه وقوله الذى فطرنى أشار به الى وجود المقتضى فان قوله مالى اشارة الى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى فقوله الذى فطرنى دليل المقتضى فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك اكرامه وتعظيمه ومنعم بالايمان والمنعم يجب على المنعم عليه شكر نعمته وقدم بيان عدم المانع على بيان وجود

المقتضى

(الفلك المشحون (فان قلت) الذرية اسم للاولاد والمحمول فى سفينة نوح اباء المذكورين لا أولادهم

المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى لان المقتضى لظهوره كان مستغنيا عن البيان فلا أقل من تقديم ما هو اولى بالبيان للحاجة اليه واختار من الآيات فطرة نفسه لان خالق عمرو يجب على زيد عبادته لان من خلق عمرا لا يكون الا كامل القدرة واجب الوجود فهو مستحق للعبادة بالنسبة الى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد اظهر ايجابا •(تنبيه)• اضاف الفطرة الى نفسه والرجوع اليهم لان الفطرة أثر النعمة فكانت عليه أظهر وفى الرجوع معنى الزجر فكان بهم اليق روى انه لما قال اتبعوا المرسلين اخذوه ورفعوه الى الملك فقال له أفأنت تتبعهم فقال ومالى لا أعبد الذى فطرنى اى أى شئ يمنعنى أن أعبد خالق واليه ترجعون تردون عند البعث فيجزيكم باعمالكم ومعنى فطرنى خلقنى اختراعا ابتداء وقيل خلقنى على الفطرة كما قال تعالى فطرة الله التى فطر الناس عليها ثم عاد الى السياق الاول فقال (أأتخذ) وهو استفهام بمعنى الانكار اى لا اتخذ وبين علو رتبته تعالى بقوله (من دونه) اى سواه مع دنو المنزلة وبين عجز ما عبدوه بتعدده فقال (آلهة) وفى ذلك لطيفة وهى أنه لما بين أنه يعبد الذى فطره بين أن من دونه لا تجوز عبادته لان الكل محتاج مفتقر حادث وقوله أأتخذ اشارة الى أن غيره ليس باله لان المتخذ لا يكون الها وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وادخل فيهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام وورش وابن كثير بغير ادخال ألف والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال واذا وقف حمزة فله تسهيل الثانية والتحقيق لانه متوسط بزائد وله أيضا ابدالها ألفا ثم بين عجز تلك الآلهة بقوله (ان يردن الرحمن) اى العام النعمة على كل المخلوقين العابد والمعبود (بضر) اى سوء ومكروه (لا تغن عنى شفاعتهم شيأ) اى لو فرض أنهم شفعوا لكن شفاعتهم لا توجد (ولا ينقذون) اى بالنصر والمظاهرة من ذلك المكروه أو من العذاب لو عذبنى الله تعالى ان فعلت ذلك (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنا ان يردن الرحمن بصيغة المضارع وقال فى الزمر ان أرادنى الله بصيغة الماضى وذكر المريد هنا باسم الرحمن وذكر المريد هناك باسم الله (أجيب) بان الماضى والمستقبل مع الشرط يصير الماضى مستقبلا لان المذكور هنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله أأتخذ وقوله مالى لا أعبد والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضى فى قوله أفرأيتم •(تنبيه)• ان يردن شرط جوابه لا تغن عنى الخ والجملة الشرطية فى محل النصب صفة لآلهة •(فائدة)• أثبت ورش الياء بعد النون فى الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا (انى اذا) اى ان عبدت غير الله تعالى (لفى ضلال مبين) اى خطأ ظاهر وقرأ نافع وابو عمرو بفتح الياء وسكنها الباقون وهم على مذاهبهم فى المد • ولما أقام الادلة ولم يبق لاحد تخلف عنه عليه صرح بما لوح اليه من ايمانه بقوله (انى آمنت) اى أوقعت التصديق الذى لا تصديق فى الحقيقة غيره وفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون واختلف فى المخاطب بقوله (بربكم) على أوجه أحدها أنه خاطب المرسلين قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله وأقبل هو على المرسلين وقال انى آمنت بربكم (فاسمعون) أى اسمعوا قولى واشهدوا لى وثانيها هم الكفار لما نصحهم وما نفعهم قال آمنت بربكم فاسمعون وثالثها بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم كقول الواعظ يا مسكين ما أكثر أملك يريد كل

(قلت) الذرية من اسماء الاضداد عند كثير تطلق على الآباء والاولاد والمراد هنا الفرية فتأمله ولنا

سامع يسمعه فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه وقال ابن مسعود وطؤه بأرجلهم وقال السدي كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي حتى قطعوه وقتلوه وقال الحسن خرقوا خرقا في حلقه فعلقوه في سور المدينة وقبره بانطاكية مشهور رضي الله تعالى عنه ‌•(تنبيه)• في قوله فاسمعون فوائد منها أنه كلام متفكر حيث قال اسمعوا فان المتكلم اذا كان يعلم ان لكلامه جماعة سامعين يتفكر ومنها أن ينبه القوم ويقول اني أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرته لآمنا معك (فان قيل) انه قال من قبل ومالي لا أعبد الذي فطرني وقال ههنا آمنت بربكم ولم يقل آمنت بربي (أجيب) بانا ان قلنا الخطاب مع الرسل فالامر ظاهر لانه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه اليه وقال بربكم وان قلنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان التوحيد لانه لما قال أعبد الذي فطرني ثم قال آمنت بربكم فهم أنه يقول ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم بخلاف ما لو قال آمنت بربي فيقول الكافر وأنا أيضا آمنت بربي •(فائدة)• أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن مثل صاحب يس هذا في هذه الامة عروة بن مسعود الثقفي حيث نادى قومه بالاسلام ونادى على علية بالاذان فرموه بالسهام فقتلوه • ثم انه سبحانه وتعالى بين حال هذا الذي قال آمنت بربكم بعد ذلك بقوله تعالى ايجازا في البيان لاهل الايمان (قيل) أي قيل له بعد قتلهم اياه فبناه للمفعول لان المقصود المقول لا قائله والمقول له معلوم (ادخل الجنة) لانه شهيد والشهداء يسرحون في الجنة حيث شاؤا من حين الموت وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى الى الجنة وقرأ هشام والكسائي بضم القاف وهو المسمى بالاشمام والباقون بالكسر • ولما أفضى به الى الجنة (قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي) أي بغفران ربي لي المحسن الي في الآخرة بعد احسانه في الدنيا بالايمان في مدة يسيرة بعد طول عمري في الكفر (وجعلني من المكرمين) اي الذين أعطاهم الدرجات العلا فنصح لقومه حيا وميتا فتمنى علمهم بالكرامة له ليعملوا مثل عمله فينالوا ما ناله •(تنبيه)• في القصة حث على المبادرة الى مفارقة الاشرار واتباع الاخيار والحلم عن أهل الجهل وكظم الغيظ والتلطف في خلاص الظالم من ظلمه وأنه لا يدخل أحد الجنة الا برحمة الله وان كان محسنا وهذا كما وقع للانصار رضي الله تعالى عنهم في المبادرة الى الايمان مع بعد الدار والنسب وفي قول من استشهد منهم في بئر معونة كما رواه البخاري في المغازي عن أنس بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وارضانا وفي غزوة أحد كما في السيرة وغيرها لما وجدوا واطيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم ياليت اخواننا يعلمون ما صنع الله تعالى بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله تبارك وتعالى فانا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا الآية في سورة آل عمران وفي التمثيل بهذه القصة اشارة الى ان في قريش من حتم موته على الكفر ولم ينقص ما قضى له من الاجل فالله سبحانه يؤيد هذا الدين بغيرهم لتظهر قدرته وحكمته (وما أنزلنا) بما لنا من العظمة (على قومه) اي حبيب (من بعده) اي من بعد اهلاكنا ورفعه (من جند من السماء) لاهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار باهلاكهم

آباءهم وأولادهم لانهم كانوا في ظهور آبائهم (قوله الجميع والبر ظاهرا) ويقولون متى هذا الوعد)

وايذاء بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم والا لكان تحريك ريشة من جناح ملك كافيا في استئصالهم (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى من بعده وهو تعالى لم ينزل عليهم من قبله (أجيب) بأن استحقاق العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الاهلاك بقوله تعالى (وما كنا منزلين) أي ما كان ذلك من سنتنا وما صح في حكمتنا أن يكون عذاب الاستئصال بجند كثير (ان) أي ما (كانت) أي الواقعة التي عذبوا بها (الا صيحة) صاحها بهم جبريل عليه السلام فماتوا عن آخرهم وأكد أمرها وحقق وحدتها بقوله تعالى (واحدة) أي لحقارة أمرهم عندنا ثم زاد في تحقيرهم ببيان الاسراع في الاهلاك بقوله تعالى (فاذا هم خامدون) أي ثابت لهم الخمود ما كأنهم كانت بهم حركة يوما من الدهر شبهوا بالنار رمزا الى أن الحي كالنار الساطعة والميت كرمادها كما قال لبيد

وما المرء الا كالشهاب وضوئه • يصير رمادا بعد اذ هو ساطع

وقال المعري

وكالنار الحياة فمن رماد • أواخرها وأولها دخان

قال المفسرون أخذ جبريل عليه السلام بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحة واحدة فماتوا (يا حسرة على العباد) أي هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأهلكوا وهي شدة التألم ونداؤها مجازا أي هذا أوانك فاحضري ثم بين تعالى سبب الحسرة والندامة بقوله تعالى (ما يأتيهم من رسول) أي رسول كان في أي وقت كان (الا كانوا به) أي بذلك الرسول (يستهزؤن) والمستهزئ بالناصحين المخلصين أحق أن يتحسر ويتحسر عليه وقيل يقول الله تعالى يوم القيامة يا حسرة على العباد حين لم يؤمنوا بالرسل • ولما بين تعالى حال الاولين قال للحاضرين (ألم يروا) أي أهل مكة القائلين للنبي صلى الله عليه وسلم لست مرسلا والاستفهام للتقرير أي اعلموا وقوله تعالى (كم) خبرية بمعنى كثيرا وهو مفعول لاهلكنا تقديره كثيرا من القرون أهلكنا وهي معمولة لما بعدها معلقة ليروا عن العمل ذهابا بالخبرية مذهب الاستفهامية والمعنى أما (أهلكنا قبلهم) كثيرا (من القرون) أي الامم قال البغوي والقرن أهل كل عصر سموا بذلك لاقترانهم في الوجود (أنهم) أي المهلكين (اليهم) أي الى أهل مكة (لا يرجعون) أي لا يعودون الى الدنيا أفلا يعتبرون • وقيل لا يرجعون أي الباقون لا يرجعون الى المهلكين بنسب ولا ولادة أي أهلكناهم وقطعنا نسلهم ولا شك أن الاهلاك الذي يكون مع قطع النسل أتم وأعم قال ابن عادل والاول أشهر نقلا والثاني أظهر عقلا وقوله تعالى (وان) نافية أو مخففة وقوله تعالى (كل) أي كل الخلائق مبتدأ وقرأ (لما) ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم بمعنى الا والباقون بالتخفيف فاللام فارقة وما مزيدة قوله تعالى (جميع) أي مجموعون خبر أول (لدينا) أي عندنا في الموقف بعد بعثهم وقوله تعالى (محضرون) أي للحساب خبر ثان وما أحسن قول القائل

ولو أنا اذا متنا تركنا • لكان الموت راحة كل حي

ولكنا اذا متنا بعثنا • ونسئل بعدها عن كل شيء

ولما قال تعالى وان كل لما جميع كان ذلك اشارة الى الحشر فذكر ما يدل على امكانه قطعا لانكارهم واستبعادهم فقال تعالى (وآية) أي علامة عظيمة (لهم) أي على قدرتنا على البعث وايجادنا له

اي متى انجاز هذا الوعد اي بالبعث كان واقعا لا منتظرا او ارادبالوعد الموعود (قوله قالوا يا ويلنا

(الارض) أى هذا الجنس الذى هم منه ثم وصفها بما حقق وجه الشبه بقوله تعالى (الميتة) التى لا روح لها لانه لا نبات بها أعم من أن يكون بها نبات وفنى أو لم يكن بها شئ أصلا ثم استأنف بيان كونها آية بقوله تعالى (أحييناها) أى باختراع النبات فيها أو باعادته بسبب المطر كما كان بعد اضمحلاله (فان قيل) الارض آية مطلقا فلم خصها بهم حيث قال تعالى وآية لهم (أجيب) بان الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشئ بابلغ الوجوه وأما من عرف الشئ بطريق الرؤية فلا يذكر له دليل فالنبى صلى الله عليه وسلم وعباد الله المخلصون عرفوا الله تعالى قبل الارض والسماء وآيات الارض معرفة لهم (تنبيه) آية خبر مقدم ولهم صفتها أو متعلقة بآية لانها علامة والارض مبتدأ وأعرب أبو البقاء آية مبتدأ ولهم الخبر والارض الميتة مبتدأ وصفة وأحييناها خبره فالجملة مفسرة لآية وبهذا بدأ ثم قال وقيل فذكر الوجه الاول ولما كان اخراج الاقوات نعمة أخرى قال (وأخرجنا منها حبا) أى جنس الحب كالحنطة والشعير والارز ثم بين عموم نفعه بقوله (فمنه) أى بسبب هذا الاخراج (يأكلون) أى من ذلك الحب فهو حب حقيقة تعاون ذلك علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين لا تقدرون تدعون أن ذلك خيال سحرى بوجه من الوجوه وفى هذه الآية وأمثالها حث عظيم على تدبر القرآن واستخراج ما فيه من المعانى الدالة على جلال الله تعالى وكماله وقد أنشد هنا الاستاذ القشيرى فى تفسيره وعيب على من أهمل ذلك

يا من تصدر فى دست الامامة فى ... مسائل الفقه املاء وتدريسا
غفلت عن حجج التوحيد تحكمها ... شيدت فرعا وما مهدت تأسيسا

ولما ذكر الزرع وهو ما لا ساق له أتبعه بذكر ماله ساق بقوله (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (فيها) أى الارض (جنات) أى بساتين (من نخيل وأعناب) ذكر هذين النوعين لكثرة نفعهما وقدم النخل لانه نفع كله خشبه وسعفه وليفه وخوصه وعراجينه وثمره طلعا وبسرا ورطبا وتمرا وفيه زينة دائمة لكونه لا يسقط ورقه ولما كانت الجنان لا تصلح الا بالماء قال تعالى (وفجرنا) أى فتحنا فتحا عظيما (فيها) أى الارض (من العيون) شيئا فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة عند الاخفش قال البقاعى والتعريف هنا يدل على أن الارض مركبة على الماء فكل موضع منها صالح لان يتفجر منه الماء ولكن الله تعالى يمنعه من بعض المواضع بخلاف الاشجار ليس فيها شئ غالب على الارض ففى ذلك تذكير بالنعمة فى حبس الماء عن بعض الارض ليكون موضعا للسكن ولو شاء لفجر الارض كلها عيونا كما فعل بقوم نوح فاغرق أهل الارض كلهم وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون بالكسر ولما كان حياة كل شئ انما هى بالماء أشار الى ذلك بقوله تعالى (ليأكلوا من ثمره) أى ثمر ما ذكر وهو الجنات وقيل الضمير يعود على الاعناب لانها أقرب مذكور وكان من حق الضمير أن يثنى لتقديم شيئين وهما الاعناب والنخيل الا انه اكتفى بذكر أحدهما وقيل الضمير لله على طريق الالتفات من التكلم الى الغيبة وقرأ حمزة والكسائى برفع الثاء والميم وهى لغة فيه أو جمع ثمار والباقون بفتحهما وقوله تعالى (وما عملته أيديهم) عطف على الثمر والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس وما موصولة أى ومن الذى عملته أيديهم ويؤيد هذا قراءة حمزة والكسائى

وشعبة

قوله (من بعثنا من مرقدنا) ان قلت قولهم سؤال عن الباعث فكيف طابقه الجواب بقوله هذا ما وعد

وشعبة بحذف الهاء من عملته وموافقة على قراءة الباقين باثباتها أى وجدوها معمولة ولم
تعملها أيديهم ولا صنع لهم فيها وقيل أراد العيون والانهار التي لم تعملها يد مخلوق مثل دجلة
والفرات والنيل ، ثم لما عدد النعم أشار الى الشكر بقوله تعالى (أفلا يشكرون) أى اشكروا
فهو أمر بصيغة الاستفهام أى ادأبوا وادأموا في ايقاع الشكر والدوام على تجديده في كل حين
بسبب هذه النعم ، ولما أمرهم الله تعالى بالشكر وشكر الله تعالى بالعبادة وهم تركوها وعبدوا
غيره وأشركوا قال تعالى (سبحان الذي خلق الازواج) أى الاصناف والانواع (كلها) أى
وغيره لم يخلق شيأ ثم بين ذلك بقوله تعالى (مما تنبت الارض) دخل فيه كل نجم وشجر ومعدن وغيره
من كل ما يتولد منها (ومن أنفسهم) من الذكور والاناث وقوله تعالى (ومما لا يعلمون) يدخل فيه
ما في أقطار السموات وتخوم الارضين من المخلوقات العجيبة الغريبة ، ولما استدل تعالى
بأحوال الارض وهو المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي بقوله تعالى (وآية
لهم الليل) أى على عادة الشئ بعد فنائه (نسلخ) أى نفصل (منه النهار) فان دلالة الزمان
والمكان متناسبة لان المكان لا يستغني عنه الجواهر والزمان لا يستغني عنه الاعراض لان كل
عرض فهو في زمان ، (تنبيه) ، نسلخ استعارة تبعية مصرحة شبه انكشاف ظلمة الليل بكشط
الجلد من الشاة والجامع ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر (فاذا هم) أى بعد ازالة ما للنهار
الذي سلخناه من الليل (مظلمون) أى داخلون في الظلام بظهور الليل الذي كان الضياء ساترا له كما
يستر الجلد الشاة قال الماوردي وذلك ان ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء فاذا خرج منه
أظلم نقله ابن الجوزي عنه وقد أرشد السياق حتما الى أن التقدير والنهار نسلخ منه الليل الذي
كان ساتره وغالبا عليه فاذا هم مبصرون ، ولما ذكر الوقتين ذكر آيتيهما مقدما آية النهار بقوله
تعالى (والشمس) أى التي سلخ النهار من الليل بغيبوبتها (تجري لمستقر لها) أى لحد معين ينتهي
اليه دورها لا تجاوزه فشبه بمستقر المسافر اذا قطع سيره وقيل مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء
الدنيا وقيام الساعة وقيل انها تسير حتى تنتهي الى أبعد مغاربها ثم ترجع فذلك مستقرها
لا تجاوزه وقيل مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء وقد
صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مستقرها تحت العرش وروى انه صلى الله عليه وسلم
قال لابي ذر حين غربت الشمس تدرى أين تذهب قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تذهب حتى
تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك ان تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن
لها يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى والشمس تجري لمستقر
لها ، ولما كان هذا الجري على نظام لا يختل على ممر السنين وتعاقب الاحقاب عظمه بقوله تعالى
(ذلك) أى الامر الباهر للعقول وزاد في عظمه بصيغة التفعيل بقوله تعالى (تقدير العزيز) أى
الذي لا يقدر أحد في شئ من أمره على نوع مغالبة وهو غالب على كل شئ (العليم) أى المحيط
علما بكل شئ الذي يدبر الامر فيطرد على نظام عجيب ونهج بديع لا يعتريه وهن ولا يلحقه
يوما نوع خلل ويحتمل أن تكون الاشارة الى المستقر أى ذلك المستقر تقدير العزيز العليم ، ولما
ذكر آية النهار أتبعها آية الليل بقوله تعالى (والقمر قدرناه) أى من حيث سيره (منازل) ثمانية
وعشرين منزلا في ثمانية وعشرين ليلة من كل شهر ويستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين يوما

الرحمن وصدق المرسلون
(قلت) معناه بعثكم
الرحمن الذي وعدكم بالبعث
وأخبركم به الرسول وانما

وليلة ان كان الشهر تسعة وعشرين يوما وقد ذكرنا أسامي المنازل في سورة يونس عليه السلام فاذا صار القمر في آخر منازله دق فذلك قوله تعالى (حتى عاد) أي بعد أن كان بدرا عظيما (كالعرجون) من النخل وهو عود العذق ما بين شماريخه الى منبته وهو منبته من النخلة رقيقا منحنيا ثم وصفه بقوله تعالى (القديم) فانه اذا عتق يبس وتقوس واصفر فيشبه القمر في رقته وصفرته في رأى العين في آخر المنازل قال القشيري ان القمر يبعد عن الشمس ولا يزال يتباعد حتى يعود بدرا ثم يدنو فكلما ازداد من الشمس دنوا ازداد في نفسه نقصانا الى ان يتلاشى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والقمر برفع الراء والباقون بالنصب والرفع على الابتداء والنصب باضمار فعل على الاشتغال والوجهان مستويان لتقدم جملة ذات وجهين وهي قوله تعالى والشمس تجري فان راعيت صدرها رفعت لتعطف جملة اسمية على مثلها وان راعيت عجزها نصبت لتعطف فعلية على مثلها ولما قرر أن لكل منهما منازل لا يعدوها فلا يغلب ما هو آيته آية الاخرى بل اذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان ذاك واذا جاء ذاك ذهب هذا قال تعالى (لا الشمس) التي هي آية النهار (ينبغي) أي يسهل (لها) أي ما دام هذا الكون موجودا على هذا الترتيب (أن تدرك القمر) أي تجتمع معه في الليل فالنهار سابق الليل (ولا الليل سابق النهار) اي فلا يأتي أحدهما قبل انقضاء الآخر فالآية من الاحتباك لانه نفى أولا ادراك الشمس لفوتها القمر فذهب دليلا على ما حذف من الثاني من نفي ادراك الشمس القمر أي فيغلبها وان كان يوجد في النهار لكن من غير سلطنة فيه بخلاف الشمس فانها لا تكون في الليل أصلا ونفى ثانيا سبق الليل النهار وذهب دليلا على حذف سبق النهار الليل أولا كما قدرته (وكل) أي من الشمس والقمر (في فلك) محيط به وهو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لان أهل اللغة على ان فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هي الخشبة المسطحة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهي صفحة مستديرة (فان قيل) فعلى هذا تكون السماء مستديرة وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة لها أطراف على جبال وهي كالسقف المستوي ويدل عليه قوله تعالى والسقف المرفوع (أجاب) الرازي بأنه ليس في النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة بل دل الدليل الحسي على كونها مستديرة فوجب المصير اليه والسقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفا وكذلك على جبال ومن الادلة الحسية أن السماء لو كانت مستوية لكان ارتفاع أول النهار ووسطه وآخره مستويا وليس كذلك وذكر غير ذلك من الادلة وفي هذا كفاية ولما ذكر لها فعل العقلاء من كونها على نظام محرر لا يختل وسير مقدر لا يعوج ولا يضل جمعهما جمعهم بقوله تعالى (يسبحون) وقال المفسرون قوله تعالى يسبحون يدل على انها أحياء لان ذلك لا يطلق الا على العاقل قال الرازي ان أرادوا القدر الذي يكون منه التسبيح فنقول به لان كل شئ يسبح بحمده وان أرادوا شيئا آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما في قوله تعالى في حق الاصنام ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حده لهما من الحدود في السباحة في وجه الفلك ذكر ما هيأ به من الفلك للسباحة على وجه الماء بقوله تعالى (وآية لهم) أي على قدرتنا التامة (أنا) أي على ما لنا من العظمة (حملنا ذريتهم) أي آباءهم الاصول قال

سيء على هذه الطريقة

قوله هم تكيتا لهم وتوبيخا (في ظلال) ... وأزواجهم ... قال في صحة ...

اللغوى واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الاولاد والالف واللام فى قوله تعالى (فى الفلك) للتعريف أى فلك نوح عليه الصلاة والسلام وهو مذكور فى قوله تعالى واصنع الفلك بأعيننا وهو معلوم عند العرب ثم وصف الفلك بقوله تعالى (المشحون) أى الموقر المملوء حيوانا وناسا وهو يتقلب فى تلك المياه التى لم ير أحد قط مثلها ولا يرى أيضا ومع ذلك فسلمها الله تعالى وأيضا الآدمى يرسب فى الماء ويغرق ثم يحمله فى الفلك ويقع بقدرته تعالى لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب لانه يطلب جهة فوق فقال الفلك المشحون أثقل من الثقال التى ترسب ومع هذا حمله الله بالانسان فيه مع ثقله وقال أكثر المفسرين ان الذرية لا تطلق الا على الولد وعلى هذا فالمراد اما أن يكون الفلك المعين الذى كان لنوح عليه الصلاة والسلام واما أن يكون المراد الجنس كقوله تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون وقوله تعالى وترى الفلك فيه مواخر وقوله تعالى فاذا ركبوا فى الفلك الى غير ذلك من استعمال لام التعريف فى الفلك لبيان الجنس فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه الاول ان المراد حملنا أولادهم الى يوم القيامة فى ذلك الفلك ولولا ذلك ما بقى للآباء نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله تعالى حملنا ذريتهم اشارة الى كمال النعمة أى لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية الى أعقابكم الى يوم القيامة وهذا قول الزمخشرى قال ابن عادل ويحتمل أن يقال انه تعالى انما خص الذرية بالذكر لان الموجودين كانوا كفارا لا فائدة فى وجودهم فقال تعالى حملنا ذريتهم أى لم يكن الحمل حملا لهم وانما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين كمن حمل صندوقا لا قيمة له وفيه جواهر قيل انه لم يحمل الصندوق وانما حمل ما فيه ثانيها ان المراد بالذرية الجنس أى حملنا أجناسهم لان ذلك الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولذلك تطلق على النساء نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرارى أى النساء لان المرأة وان كانت صنفا غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذراريتنا أى أمثالنا ثالثها أن الضمير فى قوله تعالى وآية لهم الليل للعباد وكذا وآية لهم انا حملنا ذريتهم واذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أنا حملنا ذرية العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير فى الموضعين أشخاصا معينين كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم ويذيق بعضكم بأس بعض ولذلك اذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم فهم فى الموضعين يكون عائدا الى القوم ولا يكون المراد أشخاصا معينين بل المراد ان بعضهم قتل بعضهم فكذلك قوله تعالى وآية لهم أى آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وان قلنا المراد جنس الفلك قال ابن عادل وهو الاظهر لان سفينة نوح عليه السلام لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها فاما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد وقوله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام وجعلناها آية للعالمين أى بوجود جنسها ومثلها ويؤيده قوله تعالى ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى وآية لهم الارض الميتة وآية لهم الليل ولم يقل وآية لهم الفلك (أجيب) بان حملهم فى الفلك هو العجب أما نفس الفلك فليس بعجيب لانه كبيت مبنى من خشب وأما نفس الارض فعجيب ونفس الليل فعجيب لا قدرة لاحد عليهما الا الله (فان قيل) قال تعالى وحملناكم فى البر والبحر ولم يقل ذريتكم

اهل الجنة ذلك والظل انما يكون لما يقع عليه الشمس ولا شمس فى الجنة لقوله تعالى لا يرون فيها شمسا

مع أن المقصود في الموضعين بيان النعمة لادفع النقمة (أجيب) بأنه تعالى لما قال في البر والبحر عم الخلق جميعا لأن مامن أحد الا وحمل في البر والبحر وأما الحمل في البحر فلم يعم فقال ان كانا حملنا كم بانفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الاولاد والاقارب والاخوان والاصدقا وقرأ نافع وابن عامر بالف بعد الياء التحتية وكسر الفوقانية على الجمع والباقون بغير ألف وفتح الفوقانية على الافراد واختلف في تفسير قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله) اى من مثل الفلك (ما يركبون) فقال ابن عباس يعني الابل فالابل في البر كالسفن في البحر وقيل أراد به السفن التي عملت بعد سفينة نوح عليه السلام على هيئتها وقال قتادة والضحاك وغيرهما أراد به السفن الصغار التي تجري في الانهار كالفلك الكبار في البحار (وان نشأ) اى لاجل مالنا من القوة الشاملة والقدرة التامة (نغرقهم) اى مع أن هذا الماء الذي يركبونه ليس كالماء الذي حملنا فيه آباءهم (فلا صريخ لهم) اى مغيث لهم ينجيهم مما نريد بهم من الغرق أو فلا اغاثة كقولهم اتاهم الصريخ (ولاهم) اى بانفسهم من غير صريخ (ينقذون) اى يكون لهم انقاذ أي خلاص لانفسهم اوغيرها (الارحمة) اى فحين نغرقهم ان تدارحة (منا) اى لهم لاوجوب باعلينا ولا لمنفعة تعود منهم الينا (ومتاعا) اى وتمتيعنا اياهم بلذاتهم (الى حين) اى الى انقضاء آجالهم (واذا قيل لهم) اى من أى قائل كان (اتقوا مابين أيديكم) اى من عذاب الدنيا كغيركم (وماخلفكم) من عذاب الآخرة (لعلكم ترحمون) تعاملون معاملة المرحوم بالاكرام وقال ابن عباس رضي الله عنهما مابين أيديكم يعني الآخرة فاعملوا لها وماخلفكم يعني الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها وقال قتادة ومقاتل مابين أيديكم وقائع الله فيمن كان قبلكم من الامم وماخلفكم عذاب الآخرة (تنبيهان) أحدهما الارحمة منصوب على المفعول له وهذا مستثنى مفرغ وقيل مستثنى منقطع وقيل على المصدر بفعل مقدر وقيل على اسقاط الخافض اى الابرحمة والفاء في قوله تعالى فلا صريخ لهم رابطة لهذه الجملة بما قبلها فالضمير في لهم عائد الى المغرقين ثانيهما جواب اذا محذوف تقديره أعرضوا بدل عليه قوله تعالى بعده الا كانوا عنها معرضين وعلى هذا فلفظ كانوا زائد (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) اى المحسن اليهم (الا كانوا) اى مع كونها من عند من غمرهم احسانه وعمهم فضله وامتنانه (عنها معرضين) اى دائما اعراضهم (واذا قيل لهم) اى من أى قائل كان (انفقوا) اى على من لاشئ له شكرا لله على ما أعطاكم قال صلى الله عليه وسلم هل ترزقون وتنصرون الا بضعفائكم انما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء وبين تعالى أنهم يبخلون بما لا صنع لهم فيه بقوله تعالى (مما رزقكم الله) اى مما أعطاكم الله الذي له جميع صفات الكمال (قال الذين كفروا) اى ستروا وغطوا ما دلهم عليه أنوار عقولهم من الخيرات (للذين آمنوا) اى استهزاء بهم (أنطعم من لو يشاء الله) اى الذي له جميع العظمة كما زعمتم في كل وقت يريده (أطعمه) وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله سبحانه وتعالى وهو ما جعلوه من حروثهم وأموالهم قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه لكنا نظره لا يشاء ذلك فانه لم يطعمهم مما نرى من فقرهم فنحن أيضا لانشاء ذلك موافقة لمراد الله تعالى فيه فتركوا التأدب مع الامر وأظهروا التادب مع بعض ارادة الله المنهي عن الجري معها

(قال) لعل ابصار الجنة من نور قناديل العرش او من نور العرش لا انهم من نور العرش ابصارهم فانه اعظم من ابصارهم

والاستلزام

والاستـــلام لهما وهذا مما تقـلك به البخلاء يقولون لا نعطى من حرمه الله تعالى وهذا الذى يزعمونه باطل لان الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء فمنع الدنيا عن الفـقير لابخلا وأمر الغنى بالانفاق لاحاجة الى ماله ولكن ليبلو الغنى بالفـقير فيما فرض له فى مال الغنى فلا اعتراض لاحـد فى مشيئة الله وحكمه فى خلقـه وما كفاهم حتى قالوا لمن أرشدهم الى الخير (ان) اى ما (أنتم الا فى ضلال) اى محيط بكم (مبين) اى فى غاية الظهور بمادروا ان الضلال انما هو لهـم (فان قيـل) قولهم من لو يشاء الله أطعـمه كلام حق فلماذا ذكر فى معرض الذم (أجيب) بان مرادهم كان الانكار لقدرة الله تعالى أو لعدم جواز الامر بالانفاق مع قدرة الله تعالى وكلاهـما فاسد فبين ذلك تعالى بقوله سبحانه مما رزقكم الله فانه يدل على قدرته ويصحح أمره بالاعطاء لان من كان له مع الغـير مال وله فى خزائنه مال مخـير ان أراد اعطى مما فى خزائنه وان أراد أمر من عنده المال بالاعطاء ولا يجوز أن يقول من فى يده ماله فى خزائنك أكثر مما فى يدى أعطه منه (فان قيل) ما الحكمة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا أننفق على من لو يشاء الله رزقه لانهـم أمروا بالانفاق فكان جوابهم ان يقولوا أننفق ثم قالوا أنطعم (أجيب) بان هذا بيان غاية مخالفتهم لانهم انما أمروا بالانفاق والانفاق يدخل فيـه الاطعام وغيره فلم يأتوا بالانفاق ولا بأقل منـه وهو الاطعام وهـذا كقول القائل لغيره اعط زيدا دينارا فيقول لا أعطيه درهـما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه دينارا ولكن المبالغة فى هذا الوجه أتم فكذلك هنا ﴿(تنبيه)﴾ انما وصفوا المؤمنين بانهم فى ضلال مبين لظنهم أن كلام المؤمنين متناقض ومن تناقض كلامه يكون فى غاية الضلال قال الرازى ووجه ذلك أنهـم قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه وهـذا اشارة الى ان الله تعالى ان شاء أن يطعمهم فهو يطعمهم فكان الامر باطعامهـم أمرا بتحصـيل الحاصـل وان لم يشا اطعامهـم لا يقدر أحد على اطعامهم لامتناع وقوع مالم يشا الله فلا قدرة لنا على الاطعام فكيف تأمرون به ووجه آخر وهو أنهـم قالوا ان أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعيا فى ابطال فعل الله تعالى وانه لا يجوز وأنتم تقولون أطعموهم فهو ضلال واعلم انه لم يكن فى الضلال الاهم حيث نظروا الى المراد ولم ينظروا الى الطلب والامر وذلك لان العبـد اذا أمره السيد بامر لا ينبغى الاطلاع على المقصود الذى لاجله أمر به مثاله اذا أراد الملك الركوب للهجوم على عدو بحيث لا يطلع عليـه أحد وقال للعبـد أحضر المركوب فلو تطلع واستكشف المقصود الذى لاجله الركوب لتسبب الى أن يريد أن يطلع عدوه على الحذر منـه وكشف سره فالادب فى الطاعـة هو امتثال الامر لا تتبع المراد فالله سبحانه اذا قال أنفقوا مما رزقكم الله لا يجوز أن يقال لم لم يطعمهم الله مما فى خزائنه وقد تقدم ماله بهذا تعلق (ويقولون) أى عادة مستمرة مضمومة الى ما تقـدم (متى هذا) وزادوا فى الاستهزاء بقسميته وعدا فقالوا (الوعد) أى البعث الذى تهددونا به تارة تلويحا وتارة تصريحا عجلوه لنا (ان كنتم صادقين) فيه قال الله تعالى (ما ينظرون) أى ينتظرون (الا صيحة) وبين حقارة شأنهـم وتمام قدرته بقوله عز وجـل (واحدة) وهى نفخة اسرافيل عليه السـلام الاولى المميتة (تأخذهم) وقوله تعالى (وهم يخصمون) قرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصم يخصم والمعنى يخصم بعضهم بعضا فالمفـعول محذوف وأبو عمرو

نور الشمس (قوله تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)

وقالون باخفاء فتحة الخاء وتشديد الصاد ونافع وابن كثير وهشام كذلك الا أنهم باختلاس فتحة الخاء والباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد والاصل في القراآت الثلاث يختصمون فادغمت التاء في الصاد فنافع وابن كثير وهشام نقلوا فتحتها الى الساكن قبلها نقلا كاملا وأبو عمرو وقالون اختلسا حركتها تنبيها على ان الخاء اصلها السكون والباقون حذفوا حركتها فالتقى ساكنان لذلك فكسروا اولهما فهذه اربع قراآت ولما كانت هذه هي النفخة المميتة تسبب عنها قوله تعالى (فلا يستطيعون توصية) اى يوجدون الوصية في شيء من الاشياء (ولا الى اهلهم) اى فضلا عن غيرهم (يرجعون) اى فيروا احوالهم بل يموت كل واحد في مكانه حيث تفجؤه الصيحة وربما أفهم التعبير بالى أنهم يريدون الرجوع فيضطرون خطوة او نحوها وفي الحديث لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يبيعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد رفع الرجل اكلته الى فيه فلا يطعمها • ولما دل ذلك على الموت قطعا عقبه بالبعث بقوله تعالى (ونفخ في الصور) اى القرن النفخة الثانية للبعث وبين النفختين اربعون سنة ولما كان هذا النفخ سببا لقيامهم عنده من غير تخلف عبر تعالى بما يدل على التعقب والتسبب والفجاءة بقوله تعالى (فاذا هم) اى حين النفخ (من الاجداث) اى القبور واحدها جدث المهيأة هي ومن فيها لسماع ذلك النفخ (فان قيل) كيف يكون ذلك الوقت اجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال (اجيب) بان الله تعالى يجمع اجزاء كل ميت في الذي قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه (الى ربهم) اى الى الموقف الذي اعده لهم من احسن اليهم بالتربية (ينسلون) اى يسرعون المشي مع تقارب الخطا بقوة ونشاط فيالها من قدرة شاملة وحكمة كاملة حيث كان صوت واحد يحيي تارة ويميت اخرى (فان قيل) المشي اذا توجه الى من احسن اليه يقدم رجلا ويؤخر اخرى والنسلان سرعة المشي فكيف يوجد منهم (اجيب) بانهم ينسلون من غير اختيارهم (فان قيل) قال في آية اخرى فاذا هم قيام ينظرون وقال ههنا فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون والقيام غير النسلان وقوله تعالى في الموضعين اذا هم يقتضي ان يكونا معا (اجيب) بان القيام لا ينافي المشي السريع لان الماشي قائم ولا ينافي النظر وبان ذلك لسرعة الامور كأن الكل في زمان واحد كقول القائل مفر مكر مقبل مدبر معا • واعلم ان النفختين يورثان تزلزلا وانتقالا للاجرام فعند اجتماع الاجرام يفرقها وهو المراد بالنفخة الاولى وعند تفرق الاجرام يجمعها وهو المراد بالنفخة الثانية • ولما تشوقت النفوس الى ما يقولون اذا عاينوا ما كانوا ينكرون استأنف قوله تعالى (قالوا) اى الذين هم من اهل الويل (يا) للتنبيه (ويلنا) اى هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه (من بعثنا من مرقدنا) قال ابي بن كعب وابن عباس وقتادة انما يقولون هذا لان الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فاذا بعثوا بعد النفخة الاخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل وقال اهل المعاني ان الكفار اذا عاينوا جهنم وانواع عذابها دعوا بالويل وصار عذاب القبر في جنبها كالنوم فعدوا امكانهم الذي كانوا فيه مع ما كانوا فيه من عذاب البرزخ مرقدا هلينا بالنسبة الى ما انكشف لهم من العذاب الاكبر فقالوا من بعثنا من مرقدنا (فان قيل) ما وجه تعلق من بعثنا من مرقدنا بقولهم يا ويلنا (أجيب) بانهم لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون

معنى نطق اليد كلاما ونطق الرجل شهادة لان الغالب في اليد كونها

من الرسل عليهم الصلاة والسلام فقالوا ياويلنا أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياما فنبهنا كما اذا كان الانسان موعودا بأن يأتيه عدو ولا يطيقه ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف فى نفسه ويقول أهذا ذاك أم لا ويدل على هذا قولهم من مرقدنا حيث جعلوا القبور موضع الرقاد اشارة الى أنهم شكوا فى أنهم كانوا نياما فتنبهوا أو كانوا موتى فبعثوا وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الامرين وقالوا من مرقدنا اشارة الى توهمهم احتمال الانتباه وقولهم (هذا) اشارة الى البعث (ما) اى الذى (وعد) اى به (الرحمن) اى العام الرحمة الذى رحمته مقتضية ولابد للبعث لينصف المظلوم من ظالمه ويجازى كلا بعمله من غير حيف وقد رحمنا بارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام الينا بذلك وطالما أنذرونا حلوله وحذرونا صعوبته وطوله (وصدق) اى فى أمره (المرسلون) اى الذين أتونا بوعد الله تعالى ووعيده

(تنبيه) فى اعراب هذا وجهان أظهرهما انه مبتدأ وما بعده خبره ويكون الوقف تاما على قوله تعالى من مرقدنا وهذه الجملة حينئذ فيها وجهان أحدهما أنها مستأنفة اما من قول الله تعالى أو من قول الملائكة أو من قول المؤمنين الثانى أنها من كلام الكفار فتكون فى محل نصب بالقول الثانى من الوجهين الاولين هذا صفة لمرقدنا وما وعد منقطع عما قبله ثم فى ما وجهان أحدهما أنها فى محل رفع بالابتداء والخبر مقدر اى الذى وعده الرحمن وصدق المرسلون فيه حق عليكم واليه ذهب الزجاج والزمخشرى والثانى انه خبر مبتدا مضمر اى هذا الذى وعد الرحمن (ان) اى ما (كانت) اى النفخة التى وقع الاحياء بها (الا صيحة واحدة) اى كما كانت صيحة الاماتة واحدة (فاذاهم) اى بغتة من غير توقف أصلا (جميع) اى على حالة الاجتماع لم يتأخر منهم أحد (لدينا) اى عندنا (محضرون) ثم بين تعالى ما يكون فى ذلك اليوم بقوله تعالى (فاليوم لا تظلم نفس) اى أى نفس كانت مكروهة أو محبوبة (شيأ) اى لا يقع لها ظلم ما من أحد ما فى شئ ما (ولا تجزون) اى على عمل من الاعمال شيأ من الجزاء من أحد ما (الا ما كنتم تعملون) ديدنا لكم بما ركز فى جبلاتكم ثم بين تعالى حال المحسن بقوله تعالى (ان أصحاب الجنة) اى الذين لاحظ للنار فيهم (اليوم) اى يوم البعث وهذا يدل على انه يعجل دخولهم أو دخول بعضهم اليها ووقوف الباقين للشفاعات ونحوها من الكرامات عند دخول أهل النار النار وعبر بما يدل على أنهم بكلياتهم مقبلون عليه ومطرقون له مع توجههم اليه بقوله (فى شغل) اى عظيم جدا لا يبلغ وصفه العقول كما كانوا فى الدنيا فى أشغل الشغل بالمجاهدات فى الطاعات وقرأ ابن عامر والكوفيون بضم الغين والباقون بالاسكان ثم بين ذلك الشغل بقوله (فاكهون) اى متلذذون فى النعمة واختلف فى هذا الشغل فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى افتضاض الابكار وقال وكيع بن الجراح رضى الله عنهما فى السماع وقال الكلبى فى شغل عن أهل النار وما هم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم وقال ابن كيسان فى زيارة بعضهم بعضا وقيل فى ضيافة الله تعالى فاكهون وقيل فى شغل عن هول اليوم يأخذون ما آتاهم الله تعالى من الثواب فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب وقوله تعالى فاكهون متمم لبيان سلامتهم فانه لو قال فى شغل جاز أن يقال هم فى شغل أعظم من التفكر فى اليوم وأهواله فان من تصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من اموره أو يخبر بخسران وقع فى ماله يقول

فاعلة وفى الرجل كونها حاضرة وقول الفاعل على نفسه اقرار ولا شهادة وقول الحاضر على غيره

أنا مشغول عن هذا بأهم منه فقال فاكهون أي شغلوا عنه بما التذوا به من السرور لا بالويل والثبور وقال ابن عباس رضي الله عنهما فاكهون فرحون * ولما كانت النفس لا يتم سرورها الا بالقرين الملائم قال تعالى (هم) أي بظواهرهم وبواطنهم (وأزواجهم) اي أشكالهم الذين لهم في غاية الملاءمة كما كانوا يتركونهم في المضاجع على ألذ ما يكون و يصفون أقدامهم في خدمتنا وهم يبكون من خشيتنا وفي هذا اشارة الى عدم الوحشة (في ظلال) اي يجدون فيها بردا الاكباد وغاية المراد فلا تصيبهم الشمس كما كانوا يشوون أكبادهم في دار العمل بحر الصيام والصبر في مرضاتنا على الآلام ويعرون أيديهم وقلوبهم من الاموال ببذل الصدقات في سبيلنا على مر الايام وكر الليال * (تنبيه) * ظلال جمع ظل كشعاب أو ظلة كقباب ويؤيده قراءة حمزة والكسائي بضم الظاء ولا ألف بين اللامين وأما الباقون فقرؤا بكسر الظاء وألف بين اللامين وهم مبتدأ خبره في ظلال كما قاله أبو البقاء * ولما كان التمتع لا يكمل الا مع العلو لما مكن من زيادة العلم الموجب لارتياح النفس وبهجة العين بانفساح البصر عند مد النظر قال تعالى (على الارائك) أي السرر المزينة العالية التي هي داخل الحجال قال ثعلب لا تكون أريكة حتى يكون عليها حجلة وقال ابن جرير الارائك الحجال فيها السرر وروى أبو عبيدة في الفضائل عن الحسن قال كنا ندري ما الارائك حتى لقينا رجل من أهل اليمن فأخبرنا أن الاريكة عندهم الحجلة فيها السرير وهذا جزاء لما كانوا يلزمون المساجد ويغضون أبصارهم و يمنعون نفوسهم لاجلنا (متكئون) كما كانوا يدأبون في الاعمال قائمين بين أيدينا في أغلب الاحوال والاتكاء الميل على شيء مع الاعتماد على ما يريح الاعتماد عليه او الجلوس مع التمكن على هيئة المتربع وفي هذا اشارة الى الفراغ وقوله تعالى (لهم) أي خاصة بهم (فيها فاكهة) اي لا تنقطع أبدا ولا مانع لهم من تناولها ولا يتوقف ذلك على غير الارادة اشارة الى ان لا جوع هناك لان التفكه لا يكون لدفع الجوع (ولهم ما يدعون) اي يتمنون * (تنبيه) * في ما هذه ثلاثة أوجه موصولة اسمية نكرة موصوفة والعائد على هذين محذوف مصدرية ويدعون مضارع ادعى افتعل من دعا يدعو وأشرب معنى التمني وقال الزجاج هو من الدعاء اي ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم من دعوت غلامي فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحل وقيل افتعل بمعنى تفاعل اي ما يتداعونه كقولهم ارتموا وتراموا بمعنى واحد ثم فسر الذي يدعونه اي يطلبونه بغاية الاشتياق اليه أو استأنف الاخبار عنه بقوله تعالى (سلام) اي عظيم جدا عليكم يا أهل الجنة والسلام يجمع جميع النعم ثم بين هذا السلام بما أظهر من عظمه بقوله (قولا من رب) اي دائم الاحسان (رحيم) اي عظيم الاكرام بما ترضاه الالهية كما كانوا في الدنيا يفعلون كل ما فيه الرضا فيحييهم في حال السلام وسماع الكلام بلذة الرؤية مع التقوية على الدهش والضعف لعظيم الامر وبالتأهيل لهذا المقام الاكرم مع قصورهم عنه روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فاذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فينظر اليهم وينظرون اليه فلا يلتفتون الى شيء من النعيم

شهادة زقوله وماعلمناه الشعر) اي انشاءه وماينبغي له اي ما يليق به ذلك كما قال تعالى وما ينبغي للرحمن

مادامو ا ينظرون اليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره و بركته عليهم فى ديارهم وقيل تسلم عليهم الملائكة من ربهم لقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم اى يقولون سلام عليكم يا أهل الجنة من ربكم الرحيم وقيل يعطيهم السلامة الابدية ٭ ولما ذكر ما للمؤمنين من النعيم ذكر ما للكافرين من الجحيم بقوله تعالى (وامتازوا) اى و يقال للمجرمين امتازوا أى انفردوا (اليوم أيها المجرمون) عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم قال الضحاك لكل كافر فى النار بيت يدخل ذلك البيت فيردم بابه بالنار فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى وقيل ان قوله تعالى وامتازوا أمر تكوين فحين يقول امتازوا اليوم فيميزون بسيماهم و يظهر على جباههم وفى وجوههم سواد كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم ٭ ولما أمروا بالامتياز وخضعت منهم الابصار وكلحت الوجوه وتنكست الرؤس قال تعالى موبخالهم (ألم أعهد اليكم) اى أوصكم ايصاء عظيما بما نصبت من الادلة ومنحت من العقول و بعثت من الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزلت من الكتب فى بيان الطريق الموصل الى النجاة ٭ ولما كان المقصود بهذا الخطاب تقريعهم وتبكيتهم وكانت هذه السورة قلبا وكان القلب أشرف الاعضاء وكان الانسان أشرف الموجودات خصه بالخطاب بقوله تعالى (يابنى آدم) أى على لسان رسلى عليهم الصلاة والسلام واختلف فى معنى هذا العهد على وجوه أقواها ألم أوص اليكم كامر وقيل آمركم وقيل غير ذلك واختلفوا فى هذا العهد أيضا على اوجه اظهرها أنه مع كل قوم على لسان رسلهم كامر وقيل هو العهد الذى كان مع آدم فى قوله تعالى ولقد عهدنا الى آدم وقيل هو الذى كان مع ذريته عليه السلام حين أخرجهم وقال ألست بربكم قالوا بلى (أن لا تعبدوا الشيطان) أى البعيد المحترق بطاعتكم فيما يوسوس به اليكم والطاعة قد تطلق على العبادة ثم علل النهى عن عبادته بقوله تعالى (انه لكم) والتأكيد لان أفعالهم افعال من يعتقد صداقته (عدو مبين) أى ظاهر العداوة جدا من جهة عداوته لابيكم التى أخرجتكم من الجنة التى لامنزل أشرف منها ومن جهة امركم بما ينغص الدنيا من التضالف والخصام ومن جهة تزيينه للفانى الذى لايرغب فيه عاقل لولم يكن فيه عيب غير فنائه فكيف اذا كان أكثره أكدارا وأدناسا فكيف اذا كان شاغلا عن الباقى فكيف اذا كان عائقا عن المولى فكيف اذا كان مغضباله حاجبا عنه (فان قيل) اذا كان الشيطان عدوا للانسان فما بال الانسان يقبل على مايرضيه من الزنا والشرب ونحو ذلك و يكره مايسخطه من المجاهدة والعبادة ونحو ذلك (أجيب) بانه يستعين عليه باعوان من عند الانسان وترك استعانة الانسان بالله تعالى فيستعين بشهوته التى خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه و بقاء نوعه و يجعلها سببا لفساد حاله و يدعوه بها الى مسالك المهالك وكذا يستعين بغضبه الذى خلقه الله تعالى فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سببا لوباله وفساد أحواله وميل الانسان الى المعاصى كميل المريض الى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد فى مرضه ومن معدته فاسدة لاتهضم القليل من الغذاء يميل الى الاكل الكثير ولا يشبع بشئ وهو يزيد فساد معدته وصحيح المزاج لايشتهى الا ماينفعه ٭ ولما منع من عبادة الشيطان أمر بعبادة الرحمن بقوله عاطفا على ان لا (وان اعبدونى) اى وحدونى واطيعونى

ان يتخذولدا اوما وردعنه صلى الله عليه وسلم من الرجز نحو قوله انا النبى لا كذب انا ابن عبد المطلب وقوله هل أنت

(هذا) اى الامر بعبادتى (صراط) أى طريق (مستقيم) أى بليغ الاستقامة وعبادة الشيطان طريق ضيق معوج غاية الضيق والعوج وقرأ قنبل بالسين وخلف بالاشمام أى بين الصاد والزاى والباقون بالصاد ثم ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى (ولقد أضل منكم) أى من الطريق الواضح السوى بما سلطه به من الوسوسة (جبلا) أى امما كبارا عظاما كانوا كالجبال فى قوة العزائم وصعوبة الانقياد ومع ذلك كان يلعب بهم كما تلعب الصبيان بالكرة فسبحان من أقدره على ذلك والاه وأضعف كيدا وأحقر أمرا وقرأ نافع وعاصم بكسر الجيم والباء الموحدة وتشديد اللام مع التنوين وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الموحدة والباقون بضم الجيم والموحدة وكلها لغات ومعناها الخلق والجماعة اى خلقا (كثيرا) ثم زاد فى التوبيخ والانكار بقوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون) اى عداوته واضلاله وما حل بهم من العذاب فتؤمنوا ويقال لهم فى الآخرة (هذه جهنم) اى التى تستقبلكم بالعبوسة والتجهم كما كنتم تفعلون بعبادى الصالحين (التى كنتم توعدون) اى ان لم ترجعوا عن غيكم (اصلوها) اى قاسوا حرها وتوقدها وهول أمر ذلك اليوم بأن ذكره على حد ما مضى بقوله تعالى (اليوم) ليكونوا فى شغل شاغل كما كان أصحاب الجنة وشتان ما بين الشغلين (بما) اى بسبب ما (كنتم تكفرون) اى تسترون ما هو ظاهر جدا بعقولكم من آياتى فى دار الدنيا

• (تنبيه) فى هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحزنهم من ثلاثة أوجه أحدها قوله تعالى اصلوها أمر تنكيل واهانة كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم ثانيها قوله تعالى اليوم يعنى العذاب حاضر ولذاتكم قد مضت وبقى اليوم العذاب ثالثها قوله تعالى بما كنتم تكفرون فان الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت فكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام كما قيل

ألیس بكاف لذی همة • حیاء المسیء من المحسن

• ولما كان كأنه قيل هل يحكم فى ذلك اليوم بعلمه أو يجرى الامر على قاعدة الدنيا فى العمل بالبينة نبه على أظهر من قواعد الدنيا بقوله تعالى مهولا (اليوم) على النسق الماضى فى مظهر العظمة لانه اليق بالتهويل (نختم) اى بما لنا من عظيم القدرة (على أفواههم) اى الكفار لاجترائهم على الكذب كقوله سبحانه والله ربنا ما كنا مشركين (وتكلمنا أيديهم) اى بما عملوا اقرارا هو اعظم شهادة (وتشهد أرجلهم) اى عليهم بكلام بين هو مع كونه شهادة اقرار (بما كانوا) اى فى الدنيا بجبلاتهم (يكسبون) فكل عضو ينطق بما صدر عنه فالآية من الاحتباك أثبت الكلام للايدى أولا لانها كانت مباشرة دليلا على حذفه من حيز الارجل ثانيا وأثبت الشهادة للارجل ثانيا لانها كانت حاضرة دليلا على حذفها من حيز الايدى أولا وتقريبه ان قول المباشر اقرار وقول الحاضر شهادة وفى كيفية هذا الختم وجهان أقواهما ان الله تعالى يسكت ألسنتهم وينطق جوارحهم فتشهد عليهم وان ذلك فى قدرة الله تعالى يسير أما الاسكات فلا خفاء فيه وأما الانطاق فان اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فجاز تحريك غيره بمثلها والله سبحانه قادر على كل الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشئ لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم فيقفون ناكسى الرؤس لا يجدون عذرا فيعتذرون ولا مجال توبة

فيستغفرون

الا اصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت فليس بشعر عند الخليل أو ان الموزون

فيستغفرون وتتكلم الايدى هو ظهور الامر بحيث لا يسمع معه الانكار كقول القائل
الحيطان تبكى على صاحب الدار اشارة الى ظهور الحزن والصحيح الاول لما روى أبو هريرة
ان ناسا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال هل
تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا يا رسول الله قال فهل تضارون فى
رؤية الشمس عند الظهيرة ليست فى سحاب قالوا لا يا رسول الله قال والذى نفسى بيده
لا تضارون فى رؤية ربكم كما لا تضارون فى رؤيتهما قال فيلقى العبد فيقول ألم أكرمك ألم
أسودك ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والابل وأتركك تترايد وتترفع قال بلى يا رب قال فظننت
انك ملاقى فيقول لا يا رب فيقول اليوم أنساك كما نسيتنى الى ان قال ثم يلقى الثالث فيقول
ما أنت فيقول أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك وصمت وصليت وتصدقت ويثنى بخير
ما استطاع ثم قال فيقال له ألا نبعث عليك شاهدنا قال فيتفكر فى نفسه من الذى يشهد عليه
فيختم على فيه فيقال لفخذه انطقى قال فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل قال وذلك
المنافق وذلك ليعذر من نفسه وذلك الذى سخط الله عليه ولما روى مسلم فى صحيحه عن أنس بن
مالك قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال هل تدرون مم اضحك قال قلنا الله
ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه قال يقول العبد يا رب ألم تجرنى من الظلم فيقول بلى
فيقول فانى لا أجيز على نفسى الا شاهدا منى فيقول تعالى كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا
وبالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه ويقول لاركانه انطقى فتنطق باعماله ثم يخلى بينه
وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت اناضل وقال صلى الله عليه وسلم أول
ما يسئل من أحدكم فخذه وكفه ((تنبيه)) ههنا سؤالات الاول ما الحكمة فى اسناد الختم
الى نفسه وقال نختم واسند الكلام والشهادة الى الايدى والارجل الثانى ما الحكمة فى جعل
الكلام للايدى والشهادة للارجل الثالث أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين
والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة وان كان عدلا وغير
الصديقين من الكفار والفساق لا تقبل شهادتهم والايدى والارجل صدرت الذنوب عنها فهى
فسقة فينبغى أن لا تقبل شهادتهم أجيب عن الاول بانه لو قال نختم على أفواههم وتنطق أيديهم
لاحتمل أن يكون ذلك جبرا وقهرا والاقرار بالاجبار غير مقبول فقال وتكلمنا ايديهم وتشهد
أرجلهم اى بالاختيار بعدما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم
واجيب عن الثانى بان الافعال تسند الى الايدى قال تعالى وما عملته ايديهم اى ما عملوه وقال
تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة اى ولا تلقوا انفسكم فاذن الايدى كالعاملة والشاهد
على العامل ينبغى ان يكون غيره فجعل الارجل والجلود من الشهود لبعد اضافة الافعال
اليهن وأجيب عن الثالث بان الايدى والارجل ليسوا من أهل التكليف ولا ينسب اليها عدالة
ولا فسق انما المنسوب من ذلك الى العبد المكلف لا الى اعضائه ولا يقال ورد ان العين تزنى وان
الفرج يزنى وان اليد كذلك لان معناه ان المكلف يزنى بها الا انها هى تزنى وأيضا فانا نقول فى رد
شهادتها قبول شهادتها لانها ان كذبت فى مثل ذلك اليوم مع ظهور الامور ولا بد أن يكون مذنبا
فى الدنيا وان صدقت فى ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب فى الدنيا وهذا كمن قال الفاسق ان كذبت

بوزن الشعر وان لم يكن رجز البس بشعر عند أحد اذ الشعر قول موزون

في نهار هذا اليوم فعبدي حر فقال الفاسق كذبت في نهار هذا اليوم عتق العبد لانه ان صدق في قوله كذبت في نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط و وقع الجزاء وان كذب في قوله كذبت فقد كذب في نهار ذلك اليوم فقد وجد الشرط ايضا بخلاف مالو قال في اليوم الثاني كذبت في نهار ذلك اليوم الذي علقت عتق عبدك على كذبي فيه * ثم بين سبحانه وتعالى انه قادر على اذهاب الابصار كما هو قادر على اذهاب البصائر بقوله تعالى (ولو نشاء) وعبر بالمضارع اي لو وقع في كل حين فيكون أبلغ في التهديد (لطمسنا على أعينهم) اي الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق وهو معنى الطمس كقوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم يقول انا اعميناقلوبهم ولو شئنا اعمينا ابصارهم الظاهرة وقوله تعالى (فاستبقوا الصراط) اي ابتدروا الطريق ذاهبين كعادتهم عطف على لطمسنا (فأنى) أي فكيف (يبصرون) الطريق حينئذ وقد اعمينا اعينهم اي لو نشاء لاضللناهم عن الهدى وتركناهم عميا يترددون فلا يبصرون الطريق وهذا قول الحسن والسدي وقال ابن عباس ومقاتل معناه لو نشاء لطمسنا اعين ضلالتهم فاعميناهم عن غيهم وحولنا ابصارهم من الضلالة الى الهدى فابصروا ارشدهم فانى يبصرون ولم أفعل ذلك بهم * ولما كان هذا كله مع القدرة على الحركة قال تعالى (ولو نشاء) اي مسخهم (لمسخناهم) اي حولناهم عن تلك الحالة فجعلناهم حجارة أو جعلناهم قردة وخنازير * ولما كان المقصود من المفاجاة بهذه المصائب بيان انه سبحانه لا كلفة عليه في شيء من ذلك قال تعالى (على مكانتهم) اي المكان الذي كان قبل المسخ كل شخص منهم شاغلا له بجلوس أو قيام أو غيره في ذلك الموضع خاصة قبل ان يتحرك منه وقرأ شعبة بالف بعد النون على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (فما استطاعوا) اي بانفسهم بنوع معالجة (مضيا) اي الى جهة من الجهات ثم عطف على جملة الشرط قوله تعالى (ولا يرجعون) اي يتجدد لهم بوجه من الوجوه رجوع الى حالتهم التي كانت قبل المسخ دلالة على ان هذه الامور حق لا كناية ولو من أنواع الخيال وسحر وقيل لا يقدرون على ذهاب ولا رجوع (ومن نعمره) أي نطل عمره اطالة كثيرة (ننكسه) قرأه عاصم وحمزة بضم النون الاولى وفتح النون الثانية وتشديد الكاف مكسورة من نكسه مبالغة والباقون بفتح النون الاولى وسكون الثانية وتخفيف الكاف مضمومة من نكسه وهي محتملة للمبالغة وعدمها ومعنى ننكسه (في الخلق) أي خلقه نرده الى أرذل العمر يشبه الصبي في الخلق وقيل ننكسه في الخلق أي ضعف جوارحه بعد قوتها ونقصانها بعد زيادتها الا ان الله تعالى أجرى العادة في النوع الآدمي أن من استوفى سن الصبا والشباب اثنتين وأربعين سنة حميت غرائزه فلا تزيد فيه غريزة ووقفت قواه كلها فلم يزد فيها شيء هذا في البدن وأما في المعارف فتارة وتارة وهذا أيضا في غير الانبياء عليهم السلام اما هم فلا ينقص شيء من قواهم بل تزداد كما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يمشي غير مكترث وان الصحابة رضي الله عنهم يجهدون أنفسهم فيكون جهدهم ان لا يدركوا مشيه الهويني وانه صلى الله عليه وسلم صارع ركانة الذي كان يضرب بقوته المثل وكان واثقا من نفسه انه يصرع من صارعه فلم يملكه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وعاد الى ذلك ثلاث مرات كل ذلك لا يتمسك في يده حتى خرج يقول ان هذا العجب يا محمد تصرعني وحتى انه دار على نسائه وهن تسع كل واحدة منهن تسع مرات في

مقفى مقصود به الشعر والقصد منتف فيما روى من ذلك (قوله أولم يروا انا

طلق واحد الى غير ذلك مما يحكى من قواه التي فاق بها الناس ولم يحك عن نبي من الانبياء عليهم السلام ممن عاش منهم ألفا وممن عاش دون ذلك انه نقص شيء من قواه بل قد ورد في الصحيح من حديث أبي هريرة ان ملك الموت عليه السلام ارسل الى موسى عليه السلام ليقبض روحه فلما جاءه صكه ففقأ عينه فقال لربه ارسلتني لعبد لا يريد الموت قال ارجع اليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال اي رب ثم ماذا قال الموت قال فالآن وكان موسى وقت قبضه ابن مائة وعشرين سنة (أفلا يعقلون) اى ان القادر على ذلك عندهم قادر على البعث فيؤمنون وقرأ نافع وابن ذكوان بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ولما منح الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم غرائز من الفضائل مما عجز عنها الاولون والآخرون واتى بقرآن اعجز الانس والجن وعلوم وبركات فاقت القوى ليس بشعر خلافا لما رموه به بغيا وكذبا وعدوانا قال تعالى (وما علمناه) اى نحن (الشعر) فيما علمناه وهو ان يتكلف التقيد بوزن معلوم ورويّ مقصود وقافية يلتزمها او يدير المعاني عليها او يجتلب الالفاظ تكلفا اليها كما كان زهير وغيره في قصائدهم وما أنا من المتكلفين لان ذلك وان كنتم أنتم تعدونه فخرا لا يليق بجنابنا لانه لا يفرح به الا من يريد ترويج كلامه وتحليته بصوغه على وزن معروف مقصود وقافية ملتزمة على أن فيه نقيصة أخرى وهي أعظم ما يوجب النفرة عنه وهي أنه لا بد أن يوهي التزامه بعض المعاني ولما لم نعلمه هذه الدناءة طبعناه على جميع فنون البلاغة ومكناه من سائر وجوه الفصاحة ثم أسكنا قلبه ينابيع الحكمة ودربناه على القاء المعاني الجليلة بما ألهمناه اياه ثم بما ألقاه اليه جبريل عليه السلام مما أمرناه به من جوامع الكلم والحكم فلا تكلف عنده اصلا ما خير صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار ايسرهما ما لم يكن اثما او قطيعة رحم ولما كان الشعر مع ما ينبني عليه من التكلف الذي هو بعيد جدا عن سجايا الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف جاء شرفهم بما يكسب مدحا وهجوا فيكون أكثره كذبا الى غير ذلك قال تعالى (وما ينبغي له) اى وما يصح له الشعر ولا يسهل له على ما اختبر ثم من طبعه نحوا من أربعين سنة لان منصبه اجل وهمته اعلى من أن يكون مداحا أو عيابا وأن يتقيد بما قد يجر نقيصة في المعنى وجبلته منافية لذلك غاية المنافاة بحيث لو اراد نظم شعر لم يتأت له كما جعلناه اميا لا يكتب ولا يحسب لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وما كان يتزن له بيت شعر حتى اذا تمثل ببيت شعر يجري على لسانه منكسرا روى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت

* كفى بالشيب والاسلام للمرء ناهيا * فقال أبو بكر رضى الله عنه انما قال الشاعر

كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا فقال عمر رضى الله عنه اشهد انك رسول الله يقول الله عز وجل وما علمناه الشعر وما ينبغي له وعن أبي شريح قال قلت لعائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر قالت كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة قالت وربما قال * ويأتيك بالاخبار من لم تزود * وفي رواية قالت كان الشعر ابغض الحديث اليه قالت ولم يتمثل بشيء من الشعر الا ببيت اخي بني قيس طرفة العبدي

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا * ويأتيك بالاخبار من لم تزود

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالاخبار فقال أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله فقال اني لست

(خلقنا لهم مما عملت أيدينا) اي قدرتنا عبر عنها باليد لما فيها من الملازمة

بشاعر ولا ينبغى لى وقيل معناه ما كان متأتيا له وأما قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه البخارى ومسلم أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب وقوله كما رواه الشيخان أيضا

هل أنت الا اصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

فاتفاقى من غير تكلف وقصد منه الى ذلك وقد يقع مثله كثيرا فى تضاعيف المنثورات على ان الخليل ما عد المشطور من الرجز شعرا هذا وقد روى انه حرك الباءين فى قوله انا النبى لا كذب وكسر التاء الاولى بلا اشباع وسكن الثانية من قوله هل أنت الا اصبع الخ وقيل الضمير للقرآن أى وما يصح أن يكون القرآن شعرا (فان قيل) لم خص الشعر بنفى التعليم مع أن الكفار كانوا ينسبون الى النبى صلى الله عليه وسلم أشياء من جملتها السحر والكهانة ولم يقل وما علمناه السحر وما علمناه الكهانة (أجيب) بأن الكهانة انما كانوا ينسبون النبى صلى الله عليه وسلم اليها عند ما كان يخبر عن الغيوب وتكون كما يقول وأما السحر فكانوا ينسبونه اليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكليم الجذع والحجر وغير ذلك وأما الشعر فكانوا ينسبونه اليه عندما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى الا بالقرآن كما قال تعالى ان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله الى غير ذلك ولم يقل ان كنتم فى شك من رسالتى فاخبروا بالغيوب أو أشبعوا الخلق الكثير بالشئ اليسير فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه الى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم * ولما نفى أن يكون ما أتى به من جنس الشعر قال تعالى (ان) اى ما (هو) اى هذا الذى آتاكم به (الا ذكر) اى شرف وموعظة (وقرآن) اى جامع للحكم كلها دنيا واخرى يتلى فى المحاريب ويكرر فى المتعبدات وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين والنظر الى وجه الله العظيم (مبين) اى ظاهر انه ليس من كلام البشر لما فيه من الاعجاز قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو الا ذكر للعالمين كلهم ذكيهم وغبيهم بخلاف الشعر فانه مع نزوله عن بلاغته جدا انما ذكر للاذكياء جدا وقوله تعالى (لينذر) ضميره للنبى صلى الله عليه وسلم ويدل له قراءة نافع وابن عامر بالتاء الفوقية على الخطاب وقيل للقرآن ويدل له قراءة الباقين بالياء التحتية على الغيبة واختلف فى قوله تعالى (من كان حيا) على قولين أحدهما أن المراد به المؤمن لانه حى القلب والكافر كالميت فى أنه لا يتدبر ولا يتفكر قال تعالى أومن كان ميتا فاحييناه والثانى المراد به العاقل فهما فيعقل ما يخاطب به فان الغافل كالميت (ويحق) أى يجب ويثبت (القول) اى العذاب (على الكافرين) أى المريقين فى الكفر فانهم أموات فى الحقيقة وان رأيتهم احياء ويمكن ان تكون هذه الآية من الاحتباك حذف الايمان أولا المدلول عليه من ضده ثانيا وحذف الموت ثانيا المدلول عليه من ضده أولا وأفرد الضمير فى الاول على اللفظ اشارة الى قلة السعداء وجمع فى الثانى على المعنى اعلاما بكثرة الاشقياء (أولم يروا) اى يعلموا علما هو كالرؤية والاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليها للعطف (أنا خلقنا لهم) أى فى جملة الناس (مما عملت أيدينا) أى مما توليناه احداثه ولم يقدر على احداثه غيرنا وذكر الايدى واسناد العمل اليها استعارة تفيد المبالغة فى الاختصاص والتفرد فى الاحداث كما يقول القائل عملت هذا بيدى اذا تفرد به ولم يشاركه فيه أحد (أنعاما) على علمنا بقواها ومقادير هاومنافعها وطباتها

والاشارة الى الانفراد بخلاف الانعام كما يقال فى عمل القلب هذا عام لمته بذلك للمخاطب وان لم يكن

وطباتهها وغير ذلك من امورها وانما خص الانعام بالذكر وان كانت الاشياء كلها من خلقه وايجاده لان الانعام أكثر أموال العرب والنفع بها أعم (فهم لها مالكون) أى خلقناها لاجلهم فملكناهم اياها يتصرفون فيها تصرف الملاك أو فهم لها ضابطون قاهرون ومنه قول بعضهم

اصبحت لا أحمل السلاح ولا ✽ املك رأس البعير ان نفرا

والذئب اخشاه ان مررت به ✽ وحدى واخشى الرياح والمطرا

والشاهد فى قوله ولا أملك رأس البعير اى لا أضبطه والمعنى لم نخلق الانعام وحشية نافرة من بنى آدم لا يقدرون على ضبطها بل خلقناها مذللة كما قال تعالى (وذللناها لهم) اى يسرنا قيادها ولو شئنا جعلناها وحشية كما جعلنا أصغر منها وأضعف فمن قدر على تذليل الاشياء الصعبة جدا لغيره قادر على تطويع الاشياء لنفسه ثم سبب عن ذلك قوله تعالى (فمنها ركوبهم) اى ما يركبون وهى الابل لانها أعظم مركوباتهم لعموم منافعها فى ذلك وكثرتها (ومنها يأكلون) اى ما يأكلون لحمه ✽ ولما أشار الى عظمة نفع الركوب والاكل بتقديم الجار وكانت منافعها الغير ذلك كثيرة قال تعالى (ولهم فيها منافع) اى من أصوافها وأوبارها واشعارها وجلودها ونسلها وغير ذلك (ومشارب) أى من البانها جمع مشرب بالفتح وخص المشرب من عموم المنافع لعموم نفعه وجمعه لاختلاف طعوم ألبان الانواع الثلاثة ولما كانت هذه الاشياء من العظمة بمكان لو فقدها الانسان لتكدرت معيشته تسبب عنها استئناف الانكار عليهم فى تخلفهم عن طاعته بقوله تعالى (أفلا يشكرون) اى المنعم عليهم بها فيؤمنون ولما ذكرهم تعالى نعمه وحذرهم نقمه عجب منهم فى سفول نظرهم وقبح أثرهم بقوله تعالى موبخا لهم (واتخذوا من دون) اى غير (الله) الذى له جميع صفات الكمال والعظمة (آلهة) اى أصناما يعبدونها بعدما رأوا منه تعالى تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة وعلموا انه المنفرد بها (لعلهم ينصرون) اى رجاء ان ينصروهم فيما أحزنهم من الامور والامر بالعكس كما قال تعالى (لا يستطيعون) اى الآلهة المتخذة (نصرهم) اى العابدين (وهم) اى العابدون (لهم) اى للآلهة (جند محضرون) اى الكفار جند للاصنام فيغضبون لها ويحضرونها فى الدنيا وهى لا تسوق اليهم خيرا ولا تستطيع لهم نصرا وقيل هذا فى الآخرة يؤتى بكل معبود من دون الله تعالى ومعه اتباعه الذين عبدوه كأنهم جند محضرون فى النار وهذا كقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقوله تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم ✽ ولما بين تعالى ما تبين من قدرته الظاهرة الباهرة ووهن أمرهم فى الدنيا والآخرة ذكر ما يسلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) اى فى تكذيبك كقولهم لست مرسلا (انا نعلم ما) اى كل ما (يسرون) اى فى ضمائرهم من التكذيب وغيره (وما يعلنون) اى يظهرونه بالسنتهم من الاذى وغيره من عبادة الاصنام فنجازيهم عليه ✽ ولما ذكر تعالى دليلا على عظم قدرته ووجوب عبادته بقوله تعالى أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ذكر دليلا من الانفس أبين من الاول بقوله تعالى (أولم ير) اى يعلم (الانسان) علما هو فى ظهوره كالمحسوس بالبصر (أنا خلقناه) اى بمالنا

قوله (وضرب لنا مثلا
ونسى خلقه) الآية
سمى قوله من يحيى العظام
وهى رميم مثلا وان لم يكن

من العظمة (من نطفة) اى شئ حقير يسير من ماء لا انتفاع به بعد ابداعنا اباه من تراب وانه من لحم وعظام (فاذا هو) اى فتسبب عن خلقنا له من ذلك المفاجأة لحالة هى ابعد شئ من حالة النطفة وهى انه (خصيم) اى بليغ الخصومة (مبين) اى فى غاية البيان عما يريده حتى انه ايجادل من أعطاه العقل والقدرة فى قدرته وانشد الاستاذ القشيرى فى ذلك

أعلمه الرماية كل يوم * فلما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته علم القوافى * فلما قال قافية هجانى

وفى هذا تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة الى انكارهم الحشر وفيه تقبيح بليغ لانكاره حيث تعجب منه وجعله افراطا فى الخصومة بينا ومنافاته لجحود القدرة على ما هو اهون مما عمله فى بدء خلقه ومقابلة النعمة التى لامزيد عليها وهى خلقه من أخس شئ وامهنه شريفا مكرما بالعقوق والتكذيب (وضرب) اى هذا الانسان (لنا) أى على ما يعلم من عظمتنا (مثلا) أى امرا عجيبا وهو نفى القدرة على احياء الموتى روى ان أبى بن خلف الجمحى وهو الذى قتله النبى صلى الله عليه وسلم باحد بيده جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم بال يفتته بيده فقال أترى الله يحيى هذا بعد ما رم فقال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك النار فنزلت وقيل هو العاصى بن وائل قاله الجلال المحلى واكثر المفسرين على الاول (ونسى) اى هذا الذى تصدى على مهانة اصله لمخاصمة الجبار (خلقه) اى بدء امره من المنى وهو اغرب من مثله والنسيان هنا يحتمل ان يكون بمعنى الذهول وان يكون بمعنى الترك ثم استأنف الاخبار عن هذا المثل بأن (قال) اى على طريق الانكار (من يحيى العظام وهى رميم) اى صارت ترابا تمر مع الرياح ورميم قال البيضاوى بمعنى فاعل من رم الشئ صار اسما بالغلبة ولذلك لم يؤنث او اسم مفعول من رممته وفيه دليل على ان العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الاعضاء اه قال البغوى ولم يقل رميمة لانه معدول عن فاعلة فكل ما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن اعرابه كقوله تعالى وما كانت أمك بغيا أسقط الهاء لانها مصروفة عن باغية •(تنبيه)• هذه الآية وما بعدها اشارة الى بيان الحشر لان المنكرين للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة بل اكتفى بمجرد الاستبعاد وهم الاكثرون أئذا ضللنا فى الارض أئنا لفى خلق جديد أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون من يحيى العظام وهى رميم قالوا ذلك على طريق الاستبعاد فابطل الله تعالى استبعادهم بقوله تعالى ونسى خلقه اى نسى انا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الاجزاء ثم جعلنا لهم من النواصى الى الاقدام أعضاء مختلفة الصور وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الاجرام وهو النطق والعقل اللذان بهما استحقوا الاكرام فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة مذرة لم تكن محلا للحياة أصلا ويستبعدون اعادة النطق والعقل الى محل كانا فيه واختاروا العظم بالذكر لانه أبعد عن الحياة لعدم الاحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلاء والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما فى العبد من القدرة والعلم فقال وضرب لنا مثلا اى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب وبدأه الغريب ومنهم من ذكر شبهة وان كان فى آخرها يعود الى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين الاول انه

مثلا لما اشتمل عليه من الامر العجيب وهو انكار الانسان قدرة الله تعالى على احياء الموتى مع شهادة

بعد

بعد العدم لم يبق شيأ فكيف الحكم على العدم بالوجود فاجاب تعالى عن هذه الشبهة بان قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى لهؤلاء البعداء البغضاء (يحييها) اى بعد أن أنشأها أول مرة (الذى أنشأها) اى من العدم ثم أحياها (أول مرة) فكما خلق الانسان ولم يكن شيأ مذكورا كذلك يعيده وان لم يبق شيأ مذكورا الوجه الثانى ان من تفرقت أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضها فى أبدان السباع وبعضها فى حواصل الطيور وبعضها فى جدران الربوع كيف تجتمع وأبعد من هذا لو أكل انسان انسانا وصار أجزاء المأكول فى أجزاء الآكل فان أعيدت أجزاء الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه وأما ان تعاد الى بدن المأكول فلا يبقى للآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفى المأكول كذلك فاذا أكل انسان انسانا صار الاصلى من أجزاء المأكول فضليا من أجزاء الآكل والاجزاء الاصلية للآكل هى ما كان قبل الأكل فاجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (وهو بكل خلق) اى مخلوق (عليم) اى يجمع الأصل من الفضل فيجمع الاجزاء الاصلية للآكل ويجمع الاجزاء الاصلية للمأكول وينفخ فيه روحه وكذلك يجمع أجزاءه المتفرقة فى البقاع المتبددة بحكمته وقدرته ثم انه تعالى عاد الى تقرير ما تقدم من رفع استبعادهم وابطال انكارهم بقوله تعالى (الذى جعل لكم) اى فى جملة الناس (من الشجر الاخضر) اى الذى تشاهدون فيه الماء (نارا) قال ابن عباس هما شجرتان يقال لاحداهما المرخ والأخرى العفار الاول بفتح الميم وسكون الراء والخاء المعجمة شجر سريع الورى اى القدح والثانى بفتح المهملة وفاء وراء بعد ألف الزند فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما أخضران يقطران الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتخرج منهما النار باذن الله تعالى وتقول العرب فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار وقال الحكماء فى كل شجر نار الا العناب (فاذا أنتم) اى فتسبب عن ذلك مفاجأتكم لانه (منه) اى من الشجر الموصوف بالخضرة (توقدون) اى توجدون الايقاد ويتجدد لكم ذلك مرة بعد أخرى وهذا أدل على القدرة على البعث فانه جمع فيه بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الانسان فقال تعالى (أوليس الذى خلق) اى أوجد من العدم (السموات والارض) اى على كبرهما وعظم ما فيهما من المنافع والمصانع والعجائب والبدائع وأثبت الجار تحقيقا للامر وتأكيدا للتقرير فقال تعالى (بقادر على ان يخلق مثلهم) اى مثل هؤلاء الاناسى فى الصغر اى يعيدهم باعيانهم وقيل الضمير يعود على السموات والارض لتضمنهم من يعقل والاول أظهر لانهم المخاطبون وقوله تعالى (بلى) جواب ليس وان دخل عليها الاستفهام لمصيرها ايجابا اى هو قادر على ذلك أجاب نفسه تعالى (وهو) مع ذلك اى مع كونه عالما بما خلق (الخلاق) اى الكثير الخلق (العليم) أى البالغ فى العلم الذى هو منشأ القدرة فلا يخفى عليه كلى ولا جزئى فى ماض ولا حال ولا مستقبل شاهد أو غائب ولما تقرر ذلك أنتج قوله تعالى مؤكدا لأجل انكارهم القدرة على البعث (انما أمره) أى شأنه ووصفه (اذا أراد شيأ) اى خلق شئ من جوهر او عرض أى شئ كان (ان يقول له كن) اى ان يريده (فيكون) اى يحدث وهو تمثيل لتأثير قدرته فى مراده بامر المطاع للمطيع فى

العقل والنقل على ذلك

(سورة الصافات)

(قوله ورب المشارق) ان قلت لم جمع هنا المشرق=

حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار الى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعا للمادة الشبهة وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق وقرأ ابن عامر والكسائى بنصب النون عطفا على يقول والباقون بالرفع اى فهو يكون ولما كان ذلك تسبب عنه المبادرة الى تنزيهه تعالى عما ضربوه من الامثال فلذلك قال (فسبحان) أى تنزه عن كل شائبة نقص تنزها لا يبلغ افهامكم كنهه وعدل عن الضمير الى وصف يدل على غاية العظمة فقال (الذى بيده) اى قدرته وتصرفه خاصة لا بيد غيره (ملكوت كل شئ) اى ملكه التام وملكه ظاهرا وباطنا ولما كان التقدير فمنه تبدؤن عطف عليه قوله تعالى (واليه) اى لا الى غيره (ترجعون) اى معنى فى جميع أموركم وحسابا بالبعث لينصف بينكم فيدخل بعضا النار وبعضا الجنة وعن ابن عباس كنت لا أعلم ماروى فى فضل يس كيف خصت به فاذا أنه لهذه الآية وماروا البيضاوى عنه صلى الله عليه وسلم ٣ ان لكل شئ قلبا وقلب القرآن يس وايما مسلم قرئ عنده اذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة املاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه و يستغفرون له و يشهدون قبض روحه وغسله و يتبعون جنازته و يصلون عليه و يشهدون دفنه وايما مسلم قرأ يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض روحه وهو ريان و يمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج الى حوض من حياض الانبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان حديث موضوع وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يس فى ليلة أصبح مغفورا له وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات وعن يحيى بن أبى كثير قال بلغنا ان من قرأ يس حين يصبح لم يزل فى فرح حتى يمسى ومن قرأها حين يمسى لم يزل فى فرح حتى يصبح

سورة الصافات مكية

وهى مائة واثنتان وثمانون آية وثمانمائة وستون كلمة وثلاثة آلاف وثمانمائة وستة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذى له الكمال المطلق (الرحمن) الذى من رحمته العدل فى الدارين (الرحيم) الذى لا يدنو من جنابه نقص واختلف فى تفسير قوله تعالى (والصافات صفا) أى بجعلهم ترتيب الجمع على خط فقال ابن عباس والحسن وقتادة هم الملائكة فى السماء يصفون كصفوف الخلق فى الدنيا للصلاة وعن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تصفون كصفوف الملائكة عند ربهم قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم قال يتمون الصفوف المتقدمة و يتراصون فى الصف وقيل هى الملائكة تصف أجنحتها فى الهواء واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريد وقيل هى الطير تصف أجنحتها فى الهواء لقوله تعالى والطير صافات واختلف أيضا فى قوله تعالى (فالزاجرات زجرا) فاكثر المفسرين على انها الملائكة تزجر السحاب وتسوقه وقال قتادة هى زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبيح واختلف أيضا فى قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) فالاكثر أيضا أنهم الملائكة عليهم السلام يتلون ذكر الله تعالى وقيل هم جماعة قراء القرآن (فان قيل) قال أبو مسلم الاصفهانى لا يجوز حمل هذه الالفاظ على

الملائكة

---

٣ قوله ان لكل شئ قلبا الخ هكذا بالنسخ التى بايدينا وعبارة البيضاوى ان لكل شئ قلبا وقلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله غفر الله له واعطى من الاجر كانما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وايما مسلم قرئ عنده اذا نزل به ملك الموت يس نزل بكل حرف منها عشرة املاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله الخ اه مصححه

الملائكة لا بها مشعرة بالتأنيث والملائكة عليهم السلام مبرؤن من هذه الصفة (أجيب)
بوجهين الاول أن الصافات جمع الجمع فانه يقال جماعة صافة ثم تجمع على صافات والثانى أنهم
مبرؤن من التأنيث المعنوى وأما التأنيث اللفظى فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن
علامة التأنيث حاصلة ٭ (تنبيه) ٭ اختلف الناس ههنا فى المقسم به على قولين أحدهما أن
المقسم به خالق هذه الاشياء لانه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله تعالى ولان الحلف فى
مثل هذا الموضع تعظيم للمحلوف به ومثل هذا التعظيم لا يليق الا بالله تعالى ففى ذلك اضمار
تقديره ورب الصافات ورب الزاجرات ورب التاليات ومما يؤيد هذا أنه تعالى صرح به فى قوله
تعالى والسماء وما بناها والارض وما طحاها ونفس وما سواها والثانى وعليه الاكثر ان
المقسم به هذه الاشياء لظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل وأما النهى عن الحلف بغير
الله تعالى فهو نهى للمخلوق عن ذلك وأما قوله تعالى وما بناها فانه علق لفظ القسم بالسماء ثم
عطف عليه القسم بالبانى للسماء ولو كان المراد بالقسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار
فى موضع واحد وهو لا يجوز وأيضا لا يبعد ان تكون الحكمة فى قسم الله تعالى بهذه الاشياء
التنبيه على شرف ذواتها وقال البيضاوى أقسم بالملائكة الصافين فى مقام العبودية على
مراتب باعتبارها تفيض عليهم أنوار الهيبة منتظرين لامر الله الزاجرين للاجرام العلوية
والسفلية بالتدبير المأمور فيها أو الناس عن المعاصى بالهام الخير أو الشياطين عن التعرض
لهم التالين لآيات الله وجلايا قدسه على أنبيائه وأوليائه أو بطوائف الاجرام المرتبة
كالصفوف المرصوصة والارواح المدبرة لها والجواهر القدسية المستغرقة فى بحار
القدس يسبحون الليل والنهار لا يفترون أو بنفوس العلماء الصادقين فى العبادات الزاجرين
عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح التالين آيات الله وشرائعه أو بنفوس الغزاة
الصافين فى الجهاد الزاجرين للخيل أو العدو والتالين ذكر الله لا يشغلهم عنه مبارزة العدو
وقال الزمخشرى الفاء فى فالزاجرات والتاليات اما أن تدل على ترتب معانيها فى الوجود
كقوله   يا لهف زيابة للحرث الصابح فالغانم فالآيب
أى الذى صبح فغنم فآب واما على ترتبها فى التفاوت من بعض الوجوه كقولك خذ الافضل
فالاكمل واعمل الاحسن فالاجمل واما على ترتب موصوفاتها كقوله رحم الله المحلقين
فالمقصرين والبيضاوى ذكر هذا حديثا قال شيخنا القاضى زكريا لم أره بهذا اللفظ اهـ لكنه
لفضل المتقدم على المتأخر وهذا العكس وقرأ أبو عمرو وحمزة بالادغام فيما ذكر والباقون
بالاظهار وجواب القسم (ان الهكم) أى الذى اتخذتم من دونه آلهة (لواحد) اذ لو لم يكن
واحدا لاختل هذا الاصطفاف والزجر والتلاوة وما يترتب عليها فكان غير حكيم (فان قيل)
ذكر الحلف فى هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجهين الاول ان المقصود من هذا القسم اما
اثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو الكافر فالاول باطل لان المؤمن مقر به من غير حلف والثانى
باطل أيضا لان الكافر لا يقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل فهذا الحلف عديم الفائدة على
كل تقدير الثانى انه يقال أقسم فى أول هذه السورة على ان الاله واحد وأقسم فى أول سورة
الذاريات على ان القيامة حق فقال والذاريات ذروا الى قوله انما توعدون لصادق وان الدين

وحذف مقابله وثناه فى الرحمن وجمعه فى المعارج وأفرده فى المزمل مع ذكر مقابله فى الثلاثة (ق ا ش)

لو اقع واثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف لا يليق بالعقلاء (أجيب) عن ذلك بأوجه أولها انه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في غالب السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها بذكر القسم تأكيدا لما تقدم لاسيما والقرآن أنزل بلغة العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب ثانيها ان المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام في قولهم بانها آلهة فكأنه قيل ان هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة الى حيث يكفي في ابطاله مثل هذه الحجة ثالثها انه تعالى لما أقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى ان الهكم لواحد عقبه بما هو الدليل اليقيني في كون الاله واحدا وهو قوله تعالى (رب) أي موجد ومالك ومدبر (السموات) اى الاجرام العلية (والارض) أى الاجرام السافلة (وما بينهما) أى من الفضاء المشحون بما يعجز عن عده القوى وذلك لانه تعالى بين في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ان انتظام أحوال السموات والارض يدل على أن الاله واحد فههنا لما قال ان الهكم لواحد أردفه بقوله رب السموات والارض وما بينهما كأنه قيل بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على أن الاله واحد فتأملوا ليحصل لكم العلم بالتوحيد * (تنبيه) * علم من قوله تعالى وما بينهما انه تعالى خالق لاعمال العباد لان أعمالهم موجودة فيما بين السماء والارض وهذه الآية دلت على أن كل ما حصل بين السماء والارض فالله ربه ومالكه وهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله تعالى (فان قيل) الاعراض لا يصح وصفها بانها حصلت بين السماء والارض لان هذا الوصف انما يكون حاصلا في حيز وجهة والاعراض ليست كذلك (أجيب) بانها لما كانت حاصلة في الاجسام الحاصلة بين السماء والارض فهي أيضا حاصلة بين السموات والارض (ورب المشارق) أى والمغارب وجمعها باعتبار جميع السنة فان الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وستين كوة في المشرق وثلثمائة وستين كوة في المغرب على عدد أيام السنة تطلع الشمس كل يوم من كوة منها وتغرب في كوة منها لا ترجع الى الكوة التي تطلع منها الى ذلك اليوم من العام المقبل وقيل كل موضع أشرقت عليه الشمس فهو مشرق وكل موضع غربت عليه فهو مغرب كأنه أراد جميع ما أشرقت عليه الشمس وقيل المراد بالمشارق مشارق الكواكب ومغاربها لان لكل كوكب مشرقا ومغربا (فان قيل) ان الله تعالى قال في موضع رب المشرق والمغرب وقال في موضع آخر رب المشرقين ورب المغربين فما الجمع بين هذه المواضع (أجيب) بان المراد بقوله تعالى رب المشرق والمغرب الجهة فالمشرق جهة والمغرب جهة وبقوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين مشرقا الشتاء والصيف ومغربا الشتاء والصيف وأما موضع الجمع فقدمر (فان قيل) لم اكتفى بذكر المشارق (أجيب) بوجهين الاول انه اكتفى به كقوله تعالى تقيكم الحر والثاني ان الشروق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعا منه فذكر المشرق تنبيها على كثرة احسان الله تعالى على عباده ولهذه الدقيقة استدل ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام بقوله ان الله يأتي بالشمس من المشرق (انا زينا) اى بعظمتنا التي لا تدانى (السماء) ولما كانوا لا يرون الا ما يليهم من السموات وكانت زينة النجوم ظاهرة فيها قال تعالى (الدنيا) اى التي هي أدنى السموات اليكم (بزينة الكواكب) اى بضوئها كما قاله ابن

لان القرآن نزل على المعهود من أساليب كلام العرب وفنونه ومنها الاجمال والتفصيل والذكر

عباس

عباس أو بها وقرأ عاصم وحمزة بزينة بالتنوين والباقون بغير تنوين والاضافة للبيان كقراءة تنوين بزينة المبينة بالكواكب ونصب الباء الموحدة من الكواكب شعبة وكسرها الباقون (فان قيل) قد ثبت في علم الهيئة ان هذه الكواكب ثوابت مركوزة في الكرة الثامنة وان السيارات مركوزة في الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (أجيب) بان الناس الساكنين على سطح كرة الارض اذا نظروا الى السماء الدنيا فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب فصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وقوله تعالى (وحفظا) منصوب بفعل مقدر اي حفظناها بالشهب أو معطوف على زينة باعتبار المعنى كأنه قال انا خلقنا الكواكب زينة للسماء الدنيا وحفظا (من كل شيطان) أي بعيد عن الخير محترق (مارد) أي عات خارج عن الطاعة • ولما تشوف السامع الى معرفة هذا الحفظ وثمرته وبيان كيفيته استأنف قوله تعالى (لا يسمعون) أي الشياطين المفهومون من كل شيطان (الى الملا الأعلى) أي الملائكة أو اشرافهم في السماء وعدى السماع بالى لتضمنه معنى الاصغاء مبالغة لنفيه وتهويلا لما يمنعهم عنه ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص بفتح السين وتشديدها وتشديد الميم من التسمع وهو طلب السماع وقرأ الباقون بسكون السين وتخفيف الميم (ويقذفون) أي الشياطين يرمون بالشهب (من كل جانب) أي من آفاق السماء وقوله تعالى (دحورا) مصدر دحره أي طرده وأبعده وهو مفعول له وقيل هو جمع داحر فهو قاعد وقعود فيكون حالا بنفسه من غير تأويل وقيل غير ذلك (ولهم) أي في الآخرة (عذاب) غير هذا (واصب) أي دائم وقال مقاتل أي دائم في الدنيا الى النفخة الاولى وقوله تعالى (الا من خطف) فيه وجهان أحدهما انه مرفوع المحل بدلا من ضمير لا يسمعون وهو أحسن لانه غير موجب والثاني انه منصوب على أصل الاستثناء والمعنى أن الشياطين لا يسمعون الملائكة الا من خطف وقوله تعالى (الخطفة) مصدر معرف بال الجنسية أو المعرفة ومعنى اختطف اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة (فاتبعه) أي لحقه (شهاب) أي كوكب (ثاقب) أي مضيء قوي لا يخطئه يقتله أو يحرقه أو يثقبه أو يخبله • (تنبيه) • ههنا سؤالات أولها ان هذه الشهب التي يرمى بها هل هي من الكواكب التي زين الله السماء بها أم لا والاول باطل لانها تبطل وتضمحل فلو كانت تلك الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير في اعداد كواكب السماء ولم يوجد ذلك فان اعداد كواكب السماء باقية لم تتغير البتة وأيضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان في زينة السماء الدنيا فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض وان كانت هذه الشهب جنسا آخر غير الكواكب المركوزة في الفلك فهو أيضا مشكل لانه تعالى قال في سورة الملك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فالضمير في قوله وجعلناها عائد على المصابيح فوجب ان تكون تلك المصابيح هي المرجوم بها بأعيانها ثانيها كيف يجوز ان تذهب الشياطين حيث يعلمون أن الشهب تحرقهم ولا يصلون الى مقصودهم البتة وهل يمكن ان يصدر هذا الفعل من عاقل فكيف من الشياطين الذين لهم مزية في معرفة الحيل الدقيقة ثالثها ان التواريخ المتواترة على ان

والحذف والجمع والتثنية والافراد باعتبارات مختلفة فافرد واجمل في المزمل بقوله رب المشرق

حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك ترى الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه واذا ثبت أن ذلك كان موجودا قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم امتنع حمله على مجيء النبي صلى الله عليه وسلم رابعها الشيطان مخلوق من النار كما حكى عن قول ابليس لعنه الله تعالى خلقتني من نار وقال تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ولهذا السبب يقدر على الصعود الى السموات واذا كان كذلك فكيف يعقل احراق النار بالنار (أجيب) عن الاول بان هذه الشهب غير تلك الكواكب الثابتة وأما قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فنقول كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لاهل الارض الا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها ما لا يكون كذلك وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوما للشياطين الى حيث يعلون وبها يزول الاشكال وعن الثاني بان هذه الواقعة انما تتفق في الندرة فلعلها لا تشتهر بسبب ندرتها بين الشياطين وأجاب أبو علي الجبائي بان حصول هذه الحالة ليس له موضع معين والا لم يذهبوا اليه وانما يمنعون من المصير الى موضع الملائكة ومواضعها مختلفة فربما صاروا الى موضع تصيبهم الشهب وربما صاروا الى غيره ولا صادفوا الملائكة ولا تصيبهم الشهب فلما هلكوا في بعض الاوقات وسلموا في بعض الاوقات جاز ان يصيروا الى مواضع يغلب على ظنونهم أنهم لا تصيبهم الشهب فيها كما يجوز فيمن سلك البحران يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة وفي جواب أبي علي نظر اذ ليس في السماء موضع قدم الا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد وعن الثالث بان الاقرب ان هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي صلى الله عليه وسلم لكن بقلة ولما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وقعت بكثرة فصارت بسبب الكثرة معجزة وعن الرابع بان الشياطين ليسوا من نار خالصة وعلى التنزل بانهم من النيران الخالصة الا أنها نيران ضعيفة ونيران الشهب أقوى حالا منهم فلا جرم صار الاقوى مبطلا للاضعف الا ترى ان السراج الضعيف اذا وضع في النار القوية فانه ينطفئ فكذلك ههنا • ولما كان المقصود الاعظم من القرآن اثبات الاصول الاربعة وهي الالهيات والمعاد والنبوات واثبات القضاء والقدر افتتح الله سبحانه هذه السورة باثبات ما يدل على الصانع وعلى علمه وقدرته وحكمته ووحدانيته وهو خالق السموات والارض وما بينهما ورب المشارق والمغارب ثم فرع عليها اثبات الحشر والنشر والقيامة وهو ان من قدر على ما هو أشق وأصعب وجب ان يقدر على ما هو دونه وهو قوله تعالى (فاستفتهم) أي سل كفار مكة ان يقولوا بان يبينوا لك ما تسألهم عنه من انكارهم البعث وأصله من الفتوة وهي الكرم (أهم أشد) اي أقوى وأشق وأصعب (خلقا) أي من جهة احكام الصنعة وقوتها وعظمها (أم من خلقنا) اي من الملائكة والسموات والارض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب • (تنبيه) • في الاتيان بمن تغليب للعقلاء وهو استفهام بمعنى التقرير اي هذه الاشياء أشد خلقا كقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وقوله تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها وقيل معنى أم من خلقنا اي من الامم الماضية لان افظ من يذكر لمن يعقل والمعنى ان هؤلاء

والمغرب اراد مشرق الصيف والشتاء ومغربهما وجمع وفصل في المعارج بقوله رب المشارق والمغارب

الامم

الامم ليسوا بأحكم خلقا من غيرهم من الامم الخالية وقد أهلكناهم بذنوبهم فمن الذى يؤمن
هؤلاء من العذاب (انا خلقناهم) اى أصلهم آدم بعظمتنا (من طين) اى تراب رخو مهين
(لازب) اى شديد اختلاط بعضه ببعض فالتصق وخمر بحيث يعلق باليد وقال مجاهد
والضحاك منتن فهو مخلوق من غير أب ولا أم وقرأ حمزة والكسائى (بل عجبت) بضم التاء
والباقون بفتحها أما بالضم فباسناد التعجب الى الله تعالى وليس هو كالتعجب من الآدميين
كما قال تعالى فيسخرون منهم سخر الله منهم وقال تعالى نسوا الله فنسيهم فالعجب من الآدميين
انكاره وتعظيمه والعجب من الله تعالى قد يكون بمعنى الانكار والذم وقد يكون بمعنى
الاستحسان والرضا كما فى الحديث عجب ربكم من شاب ليست له صبوة وفى حديث آخر عجب
ربكم من الكم وقنوطكم وسرعة اجابته اياكم قوله الكم الال أشد القنوط وقيل هو رفع
الصوت بالبكا وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال ان الله تعالى لا يعجب من شئ ولكن وافق
رسوله صلى الله عليه وسلم فلما عجب رسوله قال تعالى وان تعجب فعجب قولهم أى هو كما تقوله
وأما بالفتح فعلى أنه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى عجبت من تكذيبهم اياك (ويسخرون)
اى وهم يسخرون من تعجبك قال قتادة عجب نبى الله صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن حين
انزل ومن ضلال بنى آدم وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يظن أن كل من سمع القرآن
يؤمن به فلما سمع المشركون القرآن سخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك النبى صلى الله عليه
وسلم فقال تعالى بل عجبت ويسخرون (واذا ذكروا) أى وعظوا بالقرآن (لايذكرون)
أى لايتعظون (واذا رأوا آية) قال ابن عباس وقتادة يعنى انشقاق القمر (يستسخرون)
أى يستهزؤن بها وقيل يستدعى بعضهم من بعض السخر به (وقالوا ان) أى ما (هذا الا سحر
مبين) أى ظاهر فى نفسه ومظهر لسحريته ثم خصوا البعث بالانكار اعلاما بأنه اعظم مقصود
بالنسبة الى السحر فقالوا مظهرين له فى مظهر الانكار (أئذا متنا) وعطفوا عليه ماهو
موجب عندهم لشدة الانكار فقالوا (وكنا) اى كونا فى غاية التمكن (ترابا) وقدموه لانه
ادل على مرادهم لانه ابعد عن الحياة (وعظاما) كأنهم جعلوا كل واحد من الموت أو الكون
الى الترابية المحضة والعظامية المحضة والمختلطة بهما مانعا من البعث وهذا بعد اعترافهم بأن
ابتداء خلقهم كان من التراب ثم كرر والاستفهام الانكارى على قراءة من قرأ به كما سيأتى
بيانه زيادة فى الانكار فقالوا (أئنا لمبعوثون) وقولهم (أو آباؤنا الاولون) عطف على محل ان
واسمها أو على الضمير فى مبعوثون فانه مفصول عنه بهمزة الاستفهام لزيادة الاستبعاد لبعد
زمانهم وهذا بيان للسبب الذى حملهم على الاستهزاء بجميع المعجزات وهو اعتقادهم ان من
مات وتفرقت أجزاؤه فى العالم فما فيه من الارض اختلط بالارض وما فيه من المائية
والهوائية اختلط بخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حيا ثم انه تعالى لما
حكى عنهم هذه الشبهة قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) اى لهؤلاء البعداء البغضاء
(نعم) أى تبعثون على كل تقدير قدرتموه (وأنتم داخرون) أى مكرهون عليه صاغرون
ذليلون وانما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لانه ذكر فى الآية المتقدمة البرهان

اراد جميع مشارق السنة
ومغاربها وهى تزيد على
سبعمائة وثنى وفصل فى
الرحمن بقوله رب المشرقين

القطعي على أنه أمر ممكن واذا ثبت الجواز القطعي فلا سبيل الى القطع بالوقوع الا باخبار الخبر الصادق فلما قامت المعجزة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق فكان مجرد قوله ثم دليلا قاطعا على الوقوع وقرأ متنا بضم الميم ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وكسرها الباقون وأما أئذا وأئنا فقرأ نافع والكسائي بالاستفهام في الاول والخبر في الثاني وابن عامر بالخبر في الاول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما وسهل الهمزة الثانية في الاستفهام نافع وابن كثير وأبو عمرو وحققها الباقون وأدخل في الاستفهام الفا بين الهمزتين قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير ادخال وقرأ قالون وابن عامر أو آباؤنا بسكون الواو على أنها أو العاطفة المقتضية للشك والباقون بفتحها على أنها همزة الاستفهام دخلت على واو العطف وقرأ الكسائي نعم بكسر العين وهو لغة فيه وقوله تعالى (فانما هي زجرة واحدة) جواب شرط مقدر أي اذا كان كذلك فانما البعثة زجرة أي صيحة واحدة هي النفخة الثانية من زجر الراعي غنمه اذا صاح عليها وأمرها في الاعادة كأمرها بكن في الابتداء ولذلك رتب عليها (فاذا هم ينظرون) أي أحياء في الحال من غير مهلة ينظر بعضهم بعضا وقيل ينظرون ما يحدث لهم أو ينظرون الى البعث الذي كذبوا به ولا فرق بين من صار كله ترابا ومن لم يتغير أصلا ومن هو بين ذلك قال البقاعي ولعله خص النظر بالذكر لانه لا يكون الا مع كمال الحياة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا قبض الروح تبعه البصر وأما السمع فقد يكون لغير الحي لانه صلى الله عليه وسلم قال في الكفار من قتلى بدر ما أنتم بأسمع لما أقول منهم قال وشاهدت أنا في بلاد العرب المجاورة لنابلس شجرة لها شوك يقال لها الغبيراء قيل عندها هات لي المنجل لاقطع هذه الشجرة أخذ ذوروقها في الحال في الذبول فالله سبحانه أعلم بسبب ذلك اه (تنبيه) لا أثر للصيحة في الموت ولا في الحياة بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال تعالى الذي خلق الموت والحياة روي أن الله تعالى يأمر الملك اسرافيل فينادي أيها العظام النخرة والجلود البالية والاجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (وقالوا) أي كل من جمعه البعث من الكفرة بعد القيام من القبور معلنين بما انكشف لهم من أنه لا ملازم لهم غير الويل (يا ويلنا) أي هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه وقال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة وتقول لهم الملائكة (هذا يوم الدين) أي الحساب والجزاء (هذا يوم الفصل) أي بين الخلائق (الذي كنتم به تكذبون) وقيل هو أيضا من كلام بعضهم لبعض وقوله تعالى (احشروا) أي اجمعوا بكره وصغار (الذين ظلموا) أي ظلموا أنفسهم بالشرك أمر من الله تعالى للملائكة عليهم السلام وقيل أمر من بعضهم لبعض أي احشروا الظلمة من مقامهم الى الموقف وقيل منه الى جهنم (وأزواجهم) أي وأشباههم عابدو الصنم مع عبدة الصنم وعابدو الكواكب مع عبدتها كقوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة أي أشكالا وأشباها وقال الحسن وأزواجهم المشركات وقال الضحاك ومقاتل قرناؤهم من الشياطين وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي أي يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة (وما كانوا يعبدون من دون الله) أي غيره في الدنيا من الاوثان والطواغيت زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ومثل الاوثان الذين رضوا بعبادتهم لهم ولم ينكروا عليهم ذلك ولا أمروهم بعبادة الله تعالى

وربّ المغربين اراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما وجمع وحذف هنا بقوله ورب المشارق اراد جميع

الذى تفرد بنعوت العظمة وصفات الكمال وقال مقاتل يعنى ابليس وجنوده واحتج بقوله تعالى أن لا تعبدوا الشيطان (فاهدوهم الى صراط الجحيم) قال ابن عباس دلوهم الى طريق النار وقال ابن كيسان قدموهم قال البغوى والعرب تسمى السابق هاديا قال الواحدى هذا وهم لانه يقال هدى اذا تقدم ومنه الهادية والهوادى وهاديات الوحش ولا يقال هدى بمعنى قدم (وقفوهم) أى احبسوهم قال البغوى قال المفسرون لما سيقوا الى النار حبسوا عند الصراط فقيل لهم قفوهم (انهم مسؤلون) قال ابن عباس عن جميع أقوالهم وأفعالهم وروى عنه عن لا اله الا الله وقيل تسألهم خزنة جهنم عليهم السلام ألم يأتكم نذير أى رسل منكم جاؤكم بالبينات قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وروى عن أبى برزة الاسلمى قال لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعلمه ماذا عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه وفى رواية وعن شبابه فيم أبلاه وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من داع دعا الى شئ الا كان موقوفا يوم القيامة لازما به وان دعا رجل رجلا ثم قرأ وقفوهم انهم مسؤلون ويقال لهم توبيخا (مالكم) أى أى شئ حاصل لكم فى حال كونكم (لا تناصرون) قال ابن عباس لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا وذلك ان أبا جهل قال يوم بدر نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة مالكم لا تناصرون وقيل يقال للكفار ما شركاؤكم لا يمنعونكم من العذاب ويقال عنهم (بل هم اليوم مستسلمون) قال ابن عباس خاضعون وقال الحسن منقادون يقال استسلم للشئ اذا انقاد له وخضع والمعنى هم اليوم اذلاء منقادون لا حيلة لهم فى دفع تلك المضار ولما أخبر سبحانه وتعالى عنهم بانهم سئلوا فلم يجيبوا وربما كان يظن انهم أخرسوا افسه على أنهم يتكلمون بما يزيد تبكيتهم فقال عاطفا على قوله تعالى وقالوا ياويلنا (وأقبل بعضهم) أى الذين ظلموا (على بعض) أى بعد ايقافهم لتوبيخهم وعبر عن خصامهم ثم تكابهم بقوله تعالى (يتساءلون) أى يتلاومون ويتخاصمون (قالوا) أى الاتباع منهم للمتبوعين (انكم كنتم تأتوننا عن اليمين) قال الضحاك أى من قبل الدين فتضلوننا عنه وقال مجاهد عن الصراط الحق واليمين عبارة عن الدين الحق كما أخبر الله تعالى عن ابليس لعنه الله تعالى ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فمن أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق واليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات لان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر قال ابن عادل اجماعا ولا تباشر الاعمال الشريفة الا باليمين ويتفاءلون بالجانب الايسر وكان صلى الله عليه وسلم يحب التيامن فى شأنه كله وكاتب الحسنات من الملائكة على اليمين ووعد الله تعالى المؤمن أن يعطيه الكتاب باليمين وقيل ان الرؤساء كانوا يحلفون للمستضعفين أن ما يدعونهم اليه هو الحق فوثقوا بايمانهم وقيل عبر باليمين عن القوة والقدرة كقوله تعالى لاخذنا منه باليمين (قالوا) أى المتبوعون لهم (بل لم تكونوا مؤمنين) أى وانما يصدق الاضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الايمان الينا وانما الكفر من قبلكم (وما كان لنا عليكم من سلطان) أى قوة وقدرة حتى نقهركم ونجبركم على متابعتنا (بل كنتم قوما طاغين) أى ضالين مثلنا (فحق) أى

مشارق السنة واقتصر عليه الا لانه على المحذوف وخص ما هنا بالجمع موافقة للمجموع اول السورة

وجب (علينا) جميعا (قول ربنا) أي كلمة العذاب وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة
والناس أجمعين (انا) أي جميعا (لذائقون) أي العذاب بذلك القول ونشأ عنه قولهم
(فأغويناكم) أي فأضللناكم عن الهدى ودعوناكم الى ما كنا عليه (انا كنا غاوين) أي ضالين
فأحببنا أن تكونوا أمثالنا وفيه ايماء بأن غوايتهم في الحقيقة ليست من قبلهم اذ لو كان كل
غواية باغواء غاو فمن أغوى الأول قال الله تعالى (فانهم) أي المتبوعين والاتباع (يومئذ) أي
يوم القيامة (في العذاب مشتركون) أي كما كانوا مشتركين في الغواية (انا) أي بما لنا من
العظمة والقدرة (كذلك) أي كما فعل بهؤلاء (نفعل بالمجرمين) غير هؤلاء أي نعذبهم التابع
منهم والمتبوع ثم وصفهم الله تعالى بقوله (انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون)
أي يتكبرون عن كلمة التوحيد أو عن يدعوهم اليها (ويقولون أئنا) في الهمزتين ما مر
(لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم ثم ان الله تعالى كذبهم في ذلك
الكلام بقوله تعالى (بل جاء بالحق) أي الدين الحق (وصدق المرسلين) أي صدقهم في مجيئهم
بالتوحيد فأتى بما أتى به المرسلون من قبله ثم التفت من الغيبة الى الحضور فقال تعالى
(انكم لذائقوا العذاب الأليم) ثم كأنه قيل كيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي الغني عن
الضر والنفع ان يعذب عباده فأجاب بقوله تعالى (وما تجزون الا ما كنتم تعملون) أي جزاء
عملكم وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) اى المؤمنين استثناء منقطع وقرأ نافع
والكوفيون بفتح اللام بعد الخاء اى ان الله تعالى اخلصهم واصطفاهم بفضله والباقون
بالكسر اى انهم اخلصوا الطاعة لله تعالى وقوله (أولئك لهم) أي في الجنة (رزق معلوم) أي
بكرة وعشيا بيان لحالهم وان لم يكن ثم بكرة ولا عشية فيكون المراد منه معلوم الوقت وهو
مقدار غدوة او عشية وقيل معلوم الصفة اى مخصوص بصفات من طيب طعم ولذة وحسن
منظر وقيل معناه انهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع
وقيل معلوم القدر الذي يستحقونه باعمالهم من ثواب الله تعالى وقوله (فواكه) يجوز ان
يكون بدلا من رزق وان يكون خبر مبتدأ مضمر اى ذلك الرزق فواكه وفي الفواكه جمع فاكهة
قولان احدهما انها عبارة عما يؤكل للتلذذ لا للحاجة وارزاق اهل الجنة كلها فواكه لانهم
مستغنون عن حفظ الصحة بالاقوات فان اجسامهم محكمة مخلوقة للابد فكل ما يأكلونه
فعلى سبيل التلذذ والثاني ان المقصود بذكر الفاكهة التنبيه بالادنى على الاعلى أي لما كانت
الفاكهة حاضرة ابدا كان المأكول للغذاء اولى بالحضور (وهم مكرمون) اى في نيل يصل
اليهم من غير تعب وسؤال لا كما عليه رزق الدنيا ● ولما ذكر مأكلهم ذكر مسكنهم بقوله تعالى
(في جنات النعيم) اى في جنات ليس فيها الا النعيم وهو متعلق بمكرمون أو خبر ثان لأولئك
او حال من المستكن في مكرمون وقوله تعالى (على سرر متقابلين) اى لا يرى بعضهم قفا بعض
حال ويجوز ان يتعلق على سرر بمتقابلين ● ولما ذكر سبحانه وتعالى المأكل والمسكن ذكر
بعد ذلك صفة المشرب بقوله تعالى (يطاف عليهم) أي على كل منهم (بكأس) اى باناء فيه خمر
فهو اسم للاناء بشرابه فلا يكون كأسا حتى يكون فيه شراب والا فهو اناء وقيل المراد
بالكأس الخمر كقول الشاعر

والحذف مناسبة للزينة
بقوله انا زينا السماء الدنيا
بزينة الكواكب اذ
الزينة انما تكون غالبا

وكأس

وكأس شربت على لذة • وأخرى تداويت منها بها

أى رب كأس شربت لطلب اللذة وكأس شربت للتداوى من خمارها والكأس مؤنثة كما قاله الجوهرى وقوله تعالى (من معين) أى من شراب معين أو من نهر معين مأخوذ من عين الماء أى يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى عينا لظهوره يقال عان الماء اذا ظهر جاريا وقوله تعالى (بيضاء) أى اشد بياضا من اللبن قاله الحسن صفة لكأس وقال أبو حيان صفة لكأس وللخمر واعترض بان الخمر لم يذكر وأجيب عنه بان الكأس انما سميت كأسا اذا كان فيها الخمر وقوله تعالى (لذة) صفة أيضا وصفه بالمصدر مبالغة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم اذا كان المراد المبالغة وقال الزجاج او على حذف المضاف أى ذات لذة وقوله تعالى (للشاربين) أى بخلاف خمر الدنيا فانها كريهة عند الشرب صفة للذة وقال الليث اللذة واللذيذة يجريان مجرى واحد فى النعت يقال شراب لذ ولذيذ وقوله تعالى (لا فيها غول) صفة أيضا واختلف فى الغول فقال الشعبى اى لا تغتال عقولهم فتذهب بها وقال الكلبى معناه الاثم أى لا اثم فيها وقال قتادة وجع البطن وقال الحسن صداع وقال أهل المعانى الغول فساد يلحق فى خفاء يقال اغتاله اغتيالا اذا أفسد عليه أمره فى خفية وخمر الدنيا يحصل منها انواع الفساد منها السكر وذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقىء والبول ولا يوجد شىء من ذلك فى خمر الجنة (ولاهم عنها ينزفون) أى يسكرون وقرأ حمزة والكسائى بكسر الزاى من انزف الشارب اذا نزف عقله من السكر والباقون بفتحها من نزف الشارب نزيفا اذا ذهب عقله أفرده بالذكر وعطفه على ما يعمه لانه من عظم فساده كأنه جنس برأسه ولما ذكر تعالى صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكوحهم بقوله تعالى (وعندهم قاصرات الطرف) أى حابسات الاعين غاضات الجفون قصرن ابصارهن على أزواجهن لا ينظرن الى غيرهم لحسنهم عندهن وقوله تعالى (عين) جمع عيناء وهى الواسعة العين والذكر أعين قال الزجاج كبار الاعين حسانها يقال رجل أعين وامرأة عيناء ورجال ونساء عين (كأنهن) أى فى اللون (بيض) للنعام (مكنون) أى مستور بريشه لا يصل اليه غبار ولونه وهو البياض فى صفرة يقال هذا أحسن ألوان النساء تكون المرأة بيضاء مشربة بصفرة قال ذو الرمة فى ذلك

بيضاء فى برج صفراء فى غنج • كأنها فضة قد مسها ذهب

قال المبرد والعرب تشبه المرأة الناعمة فى بياضها وحسن لونها ببيضة النعامة وقال بعضهم انما شبهت المرأة بها فى اجزائها فان البيضة من أى جهة اتيتها كانت فى راى العين مشبهة للاخرى وهو فى غاية المدح وقد لحظ هذا بعض الشعراء فقال

تناسبت الاعضاء فيها فلا ترى • بهن اختلافا بل اتين على قدر

ويجمع البيض على بيوض قال الشاعر

بتيهاء قفر والمطى كأنها • قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

(فأقبل بعضهم) أى بعض اهل الجنة (على بعض يتساءلون) معطوف على يطاف عليهم اى يشربون فيتحادثون على الشراب قال القائل

بالضياء والنور وهما ينشآن من المشرق لا من المغرب وما فى الرحمن بالتثنية موافقة للتثنية فى

وما بقيت من اللذات الا • محادثة الكرام على المدام

وأتى بقوله تعالى فأقبل ماضيا لتحقق وقوعه كقوله تعالى ونادى اصحاب الجنة ونادى أصحاب النار وقوله تعالى يتساءلون حال من فاعل أقبل وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وماجرى لهم وعليهم في الدنيا • ولما ذكر تعالى أن أهل الجنة يتساءلون عند اجتماعهم على الشراب ويتحدثون كان من جملة كلماتهم أنهم يتذكرون ما كان حصل لهم في الدنيا مما يوجب الوقوع في عذاب الله تعالى ثم انهم تخلصوا منه وهو ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله (قال قائل منهم) أي من أهل الجنة في الجنة في مكالمتهم (اني كان لي قرين) أي في الدنيا ينكر البعث (يقول أئنك لمن المصدقين) أي كان يوبخني على التصديق بالبعث ويقول تعجبا (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) أي مجزيون ومحاسبون من الدين بمعنى الجزاء وهذا استفهام انكار • (تنبيه) • اختلف في ذلك القرين فقال مجاهد كان شيطانا وقيل كان من الانس وقال مقاتل كانا أخوين وقيل كانا شريكين حصل لهما ثمانية آلاف دينار فتقاسماها واشترى أحدهما دارا بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها ثم خرج فتصدق بألف دينار وقال اللهم ان صاحبي قد ابتاع هذه الدار بألف دينار واني أسألك دارا من دور الجنة ثم ان صاحبه تزوج امرأة حسناء بألف دينار فتصدق صاحبه بألف دينار لأجل أن يزوجه الله تعالى من الحور العين ثم ان صاحبه اشترى بستانين بألفي دينار فتصدق هذا بألفي دينار ثم ان الله تعالى أعطاه ما طلبه في الجنة وقيل كان أحدهما كافرا اسمه يهوذا والآخر مؤمن اسمه يهودا وهما اللذان قص الله تعالى خبرهما في سورة الكهف في قوله تعالى واضرب لهم مثلا رجلين (قال) أي ذلك القائل لاخوانه (هل انتم مطلعون) أي معي الى النار لننظر حاله فيقولون لا (فاطلع) ذلك القائل من بعض كوى الجنة قال ابن عباس رضي الله عنهما ان في الجنة كوى ينظر أهلها منها الى النار (فرآه) أي رأى قرينه (في سواء الجحيم) أي وسط النار وانما سمي وسط الشيء سواء لاستواء الجوانب منه (قال) له توبيخا مقسما بقوله (تالله ان كدت) أي قاربت وان مخففة من الثقيلة (لتردين) أي لتهلكني باغوائك اياي بانكار البعث والقيامة (ولولا نعمة ربي) أي انعامه علي بالايمان والهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) معك في النار • (تنبيه) • اثبت الياء بعد النون في لتردين ورش والباقون بالتخفيف • ولما تم الكلام مع قرينه الذي هو في النار عاد الى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة وقال (أفما نحن بميتين) وهذا عطف على محذوف أي أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين أي بمن شأنه الموت وقال بعضهم ان أهل الجنة لا يعلمون في أول دخولهم الجنة أنهم لا يموتون فاذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح يقول أهل الجنة للملائكة أفما نحن بميتين فتقول الملائكة لا فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون وعلى هذا فالكلام حصل قبل ذبح الموت وقيل ان الذي تكاملت سعادته اذا عظم تعجبه بها يقول ذلك على جهة التحديث بالنعمة التي أنعم الله تعالى بها عليه وقيل يقوله المؤمن لقرينه توبيخا له بما كان ينكره وقوله (الا موتتنا الاولى) منصوب على المصدر والعامل فيه الوصف قبله ويكون استثناء مفرغا وقيل هو استثناء منقطع أي لكن الموتة الاولى كانت لنا في الدنيا وهي

يقصد ان رفقاي آلاء ربكما تكذبان وبذكر القابك موافقة لبسط صفاته تعالى وانعاماته ثم وماني المعارج

متناولة لما فى القبر بعد الاحياء للسؤال وهذا قريب فى المعنى من قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى (وما نحن بمعذبين) هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله تعالى من تأبيد الحياة وعدم التعذيب (ان هذا) أى الذى ذكر لاهل الجنة (لهو الفوز العظيم) هو قول أهل الجنة عند فراغهم من هذه المحادثات وقوله تعالى (لمثل هذا فليعمل العاملون) قيل انه من بقية كلامهم وقيل انه ابتداء كلام من الله تعالى أى لنيل مثل هذا يجب ان يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام ● ولما ذكر تعالى ثواب أهل الجنة ووصفها وذكر مآكل أهل الجنة ومشاربهم وقال لمثل هذا فليعمل العاملون أتبعه بقوله تعالى (أذلك) أى المذكور لاهل الجنة (خير نزلا) وهو ما يعد للنازل من ضيف أو غيره (أم شجرة الزقوم) أى المعدة لاهل النار نزلا وانتصاب نزلا على التمييز أو الحال وفى ذكره دلالة على ان ما ذكر من النعيم لاهل الجنة بمنزلة ما يقدم للنازل ولهم ما وراء ذلك مما تقصر عنه الافهام وكذا الزقوم لاهل النار وهى اسم شجرة صغيرة الورق ذفرة مرة تكون بتهامة ثم سميت به الشجرة الموصوفة واذا عرف هذا فالحاصل من الرزق المعلوم لاهل الجنة اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الالم والغم ومعلوم انه لا نسبة لاحدهما الى الآخر فى الخيرية الا انه جاء هذا الكلام على سبيل السخرية بهم او لاجل ان المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم الى الرزق الكريم والكافرون اختاروا ما أوصلهم الى العذاب الاليم قيل لهم ذلك توبيخا لهم على اختيارهم (انا) أى بما لنا من العظمة والقدرة البالغة (جعلناها فتنة) أى محنة وعذابا (للظالمين) أى الكافرين قال الكلبى فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا لما سمعوا انها فى النار قالوا كيف ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن من قدر على خلق يعيش فى النار ويتلذذ بها فهو أقدر على خلقه الشجر فى النار وحفظه من الاحراق ● ولما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله فى بيوتكم الزقوم فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد الزقوم ثم أدخلهم أبو جهل بيته وقال لجاريته زقمينا فاتته بزبد وتمر وقال تزقموا فهذا ما يوعدكم به محمد وهذا عناد منه وكذب فانه من العرب العرباء وهم انما يطلقونه على شجرة مسمومة يخرج لها لبن متى مس جسم أحد تورم فمات والتزقم البلع الشديد للاشياء الكريهة وأما الزبد بالرطب فيسمى ألوقة قاله ابن الكلبى وأنشد

وانى لمن سالمتم لالوقة ● وانى لمن عاديتم سم اسود

ثم ان الله تعالى وصف هذه الشجرة بصفتين الاولى قوله تعالى (انها شجرة تخرج فى اصل الجحيم) قال الحسن أصلها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع الى دركاتها الصفة الثانية قوله تعالى (طلعها) أى ثمرها قال الزمخشرى الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها اما استعارة لفظية أو معنوية قال ابن قتيبة سمى طلعا لطلوعه كل سنة فلذلك قيل طلع النخل لاول ما يخرج من ثمره ثم وصف ذلك الطلع بقوله تعالى (كأنه رؤس الشياطين) وفيه وجهان أحدهما أنه حقيقة وأن رؤس الشياطين شجرة معينة بناحية اليمن وتسمى الاستن قال النابغة

تحيد عن استن سود اسافله ● مثل الاماء الغوادى تحمل الحزما

وهو شجر منكر الصورة مر تسميه العرب بذلك تشبيها برؤس الشياطين فى القبح ثم صار أصلا

بالجمع موافقة للعموم قبله
وبعده وذكر القائلين
موافقة لكثرة الداخلين
وما فى
القسم وجوابه

يشبه به وقيل الشياطين صنف من الحيات لهن اعراف قال الراجز

عنجرد تحلف حين أحلف * كمثل شيطان الحماط أعرف

وقيل شجرة يقال لها الصوم ومنه قول ساعدة بن جوية

موكل بشروف الصوم يرقبها * من المعازف محفوظ المشاودم

فعلى هذا خوطب العرب بما تعرفه وهذه الشجرة موجودة فالكلام حقيقة والثاني انه من باب التخييل والتمثيل وذلك أن كل ما يستنكر ويستقبح في الطباع والصورة يشبه بما يتخيله الوهم وان لم يكن يراه والشياطين وان كانوا موجودين غير مرئيين للعرب الا انه خاطبهم بما الفوه من الاستعارات التخييلية وذلك كقول امرئ القيس

ايقتلني والمشرفي مضاجعي * ومسنونة زرق كانياب أغوال

ولم ير انيابها بل ليست موجودة البتة قال الرازي وهذا هو الصحيح وذلك ان الناس لما اعتقدوا في الملائكة عليهم السلام كمال الفضل في الصورة والسيرة فكما حسن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك عند ارادة الكمال والفضيلة في قول النسوة ان هذا الا ملك كريم فكذلك حسن التشبيه برؤس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة ويؤكد هذا ان العقلاء اذا رأوا شيأ شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا انه شيطان واذا رأوا شيأ حسنا قالوا انه ملك من الملائكة وقال ابن عباس رضي الله عنهما هم الشياطين باعيانهم (فانهم) أي الكفار (لآكلون منها) أي من الشجرة أو من طلعها (فمالئون منها البطون) والملء حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه (فان قيل) كيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها (أجيب) بان المضطر بما استروح من الضرر بما يقاربه في الضرر فاذا جوعهم الله تعالى الجوع الشديد فزعوا الى ازالة ذلك الجوع بتناول هذا الشيء او يقال ان الزبانية يكرهونهم على الاكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم * ولما ذكر الله تعالى طعامهم بتلك الشناعة والكراهية وصف شرابهم بما هو اشنع منه بقوله تعالى (ثم ان لهم عليها) اى بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش (لشوبا من حميم) اى ماء حار يشربونه فيختلط بالمأكول منها فيصير شوبا وعطف بثم لاحد معنيين اما لانه يؤخر ما يظنونه يرويهم من عطشهم زيادة في عذابهم فلذلك اتى بثم المقتضية للتراخي واما لان العادة تقتضي تراخي الشرب عن الاكل فعمل على ذلك المنوال وأما ملء البطن فيعقب الاكل فلذلك عطف على ما قبله بالفاء قال الزجاج الشراب اسم عام في كل ما خلط بغيره والشوب الخلط والمزج ومنه شاب اللبن يشوبه اى خلطه ومزجه (ثم ان مرجعهم) اى مصيرهم (لالى الجحيم) قال مقاتل اى بعد اكل الزقوم وشرب الحميم وهذا يدل على انهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم وذلك بان يكون الحميم في موضع خارج عن الجحيم فهم يردون الحميم لاجل الشرب كما ترد الابل الماء ويدل عليه قوله تعالى يطوفون بينها وبين حميم آن وقوله تعالى (انهم الفوا) اى وجدوا (آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد قال الفراء الاهراع الاسراع يقال هرع واهرع اذا استحث والمعنى انهم يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزعجون الى اتباع آبائهم وفيه اشعار بانهم بادروا الى ذلك من غير توقف على نظر وبحث ثم انه تعالى ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يسليه في

المزمل بالافراد موافقة لما قبله من افراد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وما بعده من افراد ذكر الله

ركبهم

كفرهم وتكذيبهم بقوله سبحانه (ولقد ضل قبلهم) أي قبل قومك (أكثر الاولين) أي من الامم الماضية (ولقد ارسلنا فيهم منذرين) أي انبياء أنذروهم من العواقب فبين تعالى ان ارسال الرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف فوجب ان يكون له صلى الله عليه وسلم اسوة بهم حتى يصبر كما صبروا او يستمر على الدعاء الى الله تعالى وان تمردوا فليس عليه الا البلاغ وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام ثم قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أي الكافرين كان عاقبتهم العذاب وهذا خطاب وان كان ظاهره مع النبي صلى الله عليه وسلم الا ان المقصود منه خطاب الكفار لانهم سمعوا بالاخبار ما جرى على قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أنواع العذاب فان لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يحتمل ان يكون زاجرا لهم عن كفرهم وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) استثناء من المنذرين استثناء منقطع لانه وعيدوهم لا يدخلون في هذا الوعيد وقيل استثناء من قوله تعالى ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين والمراد بالمخلصين الموحدون نجوا من العذاب وتقدمت القراءة في المخلصين ثم شرع تعالى في تفصيل القصص بعد اجمالها بقوله تعالى (ولقد نادانا نوح) أي نادى ربه أن ينجيه ممن نجى من الغرق بقوله رب اني مغلوب فانتصر فاجاب الله تعالى دعاءه وقوله تعالى (فلنعم المجيبون) جواب قسم مقدر اي فوالله ومثله لعمري لنعم السيدان وجدتما والمخصوص بالمدح محذوف اي نحن اجبنا دعاءه واهلكنا قومه (ونجيناه واهله من الكرب العظيم) اي من الغرق واذى قومه وهذه الاجابة كانت من النعم العظيمة وذلك من وجوه اولها انه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال ولقد نادانا نوح فالقادر العظيم لا يليق به الا الاحسان العظيم وثانيها انه تعالى اعاد صيغة الجمع فقال تعالى فلنعم المجيبون وفي ذلك ايضا ما يدل على تعظيم تلك النعمة لاسيما وقد وصف الله تعالى تلك الاجابة بانها نعمت الاجابة وثالثها ان الفاء في قوله تعالى فلنعم المجيبون تدل على ان حصول تلك الاجابة مرتب على ذلك النداء وهذا يدل على أن النداء بالاخلاص سبب لحصول الاجابة وقوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) يفيد الحصر وذلك يدل على ان كل من سواه وسوى ذريته قد فنوا فالناس كلهم من نسله عليه السلام قال ابن عباس رضي الله عنه ذريته بنوه الثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس وحام ابو السودان ويافث أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك قال ابن عباس رضي الله عنهما لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه من الرجال والنساء الا ولده ونساءهم (وتركنا عليه في الآخرين) أي أبقينا له ثناء حسنا وذكرا جميلا فيمن بعده من الانبياء والامم الى يوم القيامة وقيل ان يصلى عليه الى يوم القيامة وقوله تعالى (سلام على نوح) مبتدأ وخبر وفيه أوجه أحدها أنه مفسر لتركنا والثاني انه مفسر لمفعوله أي تركنا عليه ثناء وهو هذا الكلام وقيل ثم قول مقدر أي فقلنا سلام وقيل ضمن تركنا معنى قلنا وقيل سلط تركنا على ما بعده (في العالمين) متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبوت هذه التحية في الملائكة والثقلين جميعا وقوله تعالى (انا كذلك نجزي المحسنين) تعليل لما فعل بنوح عليه السلام من التكرمة بانه مجازاة له أي انما خصصناه بهذه التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن ترقية ذكره الحسن في ألسنة العالمين لاجل

تعالى وبذكر القابلين موافقة للحصر في قوله لا اله الا هو وابسط اواسم الله تعالى انبيه صلى الله

كونه محسنا أو قوله تعالى (انه من عبادنا المؤمنين) تعليل لاحسانه بالايمان اظهارا لجلالة قدره واصالة أمره (ثم اغرقنا الآخرين) كفار قومه القصة الثانية قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وان من شيعته) أى ممن شايعه في الايمان وأصول الشريعة (لابراهيم) ولا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالبا وقال الكلبي الضمير يعود على محمد صلى الله عليه وسلم أى وان من شيعة محمد صلى الله عليه وسلم لابراهيم عليه الصلاة والسلام والشيعة قد تطلق على المتقدم كقول القائل

وما لى الا آل أحمد شيعة ٭ وما لى الا مذهب الحق مذهب

فجعل آل أحمد وهم متقدمون عليه وهو تابع لهم شيعة له قاله الفراء والمعروف ان الشيعة تكون فى المتأخر قالوا كان بين نوح وابراهيم نبيان هود وصالح وروى الزمخشرى أنه كان بين نوح وابراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة وفى العامل فى قوله تعالى (اذ جاء ربه) وجهان أحدهما اذكر مقدرا وهو المعروف والثانى قال الزمخشرى مافى معنى الشيعة من معنى المشايعة يعنى وان ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه ورد هذا أبو حيان قال لان فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبى وهو لابراهيم لانه أجنبى من شيعته ومن اذ واختلف فى قوله عز وجل (بقلب سليم) فقال مقاتل والكلبى المعنى انه سليم من الشرك لانه أنكر على قومه الشرك وقال الاصوليون معناه أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل معصية وقوله تعالى (اذ قال لابيه وقومه) بدل من اذ الاولى أو ظرف لسليم أو لجاء وقوله تعالى لهم (ماذا) أى ما الذى (تعبدون) استفهام توبيخ وتهجين لتلك الطريقة وتقبيحها وفى قوله (أئفكا آلهة دون الله تريدون) أوجه من الاعراب أحدها أنه مفعول من اجله أى أتريدون آلهة دون الله افكا فآلهة مفعول به ودون ظرف لتريدون وقدمت معمولات الفعل اهتماما بها وحسنه كون العامل رأس فاصلة وقدم المفعول من اجله على المفعول به اهتماما به لانه مكافح لهم بانهم على افك وباطل وبهذا الوجه بدأ الزمخشرى الثانى أن يكون مفعولا به بتريدون ويكون آلهة بدلا منه جعلها نفس الافك مبالغة فابدلها منه وفسره بها واقتصر على هذا ابن عطية الثالث أنه حال من فاعل تريدون أى أتريدون آلهة آفكين أو ذوى افك واليه نحا الزمخشرى واعترضه أبو حيان بان جعل المصدر حالا لا يطرد الا مع نحو أما علما فعالم والافك أسوأ الكذب (فما ظنكم) أى أتظنون (برب العالمين) أنه جوز جعل هذه الجمادات مشاركة له فى العبودية أو تظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الاجسام حتى جعلتموها مساوية له فى العبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شئ أو فما ظنكم برب العالمين اذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أنه يترككم بلا عذاب لا وكانوا نجامين فخرجوا الى عيد لهم وتركوا طعامهم عند اصنامهم زعموا التبرك عليه فاذا رجعوا أكلوه وقالوا للسيد ابراهيم عليه الصلاة والسلام اخرج (فنظر نظرة فى النجوم) ايهاما لهم أنه يعتمد عليها ليعتمدوه (فقال انى سقيم) أى عليل وذلك انه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم ليلزمهم الحجة فى أنها غير معبودة وأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليا فى بيت الاصنام فيقدر على كسرها (فان قيل) النظر فى علم النجوم غير جائز فكيف أقدم ابراهيم عليه السلام عليه وأيضا لم يكن سقيما فكيف أخبرهم بخلاف

عليه وسلم ثم (قوله انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) ٭ ان قلت لم خص سماء الدنيا بزينة

حاله (أجيب) عن ذلك بأنا لا نسلم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بها حرام لان من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بطبع وخاصة لاجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل وأما الكذب فغير لازم لان قوله انى سقيم على سبيل التعريض بمعنى أن الانسان لا ينفك فى أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة اما فى بدنه واما فى قلبه وكل ذلك سقم وعلى تقدير تسليم ذلك أجيب بأوجه أحدها أن نظره فى النجوم أو فى أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه الحمى فى بعض ساعات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة فقال انى سقيم فجعله عذرا فى تخلفه عن العيد الذى لهم فكان صادقا فيما قال لان السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت ثانيها أنهم كانوا أصحاب النجوم أى يعلمونها و يقضون بها على أمورهم فلذلك نظر ابراهيم فى النجوم أى فى علم النجوم كما تقول نظر فلان فى الفقه أى فى علم الفقه فاراد ابراهيم أن يوهمهم أنه نظر فى علمهم وعرف منه ما يعرفونه حتى اذا قال لهم انى سقيم سكنوا الى قوله وأما قوله انى سقيم فمعناه سأسقم كقوله تعالى انك ميت أى ستموت ثالثها أن نظره فى النجوم هو قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا الخ الآيات فكان نظره ليتعرف هذه الكواكب هل هى قديمة أو حادثة وقوله انى سقيم أى سقيم القلب غير عارف بربى وكان ذلك قبل بلوغه رابعها قال ابن زيد كان له نجم مخصوص وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض ابراهيم فلهذا الاستقراء لما رآه فى تلك الحالة المخصوصة قال انى سقيم أى هذا السقم واقع لا محالة خامسها أن قوله انى سقيم أى مريض القلب بسبب اطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فلعلك باخع نفسك سادسها قال الرازى قال بعضهم ذلك القول من ابراهيم عليه السلام كذبة وأوردوا فيه حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغى أن ينقل اذ فيه نسبة الكذب الى ابراهيم عليه السلام فقال ذلك الرجل فكيف نحكم بكذب الراوى العدل فقلت له لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوى و بين نسبة الكذب الى الخليل كان من المعلوم بالضرورة أن نسبة الكذب الى الراوى أولى ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله فنظر نظرة فى النجوم أى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم فان الاشياء التى تحدث قطعة قطعة يقال انها منجمة أى مفرقة ومنه نجوم المكاتب والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها حتى يستخرج منها حيلة يقدر بها على اقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذرا أحسن من قوله انى سقيم والمراد أنه لا بد من أن يصير سقيما كما تقول لمن رأيته يتجهز للسفر انك مسافر ٭ ولما قال انى سقيم تولوا عنه كما قال تعالى (فتولوا عنه) أى الى عيدهم (مدبرين) أى هاربين مخافة العدوى وتركوه وعذروه فى عدم الخروج الى عيدهم (فراغ) أى مال فى خفية وأصله من روغان الثعلب وهو تردده وعدم ثبوته بمكان ولا يقال راغ حتى يكون صاحبه مخفيا لذهابه ومجيئه (الى آلهتهم) وعندها الطعام (فقال) استهزاء بها (ألا تأكلون) أى الطعام الذى كان بين أيديهم فلم ينطقوا فقال استهزاء بها أيضا (ما لكم لا تنطقون) فلم تجب (فراغ عليهم) أى مال عليهم مستخفيا وقوله تعالى (ضربا) مصدر واقع موقع الحال أى فراغ عليهم ضاربا أو مصدر لفعل وذلك الفعل

الكواكب مع ان بقية السموات مزينة بذلك (قلت) لا مانع ... النيادون غيرها (قوله بل

حال تقديره فراغ يضرب ضربا أو قوله تعالى (باليمين) متعلق بضربا ان لم تجعله مؤكدا والا
فبعامله واليمين يجوز أن يراد بها احدى اليدين وهو الظاهر وأن يراد بها القوة واقتصر
عليه الجلال المحلى فالباء على هذا للحال أى متلبسا بالقوة وأن يراد بها الحلف وفاء بقوله وتالله
لأكيدن أصنامكم والباء على هذا للسبب وعدى راغ الثانى بعلى لما كان مع الضرب
المستولى من فوقهم الى أسفلهم بخلاف الاول فانه مع توبيخ لهم وأتى بضمير العقلاء فى قوله
تعالى عليهم ضربا على ظن عبدتها أنها كالعقلاء ثم انه عليه السلام كسرها فبلغ قومه ممن
رآه ذلك (فأقبلوا اليه) أى الى ابراهيم بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسرة (يزفون) أى
يسرعون المشى وقرأ حمزة بضم الياء على البناء للمفعول من أزفه أى يحملون على الزفيف
والباقون بفتحها من زف يزف فقالوا نحن نعبدها وأنت تكسرها (قال) لهم توبيخا
(أتعبدون ما تنحتون) أى من الحجارة وغيرها أصناما (والله خلقكم وما تعملون) أى نحتكم
ومنحوتكم فاعبدوه وحده * (تنبيه) * دلت هذه الآية على مذهب الاشعرية وهو أن فعل
العبد مخلوق لله عز وجل وهو الحق وذلك لان النحويين اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده فى
تقدير المصدر فقوله تعالى وما تعملون معناه وعملكم وعلى هذا فيصير معنى الآية والله
خالقكم وخالق عملكم * ولما أورد عليهم الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا الى
طريقة الايذاء لئلا يظهر للعامة عجزهم بأن (قالوا ابنوا له بنيانا) قال ابن عباس رضى الله
عنهما بنوا حائطا من الحجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وملؤه نارا
وطرحوه فيها وذلك هو قوله تعالى (فألقوه فى الجحيم) وهى النار العظيمة قال الزجاج كل نار
بعضها فوق بعض فهى جحيم (فأرادوا به كيدا) أى شرا بالقائه فى النار لتهلكه (فجعلناهم
الاسفلين) أى المقهورين الاذلين بابطال كيدهم وجعلنا ذلك برهانا نيرا على علو شأنه حيث
جعلنا النار عليه بردا وسلاما وخرج منها سالما (وقال انى ذاهب الى ربى) أى الى حيث
أمرنى ربى ونظيره قوله تعالى وقال انى مهاجر الى ربى أى مهاجر اليه من دار الكفر
(سيهدين) أى الى ما فيه صلاح دينى أو الى مقصدى وهو الشام وانما بت القول لسبق وعده
ولفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال
عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل فلذلك ذكر بصيغة التوقع * ولما وصل الى الارض
المقدسة قال (رب هب لى من الصالحين) أى هب لى ولدا صالحا يعيننى على الدعوة والطاعة
ويؤنسنى فى الغربة لان لفظ الهبة غلب فى الولد وان كان قد جاء فى الاخ فى قوله تعالى ووهبنا له
من رحمتنا أخاه هرون نبيا قال الله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) أى ذى حلم كثير فى كبره غلام
فى صغره ففيه بشارة بأنه ابن وأنه يعيش وينتهى الى سن يوصف بالحلم وأى حلم أعظم من أنه
عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق فقال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وقيل ما وصف
الله تعالى نبيا بالحلم لعزة وجوده غير ابراهيم وابنه اسمعيل عليهما الصلاة والسلام وحالتهما
المذكورة تشهد عليه (فلما بلغ معه السعى) أى أن يسعى معه قال ابن عباس رضى الله عنهما
وقتادة بلغ معه السعى أى المشى معه الى الجبل وقال مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما
لما شب حتى بلغ سعيه سعى ابراهيم والمعنى بلغ أن يتصرف معه وأن يعينه فى عمله وقال الكلبى

عجبت) بضم التاء على قراءة
حمزة والكسائى (فان قلت)
ما وجهه مع ان التعجب
روعة تعترى الانسان

يعني العمل لله تعالى وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة وقيل سبع سنين * (تنبيه) معه متعلق بمحذوف على سبيل البيان كأن قائلا قال مع من بلغ السعي فقيل مع أبيه ولا يجوز تعلقه ببلغ لانه يقتضي بلوغهما معا حد السعي ولا يجوز تعلقه بالسعي لان صلة المصدر لا تتقدم عليه وقوله تعالى (قال يابني اني أرى) أي رأيت (في المنام أني أذبحك) يحتمل انه رأى ذلك وانه رأى ما هو تعبيره وقيل انه رأى في ليلة التروية في منامه كان قائلا يقول له ان الله تعالى يأمرك بذبح ابنك فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله أم من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى أيضا مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فسمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر وهذا قول أكثر المفسرين وهو يدل على أنه رأى في المنام ما يوجب أن يذبح ابنه في اليقظة وعلى هذا فتقدير اللفظ أرى في المنام ما يوجب أني أذبحك * (تنبيه) * اختلف في الذبيح فقيل هو اسحق عليه السلام وبه قال عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهم وقيل اسمعيل وبه قال ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم وغيرهم وهو الاظهر كما قاله البيضاوي لانه الذي وهب له اثر الهجرة ولأن البشارة باسحق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام ولقوله صلى الله عليه وسلم انا ابن الذبيحين وقال له أعرابي يا ابن الذبيحين فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم فسئل عن ذلك فقال ان عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر ان سهل الله أمرها ليذبحن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الابل ولذلك سنت الابل مائة والذبيح الثاني اسمعيل ونقل الاصمعي انه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا أصمعي أين عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة وقد وصف الله تعالى اسمعيل عليه السلام بالصبر دون اسحق عليه السلام في قوله تعالى واسمعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين وهو صبره على الذبح ووصفه أيضا بصدق الوعد فقال انه كان صادق الوعد لانه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فقال ستجدني ان شاء الله من الصابرين وقال تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فكيف تقع البشارة باسحق وانه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح اسحق وهو صغير قبل ان يولد له هذا يناقض البشارة المتقدمة وقال الامام أحمد بن حنبل الصحيح أن الذبيح اسمعيل عليه السلام وعليه جمهور العلماء من الخلف والسلف قال ابن عباس وزعمت اليهود أنه اسحق عليه السلام وكذبت اليهود وما روي أنه صلى الله عليه وسلم سئل أي النسب أشرف فقال يوسف صديق الله بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فالصحيح انه قال يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم والزوائد من الراوي وما روي أن يعقوب كتب الى يوسف مثل ذلك لم يثبت وقال محمد بن اسحق كان ابراهيم عليه السلام اذا زار هاجر واسمعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى بلغ اسمعيل معه السعي أمر في المنام أن يذبحه قال مقاتل رأى ذلك ابراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات فلما تيقن ذلك قال لابنه (فانظر ماذا ترى) من الرأي فشاوره ليأنس بالذبح وينقاد للامر به قال ابن اسحق وغيره لما أمر ابراهيم بذلك قال لابنه يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق

عند استعظام الشئ والله تعالى منزه عنها (قلت) أراد بالتعجب الاستعظام وهو جائز على

الى هذا الشعب نحتطب فلما خلا ابراهيم بابنه فى الشعب شعب ثبير أخبره بما أمر (قال يا أبت افعل ما تؤمر) أى ما أمرت به (ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) أى على ذلك وقرأ يا بنى حفص بفتح الياء والباقون بالكسر وقرأ انى أرى نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وقرأ ماذا ترى حمزة والكسائى بضم التاء وكسر الراء والباقون بفتحهما والحكمة فى مشاورته فى هذا الامر ليظهر له صبره فى طاعة الله تعالى فيكون فيه قرة عين لابراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحكمة الى هذا الحد العظيم والصبر على أشد المكاره الى هذه الدرجة العالية و يحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة والثناء الحسن فى الدنيا وقرأ يا أبت ابن عامر فى الوصل بفتح التاء وكسرها الباقون والتاء عوض عن ياء الاضافة و وقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر ووقف الباقون بالتاء والرسم بالتاء وفتح ياء ستجدنى فى الوصل نافع وسكنها الباقون (فلما أسلما) أى انقادا وخضعا لامر الله وقال قتادة أسلم ابراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه (وتله للجبين) أى صرعه على شقه فوقع جبينه على الارض وهو أحد جانبى الجبهة والجبهة بين الجبينين وشذ جمعه على أجبن وقياسه فى القلة أجبنة كأرغفة وفى الكثرة جبن وجبنان كرغيف ورغف ورغفان وقيل انه لما أراد ذبحه قال يا أبت اشدد رباطى حتى لا اضطرب فينقص اجرى واكفف عنى ثيابى حتى لا ينتضح عليها من دمى شئ وتراه أمى فتحزن حزنا طويلا واشحذ شفرتك وأسرع مر السكين على حلقى ليكون أهون على فان الموت شديد واذا أتيت امى فاقرأ عليها السلام منى وان رأيت ان ترد قميصى على امى فافعل فانه عسى أن يكون اسلى لها عنى فقال له ابراهيم نعم العون انت يا بنى على امر الله تعالى ففعل ابراهيم ما امره به ابنه ثم اقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكى والابن يبكى ثم انه وضع السكين على حلقه فلم تحل شيأ ثم انه شحذها مرتين أو ثلاثا بالحجر كل ذلك لا يستطيع ان يقطع شيأ قال السدى ضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه قال فقال الابن عند ذلك يا ابت كبنى على وجهى لجبينى فانك اذا نظرت فى وجهى رحمتنى وادركتك رحمة تحول بينك و بين امر الله وانا لا انظر الشفرة فاجزع ففعل ذلك ابراهيم ووضع السكين على قفاه فانقلبت السكين (وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) اى بالعزم والاتيان بالمقدمات ما امكنك ●(تنبيه)● فى جواب لما ثلاثة اوجه اظهرها انه محذوف اى نادته الملائكة عليهم السلام او ظهر صبرهما او اجزلنا لهما اجرهما وقدره بعضهم بعد الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال والوصف مما لا يدرك كنهه ونقل ابن عطية أن التقدير فلما اسلما اسلما وتله للجبين ويعزى هذا لسيبويه وشيخه الخليل الثانى انه وتله للجبين والواو زائدة وهو قول الكوفيين والاخفش الثالث انه وناديناه والواو زائدة أيضا واقتصر على هذا الجلال المحلى وروى أبو هريرة عن كعب الاحبار أن ابراهيم عليه السلام لما رأى ذبح ولده قال الشيطان لئن لم افتن آل ابراهيم عند هذا لم أفتن أحدا منهم أبدا فتمثل الشيطان فى صورة رجل واتى أم الغلام وقال هل تدرين أين يذهب ابراهيم بابنك قالت ذهب به يحتطبان من هذا الشعب قال والله ما ذهب به الا ليذبحه قالت كلا هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك قال انه يزعم أن الله أمره بذلك قالت فان كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه فخرج من عندها الشيطان ثم أدرك الابن وهو يمشى على اثر أبيه فقال له يا غلام

قه تعالى أو معنا. قل
اعد بل عجبت وفى لذى
عجب منه قولان أحدهما
غيرهم بالقرآن والثانى

هل تدري أين يذهب بك أبوك قال نحتطب لأهلنا من هذا الشعب قال والله ما يريد إلا أن يذبحك قال ولم قال زعم أن ربه أمره قال فليفعل ما أمره به ربه فسمع وطاعة فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال له أين تريد أيها الشيخ قال أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه قال والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ولدك هذا فعرفه إبراهيم فقال إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربي فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئاً كما أراد الله عز وجل وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى فنودي من الجبل أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا (فإن قيل) لم قال تعالى قد صدقت الرؤيا وكان قد رأى الذبح ولم يذبح (أجيب) بأنه جعله مصدقاً لأنه قد أتى بما أمكنه والمطلوب استسلامهما لأمر الله تعالى وقد فعلا وقيل كان قد رأى في النوم معالجة الذبح ولم ير إراقة الدم وقد فعل في اليقظة ما رآه في النوم ولذلك قال قد صدقت الرؤيا قال المحققون السبب في هذا التكليف كمال طاعة إبراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذه التكاليف الشاقة الشديدة وظهر منه كمال الطاعة والانقياد لا جرم قال الله تعالى قد صدقت الرؤيا وقوله تعالى (إنا كذلك نجزي المحسنين) ابتداء إخبار من الله تعالى والمعنى إنا كما عفونا عن ذبح ولدك كذلك نجزي من أحسن في طاعتنا قال مقاتل جزاه الله تعالى بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه (إن هذا) أي الذبح المأمور به (لهو البلاء المبين) أي الاختبار الظاهر الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم والمحنة البينة الصعبة التي لا محنة أصعب منها وقال مقاتل البلاء ههنا النعمة وهو أن فدى ابنه بالكبش كما قال تعالى (وفديناه) أي المأمور بذبحه وهو إسمعيل وهو الأظهر وقيل إسحق (بذبح عظيم) أي عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر لأن الله تعالى فدى به نبياً ابن نبي وأي نبي من نسله سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام وهو كبش أتى به جبريل عليه السلام من الجنة وهو الذي قرب به هابيل فقال لإبراهيم هذا فداء ولدك فاذبحه دونه فكبر إبراهيم وكبر ولده وكبر جبريل وكبر الكبش وأخذ إبراهيم الكبش وأتى به المنحر من منى فذبحه قال البغوي قال أكثر المفسرين كان ذلك الذبح كبشاً رعى في الجنة أربعين خريفاً وقيل كان وعلاً أهبط عليه من ثبير وروي أنه هرب منه عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سنة (تنبيه) الذبح مصدر ويطلق على ما يذبح وهو المراد في هذه الآية (وتركنا عليه في الآخرين) ثناء حسناً وقوله تعالى (سلام) أي منا (على إبراهيم) سبق بيانه في قصة نوح عليهما السلام (كذلك) أي كما جزيناه (نجزي المحسنين) لأنفسهم وقوله تعالى (إنه من عبادنا المؤمنين) تعليل لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالة قدره وإصالة أمره وقوله تعالى (وبشرناه بإسحق) فيه دليل على أن الذبيح غيره وقد مرت الإشارة إلى ذلك وقوله تعالى (نبياً) حال مقدرة أي يوجد مقدراً نبوته وقوله تعالى (من الصالحين) يجوز أن يكون صفة لنبياً

إنكارهم البعث وقوله
أئذا كنا تراباً وعظاماً
أئنا لمبعوثون) ختم الآية
بقوله أئنا لمدينون

وأن يكون حالا من الضمير في نبيا فتكون حالا متداخلة ويجوز أن تكون حالا ثانية ومن فسر الذبيح بإسحق عليه السلام جعل المقصود من البشارة نبوته وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل (وباركنا عليه) أي على إبراهيم عليه السلام بتكثير ذريته (وعلى إسحق) بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام فجميع الأنبياء بعده من صلبه إلا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فإنه من ذرية إسمعيل عليه السلام وفيه إشارة إلى أنه منفرد ـ لم فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (ومن ذريتهما محسن) أي مؤمن طائع (وظالم) أي كافر وفاسق (لنفسه مبين) أي ظاهر ظلمه وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة وعيب ولا غير ذلك والله سبحانه أعلم * القصة الثالثة قصة موسى وهرون عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد مننا على موسى وهرون) أي أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية (ونجيناهما وقومهما) أي بني إسرائيل (من الكرب) أي من الغم (العظيم) أي الذي كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم وقيل من الغرق والضمير في قوله تعالى (ونصرناهم) يعود على موسى وهرون وقومهما وقيل على الاثنين بلفظ الجمع تعظيما كقوله تعالى يا أيها النبي إذا طلقتم النساء وقول الشاعر * فإن شئت حرمت النساء سواكم * (فكانوا هم الغالبين) أي على فرعون وقومه في كل الأحوال أما في أول الأمر فبظهور الحجة وأما في آخر الأمر فبالدولة والرفعة * (تنبيه) * يجوز في هم أن يكون تأكيدا وأن يكون بدلا وأن يكون فصلا وهو الأظهر (وآتيناهما الكتاب المستبين) أي المستنير البليغ البيان المشتمل على جميع العلوم المحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا وهو التوراة كما قال تعالى إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (وهديناهما الصراط المستقيم) أي دللناهما على الطريق الموصل إلى الحق والصواب عقلا وسمعا (وتركنا) أي أبقينا (عليهما) ثناء حسنا (في الآخرين سلام) أي منا (على موسى وهرون إنا كذلك) أي كما جزيناهما (نجزي المحسنين) وقوله تعالى (إنهما من عبادنا المؤمنين) تعليل لإحسانهما بالإيمان وإظهار لجلالة قدره وأصالة أمره * القصة الرابعة قصة إلياس عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وإن إلياس لمن المرسلين) روي عن ابن مسعود أنه قال إلياس هو إدريس وهو قول عكرمة وقال أكثر المفسرين إنه نبي من أنبياء بني إسرائيل قال ابن عباس وهو ابن عم اليسع عليهما السلام وقال محمد بن إسحق هو إلياس بن بشر بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران عليهما السلام * (تنبيه) * أذكر فيه شيئا من قصته عليه السلام قال علماء السير والأخبار لما قبض الله تعالى حزقيل النبي عليه السلام عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك ونصبوا الأصنام وعبدوها من دون الله عز وجل فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبيا وكانت الأنبياء من بني إسرائيل يبعثون بعد موسى عليه السلام بتجديد ما نسوا من أحكام التوراة وبنو إسرائيل كانوا متفرقين في أرض الشام وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون عليه السلام لما فتح الشام قسمها على بني إسرائيل وأحل سبطا منها بعلبك

وختم التي بعدها بقوله إنا لمدينون أي لمجزيون وحاسبون لأن الأولى في حق المنكرين للبعث

ونواحيها وهم السبط الذين كان منهم الياس فبعثه الله تعالى اليهم نبيا وعليهم يومئذ ملك اسمه لاجب وكان قد أضل قومه وجبرهم على عبادة الاصنام وكان لهم صنم طوله عشرون ذراعا وله أربعة وجوه وكان يسمى بعل وكانوا قد فتنوا به وعظموه وجعلوا له اربعمائة سادن أى خادم وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها عنه ويبلغونها الناس وهم أهل بعلبك وكان الياس يدعوهم الى عبادة الله وهم لا يسمعون له ولا يؤمنون به الا ما كان من أمر الملك فانه آمن به وصدقه فكان الياس يقوم بأمره ويسدده ويرشده وكان للملك امرأة تسمى بازميل جبارة وكان يستخلفها على ملكه اذا غاب عنهم فى غزاة أو غيرها وكانت تبرز للناس فتقضى بينهم وكانت قتالة للانبياء ويقال انها هى التى قتلت يحيى بن زكريا عليهما السلام وكان لها كاتب رجل مؤمن حليم يكتم ايمانه وكان قد خلص من يدها ثلثمائة نبى كانت تريد قتلهم اذ ابعث كل واحد منهم سوى الذين قتلتهم وكانت فى نفسها غير محصنة وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بنى اسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيال وكانت معمرة يقال انها ولدت سبعين ولدا وكان للاجب هذا جار رجل صالح يقال له مزدكى وكان له جنينة يعيش منها وكانت الجنينة الى جانب قصر الملك وامرأته وكانا يشرفان عليها يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها وكان الملك يحسن جوار صاحبها مزدكى ويحسن اليه وامرأته ازميل تحسده لاجل تلك الجنينة وتحتال ان تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها وتحتال أن تقتله والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد عليه سبيلا ثم انه اتفق خروج الملك الى مكان بعيد وطالت غيبته فاغتنمت امرأته ازميل ذلك فجمعت جمعا من الناس وامرتهم ان يشهدوا على مزدكى انه سب زوجها لاجب فاجابوها اليه وكان فى حكمهم فى ذلك الزمان القتل على من سب الملك اذا قامت عليه البينة فاحضرت مزدكى وقالت له بلغنى أنك شتمت الملك فانكر فاحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور فامرت بقتله وأخذت جنينته فلما قدم الملك من سفره أخبرته الخبر فقال لها ما أصبت ولا أبدا نفلح بعده فقد جاورنا منذ زمان فاحسنا جواره وكففنا عنه الاذى لوجوب حقه علينا فختمت أمره باسوأ الجوار فقالت انما غضبت لك وحكمت بحكمك فقال لها أوما كان يسعه حلمك فتحفظين جواره قالت قد كان ما كان فبعث الله الياس الى لاجب الملك وأمره الله أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليهم لوليه حين قتلوه ظلما وآلى على نفسه أنهما ان لم يتوبا عن صنيعهما ويردا الجنينة على ورثة مزدكى أن يهلكهما يعنى لاجب وامرأته فى جوف الجنينة ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتفرق عظامهما من لحومهما ولا يتمتعان بها الا قليلا فجاء الياس فاخبر الملك بما أوحى الله فى أمره وأمر امرأته والجنينة فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه عليه وقال يا الياس والله ما أرى ما تدعونا اليه الا باطلا وهم بتعذيبه وقتله فلما أحس الياس بالشر رفضه وخرج عنه هاربا ورجع الملك الى عبادة بعل وارتقى الياس الى أصعب جبل واشمخه فدخل مغارة فيه ويقال انه بقى سبع سنين شريدا خائفا يأوى الشعوب والكهوف يأكل من نبات الارض وثمار الشجر وهم فى طلبه قد وضعوا العيون عليه والله تعالى يستره منهم فلما طال الامر على الياس وطال عصيان

والثانية فى حق المنكرين للجزاء وان كان كل منهما مستلزما للآخر (قوله وتركنا عليه فى الآخرين)

قومه وضاق بذلك ذرعا أوحى الله تعالى اليه بعد سبع سنين يا الياس ما هذا الخوف الذى أنت
فيه ألست أمينى على وحيى وحجتى فى أرضى وصفوتى من خلقى فسلنى أعطك فانى ذو الرحمة
الواسعة والفضل العظيم قال تميتنى فتلحقنى بآبائى فانى قد مللت بنى اسرائيل وملونى
فاوحى الله تعالى اليه يا الياس ما هذا اليوم الذى أعرى منك الارض وأهلها وانما قوامها
وصلاحها بك وأشباهك وان كنتم قليلا ولكن سلنى فاعطك قال الياس ان لم تمتنى
فاعطنى ثأرى من بنى اسرائيل قال الله تعالى وأى شئ تريد ان اعطيك قال تمكننى من خزائن
السماء سبع سنين فلا تنشئ سحابة عليهم الا بدعوتى ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة لا
بشفاعتى فانهم لا يذكرهم الا ذلك قال الله تعالى يا الياس انا أرحم بخلقى من ذلك وان كانوا
ظالمين قال فست سنين قال أنا أرحم بخلقى من ذلك قال فخمس سنين قال أنا أرحم بخلقى من
ذلك ولكنى أعطيك ثأرك ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك قال فبأى شئ أعيش
قال أسخر لك جنسا من الطير ينقل اليك طعامك وشرابك من الريف ومن الارض التى
لم تقحط قال الياس قد رضيت فامسك الله تعالى عنهم المطر حتى هلكت الماشية والهوام
والشجر وجهد الناس جهدا عظيما والياس على حالته مستخف من قومه يوضع له الرزق
حيثما كان وقد عرف ذلك قومه قال ابن عباس أصاب بنى اسرائيل ثلاث سنين القحط
فمر الياس بعجوز فقال لها هل عندك طعام قالت نعم شئ من دقيق وزيت قليل فدعا بهما ودعا
فيه بالبركة حتى ملأ خوابيها دقيقا وخوابيها زيتا فلما رأوا ذلك عندها قالوا لها من أين لك
هذا قالت مر بى رجل من حاله كذا وكذا ثم وصفته بصفته فعرفوه وقالوا ذلك الياس
فطلبوه فوجدوه فهرب منهم ثم انه أوى الى بيت امرأة من بنى اسرائيل لها ابن يقال له اليسع
ابن اخطوب به مرض فآوته وأخفت أمره فدعا له فعوفى من الضر الذى كان به واتبع
الياس وآمن به وصدقه ولزمه وكان يذهب حيثما ذهب وكان الياس قد كبر سنه واليسع
غلام شاب ثم ان الله تعالى أوحى الى الياس انك قد اهلكت كثيرا من الخلق ممن لم يعص من
البهائم والطير والهوام بحبس المطر فقال الياس يارب دعنى أنا الذى اكون أدعو لهم وآتيهم
بالفرج مما هم فيه من البلاء لعلهم ان يرجعوا عما هم عليه من عبادة غيرك فقيل له نعم فجاء
الياس الى بنى اسرائيل فقال انكم قد هلكتم جوعا وجهدا وقد هلكت البهائم والهوام
والشجر بخطاياكم وانكم على باطل فان كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا باصنامكم
فان استجابت لكم فذلك كما تقولون وان هى لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوتم الله
سبحانه وتعالى ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء قالوا انصفت فخرجوا باوثانهم فدعوها
فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ثم قالوا لالياس انا قد هلكنا فادع الله لنا فدعا لهم
الياس ومعه اليسع بالفرج فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون
فاقبلت نحوهم وطبقت الآفاق ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر فاغاثهم وحييت بلادهم
فلما كشف الله تعالى عنهم الضر لم ينزعوا عن كفرهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه فلما رأى
ذلك الياس دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه الى موضع كذا
فما جاءك من شئ فاركبه ولا تهبه فخرج الياس ومعه اليسع حتى اذا كانا بالموضع الذى أمر به

(ان قلت) كيف قال عقبه
فى قصص ما عدا قصة لوط
ويونس والياس سلام على
نوح سلام على ابراهيم

اقبل فرس من نار وقيل لونه كلون النار حتى وقف بين يديه فوثب عليه الياس وانطلق به الفرس وناداه اليسع يا الياس ما تأمرني فقذف اليه بكسائه من الجو الاعلى فكان ذلك علامة استخلافه اياه على بني اسرائيل وكان ذلك آخر عهده به ورفع الله تعالى الياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فكان انسيا ملكيا أرضيا سماويا وسلط الله تعالى على لاجب الملك وقومه عدوا لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى أرهقهم فقتل لاجب وامرأته ازميل في بستان مزدكى فلم تزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما ونبأ الله تعالى اليسع وبعثه رسولا الى بني اسرائيل فاوحى الله تعالى اليه وأيده فآمنت به بنو اسرائيل وكانوا يعظمونه وحكم الله تعالى فيهم قائم الى أن فارقهم اليسع روى السري بن يحيى عن عبد العزيز بن أبي رواد قال الياس والخضر يصومان رمضان بيت المقدس ويوافيان موسم الحج في كل عام وقيل ان الياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالبحار فذلك قوله تعالى وان الياس لمن المرسلين (اذ) أى اذكر يا أفضل الخلق اذ (قال لقومه ألا تتقون) أى ألا تخافون الله ولما خوفهم على سبيل الاجمال ذكر ما هو السبب لذلك التخويف بقوله تعالى (أتدعون بعلا) اسم لصنم لهم من ذهب وبه سميت البلد أيضا مضافا الى بك اى أتعبدونه أو تطلبون الخير منه وقيل البعل الرب بلغة اليمن سمع ابن عباس رجلا منهم ينشد ضالة فقال آخر انا بعلها فقال الله أكبر وتلا الآية ويقال من بعل هذه الدار اى من ربها وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى قال الله تعالى وبعولتهن أحق بردهن وقالت امرأة ابراهيم وهذا بعلي شيخا والمعنى أتدعون بعض البعول (وتذرون) اى وتتركون (أحسن الخالقين) فلا تعبدونه وقرأ ابن ذكوان بهمزة الوصل من الياس في الوصل فان ابتدأ بهما ابتدأ بفتحها والباقون بهمزة مكسورة وصلا وابتداء وقوله تعالى (الله ربكم ورب آبائكم الاولين) قرأه حفص وحمزة والكسائي بنصب الهاء من الاسم الكريم ونصب الباء الموحدة من ربكم ورب وذلك اما على المدح أو البدل أو البيان ان قلنا ان اضافة افعل اضافة محضة والباقون بالرفع في الثلاثة وذلك اما على خبر مبتدا مضمر اى هو الله أو على أن الجلالة مبتدأ وما بعده الخبر (فكذبوه فانهم لمحضرون) أى في العذاب وانما أطلقه اكتفاء بالقرينة أولان الاحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) اى المؤمنين مستثنى من فاعل فكذبوه وفيه دلالة على أن في قومه من لم يكذبه فلذلك استثنوا ولا يجوز أن يكونوا مستثنين من ضمير لمحضرون لفساد المعنى لانه يلزم أن يكونوا مندرجين فيمن كذب لكنهم لم يحضروا لكونهم عباد الله المخلصين وهو بين الفساد لا يقال هو مستثنى منه استثناء منقطعا لانه يصير المعنى لكن عباد الله المخلصين من غيرهؤلاء لم يحضروا ولا حاجة الى هذا اذ به يفسد نظم الكلام وتقدم الكلام على قراءة المخلصين في أول السورة (وتركنا عليه في الآخرين) ثناء حسنا (سلام) أى منا وقوله تعالى (على آل ياسين) قرأ نافع وابن عامر بفتح الهمزة ممدودة وكسر اللام وقطعها عن الياء كما رسمت اى أهله والمراد به الياس والباقون بكسر الهمزة وسكون اللام وهي مقطوعة عن الياء قيل هو الياس المتقدم وقيل هو ومن آمن معه

سلام على موسى وهرون سلام على الياسين ولم يقل ذلك في قصص الثلاثة (قلت) اكتفاء فيها بقوله

جمعوا معه تغليبا كقولهم للمهلب وقومه المهلبون وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن أو غيره من كتب الله تعالى قال البيضاوى والكل لا يناسب نظم سائر القصص ولا قوله تعالى (انا كذلك نجزى المحسنين) أى كما جزيناه (انه من عبادنا المؤمنين) اذ الظاهر ان الضمير لالياس * القصة الخامسة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وان لوطا لمن المرسلين اذ) أى واذكر اذ (نجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين) أى الباقين فى العذاب (ثم دمرنا) أى أهلكنا (الآخرين) أى كفار قومه (وانكم) يا أهل مكة (لتمرون عليهم) أى على منازلهم فى متاجركم الى الشام فان سدوم فى طريقه وقوله تعالى (مصبحين) حال وهو من أصبح التامة بمعنى داخلين فى الصباح وقوله تعالى (وبالليل) عطف على الحال قبلها أى ملتبسين بالليل والمعنى ان أولئك القوم كانوا يسافرون الى الشام والمسافر فى أكثر الامر انما يمشى فى أول الليل وفى أول النهار فلهذا السبب عبر الله تعالى عن هذين الوقتين ثم قال تعالى (أفلا تعقلون) أى أليس فيكم عقل يا أهل مكة فتنظروا ما حل بهم فتعتبروا * القصة السادسة وهى آخر القصص قصة يونس عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وان يونس لمن المرسلين) وقوله تعالى (اذ أبق) ظرف لمرسلين اى هو من المرسلين حتى فى هذه الحالة وأبق اى هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن ربه حسن اطلاقه عليه (الى الفلك المشحون) أى السفينة المملوأة قال ابن عباس رضى الله عنهما ووهب كان يونس وعد قومه العذاب فتأخر عنهم فخرج كالمشوز منهم فقصد البحر فركب السفينة فقال الملاحون ههنا عبد آبق من سيده فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس فقال يونس أنا الآبق فزج نفسه فى البحر وروى فى القصة أنه لما وصل الى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب وأراد أن يركب معهم فقدم امرأته لتركب ويركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب ومر المركب ثم جاءته موجة أخرى فاخذت ابنه الاكبر وجاء ذئب فاخذ ابنه الاصغر فبقى فريدا فجاءت مركب أخرى فركبها وقعد ناحية من القوم فلما جرت السفينة فى البحر ركدت فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والا لم يحصل وقوف السفينة كما تراه من غير ريح ولا سبب ظاهر فاقترعوا فمن خرجت القرعة على سهمه نغرقه فان تغريق واحد خير من غرق الكل فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فذلك قوله تعالى (فساهم) اى قارع أهل السفينة (فكان من المدحضين) أى المغلوبين بالقرعة فالقوه فى البحر (فالتقمه) ابتلعه (الحوت وهو مليم) اى آت بما يلام عليه من ذهابه الى البحر وركوبه السفينة بلا اذن من ربه وقيل مليم نفسه (فلولا أنه كان من المسبحين) أى الذاكرين قبل ذلك وكان عليه السلام كثير الذكر وقال ابن عباس رضى الله عنهما من المصلين وقال وهب من العابدين وقال الحسن ما كان له صلاة فى بطن الحوت ولكنه قدم عملا صالحا قال الضحاك شكر الله تعالى له طاعته القديمة قال بعضهم اذكر الله فى الرخاء يذكرك فى الشدة فان يونس كان عبدا صالحا ذاكرا لله تعالى فلما وقع فى الشدة فى بطن الحوت شكر الله تعالى له ذلك وقال سعيد بن جبير يعنى قوله لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين (للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) أى لصار بطن الحوت له قبرا الى يوم القيامة وهو حى أو ميت وفى ذلك حث على اكثار الذكر وتعظيم لشأنه

وان لوطا لمن المرسلين وان
الياس لمن المرسلين (قوله
انه من عبادنا المؤمنين)
(ان قلت) كيف صح

ومن أقبل عليه في السراء أخذ بيده في الضراء (فنبذناه) أي ألقيناه من بطن الحوت فاضاف النبذ الى نفسه سبحانه مع أن النبذ انما حصل بفعل الحوت فهو يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى (بالعراء) أي بوجه الارض وقال السدي بالساحل والعراء الارض الخالية من الشجر والنبات روي ان الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح الله تعالى حتى انتهى الى الارض فلفظه *(تنبيه)* اختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت فقال الحسن لم يلبث الا قليلا ثم أخرج من بطن الحوت وقال بعضهم التقمه بكرة ولفظه عشية وقال مقاتل بن حيان ثلاثة أيام وقال عطاء سبعة أيام وقال الضحاك عشرين يوما وقيل شهرا وقيل أربعين يوما قال الرازي ولا أدري باي دليل عينوا هذه المقادير وروى أبو بردة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سبح يونس في بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا انا نسمع صوتا ضعيفا بارض غريبة فقال تعالى ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا العبد الصالح الذي كان يصعد اليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له فامر الحوت فقذفه بالساحل * وروي أن يونس عليه السلام لما ابتلعه الحوت ابتلع الحوت حوت آخر أكبر منه فلما استقر في جوف الحوت حسب انه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فاذا هو حي فخر لله تعالى ساجدا وقال يارب اتخذت لك مسجدا لم يعبدك أحد في مثله (وهو سقيم) اي عليل كالفرخ الممعوط (وأنبتنا عليه) اي له وقيل عنده (شجرة من يقطين) قال المبرد والزجاج اليقطين كل مالم يكن له ساق من عود كالقثاء والقرع والبطيخ والحنظل وهو قول الحسن ومقاتل قال البغوي المراد هنا القرع على قول جميع المفسرين وروى الفراء انه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطينا كل ورقة انشقت وسترت فهو يقطين (فان قيل) الشجر ماله ساق واليقطين مما لا ساق له كما قال تعالى والنجم والشجر يسجدان (أجيب) بان الله تعالى جعل لها ساقا على خلاف العادة في القرع معجزة له عليه السلام ولو كان منبسطا على الارض لم يمكن أن يستظل به قال مقاتل بن حيان كان يونس عليه السلام يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف اليه فيشرب من لبنها بكرة وعشيا حتى اشتد لحمه ونبت شعره * وروي ان يونس عليه السلام كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقي سبطان ونصف وكان قد أوحى الله تعالى الى بني اسرائيل اذا اسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني استجب لكم فلما نسوا ذلك واسروا أوحى الله تعالى بعد حين الى نبي من انبيائهم ان اذهب الى ملك هؤلاء الاقوام وقل له يبعث الى بني اسرائيل نبيا فاختار من بني اسرائيل يونس عليه السلام لقوته وامانته فقال يونس آلله أمرك بهذا قال لا ولكن امرت ان ابعث قويا أمينا وانت كذلك فقال يونس في بني اسرائيل من هو اقوى مني فلم لم تبعثه فالح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم فوجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما اشرف على لجة البحر اشرفوا على الغرق فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والا لم يحصل في السفينة مانراه فقال التجارة جربنا مثل هذا فاذا رأيناه نقترع فمن خرجت عليه غرقه في البحر لأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج من بينهم يونس فقال ياهؤلاء انا العاصي

الله تعالى نوحا وغيره
كابراهيم وموسى وعيسى
عليهم السلام بذلك مع ان
مرتبة الرسل فوق مرتبة

وتلقف في كسائه ورمى بنفسه فالتقمه الحوت وأوحى الله تعالى الى الحوت لاتكسر منه عظما ولاتقطع منه وصلا ثم ان الحوت خرج الى نيل مصر ثم لى بحر فارس ثم الى البطائح ثم الى دجلة وصعد به ورماه في أرض نصيبين بالعراء وهو كالفرخ المنتوف لاشعر ولالحم فانبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد ثم ان الارضة أكلتها فحزن يونس لذلك حزنا شديدا فقال يارب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت فقال يايونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة ولاتحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم فانطلق اليهم فانطلق اليهم وذلك قوله تعالى (وارسلناه) أي بعد ذلك كقبله الى قومه بنينوى من أرض الموصل (الى مائة ألف أو يزيدون) قال ابن عباس ان أو بمعنى الواو وقال مقاتل والكلبي بمعنى بل وقال الزجاج على الاصل بالنسبة للمخاطبين واختلفوا في مبلغ الزيادة فقال ابن عباس ومقاتل كانوا عشرين ألفا ورواه أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الحسن بضعا وثلاثين ألفا وقال سعيد بن جبير سبعين ألفا (فآمنوا) أي الذين أرسل اليهم عند معاينة العذاب الموعودين به (فمتعناهم) أي أبقيناهم ممتعين بحالهم (الى حين) أي الى انقضاء آجالهم (تنبيه) قال البيضاوي ولعله انما لم يختم قصته وقصة لوط عليهما السلام بما ختم به سائر القصص تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع الكبيرة وأولي العزم من الرسل واكتفاء بالسلام الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فاستفتهم) أي استخبر كفار مكة توبيخا لهم (ألربك البنات ولهم البنون) قال الزمخشري معطوف على مثله في أول السورة قال أبو حيان واذا كانوا قد عدوا الفصل بجملة نحو كلها واضرب زيدا وخبزا من أقبح التراكيب فكيف بجمل كثيرة وقصص متباينة فأجيب عنه بأن الفصل وان كثر بين الجمل المتعاطفة مغتفر وأما المثال الذي ذكره فمن قبيل المفردات ألا ترى كيف عطف خبزا على كلها وأيضا الفصل ليس بأجنبي كما أشار اليه البيضاوي بقوله أمر رسوله أولا باستفتاء قريش عن وجه انكارهم البعث وساق الكلام في تقريره جار الما يلائمه من القصص موصولا بعضها ببعض ثم أمره صلى الله عليه وسلم باستفتائهم عن وجه القسمة حيث جعلوا لله البنات ولانفسهم البنين في قولهم الملائكة بنات الله وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخر من التجسيم وتجويز البنات على الله تعالى فان الولادة مخصوصة بالاجسام المتكونة الفاسدة وتفضيل أنفسهم الخسيسة عليه سبحانه حيث جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم واستهانتهم بالملائكة حيث أنثوهم ولذلك كرر الله تعالى انكاره ذلك وابطاله في كتابه العزيز مرارا وجعله مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا والانكار ههنا مقصور على الاخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما ونقل الواحدي عن المفسرين انهم قالوا ان قريشا وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا الملائكة بنات الله وهذا الكلام يشتمل على أمرين أحدهما اثبات البنات لله تعالى وذلك باطل لان العرب كانوا يستنكفون من البنات والشيء الذي يستنكف منه المخلوق كيف يمكن اثباته للخالق والثاني اثبات أن الملائكة اناث وهذا أيضا باطل لان طريق العلم

انما

المؤمنين (فائدة) انما بدأهم بذلك تنبيها لهم على جلالة محل الايمان وشرفه وترغيبا في تحصيله والثبات

اما الحس واما الخبر واما النظر أما الحس ففقود لانهم لم يشاهدوا كيف خلق الله تعالى الملائكة وهو المراد من قوله تعالى (ام خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون) وانما خص علم المشاهدة لان أمثال ذلك لا يعلم الا به فان الانوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكن معرفته بالعقل الصرف مع ما فيه من الاستهزاء والاشعار بانهم لفرط جهلهم يبتونه كأنهم قد شاهدوا خلقهم وأما الخبر فمفقود أيضا لان الخبر انما يفيد العلم اذا علم كونه صدقا قاطعا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم دليل وهذا هو المراد من قوله تعالى (ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون) أى فيما زعموا وقوله تعالى (أصطفى البنات على البنين) استفهام انكار واستبعاد والاصطفاء أخذ صفوة الشئ (فائدة) همزة اصطفى همزة قطع مفتوحة مقطوعة وصلا وابتداء (مالكم كيف تحكمون) هذا الحكم الفاسد (أفلا تذكرون) أى انه تعالى منزه عن ذلك وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وأما النظر ففقود من وجهين الاول أن دليل العقل يقتضى فساد هذا المذهب لانه تعالى أكمل الموجودات والاكمل له اصطفاء الابناء على البنات يعنى ان اسناد الافضل الى الافضل أقرب الى العقل من اسناد الاخس الى الافضل فان كان حكم العقل معتبرا فى هذا الباب كان قولهم باطلا الثانى أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم بل نطالبهم باثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم واذا لم يجدوا دليلا ظهر بطلان مذهبهم وهذا هو المراد بقوله تعالى (ام لكم سلطان مبين) أى حجة واضحة ان لله ولدا (فأتوا بكتابكم) أى التوراة فأرونى ذلك فيه (ان كنتم صادقين) أى فى قولكم هذا (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) قال مجاهد وقتادة أراد بالجنة الملائكة عليهم السلام سموا جنا لاجتنانهم عن الابصار وقال ابن عباس حى من الملائكة يقال لهم الجن منهم ابليس لعنه الله وقيل هم خزان الجنة قال الرازى وهذا القول عندى مشكل لانه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ثم عطف عليه قوله تعالى وجعلوا الخ والعطف يقتضى المغايرة فوجب أن يكون المراد من الآية غير ما تقدم وقال مجاهد قال كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه منكرا عليهم فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن وهذا أيضا بعيد لان المصاهرة لا تسمى نسبا قال الرازى وقد روينا فى تفسير قوله تعالى وجعلوا لله شركاء الجن ان قوما من الزنادقة يقولون ان الله تعالى وابليس اخوان فالله تعالى هو الحر الكريم وابليس هو الاخ الشرير فالمراد من ذلك هو هذا المذهب وهو مذهب المجوس قال وهذا القول عندى هو أقرب الاقاويل فى الرد عليهم بهذه الآية (ولقد علمت الجنة انهم) اى أهل هذا القول (لمحضرون) أى الى النار ومعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون العذاب فعلى الاول الضمير عائد الى القائل وعلى الثانى عائد الى نفس الجنة ثم انه تعالى نزه نفسه عما قالوه من الكذب فقال تعالى (سبحان الله عما يصفون) بان لله تعالى ولدا ونسبا وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) أى المؤمنين استثناء منقطع ٣ أى لكن عباد الله المخلصين ينزهون الله تعالى عما يصف هؤلاء الثالث أنه ضمير محضرون أى لكن عباد الله تعالى ناجون وعلى هذا فتكون جملة التسبيح معترضة وظاهر كلام أبى البقاء

عليه والازدياد منه كما قال تعالى فى مدح ابراهيم عليه السلام وانه فى الآخرة لمن الصالحين

٣ قوله استثناء منقطع الخ هكذا فى النسخ وهى عبارة غير محررة واصلها كما فى الجمل وفى السمين قوله الا عباد الله المخلصين فى هذا الاستثناء وجوه أحدها انه منقطع والمستثنى منه اما فاعل جعلوا اى جعلوا بينه وبين الجنة نسبا الا عباد الله الثانى انه فاعل يصفون أى لكن عباد الله يصفونه بما يليق به تعالى الثالث انه ضمير محضرون اى لكن عباد الله ناجون وعلى هذا فتكون جملة التسبيح معترضة وظاهر كلام أبى البقاء انه يجوز أن يكون استثناء متصلا لانه قال المستثنى من واو جعلوا أو محضرون ويجوز أن يكون منفصلا فظاهر هذه العبارة أن الوجهين الاولين هو فيهما متصل لا منفصل وليس ببعيد كانه قيل وجعل الناس ثم استثنى منهم هؤلاء وكل من لم يجعل بين الله وبين الجنة نسبا فهو عند الله مخلص من الشرك اه

أنه يجوز أن يكون استثناء متصلا لانه قال مستثنى من جعلوا أو محضرون ويجوز أن يكون منقطعا وظاهر هذه العبارة أن الوجهين الاولين هو فيهما متصل لا منقطع وليس ببعيد كأنه قيل وجعل الناس ثم استثنى منهم هؤلاء وكل من لم يجعل بين الله وبين الجنة نسبا فهو عبد الله مخلص من الشرك وقوله تعالى (فانكم) أي يا أهل مكة (وما تعبدون) أي من الاصنام عود الى خطابهم لانه لما ذكر الدلائل الدالة على فساد مذاهب الكفار اتبعه بما ينبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على اضلال أحد الا اذا كان قد سبق حكم الله تعالى في حقه بالعذاب والوقوع في النار كما قال تعالى (ما أنتم عليه) اى على معبودكم وعليه متعلق بقوله (بفاتنين) اى بمضلين أحدا من الناس (الا من هو صال الجحيم) أي الا من سبق له في علم الله تعالى الشقاوة ● (تنبيه) ● احتج أهل السنة بهذه الآية على انه لا تأثير لايحاء الشيطان ووسوسته وانما المؤثر هو الله حيث قضاه وقدره ثم ان جبريل عليه السلام أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة ليسوا معبودين كما زعمت الكفار بقوله (وما منا) اى معشر الملائكة ملك (الا له مقام معلوم) في السموات يعبد الله تعالى فيه لا يتجاوزه قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما في السموات موضع شبر الا وعليه ملك يصلي ويسبح وروى أبو ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أطت السماء وحق لها أن تئط والذي نفسي بيده ما فيها موضع اربع اصابع الا وملك واضع جبهته لله ساجدا قيل الاطيط اصوات الاقتاب وقيل اصوات الابل وحنينها ومعنى الحديث ما في السماء من الملائكة قد اثقلها حتى اطت وهذا مثل وايذان بكثرة الملائكة عليهم السلام وان لم يكن ثم اطيط وقال السدي الا له مقام معلوم في القرب والمشاهدة (وانا لنحن الصافون) اى اقدامنا في الصلاة وقال الكلبي صفوف الملائكة في السماء كصفوف الناس في الارض (وانا لنحن المسبحون) اى المنزهون الله تعالى عما لا يليق به وقيل هذه حكاية كلام النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمعنى وما منا الا له مقام معلوم في الجنة أو بين يدي الله تعالى في القيامة وانا لنحن الصافون في الصلاة والمنزهون له تعالى عن السوء ثم انه تعالى اعاد الكلام الى الاخبار عن المشركين فقال (وان كانوا) اى كفار مكة وان مخففة من الثقيلة (ليقولون لو ان عندنا ذكرا) اى كتابا (من الاولين) اى من كتب الامم الماضين (لكنا عباد الله المخلصين) أي لاخلصنا العبادة له وما كذبنا ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الاذكار والمهيمن عليها وهو القران العظيم (فكفروا به فسوف يعلمون) عاقبة هذا الكفر وهذا تهديد عظيم ● ولما هددهم بذلك اردفه بما يقوي قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) وهي قوله تعالى لاغلبن أنا ورسلي وهي قوله تعالى (انهم لهم المنصورون) اي بالنصر (وان جندنا) اى المؤمنين (لهم الغالبون) اى الكفار والنصرة والغلبة قد تكون بالحجة وقد تكون بالدولة والاستيلاء وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وان صار مغلوبا في بعض الاوقات بسبب ضعف احوال الدنيا فهو الغالب في الآخرة فالحكم في ذلك للاغلب في الدنيا فلا ينافي ذلك قتل بعض الانبياء عليهم السلام وهزم كثير من المؤمنين وانما سمى ذلك كلمة وهي كلمات لانتظامها في معنى واحد (فتول عنهم) اى أعرض عن كفار مكة

واختلاف

(قوله فنظر نظرة في النجوم) لم يقل الى النجوم مع ان النظر انما يتعدى بالى كما في قوله ... ان انظر

واختلف فى قوله تعالى (حتى حين) فقال ابن عباس يعنى الموت وقال مجاهد يوم بدر وقال السدى حتى يأمرك الله تعالى بالقتال وقيل الى أن يأتيهم عذاب الله وقيل الى فتح مكة وقال مقاتل بن حيان نسختها آية القتال (وأبصرهم) اى اذا نزل بهم العذاب من القتل والاسر فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (فسوف يبصرون) اى ما قضيناه لك من التأييد والنصرة والثواب فى الآخرة وسوف للوعيد لا للتبعيد * ولما قيل لهم ذلك قالوا استهزاء متى نزول العذاب فقال تعالى تهديدا لهم (أفبعذابنا يستعجلون) أى ان ذلك الاستعجال جهل لان لكل شئ من أفعال الله تعالى وقتا معينا لا يتقدم ولا يتأخر (فاذا نزل) أى العذاب (بساحتهم) قال مقاتل بحضرتهم وقيل بفنائهم قال الفراء العرب تكتفى بذكر الساحة عن القوم فشبه العذاب بجيش هجم فأناخ بفنائهم بغتة (فساء) اى فبئس صباحا (صباح المنذرين) أى الكافرين الذين أنذروا بالعذاب وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج الى خيبر أتاها ليلا وكان اذا جاء قوما بليل لم يغر حتى يصبح فلما أصبح خرجت يهود بمساحيها ومكاتلها فلما رأوه قالوا محمد والله محمد والخميس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين قالها ثلاث مرات وقوله تعالى (وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون) فيه وجهان أحدهما ان فى هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفى هذه الكلمة أحوال يوم القيامة وعلى هذا فالتكرار زائل والثانى انها مكررة للمبالغة فى التهديد والتهويل (فان قيل) ما الحكمة فى قوله أولا وأبصرهم وههنا قال وأبصر بغير ضمير (أجيب) بانه حذف مفعول أبصر الثانى اما اختصارا لدلالة الاول عليه واما اقتصارا تفننا فى البلاغة ثم انه تعالى ختم السورة بتنزيه نفسه عن كل ما لا يليق بصفات الالهية فقال تعالى (سبحان ربك رب العزة) أى الغلبة والقوة وفى قوله تعالى رب اشارة الى كمال الحكمة والرحمة وفى قوله تعالى العزة اشارة الى كمال القدرة وانه القادر على جميع الحوادث لان الالف واللام فى قوله تعالى العزة تفيد الاستغراق واذا كان الكل ملكا له سبحانه لم يبق لغيره شئ فثبت ان قوله سبحانه وتعالى سبحان ربك رب العزة (عما يصفون) اى ان له ولدا كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات وقوله تعالى (وسلام على المرسلين) اى المبلغين عن الله تعالى التوحيد والشرائع تعميم للرسل بعد تخصيص بعضهم (والحمد لله رب العالمين) اى على هلاك الاعداء ونصرة الانبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام وعلى ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعمة وحسن العاقبة ولذلك أخره عن التسليم والغرض من ذلك تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يغفلوا عنه لما روى البغوى عن على رضى الله عنه أنه قال من أحب أن يكتال بالمكيال الاوفى من الاجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين الخ وأما ما رواه البيضاوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن من قرأ والصافات أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة انه كان مؤمنا بالمرسلين فموضوع

الى الجبل لان فى بمعنى الى
كان قوله فردوا أيديهم فى
أفواههم أو ان النظر هنا
بمعنى الفكر وهو يتعدى

الذى هم عليه (ان) أى ما (هذا) أى الذى يقوله (الا اختلاق) افتعال وكذب (أأنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (الذكر) أى القرآن (من بيننا) وليس بأكبرنا ولا أشرفنا وهذا استفهام على سبيل الانكار لاختصاصه عليه الصلاة والسلام بالوحى وهو مثلهم وفى ذلك دليل على ان مبدأ تكذيبهم لم يكن الا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالواو وادخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو بخلاف ورش وابن كثير بغير ادخال وعن هشام فيها ثلاثة أوجه تحقيق الهمزتين وادخال ألف بينهما وتحقيقهما من غير ادخال الف بينهما قال الله تبارك وتعالى (بل هم فى شك) أى تردد محيط بهم مبتدا لهم (من ذكرى) اى وحيى وما أنزلت اليهم الى التقليد واعراضهم عن الدليل الذى لو نظروا فيه لزال هذا الشك عنهم (بل) اى ليسوا فى شك منه فى نفس الامر وان كان قولهم قول من هو فى شك (لما يذوقوا عذاب) اى الذى اعددته للمكذبين ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول ولصدقوا النبى صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ولا ينفعهم التصديق حينئذ (أم) أى بل (عندهم خزائن) اى مفاتيح (رحمة) أى نعمة (ربك) وهى النبوة يعطونها من شاؤا ونظيره قوله تعالى أهم يقسمون رحمت ربك أى نبوة ربك (العزيز) اى الغالب الذى لا يغلبه أحد (الوهاب) أى الذى له أن يهب كل ما شاء من النبوة او غيرها لمن يشاء من خلقه ولما كانت خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه ومن جملته السموات والارض وما بينهما وهم عاجزون عن هذا القسم قال الله تعالى (أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما) اى ليس لهم ذلك فلأن يكونوا عاجزين عن كل خزائن الله تعالى اولى وقوله تعالى (فليرتقوا فى الاسباب) جواب شرط محذوف اى ان كان لهم ذلك فليصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها الى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم فينزلوا الوحى الى من يريدونه وهذا غاية التهكم بهم والتعجيز والتوبيخ قال مجاهد اراد بالاسباب أبواب السماء وطرقها من سماء الى سماء وكل ما يوصلك الى شئ من باب او طريق فهو سبب واستدل حكماء الاسلام بقوله تعالى فليرتقوا فى الاسباب على ان الاجرام الفلكية وما أودع الله تعالى فيها من القوى والخواص اسباب لحوادث العالم السفلى لان الله تعالى سمى الفلكيات اسبابا وهذا يدل على ذلك وقوله تعالى (جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب) خبر مبتدا مضمر اى هم قريش جند من الكفار المتحزبين على الرسل عليهم السلام مهزوم مكسور عما قريب فمن اين لهم تدبير الالهية والتصرف فى الامور الربانية فلا تكترث بما تقوله قريش قال قتادة اخبر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وهو بمكة انه سيهزم جند المشركين فقال تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر فجاء تأويلها يوم بدر وهنالك اشارة الى بدر ومصارعهم وقيل يوم الخندق قال الرازى والاصح عندى حمله على يوم فتح مكة لان المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين فى الموضع الذى ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة فوجب أن يكون المراد انهم سيصيرون مهزومين فى مكة وما ذلك الا يوم الفتح * (تنبيه) * فى ما وجهان احدهما انها مزيدة والثانى انها صفة لجند على سبيل التعظيم للمهزومين او للتحقير فان ما الصفة تستعمل لهذين المعنيين وقد تقدم الكلام عليها فى أوائل البقرة وهنالك صفة لجند وكذلك مهزوم ومن الاحزاب

قال ابراهيم عليه السلام انظر فيه (قوله انى سقيم) السموات والارض جازله ليتخلف عنهم اذا خرجوا

ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم معزياً له عليه السلام (كذبت) أي مثل تكذيبهم (قبلهم قوم نوح) أنث قوم باعتبار المعنى واستمروا على عزتهم وشقاقهم الى أن رأوا الماء قد أخذهم ولم يسمحوا بالاذعان ولا بالتضرع الى نوح عليه السلام (وعاد) معاهم بالاسم المنبه على ما كان لهم من الحكمة بالملك واستمروا في شقاقهم الى ان خرجت عليهم الريح العقيم ورأوها تحمل الابل فيما بين السماء والارض وهم لا يذعنون لما دعاهم اليه هود عليه السلام (وفرعون ذو الاوتاد) كانت له أوتاد يعذب الناس عليها وكان اذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد يشد كل يد وكل رجل منه الى سارية ويتركه كذلك في الهواء بين السماء والارض حتى يموت وقال مجاهد كان يمد الرجل مستلقياً بين أربعة أوتاد على الارض يشد رجليه ويديه ورأسه على الارض بالاوتاد وقال السدي كان يشد الرجل بالاوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات وقال ابن عباس ذو البناء المحكم وقيل ذو الملك الشديد الثابت وقال القتيبي تقول العرب هم في عز ثابت الاوتاد يريدون انه دائم شديد قال الاسود بن يعفر

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الاوتاد

وقال الضحاك ذو القوة والبطش وقال عطية ذو الجموع والجنود الكثيرة لانهم كانوا يقوون امره ويشدون ملكه كما يقوي الوتد الشيء والاوتاد جمع وتد وفيه لغات وتد بفتح الواو وكسر التاء وهي الفصحى ووتد بفتحتين وود بادغام التاء في الدال (وثمود) واستمروا فيما هم فيه الى ان رأوا علامات العذاب من صفرة الوجوه ثم حمرتها ثم سوادها ولم يكن في ذلك زاجر يردهم عن عزتهم وشقاقهم (وقوم لوط) اي الذين لهم قوة القيام بما يحاولونه واستمروا في عزتهم وفي شقاقهم حتى ضربوا بالعشاء وطمس الاعين ولم يقدروا على الوصول الى ما ارادوا من الدخول الى بيت لوط عليه السلام ولم يردهم ذلك عن عزتهم وشقاقهم (وأصحاب الايكة) أي الغيضة وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام (أولئك الاحزاب) اي المتحزبون على الرسل عليهم السلام الذين خص الجند المهزوم منهم وقيل المعنى أولئك الاحزاب مبالغة في وصفهم بالقوة كما يقال فلان هو الرجل اي اولئك الاحزاب مع كمال قوتهم لما كان عاقبتهم هي الهلاك والبوار فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين اذا نزل عليهم العذاب وفي الآية زجر وتخويف للسامعين (ان) أي ما (كل) أي من الاحزاب (الا كذب الرسل) أي لانهم اذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم لان دعوتهم واحدة وهي دعوة التوحيد (فحق عقاب) اي فوجب عليهم ونزل بهم عذابي ثم بين تعالى ان هؤلاء المكذبين وان تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال تعالى (وما ينظر) وحقرهم بقوله تعالى (هؤلاء) اي وما ينتظر كفار مكة (الا صيحة واحدة) وهي نفخة الصور الاولى كقوله تعالى ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية الآية والمعنى انهم وان لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم كالرجل الذي ينتظر الشيء فهو ماد الطرف اليه يقطع كل ساعة بحضوره وقيل المراد بالصيحة عذاب يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة كما يقال صاح الزمان بهم اذا هلكوا قال الشاعر صاح الزمان بآل برمك صيحة ... خروا لشدتها على الاذقان

الى عددهم فيكدر احصاؤهم (فان قلت) كيف يقول ذلك مع انه ليس بقليل (قلت) معناه ... اسقم

ونظيره قوله تعالى فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم الآية وقرأ حمزة والكسائى (مالها) أى الصيحة (من فواق) بضم الفاء والباقون بفتحها وهما لغتان بمعنى واحد وهو الزمان الذى بين حلبتى الحالب ورضعتى الراضع والمعنى مالها من توقف قدر فواق ناقة وفى الحديث العيادة قدر فواق ناقة وهذا فى المعنى كقوله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وقال ابن عباس مالها من رجوع من أفاق المريض اذا رجع الى صحته وافاقة الناقة ساعة يرجع اللبن الى ضرعها يقال أفاقت الناقة تفيق افاقة رجعت واجتمعت الفيقة فى ضرعها والفيقة اللبن الذى يجتمع بين الحلبتين وهو أن تحلب الناقة ثم تترك ساعة حتى يجتمع اللبن فما بين الحلبتين فواق أى العذاب لا يمهلهم بذلك القدر (وقالوا) اى كفار مكة استهزاء لما نزل قوله تعالى فى الحاقة فأما من أوتى كتابه بيمينه وأما من أوتى كتابه بشماله (ربنا) أى يا إلهنا المحسن الينا (عجل لنا قطنا) أى كتاب أعمالنا فى الدنيا (قبل يوم الحساب) وقال سعيد بن جبير يعنون حظنا ونصيبنا من الجنة التى تقول وقال مجاهد والسدى يعنون عقوبتنا ونصيبنا من العذاب قال عطاء قائله النضر بن الحرث وهو قوله ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وقال مجاهد قطنا حسابنا يقال لكتاب الحساب قط وقال أبو عبيدة والكسائى القط الكتاب بالجوائز يجمع على قطوط وقططة كقرد وقرود وقردة وفى القلة على أقطة واقطاط كقدح وأقدحة واقداح الا أن افعلة فى فعل شاذ ❊ ولما أن القوم تعجبوا من أمور ثلاثة أولها من أمر النبوّات واثباتها كما قال تعالى وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب وثانيها تعجبهم من الالهيات فقالوا اجعل الآلهة الها واحدا وثالثها تعجبهم من المعاد والحشر والنشر فقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب قالوا ذلك استهزاء أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالصبر فقال سبحانه (اصبر) وأشار بحرف الاستعلاء الى عظيم الصبر فقال (على ما يقولون) أى على ما يقول الكافرون من ذلك ثم انه تعالى لما أمر نبيه بالصبر ذكر قصص الانبياء عليهم السلام تسلية له فكأنه تعالى قال فاصبر على ما يقولون واعتبر بحال سائر الانبياء ليعلم ان كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص فيعلم حينئذ ان الدنيا لا تنفك عن الهموم والاحزان وان استحقاق الدرجات العالية عند الله تعالى لا يحصل الا بتحمل المشاق والمتاعب فى الدنيا وبدأ من ذلك بقصة داود عليه السلام فقال تعالى (واذكر عبدنا) أى الذى اخلصناه لنا واخلص نفسه للنظر الى عظمتنا والقيام فى خدمتنا وأبدل منه او بينه بقوله تعالى (داود ذا الايد) قال ابن عباس أى القوّة فى العبادة روى عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احبّ الصيام الى الله تعالى صيام داود وأحبّ الصلاة الى الله تعالى صلاة داود كان يصوم يوما ويفطر يوما وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وقيل ذا القوّة فى الملك ووصفه تعالى بكونه عبداله وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم وذلك يدل على غاية التشريف الا ترى أنه تعالى لما اراد ان يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج قال تعالى سبحان الذى اسرى بعبده ليلا وأيضا وصف الانبياء عليهم السلام بالعبودية مشعر بانهم قد حصلوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد فى الطاعة

كما فى قوله تعالى ألم يحسن الجلب عليكم أو قسيم القلب الاصنام وهى العبادتكم أو أن من لا تضر ولا تنفع

(انه أواب) أى رجاع الى مرضاة الله تعالى والاواب فعال من آب يؤب اذا رجع قال الله تعالى ان الينا ايابهم وهذا بناء مبالغة كما يقال قتال وضراب وهو ابلغ من قاتل وضارب وقال ابن عباس مطيع وقال سعيد بن جبير مسبح بلغة الحبشة ويؤيد هذا قوله تعالى (انا) اى على ما لنا من العظمة التى لا يعجزها شئ (سخرنا الجبال) اى التى هى اقسى من قلوب قومك وانها اعظم الاراضى صلابة وقوة وعلوا ورفعة بان جعلناها منقادة ذلولا كالجمل الانف ثم قيد ذلك بقوله تعالى (معه) أى مصاحبة له (يسبحن) اى بتسبيحه وفى كيفية تسبيحها وجوه احدها ان الله تعالى يخلق فى جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ونطقا وحينئذ يصير الجبل مسبحا لله تعالى ثانيها قال القفال ان داود عليه السلام اوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن وما يصغى الطير اليه حسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه واصغاؤها اليه تسبيحا وروى محمد بن اسحق ان الله تعالى لم يعط احدا من خلقه مثل صوت داود عليه السلام حتى انه كان اذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يؤخذ باعناقها ثالثها ان الله تعالى سخر الجبال حتى انها كانت تسير الى حيث يريده داود عليه السلام فجعل ذلك السير تسبيحا لانه يدل على كمال قدرته تعالى واتقان حكمته (بالعشى والاشراق) قال الكلبى غدوة وعشيا والاشراق هو ان تشرق الشمس ويتناهى ضوؤها قال الزجاج يقال شرقت الشمس اذا طلعت وأشرقت اذا أضاءت وقيل هما بمعنى واحد والاول اكثر استعمالا تقول العرب شرقت الشمس ولما تشرق وفسره ابن عباس بصلاة الضحى قال ابن عباس كنت أمر بهذه الآية ولم أدر ما هى حتى حدثتنى أم هانئ بنت ابى طالب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى وقال يا أم هانئ هذه صلاة الاشراق وروى طاوس عن ابن عباس قال هل تجدون ذكر صلاة الضحى فى القرآن قالوا لا فقرأ انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق وقوله تعالى (والطير محشورة) اى مجموعة اليه تسبح معه عطف مفعول على مفعول وهما الجبال والطير وحال على حال وهما يسبحن ومحشورة كقولك ضربت زيدا مكتوفا وعمرا مطلقا وأتى بالحال اسما لانه لم يقصد ان الفعل وقع شيأ فشيأ لان حشرها دفعة واحدة أدل على القدرة والحاشر هو الله تعالى (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله تعالى من الطير مع انه لا عقل لها (اجيب) بانه لا يبعد ان يخلق الله تعالى لها عقولا حتى تعرف الله تعالى فتسبحه حينئذ ويكون ذلك معجزة لداود عليه السلام (كل) أى من الجبال والطير (له) اى لداود اى لاجل تسبيحه (أواب) أى رجاع الى طاعته بالتسبيح وقيل كل مسبح فوضع أواب موضع مسبح وقيل الضمير فى له للبارئ تبارك وتعالى والمراد كل من داود والجبال والطير مسبح ورجاع لله تعالى (وشددنا) أى قوينا بما لنا من العظمة (ملكه) بالحرس والجنود قال ابن عباس كان أشد ملوك الارض سلطانا كان يحرس محرابه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل وعن ابن عباس ان رجلا من بنى اسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود فقال ان هذا قد غصبنى بقرا فسأله داود فجحد فقال للآخر البينة فلم تكن له بينة فقال لهما داود قوما حتى أنظر فى أمركما فأوحى الله تعالى الى داود فى منامه أن يقتل الذى استعدى عليه فقال هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت فأوحى الله تعالى

(قوله
يموت فهو سقيم) أى
فاقبلوا اليه يزفون)
يسرعون المشى (فان قلت)
هذا يدل على أنهم عرفوا أن

اليه مرة ثانية فلم يفعل فأوحى الله تعالى اليه مرة ثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة فأرسل
داود اليه فقال له ان الله تعالى أوحى الى أن أقتلك فقال تقتلني بغير بينة فقال نعم والله لانفذن
أمر الله تعالى فيك فلما عرف الرجل أنه قاتله قال لا تعجل حتى أخبرك انى والله ما أخذت بهذا
الذنب ولكني كنت اغتلت ابن هذا فقتلته فبذلك أخذت فأمر به داود فقتل فاشتدت
هيبة داود عند ذلك في قلوب بني اسرائيل واشتد به ملكه فذلك قوله تعالى وشددنا ملكه
(وآتيناه) اى بعظمتنا (الحكمة) اى النبوة والاصابة في الامور واختلف في تفسير قوله
تعالى (وفصل الخطاب) فقال ابن عباس بيان الكلام اى معرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام
المخاطبين له من غير كبير روية في ذلك وقال ابن مسعود والحسن علم الحكمة والبصر بالقضاء
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو ان البينة على المدعي واليمين على من أنكر لان كلام
الخصوم ينقطع وينفصل به وقال أبي بن كعب فصل الخطاب الشهود والايمان وقال مجاهد
وعطاء ويروى عن الشعبي ان فصل الخطاب هو قول الانسان بعد حمد الله والثناء عليه
اما بعد اذا أراد الشروع في كلام آخر وأول من قاله داود عليه السلام وقيل غيره كما ذكرته
في شرح المنهاج عند قول المنهاج اما بعد وقيل هو الخطاب الفصل الذي ليس باختصار مخل
ولا اشباع ممل كما جاء وصف كلام النبي صلى الله عليه وسلم فصل لانزر ولا هذر وقوله تعالى
لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وهل) استفهام معناه التعجب والتشويق الى استماع ما بعده
(أتاك) يا أفضل الخلق (نبأ) اى خبر (الخصم) وهو في الاصل مصدر ولذلك يصلح للمفرد
والمذكر والمراد به هنا الجمع بدليل قوله تعالى (اذ) اى حين (تسوروا) اى تصعدوا وعلوا
(المحراب) اى البيت الذي كان يدخل فيه داود ويشتغل فيه بالعبادة والطاعة قال الزمخشري
(فان قلت) بم انتصب اذ (قلت) لا يخلو اما ان ينتصب بأتاك أو بنبأ أو بمحذوف فلا يسوغ
انتصابه بأتاك لان اتيان النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقع الا في عهده لا في عهد
داود ولا بالنبأ لان النبأ واقع في عهد داود فلا يصح اتيانه رسول الله صلى الله عليه وسلم وان
أردت بالنبأ القصة في نفسها لم يكن ناصبا فبقى أن يكون منصوبا بمحذوف تقديره وهل أتاك
نبأ تحاكم الخصم اذ تسوروا انتهى فاختار أن يكون معمولا لمحذوف ويجوز أن ينتصب
بالخصم لما فيه من معنى الفعل وقوله تعالى (اذ) اى حين (دخلوا على داود) بدل من اذ الاولى
أو ظرف لتسوروا وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الذال عند التاء في الاول وعند الدال
في الثاني ووافقهم ابن ذكوان في الاول والباقون بالادغام فيهما (ففزع منهم) اى لانهم
نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه فانه عليه
السلام كان يجزئ زمانه يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للوعظ ويوما للاشتغال بحاجته فتسور
عليه ملكان على صورة الانسان في يوم الخلوة (قالوا لا تخف) وقوله (خصمان) خبر مبتدأ
مضمر اى نحن خصمان اى فريقان ليطابق ما قبله من ضمير الجمع وقيل اثنان والضمير بمعناهما
وتقدم أن الخصم يطلق على الواحد والاكثر وقولهم (بغى بعضنا على بعض) جملة يجوز أن
تكون مفسرة لحالهم وأن تكون خبرا ثانيا (فان قيل) كيف قالوا بغى بعضنا على بعض وهم
ملائكة على المشهور (أجيب) بان ذلك على سبيل الفرض اى أرأيت خصمين بغى أحدهما

ابراهيم هو الكاسر لاصنامهم
وقوله في الانبياء من فعل
هذا بآلهتنا الآية يدل
على انهم ما عرفوا انه

على الآخر وهذا من معاريض الكلام لا من تحقيق البغي من أحدهما (فاحكم بيننا بالحق) أي الأمر الثابت الذي يطابق الواقع (ولا تشطط) أي ولا تجر في الحكومة (واهدنا) أي أرشدنا (إلى سواء الصراط) أي وسط الطريق الصواب فقال لهما تكلما فقال أحدهما (إن هذا أخي) أي على ديني وطريقتي أو في النصح لا من جهة النسب (له تسع وتسعون نعجة) أي امرأة (ولي نعجة واحدة) امرأة واحدة والنعجة هي الأنثى من الضأن ولكن كثر في كلامهم الكناية بها عن المرأة قال ابن عون

أنا أبو سعد إذا الليل دجا ... (?)

أنا أبو من ثلاث هنه ● رابعة في البيت صغراهنه ● ونعجتي خمسا توفيهنه

قال الحسين بن الفضل هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لأنه لم يكن ثم نعاج ولا بغي فهو كقولهم ضرب زيد عمرا واشترى بكر دارا ولا ضرب هنالك ولا شراء وقرأ حفص بفتح الياء والباقون بالسكون (فقال أكفلنيها) قال ابن عباس أعطنيها وقال مجاهد انزل لي عنها وحقيقته ضمها إلي واجعلني كافلها وهو الذي يعولها وينفق عليها والمعنى طلقها لأتزوجها (وعزني) أي غلبني (في الخطاب) أي الجدال لأنه أفصح مني في الكلام وقيل قهرني لقوة ملكه قال الضحاك يقول إن تكلم كان أفصح مني وإن حارب كان أبطش مني وحقيقة المعنى أن الغلبة كانت له لضعفي في يده وإن كان الحق معي وهذا كله تمثيل لأمر داود مع أوريا زوج المرأة التي تزوجها داود وسياق الكلام على قصته إن شاء الله تعالى عن قريب (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) وهذا جواب قسم محذوف أريد به المبالغة في إنكار فعل خليطه وتهجين طمعه والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة والانضمام أي بضمها مضافة إلى نعاجه (فإن قيل) كيف قال لقد ظلمك ولم يكن سمع قول صاحبه (أجيب) بأن معناه إن كان الأمر كما تقول فقد ظلمك أو أنه قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول ولم يذكر الله تعالى ذلك لدلالة الكلام عليه وقيل التقدير إن الخصم الذي هذا شأنه قد ظلمك وقرأ قالون وابن كثير وهشام وعاصم بإظهار الدال عند الظاء والباقون بالإدغام وقوله (وإن كثيرا من الخلطاء) أي مطلقا منكم ومن غيركم والخلطاء جمع خليط وهم الشركاء الذين خلطوا أموالهم وقال الليث خليط الرجل مخالطه (ليبغي) أي ليتعدى (بعضهم) غالبا (على بعض) فيريدون غير الحق (فإن قيل) لم خص الخلطاء ببغي بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء يفعلون ذلك (أجيب) بأن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة لأنهما إذا اختلطا اطلع كل منهما على أحوال صاحبه فكل ما يملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه فيفضي ذلك إلى زيادة المنازعة والمخاصمة فلذلك خص داود عليه السلام الخلطاء بالبغي والعدوان ثم استثنى فقال (إلا الذين آمنوا وعملوا) أي تصديقا لإيمانهم (الصالحات) أي الطاعات فإنهم لا يقع منهم شيء لأن مخالطة هؤلاء تكون لأجل الدين وهذا استثناء متصل من قوله بعضهم (وقليل ما هم) أي هم قليل فقليل خبر مقدم وما مزيدة للتعظيم وهم مبتدأ وقال الزمخشري ما للإبهام وفيه تعجب من قلتهم قال فإن أردت أن تحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس ● وحديث ما على قصره ● وانظر هل بقي له معنى (وظن داود) أي أيقن لما ابتليناه قبل فصل الأمر وقد همه من ذلك أمر من عظمه

(قال) يحتمل الكامل لها عرفه فاقبل أن بعضهم حوله فسأل البعض بعضهم وأن كلهم جهلوه وسألوا

لا عهد له بمثله (أنما فتناه) أي امتحناه قال المفسرون إن الظن هنا بمعنى العلم لأن داود لما قضى
الأمر بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثم صعد إلى السماء حيال وجهه فعلم أن الله تعالى
ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وقال ابن عباس إن داود لما دخل عليه الملكان فقضى على
نفسه تحولا في صورتهما وعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه (فاستغفر ربه) أي طلب
الغفران من مولاه الذي أحسن إليه (وخر) أي سقط من قيامه توبا لربه عن ذلك (راكعا) أي
ساجدا على تسمية السجود ركوعا لأنه مبدؤه أو خر للسجود راكعا أو مصليا كأنه أحرم بركعتي
الاستغفار (وأناب) أي رجع إلى الله تعالى قال الرازي وللناس في هذه القصة ثلاثة أقوال
أحدها أن هذه القصة دلت على صدور الكبيرة منه وثانيها على الصغيرة وثالثها لا تدل على كبيرة
ولا صغيرة فأما القول الأول فقالوا إن داود عليه السلام أحب امرأة أوريا فاحتال في قتل
زوجها فتزوج بها ثم أرسل الله تعالى ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة تشبه واقعته
وعرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا ثم تنبه لذلك واشتغل
بالتوبة قالوا وسبب ذلك أن داود عليه السلام تمنى يوما من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحق
ويعقوب وسأل ربه أن يمتحنه كما امتحنهم ويعطيه من الفضل ما أعطاهم فأوحى الله تعالى إليه
إنك تبتلى في يوم كذا فاحترس فلما كان ذلك اليوم جاءه الشيطان فتمثل له في صورة حمامة من
ذهب فيها من كل لون حسن فأعجبه حسنها فمد يده ليأخذها ويريها بني إسرائيل لينظروا إلى
قدرة الله تعالى فطارت غير بعيدة فتبعها فطارت من كوة فنظر داود أين تقع فأبصر داود امرأة
في بستان تغتسل فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى
بدنها فزاده إعجابا وسأل عنها فقيل له امرأة أوريا وزوجها في غزاة فأحب داود أن يقتله ويتزوج
بها فأرسل داود إلى ابن أخته أن قدم أوريا قبل التابوت وكان من قدم على التابوت لا يحل له أن
يرجع وراءه حتى يفتح الله تعالى على يديه أو يقتل فقدمه ففتح على يديه فكتب إلى داود فأمر أن
يقدمه بعد ذلك ففعل ثلاث مرات فقتل في الثالثة فلما انقضت عدتها تزوج بها فهي أم سليمان
عليهما السلام قال الرازي والذي أدين الله تعالى به وأذهب إليه أن ذلك باطل لوجوه الأول أن
هذه الحكاية لا تناسب داود لأنها لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورا لاستنكف منها والذي
نقل هذه القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه وربما لعن من نسبه إليها فكيف
يليق بالعاقل نسبة المعصية إلى داود عليه السلام ثانيها أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى
السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته أما الأول فأمر منكر قال صلى الله
عليه وسلم من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وأما الثاني
فمنكر أيضا قال صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه فإن أوريا لم يسلم من
داود عليه السلام لا في روحه ولا في منكوحه ثالثها أن الله تعالى وصف داود عليه السلام
بصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر الصفة الأولى أنه تعالى أمر محمدا
صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بداود عليه السلام في المصابرة على المكاره فلو قلنا إن داود لم يصبر
على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم عبد مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن
يأمر محمدا أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي بداود في الصبر على طاعة الله تعالى

الصفة

فلما عرفوه
ابراهيم عنه قوله وقال اني
ذاهب الى ربي) اي الى حيث
أمرني ربي بالمهاجرة وهو

* الصفة الثانية انه وصفه بكونه عبداله وقد بينا ان المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى وصف العبودية فى القيام باداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات فلو قلنا ان داود اشتغل بتلك الاعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملا الا فى طاعة الهوى والشهوة * الصفة الثالثة وهى قوله تعالى ذا الايد أى ذا القوة ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين لان القوة الكاملة فى أداء الواجبات والاجتناب عن المحظورات وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم * الصفة الرابعة كونه أوّابا كثير الرجوع الى الله فكيف يليق هذا الوصف بمن قلبه مشغول بالفسق والفجور * الصفة الخامسة قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه يسبحن أفترى انه سخرت له الجبال ليتخذ سبيل القتل والفجور * الصفة السادسة قوله تعالى والطير محشورة قيل انه كان محرما عليه صيد شئ من الطير فكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ولا يجوز أمن الرجل المسلم على روحه ومنكوحه * الصفة السابعة قوله تعالى وشددنا ملكه ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شد ملكه باسباب الدنيا بل المراد انا ملكناه بقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لم يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك * الصفة الثامنة قوله تعالى وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علما وعملا فكيف يجوز أن يقال انا آتيناه الحكمة وفصل الخطاب مع اصراره على ما يستنكف من مزاحمة أخس أصحابه فى الروح والمنكوح فهذه الصفات التى وصف بها قبل شرح القصة * وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فأولها قوله تعالى وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وقوله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فكيف أن الله تعالى يجعله خليفة ويقع منه ذلك وقد روى عن سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال من حدثكم بحديث داود على ما تروية القصاص فاجلدوه مائة جلدة وستين وهو حد الفرية أى الكذب على الانبياء ومما يقوى هذا انهم قالوا ان المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من الصحابة بذلك وأما الرابع فلم يقل انى رأيت ذلك بعينى فان عمر رضى الله عنه كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لاجل أنهم قذفوا فاذا كان هذا الحال فى واحد من آحاد الصحابة كذلك فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من أكابر الانبياء عليهم السلام فثبت بما ذكرنا أن القصة التى ذكروها لو باطلة لا يجوز ذكرها قال الرازى حضرت فى مجلس وفيه بعض الاكابر فكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة بسبب اقتضى ذلك فقلت له لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الانبياء والرسل وقال الله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ فى الطعن فيه وأيضا بتقدير أنه ما كان نبيا فلا شك أنه كان مسلما وقال صلى الله عليه وسلم لا تذكروا موتاكم الا بخير وذكرت له أشياء أخر فقال فسكت ولم يذكر شيأ (فان قيل) فقد ذكر هذه القصة كثير من المحدثين والمفسرين (أجيب) بانه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع الى الدلائل القطعية واجبا والمحققون يردون هذا القول ويحكمون عليه بالكذب وأما القول الثانى فقالوا نحمل هذه القصة على حصول الصغيرة لا على حصول الكبيرة وذلك من وجوه الاول ان هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم

أو الى طاعة رب الشام أو الى طاعة ربى ورضاه (قوله سيهدين) أى سيثبتنى على هداى أو يزيدنى هدى (قوله بغلام حليم)

خطبها داود عليه السلام فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه الثاني قالوا انه وقع بصره عليها فدل قلبه اليها وليس له في هذا ذنب البتة أما وقوع بصره عليها بغير قصد فليس بذنب وأما حصول الميل عقب النظرة فليس أيضا ذنبا لان الميل ليس في وسعه فليس مكلفا به بل لما اتفق أنه قتل زوجها تزوج بها الثالث انه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن يطلق زوجته حتى يتزوجها وكانت عادة مألوفة معهودة في هذا المعنى فاتفق ان عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان فقيل له ذلك وان كان جائزا في ظاهر الشريعة الا انه لا يليق بك ٣ فان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذه وجوه ثلاثة لو حملت هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام الا ترك الافضل والاولى واما القول الثالث فقال نحمل هذه القصة على وجه لا يلزم منه ايجاب كبيرة ولا صغيرة لداود عليه السلام بل يوجب أعظم أنواع المدح والثناء له وهو أنه قد روى ان جماعة من الاعداء طمعوا في ان يقتلوا نبي الله داود عليه السلام وكان له يوم يخلو فيه بنفسه و يشتغل فيه بطاعة ربه فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواما يمنعهم منه فخافوا ووضعوا كذبا وقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض الى آخر القصة فعلم غرضهم وقصد أن ينتقم منهم وظن أن ذلك ابتلاء من الله تعالى فاستغفر ربه مما هم به وأناب (فان قيل) ههنا أربعة ألفاظ يمكن أن يحتج بها في الحاق الذنب بداود عليه السلام أحدها قوله تعالى وظن داود أنما فتناه وثانيها قوله تعالى فاستغفر ربه وثالثها قوله تعالى وأناب ورابعها قوله تعالى فغفرنا له ذلك (أجيب) بان هذه الالفاظ لا يدل لشئ منها على ما ذكر لاحتمال أن تكون الزلة انما حصلت من باب ترك الافضل والاولى كما مر وحمل هذه الالفاظ على هذا الوجه لا يلزم منه اسناد شئ من الذنوب اليه بل ذلك يوجب اسناد أعظم الطاعات اليه وقيل ان ذنبه المبادرة الى تصديق المدعى وتظليم الآخر قبل مسئلته وهناك أشياء كثيرة ذكرها البغوى وغيره وفيما ذكرناه كفاية (فغفرنا له ذلك) أى ما استغفر منه (وان له عندنا لزلفى) أى زيادة خير في الدارين بعد المغفرة (وحسن مآب) أى مرجع في الجنة ولما تم الكلام في شرح القصة أردفها ببيان أن الله تعالى فوض لداود خلافة الارض بقوله تعالى (ياداود انا جعلناك خليفة في الارض) أى تدبر أمر العباد بامرنا وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول الاول كما مر لان من البعيد جدا أن يوصف الرسول بكونه ساعيا في سفك دماء المسلمين رغبة في انتزاع أزواجهم من أيديهم ثم يذكر عقبه أن الله تعالى فوض خلافة الارض اليه ثم في تفسير كونه خليفة وجهان أحدهما جعلناك تخلف من تقدمك من الانبياء في الدعاء الى الله تعالى وفي سياسة الناس لان خليفة الرجل من يخلفه وذلك انما يعقل في حق من تصح عليه الغيبة وذلك على الله تعالى محال ثانيهما انا جعلناك مالكا في الناس نافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ومنه يقال خليفة الله تعالى في أرضه وحاصله ان خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله تعالى فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة للزوم نفاذ الحكم في تلك الحقيقة (فاحكم بين الناس) أى الذين يتملكون الملك من أى قوم كانوا (بالحق) أى بالعدل لان الاحكام اذا كانت مطابقة للشريعة

الحقة

٣ قوله لا يليق بك الظاهر به اه مصححه

خ قوله هنا بعليم وفي الحجر والذاريات بعليم نظرا في ذينك لشرف العلم وفيما هنا لما سبقه حليم الغلام

الحقة الالهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات واذا كانت الاحكام على وفق الهوى وتحصيل مقاصد الانفس أفضى ذلك الى تخريب العالم ووقوع الهرج فيه والمرج في الخلق وذلك يفضي الى هلاك ذلك الحاكم ولهذا قال تعالى (ولا تتبع الهوى) أي لا تمل مع ما تشتهي اذا خالف أمر الله تعالى ثم سبب عنه قوله تعالى (فيضلك) أي ذلك الاتباع أو الهوى (عن سبيل الله) لان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب (ان الذين يضلون عن سبيل الله) أي عن الايمان بالله تعالى (لهم عذاب شديد بما نسوا) أي بسبب نسيانهم (يوم الحساب) أي المرتب عليه تركهم الايمان ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا وقال الزجاج بتركهم العمل لذلك اليوم وقال عكرمة والسدي في الآية تقديم وتأخير تقديره لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا أي تركوا القضاء بالعدل (وما خلقنا السماء) التي تروها (والارض وما بينهما) أي مما تحسون به من الرياح وغيرها خلقا (باطلا) أي عبثا قال الله تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون * (تنبيه) * احتج اهل السنة بان هذه الآية تدل على أنه تعالى خالق أعمال العباد لان الآية دلت على أنه تعالى خالق كل ما بين السماء والارض وأعمال العباد مما بين السماء والارض فوجب أن يكون تعالى خالقا لها ودلت على صحة القول بالحشر والنشر لانه تعالى لما خلق الخلق في هذا العالم فاما أن يكون خلقهم للاضرار أو للانتفاع أو لا لشئ والاول باطل لان ذلك لا يليق بالرحيم الكريم والثالث أيضا باطل لان هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق الا أن يقال خلقهم للانتفاع وذلك الانتفاع اما أن يكون في حياة الدنيا أو في حياة الآخرة والاول باطل لان منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة وتحمل الضرر الكثير لوجدان المنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ولما بطل هذا القول ثبت القول بوجود حياة بعد هذه الحياة الدنيا وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة * (تنبيه) * يجوز في باطلا أن يكون نعتا لمصدر محذوف أو حالا من ضميره أي خلقا باطلا وأن يكون حالا من فاعل خلقنا أي مبطلين أو ذوي باطل وأن يكون مفعولا من أجله أي للباطل وهو العبث (ذلك) أي خلق ما ذكر لا لشئ (ظن الذين كفروا) أي أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خلقا لغير شئ وأنه لا بعث ولا حساب (فويل) أي هلاك عظيم بسبب هذا الظن أو واد في جهنم (للذين كفروا) أي مطلقا بهذا الظن وغيره من أي شرك كان (من النار) لان من أنكر الحشر والنشر كان شاكا في حكمة الله تعالى في خلق السموات والارض * ونزل لما قال كفار مكة للمؤمنين انا نعطى في الآخرة مثل ما تعطون (أم نجعل) أي على عظمتنا (الذين آمنوا) أي امتثالا لاوامرنا (وعملوا الصالحات) تحقيقا لايمانهم (كالمفسدين) أي المطبوعين على الفساد والراسخين فيه (في الارض) أي بالكفر وغيره لم نجعلهم مثلهم وأم منقطعة والاستفهام فيها للانكار التسوية بين الحزبين التي هي من لوازم خلقها باطلا ليدل على نفيه وكذا التي في قوله تعالى (أم نجعل المتقين كالفجار) كرر الانكار الاول باعتبار وصفين آخرين يمنعان التسوية او أنه أنكر التسوية أولا بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم وقوله تعالى (كتاب) خبر مبتدأ مضمر أي هذا كتاب ثم وصفه بقوله تعالى (أنزلناه) أي بما لنا من العظمة (اليك) يا أشرف الخلق (مبارك) أي كثير خيره ونفعه وقوله تعالى (ليدبروا) أصله ليتدبروا أدغمت التاء في الدال (آياته)

لوعده بالصبر في جوابه لسؤال أبيه له في ذبحه بقوله ستجدني ان شاء الله من الصابرين (قوله فانظر

أي ليتفكروا في أسراره العجيبة ومعانيه اللطيفة فيأتمروا بأوامره ومناهيه فيؤمنوا (وليتذكر) أي وليتعظ به (أولوا الالباب) أي أصحاب العقول * القصة الثانية قصة سليمان عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ووهبنا) أي بما لنا من العظمة (لداود سليمان) ابنه فجاء عديم النظير في ذلك الزمان دينا ودنيا وعلما وحكمة وعظمة ورحمة والمخصوص بالمدح في قوله تعالى (نعم العبد) محذوف أي سليمان وقيل داود (انه أواب) أي رجاع الى التسبيح والذكر في جميع الاوقات (اذ) أي اذكر اذ (عرض عليه) أي سليمان وقوله تعالى (بالعشي) وهو ما بين الزوال الى الغروب وقوله تعالى (الصافنات) أي الخيل العربية الخالصة جمع صافنة وفيه خلاف بين أهل اللغة فقال الزجاج هو الذي يقف على احدى يديه ويقف على طرف سنبكه وقد يفعل ذلك باحدى رجليه قال وهي علامة الفراهة فيه وأنشد

ألف الصفون فلا يزال كأنه * مما يقوم على الثلاث كسير ٣

وقيل هو الذي يجمع يديه ويسويهما وقيل هو القائم مطلقا أي سواء كان من الخيل أم من غيرها قاله القتيبي واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم من سره أن تقوم الناس له صفونا فليتبوأ مقعده من النار أي يديمون له القيام وجاء في الحديث فنا صفونا أي صافين أقدامنا وقيل هو قيام الخيل مطلقا أي سواء وقف على طرف سنبكه أم لا قال الفراء على هذا رأيت أشعار العرب واختلف أيضا في قوله تعالى (الجياد) فهي اما من الجودة يقال جاد الفرس يجود جودة وجودة بالفتح والضم فهو جواد للذكر والانثى وهو الذي يجود في جريه بأعظم ما يقدر عليه والجمع جياد وأجواد وأجاويد وقيل جمع جود بالفتح كثياب وثوب واما من الجيد وهو العنق والمعنى طويلة الاجياد وهو دال على فراهتها قال الكلبي غزا سليمان اهل دمشق ونصيبين فاصاب منهم ألف فرس وقال مقاتل ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس وقال عوف عن الحسن بلغني انها كانت خيلا خرجت من البحر لها اجنحة وعن عكرمة انها كانت عشرين الف فرس لها أجنحة فصلى سليمان الصلاة الاولى التي هي الظهر وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه فعرض عليه منها تسعمائة فرس فتنبه لصلاة العصر فاذا الشمس قد غربت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك هيبة له فاغتم لذلك (فقال اني احببت) اي اردت (حب الخير) اي الخيل (عن ذكر ربي) اي صلاة العصر (حتى توارت) اي الشمس (بالحجاب) أي استترت بما يحجبها من الابصار (ردوها علي) اي الخيل المعروضة وقيل الضمير يرجع للشمس قال الرازي وهذا بعيد لوجوه الاول ان الصافنات مذكورة بالتصريح والشمس غير مذكورة وعود الضمير الى المذكور اولى من عوده الى المقدر وثانيها انه لو اشتغل بالخيل حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العصر كان ذلك ذنبا عظيما ومن كان هذا حاله فطريقه التضرع والبكاء والمبالغة في اظهار التوبة فأما ان يقول على سبيل العظمة لرب العالمين مثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الادب عقب ذلك الجرم العظيم الذي لا يصدر عن ابعد الناس عن الخير فكيف يجوز اسناده للرسول عليه السلام المطهر المكرم ثالثها ان الشمس لو رجعت بعد الغروب لصار ذلك مشاهدا لكل أهل الدنيا ولو كان كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وحيث لم ينقل علمنا فساده انتهى قال أكثر المفسرين فلما ردوا الخيل اليه أقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف أخذا من قوله تعالى (فطفق مسحا) اي فاخذ

٣ قوله كسير كذا بالنسخ والصواب نصبه على الحال ورفعه من الضمير في يقوم خطأ انظر شرح شواهد الكشاف لمحب الدين افندي اه مصححه

ماذا ترى) اي في ذبحي اياك لم يشاوره ليرجع الى رأيه لان أمر الله حتم لا يتخلف الايتاء منه بل ليختبر صبره

يمسح السيف مسحا (بالسوق والاعناق) اى سوقها واعناقها يقطعهما من قولهم مسح علاونه اذا ضرب عنقه قالوا فعل ذلك تقربا الى الله تعالى وطلبا لمرضاته حيث اشتغل عن طاعته وكان ذلك مباحا له وان كان حراما علينا كما أبيح لنا ذبح بهيمة الانعام وبقى منها مائة فرس فما بقى فى أيدى الناس اليوم من الخيل من نسل تلك المائة قال الحسن فلما عقر الخيل أبدله الله تعالى خيرا منها وأسرع وهى الريح تجرى بأمره كيف شاء قال الرازى وهذا عندى بعيد لوجوه الاول أنه لو كان مسح السوق والاعناق قطعهما لكان معنى فامسحوا برؤسكم اى اقطعوها وهذا لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق أما اذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه البتة من المسح العقر والذبح الثانى ان القائلين بهذا القول أجمعوا على أن لسليمان عليه السلام أنواعا من الافعال المذمومة فاولها ترك الصلاة وثانيها انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا حتى نسى الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة وثالثها انه بعد الاتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة البتة ورابعها أنه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على وهذه كلمة لا يقولها الرجل الحصيف الا مع الخادم الخسيس وخامسها انه أتبع هذه المعاصى بعقر الخيل فى سوقها واعناقها وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذبح الحيوان الا لأكله وهذه أنواع من الكبائر نسبوها الى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شئ منها وخلاصتها ان هذه القصص انما ذكرها الله تعالى عقب قوله وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وان الكفار لما بلغوا فى السفاهة الى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ثم ذكر عقبه قصة سليمان عليه السلام فقال تعالى ووهبنا لداود سليمان الآية والتقدير انه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم يا محمد اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان وهذا الكلام انما يليق اذا قلنا ان سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالاعمال الفاضلة والاخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله تعالى وأعرض عن الشهوات واللذات فلو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذا الموضع انه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب لم يكن ذكر هذه القصة لائقا قال والصواب ان نقول ان رباط الخيل كان مندوبا اليه فى دينهم كما هو فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ثم ان سليمان عليه السلام احتاج الى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر انى لا أحبها لاجل الدنيا ونصيب النفس وانما أحبها لامر الله تعالى وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربى ثم انه عليه السلام أمر باجرائها وسيرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره ثم انه أمر الرائضين ان يردوها فردوا تلك الخيل اليه فلما عادت اليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك أمور الاول تشريفا لها وابانة لعزتها لكونها من أعظم الاعوان فى دفع العدو الثانى أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتضع الى حيث يباشر أكثر الامور بنفسه الثالث أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمسحها ويمسح لها سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض فهذا التفسير هو الذى ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزم منه نسبة شئ من المنكرات الى سليمان عليه السلام والعجب منهم كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها وليس لهم فى اثباتها شبهة فضلا عن حجة قال فان قيل فالجمهور فسروا الآية بتلك الوجوه

وايوطن نفسه على الذبح قبل البلاء كالمستأنس به ويكتسب الثواب بصبره وانقياده ولتكون سنة فى المشاورة فقد قيل لو شاور

فالجواب أن نقول لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها لما ذكرنا وأيضا فان الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يدل على صحة هذه الحكايات دليل قطعي ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات من أقوام لا يلتفت الى أقوالهم والذي ذهبنا اليه قول الزهري وابن كيسان اه وقد يجاب من جهة الجمهور أن ما نسبه اليهم ممنوع وبيان ذلك أن قوله ذلك لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه البتة من المسح العقر والذبح يقال القرينة كافية في ذلك وقوله انهم جعلوا أنواعا مذمومة أولها ترك الصلاة انما يكون ذلك مذموما اذا تركها متعمدا ولم يكن ذلك بل ناسيا وقد نام صلى الله عليه وسلم في الوادي حتى طلعت الشمس وقضى الصبح والنسيان والنوم لا مؤاخذة فيهما وقوله ثانيها انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا انما اشتغل بذلك لامر الجهاد وهو مطلوب في حقه وقوله ثالثها انه لم يشتغل بالتوبة يقال انه لم يأت بذنب وقوله رابعها انه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على ممنوع والخاطب انما هو جماعته وقوله خامسها الى ان قال وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن عقر الحيوان قد مر عنهم أن ذلك كان مباحا له فليس فيما قالوه نسبة سليمان عليه الصلاة والسلام الى معصية لو قال الاولى ان يقال كذا كان أولى وقرأ قنبل بهمزة ساكنة بعد السين وقيل عنه أيضا بضم الهمزة وواو بعدها واختلف في سبب الفتنة التي وقعت لسليمان عليه السلام في قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا) أي جعلنا من العظمة (على كرسيه جسدا ثم أناب) فقال محمد بن اسحق عن وهب بن منبه قال سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر وكان الله تعالى قد أعطى سليمان في ملكه سلطانا لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر انما يركب اليه الريح فخرج الى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والانس فأخذها وقتل ملكها وسبى ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتا لذلك الملك يقال لها جرادة لم ير مثلها حسنا وجمالا فاصطفاها لنفسه ودعاها الى الاسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه وأحبها حبا لم يحبه شيئا من نسائه وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها فشق ذلك على سليمان عليه السلام فقال لها ويحك ما هذا الحزن قالت له ان أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه فيحزنني ذلك فقال لها سليمان عليه السلام قد أبدلك الله ملكا هو أعظم من ملكه وسلطانا هو أعظم من سلطانه وهداك الى الاسلام وهو خير من ذلك كله قالت ان ذلك كذلك ولكن اذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا صورته في داري أراها بكرة وعشيا لرجوت أن يذهب ذلك حزني فأمر سليمان عليه السلام الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فعمدت اليه حين صنعوه وألبسته ثيابا مثل ثيابه التي كان يلبسها ثم كانت اذا خرج سليمان عليه السلام تذهب اليه مع ولائدها فتسجد له ويسجدن معها له تبعا لها كما كانت تصنع في ملكه وسليمان عليه السلام لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحا فبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقا لسليمان عليه السلام وكان لا يرد عن أبواب سليمان عليه السلام أي ساعة أراد دخول شيء من بيوت سليمان عليه السلام حاضرا كان سليمان عليه السلام أو غائبا فقال يا نبي الله كبر سني ورق عظمي ونفد عمري وقد حان مني الذهاب وقد أحببت ان أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأثني عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس بعض ما كانوا

يجهلون

ادم عليه السلام للملائكة
في اكل الشجرة لما صدر
منه ما صدر • واختلفوا في
الذبيح هل هو اسمعيل أو

يجهلون من كثير أمرهم فقال اذا اجتمع سليمان عليه السلام الناس فقام فيهم خطيبا فذكر
من مضى من أنبياء الله تبارك وتعالى وأثنى على كل نبي بما فضله الله به حتى انتهى الى سليمان عليه
السلام فقال ما كان أحكمك في صغرك ثم انصرف فوجد سليمان عليه السلام في نفسه من
ذلك حتى امتلأ غضبا فلما دخل داره دعاه فقال يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى
فأثنيت عليهم خيرا في كل زمانهم وكل حال أمرهم فلما ذكرتني جعلت تثني علي خيرا في صغري
وسكت عما سوى ذلك من أمري فما الذي أحدثت في آخر عمري فقال آصف ان غير الله تعالى
يعبد في دارك فقال سليمان عليه السلام انا لله وانا اليه راجعون لقد عرفت انك ما قلت الذي
قلت الا عن شيء بلغك ثم رجع سليمان عليه السلام الى داره فكسر الصورة وعاقب تلك المرأة
وولائدها وخرج وحده الى فلاة ففرش الرماد وجلس عليه تائبا الى الله تعالى وكانت له أم
ولد يقال لها الامينة اذا دخل للطهارة أو لاصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه فيه
فوضعه عندها يوما فأتاها الشيطان صاحب البحر واسمه صخر على صورة سليمان عليه السلام
وقال لها يا أمينة خاتمي فناولته الخاتم فتختم به وجلس على كرسي سليمان عليه السلام فعكف
عليه الطير والجن والانس وتغيرت صفة سليمان عليه السلام فأتى الامينة يطلب الخاتم
فأنكرته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف واذا قال أنا سليمان
حثوا عليه التراب وسبوه واخذ ينقل السمك للسماكين فيعطونه كل يوم سمكتين فاذا أمسى
باع احداهما بأرغفة وشوى الاخرى فأكلها فمكث كذلك أربعين صباحا عدة ما كان عبد
الوثن في داره فأنكر آصف وعظماء بني اسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان عليه
السلام فقلن ما يدع امرأة في دمها ولا يغتسل من جنابة فقال آصف انا لله وانا اليه راجعون
ان هذا لهو البلاء المبين ثم خرج على بني اسرائيل فقال ما في الخاصة أعظم مما في العامة فلما
مضى أربعون صباحا طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة فأخذها بعض
الصيادين وقد عمل له سليمان عليه السلام بسمكتين صدر يومه ذلك حتى اذا كان العشي أعطاه
سمكتيه فأعطى السمكة التي أخذت الخاتم وخرج سليمان عليه السلام بسمكتيه فباع السمكة
التي ليس في بطنها الخاتم بالارغفة ثم عمد الى السمكة الاخرى فبقرها ليشويها فاستقبله الخاتم
في جوفها فأخذه فجعله في يده ووقع ساجدا وعكفت عليه الطير والجن والانس ورجع الى ملكه
وأخذ ذلك الشيطان وحبسه في صخرة والقاه في البحر هذا ملخص حديث وهب وقال الحسن
ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه وقال السدي كان سبب فتنة سليمان عليه السلام انه
كان له مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهي آثر نسائه وآمنهن عنده وكان يأتمنها
على خاتمه اذا أتى حاجته فقالت له يوما ان أخي بينه وبين فلان خصومة فأحب ان تقضي له فقال
نعم ولم يفعل فابتلي بقوله نعم وذكر نحو ما تقدم وفي بعض الروايات ان سليمان عليه السلام
لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه فأعاده سليمان عليه السلام الى يده فسقط فأيقن
سليمان عليه السلام بالفتنة فأتاه آصف فقال لسليمان عليه السلام انك مفتون بذنبك
والخاتم لا يتماسك في يدك ففر الى الله تعالى تائبا فاني أقوم مقامك وأسير بسيرتك الى أن يتوب
الله تعالى عليك ففر سليمان عليه السلام الى الله تعالى وأعطى آصف الخاتم فوضعه في يده

اسحق والجمهور على انه
اسمعيل (قوله وناديناه أن
يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا)
(ان قلت) كيف قال قد

فثبت فأقام آصف في ملك سليمان عليه السلام يسير بسيره أربعة عشر يوما الى أن رد الله تعالى على سليمان عليه السلام ملكه وتاب عليه ورجع الى ملكه وجلس على سريره وأعاد الخاتم في يده فهو الجسد الذى ألقى على كرسيه وروى عن سعيد بن المسيب قال احتجب سليمان عليه السلام عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله تعالى اليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر فى أمور عبادى فابتلاه الله عز وجل وذكر نحو ما تقدم من حديث الخاتم وأخذ الشيطان اياه قال الرازى واستبعد أهل التحقيق هذا الكلام من وجوه الاول ان الشيطان لو قدر على أن يتشبه فى الصورة والخلقة بالانبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شئ من ذلك فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس على صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم فى الصورة لاجل الاغواء والاضلال وذلك يبطل الدين بالكلية الثانى ان الشيطان لو قدر أن يعامل نبى الله تعالى سليمان عليه السلام بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد وحينئذ يجب أن يقتلهم ويمزق تصانيفهم ويخرب ديارهم ولما بطل ذلك فى حق آحاد العلماء فلأن يبطل فى حق أكابر الانبياء أولى الثالث كيف يليق بحكمة الله تعالى واحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان عليه السلام ولا شك أنه قبيح أى على غير رأى الحسن كامر الرابع لو قلنا ان سليمان عليه السلام أذن لتلك المرأة فى عبادتها تلك الصورة فهذا كفر منه وان لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ الله تعالى سليمان عليه السلام بفعل لم يصدر منه أى وقد يقال انما أوخذ بذلك لكونه كان سببا فى عملها قال فأما أهل التحقيق فقد ذكروا وجوها الاول ان فتنة سليمان عليه السلام أنه ولد له ابن فقالت الشياطين ان عاش صار مسلطا علينا مثل ابيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان عليه السلام ذلك فكان يربيه فى السحاب فبينما هو يشتغل بمهماته اذ ألقى ذلك الولد ميتا على كرسيه فتنبه على خطيئته فى أنه لم يتق ولم يتوكل على الله تعالى فاستغفر ربه وتاب * الثانى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال قال سليمان لاطوفن الليلة على سبعين امرأة كل امرأة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يقل ان شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل منهن الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله تعالى لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعين فذلك قوله تعالى ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا * الثالث انه أصابه مرض فصار يجلس على كرسيه وهو مريض فذلك قوله تعالى وألقينا على كرسيه جسدا وذلك لشدة المرض والعرب تقول فى الضعيف انه لحم على وضم وجسم بلا روح ثم أناب اى رجع الى حال الصحة اى وهذا أظهر ما قيل كما قاله البيضاوى * الرابع لا يبعد أيضا أن يقال انه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء توقعه من بعض الجهات حتى صار بقوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسى ثم ان الله تعالى أزال عنه ذلك الخوف وأعاده الى ما كان عليه من القوة وطيب القلب فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة الى حمله على تلك الوجوه الركيكة (فان قيل) لولا تقدم الذنب لما (قال رب اغفر لى) * (أجيب) بان الانسان لا ينفك عن ترك الافضل وحينئذ يحتاج الى طلب المغفرة لان حسنات الابرار سيآت المقربين ولانه أبدا فى مقام هضم النفس واظهار الذلة والخضوع كما قال صلى الله عليه وسلم انى لاستغفر الله تعالى فى اليوم والليلة

(١٤) صدقت الرؤيا مع ان تصديقها انما يكون بالذبح ولم يوجد (ذات) معناه قد فعلت ما فى غاية وسعك مما

سبعين

سبعين مرة مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى واختلف في قول سليمان عليه السلام (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) أي سواي نحو فمن يهديه من بعد الله أي سوى الله فقال عطاء بن أبي رباح يريد هب لي ملكا لا تسلبنيه في باقي عمري (إنك أنت الوهاب) وقال مقاتل ان الشيطان لما استولى على مملكته طلب أن يعطيه الله ملكا لا يقدر الشيطان على أن يقوم فيه مقامه البتة وقال من أنكر أن الشيطان لم يستول على ذلك ان ذلك محتمل لوجوه الاول ان الملك هو القدرة فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري البتة ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي ورسالتي ويدل على صحة هذا القول قوله تعالى (فسخرنا) أي بما لنا من العظمة (له الريح تجري بأمره رخاء) أي حالة كونها لينة غاية اللين منقادة تدرك بهم ما لا تدركه الخيل غدوها شهر ورواحها شهر (حيث أصاب) أي أراد فكون الريح جارية بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب دال على صحة نبوته لا يقدر أحد على معارضته وقد جعل الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك وهو أن العدو يرعب منه الى مسيرة شهر من جوانبه الاربعة فهي أربعة أشهر الثاني انه عليه السلام لما مرض ثم عاد الى الصحة عرف ان خيرات الدنيا صائرة الى التغيرات فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل مني الى غيري الثالث ان الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة فكأنه قال يا الهي أعطني مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية حتى احترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابي أكمل وأفضل الرابع سأل ذلك ليكون علامة على قبول توبته حيث أجاب الله تعالى دعاءه ورد عليه ملكه وزاده فيه وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان عفريتا من الجن أتاني الليلة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا اليه فذكرت دعوة أخي سليمان وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي فرددته خاسئا فعلم من هذه الاوجه أنه ليس في كلام سليمان عليه السلام ما يشبه الحسد وهو طلب ما لا ينبغي لأحد غيره وأجاب الزمخشري بأجوبة غير ذلك منها أن سليمان عليه السلام كان ناشئا في بيت الملك والنبوة ووارثا لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب إلفه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الاعجاز ليكون ذلك دليلا على نبوته قاهرا للمبعوث اليهم ثم قال وعن الحجاج أنه قيل له انك حسود فقال أحسد مني من قال وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي قال وهذا من جراءته على الله تعالى وشيطنته ومن شيطنته ما حكي عنه طاعتنا أوجب من طاعة الله لانه شرط في طاعته فقال فاتقوا الله ما استطعتم وأطلق في طاعتنا فقال وأولي الامر منكم (فان قيل) قوله تعالى رخاء ينافيه قوله تعالى في آية أخرى ولسليمان الريح عاصفة (أجيب) عن ذلك بوجهين الاول أن المراد أن تلك الريح كانت في قوة الرياح العاصفة الا انها لما أمرت بأمره كانت لذيذة طيبة وكانت رخاء الثاني أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى فلا منافاة بين الآيتين * (تنبيه) * قوله تعالى حيث ظرف لتجري أو لسخرنا * (فائدة) * روى أن رجلين خرجا يقصدان رؤبة ليسألاه عن معنى أصاب فقال لهما أين تصيبان فعرفا وقالا هذا بغيتنا وقوله تعالى (والشياطين) عطف على الريح وقوله تعالى (كل بناء) بدل من الشياطين

بقوله الذابح من القفاء وقوله وامرار المدية على حلقه ولكن الله منعها ان تقطع اوان الذي رآه

كانوا يبنون له ما شاء من الابنية وروى ان سليمان عليه السلام أمر الجان فبنت له اصطخر وكان فيها قرار مملكة الترك قديما وبنت له الجان أيضا تدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذين بدمشق على أحد الاقوال وبنوا له ثلاثة قصور باليمن غمدان وسلحين وبينون ومدينة صنعاء وقوله تعالى (وغواص) عطف على بناء أي يغوصون له في البحر يستخرجون اللؤلؤ وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر وقوله تعالى (وآخرين مقرنين) أي مشدودين (في الاصفاد) أي القيود بجمع أيديهم الى أعناقهم عطف على كل فهو داخل في حكم البدل فكأنه فصل الشياطين الى عملة استعملهم في الاعمال الشاقة كالبناء والغوص ومردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر (فان قيل) أجسامهم اما أن تكون كثيفة أو لطيفة فان كانت كثيفة وجب ان يراها صحيح الحاسة وان كانت لطيفة فلا تقوى على العمل ولا يمكن تقرينها (أجيب) بأن أجسامهم شفافة صلبة فلا ترى وتقوى على العمل ويمكن تقرينها أو ان المراد تمثيل كفهم عن الشرور بالاقتران في الصفد وهو القيد ويسمى به العطاء لانه يرتبط المنعم عليه وفرقوا بين فعل الصفد بمعنى القيد وفعله بمعنى العطاء فقالوا صفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعد وأوعد في الخير والشر وفي ذلك نكتة وهي ان القيد ضيق فناسبه تقليل حروف فعله والعطاء واسع فناسبه تكثير حروف فعله والوعد خير وهو خفيف فناسبه تقليل حروفه والايعاد شر وهو ثقيل فناسبه تكثير حروفه (هذا) أي وقلنا هذا الامر الكبير (عطاؤنا) أي على ما لنا من العظمة (فامنن أو أمسك) قال ابن عباس رضي الله عنهما أعط من شئت وامنع من شئت قال المفسرون أي لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما أمسكت وقال الحسن ما أنعم الله تعالى على أحد نعمة الا عليه تبعة الا سليمان عليه السلام فانه ان أعطى أجر وان لم يعط لم يكن عليه تبعة وقال مقاتل هذا في أمر الشياطين يعني خل من شئت منهم وأمسك من شئت في وثاقك لا تبعة عليك فيما تتعاطاه وقوله تعالى (بغير حساب) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه متعلق بعطاؤنا أي أعطيناك بغير حساب ولا تقدير وهو دال على كثرة الاعطاء ثانيها انه حال من عطاؤنا أي في حال كونه غير محاسب عليه لانه جم كثير يعسر على الحاسب ضبطه ثالثها أنه متعلق بامنن أو أمسك ويجوز أن يكون حالا من فاعلهما أي غير محاسب عليه ولما ذكر تعالى ما أنعم عليه به في الدنيا اتبعه بما أنعم عليه به في الآخرة بقوله سبحانه وتعالى (وان له عندنا) أي في الآخرة مع ماله من الملك العظيم في الدنيا (لزلفى) أي قربى عظيمة (وحسن مآب) وهو الجنة * القصة الثالثة قصة أيوب عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر عبدنا) أي الذي هو أهل للاضافة الى جنابنا ويبدل منه (أيوب) وهو ابن الروم بن عيص بن اسحق وامرأته ليا بنت يعقوب عليهما السلام وقوله تعالى (اذ نادى ربه) بدل من عبدنا بدل اشتمال وأيوب عطف بيان له وقوله (اني) أي بأني (مسني الشيطان) أي المحترق باللعنة البعيد من الرحمة (بنصب) أي بمشقة وضر (وعذاب) أي ألم جيء به على حكاية كلامه الذي نادى بسببه ولولم يحكه لقال انه مسه لانه غائب وقال قتادة رضي الله عنه النصب في الجسد والعذاب في المال واختلف العلماء في هذه الآلام والاسقام الحاصلة في جسده على قولين أحدهما أنها حصلت بفعل الشيطان والثاني أنها حصلت بفعل الله

(قوله فلما مهدها للرؤيا) في النوم معالجة الذبح فقط لا اراقة الدم وقد فعل ذلك في اليقظة فكان

قوله وهو ابن الروم الخ كذا في النسخ وفي حاشية الجمل عن البيضاوي ايوب بن عيص بن اسحق ثم نقل عن التحبير ايوب هو ابن اموص ابن رعيل بن عيص بن اسحق وقال في سورة الانعام ايوب بن اموص بن رازح ابن عيص بن اسحق بن ابراهيم اهـ

تعالى والعذاب المضاف في هذه الآية الى الشيطان هو عذاب الوسوسة والقاء الخواطر الفاسدة أما تقرير القول الاول فهو ماروى أن ابليس لعنه الله سأل ربه فقال هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني فقال الله تعالى نعم عبدي أيوب فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى ابليس عيانا ولا يلتفت اليه فقال رب انه قد امتنع علي فسلطني على ماله فكان الشيطان يجيئه و يقول له يا أيوب هلك من مالك كذا وكذا فيقول أيوب الله أعطى والله أخذ ثم يحمد الله سبحانه وتعالى فقال يارب ان أيوب لا يبالي بماله فسلطني على جسده فاذن فيه فنفخ في جلد أيوب فحدث أسقام عظيمة وآلام شديدة فمكث في ذلك البلاء سنين حتى استقذره أهل بلده فخرج الى الصحراء وما كان يقرب منه أحد فجاء الشيطان الى امرأته وقال ان زوجك ان استغاث بي خلصته من هذا البلاء فذكرت المرأة ذلك لزوجها فحلف بالله لئن عافاه الله تعالى ليجلدنها مائة جلدة وعند هذه الواقعة قال اني مسني الشيطان بنصب وعذاب فاجاب الله تعالى دعاءه وأوحى اليه ان اركض برجلك الى آخر الآية وأما تقرير القول الثاني فان الشيطان لا قدرة له البتة على ايقاع الناس في الامراض والاسقام ويدل عليه وجوه الاول أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان فلعل الواحد منا انما وجد الحياة بفعل الشيطان ولعل ما عندنا من الخيرات والسعادات قد حصل بفعله وحينئذ لا سبيل الى معرفة من يعطي الحياة والموت والصحة والسقم أهو الله تعالى أم الشيطان ثانيها أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الانبياء والاولياء ولم لا يخرب دورهم ولم لا يقتل أولادهم ثالثها أن الله تعالى حكى عن الشيطان أنه قال وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فصرح بانه لا قدرة له على البشر الا بالقاء الوساوس والخواطر الفاسدة فدل ذلك على فساد القول بان الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الامراض (فان قيل) لم لا يجوز أن يقال ان فاعل هذه الاحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان (أجيب) بانه اذا كان لابد من الاعتراف بان خالق تلك الآلام والاسقام هو الله تعالى فاى فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك بل الحق أن المراد بقوله اني مسني الشيطان بنصب وعذاب انه بسبب القاء الوساوس الفاسدة كان يلقيه في أنواع العذاب والقائلون بهذا القول اختلفوا في أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا أوجها أولها أن علته كانت شديدة الالم ثم طالت تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ولم يبق له مال البتة وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ثم بلغت نفرة الناس عنه الى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن خدمتهم والشيطان كان يذكره النعمة التي كانت عليه والآفات التي حصلت له وكان يحتال في دفع تلك الوساوس فلما قويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضرع الى الله تعالى وقال مسني الشيطان بنصب وعذاب لانه كلما كثرت تلك الخواطر كان تألم قلبه منها أشد ثانيها أنه لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان يقنطه مرة ويزين له أن يجزع مرة فخاف من خاطر القنوط في قلبه فتضرع الى الله تعالى وقال اني مسني الشيطان ثالثها قيل ان امرأته كانت تخدم الناس وتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به الى أيوب عليه السلام فاتفق لها أنهم لما استخدموها طلب بعض النساء منها قطع احدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ثم في اليوم الثاني

لما) جواب لما محذوف أي استبشرا واغتبطا وشكرا الله تعالى على ما أنعم به عليهما من الفداء او

فمات من ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان أيوب عليه السلام اذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق
بتلك الذؤابة فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر الرديئة في قلبه فعند ذلك قال مسني الشيطان
بنصب وعذاب ورابعها ما روي انه عليه السلام قال في بعض الايام يارب لقد علمت أنه ما اجتمع
على أمران الا آثرت طاعتك ولما أعطيتني المال كنت للارامل قيما ولابن السبيل معينا
ولليتامى أبا فنودي يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق فأخذ أيوب عليه السلام التراب فوضعه على
رأسه وقال منك يارب ثم خاف من الخواطر الاولى فقال مسني الشيطان بنصب وعذاب
وذكروا أقوالا أخر في سبب بلائه منها ان رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه وقيل كانت مواشيه
ترعى في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يعظه وقيل أعجب بكثرة ماله واعلم أن داود وسليمان
عليهما السلام كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء وأيوب عليه السلام كان ممن
خصه الله بأنواع البلاء والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار كأن الله تعالى قال يا محمد
اصبر على سفاهة قومك فانه ما كان في الدنيا أكثر من الانبياء نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان
وما كان فيهم أكثر بلاء ومحنة من أيوب عليه السلام فتأمل أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال
الدنيا لا تنتظم لاحد وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره * ولما اشتكى أيوب عليه
السلام الشيطان وسأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية أجاب الله تعالى له بأن قال له (اركض) أي
اضرب (برجلك) أي الارض فضرب فنبعت عين ماء فقيل له (هذا مغتسل بارد) أي ماء
تغتسل منه فيبرأ ظاهرك (وشراب) أي وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهر اللفظ يدل على أنه
نبعت له عين واحدة من الماء فاغتسل منه وشرب منه وأكثر المفسرين قالوا نبعت له عينان
فاغتسل من احداهما وشرب من الاخرى فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه باذن الله تعالى
وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها
وقيل ضرب الارض فنبعت له عين ماء فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فركض
برجله الارض مرة أخرى فنبعت عين ماء عذب فشرب منه فذهب كل داء كان في باطنه
(ووهبنا) أي بما لنا من العظمة (له أهله) أي بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم أو أحييناهم بعد
موتهم وقيل وهبنا له مثل أهله والاول هو ظاهر الآية فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة
(ومثلهم معهم) حتى كان له ضعف ما كان وقوله تعالى (رحمة) أي نعمة (منا) مفعول لاجله
أي وهبناهم له لاجل رحمتنا اياه (وذكرى) أي وتذكيرا عظيما (لاولي الالباب) أي أصحاب
العقول ليعلموا ان من صبر ظفر وأن رحمة الله تعالى واسعة وهو عند القلوب المنكسرة فغايته
وبين الاجابة الاحسن الانابة فمن دام اقباله عليه أغناه عن غيره كما قيل

لكل شيء اذا فارقته عوض * وما عن الله ان فارقت من عوض

وهذا تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم كما مر وقوله تعالى (وخذ بيدك ضغثا) معطوف على
اركض والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش والقضبان فيها مائة عود كشماريخ النخلة
وقيل الحزمة الكبيرة من القضبان وقوله سبحانه وتعالى (فاضرب به ولا تحنث) يدل
على تقدم يمين منه عليه الصلاة والسلام واختلفوا في سبب حلفه عليها ويبعد ما قيل انها
رغبته في طاعة الشيطان ويبعد أيضا ما روي انها قطعت ذوائبها لان المضطر يباح له

قوله ونادينا والواو زائدة
(قوله كذلك نجزي المحسنين) * ان قلت لم قال هنا اعني في قصة ابراهيم

ذلك بل الاقرب ماروى أن زوجته ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت افرائيم بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فابطأت عليه فحلف فى مرضه ليضربنها مائة اذا برئ ولما كانت حسنة الخدمة جعل الله تعالى يمينه باهون شئ عليه وعليها وهذه الرخصة باقية فى الحدود لما روى أنه صلى الله عليه وسلم أتى برجل ضعيف قد زنى بامة فقال صلى الله عليه وسلم خذوا مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة واحدة (انا وجدناه صابرا) اى فيما أصابه فى النفس والاهل والمال (فان قيل) كيف وجده صابرا وقد شكا اليه (أجيب) باوجه أحدها ان شكواه الى الله تعالى كتمنى العافية فلا يسمى جزعا ولهذا قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وكذلك شكوى العليل وذلك ان أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها فاذا صح أن يسمى صابرا مع تمنى العافية فلا يعد صابرا مع اللجا الى الله تعالى والدعاء بكشف مابه مع التعالج ومشاورة الاطباء ثانيها ان الآلام حين كانت على الجسد لم يذكر شيأ فلما تعاظمت الوساوس على القلب تضرع الى الله تعالى ثالثها ان الشيطان عدو والشكاية من العدو الى الحبيب لا تقدح فى الصبر وروى أنه قال فى مناجاته الهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع قلبى بصرى ولم آكل الا ومعى يتيم ولم أبت شبعانا ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه ثم استأنف قوله تعالى (نعم العبد) اى أيوب عليه السلام ثم علل بقوله تعالى مؤكدا لئلا يظن ان بلاءه قادح فى ذلك (انه أواب) أى رجاع الى الله تعالى روى أنه لما نزل قوله تعالى نعم العبد فى حق سليمان عليه السلام تارة وفى حق أيوب عليه السلام أخرى عظم فى قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا ان قوله تعالى نعم العبد تشريف عظيم فان احتجنا الى تحمل بلاء مثل أيوب عليه السلام لم نقدر عليه فكيف السبيل الى تحصيله فانزل الله تعالى قوله سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير والمراد أنك أيها الانسان ان لم تكن نعم العبد فأنا نعم المولى وان كان منك غير الفضل فانا من الفضل وان كان منك التقصير فنى الرحمة والتيسير ٭ القصة الرابعة قصة ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام المذكورة فى قوله تعالى (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق) بن ابراهيم (ويعقوب) بن اسحق (أولى الايدى) اى أصحاب القوى فى العبادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما أولى القوة فى طاعة الله تعالى (والابصار) اى المعرفة بالله اى البصائر فى الدين أو أولى الاعمال الجليلة والعقائد الشرعية فعبر بالايدى عن الاعمال لان أكثرها بمباشرتها وبالابصار عن المعارف لانها أقوى مباديها وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله تعالى ولا من المستبصرين فى دين الله وفيه توبيخ أيضا على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما فهم فى حكم الزمنى الذين لا يقدرون على اعمال جوارحهم والناقصى العقول الذين لا استبصار لهم وقال قتادة ومجاهد اعطوا قوة فى العبادة وبصرا فى الدين وقرأ ابن كثير بفتح العين وسكون الباء الموحدة ولا ألف بعدها على التوحيد على أنه ابراهيم وحده لمزيد شرفه وابراهيم عطف بيان واسحق ويعقوب عطف على عبدنا والباقون بكسر العين وفتح الموحدة وألف بعدها على الجمع (انا أخلصناهم بخالصة) اى اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين بخصلة خالصة لا شوب فيها وهى (ذكرى الدار) الآخرة أى ذكرها والعمل لها لان مطمح نظرهم الفوز بلقائه وذلك فى

يحذف انا ونبينه فى آخر غيرها من القصص (قلت) حذف فى قصة ابراهيم اختصارا او اكتفى بذكره

الآخرة وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار الحقيقية والدنيا معبر وقرأ نافع وهشام خالصة بغير تنوين بالإضافة للبيان أو أن خالصة مصدر بمعنى الخلوص وأضيف إلى فاعله والباقون بالتنوين فمن أضاف فمعناه أخلصناهم بذكرى الدار الآخرة وأن يعملوا لها والذكرى بمعنى الذكر قال مالك بن دينار نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها وقال قتادة كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله عز وجل وقال السدي أخلصوا بالخوف للآخرة وقال ابن زيد أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة ومن قرأ بالتنوين فمعناه بخلة خالصة هي ذكرى الدار فيكون ذكرى الدار بدلا من الخالصة أو جعلناهم مخلصين بما أخبرنا من ذكر الآخرة والمراد بذكرى الدار الذكر الجميل الرفيع لهم في الآخرة وقيل إنه أبقى لهم الذكر الجميل في الدنيا وقيل هو دعاؤه واجعل لي لسان صدق في الآخرين (وإنهم عندنا لمن المصطفين) أي اصطفاء لا يتدرج فيه قادح فصاروا في غاية الرسوخ في هذا الوصف (الأخيار) أي المختارين من أبناء جنسهم والأخيار جمع خير بالتشديد أو خير بالتخفيف كأموات في جمع ميت أو ميت واحتج العلماء بهذه الآية على إثبات عصمة الأنبياء عليهم السلام لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أخيارا على الإطلاق وهذا يعم حصول الخير في جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء منه ولما أتم القصة الخاصة قصة إسمعيل واليسع وذي الكفل عليهم السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر) يا أشرف الخلق (إسمعيل) أي أباك وما صبر عليه من البلاء بالغربة والانفراد والوحدة والإشراف على الموت في الله غير مرة وما صار إليه بعد ذلك البلاء من الفرج والرياسة والذكر في هذه البلدة (واليسع) وهو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبئ واللام كما في قوله رأيت الوليد بن اليزيد مباركا وقرأ حمزة والكسائي بتشديد اللام وسكون الياء بعدها والباقون بسكون اللام وفتح الياء بعدها (وذا الكفل) وهو ابن عم اليسع أو بشر بن أيوب واختلف في نبوته وكنيته وقيل فر إليه مائة نبي من بني إسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة (وكل) أي وكلهم (من الأخيار) فهم قوم مخيرون من الأنبياء تحملوا الشدائد في دين الله تعالى وصبروا فاذكرهم يا أفضل الخلق بفضلهم وصبرهم لتسلك طريقتهم ولما أجرى تعالى ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتمه قال منوها بعلو شأنهم وشرف ما ذكر من أعمالهم (هذا) أي ما تلوناه عليك من ذكرهم وذكر غيرهم (ذكر) أي شرف في الدنيا وموعظة من ذكر القرآن ذي الذكر ثم عطف على قوله تعالى إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ما لأضدادهم تعالى ردا على من ينكر ذلك من كفار العرب وغيرهم (وإن للمتقين لحسن مآب) أي مرجع ولما شوق سبحانه إلى هذا الجزاء بدل منه أو بينه بقوله تعالى (جنات عدن) أي إقامة في سرور وطيب عيش ثم إنه تعالى وصف أهل الجنة بأشياء أولها قوله تعالى (مفتحة لهم الأبواب) أي إن الملائكة يفتحون لهم أبواب الجنة ويحيونهم بالسلام كما قال تعالى حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها الآية وقيل المعنى أنهم كلما أرادوا انفتاح الأبواب انفتحت لهم وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم وقيل المراد من هذا الفتح وصف تلك المساكن بالسعة وقرة العيون فيها ثانيها قوله تعالى (متكئين فيها) وقد ذكر في آيات أخر كيفية ذلك الاتكاء فقال

لم يقل في قصته بقوله وناديناه أن يا إبراهيم الآية معان ما بعد قصتهما هو من تكملتها وهو قوله

تعالى في آية على الارائك متكئون وقال في آية اخرى متكئين على رفرف خضر ثالثها قوله تعالى (يدعون فيها) أي الجنات (بفاكهة كثيرة وشراب) أي كثير فيدعون فيها بألوان الفاكهة وألوان الشراب • ولما بين المسكن والمأكول والمشروب ذكر أمر المنكوح تتميما للنعمة بقوله سبحانه تعالى (وعندهم قاصرات الطرف) أي حابسات الطرف أي العين على أزواجهن (أتراب) أي أسنانهن واحدة وهي بنات ثلاث وثلاثين سنة واحدها ترب وعن مجاهد متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن وقيل أتراب للأزواج قال القفال والسبب في اعتبار هذه الصفة أنهن لما تشابهن في الصفة والسن والجبلة كان الميل اليهن على السوية وذلك يقتضي عدم الغيرة وقرأ قوله تعالى (هذا ما توعدون) ابن كثير وأبو عمرو بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الخطاب وجه الغيبة تقدم ذكر المتقين ووجه الخطاب الالتفات اليهم والاقبال عليهم أي قل للمتقين هذا ما توعدون (ليوم الحساب) أي في يوم الحساب أو لاجله فان الحساب علة الوصول الى الجزاء (ان هذا) أي المشار اليه اشارة الحاضر الذي لا يغيب (لرزقنا ما له من نفاد) أي انقطاع وهذا اخبار عن دوام هذا الثواب • (تنبيه) • من نفاد فاعل ومن مزيدة والجملة في محل نصب على الحال من رزقنا أي غير نافد ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لان أي دائم • ولما وصف تعالى ثواب المؤمنين وصف بعده عقاب الظالمين ليكون الوعيد مذكورا عقب الوعد والترغيب عقب الترهيب بقوله تعالى (هذا وان للطاغين لشر مآب) أي مرجع هذا و مقابلة قوله تعالى وان للمتقين لحسن مآب والمراد بالطاغين الكفار وقال الجبائي على مذهبه الفاسد هم أصحاب الكبائر سواء كانوا كفارا أم لا واحتج الاول بأن هذا ذم مطلق فلا يحمل الا على الكامل في الطغيان وهو الكافر واحتج هو بقوله تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل لصاحب الكبيرة لان من تجاوز حد تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى ورد هذا بان المراد بالانسان هنا هو الكافر أيضا • (تنبيه) • هذا يحتمل أن يكون مبتدأ والخبر مقدر أي كما ذكر كما قدره الزمخشري وقدره أبو علي بقوله هذا للمؤمنين وقال الجلال المحلي هذا المذكور للمؤمنين ويحتمل أن يكون خبر مبتدأ مضمر أي الامر هذا وقوله تعالى (جهنم) أي الشديدة الاضطرام الملاقية لمن يدخلها بغاية العبوسة والتجهم فيه اعراب جنات المتقدم وقوله (يصلونها) أي يدخلونها ويباشرون شدائدها حال من جهنم (فبئس المهاد) أي المهد والفراش مستعار من فرش النائم وهذا معنى قوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش شبه الله تعالى ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفرش للنائم والمخصوص بالذم محذوف أي هي وفي قوله تعالى (هذا) أي العذاب المفهوم مما بعده أوجه من الاعراب أحدها أنه خبر مبتدأ مضمر أي الامر هذا ثم استأنف أمرا فقال (فليذوقوه) ثانيها أنه مبتدأ وخبره (حميم وغساق) واسم الاشارة يكتفى بواحده في المثنى كقوله تعالى عوان بين ذلك أو يكون المعنى هذا جامع بين الوصفين ويكون قوله تعالى فليذوقوه جملة اعتراضية ثالثها أنه مبتدأ والخبر محذوف أي هذا كما ذكر أو هذا للطاغين وقيل غير ذلك وقيل هذا على التقديم والتأخير والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه وقيل التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه ثم يبتدئ فيقول حميم وغساق أي منه حميم وغساق والحميم الحار الذي انتهى حره

وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين خلاف سائر القصص (قوله وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه

والغساق ما يسيل من صديد أهل النار وقال كعب هو عين في جهنم يسيل اليها كل ذوب حية وعقرب وقال أبو عمرو هو القيح الذي يسيل من أهل النار فيجتمع فيسقونه وقال قتادة هو ما يغسق أي يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة وقيل هو المنتن بلغة الترك حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة بالمغرب لانتنت أهل المشرق وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتشديد السين والباقون بالتخفيف وقرأ أبو عمرو (وأخر) بضم الهمزة على جمع اخرى مثل الكبرى والكبر اى أصناف اخر من العذاب (من شكله) اى مثل المذكور من الحميم والغساق والباقون بفتح الهمزة ممدودة على التوحيد على أنه لما ذكر واختار أبو عبيدة الجمع لانه تعالى نعته بالجمع فقال سبحانه وتعالى (أزواج) اى أصناف اى عذابهم من أنواع مختلفة و يقال لهم عند دخولهم النار باتباعهم (هذا فوج) اى جمع كثيف (مقتحم) اى داخل ومفعوله محذوف اى مقتحم النار (معكم) بشدة فيقول المتبوعون (لا مرحبا بهم) اى لا سعة عليهم أولا دعوا مرحبا وقولهم (انهم صالوا النار) اى داخلون النار بأعمالهم مثلنا تعليل لاستجابة الدعاء عليهم ونظير هذه الآية قوله تعالى كلما دخلت امة لعنت اختها وقال الكلبي انهم يضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم في النار خوفا من تلك المقامع (قالوا) اى الاتباع (بل انتم لا مرحبا بكم) اى ان الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء انتم احق به منا وعللوا ذلك بقولهم (انتم قدمتموه) اى الكفر (لنا) اى بدأتم به قبلنا وشرعتموه وسننتموه لنا وقيل انتم قدمتم هذا العذاب لنا بدعائكم ايانا الى الكفر (فبئس القرار) اى النار لنا ولكم (قالوا) اى الاتباع أيضا (ربنا من قدم لنا هذا) اى شرعه وسنه لنا (فزده عذابا ضعفا) اى مثل عذابه على كفره (في النار) قال ابن مسعود يعني حيات وافاعي (وقالوا) اى الطاغون وهم في النار (ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار) يعنون فقراء المؤمنين كعمار وخباب وصهيب وبلال وسلمان الذين كانوا يسترذلونهم ويسخرون بهم وقولهم (اتخذناهم سخريا) صفة اخرى لرجالا اى كنا نسخر بهم في الدنيا وقرأ نافع وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بكسرها (أم زاغت) اى مالت (عنهم الابصار) اى فلم نرهم حين دخلوها وقال ابن كيسان اى انهم كانوا خيرا منا ونحن لا نعلم فكانت أبصارنا تزيغ عنهم في الدنيا فلا نعدهم شيئا (ان ذلك) اى الذي حكيناه عنهم (لحق) اى واجب وقوعه فلا بد ان يتكلموا به ثم بين ذلك الذي حكاه عنهم بقوله تعالى (تخاصم اهل النار) اى في النار وانما سماه تخاصما لان قول القادة للاتباع لا مرحبا بهم وقول الاتباع للقادة بل أنتم لا مرحبا بكم من باب الخصومة ● (تنبيه) ● يصح في تخاصم أوجه من الاعراب أحدها أنه بدل من لحق الثاني أنه عطف بيان الثالث أنه خبر ثان لان الرابع أنه خبر مبتدا مضمر اى هو تخاصم ● ولما شرح سبحانه نعيم أهل الثواب وعقاب أهل العذاب عاد الى تقرير التوحيد والنبوة والبعث المذكورات أول السورة بقوله تعالى (قل) يا أفضل الخلق للمشركين (انما انا منذر) أي مخوف بالنار لمن عصى (و) لا بد من الاقرار بانه (ما من اله الا الله) أي الجامع لجميع الاسماء الحسنى (الواحد القهار) فكونه واحدا يدل على عدم الشريك وكونه قهارا مشعر بالتخويف والترهيب ● ولما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب بقوله تعالى

شأنه

واهله) ● ان قلت لوط كان رسولا قبل التحية ثمار جه تعلق اذ فضنا به (قلت) هو ليس متعلقا به

شأنه (رب السموات) أي مبدعها وحافظها على علوها وسعتها واحكامها بما لها من الزينة
والمنافع (والارض) أي على سعتها وضخامتها وكثافتها وما فيها من العجائب (وما بينهما) أي
ملاقتين من الفضاء والهواء وغيرهما من العناصر والنبات والحيوانات العقلاء وغيرها
ربي كل شئ من ذلك ايجادا وابقاء على ما يريد وان كره ذلك المربوب فدل ذلك على قهره وتفرده
(العزيز) أي الغالب على أمره (الغفار) فكونه ربا يشعر بالتربية والكرم والاحسان
والجود وكونه غفارا يشعر بان العبد لو أقدم على المعاصي والذنوب ثم تاب اليه فانه يغفرها
برحمته وهذا الموصوف بهذه الصفات هو الذي تجب عبادته لانه هو الذي يخشى عقابه
ويرجى ثوابه وقوله تعالى (قل) أي لهم (هو نبأ عظيم) يعود على القرآن وما فيه من القصص
والاخبار وقيل تخاصم أهل النار وقيل على ما تقدم من اخباره صلى الله عليه وسلم بانه نذير
مبين وبان الله تعالى اله واحد متصف بتلك الصفات الحسنى وقوله تعالى (أنتم عنه
معرضون) صفة لنبا أي لتمادي غفلتكم فان العاقل لا يعرض عن مثله كيف وقد قامت
عليه الحجج الواضحة أما على التوحيد فما مر وأما على النبوة فقوله تعالى (ما كان لي من علم
بالملا الاعلى) أي الملائكة فقوله بالملا متعلق بقوله من علم وضمن معنى الاحاطة فلذلك تعدى
بالباء (اذ يختصمون) أي في شأن آدم عليه السلام حين قال الله عز وجل اني جاعل في الارض
خليفة الآية (فان قيل) الملائكة لا يجوز ان يقال انهم اختصموا بسبب قولهم أتجعل فيها
من يفسد فيها ويسفك الدماء فالمخاصمة مع الله تعالى كفر (أجيب) بانه لا شك انه جرى هنالك
سؤال وجواب وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة المجاز فلهذا السبب حسن
اطلاق لفظ المخاصمة عليه ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يذكر هذا
الكلام على سبيل الزجر أمره ان يقول (ان) أي ما (يوحى الي الا أنما) أي أني (أنا نذير مبين)
أي بين الانذار فأبين لكم ما تأتونه وما تجتنبونه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال رأيت ربي
في أحسن صورة قال ابن عباس رضي الله عنه أحسبه قال في المنام فقال يا محمد هل تدري فيم
يختصم الملأ الاعلى قلت أنت أعلم أي رب مرتين قال فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين
ثديي أو قال في نحري فعلمت ما في السموات وما في الارض وفي رواية ثم تلا هذه الآية وكذلك
نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ثم قال يا محمد هل تدري فيم
يختصم الملأ الاعلى قلت نعم في الدرجات والكفارات قال وما هن قلت المشي على الاقدام الى
الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات واسباغ الوضوء في المكاره قال من يفعل ذلك
يعيش بخير ويموت بخير وخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه وقال يا محمد اذا صليت فقل اللهم
اني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وان تغفر لي وترحمني واذا أردت
بعبادك فتنة فاقبضني اليك غير مفتون قال ومن الدرجات افشاء السلام واطعام الطعام
والصلاة بالليل والناس نيام وفي رواية فقلت لبيك وسعديك في المرتين وفيها فعلمت ما بين
المشرق والمغرب أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وللعلماء في هذا الحديث
وأمثاله من أحاديث الصفات مذهبان أحدهما مذهب السلف وهو امراره كما جاء من غير
تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والايمان به من غير تأويل له والسكوت عنه مع الاعتقاد بان

بل بمحذوف تقديره واذكر وكذا القول في قوله وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون (قوله

ليس كمثله شئ وهو السميع البصير والمذهب الثانى مذهب الخلف وهو تأويل الحديث فقوله صلى الله عليه وسلم رأيت ربى فى احسن صورة يحتمل وجهين أحدهما انى فى أحسن صورة كأنه زاده جمالا وكمالا وحسنا عند رؤيته له به وانما التغير وقع بعده لشدة لوحى وثقله الثانى ان الصورة بمعنى الصفة ويرجع ذلك الى الله تعالى والمعنى انه رآه فى أحسن صفاته من الانعام عليه والاقبال اليه والله تعالى تلقاه بالاكرام والاعظام فاخبر صلى الله عليه وسلم عن عظمته وكبريائه وبهائه وبعده عن شبهه بالخلق وتنزيهه عن صفات النقص وانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وقوله صلى الله عليه وسلم فوضع يده بين كتفى الخ فالمراد باليد النعمة والمنة والرحمة وذلك شائع فى لغة العرب فيكون معناه على هذا الاخبار باكرام الله تعالى اياه وانعامه عليه بان شرح صدره ونور قلبه وعرفه مالم يعرفه حتى وجد برد النعمة والرحمة والمعرفة فى قلبه وذلك لما نور قلبه وشرح صدره فعلم ما فى السموات وما فى الارض باعلام الله تعالى اياه فانما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون اذ لا يجوز على الله تبارك وتعالى ولا على صفات ذاته سبحانه مماسة أو مباشرة أو نقص وهذا أليق بتنزيهه وحمل الحديث عليه واذا حملنا الحديث على المنام وان ذلك كان فى المنام فقد زال الاشكال لان رؤية البارى سبحانه فى المنام على الصفات الحسنة دليل على البشارة والخير والرحمة للرائى وسببه اختصام الملا الاعلى وهم الملائكة فى الكفارات وهى الخصال المذكورة فى الحديث فى ايها أفضل وسميت هذه الخصال كفارات لانها تكفر الذنوب عن فاعلها فهى من باب تسمية الشئ باسم لازمه وسمى ذلك مخاصمة لما مر فى السؤال والجواب المتقدمين وقوله تعالى (اذ) يجوز أن يكون بدلا من اذ الاولى كما قاله الزمخشرى وأن يكون منصوبا باذكر كما قاله أبو البقاء أى واذكر اذ (قال ربك للملائكة انى خالق) أى جاعل (بشرا من طين) هو آدم عليه السلام (فان قيل) كيف صح أن يقول لهم انى خالق بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل (أجيب) بانه قد يكون قال لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم (فاذا سويته) أى اتممت خلقه (ونفخت) أى أجريت (فيه من روحى) فصار حيا حساسا متنفسا واضافة الروح اليه تعالى اضافة تشريف لآدم عليه السلام والروح جسم لطيف يحيا به الانسان بنفوذه فيه يسرى فى بدن الانسان سريان الضوء فى الفضاء وكسريان النار فى الفحم والماء فى العود الاخضر (فقعوا) أى خروا (له ساجدين فسجد الملائكة) وقوله تعالى (كلهم أجمعون) فيه تأكيدان وقال الزمخشرى كل للاحاطة وأجمعون للاجتماع فأفادا معا انهم سجدوا عن آخرهم ما بقى منهم ملك الا سجد وانهم سجدوا جميعا فى وقت واحد غير متفرقين فى أوقات انتهى (فان قيل) كيف ساغ السجود لغير الله (أجيب) بان الممنوع هو السجود لغير الله تعالى على وجه العبادة فاما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل الا أن يكون فيه مفسدة فينهى الله تعالى عنه والاولى فى الجواب انه سجود تحية بالانحناء كما قاله الجلال المحلى (الا ابليس استكبر) أى تكبر وتعظم عن السجود (فان قيل) كيف استثنى من الملائكة عليهم السلام ابليس وهو من الجن (أجيب) بانه قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه فى قوله تعالى فسجد الملائكة ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم

وارسلناه الى مائة ألف
او يزيدون) • ان قلت
اولشك وهو على الله محال
(قلت) او بمعنى بل او بمعنى

استثناءً متصلاً وقال الجلال المحلي هو أبو الجن وكان من الملائكة وعلى هذا السؤال (وكان) أي وصار (من الكافرين) باستكباره عن أمر الله تعالى أو كان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله تعالى • (تنبيه) • المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر لأن ابليس انما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر والكفار انما نازعوا محمداً صلى الله عليه وسلم بسبب الحسد والكبر فذكر الله تعالى هذه القصة ههنا ليصيروا سماعها زاجراً عن هاتين الخصلتين المذمومتين (قال) الله تعالى (يا ابليس) سماه بهذا الاسم لكونه من لا بلاس وهو انقطاع الرجاء اشارة الى تحتم العقوبة له (ما منعك أن تسجد) وبين ما يوجب طاعته ولو أمر بتعظيم ما لا يعقل بقوله تعالى معبراً بأداة ما لا يعقل عمن كان عند السجود له عاقلاً كامل العقل (لما خلقت بيدي) أي توليت خلقه من غير توسط سبب كأب وأم والتثنية في اليد لما في خلقه من مزيد القدرة وقوله تعالى (أستكبرت) استفهام توبيخ أي تعظمت بنفسك الآن عن السجود له (أم كنت من العالين) أي من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود له لكونك منهم فأجاب ابليس بقوله (قال أنا خير منه) أي لو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أن أسجد له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيراً منه بقوله (خلقتني من نار وخلقته من طين) والنار أشرف من الطين بدليل أن الاجرام الفلكية أفضل من الاجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعد عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض وأيضاً فالنار خليفة الشمس والقمر في اضاءة العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض فخليفتهما في الاضاءة أفضل من الأرض وأيضاً فالكيفية الفاعلة الأصلية اما الحرارة واما البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت وأيضاً فالنار لطيفة والأرض كثيفة واللطافة أفضل من الكثافة وأيضاً فالنار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة وأيضاً فالنار خفيفة تشبه الروح والأرض كثيفة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض والدليل على أن الأرض أفضل من النار أنها أمينة مصلحة فاذا أودعتها حبة ردتها اليك شجرة مثمرة والنار خائنة مفسدة لكل ما سلمته اليها وأيضاً فالنار بمنزلة الخادم لما في الأرض ان احتيج اليها استدعيت استدعاء الخادم وان استغنى عنها طردت وأيضاً فالأرض مستولية على النار لأنها تطفئ النار وأيضاً فان استدلال ابليس بكون أصله خيراً من أصله استدلال فاسد لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين المزهرة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد وأيضاً هب أن اعتبار هذه الجهة توجب الفضيلة الا أن هذا يمكن أن يعارض بجهة أخرى توجب الرجحان مثل انسان نسيب عار عن كل الفضائل فان نسبه يوجب رجحانه الا أن الذي لا يكون نسيباً قد يكون كثير العلم والزهد فيكون أفضل من النسيب بدرجات لا حد لها فكذبت مقدمة ابليس (فان قيل) هب أن ابليس أخطأ في القياس لكن كيف لزمه الكفر في تلك المخالفة وتقرير السؤال من وجوه الأول أن قوله تعالى اسجدوا أمر وهو يحتمل الوجوب والندب فكيف يلزم العصيان فضلاً عن الكفر الثاني هب أنه للوجوب وقلتم ان ابليس ليس من الملائكة فأمر الملائكة بالسجود لآدم

الواو والمعنى او يزيدون في نظركم فالشك انما دخل في قول المخلوقين (قوله وابصرهم فسوف يبصرون)

لايدخل فيهما ابليس الثالث هب انه تناوله الا أن تخصيص العام بالقياس جائز فجاز أن يخصص نفسه من عموم ذلك الامر بالقياس الرابع هب انه لم يجد مع علمه بانه كان مأمورا به الا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر (أجيب) بان صيغة الامر وان لم تدل على الوجوب يجوز أن ينضم اليها من القرائن مايدل عليه وههنا حصلت تلك القرائن وهى قوله تعالى أستكبرت أم كنت من العالين فعلم بذلك ان الامر للوجوب وانه مخاطب بالسجود فلما أتى بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه انما ذكر القياس ليتوصل به الى القدح فى أمر الله تعالى وتكليفه وذلك يوجب الكفر ولما ذكر ابليس لعنه الله تعالى هذا القياس الفاسد (قال) الله تعالى له (فاخرج) أى بسبب تكبرك ونسبتك الحكيم الذى لا اعتراض عليه الى الجور (منها) أى من الجنة وقيل من الخلقة التى أنت فيها لانه كان يفتخر بخلقته فغير الله تعالى خلقته فاسود بعدما كان أبيض وقبح بعدما كان حسنا وأظلم بعدما كان نورانيا وقيل من السموات (فانك رجيم) أى مطرود لان من طرد رمى بالحجارة فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد (فان قيل) الطرد هو اللعن فيكون قوله تعالى (وان عليك لعنتى) مكررا (اجيب) بحمل الطرد على ماتقدم وتحمل اللعنة على الطرد من رحمة الله تعالى وايضا قوله تعالى وان عليك لعنتى (الى يوم الدين) أى الجزاء فاذا أمر اوهو طرده الى يوم القيامة فلا يكون تكرارا وقيل المراد بالرجم كون الشياطين مرجومين بالشهب (فان قيل) كلمة الى لانتهاء الغاية فكان لعنة الله ابليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع (أجيب) بانها كيف تنقطع وقد قال تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين فافادان عليه اللعنة فى الدنيا فاذا كان يوم القيامة اقترن عليه مع اللعنة من العذاب ماتنسى عنده اللعنة فكأنها انقطعت ● (تنبيه) ● قال تعالى هنا لعنتى وفى آية أخرى اللعنة وهما وان كانا فى اللفظ عاما وخاصا الا أنهما من حيث المعنى عامان بطريق اللازم لان من كانت عليه لعنة الله تعالى كانت عليه لعنة كل أحد لا محالة وقال تعالى أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ● ولما صار ابليس ملعونا مطرودا (قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون) أى الناس طلب الانظار الى يوم البعث لاجل أن يتخلص من الموت لانه اذا أنظر ليوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء البعث لايموت فحينئذ يتخلص من الموت فلذلك (قال) تعالى (فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) أى وقت النفخة الاولى فيموت فيها فلم يجبه الى دعائه كما قال تعالى وما دعاء الكافرين الا فى ضلال ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله تعالى معين لا يتقدم ولا يتأخر فلما أنظره الله تعالى الى ذلك الوقت (قال فبعزتك) اقسم بعزة الله تعالى وهى قهره وسلطانه (لاغوينهم أجمعين) ثم استثنى من ذلك ماذكره الله بقوله (الا عبادك منهم المخلصين) أى الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من اضلاله أو أخلصوا قلوبهم على اختلاف القراءتين فان نافعا والكوفيين قرؤا بفتح اللام بعد الخاء والباقون بالكسر ● (تنبيه) ● قيل ان غرض ابليس من هذا الاستثناء انه لا يقع فى كلامه الكذب لانه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوى الكل لظهر كذبه حين يعجز عن اغواء عباد الله تعالى المخلصين وعند هذا يقال ان الكذب شيء يستنكف منه ابليس فليس يليق بالمسلم وهذا يدل على أن ابليس لا يغوى عباد الله

تعالى

ثم هددهم ثم اعاده فى قوله وابصر فسوف يبصرون تأكيدا والاول فى الدنيا والثانى فى

تعالى المخلصين وقد قال تعالى في صفة يوسف عليه السلام انه من عبادنا المخلصين فتحصل من مجموع الآيتين ان ابليس ما أغوى يوسف عليه السلام وما نسب اليه من القبائح كذب وافتراء ولما قال ابليس ذلك (قال) تعالى (فالحق) أي فبسبب اغوائك وغوايتهم أقول الحق (والحق أقول) أي لا أقول الا الحق فان كل شيء قلته ثبت فلم يقدر أحد على نقضه ولا نقصه وقرأ عاصم وحمزة برفع الاول ونصب الثاني والباقون بنصبهما فنصب الثاني بالفعل بعده ونصب الاول بالفعل المذكور أو على الاغراء أي الزموا الحق أو على المصدر أي أحق الحق أو على نزع حرف القسم ورفعه على انه مبتدأ محذوف الخبر أي فالحق مني أو فالحق قسمي وجواب القسم (لأملأن جهنم منك) أي بنفسك وذريتك (وممن تبعك منهم) أي من الناس وقوله تعالى (أجمعين) فيه وجهان أظهرهما انه توكيد للضمير في منك ولمن عطف عليه في قوله تعالى وممن تبعك والمعنى لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحدا وجوز الزمخشري أن يكون تأكيدا للضمير في منهم خاصة فقدر لأملأن جهنم من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أي لقومك (ما أسئلكم عليه) أي على تبليغ الرسالة أو القرآن (من أجر) أي جعل (وما أنا من المتكلفين) أي المتصنعين بما لست من أهله على ما عرفتم من حالي فانتحل النبوة وأتقول القرآن وكل من قال شيأ من تلقاء نفسه فهو متكلف له وعن مسروق قال دخلنا على عبد الله بن مسعود فقال يا أيها الناس من علم شيأ فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فان من العلم أن يقول من لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين وقيل المعنى ان هذا الذي أدعوكم اليه ليس يحتاج في معرفة صحته الى التكلفات الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته (ان) أي ما (هو) أي القرآن (الا ذكر) أي عظة وشرف (للعالمين) أي للخلق أجمعين (ولتعلمن) جواب قسم مقدر ومعناه لتعرفن يا كفار مكة (نبأه) أي خبر صدقه وهو ما فيه من الوعد والوعيد أو صدقه باتيان ذلك (بعد حين) قال ابن عباس وقتادة بعد الموت وقال عكرمة يوم القيامة وقال الحسن ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله تعالى لداود عشر حسنات وعصمه أن يصر على ذنب صغيرا أو كبيرا حديث موضوع

الآخرة وحذف منه المفعول اكتفاء بذكره اولا

(سورة ص)

(قوله ص) ان جعل اسما

سورة الزمر مكية

الا قوله تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية فمدنية وهي خمس وسبعون آية وألف ومائة واثنتان وتسعون كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وثمانية أحرف

(بسم الله) الذي له صفات الكمال (الرحمن) الذي أنعم على عباده بأنواع النعم (الرحيم) بأنواع المغفرة على المؤمنين من عباده (تنزيل الكتاب) أي القرآن مبتدأ وقوله تعالى (من الله) أي المتصف بجميع صفات الكمال خبره أي تنزيل الكتاب كائن من الله تعالى وقيل تنزيل الكتاب خبر مبتدأ مضمر تقديره هذا تنزيل الكتاب من الله (العزيز) أي الغالب في ملكه

(الحكيم) أي في صنعه ففي ذلك دلالة على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات غني عن جميع الحاجات (فان قيل) ان الله تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا وهذا الوصف لا يليق الا بالمحدث المخلوق (أجيب) بان ذلك محمول على الصيغ والحروف (انا) أي بما لنا من العظمة (انزلنا اليك) يا أشرف الخلق خاصة بواسطة جبريل الملك (الكتاب) أي القرآن الجامع لكل خير وقوله تعالى (بالحق) يجوز أن يتعلق بالانزال أي بسبب الحق وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الفاعل أو المفعول وهو الكتاب أي ملتبسين بالحق أو ملتبسا بالحق والصدق والصواب والمعنى ان كل ما فيه من اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق يجب العمل به وفي قوله تعالى انا أنزلنا اليك الكتاب تكرير تعظيم بسبب ابرازه في جملة أخرى مضافا انزاله الى المعظم نفسه (فان قيل) لفظ تنزيل يشعر بانه تعالى أنزله نجما نجما على وفق المصالح على سبيل التدريج ولفظ الانزال يشعر بانه تعالى أنزله دفعة واحدة (أجيب) بان طريق الجمع ان يقال انا حكمنا حكما كليا بانا نوصل اليك هذا الكتاب وهذا هو الانزال ثم أوصلناه اليك نجما نجما على وفق المصالح • ولما بين تعالى ان هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق أردفه ببيان بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص فقال سبحانه وتعالى (فاعبد الله) أي الحائز لجميع صفات الكمال حال كونك (مخلصا له الدين) أي ممحضا له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر (ألا لله) أي الملك الاعلى وحده (الدين الخالص) أي لا يستحقه غيره فانه المتفرد بصفات الالوهية والاطلاع على الاسرار والضمائر قال قتادة الدين الخالص شهادة أن لا اله الا الله وقال مجاهد الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الاوامر والنواهي لان قوله تعالى فاعبد الله عام وروى ان امرأة الفرزدق لما قربت وفاتها أوصت أن يصلي الحسن البصري عليها فلما دفنت قال الحسن البصري يا أبا فراس ما الذي أعددت لهذا الامر قال شهادة أن لا اله الا الله فقال الحسن هذا العمود فأين الطنب قال ابن عادل فبين بهذا اللفظ الوجيز أن عمود الخيمة لا ينتفع به الا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة أي الانتفاع الكامل والا فهي ينتفع بها ولكن رأس العبادات الاخلاص في التوحيد واتباع الاوامر واجتناب النواهي (والذين اتخذوا من دونه) أي من دون الله (أولياء) وهم كفار مكة اتخذوا الاصنام وقالوا (ما نعبدهم) أي لشيء من الاشياء (الا ليقربونا الى الله) أي الذي له معاقد العز ومجامع العظمة (زلفى) وذلك انهم كانوا اذا قيل لهم من ربكم ومن خلقكم ومن خلق السموات والارض قالوا الله فيقال فما عبادتكم لهم قالوا ليقربونا الى الله زلفى أي قربى وهو اسم أقيم مقام المصدر كأنهم قالوا الا ليقربونا الى الله تعالى تقريبا ويحسنا بهم لا وتشفع لنا عند الله تعالى (ان الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (يحكم بينهم) أي وبين المسلمين (فيما هم فيه يختلفون) أي من أمر الدين فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار (ان الله) أي الملك القادر (لا يهدي) أي لا يرشد (من هو كاذب) أي في قوله ان الآلهة تشفع لهم مع علمهم بانها جمادات خسيسة وفي نسبة الولد الى الله تعالى (كفار) أي بعبادته غير الله تعالى (لو أراد الله) أي الذي له الاحاطة بصفات الكمال (أن يتخذ ولدا) أي كما قالوا

السورة فهو خبر مبتدأ محذوف أي هذه ص أي السورة التي أعجزت العرب بقوله والقرآن ذي الذكر

اتخذ الرحمن ولدا (لاصطفى) أي اختار (مما يخلق ما يشاء) أي اتخذ ذولدا غيرهم من قالوا الملائكة بنات الله وعزير ابن الله والمسيح ابن الله كما قال تعالى لو أردنا أن نتخذ لهوا أي كما زعموا لاتخذناه من لدنا اذ لا موجود سواه الا وهو مخلوقه ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الولد له * ثم نزه نفسه سبحانه فقال تعالى شأنه (سبحانه) أي تنزيها له عن ذلك وعما لا يليق بطهارته ثم أقام الدليل على هذا التنزيه المقتضى لتفرده فقال تعالى (هو) أي الفاعل لهذه الافعال القائل لهذه الاقوال (الله) أي الجامع لجميع صفات الكمال ثم ذكر من الاوصاف ما هو كالعلة لذلك فقال (الواحد) أي في ملكه الذي لا شريك له ولا ولد ولا والد له (القهار) أي الغالب الكامل القدرة في كل شئ تحت قدره * ولما أثبتت هذه الصفات التي نفت أن يكون له شريك أو ولد وأثبتت له الكمال المطلق استدل على ذلك بقوله تعالى (خلق السموات والارض) أي ابدعهما من العدم وقوله تعالى (بالحق) متعلق بخلق لان الدلائل التي ذكرها الله تعالى في اثبات الالهية اما أن تكون فلكية أو أرضية اما الفلكية فاقسام أحدها خلق السموات والارض وثانيها اختلاف الليل والنهار كما قال تعالى (يكور) أي يدخل (الليل على النهار ويكور النهار على الليل) قال الحسن ينقص من الليل فيزيد في النهار وينقص من النهار فيزيد في الليل فما نقص من الليل دخل في النهار وما نقص من النهار دخل في الليل قال البغوي ومنتهى النقص تسع ساعات ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة وقال قتادة يغشى هذا هذا كما قال تعالى يغشى الليل النهار وقال الرازي ان النور والظلمة عسكران عظيمان وفي كل يوم يغلب هذا ذاك وذاك هذا وذلك يدل على ان كل واحد مغلوب مقهور ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله تعالى انتهى وورد في الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور أي من النقصان بعد الزيادة وقيل من الادبار بعد الاقبال (وسخر) أي ذلل وأكره وقهر وكلف لما يريد من غير نفع للمسخر (الشمس والقمر) فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما (كل) أي منهما (يجري لاجل مسمى) أي الى يوم القيامة لا يزالان يجريان الى هذا اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا والمراد من هذا التسخير ان هذه الافلاك تدور كدوران المنجنون أي الدولاب الذي يستقى عليه على حد واحد (ألا هو العزيز) أي الغالب على أمره المنتقم من اعدائه (الغفار) أي الذي له صفة الستر على الذنوب متكررة يمحو ذنوب من يشاء عينا وأثرا بمغفرته ثم انه تعالى لما ذكر الدلائل الفلكية أتبعها بذكر الدلائل السفلية فقال تعالى (خلقكم) أيها الناس المدعون الهية غيره (من نفس واحدة) وهي آدم عليه السلام (ثم جعل منها) أي من تلك النفس (زوجها) حواء وانما ابتدأ بذكر الانسان لانه أقرب وأكبر دلالة وأعجب وفيه ثلاث دلالات خلق آدم أولا من غير أب وأم ثم خلق حواء من قصيراه ثم تشعب الخلق الفائت للحصر منهما فهما آيتان الا ان احداهما جعلها الله تعالى عادة مستمرة والاخرى لم تجر بها العادة ولم يخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل * (تنبيه) * في ثم هذه أوجه أحدها انها على بابها من الترتيب بمهلة وذلك انه يروى ان الله تعالى اخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق حواء بعد ذلك بزمان ثانيها انها على بابها أيضا لكن لمدرك آخر وهو ان يعطف

قسم على عجز العرب كقولك هذا حاتم والله اي هذا هو المشهور بالسخاء والله وان جهل

بهامابعدها على ماذهم من الصنعة فى قوله تعالى واحدة اذا التقدير من نفس وحدت اى انفردت ثم جعل منها زوجها ثالثها أنها للترتيب فى الاخبار لا فى الزمان الوجودى كانه قيل كان من أمرها قبل ذلك أن جعل منها زوجها رابعها انها للترتيب فى الاحوال والرتب وقال الرازى ان ثم كما تجئ لبيان كون احدى الواقعتين متأخرة عن الثانية فكذلك تجئ لبيان تأخر احدى الكلامين من الآخر كقول القائل بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس اعجب وأعطيتك اليوم شيأ ثم الذى أعطيتك أمس أكثر وقوله تعالى (وأنزل لكم من الانعام) عطف على خلقكم والانزال يحتمل الحقيقة يروى أن الله تعالى خلقها فى الجنة ثم أنزلها ويحتمل المجاز وله وجهان أحدهما انها لا تعيش الا بالنبات والنبات انما يعيش بالماء والماء ينزل من السحاب أطلق الانزال عليها وهو فى الحقيقة يطلق على سبب السبب كقول القائل

اذا نزل السماء بارض قوم ● رعيناه وان كانوا غضابا

والثانى أن قضاياه وأحكامه منزلة من السماء من حيث كتبها فى اللوح المحفوظ وهو أيضا سبب فى ايجادها وقال البغوى معنى الانزال ههنا الاحداث والانشاء كقوله تعالى انزلنا عليكم لباسا وقيل انه انزال الماء الذى هو سبب نبات القطن والكتان وغيرهما الذى يعملون منه اللباس وقيل معنى قوله انزل لكم من الانعام جعلها نزلا لكم ورزقا ومعنى قوله (ثمانية أزواج) أى ثمانية اصناف وهى الابل والبقر والضأن والمعز من كل زوجان ذكر وأنثى كما بين فى سورة الانعام وقوله تعالى (يخلقكم فى بطون امهاتكم) بيان لكيفية خلق ماذكر من الاناسى والانعام اظهارا لما فيها من عجائب القدرة غير انه تعالى غلب اولى العقل او خصهم بالخطاب لانهم المقصودون وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم وفى الابتداء الجميع بالضم وكسر حمزة الميم وفتحها الباقون ومعنى قوله تعالى (خلقا من بعد خلق) ماذكره الله تعالى بقوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين الآيات واما قوله تعالى (فى ظلمات ثلاث) فقال ابن عباس ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن (ذلكم) اى العالى المراتب بشهادتكم ايها الخلق كلكم بعضكم بلسان قاله وبعضكم بناطق حاله الذى جميع ماذكر من اول السورة الى هنا من افعاله ● ولما اشار الى عظمته باداة البعد اخبر عن اسم الاشارة بقوله تعالى (الله) اى الذى خلق هذه الاشياء (ربكم) اى المالك والمربى لكم بالخلق والرزق فهو المستحق لعبادتكم وقوله تعالى (له الملك) يفيد الحصر أى له الملك لا لغيره ● ولما ثبت انه لا مالك الا هو وجب القول بانه (لا اله الا هو) أى لا يشاركه فى الخلق غيره ● ولما بين بهذه الدلائل كمال قدرته ورحمته زيف طريقة المشركين بقوله تعالى (فانى) أى فكيف ومن أى وجه (تصرفون) عن طريق الحق بعد هذا البيان (ان تكفروا فان الله) أى الذى له الكمال كله (غنى عنكم) لانه تعالى ما كلف المكلفين ليجر الى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة لانه تعالى غنى على الاطلاق فيمتنع فى حقه جر المنفعة ودفع المضرة لانه تعالى واجب الوجود لذاته وواجب الوجود لذاته فى جميع أفعاله يكون غنيا على الاطلاق وأيضا فالقادر على خلق السموات والارض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسى والعناصر الاربعة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام

قوله ثم جوابه مع ما عطف عليه محذوف تقديره لكن الاحسن أنه كلام مستأنف والمراد بقرينة قوله كم اعدائك

عمرو وان يستضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك (ولا يرضى لعباده) أى لاحد منهم (الكفر) أى بالاقبال على سواه وانتم لاترضون ذلك لعبيدكم مع أن ملككم لهم فى غاية الضعف ومعنى عدم الرضا به لا يفعل فعل الراضى بان يأذن فيه ويقر عليه ويثيب فاعله ويمدحه بل يفعل فعل الساخط بان ينهى عنه ويذم عليه ويعاقب مرتكبه وان كان بارادته اذ لا يخرج شئ عنها وهذا قول قتادة والسلف أجروه على عمومه وقال ابن عباس ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر وهم الذين قال الله تعالى فيهم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فيكون عاما فى اللفظ خاصا فى المعنى كقوله تعالى عينا يشرب بها عباد الله يريد بعض العباد (وان تشكروا) الله تعالى أى فتؤمنوا بربكم وتطيعوه (يرضه لكم) أى فيثيبكم عليه لانه سبب فلاحكم وقرأ السوسى فى الوصل بسكون الهاء وللدورى وهشام وجهان السكون والضم وصلة الهاء بواو وللدورى وابن كثير وابن ذكوان والكسائى والباقون بالسكون وهو لغة فيه (ولا تزر) أى نفس (وازرة وزر) نفس (أخرى) أى لا تحمله بل وزر كل نفس عليها لا يتعداها يحفظ عليها مدة كونها فى دار العمل واحتج بهذا من أنكر وجوب الدية على العاقلة ورد بان السنة خصصت ذلك وأما الاثم الذى يكتب على الانسان بترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فليس وزر غيره وانما هو وزر نفسه فوزر الفاعل على الفعل ووزر الساكت على الترك لما لزمه من الامر والنهى وقوله تعالى (ثم الى ربكم مرجعكم) يدل على اثبات البعث والقيامة (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيه تهديد للعاصى وبشارة للمطيع وقوله تعالى (انه عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى بما فى القلوب كالعلة لما سبق أى انه تعالى ينبئكم بأعمالكم لانه عالم بجميع المعلومات فيعلم ما فى قلوبكم من الدواعى والصوارف قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم ولا أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم * ولما بين تعالى فساد القول بالشرك وبين تعالى انه الذى يجب أن يعبد بين أن طريقة الكفار متناقضة بقوله تعالى (واذا مس الانسان) أى هذا النوع الآنس بنفسه (ضر دعا ربه) لانهم اذا مسهم الضر طلبوا رفعه من الله تعالى واذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا الى عبادة الاصنام فكان الواجب عليهم أن يتعرفوا بالله تعالى فى جميع الاحوال لانه القادر على ايصال الخير ودفع الشر وظهر تناقض طريقهم والمراد بالانسان الكافر وقيل المؤمن والكافر وقيل المراد أقوام معينون كعتبة بن ربيعة وغيره والمراد بالضر جميع المكاره فى جسمه أو ماله أو أهله أو ولده لعموم اللفظ وقوله تعالى (منيبا) حال من فاعل دعا وقوله تعالى (اليه) متعلق بمنيبا أى راجعا اليه فى ازالة ذلك الضر لان الانابة الرجوع (ثم اذا خوله) أى أعطاه (نعمة) مبتدأة (منه) أى من غير مقابل ولا يستعمل فى الجزاء بل فى ابتداء العطية قال زهير

* هنالك ان يستخولوا المال يخولوا * ويروى ان يستخبلوا المال يخبلوا

وقال ابو النجم

أعطى فلم يبخل ولم يبخل * كوم الذرا من خول المخول

وحقيقة خول من أحد معنيين اما من قولهم هو خائل مال اذا كان متعهدا له حسن القيام عليه واما من خال يخول اذا اختال وافتخر ومنه قول العرب * ان الغنى طويل الذيل مياس *

اهلكنا من قبلهم من قرن او جوابه كم واصله لكم حذفت اللام لما طال الكلام تحسينا كما فى قوله تعالى

(نسي) أي ترك (ما) أي الامر الذي (كان يدعوا) أي يتضرع (اليه من قبل) أي قبل النعمة *(تنبيه)* يجوز في ما هذه أوجه أحدها أن تكون موصولة بمعنى الذي مرادا بها الضر الذي كان يدعو الى كشفه أي ترك دعاءه كأنه لم يتضرع الى ربه ثانيها أنها بمعنى الذي مرادا بها الباري تعالى أي نسي الله الذي كان يتضرع اليه وهذا عند من يجوز وقوع ما على أولي العلم وقال الرازي ما بمعنى من كقوله تعالى وما خلق الذكر والانثى وقوله لا أنتم عابدون ما أعبد وقوله فانكحوا ما طاب لكم ثالثها ان تكون مصدرية أي نسي كونه داعيا (وجعل) أي ذلك الانسان زيادة على الكفران بالنسيان للاحسان (لله) أي الذي لا مكافئ له بشهادة الفطرة والسمع والعقل (أندادا) أي شركاء (ليضل عن سبيله) أي دين الاسلام وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء بعد اللام أي ليفعل الضلال بنفسه والباقون بضمها أي لم يقنع بضلاله في نفسه حتى يحمل غيره عليه فمفعوله محذوف واللام يجوز أن تكون للعلة وأن تكون لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا واختلف في سبب نزول قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أي لهذا الذي قد حكم بكفره (تمتع) أي في هذه الدنيا (بكفرك قليلا) أي بقية أجلك فقال مقاتل نزل في أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي وقيل في عتبة بن ربيعة وقيل عام في كل كافر وهذا أمر تهديد وفيه اقناط للكافر من التمتع في الآخرة ولذلك علله بقوله تعالى (انك من أصحاب النار) أي الذين لم يخلقوا الا لها على سبيل الاستتباع للمبالغة قال تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس الآية * ولما شرح الله تعالى صفات المشركين وتمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح المخلصين فقال تعالى (أمن هو قانت) أي قائم بوظائف الطاعات (آناء الليل) أي جميع ساعاته ومن اطلاق القنوت على القيام قوله صلى الله عليه وسلم افضل الصلاة صلاة القنوت وهو القيام فيها ومنه القنوت لانه يدعو قائما وعن ابن عمر انه قال لا أعلم القنوت الا قراءة القرآن وطول القيام وتلا أمن هو قانت وعن ابن عباس القنوت الطاعة لقوله تعالى كل له قانتون أي مطيعون وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بتخفيف الميم والباقون بتشديدها وفي القراءة الاولى وجهان أحدهما ان الهمزة همزة الاستفهام دخلت على من بمعنى الذي والاستفهام للتقرير ومقابله محذوف تقديره أمن هو قانت كمن جعل لله أندادا أو أمن هو قانت كغيره وأما القراءة الثانية فأم داخلة على من الموصولة أيضا فادغمت الميم في الميم وفي أم حينئذ قولان أحدهما أنها متصلة ومعادلها محذوف تقديره الكافر خير أم الذي هو قانت والثاني انها منقطعة فتقدر ببل والهمزة أي بل أمن هو قانت كغيره أو كالكافر المقول له تمتع بكفرك وقوله تعالى (ساجدا) أي راكعا (وقائما) أي وقاعد في صلاته حالان من ضمير قانت *(تنبيه)* في هذه الآية دلالة على ان قيام الليل افضل من قيام النهار واختلف في سبب نزولها فقال ابن عباس نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقال الضحاك في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقال ابن عمر في عثمان رضي الله تعالى عنه وقال الكلبي في ابن مسعود وعمار وسلمان رضي الله تعالى عنهم وقوله تعالى (يحذر الآخرة) أي عذاب الآخرة يجوز أن يكون حالا من الضمير في ساجدا أو قائما أو من الضمير في قانت وأن يكون مستأنفا جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل ما شأنه يقنت آناء

(قوله بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون) والشمس وضحاها قد افلح من زكاها وقيل غير ذلك

قوله لانه يدعو قائما هكذا في النسخ وعبارة الكشاف ومنه القنوت في الوتر لانه دعاء المصلي قائما اه

الليل ويتعب نفسه ويكدها قيل يحذر الآخرة (ويرجو رحمة) أي جنة (ربه) الذي لم يزل يتقلب في انعامه وفي الكلام حذف والتقدير كمن لا يفعل شيأ من ذلك وانما حسن هذا الحذف لدلالة ذكر الكافر قبل هذه الآية وذكر بعدها (قل هل يستوي) أي في الرتبة (الذين يعلمون) أي وهم الذين صفتهم انهم يقنتون آناء الليل ساجدين وقائمين (والذين لا يعلمون) أي وهم الذين صفتهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغ يشركون وانما وصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يعلمون لان الله تعالى وان اعطاهم آلة العلم الا انهم اعرضوا عن تحصيل العلم فلهذا جعلهم الله تعالى كأنهم ليسوا من أولي الألباب من حيث انهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم وفي هذا تنبيه على فضيلة العلم قيل لبعض العلماء انكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء عند أبواب الملوك ولا نرى الملوك عند أبواب العلماء فأجاب بأن هذا أيضا يدل على فضيلة العلم لان العلماء علموا ما في المال من المنافع وطلبوه والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه وقال في الكشاف وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون ويفتنون ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله تعالى جهلة حيث جعل الله تعالى القانتين هم العلماء قال ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون كذلك لا يستوي القانتون والعاصون اهـ وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال هذا تمن وانما الرجاء قوله تعالى وتلا هذه الآية (انما يتذكر) أي يتعظ (أولوا الألباب) أي أصحاب العقول الصافية والقلوب النيرة وهم الموصوفون في آخر سورة آل عمران بقوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم الى آخرها ولما نفى تعالى المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب المؤمنين فقال سبحانه (قل) أي لهم (يا عباد الذين آمنوا) أي أوجدوا هذه الحقيقة (اتقوا ربكم) أي بطاعته واجتناب معاصيه ثم بين تعالى أهم ما في هذا الاتقاء من الفوائد بقوله تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا) أي بالطاعة (حسنة) أي في الآخرة وهي الجنة والتنكير في حسنة للتعظيم أي حسنة لا يصل العقل الى كنه كمالها فقوله تعالى في هذه الدنيا متعلق بأحسنوا وقيل متعلق بحسنة وعلى هذا قال السدي معناه في هذه الدنيا حسنة يعني الصحة والعافية قال الرازي الأولى أن يحمل على الثلاثة المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية اهـ ورد بأنه يتعين حمله على حسنة الآخرة لان ذلك حاصل للكفار أكثر من حصوله للمؤمنين كما قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر واختلف في معنى قوله تعالى (وأرض الله) أي الذي له الملك كله والعظمة الشاملة (واسعة) فقال ابن عباس يعني ارتحلوا من مكة وفيه حث على الهجرة من البلد الذي تظهر فيه المعاصي ونظيره قوله تعالى قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها وقيل نزلت في مهاجري الحبشة وقال سعيد بن جبير من أمر بالمعاصي فليهرب وقال أبو مسلم لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة كما قال تعالى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين (انما

قاله هنا بالواو وفي ق بالفاء لان ما هناك اشد اتصالا منه هنا لان ما هنا منفصل عما قبله اتصالا معنويا فقط

يوفى) أى التوفية العظيمة (الصابرون أجرهم) أى على الطاعات وما يبتلون به * وقيل نزلت فى جعفر بن أبى طالب وأصحابه حيث لم يتركوا دينهم لما اشتد بهم البلاء وصبروا وهاجروا ومعنى (بغير حساب) أى بغير نهاية بكيل أو وزن لان كل شئ داخل تحت الحساب فهو متناه فما لا نهاية له كان خارجا عن الحساب وعن ابن عباس لا يهتدى اليه حساب الحساب ولا يعرف وقال على كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه كل مطيع يكال له كيلا أو يوزن له وزنا الا الصابرين فانه يحثى لهم حثيا وروى الشعبى لكن بسند ضعيف عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الموازين تنصب يوم القيامة لاهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون أجورهم ولا ينصب لاهل البلاء بل يصب عليهم الاجر صبا حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا ان أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل * ولما كان للعبادة ركنان عمل القلب وعمل الجوارح وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح فقدمه سبحانه بقوله تعالى (قل) أى يا أشرف المرسلين (انى أمرت) قرأ نافع بفتح الياء والباقون بسكونها (ان أعبد الله مخلصا له الدين) اى مخلصا له التوحيد لا أشرك به شيأ ثم ذكر عقبه الادون وهو عمل الجوارح وهو الاسلام المذكور فى قوله (وأمرت لأن) اى لاجل ان او بأن (اكون اول المسلمين) اى من هذه الامة وبهذا زال التكرار وقال الزمخشرى فان قلت كيف عطف امرت على امرت وهما واحد قلت ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما وذلك أن الامر بالاخلاص وتكليفه شئ والامر به ليحرز القائم به قصب السبق فى الدين شئ آخر واذا اختلف وجها الشئ وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين * ولما دعا المشركون النبى صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه امره الله تعالى بقوله سبحانه (قل انى اخاف ان عصيت ربى) أى المحسن الى المربى لى بكل جميل وعبدت غيره (عذاب يوم عظيم) والمقصود من هذا الامر المبالغة فى زجر الغير عن المعاصى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى بفتح الياء والباقون بسكونها (قل الله) أى المحيط بصفات الكمال وحده (اعبد مخلصا له) وحده (دينى) من الشرك قال الرازى فان قيل ما معنى التكرير فى قوله تعالى قل انى امرت ان اعبد الله مخلصا له الدين وقوله تعالى قل الله أعبد مخلصا له دينى قلنا ليس هذا بتكرير لان الاول اخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالايمان بالعبادة والثانى اخبار بانه أمر أن لا يعبد احدا غير الله تعالى وذلك ان قوله امرت ان اعبد الله لا يفيد الحصر وقوله تعالى قل الله اعبد يفيد الحصر اى الله اعبد ولا اعبد احدا سواه ويدل عليه انه لما قال قل الله اعبد قال بعده (فاعبدوا) اى انتم ايها الداعون فى وقت الضراء المعرضون فى وقت الرخاء (ما شئتم من دونه) اى غيره وفى هذا تهديد وزجر لهم وايذان بأنهم لا يعبدون الله تعالى ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله سبحانه (قل ان الخاسرين) اى الكاملين فى الخسران (الذين خسروا انفسهم) اى اوقعوها فى هلاك لا يعقل هلاك اعظم منه (و) خسروا (اهليهم يوم القيامة) ايضا لانهم ان كانوا من اهل النار فقد خسروهم كما خسروا انفسهم وان كانوا من اهل الجنة فقد ذهبوا ذهابا لا رجوع بعده البتة وقوله تعالى (الا ذلك) اى الامر العظيم البعيد الرتبة فى الخسارة (هو الخسران المبين) اى البين يدل على غاية المبالغة من وجوه أحدها انه وصفهم بالخسران ثم اعاد ذلك بقوله تعالى الا ذلك هو الخسران المبين

وهو انهم عجبوا من مجئ المنذر وقالوا انه ساحر كذاب وما فى ق متصل بما قبله انتهى الا اقتليا

قوله الى دين آبائه هكذا بالنسخ ولعله الى دين آبائهم اهـ مصححه

وهذا التكرير لاجل التأكيد وثانيها ذكر حرف الا وهو للتنبيه وذكر التنبيه يدل على التعظيم كأنه قال بلغ فى العظم الى حيث لا تصل عقولكم اليه فتنبهوا له وثالثها قوله تعالى هو الخسران ولفظة هو تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران يصير فى مقابلته كلا خسران ورابعها وصفه تعالى بكونه خسرانا مبينا يدل على التهويل ولما شرح الله تعالى خسرانهم وصف ذلك الخسران بقوله تعالى (لهم من فوقهم ظلل) اى طباق (من النار ومن تحتهم ظلل) اى فرش ومهاد نظيره قوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش (فان قيل) الظلة ما علا الانسان فكيف سمى ما تحته ظلة (اجيب) باوجه احدها انه من باب اطلاق اسم احد الضدين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ثانيها ان الذى تحته يكون ظلة لغيره لان النار دركات كما ان الجنة درجات ثالثها ان الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية فى الحرارة والاحراق والايذاء اطلق اسم احداهما على الاخرى لاجل المماثلة والمشابهة وقيل المراد احاطة النار بهم من جميع الجهات (ذلك) اى العذاب المعد للكفار (يخوف الله به عباده) اى المؤمنين ليجتنبوا ما يوقعهم فيه وقيل يعرف به الكفار والضلال ويدل للاول قوله تعالى (يا عباد فاتقون) اى ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة ووجه الدلالة ان اضافة العبيد الى الله تعالى فى القرآن تختص باهل الايمان (والذين اجتنبوا الطاغوت) اى البالغ غاية الطغيان والطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت الا ان فيه قلبا بتقديم اللام على العين اذ اصله طغيوت قدمت الياء على الغين ثم قلبت الفا لتحركها وانفتاح ما قبلها اطلقت على الشيطان او الشياطين لكونها مصدرا وفيها مبالغات وهى التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وان البناء بناء مبالغة فان الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط والقلب وهو للاختصاص قال فى الكشاف اذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها هنا الجمع انتهى لكن ابن الخازن فسر الطاغوت بالاوثان وتبعه الجلال المحلى (فان قيل) يتعين هذا التفسير لانهم انما عبدوا الصنم لا الشيطان (اجيب) بان الداعى الى عبادة الصنم هو الشيطان فلما كان هو الداعى كانت عبادة الصنم عبادة له (فان قيل) ما وجه تسمية الصنم بالطاغوت على التفسير الثانى مع أنه لا يطلق الا على الشيطان كما مر (اجيب) بانه اطلق عليه على سبيل المجاز لان الطغيان لما حصل بسبب عبادته والتقرب اليه وصفه بذلك اطلاقا لاسم السبب على المسبب بحسب الظاهر وقوله تعالى (ان يعبدوها) بدل اشتمال من الطاغوت لان الطاغوت مؤنث كأنه قيل اجتنبوا عبادة الطاغوت (فان قيل) على التفسير الاول انما عبدوا الصنم لا الشيطان (اجيب) بانه الداعى الى عبادة الصنم * (فائدة) * نقل فى التواريخ ان الاصل فى عبادة الاصنام ان القوم مشبهة واعتقدوا فى الاله انه نور عظيم وان الملائكة أنوار مختلفة فى الصغر والكبر فوضعوا تماثيل صورها على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقادهم انهم يعبدون الله والملائكة (وانابوا) اى رجعوا (الى الله) اى الى عبادة الله بكليتهم وتركوا ما كانوا عليه من عبادة غيره ثم انه تعالى وعد هؤلاء باشياء احدها قوله تعالى (لهم البشرى) اى فى الدنيا والآخرة اما فى الدنيا فالثناء عليهم بصالح اعمالهم وعند نزول

ومفعولا وهو انهم عبدوا عقب الاخبار عنهم بانهم عبدوا فقالوا هذا فى عبب فناسب فيه ذكر الفاء دون

الموت وعند الوضع فى القبر واما فى الآخرة فعند الخروج من القبور وعند الوقوف للحساب وعند جواز الصراط وعند دخول الجنة ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل لهم البشارة بنوع من الخير والراحة والروح والريحان ● (تنبيه) ● يحتمل ان يكون المبشر لهم هم الملائكة عليهم السلام لانهم يبشرونهم عند الموت لقوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم وعند دخول الجنة لقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ويحتمل ان يكون هو الله تعالى لقوله تعالى تحيتهم يوم يلقونه سلام ولا مانع ان يكون من الله تعالى ومن الملائكة عليهم السلام فان فضل الله تعالى واسع وقوله تعالى (فبشر عباد) قرأه السوسى بياء بعد الدال مفتوحة فى الوصل ساكنة فى الوقف والباقون بغير ياء (الذين يستمعون القول) اى يجميع افراده (فيتبعون احسنه) اى كل عزائمه بعد انتقاده (احسنه) اى عباداتهم عليه قولهم من غير عدول الى ادنى ● (تنبيه) ● فى هذا وضع الظاهر موضع مضمر الذين اجتنبوا للدلالة على مبدا اجتنابهم وانهم نقاد فى الدين يميزون بين الحسن والاحسن والفاضل والافضل فاذا اعترضهم امران واجب وندب اختاروا الواجب او مباح وندب اختاروا الندب حرصا على ماهو اقرب عند الله واكثر ثوابا ويدخل تحت ذلك ابواب التكاليف وهى قسمان عبادات ومعاملات فاما العبادات فكقولنا الصلاة التى يذكر فى تحريمها الله اكبر مع اقتران النية ويقرأ فيها الفاتحة ويؤتى فيها بالطمأنينة فى مواضعها الخمسة ويتشهد فيها ويخرج منها بالسلام لاشك انها احسن من الصلاة التى لا يراعى فيها شئ من هذه الاحوال فان لم نقل فوجب على العاقل ان يختار هذه الصلاة دون غيرها اه وكذا القول فى جميع ابواب العبادات قال فى الكشاف ويدخل تحته المذاهب واختيار اثبتها على السبك واقواها عند السبر وابينها دليلا وامارة ولا تكن فى مذهبك كما قال القائل ● ولا تكن مثل عير قيد فانقادا ● يريد المقلد اه واما المعاملات فكالعفو والصبر فان تحملهما اولى وان كان الاول راجحا والثانى مندوبا وكذا القول فى جميع المعاملات وقيل يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن وقيل يستمعون اوامر الله تعالى فيتبعون احسنها نحو القصاص والعفو قال تعالى وان تعفوا اقرب للتقوى وعن ابن عباس هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو فيحدث باحسن ما يسمعه ويكف عما سواه وروى عن ابن عباس امن ابو بكر بالنبى صلى الله عليه وسلم فجاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص وسعيد بن زيد فسألوه فاخبرهم بايمانه فآمنوا ونزل فيهم فبشر عباد الآية (اولئك) اى العالو الهمة والرتبة (الذين هداهم الله) بما هو من صفات الكمال لديه (واولئك هم اولوا الالباب) اى اصحاب العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة وقال ابو زيد نزل والذين اجتنبوا الطاغوت الآية فى ثلاثة نفر كانوا فى الجاهلية يقولون لا اله الا الله زيد بن عمرو وابو ذر الغفارى وسلمان الفارسى والاحسن لا اله الا الله وفى هذه الآية لطيفة وهى ان حصول الهداية فى العقل والروح حادث فلا بد من فاعل وقابل فاما الفاعل فهو الله تعالى وهو المراد من قوله تعالى اولئك الذين هداهم الله واما القابل فاليه الاشارة بقوله تعالى واولئك هم

اولوا

ماهنا لقوله الازل عليه الذكر من بيننا قاله هنا بلفظ الازل وفى القمر بلفظ الالقى لان ماهنا حكاية عن كفار

اولوا الالباب فان الانسان ما لم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقيقية في قلبه واختلف في معنى قوله تعالى (افمن حق) واسقط تاء التأنيث الدالة على اللين تأكيدا للنهي عن الاسف عليهم (عليه كلمة العذاب) فقال ابن عباس معنى الآية من سبق في علم الله انه في النار وقيل كلمة العذاب قوله تعالى لاملأن جهنم الآية وقيل قوله تعالى هؤلاء للنار ولا ابالي وقوله تعالى (افانت تنقذ) اي تخرج (من في النار) جواب الشرط وقيم فيه الظاهر مقام المضمر اذ كان الاصل افانت تنقذه وانما وقع موقعه شهادة عليه بذلك والهمزة للانكار والمعنى لا تقدر على هدايته فتنقذه من النار وقال ابن عباس يريد ابا لهب وولده ويجوز ان تكون من موصولة في محل رفع بالابتداء وخبره محذوف واختلف في تقديره فقدره ابو البقاء كمن نجا وقدره الزمخشري فانت تخلصه فحذف لدلالة فانت تنقذه عليه وقدره غيرهما تتأسف عليه وقدره آخر يتخلص منه اي من العذاب وقوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم) استدراك بين شيئين نقيضين او ضدين وهما المؤمنون والكافرون اي جعلوا بينهم وبين غضب ربهم وقاية في كل حركة وسكون فلم يعملوا شيئا من ذلك الا بنظر يدلهم على رضاه وقوله تعالى (لهم غرف) اي علالي من الجنة يسكنونها (من فوقها غرف) شديدة العلو مقابل لما ذكر في وصف الكفار لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل والمعنى لهم منازل في الجنة رفيعة ومن فوقها منازل ارفع منها (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى (مبنية) اجيب بان المنزل اذا بني على منزل آخر كان الفوقاني اضعف بناء من التحتاني فقوله تعالى مبنية فائدته انه وان كان فوق غيره لكنه في القوة والشدة مساو للمنزل الاسفل ولما كانت المنازل لا تطيب الا بالماء وكان الجاري احسن وانزه قال تعالى (تجري من تحتها) اي من تحت تلك الغرف الفوقانية والتحتانية (الانهار) اي الجنة كما قال تعالى فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى وقوله تعالى (وعد الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة فهو منصوب بفعله المقدر لان قوله تعالى لهم غرف في معنى وعدهم الله ذلك (لا يخلف الله الميعاد) لان الخلف نقص وهو على الله محال وعن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان اهل الجنة يتراءون اهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الافق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وقوله الغابر اي الباقي في الافق في ناحية المشرق والمغرب ولما وصف الله تعالى الآخرة بوصف يوجب الرغبة العظيمة فيها وصف الدنيا بصفات توجب اشتداد النفرة عنها بقوله تعالى (الم تر) اي تعلم (ان الله) اي الذي له كمال القدرة (انزل من السماء) اي التي لا يستمسك الماء فيها الا بقدرة باهرة تقهر الماء على ذلك والمراد بالسماء الجرم او السحاب (ماء) وهو المطر قال الشعبي كل ما في الارض فمن السماء نزل ثم انه تعالى ينزله الى بعض المواضع ثم يقسمه (فسلكه) اي ادخل ذلك الماء خلال التراب حال كونه (ينابيع في الارض) اي عيونا ومجاري ومسالك كالعروق في الاجسام (ثم يخرج) الله

قريش فناسب التعبير
لوقوعه انكار لما قرأه
عليهم النبي صلى الله عليه
وسلم من قوله تعالى ونزلنا

تعالى (به) أى بالماء (زرعا مختلفا الوانه) من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ومختلفا اصنافه من بر وشعير وسمسم وغيرها (ثم يهيج) اى ييبس (فتراه) بعد الخضرة مثلا (مصفرا) من يبسه لانه اذا تم جفافه حان له ان ينفصل عن منابته (ثم يجعله حطاما) أى فتاتا (ان فى ذلك) اى التدبير على هذا الوجه (لذكرى) اى تذكيرا وتنبيها (لاولى الالباب) أى اصحاب العقول الصافية جدا فيتذكرون هذه الاحوال فى النبات فيعلمون بدلالته على وحدانية الله تعالى شأنه وقدرته واحوال الحيوان والانسان وانه وان طال عمره فلا بد من الانتهاء الى ان يصير مصفر اللون متحطم الاعضاء والاجزاء ثم تكون عاقبته الموت فاذا كانت مشاهدة هذه الاحوال فى النبات مذكرة حصول مثل هذه الاحوال فى نفسه فى حياته فحينئذ تعظم نفرته عن الدنيا ولذاتها * ولما بين تعالى الدلائل على وجوب الاقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الاعراض عن الدنيا ولذاتها ذكر ان الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل الا اذا شرح الصدور ونور القلوب فقال سبحانه (افمن شرح الله) أى الذى له القدرة الكاملة (صدره للاسلام) أى وسعه لقبول الحق فاهتدى (فهو) أى بسبب ذلك (على نور من ربه) أى الحسن اليه كمن اقسى الله تعالى قلبه دل على هذا (فويل) كلمة عذاب (للقاسية قلوبهم من ذكر الله) قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة اعظم من قسوة القلب وما غضب الله تعالى على قوم الا نزع منهم الرحمة واما نور الله تعالى فهو لطفه وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقيل يا رسول الله فما علامة انشراح الصدر للاسلام قال الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والتاهب للموت قبل نزول الموت (فان قيل) ان ذكر الله تعالى سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب فكيف جعله فى هذه الآية سببا لحصول القسوة فى القلب (أجيب) بان النفس اذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل الى الطباع البهيمية والاخلاق الذميمة فان سماعها الذكر الله تعالى يزيدها قسوة وكدرة مثاله أن الفاعل الواحد تختلف أمثاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح وقد نرى انسانا واحدا يذكر كلاما واحدا فى مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره وما ذاك الا بحسب اختلاف جواهر النفوس * ولما نزل قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الآية وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حاضر والنبى صلى الله عليه وسلم يقرؤها فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قوله تعالى ثم انشاناه خلقا آخر قال كل واحد منهما تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فكذا نزلت فازداد عمر رضى الله عنه ايمانا على ايمانه وارتد ذلك الانسان واذا عرف ذلك لم يبعد أن يكون ذكر الله تعالى يوجب النور والهداية والاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية ويوجب القنوط والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة وقيل من بمعنى عن اى قست قلوبهم عن قبول ذكر الله وجرى على ذلك الجلال المحلى (أولئك) اى هؤلاء البعداء (فى ضلال مبين) أى بين قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله

الذى ذكره حسين للناس
ما نزل اليوم وما فى القصر
حكاية عن قوم صالح وكانت
الانبياء تأتى اليوم بعضهم

عنه وفي أبي بن خلف وقيل في علي وحمزة وأبي لهب وولده وقيل في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل (الله) الفعال لما يريد الذي له مجامع العظمة والاحاطة بصفات الكمال (نزل) أي بالتدريج للتدريب وللجواب عن كل شبهة (أحسن الحديث) أي القرآن روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا حدثنا فنزلت وكونه أحسن الحديث لوجهين أحدهما من جهة اللفظ والآخر من جهة المعنى أما الاول فلان القرآن أفصح الكلام وأبلغه وأجزله وليس هو من جنس الشعر ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل في أسلوبه مع أن كل طبع سليم يستلذه ويستطيبه وأما من جهة المعنى فهو منزه عن التناقض والاختلاف قال جل ثناؤه ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ومشتمل على أخبار الماضين وقصص الاولين وعلى أخبار الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل وعلى الوعد والوعيد والجنة والنار وفي ايقاع لفظ الجلالة مبتدأ وبناء نزل عليه تفخيم لاحسن الحديث واستشهاد على حسنه وتأكيد لاستناده الى الله تعالى وانه من عنده وان مثله لا يجوز أن يصدر الا عنه وتنبيه على أنه وحي معجز مباين لسائر الاحاديث وقوله تعالى (كتابا) أي جامعا لكل خير بدل من أحسن الحديث وقيل حال منه بناء على أن أحسن الحديث معرفة لاضافته الى معرفة وأفعل التفضيل اذا أضيف الى معرفة فيه خلاف فقيل اضافته محضة وقيل غير محضة والصحيح الاول وقوله تعالى (متشابها) نعت لكتابا وهو المسوغ لمجيء الجامد حالا أو انه في قوة مكتوب وتشابهه بتشابه أبعاضه في الاعجاز والبلاغة والموعظة الحسنة لا تفاوت فيه أصلا في لفظ ولا معنى مع كونه نزل مفرقا في نيف وعشرين سنة وأما كلام الناس فلا بد فيه من التفاوت وان طال الزمان في التهذيب سواء اتحد زمانه أم لا وقوله تعالى (مثاني) جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه أو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والاعادة وقيل لانه يثنى في التلاوة فلا يمل كما جاء في وصفه لا يخلق على كثرة الترداد (فان قيل) كيف وصف كتابا وهو مفرد بالجمع (أجيب) بان الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير الا ترى أنك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ونظيره قولك الانسان عظام وعروق وأعصاب الا انك تركت الموصوف الى الصفة وأصله كتابا متشابها فصولا مثاني ويجوز أن يكون مثاني منتصبا على التمييز من متشابها كما تقول رأيت رجلا حسنا شمائل (فان قيل) ما فائدة التثنية والتكرير (أجيب) بان النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة فما لم يكرر عليها عودا على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظهم به وينصح ثلاث مرات وسبعا ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم (تقشعر) أي تضطرب وتشمئز (منه) عند ذكر وعيده (جلود) أي ظواهر أجسام (الذين يخشون) أي يخافون (ربهم) والمعنى تأخذهم قشعريرة وهو تغير يحدث في جلد الانسان عند ذكر آيات العذاب (ثم تلين) أي تطمئن (جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) أي عند ذكر وعده والمعنى اذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم كما قال

مكتوبة فناسب التعبير
بالباء وقدم الجار والمجرور
على الذكر هنا موافقة
لما قرأه النبي صلى الله عليه

تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها وفى رواية حرمه الله على النار قال قتادة هذا نعت أولياء الله تعالى نعتهم الله تعالى بان تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم وانما ذلك فى أهل البدع وهو من الشيطان وعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال قلت لجدتى أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون اذا قرئ عليهم القرآن قالت كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم قال قلت لها ان ناسا اليوم اذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه قالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وروى أن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مر برجل من أهل العراق ساقط فقال ما بال هذا فقالوا انه اذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله تعالى سقط فقال انا لنخشى الله تعالى وما نسقط وقال ابن عمر ان الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون اذا قرئ عليهم القرآن فقال بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله الى آخره فان رمى بنفسه فهو صادق (فان قيل) لم ذكرت الجلود وحدها أولا فى جانب الخوف ثم قرنت بها القلوب ثانيا فى الرجاء (أجيب) بان الخشية التى محلها القلوب اذا ذكرت فقد ذكرت القلوب فكأنه قيل تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم فى أول وهلة واذا ذكر الله تعالى ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء فى قلوبهم وبالقشعريرة لينا فى جلودهم (فان قيل) ما وجه تعدية تلين بالى (أجيب) بانه ضمن معنى فعل متعد بالى كأنه قيل سكنت أو اطمأنت الى ذكر الله تعالى (فان قيل) كيف قال الله تعالى الى ذكر الله ولم يقل الى رحمة الله (أجيب) بان من أحب الله تعالى لاجل رحمته فهو ما أحب الله تعالى وانما أحب شيأ غيره وأما من أحب الله تعالى لا لشئ سواه فهو المحب الحق وهى الدرجة العالية كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب (ذلك) اى القرآن الذى هو أحسن الحديث (هدى الله) الذى له صفات الكمال (يهدى به من يشاء) اى وهو الذى شرح الله تعالى صدره أولا لقبول الهداية (ومن يضلل الله) اى يجعل قلبه قاسيا مظلما (فماله من هاد) أى يهديه وقرأ ابن كثير فى الوقف باثبات الياء بعد الدال والباقون بغير الياء واتفقوا فى الوصل على عدم الياء ولما حكم الله تعالى على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وهو الضلال التام حكم عليهم فى الآخرة بحكم آخر وهو العذاب الشديد فقال (أفمن يتقى بوجهه سوء) اى شدة (العذاب) اى يجعله وقاية يقى بها نفسه لانه تكون يداه مغلولتين الى عنقه (يوم القيامة) فلا يقدر ان يتقى الا بوجهه وقال مجاهد يجر على وجهه فى النار وقال عطاء يرمى به فى النار منكوسا فاول شئ يلقى فى النار وجهه وقيل يلقى فى النار مغلولة يداه الى عنقه وفى عنقه صخرة عظيمة من كبريت مثل الجبل العظيم فتشتعل النار فى تلك الصخرة وهى فى عنقه فحرها ووهجها على وجهه لا يطيق دفعها عنه للاغلال التى فى يديه وعنقه وقيل المراد بالوجه الجملة وقيل نزلت فى أبى جهل ومعنى الآية أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب كمن أمن من العذاب

وسلم على المنكرين وعكس فى القمر جريا على الاصل من تقديم المفعول بلا واسطة على المفعول

بدخول الجنة فحذف الخبر كما حذف فى نظائره (وقيل) اى تقول الخزنة (للظالمين) أى الكافرين وكان الاصل لهم فوضع الظاهر موضعه تسجيلا عليهم بالظلم (ذوقوا ما) أى وبال الذى (كنتم تكسبون) اى تعملون فى الدنيا من المعاصى ❊ ولما بين تعالى كيفية عقاب القاسية قلوبهم فى الآخرة و بين كيفية وقوعهم فى العذاب قال تعالى (كذب الذين) وأشار الى قرب زمان المعذبين من زمانهم بادخال الجار فقال تعالى (من قبلهم) أى من قبل كفار مكة اى مثل سبا وقوم تبع كذبوا رسلهم فى اتيان العذاب (فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) اى من جهة لا يخطر ببالهم ان الشر يأتيهم منها (فأذاقهم الله) اى الذى له القدرة الكاملة (الخزى) أى الذل والهوان من المسخ والقتل وغيرهما (فى الحيوة الدنيا) أى العاجلة الدنيئة (ولعذاب الآخرة) اى المعد لهم (أكبر) أى من ذلك الذى وقع بهم فى الدنيا (لو كانوا) اى المكذبون (يعلمون) اى عذابها ما كذبوا ولكن لا علم لهم اصلا ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا ❊ ولما ذكر تعالى هذه الفوائد الكثيرة فى هذه المطالب بين ان هذه البينات بلغت حد الكمال والتمام فقال تعالى (ولقد ضربنا) اى جعلنا (للناس) أى عامة لان رسالته صلى الله عليه وسلم عامة (فى هذا القرآن) اى الجامع لكل علم وكل خير (من كل مثل) اى يحتاج اليه الناظر فى امر دينه (لعلهم يتذكرون) أى يتعظون به وقرأ نافع وقالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال عند الضاد والباقون بالادغام وقوله تعالى (قرآنا عربيا) فيه ثلاثة أوجه أحدها ان يكون منصوبا على المدح لانه لما كان نكرة امتنع اتباعه للقرآن ثانيها ان ينتصب بيتذكرون اى يتذكرون قرآنا ثالثها ان ينتصب على الحال من القرآن على انها حال مؤكدة وتسمى حالا موطئة لان الحال فى الحقيقة عربيا وقرآنا توطئة له نحو جاء زيد رجلا صالحا (غير ذى عوج) أى مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف نعت لقرآنا او حال اخرى (فان قيل) هلا قيل مستقيما اوغير معوج (اجيب) بان فى ذلك فائدتين احداهما نفى أن يكون فيه عوج قط كما قال تعالى ولم يجعل له عوجا ثانيهما أن لفظ العوج مختص بالمعانى دون الاعيان وقيل المراد بالعوج الشك واللبس قال القائل

وقد أتاك يقين غير ذى عوج ❊ من الاله وقول غير مكذوب

(لعلهم يتقون) أى الكفر (تنبيه) ❊ وصف تعالى القرآن بثلاث صفات أولها كونه قرآنا والمراد كونه متلوا فى المحاريب الى قرب قيام الساعة ثانيها كونه عربيا أى انه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ثالثها كونه غير ذى عوج قال مجاهد غير ذى لبس وقال ابن عباس رضى الله عنهما غير مختلف وقال السدى غير مخلوق و يروى ذلك عن مالك بن أنس وحكى شقيق وابن عيينة عن سبعين من التابعين أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق ❊ ولما شرح الله تعالى وعيد الكفار مثل لما يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم بقوله تعالى (ضرب الله) أى الذى له الملك كله (مثلا) أى للمشركين والموحدين وقوله تعالى (رجلا) بدل من مثلا وقوله تعالى (فيه شركا) يجوز أن تكون الجملة من مبتدا وخبر فى محل نصب صفة لرجلا و يجوز أن يكون الوصف الجار وحده وشركاء فاعل به قال ابن عادل وهو أولى لقربه من المفرد

بواسطة (قوله كذبت قبلهم قوم نوح) الى قوله فحق عقاب ختم أواخر آياته هنا بما قبل آخره ألف

وقوله تعالى (متشاكسون) صفة لشركاء والتشاكس التخالف وأصله سوء الخلق وعسره
وهو سبب التخالف أي متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم يقال رجل شكس وشرس اذا كان
سيء الخلق مخالفا للناس لا يرضى بالانصاف (ورجلا سالما) أي خالصا من نزاع (لرجل) أي
خالصا له لا شريك له فيه ولا منازع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بألف بعد السين وكسر اللام بعدها
والباقون بغير ألف وفتح اللام وهو الذي لا ينازع فيه من قولهم هو لك سلم أي مسلم لا منازع
لك فيه وقوله تعالى (هل يستويان) استفهام انكار أي لا يستويان وقوله تعالى (مثلا)
تمييز والمعنى اضرب لقومك مثلا وقل لهم ما تقولون في رجل مملوك لشركاء بينهم اختلاف
وتنازع وكل واحد يدعي أنه عبده فهم يتجاذبونه حوائجهم وهو متحير في أمره وكلما أرضى
أحدهم غضب الباقون واذا احتاج اليهم فكل واحد يرده الى الآخر فبقي متحيرا لا يعرف
أيهم أولى أن يطلب رضاه وأيهم يعينه في حاجاته فهو بهذا السبب في عذاب أليم وآخر له
مخدوم واحد يخدمه على سبيل الاخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهماته فأي هذين العبدين
أحسن حالا لا شك ان هذا أقرب الى الصلاح من حال الاول فان الاول مثل المشرك والثاني
مثل الموحد وهذا المثال في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين الموحد (فان قيل) هذا
المثال لا ينطبق على عبادة الاصنام لانها جمادات فليس بينها منازعة ولا تشاكس (أجيب)
بأن عبدة الاصنام مختلفون منهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم
في الحقيقة انما يعبدون الكواكب السبعة وهم يثبتون بينها منازعة ومشاكسة ألا ترى
أنهم يقولون زحل هو النحس الاعظم والمشتري هو السعد الاعظم ومنهم من يقول هذه
الاصنام تماثيل الارواح الفلكية والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع
حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الارواح السماوية وحينئذ يحصل بين تلك الارواح
منازعة ومشاكسة فيكون المثال مطابقا ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل لاشخاص
من العلماء والزهاد مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل ليصير أولئك الاشخاص من العلماء
والزهاد شفعاء لهم عند الله تعالى والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم ان الحق هو ذلك
الرجل الذي هم على دينه وان من سواه مبطل وعلى هذا التقدير أيضا ينطبق المثال ولما
بطل القول باثبات الشركاء والانداد وثبت انه لا اله الا هو الواحد الاحد الحق قال الله تعالى
(الحمد) اي الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) اي كل الحمد لله الذي لا مكافئ له فلا يشاركه فيه على
الحقيقة سواه لانه المنعم بالذات والمالك على الاطلاق (بل أكثرهم) اي أهل مكة (لا يعلمون)
أي ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون به غيره من فرط جهلهم وقول البغوي والمراد
بالاكثر الكل ليس بظاهر ولما كان كفار مكة يتربصون موت رسول الله صلى الله عليه وسلم
أخبره الله تعالى بان الموت يعمهم جميعا بقوله تعالى (انك ميت) أي ستموت وخصه الله تعالى
بالخطاب لان الخطاب اذا كان للرأس كان اصدع لاتباعه فكل موضع كان للاتباع وخص
فيه صلى الله عليه وسلم بالخطاب دونهم فهم المخاطبون في الحقيقة على وجه أبلغ (وانهم
ميتون) أي سيموتون فلا معنى للتربص وشماتة الفاني بالفاني (فائدة) قال الفراء الميت
بالتشديد من لم يمت وسيموت والميت بالتخفيف من فارقته الروح ولذلك لم يخفف هنا وقوله تعالى

وآيات قوله في كذبت قبلهم قوم نوح الى قوله حق وعيد مما قبل آخره ياء أو واو وفقه ابقية

(ثم انكم) فيه تغليب المخاطب على الغائب (يوم القيامة عند ربكم) أي المربي لكم بالخلق والرزق (تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت وكذبوا واجتهدت في الارشاد والتبليغ فلجوا في التكذيب والعناد ويعتذرون بالاباطيل يقول الاتباع أطعنا سادتنا وكبراءنا وتقول السادات أغوتنا آباؤنا الاقدمون والشياطين ويجوز أن يكون المراد به الاختصام العام وجرى عليه الجلال المحلي وهو أولى وان رجح الاول الكشاف لما روى عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما لما نزلت هذه الآية قال يا رسول الله أتكون علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا قال نعم فقال ان الامر اذا لشديد وقال ابن عمر عشنا برهة من الدهر وكنا نرى ان هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين قلنا كيف نختصم وديننا واحد وكتابنا واحد حتى رأينا بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفنا أنها فينا نزلت وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في هذه الآية قال كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا هو هذا وعن ابراهيم النخعي قال لما نزلت قالت الصحابة كيف نختصم ونحن اخوان فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا هذه خصومتنا وعن أبي العالية نزلت في أهل القبلة وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانت لاخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليستحله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم فان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له أخذ من سيئاته فجعلت عليه وعن أبي هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال ان المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وقد كان شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيقضي هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ثم انه تعالى بين نوعا آخر من قبائح أعمالهم بقوله تعالى (فمن) أي لا أحد (أظلم) أي منهم هكذا كان الاصل ولكن قال تعالى (ممن كذب) تعميما (على الله) أي الذي الكبرياء رداؤه والعظمة ازاره بنسبة الولد والشريك اليه (وكذب) أي أوقع التكذيب لكل من أخبره (بالصدق) أي بالامر الذي هو الصدق بعينه وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (اذ جاءه) أي فاجأه بالتكذيب لما سمع من غير وقفة ولا اعمال روية بتمييز بين حق و باطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال عند الجيم والباقون بالادغام ثم أردف ذلك بالوعيد فقال (أليس في جهنم) أي النار التي تلقى داخلها بالتجهم والعبوسة كما كان يلقى الحق وأهله (مثوى) أي مأوى (للكافرين) أي لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق واللام في للكافرين اشارة اليهم والاستفهام بمعنى التقرير ولما ذكر من افترى وكذب ذكر مقابله وهو الذي جاء بالصدق وصدق به بقوله تعالى (والذي جاء بالصدق) قال قتادة ومقاتل هو النبي صلى الله عليه وسلم (وصدق به) هم المؤمنون فالذي بمعنى الذين ولذلك روعي معناه فجمع في قوله تعالى (أولئك) أي العالو الرتبة (هم المتقون) اي الشرك كما روعي معنى من في قوله تعالى للكافرين فان الكافرين ظاهر

(قوله فو اصل السنورتين) (قوله قالوا الا تخف خصمان) أي قالوا حين دخلوا على داود عليه السلام نحن خصمان

واقع موقع الضمير اذ الاصل مثوى لهم وكما فى قوله تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ثم قال تعالى ذهب الله بنورهم قال الزمخشرى ويجوز أن يريد الفوج أو الفريق الذى جاء بالصدق وصدق به وهم الرسول الذى جاء بالصدق وصحابته رضى الله تعالى عنهم الذين صدقوا به اه قال أبو حيان وفيه توزيع للصلة والفوج هو الموصول فهو كقولك جاء الفريق الذى شرف وشرف والاظهر عدم التوزيع بل المعطوف على الصلة صلة لمن له الصلة الاولى وقيل بل الاصل والذين جاء بالصدق فحذفت النون تخفيفا كقوله تعالى كالذى خاضوا قال ابن عادل وهذا وهم اذ لو قصد ذلك لجاء بعده ضمير الجمع فكان يقال والذى جاؤا كقوله تعالى كالذى خاضوا ويدل عليه ان نون التثنية اذا حذفت عاد الضمير مثنى كقوله

أبنى كليب ان عمى اللذا ● قتلا الملوك وفككا الاغلالا

وقال ابن عباس رضى الله عنهما والذى جاء بالصدق يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بلا اله الا الله وصدق به الرسول أيضا بلغه الى الخلق وقال السدى والذى جاء بالصدق جبريل عليه السلام جاء بالقرآن وصدق به محمد صلى الله عليه وسلم تلقاه بالقبول وقال أبو العالية والكلبى والذى جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق به أبو بكر رضى الله عنه وقال عطاء والذى جاء بالصدق الانبياء وصدق به الاتباع وقال الحسن هم المؤمنون صدقوا به فى الدنيا وجاؤا به فى الآخرة وقوله تعالى (لهم ما يشاؤن) اى من أنواع الكرامات (عند ربهم) اى فى الجنة يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه (ذلك) اى هذا الجزاء (جزاء المحسنين) لانفسهم بايمانهم وقوله تعالى (ليكفر الله عنهم) يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ومعنى تكفيرها أن يسترها عليهم بالمغفرة ● (تنبيه) ● فى تعلق هذه اللام وجهان أحدهما أنها متعلقة بمحذوف أى يسر لهم ذلك ليكفر ثانيهما أنها متعلقة بنفس المحسنين كانه قيل الذين أحسنوا ليكفر أى لاجل التكفير وقوله تعالى (أسوأ الذى) أى العمل الذى (عملوا) فيه مبالغة فانه اذا كفر كان غيره أولى بذلك أو للايذان بان الشئ الذى يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة هو عندهم الاسوأ لاستعظامهم المعصية أو أنه بمعنى السئ كما جرى عليه الجلال المحلى كقولهم الناقص والاشج أعدلا بنى مروان أى عادلاهم اذ ليس المراد به التفضيل والناقص هو محمد الخليفة سمى به لانه نقص أعطية القوم والاشج هو عمر بن عبد العزيز سمى به لشجة أصابت رأسه (ويجزيهم أجرهم) أى ويعطيهم ثوابهم (باحسن الذى) أى العمل الذى (كانوا يعملون) أى فيعدلهم محاسن أعمالهم باحسنها فى زيادة الاجر لحسن اخلاصهم فيها وهذا أولى من قول الجلال المحلى انه بمعنى الحسن وقوله تعالى (أليس الله) أى الجامع لصفات الكمال كلها المنعوت بنعوت العظمة والجلال (بكاف عبده) أى الخالص له استفهام انكار للنفى مبالغة فى الاثبات وقرأ حمزة والكسائى بكسر العين وفتح الباء الموحدة وألف بعدها على الجمع وقرأ الباقون بفتح العين وسكون الباء على الافراد فقراءة الافراد محمولة على النبى صلى الله عليه وسلم وقراءة الجمع على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان قومهم قصدوهم بالسوء كما قال الله تعالى وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وكفاهم الله تعالى شر من عاداهم ويحتمل ان يراد بقراءة الافراد الجنس

رحمهما الله كان مثلا
أنفسهما بغضهما يبغى
أحدهما على الآخر على
سبيل الفرض والتصوير

فتيـاوى

فقـ اوى قراءة الجمع وقيل المراد ان الله تعالى كفى نوحا عليه السـلام الغرق وابراهيم عليه السلام الحرق ويونس عليه السـلام بطن الحوت فهو سبحانه وتعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك (ويخوفونك) اى عباد الاصنام (بالذين من دونه) وذلك ان قريشا خوفوا النبي صلى الله عليه وسلم معاداة الاوثان وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا او ليصيبنك منهم خبل او جنون فانزل الله تعالى هذه الآية وروى انه صلى الله عليه وسلم بعث خالدا الى العزى ليكسرها فقال له سادنها اى خادمها الاتذركها احذركها يا خالد ان لها شدة لا يقوم لها شئ فعمد خالد اليها فهشم أنفها فنزلت هذه الآية ٭ ولما شرح الله الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل فقال تعالى شانه (ومن يضلل الله) اى الذى له الامر كله (فما له من هاد) اى يهديه الى الرشاد (ومن يهد الله فما له من مضل) اى فهذه الدلائل والبينات لا تنفع الا اذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق اذا اراد اضله كما قال تعالى (أليس الله) اى الذى بيده كل شئ (بعزيز) اى غالب على أمره (ذى انتقام) اى من أعدائه بلى هو كذلك وفى هذا تهديد للكفاره ولما بين تعالى وعيد المشركين ووعد الموحدين عاد الى اقامة الدليل على تزييف طريق عبدة الاوثان وهذا الترتيب مبنى على أصلين الاول أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الاله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد من قوله تعالى (ولئن سألتهم) اى من شئت منهم فرادى أو مجموعين واللام لام القسم (من خلق السموات) اى على مالها من الاتساع والعظمة والارتفاع (والارض) أى على مالها من العجائب وفيها من الانتفاع (ليقولن الله) اى وحده لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية قال بعض العلماء العلم بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم علم متفق عليه بين جمهور الخلائق لانزاع بينهم فيه وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فان من تأمل فى عجائب بدن الانسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة علم انه لابد من الاعتراف بالاله القادر الحكيم الرحيم والاصل الثانى ان هذه الاصنام لاقدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله تعالى (قل أرأيتم) اى بعد ما تحققتم ان خالق العالم هو الله تعالى (ما تدعون) اى تعبدون (من دون الله) اى الذى هو ذو الجلال والاكرام (ان أرادنى الله) اى الذى لاراد لامره (بضر) اى بشدة وبلاء (هل هن كاشفات ضره) اى لا تقدر على ذلك (أو أرادنى برحمة) أى بعافية وبركة (هل هن ممسكات رحمته) اى لا تقدر على ذلك فثبت انه لابد من الاقرار بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم قال مقاتل فسألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فسكتوا وقرأ ابو عمرو بتنوين التاء من كاشفات وممسكات ونصب الراء من ضره ورفع الهاء ونصب التاء من رحمته والباقون بغير تنوين فيهما وكسر الراء والهاء من ضره والتاء والهاء من رحمته واذا كانت هذه الاصنام لاقدرة لها على الخير والشر كانت عبادة الله تعالى كافية والاعتماد عليه كافيا وهو المراد من قوله تعالى (قل حسبى الله) اى ثقتى به واعتمادى (عليه يتوكل المتوكلون) اى يثق الواثقون (فان قيل) لم قال تعالى كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله تعالى ويخوفونك بالذين من دونه (اجيب) بانه انثهن تحقيرا لما يدعون من دونه ولانهم كانوا يسمونها باسماء الاناث وهى اللات والعزى ومناة قال الله تعالى

لان الاثنى كمنتفت منهم البغى والظلم وكذا قوله ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة

أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل يا قوم) أى الذين ارجوهم عند المهمات وفيهم كفاية فى القيام بما يحاولون (اعملوا على مكانتكم) أى على حالتكم فيه تهديد اى انكم تعتقدون فى انفسكم انكم فى نهاية القوة والشدة فاجتهدوا فى انواع مكركم وكيدكم وقرأ شعبة بالف بعد النون جمعا والباقون بغير الف افرادا (انى عامل) اى فى تقرير دينى (فسوف تعلمون) اى بوعد لا خلف فيه (من يأتيه) منا ومنكم بسبب اعماله (عذاب يخزيه) فان خزى الله اعداءه دليل عليه وقد اخذهم الله تعالى يوم بدر (ويحل) اى ينزل (عليه عذاب مقيم) اى دائم وهو عذاب النار * (تنبيه) * المكانة بمعنى المكان فاستعيرت من العين للمعنى كما استعير لفظ هنا وحيث للزمان وهما للمكان (فان قيل) حق الكلام انى عامل على مكانتى فلم حذف (اجيب) بانه حذف للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والايذان بان حاله لا تقف وتزداد كل يوم قوة وشدة لان الله تعالى ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله ألا ترى الى قوله تعالى فسوف تعلمون توعدهم بكونه منصورا عليهم غالبا عليهم فى الدنيا والآخرة * ولما بين تعالى فى هذه الآيات فساد مذاهبهم اى المشركين تارة بالدلائل وتارة بضرب الامثال وتارة بذكر الوعد والوعيد وكان صلى الله عليه وسلم يعظم عليه اصرارهم على الكفر كما قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم وقال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات اردفه بكلام يزيل ذلك الحزن العظيم عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (انا انزلنا) اى بما لنا من العظمة والقدرة التامة (عليك) يا أشرف الخلق (الكتاب) اى الكامل الشرف (للناس) اى لاجلهم فانه مناط مصالحهم فى معاشهم ومعادهم فهو للناس عامة لان رسالتك عامة وجعلنا انزاله مقرونا (بالحق) اى بالصدق وهو المعجز الذى يدل على انه من عند الله (فمن اهتدى) اى طاوع الهادى (فلنفسه) اى فنفعه يعود الى نفسه (ومن ضل) اى وقع فى الضلال بمخالفته (فانما يضل عليها) اى فضرر ضلاله يعود اليه ولما دل السياق على أن التقدير فما أنت عليهم بجبار لتقهرهم على الهدى عطف عليه قوله تعالى (وما انت عليهم بوكيل) اى لست مأمورا بان تحملهم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض اليهم وذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولان الهداية والضلال من العبد لا يحصلان الا من الله تعالى لان الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم فكما أن الحياة واليقظة لا يحصلان الا بخلق الله تعالى كذلك الضلال لا يحصل الا من الله تعالى ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى فى القدر ومن عرف سر الله تعالى فى القدر هانت عليه المصائب * ولما بين سبحانه أن الهداية والضلال بتقديره قال تعالى (الله) أى الذى له مجامع الكمال وليس لشائبة النقص اليه سبيل (يتوفى الانفس) أى الارواح (حين موتها) أى موت أجسادها وتوفيها اماتتها وهى أن تسلب ما هى به حساسة دراكة من صحة أجزائها وسلامتها لانها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت وقوله تعالى (والتى لم تمت فى منامها) عطف على الانفس أى يتوفى الانفس حين موتها يتوفى أيضا الانفس التى لم تمت فى منامها ففى منامها ظرف ليتوفى أى يتوفاها حين تنام تشبيها للنائمين بالموتى ومنه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل حتى لا تميزوا ولا تتصرفوا

كما

كقول الفقيه لزيد اربعون شاة وعمرو مثلها او خالطاها وحال عليها الحول كم يجب فيها وليس لهما شئ من

كما أن الموتى كذلك فالتي تتوفى عند النوم هي الانفس التي يكون بها العقل والتمييز ولكل انسان نفسان احداهما نفس الحياة وهي التي تفارقه عند الموت ويزول بزوالها النفس والاخرى هي النفس التي تفارقه اذا نام وهو بعد النوم يتنفس (فيمسك التي قضى عليها الموت) فلا يردها الى جسدها وقرأ حمزة والكسائي بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء بعد الضاد ورفع التاء من الموت والباقون بفتح القاف والضاد وسكون الياء بعد الضاد ونصب الموت (ويرسل الاخرى) اي يردها الى جسدها وهي التي لم يقض عليها الموت (الى أجل مسمى) أي الى الوقت الذي ضرب به لموتها وقيل يتوفى الانفس أي يستوفيها ويقبضها وهي الانفس التي تكون معها الحياة والحركة ويتوفى الانفس التي لم تمت في منامها وهي انفس التمييز قالوا والتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة ولان نفس الحياة اذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس وروا عن ابن عباس رضي الله عنهما في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس التي بها العقل والتمييز والروح التي بها النفس والتحريك فاذا نام العبد قبض الله تعالى نفسه ولم يقبض روحه قال الزمخشري والصحيح ما ذكر أولا لان الله تعالى علق التوفي والموت والمنام جميعا بالانفس وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم وانما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام اهـ ويروى عن علي رضي الله تعالى عنه قال يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فاذا انتبه من النوم عاد الروح الى جسده باسرع من لحظة ويقال ان أرواح الاحياء والاموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله فاذا أرادت العود الى أجسادها أمسك الله تعالى أرواح الاموات عنده وأرسل أرواح الاحياء حتى ترجع الى أجسادها الى أجل مدة حياتها وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوى أحدكم الى فراشه فلينفض فراشه بداخل ازاره فانه لا يدري ما خلفه عليه ثم يقول اللهم باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه فان أمسكت نفسي فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين (ان في ذلك) أي التوفي والامساك والارسال (لآيات) أي دلالات على كمال قدرته وحكمته ورحمته وقال مقاتل لعلامات (لقوم يتفكرون) أي فيعلمون ان القادر على ذلك قادر على البعث (فان قيل) قوله تعالى الله يتوفى الانفس يدل على ان المتوفي هو الله تعالى ويؤيده قوله تعالى الذي خلق الموت والحياة وقوله تعالى عن ابراهيم عليه السلام ربي الذي يحيي ويميت وقال تعالى في آية أخرى اذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا فكيف الجمع (أجيب) بان المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى الا انه تعالى فوض كل نوع الى ملك من الملائكة ففوض قبض الارواح الى ملك الموت وهو الرئيس وتحته اتباع وخدم فاضيف التوفي في آية الى الله تعالى وهي الاضافة الحقيقية وفي آية الى ملك الموت لانه الرئيس في هذا العمل وفي آية الى اتباعه ثم ان الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا نحن لا نعبد هذه الاصنام لاعتقاد انها تضر وتنفع وانما نعبدها لاجل انها تماثيل لاشخاص كانوا عند الله تعالى من المقربين فنحن نعبدها ليشفع لنا أولئك المقربون عند الله تعالى فاجاب الله سبحانه عنه بقوله تعالى (أم اتخذوا) أي كفار مكة بعد وضوح الدلائل عندهم (من دون الله) أي

قوله كما تشغل نفسه بالحلم ذلك وكنى عن الرؤيا بالحلم (قوله الى احيث حب) انقلت ما هي الخير)

قوله فان أمسكت في بعض النسخ ان أمسكت بغير فاء ولعل الاولى رواية وقوله به الصالحين كذا بالنسخ والمحفوظ به عبادك الصالحين أو الصالحين من عبادك ولعل ما هنا رواية أيضا اهـ مصححه

الذى لا امكان له ولا مدانى (شفعاء) أى تشفع لهم عند الله تعالى • (تنبيه) • أم منقطعة فتقدر ببل والهمزة (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء البعداء (أولو) أى أيشفعون ولو (كانوا لا يملكون شيأ) أى من الشفاعة وغيرها (ولا يعقلون) أى أنكم تعبدونهم ولا غير ذلك وجواب لو محذوف تقديره ولو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم (قل) أى لهم (لله) أى الذى له كمال القدرة والعظمة (الشفاعة جميعا) أى هو مختص بها فلا يشفع أحد الا باذنه ثم قرر ذلك فقال (له ملك السموات والارض) أى فانه مالك الملك كله لا يملك أحد أن يتكلم دون اذنه ورضاه (ثم اليه ترجعون) أى يوم القيامة فيكون الملك له أيضا حينئذ ثم ذكر تعالى نوعا آخر من أعمال المشركين القبيحة بقوله تعالى (واذا ذكر الله) أى الذى لا اله غيره (وحده) أى دون آلهتهم (اشمأزت) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد يعنى انقبضت وقال قتادة استكبرت وأصل الاشمئزاز النفور والاستكبار أى نفرت واستكبرت (قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى لا يؤمنون بالبعث (واذا ذكر الذين من دونه) أى الاصنام (اذا هم يستبشرون) أى يفرحون لفرط افتتانهم ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بالغ فى الامرين حتى الغاية فيهما فان الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه والاشمئزاز أن يمتلئ غيظا وغما حتى ينقبض أديم وجهه قال مجاهد ومقاتل وذلك حين قرأ النبى صلى الله عليه وسلم سورة والنجم وألقى الشيطان فى أمنيته تلك الغرانيق العلا ففرح به المشركون وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة الحج • (تنبيه) • قال الزمخشرى فان قلت ما العامل فى اذا ذكر قلت العامل فى اذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجؤا وقت الاستبشار قال أبو حيان أما قول الزمخشرى فلا أعلمه من قول من ينتمى الى النحو وهو ان الظرفين معمولان لفاجؤا ثم قال اذا الاولى تنتصب على الظرفية والثانية على المفعول به • ولما حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار هذا الامر العجيب الذى تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بذكر الدعاء العظيم فقال تعالى (قل اللهم) أى يا الله (فاطر السموات والارض) أى مبدعهما من العدم أى التجئ الى الله تعالى بالدعاء لما تحيرت فى أمرهم وعجزت فى عنادهم وشدة شكيمتهم فانه القادر على الاشياء والعالم بالاحوال كلها (عالم الغيب والشهادة) وصف تعالى نفسه بكمال القدرة وكمال العلم (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أى من أمر الدين وعن الربيع بن خثيم وكان قليل الكلام انه أخبر بقتل الحسين وسخط على قاتله وقالوا الآن يتكلم فما زاد على ان قال آه أوقد فعلوا وقرأ الآية وروى انه قال على أثرها قتل من كان يجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجره ويضع فاه على فيه وعن أبى سلمة قال سألت عائشة رضى الله عنها بم كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته بالليل قالت كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم • ولما حكى الله تعالى عنهم هذا المذهب الباطل ذكر فى وعيدهم أشياء أولها قوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا) أى أنفسهم بالكفر (ما فى الارض جميعا) أى من الاموال (ومثله معه لافتدوا) أى اجتهدوا فى طلب ان يفدوا أنفسهم (به من سوء العذاب

قوله حبا منكرا الحب وقد يقبه بعض نظائره الى احببت حبا مثل حب العلم كقولك احببت حب زيد أى مثل

يوم القيامة) وهذا وعيد شديد وإقناط كلي لهم من الخلاص روى الشيخان عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به فيقول نعم فيقول الله قد أردت منك وفي رواية سألتك أهون من هذا وأنت في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي شيئا وقوله أردت أي فعلت معك فعل الآمر المريد وهو معنى قوله في رواية قد سألتك ثانيا قوله تعالى (وبدا لهم من الله) أي الملك الأعظم (ما لم يكونوا يحتسبون) أي ظهر لهم أنواع من العذاب لم تكن في حسابهم وفي هذا زيادة مبالغة وهو نظير قوله تعالى في الوعد فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقوله صلى الله عليه وسلم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال مقاتل ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة وقال السدي ظنوا أن أعمالهم حسنات فبدت لهم سيئات لأنهم كانوا يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأصنام ويظنونها حسنات فبدت لهم سيئات ثم أشار بقوله تعالى (وبدا لهم) أي ظهر ظهورا تاما (سيئات ما كسبوا) أي مساوي أعمالهم من الشرك وظلم أولياء الله تعالى (وحاق) أي نزل (بهم ما كانوا به يستهزءون) أي يطلبون ويوعدون الهزء من العذاب ثم حكى الله تعالى عنهم طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة بقوله تعالى (فإذا مس الإنسان) أي الجنس (ضر) أي فقر أو مرض أو غير ذلك (دعانا) أي لدفع ذلك (فإن قيل) ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أول السورة بالواو (أجيب) بأن السبب في ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله تعالى وإذا ذكر الله وحده اشمأزت على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر آلهتهم فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره فقوله تعالى فإذا مس الإنسان معطوف على قوله تعالى وإذا ذكر الله وحده وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم هذا محصل كلام الزمخشري واعترضه أبو حيان بأن أبا علي يمنع الاعتراض بجملتين فكيف بهذه الجمل الكثيرة ثم قال والذي يظهر في الربط أنه لما قال ولو أن للذين ظلموا الآية وكان ذلك إشعارا بما ينال الظالمين من شدة العذاب وأنه يظهر لهم يوم القيامة العذاب أتبع ذلك بما يدل على ظلمه وبغيه إذ كان إذا مسه ضر دعا الله تعالى فإذا أحسن إليه لم ينسب ذلك إليه كما قال تعالى (ثم إذا خولناه) أي أعطيناه (نعمة منا) أي تفضلا فإن التخويل يختص به (قال إنما أوتيته) أي المنعم به (على علم) أي على علم من الله تعالى أني له أهل وقيل إن كان ذلك سعادة في المال أو عافية في النفس يقول إنما حصل ذلك بجده واجتهاده وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني وإن حصل مال يقول حصل بكسبي وهذا تناقض أيضا لأنه لما كان عاجزا محتاجا أضاف الكل إلى الله تعالى وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله تعالى وأسنده إلى كسب نفسه وهذا تناقض قبيح (بل هي فتنة) أي بلية يبتلى بها العبد (فإن قيل) كيف ذكر النعمة أولا في قوله إنما أوتيته ثم أنثها ثانيا (أجيب) بأنه ذكر أولا لأن النعمة بمعنى المنعم به كما مر وقيل تقديره شيئا من النعمة وأنث ثانيا اعتبارا بلفظها أو لأن الخبر لما كان مؤنثا أعني فتنة ساغ تأنيث المبتدأ لأجله لأنه في معناه كقولهم ما جاءت حاجتك وقيل هي أي الحالة أو القولة كما جرى عليه الجلال المحلي

حبه (قلت) استحبت معناه
آثرت كما في قوله فاستحبوا
العمى أي آثروه وعن بعض
على كما في قوله تعالى

أو لمطية أو النعمة كما قاله البقاعي (ولكن أكثرهم) أي أكثر هؤلاء القائلين هذا الكلام (لا يعلمون) أن التخويل استدراج وامتحان (قد قالها) أي القولة المذكورة وهي قوله إنما أوتيته على علم لأنها كلمة أو جملة من القول (الذين من قبلهم) أي من الأمم الماضية قال الزمخشري هم قارون وقومه حيث قال إنما أوتيته على علم عندي وقومه راضون به فكأنهم قالوها قال ويجوز أن يكون في الأمم الماضية آخرون قائلون مثلها (فما أغنى عنهم) أي أولئك الماضين (ما كانوا يكسبون) أي من متاع الدنيا ويجمعون منه (فأصابهم سيئات ما كسبوا) أي جزاؤها من العذاب ثم أوعد كفار مكة فقال تعالى (والذين ظلموا) أي بالعتو (من هؤلاء) أي من مشركي قومك ومن للبيان أو للتبعيض (سيصيبهم سيئات ما كسبوا) أي كما أصاب أولئك (وما هم بمعجزين) أي فائتين عذابنا فقتل صناديدهم يوم بدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين فقيل لهم (أولم يعلموا أن الله) أي الذي له الجلال والكمال (يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) وإن كان لا حيلة له ولا قوة امتحانا (ويقدر) أي يضيق الرزق لمن يشاء وإن كان قويا شديد الحيلة ابتلاء فلا قابض ولا باسط إلا الله تعالى ويدل على ذلك أنا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه فلا بد لذلك من حكمة وسبب وذلك السبب ليس هو عقل الإنسان وجهله فإنا نرى العاقل القادر في أشد الضيق ونرى الجاهل الضعيف في أعظم السعة وليس ذلك أيضا لأجل الطبائع والأفلاك لأن الساعة التي ولد فيها ذلك الملك السلطان القاهر قد ولد فيها عالم أيضا من الناس وعالم من الحيوان غير الإنسان وتولد أيضا في تلك الساعة عالم من النبات فلما شاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة علمنا أن الفاعل لذلك هو الله تعالى فصح بهذا البرهان العقلي القاطع صحة قوله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر قال الشاعر

فلا السعد يقضي به المشتري • ولا النحس يقضي علينا زحل
ولكنه حكم رب السماء • وقاضي القضاة تعالى وجل

(إن في ذلك) أي البيان الظاهر (لآيات) أي دلالات (لقوم يؤمنون) أي بأن الحوادث كلها من الله تعالى بوسط أو غيره ولما ذكر تعالى الوعيد أردفه بشرح كمال رحمته فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) يا محمد ربكم المحسن إليكم يقول (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) أي أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن (لا تقنطوا) أي لا تيأسوا (من رحمة الله) أي الإكرام المحيط بكل صفات الكمال فيمنعكم ذلك القنوط من التوبة التي هي باب الرحمة وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي يا عبادي بسكون الياء وتسقط في الوصل وفتحها الباقون وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي تقنطوا بكسر النون بعد القاف والباقون بفتحها (إن الله) أي المتفضل على عباده المؤمنين (يغفر الذنوب) لمن تاب من الشرك (جميعا) لمن يشاء كما قال تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأما الكافر إذا أسلم فإن الله تعالى لا يؤاخذه بما وقع من كفره قال تعالى قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف *(تنبيه)* في هذه الآية أنواع من المعاني والبيان حسنة منها إقباله عليهم ونداؤهم ومنها إضافتهم إليه إضافة تشريف

فإنما يبخل عن نفسه فيه
أي آثرت حب الخير
المدف
على ذكر ربي قوله وهب لي
ملكا لا ينبغي لأحد من

ومنها

ومنها الالتفات من التكلم الى الغيبة في قوله تعالى من رحمة الله ومنها اضافة الرحمة لاجل
أسمائه الحسنى ومنها اعادة الظاهر بلفظه في قوله تعالى ان الله ومنها ابراز الجملة في قوله تعالى
(انه هو) أي وحده (الغفور) أي البليغ الغفر بمحو الذنوب عمن يشاء عينا وأثرا فلا يعاقب
ولا يعاتب (الرحيم) أي المكرم بعد المغفرة مؤكدا بأن وبالفصل وباعادة الصفتين اللتين
تضمنتهما الآية السابقة روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ان ناسا من أهل
الشرك كانوا قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا ان الذي تدعو
اليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت هذه الآية وروى عطاء بن أبي رباح عن ابن
عباس انها نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله تعالى عنهما حين بعث اليه النبي صلى الله عليه
وسلم يدعوه الى الاسلام فارسل اليه كيف تدعوني الى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك
أو زنى يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة وأنا قد فعلت ذلك كله فانزل الله سبحانه وتعالى
الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فقال وحشي هذا شرط شديد لعلي لا أقدر عليه فهل غير
ذلك فانزل الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فقال وحشي أراني
بعد في شبهة فلا أدري أيغفر لي أم لا فانزل الله تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم
لا تقنطوا من رحمة الله الآية قال نعم هذا فجاء فأسلم فقال المسلمون هذه له خاصة قال بل للمسلمين
عامة وروى عن ابن عمر قال نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر
من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا وكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفا ولا
عدلا أبدا قد أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا فيه فانزل الله تعالى هذه الآيات فكتبها عمر
ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه بيده ثم بعثها الى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد والى
اولئك النفر فأسلموا وهاجروا وروى عن ابن مسعود أنه دخل المسجد واذا قاص يقص وهو
يذكر النار والاغلال فقام على رأسه فقال يا مذكر لم تقنط الناس ثم قرأ قل يا عبادي الذين
أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وعن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر
الذنوب جميعا ولا يبالي وروى الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال ما أحب أن لي الدنيا وما فيها
بها أي بهذه الآية فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة ثم قال ألا ومن أشرك
ثلاث مرات وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان في بني اسرائيل
رجل قتل تسعة وتسعين انسانا ثم خرج يسأل فاتى راهبا فسأله فقال هل لي توبة فقال لا فقتله
وجعل يسأل فقال له رجل ائت قرية كذا فادركه الموت فنأى بصدره نحوها فاختصمت فيه
ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فاوحى الله تعالى الى هذه أن تقربي والى هذه أن تباعدي
وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه الى هذه أقرب بشبر فغفر له وفي رواية فقال له اني قتلت تسعة
وتسعين نفسا فهل لي من توبة فقال لا فقتله فكمل مائة ثم سأل عن أعلم أهل الارض فدل على
عالم فقال انه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى
أرض كذا الى أن قال فوجدوه أدنى الى الارض التي اراد فقبضته ملائكة الرحمة وعن ابن
عمر قال كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أو نقول ليس شيء من حسناتنا

ومدى) ه ان قلت كيف
قال سلمان ذلك مع انه
يشبه الحسد وابخل ثم
الله تعالى على عبيده بالا

الا وهي مقبولة حتى نزلت أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم فلما نزلت هذه الآية قلنا ما هذا الذي يبطل اعمالنا فقيل لنا الكبائر والفواحش فكنا اذا رأينا من أصاب منها شيأ خفنا عليه ومن لم يصب منها شيأ رجونا له فانزل الله تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وأراد بالاسراف ارتكاب الكبائر ولما كان التقدير فاقلعوا عن ذنوبكم فانها قاطعة عن الخير مبعدة عن الكمال عطف عليه استعطافا قوله تعالى (وأنيبوا) اى ارجعوا بكلياتكم وكل ما حواه جنابكم واسندوا أموركم واجعلوا طريقكم (الى ربكم) اى الذى لم تروا احسانا الا وهو منه (واسلموا) اى واخلصوا (له) اعمالكم (من قبل أن يأتيكم) اى وانتم صاغرون (العذاب) اى القاطع لكل عذوبة الجرع لكل مرارة وصعوبة (ثم لا تنصرون) اى لا يتجدد لكم نوع نصر ابدا ان لم تتوبوا (واتبعوا) اى عالجوا انفسكم وكلفوها ان تتبع (احسن ما انزل اليكم) أى على سبيل العدل كالاحسان الذى هو أعلى من العفو الذى هو فوق الانتقام باتباع هذا القرآن الذى هو احسن ما نزل من كتب الله تعالى واتباع احاسن ما فيه فتصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحسن الى من ظلمك هذا في حق الخلائق ومثله في عبادة الخالق بان تكون كأنك تراه الذى هو اعلى من استحضار انه يراك الذى هو اعلى من اداء الامر مع الغفلة عن ذلك ولما كان هذا شديدا على النفس رغب فيه بقوله تعالى بمظهر صفة الاحسان موضع الاضمار (من ربكم) اى الذى لم يزل يحسن اليكم وأنتم تبارزونه بالعظائم وقال الحسن رضى الله عنه معنى الآية الزموا طاعته واجتنبوا معصيته فان في القرآن ذكر القبيح لتجتنبه وذكر الادون لئلا ترغب فيه وذكر الاحسن لتؤثره وقيل الاحسن الناسخ دون المنسوخ لقوله تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها او مثلها وقيل العزائم دون الرخص وقوله تعالى (من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون) اى ليس عندكم شعور باتيانه بوجه من الوجوه فيه تهديد وتخويف ولما خوفهم الله تعالى بهذا العذاب بين انهم بتقدير نزوله عليهم ماذا يقولون فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة انواع من الكلام الاول ما ذكره بقوله تعالى (ان) اى كراهة أن (تقول نفس) اى عند وقوع العذاب وافرادها وتنكيرها كاف في الوعيد لان كل احد يجوز ان يكون هو المراد (يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله) قال الحسن قصرت في طاعة الله وقال مجاهد في امر الله وقال سعيد بن جبير في حق الله وقيل ضيعت في ذات الله وقيل معناه قصرت في الجانب الذى يؤدى الى رضا الله تعالى والعرب تسمى الجانب جنبا قال في الكشاف هذا من باب الكناية لانك اذا أثبت الامر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه الا ترى الى قول الشاعر

ان السماحة والمروءة والندى • في قبة ضربت على ابن الحشرج

أى فانه لم يصرح بثبوت هذه الصفات المذكورة لابن الحشرج بل كنى عن ذلك في قبة مضروبة عليه فافاد اثباتها له والقبة تكون فوق الخيمة تتخذها الرؤساء وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة والدورى عن أبي عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وان) اى والحال انى (كنت) اى كان ذلك في طبعى (لمن الساخرين) اى المستهزئين المتكبرين المنزلين أنفسهم في غير منزلتها وذلك انه ما كفانى المعصية حتى كنت أسخر من أهل الطاعة

(قال) المراد بقبض سليمان لا ينبغي لاحد ان يسلبه منى في حياتى كما فعل الشيطان الذى لبس خاتمى

أى تقول هذا لعله يقبل منها أو يعفى عنها على عادة المعترفين فى وقت الشدائد لعلهم يداودون الى اجل العوائد الثانى من الكلمات التى حكاها الله تعالى عنهم بعد نزول العذاب عليهم ماذكره الله تعالى بقوله سبحانه (أو تقول) أى تلك النفس المفرطة (لو أن الله) أى الذى له القدرة الكاملة والعلم الشامل (هدانى) أى لبيان الطريق (لكنت من المتقين) أى الذين لا يقدمون على فعل الا ما يدلهم عليه دليل الثالث من الكلمات ماذكره الله تعالى بقوله سبحانه (أو تقول) أى تلك النفس المفرطة (حين ترى العذاب) أى الذى واجهها عيانا (لو أن) أى ياليت (لى كرة) أى رجعة الى دار العمل (فأكون) أى يتسبب عن رجوعى اليها أن أكون (من المحسنين) أى العاملين بالاحسان الذى دعا اليه القرآن ❁(تنبيه)❁ فى نصب فأكون وجهان أحدهما عطفه على كرة فانها مصدر فعطف مصدر مؤول على مصدر مصرح به كقولها

لَلُبسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني ❁ أحبُّ الىَّ من لبس الشفوف

والثانى انه منصوب على جواب التمنى المفهوم من قوله تعالى لو أن لى كرة والفرق بين الوجهين أن الاول يكون فيه الكون متمنى و يجوز أن تضمر أن وان تظهر والثانى يكون فيه الكون مترتبا على حصول المتمنى لا متمنى و يجب أن تضمر أن ❁ ثم أجاب الله تعالى هذا القائل بقوله سبحانه (بلى قد جاءتك آياتى) أى القرآن وهى سبب الهداية (فكذبت بها) أى قلت ليست من عند الله (واستكبرت) أى تكبرت عن الايمان بها (وكنت من الكافرين) فان قيل هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله لو أن الله هدانى ولم يفصل بينهما (أجيب) بأنه لا يخلو اما ان يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن واما أن يؤخر القرينة الوسطى فلم يحسن الاول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن وأما الثانى فلما فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفريط فى الطاعة ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمنى الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب (فان قيل) كيف صح أن تقع بلى جوابا لغير منفى (أجيب) بأن قوله لو أن الله هدانى فى معنى ما هديت (ويوم القيامة) أى الذى لا يصح فى الحكمة تركه (ترى) اى أيها المحسن (الذين كذبوا على الله) اى الحائز لجميع صفات الكمال بنسبة الشريك والولد اليه وقال الحسن هم الذين يقولون ان شئنا فعلنا وان شئنا لم نفعل قال البقاعى وكأنه عنى من المعتزلة الذين اعتزلوا مجلسه وابتدعوا قولهم انهم يخلقون أفعالهم قال ويدخل فيه من تكلم فى الدين بجهل وكل من كذب وهو يعلم أنه كاذب فى أى شئ كان فانه من حيث ان فعله فعل من يظن ان الله تعالى لا يعلم كذبه اى ولا يقدر على جزائه كأنه كذب على الله وقوله تعالى (وجوههم مسودة) جملة من مبتدا وخبر فى محل نصب على الحال من الموصول لان الرؤية بصرية وقيل فى محل نصب مفعولا ثانيا لان الرؤية قلبية ورد بأن تعلق الرؤية البصرية بالاجسام وألوانها أظهر من تعلق القلبية بها واوذكر أن هذا السواد مخالف لسائر أنواع السواد (أليس فى جهنم مثوى) اى مأوى (للمتكبرين) اى الذين تكبروا على اتباع امر الله تعالى وهو تقرير لانهم يرونه كذلك ❁ ولما ذكر الله تعالى الذين أشقاهم اتبعهم حال الذين أسعدهم بقوله تعالى (وينجى الله)

أو أن الله وجلس على كرسي علم أنه لا يقوم غيره مقامه بمصالح ذلك الملك واقتضت حكمته تعالى تخصيصه به

اى يفعل بهم ماله من صفات الكمال فى نجاتهم فعل المبالغ فى ذلك (الذين اتقوا) أى بالغوا فى وقاية أنفسهم من غضبه فكما وقاهم فى الدنيا من المخالفات حماهم هنالك من العقوبات (بمفازتهم) اى بسبب فلاحهم لان العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة ويجوز أن يسمى العمل الصالح فى نفسه مفازة لانه سببها وقرأ حمزة والكسائى وشعبة بالف بعد الزاى جمعا على أن لكل متق مفازة والباقون بغير ألف بعد الزاى افرادا وقوله تعالى (لا يمسهم السوء) جملة مفسرة لمفازتهم كأنه قيل وما مفازتهم فقال لا يمسهم السوء فلا محل لها او يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الذين اتقوا ومعنى الكلام لا يمسهم مكروه (ولاهم يحزنون) اى ولا يفارق بواطنهم حزن على فائت لانه لا يفوتهم شئ أصلا • ولما كان الخوف منه والحزن عليه جامعين لكل ما فى الكون فكان لا يقدر على دفعهما الا القادر المبدع القيوم قال تعالى مستأنفا او معللا مظهرا الاسم الاعظم تعظيما للمقام (الله) اى المحيط بكل شئ قدرة وعلما الذى نجاهم (خالق كل شئ) أى من خير وشر وايمان وكفر فلا يكون شئ أصلا الا بخلقه • ولما دل هذا على القدرة الشاملة وكان لا بد معها من العلم الكامل قال تعالى (وهو على كل شئ) أى مع القهر والغلبة (وكيل) أى حفيظ لجميع ما يريده قيوم لا يعجز ولا يساحته ولا غفلة وقوله تعالى (له مقاليد السموات والارض) جملة مستأنفة والمقاليد جمع مقلاد مثل مفتاح ومفاتيح أو مقليد مثل منديل ومناديل اى هو مالك أمرها وحافظها وهى من باب الكناية لان حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذى يملك مقاليدها ومنه قولهم فلان ألقيت اليه مقاليد الملك وهى المفاتيح والكلمة أصلها فارسية (فان قيل) ما للكتاب المبين والفارسية (اجيب) بان التعريب قد أحالها عربية كما اخرج استعمال المهمل عن كونه مهملا قال الزمخشرى سأل عثمان النبى صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى له مقاليد السموات والارض فقال يا عثمان ما سألنى أحد عنها قبلك تفسيرها لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده واستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله هو الاول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير اه وروى هذا الطبرانى بسند ضعيف بل رواه ابن الجوزى فى الموضوعات ثم قال الزمخشرى وتأويله على هذا ان الله تعالى فى هذه الكلمات يوحد بها و يمجد وهى مفاتيح خير السموات والارض من تكلم بها من المتقين اصابه وقال قتادة ومقاتل مفاتيح السموات والارض بالرزق والرحمة وقال الكلبى خزائن المطر والنبات • ولما وصف الله تعالى بالصفة الالهية والجلالة وهو كونه خالقا للاشياء وكونه مالكا لمقاليد السموات والارض بأسرها قال بعده (والذين كفروا) أى ابوا ما اتضح من الدلالات وجحدوا (بآيات الله) أى دلائل قدرته الظاهرة الباهرة (أولئك) أى البعداء البغضاء (هم الخاسرون) لانهم خسروا أنفسهم وكل شئ متصل بها على وجه النفع وقال الزمخشرى والذين كفروا متصل بقوله و ينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم واعترض بينهما بانه خالق الاشياء كلها وان له مقاليد السموات والارض واعترضه الرازى بان و ينجى جملة فعلية والذين كفروا جملة اسمية وعطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز واعترض الآخر بانه لا مانع من ذلك • ولما دعا كفار قريش النبى صلى الله

عليه

(قوله انا
وجدناه صابرا) • ان قلت
كيف وصف الله تعالى
ايوب عليه السلام بالصبر

عليه وسلم الى دين آبائهم قال الله تعالى (قل) أى لهم (أفغير الله) أى الملك الاعظم (تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) أى العريقون فى الجهل لان الدليل القاطع قد قام بان الله تعالى هو المستحق للعبادة فمن عبد غيره فهو جاهل وقرأ نافع بتخفيف النون وفتح الياء وابن كثير بتشديد النون وسكون الياء وابن عامر بنونين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة وسكون الياء والباقون بتشديد النون وسكون الياء (ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) أى الذى عملته قبل الشرك (فان قيل) الموحى اليهم جماعة فكيف قال لئن أشركت على التوحيد (أجيب) بان تقدير الآية أوحى اليك لئن أشركت ليحبطن عملك والى الذين من قبلك مثله أى أوحى اليك ٣ والى كل واحد منهم لئن أشركت كما تقول كسانا حلة أى كل واحد منا (فان قيل) كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى ان رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم (أجيب) بان قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزئيها الا ترى أن قولك لو كانت الخمسة زوجا لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع ان كل واحد من جزأيها غير صادق قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولم يلزم من هذا صدق ان فيهما آلهة وأنهما قد فسدتا وان الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره كما قاله أكثر المفسرين أو ان ذلك على سبيل الفرض المحال ذكر ليكون ردعا للاتباع ✽ ولما كان السياق للتهديد كانت العبارة شاملة لما تقدم على الشرك من الاعمال وما تأخر عنه لم يقيده بالاتصال بالموت اكتفاء بتقييده فى آية البقرة وهى ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر قال تعالى (ولتكونن) أى لاجل حبوطه (من الخاسرين) فان من ذهب جميع عمله لاشك فى خسارته امامن أسلم بعد ردته فانما يحبط ثواب عمله لا عمله كما نص عليه الشافعى ✽ (تنبيه) ✽ اللام الاولى موطئة للقسم والاخريان للجواب ولما كان التقدير لا تشرك بناء عطف عليه قوله تعالى (بل الله) أى المتصف بصفات الكمال وحده (فاعبد) أى مخلصا له العبادة (وكن من الشاكرين) أى العريقين فى هذا الوصف لانه جعلك خير الخلائق أجمعين ✽ ولما حكى الله تعالى عن المشركين انهم أمروا الرسول بعبادة الاصنام ثم انه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول أن يعبد الله ولا يعبد سواه وبين انهم لو عرفوا الله تعالى حق معرفته لما جعلوا هذه الاشياء الخسيسة مشاركة له فى العبودية قال (وماقدروا الله) اى الملك الاعظم (حق قدره) أى ماعظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره مع انهم لو استغرقوا الزمان كله فى عبادته وخالص طاعته بحيث لم يخل شئ منه عنها لما كان ذلك حق قدره فكيف اذا خلا بعضه عنها فكيف اذا عدل به غيره ولما بين انهم ماعظموه تعظيما لائقا به اردفه بما يدل على كمال عظمته بقوله تعالى (والارض جميعا قبضته) وهو مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال اى ماعظموه حق عظمته والحال انه موصوف بهذه القدرة الباهرة كقوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم اى كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه كذا وجميعا حال وهى دالة على ان المراد بالارض الارضون لان هذا التأكيد لا يحسن ادخاله الا على الجمع وقدم الارض على السموات لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها ✽ ولما كان فى هذه الدنيا من يدعى الملك والقهر والعظمة والقدرة وكان الامر فى الآخرة

٣ قوله أى اوحى اليك عبارة الكشاف اوأوحى فيكون اشارة الى تقدير آخر وهو الظاهر اه مصححه

مع ان الصبر ترك الشكوى من الم البلوى وهو قد شكا بقوله انى مسنى الشيطان بنصب

بخلاف هذا لانقطاع الاسباب قال تعالى (يوم القيامة) ولا قبضة هنالك حقيقة ولا مجازا
وكذا الطي واليمين وانما هو تمثيل وتخييل لتمام اقتداره ولما كانوا يعلمون أن السموات سبع
متطابقة بما يشاهدونه من سير النجوم جيء بلفظ الجمع فيها كالتصريح في جمع الارض أيضا
في قوله تعالى (والسموات مطويات) أي مجموعات (بيمينه) قال الامام الرازي وههنا سؤالات
الاول ان العرش أعظم من السموات السبع والارضين السبع ثم انه تعالى قال في صفة
العرش ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش
العظيم فكيف يجوز تقرير عظمة الله عز وجل بكونه حاملا للسموات والارض واجاب بان
مراتب التعظيم كثيرة فاولها تقرير عظمة الله بكونه قادرا على هذه الاجسام العظيمة كما ان
حفظها وامساكها يوم القيامة عظيم ثم بعده تقرير عظمته بكونه قادرا على امساك أولئك
الملائكة الذين يحملون العرش السؤال الثاني قوله تعالى والارض جميعا قبضته يوم
القيامة والسموات مطويات بيمينه شرح حال لا يحصل الا في القيامة والقوم ما شاهدوا ذلك
فان كان هذا الخطاب مع المصدقين للانبياء فهم معترفون بانه لا يجوز القول بجعل الاصنام
شركاء لله فلا فائدة في ايراد هذه الحجة عليهم وان كان الخطاب مع المكذبين بالنبوة فهم ينكرون
قوله تعالى والارض جميعا قبضته يوم القيامة فكيف يمكن الاستدلال به على ابطال القول
بالشرك واجاب عنه بان المقصود منه ان المتولي لابقاء السموات والارضين من وجوه العمارة
في هذا الوقت هو المتولي لتخريبها وافنائها يوم القيامة وذلك يدل على حصول قدرة تامة على
الايجاد والاعدام ويدل ايضا على كونه قادرا غنيا على الاطلاق فانه يدل على انه اذا حاول
تخريب الارض فكأنه يقبض قبضة وذلك يدل على كمال الاستغناء السؤال الثالث حاصل
القول بالقبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الاجسام العظيمة وكما أن حفظها
وامساكها يوم القيامة ليس الا بقدرته تعالى فكذلك الآن فما الفائدة في تخصيص هذه
الاحوال بيوم القيامة واجاب بانه انما خصص تلك الحالة بيوم القيامة ليدل على انه كما ظهر
كمال قدرته في الايجاد عند عمارة الدنيا يظهر كمال قدرته في الاعدام عند خراب الدنيا ولما كان
هذا انما هو تمثيل غايته هو المراد به الغاية في القدرة نزه نفسه المقدس عما ربما نسب له
الجسم والشبه فقال تعالى (سبحانه) أي تنزه من هذه القدرة قدرته عن كل شائبة نقص
(وتعالى) علوا الاحاطة به (عما يشركون) معه لانه لو كان له شريك يشاركه في هذه القدرة أو
بعضها لمنعه شيئا منها وهذه معبوداتهم لا قدرة لها على شيء البتة وروى البخاري في صحيحه في
التوحيد وغيره عن عبد الله بن مسعود قال جاء حبر من الاحبار الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال اذا كان يوم القيامة جعل الله تعالى السموات على اصبع والارضين على اصبع
والماء والثرى على اصبع والخلائق على اصبع ثم يهزهن ثم يقول أنا الملك فلقد رأيت النبي صلى
الله عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه تعجبا وتصديقا لقول الحبر ثم قرأ النبي صلى الله عليه
وسلم وما قدروا الله حق قدره الآية وانما ضحك صلى الله عليه وسلم وتعجب لانه لم يفهم منه الا
ما فهم علماء البيان من غير تصور امساك ولا اصبع ولا هز ولا شيء من ذلك وانما يدل ذلك على
القدرة الباهرة وأن الافعال العظام التي تتحير فيها الاذهان هينة عليه هوانا لا يصل السامع

وعذاب وقوله اني مسني الضر (قلت) الشكوى الى الله تعالى لا تنافي الصبر ولا تعد جزعا

الى

الى الوقوف عليه الا باجراء العبارة فى مثل هذه الطريقة على التفصيل وروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبابرة أين المتكبرون ثم يطوى الارضين ثم يأخذهن بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون وللبخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقبض الله الارض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الارض قال أبو سليمان الخطابى ليس فيما يضاف الى الله عز وجل من وصف اليدين شمال لان الشمال محل النقص والضعف وقد ورد كلتا يديه يمين وليس عندنا معنى اليد الجارحة وانما هى صفة جاءنا بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها وننتهى حيث انتهى بنا الكتاب والاخبار المأثورة الصحيحة وهذا مذهب أهل السنة والجماعة رضى الله تعالى عنهم وقال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه انتهى وقد قدمنا أن السلف يجرون المتشابه على ما هو عليه وأن الخلف يؤولونه والاول أسلم والثانى أحكم ولما ذكر تعالى كمال قدرته وعظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريق آخر يدل أيضا على كمال العظمة وهو شرح مقدمات يوم القيامة فقال (ونفخ فى الصور) أى القرن النفخة الاولى لان نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم (فصعق) أى مات (من فى السموات ومن فى الارض) واختلف فيمن استثنى الله تعالى بقوله سبحانه (الا من شاء الله) فقال الحسن هو الله وحده وقال ابن عباس جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت عليهم السلام ثم يميت الله تعالى ميكائيل واسرافيل وجبريل وملك الموت وقيل حملة العرش وقيل الحور والولدان وقيل الشهداء لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش وقال جابر هو موسى عليه السلام لانه صعق فلا يصعق ثانيا وقال قتادة الله أعلم بهم وليس فى القرآن والاخبار ما يدل على أنهم من هم وهذا أسلم (ثم نفخ فيه) أى فى الصور نفخة (أخرى) أى نفخة ثانية (فاذا هم) أى جميع الخلائق الموتى (قيام) أى قائمون (ينظرون) أى يقلبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت اذا فاجأه خطب جسيم وقيل ينظرون أمر الله تعالى فيهم وهذا يدل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الاولى لان لفظ ثم للتراخى وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما بين النفختين أربعون قالوا أربعون يوما قال أبو هريرة أبيت قالوا أربعون شهرا قال أبيت قالوا أربعون سنة قال أبيت قال ثم ينزل الله تعالى من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الانسان شئ الا يبلى الا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة وقوله تعالى فاذا هم يدل على أن قيامهم يحصل عقب هذه النفخة الاخيرة فى الحال من غير تراخ لان الفاء تدل على التعقيب ولما ذكر تعالى اقامتهم بالحياة التى هى نور البدن أتبعه بنور أرض القيامة فقال (وأشرقت) أى أضاءت اضاءة عظيمة مالت بهم الى الحمرة (الارض) أى التى أوجدت لحشرهم وليست بأرضنا الآن لقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض (بنور ربها) أى خالقها وذلك حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين خلقه قال صلى الله عليه وسلم ترون ربكم وقال كما لا تضارون فى الشمس فى يوم الصحو وقال

فيها من اظهار الخضوع
والعبودية لله تعالى
والافتقار اليه و يوبيده
قول يعقوب عليه السلام

الحسن والسدى بعدلهم (ووضع الكتاب) أى كتاب الاعمال للحساب لقوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وقوله تعالى مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وقيل الكتاب اللوح المحفوظ تقابل به الصحف وقيل الكتاب الذى نزل الى كل أمة تعمل به واقتصر على هذا البقاعى (وجىء بالنبيين) أى للشهادة على أممهم واختلف فى قوله تعالى (والشهداء) فقال ابن عباس يعنى الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه لقوله تعالى جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس وقال عطاء ومقاتل يعنى الحفظة لقوله تعالى وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وقيل هم المستشهدون فى سبيل الله ولما بين تعالى أنه يوصل الى كل واحد حقه عبر عن هذا المعنى بأربع عبارات أولها قوله تعالى (وقضى بينهم) أى العباد (بالحق) أى العدل ثانيها قوله تعالى (وهم لا يظلمون) أى لا يزاد فى سيآتهم ولا ينقص من حسناتهم ثالثها قوله تعالى (ووفيت كل نفس ما عملت) أى جزاء ما عملته رابعها قوله تعالى (وهو أعلم بما يفعلون) أى فلا يفوته شىء من أفعالهم ثم فصل التوفية بقوله تعالى مقدما أهل الغضب (وسيق الذين كفروا) أى بالعنف والدفع (الى جهنم) كما قال تعالى يوم يدعون الى نار جهنم دعا أى يدفعون اليها دفعا وقوله تعالى (زمرا) حال أى جماعات فى تفرقة بعضهم على اثر بعض كل امة على حدة (حتى اذا جاؤها) أى على صفة الذل والصغار وأجاب اذا بقوله تعالى (فتحت أبوابها) أى السبعة وكانت مغلقة قبل ذلك وانما تفتح عند وصول الكفار اليها وقرأ الكوفيون فتحت وفتحت الآتية بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير (وقال لهم خزنتها) انكارا عليهم وتقريعا وتوبيخا (ألم يأتكم رسل منكم) أى من جنسكم لان قيام الحجة بالجنس أقوى (يتلون) أى يتلون مرة بعد مرة وشيأ فى اثر شىء (عليكم آيات ربكم) أى المحسن اليكم من القرآن وغيره (وينذرونكم) أى يخوفونكم (لقاء يومكم) وقولهم (هذا) اشارة الى يوم البعث (فان قيل) لم أضيف اليهم اليوم (أجيب) بأنهم أرادوا لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة قال الزمخشرى وقد جاء استعمال اليوم والايام مستفيضا فى أوقات الشدة ويجوز أن يراد باليوم يوم البعث كله وجرى عليه البقاعى وهو أولى ولما قال لهم الخزنة ذلك (قالوا بلى) أتونا وتلوا علينا وحذرونا (ولكن حقت) أى وجبت (كلمة العذاب) أى التى سبقت فى الازل علينا هكذا كان الاصل ولكنهم قالوا (على الكافرين) تخصيصا بأهل هذا الوصف وبيانا لانه موجب دخولهم وهو تغطيتهم الانوار التى أتتهم بها الرسل عليهم الصلاة والسلام * (تنبيه) * فى الآية دليل على انه لا وجوب قبل مجىء الشرع لان الملائكة بينوا انهم أبوا ما بقى لهم عذر ولا علة بعد مجىء الرسل عليهم الصلاة والسلام فلو لم يكن مجىء الرسل شرطا فى استحقاق العذاب لما بقى فى هذا الكلام فائدة وقيل كلمة العذاب هى قوله تعالى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ثم كأنه قيل فماذا وقع بعد هذا التقريع (قيل) وقع ان الملائكة قالت لهم (ادخلوا أبواب جهنم) أى طبقاتها المتجهمة لداخلها (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) ولما كان سبب كفرهم بالآيات هو التكبر قالوا لهم (فبئس مثوى) أى منزل ومقام (المتكبرين) أى الذين أوجب تكبرهم حقوق كلمة العذاب

انما اشكوا بثى وحزنى الى الله مع قوله فصبر جميل وقوله ثم الصبر نزلة الشكوى أى الى العباد

عليهم فلذلك تعاطوا أسبابها ولما ذكر تعالى أحوال الكافرين أتبعه أحوال أضدادهم فقال عز من قائل (وسيق الذين اتقوا ربهم) أي الذين كلما ازدادهم احسانا ازدادوا له هيبة (الى الجنة) وقوله تعالى (زمرا) حال أي جماعات أهل الصلاة المستكثرين منها على حدة وأهل الصوم كذلك الى غير ذلك من الاعمال التي تظهر آثارها على الوجوه (فان قيل) السوق في أهل النار معقول لانهم لما أمروا بالذهاب الى موضع العذاب لابد أن يساقوا اليه وأما أهل الثواب فاذا أمروا بالذهاب الى موضع السعادة والراحة فاي حاجة فيه الى السوق (أجيب) بان المراد بسوق أهل النار طردهم اليها بهوان والعنف كما يفعل بالاسارى والخارجين على السلطان اذا سيقوا الى حبس أو قتل والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لانه لايذهب بهم الا راكبين مسرعا الى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين هذا سوق تشريف واكرام وذاك سوق اهانة وانتقام وهذا من بدائع أنواع البديع وهو ان يأتي سبحانه بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم بعقابهم ويأتي بتلك الكلمة بعينها وهيئتها في حق المؤمنين فتدل على اكرامهم بحسن ثوابهم فسبحان من أنزله معجز المباني متمكن المعاني عذب الموارد والمثاني وقيل ان المحبة والصداقة باقية بين المتقين الى يوم القيامة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين فاذا قيل لواحد منهم اذهب الى الجنة فيقول لا أدخلها الا مع أحبابي وأصدقائي فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون الى السوق الى الجنة ٭ ولما ذكر تعالى السوق ذكر غايته بقوله تعالى (حتى اذا جاؤها) اختلف في جواب اذا على أوجه أحدها قوله تعالى (وفتحت أبوابها) والواو زائدة وهو رأي الكوفيين والاخفش وانما جيء هنا بالواو دون التي قبلها لان أبواب السجون مغلقة عادة الى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فيها بخلاف أبواب السرور والفرح فانها تفتح انتظارا لمن يدخلها فعلى هذا أبواب جهنم تكون مغلقة لاتفتح الا عند دخول أهلها فيها فاما أبواب الجنة ففتحها يكون مقدما على دخولهم اليها كما قال تعالى جنات عدن مفتحة لهم الابواب فلذلك جيء بالواو كأنه قال حتى اذا جاؤها وقد فتحت أبوابها ثانيها قوله تعالى (وقال لهم خزنتها) أي بزيادة الواو أيضا أي حتى اذا جاؤها قال لهم خزنتها ثالثها قال الزجاج القول عندي ان الجواب محذوف تقديره دخلوها بعد قوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها أي حين الوصول (سلام عليكم) تعجيلا للمسرة بالبشارة بالسلامة التي لاعطب فيها (طبتم) أي صلحتم لسكناها لانها دار طهرها الله تعالى من كل دنس وطيبها من كل قذرة فلا يدخلها الا مناسب لها موصوف بصفتها فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة الا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحا تنقي أنفسنا من درن الذنوب وتميط وضر هذه القلوب ثم سببوا عن ذلك (فادخلوها خالدين) أي مقدرين الخلود وسمى بعضهم الواو في قوله تعالى وفتحت واو الثمانية قال لان أبواب الجنة ثمانية وكذا قالوا في قوله تعالى وثامنهم كلبهم وقيل تقدير الجواب حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها يعني أن الجواب بلفظ الشرط ولكنه بزيادة تقييده بالحال فلذلك صح وقدره الجلال المحلي بقوله دخلوها وقال ان قوله تعالى (وقالوا) عطف على دخلوها المقدر

أو انه عليه السلام طلب الشفاء من الله تعالى بعد ما لم يبق منه الا قلبه ولسانه خيفة على قومه

(الحمد) أي الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أي الملك الاعظم (الذي صدقنا وعده) في قوله تعالى تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا فطابق قوله الواقع الذي وجدناه في هذه الساعة (وأورثنا) كما وعدنا (الارض) أي الارض التي لا أرض في الحقيقة غيرها وهي أرض الجنة التي لا كدورة بها بوجه وفيها كل ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وقوله (نتبوأ) أي ننزل (من الجنة حيث نشاء) جملة حالية وحيث ظرف على بابها وقيل مفعول به وانما عبر عن أرض الجنة بالارض لوجهين أحدهما ان الجنة كانت في أول الامر لآدم عليه السلام لانه تعالى قال فكلا منها رغدا حيث شئتما فلما عادت الجنة الى أولاد آدم عليه السلام كان ذلك سببا للارث ثانيهما ان الوارث يتصرف فيما ورثه كيف شاء من غير منازع وكذلك المؤمنون يتصرفون في الجنة حيث شاؤوا وأرادوا (فان قيل) كيف يتبوأ أحدهم مكان غيره (أجيب) بأن لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث شاء ولا يحتاج الى جنة غيره ولا يشتهي أحد الا مكانه مع ان في الجنة مقامات معنوية لا يتمانع واردوها ولما كانت بهذا الوصف الجليل تسبب عنه مدحها بقوله (فنعم) أي أجرا هكذا في الاصل ولكنه قال (أجر العاملين) ترغيبا في الاعمال وحثا على عدم الاتكال ولما ذكر جزاء الذين أكرمهم من المتقين وما وصلوا اليه من المقامات أتبعهم بمن هي منتهى الرفعة من المشتغلين عن (وترى الملائكة) أي النافعين بجميع ما علمه من حقوق وقوله تعالى (حافين) حال أي محدقين (من حول العرش) أي من جوانبه التي يمكن الحفوف بها والقرب منها يسمع لحفوفهم صوت بالتسبيح والتحميد والتقديس والاهتزاز خوفا من ربهم مدخال من يؤمهم مع كثرتهم الى حد لا يحصيهم الا الله تعالى أنهم لا يعلوف حوله هذا أولى من قول البيضاوي انَّ من زائدة وقوله تعالى (يسبحون) حال من ضمير حافين (بحمد ربهم) أي متلبسين بحمده يقولون سبحان الله وبحمده فهم ذاكرون له بوصفي جلاله واكرامه تلذذا به وفيه اشعار بأن منتهى درجات العالمين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق (وقضي بينهم) أي بين جميع الخلق (بالحق) أي العدل فيدخل المؤمن الجنة والكافر النار أو بين الملائكة باقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم (وقيل) أي وقال المؤمنون من المقضي بينهم والملائكة على ذكرهم التعيينهم وتعظيمهم (الحمد) أي الاحاطة بجميع اوصاف الكمال وعدل بالقول الى ما هو أحق بهذا المقام فقال (لله) ذي الجلال والاكرام علما لذلك في هذا اليوم عين اليقين كما كان في الدنيا علما علم اليقين • ولما كان هذا اليوم أحق الايام بمعرفة شمول الربوبية لاجتماع الخلائق وانفتاح البصائر وسعة الضمائر قال واصفا له سبحانه بأقرب الصفات الى الاسم الاعظم (رب العالمين) أي الذي ابتدأهم أول مرة من العدم واقامهم تمامها بما رباهم به من التدبير وأعادهم ثانيا بعد افنائهم بكل قضاء وتقدير وأبقاهم ربابه الا الى آخر وقيل ان الله تعالى ابتدأ ذكر الخلق بالحمد لله في قوله سبحانه الحمد لله الذي خلق السموات والارض وختم بالحمد في آخر الامر وهو استقرار الفريقين في منازلهم فنبه بذلك على تحميده في بداية كل أمر وخاتمته والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة

ان يقذفهم الشيطان ويوسوس اليهم أنه لو كان نبيا ما ابتلي بما هو فيه ولكشف الله ضره

الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة واعطاه الله ثواب الخائفين حديث موضوع وقولها عن عائشة رضى الله عنها وعن ابيها انه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بنى اسرائيل والزمر رواه الترمذى وغيره

سورة المؤمن مكية

قال الحسن الا قوله وسبح بحمد ربك لان الصلوات نزلت بالمدينة وقد قيل فى الحواميم انها كلها مكية عن ابن عباس وابن الحنفية وتسمى سورة الطول وسورة غافر وهى خمس وقيل ثمان وثمانون آية والف ومائة وتسع وتسعون كلمة واربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك الاعظم الذى يعطى كلا من عباده ما يستحقه فلا يقدر احد ان يناقض فى شئ من ذلك ولا يعارض (الرحمن) الذى عمهم برحمته فى الدنيا بالخلق والرزق والبيان الذى لا اخفاء معه (الرحيم) الذى يخص برحمته من يشاء من عباده فيجعله حكيما وفى ملك الارض وملكوت السموات عليا وقوله تعالى (حم) قرأ ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى امالة الحاء محضة وورش وابو عمرو بين بين والباقون بالفتح وقد سبق الكلام فى حروف التهجى وقال ابن عباس حم اسم الله الاعظم وعنه قال الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وقيل حم اسم السورة وقيل الحاء افتتاح اسمائه حليم وحميد وحى وحكيم وحنان والميم افتتاح اسمائه ملك ومجيد ومنان وقال الضحاك والكسائى معناه قضى ما هو كائن كانهما اشارا الى ان معنى حم بضم الحاء وتشديد الميم وهل يجوز ان يجمع حم على حواميم نقل ابن الجوزى عن شيخه الجواليقى انه خطأ وليس بصواب بل الصواب ان يقول قرأت آل حم وفى الحديث عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات وقال الكميت

وجدنا لكم فى آل حم آية • تأولها منا تقى ومعرب

ومنهم من جوزه وروى فى ذلك احاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم الحواميم ديباج القرآن وقوله صلى الله عليه وسلم الحواميم سبع وابواب جهنم سبع جهنم والحطمة ولظى والسعير وسقر والهاوية والجحيم فتجئ كل حم منهن يوم القيامة على باب من هذه الابواب فتقول لا يدخل النار من كان يؤمن بى ويقرؤنى وقوله صلى الله عليه وسلم لكل شئ ثمرة وثمرة القرآن ذوات حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات فمن احب ان يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم وقوله صلى الله عليه وسلم الحواميم فى القرآن كمثل الحبرات فى الثياب وقال ابن عباس لكل شئ لباب ولباب القرآن الحواميم قال ابن عادل فان صحت هذه الاحاديث فهى الفيصل فى ذلك اى فتدل على جواز الجمع وقال البيضاوى فى حم السجدة ولعل افتتاح هذه السبع بحم وتسميتها به لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة فى النظم والمعنى اى اخذا مما قيل ان حم اسم من اسماء القرآن وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) اى الجامع من حدوده الاحكام والمعارف والاكرام اما خبر لحم ان كانت مبتدأ او لمبتدأ مضمر واما مبتدأ وخبره (من الله) اى الجامع لجميع صفات الكمال ولما كان المنظر هنا من بين جميع الصفات الى العزة والعلم اكثر لاجل ان المقام لاثبات الصدق وعدا ووعيدا قال تعالى (العزيز) اى فى ملكه (العليم) بخلقه فبين تعالى انه

(قوله وان عليك لعنتى الى يوم الدين) ان قلت هذا يدل على ان غاية لعنه الله تعالى لابليس

بقدرته وعلمه انزل القرآن الذي يتضمن المصالح والاعجاز ولولا كونه عزيزا عالما لما صح ذلك (غافر الذنب) اى بتوبة وغير توبة للمؤمن ان شاء واما الكافر فلابد من توبته بالاسلام (وقابل التوب) اى ممن عصاه وهو يحتمل ان يكون اسما مفردا مرادا به الجنس كالذنب وان يكون جمع التوبة كتمر وتمرة (شديد العقاب) اى على الكافر (فان قيل) ان شديد صفة مشبهة فاضافته غير محضة بكل حال بخلاف اسم الفاعل اذا لم يرد به الحال ولا الاستقبال كغافر الذنب وقابل التوب فان اضافته محضة تفيد التعريف قال سيبويه كل ما اضافته غير محضة يجوز ان تجعل محضة ويوصف به المعارف الا الصفة المشبهة ولم يستثن الكوفيون شيأ (أجيب) بان شديد معناه مشدد كاذين بمعنى ماذون فتتمحض اضافته أو الشديد عقابه فحذف اللام للازدواج مع أمن الالتباس او بالتزام مذهب الكوفيين وهو ان الصفة المشبهة يجوز أن تتمحض اضافتها الى معمولها فتكون معرفة يقولون في نحو حسن الوجه يجوز ان تصير اضافته محضة وقال الرازي لانزاع في جعل غافر وقابل صفتين وانما كان كذلك لانهما يفيدان معنى الدوام والاستمرار وكذلك شديد العقاب لان صفاته منزهة عن الحدوث والتجدد فمعناه كونه بحيث شديد عقابه وهذا المعنى حاصل ابدا فلا يوصف بانه حصل بعد أن لم يكن قال ابو حيان وهذا كلام من لم يقف على علم النحو ولا نظر فيه ويلزمه ان يكون حكيم عليم ومليك مقتدر معارف لتنزيه صفاته عن الحدوث والتجدد ولانها صفات لم تحصل بعد أن لم تكن ويكون تعريف صفاته بال وتنكيرها سواء وهذا لا يقوله مبتدئ في علم النحو فكيف من يصنف فيه ويقدم على تفسير كتاب الله تعالى اه قال الزمخشري فان قلت ما بال الواو في قوله وقابل التوب قلت فيها نكتة جليلة وهي افادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين ان يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وان يجعلها محاءة للذنوب كأن لم يذنب كأنه قال جامع المغفرة والقبول اه قال ابن عادل وبعد هذا الكلام الانيق وابراز هذه المعاني الحسنة قال أبو حيان وما أكثر تبجح هذا الرجل وشقشقته والذي افادته الواو الجمع وهذا معلوم من ظاهر علم النحو اه وانشد بعضهم

وكم من عائب قولا صحيحا ◦ وآفته من الفهم السقيم

وقال آخر قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ◦ وينكر الفم طعم الماء من سقم

ولما أتم الترغيب بالعفو والترهيب بالعقوبة أتبعه التشويق الى الفضل فقال تعالى (ذى الطول) اى سعة الفضل والانعام والقدرة والغنى والسعة والمنة فلا يماثله فى شئ من ذلك أحد ولا يدانيه قال ابن عباس غافر الذنب لمن قال لا اله الا الله وقابل التوب ممن قال لا اله الا الله شديد العقاب لمن لا يقول لا اله الا الله ذى الطول ذى الغنى عمن لا يقول لا اله الا الله وقال الحسن ذو الفضل وقال قتادة ذو النعم ثم علل تمكنه من كل شئ من ذلك بوحدانيته فقال تعالى (لا اله الا هو اليه) وحده (المصير) اى المرجع فلو جعل معه الها آخر يشاركه فى صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة الى عبوديته شديدة فكان الترغيب والترهيب الكاملان حاصلين بسبب هذا التوحيد وقوله تعالى اليه المصير مما يقوى الرغبة فى الاقرار بالعبودية له روى أن عمر رضى الله تعالى عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشأم فقيل له تتابع فى هذا الشراب فقال عمر لكاتبه

لى يوم القيامة ثم تنقطع (قلت) كيف تنقطع وقد قال تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله

اكتب من عمر الى فلان سلام عليك وانا أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو بسم الله الرحمن الرحيم حم الى قوله تعالى اليه المصير وختم الكتاب وقال لرسوله لا تدفعه اليه حتى تجده صاحيا ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها و يقول قد وعدنى الله أن يغفر لى وحذرنى عقابه فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع وأحسن النزوع وحسنت توبته فلما بلغ عمر أمره قال هكذا فاصنعوا اذا رأيتم اخاكم قد زل زلة فسددوه ووفقوه وادعوا الله تعالى ان يتوب عليه ولا تكونوا اعوانا للشيطان عليه ولما قرر تعالى أن القرآن كتاب انزله ليهتدى به فى الدين ذكر أحوال من يجادل لغرض ابطاله فقال (ما يجادل) أى يخاصم و يمارى أى يفتل الامور الى مراده (فى آيات الله) أى فى ابطال انوار الملك الاعظم المحيط بصفات الكمال الدال كالشمس على أنه تعالى اليه المصير بان يغش نفسه بالشك فى ذلك (الا الذين كفروا) قال أبو العالية آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون فى القرآن قوله تعالى ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا وقوله تعالى وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ان جدالا فى القرآن كفر وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما يتمارون فى القرآن فقال انما هلك من كان قبلكم انهم ضربوا كتاب الله بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوه وما جهلتم عنه فكلوه الى عالمه وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فسمعت أصوات رجلين اختلفا فى آية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف فى وجهه الغضب فقال انما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب * (تنبيه) * الجدال نوعان جدال فى تقرير الحق وجدال فى تقرير الباطل اما الاول فهو حرفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وجادلهم بالتى هى أحسن وحكى عن قوم نوح قولهم يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا وأما الثانى فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية فجدالهم فى آيات الله هو قولهم مرة هذا سحر ومرة هذا شعر ومرة هو قول الكهنة ومرة أساطير الاولين ومرة انما يعلمه بشر واشباه هذا ولما اثبت أن الحشر لابد منه وان الله تعالى قادر كل القدرة لانه لا شريك له وهو محيط بجميع أوصاف الكمال تسبب عن ذلك قوله تعالى (فلا يغررك تقلبهم) اى تنقلهم بالتجارات والفوائد والجيوش والعساكر واقبال الدنيا عليهم (فى البلاد) كبلاد الشام واليمن فانهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم كما قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) وقد كانوا فى غاية القوة والقدرة على القيام بما يحاولونه وكانوا حزبا واحدا لم يفرقهم شئ ولما كان الناس من بعدهم قد كثروا وفرقهم اختلاف الالسنة والاديان وكان للاجمال من الردع فى بعض المواطن ما ليس للتفصيل قال تعالى (والاحزاب) أى الامم المتفرقة الذين لا يحصون عددا ودل على قرب زمان الكفر من الانجاء من الغرق بقوله (من بعدهم) كعاد وثمود (وهمت كل أمة) أى من هؤلاء (برسولهم) أى الذى أرسلناه اليهم (ليأخذوه) أى ليتمكنوا من اصابته بما أرادوه من تعذيب أو قتل ويقال للاسير أخيذ وقال ابن عباس ليقتلوه ويهلكوه (وجادلوا بالباطل) أى بالامر الذى لا حقيقة له وليس له من ذاته الا الزوال كما تفعل قريش ومن ضاهاهم من العرب ثم بين علة مجادلتهم بقوله تعالى (ليدحضوا) أى ليزيلوا (به

على الظالمين وابليس اظلم الظلمة والمراد ان عليه اللعنة طول مدة الدنيا فاذا كان يوم القيامة اقترن له

الحق) أى الذى جاءت به الرسل عليهم السلام (فأخذتهم) أى أهلكتهم وهم صاغرون وقرأ ابن كثير وحفص باظهار الذال والباقون بالادغام (فكيف كان عقاب) لهم أى هو واقع موقعه وهم يمرون على ديارهم ويرون أثرهم وهذا تقريع فيه معنى التعجب • (تنبيه) • حذفت ياء المتكلم اشارة الى ان أدنى شئ من عذابه بادنى نسمة كاف فى المراد ولما كان التقدير حقت عليهم كلمة الله تعالى عطف عليه (وكذلك) أى ومثل ما حقت عليهم كلمتنا بالاخذ (حقت كلمة ربك) أى المحسن اليك وهى لاملأن جهنم الآية (على الذين كفروا) لكفرهم وقرأ نافع وابن عامر بالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد وقوله (أنهم أصحاب النار) فى محل رفع بدل من كلمة ربك أى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من اصحاب النار ومعناها كما وجب اهلاكهم فى الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب هلاكهم بعذاب النار فى الآخرة او فى محل نصب بحذف لام التعليل وايصال الفعل ولما بين تعالى ان الكفار بالغوا فى اظهار العداوة للمؤمنين بقوله ما يجادل فى آيات الله وما بعده بين تعالى ان الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حوله يبالغون فى اظهار المحبة والنصر للمؤمنين فقال تعالى (الذين يحملون العرش) وهو مبتدأ وقوله (ومن حوله) عطف عليه وقوله تعالى (يسبحون) خبره (بحمد ربهم) اى المحسن اليهم قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية اربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك ٣ فلك الحمد على حلمك بعد علمك واربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك فلك الحمد على عفوك بعد قدرتك قال وكأنهم يرون ذنوب بنى آدم وقيل انهم اليوم اربعة فاذا كان يوم القيامة امر الله تعالى باربعة اخر كما قال تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية وهم من أشراف الملائكة وأفضلهم لقربهم من محل رحمة ربهم قال ابن الخازن وجاء فى الحديث ان لكل ملك منهم وجه رجل ووجه اسد ووجه ثور ووجه نسر ولكل واحد منهم اربعة أجنحة جناحان منها على وجهه مخافة ان ينظر الى العرش فيصعق وجناحان يهفو بهما فى الهواء ليس لهم كلام غير التسبيح والتحميد والتكبير والتمجيد ما بين اظلافهم الى ركبهم كما بين سماء الى سماء وقال ابن عباس حملة العرش ما بين كعب احدهم الى اسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام ويروى ان اقدامهم فى تخوم الارض والارضون والسموات الى حجزتهم وهم يقولون سبحان ذى العزة والجبروت سبحان ذى الملك والملكوت سبحان الحى الذى لا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح وقال ميسرة بن عرفة ارجلهم فى الارض السفلى ورؤسهم خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفا من أهل السماء السابعة وأهل السماء السابعة أشد خوفا من أهل السماء التى تليها والتى تليها اشد خوفا من التى تليها وقال مجاهد بين الملائكة والعرش سبعون ألف حجاب من نور وسبعون ألف حجاب من ظلمة وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ان ما بين شحمة اذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام وأما صفة العرش فقيل انه من جوهرة خضراء وهو من أعظم المخلوقات خلقا روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده انه قال بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطائر المسرع ثلاثين ألف عام ويكسى العرش كل يوم سبعين ألف لون من نور لا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى

كلها

بالعنة من انواع العذاب ما يفدى معه العنة وكلها انقطعت

•(سورة الزمر)•

٣ قوله فلك كذا فى بعض النسخ وفى بعض لك وهو كذلك فى حاشية العلامة الجمل واجود

كالهباء الاشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة وقال مجاهد بين السماء السابعة والعرش سبعون ألف حجاب حجاب نور وحجاب ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة وقيل ان العرش قبلة أهل السماء كما أن الكعبة قبلة أهل الارض وأما من حول العرش فهم الكروبيون وهم سادات الملائكة قال وهب بن منبه ان حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء فاذا استقبل بعضهم بعضا هلل هؤلاء وكبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم على أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم فاذا سمعوا تكبير هؤلاء وتهليلهم رفعوا أصواتهم فقالوا سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنت الله لا اله غيرك أنت الاكبر الخلق كلهم لك راجعون ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى ليس منهم أحد الا يسبح بتحميد لا يسبحه الآخر ما بين جناحي احدهم مسيرة ثلثمائة عام وما بين شحمتي أذنيه الى عاتقه أربعمائة عام وقد احتجب الله عز وجل عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجابا من نار وسبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور وسبعين حجابا من در أبيض وسبعين حجابا من ياقوت أحمر وسبعين حجابا من زبرجد أخضر وسبعين حجابا من ثلج وسبعين حجابا من ماء وسبعين حجابا من برد وما لا يعلم علمه الا الله تعالى فسبحان من له هذا الملك العظيم ولما كان تعالى لا يحيط به علما أحد من خلقه أشار الى أنهم مع قربهم كغيرهم لا فرق في ذلك بينهم وبين من في الارض السفلى بقوله تعالى (ويؤمنون به) لان الايمان انما يكون بالغيب فهم يصدقون بانه واحد لا شريك له ولا مثل له ولا نظير له (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى ويؤمنون به ولا يخفى على أحد ان حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون (أجيب) بان فائدته اظهار شرف الايمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الانبياء عليهم الصلاة والسلام في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا فابان بذلك فضل الايمان ولما كانوا لقربهم أشد الخلق خوفا لانه على قدر القرب من تلك الحضرات يكون الخوف وكان أقرب ما يتقرب به الى الملك التقرب الى أهل وده نبه سبحانه بقوله تعالى (ويستغفرون) أي يطلبون محو الذنوب عينا وأثرا (للذين آمنوا) أي اوقعوا هذا الحقيقة فهم يستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم وفي ذلك تنبيه على ان الاشتراك في الايمان يجب أن يكون أدعى شئ الى النصيحة وأبعث على امحاض الشفقة وان تفاوتت الاجناس وتباعدت الاماكن فانه لا تجانس بين ملك وانسان ولا بين سماوي وأرضي قط ولكن لما جاء جامع الايمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الارض قال تعالى ويستغفرون لمن في الارض واستغفارهم بان يقولوا (ربنا) أي ايها المحسن الينا بالايمان وغيره فهو معمول لقول مضمر في محل نصب على الحال من فاعل يستغفرون أو خبر بعد خبر (وسعت كل شئ رحمة وعلما) اي وسعت رحمتك كل شئ وعلمك كل شئ فازيل الكلام عن اصله بان أسند الفعل الى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز للاغراق في وصفه بالرحمة والعلم كان ذاته رحمة وعلم واسعان كل شئ وأكثر ما يكون الدعاء بذكر الرب لان الملائكة قالوا في هذه الآية ربنا وقال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وقال نوح عليه السلام

(قوله انا انزلنا اليك الكتاب) عبر فيه هنا بالى وفي أثناء السورة بعلى تقدم في البقرة الفرق بينهما

رب ان قومي كذبون وقال رب اغفر لي ولوالدي وقال ابراهيم عليه السلام رب أرني كيف تحيي الموتى وقال ربنا واجعلنا مسلمين لك وقال يوسف عليه السلام رب قد آتيتني من الملك وقال موسى عليه السلام رب ارني أنظر اليك وقال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي وقال سليمان عليه السلام رب اغفر لي وهب لي ملكا وقال عيسى عليه السلام ربنا أنزل علينا مائدة من السماء وقال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين (فان قيل) لفظ الله أعظم من لفظ الرب فلم خص لفظ رب بالدعاء (أجيب) بان العبد يقول كنت في العدم المحض والنفي الصرف فاخرجتني الى الوجود وربيتني فاجعل تربيتك واحسانك سببا لاجابة دعائي (فاغفر للذين تابوا) أي رجعوا اليك عن ذنوبهم برحمتك لهم بان تمحوها عينا وأثرا فلا عقاب ولا عتاب ولا ذكر لها (واتبعوا) أي كلفوا أنفسهم على ما لها من العوج أن لزموا (سبيلك) المستقيم الذي لا لبس فيه • ولما كان الغفران قد يكون لبعض الذنوب وكان سبحانه وتعالى له ان يعذب من لا ذنب له وأن يعذب من غفر ذنبه قالوا (وقهم عذاب الجحيم) أي اجعل بينهم وبينه وقاية بان تلزمهم الاستقامة وتتم نعمتك عليهم فانك وعدت من كان كذلك بذلك ولا يبدل القول لديك وان كان يجوز أن تفعل ما تشاء وان الخلق عبيدك • ولما طلبوا من الله سبحانه وتعالى ازالة العذاب عنهم وكان ذلك لا يستلزم الثواب قالوا مكررين صفة الاحسان زيادة في الرقة في طلب الامتنان (ربنا) أيها المحسن الينا (وأدخلهم جنات عدن) أي اقامة (التي وعدتهم) اي اياها وقولهم (ومن صلح) معطوف على هم في وعدتهم وقدموا قولهم (من آبائهم) على قولهم (وأزواجهم وذرياتهم) لان الآباء أحق الناس بالاجلال وقدموا الازواج في اللفظ على الذرية لانهم أشد التصاقا بالشخص وطلبوا لهم ذلك لان الانسان لا يتم نعيمه الا باهله قال سعيد بن جبير يدخل الجنة المؤمن فيقول اين أبي أين ولدي وزوجتي فيقال له انهم لم يعملوا مثل عملك فيقول اني كنت أعمل لي ولهم فيقال أدخلوهم الجنة (انك انت) اي وحدك (العزيز) اي فانت تغفر لمن شئت (الحكيم) فكل فعلك في أتم مواضعه فلا يتهيأ لاحد نقضه ولا نقصه (وقهم السيآت) اي بان تجعل بينهم وبينها وقاية بان تطهرهم من الاخلاق الحاملة عليها (فان قيل) هذا مكرر مع قوله وقهم عذاب الجحيم (أجيب) بان التفاوت حاصل من وجهين أحدهما ان يكون قولهم وقهم عذاب الجحيم دعاء مذكورا للاصول وقولهم وقهم السيآت دعاء مذكورا للفروع وهم الآباء والازواج والذريات ثانيهما أن يكون قوله وقهم عذاب الجحيم مقصورا على ازالة عذاب الجحيم وقولهم وقهم السيآت يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف يوم القيامة والسؤال والحساب فيكون تعميما بعد تخصيص وهذا أولى وقال بعض المفسرين ان الملائكة طلبوا ازالة عذاب النار عنهم بقولهم وقهم عذاب الجحيم وطلبوا ايصال الثواب اليهم بقولهم وأدخلهم جنات عدن ثم طلبوا بعد ذلك ان يصونهم الله تعالى في الدنيا من العقائد الفاسدة بقولهم وقهم السيآت وقرأ ابو عمرو في الوصل بكسر الميم والهاء وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم ثم قالت الملائكة (ومن تق السيآت) اي جزاءها كلها (يومئذ) اي يوم تدخل فريقا الجنة وفريقا النار المسببة عن السيآت وهو يوم القيامة (فقد رحمته) اي الرحمة الكاملة التي لا يستحق غيرها

وعلى و نزيدهما ان كل موضع خوطب فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالانزال أو التنزيل أو النزول ان

منها أن يسمى رحمة فان تمام النعيم لا يكون الا بزوال التحاسد والتباغض والتنافس التنار باجتناب السيئات ولذلك قالوا (وذلك) أى الامر العظيم جدا (هو الفوز العظيم) أى النعيم الذى لا ينقطع فى جوار ملك لا تصل العقول الى كنه عظمته وجلاله هذا آخر دعاء الملائكة للمؤمنين قال مطرف أنصح عباد الله تعالى للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين ثم انه تعالى بعد ان ذكر أحوال المؤمنين عاد الى ذكر أحوال الكافرين المجادلين فى ايات الله تعالى وهم المذكورون فى قوله تعالى ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فقال تعالى مبينا انقاموا كد الانكارهم آيات الله تعالى (ان الذين كفروا) أى أوقعوا الكفر ولو لحظة (ينادون) يوم القيامة وهم فى النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرض عليهم سيآتهم وعاينوا العذاب فيقال لهم (لمقت الله) أى الملك الاعظم اياكم (أكبر) والتقدير لمقت الله لانفسكم أكبر (من مقتكم أنفسكم) فاستغنى بذكرها مرة وقوله تعالى (اذ تدعون الى الايمان فتكفرون) منصوب بالمقت الاول والمعنى انه يقال لهم يوم القيامة كان الله تعالى يمقت أنفسكم الامارة بالسوء والكفر حين كان يدعوكم الى الايمان فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم فى النار اذا وقعتم فيها باتباعكم هواهن وذكروا فى تفسير مقتهم أنفسهم وجوها أولها أنهم اذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على اصرارهم على التكذيب بهذه الاشياء فى الدنيا ثانيها ان الاتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين يدعونهم الى الكفر فى الدنيا والرؤساء أيضا يشتد مقتهم للاتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضا بانهم مقتوا أنفسهم كقوله تعالى اقتلوا أنفسكم والمراد أن يقتل بعضكم بعضا ثالثها قال محمد بن كعب اذا خطبهم ابليس وهو فى النار بقوله ما كان لى عليكم من سلطان الى قوله ولوموا أنفسكم ففى هذه الحالة مقتوا أنفسهم وأما الذين ينادون الكفار بهذا الكلام فهم خزنة جهنم وعن الحسن لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله أكبر وقيل معناه لمقت الله اياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض كقوله تعالى يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا واذ تدعون تعليل والمقت أشد البغض وذلك فى حق الله تعالى محال فالمراد منه أبلغ الانكار وأشده وعن مجاهد مقتوا أنفسهم حين رأوا أعمالهم ومقت الله تعالى اياهم فى الدنيا اذ يدعون الى الايمان فيكفرون أكبر وقال الفراء معناه ينادون ان مقت الله يقال ناديت ان زيدا قائم وناديت لزيد قائم وقرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائى بادغام الذال فى التاء والباقون بالاظهار ثم انه تعالى بين أن الكفار اذا خوطبوا بهذا الخطاب (قالوا ربنا) أى أيها المحسن الينا بما تقدم فى دار الدنيا (أمتنا اثنتين) أى اماتتين (وأحييتنا اثنتين) أى احياءتين قال ابن عباس وقتادة والضحاك كانوا أمواتا فى أصلاب ابائهم فاحياهم الله تعالى فى الدنيا ثم أماتهم الموتة الاولى التى لابد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهما موتتان وحياتان وهو كقوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم وقال السدى أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم للمسئلة ثم أميتوا فى قبورهم ثم أحيوا فى الآخرة وقيل واحدة عند انقضاء الآجال فى الحياة الدنيا وأخرى بالصعق بعد البعث أو الارقاد بعد سؤال القبر وردبان الصعق ليس بموت وما فى القبر ليس بحياة حتى يكون

عدى بالى فضمنه تكليفه أو بعلى فضمنه تخفيفه فان هذا تكليفه بالاخلاص فى العبادة بدليل قوله فاعبد

عنه صوت وانما هو اقدار على الكلام كما أقدر سبحانه الحصا على التسبيح والحجر على التسليم والضب على الشهادتين (فاعترفنا بذنوبنا) أى بكفرنا بالبعث (فهل الى خروج) من النار الى الدنيا فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك (من سبيل) أى طريق ونظيره هل الى مرد من سبيل والمعنى أنهم لما عرفوا أن الذى كانوا عليه فى الدنيا كان فاسدا باطلا تمنوا الرجوع الى الدنيا ليشتغلوا بالاعمال الصالحة (فان قيل) الفاء فى قوله تعالى فاعترفنا بذنوبنا تقتضى أن تكون الاماتة مرتين والاحياء مرتين سببا لهذا الاعتراف فما وجه هذه السببية (أجيب) بانهم كانوا منكرين البعث فلما شاهدوا هذا الاحياء بعد الاماتة مرتين لم يبق لهم عذر فى الاقرار بالبعث فلا جرم وقع هذا الاقرار كالمسبب عن تلك الاماتة والاحياء ولما كان الجواب قطعا لا سبيل الى ذلك علله بقوله تعالى (ذلكم) أى القضاء النافذ العظيم العالى بتخليدكم فى النار مقتا منه لكم (بأنه) أى كان بسبب أنه (اذا دعى الله) أى الملك الاعظم من أى داع وفى اعراب قوله تعالى (وحده) وجهان أحدهما انه مصدر فى موضع الحال وجاز مع كونه معرفة لفظا لكونه فى قوة النكرة كأنه قيل منفردا ثانيهما وهو قول يونس انه منصوب على الظرف والتقدير دعى على حدته وهو مصدر محذوف الزوائد والتقدير أوحدته ايحادا (كفرتم) بتوحيده (وان يشرك به) أى يجعل له تعالى شريك (تؤمنوا) أى تصدقوا بالاشراك (فالحكم) أى فتسبب عن القطع بانه لا رجعة وأن الكفار ما ضروا الا أنفسهم مع ادعائهم العقول الراجحة ونحو ذلك أن الحكم كله (لله) أى المحيط بصفات الكمال (العلى) أى عن أن يكون له شريك (الكبير) أى الذى لا يليق الكبر الا له ولما قصر الحكم عليه دل على ذلك بقوله تعالى (هو) أى وحده (الذى يريكم) أى بالبصر والبصيرة (آياته) أى علاماته الدالة على تفرده بصفات الكمال وأنه لا يجوز جعل هذه الاحجار المنحوتة والخشب المصورشركاء لله عز وجل فى العبودية ومن آياته الدالة على كمال القدرة والعظمة قوله تعالى (وينزل لكم من السماء) أى جهة العلو الدالة على قهر ما نزل منها بامساكه الى حين الحكم بنزوله (رزقا) أى أسباب رزق كالمطر لاقامة أبدانكم لان أهم المهمات رعاية مصالح الاديان ومصالح الابدان والله تعالى راعى مصالح أديان العباد باظهار البينات والآيات وراعى مصالح أبدانهم بانزال الرزق من السماء فموقع الآيات من الاديان كموقع الارزاق من الابدان وعند حصولهما يكمل الانعام الكامل وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (وما يتذكر) ذلك تذكرا تاما فيتعظ بهذه الآيات (الا من ينيب) أى يرجع الى الله تعالى ويقبل بكليته الى الله تعالى فى جميع أموره فيعرض عن غير الله تعالى ولهذا قال عز من قائل (فادعوا) وصرح بالاسم الاعظم فقال تعالى (الله) الذى له صفات الكمال أى فاعبدوه (مخلصين له الدين) أى الاعمال التى يقع الجزاء عليها فمن كان يصدق بالجزاء وبان ربه غنى لا يقبل الا خالصا اجتهد فى تصفية أعماله فيأتى بها فى غاية الخلوص عن كل ما يمكن أن يكدر من غير شائبة شرك جلى أو خفى كما أن معبوده واحد من غير شائبة نقص (ولو كره) أى الدعاء منكم (الكافرون) أى الساترون لانوار عقولهم ولما ذكر تعالى من صفات كبريائه كونه مظهرا للآيات ذكر ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهى قوله تعالى (رفيع الدرجات) وهذا يحتمل أن يكون

المراد

الله مخلصا وما فى اثناء السورة
قوله
منصرف عنه بدليل
وما انت عليهم بوكيل اى
قوله
استعجول عنهم

المراد منه الرافع وأن يكون المراد منه المرتفع فان حملناه على الاول ففيه وجهات أولها أنه تعالى يرفع درجات الانبياء والاولياء ثانيها يرفع درجات الخلق في العلوم والاخلاق الفاضلة فجعل لكل أحد من الملائكة درجة معينة كما قال تعالى عنهم وما منا الا له مقام معلوم وجعل لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وعين لكل جسم درجة معينة فجعل بعضها سفلية كدرة وبعضها فلكية كوكبية وبعضها من جواهر العرش والكرسي وأيضا جعل لكل واحد مرتبة معينة في الخلق والخلق والرزق والاجل فقال تعالى وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وجعل لكل واحد من السعداء والاشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة وفي الآخرة تظهر تلك الآثار وان حملنا الرفيع على المرتفع فهو سبحانه وتعالى أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال ﴿تنبيه﴾ في رفيع وجهان أحدهما انه مبتدأ والخبر (ذو العرش) أي الكامل الذي لا عرش في الحقيقة الا هو فهو محيط بجميع الاكوان ومادة كل جماد وحيوان وعال بجلاله وعظمته عن كل ما يخطر في الاذهان وقوله تعالى (يلقي الروح) أي الوحي سماه روحا لانه تحيا به القلوب كما تحيا الابدان بالارواح (من أمره) قال ابن عباس أي من قضائه وقوله يلقي يجوز أن يكون خبرا ثانيا وأن يكون حالا ويجوز أن تكون الثلاثة أخبارا لقوله تعالى هو الذي يريكم آياته ولما كان أمره تعالى غالبا على كل أمر أشار الى ذلك باداة الاستعلاء فقال تعالى (على من يشاء) أي يختار (من عباده) للنبوة وفي هذا دليل على أنها عطائية وقوله (لينذر) أي يخوف غاية الانذار والفاعل هو الله تعالى أو الروح أو من يشاء أو الرسول والمنذر به محذوف تقديره لينذر العذاب (يوم التلاق) أي يوم القيامة فان فيه تتلاقى الارواح والاجساد وأهل السماء والارض وقال مقاتل يلتقي الخلق والخالق تعالى وقال ميمون بن مهران يلتقي الظالم والمظلوم وقيل يلتقي العابدون والمعبودون وقيل يلتقي فيه المرء مع عمله والاولى أن تفسر الآية بما يشمل الجميع (يوم هم بارزون) أي خارجون من قبورهم وقيل ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل أو شجر أو تلال أو غير ذلك وقيل بارزون كناية عن ظهور حالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى يوم تبلى السرائر والاولى أيضا أن تفسر الآية بما يشمل الجميع كما قال تعالى (لا يخفى على الله) أي المحيط علما وقدرة (منهم) أي من أعمالهم وأحوالهم (شئ) دق وخفي و يقول الله تعالى في ذلك اليوم بعد فناء الخلق (لمن الملك اليوم) اي يا من كانوا يعملون اعمال من يظن أنه لا يقدر عليه احد فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه فيقول تعالى (لله) اي الذي له جميع صفات الكمال ثم دل على ذلك بقوله تعالى (الواحد) أي الذي لا يمكن أن يكون له ثان بشركة ولا قسمة ولا غيرهما (القهار) أي الذي قهر الخلق بالموت وقيل يجيبونه بلسان الحال أو المقال فيقولون ذلك وقال الرازي لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ولا يبعد أيضا أن يكون السائل جمعا من الملائكة والمجيب جمعا آخرين وليس على التعيين (فان قيل) الله تعالى لا يخفى عليه شئ منهم في جميع الايام فما معنى تقييد هذا العلم بذلك اليوم (أجيب) بانهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم اذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله تعالى لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم فهم في ذلك اليوم صائرون من البروز

ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار) اي مادام على كذبه وكفره اولا يهديه الى الجنة بل يلزم بها المؤمنين والا

قوله ويجوز أن تكون الثلاثة أخبارا الخ يؤخذ منه الوجه الثاني اه

والانكشاف الى حال لايتوهمون فيها مثل ما يتوهمون فى الدنيا كما قال تعالى ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وقال تعالى يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم وهو معنى قوله تعالى وبرزوا لله الواحد القهار • ولما أخبر تعالى عن اذعان كل نفس بانقطاع الاسباب أخبرهم بما يزيد رعبهم ويبعث رغبتهم وهو نتيجة تفرده بالملك فقال تعالى (اليوم تجزى) أى تقضى وتكافأ (كل نفس بما) أى بسبب ما (كسبت) أى عملت لا تترك نفس واحدة لان العلم قد شملهم والقدرة قد أحاطت بهم وحمتهم والحكمة قد منعت من اهمال أحد منهم فيجزى المحسن باحسانه والمسىء باساءته (لا ظلم اليوم) أى بوجه من الوجوه (ان الله) أى التام القدرة الشامل العلم (سريع الحساب) أى بليغ السرعة فيه لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره فى وقت حساب ذلك الغير ولا يشغله شأن عن شأن لانه تعالى لا يحتاج الى تكلف عد ولا يفتقر الى مراجعة كتاب ولا شىء فكان فى ذلك ترجية وتخويف الفريقين لان المؤمن يرجو اسراع البسط بالثواب والظالم يخشى اسراع الاخذ بالعذاب وعن ابن عباس اذا أخذ فى حسابهم لم يقل أهل الجنة الا فيها ولا أهل النار الا فيها • ثم نبه تعالى بقوله سبحانه (وأنذرهم يوم الآزفة) أى القيامة على أن يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى اقتربت الساعة قال الزجاج انما قيل لها آزفة لانها قريبة وان استبعد الناس مداها الان ما هو كائن قريب والآزفة فاعلة من أزف الامر اذا دنا وحضر كقوله تعالى فى صفة القيامة أزفت الآزفة أى قربت قال النابغة

• أزف الترحل غير أن ركابنا • لما تزل برحالنا وكأن قد

وقال كعب بن زهير

بان الشباب وهذا الشيب قد أزفا • ولا أرى لشباب بائن خلفا

•(تنبيه)• الآزفة نعت لمحذوف مؤنث كيوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة قال القفال وأسماء القيامة تجرى على التأنيث كالطامة والحاقة لانها امر جع معناها على الداهية ويوم القيامة له أسماء كثيرة تدل على أهوالها باعتبار مراقفه وأحواله منها يوم البعث وهو ظاهر ومنها يوم التلاق لما مر ومنها يوم التغابن لغبن اكثر من فيه وخسرانه وقيل المراد بيوم الآزفة مشارفتهم دخول النار فان عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف وقال أبو مسلم هو يوم حضور الاجل فان يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب • ولما ذكر تعالى اليوم هول أمره بما يحصل فيه من المشاق بقوله تعالى (اذ القلوب) أى من كل من حضره ترتفع (لدى) اى عند (الحناجر) اى حناجر المجموعين فيه وهو جمع حنجور وهو الحلقوم يعنى انها زالت عن اماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج • ثم اسند اليها ما يسند للعقلاء فقال تعالى (كاظمين) اى ممتلئين خوفا ورعبا وحزنا مكروبين فقد استدت مجارى انفاسهم واخذ بجميع احساسهم • ولما كان من المعهود ان الصداقات تنفع فى مثل ذلك والشفاعات قال تعالى مستأنفا (ما للظالمين) اى العريقين فى الظلم (من حميم) اى قريب صادق فى مودته مهتم بامورهم مزيل لكروبهم (ولا شفيع يطاع) فيشفع لهم •(تنبيه)• احتج المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة عن المذنبين فقالوا انفى حصول شفيع لهم يطاع يوجب

(قوله فكم هدى من كافر) لو اراد الله أن يتخذ ولدا) الآية (ان قلت) كيف يكون قوله فيها لاصطفى مما يخلق ما يشاء ردا على من ادعى ان له ولدا مع ان

ان لا يحصل لهم هذا الشفيع وأجيبوا بوجوه أولها أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع
وهذا لا يدل على نفي الشفيع كقولك ما عندي كتاب يباع لا يقتضي نفي الكتاب فهذا ينفي ان
لهم شفيعا يطيعه الله تعالى ما من شفيع الا من بعد اذنه ثانيها أن المراد بالظالمين في هذه الآية
ههنا الكفار لانها وردت في زجر الكفار قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم ثالثها أن لفظ
الظالمين اما أن يفيد الاستغراق أولا فان كان المراد جميعهم فيدخل فيه الكفار وعندنا أنه
ليس لهذا الجمع شفيع لان بعضهم كفار وليس لهم شفيع فحينئذ لا يكون لهذا الجمع شفيع وان لم
يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع ● ولما
أمر الله تعالى بانذار يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من
يحميه ولا يشفع له ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا فقال تعالى (يعلم خائنة
الاعين) أي خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر جعل الخيانة مبالغة في الوصف
وهو الاشارة بالعين قال أبو حيان من كسر عين وغمز ونظر يفهم المراد ● ولما ذكر اخفى افعال
الظاهر اتبعه اخفى افعال الباطن فقال تعالى (وما تخفي الصدور) اي القلوب فعلم من ذلك ان
الله تعالى عالم بجميع افعالهم لان الافعال على قسمين افعال الجوارح وافعال القلوب فاما
افعال الجوارح فاخفاه خيانة الاعين والله تعالى عالم بها فكيف الحال في سائر الاعمال وأما
افعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله عز وجل وما تخفي الصدور وقوله تعالى (والله) اي
المتصف بجميع صفات الكمال (يقضي بالحق) اي الثابت الذي لا يبقى بوجه بعظيم الخوف
لان الحاكم اذا كان عالما بجميع الاحوال وثبت انه لا يقضي الا بالحق في كل دقيق وجليل كان
خوف المذنب منه في الغاية القصوى ● ولما عول الكفار في دفع العقاب عن انفسهم على شفاعة
هذه الاصنام بين الله تعالى انه لا فائدة فيها البتة فقال تعالى (والذين يدعون) اي يعبدون (من
دونه) وهم الاصنام (لا يقضون) لهم (بشيء) من الاشياء اصلا فكيف يكونون شركاء لله تعالى
وقرأ نافع وهشام تدعون بتاء الخطاب للمشركين والباقون بياء الغيبة اخبارا عنهم بذلك
● ولما أخبر تعالى أنه لا فعل لشركائهم وأن الامر له وحده قال تعالى مؤكدا لاجل أن أفعالهم
تقتضي انكار ذلك (ان الله) أي المنفرد بصفات الكمال (هو) أي وحده (السميع) أي لجميع
أقوالهم (البصير) أي بجميع أفعالهم ففي ذلك تقرير لعلمه تعالى بخائنة الاعين وقضائه بالحق
ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه فثبت أن الامر له وحده
فما تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تقبل فيهم من أحد شفاعة بعد الشفاعة العامة التي هي خاصة
بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الاولون والآخرون فان كل أحد
يحجم عنها حتى يصل الامر اليه صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها أنا لها ثم يذهب الى المكان الذي
أذن له فيه فيشفع فيشفعه الله تعالى فيفصل سبحانه وتعالى بين الخلائق ليذهب كل احد الى
داره جنته أو ناره ● ولما أوعدهم سبحانه بصادق الاخبار عن قوم نوح ومن تبعهم من
الكفار وختمه بالانذار بما يقع في دار القرار للظالمين الاشرار أتبعه الوعظ والتخويف
بالمشاهدة من تتبع الديار والاعتبار بما كان لهم فيها من عجائب الآثار فقال عز من قائل (أولم
يسيروا في الارض) أي في أي أرض ساروا فيها (فينظروا) أي نظر اعتبار كما هو شأن أهل

كل من نسب اليه ولدا قال
ان الله اصطفاه من خلقه
بجعله ولدا (قلت) ان جعل
ردا على اليهود قوله انه

البصائر (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (الذين كانوا) أي سكانا للارض عريقين في عمارتها (من قبلهم) أي قبل زمانهم من الكفار كعاد وثمود (كانوا هم) أي المتقدمون لما لهم من القوة الظاهرة والباطنة (أشد منهم) أي من هؤلاء (قوة) أي ذوات ومعاني واتى بالفصل وحقه انه يقع بين معرفتين لمضارعة أفعل من المعرفة في امتناع دخول اللام عليه وقرأ ابن عامر منكم بكاف الخطاب والباقون بهاء الغيبة (و) أشد (آثارا في الارض) لان آثارهم لم يندرس بعضها الى هذا الزمان وقد مضى عليه ألوف من السنين واما المتأخرون فتنطمس آثارهم في اقل من قرن ومع قوتهم (فأخذهم الله) أي الذي له صفات الكمال اخذ غلبة وقهر وسطوة (بذنوبهم) أي بسببها (وما كان لهم) من شركائهم الذين ضلوا بهم هؤلاء ومن غيرهم (من الله) أي المتصف بجميع صفات الكمال (من واق) أي يقيهم عذابه والمعنى ان العاقل من اعتبر بغيره وان الذين مضوا من الكفار كانوا اشد قوة من هؤلاء ولما كذبوا رسلهم اهلكهم الله تعالى عاجلا وقرأ ابن كثير في الوقف بالياء بعد القاف والباقون بغير ياء واتفقوا على التنوين في الوصل ثم ذكر تعالى سبب اخذهم بقوله تعالى (ذلك) أي الاخذ العظيم (بأنهم) أي الذين كانوا من قبل (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) أي الآيات الدالة على صدقهم دلالة هي من وضوح الامر بحيث لا يسع منصفا انكارها وقرأ ابو عمرو بسكون السين والباقون بضمها ● ولما كان مطلق الكفر كافيا في العذاب عبر بالماضي فقال تعالى (فكفروا) أي تسببوا عن اتيان الرسل عليهم السلام اليهم الكفر بهم (فأخذهم الله) أي الملك الاعظم اخذ غضب (انه قوي) أي متمكن مما يريد غاية التمكن (شديد العقاب) لا يؤبه بعقاب دون عقابه ● ولما سلى تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر الكفار الذين كذبوا الانبياء عليهم السلام قبله وبمشاهدة آثارهم سلاه ايضا بذكر قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد أرسلنا) أي على ما لنا من العظمة (موسى بآياتنا) أي الدالة على جلالنا (وسلطان) أي أمر قاهر عظيم جدا لا حيلة لهم في مدافعة شيء منه (مبين) أي بين في نفسه يتبين لكل من يمكن اطلاعه عليه انه ظاهر وذلك الامر هو الذي كان يمنع فرعون من الوصول الى أذاه مع ما له من القوة والسلطان (الى فرعون) أي ملك مصر (وهامان) أي وزيره (وقارون) أي قريب موسى (فقالوا) أي هؤلاء ومن معهم هو (ساحر) لعجزهم عن مقاهرته اما من عدا قارون فأولا وآخرا بالقوة والفعل وأما قارون فنفسه آخرا بين انه مطبوع على الكفر وان آمن أولا وان هذا كان قوله وان لم يقله بالفعل في ذلك الزمان وقد قاله في النية فدل ذلك على انه لم يزل قائلا به لانه لم يتب منه ثم وصفوه بقولهم (كذاب) لخوفهم من تصديق الناس له (فلما جاءهم بالحق) أي بالامر الثابت الذي لا طاقة لاحد بتغيير شيء منه كائنا (من عندنا) على ما لنا من القهر فآمن معه طائفة من قومه (قالوا) أي فرعون واتباعه (اقتلوا) أي قتلا حقيقيا بازالة الروح (أبناء الذين آمنوا) به أي فكانوا (معه) أي خصوهم بذلك واتركوا من عداهم فلعلهم يكذبونه (واستحيوا نساءهم) أي اطلبوا حياتهن بان لا تقتلوهن قال قتادة هذا غير القتل الاول لان فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان فلما بعث موسى عليه السلام اعاد القتل عليهم فمعناه أعيدوا عليهم القتل لئلا ينشؤوا على دين موسى فيقوى بهم وهذه العلة مختصة بالبنين فلهذا أمر بقتل الابناء

وعلى النصارى في
عزير و
قولهم انه المسيح كان معناه
لاصطفى ولدا من الملائكة
لا من البشر لان الملائكة

واستحياء

واستحياء نسائهم (وما) أى والحال انه ما (كيد الكافرين) أعمهم وتعليقا بالوصف (الا فى ضلال) أى مجانبة للسداد الموصل الى الظفر والفوز لانه ما أفادهم أولا فى الحذر من موسى عليه السلام ولا آخرا فى صد من آمن به مرادهم بل كان فيه تبارهم وهلاكهم وكذا أحوال الفجرة مع أولياء الله تعالى ما حفر أحد منهم لاحد منهم حفرة مكرا الا أركسه الله تعالى فيها (وقال فرعون) أى أعظم الكفرة فى ذلك الوقت لرؤسائه وأتباعه عندما علم انه عاجز عن قتله ولما رأى منه خوفا دافعا عن نفسه ما يقال من انه ما ترك موسى عليه السلام مع استحقاقه به الا عجزا عنه موهما ان قومه هم الذين يردونه عنه وانه لولا ذلك لقتله (ذرونى) أى اتركونى على أى حالة كانت (أقتل موسى) وزاد فى الايهام للاغبياء والمناداة على نفسه عند البصراء بقوله (وليدع ربه) أى الذى يدعوه ويدعى احسانه اليه بما يظهر على يديه من هذه الخوارق وقيل كان فى خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتل موسى وفى منعه من قتله وجوه أولها لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقا فيتحيل فى منع فرعون من قتله وثانيها قال الحسن ان أصحابه قالوا له لا تقتله فانما هو ساحر ضعيف ولا يمكن أن يغلب سحرنا فان قتلته أدخلت الشبهة على الناس ويقولون انه كان محقا وعجزوا عن جوابه فقتلوه وثالثها أنهم كانوا يحتالون فى منعه من قتله لاجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب تلك الاقوام لان من شأن الامراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجى حتى يصيروا آمنين من قبل ذلك الملك وقرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بالسكون ثم ذكر فرعون السبب الموجب لقتل موسى عليه السلام وهو اما فساد الدين أو فساد الدنيا فقال (انى أخاف) أى ان تركته (أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الارض الفساد) أى لابد من وقوع أحد الامرين اما فساد الدين واما فساد الدنيا أما فساد الدين فلان القوم اعتقدوا ان الدين الصحيح هو دينهم الذى كانوا عليه فلما كان موسى عليه السلام ساعيا فى افساده اعتقدوا انه ساع فى افساد الدين الحق وأما فساد الدنيا فهو أن يجتمع عليه أقوام ويصير ذلك سببا فى وقوع الخصومات واثارة الفتن وبدأ فرعون بذكر الدين أولا لان حب الناس لاديانهم فوق حبهم لاموالهم ولما توعد فرعون موسى عليه السلام بالقتل لم يأت فى دفع شره الا أن استعان بالله واعتمد على فضله كما قال تعالى (وقال موسى انى عذت) أى اعتصمت عند ابتداء الرسالة (بربى) ورغبهم فى الاعتصام به وثبتهم بقوله (وربكم) أى المحسن الينا أجمعين وأرسلنى لاستنقاذكم من أعداء الدين والدنيا (من كل متكبر) أى عات طاغ متعظم على الحق هذا وغيره (لا يؤمن) أى لا يتجدد له تصديق (بيوم الحساب) من ربه له وهو يعلم انه لا بد من حسابه هو لمن تحت يده من رعاياه وعبيده فيحكم على ربه بما لا يحكم به على نفسه وبهذين الامرين يقدم الانسان على ايذاء الناس لان المتكبر القاسى القلب قد يحمله طبعه على ايذاء الناس الا انه اذا كان مقرا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعا له عن الجرى على موجب تكبره فاذا لم يحصل له الايمان بالبعث والقيامة كان طبعه داعيا له الى الايذاء لان المانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائل فلا جرم تعظم القسوة والايذاء واختلف فى الرجل المؤمن فى قوله تعالى (وقال رجل مؤمن) أى راسخ الايمان (من آل فرعون) أى من وجوههم ورؤسائهم (يكتم ايمانه) أى يخفيه

أشرف من البشر بلا خلاف بين اليهود والنصارى اوردا على مشركى العرب فى زعمهم انه الا لملائكة كان

خوفا شديدا خوفا على نفسه فقال مقاتل والسدى كان قبطيا ابن عم فرعون وهو الذى حكى الله تعالى عنه وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى وقيل كان اسرائيليا وعن ابن عباس لم يكن فى آل فرعون غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى عليه السلام الذى قال ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الصديقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم وعن جعفر بن محمد ان مؤمن آل فرعون قال ذلك سرا وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه جهارا أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وروى عن عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرنى بأشد ما صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة اذ أقبل عقبة بن ابى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا وقال له أنت الذى تنهانا عما كان يعبد آباؤنا قال أنا ذلك فأقبل أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم فكان ابو بكر اشد من ذلك وعن انس بن مالك قال ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه فقام ابو بكر فجعل ينادى ويلكم اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله قالوا من هذا قيل هذا ابن ابى قحافة قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما واكثر العلماء كان اسم الرجل حزقيل وقال ابن اسحق جبريل وقيل حبيب * ولما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام انه ما زاد فى دفع فرعون وشره على الاستعاذة بالله تعالى بين انه تعالى قيض له انسانا اجنبيا حتى ذب عنه باحسن الوجوه وبالغ فى تسكين تلك الفتنة فقال (اتقتلون رجلا) اى هو عظيم فى الرجال حسا ومعنى ثم علل قتلهم له بما ينافيه فقال (ان) اى لاجل ان (يقول) قولا على سبيل الانكار (ربى) اى المربى والمحسن الىّ (الله) اى الجامع لصفات الكمال (وقد) اى والحال انه قد (جاءكم بالبينات) اى الآيات الظاهرات من غير لبس (من ربكم) اى الذى لا احسان عندكم الا منه ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية على ان الاقدام على قتله غير جائز وهى حجة مذكورة على طريق التقسيم فقال (وان يك) اى هذا الرجل (كاذبا فعليه) اى خاصة (كذبه) اى كان وبال كذبه عليه وليس عليكم منه ضرر فاتركوه (وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) اى العذاب عاجلا وله صدقه ينفعه ولا ينفعكم شيأ (فان قيل) لم قال بعض الذى يعدكم وهو نبى صادق لابد لما يعدهم ان يصيبهم كله (أجيب) بانه انما قال ذلك ليهضم موسى بعض حقه فى ظاهر الكلام فيريهم انه ليس بكلام من اعطاه حقه وافيا فضلا عن ان يتعصب له وهذا اولى من قول ابى عبيدة وغيره ان بعض بمعنى كل وانشد قول لبيد

تراك امكنة اذا لم ارضها * او يرتبط بعض النفوس حمامها

وانشد ايضا قول عمرو بن شييم

قد يدرك المتانى بعض حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقال الآخر

ان الامور اذا الاحداث دبرها * دون الشيوخ ترى فى بعضها خللا

ومعناه لا يصطفى ولدا من جنس يخلق كل شئ يريده ايكون ولده موصوفا بصفته لا من الملائكة

وقوله

وقوله (ان الله) أى الذى له مجامع العظمة (لا يهدى) الى ارتكاب ما ينفع واجتناب ما يضر (من هو مسرف) باظهار الفساد وبتجاوز الحدود (كذاب) فيه احتمالان أحدهما ان هذا اشارة الى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى عليه السلام والمعنى ان الله تعالى هدى موسى عليه السلام الى الاتيان بالمعجزات الباهرة ومن هداه الله تعالى الى الاتيان بالمعجزات لا يكون مسرفا كذابا فدل على ان موسى عليه السلام ليس من المسرفين الكذابين ثانيهما أن يكون المراد أن فرعون مسرف فى عزمه على قتل موسى عليه السلام كذاب فى ادعائه الالهية والله تعالى لا يهدى من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم أمره * ولما استدل مؤمن آل فرعون على انه لا يجوز قتل موسى عليه السلام خوف فرعون وقومه ذلك العذاب الذى توعدهم به فى قوله يصبكم بعض الذى يعدكم فقال (يا قوم) وعبر باسلوب الخطاب دون التكلم تصريحا بالمقصود فقال (لكم الملك) ونبه على ما يعرفونه من تقلبات الدهر بقوله (اليوم) وأشار الى ما عهدوه من الخذلان فى بعض الازمان بقوله (ظاهرين) أى عالين على بنى اسرائيل وغيرهم ومازال أهل البصيرة يتوقعون الرخاء وأهل الرخاء يتوقعون البلاء ونبه بقوله (فى الارض) أى أرض مصر على الاحتياج ترهيبا لهم وعرفها لانها كالارض كلها لحسنها وجمعها المنافع ثم حذرهم من سخط الله تعالى فقال (فمن ينصرنا) أى أنا وأنتم أدرج نفسه فيهم عند ذكر الشر بعد افراده لهم بالملك ابعادا للتهمة وحثا على قبول النصيحة (من بأس الله) أى الذى له الملك كله (ان جاءنا) أى غضبا لهذا الذى يدعى انه أرسله فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله تعالى بقتله فانه ان جاءنا لم يمنعنا منه أحد * ولما قال المؤمن هذا الكلام (قال فرعون) أى لقومه جوابا لما قاله هذا المؤمن (ما أريكم) من الآراء (الا ما أرى) أى انه صواب على قدر مبلغ علمى ولا أرى لكم الا ما أرى لنفسى وقال الضحاك ما أعلمكم الا ما أعلم (وما أهديكم) أى بما أشرت به عليكم من قتل موسى وغيره (الا سبيل الرشاد) اى الذى أرى انه صواب لا أظهر شيأ وأبطن غيره * ولما ظهر لهذا المؤمن أن فرعون ذل الكلامه ارتقى الى أصرح من الاسلوب الاول كما أخبرنا الله تعالى بقوله (وقال الذى آمن) أى بعد قول فرعون هذا الكلام الذى دل على عجزه وجهله وذله (يا قوم) وأكد لما رأى عندهم من انكار أمره وخاف منهم اتهامه فقال (انى أخاف عليكم) أى من المكابرة فى أمر موسى عليه السلام (مثل يوم الاحزاب) أى أيام الامم الماضية يعنى وقائعهم وجمع الاحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم مع أن افراده أردع وأقوى فى التخويف وأفظع للاشارة الى قوة الله تعالى وانه قادر على اهلاكهم فى أقل زمان ولما أجمل فصل وبين أو أبدل بعد أن هول بقوله (مثل دأب) أى عادة (قوم نوح) أى فيما دهمهم من الهلاك الذى محقهم فلم يطيقوه مع ما كان فيهم من قوة المجادلة والمقاومة لما يريدونه (وعاد وثمود) مع ما بلغكم من جبروتهم *(تنبيه)* لابد من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم * ولما كان هؤلاء أقوى الامم اكتفى بهم وأجمل من بعدهم فقال (والذين من بعدهم) أى بالقرب من زمانهم كقوم لوط (وما الله) أى الذى له الاحاطة باوصاف الكمال (يريد ظلما للعباد) أى فلا يهلكهم الا بعد اقامة الحجة عليهم ولا يهلكهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد من حيث ان المنفى فيه حدوث تعلق ارادته بالظلم * ولما أشرقه من آفاق هذا

الذين لا يقدرون على ايجاد جناح بعوضة ولا يرد على هذا خلق عيسى عليه السلام الطير لانه ليس

الوعظ شمس البعث ونور الحشر قال (ويا قوم انى أخاف عليكم) وقوله (يوم التناد) أجمع المفسرون أنه يوم البعث وفى تسميته بهذا الاسم وجوه أولها ان أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار كما حكى الله تعالى عنهم ثانيها قال الزجاج هو قوله تعالى يوم ندعوا كل أناس بامامهم ثالثها ينادى بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور فيقولون ياويلنا رابعها ينادون الى المحشر خامسها ينادى المؤمن هاؤم اقرؤا كتابيه والكافر ياليتنى لم أوت كتابيه سادسها ينادى باللعنة على الظالمين سابعها يجاء بالموت على صورة كبش أملح ثم يذبح بين الجنة والنار ثم ينادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثامنها ينادى بالسعادة والشقاوة الا ان فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا وفلان بن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وهذه الامور كلها تجتمع فى هذا اليوم فلا بد من تسميته بها كلها ولما كان عادة المتنادين الاقبال وصف ذلك اليوم بضد ذلك لشدة الاهوال فقال تعالى مبدلا أو مبينا (يوم تولون) أى عن الموقف (مدبرين) قال الضحاك اذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا الملائكة صفوفا فيرجعون الى أماكنهم فذلك قوله تعالى والملك على أرجائها وقوله تعالى يامعشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان وقال مجاهد فارين من النار غير معجزين وقيل منصرفين عن الموقف الى النار ثم أكد التهديد بقوله تعالى (ما لكم من الله) أى الملك الجبار الذى لا يذل (من عاصم) أى من فئة تحميكم وتنصركم وتمنعكم من عذابه ثم نبه على قوة ضلالهم وشدة جهالتهم فقال تعالى (ومن يضلل الله) أى الملك المحيط بكل شئ (فما له من هاد) أى الى شئ ينفعه بوجه من الوجوه (تنبيه) فى قراءة هاد ما تقدم فى قوله من واق ولما قال لهم مؤمن آل فرعون ومن يضلل الله فما له من هاد ذكر لهم مثالا بقوله تعالى (ولقد جاءكم) أى جاء آباءكم يامعشر القبط ولكنه عبر بذلك دلالة على أنهم على مذهب الآباء كما جرت به العادة من التقليد ومن أنهم على طبعهم لا سيما ان كانوا لم يفارقوا مساكنهم (يوسف) أى نبى الله ابن نبى الله يعقوب ابن نبى الله اسحق ابن خليل الله ابراهيم عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام (من قبل) أى قبل زمن موسى عليه السلام (بالبينات) أى الآيات الظاهرات لا سيما فى أمر يوم التناد (فما زلتم) أى ما برحتم أنتم تبعا لآبائكم (فى شك) أى محيط بكم لم تصلوا الى رتبة الظن (مما جاءكم به) من التوحيد وقال ابن عباس من عبادة الله وحده لا شريك له فلم تنتفعوا البتة بتلك البينات ودل على تمادى شككم بقوله تعالى (حتى اذا هلك) فهو غاية أى فما زلتم فى شك حتى هلك (قلتم لن يبعث الله) أى الذى له صفات الكمال (من بعده) أى يوسف عليه السلام (رسولا) أى أقمتم على كفركم وظننتم ان الله لا يجدد عليكم الحجة وهذا ليس اقرارا منهم برسالته بل هو ضم منهم الى الشك فى رسالته والتكذيب برسالة من بعده وقوله تعالى (كذلك) خبر مبتدا مضمر أى الامر كذلك أو مثل هذا الضلال (يضل الله) أى بماله من صفات القهر (من هو مسرف) أى مشرك متغال فى الامور خارج عن الحدود (مرتاب) أى شاك فيما تشهد به البينات بغلبة الوهم والانهماك فى التقليد ثم بين تعالى ما لاجله يقع فى الشك والاسراف فقال سبحانه (الذين يجادلون) وهو مبتدأ أى يخاصمون خصاما شديدا (فى آيات الله) أى المحيط

بأوصاف

بعام أولانه جمع التقدير من الطين ثم الله تعالى يخلقه حيوانا بنفخ عيسى عليه السلام اظهارا لمعجزته

بأوصاف الكمال لاسيما الآيات الدالة على يوم التناد فانه أظهر الآيات وكذا الآيات الدالة
على وجوده سبحانه وتعالى وعلى ماهو عليه من الصفات والافعال وما يجوز عليه أو يستحيل
(بغير سلطان) أى برهان (أتاهم) وقوله (كبر) أى جدالهم (مقتا) خبر المبتدا ويجوز فى الذين
أوجه أيضا منها أنه بدل من قوله تعالى من هو مسرف وانما جمع اعتبارا بمعنى من ومنها أن
يكون بيانا له ومنها أن يكون صفة له وجمع على معنى من أيضا ومنها ان ينصب باضمار أعنى وقال
الزجاج قوله الذين يجادلون تفسير للمسرف من تاب يعنى هم الذين يجادلون فى آيات الله أى فى
ابطالها بالتكذيب بغير سلطان أتاهم كبر مقتا (عند الله) أى المقت الاعظم (و) كبر مقتا أيضا
(عند الذين آمنوا) أى الذين هم خاصته ودلت الآية على انه يجوز وصفه تعالى بأنه مقت بعض
عباده الا انها صفة واجبة التأويل فى حق الله تعالى كالغضب والحياء والعجب وقوله تعالى
(كذلك) أى ومثل هذا الطبع العظيم (يطبع الله) أى الذى له جميع العظمة يدل على أن
الكل من عند الله كما هو مذهب أهل السنة (على كل قلب متكبر) أى متكلف ماليس له وليس
لاحد غير الله (جبار) أى ظاهر الكبر قوية قهار وقال مقاتل الفرق بين المتكبر والجبار ان
المتكبر عن قبول التوحيد والجبار فى غير الحق قال الرازى كمال السعادة فى امرين التعظيم
لامر الله والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل المتكبر كالمضاد للتعظيم لامر الله والجبار
كالمضاد للشفقة على خلق الله وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان بتنوين قلب الموحدة ووصف القلب
بالتكبر والتجبر لانه منبعهما كقولهم رأت عينى وسمعت أذنى أو على حذف مضاف أى على كل
ذى قلب متكبر جبار فهى حينئذ مساوية لقراءة الباقين بغير تنوين ثم ان فرعون عليه اللعنة
أعرض عن جواب المؤمن لانه لم يجد فيه مطعنا (وقال فرعون يا هامان) وهو وزيره (ابن)
وعرفه بشدة اهتمامه بالاضافة اليه فى قوله (لى صرحا) أى بناء مكشوفا عاليا لايخفى على الناظر
وان بعد من صرح الشئ اذا ظهر (لعلى أبلغ الاسباب) أى التى لا أسباب غيرها لعظمها تعلله
بالترجى الذى لايكون الا فى الممكن دليل على أنه كان يلبس على قومه وهو يعرف الحق فان عاقلا
لا يعد مرامه فى عداد الممكن العادى ولما كان بلوغها أمرا عظيما أورده على نمط شوق اليه
ليعطيه السامع حقه من الاهتمام تفخيما لشأنه ليتشوف السامع الى بيانه بقوله (أسباب
السموات) أى الامور الموصلة اليها وكل ما أداك الى شئ فهو سبب اليه وقرأ الكوفيون
بسكون الياء والباقون بالفتح وقرأ (فاطلع) حفص بنصب العين وفيه ثلاثة أوجه أحدها أنه
جواب الامر فى قوله ابن لى فنصب بأن مضمرة بعد الفاء فى جوابه على قاعدة البصريين كقوله

يا ناق سيرى عنقا فسيحا • الى سليمان فنستريحا

وهذا أوفق لمذهب البصريين ثانيها قال أبو حيان انه منصوب على التوهم لان خبر لعل جاء
مقرونا بأن كثيرا فى النظم وقليلا فى النثر فمن نصب توهم ان الفعل المرفوع الواقع خبرا منصوب
بأن والعطف على التوهم كثير وان كان لا ينقاس اهـ ثالثها على جواب الترجى فى لعل وهو
مذهب كوفى والى هذا نحا الزمخشرى وتبعه البيضاوى قال وهو الاولى تشبيها للترجى بالتمنى
والباقون بالرفع عطفا على أبلغ أى فلعلى يتسبب عن ذلك ويتعقبه انى أتكلف الطلوع (الى اله
موسى) ولعله أراد أن يبنى له صرحا فى موضع عال يرصد فيه أحوال الكواكب التى هى أسباب

(قوله خالق السموات والارض بالحق) أى بسبب اقامته (قوله خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها

سماوية تدل على الحوادث الارضية فيرى هل فيها مايدل على ارسال الله تعالى اياه أو ان يرى فساد قول موسى فان اخباره عن اله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله اليه وذلك لايتأتى الا بالصعود الى السماء وهو مما لايقوى عليه الانسان وذلك لجهله بالله تعالى وكيفية استنبائه (وانى لاظنه) أى موسى عليه السلام (كاذبا) فى دعوى الرسالة وفى ان له الها غيرى قال فرعون ذلك تمويها (وكذلك) أى مثل ذلك التزيين العظيم الشأن (زين) أى زين المزين النافذ الامر وهو الله تعالى حقيقة بخلقه والزامه لان كل مادخل فى الوجود من المحدثات فهو خالقه والشيطان مجازا بالتسبب بالوسوسة التى هى بخلق الله تعالى (لفرعون سوء عمله) فى جميع أمره فاقبل عليه راغبا فيه مع بعده عن عقل أقل ذوى العقول فضلا عن ذوى الهمم منهم فضلا عن الملوك وأطاعه فيه قومه وقرأ غير الكوفيين (وصد) بفتح الصاد أى نفسه ومنع غيره وقرأ الكوفيون بضمها أى منعه الله تعالى (عن السبيل) أى طريق الهدى وهى الموصلة الى الله تعالى (وما كيد فرعون) أى فى ابطال ماجاء به موسى عليه السلام (الا فى تباب) أى خسار وهلاك عظيم محيط به لايقدر على الخروج منه ولما كان فساد ماقال فرعون أظهر من أن يحتاج الى بيان أعرض المؤمن عنه (وقال الذى آمن) أى مشيرا الى وهن قول فرعون بالاعراض عنه بقوله (ياقوم) أى يامن لاقيام لى الابهم وانا غير متهم فى نصيحتهم (اتبعون) أى كلفوا أنفسكم اتباعى لان السعادة غالبا تكون فيما يكره الانسان (أهدكم سبيل) أى طريق (الرشاد) أى الهدى لانه مع سهولته واتساعه موصل ولابد الى المقصود وأما ماقال فرعون مدعيا انه سبيل الرشاد فلايوصل الا الى النار فهو تعريض به شبيه بالتصريح وفى هذا اشارة الى انه ينبغى لادنى أهل الايمان أن لايخلى نفسه عن الوعظ لغيره وقرأ ابن كثير باثبات الياء بعد النون وقفا ووصلا وأثبتها قالون وأبو عمرو وصلا لاوقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا ثم ان ذلك المؤمن زهدهم فى الدنيا وكرر (ياقوم) كما كرر ابراهيم عليه السلام ياأبت زيادة فى استعطافهم بقوله (انما هذه الحيوة) وحقرها بقوله (الدنيا) اشارة الى دناءتها بقوله (متاع) اشارة الى انها جيفة لانها فى اللغة من جملة مدلولات المتاع فلايتناول منها الا كما يتناول المضطر من الجيفة لانها دار النقلة والزوال والتزود والارتحال والاخلاد اليها هو أصل الشر كله ومنه تشعب جميع مايؤدى الى سخط الله تعالى ويجلب الشقاوة فى العاقبة ثم رغبهم فى الآخرة بقوله (وان الآخرة) أى لكونها مقصودة بالذات (هى دار القرار) أى التى لاتحول منها أصلا لانها الوطن المستقر قال بعض العارفين لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا لكانت الآخرة خيرا من الدنيا كيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق بل أشرف وأحسن وكما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فكان الترغيب فى نعيم الجنان والترهيب من عذاب النيران من أعظم وجوه الترغيب والترهيب والآية من الاحتباك ذكر المتاع أولا دليلا على حذف التوسع ثانيا والقرار ثانيا دليلا على حذف الارتحال أولا ثم قال ذلك المؤمن لقومه (من عمل سيئة) أى مايسوء من أى صنف كان الذكور والاناث المؤمنين والكافرين (فلايجزى) أى من الملك الذى لاملك سواه (الامثلها) عدلا منه لايزاد عليها مقدار ذرة ولا أصغر منها (ومن عمل صالحا) أى ولو قل (من ذكر أو أنثى وهو) أى والحال انه (مؤمن) اذ لايصح عمل بدون ايمان (فأولئك)

زوجها) فان قلت كيف عطف بثم مع أن خلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه (قلت) ثم هنا

أي العالو الرتبة والهمة (يدخلون الجنة) أي بأمر من له الامر كله بعد ان تضاعف لهم أعمالهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء (يرزقون فيها) أي الجنة من غير احتياج الى تحصيل ولا الى أسباب (بغير حساب) لخروج ما فيها لكثرته عن الحصر فان أدنى أهلها منزلة لو أضاف كل أهل الارض لكفاهم من غير أن ينقص من ملكه شئ وهذا من باب الفضل وفضل الله لاحد له ورحمته غلبت غضبه وأما جزاء السيئة فمن باب العدل فلذلك وقع الحساب فيها لئلا يقع الظلم قال الاصبهاني فاذا عارضنا عمومات الوعيد بعمومات الوعد ترجح الوعد بسبق الرحمة الغضب فانهدمت قواعد المعتزلة ثم كرر الوعظ عليهم بقوله (ويا قوم ما) أي أي شئ من الحظوظ والمصالح (لي) في اني (أدعوكم الى النجاة) والجنة شفقة عليكم ورحمة لكم واعترافا بحقكم (وتدعونني الى النار) والهلاك بالكفر فالآية من الاحتباك ذكر النجاة الملازمة للايمان أولا دليلا على حذف الهلاك الملازم للكفران ثانيا والنار ثانيا دليلا على حذف الجنة أولا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بفتح ياء مالي والباقون بسكونها واتفقوا على سكون الياء من تدعونني ولما أخبر ذلك المؤمن بقلة انصافهم اجمالا بينه بقوله (تدعونني) أي توقعون دعائي الى معبوداتكم (لأكفر) أي لاجل ان أكفر (بالله) الذي له مجامع القهر والعز والعظمة والكبرياء (وأشرك به) أي أجعل له شريكا (ما ليس لي به) أي بربوبيته (علم) أي نوع من العلم لصلاحيته بشئ من الشركة فهو دعاء الى الكذب في شئ لا يحل الاقدام عليه الا بالدليل القطعي الذي لا يحتمل نوعا من الشك فالمراد بنفي العلم نفي الاله كأنه قال وأشرك به ما ليس باله وما ليس باله كيف يعقل جعله شريكا للاله ولما بين أنهم يدعونه الى الكفر بين أنه يدعوهم الى الايمان بقوله (وأنا أدعوكم) أي أوقع دعاءكم الآن وقبله وبعده (الى العزيز) أي البالغ العزة الذي يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ وأما فرعون فهو في غاية العجز فكيف يكون الها وأما الاصنام فانها أحجار منحوتة فكيف يعقل كونها آلهة وقرأ نافع وأبانا بالمد بعد النون وقالون يمد ويقصر وورش بالمد لا غير والباقون بغير مد وقوله (الغفار) أي الذي يتكرر منه دائما محو الذنوب عينا وأثرا اشارة الى انهم يجب عليهم ان لا ييأسوا من رحمة الله تعالى بسبب اصرارهم على الكفر مدة مديدة فان الاله العالم وان كان عزيزا لا يغلب قادرا لا يعارض لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بايمان ساعة واحدة وقوله (لا جرم) رد لما دعوه اليه وجرم فعل بمعنى حق وفاعله (أنما) أي الذي (تدعونني اليه) من هذه الانداد (ليس له دعوة) بوجه من الوجوه فانه لا ادراك له هذا ان أريد ما لا يعقل وان أريد شئ مما يعقل فلا دعوة له مقبولة بوجه فانه لا يقوم عليها دليل بل ولا شبهة وهمية (في الدنيا) أي التي هي محل الاسباب الظاهرة (ولا في الآخرة) أي ليس له استجابة دعوة فيهما فسمي استجابة الدعوة دعوة اطلاقا لاسم احد المتضايفين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وكقولهم كما تدين تدان وقيل ليس له دعوة أي عبادة في الدنيا لان الاوثان لا تدعي الربوبية ولا تدعو الى عبادتها وفي الآخرة تتبرأ من عابديها ثم قال (وأن مردنا) أي مرجعنا (الى الله) أي الذي له الاحاطة بصفات الكمال فيجازي كل احد بما يستحقه (وأن المسرفين) أي المجاوزين للحدود العريقين في هذا الوصف قال قتادة وهم المشركون لقوله تعالى (هم) أي خاصة (أصحاب النار) أي ملازموها

لا في الترتيب في الاخبار لا في الايجاد أو المعطوف متعلق بمعنى واحدة فثم عاطفة عليه لا على خالقكم ومعناه

وعن مجاهد هم السفاكون للدماء بغير حلها وقيل الذين غلب شرهم هم المسرفون ولما بالغ هذا المؤمن في هذا الشأن ختم كلامه بخاتمة لطيفة هي قوله (فستذكرون) أي قطعا بوعد لا خلف فيه مع القرب (ما أقول لكم) حين لا ينفعكم الذكر في يوم الجمع الاعظم والزحام الذي يكون فيه القدم على القدم اذا رأيتم الاهوال والنكال والزلزال ان قبلتم نصحي أو لم تقبلوه * ولما خوفهم بذلك توعدوه وخوفوه بالقتل فعول في دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على الله تعالى بقوله (وأفوض) أي أنا الآن بسبب أنه لا دعوة لي (أمرى) أي في جميع ما يكرونه بي (الى الله) أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلما فهو يحمي منكم من شاء وهو اعلم بهذه الطريقة من موسى عليه السلام حين خوفه فرعون بالقتل فرجع موسى عليه السلام في دفع ذلك الشر الى الله تعالى فقال اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون * ولما علق تفويضه بالاسم العلم الجامع المقتضى للاحاطة علل ذلك بقوله (ان الله) أي الذي لا يخفى عليه شيء (بصير) أي بالغ العلم (بالعباد) ظاهرا وباطنا فيعلم من يستحق النصرة فينصره لاتصافه بأوصاف الكمال ويعلم من يمكر فيرد مكره عليه بما له من الاحاطة قال مقاتل فلما قال هذه الكلمات قصدوا قتله (فوقاه الله) أي حصل له وقاية تحميه منهم جزاء على تفويضه (سيآت) أي شدائد (ما مكروا) دنيا ودينا فنجا مع موسى عليه السلام قال قتادة وكان قبطيا تصديقا للوعد سبحانه بقوله تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون * ولما كان المكر السيء لا يحيق الا بأهله قال تعالى (وحاق) أي نزل محيطا بعد احاطة الاغراق (بآل فرعون) أي فرعون وأتباعه لاجل اصرارهم على الكفر ومكرهم هذا ان قلنا ان الآل مشترك بين الشخص وأتباعه وان لم نقل ذلك فالاحاطة بفرعون من باب أولى لان العادة جرت انه لا يوصل الى جميع أتباع الانسان الا بعد اذلاله وأخذه (سوء العذاب) أي الغرق في الدنيا والنار في الآخرة (فان قيل) قوله تعالى وحاق بآل فرعون سوء العذاب معناه انه رجع اليهم ما همّوا به من المكر بالمسلمين كقول العرب من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا فاذا فسر سوء العذاب بالغرق في الدنيا ونار جهنم في الآخرة لم يكن مكرهم راجعا اليهم لانهم لا يعذبون بذلك (أجيب) بانهم هموا بشر فاصابهم ما وقع عليه اسم السوء ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه وقوله تعالى (النار) في اعرابه ثلاثة أوجه أحدها انه بدل من سوء العذاب قاله الزجاج ثانيها انه خبر مبتدا محذوف أي هو أي سوء العذاب النار لانه جواب لسؤال مقدر وقوله تعالى (يعرضون) على هذين الوجهين يجوز أن يكون حالا من النار وأن يكون حالا من آل فرعون ثالثها انه مبتدأ وخبره يعرضون (عليها غدوا وعشيا) أي صباحا ومساء قال ابن مسعود أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح الى النار ويقال يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة وقال قتادة تعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشيا ما دامت الدنيا وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من اهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى اليه يوم القيامة * ثم أخبر الله تعالى عن

خلقكم من نفس واحدة افردت بالايجاد ثم شفعت بزوج او هو معطوف على خلقكم لكن المراد بخلقهم

مستقر آل فرعون يوم القيامة بقوله سبحانه وتعالى (ويوم تقوم الساعة) يقال لهم (ادخلوا
آل) اى يا آل (فرعون) أى هو بنفسه واتباعه لاجل اتباعهم له فيما أضلهم به (أشد
العذاب) وهو عذاب جهنم أجارنا الله تعالى نحن وأحبابنا منها فانه أشد مما كانوا فيه أو أشد
عذاب جهنم وهذه الآية نص على اثبات عذاب القبر كما نقل عن عكرمة ومحمد بن كعب وقرأ
نافع وحفص وحمزة والكسائى بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الخاء وصلا وابتداء على أمر
الملائكة بادخالهم النار والباقون بوصل الهمزة وضم الخاء وصلا وفى الابتداء بضم الهمزة
واختلف فى العامل فى قوله تعالى (واذ) على ثلاثة أوجه أحدها انه معطوف على غدوا فيكون
معمولا ليعرضون أى يعرضون على النار فى هذه الاوقات كلها قاله ابو البقاء ثانيها أنه معطوف
على قوله اذ القلوب لدى الحناجر قاله الطبرى ونظر فيه لبعد ما بينهما ثالثها انه منصوب باضمار
اذكر اى واذكر يا أشرف الخلق لقومك اذ (يتحاجون) اى الكفار (فى النار) اى
يتخاصمون فيها اتباعهم ورؤساؤهم مما لا يغنيهم (فيقول الضعفاء) اى الاتباع (للذين
استكبروا) أى طلبوا ان يكونوا كبراءهم رؤساء (انا كنا لكم) اى دون غيركم (تبعا) اى
اتباعا فتكبرتم على الناس بنا (فهل أنتم) أيها الكبراء (مغنون) أى كافون ومجزون وحاملون
(عنا نصيبا من النار) *(تنبيه)* تبعا اسم جمع لتابع ونحوه خادم وخدم قال البغوى
والتبع يكون واحدا وجمعا فى قول اهل البصرة واحده تابع وقال الكوفيون هو جمع
لا واحد له وجمعه أتباع وقيل انه مصدر واقع موقع اسم الفاعل اى تابعين وقيل مصدر ولكنه
على حذف مضاف اى ذوى تبع ونصيبا منصوب بفعل مقدر يدل عليه قولهم مغنون
وتقديره هل أنتم دافعون عنا نصيبا وقيل منصوب على المصدر قال البقاعى كما كان شيأ كذلك
ألا ترى الى قوله تعالى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ فى موضع غنى فكذلك
نصيبا من النار صفة لنصيبا (قال الذين استكبروا) اى من شدة ما هم فيه (انا كل) أى نحن
وأنتم (فيها) فكيف نغنى عنكم ولو قدرنا لاغنينا عن أنفسنا (ان الله) أى المحيط
باوصاف الكمال (قد حكم) بالعدل (بين العباد) اى فادخل اهل الجنة دارهم وأهل
النار دارهم فلا يغنى أحد عن احد شيأ فعند ذلك يحصل اليأس للاتباع من المتبوعين
فيرجعون كلهم الى خزنة جهنم يسألونهم كما حكى الله تعالى عنهم بقوله سبحانه وتعالى (وقال الذين
فى النار) اى جميعا الاتباع والمتبوعون (لخزنة جهنم) اى لخزنتها فوضع جهنم موضع
المضمر للتهويل أو لبيان محلهم فيها قال البيضاوى ويحتمل أن تكون جهنم أبعد دركاتها
من قولهم بئر جهنام اى بكسر الجيم والهاء وتشديد النون بعيدة القعر وقال بعض اهل اللغة
هى مشتقة من الجهومة وهى الغلظ سميت بذلك لغلظ عذابها وهى عجمية منعت من الصرف
للتعريف والعجمة وقيل عربية ومنعت من الصرف للتعريف والتأنيث (ادعوا ربكم)
اى المحسن اليكم بانكم لا تجدون ألما من النار (يخفف عنا يوما) اى قدر يوم (من العذاب)
اى شيأ فيوما ظرف ليخفف ومفعول يخفف محذوف اى يخفف عنا شيأ من العذاب فى يوم
ويجوز أن يكون من العذاب هو المفعول ليخفف ومن تبعيضية ويوما ظرف فسألوا أن يخفف
عنهم بعض العذاب لا كله فى يوم ما لا فى كل يوم ولا فى يوم معين (قالوا) اى الخزنة لهم (أو لم تك

خلقهم يوم اخذ الميثاق
دفعة لا هذا الخلق الذى هم
فيه الآن بالتوالد
والتناسل وفلا لانه خلق

قوله بفعل مقدر وهكذا
بالنسخ والذى فى الجلال
منصوب بفعل يدل عليه
مغنون اى دافعون او
بمغنون على تضمينه معنى
الحمل اى حاملون عنا نصيبا
انتهى اه مصحح

تأتيكم) على سبيل التجدد شيأ فى اثر شئ (رسلكم) اى الذين هم منكم وانتم جديرون بالاصغاء اليهم والاقبال عليهم لان الجنس الى الجنس اميل والانسان من مثله اقبل (بالبينات) اى التى لاشئ اوضح منها ارادوا بذلك الزامهم الحجة وتوبيخهم على اضاعتهم اوقات الدعاء وتعطيلهم اسباب الاجابة وقرأ ابو عمرو بسكون السين والباقون بضمها وكذلك رسلنا ورسلهم (قالوا) اى الكفار (بلى) اى اتونا كذلك (قالوا) اى الخزنة لهم (فادعوا) اى انتم فانا لا نشفع لكافر (وما دعاء الكافرين) اى الذين ستروا مرآى عقولهم عن انوار الحق (الا فى ضلال) اى ذهاب فى غير طريق موصل كما كانوا هم فى الدنيا كذلك فان الدنيا مزرعة الآخرة من زرع شيأ فى الدنيا حصده فى الآخرة والآخرة ثمرة الدنيا لا تثمر الا من جنس ما غرس فى الدنيا وفى هذا اقناط لهم عن الاجابة * ولما ذكر تعالى وقاية موسى عليه السلام وذلك المؤمن من مكر فرعون وقومه من بقوله تعالى (انا) اى بما لنا من العظمة (لننصر رسلنا) اى على من عاداهم (والذين آمنوا) اى اتبعوا بهذا الوصف (فى الحيوة الدنيا) اى بالزامهم طريق الهدى الكفيلة بكل فوز وبالحجة والغلبة وان غلبوا فى بعض الاحيان فان العاقبة تكون لهم ولو بأن يقيض الله تعالى لاعدائهم من ينتقم منهم ولو بعد حين وقيل ان تمكن اعداؤهم من كل ما يريدون منهم (ويوم يقوم الاشهاد) وهو جمع شاهد كصاحب واصحاب والمراد بهم من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس من الملائكة والانبياء والمؤمنين اما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب واما الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقال تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا واما المؤمنون فقال تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس وقوله تعالى (يوم) بدل من يوم قبله او بيان له او نصب باضمار اعنى يوم (لا ينفع الظالمين) اى الذين كانوا عريقين فى وضع الاشياء فى غير موضعها (معذرتهم) اى اعتذارهم (فان قيل) هذا يدل على انهم يذكرون الاعذار ولكن تلك الاعذار لا تنفعهم فكيف هذا مع قوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون (اجيب) بان هذا لا يدل على انهم ذكروا الاعتذار بل ليس فيه الا ان ليس عندهم عذر مقبول وهذا لا يدل على انهم ذكروه ام لا وايضا يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون فى وقت ولا يعتذرون فى وقت آخر وقرأ نافع والكوفيون بالياء التحتية والباقون بتاء الخطاب (ولهم) اى خاصة (اللعنة) اى البعد عن كل خير مع الاهانة بكل ضير (ولهم) اى خاصة (سوء الدار) اى الآخرة اى اشد عذابها * ولما بين تعالى انه ينصر الانبياء والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ذكر نوعا من انواع تلك النصرة فى الدنيا فقال تعالى (ولقد آتينا) اى بما لنا من العزة (موسى الهدى) اى ما يهتدى به فى الدنيا من المعجزات والصحف والشرائع (واورثنا) اى بما لنا من العظمة (بنى اسرائيل) اى بعد ما كانوا فيه من الذل (الكتاب) اى الذى انزلناه عليه وآتيناه الهدى به وهو التوراة ايتاؤهم الارث لا ينازعهم فيه احد تواردوه خلفا عن سلف ولا اهل له فى ذلك الزمان غيرهم واورثناه لهم من بعد موسى عليه السلام حال كونه (هدى) اى بيانا عاما لكل من تبعه (وذكرى) اى عظة عظيمة (لاولى الالباب) اى القلوب الصافية والعقول الوافية الشافية * ولما بين تعالى انه ينصر رسله وينصر المؤمنين فى الدنيا

آدم عليه السلام ثم اخرج اولاده من ظهره كالذر واخذ عليهم الميثاق ثم ردهم الى ظهره ثم خلق منه حواء

والآخرة

والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال موسى عليه السلام خاطب بعد ذلك محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فاصبر) أي يا أشرف الخلق على أذى قومك كما صبر موسى عليه السلام على أذى فرعون (ان وعد الله) أي الذي له الكمال كله (حق) أي في اظهار دينك واهلاك أعدائك قال الكلبي نسخت آية القتال آية الصبر وقوله تعالى (واستغفر لذنبك) اما أن يكون المصدر مضافا للمفعول أي لذنب أمتك في حقك واما أن يكون ذلك تعبدا من الله تعالى ليزيده به درجة وليصير سنة يستن به من بعده (وسبح بحمد ربك بالعشي) وهو من بعد الزوال (والابكار) قال الحسن رضي الله عنه يعني صلاة العصر وصلاة الفجر وقال ابن عباس رضي الله عنهما الصلوات الخمس وذلك أن العشي من زوال الشمس الى غروبها والابكار من طلوع الفجر الى طلوع الشمس ‌• ولما ابتدأ بالرد على الذين يجادلون في آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على الترتيب المتقدم الى هنا نبه تعالى على الماهية التي تحمل الكفار على تلك المجادلة فقال تعالى (ان الذين يجادلون) أي يناصبون العداوة (في آيات الله) أي الملك الاعظم الدالة على تمام قدرته اللازم منه قدرته على البعث الذي في تذكره صلاح الدين والدنيا (بغير سلطان) أي برهان (أتاهم ان) أي ما (في صدورهم) أي يصدهم عن سواء السبيل قال ابن عادل ما حملهم على تكذيبك (الا كبر) أي تكبر عن الحق وتعظم عن التفكر والتعلم وأتى بذكر الصدور دون القلوب لعظمه جدا فانه قد ملأ القلوب وفاض منها حتى شغل الصدور التي هي مساكنها (ما هم ببالغيه) قال مجاهد ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لان الله تعالى مذلهم وقال ابن قتيبة ان في صدورهم الا كبر على محمد صلى الله عليه وسلم وطمع أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك قال المفسرون نزلت في اليهود وذلك أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان صاحبنا المسيح بن داود يعنون الدجال يخرج في آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر ويرد الملك علينا قال الله تعالى (فاستعذ) أي اعتصم (بالله) أي المحيط بكل شيء من فتنة الدجال ومن كيد من يحسدك ويبغي عليك وغير ذلك كما عاذ به موسى عليه السلام لينجز لك ما وعدك به كما أنجز له ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه هو) أي وحده (السميع) أي لاقوالهم (البصير) أي لافعالهم ‌• ولما وصف تعالى جدالهم في الآيات بانه بغير سلطان ولا حجة ذكر لهذا مثالا فقال (لخلق السموات) أي على عظمها وارتفاعها وكثرة منافعها واتساعها (والارض) أي على ما ترون من عجائبها وكثرة منافعها (أكبر) عند كل من يعقل (من خلق الناس) أي خلق الله تعالى لهم لانهم شعبة يسيرة من خلقهما فعلم قطعا أن الذي قدر على ابتدائه مع عظمه قادر على اعادة الناس على حقارتهم (ولكن أكثر الناس) وهم الذين ينكرون البعث وغيره (لا يعلمون) أي لا علم لهم أصلا بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم ‌• (تنبيه) ‌• تقدير هذا الكلام ان الاستدلال بالشيء على غيره ينقسم ثلاثة أقسام أحدها أن يقال لما قدر على الاضعف وجب أن يقدر على الاقوى وهذا فاسد ثانيها أن يقال لما قدر على الشيء قدر على مثله فهذا الاستدلال صحيح لما ثبت في الاصول ان حكم الشيء حكم مثله ثالثها أن يقال لما قدر على الاقوى الاكمل قدر على الاقل الارذل بالاولى وهذا الاستدلال في غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البتة ثم ان هؤلاء القوم يسلمون ان خالق السموات والارض هو الله تعالى ويعلمون بالضرورة ان خلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وكان من

(قوله وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الانعام مخلوقة من الارض

حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والارض يكون قادرا على اعادة الانسان الذى خلقه أولا فهذا برهان كاف فى افادة هذا المطلوب ثم ان هذا البرهان على قوته صار لا يعرفه أكثر الناس والمراد منه الذين ينكرون الحشر والنشر فظهر بهذا المثال ان هؤلاء الكفار يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ولا حجة بل بمجرد الحسد والكبر والغضب * ثم لما بين تعالى ان الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون وان الجدال بالحجة والبرهان كيف يكون نبه تعالى على الفرق بين البابين بذكر مثال فقال تعالى (وما يستوى) أى بوجه من الوجوه من حيث البصر (الاعمى والبصير) أى وما يستوى المستدل والجاهل المقلد (والذين آمنوا) أى أوجدوا حقيقة الايمان (وعملوا الصالحات) أى تصديقا لايمانهم (ولا المسىء) أى وما يستوى المحسن والمسىء فلا زائدة للتوكيد لانه لما طال الكلام بالصلة بعد قسم المؤمنين أعاده معه لاتوكيدا والمراد بالاول التفاوت بين العالم والجاهل وبالثانى التفاوت بين الآتى بالاعمال الصالحة وبين الآتى بالاعمال السيئة الباطلة * ولما تقرر هذا على هذا النحو من الوضوح الذى لا مانع للانسان من فهمه ورسوخه قال تعالى (قليلا ما يتذكرون) أى يتعظ المجادلون وان كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد الا أنه قليلا ما يتذكرون فيبين فى النوع الاول المعنى من الاعتقاد أنه علم أو جهل وفى النوع الثانى المعنى من العمل أنه عمل صالح أو فاسد * (تنبيه) * التقابل يأتى على ثلاث طرق احداها أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية والثانية أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع الثالثة أن يقدم مقابل الاول ويؤخر مقابل الآخر كقوله تعالى وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور كل ذلك تفنن فى البلاغة وقدم الاعمى فى نفى التساوى لمجيئه بعد صفة الذم فى قوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون وقرأ الكوفيون بالتاء على تغليب المخاطب أو الالتفات للمذكورين بعد الاخبار عنهم أو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمخاطبة والباقون بياء الغيبة نظرا لقوله تعالى ان الذين يجادلون وهم الذين التفت اليهم فى قراءة الخطاب * ولما قرر الدليل على امكان وجود يوم القيامة أردفه بالاخبار عن وقوعها فقال تعالى (ان الساعة) أى القيامة التى يجادل فيها المجادلون (لآتية) أى للحكم بالعدل بين المسىء والمحسن لانه لا يسوغ فى الحكمة عند أحد من الخلق أن يساوى بين محسن عبيده ومسيئهم (لا ريب) أى لا شك (فيها) أى فى اتيانها ولما وصل الحال فى أمرها الى حد لا خفاء به أصلا نفى الايمان دون العلم فقال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى لا يصدقون بها وما ذاك الا العناد بعضهم وقصور نظر الباقين على الحس * (تنبيه) * يأتى قبل قيام الساعة فتن أعظمها فتنة المسيح الدجال * عن هشام بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين خلق آدم عليه السلام الى قيام الساعة أكبر من خلق الدجال معناه أكبر فتنة وأعظم شوكة من الدجال وعن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال فقال انه أعور عين اليمنى كأنها عنبة طافية ولابى داود والترمذى عنه قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس فأثنى على الله تعالى بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال انى أنذركموه وما من نبى الا أنذر قومه ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه تعلمون أنه أعور وان الله سبحانه ليس

(قلت) لا منزلة من السماء الى هذا من مجاز السبب اذ الانعام سبب السبب لما كانت لا تعيش

بأعور وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبي الا وأنذر قومه وأمته الاعور الدجال الا وانه أعور وان ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر وفي رواية مسلم بين عينيه ك ف ر يقرؤه كل مسلم وعن أسماء بنت يزيد الانصارية قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فذكر الدجال فقال ان بين يديه ثلاث سنين سنة تمسك السماء ثلث قطرها والارض ثلث نباتها والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والارض ثلثي نباتها والثالثة تمسك السماء قطرها كله والارض نباتها كله فلا تبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم الا هلكت ومن أشد فتنته أن يأتي الاعرابي فيقول أرأيت ان أحييت لك ابلك ألست تعلم انى ربك فيقول بلى فيمثل له مثل ابله كأحسن ما تكون ضروعا وأسنمة ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول ان أحييت لك أباك وأحييت لك أخاك ألست تعلم انى ربك فيقول بلى فيمثل له الشيطان نحو أبيه ونحو أخيه قالت ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغم مما حدثهم فأخذ بلحمتي الباب فقال مهيم أسماء قلت يا رسول الله قد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال قال ان يخرج وأنا حي فأنا حجيجه والا فربي خليفتي على كل مؤمن قالت فقلت يا رسول الله انا لنعجن عجيننا فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمنين حينئذ قال يجزيهم ما يجزي أهل السماء من التسبيح والتقديس وروى البغوي بسنده عنها انها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكث الدجال في الارض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاضطرام السعفة في النار انتهى والذي جاء في صحيح مسلم قالت قلت يا رسول الله ما مكثه في الارض قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة يكفينا فيه صلاة يوم قال لا أقدروا له قدره قلنا يا رسول الله وما اسراعه في الارض قال كالغيث استدبرته الريح وفي رواية أبي داود فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فانها جواركم من فتنته ومنه ثم ينزل عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق فيدركه عند باب لد فيقتله وعن حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان مع الدجال اذا خرج ماء ونارا فأما الذي يرى الناس أنه نار فماء بارد وأما الذي يرى الناس أنه ماء فنار تحرق فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى الناس أنه نار فانه ماء عذب بارد وعن أبي هريرة ألا أحدثكم حديثا عن الدجال ما حدث به نبي قومه انه أعور وانه يجيء بمثال الجنة والنار فالتي يقول انها الجنة هي النار واني أنذركم كما أنذر نوح قومه وعن المغيرة بن شعبة قال ما سأل أحد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر ما سألته وانه قال لي ما يضرك قلت انهم يقولون ان معه جبال خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله من ذلك أي هو أهون على الله من أن يجعل ما خلق الله بيده مضلا للمؤمنين ومشككا لقلوبهم بل انما جعله الله تعالى ليزداد والذين آمنوا ايمانا وتثبت الحجة على الكافرين والمنافقين وليس معناه ليس معه شيء من ذلك لما مر في الحديث ان معه ماء ونارا وذكر فيه أحاديث كثيرة وفي هذا القدر تذكرة لاولي الالباب أجارنا الله تعالى وأحبابنا من فتنته آمين ٭ ولما بين تعالى ان القول بالقيامة حق وكان من المعلوم بالضرورة ان الانسان لا ينتفع في يوم القيامة الا بطاعة الله تعالى والتضرع اليه لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ٭ ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء

الا بالنبات والنبات لا يعيش
الا بالمطر والمطر منزل من السماء
وصفها بالانزال من تسمية
المسبب باسم سببه او

والتضرع لاجرم أمر الله تعالى به فقال سبحانه (وقال ربكم) أى المحسن اليكم بهدايتكم
ووعدكم النصرة (ادعونى) اى اعبدونى دون غيرى (أستجب لكم) اى أثبكم وأغفر لكم
بقرينة قوله تعالى (ان الذين يستكبرون) اى يوجدون الكبر (عن عبادتى) اى عن الاستجابة
لى فيما دعوت اليه من العبادة بالمجادلة فى آياتى والاعراض عن دعائى (سيدخلون) اى بوعد
لاخلف فيه (جهنم) فتلقاهم بجزاء على كفرهم بالتجهم والعبوسة والكراهة (داخرين) أى
صاغرين حقيرين ذليلين وان فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار الصارف عنه منزلا منزلته
للمبالغة والمراد بالعبادة الدعاء فانه من أبوابها روى عن أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال
الدعاء مخ العبادة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لم يسأل
الله تعالى يغضب عليه (فان قيل) انه صلى الله عليه وسلم قال حكاية عن ربه عز وجل من شغله
ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فهذا يقتضى ان ترك الدعاء أفضل فكيف
من لم يسأل الله يغضب (أجيب) بانه ان كان مستغرقا فى الثناء على الله تعالى فهو أفضل من
الدعاء لان الدعاء طلب الجنة والاستغراق فى معرفة الله تعالى وجلاله أفضل من طلب الجنة
والا فالدعاء افضل وعن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على
المنبر الدعاء هو العبادة ثم قرأ الآية (فان قيل) كيف قال تعالى ادعونى استجب لكم وقد يدعو
الانسان كثيرا فلا يستجاب له (أجاب) الكعبى بان الدعاء انما يصح بشرط ومن دعا كذلك
استجيب له وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة ثم سأل نفسه فقال ان
الله تعالى يفعل ما هو الاصلح بعبده بلا دعاء فما فائدة الدعاء وأجاب عنه بان فيه الفزع والانقطاع الى
الله تعالى وأجاب الرازى عن الاول بان كل من دعا الله تعالى وفى قلبه ذرة من الاعتماد على ماله
وجاهه وأصدقائه واجتهاده فهو فى الحقيقة ما دعا الله تعالى الا باللسان واما القلب فهو يعول
فى تحصيل ذلك المطلوب على غير الله تعالى فهذا الانسان ما دعا ربه وأما اذا دعا فى وقت لا يكون
القلب فيه ملتفتا الى غير الله تعالى فالظاهر أنه يستجاب له اه وقال القشيرى الدعاء مفتاح
الاجابة وأسنانه لقمة الحلال وقرأ ابن كثير وشعبة بضم ياء سيدخلون وفتح الخاء والباقون بفتح
الياء وضم الخاء ولما أمر الله تعالى الدعاء وكأنه قيل الاشتغال بالدعاء لا بد وان يكون مسبوقا
بحصول المعرفة فما الدليل على وجود الاله القادر فقال تعالى مفتتحا بالاسم الاعظم (الله) أى
المحيط بصفات الكمال (الذى جعل لكم) لا غيره (الليل) اى مظلما (لتسكنوا فيه) راحة ظاهرة
بالنوم الذى هو الموت الاصغر وراحة حقيقية بالعبادة التى هى الحياة الدائمة (والنهار مبصرا)
لتنظروا فيه باليقظة التى هى احياء بالمعنى فالآية من الاحتباك حذف الظلام اولا لكونه ليس
من النعم المقصودة فى نفسها لما دل عليه من الابصار الذى هو المقصود من نعمة الضياء المقصود
فى نفسه وحذف الانتشار لانه بعض ما ينشأ عن نعمة الابصار لما دل عليه من السكون الذى هو
المقصود الاعظم من الليل للراحة لمن أرادها والعبادة لمن اعتمدها واستزادها (فان قيل) هلا
قيل بحسب رعاية النظم هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه او يقال
جعل لكم الليل ساكنا والنهار مبصرا ولكنه لم يقل ذلك فما الحكمة فيه وفى تقديم ذكر الليل
(اجيب) عن الاول بان الليل والنوم فى الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات واما

معناه وقضى لكم لان قضاه منزل من السماء من حيث كتب فى اللوح المحفوظ او خلقها فى الجنة ثم انزلها

النور والظلمة فالنور يوجد به مقصودة بالذات وقد بين الشيخ عبد القاهر في دلائل الاعجاز ان دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما وهذا هو السبب في الفرق (وأجيب) عن الثاني بأن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم في المحدثات مقدم على الوجود فلهذا السبب قال تعالى في سورة الانعام وجعل الظلمات والنور (ان الله) أي ذا الجلال والاكرام (لذو فضل) أي عظيم جدا باختياره (على الناس) أي كافة باختلاف الليل والنهار وما يحتويان عليه من المنافع (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) الله فلا يؤمنون وينسبون أفعاله سبحانه الى غيره جهلا ويعملون بما يسلب عنهم اسم الشكر من الشرك وغيره (فان قيل) ما الحكمة في قوله تعالى ولكن أكثر الناس ولم يقل ولكن أكثرهم ولا يكرر ذكر الناس (أجيب) بأن في هذا التكرار تخصيصا لكفران النعمة بهم وانهم هم الذين يكفرون فضل الله تعالى ولا يشكرونه كقوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار * ولما بين تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الاله القادر قال تعالى (ذلكم) أي أيها المخاطبون (الله) أي الملك الاعظم المعلوم لكل أحد المتميز عن كل شئ بالافعال التي لا يشاركه فيها أحد (ربكم) أي المربي لكم المحسن اليكم (خالق كل شئ) اي بما ثبت من تمام قدرته لانه (لا اله الا هو) أي هو الجامع لهذه الاوصاف من الالهية والربوبية فهي أخبار مترادفة واذا كان خالق كل شئ (فأنى) أي فكيف ومن أي وجه (تؤفكون) أي تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره (كذلك) أي مثل هذا الصرف البعيد من مناهج العقلاء (يؤفك) أي يصرف (الذين كانوا) أي مطبوعين على أنهم (بآيات الله) أي ذي الجلال والكمال (يجحدون) أي ينكرون عنادا ومكابرة * ولما كان دلائل وجوده تعالى اما أن تكون من دلائل الآفاق وهي غير الانسان وهي أقسام وذكر منها أحوال الليل والنهار كما تقدم ذكر أيضا منها هنا الارض والسماء فقال تعالى (الله) أي الذي له الاحاطة الكاملة بكل شئ (الذي جعل) أي وحده (لكم الارض) أي مع كونها فراشا ممهدا (قرارا) مع كونها في غاية الثقل ولا ممسك لها سوى قدرته (والسماء) أي على علوها وسعتها مع كونها أفلاكا دائرة بنجوم طول الزمان سائرة ينشأ عنها الليل والنهار والاظلام (بناء) مظلة كالقبة من غير عماد وحامل * ثم ذكر دلائل النفس وهي دلالة أحوال بدن الانسان على وجود الصانع القادر الحكيم بقوله تعالى (وصوركم) والتصوير على غير نظام واحد لا يكون الا بقدرة قادر تام القدرة مختار (فأحسن صوركم) على أشكال وأحوال مع أنها أحسن الصور وليس في الوجود ما يشبهها لم يخلق الله تعالى حيوانا أحسن صورة من الانسان كما قال تعالى في أحسن تقويم قال ابن عباس رضي الله عنهما خلق الانسان قائما معتدلا يأكل ويتناول بيده وغير ابن آدم يتناول بفيه * ولما ذكر تعالى المساكن والساكن ذكر ما يحتاج اليه في مدة السكن فقال سبحانه (ورزقكم من الطيبات) أي الشهية الملائمة للطباع وقيل هو ما خلق الله تعالى لعباده من المأكل والمشرب من غير رزق الدواب وعن الحسن انه قال لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وذريته قالت الملائكة عليهم السلام ان الارض لا تسعهم قال الله تعالى فاني جاعل موتا قالوا اذا لا يهنأ لهم العيش قال تعالى فاني جاعل أملا * ولما دل هذا على التفرد قال تعالى على وجه الانتاج (ذلكم) أي الرفيع الدرجات (الله) أي المالك لجميع الملك (ربكم) أي المحسن اليكم

على آدم عليه السلام بعد انزاله الى الارض أو الانزال بمعنى الاحداث والانشاء كقوله قد انزلنا عليكم

لا غيره (فتبارك) أى ثبت ثباتاً عظيماً مع اليمن والخير وحسن المدد والفيض (الله) المختص بالكمال (رب العالمين) كلهم فهو المحسن اليهم بالتربية وغيرها ❊ ثم نبه تعالى بقوله سبحانه (هو الحى) بما يفيد الحصر بأنه لا حى على الدوام الا هو ثم نبه تعالى على وحدانيته بقوله سبحانه (لا اله الا هو) ثم أمر العباد بالاخلاص فى الدعاء فقال تعالى (فادعوه) أى اعبدوه (مخلصين له الدين) أى من كل شرك جلى أو خفى ❊ ولما كان تعالى موصوفاً بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له (الحمد) أى الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أى المسمى بهذا الاسم الجامع لجامع معانى الاسماء الحسنى (رب العالمين) أى الذى رباهم هذه التربية وقال الفراء هو خبر وفيه اضمار الامر ومجازه فادعوه واحمدوه وعن ابن عباس رضى الله عنهما من قال لا اله الا الله فليقل على اثرها الحمد لله رب العالمين ❊ ولما أورد على المشركين تلك الادلة الدالة على اثبات اله العالم أمره بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء الذين يجادلونك فى البعث مقابلا لانكارهم بالتوكيد (انى نهيت) أى ممن لا نهى لغيره نهياً عاماً ببراهين العقول ونهياً خاصاً بأدلة النقل (أن أعبد الذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله) أى الذى له الكمال كله قال البقاعى ودل على أنه ما كان متعبداً قبل البعثة بشرع أحد بقوله (لما جاءنى البينات) أى الحجج وهى ما تقدم من الدلائل الدالة على أن اله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق الا به وأما الاحجار المنحوتة والاخشاب المصورة فلا تصح أن تكون شركاء له ❊ ثم نبه على أنه تعالى كما يستحق الافراد بالعبادة لذاته يستحقها شكر الاحسانه بقوله (من ربى) أى المربى لى تربية خاصة هى أعلى من كل مخلوق سواى فانا أعبده عبادة تفوق عبادة كل عابد ❊ ولما أمره بما يتخلى عنه أمره بما يتحلى به فقال (وأمرت أن أسلم) أى حين دعى الى الكفر (لرب العالمين) لان كل ما سواه مربوب له فالاقبال عليه خسار واذا نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمر بهذا لكون الآمر والناهى هو رب العالمين كان غيره مشاركاً له فى ذلك لا محالة ❊ ولما استدل تعالى على اثبات الالهية بدليل الآفاق وذكر منها الليل والنهار والارض والسماء ثم ذكر الدليل على اثبات الاله القادر بخلق الانفس وهو نوعان أحدهما حسن الصورة ورزق الطيبات ذكر النوع الثانى وهو كيفية تكوين البدن من ابتداء كونه نطفة وجنيناً الى آخر الشيخوخة والموت فقال تعالى (هو) أى لا غيره (الذى خلقكم من تراب) أى بخلق أبيكم آدم عليه السلام منه قال الرازى وعندى لا حاجة الى ذلك لان كل انسان فهو مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى مخلوق من الدم والدم انما يتولد من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحال فى ذلك الحيوان كالحال فى تكوين الانسان فكانت الاغذية كلها منتهية الى النبات والنبات انما يكون من التراب والماء فثبت أن كل انسان متكون من التراب ثم ان ذلك التراب يصير نطفة كما قال تعالى (ثم من نطفة) أى من منى (ثم من علقة) أى دم غليظ متباعد حاله عن حال النطفة كما كان حال النطفة متباعداً عن حال التراب (ثم) بعد أن جرت شؤن أخرى (يخرجكم) أى يجدد اخراجكم شيأ بعد شئ (طفلا) أى أطفالا والتوحيد لارادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم لا تملكون شيأ ولا تعلمون شيأ (ثم) يدرجكم فى مدارج التربية صاعدين بالقوة فى اوج الكمال طوراً بعد طور وحالا بعد حال (لتبلغوا أشدكم) أى تكامل قوتكم من الثلاثين

سنة

انما (قوله انى أمرت ان اعبد الله) الآية زاد اللام بعد امرت الثانى دون الاول لان مفعول الثانى

سنة الى الاربعين وعن الشعبي يثغر الغلام لسبع سنين ويحتلم لاربع عشرة وينتهي طوله لاحدى وعشرين وينتهي عقله لثمان وعشرين ويبلغ اشده لثلاث وثلاثين (ثم) يهبطكم بالضعف والوهن في مهاوي السفول (لتكونوا شيوخا) ضعفاء غير باقية مقدمات قوتكم ووهنت اركانكم وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص بضم الشين والباقون بكسرها (ومنكم من يتوفى) بقبض روحه (من قبل) أي قبل حال الشيخوخة أو قبل حال الاشدية أو قبل هذه الاحوال اذا خرج سقطا *(تنبيه)* قوله تعالى لتبلغوا أشدكم متعلق قال الزمخشري بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا أشدكم وكذلك لتكونوا وأما قوله (ولتبلغوا) أي كل واحد منكم (أجلا مسمى) فمعناه يفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى وهو وقت الموت وقيل يوم القيامة (ولعلكم تعقلون) أي ما في ذلك من العبر والحجج وتستدلون بهذه الاحوال العجيبة على وحدانية الله تعالى * ولما ذكر تعالى انتقال الاجسام من كونها ترابا الى ان بلغت الشيخوخة واستدل بهذه التقديرات على وجود الاله القادر أتبع قوله تعالى (هو) أي لا غيره (الذي يحيي ويميت) كما تشاهدونه في أنفسكم وكما أن الانتقال من صفة الى صفة أخرى من الصفات المذكورة مما يدل على الاله القادر فكذلك الانتقال من الحياة الى الموت وبالعكس يدل على الاله القادر * ولما كانت ارادته لا تكون الا تامة تسبب عن ذلك قوله تعالى (فاذا قضى أمرا) أي أراد أي أمر كان من القيامة أو غيرها (فانما يقول له كن فيكون) فلا يحتاج في تكوينه الى عدة وتجشم كلفة وقرأ ابن عامر بنصب النون والباقون بالرفع وتقدم توجيه ذلك في سورة البقرة ثم انه تعالى عاد الى ذم الذين يجادلون في آيات الله مخاطبا بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم فقال (ألم تر) أي يا أنور الناس قلبا وأصفاهم لبا (الى الذين يجادلون) أي بالباطل (في آيات الله) أي الملك الاعظم (أنى) أي كيف ومن أي وجه (يصرفون) أي عن التصديق وتكرير ذم المجادلة لتعدد المجادل والمجادل فيه أو للتوكيد وقوله تعالى (الذين كذبوا) يجوز أن يكون بدلا من الموصول قبله أو بيانا أو نعتا أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوبا على الذم (بالكتاب) أي بسببه في جميع ماله من الشؤون التي تفوق الحصر وهو القرآن أو بجنس الكتب السماوية (وبما أرسلنا) أي على ما لنا من العظمة (به رسلنا) أي من جميع الملل والشرائع بكتاب كان أو بغيره ولذا تسبب عنه تهديدهم في قوله تعالى (فسوف يعلمون) أي بوعد صادق لا خلف فيه ما يحل بهم من سطواتنا وقوله تعالى (اذ الاغلال في أعناقهم) ظرف ليعلمون (فان قيل) سوف للاستقبال واذ للماضي فهو مثل قولك سوف أصوم أمس (أجيب) بان المعنى على اذا الا ان الامور المستقبلة لما كانت في اخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى على الاستقبال قالوا وكما تقع اذا موقع اذ في قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها كذلك تقع اذ موقعها وقوله تعالى (والسلاسل) عطف على الاغلال فتكون في الاعناق والسلسلة معروفة أو مبتدأ خبره محذوف تقديره في أرجلهم وخبره (يسحبون) والعائد محذوف أي بها والسحب الجر بعنف والسحاب من ذلك لان الريح تجره أو لانه يجر الماء (في الحميم) أي الماء الحار الذي يكسب الوجوه سوادا والاعراض عارا والارواح عذابا والاجسام نارا (ثم في النار يسجرون) أي يلقون فيها أو توقد بهم مكردسين كما يسجر التنور بالحطب كما قال تعالى وقودها الناس

محذوف اكتفاء بقول الاول والتقدير وامرت ان اعبد الله لان اكون (ان قلت) لم قال فيه

والحجارة والسعير الخليل الذي يتخلل في مودة خليله كقولهم فلان يتحرق في مودة فلان هذه
كيفية عقابهم (ثم قيل لهم) تبكيتا أي بعد أن طال عذابهم وبلغ منهم كل مبلغ ولم يجدوا
ناصرا يخلصهم ولا شافعا يخصصهم (أين) وأكد التعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في قوله تعالى
(ما كنتم) أي دائما (تشركون من دون الله) أي معه وهي الأصنام (قالوا ضلوا) أي غابوا (عنا)
فلا نراهم كما كنا نحن في الدنيا عما ينفعنا وذلك قبل أن تقرن بهم آلهتهم أو ضاعوا عنا فلم نجد
منهم ما كنا نتوقع منهم (بل لم نكن ندعوا) أي لم يكن ذلك في طباعنا (من قبل) أي قبل هذه الإعادة
(شيئا) لنكون قد أشركنا به أنكروا عبادتهم إياها كقولهم في سورة الأنعام والله ربنا ما كنا
مشركين وقال الحسين بن الفضل أي لم نكن نصنع من قبل شيئا أي ضاعت عبادتنا لها كما يقول
من ضاع عمله ما كنت أعمل شيئا ثم يقرنون بآلهتهم كما قال تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله
حصب جهنم أي وقودها (كذلك) أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين (يضل الله) أي المحيط علما
وقدرة عن القصد النافع من حجة وغيرها (الكافرين) أي الذين ستروا مرائي بصائرهم لئلا
يتجلى فيها الحق ثم صار لهم ذلك ديدنا (ذلكم) أي الجزاء العظيم (بما كنتم) أي دائما (تفرحون)
أي تبالغون في السرور وتغترقون فيه (في الأرض بغير الحق) من الإشراك وإنكار البعث
فأشعر ذلك أن السرور لا ينبغي إلا إذا كان مع كمال هذه الحقيقة وهي الثبات دائما للمفروح به
وذلك لا يكون إلا في الجنة (وبما) أي وبسبب ما (كنتم تمرحون) أي تبالغون في الفرح مع
الأشر والبطر والنشاط الموجب للاختيال والتبختر والخفة بعدم احتمال الفرح * (تنبيه) *
قوله تعالى تفرحون وتمرحون من باب التجنيس المحرف وهو أن يقع الفرق بين اللفظين بحرف
* ولما كان السياق لذم الجدال وكان الجدال إنما يكون عن الكبر قال تعالى (ادخلوا) أي أيها
المكذبون (أبواب جهنم) أي الأبواب السبعة المقسومة لكم قال تعالى لها سبعة أبواب لكل
باب منهم جزء مقسوم وسميت جهنم لأنها تلقى صاحبها بتكبر وعبوس وتجهم (خالدين فيها) أي
مقدرين الخلود (فبئس مثوى) أي مأوى (المتكبرين) أي عن الحق والمخصوص بالذم محذوف
أي مثواكم (فإن قيل) كان قياس النظم أن يقول فبئس مدخل المتكبرين كما تقول زرت
بيت الله فنعم المزار وصليت في المسجد فنعم المصلى (أجيب) بأن الدخول لا يدوم وإنما يدوم
المثوى فلذلك خصه بالذم وإن كان الدخول أيضا مذموما ولما زيف تعالى طريقة المجادلين
في آيات الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر بقوله تعالى (فاصبر) أي على أذاهم بسبب المجادلة
وغيرها (إن وعد الله) أي الجامع لصفات الكمال (حق) أي بنصرتك في الدارين فلا بد من
وقوعه (فإما نرينك) قال الزمخشري أصله فإن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولذلك
ألحقت النون بالفعل ألا ترى لا تقول إن تكرمني أكرمك ولكن إما تكرمني أكرمك قال أبو
حيان وما ذكره من تلازم النون وما الزائدة ليس مذهب سيبويه إنما هو مذهب المبرد والزجاج
ونص سيبويه على التخيير (بعض الذي نعدهم) به من العذاب في حياتك وجواب الشرط
محذوف أي فذاك (أو نتوفينك) أي قبل تعذيبهم (فإلينا يرجعون) أي فنعذبهم أشد العذاب
فالجواب المذكور للمعطوف فقط (ولقد أرسلنا) أي على ما لنا من العظمة (رسلا) أي بكثرة (من
قبلك) إلى أممهم ليبلغوا عنا ما أمرناهم به (منهم من قصصنا) بما لنا من العظمة (عليك) أي

قوله وأكد التعبير الخ كذا في النسخ ولا يخفى ما فيه اه

الآية مخاصما له الذين بال وقال بعد قول الله أعبد مخاصما لا دبغ بالإضافة (قلت) لأن قوله لله أعبد إخبار عن

أخبارهم وأخبار أممهم (ومنهم من لم نقصص عليك) لا أخبارهم ولا أخبار أممهم ولا ذكرناهم
لك بأسمائهم وان كان لنا العلم التام والقدرة الكاملة روى ان الله تعالى بعث ثمانية آلاف نبي
أربعة آلاف من بني اسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس (وما) أي أرسلناهم والحال انه
ما (كان لرسول) اصلا (أن يأتي بآية) اي ملجئة أو غير ملجئة مما يطلب لرسول استجلابا للاتباع
قومه له أو اقتراحا من قومه عليه (الا باذن الله) أي بأمره وتمكينه فان له الاحاطة بكل شيء فلا
يخرج شيء عن أمره وهم عبيد مربوبون * (تنبيه) * معنى الآية أن الله تعالى قال لنبيه محمد صلى
الله عليه وسلم أنت كالرسل من قبلك وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين وليس منهم
أحد أعطاه الله آيات ومعجزات الا وقد جادله قومه وكذبوه فيها فصبروا وكانوا أبدا يقترحون
على أنبيائهم عليهم السلام اظهار المعجزات الزائدة على الحاجة عنادا وعبثا وما كان لرسول أن
يأتي بآية الا باذن الله تعالى والله سبحانه علم الصلاح في اظهار ما اظهره دون غيره ولم يقدح ذلك
في نبوتهم فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن اظهارها صلاحا
لا جرم ما أظهرناها (فاذا جاء أمر الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما بنزول العذاب على
الكفار (قضي) اي بأمره على أيسر وجه وأسهله بين الرسل ومكذبيهم (بالحق) الامر الثابت
(وخسر هنالك) اي في ذلك الوقت العظيم (المبطلون) اي المنسوبون الى ايثار الباطل على الحق
المعاندون الذين يجادلون في آيات الله فيقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة تعنتا وعبثا
وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الهمزة
الثانية وأبدلاها أيضا الفا وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين * ولما ذكر تعالى الوعيد عاد الى ذكر
ما يدل على وجود الاله القادر الحكيم والى ذكر ما يصلح أن يعد انعاما على العباد فقال تعالى
(الله) أي الملك الاعظم (الذي جعل لكم) أي لا غيره (الانعام) أي الازواج الثمانية بالتذليل
والتسخير وقال الزجاج الانعام الابل خاصة (لتركبوا منها) وهي الابل مع قوتها ونفرتها وقد
تركب البقر أيضا (ومنها) أي من الانعام كلها (تأكلون) ولما كان التصرف فيها غير منضبط أجمله
بقوله تعالى (ولكم فيها) أي كلها (منافع) أي كثيرة بغير ذلك من الدر والوبر والصوف وغيرها
(ولتبلغوا عليها) وهي في غاية الذل والطواعية ونبههم على نقصهم وعظم نعمته عليهم بقوله
تعالى (حاجة) أي جنس الحاجة وقوله تعالى (في صدوركم) اشارة الى أن حاجة واحدة ضاقت
عنها قلوب الجميع حتى فاضت منها فلأت مساكنها (وعليها) أي الابل في البر (وعلى الفلك)
اي في البحر (تحملون) اي تحملون أمتعتكم الثقيلة من مكان الى مكان آخر وأما حمل الانسان
نفسه فقد مر بالركوب (فان قيل) لم لم يقل وفي الفلك كما قال تعالى في سورة هود قلنا احمل فيها
من كل زوجين اثنين (أجيب) بان كلمة على للاستعلاء فالشيء الذي يوضع على الفلك كما صح أن
يقال وضع فيه صح أن يقال وضع عليه ولما صح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى تتم المزاوجة
في قوله تعالى وعليها وعلى الفلك تحملون وقال بعضهم ان لفظ فيها هناك أليق لان سفينة نوح
عليه السلام كما قيل كانت مطبقة عليهم وهي محيطة بهم كالوعاء وأما غيرها فالاستعلاء فيه واضح
لان الناس على ظهرها ولما كانت هذه آية عظيمة جعلها الله سبحانه وتعالى مشتملة على آيات

المتكلم فناسب الاضافة
اليه وقوله أمرت أن اعبد
الله ليس اخبارا عن المتكلم
بل الاخبار عنه اصالة

كثير. قال تعالى (ويريكم) أى فى كل حظة (آياته) اى دلائل قدرته (فاى آيات الله) اى المحيط صفات الكمال الدالة على وحدانيته (تنكرون) حتى تتوجه لكم المجادلة فى آياته وهذا استفهام توبيخ • (تنبيه) • أى منصوب بتنكرون وقدم وجوبا لان له صدر الكلام وتذكيره أشهر من تأنيثه قال الزمخشرى وقولك فأية آيات الله قليل لان التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الاسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهو فى أى أغرب لابهامه قال أبو حيان ومن قلة تأنيث أى قول الشاعر

بأى كتاب أم بآية سنة • ترى حبهم عارا على وتحسب

قال ابن عادل وقوله وهو فى أى أغرب ان عنى أيا على الاطلاق فليس بصحيح لان المستفيض فى النداء أن تؤنث فى نداء المؤنث كقوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ولا نعلم أحدا ذكر تذكيرها فيه فيقول يا أيها المرأة الا صاحب البديع فى الضرورات عن غير المناداة فكلامه صحيح يقل تأنيثها فى الاستفهام وموصولة وشرطية • ولما وصل الامر الى حد من الوضوح لا يخفى على أحد تسبب عنه لفت الخطاب عنهم دلالة على الغضب الموجب للعقاب المقتضى للرهب فقال تعالى (أفلم يسيروا) أى هؤلاء الذين هم أضل من الانعام لما حصل فى صدورهم من الكبر العظيم طلبا للرياسة والتقديم على الغير فى المال والجاه (فى الارض) أى أرض كانت سير اعتبار (فينظروا) نظر تفكر فيما سلكوه من سبلها ونواحيها (كيف كان عاقبة) أى آخر (الذين من قبلهم) أى مع قرب الزمان والمكان أو بعد ذلك (كانوا أكثر منهم) عددا وعددا ومالا وجاها (وأشد قوة) فى الابدان كقوم هود عليه السلام (وآثارا فى الارض) بنحت البيوت فى الجبال وحفر الآبار وبناء المصانع الجليلة وغير ذلك (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) بقوة أبدانهم وعظم عقولهم واحتيالهم ومارتبوا من المصانع انجاتهم حين جاءهم الموت بل كانوا كأمس الذاهب • (تنبيه) • ما الاولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به (فلما جاءتهم رسلهم) أى الذين قد أرسلناهم اليهم وهم يعرفون صدقهم وأمانتهم (بالبينات) أى المعجزات الظاهرات الدالة على صدقهم لا محالة واختلف فى عود ضمير فرحوا فى قوله تعالى (فرحوا بما عندهم من العلم) على وجهين أحدهما أنه عائد الى الكفار واختلف فى ذلك العلم الذى فرحوا به فقيل هو الاشياء التى كانوا يسمونها علما وهى الشبهات المحكية عنهم فى القرآن كقولهم ما يهلكنا الا الدهر وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم من يحيى العظام وهى رميم ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا فكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الانبياء كما قال تعالى كل حزب بما لديهم فرحون وقيل المراد علم الفلاسفة فانهم كانوا اذا سمعوا بوحى الله تعالى دفعوه وصغروا علوم الانبياء عن علومهم كما روى عن بقراط أنه سمع بمجىء بعض الانبياء عليهم السلام فقيل له لو هاجرت اليه فقال نحن قوم مهتدون فلا حاجة بنا الى من يهدينا وقيل المراد علمهم بأمر الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كقوله تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ذلك مبلغهم من العلم فلما جاءت الرسل عليهم السلام بعلوم الديانات ومعرفة الله عز وجل ومعرفة المعاد وتطهير النفس من الرذائل لم يلتفتوا اليها واستهزؤا بها واعتقدوا أن لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به ويجوز أن

يكون

امرت فقط وما بعده فضلة
(قوله ثم يهيج فتراه مصفرا
ثم يجعله حطاما) قال هنا
بلفظ يجعله وفى الحديد

يكون المراد علم الانبياء وفرح الكفار به ضحكهم واستهزاؤهم به ويؤيده قوله تعالى (وحاق) أى أحاط على وجه الشدة (بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى من الوعيد الذى كانوا قاطعين ببطلانه والوجه الثانى أنه عائد على الرسل وفيه وجهان أحدهما أن تفرح الرسل اذا رأوا من قوم جهلا كاملا واعراضا عن الحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واعراضهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله تعالى وحاق بالجاهلين جزاء جهلهم واستهزائهم الثانى أن المراد أن الرسل فرحوا بما عند الكفار من العلم فرح ضحك واستهزاء (فلما رأوا) أى عاينوا (بأسنا) أى عذابنا الشديد ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس (قالوا آمنا بالله) أى الذى له مجامع العظمة ومعاقد العزونفوذ الكلمة (وحده) لا نشرك به شيأ (وكفرنا بما كنا) أى جبلة وطبعا (به مشركين) يعنون الاصنام أى لانا علمنا انه لا يغنى من دون الله شئ ولما كان الكفر بالغيب سببا لعدم قبول الايمان عند الشهادة قال تعالى (فلم يك ينفعهم) أى لم يصح ولم يقبل بوجه من الوجوه (ايمانهم) أى لا يتجدد لهم نفعه بعد ذلك لانه ايمان الجاء واضطرار لا ايمان طواعية واختيار (لما رأوا) وأظهر موضع الاضمار زيادة فى الترهيب فقال تعالى شأنه (بأسنا) أى عذابنا لامتناع قبول الايمان حينئذ لانه لا يتحقق ولا يتصور الامع الغيب وأما عند الشهادة فقد كشفت سريرته على أنه قد فاتت حقيقته وصورته ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه (فان قيل) أى فرق بين قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم وبينه لو قيل فلم ينفعهم ايمانهم (أجيب) بأنه من كان فى نحو قوله تعالى ما كان لله أن يتخذ من ولد والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم ايمانهم (فان قيل) كيف ترادفت هذه الفا آت (أجيب) بأن قوله تعالى فما أغنى عنهم نتيجة قوله تعالى كانوا أكثر منهم وأما قوله تعالى فلما جاءتهم رسلهم فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى فما أغنى عنهم كقولك رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن الى الفقراء وقوله تعالى فلما رأوا بأسنا تابع لقوله تعالى فلما جاءتهم كأنه قال فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا فكذلك فلم يك ينفعهم ايمانهم تابع لايمانهم لما رأوا بأس الله تعالى وقوله تعالى (سنت الله) أى الملك الاعظم يجوز انتصابها على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أى الذى فعله الله تعالى بهم سنة سابقة من الله تعالى ويجوز انتصابها على التحذير أى احذروا سنة الله تعالى فى المكذبين (التى قد خلت فى عباده) وتلك السنة انهم اذا عاينوا العذاب آمنوا ولم ينفعهم ايمانهم (فائدة) رسمت سنة بتاء مجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وأمال الكسائى الهاء فى الوقف (وخسر) أى هلك أى تحقق وتبين أنه خسر (هنالك الكافرون) أى العريقون فى هذا الوصف فلا انفكاك بينهم وبين الكفر (تنبيه) هنالك فى الاصل اسم مكان قيل استعير هنا للزمان ولا حاجة له فالكناية فيه ظاهرة وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبى ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن الاصلى عليه واستغفر له حديث موضوع وعن ابن سيرين رأى رجل فى المنام سبع جوار حسان فى مكان واحد لم ير أحسن منهن فقال لهن لمن أنتن فقلن لمن يقرأ آل حم

سورة حم السجدة مكية

بلفظ يكون موافقة فى كل منهما لما قبله فى المسند اليه اذ المسند اليه فيه هذا وثم هو المسند اليه فيما قبله

وتسمى فصلت وهى أربع وخمسون آية وسبعمائة وتسعة وتسعون كلمة وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمسون حرفا (بسم الله) الذى له أوصاف الكمال (الرحمن) الذى وسع كل شئ رحمة وعلما (الرحيم) الذى فصل الكتاب تفصيلا وبينه غاية البيان وتقدم الكلام على قوله تعالى (حم) ثم ان جعلتها اسما للسورة كانت فى موضع الابتداء وخبره (تنزيل من الرحمن الرحيم) وان جعلتها تعديدا للحروف كان تنزيل خبر المبتدا محذوف أى هذا تنزيل وقال الاخفش تنزيل رفع بالابتداء وخبره (كتاب) فصلت وجرى على ذلك الجلال المحلى (فصلت) اى بينت (آياته) بالاحكام والقصص والمواعظ بيانا شافيا فى اللفظ والمعنى حال كونه (قرآنا) اى جامعا مع التفصيل وهو مع جمع اللفظ وضبطه منثور اللؤلؤ منتشر المعانى لا الى حد ولا نهاية عد بل كلما دقق النظر جل المفهوم ولذلك قال تعالى (عربيا) لان لسان العرب أوسع الالسن ساحة وأعمقها عمقا وأغمرها باحة وأرفعها ابناء وأفصحها الفاظا وأبينها معنى وأجلها فى النفوس وقعا وفى ذلك امتنان لسهولة قراءته وفهمه وقوله تعالى (لقوم يعلمون) أى العربية أو لاهل العلم وهو النظر وهو متعلق بفصلت أى فصلت لهؤلاء وبينت لهم لانهم هم المنتفعون به وان كانت مفصلة فى نفسها لجميع الناس أو بمحذوف صفة لقرآنا أى كائنا لهؤلاء خاصة لما تقدم من المعنى * (تنبيه) * حكم الله تعالى على هذه السورة باشياء أولها كونها تنزيلا والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور كقولك هذا بناء الامير أى مبنيه وهذا الدرهم ضرب السلطان أى مضروبه ومعنى كونها منزلة أن الله تعالى كتبها فى اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام أن يحفظ الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلى الله عليه وسلم ويؤديها اليه فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة جبريل عليه السلام سمى لذلك تنزيلا وثانيها كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم وذلك يدل على أن ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لان الفعل المقرون بالصفة لابد وأن يكون مناسبا لتلك الصفة فكونه تعالى رحمانا رحيما صفتان دالتان على كمال الرحمة والتنزيل المضاف الى هاتين الصفتين لابد وأن يكون دالا على أعظم وجوه الرحمة والنعمة والامر كذلك لان الخلق فى هذا العالم كالمرضى والمحتاجين والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى من الادوية وعلى ما يحتاج اليه الاصحاء من الاغذية فكان اعظم النعم من الله تعالى على اهل هذا العالم انزال القرآن عليه وثالثها كونه كتابا وهذا الاسم مشتق من الكتب وهو الجمع فسمى كتابا لانه جمع فيه علوم الاولين والآخرين ورابعها قوله تعالى فصلت آياته اى ميزت وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة فبعضها وصف ذات الله تعالى وصفات التنزيه والتقديس وشرح كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وعجائب احوال خلقه من السموات والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب احوال النبات والحيوان والانسان وبعضها فى المواعظ والنصائح وبعضها فى تهذيب الاخلاق ورياضة النفس وبعضها فى قصص الانبياء عليهم السلام وتواريخ الماضين وبالجملة فمن انصف علم انه ليس فى بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة مثل ما فى القرآن وخامسها قوله تعالى قرآنا وقد مر توجيه هذا الاسم وسادسها قوله تعالى عربيا

لان المسند اليه هنا قدما قبله وهو يخرج به زرعا هو الله كانه كذلك فى يجعله والمسند اليه ثم نوها قبله

أي إنما نزل بلغة العرب ويؤيده قوله تعالى وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه وسابعها
قوله تعالى لقوم يعلمون أي جعلناه قرآناً لأجل أنا أنزلناه على قوم عرب بلغتهم ليفهموا منه
المراد وثامنها وتاسعها قوله تعالى (بشيراً) أي لمن اتبع (ونذيراً) أي لمن امتنع وانقطع
وعاشرها قوله تعالى (فأعرض أكثرهم) أي عن تدبره وقبوله (فهم) لذلك (لا يسمعون) أي
يفعلون فعل من لا يسمع لأنهم لا يسمعون سماع تأمل وطاعة بهذه صفات عشر وصف الله تعالى
القرآن بها واحتج القائلون بخلق القرآن بهذه الآية من وجوه أولها أنه تعالى وصف القرآن
بكونه منزلاً وتنزيلاً والمنزل والتنزيل مشعر بالتغير من حال إلى حال فوجب أن يكون مخلوقاً
ثانيها أن التنزيل مصدر وهو المفعول المطلق باتفاق النحويين ثالثها أن المراد بالكتاب إما
الكتاب وهو المصدر الذي هو المفعول المطلق وإما المكتوب الذي هو المفعول رابعها أن قوله
تعالى فصلت آياته يدل على أن متصرفاً تصرف فيه بالتفصيل وذلك لا يليق بالقديم خامسها
إنما سمي قرآناً لأنه قرن بعض أجزائه ببعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل
سادسها وصفه بكونه عربياً وإنما صحت هذه النسبة لأن هذه الألفاظ إنما دلت على هذه المعاني
بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم وما حصل بجعل جاعل وفعل فاعل فلا بد وأن يكون محدثاً
ومخلوقاً وأجاب أهل السنة بأن كل هذه الوجوه المذكورة عائدة إلى اللغات وإلى الحروف
والكلمات وهي حادثة وذهب قوم إلى أن في القرآن من سائر اللغات كالإستبرق والسجيل
فإنهما فارسيان والمشكاة فإنها حبشية والقسطاس فإنه من لغة الروم وهذا فاسد لقوله تعالى
قرآناً عربياً وقوله تعالى وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ° ولما وصف الله تعالى القرآن
بأنهم أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه بين أنهم صرحوا بهذه النفرة وذكروا ثلاثة أشياء مذكورة
عنهم في قوله تعالى (وقالوا) أي عند إعراضهم ممثلين في عدم قبولهم (قلوبنا في أكنة) أي
أغشية محيطة بها والأكنة جمع كنان كالأغطية جمع غطاء والكنان هو الذي تجعل فيه السهام
والمعنى لا نفقه ما تقول (مما تدعونا) أيها المخبر بأنه نبي (إليه) فلا سبيل إلى الوصول إليه لتفقهه
أصلاً (فإن قيل) هلا قالوا على قلوبنا أكنة كما قالوا (وفي آذاننا) أي التي نسمع بها وهي أحد
الطرق الموصلة إلى القلوب (وقر) أي ثقل قد أصمها عن سماعه ليكون على نمط واحد (أجيب)
بأنه على نمط واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك قلوبنا في أكنة وعلى قلوبنا أكنة والدليل عليه
قوله تعالى إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ولو قيل إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى والمعنى
أنا في ترك القبول عنك بمنزلة من لا يفقه ولا يسمع (ومن بيننا وبينك حجاب) أي حاجز من جبل
أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي (فاعمل) أي على دينك (إننا عاملون) على ديننا أو فاعمل في إبطال
أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك (فإن قيل) هل لزيادة من في قولهم من بيننا وبينك حجاب
فائدة (أجيب) بنعم لأنهم لو قالوا وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط بين
الجهتين وأما بزيادة من فالمعنى أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك فالمسافة المتوسطة لجهتنا
وجهتك كلها مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها ° ولما أخبروا بإعراضهم وعللوا بعدم فهمهم
لما يدعون إليه أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بجواب بين أنهم على محض
المعاندة فقال تعالى (قل) أي لهؤلاء الذين عجزوا عن رد شيء من أمرك بشيء يقبله ذو عقل فادعوا

وهو أعجب الكفار ثباته
النبات كما انه كذلك في
يكون (قوله فمن اهتدى
فلنفسه) قال هنا بحذف
انما يهتدي المذكور في
يونس والاسراء اكتفاء
بما ذكره بقوله قبل ومن
يضلل الله فما له من هاد ومن

ما ينادى عليهم بالعجز (انما أنا بشر مثلكم) أى لست غير بشر مما لا يرى كالملك والجنى بل واحد
منكم والبشر يرى بعضهم بعضا ويسمعه ويبصره فلا وجه لما تقولونه أصلا (يوحى الى) أى
بطريق يخفى عليكم ولولا الوحى ما دعوتكم (أنما الهكم) أى الذى يستحق العبادة (اله واحد)
لا غير واحد وهذا ما دلت عليه الفطرة الاولى السوية وقامت عليه الادلة العقلية وأيدتها
فى كل عصر الطرق النقلية وانعقد عليه الاجماع فى أوقات الضرورة النفسانية قال الحسن
علمه الله تعالى التواضع ولما قطع حجتهم وازال علتهم تسبب عن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم
(فاستقيموا اليه) أى غير معوجين أصلا على نوع شرك بشفيع ولا غيره وعدى بالى لتضمنه
معنى توجهوا والمعنى وجهوا استقامتكم اليه بطاعته ولا تميلوا عن سبيله (واستغفروه)
أى اطلبوا منه غفران ذنوبكم وهو محوها عينا وأثرا حتى لا تعاقبوا عليها ولا تعاتبوا بالندم
عليها والاقلاع عنها حالا ومآلا ثم هددهم على ذلك فقال (وويل) كلمة عذاب أو واد فى جهنم
(للمشركين) أى من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله تعالى (الذين لا يؤتون الزكوة) أى لبخلهم
وعدم اشفاقهم على الخلق وذلك من أعظم الرذائل (وهم بالآخرة) أى الحياة التى بعد هذه
ولا بعد لها (هم كافرون) واحتج من قال ان الكفار مخاطبون بفروع الشريعة بهذه الآية
فقالوا ان الله تعالى توعدهم بأمرين أحدهما كونهم مشركين والثانى لا يؤتون الزكاة فوجب
ان يكون لكل واحد من هذين تأثير فى حصول الوعيد وذلك يدل على ان لعدم ايتاء الزكاة مع
الشرك تأثيرا عظيما فى زيادة الوعيد وهو المطلوب (فان قيل) لم خص تعالى من أوصاف
المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة (أجيب) بأن أحب شئ الى الانسان ماله وهو
شقيق روحه فاذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوح
طويته ألا ترى الى قوله تعالى ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من
أنفسهم أى يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بانفاق الاموال وما خدع المؤلفة قلوبهم
الا بلمظة من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما تظاهروا الا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحروب وجوهدوا وفيه بعث للمؤمنين على أداء
الزكاة وتخويف شديد فى منعها حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة
وقال ابن عباس هم الذين لا يقولون لا اله الا الله وهى زكاة الانفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم
من الشرك بالتوحيد وقال الحسن وقتادة لا يقرون بالزكاة ولا يرون ايتاءها واجبا وكان يقال
الزكاة قنطرة الاسلام فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك وقال الضحاك ومقاتل لا ينفقون
فى الطاعة ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم ٭ ولما ذكر تعالى ما للجاهلين وعيدا
وتحذيرا ذكر ما لاضدادهم وعدا وتبشيرا فقال تعالى مجيبا لمن توقع ذلك مؤكدا لانكار
من ينكره (ان الذين آمنوا) أى بما آتاهم الله تعالى من العلم النافع (وعملوا الصالحات)
من الزكاة وغيرها من أنواع الطاعات (لهم أجر) أى عظيم (غير ممنون) أى غير مقطوع جزاء
على سماحهم بالفانى اليسير من أموالهم فى الزكاة وغيرها وما أمر الله تعالى من أقوالهم
وأفعالهم فى الآخرة والدنيا والممنون المقطوع من مننت الحبل اذا قطعته ومنه قولهم قد منه
السفر أى قطعه وقال مقاتل غير منقوص ومنه المنون لانه ينقص منة الانسان وقوته

(قوله قال الحسن علمه الله فالا من فضل
يمده الله
(قوله قيل فيه الشفاعة
جدا) ان قلت كيف قال
ذلك مع ان للانبياء والعلماء
والشهداء والاطفال شفاعة
(قلت) معناه ان احدا
لا يملكها الا باذنه كما قال
تعالى من ذا الذى يشفع

وانشد ولذى الاصبع العدوانى

انى لعمرك ما بابى بذى غلق * على الصديق ولا أجرى بممنون

وقيل غير ممنون به عليهم لان عطاء الله تعالى لايمن به انما يمن المخلوق وقال السدى نزلت فى المرضى والزمنى اذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر كأصح ما كانوا يعملون فيه روى عبد الله ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به اكتب له مثل عمله اذا كان طليقا حتى أطلقه أو أكفته الى * ولما ذكر سبحانه وتعالى سفههم فى كفرهم بالآخرة شرع فى ذكر الادلة على قدرته عليها سارا على كل ما يريد كخلق الاكوان وما فيها الشامل لهم ولمعبوداتهم من الجمادات وغيرها الدال على أنه واحد لا شريك له فقال منكرا عليهم ومقررا بالوصف لانهم كانوا عالمين بأصل الخلق (قل) يا أشرف الرسل لمن أنكر الخلق منكرا عليه بقولك (أئنكم) وأكد لانكارهم التصريح بما يلزمهم من الكفر بقوله تعالى (لتكفرون) أى توجدون حقيقة الستر لانوار العقول الظاهرة (بالذى خلق الارض) أى على سعتها وعظمها من العدم (فى يومين) فتنكرون قدرته على اعادة ما خلقه منها ابتداء مع اعترافكم بانه ابتدأ خلقها أو خلق ذلك منها وهذان اليومان الاحد والاثنين كما قاله ابن عباس وعبد الله بن سلام قال ابن الجوزى والاكثرون قال ابن عباس ان الله خلق يوما فسماه الاحد ثم خلق ثانيا فسماه الاثنين ثم خلق ثالثا فسماه الثلاثاء ثم خلق رابعا فسماه الاربعاء ثم خلق خامسا فسماه الخميس فخلق الله الارض يوم الاحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء ولذلك يقول الناس انه يوم ثقيل وخلق مواضع الانهار والشجر والقرى يوم الاربعاء وخلق الطير والوحش والسباع والهوام والآفة يوم الخميس وخلق الانسان يوم الجمعة وفرغ من الخلق يوم السبت ولكن فى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من النهار فيما بين العصر الى الليل (فان قيل) الايام انما كانت بدوران الافلاك وانما كان ذلك بعد تمام الخلق بالفعل (أجيب) بان المراد فى مقدار يومين أو نوبتين خلق فى كل نوبة ما خلق فى أسرع ما يكون قال البيضاوى ولعل المراد من الارض ما فى جهة السفل من الاجرام البسيطة ومن خلقها فى يومين أنه خلق لها أصلا مشتركا ثم خلق لها صورا بها صارت أنواعها وكفرهم به الحادهم فى ذاته تعالى وصفاته وقرأ قالون وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية كالياء بخلاف عن هشام وأدخلوا بين الهمزة المحققة والمسهلة ألفا وورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير ادخال والباقون بتحقيقهما من غير ادخال * ولما ذكر كفرهم بالبعث وغيره عطف على تكفرون قوله تعالى (وتجعلون) أى مع هذا الكفر (له أندادا) من الخشب المصور ومن الحجر المنحوت شركاء فى العبودية ولما بكتهم على قبح معتقدهم عظم ذلك بتعظيم شأنه سبحانه فقال تعالى (ذلك) أى الاله العظيم (رب العالمين) أى موجدهم ومربيهم وذلك يدل قطعا على جميع ماله من صفات الكمال * ولما ذكر

عنده الا باذنه وقال ولا يشفعون الا لمن ارتضى (قوله واتبعوا أحسن ما انزل اليكم) * ان قلت كيف قال ذلك مع ان القرآن كله حسن (قلت) معناه احسن وحى أو كتاب أنزل اليكم وهو القرآن

تعالى ما هم به مقرون من ابداعها أتبعه بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك فالاول قوله تعالى (وجعل فيها رواسي) أي جبالا ثوابت وهو مستأنف ولا يجوز عطفه على صلة الموصول للفصل بينهما بأجنبي وهو قوله تعالى وتجعلون فانه معطوف على لتكفرون كامر (فان قيل) ما الفائدة في قوله تعالى (من فوقها) ولم يقتصر على قوله وجعل فيها رواسي كما اقتصر على قوله تعالى وجعلنا فيها رواسي شامخات وقوله تعالى وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بكم وقوله تعالى وجعل فيها رواسي (أجيب) بانه تعالى لو قال وجعل لها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الاساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الارض الثقيلة عن النزول ولكنه تعالى قال جعلت هذه الجبال الثقال فوق الارض ليرى الانسان بعينه ان الارض والجبال الثقال على أثقال وكلها مفتقرة الى ممسك وحافظ وما ذلك الحافظ المدبر الا الله تعالى * ولما هيأ الارض لما يراد منها ذكر ما أودعها وهو النوع الثاني بقوله تعالى (وبارك فيها) أي بما خلق من البحار والانهار والاشجار والثمار وغير ذلك وقال ابن عباس يريد شق الانهار وخلق الجبال وخلق الاشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج اليه من الحيوانات * النوع الثالث قوله تعالى (وقدر فيها أقواتها) أي أقوات أهلها بان عين لكل نوع ما يصلحه ويعيش به وقال محمد بن كعب قدر الاقوات قبل أن يخلق الخلق والابدان أو أقواتا تنشأ منها بان خص حدوث كل قوت بقطر من أقطارها فأضاف القوت الى الارض لكونه متولدا من تلك الارض حادثا فيها لان النحاة قالوا يكفي في حسن الاضافة أدنى سبب فالشيء يضاف الى فاعله تارة والى محله أخرى أي قدر الاقوات التي يختص حدوثها بها وذلك لانه تعالى جعل كل بلدة معدة لنوع من الاشياء المطلوبة حتى ان أهل هذه البلدة يحتاجون الى الاشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس فصار هذا المعنى سببا لرغبة الناس في التجارات واكتساب الاموال لتنتظم عمارة الارض كلها باحتياج بعضهم الى بعض فكان جميع ما تقدم من ابداعها وايداعها ما ذكر من متاعها دفعة واحدة على مقدار لا يتعداه ومنهاج بديع دبره في الازل وارتضاه وقدره فأمضاه لا ينقص عن حاجة المحتاجين أصلا وانما ينقص توصلهم أو توصل بعضهم اليه فلا يجد له حينئذ ما يكفيه وفي الارض أضعاف أضعاف كفايته ثم ذكر فذلكة خلق الارض وما فيها فقال تعالى (في أربعة أيام) أي مع اليومين الماضيين كقولك بنيت بيتي في يوم وأكملته في يومين أي بالاول قال أبو البقاء في تمام أربعة أيام ولولا هذا التقدير لكانت ثمانية يومان في الاول وهو قوله تعالى خلق الارض في يومين ويومان في الآخر وهو قوله تعالى فقضاهن سبع سموات في يومين وأربعة في الوسط وهو قوله تعالى في أربعة أيام (فان قيل) انه تعالى ذكر خلق الارض في يومين فلو ذكر انه خلق هذه الانواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وعن الغلط فلم ترك التصريح بذكر الكلام المجمل (أجيب) بان قوله تعالى في أربعة أيام (سواء) أي استوت الاربعة استواء لا يزيد ولا ينقص فيه فائدة زائدة على ما اذا قال خلقت هذه الثلاثة في يومين لانه لو قال تعالى خلقت هذه الاشياء في يومين لا يفيد هذا الكلام

كلها وأحسن القرآن آياته
المحكمات او آياته التي
تضمنت امر طاعة او
احسان وقدمر نظير هذا
السؤال في نظير هذه الآية
في الاعراف في قوله وأمر
قومك يأخذوا بأحسنها

كون

كون اليومين مستغرقين بتلك الاعمال لانه قد يقال عملت هذا العمل في يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل بخلافه لما ذكر خلق الارض وخلق هذه الاشياء ثم قال في أربعة أيام سواء دل على ان هذه الايام الاربعة صارت مستغرقة في تلك الاعمال من غير زيادة ولا نقصان ولم يفعل تعالى ذلك في أقل من لمح البصر مع تمام القدرة عليه لان هذا أدل على الاختيار وأدخل في الابتلاء والاختبار ليضل به كثيرا ويهدى به كثيرا فيكون أعظم لاجورهم لانه أدل على تسليمهم وجعل مدة خلقها اضعف مدة خلق السموات مع كونها أصغر من السموات دلالة على انها هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين الانس والجن فزادت لما فيها من كثرة المنافع وتباين أصناف الاعراض والجواهر لان ذلك أدخل في المنة على سكانها والاعتناء بشأنهم وشأنها وزادت أيضا لما فيها من الابتلاء بالمعاصي والمجاهدات والمجادلات والمعالجات كل ذلك دلالة على أن المدة ما هي لاجل القدرة بل لاجل التنبيه على ما في القدرة من المقدور وعجائب الامور قال البقاعي ولعل تخصيص السماء بقصر المدة دون العكس لاجراء أمرها على ما تعارفه من أن بناء السقف أخف من بناء البيت تنبيها على أنه بنى أمر دار ناهذه على الاسباب تعليما للتأنى وتدريبا للسكينة والبعد عن العجلة وقوله تعالى (للسائلين) فيه ثلاثة أوجه أحدها انه متعلق بسواء بمعنى مستويات للسائلين ثانيها أنه متعلق بقدر أي قدر فيها أقواتها لاجل الطالبين لها المحتاجين المقتاتين ثالثها أنه متعلق بمحذوف كأنه قيل هذا الحصر لاجل من سأل في كم خلقت الارض وما فيها ولما كانت السموات أعظم من الارض في ذاتها باتساعها وزينتها ودوران أفلاكها وارتفاعها نبه على ذلك بالتعبير بأداة التراخي ولفظ الاستواء وحرف الغاية الدال على عظم الغاية فقال تعالى (ثم استوى) أي قصد قصدا هو القصد منتهيا قصده (الى السماء وهي) أي والحال أنها (دخان) قال المفسرون هذا الدخان بخار الماء وذلك أن عرش الرحمن كان على الماء قبل خلق السموات والارض كما قال تعالى وكان عرشه على الماء ثم ان الله تعالى أحدث في ذلك الماء اضطرابا فأزبد وارتفع فخرج منه دخان فأما الزبد فبقي على وجه الماء فخلق منه اليبوسة وأحدث منه الارض وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات (فان قيل) هذه الآية مشعرة بأن خلق الارض كان قبل خلق السموات وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها مشعر بأن خلق الارض بعد خلق السموات وذلك يوجب التناقض (أجيب) بأن المشهور أنه تعالى خلق الارض أولا ثم خلق بعدها السموات ثم بعد خلق السماء دحا الارض ومدها وحينئذ فلا تناقض قال الرازي وهذا الجواب مشكل لان الله تعالى خلق الارض في يومين ثم انه في اليوم الثالث جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وهذه الاحوال لا يمكن ادخالها في الوجود الا بعد أن صارت الارض منبسطة ثم انه تعالى قال بعد ذلك ثم استوى الى السماء فهذا يقتضي أن الله تعالى خلق السماء بعد خلق الارض وبعد أن جعلها مدحوة وحينئذ يعود السؤال ثم قال والمختار عندي أن يقال خلق السماء مقدم على خلق الارض وتأويل الآية أن يقال الخلق ليس عبارة عن التكوين والايجاد والدليل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فلو كان الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين لصار تقدير

وما من نبي في جوابه باني هنا (قوله واقرأ واوحى الي والى الذين من قبلك لئن أشركت) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الوحي اليهم جمع ولما أوحى الى من قبله لم يكن في الوحي

الآية أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال فثبت أن الخلق ليس عبارة عن الايجاد والتكوين بل عبارة عن التقدير والتقدير في حق الله تعالى هو كلمته بأن سيوجده واذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى خلق الارض في يومين معناه أنه قضى بحدوثها في يومين وقضاء الله تعالى أنه سيحدث كذا في مدة كذا لا يقتضي حدوث ذلك الشئ في الحال فقضاء الله تعالى بحدوث الارض في يومين قد تقدم على احداث السماء وحينئذ يزول السؤال (فقال لها) أي السماء عقب الاستواء (وللارض ائتيا) أي تعاليا وأقبلا منقادتين وقوله تعالى (طوعا أو كرها) مصدران في موضع الحال أي طائعتين أو كارهتين (قالتا أتينا) أي نحن وما فينا وما بيننا (طائعين) أي أتينا على الطوع لا على الكره والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيأ من الخطاب والجواب ونحو ذلك قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقني قال الوتد سل من يدقني (فان قيل) هلا قال طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى لانهما سموات وأرضون (أجيب) بأنه لما جعلهن مخاطبات ومجيبات ووصفهن بالطوع والكره قال طائعين في موضع طائعات نحو قوله ساجدين *(تنبيه)* جمع الامر لهما في الاخبار لا يدل على جمعه في الزمان بل قد يكون القول لهما متعاقبا (فان قيل) ان الله تعالى أمر السماء والارض فأطاعتا كما ان الله تعالى أنطق الجبال مع داود عليه السلام فقال تعالى يا جبال أوبي معه والطير وانطق الايدي والارجل فقال تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقوله تعالى وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ واذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله تعالى في ذات السموات والارض حياة وعقلا ثم يوجه الامر والتكليف عليهما ووجه هذا بوجوه الاول أن الاصل حمل اللفظ على ظاهره الا أن يمنع منه مانع وههنا لا مانع الثاني انه تعالى جمعهما جمع العقلاء فقال تعالى قالتا أتينا طائعين الثالث قوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وهذا يدل على كونها عارفة بالله تعالى عالمة بتوجه تكليف الله تعالى وأجاب الرازي عن هذا بأن المراد من قوله تعالى ائتيا طوعا أو كرها الاتيان الى الوجود والحدوث والحصول وعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الامر كانت السموات والارض معدومة اذ لو كانت موجودة لم يجز فثبت أن حال توجه هذا الامر كانت السموات والارض معدومة واذا كانت معدومة لم تكن عارفة ولا فاهمة للخطاب فلم يجز توجه الامر اليها (فان قيل) روى مجاهد وطاوس عن ابن عباس انه قال قال الله للسموات والارض أخرجا ما فيكما من المنافع لمصالح العباد أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك وأنت يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك وقال لهما فعلا ما أمرتكما طوعا والا ألجأتكما الى ذلك حتى تفعلاه وعلى هذا لا يكون المراد من قوله أتينا طائعين حدوثهما في ذاتهما بل يصير المراد من هذا الامر ان يظهرا ما كان مودعا فيهما (أجيب) بان هذا لم يثبت لانه تعالى قال (فقضاهن) أي خلقهن خلقا ابداعيا (سبع سموات) وهذا يدل على أن حصول السماء انما حصل بعد قوله ائتيا طوعا أو كرها *(تنبيه)* الضمير للسماء على المعنى كما قال تعالى طائعين ونحوه أعجاز نخل خاوية ويجوز

ايهم خطابه (قلت) معناه ولقد أوحى الى كل واحد منك ومنهم لئن أشركت أو فيه اضمار نائب الفاعل تقديره والله أوحى اليك والى الذين من قبلك التوحيد ثم ابتدأ وقال

أن يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سموات وسبع سموات حال على الاول وتمييز على الثاني وقوله تعالى (في يومين) قال أهل الاثر ان الله تعالى خلق الارض يوم الاحد والاثنين وخلق سائر ما في الارض يوم الثلاثاء والاربعاء وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم عليه السلام وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة ولذلك لم يقل هنا سواء ووافق هذا آيات خلق السموات والارض في ستة أيام وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والارض فقال خلق الله الارض يوم الاحد والاثنين وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الاربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة الى ثلاث ساعات بقين منه فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حتى يموت من مات وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به وفي الثالثة خلق آدم فاسكنه الجنة وأمر ابليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة قالت اليهود ثم ماذا يا محمد قال ثم استوى على العرش قالوا قد أصبت لو أتممت قالوا ثم استراح فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فنزل ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون (فان قيل) اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك انما يحصل بطلوع الشمس وغروبها وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم (أجيب) بان معناه انه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدار اليوم كأمر وقضاء الشيء اتمامه والفراغ منه قال ابن جرير وانما سمي الجمعة لان الله تعالى جمع فيه خلق آدم وخلق السموات والارض أي فرغ من ذلك وأتمه (وأوحى) أي ألقى بطريق خفي وحكم نبوي قوي (في كل سماء أمرها) أي الامر الذي دبرها وبرمتها فيهابه على نظام محكم لا يختل وزمام مبرم لا ينحل وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما خلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه الا الله تعالى وقال السدي يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها ولله في كل سماء بيت تحج اليه وتطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل للكعبة بحيث لو وقعت منه حصاة لوقعت على الكعبة * ولما عم خص التي تلينا اشارة الى تشريفنا فقال تعالى صارفا القول الى مظهر العظمة تنبيها على ما في هذه الآية من العظم (وزينا) أي بما لنا من العظمة (السماء الدنيا) أي القربى اليكم لاجل ذلك (بمصابيح) وهي النيرات التي خلقها الله في السموات وخص كل واحدة بضوء معين وسير معين وطبيعة معينة لا يعلمها الا الله تعالى ولا ينافي كون الدنيا مزينة بذلك أن تكون النجوم في غيرها مما هو أعلى منها لان السياق دل على أنها زينة وقوله تعالى (وحفظا) في نصبه وجهان أحدهما أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر أي وحفظناها بالثواقب من الكواكب حفظا والثاني أنه مفعول من أجله على المعنى فان التقدير وخلقنا الكواكب زينة وحفظا قال أبو حيان وهو تكلف وعدول عن السهل البين والمعنى وحفظناها من الشياطين الذين يسترقون السمع بالشهب أو من الآفات (ذلك) أي الامر الرفيع والشأن

لئن أشركت أو فيه تقديم وتأخير تقديره والله أوحى إليك لئن أشركت وكذلك أوحى إلى الذين من قبلك (قوله وسيق الذين كفروا) كيف قال الآيتين (إن ما ت) قال ذلك مع ان السوق

البديع (تقدير العزيز) أى الذى لا يغلبه شئ وهو يغلب كل شئ (العليم) أى المحيط علما بكل شئ فالعزيز اشارة الى كمال القدرة والعليم اشارة الى كمال العلم ولما كان التمادى على اعراضه كانه جدد اعراضا غير اعراضه الاول قال تعالى متصلا بعد قوله تعالى فاعرض اكثرهم (فان أعرضوا) أى استمروا على اعراضهم بعد هذا الشأن او اعرض غيرهم عن قبول ما جئتهم به من الذكر بعد هذا البيان الواضح فى هذه الآيات التى دلت على الوحدانية والعلم والقدرة وغيرها من صفات الكمال أتم دلالة (فقل) أى لهم (أنذرتكم صاعقة) أى خذرهم أن يصيبهم عذاب شديد الوقع كانه صاعقة (مثل صاعقة عاد وثمود) وقال المبرد الصاعقة المرة المهلكة لاى شئ كان والانذار التخويف وانما خص هاتين القبيلتين لان قريشا كانوا يمرون على بلادهم * ثم علل ايقاع ذلك بقوله تعالى (اذ) يجوز أن يكون ظرفا لصاعقة وظرفيته لا تنافى عليته أى حين (جاءتهم) أى عادا وثمود (الرسل) لان الزمان الطويل يجوز نسبة ما وقع فى جزء منه اليه (من بين أيديهم) أى من قبلهم لان نذير الاول نذير لكل من أتى بعده بانه ان واقع ما واقعه أتاه ما عذب به (ومن خلفهم) وهم من أتى اليهم لانهم لم يكونوا يعلمون اتيانهم فالخلف كناية عن الخفاء والقدام عن الجلاء وانهم اتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم فاعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم الا العتو والاعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم اى لآتينهم من كل جهة وعن الحسن انذروهم من وقائع الله تعالى فيمن قبلهم من الامم وعذاب الآخرة لانهم اذا حذروهم ذلك فقد جاؤهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم وأتوهم مقبلين عليهم ومدبرين عنهم وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بالاظهار الدال عند الجيم وادغمها الباقون (ان) أى بأن (لا تعبدوا الا الله) اى الذى له صفات الكمال جميعا (قالوا) اى الكفار لرسلهم (لو شاء ربنا) الذى ربانا احسن تربية ان يرسل الينا رسولا (لانزل) الينا (ملائكة) فارسلهم الينا عابرين بدعوتنا لكنه لم يرسل ملائكة فلم يشأ أن يرسل رسولا (فانا بما) اى بسبب ما (أرسلتم به) اى على زعمكم بانكم رسل (كافرون) اذ أنتم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا روى ان أبا جهل قال فى ملأ من قريش التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما بالسحر والشعر والكهانة وكلمه ثم أتانا ببيان من أمره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد علمت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علما وما يخفى على فاتاه فقال له يا محمد أنت خير ام هاشم انت خير ام عبد المطلب انت خير ام عبد الله فلم تشتم آلهتنا وتضلل اباءنا فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وان كنت اردت الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن من اى بنات قريش شئت وان كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به على ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرغت قال نعم قال فاسمع ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم تعوذ ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته الى ان بلغ قوله تعالى فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فامسك عتبة على فيه وناشده بالرحم

فيه نوع اهانة لا يليق باهل الجنة (قلت) المراد بسوق اهل النار طردهم اليها بالهوان والعنف كما يفعل بالاسارى الخارجين على السلطان اذا سيقوا الى

الا امسكت ثم رجع الى أهله ولم يخرج الى قريش فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة الا قد صبأ فانطلقوا اليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا الا أنك قد صبأت الى محمد وأعجبك طعامه فان كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمدا أبدا وقال والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا ولكني أتيته وقصصت عليه القصة وجاءني بشئ والله ما هو شعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة الى قوله تعالى فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فامسكت بفيه وناشدته الرحم حتى سكت ولقد علمتم أن محمدا اذا قال شيأ لم يكذب فخفت أن ينزل عليكم العذاب وفي رواية لمحمد بن كعب أنه قال اني سمعت قرآنا والله ما سمعت بمثله قط ما هو شعر ولا سحر ولا كهانة يا معشر قريش أطيعوني خلوا بينكم وبين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه والله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظفر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وأنتم أسعد الناس به قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم ٭ ولما جمعهم الله فيما جمعوا فيه حتى كأنهم تواصوا به فصلهم وفصل ما اختلفوا فيه فقال مسببا عما مضى من مقالاتهم (فأما عاد) أي قوم هود عليه السلام (فاستكبروا) أي طلبوا الكبر وأوجدوه (في الارض) أي كلها التي كانوا فيها بالفعل وغيرها بالقوة أو في الكل بالفعل لكونهم ملكوها كلها ثم بين كبرهم بأنه (بغير الحق) أي الذي لم يطابق الواقع ثم ذكر تعالى سبب الاستكبار بقوله تعالى (وقالوا من أشد منا قوة) وذلك أن هودا عليه السلام هددهم بالعذاب فقالوا نحن نقدر على دفع العذاب بفضل قوتنا وكانوا ذوي أجسام طوال طول الطويل منهم أربعمائة ذراع كما سيأتي في سورة الفجر قال الله تعالى ردا عليهم (أولم يروا) أي يعلموا علما هو كالمشاهدة (أن الله) أي المحيط بكل شئ قدرة وعلما (الذي خلقهم) ولم يكونوا شيأ (هو أشد منهم قوة) ومن علم أن غيره أقوى منه وكان عاقلا انقاد له فيما ينفعه ولا يضره وقوله تعالى (وكانوا بآياتنا يجحدون) أي يعرفون أنها حق ويشكرونها عطف على فاستكبروا (فأرسلنا) أي بسبب ذلك على ما لنا من العظمة (عليهم ريحا) أي عظيمة (صرصرا) أي شديد البرد والصوت والعصوف حتى كانت تجهد البدن ببردها فتكون كأنها تصره أي تجمعه في موضع واحد فتمنعه التصرف بقوتها وتقطع القلب بصوتها فتقهر شجاعته وتحق بشدة بردها كل ما مرت عليه وقوله تعالى (في أيام نحسات) أي مشؤومات جمع نحسة وقرأ ابن عامر والكوفيون بكسر الحاء من نحس نحسا نقيض سعد سعدا فهو نحس والباقون بسكونها فهو اما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر قال الضحاك أمسك الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين وكانت الرياح عليهم من غير مطر وروي أن الايام كانت آخر شوال من الاربعاء الى الاربعاء قال البيضاوي وما عذب قوم الا في يوم الاربعاء وعن عبد الله بن عباس أنه قال الرياح ثمان أربع منها عذاب وهي العاصفة والصرصر والعقيم والقاصف وأربع منها رحمة وهي المبشرات والناشرات والمرسلات والذاريات وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى ما أرسل على عاد من الريح الا قدر خاتمي وفعلنا ذلك بهم (لنذيقهم عذاب الخزي) أي الذل والهوان (في الحيوة الدنيا) كما استكبروا في الارض بغير الحق فبذلوا انفسهم من تعظموا

حبس اوقتل وسوف اهل الجنة سوق مراكبهم حثاوا مراعايهم الى دار الكرامة والرضوان كما يفعل عن يشرف و يكرم من الوافدين على السلطان (ان قلت) كيف قال في

عليه في الدار التي اغتروا بها فتعظموا فيها فان ذلك أدل على القدرة عند من تقيد بالوهم (ولعذاب الآخرة) أي الذي أعد للمتكبرين في الآخرة بغير الحق (أخزى) أي اشد اهانة وهو في الاصل صفة المعذب وانما وصف به العذاب على الاسناد المجازي للمبالغة (وهم لا ينصرون) أي لا يوجد ولا يتجدد لهم نصر أبدا بوجه من الوجوه ٭ ولما أنهى تعالى أمر صاعقة عاد شرع في بيان صاعقة ثمود فقال تعالى (وأما ثمود) وهم قوم صالح عليه السلام (فهديناهم) أي بينا لهم طريق الهدى من أنا قادرون على البعث وعلى كل شيء فلا شريك لنا وكان بيان ذلك بالناقة غاية البيان فأبصروا ذلك بأبصارهم التي هي سبب ابصار بصائرهم غاية الابصار فكرهوا ذلك لما يلزمهم من تركهم طريق آبائهم وأقبلوا على لزوم طريق آبائهم (فاستحبوا) أي اختاروا (العمى) أي الكفر (على الهدى) أي الايمان قال القشيري قيل انهم آمنوا وصدقوا ثم ارتدوا وكذبوا فأجراهم مجرى اخوانهم في الاستبدال (فان قيل) أليس معنى هديته حصلت فيه الهدى والدليل عليه قولك هديته فاهتدى وبمعنى تحصيل البغية وحصولها كما تقول ردعته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة (أجيب) بأنه لما مكنهم وأزاح عللهم ولم يبق لهم عذرا ولا علة فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها أو يقتضيها (فأخذتهم صاعقة العذاب) أي بسبب ذلك أخذ قهر وهوان (الهون) أي ذي الهون وهو الذي يهينهم (بما كانوا) أي دائما (يكسبون) أي من شركهم وتكذيبهم صالحا عليه السلام ٭ ولما أنهى الله تعالى الخبر عن الكافرين من الفريقين أتبعه الخبر عن مؤمنيهم بشارة لمن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم ونذارة لمن صد عنه فقال تعالى (ونجينا) أي تنجية عظيمة بما لنا من القدرة (الذين آمنوا) أي أوجدوا هذا الوصف من الفريقين (وكانوا) أي كونا عظيما (يتقون) أي يتجدد لهم هذا الوصف في كل حركة وسكون فلا يتقدمون على شيء بغير دليل (فان قيل) كيف يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمته وقد صرح تعالى بذلك فقال عز من قائل وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وجاء في الحديث الصحيح ان الله تعالى رفع عن هذه الامة هذه الانواع (أجيب) بأنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في الكفر عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة وان السبب الموجب للعذاب واحد وربما يكون العذاب النازل من جنس ذلك العذاب وان كان أقل درجة وهذا القدر يكفي في التخويف ٭ ولما بين تعالى كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه ببيان كيفية عقوبتهم في الآخرة ليحصل تمام الاعتبار في الزجر والتحذير فقال تعالى (ويوم) أي واذكر يوم (يحشر) أي يجمع بكره بأمر قاهر لا كلفة فيه (أعداء الله) أي الملك الاعظم (الى النار) وقرأ نافع بنون مفتوحة وضم الشين ونصب أعداء على البناء للفاعل وهو الله تعالى والباقون بياء الغيبة مضمومة وفتح الشين على البناء للمفعول ورفع أعداء لقيامه مقام الفاعل وجه الاول أنه معطوف على نجينا فحسن أن يكون على وفقه في اللفظ ووجه الثاني موافقة قوله تعالى (فهم) أي بسبب حشرهم (يوزعون) أي يساقون ويدفعون الى النار وقال قتادة يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا أي يوقف سوابقهم حتى تصل اليهم تواليهم ٭ ولما بين

صفة النار فتحت ابوابها بلا واو وقال في صفة الجنة بالواو (قلت) هي زائدة أو هي واو الثمانية لان ابواب الجنة ثمانية او واو الحال اي جاؤها وقد فتحت أبوابها قبل

تعالى اهانتهم بالوزع بين غايتها بقوله تعالى (حتى اذا ما جاؤها) أى النار التى كانوا بها
يكذبون فما زائدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور كما قال تعالى (شهد عليهم) وبين الشاهد
وعدده بقوله تعالى (سمعهم) وأفرد السمع لعدم تفاوت الناس فيه (وأبصارهم) وجمعها
لعظم تفاوت الناس فيها (وجلودهم بما كانوا يعملون) أى يجددون عمله مستمرين عليه
(تنبيه) فى كيفية تلك الشهادة ثلاثة أقوال أولها ان الله تعالى يخلق الفهم والقدرة
والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه ثانيها أنه تعالى يخلق فى تلك الاعضاء
الاصوات والحروف الدالة على تلك المعانى ثالثها أن يظهر فى تلك الاعضاء احوالا تدل على
صدور تلك الاعمال من ذلك الانسان وتلك الامارات تسمى شهادات كما يقال يشهد هذا العالم
بتغيرات أحواله على حدوثه (فان قيل) ما السبب فى تخصيص هذه الاعضاء الثلاثة بالذكر مع
ان الحواس خمسة وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس (أجيب) بان الذوق داخل فى
اللمس من بعض الوجوه لان ادراك الذوق انما يتأتى بان تصير جلدة اللسان مماسة لجرم
الطعام وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الانف مماسة لجرم المشموم فكانا داخلين فى
جنس اللمس وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج وهو
من باب الكنايات كما قال تعالى لا تواعدوهن سرا واراد النكاح وقال تعالى أو جاء احد
منكم من الغائط والمراد قضاء الحاجة وقال صلى الله عليه وسلم أول ما يتكلم من الآدمى
فخذه وكفه وعلى هذا التقدير تكون الآية وعيدا شديدا فى اتيان الزنا لان مقدمة الزنا انما
تحصل بالفخذ وقال مقاتل تنطق جوارحهم بما كتمت الانفس من عملهم وعن أنس بن مالك
قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال هل تدرون مم اضحك قلنا الله ورسوله
أعلم قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يارب ألم تجرنى من الظلم فيقول بلى قال فيقول فانى
لا أجيز اليوم على نفسى الا شاهدا منى قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام
الكاتبين عليك شهودا قال فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقى فتنطق باعماله ثم يخلى بينه
وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل (وقالوا) أى الكفار الذين
يحشرون الى النار (لجلودهم) مخاطبين لها مخاطبة العقلاء لما فعلت فعل العقلاء (لم شهدتم
علينا) مع أنا كنا نحاجج عنكم (قالوا) مجيبين لهم معتذرين (أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ)
أراد نطقه على وجه لم يقدر على التخلف عنه فليس بعجب من قدرة الله الذى له مجامع العز
(وهو خلقكم أول مرة) والعلم القطعى حاصل عندكم بانكم كنتم عدما ثم نطفا لا تقبل النطق
فى مجارى العادات بوجه ثم طوركم فى ادوار الاطوار كذلك الى ان أوصلكم الى حيز الادراك
فقسركم على النطق بحيث لو أردتم سلبه عن انفسكم ما قدرتم (واليه) لا الى غيره (ترجعون)
فينبئكم بما كنتم تعملون *(تنبيه)* اختلف فى قوله تعالى وهو خلقكم الآية فقيل هو
من كلام الجلود وقيل هو من كلام الله تعالى كالذى بعده وموقعه تقريب ما قبله بان القادر
على انشائكم ابتداء وعلى اعادتكم بعد الموت أحياء قادر على انطاق جلودكم وأعضائكم
(وما كنتم تستترون) أى عند ارتكابكم الفواحش خيفة (ان يشهد عليكم سمعكم) وأكد
بتكرير النافى فقال (ولا أبصاركم) جمع وأفرد لما مضى (ولا جلودكم) والمعنى انكم كنتم

مجيئهم بخلاف ابواب النار فانها انما فتحت عند مجيئهم والسر فى ذلك ان يتعجل باهل الجنة الفرح والسرور واذا رأوا الابواب مفتحة واهل النار يأتونها وابوابها مغلقة ليكون اشد لحرها

تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم لانكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء اصلا (ولكن) انما استتاركم لانكم (ظننتم) بسبب انكار البعث جهلا منكم (أن الله) الذى له جميع صفات الكمال (لا يعلم) أى فى وقت من الاوقات (كثيرا مما تعملون) وهو الخفيات من أعمالكم روى عن ابن مسعود قال كنت مستترا باستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشى أو قرشيان وثقفى كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم أترون الله يسمع مانقول فقال الآخر يسمع ان جهرنا ولا يسمع ان أخفينا وقال الآخر ان كان يسمع اذا جهرنا يسمع اذا أخفينا فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى وما كنتم تستترون الآية قيل الثقفى عبد ياليل وختناه القرشيان ربيعة وصفوان بن أمية وقوله تعالى (وذلكم) اشارة الى ظنهم هذا وهو مبتدأ وقوله تعالى (ظنكم) بدل منه وقوله تعالى (الذى ظننتم بربكم) نعت البدل والخبر (أرداكم) أى أهلككم وفى هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لايذهب عنه ولا يزول عن ذهنه أن عليه من الله تعالى عينا كالئة ورقيبا مهيمنا حتى يكون فى أوقاته وخلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وتصونا منه مع الملا ولا ينبسط فى سره مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين ولما كان الصباح محل رجاء للافراح فكان شر الاتراح ما كان فيه قال تعالى (فأصبحتم) أى بسبب أن ما أعطيتموه من النعم التى استنقذوا انفسكم به من الهلاك كان سبب هلاككم (من الخاسرين) أى العريقين فى الخسارة المحكوم بخسارتهم فى جميع ذلك اليوم قال المحققون الظن قسمان أحدهما حسن والآخر فاسد فالحسن أن يظن بالله تعالى الرحمة والفضل والاحسان قال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وقال صلى الله عليه وسلم لايموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله والظن الفاسد أن يظن أن الله تعالى يعزب عن علمه بعض هذه الاحوال وقال قتادة الظن نوعان منجى ومردى فالمنجى قوله انى ظننت انى ملاق حسابيه وقوله تعالى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون والمردى هو قوله تعالى وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم (فان يصبروا فالنار مثوى) أى منزل (لهم) أى ان أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مقاما لهم (وان يستعتبوا) أى يسألوا العتبى وهو الرجوع لهم الى مايحبون جزعا مما هم فيه (فما هم من المعتبين) أى المجابين اليها ونحوه قوله عز وجل أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ولما ذكر وعيدهم فى الدنيا والآخرة أتبعه سبب كفرهم الذى هو سبب الوعيد فقال تعالى (وقيضنا) قال مقاتل هيأنا وقال الزجاج سببنا (لهم) أى للكفرة وأصل التقييض التيسير والتهيئة يقال قيضته للدواء هيأته له ويسرته وهذان ثوبان قيضان اى كل منهما مكافئ للآخر فى الثمن وقوله تعالى (قرناء) أى نظراء من الشياطين حتى أضلوهم جمع قرين قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (فزينوا لهم) اى من القبائح (مابين أيديهم) أى من أمر الدنيا حتى آثروها على الآخرة (وما خلفهم) أى من أمر الآخرة فدعوهم الى التكذيب وانكار البعث وقال

اوان الوقوف على الباب المغلق نوع ذل وهوان فيصان اهل الجنة عنه اوان الكريم يعجل المثوبة ويؤخر العقوبة اواعتبر فى ذلك عادة دار الدنيا لان عادتهم فى منازلها من

الزجاج

الزجاج زينوا لهم ما بين أيديهم من امر الآخرة انه لا بعث ولا جنة ولا نار وما خلفهم من امر الدنيا بأن الدنيا قديمة ولا صانع الا الطبائع والافلاك قال القشيرى اذا اراد الله بعبده سوأ قيض له اخوان سوء وقرناء سوء يحملونه على المخالفات ويدعونه اليها ومن ذلك الشيطان وشر منه النفس وبئس القرين تدعو اليوم الى ما فيه الهلاك وتشهد غدا عليه واذا اراد الله بعبده خيرا قيض له قرناء خير يعينونه على الطاعة ويحملونه عليها ويدعونه اليها وروى عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا اراد الله بعبد شرا قيض له قبل موته شيطانا فلا يرى حسنا الا قبحه عنده ولا قبيحا الا حسنه عنده وعن عائشة اذا اراد الله بالوالى خيرا قيض له وزير صدق ان نسى ذكره وان ذكر أعانه وان اراد غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسى لم يذكره وان ذكر لم يعنه وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله تعالى *(تنبيه)* فى الآية دلالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافرين لانه تعالى قيض لهم قرناء سوء فزينوا لهم الباطل وهذا يدل على أنه تعالى أراد منهم الكفر ولكن لا يرضاه كما قال تعالى ولا يرضى لعباده الكفر (وحق) أى وجب وثبت (عليهم القول) أى كلمة العذاب وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وقوله تعالى (فى أمم) محله نصب على الحال من الضمير فى عليهم أى حق عليهم القول كائنين فى جملة أمم كثيرة وفى بمعنى مع (قد خلت) أى لم تتعظ أمة منهم بالاخرى (من قبلهم) أى فى الزمان (من الجن والانس) قد عملوا مثل أعمالهم وقوله تعالى (انهم) أى جميع المذكورين منهم وممن قبلهم (كانوا خاسرين) تعليل لاستحقاقهم العذاب وقوله تعالى (وقال الذين كفروا) أصله وقالوا أى المعرضون ولكنه قال ذلك تنبيها على الوصف الذى أوجب اعراضهم (لا تسمعوا) أى شيأ من مطلق السماع (لهذا القرآن) وعينوه بالاشارة احترازا عن غيره من الكتب القديمة كالتوراة قال القشيرى لانه مقلب القلوب وكل من استمع له صبا اليه (والغوا) أى اهزؤا (فيه) أى اجعلوه ظرفا للغو بأن تكثروا من الخرافات والهذيانات واللغط واللغو والتصدية أى التصفير والتصفيق وغيرها وقال ابن عباس كان بعضهم يوصى بعضا اذا رأيتم محمدا يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو وهو من باب لقى بالكسر يلغى بالفتح اذا تكلم بما لا فائدة فيه (لعلكم تغلبون) أى ليكون حالكم حال من يرجى له ان يغلب ويظفر بمراده فى أن لا يميل اليه أحد ويسكت ونسى ما كان يقول وهذا يدل على أنهم عارفون بان من يسمعه مال اليه وأقبل بكليته عليه وقد فضحوا أنفسهم بهذا فضيحة لا مثل لها (فلنذيقن الذين كفروا) أظهر فى موضع الاضمار اذ أصله فلنذيقنهم لكنه أظهر تعميما وتعليقا بالوصف (عذابا شديدا) فى الدنيا بالحرمان وما يتبعه من فنون الهوان وفى الآخرة بالنيران (ولنجزينهم) أى باعمالهم (أسوأ) أى سوء العمل (الذى كانوا يعملون) أى مواظبين عليه (ذلك) أى الجزاء الاسوأ العظيم جدا (جزاء أعداء الله) أى الملك الاعظم ثم بينه بقوله تعالى (النار) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بابدال الهمزة الثانية المفتوحة واوا خالصة

الخدم اذا بشر بقدوم اهل المنازل فتح ابوابها قبل مجيئهم استبشارا بهم وتطلعا اليهم وعادة الحبوس اذا شدد فى امرها ان لا تفتح ابوابها الا عند الدخول اليها والخروج

والباقون بتحقيقهما وأما الابتداء بالثانية فالجميع بالتحقيق ثم فصل بعض ما في النار بقوله تعالى (لهم فيها) أي النار (دار الخلد) أي فانها دار اقامة قال الزمخشري فان قلت ما معنى قوله لهم فيها دار الخلد قال قلت ان النار في نفسها دار الخلد كقوله تعالى لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة أي الرسول هو نفس الاسوة وقال البيضاوي هو كقولك في هذه الدار دار سرور يعني بالدار عينها على أن المقصود هو الصفة قال ابن عادل في هذا نظر اذ الظاهر وهو معنى صحيح منقول أن في النار دارا تسمى دار الخلد والنار محيطة بها اه وهذا أولى وقوله تعالى (جزاء) منصوب بالمصدر الذي قبله وهو جزاء أعداء الله والمصدر ينصب بمثله كقوله تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (بما كانوا بآياتنا) اي على ما فيها من العظمة (يجحدون) أي يلغون في القراءة وسماه جحودا لانهم لما علموا أن القرآن بالغ الى حد الاعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة وذلك يدل على انهم علموا كونه معجزا وأنهم جحدوا حسدا ✽ ولما بين تعالى أن الذي حملهم على الكفر الموجب للعذاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين ما يقولون في النار بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) اي غطوا أنوار عقولهم داعين بما لا يسمع لهم فهو زيادة في عقوبتهم وحكاية لها وعظ وتحذير (ربنا) اي يا أيها الذي لم يقطع قط احسانه عنا (أرنا) الصنفين (اللذين أضلانا) اي عن المنهج الموصل الى محل الرضوان (من الجن والانس) لان الشيطان على ضربين جني وانسي قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن وقال تعالى الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس وقيل هما ابليس وقابيل بن آدم الذي قتل اخاه لان الكفر سنه ابليس والقتل بغير حق سنه قابيل فهما سنا المعصية وقرأ ابن كثير والسوسي وابن عامر وشعبة بسكون الراء من أرنا واختلس الدوري كسر الراء وكسرها الباقون وشدد ابن كثير النون من اللذين (نجعلهما تحت أقدامنا) في النار اذلالا لهما كما جعلانا تحت امرهما (ليكونا من الاسفلين) قال مقاتل اسفل منا في النار وقال الزجاج ليكونا في الدرك الاسفل من النار اي من اهل الدرك الاسفل وممن هو دوننا كما جعلانا كذلك في الدنيا في حقيقة الحال باتباعنا لهما وقال بعض الحكماء المراد باللذين اضلانا الشهوة والغضب والمراد بجعلهما تحت اقدامهم كونهما مسخرين للنفس مطيعين لها وان لا يكونا مستولين عليها ظاهرين عليها ✽ ولما ذكر تعالى الوعيد اردفه بذكر الوعد كما هو الغالب فقال تعالى (ان الذين قالوا) اي قولا حقيقيا مذعنين به بالجنان وناطقين باللسان تصديقا للداعي الى الله تعالى في الدنيا (ربنا) اي المحسن الينا (الله) اي المختص بالجلال والاكرام وحده لا شريك له وثم في قوله تعالى (ثم استقاموا) لتراخي الرتبة في الفضيلة فان الثبات على التوحيد ومقتضياته الى الممات امر في علو رتبته لا يرام الا بتوفيق ذي الجلال والاكرام سئل ابو بكر الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة فقال ان لا تشرك بالله شيئا وقال عمر رضي الله عنه الاستقامة ان تستقيم على الامر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب وقال عثمان رضي الله عنه اخلصوا العمل لله وقال علي رضي الله عنه ادوا الفرائض وقال ابن عباس رضي الله عنهما استقاموا على امر الله تعالى بطاعته واجتنبوا معصيته وقال مجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة ان لا اله الا الله

حق

✽ (سورة غافر) ✽

(قوله ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا) اي بالتكذيب ودفعها بالباطل وقصد ادحاض الحق والا فالمؤمنون يجادلون فيها (قوله ويؤمنون به)

حتى لحقوا بالله وقال قتادة كان الحسن اذا تلا هذه الآية قال اللهم ربنا ارزقنا الاستقامة وقال سفيان بن عبد الله الثقفي قلت يا رسول الله اخبرني بأمر اعتصم به قال قل ربي الله ثم استقم فقلت ما اخوف ما تخاف علي فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه فقال هذا قال أبو حيان قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية في ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه (تتنزل عليهم الملائكة) قال ابن عباس عند الموت وقال قتادة اذا قاموا من قبورهم وقال وكيع بن الجراح البشري تكون في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث وهي (ألا تخافوا) قال مجاهد لا تخافوا مما تقدمون عليه من امر الآخرة (ولا تحزنوا) على ما خلفتم من اهل وولد فانا نخلفكم في ذلك كله وقال عطاء بن أبي رباح لا تخافوا من ذنوبكم ولا تحزنوا فاني اغفرها لكم والخوف غم يلحق لتوقع المكروه والحزن يلحق لوقوعه من فوات نافع او حصول ضار والمعنى ان الله تعالى كتب لكم الامن من كل غم فلن تذوقوه ابدا * (تنبيه) * يجوز في ان أن تكون المخففة والمفسرة او الناصبة ولا ناهية على الوجهين الاولين ونافية على الثالث (وابشروا) اى املؤا صدوركم سرورا يظهر اثره على بشرتكم بتهلل الوجه وبريق سائر الجسد (بالجنة التي كنتم) اى كونا عظيما على السنة الرسل عليهم السلام (توعدون) اى يتجدد لكم ذلك كل حين بالكتب والرسل * (تنبيه) * فيما ذكر دلالة على ان المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث يكون فارغا من الاهوال والفزع الشديد (فان قيل) البشارة عبارة عن الخبر الاول بحصول المنافع فاما اذا اخبر الشخص بحصول المنفعة ثم اخبر ثانيا بحصولها كان الاخبار الثاني اخبارا ولا يكون بشارة والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فاذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب ان يكون هذا اخبارا ولا يكون بشارة فما السبب في تسمية هذا الخبر بشارة (أجيب) بان المؤمن قد يسمع بشارات الخير ولم يعلم بان له الجنة فيكون ذلك بشارة اما اذا علم أنه من أهل الجنة باخبار نبي فانه اذا سمع هذا الكلام من الملائكة فانه يكون اخبارا ولما أثبتوا لهم الخير ونفوا عنهم الضير علاوه بقولهم (نحن اولياؤكم) اى اقرب الاقرباء اليكم فنحن نفعل معكم كل ما يمكن ان يفعله القريب (في الحيوة الدنيا) نجلب لكم المسرات وندفع عنكم المضرات ونحملكم على جميع الخيرات فنوقظكم من المنام ونحملكم على الصلاة والصيام ونبعدكم عن الآثام ضد ما تفعله الشياطين مع اوليائهم (وفي الآخرة) كذلك حيث تتعادى الاخلاء الا الاتقياء قال السدي تقول الملائكة عليهم السلام نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا ونحن اولياؤكم في الآخرة اى لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة (ولكم فيها) اى في الآخرة أي في الجنة وقبل دخولها في جميع اوقات الحشر (ما تشتهي) ولو على أدنى وجوه الشهوات كما يرشد اليه حذف المفعول (أنفسكم) من اللذائذ لاجل ما منعتموها من الشهوات في الدنيا (ولكم فيها) أى في الآخرة (ما تدعون) أى تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من القول وقوله تعالى (نزلا) حال مما تدعون اى هذا كله يكون لكم نزلا كما يقدم الى الضيف عند قدومه الى ان يهيأ له ما يضاف به وأما ما يعطون فهو مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر * ولما كان من حوسب عذب فلا يدخل أحد الجنة الا برحمة الله تعالى أشار الى ذلك بقوله تعالى (من) اى

* ان قلت ما فائدة وصف حملة العرش بمع ان ايمانهم به معلوم لكل احد (قلت) فائدته اظهار شرف الايمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الانبياء عليهم السلام بالايمان والصلاح

كأنما ذلك النزل من (غفور) له صفة المحو للذنوب عينا وأثرا على غاية لا يمكن وصفها (رحيم) اى بالغ الرحمة وهو الله تعالى واختلف فى تفسير قوله تعالى (ومن أحسن قولا) اى من جهة القول (ممن دعا الى الله) اى الذى عم بصفات كماله جميع الخلق فقال ابن سيرين والسدى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى شهادة أن لا اله الا الله وقال الحسن هو المؤمن الذى اجاب الله تعالى دعوته ودعا الناس الى ما اجاب اليه (وعمل) اى والحال انه قد عمل (صالحا) فى نفسه ليكون ذلك امكن لدعائه (وقال اننى من المسلمين) تفاخرا به وقطعا لطمع المفسدين وقال عكرمة هم المؤذنون وقالت عائشة رضى الله عنها ان هذه الآية نزلت فى المؤذنين وقال أبو امامة الباهلى رضى الله تعالى عنه وعمل صالحا صلى ركعتين بين الاذان والاقامة وعن عبد الله بن مغفل رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كل اذانين صلاة ثلاث مرات ثم قال فى الثالثة لمن شاء وعن انس بن مالك رضى الله عنه قال الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) أى الصبر والغضب والحلم والجهل والعفو والاساءة فى الجزاء وحسن العاقبة * (تنبيه) * فى لا الثانية وجهان أحدهما أنها زائدة للتأكيد كقوله تعالى ولا الظل ولا الحرور لان الاستواء لا يكتفى بواحد الثانى أنها مؤسسة غير مؤكدة اذ المراد بالحسنة والسيئة الجنس اذ لا تستوى الحسنات فى أنفسها فانها متفاوتة ولا تستوى السيئات أيضا فرب واحدة اعظم من اخرى وهو مأخوذ من كلام الزمخشرى (ادفع) كل ما يمكن أن يضرك من نفسك ومن الناس (بالتى) اى بالخصال والاحوال التى (هى احسن) على قدر الامكان من الاعمال الصالحات والعفو عن المسىء والاحسان اليه احسن منه (فاذا الذى بينك وبينه عداوة) عظيمة فاجأته حال كونه (كأنه ولى) اى قريب فاعل ما يفعله القريب (حميم) اى فى غاية القرب لا يدع مهما لاقضاه ومهله ويسره وشفى علله وقرب بعيده وازال دربه كما يزيل الماء الحار الوسخ وقيل نزلت فى ابى سفيان بن حرب وكان عدوا مؤذيا بالرسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلم وصار وليا مصافيا بالرسول الله صلى الله عليه وسلم * ثم نبه على عظيم فضل هذه الخصلة بقوله تعالى (وما يلقاها) أى على ما هى عليه من العظمة (الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) من الفضائل النفسانية وقال قتادة الحظ العظيم الجنة اى وما يلقاها الا من وجبت له الجنة وقوله تعالى (واما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (ينزغنك من الشيطان نزغ) قال الزمخشرى النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس والشيطان ينزغ الانسان كأنه ينخسه فيبعثه على ما لا ينبغى وجعل النزغ نازغا كما قيل جد جده او اريد واما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر اولتسويله والمعنى وان صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى احسن (فاستعذ بالله) اى استجر بالملك الاعلى من شر الشيطان واطلب من الله الدخول فى عصمته مبادرا الى ذلك وامض على شأنك ولا تطعه وتوكل على الله تعالى (انه هو) اى وحده (السميع) اى لكل مسموع من استعاذتك وغيرها (العليم) أى بكل معلوم من نزغه وغيره فهو القادر على رد كيده وتوهين أمره ثم استدل على ذلك بقوله تعالى (ومن آياته) الدالة على وحدانيته وأنه سميع عليم (الليل والنهار) باختلاف هيئتهما على قدرته على البعث وكل مقدور وقدم الليل على ذكر النهار تنبيها على أن الظلمة

(قوله امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين) اى اماتتين واحياءين لانهم كانوا نطفا اموات فاحيوا ثم اميتوا ثم احيوا للبعث وهذا كقوله كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا

عدم والنور وجود والعدم سابق على الوجود (والشمس والقمر) اللذان هما آيتا الليل والنهار وقدم الشمس على ذكر القمر لكثرة نفعها * ولما ثبت أنه تعالى المنفرد بالخلق قال سبحانه (لا تسجدوا للشمس) التي هي من أعظم أوثانكم وأعاد النافي تأكيدا فقال (ولا للقمر) فإنهما دالان على وجود الإله مخلوقان مسخران فلا ينبغي السجود لهما لأن السجود عبارة عن نهاية التعظيم وهو لا يليق إلا بالذي أوجدهما من العدم كما قال تعالى (واسجدوا لله) أي الذي له كل كمال من غير شائبة نقص واختلف في عود الضمير في قوله تعالى (الذي خلقهن) على أوجه أولاها عوده للآيات الأربع كما جرى عليه الجلال المحلي وقيل يرجع لليل والنهار والشمس والقمر قال الزمخشري لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى والإناث يقال الأقلام بريتها وبريتهن وناقشه أبو حيان من حيث أنه لم يفرق بين جمع القلة والكثرة في ذلك لأن الأفصح في جمع القلة أن يعامل معاملة الإناث وفي جمع الكثرة أن يعامل معاملة الأنثى والأفصح أن يقال الأجذاع كسرتهن والجذوع كسرتها وأجاب بعضهم بأن الزمخشري ليس في مقام بيان الفصيح من الأفصح بل في مقام كيف يجيء الضمير ضمير إناث بعد تقدم ثلاثة أشياء مذكرات وواحد مؤنث والقاعدة تغليب المذكر على المؤنث وقال البغوي إنما قال خلقهن بالتأنيث لأنه أجراها على طريق جمع التكسير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر على المؤنث * ولما ظهر أن الكل عبيده وكان السيد لا يرضى بإشراك عبده عبدا آخر في عبادة سيده قال تعالى (إن كنتم إياه) أي خاصة بغاية الرسوخ (تعبدون) كما هو صريح قولكم في الدعاء في وقت الشدائد لا سيما في البحر وفي الآية إشارة إلى الحث على صيانة الآدميين عن أن يقع منهم سجود لغيره رفعا لمقامهم عن أن يكونوا ساجدين لمخلوق بعد أن كانوا مسجودا لهم فإنه تعالى أمر الملائكة عليهم السلام الذين هم من أشرف خلقه بالسجود لآدم عليه السلام وهم في ظهره فتكبر إبليس فأبدله مقته إلى يوم القيامة (فإن استكبروا) أي أوجدوا التكبر عن اتباع ما أمرتهم به من التوحيد فلم ينزهوا الله تعالى عن الشريك (فالذين عند ربك) أي من الملائكة قال الرازي ليس المراد بهذه العندية قرب المكان بل كما يقال عند الملك من الجند كذا وكذا ويدل عليه قوله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي (يسبحون له بالليل والنهار) أي دائما لقوله تعالى (وهم لا يسأمون) أي لا يملون ولقوله سبحانه وتعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون (فإن قيل) اشتغالهم بهذا العمل على الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال مع أنهم ينزلون إلى الأرض كما قال تعالى نزل به الروح الأمين على قلبك وقال تعالى عن الذين قاتلوا يوم بدر يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين (أجيب) بأن الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة * (تنبيه) * اختلف في مكان السجدة فقيل هو عند قوله تعالى إياه تعبدون وهو قول ابن مسعود والحسن رضي الله عنهما حكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد رضي الله تعالى عنهما لأنه ذكر السجدة قبله والصحيح عند الشافعي رضي الله تعالى عنه عند قوله تعالى لا يسأمون وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وقتادة وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة رضي الله عنه لأن عنده تم الكلام * ولما ذكر

فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم (قوله وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم) * إن قلت كيف قال المؤمن ذلك في حق موسى عليه السلام مع أنه صادق عنده في الواقع

تعالى الدلائل الاربعة الفلكية أتبعها بذكر الدلائل الارضية فقال تعالى (ومن آياته) الدالة على قدرته ووحدانيته (انك) أي أيها الانسان (ترى الارض) أي بعضها بحاسة البصر وبعضها بعين البصيرة قياسا على ما أبصرت (خاشعة) أي يابسة لانبات فيها والخشوع التذلل والتقاصر فاستعير لحال الارض اذا كانت قحطة لانبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى وترى الارض هامدة وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو كما قال تعالى (فاذا أنزلنا) اى بما لنا من العظمة (عليها الماء) من الغمام أو غيره (اهتزت) أي تحركت حركة عظيمة كثيرة سريعة فكان كل بها لخ ذلك بنفسه (وربت) أي تشققت فارتفع ترابها وخرج منها النبات وسما في الجو مغطيا وجهها وتشعبت عروقه وغلظت سوقه فصار يمنع سلوكها على ما كانت فيه من السهولة وتزخرفت بذلك النبات كما يمتزنة المختال في زيه بعدما كانت قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الاطمار الرثة وقرأ السوسي ترى الارض في الوصل بالامالة بخلاف عنه والباقون بالفتح وفي الوقف امال محضة ابو عمرو وحمزة والكسائي وورش بين بين والباقون بالفتح ثم استدل بذلك على القدرة على البعث فقال تعالى (ان الذي احياها) اى بما أخرج من نباتها بعد ان كانت ميتة (لمحي الموتى) كما فعل بالنبات من غير فرق (انه على كل شئ قدير) فهو قادر على احياء الارض بعد موتها وعلى احياء هذه الاجساد بعد موتها لان الامكانات بالنسبة الى القدرة متساوية فالقادر قدرة تامة على شئ منها قادر على غيره * ثم انه تعالى هدد من يجادل في آياته بالقاء الشبهات فيها بقوله تعالى (ان الذين يلحدون في آياتنا) اى القرآن على ما لها من العظمة بالطعن والتحريف والتأويل الباطل والالغاء فيها وقرأ حمزة بفتح الياء والحاء من لحد والباقون بضم الياء وكسر الحاء من ألحد يقال لحد الحافر والحد اذا مال عن الاستقامة فحفر في شق فالملحد هو المنحرف ثم اختص في العرف بالمنحرف عن الحق الى الباطل قال مجاهد يلحدون في آياتنا بالمكاء والتصدية واللغو واللغط وقال السدي يعاندون ويشاقون (لا يخفون علينا) اى في وقت من الاوقات ونحن قادرون على اخذهم متى شئنا أخذنا ولا يعجل الا من يخشى الفوات قال مقاتل نزلت في ابي جهل وقوله تعالى (أفمن يلقى في النار) اى على وجهه بايسر امر (خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة) استفهام بمعنى التقرير والغرض منه التنبيه على ان الملحدين في الآيات يلقون في النار وان المؤمنين بالآيات يأتون آمنين يوم القيامة حين يجمع الله تعالى عباده للعرض عليه للحكم بينهم بالعدل قال البغوي قيل هو حمزة وقيل هو عثمان وقيل عمار بن ياسر *(فائدة)* ام من في الرسم مقطوعة وقوله تعالى (اعملوا ما شئتم) اى فقد علمتم مصير المسيء والمحسن تهديد فمن اراد شيأ من الجزاءين فليعمل اعماله فانه ملاقيه وقوله تعالى (انه بما تعملون) أي في كل وقت (بصير) أي عالم بأعمالكم فيه وعيد بالمجازاة وقوله تعالى (ان الذين كفروا بالذكر) أي القرآن (لما جاءهم) بدل من قوله تعالى ان الذين يلحدون او مستأنف وخبران محذوف مثل معاندون او هالكون أو أولئك ينادون * ولما بالغ تعالى في تهديد الملحدين في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال تعالى (وانه) أي والحال انه (لكتاب) أي جامع لكل خير (عزيز) أي فهو كثير النفع عديم النظير يغلب كل ذكر ولا يغلبه ذكر ولا يقرب منه ذلك ويعجز كل معارض ولا يعجز

ويلزم منه ان يعم جميع ما وعدهم لا بعضه فقط (قلت) انه لما بعض صلة اوهي بمعنى كل كما قيل به في قول الشاعر ان الامور اذا الاحداث دبرها دون الشيوخ ترى في بعضها الخللا

عن انقياد مناقض وقال الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما كريم على الله تعالى وقال قتادة اعزه الله تعالى (لا يأتيه الباطل) لانه يمتنع منه بمتانة وصفه وجزالة نظمه وحلاوة معانيه فلا يلحقه تغيير (من بين يديه ولا من خلفه) أى لا يتطرق اليه الباطل من جهة من الجهات لان قدام اوضح ما يكون وخلف أخفى ما يكون فما بين ذلك من باب اولى والعبارة كناية عن ذلك لان صفة الله تعالى لا وراء لها ولا أمام لها على الحقيقة ومثل ذلك ليس وراء الله تعالى مرمى ولا دونه منتهى وقال قتادة والسدى الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه او ينقص منه وقال الزجاج معناه أنه محفوظ من ان ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه او يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه وعلى هذا فمعنى الباطل الزيادة أو النقصان وقال مقاتل لا يأتيه التكذيب من الكتب التى قبله ولا يأتى بعده كتاب فيبطله ثم علل ذلك بقوله تعالى (تنزيل) أى بحسب التدريج لأجل المصالح (من حكيم) أى بالغ الحكمة فهو يضع كل شئ منه فى اتم محاله من وقت النزول وسياق النظم (حميد) اى بالغ الاحاطة باوصاف الكمال من الحكمة وغيرها والتطهر والتقديس عن كل شائبة نقص يحمده كل خلقه بلسان حاله ان لم يحمده بلسان قاله (فان قيل) اما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون (اجيب) بان الله تعالى حماه عن تعلق الباطل به بان قيض قوما عارضوهم بابطال تأويلهم وافساد اقاويلهم فلم يخلوا طعن طاعن الا ممحوقا ولا قول مبطل الا مضمحلا ونحو هذا قوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ثم سلى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (ما يقال) اى من الكفار ومن غيرهم (لك) يا أكرم الخلق مما يحصل به ضيق صدر وتشويش فكر (الا ما) اى شئ (قد قيل) اى حصل قوله على ذلك الوجه (للرسل من قبلك) فصبروا على ما اوذوا فاصبر كما صبروا (ان ربك) اى المحسن اليك بارسالك وانزال كتابه اليك ومن يكرم بمثل هذا لا ينبغى له ان يحزن لشئ يعرض له (لذو مغفرة) اى لمن تاب وآمن بك (وذو عقاب اليم) اى مؤلم لمن أصر على التكذيب وعلى هذا فقوله تعالى ان ربك الآية مستأنف وقيل مفسر للمقول كأنه قيل للرسل ان ربك لذو مغفرة وجرى على ذلك الزمخشرى * ونزل جوابا لقولهم هلا نزل القرآن بلغة العجم (ولو جعلناه) اى هذا الذكر بما لنا من العظمة (قرآنا) اى على ما هو عليه من الجمع (اعجميا) أى لا يفصح (لقالوا) اى هؤلاء المتعنتون (لولا) اى هلا ولم لا (فصلت) اى بينت (آياته) حتى نفهمها وقولهم (أأعجمى) اى أقرآن اعجمى (و) نبى (عربى) استفهام انكار منهم وقال مقاتل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على يسار غلام عامر بن الحضرمى وكان يهوديا اعجميا يكنى ابا فكيهة فقال المشركون انما يعلمه يسار غلام عامر فضربه سيده وقال انك تعلم محمدا فقال هو يعلمنى فانزل الله تعالى هذه الآية وقرأ قالون وابو عمرو بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية وادخال الف بينهما وورش وابن كثير وابن ذكوان وحفص بتسهيل الثانية ولا ادخال واسقط هشام الاولى والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل هو) اى هذا القرآن (للذين آمنوا) اى اردنا وقوع الايمان منهم (هدى) اى بيان لكل مطلوب (وشفاء) اى لما فى صدورهم من داء الكفر والهوى وقيل من الاوجاع والاسقام متعلق كما قال الرازى بقولهم وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه الآية

او ذكر البعض تنزلا وتلطفا بهم مبالغة فى نصحهم لتقبلوا موعظته وعطاياه ومنه قول الشاعر
قد يدرك المتأنى بعض حاجته
وقد يكون من المستعجل الزلل
كأنه قال اقل ما يكون

كانه تعالى يقول هذا الكلام أرسلته اليكم بلغتكم لا بلغة اجنبية عنكم فلا يمكنكم ان تقولوا قلوبنا فى اكنة منه بسبب جهلنا هذه اللغة فكل من اعطاه الله تعالى طبعا مائلا الى الحق وقلبا داعيا الى الصدق فان هذا القرآن يكون فى حقه هدى وشفاء وأما من غرق فى بحر الخذلان وشغف بمتابعة الشيطان فهو فى ظلمة وعمى كما قال تعالى (والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر) أى ثقل فلا يسمعون سماعا ينفعهم (وهو عليهم عمى) فلا يبصرون الداعى حق الابصار ثم قال الرازى وكل من أنصف علم ان التفسير على هذا الوجه الذى ذكرناه اولى مما ذكروه أى انه متعلق بما قبله لان السورة تصير بذلك من اولها الى آخرها كلاما واحدا منتظما مسوقا لغرض واحد انتهى ولما بين بهذا بعدهم عن علمائه وطردهم عن فنائه قال تعالى (أولئك) أى البعداء البغضاء مثالهم مثال من (ينادون) أى يناديهم من يريد ندائهم غير الله تعالى (من مكان بعيد) أى هم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به (ولقد آتينا) أى على ما لنا من العظمة (موسى الكتاب) أى التوراة (فاختلف) أى وقع الاختلاف (فيه) وجه تعلقه بما قبله كانه قيل انا لما آتينا موسى الكتاب فقبله بعضهم وهم اصحاب الهدى ورده بعضهم فكذلك آتيناك الكتاب فقبله بعضهم وهم اصحابك ورده آخرون وهم الذين يقولون قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه (ولولا كلمة) أى ارادة (سبقت) فى الازل (من ربك) أى المحسن اليك بتأخير الحساب والجزاء للخلائق الى يوم القيامة (لقضى بينهم) أى فى الدنيا فيما اختلفوا فيه من انصاف المظلوم من ظالمه قال تعالى بل الساعة موعدهم ولكن نؤخرهم الى اجل مسمى (وانهم لفى شك) أى المكذبين محيط بهم (منه) أى القضاء يوم الفصل (مريب) أى موقع فى الريب وهو التهمة والاضطراب بحيث لا يقدرون على التخلص من دائرته أصلا ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (من عمل صالحا) أى كائنا من كان (فلنفسه) أى فنفع عمله لها لا لاحد يتعداها والنفس فقيرة الى التزكية بالاعمال الصالحة لانها محل النقائص فلذا عبر بها (ومن اساء) فى عمله (فعليها) أى على نفسه خاصة ليس عليك منه شئ فخفف عن نفسك اعراضهم فانهم ان آمنوا فنفع ايمانهم يعود اليهم وان كفروا فضرر كفرهم يعود اليهم والله سبحانه وتعالى يوصل الى كل احد ما يليق به من الجزاء (وما ربك) أى المحسن اليك بارسالك لتتميم مكارم الاخلاق (بظلام) أى بذى ظلم (للعبيد) أى هذا الجنس فلا يتصور أن يقع ظلم لاحد منهم أصلا لان له الغنى المطلق والحكمة البالغة (اليه) أى المحسن اليك لا الى غيره (يرد علم الساعة) أى لا سبيل الى معرفة وقت ذلك اليوم ولا يعلمه الا الله تعالى وكذا العلم بحدوث الحوادث المستقبلة فى أوقاتها المعينة ليس الا عند الله ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين أحدهما قوله تعالى (وما تخرج من ثمرات) أى فى وقت من الاوقات وقرأ نافع وابن عامر وحفص بألف بعد الراء جمعا والباقون بغير ألف افرادا وقوله تعالى (من اكمامها) جمع كم وكمامة قال البقاعى تبعا للزمخشرى بالكسر فيهما وهو وعاء الطلع وكل ما غطى على وجه الاحاطة شيئا من شانه أن يخرج فهو كم وقال الراغب الكم ما يغطى البدن من القميص وما يغطى الثمرة وجمعه أكمام وهذا يدل على أنه مضموم الكاف أو جعله مشتركا بين كم القميص

في الثانى ادراك بعض المطلوب وفى الاستقبال الزال أو هى باقية على معناها لانه وعدهم على كفرهم الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة فهلاكهم فى الدنيا بعض

وكم الثمرة ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم فيجوز أن يكون في وعاء الثمرة غلتان دون كم القميص جمعا بين القولين والمثال الثاني قوله تعالى (وما تحمل من أنثى) حملا ناقصا أو تاما وأكد النفي بإعادة النافي ليشمل كل على حياله (ولا تضع) حملا حيا أو ميتا (إلا) حال كونه متلبسا (بعلمه) ولا علم لأحد غيره بذلك ومن ادعى علما به ولم يضم أن ثمرة الحديقة الفلانية والبستان الفلاني والبلد الفلاني تخرج في الوقت الفلاني أو لا تخرج العام شيئا والمرأة الفلانية تحمل في الوقت الفلاني وتضع في وقت كذا أو لا تحمل العام شيئا ومن المعلوم أنه لا يحيط بهذا علما إلا الله تعالى (فإن قيل) قد يقول الرجل الصالح من أصحاب الكشوف قولا فيصيب فيه وكذلك الكهان والمنجمون (أجيب) بأن أصحاب الكشوف إذا قالوا قولا فهو من إلهام الله تعالى واطلاعه إياهم عليه فكان من علمه الذي يرد إليه وأما الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم بشيء من ذلك وإنما غايتهم ادعاء ظن ضعيف قد لا يصيب وعلم الله تعالى هو العلم اليقين المقطوع به الذي لا يشركه فيه أحد جل ربنا وعلا (ويوم يناديهم) أي المشركين بعد بعثهم ... (أين شركائي) الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم ويخلصونكم من عذاب ذلك اليوم (قالوا) أي المشركون (آذناك) أي أعلمناك (ما منا) وأكدوا النفي بإدخال الجار في المبتدأ (من شهيد) أي يشهد أن لك شريكا لما رأوا العذاب تبرؤا من الأصنام وقيل معناه ما منا أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم فلا يبصرونها في ساعة التوبيخ وقيل هذا كلام الأصنام كأن الله تعالى يحييها وأنها تقول ما منا من شهيد أي أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة وعلى هذا التقدير فمعنى ضلالتهم عنهم أنهم لا ينفعونهم فكأنهم ضلوا عنهم وهو معنى قوله تعالى (وضل) أي ذهب وغاب وخفي (عنهم ما كانوا) أي دائما (يدعون) في كل حين على وجه العبادة (من قبل) فهم لا يرونه فضلا عن أنهم يجدون نفعه (وظنوا) أي في ذلك الحال (ما لهم) وأبلغ في النفي بإدخال الجار على المبتدأ المؤخر فقال (من محيص) أي مهرب وملجأ ومعدل ولما بين تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله تعالى في الدنيا تبرؤا عن تلك الشركاء في الآخرة بين تعالى أن الإنسان في جميع الأوقات متغير الأحوال فإن أحس بخير وقدرة تعاظم وإن أحس ببلاء ومحنة ذل بقوله تعالى (لا يسأم) أي لا يمل ولا يعجز (الإنسان) أي الآنس بنفسه الناظر في أعطافه الذي لم يتأهل للمعارف الإلهية والطرق الشرعية (من دعاء الخير) أي لا يزال يسأل ربه المال والصحة وغيرهما (وإن مسه الشر) أي من فقر وشدة وغيرهما (فيؤس) من فضل الله تعالى (قنوط) من رحمة الله تعالى والمعنى أن الإنسان في حال الإقبال لا ينتهي إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها وفي حال الإدبار والحرمان يصير آيسا قانطا وهذه صفة الكافر لقوله تعالى لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون *(تنبيه)* في قوله تعالى يؤس قنوط مبالغة من وجهين أحدهما من طريق فعول والثاني من طريق التكرار واليأس من صفة القلب والقنوط أن تظهر آثار اليأس في الوجه والأحوال الظاهرة ثم بين تعالى حال هذا الذي صار آيسا قانطا بقوله تعالى (ولئن) اللام لام القسم (أذقناه) أي آتيناه ذلك الإنسان (رحمة) أي غنى وصحة (منا) أي

(قوله ذلك ما وعدهم به) بأنهم كانت تأتيهم رسلهم (قاله هنا بجمع الضمير وفي التغابن بإفراده موافقة هنا لما قبله في قوله كانوا هم أشد منهم قوة وفي آخره وأفرده ثم لأنه ضمير الشأن

بما لنا من العظمة والقدرة (من بعد ضراء) أي شدة وبلاء (مسته) فانه يأتي بثلاثة أنواع من الاقاويل الفاسدة الموجبة للكفر والبعد من الله تعالى الاول منها ما حكاه الله بقوله سبحانه (ليقولن) بمجرد ذوق تلك الرحمة على انها ربما كانت بلاء عظيما لكونها استدراجا الى الهلاك (هذا) الامر العظيم (لي) أي حق مختص بي وصل الي لاني استوجبته بعلمي وعملي ولا يعلم المسكين أن احدا لا يستحق على الله تعالى شيأ لانه ان كان عاريا من الفضائل فكلامه ظاهر الفساد وان كان موصوفا بشيء من الفضائل والصفات الحميدة فهي انما حصلت بفضل الله واحسانه النوع الثاني من كلامه الفاسد قوله (وما أظن الساعة) أي القيامة (قائمة) أي ثابتة قيامها فقطع الرجاء منها سواء عبر عن ذلك بلسان قاله أو بلسان حاله لكونه يفعل أفعال الشاك فيها النوع الثالث من كلامه الفاسد قوله (ولئن) اللام لام القسم (رجعت) أي على سبيل الفرض أي ان هذا الكافر يقول لست على يقين من البعث وان كان الامر على ذلك ورددت (الى ربي) اي الذي أحسن لي بهذا الخير الذي انا فيه (ان لي عنده للحسنى) اي الحالة الحسنى من الكرامة وهي الجنة وكما اعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الاقوال الثلاثة الفاسدة قال تعالى شأنه (فلننبئن) أي فلنخبرن (الذين كفروا) أي ستروا ما دلت عليه العقول وصرائح النقول (بما عملوا) لا ندع منه كثيرا ولا قليلا صغيرا ولا كبيرا فيرون عيانا ضد ما ظنوه في الدنيا من ان لهم الحسنى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال ابن عباس رضي الله عنهما لنوقفنهم على مساوي اعمالهم (ولنذيقنهم) اي بعد اقامة الحجة عليهم بموازين القسط الوافية كمثاقيل الذر (من عذاب غليظ) اي شديد لا يدع جهة من اجسامهم الا احاط بها ولما حكى الله تعالى اقوال الذي انعم عليه بعد وقوعه في الآفات حكى افعاله ايضا فقال (واذا انعمنا) اي بما لنا من العظمة (على الانسان) أي الواقف مع نفسه نعمة تليق بعظمتنا (اعرض) أي عن التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى (ونأى) أي ابعد بعدا جعل بيننا وبينه حجابا عظيما (بجانبه) أي تنحى عطفه متبخترا (واذا مسه الشر) أي هذا النوع قليله وكثيره (فذو دعاء) اي في كشفه وربما كان نعمة باطنة وهو لا يشعر ولا يدعو الا عند المس وقد كان ينبغي له ان يشرع في الدعاء عند التوقع بل قبله تعرفا الى الله تعالى في الرخاء ليعرفه في الشدة وهو خلق شريف لا يفعله الا افراد خصهم الله بلطفه (عريض) أي مديد العرض جدا وما طوله فلا يسأل عنه وهذا كناية عن النهاية في الكثرة تقول العرب اطال فلان الدعاء وأعرض أي اكثر ثم امر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) اي لهؤلاء المعرضين (ارأيتم) اي اخبروني (ان كان) أي هذا القرآن (من عند الله) الذي له الاحاطة بجميع صفات الجلال والجمال (ثم كفرتم به) أي من غير نظر واتباع دليل (من اضل) منكم هكذا كان الاصل ولكنه قال (ممن هو في شقاق) أي خلاف لاولياء الله تعالى (بعيد) أي عن الحق تنبيها على انهم صاروا كذلك ومن صار كذلك فقد عرض نفسه لسطوات الله عز وجل (سنريهم آياتنا في الآفاق) قال ابن عباس يعني منازل الامم الخالية (وفي انفسهم) أي بالبلايا والامراض وقال قتادة يعني وقائع الله تعالى في الامم الخالية وفي أنفسهم يوم بدر وقال مجاهد في الآفاق

زيد توصلا الى دخول ان على كان (قوله لعلي ابلغ الاسباب اسباب السموات) اي ابوابها وطرقها (ان قلت) ما فائدة التكرار (قلت) الثاني بدل من الاول والشيء اذا ابهم ثم اوضح

ما يفتح الله تعالى من القرى على محمد صلى الله عليه وسلم وفى انفسهم فتح مكة وقال عطاء فى الآفاق يعنى أقطار السموات والارض من الشمس والقمر والنجوم فى آفاق الليل والنهار والاضواء والظلال والظلمات والنبات والاشجار والانهار وفى أنفسهم من لطائف الصنعة وبديع الحكمة فى كيفية تكوين الاجنة فى ظلمات الارحام وحدوث الاعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون *(تنبيه)* قال النووى فى تهذيبه قال أهل اللغة الآفاق النواحى الواحد أفق بضم الهمزة والفاء وأفق باسكان الفاء *ولما كان التقدير ولا نزال نكرر عليهم هذه الدلائل عطف عليه (حتى يتبين لهم) غاية البيان بنفسه من غير اعمال فكر (أنه) أى القرآن (الحق) أى الكامل فى الحقية الذى يطابق الواقع المنزل من الله تعالى بالبعث والحساب والعقاب فيعاقبون على كفرهم به وبالجائى به وقيل الضمير فى انه لدين الاسلام وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم (أولم يكف بربك) أى المحسن اليك بهذا البيان المعجز للانس والجان شهادة بان القرآن من عند الرحمن *(تنبيه)* الباء زائدة للتأكيد كأنه قيل اولم تحصل الكفاية به ولا تكاد تزاد فى الفاعل الامع كفى وقوله تعالى (أنه على كل شئ شهيد) بدل من ربك والمعنى أولم يكفهم فى صدقك أن ربك لا يغيب عنه شئ ما وقد شهد لك فيه بالاعجاز لجميع الخلق بكل ما تضمنته آياته ونطقت به كلماته ففيها اعظم بشارة بتمام الدين وظهوره على المعتدين *ولما لم يبق بعد هذا التعنت مقال ولا شبهة أصلا لضال قال تعالى منادياً على من جحد واستمر على عناده (ألا انهم) أى هؤلاء الكفرة (فى مرية) أى جحد وجدال وشك وضلال عن البعث (من لقاء ربهم) أى المحسن اليهم بان خلقهم ورزقهم لانكارهم البعث ثم كرر كونه قادرا على البعث وغيره بقوله تعالى (ألا انه) أى هذا المحسن اليهم (بكل شئ) أى من الاشياء جملتها وتفصيلها كلياتها وجزئياتها أصولها وفروعها غيبها وشهادتها ملكها وملكوتها (محيط) قدرة وعلما بكثير الاشياء وقليلها كلياتها وجزئياتها فيجازيهم بكفرهم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات حديث موضوع

كان تفخيما لشأنه ولما اراد تفخيم ما امل بلوغه من اسباب السموات ابهمها ثم اوضحها (قوله وقال الذين فى النار لخزنة جهنم) انما لم يقل لخزنتها مع انه اخصر لان فى ذكر جهنم

سورة شورى مكية

وهى ثلاث وخمسون آية وثمانمائة وست وستون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانية وثمانون حرفا

(بسم الله) الذى احاط بصفات الكمال (الرحمن) الذى عمت رحمته سائر عباده (الرحيم) الذى خص اولياءه بما ترضاه الهيته من رحمته وقوله تعالى (حم عسق) تقدم الكلام فى أمثال هذه الفواتح وسئل الحسين بن الفضل لم قطع حم عسق ولم يقطع كهيعص فقال لانها سورة أولها حم فجرت مجرى نظائرها فكان حم مبتدأ وعسق خبره ولانهما عدا آيتين وأخواتها مثل كهيعص والمص والمر عدت آية واحدة وقيل لان اهل التاويل لم يختلفوا فى كهيعص واخواتها أنها حروف تهج لا غير واختلفوا فى حم فاخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلا وقيل معناها حم أى قضى ما هو كائن روى عكرمة عن ابن عباس انه

قال ح حاء م مجده ع علمه س سناؤه ق قدرته اقسم الله تعالى بها وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبي رباح ح حرب قريش يعز فيها الذليل ويذل فيها العزيز في قريش م ملك يتحول من قوم الى قوم ع عدو لقريش يقصدهم س سنين كسني يوسف تكون فيهم ق قدرة الله تعالى النافذة في خلقه وروى عن ابن عباس أنه قال ليس من نبي صاحب كتاب الا وأوحيت اليه حم عسق فلذلك قال تعالى (كذلك) أي مثل هذا الايحاء العظيم الشان (يوحي اليك) أي مادمت حيا لا ينقطع ذلك عنك (والى) أي وأوحى الى (الذين من قبلك) أي من الرسل الكرام والانبياء الاعلام ومن جملة ما أوحى اليهم أن أمتك أكثر الامم وانك اشرف الانبياء واخذ على كل منهم العهد باتباعك وان يكونوا من انصارك واتباعك وقوله تعالى (الله) أي الذي له الاحاطة باوصاف الكمال فاعل الايحاء ولما كان نفوذ الامر دائرا على العزة والحكمة قال تعالى (العزيز) أي الذي يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) الذي يصنع ما يصنعه في اتقن محاله فلذلك لا يقدر أحد على نقض ما أبرمه ولا نقص ما احكمه * (تنبيه) * ما تقرر من ان الله تعالى فاعل الايحاء هو على قراءة كسر الحاء من يوحي وهي قراءة غير ابن كثير واما على قراءة ابن كثير بفتح الحاء فيجوز أن يرتفع بفعل مضمر كأنه قيل من يوحيه فقيل الله كيسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ويجوز ان يرتفع بالابتداء وما بعده خبر والجملة قائمة مقام الفاعل وان يكون العزيز الحكيم خبرين او نعتين والجملة من قوله تعالى (له ما في السموات) اي من الذوات والمعاني (وما في الارض) كذلك خبر ثان او ثالث على حسب ما تقدم في العزيز الحكيم قال الزمخشري لم يقل تعالى اوحى اليك والى الذين [illegible] بلفظ المضارع ليدل على ان ايحاء مثله عادته وكونه عزيزا يدل على كونه قادرا على ما [illegible] وكونه حكيما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات وقوله تعالى له ما في السموات وما في الارض يدل على كونه متصفا بالقدرة الكاملة النافذة في جميع اجزاء السموات والارض [illegible] بالايجاد والاعدام وان ما في السموات وما في الارض [illegible] موصوف بكمال القدرة قال تعالى (وهو العلي) على كل شئ [illegible] (العظيم) بالقدرة والقهر والاستعلاء وقوله تعالى (تكاد السموات) قرأ نافع والكسائي بالياء التحتية والباقون بالفوقية وقوله تعالى (يتفطرن) اي يتشققن قرأ شعبة وابو عمرو بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففة والباقون بعد الياء بتاء فوقية مفتوحة وفتح الطاء مشددة وقوله تعالى (من فوقهن) في ضميره ثلاثة اوجه احدها انه عائد على السموات اي كل واحدة منهن تنفطر فوق التي تليها من عظمة الله تعالى او من قول المشركين اتخذ الله ولدا كما في سورة مريم اي يبتدئ انفطارهن من هذه الجهة فمن لابتداء الغاية متعلقة بما قبلها الثاني انه يعود على الارضين لتقدم ذكر الارض الثالث انه يعود على فرق الكفار والجماعات الملحدين قاله الاخفش الصغير وقال الزمخشري كلمة الكفر أي على التقسيم الثاني انما جاءت من الذين تحت السموات فكان القياس أن يقال ينفطرن من تحتهن أي من الجهة التي جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كانه قيل يكدن ينفطرن أي من الجهة التي فوقهن دون الجهة التي تحتهن ونظيره في المبالغة قوله عز وجل يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم فجعل الحميم مؤثرا

في

تهويلا وتفظيعا أو لان جهنم اوقد النار قهرا وخزنتها اعلى الملائكة الموكلين بالنار مرتبة فطلب أهل النار الدعاء منهم لذلك (قوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

في أجزائهم الباطنة اه ولما بين تعالى أن سبب كدودة انفطارهن جلال العظمة التي منها كثرة الملائكة وشناعة الكفر بين لها سببا آخر وهو عظم قول الملائكة فقال تعالى (والملائكة يسبحون) أي يوقعون التنزيه لله تعالى متلبسين (بحمد ربهم) أي باثبات الكمال للمحسن اليهم تسبيحا يليق بحالهم فلهم بذلك زجل وأصوات لا تحملها العقول ولا تثبت لها الجبال (تنبيه) عدل عن التأنيث ولم يقل يسبحن مراعاة للفظ التذكير وضمير الجمع اشارة الى قوة التسبيح وكثرة المسبحين (فان قيل) قوله تعالى (ويستغفرون لمن في الارض) عام فيدخل فيه الكفار وقد لعنهم الله تعالى فقال سبحانه أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فكيف يكونون لاعنين لهم ومستغفرين لهم (أجيب) بوجوه الاول انه عام مخصوص بآية غافر ويستغفرون للذين آمنوا الثاني أن قوله تعالى لمن في الارض لا يفيد العموم لانه يصح أن يقال استغفروا البعض من في الارض دون البعض ولو كان صريحا في العموم لما صح ذلك الثالث يجوز أن يكون المراد بالاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب كما في قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا الى أن قال تعالى انه كان حليما غفورا الرابع يجوز أن يقال انهم يستغفرون لكل من في الارض أما في حق الكفار فبطلب الايمان لهم وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيآتهم فانا نقول اللهم اهد الكفار وزين قلوبهم بنور الايمان وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر وهذا استغفار في الحقيقة وقوله تعالى (ألا ان الله) أي الذي له الاحاطة بصفات الكمال (هو) أي وحده (الغفور الرحيم) تنبيه على أن الملائكة وان كانوا يستغفرون للبشر الا أن المغفرة المطلقة لله تعالى وهذا يدل على أنه تعالى يعطي المغفرة التي طلبوها ويضم اليها الرحمة (والذين اتخذوا من دونه) أي غير الله تعالى (أولياء) أي أندادا وشركاء يعبدونهم كالاصنام (الله) أي المحيط بصفات الكمال (حفيظ) أي رقيب ومراع وشهيد (عليهم) أي على أعمالهم ولا يغيب عنه شيء من أعمالهم فهو ان شاء أبقاهم على كفرهم وجازاهم عليه بما أعد للكافرين وان شاء تاب عليهم ومحا ذلك عينا وأثرا ولم يعاتبهم وان شاء محاه عينا وأبقى الاثر حتى يعاتبهم (وما أنت) يا أشرف الرسل (عليهم بوكيل) أي حتى يلزمك أن تراعي جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم فتحفظها وتقسرهم على تركها ونحو ذلك مما يتولاه الوكيل بما يقوم فيه مقام الموكل سواء قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن أم قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وغير ذلك انما عليك الا البلاغ (وكذلك) أي ومثل ذلك الايحاء (أوحينا) أي بما لنا من العظمة (اليك قرآنا) أي جامعا لكل حكمة مع الفرق لكل ملتبس (عربيا) فهو بين الخطاب واضح الصواب معجز الجناب (لتنذر) أي به (أم القرى) أي أهل مكة التي هي أم الارض وأصلها منها دحيت أو أشرفها أو وقع الفعل عليها عدا لها عداد العقلاء أو غير ذلك انما عليك الا البلاغ وقوله تعالى (ومن حولها) معطوف على أهل المقدر قبل أم القرى والمفعول الثاني محذوف أي العذاب والمراد بمن حولها قرى الارض كلها من أهل البدو والحضر وأهل المدر والوبر والانذار التخويف (وتنذر) أي الناس (يوم الجمع) أي يوم القيامة يجمع الله تعالى فيه الاولين والآخرين وأهل السموات والارضين ويجمع الارواح بالاجساد ويجمع بين العامل وعمله

قوله استغفروا البعض الخ الظاهر اسقاط لفظ بعض ومع اسقاطه ففيه نظر اه

اى ان خلق الاصغر اسهل من خلق الاكبر ثم قال لا يؤمنون اى بالبعث ثم قال لا يشكرون اى الله على فضله ختم كل آية بما اقتضاه اولها (قوله وخسر هنالك المبطلون) ختمه بقوله

ويجمع بين الظالم والمظلوم (لا ريب) أى لاشك (فيه) لانه مركوز فى فطرة كل أحد وقوله تعالى (فريق) يجوز فيه وجهان احدهما أنه مبتدأ وساغ هذا فى النكرة لانه مقام تفصيل وخبره (فى الجنة) أى تفضلا منه ورحمة وهم الذين قبلوا الانذار وبالغوا فى الحذار ويجوز أن يكون الخبر مقدرا تقديره منهم فريق وساغ الابتداء بالنكرة حينئذ لشيئين تقديم خبرها جارا ومجرورا ووصفها بالجار بعدها والثانى أنه خبر مبتدأ مضمر أى هم أى المجموعون فريق دل على ذلك قوله تعالى يوم الجمع وقوله تعالى (وفريق فى السعير) أى عدلا منه فيه ماض وهم الذين خذلهم الله تعالى ووكلهم الى أنفسهم (فان قيل) يوم الجمع يقتضى كون القوم مجتمعين والجمع بين الصنفين محال (أجيب) بانهم يجتمعون أولا ثم يصيرون فريقين قال القشيرى كما أنهم فى الدنيا فريقان فريق فى راحات الطاعات وحلاوات العبادات وفريق فى ظلمات الشرك وعقوبات الجحد والشك فكذلك غدا هم فريقان فريق هم أهل اللقاء وفريق هم أهل البلاء والشقاء روى الامام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم قابضا على كفيه ومعه كتابان فقال أتدرون ما هذان الكتابان قلنا لا يا رسول الله فقال للذى فى يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفا فى الاصلاب وقبل أن يستقروا نطفا فى الارحام اذهم فى الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم اجمال من الله عليهم الى يوم القيامة ثم قال للذى فى يده اليسرى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفا فى الاصلاب وقبل أن يستقروا نطفا فى الارحام اذهم فى الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم اجمال من الله تعالى عليهم الى يوم القيامة فقال عبد الله بن عمرو ففيم العمل اذن فقال اعملوا وسددوا وقاربوا فان صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وان عمل أى عمل وان صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وان عمل أى عمل ثم قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير عدل من الله تعالى أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (ولو شاء الله) أى المحيط بجميع اوصاف الكمال (لجعلهم) أى المجموعين (أمة واحدة) للثواب أو للعذاب ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء أن يكونوا فريقين مقسطين وظالمين ليظهر فضله وعدله وأنه الجبار الواحد القهار لا يبالى بأحد وهو معنى قوله تعالى (ولكن يدخل من يشاء) ادخاله (فى رحمته) بخلق الهداية فى قلبه فتكون أفعالهم فى مواضعها وهم المقسطون ويدخل من يشاء فى نقمته بخلق الضلالة فى قلوبهم فيكونوا ظالمين فلا تكون أفعالهم فى مواضعها فالقاسطون ما لهم من عدو ولا نكير (والظالمون) أى العريقون فى الظلم الذين شاء ظلمهم وهم الكافرون فيدخلهم فى لعنته (ما لهم من ولى) أى يلى أمورهم فيجتهد فى اصلاحها فيدفع عنهم العذاب (ولا نصير) ينصرهم من الهوان فيمنعهم من النار وعلى هذا التقدير فالآية من الاحتباك وهو ظاهر ذكر الرحمة أولا دليلا على اللعنة ثانيا وانظلم وما معه ثانيا دليلا على اضداده أولا وهذا تقرير لقوله تعالى الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل أى أنت لا تقدر أن تحملهم على الايمان ولو شاء الله تعالى لفعله لانه أقدر منك لكنه تعالى جعل البعض مؤمنا والبعض كافرا ولما حكى الله تعالى عنهم أولا انهم اتخذوا من دونه أولياء ثم قال لنبيه محمد

المبطلون وختم السورة بقوله الكافرون لان الاول متصل بقوله قضى بالحق ونقيض الحق الباطل والثانى متصل بايمان غير نافع ونقيض الايمان الكفر

صلى

صلى الله عليه وسلم لست عليهم بوكيل أي لا يجب عليك أن تحملهم على الايمان فان الله تعالى لو شاء لفعله أعاد ذلك الكلام على سبيل الانكار بقوله تعالى (أم اتخذوا من دونه أولياء) كالاصنام وهذه أم المنقطعة فتقدر ببل التي للانتقال وبهمزة الانكار أو بالهمزة فقط أو ببل فقط أي ليس المتخذون أولياء (فالله) أي المختص بصفات الكمال (هو) وحده (الولي) قال ابن عباس وليك يا محمد وولي من اتبعك والفاء جواب الشرط المقدر كأنه قال ان أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي لا ولي سواه وقيل هي لمجرد العطف وجرى على هذا الجلال المحلي وعلى الاول الزمخشري (وهو) أي ومن شأن هذا الولي (يحيي الموتى) أي يجدد احياءها في كل وقت يشاؤه (وهو) وحده (على كل شيء قدير) فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شيء • ولما منع تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يحمل الكفار على الايمان منع المؤمنين أن يشرعوا معهم في المخاصمات والمنازعات بقوله تعالى (وما اختلفتم) أي أنتم والكفار (فيه من شيء) أي من أمور الدنيا والدين (فحكمه الى الله) أي مفوض الى الذي هو الولي لا غيره يميز المحق من المبطل بالنصر أو الاثابة والمعاقبة وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل المتشابه فارجعوا فيه الى المحكم من كتاب الله (ذلكم الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (ربي) أي الذي لا مربي لي غيره في ماض ولا حال ولا استقبال (عليه) أي وحده (توكلت) أسلمت جميع امري (واليه) لا الى غيره (أنيب) أي أرجع بالتوبة اذا قصرت في شيء من فروع شرعه وارجع الى كتابه اذا نابني امر من الامور فاعرف منه حكمه فافعلوا انتم كذلك واجعلوه الحكم تفلحوا ولا تعدلوا عنه في شيء من الاشياء تهلكوا وقوله تعالى (فاطر) أي مبدع (السموات والارض) خبر آخر لذلكم او مبتدأ خبره (جعل لكم) أي بعد ان خلقكم من الارض (من انفسكم ازواجا) حيث خلق حواء من ضلع آدم فيكون بالسكون اليها بقاء نوعكم (ومن) أي وجعل لكم أي لاجلكم من (الانعام) التي هي اموالكم وجمالكم وبها اعظم اقواتكم (ازواجا) أي ذكورا واناثا يكون بها ايضا بقاء نوعها (يذرؤكم) بالمعجمة أي يخلقكم ويكثركم من الذرء وهو البث (فيه) أي في هذا التدبير وهو جعل الناس والانعام ازواجا ليكون بينهم توالد فانه كالمنبع للبث والتكثير فالضمير للاناسي والانعام بالتغليب • واختلف في الكاف في قوله تعالى (ليس كمثله شيء) فجرى الجلال المحلي على انها زائدة لانه تعالى لا مثل له وجرى غيره على انها ليست زائدة لانه اذا نفي عمن يناسبه ويسد مسده كان نفيه عنه أولى وحاصله كما قال التفتازاني ان قولنا ليس كذاته شيء وقولنا ليس كمثله شيء عبارتان كلاهما من معنى واحد وهو نفي المماثلة عن ذاته الاولى صريحا والثانية كناية مشتملة على مبالغة وهي ان المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه وهذا لا يستلزم وجود المثل ألا ترى ان قولهم مثل الامير يفعل كذا ليس اعترافا بوجود المثل له فالمعنى هنا ان مثل مثله تعالى منتف فكيف بمثله وايضا مثل المثل مثل فيلزم من نفيه نفيهما وقال البغوي المثل صلة أي ليس كهو شيء فادخل المثل للتوكيد كقوله تعالى فان آمنوا بمثل ما آمنتم به اه وهذا كالتأويل الاول وقيل ان المراد بالمثل الصفة وذلك ان المثل بمعنى المثل والمثل الصفة كقوله تعالى مثل الجنة فيكون المعنى ليس كصفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره واما

(سورة فصلت)

(قوله ومن بيننا وبينك حجاب) • فان قلت ما فائدة زيادة من مع حصول المعنى بحذفها (قلت) فائدته الدلالة على ان ما بينهم وبينه مستوعب بالحجاب

قوله تعالى وله المثل الاعلى فمعناه أن له الوصف الاعلى الذى ليس لغيره مثله ولا يشاركه فيه احد (وهو) أى والحال أنه هو لا غيره (السميع البصير) أى الكامل فى السمع والبصر بكل مايسمع ويبصر (فان قيل) هذا يفيد الحصر مع أن العباد ايضا موصوفون بكونهم سميعين بصيرين (أجيب) بان السمع والبصر لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال كما مر والكمال فى كل الصفات ليس الا لله تعالى فهذا هو المراد من هذا الحصر (له) أى وحده (مقاليد السموات والارض) أى خزائنهما ومفاتيح خزائنهما من الامطار والانبات وغيرهما وقد ثبت انه ابتدعهما وأن له جميع مافيهما فما اتخذ من دونه وليا وغيره قال القشيرى والمفاتيح الخزائن وخزائنه هى مقدوراته اه ولما حصر الامر فيه دل عليه بقوله تعالى (يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) امتحانا (ويقدر) اى يضيقه لمن يشاء ابتلاء كما وسع على فارس والروم وضيق على العرب وفاوت فى الافراد بين افراد من وسع عليهم ومن ضيق عليهم فدل ذلك قطعا على أنه لا شريك له وانه هو المتصرف وحده فقطع بذلك أفكار الموفقين من عباده عن غيره ليقبلوا عليه ويتفرغوا له فان عبادته هى المقاليد بالحقيقة استغفروا ربكم انه كان غفارا الآيات ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولو أن أهل الكتاب امنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم الآية ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه بكل شئ عليم) اى فلا فعل له الا وهو جار على أتقن مايكون من قوانين الحكمة فيفعله على ماينبغى ● ولما عظم وحيه الى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ذكر تفصيل ذلك بقوله تعالى (شرع لكم) أى طرق وسن طريقا ظاهرا بينا واضحا لكم أيتها الامة الخاتمة من الطرق الظاهرة المستقيمة (من الدين) وهو مايعمل فيجازى عليه (ما) الذى (وصى به) توصية عظيمة بعد اعلامه بانه شرعه (نوحا) فى الزمان الاقدم وهو اول أنبياء الشريعة قال مجاهد أوصيناك واياه يامحمد دينا واحدا (والذى اوحينا اليك) اى من القرآن وشرائع الاسلام (وما وصينا) اى بمالنا من العظمة الباهرة التى ظهرت بتلك المعجزات (به ابراهيم) الذى نجيناه من كيد نمروذ بالنار وغيرها ووهبنا له على الكبر اسمعيل واسحق وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها (وموسى) الذى أنزلنا عليه التوراة موعظة وتفصيلا لكل شئ (وعيسى) الذى انزلنا عليه الانجيل هدى ونورا وموعظة وادخرناه فى سمائنا لتأييد شريعة الفاتح الخاتم صلى الله عليه وسلم ● ثم بين المشروع الموصى به والموحى الى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (أن أقيموا) أى ايها المشروع لهم من هذه الامة الخاتمة ومن الامم الماضية (الدين) وهو الايمان بما يجب تصديقه والطاعة فى احكام الله تعالى ومحله النصب على البدل من مفعول شرع أو الرفع على الاستئناف كأنه جواب وماذلك المشروع أو الجر على البدل من هاء به ● ولما عظمه بالامر بالاجتماع اتبعه بالتعظيم بالنهى عن الافتراق بقوله تعالى (ولا تتفرقوا فيه) أى ولا تختلفوا فى هذا الاصل اما فروع الشرائع المختلفة فقال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقال قتادة الموصى به تحليل الحلال وتحريم الحرام وقال الحكم تحريم الامهات

والبنات

لكون الحجاب مبتدأ منهم ومنه وبتقدير حذفها يصير المعنى ان الحجاب حاصل فى المسافة بيننا وبينه (قوله قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين) الى قوله فقضاهن

والبنات والاخوات وقال مجاهد لم يبعث الله تعالى نبيا الا وصاه باقامة الصلاة وايتاء الزكاة والاقرار لله تعالى بالطاعة فذلك دينه الذي شرعه وقيل هو التوحيد والبراءة من الشرك وجرى على هذا الجلال المحلي والكل يرجع اليه (كبر) أي عظم وشق (على المشركين) حين ضاقت به صدورهم (ما تدعوهم اليه) أيها النبي الفاتح الخاتم من الاجتماع أبدا على ما اجتمعوا عليه وقت الاضطرار من وحدانية الواحد القهار فلاجل كبره عليهم هم يسعون في تفرقكم فان تفرقتم كنتم تابعتم العدو الحسود وخالفتم الولي الودود ثم نبه تعالى على أن الامور كلها بيده بقوله تعالى (الله) الذي له مجامع العظمة ونفوذ الامر (يجتبي) أي يختار (اليه) أي الى هذا الدين الذي تدعوهم اليه (من يشاء) اجتباءه (ويهدي اليه) بالتوفيق للطاعة (من ينيب) أي من يقبل الى طاعته ولما بين تعالى أمر كل الانبياء عليهم السلام والامم بالاخذ بالدين المتفق عليه كان لقائل أن يقول فلماذا نجدهم متفرقين أجاب بقوله تعالى (وما تفرقوا) اى المشركون من قبلكم من اهل الكتاب وغيرهم (الا من بعد ما جاءهم العلم) أي بالتوحيد أو ببعث الرسول صلى الله عليه وسلم أو بان التفرق ضلال متوعد عليه (بغيا بينهم) أي فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية على أن ذهبت كل طائفة الى مذهب ودعوا الناس اليه وقبحوا ما سواه طلبا للذكر والرياسة فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل الا أنه تعالى أخر عنهم العذاب لان لكل عذاب عنده اجلا مسمى اى وقتا معلوما وهذا معنى قوله تعالى (ولولا كلمة) أي لا تبديل لها (سبقت) أي في الازل (من ربك) أي المحسن اليك بجعلك خير الخلائق وامامهم بتأخيرهم (الى أجل مسمى) ضربه لآجالهم ثم يجمعهم في الآخرة (لقضى) على أيسر وجه وأسهله (بينهم) حين الافتراق باهلاك الظالم وانجاء المحق قال ابن عباس والذين أريدوا بهذه الصفة هم اليهود والنصارى لقوله تعالى في آل عمران وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم وقوله تعالى في سورة لم يكن وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة وكذلك في قوله تعالى (وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) أي المتفرقين هم اليهود والنصارى الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هم هذه الامة الذين أورثوا القرآن ولما نسخ كتابهم ما تقدمه كان غيرهم كأنه مات فورثوه كما قال تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فكان حالهم في تمكنهم من التصرف في الكتاب بالحفظ والفهم وعدم المنازعة في ادعائه حال الوارث والموروث عنه (لفي شك منه) أي من كتاب لا يعلمونه كما هو ولا يؤمنون به حق الايمان أو من القرآن فيقولون انه سحر وشعر وكهانة ونحو ذلك وقيل في شك من محمد صلى الله عليه وسلم وجرى على ذلك الجلال المحلي (مريب) أي موقع في التهمة (فلذلك) أي التوحيد (فادع) يا اشرف الخلق الناس (واستقم) أي على الدعوة (كما أمرت) أي أمرك الله تعالى (ولا تتبع) أي بعمل (أهواءهم) في شيء ما فان الهوى لا يدعو الى خير والمقصود من كل أحد أن يفعل ما أمر به (وقل) لجميع أهل الفرق وكل من يمكن له القول فانك أرسلت الى جميع الخلق (آمنت بما أنزل الله) أي الذي له العظمة الكاملة (من كتاب) أي بجميع الكتب المنزلة لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض روي ان رجلا أتى عليا فقال يا أمير

سبع سموات في يومين ان
قلت) هذا يدل على ان
السموات والارض وما
بينهما خلقت في ثمانية ايام
وهو مناف لما ذكر في القرآن
وغيره انها خلقت في ستة
ايام (قلت) يوما خلق

المؤمنين ما الايمان أو كيف الايمان قال الايمان على اربع دعائم على الصبر واليقين والعدل والجهاد والصبر على أربع شعب على الشوق والشفق والزهادة والترقب فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد فى الدنيا تهاون بالمصائب ومن ارتقب الموت سارع الى الخيرات واليقين على أربع شعب تبصرة الفطنة وتأويل الحكمة وموعظة العبرة وسنة الاولين فمن تبصر الفطنة تأول الحكمة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة عرف السنة ومن عرف السنة فكأنما كان فى الاولين والعدل على اربع شعب على غامض الفهم وزهرة العلم وروضة العلم وعلم الحكم فمن فهم جمع العلم ومن علم لم يضل فى الحكم ومن علم عرف شرائع العلم ومن حلم لم يفرط امره وعاش فى الناس والجهاد على اربع شعب على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى المواطن وشنآن الفاسقين فمن أمر بالمعروف شد ظهره ومن نهى عن المنكر ارغم انف المنافقين ومن صدق فى المواطن قضى الذى عليه ومن شنئ الفاسقين غضب لله تعالى وغضب الله تعالى له فقام الرجل وقبل رأسه (وامرت) اى من له الامر كله (لاعدل) اى لاجل أن اعدل (بينكم) ايها المتفرقون فى الاديان من العرب والعجم من الانس والجن ثم عال ذلك بقوله (الله) اى الذى له الملك كله (ربنا وربكم) اى موجدنا ومتولى جميع امورنا ولهذا أمرنا بالعدل على سبيل العموم لان الكل عباده (لنا أعمالنا) خاصة بنا لا تعدونا الى غيرنا (ولكم أعمالكم) خاصة بكم لا تعدوكم الى غيركم فكل مجازى بعمله (لا حجة) اى لا خصومة (بيننا وبينكم) وهذا قبل ان يؤمر بالجهاد كما قاله الجلال المحلى وقال ابن الخازن هذه الآية منسوخة بآية القتال وكذا قال البغوى ولكن قال البيضاوى وليس فى الآية مايدل على متاركة رأسا حتى تكون منسوخة بآية القتال (الله) اى الذى هو احكم الحاكمين (يجمع بيننا) اى فى المعاد لفصل القضاء (واليه) اى لا الى غيره (المصير) اى المرجع حسا ومعنى لتمام عزته وشمول عظمته (والذين يحاجون فى الله) اى يوردون تشكيكا فى دين الملك الاعظم ليصدوا الناس بعد ما دخلوا فى نور الهدى الى ظلام الضلال (من بعد ما استجيب له) أى استجاب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فاظهر دينه على الدين كله قال قتادة هم اليهود قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم وتشكيكهم او من بعد ما استجاب للرسول صلى الله عليه وسلم الناس فاسلموا ودخلوا فى دينه لظهور معجزته (حجتهم) اى التى زعموها حجة (داحضة) اى زائلة باطلة (عند ربهم) اى المحسن اليهم بافاضة العقل الذى جعلهم به فى احسن تقويم وقال الرازى تلك المخاصمة هى ان اليهود قالوا ألستم تقولون ان الاخذ بالمتفق عليه اولى من الاخذ بالمختلف فيه فنبوة موسى عليه السلام وحقية التوراة معلومة بالاتفاق ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست متفقا عليها فوجب الاخذ باليهودية فبين تعالى فساد هذه الحجة وذلك ان اليهود اجمعوا على انه انما وجب الايمان بموسى عليه السلام لاجل ظهور المعجزات على قوله وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد صلى الله عليه وسلم واليهود قد شاهدوا تلك المعجزات فان كان ظهور المعجزة يدل على الصدق فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان كان لا يدل على الصدق وجب فى حق موسى ان لا يقروا بنبوته بظهور

الارض من جوانب الاربعة والمعنى فى تتمة بعدهما او بعد ايام وهى مع يومى اربعة ايام خلق السموات ستة ايام خلق يوم الاحد والاثنين خلق الارض ويوم الثلاثاء والاربعاء للجبل المذكور

المعجزات

المعجزات لانه يكون تناقضا ٭(تنبيه)٭ والذين يحاجون مبتدأ وحجتهم مبتدأ ثان وداحضة خبر المبتدإ الثاني والثاني وخبره خبر الاول واعرب مكي حجتهم بدلا من الموصول بدل اشتمال ٭ ولما قرر تعالى هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة فقال (وعليهم) أي زيادة على قطع الاحسان (غضب) أي عقوبة تليق بجالهم المذموم ووصفهم المذموم ومنه الطرد فهم مطرودون عن بابه مبعدون عن جنابه مهانون بحجابه (ولهم) مع ذلك (عذاب شديد) في الآخرة لا تصلون الى حقيقة وصفه (الله) اي الذي له جميع الملك (الذي أنزل الكتاب) أي جنس الكتاب (بالحق) أي متلبسا على أكمل الوجوه بالامر الثابت الذي لا يبدل (والميزان) أي الشرع الذي توزن به الحقوق ويسوى بين الناس أو العدل قال مجاهد سمي العدل ميزانا لان الميزان آلة الانصاف والتسوية وقال ابن عباس أمر الله تعالى بالوفاء ونهى عن البخس فيجب على العاقل أن يجتهد في النظر والاستدلال ويترك طريقة اهل الجهل والتقليد ٭ ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم بيوم القيامة ولم يروا لذلك أثرا قالوا على سبيل السخرية متى تقوم الساعة وليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمد واصحابه قال تعالى (وما يدريك) أي يا أكمل الخلق (لعل الساعة) اي التي يستعجلون بها (قريب) وذكر قريب وان كان صفة لمؤنث لان الساعة في معنى الوقت أو البعث او على معنى النسب أي ذات قرب او على حذف مضاف أي مجيء الساعة قال مكي ولان تأنيثها مجازي وهذا ممنوع اذ لا يجوز الشمس طالع ولا القمر طالعة ٭(تنبيه)٭ لعل معلق للفعل عن العمل اي ما بعده سد مسد المفعولين ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الساعة وعنده قوم من المشركين وقالوا مستهزئين متى الساعة تقوم نزل قوله تعالى (يستعجل بها) أي يطلب أن تكون قبل الوقت المضروب لها (الذين لا يؤمنون بها) أي لا يجددون لهم ذلك أصلا وهم غير مشفقين منها ويظنون كذب القائل بها (والذين آمنوا) وان كانوا في أول درجات الايمان (مشفقون) أي خائفون خوفا عظيما (منها) لان الله تعالى هداهم بايمانهم فصارت صدورهم معادن المعارف وقلوبهم منابع الانوار فأيقنوا بما فيها من الاهوال الكبار فخافوا لطاقتهم أن يكونوا مع صلاحهم من اهل النار (ويعلمون أنها الحق) اعلاما بانهم على بصيرة من أمرها فهم لا يستعجلون بها ففي الآية من الاحتباك ذكر الاستعجال اولا دليلا على حذف ضده ثانيا والاشفاق ثانيا دليلا على حذف ضده أولا ٭(فائدة)٭ روي ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم بصوت جهوري في بعض اسفاره فناداه يا محمد فقال له صلى الله عليه وسلم نحوا من صوته هاؤم فقال متى الساعة فقال له صلى الله عليه وسلم ويحك انها كائنة فما أعددت لها فقال حب الله تعالى ورسوله فقال أنت مع من أحببت والغرض انه لم يجبه عن وقت الساعة بل امره بالاستعداد لها ومن أحب الله تعالى ورسوله فعل ما أمر به واجتنب ما نهيا عنه فهي المحبة الكاملة نسأل الله الكريم من فضله أن يوفقنا واحبابنا لطاعته واجتناب معاصيه (ألا ان الذين يمارون) أي يخاصمون ويجادلون (في الساعة) أي القيامة وما تحتوي عليه (لفي ضلال) أي ذهاب عن الحق (بعيد) جدا عن الصواب فان لها من الادلة الظاهرة ما ألحقها بالمحسوسات كما قال القائل لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا

في الآية وما بعده ويوم والجمعة لخلق الجدس (؟)
السموات (فان قلت) السموات وما فيها أعظم من الارض وما فيها بأضعاف فما الحكمة في انه تعالى خلق الارض وما فيها في اربعة

ولما أنزل الله عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة كان ذلك من لطف الله تعالى بعباده كما قال عز من قائل (الله) أى الذى له الامر كله (لطيف) أى بالغ فى اللطف والعلم وايقاع الاحسان (بعباده) وقال ابن عباس حفى بهم وقال عكرمة بار بهم وقال السدى رفيق بهم وقال القشيرى اللطيف العالم بدقائق الامور وغوامضها وقال الرازى هو اسم مركب من علم ورحمة ورفق خفى أما لطفه بالمؤمنين فواضح وأما الكافر فاقل لطفه به أنه لا يعاجله فى الدنيا ولا يعذبه فوق ما يستحق فى الاخرى وقال مقاتل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعا بمعاصيهم بدليل قوله تعالى (يرزق من يشاء) أى يعطى ما شاء على سبيل من السعة والضيق أو التوسعة لا مانع له من شئ من ذلك فكل من رزقه الله تعالى من مؤمن وكافر وذى روح فهو ممن يشاء الله تعالى أن يرزقه قال جعفر الصادق اللطف فى الرزق من وجهين أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات والثانى انه لم يدفعه اليك مرة واحدة (وهو القوى) أى القادر على ما يشاء (العزيز) فلا يقدر أحد أن يمنعه عن شئ يريده ولما بين بهذا أن الرزق ليس الا فى يده اتبعه ما يزهد فى طلب رزق البدن ويرغب فى رزق الروح فقال تعالى على سبيل الاستئناف (من كان) أى من شريف أو دنئ (يريد) أى بعمله (حرث الآخرة) أى أعمالها والحرث فى اللغة الكسب (نزد له) أى بعظمتنا التى لا يقدر أحد على تحويلها (فى حرثه) قال مقاتل بان يعينه على الاعمال الصالحة ويضاعف بالواحدة عشرة الى ما شاء الله تعالى من الزيادة وقال الزمخشرى انه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثا على سبيل المجاز (ومن كان) أى من قوى أو ضعيف (يريد) أى بعمله (حرث الدنيا) أى أرزاقها التى تطلب بالكد والسعى وتستغنى به مكتفيا به مؤثرا له على الآخرة (نؤته منها) أى ما قسمناه له ولو تهاون به ولم يطلبه لأتاه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الهاء واختلس قالون كسرة الهاء وعن هشام اختلاس الكسرة فى الهاء والاشباع والباقون باشباع الكسرة (وما) أى والحال أن طالب الدنيا بعمله ما (له فى الآخرة من نصيب) لان الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى روى أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال بشر هذه الامة بالسناء والرفعة والنصرة والتمكن فى الارض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة من نصيب أى لان هذا تهاون بالآخرة فلم ينوها وهى أشرف من أن تقبل على من أعرض عنها فانها ضرة الدنيا وضدها فالدنيا لخساستها تقبل على من أعرض عنها وتبعد عمن أقبل عليها حتى تهلكه فى مهاويها والآخرة تقبل على من أقبل عليها أضعاف اقباله وتنادى من أدبر عنها لينتهى عن غيه وضلاله فلما سمى الله تعالى كلا القسمين حرثا علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل الا بتحمل المشاق والمتاعب وصرف هذه المتاعب الى ما يكون فى الزائد الباقى أولى من صرفها لما يكون فى التناقص والانقضاء قال الرازى فى اللوامع أهل الارادة على أصناف مريد الدنيا ومريد الآخرة ومريد الحق جل وعلا وعلامة ارادة الدنيا ان يرضى فى زيادة دنياه بنقص دينه والاعراض عن فقراء المسلمين وان تكون حاجاته فى الدنيا مقصورة على الدنيا وعلامة ارادة الآخرة بعكس ذلك وأما علامة ارادة الله تعالى كما قال تعالى يريدون وجهه فطرح الكونين والعزلة عن الخلق والخلاص من يد النفس انتهى وحاصله أن يستغرق أوقاته فى التوفية

ايام والسموات وما فيها فى يومين (قلت) لان السموات وما فيها من عالم الغيب والملكوت والامر والارض وما فيها من عالم الشهادة والملك والخلق والاول اسرع من الثانى أو انه تعالى فعل ذلك فى

بحقوق

بحقوق الحق وحقوق الخلق وتزكية النفس لا طمعا في جنة ولا خوفا من نار بل امتثالا لاجل الملك الاعلى لانه أهل لذلك مع اعترافه بانه لن يقدر الله تعالى حق قدره ولما بين تعالى أعمال الآخرة والدنيا اتبعه بيان ما هو الاصل في باب الضلالة والشقاوة فقال تعالى (أم) اى بل (لهم) اى كفار مكة (شركاء) اى على زعمهم وهم شياطينهم (شرعوا) اى سنوا بالتزيين (لهم) اى الكفار (من الدين) اى الفاسد في العبادات والعادات (ما لم يأذن به الله) اى الملك الذى لا أمر لاحد معه كالشرك وانكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم وانما أضيفت اليهم لانهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ولما كانت سببا لضلالهم جعلت شارعة لدين ضلالتهم كما قال ابراهيم عليه السلام رب انهن أضللن كثيرا من الناس وقال ابن عباس شرعوا لهم دينا غير دين الاسلام (ولولا كلمة الفصل) اى القضاء السابق بتأخير الجزاء أو ولولا الوعد بان الفصل يكون بينهم يوم القيامة (لقضى بينهم) اى بين الذين امتثلوا امره والتزموا شرعه وبين الذين اتبعوا ما شرعوه لمن جعلوهم شركاء في أقرب وقت ولكنه قد سبق القضاء في الازل بمقادير الاشياء وتحديدها على وجوه الحكمة فهي تجرى على ما حد لها لا يتقدم شئ منها ولا يتأخر ولا يتبدل ولا يتغير وستنكشف لهم الامور وتظهر مخبآت المقدور فلا يقع الفصل الا في الآخرة كما سبق به القضاء (وان الظالمين) بشرع ما لم يأذن به الله من الشرك وغيره (لهم عذاب أليم) اى مؤلم بليغ ايلامه ثم انه تعالى ذكر احوال اهل العقاب واحوال اهل الثواب مبتدئا بالاول منهما بقوله تعالى (ترى) اى في ذلك اليوم (الظالمين) اى الواضعين الاشياء في غير مواضعها (مشفقين) اى خائفين اشد الخوف كما هو حال من يحاسبه من هو أعلى منه وهو مقصر (مما كسبوا) اى عملوا معتقدين انه غاية ما ينفعهم (وهو) اى جزاؤه ووباله الذى من جنسه حتى كأنه هو (واقع بهم) لا محالة سواء أشفقوا ام لم يشفقوا ثم ذكر الثانى بقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهى التى أذن الله تعالى فيها غير خائفين مما كسبوا لانهم مأذون لهم في فعله وهو مغفور لهم ما فرطوا فيه (في روضات الجنات) اى في الدنيا بما يلذذهم به الله تعالى من لذائذ الاقوال والافعال والمعارف والاحوال وفي الآخرة حقيقة بلا زوال وروضة الجنة أطيب بقعة فيها وفيه تنبيه على أن عصاة المؤمنين من اهل الجنة لانه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بانهم في روضات الجنات وهى البقاع الشريفة من الجنة فالبقاع التى دون تلك الروضات لابد ان تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقوله تعالى (لهم ما يشاؤن عند ربهم) يدل على ان تلك الاشياء حاضرة عنده مهيأة والعندية مجاز *(تنبيه)* عند ربهم يجوز أن يكون ظرفا ليشاؤن قاله الحوفي أو للاستقرار العامل في لهم قاله الزمخشرى وقوله تعالى (ذلك) أى الخير العظيم الرتبة الجليل القدر (هو الفضل الكبير) أى الذى يصغر ما لغيرهم في الدنيا يدل على أن الجزاء المرتب على العمل انما حصل بطريق الفضل من الله تعالى لا بطريق الوجوب والاستحقاق وقوله تعالى (ذلك) أى الجزاء العظيم من الجنة ونعيمها مبتدأ خبره (الذى يبشر الله) الملك الاعظم والعائد وهو به محذوف تفخيما للمبشر به لان السياق لتعظيمه بالاشارة وبجعلها بأداة البعد وبالوصف بالذى وذكر الاسم الاعظم والتعبير بلفظ العباد في قوله تعالى (عباده) مع الاضافة

في الثانى مع قدرته على فعله
ذلك دفعة واحدة ليعرفنا
ان الخالق على سبيل التدريج
التأنى في أفعاله ان خلق ذلك
في أربعة أيام لمصالح وحكم
اقتضت ذلك ولهذه الحكمة
خلق العالم الاكبر في ستة

الى ضميره سبحانه ولما أشعر بصلاحهم بالاضافة نص عليه بقوله تعالى (الذين آمنوا) أى
صدقوا بالغيب (وعملوا) تحقيقا لايمانهم (الصالحات) قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الياء
وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة والباقون بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم
الشين مخففة من بشره ولما كان كأنه قيل فما تطلب فى هذه البشارة لان الغالب أن المبشر
وان لم يسأل يعطى بشارته كما وقع لكعب لما أذن الله تعالى بتوبته ركض راكض على فرس
وسعى ساع على رجليه فأوفى على جبل سلع ونادى يا كعب بن مالك أبشر فقد تاب الله عليك
فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءه الذى سمع صوته خلع عليه ثوبيه وهو لا يملك يومئذ
غيرهما واستعار له ثوبين قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لمن توهم فيك ما جرت
به عادة المبشرين (لا أسألكم) أى الآن ولا فى مستقبل الزمان (عليه) أى البلاغ بشارة
أو نذارة (أجرا) أى وان قل (الا) أى لكن أسألكم (المودة) أى المحبة العظيمة الواسعة
(فى القربى) أى مظروفة فيها بحيث تكون القربى موضعا للمودة وظرفا لها لا يخرج شئ
من محبتكم عنها (تنبيه) فى الآية ثلاثة أقوال أولها قال الشعبى أكثر الناس علينا فى
هذه الآية فكتبنا الى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان وسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم الا وقد ولده وكان له فيهم قرابة فقال
الله عز وجل قل لا أسألكم عليه أجرا على ما أدعوكم اليه الا أن تودوا القربى أى تصلوا ما بينى
وبينكم من القرابة والمعنى انكم قربى وأحق من أجابنى وأطاعنى فاذ قد أبيتم ذلك
فاحفظوا حق القربى وصلوا رحمى ولا تؤذونى والى هذا ذهب مجاهد وقتادة وغيرهما ثانيها
روى الكلبى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تنوبه نوائب
وحقوق وليس فى يده سعة فقالت الانصار ان هذا الرجل هداكم وهو ابن أخيكم وجاركم
فى بلدكم فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه بها فردها عليهم ونزل قوله تعالى
قل لا أسألكم عليه أى على الايمان أجرا الا المودة فى القربى أى لا تؤذوا قرابتى وعترتى
واحفظونى فيهم قاله سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب ثالثها قال الحسن معناه الا أن تودوا
الله تعالى وتتقربوا اليه بالطاعة والعمل الصالح فالقربى على القول الاول القرابة التى بمعنى
الرحم وعلى الثانى بمعنى الاقارب وعلى الثالث فعلى بمعنى القرب والتقرب والزلفى (فان قيل)
طلب الاجر على تبليغ الوحى لا يجوز لوجوه أحدها أنه تعالى حكى عن أكثر الانبياء
التصريح بنفى طلب الاجر فقال تعالى فى قصة نوح وما أسألكم عليه من أجر الآية وكذا
فى قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ورسولنا أفضل الانبياء فان لا يطلب
الاجر على النبوة والرسالة أولى ثانيها انه صلى الله عليه وسلم صرح بنفى طلب الاجر فقال قل
ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين وقل ما سألتكم من أجر فهو لكم ثالثها
أن التبليغ كان واجبا عليه قال تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية وطلب الاجر على
أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلا عن أعلم العلماء رابعها أن النبوة أفضل من الحكمة
وقال تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ووصف الدنيا بأنها متاع قليل قال تعالى
قل متاع الدنيا قليل فكيف يحسن بالعقل مقابلة أشرف الانبياء بأخس الاشياء خامسها

ان

أيام والعالم الاصغر وهو الانسان فى ستة أشهر (قوله حتى اذا ما جاؤها) قال المؤلف هنا وجدته فى قوله فى النمل حتى اذا جاؤا وفى الزمر حتى اذا جاؤها مرتين وفى الزخرف

أن طلب الاجر يوجب التهمة وذلك ينافى القطع بصحة النبوة فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبى صلى الله عليه وسلم أن يطلب أجرا البتة على التبليغ والرسالة وههنا قد ذكر ما يجرى مجرى طلب الاجر وهو المودة فى القربى (أجيب) بأنه لا نزاع فى أنه لا يجوز طلب الاجر على التبليغ وأما قوله تعالى الا المودة فى القربى فالجواب عنه من وجهين الاول أن هذا من باب قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

يعنى أنى لا أطلب منكم الا هذا وهذا فى الحقيقة ليس أجرا لان حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض وقال صلى الله عليه وسلم المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا والآيات والاخبار فى هذا كثيرة واذا كان حصول المودة بين المسلمين واجبا فحصولها فى حق أشرف المرسلين أولى فقوله الا المودة فى القربى تقديره والمودة فى القربى ليست أجرا فرجع الحاصل الى أنه لا أجر البتة * الثانى أن هذا استثناء منقطع كما مر تقديره فى الآية وتم الكلام عند قوله قل لا أسئلكم عليه أجرا ثم قال الا المودة فى القربى أى أذكركم قرابتى فيكم فكأنه فى اللفظ أجر وليس بأجر واختلفوا فى قرابته صلى الله عليه وسلم فقيل هم فاطمة وعلى وأبناؤهما وفيهم نزل انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وروى زيد بن أرقم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال انى تارك فيكم كتاب الله وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى قيل لزيد بن أرقم فمن أهل بيته فقال هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس وروى ابن عمر عن أبى بكر رضى الله عنه قال ارقبوا محمدا فى أهل بيته وقيل هم الذين تحرم عليهم الصدقة من أقاربه ويقسم فيهم الخمس وهم بنو هاشم وبنو المطلب الذين لم يفترقوا جاهلية ولا اسلاما وقيل هذه الآية منسوخة واليه ذهب الضحاك بن مزاحم والحسين بن الفضل قال البغوى وهذا قول غير مرضى لان مودة النبى صلى الله عليه وسلم وكف الأذى عنه ومودة أقاربه والتقرب الى الله تعالى بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين * ولما كان التقدير فمن يقترف سيئة فعليه وزرها ولكنه طوى لان المقام للبشارة كما يدل عليه ختم الآية عطف عليه قوله تعالى (ومن يقترف) أى يكتسب ويخالط ويعمل بجد واجتهاد وتعمد وعلاج (حسنة) أى ولو صغرت (نزد) بما لنا من العظمة (له فيها) أى فى الحسنة (حسنا) أى بمضاعفة الثواب ومن الزيادة أن يكون له مثل أجر من اقتدى به فيها الى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شئ قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقيل المراد بها العموم فى أى حسنة كانت الا أنها لما ذكرت عقب ذكر المودة فى القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد فى تلك المودة (ان الله) اى الذى لا يتعاظمه شئ (غفور) لكل ذنب تاب منه صاحبه وكان غير الشرك وان لم يتب منه ان شاء فلا يصدن أحدا سيئة عملها عن الاقبال على الحبيب (شكور) اى فهو يجزى بالحسنة أضعافها وان قلت والشكر فى حق الله تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن الى المطيعين فى ايصال الثواب اليهم وفى أن يزيد عليه أنواعا كثيرة من التفضيل * ثم ذكر الله تعالى الجواب عن طعن الكفرة فى النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (أم) اى بل (يقولون افترى) اى محمد صلى الله

حتى اذا جاؤها لان الكلام هنا فى أعداء الله ابسط آكد منه فى البقية فناسب ذكر ما لا تأكيد هنا دون البقية (قوله فان يصبروا فالنار مثوى لهم) فيه اضمار تقديره فان

عليه وسلم (على الله) الذى أحاط بصفات الكمال فله العلم الشامل لمن يتقول عليه والقدرة التامة على عقابه (كذبا) حين زعم أن هذا القرآن من عنده وأنه أرسله بهذا الدين (فان يشإ الله) اى الذى له الاحاطة بالكمال (يختم) اى يربط (على قلبك) بالصبر على أذاهم بهذا القول وغيره وقد فعل وقال قتادة يعنى يطبع على قلبك فينسيك القرآن وما آتاك فاخبرهم انه لو افترى على الله كذبا لفعل به ما أخبر عنه فى هذه الآية اى أنه لا يجترئ على افتراء الكذب الا من كان فى هذه الحالة والمقصود من هذا الكلام المبالغة فى تقرير الاستبعاد ومثاله ان ينسب رجل بعض الامناء الى الخيانة فيقول الامين ذلك لعل الله خذلنى اعمى قلبى وهو لا يريد اثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه وانما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه وقوله تعالى (ويمح الله) اى الذى له الامر كله (الباطل) وهو قولهم افترى مستأنف غير داخل فى جزاء الشرط لانه تعالى يمحو الباطل مطلقا وسقطت الواو منه لفظا لالتقاء الساكنين فى الدرج وخطا حملا للخط على اللفظ كما كتبوا سندع الزبانية عليه وأما الحق فانه ثابت شديد مضاعف فلذا قال (ويحق) اى يثبت على وجه لا يمكن زواله (الحق) اى كل ما من شانه الثبات لانه أذن فيه وأقره (بكلماته) اى التى لو كان البحر مدادا لها لنفد وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم وأعلى كلمة الاسلام عليهم (انه عليم) اى بالغ العلم (بذات الصدور) اى ما هو فيها مما يعلمه صاحبها ومما لا يعلمه فيبطل باطله ويثبت حقه وان كره الخلائق ذلك ولتعلمن نبأه بعد حين ولقد صدق الله تعالى فاثبت ببركة هذا القرآن كل ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم وأبطل بسبب هذا البرهان كل ما كانوا يخالفونه فيه ومن أصدق من الله قيلا قال ابن عباس لما نزل قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى وقع فى قلوب قوم منها شئ وقالوا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده فنزل جبريل عليه السلام فاخبره انهم اتهموه فانزل الله تعالى هذه الآية فقال القوم يا رسول الله فانا نشهد أنك صادق فنزل (وهو) اى لا غيره (الذى يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما تابوا عنه سئل ابو الحسن البوشنجى عن التوبة فقال اذا ذكرت الذنب فلا تجد له حلاوة فى قلبك وروى جابر ان اعرابيا دخل مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فقال اللهم انى استغفرك واتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله تعالى عنه يا هذا ان سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين فقال يا أمير المؤمنين ما التوبة قال اسم يقع على ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذاقة النفس مرارة الطاعة كما اذقتها حلاوة المعصية واذابتها فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته وقال سهل بن عبد الله التوبة الانتقال من الاحوال المذمومة الى الاحوال المحمودة وقال بعضهم هى الندم على الماضى والترك فى الحال والعزم على أن لا يعود اليه فى المستقبل وعن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول والله انى لاستغفر الله واتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وروى انه صلى الله عليه وسلم قال يا أيها الناس توبوا الى الله فانى اتوب اليه فى اليوم مائة مرة وعن أبى موسى الاشعرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وروى انه صلى الله عليه وسلم

بصبروا أو لا يصبروا فالنار مثوى لهم وقد يبدل لانه جواب اقوالهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم فلا مثوى لهم (قوله والجزيتهم أسوأ الذى كانوا يعملون) المراد بنفسه اذ لا يختص

قال ان الله جعل فى المغرب بابا عرضه مسيرة سبعين عاما للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها وروى ان الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر * ولما كان القبول قد يكون فى المستقبل مع الاخذ بما مضى قال الله تعالى تفضلا منه ورحمة (ويعفوا عن السيئات) أى التى كانت التوبة منها صغيرة كانت أو كبيرة وعن غيرها فلا يؤاخذهم ان شاء لان التوبة تجب ما قبلها كما أن الاسلام الذى هو توبة خاصة يجب ما كان قبله وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان هو وراحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك اذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وانا ربك خطأ من شدة الفرح (ويعلم) أى والحال أنه يعلم كل وقت (ما تفعلون) فيجازى ويتجاوز عن اتقان وحكمة وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتاء الخطاب اقبالا على الناس عامة وهذا خطاب للمشركين وقرأ الباقون بالغيبة نظرا الى قوله تعالى عن عباده وقال تعالى بعد ويزيدهم من فضله * ولما رغب بالعفو وزاد بالاكرام فقال تعالى (ويستجيب) أى يوجد بغاية العناية والطلب اجابة (الذين آمنوا) أى دعاء الذين أقروا بالايمان فى كل ما دعوا به أو شفعوا عنده فيه لانه لولا ارادته لهم الاكرام بالايمان ما آمنوا وعدى الفعل بنفسه ولم يقل ويستجيب للذين آمنوا تنبيها على زيادة بره لهم ووصلهم به (وعملوا) تصديقا لدعواهم الايمان (الصالحات) فيثيبهم النعيم المقيم (ويزيدهم) أى مع ما دعوا به ما لم يدعوا به ولم يخطر على قلوبهم (من فضله) أى تفضلا منه عليهم ويجوز أن يكون الموصول فاعلا أى يجيبون ربهم اذا دعاهم كقوله تعالى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم واستجاب كأجاب ومنه

وداع دعا يا من يجيب الى الندا * فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما معناه ويثيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله سوى ثواب أعمالهم تفضلا منه وروى أبو صالح عنه يشفعهم ويزيدهم من فضله قال فى اخوان اخوانهم ثم أتبع المؤمنين بذكر ضدهم فقال تعالى (والكافرون) أى العريقون فى هذا الوصف القاطع الذين منعتهم عراقتهم من التوبة والايمان (لهم عذاب شديد) بدل ما للمؤمنين من الثواب والتفضل ولا يجيب دعاءهم وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فالآية من الاحتباك ذكر الاستجابة أولا دليلا على ضدها ثانيا والعذاب ثانيا دليلا على ضده أولا * ولما قال تعالى انه يجيب دعاء المؤمنين ورد سؤال وهو أن المؤمن قد يكون فى شدة وبلية وفقر ثم يدعو فلا يظهر أثر الاجابة فكيف الجمع بينه وبين قوله تعالى ويستجيب الذين آمنوا فأجاب تعالى عنه بقوله تعالى (ولو) أى وهو يقبل ويستجيب والحال أنه لو (بسط الله الرزق) لهم هكذا كان الاصل لكن قال (لعباده) لئلا يظن خصوصية ذلك بالتائبين اذ لا فرق بين التائب وغيره (لبغوا) أى طغوا (فى الارض) أى اصاروا يريدون كل ما يشتهون فيكثر القتل والسلب والنهب ونحو ذلك من أنواع الفساد قال خباب بن الارت فينا نزلت هذه الآية وذلك انا نظرنا الى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع وتمنيناها فنزلت وذكر فى كون

جزاؤهم باسوا اعمالهم (قوله واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) قاله هنا بزيادة هو وأل وفى الاعراف بدونهما لان ما هنا متصل بمؤكد بالتكرار وبالحصر

بسط الرزق موجبا للطغيان وجوه الاول ان الله تعالى لو سوى فى الرزق بين الكل امتنع كون البعض محتاجا الى البعض وذلك موجب خراب العالم وتعطيل المصالح ثانيها أن هذه الآية مختصة بالعرب فانه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم ومن الكلا والعشب ما يشبعهم أقدموا على النهب والغارة ثالثها أن الانسان متكبر بالطبع فان وجد الغنى والقدرة عاد الى مقتضى خلقته الاصلية وهو التكبر واذا وقع فى شدة وبلية ومكروه انكسر وعاد الى التواضع والطاعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس (ولكن ينزل) أى لعباده من الرزق وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (بقدر) اى بتقديرلهم (ما يشاء) أى ما اقتضته مشيئته (انه) وقال تعالى (بعباده) ولم يقل بهم لئلا يظن ان الامر خاص بمن وسع عليهم أو ضيق عليهم (خبير بصير) يعلم جميع ظواهر أمورهم وبواطنها فيقيم كل أحد فيما يصلح له من صلاح وفساد وعدل وبغى روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل فى حديث طويل وفيه يقول الله عز وجل ما ترددت فى شئ أنا فاعله ترددى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا الغنى ولو أفقرته لافسده ذلك وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا الفقر ولو أغنيته لافسده ذلك وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا الصحة ولو أسقمته لافسده ذلك وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا السقم ولو أصححته لافسده ذلك وذلك انى أدبر أمر عبادى بعلى بقلوبهم انى عليم خبير وقرأ ما يشاء انه نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء ولهم أيضا ابدالها واوا والباقون بتحقيقهما واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا مع المد والقصر والروم والاشمام (وهو) أى لا غيره (الذى ينزل الغيث) أى المطر الذى يغاث به الناس وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (من بعد ما قنطوا) أى يئسوا من نزوله وعلموا أنه لا يقدر على انزاله غيره ولا يقصد فيه سواه ليكون ذلك أدعى لهم الى الشكر وقال تعالى (وينشر رحمته) أى يبسط مطره كما قال تعالى وهو الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته وان كان الاصل ينشره لانه بين أنه غيث فقال رحمته بيانا وتعميما فينزل من السحاب المحمول بالريح من الماء ما لو اجتمع عليه الخلائق ما أطاقوا حمله فتصبح الارض ما بين غدران وأنهار ونبات نجم وأشجار وزهر وحب وثمار وغير ذلك من المنافع الصغار والكبار فلله ما أعلى هذه القدرة الباهرة والآية الظاهرة فيخرج من الارض التى هى من صلابتها تعجز عنها المعاول نجما هو فى لينه ألين من الحرير وفى لطافته ألطف من النسيم ومن سوق الاشجار التى تنثنى فيها المناقير أغصانا ألطف من ألسنة العصافير فما أجلف من ينكر اخراجه الموتى من القبور أو يحيد عن ذلك بنوع من الغرور (وهو) أى لا غيره (الولى) الذى لا أحد أقرب منه الى عباده فى شئ من الاشياء (الحميد) الذى يستحق بجامع الحمد مع أنه يحمد من يطيعه فيزيده من فضله ويصل حبله دائما بحبله (ومن آياته) أى العظمية على استحقاقه لجميع صفات الكمال

فناسب الناكيد بما ذكروما فى الاعراف خلى عن ذلك فجرى على القياس من كون المسند اليه معرفة والمسند نكرة (قوله ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) قاله هنا وقاله فى الشورى بزيادة

(خلق

(خالق السموات) التي تعلمون أنها متعددة لما ترون من أمور الكواكب (والارض) أي جنسهما على ما هما عليه من الهيئات وما اشتملا عليه من المنافع والخيرات وقوله تعالى (وما بث) أي فرق ونشر يجوز أن يكون مجرور المحل عطفا على السموات أو مرفوعه عطفا على خالق على حذف مضاف أي وخالق ما بث قال أبو حيان وفيه نظر لانه يؤل الى جره بالاضافة لخالق المقدرة لا يعدل عنه (فيهما) أي في السموات والارض (من دابة) أي شيء فيه أهلية الدبيب بالحياة والحركة من الانس والجن والملائكة وسائر الحيوانات على اختلاف ألوانهم وأصنافهم وأشكالهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وأقطارهم ونواحيهم (فان قيل) كيف يجوز اطلاق الدابة على الملائكة (أجيب) بوجوه أولها ما مر من أن الدابة عبارة عما فيه الروح والحركة والملائكة لهم الروح والحركة ثانيها أنه قد يضاف الفعل الى جماعة وان كان فاعله واحدا منهم ومنه قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ثالثها قال ابن عادل لا يبعد أن يقال انه تعالى خلق في السموات أنواعا من الحيوانات يمشون مشي الاناسي على الارض وروى العباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك العرش الحديث (وهو) أي لا غيره (على جمعهم) أي هذه الدواب من ذوي العقول وغيرهم للحشر بعد تفريقهم بالقلوب والابدان بالموت وغيره (اذا) أي وقت (يشاء قدير) أي بالغ القدرة كما كان بالغ القدرة عند الايجاد من العدم يجمعهم في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ثم خاطب المؤمنين بقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة) اي بلية وشدة (فبما كسبت أيديكم) أي من الذنوب وقرأ نافع وابن عامر بغير فاء والباقون بالفاء لان ما شرطية او مضمنة معناه وأما من اسقطها فقد استغنى بما في الباء من معنى السببية (فان قيل) الكسب لا يكون باليد بل بالقدرة القائمة بها (اجيب) بان المراد من لفظ اليد ههنا القدرة واذا كان هذا المجاز مشهورا مستعملا كان لفظ اليد في حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيها لله تبارك وتعالى عن الاعضاء واختلفوا فيما يحصل في الدنيا من الآلام والاسقام والقحط والغرق والمصائب هل هي عقوبات على ذنوب سلفت اولا فمنهم من أنكر ذلك لوجوه أولها قوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت بين تعالى أن ذلك انما يحصل يوم القيامة وقال تعالى مالك يوم الدين أي يوم الجزاء واجمعوا أن المراد منه يوم القيامة ثانيها مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق فيمتنع أن تكون عقوبة على الذنوب بل حصول المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ولهذا قال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل ثالثها أن الدنيا دار تكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار تكليف ودار جزاء معا وهو محال وقال آخرون هذه المصائب قد تكون اجزية على ذنوب متقدمة لهذه الآية ولما روى الحسن قال لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق الا بذنب وما يعفو الله أكثر وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الا اخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله

الى أجل مسمى لوا فقته
ثم بدأ كفر الذين تفرقوا
في الدين وهو مجيء العلم
بالتوحيد في قوله وما
تفرقوا الآية فناسب ذكر
النهاية التي انتهوا اليها
ليكون محدودا من

صلى الله عليه وسلم وما اصابكم من مصيبة الآية قال صلى الله عليه وسلم وسأفسرها لك يا على ما اصابكم من مرض اوعقوبة او بلاء فى الدنيا فبما كسبت ايديكم والله سبحانه وتعالى أكرم من ان يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا الله عنه فى الدنيا فانه أحلم من ان يعود بعد عفوه وتمسكوا أيضا بقوله تعالى بعد هذه الآية او يوبقهن بما كسبوا وذلك تصريح بأن ذلك الاهلاك بسبب كسبهم قيل لابى سليمان الدارانى ما بال العقلاء ازالوا اللوم عمن اساء اليهم قال انهم علموا ان الله تعالى انما ابتلاهم بذنوبهم وقرأ هذه الآية واجاب الاولون بان حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان فى التكليف لا من باب العقوبة كما فى حق الانبياء والاولياء بل ذلك لزيادة درجات وفضائل وخصوصيات لا يصلون اليها الا بها الا ان ام الهم لم تبلغها فهى خير من الله تعالى لهم ويحمل قوله تعالى فبما كسبت أيديكم على ان الاصلح عند اتيانكم بذلك الكسب ازال هذه المصائب عليكم (ويعفوا عن كثير) أى من الذنوب بفضله ورحمته فلا يعاقب عليها ولولا عفوه وتجاوزه ما ترك على ظهرها من دابة قال الواحدى بعد ان روى حديث على وهذه ارجى آية فى كتاب الله تعالى لان الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفرعنهم بالمصائب وصنف عفا عنهم فى الدنيا وهو كريم لا يرجع فى عفوه فهذه سنة الله تعالى مع المؤمنين واما الكافر فانه لا تعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة (وما انتم بمعجزين) اى فائتين ما قضى عليكم من المصائب (فى الارض وما لكم من دون الله) ولا فى شئ اراده سبحانه منكم كائنا ما كان (من ولى) اى يكون متوليا الشئ من اموركم بالاستقلال (ولا نصير) يدفع عنكم شيأ يريده سبحانه بكم (ومن آياته) اى الدالة على تمام قدرته واختياره ووحدانيته (الجوارى) اى السفن الجارية (فى البحر كالاعلام) اى كالجبال قالت الخنساء فى مرثية اخيها صخر

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم فى رأسه نار

اى جبل فى رأسه نار شبهت به اخاها روى ان النبى صلى الله عليه وسلم استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوى هذا البيت قال قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت فى رأسه نارا وقال مجاهد الاعلام القصور واحدها علم وقال الخليل بن احمد كل شئ مرتفع عند العرب فهو علم (فان قيل) الصفة متى لم تكن خاصة بموصوفها امتنع حذف الموصوف فلا تقول مررت بماش لان المشى عام وتقول مررت بمهندس وكاتب والجرى ليس من الصفات الخاصة فما وجه ذلك (اجيب) بان قوله تعالى فى البحر قرينة دالة على الموصوف فلذلك حذف ويجوز أن تكون هذه صفة غالبة كالابطح والابرق فوليت العوامل دون موصوفها وقرأ نافع وأبو عمرو باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير وهشام باثباتها وقفا بخلاف عن هشام والباقون بحذفها وقفا ووصلا وأمال الجوارى محضة الدورى عن الكسائى وفتح الباقون (ان يشأ) أى الله الذى حملكم فيها على ظهر الماء آية بينة سقط اعتبارها عندكم لشدة الفكم لها (يسكن الريح) الذى يسيرها وأنتم مقرون بأن أمرها ليس الا بيده وقرأ نافع بألف بعد الياء جمعا والباقون بغير الف افرادا (فيظللن) أى فيتسبب عن ذلك انهن يظللن اى يصرن ليلا كان أو نهارا (رواكد) أى ثوابت لا تجرى (على ظهره)

(قوله وان مسه الشر فيؤس قنوط) لا ينافى قوله بعد واذا مسه الشر فذو دعاء عريض لان المعنى قنوط من الصنم دعاء لله او قنوط بالقلب دعاء باللسان او الاول الطارفين بخلاف ما هنا

أى البحر (ان فى ذلك) أى ماذكر فى حال السفن فى سيرها وركوبها بما لا يقدر عليه الا الله
تعالى بدليل ما للناس كافة من الالجاء على التوجه فى ذلك اليه خاصة والانخلاع عما سواه
(لآيات) اى على احاطته سبحانه بجميع صفات الكمال (لكل صبار) أى على البلاء والشدة
(شكور) أى على نعمائه وهو المؤمن الكامل يصبر فى الشدة ويشكر فى الرخاء فان الايمان
نصفان نصف صبر ونصف شكر (أو) اى أو يشأ فى كل وقت أراده (يوبقهن) اى يهلكهن
بعصف الريح باهلهن (بما كسبوا) اى أهلهن من الذنوب (ويعف) اى ان يشأ (عن كثير)
من ذنوبهم فلا يعاقب فينجيهم بعوم او حمل على خشبة أوغير ذلك وان يشأ يرسل الريح طيبة
فينجيها ويبلغها أقصى المراد الى غير ذلك من التقادير الداخلة تحت المشيئة وقوله تعالى
(ويعلم) قرأه نافع وابن عامر برفع الميم مستأنفا والباقون بالنصب معطوف على تعليل مقدر
اى ليغرقهم لينتقم منهم وليعلم (الذين يجادلون) اى عند الهلاك بالغرق (فى آياتنا) أى يكذبون
القرآن اى علم ظهور للناس (مالهم من محيص) اى مهرب من العذاب وجملة النفى سدت
مسد مفعولى يعلم والنفى معلق عن العمل وقوله تعالى (فما أوتيتم) خطاب للمؤمنين وغيرهم
(من شئ) اى من أثاث الدنيا (فمتاع الحيوة الدنيا) اى القريبة الدنية لا نفع فيه لاحد الا مدة
حياته وذلك جدير بالاعراض عنه وعما يدعيه من الاعمال الا ما يقرب الى الله تعالى (وما)
اى والذى (عند الله) اى الملك الاعظم المحيط بكل شئ قدرة وعلما من نعم الدارين (خير)
اى فى نفسه وأشد خيرية من النعم الدنيوية المحضة لانقطاع نفعه فسماه متاعا تنبيها على
قلته وحقارته وجعله من متاع الدنيا تنبيها على انقراضه وأما الآخرة فهى خير (وأبقى)
والباقى خير من الخسيس الفانى * ثم بين تعالى أن هذه الخيرية انما تحصل لمن كان موصوفا
بصفات الصفة الاولى قوله سبحانه وتعالى (للذين آمنوا) اى أوجدوا هذه الحقيقة (وعلى)
اى والحال أنهم على (ربهم) اى الذى لم يروا احسانا قط الا منه وحده بما رباهم من الاخلاص
(يتوكلون) اى يحملون جميع أمورهم عليه كما يحمل غيرهم متاعه على من يتوسم
منه قوة على الحمل ولا يلتفتون فى ذلك الى شئ غيره أصلا لينتفى عنهم بذلك الشرك الخفى كما
انتفى بالايمان الشرك الجلى وهذا يرد على من زعم أن الطاعة توجب الثواب لانه يتوكل
على عمل نفسه لا على الله تعالى فلا يدخل تحت الآية الصفة الثانية قوله عز وجل (والذين
يجتنبون) اى يكلفون أنفسهم أن يجانبوا (كبائر الاثم) اى جنس الفعال الكبائر التى
لا توجد الا فى ضمن افرادها يحصل بها دنس النفس فيوجب عقابها مع الجسم وعطف على
كبائر قوله تعالى (والفواحش) وهى ما انكره الشرع والعقل والطبع والكبائر كل ذنب
تعظم عقوبته كالقتل والزنا والسرقة والفواحش ما عظم قبحه من الاقوال والافعال وقال
مقاتل ما يوجب الحد وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة النساء وقرأ حمزة والكسائى بكسر
الباء الموحدة قبل الباء الساكنة وهى للجنس فهى بمعنى قراءة الجمع كما قرأ الباقون بفتح
الموحدة وألف بعدها وبعد الالف همزة مكسورة والاولى أبلغ لشمولها المفردة الصفة
الثالثة قوله تبارك وتعالى (واذا ما غضبوا) اى غضبا هو على حقيقته من أمر مغضب
فى العادة وبين بضمير الفصل أن بواطنهم فى غفرهم كظواهرهم فقال تعالى (هم يغفرون)

في قوم والثاني في آخرين (قوله قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به) قاله هنا بثم وفي الاحقاف بالواو لان معناه هنا كان عاقبة امركم بعد الامهال للنظر والتدبر الكفر فناسب ذكر

أى هم الاخصاء والاحقاء بانهم كلما تجدد لهم غضب جددوا غفرا أى محوا للذنب عينا وأثرا مع القدرة على الانتقام فسجاياهم تقتضى الصفح دون الانتقام مالم يكن من الظالم بغى لانه لايؤاخذ على مجرد الغضب الا متكبر والتكبر لايصلح لغير الاله وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط الا أن تنتهك حرمات الله تعالى وروى ابن أبى حاتم عن ابراهيم النخعى قال كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا اذا قدروا غفروا الصفة الرابعة قوله تعالى (والذين استجابوا) أى أوجدوا الاجابة بما لهم من العلم الهادى الى سبيل الرشاد (لربهم) أى الداعى لهم الى اجابة احسانه اليهم قال الرازى المراد من هذا تمام الانقياد (فان قيل) أليس أنه لما جعل الايمان فيه شرطا قد دخل فى الايمان اجابة الله تعالى (اجيب) بانه يحمل هذا على الرضا بقضاء الله تعالى من صميم القلب وأن لا يكون فى قلبه منازعة الصفة الخامسة قوله سبحانه وتعالى (وأقاموا) أى أداموا (الصلوة) الواجبة (وأمرهم) أى كل ما ينوبهم مما يحوجهم الى تدبير (شورى بينهم) أى يتشاورون فيه مشاورة عظيمة مبالغين بما لهم من قوة الباطن ولا يعجلون فى أمورهم والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور الصفة السادسة قوله تعالى (ومما رزقناهم) أى أعطيناهم بعظمتنا من غير حول منهم ولا قوة (ينفقون) أى يديمون الانفاق فى سبيل الله تعالى كرما منهم وان قل ما بأيديهم اعتمادا على فضل الله تعالى لا تقبضون أيديهم كالمنافقين (والذين اذا أصابهم البغى) أى وقع بهم وأثر فيهم وهو التمادى على الرمى بالشر (هم ينتصرون) أى ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه كما قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) سميت الثانية سيئة لمشابهتها الاولى فى الصورة قال مقاتل يعنى القصاص وهى الجراحات والدماء وقال مجاهد والسدى هو جواب القبيح اذا قال أخزاك الله يقول أخزاك الله واذا شتمك فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدى قال سفيان بن عيينة سألت سفيان الثورى عن ذلك فقال ان شتمك رجل فتشتمه أو يفعل كذا فتفعل به فلم أجد عنده شيأ فسألت هشام بن حجر عن ذلك فقال الجارح اذا جرح يقتص منه وليس هو أن يشتمك وتشتمه وقد تكفلت هذه الجمل بامهات الفضائل الثلاث العلم والعفة والشجاعة على أحسن الوجوه فالمدح بالاستجابة والصلاة دعاء الى العلم وبالنفقة الى العفة وبالانتصار الى الشجاعة حتى لا يظن أن اذعانهم لما مضى مجرد ذل والقصر على المماثلة دعاء الى فضيلة التقسيط بين الكل وهى العدل وهذه الاخيرة كافلة بالفضائل الثلاث فان من علم المماثلة كان عالما ومن قصد الوقوف عندها كان عفيفا ومن قصر نفسه على ذلك كان شجاعا وقد ظهر من المدح بالانتصار بعد المدح بالغفران أن الاول للعاجز والثانى للمتغلب المتكبر بدليل البغى (فان قيل) هذه الآية مشكلة لوجهين الاول انه لما ذكر قبله واذا ما غضبوا هم يغفرون كيف يليق أن يذكر معه ما يجرى مجرى الضد له وهو والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون الثانى أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن قال تعالى وان تعفوا أقرب للتقوى وقال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقال تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (اجيب) بان العفو على قسمين أحدهما أن يصير العفو سببا لتسكين الفتنة ورجوع الجانى عن جنايته والثانى أن يصير العفو سببا لمزيد جراءة الجانى وقوة غيظه وغضبه فآيات العفو محمولة

ثم الدالة على الترتيب وفى الاحقاف لم ينظر الى ترتب على ما ذكر بل كفرهم عطف على كفر ثم بعد شاهد بالواو فناسب ذكرها لدلالتها على مطلق الجمع

قوله هشام بن حجر كذا بالاصل وفى بعض نسخ الطبع وليحرر اه مصححه

على القسم الاول وهذه الآية محمولة على القسم الثاني وحينئذ يزول التناقض روى أن زينب أقبلت على عائشة تشتمها فنهاها النبي صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم سبيها وايضا فانه تعالى لم يرغب في الانتصار بل بين انه مشروع فقط ثم بين أن مشروعيته مشروطة برعاية المماثلة بقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ثم بين ان العفو أولى بقوله تعالى (فمن عفا) اى باسقاط حقه كله أو بالنقص منه لتحقق البراءة مما حرم من المجاوزة (وأصلح) اى اوقع الاصلاح بين الناس بالعفو والاصلاح لنفسه ليصلح الله ما بينه وبين الناس فيكون بذلك منتصرا من نفسه لنفسه (فأجره على الله) اى المحيط بجميع صفات الكمال فهو يعطيه على حسب ما يقتضيه مفهوم هذا الاسم الاعظم وهذا سر افت الكلام اليه عن مظهر العظمة وقوله صلى الله عليه وسلم ما زاد الله بعفو الا عزا (انه لا يحب الظالمين) اى لا يكرم الواضعين للشئ في غير محله فيترتب عليهم عقابه (ولمن انتصر) اى سعى في نصر نفسه بجهده (بعد ظلمه) اى بعد ظلم الغير له وليس قاصدا التعدي عن حقه ولو استغرق انتصاره جميع زمان التعدي (فأولئك) اى المنتصرون لاجل دفع الظالم عنهم (ما عليهم) وأكد باثبات الجار فقال تعالى (من سبيل) اى عقاب ولا عتاب لانهم فعلوا ما ابيح لهم من الانتصار روى النسائي عن عائشة قالت ما علمت حتى دخلت على زينب وهي غضبى فاقبلت على فاعرضت عنها حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم دونك فانتصري فاقبلت عليها ٣ حين رأيتها قد يبس ريقها في فمها ما ترد على شيئا فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه واحتجوا بهذه الآية على ان سراية القود مهدرة لانه فعل ماذون فيه فيدخل تحت هذه الآية (انما السبيل) اى الطريق السالك الذي لا منع منه أصلا (على الذين يظلمون الناس) اى يوقعون بهم ظلمهم تعمدا عدوانا (ويبغون) اى يتجاوزون الحدود (في الارض) بما يفسدها بعد اصلاحها بتهيئتها للصلاح طبعا وعلما وعملا (بغير الحق) اى الكامل لان الفعل قد يكون بغيا وان كان مصحوبا بحق كالانتصار المقرون بالتعدي فيه (أولئك) اى البعداء من الله تعالى (لهم عذاب أليم) اى مؤلم ايلامه ابدانهم وارواحهم بما آلموا من ظلموه (ولمن صبر) اى عن الانتصار من غير انتقام ولا شكوى (وغفر) اى صرح باسقاط العقاب والعتاب بمحي عين الذنب وأثره (ان ذلك) اى الفعل الواقع منه البالغ في العلو حدا لا يوصف (لمن عزم الامور) اى معزوماتها بمعنى المطلوبات شرعا روى انه صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد ظلم مظلمة فعفا عنها الا أعزه الله تعالى بها نصرا (ومن يضلل الله) اى الذي له صفات الكمال بان لم يوفقه (فما له من ولي) اى يتولى امره في الهداية بالبيان لما اخفاه الله تعالى عنه (من بعده) اى من بعد اضلال الله تعالى له وهذا صريح في جواز ان الاضلال من الله تعالى وان الهداية ليست في مقدور احد سوى الله تعالى وقال تعالى (وترى الظالمين) موضع وتراهم لبيان ان الضال لا ينفع شيئا في موضعه * ولما كان عذابهم حتما عبر عنه بالماضي فقال (لما رأوا العذاب) أي يوم القيامة المعلوم مصير الظالم اليه (يقولون) اى مكررين لما اعتراهم من الدهش وغلب على قلوبهم من الوجل (هل الى مرد) اى الى دار العمل (من سبيل) اى طريق فيتمنون حينئذ

(قوله كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك) قاله بلفظ المضارع مع ان الوحي الى من قبل النبي ماض لانه كما قال الزمخشري قصد بالمضارع كون ذلك عادة وسنة لله وهذا لا يوجد في

٣ قوله حين كذا في عدة نسخ بايدينا ولعل الصواب حتى اهـ مصححه

الرجوع الى الدنيا لتدارك مافات من الطاعات الموجبة للنجاة (وتراهم) اى فى ذلك اليوم والضمير فى قوله تعالى (يعرضون عليها) يعود على النار لدلالة العذاب عليها ثم ذكر حالهم عند عرضهم على النار بقوله تعالى (خاشعين) اى خاضعين حقيرين بسبب مالحقهم (من الذل) لانهم عرفوا الذلك ذنوبهم وانكشفت لهم عظمة من عصوه (ينظرون) اى يبتدئ نظرهم المكرر (من طرف) اى تحريك الاجفان (خفى) اى ضعيف النظر يسارقون النظر الى النار خوفا منها وذلة فى انفسهم كما ينظر المقتول الى السيف فلا يقدر يملأ عينه منه ولا يفتح عينه انما ينظر ببعضها ويصح أن تكون من بمعنى الباء اى بطرف خفى ضعيف من الذل (فان قيل) قد قال الله تعالى فى صفة الكفار انهم يحشرون عميا فكيف قال تعالى هنا انهم ينظرون من طرف خفى (اجيب) بانهم يكونون فى الابتداء هكذا ثم يصيرون عميا او ان هذا فى قوم وذاك فى قوم آخرين وقيل ينظرون الى النار بقلوبهم والنظر بالقلب خفى ولما وصف تعالى حال الكفار حكى مايقوله المؤمنون فيهم فقال تعالى (وقال) اى فى ذلك الموقف الاعظم على سبيل التعيير لهم والتبكيت والتوبيخ والتقريع (الذين آمنوا) اى أوقعوا هذه الحقيقة سواء كان ايقاعهم لها فى ادنى الرتب او أعلاها (ان الخاسرين) اى الذين كملت خسارتهم (الذين خسروا أنفسهم) بما استغرقها من العذاب (وأهليهم) بمفارقتهم لهم اما فى اطباق العذاب ان كانوا امثالهم فى الخسران أو فى دار الثواب ان كانوا من اهل الايمان (يوم القيامة) اى هو يوم فوت التدارك لانه للجزاء لا للعمل لفوات شرطه بفوات الايمان بالغيب لانكشاف الغطاء وهذا القول يحتمل ان يكون واقعا فى الدنيا أو يوم القيامة ذا رأوهم على تلك الصفة وقوله تعالى (ألا ان الظالمين) اى الراسخين فى هذا الوصف (فى عذاب مقيم) اى دائم يحتمل أن يكون من تمام كلام المؤمنين وأن يكون تصديقا من الله تعالى لهم (وما كان) اى ماصح ووجد (لهم) واغرق فى النفى فقال تعالى (من أولياء) اى فالهم من ولى لان النصرة اذا انتفت من الجمع انتفت من الواحد من باب أولى (ينصرونهم) اى يوجدون نصرهم فى وقت من الاوقات (من دون الله) اى الملك الاعظم اى لا فى الدنيا بان يقدروا على انقاذهم من وصف الظلم ولا فى الآخرة بانقاذهم من العذاب (ومن يضلل الله) اى يوجد اضلاله ايجادا بليغا بما افاده الفك على سبيل الاستمرار بعدم البيان او بعدم التوفيق بعد البيان (فاله) بسبب اضلال من له جميع صفات الكمال واغرق تعالى فى النفى بقوله سبحانه (من سبيل) اى طريق الى الحق فى الدنيا والى الجنة فى الآخرة ولما ذكر تعالى الوعد والوعيد ذكر بعده ماهو المقصود فقال تعالى (استجيبوا لربكم) اى اجيبوه بالتوحيد والعبادة فانه الذى لم تروا احسانا الا وهو منه (من قبل أن يأتى يوم) هو يوم القيامة (لا مرد له من الله) اى الذى له جميع العظمة فانه اذا أتى به لا يرده واذا لم يكن له مرد منه لم يكن له مرد من غيره ومتى عدم ذلك أنتج قوله تعالى (مالكم) واغرق فى النفى بقوله تعالى (من ملجأ) اى تلجؤن اليه (يومئذ) اى فى ذلك اليوم وزاد فى التأكيد باعادة النافى وما فى حيزها بلاغا فى التحذير فقال تعالى (ومالكم من نكير) اى انكار لما اقترفتموه لانه مدون فى صحائفكم تشهد عليه ألسنتكم

(قوله يذرؤكم) لفظ الماضى (قوله فيه) اى يضاعفكم فى الجعل المذكور قبله (قوله ليس كمثله شئ) ان قلت هذا يقتضى ثبوت مثل له لانه انما نفى مثل مثله (قلت) المثل يقال للذات كما فى

وجوارحكم (فان أعرضوا) أى عن الاجابة لما دعوتهم اليه (فما أرسلناك) أى بما لنا من العظمة (عليهم حفيظا) أى تقهرهم على امتثال ما أرسلناك به (ان عليك الا البلاغ) لما أرسلناك به وأما الهداية والاضلال فالينا وهذا كما قال الجلال المحلى قبل الامر بالجهاد (وانا اذا أذقنا) أى بالعظمة التى لا يمكن مخالفتها (الانسان) أى بما جبلناه عليه من النقص وعدم التمالك (منا رحمة) قال ابن عباس رضى الله عنهما نوعا من أنواع الاكرام من صحة أو غنى أو نحو ذلك (فرح بها) أى بتلك الرحمة وأفرد ضمير فرح نظرا للفظ الانسان اشارة الى أنه مطبوع على أنه ليس عليه الا من نفسه ولو كان أهل الارض كلهم على غير ذلك ونعمة الله تعالى عليهم وان كانت فى الدنيا عظيمة الا أنها بالنسبة الى سعادات الآخرة كالقطرة بالنسبة الى البحر فلذلك سميت ذوقا فبين تعالى أن الانسان اذا حصل له هذا القدر الحقير فى الدنيا فرح به وعظم غروره ووقع فى العجب والكبر وظن أنه فاز بكل المنى ووصل الى أقصى السعادات وهذه طريقة من ضعف اعتقاده فى سعادات الآخرة وجمع ضمير الانسان فى قوله تعالى (وان تصبهم) باعتبار معناه (سيئة) أى شئ يسوءهم فى الحال كالمرض والفقر والقحط (بما قدمت أيديهم) أى قدموه وعبر بالايدى لان أكثر الافعال بها (فان الانسان) أى الآنس بنفسه المعرض عن غيره بما هو طبع له بسبب سيئة تضره (كفور) أى بليغ الكفران ينسى النعمة رأسا ويذكر البلية ويعظمها ولم يتأمل سببها وتصدير الشرطية الاولى باذا والثانية بان لان اذاقة النعمة محققة من حيث انها عادة مقتضية بالذات بخلاف اصابة البلية واقامة علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضع الضمير فى الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة فان كان فى نعمة أشر وبطر وان كان فى نقمة أيس وقنط فهذا حال الجنس من حيث هو ومن وفقه الله تعالى جنبه ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم المؤمن ان أصابه سراء شكر فكان خيرا وان أصابه ضراء صبر فكان خيرا ولما ذكر تعالى اذاقة الانسان الرحمة واصابته بعدها السيئة أتبع ذلك بقوله تعالى (لله) أى الملك الاعظم وحده (ملك السموات) كلها على علوها وقطا بقها وكبرها وعظمها وتباعد أقطارها (والارض) جميعها على تمايزها وتخالف أنحائها واختلاف أقطارها وسكانها واتساعها (يخلق) أى على سبيل التجدد والاختيار والاستمرار (ما يشاء) وان كان على غير اختيار العباد لئلا يغتر الانسان بما ملكه من المال والجاه بل اذا علم أن الكل ملك لله وملكه وانما حصل له ذلك القدر انعاما من الله تعالى عليه فيصير ذلك حاملا له على مزيد الطاعة * ثم ذكر من أقسام تصرفه تعالى فى العالم أنه يخص بعض الناس بالاولاد الاناث والبعض بالذكور والبعض بهما والبعض محروم من الكل كما قال تعالى (يهب) أى يخلق (لمن يشاء) أولادا (اناثا) فقط ليس معهن ذكر (ويهب لمن يشاء الذكور) فقط ليس معهم أنثى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء وقد دل أيضا واوا خالصة والباقون بتحقيقهما وفى الابتداء الجميع بالتحقيق واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر ولهما أيضا تسهيلها مع المد والقصر والروم والاشمام (أو يزوجهم) أى الاولاد فيجعلهم أزواجا أى صنفين حال كونهم (ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما) أى لا يولد له قال الرازى وفى الآية سؤالات الاول انه قدم الاناث فى الذكر على

قوله مثلك لا يليق به كذا فمعناه ليس كذاته شئ أو هو من باب الكناية بيانه اذا نفى مثل مثله لزم نفى مثله اذ لو بقى مثله لكان هو مثل المثل فيلزم ثبوت مثل المثل والفرض انه نفى المثل

الذكور أولا ثم قدم الذكور على الاناث ثانيا فما السبب أى فما الحكمة فى هذا التقديم والتأخير الثانى أنه نكر الاناث وعرف الذكور وقال فى الصنفين معا أو يزوجهم ذكرانا وإناثا الثالث أنه لما كان حصول الولد هبة من الله تعالى فيكفى فى عدم حصوله أن لا يهب فأى حاجة فى عدم حصوله الى قوله تعالى ويجعل من يشاء عقيما الرابع هل المراد بهذا الحكم جمع معينون أو الحكم على الانسان المطلق ثم قال والجواب عن الاول أن الكريم يسعى فى أن يقع الختم على الخير والراحة فاذا وهب الانثى أولا ثم أعطى الذكر بعدها فكأنه نقله من الغم الى الفرح وهذا غاية الكرم أما اذا أعطى الذكر أولا ثم أعطى الانثى ثانيا فكأنه نقله من الفرح الى الغم فذكر الله تعالى هبة الانثى أولا ثم ثنى بهبة الذكر حتى يكون قد نقله من الغم الى الفرح فيكون أليق بالكرم قيل من يمن المرأة تبكيرها بالانثى قبل الذكر لان الله تعالى بدأ بالاناث وأما تقديم ذكر الذكور على ذكر الاناث ثانيا فلان الذكر أكمل وأفضل من الانثى والافضل مقدم على المفضول وأما الجواب عن تنكير الاناث وتعريف الذكور فهو أن المقصود منه التنبيه على ان الذكر أفضل من الانثى وأما قوله تعالى أو يزوجهم ذكرانا وإناثا فهو أن كل شيئين يقترن أحدهما بالآخر فهما زوجان وكل واحد منهما يقال له زوج والكناية فى يزوجهم عائدة على الاناث والذكور والمعنى يجعل الذكور والاناث أزواجا أى يجمع له بينهما فيولد له الذكور والاناث وأما الجواب عن قوله تعالى عقيما فالعقيم هو الذى لا يلد ولا يولد له يقال رجل عقيم وامرأة عقيم وأصل العقم القطع ومنه قيل الملك عقيم لانه تقطع فيه الارحام بالقتل والعقوق وأما الجواب عن الرابع فقال ابن عباس رضى الله عنهما يهب لمن يشاء إناثا يريد لوطا وشعيبا عليهما السلام لم يكن لهما الا البنات ويهب لمن يشاء الذكور يريد ابراهيم عليه السلام لم يكن له الا الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا يريد محمدا صلى الله عليه وسلم كان له من البنين ثلاثة على الصحيح القاسم وعبد الله وابراهيم ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ويجعل من يشاء عقيما يريد يحيى وعيسى عليهما السلام وقال أكثر المفسرين هذا على وجه التمثيل وانما الحكم عام فى كل الناس لان المقصود بيان نفاذ قدرة الله تعالى فى تكوين الاشياء كيف شاء فلا معنى للتخصيص ثم انه تعالى ختم الآية بقوله تعالى (انه عليم) أى بالغ العلم بمصالح العباد وغيرها (قدير) أى شامل القدرة على تكوين ما يشاء ❊ ولما بين تعالى حال قدرته وعلمه وحكمته أتبعه ببيان انه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه فقال تعالى (وما كان) أى وما صح (لبشر) من الاقسام المذكورة وحل المصدر الذى هو اسم كان ليقع التصريح بالفاعل والمفعول على أتم الوجوه فقال تعالى (أن يكلمه) وأظهر موضع الاضمار اعظاما للوحى وتشريفا لمقداره فقال تعالى (الله) أى يوجد الملك الاعظم الجامع لصفات الكمال فى قلبه كلاما (الا) أن يوحى اليه (وحيا) أى كلاما خفيا يوجده فيه بغير واسطة بوجه خفى لا يطلع عليه أحد اما بمشافهة كما ورد فى حديث المعراج واما بالهام أو رؤية منام كما رأى ابراهيم عليه السلام فى المنام أن يذبح ولده أو بغير ذلك سواء خلق الله تعالى فى المتكلم قوة السماع له وهو أشرف هذه الاقسام أم لا ومن الثانى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وأوحى ربك الى النحل وأوحى فى كل سماء أمرها (أو) الا (من وراء حجاب) أى من وجه لا يرى

(قوله ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة) ❊ (ان قلت) كيف قال فيهما من دابة مع ان الدواب انما هى فى الارض فقط (قلت) هو من اطلاق المثنى على المفرد كما فى قوله

فيه

فيه المتكلم مع السماع لكلام على وجه الجهر كما وقع لموسى عليه السلام (أو يرسل رسولا) من الملائكة اما جبريل عليه السلام أو غيره * (تنبيه) * ذكر المفسرون أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله تعالى وتنظر اليه ان كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر اليه فقال لم ينظر موسى الى الله عز وجل فأنزل الله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب او يرسل رسولا (فيوحى) أى الرسول الى المرسل اليه أن يكلمه (باذنه) أى الله تعالى (ما يشاء) أى الله عز وجل وقرأ نافع برفع اللام من يرسل وسكون الياء من يوحى والباقون بنصب اللام والياء أما القراءة الاولى ففيها ثلاثة أوجه أحدها أنه رفع على اضمار مبتدأ أى هو يرسل ثانيها انه عطف على وحيا على أنه حال لان وحيا فى تقدير الحال أيضا فكأنه قال الا موحيا اليه أو مرسلا ثالثها أن يعطف على ما يتعلق به من وراء اذ تقديره أو يسمع من وراء حجاب ووحيا فى موضع الحال عطف عليه ذلك المقدر المعطوف عليه او يرسل والتقدير الا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا وأما القراءة الثانية ففيها ثلاثة أوجه أحدها أن يعطف على المضمر الذى يتعلق به من وراء حجاب اذ تقديره أو يكلمه من وراء حجاب وهذا الفعل المقدر معطوف على وحيا والمعنى الا بوحى أو سماع من وراء حجاب أو ارسال رسول ولا يجوز أن يعطف على أن يكلمه لفساد المعنى اذ يصير التقدير وما كان لبشر أن يرسل الله رسولا بل يفسد لفظا ومعنى قال مكى لانه يلزم منه نفى الرسل ونفى المرسل اليهم ثانيها أن ينصب بأن مضمرة وتكون هى وما نصبته معطوفين على وحيا ووحيا حال فيكون هذا أيضا حالا والتقدير الا موحيا أو مرسلا ثالثها انه معطوف على معنى وحيا فانه مصدر مقدر بان والفعل والتقدير الا بان يوحى اليه أو بان يرسل ذكره مكى وأبو البقاء (انه) أى هذا الذى له هذا التصرف العظيم فى هذا الوحى الكريم (على) أى بالغ العلو جدا عن صفات المخلوقين (حكيم) يفعل ما تقتضيه حكمته فيكلم تارة بواسطة وتارة بغير واسطة تماعيانا واما من وراء حجاب (وكذلك) أى ومثل ايحائنا الى غيرك من الرسل (أوحينا) بما لنا من العظمة (اليك) يا أفضل الرسل (روحا) قال ابن عباس نبوة وقال الحسن رحمة وقال السدى وحيا وقال الكلبى كتابا وقال الربيع جبريل وقال مالك بن دينار القرآن وسمى الوحى روحا لانه مدبر الروح كما أن الروح مدبر للبدن وزاد عظمته بقوله تعالى (من أمرنا) أى الذى نوحيه اليك * ثم بين تعالى حال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قبل الوحى بقوله سبحانه (ما كنت) أى فيما قبل الاربعين التى مضت لك وانت بين ظهرانى قومك (تدرى) اى تعرف قبل الوحى اليك (ما الكتاب) اى القرآن (ولا الايمان) اى تفصيل الشرائع على ما جددناه لك بما اوحيناه اليك وهو صلى الله عليه وسلم وان كان قبل النبوة قد كان مقرا بوحدانية الله تعالى وعظمته فانه كان يصلى ويحج ويعتمر ويبغض اللات والعزى ولا يأكل ما ذبح على النصب لكنه لم يكن يعلم الرسل على ما هم عليه ولا شك أن الشهادة له صلى الله عليه وسلم نفسه بالرسالة ركن الايمان ولم يكن له علم بذلك وكذلك الملائكة فصح نفى المنفى لفوات بفوات جزئه وقال محمد بن اسحق بن خزيمة الايمان هنا الصلاة لقوله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم اى صلاتكم وقيل هذا على حذف ومعناه ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان حين كنت طفلا فى المهد وقيل الايمان عبارة عن الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به وقال بعضهم صفات الله تعالى على قسمين منها ما يمكن معرفته ببعض دلائل العقول ومنها

تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرجان من احدهما وهو الملح وقيل ان الملائكة انهم دبيب مع طيرانهم أيضا وهم يمشون فى السماء علامة ... قوله وما من

مالا يمكن معرفته الا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثانى لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة *(تنبيه)* ما الاولى نافية والثانية استفهامية والجملة الاستفهامية معلقة للدراية فهى فى محل نصب لسدها مسد مفعولين والجملة المنفية بأسرها فى محل نصب على الحال من الكاف فى اليك وفى الآية دليل على انه صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبدا قبل النبوة بشرع وفى المسئلة خلاف للعلماء فقيل كان يتعبد على دين ابراهيم عليه السلام وقيل غيره والضمير فى قوله تعالى (ولكن جعلناه نورا) يعود اما للروح واما للكتاب واما لهما وهو اولى لانهما لمقصود واحد فهو كقوله تعالى والله ورسوله احق ان يرضوه وقال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى الايمان وقال السدى يعنى القرآن (نهدى) على عظمتنا (به من نشاء) خاصة لا يقدر احد على هدايته بغير مشيئتنا (من عبادنا) بخلق الهداية فى قلبه بالتوفيق فهذه لا يقدر عليها احد غير الله تعالى واما الهداية بالتبيين والارشاد فهى قوله تعالى (وانك) يا افضل الخلق (لتهدى) اى تبين وترشد ولا كدهم لانكارهم ذلك (الى صراط) اى طريق واضح جدا (مستقيم) اى شديد التقوم وهو دين الاسلام وقوله تعالى (صراط الله) اى الملك الاعظم الجامع لصفات الكمال وقرأ سراط فى الموضعين قنبل بالسين وخلف بالاشمام أى بين الصاد والزاى والباقون بالصاد الخالصة * ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بانه مالك لما فى السموات والارض بقوله تعالى (الذى له ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا وعبيدا (الا الى الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال الذى تعالى عن مثل وند وهو الكبير المتعال لا الى غيره (تصير) أى على الدوام وان كانت فى الظاهر فى ملك غيره بحيث يظن الجاهل ان ملكها مستقر له قال أبو حيان أخبر بالمضارع والمراد به الديمومة كقوله زيد يعطى ويمنع أى من شأنه ذلك ولا يراد به حينئذ حقيقة المستقبل (الامور) كلها من الخلق والامر معنى وحسا كما كانت الامور كلها ابتداء منه وحده وفى ذلك وعد للمطيعين ووعيد للمجرمين فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون ويسترحمون له حديث موضوع

سورة الزخرف مكية

وهى تسع وتسعون آية وثمانمائة وثلاث وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف واربعمائة حرف

(بسم الله) أى الذى له مقاليد الامور كلها فهو يعطى من يشاء وان طال سؤله (الرحمن) الذى نال بره جميع خلقه على حسب منازلهم عنده (الرحيم) الذى يقرب اليه من يشاء زلفى وان وصل فى البعد الى الحد الاقصى وقد تقدم الكلام على قوله تعالى (حم) والواو فى قوله تعالى (والكتاب) أى القرآن (المبين) أى مظهر طريق الهدى وما يحتاج اليه من الشريعة عاطفة ان جعلت حم قسما والا كانت للقسم وقوله تعالى (انا جعلناه) أى أوجدنا هذا الكتاب (قرآنا عربيا) اى بلغة العرب جواب القسم وهذا عندهم من البلاغة وهو كون القسم والمقسم عليه من واد واحد كقول ابى تمام

وثناياك انها اغريض * (اى طلع وبرد وقيل كل ابيض طرى) ولآل تؤم وبرق وميض

دابة فى الارض على القول راجل به فى مثل ذلك (قوله ان ذلك لمن عزم الامور) قال هنا بلام التأكيد وقال فى لقمان بدونها لان الصبر على مكروه حدث بظلم كقتل ولد أشد من

والتوم جمع تومة وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة والوميض مصدر وومض أي لمع لمعا خفيفا * (تنبيه) * احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه الاول أنها تدل على ان القرآن مجعول والمجعول هو المصنوع المخلوق الثاني أنه وصفه بكونه قرآنا وهو انما سمي قرآنا لانه جعل بعضه مقرونا بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعا الثالث وصفه بكونه عربيا وانما يكون عربيا لان العرب اختصت بوضع ألفاظه في اصطلاحهم وذلك يدل على انه مجعول والتقدير حم ورب الكتاب المبين ويؤيده هذا قوله صلى الله عليه وسلم يارب طه ويس ويارب القرآن العظيم وأجاب الرازي عن ذلك بان هذا الذي ذكرتموه حق لانكم استدللتم بهذه الوجوه على كون الحروف المتواليات والكلمات المتعاقبة محدثة وذلك معلوم بالضرورة ومن الذي ينازعكم فيه (لعلكم) أي يا أهل مكة (تعقلون) أي لتكونوا على رجاء عند من يصح منه الرجاء من ان تفهموا معانيه وأحكامه وبديع وصفه ومعجز وضعه ونظامه فترجعوا عن كل ما أنتم عليه من المغالاة ولابد أن يقع هذا التعقل فان القادر اذا عبر بأداة الترجي حقق ما يقع ترجيه ليكون بين كلامه وكلام العاجز فرق وقوله تعالى (وانه) أي القرآن عطف على انا أي مثبت (في أم الكتاب) أي أصل الكتب وهو اللوح المحفوظ وقال قتادة أم الكتاب أصل الكتاب وأم كل شئ أصله وقال ابن عباس أول ما خلق الله تعالى القلم فامره أن يكتب ما يريد أن يخلق فالكتاب مثبت عنده في اللوح المحفوظ كما قال تعالى بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ (فان قيل) ما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع انه تعالى علام الغيوب يستحيل عليه السهو والنسيان اجيب بانه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات ثم ان الملائكة اذا شاهدوا أن جميع الحوادث انما تحدث على موافقة ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمته وعلمه وقيل المراد بام الكتاب الآيات المحكمة لقوله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب والمعنى أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الاصل والام وقرأ حمزة والكسائي في الوصل بكسر الهمزة والباقون بضمها واتفقوا في الابتداء بالهمزة على الضم وقوله تعالى (لدينا) اى عندنا بدل من الجار قبله (لعلي) اى رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزا من بينها (حكيم) اى ذو حكمة بالغة او محكم في أبواب البلاغة والفصاحة (أفنضرب) اى أنهملكم فنضرب اى ننحي ونجاوز (عنكم الذكر) أي القرآن وفي نصب قوله تعالى (صفحا) أوجه أحدها انه مصدر من معنى نضرب لانه يقال ضرب عن كذا وأضرب عنه بمعنى أعرض عنه وصرف وجهه عنه قال طرفة

اضرب عنك الهموم طارقها * ضربك بالسيف قونس الفرس

واضرب بفتح الباء أصله اضربن بنون التوكيد الخفيفة فحذفت النون وحركت الباء بالفتح والطارق ما يطرق بالليل والقونس منبت شعر الناصية وهو عظم نابت بين أذني الفرس ثانيها انه منصوب على الحال أي صافحين ثالثها أن يكون مفعولا من أجله وقيل غير ذلك (أن) أي لأن لاجل أن (كنتم قوما مسرفين) أي مشركين لانفعل ذلك وهو في الحقيقة علة مقتضية

الصبر على مكروه حدث بلا ظلم كوت ولد كان العزم على الاول اوكد منه على الاول او على الثاني وما هنا من القبيل الاول فكان انسب بالتوكيد

لترك الاعراض وقرأ نافع وحمزة والكسائى بكسر الهمزة على ان الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك استجهالا لهم وما قبلها دليل الجزاء وقرأ الباقون بفتحها ولما ذكر تعالى تأنيسا للنبى صلى الله عليه وسلم وتأسية وتعزية وتسلية قوله سبحانه وتعالى (وكم أرسلنا) اى على مالنا من العظمة (من نبى فى الاولين) اى فى الامم الماضية ثم حكى حالهم الماضية بقوله تعالى (وما) اى والحال انه ما (يأتيهم) وأغرق فى النفى بقوله تعالى (من نبى) اى فى أمة بعد أمة أو زمان بعد زمان (الا كانوا) اى خلقا وطبعا (به يستهزؤن) كما استهزأ قومك بك فلا ينبغى أن تتأذى من قومك بسبب تكذيبهم واستهزائهم لان المصيبة اذا عمت خفت * (تنبيه) * كم خبرية مفعول مقدم ومن نبى تمييز وفى الاولين متعلق بالارسال او بمحذوف على انه صفة لنبى (فاهلكنا) اى فتسبب عن الاستهزاء بالرسل انا أهلكنا (أشد منهم) اى من قريش الذين يستهزؤن بك (بطشا) أى قوة وكان الاصل الاضمار ولكنه اظهر الضمير صارفا أسلوب الخطاب الى الغيبة اقبالا على نبيه صلى الله عليه وسلم تسلية له وابلاغا فى وعيدهم (ومضى) أى سبق فى آيات الله (مثل) اى صفة (الاولين) فى الاهلاك وفى ذلك وعد للرسول صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم بمثل ما جرى على الاولين واللام فى قوله تعالى (ولئن) لام قسم (سألتهم) أى سألت قومك (من خلق السموات) على علوها وسعتها (والارض) على كثرة عجائبها وعظمها وقوله تعالى (ليقولن) حذف منه نون الرفع لتوالى النونات وواو الضمير لالتقاء الساكنين (خلقهن) الذى هو موصوف بانه (العزيز) اى الذى لا يغالب (العليم) بما كان وما يكون *(تنبيه)* هذا الجواب مطابق للسؤال من حيث المعنى اذ لو جاء على اللفظ لجيء فيه بجملة ابتدائية كالسؤال فكان الجواب هنا الله كما فى غيره من الآيات لكنه عدل عنه الى المطابقة المعنوية مكررا للفعل تاكيدا لاغراقهم زيادة فى توبيخهم وتنبيها على عظم غلطهم * ولما تم الاخبار عنهم ابتدأ الادلة على نفسه بذكر مصنوعاته فقال تعالى (الذى جعل لكم) ولو كان ذلك قولهم لقالوا الذى (الارض مهادا) اى فراشا قارة ثابتة كالمهد للصبى ولو شاء لجعلها متزلزلة لا يثبت فيها شئ كما ترون من بعض الجبال فلا انتفاع بها الا لما حصل لكونها او اقتنة ما كنة فانها لو كانت متحركة ما أمكن الانتفاع بها فى الزراعة والابنية وستر عيوب الاحياء والاموات ولان المهد موضع راحة الصبى فكانت الارض مهادا لكثرة ما فيها من الراحات وقرأ الكوفيون بفتح الميم وسكون الهاء والباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعد الهاء (وجعل لكم فيها سبلا) اى طرقا تسلكونها وذلك ان انتفاع الناس انما يكمل اذا سعوا فى أقطار الارض فهيأ تعالى تلك السبل ووضع عليها علامات ليحصل الانتفاع ولو شاء لجعلها بحيث لا يسلك فى مكان منها كما جعل بعض الجبال كذلك ثم ذكر الغاية فى ذلك فقال تعالى (لعلكم تهتدون) أى لكى تهتدوا الى مقاصدكم فى الاسفار وغيرها فتتوصلون بها الى الاقطار الشاسعة والاقاليم الواسعة او لتهتدوا الى الحق فى الدين (والذى نزل) اى بحسب التدريج ولولا قدرته تعالى الباهرة لكان دفعة واحدة وقريبا منها (من السماء) اى المحل العالى (ماء) أى لزرعكم وثماركم وشرابكم بانفسكم وانعامكم (بقدر) اى بقدر حاجتكم اليه من غير زيادة ولا نقصان لا كما نزل على قوم نوح بغير قدر حتى اغرقهم (فانشرنا) اى احيينا (به) اى الماء (بلدة) أى

وماقى اقسمان من القبيل الثانى فكان انسب بعدمه (قوله يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور) ان قلت لم قدم الاناث مع •

مكانا يجتمع فيه للاقامة يعتنون باحيائه يتعاونون على دوام ابقائه (ميتا) اى كان قد يبس نباته وعجز اهله عن ايصال ماء اليه ليصيبه قال البقاعي ولعله أنث البلد وذكر الميت اشارة الى ان بلوغها في الضعف والموت بالغ الغاية بضعف ارضه في نفسها او ضعف اهله عن احيائه (كذلك) اى مثل هذا الاخراج العظيم الذى شاهدتموه في النبات (تخرجون) من قبوركم أحياء والمعنى ان هذا الدليل كما دل على قدرة الله تعالى وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ووجه التشبيه أنه جعلهم احياء بعد الاماتة كهذه الارض التى انتشرت بعد ما كانت ميتة وقيل بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الارض بماء كالمنى كما تنبت الارض بماء المطر قال ابن عادل وهذا ضعيف لان ظاهر اللفظ الاشارة الاعادة فقط دون هذه الزيادة * ثم شرع تعالى في اكمال ما تقتضيه الحال من الاوصاف فقال عز من قائل (والذى خلق الازواج) أى الاصناف المتشاكلة التى لا يكمل شئ منها غاية الكمال الا بالآخر على ما دبره سبحانه في نظم هذا الوجود (كلها) من النبات والحيوان وغير ذلك من سائر الكون لم يشاركه في شئ منها احد وقال ابن عباس رضى الله عنهما الازواج الضروب والانواع كالحلو والحامض والابيض والاسود والذكر والانثى وقال بعض المحققين كل ما سوى الله تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضى والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف وكونها ازواجا يدل على انها ممكنة الوجود في ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم فاما الحق تعالى فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد فلهذا قال تعالى والذى خلق الازواج كلها فهو مخلوق فدل هذا على ان خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية قال الرازى وايضا علماء الحساب يثبتون ان الفرد افضل من الزوج من وجوه الاول ان الاثنين لا توجد الا عند حصول وحدتين فالزوج محتاج الى الفرد والفرد هو الوحدة وهى غنية عن الزوج والغنى أفضل من المحتاج الثانى ان الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد لا يقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة فكان الفرد افضل من الزوج ثم ذكر وجوها أخر تدل على ان الفرد افضل من الزوج واذا كان كذلك ثبت ان الازواج ممكنات ومخلوقات وان الفرد هو القائم بذاته المستقل بنفسه الغنى عما سواه (وجعل لكم من الفلك) اى السفن العظام في البحر (والانعام) كالابل في البر (ما تركبون) وحذف العائد لفهم المعنى تغليبا للمتعدى بنفسه في الانعام على المتعدى بواسطة في الفلك والعائد مجرور في الاول اى فيه منصوب في الثانى وذكر الضمير وجمع الظهور في قوله تعالى (لتستووا على ظهوره) نظر اللفظ ما ومعناها ولما أتم النعمة بخلق ما تدعو اليه الحاجة وجعله على وجه دال على ما له من الصفات ذكر ما ينبغى ان تكون من غايتها على ما هو المتعارف بينهم من شكر المنعم فقال دالا على عظم قدر النعمة وبعد غايتها وعلو أمر الذكر بحرف التراخى (ثم تذكروا) اى بقلوبكم وصرف القول الى وجه التربية حثا على تذكر احسانه للانتهاء عن كفرانه والاقبال على شكرانه فقال تعالى (نعمة ربكم) اى الذى احسن اليكم بنعمة تسخيرها لكم وما تعرفونه من غيرها (اذا استويتم عليه) اى على ما تركبونه وذلك الذكر هو ان يعرف أن الله تعالى خلق البحر وخلق الرياح وخلق جرم السفينة على وجه يمكن الانسان من

ان حقه من التأخير ولم يعرف الذكر دونهن (قلت) لان الآية سيقت لبيان عظمة ملكه ونفاذ مشيئته وانه فاعل ما يشاء لا ما يشاؤه

تصريف هذه السفينة الى اى جانب شاء فاذا تذكر ان خلق البحر وخلق الرياح وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصرف الانسان ولتحريكاته اياها من تدبير الحكيم العليم القدير عرف ان ذلك نعمة من الله تعالى فيحمله ذلك على الانقياد لطاعة الله تعالى وعلى الاشتغال بالشكر لنعم الله تعالى التى لانهاية لها ولما كان تذكر النعمة يبعث الجنان واللسان والاركان على الشكر لمن أسداها قال عز من قائل (وتقولوا) اى بالسنتكم جمعا بين القلب واللسان (سبحان الذى سخر) أى بعلمه الكامل وقدرته التامة (لنا هذا) أى الذى ركبناه سفينة كانت أودابة (وما) أى والحال أنا ما (كنا له مقرنين) ى مطيقين والمقرن المطيق للشئ الضابط له من أقرنه اى أطاقه قال الواحدى كان اشتقاقه من قولك صرت له قرنا ومعنى قرن فلان أى مثله فى الشدة وقيل ضابطين وقال أبو عبيدة قرن لفلان أى ضابط له والقرن الحبل ومعنى الآية ليس عندنا من القوة والطاقة ان نقرن هذه الدابة والفلك وان نطيقهما فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته وحكمته روى الزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا وضع رجله فى الركاب قال بسم الله فاذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون وروى أحمد وأبو داود والترمذى وقال حسن صحيح عن على رضى الله عنه أنه وضع رجله فى الركاب وقال فقال بسم الله فلما استوى على الدابة قال الحمد لله سبحان الذى سخر لنا هذا الآية ثم حمد ثلاثا وكبر ثلاثا ثم قال لا اله الا الله ظلمت نفسى فاغفر لى انه لايغفر الذنوب الا أنت ثم ضحك فقيل مم تضحك يا أمير المؤمنين قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ما فعلت فقلنا ما يضحكك يا رسول الله قال ان ربك يعجب من عبده اذا قال العبد لا اله الا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى انه لايغفر الذنوب الا أنت ويقول علم عبدى انه لايغفر الذنوب غيرى وروى أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أردفه على دابة فلما استقر عليها كبر ثلاثا وحمد الله تعالى ثلاثا وسبح الله ثلاثا وهلل الله تعالى واحدة وضحك ثم أقبل عليه فقال مامن امرئ مسلم ركب دابة فيصنع كما صنعت الا أقبل الله عليه يضحك اليه كما ضحكت اليك * ولما كان راكب الفلك فى خطر الهلاك وراكب الدابة كذلك أيضا لان الدابة قد يحصل لها ما يوجب هلاك الراكب وكذا السفينة قد تنكسر فوجب على الراكب أن يذكر أمر الموت ويقول (وانا الى ربنا) المحسن الينا بالاقدار على هذه التنقلات على هذه المراكب لا الى غيره (لمنقلبون) أى لصائرون بالموت وما بعده الى الدار الآخرة انقلابا بالاياب معه الى هذه الدار فالآية منبهة بالسير الدنيوى على السير الاخروى وأكد لاجل انكارهم البعث * ولما قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله (١) بين انهم مع اقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزأ كما قال تعالى (وجعلوا له من عباده) الذين أبدعهم كما أبدع غيرهم (جزأ) أى ولدا هو لحصرهم فى الانثى أحد قسمى الاولاد وكل ولد فهو جزء من والده قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة منى ومن كان له جزء كان محتاجا فلم يكن الها وذلك لقولهم الملائكة بنات الله فثبت بذلك طيش عقولهم وسخافة آرائهم وقرأ شعبة بضم الزاى والباقون بسكونها وهما لغتان واذا وقف حمزة نقل حركة الهمزة الى الزاى * ولما كان

عبيده كما قال انما كان امره اذا اراد ولما كان الاناث مما لا يشاؤه العباد قدمهن فى الذكر ايذانا بنفوذ ارادته ومشيئته وانفراده بالامر

(١) قوله ليقولن الله الذى فى هذه السورة خلقهن العزيز العليم اه

هذا في غاية الغلط من الكفر قال مؤكداً لانكارهم أن يكون كفراً (ان الانسان) أي هذا النوع الذي هو بعضه (لكفور مبين) أي بين الكفر في نفسه مناد عليها بالكفر وقوله تعالى (أم اتخذ) أي أعالج هو نفسه فاتخذه بعد المعالجة وهو خالق الخلق كلهم (مما يخلق) أي يجدد ابداعه في كل وقت (بنات) استفهام توبيخ وانكار أي فلم يقدر بعد التكلف والتعب على غير البنات التي هي أبغض الجزأين اليكم ثم عطف على قوله تعالى اتخذ ليكون منفياً على أبلغ وجه لكونه في حيز الانكار (وأصفاكم) وهو السيد الكامل وأنتم عبيده أي خصكم (بالبنين) اللازم من قولكم السابق ثم بين كون البنات أبغض اليهم بقوله تعالى (واذا) أي جعلوا ذلك والحال انه اذا (بشر) أي من أي مبشر كان (أحدهم) أي أحد هؤلاء البعداء البغضاء (بما ضرب) أي جعل (للرحمن) الذي لا نعمة على شيء من الخلق الا وهي منه (مثلاً) أي شبهاً بنسبة البنات اليه لان الولد يشبه الوالد والمعنى اذا أخبر أحدهم بانها بنت تولد له (ظل) أي صار (وجهه مسوداً) أي شديد السواد لما يعتريه من الكآبة (وهو كظيم) أي ممتلئ غماً فكيف تنسب البنات اليه تعالى هذا ما لا يرضى عاقل ان يرتكبه فضلاً عن ان يتفوه به وقوله تعالى (أو من ينشأ) أي على ما جرت به عوائدكم (في الحلية) يجوز فيه من وجهان أحدهما أن تكون في محل نصب مفعولاً بفعل مقدر أي أو يجعلون من ينشأ في الحلية والثاني انه مبتدأ وخبره محذوف تقديره أو من ينشأ جزء أو ولداً وجعلوه له جزأ والمعنى ان التي تتزين في الحلية تكون ناقصة الذات لانه لولا نقصها في ذاتها لما احتاجت الى تزيين نفسها بالحلية وقرأ حمزة والكسائي وحفص بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين أي يربى والباقون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين وادا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفاً ولهما أيضاً تسهيلها والروم والاشمام ثم بين نقصان حالها بطريق آخر بقوله تعالى (وهو) أي والحال انه وقدم في افادة الاهتمام قوله تعالى (في الخصام) أي المجادلة اذا احتيج اليها فيها (غير مبين) أي مظهر حجته لضعفهن بالانوثة قال قتادة في هذه الآية قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها الا تكلمت بالحجة عليها ثم بين تعالى جراءتهم على ما لا ينبغي لعاقل أن يتفوه به بقوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم) متصفون باشرف الاوصاف وهو انهم (عباد الرحمن) أي العام النعمة الذين ما عصوه طرفة عين (اناثاً) وذلك أدنى الاوصاف خلقاً وخلقاً انا وصفة فهذا كفر ثالث كالكفرين قبله وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بكسر العين وبعدها نون ساكنة ونصب الدال والباقون بعد العين باء موحدة مفتوحة وبعدها ألف ورفع الدال ثم قال تعالى تهكماً بهؤلاء القائلين ذلك وتوبيخاً لهم وانكاراً عليهم (أشهدوا) أي أحضروا (خلقهم) أي خلق اياهم تشاهدوهم اناثاً فان ذلك مما يعلم بالمشاهدة وقرأ نافع بهمزتين الاولى مفتوحة والثانية مضمومة مسهلة كالواو وسكون الشين وادخل قالون بينهما الفا ولم يدخل ورش والباقون بهمزة واحدة مفتوحة وفتح الشين (ستكتب) بكتابة من وكلناهم بهم من الحفظة الذين لا يعصون ولا تفوتهم نقدرهم على جميع ما نأمرهم به (شهادتهم) أي قولهم فيهم انهم اناث الذي لا ينبغي أن يكون الا بعد تمام المشاهدة فهو قول ركيك سخيف ضعيف كما أشار اليه التأنيث (ويسئلون) عنها عند الرجوع الينا قال

ونكرهن وعرف الذكور لانحطاط رتبتهن لئلا تظن ان التقديم كان لاحقه به ثم اعطى كل جنس حقه من التقديم والتأخير ليعلم

الكلبي ومقاتل لما قالوا هذا القول سألهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما يدريكم انهم اناث قالوا سمعنا من آبائنا ونحن نشهد انهم لم يكذبوا فقال تعالى ستكتب شهادتهم ويسئلون عنها في الآخرة هذا يدل على أن القول بغير دليل منكر وأن التقليد حرام يوجب الذم العظيم قال المحققون هؤلاء الكفار كفروا في هذا القول من ثلاثة أوجه أولها اثبات الولد ثانيها أن ذلك الولد بنت ثالثها الحكم على الملائكة بالانوثة *(تنبيه)* قال البقاعي يجوز أن يكون في السين استعطاف الى التوبة قبل كتابة ما قالوا ولا علم لهم به فانه قد روى أبو امامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح الله أو يستغفره ثم نبه سبحانه على أنهم عبدوهم مع ادعاء الانوثة فيهم فقال تعالى معجبا منهم في ذلك وفي جعل قولهم حجة دالة على صحة مذهبهم وهو من أوهى الشبه (وقالوا) أي بعد عبادتهم اياهم ونهيهم عن عبادة غير الله تعالى (لو شاء الرحمن) أي الذي له عموم الرحمة (ما عبدناهم) أي الملائكة فعبادتنا اياهم بمشيئته فهو راض بها ولولا أنه راض بها لعجل لنا العقوبة فاستدلوا بنفي مشيئة عدم العبادة على الرضا بها وذلك باطل لان المشيئة ترجيح بعض الممكنات على بعض مأمورا كان أو منهيا حسنا كان أو غيره ولذلك جهلهم فقال تعالى (ما لهم بذلك) أي المقول من الرضا بعبادتها (من علم ان) أي ما (هم الا يخرصون) أي يكذبون في هذه النتيجة التي زعموا أنها دلتهم على رضا الله تعالى بكفرهم فيترتب عليهم العقاب * ولما بين تعالى بطلان قولهم بالعقل أتبعه بطلان قولهم بالنقل فقال تعالى (أم آتيناهم) أي على ما لنا من العظمة (كتابا) أي جامعا لما يريدون اعتقاده من أقوالهم هذه (من قبله) أي القرآن أخبرناهم فيه أنا جعلنا الملائكة اناثا وانا لا نرضى الا ما هو حق نرضاه ونأمر به (فهم به) أي فتسبب عن هذا الاتيان أنهم به وحده (مستمسكون) أي موجدون الاستمساك به فيأخذون بما فيه لم يقع ذلك * ولما بين تعالى أنه لا دليل لهم على صحة قولهم البتة لا من العقل ولا من النقل بين أنه لا حامل لهم يحملهم عليه الا التقليد بقوله تعالى (بل قالوا انا وجدنا آباءنا) أي وهم أرجح منا عقولا وأصح منا أفهاما (على أمة) أي طريقة عظيمة يحق لها أن تقصد وتؤم ثم أكدوا قطعا لرجاء المخالف عن انثنائهم عن ذلك فقالوا (وانا على آثارهم) أي خاصة لا غيرها (مهتدون) أي متبعون فلم نأت بشيء من عند أنفسنا ولا غلطنا في الاتباع واقتفاء الآثار فلا اعتراض علينا بوجه هذا قولهم في الدين بل في أصوله التي من ضل في شيء منها هلك ولو ظهر لاحد منهم خلل في سعي أبيه الدنيوي الذي به يحصل الدينار والدرهم ما اقتدى به أصلا وخالفه أي مخالفة ما هذا الا قصور نظر ومحض عناد ثم أخبر تعالى أن غيرهم قال هذه المقالة بقوله سبحانه (وكذلك) أي ومثل هذه المقالة المتناهية في البشاعة فعلت الامم الماضية مع اخوانك الانبياء عليهم السلام ثم فسر ذلك بقوله تعالى (ما أرسلنا) أي مع ما لنا من العظمة (من قبلك) أي في الازمنة السالفة (في قرية) وأغرق في النفي بقوله تعالى (من نذير) وبين به أن موضع الكراهة والخلاف الانذار على مخالفة الاهواء (الا قال مترفوها) أي أهل الترفة بالضم وهي النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف يكون خاصا

(قوله ما كنت تدرى
ان تقدمهن لم يكن
تقدمهن بل اقتضى فقال
انا ذكرانا وانانا كما قال انا
خلقناكم من ذكر وانثى

بالترف وذلك موجب لقلة الهمم وللراحة والبطالة (إنا وجدنا آباءنا) أي وهم أعرف منا بالأمور (على أمة) أي أمر جامع يستحق أن يقصد ويؤم ثم أكدوا كما أكد هؤلاء فقالوا (وإنا على آثارهم) أي لا على غيرها (مقتدون) أي راكبون سنن طريقتهم لازمون لها وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (قل) أي يا أفضل الخلق لهؤلاء البعداء البغضاء (أولو) أي أتتبعون ذلك ولو (جئتكم بأهدى) أي بأمر أعظم في الهداية وأوضح في الدلالة (مما وجدتم) أيها المقتدون بالآباء (عليه آباءكم) أي كما تضمن قولكم إنكم تقتفون في اتباعكم بالآثار في أعظم الأشياء وهو الدين الذي الخسارة فيه خسارة للنفس وأنتم تخالفونهم في أمر نفس الدنيا إذا وجدتم طريقا أهدى في التصرف فيها من طريقتهم ولو أمر أبيهم أو يفتخر أحدكم بأنه أدرك من ذلك ما لم يدرك أبوه فحصل من المال أكثر مما حصل فيسأله من نظر ما أقصره ومتجر ما أخسره وقرأ ابن عامر وحفص قال بصيغة الماضي أي قال المنذر أو الرسول وهو النبي صلى الله عليه وسلم والباقون قل بصيغة الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ثم أجابوه بأن (قالوا) مؤكدين رد ما قطع به كل عاقل مع هذا الكلام من أنهم يبادرون إلى النظر في الدليل والرجوع إلى سواء السبيل (إنا بما أرسلتم به) أي أنت ومن قبلك (كافرون) أي ساترون ما ظهر من ذلك جهدنا حتى لا يظهر لأحد ولا يتبعكم فيه مخلوق وإن كان أهدى مما كان عليه آباؤنا فعند هذا لم يبق لهم عذر فلهذا قال تعالى (فانتقمنا) أي بما لنا من العظمة التي استحقوا بها (منهم) فأهلكناهم بعذاب الاستئصال ثم عظم أمر النقمة بالأمر بالنظر فيها في قوله (فانظر) يا أفضل الرسل (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (المكذبين) لرسلنا فإنهم أهلكوا أجمعون ونجا المؤمنون أجمعون فليحذر من رد رسالتك من مثل ذلك وهذا تهديد عظيم لكفار قريش * ثم بين تعالى وجها آخر يدل على فساد التقليد بقوله تعالى (وإذ) أي واذكر يا أفضل الخلق إذ (قال إبراهيم) أي الذي هو أعظم آبائهم ومحط فخرهم والمجمع على محبته وحقية دينه منهم ومن أهل الكتاب وغيرهم (لأبيه) من غير أن يقلده كما قلدتم أنتم آباءكم (وقومه) الذين كانوا هم القوم في الحقيقة لاحتوائهم على ملك جميع الأرض (إنني براء) أي بريء (مما تعبدون) أي في الحال والاستقبال (إلا الذي فطرني) أي خلقني (فإنه سيهدين) أي يرشدني لدينه ويوفقني لطاعته * (تنبيه) * في هذا الاستثناء أوجه أحدها أنه استثناء منقطع لأنهم كانوا عبدة أصنام فقط ثانيها أنه متصل لأنه روي أنهم كانوا يشركون مع الباري غيره ثالثها أن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن تكون ما نكرة موصوفة قاله الزمخشري قال أبو حيان وإنما أخرجها في هذا الوجه عن كونها موصولة لأنه يرى أن إلا بمعنى غير لا يوصف بها إلا النكرة وفيها خلاف وعلى هذا يجوز أن تكون ما موصولة وإلا بمعنى غير صفة لها (وجعلها) أي إبراهيم (كلمة) أي كلمة التوحيد المفهومة من قوله إني ذاهب إلى ربي سيهدين (باقية في عقبه) أي ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى لأنه عليه السلام مجاب الدعوة وقال ومن ذريتي ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم (لعلهم) أي أهل مكة (يرجعون) عما هم عليه إلى دين أبيهم فإنهم إذا ذكروا أن أباهم الأعظم الذي بنى لهم البيت وأورثهم الفخر قال ذلك تابعوه قال الله تعالى

ما الكتاب ولا الايمان) المراد بالايمان هنا شرائع الاسلام والاحكام كالصلاة والصوم والا فالانبياء مؤمنون بالله قبل ان يوحى اليهم بادلة

(بل متعت هؤلاء) اى الذين بحضرتك من المشركين واعداء الدين (وآباءهم) أى مددت لهم في الاعمار مع اسباغ النعم وسلامة الابدان من البلايا والنقم ولم أعاجلهم بالعقوبة فابطرتهم نعمتى وتمادى بهم ركوب ذلك الباطل (حتى جاءهم الحق) أى القرآن (ورسول مبين) اى مظهر لهم الاحكام الشرعية وهو محمد صلى الله عليه وسلم (ولما جاءهم الحق) أى الكامل فى حقيقته بمطابقة الواقع اياه من غير الباس ولا اشتباه وهو القرآن العظيم (قالوا) مكابرة وعنادا وحسدا من غير وقفة ولا تأمل (هذا) مشيرين الى الحق الذى يطابقه الواقع فلا شئ أثبت منه وهو القرآن الكريم (سحر) أى خيال لا حقيقة له (وانا به كافرون) أى عريقون فى ستره بخصوصه حتى لا يعرفه أحد ولا يكون له تابع * ثم ذكر تعالى نوعا آخر من كفرهم بقوله تعالى (وقالوا لولا) أى هلا (نزل) يعنى من المنزل الذى ذكره محمد صلى الله عليه وسلم وعينوا مرادهم ونفوا اللبس فقالوا (هذا القرآن) أى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وادعى انه جامع لكل خير (على رجل من القريتين) أى مكة والطائف (عظيم) لانهم قالوا منصب الرسالة منصب شريف فلا يليق الا برجل شريف وصدقوا فى ذلك الا انهم ضموا اليه مقدمة فاسدة وهى أن الرجل الشريف عندهم هو الذى يكون كثير المال والجاه ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلك فلا تليق رسالة الله تعالى به وانما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال يعنون الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود بالطائف قاله قتادة وقال مجاهد عتبة بن ربيعة من مكة وعبد ياليل الثقفى من الطائف وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو الوليد بن المغيرة من مكة ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى * (تنبيه) * قوله تعالى من القريتين فيه حذف مضاف قدره بعضهم من رجلى القريتين وقيل من احدى القريتين وقيل المراد عروة بن مسعود الثقفى كان بالطائف وكان يتردد بين القريتين فنسب الى كليهما ثم رد الله تعالى عليهم اعتراضهم منكرا عليهم وجهالهم بما معناه أنه ليس الامر مردودا ولا موقوفا عليهم بل الى الله تعالى وحده والله أعلم حيث يجعل رسالاته بقوله تعالى (أهم) أى أهؤلاء الجهلة العجزة (يقسمون) اى على التجدد والاستمرار (رحمت ربك) اى اكرام المحسن اليك وانعامه وتشريفه بانواع اللطف والبر واعظامه بما ربك له من تخصيصك بالارسال اليهم لانقاذهم من الضلال وجعلك وانت أفضل العالمين الرسول اليهم فقضلوا بفضيلتك مع انك اشرفهم نسبا وانقاهم حسبا واعظمهم عقلا وأصفاهم لبا وارجحهم قلبا ليتصرفوا فى تلك الرحمة التى هى روح الوجود وسر الامر لا بحسب شهواتهم وهم لا يقدرون على التصرف فى المتاع الزائل مثل ذلك كما قال تعالى (نحن قسمنا) بما لنا من العظمة (بينهم) اى فى الامر الزائل الذى يعمهم ويجب تخصيص كل منهم بما لديه (معيشتهم) اى التى يعدونها رحمة ويقصرون عليها النعمة (فى الحيوة الدنيا) التى هى ادنى الاشياء عندنا واشار بتأنيثها الى انها حياة ناقصة لا يرضاها عاقل واما الآخرة فعبر عنها بالحيوان لانا لو تركنا قسمها اليهم اتلفوا على ذلك فلم يبق منهم احد فكيف يدخل فى الوهم أن نجعل اليهم شيأ من الكلام فى امر النبوة التى هى روح الوجود وبها سعادة الدارين (ورفعنا) أى بما لنا من نفوذ الامر (بعضهم) وان كان ضعيف البدن قليل العقل (فوق بعض) وان كان قويا غزير العقل

وقيل المراد
عقوامهم الكلمة التى بها
بالايمان والتوحيد
دعوة الايمان
وهى لا اله الا الله محمد
رسول الله والايمان بهذا

(درجات) في الجاه والمال ونفوذ الامر وعظم القدر لينتظم حال الوجود فانه لابد في انتظامه من تشارك الموجودين وتعاونهم فقاوتنا بينهم في الجثث والقوى والهمم ليقتسموا الصنائع والمعارف ويكون كل ميسرا لما خلق له وجانحا لما هي اتعاطيه فلم يقدر احد من دني أو غني ان يعدو قدره ويرتقي فوق منزلته ثم علل ذلك بما ثمرته عمارة الارض بقوله تعالى (ليتخذ) أي بغاية جهده (بعضهم بعضا سخريا) أي ليستخدم بعضهم بعضا فيسخر الاغنياء باموالهم الاجراء الفقراء بالعمل فيكون بعضهم سببا للمعاش بعض هذا بماله وهذا باعماله فيلتئم قوام العالم لان المقادير لو تساوت لتعطلت المعايش فلم يقدر احد منهم أن ينفك عما جعلناه اليه من هذا الامر الدني فكيف يطمعون في الاعتراض في أمر النبوة أيتصور عاقل أن تتولى قسم لناقص ونكل العالي الى غيرنا قال ابن الجوزي فاذا كانت الارزاق بقدر الله تعالى لا بحول المحتال وهي دون النبوة فكيف تكون النبوة اه وهذا هو المراد بقوله تعالى صارفا القول عن مظهر العظمة الى الوصف بالاحسان اظهارا لشرف النبي صلى الله عليه وسلم (ورحمت ربك) أي المربي لك والمدبر لامرك بارسالك وانارة الوجود برسالتك التي هي اعظمها اجديرة بان تضاف اليه ولا يسمى غيرها رحمة (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا الفاني فانه وان كان فيه خير في استعماله في وجوه البر بشرطه فهو بالنسبة الى النبوة وما قارنها مما دعا الى الاعراض عن الدنيا متلاش وقيل المراد بالرحمة الجنة وجرى عليه البغوي وتبعه الجلال المحلي وابن عادل وجرى على الاول البيضاوي وتبعه البقاعي وهو الظاهر من الآية الكريمة *(فائدة)* اتفق القراء هنا على قراءة سخريا بضم السين ثم بين تعالى حقارة الدنيا وخستها التي يفتخرون بها بقوله تعالى (ولولا أن يكون الناس) أي أهل القنع بالاموال بما فيهم من الاضطراب والانس بأنفسهم (أمة واحدة) أي في الضلال بالكفر لاعتقادهم ان اعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه لحبهم الدنيا وجعلها محط أنظارهم وهمهم الامن عصمه الله تعالى (لجعلنا) أي في كل زمان وكل مكان بما لنا من العظمة التي لا يقدر أحد على معارضتها لحقارة الدنيا عندنا وبغضنا لها (لمن يكفر) وقوله تعالى (بالرحمن) أي العام الرحمة دليل على حقارة الدنيا من جهة اعطائها الابعد المقوت وعلى ان صفة الرحمة مقتضية لتناهي بسط النعم على الكافر لولا العلة التي ذكرها الله تعالى من الرفق بالمؤمنين وقوله تعالى (لبيوتهم) بدل من لمن بدل اشتمال باعادة العامل واللامان للاختصاص (سقفا من فضة) قال البقاعي كأنه خصها أي الفضة لافادتها النور وقرأ أبو عمرو وورش وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو سقفا بفتح السين وسكون القاف على ارادة الجنس والباقون بضمهما جمعا وقوله تعالى (ومعارج) جمع معرج وهو السلم أي من فضة أيضا وسميت المصاعد من الدرج معارج لان المشي عليها مثل مشي الاعرج (عليها) خاصة لتيسر أمرها لهم (يظهرون) أي يعلون ويرتقون على ظهرها الى المعالي (ولبيوتهم أبوابا) أي من فضة أيضا وقوله تعالى (وسررا) أي من فضة جمع سرير ودل على هدوبالهم وصفاء أوقاتهم وأحوالهم بقوله تعالى (عليها يتكئون) ودل على ما هو أعظم من الفضة بقوله تعالى (وزخرفا) أي ذهبا وزينة كاملة عامة *(تنبيه)* زخرفا يجوز أن يكون منصوبا بجعل أي وجعلنا لهم زخرفا وجوز الزمخشري أن ينتصب عطفا على محل من فضة

التفسير انما هو بالوحي لا بالعقل

(سورة الزخرف)

(قوله انا جعلناه قرآنا عربيا) *ان قلت القرآن

كأنه قيل سقفا من فضة وذهب فلما حذف الخافض انتصب أي بعضها كذا وبعضها كذا وقيل الزخرف هو الذهب لقوله تعالى أو يكون لك بيت من زخرف فيكون المعنى ويجعل لهم مع ذلك ذهبا كثيرا وقيل الزخرف الزينة لقوله تعالى حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت فيكون المعنى نعطيهم زينة عظيمة في كل باب (وان كل ذلك) أي البعيد من الخير لكونه في الاغلب مبعدا عما يرضينا (لما متاع الحيوة الدنيا) أي التي اسمها دال على دناءتها يتمتع به فيها ثم يزول وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم بعد اللام بمعنى الا حكى سيبويه أنشدتك بالله لما فعلت بمعنى الا وتكون ان نافية أي وما كل ذلك الا متاع الحياة الدنيا وقرأ الباقون بالتخفيف فتكون ان هي المخففة من الثقيلة أي وانه كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا (والآخرة) أي الجنة التي لا دار تعدلها بل لا دار في الحقيقة الا هي (عند ربك) أي المحسن اليك بان جعلك أفضل الخلق (للمتقين) أي الذين هم دائما واقفون عن أدنى تصرف الا بدليل لا يشاركهم فيها غيرهم من الكفار ولهذا البلاد كر عمر رضي الله عنه كسرى وقيصر وما كانا فيه من النعم قال النبي صلى الله عليه وسلم ألا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة وقال صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر قطرة ماء وروى المستورد بن شداد قال كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة الميتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترى هذه هانت على أهلها حتى ألقوها قالوا من هوانها ألقوها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وعن قتادة بن النعمان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبده حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء قال البقاعي ولا يبعد أن يكون ما صار اليه الفسقة والجبابرة من زخرفة الابنية وتذهيب السقوف وغيرها من مبادي الفتنة بأن يكون الناس أمة واحدة في الكفر قرب الساعة حتى لا تقوم الساعة على من يقول الله أو في زمن الدجال لان من يبقى اذ ذاك على الحق في غاية القلة بحيث انه لا عداد لهم في جانب الكفرة لان كلام الملوك لا يخلو عن حقيقة وان خرج مخرج الشرط فكيف بملك الملوك سبحانه (فان قيل) لم بين تعالى انه لو فتح على الكافر أبواب النعم لصار ذلك سببا لاجتماع الناس على الكفر فلم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير سببا لاجتماع الناس على الاسلام (أجيب) بأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الاسلام لطلب الدنيا وهذا الايمان ايمان المنافقين فاقتضت الحكمة أن لا يجعل ذلك للمسلمين حتى ان كل من دخل في الاسلام يدخل لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى (ومن يعش) أي يعرض (عن ذكر الرحمن) أي الذي عمت رحمته فلا رحمة على أحد الا وهي منه تعالى كما فعل هؤلاء حين متعناهم وآباءهم حتى أبطرهم ذلك وهو شيء يسير جدا فأعرضوا عن الآيات والدلائل فلم ينظروا فيها الا نظرا ضعيفا كنظر من عشا بصره وهو من ساء بصره بالليل والنهار (نقيض) أي نسبب (له) عقابا على اعراضه عن ذكر الله تعالى (شيطانا) أي شخصا ناريا بعيدا من الرحمة يكون غالبا عليه محيطا به مثل قيض البيضة وهو القشر الداخل (فهو له قرين) أي مشدود به لا يفارقه فلا يمكنه الخلاص منه مادام متعاميا عن ذكر الله تعالى

ليس بمجعول لان الجعل هو الخلق فعلم ويقال قلناه أو انزلناه (قلت) الجعل يأتي بمعنى القول أيضا كقوله ويجعلون لله البنات وقوله

فهو يزين له العمى ويخيل اليه أنه على عين الهدى كما أن من يستبصر بذكر الرحمن يحضره ملك فهو له ولي يشيره الى كل خير فذكر الله تعالى حصن حصين من الشيطان الرجيم متى خرج العبد منه أسره العدو كما ورد في الحديث (وانهم) أي القرناء (ليصدونهم) أي العاشين (عن السبيل) أي الطريق الذي من حاد عنه هلك لانه لا طريق له في الحقيقة سواه (ويحسبون) أي العاشون مع سبرهم في المهالك لتزيين القرناء باحضار الحظوظ والشهوات وابعاد المواعظ (أنهم مهتدون) أي عريقون في هذا الوصف لما يستدرجون به من التوسعة عليهم والتضييق على الذاكرين * (تنبيه) * ذكر الانسان والشيطان بلفظ الجمع لان قوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين يفيد الجمع وان كان اللفظ على الواحد قال أبو حيان الظاهر أن ضميري النصب في وانهم ليصدونهم عائدان على من من حيث معناها وأما لفظها أولا فافرد في له ولهم ثم راعى معناها فجمع في قوله تعالى وانهم ليصدونهم والضمير المرفوع على الشيطان لان المراد به الجنس ولان كل كافر معه قرينه وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها وقرأ (حتى اذا جاءنا) نافع وابن عامر وأبو بكر بمد الهمزة بعد الجيم على التثنية أي جاء العاشي والشيطان والباقون بغير مد افرادا أي جاء العاشي (قال) أي العاشي تندما وتحسرا الا انتفاع له به لفوات محله وهو دار العمل (ياليت بيني وبينك) أي أيها القرين (بعد المشرقين) أي ما بين المشرق والمغرب على التغليب قاله ابن جرير وغيره أو مشرق الشتاء والصيف أي بعد أحدهما عن الآخر ثم سبب عن هذا التمني قوله جامعا له أنواع المذام (فبئس القرين) والمخصوص بالذم محذوف أي أنت لانك الذي قد أضللتني وأوصلتني الى هذا العيش الضنك والمحل الدحض قال أبو سعيد الخدري اذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصيرا الى النار وفي فاعل قوله تعالى (ولن ينفعكم اليوم) قولان أحدهما انه ملفوظ به وهو أنكم وما في حيزها والتقدير ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب بالتأسي كما ينفعكم الاشتراك في مصائب الدنيا فيتأسى المصاب بمثله ومنه قول الخنساء

ولولا كثرة الباكين حولي * على موتاهم لقتلت نفسي

وما يكون مثل أخي ولكن * أعزي النفس عنه بالتأسي

والثاني انه مضمر فقدره بعضهم ضمير التمني المدلول عليه بقوله ياليت بيني أي لن ينفعكم تمنيكم البعد وبعضهم اجتماعكم وبعضهم ظلمكم وجحدكم وعبارة من عبر بان الفاعل محذوف مقصوده الاضمار المذكور لا الحذف اذ الفاعل لا يحذف الا في مواضع ليس هذا منها والمعنى ولن ينفعكم اليوم في الآخرة (اذ ظلمتم) أي أشركتم في الدنيا (أنكم في العذاب مشتركون) أي لا ينفعكم الاشتراك في العذاب ولا يخفف الاشتراك عنكم لان لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الاوفر من العذاب وقال مقاتل لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم فانتم وقرناؤكم اليوم مشتركون في العذاب كما كنتم تشتركون في الدنيا * (تنبيه) * استشكل المعربون هذه الآية ووجهه أن قوله تعالى اليوم ظرف حالي واذ ظرف ماض وينفعكم مستقبل لاقترانه بلن التي لنفي المستقبل والظاهر أنه عامل في الظرفين وكيف يعمل الحدث المستقبل الذي لم يقع الا بعد في ظرف حالي وماض هذا مما لا يجوز (أجيب) عن اعماله في الظرف

(قوله وجعلوا لله أندادا ... مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون) قاله هنا بلفظ يخرصون وفي الجاثية بلفظ يظنون لان ما هنا

الحالى على سبيل قربه منه لان الحال قريب من الاستقبال فيجوز فى ذلك قال تعالى فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا وقال الشاعر * سأسعى الآن اذ بلغت أناها * وهو اقناعى والا فالمستقبل يستحيل وقوعه فى الحال عقلا وأما قوله تعالى اذ فقيه اللناس أوجه كثيرة قال ابن جنى راجعت أبا على فيها مرارا كثيرة فآخر ما حصلت منه أن الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء فى حكم الله تعالى وعلمه فاذ بدل من اليوم حتى كانه مستقبله أو كأن اليوم ماض والى هذا نحا الزمخشرى قال واذ بدل من اليوم وحمل الزمخشرى على معنى اذ تبين وصح ظلمكم ولم يبق لاحد ولا لكم شبهة فى انكم كنتم ظالمين ونظيره * اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * أى تبين أنى ولد كريمة ولما وصفهم فى الآية المتقدمة بالعشى وصفهم بالصمم والعمى بقوله تعالى (أفأنت) أى وحدك من غير ارادة الله تعالى (تسمع الصم) وقد أصممناهم عاصبينا فى مسامع أفهامهم من رصاص الشقاء (أو تهدى العمى) الذين أعميناهم بما غشينا به أبصار بصائرهم من أغشية الخسارة روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى دعاء قومه وهم لا يزيدون الا تصمما على الكفر وعنادا فى الغى فنزلت أى هم فى النفرة عنك وعن دينك بحيث اذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصم واذا أريتهم المعجزات كانوا كالعمى وقوله تعالى (ومن كان) أى جبلة وطبعا (فى ضلال مبين) عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين وفيه اشعار بان الموجب لذلك تمكنهم فى ضلال لا يخفى بين فى نفسه أنه ضلال وأنه محيط بالضال يظهر لكل أحد ذلك فهو بحيث لا يخفى على أحد فالمعنى ليس شئ من ذلك اليك بل هو الى الله تعالى القادر على كل شئ وأما أنت فليس عليك الا البلاغ فلا تتعب نفسك (فاما نذهبن بك) أى من بين أظهرهم بموت أو غيره وما مزيدة مؤكدة بمنزلة لام القسم فى استجلاب النون المؤكدة (فانا منهم) أى من الذين تقدم التعريض بأنهم بسبب عمى ضلال لم تنفعهم مشاعرهم (منتقمون) أى بعد فراقك لان وجودك بين أظهرهم هو سبب تأخير العذاب عنهم (أو نرينك) وأنت بينهم (الذى وعدناهم) أى من العذاب وعبر فيه بالوعد ليدل على الخير بلفظه وعلى الشر بأسلوبه (فانا) أى بما لنا من العظمة التى أنت أعلم الخلق بها (عليهم) أى على عذابهم (مقتدرون) على كلا التقديرين وأكد بأن لان أفعالهم أفعال من ينكر قدرته وكذا بالاتيان بنون العظمة وصيغة الافتعال (فاستمسك) أى اطلب وأوجد بجد عظيم على كل حال من أحوال الامساك (بالذى أوحى اليك) من حين نبوتك الى الآن فى الانتقام منهم وفى غيره (انك على صراط) أى طريق واسع واضح جدا (مستقيم) أى موصل الى المقصود ولا يصح أصلا أن يلحقه شئ من عوج (وانه) أى الذى أوحى اليك فى الدين والدنيا (لذكر) أى لشرف عظيم جدا وموعظة وبيان (لك ولقومك) قريش خصوصا لنزوله بلغتهم والعرب عموما وسائر من اتبعك ولو كان من غيرهم وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا سئل لمن هذا الامر بعدك لم يخبر بشئ حتى نزلت هذه الآية فكان بعد ذلك اذا سئل لمن هذا الامر بعدك قال لقريش وروى ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال هذا الامر فى قريش ما بقى منهم اثنان وروى معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا الامر فى قريش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين وقال مجاهد القوم هم العرب فالقرآن لهم شرف اذ نزل بلغتهم ثم

متصل بقوله وجعلوا الملائكة الآية أى قالوا الملائكة بنات الله وان الله قد شاء منا عبادتنا اياهم وهذا كذب وناسبه

يختص بذلك الشرف الاخص فالاخص من العرب حتى يكون الاكثر لقريش ولبني هاشم وقيل ذكر لك بما أعطاك من الحكمة ولقومك من المؤمنين بما هداهم الله تعالى به (وسوف تسئلون) أي عن القرآن يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له وقال الكلبي تسئلون هل أديتم شكر انعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل وقال مقاتل يقال لمن كذب به لم كذبت فيسئل سؤال توبيخ وقيل يسئلون هل عملتم بما دل عليه القرآن من التكاليف وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم الى المسجد الاقصى الى السموات العلا بعث له آدم وولده من المرسلين عليهم السلام فأذن جبريل عليه السلام ثم أقام وقال يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل عليه السلام (واسئل من أرسلنا) أي على ما لنا من العظمة (من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن) أي غيره (آلهة يعبدون) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أسأل قد اكتفيت ولست شاكا فيه وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد قالوا جمع له الرسل ليلة أسري به وأمر أن يسألهم فلم يسأل ولم يشك وقال أكثر المفسرين سل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلت اليهم الانبياء عليهم السلام هل جاءتهم الرسل الا بالتوحيد وهو قول مجاهد وقتادة والسدي ولم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم على واحد من القولين لان المراد من الامر بالسؤال التقرير لمشركي قريش انه لم يأت رسول من الله تعالى ولا كتاب بعبادة غير الله تعالى * ولما طعن كفار قريش في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بكونه فقيرا عديم الجاه والمال بين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة التي لا يشك في صحتها عاقل أورد عليه فرعون هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أي بما ظهر من عظمتنا (موسى) أي الذي كان يرى فرعون انه أحق الناس بعظمته لانه رباه وكفله (بآياتنا) التي قهر بها عظماء الخلق وجبابرتهم فدل ذلك على صحة دعواه (الى فرعون) الذي ادعى أنه الرب الاعلى (وملئه) أي القبط (فقال) أي بسبب ارساله (اني رسول رب العالمين) أي مالكهم ومدبرهم ومربيهم فقالوا له ائت بآية فأتى بها (فلما جاءهم بآياتنا) أي بآيتي اليد والعصا اللتين شاهدوا فيهما عظمتنا ودلاهم ذلك على قدرتنا على جميع الآيات (اذا هم) أي بأجمعهم (منها يضحكون) أي فاجؤا المجيء بها من غير توقف ولا تأمل بالضحك سخرية واستهزاء قيل انه لما ألقى عصاه صارت ثعبانا فلما أخذه صار عصا كما كانت ضحكوا * ولما عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا (وما) أي والحال انا ما (نريهم) على ما لنا من الجلال والعلو وأغرق في النفي باثبات الجار فقال تعالى (من آية) أي من آيات العذاب كالطوفان وهو ماء دخل بيوتهم ووصل الى حلوق الجالسين سبعة أيام والجراد وغير ذلك (الا هي أكبر) أي في الرتبة (من أختها) أي التي تقدمت عليها بالنسبة الى علم الناظرين لها (وأخذناهم) أي أخذ قهر وغلبة (بالعذاب) أي أنواع العذاب كالدم والقمل والضفادع والبرد الكبار الذي لم يعهد مثله ملتهبا بالنار وموت الابكار فكانت آيات على صدق موسى عليه السلام بما لها من الاعجاز وعذابا لهم في الدنيا وصولا بعذاب الآخرة فبما لها من قدرة باهرة وحكمة ظاهرة (لعلهم يرجعون) أي ليكون حالهم عند ناظرهم الجاهل بالعواقب حال من يرجى رجوعه (و) لما عاينوا العذاب (قالوا) لموسى أي قال فرعون

يخرصون اى يكذبون وماهنا لانه متصل بخلطهم الصدق بالكذب فان قولهم نموت ونحيا صدق وكذبوا في انكارهم البعث

قوله بعظمته أي بتعظيمه اياه اه

بالمباشرة وأتباعه بالموافقة له (يا أيه الساحر) فنادوه بذلك في تلك الحالة لشدة شكيمتهم وفرط
حماقتهم أو لانهم كانوا يسمون العالم الماهر ساحرا (ادع لنا ربك) أي المحسن اليك بما يفعل
معك من هذه الاحوال التي نحن نتعلمها كرامة لك (بما) أي بسبب ما (عهد عندك) أي من كشف
العذاب عنا ان آمنا (اننا لمهتدون) أي مؤمنون (فلما كشفنا) أي على ما لنا من العظمة التي
ترهب الجبال (عنهم العذاب) أي الذي أنزلناه بهم (اذا هم ينكثون) أي فاجؤا الكشف بتجدد
النكث بالخلاف بعد الخلاف (ونادى فرعون) أي زيادة على نكثه (في قومه) أي الذين هم في
غاية القيام معه وأمر كلا منهم أن يشيع قوله اشاعة تعم البعيد والقريب فتكون كأنها منادات
اعلاما بأنه مستمر على الكفر لئلا يظن بعضهم انه رجع فيرجعون * ولما كان كأنه قيل بم نادى
أجاب بقوله (قال) أي خوفا من ايمان القبط لما رأى من أن ما شاهدوه من باهر الآيات مما له
زلزل وبأخذ القلوب (يا قوم) مستعطفا لهم بإعلامهم أنهم لحمة واحدة ومستنهضا بوصفهم بأنهم
ذوو قوة على ما يحاولونه مقررا لهم على عذره في نكثه بقوله (أليس لي) أي وحدي (ملك مصر)
أي كله فلا اعتراض على من في اسرائيل ولا غيرهم (وهذه) أي والحال أن هذه (الانهار) أي
أنهار النيل قال البيضاوي ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس وقال
البقاعي كأنه كان قد أكثر من تشقيق الخلجان الى بساتينه وقصوره ونحو ذلك من أموره فقال
(تجري من تحتي) أي تحت قصري أو أمري أو بين يدي في جناني وزاد في التقرير بقوله (أفلا
تبصرون) أي هذا الذي ذكرته لكم فتعلموا بيصائركم أنه لا ينبغي لأحد أن ينازعني وهذا
أمري قول من ضعفت قواه وانحلت عراه (أم أنا خير) أي مع ما وصفت لكم من ضخامتي
وما لي من القدرة على اجراء المياه التي بها حياة كل شئ (من هذا) وكنى بإشارة القريب عن
تحقيره ثم وصفه بما يبين مراده بقوله (الذي هو مهين) أي ضعيف حقير ذليل لانه يتعاطى أموره
بنفسه وليس له ملك ولا قوة يجري بها نهرا ولا ينفذ بها أمرا (ولا يكاد يبين) أي لا يقرب من أن
يعرب عن معنى من المعاني لما في لسانه من الحبسة فلا هو قادر في نفسه ولا له قوة بلسانه على
تصريف المعاني وتنويع البيان استجلاب القلوب ويفعش الالباب فتكثر أتباعه وينضم
أمره وقد كذب في جميع قوله فقد كان موسى عليه السلام أبلغ أهل زمانه قولا وفعلا بتقدير
الله تعالى الذي أرسله وأمره اياه ولكن اللعين استند هذا الى ما بقي في لسانه من الحبسة تخييلا
لاتباعه لان موسى عليه السلام ما دعا بازالة جميع حبسته بل بعقدة منها فانه قال واحلل عقدة
من لساني يفقهوا قولي * (تنبيه) * في أم من قوله أم أنا خير أقوال أحدها انها منقطعة فتقدر
ببل التي للاضراب الانتقالي وبالهمزة التي للانكار والثاني انها بمعنى بل فقط كقوله

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى * وصورتها أم أنت في العين أملح

أي بل أنت الثالث أنها منقطعة لفظا متصلة معنى قال أبو البقاء أم هنا منقطعة في اللفظ لوقوع
الجملة بعدها في اللفظ وهي في المعنى متصلة معادلة اذ المعنى أنا خير منه أم لا وأينا خير قال ابن
عادل وهذه عبارة غريبة أن تكون منقطعة لفظا متصلة معنى وذلك أنهما معنيان مختلفان
فان الانقطاع يقتضي اضرابا اما ابطالا واما انتقالا ثم ان فرعون اللعين ظن أن القرب من
الملوك والغلبة على الامور لا تكون الا بكثرة الاعراض الدنيوية والتحلي بحلي الملوك ولهذا قال

وقولهم وما يهلكنا الا الدهر فناسبه يظنون اى يشكون فيما يقولون (قوله وانا على آثارهم مهتدون) قاله هنا بلفظ

(فلولا) أي فهلا (ألقي عليه) من عند مرسله الذي يدعي أنه الملك بالحقيقة (أساورة) وقرأ حفص بسكون السين ولا ألف بعدها كالأحمرة والباقون بفتح السين وألف بعدها فأسورة جمع سوار كخمار وأخمرة وهو جمع قلة وأساورة جمع إسوار بمعنى سوار يقال سوار المرأة وإسوارها والأصل أساوير بالياء فعوض من حرف المد تاء التأنيث كزنديق وزنادقة وبطريق وبطارقة وقيل بل هي جمع أسورة فهي جمع الجمع قاله الزجاج والسوار ما يوضع في المعصم من الحلية (من ذهب) ليكون ذلك أمارة له على صحة دعواه كما نفعل نحن عند إنعامنا على أحد من عبيدنا بالإرسال إلى ناحية من النواحي لمهم من المهمات إذ كان من عادتهم أنهم إذا جعلوا واحدا منهم رئيسا لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فطلب فرعون من موسى عليه السلام مثل عادتهم (أو جاء معه) أي صحبته عند ما جاء إلينا بهذا النبأ الجسيم والملك العظيم (الملائكة) أي هذا النوع وأشار إلى كثرتهم بما بين من الحال بقوله (مقترنين) أي يقارن بعضهم بعضا بحيث يملؤن الفضاء ويكونون في غاية القرب منه بحيث يكون مقارنا لهم ليجاب إلى هذا الأمر الذي جاء يطلبه كما نفعل نحن إذا أرسلنا رسولا إلى أمر يحتاج إلى دفاع وخصام ونزاع فكان حاصل أمره كما ترى أنه تعزز بإجراء المياه فأهلكه الله تعالى بها إيماء إلى أن من تعزز بشيء دون الله تعالى أهلكه الله به واستصغر موسى عليه السلام وعابه بالفقر والعي فسلطه الله تعالى عليه إشارة إلى أنه ما استصغر أحد شيئا إلا غلبه أفاده القشيري (فاستخف) أي بسبب هذه الخدع التي سحرهم بها في هذا الكلام الذي هو في الحقيقة محقر له موهن لأمره قادح في الملك عند من له لب (قومه) الذين لهم قوة عظيمة فحملهم بغروره على ما كانوا مهيئين له من خفة الحلم (فأطاعوه) أي بأن أقروا بملكه واعترفوا بربوبيته وردوا أمر موسى عليه السلام (إنهم كانوا) أي بما في جبلاتهم من الشر (قوما فاسقين) أي عريقين في الخروج عن طاعة الله تعالى إلى معصيته فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق (فلما آسفونا) أي أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان منقول من أسف إذا اشتد غضبه حكي أن ابن جريج غضب في شيء فقيل له أتغضب يا أبا خالد فقال قد غضب الذي خلق الأحلام إن الله تعالى يقول فلما آسفونا أي أغضبونا (انتقمنا منهم) أي أوقعنا بهم على وجه المكافأة بما فعلوا برسولنا عليه السلام عقوبة عظيمة منكرة مكروهة كأنهم ابهلاج (فأغرقناهم أجمعين) أي إهلاك نفس واحدة لم يفلت منهم أحد على كثرتهم وقوتهم وشدتهم * (تنبيه) * ذكر لفظ الأسف في حق الله تعالى وذكر لفظ الانتقام كل واحد منهما من المتشابهات التي يجب تأويلها فمعنى الغضب في حق الله تعالى إرادة العذاب ومعنى الانتقام إرادة العقاب بجرم سابق وقال بعض المفسرين معنى آسفونا أحزنوا أولياءنا (فجعلناهم) أي بأخذنا لهم على هذه الصورة من الإغراق وغيره مما تقدمه (سلفا) أي متقدما لكل من يهلك بعدهم إهلاك غضب في الهلاك في الدنيا أو العذاب في الآخرة أو قدوة لمن يريد العلو في الأرض فتكون عاقبته في الهلاك في الدارين أو إحداهما عاقبتهم كما قال تعالى وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار (ومثلا) أي حديثا عجيب الشأن سائرا سير المثل (للآخرين) أي الذين خلفوا بعدهم من زمنهم إلى آخر الدهر فيكون حالهم عظة للناس وأصلا للآخرين فمن أريد به الخير وفق لمثل خير برده عن غيه ومن أريد به الشر اقتدى به في الشر وقرأ حمزة والكسائي

مهتدون وبعده بلفظ مقتدون لأن الأول وقع في محاجتهم النبي صلى الله عليه وسلم وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين وأنهم

بضم السين واللام والباقون بفتحهما فاما الاولى فتحتمل ثلاثة أوجه أحدها أنه جمع سليف كرغيف ورغف وسمع القاسم بن معن من العرب سليف من الناس كالفريق منهم والثانى أنه جمع سالف كصابر وصبر والثالث أنه جمع سلف كاسد وأسد وأما الثانية فتحتمل وجهين أحدهما أن يكون جمعا لسالف كحارس وحرس وخادم وخدم وهذا فى الحقيقة اسم جمع لا جمع تكسير اذ ليس فى ابنية التكسير صيغة فعل والثانى انه مصدر يطلق على الجماعة تقول سلف الرجل يسلف سلفا أى تقدم والسلف كل شئ قدمته من عمل صالح أو قرض وسلف الرجل آباؤه المتقدمون والجمع اسلاف وسلاف وقال طفيل

سلفوا سلفا قصد السبيل عليهم * صروف المنايا والرجال تقلب

واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا) فقال ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين نزلت فى مجادلة عبد الله بن الزبعرى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى عليه السلام لما نزل قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم كما تقدم فى سورة الانبياء والمعنى ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى اياه (اذا قومك) أى من قريش (منه) أى من هذا المثل (يصدون) أى يرفع لهم ضجيج فرحا بسبب ما رأوا من سكوت النبى صلى الله عليه وسلم فان العادة قد جرت بان احد الخصمين اذا انقطع اظهر الخصم الثانى الفرح والضجيج وقال قتادة يقولون ما يريد محمد منا الا ان نعبده ونتخذه الها كما عبدت النصارى عيسى (وقالوا أآلهتنا) اى التى نعبدها من الاصنام (خير أم هو) قال قتادة يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا وقال السدى وابن زيد يعنون عيسى عليه السلام قالوا يزعم محمد ان كل ما نعبد من دون الله فهو فى النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة فى النار قال الله تعالى (ما ضربوه) أى المثل (لك الا جدلا) أى خصومة بالباطل لعلمهم أن لفظ ما لغير العاقل فلا يتناول من ذكروه (بل هم قوم) أى أصحاب قوة على القيام فيما يحاولونه (خصمون) أى شديدو الخصام وروى الامام أحمد عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدال وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم يصدون بكسر الصاد والباقون بضمها وهما بمعنى واحد يقال صد يصد ويصد كعكف يعكف ويعكف وعرش يعرش ويعرش وقيل الضم من الصدود وهو الاعراض وقرأ الكوفيون أآلهتنا بتحقيق الهمزتين والباقون بتسهيل الثانية واتفقوا على ابدال الثالثة الفا ثم انه تعالى بين ان عيسى عبد من عبيده الذين انعم عليهم بقوله تعالى (ان) اى ما (هو) اى عيسى عليه السلام (الا عبد) اى وليس هو باله (انعمنا) اى بما لنا من العظمة (عليه) اى بالنبوة والاقدار على الخوارق (وجعلناه) اى بما خرقنا به العادة فى ميلاده وغير ذلك من آياته (مثلا) اى امرا عجيبا كالمثل لغرابته من أنثى فقط بلا واسطة ذكر كما خلقنا آدم من غير ذكر وانثى وشرفناه بالنبوة (لبنى اسرائيل) الذين هم اعرف الناس به بعضهم بالمشاهدة وبعضهم بالنقل القريب المتواتر فيعرفون به قدرة الله تعالى على ما يشاء حيث خلقه من غير اب (ولو نشاء) اى على ما لنا من العظمة (لجعلنا) ما هو اغرب مما صنعناه من امر عيسى (منكم) اى جعلا مبتدأ منكم اما بالتوليد كما جعلنا عيسى عليه السلام من انثى من غير ذكر وجعلنا آدم عليه السلام من تراب

قوله سلفوا السين خزم اه

مهتدون كما بأنهم فناسب مهتدون والثانى وقع حكاية عن قوم ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء فناسب مقتدون

من

من غير اتى ولاذكر واستنابالدلالة (فلا تكة فى الارض يخلفون) أى يخلفونكم فى الارض
المعنى ان حال عيسى عليه السلام وان كانت عجيبة فالله تعالى قادر على ماهو أعجب من ذلك
ان الملائكة مثلكم من حيث انها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليدا كما جاز خلقها ابداعا فن
ين لهم استحقاق الالوهية والانتساب الى الله تعالى (وانه) أى عيسى عليه السلام (لعلم
ساعة) أى نزوله سبب للعلم بقرب الساعة التى هى قيام الخلائق كلهم بالموت فنزوله من أشراط
الساعة يعلم به قربها قال صلى الله عليه وسلم يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عادلا يكسر
الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وتهلك فى زمنه الملل كلها الا الاسلام وروى انه ينزل على
ثنية بالارض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين يقتل الدجال
ويأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر وروى فى صلاة الصبح فيتأخر الامام فيقدمه
عيسى عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنزير ويكسر
الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى الامن آمن به وقال النبى صلى الله عليه
وسلم كيف أنتم اذا نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم وقال الحسن وجماعة وانه أى القرآن
لعلم للساعة يعلمكم قيامها ويخبركم أحوالها وأهوالها (فلا تمترن بها) حذف منه نون الرفع
للجزم وواو الضمير لالتقاء الساكنين من المرية وهى الشك أى لا تشكن فيها وقال ابن عباس
لا تكذبوا بها (واتبعون) أى أوجدوا اتباعكم لى (هذا) أى كل ما أمرتكم به من هذا أو غيره
(صراط) أى طريق واضح (مستقيم) أى لا عوج له وقرأ أبو عمرو باثبات الياء فى الوصل دون
الوقف والباقون بغير ياء وصلا ووقفا (ولا يصدنكم الشيطان) أى عن هذا الطريق الواضح
الواسع المستقيم الموصل الى المقصود بأيسر سعى (انه لكم) أى عامة وأكد الخبر لان أفعال
التابعين له أفعال من ينكر عداوته (عدو مبين) أى واضح العداوة فى نفسه مناد بها وذلك
بالابلاغ فى عداوة أبيكم آدم عليه السلام حتى أنزلكم بازلاله عن محل الراحة الى موضع
النصب عداوة ناشئة عن الحسد فهى لا تنفك أبدا (ولما جاء عيسى) أى الى بنى اسرائيل
(بالبينات) أى المعجزات أى بآيات الانجيل وبالشرائع الواضحات (قال) منبها لهم (قد
جئتكم) بما يدلكم قطعا على انى آية من عند الله وكذنته (بالحكمة) أى الامر المحكم الذى
لا يستطاع نقضه ولا يدفع بالمعاندة لاخلصكم بذلك مما وقعتم فيه من الضلال (ولا بين لكم) أى
بيانا واضحا (بعض الذى تختلفون) أى الآن (فيه) ولا تزالون تجددون الخلاف بسببه (فان
قيل) لم يبين لهم كل الذى يختلفون فيه (أجيب) بأنه بين لهم كل ما يكون من أمر الدين
لا ما يتعلق بأمر الدنيا فان الانبياء لم تبعث لبيانه ولذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم أنتم أعلم
بأمر دنياكم ويحتمل أن يكون المراد أنه يبين لهم بعض المتشابه وهو ما يكون بيانه كافيا فى رد بقية
المتشابه الى المحكم بالقياس عليه فان الشأن فى كل كتاب أن يجمع المحكم والمتشابه فالمحكم
ما ليس فيه التباس والمتشابه ما يكون ملتبسا وفيه ما يرده الى المحكم لكن على طريق الرمز
والاشارة التى لا يذوقها الا أهل البصائر ليتبين بذلك الصادق من الكاذب فالصادق الذى
رسخ علما وايمانا يرد المتشابه منه الى المحكم أو يعجز فيقول الله أعلم بمراده ربنا لا تزغ قلوبنا
بعد اذ هديتنا ولا يتزلزل والكاذب يتبع المتشابه فيجريه على ظاهره كأهل الالحاد الجوامد

(قوله واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) فان قيل كيف قال ذلك مع ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يلق أحدا من الرسل حتى

القرونين أو يؤوله بحسب هواه بما لا يتمشى على قواعد العلم ولا يوافق الحكم فيفتتن * ولما بين
اهم الاصول والفروع قال (فاتقوا الله) أى خافوا من له الملك الاعظم من الكفر والاعراض
عن دينه لان له كل شئ منكم ومن غيركم ومن المعلوم لكل ذى عقل انه لا يتصرف فى ملك الغير
بوجه من الوجوه الا باذنه (وأطيعون) أى فيما أبلغه عنه اليكم من التكاليف فطاعتى لامره
بما يرضيه هو ثمرة التقوى وكلما ازداد المتقى فى أعمال الطاعة زادت تقواه (ان الله) أى الذى اختص
بالجلال والجمال فكان أهلا لان يتقى (هو) أى وحده (ربى وربكم) أى المحسن الى واليكم
(فاعبدوه) أى بما أمركم به لانه صدقنى فى أمركم باتباعى بما أظهره على يدى فصار هو الآمر
لكم لا أنا (هذا) أى الامر العظيم الذى دعوتكم اليه (صراط) أى طريق واسع جدا واضح
(مستقيم) لا عوج فيه * ولما كان الطريق الواضح القويم موجبا للاجتماع عليه والوفاق عند
سلوكه بين تعالى أنهم اختلفوا فيه بقوله تعالى (فاختلف الاحزاب) أى الفرق المتحزبة (من
بينهم) أى اختلافا ناشئا ابتداء من بنى اسرائيل فى عيسى أهو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة
وقوله تعالى (فويل) كلمة عذاب (للذين ظلموا) أى وضعوا الشئ فى غير موضعه بما قالوه فى
عيسى عليه السلام (من عذاب يوم أليم) أى مؤلم واذا كان اليوم مؤلما فما الظن بعذابه (هل
ينظرون) أى هل ينتظر كفار مكة أو الذين ظلموا (الا الساعة) أى ساعة الموت العام والبعث
والقيام فان ذلك لتحقق أمره كأنه موجود منظور اليه وقوله تعالى (أن تأتيهم) بدل من
الساعة (فان قيل) قوله تعالى (بغتة) أى فجأة يفيد قوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى بوقت
مجيئها قبله (أجيب) بانه يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه (الاخلاء)
أى الاحباء فى الدنيا على المعصية وقوله تعالى (يومئذ) أى يوم القيامة متعلق بقوله تعالى
(بعضهم لبعض عدو) أى يتعادون فى ذلك اليوم لانقطاع العلق لظهور ما كانوا يتحابون له
سببا للعذاب (الا المتقين) أى المتحابين فى الله على طاعة الله تعالى وهم الموحدون الذين يخالل
بعضهم بعضا على الايمان والتقوى فان خلتهم لا تصير عداوة روى أبو ثور عن معمر عن قتادة
عن أبى اسحق ان عليا قال فى الآية خليلان مؤمنان وخليلان كافران فمات أحد المؤمنين
فقال يارب ان فلانا كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر
ويخبرنى أنى ملاقيك يارب فلا تضله بعدى واهده كما هديتنى وأكرمه كما أكرمتنى فاذا مات خليله
المؤمن جمع الله بينهما فيقول ليثن أحدكم على صاحبه فيقول نعم الاخ ونعم الخليل ونعم
الصاحب قال ويموت أحد الكافرين فيقول يارب ان فلانا كان ينهانى عن طاعتك وطاعة
رسولك ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ويخبرنى انى غير ملاقيك فبئس الاخ وبئس الخليل
وبئس الصاحب * ثم بين تعالى ما يتلقى به المؤمنين الذين قد توادوا فيه سبحانه تشريفا لهم
وتسكينا لما يقتضيه ذلك المقام من الاهوال بقوله تعالى (ياعباد) فاضافهم الى نفسه اضافة
تشريف لان عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين وفيه أنواع
كثيرة توجب المدح أولها ان الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة وهذا
تشريف عظيم بدليل أنه تعالى لما أراد تشريف نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى سبحان
الذى أسرى بعبده وثانيها قوله تعالى (لا خوف) أى بوجه من الوجوه (عليكم اليوم) أى فى يوم

الآخرة

يساله (قلت) فيه اضمار تقديره واستقل اتباع أوامر من أرسلنا أو هو مجاز عن النظر فى أديانهم والبحث عن مللهم هل فيها ذلك أو

الآخرة مما يحصل به من الاهوال والامور الشداد والزلزال وثالثها قوله تعالى (ولا أنتم تحزنون) أى لا يتجدد لكم حزن على شئ فاتكم في وقت من الاوقات الآتية لانكم لا يفوتكم شئ تسرون به وقرأ شعبة بفتح الياء فى الوصل وسكنها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحذفها الباقون وقفا ووصلا وقوله تعالى (الذين آمنوا) أى أوجدوا هذه الحقيقة يجوز أن يكون نعتا لعبادى أو بدلا منه أو عطف بيان له أو مقطوعا منصوبا بفعل أى أعنى الذين آمنوا أو مرفوعا وخبره مضمر تقديره يقال لهم ادخلوا الجنة قال مقاتل اذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد يا عبادى لا خوف عليكم اليوم فاذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤسهم فيقول الذين آمنوا (بآياتنا) الظاهرة عظمتها الى نفسها أولا وبنسبتها الينا ثانيا (وكانوا) أى دائما بما هو لهم كالجبلة والخلق (مسلمين) أى منقادين للاوامر والنواهى أتم انقياد فبذلك يعدلون الى حقيقة التقوى فينكس أهل الاديان الباطلة رؤسهم فيرحسابهم على أحسن الوجوه ثم يقال لهم (ادخلوا الجنة) ولما كان السرور لا يكمل الا بالرفيق السار قال تعالى (أنتم وأزواجكم) أى نساؤكم اللاتى كن مثلا كلات لكم فى الصفات وأما قرناؤهم من الرجال فدخلوا فى قوله تعالى وكانوا مسلمين (تحبرون) أى تسرون وتنعمون والحبرة المبالغة فى الاكرام على أحسن الوجوه وقوله تعالى (يطاف) قبله محذوف أى يدخلون يطاف (عليهم) أى المتقين الذين جعلناهم بهذا النداء ملوكا (بصحاف من ذهب) فيها من ألوان الاطعمة والفواكه والحلوى ما لا يدخل تحت الوهم والصحاف جمع صحفة كجفنة وجفان قال الجوهرى الصحفة كالقصعة والجمع صحاف قال الكسائى أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تليها تشبع العشرة ثم الصحفة تشبع الخمسة ثم المكيلة تشبع الرجلين والثلاثة ثم الصحيفة تشبع الرجل والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف ولما كانت آلة الشرب فى الدنيا قل من آنية ان كل يجرى على ذلك المعهود فعبر بجمع القلة فى قوله تعالى (وأكواب) جمع كوب وهو كوز مستدير مدور الرأس لا عروة له ايذانا بانه لا حاجة أصلا الى تعليق شئ اليه بيد أو صيانة عن أذى أو نحو ذلك وقيل هو كالابريق الا أنه لا عروة له وقيل انه لا خرطوم له وقيل انه لا عروة له ولا خرطوم معا قال الجواليقى ليتمكن الشارب من أين شاء فان العروة تمنع من ذلك وقال عدى

متكئا تصفق أبوابه • يطوف عليه العبد بالكوب

ثم انه تعالى لما ذكر التفصيل ذكر بيانا كليا فقال (وفيها) أى الجنة (ما تشتهيه الانفس) من الاشياء المعقولة والمسموعة والملموسة جزاء لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات فى الدنيا (وتلذ الاعين) أى من الاشياء المبصرة التى أعلاها النظر الى وجهه الكريم جزاء ما تحملوه من مشاق الاشتياق روى أن رجلا قال يا رسول الله أفى الجنة خيل فانى أحب الخيل فقال ان يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من ياقوتة حمراء فتطير بك فى أى الجنة شئت الا فعلت فقال أعرابى يا رسول الله أفى الجنة ابل فانى أحب الابل فقال يا أعرابى ان أدخلك الله الجنة أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك وقرأ نافع وابن عامر وحفص بهاء بعد الياء باثبات العائد على الموصول كقوله تعالى الذى يتخبطه الشيطان من المس والباقون بغيرها بعد الياء كقوله تعالى أهذا الذى بعث الله رسولا وهذه القراءة مشبهة بقوله تعالى وما عملته أيديهم وهذه الهاء فى هذا

واسئل المرسلين ليلة الاسراء فانه اقيم وامهم فيها بمسجد بيت المقدس وقال بعد ان نزلت عليه هذه الآية بعد سلامه

قوله يطوف الخ كذا بالنسخ والصواب يسعى كما فى الصحاح به يستقيم الوزن اه مصححه

السورة رسمت في مصاحف المدينة والشام وحذفت من غيرها وقد وقع لأبي عبد الله الفاسي شارح القصيدة توهم فسبق قلمه فكتب الهاء منه محذوفة في مصاحف المدينة والشام مثبتة في غيرها فعكس * ولما كان ذلك لا يكمل إلا بالدوام قال تعالى عائداً إلى الخطاب لأنه أشرف وآكد (وأنتم فيها خالدون) لبقائها وبقاء كل ما فيها فلا كلفة عليهم أصلاً من خوف من زوال ولا خوف من فوات * ثم أشار إلى فخامتها بأداة البعد فقال تعالى (وتلك الجنة) أي العالية المقام (التي أورثتموها) شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه عليه العامل وقرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي بإدغام الثاء المثلثة في المثناة وأظهرها الباقون (بما) أي بسبب ما (كنتم تعملون) أي مواظبين على ذلك لا تفترون لأن العمل كان لهم كالجبلة التي جبلوا عليها فالمنة لربهم في الحقيقة عاز كى لهم أنفسهم * ولما ذكر سبحانه الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال (لكم فيها فاكهة) أي ما يؤكل تفكهاً وإن كان لحماً وخبزاً (كثيرة) ودل على الكثرة وعلى دوام النعمة بقصد التفكه لكل شيء فيها بقوله تعالى (منها) أي لا من غيرها مما يلحظ فيه القوت (تأكلون) فلا تفقد أبداً ولا تتأثر بأكل الآكلين لأنها على صفة الماء النابع لا يؤخذ منها شيء إلا خلف مكانه مثله في الحال ورد في الحديث أنه لا ينزع رجل ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها * (تنبيه) * لما بعث الله تعالى نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام إلى العرب وكانت في ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة ذكر الله تعالى هذه المعاني مرة بعد أخرى تكميلاً لرغباتهم وتقوية لدواعيهم ومن في قوله تعالى منها تأكلون تبعيضية أو ابتدائية وقدم الجار لأجل الفاصلة * ولما ذكر سبحانه الوعد أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر في القرآن فقال تعالى (إن المجرمين) أي الراسخين في قطع ما أمر الله به أن يوصل (في عذاب جهنم) أي النار التي من شأنها لقاء داخلها بالتجهم والكراهة والعبوسة كما كان يعمل عند قطعه لأولياء الله تعالى (خالدون) لأن إجرامهم كان طبعاً لهم لا ينفكون عنه أصلاً ما بقوا (لا يفتر عنهم) أي لا يقصد إضعافه بنوع من الضعف فنفي التفتر نفي للفتور من غير عكس قال البيضاوي وهو من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً والتركيب للضعف (وهم فيه) أي العذاب (مبلسون) أي ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج وعن الضحاك يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يقفل عليه فيبقى خالداً لا يرى ولا يرى (وما ظلمناهم) نوعاً من الظلم (ولكن كانوا) جبلة وطبعاً وعملاً وصنعاً (هم الظالمين) لأنهم بارزوا المنعم عليهم بالعظائم ونووا أنهم لا ينفكون عن ذلك ما بقوا والأعمال بالنيات * ولما كان مفهوم الإبلاس السكوت بين تعالى أنهم ليسوا ساكتين دائماً بقوله تعالى (ونادوا) ثم بين أن المنادي خازن النار بقوله تعالى مؤكداً البعد بأداته (يا مالك ليقض علينا) أي سل ربك الاحتمام أن يقضي القضاء الذي لا قضاء مثله وهو الموت على كل واحد منا وجروا على عادتهم في الغباوة والجلافة فقالوا (ربك) أي المحسن إليك فلم يروا الله تعالى عليهم إحساناً وهم في تلك الحالة ولا شك أن إحسانه ما انقطع عن موجود أصلاً وأقل ذلك أن لا يعذب أحداً منهم فوق استحقاقه ولذلك جعل النار دركات كما جعل الجنة درجات فأجاب مالك عليه السلام بأن (قال) مؤكداً قطعاً لأطماعهم لأن كلامهم هذا هو بحيث يفهم الرجاء وإعلاماً بأن رحمة الله التي موضع الرجاء خاصة بغيرهم (إنكم ماكثون) أي دائماً أبداً الإخلاص لكم بموت ولا غيره

ولیس

قوله لأنه يخلفه الخ كتب عليه الجمل أي يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل اه كرخي اه

لا سال قد كنت لأن المراد بالأمر بالسؤال التقريع لمشركي قريش أنه لم يأت رسول من الله ولا كتاب بعبادة غير الله

وليس في القرآن متى أجابهم هل أجابهم في الحال أو بعد مدة لكن روى ابن عباس ان أهل النار يدعون مالكا خازن النار يقولون ليقض علينا ربك أى ليمتنا ربك فنستريح فيجيبهم مالك بعد ألف سنة انكم ماكثون أى مقيمون في العذاب وعن عبد الله بن عمرو بن العاص يجيبهم بعد أربعين وعن غيره مائة سنة واختلفوا في ان قولهم يا مالك ليقض علينا ربك على أى وجه طلبوه فقال بعضهم على التمنى وقال آخرون على وجه الاستغاثة والا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم من ذلك العذاب ثم انه تعالى ذكر ما هو كالعلة لذلك الجواب بقوله تعالى (لقد جئناكم) أى في هذه السورة خصوصا وفي جميع القرآن عموما (بالحق) على لسان الرسل وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الجيم والباقون بالادغام (ولكن أكثركم للحق كارهون) لما فيه من المنع من الشهوات فلذلك أنتم تقولون انه ليس بحق لا لاجل كراهتكم فقط لا لاجل ان في حقيته نوعا من الخفاء (فان قيل) كيف قال ونادوا يا مالك بعد ان وصفهم بالابلاس (أجيب) بأنها أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الاحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتا لشدة ما بهم روى أنه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون ادعوا مالكا فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك ولما ذكر تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم في الدنيا فقال تعالى (أم أبرموا) أى أحكم كفار مكة (أمرا) أى في المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رد أمرنا ومعاداة أوليائنا مع علمهم بأنا مطلعون عليهم (فانا مبرمون) أى محكمون أمرا في مجازاتهم أى مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون قال مقاتل نزلت في تدبيرهم المكر في دار الندوة *(تنبيه)* أم منقطعة والابرام الاتقان وأصله في الفتل يقال أبرم الحبل أى أتقن فتله وهو الفتل الثاني والاول يقال له سحيل قال زهير

لعمرى لنعم السيدان وجدتما * على كل حال من سحيل ومبرم

(أم يحسبون أنا) أى على ما لنا من العظمة المقتضية لجميع صفات الكمال (لا نسمع سرهم) أى كلامهم الخفى ولو كان في الضمائر فيما بينهم وبين أنفسهم أو بعضهم بعضا والسر ما حدث به الشخص نفسه أو غيره في مكان خال ولما كان ربما وقع في الاوهام ان المراد بالسمع انما هو العلم لان السر ما يخفى وهو يعلم ما في الضمائر وهى مما يعلم حقق أن المراد به حقيقته بقوله تعالى (ونجواهم) أى تناجيهم في كلامهم المرتفع فيما بينهم حتى كأنه على نجوة أى مكان عال فعلم أن المراد حقيقة السمع وأنه تعالى يسمع كل ما يمكن أن يسمع (بلى) نسمع الصنفين كليهما على حد سواء (ورسلنا) وهم الحفظة من الملائكة على الجميع السلام على ما لهم من العظمة بنسبتهم الينا (لديهم) أى عندهم وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (يكتبون) أى يجددون الكتابة كل ما تجدد ما يقتضيه الاب الكتابة أوقع في التهديد لان من علم ان أعماله محصاة مكتوبة يجتنب ما يخاف عاقبته وعن يحيى ابن معاذ الرازى من ستر عن الناس ذنوبه وأبداها للذى لا يخفى عليه شئ في السموات فقد جعله أهون الناظرين اليه وهو من علامات النفاق * ولما تقدم أول السورة تبكيتهم والتعجب منهم في ادعائهم لله ولدا من الملائكة وهددهم بقوله تعالى ستكتب شهادتهم ويسئلون أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم (قل) أى لهؤلاء البعداء البغضاء (ان كان للرحمن)

(قوله وما نريهم من آية (أكبر من اختها) أى الآية التى قبلها (قوله قرينتها ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) * ان قلت

اى العام الرحمة (ولد) اى على زعمكم والمراد به الجنس لادعائهم فى الملائكة وعيسى ...
اى فى الرتبة وقرأ نافع بمد الالف بعد النون والباقون بغير مد (أول العابدين) للرحمن
العبادة التى هى العبادة ولا يستحق غيرها أن يسمى عبادة وهى الخالصة أى فأنا لا أعبد غيره
لا ولدا ولا غيره ولم يشأ الرحمن أن أعبد الولد ولا غيره أو يكون المعنى أنا أول العابدين
للرحمن على وجه الاخلاص لم أشرك به شيئا أصلا فى وقت من الاوقات بما سميتموه ولدا أو
شريكا أو غيرهما ولو شاء ما عبدته على وجه الاخلاص ولا شك عندكم وعند غيركم ان من
اخلص لاحد كان أولى من غيره برحمته فلو أن الاخلاص له ممنوع ما شاءه لى ولولا أن عبادة
غيره ممنوعة لشاءها لى ولو أن له ولدا لشاء لى عبادته فان عموم رحمته لكافة خلقه لكونهم
خلقه وخصوصها لى لكونى عبده خالصا يمنع على زعمكم من أن يشقينى وأنا أخلص له فى طاعة
شبهتكم بمثلها بل بأقوى منها وهذا إنما علق بشئ هو بنقيضه أولى وقال الزمخشرى ان كان
للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فانا أول من يعظم
ذلك الولد واسبقكم الى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام
وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض وهو المبالغة فى نفى الولد والاطناب فيه وأن لا يترك
الناطق به شبهة الا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم فى باب التوحيد وذلك أنه علق
العبادة بكينونة الولد وهى محال فى نفسها فكان المعلق بها محالا مثلها فهو فى صورة اثبات
الكينونة والعبادة وفى معنى نفيهما على أبلغ الوجوه واقواها ثم قال وقد عدل الناس عن
خرجوه من هذا الاسلوب الشريف الملئ بالنكت والفوائد المستقل باثبات التوحيد على
أبلغ وجوهه فقيل ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فانا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم
باضافة الولد اليه وقيل ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فانا أول الآنفين من أن يكون له ولد
من عبد يعبد اذا اشتد انفه فهو عبد وعابد اه وقال ابن عباس ان ان نافية أى ما كان
له ولد فانى اول من عبده وحده ومعناه لو كان له ولد وان كان له ولد لكان الله عبادته تقربا اليه بعبادة ولده
وروى أن النضر بن عبد الدار بن قصى قال ان الملائكة بنات الله تعالى فنزلت فقال
النضر ألا ترون انه قد صدقنى فقال له الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال ما كان للرحمن
ولد فانا اول العابدين الموحدين من اهل مكة أن لا ولد له ثم انه تعالى نزه نفسه فقال
(سبحان رب) اى مبدع ومالك (السموات والارض) اى اللذين كل ما فيهما ومن فيهما
مقهور مربوب محتاج لا يصح أن يكون له منه سبحانه نسبة بغير العبودية بالايجاد والتربية
• ولما كانت خاصة الملك أن يكون له ما لا يصل اليه غيره بوجه اصلا قال محققا الملكه بجميع
ما سواه ومن سواه وما لكه له ولم يعد العطف لان العرش من السموات (رب العرش)
اى المختص به لكونه خاصة الملك الذى وسع كرسيه السموات والارض (عما يصفون)
اى يقولون من الكذب من أن له ولدا أو شريكا وذلك ان اله العالم يجب أن يكون واجب
الوجود لذاته وكل ما كان كذلك فهو لا يقبل التجزى بوجه من الوجوه والولد عبارة عن أن
ينفصل عن الشئ جزء فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله وهذا انما يعقل فيمن تكون ذاته
قابلة للتجزى والتبعيض واذا كان ذلك محالا فى حق اله العالم امتنع اثبات الولد • ولما
ذكر تعالى هذا البرهان القاطع قال تعالى مسببا عن ذلك (فذرهم) اى اتركهم على أسوا

اسوالهم

كيف قال عيسى عليه
السلام لامته ذلك مع ان
كل نبى يلزمه ان يبين لامته
كل ما يختلفون فيه ما يحتاجونه
دون ما لا يحتاجونه أو

احوالهم (يخوضوا) اى يدخلوا في باطلهم فعل الخائض في الماء (ويلعبوا) أي يفعلوا فعل اللاعب في دنياهم (حتى يلاقوا) أي يفعلوا بتصرم اعمارهم في فعل ما لا ينفعهم فعل المجتهدين في أن يلاقوا (يومهم الذي يوعدون) اى يوعد لا خلف فيه وهو يوم القيامة فيظهر فيه وعيدهم والمقصود منه التهديد لانه تعالى ذكر الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا ولم يلتفتوا اليها لاجل استغراقهم في طلب المال والجاه والرياسة فاتركهم في ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا الى ذلك اليوم الموعود به ثم زاد في التنزيه فقال تعالى (وهو الذي في السماء اله) اى معبود لا شريك له (وفي الارض اله) تتوجه الرغبات اليه في جميع الاحوال وتخلص اليه في جميع اوقات الاضطرار فقد وقع الاجماع من جميع من في السماء والارض على الهيته وثبت استحقاقه لهذه الرتبة وثبت اختصاصه باستحقاقها في الشدائد في الاوقات كذلك من غير فرق لانه لا مشارك له في هذا الاستحقاق فعبادة غيره باطلة وقرأ قالون والبزي بتسهيلها مع المد والقصر وقرأ أبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها أيضا ألفا وقرأ الباقون بتحقيقهما ❊(تنبيه)❊ كل من الظرفين متعلق بما بعده لانه بمعنى معبود اى معبود في السماء ومعبود في الارض وحينئذ يقال الصلة لا تكون الا جملة أو ما في تقديرها وهو الظرف وعديله ولا شيء منهما هنا اجيب بان المبتدا حذف لدلالة المعنى عليه وذلك المحذوف هو العائد تقديره وهو الذي هو في السماء له وهو في الارض اله وانما حذف لطول الصلة بالمعمول فان الجار متعلق باله ومثله ما أنا بالذي قائل لك سوأ (وهو الحكيم) أي البالغ الحكمة في تدبير خلقه (العليم) اى البالغ في علمه بمصالحهم (وتبارك) اى وثبت ثباتا لا يشبهه ثبات لانه لا زوال له مع اليمن والبركة وكل كمال فلا شبيه له حتى يدعى انه ولده أو شريك ❊ ثم وصفه تعالى بما يبين تباركه واختصاصه بالالوهية فقال عز من قائل (الذي له ملك السموات) اى كلها (والارض) كذلك (وما بينهما) اى وما بين كل اثنين منهما والدليل على هذا الاجماع القائم على توحيده عند الاضطرار (وعنده) أي وحده (علم الساعة) اى العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها (واليه) اى وحده لا الى غيره (ترجعون) بايسر امر تحقيقا للملك وقطعا للنزاع في وحدانيته وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الالتفات للتهديد (ولا يملك) اى بوجه من الوجوه في وقت ما (الذين يدعون) اى يعبدون اى الكفار (من دونه) اى الله تعالى (الشفاعة) كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله وقوله تعالى (الا من شهد بالحق) اى قال لا اله الا الله فيه قولان احدهما انه متصل ان أريد بالموصول كل ما عبد من دون الله والمعنى لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا لاحد الا من شهد بالحق (وهم يعلمون) اى بقلوبهم ما شهدوا به بالسنتهم وهم عيسى ومريم وعزير والملائكة فانهم يملكون ان يشفعوا للمؤمنين بتمليك الله تعالى اياهم لها والثاني هو منقطع ان خص بالاصنام (ولئن سألتهم) اى الكفار مع ادعائهم الشريك (من خلقهم) اى العابدين والمعبودين معا (ليقولن الله) اى الذي له جميع صفات الكمال لتعذر المكابرة من فرط ظهوره (فأنى) اى فكيف وأي جهة بعد أن أثبتوا له الخلق والامر (يؤفكون) اى يصرفون عن اتباع رسولنا الآمر لهم بتوحيدنا في العبادة كما أنا توحدنا في الخلق وقرأ (وقيله) اى قول

المراد بالبعض الكل كما مر
(قوله بغتة) نظيره في غافر
فائدة ذكر وهم لا يشعرون
بعد بغتة وهم لا يشعرون
اى بغتة ان الساعة تأتيهم

محمد صلى الله عليه وسلم عاصم وحمزة بخفض اللام والهاء على معنى وعنده علم الساعة وعلم قيله والباقون بنصب اللام ورفع الهاء على المصدر بفعله المقدر اى وقال (يارب ان هؤلاء قوم) اى أقوياء على الباطل ولم يضفهم الى نفسه بأن يقول قومى ونحو ذلك من العبارات ولا سماهم باسم قبيلتهم لما شانه من حالهم (لا يؤمنون) اى لا يتجدد منهم هذا الفعل أصلا (فاصفح) اى اعف عفو من اعرض (عنهم) صفحا فلا تلتفت اليهم بغير التبليغ (وقل) اى لهم (سلام) أى شانى الآن متاركتكم بسلامتكم منى وسلامتى منكم قال ابن عباس وهذا منسوخ بآية السيف وقال الرازى وعندى التزام النسخ فى مثل هذه المواضع مشكل لان الامر لا يقيد بالفعل الامرة واحدة فسقطت دلالة اللفظ فاى حاجة الى التزام النسخ وأيضا فاللفظ المطلق قد يتقيد بحسب العرف فاذا كان كذلك فلا حاجة الى التزام النسخ اه وجرى على النسخ الجلال المحلى فقال وهذا قبل أن يؤمر بقتالهم وقوله تعالى (فسوف يعلمون) فيه تهديد لهم وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وقرأ نافع وابن عامر بتاء الخطاب التفاتا والباقون بياء الغيبة نظرا لما تقدم وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون حديث موضوع

وهم غافلون مشتغلون بامور دنياهم كما قال ما ينظرون الا صيحة واحدة تاخذهم وهم يخصمون فلولا قوله وهم لا يشعرون

سورة الدخان مكية

وقيل الا قوله تعالى انا كاشفوا العذاب قليلا الآية وهى ست أو سبع او تسع وخمسون آية وثلثمائة وست وأربعون كلمة وألف وأربعمائة واحد وثلاثون حرفا

(بسم الله) الملك الجبار الواحد القهار (الرحمن) الذى عم بنعمته سائر مخلوقاته (الرحيم) باهل وداده وقوله تعالى (حم) قرأه ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى امالة الحاء محضة وقرأه ورش وابو عمرو بالامالة بين بين والباقون بالفتح وتقدمت الاشارة الى شئ من أسرار اخواتها وقوله تعالى (والكتاب المبين) فيه احتمالان الاول أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين كقولك هذا زيد والله الثانى أن يكون التقدير حم والكتاب المبين (انا انزلناه) فيكون فى ذلك تقدير قسمين على شئ واحد و يجوز أن يكون انا انزلناه جواب القسم وان يكون اعتراضا والجواب قوله تعالى انا كنا منذرين واختاره ابن عطية وقيل انا كنا مستأنف وفيها بفرق يجوز أن يكون مستأنفا وان يكون صفة ليلة وما بينهما اعتراض * (تنبيه) * يجوز أن يكون المراد بالكتاب هنا الكتب المتقدمة المنزلة على الانبياء عليهم السلام كما قال تعالى لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب و يجوز أن يكون المراد به اللوح المحفوظ قال الله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال تعالى وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ويجوز أن يكون المراد به القرآن واقتصر على ذلك البيضاوى وتبعه الجلال المحلى وعلى هذا فقد اقسم بالقرآن أنه أنزل القرآن فى ليلة مباركة وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن فقد يقول الرجل اذا أراد تعظيم الرجل له اليه حاجة أتشفع بك اليك واقسم بحقك عليك وجاء فى الحديث اعوذ برضاك من سخطك و بعفوك من عقوبتك و بك منك لا أحصى

ثناء عليك والمبين هو المشتمل على بيان ما بالناس من حاجة اليه فى دينهم ودنياهم فوصفه بكونه مبينا وان كانت حقيقة الابانة لله تعالى لان الابانة حصلت به كقوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون فوصفه بالتكلم اذ كان غاية فى الابانة فكأنه ذو لسان ينطق مبالغة فى وصفه واختلفوا فى قوله سبحانه وتعالى (فى ليلة مباركة) فقال قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين هى ليلة القدر وقال عكرمة وطائفة انها ليلة البراءة وهى ليلة النصف من شعبان واحتج الاولون بوجوه الاول قوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة القدر وقوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة مباركة يجب أن تكون هى تلك الليلة المسماة بليلة القدر لئلا يلزم التناقض ثانيها قوله تعالى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن فقوله تعالى ههنا انا أنزلناه فى ليلة مباركة يجب أن تكون هذه الليلة المباركة فى رمضان فثبت أنها ليلة القدر ثالثها قوله تعالى فى صفة ليلة القدر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر وقال تعالى ههنا فيها يفرق كل أمر حكيم وقال ههنا رحمة من ربك وقال تعالى فى ليلة القدر سلام هى واذا تقاربت الاوصاف وجب القول بأن احدى الليلتين هى الاخرى رابعها نقل محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن قتادة انه قال نزلت صحف ابراهيم فى أول ليلة من رمضان والتوراة لست ليال منه والزبور لثنتى عشرة ليلة مضت منه والقرآن لاربع وعشرين مضت من رمضان والليلة المباركة هى ليلة القدر خامسها ان ليلة القدر انما سميت بهذا الاسم لان قدرها وشرفها عند الله عظيم ومعلوم أن قدرها وشرفها ليس بسبب نفس الزمان لان الزمان شئ واحد فى الذات والصفات فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة لها قدر عظيم ومن المعلوم ان منصب الدين أعظم من مناصب الدنيا وأعظم الاشياء وأشرفها منصبا فى الدين هو القرآن لانه ثبت به نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل كما قال تعالى فى صفته ومهيمنا عليه وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا لا شئ الا والقرآن أعظم قدرا وأعلى ذكرا وأعظم منصبا وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر هى التى وقعت فى رمضان علمنا أن القرآن انما أنزل فى تلك الليلة وهذه أدلة ظاهرة واضحة واحتج الآخرون على أنها ليلة النصف من شعبان بوجوه أولها ان لها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة وقيل فى تسميتها ليلة البراءة والصك ان البندار اذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة وكذلك الله تعالى يكتب لعباده المؤمنين البراءة فى هذه الليلة ثانيها انها مختصة بخمس خصال الاولى قال تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم والثانية فضيلة العبادة فيها روى الزمخشرى أنه صلى الله عليه وسلم قال من صلى فى هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله تعالى اليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان ثالثها نزول الرحمة قال صلى الله عليه وسلم ان الله يرحم أمتى فى هذه الليلة بعدد شعر أغنام بنى كلب رابعها حصول المغفرة فيها قال صلى الله عليه وسلم ان الله يغفر لجميع المسلمين فى تلك الليلة الا الكاهن والساحر ومدمن الخمر وعاق والديه والمصر على الزنا خامسها أنه تعالى أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة تمام الشفاعة فى

لما أن تأتيهم بغتة وهم يقظون حذرون مستعدون لها (قوله لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) فان قلت كيف وصف اهل النار فيها بانهم مبلسون والمبلس هو

أمته قال الزمخشري وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطي الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطي الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطي الجميع الا من شرد عن الله شرود البعير اهـ وروي أن عطية الحروري سأل ابن عباس عن قوله تعالى انا أنزلناه في ليلة القدر وكيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الشهور فقال ابن عباس يا ابن الاسود لو هلكت أنا ووقع في نفسك هذا ولم تجد جوابه لهلكت نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى البيت المعمور في السماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالا فحالا وقال قتادة وابن زيد أنزل الله تعالى القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب الى السماء الدنيا ثم نزل به جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم نجوما في عشرين سنة وقوله تعالى (انا) أي على ما لنا من العظمة (كنا) أي دائما (منذرين) أي مخوفين استحقاقا عبادنا به المقتضي للانزال وكذلك قوله تعالى (فيها) أي الليلة المباركة سواء قلنا انها ليلة القدر أو ليلة النصف (يفرق) أي ينشر ويبين ويفصل ويوضح مرة بعد مرة (كل أمر حكيم) أي محكم الامر لا يستطاع أن يطعن فيه بوجه من جميع ما يوحى به من الكتب وغيرها والارزاق والآجال والنصر والهزيمة والخصب والقحط وغيرها من جميع أقسام الحوادث وجزئياتها في أوقاتها وأماكنها ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة الى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء فيزدادون بذلك ايمانا قال ابن عباس يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والارزاق والآجال حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان وقال الحسن ومجاهد وقتادة يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل عمل وأجل وخلق ورزق وما يكون في تلك السنة وقال عكرمة ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة وتنسخ الاحياء من الاموات فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد قال صلى الله عليه وسلم تقطع الآجال من شعبان الى شعبان حتى ان الرجل لينكح النساء ويولد له وقد خرج اسمه في ديوان الموتى وعن ابن عباس ان الله تعالى يقضي الاقضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها الى أربابها في ليلة القدر وروي أن الله تعالى أنزل القرآن من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ووقع الفراغ في ليلة القدر فدفع نسخة الارزاق الى ميكائيل ونسخة الحروب الى جبريل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الاعمال قال ابن عادل الى اسرافيل وقال الزمخشري الى اسمعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب الى ملك الموت قال الزمخشري وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على ألسنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته وقوله تعالى (أمرا) أي فرقا حال من فاعل أنزلناه أو من مفعوله أي أنزلناه آمرين أو مأمورا به كائنا (من عندنا) على مقتضى حكمتنا وقوله تعالى (انا كنا) أي أزلا وأبدا (مرسلين) جواب ثالث أو مستأنف أو بدل من قوله تعالى انا كنا منذرين أي لنا صفة الارسال بالقدرة عليها في كل حين والارسال لمصالح العباد لابد فيه من الفرقان بالبشارة والنذارة وغيرهما حتى لا يكون لبس فلا يكون لاحد على الله تعالى حجة قال البقاعي وهذا الكلام المنتظم والقول الملتئم بعضه ببعض المتراصف أجل رصف في وصف ليلة الانزال دال على انه لم ينزل صحيفة ولا كتابا الا في هذه الليلة فيدل على أنها ليلة القدر للاحاديث الواردة في أن الكتب كلها نزلت فيها وكذلك قوله تعالى في سورة القدر تنزل الملائكة

الآيس من الرحمة
والفرج مع قوله بعد
ونادوا يا مالك ليقض علينا
ربك الدال على طلبهم
الفرج بالموت (قلت) وقع
كل منهما في زمن لان ازمنة

والروح فيها باذن ربهم من كل أمر فان الوحى الذى هو مجمع ذلك هو روح الامر الحكيم ثم بين تعالى حال الرسالات بقوله تعالى (رحمة) وعدل لاجل ما اقتضاه التعبير بالرحمة عما كان من أسلوب التكلم بالعظمة من قوله منذرا الى قوله تعالى (من ربك) أى المحسن اليك بارسالك وارسال كل نبى مضى من قبلك فان رسالاتهم كانت اسباب الانوار فى العبادات وتمهيد الشرائع فى البلاد حتى استنارت القلوب واطمأنت النفوس بما صارت تعهده من شرع الشرائع وتوطئة الاديان فتسهلت طرق الرب بالتعميم برسالتك حتى ملأت أنوارك الآفاق فكنت نتيجة كل من تقدمك من الرفاق وقال ابن عباس معنى رحمة من ربك أى رأفة منى بخلق ونعمة عليهم بما بعثنا اليهم من الرسل وقال الزجاج أنزلناه فى ليلة مباركة للرحمة (انه هو) أى وحده (السميع العليم) أى ان تلك الرحمة كانت رحمة فى الحقيقة لان المحتاجين اما أن يذكروا حاجتهم بالسنتهم أو لم يذكروها فان ذكروها فانه سميع وان لم يذكروها فهو تعالى عالم بها (رب) أى مالك ومنشئ ومدبر (السموات) أى جميع الاجرام العالية (والارض وما بينهما) مما تشاهدون من هذا الفضاء وما فيه من الهواء وغيره مما تعلمون من أسباب العباد وغيرها مما لا تعلمون ومن المعلوم انه والعرش والكرسى فعلم بهذا انه مالك الملك كله وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بخفض الباء الموحدة على البدل أو البيان أو النعت والباقون برفعها على اضمار مبتدا أو على انه مبتدأ خبره لا اله الا هو والمقصود من هذه الآية ان المنزل اذا كان موصوفا بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذى هو القرآن فى غاية الشرف والرفعة (فان قيل) ما معنى الشرط الذى هو قوله تعالى (ان كنتم موقنين) (أجيب) بانهم كانوا يقرون بان للسموات والارض ربا وخالقا فقيل لهم ان كنتم يا أهل مكة موقنين بانه تعالى رب السموات والارض فايقنوا أن محمدا عبده ورسوله ولما ثبت بهذا النظر الصافى ربوبيته وعدم اختلال التدبير على طول الزمان وحدانيته أنتج ذلك قوله تعالى (لا اله الا هو) أى والا لنازعه فى أمرهما منازع أو أمكن أن ينازع فيكون محتاجا لا محالة والا لدفع عنه من عكس نزاعه له وخلافه اياه فلا يكون صالحا للتدبير والقهر لكل من يخالف رسله والانجاء لكل من يوافقهم على مر الزمان وتطاول الدهر ومر الحدثان على نظام مستمر وحال ثابت مستقر ولما ثبت انه لا مدبر للوجود غيره ثبت قوله تعالى (يحيى ويميت) لان ذلك من أجل ما فيهما من التدبير وهو تنبيه على غاية دلائل التوحيد لانه لا شئ ممن فيهما يبقى ليسند التدبير اليه ويحال شئ من الامر عليه فهما جملتان الاولى نافية لما اثبتوه من الشركة والثانية مثبتة لما نفوه من البعث (ربكم) أى الذى أفاض عليكم ما تشاهدونه من النعم فى الارواح وغيرها (ورب آبائكم الاولين) أى الذى أفاض عليهم ما أفاض عليكم ثم سلبهم ذلك كما تعلمون فلم يقدر أحد منهم على ممانعة ولا طمع فى منازعة بنوع مدافعة (بل هم) أى بضمائرهم (فى شك) أى من البعث (يلعبون) أى يفعلون دائما فعل التارك لما هو فيه من أخذ الجد الذى لا مرية فيه الى اللعب الذى لا فائدة فيه ولا ثمرة له بوجه استهزاء بك يا أشرف الرسل فقال صلى الله عليه وسلم اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف قال تعالى (فارتقب) أى انتظر بكل جهدك عاليا عليهم ناظرا لاحوالهم نظر من هو حارس لها (يوم تأتى السماء بدخان مبين) أى ظاهر (يغشى الناس) أى المهتدين به فاذا قالوا عند اتيانه (هذا

يوم القيامة متعددة (قوله
وهو الذى فى السماء اله
وفى الارض اله) ان قلت
هذا يقتضى تعدد الآلهة
لان النكرة اذا اعيدت
نكرة تعددت كقولك

عذاب أليم) أي يخلص وجعه الى القلب فيبلغ فى ألمه كما كنتم تؤلمون من يدعوكم الى الله تعالى
واختلف فى هذا الدخان فروى أبو الضحا عن مسروق قال بينا رجل يحدث فى كندة قال
يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام
ففزعنا فأتينا ابن مسعود وكان متكئا فغضب فجلس فقال من علم فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله
أعلم فان من العلم أن تقول لما لا تعلم لا أعلم فان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قل
ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين فان قريشا ابطؤا عن الاسلام فدعاهم النبي صلى
الله عليه وسلم فقال اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها
وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والارض كهيئة الدخان فجاءه أبو سفيان
فقال يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وان قومك قد هلكوا فادع الله تعالى لهم فقرأ فارتقب يوم
تأتى السماء بدخان مبين الى قوله تعالى عائدون وهذا قول ابن عباس ومقاتل ومجاهد واختيار
الفراء والزجاج وهو قول ابن مسعود وكان ينكر أن يكون الدخان الا هذا الذى أصابهم من
شدة الجوع كالظلمة فى أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخانا وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان فى
هذه الحالة وجهين الاول أن فى سنة القحط يعظم يبس الارض فبسبب انقطاع المطر يرتفع
الغبار الكثير ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ويقولون كان بيننا أمر ارتفع له دخان ولهذا
يقال للسنة الجدبة الغبراء الثانى ان العرب يسمون الشئ الغالب بالدخان والسبب فيه ان
الانسان اذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه ويرى الدنيا كالمملوأة من الدخان ونقل عن على
ابن أبى طالب انه دخان يظهر فى العالم وهو احدى علامات القيامة وروى أيضا عن ابن عباس
فى المشهور عنه لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أول الآيات الدخان ونزول عيسى
ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس الى المحشر تبيت معهم اذا باتوا وتقيل معهم اذا
قالوا قال حذيفة يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال يملأ
ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه كالزكمة وأما الكافر فهو
كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره وتكون الارض كلها كبيت أوقد فيه النار وقال
صلى الله عليه وسلم بادروا بالاعمال ستا وذكر منها طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة
رواه الحسن واحتج الاولون بانه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (ربنا اكشف عنا العذاب) ثم
علموا اذ ذاك بما علموا انه الموجب للكشف فقالوا مؤكدين (انا مؤمنون) أى عن يقين فى وصف
الايمان فاذا حمل على القحط الذى وقع بمكة استقام فانه نقل أن الامر لما اشتد على أهل مكة
مشى اليه أبو سفيان فناشده الله والرحم وواعده ان دعا لهم وأزال عنهم تلك البلية أن يؤمنوا
به فلما أزالها الله عنهم رجعوا الى شركهم أما اذا حمل على ان المراد منه ظهور علامة من
علامات القيامة لم يصح ذلك لان عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا ربنا اكشف
عنا العذاب انا مؤمنون ولم يصح أيضا ان يقال انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون قال
البقاعى ويصح أن يراد به طلوع الشمس من مغربها روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى
الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس
آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها ثم قرأ الآية (أنى) أى كيف ومن أين (لهم

(قلت) انت طالق وطالق وهو الاله هنا بمعنى المعبود وهو تعالى معبود فيهما والمغايرة انما هى بين معبوديته فى السماء ومعبوديته فى الارض لان المعبودية من

الذكرى) أى هذا التذكر العظيم الذى وصفوا به أنفسهم وقرأ حمزة والكسائى أنى بالامالة محضة وقرأ أبو عمرو بالامالة بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وأمال الذكرى محضة أبو عمرو وحمزة والكسائى وأمال ورش بين بين والباقون بالفتح وكذلك الكبرى (وقد) أى والحال أنه قد (جاءهم) ماهو أعظم من ذلك وأدخل فى وجوب الطاعة (رسول مبين) أى ظاهر غاية الظهور وموضح غاية الايضاح وهو محمد صلى الله عليه وسلم وأظهر دال قد نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون (ثم تولوا عنه) أى أطاعوا ما دعاهم الى الادبار عنه من دواعى الهوى ونوازع الشهوات والحظوظ (وقالوا) أى زيادة على اساءتهم بالتولى (معلم) أى علمه غيره القرآن من البشر قال بعضهم علمه غلام أعجمى لبعض ثقيف وقال آخرون انه (مجنون) أى يلقى الجن اليه هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشى (انا) أى على مالنا من العظمة (كاشفوا العذاب) أى بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم فانه دعا فرفع عنهم القحط (قليلا) أى زمنا يسيرا قيل الى يوم بدر وقيل ما بقى من أعمارهم (انكم عائدون) أى ثابت عودكم عقب كشفنا عنكم الى الكفران لما فى جبلاتكم من العوج وطباعكم من المبادرة الى الزائل فايمانكم هذا الذى أخبرتم برسوخه عرض زائل وخيال باطل وقوله تعالى (يوم نبطش) أى بما لنا من العظمة (البطشة الكبرى) أى يوم بدر منصوب باذكر أو بدل من يوم تأتى والبطش الاخذ بقوة (انا منتقمون) أى منهم فى ذلك اليوم وهو قول ابن عباس وأكثر العلماء وفى رواية عن ابن عباس انه يوم القيامة (ولقد فتنا) أى اختبرنا بما لنا من العظمة فعل الفاتن وهو المختبر الذى يريد أن يعلم حقيقة الحال بالاملاء والتمكين ثم الارسال (قبلهم) أى هؤلاء العرب ليكون ما مضى من خبرهم عبرة لهم (قوم فرعون) أى مع فرعون لان ما كان فتنة لقومه كان فتنة له لان الكبير أرسخ فى الفتنة بما أحاط به من الدنيا وسياق التصريح به فى آخر القصة (وجاءهم) أى فرعون وقومه زيادة فى فتنتهم (رسول كريم) هو موسى عليه السلام قال الكلبى كريم على ربه بمعنى أنه تعالى أعطاه أنواعا كثيرة من الاكرام وقال مقاتل حسن الخلق وقال الفراء يقال فلان كريم قومه قيل ما بعث نبى الا من أشراف قومه وأكرمهم ثم فسر ما بلغهم من الرسالة بقوله (أن أدوا الى) ما أدعوكم اليه من الايمان أى أظهروا طاعتكم بالايمان لى يا (عباد الله) أو أطلقوا بنى اسرائيل ولا تعذبوهم وأرسلوهم معى كقوله فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم (انى لكم) أى خاصة بسبب ذلك (رسول) أى من عند الله الذى لا تكون الرسالة الكاملة الا منه (أمين) أى بالغ الامانة لان الملك الديان لا يرسل الا من كان كذلك وقوله عليه السلام (وأن لا تعلوا) معطوف على أن الاولى وأن هذه مقطوعة فى الرسم والمعنى لا تتكبروا (على الله) تعالى باهانة وحيه ورسوله (انى آتيكم بسلطان) أى برهان (مبين) أى بين على رسالتى فتوعدوه حين قال لهم ذلك بالرجم فقال (وانى عذت) أى اعتصمت وامتنعت (بربى) الذى ربانى على ما اقتضاه لطفه واحسانه الى (وربكم) الذى أعاذنى من تكبركم وقوة مكنتكم (أن ترجمون) أى أن يتجدد فى وقت من الاوقات قتل منكم لى فانى قلت انى أخاف أن يقتلون فقال تعالى سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا فمن أعظم آياتى أن لا تصلوا مع قوتكم وكثرتكم الى قتلى مع أنه لا قوة لى بغير الله الذى

الامور الاضافية [illegible] فى [illegible] التقابل [illegible] الواجب [illegible] ما كان [illegible] المعبود فى السماء غير المعبود فى الارض صدق ان معبوديته فى السماء غير معبوديته فى

أرساني وقال ابن عباس أن ترجمون بالقول وهو الشتم وتقولوا هو ساحر وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي عذت بادغام الذال في التاء والباقون بالاظهار وقرأ ورش باثبات الياء بعد النون في ترجمون في الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذلك فاعتزلون الآتي ولما كان التقدير فان آمنتم بذلك وسلمتم لي أفلحتم عطف عليه قوله تعالى (وان لم تؤمنوا لي) أي تصدقوا لاجل ما أخبرتكم به (فاعتزلون) أي كونوا بمعزل مني لا علي ولا لي فلا تتعرضوا الي بسوء فانه ليس جزاء دعائكم الى ما فيه فلاحكم والفاء في قوله تعالى (فدعا) تدل على أنه متصل بمحذوف قبله وتأويله أنهم كفروا ولم يؤمنوا فدعا موسى عليه السلام (ربه) الذي أحسن اليه بسياسته وسياسة قومه ثم فسر ما دعا به بقوله (ان هؤلاء) أي الحقيرين الاذلين الارذلين (قوم) لهم قوة على القيام فيما يحاولونه (مجرمون) أي موصوفون بالعراقة في قطع ما أمرت به أن يوصل (فان قيل) الكفر أعظم حالا من الجرم فما السبب في أنه جعل الكفار مجرمين حين أراد المبالغة في ذمهم (أجيب) بأن الكافر قد يكون عدلا في دينه وقد يكون فاسقا في دينه والفاسق في دينه أخس الناس * ثم تسبب عن دعائه لانه مجاب الدعوة قوله تعالى (فأسر بعبادي) أي بني اسرائيل الذين أرسلناك لاسعادهم باستنقاذهم ممن يظلمهم وتشريفهم لعبادتي وقوله تعالى (ليلا) نصب على الظرفية والاسراء سير الليل فذكر الليل تأكيد بغير اللفظ وانما أمره بالسير بالليل لانه أوقع بالقبط موت الابكار ليلا فأمر موسى أن يخرج بقومه في ذلك الوقت خوفا من أن يمنعوا توابع القبط * ولما علم الله تعالى أنهم ان تأخروا الى أن يطلع الفجر ويرتفع عنهم الموت منعوهم الخروج وان تأخروا الى آخر الليل أدركوهم قبل الوصول الى البحر فقتلوهم علل هذا الامر بقوله مؤكدا لان حال القبط عند ما أمرهم بالخروج كان حال من لا يتهيأ له الخروج في قوله (انكم متبعون) أي مطلوبون بغاية الجهد من عدوكم فلا يغرنكم ما هم فيه عند أمركم بالخروج من الجزع من اقامتكم بين أظهرهم وسؤالهم لكم في الخروج عنهم بسبب وقوع الموت الناشئ فيهم فان القلوب بيد الله تعالى فهو ينسي قلب فرعون بعد رؤيته هذه الآيات حين يرتفع عنهم الموت ويفرغون من دفن موتاهم فيطلبكم لما دبرته في القدم من سياستكم باغراقهم أجمعين ليظهر مجدي بذلك وأدفع عنكم روع مدافعتهم فاني أعلم أنه لا قوة لكم ولا طاقة بكم فلم أكلفكم بمباشرة شئ من أمرهم وقرأ نافع وابن كثير فاسر بوصل الهمزة بعد الفاء والباقون بقطعها قال الزمخشري وفيه وجهان اضمار القول بعد الفاء أي فقال اسر بعبادي وجواب شرط مقدر كأنه قال ان كان الامر كما تقول فاسر بعبادي قال أبو حيان وكثيرا ما يدعي حذف الشرط ولا يجوز الا لدليل واضح كأن يتقدمه الامر أو ما أشبهه يقال سرى وأسرى لغتان ولما أمره بالاسراء أمره بما يفعل فيه فقال تعالى (واترك البحر) أي اذا سريت بهم وتبعك العدو ووصلت بعد اليه وأمرتك بضربه لينفتح لتدخلوا فيه فدخلتم ونجيتم (رهوا) بعد خروجكم منه باجمعكم وفي الرهو وجهان أحدهما أنه الساكن أي اتركه ساكنا كما قال الاعشى

يمشين رهوا فلا الاعجاز خاذلة * ولا الصدور على الاعجاز تتكل

أي مشيا ساكنا على هينة قارا على حاله بحيث يبقى المرتفع من مائه مرتفعا والمنخفض منخفضا

كالجدار

الارض مع ان المجهود واحد

(سورة الدخان)

قوله ولقد اخترناهم على علم على العالمين قال هنا بذكر وعلى علم اي منا

قوله وجواب الخ عبارة الزمخشري وأن يكون جواب شرط الخ

كالجدار بطريقه الذي مررتم به يابسا اذا بحر سهل على الحالة التي دخلتم فيها لان موسى لما جاوز البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضرب به فانفلق فامر أن يتركه ما كنا على هيئته قارا على حاله ليدخله القبط فاذا حصلوا فيه أطبقه الله تعالى عليهم والثانى أن الرهو الفجوة الواسعة وعن بعض العرب انه رأى جملا فالجا فقال سبحان الله رهو بين سنامين أى اتركه مفتوحا على حاله منفرجا (انهم جند مغرقون) أى متمكنون فى هذا الوصف وان كان لهم وصف القوة والتجمع الذى هو مظنة النجدة المرجبة للعلو فى الامور * ولما أخبر تعالى عن غرقهم أخبر عن مخلفهم بقوله تعالى (كم تركوا) أى كثيرا ترك الذين سبق الحكم باغراقهم فغرقوا (من جنات) أى بساتين هى فى غاية ما يكون من طيب الارض وكثرة الاشجار وزكاء الثمار والنبات وحسنها الذى يستر الهموم ودل على كرم الارض بقوله تعالى (وعيون وزروع) أى ما هو دون الاشجار وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بكسر العين والباقون بضمها ثم أخبر عن منازلهم بقوله تعالى (ومقام كريم) أى مجالس شريف هو أهل لان يقوم الانسان فيه لانه فى النهاية فيما يرضيه (ونعمة) وهى اسم للتنعم بمعنى الترفه والعيش اللين الرغد (كانوا فيها) أى دائما (فاكهين) أى فعلهم فى عيشهم فعل المتفكه المترفه لا فعل من يضطر الى اقامة نفسه وقوله تعالى (كذلك) خبر لمبتدا مضمر أى الامر كما أخبرنا به من تنعيمهم واخراجهم واغراقهم وانهم تركوا جميع ما كانوا فيه لم يغن عنهم شئ منه فلا يغتر أحد بما ابتليناه من النعم لئلا نصنع به من الاهلاك ما صنعنا بهم وقوله تعالى (وأورثناها) أى تلك الامور العظيمة عطف على تركوا (قوما) أى ناسا ذوى قوة فى القيام على ما يحاولونه وحقق انهم غيرهم تحقيقا لاغراقهم بقوله تعالى (آخرين) ليسوا منهم فى شئ وهم بنو اسرائيل وقيل غيرهم لانهم لم يعودوا الى مصر بل سكنوا الارض المقدسة فلما سكن القوم الآخرون مصر ورثوا كنوزها وأموالها ونعمها ومقامها الكريم وقوله تعالى (فما بكت عليهم السماء والارض) مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم وانهم واذا لم تبك لما كن فما ظنك بالساكن الذى هو فيها تقول العرب اذا مات رجل خطير فى تعظيم مهلكه بكت عليه السماء والارض وبكته الريح وأظلمت له الشمس قال الفرزدق

فالشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكى عليك نجوم الليل والقمر

وقالت الخارجية

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

وقال جرير

لما أتى خبر الزبير تواضعت * سور المدينة والجبال الخشع

وذلك على سبيل التخييل والتمثيل مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه قال الزمخشرى وكذلك ما روى عن ابن عباس من بكاء مصلى المؤمن وآثاره فى الارض ومصاعد عمله ومهابط رزقه فى السماء تمثيل ونفى ذلك عنهم فى قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والارض تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال فيه بكت عليه السماء والارض اهـ وروى أنس ابن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من مسلم الا وله فى السماء بابان باب يخرج منه

وقال فى الجاثية وفضلناهم على العالمين بحذفه جريا على الاصل فى ذكر هنا على ما لا يغنى عنه غيره واكتفاء ثم بقوله بعده واضله الله على علم (قوله ان هى

رزقه وباب يدخل منه عمله فاذا مات وفقداه بكيا عليه وتلا هذه الآية وقال علي رضي الله عنه ان المؤمن اذا مات بكى عليه مصلاه من الارض ومصعد عمله من السماء وعن الحسن فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين يعني فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الارض وقال عطاء بكاء السماء حمرة اطرافها وقال السدي لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكت عليه السماء وبكاؤها حمرتها وقرأ أبو عمرو عليهم في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضمهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم واما الوقف فحمزة بضم الهاء والباقون بالكسر (وما كانوا منظرين) أي لما جاء وقت هلاكهم لم يمهلوا الى وقت آخر لتوبة وتدارك تقصير ❁ ولما كان انقاذ بني اسرائيل من القبط أمرا باهرا لا يكاد يصدق فضلا عن أن يكون باهلاك أعدائهم أكد سبحانه الاخبار بذلك اشارة الى ما يحق له من العظمة تنبيها على أنه قادر أن يفعل بهذا النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه كذلك وان كانت قريش يرون ذلك محالا وأنهم في قبضتهم فقال تعالى (ولقد نجينا) أي بما لنا من العظمة تنجية عظيمة (بني اسرائيل) عبدنا الخالص لنا (من العذاب المهين) أي من استعباد فرعون وقتله أبناءهم وقوله تعالى (من فرعون) بدل من العذاب على حذف المضاف أو جعله عذابا لافراطه في التعذيب أو حال من المهين أي واقعا من جهته (انه كان عاليا) أي في جبلته العراقة في العلو (من المسرفين) أي العريقين في مجاوزة الحدود (ولقد اخترناهم) أي بني اسرائيل بما لنا من العظمة (على علم) اي عالمين بانهم أحقاء بان يختاروا ويجوز ان يكون المعنى مع علم منا بانهم يزيغون ويفرط منهم الفرطات في بعض الاحوال ❁ ثم بين المفضل عليه بعد ان بين المفضل بقوله تعالى (على العالمين) اي الموجودين في زمانهم بما انزلنا عليهم من الكتب وارسلنا اليهم من الرسل وقيل على الناس جميعا لكثرة الانبياء منهم وقيل عام دخله التخصيص ثم بين آثار الاختيار بقوله تعالى (وآتيناهم) أي على ما لنا من العظمة (من الآيات) اي العلامات الدالة على عظمتنا واختيارنا لهم من حين اتى موسى عبدنا عليه السلام فرعون الى ان فارقهم بالوفاة وبعد وفاته على أيدي الانبياء المقررين للشريعة عليهم السلام (ما فيه بلاء) اي اختبار مثله يميل من ينظره او يسمعه الى غير ما كان عليه وذلك بفرق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك مما رأوه من الآيات التسع (مبين) اي بين في نفسه موضح لغيره (ان هؤلاء) اشارة الى كفار قريش لان الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على انهم مثلهم في الاصرار على الضلالة والانذار على مثل ما حل بهم (ليقولون) اي بعد قيام الحجة البالغة عليهم مبالغين في الانكار (ان) أي ما (هي) وقولهم (الا موتتنا) على حذف مضاف اي ما الحياة الا حياة موتتنا (الاولى) التي كانت قبل نفخ الروح كما سيأتي ان شاء الله تعالى في الجاثية او هي الا حياتنا الدنيا وقال الجلال المحلي ان هي ما الموتة التي بعدها الحياة الا موتتنا الاولى اي وهم نطف وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وابو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وما نحن بمنشرين) اي بمبعوثين بحيث نصير ذوي حركة اختيارية ننتشر بها بعد الموت يقال نشره وانشره احياه ثم احتجوا على نفي الحشر والنشر بقولهم (فأتوا) اي ايها الزاعمون انا نبعث بعد الموت (بآبائنا) اي لكونا نعرفهم ونعرف وقوعهم (ان كنتم صادقين) اي

قوله (ان هي الا موتتنا الاولى) ان قلت القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان حقهم ان يقولوا ان هي الا حياتنا الاولى (قلت) لما قيل لهم انكم تموتون موتة

ائتنا صادقين في انا نبعث يوم القيامة أحياء بعد الموت ثم خوفهم الله تعالى بمثل عذاب الامم الخالية فقال تعالى (أهم خير) أى في الدين والدنيا (أم قوم تبع) اى ليسوا خيرا منهم فهو استفهام على سبيل الانكار قال ابو عبيدة ملوك اليمن كل واحد منهم يسمى تبعا لان اهل الدنيا كانوا يتبعونه وموضع تبع في الجاهلية موضع الخليفة في الاسلام وهم الاعاظم في ملوك العرب وقال قتادة هو تبع الحميرى وكان من ملوك اليمن سمي بذلك لكثرة اتباعه وكان هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير الى الاسلام فكذبوه ولذلك ذم الله تعالى قومه ولم يذمه وعن النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعا فانه كان قد اسلم وعنه صلى الله عليه وسلم ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبي وعن عائشة رضى الله عنها قالت لا تسبوا تبعا فانه كان رجلا صالحا وذكر عكرمة عن ابن عباس انه كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن مليك وكان سار بالجيوش نحو المشرق وحير الحيرة وبنى قصر سمرقند وملك بقومه الارض طولها والعرض وكان اقرب الملكين الى قريش زمانا ومكانا وكان له بمكة المشرفة ما ليس لغيره من الآثار قال الرازى في اللوامع هو أول من كسا البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيام وطاف به وحلق قال البغوى بعد أن ذكر قصته مع الانصار لما قتل ابنه غيلة في المدينة الشريفة وما وعظه به اليهود في الكف عن خراب المدينة لانها مهاجر نبي من قريش انه صدقهم واتبع دينهم وذلك قبل نسخه وعن الرياشي آمن تبع بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة عام (فان قيل) ما معنى قوله تعالى اهم خير أم قوم تبع مع انه لا خير في الفريقين (أجيب) بان معناه أهم خير في القوة والشوكة كقوله تعالى اكفاركم خير من أولئكم بعد ذكر آل فرعون ويجوز في قوله تعالى (والذين من قبلهم) اى مشاهير الامم كمدين واصحاب الايكة والرس وثمود وعاد ثلاثة أوجه أحدها أن يكون معطوفا على قوم تبع ثانيها أن يكون مبتدأ وخبره (أهلكناهم) أى بعظمتنا وان كانوا اصحاب مكنة وقوة واما على الاول فاهلكناهم اما مستأنف واما حال من الضمير المستكن في الصلة ثالثها أن يكون منصوبا بفعل مقدر يفسره أهلكناهم ولا محل لاهلكناهم حينئذ (انهم كانوا) اى جبلة وطبعا (مجرمين) أى عريقين في الاجرام فليحذر هؤلاء ان ارتكبوا مثل افعالهم من مثل حالهم * ولما أنكر تعالى على كفار مكة قولهم ووصفهم بانهم اضعف ممن كان قبلهم ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة فقال تعالى (وما خلقنا السموات) اى على عظمها واتساع كل واحدة منها واحتوائها لما تحتها او جمعها لان العمل كلما زاد كان أبعد عن العبث * ولما كان الدليل على تطابق الارض دليلا دقيقا وحدها بقوله تعالى (والارض) اى على ما فيها من المنافع (وما بينهما) أى النوعين وبين كل واحد منهما وما يليها (لاعبين) اى على ما لنا من العظمة التي يدرك من له أدنى عقل تعاليها عن اللعب لانه لا يفعله الا ناقص ولو تركنا الناس يبغي بعضهم على بعض كما تشاهدون ثم لا ناخذ لضعيفهم بحقه من قويهم لكان خلقنا لهم لعبا بل اللعب أخف منه ولم نكن على ذلك التقدير مستحقين للصفة القدسية وقد تقدم تقرير هذا الدليل في اول سورة يونس وفي آخر سورة المؤمنين عند قوله تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وفي ص عند قوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا (ما خلقناهما) اى السموات والارض مع ما بينهما وقوله

يعقبها حياة كما تقدمتكم موتة كذلك قالوا ان هي الا موتتنا الاولى اى ما الموتة التي من شانها أن يعقبها حياة الا الموتة الاولى (قوله وما خلقنا

تعالى (الا بالحق) حال اما من الفاعل وهو الظاهر واما من المفعول اى الا محقين فى ذلك ويستدل
به على وحدانيتنا وقدرتنا وغير ذلك او متلبسين بالحق (ولكن أكثرهم) اى هؤلاء الذين
انت بين أظهرهم وهم يقولون ان هى الا موتتنا الاولى وكذا من ضاهاهم (لا يعلمون)
اى انا خلقنا الخلق بسبب اقامة الحق عليهم فهم لاجل ذلك يجترؤن على المعاصى ويفسدون فى
الارض لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ولو تذكروا ما ذكرناه فى جبلاتهم لعلموا علما ظاهرا
انه الحق الذى لا معدل عنه كما يتولى حكامهم المناصب لاجل اظهار الحكم بين رعاياهم
ويشترطون الحكم بالحق ويؤكدون على أنفسهم انهم لا يتجاوزونه * ولما ذكر الدليل على
اثبات البعث والقيامة ذكر عقبه يوم الفصل فقال تعالى (ان يوم الفصل) أى يوم القيامة
يفصل الله تعالى فيه بين العباد قال الحسن سمى بذلك لان الله تعالى يفصل فيه بين اهل الجنة
وأهل النار وقيل يفصل فيه بين المؤمن وما يكرهه وبين الكافر وما يريده (ميقاتهم) أى وقت
موعدهم الذى ضرب لهم فى الازل وأنزلت فيه الكتب على ألسنة الرسل (أجمعين) لا يتخلف
عنه أحد ممن مات من الجن والانس والملائكة وجميع الحيوانات وقوله تعالى (يوم لا يغنى)
اى بوجه من الوجوه بدل من يوم الفصل أو منصوب باضمار أعنى أو صفة لميقاتهم ولا يجوز أن
ينتصب بالفصل نفسه لما يلزم من الفصل بينهما بأجنبى وهو ميقاتهم (مولى) اى من قرابة
او غيرها (عن مولى) بقرابة او غيرها أى لا يدفع عنه (شيأ) من الاشياء كثر أو قل (ولاهم)
اى القسمان (ينصرون) اى ليس لهم ناصر يمنعهم من عذاب الله تعالى * (تنبيه) *
المولى اما فى الدين أو فى النسب أو المعتق وكل هؤلاء يسمون بالمولى فلما لم تحصل النصرة منهم
فأن لا تحصل ممن سواهم اولى ونظير هذه الآية قوله تعالى واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس
شيأ الى قوله تعالى ولاهم ينصرون وقال الواحدى المراد بقوله تعالى مولى عن مولى الكفار
لانه ذكر بعده المؤمن فقال تعالى (الا من رحم الله) اى اراد اكرامه الملك الاعظم وهم
المؤمنون يشفع بعضهم لبعض باذن الله تعالى فى الشفاعة لاحدهم فيكرم الشافع فيه
وقال ابن عباس يريد المؤمن فانه يشفع له الانبياء والملائكة * (تنبيه) * يجوز فى الا من
رحم الله اوجه أحدها وهو قول الكسائى انه منقطع ثانيها انه متصل تقديره لا يغنى
قريب عن قريب الا المؤمنين فانهم يؤذن لهم فى الشفاعة فيشفعون فى بعضهم كما مر ثالثها
أن يكون مرفوعا على البدلية من مولى الاول ويكون يغنى بمعنى ينفع قاله الحوفى رابعها
انه مرفوع المحل ايضا على البدل من واو ينصرون اى لا يمنع من العذاب الا من رحم الله (انه)
اى وحده (هو العزيز) اى المنيع الذى لا يقدح فى عزته عفو ولا عقاب بل ذلك دليل على
عزته فانه يفعل ما يشاء فيمن يشاء من غير مبالاة باحد (الرحيم) اى الذى لا يمنع عزته أن
يكرم من شاء * ولما وصف تعالى اليوم ذكر بعده وعيد الكفار فقال سبحانه (ان شجرت
الزقوم) هى من أخبث الشجر المرّ بتهامة ينبتها الله تعالى فى الجحيم وتقدم الكلام عليها فى
الصافات ورسمت بالتاء المجرورة فوقف عليها بالهاء أبو عمرو وابن كثير والكسائى ووقف
الباقون بالتاء على الرسم (طعام الاثيم) اى المبالغ فى اكتساب الآثام حتى صارت به
الى الكفر قال أكثر المفسرين هو ابو جهل (كالمهل) اى وهو ما يمهل فى النار حتى يذوب

(السموات والارض) قاله بالجمع موافقة لقوله أول السورة رب السموات والارض (قوله ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) * ان قلت كيف قال

من ذهب أو فضة وكل ما في معناه مما من المنطبعات سواء كان من صفر أو حديد أو رصاص وقيل هو عكر القطران وقيل عكر الزيت وقرأ (يغلي في البطون) أي من شدة الحر ابن كثير وحفص بالياء التحتية على ان الفاعل ضمير يعود على طعام وجوز أبو البقاء أن يعود على الزقوم وقيل يعود على المهل نفسه والباقون بالتاء الفوقية على أن الفاعل ضمير الشجرة (كغلي) أي مثل غلي (الحميم) اي الماء الذي تناهى حره بما يوقد تحته وعن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لافسدت على اهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه ويقال للزبانية (خذوه) أي هذا الاثيم أخذ قهر فلا تدعوه يملك من امره شيأ (فاعتلوه) اي جروه بقهر بغلظة وعنف وسرعة الى العذاب والاهانة بحيث يكون كأنه محمول وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بضم التاء والباقون بكسرها وهما لغتان في مضارع عتل قال البقاعي وقراءة الضم أدل على تناهي الغلظة والشدة من قراءة الكسر (الى سواء) اي وسط (الجحيم) اي النار التي هي غاية في الاضطرام والتوقد وهو موضع خروج الشجرة التي هي طعامه (ثم صبوا فوق رأسه) اي ليكون المصبوب محيطا بجميع جسده (من عذاب الحميم) اي من الحميم الذي لا يفارقه العذاب فهو أبلغ مما في آية يصب من فوق رؤسهم الحميم ويقال له توبيخا وتقريعا (ذق) اي العذاب (انك) وأكد بقوله (أنت) اي وحدك دون هؤلاء الذين يخبرون بحقارتك (العزيز الكريم) بزعمك وقولك ما بين جبليها اعز واكرم مني وقرأ الكسائي بفتح الهمزة بعد القاف على معنى العلة اي لانك (١) وقيل تقديره ذق عذاب الجحيم انك أنت العزيز والباقون بالكسر على الاستئناف المفيد للعلة فتتحد القراءتان معنى وهذا الكلام الذي على سبيل التهكم أغيظ للمستهزأ به ومثله قول جرير لشاعر سمى نفسه زهرة اليمن

ألم يكن في رسوم قد رسمت بها ● من كان موعظة يا زهرة اليمن

وكان هذا الشاعر قد قال

أبلغ كليبا وابلغ عنك شاعرها ● أني الاعز وأني زهرة اليمن

ويقال لهم (ان هذا) اي الذي ترون من العذاب (ما كنتم به) اي بسببه وطلبا (تمترون) اي تعالجون انفسكم وتحملونها على الشك فيه وترددتم اعمالها من القطرة الاولى من التصديق بالممكن لاسيما من جرب صدقه وظهرت خوارق العادات على يده بحيث كنتم اشدة ردكم له كأنكم تخصمونه بالشك ● ولما ذكر سبحانه وتعالى وعيد الكفار اردفه بآيات الوعد فقال (ان المتقين) اي العريقين في هذا الوصف (في مقام) اي موضع اقامة لا يريد الحال فيه تحولا عنه (امين) اي يامن صاحبه فيه من كل ما لا يعجبه وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم اي في مجلس امين والباقون بضمها على المصدر اي في اقامة وقوله تعالى (في جنات) اي بساتين تقصر العقول عن ادراك كل وصفها بدل من قوله تعالى في مقام امين او خبر ثان وقرأ (وعيون) ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين والباقون بضمها ولما كان لا يتم العيش الا بكسوة البدن اشار الى ذلك بقوله تعالى (يلبسون) ودل على الكثرة جدا بقوله تعالى (من سندس) وهو مارق من الحرير يعمل وجوها (واستبرق) هو ما غلظ

ذلك مع ان العذاب لا يصب وانما يصب الحميم كما قال في محل آخر يصب من فوق رؤسهم الحميم (قلت) هو استعارة ليكون الوعيد أهيب وأعظم (قوله يلبسون

(١) قوله وقيل تقديره الخ كذا في النسخ التي بأيدينا وفي حاشية الجمل عن السمين وقيل تقديره ذق عذاب انك أنت الخ اهـ مصححه

قوله وقرأ نافع وابن عامر الخ هكذا بالنسخ وعبارة غيث النفع قرأ نافع والشامي بضم الميم الاولى من الاقامة والباقون بفتحها موضع القيام اهـ وبذلك يعلم ما في عبارته من العكس اهـ مصحح

منه بعمل بطائن وسمى بذلك لشدة بريقه وقوله تعالى (متقابلين) أى فى مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض حال وقوله يلبسون حال من الضمير المستكن فى الجار أو خبر ثان فيتعلق الجار به أو مستأنف (فان قيل) الجلوس على هذه الهيئة موحش لان كل واحد منهم يصير مطلعا على ما يفعل الآخر وأيضا فقليل الثواب اذا اطلع على كثيره يتنغص عليه (أجيب) بان أحوال الآخرة ليست كأحوال الدنيا وقد قال تعالى ونزعنا ما فى صدورهم من غل وقوله تعالى (كذلك) يجوز فيه وجهان أحدهما النصب نعتا لمصدر أى نفعل بالمتقين فعلا كذلك أى مثل ذلك الفعل ثانيهما الرفع على أنه خبر مبتدا مضمر أى الامر كذلك ولما كان ذلك لا يتم السرور به الا بالازواج قال تعالى (وزوجناهم) اى قرناهم كما تقرن الازواج وليس المراد به العقد لان فائدة العقد الحل والجنة ليست بدار تكليف من تحليل او تحريم (بحور) أى بجوار بيض حسان نقيات الثياب (عين) اى واسعات الاعين قال البيضاوى واختلف فى انهن نساء الدنيا او غيرهن ولما كان الشخص فى الدنيا يخشى كلف النفقات وصف ما هنا للشخص من سعة الخيرات فقال تعالى (يدعون) اى يطلبون طلبا هو غاية المسرة (فيها) أى الجنة أى يؤتون (بكل فاكهة) اى لا يمتنع عليهم صنف من الاصناف لبعد مكان ولا فقدان ولا غير ذلك من الشأن وفى ذلك ايذان بانه مع سعته ليس فيه شئ لاقامة البنية وانما هو للتفكه والتلذذ حال كونهم مع ذلك (آمنين) فى غاية الامن من كل مخوف (لا يذوقون فيها) اى الجنة (الموت) لانها دار خلود لا دار فناء وقوله تعالى (الا الموتة الاولى) فيه أوجه أحدها أنه استثناء منقطع اى لكن الموتة الاولى قد ذاقوها ثانيها أنه متصل وتاولوه بان المؤمن عند موته فى الدنيا يصير بلطف الله كأنه فى الجنة لاتصاله باسبابها او مشاهدته اياها او ما يعطاه من نعيمها فكأنه مات فيها ثالثها ان الا بمعنى سوى اى سوى الموتة التى ذاقوها فى الدنيا كما فى قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف أى سوى ما قد سلف رابعها ان الا بمعنى بعد أى لا يذوقون فيها الموت بعد الموتة الاولى فى الدنيا واختاره الطبرى لكن نوزع بان الا بمعنى بعد لم يثبت وقد يجاب بان من حفظ حجة على من لم يحفظ خامسها قال الزمخشرى أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله الا الموتة الاولى موضع ذلك لان الموتة الماضية محال ذوقها فى المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل ان كانت الموتة الاولى يستقيم ذوقها فى المستقبل فانهم يذوقونها سادسها المراد بالمتقين أعم من الراسخين وغيرهم وان ضمير فيها يرجع للآخرة فالعاصى اذا أراد الله تعالى تعذيبه بالنار يذيقه فيها موتة أخرى كما جاء فى الاحاديث الصحيحة فيكون على المجموع سابعها أن الموتة الاولى فى الجنة المجازية فلا يكون ذلك بالمحال وذلك ان المتقى لم يزل فيها فى الدنيا قال بعض العلماء الدنيا اذا تحققت فى حق المؤمن التقى فانها جنة صغرى لتوليه سبحانه اياه فيها وقربه منه ونظره اليه وذكره وعبادته اياه وشغله به وهو معه أينما كان (فان قيل) اهل النار لا يذوقون الموت أبدا فلم بشر أهل الجنة بهذا مع ان اهل النار يشاركونهم فيه (أجيب) بان البشارة ما وقعت بدوام الحياة فقط بل مع حصول تلك الخيرات والسعادات فافترقا (ووقاهم) اى المتقين (عذاب الجحيم) اى التى تقدم انها للكل كفارا ثيم وأما غير المتقين من العصاة فيدخل الله تعالى من أراد منهم النار فيعذب كلا منهم على قدر ذنوبه ثم يميتهم فيها ويستمرون الى أن يأذن الله تعالى فى الشفاعة فيهم فيخرجهم ثم يحييهم بما يرش عليهم من ماء

الحياة

من سندس واستبرق) فان قلت كيف وعد الله تعالى اهل الجنة بلبس الاستبرق وهو غليظ الديباج مع أن لبس غليظه عند السعداء

الحياة ثم يدخلهم الله تعالى الجنة روى عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يدخل ناس في النار حتى اذا صاروا فحما أدخلوا الجنة فيقول أهل الجنة من هؤلاء فيقال هؤلاء الجهنميون وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا فيها حمما ثم تدركهم الرحمة فيخرجون و يطرحون على أبواب الجنة فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل ثم يدخلون الجنة وقوله تعالى (فضلا) مفعول لاجله أى فعل ذلك بهم لاجل الفضل وجعله أبو البقاء منصوبا بمقدر أى تفضلنا بذلك فضلا أى تفضلا
* (تنبيه) * احتج اهل السنة بهذه الآية على أن الثواب يحصل من الله تعالى فضلا واحسانا وأن كل ما وصل اليه العبد من الخلاص من النار والفوز بالجنة فانما يحصل بفضل الله تعالى (من ربك) أى المحسن اليك بكمال احسانه الى اتباعك احسانا يليق بك قال الرازى فى اللوامع أصل الايمان رؤية الفضل فى جميع الاحوال * ولما عظمه الله تعالى باظهار هذه الصفة مضافة اليه صلى الله عليه وسلم زاد تعظيمه بالاشارة بأداة البعد فقال تعالى (ذلك) أى الفضل العظيم الواسع (هو) أى خاصة (الفوز) أى الظفر بجميع المطالب (العظيم) لانه خلاص عن المكاره ولم يدع جهة من الشرف الا ملأها وهذا يدل على أن الفضل أعلى من درجات الثواب المستحق لانه تعالى وصفه بكونه فوزا عظيما وأيضا فان الملك العظيم اذا أعطى الاجير أجرته ثم خلع على انسان آخر فان تلك الخلعة أعلى من اعطاء تلك الاجرة * ولما بين تعالى الدليل وشرح الوعد والوعيد قال تعالى (فانما يسرناه) أى سهلنا القرآن سهولة كبيرة (بلسانك) أى هذا العربى المبين وهم عرب عجبتهم الفصاحة (لعلهم يتذكرون) أى يفهمونه فيتعظون به وان لم يتعظوا به ولم يؤمنوا به (فارتقب) أى فانتظر ما يحل بهم (انهم مرتقبون) أى منتظرون ما يحل بك فمفعولا الارتقاب محذوفان أى فارتقب النصر من ربك انهم مرتقبون بك ما يتمنونه من الدوائر والغوائل ولن يضرك ذلك وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حم الدخان ليلة جمعة أصبح مغفورا له رواه الترمذى وزاد الزمخشرى من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك ورواه البغوى عن أبى هريرة قال ابن عادل قال أبو أمامة رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتا فى الجنة والله تعالى أعلم بالصواب

سورة الجاثية مكية

الا قل للذين آمنوا يغفروا الآية وهى سبع وثلاثون آية وأربعة وأربعمائة وثمان وثمانون كلمة وألفان ومائة واحد وتسعون حرفا

(بسم الله) الذى تفرد بتمام العز والكبريا (الرحمن) الذى أحكم رحمته بالبيان العام للسعداء والاشقياء (الرحيم) الذى خص بملابسة طاعته الاولياء وتقدم الكلام على قوله تعالى (حم) ثم ان جعلتها اسما مبتدأ مخبرا عنه بقوله تعالى (تنزيل الكتاب) أى الجامع لكل خير لم يكن بد من حذف مضاف تقديره تنزيل حم تنزيل الكتاب وقوله تعالى (من الله) أى المحيط بصفات الكمال صلة للتنزيل وان جعلتها تعديدا للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ والظرف خبرا

من أهل الدنيا عيب ونقص (قلت) غليظ ديباج الجنة لا يشابه غليظ ديباج الدنيا حتى يعاب كما ان سندس الجنة وهو رقيق

قوله وزاد الزمخشرى نسخة البيضاوى التى بايدينا فيها الحديثان اللذان فى الكشاف جميعا فقد يسرة فلعلها نسخة وقعت للمؤلف اه

(العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه * ولما كانت الحواميم كما روى أبو عبيدة فى كتاب الفضائل عن ابن عباس لبيان القرآن حذف ما ذكر فى البقرة من قوله تعالى خلق ليكون ما هنا أشمل فقال تعالى (ان فى السموات) أى ذواتها بما لها من الدلالة على صانعها وخالقها على ما فيها من العبر بما فيها من المنافع وعظيم الصنعة وما لها من الشفوف الدال على تعددها بما فيها من الكواكب (والارض) كذلك وبما حوت من المعادن والمعاش (لآيات) أى دلالات على وجود الاله القادر الفاعل المختار فان من المعلوم انه لا بد لكل ذلك من صانع متصف بذلك وقال تعالى (للمؤمنين) لانهم برسوخهم فى هذا الوصف الشريف أهل للنظر لان ربهم يهديهم بايمانهم فشواهد الربوبية لهم منهما لائحة وأدلة الالهية فيهما واضحة * ولما ذكر سبحانه وتعالى النظر فى آيات الآفاق أتبعها آيات الانفس بقوله تعالى (وفى خلقكم) أى خلق كل منكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة الى أن صار انسانا مخالفا لخلق الارض التى أنتم منها بالاختيار والعقل وادعاء الانتشار والقدرة على السار والضار (وما) أى وخلق ما (يبث) أى ينشر ويفرق بالحركة الاختيارية على سبيل التجدد والاستمرار (من دابة) مما تعلمون ومما لا تعلمون على ما فى ذلك من مشاركتكم بالاختيار والهداية للمنافع بادراك الجزئيات ومخالفتكم فى الصورة والعقل وادراك الكليات وغير ذلك من مخالفة الاشكال والطبائع والمنافع وغير ذلك (آيات) دالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته وقرأ حمزة والكسائى آيات بكسر التاء حملا على اسم ان والباقون بالرفع حملا على محل ان واسمها * ولما كانت آيات الانفس أدق وأدل على القدرة والاختيار بما لها من التجدد والاختلاف قال تعالى (لقوم) أى فيهم أهلية القيام بما يحاولونه (يوقنون) أى يتجدد لهم العروج فى درجات الايمان الى أن يصلوا الى شرف الايقان فلا يخالجهم شك فى وحدانيته (واختلاف الليل والنهار) بذهاب أحدهما ووجود الآخر بعد ذهابه على التعاقب آية متكررة للدلالة على القدرة على الايجاد بعد الاعدام بالبعث وغيره (وما أنزل الله) أى الذى عمت عظمته فنفذت كلمته (من السماء من رزق) أى مطر وغيره من الاسباب المهيئة لاخراج الرزق (فأحيا به) أى بسببه (الارض) أى الصالحة للحياة ولذلك قال تعالى (بعد موتها) أى يبسها وتهشيم ما كان فيها من النبات (وتصريف) أى تحويل (الرياح) باختلاف جهاتها وأحوالها وقرأ حمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع وقوله تعالى (آيات) فيه القراءتان المتقدمتان أما الرفع فظاهر وأما الكسر ففيه وجهان أحدهما أنها معطوفة على اسم ان والخبر قوله وفى خلقكم كأنه قيل وان فى خلقكم وما يبث من دابة آيات والثانى أن تكون كررت تأكيدا لآيات الاولى ويكون فى خلقكم معطوفا على فى السموات كرر معه حرف الجر توكيدا ونظيره أن تقول ان فى بيتك زيدا وفى السوق زيدا فزيدا الثانى تأكيد للاول كأنك قلت ان زيدا زيدا فى بيتك وفى السوق وليس فى هذه عطف على معمولى عاملين البتة * ولما كانت هذه الآية أوضح دلالة من بقيتها على البعث قال تعالى فيها (لقوم يعقلون) الدليل فيؤمنون وأبدى بعض المفسرين معنى لطيفا فقال ان المنصفين اذا نظروا فى السموات والارض وانه لا بد لهما من صانع آمنوا واذا نظروا فى خلق أنفسهم ونحوها ازدادوا ايمانا فايقنوا فاذا نظروا فى سائر الحوادث عقلوا واستحكم علمهم * ولما ذكر هذه

الديباج لاثبات سندس الدنيا وقيل ان السندس لباس سادات اهل الجنة والاستبرق لباس خدمهم اظهارا لتفاوت الرتب

الآيات العظيمات قال تعالى مشيرا الى علو رتبتها باداة البعد (تلك) أى الآيات المذكورة (آيات الله) أى الجميع المحيط بصفات الكمال التى لاشئ أجل منها الدالة على وحدانيته (نتلوها) أى نقصها (عليك) سواء أكانت مرئية أو مسموعة ملتبسة (بالحق) أى الامر الثابت الذى لا يستطاع تحويله ليس بسحر ولا كذب (فبأى حديث) أى خبر عظيم صادق يتجدد علمه به يستحق أن يتحدث به واستغرق كل حديث فقال تعالى (بعد الله) أى حديث الملك الاعظم وهو القرآن (وآياته) أى حججه (يؤمنون) أى كفار مكة أى لا يؤمنون وقرأ ابن عامر وشعبة والكسائى بتاء الخطاب رأوا أن ذلك الخطاب صرف الى خطاب النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى نتلوها عليك بالحق والباقون بياء الغيبة ردوه على قوله تعالى وفى خلقكم وهو أقوى تبكيتا ولما بين الآيات للكفار وبين أنهم اذا لم يؤمنوا بها بعد ظهورها فبأى حديث بعدها يؤمنون أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال تعالى (ويل لكل أفاك) أى مبالغ فى صرف الحق عن وجهه (أثيم) أى مبالغ فى اكتساب الاثم وهو أن يبقى مصرا على الانكار والاستكبار قال المفسرون يعنى النضر بن الحرث والآية عامة فمن كان موصوفا بهذه الصفة وفسر هذا بقوله تعالى (يسمع آيات الله) أى دلالات الملك الاعظم الطاهرة حال كونها (تتلى عليه) بجميع ما فيها وهى القرآن من سهولة فهمها وعذوبة ألفاظها وظهور معانيها وجلالة مقاصدها مع الاعجاز وهى القرآن العظيم فكيف اذا كان التالى أشرف الخلق وقرأ حمزة والكسائى بامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (ثم يصر) أى يدوم دواما عظيما على قبح ماهو فيه حال كونه (مستكبرا) أى طالبا للكبر عن الاذعان وموجدا له (كأن) أى كأنه (لم يسمعها) أى حاله عند السماع وقبله وبعده على حد سواء (فبشره) أى على هذا الفعل الخبيث (بعذاب أليم) أى مؤلم والبشارة على الاصل أو التهكم وقرأ ابن كثير وحفص أليم بالرفع والباقون بالجر (واذا علم) أى بلغه (من آياتنا) أى القرآن (شيأ) وعلم أنه من آياتنا (اتخذها هزوا) أى مهزوا بها (تنبيه) فى الضمير المؤنث وجهان أحدهما أنه عائد على آياتنا يعنى القرآن والثانى أنه يعود على شيأ وان كان مذكرا لانه بمعنى الآية كقول أبى العتاهية

نفسى بشئ من الدنيا معلقة ❊ الله والقائم المهدى يكفيها

لانه أراد بشئ جارية يقال لها عتبة والمعنى اتخذ ذلك الشئ هزوا الا أنه تعالى قال اتخذها للاشعار بان هذا الرجل اذا أحس بشئ من الكلام أنه من جملة الآيات المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد وقوله تعالى (أولئك لهم عذاب مهين) أى ذو اهانة اشارة الى معنى كل أفاك أثيم ليدخل فيه جميع الافاكين فحمل أولا على لفظها فافرد ثم على معناها فجمع كقوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون ثم وصف تعالى كيفية ذلك العذاب فقال (من ورائهم) أى أمامهم لانهم فى الدنيا (جهنم) قال الزمخشرى والوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أو قدام قال

أليس ورائى ان تراخت منيتى ❊ أدب مع الولدان أزحف كالنسر

ومنه قوله تعالى من ورائهم أى من قدامهم اهـ ثم بين تعالى أن ماملكوه فى الدنيا لا ينفعهم بقوله تعالى (ولا يغنى) أى ولا يدفع (عنهم ما كسبوا) من الاموال فى رحلهم ومتاجرهم

(قوله لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى) ان قلت كيف قال فى صفة اهل الجنة ذلك مع انهم لم يذوقوا فيها (قلت) الا بمعنى ...

سيا) من الاغناء وقوله تعالى (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) أى من الاوثان
. . . كسبوا وما فيهما اما مصدرية أو بمعنى الذى أى لا يغنى عنهم كسبهم ولا اتخاذهم أو
بوه ولا الذى اتخذوه (ولهم عذاب عظيم) أى لا يدع جهة من جهاتهم ولا زمانا من
ذنهم ولا عضوا من أعضائهم الا ملأه (فان قيل) قال تعالى فى الاول مهين وفى الثانى عظيم
فما الفرق بينهما (أجيب) بان كون العذاب مهينا يدل على حصول العذاب مع الاهانة وكونه
عظيما يدل على كونه بالغا الى أقصى الغايات فى الضرر وقوله تعالى (هذا هدى) اشارة الى
القرآن يدل عليه قوله تعالى (والذين كفروا بآيات ربهم) هى القرآن أى هذا القرآن كامل فى
الهداية كما تقول زيد رجل أى كامل فى الرجولية وأيما رجل (لهم عذاب) كائن (من رجز)
أى شديد العذاب (أليم) أى بليغ الايلام ولما ذكر تعالى ذكر الربوبية ذكر بعض آثارها
وما فيهما من آياته فقال مستانفا دالا على عظمتها بالاسم الاعظم (الله) اى الملك الاعلى المحيط
بجميع صفات الكمال (الذى سخر) اى وحده من غير حول منكم ولا قوة فى ذلك بوجه من
الوجوه (لكم البحر) أيها الناس بركم وفاجركم بما جعل فيه مما لا يقدر عليه الا واحد لا شريك
له فاعل بالاختيار من القابلية للسير فيه من الرقة والليونة (لتجرى الفلك) اى السفن (فيه
بامره) اى باذنه ولو كانت موقرة باثقال الحديد الذى يغوص فيه اخف شئ منه كالابرة وما دونها
وفى ذلك دلالة ظاهرة على وحدانيته لان جريان الفلك على وجه الماء لا يحصل الا بثلاثة اشياء
احدها الرياح التى توافق المراد وثانيها خلق وجه الماء على الملاسة التى تجرى عليها الفلك
وثالثها خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغرق فيه وهذه الاحوال لا يقدر
عليها احد من البشر (ولتبتغوا) اى تطلبوا بشهوة نفس واجتهاد بما تعملون فيه من
البضائع وتتوصلون اليه من الاماكن والمقاصد بالصيد والغوص على اللؤلؤ والمرجان وغير
ذلك (من فضله) لم يصنع شيأ منه سواه (ولعلكم تشكرون) نعمه على ذلك (وسخر لكم ما فى
السموات) من شمس وقمر ونجوم بها وغير ذلك بحيث لا يمكنكم الوصول اليه بوجه (وما فى الارض)
من دابة وشجر ونبات وانهار وغيرها ولو شاء لجعله كما فى السماء لا وصول لكم اليه وقوله تعالى
(جميعا) توكيد لما دل عليه معنى ما من العموم وقيل حال من ما فى السموات وما فى الارض
وقوله تعالى (منه) حال اى سخرها كائنة منه تعالى لا صنع لاحد غيره فى شئ من ذلك قال ابن
عباس كل ذلك رحمة منه وقال الزجاج كل ذلك تفضل منه واحسان وقال بعض العارفين سخر
لك الكل لئلا يسخرك منها شئ فتكون مسخرا لمن سخر لك الكل وهو الله تعالى فانه يقبح
بالمخدوم أن يخدم خادمه (ان فى ذلك) أى الامر العظيم من تسخيره لنا كل شئ فى الكون
(لآيات) اى دلالات واضحات على انهم فى الالتفات الى غيره فى ضلال مبين بعد تسخيره لنا
ما لنا من الاعضاء والقوى على هذا الوجه البديع مع ان من هذا المسخر لنا ما هو اقوى منا
(لقوم) اى ناس فيهم اهلية القيام بما يجعل اليهم (يتفكرون) فيعلمون انه المتوحد باستحقاق
الالهية فلا يشركون به شيأ واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (قل) اى يا افضل الخلق (للذين
آمنوا) ادعوا التصديق بكل ما جاءهم عن الله تعالى (يغفروا) اى يستروا سترا بالغا (للذين
لا يرجون ايام الله) اى مثل وقائع الملك الاعظم المحيط بصفة الكمال فقال ابن عباس نزلت

سوى كالقوله تعالى الا
ما قد سلف أو الاستثناء
منقطع اى لكن الموتة
الاولى قد ذاقوها

في

فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذلك انهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فارسل عبد الله بن أبى غلامه ليستقى الماء فأبطأ عليه فلما أتاه قال له ما حبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر رضى الله عنه فقال عبد الله ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر فاشتمل سيفه يريد التوجه اليه فانزل الله تعالى هذه الآية وقال مقاتل ان رجلا من بنى غفار شتم عمر بمكة فهم عمر ان يبطش به فنزلت بالعفو والتجاوز وروى ميمون بن مهران ان فنحاص اليهودى لما نزل قوله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قال احتاج رب محمد فسمع ذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج فى طلبه فبعث النبى صلى الله عليه وسلم اليه فرده وقال القرطبى والسدى نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة كانوا فى أذى كثير من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ثم نسختها آية القتال قال الرازى وانما قالوا بالنسخ لانه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا ولا يقاتلوا فلما أمر الله تعالى بالمقاتلة كان نسخا والاقرب أن يقال انه محمول على ترك المنازعة وعلى التجاوز فيما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية وقال ابن عباس لا يرجون أيام الله أى ثوابه ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عذاب الامم الماضية وتقدم تفسير أيام الله عند قوله تعالى وذكرهم بأيام الله وقوله تعالى (ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) علة للامر والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو التنويع أو لكسب المغفرة أو الاساءة أو ما يعمهما وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بالنون اى لنجزى نحن بما لنا من العظمة والباقون بالياء التحتية أى ليجزى الله سبحانه وتعالى ولما رغب سبحانه وتعالى ورهب وقرر انه لابد من الجزاء زاد فى الترغيب والترهيب بان النفع والضر لا يعدوهم فقال تعالى شارحا للجزاء (من عمل صالحا) قل أو جل (فلنفسه) أى خاصة عمله يرى جزاءه فى الدنيا والآخرة وهو مثل ضربه الله تعالى للذين يغفرون (ومن أساء) كذلك (فعليها) خاصة اساءته كذلك وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار الذين كانوا يؤذون الرسول والمؤمنين وذلك فى غاية الظهور لانه لا يسوغ فى عقل عاقل ان ملكا يدع عبيده من غير جزاء ولا سيما اذا كان حكيما وان كانت نقائص النفوس غطت على كثير من العقول ذلك (ثم) أى بعد الابتلاء بالاملاء فى الدنيا والحبس فى البرزخ (الى ربكم) أى الملك المالك لكم لا الى غيره (ترجعون) اى تصيرون فيجازى المصلح والمسىء (ولقد آتينا) أى على ما لنا من العظمة (بنى اسرائيل الكتاب) اى الجامع للخيرات وهو يعم التوراة والانجيل والزبور وغيرها مما أنزل على أنبيائهم عليهم السلام (والحكم) أى العلم والعمل الثابتين ثبات الاحكام بحيث لا يتطرق اليهما فساد بما لا علم من الزينة بالعمل والعمل من الانتقاض بالعلم (والنبوة) التى تدرك بها الخيرات العظيمة التى لا يمكن ابلاغ الخلق اليها بلوغ اكتساب منهم فأكثرنا فيهم من الانبياء عليهم السلام (ورزقناهم) بما لنا من العظمة لاقامة أبدانهم (من الطيبات) أى الحلالات من المن والسلوى وغيرهما (وفضلناهم) أى بما لنا من العزة (على العالمين) قال أكثر المفسرين عالمى زمانهم وقال ابن عباس لم يكن أحد من العالمين أكرم على الله ولا أحب اليه منهم أى لما آتاهم من الآيات

(سورة الجاثية)*

(قوله ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين الى قوله لقوم يعقلون) ان قلت لم ختم الآية الاولى بالمؤمنين والثانية بقوله

الرتبة والمسموعة وأكثرهم من الانبياء عالم ينعله بغيرهم ممن سبق وكل ذلك فضيلة ظاهرة (وآتيناهم) مع ذلك (بينات من الامر) أي الموحى به الى أنبيائهم من الادلة القطعية والاحكام والمواعظ المؤيدة بالمعجزات ومن صفات الانبياء الآتين بعدهم وغير ذلك مما هو في غاية الوضوح ان قضيتنا بسعادته وذلك أمر يقتضي الالفة والاجتماع وقد كانوا متفقين وهم في زمن الضلال لا يختلفون الا اختلافا يسيرا لا يضر مثله ولا يعد اختلافا فلما جاءهم العلم اختلفوا كما قال تعالى (فما اختلفوا) أي أوقعوا الاختلاف والافتراق بغاية جهدهم (الا من بعد ما جاءهم العلم) أي الذي من شأنه الجمع على المعلوم فكان ما هو سبب الاجتماع سببا لهم في الافتراق (بغيا) أي للمجاوزة في الحدود التي اقتضاها لهم طلب الرياسة والحسد وغيرهما من نقائص النفوس (بينهم) أي واقعا فيهم لم يعدهم الى غيرهم وقد كانوا قبل ذلك وهم تحت أيدي القبط في غاية الاتفاق واجتماع الكلمة على الرضا بالذل ولذلك استأنف قوله تعالى الذي اقتضاه الحال على ما يشاهده العباد من أفعال الملوك فيمن خالف أمرهم مؤكدا لاجل انكارهم (ان ربك) أي المحسن اليك (يقضي بينهم) أي باحصاء الاعمال والجزاء عليها (يوم القيامة) أي الذي ينكره قومك الذين شرفناهم برسالتك (فيما كانوا) أي لما هو لهم كالجبلة (فيه يختلفون) بغاية الجهد والمعنى أنه لا ينبغي للمبطل أن يفرح بنعم الدنيا فانها وان ساوت نعم المحق أو زادت عليها فانه سيرى في الآخرة ما يسوءه وذلك كالزجر لهم * ولما بين تعالى انهم أعرضوا عن الحق بغيا وحسدا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعدل عن تلك الطريقة وأن يتمسك بالحق وأن لا يكون له غرض سوى اظهار الحق فقال تعالى (ثم) أي بعد فترة من رسلهم ومجاوزة رتب كثيرة عالية على رتبة شريعتهم (جعلناك) أي بما لنا من العزة والقدرة (على شريعة) أي طريقة واسعة عظيمة ظاهرة مستقيمة سهلة موصلة الى المقصود هي جديرة بان يشرع الناس فيها ويخالطوها مستدامة (من الامر) أي أمر الدين الذي هو حياة الارواح كما أن الارواح حياة الاشباح (فاتبعها) أي اتبع بغاية جهدك شريعتك الثابتة بالحجج (ولا تتبع أهواء) أي آراء (الذين لا يعلمون) أي لا علم لهم أو لهم علم لكنهم يعملون عمل من ليس لهم علم أصلا من كفار العرب وغيرهم قال الكلبي ان رؤساء قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ارجع الى دين آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن فأنزل الله تعالى هذه الآية * ثم علل هذا النهي مهددا بقوله تعالى مؤكدا (انهم) وأكد النفي فقال عز من قائل (لن يغنوا عنك) أي لا يتجدد لهم نوع اغناء بتدا (من الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما (شيئا) أي من اغناء أي ان اتبعتهم كما انهم لن يقدروا لك على شيء من أذى ان خالفتهم وناصبتهم (وان الظالمين) أي العريقين في هذا الوصف وهم الكفرة وكان الاصل وانهم ولكنه تعالى أظهر للاعلام بوصفهم (بعضهم أولياء بعض) اذ الجنسية علة الانضمام فلا توالوهم باتباع أهوائهم (والله) أي الذي له صفات الكمال (ولي المتقين) أي الذين هم هم الاعظم لاتصاف باتخاذ الوقايات المنجية لهم من سخط الله تعالى والمعنى ان الظالمين يتولى بعضهم بعضا في الدنيا وأما في الآخرة فلا ولي لهم ينفعهم في ايصال الثواب وازالة العقاب وأما المتقون المهتدون فالله مصلحهم ووليهم وناصرهم (هذا) أي الوحي المنزل وهو القرآن (بصائر) أي معالم (للناس) أي في الحدود والاحكام فيبصروا بها ما ينفعهم

يوقنون والثالثة بقوله يعقلون (قال) لانه تعالى لما ذكر العالم ضمنا ولا بد من صانع موصوف بصفات الكمال ومن الايمان بالصانع ناسب ختم الاولى بالمؤمنين

وما يضرهم (وهدى) أي قائد الى كل خير مانع من كل زيغ (ورحمة) أي كرامة وفوز ونعمة (لقوم يوقنون) أي ناس فيهم قوة القيام بالوصول الى العلم الثابت وتجديد الترقي في درجاته الى ما لا نهاية له وقوله تعالى (أم حسب) منقطعة فتقدر ببل والهمزة أو ببل وحدها أو بالهمزة وحدها ومعنى الهمزة فيها انكار الحسبان (الذين اجترحوا) أي اكتسبوا ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أي كاسبهم وقال تعالى ويعلم ما جرحتم بالنهار (السيئات) أي الكفر والمعاصي (أن نجعلهم) أي بما لنا من العظمة المنافية من الظلم المقتضية للحكمة (كالذين آمنوا وعملوا) تصديقا لاقرارهم (الصالحات) أي بأن نتركهم بغير حساب للفصل بين المحسن والمسيء ولما كانت المماثلة مجملة بينها استئنافا بقوله تعالى (سواء) أي مستو استواء عظيما (محياهم ومماتهم) أي حياتهم وموتهم وزمان ذلك ومكانه في الارتفاع والسفول والصفاء والكدر وغير ذلك من الاعيان والمعاني وقرأ حمزة والكسائي وحفص سواء بالنصب على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور وهو كالذين آمنوا ويكون المفعول الثاني للجعل كالذين آمنوا أي أحسبوا أن نجعلهم مثلهم في حال استواء محياهم ومماتهم ليس الامر كذلك وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر ومحياهم ومماتهم مبتدأ ومعطوف والجملة بدل من الكاف والضميران للكفار والمعنى أحسبوا أن نجعلهم في الآخرة في خير كالمؤمنين أي في رغد من العيش مساو لعيشهم في الدنيا حيث قالوا للمؤمنين لئن بعثنا لنعطى من الخير مثل ما تعطون قال تعالى على وفق انكاره بالهمزة (ساء ما يحكمون) أي ليس الامر كذلك فهم في الآخرة في العذاب على خلاف عيشهم في الدنيا والمؤمنون في الآخرة في الثواب بأعمالهم الصالحات في الدنيا من الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك وما مصدرية أي بئس حكما حكمهم هذا ولما بين تعالى أن المؤمن لا يساويه الكافر في درجات السعادة أتبعه بالدلائل الظاهرة على صحة ذلك فقال تعالى (وخلق الله) أي الذي له جميع أوصاف الكمال (السموات والارض) وقوله تعالى (بالحق) متعلق بخلق وقوله تعالى (ولتجزى) أي بأيسر أمر (كل نفس) أي منكم ومن غيركم معطوف على بالحق في المعنى لان كلا منهما سبب فعطف العلة على مثلها أو أنه معطوف على معلل محذوف والتقدير خلق هذا العالم اظهارا للعدل والرحمة وذلك لا يتم الا اذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت بين الدرجات والدركات من المحقين والمبطلين (بما) أي بسبب ما (كسبت) من خير أو شر (وهم) أي والحال أنهم (لا يظلمون) أي لا يوجد من موجد ما في وقت من الاوقات جزاؤهم في غير موضعه هذا على ما جرت به عوائدكم في العدل والفضل ولو وجد منه سبحانه وتعالى غير ذلك لم يكن ظلما منه لانه المالك المطلق والملك الاعظم فلو عذب أهل سمواته وأهل أرضه كلهم لكان غير ظالم في نفس الامر فهذا الخطاب انما هو على ما يتعارفونه من اقامة الحجة بمخالفة الامر ثم عاد سبحانه وتعالى الى شرح أحوال الكفار وقبائح طرائقهم فقال (أفرأيت) أي أعلمت علما هو في تيقنه كالمحسوس بحاسة البصر التي هي أثبت الحواس (من اتخذ) أي بغاية جهده (الهه هواه) أي ما يهواه من حجر بعد حجر يراه أحسن روي عن أبي رجاء العطاردي وهو ثقة أدرك الجاهلية ومات سنة خمس ومائة عن مائة وعشرين سنة قال كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب

ولما كان الانسان اقرب الى الفهم من غيره وكان ذكره في خلقه وخلق الدواب عما يزيده يقينا في ايمانه ناسب ختم الثانية بقوله يوقنون ولما كان جزئيات العالم من

خلبنا عليها ثم طفنا بها قال الاصمعي سئل ابن المقفع عن الهوى فقال هوان سرقت نونه فنظمه من قال

نون الهوان من الهوى مسروقة * فأسير كل هوى أسير هوان

وقال آخر أيضا

ان الهوى لهو الهوان بعينه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا

(واضله الله) أي بماله من الاحاطة (على علم) منه تعالى اى عالما بانه من اهل الضلالة قبل خلقه (وختم) زيادة على الاضلال الخاص (على سمعه) فلا فهم له فى الآيات المسموعة (وقلبه) أى فهو لا يعى ما من حقه وعيه (وجعل على بصره غشاوة) أى ظلمة فلا يبصر الهوى و يقدر هذا المفعول الثانى لرأيت أى أيهتدى وقرأ حمزة والكسائى بفتح الغين وسكون الشين والباقون بكسر الغين وفتح الشين وألف بعد الشين واذا صار بهذه المثابة (فمن يهديه) واشار تعالى الى قدرته عليه بقوله سبحانه وتعالى (من بعد الله) أى ان اراد الله اضلاله الذى له الاحاطة بكل شئ أى لا يهتدى (أفلا تذكرون) أى ألم يكن لكم نوع تذكر فتتعظوا وفيه ادغام احدى التاءين فى الذال (وقالوا) أى فى انكارهم البعث مع اعترافهم بأنه تعالى قادر على كل شئ (ماهى) أى الحياة (الاحياتنا) أى أيها الناس (الدنيا) أى هذه التى نحن فيها (نموت ونحيا) (فان قيل) الحياة متقدمة على الموت فى الدنيا فمنكروا القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت فما السبب فى تقديم ذكر الموت على الحياة (أجيب) من وجوه اولها أن المراد بقولهم نموت اى حال كونهم نطفا فى اصلاب الآباء وارحام الامهات و بقولهم ونحيا ما حصل بعد ذلك فى الدنيا ثانيها نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا ثالثها قال الزجاج الواو للاجتماع والمعنى يموت بعض ويحيا بعض رابعها قال الرازى انه تعالى قدم ذكر الحياة فقال ان هى الاحياتنا الدنيا ثم قال بعده نموت ونحيا يعنى ان تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك فى حق الذين ماتوا ومنها ما لا يطرأ عليه الموت بعد ذلك وهو فى حق الاحياء الذين لم يموتوا بعد وقال البيضاوى يحتمل انهم أرادوا به التناسخ اى وهو ان روح الشخص اذا خرجت تنتقل الى شخص آخر فيحيا به وان لم يكن فانه عقيدة أكثر عبدة الاصنام (وما يهلكنا) أى بعد الحياة (الا الدهر) أى مر الزمان الطويل بغلبته علينا وطول العمر واختلاف الليل والنهار من دهره اذا غلبه (وما) أى قالوه والحال انه ما (لهم بذلك) أى المقول البعيد من الصواب وهو انه لا حياة بعد هذه وان الاهلاك منسوب الى الدهر على انه مؤثر بنفسه واغرق فى النفى فقال تعالى (من علم) أى كثير ولا قليل (ان) أى ما (هم الا يظنون) أى بقرينة ان الانسان كلما تقدم فى السن ضعف وانه لم يرجع أحد من الموتى هذا ظنهم الفاسد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر فانى أنا الدهر أرسل الليل والنهار فاذا شئت قبضتهما وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسب احدكم الدهر فان الدهر هو الله تعالى ولا يقولن للعنب الكرم فان الكرم هو الرجل المسلم ومعنى الحديث ان العرب كان من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل لانهم كانوا ينسبون اليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر كما اخبر الله تعالى عنهم فاذا اضافوا الى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان يرجع سبهم

قوله وفيه ادغام الخ هذا على قراءة غير حفص كافى غيث النفع اه مصحح

اختلاف الليل والنهار وما ذكر معهما لا يدرك الا بالعقل ناسب ختم الثالثة بقوله يعقلون (قوله واذا تتلى عليهم آياتنا بينات الى قوله الى يوم

الى

الى الله تعالى اذ هو الفاعل فى الحقيقة للامور التى يضيفونها الى الدهر فنهوا عن سبه (واذا تتلى) أى تتابع بالقراءة من أى تال كان (عليهم آياتنا) أى على ما لها من العظمة فى نفسها وبالاضافة الينا حال كونها (بينات) أى فى غاية المكنة فى الدلالة على البعث فلا عذر لهم فى ردها (ما كان) أى بوجه من وجوه الكون (حجتهم) أى قولهم الذى ساقوه مساق الحجة (الا ان قالوا ائتوا بآبائنا) أى احياء (ان كنتم صادقين) أى فى انا نبعث فهو لا يستحق أن يسمى شبهة فسمى حجة بزعمهم اولان من كانت حجته هذه فليست له البتة حجة كقوله * تحية بينهم ضرب وجيع * ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله تعالى (قل الله) أى المحيط علما وقدرة (يحييكم) أى حين كنتم نطفا (ثم يميتكم) أى بأن يخرج أرواحكم من أجسادكم فتكونون كما كنتم قبل الاحياء كما تشاهدون (ثم يجمعكم) أى بعد التفرق فيعيد فيكم أرواحكم كما كانت بعد طول مدة الرقاد منتهين (الى يوم القيامة) أى القيام الاعظم لكونه عاما لجميع الخلائق (لا ريب) أى لا شك بوجه من الوجوه (فيه) بل هو معلوم علما قطعيا ضروريا (ولكن أكثر الناس) أى وهم القائلون ما ذكر (لا يعلمون) أى لا يتجدد لهم علم لما لهم من النفوس والتردد والسفول عن أوج العقل الى حضيض الجهل فهم واقفون مع المحسوسات لا يلوح لهم ذلك مع ماله من الظهور وقوله تعالى (ولله) أى الملك الاعظم وحده (ملك السموات) أى كلها (والارض) أى التى ابتدأ كم منها تعميم للقدرة بعد تخصيصها (ويوم تقوم الساعة) أى توجد وتحقق تحقق القائم الذى هو على كمال تمكنه وتمام أمره الناهض باعباء ما يريد ثم كرر للتأكيد والتهويل قوله تعالى (يومئذ) أى يوم تقوم يخسرون هكذا كان الاصل ولكنه قال تعالى للتعميم والتعليق بالوصف (يخسر المبطلون) أى الداخلون فى الباطل العريقون فى الاتصاف به الذين كانوا لا يرضون بقضائى * (تنبيه) * الحياة والعقل والصحة كانها رأس مال والتصرف فيها بطلب السعادة الاخروية يجرى مجرى تصرف التاجر فى ماله لطلب الربح والكفار قد أتعبوا أنفسهم فى تصرفاتهم بالكفر والاباطيل فلم يجدوا فى ذلك اليوم الا الحرمان والخذلان ودخول النار وذلك فى الحقيقة نهاية الخسران (وترى) أى فى ذلك اليوم (كل أمة) أى أهل دين (جاثية) أى مجتمعة لا يخالطها غيرها وهى مع ذلك باركة على الركب رعبا واستيفازا لما لعلها تؤمر به جلسة المخاصم بين يدى الحاكم تنتظر القضاء الحاتم والامر الجازم اللازم لشدة ما يظهر لها من هول ذلك اليوم (كل أمة) من الجاثين (تدعى الى كتابها) أى الذى أنزل عليها وتعبدها الله تعالى به والذى نسخته الحفظة عليهم السلام من أعمالها ليطابق أحدهما بالآخر فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا ومن خالفه هلك ويقال لهم حالة الدعاء (اليوم تجزون) أى على وفق الحكمة بأيسر أمر (ما) أى عين الذى (كنتم) بما هو لكم كالجبلات (تعملون) أى مصرين عليه غير راجعين عنه من خير أو شر (فان قيل) الجثو على الركب انما يليق بالخائف والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة (أجيب) بان المحق الآمن يشارك المبطل فى مثل هذه الحالة الى ان يظهر كونه محقا (هذا كتابنا) أى الذى أنزلناه على ألسنة رسلنا عليهم الصلاة والسلام (ينطق) أى يشهد شهادة هى فى بيانها كالنطق (عليكم بالحق) أى الامر الثابت الذى يطابقه الواقع من اعمالكم وذلك بان يقول من عمل كذا فهو عاص ومن عمل كذا فهو مطيع

(القيامة) • (فان قلت) ما وجه مطابقة الجواب وهو قل الله يحييكم الى آخره لقولهم ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين (قلت) وجهه انهم

فينطبق ذلك على ما عملوه سواء بسواء من غير زيادة ولا نقصان وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ولما كانت العادة جارية في الدنيا باقامة الحقوق بكتابة الوثائق وكانوا كأنهم يقولون ومن يحفظ أعمالنا على كثرتها مع طول المدة وبعد الزمان قال تعالى مجيبا بما يقرب الى عقل من يسأل عن ذلك (انا) أي على مالنا من العظمة المغنية عن الكتابة (كنا) على الدوام (نستنسخ ما كنتم) طبعا الكم وخلقا (تعملون) قولا وفعلا ونية أي نأمر الملائكة عليهم السلام بكتبها واثباتها عليكم وقيل نستنسخ أي نأخذ نسخه وذلك أن الملكين يرفعان عمل الانسان فيثبت الله تعالى منه ما كان له من ثواب أو عقاب ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم واذهب والاستنساخ من اللوح المحفوظ تنسخ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم والاستنساخ لا يكون الا من أصل كما ينسخ من كتاب كتاب وقال الضحاك نستنسخ أي نثبت وقال السدي نكتب وقال الحسن نحفظ ثم بين تعالى أحوال المطيعين بقوله تعالى (فأما الذين آمنوا) أي من الامم الجاثية (وعملوا) أي تصديقا لدعواهم الايمان (الصالحات) أي الطاعات فوصفهم العمل الصالح بعد وصفهم بالايمان يدل على ان العمل الصالح مغاير للايمان زائد عليه (فيدخلهم) أي في ذلك اليوم (ربهم) أي المحسن اليهم بالتوفيق لما عملوا (في رحمته) التي من جملتها الجنة والنظر الى وجهه الكريم الذي هو الغاية القصوى وتقول لهم الملائكة تشريفا سلام عليكم أيها المؤمنون ودل على عظمة الرحمة بقوله تعالى (ذلك) أي الاحسان العالي المنزلة (هو) أي لاغيره (الفوز المبين) أي الظاهر الذي لا يخفى على أحد شئ من أمره لانه لا يشوبه كدر أصلا ولا نقص بخلاف ما كان من أسبابه في الدنيا فانها مع كونها كانت فوزا كانت خفية جدا على غير الموقنين ثم بين تعالى أحوال الفريق الآخر بقوله تعالى (وأما الذين كفروا) أي ستروا ما أمر الله تعالى به (أفلم) أي فيقال لهم ألم (تكن) تأتيكم رسلي فلم تكن (آياتي) على ما لها من عظمة اضافتها الى وأعظمها القرآن (تتلى) أي تواصل قراءتها من أي تال كان فكيف اذا كانت بواسطة الرسل تلاوة مستعلية (عليكم) لا تقدرون على دفع شئ منها * (تنبيه) * حذف القول المعطوف عليه كما تقرر اكتفاء بالمقصود واستغناء بالقرينة (فاستكبرتم) أي فتسبب عن تلاوتها التي من شأنها ايراث الخشوع والاخبات والخضوع ان طلبتم الكبر لا نفسكم أو جدتموه على رسلي وآياتي (وكنتم قوما) أي ذوي قيام وقدرة على ما تحاولونه (مجرمين) أي عريقين في قطع ما يستحق الوصل وذلك هو الخسران المبين (واذا) أي وكنتم اذا (قيل) أي من أي قائل كان ولو على سبيل التأكيد (ان وعد الله) أي الذي كل أحد يعلم أنه محيط بصفات الكمال (حق) أي ثابت لا محيد عنه مطابق للواقع من البعث وغيره لان أقل الملوك لا يرضى بان يخلف وعده فكيف به سبحانه وتعالى فكيف اذا كان الاخلاف فيه منافيا للحكم وقرأ (والساعة) حمزة بالنصب عطفا على وعد الله والباقون برفعها وفيه ثلاثة أوجه أحدها الابتداء وما بعدها من الجملة المنفية وهو قوله تعالى (لاريب) أي لاشك (فيها) خبرها ثانيها العطف على محل اسم ان لانه قبل دخولها مرفوع بالابتداء ثالثها انه عطف على محل ان واسمها معا لان بعضهم كالفارسي والزمخشري يرون أن لان واسمها موضعا هو الرفع بالابتداء (قلتم) أي راضين لانفسكم بحضيض الجهل (ماندري) أي الآن دراية علم ولو بذلنا جهدنا في محاولة

الزموا اياهم مقرونا به من ان الله تعالى هو الذي أحياهم اولا ثم يميتهم ومن قدر على ذلك قدر على جمعهم يوم القيامة فيكون قادرا على

الوصول إليه (ما الساعة) أي لا نعرف حقيقتها فضلا عما تخبروننا به من أحوالها (تنبيه) ● الساعة مرفوعة باتفاق (إن) أي ما (نظن) أي نعتقد ما تخبروننا به عنها (إلا ظنا) وأما وصوله إلى درجة العلم فلا (وما نحن) وأكدوا النفي فقالوا (بمستيقنين) أي بموجود عندنا اليقين في أمرها قال الرازي القوم كانوا في هذه المسئلة على فرقتين منهم من كان قاطعا بنفي البعث والقيامة وهم المذكورون في قوله تعالى وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ومنهم من كان شاكا متحيرا فيه لأنهم لكثرة ما سمعوه من الرسل عليهم السلام ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم المذكورون في هذه الآية ويدل على ذلك أنه حكى تعالى مذهب أولئك القاطعين ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول ● ولما وصلوا إلى حد عظيم من العناد التفت إلى أسلوب الغيبة إعراضا عنهم إيذانا بشدة الغضب عليهم فقال تعالى (وبدا) أي ولم يزالوا يقولون ذلك إلى أن بدت لهم الساعة بما فيها من الأوجال والزلازل والأهوال وظهر (لهم) غاية الظهور (سيئات ما عملوا) في الدنيا فتمثلت لهم وعرفوا مقدار جزائها واطلعوا على جميع ما يلزم على ذلك (وحاق) أي أحاط (بهم) على حال القهر والغلبة قال أبو حيان ولا يستعمل إلا في المكروه (ما كانوا) جبلة وطبعا (به يستهزؤن) أي يوجدون الهزء به على غاية الشهوة واللذة إيجاد من هو طالب لذلك وهذا كالدليل على أن هذه الفرقة لما قالوا إن نظن إلا ظنا فإنما ذكروه استهزاء وسخرية فصار هذا الفريق أشر من الفريق الأول لأن الأولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين وهؤلاء ضموا إلى الإصرار على الإنكار الاستهزاء وقرأ حمزة في الوقف بتسهيل الهمزة بعد الزاي كالواو وله أيضا إبدالها ياء ونقل عنه أيضا غير ذلك (وقيل) أي لهم على أقطع الأحوال وأشدها قولا لا معقب له فكأنه بلسان كل قائل (اليوم ننساكم) أي نترككم في العذاب (كما نسيتم لقاء يومكم هذا) أي كما تركتم الإيمان والعمل للقائه وقيل نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم هذا ولم تلتفتوا إليه (ومأواكم النار) ليس لكم براح عنها (وما لكم من ناصرين) ينقذونكم من ذلك بشفاعة ولا مقاهرة فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب ثلاثة أشياء قطع الرحمة عنهم وتصيير مأواهم النار وعدم الأنصار لأنهم أتوا بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة وهي الإصرار على إنكار الدين الحق والاستهزاء به والسخرية والاستغراق في حب الدنيا وهو المراد بقوله تعالى (ذلكم) أي العذاب العظيم (بأنكم اتخذتم) أي بتكليف منكم لأنفسكم (آيات الله) أي الملك الأعظم (هزوا) أي استهزاء بها ولم تتفكروا فيها وقرأ اتخذتم ابن كثير وحفص بإظهار الذال عند التاء والباقون بالإدغام (وغرتكم الحياة الدنيا) الدنيئة لضعف عقولكم فآثرتموها لكونها حاضرة وأنتم كالبهائم فقلتم لا حياة غيرها ولا بعث ولا حساب ولو تعقلتم وصفكم لها لأداكم إلى الإقرار بالآخرة (فاليوم) أي بعد إيوائهم فيها (لا يخرجون منها) أي النار لأن الله تعالى لا يخرجهم ولا يقدر غيره على ذلك وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء التحتية وضم الراء والباقون بضم الياء وفتح الراء (ولا هم يستعتبون) أي لا يطلب من طالب منهم الإعتاب وهو الاعتذار لأنه لا يقبل ذلك اليوم عذر ولا توبة ● ولما تم الكلام في المباحث الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال عز من قائل (فلله) أي الذي له الأمر كله

إحياء آبائهم (قوله كل أمة تدعى إلى كتابها) أي إلى قراءة كتاب أعمالها (إن قلت) كيف أضاف الكتاب إلى الأمة ثم أضافه إلى الله تعالى في

(الحمد) أى الاحاطة بجميع صفات الكمال (رب السموات) أى ذوات العلو والارتفاع والبركات (ورب الارض) أى ذات القبول للواردات (رب العالمين) أى خالق ما ذكر اذ الكل نعمة منه دال على كمال قدرته فاحمدوا الله الذى هو خالق السموات والارضين وخالق كل العالمين من الاجسام والارواح والذوات والصفات فان هذه توجب الحمد والثناء على كل من المخلوقين والمربوبين ولما أفاد ذلك ثبات الغنى المطلق وسيادته وانه لا كفء له عطف عليه بعض اللوازم لذلك تنبيها على مزيد الاعتناء به لدفع ما يتوهمونه من ادعاء الشركة التى لا يرضونها لانفسهم فقال تعالى (وله) أى وحده (الكبرياء) أى الكبر الاعظم الذى لا نهاية له (فى السموات) كلها (والارض) جميعها اللتين فيهما آيات للموقنين روى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما أدخلته النار وفى رواية عذبته وفى رواية قصمته (وهو) وحده (العزيز) الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) الذى يضع الاشياء فى افضل مواضعها ولا يضع شيأ الا كذلك كما أحكم أمره ونهيه وجميع شرعه وأحكم نظم هذا القرآن جملا وآيات وفواصل وغايات بعد أن حرر معانيه وتنزيله فصار معجزا فى نظمه ومعناه

وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب حديث موضوع

تم

(تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع أوله سورة الاحقاف)

وله هذا كتابنا (قلت) الاضافة لادنى ملابسة فاضافه الى الامة لكون اعمالهم مثبتة فيه واضافه اليه تعالى لكونه مالكه وآمرا ملائكته بكتابته

الجزء الرابع من السراج المنير في الاعانة على معرفة
بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير
للشيخ الامام الخطيب الشربيني
قدس الله روحه ونور
بالرحمة ضريحه
آمين

وبهامشه فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لشيخ الاسلام ومحقق
الانام الحبر الفاضل والبحر الوافر الكامل الامام ابي يحيى زكريا
الانصاري تغمده الله تعالى برحمته وأفاض علينا من سحب فضله الجاري

فهرسة الجزء الرابع من تفسير العلامة الخطيب الشربيني

(تمت)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

سورة الاحقاف مكية

الا قوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله الآية والا فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل الآية والا ووصينا الانسان بوالديه الثلاث آيات وهى خمس وثلاثون آية وستمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفا (بسم الله) الذى لا يذل من والى ولا يعز من عادى (الرحمن) الذى سبقت رحمته غضبه (الرحيم) الذى خص حزبه بعمل الابرار فهو ز فى دار القرار وتقدم الكلام على قوله تعالى (حم) مرارا وقرأ ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى باماله الحاء محضة وقرأ ورش وأبو عمرو باما لتها بين بين وفتحها الباقون وقيل المراد بحم حكمة محمد صلى الله عليه وسلم التى هى النهاية فى الصواب والسداد أحكمها الذى أحاطت قدرته فهو لا يخلف الميعاد وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) اى الجامع لجميع الخيرات بالتدريج على حسب المصالح (من الله) اى الجبار المتكبر المختص بصفات الكمال (العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه لانه لم يفعل شيأ الالى أوفق محاله وأنه الخالق للخير والشر وأنه يعز أولياءه ويذل اعداءه (ما خلقنا) اى على مالنا من العظمة الموجبة للتفرد بالكبرياء (السموات والارض) على مافيهما من الآيات (وما بينهما الا) خلقا ملتبسا (بالحق) اى الامر الثابت من القدرة التامة والتصرف المطلق ليدل على قدرتنا ووحدانيتنا (وأجل) اى وبتقدير أجل (مسمى) ينتهى اليه وهو يوم القيامة (والذين كفروا عما أنذروا) اى خوفوا به من القرآن من هول ذلك اليوم الذى لابد لكل خلق من انتهائه اليه (معرضون) اى لا يؤمنون به ولا يهتمون للاستعداد له ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى لهؤلاء المعرضين أنفسهم لغاية الخطوب منكرا عليهم تبكيتا وتوبيخا

ارأيتم .

* (سورة الاحقاف) * (قوله ولكل درجات مما عملوا) * ان قلت كيف وصف الفريقين بان لكل منهما درجات مع ان أهل النار لهم دركات لا درجات (قلت) الدرجات

(أرأيتم) أى أخبرونى عن حال آلهتكم بعد تأمل ورؤية باطنة (ما تدعون) أى تعبدون ثم نبه على سفولهم بقوله تعالى (من دون الله) أى الملك الأعظم الذى كل شئ دونه فلا كفء له مفعول أول وقوله تعالى (أرونى) أى أخبرونى تأكيد وقوله (ماذا خلقوا) مفعول ثان وقوله تعالى (من الارض) بيان لما أى ليصح ادعاء أنهم شركاء فيها باختراع ذلك الجزء (أم لهم) أى الذين تدعونهم (شرك) اى مشاركة (فى) خلق (السموات) أى بنوع من أنواع الشركة مع الله تعالى وأم بمعنى همزة الانكار * ولما كان الدليل أحد شيئين سمع وعقل قال تعالى (ائتونى بكتاب) أى منزل على دعواكم فى هذه الاصنام أنها خلقت شيأ أو أنها تستحق أن تعبد *(تنبيه)* أبدل ورش والسوسى الهمزة من ائتونى فى الوصل ياء وحققها الباقون وأما الابتداء بها لجميع القراء أبدلوها ياء بعد الابتداء بهمزة الوصل مكسورة (من قبل هذا) أى القرآن الذى أنزل على كالتوراة والانجيل والزبور وهذا من أعلام النبوة فانها كلها شاهدة بالوحدانية لو أتى بها آتٍ لشهدت عليه * ولما ذكر تعالى الاعلى الذى لا يجب التكليف الابه وهو النقل القاطع سهل عليهم فنزل الى ما دونه فقال (أو أثارة) اى بقية (من علم) يؤثر عن الاولين بصحة دعواكم فى عبادة الاصنام انها تقربكم الى الله تعالى وقال المبرد أثارة ما يؤثر من علم كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان ومن هذا المعنى سميت الاخبار بالآثار يقال جاء فى الاثر كذا وكذا وقال الواحدى وكلام أهل اللغة فى هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال الاول الاثارة واشتقاقها من أثرت الشئ أثيره اثارة كانها بقية تستخرج فتثار والثانى من الاثر الذى هو الرواية والثالث من الاثر بمعنى العلامة وقال الكلبى فى تفسير الاثارة اى بقية من علم يؤثر عن الاولين أى يسند اليهم وقال مجاهد وعكرمة ومقاتل رواية عن الانبياء قال الرازى وههنا قول آخر او أثارة من علم هو علم الخط الذى يخط فى الرمل والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال كان نبى من الانبياء يخط فمن وافق خطه علم علمه فعلى هذا الوجه معنى الآية ائتونى بعلم من قبل هذا الخط الذى تخطونه فى الرمل يدل على صحة مذهبكم فى عبادة الاصنام فان صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وأقوالهم ودلالاتهم ثم أشار الى تقريعهم بالكذب اذ لم يقيموا دليلا على دعواهم بقوله (ان كنتم صادقين) اى عريقين فى الصدق على ما تدعون لانفسكم * ولما أبطل سبحانه قولهم فى الاصنام بعدم قدرتها اتبعه ابطاله بعدم علمها بقوله تعالى (ومن أضل) وهو استفهام بمعنى النفى اى لا أحد أضل (ممن يدعوا) اى يعبد ما لا قدرة له ولا علم ومن انتفت قدرته وعلمه لم تصح عبادته ببديهة العقل وأرشد الى سفولها بقوله عز وجل (من دون الله) اى من أدنى رتبة من رتب الذى له صفات الكمال فهو يعلم كل شئ ويقدر على كل شئ فهو بحيث يجيب الدعاء ويكشف البلاء ويحقق الرجاء اذا شاء ويدبر عبده لما يعلم من سره وعلنه بما لا يقدر هو على تدبير نفسه به ويريد العبد فى كثير من الاشياء ما لو وكل فيه الى نفسه وأجيب الى طلبته كان فيه حتفه فيدبره سبحانه بما اشتد كراهته له فينكشف الحال على أنه لم يكن له فرج الا فيه (من لا يستجيب له) اى لا توجد الاجابة ولا تطلب ايجادها من الاصنام وغيرها لانه لا أهلية له لذلك والمعنى انه لا أحد أبعد عن الحق وأقرب الى الجهل ممن يدعو من دون الله الاصنام فيتخذها

هى الطبقات من المراتب مطلقا او فيه اضمار تقديره ولكل فريق درجات او دركات لكن حذف الثانى اختصارا لدلالة المذكور عليه
(قوله وأننا بما تعبد فلان

آلهة و يعبدها وهي اذا دعيت لا تسمع ولا تجيب لا في الحال ولا في المآل (الى يوم القيامة) وانما جعل ذلك غاية لان يوم القيامة قد قيل ان الله تعالى يحييها ويخاطب من يعبدها فلذلك جعله الله تعالى حدا وقيل المراد عبدة الملائكة وعيسى وأنهم يوم القيامة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين (وهم عن دعائهم) اى دعاء المشركين اياهم (غافلون) اى لهم هذا الوصف لا ينفكون عنه لا يعلمون من يدعوهم ومن لا يدعوهم وعبر بالغفلة التي هي من أوصاف العقلاء للجماد تغليبا ان كان المراد أعم من الاصنام وغيرها عابدوه من عقلاء الانس وغيرهم ولما غيا سبحانه بيوم القيامة فأفهم أنهم يستجيبون لهم فيه بين ما يحاورونهم به اذ ذاك فقال تعالى (واذا حشر) اى جمع بكره على أيسر وجه وأسهل أمر (الناس) اى يوم القيامة (كانوا) اى المدعوون (لهم) اى الداعين (اعداء) ويعطيهم الله تعالى قوة الكلام فيخاطبونهم بكل ما يخاطب به العدو عدوه (وكانوا) اى المعبودون (بعبادتهم) اى الداعين وهم المشركون اياهم (كافرين) اى جاحدين لانهم كانوا عنها غافلين كما قال تعالى في سورة يونس عليه السلام وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون ثم بين تعالى أنهم في نهاية الغباوة بانكار ما الاشئ أبين منه بقوله سبحانه (واذا تتلى) اى تقرأ من اى قارئ كان على وجه المتابعة (عليهم) اى هؤلاء البعداء البغضاء (آياتنا) التي لا أعظم منها في أنفسها باضافتها الينا وهي القرآن وقوله تعالى (بينات) اى ظاهرات حال قالوا هكذا كان الاصل ولكنه تعالى بين الوصف الحامل لهم على التول فقال عز وجل (قال الذين كفروا) اى ستروا تلك الانوار التي أبرزتها تلك التلاوة لها هكذا كان الاصل ولكن قال تعالى (للحق) اى لاجله (لما) اى حين (جاءهم) اى من غير نظر وتأمل (هذا) اى الذي يتلى (سحر) اى خيال لا حقيقة له (مبين) اى ظاهر في أنه خيال باطل وقوله تعالى (أم يقولون افتراه) اضراب عن ذكر تسميتهم اياه سحرا الى ذكر ما هو أشنع وانكار له وتعجب ثم بين تعالى بطلان شبهتهم بقوله تعالى (قل) اى يا أشرف الخلق (ان افتريته) اى تعمدت كذبه على زعمكم وأنا انما أريد به نصيحتكم فالذي افتريه عليه وأنسبه اليه يعاقبني على ذلك ولا يتركني أصلا وذلك هو معنى قوله (فلا تملكون) اى أيها المنصوحون بوجه من الوجوه ولا في وقت من الاوقات (لي من الله) اى المتكبر الحليم (شيأ) من الاشياء المبردة عني انتقامه لان الملك لا يترك من كذب عليه مطلق كذب فكيف من يتعمد الكذب عليه في الرسالة بامور عظيمة وملازمته مساء وصباحا فأي حامل لي حينئذ على افترائه ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام بقوله (هو) اى الله سبحانه (أعلم) اى منكم ومن كل أحد (بما تفيضون فيه) اى بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه بانه سحر (كفى به شهيدا) اى شاهدا بليغ الشهادة لانه أعلم بجميع أحوالنا (بيني وبينكم) اى ان القرآن جاء من عنده فيشهد لي بالصدق ولكم بالكذب وقد شهد بصدقي بعجزكم عن معارضة شئ من هذا الكتاب الذي أتيت به فثبت بذلك أنه كلامه لاني لا أقدر على ما تقدرون عليه فرادى ولا مجتمعين وانتم عرب مثلي بل وأنا امي وفيكم أنتم الكتبة والذين خالطوا العلماء ودرسوا أحاديث الامم وضربوا ابعد بلاد العرب في بلاد العجم فظهر بذلك ظهور الشمس أنكم كاذبون (وهو) اى وحده (الغفور) اى الذي من شأنه أن يمحو الذنوب أعيانها وآثارها فلا يعاقب عليها ولا يعاتب (الرحيم) اى الذي يكرم بعد المغفرة

كنت من الصادقين قال انما العلم عند الله) وجه مطابقة الجواب فيه ان سؤالهم السؤال متضمن لاستعجالهم العذاب الذي توعدهم به

و يتفضل بالتوفيق لما يرضيه قال الزجاج هذا دعاء الى التوبة ومعناه غفور لمن تاب منكم رحيم به * ولما حكى تعالى طعنهم في كون القرآن معجزا بقولهم انه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه الى انه كلام الله تعالى على سبيل الفرية حكى عنهم شبهة أخرى وهو انهم كانوا يقترحون عليه معجزات عجيبة و يطالبونه بان يخبرهم عن المغيبات فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله عز وجل (قل) اى لهؤلاء الذين نسبوك الى الافتراء (ما كنت) اى كونا ما (بدعا) اى منشئا مبتدعا محدثا مخترعا بحيث أكون أجنبيا منقطعا (من الرسل) اى لم يتقدم لى منهم مثال فى أصل ما جئت به وهو التوحيد ومحاسن الاخلاق بل قد تقدمنى رسل كثيرون أتوا بمثل ما أتيت به ودعوا اليه كما دعوت اليه وصدقهم الله تعالى بمثل ما صدقنى به فثبت بذلك رسالتهم وسعد بهم من صدقهم من قومهم وشقى من كذبهم فانظروا الى آثارهم واسألوا عن سيرهم من أتباعهم وأنصارهم وأشياعهم *(تنبيه)* البدع والبديع من كل شئ المبدأ والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودا قبله وفى الحديث كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار قال البقاعى معناه والله أعلم أنه يبتدع ما يخالف السنة اذا كانت البدعة ضد السنة فاذا أحدث ما يخالفها كان باحداثه ضالا مشركا وكان ما أحدث فى النار ولم يدخل تحت هذا ما يخترعه الانسان من أفعال البر يسمى بدعة لعدم فعله قبل ذلك فيخرج عما ذكر اهـ وقال ابن عبد السلام البدعة منقسمة الى واجبة ومحرمة ومندوبة ومكروهة ومباحة قال والطريق فى ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة فان دخلت فى قواعد الايجاب فهى واجبة كالاشتغال بعلم النحو أو فى قواعد التحريم فمحرمة كمذهب القدرية والمجسمة والرافضة قال والرد على هؤلاء من البدع الواجبة أو فى قواعد المندوب فمندوبة كبناء الربط والمدارس وكل احسان لم يحدث فى العصر الاول كصلاة التراويح أو فى قواعد المكروه فمكروهة كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف أو فى قواعد المباح فمباحة كالمصافحة عقب الصبح والعصر والتوسع فى المآكل والملابس وروى البيهقى باسناده فى مناقب الشافعى رضى الله تعالى عنه انه قال المحدثات ضربان أحدهما ما خالف كتابا أو سنة أو اجماعا فهو بدعة وضلالة والثانى ما أحدث من الخير وهو غير مذموم واختلف فى تفسير قوله تعالى عن قوله عليه الصلاة والسلام (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) على وجهين أحدهما أن يحمل ذلك على أحوال الدنيا والثانى أن يحمل على أحوال الآخرة أما الاول ففيه وجوه أحدها ان معناه لا أدرى ما يصير اليه أمرى وأمركم ومن الغالب منا ومن المغلوب ثانيها قال ابن عباس فى رواية الكلبى لما اشتد البلاء باصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بمكة رأى فى المنام أنه يهاجر الى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا ان ذلك فرج مما بهم من أذى المشركين ثم انهم مكثوا برهة من الدهر لا يرون أثر ذلك فقالوا يا رسول الله ما رأينا الذى قلت متى تهاجر الى الارض التى رأيتها فى المنام فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم هو شئ رأيته فى المنام (ان) اى ما (أتبع) اى بغاية جهدى وجدى (الا ما) اى الذى (يوحى) اى يجدد القاؤه من لا يوحى بحق سواه (الى) على سبيل التدريج لا يطلع عليه حتى اطلاع غيرى ثالثها قال الضحاك لا أدرى ما تؤمرون به

قوله بل هو
بقرينة قوله ما استعجلتم به فأجابهم
بانه لا علم له بوقت نزوله بهم
بل الله تعالى هو العالم به
وحده (قوله تدمر كل

ولا ما أومر به من التكاليف والشرائع ولا من الابتلاء والامتحان (وما أنا) اى باخبارى لكم عما يوحى الى (الا نذير مبين) اى بين الانذار وأبينها كأنه يقول ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا أموت او اقتل كما قتل الانبياء قبلى ولا أدرى ما يفعل بكم أيها المكذبون اترمون بالحجارة من السماء او يخسف بكم او يفعل بكم ما يفعل بسائر الامم قال السدى ثم أخبره الله تعالى أنه يظهر دينه على الاديان بقوله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقال فى أمته وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فاخبره الله تعالى بما يصنع به وبأمته وأما من حمل الآية على أحوال الآخرة فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا فانزل الله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر الى قوله تعالى وكان ذلك عند الله فوزا عظيما فقالت الصحابة هنيئا لك يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فما يفعل بنا فانزل الله عز وجل ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار الآية وانزل وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا فبين لهم ما يفعل به وبهم وبهذا قال انس والحسن وعكرمة وقالوا انما قال هذا قبل أن يخبر بغفران ذنبه لانه انما أخبر به عام الحديبية فنسخ ذلك قال الرازى وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول من وجهين أحدهما أن النبى صلى الله عليه وسلم لا بد وأن يعلم من نفسه كونه نبيا ومتى علم كونه نبيا علم أنه لا تصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له واذا كان كذلك امتنع كونه شاكا فى أنه هل هو مغفور له أولا ثانيهما أن الانبياء ارفع حالا من الاولياء وقد قال تعالى فى حقهم ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذى هو رئيس الانبياء وقدوة الاولياء شاكا فى انه هل هو من المغفور لهم فثبت ضعف هذا القول (قل) يا أفضل الخلق لهؤلاء المصرين على التكذيب (أرأيتم) أى أخبرونى (ان كان) اى هذا الذى أتيتكم به وهو القرآن (من عند الله) أى الملك الاعظم (وكفرتم به) أى أيها المشركون (وشهد شاهد) واحدا أو اكثر (من بنى اسرائيل) اى الذى جرت عادتكم أن تستفتوهم وتتقوا بهم (على مثله) اى مثل ما فى القرآن من ان من وحد فقد آمن ومن أشرك فقد كفر وان الله تعالى انزل ذلك فى التوراة والانجيل وجميع اسفارهم فتطابقت عليه كتبهم وتظافرت به رسلهم وتواترت على الدعاء اليه والامر به انبياؤهم عليهم الصلاة والسلام (فآمن) اى هذا الذى شهد هذه الشهادة (واستكبرتم) اى أوجدتم الكبر بالاعراض عنه طالبين بذلك الرياسة والفخر فكنتم بعد شهادة هذا الشاهد معاندين من غير شبهة فضللتم فوضعتم الشئ فى غير موضعه فانسد عليكم باب الهداية واختلف فى هذا الشاهد فقال قتادة والضحاك وأكثر المفسرين هو عبد الله بن سلام شهد بنبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم وآمن به واستكبرت اليهود فلم يؤمنوا به كما روى انس قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه ينظر الى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله فتحقق أنه النبى المنتظر فقال له انى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبى ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد الى أبيه أو الى أمه فقال صلى الله عليه

وسلم

(شئ بامر ربها) اى كل شئ مرت به من أموال قوم عاد واهلكهم (قوله يغفر لكم من ذنوبكم) أفاد بذكر من ان من الذنوب

وسلم أخبرني بهن جبريل آنفا قال جبريل قال نعم قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله ثم قال اما أول اشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب واما اول طعام تأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت واما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه واذا سبق ماء المرأة نزعته فقال أشهد انك لرسول الله حقا ثم قال يارسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا باسلامي قبل ان تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اى رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا واعلمنا وابن أعلمنا قال أفرأيتم ان اسلم عبد الله بن سلام فقالوا أعاذه الله من ذلك فخرج اليهم عبد الله فقال أشهد ان لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت اخاف منه يارسول الله قال سعد بن أبي وقاص ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لاحد يمشي على الارض انه من اهل الجنة الا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت هذه الآية وشهد شاهد من بني اسرائيل وقيل الشاهد هو موسى بن عمران قال الشعبي قال مسروق في هذه الآية والله ما نزلت في عبد الله بن سلام لان آل حم نزلت بمكة وانما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وانما نزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت بالمدينة وأجاب الكلبي بان السورة مكية الا هذه الآية فانها مدنية وان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بان يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين وقيل المراد بالشاهد موسى ومثل القرآن هو التوراة فشهد موسى على التوراة ومحمد على الفرقان فكل واحد يصدق الآخر لان التوراة مشتملة على البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن مصدق للتوراة وجواب الشرط ألستم ظالمين دل عليه قوله تعالى (ان الله) اى الملك الاعظم ذا العزة والحكمة (لايهدي القوم) اى الذين لهم قوة على القيام بما يريدون (الظالمين) اى الذين من شأنهم وضع الامور في غير مواضعها فلاجل ذلك لا يهديكم اذ لا احد اوضح منكم في الظلم الذي تسبب عنه هلاككم (وقال الذين كفروا) اى تمردوا لتغطية الحق (للذين) اى لاجل ايمان الذين (آمنوا) اى سبقوهم الى الايمان (لو كان) اى ايمانهم بالقرآن (خيرا) اى من جملة الخيور (ما سبقونا اليه) ونحن أشرف منهم واكثر اموالا واولادا واعلم بتحصيل العز والسودد الذي هو مناط الخير كالم يسبقونا الى شيء من هذه الخيرات التي نحن فائزون بها وهم صفر منها لكن ليس بخير فلهذا سبقونا اليه (واذ) اى وحين (لم يهتدوا به) اى بالقرآن كما اهتدى به اهل الايمان (فسيقولون هذا) اى القرآن الذي سبقتم اليه (افك) اى شيء مصروف عن وجهه الى قفاه (قديم) اى افكه غيره وعثر هو عليه فاتى به ونسبه الى الله تعالى كما قالوا اساطير الاولين (ومن) اى قالوا ذلك والحال انه كان في بعض الزمن الذي من (قبله) اى القرآن (كتاب موسى) كليم الله تعالى حال كونه كتابه وهو التوراة (اماما) اى يستحق ان يؤمه كل من سمع به (ورحمة) لما فيه من نعم الدلائل على الله تعالى والبيان الشافي وفي الكلام محذوف تقديره وتقدمه كتاب موسى اماما ورحمة ولم يهتدوا به كما قال تعالى في الآية الاولى واذ لم يهتدوا به

ما لا يغفره الايمان كظالم العباد

﴿سورة محمد صلى الله عليه وسلم﴾

(قوله سيهديهم) ان قلت

(وهذا) اى القرآن (كتاب) اى جامع لجميع الخيرات (مصدق) اى لكتاب موسى عليه السلام وغيره من الكتب التى تصح نسبتها الى الله تعالى فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله تعالى وقوله تعالى (لسانا) حال من الضمير فى مصدق وقوله (عربيا) صفة لسانا وهو المسوغ لوقوع هذا الجامد حالا اى فى أعلى طبقات اللسان العربى مع كونه اسهل الكتب تناولا وابعدها عن التكلف ليس هو بحيث يمنعه علوه بفخامة الالفاظ وجلالة المعانى ودقة الاشارة عن سهولة الفهم وقرب التناول وقوله تعالى (لينذر) اى الكتاب بحسن بيانه وعظم شانه (الذين ظلموا) اى سواء كانوا عريقين فى الظلم ام لا وقرأ نافع وابن عامر بالتاء خطابا اى ايها الرسول والباقون بالياء غيبة بخلاف عن البزى (وبشرى) اى كاملة (للمحسنين) اى المؤمنين بان لهم الجنة * ولما قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المتكبرين واجاب عنها ذكر بعد ذلك طريقة المحقين فقال تعالى (ان الذين قالوا ربنا) اى خالقنا ومولانا والمحسن الينا (الله) وحده (ثم استقاموا) أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم والاستقامة فى الامور التى هى منتهى العلم وثم للدلالة على تاخر رتبة العمل وتوقف اعتباره على التوحيد (فلا خوف عليهم) أى من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) أى على فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط (أولئك) أى العالون الدرجات (أصحاب الجنة خالدين فيها) خلودا لا آخر له جوزوا بذلك (جزاء بما) أى بسبب ما (كانوا) طبعا وخلقا (يعملون) أى على سبيل التجديد المستمر * ولما كان رضا الله تعالى فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما كما ورد به الحديث حث عليه بقوله تعالى (ووصينا) أى بما لنا من العظمة (الانسان) اى هذا النوع الذى أنس بنفسه (بوالديه) وقرأ (حسنا) نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الحاء وسكون السين وقرأ الكوفيون بكسر الحاء وقبلها همزة مكسورة وفتح السين وبعدها ألف فهو منصوب على المصدر بفعل مقدر أى وصيناه أن يحسن اليهما احسانا ومثله حسنا وقرأ (حملته أمه كرها) أى على مشقة (ووضعته كرها) أى بمشقة الكوفيون وابن ذكوان بضم الكاف فيهما والباقون بالفتح وهما لغتان بمعنى واحد مثل الضعف والضعف وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر وليس المراد ابتداء الحمل فان ذلك لا يكون بمشقة لقوله تعالى فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت فحينئذ حملته كرها ووضعته كرها * (تنبيه) * دلت الآية على أن حق الام أعظم لانه تعالى قال ووصينا الانسان بوالديه حسنا فذكرهما معا ثم خص الام بالذكر فقال حملته امه كرها ووضعته كرها وذلك يدل على أن حقها اعظم وان وصول المشاق اليها بسبب الولد كثيرة والاخبار كثيرة فى هذا الباب (وحمله وفصاله) أى من الرضاع (ثلاثون شهرا) كل ذلك بيان لما تكابده الام فى تربية الولد ومبالغة فى الوصية بها وفى ذلك دلالة على أن اقل مدة الحمل ستة أشهر لانه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا وقال تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين فاذا أسقطت الحولين الكاملين وهى أربعة وعشرون شهرا من ثلاثين بقى مدة الحمل ستة أشهر وروى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال اذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت احدا وعشرين شهرا واذا حملت ستة

اشهر

كيف قال تعالى فى حق الشهداء بعدما قتلوا اذلك مع ان الهداية انما تكون قبل الموت لا بعده (قلت) معناه سيديم الى محاجة

أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا وروى عن أبى بكران امرأة دفعت اليه وقد ولدت لستة اشهر فامر برجمها فقال له عمر لا رجم عليها وذكر الطريق المتقدمة وعن عثمان نحوه وأنه هم بذلك فقرأ ابن عباس رضى الله عنهما عليه الآية وأما مدة أكثر الحمل فليس فى القرآن ما يدل عليه واختلف الائمة فى ذلك فعند الشافعى أربع سنين وقوله تعالى (حتى اذا بلغ أشده) لابد فيه من جملة محذوفة تكون حتى غاية لها اى عاش واستمرت حياته حتى اذا بلغ أشده قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء الاشد ثمان عشرة سنة وقيل نهاية قوته وغاية شبابه واستوائه وهو ما بين ثمانى عشرة سنة الى اربعين سنة فذلك قوله تعالى (وبلغ أربعين سنة) وقال السدى والضحاك نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وقيل نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأبيه أبى قحافة عثمان بن عمرو وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الآية فى أبى بكر الصديق أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لاحد من المهاجرين أبواه غيره أوصاه الله تعالى بهما ولزم ذلك من بعده وكان أبو بكر يصحب النبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبى صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة فى تجارته الى الشام فلما بلغ أربعين سنة وتنبأ النبى صلى الله عليه وسلم آمن به ثم آمن أبواه ثم ابنه عبد الرحمن وابن عبد الرحمن أبو عتيق ثم ان أبا بكر دعا ربه بأن (قال رب أوزعنى) اى ألهمنى وقرأ ورش والبزى بفتح الياء فى الوصل والباقون بسكونها (أن أشكر نعمتك التى أنعمت) اى بها (على) اى وعلى أولادى (وعلى والدى) وهى التوحيد وأكثر المفسرين على أن الاشد ثلاث وثلاثون قال الرازى مراتب الحيوان ثلاثة لان بدن الحيوان لا يكون الا برطوبة غريزية وحرارة غريزية والرطوبة الغريزية زائدة فى أول العمر ناقصة فى آخره والانتقال من الزيادة الى النقصان لا يعقل حصوله الا اذا حصل الاستواء فى وسط هاتين المدتين فثبت أن مدة العمر منقسمة الى ثلاثة أقسام فاولها أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية وحينئذ تكون الاعضاء عظيمة التمدد فى ذواتها وزيادتها فى الطول والعرض والعمق وهذا هو سن النشوء والثانية وهى المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سن الوقوف وهو حين الشباب والمرتبة الثالثة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية ثم هذا النقصان على قسمين فالاول هو النقصان الخفى وهو سن الكهولة والثانى هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة قال المفسرون لم يبعث نبى قط الا بعد الاربعين سنة قال الرازى وهذا يشكل بعيسى عليه السلام فانه تعالى جعله نبيا من أول عمره الا أنه يجب أن يقال الاغلب انه ما جاء الوحى الا بعد الاربعين وهكذا كان الامر فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم ثم ان أبا بكر دعا أيضا فقال (وان أعمل صالحا ترضاه) قال ابن عباس أجاب الله تعالى دعاء أبى بكر فاعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله تعالى منهم بلال ولم يرد شيئا من الخير الا أعانه الله عليه ودعا أيضا فقال (وأصلح لى فى ذريتى) فاجاب الله تعالى دعاءه فلم يكن له ولد الا آمن فاجتمع له اسلام أبويه وأولاده جميعا وأدرك أبواه وابنه عبد الرحمن وابن ابنه أبو عتيق النبى صلى الله عليه وسلم وهم مؤمنون ولم يكن ذلك لاحد من الصحابة * (تنبيه) * أصلح يتعدى بنفسه لقوله

منه كرونكبر وقيل سبعة يوم يوم القيامة الى (قوله من طريق الجنة) بعد ما تبين لهم الهدى (قوله الشيطان سول لهم) نزل

تعالى وأصلح لنا الزوجة وانما عدى بفى لتضمنه معنى الطف بى فى ذريتى أو لانه جعل الذرية ظرفا للاصلاح والمعنى هب لى الصلاح فى ذريتى وأوقعه فيهم (انى تبت) اى رجعت (اليك) عن كل ما يقدح فى الاقبال عليك وأكده اعلاما بان حاله فى الاقبال على الشهوات حال من يبعد منه الاقلاع فينكر اخباره به وكذا قوله (وانى من المسلمين) اى الذين اسلموا ظواهرهم وبواطنهم فانقادوا أتم انقياد (أولئك) اى العالون الرتبة القائلون هذا القول أبو بكر وغيره (الذين يتقبل) بأسهل وجه (عنهم) وأشار بصيغة التفعل الى انه يعمل فى قبوله عمل المعتنى والتقبل من الله هو ايجاب الثواب له على عمله وقوله تعالى (أحسن ما عملوا) اى أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا (فان قيل) كيف قال الله تعالى أحسن والله تعالى يتقبل الاحسن وما دونه (أجيب) بوجهين أحدهما ان المراد بالاحسن الحسن كقوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وكقوله الناقص والاشج أعدلا بنى مروان اى عادلا بنى مروان ثانيهما ان الحسن من الاعمال هو المباح الذى لا يتعلق به ثواب ولا عقاب والاحسن ما يغاير ذلك وهو المندوب أو الواجب ، ولما كان الانسان محل النقصان وان كان محسنا نبه على ذلك بقوله تعالى (ويتجاوز) اى بوعد لا خلف فيه (عن سيآتهم) اى فلا يعاقبهم عليها وقرأ حفص وحمزة والكسائى بنون مفتوحة قبل الفوقية من يتقبل ونصب أحسن ونون مفتوحة قبل الفوقية من يتجاوز والباقون بياء مضمومة قبل الفوقية من يتقبل ويتجاوز ورفع أحسن وقوله تعالى (فى أصحاب الجنة) فى محل الحال اى كائنين فى جملة أصحاب الجنة كقولك أكرمنى الامير فى أصحابه اى فى جملتهم وقيل خبر مبتدا مضمر اى هم فى أصحاب الجنة وقوله تعالى (وعد الصدق) مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة لان قوله تعالى أولئك الذين يتقبل عنهم فى معنى الوعد فيكون قوله تعالى يتقبل ويتجاوز وعدا من الله تعالى لهم بالتقبل والتجاوز والمعنى يعامل من صفته ما قدمناه بهذا الجزاء وذلك وعد من الله تعالى صدقا لكونه مطابقا للواقع (الذى كانوا يوعدون) اى يقع لهم الوعد به فى الدنيا ممن لا أصدق منهم وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام حين أخبروا بقوله تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات ، ولما وصف تعالى الولد البار بوالديه وصف الولد العاق لهما بقوله تعالى (والذى قال لوالديه أف لكما) والمراد به الجنس وقال ابن عباس والسدى نزلت فى عبد الله بن أبى وقيل فى عبد الرحمن بن أبى بكر قبل اسلامه كان أبواه يدعوانه الى الاسلام وهو يأبى ويقول أف لكما وقال الحسن وقتادة انها نزلت فى كل كافر عاق لوالديه وعلى ثبوت انها نزلت فيمن تقدم لا ينافى ان المراد الجنس فان خصوص السبب لا يوجب التخصيص وفى أف قرا آت ذكرت فى سورة بنى اسرائيل (أتعدانى) اى على سبيل الاستمرار بالتجديد فى كل وقت وقرأ هشام بادغام النون الاولى فى الثانية وفتح الياء نافع وابن كثير وسكنها الباقون (ان أخرج) اى من مخرج ما يخرجنى من الارض بعد أن غبت فيها وصرت ترابا يحيينى كما كنت أول مرة (وقد) اى والحال انه قد (خلت) اى مضت على سنن الموت (القرون) اى الامم الكثيرة مع صلابتهم (من قبلى) اى قرنا بعد قرن وتطاولت الازمان ولم يخرج منهم أحد من القبور (وهما) اى والحال انهما كلما قال لهما ذلك (يستغيثان

الله)

في اليهود وقوله بعد من بعد ما تبين لهم الهدى ان يضروا الله شيئا نزل في قوم ارتدوا فليس بتكرار

(سورة الفتح)

الله) اى يطالبان بدعائهما من له جميع صفات الكمال أن ينقذه بالهامه قبول كلامهما ويقولان ان لم ترجع (ويلك) اى هلاكك بمعنى هلكت (آمن) اى أوقع الايمان الذى لا ايمان غيره وهو الذى ينقذ من كل هلكة ويوجب كل فوز بالتصديق بالبعث وبكل ما جاء عن الله تعالى ثم عللا أمرهما على هذا الوجه مؤكدين فى مقابلة انكاره بقولهما (ان وعد الله) اى الملك المحيط بجميع صفات الكمال (حق) اى ثابت أعظم ثبات لانه لو لم يكن حقا لكان نقصا من جهة الاخلاف الذى لا يرضاه لنفسه أقل الملوك فكيف بملك الملوك (فيقول) مسببا عن قولهما ومعقباله (ما هذا) اى الذى تذكرانه من البعث (الا أساطير) اى أكاذيب (الاولين) التى كتبوها (أولئك) اى البعداء من العقل والمروأة وكل خير (الذين حق) اى ثبت ووجب (عليهم القول) اى الكامل فى بابه بانهم أسفل السافلين وهذا كما قال البيضاوى يرد على من قال انها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر لانه يدل على أنه من أهلها لذلك وقد جب عنه ان كان لاسلامه وقال البقاعى وهذا يكذب من قال انها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فانه أسلم وصار من أكابر الصحابة فحققت له الجنة ولما أثبت لهم هذه الشنعة بين كثرة من شاركهم فيها بقوله تعالى (فى) اى كائنين فى (أمم) اى خلائق كانوا بحيث يقصدهم الناس ويتبع بعضهم بعضا (قد خلت) اى تلك الامم (من قبلهم) وكانوا اقدوتهم وأدخل الجار لان المحكوم عليه بعض السالفين (من الجن) لان العرب كانت تستعظمهم وتستجير بهم وذلك لانهم يتظاهرون لهم ويؤذونهم ولم يقطع أذاهم لهم وتسلطهم عليهم ظاهرا وباطنا الا القرآن فانه أحرقهم بانواره وجلاهم عن تلك البلاد بتجلى آثاره (والانس) ولا نفعتهم كثرتهم ولا أغنت عنهم قوتهم وقوله تعالى (انهم) اى كلهم (كانوا) اى جبلة وطبعا وخلقا لا يقدرون على الانفكاك عنه (خاسرين) اى عريقين فى هذا الوصف تعليل للحكم على الاستئناف (ولكل درجات مما عملوا) قال ابن عباس يريد من سبق الى الاسلام فهو أفضل ممن تخلف عنه ولو ساعة وقال مقاتل ولكل واحد من الفريقين يعنى البار بوالديه والعاق لهما درجات فى الايمان والكفر والطاعة والمعصية (فان قيل) كيف يجوز اطلاق لفظ الدرجات على أهل النار وقد روى الجنة درجات والنار دركات (أجيب) من وجوه أحدها ان ذلك على جهة التغليب وثانيها قال ابن زيد درج أهل الجنة تذهب علوا ودرج أهل النار تذهب هبوطا وثالثها المراد بالدرجات المراتب المتزايدة فدرجات أهل الجنة فى الخيرات والطاعات ودرجات أهل النار فى المعاصى والسيئات وقوله تعالى (وليوفيهم أعمالهم) اى جزاءها معلله محذوف تقديره جازاهم بذلك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام وعاصم بالياء التحتية اى الله والباقون بالنون اى نحن وقوله تعالى (وهم لا يظلمون) اى شيأ بنقص للمؤمنين ولا بزيادة للكافرين اما استئناف واما حال مؤكدة (ويوم) اى واذكر يا أفضل الخلق لهؤلاء يوم يعرضون هكذا كان الاصل ولكنه تعالى أظهر الوصف الذى أوجب لهم الخزى بقوله تعالى (يعرض الذين كفروا على النار) اى يصلون لهبها ويقلبون فيها كما يعرض اللحم الذى يشوى وقيل تعرض عليهم النار ليروا أهوالها مقولا لهم على سبيل التنديم والتقريع والتوبيخ والتشنيع لانهم لم يذكروه تعالى حق ذكره عند شهواتهم بل نالوها عند مخالفة أمره سبحانه وتعالى (أذهبتم

(قوله انا فتحنا لك فتحا مبينا) نزل قبل فتح مكة وجيء بالفعل ماضيا لانه فى علمه تعالى كالواقع لتحقق وقوعه (قوله ليغفر لك الله

طيباتكم) اى لذاتكم باتباعكم الشهوات وقرأ ابن كثير وابن عامر قبل الالف بهمزتين مفتوحتين الاولى محققة بلا خلاف والثانية مسهلة بخلاف عن هشام وأدخل هشام بينهما الفا ولم يدخل ابن كثير وابن ذكوان والباقون بهمزة واحدة محققة (فى حياتكم الدنيا) اى القريبة الدنية المؤذن وصفها ان بعدها بحياة أخرى بعدها فكانت عامة حركاتكم وسكناتكم لاجلها حتى نلتموها (واستمتعتم) اى طلبتم وأوجدتم انتفاعكم (بها) وجعلتم رهانكم حظكم فى رغباتكم ونعمتكم والمعنى أن ما قدر لكم من الطيبات والدرجات فقد استوفيتموه فى الدنيا فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شئ منها وعن عمر رضى الله عنه لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ولكنى أستبقى طيباتى قال الواحدى ان الصالحين يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء ان يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل لان هذه الآية لا تدل على المنع من التمتع لانها وردت فى حق الكافر وانما وبخ الله تعالى الكافر لانه تمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ويدل على ذلك قوله تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق نعم لا ينكر ان الاحتراز عن التنعم أولى لان النفس اذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقياد وحينئذ ربما حمل الميل الى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغى روى عمر قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو على رمال حصير قد أثر الرمال بجنبه فقلت يا رسول الله ادع الله تعالى أن يوسع على أمتك فان فارس والروم قد وسع عليهم وهم يعبدون غير الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا وعن عائشة رضى الله عنها قالت ما شبع آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنها أنها قالت كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه نارا وما هو الا الماء والتمر وعن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير والاحاديث فى هذا كثيرة ❊ ولما كانت الاستهانة بالاوامر والنواهى استهانة بيوم الجزاء تسبب عنه قوله تعالى (فاليوم تجزون) اى على اعراضكم عنا (عذاب الهون) اى الهوان العظيم المجتمع الشديد الذى فيه ذل وخزى (بما كنتم) اى جبلة وطبعا (تستكبرون) اى تطلبون الترفع وتوجدونه على الاستمرار (فى الارض) التى هى لكونها ترابا موضوعة على الزوال والخراب أحق شئ بالتواضع والذل والهوان (بغير الحق) اى الامر الذى يطابقه الواقع وهو أوامرنا ونواهينا (وبما كنتم) اى على الاستمرار (تفسقون) اى بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله تعالى ❊(تنبيه)❊ دلت الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لان الله تعالى علل عذابهم بامرين أولهما الكفر وثانيهما الفسق وهذا الفسق لابد وأن يكون مغايرا لذلك الكفر لان العطف يوجب المغايرة فثبت أن فسق الكفار يوجب العقاب فى حقهم ولا معنى للفسق الا ترك المأمورات وفعل المنهيات ❊ ولما كان قوم عاد أكثر أموالا وقوة وجاها من أهل مكة ذكر تعالى قصتهم ليعتبر وا فيتركوا الاغترار بما وجدوه فى الدنيا فقال عز من قائل (واذكر) يا أشرف الرسل لهؤلاء الذين لا يتعظون (أخا عاد) وهو أخوك هود عليه السلام الذى كان بين قوم أشد من قومك ولم يخف عاقبتهم وأمرهم ونهاهم ونجيناه

ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ❊ ان قلت لم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم ذنب فماذا يغفر له (قلت) المراد ذنب المؤمنين او ترك

منهم فهو لك قدوة وفيه اسوة ولقومك فى قصدهم اياك بالاذى من أمره موعظة وقوله تعالى (اذ أنذر) بدل اشتمال من أخا (قومه) أى الذين لهم قوة على القيام فيما يحاولونه (بالأحقاف) قال ابن عباس واد بين عمان ومهرة وقال مقاتل كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بموضع يقال له مهرة اليها تنسب الابل المهرية وكانوا أهل عمد سيارة فى الربيع فاذا هاج العود رجعوا الى منازلهم وكانوا من قبيلة ارم قال قتادة ذكر لنا أن عادا كانوا احياء من اليمن كانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر (وقد) أى والحال أنه قد (خلت النذر) أى مرت ومضت الرسل الكثيرون (من بين يديه) أى قبل هود كنوح وشيث وآدم عليهم السلام (ومن خلفه) أى بعده والمعنى أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو انذاره والجملة حال او اعتراض ولما أشار الى كثرة الرسل ذكر وحدتهم فى أصل الدعاء فقال مفسرا للانذار معبرا بالنهى (أن لا تعبدوا) أى أيها العباد المنذرون بوجه من الوجوه شيأ من الاشياء (الا الله) أى الملك الذى لا ملك غيره ولا خالق سواه ولا منعم الا هو فانى أراكم تشركون به من لم يشركه فى شئ من تدبيركم والملك لا يقر على مثل هذا (انى أخاف عليكم) لكونكم قومى وأعز الناس على (عذاب يوم عظيم) أى لا يدع جهة الا ملأها عذابه ان أصررتم على ما أنتم فيه من الشرك (قالوا) له فى جوابه منكرين عليه (أجئتنا) أى ياهود (لتأفكنا) أى لتصرفنا عن وجه أمرنا الى قفاه (عن آلهتنا) فلا نعبدها ولا نعتد بها (فأتنا بما تعدنا) من العذاب سموا الوعيد وعدا (ان كنت) أى بما لك من الكون ثابتا (من الصادقين) فى انك رسول من الله وانه يأتينا بما تخافه علينا من العذاب ان أصررنا (قال) أى هود مكذبا لهم فى نسبتهم اليه ادعاء شئ من ذلك (انما العلم) أى المحيط بكل شئ عذابكم وغيره (عند الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال فهو ينزل علم ما توعدون به على من يشاء ان شاء ولا علم لى الى الآن ولا لكم بشئ من ذلك ولا قدرة (وأبلغكم) أى فى الحال والاستقبال وقرأ أبو عمرو بسكون الباء الموحدة وتخفيف اللام والباقون بفتح الموحدة وتشديد اللام (ما أرسلت به) عن لا مرسل فى الحقيقة غيره سواء أكان وعدا أم وعيدا أم غير ذلك ولم يذكر الغاية لان ما أرسل به صالح لهم ونافع لهم (ولكنى أراكم) أى أعلمكم علما كالرؤية وقرأ نافع والبزى وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وأمال الالف بعد الراء ورش بين بين وأمالها أبو عمرو وحمزة والكسائى محضة والباقون بالفتح (قوما تجهلون) أى باستعجال العذاب فان الرسل بعثوا مبلغين منذرين لا مقترحين (فلما رأوه) أى العذاب الذى توعدهم به (عارضا) أى سحابا أسود بارزا فى الافق ظاهرا لامر عند من له أهلية النظر حال كونه قاصدا اليهم (مستقبل أوديتهم) أى طالبا لان يكون مقابلا لها وموجدا لذلك (قالوا) على عادة جهلهم مشيرين بالمبادأة القرب الدالة على أنهم فى غاية الجهل لان جهلهم به استمر حتى كاد أن يواقعهم (هذا عارض) أى سحاب معترض فى عرض السماء أى ناحيتها (ممطرنا) قال المفسرون كان حبس عنهم المطر أياما فساق الله تعالى اليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فقال الله تعالى (بل هو) أى هذا العارض الذى ترونه (ما استعجلتم به) أى طلبتم العجلة فى اتيانه وقوله تعالى (ريح) بدل من ما (فيها عذاب

الافضل او المراد الصغائر على ما قال به جمع او المراد بالمغفرة العصمة ومعنى قوله ما تقدم وما تأخر ما فرط منك فرطا

(أليم) أى شديد الايلام وروى أنها كانت تحمل الفسطاط فترفعه فى الجو وتحمل الظعينة فى الجو فترفعها وهودجها حتى ترى كأنها جرادة وكانوا يرون ما كان خارجا عن منازلهم من الناس والمواشى تطير بهم الريح بين السماء والارض ثم تقذف بهم ثم وصف تلك الريح بقوله تعالى (تدمر) أى تهلك اهلاكا عظيما شديدا (كل شئ) أى أتت عليه من الحيوان والناس وغيرهما هذا شأنها فمن سلم منها كهود عليه السلام ومن آمن به فلأنه أمر خارق للعادة كما أن أمرها فى اهلاك كل ما مرت عليه أمر خارق للعادة (بأمر ربها) أى المبدع لها والمربى والمحسن بالانتقام من أعدائه (فان قيل) ما فائدة اضافة الرب الى الريح (أجيب) بأن فائدة ذلك الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد بعظيم قدرته لانها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده وذكر الامر وكونها مأمورة من جهته عز وعلا يعضد ذلك ويقويه فليس من تأثير الكواكب والقرانات قيل ان أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى ان أول ما عرفوا به انه عذاب أليم انهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والارض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الابواب وصرعتهم وأمال الله عليهم الاحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم أمر الله تعالى الريح فكشفت عنهم الرمال وحملتهم فرمت بهم فى البحر وروى ان هودا عليه السلام لما احس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا الى جنب عين تنبع وكانت الريح التى تصيبهم ريحا طيبة هادية والريح التى تصيب قوم عاد ترفعهم من الارض وتطير بهم الى السماء وتضرب بهم على الارض وعن ابن عباس اعتزل هود ومن معه فى حظيرة ما يصيبهم من الريح الا ما يلين على الجلود وتلذه الانفس وانها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة وأثر المعجزة انما ظهر فى تلك الريح من هذا الوجه قال صلى الله عليه وسلم ما أمر الله تعالى خازن الريح أن يرسل على عاد الا مقدار الخاتم وذلك القدر أهلكهم بكليتهم كما قال تعالى (فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم) أى جاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لو حضرت بلادهم لا ترى الا مساكنهم وقرأ عاصم وحمزة بالياء التحتية المضمومة ورفع النون من مساكنهم لقيامه مقام الفاعل والباقون بالتاء الفوقية مفتوحة مبنيا للفاعل ونصب مساكنهم مفعولا به وأمال الالف بعد الراء ورش بين بين وأبو عمرو وحمزة والكسائى محضة وكذلك من القرى (كذلك) أى مثل هذا الجزاء الهائل فى أصله أو جنسه أو نوعه أو شخصه من الاهلاك (نجزى) بعظمتنا دائما اذا شئنا (القوم المجرمين) أى العريقين فى الاجرام الذين يقطعون ما حقه الوصل وذلك الجزاء هو الاهلاك على هذا الوجه الشنيع وروى انه صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى الريح فزع وقال اللهم انى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به واذا رأى مخيلة أى سحابة قام وقعد وجاء وذهب وتغير لونه فنقول له يا رسول الله ما تخاف فيقول انى أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا هذا عارض ممطرنا فاحذروا وأيها العرب مثل ذلك ان لم ترجعوا (فان قيل) قال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم فكيف يحصل التخويف (أجيب) بان ذلك كان قبل نزول الآية ثم أخبر الله تعالى عن مكنة عاد بقوله سبحانه (ولقد

قبل النبوة وبعدها أو قبل فتح مكة وبعده أو المراد بما تأخر العموم والمبالغة كقولهم فلان يضرب من يلقاه ومن

مكناهم) أى تمكينا تظهر به عظمتنا (فيما) أى فى الذى (ان) نافية أى ما (مكناكم) يا أهل مكة (فيه) من قوة الابدان وطول الاعمار وكثرة الاموال وغيرها ثم انهم مع ذلك ما نجوا من عذاب الله تعالى فكيف يكون حالكم • (تنبيه) • قال البقاعى وجعل النافى ان لانها أبلغ من ما لان ما تنفى تمام القوت لتركبها من الميم والالف التى حقيقة ادراكها فوت تمام الادراك وان تنفى أدنى مظاهر مدخولها فكيف بما وراءه من تمامه لان الهمزة أول مظهر افوت الالف والنون لطائف الاظهار هذا الى ما فى ذلك من عذوبة اللفظ وصونه عن ثقل التكرار الى غير ذلك من بديع الاسرار اه وقال الزمخشرى ان نافية أى فيما ما مكناكم فيه الا أن ان أحسن فى اللفظ لما فى مجامعة ما بمثلها من التكرار المستبشع ومثله مجتنب ألا ترى أن الاصل فى مهما ماما فلبشاعة التكرير قلبوا الالف هاء ولقد أغث أبو الطيب فى قوله • لعمرك ما ما بان منك لضارب •

وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال • لعمرك ما ان بان منك لضارب • وقد جعلت ان صلة مثلها فيما أنشده الاخفش رحمه الله تعالى فقال

يرجى المرء ما ان لا يراه • وتعرض دون أدناه الخطوب

وتؤول بانا مكناهم فى مثل ما مكناكم فيه والوجه هو الاول (وجعلنا لهم) اى على ما اقتضته عظمتنا (سمعا) وأفرده لقلة التفاوت فيه (وأبصارا) وجمعه لكثرة التفاوت فى أنوار الابصار وكذا فى قوله تعالى (وأفئدة) أى فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعا فما استعملوه فى سماع الدلائل وأعطيناهم أبصارا فما استعملوها فى دلائل ملكوت السموات والارض وأعطيناهم أفئدة أى قلوبا فما استعملوها فى طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى الى طلب الدنيا ولذاتها فلاجرم قال تعالى (فما أغنى عنهم) فى حال ارسالنا اليهم الرحمة على لسان هود عليه السلام ثم النقمة بيد الريح (سمعهم) وأكد النفى بتكرير النافى بقوله تعالى (ولا أبصارهم) وكذا فى قوله تعالى (ولا أفئدتهم) لما أردنا اهلاكهم وأكد باثبات الجار بقوله تعالى (من شئ) أى من الاشياء وان قل وقال الجلال المحلى ان من زائدة وقوله تعالى (اذ) معمولة لاغنى وأشربت معنى التعليل أى لانهم (كانوا) اى طبعا وخلقا (يجحدون) اى يكررون على مر الزمان الجحد (بآيات الله) اى الانكار لما يعرب عن دلائل الملك الاعظم (وحاق) اى نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) لانهم كانوا يطلبون نزول العذاب على سبيل الاستهزاء • ولما تم المراد من الاخبار باهلاكهم على ما لهم من المكنة العظيمة ليتعظ بهم من سمع أمرهم اتبعهم من كان مشاركا لهم فى التكذيب فشاركهم فى الهلاك فقال تعالى (ولقد أهلكنا) اى بما لنا من العظمة (ما حولكم) يا أهل مكة (من القرى) كحجر ثمود وعاد وأرض سدوم وسبا ومدين والايكة وقوم لوط وفرعون وأصحاب الرس وغيرهم ممن فيهم معتبر (وصرفنا) اى بينا (الآيات) أى الحجج البينات (لعلهم) اى الكفار (يرجعون) اى ليكونوا عند من يعرف حالهم فى رؤية الآيات حال من يرجع عن الغى الذى كان يرتكبه لتقليد أو شبهة كشفتها الآيات وفضحتها الدلالات فلم يرجعوا فكان عدم رجوعهم سبب اهلاكهم (فلولا) اى فهلا ولم لا (نصرهم الذين) اى نصر هؤلاء المهلكين الذين (اتخذوا) اى اجتهدوا فى صرف أنفسهم عن دواعى العقل حتى أخذوا (من دون الله) اى الملك الذى هو أعظم من كل عظيم (قربانا)

يضرب كل
لا يلقاه يعنى
احد مع ان من لا يلقاه
لا يمكنه ضربه (قوله
ويهديك) اى يزيدك
هدى والا فهو مهدى

أى متقربا بهم الى الله تعالى (آلهة) معه وهم الاصنام ومفعول اتخذوا الاول ضمير محذوف يعود على الموصول أى هم وقربانا المفعول الثانى وآلهة بدل منه (بل ضلوا) أى غابوا (عنهم) وقت نزول النقمة وقرأ الكسائى بادغام اللام فى الضاد والباقون بالاظهار (وذلك) أى اتخاذهم الاصنام آلهة قربانا (إفكهم) أى كذبهم (وما كانوا) أى على وجه الدوام لكونه فى طباعهم (يفترون) أى يتعمدون كذبه لان اصرارهم عليه بعد مجىء الآيات لا يكون الا كذلك لان من نظر فيها بمجرد انفه عن الهوى اهتدى (وإذ) أى واذكر إذ (صرفنا) أى أملنا (اليك نفرا) وهو اسم يطلق على مادون العشرة وسيأتى فى ذلك خلاف (من الجن) أى جن نصيبين اليمن أو جن نينوى (يستمعون القرآن) أى يطلبون سماع الذكر الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس وأنت فى صلاة الفجر (١) فى نخلة تصلى بأصحابك (فلما حضروه) أى صاروا بحيث يسمعونه (قالوا) أى قال بعضهم لبعض ورضى الآخرون (أنصتوا) أى اسكتوا وصلوا بكلياتكم واسمعوا حفظا للادب على بساط الخدمة وفيه تأدب مع العلم فى تعلمه قال القشيرى فأهل الحضور صفتهم الذبول والسكون والهيبة والوقار (تنبيه) ذكروا فى كيفية هذه الواقعة قولين أحدهما قال سعيد بن جبير كان الجن تستمع فلما رجموا قالوا هذا الذى حدث فى السماء انما حدث لشئ فى الارض فذهبوا يطلبون السبب وكان قد اتفق أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أيس من أهل مكة ان يجيبوه خرج الى الطائف ليدعوهم الى الاسلام فلما انصرف الى مكة وكان ببطن نخلة قام يقرأ القرآن فمر به نفر من أشراف جن نصيبين كان ابليس بعثهم ليعرف السبب الذى أوجب حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن فعرفوا ان ذلك هو السبب والقول الثانى ان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجن ويدعوهم الى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن فصرف الله تعالى اليه نفرا من الجن يستمعون منه القرآن وينذرون قومهم وروى أن الجن كانوا يهودا لان فى الجن مللا كما فى الانس من اليهود والنصارى وعبدة الاوثان والمجوس وأطبق المحققون على أن الجن مكلفون وسئل ابن عباس هل للجن ثواب قال نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون فى أبواب الجنة ويزدحمون على أبوابها وروى الطبرانى عن ابن عباس ان أولئك الجن كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا الى قومهم وعن زر بن حبيش كانوا تسعة أحدهم زوبعة وعن قتادة ذكر لنا أنهم صرفوا اليه من نينوى وروى فى الحديث ان الجن ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون واختلفت الروايات هل كان عبد الله بن مسعود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن أولا وروى عن أنس قال كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم وهو بظاهر المدينة اذ اقبل شيخ يتوكأ على عكازة فقال النبى صلى الله عليه وسلم انها لمشية جنى ثم أتى فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم انها لنغمة جنى فقال الشيخ أجل يا رسول الله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم من أى الجن أنت فقال يا رسول الله أنا هام بن هيم بن لاقيس بن ابليس فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا أرى بينك وبين ابليس الا أبوين قال أجل يا رسول الله قال كم أتى عليك من العمر قال أكلت عمر الدنيا الا القليل كنت حين قتل هابيل غلاما ابن أعوام

فكنت

(١) قوله فى نخلة كذا بالنسخ بأيدينا والصواب فى بطن نخلة بدليل ما سيأتى اه مصحح

(قوله وكانوا أحق بها وأهلها) ان قلت ما فائدة قوله وأهلها بعد قوله أحق بها (قلت) الضمير فى بها لكلمة التوحيد

فكنت أشرف على الآكام وأصطاد الهام وأورش بين الانام فقال النبي صلى الله عليه وسلم بئس العمل فقال يارسول الله دعني من العتب فاني ممن آمن مع نوح عليه السلام وعاتبته في دعوته فبكى وأبكاني وقال والله اني لمن النادمين وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ولقيت هودا فعاتبته في دعوته فبكى وأبكاني وقال والله اني لمن النادمين واعوذ بالله ان أكون من الجاهلين ولقيت ابراهيم وآمنت به وكنت بينه وبين الارض اذ رمى به في المنجنيق وكنت معه في النار اذ ألقي فيها وكنت مع يوسف اذ ألقي في الجب فسبقته الى قعره ولقيت موسى بن عمران بالمكان الاثير وكنت مع عيسى بن مريم عليهما السلام فقال لي ان لقيت محمدا فاقرأ عليه السلام قال أنس فقال النبي صلى الله عليه وسلم وعليه السلام وعليك ياهام ماحاجتك قال ان موسى علمني التوراة وان عيسى علمني الانجيل فعلمني القرآن قال أنس فعلمه النبي صلى الله عليه وسلم سورة الواقعة وعم يتساءلون واذا الشمس كورت وقل يا أيها الكافرون وسورة الاخلاص والمعوذتين (فلما قضي) اي فرغ من قراءته (ولوا) اي رجعوا (الى قومهم) الذين فيهم قوة القيام بما يحاولونه (منذرين) اي مخوفين لهم ومحذرين عواقب الضلال بامر من رسول الله صلى الله عليه [illegible] وسلم قال ابن عباس جعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا الى قومهم * ولما كان كأنه قيل ما قالوا لهم في انذارهم قيل (قالوا يا قومنا) متوفقين لهم ومترفقين بهم بذكر ما يدل على أنهم منهم يهمهم ما يهمهم (انا سمعنا) أي ما بيننا وبين القارئ واسطة وأشاروا الى انه لم ينزل بعد التوراة شيء جامع لجميع مايراد منه مغن عن جميع الكتب غير هذا وبذلك عرفوا أنه ناسخ لجميع الشرائع بقولهم (كتابا) اي ذكرا جامعا لا كما نزل بعد التوراة على بني اسرائيل (أنزل) اي ممن لا منزل غيره وهو ملك الملوك لان عليه من رونق الكتب الالهية ما يوجب القطع لسامعه بانه منها فكيف اذا انضم الى ذلك الاعجاز وعلموا قطعا بعربيته أنه عربي وبانهم كانوا يضربون مشارق الارض ومغاربها يسمعون قراءة الناس لما يجدونه من الحكم والخطب والكهانة والرسائل والاشعار وأنه مباين لجميع ذلك (من بعد موسى) فلم يعتدوا بما أنزل بين هذا الكتاب و بين التوراة من الانجيل وما قبله لانه لا يساوي التوراة في الجمع وروي عن عطاء والحسن انما قالوا ذلك لانهم كانوا يهودا وعن ابن عباس رضي الله عنهما [illegible] ان الجن لم يسمعوا أمر عيسى فلذلك قالوا من بعد موسى ولما أخبروا بانه منزل أتبعوه ما يشهد [illegible] له بالصحة بقولهم (مصدقا لما بين يديه) اي من جميع كتب بني اسرائيل الانجيل وما قبله ثم بينوا تصديقه بقولهم (يهدي الى الحق) الامر الثابت الذي يطابق الواقع فلا يقدر أحد على ازالة شيء مما يخبر به الكامل في جميع ذلك (والى طريق) موصل الى المقصود (مستقيم) لا عوج فيه (يا قومنا) الذين لهم قوة العلم والعمل (أجيبوا داعي الله) أي الملك الاعظم المحيط بصفات الكمال فان دعوة هذا الداعي عامة لجميع الخلائق فالاجابة واجبة على كل من بلغه أمره وفي هذه الآية دلالة على انه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن كما كان مبعوثا الى الانس (وآمنوا به) اي اوقعوا التصديق بسبب الداعي وهو النبي صلى الله عليه وسلم لا بسبب آخر فان المقصود مع المعمول مع الله تعالى (فان قيل) قوله تعالى أجيبوا داعي الله أمر باجابته في كل ما أمر به فيدخل فيه الامر بالايمان فكيف قال وآمنوا به

وفي اهلها التقوى فلا تكرار (قوله لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) ان قلت ما وجه التعليق بمشيئة الله تعالى في اخباره

(أجيب) بأنه انما ذكر الايمان على التعيين لانه أهم الاقسام وأشرفها وقد جرت العادة في القرآن العظيم بأن يذكر اللفظ العام ثم يعطف عليه أشرف أنواعه كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال وقوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح * ولما أمر تعالى بالايمان ذكر فائدته بقوله تعالى (يغفر لكم) اى الله تعالى (من ذنوبكم) اى بعضها من الشرك وما شابهه مما هو حق لله تعالى وكذا ما يجازى به صاحبه في الدنيا بالعقوبات والنكبات والهموم ونحوها مما أشار اليه قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وأما المظالم فلا تغفر الا برضا أربابها وقيل من زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم وقيل بل فائدته أن كلمة من هنا لابتداء الغاية والمعنى انه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهي الى غفران ما صدر عنكم من ترك الاولى والاكمل (ويجركم) اى يمنعكم منع الجار لجاره لكونكم بالتحيز اليه صرتم من حزبه (من عذاب أليم) قال ابن عباس فاستجاب لله تعالى لهم من قومهم نحو سبعين رجلا من الجن فرجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوافوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم * (تنبيه) * اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أولا فقيل لا ثواب لهم الا النجاة من النار ويقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم واحتجوا على ذلك بقوله تعالى ويجركم من عذاب أليم وهو قول أبي حنيفة والصحيح أن حكمهم حكم بني آدم يستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية وهو قول ابن ابي ليلى ومالك وتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا نحو ذلك قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون لان كل دليل دل على ان البشر يستحقون الثواب فهو بعينه قائم في حق الجن والفرق بينهما بعيد جدا وذكر النقاش في تفسيره حديثا انهم يدخلون الجنة فقيل هل يصيبون من نعيمها قال يلهمهم الله تعالى تسبيحه وذكره فيصيبهم من لذته ما يصيب بني آدم من نعيم الجنة وقال ارطاة بن المنذر سألت ضمرة بن حبيب هل للجن ثواب قال نعم وقرأ لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان وقال عمر بن عبد العزيز ان مؤمني الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها ولما انهى كلامهم انهم ان لم يجيبوا ينتقم منهم بالعذاب الاليم اتبعوه ما هو أغلظ انذارا منه فقالوا (ومن لا يجب) اى لا يتجدد منه ان يجيب (داعي الله) اى الملك الذي لا كفء له (فليس بمعجز) اى لا يعجز الله عز وجل بالهرب منه (في الارض) فيفوته فانه اى مكان سلك فيها فهو في ملكه وملكه وقدرته محيطة به (وليس له من دونه) اى الله تعالى الذي لا يجير عليه (أولياء) يفعلون لاجله ما يفعل القريب مع قريبه من الذب عنه والاستشفاع له والافتداء (أولئك) البعيدون من كل خير (في ضلال مبين) ظاهر في نفسه أنه ضلال مظهر لكل أحد قبح احاطته بهم * (تنبيه) * ههنا همزتان مضمومتان من كلمتين ولا نظير لهما في القرآن العظيم قرأ قالون والبزي بتسهيل الاولى كالواو مع المد والقصر وسهل الثانية ورش وقنبل بعد تحقيق الاولى ولهما أيضا ابدال الثانية ألفا واسقط الاولى أبو عمرو مع المد والقصر والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المد (أولم يروا) اى يعلموا علما هو في الوضوح كالرؤية (ان الله) ودل على ما دل عليه هذا الاسم الاعظم بقوله تعالى (الذي خلق السموات) على ما احتوت عليه بما يعجز الوصف من العبر (والارض) على ما اشتملت عليه من الآيات المدركة

(قلت) ان بمعنى اذ كما في قوله تعالى وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين او انه استثناء منه تعالى فيما يعلم

قوله ابدال الثانية الفا كذا في الاصول ولعله واوا وليحرر القراءة اه مصححه

بالعيان والخبر (ولم يعى) اى ولم يتعب ولم يعجز (بخلقهن) اى بسبب من الاسباب فانه لو حصل له شئ من ذلك ادى الى نقصان فيهما أو فى احداهما * وأكد الانكار المتضمن للنفى بزيادة الجار فى خبر ان فقال (بقادر) اى قدرة عظيمة (على أن يحيى) اى على سبيل التجديد مستمرا (الموتى) والامر فيهم لكونه اعادة وكونه جزأ يسيرا مما ذكر أخترعه أصغر شأنا وأسهل صنعا وأجاب بقوله تعالى (بلى) لان هذا الاستفهام الانكارى فى معنى النفى اى قد علموا أنه قادر على ذلك علما هو فى ايقانه كالبصر لانهم يعلمون أنه المخترع لذلك وأن الاعادة أهون من الابتداء فى مجارى عاداتهم ولكنهم عن ذلك غافلون لانهم عنه معرضون * وقوله تعالى (انه على كل شئ قدير) تقرير للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود كانه لما صدر السورة بتحقيق المبدا اراد ختمها باثبات المعاد * ولما أثبت البعث بما أقام من الدلائل ذكر بعض ما يحصل فى يومه من الاهوال بقوله تعالى (ويوم) اى واذكر يوم (يعرض) اى بأيسر أمر من أوامرنا (الذين كفروا) اى ستروا بغفلتهم وتماديهم الادلة الظاهرة (على النار) عرض الجند على الملك فيسمعون من تغيظها وزفيرها ما لو قدر أن احدا يموت فى ذلك اليوم لماتوا من معاينته وهائل رؤيته ثم يقال لهم (أليس هذا) اى الامر الذى كنتم به توعدون ولرسلنا فى اخبارهم به تكذبون (بالحق) اى الامر الثابت الذى يطابقه الواقع أم هو خيال وسحر (قالوا) اى مصدقين حيث لا ينفعهم التصديق (بلى) وما كفاهم البدار الى تكذيب أنفسهم حتى أقسموا عليه بقولهم (وربنا) اى انه لحق هو اثبت الاشياء وليس فيه شئ مما يقارب السحر * (تنبيه) * المقصود من هذا الاستفهام التهكم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده (قال فذوقوا العذاب) اى باشروه مباشرة الذائق باللسان ومعنى الامر الاهانة بهم والتوبيخ لهم ثم صرح بالسبب فقال تعالى (بما كنتم) اى خلقا مستمرا (تكفرون) فى دار العمل * ولما قرر تعالى المطالب الثلاثة وهى التوحيد والنبوة والمعاد وأجاب عن الشبهات أردفه بما يجرى مجرى الوعظ والنصيحة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لان الكفار كانوا يؤذونه ويوحشون صدره فقال تعالى (فاصبر) اى على مشاق ماترى فى تبليغ الرسالة وعلى أذى قومك قال القشيرى الصبر هو الوثوق بحكم الله تعالى والثبات من غير بث ولا استكراه (كما صبر أولوا العزم) اى الثبات والجد فى الامور وقال ابن عباس رضى الله عنهما أولوا الحزم وقوله تعالى (من الرسل) يجوز فيه أن تكون من تبعيضية وعلى هذا فالرسل أولو عزم وغير أولى عزم ويجوز أن تكون للبيان وعليه جرى الجلال المحلى فكلهم على هذا أولو عزم قال ابن زيد كل الرسل كانوا أولى عزم وحزم ورأى وكمال عقل وانما أدخلت من للتجنيس لا للتبعيض كما يقال اشتريت أكسية من الخز وأردية من البز وقال بعضهم الانبياء كلهم أولوا العزم الا يونس لعجلة كانت فيه ألا ترى أنه قيل لنبينا صلى الله عليه وسلم ولا تكن كصاحب الحوت وقال قوم هم نجباء الرسل وهم المذكورون فى سورة الانعام وهم ثمانية عشر لقوله تعالى بعد ذكرهم أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقال الكلبى هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشفة مع أعداء الله تعالى وقيل هم ستة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهم المذكورون على النسق فى سورة الاعراف والشعراء وقال مقاتل هم ستة نوح صبر على اذى قومه وابراهيم صبر

تعلو العبادة ان يستندوا فيه لا يعلمون اوانه على سبيل الحكاية لرؤيا النبى صلى الله عليه وسلم فانه رأى ان قائلا يقول

على النار واسحق صبر على الذبح ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره ويوسف صبر في الجب والسجن وأيوب صبر على الضر وقال ابن عباس وقتادة هم نوح وابراهيم وموسى وعيسى أصحاب الشرائع فهم مع محمد صلى الله عليه وسلم خمسة ونظمهم بعضهم في بيت فقال

محمد ابراهيم موسى كليمه * فعيسى فنوح هم اولوا العزم فاعلم

قال البغوي ذكرهم الله تعالى على التخصيص في قوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وفي قوله تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الآية وعن مسروق قال قالت عائشة رضي الله عنها قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة ان الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة ان الله لم يرض من أولي العزم الا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ولم يرض الا أن كلفني ما كلفهم قال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل واني والله لابد لي من طاعته والله لاصبرن كما صبروا ولاجهدن ولا قوة الا بالله * ولما أمره الله تعالى بالصبر الذي هو من أعلى الفضائل نهاه عن العجلة التي هي من أمهات الرذائل فقال عز من قائل (ولا تستعجل لهم) اى لا تطلب العجلة وتوجدها بان تفعل شيأ مما يسوءهم في غير حينه الاليق به فانه نازل بهم في وقته لا محالة قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم ضجر من قومه واحب أن ينزل الله تعالى العذاب بمن أبى من قومه فامر بالصبر وترك الاستعجال * ثم اخبر أن ذلك العذاب اذا نزل بهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال تعالى (كانهم يوم يرون ما يوعدون) اى من العذاب بهم في الآخرة (لم يلبثوا) اى في الدنيا (الا ساعة من نهار) استقصروا مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار أو كأنه لم يكن لهول ما عاينوا ولان ما مضى وان كان طويلا صار كأنه لم يكن قال الشاعر

كأن شيأ لم يكن اذا مضى * كأن شيأ لم يكن اذا أتى

(تنبيه) قد تم الكلام ههنا وقوله تعالى (بلاغ) خبر مبتدا محذوف قدره بعضهم تلك الساعة بلاغ لدلالة قوله تعالى الا ساعة من نهار وبعضهم هذا اى القرآن بلاغ اى تبليغ من الله تعالى الحكيم وجرى عليه الجلال المحلى (فهل) اى لا (يهلك) اى بالعذاب اذا نزل (الا القوم) اى الذين هم أهل القيام بما يحاولونه من اللدد (الفاسقون) اى العريقون في ادامة الخروج من الانقياد والطاعة وهم الكافرون قال الزجاج تأويله لا يهلك مع فضل الله ورحمته الا القوم الفاسقون ولهذا قال قوم ما في الرجاء لرحمة الله أقوى من هذه الآية * وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الاحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا حديث موضوع

سورة محمد صلى الله عليه وسلم مكية

وتسمى القتال والذين كفروا وهي ثمان وثلاثون آية وخمسمائة وتسع وثلاثون كلمة وألفان وثلثمائة وتسعة وأربعون حرفا

(بسم الله) الملك الاعظم الذي أقام جنده للذب عن حماه (الرحمن) الذي عمت رحمته تارة

لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين (قوله لا تخافون) * ان قلت ما فائدة ذكره بعد قوله آمنين (قلت) المعنى

بالبرهان وتارة بالسيف والسنان (الرحيم) الذى خص حزبه بالحفظ فى طريق الجنان واختلف فى قوله تعالى (الذين كفروا) من هم فقيل هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم وقيل كفار قريش وقيل أهل الكتاب وقيل كل كافر لانهم ستروا أنوار الادلة وضلوا على علم (وصدوا) اى امتنعوا بانفسهم ومنعوا غيرهم امراقتهم فى الكفر (عن سبيل الله) اى الطريق الرحب المستقيم الذى شرعه الملك الاعظم (أضل) اى ابطل ابطالا عظيما يزيل العين والاثر (أعمالهم) كاطعام الطعام وصلة الارحام وفك الاسارى وحفظ الجوار وغير ذلك فلا يرون لها فى الآخرة ثوابا ويجزى عليها فى الدنيا من فضله تعالى *(تنبيه)* أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة * ولما ذكر تعالى أهل الكفر معبرا عنهم بادنى طبقاتهم ليشمل من فوقهم ذكر أضدادهم كذلك ليعم من كان منهم من جميع الفرق بقوله تعالى (والذين آمنوا) اى اقروا بالايمان باللسان (وعملوا) تصديقا لدعواهم (الصالحات) اى الاعمال الكاملة فى الصلاح بتأسيسها على الايمان * ولما كان هذا الوصف لا يخص أتباع محمد صلى الله عليه وسلم خصهم بقوله تعالى (وآمنوا) اى مع ذلك (بما نزل) اى ممن لا منزل الا هو منجما مفرقا ليجددوا بعد الايمان به اجمالا الايمان بكل نجم منه (على محمد) النبى الامى العربى القرشى المكى المدنى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وهو) اى هذا الذى نزل عليه صلى الله عليه وسلم موصوف بانه (الحق) اى الكامل فى الحقيقة (١) ينسخ ولا ينسخ كائنا (من ربهم) اى المحسن اليهم بارساله اما احسانه الى أمته فواضح وأما سائر الامم فبكونه هو الشافع فيهم الشفاعة العظمى يوم القيامة وأمته هى الشاهدة لهم جملة معترضة وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى وهو بسكون الهاء والباقون بضمها (كفر عنهم سيئاتهم) اى ستر اعمالهم السيئة بالايمان وعملهم الصالح (وأصلح بالهم) اى حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد (ذلك) اى الامر العظيم الذى ذكرهنا من جزاء الطائفتين (بان) اى بسبب أن (الذين كفروا) اى ستروا مرائى عقولهم (اتبعوا) اى بغاية جهدهم ومعالجتهم (الباطل) من العمل الذى لا حقيقة له فى الخارج تطابقه وذلك هو الابتداع والميل مع الهوى فضلوا (وان الذين آمنوا) اى ولو كانوا فى اقل درجات الايمان (اتبعوا) اى بغاية جهدهم (الحق) اى الذى له واقع يطابقه وذلك هو الحكمة وهو العلم بموافقة العمل وهو معرفة العلوم على ماهو عليه (من ربهم) اى الذى أحسن اليهم بايجادهم وما سببه من حسن اعتقادهم فاهتدوا (كذلك) اى مثل هذا الضرب العظيم الشأن (يضرب الله) اى الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (للناس) اى كل من فيه قوة الاضطراب والحركة (أمثالهم) اى أمثال انفسهم أو امثال الفريقين المتقدمين أو امثال جميع الاشياء التى يحتاجون الى بيان أمثالها مبينا لها مثل هذا البيان ليأخذ كل أحد من ذلك جزاء حاله فقد علم من هذا المثل أن من اتبع الباطل أضل الله تعالى عمله ووفر سيئاته وأفسد باله ومن اتبع الحق عمل به ضد ذلك كائنا من كان وهو غاية الحث على طلب العلم فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والعمل بهما * ولما بين تعالى أن الذين كفروا أضل اعمالهم وان اعتبار الانسان بالعمل ومن لا عمل له فهو همج اعدامه خير من وجوده

آمنين فى حال الدخول لا يخافون عدوكم ان يخرجكم منه فى المستقبل (قوله ليغيظ بهم الكفار) تعليل لما دل عليه تشبيههم

(١) قوله فى الحقيقة كذا فى النسخ بايدينا والصواب فى الحقية اهـ مصحح

نيب عنه قوله تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا) أيها المؤمنون فى المحاربة وقوله تعالى (فضرب الرقاب) أصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافا الى المفعول ضما الى التأكيد الاختصار والحكمة فى اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الاعضاء أن المؤمن هنا ليس بدافع انما هو رافع وذلك لان من يدفع الصائل لا ينبغى أولا أن يقصد مقتله بل يتدرج و يضرب غير المقتل فان اندفع فذاك ولا يرقى الى درجة الاهلاك فاخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود دفعهم من وجه الارض فاذا ينبغى أن يكون قصدكم أولا الى قتلهم بخلاف دفع الصائل فالرقبة اظهر المقاتل وقطع الحلقوم والاوداج مستلزم للموت لكن فى الحرب لا يتهيأ ذلك والرقبة ظاهرة فى الحرب ففى ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ولاسيما فى الحرب وفى قوله تعالى لقيتم ما ينبئ عن مخالفتهم الصائل لان قوله تعالى لقيتم يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيكم ولذلك قال تعالى فى غير هذا الموضع فاقتلوهم حيث ثقفتموهم (حتى اذا أثخنتموهم) اى أكثرتم فيهم القتل وهذه غاية الامر بضرب الرقاب لا لبيان غاية القتل (فشدوا) اى فامسكوا عن القتل وأسروهم (الوثاق) اى ما يوثق به الاسرى وقوله تعالى (فاما منا بعد) اى فى جميع أزمان ما بعد الاسر (واما فداء) فيه وجهان أشهرهما أنهما منصوبان على المصدر بفعل لا يجوز اظهاره لان المصدر متى سيق تفصيلا لعاقبة جملة وجب نصبه باضمار فعل لا يجوز اظهاره والتقدير فاما أن تمنوا منا اى باطلاقهم من غير شئ واما أن تفدوا فداء اى تفادوهم بمال او أسرى مسلمين ومثل هذا قول القائل

لاجهدن فاما درء واقعة * تخشى واما بلوغ السؤل والامل

والثانى قاله أبو البقاء انهما مفعولان بهما والعامل مقدر تقديره أولوهم منا واقبلوا منهم فداء قال أبو حيان وليس باعراب نحوى وقوله تعالى (حتى تضع الحرب أوزارها) اى أثقالها من السلاح وغيره بان يسلم الكافر أو يدخل فى العهد مجاز وقيل هو من مجاز الحذف اى أهل الحرب وهو غاية للقتل والاسر والمعنى أثخنوا المشركين بالقتل والاسر حتى تدخل الملل كلها فى الاسلام ويكون الدين كله لله فلا يكون بعده جهاد ولا قتال وذلك عند نزول عيسى عليه السلام وجاء فى الحديث الجهاد ماض منذ بعثنى الله الى أن يقاتل آخر أمتى الدجال وقال الفراء حتى لا يبقى الا مسلم أو مسالم *(تنبيه)* اختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال قوم هى منسوخة بقوله تعالى فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم و بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم واليه ذهب قتادة والضحاك والسدى وابن جريج وهو قول الاوزاعى وأصحاب الرأى وقالوا لا يجوز المن على من وقع فى الاسر من الكفار ولا الفداء وذهب آخرون الى ان الآية محكمة والامام بالخيار فى الرجال العاقلين من الكفار اذا وقعوا فى الاسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم فيطلقهم بغير عوض أو يفاديهم بالمال أو باسارى المسلمين واليه ذهب ابن عمر وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء وهو قول الثورى والشافعى وأحمد واسحق قال ابن عباس رضى الله عنهما لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى

بالورع من غلهم وقوتهم كانه قيل انما قواهم و كثرهم ليغيظ بهم الكفار (قوله وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) أى

في الاسارى فاما منا بعد واما فداء وهذا هو الاصح والاختيار لانه عمل به صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن اثال فربطوه في سارية من سوارى المسجد فخرج اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما عندك يا ثمامة فقال عندي خير يا محمد ان تقتلني تقتل ذا دم وان تنعم تنعم على شاكر وان كنت تريد المال فسل ما شئت حتى كان الغد فقال له صلى الله عليه وسلم ما عندك يا ثمامة قال عندي ما قلت لك ان تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى اذا كان بعد الغد قال ما عندك يا ثمامة قال عندي ما قلت لك قال أطلقوا ثمامة فانطلق الى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله والله ما كان على وجه الارض وجه أبغض الي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه الي والله ما كان من دين أبغض الي من دينك فأصبح دينك أحب الدين الي والله ما كان من بلد أبغض الي من بلدك فقد أصبح بلدك أحب البلاد الي وان خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل صبوت قال لا ولكن أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم وعن عمران بن حصين قال أسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من عقيل فأوثقوه وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ففداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف وقوله تعالى (ذلك) يجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر اي الامر ذلك وان ينتصب باضمار افعلوا قال الرازي ويحتمل ان يقال ذلك واجب او مقدم كما يقول القائل ان فعلت فذاك اي فذاك مقصود ومطلوب قال المفسر ون ومعناه ذلك الذي ذكرت وبينت من حكم الكفار (ولو يشاء الله) اي الملك الاعظم الذي له جميع الكمال (لانتصر منهم) اي بنفسه من غير أحد انتصارا عظيما فيهلكهم بان لا يبقى منهم أحدا وكفاكم أمرهم بغير قتال (ولكن) أمركم بذلك (ليبلو) اي يختبر (بعضكم ببعض) اي يفعل في ذلك فعل المختبر ليرتب عليه الجزاء فيصير من قتل من المؤمنين الى الجنة ومن قتل من الكافرين الى النار (فان قيل) فما فائدة الابتلاء مع حصول العلم عند المبتلي فاذا كان الله تعالى عالما بجميع الاشياء فاي فائدة فيه (أجيب) بان هذا السؤال كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مستغن ولم خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر وجوابه لا يسئل عما يفعل ونزل يوم أحد لما فشا في المسلمين القتل والجراحات (والذين قتلوا في سبيل الله) أي لاجل تسهيل طريق الملك الاعظم المتصف بجميع صفات الكمال (فلن يضل) اي لا يضيع ولا يبطل (أعمالهم) وقرأ ابو عمرو وحفص بضم القاف وكسر التاء مبنيا للمفعول على معنى انه أصاب القتل بعضهم كقوله تعالى قاتل معه ربيون والباقون بفتح القاف والتاء والف بينهما اي جاهدوا (سيهديهم) اي ايام حياتهم في الدنيا الى ارشد الامور وفي الآخرة الى الدرجات بوعد لا خلف فيه (ويصلح بالهم) اي يرضي خصماءهم ويقبل اعمالهم (ويدخلهم الجنة) اي الكاملة في النعيم (عرفها) اي اعلمها وبينها (لهم) اي بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة قال مجاهد يهتدي اهل الجنة الى مساكنهم منها لا يخطئون كانهم كانوا سكانها من منذ خلقوا يستدلون عليها وعن مقاتل

من الذين مع محمد صلى الله عليه وسلم وهم الصحابة مغفرة وأجرا عظيما فان هنا لبيان الجنس كما في قوله تعالى فاجتنبوا الرجس

ان الملك الذى وكل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شئ أعطاه الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما عرفها لهم طيبها مشتق من العرف وهو الريح الطيبة يقال طعام معرف أى مطيب (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا وابذلك (ان تنصروا الله) أى دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم (ينصركم) أى على عدوكم فانه الناصر لا غيره من عدد أو عدد (ويثبت أقدامكم) أى فى القيام بحقوق الاسلام والمجاهدة مع الكفار ولما بين تعالى ما لاهل الايمان بين ما لاهل الكفران بقوله تعالى (والذين كفروا) وهو مبتدأ أى ستروا ما دل عليه العقل وقادت اليه الفطرة الاولى وخبره تعسوا يدل عليه قوله تعالى (فتعسا لهم) أى هلاكا لهم وخيبة من الله تعالى وقال ابن عباس أى بعدا لهم وقيل التعس الجر على الوجه والنكس الجر على الرأس وقوله تعالى (وأضل أعمالهم) عطف على تعسوا أى ابطلها وان كانت ظاهرة الاتقان لاجل تضييع الاساس وهو الايمان وقوله تعالى (ذلك) يجوز أن يكون مبتدأ والخبر الجار بعده أو خبر مبتدا مضمر أى الامر ذلك (بانهم) أى بسبب انهم (كرهوا ما أنزل الله) أى الملك الاعظم الذى لا نعمة الا منه من القرآن وما أنزل الله تعالى فيه من التكاليف والاحكام لانهم قد ألفوا الاهمال واطلاق العنان فى الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم والذى أنزله من القرآن وغيره هو روح الوجود الذى لا بقاء بدونه فلما كرهوا الروح الاعظم بطلت أرواحهم فتبعتها أشباحهم وهو معنى قوله تعالى مسببا بيانا لمعنى اضلال أعمالهم (فأحبط) أى أبطل ابطالا لا صلاح معه (أعمالهم) بسبب أنهم أفسدوها بنياتهم فصارت وان كانت صورها صالحة ليس لها أرواح لكونها واقعة على غير ما أمر به الله الذى لا أمر الا له ولا يقبل من العمل الا ما حده ورسمه ثم خوف الكفار بقوله تعالى (أفلم يسيروا فى الارض) أى التى فيها آثار الوقائع (فينظروا كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (الذين من قبلهم دمر الله) اى أوقع الملك الاعظم الهلاك (عليهم) بأعم أهاليهم وأموالهم وكل من رضى أفعالهم أو مقالهم وعدل عن ان يقول ولهؤلاء الى قوله تعالى (وللكافرين) تعميما وتعليقا للحكم بالوصف وهو العراقة فى الكفر (أمثالها) اى امثال عاقبة من قبلهم (ذلك) اى الامر العظيم وهو نصر المؤمنين وقهر الكافرين (بأن الله) اى بسبب ان الملك الاعظم المحيط بصفات الكمال (مولى) اى ولى وناصر (الذين آمنوا) فهو يفعل معهم بماله من الجلال والجمال ما يفعل القريب بقريبه الحبيب له قال القشيرى ويصح ان يقال أرجى آية فى القرآن هذه الآية لان الله تعالى لم يقل انه هادى العباد وأصحاب الاوراد والاجتهاد بل علق ذلك بالايمان (وان الكافرين) أى العريقين فى هذا الوصف (لا مولى لهم) فيدفع العذاب عنهم وهذا لا يخالف قوله تعالى وردوا الى الله مولاهم الحق فان المولى فيه بمعنى المالك ثم ذكر سبحانه وتعالى ما للفريقين بقوله تعالى (ان الله) أى الذى له جميع الصفات (يدخل الذين آمنوا) أى أوقعوا التصديق (وعملوا) تصديقا لما ادعوا أنهم أوقعوه (الصالحات) أى الطاعات (جنات) أى بساتين عظيمة الشأن موصوفة بأنها (تجرى من تحتها) أى من تحت قصورها (الانهار) فهى دائمة النمو والبهجة والنضارة والثمرة (والذين كفروا يتمتعون) اى فى الدنيا بالملاذ كما تتمتع الانعام ناسين ما أمر الله تعالى به معرضين عن كتابه (ويأكلون) على سبيل الاستمرار (كما تأكل

من الاوثان لا للتبعيض لان الصحابة كلهم موصوفون بالايمان والعمل الصالح

(سورة الحجرات)

الانعام) اى أكل التذاذ ومرح من اى موضع كان وكيف الاكل من غير تمييز الحرام من غيره اذ ليس لهم همة الا بطونهم وفروجهم لا يلتفتون الى الآخرة لان الله تعالى أعطاهم الدنيا ووسع عليهم فيها وفرغهم لها حتى شغلتهم عنه هوانا بهم وبغضا لهم فيدخلهم نارا وقودها الناس والحجارة كما قال تعالى (والنار مثوى لهم) اى منزل ومقام ومصير ولما ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله تعالى أفلم يسيروا فى الأرض ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب للنبى صلى الله عليه وسلم مثلا تسلية له فقال تعالى (وكأين) اى وكم (من قرية) أريد أهلها اى كذبت رسولها (هى أشد قوة) وأكثر عددا (من قريتك) مكة اى أهلها وقوله تعالى (التى أخرجتك) روعى فيه لفظ قرية وقوله تعالى (أهلكناهم) اى بانواع العذاب روعى فيه معنى قرية الاولى (فلا ناصر لهم) يدفع عنهم الهلاك كذلك نفعل بهم فاصبر كما صبر رسلهم قال ابن عباس لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الغار التفت الى مكة وقال أنت أحب أرض الله الى الله وأحب بلاد الله الىّ ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك فانزل الله تعالى هذه (أفمن كان) اى فى جميع أحواله (على بينة) اى حجة ظاهرة البيان فى أنها حق (من ربه) اى المربى والمدبر له المحسن اليه وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون (كمن زين له) بتزيين الشيطان بتسليط الله عليه (سوء عمله) فرآه حسنا وهم أبو جهل والكفار (واتبعوا أهواءهم) فى ذلك ولا شبهة لهم فى شئ من أعمالهم السيئة فضلا عن دليل * ولما تكرر ذكر الجنة فى هذه السورة بين صفتها بقوله تعالى (مثل) اى صفة (الجنة) اى البساتين العظيمة التى تستر داخلها من كثرة أشجارها (التى وعد المتقون) اى الذين حملتهم تقواهم على الوقوف عن فعل لم يدل عليه دليل على أن استمعوا منك فانتفعوا بما دللتهم عليه من أمور الدين * (تنبيه) * اختلف فى اعراب هذه الآية على أوجه أحدها أن مثل مبتدأ وخبره مقدر وقدره النضر بن شميل مثل الجنة ما تسمعون فما تسمعون خبره وفيها أنهار مفسر له وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة والجملة بعدها أيضا مفسرة للمثل ثانيها أن مثل زائدة تقديره الجنة التى وعد المتقون (فيها أنهار) ونظير زيادة مثل هنا زيادة اسم فى قول القائل * الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ثالثها ان مثل الجنة مبتدأ والخبر قوله تعالى كمن هو خالد فى النار فقدره ابن عطية أمثل أهل الجنة كمن هو خالد فقدر حرف الانكار ومضافا ليصح وقدره الزمخشرى أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد والجملة من قوله تعالى فيها أنهار حال من الجنة اى مستقرة فيها أنهار (من ماء) ولما كان ماء الدنيا يختلف الطعوم مع اتحاد الارض ببساطها وشدة اتصالها الدلالة على أن الفاعل لذلك قادر مختار وقد يكون آسنا اى متغيرا عن الماء الذى يشرب بريح منتنة من أصل خلقته أو من عارض عرض له من منبعه أو مجراه قال تعالى (غير آسن) اى ثابت له فى وقت ما شئ من الطعم أو اللون أو الريح بوجه من الوجوه وان طالت اقامته وان أضيف اليه غيره فانه لا يقبل التغير بوجه بخلاف ماء الدنيا فيتغير لما مرّ وقرأ ابن كثير بقصر الهمزة والباقون بمدها وهما لغتان (وأنهار من لبن) ولما كان التغير غير محمود قال تعالى (لم يتغير طعمه) اى بنفسه عن أصل خلقته وان أقام مدى الدهر بخلاف لبن الدنيا لخروجه من الضرع وهذا يفهم أنهم لو أرادوا

(قوله يا أيها الذين آمنوا) ذكر فى السورة خمس مرات والمخاطبون فيها المؤمنون والمخاطب به أمر أو نهى وذكر فيها يا أيها الناس

تغييره اشهورة اشتهوها تغيروانه مع طيبه على أنواع كثيرة كما كان فى الدنيا متنوعا (وأنهار من خمر) ولما كان الخمر يكره طعمها وانما يشربها شاربوها الاثرها وانه متى تغير طعمها زال اسمها عرف ان كل ما فى خمر الجنة فى غاية الحسن غير متغير الطعم فقال تعالى (لذة) اى لذيذة (للشاربين) فى طيب الطعم وحسن العاقبة بخلاف خمر الدنيا فانها كريهة عند الشرب (وأنهار من عسل) ولما كان عسل الدنيا الا يوجد الا مخلوطا بالخمر وجه من بطون النحل بالشمع وغيره من القذى قال تعالى (مصفى) اى موصاف صفاء ما اجتهد فى تصفيته من ذلك وهذا الوصف ثابت له دائما لا انه كالذى له فى وقت ما * (تنبيه) * قال أبو حيان فى حكمة ترتيب هذه الانهار انه بدأ بالماء الذى لا تستغنى عنه المشروبات ثم باللبن اذ كان يجرى مجرى المطعومات فى كثير من أوقات العرب ثم بالخمر لانه اذا حصل الرى والمطعم تشوقت النفس الى ما تلتذ به ثم بالعسل لان فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المطعوم والمشروب اه (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى الخمر لذة للشاربين ولم يقل فى اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال فى العسل مصفى للناظرين (أجاب) الرازى بان اللذة تختلف باختلاف الاشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر فقال لذة للشاربين باسرهم ولان الخمر كريهة الطعم فى الدنيا فقال لذة اى لا يكون فى خمر الآخرة كراهة الطعم وأما الطعم واللون فلا يختلف باختلاف الناس فان الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد لكن قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعما واحدا وكذلك اللبن فلم يكن للتصريح بالتعميم حاجة *(فائدة)* روى عن كعب الاحبار أنه قال نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ونهر الفرات نهر لبنهم ونهر مصر نهر خمرهم ونهر سيحان وجيحان نهر عسلهم وهذه الانهار الاربعة تخرج من نهر الكوثر وقال ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ان كعب الاحبار سئل هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله عز وجل خبرا فقال اى والذى فلق البحر لموسى انى لاجده فى كتاب الله تعالى ان الله عز وجل يوحى اليه فى كل عام مرتين يوحى اليه عند جريه ان الله يامرك أن تجرى فيجرى ما كتب الله تعالى له ثم يوحى اليه بعد ذلك يا نيل غر حميدا وعن كعب أيضا أنه قال أربعة أنهار من الجنة وضعها الله تعالى فى الدنيا فالنيل نهر العسل فى الجنة والفرات نهر الخمر فى الجنة وسيحان نهر الماء فى الجنة وجيحان نهر اللبن فى الجنة وعنه أيضا أنه قال النيل فى الآخرة يكون عسلا أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل ودجلة فى الآخرة لبنا أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل والفرات خمرا أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل وجيحان ماء أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل وأصل هذا كله ما فى الصحيح فى وصف الجنة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة ولما كانت الثمار ألذ ما يستطاب بعد منافع الشراب قال تعالى (ولهم فيها) وقوله تعالى (من كل الثمرات) فيه وجهان أحدهما ان هذا الجار صفة لمقدر ذلك المقدر مبتدأ وخبره الجار قبله وهو لهم وفيها متعلق بما تعلق به والتقدير ولهم فيها زوجان من كل الثمرات كانه انتزعه من قوله تعالى فيهما من كل فاكهة زوجان وقدره بعضهم صنف والاول كما قال ابن عادل أليق ثانيهما أن من مزيدة فى المبتدا (ومغفرة من

حرة والمخاطبون فيها
هم المؤمنين والكافرين
كان المخاطب به وهو قوله
انا خلقناكم من ذكر
وأنثى يعمهما فناسب فيها

ربهم) فهو راض عنهم مع احسانه اليهم بما ذكر بخلاف سيد العبيد في الدنيا فانه قد يكون مع احسانه اليهم ساخطا عليهم وقوله تعالى (كمن هو خالد في النار) خبر مبتدأ مقدر اي أمن هو في هذا النعيم كمن هو مقيم اقامة لا انقطاع معها في النار التي لا ينطفئ لهيبها ولا ينفك أسيرها وحده لان الخلود يعم من فيها على حد سواء (وسقوا) اي عوض ما ذكر من شراب أهل الجنة (ماء حميما) هو في غاية الحرارة (فقطع امعاءهم) اي مصارينهم فخرجت من أدبارهم وهو جمع معى بالقصر وألفه عن ياء لقولهم معيان (ومنهم من يستمع اليك) اي في خطب الجمعة وهم المنافقون والضمير في قوله تعالى ومنهم يحتمل أن يعود الى الناس كما قال تعالى في سورة البقرة ومن الناس من يقول آمنا بالله بعد ذكر الكفار ويحتمل أن يعود الى أهل مكة لان ذكرهم سبق في قوله تعالى هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ويحتمل أن يرجع الى معنى قوله تعالى هو خالد في النار وسقوا ماء حميما اي ومن الخالدين في النار قوم يستمعون اليك (حتى اذا) اي واستمر جهلهم لانفسهم في الاصغاء حتى اذا (خرجوا) اي المستمعون والسامعون (من عندك قالوا) اي الفريقان تعاميا واستهزاء (للذين أوتوا العلم) بسبب تهيئة الله تعالى لهم من صفاء الافهام بتجردهم عن النفوس والحظوظ وانقيادهم لما تدعو اليه الفطرة الاولى منهم ابن مسعود وابن عباس (ماذا قال) اي النبي صلى الله عليه وسلم (آنفا) اي قبل افتراقنا وخروجنا عنه روى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين فاذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء ماذا قال محمد آنفا اي الساعة اي لا نرجع اليه وقرأ البزي بقصر الهمزة بخلاف عنه والباقون بالمد وهما لغتان بمعنى واحد وهما اسما فاعل كحاذر وحذر (أولئك) اي البعداء من كل خير (الذين طبع الله) اي الملك الاعظم (على قلوبهم) اي بالكفر فلم يفهموا فهم انتفاع لان مثل هذا الجحود لا يكون الا بذلك (واتبعوا) اي بغاية جهدهم (أهواءهم) اي في الكفر والنفاق فلذلك هم يتهاونون باعظم الكلام ويقبلون على جمع الحطام فهم أهل النار المشار اليهم قبل آية مثل الجنة بانهم زين لهم سوء عملهم ثم ذكر تعالى اضداد هؤلاء بقوله سبحانه (والذين اهتدوا) اي اجتهدوا باستماعهم منك في الايمان والتسليم والاذعان بانواع المجاهدات وهم المؤمنون (زادهم) اي الله الذي طبع على قلوب الكفرة (هدى) بان شرح صدورهم ونورها بانوار المشاهدات فصارت أوعية للحكمة (وآتاهم تقواهم) اي ألهمهم ما يتقون به النار قال ابن برجان التقوى عمل الايمان كما أن اعمال الجوارح عمل الاسلام (فهل) اي ما (ينظرون) اي ينتظرون وجودها اشارة الى شدة قربها (الا الساعة) وقوله تعالى (أن تأتيهم) اي الكافرين بدل اشتمال من الساعة اي ليس الامر الا أن تأتيهم (بغتة) اي فجأة من غير شعور بها ولا استعداد لها وقوله تعالى (فقد جاء اشراطها) جمع شرط بسكون الراء وفتحها قال أبو الاسود

فان كنت قد أزمعت بالصرم بيننا * فقد جعلت اشراط أوله تبدو

والاشراط العلامات ومنه اشراط الساعة وأشرط الرجل نفسه اي ألزمها أمورا قال أوس

ذكر الناس (قوله لا تقدموا) من قدم بمعنى تقدم لان المراد به نهيهم عن أن يتقدموا على النبي صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل

فأشرط فيها نفسه وهو معصم ۞ فألقى بأسباب له وتوكلا

والشرط القطع أيضا مصدر شرط الجلد يشرطه شرطا قال السهيلي عن ابن سعد عن أنس قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قال باصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الابهام بعثت والساعة كهاتين وعن أنس قال لاحدثنكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من اشراط الساعة أن يرفع العلم و يكثر الجهل و يكثر الزنا و يشرب الخمر وتقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد وعن أبي هريرة قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم اذ جاءه أعرابي فقال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة فقيل كيف اضاعتها قال اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظر الساعة ومن اشراطها انشقاق القمر المؤذن بآية الشمس في طلوعها من مغربها او غير ذلك وما بعد مقدمات الشئ الا حضوره (فأنى) اى فكيف وأين (لهم) اى التذكر والاتعاظ والتوبة (اذا جاءتهم ذكراهم) اى الساعة لا تنفعهم نظيره قوله تعالى يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى ولما علم بذلك أن الذكرى غير نافعة اذا انقضت هذه الدار وقد جعلت للعمل أو جاءت الاشراط المحققة الكاشفة لها سبب عنه أمر أعظم الخلق تكوينا ليكون لغيره تكليفا فقال (فاعلم أنه) اى الشأن العظيم (لا اله) اى لا معبود بحق (الا الله) اى اذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية فانه النافع يوم القيامة وقيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقال الحسين بن الفضل فازدد علما الى علمك وقال أبو العالية وابن عيينة معناه اذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا ملجأ ولا مفزع عند قيامها الا الى الله (واستغفر لذنبك) اى لاجله أمر بذلك مع عصمته لتستن به أمته وقد فعله قال صلى الله عليه وسلم اني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة وقيل معنى قوله لذنبك اى لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات الذين ليسوا من أهل بيتك وقيل المراد النبي والذنب هو ترك الافضل الذي هو بالنسبة اليه ذنب وحسنات لنا دون ذلك قال صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله في كل يوم مائة مرة وقيل هو كل مقام عال ارتفع منه الى أعلى منه وقوله تعالى (وللمؤمنين والمؤمنات) فيها اكرام من الله تعالى لهذه الامة حيث أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لذنوبهم (والله) المحيط بجميع صفات الكمال (يعلم متقلبكم) اى تصرفكم لاشغالكم بالنهار ومكانه و زمانه (ومثواكم) اى مأواكم الى مضاجعكم بالليل اى هو عالم بجميع أحوالكم لا يخفى عليه شئ منها فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم وقيل يعلم متقلبكم في أعمالكم ومثواكم في الجنة والنار ومثله حقيق بان يخشى ويتقى وأن يستغفر و يسترحم وعن سفيان ابن عيينة انه سئل عن فضل العلم فقال ألم تسمع قوله تعالى حين بدأ به فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك فأمر بالعمل بعد العلم وقال اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو الآية (و يقول الذين آمنوا) طلبا للجهاد (لولا) اى هلا ولا التفات الى قول بعضهم ان لا زائدة والاصل لو (نزلت سورة) أي سورة كانت

(قوله ولا تجهروا له بالقول) لا عن ان يقدموا او غيرهم فائدة ذكره بعد قوله لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي النهي عن الجهر ف

نسر بسماعها ونعبد بتلاوتها ونعمل بما فيها (فاذا أنزلت سورة) اى قطعة من القرآن تكامل نزولها كلها تدريجا أو جملة وزادت على مطلوبهم فى الحسن بانها (محكمة) اى مبينة لا يلتبس شئ منها بنوع اجمال ولا ينسخ لكونه جامعة للمحاسن فى كل زمان ومكان وقال قتادة كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة وهى أشد القرآن على المنافقين (وذكر فيها القتال) اى الامر به (رأيت الذين فى قلوبهم مرض) اى شك وهم المنافقون (ينظرون اليك) شزرا بتحديق شديد كراهية منهم للجهاد وجبنا منهم عن لقاء العدو (نظر المغشى) والاصل نظرا مثل نظر المغشى (عليه من الموت) الذى هو نهاية الغشى فهو لا يطرف بعينه بل شاخص لا يطرف كراهية القتال من الجبن والخوف والمعنى أن المؤمن كان ينتظر نزول الاحكام والتكاليف ويطلب تنزيلها واذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا أمرت بشئ من العبادة خوفا من أن لا يؤهل لها وأما المنافق فاذا أنزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ذلك فحصل التباين بين الفريقين فى العلم والعمل وقوله تعالى (فأولى لهم) وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولى وهو القرب ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه وقوله تعالى (طاعة وقول معروف) مستأنف اى طاعة ومعروف خير لهم وأمثل أى لو أطاعوا وقالوا قولا معروفا لكان أمثل وأحسن وساغ الابتداء بالنكرة لانها وصفت بدليل قوله تعالى وقول معروف فانه موصوف فكأنه تعالى قال طاعة مخلصة وقول معروف خير وقيل يقول المنافقون قبل نزول السورة المحكمة طاعة رفع على الحكاية اى أمرنا طاعة أو منا طاعة وقول معروف حسن وقيل متصل بما قبله واللام فى قوله تعالى لهم بمعنى الباء أى فأولى بهم طاعة الله ورسوله وقول معروف بالاجابة أولى بهم وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء ثم سبب عنهما قوله تعالى مسندا الى الامر ما هو لاهله تأكيدا لمضمون الكلام (فاذا عزم الامر) اى فاذا أمر بالقتال الذى ذكر فى أول السورة وغيره من الاوامر أمرا مجزوما به مقروحا عليه (فلو صدقوا الله) اى الملك الاعظم فى قولهم الذى قالوه فى طلب التنزيل (لكان) اى صدقهم له (خيرا لهم) اى من تعللهم وجملة لو جواب اذا نحو اذا جاءنى طعام فلو جئتنى لأطعمتك وقيل محذوف تقديره فاصدق كذا قدره أبو البقاء وعزم الامر على سبيل المجاز كقوله * قد جدت الحرب فجدوا * أو يكون على حذف مضاف أى عزم أهل الامر وقوله تعالى (فهل عسيتم) فيه التفات عن الغيبة الى الخطاب لعلكم (ان توليتم) اى أعرضتم عن الايمان والجهاد (أن تفسدوا) اى توقعوا الافساد العظيم الذى يستمر تجدده (فى الارض) بالمعصية والبغى وسفك الدماء الذى يسخط الله تعالى ويغضبه أشد غضب على فاعله وتكونوا فى غاية الجراءة عليه وترجعوا الى الفرقة بعدما جمعكم الله بالاسلام وقرأ نافع بكسر السين والباقون بفتحها (وتقطعوا) اى تقطيعا كثيرا (أرحامكم) اى تعودوا الى أمر الجاهلية فى الاغارة من بعض على بعض وغير ذلك قال قتادة كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الارحام وعصوا الرحمن وقال بعضهم هو من الولاية قال الفراء يقول فهل عسيتم ان توليتم أمر الناس أن تفسدوا فى الارض بالظلم

مخاطبته وان اريد من
رفع أصواتهم على صوته
وقيل المراد به النهى عن
مخاطبته صلى الله عليه
وسلم باسمه (قوله ان تحبط

نزلت فى بنى أمية و بنى هاشم (أولئك) اى المفسدون (الذين لعنهم الله) اى طردهم أشد الطرد المالك الاعظم لماذكر من افسادهم وتقطيعهم ثم سبب عن لعنهم قوله تعالى (فأصمهم) اى عن الانتفاع بما سمعوه (وأعمى أبصارهم) اى عن الانتفاع بما يبصرون فليس سماعهم سماع ادراك ولا ابصارهم ابصار اعتبار فلا سماع ولا ابصار (أفلا يتدبرون) بقلوب منفتحة منشرحة ليهتدوا الى كل خير (القرآن) اى يجهدوا أنفسهم فى أن يتفكروا فى الكتاب الجامع لكل خير الفارق بين الحق والباطل حتى لا يجسروا على المعاصى (فان قيل) قال تعالى فأصمهم وأعمى أبصارهم فكيف يمكنهم التدبر فى القرآن وهو كقول القائل للاعمى أبصر وللاصم اسمع (أجيب) بثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من بعض الاول تكليف مالا يطاق جائز والله تعالى أمر من علم منه أنه لا يؤمن بأن يؤمن فلذلك جاز أن يصمهم و يعميهم ويذمهم على ترك التدبر الثانى أن قوله أفلا يتدبرون القرآن المراد منه الناس الثالث أن يقال ان هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة كانه تعالى قال أولئك الذين لعنهم الله اى أبعدهم عنه أو عن الصدق أو الخير أو غير ذلك من الامور الحسنة فاصمهم لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يبصرون طريقة الاسلام فاذاهم بين أمرين اما لا يتدبرون القرآن فيبعدون عنه لان الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق والقرآن منه ماهو الصنف الاعلى بل النوع الاشرف واما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مقفلة تقديره أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعدين (أم) اى بل (على قلوب) اى من قلوب الفاعلين لذلك (أقفالها) فلا تعى شيأ ولا تفهم أمرا ولا تزداد الا غباوة وعنادا لانها لا تقدر على التدبر قال القشيرى فلا يدخلها زواجر التنبيه ولا ينبسط عليها شعاع العلم فلا يحصل لهم فهم الخطاب والباب اذا كان مغلقا فكما لا يدخل فيه شئ لا يخرج مافيه فلا كفرهم يخرج ولا الايمان الذى يدعون اليه يدخل اه (فان قيل) ما الفائدة فى تنكير القلوب (أجاب) الزمخشرى بقوله يحتمل وجهين أحدهما أن يكون للتنبيه على كونه موصوفا لان النكرة بالوصف أولى من المعرفة كانه قال أم على قلوب قاسية أو مظلمة الثانى أن تكون للتبعيض كانه قال أم على بعض القلوب لان النكرة لا تعم تقول جاءنى رجال فيفهم البعض وجاءنى الرجال فيفهم الكل والتنكير فى القلوب للتنبيه على الانكار الذى فى القلوب وذلك لان القلب اذا كان عارفا كان معروفا لان القلب خلق للمعرفة فاذا لم تكن فيه المعرفة فكانه لا يعرف قلبا فلا يكون قلبا يعرف كما يقال للانسان المؤذى هذا ليس بانسان فكذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر واذا علم هذا فالتعريف اما بالالف واللام واما بالاضافة بان يقال على قلوبهم أقفالها وهى لعدم عود فائدة اليهم كانها ليست لهم (فان قيل) قد قال تعالى ختم الله على قلوبهم وقال تعالى فويل للقاسية قلوبهم (أجيب) بان الاقفال أبلغ من الختم فترك الاضافة لعدم انتفاعهم رأسا (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى أقفالها بالاضافة ولم يقل أقفال كما قال قلوب (أجيب) بان الاقفال كانها ليست الا لها ولم يضف القلوب اليهم لعدم نفعها اياهم وأضاف الاقفال اليها لكونها مناسبة لها أو يقال

اعمالكم) اى مخافة حبوطها (ان قلت) كيف قال ذلك مع ان الاعمال انما تحبط بالكفر ورفع الصوت على صوت النبى

اراد

أراد به اقفالا مخصوصة هى اقفال الكفر والعناد ولما أخبر تعالى باقفال قلوبهم بين منشأ ذلك فقال تعالى (ان الذين ارتدوا) اى من أهل الكتاب وغيرهم (على أدبارهم) اى رجعوا كفارا (من بعد ما تبين) اى غاية البيان (لهم الهدى) اى بالدلائل التى هى من شدة ظهورها غنية عن بيان مبين (الشيطان سول لهم) اى زين وسهل لهم اقتراف الكبائر (وأملى) اى ومد الشيطان (لهم) فى الآمال والامانى بارادته تعالى فهو المضل لهم وقرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء والباقون بفتح الهمزة واللام وسكون الالف المنقلبة وأمالها حمزة والكسائى محضة وقرأ ورش بالفتح و بين اللفظين والباقون بالفتح قال فى الكشاف فان قلت من هؤلاء قلت اليهود كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى وهو نعته فى التوراة وقيل هم المنافقون (ذلك) اى اضلالهم (بانهم) اى بسبب انهم (قالوا) اى المنافقون (للذين كرهوا) اى وهم المشركون (ما) اى جميع ما (نزل الله) اى الملك الاعظم على التدريج بحسب الوقائع تنزيلا فى اعجاز الخلق فى بلاغة التركيب مع فصاحة المفردات وجزالة المعانى السهولة فى النطق والعذوبة فى السمع والملاءمة للطبع (سنطيعكم فى بعض الامر) اى أمر المعاونة على عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيط الناس عن الجهاد معه قالوا ذلك سرا فاظهره الله تعالى (والله) اى قالوا ذلك والحال ان الملك الاعظم المحيط بكل شئ علما وقدرة (يعلم) اى على مر الاوقات (اسرارهم) اى كلها هذا الذى أفشاه عليهم وغيره مما فى ضمائرهم مما لم يبرز على ألسنتهم ولعلهم لم يعلموه فضلا عن أقوالهم التى تحدثت بها أنفسهم فبان بذلك انه لا أديان لهم ولا عقول ولا مروآت وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر الهمزة مصدرا والباقون بفتحها جمع سر (فكيف) أى حالهم (اذا توفتهم الملائكة) أى قبضت رسلنا وهم ملك الموت وأعوانه أرواحهم كاملة وقوله تعالى (يضربون وجوههم وأدبارهم) تصوير لتوفيهم بما يخافون منه ويجبنون عن القتال له وعن ابن عباس لا يتوفى أحد على معصية الا يضرب من الملائكة فى وجهه ودبره وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى التوفى الموصوف (بانهم) اى بسبب انهم (اتبعوا) اى عالجوا فطرتهم الاولى فى ان اتبعوا (ما أسخط الله) اى الملك الاعظم وهو الكفر وكتمان نعت الرسول صلى الله عليه وسلم وعصيان الامر (وكرهوا) بالاشراك (رضوانه) بكراهتهم أعظم أسباب رضاه وهو الايمان فهم لما دونه بالقعود عن الطاعات أكره لان ذلك ظاهر غاية الظهور فى أن فاعله غير معذور فى ترك النظر فيه (فاحبط) اى فلذلك تسبب عنه انه أفسد (أعمالهم) اى الصالحة فاسقطها بحيث لم يبق لها وزن أصلا لتضييع الاساس من مكارم الاخلاق من القرى والاخذ بيد الضعيف والتصدق والاعتاق وغير ذلك من وجوه الارفاق (أم حسب الذين) وكان الاصل أم حسبوا الضعف عقولهم كما أفهمه التعبير بالحسبان ولكنه عبر تعالى بما دل على الآفة التى أدتهم الى ذلك بقوله تعالى (فى قلوبهم) اى التى اذا فسدت فسد جميع أجسادهم (مرض) اى آفة لا طب لها حسبانا هو فى غاية الثبات كما دل عليه التأكيد فى قوله تعالى

صلى الله عليه وسلم ليس
(قلت) المراد به
بكفر
الاستخفاف بالنبى صلى
الله عليه وسلم لانه ربما
يؤدى الى الكفر وقيل

(أن لن يخرج الله) اى يبرز من هو محيط بصفات الكمال للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التجديد والاستمرار وقوله تعالى (أضغانهم) جمع ضغن وهى الاحقاد اى احقادهم على المؤمنين فيبديها حتى تعرفوا نفاقهم وكانت صدورهم تغلى حنقا عليهم (ولو نشاء لاريناكهم) من رؤية البصر وجاء على الافصح من اتصال الضميرين ولو جاء على اريناك اياهم جاز وقال الرازى الاراءة هنا بمعنى التعريف وقوله تعالى (فلعرفتهم) عطف على جواب لو (بسيماهم) اى بسبب علاماتهم التى نجعلها غالبة عليهم عالية اهم فى اظهار ضمائرهم غلبة لا يقدرون على مدافعتها بوجه ولم يذكرهم سبحانه باسمائهم ابقاء على قراباتهم المخلصين من الذين وقوله تعالى (ولتعرفنهم) جواب قسم محذوف (فى لحن القول) اى الصادر منهم ولحنه فحواه اى معناه وما يدل عليه ويلوح عليه من ميله عن حقائقه الى عواقبه وما يؤول اليه أمره مما يخفى على غيرك قال أنس ما خفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية شىء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم وعن ابن عباس لحن القول هو قولهم ما لنا ان أطعنا من الثواب ولا يقولون ما علينا ان عصينا وقيل اللحن ان تلحن بكلامك اى تميله الى نحو من الانحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية قال

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ※ واللحن يعرفه ذوو الالباب

وقيل للمخطئ لاحن لانه يعدل بالكلام عن الصواب وقال أبو حيان كانوا اصطلحوا على ألفاظ يخاطبون بها الرسول صلى الله عليه وسلم مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح (والله) اى عالم من الكمال (يعلم أعمالكم) كلها الفعلية والقولية جليها وخفيها علما ثابتا غيبيا وعلما راسخا شهوديا يتجدد بحسب تجددها مستمرا باستمرار ذلك (ولنبلونكم) اى نعاملكم معاملة المبتلى بان نخالطكم بما لنا من العظمة بالاوامر الشديدة على النفوس والنواهى الكريهة اليها (حتى نعلم) اى بالابتلاء علما شهوديا يشهده غيرنا مطابقا لما كنا نعلمه علما غيبيا فنستخرج من سرائركم ما جبلناكم عليه مما لا يعلمه أحد منكم بل ولا تعلمونه حق علمه (المجاهدين منكم) فى القتال وفى سائر الاعمال والشدائد والاهوال امتثالا للامر بذلك (والصابرين) اى على شدائد الجهاد وغيره من الانكاد قال القشيرى فبالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال فيظهر المخلص ويفتضح المماذق وينكشف المنافق اه وعن الفضيل انه كان اذا قرأ هذه الآية بكى وقال اللهم لا تبلنا فانك ان بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا (ونبلو أخباركم) اى نخالطها بان نسلط عليها من يعرفها فيجعل حسنها قبيحا وقبيحها حسنا ليظهر للناس العامل لله والعامل للشيطان فان العامل لله اذا سمى قبيحه باسم الحسن علم ان ذلك احسان من الله تعالى اليه فيستحيى منه ويرجع واذا سمى حسنه باسم القبيح وأشهر به علم ان ذلك لطف من الله تعالى به لكى لا يدركه العجب أو يهاجمه الرياء فيزيد فى احسانه والعامل للشيطان يزداد فى القبائح لان شهرته عند الناس محط نظره ويرجع عن الحسن لانه لم يوصله الى ما أراده من ثناء الناس عليه بالخير (ان الذين كفروا) اى غطوا ما دلتهم عليه عقولهم من ظاهر آيات الله لا سيما بعد ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم المؤيد بواضح المعجزات

حبوط العمل هنا مجاز عن نقصان المنزلة وانحطاط الرتبة (قوله وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) * ان قلت

(وصدوا) اى امتنعوا ومنعوا غيرهم زيادة فى كفرهم (عن سبيل الله) اى الطريق الواضح الذى نهجه الملك الاعظم (وشاقوا الرسول) اى الكامل فى الرسالة المعروف غاية المعرفة (من بعد ما تبين) اى غاية البيان بالمعجز (لهم الهدى) بحيث صار ظاهرا بنفسه غير محتاج ما أظهره الرسول من الآيات الظاهرة وهم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر (لن يضروا الله) اى الملك الاعلى (شيأ) بما هم عليه من الكفر والصد أو لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته (وسيحبط) أى يفسد فيبطل بوعد لا خلف فيه (أعمالهم) من المحاسن لبنائها على غير أساس (يا أيها الذين آمنوا) اى أقروا بالسنتهم (أطيعوا الله) اى الملك الاعظم تصديقا لدعواكم بطاعة اشد الاجتهاد فيها أنها خالصة وعظم الرسول صلى الله عليه وسلم بافراده فقال تعالى (وأطيعوا الرسول) لان طاعته من طاعة الذى أرسله فاذا فعلتم ذلك حصنتم أنفسكم وأعمالكم فتكون صحيحة بينا بناؤها على الطاعة بتصحيح النيات وتصفيتها مع الاحسان للصورة فى الظاهر لتستكمل العمل صورة وروحا (ولا تبطلوا أعمالكم) قال عطاء بالشك والنفاق وقال الكلبى بالرياء والسمعة وقال الحسن بالمعاصى والكبائر وقال أبو العالية كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون انه لا يضر مع الايمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تحبط الاعمال وقال مقاتل لا تمنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبطلوا أعمالكم نزلت فى بنى أسد قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وعن حذيفة فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم وعن ابن عمر كنا نرى انه ليس شئ من حسناتنا الا مقبولا حتى نزل ولا تبطلوا أعمالكم فقلنا ما هذا الذى يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فكففنا عن القول فى ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها وعن قتادة رحم الله عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السئ وعن ابن عباس لا تبطلوا بالرياء والسمعة أعمالكم وعنه أيضا بالشك والنفاق وقيل بالعجب فان العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب (ان الذين كفروا) أى أوقعوا الكفر بفعلهم فعل الساتر لما دل عليه العقل من آيات الله المرئية والمسموعة (وصدوا عن سبيل الله) أى الملك الاعلى عن الواضح المستقيم الموصل الى كل ما ينبغى أن يقصد كل من أراده بتماديهم على باطلهم واذاهم لمن خالفهم (ثم ماتوا) بعد امدادهم فى مضمارهم بالتطويل فى أعمارهم (وهم) اى والحال انهم (كفار فلن يغفر الله) اى المحيط بجميع صفات الكمال الذى يمنع من تسوية المسئ بالمحسن (لهم) فلا يغفر ذنوبهم ولا يسترعيوبهم بل يفضح سرائرهم ويردهم على أعقابهم فى كل ما يتقلبون فيه لانهم قد أبطلوا أعمالهم بالخروج عن دائرة الطاعة فلم يبق لهم ما يغفر لهم بسببه وقد دلت هذه الآية على ما دلت عليه آية البقرة من ان احباط العمل فى المرتد مشروط بالموت على الكفر قيل نزلت فى أصحاب القليب قال الزمخشرى والظاهر العموم ثم رغب تعالى فى لزوم الجهاد محذرا من تركه بقوله تعالى (فلا تهنوا) اى تضعفوا ضعفا يؤدى بكم الى الهوان والذل (وتدعوا) أعداءكم (الى السلم) اى المسالمة وهى الصلح (وأنتم) اى والحال انكم (الاعلون) اى الظاهرون الغالبون قال الكلبى آخر الامر لكم

ما فائدة الجمع بين الفسوق والعصيان (قلت) الفسوق الكذب كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والعصيان بقية المعاصى

وان غلبوكم في بعض الاوقات وأصل الاعلون الاعليون فاعل وقرأ حمزة وشعبة بكسر السين والباقون بفتحها ثم عطف على الحال قوله تعالى (والله) اى الملك الاعظم الذى لا يعجزه شئ ولا كفء له (معكم) اى بنصره ومعونته وجميع ما يفعله الكريم اذا كان مع عبده ومن علم انه سيده وعلم انه قادر على ما يريد لم يبال بشئ أصلا (وان يتركم) اى ينقصكم (أعمالكم) اى ثوابها كما يفعل مع أعدائكم في احباط أعمالهم لانكم لم تبطلوا أعمالكم بجعل الدنيا محط أمركم (انما الحيوة) وأشار الى دناءتها تنفيرا عنها بقوله (الدنيا) اى الاشتغال بها (لعب) اى أعمال ضائعة سافلة تزيد في السرور ربما يسرع اضمحلاله فيبطل من غير ثمرة (ولهو) اى مشغلة يطلب بها اثارة اللذة كالغناء (وان تؤمنوا وتتقوا) اى تتخذوا وقاية بينكم وبين غضبه سبحانه وتعالى وقاية من جهاد أعدائه وذلك من أعمال الآخرة (يؤتكم) اى الله سبحانه الذى تعلم ذلك من أجله في الدار الآخرة (أجوركم) اى ثواب كل أعمالكم بينا ثها على الاساس ولانه غنى لا ينقصه الاعطاء (ولا يسئلكم) اى الله في الدنيا (أموالكم) اى لنفسه ولا كلها لغيره بل يقتصر على جزء يسير مما تفضل به عليكم كربع العشر وعشره (ان يسئلكموها) اى كلها (فيحفكم) اى يبالغ في سؤالكم ويبلغ فيه الغاية حتى يستأصلها فيجهدكم بذلك فالاحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شئ يقال احفاه في المسئلة اذا لم يترك شيأ من الالحاح واحفى شاربه استأصله (تبخلوا) فلا تعطوا شيأ (ويخرج اضغانكم) اى تضغنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير في يخرج لله تعالى أو الرسول أو السؤال أو البخل واقتصر عليه الجلال المحلى قال قتادة علم الله تعالى ان في مسئلة الاموال خروج الاضغان يعنى ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم كيف وأنتم تبخلون باليسير فكيف لا تبخلون بالكثير (ها أنتم) وحقر أمرهم بقوله تعالى (هؤلاء) اى أنتم يا مخاطبون بهؤلاء الموصوفون وقوله تعالى (تدعون لتنفقوا في سبيل الله) اى الملك الاعظم الذى يرجى خيره ولا يخشى غيره استئناف مقرر لذلك أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما (فمنكم من يبخل) اى ناس يبخلون وحذف القسم الآخر وهو ومنكم من يجود لان المراد الاستدلال على ما قبله من البخل ولما كان بخله عن اعطاء المال بجزء يسير منه انما طلبه لينفع المطلوب منه فقط زاد العجب بقوله تعالى (ومن) اى والحال انه من (يبخل) بذلك (فانما يبخل) بماله بخلا صادرا (عن نفسه) فان نفع الانفاق وضر البخل عائدان اليه والبخل يعدى بعن وعلى لتضمنه معنى الامساك والتعدى فانه امساك عن يستحق (والله) اى الملك الاعظم الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (الغنى) وحده عن نفقتكم (وأنتم) أيها المكلفون خاصة (الفقراء) لاحتياجكم في جميع أحوالكم اليه (وان تتولوا) عطف على وان تؤمنوا وتتقوا (يستبدل قوما غيركم) اى يخلق قوما سواكم على خلاف صفتكم راغبين في الايمان والتقوى (ثم لا يكونوا أمثالكم) في التولى عنه والزهد في الايمان كقوله تعالى ويأت بخلق جديد قيل هم الملائكة وقيل الانصار وعن ابن عباس كندة والنخع وعن الحسن العجم وعن عكرمة فارس والروم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القوم وكان سلمان الى جنبه فضرب على فخذه وقال هذا وقومه والذى نفسى بيده لو كان الايمان منوطا

وانما افرد الكذب
بالذكر لانه سبب نزول
الآية وقيل الفسوق
الكبيرة والعصيان الصغيرة
(قوله قل لم تؤمنوا ولكن

بالثمر يا التناوله رجال من فارس رواه الترمذي والحاكم وصححاه وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة محمد كان حقا على الله تعالى ان يسقيه من أنهار الجنة حديث موضوع

سورة الفتح مكيه

وهي تسع وعشرون آية وخمسمائة وستون كلمة وألفان وأربعمائة وثمانية وثلاثون حرفا

(بسم الله) اى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (الرحمن) الذى عم خلقه بنعمه (الرحيم) لذى خص أهل وداده بمزيد فضله روى زيد بن أسلم عن أبيه ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فسأله عمر عن شئ فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه قال عمر فحركت بعيري حتى تقدمت امام الناس وخشيت أن يكون نزل في قرآن فما نشبت ان سمعت صارخا يصرخ بي فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال لقد أنزلت على الليلة سورة هي أحب الى مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ (انا فتحنا لك) أى بما لنا من العظمة التي لا تثبت لها الجبال (فتحا مبينا) اى لا لبس فيه على أحد واختلفوا في هذا الفتح فروى عن أنس انه فتح مكة وقال مجاهد فتح خيبر والاكثرون على أنه صلح الحديبية قال أنس نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم انا فتحنا لك الى آخر الآية مرجعه من الحديبية وأصحابه مخالطوا الحزن والكآبة فقال نزلت على آية هي أحب الى من الدنيا جميعها فلما تلاها نبي الله صلى الله عليه وسلم قال رجل من القوم هنيأ مريأ قد بين الله لك ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فانزل الله تعالى ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار حتى ختم الآية وقيل فتح الروم وقيل فتح الاسلام بالحجة والبرهان والسيف والسنان وقيل الفتح الحكم لقوله تعالى افتح بيننا و بين قومنا بالحق وقوله تعالى ثم يفتح بيننا بالحق فمن قال هو فتح مكة قال لانه مناسب لآخر السورة التي قبلها من وجوه أحدها انه تعالى لما قال ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله الى أن قال ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه بين تعالى انه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم اضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم الا على أنفسهم ثانيها لما قال تعالى والله معكم وقال تعالى وأنتم الاعلون بين برهانه بفتح مكة فانهم كانوا هم الاعلون ثالثها لما قال تعالى فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وكان معناه لا تسألوا الصلح بل اصبروا فانكم تسئلوا الصلح كما كان يوم الحديبية فكان المراد فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين ومستسلمين (فان قيل) ان كان المراد فتح مكة فمكة لم تكن فتحت فكيف قال تعالى فتحنا بلفظ الماضى (أجيب) من وجهين أحدهما فتحنا في حكمنا وتقديرنا ثانيهما ما قدره الله تعالى فهو كائن فاخبر بصيغة الماضى اشارة الى أنه أمر واقع لا دافع له وأما حجة قول الاكثرين على انه صلح الحديبية فلما روى البراء قال تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها فدعا باناء فتوضأ ثم تمضمض ودعا وصبه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع

قولوا أسلمنا) المنفي هنا الايمان بالقلب والمثبت الانقياد ظاهرا فهما في اللغة متغايران لهذا الاعتبار كما انهما في الشرع مختلفان

من كان معه وقيل جاش حتى امتلأت ولم يتقدما وهابعده وقال الشعبي فى قوله تعالى انا فتحنا
لك فتحا مبينا قال فتح الحديبية غفرله ماتقدم من ذنبه وماتأخر وأطعموا نخل خيبر وبلغ
الهدى محله وظهرت الروم على فارس ففرح المؤمنون بظهورأهل الكتاب على المجوس قال
الزهرى ولم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك ان المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا
كلامهم فتمكن الاسلام فى قلوبهم واسلم فى ثلاث سنين خلق كثير وكثر سواد الاسلام وقال
البغوى انا فتحنا لك فتحا مبينا أى قضينا لك قضاء مبينا وقال الضحاك اى بغير مال وكان
الصلح من الفتح واختلف قول المفسرين فى معنى اللام فى قوله تعالى (ليغفر لك الله) اى الملك
الاعظم فقال البيضاوى علة للفتح من حيث انه مسبب عن جهاد الكفار والسعى فى اعلاء
الدين وازاحة الشرك وتكميل النفوس الناقصة وقال البغوى قيل اللام لام كى معناه
انا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح وقال الجلال المحلى اللام
للعلة الغائية فدخولها مسبب لا سبب وقال بعضهم انها لام القسم والاصل ليغفرن فكسرت
اللام تشبيها بلام كى وحذفت النون ورده ذا بان اللام لا تكسر وبانها لا تنصب المضارع
قال ابن عادل وقد يقال ان هذا ليس بنصب وانما هو بقاء الفتح الذى كان قبل نون التوكيد بقى
ليدل عليها ولكنه قول مردود وقال الزمخشرى فان قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة قلت
لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدد من الامور الاربعة وهى المغفرة واتمام النعمة
وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قال يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك
لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض الآجل والعاجل ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث
انه جهاد للعدو سببا للمغفرة والثواب اه قال ابن عادل وهذا الذى قاله مخالف لظاهر الآية
فان اللام داخلة على المغفرة فتكون المغفرة علة للفتح والفتح معلل بها فكان ينبغى أن يقول
كيف جعل فتح مكة معللا بالمغفرة ثم يقول لم يجعل معللا اه وقيل غير ذلك والاسلم ما اقتصر
عليه الجلال المحلى * واختلف أيضا فى الذنب فى قوله تعالى (ماتقدم من ذنبك) فقال البقاعى
اى الذى تقدم فى القتال أمرك بالاستغفار له وهو ماتنتقل عنه من مقام كامل الى مقام
فوقه أكمل منه فتراه بالنسبة الى أكملية المقام الثانى ذنبا وكذا قوله تعالى (وماتأخر)
وقال الرازى المغفرة المعتبرة لها درجات كما ان الذنوب لها درجات حسنات الابرار سيئات
المقربين وقال عطاء الخراسانى ماتقدم من ذنبك يعنى ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك وما
تأخر ذنوب أمتك بدعوتك وقال سفيان الثورى ماتقدم ماعملت فى الجاهلية وماتأخر كل
شئ لم تعمله قال البغوى ويذكر مثل ذلك على سبيل التأكيد كما يقال أعطى من رآه ومن
لم يره وقيل ماتقدم من حديث مارية وماتأخر من امرأة زيد وقيل المراد به ترك الافضل
وقيل الصغائر على رأى من جوز الصغائر على الانبياء وقيل المراد بالمغفرة العصمة ومعنى
قوله تعالى وماتأخر قيل انه وعد للنبى صلى الله عليه وسلم بانه لا يذنب بعد النبوة وقيل ماتقدم
على الفتح وماتأخر عنه وقيل المراد ذنب المؤمنين وقيل غير ذلك والاولى فى ذلك هو الاول
* واختلف أيضا فى النعمة فى قوله تعالى (ويتم نعمته عليك) فقال البقاعى بنقلتك من عالم

منه وهو ما تضمنه ان صدقنا انه الايمان هو التصديق بالقلب بشرط التلفظ بالشهادتين والاسلام بالكسر (قوله انما المؤمنون الذين آمنوا بالله

الشهادة الى عالم الغيب ومن عالم الكون والفساد الى عالم الثبات والصلاح الذى هو أخص بحضرته وأولى برحمته واظهار أصحابك من بعدك على جميع أهل الملل وقال البيضاوى باعلاء الدين وضم الملك الى النبوة وقال الجلال المحلى بالفتح المذكور وقيل ان التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج وهو آخر التكاليف والتكليف نعمة وقيل باجلاء الارض لك عن معانديك فان من يوم الفتح لم يبق للنبى صلى الله عليه وسلم عدو فان بعضهم قتل يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح وقيل ويتم نعمته عليك فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فباستجابة دعائك فى طلب الفتح وفى الآخرة بقبول شفاعتك وقيل غير ذلك والاول أولى واختلف أيضا فى معنى الهداية فى قوله تعالى (ويهديك صراطا) اى طريقا (مستقيما) أى واضحا جليا فقال البقاعى اى بهداية جميع قومك ولما كانت هدايتهم من هدايته أضافها سبحانه اليه اعلاما له أنها هداية تليق بجنابه الشريف سروراله وقال البيضاوى فى تبليغ الرسالة واقامة مراسم الرياسة وقيل يهدى بك وقيل يديمك على الصراط المستقيم وقيل جعل الفتح سبب الهداية الى الصراط المستقيم لانه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بفوائده العاجلة والآجلة وقيل المراد التعريف أى لتعرف أنك على صراط مستقيم (وينصرك الله) اى على ملوك الامم نصرا يليق اسناده الى اسمه المحيط بسائر العظم (نصرا عزيزا) اى يغلب المنصور به كل من ناواه ولا يغلبه شئ مع دوامه فلا ذل بعده لان الامة التى تنصف به لا يظهر عليها أحد والدين الذى قضاه لا جله لا ينسخه شئ (فان قيل) ان الله تعالى وصف النصر بكونه عزيزا والعزيز من له النصر (أجيب) من وجهين أحدهما قال الزمخشرى انه يحتمل وجوها ثلاثة الاول معناه نصرا ذا عزة كقولك فى عيشة راضية أى ذات رضا ثانيها وصف النصر بما يوصف به المنصور اسنادا مجازيا يقال له كلام صادق كما يقال له متكلم صادق ثالثها المراد نصرا عزيزا صاحبه الوجه الثانى أن يقال انما يلزم ماذكره الزمخشرى اذا قلنا العزة فى الغلبة والعزيز الغالب وأما اذا قلنا العزيز هو النفيس القليل النظير أو المحتاج اليه القليل الوجود يقال عز الشئ فى سوق كذا اى قل وجوده مع انه محتاج اليه فالنصر كان محتاجا اليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله تعالى من الكفار المقيمين فيه من غير عدد ولا عدد (هو) اى وحده (الذى أنزل) اى فى يوم الحديبية وغيره (السكينة) اى الثبات على الدين والطمأنينة (فى قلوب المؤمنين) اى الراسخين فى الايمان وهم أهل الحديبية بعد ان دهمهم فيها ما من شأنه ان يزعج النفوس ويزيغ القلوب من صد الكفار ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصودهم فلم يرجع أحد منهم عن الايمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا حتى عمر مع انه فاروق ومع وصفه فى الكتب السالفة بانه قرن من حديد فما الظن بغيره وكان عند الصديق من القدم الثابت والاصل الراسخ ما علم به انه لم يسابق ثم ثبتهم الله تعالى أجمعين وقال الرازى السكينة الثقة بوعد الله والصبر على حكم الله وقيل السكينة ههنا معنى يجمع نورا وقوة وروحا يسكن اليه الخائف ويتسلى به الحزين وأثر هذه السكينة الوقار والخشوع وظهور الحزم فى الامور اه وقال أكثر المفسرين ان هذه السكينة غير السكينة المذكورة فى قوله تعالى يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ويحتمل أن تكون هى

(ان قلت) ورسوله) الآية العمل ليس من الايمان فكيف ذكر انه منه فى هذه الآية (قلت) المراد منها الايمان الكامل أى انما

ذلك لان المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلب (ليزدادوا) اى بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال لهم انه لابد أن تدخلوا مكة وتطوفوا بالبيت (ايمانا) عند التصديق بالغيب (مع ايمانهم) الثابت من قبل هذه الواقعة أو بشرائع الدين مع ايمانهم بالله واليوم الآخر وقال القشيرى بطلوع أقمار عين اليقين على نجوم علم اليقين ثم بطلوع شمس حق اليقين على بدر عين اليقين وقال ابن عباس بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا اله الا الله فلما صدقوا زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الحج ثم الجهاد حتى أكمل لهم دينهم فكلما أمروا بشئ فصدقوه ازدادوا تصديقا الى تصديقهم وقال الضحاك يقينا مع يقينهم وقيل ازدادوا ايمانا استدلاليا مع ايمانهم الفطرى (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى حق الكفار انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولم يقل مع كفرهم وقال فى حق المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم (أجيب) بان كفر الكافر عنادى وليس فى الوجود كفر فطرى ولا فى الامكان كفر غير عنادى لينضم الى الكفر العنادى بل الكفر ليس الا عنادا وكذلك الكفر بالفروع لا يقال انضم الى الكفر بالاصول لان من ضرورة الكفر بالاصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الايمان بالاصول الايمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد ولهذا قال تعالى ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم (ولله) اى الملك الاعظم الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين (جنود السموات والارض) فهو قادر على اهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون اهلاك أعدائه بايديهم فيكون لهم الثواب وجنود السموات والارض الملائكة وقيل جنود السموات الملائكة وجنود الارض الجن والحيوانات وقيل الاسباب السماوية والارضية (وكان الله) اى الملك الاعظم أزلا وأبدا (عليما) اى بالذوات والمعانى (حكيما) فى اتقان ما يصنع وقوله تعالى (ليدخل) متعلق بمحذوف اى أمر بالجهاد ليدخل (المؤمنين والمؤمنات) الذين جبلتهم جبلة خير بجهاد بعضهم ودخول بعضهم فى الدين بجهاد المجاهدين ولو سلط على الكفار جنوده من أول الامر فاهلكوهم أو دمر عليهم بغير واسطة لفات دخول أكثرهم الجنة وهم من آمن منهم بعد صلح الحديبية (جنات) اى بساتين لا يصل الى عقولكم من وصفها الا ما تعرفونه بعقولكم وان كان الامر أعظم من ذلك (تجرى من تحتها الانهار) فاى موضع أردت أن تجرى منه نهرا قدرت على ذلك لان الماء قريب من وجه الارض مع صلابتها وحسنها (خالدين فيها) اى لا الى آخر (فان قيل) ما الحكمة فى انه تعالى ذكر فى بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفى بعضها اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كقوله تعالى قد أفلح المؤمنون وقوله تعالى وبشر المؤمنين (أجيب) بانه فى المواضع التى فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالخير الموعود به مع مشاركة المؤمنات لهم ذكرهن الله تعالى صريحا وفى المواضع التى فيها ما لا يوهم ذلك اكتفى بدخولهم فى المؤمنين كقوله تعالى وبشر المؤمنين ولما كان ههنا قوله تعالى ليدخل المؤمنين متعلقا بالامر بالقتال والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها فصرح الله تعالى بذكرهن (ويكفر) اى يستر سترا بليغا (عنهم سيئاتهم) ولا يظهرها (فان قيل) تكفير السيآت قبل الادخال فكيف ذكره بعده (أجيب) بان الواو لا تقتضى الترتيب وبان

المؤمنون ايمانا كاملا كما فى قوله انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم

تكفير

تكفير السيآت والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الادخال فى الذكر بمعنى انه من أهل الجنة (وكان ذلك) اى الادخال والتكفير (عند الله) اى الملك الاعظم ذى الجلال والاكرام (فوزا عظيما) لانه منتهى مايطلب من جلب نفع ودفع ضر * (تنبيه) * عند متعلق بمحذوف على أنه حال من فوزا * ولما كان من أعظم الفوز اقرار العين بالانتقام من العدو وكان العدو المكاتم أشد من المجاهر المراغم قال تعالى (ويعذب المنافقين) المخفين للكفر المظهرين للايمان اى فيزيل كل مالهم من العذوبة (والمنافقات) لما غاظهم من ازدياد الايمان (والمشركين والمشركات) اى المظهرين الكفر للمؤمنين وقدم المنافقين على المشركين فى كثير من المواضع لانهم كانوا أشد على المؤمنين من الكفار المجاهرين لان المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر ويخالط المنافق لظنه ايمانه وكان يفشى أسراره والى هذا اشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ولهذا قال الشاعر

احذر عدوك مرة * واحذر صديقك ألف مره
فلربما انقلب الصديق * فكان أخبر بالمضره

وقوله تعالى (الظانين بالله) اى المحيط بصفات الكمال صفة للفريقين وأما قوله تعالى (ظن السوء) فقال أكثر المفسرين هو أن لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولا يرجعهم الى مكة ظافرين (عليهم دائرة السوء) اى دائرة مايظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم لا يتخطاهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين والباقون بالفتح وهما لغتان كالكره والكره والضعف والضعف من ساء الا أن المفتوح غلب فى أن يضاف اليه مايراد ذمه من كل شئ وأما السوء فجار مجرى الشر الذى هو نقيض الخير (وغضب الله) اى الملك الاعظم بماله من صفات الجلال والجمال فاستعلى غضبه (عليهم) وهو أنه تعالى يعاملهم معاملة الغضبان بالاطاقة لهم به (ولعنهم) اى طردهم طردا نزلوا به أسفل السافلين فبعدوا به عن كل خير (وأعد) اى هيأ (لهم) الآن (جهنم) تلقاهم بالعبوسة والتغيظ والزفير والتجهم كما كانوا يتجهمون عباد الله مع مافيها من العذاب والحر والبرد والاحراق وغير ذلك من أنواع المشاق (وساءت) اى جهنم (مصيرا) اى مرجعا وقوله تعالى (ولله) اى الملك الاعظم (جنود السموات والارض) تقدم تفسيره وفائدة الاعادة التأكيد وجنود السموات والارض منهم من هو للرحمة ومنهم من هو للعذاب وقدم ذكر جنود السموات والارض قبل ادخال المؤمنين الجنة ليكون مع المؤمنين ملائكة الرحمة فتبشرهم على الصراط وعند الميزان فاذا دخلوا الجنة أفضوا الى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه فلا حاجة لهم بعد ذلك الى شئ وأخر ذكر جنود السموات والارض بعد ذكر تعذيب الكفار والمنافقين ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقونهم أبدا كما قال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم (فان قيل) قال الله تعالى وكان الله عليما حكيما وقال هنا (وكان الله) اى الملك الذى لا أمر لاحد معه أزلا وأبدا (عزيزا) اى يغلب ولا يغلب (حكيما) اى يضع الشئ فى أحكم مواضعه فلا يستطاع نقض شئ مما ينسب اليه (أجيب) بانه لما كان فى جنود السموات والارض من هو للرحمة ومن هو

المارون من لسانه ويده
* (سورة ق) *
(قوله ق) ان جعل اسما للسورة فهو خبر مبتدأ محذوف

للعذاب وعلم الله تعالى ضعف المؤمنين ناسب أن تكون خاتمة الآية الاولى وكان الله عليما حكيما وناسب ان تكون خاتمة الآية الثانية وكان الله عزيزا حكيما (انا) اى بما لنا من العزة والحكمة (أرسلناك) اى بما لنا من العظمة الى الخلق كافة (شاهدا) على أفعالهم من كفر وايمان وطاعة وعصيان من كان بحضرتك فبنفسك ومن كان بعد موتك أو غائبا عنك فبكتابك مع ما أيدناك به من الحفظة من الملائكة الكرام (ومبشرا) اى لن أطاع بأنواع البشائر (ونذيرا) اى مخوفا لمن خالفك وعصى أمرك بالنار ثم بين تعالى فائدة الارسال بقوله سبحانه (ليؤمنوا بالله) اى لا يسوغ لاحد من خلقه والكل خلقه التوجه الى غيره (ورسوله) اى الذى أرسله من له كل شئ ملكا وخلقا الى جميع خلقه (ويعزروه) اى يعينوه وينصروه والتعزير نصر مع تعظيم (ويوقروه) اى يعظموه والتوقير التعظيم والتبجيل (ويسبحوه) من التسبيح الذى هو التنزيه عن جميع النقائص أو من السبحة وهى الصلاة قال الزمخشرى والضمائر لله عز وجل والمراد بتعزير الله تعزير دينه ورسوله ومن فرق الضمائر فقد أبعد وقال غيره الكنايات فى قوله ويعزروه ويوقروه راجعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند هاتم الكلام فالوقف على ويوقروه وقف تام ثم يبتدئ بقوله تعالى ويسبحوه (بكرة وأصيلا) اى غدوة وعشيا اى دائما وعن ابن عباس صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر على أن الكناية فى ويسبحوه راجعة الى الله عز وجل وقال البقاعى الافعال الثلاثة يحتمل أن يراد بها الله تعالى لان من سعى فى قمع الكفار فقد فعل فعل المعزر الموقر فيكون اما عائدا على المذكور واما أن يكون جعل الاسمين واحدا اشارة الى اتحاد المسميين فى الامر فلما اتحد أمرهما وحد الضمير اشارة الى ذلك اه فقد علم أنه يصح رجوع الثلاثة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه نصره ويسبحوه بقوله ينزهوه عن كل وخيمة باخلاف الوعد بدخول مكة والطواف بالبيت الحرام ونحو ذلك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء فى الاربعة على الغيبة رجوعا الى قوله تعالى ليدخل المؤمنين والمؤمنات والباقون بالتاء على الخطاب ولما بين تعالى أنه مرسل ذكر أن من بايع رسوله فقد بايعه فقال تعالى (ان الذين يبايعونك) يا أشرف الرسل بالحديبية على أن لا يفروا (انما يبايعون الله) أى الملك الاعظم لان عملك كله من قول أو فعل له تعالى وما ينطق عن الهوى وسميت مبايعة لانهم باعوا أنفسهم فيها من الله تعالى بالجنة قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة الآية وروى يزيد بن أبى عبيد قال قلت لسلمة بن الاكوع على اى شئ بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية قال على الموت وعن معقل بن يسار قال لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبى صلى الله عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ونحن أربع عشرة مائة قال لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر قال أبو عيسى معنى الحديثين صحيح بايعه جماعة على الموت أى لا نزال نقاتل بين يديك ما لم نقتل وبايعه آخرون وقالوا لا نفر وقوله تعالى (يد الله) اى المتردى بالكبرياء (فوق أيديهم) اى فى المبايعة يحتمل وجوها وذلك أن اليد فى الموضعين اما أن تكون بمعنى واحد واما أن تكون بمعنيين فان كانت بمعنى واحد ففيه وجهان أحدهما قال الكلبى نعمة الله عليهم فى الهداية فوق ما صنعوا من البيعة كما قال الله تعالى بل الله يمن عليكم أن هداكم

اى هذه ق بالمعنى السابق فى ص وان جعل قسما فجوابه مع ما عطف عليه محذوف تقديره لتبعثن

للايمان ثانيهما قال ابن عباس ومجاهد يد الله بالوفاء بما وعدهم من النصر والخير أقوى وأعلى من نصرتهم اياه يقال اليد لفلان أي الغلبة والقوة وان كانت بمعنيين فني حق الله تعالى بمعنى الحفظ وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة قال السدي كانوا يأخذون بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم و يبايعونه و يد الله تعالى فوق أيديهم في المبايعة وذلك أن المتبايعين اذا مد احدهما يده الى الآخر في البيع و بينهما ثالث يضع يده على أيديهما و يحفظ أيديهما الى أن يتم العقد ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر لكي يلزم العقد ولا يتفاسخان فصار وضع اليد فوق الايدي سببا لحفظ البيعة فقال تعالى يد الله فوق أيديهم يحفظهم على البيعة كما يحفظ المتوسط أيدي المتبايعين قال البقاعي فلعنة الله على من حمله على الظاهر من أهل العناد ببدعة الاتحاد وعلى من تبعهم على ذلك من الذين شاقوا الله ورسوله عليه الصلاة والسلام وسائر الائمة الاعلام ورضوا لانفسهم بأن يكونوا أتباع فرعون اللعين وناهيك به من ضلال مبين اه وقدمر ان التأويل في الآيات المتشابهات مذهب الخلف ومذهب السلف السكوت عن التأويل وامرار الصفات على ماجاءت وتفسيرها قراءتها والايمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل (فمن نكث) أي نقض البيعة في وقت من الاوقات فجعلها كالكساء والحبل البالي الذي ينقض (فانما ينكث) أي يرجع وبال نقضه (على نفسه) أي فلا يضر الاهي (ومن أوفى) أي فعل الاتمام والاكثار والاطالة (بما عاهد) وقدم الظرف في قوله (عليه الله) أي الملك المحيط بكل شئ قدرة وعلما من هذه المبايعات وغيرها اهتماما به وقرأ حفص بضم الهاء قبل الاسم الجليل والباقون بكسر الهاء والترقيق (فسيؤتيه) بوعد مؤكد لاخلف فيه (أجرا عظيما) لاتسعه عقولكم شرح وصفه قال ابن عادل والمراد به الجنة وقرأ أبو عمرو والكوفيون بالياء التحتية والباقون بالنون ولما ذكر تعالى أهل بيعة الرضوان وأضافهم الى حضرة الرحمن ذكر من غاب عن ذلك الجناب وأبطأ عن حضرة تلك العمرة بقوله تعالى (سيقول) أي بوعد لاخلف فيه (لك) أي لانهم يعلمون شدة رحمتك ورفقك وشفقتك على عباد الله فهم يطمعون في قبولك من فاسد عذرهم ما لا يطمعون فيه من غيرك من خاص المؤمنين (المخلفون) أي الذين خلفهم الله تعالى عنك فلم يرضهم لصحبتك في هذه العمرة فجعلهم كالشئ التافه الذي يخلفه الانسان لانه لافائدة فيه فلا يعبأ به وقال تعالى (من الاعراب) ليخرج من تخلف بالجسد من خاص الانصار وغيرهم ممن كان حاضرا معه صلى الله عليه وسلم بالقلب قال ابن عباس ومجاهد يعني بالاعراب اعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع واسلم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير الى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر من حول المدينة من الاعراب والبوادي ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حربا فتثاقل كثير من الاعراب وتخلفوا واعتلوا بالشغل فأنزل الله تعالى فيهم سيقول لك المخلفون أي الذين خلفهم الله تعالى من الاعراب عن صحبتك اذا رجعت اليهم من عمرتك وعاتبتهم على التخلف (شغلتنا) أي عن اجابتك في هذه العمرة (أموالنا وأهلونا) أي النساء والذراري

بدليل قوله ذلك رجع بعيدا ولقد أرسلنا محمدا بدليل قوله بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم اوهو قوله قد علمنا حذفت منه

فانا لو تركناهم اضاعوا لانه لم يكن لنا من يقوم بهم وانت قد نهيت عن ضياع المال والتفريط في العيال ثم سببوا عن هذا القول المراد به السوء قولهم (فاستغفر) أي اطلب المغفرة (لنا) من الله تعالى ان كنا أخطأنا وقصرنا فكذبهم الله تعالى في اعتذارهم بقوله سبحانه وتعالى (يقولون بألسنتهم) أي في الشغل والاستغفار وأكدما أفهمه ذكر اللسان من أنه قول ظاهري نفيا للكلام الحقيقي الذي هو النفسي بكل اعتبار بقوله تعالى (ماليس في قلوبهم) لانهم لم يكن لهم شغل ولا كانت لهم نية في سؤال الاستغفار فانهم لا يبالون استغفر لهم الرسول أم لا (قل) يا أشرف الرسل لهؤلاء الاغبياء واعظا لهم مسببا عن مخادعتهم لمن لا تخفى عليه خافية اشارة الى أن العاقل يقبح عليه أن يقدم على ما هو بحيث تخشى عواقبه (فمن يملك لكم) أي أيها الخادعون (من الله) أي الملك الذي لا أمر لاحد معه لانه لا كفء له (شيأ) يمنعكم (ان أراد بكم ضرا) أي نوعا من أنواع الضر عظيما أو حقيرا فأهلك الاموال والاهلين وأنتم محتاطون في حفظها فلم ينفعها حضوركم أو أهلككم أنتم وقرأ حمزة والكسائي بضم الضاد والباقون بفتحها (أو أراد بكم نفعا) يحفظها به في غيبتكم فلا يضرهم بعدكم عنهم ويحفظكم في انفسكم (بل كان الله) أي المحيط ازلا وأبدا بكل شئ قدرة وعلما (بما تعملون) أي أيها الجهلة (خبيرا) يعلم بواطن أموركم هذه وغيرها كما يعلم ظواهرها (بل ظننتم) أي فانتم واقفون مع الظنون الظاهرة ليس لكم نفوذ الى البواطن وقرأ الكسائي بادغام اللام في الظاء والباقون بالاظهار وأشار الى تأكد ظنهم على زعمهم بقوله تعالى (أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا) أي ظننتم أن العدو يستأصلهم ولا يرجعون لما في قلوبكم من عظمة المشركين وحقارة المؤمنين فحملكم ذلك على أن قلتم ما هم في قريش الا أكلة رأس (فان قيل) ما الفرق بين حرفي الاضراب (أجيب) بان الاضراب الاول اضراب معناه رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوه واثبات الحسد والثاني اضراب عن وصفهم باضافة الحسد الى المؤمنين أي وصفهم بما هو أعم منه وهو الجهل وقلة الفقه (وزين ذلك) أي الامر القبيح الذي هو خراب الدنيا (في قلوبكم) حتى قلتموه (وظننتم) أي بذلك وغيره مما يترتب عليه من اظهار الكفر وما يتفرع عنه (ظن السوء) أي الذي لم يدع شيأ مما يكره غاية الكراهة الا أحاط به وقوله تعالى (وكنتم قوما بورا) جمع بائر أي هالكين عند الله تعالى بهذا الظن وهذا بالنظر الى الجمع من حيث هو جمع لا بالنسبة الى كل فرد فانه قد أخلص منهم بعد ذلك كثير وثبتوا ولم يرتدوا (ومن لم يؤمن) أي منكم ومن غيركم (بالله) أي الذي لا موجود على الحقيقة سواه (ورسوله) أي الذي أرسله لاظهار دينه (فانا) على ما لنا من العظمة (أعتدنا) أي له هكذا كان الاصل ولكنه قال تعالى معلقا للحكم بالوصف (للكافرين) ايذانا بان من لم يجمع الايمان بهما فهو كافر وأعدله (سعيرا) أي نارا شديدة (ولله) أي الملك الاعظم وحده (ملك السموات والارض) أي من الجنود وغيرها يدبر ذلك كله كيف يشاء (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أي لا اعتراض لاحد عليه لانه لا يجب عليه شئ ولا يكافئه أحد وليس هو كالملوك الذين لا يتمكنون من مثل ذلك لكثرة الاكفاء المعارضين لهم في الجملة وعلم من هذا أن منهم من يرتد فيعذبه ومنهم من يثبت على

الاسم الطول الكلام او هو قوله ما يلفظ من قول

(قوله وحسب الحصيد) ان قلت فيه اضافة الشئ الى نفسه وهي ممتنعة لان

الاسلام فيغفر له لانه لا يعذب بغير ذنب وان كان له أن يفعل ذلك لانه لا يسئل عما يفعل وملكه
تام فتصرفه فيه عدل كيف كان (وكان الله) أى المحيط بصفات الكمال أزلا وأبدا لم يتجدد له
شئ لم يكن (غفورا) أى لذنوب المسيئين (رحيما) أى مكرما بعد الستر بما لا تسعه العقول
وقدرته على الانعام كقدرته على الانتقام (سيقول) أى بوعد لا خلف فيه (المخلفون)
أى الذين تخلفوا عن الحديبية (اذا انطلقتم) أى سرتم أيها المؤمنون (الى مغانم لتأخذوها)
أى مغانم خيبر وذلك ان المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية على صلح من غير قتال ولم يصيبوا
من المغانم شيأ وعدهم الله تعالى فتح خيبر وجعل غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة عوضا عن
غنائم أهل مكة حيث انصرفوا عنهم ولم يصيبوا منهم شيأ (ذرونا) أى على أى حالة شئتم من
الاحوال الدنيئة (نتبعكم) أى الى خيبر لنشهد معكم قتال أهلها وفى هذا بيان كذب المخلفين
عن الحديبية حيث قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا اذ لم يكن لهم هناك طمع فى الغنيمة وهنا
قالوا ذرونا نتبعكم حيث كان لهم طمع فى الغنيمة (يريدون) أى بذهابهم معكم (أن يبدلوا
كلام الله) أى يريدون أن يغيروا مواعيد الملك الاعظم لاهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة
وهذا قول جمهور المفسرين وقال مقاتل يعنى أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم
حيث أمره أن لا يسير معه منهم أحد الى خيبر وقال ابن زيد هو أن النبى صلى الله عليه وسلم
لما تخلف القوم أطلعه الله تعالى على ظنهم وأظهر له نفاقهم وقال للنبى صلى الله عليه وسلم فاذا
استأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى ابدا وقرأ حمزة والكسائى بكسر اللام بعد الكاف
ولا ألف بعد اللام والباقون بفتح اللام وألف بعدها (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء المبعدين اذا
بلغك كلامهم أنت بنفسك فان غيرك لا يقوم مقامك فى هذا الامر المهم قولا مؤكدا (لن
تتبعونا) أى وان اجتهدتم فى ذلك وساقه مساق النفى وان كان المراد به النهى مع كونه آكد
ليكون علما من أعلام النبوة وهو أزجر وأدل على استهانتهم (كذلكم) أى مثل هذا القول
البديع الشأن العالى الرتبة (قال الله) أى الذى لا يكون الا ما يريد وليس هو كالملوك الذين
لا قدرة لهم على الغفران لمن شاؤا والعقاب لمن شاؤا (من قبل) أى من قبل مرجعنا اليكم ان
غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب * ولما كانوا منافقين لا يعتقدون شيأ
من هذه الاقوال بل يظنون انها حيل على التوصل الى المرادات الدنيوية تسبب عن قوله
لهم ذلك قوله تعالى تنبيها على جلافتهم وفساد ظنونهم (فسيقولون) ليس الامر كما ذكر
مما ادعى أنه قول الله تعالى (بل) انما قلتم ذلك لانكم (تحسدوننا) فلا تريدون ان يصل الينا
من مال الغنائم شئ وقرأ هشام وحمزة والكسائى بادغام اللام فى التاء والباقون بالاظهار (بل
كانوا) أى جبلة وطبعا (لا يفقهون) أى لا يفهمون فهم الحاذق الماهر (الا قليلا) أى فى أمر
دنياهم ومن ذلك اقرارهم باللسان لاجلها وأما أمور الآخرة فلا يفهمون منها شيأ (قل) أى
يا أشرف الرسل (للمخلفين) وزاد فى ذمهم بنسبتهم الى الجلافة بقوله تعالى (من الاعراب) أى
أهل غلظ الاكباد (ستدعون) بوعد لا خلف فيه (الى قوم أولى) أى أصحاب (بأس شديد) أى
شدة فى الحرب وشجاعة قال ابن عباس ومجاهد هم أهل فارس وقال كعب الروم وقال الحسن
فارس والروم وقال سعيد بن جبير هوازن وثقيف وقال قتادة هوازن وغطفان قوم حنين

الاضافة تقتضى المغايرة
بين المضاف والمضاف اليه
(قلت) ليست ممتنعة
مطلقا بل هى جائزة عند
اختلاف اللفظين كما فى

وقال الزهري ومقاتل وجماعة هم بنو حنيفة أصحاب اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب وقال رافع بن خديج كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر الى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم وقال أبو هريرة لم يأت تاويل هذه الآية بعد قال ابن الخازن وأقوى هذه الاقوال قول من قال انهم هوازن وثقيف لان الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده قول من قال انهم بنو حنيفة اصحاب مسيلمة الكذاب وقوله تعالى (تقاتلونهم أو يسلمون) فيه اشارة الى وقوع أحد الامرين اما المقاتلة منكم واما الاسلام منهم فان لم يسلموا كان القتال لا غير وان أسلموا لم يكن قتال لان الغرض ليس الا اعلاء كلمة الله تعالى (فان تطيعوا) أي توقعوا الطاعة للداعي الى ذلك (يؤتكم الله) أي الذي له الاحاطة (أجرا حسنا) دنيا وهو الغنيمة وأخرى وهي الجنة (وان تتولوا) أي تعرضوا عن الجهاد (كما توليتم من قبل) أي عام الحديبية (يعذبكم) أي يعاقبكم بعقوبة تزيل العذوبة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما (عذابا أليما) لاجل تكرر ذلك منكم فلما أنزلت هذه الآية قال أهل الزمانة كيف بنا يا رسول الله فأنزل الله عز وجل (ليس على الاعمى) أي في تخلفه عن الدعاء الى الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم أو مع غيره من أئمة الهدى (حرج) أي ميل بثقل الاثم لانه لا يتمكن من الاقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز منه ولا الهرب (ولا على الاعرج) وان كان نقصه أدنى من نقص الاعمى (حرج) وفي معنى الاعرج الزمن المقعد والاقطع (ولا على المريض) أي بأي مرض كان يمنعه (حرج) وفي معناه صاحب السعال الشديد والطحال الكبير والذين لا يقدرون على الكر والفر فهذه اعذار مانعة من الجهاد ظاهرة ومن وراء ذلك اعذار أخر دون ما ذكر كتمريض المريض الذي ليس له من يقوم مقامه عليه *(تنبيه)* جعل تعالى كل جملة مستقلة تأكيدا لهذا الحكم وقدم الاعمى على الاعرج لان عذر الاعمى مستمر لا يمكن الانتفاع به في حرس ولا غيره بخلاف الاعرج وقدم الاعرج على المريض لان عذره أشد من عذر المريض لامكان زوال المرض عن قريب (ومن يطع الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال المفيض من آثار صفاته على من يشاء ولو كان ضعيفا المانع منها من يشاء وان كان قويا (ورسوله) من المعذورين وغيرهم فيما ندبا اليه بأي طاعة كانت (يدخله) أي الله الملك الاعظم جزاء له (جنات تجري من تحتها الانهار) أي من أي موضع أردت أجريت نهرا (ومن يتول) أي يعرض عن الطاعة ويستمر على الكفر والنفاق (يعذبه) أي على توليه في الدارين او احداهما (عذابا أليما) أي مؤلما وقرأ نافع وابن عامر ندخله ونعذبه بالنون فيهما والباقون بالياء التحتية * ولما بين تعالى حال المخالفين بعد قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله عاد الى حال بيان المبايعين بقوله تعالى (لقد رضي الله) أي الذي له الجلال والكمال (عن المؤمنين) أي الراسخين في الايمان أي فعل بهم فعل الراضي بما جعل لهم من الفتح وما قدر لهم من الثواب وأفهم ذلك انه لم يرض عن الكافرين فخذلهم في الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة فالآية تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور مشاهدة وقوله تعالى (اذ) أي حين (يبايعونك) منصوب برضي واللام في قوله تعالى (تحت الشجرة) للعهد الذهني وكانت شجرة في الموضع الذي كان النبي صلى الله

قوله حق اليقين وحبل الوريد ودار الآخرة وبتقدير امتناعها مطلقا فالتقدير حب الزرع او النبات الحصيد (قوله

عليه وسلم نازلا به فى الحديبية ولاجل هذا الرضا سميت بيعة الرضوان وقصتها ان النبى عليه الصلاة والسلام حين نزل الحديبية بعث جواس بن امية الخزاعى رسولا الى اهل مكة فهموا به فمنعه الاحابيش واحدها احبوش وهو الفوج من قبائل شتى فلما رجع دعا عمر ليبعثه فقال انى اخافهم على نفسى لما أعرف من عداوتى اياهم وما بمكة عدوى يمنعنى ولكنى ادلك على رجل هو اعز بها منى وأحب اليهم عثمان بن عفان فبعثه فخبرهم انه لم يات لحرب وانما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته فوقروه وقالوا ان شئت ان تطوف بالبيت فافعل فقال ما افعل قبل ان يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتبس عندهم فارجف انهم قتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لانبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس الى البيعة فبايعوه تحت الشجرة روى البغوى من طريق الثعلبى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لايدخل النار احد ممن بايع تحت الشجرة وقال سعيد بن المسيب حدثنى ابى انه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة قال فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها وروى ان عمر مر بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال اين كانت فجعل بعضهم يقول ههنا وبعضهم يقول ههنا فلما كثر اختلافهم قال سيروا قد ذهبت الشجرة وروى جابر بن عبد الله قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أنتم خير اهل الارض وكنا ألفا واربعمائة ولو كنت اليوم ابصر لاريتكم مكان الشجرة وقيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى اصل الشجرة وعلى ظهره غصن من اغصانها قال عبد الله بن المغفل وكنت قائما على رأسه وبيدى غصن من الشجرة اذب عنه فرفعت الغصن عن ظهره وبايعوه على الموت دونه ٣ على ان لا يفروا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم اليوم خير اهل الارض وكان عدد المبايعين ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين وروى سالم عن جابر قال كنا خمس عشرة مائة وقال عبد الله بن ابى اوفى كنا اصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة ولما دل على اخلاصهم بما وصفهم سبب عنه قوله تعالى (فعلم) اى بماله من الاحاطة (ما فى قلوبهم) اى من الصدق والوفاء فيما بايعوا عليه (فانزل السكينة) اى الطمأنينة والامن بسبب الصلح (عليهم) أو بالتشجيع وسكون النفس فى كل حالة ترضى الله ورسوله فلم يخافوا عاقبة القتال لما ندبوا اليه وان كانوا فى كثرة الكفار كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الاسود (وأثابهم) اى اعطاهم جزاء لهم على ما وهبوه من الطاعة (فتحا قريبا) هو فتح خيبر عقب انصرافهم وعن الحسن فتح هجر ونبه تعالى بصيغة منتهى الجموع فى قوله تعالى (ومغانم) على انها عظيمة ثم صرح بذلك بقوله تعالى (كثيرة تاخذونها) وهى مغانم خيبر وكانت ارضا ذات عقار واموال فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم (وكان الله) اى الذى لا كفء له (عزيزا) يغلب ولا يغلب (حكيما) اى يقضى ما يريد فلا ينقض فحكم لكم بالغنائم ولاعدائكم بالهلاك على أيديكم ليثيبكم عليه (وعدكم الله) اى الملك الاعظم (مغانم) وحقق معناها بقوله تعالى (كثيرة تاخذونها) اى فيما ياتى من بلاد شتى لاتدخل تحت حصر وليس المغانم كل الثواب بل الجنة والنظر الى وجهه الكريم قدامهم وانما هى كعاجلة عجل بها ولهذا قال تعالى (فعجل لكم) أى من الغنائم (هذه) اى مغانم خيبر (وكف ايدى الناس عنكم) وذلك أن النبى

عن اليمين وعن الشمال قعيد) فان قلت كيف قال قعيد ولم يقل قعيدان مع انه وصف للملكين المذكورين بقوله اذ يتلقى المتلقيان

٣ قوله على أن لا يفروا امله تفسير للمبايعة على الموت كما أشار اليه الحافظ ابن حجر اهمصححه

صلى الله عليه وسلم لما قصد خيبر وحاصر اهلها همت قبائل من أسد وغطفان ان يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة فكف الله تعالى ايديهم بالقاء الرعب فى قلوبهم فنكصوا وقيل ايدى اهل مكة بالصلح وقوله تعالى (ولتكون) اى هذه المعجلة عطف على مقدر أى لتشكروه ولتكون (آية) اى علامة فى غاية الوضوح (للمؤمنين) اى أنهم من الله تعالى بمكان اوصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى وعدهم فتح خيبر فى حين رجوعه من الحديبية اووعدهم الغنم أوعنوانا الفتح مكة (ويهديكم صراطا) اى طريقا (مستقيما) أى يثبتكم على الاسلام ويزيدكم بصيرة ويقينا بصلح الحديبية وفتح خيبر وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذى الحجة وبعض المحرم ثم خرج فى سنة سبع الى خيبر روى انس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا غزا بنا قوما لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر فان سمع اذانا كف عنهم وان لم يسمع أذانا اغار عليهم قال فخرجنا الى خيبر فانتهينا اليهم ليلا فلما أصبح ولم يسمع أذانا ركب وركبنا وركبت خلف ابى طلحة وان قدمى لتمس قدم النبى صلى الله عليه وسلم قال فخرجوا الينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا والله محمد والخميس اى الجيش فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وروى اياس بن سلمة قال حدثنى ابى قال خرجنا الى خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعل عمى عامر يرتجز بالقوم ثم قال

تالله لولا الله ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا * فثبت الاقدام ان لاقينا

* وأنزلن سكينة علينا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا قال انا عامر فقال غفر لك ربك وما استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحد الا استشهد قال فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له يا نبى الله لولا متعتنا بعامر قال فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول

قد علمت خيبر انى مرحب * شاكى السلاح بطل مجرب

* اذا الحروب أقبلت تلهب *

قال فبرز له عامر بن عثمان فقال

قد علمت خيبر أنى عامر * شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب فى ترس عامر فرجع سيف عامر على نفسه فقطع اكحله فكانت فيها نفسه قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى فقلت يا رسول الله بطل عمل عامر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال ذلك قلت ناس من اصحابك قال من قال ذلك بل له اجره مرتين ثم ارسلنى الى على وهو ارمد فقال لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فأتيت عليا فجئت به اقوده وهو ارمد حتى اتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصق فى عينيه فبرئ واعطاه الراية وخرج مرحب وقال

أنا الذى سمتنى امى مرحب * شاكى السلاح بطل مجرب

(قلت) معناه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد لكنه حذف احدهما لدلالة المذكور عليه أو ان فعيلا يستوى فيه الواحد

فقال على كرم الله تعالى وجهه

أنا الذى سمتنى أمى حيدره * كليث غابات كريه المنظره

* أكيلكم بالسيف كيل السندره *

قال فضرب رأس مرحب فقتله ثم كان الفتح على يديه ومعنى * أكيلكم بالسيف كيل السندره * أى أقتلكم قتلا واسعا ذريعا والسندرة مكيال واسع قيل يحتمل ان يكون اتخذ من السندرة وهى شجرة يعمل منها النبل والقسى والسندرة ايضا العجلة والنون زائدة قال ابن الاثير وذكرها الجوهرى فى هذا الباب ولم ينبه على زيادتها وروى فتح خيبر من طرق أخر فى بعضها زيادات وفى بعضها نقصان عن بعض وقوله تعالى (وأخرى) صفة مغانم مقدرا مبتدأ وقيل هى مبتدأ والخبر (لم تقدروا عليها) وهى كما قال ابن عباس فارس والروم وما كانت العرب تقدر تقاتل فارس والروم بل كانوا خولا لهم حتى قدروا عليهما بالاسلام وقال الضحاك هى خيبر وعدها الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم قبل أن يصيبها ولم يكونوا يرجونها وقال قتادة هى مكة وقال عكرمة حنين وقال البقاعى هى والله أعلم غنائم هوازن التى لم يحصل قبلها ما يقاربها (قد أحاط الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (بها) أى علم انها ستكون لكم (وكان الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال أزلا وأبدا (على كل شئ) منها ومن غيرها (قديرا) أى بالغ القدرة لانه بكل شئ عليم (ولو قاتلكم الذين كفروا) وهم أهل مكة ومن وافقهم وكانوا قد اجتمعوا وجمعوا الاحابيش ومن أطاعهم وقدموا خالد بن الوليد طليعة لهم الى كراع الغميم ولم يكن اسلم بعد (لولوا) اى بغاية جهدهم (الادبار) منهزمين (ثم) اى بعد طول الزمان وكثرة الاعوان (لا يجدون) اى فى وقت من الاوقات (وليا) اى من يفعل معهم فعل القريب من الشفقة (ولا نصيرا) ينصرهم ولما كانت هذه عادة جارية قديمة مع اولياء الله تعالى حيثما كانوا من الرسل واتباعهم وان جندنا لهم الغالبون قال تعالى (سنة الله) اى سن المحيط بكل شئ علما غلبة انبيائه وأتباعهم (التى قد خلت من قبل) أى فيمن مضى من الامم كما قال تعالى لاغلبن أنا ورسلى (ولن تجد) أيها السامع (لسنة الله) اى الذى لا يخلف قوله لانه محيط بجميع صفات الكمال (تبديلا) اى تغييرا من مغير ما يغيرها بما يكون بدلها ثم عطف على ما تقديره هو الذى سن هذه السنة العامة قوله تعالى (وهو الذى كف) اى وحده (أيديهم) اى الذين كفروا من اهل مكة وغيرهم فان الكف مشروع لكل أحد (عنكم وايديكم) ايها المؤمنون (عنهم ببطن مكة) أى بالحديبية وقيل التنعيم وقيل وادى مكة وقيل داخل مكة (من بعد أن اظفركم) اى أظهركم (عليهم) وهذا تبيين لما تقدم من قوله تعالى ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار بتقدير انه كما كف أيديهم عنكم بالفرار وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم روى ثابت عن أنس بن مالك ان ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخذهم سلما فاستحياهم فنزلت هذه الآية وقال عبد الله بن مغفل المزنى كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بالحديبية فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن وعلى ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة فرفعته عن ظهره وعلى بن أبى طالب بين يديه يكتب كتاب الصلح فخرج

والاثنان والجمع قال تعالى والملائكة بعد ذلك ظهير أو قال ذلك رعاية لفواصل (قوله وقال قرينه) قاله هنا بالواو وقاله بعد بدونها الان

علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا فدعا عليهم نبى الله صلى الله عليه وسلم فاخذ الله أبصارهم فقمنا اليهم فاخذناهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جئتم فى عهد أو هل جعل لكم أحد أمانا قالوا اللهم لا فخلى سبيلهم فانزل الله تعالى هذه الآية وعن ابن عباس أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت وقيل ان ذلك كان يوم فتح مكة وبه استشهد أبو حنيفة على ان مكة فتحت عنوة لا صلحا (وكان الله) اى المحيط بالجلال والاكرام أزلا وأبدا وقرأ (بما يعملون) أبو عمرو بالياء التحتية اى الكفار والباقون بالتاء الفوقية اى أنتم (بصيرا) اى محيط العلم ببواطن ذلك كما هو محيط بظواهره ولما كان ما مضى من وصف الكفار يشمل كفار مكة وغيرهم عينهم بسبب كفهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن البيت الحرام بقوله تعالى (هم) اى اهل مكة ومن لاذهم (الذين كفروا) اى أوغلوا فى هذا الوصف ببواطنهم وظواهرهم (وصدوكم) زيادة على كفرهم فى عمرة الحديبية (عن المسجد الحرام) اى منعوكم الوصول الى مكة ونفس المسجد والكعبة للاحلال عما انتم فيه من شعائر الاحرام بالعمرة روى الزهرى عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم كل منهم مايصدق حديث صاحبه قالا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من اصحابه يريد زيارة البيت لا يريد قتالا وساق معه سبعين بدنة والناس سبعمائة رجل وكانت كل بدنة عن عشرة نفر فلما اتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عينا له من خزاعة يخبره عن قريش فسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بغدير الاشطاط قريبا من عسفان أتاه عتبة الخزاعى وقال ان قريشا قد جمعوا لك جموعا وقد جمعوا لك الاحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت الحرام فقال النبى صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس أترون انى اميل على ذرارى هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم فان قعدوا قعدوا موتورين وان نجوا تكن عنقا قطعها الله أو ترون نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه فقال ابو بكر يا رسول الله انما جئت عامدا لهذا البيت لا تريد قتال احد ولا حرب فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه قال امضوا على اسم الله فنفروا فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ماشعر بهم خالد حتى اذا هم بغبرة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش وسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس حل حل فالحت فقالوا خلأت اى حرنت القصواء فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يعظمون فيها حرمات الله وفيها صلة الرحم الا اعطيتهم اياها ثم زجرها فوثبت قال فعدل حتى نزل باقصى الحديبية على ثمد قليل من الماء يتبرضه الناس تبرضا فلم تلبث الناس أن نزحوه وشكا الناس الى النبى صلى الله عليه وسلم العطش فنزع سهما من كنانته واعطاه رجلا من أصحابه يقال له ناجية بن عمير وهو سائق بدن النبى صلى الله عليه وسلم فنزل فى البئر فغرزه فى جوفه فوالله مازال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه فبينما هم كذلك اذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل تهامة فقال انى تركت كعب

الاول خطاب للانسان من قرينه ومتعلق به فناسب ذكر الواو والثانى استئناف خطاب من الله غير متعلق بما قبله فناسب حذفها

ابن

ابن لؤى وعامر بن لؤى نزلا مع جمع أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت الحرام فقال النبى صلى الله عليه وسلم انا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاؤا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس فان أظهر فان شاؤا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا والا فقد جموا وان أبوا فو الذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره فقال بديل سأبلغهم ما تقول فانطلق حتى أتى قريشا فقال انا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فان شئتم ان نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشئ وقال ذوو الرأى منهم هات ما سمعته يقول قال سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبى صلى الله عليه وسلم فقام عروة بن مسعود الثقفى فقال أى قوم ألستم بالوالد قالوا بلى قال أولست بالولد قالوا بلى فقال فهل تتهمونى قالوا لا قال ألستم تعلمون انى استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا على جئتكم باهلى وولدى ومن اطاعنى قالوا بلى قال فان هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آتيه قالوا ائته فاتاه فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم نحوا من قوله لبديل فقال عروة عند ذلك اى محمد أرأيت ان استأصلت قومك فهل سمعت باحد من العرب اجتاح اصله قبلك وان تكن الاخرى فو الله انى ارى وجوها وأشوابا من الناس خليقا ان يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر الصديق امصص بظر اللات والعزى انحن نفر عنه وندعه فقال من ذا قالوا أبو بكر فقال اما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم اجزك بها لاجبتك قال وجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فكلما كلمه اخذ بلحيته والمغيرة قائم على رأس النبى صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر فكلما اهوى عروة بيده الى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع عروة رأسه وقال من هذا قالوا المغيرة بن شعبة فقال اى غدر ألست أسعى فى غدرتك وكان المغيرة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم واخذ أموالهم ثم جاء فاسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم اما الاسلام فاقبل واما المال فلست منه فى شئ ثم ان عروة جعل يرمق اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعينيه قال فو الله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة الا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده واذا امرهم ابتدروا أمره واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه واذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر اليه تعظيما له فرجع عروة الى أصحابه فقال اى قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى والله ان اى ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا والله ان اى ما تنخم نخامة الا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده واذا أمرهم ابتدروا أمره واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه واذا تكلم خفضوا أصواتهم وما يحدون النظر اليه تعظيما له وانه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل من بنى كنانة دعونى آتيه فقالوا ائته فلما اشرف على النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه قال النبى صلى الله عليه وسلم هذا فلان من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثوها له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء ان يصدوا عن البيت فلما رجع الى اصحابه قال رأيت البدن قد قلدت واشعرت فما

(قوله ألقيا) فان قلت كيف ثنى الفاعل مع انه واحد وهو مالك خازن النار (قلت) بل الفاعل مثنى وهما الملكان اللذان مر ذكرهما

اری ان یصدوا عن البیت ثم بعثوا الیه الحلیس بن علقمة وکان یومئذ سید الاحابیش فلما رآه
رسول الله صلی الله علیه وسلم قال ان هذا من قوم یتألهون فابعثوا بالهدی فی وجهه حتی
یراه فلما رأی الهدی یسیل علیه من عرض الوادی فی قلائده قد أکل اوتاده من طول الحبس
عن محله رجع الی قریش ولم یصل الی رسول الله صلی الله علیه وسلم اعظاما لما رأی فقال یا معشر
قریش انی قد رأیت ما لا یحل صده الهدی فی قلائده قد اکل اوتاده من طول الحبس عن محله
قالوا له اجلس فانما انت رجل اعرابی لا علم لک فغضب الحلیس عند ذلک وقال یا معشر قریش
والله ما علی هذا حالفناکم ولا علی هذا عاقدناکم ان تصدوا عن بیت الله من جاءه معظما له
والذی نفس الحلیس بیده لتخلن بین محمد وبین ما جاء له او لانفرن بالاحابیش نفرة رجل واحد
فقالوا له کف عنا یا حلیس حتی نأخذ لانفسنا ما نرضی به فقام رجل یقال له مکرز بن حفص
فقال دعونی آته فقالوا له ائته فلما اشرف علیهم قال النبی صلی الله علیه وسلم هذا مکرز وهو
رجل فاجر فجعل یکلم النبی صلی الله علیه وسلم فبینما هو یکلمه اذ جاءه سهیل بن عمرو قال عکرمة
لما رآه النبی صلی الله علیه وسلم قال قد سهل لکم من أمرکم قال الزهری فی حدیثه فجاء سهیل
ابن عمرو فقال هات نکتب بیننا وبینک کتابا فدعا رسول الله صلی الله علیه وسلم علی بن أبی طالب
فقال اکتب بسم الله الرحمن الرحیم فقال سهیل اما الرحمن فلا ادری ما هو ولکن اکتب
باسمک اللهم کما کنت تکتب فقال المسلمون والله لا نکتبها الا بسم الله الرحمن الرحیم فقال النبی
صلی الله علیه وسلم لعلی اکتب باسمک اللهم ثم قال اکتب هذا ما قاضی علیه محمد رسول الله
فقال سهیل والله لو کنا نعلم انک رسول الله ما صددناک عن البیت وما قاتلناک ولکن اکتب
محمد بن عبد الله فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم والله انی لرسول الله وان کذبتمونی اکتب
محمد بن عبد الله قال الزهری وذلک لقوله صلی الله علیه وسلم لا یسألونی خطة یعظمون فیها حرمات
الله الا اعطیتهم ایاها فکتب هذا ما قاضی علیه محمد بن عبد الله سهیل بن عمرو واصطلحا علی وضع
الحرب عشر سنین یأمن الناس فیه ویکف بعضهم عن بعض فقال له النبی صلی الله علیه وسلم
وعلی ان تخلوا بیننا وبین البیت فنطوف به فقال سهیل والله لا تتحدث العرب انا اخذنا ضغطة
ولکن ذلک من العام المقبل فکتب فقال سهیل وعلی ان لا یأتیک منا رجل وان کان علی دینک
الا رددته الینا فقال المسلمون سبحان الله کیف یرد الی المشرکین وقد جاء مسلما وروی ابن اسحق
عن البراء قصة الصلح وفیها قالوا لو نعلم انک رسول الله ما منعناک شیئا ولکن أنت محمد بن
عبد الله قال أنا رسول الله وانا محمد بن عبد الله ثم قال لعلی امح رسول الله فقال والله لا امحوک
أبدا فقال فارنیه فاراه ایاه فمحاه النبی صلی الله علیه وسلم بیده وفی روایة فاخذ رسول الله صلی
الله علیه وسلم الکتاب ولیس یحسن یکتب فکتب هذا ما قاضی محمد بن عبد الله قال البراء صالح
علی ثلاثة اشیاء علی ان من أتی من المشرکین یرده الیهم ومن اتاهم من المسلمین لم یردوه وعلی ان
یدخلها من قابل ویقیم بها ثلاثة ایام ولا یدخلها بجلبان السلاح السیف والقوس ونحوه
وروی فی صلح الحدیبیة طرق اخر فی بعضها زیادات وفی بعضها نقصان عن بعض وقوله تعالی
(والهدی) معطوف علی کم من صدوکم أی وصدوا الهدی وهو البدن التی ساقها رسول الله
صلی الله علیه وسلم وکانت سبعین وقوله تعالی (معکوفا) ای محبوسا حال وقوله تعالی

بقوله وجاءت کل نفس معها سائق وشهید اوان تثنیة الفاعل أقیمت مقام تکرار الفعل للتأکید واتحادهما حکما فکأنه

(ان يبلغ محله) اى مكانه الذى ينحر فيه عادة وهو الحرم بدل اشتمال (ولولا رجال) اى مقيمون
بين اظهر الكفار بمكة (مؤمنون) اى عريقون فى الايمان فكانوا لذلك اهلا للوصف
بالرجولية (ونساء مؤمنات) اى كذلك حبس الكل عن الهجرة العذر لان الكفار لكثرتهم
استضعفوهم فمنعوهم الهجرة على ان ذلك شامل لمن جبله الله تعالى على الخير وعلم منه الايمان
وان كان فى ذلك الوقت كافرا (لم تعلموهم) اى لم يحط علمكم بهم من جميع الوجوه لتميزوهم
باعيانهم عن المشركين لانهم ليس لهم قوة التمييز منهم وانتم لا تعرفون اماكنهم لتعاملوهم بما
هم له اهل ولا سيما فى حال الحرب والطعن والضرب ثم ابدل من الرجال والنساء قوله تعالى (ان
تطؤهم) أى تؤذوهم بالقتل او ما يقاربه من الجراح والضرب والنهب ونحو ذلك ومنه قوله
صلى الله عليه وسلم اللهم اشدد وطأتك على مضر (فتصيبكم) اى فيتسبب عن هذا الوطء ان
تصيبكم (منهم) اى من جهتهم وبسببهم (معرة) اى مكروه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم
والتأسف عليهم وتعيير الكفار بذلك والاثم بالتقصير فى البحث مفعلة من عره اذا عراه ما يكرهه
وقوله تعالى (بغير علم) متعلق بان تطؤهم أى غير عالمين بهم وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام
عليه والمعنى ولولا كراهة ان تهلكوا اناسا مؤمنين بين اظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم
باهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم (فان قيل) اى معرة تصيبهم اذا قتلوهم وهم لا يعلمون
(اجيب) بانهم يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين انهم فعلوا باهل دينهم مثل
ما فعلوا بنا من غير تمييز والاثم اذا جرى منهم بعض التقصير وقوله تعالى (ليدخل الله) اى
الذى له جميع صفات الكمال متعلق بمقدر اى كان انتفاء التسليط على أهل مكة وانتفاء العذاب
ليدخل الله قال البغوى اللام فى ليدخل متعلق بمحذوف دل عليه معنى الكلام يعنى ليدخل
الله (فى رحمته) أى فى اكرامه وانعامه (من يشاء) بعد الصلح قبل أن يدخلوها من المشركين
بان يعطفهم الى الاسلام ومن المؤمنين بان يستنقذهم منهم على أرفق وجه وقوله تعالى (لو
تزيلوا) يجوز أن يعود على المؤمنين فقط او على الكافرين او على الفريقين والمعنى لو تميز هؤلاء
من هؤلاء (لعذبنا) اى بايديكم بتسليطنا لكم عليهم بالقتل والسبى (الذين كفروا) اى اوقعوا
ستر الايمان (منهم) اى اهل مكة (عذابا اليما) اى شديد الايجاع قال قتادة فى الآية ان الله
تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكافرين كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركى مكة * ولما بين
شرط استحقاقهم للعذاب بين وقته وفيه بيان العلة فقال تعالى (اذ) اى حين (جعل الذين
كفروا) اى ستروا ما تراءى من الحق فى مرائى عقولهم وقوله تعالى (فى قلوبهم) اى فى قلوب
انفسهم يجوز ان يتعلق بجعل على انها بمعنى القى فتتعدى لواحد اى اذ القى الكافرون فى قلوبهم
الحمية وان يتعلق بمحذوف على انه مفعول ثان قدم على انها بمعنى صير (الحمية) اى المنع الشديد
والاباء الذى هو فى شدة حره ونفوذه فى اشد الاجسام كالسم والنار وانشدوا

الا انى منهم وعرضى عرضهم * كذا الرأس يحمى انفه أن يهشما

وقرأ ابو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر
الهاء وضم الميم وأظهر الذال عند الجيم نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وادغمها الباقون
وقوله تعالى (حمية الجاهلية) بدل من الحمية قبلها ووزنها فعيلة وهى مصدر يقال حميت من

قال القارى كقول امرئ القيس قفا نبك او ان العرب اكثر ما يرافق الرجل منهم اثنين فكثر على السنتهم خطابهما يقال خليلى

كذا حمية وحمية الجاهلية هي التي مدارها مطلق المنع سواء كان بحق أم باطل فتمنع من الاذعان للحق ومبناها على التشفي على مقتضى الغضب لغير الله فتوجب تخطي حدود الشرع ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواء قال مقاتل قال أهل مكة قتلوا أبناءنا واخواننا ثم يدخلون علينا فتتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لا يدخلونها علينا فهذه حمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم (فأنزل الله) اى الذي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء بسبب حميتهم (سكينته) اى الشيء اللائق اضافته اليه سبحانه من الفهم عن الله والروح الموجب لسكون القلب المؤثر للاقدام على العدو والنصر عليه انزالا كافيا (على رسوله) الذي عظمته من عظمته ففهم عن الله مراده في هذه القضية فجرى على أتم ما يرضيه (وعلى المؤمنين) أي العريقين في الايمان لانهم اتباع رسوله وانصار دينه فالزمهم قبول أمره وحماهم من همزات الشياطين ولم يدخلهم ما دخل الكفار من الحمية فيقاتلوا غضبا لانفسهم فيتعدوا حدود الشرع (وألزمهم) أي المؤمنين الزام اكرام وتشريف لا الزام اهانة وتعنيف (كلمة التقوى) فانها السبب الاقوى وهي كل قول أو فعل ناشيء عن التقوى واعلاء كلمة الاخلاص المتقدمة في القتال وهي لا اله الا الله التي هي أحق الحق ولابد من قول محمد رسول الله والا لم يتم اسلامه وعن الحسن كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ومعنى اضافتها الى التقوى انها سبب التقوى وأساسها وقيل كلمة أهل التقوى وقيل هي بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله (وكانوا) أي جبلة وطبعا (أحق بها) أي بكلمة التقوى من الكفار (وأهلها) أي وكانوا أهلها في علم الله تعالى لان الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير (وكان الله) أي المحيط علما وقدرة (بكل شيء) من ذلك وغيره (عليما) أي محيط العلم * وروى أنه صلى الله عليه وسلم رأى في المنام في المدينة عام الحديبية قبل خروجه انه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين ويحلقون ويقصرون فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا فلما خرجوا معه وصدهم الكفار بالحديبية رجعوا وشق عليهم ذلك وراب بعض المنافقين فأنزل الله قوله تعالى (لقد صدق الله) أي الذي لا كفء له المحيط بجميع صفات الكمال (رسوله) الذي هو أعز الخلائق عنده وهو غني عن الاخبار عما لا يكون أنه يكون فكيف اذا كان المخبر رسوله (الرؤيا) التي هي من الوحي أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه تعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علوا كبيرا فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله تعالى صدقوا ما عاهدوا الله عليه وروى عن مجمع بن جارية الانصاري قال شهدنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انصرفنا عنها اذا الناس يهزون الاباعر فقال بعضهم ما بال الناس قالوا أوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فخرجنا نرجف فوجدنا النبي صلى الله عليه وسلم واقفا على راحلته على كراع الغميم فلما اجتمع عليه الناس قرأ انا فتحنا لك فتحا مبينا فقال عمر أوفتح هو يا رسول الله قال نعم والذي نفسي بيده ففيه دليل على ان المراد بالفتح صلح الحديبية وتحقيق الرؤيا كان في العام المقبل فقال جل ذكره لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق أخبر ان الرؤيا التي أراه اياها في مخرجه الى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام صدق وحق وقوله تعالى (بالحق) فيه أربعة أوجه أحدها انه يتعلق بصدق ثانيها أن يكون صفة لمصدر محذوف أي صدقا ملتبسا بالحق اى بالغرض الصحيح

والحكمة

وصاحبي وقفا ونحوها (قوله غير بعيد) * ان قلت لم يقل غير بعيدة لكونه وصفا للجنة (قلت) لان فعيلا يستوى فيه المذكر والمؤنث

والحكمة البالغة وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن الخالص وبين من في قلبه مرض ثالثها ان يتعلق بمحذوف على أنه حال من الرؤيا أي ملتبسة بالحق رابعها انه قسم وجوابه (لتدخلن) أي بعد هذا دخولا قد تحتم أمره (المسجد) أي الذي يطاف فيه بالكعبة ولا يكون دخوله الا بدخول الحرم (الحرام) أي الذي أجاره من امتهان الجبابرة ومنعه من كل ظالم قال الزمخشري وعلى تقديره قسما اما أن يكون قسما بالله تعالى فان الحق من أسمائه تعالى واما أن يكون قسما بالحق الذي هو نقيض الباطل (فان قيل) ما وجه دخول (ان شاء الله) أي الذي له الاحاطة بصفات الكمال (أجيب) باوجه احدها أنه تعالى ذكره تعليما لعباده الادب لان يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدبين بآداب الله ومقتدين بسنته لقوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ثانيها أن يريد لتدخلن جميعا ان شاء الله ولم يمت منكم أحد ثالثها ان ذلك كان على لسان ملك فادخل الملك ان شاء الله رابعها انها حكاية ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه وقص عليهم وقال أبو عبيدة ان بمعنى اذ مجازه اذ شاء الله كقوله تعالى ان كنتم تعلمون خامسها انه للتبرك وقيل هي متعلقة بآمنين فالاستثناء واقع على الامن لا على الدخول لان الدخول لم يكن فيه شك كقوله صلى الله عليه وسلم عند دخول المقبرة وانا ان شاء الله بكم لاحقون فالاستثناء راجع الى اللحوق لا الى الموت وقوله تعالى (آمنين) حال من فاعل لتدخلن وكذا (محلقين رؤسكم) اى كلها (ومقصرين) أي بعضها اى منقسمين بحسب التحليق والتقصير الى قسمين لا تخشون الا الله تعالى وفيه اشارة الى أنهم يتمون الحج من أوله الى آخره فقوله لتدخلن فيه اشارة الى الاول وقوله محلقين ومقصرين الى الآخر (فان قيل) محلقين حال الداخلين والداخل لا يكون الا محرما والمحرم لا يكون محلقا (أجيب) بان قوله آمنين معناه متمكنين من أن تتموا الحج محلقين ومقصرين وأشار بصيغة التفعيل الى الكثرة فيهما غير أن التقديم يفهم ان الاول أكثر وقوله تعالى (لا تخافون) أي لا يتجدد لكم خوف بعد ذلك يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون حالا ثالثة اما من فاعل لتدخلن أو من ضمير آمنين أو محلقين أو مقصرين فان كانت حالا من آمنين او حالا من فاعل لتدخلن فهي حال للتوكيد وآمنين حال مقارنة وما بعدها حال مقدرة الا قوله لا تخافون اذا جعل حالا فانها مقدرة أيضا (فان قيل) قوله تعالى لا تخافون معناه غير خائفين وذلك يحصل بقوله تعالى آمنين (أجيب) بان فيه كمال الامن لان بعد الحلق يخرج الانسان عن الاحرام فلا يحرم عليه القتال وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال تدخلون آمنين وتحلقون ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الاحرام (فعلم) أي الله في الصلح من المصلحة (ما لم تعلموا) من المصالح فان الصلاح كان في الصلح وان دخولكم في سنتكم سبب لوطء المؤمنين والمؤمنات وهو قوله تعالى ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات الآية (فان قيل) الفاء في قوله تعالى فعلم فاء التعقيب فقوله تعالى فعلم وقع عقب ماذا (أجيب) بانه ان كان المراد من فعلم وقت الدخول فهو عقب صدق وان كان المراد فعلم المصلحة فالمراد علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب والتقدير لما حصلت المصلحة في العام القابل فعلم ما لم تعلموا من المصلحة المتجددة (فجعل) أي بسبب احاطة علمه (من دون) اى أدنى رتبة من (ذلك) اى الدخول العظيم في هذا العام (فتحا

اولانه صفة لذكر محذوف (فان) اى مكانا غير بعيد (قلت) ما فائدة قوله غير بعيد بعد قوله ازلفت بمعنى قربت (قلت) فائدته التأكيد

قريبا) يقوى بكم به من فتح خيبر، ووضع الحرب بين العرب بهذا الصلح واختلاط بعض الناس بسبب ذلك ببعض الموجب لاسلام ناس كثيرة تتقوون بهم فتكون تلك الكثرة والقوة سبب هيبة الكفار المانعة لهم من القتال فتقل القتلى ترفقا باهل حرم الله اكراما لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله) أى الذى لا رسول أحق منه باضافته اليه (بالهدى) أى الكامل الذى يقتضى أن يهتدى به أكثر الناس تأكيد لبيان صدق الله تعالى للرؤيا لانه لما كان مرسلا لرسوله ليهدى لا يريه ما لا يكون فيحدث الناس فيظهر خلافه فيكون ذلك سببا للضلال (فان قيل) الرؤيا الواقع قد تقع لغير المرسل (أجيب) بان ذلك قليل لا يقع لكل أحد * (تنبيه) * الهدى يحتمل أن يكون هو القرآن كقوله تعالى أنزل فيه القرآن هدى للناس وعلى هذا قوله تعالى (ودين الحق) هو ما فيه من الاصول والفروع ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة أى أرسله بالمعجزة فيكون قوله تعالى ودين الحق اشارة الى ما شرع والالف واللام فى الهدى يحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى ذلك هدى الله يهدى به من يشاء وأن تكون للتعريف اى كل ما هو هدى * (تنبيه) * دين الحق يحتمل أن يكون المراد دين الله لان الحق من أسماء الله تعالى ويحتمل أن يكون الحق نقيض الباطل فكأنه قال ودين الامر الحق (ليظهره) أى دينه (على الدين كله) أى بجميع باقى الاديان (وكفى بالله) اى الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (شهيدا) اى على أنك مرسل بما ذكر كما قال تعالى (محمد رسول الله) أى الملك الذى لا كفء له فهو الرسول الذى لا رسول يساويه فانه رسول الى جميع الخلق من أدرك زمانه بالفعل فى الدنيا ومن تقدمه بالقوة فيها او بالفعل فى الآخرة يوم يكون الكل تحت لوائه وقد أخذ على الانبياء كلهم الميثاق بان يؤمنوا به ان أدركوه وأخذ ذلك الانبياء على أممهم واشار بذكر هذا الاسم بخصوصه فى سورة الفتح الى أنه صلى الله عليه وسلم هو الخاتم بما أشارت اليه الميم التى مخرجها ختام المخارج واستنبط بعض العلماء من محمد ثلثمائة وأربعة عشر رسولا فقال فيه ثلاث ميمات واذا بسطت كلا منها قلت فيه م ى م وعدتها بحساب الجمل الكبير تسعون فيحصل منها مائتان وسبعون واذا بسطت الحاء والدال قلت دال بخمسة وثلاثين وحاء بتسعة فالجملة ما ذكر والاسم واحد فتم عدد الرسل كما قيل انهم ثلثمائة وخمسة عشر وقد تقدم الكلام على أولى العزم منهم فى سورة الاحقاف * (تنبيه) * يجوز أن يكون محمد خبر مبتدا مضمر لانه لما تقدم هو الذى أرسل رسوله دل على ذلك المقدر أى هو اى الرسول بالهدى محمد ورسول الله بدل أو بيان أو نعت وأن يكون محمد مبتدأ وخبره رسول الله وقيل غير ذلك ولما ذكر الرسول ذكر المرسل اليهم فقال تعالى (والذين معه) أى بمعية الصحبة من الصحابة وحسن التبعية من التابعين لهم باحسان (اشداء) أى غلاظ (على الكفار) منهم لا تأخذهم بهم رأفة بل هم معهم كالاسد على فريسته لان الله تعالى أمرهم بالغلظة عليهم لا يرحمونهم (رحماء بينهم) أى متعاطفون متوادون كالوالد مع الولد كما قال تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وعن الحسن بلغ من تشددهم على الكفار انهم كانوا يتحرزون من ثيابهم ان تلزق بثيابهم ومن ابدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من تراحمهم فيما بينهم انه كان لا يرى مؤمن مؤمنا الا صافحه وعانقه ومن حق المسلمين فى كل زمان أن يراعوا [٣] هذا

التذلل

بكفوا هو قريب غير بعيد وعزيز غير ذليل (قوله ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) اى داع والا فكل إنسان له قلب بل كل

[٣] قوله هذا التذلل كذا فى جميع النسخ التى بايدينا وفى الكشاف هذا التشدد وهو المناسب اه مصحح

التذلل وهذا التعطف فيشددوا على من ليس من دينهم ويتحاموه ويعاشروا اخوانهم المؤمنين في الاسلام متعطفين بالبر والصلة والمعونة وكف الاذى والاحتمال منهم * (تنبيه) * والذين معه مبتدأ خبره أشداء على الكفار ورحماء بينهم خبر ثان وقيل غير ذلك ثم بين تعالى الحامل لهم على ذلك بقوله سبحانه وتعالى (تراهم) اي أيها الناظر اليهم (ركعا سجدا) أي دائمي الخشوع فاكثر أوقاتهم صلاة قد غلبت صفة الملكية على صفاتهم الحيوانية فكانت الصلاة آمرة بالخير مصيبة عن كل نقص وضير ثم أشار الى اخلاصهم بقوله تعالى (يبتغون) أي يطلبون بذلك وغيره من جميع احوالهم بغاية جهدهم تغليبا لعقولهم على شهواتهم وحظوظهم (فضلا) أي زيادة من الخير (من الله) اي الذي له الاحاطة بصفات الكمال من الجلال والجمال الذي أعطاهم ملكة العظمة على الكفار وجعلهم من جلاله والرأفة على أوليائه (ورضوانا) أي رضا منه عظيما بما نالهم من رحمته التي هيأهم بها للاحسان الى عياله فنزعوا الهوى من صدورهم فصاروا يرونه وحده سيدهم المحسن اليهم لا يرون سيدا غيره ولا محسنا سواه ثم بين كثرة صلاتهم بقوله تعالى (سيماهم) اي علامتهم التي لا تفارقهم (في وجوههم) ثم بين تعالى العلامة بقوله (من أثر السجود) وهو نور وبياض في وجوههم يوم القيامة كما قال تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه رواه عطية العوفي عن ابن عباس * وعن أنس هو استنارة وجوههم من كثرة صلاتهم وقال شهر بن حوشب تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر * وقال مجاهد هو السمت الحسن والخشوع والتواضع والمعنى ان السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن الذي يعرفون به وقال الضحاك هو صفرة الوجه وقال الحسن اذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى وقال عكرمة هو أثر التراب على الجباه قال أبو العالية لانهم يسجدون على التراب لا على الثياب وقال عطاء استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل لان من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار قال بعضهم دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس قال البقاعي ولا يظن ان من السيما ما يصنعه بعض المرائين من أثر هيئة السجود في جبهته فان ذلك من سيما الخوارج وفي نهاية ابن الاثير في تفسير الثفنات ومنه حديث أبي الدرداء انه رأى رجلا بين عينيه مثل ثفنة البعير فقال لو لم يكن هذا كان خيرا يعني كان على جبهته أثر السجود وانما كرهها خوفا من الرياء عليه وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اني لابغض الرجل وأكرهه اذا رأيت بين عينيه اثر السجود وعن بعض المتقدمين كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحدنا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير فلا ندري أثقلت الرؤس أم خشنت الارض وانما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق ثم أشار تعالى الى علو مرتبة ذلك الوصف بقوله سبحانه (ذلك) أي هذا الوصف العالي جدا البديع المثال البعيد المنال (مثلهم) أي صفتهم (في التوراة) وههنا تم الكلام فان مثلهم مبتدأ وخبره في التوراة وقوله تعالى (ومثلهم في الانجيل) اي الذي نسخ الله تعالى به بعض أحكام التوراة مبتدأ وخبره (كزرع) اي مثل زرع (اخرج شطأه) أي فراخه يقال أشطأ الزرع اذا فرخ وهل يختص ذلك بالحنطة فقط أو بها وبالشعير أو لا يختص خلاف مشهور قال الشاعر

حيوان او المراد بالقلب العقل

* (سورة الذاريات) *

(قوله انما توعدون لصادق)

* ان قلت كيف قال ذلك

قوله في تفسير الثفنات كذا بالنسخ التي بايدينا ولعله الثفنات اه مصححه

أخرج الشطأ على وجه الثرى * ومن الاشجار أفنان الثمر

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء والباقون باسكانها وهما لغتان كالنهر والنهر وأدغم ابو عمرو الجيم في الشين بخلاف عنه ثم سبب عن هذا الاخراج قوله تعالى (فآزره) أي قواه واعانه وقرأ ابن ذكوان بقصر الهمزة بعد الفاء والباقون بالمد (فاستغلظ) أي فطلب المذكور من الزرع والشطء الغلظ وأوجده فتسبب عن ذلك اعتداله (فاستوى) اى قوى واستقام وقوله تعالى (على سوقه) متعلق باستوى ويجوز أن يكون حالا أى كائنا على سوقه اى قائما عليها هذا مثل ضربه الله تعالى لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الانجيل أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون قال قتادة مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الانجيل مكتوب انه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقيل الزرع محمد صلى الله عليه وسلم والشطء اصحابه والمؤمنون وروى مبارك بن فضالة عن الحسن قال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أبو بكر الصديق أشداء على الكفار عمر بن الخطاب رحماء بينهم عثمان بن عفان تراهم ركعا سجدا علي بن ابي طالب يبتغون فضلا من الله العشرة المبشرون بالجنة كمثل زرع محمد صلى الله عليه وسلم أخرج شطأه ابو بكر فآزره عمر فاستغلظ عثمان يعني استغلظ عثمان بالاسلام فاستوى على سوقه علي بن ابي طالب رضي الله عنه استقام الاسلام بسيفه (يعجب الزراع) قال المؤمنون (ليغيظ بهم الكفار) قول عمر لاهل مكة بعدما أسلم لا يعبد الله سرا بعد اليوم روى انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ارحم امتي ابو بكر واشدهم في امر الله عمر واصدقهم حياء عثمان وافرضهم زيد واقرؤهم أبي واعلمهم بالحرام والحلال معاذ بن جبل ولكل أمة امين وامين هذه الامة ابو عبيدة بن الجراح وفي رواية اخرى وأقضاهم علي وروى بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من مات من اصحابي بارض كان نورهم وقائدهم يوم القيامة * (تنبيه) * يعجب حال اى معجبا وهنا تم الكلام وقوله تعالى ليغيظ بهم الكفار فيه اوجه احدها انه متعلق بمحذوف دل عليه تشبيههم بالزرع في نمائهم وقوتهم قال الزمخشري اى شبههم الله تعالى بذلك ليغيظ ثانيها انه متعلق بما دل عليه قوله تعالى اشداء على الكفار الخ اى جعلهم بهذه الصفات ليغيظ ثالثها انه متعلق بقوله تعالى (وعد الله) اى الملك الاعظم (الذين آمنوا) لان الكفار اذا سمعوا بعزة المؤمنين في الدنيا وما اعد الله لهم في الآخرة غاظهم ذلك وقوله تعالى (وعملوا الصالحات) فيه اشارة الى تصديق دعواهم ومن في قوله تعالى (منهم) للبيان لا للتبعيض لانهم كلهم كذلك فهي كقوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان * ولما كان الانسان وان اجتهد مقصرا عما يجب لله تعالى من العبادة أشار الى ذلك بقوله تعالى (مغفرة) اى لما يقع منهم من الذنوب والهفوات (واجرا عظيما) بعد ذلك الستر وهو الجنة وهما يضاهان بعدهم عمن ياتي * (فائدة) * قد جمعت هذه الآية الخاتمة لهذه السورة جميع حروف المعجم وفي ذلك بشارة تلويحية مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع امرهم وعلو نصرهم رضي الله عنهم وحشرنا معهم نحن ووالدينا ومحبينا وجميع المسلمين بمنه وكرمه قال وهذا آخر القسم الاول من القرآن وهو المطول وقد ختم كما ترى

أمع ان الصادق وصف لواعد لا لما يوعد (قلت) وصف به ما يوعد مبالغة وهو بمعنى مصدوق كعيشة راضية وماء دافق

بسورتين هما في الحقيقة للنبي صلى الله عليه وسلم وحاصلهما الفتح بالسيف والنصر على من قاتله ظاهرا كما ختم القسم الثاني المفصل بسورتين هما نصرة له صلى الله عليه وسلم بالحال على من قصده بالضر باطنا اه وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة حديث موضوع وقال ابن عادل روى أن من قرأ في أول ليلة من رمضان انا فتحنا لك فتحا مبينا في التطوع حفظ في ذلك العام ولم أره لغيره اه

سورة الحجرات مدنية

وهي ثمان عشرة آية وثلثمائة وثلاث وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الجبار المتكبر الذي أعز رسوله صلى الله عليه وسلم (الرحمن) الذي من عموم رحمته الآداب للتوصل الى حسن المآب (الرحيم) الذي خص أولي الالباب بالاقبال على ما يوجب لهم دار الثواب * ولما أمره سبحانه في القتال بذكر النبي صلى الله عليه وسلم وصرح في ابتدائها باسمه الشريف وهي السورة به وملأ سورة الفتح بتعظيمه وختمها باسمه ومدح اتباعه لاجله افتتح هذه السورة باشتراط الآداب معه في القول والفعل فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا) اى أقروا بالايمان (لا تقدموا) من قدم بمعنى تقدم اى لا تتقدموا وحذف المفعول ليعم كل ما يصح تقديمه فيذهب الوهم كل مذهب ويجوز ان يكون حذفه من غير قصد اليه أصلا بل يكون النهي موجها الى نفس التقدمة أي لا تتلبسوا بهذا الفعل (بين يدي الله) أى الملك الاعظم الذي لا يطاق انتقامه (ورسوله) أى الذي عظمته ظاهرة جدا ٣ لانهاية له لان عظمته من عظمته ولذلك قرن اسمه باسمه واختلف في سبب نزول ذلك فقال الشعبي عن جابر انه في الذبح يوم الاضحى قبل الصلاة أى لا تذبحوا قبل ان يذبح النبي صلى الله عليه وسلم وذلك ان أناسا ذبحوا قبله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يعيدوا الذبح وقال من ذبح قبل الصلاة فانما هو لحم عجله لاهله ليس من النسك في شئ وعن مسروق عن عائشة رضي الله عنها انه في النهي عن صوم يوم الشك اى لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم وعن ابن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر أمر القعقاع بن معبد بن زرارة وقال عمر بل أمر الاقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت الا خلافي فقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت هذه الآية قال ابن الزبير فكان عمر لا يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه وعن ابن أبي مليكة نزل يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم وهذا أنسب وقال الضحاك يعني في القتال وشرائع الدين اى لا تقطعوا أمرا دون الله ورسوله قال الرازي والاصح أنه ارشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل افتيات وتقدم واستبداد بالامر واقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة * (تنبيه) * معنى بين يدي الله ورسوله اى بحضرتهما لان ما بحضرة الانسان فهو بين يديه ناظر اليه وحقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعا كما يسمى الشئ باسم

(قوله ان المتقين في جنات وعيون آخذين) ختم الآية هنا بقوله وعيون آخذين وفي الطور بقوله وتعيم فاكهين لان ما هنا

٣ قوله لانهاية له كذا بالنسخ والظاهر لانهاية لها اه مصححه

غيره اذا جاوره ودا ناه في غير موضع وقد جرت هذه العبارة هنا على ضرب من المجاز وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلا وقيل المراد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعالى تعظيم له واشعار بانه من الله تعالى بمكان يوجب اجلاله (واتقوا الله) اجعلوا بينكم وبين غضب الملك الاعظم وقاية فان التقوى مانعة من أن تضيعوا حقه وتخالفوا أمره او تقدموا على شئ لم تعلموا رضاه فيه (ان الله) أي الذي له الاحاطة بصفات الكمال (سميع) لاقوالكم (عليم) باعمالكم ونزل فيمن رفع صوته عند النبي عليه الصلاة والسلام (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) أي في شئ من الاشياء عند النطق اذا نطقتم (فوق صوت النبي) اذا نطق ه(تنبيه)ه في اعادة النداء فوائد منها ان في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كقول لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله يا بني انها ان تك يا بني أقم الصلوة لان النداء تنبيه للمنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه فاعادته تفيد تجدد ذلك ومنها أن لا يتوهم أن المخاطب ثانيا غير المخاطب أولا فان من الجائز أن يقول القائل يا زيد افعل كذا وكذا يا عمرو فاذا أعاد مرة أخرى وقال يا زيد قل يا زيد قل كذا وقل كذا يعلم ان المخاطب أولا هو المخاطب ثانيا ومنها أن يعلم ان كل واحد من الكلامين مقصود وليس الثاني تأكيدا للاول كقولك يا زيد لا تنطق ولا تتكلم الا بالحق وأنه لا يحسن أن يقول يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين (ولا تجهروا له بالقول) اى اذا كلمتموه سواء كان ذلك مثل صوته او أخفض من صوته فان ذلك غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء (كجهر بعضكم لبعض) أي ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم بل اجعلوا أصواتكم أخفض من ذلك فانكم ان لم تفعلوا ذلك لم يظهر فرق بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين غيره (فان قيل) ما الفائدة في ولا تجهروا بعد لا ترفعوا (أجيب) بان المنع من رفع الصوت هو أن لا يجعل كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وصوته والنهي عن الجهر منع من المساواة اى لا تجهروا له بالقول كما تجهرون لنظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا ثم حذرهم بقوله تعالى (أن) اى كراهة أن (تحبط) أي تفسد فتسقط (أعمالكم) التي هي الاعمال بالحقيقة وهي الحسنات كلها (وانتم لا تشعرون) اى بانها حبطت فان ذلك اذا اجترأ الانسان عليه استخف به واذا استخف واظب عليه واذا واظب عليه اوشك أن يستخف بالمخاطب فيكفر وهو لا يشعر روى أنس ابن مالك قال لما نزل قوله تعالى يا أيها الذين امنوا لا ترفعوا أصواتكم الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال أنا من أهل النار واحتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم فسأل النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو ما شأن ثابت اشتكى فقال سعد انه لجاري وما علمت له شكوى قال فاتاه سعد فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثابت نزلت هذه الآية وقد علمتم أني من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانا من أهل النار فذكر ذلك سعد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال بل هو من أهل الجنة وروى لما نزلت هذه الآية قعد ثابت في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدى فقال ما يبكيك يا ثابت قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في وأنا رفيع الصوت أخاف أن يحبط عملي وأن أكون من أهل النار فمضى عاصم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فاتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن

سلول

متصل بما به يصل الانسان الى الجنات وهو قوله انهم كانوا قبل ذلك محسنين الآيات وما في الطور متصل بما يناله الانسان

سلول فقال لها اذا دخلت بيت فرشى فسدى على الضبة بمسمار فضربت عليه بمسمار وقال لا أخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتى عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره خبره فقال اذهب فادعه لى فجاء عاصم الى المكان الذى رآه فيه فلم يجده فجاء الى أهله فوجده فى بيت الفرش فقال له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك فقال اكسر الضبة فاتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا ثابت فقال أنا صيت فاخاف أن تكون هذه الآية نزلت فىّ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة فقال رضيت ببشرى الله ورسوله لا أرفع صوتى أبدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل (ان الذين يغضون) أى يخفضون ويلينون لما وقع عليهم من السكينة من هيبة حضرته قال الطبرى وأصل الغض الكف فى لين (أصواتهم) تخشعا وتخضعا ورعاية للادب وتوقيرا (عند رسول الله) اى الذى من شأنه أن يعلو كلامه على كل كلام لانه مبلغ عن الملك الاعظم وعبر بعند الذى للظاهر اشارة الى ان أهل حضرة الخصوصية لا يقع منهم الا أكمل الادب (أولئك) أى عالو الرتبة (الذين امتحن الله) اى فعل المحيط بجميع صفات الكمال فعل المختبر (قلوبهم للتقوى) أى اختبرها وأخلصها التطهر منهم من امتحن الذهب اذا أذابه وميز ابريزه من خبثه فان الامتحان اختبار بليغ يؤدى الى خبر فالمعنى أنه طهر قلوبهم ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب والفضة بالاذابة والتنقية والتخليص من كل غش لاجل اظهار ما بطن فيها من التقوى ليصير معلوما للخلق فى عالم الشهادة كما كان له سبحانه فى عالم الغيب (لهم مغفرة) أى لهفواتهم وزلاتهم (وأجر عظيم) لغضهم وسائر طاعاتهم والتنكير للتعظيم قال أنس فكنا اى بعد نزول هذه الآية فى حق ثابت ننظر الى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا فلما كان فى يوم حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار فانهزمت طائفة منهم فقال أف لهؤلاء ثم قال ثابت لسالم مولى ابى حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا وقاتلا حتى قتلا واستشهد ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام فقال له اعلم أن فلانا رجل من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهى فى ناحية من العسكر عند فرس يستن فى طوله وقد وضع على درعى قوبه فات ابا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقل له ان علىّ دينا حتى يقضيه عنى وفلان من رقيقى عتيق فاخبر الرجل خالدا فوجد درعه والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤية فاجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن انس لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها الا هذه واختلف فى سبب نزول قوله عز وجل (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) فقال ابن عباس رضى الله عنهما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الى بنى النضير وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزارى فلما علموا انه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم فسباهم عيينة وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءهم بعد ذلك رجالهم يفدون الذرارى فقدموا وقت الظهيرة ووافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا فى أهله فلما رأتهم الذرارى اجهشوا الى آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرة فعجلوا أن يخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه

فيها وهو قوله ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا الآية (قوله ومن كل شئ خلقنا زوجين) اثنين أى صنفين (فان

وسلم فجعلوا ينادون يا محمد اخرج الينا حتى أيقظوه من نومه فخرج اليهم فقالوا يا محمد فادنا عيالنا فنزل جبريل عليه السلام فقال ان الله تبارك وتعالى يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أترضون أن يكون بيني وبينكم شبرمة بن عمرو وهو على دينكم فقالوا نعم فقال شبرمة أنا لا أحكم بينهم وعمي شاهد وهو الاعور بن بشامة فرضوا به فقال الاعور أرى أن تفادى نصفهم وتعتق نصفهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رضيت ففادى نصفهم وأعتق نصفهم فأنزل الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات جمع حجرة وهي ما تحجره من الارض بحائط ونحوه كان كل واحد منهم نادى خلف حجرة لانهم لم يعلموه في أيها منادا ة الاعراب بغلظة وجفاء (أكثرهم) أي المنادى والراضي دون الساكت المنذر (لا يعقلون) أي محلك الرفيع وما يناسبه من التعظيم فلم يصبروا بل فعلوا معه صلى الله عليه وسلم كما يفعل بعضهم ببعض (ولو أنهم) اى المنادى والراضي (صبروا) أي حبسوا أنفسهم ومنعوها عن مناداتهم والصبر حبس النفس عن ان تنازع الى هواها وهو حبس فيه شدة وصبر (حتى تخرج اليهم) من تلقاء نفسك عند فراغ ما أنت فيه مما يهمك من واردات الحق ومصالح الخلق (لكان) أي الصبر (خيرا لهم) أي من استعجالهم ايقاظك في الهاجرة وعجالوا فرعوا الباب بالاظافر كما كان يفعل غيرهم من الصحابة قال أبو عثمان الادب عند الاكابر يبلغ بصاحبه الى الدرجات العلا والخير في الاولى والعقبى اه فانهم لو تأدبوا لربهم لزادهم صلى الله عليه وسلم في الفضل فاعتق جميع سبيهم وأطلقهم بلا فداء (والله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (غفور) اى ستور ذنب من تاب من جهله (رحيم) اى يعاملهم معاملة الراحم فيسبغ عليهم نعمه وقال قتادة نزلت في ناس من أعراب تميم جاؤا الى النبي صلى الله عليه وسلم فنادوا على الباب اخرج الينا يا محمد فان مدحنا زين وذمنا شين فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول انما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين فقالوا نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب النبي صلى الله عليه وسلم قم فأجبه فأجابه وقام شاعر فذكر أبياتا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أجبه فأجابه فقام الاقرع بن حابس فقال ان محمدا المولى تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولا وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولا ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يضرك ما كان من قبل هذا ثم أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم وكان قد تخلف في ركابهم عمرو بن الاهتم لحداثة سنه فاعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما اعطاهم فازرى به بعضهم وارتفعت الاصوات وكثر اللغط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل فيهم يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآيات الاربع الى قوله تعالى غفور رحيم وقال زيد بن أرقم جاء ناس من العرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض انطلقوا بنا الى هذا الرجل فان يكن نبيا فنحن أسعد

(قلت) كيف قال ذلك مع ان العرش والكرسي واللوح والقلم لم يخلق من كل منها الا واحد (قلت) معناه ومن كل

الناس به وان يكن ملكا نعش في جناحه فجاؤا فجعلوا ينادون من وراء الحجرات يا محمد فانزل الله تعالى ان الذين ينادونك الآية وقيل المراد باكثرهم كلهم لان العرب تذكر الاكثر وتريد الكل احترازا عن الكذب واحتياطا في الكلام لان الكل ما لا يحيط به علم الانسان في بعض الاشياء فيقول الاكثر في اعتقاده الكل ثم ان الله تعالى مع احاطة علمه بالامور أتى بما يناسب كلامهم وفيه اشارة الى لطيفة وهي ان الله تعالى يقول مع احاطة علمي بكل شئ جريت على عادتكم استحسانا لتلك العادة وهي الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها واجعلوا اختياري ذلك في كلامي دليلا قاطعا على رضاي بذلك منكم * (تنبيه) * جعل الزمخشري أنهم من ولو أنهم فاعلا بفعل مقدر أي ولو ثبت صبرهم وجعل اسم كان ضميرا عائدا على هذا الفاعل ولكن مذهب سيبويه أن أنهم في محل رفع بالابتداء وحينئذ يكون اسم كان ضميرا عائدا على صبرهم المفهوم وجرى على الاول البيضاوي وعلى الثاني الجلال المحلي واختلف في سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم) أي في وقت من الاوقات (فاسق) اى خارج من ربقة الديانة (بنبا) أى خبر يعظم خطبه فيشير شرا (فتبينوا) صدقه من كذبه فقال أكثر المفسرين نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أخو عثمان لامه وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه الى بني المصطلق بعد الوقعة واليا ومصدقا أي يأخذ منهم الصدقة وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فلما سمع به القوم تلقوه تعظيما لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال انهم منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي اليه ما قبلنا من حق الله فبدا له في الرجوع فخشينا أنه انما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا وانا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكره وأمره أن يخفي عليهم قدومه وقال انظر فان رأيت منهم ما يدل على ايمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وان لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء فاخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم الا الطاعة والخير وانصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر فنزل قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا (أن تصيبوا) اى بأذى (قوما) اى هم مع قوتهم النافعة لاهل الاسلام براءة مما نسب اليهم (بجهالة) اى مع الجهل بحال استحقاقهم لذلك (فتصبحوا) اى فتصيروا ولكنه عبر بذلك لان أشنع الندم ما استقبل الانسان صباحا وقت انتباهه وفراغه واقباله على لذاته (على ما فعلتم) اى من اصابتهم (نادمين) اى عريقين في الاسف على ما فات مما اوقع الله تعالى في نفوسكم من أمور ترجف القلوب وقال الرازي هذا ضعيف لان الله تعالى لم يقل اني أنزلتها لكذا والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه انه قال وردت الآية لبيان ذلك حسب غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت وهو مثل تاريخ نزول الآية ويما يصدق ذلك ويؤيده ان اطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد لانه توهم وظن فاخطأ والمخطئ لا يسمى فاسقا فكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن رتبة الايمان كقوله تعالى ان الله لا يهدي القوم

حيوان خلقناه ذكرا وأنثى أو ومن كل شئ تشاهدونه خلقناه صنفين كالليل والنهار والنور والظلمة والصيف والشتاء

الفاسقين وقوله تعالى ففسق عن أمر ربه وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فمأواهم النار الآية الى غير ذلك اهـ وقال ابن الخازن فى تفسيره وقيل هو عام نزلت لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق وهذا أولى من حمل الآية على رجل بعينه * (تنبيه) * قوله تعالى أن تصيبوا مفعول له كقوله تعالى أن تحبط قال الرازى معناه على مذهب الكوفيين لئلا تصيبوا وعلى مذهب البصريين كراهة أن تصيبوا وقرأ حمزة والكسائى بعد التاء المثناة بثاء مثلثة وبعد الباء الموحدة بتاء مثناة فوق من التثبت أى فتوقفوا الى ان يتبين لكم الحال والباقون بعد التاء المثناة بياء موحدة وبعدها ياء تحتية وبعدها نون من البيان (واعلموا) اى أيتها الامة (أن فيكم) اى على وجه الاختصاص بكم و يا له من شرف (رسول الله) اى الملك الاعظم المتصف بالجلال والاكرام فلا تقولوا الباطل فان الله يخبره بالحال (لو يطيعكم) وهو لا يحب عنتكم ولا شيأ يشق عليكم (فى كثير من الامر) اى الذى تريدونه على فعله من انه يعمل فى الحوادث على مقتضى ما يعن لكم وتستصوبونه ليكون فعله معكم فعل المطواع لغيره التابع له فينقلب حينئذ الحال ويصير المتبوع تابعا والمطاع طائعا (لعنتم) اى لأثمتم دونه وهلكتم لان من أراد أن يكون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم تابعا لامره فقد زين له الشيطان الكفران وقوله تعالى (ولكن الله) اى الملك الاعظم الذى يفعل ما يريد (حبب اليكم الايمان وزينه) اى حسنه (فى قلوبكم) فلزمتم طاعته وعشقتم متابعته استدراك من جهة المعنى لا من جهة اللفظ لبيان عذرهم وهو أنه من فرط حبهم للايمان وكراهتهم للكفر كما قال تعالى (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد او بصفة من لم يفعل ذلك منهم احمادا لفعلهم وتعريضا بذم من فعل قال الرازى هذه الامور الثلاثة فى مقابلة الايمان الكامل المزين وهو التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالاركان فقوله تعالى كره اليكم الكفر وهو التكذيب وهو فى مقابلة التصديق بالجنان وأما الفسوق فقيل هو الكذب كما قاله ابن عباس قال تعالى ان جاءكم فاسق بنبأ فسمى الكاذب فاسقا وقال البيضاوى الكفر تغطية نعم الله بالجحود والفسوق الخروج عن القصد والعصيان الامتناع عن الانقياد وقال بعضهم الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة والعصيان هو الصغيرة (أولئك) اى الذين أعلى الله تعالى مقاديرهم (هم الراشدون) أى الكاملون فى الرشد ٣ الثابتون الاستقامة وعلى دينهم وفى تفسير الاصفهانى الرشد هو الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه وقوله تعالى (فضلا) مصدر منصوب بفعله المقدر أى فضل وقيل تعليل لكره أو حبب وما بينهما اعتراض فهو امتنان عظيم ودرجة عالية (من الله) أى الملك الاعظم الذى بيده كل شئ (ونعمة) اى وعيشا حسنا ناعما وكرامة (والله) أى المحيط بصفات الكمال (عليم) أى محيط العلم يعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل (حكيم) أى بالغ الحكمة فهو يضع الاشياء فى أوفق محالها وأتقنها كذلك وضع نعمته من الرسالة والايمان على حسب علمه وحكمته ونزل فى قضية (وان طائفتان من المؤمنين) الآية وهى ان النبى صلى الله عليه وسلم ركب حمارا ومر على ابن أبى فبال الحمار فسد ابن أبى أنفه فقال ابن رواحة لبول حماره أطيب ريحا من مسكك فكان بين قومهما ضرب بالايدى والنعال

والحياة والخير والشر والبحر والبر والموت والسماء والارض والشمس والقمر (قوله الى الكم منه تدبيره حين) قاله

٣ قوله الثابتون الاستقامة الخ كذا بالاصل الطبع وفى نسخة خط الثابتون على دينهم اهـ مصححه

والسعف وعن أنس قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم لو أتيت عبد الله بن أبي فانطلق اليه النبي صلى الله عليه وسلم وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون معه وهو بارض سبخة فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال اليك عني فوالله لقد آذاني نتن حمارك فقال رجل من الانصار منهم والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاتما فغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهم ما ضرب بالجريد والايدي والنعال فبلغنا انها نزلت فيهم ويروى انها لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصطلحوا وكف بعضهم عن بعض وعن قتادة نزلت في رجلين من الانصار كان بينهما مداراة في حق فقال أحدهما للآخر لآخذن حقي منك عنوة لكثرة عشيرته وان الآخر دعاه ليحاكمه الى النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه فلم يزل الامر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضا بالايدي والنعال ولم يكن قتال بالسيوف وعن سفيان عن السدي قال كانت امرأة من الانصار يقال لها أم زيد تحت رجل وكان بينها وبين زوجها شئ فرقي بها الى علية وحبسها فبلغ ذلك قومها فجاؤا وجاء قومه واقتتلوا بالايدي والنعال فنزلت وجمع تعالى قوله سبحانه (اقتتلوا) نظرا للمعنى لان كل طائفة جماعة وثنى الضمير في قوله تعالى (فأصلحوا) اي اوقعوا الاصلاح ليحصل الصلح (بينهما) نظرا للفظ اي أصلحوا بينهما بالنصح والدعاء الى حكم الله تعالى (فان بغت) اي أوقعت الارادات السيئة الكائنة من النفوس التي لا تأمر بخير (احداهما) اي الطائفتين (على الاخرى) فلم ترجع الى حكم الله الذي خرجت عنه ولم تقبل الحق (فقاتلوا) اي اطلبوا واوجدوا مقاتلة (التي تبغي) اي توقع الارادة السيئة وتصر عليها وأديموا القتال لها (حتى تفيء) اي ترجع عما صارت اليه من حر القطيعة الذي كأنه حر الشمس حتى نسخه الظل الى ما كانت فيه من البرد والخير الذي هو كالظل الذي نسخته الشمس وهو معنى قوله تعالى (الى امر الله) اي التزام ما أمر به الملك الذي لا يهمل الظالم بل لابد من ان يقاصصه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء والباقون بتحقيقهما (فان فاءت) اي رجعت الى ما كانت عليه من التمسك بامر الله الذي هو العدل (فأصلحوا) اي أوقعوا الاصلاح (بينهما بالعدل) اي بالانصاف ولا يحملنكم القتال على الحقد على المقاتلين فتحيفوا (واقسطوا) اي وأزيلوا القسط بالفتح وهو الجور بان تفعلوا القسط بالكسر وهو العدل الذي لا جور فيه في ذلك وفي جميع أموركم ثم علله ترغيبا فيه بقوله تعالى مؤكدا تنبيها على أنه من أعظم ما يتمادح به وردا على من لعله يقول انه لا يلزم نفسه الوقوف عنده الاضعيف (ان الله) اي الذي بيده النصر والخذلان (يحب المقسطين) اي يفعل مع أهل العدل من الاكرام فعل المحب (انما المؤمنون) اي كلهم وان تباعدت أنسابهم وبلادهم (اخوة) أي في الدين لانتسابهم الى أصل واحد هو الايمان * ولما كانت الاخوة داعية ولابد الى الاصلاح تسبب عنها قوله تعالى (فأصلحوا بين أخويكم) كما تصلحون بين أخويكم من النسب ووضع الظاهر موضع الضمير مضافا الى المأمور مبالغة في التقرير والتحضيض وخص الاثنين بالذكر لانهما أقل من يقع بينهما الشقاق وعن أبي عثمان الحيري

هذا وبعده وليس بتكرار لان الاول متعلق بترك الطاعة الى المعصية والثاني بالشرك بالله (قوله وما خلقت الجن والانس الا

ان اخوة الدين أثبت من اخوة النسب فان اخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين واخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب (واتقوا الله) أى الملك الاعظم فى مخالفة حكمه والاهمال فيه (لعلكم ترحمون) أى لتكونوا اذا فعلتم ذلك على رجاء عند أنفسكم ان يكرمكم الذى لا قادر على الاكرام فى الحقيقة غيره بانواع الكرامات كما رحمتم اخوانكم باكرامكم عن افساد ذات البين وعن الزهرى عن سالم عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه فمن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة * (تنبيه) * فى هاتين الآيتين دليل على ان البغى لا يزيل اسم الايمان لان الله تعالى سماهم اخوة مؤمنين مع كونهم باغين يدل عليه ما روى عن على بن أبى طالب مثل وهو القدوة فى قتال أهل البغى عن أهل الجمل وصفين أمشركون هم فقال لا من الشرك فروا فقيل أمنافقون هم فقال لا ان المنافقين لا يذكرون الله الا قليلا قيل فما حالهم قال اخواننا بغوا علينا والباغى فى الشرع هو الخارج عن الامام العدل بتأويل محتمل وشوكة لهم ومطاع تحصل به قوة الشوكة وان لم يكن لهم امام والحكم فيهم ان يبعث اليهم الامام أمينا فطنا ناصحا ينصحهم ما ينقمون فان ذكروا مظلمة أو شبهة أزالها وان أصروا نصحهم ثم أعلمهم بالقتال فان استمهلوا اجتهد وفعل ما رآه صوابا والحكم فى قتالهم أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم ويرد سلاحهم وخيلهم اليهم اذا انقضت الحرب وأمنت غائلتهم ولا يستعمل فى قتال الا ضرورة ولا يقاتلون بعظيم كنار ومنجنيق الا ضرورة ولو أقاموا حدا أو أخذوا زكاة وجزية وخراجا وفرقوا سهم المرتزقة على جندهم صح ما فعلوه وما أتلفه باغ على عادل وعكسه ان كان بسبب قتال فلا ضمان على واحد منهما والا فعلى المتلف الضمان قال ابن سهل كانت فى تلك الفتنة دماء يعرف فى بعضها القاتل والمقتول وأتلف فيها أموال ثم صار الناس الى أن سكنت الحرب بينهم وجرى الحكم عليهم فما رأيته اقتص من أحد ولا أغرم مالا أتلفه ولو أظهر قوم رأى الخوارج كترك الجماعات وتكفير ذى كبيرة ولم يقاتلوا فلا نتعرض لهم روى ان عليا سمع رجلا يقول فى ناحية المسجد لا حكم الا لله تعالى فقال على رضى الله عنه كلمة حق أريد بها باطل لكم علينا ثلاثة لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ولا نمنعكم الفئ ما دامت أيديكم مع أيدينا ولا نبدؤكم بقتال فان قاتلوا فحكمهم حكم قطاع الطريق وتفريعات أحكام البغاة مذكورة فى الفقه وفى هذا القدر كفاية واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى أوقعوا الاقرار بالتصديق (لا يسخر) أى لا يهزأ والسخرية هى أن لا ينظر الانسان الى أخيه بعين الاجلال ولا يلتفت اليه ويسقطه عن درجته (قوم) أى ناس فيهم قوة المحاولة وهم الرجال وفى التعبير بذلك تنبيه على قيام الانسان على نفسه وكفها عما تريده من النقائص منكرا لما أعطاه الله تعالى من القوة (من قوم) أى من رجال فان ذلك يوجب الشر لان أضعف الناس اذا استهزئ به قوى لما يثور عنده من حظ النفس فقال ابن عباس نزلت فى ثابت بن قيس كان فى أذنه وقر أى ثقل فكان اذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس الى جنبه فيسمع ما يقول فاقبل ذات يوم وقد فاتته

ابعبدون) لا ينافى ذلك عدم عبادة الكافر لان الغاية لا يلزم وجودها كما فى قولك بريت القلم لا كتب به فانه قد لا يكتب به أو لان ذلك عام اريد به

ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم فضن أي بخل كل رجل منهم بمجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد فكان الرجل اذا جاء فلم يجد مجلسا قام قائما فلما فرغ ثابت من صلاته أقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخطى رقاب الناس ويقول تفسحوا تفسحوا فجعلوا يتفسحون حتى انتهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له تفسح فقال الرجل قد أصبت مجلسا فاجلس فجلس ثابت خلفه مغضبا فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال من هذا فقال له أنا فلان فقال له ثابت ابن فلانة ذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه فاستحيا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال الضحاك نزلت في وفد تميم كانوا يستهزؤن بفقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مثل عمار وخبيب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة لما رأوا من رثاثة حالهم ومعنى الآية لا تحقروا اخوانكم ولا تستصغروهم ثم علل النهي بقوله تعالى (عسى) أي لأنه جدير وخليق لهم (أن يكونوا) أي المستهزأ بهم (خيرا منهم) فينقلب الأمر عليهم وتكون لهم سوء العاقبة قال ابن مسعود البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب خشيت أن أحول كلبا وقال القشيري ما استصغر أحد أحدا إلا سلط عليه ولا ينبغي أن يغتر بظاهر أحوال الناس فإن في الزوايا خبايا والحق سبحانه يستر أولياءه في حجاب الظنة وكذا في الخبر كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره (ولا) يسخر (نساء من نساء) ثم علل النهي بقوله تعالى (عسى) أي ينبغي أن يخفن من (أن يكن) أي المسخور بهن (خيرا منهن) أي الساخرات روي أنها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم عيرن أم سلمة بالقصر وروى عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب قال لها النساء يهودية بنت يهوديين * (تنبيهان) * أحدهما قال الرازي القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الأطفال لأنه جمع قائم والقائم بالأمور هم الرجال وعلى هذا ففي افراد الرجال والنساء فائدة وهي أن عدم الالتفات والاستحقار انما يصدر في أكثر الأمر من الرجال بالنسبة الى الرجال لأن المرأة في نفسها ضعيفة قال صلى الله عليه وسلم النساء لحم على وضم فالمرأة لا يوجد منها استحقار الرجل لأنها مضطرة اليه في رفع حوائجها وأما الرجال بالنسبة الى الرجال والنساء بالنسبة الى النساء فانه يوجد فيهن ذلك ٣ الثاني في حكمة قوله تعالى عسى أن يكونوا خيرا منهم هي أنهم اذا وجد منهم التكبر المفضي الى احباط العمل جعل نفسه خيرا منهم كما فعل ابليس حيث لم يلتفت الى آدم وقال أنا خير منه فصار هو خيرا منه ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى يكونوا أي يصيروا فان من استحقر انسانا لفقره أو ضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغني الفقير ويقوى الضعيف (ولا تلمزوا) أي تعيبوا على وجه الخفية (أنفسكم) بأن يعيب بعضكم بعضا باشارة أو نحوها فكيف اذا كان على وجه الظهور فانكم في التواصل والتراحم كنفس واحدة أو يعمل الانسان ما يعاب به فيكون الانسان قد لمز نفسه أو يلمز غيره فيكون لمزه له سببا لأن يبحث عن عيوبه فيلمزه فيكون هو الذي لمز نفسه (ولا تنابزوا بالألقاب) أي ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء فان النبز يختص بلقب السوء واختلف في هذا اللقب فقال عكرمة هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق يا كافر وقال

الخصوص بدليل قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا ومن خلق لجهنم لا يكون خلق للعبادة (قوله وما أريد أن يطعمون) ان

٣ قوله فيهن كذا بالنسخ بايدينا والظاهر فيهما أو فيهم اه مصححه

الحسن كان اليهودي والنصراني يسلم فيقال له بعد اسلامه يا يهودي يا نصراني فنهوا عن ذلك وقال عطاء هو ان يقول الرجل لاخيه يا حمار يا خنزير وعن ابن عباس التنابز بالالقاب هو ان يكون الرجل عمل السيآت ثم تاب عنها فنهى ان يعير بما سلف من عمله والحاصل انه يحرم تلقيب الشخص بما يكره وان كان فيه كالاعور والاعمش ويجوز ذكره بنية التعريف لمن لا يعرفه الا به واما ألقاب المدح فنعماهي فقد لقب الصديق بعتيق وعمر بالفاروق وحمزة باسد الله وخالد بن الوليد بسيف الله وما زالت الالقاب الحسنة في الجاهلية والاسلام قال الزمخشري الا ما أحدثه الناس في زماننا من التوسع حتى لقبوا السفلة بالالقاب العلية وهب أن العذر مبسوط فما أقول ان ليس من الدين في قبيل ولا دبير فلان الدين لعمري والله انها الغصة التي لا تساغ ومعنى اللقب اسم زائد على الاسم يشعر بضعة المسمى أو رفعته والمقصود به الشهرة فما كان مكروها نهى عنه ويسن ان يكنى أهل الفضل الرجال والنساء وان لم يكن لهم ولد وأما التكني بابي القاسم فهو حرام وقيل انما يحرم في زمانه صلى الله عليه وسلم فقط وقيل انما يحرم على من اسمه محمد ولا يكنى كافر ولا فاسق ولا مبتدع لان الكنية للتكرمة وليسوا من أهلها بل أمرنا بالاغلاظ عليهم الا لخوف فتنة من ذكره باسمه أو تعريفه كما قيل به في قوله تعالى تبت يدا أبي لهب واسمه عبد العزى ولا باس بكنية الصغير ويسن ان يكنى من له أولاد باكبر أولاده ويسن لولد الشخص وتلميذه وغلامه أن لا يسميه باسمه والادب أن لا يكني الشخص نفسه في كتاب أو غيره الا ان كان لا يعرف بغيرها أو كانت أشهر من الاسم

(تنبيه) ذكر في الآية ثلاثة أمور مرتبة بعضها دون بعض كما علم من تقريرها (بئس الاسم) اى المذكور من السخرية واللمز والتنابز وقوله تعالى (الفسوق) اى الخروج من ربقة الدين (بعد الايمان) بدل من الاسم لافادة انه فسق لتكرره عادة وروى ان الآية نزلت في صفية بنت حيي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان النساء يقلن لي يا يهودية بنت يهوديين فقال هلا قلت ان أبي هرون وعمي موسى وزوجي محمد صلى الله عليه وسلم (ومن لم يتب) اى يرجع عما نهى الله عنه فخفف على نفسه ما كان شدد عليها (فأولئك) اى البعداء من الله تعالى (هم الظالمون) اى العريقون في وضع الاشياء في غير مواضعها وأدغم أبو عمرو والكسائي الباء في الفاء واختلف عن خلاد والباقون بالاظهار (يا أيها الذين آمنوا) أى اعترفوا بالايمان وان كانوا في أول مراتبه (اجتنبوا) اى كلفوا أنفسكم أن تتركوا وتبعدوا وتجعلوا في جانب بعيد عنكم (كثيرا من الظن) اى في الناس وغيرهم واحتاطوا في كل ظن ولا تمادوا معه حتى تجزموا به *(تنبيه)* أفهم ذلك ان من الظن ما لا يجتنب كما في الاجتهاد حيث لا قاطع وكما في ظن الخير في الله تعالى ففي الحديث أنا عند ظن عبدي بي فلا يظن بي الا خيرا بل قد يجب كما في قوله تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا وقيل نزلت في رجلين اغتابا رفيقهما وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج الى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدم لهما الى المنزل فيهيئ لهما طعامهما وشرابهما فضم سلمان الفارسي الى رجلين في بعض أسفاره فتقدم سلمان الى المنزل فغلبته عيناه فلم يهيئ لهما فلما قدما قالا له ما صنعت شيأ قال لا غلبتني عيناي قالا له انطلق الى

قلت ما فائدة ذكره بعد قوله ما أريد منهم من رزق (قلت) فائدته افادة حكم زائد على ما قبله اذ المعنى ما أريد منهم أن يطعموا أنفسهم

رسول

رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطلب لنا منه طعاما فجاء سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله طعاما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق الى أسامة بن زيد وقل له ان كان عندك فضل من طعام فليعطك وكان أسامة خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رحله فاتاه فقال ما عندي شئ فرجع سلمان اليهما فاخبرهما فقالا كان عند أسامة ولكن بخل فبعثا سلمان الى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيأ فلما رجع قالا له لو بعثناه الى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جا آ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما قالا والله يارسول الله ماتناولنا يومنا هذا لحما فقال ظلتم تأكلون لحم أسامة وسلمان فانزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن وقوله تعالى (ان بعض الظن اثم) تعليل مستأنف للامر قال صلى الله عليه وسلم اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث والاثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه وجعل الزمخشرى همزه بدلا من واو وقال لانه يثم الاعمال أى يكسرها قال ابن عادل وهذا غير مسلم بل تلك مادة أخرى قال سفيان الثورى الظن ظنان أحدهما اثم وهو أن يظن و يتكلم به والآخر ليس باثم وهو أن يظن ولا يتكلم به وقوله تعالى (ولا تجسسوا) حذف منه احدى التاءين أى لاتتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم بالبحث عنها قال صلى الله عليه وسلم لا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وقال عليه الصلاة والسلام يامعشر من آمن بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه لاتغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله ونظر ابن عمر يوما الى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك وقيل لابن مسعود هل لك فى الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمرا فقال انا نهينا عن التجسس وان يظهر لنا شئ نأخذ به *(تنبيه)* قرأ ولا تنابزوا ولا تجسسوا ولا تمارفوا البزى فى الوصل بتشديد التاء والباقون بغير تشديد * ولما كانت الغيبة أعم من التجسس قال (ولا يغتب) اى ولا يتعمد أن يذكر (بعضكم بعضا) اى فى غيبته بما يكره قال القشيرى وليس تحصل الغيبة للخلق الا من الغيبة عن الحق وقال أبو حيان قال ابن عباس الغيبة ادام كلاب الناس وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فقالوا لا نأكل حتى يطعم ولا نرحل حتى يرحل فقال النبى صلى الله عليه وسلم اغتبتموه فقالوا انما حدثنا بما فيه قال حسبك اذا ذكرت أخاك بما فيه وفى هذا اشارة الى وجوب حفظ عرض المؤمن فان تمزيق عرض الانسان كتمزيق أديمه ولحمه كما قال تعالى (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه) وقرأ (ميتا) نافع بتشديد الياء والباقون بالسكون ولما كان الجواب قطعا لا يحب أحد ذلك أشار اليه بما سببه من قوله تعالى (فكرهتموه) أى بسبب ماذكر طبعا فاولى ان تكرهوا الغيبة المحرمة عقلا لان داعى العقل بصير عالم وداعى الطبع أعمى جاهل

وما أريد منهم ان يطعموا وانما أضاف عبيدى او الى نفسه تعالى الاطعام الى نفسه لان الخلق عيال الله وعبيده ومن اطعم عيال غيره فكأنه

(تنبيه) في هذا التشبيه اشارة الى أن عرض الانسان كدمه ولحمه لان الانسان يتألم قلبه من قرض العرض كما يتألم جسمه من قطع اللحم وهذا من باب القياس الظاهر لان عرض الانسان أشرف من لحمه ودمه فاذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الاولى لان ذلك أشد ألما وقوله تعالى لحم أخيه آكد في المنع لان العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو وفي قوله تعالى ميتا اشارة الى دفع وهم وهو أن يقال ان الشتم في الوجه يؤلم فيحرم وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه فلا يؤلم فيقال لحم الاخ وهو ميت أيضا لا يؤلم ومع هذا هو في غاية القبح كما انه لو اطلع عليه لتألم فان الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه وفيه معنى لطيف وهو ان الاغتياب أكل لحم الآدمي ميتا ولا يحل أكله الا للمضطر بقدر الحاجة والمضطر اذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي فلا يأكل لحم الآدمي فكذلك المغتاب اذا وجد لحاجته مدفعا غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب قال مجاهد لما قيل لهم أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا قالوا لا قيل فكرهتموه اي كما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا قال الزجاج تأويله ان ذكرك من لم يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك قال الرازي وفي ضمير فكرهتموه وجوه أظهرها أن يعود الى الاكل وثانيها أن يعود الى اللحم اي فكرهتم اللحم وثالثها أن يعود الى الميت في قوله تعالى ميتا تقديره أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا متغيرا فكرهتموه فكأنه صفة لقوله ميتا ويكون فيه زيادة مبالغة في التحذير يعني الميتة ان أكلت في الندرة تستطاب نادرا ولكن اذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلا فكذلك ينبغي أن تكون الغيبة وذلك يحقق الكراهة ويوجب النفرة الى حد لا يشتهي الانسان أن يبيت في بيت فيه ميت فكيف يقرب بحيث يأكله ففيه اذا كراهية شديدة وكذلك حال الغيبة وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لما عرج بي مررت بقوم لهم أظافير من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وقال ميمون بن سنان بينا أنا نائم اذا أنا بجيفة زنجي وقائل يقول لي كل هذا قلت يا عبد الله ولم آكل هذا قال انك اغتبت عبد فلان قلت والله ما ذكرت فيه خيرا ولا شرا قال ولكنك سمعت ورضيت فكان ميمون لا يغتاب أحدا ولا يدع أحدا يغتاب عنده وقوله تعالى (واتقوا الله) اي اجعلوا بينكم وبين الملك الاعظم وقاية بطاعته معطوف على ما تقدم من الاوامر والنواهي اي اجتنبوا واتقوا الله (ان الله) اي الملك الاعظم (تواب) اي مكرر للتوبة وهي الرجوع عن المعصية الى ما كان قبلها من معاملة التائب وان كرر الذنب فلا ييأس أحد وان كثرت ذنوبه وعظمت (رحيم) يزيده على ذلك بان يكرمه غاية الاكرام *(تنبيه)* ختم سبحانه وتعالى الآيتين بذكر التوبة فقال في الاولى ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون وقال ههنا ان الله تواب رحيم لكن لما كان الابتداء في الآية الاولى بالنهي في قوله تعالى لا يسخر قوم من قوم ذكر النفي الذي هو قريب من النهي وفي الثانية كان الابتداء بالامر في قوله تعالى اجتنبوا كثيرا فذكر الاثبات الذي هو قريب من الامر وقوله تعالى (يا أيها الناس) اي كافة المؤمن وغيره (انا) اي على ما لنا من العظمة (خلقناكم) اي أوجدناكم من العدم على ما أنتم عليه من المقادير (من ذكر وأنثى) الآية

اطعمه ويؤيده خبر ان الله تعالى يقول يوم القيامة يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني اي استطعمك عبدي فلم تطعمه

صمين

مبين ومقربا لما تقدم لان السخرية من الغير وغيبته ان كان ذلك بسبب غير الدين والايمان
فلا يجوز لان الناس بعمومهم كافرهم ومؤمنهم يشتركون فيما يفتخر به المفتخر لان التكبر
والافتخار ان كان بسبب الغنى فالكافر قد يكون غنيا والمؤمن فقيرا او بالعكس وان كان
بسبب النسب فالكافر قد يكون نسيبا والمؤمن مولى وعبدا أسود او بالعكس فالناس فيما
ليس من الدين والتقوى متساوون ومتقاربون ولا يؤثر شئ من ذلك مع عدم التقوى كما قال
تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فقوله تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى اى
آدم وحواء فانتم متساوون فى النسب فلا تفاخر لبعض على بعض لكونهم ابناء رجل واحد
وامرأة واحدة قال ابن عباس نزلت فى ثابت بن قيس وقوله للرجل الذى لم يفسح له ابن فلانة
فقال النبى صلى الله عليه وسلم من الذاكر فلانة قال ثابت أنا يا رسول الله فقال انظر فى وجوه
القوم فنظر فقال ما رأيت يا ثابت قال رأيت أبيض وأحمر وأسود قال فانك لا تفضلهم الا فى
الدين والتقوى فنزلت هذه الآية ونزل فى الذى لم يفسح له يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم
تفسحوا فى المجالس الآية وقال قتادة لما كان فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا
حتى علا على ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسيد بن ابى العيص الحمد لله الذى قبض أبى
حتى لم ير هذا اليوم وقال الحرث بن هشام أما وجد محمد أغير من هذا الغراب الاسود مؤذنا
وقال سهيل بن عمرو ان يرد الله شيأ يغيره وقال أبو سفيان انى لا أقول شيأ أخاف أن يخبره به رب
العالمين رب السموات فاتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره بما قالوه فدعاهم
وسألهم عما قالوا فاقروا فانزل الله تعالى هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالانساب والتكاثر
بالاموال والازدراء بالفقراء *(تنبيه)* الحكمة فى اختيار النسب مع ان غيره من جملة
أسباب التفاخر ولم يذكر الامور التى يفتخر بها فى الدنيا وان كانت كثيرة لان النسب أعلاها
لان المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار الغنى المفتخر به عليه والسمن والحسن وغير ذلك
لا يدوم والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله تعالى للذكر
وأبطل اعتباره بالنسبة الى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بطريق الاولى (فان قيل) اذا كان
ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فما فائدة قوله تعالى انا خلقناكم
(أجيب) بان فائدته ان كل شئ يترجح على غيره فاما ان يترجح بامر فيه يلحقه ويترتب عليه بعد
وجوده واما أن يترجح عليه بامر قبله فالذى بعده كالحسن والقوة وغيرهما من الاوصاف
المطلوبة من ذلك الشئ وأما الذى قبله فاما راجع الى أصله الذى وجد فيه او الى الفاعل الذى
أوجده فالاول كقولك هذا من نحاس وهذا من فضة والثانى كقولك هذا عمل فلان وهذا
عمل فلان فقال تعالى لا ترجيح بالنسبة الى فاعلكم لانكم كلكم خلق الله تعالى فان كان عندكم
تفاوت فهو بامور تحصل لكم بعد وجودكم وأشرفها التقوى * ولما كان تفصيلهم الى فرق
كل منها يعرف به أمرا باهرا عبر فيه بنون العظمة فقال تعالى (وجعلناكم) اى بعظمتنا
(شعوبا) جمع شعب بفتح الشين وهو أعلى طبقات الانساب مثل ربيعة ومضر والاوس
والخزرج (وقبائل) اى تحت الشعوب وذلك ان طبقات النسل التى عليها العرب سبعة
الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة والعشيرة وكل واحد يدخل فيما

(سورة الطور)

(قوله وزوجناهم بحور عين) * ان قلت كيف قال ذلك مع ان الحور العين فى الجنة لو كانت ملك يمين

قبيلة فالقبائل تحت الشعوب والعمائر تحت القبائل والبطون تحت العمائر والافخاذ تحت البطون والفصائل تحت الافخاذ والعشائر تحت الفصائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصى بطن وعبد مناف فخذ وهاشم فصيلة والعباس عشيرة قال البغوى وليس بعد العشيرة حى يوصف اه وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه واجتماعهم به كتشعب أغصان الشجرة والشعب من الاضداد يقال شعب اى جمع ومنه شعب القدح وشعب اى فرق والقبائل واحدها قبيلة سميت بذلك لتقابلها شبهت بقبائل الرأس وهى قطع متقابلة وقيل الشعوب فى العجم والقبائل فى العرب والاسباط فى بنى اسرائيل وقيل الشعب النسب الابعد والقبيلة الاقرب والنسبة الى الشعب شعوبية بفتح الشين وهم جيل يبغضون العرب والعمائر واحدتها عمارة بفتح العين والبطون واحدتها بطن والفصائل واحدتها فصيلة والعشائر واحدتها عشيرة وقال ابو روق الشعوب الذين لا يعتزون الى أحد بل ينتسبون الى المدائن والقرى والقبائل العرب الذين ينتسبون الى آبائهم ثم ذكر تعالى علة الشعب بقوله تعالى (لتعارفوا) اى ليعرف الانسان من يقاربه فى النسب ليصل من رحمه ما يحق له لا لتفاخروا (ان اكرمكم) أيها المتفاخرون (عند الله) اى الملك الذى لا أمر لاحد معه ولا كريم الا من أخبر كم بكرمه ولا كمال لاحد سواه (أتقاكم) اى أرفعكم منزلة عند الله أتقاكم قال قتادة فى هذه الآية أكرم الكرم التقوى وألأم اللؤم الفجور وقال عليه الصلاة والسلام الحسب المال والكرم التقوى وقال ابن عباس كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الاركان بمحجنه وهو عصا محنية الرأس فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على أيدى الرجال ثم قام فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه فقال الحمد لله الذى اذهب عنكم عبية الجاهلية يعنى كبرها وتفخرها الناس رجلان تقى كريم على الله وفاجر شقى هين على الله ثم تلا يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ثم قال أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وعن أبى هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم اى الناس أكرم قال أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا ليس عن هذا نسألك قال فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك قال فعن معادن العرب تسألونى قالوا نعم قال خياركم فى الجاهلية خياركم فى الاسلام اذا فقهوا بضم القاف على المشهور وحكى كسرها ومعناه اذا تعلموا أحكام الشرع وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم قال الرازى فى المراد بالآية وجهان الاول ان التقوى تفيد الاكرام الثانى ان الاكرام يورث التقوى كما يقال المخلصون على خطر والاول أشهر والثانى أظهر (فان قيل) التقوى من الاعمال والعلم أشرف لقوله صلى الله عليه وسلم لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد (أجيب) بان التقوى ثمرة العلم لقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فلا تقوى الا للعالم فالتقى العالم أتم علما والعالم الذى لا يتقى كشجرة لا ثمر لها لكن الشجرة المثمرة أشرف من التى لا تثمر بل هى حطب قال الحسن البصرى انما الفقيه العامل بعلمه اى وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ومن قوله عز من قائل قل هل يستوى الذين يعلمون

لا بلك نكاح (قلت) معناه قرناهم بهن من قولك زوجت ابلى اى قرنت بعضها ببعض وليس من التزويج الذى هو عقد

والذين لايعاونون (فان قيل) خطاب الناس بقوله تعالى أكرمكم يقتضى اشتراك الكل فى الاكرام ولا كرامة لكافر فانه أضل من الانعام (اجيب) بان ذلك غير لازم مع انه حاصل بدليل قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم لان كل من خلق فقد اعترف بربه ثم من استمر عليه وزاد زيد فى كرامته ومن رجع عنه أزيل عنه أكثر الكرامة (ان الله) اى المحيط بكل شئ علما وقدرة (عليم) اى بالغ العلم بظواهركم يعلم أنسابكم (خبير) اى محيط العلم ببواطنكم لاتخفى عليه أسراركم فاجعلوا التقوى زادكم ولما قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم والاتقى لايكون الا بعد حصول التقوى وأصله الايمان والاتقاء من الشرك (قالت الاعراب) اى اهل البادية من بنى أسد وغيرهم الذين هم معدن الغلظة والجفاء (آمنا) اى بجميع ما جئت به فامتثلنا ما أمرتنا به فى هذه السورة ولنا النسب الخالص فنحن أشرف من غيرنا من اهل المدر (قل) يا أشرف الخلق تكذيبا لهم مع مراعاة الادب فى عدم التصريح بالتكذيب (لم تؤمنوا) اى لم تصدق قلوبكم لانكم لو آمنتم لم تمنوا لان الايمان التصديق بجميع ما لله من الكمال الذى منه انه لولا منه بالهداية لم يحصل الايمان فلولرسوله الذى كان ذلك على يديه المن والفضل (ولكن قولوا اسلمنا) أى أظهرنا الانقياد فى الظاهر للاحكام الظاهرة وأمنا من ان نكون حربا للمؤمنين وعونا للمشركين فاخبر الله تعالى ان حقيقة الايمان هو التصديق بالقلب وان الاقرار باللسان واظهار شرائعه بالابدان لايكون ايمانا دون التصديق بالقلب والاخلاص فالاسلام هو الدخول فى السلم كما يقال أشتى اذا دخل فى الشتاء وأصاف اذا دخل فى الصيف وأربع اذا دخل فى الربيع فن الاسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والابدان والجنان كقوله عز وجل لابراهيم أسلم قال أسلمت لرب العالمين ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب وذلك قوله تعالى ولكن قولوا أسلمنا (ولما يدخل الايمان) اى المعرفة التامة لم تدخل الى هذا الوقت (فى قلوبكم) فلا يعد اقرار اللسان ايمانا الا بمواطأة القلب قال ابن برجان فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسلمون غير مؤمنين * وعن سعد بن أبى وقاص قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطا وأنا جالس فيهم فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا منهم لم يعطه وهو أعجبهم الى فقمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فساررته فقلت مالك عن فلان والله انى لاراه مؤمنا فقال صلى الله عليه وسلم أو مسلما ذكر ذلك سعد ثلاثا وأجابه بمثل ذلك ثم قال انى لاعطى الرجل وغيره أحب الى منه خشية ان يكب فى النار على وجهه وقال الرازى المسلم والمؤمن واحد عند أهل السنة فنقول الفرق بين العام والخاص ان الايمان لايحصل الا بالقلب والانقياد قد يحصل بالقلب وقد يحصل باللسان فالاسلام أعم لكن العام فى صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمرا آخر غيره مثاله الحيوان فى صورة الانسان أمر لا ينفك عن الانسان فلا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيوانا ولا يكون انسانا فالعام والخاص مختلفان فى العموم متحدان فى الوجود وكذلك المؤمن والمسلم وسيأتى زيادة على ذلك فى الذاريات ان شاء الله تعالى وقال الرازى فى الآية اشارة الى بيان حال المؤلفة اذا أسلموا ويكون ايمانهم ضعيفا فقال لهم لم تؤمنوا لان الايمان ايقان وذلك بعد لم يدخل فى قلوبهم وسيدخل باطلاعهم على محاسن الاسلام اه بل الايمان دخل فى قلوبهم ولكن لم

النكاح ويؤيده ان ذلك لا يعدى بالباء بل بنفسه كما قال تعالى زوجناكها (قوله كل امرئ بما كسب رهين)

يتألفوا باهل الاسلام * (تنبيه) * التعبير بلما يفهم انهم آمنوا بعد ذلك ويجوز أن يكون
المراد بهذا النفي نفي التمكن في القلب لا نفي مطلق الدخول بدليل انما المؤمنون دون انما الذين
آمنوا (وان تطيعوا الله) أي الملك الذي من خالفه لم يأمن عقوبته (ورسوله) اى الذي طاعته
من طاعته على ما أنتم عليه من الامر الظاهر فتؤمن قلوبكم (لا يألتكم) أي لا ينقصكم (من
اعمالكم شيأ) بل يعطيكم ما يليق به من الجزاء لان من حمل الى ملك فاكهة طيبة قدرتها في
السوق درهم فاعطاه الملك درهما انتسب الملك الى البخل فهو يعطي ما تتوقعون باعمالكم
وزيادة من غير نقص فلا حاجة الى اخباركم عن ايمانكم بغير ما يدل عليه من الاقوال
والافعال وقرأ الدوري عن أبي عمرو بعد الياء التحتية بهمزة ساكنة وأبدلها السوسي ألفا
والباقون بغير همز ولا ألف * ولما كان الانسان مبنيا على النقص وان اجتهد غاية اجتهاده
قال الله تعالى (ان الله) اى الذي له صفات الكمال (غفور) اى ستور للهفوات والزلات لمن
تاب وصحت نيته ولغيره ان شاء فلا عتاب ولا عقاب (رحيم) اى يزيد على الستر عظيم الاكرام
ثم بين تعالى لهم حقيقة الايمان بقوله تعالى (انما المؤمنون) اى العريقون في الايمان الذي
هو حياة القلوب قال القشيري والقلوب لا تحيا الا بعد ذبح النفوس والنفوس لا تموت
ولكنها تغيب (الذين آمنوا) اى صدقوا معترفين (بالله) معتقدين جميع ماله من صفات
الكمال (ورسوله) شاهدين برسالته وهذا الاثبات هنا يدل على ان المنفي فيما قبل الكمال المطلق
والا لقال تعالى انما الذين آمنوا (ثم لم يرتابوا) اى لم يشكوا في دينهم وأيقنوا بان الايمان
ايقان * (تنبيه) * ثم للتراخي في الحكاية كأنه يقول آمنوا ثم أقول شيأ آخر لم يرتابوا ويحتمل
أن تكون للتراخي في الفعل اى آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما نقل النبي صلى الله عليه وسلم
من الحشر والنشر (وجاهدوا) اى أوقعوا الجهاد بكل ما ينبغي أن تجهد النفوس فيه تصديقا
لما ادعوه بألسنتهم من الايمان (باموالهم) وذلك هو النية وقوله تعالى (وأنفسهم) أعم من
النية وغيرها وذلك هو الشجاعة وقدم الاموال لقلتها عند العرب (في سبيل الله) اى طريق
الملك الاعظم بقتال الكفار وغيره من سائر العبادات المحتاجة الى المال والنفس لا الذين
يتخلفون ويقولون شغلتنا أموالنا وأهلونا قال القشيري جعل الله تعالى الايمان مشروطا
بخصال ذكرها وذكره بلفظ انما وهي للتحقيق بقتضى الطرد والعكس فمن أفرد الايمان عن
شرائطه التي جعلها له فردود عليه قوله (أولئك) اى العالو الرتبة (هم الصادقون) اى في
قولهم وفعلهم انهم مؤمنون ولما نزلت هاتان الآيتان أتت الاعراب رسول الله صلى الله
عليه وسلم يحلفون بالله انهم مؤمنون صادقون وعلم الله منهم غير ذلك قال الله تعالى لنبيه صلى
الله عليه وسلم (قل) اى لهؤلاء الاعراب تجهيلا لهم وتبكيتا (أتعلمون الله) اى اتخبرون اخبارا
عظيما الملك الاعظم المحيط قدرة وعلما (بدينكم) اى بقولكم آمنا (والله) اى والحال
ان الملك المحيط بكل شئ (يعلم ما في السموات) كلها على عظمها وكثرة ما فيها
(وما في الارض) كذلك (والله) اى الذي له الاحاطة الكاملة (بكل شئ) اى مما ذكر
ومما لم يذكر (عليم) اى لا تخفى عليه خافية وهو تجهيل لهم وتوبيخ (يمنون عليك) اى
يذكرون ذكر من اصطنع صنيعة وأسدى اليك نعمة (أن أسلموا) اى من غير قتال بخلاف
غيرهم ممن أسلم بعد قتالهم * ولما كان المن هو القطع من العطاء الذي لا يراد عليه بجزاء

* ان قلت كيف قال تعالى في وصف أهل الجنة ذلك مع ان المعنى كل امرئ مرهون في النار بعمله

قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أي في جواب قولهم هذا (لا تمنوا على اسلامكم) لو فرض انكم كنتم متدينين بدين الاسلام الذي هو انقياد الظاهر مع اذعان الباطن أي لا تذكروا الامتنان أصلا لان الاسلام لا يطلب جزاؤه الا من الله تعالى فلا ينبغي عده صنيعة على أحد فان ذلك يفسده (بل الله) أي الملك الاعظم الذي له المنة على كل موجود ولا منة عليه بوجه (يمن عليكم) أي يذكر أنه اسدى اليكم نعمه (أن) أي بأن (هداكم للايمان) اي فهو المان عليكم لا أنتم عليه وعلى (فان قيل) كيف من عليهم بالهداية الى الايمان مع أنه تبين أنهم لم يؤمنوا (أجيب) باوجه احدها انه تعالى لم يقل بل الله يمن عليكم أن رزقكم الايمان بل قال أن هداكم للايمان ثانيها انه تعالى من عليهم بما زعموا فكأنه تعالى قال أنتم قلتم آمنا فذلك نعمة في حقكم حيث تخلصتم من النار فقال تعالى هداكم في زعمكم ولهذا قال تعالى (ان كنتم صادقين) اي في قولكم آمنا فانه على تقدير الصدق انما هو بتوفيق الله تعالى وهو الذي خلق لكم قدرة الطاعة فهو الفاعل في الحقيقة فله المنة عليكم قال القشيري من لاحظ شيأ من أحواله فان رآها من نفسه كان مشركا وان رآها لنفسه كان مكرا فكيف يمن العبد بما هو شرك أو مكر والذي يجب عليه قبول المنة كيف يرى لنفسه على غيره منة هذا العمري فضيحة والمنة تكدر الصنيعة اذا كانت من المخلوقين وبالمنة تطيب النعمة اذا كانت من قبل الله تعالى (ان الله) أي المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يعلم غيب السموات) اي ماغاب فيها كلها (والارض) كذلك ولما أريد التعميم من غير تقييد بالخافقين اظهر ولم يضمر قوله تعالى (والله) اي الذي له الاحاطة بذلك وبغيره مما لا تعلمون (بصير) اي عالم أتم العلم (بما تعملون) أي من ظاهر اسلامكم في الماضي والحاضر والآتي سواء أكان ظاهرا أم باطنا سواء أكان قد حدث فصار بحيث تعلمونه انتم اوكان مغروزا في جبلاتكم وهو خفي عنكم وقرأ ابن كثير بالياء التحتية على الغيبة نظرا لقوله تعالى يمنون وما بعده والباقون بالفوقية على الخطاب نظرا الى قوله تعالى لا تمنوا على اسلامكم الى آخره وفي هذه الآية اشارة الى أنه يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة والباطنة لا يخفى عليه شئ وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجرات اعطى من الاجر بعدد من أطاع الله وعصاه حديث موضوع

سورة ق مكية

الا قوله تعالى ولقد خلقنا السموات والارض الآية فمدنية وهي خمس وأربعون آية وثلثمائة وسبع وخمسون كلمة وألف وار بعمائة وأربعة وتسعون حرفا

(بسم الله) أي الذي احاط علمه بجميع خلقه العاكف منهم والباد (الرحمن) اي الذي عم خلقه برحمته حين أرسل اليهم بشرا نعمه أصدق العباد (الرحيم) أي الذي خص بالفوز في دار القرار أهل الرشاد واختلف في تفسير قوله عز من قائل (ق) فقال ابن عباس هو قسم وقيل هو اسم للسورة وقيل اسم من أسماء القرآن وقال القرطبي هو مفتاح اسمه قدير وقادر وقاهر وقريب وقابض وقال عكرمة والضحاك هو جبل محيط بالارض من زمردة خضراء ومنه خضرة السماء والسماء مقببة عليه وعليه كنفاها ويقال هو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس

(قلت) بل المعنى في كل نفس مرهونة بالعمل الصالح الذي هي مطالبة به فان عمل صالحا فكها والا أوبقها أو الجملة من صفات

من ورائه بمسيرة سنة وقيل متصلة عروقه بالصخرة التي عليها الارض والسماء كهيئة القبة وعليه كنفاها قال الرازي وهذا القول ضعيف لوجوه أحدها ان اكثر القراء يقف عليها ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف في الادراج لان من قال ذلك قال ان الله تعالى أقسم به ثانيها انه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الالف والفاء كما يكتب عين جارية ويكتب أليس الله بكاف عبده وفي جميع المصاحف تكتب حرف ق ثالثها ان الظاهر كون الامر فيه كالامر في ص ون و حم وهي حروف لا كلمات فكذلك في ق (فان قيل) هو منقول عن ابن عباس (نقول) المنقول عنه ان القاف اسم جبل واما ان المراد هنا ذلك فلا اه وقيل معناه قضى الامر وقضى ما هو كائن كما قالوا في حم ٣ وفي ص صدق الله قال الرازي وقد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليكون السامع بسببها يقبل على استماع ما يرد على الاسماع فلا يفوته شئ من الكلام الرائق والمعنى الفائق وذكرنا أيضا ان العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية ظاهرة ووجد في الجارحية ما عقل معناه ووجد فيها ما لم يعقل معناه كاعمال الحج من الرمي والسعي وغيرهما ووجد في القلبية ما عقل بالدليل وعلم كالتوحيد وامكان الحشر وصفات الله تعالى وصدق الرسل ووجد فيها ما لم يعقل ولم يمكن التصديق به لولا السمع كالصراط الممدود الاحد من السيف الارق من الشعر والميزان الذي توزن به الاعمال فكذلك ينبغي أن تكون الاذكار التي هي العبادة اللسانية فيها ما يعقل معناه كجميع القرآن الا قليلا منه وفيها ما لا يعقل ولا يفهم كحروف التهجي ليكون التلفظ به لمحض الانقياد للامر لا لما يكون في الكلام من طيب الحكاية والقصد الى غرض كقولك ربنا اغفر لنا وارحمنا بل يكون النطق به تعبدا محضا ويؤيد هذا وجه آخر وهو ان هذه الحروف مقسم بها لان الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفا لهما فاذا أقسم بالحروف التي هي أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان أولى واذا عرفت هذا فنقول القسم من الله تعالى وقع بامر واحد كما في قوله تعالى والعصر وقوله تعالى والنجم وبحرف واحد كما في قوله تعالى ص و ن ووقع بامرين كما في قوله تعالى والضحى والليل وفي قوله تعالى والسماء والطارق وبحرفين كما في قوله تعالى طه وطس وحم ووقع بثلاثة امور كما في قوله تعالى والصافات فالزاجرات فالتاليات وقوله تعالى والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود وبثلاثة أحرف كما في قوله تعالى الم وطسم الر ووقع بأربعة أمور كما في قوله تعالى والذاريات فالحاملات فالجاريات فالمقسمات وفي قوله تعالى والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين وباربعة أحرف كما في قوله تعالى المص والمر ووقع بخمسة أمور كما في قوله تعالى والطور وكتاب مسطور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور وفي قوله تعالى والمرسلات فالعاصفات والناشرات فالفارقات فالملقيات وفي النازعات وفي الفجر وبخمسة أحرف كما في قوله تعالى كهيعص وحم عسق ولم يقسم باكثر من خمسة أشياء الا في سورة واحدة وهي والشمس وضحاها ولما أقسم بالاشياء المعهودة ذكر حرف القسم وهو الواو فقال والطور والنجم والشمس وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم فلم يقل وحم وق لان القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسما به فلم يورده في موضع كونه آلة القسم

٣ قوله كما قالوا في حم الخ عبارته في سورة المؤمن وقال الضحاك والكسائي معناه قضى ما هو كائن كانهما أشارا الى أن معنى حم حم بضم الحاء وتشديد الميم اه

أهل النار معترضة بين صفات أهل الجنة روى عن مقاتل انه قال معناه كل امرئ كافر عامل من الكفر مرتين في النار

تسوية بين الحرف وغيره ولم يدخل القسم بالحروف فى أثناء السورة لانه يخل بالنظم وقوله تعالى (والقرآن) أى الكتاب الجامع الفارق (المجيد) أى الذى له العلو والشرف والكرم والعظمة على كل كلام قسم وفى جوابه أوجه أحدها قوله تعالى قد علمنا ما تنقص الارض منهم ثانيها ما يبدل القول لدى ثالثها ما يلفظ من قول رابعها ان فى ذلك لذكرى خامسها بل عجبوا وهو قول كوفى قالوا لان معناه قد عجبوا سادسها انه محذوف قدره الزجاج والمبرد والاخفش لتبعثن وغيرهم لقد جاءكم منذر وقدره الجلال المحلى بقوله ما آمن كفار مكة بمحمد صلى الله عليه وسلم *(تنبيه)* جوابات القسم سبعة ان المشددة كقوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر وما النافية كقوله تعالى والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك واللام المفتوحة كقوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين وان الخفيفة كقوله تعالى تالله ان كنا لفى ضلال مبين ولا النافية كقوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وقد كقوله تعالى والشمس وضحاها قد أفلح من زكاها وبل كقوله تعالى والقرآن المجيد (بل) أى ان تكذيبهم ليس لانكار شئ من مجدك ولا انكار صدقك بل لانهم (عجبوا) أى الكفار واضمرهم قبل الذكر اشارة الى أنه اذا ذكر شئ خارج عن سنن الاستقامة انصرف اليهم والعجب تغير النفس لامر خارج عن العادة (أن جاءهم منذر منهم) أى رسول من أنفسهم يخوفهم بالنار بعد البعث واقتصر على الانذار لان المقام لتخويف من قدم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من تمادى بالسلام أو غيره ولتخويف من أنكر البعث والعجب منهم هو العجب لان العادة عندهم وعند جميع الناس انه اذا كان النذير منهم لم يداخلهم فى انذاره شك بوجه من الوجوه وهؤلاء خالفوا عادة الناس فى تعجبهم من كون النذير وهو أحدهم خص بالرسالة دونهم ولم يدركوا وجه الخصوصية لكونه مثلهم فلذلك أنكروا رسالته وفضل كتابه بالسنتهم تعاندا وحسدا لانهم كانوا معترفين بخصائصه التى رفعه الله تعالى بها عليهم قبل الرسالة فحطهم عجبهم ذلك الى الحضيض من دركات السفه وخفة الاحلام لانهم عجبوا أن كان الرسول بشرا وأوجبوا أن يكون الاله حجرا وعجبوا أن يعادوا من تراب لم يكن له أصل فى الحياة ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فقال) أى بسبب انذاره بالبعث (الكافرون) وصرح به فى موضع الاضمار ايذانا بانهم لم يخف عليهم شئ من أمره ولكنهم ستروا تعديا برأى عقولهم الدالة على جميع امره دلالة ظاهرة وعبر بما دل على النذارة لانها المقصود الاعظم من هذه السورة وجميع سياق الطبرات ظاهر فيها (هذا) أى كون النذير منا خصص بالرسالة من دوننا وكون ما أنذر به هو البعث بعد الموت (شئ عجيب) أى بليغ فى الخروج عن عادة اشكاله وقد كذبوا فى ذلك أما من جهة النذير فان أكثر الرسل من الطوائف الذين أرسلوا اليهم وقليل منهم من كان غريبا ممن أرسل اليه وأما من جهة البعث فان أكثر ما فى الكون مثل ذلك من اعادة كل من الملوين بعد ذهابه واحياء الارض بعد موتها واخراج النبات والاشجار والثمار وغير ذلك مما هو ظاهر جدا ولما كان المتعجب منه مجملا أوضحه بقوله تعالى حكاية عنهم مبالغين فى الانكار بافتتاح انكارهم باستفهام انكارى (أئذا متنا) ففارقت ارواحنا ابداننا (وكنا ترابا) لا فرق بينه وبين تراب الارض ولما كان العامل فى الظرف ما تقديره نرجع دل عليه بقوله تعالى دالا

والمؤمن لا يكون مرتهنا لقوله تعالى كل نفس بما كسبت رهينة الا اصحاب اليمين (قوله ويطوف عليهم) قاله مناوى الانسان

بالاشارة بأداة البعد الى عظيم استبعادهم (ذلك) اى الامر الذى فى غاية البعد وهو مضمون الخبر برجوعنا (رجع) اى رد الى ما كنا عليه (بعيد) جدا لانه لا يمكن تمييز ترابنا من بقية التراب وقرأ قالون وابو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية وهى المكسورة وادخال ألف بينها و بين الهمزة الاولى المفتوحة وقرأ ورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير ادخال وقرأ الباقون بتحقيقهما وأدخل هشام بينهما ألفا بخلاف عنه والباقون بغير ادخال وكسر الميم من متنا نافع وحفص وحمزة والكسائى والباقون بالضم وقوله تعالى (قد علمنا) اى بما لنا من العظمة (ما تنقص الارض منهم) أى تأكل من اجزائهم المتحللة من ابدانهم بعد الموت وقيل رد لاستبعادهم لان من لطف علمه حتى تغلغل الى ما تنقص الارض من اجزاء الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا وعنه عليه الصلاة والسلام كل ابن آدم يبلى الا عجب الذنب وعن السدى ما تنقص الارض منهم من يموت منهم ومن يبقى وهذه الآية تدل على جواز البعث وقدرته تعالى عليه لان الله تعالى عالم باجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه جزء واحد بجزء الآخر قادر على الجمع والتأليف فليس الرجع منه ببعيد وهذا كقوله تعالى وهو الخلاق العليم حيث جعل للعلم مدخلا فى الاعادة وهذا جواب ما كانوا يقولون أئذا ضللنا فى الارض اى انه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم اعمالهم فيرجعهم ويعيدهم بما كانوا يقولون و بما كانوا يعملون (وعندنا) اى على ما لنا من الغنى عن كل شئ (كتاب) أى جامع لكل شئ (حفيظ) اى بالغ فى الحفظ لا يشذ عنه شئ من الاشياء جل أو دق وقيل محفوظ من الشياطين ومن أن يندرس او يغير على الحالين الحفيظ هو اللوح المحفوظ قال الرازى والاول هو الاصح لان الحفيظ بمعنى الحافظ وارد فى القرآن قال الله تعالى وما أنت عليهم بحفيظ وقال تعالى حفيظ عليم ولان الكتاب للتمثيل ومعناه العلم عندى كما يكون فى الكتاب فهو يحفظ الاشياء وهو مستغن عن أن يحفظ وقوله تعالى (بل كذبوا بالحق) اى الامر الثابت الذى لا أثبت منه اضراب ثان قال الزمخشرى اضراب اتبع للاضراب الاول للدلالة على انهم جاؤا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق (لما) أى حين (جاءهم) أى لما ثار عندهم من اجل تعجبهم من ارسال رسولهم من حظوظ النفوس حسدا منهم من غير تأمل لما قالوه ولا تدبر ولا نظر فيه ولا تذكر فلذلك قالوا ما لا يعقل من أن من قدر على ايجاد شئ من العدم وابدائه لا يقدر على اعادته بعد اعدامه (فهم) اى لاجل مبادرتهم الى هذا القول السفساف (فى امر مريج) أى مضطرب جدا مختلط من المرج الذى هو اختلاط النبت بالانواع المختلفة فهم تارة يقولون سحر وتارة كهانة وتارة شعر وتارة كذب وتارة غير ذلك لا يثبتون على شئ واحد والاضطراب موجب للاختلاف وذلك أدل دليل على الابطال كما ان الثبات والخلوص موجب للاتفاق وذلك أدل دليل على الحقية قال الحسن ما ترك قوم الحق الا مرج أمرهم وكذا قال قتادة وزاد والتبس عليهم دينهم ثم ذكر تعالى الدليل الذى يدفع قولهم ذلك رجع بعيد بقوله تعالى (أفلم ينظروا) اى بعين البصر والبصيرة (الى السماء) اى المحيطة بهم (فوقهم) فان غيرها انما هو فوق ناس منهم لا فوق الكل (كيف بنيناها) أى اوجدناها على ما لنا من الجد والعزمية كالخيمة الا انها من غير عمد (وزيناها) أى بما فيها من الكواكب الكبار والصغار السيارة والثابتة (وما) أى

بالواو عطفا على ما قبله وقوله فى الواقعة بغير واو ولانه حال أو خبر بعد خبر (قوله فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) فان قلت كيف

والحال

والحال ان ما (لها) وأكد النفي بقوله تعالى (من فروج) أي فتوق وطاقات وشقوق بل هي ملساء متلاصقة الاجزاء (والارض) اى المحيطة بهم التي هم عليها (مددناها) أى بسطناها بما لنا من العظمة (وألقينا) أى بعظمتنا (فيها رواسى) أى جبالا ثوابت كانت سببا لثباتها وخالفت عادة المراسى فى أنها من فوق والمراسى التى تعالجونها أنتم من تحت (وانبتنا) اى بما لنا من العظمة (فيها) اى الارض وعظم قدرته بالتبعيض فقال تعالى (من كل زوج) أى صنف من النبات تزاوجت اشكاله (بهيج) اى هى فى غاية الرونق والاعجاب فكان مع كونه رزقا منتزها (تبصرة) اى جعلنا هذه الاشياء كلها لاجل أن تنظروا بابصاركم وتتفكروا ببصائركم فتعبروا منها الى صانعها فتعلموا ماله من العظمة (وذكرى) اى ولتتذكروا بها تذكرا عظيما بما لكم من القوى والقدر فتعلموا بعجزكم عن كل شئ من ذلك ان صانعها لا يعجزه شئ وانه محيط بجميع صفات الكمال وقرأ ابو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح * (تنبيه) * قال الرازى يحتمل أن يكون الامران عائدين الى السماء والارض أى خلق السماء تبصرة وخلق الارض ذكرى ويدل على ذلك ان السماء وزينتها غير متجددة فى كل عام فهى كالشئ المرئى على ممر الزمان وأما الارض فهى كل سنة تأخذ زينتها وزخرفها فتذكر فالسماء تبصرة والارض تذكرة ويحتمل أن يكون كل واحد من الامرين موجودا فى كل واحد من الامرين فالسماء تبصرة وتذكرة والارض كذلك والفرق بين التذكرة والتبصرة هو أن فيهما آيات مستمرة منصوبة فى مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسى (لكل عبد) أى لتبصر وتذكر كل عبد بما له من النقص وبما دل عليه هذا الصنع من الكمال أنه عبد مربوب لصانعه (منيب) أى رجاع عما حطه اليه طبعه الى ما يغلبه عليه عقله فيرجع من شهود هذه الافعال الى شهود الصفات الى علم الذات ثم ذكر تعالى دليلا بقوله تعالى (ونزلنا من السماء) أى المحل العالى الذى لا يمسك فيه الماء عن دوام التقاطر الا بقاهر (ماء) أى شيأ فشيأ فى اوقات وعلى سبيل التقاطر ولولا عظمتنا التى لا تضاهى لغلب بما له من الثقل والميوع والنفوذ فنزل دفعة واحدة فاهلك ما نزل عليه فزالت المسرة وعادت المنفعة مضرة (مباركا) أى نافعا جدا كثير البركة وفيه حياة كل شئ وهو المطر فيكون الاستدلال بالسماء والارض وما بينهما وهو انزال الماء من فوق واخراج النبات من تحت (فانبتنا) أى بما لنا من القدرة الباهرة (به جنات) من الشجر والثمر والزرع والريحان وغيره مما تجمعه البساتين فتجن اى تستر الداخل فيها (وحب الحصيد) أى النجم الذى من شأنه انه يحصد كالبر والشعير ونحوهما وقوله تعالى (والنخل) منصوب عطفا على مفعول أنبتنا اى وانبتنا النخل وقوله تعالى (باسقات) أى طوالا حال مقدرة لانها وقت الانبات لم تكن طوالا والبسوق الطول يقال بسق فلان على اصحابه اى طال عليهم فى الفضل ومنه قول ابن نوفل فى ابن هبيرة

يا ابن الذين بمجدهم * بسقت قيس فزاره

وهو استعارة والاصل استعماله فى بسقت النخلة تبسق بسوقا اى طالت قال الشاعر

لنا خمر وليست خمر كرم * ولكن من نتاج الباسقات
كرام فى السماء ذهبن طولا * وفات ثمارها أيدى الجناة

قال ذلك مع ان كل أحد غيره كذلك (قلت) معناه فما أنت بحمد الله وانعامه عليك بالصدق والنبوة بكاهن ولا مجنون كما يقول

و بسقت الشاة ولدت وابسقت الناقة وقع في ضرعها اللبن قبل النتاج وقال سعيد بن جبير باسقات مستويات وأفردها بالذكر لفرط ارتفاعها (لها طلع) يجوز أن تكون الجملة حالا من النخل أو من الضمير في باسقات ويجوز أن يكون الحال وحده لها وطلع فاعل به وقوله تعالى (نضيد) بمعنى منضود بعضها فوق بعض في أكمامها كما في سنبلة الزرع وهو عجيب فان الاشجار الطوال ثمارها بارزة بعضها على بعض لكل واحدة منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز والطلع كالسنبلة الواحدة تكون على أصل واحد وقوله تعالى (رزقا) يجوز أن يكون حالا أي مرزوقا (للعباد) ويجوز أن يكون مفعولا له وللعباد إما صفة وإما متعلق بالمصدر (فان قيل) ما الحكمة في قوله تعالى عند ذكر خلق السماء والارض تبصرة وذكرى وفي الثمار قال رزقا والثمار أيضا فيها تبصرة وفي السماء والارض أيضا منفعة غير التبصرة والتذكرة (أجيب) بان الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الاعادة والثاني البقاء بعد الاعادة فان النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم والعقاب الدائم وأنكروا ذلك فقال أما الاول فالله القادر على خلق السموات والارض قادر على خلق الخلق بعد الفناء وأما الثاني فلأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على اخراج الارزاق من النخل والشجر قادر على أن يرزق بعد الحشر فكان الاول تبصرة وتذكرة بالخلق والثاني تذكرة بالبقاء والرزق ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تعالى تبصرة وذكرى حيث ذكر ذلك بين الآيتين ثم بدأ بذكر الماء وانزاله وانبات النبات * (تنبيه) * لم يقيد هنا العباد بالانابة وقيده في قوله تعالى تبصرة وذكرى لكل عبد منيب لان التذكرة لا تكون الا للمنيب والرزق يعم كل أحد غير أن المنيب يأكل ذاكرا وشاكرا للانعام وغيره يأكل كما تأكل الانعام فلم يخصص بقيد ولما كان في ذلك أعظم مذكر للبصراء بالبعث وبجميع صفات الكمال أتبعه ماله من التذكير بالبعث بخصوصه فقال تعالى (وأحيينا به) أي الماء بعظمتنا (بلدة) وسمها بالتأنيث اشارة الى انها في غاية الضعف والحاجة الى النبات والخلو عنه وذكر (ميتا) للزيادة في تقرير تمكن الحاجة فيها أو حملا على معنى المكان (فان قيل) ما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله تعالى وآية لهم الارض الميتة حيث أثبت الهاء هنالك (أجيب) بان الاصل في الارض الوصف فقال الميتة لان معنى الفاعلية ظاهر هنالك والبلدة الاصل فيها الحياة لان الارض اذا صارت حية صارت آهلة وأقام بها القوم وعمروها فصارت بلدة فاسقط التاء لان معنى الفاعلية غير ظاهر فتثبت فيه الهاء واذا كان معنى الفاعل لم يظهر لا تثبت فيه الهاء ويحقق هذا القول قوله تعالى بلدة طيبة حيث أثبت الهاء حيث ظهر معنى الفاعل ولم يثبت حيث لم يظهر (كذلك) أي مثل الاخراج العظيم (الخروج) من قبورهم على ما كانوا عليه في الدنيا اذ لا فرق بين خروج النبات بعد ما تهشم وتفتت في الارض وصار ترابا كما كان من بين أصفره وأبيضه وأحمره وازرقه الى غير ذلك وبين اخراج ما تفتت من الموتى كما كانوا في الدنيا * (تنبيه) * قال أبو حيان ذكر تعالى في السماء ثلاثة البناء والتزيين ونفي الفروج وفي الارض ثلاثة المد والقاء الرواسي والانبات فقابل المد بالبناء لان المد وضع والبناء رفع والقاء الرواسي بالتزيين بالكواكب لارتكاب كل واحد منها أي على سطح ما هو فيه والانبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج فلا

الكذار والباء هنا بمعنى مع كما في قوله تعالى تنبت بالدهن وقوله فقد تصيبون بحمده (قوله أمية ولون شاعر) ذكر أم خمس عشرة

شق

شق فيها ونبه فيما تعلق به الانبات على ما يقطف كل سنة ويبقى اصله ومايزرع كل سنة أو سنتين ويقطف كل سنة وعلى ما اختلط من جنسين فبعض الثمار فاكهة لاقوت وأكثر الزرع قوت والثمر فاكهة وقوت وقوله تعالى (كذبت قبلهم) الآية فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل كذبوا وصبروا فاهلك الله تعالى مكذبيهم ونصرهم ولما لم يكن لهؤلاء المكذبين شهرة يعرفون بها قال تعالى (قوم نوح) الذين كان آخر أمرهم انه التقى عليهم الماء آن نزل عليهم ماء السماء وطلع عليهم ماء الارض فاغرقهم ووسم الفعل بالتاء اشارة الى هوانهم في جنب هذا الجد وأسقط الجار من قوله تعالى قبلهم اشارة الى أن هؤلاء الاحزاب لقوتهم وكثرتهم كأنهم أهل الارض قد استغرقوا امكانهم اوزمانهم ثم اتبع قوم نوح بمشابهيهم بقوله تعالى (واصحاب الرس) أى البئر كانوا مقيمين عليها وأشيهم يعبدون الاصنام ونبيهم قيل حنظلة بن صفوان وقيل غيره فخسفت تلك البئر مع ما حولها فذهبت بهم وبكل مالهم كما ذكرت قصتهم فى الفرقان ثم اتبع أصحاب الرس بقوم صالح عليه السلام فقال (وثمود) لان الرجفة التى اخذتهم مبدأ الخسف ثم اتبع ثمود بقوم هود عليه السلام فقال تعالى (وعاد) لان الريح التى أهلكتهم اثرت بها صيحة ثمود وقال تعالى (وفرعون) ولم يقل قوم فرعون لانه ليس فى قادة هذه الفرق كافر غيره والنص عليه يفهم عظمته وانه استخف قومه فاطاعوه (واخوان لوط) اى اصهاره الذين صار بينه وبينهم مع المصاهرة المناصرة بعلو كعبهم على من ناواهم بنفسه وعمه خليل الله ابراهيم عليهما السلام ومع ذلك عاملوه بالخيانة والتكذيب (واصحاب الايكة) اى الغيضة وهم قوم شعيب والغيضة الشجر الملتف بعضه على بعض ولما كان تبع الحميرى واسمه سعد وكنيته أبو كرب مع كونه فى قومه ملكا قاهرا وخالفوه مع ذلك وكان لقومه نار فى بلادهم يتحاكمون اليها فتأكل الظالم ختم بهم فقال تعالى (وقوم تبع) مع كونه ملكا وهو يدعوهم الى الله تعالى فلا يظن أن التكذيب مخصوص بمن كان قويا لمن كان مستضعفا بل هو واقع بمن شئنا من قوى وضعيف لايخرج شئ عن مرادنا (كل) أى من هذه الفرق (كذب الرسل) أى كلهم بتكذيب رسولهم فان الكل متساوون فيما يوجب الايمان من اظهار المعجز والدعاء الى الله تعالى (فحق) أى فتسبب عن تكذيبهم لهم أن ثبت عليهم ووجب (وعيد) أى الذى كانوا يكذبون به عند انذارهم لهم اياه فجعلنا لهم منه فى الدنيا ما حكمنا به عليهم فى الازل فاهلكناهم اهلاكا عاما كاهلاك نفس واحدة على انحاء مختلفة كما هو مشهور عند من له بامثاله عناية واتبعناه ما هو فى البرزخ واخرنا ما هو فى القيامة الى يوم البعث فثبت باهلاكنا لهم على تنائى ديارهم وتباعد أعصارهم وكثرة اعدادهم ان لنا الاحاطة البالغة فليتسل باخوانك المرسلين وتأس بهم وليحذر قومك ماحل بمن كذبهم ان أصروا (أفعيينا بالخلق) اى أحصل لنا مع مالنا من العظمة الاعياء وهو العجز بسبب الخلق فى شئ من ايجاده أو اعدامه (الاول) اى من السموات والارض وما بينهما حين ابتدأناه اختراعا من العدم ومن خلق الانسان وسائر الحيوان مجددا فى كل أوان فى الاطوار المشاهدة على هذه التدريجات المعتادة بعد أن خلقنا أصله على ذلك الوجه مما ليس له أصل فى الحياة ومن

مرة وكلها الزامات ليس للمخاطبين بها عنها جواب (قوله فانك باعيننا) صيغة الجمع هنا للتفخيم والتعظيم

اعدامه بعد خلقه جملة كهذه الامم أو تدريجا كغيرهم (بل هم فى لبس) اى شك شديد وشبهة موجبة للتكلم بكلام مختلط لا يعقل له معنى بل السكوت عنه اجمل (من) اى لاجل (خلق جديد) أى بالاعادة ولما ذكر الخافقين أتبعه خلق ما هو جامع لجميع ما هو فيهما فقال تعالى (ولقد) أى والحال أنا قد (خلقنا) اى بما لنا من العظمة (الانسان) وهو أعجب خلقا واجمع من جميع ما مضى ذكره بما فيه من الانس والطغيان والذكر والنسيان والجهل والعرفان والطاعة والعصيان وغير ذلك من عجيب الشان ووكلنا به من جنودنا من يحفظه فيضبط حركاته وسكناته بجميع أحواله (ونعلم) والحال انا نعلم بما لنا من الاحاطة (ما توسوس) أى تكلم على وجه الخفاء (به) اى الآن وفيما بعد ذلك (نفسه) مما لم يتقدح بعد من خزائن الغيب الى سر النفس كما علمنا ما تكلم نفسه وهى الخواطر التى تعرض له حتى انه هو ربما عجز عن ضبطها فنحن نعلم ان قلوبهم عالمة بقدرتنا على أكمل ما نريد وبصحة القرآن واعجازه وصدق الرسول به صلى الله عليه وسلم وامتيازه وانما حملهم الحسد والنفاسة والكبر والرياسة على الانكار باللسان حتى صار لهم ذلك خلقا وتمادوا فيه حتى غطى على عقولهم فصاروا فى لبس محيط بهم من جميع الجوانب (ونحن) اى بما لنا من العظمة (اقرب اليه) اى قرب علم وشهود من غير مسافة (من حبل الوريد) لان ابعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضا ولا يحجب علم الله تعالى شئ والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان من الرأس الى الوتين وهو عرق متصل بالقلب اذا قطع مات صاحبه وهذا مثل فى فرط القرب والاضافة مثل مسجد الجامع أى حبل العرق الوريد أو لان الحبل أعم فاضيف للبيان نحو بعير سانية أو يراد حبل العاتق وأضيف الى الوريد كما يضاف الى العاتق لانهما فى عضو واحد وقال البغوى حبل الوريد عرق الفرق وهو عرق بين الحلقوم والعلباوين يتفرق فى البدن والحبل هو الوريد فاضيف الى نفسه لاختلاف اللفظين قال القشيرى وفى هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم وروح وأنس وسكون قلب لقوم وقوله تعالى (اذ يتلقى) ظرف لاقرب ويجوز أن يكون منصوبا باذكر أى واذكر اذ يتلقى أى بغاية الاجتهاد والمراقبة والمراعاة من كل انسان خلقناه وأبرزناه الى هذا الوجود (المتلقيان) أى الملكان الموكلان بعمل الانسان ومنطقه يحفظانه ويكتبانه حال كونهما (عن اليمين) لكل انسان (وعن الشمال) أى أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فالذى عن اليمين يكتب الحسنات والذى عن الشمال يكتب السيآت وقوله تعالى (قعيد) أى قاعدان مبتدأ وخبره ما قبله لان فعيلا يطلق على الواحد والمتعدد كقوله تعالى بعد ذلك ظهير قال ابن عادل والاجود أن يدعى حذف اما من الاول أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد واما من الثانى فيكون قعيدا الملفوظ به للاول ومثله قوله

رمانى بامر كنت منه ووالدى * بريأ ومن أجل الطوى رمانى

وقال مجاهد القعيد المرصد ونحن أعلم منهما وأقرب وانما استحفظناهما لاقامة الحجة بهما على مجارى عاداتكم وغير ذلك من الحكم (ما يلفظ) أى يرمى ويخرج المكلف من فيه وعم فى النفى بقوله تعالى (من قول) جل أو قل (الا لديه) أى الانسان أو القول على هيئة من القدرة والعظمة من أغرب المستغرب (رقيب) من حفظتنا شديد المراعاة فى كل من أحواله (عتيد)

أى بحيث نراك ونحفظك ومثله قوله تجرى باعيننا

(سورة النجم)

(قوله ماضل صاحبكم وماغوى) * ان قلت كيف قال ذلك مع ان الضلالة والغواية متحدتان

أى حاضر مراقب غير غافل بوجه قال الجلال المحلى وكل منهما بمعنى المثنى أى رقيبان عتيدان روى أبو امامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر *(تنبيه)* اختلف فيما يكتبان فقال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه فى مرضه وقال عكرمة لا يكتبان الا ما يؤجر عليه أو يوزر فيه *(فائدتان)* احداهما قال الحسن ان الملائكة يجتنبون الانسان عند حالتين عند غائطه وعند جماعه * الثانية قال الضحاك مجلسهما تحت الشعر على الحنك ومثله عن الحسن وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنفقته (وجاءت) أى أتت وحضرت (سكرة الموت) أى حالته عند النزع وشدته وغمرته يصير المريض بها كالسكران لا يعى وتخرج بها أقواله وأفعاله عن قانون الاعتدال مجيأ ملتبسا (بالحق) أى الامر الثابت الذى يطابقه الواقع فلا حيلة فى الاحتراس منه وقيل للميت بلسان الحال ان لم يكن بلسان المقال (ذلك) أى هذا الامر العظيم العالى الرتبة الذى يحق لكل أحد الاعتداد له بغاية الجهد (ما) أى الامر الذى (كنت) أى جبلة وطبعا (منه تحيد) أى تميل وتنفر وتروغ وتهرب *(تنبيه)* قيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم قال الرازى وهو منكر وقيل مع الكافر قال ابن عادل والاقوى أن يقال هو خطاب عام مع السامع وهذا أولى وقوله تعالى (ونفخ فى الصور) عطف على قوله تعالى وجاءت سكرة الموت وهو القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام للموت العام والبعث العام عند التكامل وانقطاع أوان التعامل وهو بحيث لا يعلم قدر عظمه واتساعه الا الله تعالى وهو عليه السلام قد التقم الصور من حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر فيا لها من عظمة ما أغفلنا عنها وأنسانا اياها والمراد بهذه نفخة البعث وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى الزمان المفهوم من قوله نفخ لان الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان العظيم الاهوال والاوجال (يوم الوعيد) أى الانذار بالعذاب (وجاءت) أى فيه (كل نفس) أى مكلفة (معها سائق) أى ملك يسوقها اليه (وشهيد) يشهد عليها بعملها قال الضحاك السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم وهو الايدى والارجل وغيرها وهى رواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هما جميعا من الملائكة فالسائق كما قيل لا تعلق له بالشهادة لئلا تقول تلك النفس انه خصم والخصم لا تقبل شهادته وقيل السائق هو الذى يسوقه الى الموقف ومنه الى مقعده والشهيد هو الكاتب والسائق لازم للبر والفاجر أما البر فيساق الى الجنة وأما الفاجر فالى النار قال تعالى وسيق الذين كفروا وقال تعالى وسيق الذين اتقوا والشهيد يشهد عليها بما عملت *(تنبيه)* يجوز فى جملة معها سائق وشهيد أن تكون فى موضع جر صفة لنفس وأن تكون فى موضع رفع صفة لكل وأن تكون فى موضع نصب على الحال من كل ويقال للكافر (لقد كنت) أى كونا كأنه جبلة لك (فى غفلة) أى عظيمة محيطة بك ناشئة لك (من هذا) أى من تصور هذا اليوم على ما هو عليه من انقطاع الاسباب والجزاء بالثواب أو العقاب لانه على شدة جلائه خفى على من

(قوله) لانسلم اتحادهما اذ الضلالة ضد الهدى والغواية ضد الرشد أو المعنى ما ضل فى قوله ولا غوى فى فعله وبتقدير اتحادهما

اتبع الشهوات (فكشفنا) بعظمتنا بالموت ثم البعث (عنك غطاءك) الذي كان في الدنيا على قلبك وسمعك وبصرك من الغفلة بالآمال في الحال والمآل وسائر الحظوظ والشهوات (فبصرك اليوم) أي بعد البعث (حديد) أي في غاية الحدة والنفوذ فلذا تقر بما كنت تنكر في الدنيا وقال مجاهد يعني نظرك الى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيآتك والمعنى أزلنا غفلتك فبصرك اليوم حديد وكان من قبل كليلا واختلف في القرين في قوله تعالى (وقال قرينه) فأكثر المفسرين على أنه الملك الموكل به فيقول (هذا ما) أي الذي (لدي عتيد) أي حاضر ونقل الكرماني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه الشيطان الذي سلط على اغوائه واستدراجه الى ما يرديه فقرينه الكفر والعصيان ويدل لهذا قوله تعالى وقيضنا لهم قرناء وقال تعالى نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال تعالى فبئس القرين فالاشارة بهذا الى المسوق المرتكب الفجور والفسوق والعتيد معناه المعد للنار ومعناه ان الشيطان يقول هذا العاصي هو شيء عندي معد لجهنم أعددته لها بالاغواء والاضلال وقوله تعالى (ألقيا في جهنم) أي النار التي تلقى الملقى فيها بما كان يعامل به عباد الله تعالى من الكبر والعبوسة (كل كفار) خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو للواحد وتثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره كأنه قيل ألق ألق وقيل أراد ألقين بالنون الخفيفة فأبدلها ألفا اجراء للوصل مجرى الوقف وقيل العرب تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين تأكيدا كقوله

فان تزجراني يا ابن عفان أنزجر * وان تدعاني أحم عرضا ممنعا

قال ابن عادل وقيل المأمور مثنى وهذا هو الحق لأن المراد ملكان يفعلان ذلك اه وهو القول المتقدم (عنيد) وهو المبالغ في ستر الحق والمعاداة لأهله بغير حجة وأنفة نظرا الى استحسان ما عنده والثبات عليه تجبرا وتكبرا على ما عند غيره ازدراء له كائنا من كان (مناع) أي كثير المنع (للخير) من المال وغيره من كل معروف يتعلق بالمال والمقال والفعال وقيل المراد الاسلام فان الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه عنه (معتد) أي مجاوز للحدود (مريب) أي داخل في الريب وهو الشك والتهمة في أهل الدين وقوله تعالى (الذي جعل مع الله) أي الذي له الاحاطة بجميع صفات الكمال (الها آخر) يجوز أن يكون منصوبا على الذم أو على البدل من كل وأن يكون مجرورا بدلا من كفار أو مرفوعا بالابتداء والخبر (فألقياه في العذاب) أي الذي يزيل كل عذوبة (الشديد) ودخلت الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط ويجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر أي هو الذي جعل ويكون فألقياه تأكيدا (قال قرينه) مناديا باسقاط الاداة كدأب أهل القرب ايهاما أنه منهم (ربنا) أي أيها المحسن الينا أيتها الخلائق كلهم (ما أطغيته) أي ما أوقعته فيما كان فيه من الطغيان فاني لا سلطان لي عليه وأنت أعلم بذلك (ولكن كان) أي بجبلته وطبعه (في ضلال بعيد) أي محيط به من جميع جوانبه لا يمكن رجوعه معه فلذلك كان يبادر الى كل ما يغضب الله تعالى (تنبيه) * هذا جواب لكلام مقدر فان الكافر حين ما يلقى في النار يقول ربنا أطغاني شيطاني فيقول ربنا ما أطغيته بدليل قوله تعالى لا تختصموا والذي لأن المخاصمة تستدعي كلاما

يكون ذلك من باب التأكيد باللفظ المخالف مع اتحاد المعنى (قوله فكان قاب قوسين او ادنى) ان قلت كيف ادخل كلمة

من

من الجانبين ونظيره قوله تعالى في سورة ص قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم الى قوله تعالى ان ذلك لحق تخاصم أهل النار قال الزمخشري وهذا يدل على ان المراد بالقرين في الآية المتقدمة هو الشيطان لا الملك الذي هو شهيد وقعيد قال الرازي وجاءت هذه الآية بلا واو وفي الاولى بواو عاطفة لان الاولى اشارة وقعت الى معنيين مجتمعين فان كل نفس في ذلك الوقت تجيء ومعها سائق وشهيد فيقول الشهيد ذلك القول وفي الثانية لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى تذكر الواو فان الفاء في قوله تعالى فالقياه في العذاب لا تناسب قوله تعالى قال قرينه ربنا ما أطغيته فليس هناك مناسبة مقتضية للعطف (فان قيل) كيف قال ما أطغيته مع انه قال لاغوينهم أجمعين (أجيب) بان المراد من قوله لاغوينهم أي لادعينهم على الغواية كان الضال اذا قال له شخص أنت على الجادة فلا تتر كها يقال انه يضله كذا هنا فقوله ما أطغيته أي ما كان ابتداء الطغيان وقوله تعالى (قال) أي الله تعالى المحيط علما وقدرة الذي حكم عليهم بذلك في الازل (لا تختصموا) أي لا توقعوا الخصومة بهذا الجد والاجتهاد استئناف كأن قائلا يقول فماذا قال الله تعالى فأجيب بقال لا تختصموا وقوله تعالى (لدي) أي في دار الجزاء بهذه الحضرة التي هي فوق ما كنتم تدركونه من الاخبار عنها بكثير يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغي أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدي وقوله تعالى (وقد قدمت اليكم بالوعيد) أي التهديد وهو التخويف العظيم على جميع ما ارتكبتموه من الكفر والعدوان جملة حالية ولا بد من تأويلها وذلك أن النهي في الآخرة وتقدمة الوعيد في الدنيا فاختلف الزمان فكيف يصح جعلها حالية وتأويلها هو أن المعنى وقد صح أني قدمت وزمان الصحة وزمان النهي واحد وقدمت يجوز أن يكون بمعنى تقدمت فتكون الواو للحال ولا بد من حذف مضاف أي وقد تقدم قولي لكم ملتبسا بالوعيد ويجوز أن يكون قدمت على حاله متعديا والباء مزيدة في المفعول أي قدمت اليكم الوعيد كقوله تعالى تنبت بالدهن على قول من قال بزيادتها هناك وقيل الباء هنا للمصاحبة كقولك اشتريت الفرس بلجامه أي معه فكأنه قال تعالى قدمت اليكم ما يجب مع الوعيد على تركه والانذار (ما يبدل) أي يغير بوجه من الوجوه (القول لدي) أي الواصل اليكم من حضرتي التي لا يحيط بها أحد من خلق وعبر بما التي هي للحاضر دون لا التي للمستقبل لان الاوقات كلها عنده حاضرة (وما أنا) وأكد النفي بقوله تعالى (بظلام للعبيد) فاعذبهم بغير ظلم (فان قيل) الظلام مبالغة في الظالم ويلزم من انتفائه اثبات أصل الظلم فاذا قال القائل هو كذاب يلزم أن يكون كثير الكذب ولا يلزم من نفيه نفي أصل الكذب لجواز أن يقال ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحيانا فقوله تعالى ما أنا بظلام لا يفهم منه نفي أصل الظلم وأن الله ليس بظلام (أجيب) بأربعة أجوبة أحدها أن الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر فتكون اللام في قوله تعالى للعبيد لتحقيق النسبة لان الفعال حينئذ بمعنى ذي ظلم لقوله تعالى لا ظلم اليوم ثانيها قال الزمخشري ان ذلك أمر تقديري كأنه تعالى يقول لو ظلمت عبدي الضعيف الذي هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم وما أنا بذلك فيلزم من نفي كونه ظلاما نفي كونه ظالما ويحقق هذا الوجه اظهار لفظ العبيد حيث قال الله تعالى وما أنا بظلام للعبيد أي في ذلك اليوم الذي أملأ فيه جهنم مع سعتها حتى

الشك وهو محال عليه تعالى
(قلت) او للتخيير لا للشك اي
ان شئتم قدروا ذلك القرب
بقاب قوسين او ادنى منهما
او هي بمعنى بل او التشكيك

تصيح وتقول لم يبق فى طاقة بهم ولم يبق فى موضع لهم فهل من مزيد استفهام استنكار ثالثها انه لمقابلة الجمع بالجمع والمعنى ان ذلك اليوم مع أنى ألقى فى جهنم عددا لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم لانه تعالى قال وما أنا بظلام للعبيد (يوم نقول) أى على ما لنا من العظمة (لجهنم) ولم يقل ما أنا بظلام فى جميع الازمان وخصص بالعبيد ولم يطلق فلذلك خصص النفى بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق ولم يلزم منه أن يكون ظالما فى غير ذلك الوقت لان التخصيص بالذكر لا يدل على نفى ما عداه لانه نفى كونه ظلاما ولم يلزم منه كونه ظالما ونفى كونه ظلاما للعبيد ولم يلزم منه كونه ظلاما لغيرهم *(تنبيه)* يحتمل أن يكون المراد بالعبيد الكفار كقوله تعالى ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الآية والمعنى أعذبهم وما أنا بظلام لهم ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين والمعنى ان الله تعالى يقول لو بدلت قولى ورحمت الكافر لكنت فى تكليف العباد ظالما لعبادى المؤمنين لانى منعتهم من الشهوات لاجل هذا اليوم فلو كان ينال من لم يأت بما أتى به المؤمن ما يناله المؤمن لكان اتيان المؤمن بما أتى به من الايمان والعبادة غير مفيد وهذا معنى قوله تعالى لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ويحتمل أن يكون المراد التعميم وهذا أظهر وقوله تعالى لجهنم أى التى هى دار العذاب مع الكراهة والعبوسة والتجهم (هل امتلأت) استفهام تحقيق لوعده عليها وهو قوله تعالى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (وتقول) بصورة الاستفهام كالسؤال (هل من مزيد) أى قد امتلأت ولم يبق فى موضع لم يمتلئ فهو استفهام انكار وقيل بمعنى الاستزادة رواه أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعلى هذا يكون السؤال وهو قوله تعالى هل امتلأت قبل دخول جميع أهلها فيها وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله تعالى سبقت كلمته لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فلما سيق أعداء الله اليها لا يلقى فيها فوج الا ذهب فيها ولا يملؤها فتقول ألست قد أقسمت لتملأنى فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت فتقول هل من مزيد قط قط قد امتلأت وليس فى مزيد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش وفى رواية رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها الى بعض وتقول قط قط بعد ذلك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة ولابى هريرة رضى الله عنه نحوه ولا يظلم الله تعالى من خلقه أحدا *(تنبيه)* هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات وللعلماء فيه وفى أمثاله مذهبان أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وطائفة من المتكلمين انه لا يتكلم فى تأويلها بل نفوض بانها حق على ما أراد الله ورسوله ونجريها على ظاهرها ولها معنى يليق بها وظاهرها غير مراد المذهب الثانى وهو قول جمهور المتكلمين انها تؤول بحسب ما يليق بها فعلى هذا اختلفوا فى تأويل الحديث فقيل المراد بالقدم التقدم وهو شائع فى اللغة والمعنى يضع الله تعالى فيها من قدمه لها من أهل العذاب وقيل المراد به قدم بعض المخلوقين فيعود الضمير فى قدمه الى ذلك المخلوق المعلوم وقيل يحتمل أن فى المخلوقات من يسمى بهذه التسمية وخلقوا لها قال القاضى عياض أظهر التأويلات أنهم استحقوها وخلقوا لها قال المتكلمون ولا بد من صرفه عن ظاهره لقيام الدليل العقلى القطعى على استحالة

(قوله لهم فى قدر القرب)
(قوله أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الاخرى)
* ان قلت راى هنا من رؤية

الجار رحمه على الله تعالى وقولها قط قط أى حسبى حسبى قد اكتفيت وفيها ثلاث لغات اسكان الطاء وكسرها منونة وغير منونة ولما ذكر النار التى هى دار الفجار وقدمها لان المقام للانذار اتبعها دار الابرار فقال تعالى سارّا لهم باسقاط مؤنة السير وطى مشقة البعد (وأزلفت الجنة) أى قربت بأيسر أمر مع الدرجات والحياض الممتلئة (للمتقين) أى العريقين فى هذا الوصف فاذا رآها تسابقوا اليها وتركوا ما كانوا فيه فى الموقف من منابر النور وكثبان المسك ونحو هذا وأما غيرهم من أهل الايمان فقد يكون لهم غير هذا الوصف فيساق اليها الذين اتقوا كما مضى فى الزمر وقوله تعالى (غير بعيد) يجوز أن يكون حالا من الجنة ولم يؤنث لانها بمعنى البستان أو لان فعيلا لا يؤنث لانه بزنة المصادر قاله الزمخشرى ومنعه أبو حيان وتقدم الكلام على ذلك فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ويجوز أن يكون منصوبا على الظرف المكانى أى مكانا غير بعيد ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف أى ازلافا غير بعيد وهو ظاهر عبارة الزمخشرى فانه قال أو شيأ غير بعيد (فان قيل) ما وجه التقريب والجنة مكان والامكنة يقرب منها وهى لا تقرب (أجيب) من أوجه أولها أن الجنة لا تزال ولا يؤمر المؤمن فى ذلك اليوم بالانتقال اليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوى المسافة التى بين المؤمن والجنة فهو التقريب (فان قيل) فعلى هذا ليس ازلاف الجنة من المؤمن باولى من ازلاف المؤمن من الجنة فما فائدة قوله تعالى أزلفت الجنة (أجيب) بان ذلك اكرام للمؤمن وبيان لشرفه وانه ممن يمشى اليه ثانيها اقرب من الحصول فى الدخول لا بمعنى القرب المكانى ثالثها ان الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء الى الارض فيقربها للمؤمن ويحتمل انها أزلفت بمعنى جمعت محاسنها لانها مخلوقة واما بمعنى قرب الحصول لها لانها تنال بكلمة طيبة وحسنة وخص المتقين بذلك لانهم أحق بها وقوله تعالى (هذا) أى الازلاف والذى ترونه من كل ما يسركم (ما) أى الامر الذى (توعدون) أى وقع الوعد لكم به فى الدنيا يجوز فيه وجهان أحدهما أن يكون معترضا بين البدل والمبدل منه وذلك أن (لكل أواب) أى رجاع الى طاعة الله تعالى بدل من المتقين باعادة العامل ثانيهما أن يكون منصوبا بقول مضمر ذلك القول منصوب على الحال أى مقولا لهم وقرأ ابن كثير بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ونسب أبو حيان قراءة الياء لابن كثير ولابى عمرو وانما هى لابن كثير فقط وقال سعيد بن المسيب الاوّاب هو الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الشعبى ومجاهد هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر منها وقال ابن عباس رضى الله عنهما وعطاء هو المسبح من قوله تعالى يا جبال أوّبى معه وقال قتادة هو المصلى وقوله تعالى (حفيظ) اختلف فيه فقال ابن عباس رضى الله عنهما هو الذى يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا الحفيظ لامر الله وقال قتادة الحفيظ لما استودعه الله تعالى من حقه والاواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة أى يكون كثير الاوب شديد الحفظ ثم أبدل من كل تتميما لبيان المتقين قوله تعالى (من خشى) أى خاف ونبه على كثرة خشيته بقوله تعالى (الرحمن) لانه اذا خافه مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصى كان خوفه مع استحضار غيرها أولى وقال القشيرى التعبير بذلك للاشارة الى أنها خشية تكون مقرونة بالانس يعنى الرجاء كما هو المشروع قال

القلب فاين مفعولها الثانى (قلت) هو محذوف تقديره أفرأيتموها بنات الله وانداده والمعنى أخبرونى ألهذه الاصنام قدرة على

قوله ثانيها اقرب كذا بالنسخ التى بايدينا وفى حاشية العلامة الجمل الثانى أن المراد قرب الدخول فيها لا بمعنى الخ وهى ظاهرة اه مصححه

ولذلك لم يقل الجبار أو القهار و يقال الخشية ألطف من الخوف فكأنها قريبة من الهيبة وقوله تعالى (بالغيب) حال أى غائبا عنه فيحتمل أن يكون حالا من الفاعل أو المفعول أو منهما وقيل الباء للمصاحبة أى مصاحب له من غير أن يطلب آية أو أمرا يصير به الى حد المكاشفة بل استغنى بالبراهين القطعية التى منها أنه مربوب وهو أيضا يبالغ خشيته و يجوز أن يكون صفة لمصدر خشى أى خشيه خشية ملتبسة بالغيب ومعنى الآية من خاف الرحمن فأطاعه بالغيب ولم يره وقال الضحاك والسدى يعنى فى الخلوة حيث لا يراه أحد وقال الحسن اذا أرخى الستور وأغلق الباب وقوله تعالى (وجاء) أى بعد الموت (بقلب منيب) اى راجع الى الله تعالى صفة مدح لان شأن الخائف أن يهرب فاما المتقى فجاء به لعلمه أنه لا ينجى الفرار منه والباء فى بقلب اما للتعدية واما للمصاحبة واما للسببية والقلب المنيب كالقلب السليم فى قوله تعالى اذ جاء ربه بقلب سليم أى سليم من الشرك والضمير فى قوله تعالى (ادخلوها) عائد الى الجنة وقوله تعالى (بسلام) حال من فاعل ادخلوها أى سالمين من العذاب والهموم فهى حال مقارنة أو بسلام من الله تعالى وملائكته عليهم فهى حال مقدرة كقوله تعالى فادخلوها خالدين كذا قيل قال ابن عادل وفيه نظر اذ لا مانع من مقارنة تسليم الملائكة عليهم حال الدخول بخلاف فادخلوها خالدين فانه لا يعقل الخلود الا بعد الدخول (ذلك) أى اليوم الذى حصل فيه الدخول (يوم الخلود) أى الدوام فى الجنة الذى لا آخر له ولا انقضاء شىء من لذاته أصلا ولذلك وصل به قوله تعالى جوابا لمن قال على أى وجه دخولهم (لهم) بظواهرهم و بواطنهم (ما يشاؤن) أى تتجدد مشيئتهم أو يمكن مشيئتهم له (فيها) أى الجنة (ولدينا) أى عندنا من الامور التى هى فى غاية الغرابة عندهم وان كان كل ما عندهم مستغربا (مزيد) أى مما لا يدخل تحت أوهامهم ليشاؤه فان سياق الامتنان يدل على ان تنوينه للتعظيم والتعبير بلدى يؤكد ذلك (فان قيل) ما الحكمة فى أنه تعالى قال ادخلوها بسلام على المخاطبة ثم قال لهم ولم يقل لكم (أجيب) من وجوه أولها أن قوله تعالى ادخلوها فيه مقدر أى فيقال لهم ادخلوها فلا يكون التفاتا ثانيها انه التفات والحكمة الجمع بين الطرفين كانه تعالى يقول غير مخل بهم فى غيبتهم وحضورهم ففى حضورهم الحبور وفى غيبتهم الحور والقصور ثالثها أنه يجوز أن يكون قوله تعالى لهم كلاما مع الملائكة يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم واعلموا أن لهم ما يشاؤن فيها اذا حضروا بين أيديهم ما يشاؤن وأما أنا فعندى ما لا يخطر ببالهم ولا تقدرون أنتم عليه والمزيد يحتمل أن يكون معناه الزيادة كقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ويحتمل ان يكون بمعنى المفعول أى عندنا ما نزيده على ما يرجون و يأملون قال أنس و جابر وهو النظر الى وجه الله الكريم قيل يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى فى كل ليلة جمعة فى دار كرامته فهذا هو المزيد ولما ذكر تعالى أول السورة تكذيب الامم السابقة ذكرهنا اهلاك قرون ماضية بقوله تعالى (وكم أهلكنا) أى بما لنا من العظمة (قبلهم من قرن) أى جيل هم فى غاية القوة وزاد فى بيان القوة قوله تعالى (هم أشد منهم) اى من قريش (بطشا) أى قوة وأخذا لما يريدونه بالعنف والسطوة والشدة *(تنبيه)* كم منصوب بما بعده وقدم اما لانه استفهام واما لان

ثم قد تعبدونها دون الله
شئ (ان القادر على كل شئ
(قلت) كيف وصف الثالثة
بالاخرى مع انه انما يوصف
بها الثانية وظاهر اللفظ

كم الخبرية تجري مجرى كم الاستفهامية في التصدير ومن قرن تمييزوهم اشد صفة اما لكم وامالقرن والفاء في قوله تعالى (فنقبوا) عاطفة على المعنى كانه قيل اشتد بطشهم فنقبوا (في البلاد) والضمير في نقبوا امالقرن المتقدم وهو الظاهر واما لقريش والتنقيب التنقير والتفتيش ومعناه التطواف في البلاد قال الحرث بن حلزة

نقبوا في البلاد من حذر المو * ت وجالوا في الارض كل مجال

وقال امرؤ القيس

وقد نقبت في الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالاياب

ولما كان التقدير ولم يسلوا مع كثرة تنقيبهم توجه سؤال تنبيه للغافل الذاهل وتقريع وتبكيت للمعاند الجاهل بقوله تعالى (هل من محيص) أي معدل ومحيد ومهرب وان قمن قضائنا ليكون لهولاء وجه ما في رد أمرنا (ان في ذلك) أي فيما ذكر في هذه السورة من الاساليب العجيبة والطرق الغريبة (لذكرى) أي تذكيرا عظيما جدا (لمن كان) أي كونا عظيما (له قلب) أي عقل في غاية العظمة فهو بحيث يفهم ما يراه ويعتبر به ومن لم يكن كذلك فلا قلب له سليم بل له قلب لاه (أو ألقى السمع) أي استمع الوعظ بغاية اصغائه حتى كانه يرمى بشئ ثقيل من علو الى سفل (وهو) أي والحال انه في حال القائه (شهيد) أي حاضر بكليته فهو في غاية ما يكون من تصويب الفكر وجمع الخاطر فلا يغيب عنه شئ مما تلى عليه وألقى اليه فيتذكر وعطف على قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان قوله تعالى (ولقد خلقنا) أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر قدرها ولا يطاق حصرها (السموات والارض) اى على ما هما عليه من الكبر وكثرة المنافع (وما بينهما) من الامور التي لا ينتظم الامر على قاعدة الاسباب والمسببات بدونها (في ستة أيام) الارض في يومين ومنافعها في يومين والسموات في يومين ولو شاء لكان ذلك في أقل من لمح البصر ولكنه تعالى سن لنا التأنى بذلك (وما مسنا) لاجل ما لنا من العظمة أدنى مس وعم في النفي فقال تعالى (من لغوب) أي اعياء فانه لو كان لاقتضى ضعفا فاقتضى فسادا فكان من ذلك شئ على غير ما أردناه فكان تصرفنا فيه غير تصرفنا في الباقي وأنتم تشاهدون الامر في الكل على حد سواء من نفوذ الامر وتمام التصرف (فاصبر) يا أشرف الخلق (على ما يقولون) أي اليهود وغيرهم من انكار البعث والتشبيه وغير ذلك فان من قدر على خلق العالم بلا اعياء قدر على البعث وغيره (وسبح) اى أوقع التنزيه عن كل شائبة نقص ملتبسا (بحمد ربك) أي باثبات الاحاطة بجميع صفات الكمال للسيد المدبر المحسن اليك بجميع هذه البراهين التي خصك بها فضلا لك على جميع الخلق وقوله تعالى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) اشارة الى طرفي النهار وقوله تعالى (ومن الليل فسبحه) اشارة الى زلفى من الليل وتقريره أنه صلى الله عليه وسلم كان مشتغلا بامرين احدهما عبادة الله تعالى والثاني هداية الخلق فاذا لم يهتدوا وقيل له أقبل على شغلك الآخر وهو العبادة قبل الطلوع وقبل الغروب لانهما وقتا اجتماعهم ويكون المراد بقوله تعالى ومن الليل أوله لانه أيضا وقت اجتماعهم وقال أكثر المفسرين قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل الغروب

يقتضى ان يكون قد سبق ثالثة ثم لحقها ثالثة أخرى ليكون ثالثتين (قلت) الاخرى صفة للعزى وانما أخرها رعاية للفواصل أو

الظهر والعصر ومن الليل العشاآن والتهجد (وادبار السجود) التنفل بعد المكتوبات وقيل الوتر بعد العشاء وقال مجاهد ومن الليل يعني صلاة الليل أي وقت صلى وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بكسر الهمزة على أنه مصدر قام مقام ظرف الزمان كقولهم آتيك خفوق النجم وخلافة الحجاج ومعنى وقت ادبار الصلاة أى انقضائها وتمامها والباقون بالفتح جمع دبر وهو آخر الليل وعقبها ومنه قول أوس

على دبر الشهر الحرام فأرضنا * وما حولها جدب سنون تلمع

ولم يختلفوا في وادبار النجوم وقوله تعالى وأدبار معطوف اما على قبل الغروب واما على ومن الليل وقال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ادبار السجود الركعتان بعد صلاة المغرب وادبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر وهي رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما وروى عنه مرفوعا قال البغوي هذا قول أكثر المفسرين عن عائشة رضي الله عنها قالت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشد معاهدة منه على الركعتين أمام الصبح وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها يعني بذلك سنة الفجر وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما أحصي ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل الفجر بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وعن مجاهد وأدبار السجود هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبح في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال تمام المائة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وعنه أيضا أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم فقال صلى الله عليه وسلم وماذاك فقالوا صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال قال أفلا أخبركم بأمر تدركون به من قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم ولا يأتي أحد مثل ما جئتم به الامن جاء بمثله تسبحون في دبر كل صلاة عشرا وتحمدون عشرا وتكبرون عشرا وقوله تعالى (واستمع) اى لما أخبرك به من أحوال القيامة فيه تهويل وتعظيم للمخبر به والمحدث عنه كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل يا معاذ اسمع ما أقول ثم حدثه بعد ذلك وقوله تعالى (يوم) ظرف لاستمع اى استمع ذلك في يوم (ينادى المنادى) أى اسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادى بالحشر فيقول أيتها العظام البالية والعروق المتمزقة والشعور المتفرقة ان الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء وقيل المنادى جبريل (من مكان قريب) بحيث يسمع الصوت من بعد كما يسمعه من قرب يكونون في السماع سواء لاتفاوت بينهم أصلا واختلف في ذلك المكان القريب فاكثر المفسرين انه صخرة بيت المقدس فانها أقرب الارض الى السماء باثنى عشر ميلا وهي وسط الارض وقيل من تحت أقدامهم وقيل من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة أيتها العظام البالية وقوله تعالى (يوم يسمعون الصيحة) بدل من يوم ينادى والصيحة النفخة الثانية وقوله تعالى (بالحق)

حال

قوله ومعنى وقت كذا بالنسخ والاصل الصواب والمعنى الخ اه مصححه

صفة ذم للات والعزى ومناة التي هي ثالثة للذين قبلها فالاخرى على هذا من التأخر في الرتبة

حال من الصيحة أى ملتبسة بالحق أو من الفاعل أى يسمعون ملتبسين بسماع حق (ذلك) اى اليوم العظيم الذى يظهر به الجد ويعلو بضعفاء المؤمنين الجد (يوم الخروج) أى الذى لاخروج أعظم منه وهو خروجهم من قبورهم من الارض التى خلقوا منها الى الحشر وهو من أسماء يوم القيامة (انا) أى بما لنا من العظمة (نحن) أى خاصة (نحيى ونميت) أى نجدد ذلك شيأ بعد شئ سنة مستقرة وعادة مستمرة كما تشاهدونه فقد كان منا بالاحياء الاول المبدأ (والينا) أى خاصة بالاماتة ثم الاحياء (المصير) أى فى الآخرة وقيل تقديره نميت فى الدنيا ونحيى فى الآخرة للبعث والينا المصير بعد البعث وقوله تعالى (يوم) بدل من يوم قبله وما بينهما اعتراض وقرأ (تشقق الارض) نافع وابن كثير وابن عامر بتشديد الشين والباقون بالتخفيف (عنهم) أى مجاوزة لهم بعد أن كانوا فى بطنها فيخرجون منها أحياء كما كانوا على ظهرها أحياء حال كونهم (سراعا) أى اجابة لمناد ينادهم وهو جمع سريع وأشار الى عظمة الامر بقوله تعالى (ذلك) أى الاخراج العظيم جدا (حشر) اى جمع بكره وزاد فى بيان عظمة هذا الامر بدلالته على اختصاصه بتقدم الجار فقال تعالى (علينا) أى خاصة (يسير) فكيف يتوقف فيه عاقل فضلا عن أن ينكره وأما غيرنا فلا يمكنه ذلك بوجه * (تنبيه) * علينا متعلق بيسير ففصل بمعمول الصفة بينها وبين موصوفها ولا يضر ذلك وقال الزمخشرى التقديم للاختصاص وهو ما أشرت اليه أى لا يتيسر ذلك الا على الله تعالى وحده وهو اعادة جواب قولهم ذلك رجع بعيد وقوله تعالى (نحن أعلم) أى عالمون (بما يقولون) أى فى الحال والاستقبال من التكذيب بالبعث وغيره تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتهديدا لهم (وما أنت عليهم بجبار) أى بمسلط تجبرهم على الاسلام انما أنت منذر وقد فعلت ما أمرت به ونحن القادرون على ردهم بما لنا من العلم المحيط وهذا قبل الامر بالقتال (فذكر) اى بطريق البشارة والنذارة (بالقرآن) اى الجامع بمجده لكل خير المحيط بكل صلاح (من يخاف وعيد) فانه لا ينتفع به غيرهم وهم المؤمنون وقرأ ورش باثبات الياء بعد الدال وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة ق هون الله عليه تارات الموت وسكراته حديث موضوع وتارات الموت بمثلثة وهمزة مفتوحة أهواله

سورة الذاريات مكية

وهى ستون آية وثلثمائة وستون كلمة وألف ومائتان وتسعة وثمانون حرفا

(بسم الله) أى المحيط بصفات الكمال فهو لا يخلف الميعاد (الرحمن) الذى عم الخلائق بنعمة الايجاد (الرحيم) الذى خص من اختاره بالتوفيق لما يرضاه من المراد ولما ختم الله سبحانه وتعالى ق بالتذكير بالوعيد افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه فقال عز من قائل مناسبا بين القسم والمقسم عليه (والذاريات) اى الرياح تذرو التراب وغيره وقيل النساء الوالدات فانهن يذرين الاولاد وقوله تعالى (ذروا) منصوب على المصدر المؤكد والعامل فيه فرعه وهو اسم الفاعل والمفعول محذوف اقتصارا يقال ذرت الريح التراب وأذرته (فالحاملات)

(قوله ان يتبعون الا الظن) قاله هنا وبعده وليس بتكرار لان الاول متصل بعبادتهم اللات والعزى ومناة والثانى بعبادتهم

أي السحب تحمل الماء وقيل الرياح الحاملة للسحاب وقيل النساء الحوامل وقوله تعالى (وقرا) أي ثقلا مفعول به بالحاملات كما يقال حمل فلان عدلا ثقيلا قال الرازي ويحتمل أن يكون اسما أقيم مقام المصدر كقوله ضربته سوطا (فالجاريات) أي السفن وقيل الرياح الجاريات في مهابها وقيل الكواكب التي تجري في منازلها وقوله تعالى (يسرا) أي بسهولة مصدر في موضع الحال أي ميسرة (فالمقسمات) اى الملائكة التي تقسم الارزاق والامطار وغيرها بين العباد والبلاد وقوله تعالى (أمرا) يجوز أن يكون مفعولا به كقولك فلان قسم الرزق أو المال وأن يكون حالا أي مأمورة وهذه أشياء مختلفة فتكون الفاء على بابها من عطف المتغايرات والفاء للترتيب في القسم لا في المقسم به قال الزمخشري ويجوز أن يراد الرياح وحدها لانها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجو جريا سهلا وعلى هذا يكون من عطف الصفات والمراد واحد فتكون الفاء على هذا الترتيب الامور في الوجود وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر سلوني قبل أن لا تسألوني ولن تسألوا بعدي مثلي فقام ابن الكواء فقال ما الذاريات قال الرياح قال فالحاملات وقرا قال السحاب قال فالجاريات يسرا قال الفلك قال فالمقسمات أمرا قال الملائكة وكذا عن ابن عباس وعن الحسن المقسمات السحاب يقسم الله تعالى به ارزاق العباد وقد حملت على الكواكب السبعة ويجوز أن يراد الرياح لا غير لانها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجو جريا سهلا وتقسم الامطار بتصريف السحاب (فان قيل) ان كان وقرا مفعولا فلم لم يجمع وقيل اوقارا (أجيب) بان جماعة من الرياح قد تحمل وقرا واحدا وكذا القول في المقسمات أمرا اذا قيل انه مفعول به لان جماعة الملائكة قد تجتمع على أمر واحد *(فائدة)* أقسم الله تعالى بجمع السلامة المؤنث في خمس سور ولم يقسم بجمع السلامة المذكر في سورة أصلا فلم يقل والصالحين من عبادي ولا المقربين الى غير ذلك مع أن المذكر أشرف لان جموع السلامة بالواو والنون في الغالب لمن يعقل ولما كانوا يكذبون بالوعيد أكد الجواب بعد التأكيد بنفس القسم فقال تعالى (انما توعدون لصادق) أي مطابق الاخبار به للواقع وسترون مطابقته له *(تنبيه)* ما يجوز أن تكون اسمية وعائدها محذوف اى توعدونه وأن تكون مصدرية فلا عائد على المشهور وحينئذ يحتمل أن يكون توعدون مبنيا من الوعد وأن يكون مبنيا من الوعيد لانه يصلح ان يقال أوعدته فهو يوعد ووعدته فهو يوعد لا يختلف فالتقدير ان وعدكم أو وعيدكم (وان الدين) اى الجزاء لكل أحد بما كسب يوم البعث (لواقع) لابد منه لكم ثم (والسماء ذات الحبك) قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق الحسن المستوي يقال للنساج اذا نسج الثوب فأجاد ما أحسن حبكه وقال سعيد بن جبير ذات الزينة اى المزينة بزينة الكواكب قال الحسن حبكتها النجوم وقال مقاتل والكلبي والضحاك ذات الطرائق كحبك الماء اذا ضربته الريح وحبك الرمل والشعر الجعد وهو آثار تثنيه وتكسره قال زهير

مكلل باصول النجم تنسجه * ريح خريق لضاحي مائه حبك

قوله ويجوز ان يراد الخ هو ما نقله أولا عن الزمخشري اه

الملائكة والظن فيهما مذموم بقوله ان الظن لا يغني من الحق شيأ اى لا يقوم مقام العلم (ان قلت) كيف لا يقوم مقامه مع انه

والحبك يحتمل أن يكون مفرده حبيكة كطريقة وطرق أو حباك نحو حمار وحمر قال الشاعر

كأنما جللها الحوّاك • طنفسة في وشيها حباك

وأصل الحبك احكام الشيء واتقانه ومنه يقال للدرع محبوكة وجواب القسم (انكم) يا معشر قريش (لفي قول) محيط بكم في أمر القرآن والآتي به وجميع امر دينكم وغيره مما تريدون به ابطال الدين الحق (مختلف) فتقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الاولين وفي محمد صلى الله عليه وسلم ساحر وشاعر ومجنون وكاهن وكاذب (يؤفك) اي يصرف (عنه) أي عن النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن اي عن الايمان بذلك (من أفك) اي صرف عن الهداية في علم الله تعالى ومعناه حينئذ الذم وقيل انه مدح للمؤمنين ومعناه يصرف عن القول المختلف من يصرف عن ذلك القول ويرشد الى القول المستوي (قتل) اي لعن (الخراصون) اي الكذابون وهم الذين لا يجزمون بامر بل هم شاكون متحيرون وهم أصحاب القول المختلف ثم وصفهم الله تعالى فقال تعالى (الذين هم) اي خاصة (في غمرة) اي جهل يغمرهم (ساهون) اي غريقون في السهو وهو النسيان والغفلة والحيرة وذهاب القلب الى غير ما يهمه فقاعل ذلك ذو ألوان متخالفة من هول ما هو فيه وشدة كربه (يسألون) النبي استهزاء (أيان) اي متى واي حين (يوم الدين) اي وقوع الجزاء الذي تخبرنا به ولولا أنهم بهذه الحالة لتذكروا من أنفسهم انه ليس أحد منهم يترك عبيده واجراءه في عمل من الاعمال الا وهو يحاسبهم على اعمالهم وينظر قطعا في احوالهم ويحكم بينهم في اقوالهم وأفعالهم فكيف الظن باحكم الحاكمين ان يترك عبيده الذين خلقهم على هذا النظام المحكم وأبدع لهم هذين الخافقين وهيأ لاجلهم فيهما كل ما يحتاجون اليه فيتركهم سدى ويوجدهم عبثا وقوله تعالى (يوم هم) منصوب بمضمر اي الجزاء كائن يوم هم (على النار يفتنون) اي يعذبون فيها جواب لسؤالهم ايان يوم الدين وقال الرازي يحتمل وجهين أحدهما أن يكون جوابا عن قولهم ايان يقع فكأنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب للعلم كذلك لم يجبهم جواب معلم مبين بل قال يوم هم على النار يفتنون فجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالاول ولا يجوز أن يكون الجواب بالاخفى فلو قال قائل متى يقدم زيد فلو اجيب بقوله يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق لم يصح هذا الجواب ثانيهما ان يكون ذلك ابتداء كلام تمامه في قوله تعالى (ذوقوا فتنتكم) أي تعذيبكم (فان قيل) هذا يفضي الى الاضمار (اجيب) بان الاضمار لا بد منه لان قوله تعالى ذوقوا فتنتكم لا يتصل بما قبله الا باضمار يقال (هذا) أي العذاب المكون (الذي كنتم به تستعجلون) في الدنيا استهزاء ولما بين تعالى حال المجرمين بين بعده حال المتقين فقال تعالى (ان المتقين) اي الذين كانت التقوى لهم وصفا ثابتا (في جنات) اي بساتين عظيمة تجن داخلها اي تستره من كثرة ظلالها الكثرة أشجارها وعظمها (وعيون) جارية في خلال الجنات •(تنبيه)• المتقي له مقامات أدناها أن يتقي الشرك واعلاها أن يتقي الدنيا والآخرة وادنى درجات المتقي الجنة فما من مكلف اجتنب الكفر الا ويدخل الجنة وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين والباقون بالضم وقوله تعالى (آخذين) حال من الضمير في خبر ان وقوله تعالى (ما آتاهم ربهم) اي المحسن اليهم المدبر لهم

يقوم مقامه في كثير من المسائل كالقياس قالت المراد به هنا الظن الحاصل من اتباع الهوى دون الظن الحاصل من النظر

بتمام علمه وشامل قدرته ان كان مما فى الجنة فتكون حالا حقيقية وان كان مما آتاهم من امره ونهيه فى الدنيا فتكون حالا محكية لاختلاف الزمانين * (تنبيه) * اعلم ان الله تعالى وحد الجنة تارة قال تعالى مثل الجنة وأخرى جمعها كقوله تعالى هذا ان المتقين فى جنات وتارة ثناها قال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان والحكمة فيه ان الجنة فى توحيدها لاتصال المنازل والاشجار والانهار كجنة واحدة وأما جمعها فلانها بالنسبة الى الدنيا وبالاضافة اليها جنات لا يحصرها عدد واما تثنيتها فسياق الكلام عليها ان شاء الله تعالى فى سورة الرحمن وهو قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان فقيل جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته وقيل جنة للخائف الانس وجنة للخائف الجن فيكون من باب التوزيع قال الرازى غيرأنا نقول ههنا ان الله تعالى عند الوعد وحد الجنة وكذلك عند الشراء فقال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة وعند الاعطاء جمعها اشارة الى ان الزيادة فى الوعد موجودة بخلاف مالو وعد بجنات ثم يقول انه فى جنة لانه دون الموعود ومعنى آخذين قابضين ما آتاهم شيأ فشيأ ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء ما لانهاية له وقيل قابلين قبول رضا كقوله تعالى ويأخذ الصدقات اى يقبلها قاله الزمخشرى وقوله تعالى (انهم كانوا قبل ذلك محسنين) اشارة الى انهم اخذوها بثمنها وملكوها بالاحسان فى الدنيا والاشارة بذلك اما لدخول الجنة واما لايتاء الله تعالى واما ليوم الدين والاحسان يكون فى معاملة الخالق والخلائق وقيل هو قول لا اله الا الله ولهذا قيل فى معنى كلمة التقوى انها لا اله الا الله وفى قوله تعالى ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وقوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان هو الاتيان بكلمة لا اله الا الله ثم فسر احسانهم معبرا عنه بما هو فى غاية المبالغة بقوله تعالى (كانوا) أى لما عندهم من الاجلال له والحب فيه بحيث كانهم مطبوعون فيه (قليلا من الليل) الذى هو وقت الراحات وقضاء الشهوات (ما يهجعون) أى يفعلون الهجوع وهو النوم الخفيف القليل بالليل فما ظنك بما فوقه فما مزيدة ويهجعون خبر كان وقليلا ظرف أى ينامون فى زمن يسير من الليل ويصلون أكثره وقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا قل ليلة تمر بهم الا صلوا فيها شيأ اما من أولها أو من وسطها وعن أنس بن مالك كانوا يصلون من المغرب الى العشاء وقال محمد بن على كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة وقال مطرف بن عبد الله قل ليلة أتت عليهم هجوعا كلها وقال مجاهد كانوا لا ينامون كل الليل ووقف بعضهم على قليلا ثم اتى به اقوله تعالى وقليل ما هم وقليل من عبادى الشكور ويبتدئ من الليل ما يهجعون أى ما يهجعون من الليل والمعنى كانوا من الناس قليلا ثم ابتدأ فقال ما يهجعون من الليل وجعله جحدا أى لا ينامون بالليل البتة بل يقومون للصلاة والعبادة وهو قول الضحاك ومقاتل وقيل ان ما بمعنى الذى وعائدها محذوف تقديره كانوا قليلا من الليل الوقت الذى يهجعونه وهذا فيه تكلف * ولما كان المحسن لا يرى نفسه الا مقصرا قال تعالى دالا على ذلك وعلى أن تهجدهم متصل بآخر الليل (وبالاسحار) قال ابن زيد السحر السدس الاخير من الليل (هم) أى دائما بظواهرهم وبواطنهم (يستغفرون) أى يعدون مع هذا الاجتهاد أنفسهم مذنبين ويسألون غفران ذنوبهم لوفور علمهم بالله تعالى وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره وان اجتهدوا والقول سيد الخلق محمد

والاستدلال بقرينة قوله ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس (قوله وان ليس للانسان الا ما سعى) ان قلت ثواب

صلى الله عليه وسلم لا أحصى ثناء عليك وابراز الضمير دل على أن غيرهم لو فعل هذا لله لاعجب بنفسه ورأى أنه لا أحد أفضل منه وعلى أن استغفارهم فى الكثرة يقتضى أنهم يكونون بحيث يظن أنهم أحق بالتذلل من المصرين على المعاصى فان استغفارهم ذلك على بصيرة لانهم نظروا ماله سبحانه فى الآفاق وفى أنفسهم من الآيات والحكم البالغة فاقبلوا على الاستغفار عالمين بانه تعالى لا يقدر حق قدره *(تنبيه)* بالاسحار متعلق بيستغفرون والباء بمعنى فى وقدم متعلق الخبر على المبتدا لجواز تقديم العامل وقال الكلبى ومجاهد وبالاسحار يصلون وذلك ان صلاتهم بالاسحار اطلب المغفرة روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل الله الى السماء كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول أنا الملك أنا الملك من الذى يدعونى فاستجيب له من الذى يسالنى فاعطيه من الذى يستغفرنى فاغفر له وهذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان معروفان أحدهما وهو مذهب السلف وغيرهم أنه يمر كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل وترك الكلام فيه وفى أمثاله مع الايمان به وتنزيه الرب سبحانه عن صفات الاجسام المذهب الثانى وهو قول جماعة من المتكلمين وغيرهم ان الصعود والنزول من صفات الاجسام فالله تعالى منزه عن ذلك فعلى هذا يكون معناه نزول الرحمة والالطاف الالهية والاقبال على الداعين بالاجابة واللطف وتخصيصه بالثلث الاخير من الليل لان ذلك وقت التهجد والدعاء وغفلة أكثر الناس وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يتهجد قال اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك انبت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وزاد فى رواية وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت ولا اله غيرك زاد النسائى ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم * ولما ذكر تعالى معاملتهم للخالق أتبعه المعاملة للخلائق تكميلا لحقيقة الاحسان فقال تعالى (وفى أموالهم) أى كل أصنافها (حق) أى نصيب ثابت (للسائل) أى الذى ينبه على حاجته بسؤال الناس وهو المتكفف (والمحروم) وهو المتعفف الذى لا يجد ما يغنيه ولا يسأل الناس ولا يفطن له ليتصدق عليه وهذه صفة أهل الصفة رضى الله تعالى عنهم فالمحسنون يعرفون صاحب الوصف لما لهم من ناقد البصيرة وفقه تعالى بهم العناية وقدم السائل لانه يعرف بسؤاله أو يكون اشارة الى كثرة العطاء فيعطى السؤال فاذا لم يجدهم يسأل عن المحتاجين فيكون سائلا ومسؤلا وقيل قدم السائل لتجانس رؤس الآى وقيل السائل هو الآدمى والمحروم كل ذى روح غيره من الحيوانات المحترمة قال صلى الله عليه وسلم فى كل كبد حرى أجر وهذا ترتيب حسن لان الآدمى مقدم على البهائم وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب السائل الذى يسأل الناس والمحروم الذى ليس له فى الغنائم سهم ولا يجرى عليه من الفئ شئ وقال قتادة والزهرى المحروم المتعفف الذى لا يسأل الناس وقال زيد بن أسلم المحروم هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته وهو قول محمد بن كعب القرظى قال المحروم صاحب

الصدقة والقراءة والحج والدعاء يصل الطالب وانيس من معه (قلت) ما دلت عليه الآية مختص بقوم ابراهيم وموسى وهو

قوله من فاقد البصيرة كذا بالاصل وفى نسخة من ناقد الخ اه مصححه

الجائحة ثم قرأ انا لمغرمون بل نحن محرومون (وفى الارض) أى من الجبال والبحار والانهار والاشجار والثمار والنبات وغيرها (آيات) أى دلالات على قدرة الله تعالى ووحدانيته (للموقنين) أى الذين صار الايقان لهم غريزة ثابتة فهم لذلك يتفطنون لرؤية ما فيها قال القشيرى من الآيات فيها أنها تحمل كل شئ فكذلك العارف يحمل كل أحد ومن استثقل أحدا أو تبرم برؤية أحد فلغيبته عن الحقيقة ومطالعته الخلق بعين التفرقة وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة ومن الآيات فيها أنه يلقى عليها كل قذر وقمامة فتنبت كل زهر ونور فكذلك العارف يتشرب ما يسقى من الجفاء ولا يترشح الا بكل خلق حسن على وشيمة زكية (وفى أنفسكم) آيات أيضا من مبدا خلقكم الى منتهاه وما فى تركيب خلقكم من العجائب (أفلا تبصرون) أى بأبصاركم وبصائركم فتتأملوا اما فى ذلك من الآيات فمن تاملها علم انه عبد ومتى علم ذلك علم أن له ربا غير محتاج الى أحد (وفى السماء) أى جهة العلو (رزقكم) بما يأتى من المطر والرياح والحر والبرد وغير ذلك مما رتبه سبحانه وتعالى لمنافع العباد وقال ابن عباس يعنى بالرزق المطر لانه سبب الارزاق وقيل فى السماء رزقكم مكتوب وقيل تقدير الارزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل فى الارض حبة قوت (وما توعدون) قال عطاء من الثواب والعقاب وقال مجاهد من الخير والشر وقال الضحاك من الجنة والنار ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه فقال عز من قائل (فورب) أى مبدع ومدبر (السماء والارض) أى وما أودع فيهما مما علمتموه ومالم تعلموه (انه) أى الذى توعدونه من الخير والشر والجنة والنار وما ذكر من أمر الرزق وما تقدم الاقسام عليه (لحق) أى ثابت يطابقه الواقع (مثل ما أنكم تنطقون) أى مثل نطقكم كما أنه لاشك فى أنكم تنطقون ينبغى لكم أن لاتشكوا فى تحقيق ذلك وقال بعض الحكماء معناه ان كل انسان ينطق بلسان نفسه ولا يمكن أن ينطق بلسان غيره كذلك كل أحد يأكل رزق نفسه الذى قسم له لا يقدر أن يأكل رزق غيره وأنشدوا فى المعنى

مالا يكون فلا يكون بحيلة * أبدا وما هو كائن سيكون
سيكون ما هو كائن فى وقته * وأخو الجهالة متعب مغبون

وقيل معناه ان القرآن لحق تكلم به الملك النازل من السماء مثل ما تتكلمون وقرأ حمزة والكسائى وشعبة برفع اللام على أنه نعت لحق وما مزيدة وانكم مضاف اليه أى لحق مثل نطقكم ولا يضر تقدير اضافتها المعرفة لانها لاتتعرف بذلك لابهامها والباقون بالنصب على أنه نعت لحق أيضا كما فى القراءة الاولى وانما بنى الاسم لاضافته الى غير متمكن كما بناه القائل فى قوله

فتداعى منخراه بدم * مثل ما أثمر حماض الجبل

بفتح مثل مع أنها نعت لدم وقيل انها نعت لمصدر محذوف أى لحقا مثل نطقكم وقوله تعالى (هل أتاك) أى يا أكمل الخلق (حديث ضيف ابراهيم المكرمين) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتبشير له بالفرج وسماهم ضيفا لانه حسبهم كذلك ويقع على الواحد والجمع لانه مصدر وسماهم مكرمين عند الله تعالى أو لان ابراهيم عليه السلام أكرمهم بأن عجل قراهم وأجلسهم فى أكرم المواضع واختيار ابراهيم لكونه شيخ المرسلين وكون النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بأن يتبع ملته وكان ابراهيم عليه السلام أكرم الخليقة وضيف الكرام مكرمون

حكاية لما فى صحفهم الها هذه الامة فلها ما سعت وما سعى لها او هو على ظاهره لكن دعاء ولد لانسان وصدقته وقراءته ما

وقال

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد لان ابراهيم عليه السلام خدمهم بنفسه وعن ابن عباس سماهم مكرمين لانهم جاؤا غير مدعوين وقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (فان قيل) اذا كان المراد من الآية التسلية والانذار فاى فائدة في حكاية الضيافة (اجيب) بان في ذلك اشارة الى أن الفرج في حق الانبياء والبلاء على الجهلة يأتي من حيث لم يحتسبوا كقوله تعالى فاتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فلم يكن عند ابراهيم عليه السلام خبر من انزال العذاب مع ارتفاع منزلته قال القشيري وقيل كان عددهم اثنى عشر ملكا وقيل جبريل عليه السلام وكان معه تسعة وقيل كانوا ثلاثة وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها (اذ) أي حديثهم حين (دخلوا عليه) أي دخول استعلاء مخالف لدخول بقية الضيوف وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الذال عند الدال والباقون بالادغام *(تنبيه)* اختلف في العامل في اذ على أربعة أوجه أحدها أنه حديث أي هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه ثانيها أنه منصوب بما في ضيف من معنى الفعل لانه في الاصل مصدر ولذلك استوى فيه الواحد المذكر وغيره كانه قيل الذين اضفتهم في وقت دخولهم عليه ثالثها أنه منصوب بالمكرمين ان أريد باكرامهم أن ابراهيم عليه السلام أكرمهم بخدمته لهم كانه تعالى يقول أكرموا اذ دخلوا رابعها أنه منصوب باضمار اذكر ولا يجوز نصبه بأتاك لاختلاف الزمانين (فان قيل) انما ارسلوا الى قوم لوط فما الحكمة في مجيئهم الى ابراهيم عليه السلام (أجيب) من وجهين أحدهما أن ابراهيم عليه السلام شيخ المرسلين ولوط من قومه وعادة الملك اذا ارسل رسولا الى ملك وفي طريقه من هو أكبر منه يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه ثانيهما أن ابراهيم عليه السلام كان شديد الشفقة حليما فكان يشق عليه اهلاك أمة عظيمة وكان ذلك مما يحزن ابراهيم عليه السلام شفقة منه على العباد فقال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه اضعاف من هلك ويكون من صلبه فروع الانبياء عليهم السلام (فقالوا سلاما) أي هذا اللفظ (قال سلام) أي هذا اللفظ والمشهور ان السلام الاول المراد به التحية أي نسلم سلاما وقيل ان سلاما معناه حسنا لانه كلام سلم به المتكلم من ان يلغو أو يأثم فكأنهم قالوا قولا حسنا سليما من الاثم فيكون مفعولا به لانه في معنى القول وأما رفع الثاني فالمشهور انه التحية فهو مبتدأ وخبره محذوف أي عليكم وقيل انه السلامة أي امري سلام لاني لا اعرفكم وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام والباقون بفتح السين واللام وألف بعدها والمعنى واحد وقوله تعالى (قوم منكرون) أي غرباء لا اعرفهم قال ذلك في نفسه كما قاله ابن عباس خبر مبتدأ مقدر أي هؤلاء وقيل انما انكر امرهم لانهم دخلوا عليه من غير استئذان وقال ابو العالية انكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الارض (فراغ) أي ذهب في خفية من ضيفه فان من آداب المضيف ان يبادر بالقرى حذرا من ان يكفه الضيف او يصير منتظرا (الى اهله) أي الذين عندهم بقره (فجاء بعجل) أي فتى من اولاد البقر لانه كان عامة ماله البقر (سمين) قد شواه وانضجه كما قال تعالى في سورة هود حنيذ أي مشوي (فقربه اليهم) بان وضعه بين ايديهم ليأكلوا فلم يأكلوا (قال ألا تأكلون) والهمزة اما للانكار عليهم في عدم اكلهم واما للعرض

وصدرتهم ماعنده من محبته ايضا بواسطة اكتسابه القرابة والصداقة والمحبة من الناس بسبب التقوى والعمل الصالح (قوله فباى

واما التحضيض فلم يجيبوا (فاوجس) اى اضمر فى نفسه (منهم خيفة) لما رأى اعراضهم عن طعامه لظنه انهم جاؤه لشر وقيل وقع فى نفسه انهم ملائكة ارسلوا بعذاب فلما عرفوا منه ذلك (قالوا) مؤنسين له (لا تخف) واعلموه انهم رسل الله (وبشروه بغلام) يأتيه على شيخوخته ويأس امرأته بالطعن فى السن بعد عقمها وهو اسحق عليه السلام (عليم) اى مجبول جبلة مهيأة للعلم ولا يعرت حتى يظهر علمه بالفعل فى اوانه فان جميع الانبياء بعده من ذريته الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فانه من ذرية اسمعيل عليه السلام * (تنبيه) ذكر ههنا من آداب الضيافة تسليم المضيف على الضيف ولقاءه بالوجه الحسن والمبالغة فى الاكرام بقوله سلام وهو آكد وسلامهم بالمصدر وفى قوله سلام بالرفع زيادة على ذلك ولم يقل سلام عليكم لان الامتناع من الطعام يدل على العداوة والغدر لا يليق بالانبياء فقال سلام اى امرى مسالمة ثم فيها من آداب المضيف تعجيل الضيافة فان الفاء فى قوله فراغ تدل على التعقيب واخفاؤها لان الروغان يقتضى الاخفاء وغيبة المضيف عن الضيف ليستريح ويأتى بما ينعه الحياء منه ويخدم الضيف بنفسه ويختار الاجود لقوله سمين ويقدم الطعام للضيف فى مكانه ولا ينقل الضيف للطعام لقوله فقربه اليهم ويعرض الاكل عليهم ولا يأمرهم لقوله تعالى قال الا تأكلون ولم يقل كلوا ويسر وره بأكله لا كما يوجد فى بعض البخلاء الذين يحضرون طعاما كثيرا ويجعل نظره ونظر اهل بيته الى الطعام حتى يمسك الضيف يده عنه لقوله تعالى فاوجس منهم خيفة لعدم اكلهم ومن آداب الضيف اذا حضر الطعام ولم يكن يصلح له لكونه مضرا به او يكون ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام أن لا يقول هذا طعام غليظ لا يصلح لى بل يأتى بعبارة حسنة ويقول قد مانع من أكل الطعام لانهم أجابوه بقولهم لا تخف ولم يذكروا فى الطعام شيأ ولا أنه يضر بهم بل بشروه بالولد اشعارا بانهم ملائكة وبشروه بالاشرف وهو الذكر حيث فهموه انهم ليسوا ممن يأكلون ثم وصفوه بالعلم دون المال والجمال لان العلم أشرف الصفات ثم أدب آخر فى البشارة وهو أن لا يخبر الانسان بما يسره دفعة واحدة لانه يورث مرضا لانهم جلسوا واستأنس بهم ابراهيم ثم قالوا نبشرك (فان قيل) قال تعالى فى سورة هود فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم فدل على أن انكاره حصل بعد تقريب العجل اليهم وههنا قال فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون ثم قال فراغ الى أهله بفاء التعقيب وذلك يدل على أن تقريب الطعام منهم بعد حصول انكاره فما وجهه (أجيب) بان يقال لعلهم كانوا مخالفين لصفة الناس فى الشكل والهيئة ولذلك قال قوم منكرون أى عند كل أحد واشترك ابراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتم بل قال أنتم منكرون فى أنفسكم عند كل أحد منا ثم لما امتنعوا من الطعام تأكد الانكار لان ابراهيم تفرد بمشاهدة امساكهم فنكرهم فوق الانكار الاول وحكاية الحال فى سورة هود أبسط مما ذكره ههنا فانه هنا لم يبين المبشر به وهنا ذكره باسمه وهو اسحق وههنا لم يقل ان القوم قوم من وهناك قال قوم لوط ولما كانا بعيدين عن قبول الولد تسبب عن ذلك قوله تعالى دالا على ان الولد اسحق مع الدلالة على أن خفاء الاسباب لا يؤثر فى وجود المسببات (فاقبلت) أى من سماع هذا الكلام (امرأته) سارة قيل

آلاء ربك تتمارى) اى تشك والخطاب فيه للوليد ابن المغيرة (ان قلت) كيف قال تعالى ذلك بعد تعديد النعم والآلاء النعم

لم يكن ذلك اقبالا من مكان الى مكان بل كانت فى البيت فهو كقول القائل أقبل يفعل كذا اذا أخذ فيه وقوله تعالى (فى صرة) أى صيحة حال أى جاءت صائحة لانها قد امتلأت عجبا (فصكت) قال ابن عباس لطمت (وجهها) واختلف فى صفته فقيل هو الضرب باليد مبسوطة وقيل هو ضرب الوجه باطراف الاصابع فعل المتعجب وهى عادة النساء اذا أنكرن شيأ وأصل الصك ضرب الشئ بالشئ العريض وقيل جمعت أصابعها وضربت جبينها عجبا وذلك من عادة النساء أيضا اذا أنكرن شيأ (وقالت) تريد أن تستبين الامر هل الولد منها أو من غيرها (عجوز) قال القشيرى قيل انها كانت يومئذ ابنة ثمان وتسعين سنة ومع ذلك (عقيم) فهى حال شبابها لم تكن تقبل الحبل فلم تلد قط ولما قالت ذلك قالوا مجيبين لها (قالوا كذلك) أى مثل ما قلناه من هذه البشرى العظيمة (قال ربك) أى المحسن اليك بتاهيلك لذلك على ما ذكرت من حالك و بتاهيلك من قبل الاتصال بخليله صلى الله عليه وسلم (انه هو) أى وحده (الحكيم) الذى يضع الاشياء فى أحق مواضعها (العليم) المحيط العلم فهو لذلك لا يعجزه شئ ثم بين سبحانه وتعالى ما كان من حال ابراهيم وحال الملائكة بعد ذلك بقوله تعالى (قال) أى ابراهيم عليه السلام مسببا عما رأى من حالهم وان اجتماع الملائكة على تلك الحالة لم يكن لهذه البشارة فقط (فما خطبكم) أى خبركم العظيم (أيها المرسلون) أى لامر عظيم وهذا أيضا من آداب المضيف اذا بادر الضيف بالخروج قال له ما هذه العجلة وما شانك لان فى سكوته ما يوهم استثقاله ثم انهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذى لا يسر عن الصديق شيأ وكان ذلك باذن الله تعالى لهم فى اطلاع ابراهيم عليه السلام على اهلاكهم وجبر قلبه بتقديم البشارة بابى الانبياء اسحق عليه السلام (فان قيل) فما الذى اقتضى ذكره بالفاء ولا قال ما هذا الاستعجال وما خطبكم المعجل لكم (أجيب) بانه لما أوجس منهم خيفة لو خرجوا من غير بشارة وايناس فلما آنسوه قال فما خطبكم أى بعد هذا الانس العظيم ما هذا الايحاش الاليم (قالوا) قاطعين بالتأكيد بان مضمون خبرهم حتم لابد منه ولا مدخل للشفاعة فيه (انا أرسلنا) أى ارسال من تعلم (الى قوم مجرمين) أى هم فى غاية القوة على ما يحاولونه وقد صرفوا اما أنعم الله تعالى به عليهم من القوة فى قطع ما يحق وصله ووصل ما يحق قطعه يعنون قوم لوط (لنرسل عليهم) أى من السماء التى فيها ما وعدالعباد به وتوعدوا (حجارة من طين) أى مهيأ للاحراق والاستغراق (مسومة) أى معلمة بعلامة العذاب المخصوص عليها اسم من يرمى بها وقوله تعالى (عند ربك) أى المحسن اليك بهذه البشارة وغيرها ظرف لمسومة أى معلمة عنده (للمسرفين) أى المتجاوزين الحدود غير قانعين بما أبيح لهم فالمسرف المتمادى ولو فى الصغائر فهم مجرمون أى مسرفون والمجرم قال ابن عباس هو المشرك لان الشرك أعظم الذنوب * وهنا لطيفة * وهى ان الحجارة سومت للمصر المسرف الذى لا يترك الذنب فى المستقبل وذلك انما يعلمه الله تعالى فلذلك قال عند ربك للمسرفين ولما كان الاجرام ظاهرا قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين واللام فى المسرفين لتعريف العهد أى لهؤلاء المسرفين اذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة واسرافهم بانهم أتوا بما لم يسبقهم به أحد من العالمين وفى هذا دليل على رجم اللائط والفائدة فى ارسال جماعة من الملائكة لهذا الامر وان كان يكفى فيه الواحد منهم اذ الملك العظيم قد يهلك

قوله فى هامش المصنفة التى قبلها تعديد النعم صوابه تعديد النقم مصححه

(قلت) قد تقدم أيضا انه تعديد النعم مع ان النقمة فى طيها نعمة لما تضمنته من الزواجر والمواعظ والمعنى فباى نعم

بالامر الحقير كما أهلك النمروذ بالبعوض وكما أهلك فرعون بالقمل والجراد بل بالريح التي بها
الحياة اظهار القدرة وقد تكثر الاسباب كما في يوم بدر أمر خمسة آلاف من الملائكة باهلاك
اهل بدر مع قلتهم اظهار العظيم قدرته *(تنبيه)* قوله تعالى من طين أي ليس من البرد
والفاعل لذلك هو الله تعالى لا كما تقول الحكماء فانهم يقولون ان البرد يسمى حجارة فقوله
تعالى من طين يدفع ذلك التوهم قال الرازي ان بعض من يدعي العقل يقول لا ينزل من السماء
الاحجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التي يتخذها الرماة قالوا وسبب ذلك
ان الاعصار تصعد الغبار من الفلوات العظيمة التي لا عمارة فيها والرياح تسوقها الى بعض البلاد
ويتفق ذلك الى هواء ندي فيصير ذلك طينا رطبا والرطب اذا نزل وتفرق استدار بدليل انك اذا
رميت الماء الى فوق ثم نظرت اليه رأيته يقطر كرات مدورات كاللآلئ الكبار ثم في النزول
ان اتفق أن تضربه النيران التي في الجو جعلته حجارة كالآجر المطبوخ فينزل فيصيب من
هيأ الله تعالى هلاكه وقد ينزل كثيرا في المواضع التي لا عمارة بها فلا يرى ولا يدرى به فلهذا
قال من طين لان ما لا يكون من طين كالحجر الذي يكون في الصواعق لا يكون كثيرا بحيث
يمطر وهذا تعسف لان ذلك الاعصار لما وقع فان وقع لحادث آخر لزم التسلسل ولا بد من
الانتهاء الى محدث ليس بحادث فذلك المحدث لا بد وأن يكون فاعلا مختارا والمختار له أن يفعل
ذلك وله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار لكن العقل لا طريق له الى
الجزم بطريق احداثه وما لا يصل العقل اليه لا يؤخذ الا بالنقل والنص ومن المعلوم أن نزول
حجارة الطين من السماء أغرب وأعجب من غيرها * ولما أراد الله تعالى أن يهلك المجرمين ميز
المؤمنين بقوله تعالى (فأخرجنا) أي بما لنا من العظمة بعد أن ذهبت رسلنا اليهم ووقعت
بينهم وبين لوط عليه السلام محاورات معروفة لم يدع الحال هنا الى ذكرها (من كان فيها) أي
قرى قوم لوط (من المؤمنين) اى المصدقين بقلوبهم لانا لا نسوي بهم بالمجرمين فخلصناهم من
العذاب على قلتهم وضعفهم وقوة المخالفين وكثرتهم (فما وجدنا فيها) أي تلك القرى أسند
الامر اليه تشريفا للرسل واعلاما بان فعلهم فعله تعالى (غير بيت) أي واحد وهو بيت ابن أخي
ابراهيم عليهما السلام وقيل كانت عدة الناجين منهم ثلاثة عشر (من المسلمين) أي العريقين
في الاسلام الظاهر والباطن لله تعالى من غير اعتراض أصلا وهم ابراهيم وآله عليهم السلام وانهم
أول من وجد منهم الاسلام الاتم وتسموا به كما مر في سورة البقرة وسموا به أتباعهم فكان
هذا البيت الواحد صادقا عليه الايمان الذي هو التصديق والاسلام الذي هو الانقياد قال
البغوي وصفهم الله تعالى بالايمان والاسلام جميعا لانه ما من مؤمن الا وهو مسلم يعني لما
بينهما من التلازم وان اختلف المفهومات وقال الاصفهاني وقيل كان لوط واهل بيته الذين
نجوا ثلاثة عشر وقيل هم لوط وابنتاه وصفوا بالايمان والاسلام أي هم مصدقون بقلوبهم
عاملون بجوارحهم الطاعات *(تنبيه)* في الآية اشارة الى أن الكفر اذا غلب والفسق اذا
فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم
شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون ومثاله أن العالم كالبدن ووجود الصالحين كالاغذية الباردة
والحارة والسموم الواردة عليه الضارة ثم ان البدن اذا خلا عن النافع وفيه الضار هلك وان

(قوله كذبت قبلهم قوم) *(سورة القمر)* تشك باولبيد بن المغيرة ربك الدالة على وحدانيته

خلاء عن الضار وفيه النافع طاب وغاوان وجدا فيه معا فالحكم للاغلب واطلاق الخاص على العام لا مانع منه لان المسلم أعم من المؤمن فاذا سمي المؤمن مسلما لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الاعم منهم الا بيتا من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هنالك غيرهم من المؤمنين (وتركنا) أي بما لنا من العظمة (فيها) أي تلك القرى بما أوقعنا بها من العذاب (آية) أي علامة عبرة على هلاكهم كالحجارة أو الماء المنتن فانا قلعنا قراهم كلها وصعدت في الجو كالغمام الى عنان السماء ولم يشعر أحد من أهلها بشيء من ذلك ثم قلبت واتبعت بالحجارة ثم خسف بها وغمرت بالماء الذي لا يشبهه شيء من مياه الارض كما ان جنايتهم لم تكن تشبه جناية أحد ممن تقدمهم من أهل الارض (للذين يخافون العذاب الاليم) أي أن يحل بهم كما حل بهذه القرى في الدنيا من رفع الملائكة لهم في الهواء الذاري الى عنان السماء وقلبهم واتباعهم الحجارة المحرقة وغمرهم بالماء المناسب لفعلهم بنتنه وعدم نفعه وما ادخر لهم في الآخرة أعظم وخص الذين يخافون بالذكر لانهم المعتبرون بها وقوله تعالى (وفي موسى) عطف على قوله تعالى فيها باعادة الجار لان المعطوف عليه ضمير مجرور فيتعلق بتركنا من حيث المعنى ويكون التقدير وتركنا في قصة موسى آية (اذ أرسلناه) أي بما لنا من العظمة (الى فرعون بسلطان مبين) أي بحجة واضحة وهي معجزاته الظاهرة كاليد والعصا ومع ذلك لم ينتفع بها ولذلك سبب عنها وعقبها قوله تعالى (فتولى) أي كلف نفسه الاعراض عنها بعدما دعاه أهلها الى الاقبال اليها وأشار الى قواه بقوله تعالى (بركنه) أي بسبب ما يركن اليه من القوة في نفسه وبأعوانه وجنوده لانهم له كالركن وقيل بجميع بدنه كناية عن المبالغة في الاعراض (وقال) معلا بعجزه عما أتاه به وهو لا يشعر (ساحر) ثم ناقض كمناقضتكم فقال بجهله عما يلزم على قوله (أو مجنون) أي لا جترائه على مع مالي من عظيم الملك بمثل هذا الذي يدعو اليه * (تنبيه) * أو هنا على بابها من الابهام على السامع أو للشك نزل نفسه مع أنه يعرفه نبيا حقا منزلة الشاك في أمره تمويها على قومه وقال أبو عبيدة أو بمعنى الواو وقال لانه قد قالهما قال تعالى ان هذا الساحر عليم وقال في موضع آخر ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون ورد الناس عليه هذا وقالوا لا ضرورة تدعو الى ذلك واما الآيتان فلا تدلان على أنه قالهما معا في آن واحد وانما يفيدان انه قالهما أعم من أن يكونا معا أو هذه في وقت وهذه في آخر ولما وقعت التسلية بهذا للاولياء قال تعالى محذرا للاعداء (فأخذناه) أي أخذ غضب وقهر بعظمتنا وقوله تعالى (وجنوده) يجوز أن يكون معطوفا على مفعول أخذناه وهو الظاهر وأن يكون مفعولا معه (فنبذناهم) أي طرحناهم طرح مستهين بهم كما تطرح الحصيات (في اليم) أي البحر الذي هو أهل لان يقصد بعد أن سلطنا الريح عليه ففرقته لما ضرب به موسى عليه السلام بعصاه ونشفت أرضه وأيبست ما برزت فيه من الطرق انجاء أوليائنا وهلاك أعدائنا (وهو) أي والحال ان فرعون (مليم) أي آت بما يلام عليه من تكذيب الرسول ودعوى الربوبية وغير ذلك ثم ذكر تعالى قصصا أخر تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم احداها قوله تعالى (وفي عاد) أي اهلاكهم وهم قوم هود عليه السلام آية عظيمة (اذ) أي حين (أرسلنا) بعظمتنا (عليهم الريح) فأتتهم فحمل سحابة سوداء وهي تذر الرمل

قوله (فكذبوا عبدنا) نوح فكذبوا ان قلت ما فائدة اعادة التكذيب فيه (قلت) فائدته حكاية الواقع وهو انهم كذبوا تكذيبا

وترمى بالحجارة كما مرت الاشارة اليه على كيفية لا تطاق (العقيم) أى التى لا خير فيها الاتحمل المطر ولا تلقح الشجر وهى الدبور ونم بين عقمها واعقامها بقوله تعالى (ما تذر) أى تترك على حالة رديئة وأغرق فى النفى فقال تعالى (من شئ أتت عليه) أى اتيانا أراد مرسلها اهلاكه بها (الا جعلته كالرميم) أى الشئ البالى الذى دككته الايام والليالى الى حالة الدمار وهو فى كلامهم ما يبس من نبات الارض وديس قاله ابن جرير (فان قيل) الجبال والصخور وغير ذلك أتت عليهم وما جعلتهم كالرميم (أجيب) بان المراد أتت عليه قاصدته وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم لانها كانت مأمورة بامر من عند الله فكانها كانت قاصدة لهم فما تركت شيأ من تلك الاشياء الا جعلته كالرميم ثانيها قوله تعالى (وفى ثمود) أى اهلاكهم وهم قوم صالح عليه السلام آية عظيمة (اذ) أى حين (قيل لهم) أى ممن لا يخاف الميعاد وقرأ هشام والكسائى بضم القاف والباقون بكسرها (تمتعوا) أى بلبن الناقة وغيره مما مكناهم فيه من الزروع والنخيل والابنية فى الجبال والسهول وغير ذلك من جلائل الامور على الوجه الذى أمرناكم به ولا تطغوا (حتى حين) أى وقت ضربناه لآجالكم (فعتوا) أى أوقعوا بسبب احساننا اليهم العتو وهو التكبر والاباء (عن أمر ربهم) أى مولاهم الذى أعظم احسانه اليهم فعقروا ناقته وأرادوا قتل نبيه صالح عليه السلام (فأخذتهم) أى بسبب عتوهم أخذ قهر وعذاب (الصاعقة) أى الصيحة العظيمة التى حملتها الريح فأوصلتها الى مسامعهم بغاية العظمة ورجت ديارهم رجة أزالت أرواحهم بالصعق وقرأ الكسائى باسكان العين ولا ألف قبلها والباقون بكسر العين وقبلها ألف وقوله تعالى (وهم ينظرون) دال على أنها كانت فى غمام وكان فيها نار ويجوز مع كونه من النظر أن يكون أيضا من الانتظار فانهم وعدوا نزول العذاب بعد ثلاثة أيام وجعل فى كل يوم علامة وقعت بهم فتحققوا وقوعه فى اليوم الرابع وقال بعض المفسرين المراد منه هو ما أمهلهم الله تعالى بعد عقرهم الناقة وهو ثلاثة أيام بقوله تعالى تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام وكان فى تلك الايام تتغير ألوانهم فتحمر وتصفر وتسود قال الرازى وهذا ضعيف لان قوله تعالى فعتوا عن أمر ربهم بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله تعالى تمتعوا فاذا الظاهر أن المراد هو ما قدر الله تعالى للناس من الآجال فما من أحد الا وهو ممهل مدة الاجل انتهى ولحسن هذا فسرت الآية به (فما) أى فتسبب عن ذلك انهم ما (استطاعوا) أى تمكنوا وأكد النفى بقوله تعالى (من قيام) أى فما قاموا بعد نزول العذاب وما قدروا على نهوض قال قتادة لم ينهضوا من تلك الصرعة كقوله تعالى فأصبحوا فى ديارهم جاثمين وقيل هو من قولهم ما يقوم به اذا عجز عن دفعه (وما كانوا) أى كونا ما (منتصرين) أى لم يكن فيهم أهلية الانتصار بوجه لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم فيطاوعونه فى النصرة لان تهيؤهم لذلك سقط بكل اعتبار ثالثها قوله تعالى (وقوم نوح) بالجر وهى قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائى عطف على ثمود أى وفى اهلاكهم بماء السماء والارض آية وبالنصب وهى قراءة الباقين أى وأهلكنا قوم نوح (من قبل) أى من قبل اهلاك هؤلاء المذكورين ثم علل اهلاكهم بقوله تعالى (انهم كانوا) خلقا وطبعا لا حيلة لغيرنا من أهل الاسباب فى صلاحهم (قوما) أى أقوياء (فاسقين) أى عريقين فى الخروج عن حظيرة الدين ثم ذكر ما يدل على تمام

والاول
بعد تكذيب أو
تكذيبهم بالتوحيد
والثانى بالرسالة أو الاول
تكذيبهم بالله والثانى

القدرة على البعث بقوله تعالى (والسماء بنيناها) أي بما لنا من العظمة (بأيد) أي بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها * (فائدة) * رسمت بأيد بياءين بعد الالف (وانا) على عظمتنا بعد ذلك (لموسعون) أي أغنياء وقادرون ذوو سعة لا تتناهى ولذلك أوسعنا بقدر جرمها وما فيها من الرزق عن أهلها فالارض كلها على اتساعها كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الالهية التي لا تصح معها الشركة أصلا فلستم كمن تعرفون من الملوك لانهم اذا فعلوا شيأ لم يقدروا على أعظم منه وان قدروا كان ذلك منهم بكلفة ومشقة وسترون في اليوم الآخر ما يتلاشى ما ترون في جنبه ومن ايساعنا جعلها بلا عمد مع ما هي عليه من العظمة الى غير ذلك من الامور الخارقة للعوائد وعن الحسن لموسعون الرزق بالمطر وقيل جعلنا بينها وبين الارض سعة (والارض فرشناها) أي بسطناها ومهدناها بما لنا من العظمة فصارت ممهدة جديرة بان تستقر عليها الاشياء وهي آية على تمهيد أرض الجنة وشققنا انهارها وغرسنا اشجارها (فنعم) أي فتسبب عن ذلك أن يقال في وصفنا نعم (الماهدون) والمخصوص بالمدح محذوف لفهم المعنى أي نحن لكمال قدرتنا فما نزل من السماء شئ ولا نبع من الارض شئ الا بارادتنا واختيارنا وتقديرنا من الازل لانا اذا صنعنا شيأ فانما يكون منه من حين انشائه الى حين افنائه ولا يكون شئ منه الا بتقديرنا وذلك تذكير بالجنة والنار فما فيهما من خير فهو آية على الجنة وما فيها من شر فهو آية على النار وقوله تعالى (ومن كل شئ خلقنا) يجوز أن يتعلق بخلقنا أي خلقنا من كل شئ (زوجين) وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من زوجين لانه في الاصل صفة له اذ التقدير خلقنا زوجين كائنين من كل شئ أي صنفين كل منهما زوج الآخر من وجه وان خالفه من آخر ولا يتم نفع أحدهما الا بالآخر من الحيوان والنبات وغيرهما ويدخل فيه الاضداد من الغنى والفقر والحسن والقبح والحياة والموت والظلام والنور والليل والنهار والصحة والسقم والبر والبحر والسهل والجبل والشمس والقمر والحر والبرد اللذين هما من نفس جهنم آية بينة عليها وبناؤها على الاعتدال في بعض الاحوال آية على الجنة مذكرة بها مشوقة اليها والايمان والكفر والسعادة والشقاوة والحق والباطل والحلو والمر قال الحسن كل اثنين منها زوج والله سبحانه وتعالى فرد لا مثل له (لعلكم تذكرون) اى فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الارض وخلق الازواج ارادة ان تتذكروا فتعلموا ان خالق هذه الاشياء واحد لا شريك له لا يعجزه حشر الاجساد وجمع الارواح وقرأ حفص والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (ففروا) اى أقبلوا والجؤا (الى الله) اى الذى لا سمى له فضلا عن مكافئ وله الكمال كله فهو في غاية العلو فلا يفر ويسكن احد الى غير محتاج مثله فان المحتاج لا غنى عنده ولا يفر اليه سبحانه الا من تجرد عن حضيض عوائقه الجسمية الى اوج صفاته الروحانية وذلك من وعيده الى وعده اللذين دل عليهما بالزوجين فتكمل السياق بالتحذير والاستعطاف بالاستدعاء فهو من باب لا ملجأ منك الا اليك أعوذ بك منك قال القشيري ومن صح فراره الى الله تعالى صح قراره مع الله تعالى قال البقاعي وهو بكمال المتابعة لنبينا ومن فهم منه اتحادا بذات أو صفة فقد نابذ طريق القوم فعليه لعنة الله (انى لكم منه) اى لا من غيره (نذير) اى من ان يفر احد الى غيره فانه لا يحصل له قصد (مبين) اى بين

(قوله فالتقى الماء) وان قلت القياس الماآن كما قرئ به شاذا أى ماء السماء وماء الارض (قلت) أراد به

برسوله صلى الله عليه وسلم

الانذار فقرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ومن الكسل الى التشمير حذرا وحزما ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء وفرار خاصة الخاصة مما دون الحق الى الحق استغراقا فى وحدانيته (ولا تجعلوا) اى باهوائكم (مع الله) وكرر الاسم الاعظم ولم يضمر تعيينا للمراد لانه لم يشاركه فى التسمية به أحد وتنبيها على ماله من صفات الكمال وتعميما لوجوه المقاصد لئلا يظن لو قيل معه ان المراد النهى عن الجعل من جهة الفرار لا من جهة غيرها (الها آخر) ثم علل النهى مع التأكيد بما عليه من نذارته فقال (انى لكم منه) أى لا من غيره فان غيره لا يقدر على شئ (نذير) أى محذر من الهلاك الابدى بالعقوبة التى لا خلاص معها ان فعلتم ذلك (مبين) أى لا أقول شيأ من واضح النقل الا ودليله ظاهر (كذلك) أى مثل قول قومك المختلف العظيم الشناعة البعيد من الصواب بماله من الاضطراب وقع لمن قبلهم ودل على هذا المقدر بقوله تعالى مستأنفا (ما أتى الذين من قبلهم) أى كفار مكة وعمم النفى فقال تعالى (من رسول) أى من عند الله تعالى (الا قالوا ساحر أو مجنون) أى مثل تكذيبهم لك بقولهم ذلك لان الرسول يأتيهم بمخالفة مألوفاتهم التى قادتهم اليها أهواؤهم والهوى هو الذى أوجب لهم هذا التناقض الظاهر سواء كانت أو للتفصيل لان بعضهم قال واحدا و بعضهم قال آخر أو كانت للشك لان الساحر يكون لبيبا فطنا آتيا بما يعجز عنه كثير من الناس والمجنون بالضد من ذلك (فان قيل) قوله تعالى الا قالوا يدل على انهم كلهم قالوا ذلك والامر ليس كذلك لان ما من رسول الا وآمن به قوم (أجيب) بان ذلك ليس بعام فانه لم يقل الا قالوا كلهم وانما قال الا قالوا ولما كان كثير منهم قائلين قال تعالى الا قالوا (فان قيل) فلم لم يذكر المصدقين كما ذكر المكذبين وقال الا قال بعضهم صدقت و بعضهم كذبت (أجيب) بان المقصود التسلية وهى أعلى التكذيب فكانه تعالى قال لا تأس على تكذيب قومك فان اقواما قبلك كذبوا ورسلا كذبوا ثم عجب منهم بقوله تعالى (أتواصوا به) فهو استفهام للتعجب والتوبيخ والضمير فى به يعود على القول المدلول عليه بقالوا اى اتواصى الاولون والآخرون بهذا القول المتضمن لساحر أو مجنون والمعنى كيف اتفقوا على معنى واحد كانهم تواطؤا عليه واوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وقوله تعالى (بل هم قوم) اى ذو شماخة وكبر (طاغون) اضراب عن ان التواصى جامعهم لتباعد أيامهم الى ان الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم فى الطغيان الحامل عليه ثم ان الله تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فتول) اى اعرض (عنهم) اى كاف نفسك الاعراض عن الابلاغ فى ابلاغهم ولا تأسف على تخلفهم عن الاسلام (فما انت بملوم) لانك بلغتهم الرسالة وما قصرت فيما امرت به قال المفسرون لما نزلت هذه الآية حزن النبى صلى الله عليه وسلم واشتد ذلك على اصحابه وظنوا ان الوحى قد انقطع وان العذاب قد حضر اذ امر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنهم فانزل الله تعالى (وذكر) اى ولا تدع التذكير والموعظة (فان الذكرى تنفع المؤمنين) فطابت انفسهم والمعنى ليس التولى مطلقا بل تول واقبل واعرض وادع فلا التولى يضرك اذا كان عليهم ولا التذكير يضيع اذا كان مع المؤمنين وقال مقاتل معناه عظ بالقرآن كفار مكة فان الذكرى تنفع من علم الله تعالى انه

بجنس الماء وحده موافقة
لقوله قبل بما منهم من (قوله
جزاء لمن كان كفر) ان
قلت كيف قال ذلك والجزاء
انما يكون للكافر

مؤمن منهم وقال الكلبي عظ بالقرآن من آمن من قومك فان الذكرى تنفعهم * ولما بين حال من قبل النبي صلى الله عليه وسلم في التكذيب بين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله تعالى الذي خلقهم للعبادة بقوله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) واختلف في تفسير ذلك فاكثر المفسرين على ان المراد بهم العموم ولا ينافي ذلك عدم عبادة الكافرين لان الغاية لا يلزم وجودها كما في قولك بريت هذا القلم لاكتب به فانك قد لا تكتب به هكذا قال الجلال المحلي واوضح منه ما قاله ابن عادل ان المعنى الا معدين للعبادة ثم منهم من يتأتى منه ذلك ومنهم من لا كقولك هذا القلم بريته للكتابة ثم قد لا تكتب به وقد تكتب انتهى أو ان المراد الا لامرهم بالعبادة وليقروا بها وهذا منقول عن علي بن أبي طالب أو ان المراد ليطيعوا وينقادوا القضائي فالمؤمن يفعل ذلك طوعا والكافر يفعل ذلك كرها أو ان المراد الا ليوحدون فاما المؤمن فيوحد اختيارا في الشدة والرخاء وأما الكافر فيوحد اضطرارا في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء وقال مجاهد معناه الا ليعرفون قال البغوي وهذا أحسن لانه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده بدليل قوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقيل المراد به الخصوص أي ما خلقت السعداء من الجن والانس الا لعبادتي والاشقياء منهم الا لمعصيتي قال زيد بن أسلم قال هو ما جبلوا عليه من السعادة والشقاوة ويؤيده قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس وقيل وما خلقت الجن والانس المؤمنين وقيل الطائعين *(تنبيه)* استدل المعتزلة بهذه الآية على أن أفعال الله تعالى معللة بالاغراض وأجيبوا بوجوه منها ان اللام قد ثبتت لغير الغرض كقوله تعالى أقم الصلوة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن ومعناه المقارنة فيكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة ومنها قوله تعالى الله خالق كل شئ ومنها ما يدل على أن الاضلال بفعل الله كقوله تعالى يضل من يشاء وأمثاله ومنها قوله تعالى لا يسئل عما يفعل وقوله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (فان قيل) ما الحكمة في أنه لم يذكر الملائكة مع أنهم من أصناف المكلفين وعبادتهم أكثر من عبادة غيرهم من المكلفين قال تعالى بل عباد مكرمون وقال تعالى لا يستكبرون عن عبادته (أجيب) بوجوه أحدها ان الآية سيقت لبيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خلقوا له وهذا مختص بالجن والانس لان الكفر موجود فيهما دون الملائكة ثانيها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن والانس فلما قال تعالى وذكر بين ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة وخصص أمته بالذكر أي ذكر الجن والانس ثالثها ان عباد الاصنام كانوا يقولون ان الله تعالى عظيم الشان خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله تعالى وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله تعالى فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله تعالى كما قالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فقال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولم يذكر الملائكة لان الامر فيهم كان مسلما من القوم فذكر المتنازع فيه رابعها فعل الجن يتناول الملائكة لان أصل الجن من الاستتار وهم مستترون عن الخلق فذكر الجن لدخول الملائكة فيهم * ولما خص سبحانه خلقهم في ارادة العبادة صرح بهذا المفهوم بقوله تعالى (ما أريد منهم) أي في وقت من

(قلت) ان لا للمكفور قرئ كفر بالبناء للفاعل شاذا فالجزاء للكافر أو بالبناء للمفعول والاصل كفر به حذف الجار وأوصل

قوله فعل الجن كذا بالنسخ بايدينا ولعل الصواب لفظ الجن اه مصححه

الاوقات وعمم فى النفى بقوله تعالى (من رزق) أى شئ من الاشياء على وجه يتحقق من جلب أودفع لانى منزه عن لحاق نفع أوضر كما يفعل غيرى من الموالى مع عبيدهم فان ملاك العبيد انما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وأرزاقهم فاما مجهز فى تجارة ليبغى ربحا أومرتب فى فلاحة ليغتل أرضا أومسلم فى حرفة لينتفع بأجرته أومحتطب أومحتش أومستق أوطابخ أوخابز وما أشبه ذلك من الاعمال والمهن التى هى تصرف فى أسباب المعيشة وأبواب الرزق لانى الغنى المطلق وكل شئ مفتقر الى (وما اريد) أصلا (أن يطعمون) أى أن يرزقون رزقا خاصا هو الاطعام وفيه تعريض باصنامهم فانهم كانوا يعملون معها ما ينفعها ويحضرون اليها المآكل فربما أكلتها الكلاب ثم بالت على الاصنام ثم لا يصدهم ذلك عن عبادتها وقيل فى الآية حذف مضاف أى وما أريد أن يطعموا أحدا من خلق وانما أسند الاطعام الى نفسه لان الخلق كلهم عيال الله ومن أطعم عيال الله فقد أطعمه كما صح فى الحديث عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت ان عبدى فلانا مرض فلم تعده أما علمت انك لوعدته لوجدتنى عنده يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه أما علمت انك لوأطعمته لوجدت ذلك عندى يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما علمت انك لواسقيته لوجدت ذلك عندى (فان قيل) ما الفائدة فى تكرير الارادتين مع أن من لا يريد من أحد رزقا لا يريد أن يطعمه (اجيب) بان السيد قد يطلب من العبد المكتسب له الرزق وقد يكون للسيد مال وافر يستغنى به عن التكسب لكنه يطلب من العبد قضاء حوائجه واحضار الطعام بين يديه فقال لا أريد ذلك ولا هذا وقدم طلب الرزق على طلب الاطعام من باب الارتقاء من الادنى الى الاعلى (فان قيل) ما فائدة تخصيص الاطعام بالذكر مع أن المراد عدم طلب فعل منهم غير التعظيم (اجيب) بانه لما عمم النفى فى طلب الاول بقوله تعالى من رزق وذلك اشارة الى التعميم فذكر الاطعام ونفى الادنى ليتبعه بنفى الاعلى بطريق الاولى فكانه قال ما أريد منهم من غنى ولا عمل (فان قيل) المطالب لا تنحصر فيما ذكره فان السيد قد يشترى العبد لا لطلب رزق منه ولا للتعظيم بل يشترى به للتجارة (اجيب) بان العموم فى قوله تعالى ما اريد منهم من رزق يتناول ذلك ثم بين تعالى انه الرزاق لا غيره بقوله عز من قائل (ان الله) اى المحيط بجميع صفات الكمال المنزه عن جميع صفات النقص (هو) أى لا غيره (الرزاق) أى على سبيل التكرار لكل حى وفى كل وقت (ذو القوة) أى التى لا تزول بوجه (المتين) اى الشديد الدائم (فان قيل) لم لم يقل انى رزاق بل قال على الحكاية عن الغائب ان الله هو الرزاق فما الحكمة (أجيب) بان المعنى قل يا محمد ان الله هو الرزاق او يكون من باب الالتفات من التكلم الى الغيبة أو يكون قل مضمرا عند قوله تعالى ما اريد منهم من رزق ولم يقل القوى بل قال ذو القوة لان المقصود تقرير ما تقدم من عدم ارادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير وقيد بالمتين لان ذو القوة لا يدل

الا

بجروره الفعل فالجزاء للمكفور به وهو الله تعالى اونوح عليه السلام والجزاء لكونه مصدرا يضاف تارة

الاعلى أن له قوة مازاد فى الوصف المتانة وهو الذى له ثبات لا يتزلزل والمعنى فى وصفه سبحانه بالقوة والمتانة انه القادر البليغ الاقتدار على كل شئ ولما أقسم سبحانه على الصدق فى وعيدهم الى أن ختم بقوته التى لا حد لها سبب عن ذلك ايقاعه بالمتوعدين فقال تعالى مؤكدا لاجل انكارهم (فان للذين ظلموا) اى أوقعوا الاشياء فى غير مواقعها (ذنوبا) أى نصيبا من العذاب طويل الشر كانه من طوله صاحب ذنب (مثل ذنوب أصحابهم) اى الذين تقدم ظلمهم بتكذيب الرسول من قوم نوح وعاد وثمود والذنوب فى الاصل الدلو العظيمة المملوأة ماء وفى الحديث فأتى بذنوب من ماء فان لم تكن ملأى فهى دلو ثم عبر به عن النصيب قال عمرو ابن شاس

وفى كل حى قد خبطت بنعمة * فحق لشاس من نداك ذنوب

قال الملك نعم وأذنبة قال الزمخشرى وهذا تمثيل أصله فى السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا آخر قال الشاعر

لكم ذنوب ولنا ذنوب * فان أبيتم فلنا القليب

وقال الراغب الذنوب الدلو الذى له ذنب انتهى فراعى الاشتقاق والذنوب أيضا الفرس الطويل الذنب وهو صفة على فعول والذنوب لحم أسفل المتن ويقال يوم ذنوب أى طويل الشر استعارة من ذلك ويجمع فى القلة على أذنبة وفى الكثرة على ذنائب (فلا تستعجلون) اى تطلبوا أن آتيكم به قبل أوانه اللائق به فان ذلك لا يفعله الا ناقص وأنا متعال عن ذلك لا أخاف الفوت ولا يلحقنى عجز ولا أوصف به ولا بد أن أوقعه بهم فى الوقت الذى قضيت به فى الازل فانه أحق الاوقات بعقابهم لتكامل ذنوبهم (فويل) اى شدة عذاب (للذين كفروا) اى ستروا ما ظهر من هذه الادلة التى لا يسع عاقلا انكارها (من يومهم الذى يوعدون) أضافه اليهم لانه خاص بهم دون المؤمنين وهو يوم القيامة وقيل يوم بدر وحذف العائد لاستكمال شروطه أى يوعدونه وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وأبو عمرو بكسر الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف عليها فالجميع بكسر الهاء وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا حديث موضوع والله أعلم

سورة الطور مكية

وهى تسع وأربعون آية وثلثمائة واثنتا عشرة كلمة وألف وخمسمائة حرف

(بسم الله) الملك الاعظم ذى الملك والملكوت (الرحمن) الذى عم خلقه بالرحموت (الرحيم) الحى الذى لا يموت وقوله تعالى (والطور) وما بعده أقسام جوابها ان عذاب ربك لواقع والواوات التى بعد الاولى عواطف لا حروف قسم كما قاله الخليل والطور هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام وهو بمدين أقسم الله تعالى به وقيل هو الجبل الذى قال الله تعالى وطور سينين وقيل هو اسم جنس * (تنبيه) * مناسبة هذه السورة لما قبلها من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما والمراد بالكتاب فى قوله تعالى (وكتاب مسطور) اى متفق الكتابة

للفاعل وتارة للمفعول
(قوله أعجاز نخل منقعر)
ذكر وصف النخل بمنقعر

بسطر ومصفوفة في حروف مرتبة جامعة لكلمات متفقة هو كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة وقيل هو القرآن وقيل اللوح المحفوظ وقيل صحائف أعمال الخلق قال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وقوله تعالى (في رق) متعلق بمسطور أى مكتوب في رق والرق الجلد الرقيق يكتب فيه وقال الراغب الرق ما يكتب فيه شبه كاغد اه فهو أعم من كونه جلدا أو غيره (منشور) اى مبسوط مهيأ للقراءة وقوله تعالى (والبيت المعمور) مختلف في مكانه فقيل في السماء العليا تحت العرش وقيل في السماء الثالثة وقيل في السادسة وعلى كل قول هو بحيال الكعبة يقال له الضراح حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الارض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون اليه أبدا ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة وقيل هو بيت الله الحرام لكونه معمورا بالحجاج والعمار والمجاورين وقيل اللام في البيت المعمور لتعريف الجنس كأنه تعالى أقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة وقوله تعالى (والسقف المرفوع) مختلف فيه أيضا فالاكثر على أنه السماء كما قال تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وقيل المراد به سقف الكعبة وقيل سقف الجنة وهو العرش ونقل عن ابن عباس وقوله تعالى (والبحر المسجور) من الاضداد يقال بحر مسجور أى مملوء وبحر مسجور أى فارغ وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس أنه قال خرجت أمة لتستقي فقالت ان الحوض مسجور اى فارغ ويؤيد هذا ان البحار يذهب ماؤها يوم القيامة وقيل المسجور المسجور المسول ومنه ساجور الكلب لانه يمسكه ويحبسه وقال محمد بن كعب القرظي يعني بالمسجور الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس لما روى انه تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارا فيزاد بها في نار جهنم كما قال تعالى واذا البحار سجرت وعن على أنه سأل يهوديا أين موضع النار في كتابكم قال في البحر قال على ما أراه الا صادقا لقوله تعالى والبحر المسجور وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يركبن البحر رجل الا غازيا أو معتمرا أو حاجا فان تحت البحر نارا وتحت النار بحرا وقال الربيع بن أنس المختلط العذب بالملح وروى الضحاك عن (١) المنزل بن سمرة عن على أنه قال البحر المسجور هو بحر تحت العرش غمره كما بين سبع سموات الى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الاولى أربعين صباحا فينبتون في قبورهم وهذا قول مقاتل (فان قيل) ما الحكمة في القسم بهذه الثلاثة أشياء (أجيب) بان هذه الاماكن الثلاثة وهي الطور والبيت المعمور والبحر المسجور كانت لثلاثة أنبياء للخلوة بربهم والخلاص من الخلق وخطابهم مع الله تعالى أما الطور فانتقل اليه موسى عليه السلام وخاطب الله سبحانه وتعالى هناك وأما البيت المعمور فانتقل اليه محمد صلى الله عليه وسلم وقال لربه سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وأما البحر المسجور فانتقل اليه يونس عليه السلام ونادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فصارت هذه الاماكن شريفة بهذه الاسباب فاقسم الله تعالى بها وأما ذكر الكتاب فلان الانبياء كان لهم مع الله تعالى في هذه الاماكن كلام والكلام في الكتاب *(تنبيه)* أقسم الله تعالى في بعض السور بجموع كقوله تعالى والذاريات والمرسلات والنازعات وفي

بعضها

واتى به في المسافة بجاوبة رعاية للفواصل فيهما وجاز فيه الاعراب نظرا الى اللفظ

(١) قوله المنزل كذا بالاصل المطبوع وبنسخة خط النزال اه مصحح

بعضها المفرد كقوله تعالى والطور ولم يقل والاطوار والابحار قال الرازى والحكمة فيه
ان فى أكثر المجموع أقسم عليها بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة بل هى متبدلة
بافرادها مستمرة بانواعها والمقصود منها لا يحصل الا بالتبدل والتغير فقال والذاريات اشارة
الى النوع المستمر لا الى الفرد المعين المستقر وأما الجبل فهو ثابت غير متغير عادة فالواحد من
الجبال دائم زمانا ودهرا فاقسم فى ذلك بالواحد وكذلك فى قوله تعالى والنجم ولو قال والريح
لما علم المقسم به وفى الطور علم وقوله تعالى (ان عذاب ربك) اى الذى تولى تربيتك (لواقع) اى
ثابت نازل بمستحقه جواب القسم كما ان (ماله من دافع) اى مانع لانه لا شريك لموقعه لما دلت
عليه هذه الاقسام من كمال القدرة وجلال الحكمة قال جبير بن مطعم قدمت المدينة لا كلم
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر فدفعت اليه وهو يصلى باصحابه المغرب وصوته
يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور الى قوله تعالى ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع فكانما
صدع قلبى حين سمعته ولم أكن أسلمت يومئذ فاسلمت خوفا من العذاب وما كنت أظن أنى
أقوم من مكانى حتى يقع بى العذاب ثم بين تعالى أنه متى يقع بقوله تعالى (يوم تمور السماء)
اى تتحرك وتضطرب وتجىء وتذهب وتدور دوران الرحى ويموج بعضها فى بعض وتتكفأ
باهلها تكفأ السفينة وتختلف أجزاؤها بعضها فى بعض قال البغوى والمور يجمع هذه
المعانى وهو فى اللغة الذهاب والمجىء والتردد والدوران والاضطراب قال الرازى وقيل تجىء
وتذهب كالدخان ثم تضمحل (مورا) اى اضطرابا شديدا (وتسير الجبال) اى تنتقل من
أمكنتها انتقال السحاب وحقق معناه بقوله تعالى (سيرا) فتصير هباء منثورا وتكون
الارض قاعا صفصفا ثم بين من يقع عليه العذاب بقوله تعالى (فويل) أى شدة عذاب (يومئذ)
اى يوم اذ يكون ما تقدم ذكره (للمكذبين) اى العريقين فى التكذيب للرسل (الذين هم) من
بين الناس بظواهرهم وبواطنهم (فى خوض) اى أقوالهم وأفعالهم أفعال الخائض فى الماء
فهو لا يدرى أين يضع رجله (يلعبون) فاجتمع عليهم أمران موجبان للباطل الخوض واللعب
فهم بحيث لا يكاد يقع لهم قول ولا فعل فى موضعه فلا يؤسس على بيان أو حجة (فان قيل) أهل
الكبائر لا يكذبون فتقتضى ذلك انهم لا يعذبون (أجيب) بان ذلك العذاب لا يقع على أهل
الكبائر لقوله تعالى كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا
فالمؤمن لا يلقى فيها القاء هوان وانما يدخل فيها للتطهير ادخالا مع نوع اكرام فالويل انما هو
للمكذبين وقوله تعالى (يوم يدعون) بدل من يوم تمور السماء أو من يومئذ قبله تقديره فويل
يومئذ يوم يدعون اى يدفعون دفعا عنيفا بجفوة وغلظة من كل من يقيمه الله تعالى لذلك
ذاهبين ومنتهين (الى نار جهنم) وهى الطبقة التى تلقاهم بالعبوسة والكراهة وأكد المعنى
وحققه بقوله تعالى (دعا) قال البغوى وذلك ان خزنة جهنم يغلون أيديهم الى أعناقهم
ويجمعون نواصيهم الى أقدامهم ثم يدفعون دفعا على وجوههم وزجا فى أقفيتهم مقولا لهم
تبكيتا وتوبيخا (هذه النار) اى الجسم المحرق المفسد لما أتى عليه الشاغل عن اللعب (التى
كنتم بها) فى الدنيا (تكذبون) على التجدد والاستمرار وقوله تعالى (أفسحر) خبر مقدم وقوله
تعالى (هذا) هو المبتدأ وقدم الخبر لانه المقصود بالانكار والتوبيخ وذلك أنهم كانوا ينسبون

الفعل تارة فيذكر والى معناه اخرى فيؤنث

* (سورة الرحمن) *

محمدا صلى الله عليه وسلم الى السحر وأنه يغطي الابصار بالسحر وان انشقاق القمر وأمثاله سحر فوبخوا به وقيل لهم أفسحر هذا اى الذى أنتم فيه من العذاب مع هذا الاحراق الذى تصلون فيه (أم أنتم) فى منام أو نحوه (لا تبصرون) بالقلوب كما كنتم تقولون فى الدنيا قلوبنا فى أكنة ولا بالاعين كما كنتم تقولون للمنذر بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون (اصلوها) اى اذا لم يمكنكم انكارها وتحققتم أنه ليس بسحر ولا خلل فى أبصاركم فقاسوا شدتها (فاصبروا) على هذا الذى لا طاقة لكم به (أو لا تصبروا) فانه لا محيص لكم عنه (سواء عليكم) اى الصبر والجزع فان صبركم لا ينفعكم وقوله تعالى (انما تجزون ما كنتم تعملون) تعليل للاستواء فانه لما كان الجزاء واجبا كان الصبر وعدمه سيين فى عدم النفع ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب أتبعه ما لاضدادهم من الثواب فقال تعالى (ان المتقين) اى الذين صارت التقوى لهم صفة راسخة (فى جنات) اى بساتين أية بساتين دائما فى الدنيا حكما وفى الآخرة حقيقة (ونعيم) اى نعيم فى العاجل بعيني بما لهم فيه من الانس وفى الآجل بالفعل وزاد فى تحقيق التنعم بقوله تعالى (فاكهين) اى متلذذين معجبين ناعمين (بما آتاهم) اى اعطاهم (ربهم) الذى تولى تربيتهم بما لهم بالطاعات الى أن أوصلهم الى هذا النعيم (ووقاهم) اى قبل ذلك (ربهم) اى المتفضل بتربيتهم بكفهم عن المعاصى والقاذورات (عذاب الجحيم) اى النار الشديدة التوقد ولما كان من باشر النعمة وجانب النقمة فى نعيم عظيم قال مترجما لذلك على تقدير القول (كلوا) اى أكلا هنيأ (واشربوا) اى شربا (هنيأ) وهو الذى لا تنغيص فيه فكل ما تتناولونه مأمون العاقبة من التخم والسقم وغيرهما (بما) اى بسبب ما (كنتم) اى كونا راسخا (تعملون) اى مجددين العمل على سبيل الاستمرار حتى كأنه طبع لكم ثم نبه على أنهم مع هذا النعيم مخدومون بقوله تعالى (متكئين) اى مستندين استناد راحة لانهم مخدومون فلا حاجة لهم الى الحركة (على سرر مصفوفة) اى منصوبة واحدا الى جنب واحد مستوية كأنها السطور على أحسن نظام وأبدعه ثم نبه على تمام سرورهم بالتمتع بالنساء بقوله تعالى (وزوجناهم) اى تزويجا يليق بما لنا من العظمة اى صيرناهم ممتعين (بحور) اى نساء هن فى شدة بياض العين وسوادها واستدارة حدقتها ورقة جفونها فى غاية حسن لا توصف (عين) اى واسعات الاعين فى رونق وحسن * (تنبيه) * اعلم انه تعالى بين أسباب التنعم على الترتيب فاول ما يكون المسكن وهو الجنات ثم الاكل والشرب ثم الفرش والبسط ثم الازواج فهذه أمور أربعة ذكرها الله تعالى على الترتيب وذكر فى كل واحد منها ما يدل على كماله فقوله جنات اشارة الى المسكن وقال فاكهين اشارة الى عدم التنغيص وعلو المرتبة لكونه بما آتاهم الله وقال كلوا واشربوا هنيأ اى مأمون العاقبة وترك ذكر المأكول والمشروب دلالة على تنوعهما وكثرتهما وقوله تعالى بما كنتم تعملون اشارة الى أنه تعالى يقول انى مع كونى ربكم وخالقكم وأدخلتكم الجنة بفضلى فلا منة لى عليكم اليوم وانما منتى عليكم كانت فى الدنيا هديتكم ووفقتكم للاعمال الصالحة كما قال تعالى بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان وأما اليوم فلا منة عليكم لان هذا انجاز الوعد وقوله تعالى (والذين آمنوا) اى أقروا بالايمان وان لم يبالغوا فى الاعمال الصالحة مبتدأ وقرأ أبو

(قوله ووضع الميزان) قرنه برفع السماء لانه تعالى عدده على

عمرو (وأتبعناهم) اى بما لنا من الفضل الناشئ عن العظمة بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية وسكون العين وبعد العين نون مفتوحة بعدها ألف والباقون بهمزة وصل محذوفة وتشديد التاء الفوقية وفتح العين وبعدها تاء فوقية ساكنة وهو معطوف على آمنوا (ذرياتهم) اى الصغار والكبار فالكبار بايمانهم بانفسهم والصغار بايمان آبائهم فان الولد الصغير يحكم باسلامه تبعا لاحد أبويه (بايمان) اى بسبب ايمان حاصل منهم ولو كان فى أدنى درجات الايمان ولكنهم ثبتوا عليه الى ان ماتوا وذلك شرط اتباعهم الذريات قال البقاعى ويجوز أن يراد وهو أقرب بسبب ايمان الذرية حقيقة ان كانوا كبارا أوحكما ان كانوا صغارا ثم أخبر عن الموصول المبتدا بقوله تعالى (ألحقنابهم) تفضلا منا عليهم (ذرياتهم) وان لم يكن للذرية أعمال لانه * لعين تجازى ألف عين وتكرم * والذريات هنا تصدق على الآباء وعلى الابناء وان المؤمن اذا كان عمله أكثر ألحق به من دونه فى العمل ابنا كان أو أبا وهو منقول عن ابن عباس وغيره ويلحق بالذرية من النسب الذرية بالسبب وهو المحبة فان كان معها أخذ لعلم أو عمل كانت أجدر فتكون ذرية الافادة كذرية الولادة وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب فى جواب من سأل عمن يحب القوم ولما يلحق بهم وقرأ ذريتهم بايمان وألحقنابهم ذرياتهم نافع بالقصر فى الاولى والجمع فى الثانية مع كسر التاء وقرأ ابن كثير والكوفيون بالقصر فيهما مع ضم التاء وقرأ أبو عمرو بالجمع فيهما مع كسر التاء وقرأ ابن عامر بالجمع فيهما الا أنه يرفع التاء فى الاولى ويكسرها فى الثانية (فان قيل) قوله تعالى أتبعناهم ذرياتهم يفيد فائدة قوله تعالى ألحقنابهم ذرياتهم (أجيب) بان قوله تعالى ألحقنابهم أى فى الدرجات والاتباع انما هو فى حكم الايمان وان لم يبلغوه كامر ثم أشار الى عدم نقصان المتبوع بقوله تعالى (وما ألتناهم) أى ما نقصنا المتبوعين (من عملهم) وأكد النفى بقوله تعالى (من شئ) اى بسبب هذا الالحاق ولما بين تعالى اتباع الادنى للاعلى فى الخير بين أن الادنى لا يتبع الاعلى فى الشر بقوله تعالى (كل امرئ) من الذين آمنوا والمتقين وغيرهم (بما كسب) اى عمل من خير أو شر (رهين) اى مرهون يؤخذ بالشر ويجازى بالخير وقال مقاتل كل امرئ كافر بما عمل من الشرك رهين فى النار والمؤمن لا يكون مرتهنا لقوله تعالى كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين وقال الواحدى هذا يعود الى ذكر أهل النار وهو قول مجاهد أيضا قال الرازى وفيه وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلا بمعنى الفاعل فيكون المعنى كل امرئ راهن اى دائم ان أحسن ففى الجنة مؤبدا وان أساء ففى النار مخلدا لان فى الدنيا دوام الاعمال بدوام الاعيان فان العرض لا يبقى الا فى جوهر ولا يوجد الا فيه وفى الآخرة دوام الاعيان بدوام الاعمال فان الله تعالى يبقى أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات وما عند الله باق والباقى يبقى مع عمله (وأمددناهم) اى الذين آمنوا والمتقين ومن ألحق بهم من ذرياتهم بما لنا من العظمة (بفاكهة) وقتا بعد وقت زيادة على ما تقدم ولما كانت الفاكهة ظاهرة فيما نعرفه فى الدنيا وان كان عيش الجنة بجميع الاشياء تفكها ليس فيه شئ يقصد به حفظ البدن قال تعالى (ولحم مما يشتهون) من أنواع اللحمان والمعنى زدناهم مأكولا ومشروبا فالمأكول الفاكهة واللحم والمشروب الكاس

عباده ومن أجلها الميزان
الذى هو العدل الذى به
نظام العالم وقوامه وقيل

وفي هذه اللطيفة وهي أنه تعالى لما قال وما ألتناهم من عملهم من شيء ونفى النقصان يصدق
بحصول المساوي فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي بل بالزيادة والامداد وقوله
تعالى (يتنازعون) في موضع نصب على الحال من مفعول أمددناهم ويجوز أن يكون
مستأنفا وقوله تعالى (فيها) يجوز أن يعود الضمير للشرب بها ويجوز أن يعود للجنة ومعنى
يتنازعون يتعاطون ويحتمل أن يقال التنازع التجاذب ويكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة
لا تجاذب منازعة وفيه نوع لذة لأنهم يتعاطون ذلك هم وجلساؤهم من أقربائهم واخوانهم
(كأسا) اي خمرا من رقة حاشيتها تكاد أن لا ترى في كأسها (لا لغو) اي لا سقط حديث
وهو ما لا ينفع من الكلام ولا يضر (فيها) اي في تنازعها ولا بسببها لانها لا تذهب بعقولهم
فلا يتكلمون الا بالحسن الجميل بخلاف المتنادمين في الدنيا على الشراب بسفههم وعربدتهم
هو القرآن وقيل هو العقل وقيل هو ومايعرف به المقادير كالميزان المعروف
(ولا تأثيم) اي لا يكون منهم ما يؤثمهم وقال الزجاج لا يجري منهم ما يلغى ولا ما فيه اثم كما
يجري في الدنيا لشربة الخمر قال الرازي ويحتمل أن يكون المراد من التأثيم السكر وقيل
لا يأثمون في شربها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بنصب لغو وتأثيم من غير تنوين والباقون بالرفع
فيهما مع التنوين * ولما كانت المعاطاة لا يكمل بسطها ويعظم أنسها الا بخدم وسقاة قال
تعالى (ويطوف عليهم) بالكؤس وغيرها من أنواع التحف (غلمان) اي أرقاء ولما كان
أحب مال الى الانسان ما يختص به قال تعالى (لهم) ولم يقل تعالى غلمانهم لئلا يظن انهم الذين
كانوا يخدمونهم في الدنيا فيشفق كل من خدم أحدا في الدنيا بقول أو فعل أن يكون خادما له
في الجنة فيحزن بكونه لا يزال تابعا وأفاد التنكير ان كل من دخل الجنة وجد له خدما لم
يعرفهم قبل ذلك (كأنهم) في بياضهم وشدة صفائهم (لؤلؤ مكنون) أي مخزون مصون
لم تمسه الايدي قال سعيد بن جبير يعني في الصدف لانه فيها أحسن منه في غيرها أو مصون في
الجنة لم تغيره العوارض قال عبد الله بن عمر ما من أحد من أهل الجنة الا يسعى عليه ألف
غلام وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه هذه صفة الخادم وأما المخدوم فروي عن الحسن انه لما
تلا هذه الآية قال يا رسول الله الخادم كاللؤلؤ المكنون فكيف المخدوم قال فضل المخدوم على
الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ان
أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبيك لبيك وقرأ
السوسي وشعبة لولو بالبدل والباقون بالهمز (وأقبل بعضهم) لما ازدهاهم من السرور
واللذة والحبور (على بعض يتساءلون) اي يسأل بعضهم بعضا في الجنة قال ابن عباس
يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف في الدنيا (قالوا) اي قال كل منهم (انا كنا قبل)
اي في دار العمل (في أهلنا) على ما لهم من العدد والعدد والسعة وانابهم من جوالب اللذة
والدواعي الى اللعب (مشفقين) اي عريقين في الخوف من الله تعالى لا يلهينا عنه شيء مع
لزومنا لما نقدر عليه من طاعته لعلمنا بانا لا نقدره لما له من العظمة والجلال والكبرياء
والكمال حق قدره والمعنى انهم يسألون عن سبب ما وصلوا اليه تلذذا واعترافا بالنعمة
فيقولون ذلك خشية الله تعالى أي كنا نخاف الله تعالى (فمن الله) الذي له جميع الكمال بسبب

اشفاقنا

اشفاقنا منه (علينا) بالرحمة والتوفيق (ووقانا) اى وجنبنا باستر نابه (عذاب السموم) قال الكلبي عذاب النار وقال الحسن السموم اسم من أسماء جهنم والسموم فى الاصل الريح الحارة التى تتخلل المسام والجمع سمائم يقال سم يومنا أى اشتد حره وقال ثعلب السموم شدة الحر أو شدة البرد فى النهار وقال أبو عبيدة السموم بالنهار وقد تكون بالليل والحرور بالليل وقد تكون بالنهار (انا كنا) اى بما طبعنا عليه وهيئناله (من قبل) ى فى الدنيا (ندعوه) اى نسأله ونعبده بالفعل وأما خوفنا بالقوة فقد كان فى كل حركة وسكون ثم علل ادعاءهم اياه مؤكدين لان انعامه عليهم مع تقصيرهم مما لا يكاد يفعله غيره فهو مما يتعجب منه غاية التعجب بقولهم (انه هو) اى وحده وقرأ نافع والكسائى بفتح الهمزة والباقون بكسرها (البر) اى الواسع الجود الذى عطاؤه حكمة ومنعه رحمة لانه لا ينقصه اعطاء ولا يزيده منع فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسه فربما بره بالنعمة وربما بره بالبؤس فهو يختار له من الاحوال ما هو خير له ليوسع له فى البر فى العقبى فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه فى شئ من قضائه (الرحيم) اى المكرم لمن أراد من عباده باقامته فيما يرضاه من طاعته ثم بافضاله عليه وان قصر فى خدمته ولما بين تعالى أن الوجود قوم يخافون الله تعالى ويشفقون فى أهليهم والنبى صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى لقوله تعالى فذكر بالقرآن من يخاف وعيد فوجب التذكير فلذلك قال تعالى (فذكر) أى عظ بأشرف الخلق بالقرآن ودم على ذلك ولا ترجع عنه لقول المشركين لك كاهن ومجنون (فما أنت بنعمت ربك) اى بسبب ما أنعم به عليك الحسن اليك من هذا الناموس الاعظم بعد تاهيلك له بما اليك به من رجاحة العقل وعلو الهمة وكرم الفعال وجود الكف وطهارة الاخلاق وجعلك أشرف الناس عنصرا وأكملهم نفسا وأزكاهم خلقا وهم معترفون لك بذلك قبل النبوة وأكد النفى بقوله تعالى (بكاهن) اى تقول كلاما مع كونه سجعا متكلفا أكثره فارغ وتحكم على المغيبات من غير وحى (ولا مجنون) اى تقول كلاما لا انتظام له مع الاخبار ببعض المغيبات فلا يترك قولهم هذا عن التذكير فانه قول باطل لا تطلق به معرة أصلا ومما قليل يكون عيبا لهم لا ينفصل عنهم الا اتباعهم لك فمن اتبعك منهم غسل عاره ومن استمر على عناده استمر تبابه وخساره * (تنبيه) * نزلت هذه الآية فى الذين اقتسموا اعقاب مكة يرمون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكهانة والسحر والجنون والشعر (أم يقولون) اى هؤلاء المقتسمون (شاعر) اى هو شاعر قال الثعلبى قال الخليل كل ما فى سورة والطور من أم فاستفهام وليس بعطف وقال أبو البقاء أم فى هذه الآيات منقطعة وتقدم الخلاف فى المنقطعة هل تقدر ببل وحدها أو ببل والهمزة أو بالهمزة وحدها والصحيح الثانى وقال مجاهد فى قوله تعالى أم تأمرهم تقديره بل تأمرهم (نتربص) اى ننتظر (به ريب المنون) اى حوادث الدهر وتقلبات الزمان لانها لا تدوم على حال كالريب وهو الشك فانه لا يبقى بل هو متزلزل قال الشاعر

تربص بها ريب المنون لعلها * تطلق يوما أو يموت حليلها

(وقال أبو ذؤيب)

والمكيال والذراع (ان قالت) مافائدة تكرار لفظ الميزان ثلاث مرات مع ان

أمن المنون وريبها تتوجع * والدهر ليس بمعتب من يجزع

والمنون فى الاصل الدهر وقال الراغب المنون المنية لانها تنقص العدد وتقطع المدد والمعنى بل يقولون يعنى هؤلاء المقتسمين الخراصين شاعر نتربص به ريب المنون حوادث الدهر وصروفه وذلك أن العرب كانت تحترز عن ايذاء الشعراء فان الشعر كان عندهم يحفظ ويدوّن فقالوا لا نعارضه فى الحال مخافة أن يغلبنا بقوّة شعره وانما نصبر ونتربص موته ويهلك كما هلك من قبله من الشعراء وتتفرق أصحابه فان أباه مات شابا ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه والمنون يكون بمعنى الدهر وبمعنى الموت سميا بذلك لانهما يقطعان الاجل ثم انه تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله (قل) أى لهؤلاء البعداء (تربصوا) أى انتظروا بى الموت ولم يعرج على محاججتهم فى قولهم هذا تنبيها على أنه من السقوط بمنزلة مالا يحتاج معه الى رد بمجادلة ثم سبب عن أمره لهم بالتربص قوله (فانى معكم من المتربصين) أى العريقين فى التربص وان ظننتم خلاف ذلك وأكده تنبيها على أنه يرجو الفرج بمصيبتهم كما يرجون الفرج بمصيبته وأشار بالمعية الى أنه مساويهم فى ذلك وان ظنوا الكثرتهم وقوّتهم ووحدته وضعفه ان الامر بخلاف ذلك قال القشيرى جاء فى التفسير ان جميعهم اى الذين تربصوا به ماتوا قال ولا ينبغى لاحد أن يؤمل نفاق سوقه بموت أحد لتنتهى النوبة اليه فقل من تكون هذه صفاته الا وسبقته المنية ولا يدرك ماتمناه من الامنية (فان قيل) هذا أمر للنبى صلى الله عليه وسلم ولفظ الامر يوجب المأمور به أو يبيحه ويجوّزه وتربصهم كان حراما (أجيب) بان ذلك ليس بامر وانما هو تهديد اى تربصوا ذلك فانى متربص الهلاك بكم كقول الغضبان لعبده افعل ماشئت فانى لست عنك بغافل (أم تأمرهم) اى تزين لهم تزيينا يصير مالهم اليه من الانبعاث كالامر (أحلامهم) اى عقولهم التى يزعمون انهم اختصوا بجودتها دون الناس بحيث انه كان يقال فيهم أولو الاحلام والنهى فازرى الله تعالى بعقولهم حين لم تتم لهم معرفة الحق من الباطل وذلك أن الاشياء لا يعبأ بها الا ان تزينت بعقل أو نقل فقال هل ورد أمر سمعى أم عقولهم تأمرهم (بهذا) اى قولهم لساحر كاهن مجنون وقيل الى عبادة الاوثان وقيل الى التربص اى لا تأمرهم بذلك (أم) اى بل (هم) بظواهرهم وبواطنهم (قوم) ذو وقوّة على مايحاولونه فهم لذلك (طاغون) اى مفترون ويقولون مالا دليل عليه سمعا ولا مقتضى له عقلا والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان وكذلك كل شئ منكر وظاهر قال تعالى لما طغى الماء * (تنبيه) * اعلم ان قوله تعالى أم تأمرهم متصل تقديره أأنزل عليهم ذكر أم تأمرهم أحلامهم بهذا وفى هذه الآية اشارة الى أن كل مالا يكون على وفق العقل لا ينبغى أن يقال وانما ينبغى أن يقال ما يجب قوله عقلا والاحلام جمع حلم وهو العقل فهما من باب واحد من حيث المعنى لان العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لا يتحرك من مكانه والحلم من الاحتلام وهو أيضا سبب وقار المرء وثباته لان الحلم فى أصل اللغة هو مايراه النائم فينزل ويلزم الغسل الذى هو سبب البلوغ وعنده يصير الانسان مكلفا فالله تعالى من لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة يكمل العقل ويكلف صاحبه فاشار تعالى الى العقل بالاشارة الى مايقارنه وهو الحلم ليعلم انه يريد به

القياس بعد الاولى الاضمار (قلت) فائدته بيان ان كلا من الآيات

كمال العقل (أم يقولون) ماهو أفحش عارا من التناقض (تقوّله) أى تكلف قوله من عند نفسه كذبا وليس بشعر ولا كهانة ولا جنون وهم على كثرتهم والمام بعضهم بالعلم وعراقة آخرين فى الشعر والخطب والترسل والسجع يعجزوا عن مثله بل عن مثل شئ منه *(تنبيه)* التقوّل تكلف القول ولا يستعمل الا فى الكذب وهذا أيضا متصل بقوله تعالى أم يقولون شاعر تقديره أم يقولون شاعر أم يقولون تقوّله والمعنى ليس الامر كما زعموا (بل لا يؤمنون) بالقرآن استكبارا ثم ألزمهم الحجة وأبطل جميع الاقسام فقال عز من قائل (فليأتوا) أى على أى تقدير أرادوه (بحديث) أى كلام مفرق مجدد اتيانه مع الازمان (مثله) أى القرآن فى البلاغة وصحة المعانى والاخبار بالمغيبات مما كان أو يكون على ماهى عليه لانكافهم أن يأتوا به جملة (فان قيل) الصفة تتبع الموصوف فى التعريف والتنكير والموصوف هنا حديث وهو منكر ومثله مضاف الى القرآن والمضاف الى القرآن معرف فكيف هذا (أجيب) بأن مثلا وغيرا لا يتعرفان بالاضافة وذلك أن غيرا ومثلا وأمثالهما فى غاية التنكير لانك اذا قلت مثل زيد يتناول كل شئ فان كل شئ مثل زيد فى شئ فالحمار مثله فى الجسم والحجم والامكان والنبات مثله فى النمو والنشوء والذبول والفناء والحيوان مثله فى الحركة والادراك وغيرهما من الاوصاف وأما غير فهو عند الاضافة منكر وعند قطع الاضافة ربما يتعرف فانك اذا قلت غير زيد صار فى غاية الابهام فانه يتناول أمورا لا حصر لها وأما اذا قطعت غير عن الاضافة فربما يكون الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كأسماء الاجناس وتجعله مبتدأ أو تريد به معنى معينا *(تنبيه)* قالت المعتزلة الحديث محدث والقرآن سماه حديثا فيكون محدثا وأجيبوا بأن الحديث اسم مشترك يقال للمحدث والمنقول ولهذا يصح أن يقال هذا حديث قديم أى متقادم العهد لا بمعنى سلب الاولية وذلك لا نزاع فيه قال بعض العلماء وهذا أمر تعجيز قال الرازى والظاهر أن الامر ههنا على حقيقته لانه لم يقل ائتوا مطلقا بل قال تعالى (ان كانوا) أى كونا هم راسخون فيه (صادقين) أى فى أنه تقوّله من عند نفسه كما يزعمون فهو أمر معلق على شرط اذا وجد ذلك الشرط يجب الاتيان به وأمر التعجيز كقوله تعالى فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر وفى هذا تشنيع عليهم سواء ادعوا أنه مجنون أم شاعر أم كاهن أم غير ذلك لان العادة تحيل ان يأتى واحد من قوم وهو مسلولهم بما لا يقدرون كلهم على مثله والعاقل لا يجزم بشئ الا وهو عالم به ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل ما يأتى به فانه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى الفصاحة والبلاد والمنسب وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشعر ومخالطة العلماء ومزاولة الخطب والرسائل وغير ذلك فلا يقدر على ما يعجزون عنه الا بتأييد الهى وهو المراد من تكذيبهم (أم خلقوا) أى وقع خلقهم على هذه الكيفية المتقنة (من غير شئ) أى خالق خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون لان تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فان أنكروا الخالق لم يجز ان يوجدوا بلا خالق (أم هم الخالقون) لانفسهم وذلك فى البطلان أشد لان ما لا وجود له كيف يخلق فاذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا وهو الله تعالى فليوحدوه ويؤمنوا به وبرسوله وبكتابه وقال الزجاج معناه أخلقوا باطلا لا يحاسبون ولا يؤمنون وقال ابن

قوله والترسل كذا بالاصل وفى نسخة خط الطبع والرسائل اه مصحح

مستقلة بنفسها أو ان كلا من الالفاظ الثلاثة مغاير لكل من الآخرين اذ

كيف ان أخلقوا عبثا وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون كقول القائل فعلت كذا وكذا
من غير شئ أى لغير شئ أم هم الخالقون لانفسهم فلا يجب عليهم لله أمر وقيل معناه أخلقوا
من غير أب وأم * (تنبيه) * لا خلاف ان أم هنا ليست بمعنى بل لكن أكثر المفسرين على أن
المراد ما يقع فى صدر الكلام من الاستفهام بالهمزة كأنه يقول أخلقوا من غير شئ
قال الرازى ويحتمل أن يقال هو على أصل الوضع للاستفهام الذى يقع فى أثناء الكلام وتقديره
أخلقوا من غير شئ أم هم الخالقون (أم خلقوا) أى على وجه الشركة (السموات والارض)
فهم بذلك عالمون بما فيهما على وجه الاحاطة واليقين حتى علموا أنك تقولته لصيرانهم رده
والتحكم عليه (بل لا يوقنون) أى ليس لهم نوع يقين والا لآمنوا برسوله وكتابه (أم عندهم)
أى خاصة دون غيرهم (خزائن ربك) اى المحسن اليك بارسالك فيعلموا ان هذا الذى أتيت به
ليس من قول الله تعالى فيصح قولهم انك تقولته (أم هم) أى لا غيرهم (المسيطرون) اى
الرقباء الحافظون المتسلطون الجبارون الرؤساء الحكام الكتبة ليكونوا ضابطين للاشياء
كلها كما هو شأن كاتب السر عند الملوك فيعلمون انك تقولت هذا الذكر لانهم لم يكتبوا به اليك
(أم لهم سلم) يصعدون به الى السماء (يستمعون) أى يتعمدون السماع لكل ما يكون فيها ومنها
(فيه) اى صاعدين فى ذلك السلم الى كلام الملائكة وما يوحى اليهم من علم الغيب حتى يعلموا
ما هو كائن (فليأت مستمعهم) اى مدعى الاستماع (بسلطان مبين) اى بحجة بينة واضحة ولشبه
هذا الزعم لزعمهم ان الملائكة بنات الله قال تعالى (أم له البنات) أى بزعمكم (ولكم البنون)
أى خاصة لتكونوا اقوى منه فتكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم وتردوا قوله من غير حجة
فتكونوا آمنين من عذاب يأتيكم منه لضعفه وقوتكم (ام تسألهم) اى أيها الطاهر الشيم
البعيد عن مواقع التهم (اجرا) على ابلاغ ما أتيتهم به (فهم من مغرم) اى غرم لك ولو قل
والمغرم التزام ما لا يجب (مثقلون) فهم لذلك يكذبون من كان سببا فى هذا الثقل بغير مستند
ليستريحوا مما جره لهم من الثقل (أم عندهم) اى خاصة بهم (الغيب) أى علم ما غاب عنهم (فهم
يكتبون) أى يجددون للناس كتابة جميع ما غاب عنهم مما ينفعهم ويضرهم حتى يحسدوك
فيما شاركتهم به منه فيردوه لذلك وينسبوك الى ما نسبوك اليه مما يعلم كل احد نزاهتك عنه
وبعدك منه وقال ابن عباس معناه ام عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون
الناس به واللام فى الغيب لا للعهد ولا لتعريف الجنس بل المراد نوع الغيب كما تقول اشتر
اللحم تريد بيان الحقيقة لا كل لحم ولا لحما معينا (ام يريدون) أى بهذا القول الذى يرمونك
به (كيدا) اى مكرا وضررا عظيما ليهلكوك به (فالذين كفروا) وكان الاصل فهم ولكنه
قال تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (هم) اى خاصة (المكيدون) اى المغلوبون المهلكون فانهم
مكروا به فى دار الندوة فحفظه الله تعالى منهم ثم أهلكهم ببدر عند انتهاء سنين عدتها عدة ما هنا
من ام وهى خمس عشرة مرة لان بدرا كانت فى الثانية من الهجرة وهى الخامسة عشر من
النبوة فقد سبب الله تعالى فيها من الاسباب ما اوجب سعيهم الى هلاكهم بامور خارقة للعادة
فلو كانت لهم بصائر لكفتهم فى الهداية والرد عن الضلالة والغواية (أم لهم اله) اى يمنعهم
من التصديق بكتابنا او يستندون اليه للامان من عذابنا (غير الله) اى الذى احاط بجميع

الاول ميزان الدنيا والثانى
ميزان الآخرة والثالث
ميزان العقل (ان قلت)

صفات الكمال (سبحان الله) الملك الاعظم الذى تعالى عن أن يدانى جنابه شائبة نقص (عما يشركون) من الاصنام وغيرها * (تنبيه) * الاستفهام بأم فى مواضعها للتقبيح والتوبيخ ولما بين تعالى فساد أقوالهم وسقوطها اشار الى أنهم لم يبق لهم عذر فان الآيات والحجج قد ظهرت ولم يؤمنوا فبعد ذلك استحقوا الانتقام وقوله تعالى (وان يروا) أى معاينة (كسفا) أى قطعة وقيل قطعا واحدتها كسفة مثل سدرة وسدر (من السماء) جهارا نهارا (ساقطا يقولوا) جواب لقولهم فأسقط علينا كسفا من السماء كأن الله تعالى يقول لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن قولهم و يقولون لمعاندتهم هذا (سحاب) فان قيل لهم هو مخالف للسحاب بصلابته وغلظته قالوا (مركوم) أى مركب بعضه على بعض فتلبد وتصلب وقوله تعالى (فذرهم) أى اتركهم على شر أحوالهم كقوله تعالى فأعرض عنهم وقوله تعالى فتول عنهم الى غير ذلك فقيل كلها منسوخة بآية القتال قال ابن عادل وهو ضعيف وانما المراد التهديد كقول السيد لعبده الجانى لمن يصحبه دعه فانه سينال جنايته (حتى يلاقوا يومهم الذى فيه) أى لا فى غيره لان ما حكمنا به لا يتقدم ولا يتأخر (يصعقون) أى يموتون من شدة الاهوال وعظم الزلزال كما صعق بنو اسرائيل فى الطور ولكن لا نقيمهم كما أقمنا أولئك الا عند النفخ فى الصور لنحشرهم للحساب الذى يكذبون به قال البقاعى والظاهر ان هذا اليوم يوم بدر فانهم كانوا قاطعين بالنصر فيه فما أغنى أحد منهم عن أحد شيأ كما قال أبو سفيان بن الحرث ما هو الا أنا لقيناهم فمنحناهم اكتافنا يقتلوننا كيف شاؤا و يأسروننا كيف شاؤا وقوله تعالى (يوم لا يغنى) أى بوجه من الوجوه بدل من يومهم (عنهم كيدهم) أى الذى يرمونه بهذه الاقوال المتناقضة (شيأ) من الاغناء فى دفع شئ يكرهونه من الموت ولا غيره كما يظنون انه يغنى عنهم فى غير ذلك من أحوال هذه الدار (ولا هم ينصرون) أى يتجدد لهم نصر ما فى ساعة ما يمنعهم من العذاب وقوله تعالى (وان للذين ظلموا) يجوز أن يكون من ايقاع الظاهر موضع المضمر وأن لا يكون والمعنى وان للذين أوقعوا الاشياء فى غير مواقعها كما يقولونه فى القرآن و يفعلونه من العصيان و يعتقدونه من الشرك والبهتان (عذابا دون ذلك) أى غير عذاب ذلك اليوم قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وقال الضحاك هو الجوع والقحط سبع سنين وقال البراء بن عازب عذاب القبر والآية تحتمل هذه المعانى كلها (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن العذاب نازل بهم (فاصبر) أى أوجد هذه الحقيقة لتصبر على ما أنت عليه من أداء الرسالة (لحكم ربك) أى المحسن اليك فانه هو المريد لذلك ولو لم يرده لم يكن شئ منه فهو احسان منه اليك وتدريب لك وترقية فى معارج الحكم وسبب عن ذلك قوله تعالى مؤكدا لما يغلب على الطبع البشرى فى بعض أوقات الامتحان من نوع نسيان (فانك بأعيننا) أى بمرأى منا نراك ونحفظك وجمع لما اقتضته نون العظمة التى هذا سياقها وهى ظاهرة فى الجمع واشارة الى أنه محفوظ بالجنود الذين رؤيتهم من رؤيته سبحانه وتعالى (وسبح) ملتبسا (بحمد ربك) أى المحسن اليك فاثبت له كل كمال مع تنزيهك له عن كل نقص فلا يكون فى ملكه ما لا يريده ولا يريد الا ما هو حكمة بالغة (حين تقوم) قال سعيد بن جبير وعطاء أى قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهم وبحمدك فان كان المجلس خيرا ازددت احسانا وان كان غير ذلك كان كفارة له وروى أبو هريرة أن رسول

قوله ان لا تطغوا فى الميزان اى لا تجاوزوا فيه العدل مفض عن الجانبين المذكورتين

الله صلى الله عليه وسلم قال من جلس مجلسا وكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا انت أستغفرك وأتوب اليك الا كان كفارة لما بينهما أى من الذنوب الصغائر وقال ابن عباس معناه صل لله حين تقوم من مقامك وقال الضحاك والربيع اذا قمت الى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك وقال الكلبي هو ذكر الله تعالى باللسان حين تقوم من الفراش الى أن تدخل فى الصلاة لما روى عاصم بن حميد قال سألت عائشة بأى شئ كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل فقالت كان اذا قام كبر عشرا وحمد الله تعالى عشرا وهلل عشرا واستغفر عشرا وقال اللهم اغفرلى واهدنى وارزقنى وعافنى و يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة وقيل حين تقوم لامر ما (ومن الليل) أى الذى هو محل السكون والراحة (فسبحه) أى صل له قال مقاتل يعنى صلاة المغرب والعشاء (وأدبار النجوم) أى صل الركعتين قبل صلاة الفجر وذلك حين تدبر النجوم أى تغيب بضوء الصبح هذا قول أكثر المفسرين وقال الضحاك هى فريضة صلاة الصبح وهذه الآية نظير قوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقد تقدم الكلام عليها قال الرازى قال تعالى هنا وأدبار النجوم وقال فى سورة ق وأدبار السجود فيحتمل أن يكون المعنى واحدا والمراد من السجود جمع ساجد والنجوم سجود قال تعالى والنجم والشجر يسجدان وقيل المراد من النجوم نجوم السماء وقيل النجم ما لا ساق له من النبات قال الله تعالى ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض الآية أو المراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نجم فى اللغة أى اذا فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله كما مر وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والطور كان حقا على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه فى جنته حديث موضوع

بعده (قلت) الطغيان فيه اخذ الزائد والاخسار اعطاء الناقص والقسط التوسط

سورة النجم مكية

ثنتان وستون آية وثلثمائة وستون كلمة وألف وأربعمائة وخمسة أحرف

(بسم الله) الذى أحاط بصفات الكمال (الرحمن) الذى عم الموجودات بصفة الجمال (الرحيم) الذى خص أهل وده بصالح الاعمال (والنجم اذا هوى) قال ابن عباس فى رواية العوفى يعنى الثريا اذا غابت وسقطت وهوت مغيبة والعرب تسمى الثريا نجما وجاء فى الحديث عن ابى هريرة مرفوعا ما طلع النجم قط وفى الارض شئ من العاهات الا رفع وأراد بالنجم الثريا وقال مجاهد هو نجم السماء كلها حين يغرب لفظه واحد ومعناه الجمع سمى الكوكب نجما لطلوعه وكل طالع نجم يقال نجم السن والنبت والقرن اذا طلع وروى عكرمة عن ابن عباس انها ما يرجم به الشياطين عند استراقهم السمع وقال أبو حمزة الثمالى هى النجوم اذا انتثرت يوم القيامة وقيل المراد بالنجم القرآن سمى نجما لانه نزل نجوما متفرقة فى عشرين سنة ويسمى التفريق تنجيما والمفرق منجما هذا قول ابن عباس فى رواية عطاء وقال الكلبى والهوى النزول من أعلى الى أسفل وقال الاخفش النجم هو النبت الذى لا ساق له ومنه قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان وهويه سقوطه على الارض وقال جعفر الصادق يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم اذا نزل من

السماء ليلة المعراج والهوى النزول يقال هوى يهوى هويا والكلام في قوله تعالى والنجم كالكلام في قوله تعالى والطور حيث لم يقل والنجوم والاطوار وقال والذاريات والمرسلات كما مر *(تنبيه)* أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها فانه تعالى قال في آخر تلك وأدبار النجوم وقال تعالى في أول هذه والنجم اذا هوى قال الرازي والفائدة في تقييد القسم به في وقت هويه أنه اذا كان في وسط السماء يكون بعيدا عن الارض لا يهتدي به الساري لانه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال فاذا نزل عن وسط السماء تبين بنزوله جانب المغرب عن المشرق والجنوب عن الشمال وقوله تعالى (ما ضل) أي عن طريق الهداية (صاحبكم) محمد صلى الله عليه وسلم وقتا من الاوقات جواب القسم وعبر بالصحبة لانها مع كونها أدل على القصد مرغبة لهم فيه ومقبلة بهم اليه ومقبحة عليهم اتهامه في انذاره وهم يعرفون طهارة شمائله (وما غوى) أي وما مال أدنى ميل ولا كان مقصده مما يسوء فانه محروس من أسباب غواية الشياطين وغيرها *(تنبيه)* الغي جهل عن اعتقاد فاسد بخلاف الضلال وذهب أكثر المفسرين الى أن الغي والضلال بمعنى واحد وفرق بعضهم بينهما فقال الضلال في مقابلة الهدى والغي في مقابلة الرشد قال تعالى قد تبين الرشد من الغي وقال تعالى وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا قال الرازي وتحقيق القول فيه أن الضلال أعم استعمالا في الوضع تقول ضل بعيري ورحلي ولا تقول غي *(فائدة)* قد دافع الله سبحانه عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأما باقي الانبياء فدافعوا عن أنفسهم ليس بي ضلالة ليس بي سفاهة ونحو ذلك قاله القشيري (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى ما ضل صاحبكم وبين قوله تعالى ووجدك ضالا فهدى (أجيب) بان المراد من الآية الآتية ووجدك ضالا عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك اليها بخلاف هذه الآية (وما ينطق) أي يجاوز نطقه فيه في وقت من الاوقات لا في هذا الحال ولا في الاستقبال نطقا ناشئا (عن الهوى) أي عن أمره كالكهان الذين يغلب كذبهم صدقهم والشعراء وغيرهم وما يقول هذا القرآن من عند نفسه (ان) أي ما (هو) أي الذي يتكلم به من القرآن وكل أقواله وأفعاله وأحواله (الا وحي) أي من الله تعالى وأكده بقوله تعالى (يوحى) أي يجدد اليه ايحاؤه منا وقتا بعد وقت *(تنبيه)* استدل بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للانبياء (وأجيب) بأن الله تعالى اذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند اليه كله وحيا لا نطقا عن الهوى (علمه) أي صاحبكم الوحي الذي أتاكم به ملك (شديد القوى) فلا تعجبوا من هذه الاخبار الزاخرة فان معلمه بهذه الصفة التي هو بها بحيث ينفذ كل ما أمره الله تعالى به وهو جبريل عليه السلام فانه الواسطة في ابداء الخوارق روي أنه قلع قرى قوم لوط ورفعها الى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الانبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف ورأى ابليس يكلم عيسى على بعض عقاب الارض المقدسة فنفحه نفحة بجناحه فألقاه في أقصى بلاد الهند (ذو مرة) قال ابن عباس ذو منظر حسن وقال أكثر المفسرين ذو قوة وقدرة عظيمة على الذهاب فيما أمر به والطاقة لحمله بغاية النشاط والحدة كأنه ذو مزاج غلبت عليه الحدة فهو صعب المراس في مزاولته ماض على طريقة واحدة على غاية من الشدة

بين الطرفين المفهومين
(قوله فبأي آلاء ربكما تكذبا
ذكر هنا أحدا وثلاثين مر

لا توصف لا التفات له بوجه الى غير ما أمر به فهو مجتمع القوى مستحكم الشان شديد الشكيمة لا يسام فى شئ يزاوله ومن جملة ما أعطى من القوة القدرة على التشكل والى ذلك أشار بعاقبة التسبب عن هذا من قوله تعالى (فاستوى) اى فاستقام واعتدل بغاية ما يكون من قوته على أكمل حالاته فى الصورة التى فطر عليها (وهو) أى والحال ان جبريل عليه السلام (بالافق الاعلى) اى عند مطلع الشمس وذلك ان جبريل عليه السلام كان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة الآدميين كما كان يأتى الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه على صورته التى خلق عليها فأراه نفسه مرتين مرة فى الارض ومرة فى السماء فأما التى فى الارض ففى الافق الاعلى والمراد بالاعلى جانب المشرق وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان بحراء وكان جبريل واعده أن يأتيه وهو بحراء فطلع له جبريل من المشرق فسد الافق الى المغرب فخر صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فنزل له جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين (ثم دنا) اى قرب منه (فتدلى) أى زاد فى القرب (فكان) منه (قاب) اى قدر (قوسين) أى عربيتين (أو أدنى) من ذلك وضمه الى نفسه حتى أفاق وسكن روعه وجعل يمسح التراب عن وجهه وأما فى السماء فعند سدرة المنتهى ولم يره أحد من الانبياء فى صورته الحقيقية غير محمد صلى الله عليه وسلم * (تنبيه) * القاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع والخطوة والشبر والفتر والاصبع ومنه لا صلاة الى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين وفى الحديث لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها والقد السوط ويقال بينهما خطوات يسيرة وقال الشاعر

* وقد جعلتنى من حزيمة اصبعا *

(فان قيل) كيف تقدير قوله فكان قاب قوسين (أجيب) بان تقديره فكان مسافة قربه مثل قاب قوسين فحذفت هذه المضافات كما قال أبو على فى قوله

* وقد جعلتنى من حزيمة اصبعا *

أى ذا مقدار مسافة اصبع وروى الشيبانى قال سألت زرا عن قوله تعالى فكان قاب قوسين أو أدنى قال أخبرنا عبد الله يعنى ابن مسعود أنه محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح وبهذا قال ابن عباس والحسن وقتادة وقال آخرون دنا الرب عز وجل من محمد صلى الله عليه وسلم فتدلى فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ومعنى دنوه تعالى قرب منزلة كقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تبارك وتعالى من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن مشى الى أتيته هرولة وهذا اشارة الى المعنى المجازى قال البغوى وروينا فى قصة المعراج من رواية شريك بن عبد الله بن ابى نمر عن أنس فدنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى وهذه رواية أبى سلمة عن ابن عباس وقال مجاهد دنا جبريل من ربه وقد قدمت الكلام على المعراج وعلى جواز رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه فى اول الاسراء وقال الضحاك دنا محمد صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل فتدلى فاهوى للسجود فكان منه قاب قوسين أو أدنى أو تقدم الكلام على القاب والقوس ما يرمى به فى قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس فاخبر أنه كان بين جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم مقدار قوسين وقال مجاهد معناه

ثم انه تعالى ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق

حيث

حيث الوتر من القوس وهذا اشارة الى تأكيد القرب والاصل فى ذلك أن الحليفين من العرب كانا اذا أرادا الصفاء والعهد خرجا بقوسيهما فالصقا بينهما يريدان بذلك أنهما متظاهران يحامى كل واحد منهما عن صاحبه وقال عبد الله بن مسعود قاب قوسين قدر ذراعين وهو قول سعيد بن جبير والقوس الذراع يقاس بها كل شئ أو أدنى بل أقرب وانما ضرب المثل بالقوس لانها لا تختلف بالقاب (فأوحى) أى الله تعالى وان لم يجر له ذكر لعدم اللبس (الى عبده) أى جبريل عليه السلام (ما أوحى) أى جبريل عليه السلام الى النبى صلى الله عليه وسلم ولم يذكر الموحى تفخيما لشأنه وهذا التفسير ماجرى عليه الجلال المحلى وهو ظاهر وقيل فأوحى الى جبريل بسبب هذا القرب وعقبه الى عبده أى عبد الله ما أوحى أى جبريل وقيل الضمائر كلها لله تعالى وهو المعنى بشديد القوى كما فى قوله تعالى ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ودنوه منه برفع مكانته وتدليه جذبه بكليته الى جانب القدس واختلف فى الموحى على أقوال الاول قال سعيد ابن جبير أوحى اليه ألم يجدك يتيما الى قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك الثانى أوحى اليه الصلاة الثالث أن أحدا من الانبياء لا يدخل الجنة قبلك وأن أمة من الامم لا تدخلها قبل أمتك الرابع أنه مبهم لا يطلع عليه أحد وتعبدنا به على الجملة الخامس أن ما للعموم والمراد كل ما جاء به جبريل (ما كذب الفؤاد) أى فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم (ما رأى) أى ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام وهذا أيضا ماجرى عليه الجلال المحلى وقال البقاعى ما رأى البصر أى حين رؤيته البصر كان حاضر القلب لانه اذا رؤية بصر فقط يمكن فيها الخلو عن حضور القلب وقال القشيرى ما معناه ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره على الوصف الذى علمه قبل أن رآه فكان علمه حق اليقين وقرأ هشام بتشديد الذال والباقون بالتخفيف وقوله تعالى (أفتمارونه) أى تجادلونه وتغلبونه (على ما يرى) خطاب للمشركين المكذبين رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل وهذا ما قاله ابن مسعود وعائشة ومن قال ان المرئى هو الله تعالى اختلفوا فى معنى الرؤية فقال بعضهم جعل بصره فى فؤاده فرآه بفؤاده وهو قول ابن عباس قال رآه بفؤاده مرتين ما كذب الفؤاد ما رأى وقال أنس والحسن وعكرمة رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل بعينه وروى عكرمة عن ابن عباس قال ان الله تعالى اصطفى ابراهيم عليه السلام بالخلة واصطفى موسى عليه السلام بالكلام واصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم بالرؤية وكانت عائشة تقول لم ير محمد صلى الله عليه وسلم ربه وتحمل الرؤية على رؤية جبريل قال مسروق قلت لعائشة يا أمتاه هل رأى محمد ربه فقالت لقد قف شعرى مما قلت اين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ثم قرأت لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ثم قرأت وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس باى ارض تموت ومن حدثك انه كتم شيأ مما أنزل الله تعالى فقد كذب ثم قرأت يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين وروى ابو ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال

ومعادهم ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب

نورانى أراه وحاصل المسئلة ان الصحيح ثبوت الرؤية وهو ما جرى عليه ابن عباس حبر الامة وهو الذى يرجع اليه فى المعضلات وقد راجعه ابو عمر فاخبره انه رآه ولا يقدح فى ذلك حديث عائشة لانها لم تخبر أنها سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لم أر وانما اعتمدت على الاستنباط مما تقدم وجوابه ظاهر فان الادراك هو الاحاطة والله تعالى لا يحاط به واذا ورد النص بنفى الاحاطة لا يلزم منه نفى الرؤية بغير احاطة وأجيب عن احتجاجها بقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الآية بأنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود الرؤية من غير كلام وبانه عام مخصوص بما تقدم من الادلة وأما قوله صلى الله عليه وسلم نور أنى أراه فقال الماوردى الضمير فى أراه عائد الى الله تعالى ومعناه أنه خالق النور المانع من رؤيته أى رؤية احاطة كما مر اذ من المستحيل أن تكون ذات الله نورا اذ النور من جملة الاجسام والله تعالى منزه عن ذلك (فان قيل) هلا قيل أفتمارونه على ما رأى بصيغة الماضى لانهم انما جادلوه حين أسرى به فقالوا صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا فى الطريق وغير ذلك مما جادلوه به وما الحكمة فى ابرازه بصيغة المضارع (أجيب) بأن التقدير أفتمارونه على ما يرى فكيف وهو قد رآه فى السماء فماذا تقولون فيه والواو فى قوله تعالى (ولقد رآه) يحتمل أن تكون عاطفة ويحتمل أن تكون للحال أى كيف تجادلونه فيما رآه وهو قد رآه (نزلة أخرى) على وجه لا شك فيه *(تنبيه)* قوله تعالى نزلة فعلة من النزول كجلسة من الجلوس فلا بد من نزول واختلفوا فى ذلك النزول وفيه وجوه الاول ان الضمير فى رآه عائد الى جبريل أى رأى جبريل نزلة أخرى أى رأى جبريل فى صورته التى خلق عليها نازلا من السماء مرة أخرى وذلك أنه رآه فى صورته مرتين مرة فى الارض ومرة فى السماء (عند سدرة المنتهى) قال الرازى ويحتمل أن تكون النزلة لمحمد صلى الله عليه وسلم الثانى أن الضمير عائد الى الله تعالى أى رأى الله نزلة أخرى وهذا قول من قال فى قوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى هو الله تعالى وقد قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين وعلى هذا فى النزول وجهان أحدهما قول من يجوز على الله الحركة من غير تشبيه وثانيهما أن نزوله بمعنى القرب بالرحمة والفضل الثالث أن محمدا رأى الله تعالى نزلة أخرى والمراد من النزلة ضدها وهى العرجة كانه قال رآه عرجة أخرى قال ابن عباس نزلة أخرى هو انه كان للنبى صلى الله عليه وسلم عرجات فى تلك الليلة لمسئلة التخفيف فى الصلوات فيكون لكل عرجة نزلة فرأى ربه فى بعضها وروى عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده مرتين وعنه انه رأى ربه بعينه وعلى ان المرئى هو الله تعالى فيكون قوله تعالى عند سدرة المنتهى ظرفا للرائى كما اذا قال القائل رأيت الهلال فيقال له اين رأيته فيقول على السطح وقد يقول عند الشجرة الفلانية وأما قول من قال بان الله تعالى فى مكان فذلك باطل وان قيل بان المرئى جبريل عليه السلام فظاهر *(تنبيه)* اضافة السدرة الى المنتهى تحتمل وجوها احدها اضافة الشئ الى مكانه كقولك اشجار بلدة كذا فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك قال هلال بن يساف سأل ابن عباس كعبا عن سدرة المنتهى وأنا حاضر فقال كعب انها سدرة

جهنم وحسن ذكر الآلاء عقبها لان من جملة الآلاء دفع البلاء وتأخير

فى اصل العرش على رؤس حملة العرش واليها ينتهى علم الخلائق وما خلفها غيب لا يعلمه الا الله تعالى وقيل ينتهى اليها ما هبط من فوقها ويصعد من تحتها وقال كعب تنتهى اليها الملائكة والانبياء وقال الربيع تنتهى اليها ارواح المؤمنين وثانيها اضافة الملك الى مالكه كقولك دار زيد وشجر زيد وحينئذ المنتهى فيه محذوف تقديره سدرة المنتهى اليه قال الله تعالى الى ربك المنتهى فالمنتهى اليه هو الله تعالى واضافة السدرة اليه حينئذ كاضافة البيت اليه للتشريف والتعظيم كما يقال فى التسبيح يا غاية رغبتاه ويا منتهى أملاه وثالثها اضافة المحل الى الحال فيه كقولك كتاب الفقه وعلى هذا فالتقدير سدرة عندها منتهى العلوم فتتلق هنالك قال البقاعى وذلك والله أعلم ليلة الاسراء فى السنة الثالثة عشرة من النبوة قبل الهجرة بقليل بعد ان ترقى فى معارج الكمالات من السنين على عدد السموات وما بينها من المسافات فانتهى الى منتهى سمع فيه صرير الاقلام وعظمها بقوله تعالى (عندها) اى السدرة (جنة المأوى) اى التى لا مأوى فى الحقيقة غيرها وهى الجنة التى وعدها المتقون كقوله تعالى دار المقامة وقيل هى جنة أخرى عندها تكون أرواح الشهداء تأوى اليها وقيل هى جنة الملائكة وقوله تعالى (اذ) معمول لرأى أى رأى من آيات ربه الكبرى حين (يغشى السدرة) وهى شجرة النبق وقوله تعالى (ما يغشى) تعظيم وتكثير لما يغشاها واختلفوا فيما يغشاها فقيل فراش أو جراد من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك قال الرازى وهذا ضعيف لان ذلك لا يثبت الا بدليل سمعى فان صح فيه خبر والا فلا وجه له اهـ قال القرطبى ورواه ابن مسعود وابن عباس مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى وذلك قوله عز من قائل اذ يغشى السدرة ما يغشى وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون اليها متشوقين متبركين بها زائرين كما يزور الناس الكعبة وروى فى حديث المعراج عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذهب بى الى سدرة المنتهى واذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كقلال هجر قال فلما غشيها من امر الله تعالى ما غشى تغيرت فما احد من خلق الله تعالى يقدر ان ينعتها من حسنها فاوحى الى ما اوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة وقيل يغشاها انوار الله تعالى لان النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل اليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل فظهرت الانوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكا ولم تتحرك الشجرة وخر موسى عليه السلام صعقا ولم يتزلزل محمد صلى الله عليه وسلم وقيل أبهمه تعظيما له والغشيان يكون بمعنى التغطية قال الماوردى فى معانى القرآن فان قيل لم اختيرت السدرة لهذا الامر دون غيرها من الشجر قلنا لان السدرة تختص بثلاثة أوصاف ظل مديد وطعم لذيذ ورائحة ذكية فشابهت الايمان الذى يجمع قولا وعملا ونية فظلها من الايمان بمنزلة العمل لتجاوزه وطعمها بمنزلة النية لكمونه وريحها بمنزلة القول لظهوره وروى أبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قطع سدرة صوب الله تعالى رأسه فى النار وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال هو مختصر يعنى من قطع سدرة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوب الله تعالى رأسه فى النار ثم أكد سبحانه الرؤية وقررها بقوله

العقاب وبعد هذه السبعة ثمانية فى وصف الجنتين واولاهما بعدد أبواب

تعالى (مازاغ) أى ما مال أدنى ميل (البصر) أى الذى لا لمخلوق أكمل منه فما قصر عن بصر النظر الى ما أذن له فيه وما زاد (وما طغى) أى تجاوز الحد الى ما لم يؤذن له فيه مع أن ذلك العالم غريب عن بنى آدم وفيه من العجائب ما يحير الناظر بل كانت له الصفة الصادقة المتوسطة بين الشره والزهادة على أتم قوانين العدل فأثبت ما رآه على حقيقته وكما هو قال السهروردى فى أول الباب الثانى والثلاثين من عوارفه وأخبر تعالى بحسن أدبه فى الحضرة بهذه الآية وهذه غامضة من غوامض الادب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم * (تنبيه) * اللام فى البصر تحتمل وجهين أحدهما المعروف أى مازاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ان قيل ان الغاشى للسدرة هو الجراد والفراش فمعناه لم يلتفت اليه ولم يشتغل به ولم يقطع نظره عن مقصوده فيكون غشيان الجراد والفراش ابتلاء وامتحانا لمحمد صلى الله عليه وسلم وان قيل ان الغاشى أنوار الله تعالى ففيه وجهان أحدهما لم يلتفت يمنة ولا يسرة بل اشتغل بمطالعتها الثانى مازاغ البصر بصعقه بخلاف موسى عليه السلام فانه قطع النظر وغشى عليه ففى الاول بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم وفى الثانى بيان قوته الوجه الثانى أن اللام لتعريف الجنس أى مازاغ بصره أصلا فى ذلك الموضع لعظم هيبته (فان قيل) لو كان كذلك لقال مازاغ بصره فانه أدل على العموم فان النكرة فى معرض النفى تعم (أجيب) بأن هذا مثل كقوله تعالى لا تدركه الابصار ولم يقل ولا يدركه بصر ولما كانوا قد أنكروا الاسراء انكارا لم يقع لهم فى غيره مثله زاد فى تأكيده على وجه تم غيره فقال تعالى (لقد رأى) أى أبصر ما أهلناه من الرسالة تلك الليلة ابصارا ساريا الى البواطن غير مقتصر على الظواهر (من آيات ربه) أى المحسن اليه بما لم يصل اليه أحد قبله ولا يصل اليه أحد بعده (الكبرى) أى العظام أى بعضها واختلف فى ذلك البعض فقيل جبريل عليه السلام رآه فى صورته له ستمائة جناح وقال الرازى والظاهر ان هذه الآيات غير تلك لان جبريل عليه السلام وان كان عظيما لكنه ورد فى الاخبار أن لله تعالى ملائكة أعظم منه والكبرى تأنيث الاكبر فكأنه تعالى قال رأى من آيات ربه آيات هى كبر الآيات وقيل رأى رفرفا أخضر سد الافق وقيل أراد ما رأى فى تلك الليلة فى مسيره وعوده ومن اجتماعه تلك الليلة بالانبياء عليهم الصلاة والسلام فى السموات ولما قرر تعالى الرسالة ذكر ما ينبغى أن يبتدئ به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الاشراك بقوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى) اشارة الى ابطال قولهم كما اذا ادعى ضعيف الملك ثم رآه العقلاء فى غاية البعد عما يدعيه يقولون انظروا الى هذا الذى يدعى الملك منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره فلذلك قال تعالى أفرأيتم اللات والعزى أى كما هما فكيف تشركونهما بالله سبحانه وتعالى واللات صنم ثقيف والعزى شجرة لغطفان وهما أعظم أصنامهم اشتقوا لهما اسمين من اسماء الله تعالى فقالوا من الله اللات ومن العزيز العزى وقيل العزى تأنيث الاعز وعن ابن عباس كان اللات رجلا يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه وعن مجاهد أن العزى شجرة لغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد ابن الوليد فقطعها فجعل خالد يضربها بالفأس ويقول

الجنة وثمانية أخرى بعدها فى الجنتين اللتين هما دون الجنتين الاولتين اخذا

يا عز كفرانك لا سبحانك * انى رأيت الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها ويقال ان خالدا رجع الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال قد قلعتها فقال ما رأيت قال ما رأيت شيأ فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما فعلت فعاودها ومعه المعول فقلعها واجتث أصلها فخرجت منها امرأة عريانة فقتلها ثم رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال تلك العزى ولن تعبد أبدا وقال الضحاك هي صنم لغطفان وضعها لهم سعيد بن ظالم الغطفاني وذلك أنه لما قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بهما فعاد الى نخلة وقال لقومه ان لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ولهم اله يعبدونه وليس لكم قالوا فما تأمرنا به قال انا أصنع لكم كذلك وأخذ حجرا من الصفا وحجرا من المروة ونقلهما الى نخلة فوضع الذى أخذه من الصفا وقال هذا الصفا ووضع الذى أخذه من المروة وقال هذه المروة ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها الى شجرة فقال هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة حتى افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فأمر برفع الحجارة وبعث خالد بن الوليد الى العزى فقطعها وقال ابن زيد هي بيت بالطائف كانت تعبده ثقيف واما قوله تعالى (ومناة) فقال قتادة هي صخرة كانت لخزاعة بقديد وقالت عائشة في الانصار كانوا يهلون لمناة فكانت حذو قديد وقال ابن زيد بيت بالمشلل تعبده بنو كعب وقال الضحاك مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبده أهل مكة وقيل اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها وقوله تعالى (الثالثة الاخرى) نعت لمناة اذ هي الثالثة للصنمين في الذكر وأما الاخرى فقال أبو البقاء توكيد لان الثالثة لا تكون الا الأخرى وقال الزمخشري الاخرى ذم وهي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله تعالى وقالت أخراهم أى وضعاؤهم لأولاهم أى لأشرافهم ويجوز أن تكون الاولية والتقدم عندهم اللات والعزى اه قال ابن عادل وفيه نظر لان الاخرى انما تدل على الغيرية وليس فيها تعرض لمدح ولا ذم فان جاء شئ فلقرينة خارجية اه ووجه الترتيب أن اللات كان وثنا على صورة آدمي والعزى شجرة نبات ومناة صخرة فهي جماد فهي في أخريات المراتب (فان قيل) ما فائدة الفاء في قوله تعالى أفرأيتم وقد وردت في مواضع بغير فاء كقوله تعالى أرأيتم ما تدعون من دون الله أرأيتم شركاءكم (أجيب) بانه تعالى لما قدم عظمته في ملكوته وأن رسوله الى الرسل يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته ولا يمكنه مع هذا ان يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته قال أفرأيتم هذه الاصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله تعالى مع ما تقدم فقال بالفاء أى عقب ما سمعتم من عظمة ايات الله الكبرى ونفاذ علمه في الملأ الاعلى وما تحت الثرى انظروا الى اللات والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم اليه م (تنبيه) * مفعول أرأيت الاول اللات وما عطف عليه والثاني محذوف والمعنى أخبروني ألهذه الاصنام قدرة على شئ ما تعبد ونها دون الله القادر على ما تقدم ذكره وقرأ ابن كثير مناءة بهمزة مفتوحة بعد الالف والباقون بغير همزة * ولما زعموا أيضا ان الملائكة بنات الله مع كراهتهم للبنات نزل (ألكم) أى خاصة (الذكر) أى النوع الاعلى (وله) أى وحده (الانثى) اى النوع الاسفل (تلك) أى هذه القسمة البعيدة عن الصواب (اذا) اى اذ جعلتم البنات له

من قوله تعالى ومن دونهما جنتان فمن اعتقد الثمانية الاولى وعمل بموجبها

والبنين لكم (قسمة ضيزى) أي جائرة ظالمة ناقصة فيها بخس للحق الى الغاية عوجاء غير
معتدلة حيث خصصتم به ما أوصلتكم الكراهة له الى دفنه حيا بل كان ينبغي أن تجعلوا الاعظم
للعظيم والانقص للحقير لما التزم العقل والنقل والعادة (ان) اى ما (هى) اى هذه الاصنام
(الا أسماء) اى لا حقائق لها فيما ادعيتم لها من الالهية ليس لها من ذلك غير الاسماء وأكد
ذلك بقوله تعالى (سميتموها) أى ابتدعتم تسميتها (فان قيل) الاسماء لا تسمى وانما يسمى
بها (أجيب) بان التسمية وضع الاسم فكأنه قال أسماء وضعتموها فاستعمل سميتموها استعمال
وضعتموها (أنتم وآباؤكم) اى لا غير (ما أنزل الله) اى الذى له جميع صفات الكمال (بها) اى
باستحقاقها للاسماء أو لما سميتموها به من الالهية وأغرق فى النفى فقال (من سلطان) اى
حجة تصلح مسلطا على ما يدعى فيها بل لمجرد الهوى لم تروا منها آية ولا كلمتكم قط بكلمة تعتمدونها
وعلى تقدير ان تتكلم الشياطين على السنتها فاى طريقة قويمة شرعت لكم واى كلام صالح أو
بليغ برز اليكم منها واى آية كبرى ارتكموها (ان) اى (ما يتبعون) اى فى وقت من الاوقات
فى امر هذه الاوثان بغاية جهدهم من انها آلهة وانها تشفع لهم او تقربهم الى الله تعالى (الا
الظن) اى وهو غاية امرهم لمن يحسن الظن بهم والظن ترجيح احد الجائزين على زعم الظان
* ولما كان الظن قد يكون موافقا للحق مخالفا للهوى قال تعالى (وما تهوى الانفس) اى
تشتهى وهى لما لها من النقص لا تشتهى ابدا الا ما يهوى بها عن غاية أوجها الى اسفل
حضيضها واما المعالى وحسن العواقب فانما يسوق اليها العقل قال القشيرى فاما الظن الجميل
بالله تعالى فليس من هذا الباب والتباس عواقب الشخص عليه ليس من هذا الجملة بسبيل انما
الظن المعلول فى الله تعالى واحكامه وصفاته اه ولهذا كان كثير من الفقه ظنيا وقال صلى
الله عليه وسلم حكاية عن ربه انا عند ظن عبدى بى (ولقد جاءهم) اى العجب انهم يقولون ذلك
والحال انهم قد جاءهم (من ربهم) المحسن اليهم (الهدى) على لسان النبى صلى الله عليه وسلم
بالبرهان القاطع انها ليست بآلهة وان العبادة لا تصلح الا لله الواحد القهار فلم يرجعوا عما هم
عليه وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وقرأ ابو عمرو بكسرهما والباقون
بكسر الهاء وضم الميم (أم للانسان) اى كل انسان منهم (ما تمنى) اى من اتباع ما يشتهى من
جاه ومال وطول عمر ورفاهة عيش ومن ان الاصنام تشفع له ليس الامر كذلك (فلله) اى الملك
الاعظم وحده (الآخرة) فهو لا يعطى ما فيها الا لمن تبع هداه وترك هواه (والاولى) اى الدنيا
فهو لا يعطى جميع الامانى فيها لاحد أصلا كما هو مشاهد ولكنه يعطى منها ما يشاء لمن يريد وليس
لاحد ان يحكم عليه سبحانه فى شئ منها (وكم من ملك) اى كثير من الملائكة اى ممن يعبدهم
هؤلاء الكفار ودل على زيادة قوتهم بشرف مسكنهم وهو قوله تعالى (فى السموات) اى وهم
فى الكرامة والزلفى (لا تغنى شفاعتهم) اى عن أحد من الناس (شيأ) ثم قصر الامر عليه
ورده بحذافيره اليه بقوله تعالى (الا من بعد أن يأذن) اى يمكن ويريد (الله) اى الملك الذى
لا امر اصلا لاحد معه (لمن يشاء) من عباده من الملائكة أو من الناس ان يشفع (ويرضى) اى
ويراه اهلا لذلك فكيف تعبد الاصنام مع حقارتها للتشفع لهم (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة)

استفق هاتين الثمانيتين من الله ووقاه السبعة السابقة (قوله خلق

اى

الانسان من صلصال كالفخار) أى من طين يابس لم يطبخ والصلصلة أى

اى لا يصدقون ولا يقرون بالبعث وغيره من احوال يوم القيامة (ليسمون الملائكة) اى كل واحد منهم (تسمية الانثى) بان سموه بنتا وذلك أنهم كانوا يقولون الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم اولاده بمعنى الايجاد ثم انهم رأوا فى الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال سجدت الملائكة فقالوا بنات الله فسموهم تسمية الاناث (فان قيل) كيف يقال انهم لا يؤمنون بالآخرة مع انهم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكان من عادتهم ان يربطوا مركوبا على قبر من يموت ويعتقدون انه يحشر عليه (اجيب) بانهم ما كانوا يجزمون به بل كانوا يقولون لا حشر فان كان فلنا شفعاء بدليل ما حكى الله تعالى عنهم وما اظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وبانهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه الذى وردت به الرسل (فان قيل) كيف قال تسمية الانثى ولم يقل تسمية الاناث (اجيب) بان المراد بيان الجنس وهذا اللفظ اليق بهذا الموضع لمؤاخاة رؤس الآى (وما) اى والحال انهم ما (لهم به) اى بما يقولون وقيل الضمير يعود الى ما تقدم من عدم قبول الشفاعة وقيل يعود الى الله تعالى أى ما لهم بالله تعالى (من علم) ثم بين تعالى الحامل لهم على ذلك بقوله تعالى (ان) اى ما (يتبعون) أى بغاية ما يكون من شهوة النفس فى ذلك وغيره (الا الظن) اى الذى يخيلونه (وان) أى والحال أن (الظن) اى مطلقا فى هذا وفى غيره ولذلك أظهر فى موضع الاضمار (لا يغنى) اى اغناء مبتدأ (من الحق) أى الامر الثابت فى نفس الامر الذى هو حقيقة الشئ وذاته بحيث يكون الظن بدله والظن انما يعتبر فى العمليات لا فى العلميات ولا سيما الاصولية (شيأ) أى من الاغناء عن احد من الخلق فانه لا يؤدى أبدا الى الجزم بالعلم بالشئ على ما هو عليه فى نفس الامر فهو ممنوع فى أصول الدين فان المقصود فيها تحقيق الامر على ما هو عليه فى الواقع وأما الفروع فان المكلف به فيها هو الظن لكن بشرطه المأذون فيه وهو رده الى الاصول المستنبط منها لعجز الانسان عن القطع فى جميع الفروع تنبيها على عجزه وافتقاره الى الله تعالى ليقبل عليه و يتبرأ من حوله وقوته ليكشف له عن الحقائق . ولما أن أصروا على الهوى بعد مجىء الهدى سبب عن ذلك قوله تعالى (فأعرض) اى يا اشرف الرسل (عمن تولى) اى كلف نفسه خلاف ما يدعو اليه العقل والفطرة الاولى (عن ذكرنا) اى القران الذى انزلناه فلم يتله ولم يتدبر معانيه (ولم يرد) أى فى وقت من الاوقات (الا الحيوة الدنيا) اى الحاضرة لتقيده بالمحسوسات كالبهائم مع العمى عن دناءتها وحقارتها قال الجلال المحلى وهذا قبل الامر بالجهاد قال الرازى وأكثر المفسرين يقولون بأن كل ما فى القرآن من قوله تعالى فاعرض منسوخ بآية القتال وهو باطل لان الامر بالاعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ بها وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم فى الاول كان مأمورا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه بأباطيلهم أمر بازالة شبههم والجواب عن أباطيلهم وقيل له وجادلهم بالتى هى أحسن ثم لما لم ينفع قال له ربه اعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان فانهم لا ينتفعون به ولا يتبعون الحق وقاتلهم والاعراض عن المناظرة شرط لجواز المقاتلة فكيف يكون منسوخا بها (ذلك) أى الامر المتناهى فى الجهل والقباحة (مبلغهم) أى نهاية بلوغهم وموضع بلوغهم والحاصل

لهم وتهكم بهم بقوله تعالى (من العلم) أى غايتهم من العلم انهم آثروا الدنيا على الآخرة والجملة
اعتراض مقرر لقصور همتهم على الدنيا وقوله تعالى (ان ربك) أى المحسن اليك بالرسالة (هو
أعلم) أى عالم (بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) أى ظاهرا وباطنا تعليل للامر
بالاعراض أى انما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب فلا تتعب نفسك فى دعوتهم اذ ما عليك الا
البلاغ وقد بلغت لان النبى صلى الله عليه وسلم كان كالطبيب للقلوب فأتى على ترتيب الاطباء
فى أن المرض اذا أمكن اصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء وما أمكن اصلاحه بالدواء
الضعيف لا يستعملون الدواء القوى ثم اذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا الى
الحديد والكى كما قيل آخر الدواء الكى فالنبى صلى الله عليه وسلم أولا أمر القلوب بذكر الله
تعالى فقط فان بذكر الله تطمئن القلوب كما أن بالغذاء تطمئن النفوس والذكر غذاء القلوب
ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أولا قولوا لا اله الا الله أمر بالذكر فانتفع مثل ابى بكر ومن لم
ينتفع ذكر لهم الدليل وقال أولم يتفكروا قل انظروا أفلا ينظرون الى غير ذلك فلما لم ينتفعوا
أتى بالوعيد والتهديد فلما لم ينفعهم قال اعرض عن المعالجة واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح
(فان قيل) ان الله تعالى بين أن غايتهم ذلك فى العلم ولا يكلف الله تعالى نفسا الا وسعها
والمجنون الذى لا علم له أو الصبى الذى لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله تعالى
(أجيب) بأنه ذكر قبل ذلك أنهم تولوا عن ذكر الله فكان عدم علمهم لعدم قبولهم العلم وانما
قدر الله تعالى توليهم ليضاف الجهل الى ذلك فيتحقق العقاب (ولله) أى الملك الاعظم وحده
(ما فى السموات وما فى الارض) أى من الذوات والمعانى فيشمل ذلك السموات والارض
معترض بين الآية الاولى وبين قوله تعالى (ليجزى الذين أساؤا) أى بالضلال (بما عملوا) أى
بسببه أو بجنسه اما بواسطتك بسيوفك وبسيوف اتباعك اذ أذنت لكم فى القتال واما بغير
ذلك بالموت حتف الانف تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ثم بعذاب الآخرة على جميع
ذنوبهم من غير أن يكون تعجيل لهم فى الدنيا شئ ينقص بسببه عذاب الآخرة * (تنبيه) * اللام
فى ليجزى يجوز أن تتعلق بقوله تعالى بمن ضل وبمن اهتدى واللام للصيرورة أى عاقبة أمرهم
جميعا للجزاء بما عملوا قال معناه الزمخشرى وأن تتعلق بما دل عليه قوله تعالى أعلم بمن ضل اى
حفظ ذلك ليجزى قاله ابو البقاء (ويجزى) اى ويثيب ويكرم (الذين أحسنوا) اى على ثباتهم
على الدين وصبرهم عليه وعلى أذى أعدائهم (بالحسنى) اى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة وبين
المحسنين بقوله تعالى (الذين يجتنبون) اى يكلفون أنفسهم ويجهدونها على أن يتركوا
(كبائر الاثم) اى ما عظم الشارع اثمه بعد تحريمه بالوعيد والحد وقرأ حمزة والكسائى بكسر
الباء الموحدة وبعدها ياء ساكنة والباقون بفتح الموحدة وبعدها ألف وبعد الالف همزة
مكسورة وعطف على كبائر قوله تعالى (والفواحش) والفاحشة من الكبائر ما كرهه الطبع
وانكره العقل واستخبثه الشرع والكبيرة صفة عائدة الى الكيفية وقوله تعالى (الا اللمم)
فيه أوجه أحدها وهو المشهور أنه استثناء منقطع اى لكن اللمم لانه الصغائر فلم تندرج
فيما قبلها ثانيها انه صفة والا بمعنى غير كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا اى كبائر
الاثم والفواحش غير اللمم ثالثها أنه متصل وهذا عند من يفسر اللمم بغير الصغائر قالوا ان

صوت اذا نقر (فان قلت)
كيف قال ذلك هنا وقال فى
الحجر من صلصال من حما

قوله والمجنون الخ كذا
فى عدة نسخ والصور
مصححه

اللمم من الكبائر والفواحش قالوا ان معنى الآية الا ان يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب ويقع الوقعة ثم ينتهي وهو قول ابي هريرة ومجاهد والحسن ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال عبد الله بن عمرو بن العاص اللمم ما دون الشرك قال السدي قال ابو صالح سئلت من قول الله عز وجل الا اللمم فقلت هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال لقد اعانك عليها ملك كريم وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه قال ما رايت شيأ اشبه باللمم مما قال ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا ادرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك او يكذبه ولمسلم كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا يدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والاذنان زناهما الاستماع واللسان زناه النطق واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه *(تنبيه)* ذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف الى انقسام المعاصي الى كبائر وصغائر وقد تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة وقد اختلف في ضبط الكبيرة بالحد فقال جمع هي ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وقال جمع هي المعصية الموجبة للحد والاول أوجه لانهم عدوا الربا وأكل مال اليتيم وشهادة الزور ونحوها من الكبائر ولا حد فيها وقال امام الحرمين هي كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين وأما تعريفها بالعد فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي الى السبعين أقرب وقال سعيد بن جبير هي الى السبعمائة أقرب أي باعتبار أصناف أنواعها وما عدا المحدود من المعاصي فمن الصغائر ولا بأس بذكر شيء من النوعين فمن الاول تقديم الصلاة أو تأخيرها عن وقتها بلا عذر ومنع الزكاة وترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ونسيان القرآن واليأس من رحمة الله تعالى وأمن مكر الله تعالى وقتل النفس عمدا أو شبه عمد والفرار من الزحف وأكل الربا وأكل مال اليتيم والافطار في رمضان من غير عذر وعقوق الوالدين والزنا واللواط وشهادة الزور وشرب الخمر وان قل والسرقة والغصب وقيده جماعة بما يبلغ ربع مثقال كما يقطع به في السرقة وكتمان الشهادة بلا عذر وضرب المسلم بغير حق وقطع الرحم والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمدا وسب الصحابة وأخذ الرشوة والسحر والنميمة واما الغيبة فان كانت في أهل العلم وحملة القرآن فهي كبيرة والا فصغيرة ومن الصغائر النظر المحرم وكذب لا حد فيه ولا ضرر والاشراف على بيوت الناس وهجر المسلم فوق ثلاث والضحك في الصلاة المفروضة والنياحة وشق الجيب في المصيبة والتبختر في المشي والجلوس بين الفساق ايناسا لهم وادخال مجانين وصبيان ونجاسة يغلب تنجيسهم المسجد واستعمال النجاسة في بدن أو ثوب لغير حاجة والاصرار على صغيرة من نوع أو أنواع يصيرها كبيرة الا أن تغلب طاعاته معاصيه كما أوضحت ذلك في شرح المنهاج وغيره (ان ربك) أي المحسن اليك بارسالك رحمة للعالمين والتخفيف عن أمتك (واسع المغفرة) يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ويغفر الكبائر بالتوبة وله ان يغفر ما شاء من الذنوب ما عدا الشرك صغيرها وكبيرها كما قال تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء بخلاف غيره من الملوك فانه لا يغفر لمن تكررت ذنوبه اليهم وان

مسنون اى من طين اسود متغير وقال في الصافات من طين لازب اى لازم يلصق

صغرت قال البيضاوى واعله عقب به وعيد المسيئين لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى اه وزل فمين كان يقول صلاتنا صيامنا حجنا (هو أعلم بكم) اى بذواتكم وأحوالكم منكم بانفسكم (اذ) أى حين (أنشأكم من الارض) أى التى طبعها طبع الموت البرد واليبس بانشاء أبيكم آدم عليه السلام منها وتهيئتكم للتكوين بعد ان لم يكن فيكم وأنتم تراب قابلية للحياة بقوة قريبة ولا بعيدة أصلا فميز التراب الذى يصلح لتكوينكم منه والذى لا يصلح (واذ) أى وحين (أنتم أجنة) أى مستورون (فى بطون أمهاتكم) فهو يعلم اذ ذاك ما أنتم صائرون اليه من خير وشر وان علمتم مدة من العمر خلافه لانه يعلم ما جبلكم عليه من ذلك وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بكسر الهمزة والباقون بضمها وكسر حمزة الميم وفتحها الباقون وأما فى الابتداء بالهمزة فالجميع بضمها (فلا تزكوا) أى تمدحوا بالزكاة وهى البركة والطهارة عن الدناءة (أنفسكم) أى حقيقة بان يثنى الانسان على نفسه فان تزكيته لنفسه قال القشيرى من علامات كونه محجوبا عن الله تعالى أى من مدح نفسه على سبيل الاعجاب أما على سبيل الاعتراف بالنعمة فحسن أو مجازا بان يثنى على غيره من اخوانه وانه كثيرا ما يثنى بشئ فيظهر خلافه وربما حصل له الاذى بسببه وان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا باع أو ذراع الحديث ولذلك علل بقوله تعالى (هو أعلم) اى منكم ومن جميع الخلق (بمن اتقى) أى فانه يعلم المتقى وغيره منكم قبل ان يخرجكم من صلب أبيكم آدم عليه السلام فمن جاهد نفسه حتى حصل منه تقوى فهو يوصله فوق ما يؤمل من الثواب فى الدارين فكيف بمن صارت له التقوى وصفا ثابتا ● ولما بين جهل المشركين فى عبادة الاصنام ذكر واحدا منهم بسوء فعله فقال تعالى (أفرأيت الذى تولى) أى عن اتباع الحق والثبات عليه قال مجاهد وابو زيد ومقاتل نزلت فى الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبى صلى الله عليه وسلم على دينه فعيره بعض المشركين وقال له تركت دين الاشياخ وضللتهم فقال انى خشيت عذاب الله تعالى فضمن الذى عاتبه ان هو أعطاه كذا من ماله ورجع الى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد الى الشرك وأعطى الذى عيره بعض ذلك الذى ضمن ومنعه تمامه فانزل الله تعالى أفرأيت الذى تولى اى ادبر عن الايمان (وأعطى قليلا) اى من المال المسمى (وأكدى) اى منع الباقى مأخوذ من الكدية ارض صلبة كالصخرة تمنع حافر البئر اذا وصل اليها من الحفر فاكدى اصله من اكدى الحافر اذا حفر شيأ فصادف كدية منعته من الحفر ومثله اجبل اذا صادف جبلا منعه من الحفر وكديت اصابعه كلت من الحفر ثم استعمل فى كل من طلب شيأ فلم يصل اليه اولم يتممه ولمن طلب شيأ ولم يبلغ آخره قال الحطيئة

واعطى قليلا ثم اكدى عطاءه ● ومن يفعل المعروف فى الناس يحمد

وقال السدى نزلت فى العاصى بن وائل السهمى وذلك انه ربما وافق النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الامور وقال محمد بن كعب القرظى نزلت فى ابى جهل وذلك انه قال والله ما يأمرنا محمد الا بمكارم الاخلاق فذلك قوله تعالى واعطى قليلا واكدى اى لم يؤمن به ومعنى اكدى قطع وروى ان عثمان رضى الله تعالى عنه كان يعطى ماله فى الخير فقال عبد الله بن سعد بن ابى

بالمد وقال فى آل عمران
كمثل آدم خلقه من تراب
(قلت) الآيات كلها

سرح وهو أخوه من الرضاعة يوشك أن لا يبقى لك شئ فقال عثمان ان لى ذنوبا وخطايا وانى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت وقوله تعالى (أعنده علم الغيب) أى ماغاب هو المفعول الثانى لرأيت بمعنى أخبرنى والمفعول الاول محذوف اقتصارا لا اعطى (فهو) أى فتسبب عن ذلك أنه (يرى) أى يعلم ان صاحبه يحمل عنه ذنوبه (أم) أى بل (لم ينبأ) اى يخبر اخبارا عظيما مستابعا (بما فى صحف موسى) اى التوراة المنسوبة اليه بانزالها عليه وكذا ماتبعها من أسفار الانبياء الذين جاؤا بعده بتقريرها وقدم صحف موسى عليه السلام على قوله (وابراهيم) أى وصحفه لان كتاب موسى عليه السلام أعظم كتاب بعد القرآن مع انه موجود بين الناس تمكن مراجعته ثم مدح ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى (الذى وفى) أى أتم ما أمر به من ذلك تبليغ الرسالة واستقلاله باعباء النبوة وقيامه باضيافه وخدمته اياهم بنفسه وانه كان يخرج كل يوم فيمشى فرسخا يرتاد ضيفا فان وافقه أكرمه والانوى الصوم وعن الحسن ما أمره الله تعالى بشئ الا وفى به وصبر على ما امتحن به وما فاتق شيأ من قلق وصبر على حر ذبح ولده وعلى حر النار ولم يستعن بمخلوق بل قال لجبريل عليه السلام لما قال له ألك حاجة قال أما اليك فلا وقال الضحاك وفى المناسك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ابراهيم الذى وفى أربع ركعات من أول النهار وهى صلاة الضحى وروى الا أخبركم لم سمى الله خليله الذى وفى كان يقول اذا أصبح وأمسى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى تظهرون وقيل وفى سهام الاسلام وهى ثلاثون عشرة فى التوبة التائبون وعشرة فى الاحزاب ان المسلمين وعشرة فى المؤمنون قد أفلح المؤمنون وخص هذين النبيين لان الموعودين من بنى اسرائيل اليهود والنصارى يدعون متابعة موسى عليه السلام ومن العرب يدعون متابعة ابراهيم عليه السلام ومن عداهم لا متمسك لهم ولا سلف فى نبوة محققة ولا شريعة محفوظة وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها ثم فسر تعالى الذى فى الصحف واستأنف بقوله تعالى (أن لا تزر) أى تأثم وتحمل (وازرة) أى نفس بلغت مبلغا تكون فيه حاملة لوزر (وزر أخرى) أى حملها الثقيل من الاثم وفى هذا ابطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الاثم وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانوا قبل ابراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره وكان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وامرأته والعبد بسيده حتى جاءهم ابراهيم عليه السلام فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله عز وجل أن لا تزر وازرة وزر أخرى ولما نفى أن يضره اثم غيره نفى ان ينفعه سعى غيره بقوله تعالى (وان ليس للانسان) كائنا من كان (الا ما سعى) فلا بد ان يعلم الحق فى اى جهة فيسعى فيه ودعاء المؤمنين للمؤمن من سعيه بموادته ولو بموافقته لهم فى الدين فقط وكذا الحج عنه والصدقة ونحوها واما الولد فواضح فى ذلك واما ما كان بسبب العلم والصدقة ونحوها فكذلك وتضحية النبى صلى الله عليه وسلم عن أمته اصل كبير فى ذلك فان من تبعه فقد والاه وهو أصل فى التصدق عن الغير واهداء ما لهم من الثواب فى القراءة ونحوها اليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما هذا منسوخ الحكم فى هذه الشريعة اى وانما هو فى صحف موسى

منقبة المصنف لانه تعالى خلقه من تراب ثم جعل طينا ثم حما مسنونا ثم

وابراهيم عليهما السلام بقوله ألحقنا بهم ذرياتهم فأدخل الابناء الجنة بصلاح الآباء وقال عكرمة ان ذلك لقوم موسى وابراهيم عليهما السلام وأما هذه الامة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم لما روى ان امرأة رفعت صبيا لها فقالت يارسول الله ألهذا حج فقال نعم ولك أجر وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ان أمي افتلتت نفسها فهل لها أجر ان تصدقت عنها قال نعم قال الشيخ تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية من اعتقد أن الانسان لا ينتفع الا بعمله فقد خرق الاجماع وذلك باطل من وجوه كثيرة أحدها ان الانسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير ثانيها ان النبي صلى الله عليه وسلم يشفع لاهل الموقف في الحساب ثم لاهل الجنة في دخولها ثم لاهل الكبائر في الخروج من النار وهذا انتفاع بعمل الغير ثالثها ان كل نبي وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير رابعها ان الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الارض وذلك منفعة بعمل الغير خامسها ان الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيرا قط بمحض رحمته وهذا انتفاع بغير عملهم سادسها ان أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم وذلك انتفاع بمحض عمل الغير سابعها قال تعالى في قصة الغلامين اليتيمين وكان أبوهما صالحا فانتفعا بصلاح أبيهما وليس هو من سعيهما ثامنها ان الميت ينتفع بالصدقة عنه وبالعتق بنص السنة والاجماع وهو من عمل الغير تاسعها ان الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير عاشرها ان الحج المنذور أو الصوم المنذور يسقط عن الميت بعمل غيره بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير حادي عشرها ان المدين الذي امتنع صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة وقضى دين الآخر علي بن أبي طالب وانتفع بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم وبردت جلدته بقضاء دينه وهو من عمل الغير ثاني عشرها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن صلى وحده ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير ثالث عشرها أن الانسان تبرأ ذمته من ديون الخلق اذا قضاها قاض عنه وذلك انتفاع بعمل الغير رابع عشرها ان من عليه تبعات ومظالم اذا حلل منها سقطت عنه وهذا انتفاع بعمل الغير خامس عشرها ان الجار الصالح ينفع في المحيا والممات كما جاء في الاثر وهذا انتفاع بعمل الغير سادس عشرها ان جليس أهل الذكر يرحم بهم وهو لم يكن منهم ولم يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له والاعمال بالنيات فقد انتفع بعمل غيره سابع عشرها الصلاة على الميت والدعاء له في الصلاة انتفاع للميت بصلاة الحي عليه وهو عمل غيره ثامن عشرها ان الجمعة تحصل باجتماع العدد وكذلك الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع البعض بالبعض تاسع عشرها ان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وقال تعالى ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض فقد دفع الله تعالى العذاب عن بعض الناس بسبب بعض وذلك انتفاع بعمل الغير عشروها ان صدقة الفطر تجب عن الصغير وغيره ممن يمونه الرجل فينتفع بذلك من يخرج عنه ولا سعي له حادي عشريها ان الزكاة تجب في مال الصبي والمجنون ويثاب على ذلك ولا سعي له ومن تأمل العلم وجد من انتفاع الانسان بما لم يعمله مالا يكاد يحصى فكيف يجوز أن تتأول الآية على خلاف صريح الكتاب والسنة واجماع الامة والمراد بالانسان العموم وقال الربيع بن أنس ليس للانسان يعني

صاصالا (قوله رب المشرقين ورب المغربين) ان قلت لم كرر ذكر الرب هنا دون

الكافر وأما المؤمن فله ماسعى وماسعى له وقيل ليس للكافر من الخير الا ما عمله يثاب عليه في الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة خير وروى ان عبد الله بن أبي كان أعطى العباس قميصا ألبسه اياه فلما مات أرسل النبي صلى الله عليه وسلم قميصه ليكفن فيه فلم تبق له حسنة في الآخرة يثاب عليها (وان سعيه) أي من خير وشر (سوف يرى) أي في ميزانه من غير شك يوم القيامة يوم لا خلف فيه وان طال المدى من أريته الشيء أي يعرض عليه ويكشف له (فان قيل) العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه (أجيب) بانه يرى على صورة جميلة ان كان العمل صالحا قال الرازي وذلك على مذهبنا غير بعيد فان كل موجود يرى والله تعالى قادر على اعادة كل ما عدم فيعيد الفعل فيرى وفيه بشارة للموحد وذلك ان الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر باعماله الفاسدة فيزداد غما (ثم يجزاه) أي السعي (الجزاء الاوفى) أي الاتم الاكمل والمعنى ان الانسان يجزى جزاء سعيه بالجزاء الاوفى يقال جزيته فلانا سعيه وبسعيه قال الرازي الجزاء الاوفى يليق بالمؤمنين الصالحين لان جزاء الطالح وافر قال تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وذلك ان جهنم ضررها أكثر من نفع الآثام فهي في نفسها أوفر (وان الى ربك) أي المحسن اليك لا الى غيره (المنتهى) أي الانتهاء برجوع الخلائق ومصيرهم اليه فيجازيهم باعمالهم وقيل منه ابتداء المنة واليه انتهاء الآمال وروى أبو هريرة مرفوعا تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فان الله تعالى لا يحيط به الفكر وفي رواية لا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره قال القرطبي ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول له من خلق ربك فاذا بلغ ذلك فليستعذ بالله تعالى ولقد أحسن من قال

ولا تفكرن في ذي العلا عز وجهه • فانك تردى ان فعلت وتخذل

ودونك مخلوقاته فاعتبر بها • وقل مثل ما قال الخليل المبجل

وقيل المراد من الآية التوحيد وفي المخاطب وجهان أحدهما انه عام تقديره الى ربك أيها السامع او العاقل والثاني انه خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم فعلى الاول يكون تهديدا وعلى الثاني يكون تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم فعلى الاول تكون اللام في المنتهى للعهد الموعود في القرآن وعلى الثاني تكون للعموم أي الى ربك كل منتهى وقوله تعالى (وانه هو) أي لا غيره (أضحك وأبكى) يدل على ان كل ما يعمله الانسان فبقضاء الله تعالى وخلقه حتى الضحك والبكاء وروى انه صلى الله عليه وسلم مر على قوم من أصحابه وهم يضحكون فقال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله يقول لك وانه هو أضحك وأبكى أي قضى أسبابهما فرجع اليهم صلى الله عليه وسلم فقال ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال ائت هؤلاء فقل لهم الله تعالى يقول هو أضحك وأبكى أي قضى أسباب الضحك والبكاء وقال بسام بن عبد الله أضحك أسنانهم وأبكى قلوبهم وأنشد يقول

السن تضحك والاحشاء تحترق • وانما ضحكها زور ومختلق

(قال) سورة المعارج والمزمل كرره هنا تأكيدا وخص ما هنا بالنا كيد لانه

يارب باك بعين لادموع لها * ورب ضاحك سن مابه ومق

وقال مجاهد والكلبي أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار وقال الضحاك أضحك الارض بالنبات وأبكى السماء بالمطر وقال عطاء بن أبي مسلم يعني أفرح وأحزن لان الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء وقيل ان الله تعالى خص الانسان بالضحك والبكاء من سائر الحيوان وقيل القرد وحده يضحك ولا يبكي وان الابل وحدها تبكي ولا تضحك وقال يونس بن الحسين سئل طاهر المقدسي أتضحك الملائكة فقال ماضحكوا ولا كل من دون العرش منذ خلقت جهنم وعن عائشة قالت لا والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ان الميت يعذب ببكاء أحد ولكنه قال ان الكافر يزيده الله ببكاء أهله عذابا وان الله تعالى هو أضحك وأبكى *(تنبيه)* قوله تعالى وأنه هو أضحك وأبكى ومابعده يسميه البيانيون الطباق المتضاد وهو نوع من البديع وهو أن يذكر ضدان أو نقيضان أو متنافيان بوجه من الوجوه وأضحك وأبكى لا مفعول لهما في هذا الموضع لانهما مسوقان لقدرة الله تعالى لا لبيان المقدور فلا حاجة الى المفعول كقول القائل فلان بيده الاخذ والعطاء يعطي ويمنع ولا يريد ممنوعا ومعطى واختار هذين الموضعين المذكورين لانهما أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبائعيين يبين لاختصاص الانسان بالضحك والبكاء وجها ولا سببا واذا لم يعلل بأمر فلابد له من موجد وهو الله تعالى بخلاف الصحة والسقم فانهم يقولون سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال ومما يدل على ذلك انهم اذا عللوا الضحك قالوا لقوة التعجب وهو باطل لان الانسان ربما بهت عند رؤية الامور العجيبة ولا يضحك وقيل لقوة الفرح وليس كذلك لان الانسان قد يبكي لقوة الفرح كما قال بعضهم

هجم السرور علي حتى انه * من عظم ماقد سرني أبكاني

(وانه هو) أي لاغيره (أمات وأحيى) وان رأيتم اسبابا ظاهرة فانها لاعبرة بها في نفس الامر بل هو الذي خلقها أي أمات في الدنيا وأحيا في البعث وقال القرطبي قضى أسباب الموت والحياة وقيل امات الآباء واحيا الابناء وقيل امات الكافر بالكفر واحيا المؤمن بالايمان (وانه خلق الزوجين) ثم فسرهما بقوله تعالى (الذكر والانثى) فانه لو كان ذلك في يد غيره لمنع البنات لانها مكروهة لغالب الناس وقوله تعالى (من نطفة اذا تمنى) أي تصب يشمل سائر الحيوانات لا أن ذلك مختص بآدم وحواء عليهما السلام لانهما ما خلقا من نطفة وهذا أيضا تنبيه على كمال القدرة لان النطفة جسم متناسب الاجزاء ويخلق الله تعالى منها أعضاء مختلفة وطباعا متباينة وخلق الذكر والانثى منها أعجب ما يكون ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعي خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله (فان قيل) ما الحكمة في قوله تعالى وأنه خلق ولم يقل وانه هو خلق كما قال تعالى وانه هو أضحك وأبكى (أجيب) بان الضحك والبكاء ربما يتوهم انهما بفعل الانسان والاماتة والاحياء وان كان ذلك التوهم أبعد فيهما لكن ربما يقوله جاهل كما قال من حاج ابراهيم عليه السلام انا أحيي وأميت فأكد ذلك بالفصل وأما خلق الذكر

موضع الامتنان وتعليله النعم ولان الخطاب فيه مع جنسين هما الانس والجن

والانثى من النطفة فلا يتوهم احد أنه يخلق أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل الاترى الى قوله تعالى وأنه هو أغنى واقنى حيث كان الاغناء عندهم غير مستند الى الله تعالى وكان فى معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون انما أوتيته على علم عندى ولذلك قال هو رب الشعرى فأكد فى مواضع استبعادهم الى الاسناد ولم يؤكد فى غيره (وأن عليه) أى خاصة بما له علما وقدرة (النشأة) أى الحياة (الاخرى) للبعث يوم القيام بعد الحياة الاولى (فان قيل) الاعادة لا تجب على الله تعالى فما معنى عليه (أجيب) بانه عليه بحكم الوعد فانه قال انا نحن نحيي الموتى فعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وبعدها ألف ممدودة قبل الهمزة والباقون بسكون الشين وبعدها الهمزة المفتوحة واذا وقف حمزة نقل حركة الهمزة الى الشين (وانه هو) أى وحده من غير نظر الى سعى ساع ولا غيره (أغنى) قال ابو صالح أغنى الناس بالاموال (واقنى) اعطى القنية وأصول الاموال وما يدخرونه بعد الكفاية وقال الضحاك أغنى بالذهب والفضة وصنوف الاموال وأقنى بالابل والبقر والغنم وقال الحسن وقتادة اخدم وقال ابن عباس أغنى وأقنى أعطى فأرضى وقال مجاهد ومقاتل اقنى أرضى بما أعطى وقنع قال الراغب وتحقيقه انه جعل له قنية من الرضا وقال سليمان التيمى أغنى نفسه وأفقر خلقه اليه وقال ابن زيد أغنى أكثر وأقنى أقل وقرأ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وقال الاخفش أقنى أفقر وقال ابن كيسان أولد وقال الزمخشرى أقنى أعطى القنية وهى المال الذى تأثلته وعزمت على أن لا يخرج من يدك •(تنبيه)• حذف مفعولا أغنى وأقنى لان المراد نسبة هذين الفعلين اليه وكذلك باقيها وألف أقنى منقلبة عن ياء لانه من القنية قال الشاعر • الا ان بعد العدم للمرء قنية • ويقال قنيت كذا واقنيته قال الشاعر

• قنيت حيائى عفة وتكرما •

(وانه هو) أى لا غيره (رب الشعرى) أى رب معبودهم وكانت خزاعة تعبد الشعرى وأول من سن ذلك رجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وقال لان النجوم تقطع السماء عرضا والشعرى تقطعها طولا فهى مخالفة لها فعبدها وعبدتها خزاعة وحمير وأبو كبشة أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته وبذلك كان مشركو قريش يسمون النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى كبشة حين دعا الى الله تعالى وخالف أديانهم تشبيها بذلك الرجل فى أنه أحدث دينا غير دينهم والشعرى فى لسان العرب كوكبان تسمى أحدهما الشعرى العبور وهى المراد فى الآية الكريمة وهى تطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ويقال لها مرزم الجوزاء وتسمى كلب الجبار أيضا وتسمى الشعرى اليمانية والثانية الشعرى الغميصاء وهى التى فى الذراع والمجرة بينهما وتسمى الشامية وسبب تسميتها بالغميصاء على ما زعمه العرب انهما كانا أختين أو زوجتين لسهيل فانحدر سهيل الى اليمن فاتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة فسميت العبور وأقامت الغميصاء تبكى حتى غمصت عينها ولذلك كانت أخفى من العبور وكان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها فى العالم (وانه أهلك عادا الاولى) وهم قوم هود عليه السلام هلكوا بريح صرصر والاخرى قوم صالح وقيل الاولى ارم وقيل الاولى أول الخلق هلاكا بعد قوم نوح

بخلاف ذينك (قوله سنفرغ لكم أيه الثقلان) أى سنقصد لحسابكم فهو وعيد

وقرأ نافع وأبو عمرو بتشديد اللام بعد الدال المفتوحة نقلا وهمز قالون الواو بعد اللام همزة ساكنة والباقون بتنوين الدال وكسر التنوين وسكون اللام وبعدها همزة مضمومة فاذا اقرأ القارئ عادا الاولى لقالون وأبي عمرو فله في الوصل أي وصل عادا بالاولى وجه واحد وهو النقل المذكور وقالون على أصله بالهمزة كما ذكر فاذا وقف على عادا وابتدأ بالاولى فله الابتداء بهمزة الوصل وهو أولى وله أيضا الابتداء بغير همزة الوصل وهو لولى وقالون يهمز الواو في الوجهين الاولين ولم يهمز في الوجه الثالث الذي هو الاصل ووافقهما ورش في الاوجه المذكورة في الوصل والابتداء لا في الوجه الثالث الذي هو الاصل فانه ليس من مذهبه الا النقل (وثمودا) وهم قوم صالح أهلكهم الله تعالى بصيحة (فما أبقى) منهم أحدا وقرأ عاصم وحمزة بغير تنوين للدال في الوصل وسكون الدال في الوقف والباقون بالتنوين في الوصل والوقف على الالف (وقوم نوح) أي أهلكهم لاجل ظلمهم بالتكذيب (من قبل) اي قبل الفريقين (انهم) اى قوم نوح (كانوا) اى بما لهم من الاخلاق التي هي كالجبلات التي لا انفكاك عنها (هم) اى خاصة (أظلم) اى من الطائفتين المذكورتين (وأطغى) اى وأشد تجاوزا في الظلم وعلوا واسرافا في المعاصي وتجبرا وعتوا والتمادي دعوة نوح عليه السلام قريبا من ألف سنة ولانهم أطول أعمارا واشد أبدانا وكانوا مع ذلك مل الارض روى ان الرجل منهم كان يأخذ بيد ابنه فينطلق به الى نوح عليه السلام فيقول احذر هذا فانه كذاب وان أبي قد مشى بي الى هذا وقال لي ما قلت لك فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه ولهذا قال نوح عليه السلام رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وقوله تعالى (والمؤتفكة) منصوب بقوله تعالى (أهوى) وقدم لاجل الفواصل والمراد بالمؤتفكة قرى قوم لوط رفعها الى عنان السماء على جناح جبريل عليه السلام ثم أهواها الى الارض أي أسقطها وأتبعها بحجارة النار المكبريتية وهو قوله تعالى (فغشاها) أي ألبسها ما غطاها فكان لها بمنزلة الغشاء وهوله بقوله تعالى (ما غشى) أي أمرا عظيما من الحجارة المنضودة المسومة وغيرها مما لا تسع العقول وصفه (فبأي آلاء) أي أنعم (ربك) أي المحسن اليك (تتمارى) اى تتشكك أيها الانسان وقيل أراد الوليد بن المغيرة وقال ابن عباس تتمارى أي تكذب وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي تشك في اجالة الخواطر في فكرك في ارادة هدايه بجميع قومك بحيث لا تريد ان أحدا منهم يهلك وقد حكم ربك باهلاك كثير منهم لما اقتضته حكمته فكان بعض خواطرك في تلك الاجالة يشكك بعضها بعضا (هذا) أي النبي صلى الله عليه وسلم (نذير) أي محذر بليغ التحذير (من النذر الاولى) أي من جنسهم أي رسول كالرسل قبله ارسل اليكم كما ارسلوا الى أقوامهم وقال تعالى الاولى على تأويل الجماعة أو هذا القرآن نذير من النذر الاولى اى انذار من جنس الانذارات الاولى التي أنذر بها من قبلكم (أزفت الآزفة) اى قربت الموصوفة بالقرب في قوله تعالى اقتربت الساعة وهو يوم القيامة (ليس لها من دون الله) أي من أدنى رتبة من رتبة الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلما وقوله تعالى (كاشفة) يجوز أن يكون وصفا وأن يكون مصدرا فان كان وصفا احتمل أن يكون التأنيث لاجل انه وصف

وثم بدا لهم فالفراغ هنا بمعنى القصد للشيء لا بمعنى الفراغ منه اذ معنى الفراغ

لمؤنث محذوف تقديره نفس كاشفة أو حال كاشفة أى مبينة متى تقوم كقوله تعالى لا يجليها لوقتها الا هو أو ليس لها نفس كاشفة أى قادرة على كشفها اذا وقعت الا الله تعالى غير انه تعالى لا يكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير وان كانت مصدرا فهى بمعنى الكشف كالعافية والمعنى ليس لها من دون الله كشف اى لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره (أفمن هذا الحديث) قال أكثر المفسرين المراد بالحديث القرآن العظيم الذى يأتى على سبيل التجدد بحسب الوقائع والحاجات (تعجبون) انكارا وهو فى غاية ما يكون من ترقيق القلوب وقرأ أبو عمرو بادغام المثلثة فى التاء المثناة بخلاف عنه (وتضحكون) اى استهزاء من هذا الحديث وتجددون ذلك فى كل وقت (ولا تبكون) اى كما هو حق من يسمعه لما فيه من الوعد والوعيد وغير ذلك وقال الرازى يحتمل أن يكون ذلك اشارة الى حديث ازفت الآزفة فانهم كانوا يتعجبون من حشر الاجساد والعظام البالية وقوله تعالى (وأنتم سامدون) جملة مستأنفة أخبر الله تعالى عنهم بذلك و يحتمل أن تكون حالا اى انتفى عنكم البكاء فى حال كونكم سامدين واختلف فى معنى السمود فقيل هو الاعراض والغفلة عن الشئ اى وأنتم معرضون غافلون عما يطلب منكم وقيل هو اللهو يقال دع عنا سمودك اى لهوك قاله الوالبى والعوفى عن ابن عباس وقال الشاعر

الا أيها الانسان انك سامد * كانك لا تفنى ولا انت هالك

فهذا بمعنى لاه لاعب وقيل هو الجمود وقيل هو الاستكبار قال الشاعر

رمى الحدثان نسوة آل سعد * بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا * ورد وجوههن البيض سودا

فهذا بمعنى الجمود والخشوع وقال عكرمة وأبو عبيدة السمود الغناء بالحميرية يقولون ياجارية اسمدى لنا اى غنى فكانوا اذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا وقال مجاهد أشرون وقال الضحاك غضاب تتبرطمون وقال الراغب السامد اللاهى الرافع رأسه من قولهم بعير سامد فى سيره وقال الحسن السامد الواقف للصلاة قبل وقوف الامام لما روى أنه صلى الله عليه وسلم خرج والناس ينتظرونه قياما فقال مالى أراكم سامدين وتسميد الارض ان يجعل فيها السماد وهو سرجين ورماد وقوله تعالى (فاسجدوا) اى اخضعوا خضوعا كثيرا بالسجود (لله) اى الملك الاعظم يحتمل أن يكون المراد به سجود التلاوة وأن يكون المراد به سجود الصلاة (واعبدوا) اى اشتغلوا بكل أنواع العبادة ولم يقل واعبدوا الله اما لكونه معلوما من قوله تعالى فاسجدوا لله واما لان العبادة فى الحقيقة لا تكون الا لله ويقوى الاحتمال الاول ما روى عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم سجد فى النجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس وعن عبد الله بن مسعود قال أول سورة أنزلت فيها سجدة النجم قال فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه الا رجلا شيخا من قريش أخذ كفا من حصا أو تراب فرفعه الى جبهته وقال يكفينى هذا قال عبد الله فلقد رأيته بعد ذلك قتل كافرا وهو أمية بن خلف كما فى بعض الروايات وروى زيد بن ثابت قال قرأت على النبى صلى الله عليه وسلم والنجم فلم يسجد فيها وهذا يدل على ان سجود التلاوة غير واجب قال عمر بن

من الشئ بذل الجهود فيه وهذا لا يقال فى حقه تعالى (قوله وان خاف مقام

الخطاب رضى الله عنه ان الله تعالى لم يكتبها علينا الا أن نشاء وهو قول الشافعى وأحمد رضى الله عنهما أى فهى مستحبة وذهب قوم الى وجوبها على القارئ والمستمع جميعا وهو قول سفيان الثورى واصحاب الرأى وذهب قوم الى انها فى المفصل غير مستحبة وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والنجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحد به حديث موضوع

سورة القمر وتسمى اقتربت مكية

الا سيهزم الجمع ويولون الدبر الآيات وهى خمس وخمسون آية وثلثمائة واثنتان وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفا

(بسم الله) أى الذى أحاط علمه فوقت قدرته (الرحمن) الذى وسعت رحمته كل شئ فعمت الشقى والسعيد نعمته (الرحيم) الذى خص باتمام نعمته من اصطفاه فاسعدتهم رحمته (اقتربت الساعة) دنت القيامة وفى اول هذه السورة مناسبة لآخر ما قبلها وهو قوله تعالى ازفت الآزفة فكأنه أعاد ذلك مستدلا عليه بقوله تعالى ازفت الآزفة فهو حق اذ القمر انشق وقوله تعالى (وانشق القمر) ماض على حقيقته وهو قول عامة المسلمين الا من لا يلتفت الى قوله وقد صح فى الاخبار ان القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين وعن ابن مسعود قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا وروى انس بن مالك ان أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما وقال سنان عن قتادة فأراهم انشقاق القمر مرتين وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله لم ينشق بمكة وقال مقاتل انشق القمر ثم التام بعد ذلك وقيل انشق بمعنى سينشق يوم القيامة وأوقع الماضى موقع المستقبل وهو خلاف الاجماع وقيل انشق بمعنى انفلق عنه الظلام عند طلوعه كما يسمى الصبح فلقا وأنشد النابغة

فلما ادبروا ولهم دوى ✽ دعانا عند شق الصبح داعى

وانما ذكرت ذلك تنبيها على ضعفه وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش سحركم ابن أبى كبشة فسلوا السفار فسألوهم فقالوا نعم قد رأيناه فانزل الله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر (وان يروا) أى كفار قريش (آية) اى معجزة له صلى الله عليه وسلم كانشقاق القمر (يعرضوا) عنها (ويقولوا) هذا (سحر مستمر) أى ذاهب سوف يذهب ويبطل من قولهم مر الشئ واستمر اذا ذهب مثل قولهم قر واستقر قاله مجاهد وقتادة وقال أبو العالية والضحاك مستمر أى قوى شديد من قولهم مر الحبل اذا صلب واشتد وأمررته اذا أحكمت فتله واستمر الشئ اذا قوى واستحكم وقيل مستمر أى دائم فان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يأتى كل زمان بمعجز فقالوا هذا سحر مستمر دائم لا يختلف بالنسبة الى شئ بخلاف سحر السحرة فان بعضهم يقدر على أمر وأمرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل قاله الزمخشرى ومنه قول الشاعر

ربه جنتان) أى ولمن خاف قيامه بين يدى ربه والمعنى لكل خائفين

ألا إنما الدنيا الليالي وأعصر * وليس على شيء قديم بمستقر

وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال ألا ان الساعة قد اقتربت وان القمر قد انشق على عهد نبيكم مستمر دائم مطرد وكل شيء قد انقادت طريقه ودامت حاله قيل فيه قد استمر وقال أبو حيان سبب نزولها ان مشركي قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ووعدوا بالايمان ان فعل ذلك وقال ليلة بدر أي ليلة أربعة عشر في الشهر فسأل ربه فانشق القمر فقالوا سحر مستمر ولم يؤمنوا (وكذبوا) بكون انشقاقه دالا على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وجزموا بالتكذيب عنادا (واتبعوا) اي بمعالجة فطرهم الاولى المستقيمة في دعائها الى التصديق (أهواءهم) في انه صلى الله عليه وسلم سحر القمر وانه خسوف في القمر وظهور شيء في جانب آخر من الجو يشبه نصف القمر وانه سحر أعيننا وان القمر لم يصبه شيء فهذه أهواؤهم قال القشيري اذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب لان الله تعالى يلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر والرشد واتباع الرضا مقرون بالتصديق لان الله تعالى ببركات الاتباع للحق يفتح عين البصيرة فيأتي بالتصديق (وكل أمر) أي من أمورهم من الخير او الشر (مستقر) اي بأهله في الجنة أو النار وقال قتادة وكل امر مستقر فالخير مستقر بأهل الخير والشر مستقر بأهل الشر وقيل مستقر قول المصدقين والمكذبين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعذاب وقيل كل امر مستقر في علم الله تعالى لا يخفى عليه شيء فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم والانبياء صدقوا وبلغوا كقوله تعالى لا يخفى على الله منهم شيء (ولقد جاءهم) اي أهل مكة في القرآن قبل الانشقاق (من الانباء) اي أخبار اهلاك الامم الماضية المكذبة رسلهم لان الانباء الاخبار العظام التي لها وقع كقول الهدهد وجئتك من سبإ بنبإ يقين لانه كان خبرا عظيما له وقع وخطر وقال تعالى ان جاءكم فاسق بنبإ اي بأمر عظيم له خطر وانما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال (ما فيه) خاصة (مزدجر) أي عما هم فيه من الباطل ولكن لم يزدجر منهم الا من أراد الله تعالى * (تنبيه) * المزدجر اسم مصدر أي ازدجار أو اسم مكان أي موضع ازدجار والدال بدل من تاء الافتعال وازدجرته وزجرته نهيته بغلظة وما موصولة أو موصوفة وقوله تعالى (حكمة) خبر مبتدإ محذوف أو بدل من ما أو من مزدجر (بالغة) أي انها أعظم البلوغ الى انهى غايات الحكمة لصحتها ووضوحها فيها مع الزجر ترجية ومواعظ وأحكام ودقائق (فما تغن) أي تنفع (النذر) اي الانذارات والمنذرون والامور المنذر بها ومنها انما المغني بذلك هو الله تعالى فما شاءه كان ومالم يشأ لم يكن قال البقاعي ولعل الاشارة باسقاط ياء تغني باجماع المصاحف من غير موجب في اللفظ الى انه كما سقطت غاية أحرف الكلمة سقطت ثمرة الانذار وهو القبول * (تنبيه) * يجوز في ما ان تكون استفهامية وتكون في محل نصب مفعولا مقدما أي اي شيء تغني النذر وأن تكون نافية اي لم تغن النذر شيأ والنذر جمع نذير والمراد به المصدر او اسم الفاعل ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد التعلق بطلب نجاتهم نهى لذلك ربما اشتهى اجابتهم الى مقترحاتهم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فتول عنهم) أي كف نفسك الاعراض عن تعني ذلك فما عليك الا البلاغ وأما الهداية فالى الله تعالى وحده * (تنبيه) * قال أكثر

من الفريقين جنتان جنة للخائف الانسي وجنة للخائف الجني أو المصنف للخائف الجني أو المصنف

المفسرين نسخها آية السيف وقال الرازي ان قول المفسرين في قوله تعالى فتول منسوخ ليس كذلك بل المراد منه لا تناظرهم بالكلام وقوله تعالى (يوم) منصوب باذكر أي واذكر يوم (يدع الداع) وقيل منصوب بيخرجون بعده والداعي معرف كالمنادي في قوله تعالى يوم ينادي المنادي لانه معلوم قد أخبر عنه فقيل ان مناديا ينادي وداعيا يدعو فقيل الداعي اسرافيل عليه السلام ينفخ قائما على صخرة بيت المقدس قاله مقاتل وقيل جبريل عليه السلام وقيل ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لا يقطع حد العلمية ويكون كقولنا جاء رجل فقال الرجل قاله الرازي وقرأ نافع وابو عمرو بحذف الياء بعد العين وقفا واثباتها وصلا وابن كثير باثباتها وقفا ووصلا والباقون بحذفها وقفا ووصلا (الى شيء نكر) اى منكر فظيع لم يرمثله فينكرونه استعظاما (فان قيل) ماذلك الشيء المنكر (أجيب) بانه الحساب او الجمع له أو النشر للجمع (فان قيل) النشر لا يكون منكرا فانه احياء ولان الكافر من أين يعرف وقت النشر ما يجزى عليه فينكره (أجيب) بانه يعلم ذلك لقوله تعالى عنهم ياويلنا من بعثنا من مرقدنا وقرأ ابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع ولما بين تعالى دعاءه بما قال أمره بين حال المدعوين زيادة في الهول فقال تعالى (خاشعا أبصارهم) اى ينظرون نظر الخاضع الذليل السافل المنزلة المستوحش الذي هو شر حال ونسب الخشوع الى الابصار لان الذل والعز يتبين في النظر والذل أن يرمي به صاحبه الى الارض مثلا مع هيبة يعرف منها ذلك كما قال تعالى خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين والباقون بضم الخاء ولا ألف بعدها وفتح الشين مشددة اما القراءة الاولى فهي جارية على اللغة الفصحى من حيث ان الفعل وما يجري مجراه اذا قدم على الفاعل وحد تقول تخشع أبصارهم ولا تقول يخشعن أبصارهم وأما القراءة الثانية فجاءت على لغة طيئة يقولون أكلوني البراغيث قال الزمخشري ويجوز أن يكون في خشعا ضميرهم وتقع أبصارهم بدلا عنه اه وتقدم نظير ذلك في قوله تعالى في الانبياء وأسروا النجوى الذين ظلموا وجملة خاشعا أبصارهم حال من فاعل (يخرجون) اى الناس (من الاجداث) اى القبور (كأنهم جراد) اى في كثرتهم وتراكم بعضهم على بعض وصغارهم وضعفهم وتموجهم يقال في الجيش الكثير المائج بعضه فوق بعض جاؤا كالجراد وكالذباب (منتشر) اى منبث متفرق في كل مكان لكثرتهم لا يدرون أين يذهبون (مهطعين) اى مسرعين مادي أعناقهم (الى الداع) مصوبي رؤسهم اليه لا يلتفتون الى سواه كما يفعل من ينظر في ذل وخضوع وصمت واستكانة هذا حال الكل وأما الكافر فنبه عليه بقوله تعالى (يقول) أي على سبيل التكرار (الكافرون) أي الذين كانوا في الدنيا عريقين في ستر الادلة واظهار الاباطيل المضلة (هذا) أي الوقت الذي نحن فيه لما نرى فيه من الاهوال (يوم عسر) أي في غاية العسر والصعوبة والشدة وذلك بحسب حالهم فيه كما قال تعالى في سورة المدثر يوم عسير على الكافرين ولما فرغ من حكاية كلام الكافرين ومن ذكر علامات الساعة أعاد ذكر بعض الانبياء فقال تعالى (كذبت) اى أوقعت التكذيب العظيم الذي عم وابه جميع

اكل ثالث جنتان جنة لعقيدته وجنة لعمله أو جنة لفعل الطاعات

الرسالات وجميع الرسل (قبلهم) اى أهل مكة (قوم نوح) مع ما كان بهم من القوة ولهم من الانتشار فى جميع الاقطار وأنت فعلهم تحقيرا لهم وتهوينا لامرهم فى جنب قدرته تعالى (فان قيل) الحاق الضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز وحسن بالاتفاق والحاق ضمير الجمع بالفعل قبيح عند أكثرهم فلا يجوزون كذبوا قوم نوح و يجوزون كذبت فما الفرق (أجاب) الرازى بأن التأنيث انما جاز قبل الجمع لان الانوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولم تحصل الانوثة للفاعل بسبب فعله بخلاف الجمع لان الجمع للفاعلين بسبب فعلهم (فكذبوا عبدنا) نوحا عليه السلام على ماله من العظمة بنسبته الينا مع تشريفنا اياه بالرسالة (وقالوا) زيادة على التكذيب (مجنون) اى فهذا الذى يصدر منه من الخوارق أمر من الجن (وازدجر) وهل هذا من مقولهم اى قالوا انه ازدجر اى ازدجرته الجن وذهبت بلبه قاله مجاهد أوهو من كلام الله تعالى أخبر الله تعالى عنه بانه انتهر وازدجر بالسب وأنواع الاذى وقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال الرازى وهذا أصح لان المقصود تقوية قلب النبى صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه وأيضا يترتب عليه قوله تعالى (فدعا ربه) وهذا الترتيب فى غاية الحسن لانهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه الذى رباه بالاحسان اليه و برسالته (أنى) اى أنى (مغلوب) اى من قومى كلهم بالقوة والمنعة لا بالحجة وأكدوا بلاغا فى الشكاية واظهارا لذل العبودية لان الله تعالى عالم بسر العبد وجهره فما شرع الدعاء فى أصله الا لاظهار التذلل وكذا الابلاغ فيه وقال ابن عطية قال ابن عطية قابلتنى نفسى وحملتنى على الدعاء عليهم قال ابن عادل وهو ضعيف (فانتصر) أى أوقع نصرتى عليهم أنت وحدك على أبلغ وجه فانتقم لى منهم (ففتحنا) أى بسبب دعائه فتحا يليق بعظمتنا (أبواب السماء) أى كلها فى جميع الاقطار وعبر بجمع القلة عن جمع الكثرة والمراد من الفتح والابواب والسماء حقائقها فان للسماء أبوابا تفتح وتغلق وقيل هذا على سبيل الاستعارة فان الظاهر أن الماء كان من السحاب فهو كقول القائل فى المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفى قوله تعالى ففتحنا بيان بان الله تعالى انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله ومن العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فاهلكهم الله تعالى بمطلوبهم وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف وفى الباء فى قوله تعالى (بماء) وجهان أظهرهما انها للتعدية وذلك على المبالغة فى أنه جعل الماء كالآلة للفتح به كما تقول فتحت بالمفتاح والثانى انها للحال أى فتحناها ملتبسة بماء (منهمر) أى منصب بابلغ ما يكون من السيلان والصب كثرة وعظما ولذلك لم يقل بمطر لانه خارج عن تلك العادة واستمر ذلك أربعين يوما (وفجرنا) أى صدعنا بما لنا من العظمة وشققنا و بعثنا وأسلنا (الارض عيونا) أى جميع عيون الارض ولكنه عدل عنه للتهويل بالابهام ثم البيان وافادة أن وجه الارض صار كله عيونا وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بكسر العين والباقون بضمها (فالتقى الماء) أى المعهود وهو ماء السماء وماء الارض بسبب فعلنا هذا وزاد فى تعظيمه باداة الاستعلاء فقال تعالى (على أمر) أى حال (قد قدر) اى قضى أى فى الازل وهو هلاكهم غرقا بماء مقدر لا يزيد قطرة ولا ينقص عن أمرناه باهلاكهم (وحملناه) اى نوحا عليه السلام تتميما للانتصار (على ذات) اى سفينة صاحبة (ألواح) اى أخشاب

وجنة الترك المعاصى أو جنة يثاب بها وجنة يتفضل بها عليه أو المراد

تجرت حتى صارت عريضة (ودسر) جمع دسار ككتاب وهو ماتشد به السفينة من مسمار وحديد او خشب اومن خيوط الليف ونحوها قال البقاعي ولعله عبر عن السفينة بشارحها تنبيها على قدرته على ماير يد (تجرى) اى السفينة (باعيننا) اى محفوظة من أن تدخل بحر الظلمات او ياتى عليها غير ذلك من الآفات بحفظنا على مالنا من العظمة حفظ من ينظر الشئ باعين كثيرة ولا يغيب عنه أصلا وجوزوا أن يكون جمع تكسير لامين المياه وقوله تعالى (جزاء) منصوب بفعل مقدر اى أغرقوا انتصارا (لمن كان كفر) وهو نوح عليه الصلاة والسلام او البارى تعالى (ولقد تركناها) اى أبقيناها هذه الفعلة العظيمة من جرى السفينة على هذا الوجه وابقاء نوع عباد الله على مالنا من العظمة وقيل تلك السفينة بعينها بقيت على الجودى حتى أدرك بقاياها أول هذه الامة (آية) اى علامة عظيمة على مالنا من العلم المحيط والقدرة التامة (فهل من مدكر) اى معتبر ومتعظ بها واصله مذتكر أبدلت التاء دالا مهملة وكذا المعجمة وأدغمت فيها وقوله تعالى (فكيف كان) اى وجد وتحقق (عذابي) اى لمن كفر وكذب رسلي (ونذر) اى انذارى استفهام تقرير فكيف خبر كان وهى للسؤال عن الحال والمعنى حمل المخاطبين على الاقرار بوقوع عذابه تعالى بالمكذبين لنوح موقعه وقرأ ورش باثبات الياء بعد الراء وصلالا وقفا جميع ما فى هذه السورة والباقون بغير ياء وقفا ووصلا قال البقاعى ولما كان هذا المفصل مما أنزل أول القرآن تيسيرا على الامة نبه على ذلك بقوله تعالى (ولقد يسرنا) أى على مالنا من العظمة (القرآن) أى على ماله من الجمع والفرق والعظمة المناسبة لكونه وصفا لنا (للذكر) أى الاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم والتشريف والحفظ لمن يراعيه قال ابن برجان أنزلناه باللسان العربى ونزلناه للافهام تنزيلا وضربنا لهم الامثال وأطلنا لهم فى هذه الاعمار ليتذكروا الميثاق المأخوذ عليهم وقال القشيري يسر قراءته على ألسنة قوم وعلمه على قلوب قوم وفهمه على قلوب قوم وحفظه على قلوب قوم وكلهم أهل القرآن وخاصته وليس يحفظ من كتب الله تعالى عن ظهر قلب غيره قاله المحلى (فهل من مدكر) أى معتبر ومتعظ بها وتقدم أصله ولما انقضت قصة نوح عليه السلام على هذا الهول العظيم ذكر قصة عاد لانها أعظم قصة جرت بعد قوم نوح فيما تعرفه العرب بقوله تعالى (كذبت عاد) اى أوقعت التكذيب العام المطلق الذى أوجب تكذيبهم برسولهم هود عليه الصلاة والسلام فى دعائه لهم الى الحق وانذاره عذابى (فكيف) اى فعلى اى الاحوال لاجل تكذيبهم (كان عذابى) لهم (ونذر) أى وانذارى اياهم بلسان رسولى قبل نزوله أى وقع موقعه (فان قيل) لم لم يقل فكذبوا هودا كما قال تعالى فى قصة نوح فكذبوا عبدنا (أجيب) بان تكذيب قوم نوح أبلغ لطول مقامه فيهم وكثرة عنادهم واما لان قصة عاد ذكرت مختصرة ثم بين عذابهم بقوله تعالى (انا أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (عليهم ريحا) وعبر بحرف الاستعلاء اعلاما بالنقمة ثم وصف الريح بقوله تعالى (صرصرا) أى شديدة الصوت من صرصر الباب أو القلم اذا صوت وقيل الشديدة البرد من الصر وهو البرد وقال مكى أصله صرر من صر الشئ اذا صوت لكن أبدلوا من الراء المشددة صادا وهذا قول الكوفيين وقال الرازى الصرصر الدائمة الهبوب من أصر على الشئ اذا دام وثبت وأكد شؤمها بذم زمانها

(قوله فيهن قاصرات
بالجنتين جنة واحدة وانما
ثنى مراعاة للفواصل

فقال تعالى (في يوم نحس) اى شديد القباحة قيل كان ذلك يوم الاربعاء في آخر الشهر وهو شوال لثمان بقين منه واستمر الى غروب شمس الاربعاء آخره فانه قال تعالى في سورة الحاقة سبع ليال وثمانية أيام حسوما وقال تعالى في حم السجدة في أيام نحسات فالمراد باليوم هنا الوقت والزمان وقوله تعالى (مستمر) أى دائم الشؤم الى وقت نفاذ المراد منه بتعدد ما تعدد الايام لان الاستمرار ينبئ عن امتداد الزمان كما تنبئ عنه الايام والحكاية مذكورة هنا على سبيل الاختصار فذكر الزمان ولم يذكر مقداره على سبيل الايجاز فاستمر عليهم بنحوسه ولم يبق منهم أحدا الا أهلكه هذا وصفها في ذاتها وأما وصفها بفعلها فيهم فذكره بقوله تعالى (تنزع) أى تأخذ (الناس) أى الذين هم صور لاثبات لهم بارواح التقوى من الارض بعضهم من وجهها وبعضهم من حفر حفروها ليتمنعوا بها من العذاب فتطيرهم بين السماء والارض كانهم الهباء المنثور فتقلع رؤسهم من جثثهم وقوله تعالى (كانهم) أى حين ينزعون فيلقون لا أرواح فيهم (أعجاز نخل) أى أصول نخل قطعت رؤسها حال من الناس مقدرة وقوله (منقعر) صفة النخل باعتبار الجنس وأنث في الحاقة فقال نخل خاوية باعتبار معنى الجماعة قال ابن عادل وانما ذكر هنا وأنث هناك مراعاة للفواصل في الموضعين وقال الرازي ذكر الله تعالى لفظ النخل في مواضع ثلاثة ووصفها على الاوجه الثلاثة فقال تعالى والنخل باسقات وذلك حال عنها وهي كالوصف وقال تعالى نخل خاوية ونخل منقعر فحيث قال منقعر كان المختار ذلك لان المنقعر في حقيقة الامر كالمفعول لانه ورد عليه القعر فهو مقعور والخاوي والباسق فاعل واخلاء المفعول من علامة التأنيث أولى تقول امرأة قتيل وأما الباسقات فهي فاعلات حقيقة لان البسوق أمر قائم بها وأما الخاوية فهي من باب حسن الوجه لان الخاوي موضعها فكانه قال نخل خاوية المواضع وهذا غاية الاعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للالفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ * (تنبيه) * الاعجاز جمع عجز وهو مؤخر الشئ ومنه العجز لانه يؤدي الى تأخير الامور والمنقعر المنقلع من أصله يقال قعرت النخلة قلعتها من أصلها فانقعرت وقعرت البئر وصلت الى قعرها وقعرت الاناء شربت ما فيه حتى وصلت الى قعره وكرر قوله تعالى (فكيف كان عذابي ونذر) للتهويل وقيل الاول لما حاق بهم في الدنيا والثاني لما يحيق بهم في الآخرة كما قال أيضا في قصتهم لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وتقدم تفسير قوله تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وكرره ايذانا بان تفسير القرآن مع اعجازه لا يكون الا بعظمة تفوت قوى البشر وتعجز عنها منهم القدرة ولما انقضت قصة عاد ذكر تعالى قصة ثمود لانها تلي قصة عاد في الفظاعة فقال تعالى (كذبت ثمود) أى قوم صالح عليه السلام وقوله تعالى (بالنذر) جمع نذير بمعنى منذر اى بالانذارات التي أنذرهم بها نبيهم صالح عليه السلام ان لم يؤمنوا به ثم علل ذلك وعقبه بقوله تعالى (فقالوا) منكرين لما جاءهم من الله تعالى غاية الانكار (أبشرا) انكارا لرسالة هذا النوع ليكون انكارا لنبوة نبيهم على أبلغ الوجوه وهو منصوب بفعل يفسره تتبعه الآتي وقولهم (منا) نعت له اى فلا فضل له علينا فما وجه اختصاصه بذلك من بيننا وقولهم (واحدا) نعت له أيضا ثم عظموا الانكار بقولهم (نتبعه) اى لنجاهد أنفسنا في خلع

الطرف) جمع الضمير مع
ان قوله جنتان لرجوعه الى
الآلاء المعدودة في الجنتين

مالوفنا وما كان عليه آباؤنا والاستفهام بمعنى النفي والمعنى كيف نتبعه ونحن أشد الناس قوة وكثرة وهو واحد منا ثم استنتجوا من هذا الانكار الشديد قولهم مؤكدين (انا اذا) أي ان اتبعناه (لفي ضلال) أي ذهاب عن الصواب محيط بنا (وسعر) أي ونيران جمع سعير فعكسوا عليه وقالوا ان اتبعناك كنا اذا كما تقول وقيل السعر الجنون يقال ناقة مسعورة قال الشاعر

كأن بها سعرا اذا العيس هزها * ذميل وارخاء من السير متعب

ثم استدلوا بامر آخر ساقوه مساق الانكار فقالوا (أألقي) أي أنزل (الذكر) أي الوحي الذي يكون به الشرف الاعظم بغتة في سرعة (عليه) لانه لم يكن عندهم في مضمار هذا الشأن ولا توسموا فيه قبل اشارته به شيأ منه بل أتاهم به بغتة في غاية الاسراع ودلوا على وجه التعجب والانكار بالاختصاص بقولهم (من بيننا) أي وفينا من هو أولى بذلك منه سنا وشرفا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الهمزة الاولى المفتوحة وتسهيل الثانية المضمومة كالواو وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا بخلاف عن أبي عمرو ولم يدخل ورش وابن كثير ألفا وأما هشام فله تسهيل الثانية وتحقيقها وادخال الالف بينهما مع التحقيق والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال واذا وقف حمزة فله في الثانية التسهيل وابدالها واوا والتحقيق ثم أضربوا عن ذلك الاستفهام لانه بمعنى النفي بقولهم (بل هو كذاب) أي بليغ في الكذب في قوله انه أوحي اليه ما ذكر (أشر) أي متكبر بطر غلبت عليه البطالة حتى أعجبته نفسه فتجبر فهو يريد الترفع قال الله تعالى (سيعلمون) أي بوعد لا خلف فيه (غدا) أي في الزمن الآتي القريب وهو يوم القيامة لان كل ما حقق اتيانه قريب عند نزول العذاب في الدنيا ويوم القيامة وقرأ ابن عامر وحمزة بعد السين بتاء الخطاب وفيه وجهان أحدهما انه حكاية عن قول صالح عليه السلام لقومه والثاني أنه خطاب من الله تعالى على جهة الالتفات والباقون بياء الغيبة جريا على الغيب قبله في قوله تعالى فقالوا أبشرا واختار هذه القراءة مكي لان عليها الاكثر (من الكذاب الاشر) أي وهو هم بان يعذبوا على تكذيبهم لنبيه صالح صلى الله عليه وسلم وروي أنهم تعنتوا عليه فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء فقال تعالى (انا) أي بما لنا من العظمة (مرسلوا الناقة) أي موجدوها لهم ومخرجوها كما اقترحوا من حجر أهلناه لذلك وخصصناه من بين الاحجار دلالة على ارسالنا صالحا عليه السلام مخصصين له من بين قومه وذلك انهم قالوا لصالح عليه السلام نريد أن نعرف المحق منا بان ندعو آلهتنا وتدعو الهك فمن اجابه الهه علم انه المحق فدعوا أوثانهم فلم تجبهم فقالوا ادع أنت فقال فما تريدون قالوا تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عشراء وبراء فاجابهم الى ذلك بشرط الايمان فوعدوه بذلك وأكدوا فكذبوا بعدما كذبوا في أن آلهتهم تجيبهم وصدق هو عليه السلام في كل ما قال فاخبره ربه سبحانه أنه يجيبهم الى اخراجها (فتنة لهم) أي امتحانا بخالطهم به فيميلهم عن حالتهم التي وعدوا بها او يخليهم عنها الان المعجزة فتنة لان بها يتميز المثاب من المعذب فالمعجزة تصديق وحينئذ يفترق المصدق من المكذب أو يقال اخراج الناقة من الصخرة معجزة ودورانها بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال تعالى انا مرسلوا الناقة ولم يقل مخرجو (فارتقبهم) أي كف نفسك انتظارهم فيما يكون لهم جزاء على أعمالهم انتظار من يحرسهم

اوائل الجنتين لكن جهة لاشتمالهما على قصور ومنازل أوائل المنازل

(واصطبر)

(واصطبر) أي عالج نفسك واجتهد في الصبر عليهم وأصل الطاء في اصطبر تاء فصورت طاء لتكون موافقة للصاد في الاطباق (ونبئهم) اي أخبرهم اخبارا عظيما بامر عظيم وهو (أن الماء) اي الذي يشربونه وهو ماء بئرهم (قسمة بينهم) اي بين قوم صالح عليه السلام والناقة فغلب العاقل عليها والمعنى انا اذا بعثناها كان لهم يوم لا تشاركهم فيه ولها يوم لا تدع في البئر قطرة يأخذها احد منهم وتوسع الكل بدل الماء لبنا (كل شرب) اي نصيب من الماء (محتضر) اي فالناقة تحضر الماء يوم وردها وتغيب عنهم يوم وردهم قاله مقاتل وقال مجاهد ان ثمود يحضرون الماء يوم غبها فيشربون ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون *(تنبيه)* الحكمة في قسمة الماء اما لان الناقة عظيمة الخلق فتنفر منها حيوانا تهم فكان يوم للناقة ويوم لهم واما لقلة الماء فلا يحملهم واما لان الماء كان مقسوما بينهم لكل فريق يوم فيوم ورود الناقة على هؤلاء يرجعون على الآخرين وكذلك الآخرون فيكون النقصان على الكل ولا يختص الناقة بجميع الماء روى انهم كانوا يكتفون في يوم وردها بلبنها وليس في الآية الا القسمة دون كيفيتها وظاهر قوله تعالى كل شرب محتضر يعضد الوجه الثالث وحضر واحتضر بمعنى واحد وقوله تعالى (فنادوا صاحبهم) فيه حذف قبله أي فتمادوا على ذلك ثم ملوه فعزموا على عقرها فنادوا صاحبهم وهو قدار بن سالف الذي انتدبوه بطرا واشر القتل الناقة وكذبا في وعدهم الايمان واكرامها بالاحسان وكان أشجعهم وقيل كان رئيسهم (فتعاطى) أي فاجترأ على تعاطي الامر العظيم غير مكترث به (فعقر) أي فتسبب عن ذلك عقرها وقيل فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطي تفاعل الشئ بتكلف قال محمد بن اسحق كمن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها فانتظم به عضلة ساقها ثم شد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة ثم نحرها وقال ابن عباس كان الذي عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى يقال له قدار بن سالف والعرب تسمى الجزار قدارا تشبيها بقدار بن سالف مشؤم آل ثمود (فكيف كان عذابي) أي كان على حال ووجه هو أهل لان يجتهد في الاقبال على تعرفه والسؤال عنه (ونذر) اي انذاري لهم بالعذاب قبل نزوله اي وقع موقعه وبينه بقوله تعالى (انا) أي بما لنا من العظمة (أرسلنا) اي ارسالا عظيما (عليهم صيحة) وحقر شأنهم بالنسبة الى عظمة عذابه بقوله تعالى (واحدة) صاحها عليهم جبريل عليه السلام فلم يكن لهم بصيحته هذه التي هي واحدة طاقة كما قال تعالى (فكانوا كهشيم المحتظر) وهو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع وما يسقط من ذلك فداسته هو الهشيم والهشيم المهشوم المكسور ومنه سمي هاشم لهشمه الثريد في الجفان غير ان الهشيم يستعمل كثيرا في الحطب المتكسر اليابس قال المفسرون كانوا كالخشب المتكسر الذي يخرج من الحظائر بدليل قوله تعالى هشيما تذروه الرياح وهو من باب اقامة الصفة مقام الموصوف وتشبيههم بالهشيم اما لكونهم يابسين كالموتى الذين ماتوا من زمان أو لانضمام بعضهم الى بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كما يجمع الحاطب الحطب يضعه شيأ فوق شئ منتظرا حضور من يشتري منه قال ابن عادل ويحتمل ان يكون ذلك لبيان كونهم في الجحيم أي كانوا كالحطب اليابس الذي للوقيد كقوله

والقصور التي دل عليها ذكر الجنتين أو الى الفرش لقربها وتكون

تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقوله تعالى فكانوا لجهنم حطبا
(تنبيهات) أحدها انه تعالى ذكر فكيف كان عذابي ونذر في ثلاثة مواضع ذكرها في
حكاية نوح عليه السلام بعد بيان العذاب وذكرها هنا قبل بيان العذاب وذكرها في
حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه فحيث ذكر قبل بيان العذاب فللبيان كقول العارف حكاية
لغير العارف هل تعلم كيف كان أمر فلان وغرضه أن يقول أخبرني عنه وحيث ذكرها بعد
بيان العذاب ذكرها للتعظيم كقوله فلان أى ضرب وايما ضرب و يقول ضربته وكيف
ضربته اى قويا وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام * ثانيها انه تعالى ذكر في
حكاية نوح عليه السلام الذى للتعظيم وفي حكاية ثمود ذكر الذى للبيان لان عذاب قوم نوح
كان بامر عظيم عام وهو الطوفان الذى عم العالم ولا كذلك عذاب قوم هود فانه كان مختصا
بهم * ثالثها انه تعالى ذكر في هذه السورة خمس قصص وجعل القصة المتوسطة مذكورة على
أتم وجه لان حال صالح عليه السلام كان أتم مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وسلم لانه اتى
بامر عظيم عجيب ارضي وكان اعجب مما جاء به الانبياء عليهم الصلاة والسلام لان عيسى عليه
السلام أحيا الميت لكن الميت كان محلا للحياة فقامت الحياة باذن الله تعالى في محل كان
قابلا لها وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعبانا فأثبت الله تعالى له في الخشب الحياة باذنه
سبحانه لكن الخشبة نبات كان له قوة في النمو فاشبه الحيوان في النمو وصالح عليه السلام كان
الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد ليس محلا للحياة ولا محلا للنمو ونبينا صلى الله
عليه وسلم أتى باعجب من الكل وهو التصرف في الجرم السماوي الذى يقول المشرك لا وصول
لاحد الى السماء واما الارضيات فقالوا انها أجسام مشتركة المواد يقبل كل واحدة منها
صورة الاخرى والسماويات لا تقبل ذلك فلما أتى بما اعترفوا بانه لا يقدر على مثله آدمى كان
أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التى هى أتم من معجزة سائر الانبياء غير محمد صلى الله
عليه وسلم (ولقد يسرنا) أى على ما لنا من العظمة (القرآن) اى الكتاب الجامع لكل خير
الفارق بين كل ملبس (للذكر) اى الحفظ والتذكر والتدبر وحصول الشرف في الدارين
(فهل من مدكر) اى من ناظر بعين الانصاف والتجرد عن الهوى ليرى كل ما أخبرنا به
فيعينه عليه ولما انقضت قصة ثمود ٣ بما تعرفه العرب بالاخبار ورؤية الآثار فقال تعالى
(كذبت قوم لوط) اى وهم في قوة عظيمة على ما يحاولونه وان كانوا في تكذيبهم هذا أضعف
من عقول النساء عن التجرد عن الهوى بما دل عليه تأنيث الفعل بالتاء وكذا ما قبلها من
القصص (بالنذر) اى بالامور المنذرة لهم على لسان نبيهم لوط عليه السلام ودل على تناهي
القباحة في مرتكبهم بتقديم الاخبار عن عذابهم فقال تعالى مؤكدا توعدا لمن استمر
على التكذيب (انا) اى بما لنا من العظمة (أرسلنا عليهم حاصبا) اى ريحا شديدة ترميهم
بالحصباء وهى صغار الحجارة الواحد دون ملء الكف فهلكوا (الا آل لوط) وهم من آمن به
فكان اذا رأيته فكانك رأيت لوطا عليه السلام لما يلوح عليه من افعاله والمشي على منواله
في اقواله وافعاله (نجيناهم) اى تنجية عظيمة (بسحر) اى بآخر ليلة من الليالي وهى الليلة
التى عذب فيها قومه وانصرف لانه نكرة لا نا لا نعرف تلك الليلة بعينها ولو قصد به

في بعض على كافى قوله تعالى يستمعون فيه أى عليه (قوله لم يطمثهن

٣ قوله بما تعرفه الخ هكذا بالاصول ولعله سقط من قلم الناسخ بعد قوله ولما انقضت قصة ثمود أتبعها بما تعرفه الخ اه مصحح

وقت بعينه لمنع الصرف للتعريف والعدل عن أل هذا هو المشهور وزعم صدر الافاضل أنه مبنى على الفتح كأمس مبنيا على الكسر (تنبيه) قال الجلال المحلى وهل أرسل الحاصب على آل لوط أولا قولان وعبر عن الاستثناء على الاول بانه متصل وعلى الثانى بانه منقطع وان كان من الجنس تسمحا وقوله تعالى (نعمة) اما مفعول له واما مصدر بفعل من لفظها أو من معنى نجيناهم لان تنجيتهم انعام فالتأويل اما فى العامل واما فى المصدر وقوله تعالى (من عندنا) متعلق بنعمة أو بمحذوف صفة لها (كذلك) اى مثل هذا الانجاء العظيم الذى جعلناه جزاء لهم (نجزى من شكر) اى من آمن بالله تعالى وأطاعه قال بعض المفسرين وهو وعد لامة محمد صلى الله عليه وسلم بانه يصونهم عن الهلاك العام وقال الرازى ويمكن أن يقال هو وعد لهؤلاء بالثواب يوم القيامة كما أنجاهم فى الدنيا من العذاب لقوله تعالى ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين وقال مقاتل من وحد الله تعالى لم يعذبه مع المشركين (ولقد أنذرهم) اى رسولنا لوط عليه السلام (بطشتنا) اى أخذتنا لهم المقرونة من الشدة بما لا من العظمة وهى العذاب الذى نزل بهم وقيل هى عذاب الآخرة لقوله تعالى يوم نبطش البطشة الكبرى (فتماروا) اى تجادلوا وكذبوا (بالنذر) اى بانذاره فكان سببا للاخذ (ولقد راودوه عن ضيفه) اى أرادوا أن يخلى بينهم و بين القوم الذين أتوه فى صورة الاضياف ليخبثوا بهم وكانوا ملائكة فى صورة شباب مرد وأفرد لان المراد الجنس (فطمسنا) اى فتسبب عن مراودتهم ان طمسنا بعظمتنا (أعينهم) اى أعميناها او جعلناها بلا شق كباقى الوجه بان صفقها جبريل عليه السلام بجناحه وقال الضحاك بل أعماهم الله تعالى فلم يروا الرسل وقالوا قد رأيناهم حين دخلوا البيت فاين ذهبوا فرجعوا فلم يروهم وهذا قول ابن عباس وروى أنهم صارت أعينهم مع وجوههم كالصفيحة الواحدة وقال القشيرى مسح بجناحه على وجوههم فعموا ولم يهتدوا للخروج قال ابن جرير والعرب تقول طمست الريح الاعلام اذا دفنتها بما تسفى عليها فانطلقوا هاربين مسرعين الى الباب لا يهتدون اليه ولا يقعون عليه بل يصادمون الجدران خوفا مما هو أعظم من ذلك وهم يقولون عند ذلك لوط أسحر الناس وما أدتهم عقولهم الى أن يؤمنوا فينجوا أنفسهم قال القشيرى وكذلك أجرى الله تعالى سنته فى أوليائه بان يطمس على قلوب أعدائهم حتى يلتبس عليهم كيف يؤذون أولياءه و يخلصهم من كيدهم وقوله تعالى (فذوقوا عذابى ونذر) اى انذارى وهو بمعنى خطاب لهم اى قلنا لهم على لسان الملائكة فذوقوا فهو خطاب مع كل مكذب اى ان كنتم تكذبون فذوقوا قال القرطبى والمراد من هذا الامر الخبر اى فأذقتهم عذابى الذى أنذرهم به لوط عليه السلام (فان قيل) النذر كيف تذاق (أجيب) بان المراد ثمرته وفائدته (فان قيل) اذا كان المراد بقوله تعالى عذابى هو العذاب العاجل و بقوله تعالى ونذر هو العذاب الآجل فهما لم يكونا فى زمان واحد فكيف قال تعالى فذوقوا (أجيب) بان العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل فهما كالواقع فى زمان واحد وهو قوله تعالى أغرقوا فادخلوا نارا (ولقد صبحهم) اى أتاهم وقت الصباح وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الصاد والباقون بلا اظهار وحقق

انس قبلهم ولا جان) اى لم يقتض الانسيات انسى ولا الجنيات جـ ف

المعنى بقوله تعالى (بكرة) اى فى أول نهار العذاب وانصرف بكرة لانه نكرة ولو قصد به وقت بعينه امتنع الصرف للتأنيث والتعريف (عذاب) اى قلع بلادهم و رفعها ثم قلبها وحصبها بحجارة النار وخسفها وغمرها بالماء المنتن الذى لا يعيش به حيوان (مستقر) اى ثابت عليهم غير زائل ليس بخيال ولا سحر كما قالوا عند الطمس فانه أهلكهم فاتصل بعذاب البرزخ المتصل بعذاب القيامة المتصل بالعذاب الاكبر فى الطبقة التى تناسب أعمالهم من عذاب النار فقال لهم لسان الحال ان لم ينطق لسان المقال (فذوقوا) اى بسبب أفعالكم الخبيثة (عذابى ونذر)

(تنبيه) قد علم من تكرير هذا أن سبب العذاب التكذيب بالانذار لاى رسول كان وكان استئناف كل قصة منبها على انها أهل على حدتها الان يتعظ بها (ولقد يسرنا) اى على مالنا من العظمة (القرآن) اى الجامع الفارق بين الحق والباطل ولو شئنا لاعليناه بما لنا من القدرة الى حد تعجز القوى عن فهمه كما أعليناه الى رتبة وقفت القوى عن معارضته (للذكر فهل من مدكر) اى فيخلص نفسه من مثل هذا الذى أوقع فيه هؤلاء أنفسهم ظنا منهم ان الامر لا يصل الى ما وصل اليه جهلا منهم وعدم اكتراث بالعواقب * ولما انقضت قصة لوط عليه السلام أتبعها قصة موسى عليه السلام لانه بعد قوم لوط بقوله تعالى (ولقد جاء آل فرعون) اى فرعون ملك القبط بمصر وقومه الذين اذا رآهم أحد كان كأنه فيهم لشدة قربهم منه وتخلقهم بأخلاقه (النذر) اى الانذار على لسان موسى وهرون عليهما السلام فلم يؤمنوا بل (كذبوا) اى تكذيبا عظيما مستهزئين (بآياتنا) التى أتاهم بها موسى عليه السلام (كلها) اى التسع التى أوتيها وهى العصا واليد والسنين والطمس والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم (فان قيل) كيف قال ولقد جاء ولم يقل فى غيره جاء (أجيب) بان موسى عليه السلام لما جاء كان غائبا عن القوم فقدم عليهم كما قال تعالى فلما جاء آل لوط المرسلون وقال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم لانه جاءهم من عند الله من السموات بعد المعراج كما جاء موسى قومه من الطور والنذر الرسل ولقد جاءهم يوسف وبنوه الى أن جاءهم موسى عليه السلام وقيل النذر الانذارات *(تنبيه)* ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ أبو عمرو وقالون باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية ولهما أيضا ابدالها ألفا وورش على أصله فى الهمزة المسهلة وصلا بعد الجيم حمزة وابن ذكوان والباقون بالفتح واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر (فأخذناهم) اى بما لنا من العظمة بنحو ما أخذنا به قوم نوح من الاغراق (أخذ عزيز) اى لا يغلبه شئ وهو يغلب كل شئ (مقتدر) اى لا يعجل بالاخذ لانه لا يخاف الفوت ولا يخشى معقبا لحكمه بالغ القدرة الى حد لا يدرك الوصف كنهه ثم خوف كفار مكة فقال تعالى (أكفاركم) اى الراسخون منكم يا أهل مكة فى الكفر الثابتون عليه يا أيها المكذبون لهذا النبى الكريم الساترون لشموس دينه (خير) فى الدنيا بالقوة والكثرة أو فى الدين عند الله أو عند الناس (من أولئكم) اى المذكورين من قوم نوح الى فرعون الذين وعظناكم بهم فى هذه السورة وهذا استفهام بمعنى الانكار اى ليسوا بأقوى منهم فمعناه نفى اى ليس كفاركم خيرا من كفار من تقدم من الامم الذين أهلكوا بكفرهم *(تنبيه)* قوله

(سورة الواقعة)
(قوله والسابقون السابقون) فائدة التكرار

تعالى خير مع أنه لا خير فيهم اما أن يكون كقول حسان * فشركما لخيركما الفداء * أو هو بحسب زعمهم واعتقادهم أو المراد بالخير شدة القوة أو لان كل ممكن فلا بد وأن يكون له صفات محمودة فالمراد تلك الصفات (أم لكم) اى يا أهل مكة (براءة فى الزبر) اى أنزل اليكم من الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو فى أمان من عذاب الله تعالى والاستفهام هنا أيضا بمعنى النفى اى ليس الامر كذلك (أم يقولون) اى كفار قريش (نحن جميع) اى جمع واحد مبالغ فى اجتماعه فهو فى الغاية من الضم فلا افتراق له (منتصر) اى على كل من يعاديه لانهم على قلب رجل واحد ولم يقل منتصرون لموافقة رؤس الآى ولما قال أبو جهل يوم بدر انا جمع منتصر نزل (سيهزم الجمع) بالنصر أمر بوعد لا خلف فيه وقال مقاتل ضرب أبو جهل يوم بدر فرسه فتقدم من الصف وقال نحن ننتصر اليوم على محمد وأصحابه فانزل الله تعالى أم يقولون نحن جميع منتصر وقال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر كنت لا أدرى اى جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب فى درعه ويقول سيهزم الجمع (ويولون الدبر) فهزموا ببدر ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل الادبار لموافقة رؤس الآى (بل الساعة) اى القيامة التى يكون فيها الجمع الاكبر والهول الاعظم (موعدهم) اى للعذاب (والساعة أدهى) اى من كل ما يعرض وقوعه فى الدنيا وأدهى أفعل تفضيل من الداهية وهى أمر هائل لا يهتدى لدوائه فهى أمر عظيم يقال دهاه أمر كذا أى أصابه دهوا ودهيا وقال ابن السكيت دهته داهية دهوا ودهيا وهى توكيد لها وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وأمر) لان عذابها للكفار غير مفارق ولا مزايل فهى أعظم نائبة وأشد مرارة من الاسر والقتل يوم بدر وفى رواية ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يثب فى درعه ويقول اللهم ان قريشا جادلتك وتجاهر رسولك بفخرها بخيلها فأخنهم الغداة يقال أخنى عليه الدهر أى غلبه وأهلكه ومنه قول النابغة

أخنى عليها الذى أخنى على لبد * وأخنيت عليه أفسدت ثم قال سيهزم الجمع ويولون الدبر قال عمر فعرفت تأويلها وهذا من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه أخبر عن غيب فكان كما أخبر قال ابن عباس كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين فالآية على هذا مكية وفى البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وانى لجارية ألعب بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر وعن ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قبة له يوم بدر أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا فأخذ أبو بكر بيده وقال حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك وهو فى الدرع فخرج وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم يريد يوم القيامة والساعة أدهى وأمر مما لحقهم يوم بدر (ان المجرمين) اى المشركين القاطعين لما أمر الله تعالى ان يوصل (فى ضلال) اى هلاك بالقتل فى الدنيا (وسعر) اى نار مسعرة أى مهيجة فى الآخرة وقيل فى ضلال اى عمى عن القصد بتكذيبهم بالبعث وسعر قال الضحاك اى نار تسعر عليهم وقيل ضلال ذهاب عن طريق الجنة فى الآخرة وسعر جمع سعير نار مسعرنو قال

فيه التأكيد فى مقابلة
التأكيد فى أصحاب الميمنة
ما أصحاب الميمنة وأصحاب

(قوله كنت لا أدرى الخ)
عبارة الكشاف لما نزلت
هذه الآية قال عمر أى
جمع يهزم فلما رأى رسول
الله صلى الله عليه وسلم
يثب فى الدرع ويقول
سيهزم الجمع عرف تأويلها
اه

الحسين بن الفضل ان المجرمين فى ضلال فى الدنيا ونار فى الآخرة وقال قتادة فى عناء وعذاب ثم بين عذابهم فى الآخرة بقوله تعالى (يوم يسحبون) اى فى القيامة اهانة لهم من اى ساحب كان (فى النار) اى الكاملة النارية (على وجوههم) لانهم فى غاية الذل والهوان جزاء بما كانوا يذلون أولياء الله تعالى مقولا لهم من اى قائل اتفق (ذوقوا) لانه لامنعة لهم ولا جبهة بوجه (مس سقر) اى حر النار وألمها فان مساسها سبب للتألم بها وسقر علم لجهنم مشتقة من سقرته الشمس أو النار اى لوحته ويقال صقرته بالصاد وهى مبدلة من السين قال ذو الرمة

اذا ذابت الشمس اتقى صقراتها * بافنان مربوع الصريمة معبل

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث وقال بعض المفسرين ان هذه الآية نزلت فى القدرية لما روى انه صلى الله عليه وسلم قال مجوس هذه الامة القدرية وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى فى قوله سبحانه ان المجرمين فى ضلال وسعر وفى مسلم عن أبى هريرة قال جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القدر فنزلت هذه الآية الى آخرها قال الرازى والقدرى هو الذى ينكر القدر وينسب الحوادث لاتصالات الكواكب لما مر ان قريشا خاصموا النبى صلى الله عليه وسلم فى القدر ومذهبهم ان الله تعالى مكن العبد من الطاعة والمعصية وهو قادر على خلق ذلك فى العبد وقادر على أن يطعم الفقير ولهذا قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه منكرين لقدرته تعالى على الاطعام وقوله صلى الله عليه وسلم القدرية مجوس هذه الامة ان أريد بالامة المرسل اليهم مطلقا كالقوم فالقدرية فى زمانه صلى الله عليه وسلم هم المشركون المنكرون قدرته على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة وان كان المراد بالامة من آمن به صلى الله عليه وسلم فمعناه ان نسبة القدرية اليهم كنسبة المجوس الى الامة المتقدمة فان المجوس أضعف الكفرة المتقدمين شبهة وأشد مخالفة للعقل وكذا القدرية فى هذه الامة وكونهم كذلك لا يقتضى الجزم بكونهم فى النار فالحق ان القدرى هو الذى ينكر قدرة الله تعالى وقد رد عليهم بالكتاب والسنة أما من الكتاب فقوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (كل شئ) من الاشياء المخلوقة صغيرها وكبيرها (خلقناه بقدر) اى قضاء وحكم وقياس مضبوط وقسمة محدودة وقوة بالغة وتدبير محكم فى وقت معلوم ومكان محدود مكتوب ذلك فى اللوح قبل وقوعه وأما من السنة فروى عبد الله بن عمرو بن العاص انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف عام قال وعرشه على الماء وعن طاوس اليمانى قال أدركت ماشاء الله تعالى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون كل شئ بقدر الله تعالى قال وسمعت من عبد الله بن عمرو يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شئ بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن بالله عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا اله الا الله وانى رسول الله بعثنى بالحق و يؤمن بالموت و بالبعث بعد الموت و يؤمن بالقدر وقال عبد الله خيره وشره (تنبيه) كل شئ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر ولما بين سبحانه وتعالى ان كل

الشامة ما أصحاب الشامة كأنه قال هم المعروف حالهم المذموم وصفهم أو المعنى

شئ بفعله بين يسر ذلك وسهولته عليه بقوله تعالى (وما أمرنا) فى كل شئ أردناه وان عظم أمره (الا واحدة) اى فعلة يسيرة لا معالجة فيها وليس هناك احداث قول لانه قديم بل تعلق القدرة بالمقدور على وفق الارادة الازلية وقيل الا كلمة واحدة وهى قوله تعالى كن كما قال تعالى اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ثم مثل لنا ذلك باسرع ما نعقله واخفه بقوله تعالى (كلمح بالبصر) واللمح النظر بالعجلة وفى الصحاح لمحه وألمحه اذا أبصره بنظر خفيف اى فكما ان لمح أحدكم ببصره لا كلفة عليه فيه فكذلك الافعال كلها عندنا بل أيسر وعن ابن عباس معناه وما أمرنا بمجئ الساعة فى السرعة الا كطرف البصر (ولقد أهلكنا) اى بما لنا من العظمة (أشياعكم) اى اشباهكم ونظراءكم فى الكفر من الامم السابقة والقدرة عليكم كالقدرة عليهم فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فهل من مدكر) اى بما وقع لهم انه مثل من مضى بل أضعف وان قدرته تعالى عليه كقدرته تعالى عليهم ليرجع عن غيه خوفا من سطوته والاستفهام بمعنى الامر أى اذكروا واتعظوا (وكل شئ فعلوه) قال الجلال المحلى أى العباد وقال أكثر المفسرين اى الاشياع لانه هو المتقدم ذكره (فى الزبر) اى مكتوب فى دواوين الحفظة وقيل فى اللوح المحفوظ وقيل فى أم الكتاب فالمقدر وامن أفعالهم فانما غير منسية هذا ما أطبق عليه القراء بما أدى الى هذا المعنى من رفع كل لانه لو نصب لاوهم تعلق الجار بالفعل فيوهم انهم فعلوا فى الزبر كل شئ من الاشياء وهو فاسد (وكل صغير وكبير) اى من الخلق وأعمالهم وآجالهم (مستطر) اى مكتوب فى اللوح المحفوظ ولما وصف الكفار وصف المؤمنين مؤكدا ردا على المنكر فقال عز من قائل (ان المتقين) اى العريقين فى وصف الخوف من الله الذى وفقهم لطاعته (فى جنات) اى خلال بساتين ذات أشجار تستر داخلها وقوله تعالى (ونهر) اريد به الجنس لان فيها أنهارا من ماء وعسل ولبن وخمر أفرد لموافقة رؤس الآى ولشدة اتصال بعضها ببعض فكانها شئ واحد والمعنى انهم يشربون من أنهارها وقيل هو السعة والصفاء من النهار وكما جعل للمتقين فى تلك الدار ذلك جعل لهم فى هذه الدار أيضا جنات العلوم وأنهار المعارف ولهذا كانوا (فى مقعد صدق) اى حق لا لغو فيه ولا تأثيم ولم يقل فى مجلس صدق لان القعود جلوس فيه مكث ومنه قواعد البيت والقواعد من النساء ولذا قال (عند مليك) اى ملك تام الملك (مقتدر) اى قادر لا يعجزه شئ وهو الله تعالى وعند اشارة للرتبة والكرامة والمنزلة من فضله تعالى جعلنا الله تعالى وأحبينا منهم وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة القمر فى كل غب أى يقرأ يوما ويترك يوما بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر حديث موضوع

والسابقون السابقون الى رحمته وكرامته ثم قيل المراد بهم السابقون

سورة الرحمن وسمى عروس القران

لانها تجمع النعم والجمال والبهجة فى نوعها والكمال مكية كلها فى قول الحسن وعروة وبن الزبير وعطاء وجابر وقال ابن عباس الا آية منها وهى قوله تعالى يسئله من فى السموات والارض الآية وقال ابن مسعود ومقاتل هى مدنية كلها قال ابن عادل والاول أصح لما روى عن عروة

ابن الزبير قال أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود وذلك ان الصحابة قالوا ماسمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط فمن رجل يسمعهموه فقال ابن مسعود أنا فقالوا نخشى عليك وانما نريد رجلاله عشيرة يمنعونه فأبى ثم قام عند المقام فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الرحمن علم القرآن ثم تمادى بها رافعا صوته وقريش فى أنديتها فتأملوا وقالوا مايقول ابن أم عبد قالوا هو يقول الذى يزعم محمد انه أنزل عليه ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه وصح ان النبى صلى الله عليه وسلم قام يصلى الصبح بنخلة فقرأ بسورة الرحمن ومر النفر من الجن فآمنوا به وهى سبع وثمانون آية وثلثمائة واحدى وخمسون كلمة وألف وستمائة وستة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى ظهرت احاطة كماله بما ظهر من عجائب مخلوقاته (الرحمن) الذى ظهر عموم رحمته بما بهر من بدائع مصنوعاته (الرحيم) الذى ظهر اختصاصه لاهل طاعته بما حققوا من الذل المفيد للعز بلزوم عباداته * ولما كانت هذه السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والاخروية صدرها بقوله تعالى (الرحمن علم) اى من شاء (القرآن) وقدم من نعمه الدينية ماهو أعلى مراتبها وأقصى مراقيها وهو انعامه تعالى بالقرآن العظيم وتنزيله وتعليمه لانه أعظم وحى الله تعالى رتبة وأعلاها منزلة وأحسنه فى أبواب الدين اثرا وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها *(تنبيه)* أول هذه السورة مناسب لآخر ماقبلها الان آخر تلك مليك مقتدر وأول هذه انه رحمن قال سعيد بن جبير وعامر الشعبى الرحمن فاتحة ثلاث سور اذا جمعن كن اسما من اسماء الله تعالى الر وحم ون فيكون مجموع هذه الرحمن ولله تبارك وتعالى رحمتان رحمة سابقة بها خلق الخلق ورحمة لاحقة بها أعطاهم الرزق والمنافع فهو رحمن باعتبار السابقة رحيم باعتبار اللاحقة * ولما اختص بالايجاد لم يقل لغيره رحمن ولما خلق بعض خلقه الصالحين بعض اخلاقه بحسب الطاقة البشرية فاطعم ونفع جاز أن يقال له رحيم وفى اعراب الرحمن ثلاثة أوجه أحدها انه خبر مبتدا مضمر أى الله الرحمن الثانى انه مبتدأ وخبره مضمر أى الرحمن ربنا الثالث انه مبتدأ خبره علم القرآن (فان قيل) كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى وما يعلم تأويله الا الله (أجيب) بانا ان قلنا بعطف الراسخين على الله فهو ظاهر وان قلنا بالوقف على الله ويبتدأ بقوله تعالى والراسخون فلان من علم كتابا عظيما فيه مواضع مشكلة قليلة وتأملها بقدر الامكان فانه يقال فلان يعلم الكتاب الفلانى وان كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب يقين فى تلك المواضع القليلة وكذا القول فى تعليم القرآن أو يقال المراد لايعلمه من تلقاء نفسه بخلاف الكتب التى تستخرج بقوة الذكاء والفكر * واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال أكثر المفسرين نزلت حين قالوا وما الرحمن وقيل نزلت جوابا لاهل مكة حين قالوا انما يعلمه بشر وهو رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فانزل الله تعالى الرحمن علم القرآن أى سهله لان يذكر ويقرأ كما قال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر ولما كان كأنه قيل كيف يعلمه وهو صفة من صفاته ولمن علمه قال تعالى مستأنفا أو معللا (خلق الانسان) اى الجنس بان قدره وأوجده

الى الايمان من كل أمة
وقيل الذين صلوا الى
القبلتين وقيل أهل

على هذا الشكل المعروف والتركيب الموصوف منفصلا عن جميع الجمادات وأصله منها ثم عن سائر الناميات ثم عن غيره من الحيوانات وخلقه له دليل على خلقه لكل شئ موجود انا كل شئ خلقناه بقدر وقيل علم القرآن جعله علامة وآية (علمه البيان) اى القوة الناطقة وهى الادراك للامور الكلية والجزئية والحكم على الحاضر والغائب بقياسه على الحاضر وغير ذلك مما اودعه له سبحانه مع تعبيره عما أدركه مما هو غائب فى ضميره وافهامه لغيره تارة بالقول وتارة بالفعل نطقا وكتابة واشارة وغيرها فصار بذلك ذا قدرة فى نفسه وعلى التكميل لغيره فهذا تعليم البيان الذى مكن من تعليم القرآن وقال ابن عباس وقتادة والحسن يعنى آدم عليه السلام علم أسماء كل شئ وقيل علمه اللغات كلها وكان آدم يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية وعن ابن عباس أيضا وابن كيسان المراد بالانسان ههنا محمد صلى الله عليه وسلم والمراد من البيان الحلال والحرام والهدى من الضلال وقيل ما كان وما يكون لانه بين عن الاولين والآخرين وعن يوم الدين وقال الضحاك البيان الخير والشر وقال الربيع بن أنس هو ما ينفعه وما يضره وقال السدى علم كل قوم لسانهم الذى يتكلمون به وقيل بيان الكتابة والخط بالقلم نظيره قوله تعالى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم (فان قيل) لم قدم تعليم القرآن للانسان على خلقه وهو متأخر عنه فى الوجود (أجيب) بان التعليم هو السبب فى ايجاده وخلقه (فان قيل) كيف صرح بذكر المفعولين فى علمه البيان ولم يصرح بهما فى علم القرآن (أجيب) بان فى ذلك اشارة الى ان النعمة فى التعميم لا فى تعليم شخص دون شخص وبأن المراد من قوله تعالى علمه البيان تعديد النعم على الانسان واستدعاء الشكر منه ولم يذكر الملائكة لان المقصود ذكر ما يرجع الى الانسان وقيل تقديره علم جبريل القرآن وقيل علم محمدا صلى الله عليه وسلم وقيل علم الانسان وهذا أولى لعمومه *(تنبيه)* هذه الجمل من قوله تعالى علم القرآن الى هنا جئ بها من غير عاطف لانها سيقت لتعديد نعمه كقولك فلان أحسن الى فلان أكرمه اشاد ذكره رفع قدره فلشدة الوصل ترك العاطف وهى أخبار مترادفة للرحمن * ولما ذكر تعالى خلق الانسان وانعامه عليه بتعليمه البيان ذكر نعمتين عظيمتين بقوله تعالى (الشمس) وهى آية النهار (والقمر) وهو آية الليل (بحسبان) فانهما على قانون واحد وحساب لا يتغيران وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها ولولا الشمس والقمر لفات كثير من المنافع الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فان نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما وانهما بحسبان لا يتغير أبدا ولو كان سيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات فى اوقاتها ومعرفة فصول السنة والمعنى يجريان بحسبان معلوم فاضمر الخبر قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك يجريان بحسبان فى منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها وقال أبو زيد وابن كيسان بهما تحسب الاوقات والاعمار ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيأ ان كان الدهر كله ليلا أو نهارا وقال السدى بحسبان تقدير آجالهما أى يجريان بآجال كآجال الناس فاذا جاء أجلهما هلكا نظيره كل يجرى الى أجل مسمى (والنجم) أى النبات الذى ينجم أى يطلع من الارض ولا ساق له كالبقول (والشجر) اى الذى له ساق كشجر الرمان وتقدم الجواب عن

قوله بسبعمائة ألف لغة فى حاشية الجمل بسبعمائة لغة اه مصححه

القرآن وقيل السابقون الى المساجد والى الخروج فى سبيل الله وقيل هم

قوله تعالى وأنبتنا عليه شجرة من يقطين فى سورة الصافات (يسجدان) أى ينقادان لله تعالى فيما يريد بهما طبعا انقياد الساجد من المكلفين طوعا وقال الضحاك سجودهما سجود ظلالهما وقال الفراء سجودهما انهما يستقبلان اذا طلعت الشمس ثم يميلان معها حتى ينكسر الفىء وقال الزجاج سجودهما دوران الظل معهما كما قال تعالى تتفيأ ظلاله وقال الحسن ومجاهد النجم نجم السماء وسجوده فى قول مجاهد دوران ظله وقيل سجود النجم أفوله وسجود الشجر امكان الاجتناء لثمارها حكاه الماوردى وقال النحاس أصل السجود فى اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل فهو من الموات كلها استسلامها لامر الله عز وجل وانقيادها له ومن الحيوان كذلك (فان قيل) كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن (أجيب) بانه استغنى فيهما عن الوصل اللفظى بالوصل المعنوى لما علم ان الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره كأنه قيل الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له (فان قيل) اى تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف (أجيب) بان الشمس والقمر سماويان والنجم والشجر أرضيان فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل فان السماء والارض لا تزالان تذكران قرينتين وان جرى الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لامر الله تعالى فهو مناسب لسجود النجم والشجر (والسماء) أى ورفع السماء ثم فسر ناصبها فيكون كالمذكور مرتين اشارة الى عظيم تدبيره لشدة ما فيها من الحكم فقال تعالى (رفعها) أى حسا قال البقاعى بعدما كانت ملتصقة بالارض ففتقها وأعلاها عنها وقال الزمخشرى وتبعه البيضاوى خلقها مرفوعة قال البيضاوى محلا ورتبة وقال الزمخشرى حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه ومتنزل أوامره ونواهيه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحى على أنبيائه ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه (ووضع الميزان) اى العدل الذى دبر به الخافقين من الموازنة وهى المعادلة لتنتظم أمورنا كما قال صلى الله عليه وسلم بالعدل قامت السموات والارض وقال السدى وضع فى الارض العدل الذى امر به يقال وضع الله الشريعة ووضع فلان كذا أى ألقه وقيل على هذا الميزان القرآن لان فيه بيان ما يحتاج اليه وهو قول الحسين بن الفضل وقال الحسن وقتادة والضحاك هو الميزان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض وهو خبر بمعنى الامر بالعدل يدل عليه قوله تعالى وأقيموا الوزن بالقسط والقسط هو العدل وقيل هو الحكم وقيل المراد وضع الميزان فى الآخرة لوزن الاعمال (ان) اى لاجل ان (لا تطغوا) اى تجاوزوا الحدود (فى الميزان) فمن قال الميزان العدل قال طغيانه الجور ومن قال أنه الميزان الذى يوزن به قال طغيانه البخس قال ابن عباس لا تخونوا من وزنتم له وعنه أنه قال يا معشر الموالى وليتم أمرين بهما هلك الناس المكيال والميزان ومن قال انه الحكم قال طغيانه التحريف وقيل فيه اضمار اى وضع الميزان وأمركم أن لا تطغوا فيه (فان قيل) اذا كان المراد به ما يوزن به فاى نعمة عظيمة فيه حتى يعد فى الآلاء (أجيب) بان النفوس تأبى الغبن ولا يرضى أحد أن يغلبه

الانبياء (قوله وإذا ت مخلدون) فان قلت كيف قال ذلك مع ان التخليد

غيره ولو في الشيء اليسير ويرى ان ذلك استهانة به فلا يترك خصمه يغلبه فوضع الله تعالى معيارا بين به التساوي ولا تقع به البغضاء بين الناس وهو الميزان وهو كل ما توزن به الاشياء بين الناس ويعرف مقاديرها به من ميزان ومكيال ومقياس فهو نعمة كاملة ولا ينظر الى عدم ظهور نعمته وكثرته وسهولة الوصول اليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما الا عند فقدهما (واقيموا الوزن بالقسط) اي افعلوه مستقيما بالعدل وقال أبو الدرداء أقيموا لسان الميزان بالعدل وقال ابن عيينة الاقامة باليد والقسط بالقلب وقال مجاهد القسط العدل بالرومية (ولا تخسروا الميزان) اي لا تنقصوا الموزون أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان تشديدا للتوصية وتقوية للامر باستعماله والحث عليه وقيل كرره لحال رؤس الآي وقيل كرره ثلاث مرات الاول بمعنى الآلة وهو قوله تعالى ووضع الميزان والثاني بمعنى المصدر اي لا تطغوا في الوزن والثالث للمفعول اي لا تخسروا الموزون قال ابن عادل وبين القرآن والميزان مناسبة فان القرآن فيه العلم الذي لا يوجد في غيره من الكتب والميزان به يقام العدل الذي لا يقام بغيره من الآلات ولما ذكر انعامه الدال على اقتداره برفع السماء ذكر على ذلك الوجه مقابلها بعدما وسط بينهما ما قام به من العدل تنبيها على شدة العناية والاهتمام به فقال تعالى (والارض) اي ووضع الارض ثم فسر ناصبها كما فعل في قوله تعالى والسماء رفعها فقال تعالى (وضعها) اي دحاها وبسطها على الماء (للانام) اي كل من فيه قابلية النوم أو قابلية الونيم وهو الصوت وقيل هو الحيوان وقيل بنوا دم خاصة وهو مروي عن ابن عباس ونقل النووي في التهذيب عن الزبيدي الانام الخلق قال ويجوز الانيم وقال الواحدي قال الليث الانام ما على ظهر الارض من جميع الخلق وقال الحسن هم الانس والجن (فيها) اي الارض (فاكهة) اي ما يتفكه به الانسان من ألوان الثمار ونكرها لان الانتفاع بها دون الانتفاع بما ذكر بعدها فهو من باب الترقي من الادنى الى الاعلى اذ التنكير فيه للتعظيم والتكثير نبه عليه بتعريف فرع منها ونوه به لان فيه مع التفكه التقوت وهو أكثر ثمار العرب المقصودين بهذا الذكر بالقصد الاول فقال تعالى (والنخل) ودل على تمام القدرة بقوله تعالى (ذات) اي صاحبة (الاكمام) اي أوعية ثمرها وهو الطلع قبل أن ينفتق بالثمر والاكمام جمع كم بالكسر قال الجوهري والكم بالكسر والكمامة وعاء الطلع وغطاء النور والجمع كمام وأكمة واكمام والكمامة ما يكم به فم البعير لئلا يعض وكم القميص بالضم والجمع أكمام وكممة والكمة القلنسوة المدورة لانها تغطي الرأس (والحب) اي جميع الحبوب التي يقتات بها كالحنطة والشعير (ذو العصف) قال ابن عباس تبن الزرع وورقه الذي تعصفه الريح وقال مجاهد ورق الشجر والزرع وقال سعيد ابن جبير بقل الزرع الذي أول ما ينبت منه وهو قول الفراء والعرب تقول خرجنا نعصف الزرع اذا قطعوا منه قبل أن يدرك وقيل العصف حطام النبات (والريحان) وهو في الاصل مصدر ثم أطلق على الرزق قال ابن عباس ومجاهد والضحاك هو الرزق بلغة حمير كقولهم سبحان الله وريحانه نصبوهما على المصدر يريدون تنزيها له واسترزاقا وعن ابن عباس أيضا والضحاك وقتادة انه الريحان الذي يشم وهو قول

لا يختص بالولدان في الجنة (قات) معناه انهم لا يحولون عن شكل

قوله الونيم وهو الصوت لم يذكره القاموس اه

ابن زيد وقال سعيد بن جبير هو ما قام على ساق وقال الفراء العصف المأكول من الزرع والريحان ما لا يؤكل وقال الكلبي العصف الورق الذي يؤكل والريحان هو الحب المأكول وقيل كل بقلة طيبة الريح سميت ريحانا لأن الإنسان يراح لها رائحة طيبة أي يشم وفي الصحاح والريحان نبت معروف والريحان الرزق تقول خرجت أبتغي ريحان الله وفي الحديث الولد من ريحان الله وقرأ ابن عامر بنصب الحب وذا والريحان بخلق مضمر أي وخلق الحب ذا العصف والريحان وقرأ حمزة والكسائي برفع الحب وذو عطفا على فاكهة وجر الريحان عطفا على العصف والباقون برفع الثلاثة عطفا على فاكهة أي وفيها أيضا هذه الأشياء ولما ذكر في قوله تعالى والأرض وضعها للأنام الجن والإنس خاطبهما بقوله تعالى (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المحسن إليكما المدبر لكما الذي لا مدبر ولا محسن لكما غيره (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها وكرر هذه الآية في هذه السورة في إحدى وثلاثين موضعا تقريرا للنعمة وتأكيدا في التذكير وفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها ليفهمهم النعم ويقررهم بها كما تقول لمن تتابع عليه إحسانك وهو يكفره وينكره ألم تكن فقيرا فأغنيتك أفتنكر هذا ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا ألم تكن راجلا فحملتك أفتنكر هذا والتكرير حسن في مثل هذا قال القائل * كم نعمة كانت لكم كم كم وكم *

وقال آخر

لا تقتلي مسلما إن كنت مسلمة * إياك من دمه إياك إياك

وقال آخر

لا تقطعن الصديق ما طرفت * عيناك من قول كاشح أشر
ولا تملن يوما زيارته * زره وزره وزر وزر وزر

وقال الحسين بن الفضل التكرير طردا للغفلة وتأكيدا للحجة قال بعض العلماء والتكرير ههنا كما تقدم في قوله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر وكقوله تعالى فيما سيأتي ويل يومئذ للمكذبين وذهب جماعة منهم ابن قتيبة إلى أن التكرير لاختلاف النعم فلذلك كرر التوقيف مع كل واحدة وقال الرازي وذكره بلفظ الخطاب على سبيل الالتفات والمراد به التقرير والزجر وذكر لفظ الرب لأنه يشعر بالرحمة قال وكررت هذه اللفظة في هذه السورة نيفا وثلاثين مرة إما للتأكيد ولا يعقل لخصوص العدد معنى وقيل الخطاب مع الإنس والجن والنعمة منحصرة في دفع المكروه وتحصيل المقصود وأعظم المكروهات نار جهنم ولها سبعة أبواب وأعظم المقاصد نعيم الجنة ولها ثمانية أبواب فالمجموع خمسة عشر وذلك بالنسبة للإنس والجن ثلاثون والزائد إثبات التأكيد وروى جابر بن عبد الله قال قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال مالي أراكم سكوتا للجن كانوا أحسن منكم ردا ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة فبأي آلاء ربكما تكذبان إلا قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد وقرأ ورش فبأي آلاء على أصله بالمد والتوسط والقصر بجميع ما في هذه السورة ولما ذكر تعالى خلق العالم الكبير من السماء والأرض وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال تعالى (خلق الإنسان) أي آدم عليه السلام

الولدان والمراد بهم هنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا

(من صلصال) اى من طين يابس له صلصلة اى صوت اذا نقر (كالفخار) اى كالخزف المصنوع المشوى بالنار وقيل هو طين خلط برمل وقيل هو الطين المنتن من صل اللحم وأصل اذا أنتن *(تنبيه)* قال تعالى هنا من صلصال كالفخار وقال تعالى فى الحجر من حمأ مسنون وقال تعالى فى الصافات من طين لازب وقال تعالى فى آل عمران كمثل آدم خلقه من تراب وكله متفق المعنى وذلك أنه أخذه من تراب الارض فعجنه بالماء فصار طينا ثم تركه حتى صار حمأ مسنونا ثم منتنا ثم صوره كما يصور لابريق وغيره من الاوانى ثم أيبسه حتى صار فى غاية الصلابة فصار كالخزف الذى اذا نقر صوت صوتا يعلم منه هل فيه عيب أولا فالمذكور هنا آخر تخليقه وهو أنسب بالرحمانية وفى غيرها تارة مبدؤه وتارة أثناؤه فالارض أمه والماء أبوه ممزوجين بالهواء الحامل للجزء الذى هو من فيح جهنم فمن التراب جسده ونفسه ومن الماء روحه وعقله ومن النار غوايته وحدته ومن الهواء حركته وتقلبه فى محامده ومذامه فالغالب فى جبلته التراب فلهذا نسب اليه وان خلق من العناصر الاربع كما أن الجان خلق من العناصر الاربع لكن الغالب فى جبلته النار فنسب اليها كما قال تعالى (وخلق الجان) اى أبا الجن وهو ابليس وقيل هو أبوهم وليس هو بابليس وقيل هو اسم جنس كالانسان (من مارج من نار) وهو لهب الخالص من الدخان وقال القشيرى هو اللهب المختلط بسواد النار فالنار أغلب عناصره وقال الليث المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد وعن ابن عباس أنه اللهب الذى يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر وهو مشاهد فى النار ترى الالوان الثلاثة مختلطا بعضها ببعض ونحوه عن مجاهد وقال أبو عبيدة والحسن المارج المختلط من النار وأصله من مرج اذا اضطرب واختلط قال القرطبى يروى ان الله تعالى خلق نارين فمرج احداهما بالاخرى فاكلت احداهما الاخرى وهى نار السموم فخلق منها ابليس *(تنبيه)* من مارج من نار من الاولى لابتداء الغاية وفى الثانية وجهان أحدهما أنها للبيان والثانى أنها للتبعيض (فبأى آلاء) اى نعم (ربكما) الناشئة عن مبدئكما ومربيكما وسيدكما (تكذبان) اى مما أفاض عليكما فى أطوار خلقتكما حتى صيركما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات (رب) اى خالق ومدبر (المشرقين) اى مشرق الشتاء ومشرق الصيف (ورب المغربين) كذلك (فبأى آلاء) اى نعم (ربكما) اى الذى دبر لكما هذا التدبير العظيم (تكذبان) اى بما فى ذلك من الفوائد التى لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه الى غير ذلك (مرج) اى أرسل الرحمن (البحرين) اى العذب والملح فجعلهما مضطربين من طبعهما الاضطراب حال كونهما (يلتقيان) اى يتماسان على وجه الارض بلا فصل بينهما فى رؤية العين وقال ابن عباس بحر السماء وبحر الارض قال سعيد بن جبير يلتقيان فى كل عام وقيل يلتقى طرفاهما وقال الحسن وقتادة بحر فارس والروم وقال ابن جريج البحر المالح والانهار العذبة وقيل بحر المشرق وبحر المغرب وقيل بحر اللؤلؤ وبحر المرجان (بينهما برزخ) اى حاجز عظيم فعلى القول بانهما بحر السماء وبحر الارض فالحاجز الذى بينهما هو ما بين السماء والارض قاله الضحاك وعلى الاقوال الباقية قال الحسن

سنة وقيل ولدان على سن واحد انشأهم الله لاهل الجنة يطوفون عليهم من

وقتادة هو الارض وقال بعضهم هو القدرة الالهية وهذا أولى (لا يبغيان) اختلف فيه فقال قتادة لا يبغيان على الناس فيغرقانهم كما طغيا فاهلكا من على الارض فى أيام نوح عليه السلام بجعل بينهما وبين الناس اليبس وقال مجاهد وقتادة أيضا لا يبغى أحدهما على صاحبه فيغلبه وقيل البرزخ ما بين الدنيا والآخرة اى بينهما مدة قدرها الله تعالى وهى مدة الدنيا فهما لا يبغيان فاذا أذن الله تعالى فى انقضاء الدنيا صار البحران شيأ واحدا وهو كقوله تعالى واذا البحار فجرت وقال سهل بن عبد الله البحران طريق الخير والشر والبرزخ الذى بينهما التوفيق والعصمة وقال الرازى معنى الآية ان الله تعالى أرسل بعض البحرين الى بعض ومن شأنهما الاختلاط فحجزهما ببرزخ من قدرته فهما لا يبغيان اى لا يتجاوز كل واحد منهما ما حده له خالقه لا فى الظاهر ولا فى الباطن فى حفرت على جنب الملح فى بعض الاماكن وجدت المياه العذب وان قربت الحفرة منه قال البقاعى بل كلما قربت كان أحلى لخلاطها سبحانه فى رأى العين وحجز بينهما فى غيب القدرة هذا وهما جمادان لا نطق لهما ولا ادراك فكيف يبغى بعضكم على بعض أيها المدركون العقلاء (فبأى آلاء) اى نعم (ربكما) اى الموجد لكما والمربى (تكذبان) أبتلك النعم ام بغيرها فهلا اعتبرتم بهذه الاصول من أنواع الموجودات فصدقتم بالآخرة لعلكم تنجون من عذاب الله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ) وهو كبار الجوهر (والمرجان) وهو صغار الجوهر قاله على وابن عباس والضحاك وقيل بالعكس وقيل المرجان حجر أحمر وقيل حجر شديد البياض والمرجان أعجمى اى بمخالطة العذب الملح من غير واسطة أو بواسطة السحاب فصار ذلك كالذكر والانثى وقال الرازى فيكون العذب كاللقاح للملح وقال أبو حيان قال الجمهور انما يخرج من الاجاج فى المواضع التى تقع فيها الانهار والمياه العذبة فاسند ذلك اليهما وهذا مشهور عند الغواصين قال مكى كما قال على رجل من القريتين عظيم اى من احدى القريتين وحذف المضاف كثير شائع وقيل هو كقوله تعالى نسيا حوتهما وانما الناسى فتاه ويعزى لابى عبيدة قال البغوى وهذا جائز فى كلام العرب ان يذكر شيآن ثم يخص أحدهما بفعل كقوله تعالى يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم وكانت الرسل من الانس وقيل يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان وقيل بل يخرجان منهما جميعا وقال ابن عباس تكون هذه الاشياء فى البحر بنزول المطر والصدف تفتح أفواهها للمطر وقد شاهده الناس فيكون تولده من بحر السماء وبحر الارض وهذا قول الطبرى وقال الزمخشرى فان قلت لم قال منهما وانما يخرجان من الملح قلت لما التقيا وصارا كالشئ الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر وانما يخرجان من بعضه وتقول خرجت من البلد وانما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره وقيل لا يخرجان الا من ملتقى الملح والعذب اه وقال بعضهم كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس فمن الجائز أنه يسوقهما من البحر العذب الى الملح واتفق أنهم لم يخرجوهما الا من الملح واذا كان فى البر أشياء تخفى على التجار المترددين القاطعين المفاوز فكيف بما فى قعر البحر قال ابن عادل والجواب عن

غير ولادة لان الجنة لا ولادة فيها وقيل أطفال المشركين وهم خدم أهل

هذا

هذا ان الله تعالى لا يخاطب الناس ولا يمتن عليهم الا بما يألفون ويشاهدون وقرأ نافع وأبو عمرو يخرج بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول والباقون بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل على المجاز وقرأ السوسي وشعبة بابدال الهمزة الساكنة واوا وصلا ووقفا واذا وقف حمزة أبدل الاولى والثانية (فبأى آلاء) اى نعم (ربكما) اى الملك الاعظم المالك لكما (تكذبان) أبكثرة النعم من خلق المنافع فى البحار وتسليطكم عليها واخراج الحلى العجيبة أم بغيرها (وله) اى لا لغيره (الجوارى) اى السفن الكبار والصغار الفارغة والمشحونة فلا تغتروا بالاسباب الظاهرة فتقفوا معها فتسندوا شيأ من ذلك اليها وقرأ (المنشآت) حمزة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين بمعنى أنها تنشئ الموج بجريها او تنشئ السير اقبالا وادبارا أو التى رفعت شراعها أى قلوعها والشراع القلع وعن مجاهد كل ما رفعت قلعها فهى من المنشآت والافليست منها ونسبة الرفع اليها مجاز كما يقال أنشأت السحابة المطر وقرأ الباقون بفتح الشين وهو اسم مفعول أى انشأها الله تعالى أو الناس أو رفعوا شراعها *(تنبيه)* الجوارى جمع جارية وهى اسم أو صفة للسفينة وخصها بالذكر لان جريها فى البحر لا صنع للبشر فيه وهم معترفون بذلك فيقولون لك الفلك ولك الملك واذا خافوا الغرق دعوا الله وحده وسميت السفينة جارية لان شأنها ذلك وان كانت واقفة فى الساحل كما سماها فى موضع آخر بالجارية كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية وسماها بالفلك قبل أن لم تكن كذلك فقال تعالى لنوح عليه السلام واصنع الفلك بأعيننا ثم بعد ما عملها سماها سفينة فقال تعالى فأنجيناه وأصحاب السفينة قال الرازى فالفلك أولا ثم السفينة ثم الجارية اهـ والمرأة المملوكة تسمى أيضا جارية لان شأنها الجرى والسعى فى حوائج سيدها بخلاف الزوجة فهى من الصفات الغالبة والسفينة فعيلة بمعنى فاعلة عند ابن دريد كأنها تسفن الماء وفعيلة بمعنى مفعولة عند غيره بمعنى مسفونة وقوله تعالى (فى البحر) متعلق بالمنشآت وقوله تعالى (كالاعلام) حال اما من الضمير المستكن فى المنشآت واما من الجوارى وكلاهما بمعنى واحد والاعلام الجبال والعلم الجبل الطويل علما على الارض قال القائل

* اذا قطعنا علما بدا لنا علم * وقال آخر

ربما أوفيت فى علم * ترفعن ثوبى شمالات

وقالت الخنساء فى أخيها صخر

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم فى رأسه نار

أى جبل فالسفن فى البحر كالجبال فى البر وجمع الجوارى ووحد البحر وجمع الاعلام اشارة الى عظمة البحر (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) العظمى التى عمت خلقه (تكذبان) أبتلك النعم من خلق مواد السفن والارشاد الى أخذها وكيفية تركيبها واجرائها فى البحر وأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره أم غيرها وقوله تعالى (كل من عليها فان) اى هالك غلب فيه من يعقل على غيره وجميعهم مراد والضمير فى عليها الارض قال بعضهم وان لم يجر لها ذكر كقوله تعالى حتى توارت بالحجاب ورده هذا بانه قد تقدم ذكرها فى قوله تعالى والارض

الجنة (قوله فنحن خلقناهم فلولا تصدقون) اى نهلا تصدقون بأنا خلقناكم

وضعها وقيل الضمير عائد الى الجوارى قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة
هلك أهل الارض فنزل كل شئ هالك الا وجهه فايقنت الملائكة بالهلاك (فان قيل)
الكلام فى تعدد النعم فاين النعمة فى فناء الخلق (أجيب) بانها التسوية بينهم فى الموت والموت
سبب للنقل الى دار الجزاء والثواب (ويبقى) اى بعد فناء الكل بقاء مستمرا الى ما لا نهاية له
(وجه ربك) اى ذاته فالوجه عبارة عن وجود ذاته قال ابن عباس الوجه عبارة عنه
(فان قيل) كيف خاطب الاثنين بقوله فباى آلاء ربكما تكذبان وخاطب ههنا الواحد
فقال ويبقى وجه ربك ولم يقل وجه ربكما (أجيب) بان الاشارة ههنا وقعت الى كل أحد
فقال ويبقى وجه ربك ايها السامع ليعلم كل أحد ان غيره فان ٣ فلو قال ويبقى وجه ربكما ٣ قوله فلو قال الخ يتامل اه مصححه
لكان كل أحد يخرج نفسه ورفيقه المخاطب عن الفناء (فان قيل) فلو قال ويبقى
وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل (أجيب) بان كاف الخطاب فى الرب
اشارة الى اللطف والابقاء اشارة الى القهر والموضع موضع بيان اللطف وتعديد النعم
فلهذا قال بلفظ الرب وكاف الخطاب * ولما ذكر تعالى مباينته للمخلوقات وصف نفسه
بالاحاطة الكاملة فقال تعالى (ذو الجلال) اى العظمة التى لا ترام وهو صفة ذاته التى
تقتضى اجلاله عن كل ما لا يليق به (والاكرام) اى الاحسان العام وهو صفة فعله مع
جلاله وعظمته (فباى آلاء) اى نعم (ربكما) اى المربى لكما على هذا الوجه الذى ما له الى
العدم الى أجل مسمى (تكذبان) أبتلك النعم من بقاء الرب وفناء الكل والحياة الدائمة
والنعيم المقيم أم بغيرها وقوله تعالى (يسأله من فى السموات) اى كلها كلهم (والارض)
كذلك مستأنف وقيل حال من وجه والعامل فيه يبقى أى يبقى مسؤلا من أهل السموات
والارض بلسان الحال أو المقال أو بهما قال ابن عباس وأبو صالح أهل السموات يسألونه
المغفرة ولا يسألونه الرزق وأهل الارض يسألونهما جميعا وقال ابن جريج يسأله الملائكة
الرزق لاهل الارض فكانت المسئلتان جميعا من أهل السماء وأهل الارض لاهل الارض
كما فى الحديث قال القرطبى وفى الحديث ان من الملائكة ملكا له أربعة أوجه وجه كوجه (ان قلت) كيف قال ذلك مع انهم مصدقون بذلك بدليل قوله تعالى ولئن سألتهم
الانسان يسأل الله تعالى الرزق لبنى آدم ووجه كوجه الاسد وهو يسأل الله تعالى الرزق للسباع
ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله تعالى الرزق للبهائم ووجه كوجه النسر وهو يسأل
الله تعالى الرزق للطير وقال ابن عطاء انهم يسألونه القوة على العبادة وقوله تعالى (كل يوم)
منصوب بالاستقرار الذى تضمنه الخبر وهو قوله تعالى (هو فى شان) والشان الامر روى
أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كل يوم هو فى شان قال من شانه أن يغفر ذنبا ويفرج
كربة ويرفع أقواما ويضع آخرين وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يغفر
ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا وقال أكثر المفسرين من شانه أنه يحيى ويميت ويرزق
ويعز قوما ويذل قوما ويشفى قوما ويفرج مكروبا ويجيب داعيا ويعطى سائلا ويغفر
ذنبا الى ما لا يحصى من أفعاله واحداثه فى خلقه ما يشاء وروى البغوى عن ابن عباس رضى
الله عنهما أنه قال ان مما خلق الله عز وجل لوحا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور

وكل آنه نور ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة يخلق و يرزق و يحيى و يميت و يعز و يذل و يفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى كل يوم هو فى شان وقال سفيان بن عيينة الدهر كله عند الله تعالى يومان أحدهما اليوم الذى هو مدة عمر الدنيا فشانه فيه اى فى كل يوم من أيامها الامر و النهى و الاماتة و الاحياء و الاعطاء و المنع و الثانى يوم القيامة وشانه فيه الجزاء والحساب والثواب والعقاب وقال أبو سليمان الدارنى فى هذه الآية له فى كل يوم الى العبيد بر جديد وقال بعض المفسرين شانه تعالى أنه يخرج فى كل يوم وليلة ثلاثة عساكر عسكرا من أصلاب الآباء الى أرحام الامهات وعسكرا من الارحام الى الدنيا وعسكرا من الدنيا الى القبور ثم يرتحلون جميعا الى الله تعالى وقيل نزلت فى اليهود حين قالوا ان الله لا يقضى يوم السبت شيأ وسال بعض الملوك وزيره عن هذه الآية فاستمهله الى الغد وذهب كئيبا يتفكر فيها فقال له غلام أسود يا مولاى أخبرنى ما أصابك لعل الله تعالى يسهل لك على يدى فاخبره فقال أنا أفسرها للملك فاعلمه فقال أيها الملك شان الله تعالى أن يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل و يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحى و يشفى سقيما و يسقم صحيحا و يبتلى معافى و يعافى مبتلى و يعز ذليلا و يذل عزيزا و يفقر غنيا و يغنى فقيرا فقال الامير أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال يا مولاى هذا من شان الله تعالى وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشف لى قوله تعالى فاصبح من النادمين وقد صح أن الندم توبة وقوله تعالى كل يوم هو فى شان وصح أن القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى فما بال الاضعاف قال الحسين يجوز أن لا يكون الندم توبة فى تلك الامة و يكون فى هذه الامة لان الله تعالى خص هذه الامة بخصائص لم تشاركهم فيها الامم وقيل ان ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله وأما قوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى فمعناه انه ليس له الا ما سعى عدلا ولى أن أجزيه بواحدة ألفا فضلا وأما قوله تعالى كل يوم هو فى شان فانها شؤن يبديها لا شؤن يبتديها فقام عبد الله فقبل رأسه وسوغ خراجه (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المدبر لكما هذا التدبير العظيم (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها (سنفرغ لكم) أى سنقصد لحسابكم وجزائكم وقرأ حمزة والكسائى بعد السين بالياء التحتية والباقون بالنون (أيه الثقلان) اى الانس والجن وذلك يوم القيامة فانه تعالى لا يفعل ذلك فى غيره قال القرطبى يقال فرغت من الشغل أفرغ فراغا وفروغا وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلت وليس بالله تعالى شغل يفرغ منه وانما المعنى سنقصد لمجازاتكم ومحاسبتكم فهو وعيد لهم وتهديد قاله ابن عباس والضحاك كقول القائل لمن يريد تهديده اذا أتفرغ لك أى اقصدك وأنشد ابن الانبارى لجرير

الان وقد فرغت الى نمير ● فهذا حين كنت لهم عذابا

يريد وقد قصدت وأنشد الزجاج والنحاس ● فرغت الى العبد المقيد فى الحجل ● وفى حديث

(قلت) هم وان صدقوا من خلقهم ايقولن الله لكن لما كان بالسنجم

النبي صلى الله عليه وسلم انه لما بايع الانصار ليلة العقبة صاح الشيطان يا أهل الجباجب هذا مذمم يبايع بني قيلة على حربكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أزب العقبة أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك اي أقصد الى ابطال أمرك وهذا اختيار الكسائي وغيره قال ابن الاثير الازب في اللغة الكثير الشعر وهو ههنا شيطان اسمه أزب العقبة وهو الحية وقيل ان الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور ثم قال تعالى سنفرغ لكم أيه الثقلان أي مما وعدناكم ونوصل كلا الى ما وعدناه أقسم ذلك وأتفرغ منه قاله الحسن ومقاتل وابن زيد *(تنبيه)* رسم أيه بغير ألف فاذا وقف عليها وقف أبو عمرو والكسائي أيها بالالف ووقف الباقون على الرسم أيه وفي الوصل قرأ ابن عامر أيه برفع الهاء والباقون بنصبها *(فائدة)* سمي الانس والجن بالثقلين لعظم شأنهما بالاضافة الى ما في الارض من غيرهما بسبب التكليف وقيل سموا بذلك لانهما ثقلا الارض أحياء وأمواتا قال الله تعالى وأخرجت الارض أثقالها ومنه قولهم اعطه ثقله اي وزنه وقال بعض أهل المعاني كل شيء له قدر ووزن يتنافس فيه فهو ثقل ومنه قيل لبيض النعام ثقل لان واجده وصائده يفرح به اذا ظفر به وقال جعفر الصادق سميا ثقلين لانهما مثقلان بالذنوب وقيل الثقل الانس لشرفهم وسمي الجن بذلك مجازا للمجاورة والتغليب كالقمرين والعمرين والثقل العظيم الشريف قال صلى الله عليه وسلم اني تارك فيكم ثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي (فبأي آلاء) اي نعم (ربكما) اي المحسن اليكما بهذا الصنيع المحكم (تكذبان) اي أبتلك النعم من اثابة أهل طاعته وعقوبة أهل معصيته أم بغيرها (يا معشر الجن) اي يا جماعة تيم الاهلية والعشرة والتصادق (والانس) اي الخواص والمستأنسين والمأنوسين المبني أمرهم على الاقامة والاجتماع (ان استطعتم) اي وجدت لكم اطاعة التي تكون في (أن تنفذوا) اي تسلكوا باجسامكم وتمضوا من غير مانع يمنعكم (من أقطار) اي نواحي (السموات والارض) هاربين من الله تعالى من أنواع الجزاء بينكم أو عصيانا عليه في قبول أحكامه وجري مراداته وأقضيته عليكم من الموت وغيره وقوله تعالى (فانفذوا) أمر تعجيز والمعنى ان استطعتم أن تجوزوا نواحي السموات والارض فجوزوا واربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا ويعني لا مهرب لكم ولا خروج لكم عن ملك الله تعالى أينما تولوا فثم ملك الله عز وجل (فان قيل) ما الحكمة في تقديم الجن على الانس ههنا وتقديم الانس على الجن في قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن (أجيب) بان النفوذ من أقطار السموات والارض بالجن أليق ان أمكن والاتيان بمثل القرآن بالانس أليق ان أمكن فقدم في كل موضع ما يليق به (فان قيل) لم جمع في قوله تعالى سنفرغ لكم وفي قوله تعالى ان استطعتم وثنى في قوله أيه الثقلان (أجيب) بانهما فريقان في حال الجمع كقوله تعالى فاذا هم فريقان يختصمون وهذان خصمان اختصموا في ربهم (لا تنفذون) أي لا تقدرون على النفوذ (الا بسلطان) أي الا بقوة وقهر وأنى لكم ذلك وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال معناه ان استطعتم أن تعلموا ما في السموات والارض فاعلموا ولن تعلموا الا بسلطان اي بينة من الله تعالى *(تنبيه)* في هذه الآيات والتي في الاحقاف وفي قل أوحي دليل على أن الجن

نعمهم خلاف ما يقتضيه التصديق كانوا كأنهم يكذبون أو أن ذلك

مكلفون مخاطبون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالانس سواء مؤمنهم كمؤمنهم وكافرهم ككافرهم (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المحسن اليكما لمربي لكما بما تعرفون به قدرته على ما يريد (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها وقال البغوى وفى الخبر يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون يا معشر الجن والانس ان استطعتم الآية فذلك قوله تعالى (يرسل عليكما) أى أيها المعاندون قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حين يخرجون من القبور يسوقهم الى المحشر (شواظ من نار) قال مجاهد هو اللهب الاخضر المنقطع من النار وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو اللهب الخالص الذى لا دخان له وقال الضحاك هو الدخان الذى يخرج من اللهب ليس كدخان الحطب وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما اذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ الى المحشر وقيل هو اللهب الاحمر وقال عمرو هو النار والدخان جميعا وحكاه الاخفش عن بعض العرب قال حسان

هجوتك فاختضعت لها بذل * بقافية تأجج كالشواظ

وقرأ ابن كثير بكسر الشين والباقون بضمها وهما لغتان بمعنى واحد مثل صوار من البقر وصوار وهو القطيع من البقر واختلف فى قوله سبحانه وتعالى (ونحاس) فقيل هو الصفر المعروف يذيبه الله تعالى ويعذبهم به وقيل هو الدخان الذى لا لهب معه قاله الخليل وهو معروف فى كلام العرب وأنشد الاعشى

تضىء كضوء سراج السليـ ـط لم يجعل الله فيه نحاسا

وقال ابن برجان والعرب تسمى الدخان نحاسا بضم النون وكسرها وأجمع القراء على ضمها اه وقال الضحاك هو دردى الزيت المغلى وقال الكسائى التى لها ريح شديد (فلا تنتصران) أى فلا تمتنعان ولا ينصر بعضكم بعضا من ذلك بل يسوقكم الى المحشر (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المدبر لكما هذا التدبير المتقن (تكذبان) أبتلك النعم فان التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصى بالجزاء والانتقام من الكفار فى عداد الآلاء أم بغيرها (فاذا انشقت السماء) أى انفرجت فكانت أبوابا لنزول الملائكة (فكانت وردة) أى محمرة مثل الوردة (كالدهان) أى كالاديم الاحمر على خلاف العهد بها لشدة حر نار جهنم وقال مجاهد والضحاك وغيرهما الدهان الدهن والمعنى صارت فى صفاء الدهن والدهان على هذا جمع دهن وقال سعيد بن جبير وقتادة المعنى تصير فى حمرة الورد وجريان الدهن أى تذوب مع جريان الدهن حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها وقال الحسن كصب الدهن فانك اذا صببته ترى فيه ألوانا وجواب اذا فما أعظم الهول (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الخالق والرازق لكما (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما يكون بعد ذلك (فيومئذ) أى فتسبب عن يوم اذ انشقت السماء أنه (لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان) اى سؤال تعرف واستعلام بل سؤال تقريع وتوبيخ وملام وذلك أنه لا يقال له هل فعلت كذا بل يقال له لم فعلت كذا على ان ذلك اليوم طويل وهو ذو ألوان تارة يسئل فيه وتارة لا يسئل والامر فى غاية الشدة وكل لون من تلك الالوان يسمى يوما فيسئل فى بعض ولا يسئل فى بعض وقيل المعنى لا يسئلون اذا استقروا فى النار وقال

تحضيض على التصديق بالبعث بعد الموت بالاستدلال بالخلق الاول فكأنه

الحسن وقتادة لا يسئلون عن ذنوبهم لأن الله تعالى حفظها عليهم وكتبتها الملائكة رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن الحسن ومجاهد لا تسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم دليله قوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم ورواه مجاهد عنه أيضا في قوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين وقوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان قال لا يسألهم ليعرف ذلك منهم ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ وقال أبو العالية لا يسئل غير المجرم عن ذنب المجرم وقال قتادة يسئلون قبل الختم على أفواههم ثم يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم شاهدة عليهم * (تنبيه) * الجان هنا وفيما يأتي بمعنى الجني والانس بمعنى الانسي (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي الذي ربى كلا منكم بما لا مطمع في انكاره ولا خفاء فيه (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما أنعم الله تعالى على عباده المؤمنين في هذا اليوم (يعرف) أي لكل أحد (المجرمون) أي العريقون في هذا الوصف (بسيماهم) أي العلامات التي صور الله تعالى ذنوبهم فيها فجعلها ظاهرة بعد أن كانت باطنة وظاهرة الدلالة عليهم كما يعرف الآن الليل إذا جاء لا يخفى على أحد أصلا وكذا النهار وضوؤهما لغير الأعمى قال البقاعي وتلك السيما والله أعلم زرقة العيون وسواد الوجوه والعمى والصمم والمشي على الوجوه ونحو ذلك وكما يعرف المحسنون بسيماهم من بياض الوجوه واشراقها وتبسمها والغرة والتحجيل ونحو ذلك وسبب عن هذه المعرفة قوله تعالى مشيرا بالبناء للمفعول الى سهولة الأخذ من أي آخذ كان (فيؤخذ بالنواصي) أي منهم وهي مقدمات الرؤس (والأقدام) بعد أن يجمع بينهما فيسحبون بهما سحبا من كل ساحب أقامه الله تعالى لذلك لا يقدرون على الامتناع بوجه فيلقون في النار وقال الضحاك يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره وعنه يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى في النار ويفعل بالكافر ذلك ليكون أشد لعذابه وقيل تسحبه الملائكة الى النار تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على وجهه (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المنعم عليكما الذي دبر مصالحكم بعد أن أوجدكم (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما وعد أن يفعل من الجزاء في الآخرة لكل شخص بما كان يعمل في الدنيا وغير ذلك من الفضل (هذه جهنم) أي يقال لهم إذا قربوا منها هذه جهنم (التي يكذب) أي ماضيا وحالا ومآلا استهانة ولو ردوا الى الدنيا بعدما شاهدوها لعادوا لما نهوا عنه (بها المجرمون) أي المشركون الحقيقون بالاجرام وهو قطع ما من حقه أن يوصل وهو ما أمر الله تعالى به وخص هذا الاسم اشارة الى أنها تلقاهم بالتجهم والعبوسة والكلاحة والفظاعة كما كانوا يفعلون مع الصالحين عند الاجرام المذكور (يطوفون بينها) أي بين دركات النار (وبين حميم آن) أي حار متناه في الحرارة وهو منقوص كقاض يقال أنى يأني فهو آن كقضى يقضي فهو قاض والمعنى أنهم يسعون بين الجحيم والحميم فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآن الذي صار كالمهل وهو قوله تعالى وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل وقال كعب الأحبار واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى لهم خلقا جديدا فيلقون في النار فذلك قوله تعالى

قال هو خلقكم أولا باعترافكم فلا يمتنع عليه أن يعيدكم ثانيا فهلا

يطوفون

يطوفون بينها وبين حميم آن (فان قيل) هذه الامور ليست نعمة فكيف قال عز وجل (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المحسن اليكما أيها الثقلان اليكما (تكذبان) (أجيب) من وجهين أحدهما أن ما وصف من هول يوم القيامة وعقاب المجرمين فيه زجر عن المعاصي وترغيب في الطاعات وهذا من أعظم النعم روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى على شاب يقرأ في الليل فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول ويحي من يوم تنشق فيه السماء ويحي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ويحك يا فتى منها فوالذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء من بكائك الثاني أن المعنى ان كذبتم بالنعمة المتقدمة استحققتم هذه العقوبات وهي دالة على الايمان بالغيب وهو من أعظم النعم • ولما عرف ما للمجرم المجترئ على العظائم وقدمه لما اقتضاه مقام التكذيب من الترهيب وجعله سابعا اشارة الى أبواب النار السبع عطف عليه ما للخائف الذي اداه خوفه الى الطاعة وجعله ثامنا على عدد أبواب الجنة الثمانية فقال تعالى (ولمن خاف) أي من الثقلين ووحد الضمير مراعاة للفظ من اشارة الى قلة الخائفين (مقام ربه) أي قيامه بين يدي ربه للحساب بترك المعصية والشهوة قال القرطبي ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف الى الله تعالى وهو كالاجل في قوله تعالى فاذا جاء أجلهم وقوله تعالى في موضع آخر ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر وقال مجاهد هو الذي يهم بالمعصية فيذكر الله تعالى فيدعها من مخافته عز وجل (جنتان) أي لكل خائف جنتان على حدة قال مقاتل جنة عدن وجنة النعيم وقال محمد ابن علي الترمذي جنة بخوف ربه وجنة بترك شهوته وقال ابن عباس من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض وقيل جنتان لجميع الخائفين وقيل جنة لخائف الانس واخرى لخائف الجن فيكون من باب التوزيع وقيل مقام هنا مقحم كما تقول أخاف جانب فلان وفعلت هذا لمكانك وانشد ونفيت عنه • مقام الذئب كالرجل اللعين يريد ونفيت عنه الذئب قال ابن عادل وليس بجيد لان زيادة الاسم ليست بالسهلة وقيل ان الجنتين جنته التي خلقت له وجنة ورثها وقيل احدى الجنتين منزله والاخرى منزل أزواجه كما يفعل رؤساء الدنيا وقيل احدى الجنتين مسكنه والاخرى بستانه وقيل احدى الجنتين اسافل القصور والاخرى أعاليها وقال الفراء انها جنة واحدة وانما ثنى مراعاة لرؤس الآي وانكر القتيبي هذا وقال لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وانما قال تسعة عشر مراعاة لرؤس الآي وقيل جنة واحدة وانما ثنى تأكيدا كقوله تعالى ألقيا في جهنم وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله تعالى الجنة أخرجه الترمذي قوله أدلج الادلاج مخففا السير أول الليل ومثقلا السير آخر الليل والمراد من الادلاج التشمير والجد والاجتهاد في أول الامر فان من سار في أول الليل كان جديرا ببلوغ المنزل روى البغوي بسنده عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص على المنبر وهو يقول ولمن خاف مقام ربه جنتان قلت وان زنى وان سرق يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت الثانية وان زنى وان سرق يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الثالثة ولمن خاف مقام ربه جنتان

أي يدعون بذلك (قوله أفرأيتم ما تمنون أفرأيتم ما تحرثون أفرأيتم الماء الذي

قالت الثالثة وان زنى وان سرق يارسول الله قال وان زنى وان سرق على رغم انف أبي الدرداء
•(فائدة)• قال القرطبي في هذه الآية دليل على أن من قال لزوجته أن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق انه لا يحنث ان كان هم بالمعصية وتركها خوفا من الله تعالى وحياء منه وقاله سفيان الثوري وأفتى به هذا ومذهب الشافعي أنه لا يحنث اذا كان مسلما أو مات على الاسلام وقال عطاء نزلت هذه الآية في أبي بكر حين ذكر ذات يوم الجنة حين أزلفت والنار حين أبرزت وقال الضحاك بل شرب ذات يوم لبنا على ظما فأعجبه فسأل عنه فأخبر عنه أنه من غير حل فاستقاء ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر اليه فقال رحمك الله لقد أنزلت فيك آية وتلا عليه الآية (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) المربي لكما باحسانه الكبار التي لا يقدر أحد على شيء منها (تكذبان) أبتلك النعمة أم بغيرها من نعمه التي لا تحصى ثم وصف الجنتين بقوله تعالى (ذواتا) أي صاحبتا أو خبر لمبتدا محذوف أي هما ذواتا وفي تثنية ذات لغتان الرد الى الاصل فان أصلها ذوية فالعين واو واللام ياء لانها مؤنثة ذو والثانية التثنية على اللفظ فيقال ذاتا وقوله تعالى (أفنان) فيه وجهان أحدهما أنه جمع فنن كطلل وهو الغصن المستقيم طولا لا تكون به الزينة بالورق والثمر وكمال الانتفاع قال النابغة الذبياني

بكاء حمامة تدعو هديلا • مفجعة على فنن تغني

وفي الحديث أهل الجنة مرد مكحولون أولو أفانين يريد الافانين وهو جمع أفنان وأفنان جمع فنن من الشعر شبه بالغصن ذكره الهروي وقال قتادة ذواتا أفنان أي ذواتا سعة وفضل على سواهما والوجه الثاني أنه جمع فن واليه أشار ابن عباس والمعنى ذواتا أنواع وأشكال وقال الضحاك ألوان من الفاكهة واحدها فن الا ان الكثير في فن أن يجمع على فنون وقال عطاء كل غصن فنون من الفاكهة ولذا سبب عنه قوله تعالى (فبأي آلاء) اى نعم (ربكما) أي المحسن لكما والمدبر لكما (تكذبان) أبتلك النعم من وصف الجنة الذي جعل لكم من أمثاله ما تعتبرون به أم بغيرها ولما كانت الجنان لا تقوم الا بالانهار قال تعالى (فيهما عينان تجريان) أي في كل واحدة منهما عين جارية قال ابن عباس تجريان ماء الزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة وعن ابن عباس أيضا والحسن تجريان بالماء الزلال احدى العينين التسنيم والاخرى السلسبيل وقال عطية احداهما من ماء غير آسن والاخرى من خمر لذة للشاربين وقيل تجريان من جبل من مسك قال أبو بكر الوراق فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل فتجريان في أي مكان شاء صاحبهما وان علا مكانه كما تصعد المياه في الاشجار في كل غصن منها وان زاد علوها (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المالك لكما والمحسن اليكما (تكذبان) أبتلك النعم التي ذكرها وجعل لها في الدنيا أمثالا كثيرة أم بغيرها (فيهما) أي الجنتين (من كل فاكهة) أي تعلمونها أو لا تعلمونها (زوجان) أي صنفان ونوعان قيل معناه أن فيهما من كل ما يتفكه به ضربين رطبا ويابسا وقال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة الا وهي في الجنة حتى الحنظل الا أنه حلو (فان قيل) قوله تعالى ذواتا أفنان وفيهما عينان تجريان وفيهما من كل فاكهة زوجان كلها أوصاف للجنتين فما الحكمة في فصل بعضها عن بعض بقوله تعالى فبأي آلاء ربكما تكذبان

تشربون أفرأيتم النار التي تورون) بدأ بذكر خلق الانسان ثم بما لا غنى له

مع أنه تعالى لم يفصل حين ذكر العذاب بين الصفات بل قال تعالى يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران مع أن ارسال الشواظ غير ارسال النحاس (أجيب) بانه تعالى جمع العذاب جملة وفصل آيات الثواب ترجيحا لجانب الرحمة على جانب العذاب وتطييبا للقلب وتهييجا للسامع فان اعادة ذكر المحبوب وتطويل الكلام في اللذات مستحسن (فان قيل) فما وجه توسط آية العينين بين ذكر الافنان وآية الفاكهة والفاكهة انما تكون على الاغصان فالمناسبة ان لا يفصل بين آية الاغصان والفاكهة (أجيب) بان ذلك على عادة المتنعمين اذا خرجوا متفرجين في البستان فأول قصدهم الفرجة بالخضرة والماء ثم يكون الاكل تبعا (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) التي ادخرها الموجد لكما المحسن اليكما (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما فوضه اليكم من سائر النعم التي لا تحصى * ولما كان التفكه لا يكمل حسنه الا مع التنعم من طيب الفرش وغيره قال تعالى مخبرا عن هؤلاء الذين يخافون مقام ربهم (متكئين) أى لهم ما ذكر حال الاتكاء والعامل في الحال محذوف أى يتنعمون متكئين (على فرش) وعظمها بقوله تعالى مخاطبا للمكلفين بما يحتمل عقولهم والا فليس في الجنة ما يشبهه على الحقيقة شئ من الدنيا (بطائنها من استبرق) وهو ما غلظ من الديباج قال ابن مسعود وأبو هريرة اذا كانت البطائن التي تلي الارض هكذا فما ظنك بالظهائر وقيل لسعيد بن جبير البطائن من استبرق فما الظواهر قال هذا مما قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقال ابن عباس انما وصف لكم بطائنها لتهتدي اليه قلوبكم فاما الظواهر فلا يعلمها الا الله تعالى ونظير ذلك في الجنة قوله تعالى عرضها السموات والارض وأما الطول فلا يعلمه الا الله عز وجل لكن قال القرطبي وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ظواهرها نور يتلألأ وقيل الظهائر من سندس وعن الحسن البطائن هي الظواهر وهو قول الفراء وروي عن قتادة والعرب تقول للبطن ظهرا فيقولون هذا بطن السماء وظهر الارض فقال الفراء قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة لان كل واحد منهما يكون وجها والعرب تقول هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء لظاهرها الذي نراه وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا وقالوا لا يكون هذا الا في الوجهين المتساويين اذا ولي كل واحد منهما قوما كالحائط بينك وبين قوم وعلى أديم السماء وقال ابن عباس وصف البطائن وترك الظواهر لانه ليس في الارض أحد يعرف ما الظواهر *(تنبيه)* قال الرازي الاستبرق معرب وهو الديباج الثخين أى وهذا ومثله لا يخرج القرآن عن كونه عربيا لان العربي ما نطقت به العرب وضعا واستعمالا من لغة غيرها وذلك كله سهل عليهم وبه يحصل الاعجاز بخلاف ما لم يستعملوه من كلام العجم لصعوبته عليهم وذكر الاتكاء لانه حال الصحيح الفارغ القلب المتنعم البدن بخلاف المريض والمهموم (وجنى الجنتين) أى ثمرهما (دان) أى قريب قال ابن عباس تدنو الشجرة حتى يجنيها ولي الله تعالى ان شاء قائما وان شاء قاعدا وان شاء مضطجعا وقال قتادة لا يرد يده بعد ولا شوك قال الرازي جنة الآخرة مخالفة لجنة الدنيا من ثلاثة أوجه أحدها أن الثمرة على رؤس الشجر في الدنيا بعيدة على الانسان المتكئ وفي الجنة هو متكئ والثمرة تتدلى اليه وثانيها ان الانسان في الدنيا يسعى الى الثمرة ويتحرك اليها وفي الآخرة هي تدنو اليهم وتدور عليهم وثالثها أن الانسان في الدنيا اذا قرب من ثمرة شجرة بعد عن غيرها وثمار الجنة كلها تدنو اليهم في وقت واحد ومكان واحد (فبأى آلاء) أى

عنه وهو الحب الذي منه دونه ثم بالماء الذي به سبوغه وعجنه ثم بالنار التي بها نضجه

نعم (ربكما) أى المربى لكما الذى يقدر على كل ما يريده (تكذبان) أمن قدرته على عطف الاغصان وتقريب الثمار أم من غيرها ولما كان ما ذكر لا تتم نعمته الا بالنسوان الحسان قال تعالى (فيهن) أى الجنان التى علم مما مضى ان لكل فرد من الخائفين منها جنتين فصح الجمع وقال الزمخشرى فيهن فى هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى أو فى الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس اه قال أبو حيان وفيه أى الاول بعد لان الاستعمال أن يقال على الفراش كذا ولا يقال فى الفراش كذا الا بتكلف ولذلك جمع الزمخشرى مع الفرش غيرها حتى صح له أن يقول ذلك وقيل يعود على الجنتين لان أقل الجمع اثنان وقال الفراء كل موضع فى الجنة جنة فلذلك صح أن يقال فيهن (قاصرات الطرف) أى الاعين على أزواجهن المتكئين من الانس والجن قال الرازى وقوله قاصرات الطرف أى نساء أو أزواج فحذف الموصوف لنكتة وهى أنه تعالى لم يذكرهن باسم الجنس وهو النساء بل بالصفات فقال تعالى حور عين كواعب أترابا قاصرات الطرف حور مقصورات ولم يقل نساء عربا ولا نساء قاصرات لوجهين اما على عادة العظماء كبنات الملوك انما يذكرن باوصافهن واما لانهن لما كان كانهن خرجن عن جنسهن وقوله تعالى قاصرات الطرف يدل على عفتهن وعلى حسن المؤمنين فى أعينهن فيحببن أزواجهن حبا شديدا يشغلهن عن النظر الى غيرهم قال ابن زيد تقول لزوجها وعزة ربى ما أرى فى الجنة أحسن منك فالحمد لله الذى جعلك زوجى وجعلنى زوجك ويدل أيضا على الحياء لان الطرف حركة الجفن والحيية لا تحرك جفنها ولا ترفع رأسها (تنبيه) انظر الى حسن هذا الترتيب فانه تعالى بين اولا المسكن وهو الجنة ثم بين ما يتنزه به وهو البستان والاعين الجارية ثم ذكر المأكول فقال تعالى فيهما من كل فاكهة ثم ذكر موضع الراحة بعد الاكل وهو الفراش ثم ذكر ما يكون فى الفراش معه ولما كان الاختصاص بالشئ من أعظم اللذات لاسيما المرأة قال تعالى (لم يطمثهن) أى لم يجامعهن ويتسلط عليهن يقال طمثت المرأة كضرب وفرح حاضت وطمثها الرجل افتضها وأيضا جامعها (انس قبلهم) أى المتكئين (ولا جان) فكانه قال هن أبكار لم يخالطهن أحد فان هذا جمع كل من يمكن منه جماع وفى ذلك دليل على أن الجنى يغشى كما يغشى الانسى ويدخل الجنة ويكون لهم فيها جنيات قال ضمرة للمؤمنين منهم أزواج من الحور فالانسيات للانس والجنيات للجن وقال مقاتل لانهن خلقن فى الجنة فعلى قوله يكونون من حور الجنة وقال الشعبى من نساء الدنيا لم يمسسهن منذ أنشئن خلق وهو قول الكلبى أى لم يجامعهن فى هذا الخلق الذى أنشئن فيه انس ولا جان وأما فى الدنيا فقال مجاهد اذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجنى على احليله فيجامع معه وقال القرطبى لم يطمثهن لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد وهذا شامل لنساء الجنة ولنساء الدنيا بعد انشائهن خلقا جديدا وقرأ الكسائى يطمثهن بضم الميم فى الموضعين بخلاف عنه وتخييرا فى أحدهما وهما لغتان يقال طمثها يطمثها ويطمثها اذا جامعها (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المدبر لمصالحكما (تكذبان) اى باى نوع من انواع هذا الاحسان ام غيره (كأنهن الياقوت) اى صفاء (والمرجان) اى اللؤلؤ بياضا والياقوت جوهر نفيس يقال ان النار لا تؤثر فيه والمرجان صغار اللؤلؤ واشده بياضا وقيل شبه لونهن ببياض اللؤلؤ مع حمرة

وصلاحه وذكر عقب كل من الثلاثة الاولى ما يفسده فقال فى الاولى نحن قدرنا

الياقوت لان احسن الالوان البياض المشرب بحمرة قال ابن الخازن والاصح انه شبههن بالياقوت لصفائه فانه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استضأته لرأيت السلك من ظاهره لصفائه قال عمرو بن ميمون ان المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من وراء الحلل كما يرى الشراب الاحمر من الزجاجة البيضاء يدل على صحة ذلك ما روى عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك لان الله تعالى يقول كأنهن الياقوت والمرجان فاما الياقوت فانه حجر لو ادخلت فيه سلكا ثم استضأته لرأيته من ورائه وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر زاد في رواية ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى في السماء اضاءة لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ومجامرهم الالوة أي بخور رهم العود ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب رجل واحد (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المالك المالك المربي بدائع التربية (تكذبان) أبما جعله مثالا لما ذكر من وصفهن أم بغيره (هل جزاء الاحسان) اي بالطاعة من الانس والجن وغيرهما (الا الاحسان) أي بالثواب وقال ابن عباس هل جزاء من قال لا اله الا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم الا الجنة وعن أنس بن مالك قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هل جزاء الاحسان الا الاحسان ثم قال أتدرون ما قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد الا الجنة وروى الواحدي بغير سند عن ابن عمر وابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية يقول الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي الا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) الكريم الرحيم الجامع لاوصاف الكمال (تكذبان) أبشيء من هذه النعم الجزيلة أم بغيرها (ومن دونهما) أي من أدنى مكان ورتبة تحت جنتي هؤلاء المحسنين المقربين (جنتان) أي لكل واحد من دون هؤلاء المحسنين من الخائفين وهم أصحاب اليمين وقال أبو موسى الاشعري جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين وقال ابن جريج هي أربع جنان جنتان للمقربين السابقين فيهما من كل فاكهة زوجان وجنتان لاصحاب اليمين والتابعين فيهما فاكهة ونخل ورمان وقال الكسائي ومن دونهما أي أمامهما وقبلهما يدل عليه قول الضحاك الجنتان الاوليان من ذهب وفضة والاخريان من ياقوت وعلى هذا فهما أفضل من الاوليين والى هذا القول ذهب ابو عبد الله الترمذي الحكيم في نوادر الاصول وقال ومعنى ومن دونهما جنتان اى دون هذا الى العرش اى اقرب وادنى الى العرش وقال مقاتل الجنتان الاوليان جنة عدن وجنة النعيم والاخريان جنة الفردوس وجنة المأوى (فبأي آلاء) اى نعم (ربكما) اى المحسن بنعمه لجميع خلقه (تكذبان) أبشيء مما تفضل به عليكم أم بغيره ثم وصف تلك الجنتين بقوله تعالى (مدهامتان) قال ابن عباس رضي الله عنهما خضراوان وقال مجاهد سوداوان لان الخضرة اذا اشتدت تضرب الى السواد وهذا مشاهد بالنظر ولذلك قالوا سواد العراق لكثرة شجره وزرعه والارض اذا اخضرت غاية الخضرة تضرب الى سواد قال الرازي

بينكم الموت وفى الثانية لو نشاء لجعلناه حطاما وفى الثالثة لو نشاء جعلناه

والتحقيق فيه ان ابتداء الالوان هو البياض وانتهاءها هو السواد فان الابيض يقبل كل لون والاسود لا يقبل شيأ من الالوان (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن اليكما بالرزق وغيره (تكذبان) أبشئ من تلك النعم أم بغيرها ثم وصف تلك الجنتين أيضا بقوله تعالى (فيهما) أى فى جنتى كل شخص منهم (عينان نضاختان) قال ابن عباس أى فوارتان بالماء والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة لان النضح بالمهملة الرشح والرش وبالمعجمة فوران الماء وقال مجاهد المعنى نضاختان بالخير والبركة وعن ابن مسعود تنضخ على أولياء الله تعالى بالمسك والكافور والعنبر فى دور أهل الجنة كما ينضخ رش المطر وقال سعيد بن جبير بانواع الفواكه والماء (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المربى البالغ الحكمة فى التربية (تكذبان) أبتلك النعمة أم بغيرها ثم وصف الجنتين أيضا بقوله تعالى (فيهما فاكهة) وخص أشرفها وأكثرها وجودا فى الخريف والشتاء كما فى جنان الدنيا التى جعلت مثالا لها تين بقوله تعالى (ونخل ورمان) فان كلا منهما فاكهة وادام فلهذا خصا بالذكر بيانا وتنبيها على ما فيهما من التفكه وأولهما أعم نفعا وأعجب خلقا ولذا قدمه فعطفهما على الفاكهة من باب ذكر الخاص بعد العام تفضيلا له كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال وقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقال بعض العلماء ليس ذلك من الفاكهة ولهذا قال أبو حنيفة اذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطبا أو رمانا لم يحنث وخالفه صاحباه وقال القرطبى وقيل انما كررهما لان النخل والرمان كانا عندهم فى ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا لان النخل عامة قوتهم والرمان كالثمرات فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم اليه وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التى يعجبون بها فانما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة الى مكة الى ما والاها من أرض اليمن فاخرجهما من الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها وقيل أفردا بالذكر لان النخل ثمره فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه قال البغوى وعن ابن عباس قال نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وورقها ذهب احمر وسعفها كسوة اهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال والدلاء أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم وروى أن الرمانة من رمان الجنة مثل جلد البعير المقتب وقيل ان نخل الجنة نضيد وثمرها كالقلال كلما نزعت عادت مكانها أخرى العنقود منها اثنا عشر ذراعا (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المحسن الى الثقلين بجليل التربية (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما أحسن به اليكم (فيهن) أى الجنان الاربع أو الجنتين وقصورهما (خيرات حسان) أى نساء الواحدة خيرة على معنى ذوات خير وقيل خيرات بمعنى خيرات فخفف كهين ولين روى الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أخبرنى عن قوله تعالى خيرات حسان قال خيرات الاخلاق حسان الوجوه وقال أبو صالح لانهن عذارى ابكار قال الحكيم الترمذى فالخيرة ما اختارهن الله تعالى فابدع خلقهن باختياره فاختيار الله تعالى لا يشبه اختيار الآدميين فوصفهن بالحسن فاذا وصف الله تبارك وتعالى خالق الحسن شيأ بالحسن فانظر ما هنالك وقال الرازى فى باطنهن الخير وفى ظاهرهن الحسن (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الكامل

أجاجا ولم يقل فى الرابعة مايفسدها بل قال نحن جعلناها تذكرة يعقلون

الاحسان اليكما (تكذبان) أبنعمة ما جعل لكم من انواع الفواكه أم غيرها ثم زاد في وصفهن بقوله تعالى (حور) جمع حوراء وهي الشديدة سواد العين الشديدة بياضها (مقصورات) والمقصورات المحبوسات المستورات (في الخيام) وهي الحجال فلسن بالطوافات في الطرق قاله ابن عباس والنساء تمدح بملازمتهن البيوت كما قال قيس بن الاسلت

وتكسل عن جيرانها فيزرنها ❊ وتعتل من اتيانهن فتعذر

ويقال امرأة مقصورة وقصيرة وقصورة بمعنى واحد قال كثير عزة

وأنت التي حببت كل قصيرة ❊ الي ولم يعلم بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد ❊ قصار الخطا شر النساء البحاتر

والخيام جمع خيمة وهي أربعة أعواد تنصب وتسقف بشيء من نبات الارض وجمعها خيم كتمرة وتمر وتجمع الخيم على خيام فهو جمع الجمع وأما ما يتخذ من شعر أو وبر أو نحوه فيقال له خباء وقد يطلق عليه خيمة تجوزا وقال عمر الخيمة درة مجوفة وقاله ابن عباس قال وهي فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وفي الحديث ان في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي قال بلغنا أن سحابة أمطرت من العرش فخلقن أي الحور العين من قطرات الرحمة ثم ضرب على كل واحدة خيمة على شاطئ الانهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب حتى اذا دخل ولي الله تعالى بالخيمة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها فهي مقصورة قد قصرها الله عن أبصار المخلوقين وقال مجاهد معناه قصرن اطرافهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يبغين بدلا وقال صلى الله عليه وسلم لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على أهل الارض لاضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها (فائدة) اختلفوا أيما أكثر حسنا وأتم جمالا الحور أم الآدميات فقيل الحور لما ذكر في وصفهن في القرآن والسنة ولقوله صلى الله عليه وسلم في دعائه في صلاة الجنازة وأبدله زوجا خيرا من زوجه وقيل الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف وروي ذلك مرفوعا وقيل ان الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يخلقن في الآخرة على أحسن صورة قاله الحسن البصري قال ابن عادل والمشهور ان الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا انما هن مخلوقات في الجنة لان الله تعالى قال لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات اه لكن مر أنه لم يطمثهن بعد انشائهن خلقا آخر وعلى هذا لا دليل في ذلك (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) الذي صوركم فأحسن صوركم (تكذبان) أبهذه النعم أم بغيرها (لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان) كحور الجنتين الاوليين وضمير هم في قبلهم لاصحاب الجنتين (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) الذي جعل لكم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (تكذبان) أبهذه النعم أم بغيرها (متكئين) أي لهم ما ذكر حالة الاتكاء والعامل في الحال محذوف أي ينعمون متكئين (على رفرف) أي ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج لينة ووسائد عظيمة ورياض باهرة وبسط لها أطراف فاضلة وهو جمع رفرفة لان الله تعالى

بها ومتاعا له مقوين أي
للمسافرين ينتفعون بها
(قوله لونشاء جعلناه

وصفه بالجمع بقوله تعالى (خضر) ووصفه بذلك لان الخضرة أحسن الالوان وأبهجها وقال الجوهرى هو ثياب خضر تتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة واشتقاقه من رف الطائر أى ارتفع فى الهواء ورفرف بجناحيه اذا نشرهما للطيران وقيل الرفرف طرف الفسطاط والخباء الواقع على الارض دون الاطناب والاوتاد وفى الخبر فى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة أى رفع طرف الفسطاط وقال الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول الرفرف أعظم خطرا من الفرش فذكر فى الاولين متكئين على فرش بطائنها من استبرق وقال هنا متكئين على رفرف خضر فالرفرف هو مستقر الولى على شئ اذا استوى عليه الولى رفرف به أى طار به حيثما يريد كالمرجاح وروى فى حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به الى سند العرش فذكر أنه قال طار بى يخفضنى ويرفعنى حتى وقف بى على ربى أى فى محل تنزلات رحمة ربى ثم لما جاء الانصراف تناوله فطار به خفضا ورفعا يهوى به حتى أداه الى جبريل عليه السلام فالرفرف خادم من الخدم بين يدى الله تعالى له خواص الامور من الدنو والقرب كما أن البراق دابة تركبها الانبياء عليهم السلام مخصوصة بذلك وهذا الرفرف الذى سخر لاهل الجنتين الدانيتين هو متكؤهما وفرشهما يرفرف بالولى على حافات تلك الانهار حيث يشاء الى خيام أزواجه وقوله تعالى (وعبقرى) منسوب الى عبقر تزعم العرب انه اسم بلد الجن فينسبون اليه كل شئ عجيب قال فى القاموس عبقر موضع كثير الجن وقرية ثيابها فى غاية الحسن والعبقرى الكامل من كل شئ وقال الخليل هو كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم وقال قطرب ليس هو من المنسوب بل هو بمنزلة كرسى وبختى اه والمراد به الجنس ولذلك قال تعالى (حسان) حملا على المعنى أى هى فى غاية من كمال الصنعة وحسن المنظر لا توصف (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المحسن الواحد الذى لا محسن غيره ولا احسان الا منه (تكذبان) أبشئ من هذه النعم ام بغيرها • ولما دل ما ذكر فى هذه السورة من النعم على احاطة مبدعها باوصاف الكمال وختم نعم الدنيا بقوله تعالى ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام وفيه اشارة الى أن الباقى هو الله تعالى وأن الدنيا فانية ختم نعيم الآخرة بقوله عز من قائل (تبارك) قال ابن برجان تفاعل من البركة ولا يكاد يذكره جل ذكره الا عند أمر معجب اه ومعناه ثبت ثباتا لا تسع العقول وصفه • ولما كان تعظيم الاسم أبلغ فى تعظيم المسمى قال تعالى (اسم ربك) أى المحسن اليك بانزال هذا القرآن الذى جبلت على متابعته فصرت مظهراله وصار خلقك فصار احسانه اليك فوق الوصف وقيل لفظ اسم زائد وجرى عليه الجلال المحلى والاول اولى (ذى الجلال) أى العظمة الباهرة (والاكرام) قال القرطبى كأنه يريد به الاسم الذى افتتح به السورة فقال الرحمن فافتتح بهذا الاسم فوصف خلق الانسان والجن وخلق السموات والارض وصنعه وانه تعالى كل يوم هو فى شان ووصف تدبيره فيهم ثم وصف يوم القيامة وأهوالها وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان ثم قال فى آخر السورة تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام أى هذا الاسم الذى افتتح به هذه السورة كأنه يعلمهم ان هذا كله خرج لكم من رحمتى فمن رحمتى خلقتكم

حطاما ذكر فى جواب لو
فى الزرع اللام علا بالاصل
وحذفها منه فى الماء

وخلقت لكم السماء والارض والخليقة والجنة والنار فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه فقال تعالى تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام أي جليل في ذاته كريم في أفعاله وقرأ ابن عامر بالواو رفعا صفة للاسم والباقون بالياء خفضا صفة لرب فانه هو الموصوف بذلك روى الثعلبي عن علي أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لكل شئ عروس وعروس القرآن سورة الرحمن جل ذكره وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه حديث موضوع

سورة الواقعة مكيه

في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء وقال ابن عباس وقتادة الا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون وقال الكلبي مكية الا أربع آيات منها آيتان أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون نزلتا في سفره الى مكة وقوله تعالى ثلة من الاولين وثلة من الآخرين نزلتا في سفره الى المدينة وقدمنا أن في المدني والمكي اصطلاحين وان المشهور ان المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها وهي ست وتسعون آية قال الجلال المحلي وهي ست او سبع او تسع وتسعون آية اهـ وثلثمائة وثمان وتسعون كلمة والف وسبعمائة وثلاثة احرف

(بسم الله) الذي له الكمال كله فتفاوت بين الناس في الاحوال (الرحمن) الذي عم بنعمة البيان وفاضل في قبولها بين أهل الادبار واهل الاقبال (الرحيم) الذي قرب أهل حزبه ففازوا بمحاسن الاقوال والافعال * ولما قسم سبحانه الناس في تلك السورة الى ثلاثة اصناف مجرمين وسابقين ولاحقين شرح احوالهم في هذه السورة وبين الوقت الذي يظهر فيه ما كرامه وانتقامه بقوله تعالى (اذا وقعت الواقعة) اى التي لابد من وقوعها ولا واقع يستحق ان يسمى الواقعة بلام الكمال وتاء المبالغة غيرها وهي النفخة الثانية التي يكون عنها البعث الاكبر الذي هو القيامة الجامعة لجميع الخلق سميت واقعة لتحقق وقوعها وقيل لكثرة ما يقع فيها من الشدائد وانتصاب اذا بمحذوف مثل اذكر أو كان كيت وكيت وقال الجرجاني اذا صلة كقوله تعالى اقتربت الساعة واتى امر الله وهو كما يقال جاء الصوم اى دنا وقرب وقوله تعالى (ليس لوقعتها كاذبة) مصدر بمعنى الكذب والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر كقوله تعالى لا يسمع فيها لاغية أي لغو والمعنى ليس لها كذب قاله الكسائي او صفة والموصوف محذوف أي ليس لوقعتها حال كاذبة أي كل من يخبر عن وقعتها صادق أو نفس كاذبة بان تنفيها كما نفتها في الدنيا وقال الزجاج ليس لوقعتها كاذبة أي لا يردها شئ وقيل ان قيامها جد لا هزل وقوله تعالى (خافضة رافعة) تقرير لعظمتها وهو خبر لمبتدا محذوف أي هي قال عكرمة ومقاتل خفضت الصوت فاسمعت من دنا ورفعت الصوت فاسمعت من نأى يعني أسمعت القريب والبعيد وعن السدي خفضت المتكبرين ورفعت المستضعفين وقال قتادة خفضت أقواما في عذاب الله تعالى ورفعت أقواما الى طاعة الله تعالى وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه خفضت أعداء الله تعالى في النار ورفعت

اختصار الدلالة الاول عليه او ان أصل هذه اللام للتاكيد وهو انسب

أولياء الله تعالى فى الجنة وقال ابن عطاء خفضت قوما بالعدل ورفعت آخرين بالفضل ولا مانع أن كل ذلك موجود فيها والرفع والخفض يستعملان عند العرب فى المكان والمكانة والعز والاهانة ونسب سبحانه وتعالى الخفض والرفع الى القيامة توسعا ومجازا على عادة العرب فى اضافتها الفعل الى المحل والزمان وغيرهما مما لا يمكن منه الفعل يقولون ليل قائم ونهار صائم وفى التنزيل بل مكر الليل والنهار والخافض والرافع فى الحقيقة هو الله تعالى واللام فى قوله تعالى لوقعتها اما للتعليل أى لا تكذب نفس فى ذلك اليوم لشدة وقعتها واما للتعدية كقولك ليس لزيد ضارب فيكون التقدير اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها أمر يوجد لها كاذب اذا أخبر عنه قال الرازى وعلى هذا تكون ليس عاملة فى اذا وهو بمعنى ليس لها كاذب (اذا رجت الارض) أى كلها على سعتها وثقلها بايسر أمر (رجا) أى حركت تحريكا شديدا بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل قال بعض المفسرين ترتج كما يرتج الصبى فى المهد حتى ينهدم ما عليها وينكسر كل شئ عليها من الجبال وغيرها والرجرجة الاضطراب وارتج البحر وغيره اضطرب وفى الحديث من ركب البحر حين يرتج فلا ذمة له يعنى اذا اضطربت أمواجه والظرف متعلق بخافضة أو بدل من اذا وقعت ٭ ولما ذكر حركتها المزعجة أتبعها غايتها بقوله تعالى (وبست الجبال بسا) أى فتتت حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق اذا لته قال ابن عباس ومجاهد كما يبس الدقيق أى يلت والبسيسة السويق أو الدقيق يلت بالسمن أو الزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا قال الراجز

لا تخبزا خبزا وبسا بسا ٭ ولا تطيلا بمناخ حبسا

أو سيقت وسيرت من بس الغنم اذا ساقها وبست الابل وأبستها لغتان اذا زجرتها وقلت بس بس قاله أبو زيد وقال الحسن بست قلعت من أصلها فذهبت ونظيرها ينسفها ربى نسفا وقال عطية بسطت بالرمل والتراب (فكانت) أى بسبب ذلك (هباء) أى غبارا هو فى غاية الانسحاق والى شدة لطافته أشار بصفته فقال تعالى (منبثا) أى منتشرا متفرقا بنفسه من غير حاجة الى هواء يفرقه فهو كالذى يرى فى شعاع الشمس اذا دخل من كوة وعن ابن عباس هو ما تطاير من النار اذا أضرمت يطير منها شرر فاذا وقع لم يكن شيئا (وكنتم) أى قسمتم بما كان فى جبلاتكم وطباعكم فى الدنيا (أزواجا) أى أصنافا (ثلاثة) كل صنف يشاكل ما هو منه كما يشاكل الزوج الزوجة قال البيضاوى وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج ثم بين من هم بقوله تعالى (فاصحاب الميمنة) وهم الذين يؤتون كتبهم بايمانهم مبتدأ وقوله تعالى (ما) استفهام فيه تعظيم مبتدأ ثان وقوله تعالى (اصحاب الميمنة) خبر المبتدأ الثانى والجملة خبر الاول وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير ومثله الحاقة ما الحاقة القارعة ما القارعة ولا يكون ذلك الا فى مواضع التعظيم ٭ ولما ذكر الناجين بقسميهم اتبعهم اضدادهم بقوله تعالى (واصحاب المشأمة) اى الشمال وهم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم وقوله تعالى (ما اصحاب المشأمة) تحقير لشأنهم بدخولهم النار وقال السدى اصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة واصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال الى النار والمشأمة الميسرة وكذا الشأمة والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى وللجانب الشمال الاشأم وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليمن ولما جاء عن الشمال الشؤم قال البغوى ومنه سمى الشام واليمن لان اليمن عن يمين الكعبة

(قوله فسبح باسم ربك) وترتيبه على المشروب بالمطعوم لانه مقدم وجودا

قوله الانسحاق فى بعض النسخ الانسحاق بدله اه مصححه

والشأم عن شمالها وقال ابن عباس رضى الله عنهما أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه فقال الله تعالى لهم هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وقال زيد بن أسلم هم الذين أخذوا من شق آدم الايمن وقال ابن جريج أصحاب الميمنة هم اصحاب الحسنات وأصحاب المشأمة هم أصحاب السيئات وفى صحيح مسلم من حديث الاسراء عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة قال فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى قال فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال آدم عليه السلام وهذه الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل اليمين أهل الجنة والاسودة التى عن شماله اهل النار وذكر الحديث وقال المبرد اصحاب الميمنة أصحاب التقدم وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر والعرب تقول اجعلنى فى يمينك ولا تجعلنى فى شمالك اى اجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنى من المتأخرين *(تنبيه)* الفاء فى قوله تعالى فأصحاب تدل على التقسيم وبيان ما ورد عليه التقسيم كانه قال ازواجا ثلاثة أصحاب الميمنة واصحاب المشأمة والسابقون ثم بين حال كل قسم فقال فاصحاب الميمنة وترك التقسيم أولا واكتفى بما يدل عليه بان ذكر الاقسام الثلاثة مع أحوالها (فان قيل) ما الحكمة فى اختيار لفظ المشأمة فى مقابلة الميمنة مع انه قال فى بيان أحوالهم وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (أجيب) بان اليمين وضع للجانب المعروف واستعملوا منه الفاظا فى مواضع فقالوا هذا ميمون تيمنا به ووضعوا مقابلة اليمين اليسار من الشئ اليسير اشارة الى ضعفه واستعملوا منه الفاظا تشاؤما به فذكر المشأمة فى مقابلة الميمنة وذكر الشمال فى مقابلة اليمين فاستعمل كل لفظ مع مقابله *ولما ذكر تعالى القسمين وكان كل منهما قسمين ذكر أعلى أهل القسم الاول ترغيبا فى حسن حالهم ولم يقسم أهل المشأمة ترهيبا فى سوء حالهم فقال تعالى (والسابقون) أى الى اعمال الطاعة مبتدأ وقوله تعالى (السابقون) تأكيد عن المهدوى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال السابقون الذين اذا أعطوا الحق قبلوه واذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لانفسهم وقال محمد بن كعب القرظى هم الانبياء عليهم السلام وقال الحسن وقتادة السابقون الى الايمان من كل أمة وقال محمد بن سيرين هم الذين صلوا الى القبلتين قال تعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقال مجاهد والضحاك هم السابقون الى الجهاد وأول الناس رواحا الى الصلاة وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه هم السابقون الى الصلوات الخمس وقال سعيد بن جبير الى التوبة وأعمال البر قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم ثم أثنى عليهم فقال تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم أربعة منهم سابق أمة موسى عليه السلام وهو حزقيل مؤمن آل فرعون وسابق أمة عيسى عليه السلام وهو حبيب النجار صاحب انطاكية وسابقا أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما ابو بكر وعمر رضى الله عنهما وقال سميط بن عجلان الناس ثلاثة رجل ابتكر الخير فى حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم لها فهذا من أصحاب اليمين ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم لها فهذا من أصحاب الشمال وروى عن كعب

اى نزه ربك فقوله باسم زائد أو المعنى نزه اسم ربك فالباء زائدة والاسم باق

قال هم اهل القرآن المتوجون يوم القيامة وقيل هم أول الناس رواحا الى المسجد وأولهم
خروجا في سبيل الله وخبر المبتدا (أولئك) اى العالو الرتبة جدا (المقربون) اى الذين قربت
درجاتهم في الجنة من العرش وأعليت مراتبهم واصطفاهم الله تعالى للسبق فارادهم لقربه
ولولا فضله في تقريبهم لم يكونوا سابقين قال الرازي في اللوامع المقربون تخلصوا من نفوسهم
واعمالهم كلها لله تعالى دينا ودنيا من حق الله تعالى وحق الناس وكلاهما عندهم حق الله
تعالى والدنيا عندهم آخرتهم لانهم يراقبون ما يبدو لهم من ملكوته فيتلقونه بالرضا والانقياد
وهم صنفان صنف قلوبهم في جلاله وعظمته هائمة قد ملكتهم هيبته فالحق يستعملهم في وصف
آخر قد أرخى من عنانه والامر عليه أسهل لانه قد جاوز بقلبه هذه الخطة ومحله أعلى فهو امين
الله تعالى في أرضه فيكون عليه أوسع اه ثم بين تقريبه اهم بقوله تعالى (في جنات النعيم) أى
الذى لا كدر فيه بوجه ولا منغص ولما ذكر السابقين فصلهم بقوله تعالى (ثلة) أى جماعة
وقيدها الزمخشري بالكثيرة وانشد

وجاءت اليهم ثلة خندفية ● بجيش كتيار من السيل مزبد

قال ابن عادل ولم يقيدها غيره بل صرح بانها الجماعة قلت أو كثرت ثم قال والكثرة التى فهمها
الزمخشري قد تكون من السياق اه لكن قال البغوى والثلة جماعة غير محصورة العدد
(من الاولين) أى من الامم السابقة من لدن آدم الى محمد صلى الله عليه وسلم من النبيين عليهم
السلام ومن آمن بهم (وقليل من الآخرين) وهم من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كان
الانبياء عليهم السلام مائة ألف ونيفا وعشرين ألفا وكان من خرج مع موسى عليه السلام من
مصر وهو مؤمن به من الرجال المقاتلين ممن هو فوق العشرين ودون الثمانين ستمائة ألف فما
ظنك بمن عداهم من الشيوخ ومن دون العشرين من البالغين والصبيان ومن النساء فكيف
بمن عداه من سائر النبيين عليهم السلام المجددين من بنى اسرائيل وغيرهم قال البيضاوى ولا
يخالف ذلك قوله عليه الصلاة والسلام أمتى يكثرون سائر الامم لجواز أن يكون سابقو سائر
الامم أكثر من سابقى هذه الامة وتابعو هذه الامة أكثر من تابعيهم قيل لما نزلت هذه الآية شق
على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ثلة من الاولين وثلة من الآخرين فقال النبي صلى
الله عليه وسلم انى لارجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم في
النصف الثانى رواه ابو هريرة رضى الله عنه ذكره الماوردى وغيره ومعناه ثابت في صحيح مسلم
من حديث عبد الله بن مسعود وكأنه أراد أنها منسوخة قال الرازى وهذا في غاية الضعف لان
عدد أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان في ذلك الزمان بل الى آخر الزمان بالنسبة الى ما مضى في
غاية القلة والمراد بالاولين الانبياء وكبار أصحابهم وهم اذا اجتمعوا كانوا أكثر من السابقين من
هذه الامة ولان هذا خبر والخبر لا ينسخ وقال الحسن سابقو من مضى أكثر من سابقينا فلذا
قال تعالى وقليل من الآخرين وقال في اصحاب اليمين وهم سوى السابقين ثلة من الاولين
وثلة من الآخرين ولذا قال صلى الله عليه وسلم انى لارجو أن تكون أمتى شطر أهل الجنة ثم تلا
ثلة من الاولين وثلة من الآخرين وروى الطبرانى أن الثلة والقليل كلاهما من هذه الامة
فتكون الصحابة كلهم من هذه الثلة وكذا من تبعهم باحسان الى رأس القرن الثالث وهم

وهم قوله صنفان صنف الخ
لم يذكر الا واحدا اه

على معناه أو هو بمعنى الذات
أو بمعنى الذكر والباء
متعلقة بمحذوف والمراد

لايعلمهم الا الله تعالى ومن المعلوم أنه تناقص الامر بعد ذلك الى أن صار السابق فى الناس أقل من القليل لرجوع الاسلام الى الحال التى بدا عليها من الغربة بدا الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء اى وهم الذين اذا فسد الناس صلحوا كما فسر به النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وقال أبو بكر كلا الثلتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمنهم من هو فى أول أمته ومنهم من هو فى آخرها وهو مثل قوله تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات وقيل المراد بالاولين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبالآخرين ذرياتهم الملحقون بهم فى قوله تعالى واتبعناهم ذرياتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم واشتقاق الثلة وهى مبتدأ من الثل وهو القطع والخبر (على سرر) جمع سرير وهو ما يجعل للانسان من المقاعد العالية الموضوعة للراحة والكرامة (موضونة) قال ابن عباس رضى الله عنهما منسوجة بالذهب وقال عكرمة مشبكة بالدر والياقوت وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا موضونة أى مصفوفة لقوله تعالى فى موضع آخر على سرر مصفوفة وقيل منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والموضونة المنسوجة وأصله من وضنت الشئ أى ركبت بعضه على بعض ومنه قيل للدرع موضونة لتركب حلقها قال الاعشى

ومن نسج داود موضونة * تسير مع الحى عيرا فعيرا

ومنه أيضا وضين الناقة وهو حزامها لتراكب طاقاته قال عمر رضى الله عنه وهو مار بوادى محسر

اليك تعدو قلقا وضينها * معترضا فى بطنها جنينها

* مخالفا دين النصارى دينها *

رواه البيهقى ومعناه ان ناقتى تعدو اليك مسرعة فى طاعتك قلقا وضينها وهو حبل كالحزام من كثرة السير والاقبال التام والاجتهاد البالغ فى طاعتك والمراد صاحب الناقة فيسن للمار بوادى محسر أن يقول هذا الكلام الذى قاله عمر رضى الله تعالى عنه * ولما ذكر تعالى السرر وبين عظمها ذكر غايتها فقال سبحانه (متكئين عليها) اى السرر على الجنب او غيره كحال من يكون على كرسى فيوضع تحته شئ آخر للاتكاء عليه (متقابلين) فلا ينظر بعضهم الى قفا بعض وقال مجاهد وغيره هذا فى المؤمن وزوجته وأهله أى يتكئون متقابلين قال الكلبى طول كل سرير ثلاثمائة ذراع فاذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فاذا جلس عليها ارتفعت وقيل انهم صاروا أزواجا نورانية صافية ليس لهم أدبار ولا ظهور * (تنبيه) * متكئين عليها متقابلين حالان من الضمير فى على سرر ويجوز أن تكون حالا متداخلة فيكون متقابلين حالا من ضمير متكئين * ثم بين تعالى انهم فى غاية الراحة بقوله تعالى (يطوف عليهم) اى لكفاية كل ما يحتاجون اليه (ولدان) اى على أحسن صورة وزى وهيئة (مخلدون) قد حكم الله تعالى ببقائهم على ما هم عليه من هيئة على شكل الاولاد قال الحسن والكلبى لا يهرمون ولا يتغيرون ومنه قول امرئ القيس

وهل ينعمن الا سعيد مخلد * قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقال سعيد بن جبير مخلدون مقرطون يقال للقرط الخلد والقرط ما يجعل فى الاذنين من الحلق

بالتسبيح الصلاة وباسم ربك التكبير اى افتتح الصلاة بالتكبير (قوله انه

وقيل مقرطقون أى ممنطقون من المناطق والمنطقة ما يجعل فى الوسط وأكثر المفسرين انهم على سن واحد انشأهم الله تعالى لاهل الجنة يطوفون عليهم نشؤا من غير ولادة فيها لان الجنة لا ولادة فيها وقال على بن أبى طالب والحسن البصرى رضى الله عنهما الولدان ههنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة وقال سلمان الفارسى اطفال المشركين هم خدم أهل الجنة قال الحسن لم تكن لهم حسنات يجازون بها ولا سيآت يعاقبون عليها فوضعوا هذا الموضع والمقصود ان أهل الجنة على أتم السرور والنعمة وقوله تعالى (باكواب) متعلق بيطوفون والاكواب جمع كوب وهى كيزان مستديرة الافواه بلا عرا ولا خراطيم لا يعوق الشارب منها عائق عن شرب من أى موضع أراد منها فلا يحتاج ان يحوّل الاناء عن الحالة التى تناوله بها ليشرب وقوله تعالى (واباريق) جمع ابريق وهى أوان لها عرا وخراطيم فيها من أنواع المشارب ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين سمى بذلك لبريق لونه من صفائه (وكأس) أى اناء شراب الخمر (من معين) أى خمر صافية صفاء الماء ليس يتكلف عصرها جارية من منبع لا ينقطع أبدا (فان قيل) كيف جمع الاكواب والاباريق وافرد الكأس (أجيب) بان ذلك على عادة أهل الشرب فانهم يعدون الخمر فى أوان كثيرة ويشربون بكأس واحد وفيها مباينتهم لاهل الدنيا من حيث انهم يطوفون بالاكواب والاباريق ولا تثقل عليهم بخلاف أهل الدنيا (لا يصدعون عنها) اى بسببها قال الزمخشرى وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها او الصداع هو الداء المعروف الذى يلحق الانسان فى رأسه والخمر تؤثر فيه قال علقمة بن عبدة فى وصف الخمر

تشفى الصداع ولا يؤذيك صالبها * ولا يخالطها فى الرأس تدويم

قال أبو حيان هذه صفة خمر الجنة كذا قال لى الشيخ ابو جعفر بن الزبير والمعنى لا تتصدع رؤسهم من شربها فهى لذة بلا اذى بخلاف خمر الدنيا وقيل لا يتفرقون عنها (ولا ينزفون) أى تذهب بعقولهم بوجه من الوجوه أو يفرغ شرابهم من نزفت البئر اذا نزح ماؤها كله وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بكسر الزاى والباقون بفتحها (وفاكهة مما يتخيرون) اى يختارون ما يشتهون من الفواكه لكثرتها وقيل المعنى وفاكهة متخيرة مرضية والتخير الاختيار (ولحم طير مما يشتهون) اى يتمنون قال ابن عباس رضى الله عنهما يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلا بين يديه على ما اشتهى ويقال انه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه ما يشتهى ثم يطير فيذهب (فان قيل) ما الحكمة فى تخصيص الفاكهة بالتخير واللحم بالاشتهاء (أجيب) بان اللحم والفاكهة اذا حضرا عند الجائع تميل نفسه الى اللحم واذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه الى الفاكهة فالجائع مشته والشبعان غير مشته بل هو مختار وأهل الجنة انما يأكلون لا عن جوع بل للتفكه فميلهم للفاكهة أكثر فيتخيرونها ولهذا ذكرت فى مواضع كثيرة فى القرآن بخلاف اللحم واذا اشتهاه حضر بين يديه على ما يشتهيه فتميل نفسه اليه أدنى ميل ولهذا قدم الفاكهة على اللحم (فان قيل) الفاكهة واللحم لا يطوف بهما الولدان والعطف يقتضى ذلك (أجيب) بان الفاكهة واللحم فى الدنيا يطلبان فى حال الشرب فجاز أن يطوف بهما الولدان فيناولونهم الفواكه الغريبة واللحوم العجيبة لا للاكل بل للاكرام كما يضع المكرم للضيف أنواع الفواكه بيده أو يكون معطوفا على المعنى فى قوله جنات النعيم أى مقربون فى جنات النعيم وفاكهة ولحم أى

اقـرآن كريم فى كتاب مكنون) وان قلت القرآن صـفة قديمة قائمة بذات

فى هذا النعيم يتقلبون * ولما لم يكن بعد الاكل والشرب أشهى من النساء قال تعالى (وحور) أى نساء شديدات سواد العيون وبياضها (عين) أى ضخام العيون وقرأ حمزة والكسائى بخفض الاسمين عطفا على سرر فان النساء فى معنى المتكأ لانهن يسمين فراشا والباقون بالرفع عطفا على ولدان (كأمثال اللؤلؤ المكنون) أى المخزون فى الصدف المصون الذى لم تمسه الايدى ولم تقع عليه الشمس والهواء فيكون فى نهاية الصفاء قال البغوى يروى انه يسطع نور فى الجنة فيقولون ماهذا فيقال ثغر حوراء ضحكت فى وجه زوجها ويروى ان الحوراء اذا مشت يسمع تقديس الخلاخل من ساقها وتمجيد الاسورة من ساعديها وأن عقد الياقوت يضحك فى نحرها وفى رجليها نعلان من ذهب شراكهما من لؤلؤ يصران بالتسبيح ولما بالغ فى وصف جزائهم بالحسن والصفاء دل على أن أعمالهم كانت كذلك لان الجزاء من جنس العمل فقال تعالى (جزاء) أى فعل ذلك لهم لاجل الجزاء (بما كانوا يعملون) أى يجددون عمله على جهة الاستمرار قالت المعتزلة هذا يدل على أن ايصال الثواب واجب على الله تعالى لان الجزاء لا يجوز الاخلال به وأجيبوا بانه لو صح ماذكروه لما كان فى الوعد بهذه الاشياء فائدة لان العقل اذا حكم بان ترك الجزاء قبيح وعلم بالعقل أن القبيح من الله تعالى لا يوجد علم ان الله تعالى يعطى هذه الاشياء لانها اجزاؤه وايصال الجزاء واجب فكان لا يصح التمدح به (لا يسمعون فيها لغوا) أى شيأ مما لا ينفع واللغو الساقط (ولا تأثيما) أى ما يحصل به الاثم أو النسبة الى الاثم بل حركاتهم وسكناتهم كلها فى رضا الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما باطلا وكذبا قال محمد ابن كعب ولا تأثيما أى لا يؤثم بعضهم بعضا وقال مجاهد لا يسمعون شتما ولا مأثما وقوله تعالى (الا قيلا) فيه قولان أحدهما أنه استثناء منقطع وهذا واضح لانه لم يندرج تحت اللغو والتأثيم والثانى أنه متصل وفيه بعد قال ابن عادل فكأن هذا رأى أن الاصل لا يسمعون فيها كلاما فاندرج عنده فيه * ثم بين تعالى ذلك بقوله (سلاما سلاما) أى قولا سلاما قال عطاء يحيى بعضهم بعضا بالسلام أو تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم ودل على دوامه بتكريره فقال تعالى سلاما ففيه اشارة الى كثرة السلام عليهم ولهذا لم يكرر فى قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم وقال القرطبى السلام الثانى بدل من الاول والمعنى الا قولا يسلم فيه من اللغو * ولما بين حال السابقين شرع فى بيان حال أصحاب اليمين فقال تعالى (وأصحاب اليمين) ثم فخم أمرهم وأعلى مدحهم بتعظيم جزائهم فقال تعالى (ما أصحاب اليمين) فان قيل ما الحكمة فى ذكرهم بلفظ أصحاب الميمنة عند تقسيم الازواج الثلاثة وبلفظ أصحاب اليمين عند ذكر الانعام (أجيب) بان ذلك تفنن فى العبارة والمعنى واحد (فى سدر) أى شجر نبق (مخضود) أى لا شوك فيه كأنه خضد شوكه أى قطع ونزع منه قال ابن المبارك أخبرنا صفوان عن سليم بن عامر قال كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يقولون انا لينفعنا الاعراب ومسائلهم قال أقبل اعرابى يوما فقال يا رسول الله لقد ذكر الله تعالى فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هى قال السدر فان له شوكا مؤذيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوليس يقول سدر مخضود خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فانها لتنبت ثمرا على اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر وقال أبو العالية والضحاك نظر المسلمون الى وج وهو واد بالطائف مخصب فأعجبهم سدره فقالوا ياليت لنا مثل

الله تعالى فكيف يكون
ـلا فى كتاب مكنـون اى

هذا انزلت قال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة وما فيها

ان الحدائق في الجنان ظليلة * فيها الكواعب سدرها مخضود

قال مجاهد في سدر مخضود هو الموقر حملا الذي تنثني أغصانه لكثرة حمله من خضض الغصن اذا ثناه وهو رطب وقال سعيد بن جبير ثمرها أعظم من القلال (وطلح منضود) أي منظوم بالحمل من أعلاه الى أسفله ليست له ساق بارزة متراكم يتركب بعضه على بعض على ترتيب هو في غاية الاعجاب والطلح جمع الطلحة قال علي وابن عباس رضي الله عنهم وأكثر المفسرين الطلح شجر الموز واحده طلحة وقال الحسن ليس هو موزا ولكنه شجر له ظل بارد رطب وقال الفراء وأبو عبيدة شجر عظيم كثير الشوك والطلح كل شجر عظيم له شوك وقال الزجاج هو شجر أم غيلان قال مجاهد ولكن ثمرها أحلى من العسل وقال الزجاج لها نور طيب جدا فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله الا ان فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا وقال السدي طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل وقال مسروق أشجار الجنة من عروقها الى أفنانها نضيدة ثمر كله كلما أكلت ثمرة عاد مكانها أحسن منها (وظل ممدود) أي دائم لا يزول ولا تنسخه الشمس لقوله تعالى ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وقيل الظل ليس ظل أشجار بل ظل يخلقه الله تعالى قال الربيع بن أنس رضي الله عنه يعني ظل العرش وقال عمرو بن ميمون رضي الله عنه مسيرة سبعين ألف سنة وقال أبو عبيدة تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع ممدود قال الشاعر

غلب العزاء وكان غير مغلب * دهر طويل دائم ممدود

وفي صحيح الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرؤا ان شئتم وظل ممدود وفي هذا الحديث رد على من يقول ان الاشجار لا ظل لها وقد سئل السبكي عن الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولا اذا ترا ءت له شجرة يقول يارب أدنني من هذه لاستظل في ظلها الحديث من أي شيء يستظل والشمس قد كورت أجاب بقوله تعالى وظل ممدود وبقوله تعالى هم وأزواجهم في ظلال اذ لا يلزم من تكوير الشمس عدم الظل لانه مخلوق لله تعالى وليس بعدم بل أمر وجودي له نفع باذن الله تعالى في الابدان وغيرها فليس الظل عدم الشمس كما قد يتوهم وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وظل ممدود قال شجرة في الجنة يخرج اليها أهل الجنة فيتحدثون ويشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله تعالى عليهم ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا (وماء مسكوب) أي جار في منازلهم في غير أخدود لا يحتاجون فيه الى جلب ماء من الاماكن البعيدة ولا ادلاء في بئر كاهل البوادي فان العرب كانت أصحاب بادية وبلاد حارة وكانت الانهار في بلادهم عزيزة لا يصلون الى الماء الا بالدلو والرشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك (وفاكهة كثيرة) أي أجناسها وانواعها وأشخاصها (لا مقطوعة ولا ممنوعة) قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تنقطع اذا جنيت ولا تمتنع من أحد اذا أراد أخذها وقال بعضهم لا مقطوعة بالازمان ولا ممنوعة بالاثمان كما تنقطع أكثر ثمار الدنيا اذا جاء الشتاء ولا يتوصل اليها الا بالثمن وقيل لا يمنع من أرادها شوك ولا بعد ولا حائط بل اذا اشتهاها العبد

لوح محفوظ او مصحف

(قوله) لا يلزم من كتابته في

دنت منه حتى يأخذها قال تعالى قطوفها دانية وجاء في الحديث ما قطع من ثمار الجنة الا أبدل الله تعالى مكانها ضعفين ولما كان الثمر لا يكمل الالتذاذ به الا مع الراحة قال تعالى (وفرش مرفوعة) أي رفيعة القدر يقال ثوب رفيع أي عزيز مرتفع القدر والثمن بدليل قوله تعالى متكئين على فرش بطائنها من استبرق فكيف ظهائرها أو مرفوعة فوق السرر بعضها فوق بعض روى الترمذي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى وفرش مرفوعة قال ارتفاعها كما بين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام قال حديث غريب وقيل هي كناية عن النساء كما كني عنهن باللباس أي ونساء مرتفعات الاقدار في حسنهن وكمالهن والعرب تسمي المرأة فراشا ولباسا على الاستعارة دليل هذا التأويل قوله تعالى (انا) أي بما لنا من العظمة التي لا يتعاظمها شيء (أنشأناهن) أي الفرش التي معناها النساء من أهل الدنيا بعد الموت بالبعث وزاد في التأكيد فقال تعالى (انشاء) أي خلقا جديدا من غير ولادة بل جعلناهن من التراب كسائر بني آدم ليكونوا كأبيهم آدم عليه السلام في خلقه من تراب لتكون الاعادة كالبدءة ولذلك يكون الكل عند دخول الجنة على شكله عليه السلام وروى النحاس باسناده أن أم سلمة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى انا أنشأناهن أنشاء فقال هن اللواتي قبضن في الدنيا عجائز شمطا عمشا رمصا جعلهن الله تعالى بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء وروى أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه في قوله تعالى انا أنشأناهن انشاء قال هن العجائز العمش الرمص كن في الدنيا عمشا رمصا وعن المسيب بن شريك عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى انا أنشأناهن انشاء قال هن عجائز الدنيا أنشأهن الله تعالى خلقا جديدا كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك قالت واوجعاه فقال النبي صلى الله عليه وسلم ليس هناك وجع وعن الحسن رضي الله عنه قال أتت عجوز النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ادع الله تعالى ان يدخلني الجنة فقال يا أم فلان ان الجنة لا يدخلها عجوز قال فولت تبكي فقال أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ان الله تعالى يقول انا أنشأناهن انشاء (فجعلناهن) أي الفرش المنشآت وغيرهن بعظمتنا المحيطة بكل شيء (أبكارا) أي عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى ولا وجع وذكر المسيب عن غيره أنهن فضلن على الحور العين بصلاتهن في الدنيا وقال مقاتل وغيره هن الحور العين أنشأهن الله تعالى لم تقع عليهن الولادة وقوله تعالى (عربا) جمع عروب كصبور وصبر وهي الغنجة المحببة الى زوجها وقال الرازي في اللوامع الفطنة بمراد الزوج كفطنة العرب وقيل الحسناء وقيل الحسنة الكلام وقال ابن عباس رضي الله عنهما هن العواتق وأنشدوا

وفي الخباء عروب غير فاحشة * ريا الروادف يعشي دونها البصر

وقرأ حمزة وشعبة بسكون الراء والباقون بضمها كرسل ورسل وفرش وفرش وقوله تعالى (أترابا) جمع ترب وهو المساوي لك في سنك لانه يمس جلدهما التراب في وقت واحد وهو آكد في الائتلاف وهو من الاسماء التي لا تتعرف بالاضافة لانه في معنى الصفة اذ معناه مساويك ومثله خدنك لانه بمعنى مصاحبك قال القرطبي سن واحد وهو ثلاث وثلاثون سنة يقال في

كتاب حلاوة فيه كما لو كتب على
شيء ألف دينار لا يلزم منه

النساء أتراب وفي الرجال أقران وكانت العرب تميل الى من جاوزت حد الفتاء من النساء وانحطت عن الكبر وقال مجاهد الاتراب الامثال والاشكال وقال السدي أتراب في الاخلاق لا تباغض فيهن ولا تحاسد وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا بيضا مكحلين أبناء ثلاثين أو قال ثلاث وثلاثين على خلق آدم عليه السلام ستون ذراعا في سبعة أذرع وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من مات من أهل الجنة من صغير وكبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبدا وكذلك أهل النار وعن ابي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون ألف زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء ينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة وان أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وانه ليكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان أدنى أهل الجنة منزلة وما منهم دني لمن يغدو عليه ويروح عشرة آلاف خادم مع كل واحد منهم طريفة ليست مع صاحبه وفي تعلق اللام في قوله تعالى (لاصحاب اليمين) وجهان أحدهما انها متعلقة بانشأناهن أي لاجل أصحاب اليمين والثاني انها متعلقة باترابا كقولك هذا ترب لهذا أي مساوله ثم بينهم بقوله تعالى (ثلة من الاولين) أي من أصحاب اليمين (وثلة) أي منهم (من الآخرين) فلم يبين فيهم قلة ولا كثرة قال البقاعي والظاهر ان الآخرين أكثر فان وصف الاولين بالكثرة لا ينافي كون غيرهم أكثر ليتفق مع قول النبي صلى الله عليه وسلم ان هذه الامة ثلثا اهل الجنة فانهم عشرون ومائة صف هذه الامة منهم ثمانون صفا وأربعون من سائر الامم وعن عروة بن رويم قال لما نزل قوله تعالى ثلة من الاولين وقليل من الآخرين بكى عمر وقال يا نبي الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منا قليل فانزل الله تعالى ثلة من الاولين وثلة من الآخرين فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر فقال قد انزل الله تعالى فيما قلت فقال عمر رضينا عن ربنا وتصديق نبينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آدم الينا ثلة ومنا الى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها الا سود من رعاة الابل ممن قال لا اله الا الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا قال عرضت على الامم فجعل يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي معه الرهط والنبي ليس معه احد ورفع الى سواد عظيم فقلت انهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ولكن انظر الى الافق فنظرت فاذا سواد عظيم فقيل لي هذه امتك ومعهم سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكنا آمنا بالله ورسوله ولكن هؤلاء هم ابناؤنا فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة ابن محصن فقال ادع الله تعالى ان يجعلني منهم فقال أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة والرهط دون العشرة وقيل الى الاربعين وعن عبد الله ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال عرضت على الانبياء الليلة باتباعها حتى أتى على موسى في كبكبة بني اسرائيل فلما رأيتهم أعجبوني فقلت أي رب من هؤلاء قيل هو اخوك موسى ومن معه من بني اسرائيل قلت يارب وأين أمتي قيل انظر عن يمينك فنظرت فاذا الظراب

وجودها فيه ومثله قوله تعالى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل

مكة قد سد بوجوه الرجال فقال هؤلاء امتك أرضيت فقلت رضيت رب قيل انظر عن يسارك فنظرت فاذا الافق قد سد بوجوه الرجال فقيل هؤلاء أمتك أرضيت قلت رب رضيت فقيل ان مع هؤلاء سبعين الفا يدخلون الجنة لاحساب عليهم فقال صلى الله عليه وسلم ان استطعتم ان تكونوا من السبعين فكونوا وان عجزتم وقصرتم فكونوا من أهل الظراب فان عجزتم فكونوا من أهل الافق فانى قد رأيت اناسا يتهاوشون كثيرا وعن عبد الله بن مسعود قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبة نحوا من أربعين فقال اترضون ان تكونوا ربع أهل الجنة قلنا نعم قال أترضون ان تكونوا ثلث أهل الجنة قلنا نعم قال والذى نفسى بيده انى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك ان الجنة لايدخلها الا نفس مسلمة وما أنتم فى أهل الشرك الا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الاسود أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الاحمر وتقدم فى الحديث المار انهم ثلثا أهل الجنة ولا منافاة لانه صلى الله عليه وسلم أخبر أولا بالقليل ثم أطلعه الله تعالى على الزيادة ولما اتم وصف أصحاب الجنة اتبعه اضدادهم بقوله تعالى (وأصحاب الشمال) أى الجهة التى تتشاءم العرب بها ويعبر بها عن الشئ الاخس والحظ الانقص قال البقاعى والظاهر أنهم أدنى أصحاب المشأمة كما ان أصحاب اليمين دون السابقين من اصحاب الميمنة ثم عظم ذمهم ومصابهم فقال تعالى (ما أصحاب الشمال) أى انهم بحال من الشؤم هو جدير بان يسأل عنه وسماهم بذلك لانهم يأخذون كتبهم بشمالهم ثم بين متقلبهم وما اعدلهم من العذاب فقال تعالى (فى سموم) اى ريح حارة من النار تنفذ فى المسام (وحميم) أى ماء حار بالغ فى الحرارة الى حد يذيب اللحم (وظل من يحموم) أى دخان أسود كالحمم اى الفحم شديد السواد وقيل النار سوداء واهلها سود وكل شئ فيها أسود وقيل اليحموم اسم من اسماء النار قال الرازى وفى الامور الثلاثة اشارة الى كونهم فى العذاب دائما لانهم ان تعرضوا لمهب الهواء اصابتهم السموم وان استكنوا كما يفعل الذى يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان بالكن يكونون فى ظل من يحموم وان أرادوا التبرد بالماء من حر السموم يكون الماء من حميم فلا انفكاك لهم من العذاب او يقال ان السموم تضربه فيعطش وتلتهب نار السموم فى احشائه فيشرب الماء فيقطع أمعاءه فيريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل اليحموم وذكر السموم والحميم دون النار تنبيها بالادنى على الاعلى كانه قال ابرد الاشياء فى الدنيا حار عندهم فكيف أحرها وقوله تعالى (لابارد) أى ليروح النفس (ولا كريم) اى ليؤنس به ويلجأ اليه صفتان للظل كقوله تعالى من يحموم وقال الضحاك لابارد اى كغيره من الظلال بل حار لانه من دخان شفير جهنم ولا كريم عذب وقال سعيد بن المسيب ولا حسن منظره وكل شئ لاخير فيه ليس بكريم فسماه ظلا ونفى عنه برد الظل وروحه ونفعه من يأوى اليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحو مافى مدلول الظل من الاسترواح اليه والمعنى انه ظل حار ضار الاان للنفى فى نحو هذا شانا ليس للاثبات وفيه تهكم باصحاب المشأمة وانهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذى هو لاضدادهم فى الجنة ثم بين استحقاقهم لذلك بقوله تعالى (انهم كانوا) أى فى الدنيا (قبل ذلك) أى الامر العظيم الذى وصلوا اليه (مترفين) أى انهم انما استحقوا هذه العقوبة لانهم كانوا فى الدنيا فى سعة من العيش متمكنين فى الشهوات مستعدين بها متمكنين منها (وكانوا يصرون) أى يقيمون ويديمون على سبيل التجديد لما لهم من

قوله أنه ليس حالا فى شئ من ذلك بل هو كلام الله تعالى وكلامه صفة قديمة

الميل الجبلى الى ذلك (على الحنث) أى الذنب و يعبر بالحنث عن البلوغ ومنه قولهم لم يبلغوا الحنث وانما قيل ذلك لان الانسان عند بلوغه اليه يؤاخذ بالحنث أى الذنب وتحنث فلان اى جانب الحنث وفى الحديث كان يتحنث بغار حراء أى يتعبد لمجانبة الاثم نحو تحرج فتفعل فى هذه كلها للسلب ولما كان ذلك قد يكون من الصغائر التى تغفر قال تعالى (العظيم) أى وهو الشرك قاله الحسن والضحاك وقال مجاهد هو الذنب الذى لا يتوبون منه وقال الشعبى هو اليمين الغموس وهو من الكبائر يقال حنث فى يمينه اى لم يبرها ورجع فيها وكانوا يقسمون أن لا بعث وان الاصنام أنداد الله تعالى فذلك حنثهم (فان قيل) الترفه هو التنعم وذلك لا يوجب ذما (اجيب) بان الذم انما حصل بقوله تعالى وكانوا يصرون على الحنث العظيم فان صدور المعاصى عمن كثرت النعم عليه أقبح القبائح وفى الآية مبالغات لان قوله تعالى يصرون يقتضى ان ذلك عادتهم والاصرار مداومة المعصية ولان الحنث ابلغ من الذنب لان الذنب يطلق على الصغيرة و يدل على ذلك قولهم بلغ الحنث اى بلغ مبلغا تلحقه فيه الكبيرة ووصفه بالعظيم يخرج الصغائر فانها لا توصف بذلك قال الرازى والحكمة فى ذكر سبب عذابهم ولم يذكر فى اصحاب اليمين سبب ثوابهم فلم يقل انهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين وذلك تنبيه على ان الثواب منه فضل والعقاب منه عدل والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم بالمتفضل نقص وظلم وأما العدل ان لم يعلم سبب العقاب يظن ان هناك ظلما و يدل على ذلك أنه تعالى لم يقل فى حق أصحاب اليمين جزاء بما كانوا يعملون كما قال فى السابقين لان اصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل بخلاف من كثرت حسناته يحسن اطلاق الجزاء فى حقه (وكانوا) اى زيادة على ماذكر (يقولون) أى انكارا مجددين لذلك دائما عنادا (أئذا) اى انبعث اذا (متنا وكنا) أى كوناً ثابتا (ترابا وعظاما) ثم أعادوا الاستفهام تأكيدا لانكارهم فقالوا (أئنا لمبعوثون) اى كائن ونابت بعثنا ساعة من الدهر وأكدوا ليكون انكارهم لما دون ذلك بطريق الاولى وقرأ قالون ائذا بتحقيق الهمزة الاولى المفتوحة وتسهيل الثانية المكسورة وادخال الف بينهما وكسر الميم من متنا وهمزة واحدة مكسورة فى أئنا وقرأ ورش بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية ولا ادخال بينهما وكسر ميم متنا وهمزة واحدة مكسورة فى أئنا مع النقل عن اصله وقرأ ابن كثير وابو عمرو بالاستفهام فيهما مع تسهيل الثانية الا ان ابا عمرو يدخل بينهما الفا فيهما وابن كثير لا يدخل الفا وضما ميم متنا (او آباؤنا) أى او تبعث آباؤنا (الاولون) أى الذين قد بليت مع لحومهم عظامهم فصاروا كلهم ترابا ولاسيما ان حملتهم السيول ففرقت اعضاءهم وذهبت بها الى الآفاق (فان قيل) كيف حسن العطف على المضمر فى لمبعوثون من غير تأكيد بنحن (أجيب) بانه حسن للفاصل الذى هو الهمزة كما حسن فى قوله تعالى ما اشركنا ولا آباؤنا لفصل لا المؤكدة للنفى وقرأ قالون وابن عامر بسكون الواو من أو والباقون بفتحها ثم رد الله تعالى عليهم قولهم ذلك بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء ولكل من كان مثلهم وأكد لانكارهم (ان الاولين) أى الذين جعلتم الاستبعاد فيهم وهم الآباء (والآخرين) وهم الابناء (لمجموعون) أى فى المكان الذى يكون فيه الحساب (الى ميقات يوم) اى زمان (معلوم) اى معين عند الله تعالى وهو يوم القيامة اذ هو من شأنه ان يعلم بما عليه من

مقيمة به لا تفارقه (فان قيل) كيف ذلك اذا لم تفارقه (قلت) معناه لا تفارقه

الامارات والميقات ما وقت به الشئ من زمان أو مكان الى حد (ثم انكم) اى بعد هذا الجمع
(ايها الضالون) اى الذين غلبت عليهم الغباوة فهم لا يفهمون فضلوا عن الهدى ثم أتبع ذلك ما
أوجب الحكم عليهم بالضلال فقال تعالى (المكذبون) بالبعث والخطاب لاهل مكة ومن
فى مثل حالهم (لآكلون من شجر من زقوم) وهو من اخبث الشجر المر بتهامة ينبتها الله
تعالى فى الجحيم فهو فى غاية الكراهة وبشاعة المنظر ونتن الرائحة وقدم الكلام على ذلك فى
الصافات * (تنبيه) * من الاولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر (فمالؤن) اى مالئون وهو فى
غاية الثبات وأنتم فى غاية الاقبال عليه مع ماهو عليه من عظيم الكراهة (منها) أى الشجر
وأنثه لانه جمع شجرة وهو اسم جنس قال البقاعى وهم يكرهون الاناث فتأنيثه والله أعلم زيادة
فى تنفيرهم وقال الزمخشرى انث ضمير الشجر على المعنى وذكره على اللفظ فى قوله منها وعليه
وهو لف ونشر مرتب (البطون) اى يضطركم الى تناول هذا الكريه حتى تملؤا بطونكم
منه ثم لما بين ما كلهم أتبعه مشربهم فقال تعالى (فشاربون عليه) أى الاكل أو الزقوم (من
الحميم) لاجل مرارته وحرارته يحتاجون الى شرب الماء فيشربون من الماء الحار (فشاربون)
أى منه (شرب الهيم) أى الابل العطاش وهو جمع هيمان للذكر وهيمى للانثى كعطشان
وعطشى والهيام داء معطش تشرب الابل منه الى أن تموت أو تسقم سقما شديدا وقيل انه جمع
هائم وهائمة من الهيام أيضا الا ان جمع فاعل وفاعلة على فعل قليل نحو نازل ونزل وعائذ وعوذ
وقيل انه جمع هيام بفتح الهاء وهو الرمل غير المتماسك الذى لا يروى من الماء أصلا فيكون
مثل سحاب وسحب بضمتين ثم خفف باسكان عينه ثم كسرت فاؤه لتصح الياء كما فعل بالذى قبله
والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم الى أكل الزقوم الذى هو كالمهل فاذا ملؤا منه
البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم الى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم فيشربونه
شرب الهيم (فان قيل) كيف صح عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة وصفتان
متفقتان فكان عطفا للشئ على نفسه (أجيب) بانهما ليستا بمتفقتين من حيث ان كونهم
شاربين الحميم على ماهو عليه من تناهى الحرارة وقطع امعائهم أمر عجيب فشربهم له على ذلك كما
يشرب الهيم الماء امر عجيب أيضا فكانتا صفتين مختلفتين وقرأ نافع وعاصم وحمزة بضم الشين
والباقون بفتحها (هذا) أى ماذكر (نزلهم) أى ما يعد لهم أول قدومهم مكان ما يعد للضيف
أول حلوله كرامة له (يوم الدين) أى الجزاء الذى هو حكمة القيامة واذا كان هذا نزلهم فما
ظنك بما يأتى بعد ما استقروا فى الجحيم وفى هذا تهكم كما فى قوله تعالى فبشرهم بعذاب اليم فان
النزل ما يعد للنازل تكرمة له ثم استدل على منكرى البعث بقوله تعالى (نحن) أى لا غيرنا
(خلقناكم) أى بما لنا من العظمة (فلولا) تحضيض أى فهلا (تصدقون) أى بالبعث فان
الاعادة أسهل من الابتداء وقيل نحن خلقنا رزقكم فهلا تصدقون ان هذا طعامكم ان
لم تؤمنوا ومتعلق التصديق محذوف تقديره فلولا تصدقون بخلقنا (أفرأيتم) أى أخبروني هل
رأيتم بالبصر والبصيرة (ما تمنون) أى تصبون من المنى فى أرحام النساء (أأنتم تخلقونه) أى
توجدونه مقدرا على ماهو عليه من الاستواء والحكمة بعد خلقه من صورة النطفة الى
صورة العلقة ثم من صورة العلقة الى صورة المضغة ثم منها الى صورة العظام والاعصاب (أم

انزاله تعالى له أنه عليه
جبريل وأمره أن يعلمه
النبى صلى الله عليه وسلم

نحن) أي خاصة (الخالقون) أي الثابت لنا ذلك وقرأ أفرأيتم في الثلاثة مواضع نافع بتسهيل
الهمزة التي هي عين الكلمة ولورش وجه ثان وهو ابدالها ألفا وأسقطها الكسائي والباقون
بالتحقيق وقرأ أأنتم في الثلاثة مواضع نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتحقيق الاولى وتسهيل
الثانية بخلاف عن هشام وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام ولم يدخل بينهما ورش
وابن كثير ولورش وجه ثان وهو ابدال الثانية ألفا والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال
بينهما ولما كان الجواب قطعا أنت الخالق وحدك أكد ذلك بقوله تعالى (نحن) أي بما لنا من
العظمة لا غيرنا (قدرنا) أي تقديرا عظيما لا يقدر سوانا على نقض شئ منه (بينكم الموت)
أي قسمناه عليكم فلم نترك أحدا منكم بغير حصة منه وأقتنا موت كل بوقت معين لا يتعداه
فقصرنا عمر هذا وربما كان في الاوج من قوة البدن وصحة المزاج فلو اجتمع الخلق كلهم على
اطالة عمره ما قدروا ان يؤخروه لحظة واطلنا عمر هذا وربما كان في الحضيض من ضعف
البدن واضطراب المزاج فلو تمالؤا على تقصيره طرفة عين لعجزوا وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال
والباقون بالتشديد (وما نحن) أي على ما لنا من العظمة (بمسبوقين) أي بالموت أي لا عاجزين
ولا مغلوبين (على) أي عن (أن نبدل) أي تبديلا عظيما (أمثالكم) أي صوركم وأشخاصكم
(وننشئكم) أي انشاء جديدا بعد تبديل ذواتكم (فيما لا تعلمون) فان بعضكم تأكله
الحيتان او السباع او الطيور فننشئ ابدانه منها او بعضهم يصير ترابا فربما نشأ منه نبات فأكلته
الدواب فنشأت منه ابدانها وربما صار ترابه من معادن الارض الذهب والفضة والحديد
والنحاس والحجر ونحو ذلك وقد لمح الى ذلك قوله تعالى قل كونوا حجارة أو حديدا الى آخرها
ويكون المعنى كما قال البغوي نأتي بخلق مثلكم بدلا منكم ونخلقكم فيما لا تعلمون من
الصور اي بتغيير اوصافكم وصوركم الى صور اخرى بالمسخ ومن قدر على ذلك قدر على الاعادة
وقال الطبري معنى الآية نحن قدرنا بينكم الموت على ان نبدل امثالكم بعد موتكم بآخرين
من جنسكم وما نحن بمسبوقين في آجالكم أي لا يتقدم متأخر ولا يتأخر متقدم وننشئكم
فيما لا تعلمون من الصور ولهذا قال الحسن أي نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا باقوام
قبلكم وقيل المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا فنجمل المؤمن ببياض وجهه
ونقبح الكافر بسواد وجهه * (فائدة) * في ما مقطوعة في الرسم (ولقد علمتم النشأة الاولى) أي
الترابية لابيكم آدم عليه السلام واللحمية لامكم حواء رضي الله عنها او النطفية لكم وكل منها
تحويل من شئ الى آخر غيره فما الذي شاهدتم قدرته على ذلك لا يقدر على تحويلكم بعد ان
تصيروا ترابا الى ما كنتم عليه اولا من الصور ولهذا سبب عما تقدم قوله تعالى (فلولا) أي فهلا
ولم لا (تذكرون) أي تذكرا عظيما تكرهون انفسكم عليه فتعلمون ان من قدر على النشأة
الاولى قدر على الثانية فانها أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الاجزاء وسبق المثال وفيه
دليل على صحة القياس وفي الخبر عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة
الاولى وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والنشاءة
بفتح الشين وبعدها ألف قبل الهمزة والباقون بسكونها ولا ألف بعدها فاذا وقف حمزة نقل
حركة الهمزة الى الشين وخفف ذال تذكرون حمزة والكسائي وحفص وشددها الباقون

وأمره ان يعلمه امته مع
انه لم يزل ولا يزال صفة له
تعالى قائمة به لا تفارقه

ثم

ثم ذكر لهم حجة أخرى بقوله تعالى (أفرأيتم) اى اخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة مانبهنا كم عليه فيما تقدم فتسبب عن تنبيهكم لذلك انكم رأيتم (ما تحرثون) اى تجددون حرثه على الاستمرار من أرضكم فتطرحون فيه البذر (أأنتم تزرعونه) اى تنشئونه بعد طرحكم وتجعلونه زرعا فيكون فيه السنبل والحب (أم نحن) خاصة (الزارعون) أى المنبتون له والحافظون روى انه عليه الصلاة والسلام قال لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت قال ابو هريرة أرأيتم الى قوله تعالى أفرأيتم الآية ولما كان الجواب قطعا أنت الفعال لذلك وحدك قال تعالى موضحا لانه مازرعه غيره (لو نشاء) اى لو عاملنا كم بصفة العظمة (لجعلناه) اى بتلك العظمة (حطاما) اى مكسورا مفتتا لاحب فيه قبل النبات حتى لا يقبل الخروج او بعده ببرد مفرط اوحر مهلك اوغير ذلك فلا ينتفع به (فظلتم) اى فاقمتم بسبب ذلك نهارا فى وقت الاشغال العظيمة وتركتم ما يهمكم (تفكهون) حذفت منه احدى التاءين فى الاصل تخفيفا اى تتعجبون مما نزل بكم فى زرعكم وقيل تندمون على ما سلف منكم من المعاصى التى أوجبت تلك العقوبة ٣ قال الزمخشرى ومنه الحديث مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء فبيناهم اذ غار ماؤها فانتفع بها قوم وبقى قوم يتفكهون اى يتندمون وقال الكسائى التفكه التلهف على مافات من الاضداد تقول العرب تفكهت اى تنعمت وتفكهت اى حزنت وتقولون (انا لمغرمون) بحذف القول ومعنى الغرم ذهاب المال بغير عوض من الغرام وهو الهلاك ومن مجىء الغرام بمعنى الهلاك قول القائل

ان يعذب يكن غراما وان يعـ ... ـط جزيلا فانه لايبالى

وقال ابن عباس الغرام العذاب اى عذبوا بذهاب أموالهم والمعنى انا غرمنا الحب الذى بذرناه فذهب بغير عوض ومن الغرام بمعنى العذاب قول القائل

وثقت بان الحلم منك سجية ● وأن فؤادى مبتلى بك مغرم

وقرأ شعبة أئنا بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة على الاستفهام والباقون بهمزة واحدة مكسورة على الخبر (بل نحن) اى خاصة (محرومون) اى ممنوعون رزقنا حرمنا من لا يرد قضاؤه فلا حظ لنا فى الاكتساب فلو كان الزارع ممن له حظ لافلح زرعه ثم ذكر تعالى لهم حجة أخرى بقوله تعالى (أفرأيتم الماء) اى أخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة مانبهناعليه فيما مضى من المطعم وغيره فرأيتم الماء (الذى تشربون) فتصيروا به أنفسكم وتسكنوا به عطشكم ذكرهم بنعمه التى أنعم بها عليهم بانزال المطر الذى لا يقدر عليه أحد الا الله عز وجل (أأنتم أنزلتموه من المزن) أى السحاب وهو اسم جنس واحده مزنة قال القائل

فلا مزنة ودقت ودقها ● ولا أرض أبقل ابقالها

وعن ابن عباس والثورى المزن السماء والسحاب وقال أبو زيد المزنة السحابة البيضاء اى خاصة وهى أعذب ماء والجمع مزن والمزنة المطرة (أم نحن) اى خاصة (المنزلون) اى له بما لنا من العظمة (لو نشاء) اى حال انزاله وبعده قبل أن ينتفع به (جعلناه) اى بما تقتضيه صفة العظمة (أجاجا) اى ملحا مرا محرقا كانه فى الاحتراق لهيب النار المؤجج فلا يبرد عطشا ولا

●(سورة الحديد)●

(قوله سبح لله) عبر هنا وفى الحشر والصف بالماضى وفى

٣ قوله قال الزمخشرى عبارته وقرئ تفكنون ومنه الحديث الى أن قال ويبقى قوم يتفكنون اى يتندمون اهـ مصححه

ينبت نبتا ينتفع به وقال ابن عادل الاجاج المالح الشديد الملوحة (فلولا) اى فهلا ولم لا (تشكرون) أى تجددون الشكر على سبيل الاستمرار باستعمال ما أفادكم ذلك من القوى فى طاعة الله الذى أوجده لكم ومكنكم منه ثم ذكر تعالى لهم حجة أخرى بقوله تعالى (أفرأيتم النار) أى أخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة ما تقدم فرأيتم النار (التى تورون) أى تخرجون من الشجر الاخضر (أأنتم أنشأتم) أى اخترعتم وأوجدتم وأحييتم وربيتم ورفعتم (شجرتها) أى التى يقدح منها النار وهى المرخ والعفار وهما شجرتان يقدح منهما النار وهما رطبتان وقيل أراد جميع الشجر الذى توقد به النار (أم نحن) اى خاصة وأكد بقوله تعالى (المنشؤن) اى لها بما لنا من العظمة على تلك الهيئة فمن قدر على ايجاد النار التى هى أيبس ما يكون فى الشجر الاخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها كان أقدر على اعادة الطراوة فى تراب الجسد الذى كان غضا طريا فيبس * ولما كان الجواب قطعا أنت وحدك قال تعالى دالا على ذلك تنبيها على عظم هذا الخبر (نحن) اى خاصة (جعلناها) اى بما اقتضته عظمتنا (تذكرة) اى شيئا يتذكر به تذكرا عظيما جليلا كما أخبرنا به من البعث وعذاب النار الكبرى وما ينشأ عنها من شجرة الزقوم وغير ذلك وقيل موعظة يتعظ بها المؤمن وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ناركم التى توقدون جزء من سبعين جزأ من نار جهنم قالوا والله ان كانت لكافية يا رسول الله قال فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلها مثل حرها (ومتاعا) اى بلغة ومنفعة (للمقوين) اى المسافرين والمقوى النازل فى أرض القواء بالكسر والقصر والمد وهى القفر البعيدة من العمران والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادى والاسفار فان منفعتهم بها أكثر من المقيم فانهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ويهتدى الضال الى غير ذلك من المنافع وقال مجاهد للمقوين اى المنتفعين بها من الناس أجمعين يستضيؤن بها فى الظلمة ويصطلون بها من البرد وينتفعون بها فى الطبخ والخبز الى غير ذلك من المنافع ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله تعالى منها وقال ابن زيد للجائعين فى اصلاح طعامهم يقال أقويت منذ كذا وكذا اى ما أكلت شيأ قال الشاعر

وانى لأختار القوى طاوى الحشى * محافظة من أن يقال لئيم

وقال قطرب المقوى من الاضداد يقال للفقير مقو لخلوه من المال ويقال للغنى مقو لقوته على ما يريد والمعنى فيها متاعا ومنفعة للفقراء والاغنياء لاغنى لاحد عنها وقال المهدوى الآية تصلح للجميع لان النار يحتاج اليها المسافر والمقيم والغنى والفقير * ولما ذكر تعالى ما يدل على وجوب وحدانيته وقدرته وانعامه على سائر الخلق خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم أو كل أحد من الناس بقوله تعالى (فسبح) اى اوقع التنزيه العظيم من كل شائبة نقص من ترك البعث وغيره ولا سيما بعد بلوغ هذه الادلة (باسم) أى ملتبسا بذكر اسم (ربك) أى المحسن اليك بهذا البيان الاعظم *(فائدة)* أثبتوا ألف الوصل هنا فى اسم ربك لانه لم يكثر دوره كثرته فى البسملة وحذفوه منها لكثرة دورها وهم شأنهم الايجاز وتقليل الكثير اذا عرف معناه وهذا معروف لا يجهل واثبات ما أثبت من أشكاله مما لا يكثر دليل على الحذف منه ولذا لا تحذف مع غير

الجمعة والتغابن بالمضارع وفى الاعلى بالامر وفى الاسراء بالمصدر واستبدعا بالمبهات

الباء في اسم الله ولا مع الباء في غير الجلالة الكريمة من الاسماء وقد أوضحت ذلك في مقدمتي
على البسملة والحمدلة ولما كان المقام للعظمة قال الله تعالى (العظيم) اى الذى ملأ الاكوان
كلها عظمة فلا شئ منها الا وهو مملوء بعظمته تنزيها عن أن يلحقه شائبة نقص أو يفوته شئ من
كمال فالعظيم صفة للاسم أو الرب والاسم قيل بمعنى الذات وقيل زائد أى فسبح ربك واختلف
فى لا فى قوله تعالى (فلا أقسم) فقال أكثر المفسرين معناه فاقسم ولا صلة مؤكدة بدليل قوله
تعالى بعد ذلك وانه لقسم ومثلها فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والتقدير ليعلم وقال
بعضهم انها حرف نفى وان المنفى بها محذوف وهو كلام الكافر الجاحد والتقدير فلا حجة لما
يقوله الكافر ثم ابتدأ أقسم انا ذكر وضعف هذا بان فيه حذف اسم لا وخبرها قال أبو حيان
ولا ينبغى فان القائل بذلك مثل سعيد بن جبير تلميذ حبر القرآن وهو عبد الله بن عباس ويبعد
أن يقوله سعيد الا بتوقيف وقال بعضهم انها لام الابتداء والاصل فلأقسم فاشبعت الفتحة
فتولد منها ألف كقول بعضهم أعوذ بالله من العقراب قال الزمخشرى ولا يصح أن تكون اللام
لام القسم لامرين أحدهما أن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة والاخلال بها ضعيف قبيح
والثانى ان لأفعلن فى جواب القسم للاستقبال وفعل القسم يجب أن يكون للحال واختلف
أيضا فى معنى قوله عز وجل (بمواقع النجوم) فقال أكثر المفسرين بمساقطها الغروبها قال
الزمخشرى ولعل لله تعالى فى آخر الليل اذا انحطت النجوم الى المغرب أفعالا عظيمة مخصوصة
وللملائكة عبادات موصوفة أولانه وقت قيام المتهجدين والمبتهلين اليه من عباده الصالحين
ونزول الرحمة والرضوان عليهم فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله تعالى (وانه لقسم
لو تعلمون عظيم) وقال عطاء بن أبى رباح أراد بمواقعها منازلها قال الزمخشرى وله فى ذلك من
الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف وقال الحسن مواقعها انكدارها
وانتثارها يوم القيامة وقال ابن عباس والسدى المراد بنجوم القرآن اى أوقات نزولها وقال
الضحاك هى الانواء التى كانت الجاهلية تقول اذا امطروا مطرنا بنوء كذا وقال القشيرى هو
قسم ولله أن يقسم بما يريد وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة (فان قيل) لو تعلمون
جوابه ماذا (أجيب) بانه مقدر تقديره لعظمتموه أى لو كنتم من ذوى العلم لعلمتم عظم هذا القسم
ولكنكم ما عظمتموه فعلم انكم لا تعلمون وقرأ بموقع حمزة والكسائى بسكون الواو ولا ألف
بعدها والباقون بفتح الواو وألف بعدها وقوله تعالى (انه) أى القرآن الذى أنهمته النجوم
بعموم افهامها (لقرآن) أى جامع سهل ذو أنواع جليلة (كريم) أى بالغ الكرم منزه عن كل
شائبة لؤم ودناءة هو المقسم عليه وفى الكلام اعتراضان أحدهما الاعتراض بقوله تعالى وانه
لقسم بين القسم والمقسم عليه والثانى الاعتراض بقوله تعالى لو تعلمون بين الصفة والموصوف
•(تنبيه)• من كرم هذا القرآن العظيم كونه من الملك الاعلى الى خير الخلق بسفارة روح
القدس مشتملا على أصول العلوم المهمة فى اصلاح المعاش والمعاد بلسان العرب الذين
اتفقت علماء الفرق على ان لسانهم أفصح الالسن وعلى وجه أعجز العرب كافة وبقية الخلق
أجمعين واختلف فى معنى قوله تعالى (فى كتاب) أى مكتوب (مكنون) أى مصون فالذى عليه
الاكثر أنه المصحف سمى قرآنا لقرب الجوار على الاتساع ولان النبى صلى الله عليه وسلم نهى

المشهورة لهذه الكلمة
وبدأ بالمصدر فى الاسراء
لانه الاصل ثم بالماضى

أن يسافر بالقرآن الى أرض العدو وأراد به المصحف وقوله تعالى (لا يمسه) خبر بمعنى النهي
ولو كان باقيا على خبريته لزم منه الخلف لان غير المطهر يمسه وخبر الله تعالى لا يقع فيه خلف
لان المراد بقوله تعالى (الا المطهرون) لا المحدثون وهو قول عطاء وطاوس وسالم والقاسم
وأكثر أهل العلم وبه قال مالك والشافعي رضي الله عنهما وقال ابن عادل والصحيح ان
المراد بالكتاب المصحف الذي بايدينا لما روى مالك وغيره ان كتاب عمرو بن حزم لا يمس
القرآن الا طاهر وقال ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تمس القرآن الا وأنت
طاهر وقالت أخت عمر عند اسلامه وقد دخل عليها ودعا بالمصحف لا يمسه الا المطهرون
فقام فاغتسل وأسلم وعلى هذا قال قتادة وغيره معناه لا يمسه الا المطهرون من
الاحداث والانجاس انتهى وقال ابن عباس مكنون محفوظ عن الباطل والكتاب
هنا كتاب في السماء وقال جابر هو اللوح المحفوظ اى لقوله تعالى بل هو قرآن مجيد في
لوح محفوظ وقال عكرمة التوراة والانجيل فيهما ذكر القرآن وقال السدى الزبور وقيل
لا من لا يمسه نافية والضمة فى لا يمسه ضمة اعراب وعلى هذا فى الجملة وجهان
أحدهما ان محلها الجر صفة لكتاب والمراد به اما اللوح المحفوظ والمطهرون حينئذ
الملائكة أو المراد به المصحف والمراد بالمطهرين الملائكة كلهم والثاني محلها رفع
صفة لقرآن والمراد بالمطهرين الملائكة فقط أى لا يطلع عليه لان نسبة المس الى
المعاني متعذرة وقيل انها ناهية والفعل بعدها مجزوم لانه لو فك عن الادغام لظهر
ذلك فيه كقوله تعالى لم يمسسهم سوء ولكنه أدغم ولما أدغم حرك بالضم لاجل هاء ضمير
المذكر الغائب وفي الحديث انا لم نرده عليك الا أنا حرم بضم الدال وان كان القياس
يقتضي جواز فتحها تخفيفا وبهذا ظهر فساد رد من رد بان هذا لو كان نهيا كان يقال
لا يمسه بالفتح لانه خفي عليه جواز ضم ما قبل الهاء في هذا النحو بل لا يجوز سيبويه
غيره * واختلفوا في المس المذكور في الآية فقال أنس وسعيد بن جبير لا يمس ذلك
الا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة وقال ابو العالية وابن زيد هم الذين طهروا
من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم وقال الكلبي هم السفرة الكرام
البررة وهذا كله قول واحد وهو اختيار مالك وقال الحسن هم الملائكة الموصوفون
في سورة عبس في قوله تعالى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بايدي سفرة كرام بررة وقيل معنى
لا يمسه لا ينزل به الا المطهرون أى الا الرسل من الملائكة على الرسل من الانبياء ولا يمس اللوح
المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون الا الملائكة المطهرون ولو كان المراد طهر الحدث
لقال المتطهرون أو المطهرون بتشديد الطاء ومن قال بالاول قال المطهرون بمعنى المتطهرون
* (تنبيه) * اختلف العلماء في مس المصحف وحمله على غير وضوء فالجمهور على المنع من مسه على
غير طهارة لحديث عمرو بن حزم وهو مذهب على وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد
ابن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي
وأما الحمل فلانه أبلغ من المس سواء حمله بعلاقته أم في كمه أم على رأسه وسواء مس نفس الاسطر
أم ما بينها أم الحواشي أم الجلد أم العلاقة أم الخريطة أم الصندوق اذا كان المصحف فيهما

لسبق زمنه ثم بالمضارع لشموله الحال والمستقبل ثم بالامر لخلوصه بالحال

وسواء مس بأعضاء الوضوء أم بغيرها وقال جماعة بجواز مسه وحمله واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقل كتابا فيه قرآن وهرقل محدث يمسه هو وأصحابه وبأن الصبيان يحملون الالواح محدثين بلا انكار وبأنه اذا لم تحرم القراءة فالحمل والمس أولى وبأنه يجوز حمله في أمتعة وأجيب عن الاول بأن ذلك الكتاب كان فيه آيتان ولا يسمى مصحفا ولا ما في معناه وبأنه لو كان كتابا قد تضمن مع القرآن دعاء الى الاسلام فلم يكن القرآن بانفراده مقصودا فجاز تغليبا للمقصود فيه وعن الثاني بأنه أبيح للصبيان للضرورة لانهم غير مكلفين وعن الثالث بأن القراءة أبيحت للحاجة وعسر الوضوء لها كل وقت وبأنا لا نسلم الاولوية المذكورة بدليل أن الكافر لا يمنع من القراءة ويمنع من حمل المصحف ومسه وعن الرابع بأن جواز حمل المصحف في الامتعة محله اذا لم يكن المصحف مقصودا بالحمل وقال آخرون بحرمة المس دون الحمل واحتجوا بأن المحرم يحرم عليه مس الطيب دون حمله وأجيب عنه بأنه غير صحيح لان حمل المصحف أبلغ في الاستيلاء عليه من مسه فلما حرم الادنى كان تحريم الاعلى أولى ولان تحريم المصحف اعظامه وحرمته فاستوى فيه مسه وحمله بخلاف طيب المحرم فان تحريمه مقصور على الاستمتاع به وليس في حمله استمتاع به ولو لف كمه على يده وقلب به أوراق المصحف حرم عليه لان القلب يقع باليد لا بالكم بخلاف قلب ذلك بعود ويحرم كتب شئ من القرآن أو من أسمائه تعالى بنجس أو على نجس ومسه به اذا كان غير معفو عنه ولو خاف على المصحف من حرق أو غرق أو وقوع نجاسة عليه أو وقوعه في يد كافر جاز حمله مع الحدث بل يجب ذلك صيانة للمصحف ولو لم يجد من يودعه المصحف وعجز عن الوضوء فله حمله مع الحدث ويلزمه أن يتيمم ان وجد التراب ولا تجوز المسافرة بالمصحف الى أرض الكفار اذا خيف وقوعه في أيديهم للنهي عنه في الصحيحين وخرج بالمصحف غيره نحو كتب الفقه والحديث وكتب التفسير فلا يحرم حملها ولا مسها الا أن يكون القرآن أكثر من التفسير أو مساويا له فيحرم الحمل والمس لانه حينئذ في معنى المصحف وفي ذلك زيادة ذكرتها في شرح المنهاج وغيره وقوله تعالى (تنزيل) أي منزل الحكم بالتدريج بحسب الوقائع والتقريب للافهام والتأني والترقية من حال الى حال ومن حكم الى حكم بوسائط الرسل من الملائكة (من رب العالمين) أي الخالق العالم بتربيتهم صفة القرآن أي القرآن منزل من عند رب العالمين سمي المنزل تنزيلا على اتساع اللغة كقوله تعالى هذا خلق الله وأوثر المصدر لان تعلق المصدر بالفاعل أكثر وفي ذلك رد على قول من قال بأن القرآن شعر أو سحر أو كهانة (أفبهذا الحديث) أي القرآن الذي تقدمت أوصافه العالية وهو يتجدد الحكم انزاله وقتا بعد وقت (أنتم مدهنون) أي متهاونون كمن يدهن في الامر أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به قال ابن برجان الادهان والمداهنة الملاينة في الامور والتغافل والركون الى التجاوز اه قال البقاعي فهو على هذا انكار على من سمع أحدا يتكلم في القرآن بما لا يليق ثم لا يجاهره بالعداوة وأهل الاتحاد كابن عربي الطائي صاحب الفصوص وابن الفارض صاحب التائية أول من صوبت اليه هذه الآية فانهم تكلموا في القرآن على وجه يبطل الدين أصلا ورأسا بحله عروة عروة وفقهم أضر الناس على هذا الدين ومن يتأول لهم أو ينافح عنهم أو يعتذر لهم أو يحسن الظن بهم مخالف لاجماع

مع تأخره في النطق به ف
قولهم فعل يفعل افعل
(قوله مالك السموات

الامة المحبس سالامنهم فان مراده ابقاء كلامهم الذى لا أفسد للاسلام منه من غير أن يكون لابقائه مصلحة مما وجهه من الوجوه اهـ وجرى ابن المقرى فى روضه على كفر من شك فى كفر طائفة ابن العربى الذين ظاهر كلامهم عند غيرهم الاتحاد وهو بحسب ما فهمه من ظاهر كلامهم ولكن كلام هؤلاء جار على اصطلاحهم اذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى مجاز فى غيره والمعتقد منهم لمعناه معتقد لمعنى صحيح وأما من اعتقد ظاهره من جهلة الصوفية الذين لا علم عندهم بل أكثرهم يدعى ان العلم حجاب ومدعى ذلك هو المحجوب فانه يعرف فان استمر على ذلك بعد معرفته صار كافرا فنسأل الله تعالى التوفيق والعصمة ولما كان هذا القرآن متكفلا بسعادة الدارين قال تعالى (وتجعلون رزقكم) أى حظكم ونصيبكم وجميع ما تنتفعون به من هذا الكتاب وهو نفعكم كله (انكم تكذبون) فتضعون الكذب مكان الشكر كقوله تعالى وما كان صلاتهم عند البيت الامكاء وتصدية أى لم يكونوا يصلون ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة قال القرطبى وفيه بيان ان ما اصاب العباد من خير فلا ينبغى ان يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بان تكون اسبابا بل ينبغى ان يروه من قبل الله تعالى ثم يقابلونه بشكر ان كان نعمة او صبر ان كان مكروها تعبدا له وتذللا وعن ابن عباس ان المراد به الاستسقاء بالانواء وهو قول العرب مطرنا بنوء كذا ورواه على بن ابى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم اصبح من الناس شاكر ومنهم كافر فقال بعضهم هذه رحمة الله تعالى وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا قال فنزلت هذه الآية فلا أقسم بمواقع النجوم حتى بلغ وتجعلون رزقكم انكم تكذبون وفيه ايضا ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج فى سفر فعطشوا فقال النبى صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان دعوت الله تعالى لكم فسقيتم لعلكم أن تقولوا هذا المطر بنوء كذا فقالوا يارسول الله ما هذا بحين الانواء فصلى ركعتين ودعا الله تعالى فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمطروا فمر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سقينا بنوء كذا ولم يقل هذا من رزق الله تعالى فنزلت وتجعلون رزقكم انكم تكذبون اى شكر الله على رزقه اياكم أنكم تكذبون بالنعمة وتقولون سقينا بنوء كذا كقول القائل جعلت احسانى اليك اساءة منك الى وجعلت انعامى لديك ان اتخذتنى عدوا قال الشافعى لا احب لاحد أن يقول مطرنا بنوء كذا وان كان النوء عندنا الوقت لا يضر ولا ينفع ولا يمطر ولا يحبس شيأ من المطر والذى أحب أن يقول مطرنا وقت كذا كما يقول مطرنا شهر كذا ومن قال مطرنا بنوء كذا وهو يريد ان النوء أنزل الماء كما يقول أهل الشرك فهو كافر حلال دمه ان لم يتب وحاصله ان اعتقد أن النوء هو الفاعل حقيقة فهو كافر والا فيكره لذلك كراهة تنزيه وسبب الكراهة انها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائلها ولانها من شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم ثم بين سبحانه انه لا فاعل لشئ فى الحقيقة سواه بقوله تعالى (فلولا) وهى أداة تفهم طلبا بزجر وتوبيخ وتقريع بمعنى فهلا ولم لا (اذا بلغت الحلقوم) أى بلغت الروح منكم ومن غيركم عند الاحتضار الحلقوم أضمرت من غير ذكر لدلالة الكلام عليها دلالة ظاهرة

والارض) ظاهر هنا بعد ما موافقة لقوله بعد خلق السموات والارض

وفي الحديث ان ملك الموت له أعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيأ فشيأ حتى تنتهي الى الحلقوم فيتوفاها ملك الموت والحلقوم مجرى الطعام في الحلق والحلق مساغ الطعام والشراب معروف فكان الحلقوم أدنى الحلق الى جهة اللسان (وأنتم) أي والحال أنكم أيها العاكفون حول المحتضر المتوجعون له (حينئذ) أي بلغت الروح ذلك الموضع (تنظرون) أي الى أمري وسلطاني أو الى الميت ولا حيلة لكم ولا فعل بغير النظر ولم يقل تبصرون لئلا يظن ان لهم ادراكا بالبصر لشيء من البواطن من حقيقة الروح وظهورها (ونحن) أي والحال أنا نحن بما لنا من العظمة (أقرب اليه) أي المحتضر بعلمنا وقدرتنا (منكم) على شدة قربكم منه قال عامر بن قيس ما نظرت الى شيء الا رأيت الله أقرب الي منه (ولكن لا تبصرون) من البصيرة أي لا تعلمون ذلك (فلولا) أي فهلا (ان كنتم) أيها المكذبون بالبعث (غير مدينين) أي مربوبين من دان السلطان الرعية اذا ساسهم أو مقهورين مملوكين مجزيين بما عملتم في دار البلاء التي أقامكم فيها أحكم الحاكمين من دانه اذا أذله واستعبده وأصل تركيب دان للذل والانقياد قاله البيضاوي (ترجعونها) أي الروح الى ما كانت عليه (ان كنتم) كونا ثابتا (صادقين) فيما زعمتم فلولا الثانية تأكيد للاولى واذا ظرف لترجعون المتعلق به الشرطان والمعنى أنكم في جحودكم أفعال الله تعالى وآياته في كل شيء ان أنزل عليكم كتابا معجزا قلتم سحر وافتراء وان أرسل اليكم رسولا صادقا قلتم ساحر كذاب وان رزقكم مطرا يحييكم به قلتم صدق نوء كذا على مذهب يؤدي الى الاهمال والتعطيل فما لكم لا ترجعون الروح الى البدن بعد بلوغه الحلقوم ان لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدئ المعيد * ثم ذكر تعالى طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال عز من قائل (فأما ان كان) المتوفى (من المقربين) السابقين الذين اجتذبهم الحق من أنفسهم فقربهم منه فكانوا مرادين قبل أن يكونوا مريدين وليس القرب قرب مكان لانه تعالى منزه عنه وانما هو بالتخلق بالصفات الشريفة على قدر الطاقة البشرية ليصير الانسان روحانيا خالصا كالملائكة لا سبيل الى الحظوظ والشهوات عليه وقوله تعالى (فروح) مبتدأ خبره مقدر قبله أي فله روح أي راحة ورحمة وما ينعشه من نسيم الريح وقال سعيد بن جبير فله فرج وقال الضحاك مغفرة ورحمة (وريحان) أي رزق عظيم ونبات حسن بهيج وأزاهير طيبة الرائحة وقال مقاتل هو بلسان حمير رزق يقال خرجت أطلب ريحان الله أي رزقه وقيل هو الريحان الذي يشم قال أبو العالية لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه ثم تقبض روحه وقال أبو بكر الوراق الروح النجاة من النار والريحان دخول دار القرار (وجنت) أي بستان جامع الفواكه والرياحين (نعيم) أي ذات تنعم ليس فيها غيره وأهلها مقصور تنعمهم * (تنبيه) * جنت هنا مجرورة التاء ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي فالكسائي بالامالة في الوقف على أصله والباقون بالتاء على المرسوم (وأما ان كان) المتوفى (من أصحاب اليمين) أي الذين هم في الدرجة الثانية من أصحاب الميمنة (فسلام لك) أي يا صاحب اليمين من اخوانك (أصحاب اليمين) أي يسلمون

وله ملك السموات والارض وقاله في الحشر والصف والجمعة والتغابن باثباتها

عليك كقوله تعالى الا قيلا سلاما سلاما وقال القرطبي فسلام لك من أصحاب اليمين أى لست
ترى منهم الا ما تحب من السلامة فلا تهتم لهم فانهم يسلمون من عذاب الله تعالى وقيل المعنى
سلام لك منهم أى أنت سالم من الاغتمام لهم والمعنى واحد وقيل أصحاب اليمين يدعون لك
يا محمد بأن يصلى الله عليك ويسلم وقيل معناه سلامة لك يا أيها العبد مما تكره فانك من أصحاب
اليمين فحذف انك وقيل انه يحيا بالسلام تكرما وعلى هذا فى محل السلام ثلاثة اقوال احدها
عند قبض روحه فى الدنيا يسلم عليه ملك الموت قاله الضحاك وقال ابن مسعود اذا جاء ملك
الموت ليقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام الثانى عند مسئلته فى القبر يسلم
عليه منكر ونكير الثالث عند بعثه فى القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله اليها قال
القرطبي ويحتمل أن يسلم عليه فى المواطن الثلاثة ويكون ذلك اكراما بعد اكرام ٭ ولما ذكر
تعالى الصنفين الناجيين اتبعهما الهالكين جامعا لهم فى صنف واحد لان من اريدت له
السعادة يكفيه ذلك ومن ختم له بالشقاوة والعياذ بالله تعالى لا ينفعه الاغلاظ والاكثار
فقال تعالى (واما ان كان) المتوفى (من المكذبين) الذى أخذناه من اصحاب المشأمة
وانتم حوله تتقطعوا اكبادكم له ولا تقدرون له على شئ اصلا (الضالين) أى عن الهدى
وطريق الحق (فنزل من حميم) كما قال تعالى ثم انكم أيها الضالون المكذبون الى أن قال
فشاربون شرب الهيم وقال تعالى ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم أى ماء متناه فى الحرارة بعد
ما نالوا من العطش كما يرد أصحاب الجنة الحوض كما يبادر به للقادم ليبرد به غلة عطشه ويغسل
به وجهه ويديه (وتصلية جحيم) أى ونزل من تصلية جحيم والمعنى ادخال فى النار وقيل اقامة
فى الجحيم ومقاساة لانواع عذابها يقال اصلاه النار وصلاه أى جعله يصلاها والمصدر هنا
مضاف الى المفعول كما يقال لفلان اعطاء ماله أى يعطى المال (ان هذا) أى الذى ذكر فى هذه
السورة من امر البعث الذى كذبوا به فى قولهم أئنا لمبعوثون ومن قيام الادلة عليه (لهو حق
اليقين) اى حق الخبر اليقين اى لما عليه من الادلة القطعية المشاهدة كانه مشاهد مباشر وقيل
انما جاز اضافة الحق الى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما وذلك من باب اضافة المترادفين
٭ ولما حقق له تعالى هذا اليقين سبب عن أمره لنبيه صلى الله عليه وسلم بالتنزيه عما وصفوه به مما
يلزم منه وصفه بالعجز فقال تعالى (فسبح) أى أوقع التنزيه كله عن كل شائبة نقص بالاعتقاد
والقول والفعل بالصلاة وغيرها بأن تصفه بكل ما وصف به نفسه من الاسماء الحسنى وتنزهه عن
كل ما نزه نفسه عنه (باسم ربك) اى المحسن اليك بما خصك به مما لم يعطه أحدا غيرك واذا كان
هذا الاسم فكيف بما هو له (العظيم) الذى ملأت عظمته جميع الاقطار والاكوان وزادت
على ذلك بما لا يعلمه حق العلم سواه لان من له هذا الخلق على هذا الوجه المحكم وهذا الكلام
الاعز الاكرم لا ينبغى لشائبة نقص أن تلم بجنابه أو تدنو من فنائه وعن عقبة بن عامر قال
لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال النبى صلى الله عليه وسلم اجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت
سبح اسم ربك الاعلى قال النبى صلى الله عليه وسلم اجعلوها فى سجودكم خرجه ابو داود وعن
ابى ذر قال قال لى عليه الصلاة والسلام الا أخبرك باحب الكلام الى الله تعالى سبحان الله
وبحمده وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان

علا بالاصل (قوله لملك السموات والارض)

حبيبتان

ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم هذا الحديث آخر حديث فى البخارى وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة وروى أبو طيبة عن عبد الله بن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا ورواه البيهقى وغيره وكان أبو طيبة لا يدعها أبدا وأخرجه ابن الاثير فى كتابه جامع الاصول ولم يعزه

سورة الحديد مكية او مدنية

وهى تسع وعشرون آية وخمسمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وأربعمائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى أحاطت هيبته بجميع الموجودات (الرحمن) الذى وسعهم جوده فى جميع الحركات والسكنات (الرحيم) الذى خص أهل ولايته بما يرضيه من العبادات ولما ختمت الواقعة بالامر بتنزيهه عما أنكره الكفرة من البعث جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه فقال تعالى (سبح لله) أى الملك المحيط بجميع صفات الكمال (ما فى السموات) أى الاجرام العالية والذى فيها (والارض) والذى فيها أى نزهه كل شئ فاللام مزيدة وجئ بما دون من تغليبا للاكثر (وهو) أى وحده (العزيز) الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى الذى أتقن كل شئ صنعه وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها (له) أى وحده (ملك السموات والارض) وما فيهما وما بينهما ظاهرا وباطنا فالملك الظاهر ما هو الآن موجود فى الدنيا من أرض مدحية وسماء مبنية وكواكب مضيئة وأفلاك ورياح وسحاب مرئية وغير ذلك مما يحيط به علمه تعالى والملك الباطن الغائب عنا وأعظمه المضاف الى الآخرة وهو الملكوت (يحيى) أى له صفة الاحياء فيحيى ما شاء من الخلق بأن يوجده على صفة الحياة كيف شاء فى أطوار بقائها كيف شاء ويميت ما شاء (ويميت) أى له هاتان الصفتان على سبيل الاختيار والتجدد والاستمرار فهو قادر على البعث بدليل ما ثبت له من صفة الاحياء (وهو على كل شئ) أى من الاحياء والاماتة وغيرهما من كل ممكن (قدير) أى بالغ القدرة (هو) أى وحده (الاول) بالازلية قبل كل شئ فلا أول له والقديم الذى منه وجود كل شئ وليس وجوده من شئ لان كل ما نشاهده متأثر لانه متغير وكل ما كان كذلك فلابد له من موجد غير متأثر ولا متغير (والآخر) أى بالابدية الذى ينتهى اليه وجود كل شئ فى سلسلة الترقى وهو بعد فناء كل شئ باق فلا آخر له لانه يستحيل عليه نعت العدم لان كل ما سواه متغير وكل ما تغير بنوع من التغير جاز اعدامه وما جاز اعدامه فلابد له من معدم يكون بعده ولا يمكن اعدامه (والظاهر) أى الغالب العلى على كل شئ (والباطن) أى العالم بكل شئ هذا معنى قول ابن عباس وقال يمان هو الاول القديم والآخر الرحيم والظاهر الحكيم والباطن العليم وقال السدى هو الاول ببره اذ عرفك توحيده والآخر بجوده اذ عرفك التوبة على ما جنيت والظاهر بتوفيقه اذ وفقك للسجود له والباطن بستره اذ عصيته فستر عليك وقال الجنيد هو الاول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب وسأل عمر كعبا عن هذه الآية فقال معناها ان علمه بالاول كعلمه بالآخر

ذكره مرتين وليس بتكرار لان الاول فى الدنيا لقوله عقبه يحيى ويميت والثانى

وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن (وهو بكل شئ عليم) أى لكون الاشياء عنده على حد سواء
والبطون والظهور انما هو بالنسبة الى الخلق وأما هو سبحانه وتعالى فلا باطن من الخلق عنده
بل هم فى غاية الظهور لديه لانه الذى أوجدهم (فان قيل) مامعنى هذه الواوات (أجيب)
بان الواو الاولى معناها الدلالة على انه الجامع بين الصفتين الاولية والآخرية والثالثة
انه الجامع بين الظهور والخفاء وأما الوسطى فعلى انه الجامع بين الصفتين الاوليين ومجموع
الصفتين الاخريين فهو المستمر الوجود فى جميع الاوقات الماضية والحاضرة والآتية وهو
فى جميعها ظاهر وباطن جامع للظهور بالادلة والخفاء فلا يدرك بالحواس قال الزمخشرى وفى
هذا حجة على من جوز ادراكه فى الآخرة بالحاسة وهذا على رأيه الفاسد وهو على رأى
المعتزلة المنكرين رؤية الله تعالى فى الآخرة وأما أهل السنة فانهم يثبتون الرؤية للاحاديث
الدالة على ذلك من غير تشبيه ولا تكييف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وعن سهل قال كان أبو
صالح يأمرنا اذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الايمن ثم يقول اللهم رب السموات
والارض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شئ فالق الحب والنوى ومنزل التوراة
والانجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شئ أنت آخذ بناصيته اللهم أنت الاول فليس قبلك
شئ وأنت الآخر فليس بعدك شئ وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك
شئ اقض عنا الدين وأغننا من فضلك وكان يروى ذلك عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه
وسلم (هو) أى وحده (الذى خلق السموات) وجمعها لعلم العرب بتعددها (والارض) أى
الجنس الشامل للكل وأفردها لعدم توصلهم الى العلم بتعددها وقال تعالى (فى ستة أيام)
أى من أيام الدنيا أولها الاحد وآخرها الجمعة سنا للتأنى فى الامور وتقدير الايام التى أوترها
سابعها الذى خلق فيه الانسان الذى دل يوم خلقه باسمه الجمعة على أنه المقصود بالذات وبانه
السابع نهاية المخلوقات وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) أى السرير كناية عن انفراده
بالتدبير واحاطة قدرته وعلمه كما يقال فى ملوكنا جلس فلان على سرير الملك بمعنى أنه انفرد
بالتدبير وقد لا يكون هناك سرير فضلا عن جلوس وأتى باداة التراخى تنبيها على عظمته
(يعلم ما يلج) أى يدخل دخولا يغيب فيه (فى الارض) اى من النبات وغيره من أجزاء الاموات
وغيرها وان كان ذلك فى غاية البعد فان الاماكن كلها بالنسبة اليه تعالى على حد سواء فى القرب
والبعد (وما يخرج منها) كذلك * (تنبيه) * فى التعبير بالمضارع دلالة على ما أودع فى الخافقين
من القوى فصارا بحيث يتجدد منهما ذلك بخلقه تجددا مستمرا الى حين خرابهما (وما ينزل
من السماء) من الوحى والامطار والحر والبرد وغيرها من الاعيان والمنافع التى يوجدها سبحانه
وتعالى من مقادير أعمار بنى آدم وأرزاقهم وغيرها من جميع شؤنهم (وما يعرج) أى يصعد
ويرتقى ويغيب (فيها) كالابخرة والانوار والكواكب والاعمال وغيرها ولم يجمع السماء لان
المقصود حاصل بالواحدة مع افهام التعبير به الجنس الشامل للكل (وهو معكم) بالعلم
والقدرة أيها الخلق (أينما كنتم) لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال فهو عالم بجميع أموركم
وقادر عليكم تعالى الله عن اتصال بالعالم ومماسة أو انفصال عنه بغيبة أو مسافة (والله) أى
المحيط بجميع صفات الكمال (بما تعملون) أى على سبيل التجدد والاستمرار (بصير) أى عالم

فى العقبى لقوله عقبه والى الله ترجع الامور (قوله لا يستوى منكم من أنفق

بجليله وحقيره فيجازيكم به وقدم الجار لمزيد الاهتمام والتنبيه على تحقيق الاحاطة (له) أى وحده (ملك السموات) وجمع لاقتضاء المقام له (والارض) وأفردها لخفاء تعددها عليهم مع ارادة الجنس ودل على ارادة ملكه واحاطته بقوله تعالى (والى الله) أى الملك الذى لا كفء له وحده (ترجع) بكل اعتبار على غاية السهولة (الامور) أى كلها حسا بالبعث ومعنى بالابتداء والافناء ودل على ذلك بقوله تعالى (يولج) أى يدخل ويغيب بالنقص والمحو (الليل فى النهار) فاذا هو قد قصر بعد طوله وقد نمحى بعد شخوصه وحلوله وزاد النهار وملأ الضياء الاقطار بعد ذلك الظلام (ويولج النهار) الذى عم الكون ضياؤه (فى الليل) الذى كان قد غاب فى عله فاذا الظلام قد طبق الآفاق فيزيد الليل والطول الذى كان فى النهار قد صار نقصا (وهو) أى وحده (عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى بما فيها من الاسرار والمعتقدات على كثرة اختلافها وتغيرها وان خفيت على أصحابها ولما قامت الادلة على تنزيهه سبحانه قال تعالى آمرا بالاذعان له ولرسوله صلى الله عليه وسلم (آمنوا) أى أيها الثقلان (بالله) أى الملك الاعظم الذى لا مثل له (ورسوله) الذى عظمته من عظمته ونزل فى غزوة العسرة وهى غزوة تبوك (وأنفقوا) أى فى سبيل الله (مما جعلكم مستخلفين فيه) أى من الاموال التى فى أيديكم فانها أموال الله تعالى لانها بخلقه وانشائه لها وانما موّلكم اياها وخوّلكم بالاستمتاع بها وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها فليست هى باموالكم فى الحقيقة وما أنتم فيها الا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها فى حقوق الله تعالى وليهن عليكم الانفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره اذا أذن له فيه أو جعلكم مستخلفين عمن كان قبلكم فيما فى أيديكم بتوريثه اياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم اليكم وسينتقل منكم الى من بعدكم فلا تبخلوا به وانفعوا بالانفاق منها أنفسكم ولما أمر الله تعالى بالانفاق ووصفه بما سهله سبب عنه ما رغب فيه فقال تعالى (فالذين آمنوا منكم وأنفقوا) من أموالهم فى الوجوه التى ندب اليها على وجه الاصلاح على ما دل عليه التعبير بالانفاق (لهم أجر كبير) أى لا تبلغ عقولكم حقيقة كبره فاغتنموا الانفاق فى أيام استخلافكم قبل عزلكم وانتزاعكم وخصهم بالذكر بقوله تعالى منكم اضيق فى زمانهم وقيل ان ذلك اشارة الى عثمان فانه جهز جيش العسرة وقوله تعالى (وما) أى وأى شئ (لكم) من الاعذار أو غيرها فى أنكم أو حال كونكم (لا تؤمنون بالله) اى تجددون الايمان تجديدا مستمرا بالملك الاعلى اى الذى له الملك كله والامر كله خطاب للكفار اى لا مانع لكم بعد سماعكم ما ذكر (والرسول) اى والحال ان الذى له الرسالة العامة (يدعوكم) فى الصباح والمساء (لتؤمنوا) اى لاجل أن تؤمنوا (بربكم) الذى احسن تربيتكم بان جعلكم من أمة هذا النبى الكريم فشرفكم به (وقد) اى والحال انه قد (أخذ ميثاقكم) اى وقع أخذه فصار فى غاية القباحة ترك التوثق بسبب نصب الادلة والتمكين من النظر بابداع العقول وذلك كله منضم الى أخذ الذرية من ظهر آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى وقرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر الخاء ورفع القاف على البناء للمفعول ليكون المعنى من اى آخذ كان من غير نظر الى معين وقرأ الباقون بفتح الهمزة والخاء ونصب القاف على البناء للفاعل والآخذ هو الله القادر على كل شئ

من قبل الفتح وقاتل) تقديره من أنفق وقاتل قبل الفتح ومن أنفق وقاتل بعده

العالم بكل شئ والحاصل انهم نقضوا الميثاق فى الايمان فلم يؤاخذهم حتى أرسل الرسل (ان كنتم مؤمنين) اى مريدين الايمان فبادروا اليه (هو) أى لاغيره (الذى ينزل) اى على سبيل التدريج والموالاة بحسب الحاجة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (على عبده) الذى هو أحق الناس بحضرة جماله واكرامه وهو محمد صلى الله عليه وسلم (آيات) أى علامات هى من ظهورها حقيقة أن يرجع اليها ويتعبد بها (بينات) أى واضحات وهى آيات القرآن الكريم (ليخرجكم) اى الله بالقرآن أو عبده بالدعوة (من الظلمات) التى أنتم منغمسون فيها من الحظوظ والنقائص التى جبل عليها الانسان والغفلة الكاملة على ترا كم الجهل فمن آتاه الله تعالى العلم والايمان فقد أخرجه من هذه الظلمات التى طرأت عليه (الى النور) الذى كان له وصف الروح وفطرته الاولى السليمة (وان الله) اى الذى له صفات الكمال (بكم لرؤف رحيم) اى حيث نبهكم بالرسل والآيات ولم يقتصر على مانصب لكم من الحجج العقلية وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بقصر الهمزة والباقون بالمد وورش على أصله بالمد والتوسط والقصر وليس قصره كقصر أبى عمرو ومن معه وانما قصره كمد قالون ومن وافقه (وما) اى وأى شئ يحصل (لكم) فى (ألاتنفقوا) اى توجدوا الانفاق للمال (فى سبيل الله) اى فى كل مايرضى الملك الاعظم الذى له صفات الكمال ليكون لكم به وصلة فيخصكم بالرأفة التى هى أعظم الرحمة فانه مابخل أحد عن وجه خير الاسلط الله عليه غرامة فى وجه شر (ولله) أى الذى له صفات الكمال لاسيما صفة الارث المقتضية للزهد فى الموروث (ميراث السموات والارض) أى يرث كل شئ فيهما فلا يبقى لاحد مال فمن تأمل أنه زائل هو وكل مافى يده والموت من ورائه وطوارق الحوادث مطبقة به وعما قليل ينتقل مافى يده الى غيره هان عليه الجود بنفسه وماله ثم بين تعالى التفاوت بين المنفقين منهم فقال تعالى (لايستوى منكم من أنفق) اى أوجد الانفاق فى ماله وجميع قواه ومايقدر عليه (من قبل الفتح) اى الذى هو فتح جميع الدنيا فى الحقيقة وهو فتح مكة الذى كان سببا لظهور الدين الحق على الدين كله (وقاتل) سعيا فى انفاق نفسه لمن آمن به قبل الاسلام وقوة أهله ودخول الناس فى دين الله أفواجا وقلة الحاجة الى القتال والنفقة فيه ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوحه ودلالة مابعده عليه وفضل الاول لما ناله اذ ذاك بالانفاق من كثرة المشاق لضيق المال حينئذ وفى هذا دليل على فضل أبى بكر فانه أول من أنفق لم يسبقه فى ذلك أحد وخاصم الكفار حتى ضرب ضربا شديدا أشرف منه على الهلاك روى محمد بن فضيل عن الكلبى ان هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعن ابن عمر قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر الصديق عليه عباءة قد خلها فى صدره بخلال فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها بخلال فقال انفق ماله على قبل الفتح قال فان الله عز وجل يقول اقرأ عليه السلام وقل له أراض انت عنى فى فقرك هذا ام ساخط فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول لك أراض أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط فقال ابو بكر اسخط على ربى انى عن ربى راض انى عن ربى راض (أولئك) اى المنفقون المقاتلون وهم السابقون الاولون من المهاجرين

لان الاستواء انما يكون بين اثنين فاكثر وانما حذفه لدلالة مابعده عليه

والانصار الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه لمبادرتهم الى الجود بالنفس والمال (أعظم درجة) وتعظيم الدرجة يكون لعظم صاحبها (من الذين أنفقوا من بعد) أى من بعد الفتح (وقاتلوا) أى من بعد الفتح (وكلا) أى وكل واحد من الفريقين (وعد الله) أى الذى له الجلال والاكرام (الحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة مع تفاوت الدرجات وقرأ ابن عامر برفع اللام على الابتداء أى وكل وعده ليطابق ما عطف عليه والباقون بنصبها أى وعد كلا (والله) أى الذى له الاحاطة الكاملة بجميع صفات الكمال (بما تعملون) أى تجددون عمله على الاوقات (خبير) أى عالم بباطنه وظاهره علما لا مزيد عليه بوجه فهو يجعل جزاء الاعمال على قدر النيات التى هى أرواح صورها (تنبيه) التقدم والتأخر قد يكون فى أحكام الدين وقد يكون فى أحكام الدنيا فأما التقدم فى أحكام الدين فقالت عائشة أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم وأعظم المنازل مرتبة الصلاة وقد قال صلى الله عليه وسلم فى مرضه مروا أبا بكر فليصل بالناس وقال يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله وقال فليؤمكما أكبركما وأما فى أحكام الدنيا فهى مرتبة على أحكام الدين فمن قدم فى الدين قدم فى الدنيا وفى الحديث ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا وفى الحديث ما أكرم شاب شيخا لسنه الا قيض الله له عند سنه من يكرمه ثم رغب فى الانفاق بقوله تعالى (من) وأكد بالاشارة بقوله تعالى (ذا) لاجل ما فى النفوس من الشح (الذى يقرض الله) أى يعطى الذى له جميع صفات الجلال والاكرام شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز لانه اذا أعطى المستحق ماله لوجه الله تعالى فكأنه أقرضه اياه (قرضا حسنا) أى طيبا خالصا مخلصا فيه متحريا به أفضل الوجوه من غير من وكدر بتسويف وغيره (فيضاعفه له) أى يؤتى أجره من عشرة الى أكثر من سبعمائة كما ذكره فى البقرة الى ما شاء الله تعالى من الاضعاف وقيل القرض الحسن أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقال زيد بن أسلم هو النفقة على الاهل وقال الحسن التطوع بالعبادات وقرأ ابن عامر وعاصم بنصب الفاء بعد العين والباقون بالرفع وقرأ ابن كثير وابن عامر بغير ألف بعد الضاد وتشديد العين والباقون بألف بعد الضاد وتخفيف العين (وله) أى للمقرض زيادة على ذلك (أجر) لا يعلم قدره الا الله تعالى وهو معنى وصفه بقوله تعالى (كريم) أى حسن طيب زاك تام وقوله تعالى (يوم) ظرف لقوله تعالى وله أجر كريم أو منصوب باضمار اذكر أى واذكر يوم (ترى) أى بالعين (المؤمنين والمؤمنات) أى الذين صار الايمان لهم صفة راسخة (يسعى نورهم) أى ما يوجب نجاتهم وهدايتهم الى الجنة (بين أيديهم وبأيمانهم) لان السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الاشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم فيجعل النور فى الجهتين شعارا لهم وآية لانهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا فاذا ذهب بهم الى الجنة ومروا على الصراط يسعون يسعى معهم ذلك النور جنيبا لهم ومتقدما والاول نور الايمان والمعرفة والاعمال المقبولة والثانى نور الانفاق لانه بالايمان نبه عليه الرازى وقال قتادة ذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال من المؤمنين من يضئ نوره من المدينة الى عدن ودون ذلك حتى ان من المؤمنين من لا يضئ نوره الا موضع قدميه وقال عبد الله بن مسعود

(قوله أولئك هم الصديقون والشهداء) سماهم شهداء تغليبا أو المراد ان لهم أجر

يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نورا نوره على ابهامه فيطفأ مرة ويتقد أخرى ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة (بشراكم اليوم) أى بشارتكم العظيمة فى جميع ما يستقبلكم من الزمان * (تنبيه) * بشراكم اليوم مبتدأ واليوم ظرف وقوله تعالى (جنات) خبره على حذف مضاف أى دخول جنات وهو المبشر به ثم وصفها بما لا تكمل اللذة الا به بقوله (تجرى من تحتها الانهار) ثم آمنهم من خوف الانقطاع بقوله تعالى (خالدين فيها) أى خلود الا آخر له لان الله تعالى أورثهم ذلك فلا يورث عنه لان الجنة لا موت فيها (ذلك) أى هذا الامر العظيم المتقدم من النور والبشرى بالجنات الخالدة (هو الفوز العظيم) أى الذى ملأ بعظمته جميع جهاتهم * ولما شرح تعالى حال المؤمنين فى موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين بقوله (يوم يقول المنافقون والمنافقات) وهم المظهرون الايمان المبطنون الكفر * (تنبيه) * يوم بدل من يوم ترى او منصوب باذكر (للذين آمنوا) أى ظاهرا وباطنا (انظرونا) أى انتظرونا لانه يسرع بهم الى الجنة كالبرق الخاطف على ركائب تزف بهم وهؤلاء مشاة أو انظروا الينا لانهم اذا انظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيؤن به وقرأ حمزة بقطع الهمزة فى الوصل وكسر الظاء والباقون بوصل الهمزة ورفع الظاء وأما الوقف على آمنوا والابتداء بانظرونا فالهمزة على حاله كما يقرأ فى الوصل والباقون بضم همزة الوصل فى الابتداء والظاء على حالها من الضم (نقتبس) أى نستضئ (من نوركم) أى هذا الذى نراه لكم ولا يلحقنا منه شئ كما كنا فى الدنيا نرى ايمانكم بما نرى من ظواهركم ولا نتعلق من ذلك بشئ جزاء وفاقا وذلك لان الله تعالى يعطى المؤمنين نورا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطى المنافقين أيضا نورا خديعة لهم وهو قوله تعالى وهو خادعهم فبينما هم يمشون اذ بعث الله تعالى ريحا وظلمة فاطفأت نور المنافقين فذلك قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه الآية مخافة ان يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين والقبس الشعلة من النار أو السراج قال ابن عباس وابو امامة يغشى الناس يوم القيامة ظلمة قال الماوردى أظنها بعد فصل القضاء ثم يعطون نورا يمشون فيه وقال الكلبى بل يستضئ المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فاذا سبقهم المؤمنون وبقوا فى الظلمة قالوا للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم (قيل) لهم جوابا لسؤالهم قال ابن عباس يقول لهم المؤمنون أى قول رد وتوبيخ وتهكم وتنديم (ارجعوا وراءكم) أى ارجعوا الى الموقف حيث أعطينا النور (فالتمسوا نورا) هنالك فمن ثم يقتبس أو ارجعوا الى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل سببه وهو الايمان أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا والتمسوا نورا آخر فلا سبيل لكم الى هذا النور وقد علموا أن لا نور وراءهم وانما هو تخييب واقناط لهم وقال قتادة تقول لهم الملائكة ارجعوا وراءكم من حيث جئتم وقرأ هشام والكسائى بضم القاف والباقون بكسرها ولما كان التقدير فرجعوا أو وقفوا قاموا فى الظلمة سبب عنه وعقب قوله تعالى (فضرب بينهم) أى بين المؤمنين والمنافقين (بسور) أى حائط حائل بين شق الجنة وشق النار (له) أى لذلك السور (باب) موكل به حجاب لا يفتحون الا لمن أذن له الله تعالى من المؤمنين لما يهديهم اليه من نورهم الذى بين ايديهم بشفاعة أو نحوها

الشهداء والانبياء هم
لم يقتل حتى يكون شهيدا
(قوله ما أصاب من مصيبة)

(باطنه) أي ذلك السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة من جهة الذين آمنوا أجزاء لايمانهم الذي هو غيب (فيه الرحمة) وهي ما لهم من الكرامة لانه يلي الجنة التي هي ساترة تبطن من فيها باشجارها وباستارها كما كانت بواطنهم ممتلئة رحمة (وظاهره) اي ما ظهر لاهل النار (من قبله) اي من عنده ومن جهته (العذاب) وهو الظلمة والنار لانه يليها الاقتصار أهلها على الظواهر من غير أن يكون لهم نفوذ الى الباطن وروى عن عبد الله بن عمر أن السور الذي ذكر الله تعالى في القرآن هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم وقال ابن شريح كان كعب يقول في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس انه الباب الذي قال الله تعالى فضرب بينهم بسور له باب الآية وقيل السور عبارة عن منع المنافقين عن طلب المؤمنين (ينادونهم) اي ينادي المنافقون الذين آمنوا ويترفقون لهم (ألم نكن معكم) اي في الدنيا نصلي ونصوم فنستحق المشاركة فيما صرتم اليه بسبب ذلك الذي كنا معكم فيه (قالوا) اي الذين آمنوا (بلى) اي كنتم معنا في الظاهر (ولكنكم فتنتم انفسكم) أي اهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات وكلها فتنة (وتربصتم) اي بالايمان والتوبة وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقلتم يوشك ان يموت فنستريح منه (وارتبتم) اي شككتم في الدين وفي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفيما أوعدكم به (وغرتكم الاماني) اي ما تمنون من الارادات التي معها شهوة عظيمة من الاطماع الفارغة التي لا سبب لها غير شهوة النفس اياها بما كنتم تتوقعون لنا من دوائر السوء (حتى جاء امر الله) اي قضاء الملك المتصف بجميع صفات الكمال فلا كفء له ولا خلف وقرأ قالون وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وايضا لهما ابدالها والباقون بتحقيقهما وامال الالف بعد الميم حمزة وابن ذكوان والباقون بالفتح واذا وقف حمزة وهشام ابدلا الهمزة الثانية مع المد والتوسط والقصر (وغركم بالله) اي الملك الذي له جميع العظمة (الغرور) اي من لا صنع له الا الكذب وهو الشيطان فانه يزين لكم بغروره التسويف ويقول ان الله غفور رحيم وعفو كريم وماذا عسى ان تكون ذنوبكم عنده وهو عظيم محسن وحليم ونحو ذلك فلا يزال حتى يوقع الانسان فاذا اوقعه واصل عليه مثل ذلك حتى تمادى فاذا تمادى صار الباعث له حينئذ من قبل نفسه فصار طوع يده (فاليوم) اي بسبب افعالكم تلك (لا يؤخذ منكم فدية) اي نوع من انواع الفداء وهو البدل والعوض النفس على اي حال كان من قلة او كثرة لان الاله غني وقد فات محل العمل الذي شرعه لكم لانقياد انفسكم وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير (ولا من الذين كفروا) اي الذين اظهروا كفرهم ولم يستروه كما سترتموه انتم لسانا واتيتم لهم في الكفر واعاد عطف الكافر على المنافق وان كان المنافق كافرا في الحقيقة لان المنافق ابطن الكفر والكافر اظهره فصار غير المنافق فحسن عطفه على المنافق (مأواكم النار) اي منزلكم ومسكنكم لا مقر لكم غيرها تحرقكم كما كنتم تحرقون قلوب الاولياء باقبالكم على الشهوات واضاعة حقوق ذوي الحاجات وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وورش لا يبدل هذه الهمزة ثم اكد ذلك بقوله تعالى (هي) اي لا غيرها

في الارض ولا في أنفسكم) قال هنا وقال في التغابن ما أصاب من مصيبة الا

(مولاكم) اى هى اولى بكم وانشد قول لبيد

فغدت كلا الفرجين تحسب انه • مولى المخافة خلفها وأمامها

والشاهد فى مولى المخافة فولى بمعنى أولى والفرجان الجانبان وهو الخلف والقدام وهو وصف بقرة وحشية أى غدت على حالة كلا جانبيها مخوف وحقيقته فى الآية محراكم بحاء مهملة وراء أى مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم أى مكان كقول القائل انه لكريم ويجوز أن يراد هى ناصركم أى لا ناصر لكم غيرها والمراد نفى الناصر على البتات وقيل تتولاكم كما توليتم فى الدنيا أعمال أهل النار ولما كان التقدير بئس المولى هى عطف عليه قوله تعالى (وبئس المصير) أى هذه النار واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ألم يأن) أى يحن ويدرك ويفتنه الى الغاية (للذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (أن تخشع) أى تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن قلوبهم (لذكر الله) أى الملك الاعظم الذى لا خير الا منه فيصدق فى ايمانه من كان كاذبا ويقوى فى الدين من كان ضعيفا فيعرض عن الفانى ويقبل على الباقى ولا يطلب لداء دينه دواء ولا لمرض قلبه شفاء فى غير القران فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن وعن ابن مسعود رضى الله عنه ما كان بين اسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية الا أربع سنين وعن الحسن أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤن من القران أقل مما تقرؤن فانظروا فى طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق وقيل كانوا مجهدين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت وعن أبى بكر رضى الله عنه ان هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديدا فنظر اليهم وقال هكذا كنا حتى قست القلوب وقال الشاعر

ألم يأن لى يا قلب أن تترك الجهلا • وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

وقوله تعالى (وما نزل من الحق) أى القرآن عطف على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر لان القرآن جامع للامرين للذكر والموعظة أو أنه حق نازل من السموات ويجوز ان يراد بالذكر ان يذكر الله تعالى وقرأ نافع وحفص بتخفيف الزاى والباقون بالتشديد وقوله تعالى (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) اى قبل ما نزل اليكم وهم اليهود والنصارى معطوف على تخشع والمراد النهى عن مماثلة اهل الكتاب فيما حكى عنهم بقوله تعالى (فطال عليهم الامد) اى الاجل لطول اعمارهم وآمالهم او ما بينهم وبين انبيائهم (فقست) اى بسبب الطول (قلوبهم) اى صلبت واعوجت بحيث لا تنفعل بالطاعات والخير فكانوا كل حين فى تعنت جديد على انبيائهم عليهم السلام يسألونهم المقترحات واما بعد انبيائهم فابعدوا فى القساوة فمالوا الى دار الكدر واعرضوا عن دار الصفاء فانجروا الى الهلاك باتباع الشهوات قال القشيرى وقسوة القلب انما تحصل باتباع الشهوة فان الشهوة والصفوة لا يجتمعان وعن ابى موسى الاشعرى انه بعث الى قراء البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرؤا القرآن فقال انتم خيار اهل البصرة وقراؤهم فاقرؤه ولا تطيلوا عليكم الامد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب

بإذن الله فصل هنا واجل ثم موافقة لما قبله . ما لانه فصل هذا بقوله اعلموا

من كان قبلكم (وكثير منهم) أخرجته قساوته عن الدين أصلا ورأساً فهم (فاسقون) أي عريقون في صفة الاقدام على الخروج من دائرة الحق التي حدها لهم الكتاب حتى تركوا الايمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقوله تعالى (اعلموا أن الله) أي الملك الاعظم الذي له الكمال كله فلا يعجزه شئ (يحيي) أي على سبيل التجديد والاستمرار كما تشاهدونه (الارض) أي بالنبات (بعد موتها) أي يبسها تمثيل لاحياء الاموات بجميع أجسادهم وافاضة الارواح عليها كما فعل بالنبات وكما فعل بالاجسام أول مرة ولاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة فاحذروا سطوته واخشوا غضبه وارجوا رحمته لاحياء القلوب فانه قادر على احيائها بروح الوحي كما أحيا الارض بروح الماء لتصير باحيائها بالذكر خاشعة بعد قسوتها كما صارت الارض بالماء رابية بعد خشوعها وموتها ٭ ولما انكشف الامر بهذه غاية الانكشاف أنتج قوله تعالى (قد بينا) أي على ما لنا من العظمة (لكم الآيات) أي العلامات النيرات (لعلكم تعقلون) أي لتكونوا عند من يعلم ذلك ويسمعه من الخلائق على رجاء من حصول العقل لكم بما يتجدد لكم من فهمه على سبيل التواصل الدائم بالاستمرار وقرأ (ان المصدقين) اي العريقين في هذا الوصف من الرجال (والمصدقات) أي من النساء ابن كثير وشعبة بتخفيف الصاد فيهما من التصديق بالايمان والباقون بالتشديد فيهما من التصدق أدغمت التاء في الصاد أي الذين تصدقوا وقوله تعالى (وأقرضوا الله) أي الذي له الكمال كله عطف على معنى الفعل في المصدقين لان اللام بمعنى الذين واسم الفاعل بمعنى اصدقوا كانه قيل ان الذين اصدقوا وأقرضوا الله (قرضا حسنا) أي بغاية ما يكون من طيب النفس واخلاص النية والنفقة في سبيل الخير وحسنه كما قاله الرازي أن يصرف بصره عن النظر الى فعله والنفقة والامتنان به وطلب العوض عليه (يضاعف) اي ذلك القرض (لهم) من عشرة الى سبعمائة كما مر لان الذي كان له القرض كريم وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد العين ولا الف بينها وبين الضاد والباقون بتخفيف العين وبينها وبين الضاد ألف (ولهم) اي مع المضاعفة (أجر كريم) أي ثواب حسن وهو الجنة والنظر الى وجهه الكريم ٭ ثم بين سبحانه وتعالى الحامل على الصدقة ترغيبا فيه وهو الايمان فقال تعالى (والذين آمنوا) اي اوجدوا هذه الحقيقة العظيمة في أنفسهم (بالله) أي الملك الاعلى الذي له الجلال والاكرام (ورسله) أي كلهم لاجل ما لهم من النسبة اليه فمن كذب واحدا منهم لم يكن مؤمنا بالله تعالى (أولئك) أي هؤلاء العالو الرتبة (هم الصديقون) أي الذين هم في غاية الصدق والتصديق لما يحق له أن يصدقه من سمعه وقال القشيري الصديق من استوى ظاهره وباطنه ويقال هو الذي يحمل الامر على الاشق ولا ينزل الى الرخص ولا يجنح للتأويلات وقال مجاهد كل من آمن بالله تعالى ورسله عليهم السلام فهو صديق وتلا هذه الآية وقال الضحاك الآية خاصة في ثمانية نفر من هذه الامة سبقوا أهل الارض في زمانهم الى الاسلام أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ألحقه الله تعالى بهم لما عرف من صدق نيته صلى الله عليه وسلم وعلى آله واختلف في تمام قوله تعالى (والشهداء عند ربهم) اي الحسن اليهم بالتربية لنيل تلك الرتبة العالية فمنهم من قال هي متصلة بما قبلها والواو للنسق وأراد

انما الحيوة الدنيا الآية بخلافه ثم (قوله لكيلا تاسوا على ما فاتكم ولا

بالشهداء المؤمنين المخلصين وقال الضحاك هم التسعة الذين سميناهم رضى الله عنهم وقال مجاهد كل مؤمن صديق وشهيد وتلا هذه الآية وقال قوم تم الكلام عند قوله تعالى هم الصديقون ثم ابتدأ بقوله تعالى والشهداء فهو مبتدأ وخبره (لهم اجرهم) أى جعله ربهم لهم (ونورهم) أى الذى زادهموه من فضله برحمته قالوا والواو للاستئناف وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ومسروق وجماعة ثم اختلفوا فيهم فمنهم من قال هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام الذين يشهدون على الامم يروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو قول مقاتل ابن حيان وقال مقاتل بن سليمان هم الذين استشهدوا فى سبيل الله عز وجل * ولما ذكر تعالى اهل السعادة جعلنا الله تعالى ووالدينا ومحبينا منهم جامعا الاصنافهم اتبعهم أهل الشقاوة كذلك بقوله تعالى (والذين كفروا) أى ستروا مادلت عليه الادلة (وكذبوا بآياتنا) أى على مالها من العظمة بنسبتها الينا (أولئك) أى هؤلاء البعداء من كل خير (أصحاب الجحيم) أى النار التى هى غاية فى توقدها وفى ذلك دليل على ان الخلود فى النار مخصوص بالكفار من حيث ان التركيب يشعر بالاختصاص والصحبة تدل على الملازمة عرفا وأما غيرهم من العصاة فدخولهم فيها ليس على وجه الصحبة الدالة على الملازمة * ولما ذكر تعالى حال الفريقين فى الآخرة حقر امر الدنيا بقوله تعالى (اعلموا) اى ايها العباد المبتلون بحب الدنيا (انما الحيوة الدنيا) اى الحاضرة التى رغب فى الزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن وما مزيدة للتأكيد أى الحياة فى هذه الدار (لعب) اى لعب لاثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان (ولهو) اى شئ يفرح به الانسان فيلهيه أى يشغله عما يعنيه ثم ينقضى كلهو الفتيان ثم أتبع ذلك أعظم ما يلهى فى الدنيا بقوله تعالى (وزينة) اى شئ يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان واتبعها ثمرتها بقوله تعالى (وتفاخر بينكم) أى كتفاخر الاقران يفتخر بعضهم على بعض ويجر ذلك الى الحسد والبغضاء واتبع ذلك بما يحصل به الفخر بقوله تعالى (وتكاثر) أى من الجانبين كتكاثر الرهبان (فى الاموال) أى التى لا يفتخر بها الا أحمق لكونها مائلة (والاولاد) اى التى لا يفتخر بها الا سفيه لانها زائلة وآفاتها هائلة وانما هى فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره ثم ذلك كله قد يكون ذهابه عن قريب فيكون على اضداد ما كان عليه فيكون أشد فى الحسرة ثم فى آخر ذلك يموت فاذا هو قد اضمحل أمره ونسى عما قليل ذكره وصار ماله لغيره وزينته تمتع بها سواه فالدنيا حقيرة وأحقر منها طالبها لانها جيفة وطالب الجيفة ليس له خطر وأخسهم من يبخل بها وقال على لعمار لا تحزن على الدنيا فان الدنيا ستة اشياء ماكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح فاحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة واكثر شرابها الماء ويستوى فيه جميع الحيوان وافضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة وأفضل مشمومها المسك وهو دم فارة وأفضل المركوب الفرس وعليها تقتل الرجال واما المنكوح فهو النساء وهو مبال فى مبال والله ان المرأة لتزين أحسنها فيراد منها اقبحها اه ويناسب بعض ذلك قول الشاعر

نخير لباسهم انسجات دود * وخير شرابهم قئ الذباب
وأشهى ما ينال المرء منها * مبال فى مبال مستطاب

*فرحوا بما آتاكم) ليس المراد به الانتهاء عن الحزن والفرح اللذين لا ينفك

قال

قال القشيري وهذه الدنيا المذمومة هي ما يشغل العبد عن الآخرة فكل ما يشغله عن الآخرة فهو الدنيا اهـ اي وأما الطاعات وما يعين عليها فمن امور الآخرة * ثم ضرب الله للدنيا مثلا بقوله تعالى (كمثل) أي هذا الذي ذكرته من أمرها يشبه مثل (غيث) اي مطر حصل بعد جدب وسوء حال (أعجب الكفار) اي الزراع الذين حصل منهم الحرث والبذر الذي يستره الحارث كما يستر الكافر حقيقة أنوار الايمان بما يحصل منه من الجحد والطغيان (نباته) اي نبات ذلك الغيث كما يعجب الكافر في الغالب بسط الدنيا له استدراجا من الله تعالى (ثم يهيج) أي ييبس فيتم جفافه فيحين حصاده (فتراه) أي عقب كل ذلك وبالقرب منه (مصفرا) أي على حالة لاخير بعدها (ثم) أي بعد تناهي الجفاف (يكون) أي كونا كأنه مطبوع عليه (حطاما) أي فتاتا يضمحل بالرياح * ولما ذكر تعالى الظل الزائل ذكر اثره الثابت الدائم مقسما له الى قسمين فقال تعالى (وفي الآخرة عذاب شديد) أي على من آثر الدنيا وأخذها بغير حقها معرضا عن ذكر الله تعالى وعن الآخرة هذا أحد القسمين وأما القسم الآخر فهو ما ذكره بقوله تعالى (ومغفرة) أي ولمن أقبل على الآخرة ورفض الدنيا ولم تشغله عن ذكر الله تعالى مغفرة (من الله) اي الملك الاعظم (ورضوان) اي في جنة عالية تفضلا منه تعالى ورحمة * وقوله جل وعلا (وما الحيوة الدنيا) اي لكونها تشغل بزينتها مع انهاز ائلة (الامتاع الغرور) أي هو في نفسه غرور لا حقيقة له الا ذلك لانه لا يسر بقدر ما يضر تأكيد لما سبق قال سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور اذا ألهتك عن طلب الآخرة فاما اذا دعتك الى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة * ثم أرشدهم الله تعالى الى المسابقة الى الخيرات لان الدنيا خيال ومحال والآخرة بقاء وكمال بقوله تعالى (سابقوا) أي سارعوا مسارعة المسابقين في المضمار (الى مغفرة) أي ستر لذنوبكم عينا وأثرا (من ربكم) أي المحسن اليكم بانواع الخيرات التي توجب المغفرة لكم من ربكم وقال الكلبي سارعوا بالتوبة لانها تؤدي الى المغفرة وقال مكحول هي التكبيرة الاولى مع الامام وقيل الصف الاول (وجنة) أي وبستان هو من عظم أشجاره واطراد انهاره بحيث يستر داخله (عرضها كعرض السماء والارض) أي السموات السبع والارضين السبع لو جعلت صفائح والزق بعضها ببعض لكان عرض الجنة في قدرها جميعا وقال ابن عباس رضي الله عنهما يريد أن لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة وقال مقاتل ان السموات السبع والارضين السبع لو جعلت صفائح والزق بعضها الى بعض لكانت عرض جنة واحدة من الجنان وسأل عمر ناس من اليهود اذا كانت الجنة عرضها ذلك فاين النار فقال لهم أرأيتم اذا جاء الليل اين يكون النهار واذا جاء النهار اين يكون الليل فقالوا انه لمثلها في التوراة ومعناه انه حيث شاء الله وهذا عرضها ولا شك ان الطول ازيد من العرض فذكر العرض تنبيها على ان طولها اضعاف ذلك وقيل ان هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في أنفسهم وأفكارهم واكثر ما يقع في أنفسهم مقدار السموات والارض فشبه عرض الجنة بما تعرفه الناس (اعدت) اي هيئت هذه الجنة الموعود بها وفرغ من امرها بايسر امر (للذين آمنوا) اي اوقعوا هذه الحقيقة (بالله) اي الذي له جميع العظمة لاجل ذاته مخلصين له الايمان (ورسله) فلم يفرقوا بين احد منهم وفي هذا اعظم رجاء واقوى امل

عنهما لا تأسى الانسان بطبعه بل المراد الحزن المخرج لصاحبه الى الذهول عن

لانه ذكر ان الجنة اعدت لمن آمن بالله ورسله ولم يذكر مع الايمان شيأ آخر يدل عليه قوله تعالى في سياق الآية (ذلك) اي الفضل العظيم جدا (فضل الله) اي الملك الذي لا مكافئ له فلا اعتراض عليه (يؤتيه من يشاء) فبين انه لا يدخل احد الجنة الا بفضل الله لا بعمله لما روى عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة احد منكم عمله قالوا ولا انت يارسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله بفضل رحمته ولا ينافي ذلك قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون لان الباء في الحديث عوضية وفي الآية سببية (فان قيل) يلزم على هذا ان يقطع بحصول الجنة لجميع العصاة وان يقطع بانه لا عقاب عليهم (اجيب) بانا نقطع بحصول الجنة ولا نقطع بنفي العقاب عنهم لانهم اذا عذبوا مدة ثم نقلوا الى الجنة بقوا فيها ابد الآباد فكانت معدة لهم (والله) اي والحال ان الملك المختص بجميع صفات الكمال فله الامر كله (ذو الفضل العظيم) اي الذي جل أن تحيط بوصفه العقول (ما اصاب من مصيبة في الارض) أي من قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمرات وغلاء الاسعار وتتابع الجوائح وغير ذلك (ولا في أنفسكم) أي من الامراض والفقر وذهاب الاولاد وضيق العيش وغير ذلك (الا في كتاب) أي مكتوبة في اللوح المحفوظ مثبتة في علم الله تعالى (من قبل ان نبرأها) أي نخلق ونوجد ونقدر المصيبة في الارض والانفس وهذا دليل على ان اكتساب العباد بخلقه سبحانه وتعالى وتقديره (ان ذلك) أي الامر الجليل وهو علمه بالشئ وكتبه له على تفاصيله قبل أن يخلقه (على الله) أي الماله من الاحاطة بصفات الكمال (يسير) لان علمه محيط بكل شئ فقدرته شاملة لا يعجزها شئ ثم بين ثمرة اعلامه بذلك بقوله تعالى (لكيلا) أي اعلمنا كم بانا على مالنا من العظمة قد فرغنا من التقدير فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير لا الحزن يدفعه ولا السرور يجلبه ويجمعه كما قال صلى الله عليه وسلم يا معاذ ليقل همك ما قدر يكن لاجل أن لا (تأسوا) اي تحزنوا حزنا كبيرا زائدا على ما في أصل الجبلة فربما جر ذلك الى السخط وعدم الرضا بالقضاء (على ما فاتكم) أي من المحبوبات الدنيوية (ولا تفرحوا) أي تسروا سرورا يوصلكم الى البطر بالتمادي على ما في أصل الجبلة وقوله تعالى (بما آتاكم) قرأه أبو عمرو بقصر الهمزة أي جاءكم منه والباقون بالمد أي اعطاكم قال جعفر الصادق رضي الله عنه مالك تأسف على مفقود ولا يرده عليك الفوت ومالك تفرح بموجود ولا يتركه في يدك الموت اهـ ولقد عزى الله تعالى المؤمنين رحمة بهم في مصائبهم وزهدهم في رغائبهم بان اسفهم على فوت المطلوب لا يعيده وفرحهم بحصول المحبوب لا يفيده وبان ذلك لا مطمع في بقائه الا بادخاره عند الله تعالى وذلك بان يقول المصيبة قدر الله تعالى وما شاء فعل ويصبر وفي النعمة هكذا اقضى وما أدرى ما آله هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر ام أكفر فلا يزال خائفا عند النعمة قائلا في الحالين ما شاء الله تعالى كان ومالم يشأ لم يكن وأكمل من هذا أن يكون مسرورا بذكر ربه في كلتا الحالتين وقيمة الرجال انما تعرف بالواردات المغيرة فمن لم يتغير بالمضار ولم يتأثر بالمسار فهو سيد وقته كما أشار اليه القشيري وقال ابن عباس رضي الله عنهما ليس من أحد الا وهو يحزن ويفرح ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرا وغنيمته شكرا والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان تتعدى فيهما الى ما لا يجوز (والله) أي الذي له صفات الكمال (لا يحب) أي لا يفعل فعل المحب

الصبر والتسليم لامر الله والفرح المنهى عن الشكر نعوذ بالله منهما

بان يكرم (كل مختال) أي متكبر نظرا الى ما في يده من الدنيا (فخور) أي به على الناس قال القشيري الاختيال من بقايا النفس ورؤيتها والفخر من رؤية خطر ما به يفتخر وقوله تعالى (الذين يبخلون) بدل من كل مختال فخور فان المختال بالمال يضن به غالبا (ويأمرون الناس) أي كل من يعرفونه (بالبخل) ارادة أن يكونوا لهم رفقاء يعملون باعمالهم الخبيثة او مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله تعالى (ومن يتول) أي يكلف نفسه الاعراض ضد ما في فطرته من محبة الخير والاقبال على الله تعالى (فان الله) الذي له جميع صفات الكمال (هو) أي وحده (الغني الحميد) لان معناه ومن يعرض عن الانفاق فان الله غني أي عن ماله وعن انفاقه وكل شئ مفتقر اليه وهو مستحق للحمد سواء أحمده الحامدون أم لا (لقد ارسلنا) أي بما لنا من العظمة (رسلنا) أي الذين لهم نهاية الجلال بما لهم بنا من الاتصال من الملائكة الى الانبياء على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ومن الانبياء الى الامم (بالبينات) اي الحجج القواطع (وأنزلنا) اي بعظمتنا التي لاشئ اعلى منها (معهم الكتاب) أي الكتب المتضمنة للاحكام وشرائع الدين (والميزان) أي العدل وقيل الآلة روى أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه الى نوح عليه السلام وقال مر قومك يزنوا به (ليقوم الناس بالقسط) أي ليتعاملوا بينهم بالعدل (وانزلنا) أي خلقنا خلقا عظيما بما لنا من القوة (الحديد) أي المعروف على وجه من القوة والصلابة واللين فلذلك سمي ايجاده انزالا وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد وروى من آلة الحدادين السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والابرة وحكاه القشيري قال والميقعة ما يحدد به يقال وقعت الحديدة أقعها أي حددتها وفي الصحاح الميقعة الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه وخشبة القصار التي يدق عليها والمطرقة والمسن الطويل وروى ومعه المبرد والمسحاة وعن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أنزل اربع بركات من السماء الى الارض أنزل الحديد والنار والماء والملح وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أنزل الله ثلاثة أشياء مع آدم عليه السلام الحجر الاسود وكان أشد بياضا من الثلج وعصا موسى عليه السلام وكانت من آس طولها عشرة أذرع مع طول موسى والحديد وعن الحسن وأنزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى وأنزل لكم من الانعام وذلك ان أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه (فيه بأس) أي قوة وشدة (شديد) أي قوة شديدة فمنه جنة وهي آلة الدفع ومنه سلاح وهو آلة الضرب (ومنافع للناس) بما يعمل منه من مرافقهم لتقوم أحوالهم بذلك قال البيضاوي ما من صنعة الا والحديد آلتها وقال مجاهد يعني جنة وقيل انتفاع الناس بالماعون الحديد كالسكين والفاس ونحو ذلك وروى أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء فيه بأس شديد أي مهراق الدماء ولذلك نهى عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء لانه يوم يجري فيه الدم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم وقوله تعالى (وليعلم الله) أي الذي له جميع العظمة علم شهادة لاجل اقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم عطف على قوله تعالى ليقوم الناس أي لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم الله (من ينصره) أي ينصر دينه بآلات الحرب من الحديد ونحوه وقوله تعالى (ورسله) عطف على مفعول ينصره أي وينصر رسله وقوله تعالى

(قوله وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) المراد بالميزان العدل أو والعقل

(بالغيب) حال من هاء ينصره أى غائبا عنهم فى الدنيا قال ابن عباس رضى الله عنهما ينصرونه ولا يبصرونه (ان الله) أى الذى له العظمة كلها (قوى) أى فهو قادر على اهلاك جميع أعدائه وتاييد من ينصره من أوليائه (عزيز) فهو غير مفتقر الى نصرة أحد وانما دعا عباده الى نصرة دينه ليقيم الحجة عليهم فيرحم من أراد بامتثال المأمور ويعذب من يشاء بارتكاب المنهى لبناء هذه الدار على حكمة ربط المسببات بالاسباب * ولما أجمل الرسل فى قوله تعالى لقد أرسلنا رسلنا فصل هنا ما اجمل من ارسال الرسل بالكتب فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (نوحا) وهو الاب الثانى وجعلنا الاغلب على رسالته مظهر الجلال (وابراهيم) وهو أبو العرب والروم وبنى اسرائيل الذى أكثر الانبياء من نسله وجعلنا الاغلب على رسالته تجلى الاكرام (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (فى ذريتهما النبوة) فلا يوجد نبى الا من نسلهما (والكتاب) أى الكتب الاربعة وهى التوراة والانجيل والزبور والفرقان وعن ابن عباس رضى الله عنهما الكتاب الخط بالقلم يقال كتب كتابا وكتابة والضمير فى قوله تعالى (فمنهم مهتد) يعود على الذرية لتقدم ذكرها لفظا وقيل يعود على المرسل اليهم لدلالة أرسلنا اى هو بعين الرضا منا وهو من لزم طريقة الاصفياء وان كان من اولاد الاعداء (وكثير منهم) اى المذكورين (فاسقون) أى هم بعين السخط وان كانوا من اولاد الاصفياء والمراد بالفاسق ههنا الكافر لانه جعل الفساق ضد المهتدين وقيل هو الذى ارتكب الكبيرة سواء أكان كافرا أم لم يكن لاطلاق هذا الاسم وهو يشمل الكافر وغيره (ثم قفينا) أى اتبعنا بما لنا من العظمة (على آثارهم) أى الابوين المذكورين ومن مضى قبلهما من الرسل أو عاصرهما منهم (برسلنا) أى فارسلناهم واحدا فى اثر واحد كموسى والياس وداود وغيرهم ولا يعود الضمير على الذرية لانها باقية مع الرسل وبعدهم وأيضا الرسل المقفى بهم من الذرية (وقفينا) أى اتبعنا بما لنا من العظمة على آثارهم قبل أن تندرس (بعيسى ابن مريم) وهو من ذرية ابراهيم من جهة أمه وهو آخر من جاء قبل النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام فامته أولى الامم باتباعه صلى الله عليه وسلم (وآتيناه) أى بما لنا من العظمة (الانجيل) كتابا ضابطا لما جاء به مقيما للملة مبشرا بالنبى العربى موضحا الامر مكثرا من ذكره (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (فى قلوب الذين اتبعوه) أى على دينه بغاية جهدهم فكانوا على منهاجه (رأفة) أى أشد رقة على من كان يتسبب الى الاتصال بهم (ورحمة) أى رقة وعطفا على من لم يكن له سبب فى الاتصال بهم كما كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين رحماء بينهم حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع ان قلوبهم فى غاية الصلابة فهم أعزة على الكافرين متوادين بعضهم لبعض وقوله تعالى (ورهبانية) منصوب بفعل مقدر يفسره الظاهر وهو قوله تعالى (ابتدعوها) قال أبو على ابتدعوا رهبانية ابتدعوها فتكون المسئلة من باب الاشتغال والى هذا نحا الفارسى والزمخشرى وأبو البقاء وجماعة الا أن هذا يقال انه اعراب المعتزلة وذلك أنهم يقولون ما كان من فعل الانسان فهو مخلوق له فالرحمة والرأفة لما كانتا من فعل الله تعالى نسب خلقهما اليه والرهبانية لما لم تكن من فعل الله تعالى بل من فعل العبد يستقل بفعلها نسب ابتداعها اليه وقيل ان رهبانية معطوفة على رأفة ورحمة وجعل اما بمعنى خلق أو بمعنى صيروا بتدعوها على

وقيل هو الميزان المعروف أنزله جبريل عليه السلام فدفعه الى نوح

هذا

هذا صفة الرهبانية وانما خصت بذكر الابتداع لان الرأفة والرحمة فى القلب أمر غريزى لا تكلف للانسان فيه بخلاف الرهبانية فانها أفعال البدن وللانسان فيها تكسب لكن أبو البقاء منع هذا بان ما جعله الله تعالى لا يبتدعونه وجوابه ما تقدم من انه لما كانت مكتسبة صح ذلك فيها والمراد من الرهبانية ترهبهم فى الجبال فارين من الفتنة فى الدين مخلصين كأنفسهم زائدة على العبادات التى كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد فى الكهوف والغيران روى ان ابن عباس رضى الله عنهما قال فى أيام الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم غير الملوك التوراة والانجيل فساح نفر وبقى نفر قليل فترهبوا وتبتلوا قال الضحاك ان ملوكا بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلثمائة سنة فانكرها عليهم من كان بقى على منهاج عيسى فقتلوهم فقال قوم بقوا بعدهم نحن اذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع وقال قتادة الرهبانية التى ابتدعوها رفض النساء واتخاذ الصوامع وفى خبر مرفوع هى لحوقهم بالبرارى والجبال وقوله تعالى (ما كتبناها) صفة لرهبانية ويجوز أن يكون استئناف اخبار بذلك قال ابن زيد معناه ما فرضناها (عليهم) ولا أمرناهم بها فى كتابهم ولا على لسان رسولهم وقوله تعالى (الا ابتغاء رضوان الله) أى الملك الاعظم استثناء منقطع أى ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وقيل متصل مما هو مفعول من أجله والمعنى ما كتبناها عليهم لشئ من الاشياء الا لابتغاء مرضاة الله ويكون كتب بمعنى قضى فصار المعنى كتبناها عليهم ابتغاء مرضاة الله (فما رعوها حق رعايتها) أى ما قاموا بها حق القيام بل ضموا اليها التثليث وكفروا بدين عيسى ودخلوا فى دين ملكهم وبقى على دين عيسى كثير منهم وآمنوا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم (فآتينا) أى بما لنا من صفات الكمال (الذين آمنوا) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم (منهم أجرهم) أى اللائق بهم وهو الرضوان المضاعف (وكثير منهم) أى من هؤلاء الذين ابتدعوها فضيعوها (فاسقون) أى عريقون فى وصف الخروج عن الحدود التى حدها الله تعالى وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى عليه السلام روى البغوى بسنده عن ابن مسعود أنه قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم فرقة غزت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى وفرقة لم يكن لها طاقة بمعاداة الملوك ولا أن يقيموا بين أظهرهم فدعوهم الى دين الله تعالى ودين عيسى عليه السلام فساحوا فى البلاد فترهبوا وهم الذين قال الله عز وجل ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم من آمن بى وصدقنى واتبعنى فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بى فاولئك هم الهالكون وعن ابن مسعود أيضا قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار فقال يا ابن أم عبد هل تدرى من أين اتخذت بنو اسرائيل الرهبانية فقلت الله ورسوله أعلم قال ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بالمعاصى فغضب أهل الايمان فقاتلوهم فهزموا أهل الايمان ثلاث مرار فلم يبق منهم الا القليل فقالوا ان ظهرنا لهؤلاء قتلونا ولم يبق للدين أحد يدعو اليه فتعالوا نتفرق فى الارض الى أن يبعث الله تعالى النبى الذى وعدنا عيسى عليه السلام يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم فتفرقوا فى غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا

قوله عليه السلام وقال له صحابه ... قوله يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله

قوله فرقة غزت الملوك الخ هكذا بالنسخ التى بايدينا وليس فيه الفرقة الثالثة فليحرر اه مصحح

هذه الآية ورهبانية ابتدعوها الى قوله تعالى فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم يعنى من ثبت عليها أجرهم ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم يا ابن أم عبد أتدرى ما رهبانية أمتى قلت الله ورسوله أعلم قال الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الامة الجهاد فى سبيل الله تعالى وعن ابن عباس قال كانت ملوك بنى اسرائيل بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والانجيل وكان فيهم مؤمنون يقرؤن التوراة والانجيل ويدعونهم الى دين الله تعالى فقيل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم أو دخلوا فيما نحن فيه فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والانجيل الا ما بدلوا منهما فقالوا نحن نكفيكم أنفسنا فقالت طائفة ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا اليها ثم اعطونا شيأ نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم وقالت طائفة دعونا نسيح فى الارض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فان قدرتم علينا بارض فاقتلونا وقالت طائفة ابنوا لنا دورا فى الفيافى نحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم ففعلوا بهم ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى عليه السلام وخلف قوم من بعدهم ممن غير الكتاب فجعل الرجل يقول نكون فى مكان فلان فنتعبد كما تعبد ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دورا كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بايمان الذين اقتدوا بهم فذلك قوله عز وجل ورهبانية ابتدعوها ابتدعها هؤلاء الصالحون فما رعوها حق رعايتها يعنى الآخرين الذين جاؤا من بعدهم فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم يعنى الذين ابتغوها ابتغاء مرضاة الله وكثير منهم فاسقون هم الذين جاؤا من بعدهم قال فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم الا القليل انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا وصدقوا فقال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى بموسى وعيسى عليهما السلام ايمانا صحيحا (اتقوا الله) أى خافوا عقاب الملك الاعظم (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم ايمانا مضموما الى ايمانكم بمن تقدمه هذا اذا كان خطابا لمؤمنى أهل الكتاب وأما اذا كان خطابا للمؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم فالمعنى آمنوا برسوله ايمانا مضموما الى ايمانكم بالله تعالى فانه لا يصح الايمان بالله الا مع الايمان برسوله صلى الله عليه وسلم (يؤتكم) أى يعطكم على اتباعه (كفلين) أى نصيبين ضخمين (من رحمته) يحصنانكم من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع وهو كساء يعقد على ظهر البعير فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره على العجز وهذا التضعيف لاجل ايمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم وايمانكم بمن تقدمه مع خفة العمل ورفع الآصار ولا يبعد ان يثابوا على دينهم السابق وان كان منسوخا ببركة الاسلام وقيل الخطاب للنصارى الذين كانوا فى عصره صلى الله عليه وسلم وقال أبو موسى الاشعرى كفلين ضعفين بلسان الحبشة وقال ابن زيد كفلين أجر الدنيا وأجر الآخرة وعن أبى موسى الاشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث يؤتون أجرهم مرتين رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تاديبها ثم أعتقها وتزوجها ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعبد أحسن عبادة الله ونصح سيده (ويجعل لكم) أى مع ذلك (نورا) مجازيا فى الدنيا من العلوم والمعارف القلبية وحسيا فى الآخرة بسبب العمل (تمشون به) أى مجازا فى الدنيا بالتوفيق للعمل وحقيقة

قوله والا ما بدلوا هكذا بالنسخ التى معنا والذى فى حاشية العلامة الجمل نقلا عن الخازن الا ما بدلوا بغير واو وهو الاولى تأمل اه مصحح

(وآمنوا برسوله) ان قلت كيف قال ذلك مع ان المؤمنين مؤمنون برسوله

في

في الآخرة بسبب العمل وقال مجاهد النور هو البيان والهدى وقال ابن عباس هو القرآن وقال الزمخشري هو النور المذكور في قوله تعالى نورهم يسعى وقيل يمشون في الناس يدعونهم الى الاسلام فيكونون رؤساء في دين الاسلام لا تزول عنكم رياستكم فيه وذلك أنهم خافوا ان تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وانما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله تعالى لا الرياسة الحقيقية في الدين (ويغفر لكم) اى ما فرط منكم من سهو وعمد وهزل وجد (والله) اى المحيط بجميع صفات الكمال (غفور) اى بليغ المحو للذنوب عينا وأثرا (رحيم) أي بليغ الاكرام لمن يغفر له ويوفقه للعمل بما يرضيه ٭ ولما بلغ من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين قالوا للمسلمين اما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لايمانه بكتابكم وبكتابنا ومن لم يؤمن منا فله أجره كاجوركم فما فضلكم علينا فانزل الله تعالى (لئلا يعلم) اى ليعلم ولا زائدة للتأكيد (أهل الكتاب) الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (أن) مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشان والمعنى انهم (لا يقدرون على شئ) في زمن من الازمان (من فضل الله) أي الملك الاعلى فلا أجر لهم ولا نصيب في فضله ان لم يؤمنوا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقال قتادة حسد الذين لم يؤمنوا من اهل الكتاب المؤمنين منهم فنزلت هذه الآية وقال مجاهد قالت اليهود يوشك ان يخرج منا نبي يقطع الايدي والارجل فلما خرج من العرب كفروا به فنزلت الآية وروى ان مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بانهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت وقيل المراد من فضل الله الاسلام وقيل الثواب وقال الكلبي من رزق الله وقيل نعم الله تعالى التي لا تحصى (وان) اى واعلموا أن (الفضل) اى الذي لا يحتاج اليه من هو عنده (بيد الله) الذي له الامر كله (يؤتيه من يشاء) لانه قادر مختار فآتى المؤمنين منهم أجرهم مرتين (والله) اى الذي أحاط بجميع صفات الكمال (ذو الفضل العظيم) اى مالكه ملكا لا ينفك ولا ملك لاحد فيه معه ولا تصرف بوجه أصلا فلذلك يخص من يشاء بما يشاء روى البخاري عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر انما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الامم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس أعطى اهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فاعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطى أهل الانجيل الانجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فاعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فاعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملا واكثر أجرا قال هل ظلمتكم من اجركم شيأ قالوا لا قال فذلك فضلي أوتيه من أشاء وفي رواية فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا الحديث وفي رواية انما أجلكم في اجل من كان قبلكم خلا من الامم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس وانما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال من يعمل لي الى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود الى نصف النهار على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار الى العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر الى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين الا فانتم الذين تعملون من صلاة العصر الى مغرب الشمس

(قلت) معناه يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم

ألا لكم الاجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى وقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء قال الله
تعالى هل ظلمتكم من حقكم شيأ قالوا الا قال فانه فضلي أوتيه من شئت وعن أبي موسى
الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر
قوما يعملون له عملا يوما الى الليل على أجر معلوم فعملوا الى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا الى
أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل فقال لهم لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم
كاملا فأبوا وتركوا واستأجر آخرين من بعدهم فقال أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي
شرطت لهم من الاجر فعملوا حتى اذا كان حين صلاة العصر قالوا ما عملنا باطل وذلك الاجر
الذي جعلت لنا فيه فقال أكملوا بقية عملكم فانما بقي من النهار شئ يسير فأبوا فاستأجر آخرين
على ان يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين
كلاهما فذلك مثلهم ومثل ما بقوا من هذا النور ومارواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه
صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله حديث موضوع

سورة المجادلة مدنية

في قول الجميع الا رواية عن عطاء الا العشر الاول منها مدني وباقيها مكي وقال الكلبي نزل
جميعها بالمدينة غير قوله تعالى ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم نزلت بمكة وهي ثنتان
وعشرون آية وأربعمائة وثلاث وسبعون كلمة وألف وسبعمائة واثنان وسبعون حرفا
(بسم الله) الذي تمت قدرته وكملت جميع صفاته (الرحمن) الذي شمل الخلائق جودا بالايجاد
وارسال الهداة (الرحيم) الذي خص أصفياءه فتمت عليهم نعمة مرضاته ونزل في خولة بنت
ثعلبة وكانت تحت أوس بن الصامت وكان قد ظاهر منها (قد سمع الله) أي اجاب بعظيم
فضله الذي أحاط بجميع صفات الكمال فوسع سمعه الاصوات (قول التي تجادلك) أي
تراجعك أيها النبي (في زوجها) المظاهر منها روى أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
مر بها في خلافته وهو على حمار والناس معه فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت يا عمر قد
كنت تدعى عميرا ثم قيل لك عمر ثم قيل لك أمير المؤمنين فاتق الله يا عمر فانه من ايقن بالموت خاف
الفوت ومن أيقن بالحساب خاف العذاب وهو واقف يسمع كلامها فقيل له يا أمير المؤمنين
أتقف لهذه العجوز هذا الموقف فقال والله لو حبستني من أول النهار الى آخره لازلت الا
للصلاة المكتوبة أتدرون من هذه العجوز هي خولة بنت ثعلبة سمع الله تعالى قولها من فوق
سبع سموات أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر وعن عائشة تبارك الذي وسع سمعه كل
شئ اني لاسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهي تقول يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى اذا كبر سني وانقطع ولدي
ظاهر مني اللهم اني أشكو اليك فما برحت حتى نزل بهذه الآية قد سمع الله قول التي تجادلك
في زوجها الآية وروى أنها كانت حسنة الجسم فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه
أمرها فلما انصرفت أرادها فأبت فغضب عليها قال عروة وكان امرأ به لمم فأصابه بعض لممه
فقال لها انت علي كظهر أمي وكان الايلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية فسألت النبي صلى

الله

فيكون خطابا لاهل الكتاب خاصة أو معناه يا أيها الذين آمنوا يوم

قوله الا رواية عن عطاء الا العشر كذا في النسخ التي بأيدينا وفي حاشية الجمل الا رواية عن عطاء ان اه فلعل ما هنا تحريف من الناسخ اه مصححه

الله عليه وسلم فقالت ان أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب في فلما علا سني ونثرت بطني أي كثر ولدي جعلني عليه كأمه فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم حرمت عليه فقالت والله ما ذكر طلاقا وانه أبو ولدي وأحب الناس الي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه فقالت أشكو الى الله فاقتي ووحدتي فقد طالت صحبتي ونفضت له بطني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراك الا حرمت عليه أو أومر في شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه هتفت وقالت اشكو الى الله فاقتي وشدة حالي وان لي صبية صغارا ان ضممتهم الي جاعوا وان ضممتهم اليه ضاعوا وجعلت ترفع رأسها الى السماء وتقول اللهم اني أشكو اليك فانزل على لسان نبيك وكان هذا أول ظهار في الاسلام فأنزل الله تعالى قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى زوجها وقال ما حملك على ما صنعت قال الشيطان فهل من رخصة فقال نعم وقرأ عليه الاربع آيات فقال له هل تستطيع العتق فقال لا والله فقال هل تستطيع الصوم فقال لا والله اني ان اخطأني أن آكل في اليوم مرة أو مرتين لكل بصري واظننت اني أموت قال فاطعم ستين مسكينا قال ما أجد الا أن تعينني منك بعون وصلة فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا وأخرج أوس من عنده مثله فتصدق به على ستين مسكينا وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لها مريه أن يعتق رقبة فقالت أي رقبة والله لا يجد رقبة وما له خادم غيري فقال مريه أن يصوم شهرين فقالت والله ما يقدر على ذلك انه يشرب في اليوم كذا كذا مرة فقال مريه فليطعم ستين مسكينا فقالت أنى له ذلك (وتشتكي) اي تتعمد بتلك المجادلة الشكوى منتهية (الى الله) أي سؤال الملك الاعظم الرحمة الذي أحاط بكل شيء علما (فان قيل) ما معنى قد في قوله تعالى قد سمع (أجيب) بان معناها التوقع لان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله تعالى مجادلتهما وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها الصدقها في شكواها وقطع رجائها في كشف ما بها من غير الله ان الله تعالى يكشف كربتها (والله) اي والحال أن الذي وسعت رحمته كل شيء لان له الامر كله (يسمع تحاوركما) أي تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب (ان الله) أي الذي أحاط بجميع صفات الكمال (سميع) اي بالغ السمع لكل مسموع (بصير) اي بالغ البصر لكل ما يبصر فهما صفتان كالعلم والقدرة والحياة والارادة وهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه متصفا بهما ٭ ولما أتم تعالى الخبر عن احاطة العلم استأنف الاخبار عن حكم الامر المجادل بسببه فقال تعالى (الذين يظهرون) اي يوجدون الظهار في أي زمان كان وقوله تعالى (منكم) أي أيها العرب المسلمون توبيخ لهم وتهجين لعادتهم لان الظهار كان خاصا بالعرب دون سائر الامم فنبه تعالى على أن اللائق بهم ان يكونوا أبعد الناس عن هذا الكلام لان الكذب لم يزل مستهجنا عندهم في الجاهلية ثم زاده الاسلام استهجانا (من نسائهم) أي يحرمون نساءهم على أنفسهم تحريم الله تعالى عليهم ظهور امهاتهم والظهار لغة مأخوذ من الظهر لان صورته الاصلية أن يقول لزوجته أنت علي كظهر امي وخصوا الظهر دون البطن والفخذ وغيرهما لانه موضع الركوب والمرأة مركوب الزوج وقيل من العلو قال تعالى فما اسطاعوا أن يظهروه اي أن

الميثاق آمنوا بالله ورسوله اليوم او آمنوا في العلانية باللسان اتقوا الله وآمنوا

بملوه وكان طلاقا فى الجاهلية وقيل فى اول الاسلام ويقال كان فى الجاهلية اذا كره احدهم امرأته ولم يرد ان تتزوج بغيره آلى منها أو ظاهر فتبقى لا ذات زوج ولا خلية تنكح غيره فغير الشارع حكمه الى تحريمها بعد العود ولزوم الكفارة كما سيأتى وحقيقته الشرعية تشبيه الزوجة غير البائن بأنثى لم تكن حلاله وسمى هذا المعنى ظهارا لتشبيه الزوجة بظهر الام وله اركان أربعة مظاهر ومظاهر منها وصيغة ومشبه به وشرط فى المظاهر كونه زوجا يصح طلاقه وشرط فى المشبه به كونه كل انثى محرم أو جزء انثى محرم لم تكن حلاله كبنته واخته وشرط فى الصيغة لفظ يشعر بالظهار صريح كانت أو رأسك أو بدنك كظهر أمى أو كجسمها أو بدنها أو كناية كانت أمى أو كعينها أو غيرها مما يذكر للكرامة كرأسها أو روحها ويصح تأقيته وتعليقه وأصل يظهرون يتظهرون أدغمت التاء فى الظاء وقرأ الذين يظاهرون والذين يظاهرون عاصم بضم الياء وتخفيف الظاء وبعدها ألف وتخفيف الهاء مكسورة وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح الياء وتشديد الظاء وتخفيف الهاء مع فتحها وبين الظاء والهاء ألف والباقون بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء ولا ألف بينهما (ماهن) اى نساؤهم (امهاتهم) أى على الحقيقة (ان) أى ما (امهاتهم) اى حقيقة (الا اللائى ولدنهم) ونساؤهم لم يلدنهم فلا يحرمن عليهم حرمة مؤبدة للاكرام والاحترام ولاهن ممن ألحق بالامهات بوجه يصح كأزواج النبى صلى الله عليه وسلم فانهن امهات لما لهن من حق الاكرام والاحترام والاعظام لان النبى صلى الله عليه وسلم أعظم فى أبوة الدين من أبى النسب وكذا المرضعات لما لهن من حق الرضاع الذى هو وظيفة الام بالاصالة وأما الزوجة فبائنة لجميع ذلك وقرأ قالون وقنبل بالهمزة المكسورة ولا ياء بعدها وقرأ ورش والبزى وابو عمرو بتسهيل الهمزة مع المد والقصر وللبزى وأبى عمرو ايضا موضع الهمزة ياء ساكنة مع المد والباقون بهمزة مكسورة وبعدها ياء وهم على مراتبهم فى المد (وانهم) اى المظاهرين (ليقولون) اى فى هذا التظهر على كل حالة (منكرا من القول) اذ الشرع أنكره وهو حرام اتفاقا كما نقل عن الرافعى فى باب الشهادات (وزورا) اى قولا مائلا عن السداد منحرفا عن القصد لان الزوجة معدة للاستمتاع الذى هو فى الغاية من الامتهان والام فى غاية البعد عن ذلك (فان قيل) المظاهر انما قال أنت على كظهر أمى فشبهها بامه ولم يقل انها أمه فما معنى أنه منكر من القول وزور والزور الكذب وهذا ليس بكذب (أجيب) بان قوله هذا ان كان خبرا فهو كذب وان كان انشاء فهو كذلك لانه جعله سببا للتحريم والشرع لم يجعله سببا لذلك وايضا فانما وصف بذلك لان الام مؤبدة التحريم والزوجة لا يتأبد تحريمها بالظهار فهو زور محض (فان قيل) قوله تعالى الا اللائى ولدنهم يقتضى ان لا أم الا الوالدة وهذا مشكل بقوله تعالى وامهاتكم اللاتى ارضعنكم وقوله تعالى وازواجه امهاتهم (أجيب) بان الشارع ألحقهن بالوالدات لما مر (وان الله) اى الملك الاعظم الذى لا امر لاحد معه فى شرع ولا غيره (لعفو) اى من صفاته ان يترك عقاب من شاء (غفور) اى من صفاته ان يمحو عين الذنب وأثره ثم بين احكام الظهار بقوله تعالى (والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) والعود فى ظهار غير مؤقت من غير رجعية ان يمسكها بعد ظهار مع علمه بوجود الصفة فى المعلق زمن امكان فرقة ولم يفارق لان العود للقول مخالفته

برسوله فى السر بتصديق القلب

(سورة المجادلة)

يقال قال فلان قولا ثم عاد له وعاد فيه اى خالفه ونقضه وهو قريب من قولهم عاد فى هبته ومقصود الظهار وصف المرأة بالتحريم وامساكها يخالفه فلو اتصل بظهاره جنونه أو اغماؤه أو فرقة بموت أو فسخ من احدهما بمقتضيه كعيب باحدهما أو بطلاق بائن أو رجعى ولم يراجع فلا عود والعود فى ظهار غير مؤقت من رجعية سواء أطلقها عقب الظهار أم قبله ان يراجع ولو ارتد متصلا بالظهار بعد الدخول ثم أسلم فى العدة فلا عود بالاسلام بل بعده والفرق ان الرجعة امساك فى ذلك النكاح والاسلام بعد الردة تبديل للدين الباطل بالحق والحل تابع له فلا يحصل به امساك وانما يحصل بعده والعود فى ظهار مؤقت يحصل بتغييب حشفة أو قدرها من فاقدها فى المدة ويجب فى العود به وان حل نزع لما غيبه كما لو قال ان وطئتك فانت طالق لحرمة الوطء قبل التكفير كما سيأتى وانقضاء المدة واستمرار الوطء وطء ولما كان المبتدأ الموصول يتضمن معنى الشرط أدخل الفاء فى خبره ليفيد السببية فيتكرر الوجوب بتكرر سببه فقال عز من قائل (فتحرير) اى فعليهم بسبب هذا الظهار والعود تحرير (رقبة) مؤمنة فلا تجزئ كافرة قال تعالى فى كفارة القتل فتحرير رقبة مؤمنة وألحق بها غيرها قياسا عليها بجامع حرمة سببيهما من القتل والظهار أو حملا للمطلق على المقيد كما فى حمل المطلق فى قوله تعالى واستشهدوا شهيدين من رجالكم على المقيد فى قوله تعالى واشهدوا ذوى عدل منكم بلا عوض و بلا عيب يخل بعمل فيجزئ صغير ولو ابن يوم وأقرع وأعرج يمكنه تباع مشى بان يكون عرجه غير شديد واعور لم يضعف عوره بصر عينه السليمة ضعفا يخل بالعمل وأصم وأخرس يفهم الاشارة وتفهم عنه واخشم وفاقد أنفه واذنيه وأصابع رجليه لا فاقد رجل أو خنصر وبنصر من يد أو انملتين من كل منهما أو فاقد انملتين من اصبع غيرهما أو فاقد انملة ابهام لاخلال كل من الصفات المذكورة بالعمل ولا يجزئ مريض لا يرجى برؤه ولم يبرأ كمدشلاء وهرم بخلاف من يرجى برؤه ومن لا يرجى برؤه اذا برئ ولا مجنون افاقته اقل من جنونه تغليبا للاكثر ويجزئ معلق عتقه بصفة بان ينجز عتقه بنية الكفارة أو يعلقه كذلك بصفة اخرى وتوجد قبل الاولى ويجزئ نصفا رقبتين أعتقهما عن كفارة باقيهما أو فى احدهما كما استظهره بعضهم و يجزى اعتاق رقبتيه عن كفارتيه لا جعل العتق المعلق كفارة عند وجود الصفة ولا مستحق عتق كام ولد وصحيح كتابة (من قبل أن يتماسا) اى يتجدد بينهما مس روى أبو داود وغيره انه صلى الله عليه وسلم قال لرجل ظاهر من امرأته وواقعها لا تقربها حتى تكفر وكالتكفير مضى مدة المؤقت لانتهائه بها وحمل القياس هنا التشبيه الظهار بالحيض على التمتع بما بين السرة والركبة ومن حمله على الوطء الحق به التمتع بغيره فيما بينهما ولو ظاهر من اربع بكلمة كانتن كظهر أمى فان امسكهن فاربع كفارات لوجود سببها أو ظاهر منهن باربع كلمات ولو متوالية فثلاث من غير اخيرة ولو كرر فى امرأة متصلا تعدد الظهار ان قصد استئنافا ويصير المظاهر بالاستئناف عائدا (ذلكم) اى ذلك الحكم بالكفارة (توعظون به) اى ان غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه (والله) أى الذى له الاحاطة بالكمال (بما تعملون) اى تجددون فعله (خبير) اى عالم بظاهره و باطنه فهو عالم بما يكفره فافعلوا ما أمر به وقفوا عند حدوده وانما يلزم الاعتاق عن الكفارة من ملك رقيقا أو ثمنه فاضلا عن كفاية ممونه من نفسه وغيره قال

(قوله الذين يظهرون منكم من نسائهم) قال ذلك هنا وقال بعد والذين يظهرون

قوله باقيهما أو فى أحدهما كذا بالنسخ التى بأيدينا والصواب باقيهما أو أحدهما كما فى كتب الفقه اه مصححه

الراهن وسكتوا عن تقدير مدة ذلك ويجوز أن تقدر بالعمر الغالب وان تقدر بسنة اه والذى عليه الجمهور هو الاول ولا يلزمه بيع عقار ورأس تجارة وماشية لا يفضل دخلها عن غلة العقار وربح مال التجارة وفوائد الماشية من نتاج وغيره عن كفاية ممونه ولا بيع مسكن ورقيق نفيسين الفهما ولا يلزمه شراء بغبن (فمن لم يجد) اى الرقبة بان عجز المكفر عن الاعتاق حسا أو شرعا وقت اداء الكفارة (فصيام) أى فعليه صيام (شهرين متتابعين) عن كفارته فالرقيق لا يكفر الا بالصوم لانه معسر لا يملك شيأ وليس لسيده منعه من الصوم ان ضره وانما اعتبر العجز وقت الاداء لا وقت الوجوب قياسا على سائر العبادات ولو ابتدأ الصوم ثم وجد الرقبة لم يلزمه الانتقال عنه لانه أمر به حيث دخل فيه وقال أبو حنيفة يعتق قياسا على الصغيرة المعتدة بالشهور واذا رأت الدم قبل انقضاء عدتها فانها تستأنف الحيض اجماعا ويكفيه نية صوم الكفارة وان لم ينو الولاء فان انكسر الشهر الاول أتمه من الثالث ثلاثين لتعذر الرجوع فيه الى الهلال وينقطع التتابع بفوات يوم ولو بعذر كمرض أو سفر فيجب الاستئناف ولو كان الفائت اليوم الاخير أو اليوم الذى نسيت النية له بخلاف ما اذا فات بجنون أو اغماء مستغرق لمنافاة ذلك الصوم (من قبل أن يتماسا) كما مر فى العتق فان جامع ليلا عصى ولم ينقطع التتابع لانه ليس محلا للصوم بخلافه نهارا وقال ابو حنيفة ومالك يبطل بكل حال ويجب عليه ابتداء الكفارة لقوله تعالى من قبل أن يتماسا (فمن لم يستطع) بان عجز عن صوم ولاء لمرض يدوم شهرين بالظن المستفاد من العادة فى مثله أو من قول الاطباء أو لمشقة شديدة تلحقه بالصوم أو بولائه ولو كانت المشقة لشدة شهوة الوطء أو خوف زيادة مرض (فاطعام) أى فعليه اطعام (ستين مسكينا) اى من قبل أن يتماسا حملا للمطلق على المقيد بان يملك كل مسكين من اهل الزكاة مدا من جنس الفطرة كبر وشعير واقط ولبن فلا يجزئ لحم ودقيق وسويق وخرج باهل الزكاة غيره فلا يجزئ دفعها الكافر ولا الهاشمى ومطلبى ولا لمواليهما ولا لمن تلزمه مؤنته ولا لرقيق لانها حق الله تعالى فاعتبر فيها صفات الكمال (ذلك) اى الترخيص العظيم لكم والرفق بكم والبيان الشافى من أمر الله الذى هو موافق للحنيفية السمحة ملة أبيكم ابراهيم عليه السلام (لتؤمنوا) اى ليتحقق ايمانكم (بالله) اى الملك الذى لا أمر لاحد معه فتطيعوا بالانسلاخ عن أمر الجاهلية (ورسوله) اى الذى تعظيمه من تعظيمه ولما رغب فى هذا الحكم رهب فى التهاون به بقوله تعالى (وتلك) أى هذه الاحكام العظيمة المذكورة (حدود الله) أى أوامر الملك الاعظم ونواهيه التى يجب امتثالها والتعبد بها الترقى حق رعايتها فالتزموها وقفوا عندها ولا تعتدوها فانه لا يطاق انتقامه اذا تعدى نقضه وابرامه (وللكافرين) أى العريقين فى الكفر بها أو بشئ من شرائعه (عذاب أليم) أى بما آلم المؤمنين به من الاعتداء فان عجز عن جميع خصال الكفارة لم تسقط الكفارة عنه بل هى باقية فى ذمته الى ان يقدر على شئ منها فاذا قدر على خصلة من خصالها فعلها ولا يتبعض العتق ولا الصوم بخلاف الاطعام حتى لو وجد بعض مد اخرجه لانه لا بدل له وبقى الباقى فى ذمته قال الزمخشرى فان قلت فاذا امتنع المظاهر من الكفارة هل للمرأة ان ترافعه قلت لها ذلك وعلى القاضى أن يجبره على أن يكفر وان يحبسه ولا شئ من الكفارات يجبر عليه ويحبس الا كفارة الظهار وحدها لانه يضر بها

من نسائهم لان الاول خطاب للعرب خاصة وكان طلاقهم فى الجاهلية

في ترك التكفير والانتفاع بحق الاستمتاع فيلزم ابداحقها (فان قلت) فان مس قبل ان يكفر (قلت) عليه ان يستغفر ولا يعود حتى يكفر لما روى أن سلمة بن صخر البياضي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرت من امرأتي ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمراء فواقعتها فقال عليه الصلاة والسلام استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر اه والمراد بالاستغفار هنا التوبة * ولما ذكر تعالى المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها بقوله تعالى (ان الذين يحادون الله) اي يغالبون الملك الاعلى على حدوده ليجعلوا حدودا غيرها وذلك صورته صورة العداوة لان المحادة المعاداة والمخالفة في الحدود وهو كقوله تعالى ومن يشاقق الله (ورسوله) أي الذي عزه من عزه وقيل يحادون الله أي أولياء الله كما في الخبر من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة والضمير في قوله تعالى ان الذين يحادون الله ورسوله يحتمل ان يرجع الى المنافقين فانهم كانوا يوادون الكافرين ويظاهرونهم على النبي صلى الله عليه وسلم فاذلهم الله تعالى ويحتمل ان يرجع لجميع الكفار فاعلم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم انهم (كبتوا) أي أذلوا وقال أبو عبيدة والاخفش أهلكوا وقال قتادة أخذوا وقال أبو زيد عذبوا وقال السدي لعنوا وقال الفراء أغيظوا يوم الخندق وقيل يوم بدر (كما كبت الذين من قبلهم) أي المحادين المخالفين رسلهم كقوم نوح ومن بعدهم ممن اصر على العصيان قال القشيري ومن ضيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو أحدث في دينه بدعة انخرط في هذا السلك (وقد انزلنا) أي بما لنا من العظمة عليكم وعلى من قبلكم (آيات بينات) أي دلالات عظيمة هي في غاية البيان لذلك ولكل ما يتوقف عليه الايمان كترك المحادة وتحصيل الاذعان (وللكافرين) اي الراسخين في الكفر بالآيات أو بغيرها من أوامر الله تعالى (عذاب مهين) بما تكبروا واعتدوا على أولياء الله تعالى وشرائعه يهينهم ذلك العذاب ويذهب عزهم وشماختهم ويتركونه بمحادتهم وقوله تعالى (يوم) منصوب باذكر كما قاله الزمخشري قال تعظيما لليوم أو باهم اي بالاستقرار الذي تضمنه لوقوعه خبرا أو بفعل مقدر قدره أبو البقاء يهانون أو يعذبون أو استقر ذلك يوم (يبعثهم الله) اي الملك الاعظم (جميعا) اي حال كونهم مجتمعين الكافرين المصرح بهم والمؤمنين المشار اليهم الرجال والنساء أحياء كما كانوا لا يترك منهم أحد وقيل مجتمعين في حال واحد (فينبئهم) أي يخبرهم اخبارا عظيما مستقصى (بما عملوا) تخجيلا وتوبيخا وتشهيرا لحالهم (احصاه الله) اي أحاط به عددا كما وكيفا وزمانا ومكانا بما له من صفات الكمال والجلال (ونسوه) لانهم تهاونوا به حيث ارتكبوه ولم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصي وانما تحفظ معظمات الامور أو لخروجه عن الحد في الكثرة فكيف كل واحد على انفراده (والله) اي بما له من القدرة الشاملة والعلم المحيط (على كل شيء) أي على الاطلاق (شهيد) اي حفيظ حاضر لا يغيب ورقيب لا يغفل ثم انه تعالى أكد بيان كونه عالما بكل المعلومات فقال جل ذكره (ألم تر) اي تعلم علما هو في وضوحه كالرؤية بالعين (ان الله) اي الذي له صفات الكمال كلها (يعلم ما في السموات) كلها (وما في الارض) كذلك كلياتذلك وجزئياته لا يغيب عنه شيء منه بدليل أن تدبيره محيط بذلك على اتم ما يكون وهو يخبر من شاء من انبيائه واصفيائه بما يشاء من اخبار ذلك القاصية والدانية والماضية والآتية فيكون كما اخبر

الظهار والثاني في بيان
احكام الظهار للناس
عامة (قوله وللكافرين

قوله أو باهم كذا بالنسخ
التي بايدينا والصواب
أو بقوله للكافرين اه
مصححه

وقوله تعالى (مايكون من نجوى) يكون فيه من كان التامة ومن نجوى فاعلها ومن مزيدة فيه اى مايقع من تناجى (ثلاثة) ويجوز أن يقدر مضاف اى أهل نجوى فيكون ثلاثة صفة لاهل وان يؤول نجوى بمتناجين جعلوا نجوى مبالغة فيكون ثلاثة صفة لنجوى واشتقاقها من النجوة وهى ماارتفع من الارض فان السر يرتفع الى الذهن لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه وقوله تعالى (الاهو رابعهم) استثناء من أعم الاحوال اى مايوجد شئ من هذه الاشياء فى حال من الاحوال الا وهو يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم وشاهدهم كما تكون نجواهم عند الرابع الذى يكون معهم (ولا خمسة) اى من نجواهم (الاهو سادسهم) اى يعلم نجواهم كما مر (فان قيل) ما الداعى الى تخصيص الثلاثة والخمسة (اجيب) بوجهين احدهما أن قوما من المنافقين تحلقوا للتناجى فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون الى المؤمنين ويتغامزون باعينهم مغايظة للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة فقيل مايتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما تروتهم يتناجون (ولا أدنى من ذلك) اى من عددهم (ولا أكثر) اى من ذلك (الاهو معهم) يسمع مايقولون (أينما) أى فى اى مكان (كانوا) فانه لامسافة بينه وبين شئ فقد روى عن ابن عباس أنها نزلت فى ربيعة وحبيب ابنى عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوما يتحدثون فقال احدهم أترى ان الله يعلم مانقول فقال الآخر يعلم بعضا ولا يعلم بعضا وقال الثالث ان كان يعلم بعضه فهو يعلم كله وصدق لان من علم بعض الاشياء بغير سبب فقد علمها كلها لان كونه عالما بغير سبب ثابت له مع كل معلوم والوجه الثانى انه قصد ان يذكر ماجرت عليه العادة من اعداد اهل النجوى والمتخالين للشورى والمندوبون لذلك ليسوا بكل احد وانما هم طائفة مجتباة من اولى النهى والاحلام ورهط من اهل الرأى والتجارب واول عددهم اثنان فصاعدا الى خمسة الى ستة الى مااقتضته الحال وحكم به الاستصواب ألا ترى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كيف ترك الامر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها الى سابع فذكر عز وجل الثلاثة والخمسة وقال ولا ادنى من ذلك فدل على الاثنين والاربعة وقال ولا اكثر فدل على مايلى هذا العدد ويقاربه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى خطبته الكبرى اخرجه الحرث بن أبى أسامة رقى المنبر وقال ياأيها الناس ادنوا واسمعوا لمن خلفكم ثلاث مرات فدنا الناس وانضم بعضهم الى بعض والتفتوا فلم يروا أحدا فقال رجل منهم بعد الثالثة لمن نسمع يارسول الله الملائكة فقال لا انهم اذا كانوا معكم لم يكونوا بين أيديكم ولا خلفكم ولكن عن ايمانكم وعن شمائلكم وعلى ذلك فليس والى مكان الايمان هنا والشمائل بل فى المكانة من ذلك فالله جل جلاله أعلى واجل وأنزه مكانة واكرم استواء (ثم ينبئهم) اى يخبر اصحاب النجوى اخبارا عظيما (بما عملوا) دقيقه وجليله (يوم القيامة) الذى هو المراد الاعظم من الوجود لاظهار الصفات العلا فيه أتم اظهار (ان الله) الذى له الكمال كله (بكل شئ) اى مماذكر وغيره (عليم) اى بالغ العلم فهو كل على شئ شهيد وهذا تحذير من المعاصى وترغيب فى الطاعات واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ألم تر) اى تعلم علما هو كالرؤية (الى الذين نهوا عن النجوى) فقيل فى اليهود وقيل فى المنافقين وقيل فى فريق من الكفار وقيل فى فريق من المسلمين لماروى أبو سعيد الخدرى قال كنا ذات ليلة نتحدث اذ خرج علينا

عذاب أليم خطه هنا بأليم وبعده بهين

قوله وروى انه الخ غير مستقيم اه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم ما هذه النجوى فقلنا تبنا الى الله تعالى يا رسول الله انا كنا في ذكر المسيح يعني الدجال فرقا منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه قلنا بلى يا رسول الله قال الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل ذكره الماوردي وقال ابن عباس نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم يوهمون المؤمنين انهم يتناجون فيما يسوءهم فيحزنون لذلك ويقولون ما نراهم الا وقد بلغهم عن اخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو هزيمة فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم فلما طال ذلك عليهم وكثر شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا الى مناجاتهم فانزل الله تعالى ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى (ثم يعودون) اى على سبيل الاستمرار لا لأنه وقع مرة وبادروا الى التوبة منها أو فلتة معفوا عنها (لما نهوا عنه) أي من غير أن يعتدوا بما وقع من جهة الناهي من الضرر عنده (ويتناجون) أي يقبل بعضهم على المناجاة اقبالا واحدا فيفعل كل منهم منها ما يفعله الآخر مرة بعد أخرى على سبيل الاستمرار وقرأ حمزة بعد الياء نون ساكنة وبعدها تاء فوقية مفتوحة ولا ألف قبل الجيم وضم الجيم والباقون بتاء فوقية مفتوحة وبعدها نون مفتوحة وبعد النون ألف وفتح الجيم (بالاثم) أي بالشيء الذي يثبت عليهم به الذنب وبالكذب وبالايصال (والعدوان) أي العدوان الذي هو نهاية في قصد الشر بالافراط في مجاوزة الحدود (ومعصيت الرسول) أي مخالفة النبي الذي جاء اليهم من الملك الاعلى وهو كامل في الرسالة لكونه مرسلا الى جميع الخلق وفي كل الازمان فلا نبي بعده فهو لذلك مستحق غاية الاكرام • (فائدة) • رسمت معصيت في الموضعين بالتاء المجرورة واذا وقف عليها فابو عمرو وابن كثير والكسائي بالهاء في الوقف والكسائي بالامالة في الوقف على أصله ووقف الباقون بالتاء على الرسم واتفقوا في الوصل على التاء (واذا جاؤك) أي يا أشرف الخلق (حيوك) أي واجهوك بما يعدونه تحية (بما لم يحيك به الله) أي الملك الاعلى الذي لا أمر لاحد معه وذلك ان اليهود كانوا يدخلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون السام عليك والسام الموت وهم يوهمون انهم يقولون السلام عليك وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرد عليهم فيقول وعليكم فقالت السيدة عائشة السام عليكم ولعنة الله وغضبه عليكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا يا عائشة عليك بالرفق واياك والعنف والفحش فقالت أولم تسمع ما قالوا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أولم تسمعي ما قلت رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في وقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت فانزل الله تعالى واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم بالواو فقال بعض العلماء ان الواو العاطفة تقتضي التشريك فيلزم منه أن ندخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت أو من سآمة ديننا وهو الملال يقال سئم يسام سآمة وساما وقال بعضهم الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر

• فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى •

أي لما أجزنا انتحى فزاد الواو وقال آخرون هي للاستئناف كأنه قيل والسام عليكم وقال

لان أولا ولمنصل بضده وهو الايمان فقد وعدهم على الكفر بالعذاب الاليم الذى

آخرون هي على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك لانا نجاب عليهم ولا يجابون علينا كما تقدم في قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة * (تنبيه) * اختلف العلماء في رد السلام على أهل الذمة فقال ابن عباس والشعبي وقتادة هو واجب لظاهر الامر بذلك وقال مالك ليس بواجب فان رددت فقل وعليك وعندنا يجب أن يقول له وعليك لما مر في الحديث وقال بعضهم يقول في الرد علاك السلام أي ارتفع عنك وقال بعض المالكية يقال في الرد السلام عليك بكسر السين يعني الحجارة * ولما كانوا يخفون ذلك جهدهم ويظنون بامهال الله تعالى لهم أنه صلى الله عليه وسلم لا يطلع عليه وان اطلع عليه لم يقدر أن ينتقم منهم عبر عن ذلك بقوله تعالى (ويقولون في أنفسهم) من غير أن يطلع عليه أحد (لولا) أي هلا ولم لا (يعذبنا الله) أي الذي له الاحاطة بكل شيء (بما نقول) أي لو كان نبيا لعذبنا الله بما نقول وقيل قالوا انه يرد علينا ويقول وعليكم السام فلو كان نبيا لاستجيب له فينا ومتنا وهذا موضع تعجب منهم فانهم كانوا أهل الكتاب وكانوا يعلمون ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يغضبون فلا يعاجلون من يغضبهم بالعذاب (حسبهم) أي كافيهم في الانتقام (جهنم) أي الطبقة التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة والفظاظة فان حصل لهم في الدنيا عذاب كان زيادة على الكفاية فاستعجالهم بالعذاب محض رعونة (يصلونها) أي يقاسون عذابها دائما فاذا أعددناها لهم (فبئس المصير) أي مصيرهم (يا أيها الذين آمنوا) أي ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة (اذا تناجيتم) أي اطلع كل منكم الكلام من نفسه فرفعه وكشفه لصاحبه سرا (فلا تتناجوا) أي توجدوا هذه الحقيقة (بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول) أي الكامل في الرسالة كفعل المنافقين واليهود وقال مقاتل أراد تعالى بقوله آمنوا المنافقين آمنوا بلسانهم وقال عطاء يريد الذين آمنوا بزعمهم وقيل يا أيها الذين آمنوا بموسى (وتناجوا بالبر والتقوى) أي الطاعة والعفاف عما نهى الله تعالى عنه (واتقوا الله) أي اقصدوا واقصدوا بتبعه العمل بان تجعلوا بينكم وبين سخط الملك الاعظم وقاية (الذي اليه) خاصة (تحشرون) أي تجمعون بايسر أمر وأسهله بقهر وكره وهو يوم القيامة فيتجلى فيه سبحانه للحكم بين الخلق والانصاف بينهم بالعدل ومحاسبتهم على النقير والقطمير لا تخفى عليه خافية ولا تقي منه واقية (انما النجوى) أي المعهودة وهي المنهي عنها (من الشيطان) أي مبتدأة ومتمدة من المحترق بطرده عن رحمة الله تعالى فانه الحامل عليها بتزيينها لفاعلها تابع لاعدى أعدائه مخالف لاعظم أوليائه (ليحزن) أي الشيطان (الذين آمنوا) أي ليوهمهم أنها بسبب شيء وقع مما يؤذيهم والحزن هم غليظ وتوجع يرق يقال حزنه وأحزنه بمعنى قال في القاموس أو أحزنه جعله حزينا وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من أحزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاي من حزن والقراءة الاولى أشد في المعنى على ما في القاموس (وليس) أي الشيطان أو ما حمل عليه من التناجي (بضارهم) أي الذين آمنوا (شيأ) من الضرر وان قل (الا باذن الله) أي بمشيئة الملك المحيط علما وقدرة (فان قيل) كيف لا يضرهم ذلك ولا يحزنهم الا باذن الله (أجيب) بانهم كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتغامزهم ان غزاتهم غلبوا وان أقاربهم قتلوا فقال تعالى لا يضرهم الشيطان والحزن بذلك الموهم الا باذن الله تعالى أي بمشيئته وهو أن يقضي الموت على أقاربهم والغلبة على الغزاة (وعلى الله) أي

لم خص الثلاثة والخمسة بالذكر (قلت) لان قوما من المنافقين تخلفوا

الملك الذي لا كفء له لا على أحد غيره (فليتوكل المؤمنون) أي الراسخون في الايمان في جميع أمورهم فانه القادر وحده على اصلاحها وافسادها فلا يحزنوا من أحد أن يكيدهم بسره ولا بجهره فانهم توكلوا عليه وفوضوا أمورهم اليه وخص الراسخين لامكان ذلك منهم في العادة وأما اصحاب البدايات فلا يكون ذلك منهم الا خرق عادة روى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث الا باذنه فان ذلك يحزنه وعن عبد الله ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه فبين في هذا الحديث غاية المنع وهو أن يجد الثالث من يتحدث معه كما فعل ابن عمر وذلك أنه كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعا فقال له وللاول تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة خرجه في الموطأ ونبه على العلة بقوله من اجل أن يحزنه اي يقع في نفسه ما يحزن لاجله وعلى هذا يستوي في ذلك كل الاعداد فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلا لوجود ذلك المعنى في حقه بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع فيكون بالمنع أولى وانما خص الثلاثة بالذكر لانه أول عدد يتأتى ذلك فيه قال القرطبي وظاهر الحديث يعم جميع الازمان والاحوال وذهب اليه ابن عمر ومالك والجمهور وسواء أكان التناجي في واجب أو مندوب أو مباح فان الحزن ثابت به وقد ذهب بعض الناس الى أن ذلك كان في أول الاسلام لان ذلك كان حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين فلما فشا الاسلام سقط ذلك وقال بعضهم ذلك خاص بالسفر وفي المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه فأما في الحضر وبين العمارة فلا لانه يجد من يغيثه بخلاف السفر فانه مظنة الاغتيال وعدم الغوث * ولما نهى المؤمنين عما يكون سببا للتباغض والتنافر أمرهم الآن بما يصير سببا لزيادة المحبة والمودة بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أي الذين اتصفوا بهذا الوصف (اذا قيل لكم) أي من أي قائل كان فان الخير يرغب فيه لذاته (تفسحوا) اي توسعوا اي كلفوا أنفسكم في اتساع المواضع (في المجالس) أي الجلوس أو مكانه لاجل من يأتي فلا يجد مجلسا يجلس فيه قال قتادة ومجاهد كانوا يتنافسون في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فامرهم أن يفسح بعضهم لبعض وقال ابن عباس المراد بذلك مجالس القتال اذا اصطفوا للحرب قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الاول فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال والشهادة فنزلت فيكون كقوله تعالى مقاعد للقتال وقال مقاتل كان النبي صلى الله عليه وسلم في الصفة وكان في المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والانصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجلس فقاموا قبل النبي صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يا فلان بعدد القائمين من أهل بدر فشق ذلك على من قام وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الكراهة في وجوههم فقال المنافقون والله ما عدل على هؤلاء ان قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ فنزلت الآية يوم الجمعة وروى عن ابن عباس قال نزلت الآية في ثابت بن

العذاب بئس ذلك فقال مهين (قوله ما يكون من نجوى ثلاثة) الآية (ان قلت)

قيس بن شماس وذلك أنه دخل المسجد وقد أخذ القوم مجالسهم وكان يريد القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم للوقر الذى كان فى أذنيه فوسعوا له حتى قرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضايقه بعضهم وجرى بينه و بينهم كلام فنزلت وقد تقدمت قصته فى سورة الحجرات وقرأ عاصم بفتح الجيم وألف بعدها جمعا لان لكل جالس مجلسا أى فليفسح كل واحد فى مجلسه والباقون بسكون الجيم ولا ألف افرادا قال البغوى لان المراد منه مجلس النبى صلى الله عليه وسلم وقال القرطبى الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والاجر سواء كان مجلس حرب أوذكر أو مجلس يوم الجمعة وان كل واحد أحق بمكانه الذى سبق اليه قال صلى الله عليه وسلم من سبق الى مالم يسبق اليه فهو أحق به ولكن يوسع لاخيه مالم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق من موضعه فيكون المراد بالمجلس الجنس ويؤيده قراءة الجمع (فافسحوا) أى وسعوا فيه عن سعة صدر (يفسح الله) أى الذى له الامر كله (لكم) فى كل ما تكرهون من ضيقه من الدارين وقال الرازى هذا يطلق فيما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة قال ولا ينبغى للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح فى المجالس بل المراد منه ايصال الخير الى المسلم وادخال السرور فى قلبه (واذا قيل) أى من أى قائل كان كالمضى اذا كان يريد الاصلاح والخير (انشزوا) أى ارتفعوا وانهضوا الى الموضع الذى تؤمرون به أو يقتضيه الحال للتوسعة أو غيرها من الاوامر كالصلاة والجهاد (فانشزوا) أى فارتفعوا وانهضوا (يرفع الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (الذين آمنوا) وان كانوا غير علماء (منكم) أى أيها المأمورون بالتفسح السامعون للاوامر المبادرون اليها بطاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيامهم فى مجلسهم وتوسعهم لاخوانهم (والذين أوتوا العلم درجات) يجوز أن يكون معطوفا على الذين آمنوا فهو من عطف الخاص على العام فان الذين أوتوا العلم بعض المؤمنين ويجوز ان يكون والذين أوتوا العلم من عطف الصفات اى تكون الصفتان لذات واحدة كانه قيل يرفع الله المؤمنين العلماء ودرجات مفعول ثان وقال ابن عباس تم الكلام عند قوله تعالى منكم وينتصب الذين أوتوا بفعل مضمر اى ويخص الذين أوتوا العلم درجات او ويرفع درجات قال المفسرون فى هذه الآية ان الله تعالى رفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم قال ابن مسعود مدح الله تعالى العلماء فى هذه الآية والمعنى ان الله تعالى يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات فى دينهم اذا فعلوا ما أمروا به وقال تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال تعالى وقل رب زدنى علما وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء والآيات فى ذلك كثيرة معلومة وأما الاحاديث فكثيرة مشهورة منها من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وروى ان عمر رضى الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة رضى الله تعالى عنهم فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه فسألهم عن تفسير اذا جاء نصر الله والفتح فسكتوا فقال ابن عباس هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله اياه فقال عمر ما أعلم منها الا ما تعلم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها و يعلمها والمراد بالحسد الغبطة وهى أن تتمنى مثله ومنها أنه صلى الله

هو جزاء الكافرين والثانى متصل بقوله كبتوا وهو الاذلال والاهانة فوصف

عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ومنها انه صلى الله عليه وسلم قال من جاءه أجله وهو يطلب العلم ليحيي به الاسلام لم يفضله النبيون الا بدرجة واحدة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة ومنها انه صلى الله عليه وسلم قال فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وفى رواية كفضلى على أدناكم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله أوحى الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام انى عليم أحب كل عليم ومنها انه صلى الله عليه وسلم قال يشفع يوم القيامة ثلاثة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء فأعظم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين فى مسجده أحد المجلسين يدعون الله تعالى ويرغبون اليه والآخر يتعاونون الفقه ويعلمونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير واحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله عز وجل ويرغبون اليه وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمونه الجاهل فهؤلاء أفضل وانما بعثت معلما ثم جلس فيهم والاحاديث فى ذلك كثيرة جدا وأما أقوال السلف فلا تحصر فمنها ما قاله ابن عباس ان سليمان عليه السلام خير بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه وما قاله بعض الحكماء ليت شعرى أى شئ أدرك من فاته العلم وأى شئ فات من أدرك العلم وما قاله الاحنف كاد العلماء يكونون أربابا وكل عز لم يؤكد بعلم فالى ذل ما يصير وما قاله الزبيرى العلم ذكر فلا يحبه الا ذكورة الرجال وما قاله أبو مسلم الخولانى مثل العلماء فى الارض مثل النجوم فى السماء اذا برزت للناس اهتدوا بها واذا خفيت عنهم تحيروا وما قاله معاذ تعلم العلم فان تعلمه لك حسنة وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لاهل قربة وما قاله على العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق وما قاله ابن عمر مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة وما قاله الشافعى رضى الله تعالى عنه من أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة وقال ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم وقال من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن اراد الآخرة فعليه بالعلم فانه يحتاج اليه فى كل منهما وقد ذكرت فى أول شرح المنهاج من الاحاديث ومن أقوال السلف ما يسر الناظر الراغب فى الخير وفيما ذكرته هنا كفاية لاولى الابصار (والله) أى والحال ان المحيط بكل شئ علما وقدرة (بما تعملون) أى حال الامر وغيره (خبير) أى عالم بظاهره وباطنه فان كان العلم مزينا بالعمل بامتثال الاوامر واجتناب النواهى وتصفية الباطن كانت الرفعة على حسبه وان كان على غير ذلك فكذلك واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة أغنياء كانوا وفقراء (اذا ناجيتم الرسول) أى أردتم مناجاته الذى لا أكمل منه فى الرسالة الآية فقال ابن عباس ان المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فكف كثير من الناس وقال الحسن ان قوما من المسلمين كانوا يستخلون بالنبى صلى الله عليه وسلم يناجونه فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم فى النجوى فشق عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه وقال زيد بن أسلم ان المنافقين واليهود

للتناجي وكانوا بعدة
العدد المذكور ومقابلة
للمؤمنين فنزلت الآية

كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون انه أذن يسمع كل ما قيل له وكان لا يمنع أحدا
من مناجاته فكان ذلك يشق على المسلمين لان الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم يناجون أن
جموعا اجتمعت لقتال فنزلت يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول أي أردتم مناجاته (فقدموا)
أي بسبب هذه الارادة وقوله تعالى (بين يدي نجواكم) استعارة ممن له يدان والمعنى قبل
نجواكم التي هي سركم الذي تريدون أن ترفعوه (صدقة) لقول عمر من أفضل ما أوتيت
العرب الشعر يقدمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم تريد قبل
حاجته والصدقة تكون لكم برهانا على اخلاصكم كما ورد ان الصدقة برهان فهي مصدقة
لكم في دعوى الايمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وبكل ما جاء به عن الله تعالى

بصدقة حالهم نعم يشابهم أولان العدد الفرد أشرف من الزوج لان الله

*(تنبيه) ظاهر الآية يدل على ان تقديم الصدقة كان واجبا لان الامر للوجوب ويؤكد
ذلك قوله تعالى بعده فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم وقيل كان مندوبا لقوله تعالى (ذلك) أي
التصدق (خير لكم وأطهر) أي لانفسكم من الريبة وحب المال وهذا انما يستعمل في
التطوع لا في الواجب ولانه لو كان واجبا لما أزيل وجوبه والكلام متصل به وهو قوله تعالى
فان لم تجدوا الآية وأجيب عن الاول بان المندوب كما يوصف بانه خير وأطهر فكذلك أيضا
يوصف بهما الواجب وعن الثاني بانه لا يلزم من اتصال الآيتين في التلاوة كونهما متصلتين
في النزول كما قيل في الآية الدالة على وجوب الاعتداد أربعة أشهر وعشرا انها ناسخة
للاعتداد بحول وان كان الناسخ متقدما في التلاوة وعن علي أنه قال لما نزلت دعاني رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال ما تقول في دينار قلت لا يطيقونه قال كم قلت حبة أو شعيرة قال
انك لزهيد فلما رأوا ذلك اشتد عليهم فارتدعوا أما الفقير فلعسرته وأما الغني فلشحته
واختلف في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ في هذه الآية فقال الكلبي ما بقي ذلك التكليف
الا ساعة من نهار ثم نسخ وقال مقاتل بن حيان بقي ذلك التكليف عشرة أيام ثم نسخ لما روى
عن علي أنه قال ان في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي كان لي دينار
فصرفته فكنت اذا ناجيته تصدقت بدرهم وفي رواية عنه فاشتريت به عشرة دراهم وكلما
ناجيت النبي صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي نجواي درهما ثم نسخت فلم يعمل بها احد وعن
ابن عباس رضي الله عنهما انهم نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناج احد الا علي تصدق
بدينار وعدم عمل غيره لا يقدح فيه لاحتمال أن يكون لم يجد عند المناجاة شيأ أو أن لا يكون
احتاج الى المناجاة ثم نزلت الرخصة وعن ابن عمر رضي الله عنهما كان لعلي ثلاث لو كان لي واحدة
منهن كانت أحب الي من حمر النعم تزويجه فاطمة وأعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى
واختلف في الناسخ لذلك فقيل هي منسوخة بالزكاة وأكثر المفسرين انها منسوخة بالآية
التي بعدها وهي أأشفقتم كما سيأتي وكان علي يقول وخفف عن هذه الامة (فان لم تجدوا) أي ما
تقدمونه (فان الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (غفور رحيم) أي له صفتا الستر للمساوي
والاكرام باظهار المحاسن على الدوام فهو يغفر ويرحم تارة بعدم العقاب للعاصي وتارة
بالتوسعة للضيق بان ينسخ ما يشق الى ما يخف وقوله تعالى (أأشفقتم) أي خفتم العيلة لما
يعدكم به الشيطان من الفقر خوفا كاد أن يفطر قلوبكم (أن تقدموا) أي باعطاء الفقراء

وهم

وهم أخوانكم (بين يدي نجواكم) أي للنبي صلى الله عليه وسلم (صدقات) وجمع لأنه أكثر توبيخا من حيث انه يدل على أن النجوى تتكرر واستفهام معناه التقرير وهو الناسخ عند الاكثر كما مر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بتحقيقهما ولا ادخال والاولى محققة بلا خلاف (فاذ) أي فحين (لم تفعلوا) أي ما أمرتكم به من الصدقة للنجوى بسبب هذا الاشفاق (وتاب الله) أي الملك الاعلى (عليكم) أي رجع بكم عنها بان نسخها عنكم تخفيفا عليكم (فاقيموا) أي بسبب العفو عنكم شكرا أي على هذا الكرم والحلم (الصلوة) التي هي طهرة لارواحكم وصلة لكم بربكم (وآتوا الزكوة) التي هي براءة لابدانكم وتطهير ونماء لاموالكم وصلة لكم باخوانكم ولا تفرطوا في شئ من ذلك فتهملوه فالصلاة نور يهدي الى المقاصد الدنيوية والاخروية ويعين على نوائب الدارين والصدقة برهان على صحة القصد في الصلاة ثم عم بعد ان خصص أشرف العبادات البدنية واعلى المناسك المالية بقوله تعالى (واطيعوا الله) اي الذي له الكمال كله (ورسوله) اي الذي عظمته من عظمته في سائر ما يأمركم به فانه تعالى ما أمركم لاجل اكرام رسولكم صلى الله عليه وسلم الا بالحنيفية السمحة (والله) اي الذي احاط بكل شئ علما وقدرة (خبير بما تعملون) اي يعلم بواطنكم كما يعلم ظواهركم لا يخفى عليه خافية (ألم تر) اي تنظر يا أشرف الخلق (الى الذين تولوا) اي تكلفوا بغاية جهدهم وهم المنافقون اي جعلوا اولياءهم الذين يتولون لهم امورهم (قوما) وهم اليهود ابتغوا عندهم العزة اغترارا بما يظهر لهم منهم من القوة (غضب الله) اي الملك الاعلى الذي لا نده له (عليهم) اي المتولى والمتولى لهم (ما هم) اي المنافقون (منكم) اي المؤمنين (ولا منهم) اي اليهود بل هم مذبذبون وزاد في الشناعة عليهم باقبح الاشياء بقوله تعالى (ويحلفون) اي المنافقون يجددون الحلف على الاستمرار ودل باداة الاستعلاء على انهم في غاية الجراءة على استمرارهم على الايمان الكاذبة بان التقدير مجترئين (على الكذب) في دعوى الاسلام وغير ذلك مما يقعون فيه من عظائم الآثام فاذا عوتبوا عليه بادروا الى الايمان (وهم يعلمون) انهم كاذبون متعمدون. روي ان عبد الله بن نبتل كان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه الى اليهود فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرة من حجره اذ قال لاصحابه يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان فدخل ابن نبتل وكان أزرق العينين أسمر قصيرا خفيف اللحية فقال له النبي صلى الله عليه وسلم علام تشتمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل فقال النبي صلى الله عليه وسلم فعلت فانطلق فجاء باصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت (أعد الله) أي الذي له العظمة الباهرة فلا كفء له (لهم عذابا) أي أمرا فظيعا لكل عذوبة (شديدا) أي لا طاقة لهم به ثم علل عذابهم بما دل على انه واقع في اتم مواقعه بقوله تعالى مؤكدا تقبيحا على من كان يستحسن فعالهم (انهم ساء) أي بلغ الغاية بما يسوء ودل على ان ذلك لهم كالجبلة بقوله تعالى (ما كانوا يعملون) أي يجددون عمله مستمرين عليه لا ينفكون عنه قال الزمخشري او هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة (اتخذوا ايمانهم) اي الكاذبة التي لا يتهون على من في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان (جنة) وقاية وسترة من كل ما يفضحهم

تعالى وتر بحسب الوتر نقص العدد ان المذكوران بالذكر تنبيها على انه لابد من

من النفاق كانما ما كان (فصدوا) أى كان قبول ذلك منهم وتأخير عقابهم سبب الابقاء هم الصد (عن سبيل الله) أى شرع الملك الاعلى الذى هو طريق الى رضوانه الذى هو سبب الفوز العظيم فانهم كانوا يثبطون من لقوا عن الدخول فى الاسلام ويوهنون امره ويحقرونه ومن رآهم قد خلصوا من المكاره بايمانهم الخائنة ودرت عليهم الارزاق استدراجا وحصلت لهم الرفعة عند الناس بما يرضونه من أقوالهم المؤكدة بالايمان غره ذلك فاتبع سنتهم فى أقوالهم وافعالهم ونسج على منوالهم غرورا بظاهر امرهم معرضا عما توعدهم الله تعالى عليه من جزاء خداعهم وامرهم واجرى الامر على اسلوب التهكم بالامام التى تكون فى المحبوب فقال تعالى (فلهم) اى فتسبب عن صدهم انه كان لهم (عذاب مهين) جزاء بما طلبوا بذلك الصد اعزاز انفسهم واهانة اهل الاسلام (لن تغنى) اى بوجه من الوجوه (عنهم اموالهم) اى فى الدنيا ولا فى الآخرة بالافتداء ولا بغيره (ولا اولادهم) اى بالنصرة والمدافعة (من الله) اى اغناء مبتدأ من الملك الاعلى (شيأ) ولو قل جدا فهما اراد بهم سبحانه كان ونفذ ومضى لايدفعه شئ تكذيبا لمن قال منهم لئن كان يوم القيامة لنكونن اسعد فيه منكم كما نحن الآن والنحن ون بانفسنا واموالنا واولادنا (أولئك) اى البعداء من كل خير (اصحاب النار هم) اى خاصة (فيها) أى خاصة (خالدون) أى دائمون لازمون الى غير نهاية وقوله تعالى (يوم) منصوب باذكر اى واذكر يوم (يبعثهم الله) اى الذى له جميع صفات الكمال (جميعا) بلا يترك أحدا منهم ولا من غيرهم الا أعاده الى ما كان قبل موته (فيحلفون) أى فيتسبب عن ظهور القدرة التامة لهم ومعاينتهم ما كانوا يكذبون به انهم يحلفون (له) أى لله فى الآخرة انهم مسلمون فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك (كما يحلفون لكم) فى الدنيا انهم مثلكم وقال ابن عباس رضى الله عنهما يحلفون لله تعالى يوم القيامة كذبا كما حلفوا الاوليائه فى الدنيا وهو قولهم والله ربنا ما كنا مشركين (ويحسبون) اى فى القيامة بايمانهم الكاذبة (انهم على شئ) أى يحصل لهم به نفع بانكارهم وحلفهم وقيل يحسبون فى الدنيا انهم على شئ لانهم فى الآخرة يعاينون الحق باضطرار والاول اظهر والمعنى انهم لشدة توغلهم فى النفاق ظنوا يوم القيامة انهم يمكنهم ترويج كذبهم بالايمان الكاذبة على علام الغيوب واليه الاشارة بقوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينادى مناد يوم القيامة أين خصماء الله تعالى فتقوم القدرية مسودة وجوههم مزرقة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمسا ولا قمرا ولا صنما ولا اتخذنا من دونك الها قال ابن عباس رضى الله عنهما صدقوا والله أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ثم تلا ويحسبون أنهم على شئ وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (ألا انهم هم الكاذبون) المحكوم بكذبهم فى حسبانهم هم والله القدرية ثلاثا (استحوذ) اى استولى (عليهم الشيطان) مع انه طريد محترق ووصل منهم الى ما يريده وملكهم ملكا لم يبق لهم معه اختيار فصاروا رعيته وصار هو محيطا بهم من كل جهة غالبا عليهم ظاهرا و باطنا من قولهم حذت الابل وحذتها اذا استوليت عليها والحوذ ايضا السوق السريع ومنه الاحوذى الخفيف فى المشى لحذقه واستحوذ مما جاء على الاصل وهو ثبوت الواو

زغاية الامور الالهية فى جميع الامور ثم بعد ذكرهما زيد عليها ما بعد غيرهما

(قوله والله القدرية الخ) كذا فى النسخ ولعله وقع من تقديم فيكون من كلام ابن عباس محله بعد قوله صدقوا

دون قلبها ألفا (فأنساهم) أى فتسبب عن استحواذه عليهم ان أنساهم (ذكر الله) أى الذى له الاسماء الحسنى والصفات العليا (أولئك) أى البعداء البغضاء (حزب الشيطان) أى أتباعه وجنوده وطائفته وأصحابه (الا أن حزب الشيطان) أى الطريد المحترق (هم الخاسرون) أى العريقون فى هذا الوصف لانهم لم يظفروا بغير الطرد والاحتراق (ان الذين يحادون الله) أى يفعلون مع الملك الاعظم الذى لا كفؤ له فعل من ينازع آخر فى الارض فيغلب على طائفة فيجعل لها حدا لا يتعداه خصمه (ورسوله) أى الذى عظمته من عظمته (أولئك) أى البعداء البغضاء (فى الاذلين) أى فى جملة من هو أذل خلق الله تعالى واختلف فى معنى قوله عز وجل (كتب الله) أى الملك الذى لا كفؤ له فقال أكثر المفسرين أى قضى الله عز وجل (لأغلبن) وقال قتادة كتب فى اللوح المحفوظ وقال الفراء كتب بمعنى قال وقوله تعالى (أنا) تأكيد

من المناجين بقوله ولا أدنى
من ذلك ولا أكثر تعميما
للفائدة (قوله ويحلفون على

(ورسلى) أى من بعث منهم بالحرب ومن بعث منهم بالحجة فاذا انضم الى الغلبة بالحجة الغلبة بالحرب كان أغلب وأقوى وقال مقاتل قال المؤمنون لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم فقال عبد الله بن أبى ابن سلول أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى غلبتم عليها والله انهم لاكثر عددا وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم فنزل لأغلبن أنا ورسلى ونظيره قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقرأ نافع وابن عامر بفتح الياء والباقون بالسكون (ان الله) أى الذى له الامر كله (قوى) أى على نصر أوليائه (عزيز) أى لا يغلب عليه فى مراده ثم نهى تعالى عن موالاة أعداء الله تعالى بقوله سبحانه (لا تجد) أى بعد هذا البيان (قوما) أى ناسا لهم قوة على ما يريدون (يؤمنون) أى يجددون الايمان ويديمونه (بالله) أى الذى له صفات الكمال (واليوم الآخر) الذى هو موضع الجزاء لكل عامل بكل ما عمل الذى هو محط الحكمة (يوادون) أى يحصل منهم ود لا ظاهرا ولا باطنا (من حاد الله) أى عادى بالمناصبة فى حدود الملك الاعلى (ورسوله) فان من حاده فقد حاد الذى أرسله بل لا تجدهم الا يحادونهم لا أنهم يوادونهم وزاد ذلك تأكيدا بقوله تعالى (ولو كانوا آباءهم) أى الذين أوجب الله تعالى على الابناء طاعتهم فى المعروف وذلك كما فعل أبو عبيدة بن الجراح حيث قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد (أو أبناءهم) أى الذين جبلوا على محبتهم ورحمتهم كما فعل أبو بكر فانه دعا ابنه يوم بدر الى المبارزة وقال دعنى يا رسول الله أكن فى الرعلة الاولى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم انك عندى بمنزلة سمعى وبصرى (أو اخوانهم) أى الذين هم أعضادهم كما فعل مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد وخرف سعد

قوله وخرف سعد الخ كذا
بالنسخ التى بأيدينا ولتحرر
هذه العبارة اهـ مصححه

ابن أبى وقاص غير مرة فراغ منه روغان الثعلب فنهاه النبى صلى الله عليه وسلم عنه وقال أتريد أن تقتل نفسك وقتل محمد بن مسلمة الانصارى أخاه من الرضاع كعب بن الاشرف اليهودى رأس بنى النضير (أو عشيرتهم) أى الذين هم أنصارهم وأمدادهم كما قتل عمر خاله العاصى وهشام بن المغيرة يوم بدر وعلى وحمزة وعبيدة بن الحرث قتلوا يوم بدر بنى عمهم عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة وعن الثورى ان السلف كانوا يرون أن الآية نزلت فيمن يصحب السلطان اهـ ومدار ذلك على أن الانسان يقطع رجاءه من غير الله تعالى وان لم يكن كذلك

لم يكن مخلصا فى ايمانه • (تنبيه) • قدم الآباء أولا لانهم تجب طاعتهم على أبنائهم ثم ثنى بالابناء لانهم أعلق بالقلوب وهم حياتها ثم ثلث بالاخوان لانهم هم الناصرون بمنزلة العضد من الذراع قال الشاعر

أخاك أخاك ان من لا أخا له • كساع الى الهيجا بغير سلاح

وان ابن عم المرء فاعلم جناحه • وهل ينهض البازى بغير جناح

ثم ربع بالعشيرة لان بها يستغاث وعليها يعتمد والمعنى أن الميل الى هؤلاء أعظم أنواع المحبة ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مطرحا بسبب الدين قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى أبى عبيدة بن الجراح لما قتل اباه وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قتل خاله العاصى بن هشام يوم بدر وروى انها نزلت فى أبى بكر وذلك ان أبا قحافة سب النبى صلى الله عليه وسلم فصكه صكة سقطت منها اسنانه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال أوفعلت قال نعم قال لا تعد اليه فقال والذى بعثك بالحق نبيا لو كان السيف منى قريبا لقتلته فهؤلاء لم يوادوا أقاربهم قال القرطبى استدل مالك بهذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم قال القرطبى وفى معنى أهل القدر جميع أهل الظلم وعن عبد العزيز بن أبى دواد أنه لقى المنصور فى الطواف فلما عرفه هرب منه وتلا الآية وقال صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل لفاجر عندى نعمة فانى وجدت فيما أوحيت الى لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر الآية (أولئك) اى العالو الهمة (كتب) أى أثبت قاله الربيع بن انس رضى الله عنه وقيل خلق وقيل جعل كقوله تعالى فاكتبنا مع الشاهدين أى اجعلنا وقوله تعالى فسأكتبها للذين يتقون وقيل كتب (فى قلوبهم الايمان) بما وفقهم فيه وشرح له صدرهم أى على قلوبهم كقوله تعالى فى جذوع النخل وخص القلوب بالذكر لانها موضع الايمان قال البيضاوى وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الايمان فان جزء الثابت فى القلب يكون ثابتا فيه واعمال الجوارح لا تثبت فيه (وأيدهم) أى وقواهم وشددهم وشرفهم (بروح) أى نور شريف جدا يفهمون به ما أودع فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من نور العلم والعمل (منه) أى من الله تعالى أحياهم به فلا انفكاك لذلك عنهم فى وقت من الاوقات فأثمر لهم استقامة المناهج ظاهرا وباطنا فعملوا الاعمال الصالحة فكانوا فى الدنيا كالسرج فلا تجد شيأ أدخل فى الاخلاص من موالاة اولياء الله تعالى ومعاداة أعدائه بل هو عين الاخلاص ومن جنح الى منحرف عن دينه او داهن مبتدعا فى عقيدته نزع الله تعالى نور التوحيد من قلبه قال الزمخشرى ويجوز ان يكون الضمير للايمان اى بروح من الايمان على انه فى نفسه روح لحياة القلوب به وقال ابن عباس رضى الله عنهما نصرهم على عدوهم وسمى تلك النصرة روحا لان بها يحيا امرهم وقال الربيع بن انس رضى الله عنه بالقرآن وحججه وقال ابن جريج بنور وبرهان وهدى وقيل برحمة وقيل ايدهم بجبريل عليه السلام (ويدخلهم جنات) اى بساتين تستر داخلها من كثرة اشجارها واخبر عن ريها بقوله تعالى (تجرى من تحتها) أى قصورها (الانهار) فهى بذلك كثيرة الرياض والاشجار وقال تعالى (خالدين فيها) لان ذلك لا يلذ الا بالدوام وقال تعالى (رضى الله) أى الملك الاعظم (عنهم) لان ذلك لا يتم الا برضا مالكها الذى له الملك كله (ورضوا عنه) اى لانه

الكذب وهم يعلمون) اى انهم كاذبون (ان قلت) ما فائدة الاخبار عنهم بذلك

أعطاهم فوق ما يؤملون (أولئك) أى الذين هم فى الدرجات العلا من العظمة لكونهم قصروا ودهم على الله تعالى علما منهم بأنه ليس الضر والنفع الا بيده (حزب الله) أى جند الملك الذى أحاط بجميع صفات الكمال (الا ان حزب الله) اى جند الملك الاعلى وهم هؤلاء الموصوفون ومن والاهم (هم المفلحون) اى الذين حازوا الظفر بكل ما يؤملون فى الدارين وقد علم من الرضا من الجانبين والحزبية والافلاح عدم الانفكاك عن السعادة فأغنى ذلك عن تقييد الخلود بالتأبيد * (فائدة) * هذه السورة نصف القرآن عددا وليس فيها آية الا وفيها ذكر الجلالة الكريمة مرة أو مرتين او ثلاثا وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله تعالى يوم القيامة حديث موضوع والله تعالى أعلم

(قلت) فائدته بيان ذمهم بارتكابهم اليمين الغموس

* (سورة الحشر) *

سورة الحشر مدنية

فى قول الجميع وهى أربع وعشرون آية وأربعمائة وخمس وأربعون كلمة وألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفا (بسم الله) الملك الاعظم الذى لا خلف لميعاده (الرحمن) الذى عمت نعمة ايجاده (الرحيم) الذى خص اهل وده بالتوفيق فهم أهل السعادة * ولما ختمت المجادلة بأنه يعز أهل طاعته ويذل أهل معصيته تنزه عن النقائص تأييدا للوعد بنصرهم فقال تعالى (سبح) اى أوقع التنزيه الاعظم عن كل شائبة نقص (لله) الذى احاط بجميع صفات الكمال (ما فى السموات) اى كلها (وما فى الارض) اى كذلك وقيل ان اللام مزيدة اى نزهه وأتى بما تغليبا للاكثر وجمع السموات لانها اجناس قيل بعضها من فضة وبعضها من غير ذلك وافرد الارض لانها جنس واحد (وهو) اى والحال انه وحده (العزيز) الذى يغلب كل شئ ولا يمتنع عليه شئ (الحكيم) الذى نفذ علمه فى الظواهر والبواطن واحاط بكل شئ فاتقن ما اراده فكل ما خلقه جعله على وحدانيته دليلا والى بيان ماله من العزة والحكمة سبيلا وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها قال المفسرون نزلت هذه السورة فى بنى النضير وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على ان لا يكونوا عليه ولا له فلما غزا بدرا وظهر على المشركين قالوا هو النبى الذى نعته فى التوراة لا ترد له راية فلما غزا احدا وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ونقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وركب كعب بن الاشرف فى اربعين راكبا من اليهود الى مكة فأتوا قريشا فحالفوهم وعاقدوهم على ان تكون كلمتهم واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل ابو سفيان فى اربعين وكعب فى أربعين من اليهود المسجد واخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة ثم رجع كعب واصحابه الى المدينة فنزل جبريل عليه السلام واخبر النبى صلى الله عليه وسلم بما عاقد عليه كعب وابو سفيان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الاشرف فقتله محمد بن مسلمة فلما قتل كعب بن الاشرف اصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وامر الناس بالمسير الى بنى النضير وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدهم ينوحون على كعب

وقالوا يا محمد واعية على اثر واعية وباكية على اثر باكية قال نعم قالوا اذرنا نبكي شجونا ثم ائتمر أمرك فقال النبي صلى الله عليه وسلم اخرجوا من المدينة فقالوا الموت اقرب الينا من ذلك ثم تنادوا بالحرب وآذنوا بالقتال ودس المنافقون عبد الله بن أبي واصحابه اليهم ان لا تخرجوا من الحصن فان قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الازقة وحصنوها ثم انهم اجمعوا الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فارسلوا اليه ان اخرج في ثلاثين رجلا من اصحابك ويخرج منا ثلاثون حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك فيسمعون منك فان صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثين من اصحابه وخرج اليه ثلاثون حبرا من اليهود حتى اذا كانوا في براز من الارض قال بعض اليهود لبعض كيف تخلصون اليه ومعه ثلاثون من رجال اصحابه كلهم يحب الموت قبله ولكن ارسلوا اليه كيف نفهم ونحن ستون رجلا اخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج اليك في ثلاثة من علمائنا فيسمعون منك فان آمنوا بك آمنا كلنا بك وصدقناك فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة من أصحابه واشتملوا على الخناجر وارادوا الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير الى اخيها وهو رجل مسلم من الانصار فاخبرته بما اراد بنو النضير من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل اخوها سريعا حتى أدرك النبي صلى الله عليه وسلم فساره بخبرهم فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب فحاصرهم احدى وعشرين ليلة فقذف الله في قلوبهم الرعب وايسوا من نصر المنافقين فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح فابى عليهم الا ان يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما اقلت الابل من اموالهم الا الحلقة وهي السلاح وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم قال ابن عباس رضي الله عنهما على أن يحمل كل اهل بيت على بعير ما شاؤا من متاعهم وللنبي صلى الله عليه وسلم ما بقي وقال الضحاك على كل ثلاثة نفر بعيرا ووسقا من طعام ففعلوا ذلك وخرجوا من المدينة الى الشام الى اذرعات واريحاء الا أهل بيتين من آل بني الحقيق وآل حيي بن اخطب فانهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة فذلك قوله تعالى (هو) اى وحده من غير ايجاف خيل ولا ركاب (الذى اخرج) اى على وجه القهر (الذين كفروا) اى ستروا ما في كتبهم من الشواهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بانه النبي الخاتم وما في فطرتهم الاولى من اتباع الحق (من أهل الكتاب) اى الذى انزله الله تعالى على رسوله موسى صلى الله عليه وسلم وهم بنو النضير وفي التعبير بكفروا اشعار بانهم الذين انالوا بالتبديل والاخفاء ما قدروا عليه مما بقي من التوراة (من ديارهم) اى مساكنهم بالمدينة عقوبة لهم لان الوطن عديل الروح لانه للبدن كالبدن للروح فكان الخروج منه في غاية العسر قال ابن اسحق كان اجلاء بني النضير مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من احد وفتح قريظة عند مرجعه من الاحزاب وبينهما سنتان (لاول الحشر) هو حشرهم الى الشام وآخره ان جلاهم عمر في خلافته الى خيبر وقال مرة الهمداني كان اول الحشر من المدينة والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب الى أذرعات وأريحاء من الشام في أيام عمر وقال القرطبي الحشر الجمع وهو على أربعة

(قوله وما أفاء الله على رسوله) قاله هنا بالواو عطفا على قوله ما قطعتم من لينة

قوله على كل الخ كذا في النسخ ولعله على ان لكل الخ

أضرب حشران فى الدنيا وحشران فى الآخرة أما الذى فى الدنيا فقوله تعالى هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر كانوا من سبط لم يصبهم جلاء وكان الله تعالى قد كتب عليهم الجلاء فلولا ذلك لعذبهم فى الدنيا وكان أول حشر فى الدنيا الى الشام قال ابن عباس وعكرمة رضى الله عنهم من شك أن المحشر فى الشام فليقرأ هذه الآية وان النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم اخرجوا قالوا الى أين قال الى أرض المحشر قال قتادة هذا أول الحشر قال ابن عباس رضى الله عنهما هو أول من حشر من أهل الكتاب وأخرج من داره وأما الحشر الثانى فحشرهم قرب القيامة قال قتادة تأتى نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وتأكل من تخلف منهم وهذا ثابت فى الصحيح وذكروا أن تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار وقال ابن العربى للحشر أول ووسط وآخر فالاول جلاء بنى النضير والاوسط جلاء خيبر والآخر حشر يوم القيامة وعن الحسن هم بنو قريظة وخالفه بقية المفسرين وقالوا بنو قريظة ما حشروا ولكنهم قتلوا حكاه الثعلبى (ما ظننتم) أيها المؤمنون (أن يخرجوا) اى يوقعوا الخروج من شئ أورثتموه منهم لما كان لكم من الضعف ولهم من القوة لكثرتهم وشدة بأسهم وقرب بنى قريظة منهم وأهل خيبر أيضا غير بعيدين عنهم وكلهم أهل ملتهم والمنافقون من أنصارهم فخابت ظنونهم فى جميع ذلك (وظنوا أنهم) وقوله تعالى (مانعتهم حصونهم) فيه وجهان أحدهما ان تكون حصونهم مبتدأ ومانعتهم خبرا مقدما والجملة خبر انهم الثانى ان تكون مانعتهم خبر انهم وحصونهم فاعل به نحو ان زيدا قائم ابوه وان عمرا قائمة جاريته وجعله أبو حيان أولى لان فى نحو قائم زيد على أن يكون خبرا مقدما ومبتدأ مؤخرا خلافا والكوفيون يمنعونه فمحل الوفاق اولى وقال الزمخشرى فان قلت أى فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم وبين النظم الذى جاء عليه قلت فى تقديم الخبر على المبتدا دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها اياهم وفى تصيير ضميرهم اسما لان واسناد الجملة اليه دليل على اعتقادهم فى انفسهم انهم فى عزة ومنعة لا يبالى معها باحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم وليس ذلك فى قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم اه وهذا الذى ذكره انما يتأتى على الاعراب الاول وقد تقدم انه مرجوح ودل على ضعف عقولهم بأن عبر عن جنده باسمه الاعظم بقوله تعالى (من الله) اى الملك الاعظم الذى لا عز الا له (فأتاهم الله) اى جاءهم الملك الاعظم الذى لا يعقلون مجيئه (من حيث لم يحتسبوا) بما صوره لهم من حقارة انفسهم على حسبها وهى خذلان المنافقين رعبا كرعبهم وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بفتحها (وقذف) اى انزل انزالا كأنه قذف بحجارة فثبت (فى قلوبهم الرعب) اى الخوف الذى سكنها بعد ان كان الشيطان زين لهم غير ذلك وملأ قلوبهم من الاطماع الفارغة وقرأ فى قلوبهم الرعب وعليهم الجلاء ولاخوانهم الذين حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وأبو عمرو بكسرهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم وحرك العين بالضم ابن عامر والكسائى والباقون بالسكون ثم بين تعالى حالهم عند ذلك وفسر قذف الرعب بقوله تعالى (يخربون بيوتهم) اى لينقلوا ما استحسنوه منها من خشب وغيره وقرأ أبو عمرو بفتح الخاء وتشديد الراء والباقون بسكون الخاء وتخفيف الراء وهما بمعنى

بعد جعلها لانه مستفاد عما قبله (قوله والذين تبوؤا الدار) اى المدينة اى

اتخذوها منزلا فقوله بعد والايمان منصوب بتبوءوا

لان خرب عداه ابو عمرو بالتضعيف وهم بالهمز توهم ابي عمرو وانه فرق بمعنى آخر فقال خرب بالتشديد هدم وأفسد وأخرب بالهمزة ترك الموضع خرابا وذهب عنه وهو قول الفراء قال المبرد ولا أعلم لهذا وجها وزعم سيبويه انهما متعاقبان في بعض الكلام فيجري كل واحد مجرى الآخر نحو فرحته وافرحته وقرأ ورش وابو عمرو وحفص بيوتهم بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها (بايديهم وأيدي المؤمنين) قال الزهري وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما صالحهم على أن لهم ما أقلت الابل كانوا ينظرون الى الخشبة في منازلهم فيهدمونها وينزعون ما استحسنوه منها فيحملونه على ابلهم ويخرب المؤمنون باقيها وقال قتادة والضحاك كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا واليهود من داخل ليبنوا ما خرب من حصنهم وقال مقاتل ان المنافقين أرسلوا اليهم أن لا تخرجوا ودربوا عليهم الازقة وكان المسلمون سائر الجوانب (فان قيل) ما معنى تخريبها لهم بايدي المؤمنين (أجيب) بانهم لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم اياه وقال أبو عمرو بن العلاء بايديهم في تركهم لها وبايدي المؤمنين في اجلائهم عنها ولما كان في غاية الغرابة أن يعمل الانسان في نفسه كما يفعل فيه عدوه تسبب عن ذلك قوله (فاعتبروا) اى احملوا أنفسكم بالامعان في التأمل في عظيم قدرة الله تعالى والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شئ الى شئ ولهذا سميت العبرة عبرة لانها تنتقل من العين الى الخد وسمي علم التعبير لان صاحبه ينتقل من المتخيل الى المعقول وسميت الالفاظ عبارات لانها تنقل المعاني عن لسان القائل الى عقل المستمع ويقال السعيد من اعتبر بغيره لانه ينتقل عقله من حال ذلك الغير الى حال نفسه ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره ولهذا قال القشيري الاعتبار هو النظر في حقائق الاشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شئ آخر من جنسها ثم بين ان الاعتبار لا يحصل الا للاكمل بقوله تعالى (يا أولي الابصار) بالنظر بابصارهم وبصائرهم في غريب هذا الصنع لتحققوا به ما وعدكم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من اظهار دينه واعزاز نبيه ولا تعتمدوا على غير الله تعالى كما اعتمد هؤلاء على المنافقين فان من اعتمد على مخلوق أسلمه ذلك الى صغاره ومذلته (ولولا أن كتب الله) اى فرض فرضا حتما الملك الذي له الامر كله (عليهم الجلاء) اى الخروج من ديارهم والجولان في الارض فاما معظمهم فاجلاهم بختنصر من بلاد الشام الى العراق وأما هؤلاء فحماهم الله تعالى بمهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الجلاء وجعله على يده صلى الله عليه وسلم فاجلاهم فذهب بعضهم الى خيبر وبعضهم الى الشام مرة بعد مرة (تنبيه) قال الماوردي الجلاء أخص من الخروج لانه لا يقال الا للجماعة والاخراج يكون للجماعة والواحد وقال غيره الفرق بينهما ان الجلاء ما كان مع الاهل والولد بخلاف الاخراج فانه لا يستلزم ذلك (لعذبهم) أي بالقتل والسبي (في الدنيا) كما فعل بقريظة من اليهود (ولهم) أي على كل حال أسلموا أو تركوا (في الآخرة) التي هي دار البقاء (عذاب النار) وهو العذاب الاكبر (ذلك) اى الامر العظيم الذي فعله بهم من الجلاء ومقدماته في الدنيا ويفعله بهم في الآخرة (بانهم شاقوا الله) أي الملك الاعلى الذي له الاحاطة التامة فكانوا في شق غير شقه بان صاروا في شق الاعداء المحاربين بعد ما كانوا الموادعين (و) شاقوا (رسوله) اى الذي اجلاه من اجلاه

(ومن)

(ومن يشاق الله) اى يوقع فى الباطن مشاقة الملك الاعلى الذى لا كفوله فى الماضى والحال والاستقبال (فان الله) اى المحيط بجميع العظمة (شديد العقاب) وذلك كما فعل ببنى قريظة بعد هذا حيث نقضوا عهدهم واظهروا المشاقة فى غزوة الاحزاب وكما فعل باهل خيبر وقوله تعالى (ما) شرطية فى موضع نصب بقوله تعالى (قطعتم) وقوله تعالى (من لينة) بيان له واختلف فى معنى قوله تعالى من لينة فاكثر المفسرين على انها هى النخلة مطلقا كأنهم اشتقوها من اللين قال ذو الرمة

كأن قتودى فوقها عش طائر * على لينة سوقاء تهفو جنوبها

وقال الزهرى هى النخلة مالم تكن عجوة ولا برنية وقال جعفر بن محمد هى العجوة خاصة وذكر ان العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه الصلاة والسلام فى السفينة والعتيق الفحل وكانت العجوة أصل الاناث كلها فلذلك شق على اليهود قطعها حكاه الماوردى وقال سفيان هى ضرب من النخل يقال لثمرها اللون وهو شديد الصفرة يرى نواه من خارجه ويغيب فيه الضرس النخلة منها احب اليهم من وصيف وقيل هى النخلة الكريمة أى القريبة من الارض وقيل هى الفسيلة أى بالفاء هى صغار النخل لانها ألين من النخلة وقيل هى الاشجار كلها للينها بالحياة وقال الاصمعى هى الدقل قال ابن العربى والصحيح ما قاله الازهرى ومالك وجمع اللينة لين لانه من باب اسم الجنس كثمرة وتمر وقد تكسر على ليان وهو شاذ لان تكسير ما يفرق بينه وبين واحده بتاء التأنيث شاذ كرطبة ورطب وأرطاب والضمير فى قوله تعالى (أو تركتموها قائمة) عائد على معنى ما ولما كان الترك يصدق ببقائها مغروسة أو مقطوعة قال تعالى (على أصولها فباذن الله) أى فقطعها بتمكين الملك الاعظم روى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل ببنى النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم واحراقها فجزع أعداء الله تعالى عند ذلك وقالوا يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخل وهل وجدت فيما زعمت انه أنزل عليك الفساد فى الارض فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا واختلفوا فى ذلك فقال بعضهم لا تقطعوا فانه مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل نغيظهم بقطعه فانزل الله تعالى هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الاثم وان ذلك كان باذن الله وعن ابن عمر قال حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل بنى النضير وقطع واللام فى قوله تعالى (وليخزى الفاسقين) متعلقة بمحذوف أى وأذن فى قطعها ليخزى اليهود فى اعتراضهم بان قطع الشجر المثمر فساد وليسر المؤمنين ويعزهم وليخزى الفاسقين (فان قيل) لم خصت اللينة بالقطع (أجيب) بانه ان كانت من الالوان فليستبقوا لانفسهم العجوة والبرنية وان كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد واحتجوا بهذه الآية على ان حصون الكفرة وديارهم يجوز هدمها وتحريقها وتغريقها وان ترمى بالمجانيق وكذا اشجارهم وعن ابن مسعود انهم قطعوا منها ما كان موضعا للقتال وروى ان رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة والآخر اللون فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا تركتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هذا قطعتها غيظا للكفار وقد استدل به على جواز الاجتهاد وعلى جوازه بحضور النبى صلى الله عليه وسلم لانهما بالاجتهاد فعلا ذلك واحتج به من

بتضمينه لزموا او عقدوا اى واعتقدوا او واخلصوا او واختاروا الايمان لان

م قوله ما قاله الازهرى كذا بالنسخ التى بايدينا ولعل الصواب الزهرى ولينظر ما قول مالك ولعله موافق للزهرى اه مصححه

يقول كل مجتهد مصيب وقال الكيا الطبرى وان كان الاجتهاد يبعد فى مثله مع وجود النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ولا شك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ذلك وسكت فتلقوا الحكم من تقريره فقط قال ابن العربى وهذا باطل لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معهم ولا اجتهاد مع حضوره صلى الله عليه وسلم وانما يدل على اجتهاد النبى صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل عليه أخذا بعموم الادلة للكفار ودخولا للاذن فى الكل بما يقضى عليهم بالبوار وذلك قوله تعالى وليخزى الفاسقين (وما أفاء الله) أى رد الملك الذى له الامر كله ردا سهلا بعد أن كان فى غاية العسر والصعوبة (على رسوله) فصيره فى يده بعد ان كان خروجه عنها بوضع أيدى الكفرة عليه ظلما وعدوانا كما دل عليه التعبير بالفىء الذى هو عود الظل الى الناحية التى كان ابتدأ منها (منهم) أى رد ا مبتدأ من الفاسقين فبين تعالى ان هذا فىء لا غنيمة ويدخل فى الفىء أموال من مات منهم بلا وارث وكذا الفاضل عن وارث له غير حائز وكذا الجزية وعشر تجاراتهم وما جلوا أى تفرقوا عنه ولو لغير خوف كضر أصابهم وأما الغنيمة فهى ما حصل لنا من الحربيين مما هو لهم بايجاف حتى ما حصل بسرقة أو التقاط وكذا ما انهزموا عنه عند التقاء الصفين ولو قبل شهر السلاح أو اهداه الكافر لنا والحرب قائمة ولم تحل الغنائم لاحد قبل الاسلام بل كانت الانبياء اذا غنموا مالا جمعوه فتأتى نار من السماء فتأخذه ثم أحلت للنبى صلى الله عليه وسلم وكانت فى صدر الاسلام له خاصة لانه كالمقاتلين كلهم نصرة وشجاعة بل أعظم ثم نسخ ذلك واستقر الامر على ما هو فى سورة الانفال فى قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ الآية وأما الفىء فهو مذكور ههنا بقوله تعالى (فما أوجفتم) اى اسرعتم يا مسلمين (عليه) ومن فى قوله تعالى (من خيل) مزيدة أى خيلا وأكد باعادة النافى دفعا لظن من ظن انه غنيمة لاحاطتهم به بقوله تعالى (ولا ركاب) والركاب الابل غلب ذلك عليها من بين المركوبات واحدها راكبة ولا واحد لها من لفظها وقال الرازى العرب لا يطلقون لفظ الراكب الا على راكب البعير ويسمون راكب الفرس فارسا والمعنى لم تقطعوا اليها شقة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة فانها كانت من المدينة على ميلين قاله الفراء فمشوا اليها مشيا ولم يركبوا اليها خيلا ولا ابلا الا النبى صلى الله عليه وسلم ركب جملا وقيل حمارا مخطوما بليف فافتتحها صلحا قال الرازى ان الصحابة طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يقسم الفىء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم فذكر الله تعالى الفرق بين الامرين وأن الغنيمة هى التى أتعبتم أنفسكم فى تحصيلها وأما الفىء فلم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكان الامر مفوضا فيه الى النبى صلى الله عليه وسلم يضعه حيث يشاء (ولكن الله) أى الذى له العز كله فلا كفء له (يسلط رسله) أى له هذه السنة فى كل زمن (على من يشاء) يجعل ما آتاهم سبحانه من الهيبة رعبا فى قلوب أعدائه (والله) أى الملك الذى له الكمال كله (على كل شئ) يصح أن تتعلق المشيئة به وهو كل ممكن من التسليط وغيره (قدير) أى بالغ القدرة الى أقصى الغايات فلا حق لكم فيه ويختص به النبى صلى الله عليه وسلم ومن ذكر معه فى الآية الثانية من الاصناف الاربعة على ما كان عليه القسمة من ان لكل منهم خمس الخمس وله صلى الله عليه وسلم الباقى يفعل فيه ما يشاء ثم بين تعالى مصرف الفىء بقوله تعالى (ما أفاء الله) أى الذى اختص بالعزة والقدرة والحكمة

الايمان لا يتخذ منزلا نهو على الثانى من باب ● علفتها تبنا وماء باردا ●

(على)

(على رسوله من أهل القرى) أى قرية بنى النضير وغيرها من وادى القرى والصفراء وينبع وما هنالك من قرى العرب التى تسمى قرى عربية فيخمس ذلك خمسة أخماس وان لم يكن فى الآية تخميس فانه مذكور فى آية الغنيمة فحمل المطلق على المقيد وكان صلى الله عليه وسلم يقسم له أربعة أخماسه وخمس خمسه ولكل من الاربعة المذكورين معه خمس خمس وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح فقوله تعالى (فلله) أى الملك الاعلى الذى كله بيده ذلك للتبرك فان كل أمر لا يبدأ فيه به فهو أجذم (وللرسول) أى الذى عظمته من عظمته تعالى وقد تقدم ما كان له صلى الله عليه وسلم وأما بعده صلى الله عليه وسلم فيصرف ما كان له من خمس الخمس لمصالح المسلمين وسد ثغور وقضاة وعلماء بعلوم تتعلق بمصالح المسلمين كتفسير وقراءة والمراد بالقضاة غير قضاة العسكر أما قضاته وهم الذين يحكمون لاهل الفىء فى مغزاهم فيرزقون من الاخماس الاربعة لا من خمس الخمس يقدم وجوبا الاهم فالاهم وأما الاربعة المذكورة معه صلى الله عليه وسلم فأولها المذكور فى قوله تعالى (ولذى القربى) أى منه وهم مؤمنو بنى هاشم وبنى المطلب لاقتصاره صلى الله عليه وسلم فى القسم عليهم مع سؤال غيرهم من بنى عميهم نوفل وعبد شمس له ولقوله صلى الله عليه وسلم أما بنو هاشم وبنو المطلب فشىء واحد وشبك بين أصابعه فيعطون ولو أغنياء لانه صلى الله عليه وسلم أعطى العباس وكان غنيا ويفضل الذكر على الانثى كالارث فله سهمان ولها سهم لانه عطية من الله تعالى يستحق بقرابة الاب كالارث سواء الكبير والصغير والعبرة بالانتساب الى الآباء فلا يعطى أولاد البنات من بنى هاشم والمطلب شيأ لانه صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير وعثمان مع ان أم كل منهما كانت هاشمية وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين وأبو عمرو بين بين والباقون بالفتح وخالفهم أبو عمرو فى واليتامى ثانيها المذكور فى قوله تعالى (واليتامى) أى الفقراء منا لان لفظ اليتيم يشعر بالحاجة لانه مال أو هو أخذ من الكفار فاختص كسهم المصالح واليتيم صغير ولو أنثى لخبر لا يتم بعد احتلام رواه أبو داود وحسنه النووى وان ضعفه غيره لا أب له وان كان له أم وجد واليتيم فى البهائم من فقد أمه وفى الطير من فقد أباه وأمه ومن فقد أمه فقط من الآدميين يقال له منقطع ثالثها المذكور فى قوله تعالى (والمساكين) الصادقين بالفقراء وهم أهل الحاجة منا وتقدم تعريفهما فى سورة الانفال وكذا تعريف الرابع المذكور فى قوله تعالى (وابن السبيل) أى الطريق الفقير منا ذكورا كانوا أو اناثا ولو اجتمع فى واحد من هذه الاصناف يتم ومسكنة أعطى باليتم فقط لانه وصف لازم والمسكنة زائلة وللامام التسوية والتفضيل بحسب الحاجة ويعم الامام ولو بنائبه الاصناف الاربعة الاخيرة بالاعطاء وجوبا لعموم الآية فلا يخص الحاضر بموضع حصول الفىء ولا من فى كل ناحية منهم بالحاصل فيها نعم لو كان الحاصل لا يسد مسدا بالتعميم قدم الاحوج فالاحوج ولا يعم للضرورة ومن فقد من الاربعة صرف نصيبه للباقين منهم وأما الاخماس الاربعة فهى للمرتزقة وهم المرصدون للجهاد بتعيين الامام لهم بعمل الاولين به بخلاف المتطوعة فلا يعطون من الفىء بل من الزكاة عكس المرتزقة ويشرك المرتزقة قضاتهم كأئمتهم ومؤذنوهم وعمالهم ويجب على الامام أن يعطى كلا من المرتزقة بقدر حاجة ممونه

ومنه وب بعوتوا بلا نفهين على أنه مجاز بجعله منزلا لهم لتمكنهم فيه كتمكنهم

من نفسه وغيره اكزوجاته ليتفرغ للجهاد ويراعى في الحاجة الزمان والمكان والرخص والغلاء وعادة الشخص مروأة وضدها ويزاد ان زادت حاجته بزيادة ولد أو حدوث زوجة فاكثر ومن لاعبد له يعطى من العبيد ما يحتاجه للقتال معه أو لخدمته ان كان ممن يخدم ويعطى مؤنته ومن يقاتل فارسا ولا فرس له يعطى من الخيل ما يحتاجه للقتال ويعطى مؤنته بخلاف الزوجات يعطى لهن مطلقا لانحصارهن في أربع ثم ما يدفعه اليه لزوجته وولده الملك فيه لهما حاصل من الفيء وقيل ملكه هو ويصير اليهما من جهته فان مات أعطى الامام أصوله وزوجاته وبناته الى أن يستغنوا ويسن أن يضع الامام ديوانا وهو الدفتر الذي يثبت فيه أسماء المرتزقة وأول من وضعه عمر رضى الله عنه وأن ينصب لكل جمع عريفا وأن يقدم في اسم واعطاء قريشا لشرفهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ولخبر قدموا قريشا وأن يقدم منهم بني هاشم وبني المطلب فبني عبد شمس فبني عبد العزى فسائر بطون العرب الاقرب فالاقرب الى النبي صلى الله عليه وسلم فسائر العرب فالعجم ولا يثبت في الديوان من لا يصلح ومن مرض فكصحيح وان لم يرج برؤه ويمحى اسم كل من لم يرج وما فضل عنهم وزع عليهم بقدر مؤنتهم وللامام صرف بعضه في ثغور وسلاح وخيل ونحوها وله وقف عقار في أو بيعه وقسم غلته أو ثمنه كقسم المنقول أربعة أخماسه للمرتزقة وخمسه للمصالح وله أيضا قسمه كالمنقول لكن خمس الخمس الذي للمصالح لا سبيل الى قسمته وللحكم سبحانه هذا الحكم في الفيء المخالف لما كانوا عليه في الجاهلية من اختصاص الاغنياء به بين علته المظهرة لعظمته بقوله تعالى (كي لا يكون) أى الفيء الذي يسره الله تعالى بقوته من قذف الرعب في قلوب أعدائه ومن حقه ان يعطاه الفقراء (دولة) أى متداولا (بين الاغنياء منكم) أى يتداوله الاغنياء ويدور بينهم كما كان في الجاهلية فانهم كانوا يقولون من عز بز ومنه قول الحسن اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا يريد من غلب منهم أخذه واستأثر به وقرأ هشام بخلاف عنه تكون بالتأنيث دولة بالرفع والباقون بالتذكير والنصب فاما الرفع فعلى ان كان تامة وأما التأنيث والتذكير فواضحان لانه تأنيث مجازى وأما النصب فعلى انها الناقصة واسمها ضمير عائد على الفيء والتذكير واجب لتذكير المرفوع ودولة خبرها وقيل دولة عائد على ما اعتبارا بلفظها وكي لاهنا مقطوعة في الرسم (وما آتاكم الرسول) أى وكل شئ أحضره لكم الكامل في الرسالة من غنيمة أو مال الفيء أو غيره (فخذوه) أى فاقبلوه لانه حلال لكم وتمسكوا به فانه واجب الطاعة (وما نهاكم عنه) أى من جميع الاشياء (فانتهوا) لانه لا ينطق عن الهوى ولا يقول ولا يفعل الا ما أمر به ربه عز وجل * (تنبيه) * هذه الآية تدل على أن كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى لان الآية وان كانت في الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها قال عبد الرحمن بن زيد لقى ابن مسعود رجلا محرما وعليه ثيابه فقال انزع عنك هذا فقال الرجل تقرأ على بهذا آية من كتاب الله تعالى قال نعم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقال عبد الله بن محمد بن هرون الفريابي سمعت الشافعي رضى الله عنه يقول سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم قال فقلت له أصلحك الله ما تقول في المحرم يقتل الزنبور قال فقال بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى

في المدينة فهي تبوؤا جمعين فيقة واحدة المجاز وهو جائز عند الشافعي رضى الله عنه

قوله وقيل دولة عائد الخ كذا في النسخ بايدينا ولعل الصواب اسقاط دولة اه مصححه

وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك ابن عمير عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس ابن أسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب انه أمر بقتل الزنبور وهذا الجواب في غاية الحسن أفتى بقتل الزنبور في الاحرام وبين انه يقتدي فيه بعمر وان النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بالاقتداء به وان الله تعالى أمر بقبول ما يقوله صلى الله عليه وسلم فجوازه له من الكتاب والسنة وسئل عكرمة عن أمهات الاولاد هل هن أحرار فقال في سورة النساء في قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم وفي صحيح مسلم وغيره عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله تعالى فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب فجاءت فقالت بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله تعالى فقالت لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول فقال لئن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا قالت بلى قال فانه قد نهى عنه الحديث * (فائدة) * الوشم هو غرز العضو من الانسان بالابرة ثم يحشى بالكحل والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين ثناياها بصناعة وقيل تتفلج في مشيها في كل شيء منهي عنه وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح والهمزة ممدودة بلا خلاف لانها بمعنى الاعطاء (واتقوا الله) أي واجعلوا لكم بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاية من عذاب الملك الاعظم المحيط علما وقدرة وعلل ذلك بقوله تعالى (ان الله) أي الذي له الجلال والاكرام على الاطلاق (شديد العقاب) أي العذاب الواقع بعد الذنب قال البقاعي ومن زعم ان شيأ مما في هذه السورة نسخ بشيء مما في سورة الانفال فقد أخطأ لان الانفال نزلت في بدر وهي قبل هذه بمدة وقوله تعالى (للفقراء) أي الذين كان الانسان منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويتخذ الحفرة في الشتاء لتقيه البرد وما له دثار غيرها بدل من لذي القربى وما عطف عليه قاله الزمخشري والذي منع الابدال من لله وللرسول والمعطوف عليهما وان كان المعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أخرج رسوله صلى الله عليه وسلم من الفقراء في قوله تعالى وينصرون الله ورسوله وأنه تعالى يترفع برسوله صلى الله عليه وسلم عن تسميته بالفقير وقال غيره انه خبر لمبتدا محذوف أي ولكن الفيء للفقراء وقيل تقديره ولكن يكون للفقراء وقيل تقديره اعجبوا للفقراء واقتصر على هذا التقدير الجلال المحلي والمحامله الزمخشري بدلا من لذي القربى لانه حنفي والحنفية يشترطون الفقر في اعطاء ذوي القربى من الفيء ولذا قال البيضاوي ومن أعطى أغنياء ذوي القربى أي كالشافعي خصص الابدال بما بعده أو الفيء بفيء بني النضير اه أو انهم كانوا عند نزول الآية كذلك ثم خصص بالوصف بقوله تعالى (المهاجرين) وعلل ذلك بقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) لان الله برة

(قوله ولئن نصروهم) ان قلت ان الشرطية انما تدخل على ما يحتمل وجوده

قد تطلق على من هجر أهل الكفر من غير مفارقة الوطن وقوله تعالى (وأموالهم) اشارة
الى أن المال لما كان يستر الانسان كان كأنه ظرف له * ولما كان طلب الدنيا من النقائص
بين انه اذا كان من الله لم يكن كذلك وأنه لا يكون قادحا في الاخلاص فقال تعالى (يبتغون) اى
أخرجوا حال كونهم يطلبون على وجه الاجتهاد وبين انه لا يجب عليه سبحانه لاحد شئ بقوله
تعالى (فضلا من الله) اى الملك الاعظم الذى لا كفء له لانه المختص بجميع صفات
الكمال فيغنيهم بفضله عن سواه (ورضوانا) بان يوفقهم لما يرضيه عنهم ولا يجعل رغبتهم
فى العوض منه قادحا فى الاخلاص فيوصلهم الى دار كرامته وقرأ شعبة بضم الراء والباقون
بكسرها (وينصرون) أى على سبيل التجديد والاستمرار (الله) أى دين الملك الاعظم
(ورسوله) الذى عظمته من عظمته بأنفسهم وأموالهم ليضمحل حزب الشيطان (أولئك)
أى العالو الرتبة فى الاخلاق الفاضلة (هم الصادقون) أى العريقون فى هذا الوصف
لان مهاجرتهم لما ذكر وتركهم لما وصف دل على كمال صدقهم فيما ادعوه من الايمان
بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث نابذوا من عاداهما ووالوا أولياءهما وان بعدت
دارهم وشط مزارهم ثم اتبع ذكر المهاجرين بذكر الانصار الذين كانوا فى كل حال
معه صلى الله عليه وسلم كالميت بين يدى الغاسل مهما شاء فعل ومهما أراد منهم صاروا اليه
بقوله تعالى (والذين تبوؤا) أى جعلوا بغاية جهدهم (الدار) أى الكاملة فى الدور التى
جعلها الله تعالى فى الازل للهجرة وهيأها للنصرة وجعلها محل اقامتهم وفى قوله تعالى
(والايمان) أوجه أحدها أنه ضمن تبوؤا معنى لزموا فيصح عطف الايمان عليه اذ الايمان
لا يتبوأ ثانيها أنه منصوب بمقدر أى واعتقدوا أو وألفوا أو وأحبوا أو وأخلصوا كقول
القائل * علفتها تبنا وماء باردا * وقول الآخر * ومقلدا سيفا ورمحا * ثالثها انه يتجوز
فى الايمان فيجعل لاختلاطه بهم وثباتهم عليه كالمكان المحيط بهم فكأنهم نزلوه وعلى هذا
فيكون جمع بين الحقيقة والمجاز فى كلمة واحدة وفيه خلاف مشهور رابعها أن يكون
الاصل دار الهجرة ودار الايمان فاقام لام التعريف فى الدار مقام المضاف اليه وحذف
المضاف من دار الايمان ووضع المضاف اليه مقامه خامسها أن يكون سمى المدينة به لانها
دار الهجرة ومكان ظهور الايمان قال هذين الوجهين الزمخشرى وليس فيه الا اقيام أل مقام
المضاف اليه وهو محل خلاف وهو ان أل هل تقوم مقام الضمير المضاف اليه فالكوفيون
يجوزونه كقوله تعالى فان الجنة هى المأوى أى مأواه والبصريون يمنعونه ويقولون الضمير
محذوف أى المأوى له وأما كونها عوضا عن المضاف اليه فقال ابن عادل لا نعرف فيه خلافا
سادسها انه منصوب على المفعول معه أى مع الايمان قال وهب سمعت مالكا يذكر فضل المدينة
على غيرها من الآفاق فقال ان المدينة تبوئت بالايمان والهجرة وان غيرها من القرى افتتحت
بالسيف ثم قرأ والذين تبوؤا الدار والايمان (من قبلهم) أى وهم الانصار (يحبون) أى على
سبيل التجديد والاستمرار (من هاجر) وزادهم محبة فيهم بقوله تعالى (اليهم) لان القصد الى
الانسان يوجب حقه عليه لانه لولا كمال محبته له ما خصه بالقصد اليه (ولا يجدون فى صدورهم)

وعدمه فكيف قال تعالى ذلك مع اخباره بانهم لا ينصرون (قلت) معناه

قوله وليس فيه الا كذا بالاصل الطبع وفى بعض النسخ اسقاط الا وليحرر

ولئن نصروهم فرضا وتقديرا كقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

أى التى هى مساكن قلوبهم فضلا عن أن تنطق ألسنتهم (حاجة) قال الحسن حسدا وحزازة وغيظا (مما أوتوا) أى آتى النبى المهاجرين من أموال بنى النضير وغيرهم وأطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحزازة لان هذه الاشياء لاتنفك عن الحاجة فأطلق اسم اللازم على الملزوم على سبيل الكناية فعلى هذا يكون الضمير الاول للجائين بعد المهاجرين وفى أوتوا للمهاجرين وقيل ان الحاجة هنا على بابها من الاحتياج الا انها واقعة موقع المحتاج اليه والمعنى ولايجدون طلب محتاج اليه مما أوتى المهاجرون من الفىء وغيره والمحتاج اليه يسمى حاجة تقول خذ منه حاجتك وأعطاه من ماله حاجته قاله الزمخشرى والضميران على ماتقدم وقال أبو البقاء مس حاجة أى انه حذف المضاف للعلم به وعلى هذا فالضميران للذين تبوؤا الدار والايمان قال القرطبى كان المهاجرون فى دور الانصار فلما غنم صلى الله عليه وسلم أموال بنى النضير دعا الانصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين فى انزالهم اياهم منازلهم واشراكهم فى الاموال ثم قال صلى الله عليه وسلم ان أحببتم قسمت ما أفاء الله علىّ من بنى النضير بينكم وبينهم وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم وان أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا ونادت الانصار رضينا وسلمنا يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ولم يعط الانصار الا ثلاثة نفر محتاجين أبادجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة ولما أخبر تعالى عن تخليهم عن الرذائل أتبعه الاخبار بتحليهم بالفضائل فقال عزمن قائل (ويؤثرون على أنفسهم) فيبذلون لغيرهم كائنا من كان مافى أيديهم فان الايثار تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية رغبة فى الحظوظ الاخروية وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة وذكر النفس دليل على انهم فى غاية النزاهة عن الرذائل فان النفس اذا طهرت كان القلب أطهر وأكد ذلك بقوله تعالى (ولو كان) أى كونا هو فى غاية المكنة (بهم) أى خاصة لابالمؤثر (خصاصة) أى فقر وحاجة الى مايؤثرون به روى عن أبى هريرة ان رجلا بات به ضيف ولم يكن عنده الا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته نومى الصبية وأطفئى السراج وقربى للضيف ماعندك فنزلت هذه الآية وعنه أيضا قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال انى مجهود فأرسل الى بعض نسائه فقالت والذى بعثك بالحق ماعندى الا ماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يضيف هذا الليلة رحمه الله فقام رجل من الانصار فقال أنا يارسول الله فانطلق به الى رحله فقال لامرأته هل عندك شئ قالت لا الا قوت صبيانى قال فعلليهم بشئ فاذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وذكر نحو الحديث الاول وفى رواية فقام رجل من الانصار يقال له أبو طلحة فانطلق به الى رحله وذكر المهدوى أنها نزلت فى ثابت بن قيس ورجل من الانصار يقال له أبو المتوكل ولم يكن عنده الا قوته وذكر القشيرى قال أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال ان أخى فلانا وعياله أحوج الى هذا منا فبعثها اليهم فلم يزل يبعثها واحد الى آخر حتى تناولها سبعة أبيات حتى رجعت الى الاول فنزلت الآية وذكر القرطبى عن أنس قال أهدى لرجل من

الصحابة رأس شاة وكان مجهودا فوجه بها الى جاره فتداولها سبعة أنفس في سبعة أبيات ثم عادت الى الاول فنزلت (فان قيل) قد صح في الخبر النهي عن التصدق بجميع مايملكه المرء (أجيب) بان محل النهي فيمن لا يوثق منه بالصبر على الفقر وخاف أن يتعرض للمسئلة اذا فقد ماينفقه فاما الانصار الذين أثنى الله تعالى عليهم بالايثار على أنفسهم فكانوا كما قال تعالى والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس فكان الايثار فيهم أفضل من الامساك والامساك لمن لا يصبر ويتعرض للمسئلة أولى من الايثار كما روى أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بمثل البيضة من الذهب فقال هذه صدقة فرماه بها وقال يأتي أحدكم بجميع مايملكه فيتصدق به ثم يقعد فيتكفف الناس والايثار بالنفس فوق الايثار بالمال وان عاد الى النفس ومن الامثال والجود بالنفس أعلى غاية الجود وأفضل من الجود بالنفس الجود على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي الصحيح ان أبا طلحة ترس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتطلع ليرى القوم فيقول له أبو طلحة لا تشرف يا رسول الله لا يصيبونك نحري دون نحرك ووقى بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم فشلت وقال حذيفة العدوي انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي فاذا برجل يقول آه آه فاشار الى ابن عمي ان انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فاشار ان نعم فسمع آخر يقول آه آه فاشار هشام ان انطلق اليه فجئت اليه فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمي فاذا هو قد مات وقال أبو يزيد البسطامي ماغلبني أحد ماغلبني شاب من أهل بلخ قدم الينا حاجا فقال لي يا أبا يزيد ماحد الزهد عندكم فقلت اذا وجدنا أكلنا واذا فقدنا صبرنا فقال هكذا كلاب بلخ فقلت وماحد الزهد عندكم فقال اذا فقدنا شكرنا واذا وجدنا آثرنا وسئل ذو النون ماحد الزهد قال ثلاث تفريق المجموع وترك طلب المفقود والايثار عند القوت وحكى عن أبي الحسن الانطاكي انه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية من قرى الري وبينهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام فلما فرغوا فاذا الطعام بحاله لم يأكل أحد منهم شيأ ايثارا لصاحبه على نفسه (ومن يوق شح نفسه) أي يجعل بينه وبين اخلاقها الذميمة المشار اليها بالنفس وقاية تحول بينه وبينها فلا يكون مانعا لما عنده حريصا على ماعند غيره حسدا قال ابن عمر الشح أن تطمع عين الرجل فيما ليس له قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الشح فانه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وقال القرطبي الشح والبخل سواء وجعل بعض أهل اللغة الشح أشد من البخل وفي الصحاح الشح البخل مع حرص والمراد بالشح في الآية الشح بالزكاة وما ليس بفرض من صلة ذوي الارحام والضيافة وما شاكل ذلك وليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك وان أمسك عن نفسه ومن وسع على نفسه ولم ينفق فيما ذكر من الزكاة والطاعات فلم يوق شح نفسه روى الاسود عن ابن مسعود ان رجلا أتاه فقال اني أخاف ان أكون قد هلكت قال وماذاك قال سمعت الله يقول ومن يوق شح نفسه وأنا رجل شحيح لا أكاد أخرج من يدي شيأ فقال ابن مسعود ليس ذلك الذي ذكر الله تعالى انما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل ففرق بين الشح والبخل وقال طاوس البخل أن يبخل

(قوله لا أنتم أشد رهبة) أي خوفا في صدورهم من الله أشركت ابصطاس عالله

الانسان بما في يده والشح أن يشح بما في أيدي الناس يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحل والحرام فلا يقنع وقال بعضهم ليس الشح أن يمنع الرجل ماله انما الشح أن تطمح عين الرجل فيما ليس له وقال ابن جبير الشح منع الزكاة وادخار الحرام وقال ابن عيينة الشح الظلم وقال الليث ترك الفرائض وانتهاك المحارم وقال ابن عباس رضي الله عنهما من اتبع هواه ولم يقبل الايمان فذلك الشحيح وقال ابن زيد من لم يأخذ شيأ نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع شيأ أمره الله تعالى باعطائه فقد وقاه الله تعالى شح نفسه وعن انس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال برئ من الشح من أدى الزكاة وأقرى الضيف وأعطى في النائبة وعنه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو اللهم اني أعوذ بك من شح نفسي واسرافها ووسواسها وقال ابن الهياج الاسدي رأيت رجلا في الطواف يدعو اللهم قني شح نفسي لا يزيد على ذلك فقلت له فقال اذا وقيت شح نفسي لم اسرق ولم ازن ولم اقتل فاذا الرجل عبد الرحمن بن عوف قال القرطبي ونزل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وعن ابي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا وقال كسرى لاصحابه أي شئ اضر بابن آدم قالوا الفقر فقال الشح أضر من الفقر لان الفقير اذا وجد شبع والشحيح اذا وجد لم يشبع أبدا (فاولئك) أي العالو المنزلة (هم المفلحون) أي الكاملون في الفوز بكل مراد قال القشيري وتجرد القلب من الاعراض والاملاك صفة السادة والاكابر لا من اسرته الاخطار ولما أثنى سبحانه وتعالى على المهاجرين والانصار بما هم عليه واهله اتبعهم ذكر التابعين لهم باحسان الى يوم الدين فقال تعالى (والذين جاؤا) اى من اى طائفة كانوا (من بعدهم) اى بعد المهاجرين والانصار وهم من امن بعد انقطاع الهجرة بالفتح وبعد ايمان الانصار الذين اسلموا مع النبي صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة (يقولون) على سبيل التجديد والاستمرار تصديقا لايمانهم بدعائهم (ربنا) أي أيها المحسن الينا بايجادنا من مهد الدين قبلنا (اغفر لنا) أي أوقع ستر النقائص آثارها واعيانها (ولاخواننا) اى في الدين فانهم اعظم اخوة وبينوا العلة بقولهم (الذين سبقونا بالايمان) قال ابن ابي ليلى الناس على ثلاثة منازل المهاجرين والذين تبوؤا الدار والايمان والذين جاؤا من بعدهم فاجتهد أن لا تخرج من هذه المنازل وقال بعضهم كن مهاجرا فان قلت لا أجد فكن أنصاريا فان لم تجد فاعمل باعمالهم فان لم تستطع فاحبهم واستغفر لهم كما امر الله تعالى وقال مصعب ابن سعد الناس على ثلاث منازل فمضت منزلتان وبقيت منزلة فاحسن ما انتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت وعن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده انه جاءه رجل فقال له يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقول في عثمان فقال له يا اخي أنت من قوم قال الله تعالى فيهم للفقراء المهاجرين الآية قال لا قال فانت من قوم قال الله تعالى فيهم والذين تبوؤا الدار والايمان الآية قال لا قال فو الله ان لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الاسلام وهي قوله تعالى والذين جاؤا من بعدهم الآية وروى ان نفرا من أهل العراق جاؤا الى محمد بن علي بن

الله أي في صدور المنافقين اوالبهود وظاهره لانهم أشد خوفا من الله (فان قلت)

الحسين فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان فاكثروا فقال لهم أمن المهاجرين الاولين أنتم فقالوا لا فقال أمن الذين تبوّؤا الدار والايمان قالوا لا قال فقد تبرأتم من هذين الفريقين أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى والذين جاؤا من بعدهم قوموا فعل الله بكم وفعل

• (تنبيه) • هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين لانه جعل لمن بعدهم حظا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ومن أبغضهم أو واحدا منهم أو اعتقد فيهم شرا انه لا حق له في الفيء قال مالك من كان يبغض احدا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم او كان في قلبه لهم غل فليس له حق في فيء المسلمين ثم قرأ والذين جاؤا من بعدهم الآية وهي عامة في جميع التابعين الآتين بعدهم الى يوم القيامة يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج الى المقبرة فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين وانا ان شاء الله بكم لاحقون وددت لو رأيت اخواننا فقالوا يا رسول الله ألسنا اخوانك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنتم أصحابي واخواننا الذين لم يأتوا بعد وانا فرطهم على الحوض فبين صلى الله عليه وسلم ان اخوانه كل من اتى بعدهم كما قال السدي والكلبي انهم الذين هاجروا بعد ذلك وعن الحسن ايضا ان الذين جاؤا من بعدهم من قصد الى النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة بعد انقطاع الهجرة وانما بدؤا في الدعاء بأنفسهم لقوله صلى الله عليه وسلم ابدأ بنفسك وقال الشعبي تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة سئلت اليهود من خير اهل ملتكم فقالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى من خير اهل ملتكم فقالوا أصحاب عيسى وسئلت الرافضة من شر اهل ملتكم فقالوا اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم امروا بالاستغفار لهم فسبوهم وعن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تذهب هذه الامة حتى يلعن آخرها اولها اعاذنا الله تعالى ومحبينا من الاهواء المضلة (ولا تجعل في قلوبنا غلا) أي ضغنا وحسدا او حقدا وهو حرارة وغليان يوجب الانتقام (للذين آمنوا) اى اقروا بالايمان وان كانوا في ادنى درجاته وقيدوا بالقلب لان رذائل النفس قل ان تنفك وانما ان كانت مع صحة القلب أوشك ان لا تؤثر (ربنا) اى ايها المحسن الينا بتعليم ما لم نكن نعلم وا كدوا اعلاما بانهم يعتقدون ما يقولون بقولهم (انك رؤف) اى راحم اشد الرحمة لمن كانت له بك وصلة بفعل من أفعال الخير (رحيم) مكرم غاية الاكرام لمن أردت ولو لم يكن له وصلة فانت جدير بان تجيبنا الى ما بين ان تكون لنا وصلة فنكون من أهل الرأفة أو لا فنكون من أهل الرحمة فقد افادت هذه الآية ان من كان في قلبه غل على أحد من الصحابة فليس ممن عنى الله تعالى بهذه الآية وقرأ ابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بكسر الهمزة والباقون بعدها • ولما ذكر حال المؤمنين اتبعهم بذكر حال المنافقين فقال تعالى (ألم تر) اى تعلم علما هو في غاية الجزم كالمشاهدة يا اعلى الخلق وبين بعدهم عن جنابه العالي ومنصبه الشريف العالي باداة الانتهاء فقال تعالى (الى الذين نافقوا) اى اظهروا غير ما اضمروا وبالغوا في اخفاء عقائدهم وهم عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه قالوا والنفاق لفظ اسلامي لم تكن العرب تعرفه قبله وهو استعارة من الضب في نافقائه وقاصعائه وصورحالهم بقوله تعالى (يقولون لاخوانهم الذين كفروا) اى غطوا انوار المعارف التي دلتهم على الحق (من اهل الكتاب)

ان علق قوله من الله بانشد لزم ثبوت الخوف لله وهو

وهم اليهود من بنى قريظة والنضير والاخوة هم الاخوان وهى هنا تحتمل وجوها أحدها الاخوة فى الآخرة لان اليهود والمنافقين اشتركوا فى عموم الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وثانيها الاخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة وثالثها الاخوة بسبب اشتراكهم فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا لليهود (لئن أخرجتم) أى من مخرج ما من المدينة (لنخرجن معكم) أى منها (ولا نطيع فيكم) أى فى خذلانكم (أحدا) أى يريد خذلانكم من الرسول والمؤمنين وأكدوا بقولهم (أبدا) أى مادمنا نعيش وبمثل هذا العزم يستحق الكافر الخلود الابدى فى العذاب (وان قوتلتم) أى من أى مقاتل كان يقاتلكم ولم تخرجوا (لننصرنكم) أى لنعيننكم ولنقاتلن معكم * ولما كان قولهم هذا كلاما يقضى عليه سامعه بالصدق من حيث كونه مؤكدا مع كونه مبتدأ من غير سؤال فيه بين حاله سبحانه بقوله تعالى (والله) أى يقولون ذلك والحال ان المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يشهد انهم) أى المنافقين (لكاذبون) أى فيما قالوا ووعدوا وهذا من أعظم دلائل النبوة لانه اخبار بغيب بعيد عن العادة ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين بقوله تعالى (لئن أخرجوا) أى بنو النضير من أى مخرج كان (لا يخرجون) أى المنافقون (معهم) أى حمية لهم لاسباب يعلمها الله تعالى (ولئن قوتلوا) أى اليهود من أى مقاتل كان فكيف بأشجع الخلق وأعلاهم صلى الله عليه وسلم (لا ينصرونهم) أى المنافقون ولقد صدق الله تعالى وكذبوا فى الامرين معا القتال والاخراج لا نصروهم ولا خرجوا معهم فكان ذلك من أعلام النبوة وعلم به من كان شاكا فضلا عن الموقنين (ولئن نصروهم) أى المنافقون فى وقت من الاوقات (ليولن) أى المنافقون ومن ينصرونه وحقرهم بقوله تعالى (الادبار) أى ولو قدر وجود نصرهم لولوا الادبار منهزمين (ثم لا ينصرون) أى لا يتجدد لفريقهم ولا لواحد منهم ما نصرة فى وقت من الاوقات ولم يزل المنافقون واليهود فى الذل (لانتم) أيها المؤمنون (أشد رهبة) أى خوفا (فى صدورهم) أى اليهود ومن ينصرهم (من الله) أى لتأخير عذابه وأصل الرهبة والرهب الخوف الشديد مع حزن واضطراب والمعنى أنهم يرهبونكم ويخافون منكم أشد الخوف وأشد من رهبتهم من الله لما مر (ذلك) أى الامر الغريب وهو خوفهم الثابت اللازم من مخلوق مثلهم ضعيف لرؤيتهم له وعدم خوفهم من الخالق على ماله من العظمة فى ذاته ولكونه غيبا عنهم (بانهم قوم) أى على مالهم من القوة (لا يفقهون) أى لا يتجدد لهم بسبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم فى وقت من الاوقات فهم يشرح صدورهم ليدركوا به أن الله تعالى هو الذى ينبغى أن يخشى لا غيره بل هم كالانعام لانظرا لهم الى الغيب انما هم مع المحسوسات والفقه هو العلم بفهوم الكلام ظاهره الجلى وغامضه الخفى بسرعة فطنة وجودة قريحة (لا يقاتلونكم) أى اليهود والمنافقون (جميعا) اى قتالا تقصدونه مجاهرة وهم مجتمعون كلهم فى وقت من الاوقات ومكان من الاماكن (الا فى قرى محصنة) أى ممتنعة بحفظ الدروب وهى السكك الواسعة بالابواب والخنادق ونحوها (أو من وراء جدار) اى محيط بهم سواء كان بقرية أم بغيرها لشدة خوفهم وقد أخرج هذا ما حصل من بعضهم عن ضرورة كالاسير ومن كان ينزل

محل أو بالرهبة لزم كون المؤمنين أشد خوفا من المذكورين وليس

من أهل خيبر من الحصون والدور ونحو ذلك فانه لم يكن عن اجتماع أو يكون هذا خاصا ببني النضير في هذه السكرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الجيم وفتح الدال وألف بعدها وأمال الالف أبو عمرو والباقون بضم الجيم والدال (بأسهم) أي حربهم (بينهم شديد) أي بعضهم فظ على بعض وعداوة بعضهم بعضا شديدة وقيل بأسهم بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد فاذا خرجوا اليكم فهم أجبن خلق الله تعالى (تحسبهم) اى اليهود والمنافقين يا أعلى الخلق أو يا أيها الناظر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي بكسر السين والباقون بفتحها (جميعا) لما هم فيه من اجتماع الاشباح (وقلوبهم شتى) اى متفرقة أشد افتراق وموجب هذا الشتات اختلاف الاهواء التي لا جامع لها من نظام العقل كالبهائم وان اجتمعوا في عداوة أهل الحق كاجتماع البهائم في الهرب من الذئب قال القشيري اجتماع النفوس مع تنافر القلوب واختلافها أصل كل فساد وموجب كل تخاذل ومقتض لتجاسر العدو واتفاق القلوب والاشتراك في الهمة والتساوي في القصد موجب كل ظفر وكل سعادة وقرأ شتى الحسن وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين وابو عمرو بين بين والباقون بالفتح وهي على وزن فعلى (ذلك) أي الامر الغريب من الافتراق بعد الاتفاق الذي يحصل الاجتماع (بأنهم قوم) اى مع شدتهم (لا يعقلون) فلا دين لهم مثلهم في ترك الايمان (كمثل الذين من قبلهم قريبا) أي بزمن قريب وهم كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بنو قينقاع من أهل دينهم اليهود أظهروا بأسا شديدا عندما قصدهم النبي صلى الله عليه وسلم في اثر غزوة بدر فوعظهم وحذرهم بأس الله تعالى فقالوا لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم اما والله لو قاتلتنا لعلمت انا نحن الناس ثم مكروا بامرأة من المسلمين فراودوها عن كشف وجهها فأبت فعقد واطرف ثوبها من تحت خمارها فلما قامت انكشفت سوءتها فصاحت فغار لها شخص من الصحابة فقتل اليهودي الذي عقد ثوبها فقتلوه فانتقض عهدهم فانزل الله النبي صلى الله عليه وسلم بساحتهم فاذلهم الله تعالى ونزلوا من حصنهم على حكمه صلى الله عليه وسلم وقد كانوا حلفاء ابن أبي ولم يغن عنهم شيأ غير أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في أن لا يقتلهم وألح عليه حتى كف عن قتلهم فذهبوا عن المدينة الشريفة بأنفسهم من غير حشر لهم بالالزام بالجلاء (ذاقوا وبال أمرهم) اى عقوبته في الدنيا من القتل وغيره (ولهم عذاب أليم) اى مؤلم في الآخرة ومثلهم أيضا في سماعهم من المنافقين وتخلفهم عنهم (كمثل الشيطان) أي البعيد من كل خير لبعده من الله تعالى المحترق بعذابه والشيطان هنا مثل المنافقين (اذ قال للانسان) وهو هنا مثل اليهود (اكفر) اى بالله بما زين له ووسوس اليه من اتباعه الشهوات القائم مقام الامر (فلما كفر) اى أوجد الانسان الكفر على اى وجه ودلت الفاء على اسراعه في متابعة تزيينه (قال) اى الشيطان الذي هو هنا عبارة عن المنافقين (اني بريء منك) أي ليس بيني وبينك علاقة في شيء أصلا ظنا منه ان هذه البراءة تنفعه شيأ مما استوجبه المأمور بقبوله الامر وذلك مثل ضربه الله تعالى للمنافقين واليهود في الخذلانهم وعدم الوفاء في نصرتهم وحذف حرف العطف ولم يقل وكمثل الشيطان لان حذف العطف كثير كقولك أنت عاقل أنت كريم أنت عالم وقوله كمثل الشيطان كالبيان لقوله تعالى

(قلت) الرهبة مرادا مصدر رهب بالبناء للمفعول هنا فالمعنى أشد

كمثل الذين من قبلهم روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الانسان الذى قال له الشيطان
راهب نزلت عنده امرأة أصابها لمم ليدعو لها فزين له الشيطان فوطئها فحملت ثم قتلها خوفا
من أن يفتضح فدل الشيطان قومها على موضعها فجاؤا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه فجاءه
الشيطان فوعده ان سجد له أنجاه منهم فسجد له فتبرأ منه وروى عطاء وغيره عن ابن عباس
رضى الله تعالى عنهما قال كان راهب يقال له برصيصا تعبد فى صومعة لسبعين سنة لم يعص الله
تعالى فيها طرفة عين وان ابليس أعياه فى أمره الحيل فجمع ذات يوم مردة الشياطين فقال ألا
أجد فيكم من يكفينى برصيصا فقال له الابيض وهو صاحب الانبياء عليهم الصلاة والسلام
وهو الذى تصدى للنبى صلى الله عليه وسلم وجاء فى صورة جبريل عليه السلام ليوسوس اليه
على وجه الوحى فدفعه جبريل عليه السلام الى أقصى أرض الهند فقال الابيض لابليس
أنا أكفيك أمره فانطلق فتزيا بزى الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه
فلم يجبه وكان لا ينفتل عن صلاته الا فى كل عشرة أيام مرة ولا يفطر فى كل عشرة أيام الا مرة
فلما رآه الابيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة فى اصل صومعته فلما انفتل برصيصا اطلع من
صومعته فرأى الابيض قائما يصلى فى هيئة حسنة من هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم
على نفسه حين لم يجبه فقال له انك حين ناديتنى كنت مشتغلا عنك فما حاجتك قال حاجتى انى
أحببت ان أكون معك فأتأدب بأدبك واقتبس من علمك ونجتمع على العبادة وتدعو لى
وأدعو لك فقال برصيصا انى انى فى شغل عنك فان كنت مؤمنا فان الله سيجعل لك فيما أدعو
للمؤمنين نصيبا ان استجاب الله لى ثم أقبل على صلاته وترك الابيض فاقبل الابيض يصلى فلم
يلتفت اليه برصيصا أربعين يوما فلما التفت بعد هارآه قائما يصلى فلما رأى برصيصا شدة
اجتهاد الابيض قال له ما حاجتك قال حاجتى ان تأذن لى ان ارتفع اليك فاذن له فارتفع اليه
فى صومعته فاقام حولا يتعبد فلا يفطر الا فى كل اربعين يوما مرة ولا ينفتل من صلاته الا كذلك
وربما مد الى الثمانين فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت اليه نفسه واعجبه شأن الابيض فلما
حال الحول قال الابيض لبرصيصا ان لى صاحبا غيرك ظننت انك اشد اجتهادا مما رأيت وكان
بلغنا عنك انك غير الذى رأيت فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقته للذى رآه
من شدة اجتهاده فلما ودعه الابيض قال له ان عندى دعوات اعلمكها تدعو بهن فهن خير مما
انت فيه يشفى الله تعالى بهن المريض ويعافى بهن المبتلى والمجنون قال برصيصا انى اكره هذه
المنزلة لان فى نفسى شغلا وانى اخاف ان علم به الناس يشغلونى عن عبادة ربى عز وجل فلم يزل به
الابيض حتى علمه ثم انطلق حتى أتى ابليس فقال والله قد أهلكت الرجل فانطلق الابيض
فتعرض لرجل فخنقه ثم جاء فى صورة رجل متطبب فقال لاهله ان بصاحبكم جنونا أفأعالجه
قالوا نعم فقال انى لا أقوى على جنيته ولكن سأرشدكم الى من يدعو الله تعالى فيعافيه انطلقوا
الى برصيصا فان عنده الاسم الذى اذا دعا به أجيب فانطلقوا به اليه فسألوه فدعا بتلك الكلمات
فذهب عنه الشيطان فكان الابيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم الى برصيصا فيدعو لهم
فيعافون فانطلق الابيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بنى اسرائيل وكان لها ثلاثة اخوة
وكان أبوهم هو الملك فلما مات استخلف أخاه فكان عمها ملك بنى اسرائيل فعدا بها وخنقها

مرهوبية بعض انكم
فى صدورهم اهيب
من كون الله تعالى

ثم جاءهم في صورة رجل متطبب فقال أفأعالجها قالوا نعم قال ان الذي عرض لها مارد لا يطاق ولكن سأرشدكم الى رجل تثقون به تدعونها عنده اذا جاءها شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عوفيت فتردونها صحيحة قالوا ومن هو قال برصيصا قالوا كيف لنا ان يجيبنا الى هذا وهو أعظم شأنا من ذلك قال ابنوا صومعة الى جنب صومعته واشكن لئن تنزل الى صومعته حتى يشرف عليها فان قبلها والا فتضعونها في صومعتها ثم قولوا له هي أمانة عندك فاحتسب أمانتك فانطلقوا اليه فسألوه ذلك فأبى فبنوا صومعة على ما أمرهم به الابيض ووضعوا الجارية في صومعتها وقالوا يا برصيصا هذه أختنا أمانة عندك فاحتسب فيها ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا من صلاته عاين الجارية وما هي عليه من الجمال فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم فجاءها الشيطان فخنقها فكانت تكشف عن نفسها وتتعرض لبرصيصا فجاءه الشيطان وقال له ويحك واقعها فلم تجد مثلها وستتوب بعد ذلك وبتم لك ما تريد من الامر فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها فقال له الشيطان ويحك يا برصيصا قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب فان سألوك فقل ذهب بها شيطانها ولم أقو عليه فدخل فقتلها ثم انطلق بها فدفنها الى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلا فأخذ بطرف ازارها فبقي خارجا من التراب ثم رجع برصيصا الى صومعته وأقبل على صلاته اذ جاء اخوتها يتعاهدون أختهم وكانوا يجيئون في بعض الايام يسألون عنها ويوصونه بها فلما لم يجدوها قالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا قال قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه وانصرفوا فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان الى أكبرهم في منامه فقال ويحك ان برصيصا فعل بأختك كذا وكذا وانه دفنها في موضع كذا وكذا فقال الاخ هذا حلم وهو من عمل الشيطان برصيصا خير من ذلك فتابع عليه ثلاث ليال فلم يكترث فانطلق الى الاوسط بمثل ذلك فقال الاوسط مثل ما قال الاكبر ولم يخبر به أحدا فانطلق الى أصغرهم بمثل ذلك فقال الاصغر لاخويه والله لقد رأيت كذا وكذا فقال الاوسط أنا والله رأيت مثله وقال الاكبر أنا والله رأيت مثله فانطلقوا الى برصيصا وقالوا له ما فعلت بأختنا فقال أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم قد اتهمتموني فقالوا والله لا نتهمك واستحيوا منه وانصرفوا فجاءهم الشيطان وقال ويحكم انها مدفونة في موضع كذا وكذا وان طرف ازارها خارج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في النوم فذهبوا اليه ومعهم غلمانهم ومواليهم بالفؤوس والمساحي فهدموا صومعة برصيصا وأنزلوه منها وكتفوه ثم أتوا به الى الملك فأقر على نفسه وذلك أن الشيطان أتاه فقال تقتلها ثم تكابر فيجتمع عليك أمران قتل ومكابرة اعترف فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة فلما صلب أتاه الابيض فقال يا برصيصا أتعرفني قال لا قال أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات فاستجيب لك ويحك أما اتقيت الله تعالى في الامانة خنت أهلها وانك زعمت انك أعبد بني اسرائيل أما استحييت فلم يزل يعيره ثم قال ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وأشباهك من الناس فان مت على هذه الحالة لم يفلح أحد من نظرائك قال فكيف أصنع قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه فآخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك قال وما هي قال تسجد لي قال افعل فسجد له فقال يا برصيصا هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك الى ان كفرت بربك اني بريء منك

فيها ونظيره قولك زيدا أشد ضربا في الدار من عمرو بمعنى ضربه

(في

(انى أخاف الله) أى الملك الذى لا أمر لاحد معه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها (رب العالمين) أى الذى أوجدهم من العدم ورباهم بما يدل على جميع الاسماء الحسنى والصفات العليا فلا يغنى أحد من خلقه عن أحد شيأ الا باذنه (فكان) أى فتسبب عن قوله ذلك انه كان (عاقبتهما) اى الغار والمغرور (انهما فى النار) حال كونهما (خالدين فيها) لانهما ظلما ظلما لا فلاح معه (وذلك) أى العذاب الاكبر (جزاء الظالمين) أى كل من وضع العبادة فى غير موضعها أوهم الكافرون لقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ضرب الله تعالى هذا المثل ليهود بنى النضير والمنافقين من أهل المدينة فدس المنافقون اليهم وقالوا لا تجيبوا محمدا الى مادعاكم اليه ولا تخرجوا من دياركم فان قاتلكم فانا معكم فاجابوهم وان أخرجوكم خرجنا معكم فاجابوهم فدربوا على حصونهم وتحصنوا فى ديارهم رجاء نصر المنافقين فناصبوهم الحرب فخذلوهم وتبرؤا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله فكان عاقبة الفريقين فى النار قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكانت الرهبان بعد ذلك فى بنى اسرائيل لا يمشون الا بالتقية والكتمان وطمع أهل الفسوق فى الاحبار ورموهم بالبهتان حتى كان أمر جريج الراهب فلما برأه الله تعالى مما رموه به انبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس وكانت قصة جريج ما روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وكان جريج رجلا عابدا فاتخذ صومعة فكان فيها فاتته أمه وهو يصلى فقالت يا جريج فقال رب أمى وصلاتى وأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته فقال مثل مقالته الاولى فقالت اللهم لا تمته حتى ينظر فى وجوه المومسات فتذاكر بنو اسرائيل جريجا وعبادته وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها فقالت ان شئتم لافتننه لكم قال فتعرضت له فلم يلتفت اليها فاتت راعيا كان يأوى الى صومعته فامكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج فاتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال ما شأنكم فقالوا زنيت بهذه البغى فحملت منك فقال أين الصبى فجاؤا به فقال دعونى حتى أصلى فلما انصرف من صلاته أتى الصبى وطعن فى بطنه وقال يا غلام من أبوك فقال فلان الراعى قال فاقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا نبنى لك صومعتك من ذهب قال لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا والثالث كلم أمه وهى ترضعه فى قصة مشهورة (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان باللسان (اتقوا الله) أى اجعلوا لكم وقاية تقيكم سخط الملك الاعظم باتباع أوامره واجتناب نواهيه واحذروا عقوبته بسبب التقصير فيما حده لكم من أمر أو نهى (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) أى فى يوم القيامة لان هذه الدنيا كلها كيوم واحد يجىء فيه ناس ويذهب آخرون والموت والآخرة لا بد من كل منهما وكل ما لا بد منه فهو فى غاية القرب والعرب تكنى عن المستقبل بالغد وقيل ذكر الغد تنبيها على أن الساعة قريبة كقول القائل

* وان غدا للناظره قريب *

وقال الحسن وقتادة قرب الساعة حتى جعلها كغد لان كل آت قريب والموت لا محالة آت ومعنى ما قدمت أى من خير أو شر ونكر النفس لاستقلال الانفس التى تنظر فيما قدمت للآخرة كانه قال ولتنظر نفس واحدة فى ذلك ونكر الغد لتعظيمه

(قوله ذلك بانهم قوم لا يفقهون) ختم هنا بقوله لا يفقهون وبعده

وابهام أمره كأنه قال الغد لا تعرف كنه لعظمته وقوله تعالى (واتقوا الله) أى الجامع لجميع
صفات الكمال تأكيد وقيل كرر لتغاير متعلق التقويين فتعلق الاولى أداء الفرائض لاقترانه
بالعمل والثانية ترك المعاصى لاقترانه بالتهديد والوعيد قال معناه الزمخشرى (ان الله) أى الذى
له الاسماء الحسنى والصفات العليا (خبير) أى عظيم الاطلاع على ظواهركم وبواطنكم
والاحاطة (بما تعملون) فلا تعملون عملا الا كان بمرأى منه ومسمع فاستحيوا منه (ولا تكونوا)
أيها المحتاجون الى التحذير وهم الذين آمنوا (كالذين نسوا الله) أى اعرضوا عن أوامر
ونواهى الملك الاعظم وتركوها ترك الناسين لمن برزت عنه مع ماله من صفات الجلال والاكرام
(فأنساهم) أى فتسبب عن ذلك ان أنساهم بماله من الاحاطة بالظواهر والبواطن (أنفسهم)
أى فلم يقدموا لها ما ينفعها وان قدموا شيأ كان مشوبا بالمفسدات من الرياء والعجب
فكانوا ممن قال فيه تعالى وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة الآية لانهم لم يدعوا بابا من أبواب
الفسق فان رأس الفسق الجهل بالله ورأس العلم ومفتاح الحكمة معرفة النفس فأعرف
الناس بنفسه اعرفهم بربه (أولئك) أى البعداء من كل خير (هم الفاسقون) أى العريقون
فى المروق من دائرة الدين (لا يستوى) أى بوجه من الوجوه (أصحاب النار) أى التى هى محل
الشقاء الاعظم (وأصحاب الجنة) أى التى هى دار النعيم الاكبر لا فى الدنيا ولا فى الآخرة
واستدل بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر (أصحاب الجنة هم الفائزون) أى الناجون
من كل مكروه المدركون لكل محبوب وأصحاب النار هم الهالكون فى الدارين كما وقع فى
هذه الغزوة لفريقى المؤمنين وبنى النضير ومن والاهم من المنافقين فشتان ما بينهما (لو أنزلنا)
أى بعظمتنا التى أبان بها هذا الانزال (هذا القرآن) أى الجامع لجميع العلوم الفارق بين كل
ملتبس المبين لجميع الحكم (على جبل) أى جبل كان أو جبل فيه تمييز كالانسان (لرأيته)
يا أشرف الخلق وان لم يتأهل غيرك لتلك الرؤية (خاشعا) أى متذللا باكيا (متصدعا) أى
متشققا غاية التشقق (من خشية الله) أى من الخوف العظيم ممن له الكمال كله وفى هذا حث
على تأمل مواعظ القرآن وتدبر آياته (وتلك الامثال) أى التى لا يضاهيها شئ (نضربها للناس
لعلهم يتفكرون) فيؤمنون والمعنى أنا لو أنزلنا هذا القرآن على الجبل لخشع لوعده وتصدع
لوعيده وأنتم أيها المقهورون باعجازه لا ترغبون فى وعده ولا ترهبون من وعيده والغرض
من هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار وغلظ طباعهم ونظيره ثم قست قلوبكم
من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى لو أنزلنا
هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت وتصدع من نزوله عليه وقد أنزلناه عليك وثبتناك له
فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبته لما لم تثبت له الجبال وقيل انه خطاب للامة والمعنى لو أنذر
بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله تعالى والانسان أقل قوة وأكثر ثباتا فهو يقوم
بحقه ان أطاع ويقدر على رده ان عصى لانه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب ولما
وصف تعالى القرآن بالعظم ومعلوم ان عظم الصفة تابع لعظم الموصوف أتبع ذلك بوصف
عظمته تعالى فقال عز من قائل (هو) أى الذى وجوده من ذاته فلا عدم له بوجه من الوجوه
فلا شئ يستحق الوصف بهو غيره لانه الموجود دائما أزلا وأبدا فهو حاضر فى كل ضمير غائب

بقوله لا يعقلون لان الاول متصل بقوله لانتم أشد رهبة فى صدورهم من

بعظمته

بعظمته عن كل حس فلذلك تصدع الجبل من خشيته ولما عبر عنه بأخص اسمائه اخبر عنه لطفا بنا وتنزلا لنا باشهرها الذى هو مسمى الاسماء كلها بقوله تعالى (الله) أى المعبود الذى لا تنبغى العبادة والالوهية الاله (الذى لا اله الا هو) فانه لا مجانس له ولا يليق ولا يصح ولا يتصور أن يكافئه أو يدانيه شئ والاله أول اسم لله تعالى فلذلك لا يكون أحد مسلما الا بتوحيده فتوحيده فرض وهو أساس كل فريضة (عالم الغيب) اى الذى غاب عن جميع خلقه (والشهادة) اى الذى وجد فكان يحسه ويطلع عليه بعض خلقه وقال ابن عباس معناه عالم السر والعلانية وقيل ما كان وما يكون وقال سهل عالم بالآخرة والدنيا وقيل استوى فى علمه السر والعلانية والموجود والمعدوم وقوله تعالى (هو الرحمن الرحيم) معناه ذو الرحمة ورحمة الله تعالى ارادته الخير والنعمة والاحسان الى خلقه وقيل ان رحمن أشد مبالغة من رحيم ولهذا قيل هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لانه تعالى باحسانه فى الدنيا يعم المؤمن والكافر وفى الآخرة يختص انعامه واحسانه بالمؤمنين (هو الله) أى الذى لا يقدر على تعميم الرحمة لمن أراد وتخصيصها بمن شاء الا هو (الذى لا اله) أى لا معبود بحق (الا هو الملك) أى فلا ملك فى الحقيقة الا هو لانه لا يحتاج الى شئ لانه مهما أراد كان فهو متصرف بالامر والنهى فى جميع خلقه فهم تحت ملكه وقهره وارادته (القدوس) أى البليغ فى النزاهة عن كل وصم يدركه حس أو يتصوره خيال او يسبق اليه وهم أو يختلج اليه ضمير ونظيره السبوح وفى تسبيح الملائكة سبوح قدوس رب الملائكة والروح (السلام) أى الذى سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق فهو بمعنى السلامة ومنه دار السلام وسلام عليكم وصف به مبالغة فى وصف كونه سليما من النقائص أو فى اعطائه السلامة (المؤمن) قال ابن عباس هو الذى أمن الناس من ظلمه وأمن من آمن به عذابه وقيل هو المصدق لرسله باظهار المعجزات لهم والمصدق للمؤمنين بما وعدهم من الثواب وبما أوعد الكافرين من العذاب وقال مجاهد المؤمن الذى وحد نفسه لقوله تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو قال ابن عباس اذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبى حتى اذا لم يبق فيها من وافق اسمه اسم نبى قال الله تعالى لباقيهم أنتم المسلمون وأنا السلام وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين (المهيمن) قال ابن عباس أى الشهيد على عباده باعمالهم الذى لا يغيب عنه شئ وقيل هو القائم على خلقه بقدرته وقيل هو الرقيب الحافظ لكل شئ مفيعل من الامن قلبت همزته هاء (العزيز) أى الذى لا يوجد له نظير وقيل هو الغالب القاهر (الجبار) الذى جبر خلقه على ما أراده أو جبر حالهم بمعنى أصلحه والجبار فى صفة الله صفة مدح وفى صفة الناس صفة ذم وكذا قوله تعالى (المتكبر) اى الذى تكبر على كل ما يوجب حاجة أو نقصا وهو فى حقه تعالى صفة مدح لانه له جميع صفات العلو والعظمة وفى صفة الناس صفة ذم لان المتكبر هو الذى يظهر من نفسه التكبر وذلك نقص فى حقه لانه ليس له كبر ولا علو بل له الحقارة والذلة فاذا أظهر الكبر كان كاذبا فى فعله (سبحان الله) أى تنزه الملك الاعلى الذى اختص بجميع صفات الكمال تنزها لا تدرك العقول منه أكثر من انه علا عن اوصاف الخلق فلا يدانيه شئ من نقص تعالى (عما يشركون) اى من هذه المخلوقات

الله أى لانهم يفقهون ظاهر الشئ دون باطنه والفقه معرفة الظاهر

من الاصنام وغيرها مما في الارض أو في السماء من صغير وكبير وجليل وحقير (هو) أى الذى لا شئ يستحق أن يطلق عليه هذا الضمير غيره لان وجوده من ذاته ولا شئ غيره الا وهو ممكن * ولما ابتدأ بهذا الغيب المحض الذى هو أظهر الاشياء أخبر عنه باشهر الاشياء الذى لم يقع فيه شركة بوجه فقال تعالى (الله) الذى ليس له سمى فلا كفء له فهو المعبود بالحق فلا شريك له بوجه (الخالق) أى المقدر للاشياء على مقتضى حكمته (البارئ) أى المخترع المنشئ للاشياء من العدم الى الوجود بريأ من التفاوت وقوله تعالى (المصور) أى الذى يخلق صور الاشياء على ما يريد بكسر الواو ورفع الراء اما صفة واما خبر واحترزت بهذا الضبط عن قراءة أمير المؤمنين على بن أبى طالب والحسن فانهما قرأ بفتح الواو ونصب الراء وهى قراءة شاذة وانما تعرضت لها لأبين وجهها وهو ان تخرج هذه القراءة على ان يكون المصور منصوبا بالبارئ والمصور هو الانسان اما آدم واما هو وبنوه وعلى هذه القراءة يحرم الوقف على المصور بل يجب الوصل ليظهر النصب فى الراء والا فقد يتوهم منه فى الوقف ما لا يجوز (له) أى خاصة (الاسماء الحسنى) التسعة والتسعون الوارد فيها الحديث وقد ذكرتها فى سورة الاسراء والحسنى تأنيث الاحسن (يسبح) أى يكرر التنزيه الاعظم عن كل شئ من شوائب النقص على سبيل التجدد والاستمرار (له) أى على وجه التخصيص (ما فى السموات) أى السموات وما فيها (والارض) وما فيها (وهو) أى والحال انه وحده (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى الجامع للكمالات باسرها فانها راجعة الى الكمال فى القدرة والعلم * وعن معقل بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث آيات من سورة الحشر وكل الله به سبعين الف ملك يصلون عليه حتى يمسى وان مات فى ذلك اليوم مات شهيدا ومن قاله حين يمسى كان كذلك اخرجه الترمذى وقال حسن غريب وعن أبى هريرة انه قال سالت خليلى أبا القاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الاعظم فقال عليك بآخر سورة الحشر فاكثر قراءتها فاعدت عليه فاعاد على وقال جابر بن زيد ان اسم الله الاعظم هو الله لمكان هذه الآية وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحشر غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حديث موضوع

والباطن فناسب ذلك الفقه والثانى متصل بما تقدم بقوله هو الله جميعا

سورة الممتحنة مدنية

وهى ثلاث عشرة آية وثلثمائة وثمان وأربعون كلمة وألف وخمسمائة وعشرة أحرف

(بسم الله) الذى من تولاه أغناه عمن سواه (الرحمن) الذى عم برحمة البيان من حاطه بالعقل ورعاه (الرحيم) الذى خص بالتوفيق من أحبه وارتضاه * ونزل فى حاطب بن أبى بلتعة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى) أى وأنتم تدعون موالاتى (وعدوكم) فى العريق فى عداوتكم ما دمتم على مخالفته فى الدين (أولياء) وذلك ما روى ان مولاة لابى عمرو بن صيفى يقال لها سارة أتت النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها أمسلمة جئت

قالت لا قال أفمهاجرة جئت قالت لا قال فما جاء بك قالت كنتم الاهل والموالي والعشيرة وقد ذهبت الموالي تعني قتلوا يوم بدر فاحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني فقال صلى الله عليه وسلم فاين أنت عن شباب أهل مكة وكانت مغنية نائحة قالت ما طلب مني شئ بعد وقعة بدر فحث رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب على اعطائها فكسوها وحملوها وزودوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردا واستحملها كتابا الى أهل مكة نسخته من حاطب بن أبي بلتعة الى أهل مكة اعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم وقد توجه اليكم بجيش كالليل وأقسم بالله لو لم يسر اليكم الا وحده لاظفره الله تعالى بكم وأنجز له موعده فيكم فالله وليه وناصره فخرجت سارة ونزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرسانا وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب من حاطب الى أهل مكة فخذوه منها وخلوها فان أبت فاضربوا عنقها فادركوها فجحدت وحلفت ما معها كتاب ففتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابا فهموا بالرجوع فقال علي والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسل سيفه وقال أخرجي الكتاب والا والله لاجردنك ولاضربن عنقك فلما رأت الجد أخرجته من عقاص شعرها فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن جميع الناس يوم الفتح الا أربعة هي أحدهم فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال له هل تعرف هذا الكتاب قال نعم قال فما حملك عليه فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش وروى عزيزا فيهم أي غريبا ولم أكن من أنفسها وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري فخشيت على أهلي فاردت أن أتخذ عندهم يدا وقد علمت ان الله تعالى ينزل عليهم بأسه وان كتابي لا يغني عنهم شيئا فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم واضافة العدو الى الله تعالى تغليظا في جرمهم وهذه السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار وتقدم نظيره في قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم روى أن حاطبا لما سمع يا أيها الذين آمنوا غشي عليه من الفرح بخطاب الايمان ثم انه تعالى استأنف بيان هذا الاتخاذ بقوله تعالى مشيرا الى غاية الاسراع والمبادرة الى ذلك بالتعبير بقوله تعالى (تلقون) أي جميع ما هو في حوزتكم مما لا تطمعون فيه القاء الشئ الثقيل من علو (اليهم) على بعدهم منكم حسا ومعنى (بالمودة) أي بسببها قال القرطبي تلقون اليهم بالمودة يعني بالظاهر لان قلب حاطب كان سليما بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أما صاحبكم فقد صدق هذا نص في اسلامه وسلامة فؤاده وخلوص اعتقاده وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها وقوله تعالى (وقد كفروا) أي غطوا جميع ما لكم من الادلة (بما) أي بسبب ما (جاءكم من الحق) أي الامر الثابت الكامل في الثبات الذي

وقلوبهم شتى اى لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا فناسب نفى العقل

من فاعل تلقون اى لا تتولوهم ولا توادوهم وهذه حالهم وقوله تعالى (يخرجون الرسول) يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون تفسيرا لكفرهم فلا محل له على هذين وان يكون حالا من فاعل كفروا وقوله تعالى (واياكم) عطف على الرسول وقدم عليهم تشريفا له صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أن تؤمنوا) اى توقعوا حقيقة الايمان مع التجدد والاستمرار (بالله) اى الذى اختص بجميع صفات الكمال (ربكم) اى المحسن اليكم تعليل ليخرجون والمعنى يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأن تؤمنوا بالله اى لاجل ايمانكم بالله قال ابن عباس وكان حاطب ممن أخرج مع النبى صلى الله عليه وسلم وفى ذلك تغليب المخاطب والالتفات من التكلم الى الغيبة للدلالة على ما يوجب الايمان (ان كنتم خرجتم) اى من أوطانكم وقوله تعالى (جهادا فى سبيلى) اى بسبب ارادتكم تسهيل طريقى التى شرعتها لعبادى أن يسلكوها (وابتغاء مرضاتى) اى ولاجل تطلبكم أعظم الرغبة لرضاى عله للخروج وعمدة التعليق وجواب الشرط محذوف دل عليه لا تتخذوا وقرأ الكسائى بالامالة محضة والباقون بالفتح وقوله تعالى (تسرون) اى توجدون جميع ما يدل على مناصحتكم اياهم والتودد (اليهم بالمودة) اى بسببها بدل من تلقون قاله ابن عطية قال ابن عادل ويشبه أن يكون بدل اشتمال لان القاء المودة يكون سرا او جهرا أو استئناف واقتصر عليه الزمخشرى (وأنا) اى والحال انى (أعلم) اى من كل أحد حتى من نفس الفاعل وقرأ نافع بمد الالف بعد النون (بما أخفيتم وما أعلنتم) قال ابن عباس بما أخفيتم فى صدوركم وما أظهرتم بالسنتكم اى فاى فائدة لاسراركم ان كنتم تعلمون انى عالم به وان كنتم تتوهمون أنى لا أعلمه فهى القاصمة (ومن يفعله) اى يوجد اسرار خبر اليهم ويكاتبهم (منكم) اى فى وقت من الاوقات (فقد ضل) اى عمى ومال وأخطأ (سواء السبيل) اى قويم الطريق الواسع الموصل الى القصد قويمه وعدله قال القرطبى هذا كله معاتبة لحاطب وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق ايمانه فان المعاتبة لا تكون الا من محب لحبيب كما قال القائل

اذا ذهب العتاب فليس ود * ويبقى الود ما بقى العتاب

وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال عند الضاد والباقون بالادغام (ان يثقفوكم) اى يظفروا بكم فى وقت من الاوقات ومكان من الاماكن (يكونوا لكم أعداء) اى ولا ينفعكم القاء المودة اليهم (ويبسطوا اليكم) اى خاصة وان كان هناك فى ذلك الوقت من غيركم من قبل أعز الناس عليهم (أيديهم) أى بالضرب ان استطاعوا (وألسنتهم) اى بالشتم مضمومة الى فعل أيديهم فعل من ضاق صدره بما تجرع من آخر من الغصص حتى أوجب له غاية السفه (بالسوء) اى بكل ما من شأنه أن يسوء (وودوا) اى تمنوا قبل هذا (لو تكفرون) لان مضية الدين أعظم فهم اليها أسرع لان دأب العدو القصد الى أعظم ضرر اعدوه وعبر بما يفهم التمنى الذى يكون فى المحالات ليكون المعنى انهم أحبوا ذلك غاية الحب وتمنوه وفيه بشرى بانه من قبيل المحال وقدم الاول لانه أبين فى العداوة وان كان الثانى أنكى * ولما كانت عداوتهم معروفة وانما غطاها محبة القرابات لان الحب للشئ يعمى ويصم فخطأ رأيهم فى موالاتهم بما

قوله (ان قلت) كيف يستقيم التفضيل بأشدية الرهبة مع انهم لا يرهبون منهم

قوله وان كان هناك الخ المناسب وان كنتم من قبل أعز الناس عليهم اه

أعلمه به من حالهم فقال تعالى مستأنفا اعلاما بأنهم أخطؤا على كل حال (لن تنفعكم) بوجه من الوجوه (أرحامكم) أى قراباتكم الحاملة لكم على رحمتكم والعطف عليهم (ولا أولادكم) أى الذين هم أخص أرحامكم ان والينم أعداء الله تعالى لأجلهم فينبغى أن لا تعدوا قربهم منكم بوجه أصلا ثم علل ذلك وبينه بقوله تعالى (يوم القيامة) أى القيام الأعظم (يفصل) أى يوقع الفصل وهو الفرقة العظيمة بانقطاع جميع الأسباب وقرأ عاصم بفتح الياء واسكان الفاء وكسر الصاد مخففة وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح الفاء وفتح الصاد مشددة وحمزة والكسائى كذلك الا أنهما يكسران الصاد والباقون بضم الياء وسكون الفاء (بينكم) أى أيها الناس فيدخل من يشاء من أهل طاعته الجنة ومن يشاء من أهل معصيته النار فلا ينفع أحد أحدا منكم بشئ من الأشياء الا ان كان قد أتى الله تعالى بقلب سليم فيأذن الله تعالى فى اكرامه بذلك (والله) أى الذى له الاحاطة التامة (بما تعملون) أى من كل عمل فى كل وقت (بصير) فيجازيكم عليه فى الدنيا والآخرة ولما نهى تعالى عن موالاة الكفار ذكر قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأن من سيرته التبرى من الكفار بقوله تعالى (قد كانت) أى وجدت وجودا تاما وكأن تأنيث الفعل اشارة الى الرضا بها ولو كانت على أدنى الوجوه (لكم) أى أيها المؤمنون (اسوة) أى موضع اقتداء وتأسية فى ابراهيم وطريقة مرضية وقرأ اسوة فى الموضعين عاصم بضم الهمزة والباقون بكسرها (حسنة) أى يرغب فيها (فى ابراهيم) أى فى قول أبى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (والذين معه) أى ممن كان قبله من الانبياء قاله القشيرى وممن آمن به فى زمانه كابن أخيه لوط عليه الصلاة والسلام وهم قدوة أهل الجهاد والهجرة وقيل المراد بمن معه أصحابه من المؤمنين وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وبعدها ياء أى فاقتدوا به الا فى استغفاره لأبيه قال القرطبى الآية نص فى الأمر بالاقتداء بابراهيم عليه الصلاة والسلام فى فعله وذلك يدل على أن شرع من قبلنا شرع لنا فيما أخبر الله ورسوله وقيل انه شرع لنا اذا ورد فى شرعنا ما يقرره وقيل ليس بشرع لنا مطلقا وهو الأصح عندنا (اذ) أى حين (قالوا) وقد كان من آمن به أقل منكم وأضعف (لقومهم) أى الكفرة وقد كانوا أكثر من عدوكم وأقوى وكان لهم فيهم أرحام وقرابات ولهم فيهم رجاء بالقيام والمحاولات (انا برآء) أى متبرؤن تبرئة عظيمة (منكم) وان كنتم أقرب الناس الينا ولا ناصر لنا منهم غيركم (ومما تعبدون) أى توجدون عبادته فى وقت من الأوقات (من دون الله) أى الملك الأعظم (كفرنا بكم) أى جحدناكم وأنكرنا دينكم (وبدا) أى ظهر ظهورا عظيما (بيننا وبينكم العداوة) وهى المباينة فى الأفعال بأن يعدو كل أحد على الآخر (والبغضاء) وهى المباينة بالقلوب للبغض العظيم ولما كان ذلك قد يكون سريع الزوال قالوا (أبدا) أى على الدوام وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بابدال الهمزة الثانية المفتوحة بعد المضمومة واوا خالصة والباقون بتحقيقها وهم على مراتبهم فى المد واذا وقف حمزة وهشام ابدلا الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر ولهما أيضا التسهيل مع المد والقصر والروم معهما ولما كان ذلك مؤيسا من صلاح الحال وقد يكون لحظ النفس بينوا غايته

الله لانهم لو رهبوه لتركوا النفاق والكفر (قلت) معناه ان رهبتهم فى

بقولهم (حتى تؤمنوا بالله) اى الملك الذى له الكمال كله (وحده) اى تكونوا مكذبين بكل
مايعبد دون الله تعالى وقوله تعالى (الاقول ابراهيم لابيه) فيه أوجه أحدها انه
استثناء متصل من قوله تعالى فى ابراهيم ولكن لابد من حذف مضاف ليصح الكلام تقديره
فى مقالات ابراهيم الاقوله كيت وكيت ثانيها انه مستثنى من اسوة حسنة واقتصر على ذلك
الجلال المحلى و جاز ذلك لان القول أيضا من جملة الاسوة لان الاسوة الاقتداء بالشخص فى
أقواله وأفعاله فكانه قيل لكم فيه اسوة فى جميع أحواله من قول وفعل الاقوله كذا وهو
أوضح لانه غير محوج الى تقدير مضاف وغير مخرج للاستثناء من الاتصال الذى هو أصله الى
الانقطاع ولذلك لم يذكر الزمخشرى غيره ثالثها قال ابن عطية ويحتمل أن يكون الاستثناء من
التبرى والقطيعة التى ذكرت اى لم تبق صلة الا كذا رابعها أنه استثناء منقطع اى لكن قول
ابراهيم وهذا بناء من قائله على أن القول لم يندرج تحت قوله اسوة وهو ممنوع قال القرطبى
معنى قوله تعالى الاقول ابراهيم لابيه (لاستغفرن لك) اى فلا تتأسوا به فى الاستغفار
فتستغفروا للمشركين فانه كان عن موعدة منه له قاله قتادة ومجاهد وغيرهما وقيل معنى
الاستثناء ان ابراهيم هجر قومه وباعدهم الا فى الاستغفار لابيه ثم بين عذره فى سورة التوبة وفى
هذا دلالة على تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على سائر الانبياء لانا حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا
أمرا مطلقا فى قوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا وحين أمرنا بالاقتداء
بابراهيم استثنى بعض أفعاله وهذا انما جرى لانه ظن أنه أسلم فلما بان أنه لم يسلم تبرأ منه وعلى
هذا فيجوز الاستغفار لمن يظن انه أسلم وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن فلم توالونهم وقوله (وما
املك لك من الله) اى من عذاب أوثواب الملك الاعلى المحيط بنعوت الجلال (من شئ) من تمام
قوله المستثنى ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أحواله وقوله (ربنا) اى أيها المحسن
الينا (عليك) اى لا على غيرك (توكلنا) اى فوضنا أمرنا اليك يجوز أن يكون من مقول ابراهيم
عليه الصلاة والسلام والذين معه فهو من جملة الاسوة الحسنة وفصل بينهما بالاستثناء
ويجوز أن يكون منقطعا عما قبله على اضمار قول وهو تعليم من الله تعالى لعباده كانه قال
لهم قولوا ربنا عليك توكلنا (واليك) اى وحدك (أنبنا) اى رجعنا بجميع ظواهرنا
وبواطننا (واليك) اى وحدك (المصير) اى الرجوع فى الآخرة (ربنا) اى أيها المربى
لنا والمحسن الينا (لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) اى بان تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب
لا نحتمله أو فيظنوا انهم على حق فيفتتنوا بذلك وقيل لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقولون
لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك وقيل لا تبسط عليهم الرزق دوننا فان ذلك فتنة لهم
(واغفر لنا) اى استر ماوقع منا من الذنوب وامح عينه وأثره (ربنا) اى أيها المحسن الينا
وأكدوا اعلاما بشدة رغبتهم فى حسن الثناء عليه فقالوا (انك أنت) اى وحدك لا غيرك
(العزيز) اى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) اى الذى يضع الاشياء فى أوفق محالها
فلا يستطاع نقضها ومن كان كذلك فهو حقيق بان يعطى من أمله ماطلب وقوله تعالى
(لقد كان لكم) اى يا أمة محمد جواب قسم مقدر (فيهم) اى ابراهيم ومن معه من الانبياء

الشر منهم [لكم] أشد من
رهبتهم من الله التى
يظهرونها لكم وكانوا

والاولياء

والاولياء (اسوة حسنة) اى فى التبرى من الكفار وكررلتأكيد وقيل نزل الثانى بعد الاول
بمدة قال القرطبى وما أكثر المكررات فى القرآن على هذا الوجه وقوله تعالى (لمن كان
يرجوا الله) اى الملك المحيط بجميع صفات الكمال (واليوم الآخر) اى الذى يحاسب فيه على
النقير والقطمير بدل من الضمير فى لكم بدل بعض من كل وفى ذلك بيان أن هذه الاسوة لمن يخاف
الله ويخاف عذاب الآخرة (ومن يتول) اى يوقع الاعراض عن أوامر الله تعالى فيوالى
الكفار (فان الله) اى الذى له الاحاطة الكاملة (هو) اى خاصة (الغنى) اى عن كل شئ
(الحميد) اى الذى له الحمد المحيط لاحاطته باوصاف الكمال فهو حميد فى نفسه وصفاته أوحميد
الى أوليائه وأهل طاعته ولما نزلت الآية الاولى عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين
فعلم الله تعالى شدة وجد المسلمين فى ذلك فنزل (عسى الله) اى أنتم جديرون بان تطمعوا فى
الملك الاعلى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (أن يجعل) اى باسباب لا تعلمونها (بينكم وبين الذين
عاديتم منهم) اى كفار مكة (مودة) اى بان يلهمهم الايمان فيصير والكم أولياء وقد جعل
ذلك عام الفتح تحقيقا لما رجاه سبحانه لان عسى من الله تعالى وعد وهو لا يخلف الميعاد
(والله) اى الذى له كمال الاحاطة (قدير) اى بالغ القدرة على كل ما يريده فهو يقدر على
تقليب القلوب وتيسير العسير (والله) اى الذى له جميع صفات الكمال (غفور) اى محاء
لاعيان الذنوب وآثارها (رحيم) يكرم الخاطئين اذا أراد بالتوبة ثم بالجزاء غاية الاكرام
فيغفر لما فرط منكم فى موالاتهم من قبل وما بقى فى قلوبكم من ميل الرحم وقوله تعالى
(لا ينهاكم الله) اى الذى اختص بالجلال والاكرام (عن الذين لم يقاتلوكم) اى بالفعل
(فى الدين) الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم قال ابن
زيد هذا كان فى أول الاسلام عند الموادعة وترك الامر بالقتال ثم نسخ قال قتادة نسخها
فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقال ابن عباس نزلت فى خزاعة وذلك أنهم صالحوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا فرخص الله تعالى فى برهم
وقال أكثر أهل التأويل انها محكمة واحتجوا بان أسماء بنت أبى بكر قدمت أمها وهى
مشركة عليها المدينة بهدايا فقالت أسماء لا أقبل منك هدية ولا تدخلى على بيتا حتى استاذن
رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته فانزل الله تعالى هذه الآية فامرها رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن تدخل منزلها وان تقبل هديتها وتكرمها وتحسن اليها وفى ذلك اشارة الى
الاقتصاد فى العداوة والولاية كما قال صلى الله عليه وسلم احبب حبيبك هونا ما عسى ان
يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما وروى عامر بن
عبد الله بن الزبير عن أبيه ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه طلق امرأته قتيلة فى الجاهلية
وهى ام اسماء بنت أبى بكر فقدمت عليهم فى المدة التى كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى
الله عليه وسلم وبين كفار قريش فاهدت الى اسماء بنت ابى بكر قرطا وأشياء فكرهت
ان تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فانزل الله تعالى لا ينهاكم
الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين (ولم يخرجوكم من دياركم أن) اى لا ينهاكم عن أن (تبروهم)
بنوع من أنواع البر الظاهرة فان ذلك غير صريح فى قصد المودة (وتقسطوا اليهم) اى تعطوهم

يظهرون للمؤمنين رهبة شديدة من الله تعالى (قوله واتنظر نفس ما قدمت

قسطا من أموالكم على وجه الصلة قال ابن العربي وليس يريد به من العدل فان العدل
واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل وحكى أن القاضي اسمعيل بن اسحق دخل عليه ذمي فأكرمه
فأخذ عليه الحاضرون في ذلك فتلا عليهم هذه الآية (ان الله) اى الذى له الكمال كله (يحب)
اى يثيب (المقسطين) اى الذين يزيلون الجور ويقيمون العدل (انما ينهاكم الله) اى الذى
له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (عن الذين قاتلوكم) اى جاهدوكم متعمدين اقتالكم (فى
الدين) اى عليه فليس شئ من ذلك خارجا عنه (وأخرجوكم من دياركم) اى بأنفسهم لبغضكم
وهم عتاة أهل مكة (وظاهروا) اى عاونوا غيرهم (على اخراجكم) وهم مشركو مكة وقوله
تعالى (ان تولوهم) بدل اشتمال من الذين اى تتخذوهم أولياء وقرأ البزى بتشديد التاء
والباقون بالتخفيف ولما كان التقدير فمن أطاع فاولئك هم المفلحون عطف عليه قوله تعالى
(ومن يتولهم) اى يكلف نفسه الحمل على غير ما تدعو اليه الفطرة الاولى من المنابذة وأطلق

(لغد) اى ليوم القيامة وفائدة تنكير النفس بيان ان الانفس الناظرة

ولم يقيد بمنكم ليعم المهاجرين وغيرهم والمؤمنين وغيرهم (فاولئك) اى الذين أبعدوا عن
العدل (هم الظالمون) اى الغريقون في ايقاع الاشياء في غير مواضعها ولما أمر المسلمين بترك
موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين من بلاد الشرك الى بلاد الاسلام وكان
التناكح من أوكد أسباب الموالاة فبين أحكام مهاجرة النساء بقوله تعالى (يا أيها الذين
آمنوا) اى أقروا بالايمان (اذا جاءكم المؤمنات) اى بأنفسهن (مهاجرات) اى من الكفار
بعد الصلح معهم في الحديبية (فامتحنوهن) اى بالحلف انهن ما هاجرن الا رغبة في الاسلام
لا بغضا لأزواجهن الكفار ولا عشقا لرجال من المسلمين كذا كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يحلفهن قيل ان سبب الامتحان انه كان من أرادت منهن اضرار زوجها قالت سأهاجر
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بامتحانهن (الله) اى
المحيط بكل شئ قدرة وعلما (أعلم) اى منكم ومن أنفسهن (بايمانهن) هل هو كائن أم لا على
وجه الرسوخ أم لا فانه المحيط بما غاب كاحاطته بما شوهد وانما وكل الامر اليكم في ذلك سترا
للناس (فان علمتموهن مؤمنات) اى العلم الممكن لكم وهو الظن المؤكد بالامارات الظاهرات
بالحلف وغيره (فلا ترجعوهن) اى بوجه من الوجوه (الى الكفار) وان كانوا أزواجا قال
ابن عباس لما جرى الصلح مع مشركي قريش عام الحديبية على ان من أتاه من أهل مكة رده
اليهم جاءت سبيعة بنت الحرث الاسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي صلى الله عليه وسلم
بالحديبية بعد فاقبل زوجها وكان كافرا وكان صيفي بن الراهب وقيل مسافر المخزومي فقال
يا محمد اردد على امرأتي فانك شرطت ذلك وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد فانزل الله تعالى هذه
الآية وروى ان أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أهلها
يسألونه ان يردها وقيل هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها اخواها عمارة والوليد فرد
رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويها وحبسها فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ردها علينا للشرط
فقال صلى الله عليه وسلم كان الشرط في الرجال لا في النساء فانزل الله تعالى هذه الآية وعن
عروة قال كان مما اشترط سهيل بن عمرو على النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية أن لا يأتيك

منا أحد وان كان على دينك الا رددته الينا وخليت بيننا وبينه فكره المؤمنون ذلك وأبى سهيل الا ذلك فكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك فرد يومئذ أبا جندل الى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأته أحد من الرجال الا رده في تلك المدة وان كان مسلما حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل وهذا يومئ الى ان الشرط في رد النساء نسخ بذلك وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن وقال بعض العلماء كله منسوخ بالقرآن وقالت طائفة لم يشترط ردهن في العقد لفظا وانما أطلق العقد في رد من أسلم فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال فبين الله تعالى خروجهن عن عمومه وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين أحدهما انهن ذوات فروج تحرم عليهم الثاني انهن أرق قلوبا وأسرع تقلبا منهم فاما المقيمة منهن على شركها فمردودة عليهم (لا هن) اى المؤمنات (حل) اى موضع حل ثابت (لهم) اى الكفار باستمتاع ولا غيره وقوله تعالى (ولا هم) اى رجال الكفار (يحلون لهن) اى المؤمنات تأكيد للاول لتلازمهما وقال البيضاوي والتكرير للمطابقة والمبالغة والاولى لحصول الفرقة والثانية للمنع عن الاستئناف وقيل أراد استمرار الحكم بينهم فيما يستقبل كما هو في الحال ماداموا مشركين وهن مؤمنات والمعنى لم يحل الله تعالى مؤمنة لكافر في حال من الاحوال وهذا أدل دليل على ان الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها الكافر اسلامها لا هجرتها وقال أبو حنيفة الذي فرق بينهما هو اختلاف الدارين والصحيح كما قال ابن عادل الاول لان الله تعالى بين العلة وهو عدم الحل بالاسلام لا باختلاف الدار ولما نهى عن الرد وعلله أمر بما قدم من الاقساط اليهم فقال تعالى (وآتوهم) اى اعطوا الازواج (ما أنفقوا) اى عليهن من المهور فان المهر في نظير أصل العشرة ودوامها وقد فوتتها المهاجرة فلا يجمع عليه خسارتان الزوجية والمالية وأما الكسوة والنفقة فانهما لما يتجدد من الزمان * (تنبيه) * أمر الله تعالى برد ما أنفقوا الى الازواج وان المخاطب بهذا الامام وهل يجب ذلك أو يندب ظاهر الآية الوجوب ولكن رجح الندب وعليه الشافعي لان البضع ليس بمال فلا يشمله الامان كما لا يشمل زوجة والآية وان كان ظاهرها الوجوب محتملة للندب الصادق بعدم الوجوب الموافق للاصل وقال مقاتل يرد المهر للذي يتزوجها من المسلمين وليس لزوجها الكافر شئ وقال قتادة الحكم في رد الصداق انما هو في نساء أهل الذمة فاما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد عليهم الصداق قال القرطبي والامر كما قال (ولا جناح) اى حرج وميل (عليكم) يا أيها المشرفون بالخطاب (ان تنكحوهن) اى تجددوا زواجكم بهن بعد الاستبراء وان كان أزواجهن من الكفار لم يطلقوهن لزوال العلق عنهن لان الاسلام فرق بينهم قال الله تعالى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ولما كان قد أمر برد مهور الكفار فكان ربما ظن انه مغن عن تجديد مهر لهن اذا نكحهن المسلم نفى ذلك بقوله (اذا آتيتموهن) اى لاجل النكاح (أجورهن) اى مهورهن وفي شرط ايتاء المهر في نكاحهن ايذان بان ما اعطى ازواجهن لا يقوم مقام المهر (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) جمع عصمة وهي هنا عقد النكاح اى من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمتها

في معاده اقليله جدا كانه قيل ولتنظر نفس واحدة في ذلك وأين تلك النفس

ة فلا يكن بينكم و بينهن عصمة ولا علقة زوجية والكوافر جمع كافرة كضوارب فى ضاربة
قال النخعى المراد بالآية هى المرأة المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر وكان الكفار يتزوجون
المسلمات والمسلمون يتزوجون المشركات ثم نسخ ذلك بهذه الآية فطلق عمر بن الخطاب
حينئذ امرأتين له بمكة مشركتين قريبة بنت أبى أمية فتزوجها معاوية بن أبى سفيان وهما
على شركهما بمكة وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية أم عبد الله بن المغيرة فتزوجها أبو جهم بن
حذافة وهما على شركهما بمكة فلما ولى عمر قال أبو سفيان لمعاوية طلق قريبة فلا يرى عمر
سلبه فى بيتك فأبى معاوية وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحرث بن
عبد المطلب ففرق الاسلام بينهما ثم تزوجها فى الاسلام خالد بن سعيد بن العاص وكانت ممن
فر الى النبى صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار فحبسها وزوجها خالد بن سعيد بن العاص بن
أمية وقال الشعبى كانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أبى العاص بن
الربيع أسلمت ولحقت بالنبى صلى الله عليه وسلم وأقام أبو العاص بمكة مشركا ثم أتى المدينة
وأسلم فردها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم روى أبو داود عن عكرمة عن ابن عباس
بالنكاح الاول ولم يحدث شيأ قال محمد بن عمرو فى حديث بعد ست سنين وقال الحسن بن على
بعد سنتين قال أبو عمر فان صح هذا فلا يخلو من وجهين اما انها لم تحض حتى اسلم زوجها واما
ان الامر فيها منسوخ بقوله تعالى وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك يعنى فى عدتهن وهذا مما
لاخلاف فيه انه عنى به العدة قال الزهرى فى قصة زينب هذه كانت قبل أن تنزل الفرائض
وقال قتادة كان هذا قبل ان تنزل سورة براءة بقطع العهود بينهم و بين المشركين
(تنبيه) المراد بالكوافر هنا عبدة الاوثان ومن لا يجوز ابتداء نكاحها وقيل هى عامة
نسخ منها نساء أهل الكتاب فعلى الاول اذا أسلم وثنى أو مجوسى ولم تسلم امرأته فرق بينهما
وهو قول بعض أهل العلم منهم مالك والحسن وطاوس وعطاء وعكرمة وقتادة لقوله تعالى
ولا تمسكوا بعصم الكوافر وقال بعضهم ينتظر بها تمام العدة وهو قول الزهرى
والشافعى واحمد واحتجوا بان أبا سفيان بن الحرث أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته وكان
اسلامه بمر الظهران ثم رجع الى مكة وهند بها كافرة مقيمة على كفرها فاخذت بلحيته وقالت
اقتلوا الشيخ الضال ثم أسلمت بعده بايام فاستقرا على نكاحهما لان عدتها لم تكن انقضت
قالوا ومثله حكيم بن حزام أسلم قبل امرأته ثم أسلمت بعده فكانا على نكاحهما قال الشافعى
ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى بعصم الكوافر لان نساء المؤمنين محرمات على الكفار
كما ان المسلمين لا تحل لهم الكوافر الوثنيات ولا المجوسيات لقوله تعالى لا هن حل لهم
ولا هم يحلون لهن ثم بينت السنة ان مراد الله تعالى من قوله هذا أنه لا يحل بعضهم
لبعض الا ان أسلم الثانى منهما فى العدة وقال ابو حنيفة واصحابه فى الكافرين
الذميين اذا أسلمت المرأة عرض على الزوج الاسلام فان أسلم والا فرق بينهما قالوا ولو كانا
حربيين فهى امرأته حتى تحيض ثلاث حيض اذا كانا جميعا فى دار الحرب او فى دار الاسلام
وان كان احدهما فى دار الحرب والآخر فى دار الاسلام انقطعت العصمة بينهما وقد تقدم

أن

وفائدة تنكير الغد تعظيمه وابهام أمره كأنه قيل لغد لا يعرف النفس كنهه

ان اعتبار الدار ليس بشيء وهذا الخلاف انما هو في المدخول بها فاما غير المدخول بها فلا نعلم خلافا في انقطاع العصمة بينهما اذ لا عدة عليها وكذا يقول مالك في المرأة ترتد وزوجها مسلم تنقطع العصمة بينهما لقوله تعالى ولا تمسكوا بعصم الكوافر وهو قول الحسن البصري والحسن بن صالح وقال الشافعي وأحمد ينتظر بها تمام العدة فان كان الزوجان نصرانيين فاسلمت الزوجة ففيه مذهب مالك والشافعي وأحمد الى تمام العدة وهو قول مجاهد وكذا الوثني تسلم زوجته ان أسلم في عدتها فهو أحق بها كما كان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل احق بزوجتيهما لما أسلما في عدتيهما على حديث مالك في الموطأ قال بعض العلماء كان بين اسلام صفوان وبين اسلام امرأته نحو من شهر قال ولم يبلغنا ان امرأة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها كافر مقيم بدار الحرب الا فرقت هجرتها بينها وبين زوجها الا أن يقدم زوجها مهاجرا قبل ان تنقضي عدتها وقال بعضهم ينفسخ النكاح بينهما لما روى يزيد بن علقمة قال أسلم جدي ولم تسلم جدتي ففرق بينهما عمر وهو قول طاوس وعطاء والحسن وعكرمة قالوا لا سبيل له عليها الا بخطبة (واسئلوا) اى ايها المؤمنون الذين ذهبت زوجاتهم الى الكفار مرتدات (ما انفقتم) أي من مهور نسائكم (وليسئلوا) أي الكفار (ما انفقوا) اى من مهور أزواجهم اللاتي أسلمن قال المفسرون كان من ذهب من المسلمات مرتدات الى الكفار من أهل العهد يقال للكفار هاتوا مهرها ويقال للمسلمين اذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة ردوا الى الكفار مهرها وكان ذلك نصفا وعدلا بين الحالين (ذلكم) أي الحكم الذي ذكر في هذه الآيات البعيدة العلى الرتبة عن كل سفه (حكم الله) أي الملك الذي له صفات الكمال فلا تلحقه شائبة نقص (يحكم) اى الله احكامه على سبيل المبالغة (بينكم) أي في هذا الوقت وفي غيره على هذا المنهاج البديع وذلك لاجل الهدنة التي كانت وقعت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم وأما قبل الحديبية فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمسك النساء ولا يرد الصداق (والله) أي الذي له الاحاطة التامة (عليم) أي بالغ العلم لا يخفى عليه شيء (حكيم) أي فهو لتمام علمه يحكم كل أمر وغاية الاحكام فلا يستطيع أحد نقض شيء منها روى ان المسلمين قالوا رضينا بما حكم الله تعالى وكتبوا الى المشركين فامتنعوا فنزل قوله تعالى (وان فاتكم شيء من ازواجكم) أي واحدة فاكثر منهن أو شيء من مهورهن بالذهاب (الى الكفار) مرتدات (فعاقبتم) فغزوتم وغنمتم من أموال الكفار فجاءت نوبة ظفركم باداء المهر الى اخوانكم طاعة وعدلا عقب نوبتهم التي اقتطعوا فيها ما انفقتم ظلما (فآتوا) أي فاحضروا واعطوا من مهر المهاجرة (الذين ذهبت أزواجهم) اى منكم من الغنيمة (مثل ما انفقوا) اى له واته عليهم من جهة الكفار روى الزهري عن عروة عن عائشة انها قالت حكم الله تعالى بينهم فقال جل ثناؤه واسئلوا ما انفقتم وليسئلوا ما انفقوا فكتب اليهم المسلمون قد حكم الله تعالى بيننا بانه ان جاءتكم امرأة منا ان توجهوا الينا صداقها وان جاءتنا امرأة منكم وجهنا اليكم بصداقها فكتبوا أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيأ فان كان لكم عندنا شيء فوجهوا به فانزل الله تعالى وان فاتكم شيء من أزواجكم الآية وقال ابن عباس في قوله تعالى ذلكم حكم الله أي بين المسلمين والكفار من أهل العهد

عظمته وهو له فالتمكن فيه للتعظيم وفي النفس للتعليل (ان قلت) الغد

من أهل مكة يرد بعضهم على بعض قال الزهرى ولولا العهد لامسك النساء ولم يرد عليهم صداقا وقال قتادة ومجاهد انما أمروا ان يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفىء والغنيمة وقالا هى فيمن بيننا وبينه عهد وقالا معنى فعاقبتم فاقتصصتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا اى من المهور وقال ابن عباس معنى الآية ان لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة وليس بينكم وبينهم عهد ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم فاعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل ان تخمس وقال الزهرى يعطى من مال الفىء وعنه يعطى من صداق من لحق بهاء (تنبيه) محصل مذهب الشافعى فى هذه الآية ان الهدنة لو عقدت بشرط ان يردوا من جاءهم منا مرتدا صح ولزمهم الوفاء به سواء أكان رجلا أو امرأة حرا او رقيقا فان امتنعوا من رده فناقضون للعهد لمخالفتهم الشرط أو عقدت على ان لا يردوه جاز ولو كان المرتد امرأة فلا يلزمهم رده لانه صلى الله عليه وسلم شرط ذلك فى مهادنة قريش حيث قال سهيل بن عمرو وقد جاء رسولا منهم من جاءنا منكم رددناه ومن جاءكم منا فسحقا سحقا ومثله مالو اطلق العقد كما فهم بالاولى ويغرمون فيهما مهر المرتدة (فان قيل) لم غرموا مهر المرتدة ولم نغرم نحن مهر المسلمة على ما تقدم من الخلاف (أجيب) بانهم قد فوتوا عليه الاستتابة الواجبة علينا وأيضا المانع جاء من جهتها والزوج غير متمكن منها بخلاف المسلمة الزوج متمكن منها بالاسلام وكذا يغرمون قيمة رقيق ارتد دون الحر فان عاد الرقيق المرتد الينا بعد أخذنا قيمته رددناها عليهم بخلاف نظيره فى المهر لان الرقيق بدفع القيمة يصير ملكا لهم والنساء لا يصرن زوجات (فان قيل) كونه يصير ملكا لهم مبنى على جواز بيع المرتد للكافر والصحيح خلافه (أجيب) بان هذا ليس مبنيا عليه لان هذا ليس بيعا حقيقة فاغتفر ذلك لاجل المصلحة وان شرطنا عدم الرد (فان قيل) هل يغرم الامام لزوج المرتدة ما أنفق من صداقها الانا بعقد الهدنة حلنا بينه وبينها ولولاه لقاتلناهم حتى يردوها (أجيب) بان هذا ينبنى على ان الامام هل يغرم لزوج المسلمة المهاجرة ما أنفق وقد تقدم الكلام على ذلك ه (فائدة) ه روى عن ابن عباس انه قال لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبى سفيان وكانت تحت شداد بن عياض الفهرى وفاطمة بنت ابى أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر ان يهاجر أبت وارتدت وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان وعزة بنت عبد العزيز بن نضلة وزوجها عمرو بن عبد ود وهند بنت أبى جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل وأم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر بن الخطاب رجعن عن الاسلام فاعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة ولما كان التحرى فى مثل ذلك عسرا فان المهور تتفاوت تارة وتتساوى أخرى قال تعالى (واتقوا) اى فى الاعطاء والمنع وغير ذلك (الله) الذى له صفات الكمال وقد أمركم بالتخلق بصفاته على قدر ما تطيقون (الذى أنتم به مؤمنون) اى متمكنون فى رتبة الايمان ولما خاطب المؤمنين الذين هم موضع الحماية والنصرة للدين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد الحكم بايمان من يبايعهن بقوله تعالى (يا أيها النبى) مخاطبا له بالوصف المقتضى للعلم (اذا جاءك المؤمنات) جعل اقبالهن عليه صلى الله عليه وسلم لاجماع الهجرة مجيئا

قوله فاطمة الخ كذا بالنسخ والذى تقدم انها قريبة فليحرر فى اسمها خلافا وقوله بنت جرول الذى تقدم انها بنت عمرو فليحرر اه مصححه

اليوم الذى يعقب ليلتك فكيف اطلق على يوم القيامة (قلت) الغد له

لاطلاق الهجرة عليهن (يبايعنك على ان لا يشركن) اى كل واحدة منهن تبايعك على عدم الاشراك فى وقت من الاوقات (بالله) اى الملك الذى لا كفء له (شيأ) اى من اشراك على الاطلاق (ولا يسرقن) اى باخذ مال الغير بغير استحقاق فى خفية (ولا يزنين) اى يمكن أحدا من وطئهن بغير عقد صحيح (ولا يقتلن اولادهن) اى بالوأد كما كان يفعل فى الجاهلية من وأد البنات اى دفنهن احياء خوف العار والفقر (ولا يأتين ببهتان) اى بولد ملقوط او شبهة بان (يفترينه) اى يتعمدن كذبه بان ينسبنه للزوج ووصفه بصفة الولد الحقيق بقوله تعالى (بين ايديهن) اى بالحمل فى البطون لان بطنها التى تحمل فيها الولد بين يديها (وارجلهن) اى بالوضع من الفروج لان فرجها الذى تلد منه بين رجليها ولان الولد اذا وضعته سقط بين يديها ورجليها وقيل بين أيديهن السنتهن بالنميمة ومعنى بين ارجلهن فروجهن وقيل ما بين ايديهن من قبلة أو جسة و بين ارجلهن الجماع و روى ان هندا لما سمعت ذلك قالت والله ان البهتان لامر قبيح وما يأمر الا بالارشد ومكارم الاخلاق (ولا يعصينك) أى على حال من الاحوال (فى معروف) وهو ما وافق طاعة الله تعالى كترك النياحة وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيب وخمش الوجه (فبايعهن) أى التزم لهن بما وعدن على ذلك من اعطاء الثواب فى نظير ما الزمن أنفسهن من الطاعة فبايعهن صلى الله عليه وسلم بالقول ولم يصافح واحدة منهن قالت عائشة رضى الله عنها والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قط الا بما أمر الله عز وجل وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط وروى انها قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية أن لا يشركن بالله شيأ الى آخرها قالت وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة الا امرأة يملكها وقالت أميمة بنت رقيقة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة فقال فيما استطعتن أطعن فقلت رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحم بنا من انفسنا وقلت يا رسول الله صافحنا فقال انى لا أصافح النساء انما قولى لامرأة كقولى لمائة امرأة وروى انه صلى الله عليه وسلم بايع النساء و بين يديه وأيديهن ثوب وكان يشترط عليهن وقالت أم عطية لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الانصار فى بيت ثم أرسل الينا عمر ابن الخطاب فقام على الباب فسلم فرددن عليه السلام فقال أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكن أن لا تشركن بالله شيأ الآية فقلن نعم فمد يده من خارج البيت ومددنا ايدينا من داخل البيت ثم قال اللهم اشهد وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه فغمسن أيديهن فيه وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من بيعة الرجال يوم الفتح لمكة وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه وهو يبايع النساء بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم و يبلغهن عنه أن لا يشركن بالله شيأ وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة يوم أحد فقالت والله انك لتأخذ علينا أمرا ما رأيتك أخذته على الرجال وكان بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد فقط فقال النبى صلى الله عليه وسلم ولا يسرقن فقالت هند ان أبا سفيان رجل شحيح وانى أصيب

معنيان ماذكرتم ومطلق الزمان المستقبل كما ان للامس معنيين مقابلين

من ماله قوتنا فلا أدرى أيحل لى أم لا فقال أبو سفيان ما أصبت من شئ فيما مضى وما غبر فهو لك حلال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها وانك لهند بنت عتبة قالت نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك وروى انها قالت يا رسول الله ان أبا سفيان رجل مسيك فهل على حرج ان أخذت ما يكفينى وولدى قال لا الا بالمعروف فخشيت هند ان تقتصر على ما يعطيها فتضيع او تأخذ أكثر من ذلك فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم ذلك أى لا حرج عليك فيما أخذت بالمعروف يعنى من غير استطالة الى أكثر من الحاجة ثم قال ولا يزنين فقالت هند أو تزنى الحرة فقال ولا يقتلن أولادهن أى بالوأد ولا يسقطن الاجنة فقالت هند ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا وأنت وهم أعلم وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن فقالت والله ان البهتان لامر قبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق فقال ولا يعصينك فى معروف فقالت والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى انفسنا ان نعصيك فى شئ قال أكثر المفسرين معناه لا يلحقن بأزواجهن ولدا من غيرهن وكانت المرأة تلتقط ولدا تلحقه بزوجها وتقول هذا ولدى منك فكان هذا من البهتان والافتراء وهذا عام فى الاتيان بولد والحاقه بالزوج وان سبق النهى عن الزنا *(تنبيه)* ذكر تعالى فى هذه الآية لرسوله صلى الله عليه وسلم فى صفة البيعة خصالا ستا صرح فيهن بأركان النهى ولم يذكر أركان الامر وهى ست أيضا الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة وذلك لان النهى دائم فى كل زمان وكل الاحوال فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد وقيل ان هذه المناهى كانت فى النساء كثيرا ممن يرتكبها ولا يحجزهن عنها شرف النسب فخصت بالذكر لهذا ونحو هذا قوله صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت فنبههم على ترك المعصية فى شرب الخمر دون سائر المعاصى لانها كانت شهوتهم وعادتهم واذا ترك المرء شهوته من المعاصى هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة له فيها ولما كان الانسان محل النقصان لا سيما النسوان رجاهن سبحانه بقوله تعالى (واستغفر) اى اسأل (لهن الله) اى الملك الاعظم ذا الجلال والاكرام فى الغفران ان وقع منهن تقصير وهو واقع لانه لا يقدر أحد أن يقدر الله تعالى حق قدره (ان الله) اى الذى له صفات الكمال (غفور) اى بالغ الستر للذنوب عينا وأثرا (رحيم) اى بالغ الاكرام بعد الغفران تفضلا منه واحسانا وروى ان ناسا من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا) اى لا تعاملوا أنفسكم ان تولوا (قوما) اى ناسا لهم قوة على ما يحاولونه فغيرهم من باب أولى (غضب الله) اى اوقع الملك الاعلى الغضب (عليهم) لاقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا فهو عام فى كل من اتصف بذلك يتناول اليهود تناولا أوليا (قد يئسوا) اى تحققوا عدم الرجاء (من الآخرة) اى من ثوابها مع ايقانهم بها لعنادهم النبى صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنه الرسول المبعوث فى التوراة (كما يئس الكفار من اصحاب القبور) اى من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء وقيل من أصحاب القبور بيان للكفار اى كما يئس الكفار الذين

لما ذكرنا وقيل انما اطلق الغد على يوم القيامة تقريبا له لقوله تعالى وما

قبروا

فهم وامن خير الآخرة اذ تعرض عليهم مقاعدهم من الجنة لو كانوا آمنوا وما يصيرون اليه من النار فيتبين لهم قبح حالهم وسوء منقلبهم وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة حديث موضوع

سورة الصف مدنية

في قول الاكثرين وذكر النحاس عن ابن عباس انها مكية وهي أربع عشرة آية ومائتان واحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف

(بسم الله) الملك الاعظم الذى لا كفء له (الرحمن) الذى عم بفضله كل أحد من خلقه (الرحيم) الذى خص من شاء من عباده فهيأه لعبادته وأهله (سبح لله) أى اوقع التنزيه الاعظم للملك الاعظم (ما فى السموات) من جميع الاشياء من الملائكة وغيرها كالافلاك والنجوم (وما فى الارض) كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار وقيل اللام مزيدة أى نزه الله وأتى بما دون من قال الجلال المحلى تغليبا للاكثر اه (فان قيل) ما الحكمة فى انه تعالى قال فى بعض السور سبح لله بلفظ الماضى وفى بعضها يسبح بلفظ المضارع وفى بعضها سبح بلفظ الامر (اجيب) بان الحكمة فى ذلك تعليم العبد ان يسبح الله تعالى على الدوام كما ان الماضى يدل عليه فى الماضى من الزمان والمستقبل يدل عليه فى المستقبل من الزمان والامر يدل عليه فى الحال (فان قيل) هلا قيل سبح لله السموات والارض وما فيهما وهو أكثر مبالغة (أجيب) بان المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها وبالارض جهة السفل فيشمل الارض وما فيها (وهو) أى وحده (العزيز) اى الغالب على غيره اى شئ كان ذلك الغير ولا يمكن ان يغلب عليه غيره (الحكيم) أى الذى يضع الاشياء فى اتقن مواضعها روى الدارمى فى مسنده قال أنبأنا محمد بن كثير عن الاوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن عبد الله ابن سلام قال قعدنا مع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أى الاعمال أحب الى الله تعالى لعملناه فانزل الله تعالى سبح لله ما فى السموات وما فى الارض وهو العزيز الحكيم (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا الايمان (لم تقولون ما لا تفعلون) حتى ختمها قال عبد الله فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها قال أبو سلمة فقرأها علينا عبد الله بن سلام حتى ختمها قال يحيى فقرأها علينا أبو سلمة فقرأها علينا أبو يحيى فقرأها علينا الاوزاعى فقرأها علينا محمد فقرأها علينا الدارمى انتهى ولى بقراءتها اسند متصل الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال عبد الله بن عباس قال عبد الله بن رواحة لو علمنا احب الاعمال الى الله تعالى لعملناه فلما نزل الجهاد كرهوه وقال الكلبى قال المؤمنون يا رسول الله لو علمنا أحب الاعمال الى الله تعالى لسارعنا اليه فنزل هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم فمكثوا زمانا يقولون لو نعلم الاشتريناها بالاموال والانفس والاهلين فدلهم الله تعالى عليها بقوله تعالى تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله الآية فابتلوا يوم أحد ففروا فنزلت هذه الآية تعييرا لهم بترك الوفاء وقال محمد بن كعب لما أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم

أمر الساعة الا كلمح البصر فكانه لقربه اشبه اليوم الذى يعقب

بثواب شهداء بدر قالت الصحابة اللهم اشهد انا لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد فعيرهم الله تعالى بذلك وقال قتادة والضحاك نزلت في قوم كانوا يقولون نحن جاهدنا وأبلينا ولم يفعلوا وقيل قد آذى المسلمين رجل ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله آخر فقال عمر لصهيب أخبر النبي صلى الله عليه وسلم انك قتلته فقال انما قتلته لله ولرسوله فقال عمر يا رسول الله قتله صهيب قال كذلك يا أبا يحيى قال نعم فنزلت في المنتحل وقال ابن زيد نزلت في المنافقين وندائهم بالايمان تهكم بهم وبايمانهم وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ان خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا وقال القرطبي هذه الآية توجب على كل من الزم نفسه عملا فيه طاعة ان يفي به وفي صحيح مسلم عن أبي موسى أنه بعث الى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرؤا القرآن فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الامد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من قبلكم وانا كنا نقرأ سورة فنشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني قد حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب وكنا نقرأ سورة فنشبهها باحدى المسبحات فأنسيتها غير اني حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسئلون عنها يوم القيامة قال ابن العربي وهذا كله ثابت في الدين لفظا ومعنى في هذه السورة واما قوله شهادة في أعناقكم فتسئلون عنها يوم القيامة فمعنى ذلك ثابت في الدين فان من التزم شيأ الزمه شرعا وقال القرطبي ثلاث آيات منعتني ان أقضي على الناس أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وما أريد ان أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ويا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرؤن كتاب الله ولا يعملون به

(تنبيه) قوله تعالى لم تقولون ما لا تفعلون استفهام على وجه الانكار والتوبيخ على ان يقول الانسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله اما في الماضي فيكون كذبا واما في المستقبل فيكون خلفا وكلاهما مذموم قال الزمخشري لم هي لام الاضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك بم وفيم ومم وعم والام وعلام وانما حذفت الالف لان ما والحرف كشيء واحد ووقع استعمالهما كثيرا في كلام المستفهم وقد جاء استعمال الاصل قليلا والوقف على زيادة هاء السكت او الاسكان ومن أسكن في الوصل فلاجرائه مجرى الوقف كما سمع ثلاثة أربعه بالهاء والقاء حركة الهمزة عليها محذوفة اه ووقف البزي له بهاء السكت بخلاف عنه (كبر) أي عظم وقوله تعالى (مقتا) تمييز والمقت أشد البغض وزاد في تشنيعه زيادة في التنفير منه بقوله تعالى (عند الله) أي الملك الاعظم الذي يحقر عنده كل متعاظم وقيل ان كبر من أمثلة التعجب وقد عده ابن عصفور في التعجب المبوب له في النحو فقال صيغة ما أفعله وأفعل به وفعل نحو كرم الرجل واليه نحا الزمخشري فقال هذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه قصد في كبر التعجب من غير لفظه كقوله ❊ غلت ناب كليب بواؤها ❊ ومعنى التعجب تعظيم الامر في قلوب السامعين لان التعجب لا يكون الا من شيء خارج عن نظائره واشكاله وقوله تعالى (ان تقولوا)

لملك (قوله ولو انزلنا هذا
القرآن على جبل) الآية
إي لو جعلنا في جبل على

اي

أى عظم من تلك الجهة ان يقع فى وقت من الاوقات أو حال من الاحوال قولكم (مالا تفعلون) فاعل كبر قال الرازى وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو ان فى السورة التى قبلها بين الخروج الى الجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاته بقوله تعالى ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى وفى هذه السورة بين ما يحمل المؤمن ويحثه على الجهاد بقوله تعالى (ان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (يحب) أى يفعل فعل المحب مع (الذين يقاتلون) أى يوقعون القتال (فى سبيله) أى بسبب تسهيل طريقه الموصلة الى رضاه وقوله تعالى (صفا) حال أى مصطفين حتى كأنهم فى اتحاد المراد على قلب واحد كما كانوا فى التساوى فى الاصطفاف كالبدن الواحد (كأنهم) من شدة التراص والمساواة بالصدور والمناكب والثبات فى المركز (بنيان) وزاد فى التأكيد بقوله تعالى (مرصوص) أى ملزق بعضه الى بعض ثابت كثبوت البناء وقال ابن عباس يوضع الحجر على الحجر ثم يرص بأحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه فيسميه أهل مكة المرصوص وقال الرازى يجوز أن يكون المعنى على أن يستوى شأنهم فى حرب عدوهم حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص قال القرطبى استدل بعضهم بهذه الآية على ان قتال الراجل أفضل من قتال الفارس لان الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة قال المهدوى وذلك غير مستقيم لما جاء فى فضل الفارس من الاجر والغنيمة ولا يخرج الفرسان من معنى الآية لان معناها الثبات ولهذا يحرم الخروج من الصف ان قاومناهم الا متحرفا لقتال كمن ينصرف ليكمن فى موضع ويهجم أو ينصرف من مضيق ليتبعه العدو الى متسع سهل للقتال أو متحيزا الى فئة يستنجد بها ولو بعيدة قليلة أو كثيرة فيجوز انصرافه لقوله تعالى الا متحرفا لقتال ويجوز المبارزة لكافر لم يطلبها بلا كره وندب لقوى أذن له الامام أو نائبه لاقراره صلى الله عليه وسلم عليها وهى ظهور رجلين من الصفين للقتال من البروز وهو الظهور فان طلبها كافر سنت للقوى المأذون له للامر بها فى خبر أبى داود ولان فى تركها حينئذ اضعافا لنا وتقوية لهم والا كرهت * ولما ذكر تعالى الجهاد ذكر قصة موسى وعيسى عليهما السلام تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على اذى قومه مبتدئا بقصة موسى عليه السلام لتقدمه فقال تعالى (واذ) أى واذكر يا أشرف الخلق اذ (قال موسى لقومه) أى بنى اسرائيل وقوله (يا قوم) استعطاف لهم واستنهاض الى رضا ربهم (لم تؤذوننى) أى تجددون أذاى مع الاستمرار وذلك حين رموه بالادرة كما مر فى سورة الاحزاب ومن الاذى ما ذكر فى قصة قارون أنه دس الى امرأة تدعى على موسى الفجور ومن الاذى قولهم اجعل لنا الها كما لهم آلهة وقولهم فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون وقولهم أنت قتلت هرون وغير ذلك وقوله تعالى (وقد تعلمون) جملة حالية أى علمتم علما قطعيا مع تجدده لكم كل وقت بتجدد أسبابه بما آتيتكم به من المعجزات والكتاب الحافظ لكم من الزيغ (أنى رسول الله) الملك الاعظم الذى لا كفء له (اليكم) ورسوله يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته وحرمته وأنا لا أقول لكم شيئا الا عنه ولا أنطق عن الهوى (فلما زاغوا) أى عدلوا عن الحق بمخالفة أوامر الله تعالى وبايذائه

تساوته تميزا كما فى الانسان ثم أنزلنا عليه القرآن لتشتق خشية من الله

وقرأ حمزة بالامالة والباقون بالفتح (أزاغ الله) أي الملك الذي له الامر كله (قلوبهم) أي أمالها عن الهدى على وفق ما قدره في الازل (والله) أي الذي له الحكمة البالغة لانه المستجمع لصفات الكمال (لا يهدي) أي بالتوفيق بعد هداية البيان (القوم الفاسقين) أي العريقين في الفسق الذين لهم قوة المحاولة فلم يحملهم على الفسق ضعف فاحذروا ان تكونوا امثالهم في العزائم فتساووهم في عقوبات الجرائم وهذا تنبيه على عظم ايذاء الرسل حتى ان اذاهم يؤدي الى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى ثم ذكر القصة الثانية بقوله تعالى (واذ) أي واذكر يا أشرف المرسلين اذ (قال عيسى) ووصفه بقوله (ابن مريم) ليعلم أنه من غير أب وثبتت نبوته بالمعجزات (يا بني اسرائيل) فذكرهم بما كان عليه أبوهم من الدين وما أوصى به بنيه من التمسك بالاسلام ولم يقل يا قوم كما قال موسى عليه السلام لانه لا أب له فيهم وان كانت أمه منهم فان النسب انما هو من جهة الاب وأكده لانكار بعضهم فقال (اني رسول الله) أي الملك الاعظم (اليكم) أي لا الى غيركم (مصدقا لما بين يدي) أي قبلي (من التوراة) التي تعلمون ان الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام وهي أول الكتب التي نزلت بعد الصحف وحكم بها النبيون فتصديقي لها مع تأييدي بها مؤيد لان ما أتت من الدلائل حق وصين انها دليلي فيما أنصحهم منها كما يستدل بما قدامه من الاعلام ويراعيه ببصره وقرأ ابو عمرو وابن ذكوان والكسائي بالامالة محضة وقرأ حمزة ونافع بين بين بخلاف عنه عن قالون والباقون بالفتح (ومبشرا) في حال تصديقي للتوراة (برسول) أي الى كل من شملته الربوبية (يأتي من بعدي) أي يصدق بالتوراة فكأنه قيل ما اسمه قال (اسمه أحمد) والمعنى أرسلت اليكم في حال تصديقي ما تقدمني من التوراة وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي يعني ان ديني التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر (فان قيل) بم انتصب مصدقا ومبشرا أبما في الرسول من معنى الارسال أم باليكم (أجيب) بانه بمعنى الارسال لان اليكم صلة للرسول فلا يجوز أن يعمل شيأ لان حروف الجر لا تعمل بانفسها ولكن بما فيها من معنى الفعل فاذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل وعن كعب ان الحواريين قالوا لعيسى يا رسول الله هل بعدنا من أمة قال نعم أمة أحمد حكماء علماء ابرار أتقياء كانهم من الفقه انبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل وعن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء انا محمد وأنا أحمد وانا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وانا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي وقد سماه الله تعالى رؤفا رحيما وروي انه صلى الله عليه وسلم قال اسمي في التوراة أحيد لاني احيد امتي عن النار واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الاوثان واسمي في الانجيل احمد وفي القرآن محمد لاني محمود في اهل السماء والارض بل ذكر بعض العلماء أنه الف اسم قال البغوي والالف في احمد للمبالغة في الحمد وله وجهان احدهما أنه مبالغة من الفاعل اي ومعناه ان الانبياء حمادون لله تعالى وهو اكثر حمدا من غيره والثاني انه مبالغة من المفعول اي ومعناه ان الانبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو

وخوفا ان لا يؤدي حقه في تعظيم القرآن والمقصود تنبيه الانسان على قسوة

أكثر مبالغة واجمع للفضائل والمحاسن والاخلاق التى يحمد بها اه وعلى كلا الوجهين منعه من الصرف للعلمية والوزن الغالب الا انه على الاحتمال الاول يمتنع معرفة وينصرف نكرة وعلى الثانى يمتنع تعريفا وتنكيرا لانه يخلف العلمية الصفة واذا نكر بعد كونه علما جرى فيه خلاف سيبويه والاخفش وهى مسئلة مشهورة بين النحاة وانشد حسان يمدحه ويصرفه

صلى الاله ومن يحف بعرشه ٭ والطيبون على المبارك احمد

احمد بدل او بيان للمبارك واما محمد فمنقول من صفة ايضا وهو فى معنى محمود ولكن فى معنى المبالغة والتكرار فاحمد هو الذى حمد مرة بعد مرة قال القرطبى كما ان المكرم من اكرم مرة بعد مرة وكذلك الممدح ونحو ذلك واسم محمد مطابق لمعناه والله سبحانه وتعالى سماه قبل ان يسمى به نفسه فهذا علم من اعلام نبوته وكان اسمه صادقا عليه فهو محمود فى الدنيا بما هدى اليه ونفع به من العلم والحكمة وهو محمود فى الآخرة بالشفاعة فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضى اللفظ ثم انه لم يكن محمدا حتى كان أحمد حمد ربه فنبأه وشرفه فلذلك تقدم اسم احمد على الاسم الذى هو محمد فذكره عيسى فقال اسمه احمد وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه تلك امة احمد فقال اللهم اجعلنى من امة محمد فباحمد ذكره قبل ان يذكره بمحمد لان حمده لربه كان قبل حمد الناس له فلما وجد وبعث كان محمدا بالفعل وكذلك فى الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التى يفتحها عليه فيكون احمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته فدل ذلك على انه صلى الله عليه وسلم اشرف الانبياء فاتحهم وخاتمهم عليهم وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وشعبة بفتح الياء والباقون بالسكون وقوله تعالى (فلما جاءهم) يحتمل ان يعود فيه الضمير لاحمد اى جاء الكفار واقتصر على ذلك الجلال المحلى ويحتمل عوده لعيسى اى جاء بنى اسرائيل (بالبينات) اى من المعجزات العظيمة التى لا يسوغ لعاقل الا التسليم لها ومن الكتاب المبين (قالوا) اى عند مجيئهم من غير نظرة لتامل (هذا) اى الآتى به من البينات أو الآتى بها على المبالغة (سحر) فكانوا أول كافر به لان هذا وصفهم لازم سواء بلغهم ذلك أم لا (مبين) اى فى غاية البيان فى سحريته وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء وهذه القراءة مناسبة للتفسير الثانى والباقون بكسر السين وسكون الحاء وهذه مناسبة للتفسير الاول (ومن) أى لا أحد (اظلم) اى اشد ظلما (ممن افترى) أى تعمد (على الله) اى الملك الاعلى (الكذب) اى بنسبة الشريك والولد اليه ووصف آياته بالسحر ووصف أنبيائه بالسحرة (وهو) اى والحال أنه (يدعى) أى من اى داع كان (الى الاسلام) اى الذى هو أحسن الاشياء فان له فيه سعادة الدارين فيجعل مكان اجابته افتراء الكذب على الله تعالى (والله) اى الذى له الامر كله فلا أمر لاحد معه (لا يهدى القوم) اى لا يخلق الهداية فى قلوب من فيهم قوة المجادلة للامور الصعاب (الظالمين) أى الذين يخبطون فى عقولهم خبط من هو فى الظلام (يريدون) أى يوقعون ارادة ردهم للرسالة بافترائهم (ليطفئوا) اى لاجل ان يطفئوا (نور الله) أى الملك الذى لا شئ يكافئه (بافواههم) أى بما يقولون من كذب لا منشأ له غير الافواه لانه لا اعتقاد له فى القلوب ٭(تنبيه)٭ الاطفاء والاخماد يستعملان فى النار وفيما يجرى مجراها من الضياء

قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن واعراضه عن تدبر زواجره (قوله

والظهور ويفرق بين الاطفاء والاخماد من حيث ان الاطفاء يستعمل فى القليل فيقال
اطفأت السراج ولا يقال أخمدت السراج وفى هذه اللام أوجه أحدها أنها تعليلية كأمر
ثانيها أنها مزيدة فى مفعول الارادة وقال الزمخشرى أصله يريدون أن يطفئوا كما فى سورة
التوبة وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الارادة تأكيدا له لما فيها من معنى الارادة فى قولك
جئتك لاكرامك كما زيدت اللام فى لا أبا لك تأكيدا لمعنى الاضافة فى لا أباك قال الماوردى
وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم ابطأ عليه الوحى
أربعين يوما فقال كعب بن الاشرف يا معشر يهود أبشروا فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل
عليه وما كان ليتم امره فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى هذه الآية واتصل
الوحى بعدها واختلف فى المراد بالنور فقال ابن عباس هو القرآن أى يريدون ابطاله وتكذيبه
وقال السدى الاسلام أى يريدون دفعه بالكلام وقال الضحاك انه محمد صلى الله عليه وسلم
أى يريدون هلاكه بالاراجيف وقال ابن جريج حجج الله تعالى ودلائله يريدون ابطالها بانكارهم
وتكذيبهم وقيل انه مثل مضروب أى من اراد اطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلا
ممتنعا كذلك من أراد اطفاء الحق (والله) أى الذى لا مدافع له اتمام عظمته (متم نوره) فلا
يضره ستر أحد له بتكذيبه ولا ارادة اطفائه وزاد ذلك بقوله تعالى (ولو كره) أى اتمامه له
(الكافرون) اى الراسخون فى جهة الكفر المجتهدون فى المحاماة عنه (هو) اى الذى ثبت أنه
جامع لصفات الكمال والجلال وحده من غير ان يكون له شريك أو وزير (الذى أرسل رسوله)
أى الحقيق بان يعظمه كل من بلغه أمره لان عظمته من عظمته ولهذا كرحرف الغاية اشارة
الى عموم الارسال الى كل من شمله الملك كما مضى (بالهدى) أى البيان الشافى بالقرآن
أو المعجزة (ودين الحق) أى والملة الحنيفية (ليظهره) أى يعليه مع الشهرة واذلال المنازع
(على الدين) أى جنس الشريعة التى تجعل لجازى من يسلكها ومن يزيغ عنها بما يشرع
فيها من الاحكام (كله) فلا يبقى دين الا كان دونه وانمحق به وذل اهله ذلا لا يقاس به ذل
(ولو كره) اى اظهاره (المشركون) أى المعاندون فى كفرهم الراسخون فى سلك المعاندة (فان
قيل) قال أولا ولو كره الكافرون وقال ثانيا ولو كره المشركون فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بانه
تعالى أرسل رسوله وهو من نعم الله تعالى والكافرون كلهم فى كفران النعم سواء فلهذا قال ولو كره
الكافرون لان لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك فالمراد من الكافر هنا اليهود والنصارى
والمشركون فلفظ الكافر اليق به واما قوله تعالى ولو كره المشركون فذلك عند انكارهم
التوحيد واصرارهم عليه لانه صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا اله الا الله
فلم يقولوها فلهذا قال ولو كره المشركون واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين
آمنوا) اى اقروا بالايمان (هل أدلكم) أى وانا المحيط علما وقدرة فهو ايجاب فى المعنى
ذكر بلفظ الاستفهام تشريفا ليكون أوقع فى النفس (على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) اى
مؤلم فقال مقاتل نزلت فى عثمان بن مظعون قال يا رسول الله لو أذنت لى طلقت خولة وترهبت
واختصيت وحرمت اللحم ولا انام بليل أبدا ولا افطر بنهار ابدا فقال صلى الله عليه وسلم ان من
سنتى النكاح ولا رهبانية فى الاسلام انما رهبانية امتى الجهاد فى سبيل الله وخصاء امتى

(الخالق البارئ) الخالق هو الذى يقدر ما يوجده والبارئ هو الذى يميز بعض المخلوقات عن

الصوم

الصوم ولا تحرموا الطيبات ما أحل الله لكم ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس مني فقال عثمان والله لوددت يا رسول الله أي التجارة أحب الى الله تعالى فاتجر فيها فنزلت وقيل ادلكم اي سأدلكم والتجارة الجهاد قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم الآية وهذا خطاب لجميع المؤمنين وقيل نزل هذا حين قالوا لو نعلم أي الاعمال أحب الى الله تعالى لعملنا به قال البغوي وجعل هذا بمنزلة التجارة لانهم يربحون بها رضا الله تعالى ونيل جنته والنجاة من النار وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الجيم والباقون بسكون النون وتخفيف الجيم ثم بين سبحانه تلك التجارة بقوله تعالى (تؤمنون) أي تدومون على الايمان (بالله) أي الذي له جميع صفات الكمال وعلى هذا الا ينافي ذلك قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا وقيل المراد من هذه الآية المنافقون وهم الذين آمنوا في الظاهر وقيل اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فانهم آمنوا بالكتب المتقدمة (ورسوله) الذي تصديقه آية الاذعان للعبودية (وتجاهدون) بيانا لصحة ايمانكم على سبيل التجديد والاستمرار (في سبيل الله) أي الملك الاعظم الذي لا أمر لغيره (باموالكم وانفسكم) وقدم الاموال لعزتها في ذلك الزمان ولانها قوام الانفس فمن بذل ماله كله لم يبخل بنفسه لان المال قوامها وقال القرطبي ذكر الاموال اولا لانها التي يبدأ بها في الانفاق (ذلكم) أي الامر العظيم من الايمان وتصديقه بالجهاد (خير لكم) أي من اموالكم وأنفسكم (ان كنتم تعلمون) أي ان كان يمكن ان يتجدد لكم علم في وقت فانتم تعلمون ان ذلك خير لكم فاذا علمتم أنه خير أقبلتم عليه فكان لكم به امر عظيم وان كانت قلوبكم قد طمست طمس الارجاس الاصلاحية فصلوا على أنفسكم صلاة الموت وقوله تعالى (يغفر لكم) فيه أوجه أحدها انه مجزوم على جواب الخبر بمعنى الامر أي آمنوا وجاهدوا والثاني أنه مجزوم في جواب الاستفهام كما قاله الفراء والثالث أنه مجزوم بشرط مقدر أي ان تؤمنوا يغفر لكم قال القرطبي وأدغم بعضهم فقرأ يغفر لكم والاحسن ترك الادغام فان الراء متكرر قوي فلا يحسن الادغام في اللام لان الاقوى لا يدغم في الاضعف اه وتقدم في آخر سورة البقرة مثل ذلك للزمخشري والبيضاوي وردعليهما (ذنوبكم) أي جميع أعيانها وآثارها كلها (ويدخلكم) أي بعد التزكية بالمغفرة رحمة لكم (جنات) أي بساتين (تجري من تحتها) أي من تحت أشجارها وغرفها وكل منتزه فيها (الانهار) فهي لا تزال غضة زهراء ولم يحتج هذا الاسلوب الى ذكر الخلود لاغناء ما بعده عنه ودل على الكثرة المفرطة في الدور بقوله في صيغة منتهى الجموع (ومساكن طيبة) روى الحسن قال سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن قوله تعالى ومساكن طيبة فقالا على الخبير سقطت سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء في كل بيت سبعون سريرا في كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطي الله تعالى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله (في جنات عدن) أي بساتين هي أهل للاقامة بها لا يحتاج في اصلاحها الى شيء خارج يحتاج في تحصيله الى الخروج عنها قال حمزة الكرماني

بعض بالاشكال المختلفة وقيل الخالق المبدئ والبارئ المعيد

في كتابه جوامع التفسير هي أي جنات عدن قصبة الجنان ومدينة الجنة أقربها الى العرش (ذلك) أي الامر العظيم جدا (الفوز العظيم) أي السعادة الدائمة الكبيرة واصل الفوز الظفر بالمطلوب * ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم في الآخرة بشرهم بنعمته في الدنيا بقوله تعالى (وأخرى تحبونها) أي ولكم الى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة وفي تحبونها تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل وقوله تعالى (نصر من الله) أي الذي أحاطت عظمته بكل شيء خبر مبتدا مضمر أي تلك النعمة أو الخصلة الاخرى نصر من الله (وفتح قريب) أي غنيمة في عاجل الدنيا قيل فتح مكة قال الكلبي هو النصر على قريش وقال ابن عباس يريد فتح فارس والروم وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على محذوف مثل قل يا أيها الذين آمنوا وبشر أو على يؤمنون فانه في معنى الامر كأنه قال آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشرهم يا أشرف الرسل بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة (يا أيها الذين آمنوا) أي اقروا بذلك (كونوا) أي بغاية جهدكم (أنصار الله) أي لدينه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو انصارا بالتنوين وجر اللام من الاسم الجليل وترقيقها والباقون بغير تنوين وتفخيم اللام (كما) أي كونوا الاجل انى ندبتكم أنا بقولي من غير واسطة ولذذتكم بخطابي مثل ما كان الحواريون أنصار الله حين (قال عيسى ابن مريم) حين ارسلته الى بني اسرائيل ناسخا لشريعة موسى عليه السلام (للحواريين) أي خلص أصحابه وخاصته منهم (من أنصاري الى الله) أي المحيط بكل شيء أي انصروا دين الله تعالى مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى عليه السلام من انصاري الى الله أي من ينصرني مع الله تعالى (قال الحواريون) معلمين انهم جادون في ذلك جدا لا مزيد عليه لعلمهم ان اجابته اجابة الله تعالى لانه لا ينطق عن الهوى فليس كلامه الا عن الله تعالى (نحن) أي بأجمعنا وكانوا اثني عشر رجلا وهم اول من آمن بعيسى (أنصار الله) أي الملك الاعلى القادر على تمام نصرنا ولو كان عدونا كل اهل الارض * ولما كان التقدير ثم دعوا كل من خالفهم من بني اسرائيل وبارزهم تسبب عنه قوله تعالى (فآمنت) أي به (طائفة) أي ناس منهم اهل الاستدارة لما لهم من الكثرة (من بني اسرائيل) قومه (وكفرت طائفة) أي منهم واصل الطائفة القطعة من الشيء وذلك انه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه اليه وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه اليه وهم المؤمنون واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى (فأيدنا) أي قوينا بعد رفع عيسى عليه السلام (الذين آمنوا) أي اقروا بالايمان المخلص (على عدوهم) أي الذين عادوهم لاجل ايمانهم (فأصبحوا) أي صاروا بعد ما كانوا فيه من الذل (ظاهرين) أي عالين غالبين قاهرين في أقوالهم وافعالهم لا يخافون أحدا ولا يستخفون منه وروى المغيرة عن ابراهيم قال فأصبحت حجة من آمن بعيسى عليه السلام ظاهرة بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم ان عيسى عليه السلام كلمة الله وعبده ورسوله وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الصف كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه حديث موضوع

(سورة الممتحنة)

(قوله تلقون اليهم بالمودة) بدأ هنا بتلقون وبعده بتسرون

سورة الجمعة مدنية

وهي احدى عشرة آية ومائة وثمانون كلمة وسبعمائة وعشرون حرفا

روى مسلم عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه ادخل الجنة وفيه اخرج منها ولا تقوم الساعة الا في يوم الجمعة وعنه ايضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون يوم القيامة ونحن اول من يدخل الجنة بيد انهم اوتوا الكتاب الاول من قبلنا واوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله تعالى لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له وقال يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى (بسم الله) الذي أحاط علمه بكل معلوم فتم بيانه (الرحمن) الذي عمت نعمة بيانه فهو العظيم شأنه (الرحيم) الذي خص حزبه بالتوفيق فثبت عندهم حبه وايمانه (يسبح) أي يوقع التنزيه الاعظم الاتم الاكمل (لله) أي الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلما (ما في السموات) أي من جميع الاشياء من الملائكة وغيرها كالافلاك والنجوم (وما في الارض) كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار وقيل اللام مزيدة أي ينزه الله وأتى بما دون من قال الجلال المحلي تغليبا للاكثر ويحتمل ان يكون المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها او بالارض جهة السفل فيشمل الارض وما فيها (الملك) أي الذي ثبت له جميع الكمالات فهو ينصر من يشاء من جنده ولو كان ذليلا فيصبح ظاهرا (القدوس) أي المنزه عما لا يليق به وعن احاطة احد من الخلق بعلمه وادراك كنه ذاته فليس في ايدي الخلق الا التردد في شهود افعاله والتدبير لمفاهيم نعوته وجلاله وأحقهم بالقرب والسداد في حزبه المتخلق باوصافه على قدر اجتهاده فينبغي للمؤمن التنزه عن ان يقول ما لا يفعل او يبني شيئا من اموره على غير احكام (العزيز) اي الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء (الحكيم) أي الذي يوقع كل ما أراد في أحكم مواقعه واتمها واتقنها (هو) أي وحده (الذي بعث في الاميين) أي العرب لان أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤن والامي من لا يقرأ ولا يكتب (رسولا منهم) أي من جملتهم أميا مثلهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم وما من حي من العرب الا وله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة وقد ولدوه قال ابن اسحق الا بني تغلب فان الله تعالى طهر نبيه صلى الله عليه وسلم منهم فلم يجعل لهم عليه ولادة وكان أميا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم صلى الله عليه وسلم علمه الله ما لم يكن يعلم من غير تطلب فكانت آثار البشرية عنه مندرسة وانوار الحقائق عليه لائحة وذلك لئلا يتوهم الافتقار الى الاستعانة بالكتب لان مشاكلته لحال من بعث فيهم أقرب الى مساواتهم له لو أمكنهم فيكون معنى عدم امكان المساواة أدل على الاعجاز وبعثه الى العرب لا ينفي بعثه الى غيرهم لاسيما مع ما ورد فيه من صرائح الدلائل القطعية فذكر موضع البعث وابتداء فتكون الغاية مطلقة تقديرها الى عامة الخلق (يتلوا) أي يقرأ قراءة يتبع بعضها بعضا على وجه الكثرة والعلو والرفعة (عليهم) مع كونه أميا مثلهم (آياته) أي يأتيهم بها على سبيل التجدد والمواصلة وهي القرآن الذي أعجز الجن والانس ان يأتوا بسورة من مثله (ويزكيهم) أي يطهرهم من الشرك والاخلاق الرذيلة والعقائد الزائغة فكانت تزكيته لهم مصاحبة

تنبيها بالاول على ذم مودة الاعداء سرا وجهرا وبالثاني على تأكيد ذمها

بنظره الشريف اليهم وتعليمه لهم وتلاوته عليهم فربما نظر الى الانسان نظرة محبة فزكاه الله تعالى بها بحسب القابليات والامور التى قضى الله تعالى ان تكون مهيآت فكان له اعشق فكان لاتباعه ألزم فكان فى كتاب الله وسنته أرسخ (ويعلمهم الكتاب) اى القرآن المنزل عليه الجامع لكل خير دينى ودنيوى فى الاولى والاخرى (والحكمة) وهى غاية الحكم الكتاب فى قوة فهمه والعمل به فهى العمل المزين بالعلم المتقن به وقال الحسن الكتاب القرآن والحكمة السنة وقال ابن عباس الكتاب الخط بالقلم والحكمة السنة لان الخط انما فشا فى العرب بالشرع لما أمروا بالتقييد بالخط وقال مالك بن أنس الحكمة الفقه فى الدين (وان) أى والحال أنهم (كانوا) أى كونا هو كالجبلة لهم (من قبل) أى قبل ارساله اليهم (لفى ضلال) أى بعد عن المقصود (مبين) أى ظاهر فى نفسه مناد لغيره انه ضلال باعتقادهم الاباطيل الظاهرة وظنهم انهم على شئ وعموم الجهل لهم ورضاهم به واختيارهم له وقوله تعالى (وآخرين منهم) فيه وجهان أحدهما انه مجرور عطفا على الاميين أى وبعث فى الآخرين من الاميين أى الموجودين والآتين منهم بعدهم (لما) أى لم (يلحقوا بهم) فى السابقة والفضل والثانى انه منصوب عطفا على الضمير المنصوب فى يعلمهم أى ويعلم آخرين لما يلحقوا بهم وسيلحقون وكل من تعلم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم الى آخر الزمان فرسول الله صلى عليه وسلم معلمه بالقوة لانه أصل ذلك الخير العظيم والفضل الجسيم *(تنبيه)* الذين لم يلحقوا بهم هم الذين لم يكونوا فى زمنهم وسيجيؤن بعدهم قال ابن عمر وسعيد بن جبير هم العجم وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم اذ نزلت عليه سورة الجمعة فلما قرأ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال رجل من هؤلاء يا رسول الله فلم يراجعه النبى صلى الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثا قال وفينا سلمان الفارسى قال فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال لو كان الايمان عند الثريا لتناوله رجل من هؤلاء وفى رواية لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجال من فارس أو قال من ابناء فارس حتى تتناوله وقال عكرمة هم التابعون وقال مجاهد هم الناس كلهم يعنى من بعد العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن زيد ومقاتل بن حيان هم من دخل فى الاسلام بعد النبى صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وروى سهل بن سعد الساعدى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى اصلاب أمتى رجالا ونساء يدخلون الجنة بغير حساب ثم تلا وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال ابن عادل والقول الاول أثبت وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال رأيتنى أسقى غنما سودا ثم اتبعتها غنما عفرا اولها يا أبا بكر قال يا نبى الله أما السود فالعرب وأما العفر فالعجم تتبعك بعد العرب فقال النبى صلى الله عليه وسلم كذلك أولها الملك يعنى جبريل عليه الصلاة والسلام رواه ابن ابى ليلى عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وهو على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه (وهو) أى والحال انه وحده (العزيز) أى الذى يقدر على كل ما أراده ولا يغلبه شئ فهو يزكى من يشاء ويعلمه ما أراد من أى طائفة كان ولو كان أجهل أهل تلك الطائفة لان الاشياء كلها بيده (الحكيم) فهو اذا أراد شيأ موافقا لشرعه وأمره جعله على أتقن الوجوه وأوثقها فلا يستطاع نقضه ومهما أراده كيف كان فلابد من انفاذه فلا يطاق رده بوجه ولما كان

مراوخص الاول بالعموم لتقدمه والباء بالمودة زائدة وقيل سببية والمفعول

هذا أمر ابا هر اعظمه بقوله تعالى على وجه الاستثمار من قدوته (ذلك) الامر العظيم الرتبة من تفضيل الرسول وقومه وجعلهم متبوعين بعد ان كان العرب اتباعا لاوزن لهم عند غيرهم من الطوائف (فضل الله) أى الذى له جميع صفات الكمال والفضل مالم يكن مستحقا بخلاف القرض (يؤتيه من يشاء) قال ابن عباس حيث الحق العجم بقريش وقال الكلبى يعنى الاسلام فضل الله يؤتيه من يشاء وقال مقاتل يعنى الوحى والنبوة وقيل انه المال ينفق فى الطاعة لما روى أبو صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه ان فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم فقال وماذاك فقالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولانتصدق ويعتقون ولانعتق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلا أعلمكم شيأ تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولايكون أحد أفضل منكم الامن صنع مثل ماصنعتم قالوا بلى يارسول الله قال تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة قال ابو صالح فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع اخواننا من أهل الاموال بمافعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقيل انه انقياد الناس الى تصديق النبى صلى الله عليه وسلم ودخولهم فى دينه ونصرته (والله) الملك المحيط بكل شئ قدرة وعلما (ذو الفضل العظيم) ولما ترك اليهود العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة) أى كلفوا والزموا حمل الكتاب الذى آتاه الله تعالى لبنى اسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام بان علمهم اياه سبحانه وكلفهم حفظ ألفاظها عن التغيير والنسيان ومعانيها عن التحريف والتلبيس وحدودها وأحكامها عن الاهمال والتضييع (ثم لم يحملوها) أى بان حملوا ألفاظها ولم يعملوا بمافيها من الوصية باتباع عيسى عليه الصلاة والسلام اذا جاءهم ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم اذا جاء فهى ضارة لهم بشهادتها عليهم فاذا لهم النار من غير نفع أصلا (كمثل) أى مثل مثل (الحمار) أى الذى هو أبلد الحيوان فهو مثل فى الغباوة حال كونه (يحمل أسفارا) أى كتبا كبارا من كتب العلم جمع سفر وهو الكتاب الكبير المسفر عمافيه فى عدم الانتفاع بها لانه يمشى ولايدرى منها الامايضر بجنبيه وظهره من الكد والتعب وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ومثل ذلك قول الشاعر

زوامل للاسفار لاعلم عندهم * بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك مايدرى البعير اذا غدا * باحماله أوراح مافى الغرائر

من انشاد الشيخ ابن الخباز (بئس مثل القوم) أى الذين لهم قوة شديدة على محاولة ما يريدون (الذين كذبوا) أى محمدا على علم (بآيات الله) أى دلالات الملك الاعظم على رسله ولاسيما محمد صلى الله عليه وسلم والمخصوص بالذم محذوف تقديره هذا المثل (والله) أى الذى له جميع صفات الكمال (لايهدى القوم) أى لايخلق الهداية فى قلوب الذين تعمدوا الزيغ (الظالمين) أى الذين تعمدوا الظلم بمنابذة الهدى الذى هو البيان الذى لم يدع لبسا حتى صار الظلم لهم صفة راسخة ولما ادعت اليهود الفضيلة وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه نزل قوله تعالى (قل) أى

محذوف والتقدير تلقون اليهم أخبار النبى صلى الله عليه وسلم بسبب المودة

ياأشرف الرسل (ياأيها الذين هادوا) أى تدينوا باليهودية (ان زعمتم) أى قلتم قولا هو معرض للتكذيب ولذلك أكذبتموه (انكم أولياء لله) أى الملك الاعلى الذى لا أمر لاحد معه خصكم بذلك خصوصية مبتدأة (من دون) أى ادنى رتبة من رتب (الناس) فلم تنفذ الولاية وتلك الرتبة فى الدنيا الى أحد منهم غيركم بل خصكم بذلك عن كل من فيه أهلية الحركة لاسيما الاميين (فتمنوا الموت) واخبروا عن أنفسكم بذلك للنقلة من دار البلاء الى محل الكرامة والآلاء (ان كنتم) أى كونا راسخا (صادقين) أى غريقين عند انفسكم فى الصدق فان من علامات المحبة الاشتياق الى المحبوب ومن المقطوع به ان من كان فى كدر وكان له ولى قد وعده عند الوصول اليه الراحة التى لا يشوبها ضرر تمنى النقلة الى وليه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم والذى نفسى بيده لا يقولها أحد منكم الا غص بريقه فلم يقلها منهم احد علما منهم بصدقه صلى الله عليه وسلم فلم يقولوا ولم يؤمنوا عنادا منهم ثم اخبر الله تعالى عنهم انهم لا يتمنونه فى المستقبل أيضا بقوله تعالى (ولا يتمنونه) أى فى المستقبل (أبدا بما قدمت أيديهم) أى بسبب ماقدموا من الكفر والمعاصى التى أحاطت بهم فلم تدع لهم حظا فى الآخرة *(تنبيه)* قال تعالى هنا ولا يتمنونه وفى البقرة ولن يتمنوه قال الزمخشرى لا فرق بين لا ولن فى ان كل واحدة منهما نفى للمستقبل الا أن فى ان تأكيدا وتشديدا ليس فى لا فاتى مرة بلفظ التأكيد ولن يتمنوه ومرة بغير لفظه ولا يتمنونه قال أبو حيان وهذا رجوع منه عن مذهبه وهو أن لن تقتضى النفى على التأبيد الى مذهب الجماعة وهى انها لا تقتضيه قال بعضهم وليس فيه رجوع غاية مافيه انه سكت عنه وتشريكه بين لا ولن فى نفى المستقبل لا ينفى اختصاص لن بمعنى آخر اه ودعواهم الولاية الى التوسل الى الجنة لا يلزم منها الاختصاص بالنعم بدليل ان الدنيا ليست خالصة للاولياء المحقق لهم الولاية بل البر والفاجر مشتركون فيها (والله) أى الذى له الاحاطة بكل شئ قدرة وعلما (عليم) بالغ العلم محيط بهم هكذا كان الاصل ولكنه تعالى قال (بالظالمين) تعميما وتعليقا بالوصف لا بالذات فالمعنى انه عالم باصحاب هذا الوصف الراسخين فيه منهم ومن غيرهم فهو مجازيهم على ظلمهم (قل) أى لهؤلاء ياأشرف الرسل (ان الموت الذى تفرون منه) بالكف عن التمنى (فانه ملاقيكم) أى لا تفوتونه لاحق بكم *(تنبيه)* فى هذه الفاء وجهان أحدهما انها داخلة لما تضمنه الاسم من معنى الشرط وحكم الموصوف بالموصول حكم الموصول فى ذلك قال الزجاج لا يقال ان زيدا فمنطلق وههنا قال فانه ملاقيكم لما فى معنى الذى من الشرط والجزاء أى ان فررتم منه فانه ملاقيكم ويكون مبالغة فى الدلالة على انه لا ينفع الفرار منه الثانى انها مزيدة محضة لا للتضمن المذكور ولما كان الحبس فى البرزخ أمر الابد منه مهولا نبه عليه وعلى طوله بأداة التراخى فقال تعالى (ثم تردون الى عالم الغيب) اى السر (والشهادة) اى العلانية أو كل ماغاب عن الخلق وكل ماشوهد (فينبئكم) اى يخبركم اخبارا عظيما مستقصى مستوفى (بما كنتم) أى بما هو لكم كالجبلة (تعملون) اى بكل جزء منه مما برز الى الخارج وبما كان فى جبلاتكم ولو بقيتم لفعلتموه ليجازيكم (ياأيها الذين آمنوا) اى اقروا بالسنتهم بالايمان (اذا نودى) اى من اى مناد كان من اهل النداء (للصلاة) اى صلاة الجمعة (من) اى فى (يوم الجمعة) كقوله تعالى أرونى ماذا خلقوا من الارض اى

(قوله التى بينكم وبينهم) قاله
قد كانت لكم أسوة
هنا بتأنيث الفعل مع
الفاصل

في الارض والمراد بهذا النداء الاذان عند قعود الامام على المنبر للخطبة لانه لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه كان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر أذن بلال وعن السائب بن يزيد قال كان النداء يوم الجمعة أوله اذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء وفي رواية فثبت الامر على ذلك وعن أبي داود قال كان يؤذن بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس يوم الجمعة على المنبر على باب المسجد وروي انه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد فكان اذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد فاذا نزل أقام الصلاة ثم كان أبو بكر وعمر وعلي بالكوفة على ذلك حتى اذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد أذانا آخر فامر بالتأذين الاول على داره التي تسمى زوراء فاذا سمعوا أقبلوا حتى اذا جلس عثمان على المنبر أذن الاذان الثاني الذي كان على زمن النبي صلى الله عليه وسلم فاذا نزل أقام الصلاة فلم يعب ذلك عليه لقوله صلى الله عليه وسلم عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي قال الماوردي أما الاذان الاول فمحدث فعله عثمان بن عفان ليتأهب الناس لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها وكان عمر أمر أن يؤذن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن سوقهم فاذا اجتمعوا أذن في المسجد فجعله عثمان أذانين في المسجد قال ابن العربي وفي الحديث الصحيح ان الاذان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا فلما كان زمن عثمان زاد النداء الثالث على الزوراء وسماه في الحديث ثالثا لانه اضافه الى الاقامة كقوله صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة لمن شاء يعني الاذان والاقامة ويتوهم بعض الناس انه أذان اصلي فجعلوا المؤذنين ثلاثة قال ابن عادل فكان وهما ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وهما على وهم واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة فمنهم من قال لان الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام روى مالك عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام وفيه أهبط وفيه مات وفيه تاب الله عليه وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم المزيد وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال أتاني جبريل وفي كفه مرآة بيضاء وقال هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولامتك من بعدك وهو سيد الايام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد ومنهم من قال لان الله تعالى فرغ من خلق الاشياء فاجتمعت فيه المخلوقات ومنهم من قال لاجتماع الجماعات فيه للصلاة وقيل أول من سمى هذا اليوم جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلمة أول من قال أما بعد كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة جمعة وكان يقال له يوم العروبة وعن ابن سيرين قال جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وقبل ان تنزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة وقيل ان الانصار قالوا اليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك فهلموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله تعالى فيه ونصلي فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الاحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا الى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ثم أنزل الله تعالى آية الجمعة فهي أول جمعة كانت في الاسلام وروى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب انه كان

اقربه وان جاز التذكير
واعاده في قوله لقد كان
لكم فيهم أسوة بتذكير

اذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة فقلت له اذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة قال لانه أول من جمع بنا في هزم النبيت من حرة بني بياضة في نقيع يقال له نقيع الخضمات قلت له كم كنتم يومئذ قال أربعين أخرجه أبو داود وأما أول جمعة جمعها النبي صلى الله عليه وسلم باصحابه فقال أهل السير لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مهاجرا نزل قباء على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول حين اشتد الضحى ومن تلك السنة يعد التاريخ فاقام بها الى يوم الخميس وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامدا المدينة فادركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجدا فجمع بهم وخطب وهي أول خطبة خطبها بالمدينة وقال فيها الحمد لله أحمده واستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادي من يكفر به وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة والحكمة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الاجل من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا اوصيكم بتقوى الله فان خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يامره بتقوى الله واحذروا ما حذركم الله من نفسه فان تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه عنوان صدق على ما تبغون من الآخرة ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي به الا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد وهو الذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فانه يقول ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فانه من يتق الله يكفر عنه سيآته ويعظم له أجرا ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما وان تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته وتوقي سخطه وان تقوى الله تبيض الوجه وترضي الرب وترفع الدرجة فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله فقد علمكم في كتابه وأوضح لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين وأحسنوا كما أحسن الله اليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولا حول ولا قوة الا بالله فاكثروا ذكر الله تعالى واعملوا لما بعد الموت فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ذلك بان الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه الله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قال بعضهم قد أبطل الله تعالى قول اليهود في ثلاث افتخروا بانهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم في قوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين وبانهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم الله بالحمار يحمل أسفارا وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم يوم الجمعة *(تنبيه)* سمى الله تعالى الخطبة ذكراله قال أبو حنيفة ان اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكر الله كقوله الحمد لله سبحان الله جاز وعن عثمان انه صعد المنبر فقال الحمد لله فارتج عليه فقال ان أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وانكم الى امام فعال أحوج منكم الى امام قوال

قوله أربعين كذا بالاصل المطبوع وفي نسخة خط واخرى كذلك من أبي داود أربعون اه مصححه

مع الفاصل لكثرته وان جاز التأنيث وانما كرر ذلك لان الاول في القول

وسماتيكم الخطب ثم نزل وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد وعند صاحبيه والشافعى لابد من كلام يسمى خطبة ولها أركان وشروط مذكورة فى الفقه (فان قيل) كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر غير الله (أجيب) بان ما كان من ذكر رسوله والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو فى حكم ذكر الله وأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحق بعكس ذلك فمن ذكر الشيطان وهو من ذكر الله على مراحل فان المنصت للخطبة اذا قال لصاحبه صه فقد لغا أفلا يكون الخطيب الغالى فى ذلك لاغيا نعوذ بالله من غربة الاسلام ومن نكد الايام وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بالجمعة دون الكافرين تشريفا لهم وتكريما فقال يا أيها الذين آمنوا ثم خصه بالنداء وان كان قد دخل فى عموم قوله تعالى واذا ناديتم الى الصلاة ليدل على وجوبه وتأكد فرضه وقال بعض العلماء كون الصلاة الجمعة ههنا معلوم بالاجماع لا من نفس اللفظ وقال ابن العربى وعندى انه معلوم من نفس اللفظ بنكتة وهى قوله تعالى من يوم الجمعة وذلك يفيده لان النداء الذى يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة وأما غيرها فهو عام فى سائر الايام ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها واضافته اليها معنى فلا فائدة فيه واختلف فى معنى قوله تعالى (فاسعوا) أى لتكونوا أولياء الله ولا تتهاونوا فى ذلك فقال الحسن والله ما هو سعى على الاقدام ولكنه سعى بالقلوب والنية وقال الجمهور السعى العمل لقوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وقوله تعالى ان سعيكم لشتى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وانتم تسعون ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاقضوا واختلفوا أيضا فى معنى قوله تعالى (الى ذكر الله) أى الملك الاعظم فقال سعيد بن المسيب هو موعظة الامام وقال غيره الخطبة والصلاة المذكرة بالملك الاعظم الذى من انقطع عن خدمته هلك ٠ ولما أمر بالمبادرة الى تجارة الآخرة قال تعالى ناهيا عن تجارة الدنيا التى تعوق عن الجمعة (وذروا البيع) أى اتركوا البيع والشراء لان اسم البيع يتناولهما جميعا وانما يحرم البيع والشراء عند الاذان الثانى وقال الزهرى عند خروج الامام وقال الضحاك اذا زالت الشمس حرم البيع والشراء وانما خص البيع من بين الامور الشاغلة عن ذكر الله تعالى لان يوم الجمعة يوم تهبط الناس فيه من بواديهم وقراهم وينصبون الى المصر من كل أوب ووقت هبوطهم واجتماعهم واغتصاص الاسواق بهم اذا انتفخ النهار وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة وحينئذ تحر التجارة ويتكاثر البيع والشراء فلما كان ذلك الوقت مظنة للذهول بالبيع عن ذكر الله والمضى الى المسجد قيل لهم بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا الى ذكر الله (ذلكم) أى الامر العالى الرتبة من فعل السعى وترك الاشتغال بالدنيا (خير لكم) لان الامر الذى أمركم به الذى له الامر كله وهو يريد تطهيركم فى اديانكم وأبدانكم وأموالكم وبيده اسعادكم واشقاؤكم (فان قيل) اذا كان البيع فى هذا الوقت محرما فهل هو فاسد (أجيب) بان عامة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع قالوا لان البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة فى الارض

والثانى فى الفعل وقيل الاول فى ابراهيم والثانى فى محمد صلى الله عليه

المغصوبة والثوب المغصوب والوضوء بماء مغصوب وعن بعض الناس انه فاسد وزاد في الحث
على ذلك بقوله تعالى (ان كنتم) أي بما هو لكم كالجبلة (تعلمون) اى يتجدد لكم علم في يوم
من الايام فانتم ترون ذلك خيرا فاذا علمتموه خيرا أقبلتم عليه فكان ذلك خيرا لكم وصلاة
الجمعة فرض عين تجب على كل من جمع الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورة
والاقامة اذا لم يكن له عذر مما ذكره الفقهاء ومن تركها استحق الوعيد قال صلى الله عليه وسلم
لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله تعالى على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين وروى
أنه صلى الله عليه وسلم قال من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونا بها طبع الله تعالى على قلبه قال
ابن عادل ونقل عن بعض الشافعية ان الجمعة فرض على الكفاية أما من به عذر يعذر به
في ترك الجماعة كما هو المشهور فهذا فلا تجب عليه وتجب على أعمى وجد قائدا وشيخ هرم وزمن
وجد اما مركبا لا يشق ركوبه عليهما واختلف أهل العلم في موضع اقامة الجمعة وفي العدد الذي
تنعقد به الجمعة وفي المسافة التي يجب أن يؤتى منها فذهب قوم الى أن كل قرية اجتمع فيها
أربعون رجلا بالصفة المتقدمة تجب عليهم اقامة الجمعة فيها وهو قول عبد الله بن عمر وعمر
ابن عبد العزيز وبه قال الشافعي وأحمد واسحق قالوا لا تنعقد به الجمعة باقل من اربعين رجلا
على هذه الصفة وشرط عمر بن عبد العزيز مع الاربعين أن يكون فيهم وال وعند أبي حنيفة
تنعقد باربعة والوالي شرط ولا تقام عنده الا في مصر جامع وقال الاوزاعي وأبو يوسف تنعقد
بثلاثة ان كان فيهم وال وقال الحسن وأبو ثور تنعقد باثنين كسائر الصلوات وقال
شعبة تنعقد باثني عشر رجلا ولا تجب الجمعة على أهل البوادي الا اذا سمعوا النداء من موضع
تقام فيه الجمعة فيلزمهم الحضور وان لم يسمعوا فلا جمعة عليهم وبه قال الشافعي وأحمد واسحق
والشرط أن يبلغهم نداء مؤذن جهوري الصوت في وقت تكون الاصوات هادئة والرياح
ساكنة فكل قرية تكون من موضع الجمعة في القرب على هذا القدر يجب على أهلها حضور
الجمعة وقال سعيد بن المسيب تجب الجمعة على من آواه المبيت قال الزهري تجب على من كان
على ستة أميال وقال ربيعة على أربعة أميال وقال مالك والليث على ثلاثة أميال وقال
أبو حنيفة لا جمعة على أهل البوادي سواء كانت القرية قريبة أم بعيدة دليل الشافعي ومن
وافقه ما روى البخاري عن ابن عباس أن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله صلى
الله عليه وسلم في مسجد عبد القيس بجواثى من البحرين ولابي داود نحوه وفيه بجواثى قرية من
قرى البحرين •(تنبيه)• فضل يوم الجمعة مشهور وأحاديثه كثيرة مشهورة تقدم بعضها
ومنها ان الله يعتق في كل جمعة ستمائة عتيق من النار وعن كعب ان الله تعالى فضل من
البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الايام الجمعة وقال صلى الله عليه وسلم من مات يوم
الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقي فتنة القبر وفي الحديث اذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة
على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الاول فالاول على
مراتبهم قال الزمخشري وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة
بالمبكرين الى الجمعة يمشون بالسرج وقيل أول بدعة أحدثت في الاسلام ترك البكور الى
الجمعة وعن ابن مسعود أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه ويقول أراك

وسلم (قوله الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك) مستثنى من قوله

رابع أربعة وما رابع أربعة ببعيد وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة أي مثل غسلها ثم راح في الساعة الاولى كأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فاذا خرج الامام حضرت الملائكة يستمعون الذكر وروى النسائي في الخامسة كالذي يهدي عصفورا وفي السادسة بيضة فمن جاء في اول ساعة منها ومن جاء في آخرها اشتركا في تحصيل البدنة مثلا لكن بدنة الاول أكمل من بدنة الآخر وبدنة المتوسط متوسطة وهذا في حق غير الامام أما هو فيسن له التأخير الى وقت الخطبة اتباعا للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ويسن اكثار الدعاء يومها وليلتها أما يومها فلرجاء أن يصادف ساعة الاجابة وهي ساعة خفية وارجاها من جلوس الخطيب الى آخر الصلاة كما في خبر مسلم قال النووي وأما خبر يوم الجمعة ثنتا عشرة ساعة فيه ساعة لا يوجد مسلم يسأل الله شيأ الا أعطاه اياه فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر فيحتمل ان هذه الساعة منتقلة تكون يوما في وقت ويوما في آخر كما هو المختار في ليلة القدر وأما ليلتها فبالقياس على يومها وقد قال الشافعي بلغني ان الدعاء يستجاب في ليلة الجمعة ويسن اكثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في يومها وليلتها لخبر أكثروا علي من الصلاة ليلة الجمعة ويوم الجمعة فمن صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا واكثار قراءة سورة الكهف يومها وليلتها لخبر من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق وخبر من قرأها يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين وفي هذا القدر كفاية ولما حث على الصلاة وارشد الى أن وقتها لا يصلح لطلب شئ غيرها بين اهم وقت المعاش بقوله تعالى (فاذا قضيت الصلوة) أي وقع الفراغ منها على أي وجه كان (فانتشروا) أي فدبوا وتفرقوا مجتهدين (في الارض) أي جميعها للتجارة والتصرف في حوائجكم ان شئتم لا جناح عليكم ولا حرج رخصة من الله تعالى لكم (وابتغوا) أي اطلبوا الرزق (من فضل الله) أي الذي بيده كل شئ ولا شئ لغيره وهذا أمر اباحة كقوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا قال ابن عباس ان شئت فاخرج وان شئت فاقعد وان شئت فصل الى العصر وقيل فانتشروا في الارض ليس لطلب دنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله تعالى وقال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم (واذكروا الله) أي الذي له الامر كله (كثيرا) أي بحيث لا تغفلون عنه بقلوبكم أصلا ولا بألسنتكم حتى عند الدخول الى الخلاء وعند أول الجماع واستثنى من الثاني وقت التلبس بالقذر كوقت قضاء الحاجة والجماع (لعلكم تفلحون) أي تفوزون بالجنة والنظر الى وجهه الكريم وعن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشأم فانفتل الناس اليها حتى لم يبق الا اثنا عشر رجلا وفي رواية أنا فيهم فأنزل الله تعالى (واذا رأوا تجارة) أي حمولا هي موضع التجارة (أو لهوا) أي ما يلهي عن كل نافع (انفضوا) أي نفروا متفرقين من العجلة (اليها) أي التجارة لانها مطلوبهم دون اللهو وأيضا العطف بأو فافراد الضمير أولى وقال الزمخشري

اسوة حسنة وقوله
وما املك لك من الله من
شئ ليس مستثنى وانما

تقديره اذا رأوا تجارة انفضوا اليها أو لهوا انفضوا اليه فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه وذكر الكلبي وغيره ان الذى قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من الشام عن مجاعة وغلاء سعر وكان معه جميع ما يحتاج اليه الناس من بر ودقيق وغيره فنزل عند أحجار الزيت وضرب الطبل ليؤذن الناس بقدومه فخرج الناس الا اثنى عشر رجلا وقيل احد عشر رجلا وقال ابن عباس فى رواية الكلبي لم يبق فى المسجد الا ثمانية رهط وقال الحسن وأبو مالك أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فلما رأوه قاموا اليه بالبقيع خشوا أن يسبقوا اليه فلم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم الا رهط منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادى نارا وقال مقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة اذ قدم دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة وكان اذا قدم المدينة لم يبق بالمدينة عاتق الا أتته وكان يقدم بكل ما يحتاج اليه من دقيق وغيره فينزل عند أحجار الزيت وكانت فى سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فخرج اليه الناس ليتبايعوا منه فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب فخرج اليه الناس ولم يبق فى المسجد الا اثنا عشر رجلا وامرأة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لولا هؤلاء لرميت عليهم الحجارة من السماء وأنزل الله تعالى هذه الآية والمراد باللهو الطبل وقيل كانت العير اذا قدمت المدينة استقبلوها بالطبل والتصفيق وقال علقمة سئل عبد الله أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قائما أو قاعدا فقال أما تقرأ وتركوك قائما وعن جابر بن عبد الله قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة خطبتين قائما يفصل بينهما بجلوس وذكر أبو داود فى مراسيله السبب الذى ترخصوا لانفسهم فى ترك سماع الخطبة وقد كانوا خليقا لفضلهم أن لا يفعلوا فقال حدثنا محمد بن خالد قال حدثنا الوليد قال أخبرنى أبو معاذ بكير بن معروف انه سمع مقاتل ابن حيان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الجمعة قبل الخطبة كالعيدين حتى كان يوم جمعة والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل يقال له دحية بن خليفة قدم بتجارة وكان دحية اذا قدم تلقاه أهله بالدفوف فخرج الناس فلم يظنوا الا أنه ليس فى ترك الخطبة شئ فأنزل الله تعالى هذه الآية فقدم النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة الخطبة وأخر الصلاة فكان لا يخرج أحد لرعاف أو حدث بعد النهى حتى يستأذن النبى صلى الله عليه وسلم يشير اليه باصبعه التى تلى الابهام فيأذن له النبى صلى الله عليه وسلم ثم يشير اليه بيده فكان فى المنافقين من تثقل عليه الخطبة والجلوس فى المسجد فكان اذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق الى جنبه مستترا به حتى يخرج فأنزل الله تعالى قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا الآية قال السهيلى وهذا الخبر وان لم ينقل من وجه ثابت فالظن الجميل بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوجب أن يكون صحيحا وقال قتادة وبلغنا انهم فعلوه ثلاث مرات كل مرة عير تقدم من الشام وكل ذلك يوافق يوم الجمعة وقيل ان خروجهم لقدوم دحية بتجارته

ذكر ان كونه تمام قول ابراهيم عليه السلام كأنه قال انما استغفر

ونظرهم الى العير وهي تمراه ولا فائدة فيه الا انه كان مما لا اثم فيه لو وقع على ذلك الوجه ولكنه لما اتصل به الاعراض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والانفضاض عن حضرته غلظ وكبر ونزل فيه من القرآن وتهجينه باسم اللهو مانزل وقوله تعالى (وتركوك) أى تخطب حتى بقيت في اثنى عشر رجلا قال جابر أنا أحدهم (قائما) جملة حالية من فاعل انفضوا أو قدمة قدرة عند بعضهم *(تنبيه)* في قوله تعالى قائما تنبيه على مشروعيته في الخطبتين وهو من الشروط للقادر على القيام وأما أركانهما الخمسة حمد الله تعالى وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظهما ووصية بتقوى الله وهذه الثلاثة في كل من الخطبتين وقراءة آية مفهمة ولو في احداهما والاولى أولى ودعاء للمؤمنين والمؤمنات في ثانية ومن الشروط كونهما عربيتين وكونهما في الوقت وولاء وطهر وستر كالصلاة (قل) يا أشرف الخلق للمؤمنين (ماعند الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (خير) ما موصولة مبتدأ وخير خبرها (من اللهو ومن التجارة) والمعنى ماعند الله تعالى من ثواب صلاتكم خير من لذة لهوكم وفائدة تجارتكم وقيل ماعند الله من رزقكم الذي قسمه لكم خير مما اقتسمتموه من لهوكم وتجارتكم (والله) أى ذو الجلال والاكرام وحده (خير الرازقين) أى خير من رزق وأعطى فاطلبوا منه واستعينوا بطاعته على نيل ماعنده من خيري الدنيا والآخرة وماقاله البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الجمعة أعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ومن لم يأتها في أمصار المسلمين حديث موضوع

لك وليس في طاقتي الا الاستغفار

سورة المنافقين مدنية

(وهي احدى عشرة آية ومائة وثمانون كلمة وسبعمائة وستة وسبعون حرفا)

(بسم الله) الذي له الاحاطة العظمى علما وقدرة (الرحمن) الذي ستر بعموم رحمته من أراد من عباده (الرحيم) الذي وفق أهل وده لما يحبه ويرضاه (اذا جاءك) يا أيها الرسول المبشر بك في التوراة والانجيل وقرأ حمزة وابن ذكوان بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف حمزة سهل الهمزة مع المد والقصر وله أيضا ابدالها الفا مع المد والقصر (المنافقون) أى العريقون في وصف النفاق وهم عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه (قالوا) مؤكدين لاجل استشعارهم بتكذيب من يسمعهم لما عندهم من الارتياب (نشهد) قال الحسن هو بمنزلة اليمين كأنهم قالوا نقسم (انك لرسول الله) أى الملك الذي له الاحاطة الكاملة فوافقوا الحق بظاهر أحوالهم وخالفوا بقلوبهم وأفعالهم وقوله تعالى (والله يعلم) أى وعلمه هو العلم في الحقيقة وأكد سبحانه بحسب انكار المنافقين فقال تعالى (انك لرسوله) سواء أشهد المنافقون بذلك أم لا فالشهادة بذلك حق ممن يطابق لسانه قلبه جملة معترضة بين قولهم نشهد انك لرسول الله وبين قوله تعالى والله يشهد لفائدة قال الزمخشري لو قال قالوا نشهد انك لرسول الله والله يشهد انهم لكاذبون لكان يوهم ان قولهم هذا كذب فوسط بينهما قوله والله يعلم انك لرسوله ليميط هذا الايهام (والله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (يشهد) شهادة هي الشهادة لانها محيطة بدقائق الظاهر والباطن (ان المنافقين) اى الراسخين في وصف النفاق (لكاذبون)

اى فى اخبارهم عن انفسهم انهم يشهدون لان قلوبهم لا تطابق السنتهم فهم لا يعتقدون ذلك ومن شرط قول الحق ان يتصل ظاهره بباطنه وسره بعلانيته ومتى تخالف ذلك فهو كذب الا ترى انهم كانوا يقولون بالسنتهم نشهد انك لرسول الله وسماه الله تعالى كذبا لان قولهم خالف اعتقادهم (اتخذوا أيمانهم) اى كلها من شهادتهم وكل يمين سواها (جنة) اى سترة عن اموالهم ودمائهم روى البخارى عن زيد بن ارقم قال كنت مع عمى فسمعت عبد الله بن أبى ابن سلول يقول لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فذكرت ذلك لعمى فذكره عمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عبد الله بن أبى وأصحابه فحلفوا ما قالوا فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبنى فاصابنى هم لم يصبنى مثله فجلست فى بيتى فانزل الله عز وجل اذا جاءك المنافقون الى قوله تعالى هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله وقوله ليخرجن الاعز منها الاذل فارسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ان الله قد صدقك وروى الترمذى عن زيد بن ارقم قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معنا اناس من الاعراب فكنا نبتدر الماء وكان الاعراب يسبقونا فيسبق الاعرابى أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه قال فأتى رجل من الانصار اعرابيا فارخى زمام ناقته لتشرب فابى ان يدعه فانتزع حجرا ففاض الماء فرفع الاعرابى خشبة فضرب بها راس الانصارى فشجه فأتى عبد الله بن أبى راس المنافقين فأخبره وكان من اصحابه فغضب عبد الله بن أبى ثم قال لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله يعنى الاعراب وكانوا يحضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الطعام فقال عبد الله اذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمدا بالطعام فليأكل هو ومن عنده ثم قال لاصحابه لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل قال زيد وأنا ردف عمى فسمعت عبد الله بن أبى فاخبرت عمى فانطلق فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فارسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف وجحد قال فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبنى قال فجاء عمى الى فقال ما اردت الا ان مقتك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبك المنافقون قال فوقع على من جراءتهم ما لم يقع على أحد قال فبينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر قد خفقت رأسى من الهم اذ اتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرك أذنى وضحك فى وجهى فما كان يسرنى ان لى بها الخلد فى الدنيا ثم ان أبا بكر لحقنى فقال ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت ما قال لى شيئا الا أنه عرك أذنى وضحك فى وجهى فقال أبشر ثم لحقنى عمر فقلت له مثل قولى لابى بكر فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المنافقين قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وروى انه صلى الله عليه وسلم حين لقى بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه وسنان الجهنى حليف لعبد الله بن أبى واقتتلا فصرخ جهجاه يا للمهاجرين وسنان يا للانصار فاعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا فقال عبد الله لجعال وأنت هناك

وقال

(سورة الصف)

(قوله وقد تعلمون انى رسول الله اليكم) فائدة ذكر قد التأكيد والتكثير

وقال ما صحبنا محمدا الا لنلطم وجوهنا والله ما مثلنا ومثلهم الا كما قال القائل سمن كلبك
يأكلك أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل عنى بالاعز نفسه وبالاذل
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لقومه ماذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم
أموالكم أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولاوشكوا
ان يتحولوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو
حدث فقال أنت والله الذليل القليل المبغض فى قومك ومحمد فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين
فقال عبد الله اسكت فانما كنت ألعب فاخبر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر دعنى
اضرب عنق هذا المنافق يارسول الله فقال اذن ترعد أنف كثيرة بيثرب قال فان كرهت ان يقتله
مهاجرى فأمر به انصاريا قال فكيف اذا تحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه وقال صلى الله
عليه وسلم لعبد الله أنت صاحب الكلام الذى بلغنى قال والله الذى أنزل عليك الكتاب
ماقلت شيأ من ذلك وان زيدا الكاذب فهو قوله تعالى اتخذوا أيمانهم جنة فقال الحاضرون
يارسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم وروى انه صلى
الله عليه وسلم قال له لعلك غضبت عليه قال لا قال فلعله أخطأ سمعك قال لا قال فلعله شبه عليك
قال لا فلما نزلت لحق صلى الله عليه وسلم زيدا من خلفه فعرك اذنه وقال وعت اذنك ياغلام ان
الله قد صدقك وكذب المنافقين ＊(تنبيه)＊ سئل حذيفة بن اليمان عن المنافق فقال الذى
يصف الايمان ولا يعمل به وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث
اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان وروى عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه
وسلم قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من
النفاق حتى يدعها اذا اؤتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وروى عن
الحسن انه ذكر هذا الحديث فقال ان بنى يعقوب حدثوا فكذبوا ووعدوا فأخلفوا واؤتمنوا
فخانوا انما هذا القول من النبى صلى الله عليه وسلم على سبيل الانذار للمسلمين والتحذير لهم ان
يعتادوا هذه الخصال شفقة ان تفضى بهم الى النفاق وليس المعنى أن من بدرت منه هذه
الخصال من غير اختيار واعتياد انه منافق وقال عليه الصلاة والسلام المؤمن اذا حدث صدق
واذا وعد نجز واذا اؤتمن وفى والمعنى المؤمن الكامل (فصدوا) أى فسبب لهم اتخاذهم هذا
ان أعرضوا بأنفسهم مع سوء البواطن وحرارة ما فى الصدور وحملوا غيرهم على الاعراض (عن
سبيل الله) أى عن طريق الملك الاعظم الذى شرعه لعباده ليصلوا به الى محل رضوانه ووصلوا
الى ذلك بخداعهم ومكرهم بجراءتهم على الايمان الخائنة (انهم ساء ما كانوا) أى جبلة
وطبعا (يعملون) أى يجددون عمله مستمرين عليه بما هو كالجبلة من جراءتهم على الله ورسوله
صلى الله عليه وسلم وخلص عباده بالايمان الخائنة ولما كانت المعاصى تعمى القلوب
فكيف باعظمها علله بقوله تعالى (ذلك) أى سوء عملهم (بأنهم آمنوا ثم كفروا) (فان قيل)
ان المنافقين لم يكونوا الا على الكفر الثابت الدائم فما معنى قوله تعالى آمنوا ثم كفروا (أجيب)
بثلاثة أوجه أحدها آمنوا أى نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الاسلام
ثم كفروا أى ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما اطلع عليه من قولهم ان كان ما يقول محمد حقا

كما تكون للتقليل (قوله ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد) ان قلت

فنصن نمير وقولهم فى غزوة تبوك أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات ونحوه قوله يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم أى وظهر كفرهم بعد أن أسلموا ونحوه لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم والثانى آمنوا أى نطقوا بالايمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالاسلام بقوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا الى قوله انما نحن مستهزؤن وهذا اعلام من الله تعالى بان المنافقين كفار الثالث ان يراد ان ذلك فى قوم آمنوا ثم ارتدوا (فطبع) أى فحصل الطبع وهو الختم مع انه معلوم أنه لا يقدر على ذلك غيره سبحانه (على قلوبهم) أى لاجل اجترائهم على ما هو أكبر الكبائر على وجه النفاق (فهم) أى فتسبب عن ذلك انهم (لا يفقهون) أى لا يقع لهم فقه فى شئ من الاشياء فهم لا يميزون صوابا من خطأ ولا حقا من باطل (واذا رأيتهم) أى أيها الرسول على مالك من الفطنة ونفوذ الفراسة أو أيها الرائى كائنا من كان بعين البصر (تعجبك أجسامهم) لضخامتها وصباحتها فان غاية كلهم الصلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق قال ابن عباس كان ابن أبى جسيما صحيحا فصيحا ذلق اللسان وقوم من المنافقين فى مثل صفته وهم رؤساء المدينة وكانوا يحضرون مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ويستندون فيه ولهم جهارة المناظر وفصاحة الالسن وكان النبى صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم (وان يقولوا) أى يوجد منهم قول فى وقت من الاوقات (تسمع لقولهم) أى لفصاحته فيلذ السمع ويروق الفكر (كأنهم) أى فى حسن ظواهرهم وسوء بواطنهم وفى عدم الانتفاع بهم فى شئ (خشب) جمع كثرة لخشبة وهو دليل على كثرتهم (مسندة) أى قطعت من مغارسها ممالة الى الجدار وقرأ أبو عمرو والكسائى بسكون الشين والباقون بضمها (يحسبون) أى لضعف عقولهم وكثرة ارتيابهم لكثرة ما يباشرون من سوء أعمالهم (كل صيحة) أى من نداء مناد فى انشاد ضالة أو انفلات دابة أو نحو ذلك واقعة (عليهم) وضارة لهم لجبنهم وهلعهم لما فى قلوبهم من الرعب ان ينزل فيهم ما يبيح دماءهم ومنه أخذ الاخطل

مازلت تحسب كل شئ بعدهم * خيلا تكر عليهم ورجالا

ومنه قول الآخر

كأن بلاد الله وهى عريضة * على الخائف المطلوب كفة حابل
يخال اليه ان كل ثنية * يممها ترمى اليه بقاتل

(هم العدو) أى الكامل العداوة بما دل عليه الاخبار بالمفرد الذى يقع على الجمع اشارة الى انهم فى شدة عداوتهم للاسلام وأهله وكمال قصدهم وشدة سعيهم فيه على قلب رجل واحد وان أظهروا التودد فى الكلام والتقرب به الى أهل الاسلام فان ألسنتهم معكم اذا لقوكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم فهم عيون لهم عليكم (فاحذرهم) لان أعدى عدوك من يباشرك وتحت ضلوعه الداء لكنه يكون بلطف قهده انم الخذلان منكوسا فى أكثر تقلباته بيد القهر والحرمان لسر قوله تعالى (قاتلهم الله) أى أحلهم الملك المحيط قدرة وعلما محل من يقاتله عدو قاهر له أشد مقاتلة على عادة الفعل الذى يكون بين اثنين وقال ابن عباس

كيف خص عتبى احمد بالذكر دون محمد مع انه اشهر اسمائه النبى صلى الله

أى لعنهم الله وقال ابو مالك هى كلمة ذم وتوبيخ وقد تقول العرب قاتله الله ما أشعره فيضعونه موضع التعجب (أنى) أى كيف ومن أى جهة (يؤفكون) اى يصرفهم عن قبح ماهم عليه صارف ما كان لهم ان يرجعوا عماهم عليه وقال ابن عباس أنى يؤفكون أى يكذبون وقال مقاتل أى يعدلون عن الحق وقال الحسن يصرفون عن الرشد وقيل معناه كيف تضل عقولهم عن هذا مع وضوح الدلائل وهو من الافك (واذا قيل لهم) أى من أى قائل كان (تعالوا) أى ارفعوا أنفسكم مجتهدين فى ذلك بالمجىء الى أشرف الخلق الذى لايزال مكانه عاليا العلو مكانته (يستغفر لكم) أى يطلب الغفران لاجلكم خاصة من أجل هذا الكذب أى الذى أنتم مصرون عليه (رسول الله) أى أقرب الخلق الى الملك الاعظم الذى لاشبيه لوجوده (لووا رؤسهم) أى فعلوا اللى بغاية الشدة والكثرة وهو الصرف الى جهة أخرى اعراضا وعتوا واظهارا للبغض والنفرة (ورأيتهم) أى بعين البصيرة (يصدون) أى يعرضون اعراضا قبيحا عمادعوا اليه مجددين لذلك كلما دعوا اليه والجملة فى موضع المفعول الثانى لرأيت (وهم مستكبرون) أى ثابتو الكبر عمادعوا اليه وعن احلال أنفسهم فى محل الاعتذار فهم لشدة غلظهم لايدركون قبح ماهم عليه ولايهتدون الى دوائه واذا أرشدهم غيرهم ونبههم لا ينتبهون فقد روى أنه لما نزل القرآن فيهم أتاهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا ويحكم افتضحتم وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبوا اليه من النفاق واسألوه أن يستغفر لكم فلووا رؤسهم أى حركوها اعراضا وإباء قاله ابن عباس وعنه انه كان لعبد الله بن أبى موقف فى كل سبت يحض على طاعة الله وطاعة رسوله فقيل له وما ينفعك ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليك غضبان فأته يستغفر لك فأبى وقال لا أذهب اليه وروى ان ابن أبى رأسهم لوى رأسه وقال لهم أشرتم على بالايمان فآمنت وأشرتم على بان أعطى زكاة مالى ففعلت ولم يبق الا أن تامرونى بالسجود لمحمد فنزل واذا قيل لهم تعالوا الآية ولم يلبث الا أياما قلائل حتى اشتكى ومات ولما كان صلى الله عليه وسلم يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم وربما ندبه الى ذلك بعض أقاربهم قال تعالى منبها على أنهم ليسوا باهل للاستغفار لانهم لايؤمنون (سواء عليهم أستغفرت لهم) استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل (أم لم تستغفر) الله (لهم) اى سواء عليهم الاستغفار وعدمه لانهم لا يلتفتون اليه ولايعتدون به لكفرهم (لن يغفر الله) اى الملك الاعظم (لهم) لرسوخهم فى الكفر (ان الله) اى الذى له كمال الصفات (لايهدى القوم) اى الناس الذين لهم قوة فى أنفسهم على ما يريدونه (الفاسقين) أى لانهم لاعذر لهم فى الاصرار على الفسق وهو المروق من حصن الاسلام بخرقه وهتكه مرة بعد مرة والقرن عليه حتى استحكم فهم راسخون فى النفاق والخروج عن مظنة الاصلاح (هم) أى خاصة بخالص بواطنهم (الذين يقولون) أى أوجدوا هذا القول للانصار ولايزالون يجددونه لانهم كانوا مربوطين بالاسباب محجوبين عن شهود التقدير (لاتنفقوا) اى أيها المخلصون فى النصرة (على من) اى الذين (عند رسول الله) أى الملك المحيط بكل شىء وهم فقراء المهاجرين (حتى ينفضوا) أى يتفرقوا فيذهب كل أحد منهم الى أهله وشغله الذى كان له قبل ذلك قال البقاعى وما درى الاجلاف أنهم لو فعلوا ذلك

(قلت) خصه عليه وسلم بالذكر لانه فى الانجيل مسمى بهذا الاسم ولان

أتاح الله تعالى غيرهم للانفاق أو امر رسوله صلى الله عليه وسلم فدعا فى الشئ اليسير فصار كثيرا أو كان بحيث لا ينفد أو اعطى كلا يسيرا من طعام على كيفية لا ينفد معها كتمر أبي هريرة وشعير عائشة وعكة أم أيمن وغير ذلك كما روى غير مرة ولكن من يضلل الله فما له من هاد ولذلك عبر فى الرد عليهم بقوله تعالى (ولله) أى قالوا ذلك واستمروا على تجديد قوله والحال ان للملك الذى لا أمر لغيره (خزائن السموات) أى كلها (والارض) كذلك من الاشياء المعدومة الداخلة تحت مقدوره انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون ومن الاشياء التى أوجدها فهو يعطى من يشاء منها حتى مما فى أيديهم لا يقدر أحد على منع شئ من ذلك لا مما فى يده ولا مما فى يد غيره ونبه على سوء غباوتهم وأنهم تقيدوا بالوهم حتى سفلوا عن رتبة البهائم كما قال بعضهم ان كان محمد صادقا فنحن شر من البهائم بقوله تعالى (ولكن المنافقين) أى العريقين فى وصف النفاق (لا يفقهون) اى لا يتجدد لهم فهم أصلا كالبهائم بل هم أضل لان البهائم اذا رأت شيأ ينفعها يوما فى مكان طلبته مرة أخرى وهؤلاء مرارا وأغيرهم مما أخرج الله تعالى من خوارق البركات على يد رسوله صلى الله عليه وسلم فلم ينفعهم ذلك ودل على عدم نفعهم بقوله تعالى (يقولون) أى يوجدون هذا القول ويجددونه مؤكدين لاستشعارهم بان أكثر قومهم ينكره (لئن رجعنا) أى أيتها العصابة المنافقة (الى المدينة) اى من غزاتنا هذه وهى غزوة بنى المصطلق حى من هذيل خرج اليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد الى الساحل (ليخرجن الاعز) يعنون أنفسهم (منها) اى المدينة (الاذل) يعنون النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم كاذبون فى هذا لكونهم تصوروا الشدة غباوتهم ان العزة لهم وانهم يقدرون على اخراج المؤمنين (ولله) أى والحال ان كل من له نوع بصيرة يعلم ان الملك الاعلى هو الذى له وحده (العزة) اى الغلبة كلها (ولرسوله) لان عزته من عزته (وللمؤمنين) فعزة الله قهره من دونه وكل من عداه دونه وعزة رسوله اظهار دينه على الاديان كلها وعزة المؤمنين نصر الله تعالى اياهم على أعدائهم (ولكن المنافقين) اى الذين استحكم فيهم مرض القلوب (لا يعلمون) أى لا يوجد لهم علم الآن ولا يتجدد فى حين من الاحيان فلذلك هم يقولون مثل هذا الخراف روى انه لما نزلت هذه الآية جاء عبد الله ولد عبد الله بن أبى ابن سلول الذى نزلت هذه الآيات بسببه كما مر الى أبيه وذلك فى غزوة المريسيع لبنى المصطلق فاخذ بزمام ناقته وقال أنت والله الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ولما أراد أن يدخل المدينة عبد الله بن أبى اعترضه ابنه حباب وهو عبد الله غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه وقال ان حبابا اسم شيطان وكان مخلصا وقال وراءك والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعز وأنا الاذل فلم يزل حبيسا فى يده حتى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخليته وروى أنه قال لئن لم تقر لله ولرسوله بالعزة لاضرب عنقك فقال ويحك أفاعل أنت قال نعم فلما رأى منه الجد قال أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لابنه جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا (فان قيل) ما الحكمة فى أنه تعالى ختم الآية الاولى بقوله تعالى لا يفقهون وختم الثانية

اسمه فى السماء احمد فذكر باسمه السماوى لانه احمد الناس لربه لان حمده لربه

بقوله

بقوله تعالى لايعلمون (أجيب) بأنه ليعلم بالاولى قلة كياستهم وفهمهم وبالثانية حماقتهم وجهلهم ويفقهون من فقه يفقه كعلم يعلم أو من فقه يفقه كعظم يعظم فالاول لحصول الفقه بالتكلف والثانى لابالتكلف فالاول علاجى والثانى مزاجى ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين فقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا) اى اقروا بالايمان وقالو بهم مذعنة كظواهرهم (لاتلهكم) أى لاتشغلكم (أموالكم ولاأولادكم) سواء كان ذلك فى اصلاحها أوالتمتع بها بحيث تغفلون (عن ذكر الله) أى الملك الاعظم حذر المؤمنين اخلاق المنافقين أى لاتشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون اذ قالوا الاجل الشح بأموالهم لاتنفقوا على من عند رسول الله وقوله تعالى عن ذكر الله قال الضحاك أى عن الصلوات الخمس نظيره قوله تعالى لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وقال الحسن عن جميع الفرائض كأنه قال عن طاعة الله تعالى وقيل عن الحج والزكاة وقيل عن قراءة القرآن وقيل عن ادامة الذكر وقيل هذا خطاب للمنافقين أى آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب ٭ ولما كان التقدير فمن انتهى فهو من الفائزين عطف عليه قوله تعالى (ومن يفعل) أى يوقع فى زمن من الازمان على سبيل التجديد والاستمرار فعل (ذلك) أى الامر البعيد عن أفعال ذوى الهمم من الانقطاع الى الاشتغال بالفانى والاعراض عن الباقى فأولئك البعداء عن الخير (هم الخاسرون) أى العريقون فى الخسارة فى تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى حتى كأنهم مختصون بها دون الناس وذلك بضد ما أرادوا (وأنفقوا) أى ما أمرتم به من واجب أو مندوب كما قاله بعض المفسرين وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد زكاة الاموال وهو ظاهر الامر ثم ان الله تعالى زاد فى الترغيب بالرضا منهم باليسير بقوله تعالى (مما رزقناكم) أى بعظمتنا قال الزمخشرى من فى مما رزقناكم للتبعيض والمراد الانفاق الواجب اه ثم قال تعالى محذرا من الاغترار بالتسويف فى أوقات السلامة (من قبل أن يأتى أحدكم الموت) أى يرى دلائله وأماراته وكل لحظة مرت فهى دلائله وأماراته قال القرطبى وهذا دليل على وجوب تعجيل اخراج الزكاة ولا يجوز تأخيرها أصلا أى بلا عذر وكذا سائر العبادات اذا دخل وقتها وقال الرازى وبالجملة فقوله تعالى لاتلهكم أموالكم ولاأولادكم عن ذكر الله تنبيه على المحافظة على الذكر قبل الموت وقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناكم تنبيه على الشكر كذلك ولما كانت الشدة تقتضى الاقبال الى الله تعالى سبب عن ذلك قوله تعالى (فيقول) أى سائلا فى الرجعة وأشار الى ترقيقها القلوب بقوله (رب لولا) أى هلا ولم لا (أخرتنى) أى أخرت موتى امهالا (الى أجل) أى زمان وقوله (قريب) بين به أن مراده استدراك مافات ليس الا وقيل لا زائدة ولو للتمنى أى لو أخرتنى الى أجل قريب (فأصدق) أى للتزود فى سفرى هذا الطويل الذى أنا مستقبله وعن ابن عباس رضى الله عنهما تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل وعنه ما يمنع أحدكم اذا كان له مال أن يزكى واذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها وعنه أنها نزلت فى مانعى الزكاة والله لو رأى خيرا ما سأل الرجعة فقيل أما تتق الله يسأل المؤمنون الكرة قال نعم أنا أقرأ عليكم قرآنا يعنى انها نزلت فى المؤمنين وهم المخاطبون بها وكذا عن الحسن ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج الا سأل الرجعة

بما يقصه الله عليه يوم القيامة من المحامد قبل شفاعته لامته السابق على

وقال الضحاك لا ينزل بأحد لم يحج ولم يؤد الزكاة الموت الا وسأل الرجعة وعن عكرمة نزلت في أهل القبلة وقيل نزلت في المنافقين ولهذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال هذه الآية تدل على أن القوم لم يكونوا من أهل التوحيد لانه لا يتمنى الرجوع الى الدنيا والتأخير فيها أحد له عند الله تعالى خير في الآخرة أي اذا لم يكن بالصفة المتقدمة قال القرطبي الا الشهيد فانه يتمنى الرجوع حتى يقتل لما يرى من الكرامة وقرأ (وأكون من الصالحين) أي العريقين في هذا الوصف بالتدارك أبو عمرو بواو بعد الكاف ونصب النون عطفا على فاصدق والباقون بحذف الواو لالتقاء الساكنين وجزم النون واختلفت عبارات الناس في ذلك فقال الزمخشري عطفا على محل فاصدق كأنه قيل ان أخرتني أصدق وأكن وقال ابن عطية عطفا على الموضع لان التقدير ان أخرتني أصدق وأكن هذا مذهب أبي على الفارسي وقال القرطبي عطفا على موضع الفاء لان قوله فاصدق لو لم تكن الفاء لكان مجزوما أي أصدق ثم زاد تعالى في الحث على المبادرة بالطاعات قبل الفوات بقوله تعالى مؤكدا الاجل عظم الرجاء من هذا المحتضر بالتأخير عاطفا على ما تقديره فلا يؤخره الله فيفوته ما أراد (ولن يؤخر الله) أي الملك الاعظم الذي لا كفء له فلا اعتراض عليه (نفسا) أي نفس كانت وحقق الاجل بقوله تعالى (اذا جاء أجلها) أي وقت موتها الذي حده الله تعالى لها فلا يؤخر الله تعالى نفس هذا القائل لانها من جملة النفوس التي شملها النفي وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية بعد تحقيق الاولى ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيقهما (والله) أي الذي له الاحاطة الشاملة علما وقدرة (خبير) أي بالغ الخبرة والعلم ظاهرا وباطنا (بما تعملون) أي توقعون عمله في الماضي والحال والمآل كله باطنه وظاهره وقرأ شعبة بالياء التحتية على الغيبة على الخبر عمن مات وقال هذه المقالة والباقون بالفوقية على الخطاب وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المنافقين برئ من النفاق حديث موضوع

سورة التغابن مدنية

في قول الاكثرين وقال الضحاك مكية وقال الكلبي مدنية ومكية وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن سورة التغابن نزلت بمكة الا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الاشجعي شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده فأنزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم الى آخرها وهي ثماني عشرة آية ومائتان واحدى واربعون كلمة وألف وسبعون حرفا

(بسم الله) مالك الملك فلا كفء له ولا مثيل (الرحمن) الذي وسع الخلائق بره الجليل (الرحيم) الذي خص من عمه فوفقهم للجميل (يسبح) أي يوقع التنزيه التام مع التجديد والاستمرار (لله) أي الذي له الاحاطة باوصاف الكمال (ما في السموات) أي كلها (وما في الارض) كذلك وقيل اللام زائدة أي ينزه الله تعالى قال الجلال المحلي وأتى بما دون من تغليبا للاكثر (له) أي وحده (الملك) أي كله مطلقا في الدنيا والآخرة (وله) أي وحده (الحمد) أي الاحاطة باوصاف الكمال

كلها

حمدهم له تعالى على طلبه صلى الله عليه وسلم الشفاعة لهم (قوله ومن

كانها فلذلك نزهه بجميع مخلوقاته وقدم الظرفين ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك لان الملك على الحقيقة له لانه مبدئ كل شئ ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه وكذا الحمد لان اصول النعم وفروعها منه واما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمده اعتداد بان نعمة الله جرت على يده (وهو على كل شئ قدير هو) اى وحده (الذى خلقكم) اى انشأكم على ما انتم عليه (فمنكم) اى فبعض منكم او فبسبب عن خلقه ايكم وتقديره (كافر) اى عريق فى صفة الكفر (ومنكم مؤمن) اى راسخ فى الايمان فى حكم الله تعالى فى الازل قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الله خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا ويعيدهم فى القيامة مؤمنا وكافرا وروى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية فذكر شيأ مما يكون فقال تولد الناس على طبقات شتى يولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت مؤمنا ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت كافرا ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت مؤمنا اى وسكت عن القسم الآخر وهو ان يولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت كافرا اكتفاء بالمقابل وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم خلق الله تعالى فرعون فى بطن امه كافرا وخلق يحيى بن زكريا عليهما السلام فى بطن امه مؤمنا وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه وان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع او باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع او باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها وفى صحيح مسلم عن سهل بن الساعدى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل ليعمل عمل اهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من اهل النار وان الرجل ليعمل عمل اهل النار فيما يبدو للناس وهو من اهل الجنة قال القرطبى قال علماؤنا والمعنى تعلق العلم الازلى بكل معلوم فيجرى ما علم واراد وحكم فقد يريد ايمان شخص على عموم الاحوال وقد يريده الى وقت معلوم وكذلك الكفر وقيل فى الكلام محذوف تقديره فمنكم مؤمن ومنكم كافر ومنكم فاسق فحذف لما فى الكلام من الدلالة عليه قاله الحسن وقال غيره لا حذف لان المقصود ذكر الطرفين وقيل انه خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا والتقدير هو الذى خلقكم ثم وصفهم فقال فمنكم كافر ومنكم مؤمن كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء ثم قال تعالى فمنهم من يمشى على بطنه الآية قالوا فالله خلقهم والمشى فعلهم وهذا اختيار الحسين بن الفضل قال لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم فى قوله تعالى فمنكم كافر ومنكم مؤمن واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه قال البغوى وروينا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن ابى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذى قتله الخضر طبع على الكفر وقال تعالى ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وروى انس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال وكل الله بالرحم ملكا فيقول اى رب نطفة اى رب علقة اى رب مضغة فاذا اراد الله ان يقضى خلقها قال يارب اذكر ام انثى شقى ام سعيد فما الرزق فما الاجل فيكتب ذلك فى بطن امه وقال الضحاك فمنكم كافر فى السر مؤمن فى العلانية كالمنافق ومنكم

انظر من افترى على الله الكذب) قاله هنا بتعريف الكذب اشارة

مؤمن فى العلانية والسر كعمار وزيد وقال عطاء بن ابى رباح فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب يعنى فى شأن الانواء كما جاء فى الحديث قال القرطبى وقال الزجاج وهو احسن الاقوال والذى عليه الائمة ان الله خلق الكافر وكفره فعل له وكسب واختيار وخلق المؤمن وايمانه فعل له وكسب واختيار وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته فالمؤمن بعد خلق الله اياه يختار الايمان لان الله تعالى اراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه والكافر بعد خلق الله اياه يختار الكفر لان الله تعالى قدره عليه وعلمه منه ولا يجوز ان يوجد من كل منهما غير الذى قدره عليه وعلمه منه لان وجود خلاف المقدور عجز ووجود خلاف المعلوم جهل فلا يليقان بالله تعالى قال البغوى وهذا طريق اهل السنة من سلكه اصاب الحق وسلم من الجبر والقدر قال الرازى فان قيل انه تعالى حكيم وقد سبق فى علمه انه تعالى اذا خلقهم لم يفعلوا الا الكفر فاى حكمة دعت الى خلقهم فالجواب اذا علمنا انه تعالى حكيم علمنا ان افعاله كلها على وفق الحكمة فيكون خلقه تعالى هذه الطائفة على وفق الحكمة ولا يلزم من عدم علمنا بذلك ان لا يكون كذلك بل اللازم ان يكون خلقهم على وفق الحكمة (والله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (بما تعملون) اى توقعون عمله كسبا (بصير) أى بالغ العلم بذلك فهو الذى خلق جميع اعمالكم التى نسب كسبها اليكم وهو خالق جميع الاستعدادات والصفات كما خلق الذوات خلافا للقدرية لانه لا يتصور ان يخلق الخالق ما لا يعلمه ولو سئل الانسان كم مشى فى يومه من خطوة لم يدر فكيف لو سئل اين موضع مشيه ومتى زمانه فكيف وانه لمشى اكثر مشيه وهو غافل عنه ومن جهل افعاله كما وكيفا واينا وغير ذلك لم يكن خالقا لها بوجه ولما ذكر المظروف ذكر ظرفه دالا على تمام احاطته بالبواطن والظواهر بقوله تعالى (خلق السموات) اى على علوها وكبرها (والارض) على سعتها (بالحق) اى بالامر الذى يطابقه الواقع لما أراد (وصوركم) اى آدم عليه السلام خلقه بيده كرامة له قال مقاتل وقيل جميع الخلائق على صور لا توافق شيأ من صور العلويات ولا السفليات ولا فيها صور توافق الاخرى من كل وجه (فاحسن صوركم) فجعلها احسن الحيوانات كلها كما هو مشاهد بدليل ان الانسان لا يتمنى ان يكون على خلاف ما يرى من سائر الصور ومن حسن صورته ان خلقه منتصبا غير منكب كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم كما يأتى ان شاء الله تعالى (فان قيل) قد يوجد فى افراد هذا النوع من كل مشوه الخلقة سمج الصورة (اجيب) بانه لا سماجة لان الحسن فى المعانى وهو على طبقات ومراتب فانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقه لا يمنع حسنه فهو داخل فى حيز الحسن غير خارج عن حده فقبح القبيح منه انما هو بالنسبة الى احسن منه ولذا قال الحكماء شيآن لا غاية لهما الجمال والبيان فقدرة الله سبحانه وتعالى لا تتناهى قال البقاعى فاياك ان تصغى لما وقع فى كتب الغزالى انه ليس فى الامكان ابدع مما كان فان ذلك يفضل الى انه سبحانه لا يقدر أن يخلق احسن من هذا العالم وهذا لا يقوله احد اه وهو لا ينقص مقدار الغزالى فان كل احد يؤخذ من كلامه ويرد عليه كما قال الامام مالك وعزاه الغزالى نفسه الى ابن عباس رضى الله عنهما وقال الشافعى صنفت هذه الكتب وما ألوت فيها جهدا وانى لاعلم ان فيها الخطأ لان الله تعالى يقول ولو كان من عند

الى قول اليهود هذا سحر مبين وقاله فى مواضع بتنكيره جريا على الاكثر

غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا * ولما كان التقدير فكان منه سبحانه المبدأ عطف عليه قوله تعالى (واليه) وحده (المصير) أى المرجع بعد البعث فيجازى كلا بعمله (يعلم) أى علمه حاصل فى الماضى والحال والمآل (ما) أى كل شئ (فى السموات) أى كلها (والارض) كذلك (ويعلم) أى على سبيل الاستمرار (ماتسرون) أى تخفون (وماتعلنون) أى تظهرون من الكليات والجزئيات (والله) أى الذى له الاحاطة التامة (عليم) أى بالغ العلم (بذات) أى صاحبة (الصدور) من الاسرار والخواطر التى لم تبرز فى الخارج سواء كان صاحب الصدر قد علمها أم لا وعلمه لكل ذلك على حد سواء لاتفاوت فيه بين علم الخفى وعلم الجلى نبه بعلمه مافى السموات والارض ثم بعلم مايسره العباد ويعلنونه ثم بعلمه ذوات الصدور ان شيأ من الجزئيات والكليات غير خاف عليه ولا عازب عنه ولا يجترأ على شئ مما يخالف رضاه وتكرير العلم فى معنى تكرير الوعيد وكل ماذكره بعد قوله فمنكم كافر ومنكم مؤمن كما ترى فى معنى الوعيد على الكفر وانكار أن يعصى الخالق ولاتشكر نعمته (ألم يأتكم) أيها الناس ولاسيما الكفار (نبأ) أى خبر (الذين كفروا من قبل) كقوم نوح وهود وصالح (فذاقوا) أى باشروا مباشرة الذائق (وبال أمرهم) أى ضرر كفرهم فى الدنيا وأصله الثقل ومنه الوبيل لطعام يثقل على المعدة والوابل المطر الثقيل القطر (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم فى البرزخ ثم يوم القيامة التى هى موضع الفصل الاعظم (ذلك) أى الامر العظيم من الوبال الدال قطعا على أن الكفر أبطل الباطل وأنه مما يغضب الخالق (بأنه) أى بسبب ان الشان العظيم البالغ فى الفظاعة (كانت تأتيهم) على عادة مستمرة (رسلهم) أى رسل الله الذين ارسلهم اليهم (بالبينات) أى الحجج الظاهرات على الايمان (فقالوا) أى الكل لرسلهم منكرين غاية الانكار تكبرا وقولهم (أبشر يهدوننا) يجوز أن يرتفع بشر على الفاعلية ويكون من الاشتغال وهو الارجح لان الاداة تطلب الفعل ويجوز أن يكون مبتدأ وخبرا وجمع الضمير فى يهدوننا اذ البشر اسم جنس وقد يأتى الواحد بمعنى الجمع فيكون اسما للجنس وقد يأتى الجمع بمعنى الواحد كقوله تعالى ماهذا بشرا فانكروا على الملك الاعظم ارساله لهم (فكفروا) أى بهذا القول اذ قالوه استصغارا ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء الى عباده (وتولوا) عن الايمان (فان قيل) قوله تعالى فكفروا تعميم يفهم منه التولى فما الحاجة الى ذكره (أجيب) بانهم كفروا وقالوا أبشر يهدوننا وهذا فى معنى الانكار والاعراض بالكلية وهذا هو التولى فكأنهم كفروا وقالوا قولا يدل على التولى فلهذا قال فكفروا وتولوا وقيل كفروا بالرسل وتولوا بالبرهان وأعرضوا عن الايمان والموعظة ونبه بقوله تعالى (واستغنى الله) أى الملك الاعظم الذى لا أمر لاحد معه على أن هذا انما هو لمصالح الخلق فهو غنى عن كل شئ (فان قيل) قوله تعالى وتولوا واستغنى الله يوهم وجود التولى والاستغناء معا والله تعالى لم يزل غنيا (أجيب) بان معناه وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم الى الايمان ولم يضطرهم اليه مع قدرته على ذلك (والله) أى المستجمع لصفات الكمال (غنى) عن خلقه (حميد) أى محمود فى أفعاله (زعم الذين كفروا) أى أوقعوا الستر لما دلت عليه العقول من وحدانية الله تعالى ولو على أدنى الوجوب وزعم قال ابن عمر هى كنية الكذب وقال الزمخشرى الزعم ادعاء العلم ومنه قوله عليه الصلاة والسلام

من استعمال المصدر منكرا (قوله يريدون ليطفؤا نور الله) اللام زائدة لتأكيد

قوله ولو على أدنى الوجوب لعله الوجوه اهـ مصحح

زعموا مطية الكذب وعن شريح لكل شئ كنية وكنية الكذب زعموا وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه عند أبى داود بئس مطية الرجل زعموا (أن لن يبعثوا) أى من أى باعث ما بوجه من الوجوه (قل) أى يا أشرف الرسل لهؤلاء البعداء (بلى) أى لتبعثن ثم أكده بصريح القسم فقال (وربى) اى المحسن الى بالانتقام ممن كذب بى (لتبعثن) أى بأهون شئ وأيسر أمر (ثم لتنبؤن) أى تخبرن اخبارا عظيما ممن يقيمه الله تعالى لاخباركم (بما عملتم) أى بأعمالكم لتجزون عليها (وذلك) أى الامر العظيم عندكم من البعث والحساب (على الله) أى المحيط بصفات الكمال وحده (يسير) اذ الاعادة أسهل من الابتداء (فان قيل) كيف يفيد القسم فى اخباره عن البعث وهم قد أنكروا الرسالة (أجيب) بانهم أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون انه يعتقد به اعتقادا جازما فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه الا وأن يكون الاخبار عنده صدقا أظهر من الشمس فى اعتقاده ثم انه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم ثم انه تعالى لما أخبر عن البعث والاعتراف بالبعث من لوازم الايمان قال تعالى (فآمنوا بالله) أى الملك الذى له الاحاطة الكاملة بكل شئ (ورسوله) أى كل من أرسله ولا سيما محمدا صلى الله عليه وسلم (والنور) أى القرآن (الذى أنزلنا) أى بما لنا من العظمة لانه نور يهتدى به من ظلمة الضلالة كما يهتدى بالنور فى الظلمات (فان قيل) هلا قيل ونوره بالاضافة كما قال ورسوله (أجيب) بان الالف واللام فى النور بمعنى الاضافة فكأنه قال ورسوله ونوره (والله) اى المحيط علما وقدرة (بما تعملون خبير) أى بالغ العلم بما تسرون وما تعلنون فراقبوه فى السر والعلانية وقوله تعالى (يوم يجمعكم) منصوب بقوله تعالى لتنبؤن عند النحاس وبخبير عند الحوفى لما فيه من معنى الوعيد كأنه قال والله يعاقبكم يوم يجمعكم وباذكر مضمرا عند الزمخشرى فيكون مفعولا به أو بما دل عليه الكلام أى تتفاوتون يوم يجمعكم قاله أبو البقاء (ليوم الجمع) أى لاجل ما يقع فى ذلك اليوم وهو يوم القيامة الذى يجمع الله تعالى فيه الاولين والآخرين من الانس والجن وجميع أهل السماء والارض وقيل يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله وقيل يجمع فيه بين الظالم والمظلوم وقيل يجمع فيه بين كل نبى وأمته وقيل يجمع فيه ثواب أهل الطاعة وعقاب أهل المعاصى بل هو جامع لجميع ما ذكر (ذلك) أى اليوم العظيم (يوم التغابن) والتغابن مستعار من تغابن القوم فى التجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضا لنزول السعداء منازل الاشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ونزول الاشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء وفيه تهكم بالاشقياء لان نزولهم ليس بغبن ولهذا قيل التفاعل هنا من واحد لا من اثنين وفى الحديث ما من عبد أدخل الجنة الا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا وما من عبد يدخل النار الا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة وهو معنى ذلك يوم التغابن وقد يتغابن الناس فى غير ذلك اليوم استعظاما له وأن تغابنه هو التغابن فى الحقيقة لا التغابن فى أمور الدنيا وان جلت وعظمت وذكر فى بعض التفاسير أن التغابن هو أن يكتسب الرجل مالا من غير وجهه ليرثه غيره فيعمل فيه بطاعة الله فيدخل الاول النار والثانى الجنة بذلك المال فذلك هو الغبن المبين والمغابن ما انثنى من البدن نحو الابطين والفخذين والمغبون من غبن فى أهله ومنازله فى الجنة ويظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الايمان

...مفعول يريد وأصله
...يريدون أن يطفئوا كما فى
...أة او تعليلية والمفعول

وغبن كل مؤمن بتقصيره في الاحسان وبتضييعه الايام قال الزجاج ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة بالنسبة الى من هو أعلى منزلة منه (فان قيل) فأي معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها (اجيب) بانه تمثيل للغبن في الشراء والبيع كقوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فاربحت تجارتهم فلما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خسروا ذكر أيضا انهم غبنوا وذلك ان أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة وهذا نوع مبادلة اتساعا ومجازا وقد فرق الله تعالى الخلق فريقين فريقا للجنة وفريقا للنار وقال الحسن وقتادة بلغنا أن التغابن على ثلاثة أصناف رجل علم علما فضيعه ولم يعمل به فشقي به ورجل علم علما وعمل به فنجا به ورجل اكتسب مالا من وجوه يسأل عنها وشح عليه وفرط في طاعة ربه بسببه ولم يعمل فيه خيرا وتركه لوارث لا حساب عليه فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه ورجل كان له عبد فعمل ذلك العبد بطاعة ربه فسعد وعمل السيد بمعصية ربه فشقي وروى القرطبي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه فيقول الله تعالى لهما قولا ما أنتما قائلان فيقول الرجل يارب أوجبت نفقتها على فنفقتها من حرام ومن حلال وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ولم يبق لي ما أوفي فتقول المرأة يارب وما عسى ان يقول اكتسبه حراما وأكلته حلالا وعصاك في مرضاتي ولم أرض له بذلك فبعدا له وسحقا فيقول الله تعالى قد صدقت فيؤمر به الى النار ويؤمر بها الى الجنة فتطلع عليه من طبقات الجنة فتقول له غبناك غبناك سعدنا بما شقيت أنت به فذلك يوم التغابن وقال بعض علماء الصوفية ان الله تعالى كتب الغبن على الخلق أجمعين فلا يلقى احد ربه الا مغبونا لانه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب قال صلى الله عليه وسلم لا يلقى الله احد الا نادما ان كان مسيئا أن لم يحسن وان كان محسنا أن لم تزدد *(تنبيه)* استدل بعض العلماء بقوله تعالى ذلك يوم التغابن انه لا يجوز الغبن في المعاملات الدنيوية لان الله تعالى خصص التغابن بيوم القيامة فقال تعالى ذلك يوم التغابن وهذا الاختصاص يفيد ان لا غبن في الدنيا فكل من اطلع على غبن في مبيع فانه مردود اذا زاد على الثلث واختاره البغداديون واحتجوا عليه بقوله صلى الله عليه وسلم لحبان بن منقذ اذا بايعت فقل لا خلابة ولك الخيار ثلاثا ولان الغبن في الدنيا ممنوع منه بالاجماع في حكم الدين اذ هو من باب الخداع المحرم شرعا في كل ملة لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه فمضى في البيوع اذ لو حكمنا برده ما نفذ بيع ابدا لانه لا يخلو منه فاذا كان كثيرا أمكن الاحتراز عنه فوجب الرد به والفرق بين القليل والكثير في الشرع بعيد غير معلوم فقدر بالثلث وهذا الحد اعتبره الشارع في الوصية وغيرها ويكون معنى الآية على هذا يوم التغابن الجائز مطلقا من غير تفصيل وذلك يوم التغابن الذي لا يستدرك ابدا (ومن يؤمن) اي يوقع الايمان ويجدده على سبيل الاستمرار (بالله) اي الملك الاعظم الذي لا كفء له (ويعمل) تصديقا لايمانه (صالحا) اي عملا هو مما ينبغي الاهتمام بتحصيله لانه لا مثل له في جلب المصالح ودفع المضار (يكفر عنه سيئاته) التي غلبه عليها نقصان الطبع واتبع ذلك الحامل الآخر وهو التوجيه بجلب المسار لان الانسان يطير الى ربه سبحانه بجناحي الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والنذارة والبشارة (ويدخله) اي رحمة له واكراما وفضلا

محذوف تقديره يريدون ابطال القران ليطفؤا (قوله يغفر لكم) مجزوم جوابا

(جنات) اى بساتين ذات أشجار عظيمة وأغصان ظليلة تستر داخلها و رياض مديدة متنوعة الازاهير عطرة النشر بهيج ريها وأشار الى دوام ريها بقوله تعالى (تجرى من تحتها) اى من تحت قصورها وأشجارها (الانهار) وقرأ نكفر عنه وندخله نافع وابن عامر بالنون فيهما اى نحن بما لنا من العظمة والباقون بالياء التحتية اى الله الواحد القهار (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) وأكده بقوله (أبدا) فلا خروج لهم منها (ذلك) اى الامر العالى جدا من الغفران والاكرام (الفوز العظيم) لانه جامع لجميع المصالح ودفع المضار وجلب المسار ومن جملة ذلك النظر الى وجه الله الكريم ولما ذكر تعالى الفائز بلزومه التقوى ترغيبا اتبعه بضده ترهيبا فقال عز من قائل (والذين كفروا) أى غطوا أدلة ذلك اليوم فكانوا فى الظلام (وكذبوا) أى أوقعوا جميع التغطية وجميع التكذيب (بآياتنا) أى بسببها مع مالها من العظمة باضافتها الينا وهى القرآن فلم يعملوا به (أولئك) اى البعداء البغضاء (اصحاب النار خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها وبئس المصير) هى قال الرازى فان قيل قال تعالى فى حق المؤمنين ومن يؤمن بالله بلفظ المستقبل وفى الكفار قال والذين كفروا بلفظ الماضى فالجواب ان تقدير الكلام ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم اولئك اصحاب النار اه (فان قيل) قال تعالى يؤمن بلفظ الوحدان وخالدين فيها بلفظ الجمع (اجيب) بان ذلك بحسب اللفظ وهذا بحسب المعنى (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى وبئس المصير بعد قوله تعالى خالدين فيها وذلك بئس المصير (أجيب) بان ذلك وان كان فى معناه فهو تصريح بما يؤكده كما فى قوله ابدا (ما اصاب) احدا (من مصيبة) اى مصيبة كانت دينية اودنيوية فى نفس اومال اوقول اوفعل تقتضى هما او توجب عقابا آجلا اوعاجلا (الا باذن الله) اى بتقدير الملك الاعظم وقال الفراء يريد الا بامر الله وقيل الا بعلم الله وقيل سبب نزول هذه الآية ان الكفار قالوا لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله تعالى عن المصائب فى الدنيا فبين الله تعالى ان ما اصاب من مصيبة الا بقضائه وقدره (فان قيل) بم يتصل قوله تعالى ما أصاب من مصيبة الا باذن الله (أجيب) بانه يتعلق بقوله تعالى فآمنوا بالله ورسوله كما ان من يؤمن بالله يصدق بانه لا تصيبه مصيبة الا باذن الله (ومن يؤمن بالله) اى يصدق بانه لا تصيبه مصيبة الا بقضاء الله الملك الاعظم وتقديره واذنه (يهد قلبه) قال ابن عباس رضى الله عنهما هو أن يجعل فى قلبه اليقين حتى يعلم ان ما اصابه لم يكن ليخطئه وما اخطأه لم يكن ليصيبه اى فيسلم لقضاء الله وقدره وقال الكلبى هو اذا ابتلى صبر واذا أنعم عليه شكر واذا ظلم غفر وقيل يهد قلبه الى نيل الثواب فى الجنة وقيل يثبته على الايمان وقال ابو عثمان الحيرى من صح ايمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة وقيل يهد قلبه عند المصيبة فيقول انا لله وانا اليه راجعون قاله ابن جبير (والله) اى الملك الذى لا نظير له (بكل شئ) مطلقا من غير استثناء (عليم) فلا يخفى عليه تسليم من انقاد لامره فاذا تحقق من هدى قلبه ذلك زاح عنه كل اعتقاد باطل من كفر أو بدعة اوصفة خبيثة (وأطيعوا الله) اى الملك الاعلى الذى له الامر كله (وأطيعوا الرسول) اى هونوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله تعالى واعملوا بكتابه واطيعوا الرسول فى العمل بسنته (فان توليتم) اى عن الطاعة

ومن المأخوذ من تؤمنون او جوابا للاستفهام فى قوله هل أدلكم او مجزوم

(فانما على رسولنا) أضافه اليه على وجه الكمال تعظيما له وتهديدا لمن يتولى عنه (البلاغ المبين) اى الظاهر فى نفسه المظهر لكل احد انه أوضح لغاية الايضاح ولم يدع لبسا ولا يسر اليه خلق الهداية فى القلوب (الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (لا اله الا هو) فهو القادر على خلق الهداية فى القلوب والاقبال بها ولا يقدر على ذلك غيره (وعلى الله) اى الذى له الامر لا على غيره (فليتوكل المؤمنون) أى لان ايمانهم بان الكل منه يقتضى ذلك وقال الزمخشرى هذا بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التوكل عليه والتقوى به فى أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم) أى وان أظهرن غاية المودة (وأولادكم) أى وان أظهروا غاية الشفقة (عدوا لكم) فقال ابن عباس نزلت بالمدينة فى عوف بن مالك الاشجعى شكا الى النبى صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده فنزلت ذكره النحاس وحكاه الطبرى عن عطاء بن يسار قال نزلت سورة التغابن كلها بمكة الا هؤلاء الآيات يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فانها نزلت فى عوف ابن مالك الاشجعى كان ذا أهل وولد وكان اذا أراد الغزو بكوه ورققوه وقالوا الى من تدعنا فيرق فيقيم فنزلت هذه الآية الى آخر السورة بالمدينة وروى الترمذى عن ابن عباس وسئل عن هذه الآية قال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فابى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فلما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد تفقهوا فى الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية حديث حسن صحيح وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان قعد لابن آدم فى طريق الايمان فقال له أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له أتهاجر وتترك أهلك ومالك فخالفه فهاجر ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسم مالك فخالفه فجاهد فقتل فحق على الله أن يدخله الجنة وقعود الشيطان يكون بوجهين أحدهما يكون بالوسوسة والثانى أن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب قال تعالى وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وفى حكمة عيسى عليه الصلاة والسلام من اتخذ أهلا ومالا وولدا كان فى الدنيا عبدا وقال عليه الصلاة والسلام تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد القطيفة ولا دناءة اعظم من دناءة الدينار والدرهم ولا أخس من همة ترتفع بثوب جديد ويدخل فى قوله تعالى ان من أزواجكم الذكر والانثى فكما أن الرجل تكون زوجته عدوا له كذلك المرأة يكون زوجها عدوا لها بهذا المعنى (فاحذروهم) أى أن تطيعوهم فى التخلف عن الخير ولا تأمنوا غوائلهم (وان تعفوا) أى توقعوا التجاوز عن ذنوبهم بعدم العقاب عليها فانه لا فائدة فى ذلك فان من طبع على شئ لا يرجع عنه وانما النافع الحذر الذى ارشد اليه تعالى لئلا يكون سببا للذم المنهى عنه (وتصفحوا) أى بالاعراض عن المقابلة بالتثريب باللسان (وتغفروا) أى بأن تستروا ذنوبهم سترا تاما شاملا للعين والاثر بالتجاوز (فان الله) أى الجامع لصفات الكمال (غفور) أى بالغ المحو لاعيان الذنوب وآثارها جزاء لكم على غفرانكم لهم وهو جدير بان يصلحهم لكم بسبب غفرانكم (رحيم) فيكرمكم بعد ذلك الستر بالانعام

بشرط مقدر اى ان تؤمنوا يغفر لكم (قوله كونوا أنصار الله كما قال عيسى

نفضلة واباخلاقه تعالى يزدكم من فضله (انما أموالكم) أى عامة (واولادكم) كذلك (فتنة) أى اختبار من الله تعالى لكم وهو اعلم بما فى نفوسكم منكم لكن ليظهر فى عالم الشهادة من عمله ذلك فيكون عليه نقمة من لا يعمله فيكون عليه نعمة فربما رام الانسان صلاح ماله وولده فبالغ فافسد نفسه ثم لا يصلح ذلك ماله ولا ولده روى ابو نعيم فى الحلية فى ترجمة سفيان الثورى رضى الله عنه أنه قال يؤتى برجل يوم القيامة فيقال أكل عياله حسناته وعن بعض السلف العيال سوس الطاعات ويكفى فى فتنة المال قصة ثعلبة بن حاطب أحد من نزل فيه قوله تعالى ومنهم من عاهد الله وعن ابن مسعود لا يقولن أحدكم اللهم اعصمنى من الفتنة فانه ليس احد منكم يرجع الى مال ولا ولد الا وهو مشتمل على فتنة ولكن ليقل اللهم انى أعوذ بك من مضلات الفتن وقال الحسن فى قوله تعالى ان من أزواجكم واولادكم أدخل من للتبعيض لانهم كلهم ليسوا باعداء ولم يذكر فى قوله تعالى انما اموالكم واولادكم فتنة لانهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما روى الترمذى وغيره عن عبد الله بن بريدة عن ابيه قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يخطب فجاء الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان فنزل صلى الله عليه وسلم فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال صدق الله عز وجل انما أموالكم وأولادكم فتنة نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما ثم أخذ فى خطبته * (تنبيه) * قدم الاموال على الاولاد لان فتنة المال أكثر وترك ذكر الازواج فى الفتنة قال البقاعى لان منهن من يكون صلاحا وعونا على الآخرة (والله) أى ذو الجلال (عنده) وناهيك بما يكون منه بسبيل جلاله وعظمته (اجر) ثم وصفه بقوله تعالى (عظيم) اى لمن ائتمر باوامره التى امره بها وقوله تعالى (فاتقوا الله) اى الملك الاعلى (ما استطعتم) اى جهدكم ووسعكم ناسخ لقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته قاله قتادة والربيع بن انس والسدى وذكر الطبرى عن ابن زيد فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته قال جاء امر شديد قال ومن يعرف قدر هذا او يبلغه فلما علم الله تعالى انه قد اشتد عليهم نسخه عنهم وجاء بهذه الآية الاخرى فقال فاتقوا الله ما استطعتم وقال ابن عباس وهى محكمة لا نسخ فيها ولكن حق تقاته ان يجاهدوا فيه حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على انفسهم وآبائهم وابنائهم (فان قيل) اذا كانت الآية غير منسوخة فكيف الجمع بين الآيتين وما وجه الامر باتقائه حق تقاته مطلقا من غير تخصيص ولا مشروطا بشرط والامر باتقائه بشرط الاستطاعة (أجيب) بان قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم معناه فاتقوا الله ايها الناس وراقبوه فيما جعله فتنة لكم من اموالكم واولادكم أن تغلبكم فتنتهم وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من ارض الكفر الى ارض الاسلام فتتركوا الهجرة وانتم مستطيعون وذلك ان الله تعالى قد عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم الى قوله تعالى فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم فاخبر تعالى انه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا بالاقامة فى دار الشرك فكذلك معنى قوله تعالى ما استطعتم فى الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام ان تتركوها فتنة اموالكم واولادكم ويدل على صحة هذا ان قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم

ابن مريم الآية) * ان قلت
ظاهره تشبيه كونهم أنصار
الله بقول عيسى عليه

عقب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم ولا خلاف بين علماء التأويل فى ان هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام بتثبيط اولادهم اياهم عن ذلك كما تقدم وهذا اختيار الطبرى وقال ابن جبير قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم اى فيما يتطوع به من نافلة او صدقة فانه لما نزل قوله تعالى اتقوا الله حق تقاته اشتدت على القوم فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وقرحت جباههم فانزل الله تعالى تخفيفا فيهم فاتقوا الله ما استطعتم فنسخت الاولى قال الماوردى ويحتمل ان يثبت هذا النقل لان المكره على المعصية غير مؤاخذ بها لانه لا يستطيع اتقاءها (واسمعوا) اى سماع اذعان وتسليم لما توعظون به وجميع اوامره (واطيعوا) اى وصدقوا ذلك الاذعان بمباشرة الافعال الظاهرة فى الاسلاميات من القيام بامر الله تعالى والشفقة على خلق الله فى كل امر ونهى على حسب الطاقة وحذف المتعلق ليصدق الامر بكل طاعة (وانفقوا) اى اوقعوا الانفاق كما حدّ لكم فيما اوجب او ندب اليه والانفاق لا يخص نوعا بل يكون بكل ما رزق الله من الذاتى والخارجى وقوله تعالى (خيرا لانفسكم) فى نصبه اوجه احدها قال سيبويه انه مفعول بفعل مقدر دل عليه وانفقوا تقديره قدموا خيرا لانفسكم كقوله تعالى انتهوا خيرا لكم الثانى تقديره يكن الانفاق خيرا فهو خبر كان المضمرة وهو قول ابى عبيدة الثالث انه نعت مصدر محذوف وهو قول الكسائى والفراء اى انفاقا خيرا لانفسكم فان الله يعطى خيرا منه فى الدنيا مع ما تزكى به النفس ويدخر عليه من الجزاء فى الآخرة بما لا يدرى كنهه فلا يغرنكم عاجل شئ من ذلك فانما هو زخرف * ولما ذكر ما فى الانفاق من الخير عمم فى جميع الاوامر بقوله تعالى (ومن يوق شح نفسه) فيفعل فى ماله جميع ما امر به موقنا به مطمئنا اليه حتى يرتفع عن قلبه الاخطار ويتحرر عن رق المكنونات والشح خلق باطنى هو الداء العضال والبخل فعل ظاهر ينشأ عن الشح والنفس تارة تشح بترك الشهوة من المعاصى فتفعلها وتارة باعطاء الاعضاء فى الطاعات فتتركها وتارة بانفاق المال ومن فعل ما فرض عليه خرج من الشح * ولما كان الواقى هو الله تعالى سبب عن وقايته قوله تعالى (فاولئك) اى العالو الرتبة (هم المفلحون) اى الفائزون الذين حازوا جميع المرادات بما اتقوا الله فيه ثم رغب فى الانفاق بقوله تعالى (ان تقرضوا الله) اى الملك الاعلى ذا الغنى المطلق الحائز لجميع صفات الكمال (قرضا حسنا) والقرض الحسن هو التصدق من الحلال مع طيب النفس ومع الاخلاص والمبادرة (يضاعفه لكم) اى لاجلكم خاصة اقل ما يكون بالواحد عشر الى ما لا يتناهى على حسب النيات قال القشيرى يتوجه الخطاب بهذا على الاغنياء فى بذل اموالهم وعلى الفقراء فى اخلاء ايامهم واوقاتهم من مرادتهم وايثار مراد الحق على مراد انفسهم فالغنى يقال له آثر حكمى على مرادك فى مالك وغيره والفقير يقال له آثر حكمى فى نفسك وقلبك ووقتك * ولما كان الانسان لما له من النقصان وان اجتهد لا يبلغ جميع ما امر به لان الدين وان كان يسيرا فهو متين لن يشاده احد الا غلبه قال تعالى (ويغفر لكم) اى يوقع الغفران وهو محو ما فرط عينه واثره (والله) اى الذى لا يقاس عظمته بشئ (شكور) اى بليغ الشكر لمن يعطى لاجله ولو كان قليلا فيثيبه ثوابا جزيلا خارجا عن الحصر وهو ناظر الى المضاعفة

السلام من انصارى الى الله وانيس من ادا (قلت) التشبيه محمول على المعنى

(حليم) فلا يعجل بالعقوبة على ذنب من الذنوب وان عظم بل يمهل طويلا ليتذكر العبد الاحسان مع العصيان فيتوب ولا يهمل ولا يغتر بحلمه فان غضب الحليم لا يطاق وهو راجع الى الغفران (عالم الغيب) وهو ما غاب عن الخلق كلهم فيشمل ما هو داخل القلب مما تؤثره الجبلة ولا علم لصاحب القلب به فضلا عن غيره (والشهادة) وهو كل ما ظهر وكان بحيث يعلمه الخلق وهذا الوصف داع الى الاحسان من حيث انه موجب للمؤمن ترك ظاهر الاثم وباطنه وكل قصور وفتور وغفلة وتهاون فيعبد الله تعالى كانه يراه (العزيز) اى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) اى بالغ الحكمة التى يعجز عن ادراكها الخلائق وقال ابن الانبارى الحكيم هو المحكم لخلق الاشياء صرف عن مفعل الى فعيل ومنه قوله تعالى الم تلك آيات الكتاب الحكيم معناه المحكم فصرف عن مفعل الى فعيل وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجاءة حديث موضوع

تقديره كونوا انصار الله كما كان الحواريون انصار العيسى حين قال لهم من انصارى الى الله

سورة الطلاق مدنية

وهى احدى عشرة آية وقيل اثنتا عشرة آية وقيل ثلاث عشرة آية ومائتان وتسع واربعون كلمة والف وستون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع صفات الكمال (الرحمن) الذى عم برحمته والنوال (الرحيم) الذى خص بتمام النعمة ذوى الهمم العوال وقرأ (يا ايها النبى) نافع بالهمزة وسهل الهمزة من اذا وابدلها أيضا واو اخصه صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب لان النبى امام امته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم يا فلان افعلوا كيت وكيت اظهارا لتقدمته واعتبارا لرآسته وانه لسان قومه والذى يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بامر دونه فكان هو وحده فى حكم كلهم وسادا مسد جميعهم وقيل انه على اضمار قول أى يا ايها النبى قل لامتك (اذا طلقتم النساء) أى اردتم طلاق هذا النوع واحدة منهن فاكثر وقيل انه خطاب له ولامته والتقدير يا ايها النبى وأمته فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه كقوله اذا حذفته رجلها أى ويدها وكقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر وقيل انه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وخوطب بلفظ الجمع تعظيما له كقوله

فان شئت حرمت النساء سواكم ٭ وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

قال الرازى وجه تعلق اول هذه السورة بآخر التى قبلها هو أنه تعالى أشار فى آخر التى قبلها الى كمال علمه بقوله عالم الغيب والشهادة وفى أول هذه السورة اشارة الى كمال علمه بمصالح النساء والاحكام المخصوصة بطلاقهن فكأنه بين ذلك الكلى بهذه الجزئيات وروى ابن ماجه عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها وعن انس قال طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة فأتت أهلها فانزل الله تعالى يا ايها النبى اذا طلقتم النساء وقيل له راجعها فانها صوامة قوامة وهى من ازواجك فى الجنة ذكره الماوردى والقشيرى وزاد القشيرى ونزل فى خروجها الى أهلها قوله تعالى لا تخرجوهن من بيوتهن وقال الكلبى سبب نزول هذه الآية غضب رسول الله صلى الله عليه

وسلم على حفصة لما أمر اليها حديثا فاظهرته لعائشة فطلقها تطليقة فنزلت وقال السدى نزلت فى عبد الله بن عمر طلق امرأته حائضا تطليقة واحدة فامره النبى صلى الله عليه وسلم بان يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فان شاء أمسكها وان شاء طلقها قبل أن يجامع فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء وهو قوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) أى فى الوقت الذى يشرعن فيه فى العدة وقد قيل ان رجالا فعلوا مثل ما فعل عبد الله ابن عمر منهم عبد الله بن عمرو بن العاص وعمرو بن سعيد بن العاص وعتبة بن غزوان فنزلت الآية فيهم وروى الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال الطلاق على أربعة وجوه وجهان حلالان ووجهان حرامان فاما الحلال فأن يطلقها طاهرا عن غير جماع وأن يطلقها حاملا مستبينا حملها وأما الحرام فان يطلقها حائضا أو ان يطلقها حين يجامعها لايدرى اشتمل الرحم على ولد أم لا *(تنبيه)* الطلاق ينقسم الى سنى و بدعى ولا ولا فطلاق موطوءة ولو فى دبر تعتد باقراء سنى ان ابتدأتها الاقراء عقب الطلاق ولم يطأها فى طهر طلقها فيه أو علق طلاقها بمضيه ولا وطئها فى نحو حيض قبله ولا فى نحو حيض طلق مع آخره أو علق بآخره وذلك لاستعقابه الشروع فى العدة وعدم الندم فيمن ذكرت والا فبدعى وان سألته طلاقا بلا عوض وطلاق غير الموطوأة المذكورة بان لم توطأ أو كانت صغيرة أو آيسة او حاملا منه وخلع زوجته فى زمن حيض بعوض لاسنى ولا بدعى والبدعى حرام للنهى عنه وقسم جماعة الطلاق الى واجب كطلاق المولى أى واجب مخير ان لم يكن عذر ومعين ان كان عذر شرعى كالاحرام ومندوب كطلاق غير مستقيمة الحال كسيئة الخلق ومكروه كمستقيمة الحال وحرام كطلاق البدعة واشار الامام الى المباح بطلاق من لايهواها ولا تسمح نفسه بمؤنتها من غير تمتع بها وروى الثعلبى من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من ابغض الحلال الى الله الطلاق وعن على عن النبى عليه الصلاة والسلام قال تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش وعن ابى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعاذ ماخلق الله تعالى شيأ على وجه الارض احب اليه من العتاق ولاخلق الله تعالى شيأ ابغض اليه من الطلاق وعن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما احل الله شيأ ابغض اليه من الطلاق واختلفوا فى الاستثناء فى الطلاق والعتق فقالت طائفة بجوازه وهو مروى عن طاوس وبه قال حماد الكوفى والشافعى وابو ثور واصحاب الرأى وقال مالك والاوزاعى لايجوز الاستثناء فى الطلاق والعتق وقال قتادة لايجوز الاستثناء فى الطلاق خاصة قال ابن المنذر وبالقول الاول اقول *ولما كان نظر الشارع الى العدة شديدا صرح بصيغة الامر فقال تعالى (واحصوا) اى اضبطوا ضبطا كانه فى اتقانه محسوس (العدة) ليعرف زمان الرجعة والنفقة والسكنى وحل النكاح لاخت المطلقة مثلا ونحو ذلك من الفوائد الجليلة (واتقوا) اى فى ذلك (الله) اى الملك الاعظم الذى له الخلق والامر (ربكم) اى لاحسانه فى تربيتكم فى حملكم على الحنيفية السمحة ورفع جميع الآصار عنكم (لاتخرجوهن) اى ايها الرجال فى حال العدة (من بيوتهن) أى المساكن التى وقع الفراق فيها وهى مساكنهن التى

(سورة الجمعة)

(قوله الذى بعث فى الاميين رسولا منهم) * ان قلت .

يسكنها قبل العدة وهي بيوت الازواج واضيفت اليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها (ولا يخرجن) أي من بيوتهن حتى تنقضي عدتهن ولو وافق الزوج على ذلك وعلى الحاكم المنع منه لان في العدة حقا لله تعالى وقد وجبت في ذلك المسكن وقوله تعالى (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) مستثنى من الاول والمعنى الا أن تبذو على الزوج فانه كالنشوز في اسقاط حقها وقال ابن عباس الفاحشة المبينة أن تبذو على أهل زوجها فيحل اخراجها لسوء خلقها وقال ابن مسعود اراد بالفاحشة المبينة ان تزني فتخرج لاقامة الحد عليها ثم ترد الى منزلها وقال قتادة الفاحشة النشوز وذلك ان يطلقها على النشوز فتحول عن بيته ويجوز ان يكون مستثنى من الثاني للمبالغة في النهي والدلالة على ان خروجها فاحشة هذا كله عند عدم العذر اما العذر كشراء غيرمن لها نفقة على المفارق نحو طعام كقطن وكتان نحو اراوغزلها او نحوه كحديثها وتأنيسها عند جارتها ليلا وترجع وتبيت ببيتها فانه جائز للحاجة الى ذلك وكخوف على نفس او مال من نحو هدم وغرق وفسقة مجاورين لها وشدة تأذيها بالجيران بشدة تأذيهم بها للحاجة الى ذلك بخلاف الاذى اليسير اذ لا يخلو منه احد ومن الجيران الاحماء وهم اقارب الزوج نعم ان اشتد اذاها بهم او عكسه وكانت الدار ضيقة نقلهم الزوج عنها او خرج بالجيران ما لو طلقت بيت ابويها او تأذت بهما او هما بها فلا نقل لان الوحشة لا تطول بينهما ولو انتقلت الى دار مسكن باذن زوجها فوجبت العدة ولو قبل وصولها اليه اعتدت فيه لانها مأمورة بالمقام فيه فان انتقلت لذلك بلا اذن فتعتد في الاول وان وجبت العدة بعد وصولها الثاني لعصيانها بذلك نعم ان أذن لها بعد انتقالها أن تقيم في الثاني فكما لو انتقلت بالاذن ولو أذن لها في الانتقال فوجبت العدة قبل خروجها اعتدت في الاول ولو سافرت باذن زوجها فوجبت في الطريق فعودها أولى من مضيها فان مضت وجب عودها بعد انقضاء حاجتها ان سافرت لها أو بعد انقضاء مدة الاذن ان قدر لها مدة أو مدة اقامة المسافر ان لم تقدر لها مدة في سفر غير حاجتها او لو خرجت فطلقها او قال ما أذنت في الخروج أو قال وقد قالت أذنت في نقلتي أذنت لا لنقلة صدق بيمينه ولو كان المسكن ملكا له ويليق بها تعين لان تعتد فيه كما يصح بيعه في عدة أشهر كالمكترى أو كان مستعارا أو مكرى وانقضت مدة الكراء انتقلت منه ان امتنع المالك وان كان ملكا لها تخيرت بين الاستمرار فيه باعارة أو اجارة والانتقال منه كما لو كان المسكن خسيسا او نفيسا وان كان نفيسا وسكنى المعتدة عن فرقة واجب على الزوج حيث تجب نفقتها عليه لو لم تفارق سواء كانت الفرقة بطلاق أو فسخ أو وفاة لقوله تعالى اسكنوهن من حيث سكنتم وقيس به الفسخ بانواعه بجامع فرقة النكاح في الحياة ولخبر فريعة بنت مالك في الوفاة ان زوجها قتل فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أن ترجع الى أهلها وقالت ان زوجي لم يتركني في منزل يملكه فاذن لها في الرجوع قالت فانصرفت حتى اذا كنت في الحجرة أو في المسجد دعاني فقال امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا صححه الترمذي وغيره وقرأ ابن كثير وأبو بكر بفتح الياء التحتية والباقون بكسرها (وتلك) أي الاحكام العالية جدا المانعة من الجلالة وبانتسابها

ما وجه التقييد في بعث الرسول بكونه أميا منهم (قلت) مشاكلة حاله

الى الملك الاعلى من هذا الذى ذكر فى هذه السورة وغيرها (حدود الله) أى الملك الاعظم (ومن يتعد) أى يقع منه فى وقت من الاوقات انه تعمد أن يعدو (حدود الله) أى الملك الذى لا كفء له أو بعضها كأن طلق بدعيا (فقد ظلم نفسه) أى عرضها للعقاب وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال عند الظاء والباقون بالادغام (لا تدرى) أى النفس أو أنت يا أيها النبى أو المطلق (لعل الله) أى الذى بيده القلوب ومقاليد جميع الامور (يحدث) أى يوجد شيأ حادثا لم يكن ايجادا ثابتا لا تقدر الخلق على التسبب فى زواله (بعد ذلك) أى الحادث من الاساءة والبغض (أمرا) بان يقلب قلبه من بغضها الى محبتها ومن الرغبة عنها الى الرغبة فيها ومن عزيمة الطلاق الى الندم عليه فيراجعها وقال أكثر المفسرين أراد بالامر هنا الرغبة فى الرجعة ومعنى الكلام التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث وهذا أحسن الطلاق وأحله فى السنة وأبعده عن الندم ويدل عليه ما روى عن ابراهيم النخعى ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون أن لا يطلقوا للسنة الا واحدة ثم لا يطلقون غير ذلك حتى تنقضى العدة وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثا فى ثلاثة أطهار وقال مالك بن أنس لا أعرف طلاق السنة الا واحدة وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو مفرقة وأما أبو حنيفة وأصحابه فانما كرهوا ما زاد على الواحدة فى طهر واحد فاما مفرقا فى الاطهار فلا لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهى حائض ما هكذا أمرك الله انما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة وروى أنه قال لعمر مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها تحيض ثم تطهر ثم ليطلقها ان شاء فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء وعند الشافعى لا بأس بارسال الثلاث وقال لا أعرف فى عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح ومالك يراعى فى طلاق السنة الواحدة والوقت وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت والشافعى يراعى الوقت وحده قال الزمخشرى (فان قلت) هل يقع الطلاق المخالف للسنة (قلت) نعم وهو آثم لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا طلق امرأته ثلاثا بين يديه فقال أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم وفى حديث ابن عمر أنه قال يا رسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثا فقال له اذا عصيت وبانت منك امرأتك وعن عمر رضى الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثا الا أوجعه ضربا وأجاز ذلك عليه وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين ان من خالف السنة فى الطلاق فاوقعه فى حيض أو ثلاث لم يقع وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف (فان قيل) قوله تعالى اذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الاقراء والآيسات والصغائر والحوامل فكيف صح تخصيصه بذوات الاقراء المدخول بهن (أجيب) بانه لا عموم ثم ولا خصوص ولكن النساء اسم جنس للاناث من الانس وهذه الجنسية معنى قائم فى كلهن وفى بعضهن فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك فلما قيل فطلقوهن لعدتهن علم أنه أطلق على بعضهن وهن المدخول بهن من المعتدات بالحيض ولما حدد سبحانه ما يفعل فى العدة أتبعه ما يفعل عند انقضائها بقوله تعالى (فاذا بلغن) أى المطلقات (أجلهن) أى شارفن انقضاء العدة مشارفة عظيمة (فامسكوهن)

لاحوالهم فيكون اقرب الى موافقتهم له او انتفاء سوء الظن عنه لان ما دعاهم

أي بالمراجعة وهذا يدل على أن الاولى من الطلاق ما دون البائن لاسيما الثلاث (بمعروف) أى حسن عشرة لا لقصد المضارة بطلاق آخر لاجل ايجاب عدة أخرى أو غير ذلك (أو فارقوهن) بعدم المراجعة لتتم العدة فتملك نفسها (بمعروف) أى بايفاء الحق مع حسن الكلام وكل أمر حسنه الشرع فلا يقصد أذاها بتفريقها عن ولدها مثلا أو عنه ان كانت عاشقة له لقصد الاذى فقط من غير مصلحة وكذا ما أشبه ذلك من أنواع الضرر بالفعل والقول فقد تضمنت الآية بافصاحها الحث على فعل الخيرات وبافهامها اجتناب المنكرات *(تنبيه)* قال بعض العلماء في قوله تعالى فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف وقوله تعالى فامساك بمعروف او تسريح باحسان ان الزوج له حق في بدن الزوجة ولها حق في بدنه وذمته فكل من له دين في ذمة غيره سواء كان مالا او منفعة من ثمن او مثمن او اجرة او بدل متلف او ضمان مغصوب او نحو ذلك فعليه ان يؤدي ذلك الحق الواجب باحسان وعلى صاحب الحق ان يتبع باحسان كما قال تعالى في آية القصاص فمن عفي له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان وكذا الحق الثابت في بدنه مثل حق الاستمتاع والاجارة على عينه ونحو ذلك فالطالب يطلب بمعروف والمؤدي يؤدي باحسان * ولما كان الاشهاد اقطع للنزاع قال تعالى حاثا على الكيس واليقظة والبعد عن افعال المغفلين العجزة (واشهدوا) اى على المراجعة او المفارقة وقيل المعنى واشهدوا عند الرجعة والفرقة جميعا (ذوى عدل منكم) قطعا للنزاع وهذا الاشهاد مندوب اليه عند الجمهور كقوله تعالى واشهدوا اذا تبايعتم واوجب الاشهاد في الرجعة الامام احمد في احدى الروايتين عنه والشافعي كذلك لظاهر الامر وقال مالك وابو حنيفة واحمد والشافعي في القول الآخر ان الرجعة لا تفتقر الى القبول فلم تفتقر الى الاشهاد كسائر الحقوق واذا جامع او قبل او باشر يريد بذلك الرجعة فليس براجع وقال أبو حنيفة واصحابه اذا قبل او باشر او لمس بشهوة فهو رجعة وكذا النظر الى الفرج رجعة وقال الشافعي وابو ثور اذا تكلم بالرجعة فهي رجعة وقيل وطؤه مراجعة على كل حال نواها او لم ينوها وهو مذهب احمد والمذهب الليث وبعض المالكية قال القرطبي وكان مالك يقول اذا وطئ ولم ينو الرجعة فهو وطء فاسد ولا يعود الى وطئها حتى يستبرئها من مائه الفاسد وله الرجعة في بقية العدة الاولى وليست له الرجعة في هذا الاستبراء *(تنبيه)* قوله تعالى منكم قال الحسن من المسلمين وعن قتادة من أحراركم وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الاناث لان ذوى للمذكر وقوله تعالى (وأقيموا) اى ايها المأمورون حيث كنتم شهودا (الشهادة) التى تحملتموها بادائها على اكمل أحوالها (لله) اى مخلصين لوجه الملك الاعلى لا لاجل المشهود له والمشهود عليه ولا شئ سوى وجه الله تعالى وفيه حث على اداء الشهادة لما فيه من العسر على الشاهد بترك مهماته وعسر لقاء الحاكم الذى يؤدى عنده وربما بعد مكانه وكان للعدل في الاداء عوائق ايضا (ذلكم) اى الذى ذكرت لكم ايها الامة من هذه الامور البديعة النظام العالية المرام واولاها بذلك هذا الاشهاد واقامة الشهادة (يوعظ) اى يلين ويرقق (به من كان) اى كونا راسخا من جميع الناس (يؤمن بالله) اى الذى له الكمال كله (واليوم الآخر) فانه المحط الاعظم للترقيق واما من لم يكن متصفا

بذلك

الیه تعلمه من کتب قرأها وحکم ذلاها (قوله فاسعوا الی ذکر الله) المراد بالسعی

بذلك فكأنه لقساوة قلبه ما وعظ به لانه لم ينتفع به وقوله تعالى (ومن يتق الله) اى يخف الملك الاعظم فيجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية بما يرضيه وهو اجتلاب ما أمر به واجتناب ما نهى عنه من الطلاق وغيره ظاهرا او باطنا لان التقوى اذا انفردت فى القرآن عن مقارنة الامر والنهى وان اقترنت بغيره فهو احسان او رضوان خصت المناهى (يجعل) اى بسبب التقوى (له مخرجا) جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق بالوعد على اتقائه عما نهى عنه صريحا او ضمنا من الطلاق فى الحيض والاضرار بالمعتدة واخراجها من المسكن وتعدى حدود الله تعالى روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عمن طلق ثلاثا او ألفا هل له من مخرج فتلاها وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والشعبى والضحاك هذا فى الطلاق خاصة اى من طلق كما أمره الله تعالى يكن له مخرج فى الرجعة فى العدة وان يكون كاحد الخطاب بعد العدة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أيضا يجعل له مخرجا ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة وقيل المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه قاله على بن صالح وقال الكلبى ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار الى الجنة وقال الحسن مخرجا مما نهى الله عنه وقال ابو العالية مخرجا من كل شدة وقال الربيع بن خيثم مخرجا من كل شئ ضاق على الناس وقال الحسين بن الفضل ومن يتق الله فى أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة (ويرزقه) أى الثواب (من حيث لا يحتسب) أى يبارك له فيما آتاه وقال سهل بن عبد الله ومن يتق الله فى اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة البدع ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب وقال ابو سعيد الخدرى ومن تبرأ من حوله وقوته بالرجوع الى الله تعالى يجعل له مخرجا مما كلفه الله بالمعونة له وتأول ابن مسعود ومسروق الآية على العموم وهذا هو الذى يقوى عندى وقال ابو ذر قال النبى صلى الله عليه وسلم انى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم وتلا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب قال مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة وقال أكثر المفسرين نزلت فى عوف بن مالك الاشجعى أسر المشركون ابنا له يسمى سالما فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو اليه الفاقة وقال ان العدو أسر ابنى وجزعت الام فما تأمرنى فقال صلى الله عليه وسلم اتق الله واصبر وآمرك واياها ان تستكثرا من قول لا حول ولا قوة الا بالله فعاد الى بيته وقال لامرأته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى واياك ان نستكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فقالت نعم ما أمرنا به فجعلا يقولان فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها الى المدينة وهى أربعة آلاف شاة فنزلت الآية وجعل النبى صلى الله عليه وسلم تلك الاغنام له وروى أنه جاء وقد أصاب ابلا من العدو وكان فقيرا فقال الكلبى انه أصاب خمسين بعيرا وفى رواية فانفلت ابنه من الاسر وركب ناقة القوم فمر بسرح لهم فاستاقه وقال مقاتل أصاب غنما ومتاعا فقال أبوه للنبى صلى الله عليه وسلم أيحل لى أن آكل مما أتى به ابنى قال نعم ونزل ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وروى الحسن عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها وقال الزجاج اى اذا اتقى وآثر الحلال والصبر

هذا القصد لا العدد كقوله وان ليس الانسا[ن] الا ما سعى وقول الدا[عى]

على أهله فتح الله عليه ان كان ذا ضيقة ورزقه من حيث لا يحتسب وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب (ومن يتوكل) أي يسند أموره كلها معتمدا فيها (على الله) اى الملك الذي بيده كل شئ ولا كفء له (فهو) اى الله في غيبه فضلا عن الشهادة بسبب توكله (حسبه) اى كافيه ما أهمه وحذف المتعلق للتعميم وحرف الاستعلاء للاشارة الى انه كان حمل أموره كلها عليه سبحانه لانه القوى العزيز الذي يدفع عنه كل ضار ويجلب له كل سار الى غير ذلك من المعاني الكبار فلا يبدو له في عالم الشهادة شئ يشينه وقيل من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفاية ولم يرد الدنيا لان المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل وفي الحديث لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا يؤخذ من هذا أن التوكل يكون مع مباشرة الاسباب لانه صلى الله عليه وسلم قال تغدو وتروح وهي من المقامات العظيمة قال البقاعي نقلا عن المولوي والا كان اتكالا وليس بمقام بل خسة همة وعدم مروأة لانه ابطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتب المسببات على الاسباب اه ولما كان ذلك أمرا لا يكاد يحيط به الوهم علله بقوله تعالى مهولا له بالتأكيد والاظهار في موضع الاضمار (ان الله) اى المحيط بكل كمال المنزه عن كل شائبة نقص (بالغ أمره) أي بجميع ما يريده فلابد من نفوذه سواء حصل توكل أم لا قال مسروق يعني قاض أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه الا أن من يتوكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا وقرأ حفص بالغ بغير تنوين وأمره بالجر مضاف اليه على التخفيف والباقون بالتنوين وأمره بنصب الراء وضم الهاء قال ابن عادل وهو الاصل خلافا لابي حيان (قد جعل الله) أي الملك الذي لا كفء له ولا معقب لحكمه جعلا مطلقا من غير تقييد بجهة ولا حيثية (لكل شئ) كرخاء وشدة (قدرا) أي تقديرا لا يتعداه في مقداره وزمانه وجميع عوارضه وأحواله وان اجتهد جميع الخلائق في أن يتعداه فمن توكل استفاد الاجر وخفف عنه الالم وقذف في قلبه السكينة ومن لم يتوكل لم ينفعه ذلك وزاد ألمه وطال غمه بشدة سعيه وخيبة أسبابه التي يعتقد أنها هي المنجية فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط جف القلم فلا يزاد في المقادير شئ ولا ينقص منها شئ ويحكى أن رجلا أتى عمر فقال أولني مما أولاك الله فقال أتقرأ القرآن قال لا قال انا لا نولي من لا يقرأ القرآن فانصرف الرجل واجتهد حتى تعلم القرآن رجاء أن يعود الى عمر فيوليه فلما تعلم القرآن تخلف عن عمر فرآه ذات يوم فقال يا هذا أهجرتنا فقال يا أمير المؤمنين لست ممن يهجر ولكني تعلمت القرآن فاغناني الله عن عمر وعن باب عمر قال فاي آية أغنتك قال قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا فمن توكل على غيره سبحانه ضاع لانه لا يعلم المصالح وان علم لا يعلم كيف يستعملها وهو سبحانه المنفرد بعلم ذلك كله ولا يعلمه حق علمه غيره * (تنبيه) * الآية تفهم ان من لم يتق الله يقتر عليه وهو موافق لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لا يرد القدر الا الدعاء ولا يزيد في العمر الا البر وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وتفهم ان من لم يتوكل لم يكفه شيأ من الاشياء وقال عبد الله بن رافع لما نزل قوله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنحن اذا

توكلنا

والبيك نسى وقصد (قوله واذا رأوا تجارة او لهوا انفضوا اليها) تقديره

نتوكل عليه ونرسل ما كان لنا ولا نحفظه فنزل ان الله بالغ أمره فيكم وعليكم وقال الربيع بن
خثيم ان الله قضى على نفسه ان من توكل عليه كفاه ومن آمن به هداه ومن أقرضه جازاه
ومن وثق به نجاه ومن دعاه أجاب له وتصديق ذلك في كتاب الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه
ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ومن يعتصم بالله
فقد هدى الى صراط مستقيم واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا
دعان * ولما بين تعالى امر الطلاق والرجعة في التي تحيض وكانوا قد عرفوا عدة ذوات
الاقراء عرفهم في هذه السورة عدة التي لا ترى الدم قال أبو عثمان عمر بن سليمان نزلت عدة
النساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها قال أبي بن كعب يا رسول الله ان ناسا
يقولون قد بقي من النساء من لم يذكر فيهن شيء الصغار والكبار وذوات الحمل فنزل (واللائي
يئسن) أي من المطلقات (من المحيض) أي الحيض الآية وقال مقاتل لما ذكر قوله تعالى
والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء قال خلاد بن النعمان يا رسول الله فما عدة التي لم
تحض وعدة التي انقطع حيضها وعدة الحبلى فنزلت وقيل ان معاذ بن جبل سأل عن عدة
الكبيرة التي يئست فنزلت وقال مجاهد الآية واردة في المستحاضة لا تدري دم حيض هو
أو دم علة * واختلف في سن اليأس فالذي عليه الاكثر أنه اثنان وستون سنة وقيل خمس
وخمسون وقيل ستون وقيل سبعون * ولما كان هذا الحكم خاصا بأزواج المسلمين لحرمة
فرشهم وحفظ أنسابهم قال تعالى (من نسائكم) أي أيها المسلمون سواء كن مسلمات أو من
أهل الكتاب (ان ارتبتم) أي شككتم في عدتهن (فعدتهن ثلاثة أشهر) كل شهر يقوم مقام
حيضة لان أغلب عوائد النساء أن يكون كل قرء في شهر (واللائي لم يحضن) أي لصغرهن
ولانهن لا حيض لهن أصلا وان كن بالغات فعدتهن ثلاثة أشهر أيضا هذا كله في غير المتوفى
عنهن أزواجهن اما هن فعدتهن ما في آية يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا وقرأ
واللائي في الموضعين ابن عامر والكوفيون بالهمز وياء بعده وقرأ قالون وقنبل بالهمز ولا ياء
بعده وللبزي وأبي عمرو أيضا ابدال الهمزة ياء ساكنة مع المد لا غير * ولما فرغ من ذكر الحوائل
أتبعه ذكر الحوامل بقوله تعالى (وأولات الاحمال) أي من جميع الزوجات المسلمات
والكافرات المطلقات والمتوفى عنهن (أجلهن) أي لمنتهى العدة سواء كان لهن مع الحمل
حيض أم لا (أن يضعن حملهن) وهذا على عمومه مخصص لآية يتربصن بانفسهن أربعة أشهر
وعشرا لان المحافظة على عمومه أولى من المحافظة على عموم ذلك في قوله تعالى ازواجا لان عموم
هذه بالذات لان الموصول من صيغ العموم وعموم ازواجا بالعرض لانه بدل لا يصلح لجميع
الازواج في حال واحد والحكم معلل هنا بوصف الحملية بخلاف ذلك ولان هذه الآية متأخرة
النزول عن آية البقرة فتقديمها على تلك تخصيص وتقديم تلك في العمل بعمومها رفع لما في
الخاص من الحكم فهو نسخ والاول هو الراجح للوفاق ولان سبيعة بنت الحرث وضعت حملها
بعد وفاة زوجها بليال فاذن لها النبي صلى الله عليه وسلم ان تتزوج * (تنبيه) * اذا وضعت
المرأة ما في بطنها من علقة او مضغة حلت عند مالك وقال الشافعي وأحمد وابو حنيفة لا تحل
الا بوضع ما يتبين فيه شيء من خلق الانسان فان كانت حاملا بتوأمين لم تنقض عدتها حتى تضع

واذا رأوا تجارة انفضوا اليها اراد وانفضوا اليه فحذف الثاني لدلالة الاول

الثاني منهما ولابد أن يكون الحمل منسوبا إلى ذي العدة أما إذا كان من زنا فلا حرمة له والعدة بالحيض * ولما كانت أمور النساء في المعاشرة والمفارقة في غاية المشقة كرر بالحث على التقوى إشارة إلى ذلك وترغيبا في لزوم ما حده سبحانه فقال عاطفا على ما تقديره فمن لم يحفظ هذه الحدود عسر الله تعالى عليه أموره (ومن يتق الله) أي يوجد الخوف من الملك الأعظم إيجادا مستمرا ليجعل بينه وبين سخطه وقاية من طاعته امتثالا بالمأمور واجتنابا بالمنهي (يجعل له) أي يوجد إيجادا مستمرا باستمرار التقوى لأن الله لا يمل حتى تملوا (من أمره) أي كله في النكاح وغيره (يسرا) أي سهولة وفرجا وخيرا في الدارين بالدفع والنفع وذلك أعظم من مطلق المخرج المتقدم في الآية الأولى وقال مقاتل ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا في توفيقه لطاعته (ذلك) أي الأمر المذكور من جميع هذه الأحكام العالية المراتب (أمر الله) أي الملك الأعلى الذي له الكمال كله (أنزله إليكم) وبينه لكم (ومن يتق الله) أي الذي لا أمر لأحد معه في أحكامه فيراعي حقوقها (يكفر) أي يغطي تغطية عظيمة (عنه سيئاته) ليتخلى عن المبعدات فإن الحسنات يذهبن السيئات (ويعظم له أجرا) بأن يبدل سيئاته حسنات ويوفيه أجرها في الدارين مضاعفة فيتحلى بالقربات وهذا أعظم من مطلق اليسر المتقدم (أسكنوهن) قال الرازي أسكنوهن وما بعده بيان لما شرط من التقوى في قوله تعالى ومن يتق الله كأنه قيل كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات فقيل أسكنوهن وقوله تعالى (من حيث سكنتم) فيه وجهان أحدهما أن من للتبعيض قال الزمخشري مبعضها محذوف معناه أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم أي بعض مكان سكناكم كقوله تعالى يغضوا من أبصارهم أي بعض أبصارهم قال قتادة إن لم يكن إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه قال الرازي وقال الكسائي من صلة والمعنى أسكنوهن حيث سكنتم والثاني أنها لابتداء الغاية قاله الحوفي وأبو البقاء قال أبو البقاء والمعنى تسببوا إلى إسكانهن من الوجه الذي تسكنون أنفسكم ودل عليه قوله تعالى (من وجدكم) أي من وسعكم أي مما تطيقونه وفي إعرابه وجهان أحدهما أنه عطف بيان لقوله تعالى من حيث سكنتم وإليه ذهب الزمخشري وتبعه البيضاوي قال ابن عادل أظهرهما أنه بدل من قوله من حيث بتكرار العامل وإليه ذهب أبو البقاء كأنه قيل أسكنوهن من وسعكم (ولا تضاروهن) أي حال السكنى في المسكن ولا في غيره (لتضيقوا عليهن) حتى تلجؤوهن إلى الخروج (وإن كن) أي المطلقات (أولات حمل) أي من الأزواج من طلاق بائن أو رجعي (فأنفقوا عليهن) وإن مضت الأشهر (حتى يضعن حملهن) فيخرجن من العدة وهذا يدل على اختصاص استحقاق النفقة بالحامل من المعتدات البوائن والأحاديث تؤيده قال القرطبي اختلف العلماء في المطلقة ثلاثا على ثلاثة أقوال فمذهب مالك والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها ومذهب أبي حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة ومذهب أحمد وإسحق وأبي ثور لا نفقة لها ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس قالت دخلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي أخو زوجي فقلت إن زوجي طلقني وإن هذا يزعم أن ليس لي سكنى ولا نفقة قال بل لك السكنى والنفقة فقال إن زوجها طلقها ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم إنما السكنى والنفقة لمن له عليها رجعة فلما قدمت الكوفة طلبني

عليه وقرأ ابن مسعود ا‌نقضوا إليهما وعليه فلاحذف

الاسود

الاسود بن يزيد ليسأل عن ذلك فان أصحاب عبد الله يقولون ان لها السكنى والنفقة وعن الشعبي قال لقيني الاسود بن يزيد فقال يا شعبي اتق الله وارجع عن حديث فاطمة بنت قيس فان عمر كان يجعل لها السكنى والنفقة فقلت لا أرجع عن شئ حدثتني فاطمة بنت قيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولانه لو كان لها سكنى لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم وأجيب عن ذلك بما روت عائشة أنها قالت كانت فاطمة في مكان وحش فخيف على ناحيتها وقال سعيد بن المسيب انما نقلت فاطمة لطول لسانها على احمائها وقال قتادة وابن أبي ليلى لا سكنى الا للرجعية لقوله تعالى لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا وقوله تعالى أسكنوهن راجع لما قبله وهي المطلقة الرجعية (فان أرضعن لكم) أي بعد انقضاء علقة النكاح (فآتوهن أجورهن) أي على ذلك الارضاع وللرجل أن يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر اجنبية ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار اذا كان الولد منها ما لم تبن ويجوز عند الشافعي مطلقا وقوله تعالى (وائتمروا) خطاب للازواج والزوجات أي ليأمر بعضكم بعضا في الارضاع والاجر فيه وغير ذلك وليقبل بعضكم أمر بعض وقال الكسائي ائتمروا وتشاوروا وتلا قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك وأنشد قول امرئ القيس * ويعدو على المرء ما يأتمر * وزادهم رغبة في ذلك بقوله تعالى (بينكم) أي ان هذا الخير لا يعدوكم وأكد ذلك بقوله تعالى (بمعروف) ونكره سبحانه تخفيفا على الامة بالرضا بالمستطاع وهو يكون مع الاخلاق بالاتصاف ومع النفس بالخلاف (وان تعاسرتم) أي طلب كل منكم ما يعسر على الآخر كان طلبت المرأة الاجرة وطلب الزوج ارضاعها مجانا (فسترضع له) أي الاب (أخرى) أي مرضعة غير الام ويغني الله تعالى عنها وليس له أن يكرهها على ذلك نعم اذا لم يقبل ثدي غيرها أو لم يوجد غيرها أجبرت على ذلك بالاجرة وهذا الحكم لا يختص بالمطلقة بل المنكوحة كذلك واختلفوا فيمن يجب عليه رضاع الولد فقال مالك رضاع الولد على الزوجة ما دامت الزوجية الا لشرفها وموضعها فعلى الاب رضاعه حينئذ في ماله وقال أبو حنيفة لا يجب على الام بحال وقيل يجب عليها بكل حال ولو طلبت الام اجرة المثل وهناك أجنبية ترضع بدون أجرة المثل أو متبرعة فخير الاب بينهما ولا يضيق على الاب بدفع الاجرة لانه صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما أو قطيعة رحم وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح (لينفق ذو سعة) أي مال واسع ولم يكلفه تعالى جميع وسعه بل قال تعالى (من سعته) أي لينفق الزوج على زوجته وولده الصغير على قدر وسعه فيوسع اذا كان موسعا عليه (ومن قدر) أي ضيق (عليه رزقه) فعلى قدر ذلك فيقدر النفقة بحسب حال المنفق والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى العادة قال تعالى وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقال صلى الله عليه وسلم لهند خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف لكن نفقة الزوجة مقدرة عند الشافعي محدودة فلا اجتهاد للحاكم ولا للمفتي فيها وتقديرها هو بحسب حال الزوج وحده من يسار واعسار ولا اعتبار بحالها فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس فيلزم الزوج الموسر مدان والمتوسط مد ونصف والمعسر مد لظاهر قوله تعالى

(سورة المنافقين)
(قوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) اى

لينفق ذو سعة من سعته فجعل الاعتبار بالزوج فى اليسر والعسر ولان الاعتبار بحالها يؤدى
الى الخصومة لان الزوج يدعى انها تطلب فوق كفايتها وهى تزعم انها تطلب قدر كفايتها
فقدرت قطعا للخصومة وقوله تعالى (فلينفق) أى وجوبا على المرضع وغيرها من كل
ما أوجبه الله تعالى عليه (مما آتاه الله) أى الملك الذى لا ينفد ما عنده ولو من رأس المال
ومتاع البيت (لا يكلف الله) اى الذى له الملك كله (نفسا) أى نفس كانت (الا ما آتاها) أى
أعطاها من المال (سيجعل الله) أى الملك الذى له الكمال كله فلا خلاف لوعده (بعد عسر)
أى بعد كل عسر (يسرا) وقد صدق الله وعده فيمن كانوا موجودين بعد نزول الآية
ففتح عليهم جميع جزيرة العرب ثم فارس والروم حتى صاروا أغنى الناس وصدق الآية دائم
غير انه فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم ومن عداهم آمين لان ايمانهم أتم قال القشيرى وانتظار
اليسر من الله صفة المتوسطين فى الاحوال الذين انحطوا عن درجة الرضا وارتقوا عن حد
اليأس والقنوط ويعيشون فى افناء الرجال ويتعللون بحسن المواعيد اه • ولما ذكر
الاحكام والمواعظ والترغيب لمن أطاع حذر من خالف بقوله تعالى (وكاين) هى كاف الجر
دخلت على أى بمعنى كم (من قرية) أى وكثير من القرى وقرأ ابن كثير بالالف بعد الكاف
وبعد الالف همزة مكسورة وقفا ووصلا وقرأ الباقون فى الوصل بهمزة مفتوحة بعد الكاف
وبعد الهاء ياء تحتية مكسورة مشددة وعبر عن أهل القرية بها مبالغة فقال (عتت) أى
استكبرت وجاوزت الحد فى عصيانها وطغيانها فاعرضت عنادا (عن أمر ربها) أى الذى
أحسن اليها ولا يحسن اليها غيره (ورسله) فلم تقبل منهم ما جاؤا به عن الله تعالى فان طاعتهم من
طاعته (فحاسبناها) أى فى الآخرة وان لم تجئ لتحقق وقوعها (حسابا شديدا) أى بالمناقشة
والاستقصاء (وعذبناها عذابا نكرا) أى منكرا فظيعا وهو عذاب النار وقيل العذاب
فى الدنيا فيكون على حقيقته أى جازيناها بالعذاب فى الدنيا وعذبناها عذابا نكرا فى
الآخرة وقيل فى الكلام تقديم وتأخير أى فعذبناها عذابا نكرا فى الدنيا بالجوع والقحط
والسيف والخسف والمسخ وسائر المصائب وحاسبناها حسابا شديدا فى الآخرة وقرأ نافع وابن
ذكوان وشعبة بضم الكاف والباقون بسكونها (فذاقت) أى فتسبب عن ذلك أنها ذاقت
(وبال) أى عقوبة (امرها) أى كفرها (وكان عاقبة امرها خسرا) أى فى الدنيا بالاسر وضرب
الجزية وغير ذلك وفى الآخرة بعذاب النار فان من زرع الشوك كما قال القشيرى لا يجنى
الورد ومن أضاع حق الله تعالى لا يطاع فى حظ نفسه ومن احترف بمخالفة أمر الله تعالى
فليصبر على عقوبته ثم استأنف الجواب عمن يقول هل لها غير هذا فى غير هذه الدار بقوله تعالى
(أعد الله) أى الملك الاعظم (لهم) بعد الموت وبعد البعث (عذابا شديدا) وفى ذلك تكرير للوعيد
وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها (فاتقوا الله) أى الذى له الامر كله بامتثال أوامره
واجتناب نواهيه (يا أولى الالباب) أى يا أصحاب العقول الصافية النافذة من الظواهر
الى البواطن وقوله تعالى (الذين آمنوا) منصوب باضمار أعنى بيانا للمنادى فى قوله تعالى
يا أولى الالباب أو يكون عطف بيان للمنادى او نعتا له أى خلصوا من دائرة الشرك واوجدوا
الايمان حقيقة (قد انزل الله) أى الذى له صفات الكمال (اليكم ذكرا) هو القرآن وفى نصب

شهادتهم التى لا يعتقدونها فالتكذيب للشهادة لا للمشهود به (قوله ذلك

(رسولا)

(رسولا) أوجه أحدها قال الزجاج والفارسي انه منصوب بالمصدر المنون قبله لانه ينحل لحرف مصدري وفعل كانه قيل أن ذكر رسولا ويكون ذكره الرسول قوله محمد رسول الله والمصدر المنون عامل كقوله تعالى أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما الثاني جعل نفس الذكر مبالغة فابدل منه ويكون محمولا على المعنى كانه قال قد أظهر لكم ذكرا رسولا فيكون من باب بدل الشيء من الشيء وهو هو الثالث أنه بدل منه على حذف مضاف من الاول تقديره أنزل ذا ذكر رسولا الرابع أنه بدل منه على حذف مضاف من الثاني أي ذكرا ذكر رسول الخامس أنه منصوب بفعل مقدر أي وأرسل رسولا (يتلوا عليكم آيات الله) هي دلائل الملك الاعظم الظاهرة جدا حال كونها (مبينات) أي لا لبس فيها بوجه واختلف الناس في رسولا هل هو النبي صلى الله عليه وسلم او جبريل الا كثر على الاول واقتصر عليه الجلال المحلي واقتصر الزمخشري على الثاني وهو قول الكلبي وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بكسر الياء بعد الموحدة والباقون بالفتح (ليخرج الذين آمنوا) اى اقروا بالشهادتين (وعملوا) تصديقا لما قالوه بالسنتهم وتحقيقا لانه من قلوبهم (الصالحات) اى ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الايمان والعمل الصالح او ليخرج من علم او قدر انه مؤمن (من الظلمات) اى الضلالة (الى النور) اى الهدى (ومن يؤمن بالله) اى يجدد في كل وقت على الدوام الايمان بالملك الاعلى بان لا يزال في ترق في معارج معارفه (ويعمل) على التجديد المستمر (صالحا) لله وفي الله فله دوام النعماء وهو معنى ادخاله الجنة كما قال تعالى (يدخله) أي عاجلا مجازا بما يفتح الله له من لذات المعارف ويفتح له من الانس وآجلا حقيقة (جنات) اى بساتين هي في غاية ما يكون من جمع جميع الاشجار وحسن الدار وبين دوام ريها بقوله تعالى (تجري من تحتها) اى من تحت غرفها (الانهار) فهي في غاية الري بحيث ان ساكنها يجريها في اي موضع اراد نهرا وقرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون والباقون بالياء التحتية (خالدين فيها) وأكد معنى الخلود بقوله تعالى (ابدا) ليفهم الدوام بلا انقضاء وقوله تعالى (قد أحسن الله) أي الملك الاعلى ذو الجلال والاكرام (له) أي خاصة (رزقا) أي عظيما عجيبا فيه تعجب وتعظيم لما رزقوا من الثواب وقال القشيري الحسن ما كان على حد الكفاية لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رزق لحرصه كذلك أرزاق القلوب أحسنها أن يكون له من الاحوال ما يستقل بها من غير نقصان ولا زيادة لا يقدر على الاستمرار عليها ثم بين كمال قدرته بقوله تعالى (الله) أي الذي له جميع صفات الكمال التي القدرة الشاملة احداها (الذي خلق) اى أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه على هذا المنوال الغريب البديع (سبع سموات) أي وأنتم تشهدون عظمة ذلك وتشهدون أنه لا يقدر عليه الا تام القدرة والعلم الكامل (ومن الارض مثلهن) أي سبعا أما كون السموات سبعا بعضها فوق بعض فلا خلاف فيه لحديث الاسراء وغيره وأما الارضون فقال الجمهور انها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والارض وفي كل أرض سكان من خلق الله وقال الضحاك انها سبع أرضين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات قال القرطبي والاول أصح لان الاخبار دالة عليه كما روى البخاري

بانهم) اى المنافقين آمنوا ثم كفروا أى آمنوا بالسنتهم وكفروا بقلوبهم

وغيره روى أبو مروان عن أبيه أن كعبا حلف له بالله الذي فلق البحر لموسى أن صهيبا حدثه أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها الا قال حين يراها اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الارضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين انا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر من فيها وروى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من ظلم قيد شبر من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين قال البقاعي رأيت في التعداد حقيقة حديثا صريحا لكن لا أدري حاله ذكره ابن برجان في اسمه تعالى الملك من شرحه الاسماء الحسنى قال ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما تحت هذه الارض قالوا الله ورسوله أعلم قال هواء أتدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ارض اتدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله اعلم حتى عد سبع ارضين ثم رايته في الترمذي عن ابي رزين العقيلي ولفظه هل تدرون ما الذي تحتكم قالوا الله ورسوله اعلم قال انها الارض ثم قال اتدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله اعلم قال ان تحتها ارضا اخرى خمسمائة سنة حتى عد سبع ارضين بين كل ارضين مسيرة خمسمائة سنة ثم رايت في الفردوس عن ابن مسعود رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما بين السماء الى السماء خمسمائة عام وعرض كل سماء وثخانة كل سماء خمسمائة عام وما بين السماء السابعة وبين الكرسي والعرش مثل ذلك وما بين السماء الى الارض مسيرة خمسمائة عام والارضون وعرضهن وثخانتهن مثل ذلك اه قال الماوردي وعلى أنها سبع ارضين تختص دعوة الاسلام باهل الارض العليا ولا تلزم من في غيرها من الارضين وان كان فيها من يعقل من خلق مميز وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان احدهما انهم يشاهدون السماء من كل جانب من ارضهم ويستمدون الضياء منها قال ابن عادل وهذا قول من جعل الارض مبسوطة الثاني انهم لا يشاهدون السماء وان الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه قال ابن عادل وهذا قول من جعل الارض كرية وحكى الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما انها سبع ارضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض تفرق بينها البحار وتظل جميعهم السماء فعلى هذا ان لم يكن لاحد من اهل الارض وصول الى ارض اخرى اختصت دعوة الاسلام بهذه الارض وان كان لقوم منهم وصول الى ارض اخرى احتمل ان تلزمهم دعوة الاسلام لامكان الوصول اليهم لان فصل البحار اذا امكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عم حكمه واحتمل ان لا تلزمهم دعوة الاسلام لانها لو لزمتهم لكان النص بها واردا ولكان النبي صلى الله عليه وسلم بها مامورا وقال بعض العلماء السماء في اللغة عبارة عما علاك فالاولى بالنسبة الى السماء الثانية ارض وكذلك السماء الثانية بالنسبة الى الثالثة ارض وكذا البقية بالنسبة الى ما تحته سماء وبالنسبة الى ما فوقه ارض فعلى هذا تكون السموات السبع وهذه الارض الواحدة سبع سموات وسبع ارضين (يتنزل) اى بالتدريج (الامر) قال مقاتل وغيره اى الوحي وعلى هذا يكون قوله تعالى (بينهن) اشارة الى ما بين هذه الارض العليا التي هي اولاها وبين السماء السابعة التي هي اعلاها والاكثرون على ان الامر هو القضاء والقدر فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى بينهن اشارة الى ما بين الارض السفلى التي هي اقصاها وبين السماء السابعة التي هي اعلاها فيجرى امر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن وعن قتادة في كل ارض

ثم الترتيب الاخباري لا الايجادي (قوله يحسبون كل صيحة عليهم) كل

من

من ارضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه وقيل هو مايدبر فيهن من عجائب تدبيره وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الازرق سأله هل تحت الارض من خلق قال نعم قال فما الخلق قال اما ملائكة او جن وقال مجاهد يتنزل الامر من السموات السبع الى الارضين السبع وقال الحسن بين كل سماءين أرض وامر وقيل يتنزل الامر بينهن بحياة بعض وموت بعض وغنى قوم وفقر قوم وقيل مايدبر فيهن من عجيب تدبيره فينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيآتها فينقلهم من حال الى حال قال ابن كيسان وهذا على اتساع اللغة كما يقال للموت امر الله وللريح والسحاب ونحوها وقوله تعالى (لتعلموا) متعلق بمحذوف أي اعلمكم بذلك الخلق والانزال لتعلموا (ان الله) اى الملك الاعلى الذى له الاحاطة كلها (على كل شئ) أي من غير هذا العالم يمكن ان يدخل تحت المشيئة (قدير) بالغ القدرة فيأتي بعالم آخر مثل هذا العالم وابدع منه وابدع من ذلك الى مالانهاية له بالاستدلال بهذا العالم فان من قدر على ايجاد ذرة من العدم قدر على ايجاد ماهو دونها ومثلها وفوقها الى مالانهاية له لانه لافرق في ذلك بين قليل وكثير وجليل وحقير ماترى في خلق الرحمن من تفاوت قال البقاعي واياك ان تصغي الى من قال انه ليس في الامكان ابدع مما كان فانه مذهب فلسفي خبيث والآية نص في ابطاله وان نسبه بعض الملحدين الى الغزالي فاني لا اشك انه مدسوس عليه وان مذهبه فلسفي خبيث بشهادة الغزالي كما بينت ذلك في كتابي دلائل البرهان على ان في الامكان ابدع مما كان قال ومع كونه مذهب الفلاسفة أخذه أكفر المارقين ابن عربي وأودعه في فصوصه وغير ذلك من كتبه واسنده في بعضها للغزالي والغزالي بريء منه بشهادة ماوجد من عقائده في الاحياء وغيره انتهى والبقاعي ممن يقول بكفر ابن عربي وابن المقري يقول بكفره وكفر طائفته وقد تقدم الكلام على كلامهم (وان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (قد أحاط) لتمام قدرته (بكل شئ) مطلقا (علما) فله الخبرة التامة بما يأمر به من الاحكام في العالم بمصالحه ومفاسده فلا يخرج شئ عن علمه وقدرته فعاملوه معاملة من يعلم أنه رقيب عليه تسلموا في الدنيا وتسعدوا في الآخرة * (تنبيه) * علما منصوب على المصدر المؤكد لان أحاط بمعنى علم وقيل بمعنى والله أحاط احاطة علما وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

سورة التحريم مدنية

وهي ثنتا عشرة آية ومائتان وأربعون كلمة وألف وستون حرفا

(بسم الله) الذى له الكمال كله على الدوام (الرحمن) الذى عم عباده بعظيم الانعام (الرحيم) الذى أتم على خواصه نعمة الاسلام واختلف في سبب نزول قوله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله) أى الذى لا أمر لأحد معه (لك) فقالت عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان عند زينب بنت جحش فشرب عندها عسلا قالت فتواطيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل اني أجد منك ريح مغافير فدخل على احداهما فقالت له ذلك

فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزل لم تحرم ما أحل الله لك الى قوله تعالى ان تتوبا الى الله لعائشة وحفصة وعنها أيضا قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل فكان اذا صلى العصر دار على نسائه فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت اليها امرأة من قومها عكة عسل فسقت رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شربة فقلت أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة وقلت لها اذا دخل عليك فانه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغافير فانه سيقول لك لا فقولي ما هذه الريح وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه أن يوجد منه الريح فانه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرست نحله العرفط وسأقول ذلك له وقولي له انت يا صفية ذلك فلما دخل على سودة قالت سودة والله الذي لا اله غيره لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت وانه لعلى الباب فرقا منك فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت له يا رسول الله أكلت مغافير قال لا قلت فما هذه الريح قال سقتني حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط فلما دخل علي قلت له مثل ذلك ثم دخل على صفية فقالت مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت يا رسول الله الا أسقيك منه قال لا حاجة لي به قالت تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه منه قالت فقلت لها اسكتي ففي هذه الرواية أن التي شرب عندها النبي صلى الله عليه وسلم حفصة وفي الاولى زينب وروى ابن ابي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما انه شربه عند سودة وقيل انما هي أم سلمة رواه اسباط عن السدي وقاله عطاء بن أبي مسلم *(تنبيه)* شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما قولها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل الحلواء بالمد والقصر قاله في المصباح وهو كل شيء حلو وذكر العسل بعدها وان كان داخلا في جملة الحلواء تنبيها على شرفه ومرتبته وهو من باب الخاص بعد العام وقولها فتواطيت أنا وحفصة هكذا وقع في الرواية وأصله فتواطأت بالهمز أي اتفقت أنا وحفصة وقولها اني أجد منك ريح مغافير هو بغين معجمة وفاء بعدها ياء وراء وهو صمغ حلو كالناطف وله ريح كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط بضم العين المهملة والفاء يكون بالحجاز وقيل العرفط نبات له ورق يفرش على الارض له شوك وثمره خبيث الرائحة وقال أهل اللغة العرفط من شجر العضاه وهو كل شجر له شوك وقيل رائحته كرائحة النبيذ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه رائحة كريهة قولها جرست نحله العرفط بالجيم والراء وبالسين المهملتين ومعناه أكلت نحله العرفط فصار منه العسل قال القاضي عياض والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش ذكره النووي في شرح مسلم وكذا ذكره أيضا القرطبي وقال أكثر المفسرين في سبب نزول ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيارة أبيها فاذن لها فلما خرجت أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جاريته مارية القبطية فادخلها بيت حفصة فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقا فجلست عند الباب فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يقطر عرقا وحفصة تبكي فقال صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقالت انما أذنت لي من أجل ذلك أدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي على فراشي أما رأيت لي حرمة

واقعة عليهم وقوله هم المدوا استئناف وقيل هو المفعول الثاني ليحسب

وحفاما كنت تصنع هذا بامرأةمنهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي فهي حرام على التمس بذلك رضاك فلا تخبري بهذا امرأة منهن فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت ألا أبشرك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه أمته مارية وان الله قد أراحنا منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضبت عائشة فلم يزل نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى حلف ان لا يقربها وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أمة يطؤها فلم تزل عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فأنزل الله تعالى يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك الآية أخرجه النسائي (فان قيل) قوله تعالى لم تحرم ما أحل الله لك يوهم أن هذا الخطاب بطريق العتاب وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم (أجيب) بأنه ليس بطريق العتاب بل بطريق التنبيه على ان ما صدر منه لم يكن على ما ينبغي (فان قيل) تحريم ما أحل الله غير ممكن فكيف قال لم تحرم ما أحل الله لك (أجيب) بان المراد بهذا التحريم هو الامتناع من الانتفاع بالازواج لا اعتقاد كونه حراما بعد ما أحله الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم امتنع من الانتفاع بها مع اعتقاد كونها حلالا فان من اعتقد ان هذا التحريم هو تحريم ما أحل الله فقد كفر فكيف يضاف الى النبي صلى الله عليه وسلم (تبتغي) اى تريد ارادة عظيمة من مكارم أخلاقك وحسن صحبتك (مرضات ازواجك) اى الاحوال والامور والمواضع التي يرضين بها وهن اولى بان يبتغين رضاك وكذا جميع الخلق لتتفرغ لما يوحى اليك من ربك لكن ذلك للزوجات آكد (والله) اى الملك الاعلى (غفور رحيم) اى محاء ستور لما يشق على خلص عباده مكرم لهم فقد غفر لك هذا التحريم ثم علل وبين ذلك بقوله تعالى (قد فرض الله) اى قدر ذو الجلال والاكرام الذي لا شريك له ولا امر لاحد معه وعبر بالفرض حثا على قبول الرخصة اشارة الى ان ذلك لا يقدح في الورع ولا يخل بحرمة اسم الله تعالى لان أهل الهمم العوالي لا يجوزون النقلة من عزيمة الى رخصة بل من رخصة الى عزيمة او عزيمة الى مثلها • ولما كان التخفيف على أمته تعظيما له صلى الله عليه وسلم قال تعالى (لكم) أيتها الامة التي انت رأسها (تحلة) أى تحليل (أيمانكم) بالكفارة المذكورة في سورة المائدة وقيل قد شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك حال فلان في يمينه اذا استثنى بمعنى استثن في يمينك اذا أطلقتها بان تقول ان شاء الله متصلا بحلفك وتنويه قبل الفراغ منه واختلف أهل العلم في لفظ التحريم فقال قوم هو ليس بيمين فان قال لزوجته انت حرام أو حرمتك فان نوى به طلاقا فهو طلاق وان نوى به ظهارا فهو ظهار وان نوى تحريم ذاتها او اطلق فعليه كفارة يمين وان قال لطعام حرمته على نفسي فلا شئ عليه وهذا قول ابن مسعود رضي الله عنه واليه ذهب الشافعي وروى الدارقطني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه اتاه رجل فقال اني جعلت امرأتي على حراما فقال كذبت ليست عليك بحرام وتلا هذه الآية وذهب جماعة الى انه يمين فان قال ذلك لزوجته او جاريته فلا تجب الكفارة ما لم يقربها كما لو حلف لا يأكله فلا كفارة عليه ما لم يأكله يروى ذلك عن أبي بكر وعائشة وبه قال الاوزاعي وأبو

وعليه فعليهم حال (قوله ولكن المنافقين لا يفقهون) ختمه هنا بلا يفقهون

حنيفة وعند ابى حنيفة ان نوى الطلاق بالحرام كان بائنا وان قال كل حلال عليه حرام فعلى الطعام والشراب اذا لم ينو والا فعلى مانوى نقله الزمخشرى وعن عمر اذا نوى الطلاق فرجعى وعن على ثلاث وعن زيد واحدة بائنة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال اذا حرم الرجل امرأته فهى يمين يكفرها وقال لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة قال مقاتل فاعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الواقعة رقبة قال زيد بن أسلم وعاد الى مارية وقال الحسن لم يكفر عليه السلام لانه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكفارة اليمين فى هذه السورة انما أمر بها الامة قال ابن عادل والاول أصح وان المراد بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ثم الامة تقتدى به فى ذلك (والله) اى والحال أن المختص باوصاف الكمال (مولاكم) أى يفعل معكم فعل القريب الصديق فهو سيدكم ومتولى أموركم (وهو) أى وحده (العليم) أى البالغ العلم بمصالحكم وغيرها الى مالا نهاية له (الحكيم) أى الذى يضع كل ما يصدر عنه لكم فى اتقن محاله بحيث لا يقدر غيره أن يغيره ولا شيأ منه والعامل فى قوله تعالى (واذ) اذكر فهو مفعول به لا ظرف والمعنى اذكر اذ (أسر النبى) أى الذى شأنه أن يرفعه الله تعالى دائما فانه ما ينطق عن الهوى (الى بعض ازواجه) وأبهمها ولم يعينها تشريفا له صلى الله عليه وسلم واياها وهى حفصة صيانة لهن لان حرمتهن من حرمته صلى الله عليه وسلم (حديثا) ليس هو من شأن الرسالة ولو كان من شأنها لم يخص به ولا أسره وذلك هو تحريمه فتاته على نفسه وقوله لحفصة لا تخبرى بذلك أحدا وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أسر أمر الخلافة بعده فحدثت حفصة وقال الكلبى أسر اليها ان أباك واباعائشة يكونان خليفتين على امتى من بعدى وقال ميمون بن مهران اسر أن أبا بكر خليفتى من بعدى (فلما نبأت) اى أخبرت (به) عائشة ظنا منها انه لا حرج عليها فى ذلك (وأظهره الله) أى أطلعه الملك الذى له الاحاطة بكل شئ (عليه) أى الحديث على لسان جبريل عليه السلام بأنه قد أفشى مناصحة له فى اعلامه بما يقع فى غيبته ليحذره ان كان شرا او يثبت عليه ان كان خيرا وقيل أظهر الله الحديث على النبى صلى الله عليه وسلم من الظهور (عرف) أى النبى صلى الله عليه وسلم التى اسر اليها (بعضه) أى بعض ما فعلت (وأعرض عن بعض) أى اعلام بعض تكرما منه ان يستقصى فى العبارات وحياء وحسن عشرة قال الحسن ما استقصى كريم قط وقال سفيان مازال التغافل من فعل الكرام وانما عاتبها على ذكر الامامة واعرض عن ذكر الخلافة خوفا من أن ينتشر فى الناس فربما أثار حسد بعض المنافقين واورث الحسود للصديق كيدا وقال بعض المفسرين انه اسر الى حفصة شيأ فحدثت به غيرها فطلقها مجازاة على بعضه ولم يؤاخذها بالباقى وهو من قبيل قوله تعالى وما تفعلوا من خير يعلمه الله اى يجازيكم عليه وقيل المعرف حديث الامامة والمعرض عنه حديث مارية وروى انه قال لها ويلك ألم أقل لك اكتمى على قالت والذى بعثك بالحق نبيا ما ملكت نفسى فرحا بالكرامة التى خص الله تعالى بها أباها (فلما نبأها به) اى بما فعلت على وجه لم يغادر من ذلك الذى عرفها به شيأ منه ولا من عوارضه لتزداد بصيرة روى أنها قالت لعائشة نبرا قانا اعلم انها لا تظهره قاله الملوى وهو معنى قوله تعالى (قالت) اى ظنا منها ان عائشة افشت عليها (من انبأك هذا) اى من اخبرك انى افشيت السر (قال نبأنى)

و بقيده بلا يعلمون لان الاول متصل بقوله وله خزائن السموات والارض

قوله تزوى الخ كذا فى الاصول وهو غير مستقيم ولعله قالت قلته لعائشة فليحرر اه

وحذف المتعلق اختصاراً للفظ وتكثيراً للمعنى بالتعميم اشارة انه أخبره بجميع ما دار بينها وبين عائشة على أتم ما كان (العليم) اى المحيط العلم (الخبير) اى المطلع على الضمائر والظواهر فهو اولى ان يحذر فلا يتكلم سراً وجهراً الا بما يرضيه وقوله تعالى (ان تتوبا الى الله) اى الملك الاعظم شرط وفى جوابه وجهان احدهما قوله تعالى (فقد صغت قلوبكما) والمعنى ان تتوبا فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب فى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حب ما يحب وكراهة ما يكره وصغت مالت وزاغت عن الحق قال القرطبي وليس قوله فقد صغت قلوبكما جواب الشرط لان هذا الصغو كان سابقاً فجزاء الشرط محذوف للعلم به اى ان تتوبا كان خيراً لكما اذ قد صغت قلوبكما الثانى أن الجواب محذوف تقديره فذلك واجب عليكما أو فتاب الله عليكما قاله ابو البقاء ودل على المحذوف فقد صغت لان اصغاء القلب الى ذلك ذنب قال بعضهم وكأنه زعم أن ميل القلب ذنب وكيف يحسن ان يكون جوابا وقد غفل عن المعنى المصحح لكونه جواباً (تنبيه) قوله تعالى قلوبكما من افصح الكلام حيث اوقع الجمع موقع المثنى استثقالاً لمجيء تثنيتين لو قيل قلباكما ومن شأن العرب اذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما لانه لا يشكل والاحسن فى هذا الباب الجمع ثم الافراد ثم التثنية كقوله

فتخالسا نفسيهما بنوافذ الـ ... ـمشغيظ الذى من شانه لم يرقع

وقال ابن عصفور لا يجوز الافراد الا فى ضرورة كقوله

حمامة بطن الواديين ترنمى * سقاك من الغر الغوادى مطيرها

وتبعه ابو حيان وغلط ابن مالك فى كونه جعله احسن من التثنية قال ابن عادل وليس بغلط لكراهة توالى تثنيتين مع امن اللبس وقوله تعالى ان تتوبا فيه التفات من الغيبة الى الخطاب والمراد بهذا الخطاب اما المؤمنتان بنتا الشيخين الكريمين عائشة وحفصة حثهما على التوبة على ما كان منهما من الميل الى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهما كرهتا ما أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من احباب جاريته واحباب العسل وكان صلى الله عليه وسلم يحب العسل والنساء وقال ابن زيد مالت قلوبكما بان سرهما ان يحتبس عن ام ولده فسرهما ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل قد مالت قلوبكما الى التوبة * روى مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال مكثت سنة وانا أريد ان اسال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن آية فما استطيع ان اساله هيبة له حتى خرج حاجاً فخرجت معه فلما رجع وكان ببعض الطريق عدل الى الاراك لحاجة له فوقفت حتى فرغ ثم سرت معه باداوة ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ فلما رجع قلت يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبى صلى الله عليه وسلم فقال تلك حفصة وعائشة قال فقلت له والله ان كنت لاريد ان اسالك عن هذا منذ سنة فما استطيع هيبة لك قال فلا تفعل ما ظننت أن عندى من علم فسلنى عنه فان كنت أعلمه أخبرتك وفى رواية قال واعجباً لك يا ابن عباس قال الزهرى كره والله ما ساله عنه ولم يكتمه قال هما عائشة وحفصة ثم اخذ يسوق الحديث قال كنت أنا وجار لى من الانصار وكان منزلى فى بنى أمية وهم من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على النبى صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل يوماً فاذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحى أو غيره واذا نزل فعل مثل ذلك وكنا معشر قريش نغلب

وفى معرفتها غموض يحتاج الى فطنة وفقه فناسب ذى الفقه عنهم والثانى متصل بقوله ولله العزة ولرسوله

النساء فلما قدمنا المدينة على الانصار واذا هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من
نسائهم فصحت على امرأتي فراجعتني فانكرت أن تراجعني قالت لم تنكر أن أراجعك فوالله
ان ازواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وان احداهن لتهجره اليوم حتى الليل فانطلقت
فدخلت على حفصة فقلت لها اي حفصة اتغاضب احداكن النبي صلى الله عليه وسلم اليوم
حتى الليل قالت نعم فقلت قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله لا تراجعي
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيأ وسليني ما بدا لك ولا يغرنك أن كانت جارتك هي
اوسم واحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عائشة رضي الله عنها قال عمر وكنا قد
تحدثنا ان غسان تنعل الخيل لتغزونا فنزل الانصاري يوما نوبته ثم اتاني عشاء فضرب
بابي ضربا شديدا ففزعت فخرجت اليه فقال قد حدث اليوم امر عظيم قلت ما هو أجاء غسان
قال لا بل أعظم من ذلك وأهول طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه فقلت خابت حفصة
وخسرت قد كنت اظن هذا يوشك ان يكون حتى اذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت
فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت اطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لا أدري
ها هو ذا معتزل في المشربة فاتيت غلاما له أسود فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج الي
فقال قد ذكرتك له فصمت ثم انطلقت حتى أتيت المنبر فاذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم
فجلست قليلا ثم غلبني ما أجد فاتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال قد ذكرتك
له فصمت فوليت مدبرا فاذا الغلام يدعوني فقال ادخل فقد أذن لك فدخلت فسلمت على
رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد
أثر الرمال بجنبه متكئا على وسادة من أدم حشوها ليف ثم قلت وأنا قائم يا رسول الله أطلقت
نساءك فرفع الى بصره وقال لا فقلت الله أكبر ثم قلت وأنا قائم لو رأيتنا يا رسول الله وكنا
معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فتبسم النبي صلى
الله عليه وسلم ثم قلت يا رسول الله لو رأيتني دخلت على حفصة فقلت لها لا يغرنك أن كانت
جارتك هي اوسم وأحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عائشة فتبسم النبي صلى
الله عليه وسلم تبسمة أخرى فجلست حين رأيته تبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت
فيه شيأ يرد البصر غير أهبة ثلاثة فقلت يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فان فارسا
والروم قد وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله فجلس النبي صلى الله عليه وسلم وكان
متكئا وقال أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب ان أولئك قوم عجلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا
فقلت يا رسول الله استغفر لي فاعتزل النبي صلى الله عليه وسلم من أجل ذلك الحديث حين
افشته حفصة الى عائشة تسعا وعشرين ليلة وكان قال ما أنا بداخل عليهن شهرا من شدة
موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها
فقالت له عائشة يا رسول الله انك كنت اقسمت أن لا تدخل علينا شهرا وانما أصبحت من تسع
وعشرين ليلة اعدها عدا فقال الشهر تسع وعشرون وكان ذلك الشهر تسعا وعشرين ليلة
قالت عائشة ثم أنزل الله التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه فاخترته ثم خير نساءه فقلن مثلها
وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءها حين أمره الله ان يخير أزواجه قالت فبدأ بي

وللمؤمنين وفي معرفتها غموض زائد يحتاج الى علم فناسب نفي العلم عنهم فالمعنى لا يعلمون ان الله

رسول

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى ذاكر لك أمرا فلا عليك ان لا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك وقد علم أن ابوى لم يكونا يأمرانى بفراقه قالت ثم قال ان الله تعالى قال يا أيها النبى قل لازواجك الى تمام الآيتين فقلت أوفى هذا استأمر أبوى فانى أريد الله ورسوله والدار الآخرة وفى رواية ان عائشة قالت له لا تخبر نساءك انى اخترتك فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله أرسلنى مبلغا وفى رواية قال دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء فان كنت طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام الا رجوت أن الله يصدق قولى الذى أقول ونزلت هذه الآية عسى ربه ان طلقكن أن يبدله ازواجا خيرا منكن وان تظاهرا عليه الآية وفى رواية انه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يخبر الناس انه لم يطلق نساءه فاذن له وانه قام على باب المسجد ونادى باعلى صوته لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه *(شرح بعض ألفاظ هذا الحديث)* قوله فعدلت معه اى ملت معه بالاداوة اى الركوة والعوالى جمع عالية وهى اماكن باعلى ارض المدينة وقوله لا يغرنك ان كانت جارتك يريد بها الضرة وهى عائشة وأوسم منك أى أكثر حسنا وقوله فكنا نتناوب النزول التناوب هو أن يفعله الانسان مرة ويفعله آخر بعده والمشربة بضم الراء وفتحها الغرفة وقوله فاذا هو متكئ على رمال حصير يقال رملت الحصير اذا ضفرته ونسجته والمراد أنه لم يكن على السرير وطاء سوى الحصير وقوله ما رأيت فيه ما يرد البصر الا أهبة ثلاثة الاهبة والاهب جمع اهاب وهو الجلد وقوله من شدة موجدته الموجدة الغضب وقرأ (وان تظاهرا) الكوفيون بتخفيف الظاء والباقون بتشديدها اى تتعاونا (عليه) اى النبى صلى الله عليه وسلم فيما يكرهه (فان الله) اى الملك الاعظم الذى لا كفء له وقوله تعالى (هو) يجوز أن يكون فصلا وقوله (مولاه) الخبر وان يكون مبتدأ ومولاه خبره والجملة خبر ان والمعنى فان الله وليه وناصره فلا يضره ذلك التظاهر منهما وقوله تعالى (وجبريل وصالح المؤمنين) معطوف على محل اسم ان فيكونون ناصريه ويجوز أن يكون جبريل مبتدأ وما بعده عطف عليه وظهير خبر الجميع فتختص الولاية بالله واختلف فى صالح المؤمنين فقال عكرمة هو أبو بكر وعمر وقال المسيب بن شريك هو أبو بكر وقال سعيد بن جبير هو عمر وعن اسماء بنت عميس هو على بن أبى طالب وقال الطبرى هو خيار المؤمنين وصالح اسم جنس كقوله تعالى ان الانسان لفى خسر وقال قتادة هم الانبياء وقال ابن زيد هم الملائكة وقال السدى هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والاولى ان يشمل هذه الاقوال كلها (والملائكة) أى كلهم (بعد ذلك) اى الامر العظيم الذى تقدم ذكره (ظهير) أى ظهراء أعوان له فى نصره عليكما *(تنبيه)* أخبر عن الجمع باسم الجنس اشارة الى انهم على كلمة واحدة ومنهم جبريل عليه السلام فهو مذكور خصوصا وعموما ثلاث مرات على القول بان صالح المؤمنين هم الملائكة ان قلنا بالعموم وذلك اظهار لشدة محبته وموالاته للنبى صلى الله عليه وسلم وهذه الآية عكس آية البقرة وهى قوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فانه ذكر الخاص بعد العام تشريفا له وهنا ذكر العام بعد الخاص قال ابن عادل ولم يذكر الناس الا القسم الاول وفى جبريل لغات

معز اوليائه ومذل اعدائه

(سورة التغابن)

(قوله يسبح لله ما فى السموات وما فى الارض)

تقدم ذكرها في البقرة ولما كان اشد ما على المرأة ان تطلق ثم اذا طلقت ان يستبدل بها ثم
يكون البدل خيرا منها قال تعالى محذرا لهن (عسى ربه) اى المحسن اليه بجميع أنواع
الاحسان التي عرفتموها وما لم تعرفوه منها أكد جدير وحقيق ووسط بين عسى وخبرها
اهتماما وتخويفا قوله تعالى (ان طلقكن) أي بنفسه من غير اعتراض عليه جميعكن او
بعضكن قيل كل عسى في القرآن واجب الا هذه الآية وقيل هو واجب ولكن الله تعالى علقه
بشرط وهو التطليق ولم يطلقهن فان طلقكن شرط معترض بين اسم عسى وخبرها وجوابه
محذوف او متقدم اى ان طلقكن فعسى ربه وقوله تعالى (ان يبدله) اى بمجرد طلاقه وقرأ نافع
وابو عمرو بفتح الباء وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال (أزواجا خيرا
منكن) خبر عسى والجملة جواب الشرط ولم يقع التبديل لعدم وجود الشرط (فان
قيل) كيف تكون المبدلات خيرا منهن ولم يكن على وجه الارض نساء خيرا منهن لانهن
أمهات المؤمنين (أجيب) بانه اذا طلقهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعصيانهن وايذائهن
اياه كان غيرهن من الموصوف بالصفات الآتية مع الطاعة له صلى الله عليه وسلم خيرا وان هذا
على سبيل الفرض وهو عام في الدنيا والآخرة فلا يقتضي وجود من هو خير منهن مطلقا وان
قيل بوجوده في خديجة لما جرب من محاسنها على نفسها في حقه صلى الله عليه وسلم وبلوغها في
حبه والادب معه ظاهرا وباطنا الغاية القصوى ومريم أحصنت حين كانت من القانتين فذلك
في الآخرة وتعليق تطليق الكل لا يدل على انه لم يطلق حفصة فقد روى أنه طلقها ولم يزدها ذلك
الا فضلا لان الله تعالى أمره ان يراجعها لانها صوامة قوامة * ثم بين تعالى الخيرية بقوله
تعالى (مسلمات) الى آخره وهو اما نعت او حال او منصوب على الاختصاص قال سعيد بن جبير
مسلمات بمعنى مخلصات وقيل مسلمات لامر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم
خاضعات لله تعالى بالطاعات (مؤمنات) أي مصدقات بتوحيد الله تعالى وقيل مصدقات بما
أمرن به ونهين عنه وقيل مسلمات مقرات بالاسلام مؤمنات مخلصات (قانتات) أي مطيعات
والقنوت الطاعة وقيل داعيات (تائبات) أي راجعات من الهفوات والزلات سريعا ان وقع
منهن شيء من ذلك وقيل راجعات الى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركات لمحاب أنفسهن
(عابدات) اى كثيرات العبادات لله تعالى وقال ابن عباس كل عبادة في القرآن فهو التوحيد
(سائحات) قال ابن عباس صائمات وقال الحسن مهاجرات وقال ابن زيد وليس في أمة محمد صلى
الله عليه وسلم سياحة الا الهجرة والسياحة الجولان في الارض وقال الفراء وغيره سمي الصائم
سائحا لان السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكا الى ان يجد ما يطعمه فشبه به الصائم في امساكه الى
ان يجيء وقت افطاره وقيل ذاهبات في طاعة الله تعالى من ساح الماء اذا ذهب (ثيبات) جمع ثيب
وهي التي تزوجت ثم بانت بوجه من الوجوه او زالت بكارتها بوطء من غير نكاح (وأبكارا) أي
عذارى جمع بكر وهي ضد الثيب وسميت بذلك لانها على أول حالها التي خلقت بها وقدم الثيبات
لانهن أخبر بالعشرة التي هذا سياقها ووسط الواو بين الثيبات والابكار لتنافي الوصفين دون
سائر الصفات (فان قيل) كيف ذكر الثيبات في مقام المدح وهن من جملة ما يقلل رغبة الرجال
فيهن (أجيب) بانه يمكن ان يكون بعض الثيبات خيرا من كثير من الابكار لاختصاصهن بالمال

والجمال

ذكرها هنا وفي قوله بعد
وقوله ما تسرون وما تعلنون
تأكيدا وتعميما
للاختلاف فناسب ذكر

والجمال * ولما بالغ سبحانه في عتاب نساء النبي صلى الله عليه وسلم مع صيانتهن عن التشبه اكراما له صلى الله عليه وسلم أتبع ذلك أمر الامة بالتأسي به في هذه الاخلاق الكاملة فقال تعالى منبها المؤمنين بالموعظة الخاصة بموعظة عامة دالة على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر للاقرب فالاقرب (يا أيها الذين آمنوا) أي اقروا بذلك (قوا أنفسكم) أي اجعلوا لها وقاية بالتأسي به صلى الله عليه وسلم وترك المعاصي وفعل الطاعات وفي أدبه مع الخلق والخالق (وأهليكم) من النساء والاولاد وكل من يدخل في هذا الاسم قوهم (نارا) بالنصح والتأديب ليكونوا متخلقين باخلاق أهل النبي صلى الله عليه وسلم كما روى الطبراني عن سعيد بن العاص ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن وفي الحديث رحم الله رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معهم في الجنة وقيل ان أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهله وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فايقظ أهله فان لم تقم رش على وجهها الماء ورحم الله امرأة قامت من الليل تصلي وأيقظت زوجها فان لم يقم رشت على وجهه من الماء وقال بعض العلماء لما قال قوا أنفسكم دخل فيه الاولاد لان الولد بعض منه كما دخلوا في قوله تعالى ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم وقوله عليه الصلاة والسلام ان أحل ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه فلم يفرد بالذكر افراد سائر القرابات فيعلمه الحلال والحرام وقال عليه الصلاة والسلام حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه اذا بلغ * ثم بين تعالى وصف تلك النار بقوله عز وجل (وقودها) أي الذي توقد به (الناس) أي الكفار (والحجارة) كاصنامهم منها وعن ابن عباس أنها حجارة الكبريت وهي أشد الاشياء حرا اذا أوقد عليها والمعنى أنها مفرطة الحرارة تتقد بما ذكر لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه (عليها ملائكة) خزنتها عدتهم تسعة عشر كما سيأتي ان شاء الله تعالى في سورة المدثر (غلاظ) أي غلاظ القلوب لا يرحمون اذا استرحموا خلقوا من الغضب وحبب اليهم عذاب الخلق كما حبب لبني آدم أكل الطعام والشراب (شداد) أي شداد الابدان وقيل غلاظ الاقوال شداد الافعال يدفع واحدهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفا في النار لم يخلق الله فيهم الرحمة وقيل في أخذهم أهل النار شداد عليهم يقال فلان شديد على فلان أي قوي عليه يعذبه بانواع العذاب وقيل غلاظ أجسامهم ضخمة شداد أي أقوياء قال ابن عباس ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة وقال صلى الله عليه وسلم في خزنة جهنم ما بين منكبي كل واحد منهم كما بين المشرق والمغرب (لا يعصون الله) أي الملك الاعلى في وقت من الاوقات وقوله تعالى (ما أمرهم) بدل من الجلالة أي لا يعصون أمر الله وقوله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) تأكيد هذا ما جرى عليه الجلال المحلي وقال الزمخشري (فان قلت) أليست الجملتان في معنى واحد قلت لا فان معنى الاولى أنهم يقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه وقيل لا يعصون الله ما أمرهم فيما مضى ويفعلون ما يؤمرون فيما يستقبل وصدر بهذا البيضاوي (فان قيل) انه تعالى خاطب المشركين في قوله تعالى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة

ما بينهما لان تسبيح ما في السموات مخالف لتسبيح ما في الارض كثرة وقلة ووقوعا من حيوان وجماد

أعدت للكافرين لجعلها معدة للكافرين فامعنى مخاطبته للمؤمنين بذلك (أجيب) بان الفساق وان كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فانهم مع الكفار فى دار واحدة فقيل للذين آمنوا قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الذين أعدت لهم هذه الدار الموصوفة ويجوز أن يامرهم بالتوقى عن الارتداد والندم على الدخول فى الاسلام وان يكون خطابا للذين آمنوا بالسنتهم وهم المنافقون قال الزمخشرى ويعضد ذلك قوله تعالى على الاثر (يا أيها الذين كفروا) أى بالاخلال بالادب مع النبى صلى الله عليه وسلم فاداهم ذلك الى الاخلال بالادب مع الله تعالى وبالادب مع سائر خلقه (لا تعتذروا) أى تبالغوا فى اظهار العذر وهو ايساغ الحيلة فى وجه يزيل ماظهر من التقصير (اليوم) فانه يوم الجزاء لا يوم الاعتذار وقد فات زمان الاعتذار وصار الامر الى ماصار وهذا النهى لتحقق اليأس (انما تجزون) أى فى هذا اليوم (ما كنتم) أى بما هو لكم كالجبلة والطبع (تعملون) فى الدنيا ونظيره اليوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم قال البقاعى ولا بعد على الله فى أن يصور لكل انسان صورة عمله بحيث لا يشك انه عمله ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذى يجد فيه من الالم ماعلم الله تعالى انه بمقدار استحقاقه * ولما بين تعالى أن المعذرة لا تنفع فى ذلك اليوم أمر بالتوبة فى الدنيا بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا) أى ارجعوا رجوعا تاما (الى الله) أى الملك الذى لا نظير له (توبة) وقوله (نصوحا) صيغة مبالغة أسند النصح اليها مجازا وهى من نصح الثوب اذا خاطه فكان التائب يرقع بالمعصية وقيل من قولهم ناصح أى خالص وقرأ شعبة بضم النون والباقون بفتحها * (تنبيه) * أمرهم بالتوبة وهى فرض على الاعيان فى كل الاحوال وفى كل الازمان واختلفوا فى معناها فقال عمر ومعاذ التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود الى الذنب كما لا يعود اللبن فى الضرع وقال الحسن هى أن يكون العبد نادما على ما مضى مجمعا على أن لا يعود فيه وقال الكلبى ان يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن وعن حوشب أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار وعن سماك ان تنصب الذنب الذى أقللت فيه الحياء من الله تعالى امام عينيك وتتبعه نظرك وعن السدى لا تصح الا بنصيحة النفس ونصيحة المؤمنين لان من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله وقال سعيد بن المسيب توبة ينصحون فيها أنفسهم وقال القرطبى يجمعها اربعة أشياء الاستغفار باللسان والاقلاع بالابدان واضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيئ الاخوان وقال الفقهاء التوبة التى لا تعلق لحق آدمى فيها لها ثلاثة شروط أحدها أن يقلع عن المعصية وثانيها أن يندم على ما فعله وثالثها أن يعزم على أن لا يعود اليها فاذا اجتمعت هذه الشروط فى التوبة كانت نصوحا وان فقد شرط منها لم تصح توبته وان كانت تتعلق بآدمى فشروطها أربعة هذه الثلاثة المتقدمة والرابع أن يبرأ من حق صاحبها فان كانت المعصية مالا ونحوه رده الى مالكه وان كانت حد قذف ونحوه مكنه من نفسه أو طلب العفو منه وان كانت غيبة استحله منها قال العلماء التوبة واجبة من كل معصية كبيرة أو صغيرة على الفور ولا يجوز تأخيرها وتجب من جميع الذنوب وان تاب من بعضها صحت توبته عما تاب منه وبقى عليه الذى لم يتب منه هذا مذهب أهل السنة والجماعة وقد قال صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس توبوا الى الله فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة وعن أبى هريرة قال سمعت رسول

وامرارنا على الفة الاثنينا فناسب ذكر ما فيهما ولم يكررها فى قوله بعلم ما فى السموات والارض

الله صلى الله عليه وسلم يقول انى لاستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة وعن أبى موسى الاشعرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار و يبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر وعن على انه سمع اعرابيا يقول اللهم انى أستغفرك وأتوب اليك فقال ياهذا ان سرعة الاستغفار بالتوبة توبة الكذابين قال وما التوبة قال يجمعها ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة وللفرائض الاعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وان تعزم على ان لاتعود وان تذيب نفسك فى طاعة الله كما أذبتها فى المعصية وان تذيقها مرارة الطاعات كما ذقتها حلاوة المعاصى وعن حذيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه وقوله تعالى (عسى ربكم) أى المحسن اليكم (أن يكفر) أى يغطى تغطية عظيمة (عنكم سيآتكم) أى مابدا منكم مما يسوء بالتوبة اطماع من الله لعباده فى قبول التوبة وذلك تفضلا وتكرما الاوجوبا عليه واذا كان التائب على خطر فانظر لك بالمصر ولكن الفضل واسع * ولماذكر نفع التوبة فى دفع المضار ذكر نفعها فى جلب المسار بقوله تعالى (ويدخلكم) أى يوم الفصل (جنات) أى بساتين كثيرة الاشجار تردا خلها (تجرى من تحتها) أى تحت غرفها وأشجارها (الانهار) فهى لاتزال ريا وقوله تعالى (يوم لايخزى الله) أى الملك الاعظم (النبى) أى الذى نبأه الله تعالى بما يوجب له الرفعة التامة من الاخبار التى هى فى غاية العظمة منصوب بيدخلكم او باضمار اذكر ومعنى يخزى هنا يعذب أى لايعذبه وقوله تعالى (والذين آمنوا معه) يجوز فيه وجهان أحدهما أن يكون منسوقا على النبى أى ولايخزى الذين آمنوا معه وعلى هذا يكون قوله تعالى (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) مستأنفا أو حالا الثانى أن يكون مبتدأ وخبره نورهم يسعى الى آخره وقوله تعالى (يقولون) خبر ثان أو حال *(تنبيه)* التقييد بالايمان لاينفى ان لهم نورا عن شمائلهم بل لهم نور لكن لايلتفتون اليه لانهم امامن السابقين واما من أهل اليمين فهم يمشون فى هاتين الجهتين و يؤتون صحائف أعمالهم منهما وأما أصحاب الشمال فيعطونها من وراء ظهورهم ومن شمائلهم وهم عالهم من النور ان قالوا سمع لهم وان شفعوا شفعوا (ربنا) أى ايها المتفضل علينا بهذا النور و بكل خير كان او يكون فيه (أتمم لنا نورنا) اى الذى مننت به علينا حتى يكون فى غاية التمام قال ابن عباس يقولون ذلك اذا اطفئ نور المنافقين اشفاقا وعن الحسن الله متمه لهم ولكنهم يدعون تقربا الى الله كقوله تعالى واستغفر لذنبك وهو مغفور له وقيل يقوله أدناهم منزلة لانهم يعطون من النور قدرما يبصرون مواطئ اقدامهم لان النور على قدر الاعمال فيسألون اتمامه تفضلا وقيل السابقون الى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط و بعضهم كالريح وبعضهم حبوا و زحفا فاولئك الذين يقولون ربنا أتمم لنا نورنا (واغفر لنا) أى وامح عنا كل نقص كان يميل بنا الى أحوال المنافقين عينه وأثره وهذا النور من صور أعمالهم فى الدنيا لان الآخرة تظهر فيها حقائق الاشياء وتتبع الصور معانيها وهو شرع الله الذى شرعه وهو الصراط الذى يضرب بين ظهرانى جهنم لان القضاء لك فى الدنيا

لعدم اختلاف علمه تعالى اذ علمه بما تحت الارض كعلمه بما فوقها وعلمه بما يكون كعلمه بما كان فتناسب

متوسطة بين الرذائل فكل فضيلة يكتنفها رذيلتان افراط وتفريط فالفضيلة هي الصراط المستقيم والرذيلتان ما كان من جهنم عن يمينه وشماله فمن كان يمشي في الدنيا على ما أمر به سواء من غير افراط ولا تفريط كان نوره تاما ومن امالته الشهوات طفئ نوره في بعض الاوقات واختطفته كلاليب هي صور الشهوات فقيل به في النار بقدر ميله اليها والمنافق يظهر له نور اقراره بكلمة التوحيد فاذا مشى طفئ لان اقراره لا حقيقة له (انك) أي وحدك (على كل شئ) يمكن دخول المشيئة فيه (قدير) أي بالغ القدرة * ولما ذكر ما تقدم من لينه صلى الله عليه وسلم لاضعف الناس النساء وحسن أدبه وكرم عشرته لانه مجبول على الشفقة على عباد الله والرحمة لهم أمره سبحانه بالغلظة والشدة على أعدائه بقوله تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار) أي بكل ما يجهدهم فيكفهم من السيف وما دونه من المواعظ الحسنة والدعاء الى الله تعالى ليعرف أن ذلك اللين لاهل الله تعالى انما هو من تمام عقلك وغزير علمك وفضلك (والمنافقين) أي جاهدهم بما يليق بهم من الحجة والسيف ان احتيج اليه ان أبدوا نوع مظاهرة وعرفهم أحوالهم في الآخرة وانهم لا نور لهم يجوزون به على الصراط مع المؤمنين وقال الحسن وجاهدهم باقامة الحدود عليهم (واغلظ عليهم) بالفعل والقول بالتوبيخ والزجر والابعاد والهجر فالغلظة عليهم من اللين لله تعالى كما ان اللين لاهل الله من خشية الله تعالى وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (ومأواهم) أي في الآخرة (جهنم وبئس المصير) أي هي * ولما كان للكفار قرابات بالمسلمين ربما توهموا انها تنفعهم وللمسلمين قرابات بالكفار توهموا انها تضرهم ضرب لكل مثلا وبدأ بالاول فقال تعالى (ضرب الله) اي الملك الذي أحاط بكل شئ قدرة وعلما (مثلا) يعلم به من فيه قابلية العلم ويتعظ به من له أهلية الاتعاظ (للذين كفروا) أي غطوا الحق على أنفسهم وعلى غيرهم وقوله تعالى (امرأت نوح) عليه السلام الذي اهلك الله تعالى من كذبه بالغرق (وامرأت لوط) عليه السلام الذي اهلك الله تعالى من كذبه بالحصب والخسف يجوز ان يكون بدلا من قوله مثلا على تقدير حذف المضاف اي ضرب الله مثلا مثل امرأة نوح وامرأة لوط ويجوز ان يكونا مفعولين وضرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على انه لا يغني احد عن قريب ولا نسيب في الآخرة اذا فرق بينهما الدين قال مقاتل وكان اسم امرأة نوح والهة واسم امرأة لوط والعة وقال الضحاك عن عائشة ان جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره ان اسم امرأة نوح واعلة واسم امرأة لوط والهة * (تنبيه) * رسمت امرأة في الثلاثة وابنت بالتاء المجرورة فوقف عليهن بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ووقف الباقون بالتاء وقوله تعالى (كانتا) اي مع كونهما كافرتين (تحت عبدين) جملة مستأنفة كأنها مفسرة لضرب المثل ولم يأت بضميرهما فيقال تحتهما أي تحت نوح ولوط لما قصد من تشريفهما بهذه الاضافة الشريفة قال القائل

لا تدعني الا بيا عبدها * فانه أشرف أسمائي

ودل على كثرة عبيده تنبيها على غناه بقوله تعالى (من عبادنا) ووصفهما بأجل الصفات وهو قوله تعالى (صالحين) واختلف في معنى قوله تبارك وتعالى (فخانتاهما) فقال عكرمة والضحاك بالكفر وعن ابن عباس كانت امرأة نوح تقول للناس انه مجنون واذا آمن به احد اخبرت الجبابرة من قومه وكانت امرأة لوط تخبر باضيافه وعن ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط

حذفها فيه (قوله فكفروا وتولوا واستغنى الله) مرتب على قوله ذلك بانه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات

وانما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين وقيل كانتا منافقتين وقيل خيانتهما النميمة اذا أوحى اليهما شيء أفشتاه الى المشركين قاله الضحاك وقيل كانت امرأة لوط اذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها انه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من اتيان الرجال (فلم) أي فتسبب عن ذلك ان العبدين الصالحين لم (يغنيا عنهما) أي المرأتين بحق النكاح (من الله) أي من عذاب الملك الذي له الامر كله فلا أمر لغيره (شيأ) اى من اغناء لاجل خيانتهما (وقيل) اى للمرأتين ممن أذن له في القول النافذ الذي لا مرد له (ادخلا النار) أي قيل لهما ذلك عند موتهما أو يوم القيامة (مع الداخلين) اى مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الانبياء فلم يغن نوح ولوط عن امرأتيهما شيأ من عذاب الله تعالى وفي هذا المثل تعريض بأمي المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما وتحذير لهما على أعلى وجه وأشده وفيه تنبيه على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة وقيل ان كفار مكة استهزؤا وقالوا ان محمدا يشفع لنا فبين تعالى أن الشفاعة لا تنفع كفار مكة وان كانوا أقرباء كما لا ينفع نوح امرأته ولا لوط امرأته مع قربهما لهما لكفرهما * ثم شرع تعالى في ضرب المثل الثاني فقال تعالى (وضرب الله) أى الملك الاعلى الذي له صفات الكمال (مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون) واسمها آسية وهي بنت مزاحم آمنت وحمات علا صالحا فلم تضرها الوصلة بالكافر بالزوجية التي هي من أعظم الوصل ولا نفعه ايمانها كل امرئ بما كسب رهين وأثابها ربها تعالى أن جعلها في الآخرة زوجة خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم في دار كرامته بصبرها على عبادة الله تعالى وهي في حبالة عدوه وأسقط وصفه بالعبودية دلالة على تحقيره وعدم وجهته لانه من اعدى أعدائه وقوله تعالى (اذ قالت) ظرف للمثل المحذوف أى مثلهم مثلها حين قالت (رب) اى أيها المحسن الي بالهداية وأنا في حبالة هذا الكافر الجبار (ابن لي عندك بيتا) وبينت مرادها بالعندية فقالت (في الجنة) أى دار المقربين وقد أجابها سبحانه بان جعلها زوجة أكمل خلقه محمد صلى الله عليه وسلم فكانت معه في منزله الذي هو أعلى المنازل (ونجني من فرعون) أى فلا أكون عنده (وعمله) فلا تسلطه على بما يضرني عندك في الآخرة فلا أعمل بشئ من عمله وهو شركه وقال ابن عباس جماعه (ونجني) اعادت العمل تأكيدا (من القوم الظالمين) اى الناس الاقوياء العريقين الذين يضعون أعمالهم في غير موضعها فاستجاب الله تعالى دعاءها وأحسن اليها لاجل محبتها للمحبوب وهو كليم الله موسى عليه السلام كما يقال صديق صديقي داخل في صداقتي * وذلك أن موسى عليه السلام لما غلب السحرة آمنت به فلما تبين لفرعون ايمانها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس فاذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة وفي القصة ان فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أتوها بالصخرة قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة فابصرته من درة بيضاء فانتزعت روحها فالقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألما وقال الحسن وابن كيسان رفع الله تعالى امرأة فرعون الى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب وقوله تعالى (ومريم ابنت عمران) عطف على امرأة فرعون تسلية للارامل (التي أحصنت فرجها) اى عفت عن السوء وجميع مقدماته كانت كالحصن العظيم المانع من العدو فاستقرت على حالها الى الممات فزوجها الله تعالى في الجنة جزاء لها بخير

(فان قلت) ظاهره ان استغناء بعد اتيان الرسل بالبينات مع انه مستغن دائما (قلت) معناه ظهر

خلقه محمد صلى الله عليه وسلم وقال بعض المفسرين أراد بالفرج هنا الجيب لقوله تعالى (فنفخنا) أي بما لنا من العظمة بواسطة ملكنا جبريل عليه السلام (فيه) اى فى جيب درعها قال البقاعى أو فى فرجها الحقيق وعلى هذا فلا حاجة للتأويل (من روحنا) اى من روح خلقناه بلا توسط اصل وهو روح عيسى عليه السلام (وصدقت بكلمات ربها) اى المحسن اليها واختلف فى تلك الكلمات فقال مقاتل يعنى بالكلمات عيسى وانه نبى وعيسى كلمة الله وقال البغوى يعنى الشرائع التى شرعها الله تعالى للعباد بكلماته المنزلة وقيل هى قول جبريل عليه السلام لها انما أنا رسول ربك الآية وعلى كل قول استحقت ان تسمى لذلك صديقة وقرأ (وكتبه) أبو عمرو وحفص بضم الكاف والتاء جمعا والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبعدها ألف افرادا والمراد منه الكثرة فالمراد به الجنس فيكون فى معنى كل كتاب أنزله الله تعالى على ولدها أو غيره وقوله تعالى (وكانت من القانتين) يجوز فى من وجهان أحدهما انه لابتداء الغاية والثانى انها للتبعيض وقد ذكرهما الزمخشرى فقال من للتبعيض ويجوز أن تكون لابتداء الغاية على انها ولدت من القانتين لانها من اعقاب هرون أخى موسى صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما وعليها وعلى سائر الانبياء وآلهم أجمعين قال الزمخشرى فان قلت لم قيل من القانتين على التذكير قلت لان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على اناثه وقيل أراد من القوم القانتين ويجوز ان يرجع هذا الى أهل بيتها فانهم كانوا مطيعين لله والقنوت الطاعة وقال عطاء من المصلين بين المغرب والعشاء وعن معاذ بن جبل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لخديجة وهى تجود بنفسها اذا قدمت على ضراتك فاقرئيهن منى السلام مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وعن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كمل من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وروى الشيخان عن أبى موسى الاشعرى كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحا حديث موضوع

استغناء عن ايمانهم حيث لم يلتئم اليهم مع قدرته على ذلك (قوله ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) الى

سورة الملك مكية

وتسمى الواقية والمنجية وتدعى فى التوراة المانعة لانها تقى وتنجى من عذاب القبر وعن ابن شهاب انه كان يسميها المجادلة لانها تجادل عن صاحبها فى القبر وهى ثلاثون آية وثلثمائة وثلاثون كلمة وألف وثلثمائة حرف

(بسم الله) الذى خضعت لكمال عظمته الملوك (الرحمن) الذى عم بنعمة الايجاد كل من فى الوجود (الرحيم) الذى خص أولياءه بالنعيم بدار الخلود (تبارك) اى تكبر وتقدس وتعالى وتعاظم وثبت ثباتا لا مثل له مع اليمن والبركة وقيل جلّ فهو الدائم الذى لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه (الذى بيده) اى بقدرته وتصرفه لا بقدرة غيره (الملك) أى له الامر والنهى

وملك السموات في الدنيا والآخرة وقال ابن عباس بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء ويحيي ويميت ويغني ويفقر ويعطي ويمنع قال الرازي وهذه الكلمة تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكا ومالكا كما يقال بيد فلان الامر والنهي والحل والعقد وذكر اليد انما هو تصوير للاحاطة ولتمام القدرة لانها محلها مع التنزه عن الجارحة وعن كل ما فيه حاجة أو شبهها (وهو على كل شئ) اى من الممكنات (قدير) اى تام القدرة *(تنبيه)* احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه لا يؤثر الا قدرة الله تعالى وابطلوا القول بالطبائع كقول الفلاسفة وابطلوا القول بالتولدات كقول المعتزلة وابطلوا القول بكون العبد موجدا لافعال نفسه لقوله تعالى وهو على كل شئ قدير ودلت هذه الآية على الوحدانية لانا لو قدرنا الها ثانيا فاما أن يقدر على ايجاد شئ أولا فان لم يقدر على ايجاد شئ لم يكن الها وان قدر كان مقدور ذلك الاله الثاني شيأ فيلزم كون ذلك الشئ مقدورا للاله الاول لقوله وهو على كل شئ قدير فيلزم وقوع مخلوق من خالقين وانه محال لانه اذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد يلزم أن يستغني كل واحد منهما عن كل واحد منهما فيكون محتاجا اليهما وغنيا عنهما وذلك محال وقرأ وهو على كل شئ قدير وهو العزيز الغفور وهو اللطيف وما أشبه ذلك أبو عمرو وقالون والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها وخرج بقولنا من الممكنات أنه تعالى ليس قادرا على نفسه وأجاب بعضهم بان هذا عام مخصوص ودل على تمام قدرته قوله تعالى (الذي خلق) أي قدر وأوجد (الموت والحيوة) قيل خلق الموت في الدنيا والحياة في الآخرة وقدم الموت على الحياة لان الموت الى القهر أقرب كما قدم البنات على البنين فقال يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور وقيل قدمه لانه أقدم لان الاشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطف والتراب ونحوه وقال قتادة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله أذل بني آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء وعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه الفقر والمرض والموت وقيل انما قدم الموت على الحياة لان من نصب الموت بين عينيه كان أقوى الدواعي الى العمل وحكي عن ابن عباس والكلبي ومقاتل أن الموت والحياة جسمان والموت في هيئة كبش لا يمر بشئ ولا يجد ريحه الا مات وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء وهي التي كان جبريل عليه السلام والانبياء عليهم السلام يركبونها خطوتها مد البصر فوق الحمار ودون البغل لا تمر بشئ ولا يجد ريحها الا حيي ولا تطأ على شئ الا حيي وهي التي أخذ السامري من أثرها فالقاه على العجل فحيي حكاه الثعلبي والقشيري عن ابن عباس وعن مقاتل خلق الموت يعني النطفة والعلقة والمضغة وخلق الحياة يعني خلق انسانا ونفخ فيه الروح فصار انسانا قال القرطبي وهذا حسن يدل عليه قوله تعالى (ليبلوكم) اى يعاملكم وهو أعلم بكم من أنفسكم معاملة المختبر لاظهار ما عندكم من العمل بالاختبار (أيكم أحسن عملا) أي من جهة العمل أي عمله أحسن من عمل غيره وروي عن ابن عمر مرفوعا أحسن عملا احسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله وقال الفضيل بن عياض أحسن عملا اخلصه وأصوبه وقال العمل لا يقبل حتى يكون خالصا صوابا فالخالص اذا كان لله والصواب اذا كان على السنة وقال

قوله أبدا ذكر مثله في الطلاق لكن زاد هنا يكفر عنه سيآته لان ما هنا تقدمه ابشر بجنود نفا الآيات

الحسن أيكم أزهد في الدنيا واترك لها وقال السدي أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن استعدادا وأشد خوفا وحذرا وقيل يعاملكم معاملة المختبر فيبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره وبالحياة ليبين شكره وقيل خلق الله تعالى الموت للبعث والجزاء وخلق الله الحياة للابتلاء (فان قيل) الابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم انه هل يطيع أو يعصي وذلك في حق الله تعالى العالم بجميع الاشياء محال (أجيب) بان الابتلاء من الله تعالى هو أن يعامل عبده معاملة تشبه المختبر كما مرت الاشارة اليه (وهو) اى والحال أنه وحده (العزيز) اى الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء (الغفور) اى الذي مع ذلك يفعل في محو الذنوب عينا وأثرا فعل المبالغ في ذلك ويتلقى من اقبل اليه أحسن تلق كما قال تعالى في الحديث القدسي ومن أتاني يمشي أتيته هرولة وقوله تعالى (الذي خلق) أى أبدع على هذا التقدير من غير مثال سبق (سبع سموات) يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور نعتا أو بيانا أو بدلا وأن يكون منقطعا عنه خبر مبتدا محذوف أو مفعول فعل مقدر وقوله تعالى (طباقا) صفة لسبع وفيه ثلاثة أوجه أحدها انه جمع طبق نحو جبل وجبال والثاني أنه جمع طبقة نحو رحبة ورحاب والثالث أنه مصدر طابق يقال طابق مطابقة وطباقا ثم اما أن يجعل نفس المصدر مبالغة واما على حذف مضاف اى ذات طباق واما أن ينتصب على المصدر بفعل مقدر أى طوبقت طباقا من قولهم طابق النعل أى جعله طبقة فوق طبقة أخرى وروى عن ابن عباس طباقا أى بعضها فوق بعض قال البقاعي بحيث يكون كل جزء منها مطابقا للجزء من الاخرى ولا يكون جزء منها خارجا عن ذلك قال وهي لا تكون كذلك الا أن تكون الارض كرة والسماء الدنيا محيطة بها احاطة قشر البيضة من جميع الجوانب والثانية محيطة بالدنيا وهكذا الى أن يكون العرش محيطا بالكل والكرسي الذي هو أقربها بالنسبة اليه كحلقة ملقاة في فلاة فما ظنك بما تحته وكل سماء في التي فوقها بهذه النسبة وقد قرر أهل الهيئة انها كذلك وليس في الشرع ما يخالفه بل ظواهره توافقه ولاسيما التشبيه بالحلقة الملقاة في فلاة فسبحان اللطيف الخبير ولا شك ان من تفكر في هذه العظمة مع ما لطف بنا فيها من أفيها الناس من المنافع آثره سبحانه بالحب وافرده عن كل ضد فانقطع باللجاء اليه ولم يعول الا عليه في كل دفع ونفع وسارع في مرضاته ومحابه في كل خفض ورفع *(تنبيه)* دلت هذه الآية على القدرة من وجوه أحدها من حيث بقاؤها في جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة ثانيها ان كلا منها اختص بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء الى جهة معينة ثالثها كونها في ذاتها محدثة وكل ذلك يدل على اسنادها الى قادر تام القدرة وقوله تعالى (ماترى في خلق الرحمن) اى للسموات ولغيرها خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب وكذا القول في قوله تعالى فارجع البصر ثم ارجع البصر ينقلب اليك البصر (من تفاوت) اى من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين بل هي مستقيمة مستوية دالة على خالقها وان اختلفت صورة وقيل المراد بذلك السموات خاصة اى ماترى في خلق السموات من عيب وأصله من الفوت وهو ان يفوت بعضها بعضا فيقع الخلل لعدم استوائها يدل عليه قول ابن عباس من تفرق وقال السدي أى من اختلاف وعيب يقول الناظر لو كان كذا لكان أحسن وقيل المراد من التفاوت الفطور لقوله تعالى بعد ذلك فارجع

البصر

واخبر فيها عن الكفار بنيات تحتاج الى تكذيب فناسب ذكر يكفر عنه سيئاته بخلاف ما في

البصر هل ترى من فطور ونظيره قوله تعالى وما لها من فروج قال القفال ويحتمل أن يكون المعنى ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكمة الصانع وأنه لم يخلقها عبثا *(تنبيه)* دلت هذه الآية على كمال علم الله تعالى وذلك ان الحس دل على ان هذه السموات السبع أجسام مخلوقة على وجه الاحكام والاتقان وكل فاعل كان فعله محكما متقنا فلا بد وأن يكون عالما فدلت الآية على كونه تعالى عالما بالمعلومات فقوله تعالى ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت اشارة الى كونها محكمة متقنة وقرأ ما ترى وهل ترى أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وأدغم لام هل في التاء أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وقرأ من تفوت حمزة والكسائي بغير ألف بعد الفاء وتشديد الواو والباقون بألف بعد الفاء وتخفيف الواو وقوله تعالى (فارجع البصر) مسبب عن قوله تعالى ما ترى وقوله تعالى (هل ترى من فطور) جملة يجوز أن تكون معلقة لفعل محذوف يدل عليه فارجع البصر أي فارجع البصر فانظر هل ترى وأن يكون فارجع البصر مضمنا معنى انظر لانه بمعناه فيكون هو المعلق والفطور جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر ومنه فطر ناب البعير كما يقال شق ومعناه شق اللحم وطلع قال المفسرون الفطور الصدوع والشقوق قال القائل

شققت القلب ثم ذررت فيه * هواك فليط فالتام الفطور

(ثم ارجع البصر) وقوله تعالى (كرتين) نصب على المصدر كرتين وهو مثنى لا يراد به حقيقته بل التكثير بدليل قوله تعالى (ينقلب اليك البصر خاسئا) أي صاغرا ذليلا بعيدا عن اصابة المطلوب كأنه طرد عنه طردا بالصغار (وهو حسير) اى كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة وهذان الوصفان لا يأتيان بنظرتين ولا ثلاث وانما المعنى كرات وهذا كقولهم لبيك وسعديك وحنانيك ودواليك وهذاذيك لا يريدون بهذه التثنية تشفيع الواحد انما يريدون التكثير أي اجابة لك بعد اجابة والا لتناقض الغرض والتثنية تفيد التكثير لقرينة كما يفيده أصلها وهو العطف لقرينة كقوله * لو عد قبر وقبر كنت أكرمهم * أي قبور كثيرة ليتم المدح وقال ابن عطية كرتين معناه مرتين ونصبهما على المصدر وقيل الاولى ليرى حسنها واستواءها والثانية ليبصر كواكبها في مسيرها وانتهائها وهذا ظاهره يفهم التثنية فقط وروى البغوي عن كعب أنه قال السماء الدنيا موج مكفوف والثانية مرمرة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفر أو قال نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء وبين السماء السابعة والحجب السبعة صحارى من نور ثم ذكر تعالى دلالة أخرى بعد تلك الدلالة تدل على تمام قدرته بقوله تعالى (ولقد زينا) بما لنا من العظمة (السماء الدنيا) أي القربى لانها أقرب السموات الى الارض وهي التي تشاهدونها (بمصابيح) جمع مصباح وهو السراج أي بنجوم متقدة عظيمة جدا اتقدت للبصر ظاهرة سائرة مضيئة ظاهرة زاهرة وهي الكواكب التي تنور الارض بالليل انارة السرج التي تنورون بها ساحة وفي دوركم وسمى الكواكب مصابيح لاضاءتها وزينة لان الناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح فكأنه قال ولقد

الطلاق لم يتقدمه شئ من
ذلك (قوله ومن يؤمن
بالله يهد قلبه) * ان قلت
كيف قال ذلك مع أن

زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بمصابيح والتزين بها لا يمنع أن تكون مركوزة فيما فوقها من السموات وهي تتراءى بحسب الشفوف وبما لأجرام السموات من الصفاء وانلاك المصابيح من شدة الاضاءة (وجعلناها) أي المصابيح بمالنا من العظمة مع كونها زينة واعلاما للهداية (رجوما للشياطين) اي الذين يحق لهم الطرد من الجن لما لهم من الاحتراق حراسة للسماء التي هي محل تنزل أمرنا بالقضاء والقدر وانزال هذا الذكر الحكيم لئلا يفسدوا باستراق السمع فيها على الناس دينهم الحق ويلبسوا عليهم امرهم بخلط الحق الذي قد ختمنا به الاديان بالباطل والرجوم جمع رجم وهو مصدر في الاصل أطلق على المرجوم به كضرب الامير ويجوز أن يكون باقيا على مصدريته ويقدر مضاف أي ذات رجوم وجمع المصدر باعتبار أنواعه والشهاب المرجوم به منفصل من نار الكواكب وهو قار في فلكه على حاله كقبس النار يؤخذ منها وهي باقية لا تنقص وذلك مسوغ لتسميتها بالنجوم فن لحقه الشهاب منهم قتله أو ضعضع أمره وخبله وقال ابو علي جوابا لمن قال كيف تكون زينة وهي رجوم لا تبقى كيفية الرجم أن يؤخذ نار من ضوء الكوكب يرمى بها الشيطان والكوكب في مكانه لا يرجم به وقيل الرجوم هنا الظنون والشياطين شياطين الانس كما قال القائل * وما هو عنها بالحديث المرجم * فيكون المعنى جعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الانس وهم المنجمون يتكلمون بها رجما بالغيب في اشياء من عظيم الابتلاء وعن قتادة خلقت النجوم لثلاث زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وتكلف ما لا علم له به وتعدى وظلم (وأعتدنا) أي هيأنا في الآخرة مع هذا الذي في الدنيا بما لنا من العظمة (لهم) اي للشياطين (عذاب السعير) أي التي في غاية الاتقاد في الآخرة قال المبرد سعرت النار فهي مسعورة وسعير مثل مقتولة وقتيل وهذه الآية تدل على أن النار مخلوقة الآن لأن قوله تعالى وأعتدنا لهم خبر عن الماضي ولما أخبر تعالى عن تهيئة العذاب لهم بالخصوص أخبر عن تهيئته لكل عامل بأعمالهم على وجه اندرجوا هم فيه فقال عز من قائل (وللذين كفروا) اي أوقعوا التغطية لما من حقه أن يظهر ويشهر من الاذعان للاله (بربهم) أي الذي تفرد بايجادهم والاحسان اليهم فانكروا ايجاده لهم بعد الموت كفرا بما شاهدوا من اختراعه لهم من العدم (عذاب جهنم) اي الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة والغضب (وبئس المصير) أي هي (اذا القوا) أي طرح الكفار (فيها) أي في نار جهنم من أي طارح أمرناه بطرحهم كما يطرح الحطب في النار العظيمة (سمعوا لها) أي جهنم نفسها (شهيقا) أي صوتا هائلا أشد نكارة من أول صوت الحمار لشدة توقدها وغليانها قال ابن عباس الشهيق لجهنم عند القاء الكفار فيها كشهيق البغلة للشعير أولا هلها على حذف مضاف كما قال عطاء الشهيق للكفار أي سمعوا من أنفسهم شهيقا كقوله تعالى لهم فيها زفير وشهيق قال القرطبي الشهيق في الصدر والزفير في الحلق وقد مضى في سورة هود (وهي تفور) أي تغلي بهم ومنه قول حسان

تركتم قدركم لا شيء فيها * وقدر القوم حامية تفور

الهداية سابقة على الايمان
(قلت) ليس المراد بهدقلبه
للايمان بل المراد بهده
لليقين عند نزول المصائب

قال

قال ابن عباس تغلي بهم كغلي المراجل وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها (تكاد تميز) أي تقرب من أن ينفصل بعضها من بعض كما يقال يكاد فلان ينشق من غيظه وفلان غضب فطارت شقة منه في الأرض وشقة في السماء كناية عن شدة الغضب وقرأ البزي بتشديد التاء من تميز في الوصل والسوسي على أصله بإدغام الدال في التاء (من الغيظ) أي عليهم وقال سعيد بن جبير تكاد تميز من الغيظ يعني ينقطع وينفصل بعضها من بعض وقال ابن عباس تمزق من شدة الغيظ على أعداء الله تعالى وذلك كله أغضب سيدها وتأتي يوم القيامة تقاد إلى المحشر بألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك يقودونها به وهي من شدة الغيظ تقوى على الملائكة وتحمل على الناس فتقطع الأزمة جميعا وتحطم أهل المحشر فلا يردها عنهم إلا النبي صلى الله عليه وسلم يقابلها بنوره فترجع مع أن لكل ملك من القوة ما لو أمر أن يقلع الأرض وما عليها من الجبال ويصعد بها إلى الجو فعل من غير كلفة وهذا كما أطفأها في الدنيا بنفخه روى أبو داود عن ابن عمر أنه قال انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر صلاته إلى أن قال ثم نفخ في آخر سجوده فقال أف أف ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون * ولما ذكر تعالى حالها أتبعه حالهم فقال تعالى (كلما ألقي فيها) أي في جهنم بدفع الزبانية لهم (فوج) أي جماعة في غاية الإسراع والأفواج الجماعات في تفرقة ومنه قوله تعالى فتأتون أفواجا والمراد هنا بالفوج جماعة من الكفار (سألهم) أي ذلك الفوج (خزنتها) أي النار وهم مالك وأعوانه سؤال توبيخ وتقريع (ألم يأتكم) أي في الدنيا (نذير) أي رسول يخوفكم هذا اليوم حتى تحذروا قال الزجاج وهذا التوبيخ زيادة لهم في العذاب (قالوا بلى) قرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح والوقف عليها كما في الوصل (قد جاءنا نذير) أي محذر بليغ التحذير *(تنبيه)* في ذلك دليل على جواز الجمع بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها إذ لو قالوا بلى لفهم المعنى ولكنهم أظهروه تحسرا وزيادة في تغممهم على تفريطهم في قبول قول النذير وليعطفوا عليه قولهم (فكذبنا) أي فتسبب عن مجيئه أنا أوقعنا التكذيب بكل ما قاله النذير (وقلنا) أي زيادة في التكذيب (ما نزل الله) أي الذي له الكمال كله عليكم ولا على غيركم (من شيء) لا وحيا ولا غيره وما كفانا هذا الفجور حتى قلنا مؤكدين (إن) أي ما (أنتم) أي أيها النذر المذكورون في نذير المراد به الجنس (إلا في ضلال) أي بعد عن الطريق (كبير) فبالغنا في التكذيب والسفه بالاستجهال والاستخفاف وقيل قوله تعالى إن أنتم إلا في ضلال كبير من كلام الملائكة للكفار حين أخبروا بالتكذيب (وقالوا) أي الكفار زيادة في توبيخ أنفسهم (لو كنا) أي بما لنا من الغريزة (نسمع) أي كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتمادا على ما لاح من صدقهم بالمعجزات (أو نعقل) أي بما أدته إلينا حاسة السمع فنفكر في حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين (ما كنا) أي كونا دائما (في أصحاب السعير) أي في عداد من أعدت له النار التي هي في غاية الإيقاد *(تنبيه)* في الآية أعظم فضيلة للعقل روى عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله

فيعلم ان ما اصابه لم يكن ليخطئه وما اخطأه لم يكن ليصيبه او يجده للرضا والتسليم عند وجود

تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل الآية (فاعترفوا) أى بالغوا فى الاعتراف حيث لا ينفعهم الاعتراف (بذنبهم) أى فى دار الجزاء كما بالغوا فى التكذيب فى دار العمل والذنب لم يجمع لانه فى الاصل مصدر والمراد به تكذيب الرسل (فسحقا) اى فبعدا لهم من رحمة الله تعالى وهو دعاء عليهم مستجاب (لاصحاب السعير) اى الذين قضت عليهم اعمالهم بملازمتها وقال سعيد بن جبير وأبو صالح هو واد فى جهنم يقال له السحق وقرأ الكسائى بضم الحاء والباقون بسكونها ولما ذكر أصحاب السعير أتبعهم ذكر اضدادهم بقوله تعالى (ان الذين يخشون) اى يخافون (ربهم) اى المحسن اليهم خوفا أرق قلوبهم وأرّق اعينهم بحيث لا يقرلهم قرار من توقعهم العقوبة كلما ازدادوا طاعة ازدادوا خشية يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة (بالغيب) اى حال كونهم غائبين عن عذابه سبحانه أو وعيده غائبا عنهم أو وهم غائبون عن اعين الناس فهم مع الناس يتكلمون وقلوبهم تتلظى بنيران الخوف وتتكلم بسيوف الهيبة فيتركون المعصية حيث لا يراهم أحد من الناس ولا يكون لهم هذا الا برياضة عظيمة فعلى العاقل ان يطوع نفسه لترجع مطمئنة بان ترضى بالله رباً بالتدخل فى رق العبودية وبالاسلام دينا لبصيرغره بقنافيها فلا ينازع الملك فى ردائه الكبرياء وازاره العظمة وتاجه الجلال وحلته الجمال ولا ينازعه فيما يدبره من الشرائع ويظهره من المعارف ويحكم به على عبيده من قضائه وقدره (لهم مغفرة) أى عظيمة تأتى على جميع ذنوبهم (وأجر) اى من فضل الله تعالى (كبير) يكون لهم به من الاكرام ما ينسيهم ما قاسوه فى الدنيا من شدائد الايلام ويصغر فى جنبه لذائذ الدنيا العظام (وأسروا) اى أيها الخلائق (قولكم) أى خيرا كان أو شرا (أو اجهروا به) فانه يعلمه ويجازيكم به اللفظ لفظ الامر والمراد به الخبر يعنى ان أخفيتم كلامكم فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم أو غيره أو جهرتم به فسواء (انه) اى ربكم (عليم) اى بالغ العلم (بذات الصدور) اى بحقيقتها وكنهها وحالها وجبلتها وما يحدث عنها من الخير والشر وقال ابن عباس نزلت فى المشركين كانوا ينالون من النبى صلى الله عليه وسلم فيخبره جبريل عليه السلام فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كى لا يسمع رب محمد فاسروا قولكم أو اجهروا به يعنى واسروا قولكم فى محمد صلى الله عليه وسلم وقال غيره انه خطاب عام لجميع الخلق فى جميع الاعمال والمراد ان قولكم وعملكم على أى سبيل وجد فالحال واحد فى علمه تعالى فاحذروا من المعاصى سرا كما تحذرون عنها جهرا فان ذلك لا يتفاوت بالنسبة الى علم الله تعالى ولما قال تعالى انه عليم بذات الصدور ذكر الدليل على انه عالم فقال تعالى (ألا يعلم من خلق) اى من خلق لابد وان يكون عالما بما خلقه لان الخلق هو الايجاد والتكوين على سبيل القصد والقاصد الى الشئ لابد وأن يكون عالما بحقيقة ذلك المخلوق كيفية وكمية والمعنى ألا يعلم السر من خلق السر يقول انا خلقت السر فى القلب أفلا أكون عالما بما فى قلوب العباد قال أهل المعانى ان شئت جعلته من أسماء الخالق تعالى ويكون المعنى ألا يعلم الخالق خلقه وان شئت جعلته من أسماء المخلوق والمعنى ألا يعلم الله من خلقه ولابد أن يكون الخالق عالما بما خلقه وما يخلقه قال ابن المسيب بينما رجل واقف بالليل فى شجر كثير وقد عصفت الريح فوقع فى نفس الرجل أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق

المصائب أو للاسترجاع عند نزولها بان يقول انا لله وانا اليه راجعون

فنودى من جانب الغيضة بصوت عظيم ألا يعلم من خلق (وهو) أى والحال انه هو (اللطيف) الذى يعلم ما بثه فى القلوب (الخبير) أى البالغ العلم بالظواهر والبواطن فكيف يخفى عليه شئ من الاشياء وقال أبو اسحق الاسفرايني من أسماء صفات الذات ما هو للعلم منها العليم ومعناه تعميم جميع المعلومات ومنها الحكيم ويختص بان يعلم دقائق الاوصاف ومنها الشهيد ويختص بان يعلم الغائب والحاضر ومعناه أن لا يغيب عنه شئ ومنها الحافظ ويختص بانه لا ينسى شيأ ومنها المحصى ويختص بانه لا يشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الاوراق فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق وقد قال ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ولما كان هذا أمرا غامضا دل عليه بامر مشاهد أبدعه بلطفه وأتقنه بخبره فقال مستأنفا (هو) أى وحده (الذى جعل لكم الارض) على سعتها وعظمتها وحزونة كثير منها (ذلولا) أى مسخرة لا تمتنع لتتوصلوا الى منافعكم فيها قابلة للانقياد لما تريدون منها من مشى وزرع حبوب وغرس أشجار وغير ذلك وقيل ثبتها بالجبال لئلا تزول باهلها ولو كانت متمايلة لما كانت منقادة لنا وقيل لو كانت مثل الذهب والحديد لكانت تسخن جدا فى الصيف وتبرد جدا فى الشتاء *(تنبيه)* فى ذكر هذه الآية بعد الآية المتقدمة تهديد للكفرة كقول السيد لعبده الذى أساء اليه سرا يا فلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس فى هذه الدار التى وهبتها لك وكل هذا الخبز الذى هيأته لك ولا تأمن مكرى وتاديبى فكأنه تعالى يقول يا أيها الكفار أنا عالم بسركم وجهركم وضمائركم فخافونى فان الارض التى هى قراركم أنا ذللتها لكم ولو شئت خسفت بكم وقوله تعالى (فامشوا) أى الهوينى مكتسبين وغير مكتسبين ان شئتم من غير صعوبة توجب لكم وثوبا أو حبوا (فى مناكبها) مثل لفرط التذلل ومجاوزته الغاية لان المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شئ من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه فاذا جعلها فى الذل بحيث يمشى فى مناكبها لم يترك شيأ وهذا أمر اباحة وفيه اظهار الامتنان وقيل خبر بلفظ الامر أى لكى تمشوا فى أطرافها ونواحيها وآكامها وجبالها وقال ابن عباس وبشير بن كعب وقتادة فى مناكبها فى جبالها وتذليلها أدل على تذليل غيرها وليكن مشيكم فيها وتصرفاتكم بذل واخبات وسكون استصغار الانفسكم وشكر المن حضر لكم ذلك وروى ان بشير بن كعب كانت له سرية فقال لها ان أخبرتينى ما مناكب الارض فانت حرة فقالت مناكبها جبالها فقال لها صرت حرة فاراد ان يتزوجها فسأل ابا الدرداء فقال دع ما يريبك الى ما لا يريبك وقال مجاهد فى أطرافها وعنه أيضا فى طرقها وفجاجها وهو قول السدى والحسن وقال الكلبى فى جوانبها ومنكبا الرجل جانباه *(فائدة)* حكى قتادة عن أبى الجلد ان الارض أربعة وعشرون ألف فرسخ للسودان اثنا عشر ألفا وللروم ثمانية آلاف وللفرس ثلاثة آلاف وللعرب ألف ثم ذكرهم تعالى بانه سهلها لاخراج البركات بقوله تعالى (وكلوا) ودل على ان الرزق فوق الكفاية بقوله تعالى (من رزقه) الذى أودعه لكم فيها قال الحسن مما احل لكم وقيل مما خلقه الله لكم رزقا فى الارض (واليه) أى وحده (النشور) وهو اخراج جميع الحيوانات التى أكلتها الارض وأفسدتها يخرجها سبحانه فى الوقت الذى يريده على ما كان كل منها عليه عند الموت

(سورة الطلاق)

(قوله يا أيها النبى اذا طلقتم النساء) ان قلت كيف أفرد نبيه بالخطاب مع انه

كما اخرج تلك الارزاق لافرق بين هذا وذاك غيرانكم لاتتاملون فيا فوزمن شكر وياهلاك من
كفر فعود وا انفسكم بالخيرات لعلها تنقاد كما قيل * هي النفس ماعودتها تتعود * ولما كان لم
يكن بعد الاستعطاف الا الانذار قال تعالى مهددا للمكذبين (أأمنتم) قرأ قنبل في الوصل
بابدال الهمزة بعد راء النشور واوا وسهل الهمزة الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام
بخلاف عنه وحققها الباقون وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير
ادخال وقوله تعالى (من في السماء) فيه وجوه أحدها من ملكوته في السماء لانها مسكن
ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ومنها ينزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه
والثاني أن ذلك على حذف مضاف اى أأمنتم خالق من في السماء والثالث ان في بمعنى على
أى على السماء كقوله ولاصلبنكم في جذوع النخل أى على جذوع النخل وانما احتاج
القائل بهذين الوجهين الى ذلك لانه اعتقد ان من واقعة على البارى تعالى شانه وهو الظاهر
وثبت بالدليل القطعي انه ليس بمتحيز لئلا يلزم التجسيم ولاحاجة الى ذلك فان من هنا المراد بها
الملائكة سكان السماء وهم الذين يتولون الرحمة والنقمة والرابع انهم خوطبوا بذلك على
اعتقادهم فان القوم كانوا مجسمة مشبهة وأنه في السماء وان الرحمة والعذاب نازلان منه
وكانوا يدعونه من جهتها فقيل لهم على حسب اعتقادهم أأمنتم من في السماء أى من تزعمون أنه
في السماء قال الرازى هذه الآية لايمكن اجراؤها على ظاهرها باجماع المسلمين لان ذلك يقتضى
احاطة السماء به من جميع الجوانب فيكون أصغر منها والعرش أكبر من السماء بكثير
فيكون حقيرا بالنسبة الى العرش وهو باطل بالاتفاق ولانه تعالى قال قل لمن ما في السموات
والارض فلو كان فيهما لكان مالكا لنفسه فالمعنى اما من في السماء عذابه واما ان ذلك بحسب
ما كانت العرب تعتقده واما من في السماء سلطانه وملكه وقدرته كما قال تعالى وهو الله في
السموات وفي الارض فان الشئ الواحد لا يكون دفعة في مكانين والغرض من ذكر السماء
تفخيم سلطان الله سبحانه وتعظيم قدرته والمراد الملك الموكل بالعذاب وهو جبريل عليه السلام
وقوله تعالى (أن يخسف بكم الارض) بدل من من في السماء بدل اشتمال وقال القرطبي يحتمل
ان يكون المعنى أأمنتم خالق من في السماء أن يخسف بكم الارض كما خسفها بقارون وقرأ من
في السماء ان نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية المفتوحة بعد الكسرة ياء في
الوصل والباقون بتحقيقهما (فاذا هي) أى الارض التي انتم عليها (تمور) اى تضطرب وهي
تهوى بكم وتجرى هابطة في الهواء وتتكفأ الى حيث شاء سبحانه قال في القاموس المور
الاضطراب والجريان على وجه الارض والتحرك وقال الرازى ان الله تعالى يحرك الارض
عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها يذهبون والارض
فوقهم تمور فتقلبهم الى اسفل السافلين وقال القرطبي قال المحققون أأمنتم من فوق السماء
كقوله تعالى فسيحوا في الارض اى فوقها الا بالمماسة والتحيز بل بالقهر والتدبير والاخبار في
هذا صحيحة كثيرة منتشرة مشيرة الى العلو لا يدفعها الا ملحد اوجاهل اومعاند والمراد بها
توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت ووصفه بالعلو والعظمة لا بالاماكن والجهات والحدود لانها
صفات الاجسام وانما ترفع الايدى بالدعاء الى السماء لان السماء مهبط الوحى ومنزل القطر

ومحل

جمعه مع غيره عقبه (قلت)
افرده به أولا لانه امام امته
وسادتهم او معناه
يا أيها النبي قل لامتك

ومحل القدس ومعدن المطهرين من الملائكة واليها ترفع أعمال العباد وفوقها عرشه وجنته كما جعل الله تعالى الكعبة قبلة للصلاة ولانه تعالى خلق الامكنة وهو غير متحيز وكان في ازله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان وقوله تعالى (ام امنتم) اى ايها المكذبون (من في السماء ان يرسل) بدل من من في السماء بدل اشتمال (عليكم) اى من السماء (حاصبا) قال ابن عباس رضي الله عنهما اى حجارة من السماء كما ارسلها على قوم لوط واصحاب الفيل وقيل ريح فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء لشدتها وقوتها وقيل هي سحاب فيها حجارة (فستعلمون) اى عن قريب بوعد لا يخاف عند معاينة العذاب (كيف نذير) اى انذارى البليغ اذا شاهدتم العذاب وهو بحيث لا يستطاع ولا تتعلق الاطماع بكشفه ولا دفاع قال البقاعي وحذف الياء منه ومن نكير اشارة الى انه وان كان خارجا عن الطوق ليس منتهى مقدوره بل لديه مزيد لا غاية له بوجه ولا تحيز راى على قراءة اكثر القراء فقد قرأ ورش بالياء في الوصل فيهما دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) اى انكارى عليهم لما أصبتهم به من العذاب ولما ذكر تعالى ما تقدم من الوعيد ذكر البرهان على كمال قدرته بقوله تعالى (اولم يروا) اجمع القراء على القراءة بالغيب لان السياق للرد على المكذبين بخلاف ما في النحل واشار الى بعد الغاية بحرف النهاية فقال تعالى (الى الطير) وهو جمع طائر (فوقهم) اى في الهواء وقوله تعالى (صافات) اى باسطات أجنحتهن يجوز ان يكون حالا من الطير وان يكون حالا من فوقهم اذا جعلناه حالا فتكون متداخلة وفوقهم ظرف لصافات على الاول اولم يروا وقوله تعالى (ويقبضن) عطف الفعل على الاسم لانه بمعناه اى وقابضات فالفعل هنا مؤول بالاسم عكس قوله تعالى ان المصدقين والمصدقات واقرضوا فان الاسم هناك مؤول بالفعل وقال ابو حيان وعطف الفعل على الاسم لما كان في معناه ومثله قوله تعالى فالمغيرات صبحا فأثرن عطف الفعل على الاسم لما كان المعنى فاللاتى اغرن فأثرن ومثل هذا العطف فصيح وكذا عكسه الا عند السهيلي فانه قبيح وقال الزمخشري صافات باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها لانهن اذا بسطنها صففن قوادمها صفا ويقبضن ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهن (فان قلت) لم قال ويقبضن ولم يقل قابضات (قلت) لان اصل الطيران هو صف الاجنحة لان الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والاصل في السباحة مد الاطراف وبسطها واما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طارئ غير اصل بلفظ الفعل على معنى انهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح اه وقال ابو جعفر النحاس يقال للطائر اذا بسط جناحيه صاف واذا ضمهما فاذا صابا جنبيه قابض لانه يقبضهما وقيل ويقبضن أجنحتهن بعد بسطها اذا وقفن من الطيران (ما يمسكهن) أى عن الوقوع في حال البسط والقبض (الا الرحمن) أى الملك الذي رحمته عامة لكل شيء بان هيأهن بعد ان افاض عليهن رحمة الايجاد على اشكال مختلفة وخصائص مفترقة هيأهن للجرى في الهواء (انه) اى الرحمن سبحانه (بكل شيء بصير) أى بالغ البصر والعلم بظواهر الاشياء وبواطنها فيهما أراد كان والمعنى أولم يستدلوا بثبوت الطير في الهواء على قدرتنا أن نفعل بهم

اذا طلقتم اى اردتم طلاق نسائكم فطلقوهن الى آخره (قوله ومن يتق الله) ذكره ثلاث مرات وختم

ماتقدم وغيره من العذاب وقوله تعالى (أمن) مبتدا وقوله تعالى (هذا) خبر وقوله تعالى (الذى) بدل من هذا وقوله تعالى (هو جند) أى أعوان (لكم) صلة الذى وقوله تعالى (ينصركم) صفة جند (من دون الرحمن) أى غيره يدفع عنكم عذابه أى لا ناصر لكم وقال ابن عباس رضى الله عنهما جند لكم أى حزب ومنعة لكم ولفظ الجند يوحد ولذلك قال تعالى هذا الذى هو جند لكم وهو استفهام انكارى اى لا جند لكم يدفع عنكم عذاب الله من دون الرحمن أى من سوى الرحمن وقرأ أبو عمرو بسكون الراء وللدورى اختلاس الضمة أيضا والباقون بالرفع (ان الكافرون) أى ما الكافرون (الا فى غرور) أى من الشيطان يغرهم بان لا عذاب ولا حساب قال بعض المفسرين كان الكفار يمتنعون عن الايمان ويعاندون النبى صلى الله عليه وسلم معتمدين على شيئين أحدهما قوتهم بما لهم وعددهم والثانى اعتقادهم أن الاوثان توصل اليهم جميع الخيرات وتدفع عنهم جميع الآفات فابطل الله تعالى عليهم الاول بقوله تعالى أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم الآية ورد عليهم الثانى بقوله تعالى (أمن هذا الذى يرزقكم) أى على سبيل التجدد والاستمرار (ان أمسك رزقه) بامساك الاسباب التى ينشأ عنها كالمطر ولو كان الرزق موجودا وكثيرا وسهل التناول فوضع الاكل فى فمه فأمسك الله تعالى عنه قوة الازدراد عجز أهل السموات والارض عن أن يسوغوه تلك اللقمة وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أى فمن يرزقكم أى لا رازق لكم غيره (بل لجوا) أى تمادوا سفاهة لا احتياطا وشجاعة قال الرازى فى اللوامع واللجاج تقحم الامر مع كثرة الصوارف عنه (فى عتو) أى مظروفين لعناد وتكبر عن الحق وخروج الى فاحش الفساد (ونفور) أى تباعد عن الحق واستولى ذلك عليهم حتى أحاط بهم مع انه لا قوة لاحد منهم فى جلب سار ولا دفع ضار والداعى الى ذلك الشهوة والغضب (أفمن يمشى مكبا) أى واقعا (على وجهه أهدى أمن يمشى سويا) أى معتدلا (على صراط) أى طريق (مستقيم) وخبر من الثانية محذوف دل عليه خبر الاولى أى أهدى والمثل فى المؤمن والكافر أى أيهما أهدى وقيل المراد بالمكب الأعمى فانه يتعسف فينكب وبالسوى البصير وقيل المكب هو الذى يحشر على وجهه الى النار ومن يمشى سويا الذى يحشر على قدميه الى الجنة وقال ابن عباس والكلبى رضى الله عنهم عنى بالذى يمشى مكبا على وجهه أبا جهل وبالذى يمشى سويا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل أبو بكر وقيل حمزة وقيل عمار بن ياسر قال عكرمة وقيل عام فى الكافر والمؤمن أى ان الكافر لا يدرى أعلى حق هو أم على باطل أى أهذا الكافر أهدى أم المسلم الذى يمشى سويا معتدلا يبصر الطريق وهو على صراط مستقيم وهو الاسلام وقرأ قنبل بالسين وقرأ خلف بالاشمام أى بين الصاد والزاى والباقون بالصاد الخالصة (قل) أى يا أشرف الخلق وأشفقهم عليهم مذكرا لهم بما رفع عنهم المانع من المفسدات وجمع لهم من المصلحات ليرجعوا اليه ولا يعولوا فى حال من احوالهم الا عليه (هو) أى الذى شرفكم بهذا الذكر وبين لكم هذا البيان (الذى أنشأكم) أى أوجدكم ودرجكم فى مدارج التربية حيث طوركم فى اطوار الخلقة فى الرحم ويسر لكم بعد الخروج اللبن حيث كانت المعدة ضعيفة عن أكثف منه (وجعل لكم السمع) أى لتسمعوا ما تعقله قلوبكم فيهديكم ووحده لقلة التفاوت فيه ليظهر سر تصرفه سبحانه

الاول بقوله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب والثانى بقوله يجعل له من أمره يسرا والثالث بقوله

في القلوب بغاية المفاوتة مع أنه اعظم الطرق الموصلة للمعاني اليها (والابصار) لتنظروا صنائعه فتعتبروا وتزدجروا عما يرديكم (والافئدة) أي القلوب التي جعلها سبحانه في غاية التوقد بالادراك لما لايدركه بقية الحيوان لتتفكروا فتقبلوا على ما ينفعكم وجمعها لكثرة التفاوت في نور الابصار وادراك الافئدة (قليلا ما تشكرون) أي باستعمالها فيما خلقت لاجله وما مزيدة والجملة مستأنفة مخبرة بقلة شكرهم جدا على هذه النعم وهم يدعون أنهم أشكر الناس للاحسان وأعلاهم في العرفان (قل هو) أي وحده (الذي ذرأكم) أي خلقكم وبثكم ونشركم وكثركم وأنشأكم بعدما كنتم كالذر اطفالا ضعفاء (في الارض) التي تقدم انه ذللها لكم ورزقكم منها النبات وغيره (واليه) أي وحده بعد موتكم (تحشرون) شيئا فشيئا الى البرزخ ودفعة واحدة يوم البعث للحساب فيجازي كلا بعمله (ويقولون) أي يجددون هذا القول تجديدا استمر استهزاء وتكذيبا (متى هذا) وزادوا في الاستهزاء بقولهم (الوعد) أي يوم القيامة والعذاب الذي توعدونا به (ان كنتم صادقين) أي في أنه لابد لنا منه وانكم مقربون عند الله فلو كان لهم ثبات الصبر لما كانوا طاشوا هذا الطيش بابراز هذا القول القبيح ثم انه تعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله عز وجل (قل) أي يا أكرم الخلق لهؤلاء البعداء (انما العلم) أي علم وقت قيام الساعة ونزول العذاب (عند الله) أي الذي له الاحاطة بجميع صفات الكمال فهو الذي يكون عنده وبيده جميع ما يراد منه لا يطلع عليه غيره (وانما أنا نذير) اى كامل في امر النذارة التي يلزم منها البشارة لمن أطاع النذير لا وظيفة لي عند الملك الاعظم غير ذلك فلا وصول الى سؤاله عما لا يؤذن لي في السؤال عنه (مبين) اى بين الانذار باقامة الادلة حتى يصير ذلك كأنه مشاهد لمن له قبول العلم (فلما رأوه) أي العذاب بعد الحشر (زلفة) أي ذا قرب عظيم منهم (سيئت) قال ابن عباس رضي الله عنهما أي اسودت (وجوه) وأظهر في موضع الاضمار تعميما وتعليقا للحكم بالوصف فقال تعالى (الذين كفروا) أي اظهروا السوء وغاية الكراهة في وجوه من أوقع هذا الوصف * (تنبيه) * الاصل ساء أي احزن وجوههم العذاب ورؤيته ثم بني للمفعول وساء هنا ليست المرادفة لبئس وأشم كسرة السين نافع وابن عامر والكسائي والباقون باخلاص الكسرة (وقيل) أي قال لهم الخزنة تقريعا وتوبيخا (هذا الذي كنتم) اى جبلة وطبعا (به) أي بسببه ومن اجله (تدعون) أي تتمنون وتسألون وتزعمون أنكم لا تبعثون وهذه حكاية حال تأتي عبر عنها بطريق المضي لتحقق وقوعها وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها (قل) أي يا أكرم الخلق لهؤلاء الذين طال تضجرهم منك وهم يتمنون هلاكك كما قال تعالى ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون (أرأيتم) أي أخبروني خبرا انتم في الوثوق به على ما هو كالرؤية (ان اهلكني الله) اى اماتني بعذاب أو غيره الذي له من الجلال والاكرام ما يعصم به وليه ويقصم عدوه وقرأ قل ارأيتم في الموضعين نافع بتسهيل الهمزة بعد الواو ولورش أيضا ابدالها الفا واسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق واذا وقف حمزة سهل الهمزة وقرأ ان اهلكني الله حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها ومن سكن الياء رقق اللام من الاسم الجليل ومن فتحها فخم (ومن معي) أي من المؤمنين (أو رحمنا) اى بالنصر واظهار الاسلام كما نرجو فنجانا بذلك من كل سوء ووقانا

بكفر عنه سيآته ويعظم له أجرا اشارة الى تعداد النعم المرتبة على التقوى من ان الله يجعل لمن اتقاه

كل محذور وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء والباقون بالسكون (فمن يجير الكافرين) أى العريقين فى الكفر بأن يدفع عنهم ما يدفع الجار عن جاره (من عذاب اليم) أى لا مجير لهم منه (قل) اى يا خير الخلق (هو) اى الله وحده (الرحمن) اى الشامل الرحمة (آمنا به) أى أنا ومن معى (وعليه) أى وحده (توكلنا) أى لانه لا شئ فى يد غيره والا لرحم من يريد عذابه أو عذب من يريد رحمته فكل ما جرى على أيدى خلقه من رحمة أو نقمة فهو الذى أجراه لانه الفاعل بالذات المستجمع لما يليق به من الصفات فنحن نرجو خيره ولا نخاف غيره (فستعلمون) أى عند معاينة العذاب عما قليل بوعد لا خلف فيه (من هو فى ضلال مبين) أى بين أنحن أم أنتم وقرأ الكسائى بعد السين بياء الغيبة نظرا الى قوله الكافرين والباقون بتاء الخطاب اما على الوعيد واما على الالتفات من الغيبة المرادة فى قراءة الكسائى وهو تهديد لهم (قل) أى يا أعظم خلقنا وأعلمهم بنا (أرأيتم) اى اخبرونى اخبار الآيس فيه (ان أصبح ماؤكم) اى الذى تعدونه فى ايديكم بما تبت عليه الاضافة (غورا) اى غائرا ذاهبا فى الارض لا تناله الدلاء وكان ماؤهم من بئرين بئر زمزم وبئر ميمونة (فمن يأتيكم) على ضعفكم حينئذ وانخلاع قلوبكم واضطراب أفكاركم (بماء معين) أى دائم لا ينقطع وظاهر للاعين سهل المأخذ وقال ابن عباس رضى الله عنهما بماء معين أى ظاهر تراه العيون فهو مفعول وقيل هو من معن الماء أى كثر فهو على هذا فعيل وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا أن المعنى فمن يأتيكم بماء عذب أى لا يأتيكم به الا الله فكيف تنكرون ان يبعثكم ويستحب ان يقول القارئ عقب معين الله رب العالمين كما فى الحديث وتليت هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال تأتى به الفؤس والمعاول فذهب ماء عينيه وعمى نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته وروى ابو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان سورة من كتاب الله ما هى الا ثلاثون آية شفعت لرجل يوم القيامة فاخرجته من النار وادخلته الجنة وهى سورة تبارك وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال اذا وضع الميت فى قبره يؤتى من قبل رجليه فيقال ليس لكم عليه سبيل لانه قد كان يقوم بسورة الملك ثم يؤتى من قبل راسه فيقول لسانه ليس لكم عليه سبيل كان يقرأ بى سورة الملك ثم قال هى المانعة من عذاب الله وهى فى التوراة سورة الملك من قرأها فى ليلة فقد اكثر واطيب وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وددت ان تبارك الملك فى قلب كل مؤمن واما ما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الملك فكأنما احيا ليلة القدر فحديث موضوع

قوله والباقون بتاء الخطاب الخ عبارة الجمل بالتاء اى نظرا للخطاب فى قوله قل أرأيتم اه

فى دنياه مخرجا من كرب الدنيا والآخرة ويرزقه من حيث لا يخطر بباله ويجعل له فى دنياه وآخرته

سورة ن وتسمى القلم مكية

فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وقال ابن عباس وقتادة رضى الله عنهم من أولها الى قوله تعالى سنسمه على الخرطوم مكى ومن بعد ذلك الى قوله تعالى يعلمون مدنى ومن بعد ذلك الى قوله تعالى فهم يكتبون مكى ومن بعد ذلك الى قوله تعالى من الصالحين مدنى وباقيها مكى قاله الماوردى وهى اثنتان وخمسون آية وثلثمائة كلمة والف ومائتان وستة وخمسون حرفا

(بسم

(بسم الله) اى الذى له الاحاطة الكاملة فهو بكل شئ عليم (الرحمن) الذى عمت نعمة ايجاده لاهل معاده البرئ منهم والسقيم (الرحيم) الذى اتم تلك النعمة على من وفقه لطاعته فالزمه صراطه المستقيم وقوله تعالى (ن) كقوله تعالى ص والقرآن وجواب القسم الجملة المنفية بعدها واختلفوا فى تفسير ذلك فقال ابن عباس رضى الله عنهما هو الحوت الذى على ظهره الارض وهو قول مجاهد ومقاتل والسدى والكلبى وروى ابو ظبيان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال اول ما خلق الله تعالى القلم فجرى بما هو كائن الى يوم القيامة ثم خلق النون فبسط الارض على ظهره فتحرك النون فمادت الارض فاثبتت بالجبال فان الجبال لتفخر على الارض ثم قرأ ابن عباس ن الآية واختلفوا فى اسمه فقال الكلبى ومقاتل يهموت وقال الواقدى ليوثا وقال كعب لوثا وقال على تلهوت وقال الرواة لما خلق الله تعالى الارض وفتقها بعث من تحت العرش ملكا فهبط الى الارض حتى دخل تحت الارضين حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فاهبط الله عز وجل من الفردوس ثورا له اربعون الف قرن واربعون الف قائمة وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فاخذ الله تعالى ياقوتة خضراء من اعلى درجة الفردوس غلظها خمسمائة عام ووضعها بين سنام الثور الى اذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من اقطار الارض ومنخراه فى البحر فهو يتنفس كل يوم نفسا فاذا تنفس مد البحر واذا رد نفسه جزر البحر فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سموات وسبع ارضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهى الصخرة التى قال لقمان لابنه فتكن فى صخرة ولم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نونا وهو الحوت العظيم ووضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة ثقل الدنيا كلها بما عليها حرفان قال لها الجبار كونى فكانت قال كعب الاحبار ان ابليس تغلغل الى الحوت الذى على ظهره الارض فوسوس اليه فقال له اتدرى ما على ظهرك يا لويثا من الامم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم القيتهم عن ظهرك فهم لويثا أن يفعل فبعث الله تعالى دابة فدخلت منخره فوصلت الى دماغه فعج الحوت الى الله تعالى منها فاذن الله تعالى لها فخرجت فوالذى نفسى بيده انه لينظر اليها وتنظر اليه ان هم بشئ من ذلك عادت اليه كما كانت وقال بعضهم نون آخر حروف الرحمن وهى رواية عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال الحسن وقتادة والضحاك النون الدواة وهو مروى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال القرطبى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اول ما خلق الله القلم ثم خلق النون وهى الدواة ومنه قول الشاعر

اذا ما الشوق برح بى اليهم • ألقت النون بالدمع السجام

ويكون على هذا أقسم بالدواة والقلم فان المنفعة بهما عظيمة بسبب الكتابة فان التفاهم يحصل تارة بالنطق وتارة بالكتابة وقيل النون لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يؤمرون به رواه معاوية بن قرة مرفوعا وقيل النون هو المداد الذى تكتب به الملائكة وقال عطاء وأبو العالية هو افتتاح اسمه تعالى نصير ونور وناصر وقال محمد بن كعب أقسم الله تعالى بنصرة المؤمنين وقال الزمخشرى هذا الحرف من حروف المعجم وأما قولهم هو الدواة فما أدرى أهو وضع لغوى

من امر ونهى او يكفر عنه فى آخر نهيها ويعظم له اجرا (ان قلت) كيف قال ما ختم به فى الاول مع انا نرى كثيرا من الاتقياء

ام شرطى ولا يخلو اذا كان اسما للدواة من أن يكون جنسا او علما فان كان جنسا فاين الاعراب والتنوين وان كان علما فاين الاعراب وايهما كان فلا بد له من موقع فى تاليف الكلام فان قلت هو مقسم به وجب ان كان جنسا ان تجره وتنونه ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة كانه قيل ودواة (والقلم) وان كان علما ان تصرفه وتجره اولا تصرفه وتفتحه للعلمية والتانيث وكذلك التفسير بالحوت اما أن يراد نون من النينان أو يجعل علما لليهموت الذى يزعمون والتفسير باللوح من نور اوذهب والنهر فى الجنة نحو ذلك اه ‌• (تنبيه) ‌• فى القلم المقسم به قولان أحدهما أن المراد به الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به فى السماء والارض قال تعالى وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ولانه ينتفع به كما ينتفع بالنطق قال تعالى خلق الانسان علمه البيان فالقلم يبين كما يبين اللسان فى المخاطبة بالكتابة للغائب والحاضر والثانى انه القلم الذى جاء فى الخبر عن ابن عباس رضى الله عنهما أول ماخلق الله تعالى القلم ثم قال له اكتب قال ما أكتب قال ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة قال ثم ختم فم القلم فلم ينطق ولا ينطق الى يوم القيامة قال وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والارض وروى مجاهد أول ماخلق الله تعالى القلم فقال اكتب المقدر فكتب ما هو كائن الى يوم القيامة وانما يجرى فى الناس على امر قد فرغ منه قال ابن عادل قال القاضى هذا الخبر يجب حمله على المجاز لان القلم آلة مخصوصة للكتابة لا يجوز أن يكون حيا عاقلا فيؤمر وينهى فان الجمع بين كونه حيوانا مكلفا وبين كونه آلة للكتابة محال بل المراد منه انه تعالى أجراه بكل مايكون وهو قوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون فانه ليس هناك أمر ولا تكليف بل هو مجرد نفاذ القدرة فى المقدور من غير منازعة ولا مدافعة اه وقوله فان الجمع الى قوله محال ممنوع فان الله تعالى خالق فيه ذلك كما قال تعالى للسموات والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقال الزمخشرى أقسم بالقلم تعظيما له لما فى خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التى لا يحيط بها الوصف وقيل القلم المذكور ههنا هو العقل وانه شئ كالاصل لجميع المخلوقات قالوا والدليل عليه انه روى فى الاخبار أول ماخلق الله تعالى القلم وفى خبر آخر أول ماخلق الله تعالى العقل فقال الجبار ماخلقت خلقا أعجب الى منك وعزتى وجلالى لاكملنك فيمن أحببت ولا نقصنك فيمن أبغضت قال ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الناس عقلا اطوعهم لله وأعلمهم بطاعته وفى خبر آخر أول ماخلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فذابت وسخنت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الارض قالوا وهذه الاخبار بمجموعها تدل على ان القلم والعقل وتلك الجوهرة التى هى أصل المخلوقات شئ واحد والا حصل التناقض وقال البغوى القلم هو الذى كتب الله به الذكر وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والارض ويقال أول ماخلق الله تعالى القلم ونظر اليه فانشق نصفين ثم قال اجر بما هو كائن الى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك وقرأ قالون وابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة وورش بخلاف عنه باظهار النون عند الواو هنا والباقون بالادغام (وما يسطرون) اى الملائكة من الخير والصلاح وقيل وما تكتبه الملائكة الحفظة من أعمال بنى آدم وقيل ما يكتبون أى الناس ويتفاهمون به وقال ابن عباس رضى الله عنهما معنى وما

مضيقا عليهم رزقهم (قلت) معناه ما مر ثم وذلك لا ينافى تضييق الرزق أو معناه انه يجعل لكل متق مخرجا من كل ما يضيق على من

يسطرون

يسطرون وما يسطرون وما موصولة او مصدرية قال الزمخشري ويجوز ان يراد بالقلم اصحابه فيكون الضمير في يسطرون لهم كأنه قيل واصحاب القلم ومسطوراتهم او مسطورهم ويراد بهم كل من يسطر او الحفظة وقال البقاعي وما يسطرون أي قلم القدرة وجمعه وأجراه مجرى أولي العلم للتعظيم لانه فعل أفعالهم أو لاقلام على ارادة الجنس ويجوز أن يكون الاسناد الى الكاتبين به لما دل عليهم من ذكره واما الملائكة ان كان المراد ما كتب في الكتاب المبين واللوح المحفوظ وغيره مما يكتبونه واما كل من يكتب منهم ومن غيرهم وقوله تعالى (ما أنت) أي يا أعلى المتأهلين لخطابنا (بنعمة) أي بسبب انعام (ربك) أي المربي لك بفضل تلك الهمم العالية والسجايا الكاملة بأن خصك بالقرآن الذي هو الجامع لكل علم وحكمة (بمجنون) جواب القسم وهو نفي قال الزجاج أنت هو اسم ما وبمجنون الخبر وقوله تعالى بنعمة ربك كلام وقع في الوسط أي انتفى ذلك الجنون بنعمة ربك كما يقال أنت بحمد ربك عاقل بل الذي وصفك بهذا هو الحقيق باسم الجنون وقال البغوي ما أنت بنعمة ربك بنبوة ربك بمجنون أي انك لا تكون مجنونا وقد أنعم الله تعالى عليك بالنبوة والحكمة وقيل بعصمة ربك وقيل هو كما يقال ما أنت بمجنون والحمد لله وقيل معناه ما أنت بمجنون والنعمة لربك كقولهم سبحانك اللهم وبحمدك أي والحمد لك وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم غاب عن خديجة الى حراء فطلبته فلم تجده فاذا به ووجهه متغير اصلا غبار فقالت له مالك فذكر جبريل عليه السلام وأنه قال له اقرأ باسم ربك فهو أول ما نزل من القرآن قال ثم نزل بي الى قرار الارض فتوضأ وتوضأت ثم صلى وصليت معه ركعتين وقال هكذا الصلاة يا محمد فذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لخديجة فذهبت به خديجة الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد خالف دين قومه ودخل في النصرانية فسألته فقال أرسلي الى محمد فأرسلته فقال هل أمرك جبريل عليه السلام أن تدعو أحدا قال لا فقال والله لئن بقيت الى دعوتك لأنصرنك نصرا عزيزا ثم مات قبل دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقعت تلك الواقعة في ألسنة كفار قريش فقالوا انه مجنون وأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون وهو خمس آيات من أول هذه السورة وقال ابن عباس أول ما نزل قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى وهذه الآية هي الثانية نقله الرازي وذكر القرطبي ان المشركين كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم مجنون به شيطان وهو قولهم يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون فانزل الله تعالى ردا عليهم وتكذيبا لقولهم ما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أي برحمة ربك والنعمة ههنا الرحمة وقال عطاء وابن عباس يريد بنعمة ربك عليك بالايمان والنبوة وقال القرطبي يحتمل ان النعمة ههنا قسم تقديره ما أنت ونعمة ربك بمجنون لان الواو والباء من حروف القسم وقال الرازي انه تعالى وصفه بصفات ثلاث الاولى نفي الجنون عنه ثم قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها لان قوله بنعمة ربك يدل على ان نعم الله تعالى ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية والبراءة من كل عيب والاتصاف بكل مكرمة واذا كانت هذه النعم المحسوسة ظاهرة ووجودها ينافي حصول الجنون فالله تعالى نبه على ان هذه الدقيقة جارية مجرى الدلالة اليقينية على كذبهم في قولهم مجنون الصفة الثانية قوله تعالى (وان لك) أي على ما تحملت من أثقال النبوة وعلى

لا يبقى مع ان في تضييقه على المتقي لطفا به ورحمة له لقلة عوائقه عن الاشتغال بمولاه في الدنيا ويتوفر حظه ويخف حسابه في الآخرة (قوله والاتقى يقسن)

صبرك عليهم فيما يرمونك به وهو تسلية له صلى الله عليه وسلم (لاجرا) أى ثوابا (غير ممنون) أى مقطوع ولا منقوص فى دنيا ولا آخرة يقال مان الشئ اذا ضعف و يقال مننت الحبل اذا قطعته وحبل منين اذا كان غير متين قال لبيد غبسا كواسب لا يمن طعامها أى لا يقطع يصف كلابا ضارية ونظيره قوله تعالى غير مجذوذ وقال مجاهد ومقاتل والكلبي غير ممنون أى غير محسوب عليك قال الزمخشري لانه ثواب تستوجبه على عملك وليس بتفضل ابتداء وانما تمن الفواضل لا الاجور على الاعمال انتهى وهذا قول المعتزلة فان الله تعالى لا يجب عليه شئ وقال الحسن غير مكدر بالمن وقال الضحاك رضى الله تعالى عنه اجرا بغير عمل واختلفوا فى هذا الاجر على أى شئ حصل فقيل معناه ما مر وقيل معناه ان لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح أجرا عظيما دائما وقيل ان لك فى اظهار النبوة و المعجزات وفى دعاء الخلق الى الله تعالى وفى بيان الشرع لهم هذا الاجر الخالص الدائم فلا تمنعك نسبتهم اياك الى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم فان لك بسببه المنزلة العالية الصفة الثالثة قوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) استعظم خلقه لفرط احتمال الممضات من قومه وحسن مخالقته ومداراته لهم قال ابن عباس ومجاهد على دين عظيم من الاديان ليس دين أحب الى الله تعالى ولا أرضى عنده منه وروى مسلم عن عائشة ان خلقه كان القرآن وقال على هو أدب القرآن وقيل رفقه بامته واكرامه اياهم وقال قتادة هو ما كان يأتمر به من الله وينتهى عنه مما نهى الله تعالى عنه وقيل انك على طبع كريم وقيل هو الخلق الذى أمر الله تعالى به فى قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وقال الماوردى حقيقة الخلق فى اللغة ما يأخذه الانسان فى نفسه من الادب سمى خلقا لانه يصير كالخلقة فيه فاما ما طبع عليه من الادب فهو الخيم فيكون الخلق الطبع المتكلف والخيم الطبع الغريزى قال القرطبى ما ذكره مسلم فى صحيحه عن عائشة أصح الاقوال وسئلت ايضا عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقرأت قد أفلح المؤمنون الى عشر آيات قال الرازى وهذا اشارة الى ان نفسه القدسية الشريفة كانت بالطبع منجذبة الى عالم الغيب والى كل ما يتعلق به وكانت شديدة التعرى عن اللذات البدنية والسعادات الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة وقالت ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته الا قال لبيك ولذلك قال الله تعالى وانك لعلى خلق عظيم ولم يذكر خلق محمود الا وكان للنبى صلى الله عليه وسلم منه الحظ الاوفر وقال الجنيد سمى خلقه عظيما لاجتماع مكارم الاخلاق فيه بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثنى لتمام مكارم الاخلاق وتمام محاسن الافعال وعن أبى اسحق قال سمعت البراء يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسن الناس خلقا ليس بالطويل البائن ولا بالقصير وعن أنس بن مالك قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى اف قط وما قال لشئ صنعته لم صنعته ولا لشئ تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ولا مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيأ كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكا ولا عنبرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عمران رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشا ولا متفحشا وكان يقول خياركم أحسنكم

من المحيض من نسائكم الى آخره) * ان قلت كيف قيد جعل عدة الآيسة واللائى لم يحضن ثلاثة أشهر بارتيابا مع انه ليس المراد بقيد (قلت)

أخلاقا وعن أنس ان امرأة عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق من طرق المدينة فقالت يارسول الله ان لي اليك حاجة فقال يا أم فلان اجلسي في اى سكك المدينة شئت أجلس اليك قال ففعلت فقعد اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قضت حاجتها وعن انس بن مالك قال كانت الامة من اماء أهل المدينة لتاخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت وعن أنس أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا صافح رجلا لم ينزع يده حتى يكون هو الذى يصرف وجهه عن وجهه ولم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له وعن عائشة قالت ماضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده شيأ قط الا ان يجاهد فى سبيل الله تعالى ولا ضرب خادما ولا امرأة وعنها قالت ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قط الا اختار أيسرهما مالم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فى شئ قط الا ان تنتهك حرمة الله فينتقم وعن أنس قال كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فادركه اعرابى فجبذه جبذة شديدة حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال مر لى من مال الله الذى عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك وامر له بعطاء وعنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا وكان لى أخ يقال له أبو عمير وهو فطيم كان اذا جاءنا قال يا أبا عمير مافعل النغير النغير كان يلعب به والنغير طائر صغير يشبه العصفور الا انه أحمر المنقار وعن الاسود قال سألت عائشة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فى بيته قالت كان فى مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة توضأ ويخرج الى الصلاة والمهنة الخدمة وعن عبد الله بن الحرث قال مارأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ام الدرداء تحدث عن أبى الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أثقل شئ يوضع فى ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن وان الله يبغض الفاحش البذى وعن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه أتدرون أكثر مايدخل الناس النار قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أكثر مايدخل الناس النار الاجوفان الفرج والفم أتدرون أكثر مايدخل الناس الجنة قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أكثر مايدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق وعن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان المؤمن يدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار (فستبصر) أى فستعلم عن قرب بوعد لاخلف فيه علما انت فى تحققه كالمبصر بالحس الباصر (ويبصرون) أى يعلم الذين رموك بالبهتان علما هو كذلك وقوله تعالى (بأييكم المفتون) فيه أربعة أوجه أحدها ان الباء مزيدة فى المبتدا والتقدير أيكم المفتون فزيدت كزيادتها فى نحو بحسبك زيد والى هذا ذهب قتادة قال ابن عادل الا أنه ضعيف من حيث ان الباء لاتزاد فى المبتدا الا فى حسبك فقط الثانى ان الباء بمعنى فى فهى ظرفية كقولك زيد بالبصرة أى فيها والمعنى فى أى فرقة وطائفة منكم المفتون أى المجنون أفى فرقة الاسلام أم فى فرقة الكفر واليه ذهب مجاهد والفراء الثالث انه على حذف مضاف اى بأيكم فتن المفتون فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه واليه ذهب الاخفش وتكون الباء سببية الرابع ان المفتون مصدر جاء على مفعول كالمقتول والميسور والتقدير بأيكم الفتنة وقيل

بالارتياب الشك بمعنى الجهل بمقدار عدتهما واذا كان هذا عدة المرتاب فيها فغيرها اولى (قوله وان كن أولات حمل) الآية فائدة ذكر الغاية فيه رفع توهم

المفتون المعذب من قول العرب فتنت الذهب بالنار اذا أحميته قال تعالى يوم هم على النار يفتنون أى يعذبون وقيل الشيطان لانه مفتون فى دينه وكانوا يقولون انه به شيطان وعنوا بالمجنون هذا فقال تعالى سيعلمون غدا بايهم الشيطان الذى يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل *(فائدة)* بايكم رسمت هنا بياءين (ان ربك) أى الذى رباك أحسن تربية وفضلك على سائر الخلائق (هو) أى وحده (أعلم) اى من كل أحد (بمن ضل) أى حاد (عن سبيله) أى دينه وسلك غير سبيل القصد وأخطأ موضع الرشد (وهو) أى وحده (أعلم بالمهتدين) أى الثابتين على الهدى وهم أولو الاحلام والنهى أى الذوعلمه فى عالم *(تنبيه)* قوله تعالى وهو أعلم وهو مكظوم وهو مذموم قرأه قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها وقوله تعالى (ولا تطع المكذبين) أى المعريقين فى التكذيب وهم مشركو مكة فانهم كانوا يدعونه الى دين آبائه فنهاه ان يطيعهم بفتح التصميم على معاداتهم (ودوا) أى تمنوا وأحبوا محبة واسعة متجاوزة للحد قديما مع الاستمرار على ذلك (لو) مصدرية (تدهن فيدهنون) قال الضحاك لو تكفر فيكفرون وقال الكلبى لو تلين لهم فيلينون لك وقال الحسن لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك فى دينهم وقال زيد بن أسلم لو تنافق وترائى فينافقون ويراؤن وقال ابن قتيبة أرادوا أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة وقال ابن العربى ذكر المفسرون فى ذلك نحو عشرة أقوال كلها دعاوى على اللغة والمعنى وامثلها ودوا لو تكذب فيكذبون ودوا لو تكفر فيكفرون وقال القرطبى كلها ان شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى *(تنبيه)* فى رفع فيدهنون وجهان أحدهما انه عطف على تدهن فيكون داخلا فى حيز لو والثانى انه خبر مبتدا مضمر أى فهم يدهنون وقال الزمخشرى فان قلت لم رفع فيدهنون ولم ينصب باضمار ان وهو جواب التمنى قلت قد عدل به الى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدا محذوف أى فهم يدهنون كقوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا على معنى ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ أو ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم فى ادهانك * واختلفوا فى سبب نزول قوله تعالى (ولا تطع كل حلاف) أى كثير الحلف بالباطل فقال مقاتل يعنى الوليد بن المغيرة عرض على النبى صلى الله عليه وسلم مالا وحلف له ان يعطيه ان رجع عن دينه وقال ابن عباس هو ابو جهل بن هشام وقال عطاء هو الاخنس بن شريق لانه حليف ملحق فى بنى زهرة فلذلك سمى زنيما وقال مجاهد هو الاسود بن عبد يغوث (مهين) أى ضعيف حقير قيل هو فعيل من المهانة وهى قلة الرأى والتمييز وقال ابن عباس كذاب وهو قريب من الاول لان الانسان انما يكذب لمهانة نفسه عليه وقال الحسن وقتادة هو المكثار فى الشر وقال الكلبى المهين العاجز (هماز) أى كثير العيب للناس فى غيبتهم وقال الحسن هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس وقال ابن زيد الهماز الذى يهمز الناس بيده ويضربهم واللماز باللسان وقيل الهماز الذى يذكر الناس فى وجوههم واللماز الذى يذكرهم فى غيبتهم وقال مقاتل بالعكس وقال مرة هما سواء ونحوه عن ابن عباس وقتادة (مشاء) اى كثير المشى (بنميم) أى فتان يأتى النميمة بين الناس ليفسد بينهم فينقل ما قاله الانسان فى آخر واذاعة سر لا يريد صاحبه اظهاره على وجه الافساد البين مبالغ فى ذلك (مناع) أى كثير المنع شديده (للخير) أى كل شئ من المال والايمان وغيرهما من

ان النفقة تقصد بمضى مقدار عدة الاقراء أو انه اذا طالت مدة الحول لا تجب النفقة زمن الاطالة (قوله سيجعل الله بعد عسر يسرا) لا ينافى قوله ان مع العسر

بنفسه وغيره من الدين والدنيا وقال ابن عباس مناع للخير أى الاسلام يمنع ولده وعشيرته من الاسلام وكان له عشرة من الولد يقول لئن دخل احد منكم فى دين محمد لا أنفعه بشئ أبدا (معتد) أى ثابت التجاوز للحدود فى كل ذلك (أثيم) أى مبالغ فى ارتكاب ما يوجب الاثم فيترك الطيبات ويأخذ الخبائث يرغب فى المعاصى ويتطلبها ويدع الطاعات ويزهد فيها (عتل) العتل الغليظ الجافى وقال الحسن هو الفاحش الخلق السئ الخلق وقال الفراء هو الشديد الخصومة فى الباطل وقال الكلبى هو الشديد فى كفره وكل شديد عند العرب عتل وأصله من العتل وهو الدفع بالعنف وقال أبو عبيدة بن عمير العتل الاكول الشروب القوى الشديد الذى لا يزن فى الميزان شعيرة يدفع الملك من أولئك سبعين ألفا دفعة واحدة (بعد ذلك) أى مع ذلك يريد مع ما وصفناه به (زنيم) وهو الدعى الملصق بالقوم وليس منهم وقال عطاء عن ابن عباس يريد مع هذا هو دعى فى قريش وقال مرة الهمدانى انما ادعاه ابوه بعد ثمانى عشرة سنة وقيل الزنيم الذى له زنمة كزنمة الشاة وروى عكرمة عن ابن عباس انه قال فى هذه الآية نعت فلم يعرف حتى قيل زنيم فعرف وكانت زنمة فى عنقه يعرف بها وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها وقال مجاهد زنيم كانت له ستة أصابع فى يده فى كل ابهام له اصبع زائدة وقال ابن قتيبة لا نعلم ان الله تعالى وصف احدا ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فالحق به عارا لا يفارقه فى الدنيا والآخرة وعن حارثة بن وهب الخزاعى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا اخبركم باهل الجنة كل ضعيف متضعف لو يقسم على الله لابره الا اخبركم باهل النار كل عتل جواظ مستكبر وفى رواية كل جواظ زنيم متكبر الجواظ الجموع المنوع وقيل الكثير اللحم المختال فى مشيته وقيل القصير البطين وقال عكرمة هو ولد الزنا الملحق فى النسب بالقوم وكان الوليد دعيا فى قريش ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده قال الشاعر فيه

زنيم ليس يعرف من ابوه * بغى الام ذو حسب لئيم

قيل بغت امه ولم يعرف حتى نزلت الآية وهذا لان الغالب ان النطفة اذا خبثت خبث الولد كما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة ولد زنا ولا ولده ولا ولد ولده وقال عبد الله ابن عمر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان أولاد الزنا يحشرون يوم القيامة فى صور القردة والخنازير واصل المراد به الدخول مع السابقين والا فمن مات مسلما دخل الجنة وقالت ميمونة سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال أمتى بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا فاذا فشا فيهم ولد الزنا أوشك أن يعمهم الله بعذابه وقال عكرمة اذا كثر ولد الزنا قحط المطر قال القرطبى ومعظم المفسرين على ان هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان يطعم اهل منى حيسا ثلاثة ايام وينادى الا لا يوقدن احد تحت برمة الا لا يزجين احد بكراع الا من اراد الحيس فليات الوليد بن المغيرة وكان ينفق فى الحجة الواحدة عشرين الفا وأكثر ولا يعطى المسكين درهما واحدا وقيل مناع للخير وفيه نزل وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ولما كان حطام هذه الدنيا كله عرضا فانيا وظلا متقلصا زائلا لا يفتخر به ولا يلتفت اليه الامن كان بهذه الاوصاف

بصرا لان مع بمعنى بعد والاولى اجتماع القبائح والاتصاف وهو حال (قوله وكان من قرينة عتت عن أمر ربها) الآية ان قلت كيف قال فيه

فاذا كان ذلك اكبرهمه ومبلغ علمه اثمر له الترفع على الحقوق والتكبر على العباد قال الله تعالى
(آن) اى لاجل ان (كان) اى هذا الموصوف (ذا مال) اى مذكور بالكثرة (وبنين) انعمنا
عليه بهما فصار يطاع لاجلهما فكان بحيث يجب عليه شكرنا بسببهما (اذا تتلى) اى تذكر
على سبيل المتابعة (عليه) ولو كان ذلك على سبيل الخصوص له (آياتنا) اى العلامات الدالة دلالة
هى فى غاية الظهور على الملك الاعلى وعلى ماله من صفات العظمة (قال) اى مفاجأة من غير
تامل ولا توقف عوضا عن شكرنا (اساطير) جمع سطور جمع سطر (الاولين) اى اشياء سطروها
ودونوها وفرغوا منها فخذله دنى طبعه على تكثره بالمال فورطه فى التكذيب باعظم ما يمكن
سماعه فجعل الكفر موضع الشكر ولم يستح من كونه يعرف كذبه كل من سمعه فاعرض عن
الشكر ووضع موضعه الكفر فكان هذا دليلا على جميع تلك الصفات السابقة مع التعليل
بالاستناد الى ما هو عند العاقل اوهى من بيت العنكبوت والاستناد اليه وحده كاف
فى الاتصاف بالرسوخ فى الدناءة وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة بهمزتين مفتوحتين وابن عامر
يسهل الثانية وشعبة وحمزة بتحقيقهما وهشام على اصله يدخل بينهما الفا والباقون بهمزة
واحدة مفتوحة قال القرطبى فمن قرأ بهمزة مطولة او بهمزتين محققتين فهو استفهام
والمراد به التوبيخ ويحسن له ان يقف على زنيم ويبتدئ ان كان على معنى الأن كان ذا مال
وبنين تطيعه ويجوز ان يكون التقدير الأن كان ذا مال وبنين اذا تتلى عليه اياتنا قال اساطير
الاولين ويجوز ان يكون التقدير ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر ودل عليه ما تقدم من
الكلام فصار كالمذكور بعد الاستفهام ومن قرأ أن كان بغير استفهام فهو مفعول من
اجله والعامل فيه فعل مضمر والتقدير يكفر لأن كان ذا مال وبنين ودل على هذا الفعل اذا
تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين ولا يعمل فى اذا تتلى ولا قال لان ما بعد اذا لا يعمل فيما
قبلها لان اذا تضاف الى الجمل التى بعدها ولا يعمل المضاف اليه فيما قبل المضاف وقال
جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء اذ حكم العامل ان يكون قبل المعمول فيه وحكم
الجواب ان يكون بعد الشرط فيصير مقدما مؤخرا فى حال واحد ويجوز ان يكون المعنى
لا تطعه لان كان ذا يسار وعدد قال ابن الانبارى ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن ان يقف على
زنيم لان المعنى لأن كان ذا مال كان فان متعلقة بما قبلها وقال غيره يجوز ان تتعلق بقوله
تعالى مشاء بنميم والتقدير يمشى بنميم لان كان ذا مال وبنين واجاز ابو على ان تتعلق بعتل ومعنى
اساطير الاولين اباطيلهم وترهاتهم (سنسمه) اى نجعل له سمة اى علامة يعرف بها (على
الخرطوم) اى الانف يعير بها ما عاش قال ابن عباس سنسمه سنخطمه بالسيف قال وقد خطم
الذى نزلت فيه يوم بدر بالسيف فلم يزل مخطوما الى ان مات والتعبير عن الانف بهذا الاستهانة
والاستخفاف وقال قتادة سنسمه يوم القيامة على انفه سمة يعرف بها وقال الكسائى سنكويه
على وجهه وقال ابو العالية ومجاهد سنسمه على الخرطوم اى على انفه ونسود وجهه فى الآخرة
فيعرف بسواد وجهه قال تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فهى علامة ظاهرة وتحشر
المجرمين يومئذ زرقا وهذه علامة اخرى ظاهرة وافادت هذه الآية علامة ثالثة وهى الوسم

فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا بلفظ الماضى مع ان الحساب والعذاب المرتبين على العتو انما هما فى الآخرة (فذاقت) اى بذلك

على

على الانف بالنار وهذا كقوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم قال القرطبي والخرطوم الانف من الانسان ومن السباع موضع الشفة وخراطيم القوم ساداتهم قال الفراء وان كان الخرطوم قد خص بالسمة فانه في معنى الوجه لان بعض الشئ يعبر به عن الكل وقال القرطبي نبين أمره تبيانا واضحا فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السمة على الخراطيم وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة ولاشك ان المبالغة العظيمة في ذمه بقيت على وجه الدهر ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغ منه فالحق به عارا لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة كالوسم على الخرطوم وقيل ما ابتلاه الله تعالى به في الدنيا في نفسه وأهله وماله من سوء وذل وصغار وقال النضر بن شميل المعنى سنحده على شرب الخمر والخرطوم الخمر وجمعه خراطيم قال الرازي كالزمخشري وهذا تعسف اه وقيل للخمر الخرطوم كما قيل لها السلافة وهي ما سلف من عصير العنب أو لانها تطير في الخياشيم *(تنبيه)* الانف أكرم موضع في الوجه لتقدمه له ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الانفة وقالوا الانف في الانف وحمى أنفه وفلان شامخ العرنين وقالوا في الذليل جدع أنفه ورغم أنفه فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الاذلال والاهانة لان السمة على الوجه شين واذلال فكيف بها على أكرم موضع منه ولقد وسم العباس اباعره في وجوهها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا الوجوه فوسمها في جواعرها ولما ذكر تعالى في اول الملك انه خلق الموت والحياة للابتلاء في الاعمال وختم هنا بعيب من يغتر بالمال والبنين وهو يعلم ان الموت وراءه أعاد ذكر الابتلاء وأكده بقوله تعالى (انا) أي بما لنا من القهر والعظمة (بلوناهم) أي عاملنا أهل مكة بما وسعنا عليهم به معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر والباطن فغرهم ذلك وظنوا انهم أحباب ومن قترنا عليهم من أوليائنا أعداء واستهانوا بهم ونسبوهم لاجل تقللهم من الدنيا الى السفه والجنون وكان ابتلاؤنا لهم بالقحط الذي دعا عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكلوا الجيف (كما بلونا) أي اختبرنا (أصحاب الجنة) بان عاملناهم معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر وحاصله انه استخراج ما في البواطن ليعلمه العباد في عالم الشهادة كما يعلم الخالق في عالم الغيب أو أنه كناية عن الجزاء وعرف الجنة لانها كانت شهيرة عندهم وهي بستان عظيم كان دون صنعاء بفرسخين يقال له الضروان يطؤه أهل الطريق كان صاحبه ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل او القته الريح أو بعد عن البساط الذي يبسط تحت النخلة وكان يجتمع لهم شئ كثير فلما مات شح بنوه بذلك وقالوا ان فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الامر ونحن ذوو عيال فحلفوا على ان يجذوها قبل الشمس حتى لا تأتي الفقراء الا بعد فراغهم وذلك معنى قوله تعالى (اذ) أي حين (اقسموا) ودل على تأكيد القسم بالتأكيد فقال (ليصرمنها) عبر به عن الجذاذ لدلالته على القطع البائن المستأصل المانع للفقراء من الصريم الذي يعرض على فم الجدي لئلا يرضع أو من الصرماء للمفازة التي لا ماء بها والناقة القليلة اللبن (مصبحين) داخلين في أول وقت الصباح لئلا تشعر بهم المساكين فلا يعطوهم منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها (ولا) أي والحال انهم لا (يستثنون) في يمينهم أي ولا يقولون ان شاء الله (فان قيل) لم سمي استثناء وانما هو شرط

على لفظ الماضي تحقيقا له وتقريرا لان المنتظر من وعد الله ووعيده آت لا محالة ونظيره قوله تعالى ونادى أصحاب النار

(سورة التحريم)

(أجيب) بأنه سمي استثناء لانه اخراج لشئ يكون حكمه غير المذكور أولا وكان الاصل فيه الا ان يشاء الله فالحق به ان شاء الله لرجوعه اليه في اتحاد الحكم (فطاف) أي فتسبب عن فعلهم هذا ان طاف (عليها) اى جنتهم (طائف) اى عذاب مهلك محيط وهو نار احرقتها ليلا لم تدع منها شيأ والطائف غلب في الشر وقال الفراء هو الامر الذى يأتي ليلا ورد عليه بقوله اذا مسهم طائف من الشيطان وذلك لا يختص بليل ولا نهار وقوله تعالى (من ربك) يجوز ان يتعلق بطاف وان يتعلق بمحذوف صفة لطائف (وهم) أي والحال ان أصحاب الجنة المقسمين (نائمون) وقت ارسال الطائف (فأصبحت) أي فتسبب عن هذا الطائف الذى ارسله القادر الذى لا يغفل ولا ينام على مال من لا يزال أسير العجز والنوم فعلا أو قوة (كالصريم) أي كالاشجار التي صرم عنها ثمرها أو كالليل المظلم الاسود لانه يقال الصريم لسواده والصريم أيضا النهار وقيل الصبح لانه انصرم من الليل قاله الاخفش وهو من الاضداد وقيل كالرماد الاسود وليس بها ثمرة بلغة خزيمة قاله ابن عباس لان ذلك الطائف أتلفها لم يدع فيها شيأ لانهم طلبوا الكل فلم يزكوه بما يمنع عنه الطوارق لضدما كان لابيهم من ثمرة عمله الصالح من الدفع عن ماله والبركة في جميع أحواله قال القرطبي والآية دليل على ان العزم مما يؤاخذ به الانسان لانهم عزموا على ان يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم ونظيره قوله تعالى ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل صاحبه وهذا محمول على العزم المصمم أما ما يخطر بالبال من غير عزم فلا يؤاخذ به (فتنادوا مصبحين) أي في حال أول دخولهم في الاصباح وقوله تعالى (أن اغدوا) أي بكروا جدا مقبلين ومستولين وقادرين ويجوز أن تكون ان المفسرة لانه تقدمها ما هو بمعنى القول (على حرثكم) اى محل فائدتكم الذى أصلحتموه وتعبتم فيه فلا يستحقه غيركم قال مقاتل لما أصبحوا قال بعضهم لبعض اغدوا على حرثكم يعني بالحرث الثمار والزروع والاعناب ولذلك قال صارمين لانهم أرادوا قطع الثمار من الاشجار قال الزمخشري (فان قلت) هلا قال اغدوا الى حرثكم وما معنى على (قلت) لما كان الغدو اليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوا عليه كما تقول غدا عليهم العدو وقال الزمخشري ويجوز ان يضمن الغدو معنى الاقبال أي فاقبلوا على حرثكم (ان كنتم صارمين) أي مريدين القطع وجواب الشرط دل عليه ما قبله أي فاغدوا ويجوز أن تكون أن المصدرية أي تنادوا بهذا الكلام * (تنبيه) * مقتضى كلام الزمخشري ان غدا متعد في الاصل بالى فاحتاج الى تأويل تعديه بعلى قال ابن عادل وفيه نظر لورود تعديه بعلى في غير موضع كقوله

وقد أغدوا على ثبة * نشاوى واجدين لما نشاء

واذا كانوا قد عدوا امراده بعلى فليعدوه وقرأ أن اغدوا أبو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر النون والباقون بضمها واتفقوا على الابتداء بالهمزة بالضم (فانطلقوا) أي فتسبب عن هذا الحث عقبه كأنهم كانوا متهيئين (وهم) اى والحال انهم (يتخافتون) اى يتقولون في حال انطلاقهم قولا هو في غاية السر كأنهم ذاهبون الى سرقة من دار هي في غاية الحراسة من

الخفوت

(قوله وصالح المؤمنين) (ان قلت) ان كان المراد به الفرد فأي فرد هو مع انه لا يناسب جمع الملائكة بعده او الجمع فهلا كتب في المصحف بالواو (قلت)

قوله وقد اغدوا على الخ كذا بالنسخ بايدينا والبيت ناقص تقطيعه فليحرر اه مصححه

الخفوت وهو الهمود وخنى وخفت وخفد ثلاثتها فى معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش ثم فسر
ما يتخافتون به بقوله تعالى (أن لا يدخلنها) وأن لا هي نا مفسرة كما ترى وأكده ولانه لا يصدق
ان أحدا يصل الى هذه الوقاحة وان جد اذ لا يخلو من سائل (اليوم) أى فى جميع النهار بما دل
عليه نزع الخافض لتكرروا عليه مرارا وتفتشوه فلا تدعوا به ثمرة واحدة ولا موضعا يطمع فيه
أحد فى قصدكم (عليكم) وأنتم بها (مسكين) وهى نهى للمسكين فى اللفظ للمبالغة فى نهى
أنفسهم أن لا يدعوه يدخل عليهم أى لا يمكنوه من الدخول حتى يدخل كقولك لا أرينك ههنا
فقال لهم أوسطهم سنا وخيرهم نفسا وأعدلهم طبعا بما يدل عليه ما يأتى لا تقولوا هكذا
واصنعوا من الاحسان ما كان يصنع أبوكم قال البقاعى وكانه طواه سبحانه لانه مع الدلالة
عليه بما يأتى لم يؤثر شيئا (وغدوا) أى ساروا اليها غدوة (على حرد) أى منع للمساكين قال
أبو عبيدة على حرد أى منع من حاردت الابل حرادا أى قل لبنها والحرود من النوق القليلة
الدر وحاردت السنة قل مطرها او خيرها وقال الشعبى وسفيان على حنق وغضب من المساكين
وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما على قدرة (قادرين) عند أنفسهم على جنتهم وثمارها
لا يحول بينهم وبينها أحد أى بدليل عدم استثنائهم فان الجزم على الفعل فى المستقبل
فضلا عن أن يكون مع الحلف فعل من لا كفء له وقال الحسن وقتادة على جد وجهد
وقال القرطبى وعكرمة على أمر مجتمع ودل على قربها من منزلتهم باتيانها فقال تعالى (فلما
رأوها) أى بعد مسير يسير واديا للزرع ولا للثمر بها أثر (قالوا انا لضالون) عن طريق
جنتنا لانها صارت لسوء حالها من ذلك الطائف بعيدة عن حال ما كانت عليه عند توعدهم
وتغير نياتهم فادهشهم منظرها وحيرهم خبرها وأكدوا الان ضلالهم لا يصدق مع قرب
عهدهم وكثرة ملابستهم لها وقوة معرفتهم بها ولما انجلى ما أدهشهم فى الحال قالوا مضربين
عن الضلال (بل نحن محرومون) أى ثابت حرماننا ما كان فيه من الخير الذى لم نغب عنه
الا سواد الليل فحرمنا الله تعالى اياه بما عزمنا عليه من حرمان المساكين ان الله تعالى
لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وقرأ الكسائى بادغام اللام فى النون والباقون بالاظهار
(قال اوسطهم) أى رأيا وعقلا وسنا وفضلا منكرا عليهم (ألم أقل لكم) أى ما فعلتموه
لا ينبغى وان الله تعالى بالمرصاد لمن غير ما فى نفسه وحاد (لولا) أى هلا ولم لا (تسبحون) أى
تستثنون فكان استثناؤهم تسبيحا قال مجاهد وغيره وهذا يدل على ان هذا الاوسط كان
يأمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه قال أبو صالح كان استثناؤهم سبحان الله فقال لهم هلا تسبحون
الله أى تقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم وقال النحاس أصل التسبيح التنزيه
لله عز وجل فجعل مجاهد التسبيح فى موضع ان شاء الله لان المعنى تنزيه الله أن يكون شئ
الا بمشيئته وقال الرازى التسبيح عبارة عن تنزيهه عن كل سوء فلو دخل شئ فى الوجود على
خلاف ارادة الله تعالى لنسب النقص الى قدرة الله تعالى فقولك ان شاء الله يزيل هذا النقص
فكان ذلك تسبيحا وقيل المعنى هلا تستغفرون من فعلكم وتتوبون اليه من خبث نيتكم
قيل ان القوم لما عزموا على منع الزكاة فاغتروا بالمال والقوة قال لهم أوسطهم توبوا عن هذه
المعصية قبل نزول العذاب فلما رأوا العذاب ذكرهم أوسطهم كلامه الاول وقال ألم أقل لكم

هو مفرد اريد به الجمع كقوله
تعالى والملك على ارجائها
وقوله ثم يخرجكم طفلا أو
هو جمع لكنه كتب فى
المصحف بغير واو على اللفظ
كما جاءت ألفاظ كثيرة فى المصحف
على اللفظ دون اصطلاح
الخط (قوله والملائكة

لولا تسبحون فحينئذ اشتغلوا بالتوبة بأن (قالوا) أى من غير تلعثم بما عاد عليهم من بركة أبيهم (سبحان ربنا) أى تنزه المحسن إلينا التنزيه الأعظم أن يكون وقع منه فيما فعل بنا ظلم وأكدوا قباحة فعلهم هضما لأنفسهم وخضوعا لربهم وتحقيقا لتوبتهم بقولهم (إنا كنا) أى بما فى جبلاتنا من الفساد (ظالمين) أى مجاوزين الحدود فيما فعلنا من التقاسم على منع المساكين وعلى جذها فى الصباح من غير استثناء (فأقبل بعضهم) أى فى الحال مبادرة فى الخضوع (على بعض يتلاومون) أى يلوم بعضهم بعضا يقول هذا لهذا أنت أشرت علينا بهذا الرأى ويقول ذلك لهذا أنت الذى خوفتنا بالفقر ويقول الثالث لغيره أنت رغبتنى فى جمع المال ثم نادوا على أنفسهم بالويل بأن (قالوا) منادين لما شغلهم قربه منهم وملازمته لهم عن كل شئ (يا ويلنا) أى هذا وقت حضورك أيها الويل إيانا ومنادمتك لنا فإنه لا نديم لنا الآن غيرك والويل الهلاك والإشراف عليه (إنا كنا) أى جبلة وطبعا (طاغين) أى عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء وقال ابن كيسان طاغين نعم الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا (عسى ربنا) أى الذى أحسن إلينا بتربية هذه الجنة وإهلاك ثمرها الآن تأديبا لنا (أن يبدلنا) من جنتنا شيأ (خيرا منها) يقيم لنا أمر معايشنا فتنقلب أحوالنا هذه التى نحن فيها من الهموم والبذاذة بسرور ولذاذة وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال (إنا إلى ربنا) أى المحسن إلينا والمربى لنا بالإيجاد ثم الإبقاء خاصة لا إلى غيره (راغبون) أى ثابتة رغبتنا ورجاؤنا الخير والإكرام وقد قيل إن الله تعالى قبل رجوعهم وأخلف عليهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان كان القطف الواحد منها يحمله وحده من كبره البغل رواه البغوى عن ابن مسعود وقال أبو خالد اليمانى دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم وقال الحسن قول أهل الجنة إنا إلى ربنا راغبون لا أدرى إيمانا كان ذلك منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة فتوقف فى كونهم مؤمنين وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار قال لقد كلفتنى تعبا والأكثرون يقولون إنهم تابوا وأخلصوا حكاه القشيرى * ولما كان المقام للترهيب من ركن إلى ماله واحتقر الضعفاء من عباد الله تعالى ولم يجلهم بجلاله طوى ذكر ما أنعم به عليهم وذكر ما يخوفهم فقال تعالى مرهبا (كذلك) أى مثل هذا الذى بلونا به أصحاب الجنة من إهلاك ما كان عند أنفسهم فى غاية القدرة عليه والثقة به مع الاستحسان لفعلهم والاستصواب وهددنا به أهل مكة فلم يبادروا إلى المتاب (العذاب) أى الذى نحذرهم منه ونخوفهم به فى الدنيا فإذا تم الأجل الذى قدرناه لهم أخذناهم به غير مستعجلين ولا مفرطين لأنه لا يعجل إلا ناقص يخاف الفوت (ولعذاب الآخرة) أى الذى يكون فيها للعصاة (أكبر) أى من كل ما يتوهمون (لو كانوا) أى الكفار (يعلمون) أى لو كان لهم علم بشئ من غرائزهم فى وقت من الأوقات لرجعوا عما هم فيه * ولما ذكر ما لأهل الجحود الذين لا يحرزون الممكنات ذكر تعالى أضدادهم فقال تعالى مؤكدا لأجل إنكارهم (إن للمتقين) أى العريقين فى صفة التقوى (عند ربهم) أى المحسن إليهم فى موضع ندم أولئك وجنة آمالهم (جنات) جمع جنة وهى لغة البستان الجامع وفى عرف الشرع مكان اجتمع فيه جميع السرور وانتفى

بعد ذلك ظهير) وضع فيه
أى ظهراء أفرد موضع الجمع
أو أن فعيلا يستوى فيه
الواحد وغيره كقعيد (قوله
عسى ربه إن طلقكن أن
يبدله أزواجا خيرا منكن)

عنه جميع الشرور (النعيم) أى جنات ليس فيها الا النعيم الخالص لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا قال مقاتل لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين ان الله تعالى فضلنا عليكم فى الدنيا فلا بد وأن يفضلنا عليكم فى الآخرة فان لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة فاجابهم الله تعالى بقوله سبحانه (أفنجعل المسلمين) أى الذين هم عريقون فى الانقياد لاوامرنا والصلة لما أمرنا بوصله طلبا لمرضاتنا فلا اختيار لهم معنا فى نفس ولا غيرها لحسن جبلاتهم (كالمجرمين) أى الراسخين فى قطع ما أمرنا به أن يوصل وأنتم لا تفرقون بمثل هذا ففى ذلك انكار لقول الكفرة فانهم كانوا يقولون أيضا ان صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالا منهم كما نحن عليه فى الدنيا وقوله تعالى (ما لكم) اى اى شئ يحصل لكم من هذه الاحكام الجائرة البعيدة عن الصواب (كيف تحكمون) اى اى عقل دعاكم الى هذا الحكم الذى يتضمن التسوية من السيد بل الحسن من عبيده والمسئ مع التفاوت فيه تعجب من حكمهم واستبعاد له واشعار بانه صادر عن اختلال فكر واعوجاج رأى (أم) اى بل أ(لكم كتاب) اى سماوى معروف انه من عند الله خاص بكم (فيه) أى لا فى غيره من أساطير الاولين (تدرسون) أى تقرؤن قراءة أيقنتكم (ان لكم) أى خاصة على وجه التأكيد الذى لا رخصة فى تركه (لما تخيرون) أى ما تختارونه وتشتهونه وكسرت وكان حقها الفتح لولا اللام لان ما بعدها هو المدروس ويجوز أن تكون الجملة حكاية للمدروس وأن تكون استئنافية (أم لكم أيمان) أى عهود ومواثيق (علينا) قد حلفتموناها (بالغة) أى واثقة نعت لأيمان وقوله تعالى (الى يوم القيامة) متعلق بما تعلق به لكم من الاستقرار أى ثابتة لكم الى يوم القيامة أى مبالغة أى تبلغ الى ذلك اليوم وتنتهى اليه وقوله تعالى (ان لكم لما تحكمون) جواب القسم لان معنى أم لكم أيمان علينا أى أقسمنا لكم * ولما عجب منهم وتهكم بهم ذيل ذلك بتهكم أعلى منه يكشف عوارهم غاية الكشف فقال تعالى (سلهم) يا أشرف الرسل (أيهم بذلك) أى الامر العظيم الذى يحكمون به لانفسهم من أنهم يعطون فى الآخرة أفضل من المؤمنين (زعيم) أى كفيل وضامن أو سيد أو رئيس أو متكلم بحق أو باطل التزم فى ادعائه صحة ذلك (أم لهم شركاء) موافقون لهم فى هذا القول يكفلونه لهم فان كانوا كذلك (فليأتوا بشركائهم) أى الكافلين لهم به (ان كانوا صادقين) أى عريقين فى هذا الوصف كما يدعونه وقوله تعالى (يوم) منصوب بقوله تعالى فليأتوا أى فليأتوا بشركائهم يوم (يكشف) أى يحصل الكشف فيه بنى للمفعول لان المخيف وقوع الكشف الذى هو كناية عن تفاقم الامر وخروجه عن حد الطوق لا كونه من معين مع أنه من المعلوم انه لا فاعل هنالك غيره سبحانه وتعالى (عن ساق) اى يشتد فيه الامر غاية الاشتداد لان من اشتد عليه الامر وجد فى فصله شمر عن ساقه لاجله وشمرت حرمه عن سوقهن غير محتشمات فهو كناية عن هذا ولذلك نكره تهويلا له وتعظيما نقل هذا التأويل عن ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما وعن انكشاف جميع الخلائق وظهور الجلائل فيه والدقائق من الاهوال وغيرها كما كشفت هذه الآيات جميع الشبه فتركت السامع لها فى مثل ضوء النهار ويجوز أن يكون منصوبا باضمار اذكر فيكون على هذا مفعولا به وعلى الاول لا يوقف على صادقين *(تنبيه)* علم مما

الآية (ان قلت) كيف أثبت الخصوصية لهن بالصفات المذكورة بقوله مسلمات الى آخره مع اتصاف أزواجه صلى الله عليه وسلم بها أيضا (قلت)

تقرر أن كشف الساق كناية عن الشدة قال الراجز

عجبت من نفسي ومن اشفاقها * ومن طرادي الطير عن أرزاقها
في سنة قد كشفت عن ساقها * حمراء تبري اللحم عن عراقها

وقال الطائي

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها * وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال آخر

قد شمرت عن ساقها فشدوا * وجدت الحرب بكم فجدوا

وقال أبو عبيدة اذا اشتد الامر أو الحرب قيل كشف الامر عن ساقه والاصل فيه أن من وقع في شئ يحتاج فيه الى الجد شمر عن ساقه فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة وقال القرطبي وأما ما روي ان الله تعالى يكشف عن ساقه فانه تعالى متعال عن الاعضاء والابعاض وأن ينكشف ويتغطى ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره وقيل يكشف عن نوره عز وجل وروى أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى عن ساق قال يكشف عن نور عظيم يخرون له سجدا وروى أبو بردة عن أبي موسى قال حدثني أبو موسى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيذهب كل قوم الى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون ان لنا ربا كنا نعبده في الدنيا ولم نره قال أو تعرفونه اذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال فكيف تعرفونه ولم تروه قالوا انه لا شبيه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون الله تعالى فيخرون له سجدا ويبقى أقوام ظهورهم كصياصي البقر فينظرون الى الله تعالى فيريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى يوم يكشف عن ساق (ويدعون) أي من داعي الملك الديان (الى السجود) توبيخا على تركها الآن وتنديما وتعنيفا لا تعبدا وتكليفا فيريدونه ليفدوا أنفسهم عما يرون من المخاوف (فلا) أي فتسبب عن ذلك انهم لا (يستطيعون) لانهم غير سالمين لا أعضاء لهم تنقاد به مع شدة معالجتهم لانفسهم فيقول الله تعالى أي للساجدين عبادي ارفعوا رؤسكم فقد جعلت بدل كل رجل منكم رجلا من اليهود والنصارى في النار قال أبو بردة فحدثت هذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال لي والله الذي لا اله الا هو لقد حدثك أبوك بهذا الحديث فحلف له ثلاثة أيمان فقال ما سمعت في أهل التوحيد حديثا هو أحب الي من هذا الحديث وأما غير الساجدين فعن ابن مسعود تعقم أصلابهم أي ترد عظامها بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض وفي الحديث وتبقى أصلابهم طبقا واحدا أي فقارة واحدة وقوله تعالى (خاشعة) حال من مرفوع يدعون وقوله تعالى (أبصارهم) فاعل به ونسب الخشوع للابصار لان ما في القلب يعرف في العين وذلك ان المؤمنين يرفعون رؤسهم من السجود ووجوههم أضوأ من الشمس ووجوه الكافرين والمنافقين سوداء مظلمة (ترهقهم) أي تغشاهم (ذلة) أي عظيمة لانهم استعملوا الاعضاء التي أعطاهموها الله سبحانه ليتقربوا بها اليه في دار العمل في غير طاعته (وقد) أي والحال انهم قد (كانوا يدعون الى السجود) أي في الدنيا من كل داع يدعو اليه وقال ابراهيم التيمي أي يدعون بالاذان والاقامة فيأبون وقوله تعالى (وهم سالمون) أي معافون

المراد خيرا متمكن في حفظ قلبه ومتابعة رضاه مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة يتمكن ويتمون (فان قلت) لم ذكر الواو في ابكارا وحذفها في بقية

أصحاء حال من مرفوع يدعون الثانية وقال سعيد بن جبير كانوا يسمعون حي على الفلاح فلا يجيبون وقال كعب الاحبار والله مانزلت هذه الآية الافى الذين يتخلفون عن الجماعات * ولما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد فى التخويف بما عنده وفى قدرته فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فذرنى) أى اتركنى على أى حالة اتفقت (ومن يكذب) أى يوقع التكذيب لمن يتلو ما جددت انزاله من كلامى القديم على اى حالة كان ايقاعه وأفرد الضمير نصا على تهديد كل واحد من المكذبين (بهذا الحديث) أى القرآن اى خل بينى وبينهم لاتشغل قلبك به فانى أكفيك أمره لانه لامانع منه فلاتهتم به أصلا (سنستدرجهم) أى سنأخذهم بعظمتنا على التدريج لا على غرة الى عذاب لاشك فيه (من حيث) أى من جهات (لايعلمون) أى لايتجدد لهم علم ما فى وقت من الاوقات فعذبوا يوم بدر وقال أبو روق كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار وقال سفيان الثورى نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر وقال الحسن كم مستدرج بالاحسان اليه وكم مفتون بالثناء عليه وكم مغرور بالستر عليه وقال ابن عباس سنمكر بهم وروى أن رجلا من بنى اسرائيل قال يارب كم أعصيك وأنت لاتعاقبنى فأوحى الله الى نبى زمانهم أن قل له كم من عقوبة لى عليك وأنت لاتشعر ان جمود عينيك وقساوة قلبك استدراج منى وعقوبة لو عقلت والاستدراج ترك المعاجلة وأصله النقل من حال الى حال كالتدرج ومنه قيل درجات وهى منزلة بعد منزلة واستدرج فلان فلانا اى استخرج ما عنده قليلا قليلا ويقال درجه الى كذا واستدرجه معناه أدناه منه على التدريج فتدرج ومعنى الآية انا لما أنعمنا عليهم اعتقدوا ان ذلك الانعام تفضيل لهم على المؤمنين وهو فى الحقيقة والواقع سبب لهلاكهم (وأملى لهم) أى أمهلهم وأطيل المدة كقوله تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما والملاوة المدة من الدهر وأملى الله له أى أطال له والملوان الليل والنهار وقيل لاأعاجلهم بالموت والمعنى واحد والملا مقصورا الارض الواسعة سميت به لامتدادها (ان كيدى) أى سترى لاسباب الهلاك عمن أريد اهلاكه وابدائى ذلك له فى ملابس الاحسان (متين) أى قوى شديد فلا يفوتنى أحد وسمى احسانه كيدا كما سماه استدراجا لكونه فى صورة الكيد ووصفه بالمتانة لقوة أثر احسانه فى التسبب للهلاك (أم تسئلهم) اى أنت باأعف الخلق وأعلاهم همما (أجرا) على تبليغ الرسالة (فهم) اى فتسبب عن ذلك وتعقب أنهم (من مغرم) اى غرامة كلفتهم بها (مثقلون) أى ثقل حمل الغرامات عليهم فى بذل المال فثبطهم ذلك عن الايمان والمعنى ليس عليهم كلفة فى متابعتك بل يستولون بالايمان على خزائن الارض ويصلون الى جنات النعيم (أم عندهم) أى خاصة (الغيب) أى علمه من اللوح المحفوظ أو غيره (فهم) اى بسبب ذلك (يكتبون) أى مايريدون منه ليكونوا قد اطلعوا على أن هذا الذكر ليس من عند الله او انهم لادرك عليهم فى التكذيب به فقد علم من هذا أنهم لاشبهة لهم فى ذلك عادية ولا شبهة وانما كيدهم مجرد خبث طباع وظلمة نفوس وأمانى فارغة وأطماع (فاصبر) أى اوقع الصبر وأوجده على كل مايقولونه فيك وعلى غير ذلك من كل مايقع منهم ومن غيرهم من مر القضاء (لحكم ربك) اى القضاء الذى قضاه وقدره المحسن اليك الذى أكرمك بما أكرمك به من الرسالة وألزمك بما ألزمك من البلاغ وخذلهم بالتكذيب ومذلهم على

الصفات (قانتات) لان ابكارا مباين للثيبات فذكر بالواو لامتناع اجتماعهما فى ذات واحدة بخلاف بقية الصفات لاتباين فيها فذكرت بلا واو (ان قانتات)

ذلك في الأجل وأسبغ عليهم النعم وأخر ما وعدك به من النصر وقال ابن بحر فاصبر لنصر ربك وقيل ان ذلك منسوخ بآية السيف وقال قتادة ان الله تعالى يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم ويأمره بالصبر ولا يعجل (ولا تكن) أي ولا يكن حالك يا أشرف الخلق في الضجر والعجلة (كصاحب) أي كحال صاحب (الحوت) وهو يونس عليه السلام وقوله تعالى (اذ) منصوب بمضاف محذوف اى ولا يكن حالك كحاله اوقصتك كقصته حين (نادى) اى ربه في الظلمات من بطن الحوت وظلمة ما يحيط به من الجثة وظلمة اللجج لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ويدل على المحذوف ان الذوات لا ينصب عليها النهى انما ينصب على أحوالها وصفاتها وقوله تعالى (وهو مكظوم) جملة حالية من الضمير من نادى والمكظوم الممتلئ حزنا اوغيظا ومنه كظم السقاء اذا املأه قال ذو الرمة

وأنت من حب مي مضمر حزنا * عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

وقال القرطبي ومعنى هو مكظوم اى مملوء غما وقيل كربا فالاول قول ابن عباس ومجاهد والثانى قول عطاء وأبى مالك قال الماوردى والفرق بينهما ان الغم في القلب والكرب في الانفاس وقيل مكظوم محبوس والكظم الحبس ومنه قولهم كظم غيظه اى حبس غضبه والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه ولما تشوف السامع الى ما كان من أمره بعد هذا الامر العجيب قال تعالى (لولا أن تداركه) اى ادركه ادراكا عظيما (نعمة) اى عظيمة جدا

(تنبيه) حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه (من ربه) اى الذى أحسن اليه بارساله وتهذيبه للرسالة والتوبة عليه والرحمة وقال الضحاك النعمة هنا النبوة وقال ابن جبير عبادته التى سلفت وقال ابن زيد نداؤه بقوله لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين وقال ابن بحر اخراجه من بطن الحوت وقوله تعالى (لنبذ) أي لولا هذه الحالة السنية التى أتم الله تعالى عليه بها الطرح طرحا هينا جدا (بالعراء) أي الارض القفراء الواسعة التى لا بناء فيها ولا جبال ولا نبات البعيدة عن الانس جواب لولا وقيل جوابها مقدر اى لولا هذه النعمة لبقى في بطن الحوت (وهو) اى والحال انه (مذموم) اى ملوم على الذنب وقيل مبعد من كل خير وقال الرازى وهو مذموم على كونه فاعلا للذنب قال والجواب من ثلاثة أوجه الاول ان كلمة لولا دالة على أن هذه المذمومية لم تحصل الثانى لعل المراد من المذمومية ترك الافضل فان حسنات الابرار سيآت المقربين الثالث لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله تعالى (فاجتباه) أى اختاره لرسالته (ربه) والفاء للتعقيب قيل ان هذه الآية نزلت باحد حين حل برسول الله صلى الله عليه وسلم ما حل فاراد ان يدعو على الذين انهزموا وقيل حين أراد ان يدعو على ثقيف ثم سبب عن اجتبائه قوله تعالى (فجعله من الصالحين) أى الذين رسخوا في رتبة الصلاح فصلحوا في أنفسهم للنبوة والرسالة وصلح بهم غيرهم فنبذ حينئذ بالعراء وهو محمود قال ابن عباس رد الله تعالى اليه الوحى وشفعه في نفسه وفي قومه وقبل توبته وجعله من الصالحين بأن أرسله الى مائة ألف أو يزيدون بسبب صبره فمن صبر أعظم من صبره كان أعظم أجرا من أجره وأنت كذلك فأنت أشرف العالمين *(تنبيه)* استدل أهل السنة على ان فعل العبد خلق لله

تعالى

أى مدح في كونهن ثيبات (ذات) الثيب تمدح من جهة انها أكثر تجربة وعقلا وأسرع حبلا غالبا والبكر تمدح من جهة انها أطهر وأطيب وأكثر مداعبة

تعالى بقوله سبحانه فجعله من الصالحين لان الصلاح انما حصل بجعل الله تعالى وخلقه وقال الجبائي يحتمل أن يكون معنى جعل انه أخبر بذلك ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح اذ الجعل يستعمل في اللغة في هذه المعاني والجواب ان ذلك مجاز والاصل في الكلام الحقيقة (وان) هي المخففة اى وانه (يكاد الذين كفروا) اى ستروا ما قدروا عليه مما جئت به من الدلائل واظهر موضع الاضمار تعميما وتعليقا للحكم بالوصف * ولما كانت ان مخففة أتى باللام التي هي علمها فقال (ليزلقونك بابصارهم) اى ينظرون اليك نظرا شديدا يكاد ان يصرعك من قامتك الى الارض كما يزلق الانسان فينطرح لما يتراءى في عيونهم أو يهلكونك من قولهم نظر الى نظرا يكاد يصرعني ويكاد يأكلني اى لو امكنه بنظره الصرع او الاكل لفعل قال القائل

يتقارضون اذا التقوا في موطن * نظرا يزل مواطئ الاقدام

وقيل ارادوا ان يصيبوه بالعين فنظر اليه قوم من قريش وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه وقيل كانت العين في بني اسرائيل فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة ايام فلا يمر به شئ فيقول لم ار كاليوم مثله الا عانه حتى ان البقرة السمينة او الناقة السمينة تمر باحدهم فيعاينها ثم يقول ياجارية خذي المكتل والدرهم فأتينا من لحم هذه الناقة فما تبرح الناقة حتى تقع للموت فتنحر وقال الكلبي كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيأ يومين او ثلاثة ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الابل او الغنم فيقول لم ار كاليوم ابلا ولا غنما احسن من هذه فلا تذهب الا قليلا حتى تسقط منها طائفة هالكة فسأل الكفار هذا الرجل ان يصيب لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعين فاجابهم فلما مر النبي صلى الله عليه وسلم انشد

قد كان قومك يحسبونك سيدا * واخال انك سيد معيون

فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية وذكر الماوردي ان العرب كانت اذا اراد احدهم ان يصيب احدا بعين في نفسه او ماله يجوع ثلاثة ايام ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكبر منه ولا أحسن فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى أبو نعيم أنه صلى الله عليه وسلم قال ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وعن أسماء بنت عميس قالت يارسول الله ان بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم قال نعم فلو كان شئ يسبق القضاء لسبقته العين وقال الحسن دواء الاصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية وقرأ نافع بفتح الياء والباقون بضمها وهما لغتان يقال زلقه يزلقه زلقا وأزلقه يزلقه ازلاقا وقال ابن قتيبة ليس يريد أنهم يصيبونك باعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه وانما أراد أنهم ينظرون اليك (لما سمعوا الذكر) اى القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك وقال الزجاج يعني من شدة عداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك (ويقولون) اى قولا لا يزالون يجددونه حسدا او بغضا على انهم لم يزدهم تمادي الزمان الا حنقا (انه لمجنون) اى ينسبونه الى الجنون اذا سمعوه يقرأ القرآن فاجابهم الله تعالى بقوله سبحانه (وما هو) اى القرآن (الا ذكر للعالمين) قال ابن عباس موعظة للمؤمنين

(قوله ولا عيبة غالبا ويفعلون ما يؤمرون) فائدة ذكره بعد لا يعصون الله ما امرهم التأكيد لاتحادهما صدقا او التأسيس لاختلافهما

قال الجلال المحلي الانس والجن وظاهره اخراج الملائكة وهو ما جرى عليه في شرحه على جمع الجوامع وظاهر الآية انه ارسل لجميع الخلائق وهو كما قال بعض المتأخرين الظاهر ويدل له قول البيضاوي لما جننوه لاجل القرآن بين انه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه الا من كان اكمل الناس عقلا وامتنهم رأيا وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة القلم اعطاه الله ثواب الذين حسن الله اخلاقهم حديث موضوع

سورة الحاقة مكية

وهي اثنتان وخمسون آية وألف واربعة وستون حرفا

(بسم الله) اى الذى له الكمال كله (الرحمن) الذى عم العالمين جوده (الرحيم) الذى خص اهل وده بالوقوف عند حدوده وقوله تعالى (الحاقة) مبتدأ وقوله تعالى (ما الحاقة) مبتدأ وخبر والجملة خبر الاول والاصل الحاقة ما هي اى اى شئ هي تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر لانه اهول لها والحاقة الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجئ التى هي آتية لا ريب فيها او التى فيها حواق الامور من البعث والحساب والثواب والعقاب او التى تحق فيها الامور اى تعرف على الحقيقة من قولك لا احق هذا اى لا اعرف حقيقته جعل الفعل لها وهو لاهلها وقيل سميت القيامة بذلك لانها احقت لاقوام الجنة ولاقوام النار وقوله تعالى (وما ادراك) اى اى شئ اعلمك (ما الحاقة) زيادة تعظيم لشأنها فما الاولى مبتدا وما بعدها خبره وما الثانية وخبرها في محل المفعول الثاني لادرى يعنى انك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها على انه من العظم والشدة بحيث لا تبلغه دراية احد ولا وهمه والنبي صلى الله عليه وسلم كان عالما بالقيامة ولكن لا علم له بكنهها وصفتها فقيل له ذلك تفخيما لشأنها كأنك لست تعلمها اذ لم تعاينها وقال يحيى بن سلام بلغنى ان كل شئ في القرآن وما ادراك فقد دراه وعلمه وكل شئ قال وما يدريك فانه مما لم يعلمه وقال سفيان بن عيينة كل شئ قال فيه وما ادراك فانه اخبر به وكل شئ قال فيه وما يدريك فانه لم يخبر به وقرأ ابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي وابن ذكوان بخلاف عنه بالامالة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح ولما ذكر الساعة وفخمها اتبع ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيرا لاهل مكة وتخويفا لهم من عاقبة تكذيبهم فقال تعالى (كذبت ثمود) قدمهم لان بلادهم اقرب الى قريش وواعظ القرب أكبر واهلاكهم بالصيحة وهي اشبه بصيحة النفخ في الصور المبعثرة لما في القبور (وعاد بالقارعة) اى القيامة سميت بذلك لانها تقرع قلوب العباد بالمخافة او لانها تقرع الناس باهوالها يقال اصابتهم قوارع الدهر اى اهواله وشدائده وقوارع القرآن الآيات التى يقرؤها الانسان اذا فزع من الانس او الجن نحو آية الكرسي كانه يقرع الشيطان بها وقال المبرد القارعة مأخوذة من القرعة من رفع قوم وحط آخرين وقوارع القيامة انفطار السماء بانشقاقها والارض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شدتها وقيل عنى بالقارعة العذاب الذى

نزل

منهوما او المراد بالامر الاول الامر بالعبادات والطاعات وبالثاني الامر بتعذيب أهل النار (قوله توبة نصوحا) لم يقل نصوحة لان فعولا يستوي فيه

نزل بهم في الدنيا وكان نبيهم يخوفهم بذلك فيكذبونه وثمود قوم صالح وكانت منازلهم بالحجر فيما بين الشام والحجاز قال ابن اسحق وهو وادي القرى وكانوا عربا وأما عاد فقوم هود وكانت منازلهم بالاحقاف رمل بين عمان الى حضرموت واليمن كله وكانوا عربا ذوي بسطة في الخلق (فأما ثمود فأهلكوا) أي بايسر أمر من أوامرنا (بالطاغية) أي الواقعة التي جاوزت الحد في الشدة فرجفت منها القلوب واختلف فيها فقيل الرجفة وعن ابن عباس الصاعقة وعن قتادة بعث الله تعالى عليهم صيحة فأهمدتهم وقال مجاهد بالذنوب وقال الحسن بالطغيان فهو مصدر كالكاذبة والعاقبة أي أهلكوا بطغيانهم وكفرهم قال الزمخشري وليس بذاك لعدم الطباق بينها وبين قوله تعالى بريح صرصر لكن قال ابن عادل ويوضحه كذبت ثمود بطغواها أهلكوا بها ولاجلها قال والباء سببية على الاقوال كلها الا على قول قتادة فانها فيه للاستعانة كعملت بالقدوم (وأما عاد فأهلكوا) أي بأشق ما يكون عليهم وبأيسر ما يكون علينا (بريح صرصر) أي شديد الصوت لها صرصرة وقيل هي الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها وقال مجاهد هي الشديدة السموم (عاتية) أي مجاوزة للحد في شدة عصفها والعتو استعارة أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة فانها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم وقيل عتت على خزانها فخرجت بلا كيل ولا وزن وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ما أرسل الله تعالى سفية من ريح الا بمكيال ولا قطرة من مطر الا بمكيال الا يوم عاد ويوم نوح فان الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية وان الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ بريح صرصر عاتية (سخرها) أرسلها (عليهم) وقال مقاتل رضي الله عنه سلطها عليهم (سبع ليال) أي لا تفتر فيها الريح لحظة (وثمانية أيام) كذلك قال وهب هي الايام التي تسميها العرب العجوز ذات برد وريح شديدة قيل سميت عجوزا لانها في عجز الشتاء وقيل سميت بذلك لان عجوزا من قوم عاد دخلت سربا فتبعتها الريح فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب (حسوما) قال مجاهد وقتادة رضي الله عنهم متتابعة ليس فيها فترة فعلى هذا هو من حسم الكي وهو أن يتابع على موضع الداء المكواة حتى يبرأ ثم قيل لكل شئ يقطع حاسم وجمعه حسوم مثل شاهد وشهود وقال الكلبي حسوما دائما وقال النضر بن شميل حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم والحسم القطع والمنع ومنه حسم الداء وقال عطية حسوما شؤما كأنها حسمت الخير عن أهلها (تنبيه) في اعراب حسوما أوجه أحدها أن ينتصب نعتا لما قبله ثانيها أن ينتصب على الحال أي ذات حسوم ثالثها أن ينتصب على المصدر بفعل من لفظها أي تحسمهم حسوما واختلفوا في أولها فقال السدي غداة يوم الاحد وقال الربيع ابن أنس رضي الله عنه غداة يوم الجمعة وقال يحيى بن سلام ووهب بن منبه رضي الله عنهم غداة يوم الاربعاء وهو اليوم النحس المستمر قيل كان آخر أربعاء في السنة وآخرها يوم الاربعاء وقال البقاعي وهي من صبيحة الاربعاء لثمان بقين من شوال لغروب الاربعاء الآخر وهو آخر الشهر وقد لزم من زيادة عدد الايام أن الابتداء كان بها قطعا والا لم تكن الليالي سبعا فتأمل ذلك اهـ وهو ظاهر ولما كان الحاسم المهلك تسبب عنه قوله تعالى مصورا لحالهم الماضية (فترى القوم)

الذكر والمؤنث كقوله امرأة صبور وشكور (قوله كانتا تحت عبدين من عبادنا) فائدة قوله من عبادنا بعد عبدين مدحهما والثناء عليهما باضافتهما

أى الذين هم غاية فى القدرة على مايحاولونه (فيها) أى تلك المدة من الايام والليالى لم يتأخر أحد منهم عنهم (صرعى) اى مجندلين على الارض موتى جمع صريع وهى حال نحو قتيل وقتلى وجريح وجرحى والضمير فيها الايام والليالى كامر أو للبيوت أو للريح قال ابن عادل والاول أظهر لقربه (كأنهم أعجاز) اى أصول (نخل) قد شاخت وهرمت فهى فى غاية العجز (خاوية) أى متآكلة الاجواف ساقطة من خوى النجم اذا سقط للغروب ومن خوى المنزل اذا خلا من قطانه قالوا كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما فى أجوافهم من الحشو من أدبارهم والوصف بذلك لعظم اجسامهم وتقطيع الريح لهم وقطعها رؤسهم وخلوهم من الحياة وتسويدها لهم (فهل ترى) اى أيها المخاطب الخبير بالناس فى جميع الاقطار (لهم) أى خصوصا وأغرق فى النفى وعبر بالمصدر الملحق بالهاء مبالغة فقال تعالى (من باقية) فيكون المراد بالباقية البقاء كالطاغية بمعنى الطغيان أى من باق والاحسن أن تكون صفة لفرقة أو لطائفة أو نفس أو بقية أو نحو ذلك وقيل فاعلة بمعنى المصدر كالعافية والباقية ٣ قال المفسرون والمعنى هل ترى لهم أحدا باقيا قال ابن جريج كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء فى عذاب الله تعالى من الريح فلما أمسوا فى اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم فى البحر فذلك قوله تعالى فهل ترى لهم من باقية وقوله تعالى فأصبحوا لاترى الا مساكنهم ونجى الله تعالى صالحا عليه السلام ومن آمن به من بنى ثمود ولم تضرهم الصاعقة وهودا عليه السلام ومن آمن به من عاد ولم يهلك منهم أحد فدل ذلك دلالة واضحة على أن له تعالى تمام العلم بالجزئيات كما أن له كمال الاحاطة بالكليات وعلى قدرته واختياره وحكمته فلا يجعل المسلم كالمجرم ولا المسىء كالمحسن وجواب هل لم يبق منهم أحد (وجاء فرعون) أى الذى ملكناه طائفة من الارض وتجبر وادعى الالهية ناسيا نعمتنا وقدرتنا وقوله تعالى (ومن قبله) قرأه أبو عمرو والكسائى بكسر القاف وفتح الباء الموحدة أى ومن عنده من اتباعه وقرأه الباقون بفتح القاف وسكون الباء الموحدة على أنه ظرف أى ومن تقدمه من الامم الكافرة (والمؤتفكات) أى أهلها وهى قرى قوم لوط أى المنقلبات بأهلها حتى صار عاليها سافلها لما حصل لاهلها من الانقلاب (بالخاطئة) اى بالفعلات ذات الخطا الذى يتخطى منها الى نفس الفعل القبيح من اللواط والصفع والضراط مع الشرك وغير ذلك من أنواع الفسق * ولما كانت الرسل كالفرد الواحد لاتفاقهم وتعاضدهم فى الدعاء الى الله تعالى والحمل على طاعته قال مسببا عن مجيئهم بذلك موحدا فى اللفظ ماهو صالح الكثير بارادة الجنس (فعصوا) أى خالفوا (رسول ربهم) أى خالفت كل أمة من أرسله المحسن اليها بابداعها من العدم وابداعها القوى وتربيتها او بعث رسولها الارشادها اغترارا باحسانه ولم يجوزوا أن المحسن يقدر على الضر كما قدر على النفع لانه الضار كما أنه النافع فالتنبيه على مثل ذلك لايجوز فصل أحد الاسمين عن الآخر وسبب عن العصيان قوله تعالى (فأخذهم) أى ربهم أخذ قهر وغضب (أخذة) لم تبق من أمة منهم أحدا ممن كذب لرسول فلم يكن كن ينصر على عدو من المؤمنين لابد أن يفوته كثير منهم وان اجتهد فى الطلب وما ذاك الا لتمام علمه سبحانه بالجزئيات والكليات وشمول قدرته وتلك الاخذة مع كونها بهذه العظمة من أنها أخذتهم كنفس واحدة جعلها سبحانه (رابية) أى عالية عليهم زائدة فى الشدة على غيرها

٣ قوله والباقية كذا فى النسخ لعله والعاقبة اه

البيه اضافة التشريف والتخصيص كما فى قوله تعالى وعباد الرحمن وفى قوله فادخلى فى عبادى وفى ذلك مبالغة فى المعنى المقصود وهو ان الانسان عادة

وعلى عذاب الامم يقال ربا الشئ يربو اذا زاد ومنه الربا اذا أخذ فى الذهب والفضة أكثر مما أعطى والمعنى أنها كانت زائدة فى الشدة على عقوبات سائر الكفار كما ان افعالهم كانت زائدة فى القبح على أفعال سائر الكفار وقيل لان عقوبة آل فرعون متعلقة بعذاب الآخرة لقوله تعالى اغرقوا فادخلوا نارا وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدنيا فتلك العقوبة كانت كأنها تنمو وتربو ❊ ثم ذكر تعالى قصة قوم نوح عليه السلام وهى قوله تعالى (انا) اى على عظمتنا (لما طغى الماء) أى زاد على الحد حتى علا على أعلى جبل فى الارض بقدر ما يغرق من كان عليه حين أغرقنا قوم نوح عليه السلام به فلم يطيقوا ضبطه ولا قوره بوجه من الوجوه وقال صلى الله عليه وسلم طغى على خزانه من الملائكة غضبا لربه تعالى فلم يقدروا على حبسه قال المفسرون زاد على كل شئ خمسمائة ذراع وقال ابن عباس رضى الله عنهما طغى الماء زمن نوح عليه السلام على خزانه فكثر عليهم فلم يدروا كم خرج وليس من الماء قطرة تنزل قبله ولا بعده الا بكيل معلوم غير ذلك اليوم والمقصود من قصص هذه الامم وذكر ما حل بهم من العذاب زجر هذه الامة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول ثم من الله عليهم بان جعلهم ذرية من نجى من الغرق بقوله تعالى (حملناكم) أى فى ظهور آبائكم (فى الجارية) أى السفينة التى جعلناها بحكمتنا عريقة فى الجريان حتى كأنه لا جارية غيرها على وجه الماء الذى جعلنا من شانه الاغراق والمحمول فى الجارية انما هو نوح عليه السلام وأولاده وكل من على وجه الارض من نسل أولئك والجارية من أسماء السفينة ومنه قوله تعالى وله الجوار المنشآت فى البحر كالاعلام وغلب استعمال الجارية فى السفينة كقولهم فى بعض الالغاز

رأيت جارية فى بطن جارية ❊ فى بطنها رجل فى بطنه جمل

ونوح عليه السلام اول من صنع السفينة وانما صنعها بوحى من الله تعالى وبحفظه له قال اجعلها كهيئة صدر الطائر ليكون ما يجرى فى الماء مقاربا لما يجرى فى الهواء واغرقنا سوى من كان فى تلك السفينة من جميع اهل الارض من آدمى وغيره (لنجعلها) أى هذه الفعلة العظيمة وهى انجاء المؤمنين بحيث لا يهلك منهم بهذا العذاب أحد واهلاك الكافرين بحيث لا يشذ منهم أحد وكذا السفينة التى حملنا فيها نوحا عليه السلام ومن معه (لكم) أيها الناس (تذكرة) أى عبرة ودلالة على قدرته تعالى وعظمته ورحمته وقهره فيقودكم ذلك اليه وتقبلوا بقلوبكم عليه وقوله تعالى (وتعيها) عطف منصوب على لنجعلها اى وتحفظ قصة السفينة وغيرها مما تقدم حفظا ثابتا مستقرا كأنه محوى فى وعاء (اذن) أى عظيمة النفع (واعية) أى من شانها ان تحفظ ما ينبغى حفظه من الاقوال والافعال الالهية والاسرار الربانية لنفع عباد الله تعالى كما كان نوح عليه السلام ومن معه وهم قليل سببا لادامة النسل والبركة فيه حتى امتلأت منه الارض والوعى الحفظ فى النفس والايعاء الحفظ فى الوعاء قال الزمخشرى فان قلت لم قيل اذن واعية على التوحيد والتنكير قلت للايذان بان الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلة من يعى منهم وللدلالة على ان الاذن الواحدة اذا وعت وعقلت عن الله تعالى فهو السواد الاعظم عند الله وأن ما سواها لا يبالى بهم بالة وان ملؤا ما بين الخافقين اهـ وقرأ نافع بسكون الذال والباقون بضمها ❊ ولما ذكر تعالى القيامة وهول

لا ينفعه الاصلاح نفسه لاصلاح غيره وان كان ذلك الغير فى أعلى مراتب الصلاح والقرب من الله تعالى (قوله وكانت من القانتين) ❊ ان قلت القياس من القانتات

أمرها بالتعبير بالحاقة وغيرها شرع سبحانه وتعالى فى تفاصيل أحوالها وبدأ بذكر مقدماتها بقوله تعالى (فاذا نفخ) وبنى الفعل للمجهول دلالة على هوان ذلك عليه وأن ما يتأثر عنه لا يتوقف على نافخ معين بل من أقامه لذلك من جنده تأثر عنه ما يريده (فى الصور) أى القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام قال البقاعى كأنه عبر عنه به دون القرن مثلا لانه يتأثر عنه تارة اعدام الصورة وتارة ايجادها وردها الى اشكالها وسعته كما بين السماء والارض (نفخة واحدة) للفصل بين الخلائق قال الزمخشرى فان قلت هما نفختان فلم قيل واحدة قلت معناه انها لا تثنى فى وقتها ثم قال فان قلت فأى النفختين هى قلت الاولى لان عندها فساد العالم وهكذا الرواية عن ابن عباس رضى الله عنهما وقد روى عنه انها الثانية اه قال البقاعى وظاهر السياق أنها الثانية التى بها البعث وخراب ما ذكر بعد قيامهم انسب لانه أهيب وكونها الثانية احدى الروايتين عن ابن عباس رضى الله عنهما اه واقتصر البيضاوى على أنها الاولى والجلال المحلى على أنها الثانية وهو الانسب كما قاله البقاعى ثم ان الزمخشرى سأل سؤالا على انها النفخة الاولى بقوله فان قلت أما قال بعد يومئذ تعرضون والعرض انما هو عند النفخة الثانية قلت جعل اليوم اسما للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب فلذلك قيل يومئذ تعرضون كما تقول جئتك عام كذا وانما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته اه ولما ذكر التأثير فى الاحياء اتبعه التأثير فى الجمادات وبدأ منها بالسفليات الابستها للانسان فتكون عبرته بها أكثر فقال تعالى (وحملت الارض والجبال) أى التى بها ثباتها حملها ما الريح أو الملائكة أو القدرة من أماكنها (فدكتا) أى سحقت الجملتان الارض وأوتادها وبسطت ودق بعضها ببعض (دكة واحدة) أى فصارتا كثيبا مهيلا بأيسر أمر فلم يتميز شئ منهما عن الآخر بل صارتا فى غاية الاستواء ومنه اندك سنام البعير اذا انفرش فى ظهره وقال الفراء لم يقل فدككن لانه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة والارض كالجملة الواحدة ومثله ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما ولم يقل كن وهذا الدك كالزلزلة لقوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها وقوله تعالى (فيومئذ) منصوب بوقعت وقوله تعالى (وقعت الواقعة) لا بد فيه من تأويل وهو ان تكون الواقعة صارت علما بالغلبة على القيامة أو الواقعة العظيمة والا فقيام القائم لا يجوز اذ لا فائدة فيه والتنوين فى يومئذ للعوض من الجملة تقديره يوم اذ نفخ فى الصور ونوع تعالى اسماء القيامة بالحاقة والواقعة والقارعة تهويلا لها ولما ذكر تأثير العالم السفلى ذكر العلو بقوله تعالى (وانشقت السماء) أى ذلك الجنس لشدة هول ذلك اليوم أى انصدعت وتفطرت وقيل انشقت لنزول الملائكة بدليل قوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (فهى يومئذ واهية) أى ضعيفة متساقطة خفيفة لا تماسك كالعهن المنفوش بعدما كانت محكمة يقال وهى البناء يهى وهيا فهو واه اذا ضعف جدا ويقال كلام واه أى ضعيف وقيل واهية أى متخرقة مأخوذ من قولهم وهى السقاء اذا تخرق ومن أمثالهم

خل سبيل من وهى سقاؤه * ومن هريق بالفلاة ماؤه

أى من كان ضعيف العقل لا يحفظ نفسه وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى بسكون الهاء

فلم عدل عنه الى القانتين (قلت) رعاية للفواصل أو معناه من القوم القانتين

* (سورة الملك) *

(قوله الذى خلق الموت والحيوة) قدم الموت لانه

والباقون بكسرها (والملك) أى هذا النوع (على أرجائها) أى نواحى السماء وأطرافها وحواشى مالم ينشق منها قال الضحاك يكونون بها حتى يأمرهم الله تعالى فينزلون فيحيطون بالارض ومن عليها وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه المعنى والملك على حافات الدنيا أى ينزلون الى الارض ويحرسون أطرافها وقيل اذا صارت السماء قطعا تقف الملائكة على تلك القطع التى ليست متشققة فى أنفسها والارجاء فى اللغة النواحى والاقطار بلغة هذيل واحدها رجا مقصور وتثنيته رجوان مثل عصا وعصوان قال القائل

فلا ترمى بى الرجوان انى * أقل القوم من يغنى مكانى

قال ابن عادل ورجاهنا يكتب بالالف عكس رحى لانه من ذوات الواو (فان قيل) الملائكة يموتون فى الصعقة الاولى لقوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض فكيف يقال انهم يقفون على ارجاء السماء (أجيب) من وجهين الاول انهم يقفون لحظة على أرجاء السماء ثم يموتون والثانى المراد الذين استثنوا فى قوله تعالى الامن شاء الله وقيل ان الناس اذا رأوا جهنم هالهم أمرها فيندون كما تند الابل فلا يأتون قطرا من أقطار الارض الا رأوا الملائكة فيرجعون من حيث جاؤا وقيل على ارجائها ينتظرون ما يؤمرون به فى أهل النار من السوق اليها وفى أهل الجنة من التحية والكرامة وهذا كله يرجع الى قول ابن جبير رضى الله عنه ويدل عليه قوله تعالى ونزل الملائكة تنزيلا قال الزمخشرى فان قلت ما الفرق بين قوله والملك وبين أن يقال والملائكة قلت الملك أعم من الملائكة ألا ترى أن قولك ما من ملك الا وهو شاهد أعم من قولك ما من ملائكة اه قال أبو حيان ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة لان المفرد المحلى بالالف واللام قصاراه أن يكون مرادا به الجمع المحلى ولذلك صح الاستثناء منه ثم قال ولان قوله على أرجائها يدل على الجمع لان الواحد لا يمكن أن يكون على ارجائها فى وقت واحد بل فى أوقات والمراد والله أعلم ان الملائكة على أرجائها الا انه ملك واحد ينتقل على أرجائها فى أوقات * ولما كان الملك يظهر فى يوم العرض سرير ملكه ومحل عزه قال تعالى (ويحمل عرش ربك) أى المحسن اليك بكل ما تريد لا سيما فى ذلك اليوم بما يقع من رفعتك على سائر الخلق والضمير فى قوله تعالى (فوقهم يومئذ) أى فى يوم وقعت الواقعة يجوز أن يعود على الملك لانه بمعنى الجمع كما تقدم وأن يعود على الحاملين فى قوله تعالى (ثمانية) وقيل يعود على جميع العالم أى ان الملائكة تحمل عرش الله تعالى فوق العالم كله واختلف فى هذه الثمانية فقال ابن عباس رضى الله عنهما ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقال ابن زيد هم ثمانية أملاك وعن الحسن رضى الله عنه الله أعلم كم هم أثمانية أم ثمانية آلاف أم ثمانية صفوف وفى الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال ان حملة العرش اليوم أربعة فاذا كان يوم القيامة أمدهم الله تعالى باربعة أخرى فكانوا ثمانية على صورة الاوعال وفى رواية ثمانية أوعال من أظلافهم الى ركبهم كما بين سماء الى سماء وفى حديث آخر لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس (فان قيل) اذا لم يكن فيهم صورة الوعل فكيف سموا أوعالا (أجيب) بان وجه الثور اذا كانت له قرون اشبه الوعل وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ان ما بين شحمة أذنه الى عاتقه

هو المخلوق أولا اقوله تعالى وكنتم أمواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم (قوله ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) أى من خلل وعيب والا فالتفاوت

مسيرة سبعمائة عام أخرجه أبو داود باسناد صحيح وعن ابن عباس رضي الله عنهما حملة العرش ما بين أخمص أحدهم الى كعبه مسيرة خمسمائة عام ومن كعبه الى ركبته خمسمائة ومن ترقوته الى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال الذين يحملون العرش ما بين سوق أحدهم الى مؤخر عينه خمسمائة عام وفي الخبر ان فوق السماء السابعة ثمانية أوعال بين اظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء الى سماء وفوق ظهورهن العرش وفي حديث مرفوع ان حملة العرش ثمانية املاك على صورة الاوعال ما بين أظلافها الى ركبها مسيرة سبعين عاما للطائر المسرع وروى أن أرجلهن في الارض السابعة واضافة العرش الى الله تعالى كاضافة البيت اليه وليس البيت للسكنى فكذلك العرش ليس للجلوس تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فانه الخالق للعرش ولحملة العرش ولا تحيط به جهة وهو العلي العظيم وعن شهر بن حوشب قال حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ولما بلغ تعالى النهاية في تحذير العباد من يوم التناد وكان لهم حالتان عامة وخاصة فالعامة العرض والخاصة التقسيم الى محسن ومسيء زاده عظما بقوله تعالى (يومئذ) أي اذ كان جميع ما تقدم (تعرضون) على الله للحساب كما يعرض السلطان الجند لينظر في أمرهم ليختار منهم المصلح للتقريب والاكرام والمفسد للابعاد والتعذيب عبر بالعرض عن الحساب الذي هو جزؤه والمحسن لا يكون له غير ذلك والمسيء يناقش (لا تخفى منكم) أي في ذلك اليوم على أحد بوجه من الوجوه وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية لان التأنيث مجازي والباقون بالتاء وهو ظاهر (خافية) أي من السرائر التي كان من حقها أن تخفى في دار الدنيا فانه عالم بكل شيء من أعمالكم ونظيره قوله تعالى لا يخفى على الله منهم شيء قال الرازي والعرض للمبالغة في التهديد يعني تعرضون على من لا تخفى عليه خافية قال القرطبي هذا هو العرض على الله تعالى ودليله وعرضوا على ربك صفا وليس ذلك عرضا ليعلم ما لم يكن عالما به بل ذلك العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة وتقرير الاعمال عليهم للمجازاة قال صلى الله عليه وسلم يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الايدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله قال تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه) أي الذي أثبتت فيه أعماله (فيقول) لما رأى من سعادته تبجحا به واظهارا للنعمة ربه لان الانسان مطبوع على أن يظهر ما آتاه الله تعالى من خير تكميلا للذته قيل انه تكتب سيآته في باطن صحيفته وحسناته في ظاهرها فيقرأ الباطن ويقرأ الناس الظاهر فاذا انتهى قيل له قد غفرها الله تعالى اقلب الصحيفة فحينئذ يكون قوله (هاؤم اقرؤا) أي خذوا اقرؤا (كتابيه) يقول ذلك ثقة بالاسلام وسرورا بنجاته لان اليمين عند العرب من دلائل الفرح قال الشاعر

اذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

قال ابن عباس رضي الله عنهما أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الامة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وله شعاع كشعاع الشمس قيل فأين أبو بكر قال هيهات زفته الملائكة الى الجنة وقال ابن زيد معنى هاؤم تعالوا فتعدى بالى وقال مقاتل هلم وقال غيره خذوا ومنه الحديث

بين المخلوقات بالصغر والكبر وغيرهما كثير

(قوله فارجع البصر) قال قيل أي مع الكرة الاولى فتصير ثلاث مرات

(قوله ثم ارجع البصر كرتين) بعده

في

فى الربا الاها وهاء اى يقول كل لصاحبه خذوا هذا هو المشهور ولذلك فسرت به الآية الكريمة وقيل هى كلمة وضعت لاجابة الداعى عند الفرح والنشاط وفى الحديث انه صلى الله عليه وسلم ناداه أعرابى بصوت عال فاجابه النبى صلى الله عليه وسلم هاؤم بصولة صوته وقيل معناها اقصدوا وزعم هؤلاء انها مركبة من ها التنبيه وأموا أمر من الام وهو القصد فصيره التخفيف والاستعمال الى هاؤم وقيل الميم ضمير جماعة المذكور وزعم القتبى أن الهمزة بدل من الكاف قال ابن عادل فان عنى أنها تحل محلها فصحيح وان عنى البدل الصناعى فليس بصحيح *(تنبيه)* كتابيه منصوب بهاؤم عند الكوفيين وعند البصريين باقرؤا لانه أقرب العاملين والاصل كتابى فادخل الهاء لتبين صحة الياء والهاء فى كتابيه وحسابيه وسلطانيه وماليه للسكت وكان حقها أن تحذف وصلا وتثبت وقفا وانما أجرى الوصل مجرى الوقف أو وصل بنية الوقف فى كتابيه وحسابيه اتفاقا فاثبت الهاء وكذا فى ماليه وسلطانيه وماهيه فى القارعة عند القراء كلهم الا حمزة فانه حذف الهاء من هذه الكلم الثلاثة وصلا وأثبتها وقفا لانها فى الوقف يحتاج اليها لتحصين حركة الموقوف عليه وفى الوصل مستغنى عنها (فان قيل) فلم يفعل ذلك فى كتابيه وحسابيه (أجيب) بانه جمع بين اللغتين (انى ظننت) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى أيقنت وعلمت وقيل ظننت بان يؤاخذنى الله بسيآتى فقد تفضل على بعفوه ولم يؤاخذنى بها وقال الضحاك كل ظن من المؤمن فى القرآن فهو يقين ومن الكافر فهو شك وقال مجاهد رضى الله عنه ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك وقال الحسن رضى الله عنه فى هذه الآية ان المؤمن أحسن الظن بربه فاحسن العمل وان المنافق أساء بربه الظن فاساء العمل (أنى ملاق) أى ثابت لى ثباتا لا ينفك أنى ألقى (حسابيه) أى فى الآخرة ولم ينكر البعث يعنى انه ما نجا الا بخوفه من يوم الحساب لانه تيقن ان الله تعالى يحاسبه فعمل للآخرة فحقق الله تعالى رجاءه وأمن خوفه فعلم الآن انه لا يناقش الحساب وانما حسابه بالعرض وهو الحساب اليسير فضلا من الله تعالى ونعمة (فهو فى عيشة) أى حالة من العيش وقوله تعالى (راضية) فيه ثلاثة أوجه أحدها انه على النسب أى ذات رضا نحو لابن وتامر لصاحب اللبن والتمر أى ثابت لها الرضا ودائم لها لانها فى غاية الحسن والكمال والعرب لا تعبر عن أكبر السعادات باكثر من العيشة الراضية بمعنى ان أهلها راضون بها والمعتبر فى كمال اللذة الرضا الثانى انه على اظهار جعل العيشة راضية لمحلها وحصولها فى مستحقها وانه لو كان للعيشة عقل لرضيت لنفسها بحالتها الثالث قال أبو عبيدة والفراء ان هذا مما جاء فيه فاعل بمعنى مفعول نحو ماء دافق بمعنى مدفوق كما جاء مفعول بمعنى فاعل كما فى قوله تعالى حجابا مستورا أى ساترا وقال صلى الله عليه وسلم انهم يعيشون فلا يموتون أبدا ويصحون فلا يمرضون ابدا وينعمون فلا يرون باسا أبدا ويشبون فلا يهرمون ابدا (فى جنة) أى بساتين جامعة لجميع ما يرادمنها (عالية) أى مرتفعة فى المكان والمكانة والابنية والدرجات والاشجار وكل اعتبار وقوله تعالى (قطوفها) جمع كثرة لقطف بالكسر وهو فعل بمعنى مفعول كالذبح وهو ما يجتنيه الجانى من الثمار وأما القطف بالفتح فالمصدر والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف (دانية) أى قريبة المأخذ سهلة التناول جدا للراكب والقائم والقاعد والمضطجع كل ذلك على حد سواء انما من غير انقطاع

والمشهور ان المراد بهاء التنبيه التنبيه السكت بدليل قوله ينقلب اليك البصر خاسئا أى ذليلا وهو حسير أى كليل وهذان الوصفان لا يثبتان بنظرتين ولا

لا كلفة على أحد فى تناوله شيأ من ذلك وقوله تعالى (كلوا واشربوا) على اضمار القول أى
يقال لهم ذلك وجمع الضمير للمعنى لان قوله تعالى فاما من أوتى كتابه يتضمن معنى الجمع وهذا
أمر امتنان لا أمر تكليف (هنيئا) أى أكلا طيبا لذيذا شهيا مع البعد عن كل أذى وسلامة
العاقبة بكل اعتبار ولا فضلة هنالك من بول ولا غائط ولا بصاق ولا مخاط ولا قرف ولا وهن ولا
صداع ولا ثقل والباء فى قوله تعالى (بما أسلفتم) سببية وما مصدرية أو اسمية أى بما قدمتم
من الاعمال الصالحة (فى الايام الخالية) أى الماضية فى الدنيا التى انقضت وذهبت واسترحتم
من تعبها وعن مجاهد رضى الله عنه أيام الصيام أى كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الاكل
والشرب لوجه الله تعالى وروى يقول الله تعالى يا أوليائى طالما نظرت اليكم فى الدنيا وقد
قلصت شفاهكم عن الاشربة وغارت اعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم فى نعيمكم وكلوا
واشربوا هنيأ بما اسلفتم فى الايام الخالية * ولما كانت العادة جارية بان اهل العرض
ينقسمون الى مقبول ومردود وذكر سبحانه المقبول باداءته تشويقا الى حاله وتغبيطا بعاقبته
وحسن حاله اتبعه المردود تنفيرا عن اعماله بما ذكر من قبائح احواله فقال تعالى (واما من
اوتى كتابه) اى صحيفة حسابه (بشماله فيقول) اى لما يرى من سوء عاقبته التى كشف له عنها
الغطاء حتى لم يشك فيها لما رأى من قبائحه التى قدمها (ياليتنى) تمنيا للمحال (لم اوت) اى من
اى مؤت ما (كتابيه) اى هذا الذى ذكرنى خبائث اعمالى وعرفنى بجزاءها (ولم) اى ويا ليتنى لم
(ادر ما) حقيقة (حسابيه) من ذكر العمل وذكر جزائه بل استمريت جاهلا لذلك كما كنت فى
الدنيا ثم تمنى الموت ويقول (ياليتها) أى الموتة الاولى وان لم تكن مذكورة لانها لظهورها
كانت كالمذكورة (كانت القاضية) اى القاطعة لحياتى بان لا ابعث بعدها ولم الق ما وصلت
اليه قال قتادة رضى الله عنه يتمنى الموت ولم يكن فى الدنيا عنده شئ اكره من الموت وشر من
الموت ما يطلب منه الموت قال الشاعر

وشر من الموت الذى ان لقيته * تمنيت منه الموت والموت اعظم

والمعنى ياليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت على وقوله (ما اغنى عنى ماليه) يجوز ان
يكون نفيا تاسفا على فوات ما كان يرجو من نفعه والمفعول على هذا التقدير محذوف للتعميم
ويجوز ان يكون استفهام توبيخ لنفسه حيث سولت له ما ارله كل سوء وكل محال اى اى
شئ اغنى ما كان لى من اليسار الذى منعت منه حق الفقراء وتعظمت به على عباد الله تعالى
(هلك عنى سلطانيه) اى ملكى وتسلطى على الناس وبقيت فقيرا ذليلا وعن ابن عباس
رضى الله عنهما ان هذه الآية نزلت فى الاسود بن عبد الاشد وعن فناخسرة الملقب بالعضد انه
لما قال

عضد الدولة وابن ركنها * ملك الاملاك غلاب القدر

لم يفلح بعده وجن فكان لا ينطق لسانه الا بهذه الآية وقال ابن عباس رضى الله عنهما ضلت
عنى حجتى ومعناه بطلت حجتى التى كنت احتج بها فى الدنيا وذكر الضحاك ان الآية الاولى
فى اخى الاسود عبد الله بن عبد الاسد المخزومى * ولما كان كانه قيل هذا ما قال فما يقال له
اجيب بانه يقال للزبانية على رؤس الاشهاد (خذوه) اى ايها الزبانية الذين كان يستهزئ بهم
عند سماع ذكرهم (فغلوه) اى اجمعوا ايديه الى عنقه ورجليه الى وراء قفاه الى ناصيته (ثم الجحيم)

اى النار

بثلاث فالمعنى كرات
كثيرة كنظيره فى قولهم
لبيك وسعديك وحنانيك
ودواليك وهذاذيك (قوله
أأمنتم من فى السماء أن
يخسف بكم الارض)

قوله فناخسرة كذا بالنسخ
والكشاف وكتب بهامشه
ضبط بالقلم بفتح الفاء
وتشديد النون وضم الخاء
وسكون السين وفتح الراء
وبعدها هاء وفى نسخة بواو
بدلها والتلاعب بالالفاظ
الاعجمية معروف قال
المتنبى فما يسمى كفناخسر
مسمى * ولا يكنى كفناخسر
كانى اه كتبه
المصحح

أى النار العظمى التى تجحم على من يريد دفاعها و يحجم عنها من رآها الا انها فى غاية الحر والتوقد والتغيظ والتشدد (صلوه) أى بالغواقى تصليته اياها وكرروها بغمسه فى النار كالشاة المصلية مرة بعد أخرى لانه كان يتعاظم على الناس فناسب أن يصلى أعظم النيران وعبر أيضا باداة التراخى اعلو رتبة مدخولها فقال مؤذنا بعدم الخلاص وتقديم المفعول يفيد الاختصاص عند بعضهم ولذلك قال الزمخشرى ثم لا تصلوه الا الجحيم قال أبو حيان وليس ما قاله مذهبا لسيبويه ولا لحذاق النحاة اه لكن كلام النحاة لا يأبى ما قاله (ثم فى سلسلة) أى عظيمة جدا وقوله تعالى (ذرعها سبعون ذراعا) يحتمل أن يكون هذا العدد حقيقة وعلى هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما سبعون ذراعا بذراع الملك فتدخل فى دبره وتخرج من منخره وقيل تدخل من فيه وتخرج من دبره وقال نوف البكالى سبعون ذراعا كل ذراع سبعون باعا كل باع أبعد مما بينك و بين مكة وكان فى رحبة الكوفة وقال سفيان كل ذراع سبعون ذراعا وقال الحسن رضى الله عنه الله أعلم أى ذراع هو و يحتمل أن يكون مبالغة كما قال تعالى ان تستغفر لهم سبعين مرة يريد مرات كثيرة لانها اذا طالت كان الارهاق أشد والذى يدل على هذا ما رواه الترمذى وقال اسناده حسن عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن رصاصة مثل هذه وأشار الى مثل الجمجمة أرسلت من السماء الى الارض وهى مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الارض قبل الليل ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها وقعرها وعن كعب رضى الله عنه أنه قال لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها أجارنا الله تعالى ومحبينا منها وجميع المسلمين فأشار سبحانه الى ضيقها على ما تحيط به من بدنه بتعبيره بالسلك فقال تعالى (فاسلكوه) أى أدخلوه بحيث يكون كأنه السلك أى الحبل الذى يدخل فى ثقب الخرزة بعسر لضيق ذلك الثقب اما باحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بان تلف قال الزمخشرى والمعنى فى تقديم السلسلة على السلك مثله فى تقديم الجحيم على التصلية أى لا تسلكوه الا فى هذه السلسلة كأنها أفظع من سائر مواضع الارهاق فى الجحيم ومعنى ثم الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم وما بينها و بين السلك فى السلسلة لا على تراخى المدة اه

* ولما ذكر سبحانه على الاجمال عقابه أتبعه أسبابه فقال تعالى (انه كان) أى جبلة وطبعا وان أظهر شيأ يلبس به على الضعفاء و يدلس على الاغبياء (لا يؤمن) أى الآن ولا فى مستقبل الزمان (بالله) أى الملك الاعلى الذى يعلم السر وأخفى (العظيم) أى الكامل العظم وهذا تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ كأنه قيل ما له يعذب هذا العذاب الشديد أجيب بذلك وفى قوله تعالى (ولا يحض) أى يحث (على) بذل (طعام المسكين) دليلان قويان على عظم الجرم فى حرمان المسكين أحدهما عطفه على الكفر وجعله قرينة له والثانى ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل وما أحسن قول القائل

اذا نزل الاضياف كان عذورا * على الحى حتى تستقل مراجله

يريد حضهم على القرى واستعجالهم وعن أبى الدرداء رضى الله عنه انه كان يحض امرأته على تكثير المرق لاجل المساكين وكان يقول خلعنا نصف السلسلة بالايمان أفلا نخلع نصفها الثانى بالطعام وقيل هو منع الكفار وقولهم أنطعم من لو يشاء الله أطعمه والمعنى على بذل طعام

ليس بتكرار مع قوله أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا لان الاول فى تخويفهم بخسف الارض بهم والثانى فى تخويفهم بالحصب من السماء

المسكين ولما وصفه سبحانه بأقبح العقائد وأشنع الرذائل تسبب عنه قوله تعالى (فليس له اليوم ههنا) أى فى مجمع القيامة كله (حميم) أى صديق خالص يحميه من العذاب لانهم كانوا له أعداء كما أنه كان لا يرق على الضعفاء امثالهم فيمن الاقلال من حطام الاموال (ولا طعام الا من غسلين) أى غسالة أهل النار وصديدهم وقيحهم فعلين من الغسل (لا يأكله الا الخاطئون) أى أصحاب الخطايا من خطئ الرجل اذا تعمد الذنب وهم المشركون لا من الخطا المضاد للصواب وهذا الطعام يغسل ما فى بطونهم من الاعيان والمعانى التى بها قوام صاحبها وهى بمنزلة ما كانوا يشحون من أموالهم التى أبطنوها وادخروها فى خزائنهم واستأثروا بها على الضعفاء (فلا أقسم) أى لا يقع منى اقسام (بما تبصرون) من المخلوقات (وما لا تبصرون) منها أى بكل الموجودات واجبها وجائزها معقولها ومحسوسها لانها لا تخرج عن قسمين مبصر وغير مبصر وقيل الدنيا والآخرة والاجسام والارواح والانس والجن والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة لان الامر أوضح من أن يحتاج الى اقسام وان كنت أقسم فى غير هذا الموضع بما شئت ولو قيل بهذا فى الواقعة لكان حسنا وقيل لا زائدة وجرى على ذلك الجلال المحلى (انه) أى القرآن (لقول) أى تلاوة (رسول) أى أنا أرسلته به وعنى أخذه وليس فيه شئ من تلقاء نفسه انما هو كله رسالة واضحة جدا أنا شاهد بها لما له من الاعجاز الذى يشهد أنه كلامى (كريم) أى على الله تعالى فهو فى غاية الكرم الذى هو البعد من مساوى الاخلاق باظهار معاليها الشرف النفس وشرف الآبا وهو محمد صلى الله عليه وسلم وكرم الشئ اجتماع الكمالات فيه اللائقة به وقيل هو جبريل عليه السلام قاله الحسن والكلبى رضى الله عنهما لقوله تعالى رسول كريم ذى قوة واستدل للاول بقوله تعالى (وما هو بقول شاعر) أى يأتى بكلام مقفى موزون بقصد الوزن قال مقاتل رضى الله عنه سبب نزول هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال ان محمدا صلى الله عليه وسلم ساحر وقال أبو جهل شاعر وقال عقبة كاهن فرد الله تعالى عليهم بذلك (فان قيل) كيف يكون كلام الله تعالى ولجبريل عليه السلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم (أجيب) بان الاضافة يكفى فيها أدنى ملابسة فالله سبحانه وتعالى أظهره فى اللوح المحفوظ وجبريل عليه السلام بلغه للنبى صلى الله عليه وسلم وهو بلغه للامة (قليلا ما تؤمنون) منصوب نعتا لمصدر أو زمان محذوف أى ايمانا قليلا أو زمانا قليلا والناصب يؤمنون وما مزيدة للتأكيد وقال ابن عطية ونصب قليلا بفعل مضمر يدل عليه يؤمنون وما يحتمل أن تكون نافية فينتفى ايمانهم البتة ويحتمل أن تكون مصدرية ويتصف بالقلة فهو الايمان اللغوى لا الشرعى لانهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغنى عنهم شيأ وهو اخلاصهم بالوحدانية عند الاضطرار وافرادهم الخالق بالخلق والربوبية (ولا بقول كاهن) وهو المنجم الذى يخبر عن الاشياء وأغلبها ليس له صحة وقوله تعالى (قليلا ما تذكرون) يأتى فيه ما تقدم فى قليلا ما تؤمنون وقال البغوى أراد بالقليل نفى اسلامهم أصلا كقولك لمن لا يزورك قلما تأتينا وأنت تريد ما تأتينا أصلا وقرأ قليلا ما يؤمنون قليلا ما يذكرون ابن كثير وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالياء التحتية فيهما والباقون بالفوقية وخفف الذال حمزة والكسائى وحفص وشددها الباقون وقوله تعالى (تنزيل) خبر لمبتدا مضمر أى هو تنزيل على وجه التنجيم قال البقاعى وأشار الى الرسالة الى جميع الخلق من أهل السموات والارض

وقدم الاول لان الارض التى جعلها الله مقرا لهم وعبدوا فيها غيره أقرب اليهم من السماء البعيدة عنهم (ان قلت) كيف قال من فى السماء مع انه تعالى

بقوله تعالى (من رب العالمين) أي موجدهم ومدبرهم بالاحسان اليهم باعلمهم كل منهم من هذا الذكر الذى رباهم به ورتب سبحانه نظمه على وجه سهل على كل منهم يكفى فى هدايته اه وهذا يدل على انه صلى الله عليه وسلم أرسل للملائكة وهو الذى ينبغى وان لم يكونوا مكلفين تشريفا لهم زيادة فى شرفه برسالته صلى الله عليه وسلم اليهم (ولو تقول) أى كلف نفسه أن يقول مرة من الدهر كذبا (علينا) أى على مالنا من العظمة (بعض الاقاويل) أى التى لم نقلها أو قلناها ولم نأذن له فيها قال الزمخشرى التقول افتعال القول لان فيه تكلفا من المفتعل وسمى الاقوال المتقولة أقاويل تصغيرا لها وتحقيرا كقولك الاعاجيب والاضاحيك كانها جمع افعولة من القول والمعنى لو نسب الينا قولا لم نقله أو لم نأذن له فى قوله (لأخذنا) اى لنلنا (منه) أى عقابا (باليمين) أى بالقوة والقدرة * (تنبيه) * الباء على أصلها غير مزيدة والمعنى لاخذناه بقوتنا فالباء حالية والحال من الفاعل وتكون منه فى حكم الزائدة واليمين هنا مجاز عن القوة والغلبة فان قوة كل شئ فى ميامنه وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم ومنه قول الشماخ

اذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

وقال أبو جعفر الطبرى هذا الكلام خرج مخرج الاذلال على عادة الناس فى الاخذ بيد من يعاقب ويجوز أن تكون الباء مزيدة والمعنى لاخذنا منه يمينه والمراد باليمين الجارحة كما يفعل بالمقتول صبرا يؤخذ بيمينه ويضرب بالسيف فى جيده مواجهة وهو أشد عليه وقال الحسن رضى الله عنه لقطعنا يده اليمنى وقال الزمخشرى المعنى ولو ادعى علينا شيأ لم نقله لقتلناه صبرا كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول وهو أن يؤخذ بيده فتضرب رقبته وخص اليمين عن اليسار لان القتال اذا أراد أن يوقع الضرب فى قفاه أخذه بيساره واذا أراد أن يوقعه فى جيده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره الى السيف أخذ بيمينه اه وقال نفطويه المعنى لقبضنا بيمينه عن التصرف وقال السدى ومقاتل رضى الله عنهما المعنى انتقمنا منه بالحق واليمين على هذا بمعنى الحق كقوله تعالى انكم كنتم تأتوننا عن اليمين أى من قبل الحق (ثم لقطعنا) أى بما لنا من العظمة قطعا يتلاشى عنده كل قطع (منه الوتين) أى نياط القلب وهو يتصل به من الرأس اذا انقطع مات صاحبه قال أبو زيد وجمعه الوتن وثلاثة أوتنة والموتون الذى قطع وتينه وقال الكلبى هو عرق بين العلباء والحلقوم وهما علباوان بينهما العرق والعلباء عصب العنق وقيل عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر وقال مجاهد رضى الله عنه هو حبل القلب الذى فى الظهر وهو النخاع فاذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه وقال محمد بن كعب رضى الله عنه انه القلب ومراقه وما يليه وقال عكرمة رضى الله عنه ان الوتين اذا قطع لا ان جاع عرف ولا ان شبع عرف وقيل الوتين من مجمع الوركين الى مجمع الصدر بين الترقوتين ثم تنقسم منه سائر العروق الى سائر الجسد ولا يمكن فى العادة الحياة بعد قطعه وقال ابن قتيبة لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد أنه لو كذب لامتناه فكان كمن قطع وتينه ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم مازالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان انقطاع أبهرى والابهر عرق متصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه فكانه قال هذا أوان يقتلنى السم وحينئذ صرت كمن انقطع أبهره (فما منكم) أى أيها الناس وأغرق فى النفى

ليس فيها ولا فى غيرها بل هو تعالى منزه عن كل مكان (قلت) المعنى من ملكوته فى السماء التى هى مسكن الملائكة ومحل عرشه وكرسيه واللوح

فقال (من أحد عنه) أى القتل (حاجزين) أى لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه أو الرسول صلى الله عليه وسلم اى لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه *(تنبيه)* من احد اسم ما ومن زائدة لتأكيد النفي ومنكم حال من أحد وعنه حاجزين خبر ما وجمع لان احدا في سياق النفي بمعنى الجمع وضمير عنه للقتل أو النبي كما مر (وانه) أى القرآن (لتذكرة للمتقين) أى لانهم المنتفعون به لاقبالهم عليه اقبال مستفيد (وانا) أى بما لنا من العظمة (لنعلم) أى علما عظيما محيطا (أن منكم) اى أيها الناس (مكذبين) بالقرآن ومصدقين فانزلنا الكتب وأرسلنا الرسل لنظهر منكم الى عالم الشهادة ما كنا نعلم في الازل غيبا من تكذيب وتصديق فتستحقون بذلك الثواب والعقاب فلذلك وجب في الحكمة أن نعيد الخلق الى ما كانوا عليه من أجسامهم قبل الموت لنحكم بينهم فنجازي كلا بما يليق به اظهار العدل (وانه) أى القرآن (لحسرة) أى ندامة (على الكافرين) أى اذا رأوا ثواب المصدقين وعقاب المكذبين به (وانه) أى القرآن أو الجزاء يوم الجزاء (لحق اليقين) ى الامر الثابت الذى لا يقبل الشك فهو يقين مؤكد بالحق من اضافة الصفة الى الموصوف وهو فوق علم اليقين وقال ابن عباس رضى الله عنهما انما هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين (فسبح) اى أوقع التنزيه الكامل عن كل شائبة نقص (باسم) اى بسبب علمك بصفات (ربك) اى الموجد والمربي لك والمحسن اليك بانواع الاحسان (العظيم) اى الذى ملأت الاقطار كلها عظمته وزادت على ذلك بما شاء سبحانه مما لا تسعه العقول وقال ابن عباس رضى الله عنهما اى فصل لربك العظيم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حسابا يسيرا حديث موضوع

سورة المعارج مكية

وهى أربع وأربعون آية ومائتان وست عشرة كلمة وألف وأحد وستون حرفا

(بسم الله) اى الذى تنقطع الاعناق والآمال دون عليائه (الرحمن) الذى لا مطمع لاحد في حصر اوصافه (الرحيم) الذى اصطفى من عباده من وفقه فكان من أوليائه (سأل سائل) اى دعا داع (بعذاب واقع) فضمن سأل معنى دعا فلذلك عدى تعديته وقيل الباء بمعنى عن كقوله تعالى فاسأل به خبيرا اى عنه اى سأل سائل عن عذاب واقع والاول اولى لان التجوز في الفعل اولى منه في الحرف لقوته واختلف في هذا الداعى فقال ابن عباس رضى الله عنهما هو النضر بن الحرث حيث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزل سؤله وقتل يوم بدر صبرا هو وعقبة بن أبي معيط ولم يقتل صبرا غيرهما وقيل هو الحرث بن النعمان وذلك انه لما بلغه قول النبي صلى الله عليه وسلم في على من كنت مولاه فعلى مولاه ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالابطح ثم قال يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله فقبلناه منك وأن نصلى خمسا ونزكي اموالنا فقبلناه منك وان نصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك وان نحج فقبلناه منك ثم لم ترض حتى فضلت ابن عمك علينا أفهذا شيء منك أم من الله تعالى فقال النبي صلى الله عليه وسلم والذى لا اله الا هو ما هو الا من الله فولى الحرث وهو يقول اللهم ان كان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا

المحفوظ وفيها تنزل أقضيته وكتبه

(سورة ن)

(قوله ن والقلم) يأتى فيهما ما مر فى سورة ص لكن جواب القسم هنا مذكور

بعذاب أليم فوالله ماوصل الى ناقته حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله فنزلت وقال الربيع هو أبو جهل وقيل انه قول جماعة من كفار قريش وقيل هو نوح عليه السلام سأل العذاب على الكافرين وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم استعجل بعذاب الكافرين ويدل عليه قوله تعالى بعد ذلك فاصبر صبرا جميلا أي لا تستعجل فانه قريب وقرأ نافع وابن عامر بغير همز بعد السين والباقون بهمزة مفتوحة بعد السين *(تنبيه)* ما تقدم من الوجهين في كون سأل ضمن أو أن الباء بمعنى عن هو على القراءة بالهمز وأما على عدمه ففيه وجهان أحدهما أنه لغة في السؤال يقال سال يسال كخاف يخاف وعين الكلمة واو قال الزمخشري وهي من لغة قريش والثاني انه من السيل ومعناه اندفع عليهم واد بعذاب وقيل سال واد من أودية جهنم وقوله تعالى (للكافرين) فيه أوجه أحدها أنه يتعلق بسأل مضمنا معنى دعا كما مر أي دعا لهم بعذاب واقع الثاني انه يتعلق بواقع واللام للعلة أي نازل لاجلهم الثالث أن يتعلق بمحذوف صفة ثانية لعذاب أي كائن للكافرين الرابع أن يكون جوابا للسائل فيكون خبر مبتدا مضمر أي هو للكافرين الخامس أن تكون اللام بمعنى على أي واقع على الكافرين (ليس له) أي بوجه من الوجوه ولا حيلة من الحيل (دافع) يرده وقوله تعالى (من الله) أي الملك الاعلى الذي لا كفوء له يجوز أن يتعلق بدافع بمعنى ليس له دافع من جهته اذا جاء وقته لتعلق ارادته به وأن يتعلق بواقع وبه بدأ الزمخشري أي واقع من عنده (ذي المعارج) أي المصاعد وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح أو يترقى فيها المؤمنون في سلوكهم أو في دار ثوابهم أو مراتب الملائكة او السموات قال ابن عباس رضي الله عنهما أي ذي السموات سماها معارج لانها معارج الملائكة لان الملائكة يعرجون فيها فوصف نفسه بذلك أو ذي العلو والدرجات الفواضل والنعم لانها تصل الى الناس على مراتب مختلفة قاله ابن عباس وقتادة رضي الله عنهم فالمعارج مراتب انعامه على الخلق وقيل ذي العظمة والعلا وقيل المعارج الغرف أي انه ذو الغرف أي جعل لاوليائه الجنة غرفا وقرأ (تعرج الملائكة) الكسائي بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية وأدغم جيم المعارج في تاء تعرج هنا السوسي واستضعفه بعضهم ذلك من حيث ان مخرج الجيم بعيد من مخرج التاء وأجيب عن ذلك بان الادغام يكون لمجرد الصفات وان لم يتقاربا في المخرج والجيم تشارك التاء في الاستفال والانفتاح والشدة والجملة من تعرج مستأنفة وقوله تعالى (والروح) من عطف الخاص على العام ان أريد بالروح جبريل عليه السلام كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك أو ملك آخر من جنسهم عظيم الخلقة وقال أبو صالح انه خلق من خلق الله كهيئة الناس وليس بالناس وقال قبيصة بن ذؤيب انه روح الميت حين يقبض (اليه) أي مهبط أمره من السماء وقيل هو كقول ابراهيم عليه السلام اني ذاهب الى ربي أي الى الموضع الذي أمرني به وقيل الى عرشه وعلق بالعروج أو بواقع قوله تعالى (في يوم) أي من ايامكم وبين عظمه بقوله تعالى (كان) أي كونا هو في غاية الثبات (مقداره) أي لو كان الصاعد فيه آدميا (خمسين ألف سنة) أي من سني الدنيا وذلك أن تصعد من منتهى أمر الله تعالى من أسفل الارض السابعة روى عن مجاهد رضي الله عنه أن مقدار هذا خمسين ألف سنة وقال محمد بن

وهو الجملة المنفية وفي جوابه خلاف يعرف مما مر ثم (قوله ويدعون الى السجود) اى توبيخا وتعنيفا لهم على تركه في الدنيا لا تكليفا وتعبدا

اسحق لو سار بنو آدم من الدنيا الى موضع العرش ساروا خمسين ألف سنة وقال عكرمة وقتادة رضي الله عنهما هو يوم القيامة وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا ليس يعني به أن مقدار طوله هكذا دون غيره لان يوم القيامة ليس له أول وليس له آخر لانه يوم ممدود ولو كان له آخر لكان منقطعا وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه انه قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فما أطول هذا اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا وقيل معناه لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله تعالى لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة قال عطاء رضي الله عنه ويفرغ الله تعالى في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا وقيل فيه خمسون موطنا على الكافر كل موطن ألف سنة وما وزد ذلك على المؤمن الا كما بين الظهر والعصر وروى عن الكلبي انه قال يقول الله تعالى لو وليت حساب ذلك الملائكة والانس والجن وطوقتهم محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة وأنا أفرغ منه في ساعة من النهار وقال يمان هو يوم القيامة فيه خمسون موطنا كل موطن ألف سنة وفيه تقديم وتأخير كأنه قال ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح اليه (فان قيل) كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة السجدة في يوم كان مقداره ألف سنة (أجيب) بأنه يحتمل أن من أسفل العالم الى أعلى العرش خمسين ألف سنة ومن أعلى سماء الدنيا الى الارض ألف سنة لان عرض كل سماء خمسمائة سنة وما بين أسفل السماء الى قرار الارض خمسمائة فقوله في يوم من أيام الدنيا وهو مقدار ألف سنة لو صعدوا فيه الى سماء الدنيا ومقدار خمسين ألف سنة لو صعدوا الى أعلى العرش وقوله تعالى (فاصبر صبرا جميلا) متعلق كما قال الرازي بسأل سائل لان استعجالهم بالعذاب كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصبر والمعنى جاء العذاب اقرب وقوعه فاصبر على أذى قومك والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله تعالى وقيل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى من هو وقال ابن زيد والكلبي رضي الله عنهم هذه الآية منسوخة بالامر بالقتال (انهم) أي الكفار (يرونه) أي ذلك اليوم الطويل أو عذابه (بعيدا) أي زمن وقوعه لانهم يرونه غير ممكن أو يفعلون أفعال من يستبعده (ونراه) أي لما لنا من العظمة التي قضت بوجوده وهو علينا هين (قريبا) سواء أريد بذلك قرب الزمان أو قرب المكان فهو هين على قدرتنا وهو آت لا محالة وكل آت قريب والقريب والبعيد عندنا على حد سواء وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يوم تكون السماء) متعلق بمحذوف أي يقع فيه من الاهوال (كالمهل) أي كدردي الزيت وعن ابن مسعود رضي الله عنه كالفضة المذابة في تلونها (وتكون الجبال) أي التي هي أشد الارض وأثقل ما فيها (كالعهن) أي كالصوف في الخفة والطيران بالريح وقيل أول ما تتفرق الجبال تصير رملا ثم عهنا منفوشا ثم هباء منثورا منبثا (ولا يسأل) أي من شدة الاهوال (حميم حميما) أي قريب في غاية القرب والصداقة قريبا مثله عن شيء من الاشياء لفرط الشواغل ولانه قد كشفت

اذ لا تكليف في الآخرة (قوله وقد كانوا يدعون الى السجود) اي الصلاة وهم سالمون اي صحيحون (ان قلت) العصمة ليست شرطا في وجوب الصلاة (قلت)

لهم انه لاتغني نفس عن نفس شيأ وانه قد تقطعت الاسباب وتلاشت الانساب وعلم انه لاعز الا بالتقوى (يبصرونهم) أي يبصرهم بهم مبصر فلا يخفى أحد على أحد وان بعد مكانه (يود المجرم) أي يتمنى الكافر أو هذا النوع سواء كان كافرا ام مسلما عاصيا علم أنه يعذب بعصيانه (لو) بمعنى أن (يفتدى) أي يفدى نفسه (من عذاب يومئذ) أي يوم اذ كانت هذه المخاوف وقرأ نافع والكسائى بفتح الميم والباقون بكسرها (ببنيه) أي باقرب الناس اليه وأعلقهم بقلبه لشدة ما يرى * ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد وأعز من يلزمه نصره والذب عنه أتبعه ما يليه في الرتبة والمودة بقوله تعالى (وصاحبته) أي زوجه التي يلزمه الذب عنها الاسيما عند العرب من أقبح العار ولكونه دائما معها * ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة أتبعها الشقيق الذى هو عليه شفيق بقوله تعالى (وأخيه) أي الذى له به النصرة على من يريد قال الشاعر

أخاك أخاك ان من لا أخا له * كساع الى الهيجا بغير سلاح

* ولما كان من بقي من الاقارب بعد ذلك متقاربين في الرتبة ذكر أقربهم بقوله تعالى (وفصيلته) أي عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه وقال ثعلب الفصيلة الآباء الادنون وقال أبو عبيدة رضى الله عنه الفخذ وقال مجاهد وابن زيد رضى الله عنهم عشيرته الاقربون (التى تؤويه) أي تضمه اليها عند الشدائد وتحميه لانه أقرب الناس اليها وأعزهم عليها * ولما خصص عمم بقوله تعالى (ومن فى الارض) أى من الثقلين وغيرهم سواء أكان فيهم صديق لا صبر عنه ولا بد فى كل حال منه أم لا ثم أكد ذلك بقوله تعالى (جميعا) وقوله تعالى (ثم ينجيه) أى ذلك الافتداء عطف على يفتدى وقوله تعالى (كلا) رد وردع وزجر لما يوده وقال القرطبى وانها تكون بمعنى حقا وبمعنى لا وهى هنا تحتمل الامرين فاذا كانت بمعنى حقا كان تمام الكلام ينجيه واذا كانت بمعنى لا كان تمام الكلام عليها اذ ليس من عذاب الله افتداء * ولما كان الاضمار قبل الذكر لتعظيم ذلك المضمر أشار الى أنه مستحضر فى الذهن لا يغيب قال تعالى (انها) أى النار وان لم يجر لها ذكر لدلالة لفظ عذاب عليها وقيل الضمير للقصة وقيل مبهم يفسره قوله تعالى (لظى) أى ذات اللهب الخالص المتناهى فى الحر اسم لجهنم تتلظى اى تتوقد فتأكل بسببه بعضها بعضا ان لم تجد ما تأكله وتأكل كل ما وجدته كائنا ما كان وقوله تعالى (نزاعة للشوى) جمع شواة وهى جلدة الرأس أى شديدة النزع لجلود الرؤس وقال فى القاموس اليدان والرجلان والاطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل اه وقرأ حفص بالنصب على الاختصاص والحال المؤكدة والمستقلة على ان لظى متلظية والباقون بالرفع على أنها خبر ان (تدعوا من أدبر وتولى) عن الايمان تقول الى يا مشرك الى يا فاسق ونحو هذا ثم تلتقطهم التقاط الطير للحب * ولما كانت الدنيا والآخرة ضرتين فكان الاقبال على احداهما دالا على الاعراض عن الاخرى قال تعالى دالا على ادباره بقلبه (وجمع) أى كل ما كان منسوبا الى الدنيا (فأوعى) أى جعل ما جمعه فى وعاء وكنزه حرصا وطول أمل ولم يعط حق الله تعالى منه فكان همه الاعطاء لا اعطاء ما وجب من الحق اقبالا على الدنيا واعراضا عن الآخرة وقرأ لظى وللشوى وتولى فأوعى حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح (ان الانسان) أى الجنس عبر به لما له من الانس بنفسه والرؤية لمحاسنها والنسيان لربه ولدينه (خلق هلوعا) أى جبل جبلة هو فيها بليغ الهلع وهو أفحش الجزع مع شدة الحرص

المراد الخروج الى الصلاة في جماعة مشروط بالصحة

(سورة الحاقة)

(قوله بريح صرصر) انما لم يقل صرصرة كما قال عاتية مع ان الريح مؤنثة

وقلة الصبر والشح على المال والسرعة فيما لا ينبغي وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه الحريص على ما لا يحل له وروى عنه أن تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى (اذا مسه) اى ادنى مس (الشر) اى هذا الجنس وهو ما تطاير شرره من الضرر (جزوعا) اى عظيم الجزع وهو ضد الصبر بحيث يكاد صاحبه ينقد نصفين ويتفتت (واذا مسه) كذلك (الخير) أى هذا الجنس وهو ما يلائمه فيجمعه من السعة فى المال وغيره من انواع الرزق (منوعا) اى مبالغا فى الامساك عما يلزمه من الحقوق للانهماك فى حب العاجل وقصور النظر عليه وقوفا مع المحسوس لغلبة الجمود والبلادة وهذا الوصف ضد الايمان لانه نصفان شكر وصبر (فان قيل) حاصل هذا الكلام انه نفور عن المضار طالب للراحة وهذا هو اللائق بالعقل فلم ذمه الله تعالى عليه (اجيب) بانه انما ذمه عليه لقصور نظره على الامور العاجلة والواجب عليه أن يكون شاكرا راضيا فى كل حال وقوله تعالى (الا المصلين) استثناء للموصوفين بالصفات الآتية من المطبوعين على الاحوال المذكورة قبل مضادة تلك الصفات لها من حيث انها دالة على الاستغراق فى طاعة الحق والاشفاق على الخلق والايمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وايثار العاجل على الآجل وتلك ناشئة عن الانهماك فى حب العاجل وقصور النظر عليها (الذين هم) اى بكلية ضمائرهم وظواهرهم (على صلاتهم) اى التى هى معظم دينهم وهى النافعة لهم لا لغيرهم بما افادته الاضافة والمراد الجنس الشامل لجميع الانواع الا أن معظم المقصود الفرض ولذلك عبر بالاسم الدال على الثبات فى قوله تعالى (دائمون) اى لا فتور لهم عنها ولا انفكاك لهم منها وقال عقبة بن عامر هم الذين اذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا والدائم الساكن ومنه نهى عن البول فى الماء الدائم اى الساكن وقال ابن جريج والحسن هم الذين يكثرون فعل التطوع منها (فان قيل) كيف قال تعالى على صلاتهم دائمون وقال تعالى فى موضع آخر على صلواتهم يحافظون (اجيب) بان دوامهم عليها أن لا يتركوها فى وقت ومحافظتهم عليها ترجع الى الاهتمام بحالها حتى تأتى على اكمل الوجوه من المحافظة على شرائطها والاتيان بها فى الجماعة وفى المساجد الشريفة وفى تفريغ القلب عن الوسواس والرياء والسمعة وان لا يلتفت يمينا ولا شمالا وان يكون حاضر القلب فاهما للاذكار مطلعا على حكم الصلاة متعلق القلب بدخول اوقات الصلاة * ولما ذكر تعالى زكاة الروح اتبعه زكاة عديلها فقال تعالى مبينا للرسوخ فى الوصف بالعطف بالواو (والذين فى اموالهم) التى من الله سبحانه بها عليهم (حق معلوم) اى من الزكوات وجميع النفقات الواجبة وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من ادى زكاة ماله فلا جناح عليه ان لا يتصدق (للسائل) اى الذى يسال (والمحروم) اى الذى لا يسال فيحسب غنيا فيحرم فهو يتلظى بناره فى ليله ونهاره ولا مفزع له يعدد به المالك لعلانيته وسره الا الى افاضة مدامعه بذلة وانكسار وهذا من الله تعالى حث على تفقد ارباب الضرورات ممن لا كسب له ومن افتقر بعد الغنى وقد كان للسلف الصالح فى هذا قصب السبق حكى عن زين العابدين انه لما مات وجد فى ظهره آثار سواد كانها السيور فعجبوا منها وقال بعد موته نسوة ارامل كان شخص يأتى الينا ليلا بقرب الماء على ظهره واجربة الدقيق ففقدناه واحتجنا فعلموا انه هو وان تلك السيور من ذلك وحكى عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما ان شخصا رآه ماشيا فى زمن خلافته فى الليل فتبعه فجاء الى بيت

لان الصبر صبر وصف مختص بالرجع فاشبه باب حائض وطامث وحامل بخلاف عائبة فان غير الرجع من الاسماء المؤنثة يوصف به (قوله لتنبرى القوم فيها صبرى)

نسوة

نسوة أرامل فقال أعندك من ماء والاملا لكن فاعطته جرة فاخذها وذهب فلأها على كتفه وأتى بها اليهن والحكايات عنهم فى هذا كثيرة (والذين يصدقون) اى يوقعون التصديق لمن يخبرهم ويجددونه كل وقت (بيوم الدين) اى الجزاء الذى مامثله يوم وهو يوم القيامة الذى يقع الحساب فيه على النقير والقطمير والتصديق به حق التصديق الاستعداد له بالاعمال الصالحة فالذين يعملون لذلك اليوم هم العمال وأما المصدقون بمجرد الاقوال فلهم الوبال وان أنفقوا أمثال الجبال (والذين هم) اى بجميع ضمائرهم وظواهرهم (من عذاب ربهم) اى المحسن اليهم لامن عذاب غيره فان المحسن أولى بان يخشى ولو من قطع احسانه (مشفقون) اى خائفون فى هذه الدار خوفا عظيما هو فى غاية الثبات من أن يعذبهم فى الآخرة أو فى الدنيا أو فيهما فهم لذلك لا يفعلون الا مايرضيه سبحانه (ان عذاب ربهم) اى الذى هم مغمورون باحسانه وهم عارفون بانه قادر على الانتقام ولو بقطع الاحسان (غير مأمون) اى لا ينبغى لاحد أن يأمنه بل يجوز أن يحل به وان بالغ فى الطاعة لان الملك مالك وهو تام الملك له أن يفعل ماشاء ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن موجباته نهاية الابعاد ولم يزل متحرجا بين الخوف والرجاء (والذين هم) اى بواطنهم الغالبة على ظواهرهم (لفروجهم) اى سواء أكانوا ذكورا أم اناثا (حافظون) اى حفظا ثابتا دائما عن كل مانهى الله تعالى عنه (الا على أزواجهم) اى من الحرائر بعقد النكاح وقدمهن لشرفهن وشرف الولد بهن ثم أتبعه قوله تعالى (أو ماملكت أيمانهم) اى من السرارى اللاتى هى محل الحرث والنسل واللاتى هن أقل عقلا من الرجال ولهذا عبر بما التى هى فى الاغلب لغير العقلاء وفى ذلك اشارة الى اتساع النطاق فى احتمالهن (فانهم) اى بسبب اقبالهم بالفروج عليهن وازالة الحجاب من أجل ذلك (غير ملومين) اى فى الاستمتاع بهن من لائم ما كائنا من كان وعليه البناء للمفعول فهم يصحبونهن للتعفف وصون النفس وابتغاء الولد للتعاون على طاعة الله تعالى واكتفى فى مدحهم بنفى اللوم لاقباله على تحصيل ماله من المرام (فمن ابتغى) اى طلب وعبر بصيغة الافتعال لان ذلك لا يقع الاعن قبال عظيم من النفس واجتهاد فى الطلب وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وراء ذلك) اى شيأ من هذا خارجا عن هذا الامر الذى أحله الله تعالى له والذى هو أعلى المراتب فى أمر النكاح وقضاء اللذة وأحسنها وأجلها (فاولئك) اى الذين هم فى الحضيض من الدناءة وغاية البعد عن مواطن الرحمة (هم) اى بضمائرهم وظواهرهم (العادون) اى المختصون بالخروج عن الحد المأذون فيه (والذين هم لاماناتهم) اى من كل ماائتمنهم الله تعالى عليه من حقه وحق غيره وقرأ ابن كثير بغير ألف بعد النون على التوحيد والباقون بالالف على الجمع (وعهدهم) اى ما كان من الامانات بربط وتوثيق (راعون) اى حافظون لها معترفون بها على وجه نافع غير ضار (والذين هم) اى بغاية مايكون من توجه القلوب (بشهاداتهم) التى شهدوا بها أو يستشهدون بها بطلب أو غيره وتقديم المعمول اشارة الى أنهم فى فرط قيامهم ومراعاتهم لها كأنهم لاشاغل لهم سواها (قائمون) اى يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام والحسن أداء من هو متهيئ لها واقف فى انتظارها وقرأ حفص بالف بعد الدال على الجمع اعتبارا بتعدد الانواع والباقون بغير ألف

فيها اى فى تلك الليالى
والايام متعلق بصرعى
والرؤية علمية
لا بصرية لانه صلى الله عليه
وسلم ما ابصرهم صرعى
فيها ولا يراهم فصار المعنى

على التوحيد اذ المراد الجنس قال الواحدى والافراد أولى لانه مصدر فيفرد كما تفرد المصادر وان أضيف الى الجمع كصوت الحمير قال أكثر المفسرين يقومون بالشهادة على من كانت عليه من قريب وبعيد يقومون بها عند الحكام ولا يكتمونها وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بشهادتهم أن الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله (والذين هم على صلاتهم) اى من الفرض والنفل (يحافظون) اى يبالغون فى حفظها ويجددونه حتى كأنهم يبادرونها الحفظ و يسابقونها فيه فيحفظونها ويحفظهم و يسابقون غيرهم فى حفظها وتقدم ان المداومة غير المحافظة فدوامهم عليها محافظتهم على أوقاتها وشروطها وأركانها ومستحباتها فى ظواهرها وبواطنها من الخشوع والمراقبة وغير ذلك من خلال الاحسان التى اذا فعلوها كانت ناهية لفاعلها ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فتشمل على جميع هذه الاوامر وتبعد عن اضدادها فالدوام يرجع الى نفس الصلاة والمحافظة الى أحوالها ذكره القرطبى * ولما ذكر تعالى خلالهم أتبعه ما أعطاهم فقال عزمن قائل مستأنفا أو منتجا من غير فاء اشارة الى أن رحمته هى التى أوصلتهم الى ذلك من غير سبب منهم فى الحقيقة (أولئك) اى الذين فى غاية العلو لما لهم من الاوصاف العالية (فى جنات) اى فى الدنيا والآخرة أما فى الآخرة فواضح وأما فى الدنيا فلانهم لما جاهدوا فيه باتعاب أنفسهم فى هذه الاوصاف حتى تخلقوا بها أعطاهم عيا شرتهم الذاذات من أنس القرب وحلاوة المناجاة لا يساويها شئ أصلا والجنة محل اجتمع فيه جميع الراحات والمستلذات والسرور وانتفى عنه جميع المكروهات والشرور وضدها النار وزادهم على ذلك بقوله تعالى (مكرمون) معبرا باسم المفعول اشارة الى عموم الاكرام من الخالق والخلق الناطق وغيره لانه سبحانه قضى بان يعلى مقدارهم فيكرمهم بانواع الكرامات فيتلقاهم بالبشرى حين الموت وفى قبورهم ومن حين قيامهم من قبورهم الى دخولهم الى قصورهم هذا حال المؤمنين وأما حال الكافرين فقال الله تعالى فى حقهم (فما للذين كفروا) وقف أبو عمرو على الالف بعد الميم والكسائى يقف على الالف وعلى اللام ووقف الباقون على اللام وأما الابتداء فالجميع يبتدؤن أول الكلمة أى أى شئ من السعادات للذين ستروا مرائى عقولهم عن الاقرار بمضمون هذا الكلام الذى هو أوضح من الشمس حال كونهم (قبلك) اى نحوك ايها الرسول الكريم وفيما أقبل عليك (مهطعين) اى مسرعين مع مد الاعناق وادامة النظر اليك فى غاية العجب من مقالك هيئة من يسعى الى أمر لا حياة له بدونه (عن) اى متجاوزين اليك مكانا عن جهة (اليمين) اى منك حيث يتيمنون به (وعن الشمال) اى منك وان كانوا يتشاءمون به وقوله تعالى (عزين) حال من الذين كفروا وقيل من الضمير فى مهطعين فتكون حالا متداخلة اى جماعات وحلقا حلقا متفرقين فرقا شتى أفواجا لا يتهالكون لما تواجهه جمع عزة وأصلها عزوة لان كل فرقة تعتزى الى غير ما تعتزى اليه الاخرى فهم متفرقون قال الكميت

ونحن وجندل باغ تركنا * كتائب جندل شتى عزينا

وجمع عزة جمع سلامة شذوذا وقيل كان المستهزئون خمسة أرهط روى ان المشركين كانوا يجتمعون حول النبى صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه و يستهزؤن به و يكذبونه و يقولون ان

فيعلمهم مصرعى فيها باء الاستعلاء كأنك تشاهدهم حتى (قوله فاذا نفخ فى الصور) الى قوله يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) ان قلت كيف قال ذلك مع ان المراد

دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فندخلها قبلهم فرد الله تعالى عليهم بقوله عز من قائل (أيطمع) اى هؤلاء البعداء البغضاء وعبر بالطمع اشارة الى أنهم بلغوا الغاية فى السفه لكونهم طلبوا أعز الاشياء من غير سبب تعاطوه ولما كان اتيانهم على هيئة التفرق من غير انتظار جماعة لجماعة قال تعالى (كل امرئ منهم) اى على انفراده (أن يدخل) اى وهو كافر من غير ايمان يزكيه كما يدخل المسلم فيستوى المسئ والمحسن (جنة نعيم) اى لاشئ فيها غير النعيم وقوله تعالى (كلا) ردع لهم عن طمعهم ودخولهم الجنة اى لا يكون ما طمعوا فيه اصلا لان ذلك تمن فارغ لاسبب له ودل عليه التعبير بالطمع دون الرجاء ثم علل ذلك بقوله تعالى (انا خلقناهم) اى بالقدرة التى لا يقدر أحد أن يقاومها (مما يعلمون) اى انهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة كما خلق سائر جنسهم فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة وانما تستوجب بالايمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى وقيل كانوا يستهزؤن بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى انا خلقناهم مما يعلمون اى من القذر وهو منصبهم الذى لا منصب أوضع منه ولذلك أبهم وأخفى اشعارا بانه منصب يستحيا من ذكره فلا يليق بهم هذا التكبر ويدعون التقدم ويقولون ندخل الجنة قبلهم قال قتادة فى هذه الآية انما خلقت يا ابن آدم من قذر فاتق الله وروى ان مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب بن أبى صفرة يتبختر فى مطرف خز وجبة خز فقال له يا عبد الله ما هذه المشية التى يبغضها الله تعالى فقال له أتعرفنى قال نعم أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته * (فائدة) * قال ابن عربى فى الفتوحات خلق الله الناس على أربعة أقسام قسم لا من ذكر ولا من أنثى وهو آدم عليه السلام وقسم من ذكر فقط وهو حواء وقسم من أنثى فقط وهو عيسى عليه السلام وقسم من ذكر وأنثى وهو بقية الناس (فلا) زيدت فيه لا (أقسم برب) اى سيد ومبدع ومدبر (المشارق) اى التى تشرق الشمس والقمر والكواكب السيارة كل يوم فى موضع منها على المنهاج الذى دبره والطريق والقانون الذى أتقنه وبحره ستة أشهر صاعدة وستة أشهر هابطة (والمغارب) كذلك وهى التى ينشأ عنها الليل والنهار والفصول الاربعة فكان بها اصلاح العالم بمعرفة الحساب واصلاح المآكل والمشارب وغير ذلك من المآرب فيوجد كل من الملوين بعد ان لم يكن والنبات من النجم والشجر كذلك عادة مستمرة دالة على انه تعالى قادر على الايجاد والاعدام لكل ما يريده كما يريده من غير كلفة ما كما قال تعالى (انا) اى على مالنا من العظمة (لقادرون على أن نبدل) اى تبديلا عظيما بما لنا من الجلالة عوضا عنهم (خيرا منهم) اى بالخلق أو بتبديل الوصف فيكونون أشد بطشا فى الدنيا وأكثر أموالا وأولادا وأعلى قدرا وأكثر حشما وجاها وخدما فيكونون عندك على قلب واحد فى سماع قولك وتوقيرك وتعظيمك والسعى فى كل ما يشرح صدرك بدل ما يعمل هؤلاء من الهزء والتصفيق والصفير وكل ما يضيق به صدرك وقد فعل ذلك سبحانه بالمهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان بالسعة فى الرزق بأخذ أموال الجبابرين من كسرى وقيصر والتمكين فى الارض حتى كانوا ملوك الدنيا مع العمل بما يوجب لهم ملك الآخرة ففرجوا الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا فى مرضاته الانفس والاموال (وما نحن بمسبوقين) اى

بهذه النفخة النفخة الاولى وهى نفخة الصعق والعرض انما يكون بعد النفخة الثانية وبين النفختين زمن طويل (قال) المراد باليوم الوقت الواسع

لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده بوجه من الوجوه (فذرهم) اى اتركهم ولو على أسوا أحوالهم (يخوضوا) اى فى باطلهم من مقالهم وفعالهم (ويلعبوا) اى يفعلوا فى دنياهم فعل اللاعب الذى لا فائدة لفعله الا ضياع الزمان واشتغل أنت بما أمرت به (حتى يلاقوا) اى يلقوا (يومهم الذى يوعدون) وهو يوم كشف الغطاء الذى أول مجيئه عند الغرغرة وتناهيه النفخة الثانية ودخول كل من الفريقين فى داره ومحل استقراره وهذه الآية منسوخة بآية السيف كما قاله البقاعى وابن عادل وقوله تعالى (يوم يخرجون) يجوز أن يكون بدلا من يومهم أو منصوبا باضمار أعنى (من الاجداث) اى القبور التى صاروا بتغيبهم فيها تحت وقع الحوافر والخف فهم بحيث لا يدفعون شيأ يفعل بهم بل هم كلحم فى فم ماضغ فان الجدث القبر والجدثة صوت الحافر والخف ومضغ اللحم وقوله تعالى (سراعا) اى نحو صوت الداعى ذاهبين الى المحشر حال من فاعل يخرجون جمع سريع كظراف فى ظريف وقرأ قوله تعالى (كأنهم الى نصب) ابن عامر وحفص بضم النون والصاد والباقون بفتح النون واسكان الصاد على انه مصدر بمعنى المفعول كما تقول هذا نصب عينى وضرب الامير والنصب كل ما نصب فعبد من دون الله (يوفضون) اى يسرعون الى الداعى مستبقين كما كانوا يستبقون الى أنصابهم وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الى نصب أى الى غاية وهى التى ينتصب اليها بصرك وقال الكلبى هو شئ منصوب علم أو راية وقال الحسن كانوا يبتدرون اذا طلعت الشمس الى نصبهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى لا يلوى أولهم على آخرهم وقوله تعالى (خاشعة) حال اما من فاعل يوفضون وهو أقرب أو من فاعل يخرجون وفيه بعد منه وفيه تعدد الحال لذى حال واحدة وفيه الخلاف المشهور وقوله تعالى (أبصارهم) فاعل والمعنى ذليلة خاضعة لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله تعالى (ترهقهم) اى تغشاهم فتعمهم وتحمل عليهم فتكلفهم كل عسر وضيق على وجه الاسراع عليهم (ذلة) اى ضد ما كانوا عليه فى الدنيا لان من تعزز فى الدنيا على الحق ذل فى الآخرة ومن ذل للحق فى الدنيا عز فى الآخرة (ذلك) اى الامر الذى هو فى غاية ما يكون من علو الرتبة فى العظمة (اليوم الذى كانوا يوعدون) اى يوعدون فى الدنيا ان لهم فيه العذاب وأخرج الخبر بلفظ الماضى لان ما وعد الله تعالى به فهو حق كائن لا محالة وهذا هو العذاب الذى سألوا عنه أول السورة فقد رجع آخرها على أولها وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة سأل سائل أعطاه الله تعالى ثواب الذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون حديث موضوع

سورة نوح عليه السلام مكية

وهى سبع وعشرون ومائتان وأربع وعشرون كلمة وتسعمائة وتسعة وعشرون حرفا

(بسم الله) ذى الجلال والاكرام (الرحمن) الذى عم بما أفاضه من ظاهر الانعام (الرحيم) الذى حفظ أولياءه من الابتداء الى الختام ولما ختمت سأل بالانذار للكفار وكانوا عباد أوثان بعذاب الدنيا والآخرة أتبعها أعظم عذاب كان فى الدنيا على تكذيب الرسل بقصة نوح

عليه

الذى يقع فيه النفختان وما بعدهما (قوله انى ظننت أنى ملاق حسابيه) (ان قلت) كيف عبر بانه يظن ذلك مع انه يعلمه (قلت) الظن يطلق بمعنى العلم كما فى قوله تعالى الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون (قوله

عليه السلام فقال تعالى (إنا) اى بما لنا من العظمة البالغة (أرسلنا نوحا الى قومه) أى الذين كانوا فى غاية القوة على القيام بما يحاولونه وهم بصدد أن يجيبوه و يكرموه لما بينهم من القرب بالنسب واللسان وكانوا جميع أهل الارض من الآدميين روى قتادة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أول نبى أرسل نوح عليه السلام وأرسل الى جميع أهل الارض ولذلك لما كفروا أغرق الله تعالى أهل الارض جميعا وهو نوح ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام قال وهب وكل مؤمنون أرسل الى قومه وهو ابن خمسين سنة وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وهو ابن أربعين سنة وقال عبد الله بن شداد بعث وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة و يجوز فى قوله تعالى (أن أنذر) اى حذر تحذيرا عظيما (قومك) اى الاستمرار على الكفر أن تكون أن مفسرة فلا يكون لها موضع من الاعراب لان فى الارسال معنى الامر فلا حاجة الى اضمار و يجوز أن تكون المصدرية اى أرسلناه بالانذار وقال الزمخشرى والمعنى أرسلناه بان قلنا له أنذر قومك اى أرسلناه بالامر بالانذار اه وهذا الذى قدره جواب عن سؤال وهو ان قولهم ان أن المصدرية يجوز أن توصل بالامر مشكل لانه ينسبك منها وما بعدها مصدر وحينئذ فتفوت الدلالة على الامر ألا ترى أنك اذا قدرت كتبت اليه بان قم كتبت اليه القيام تفوت الدلالة على الامر حال التصريح بالمصدر فينبغى أن يقدر كما قاله الزمخشرى أى كتبت اليه بان قلت له قم اى كتبت اليه بالامر بالقيام وقال القرطبى أى بأن أنذر قومك (من قبل أن يأتيهم) اى على ما هم عليه من الاعمال الخبيثة (عذاب أليم) اى عذاب الآخرة أو الطوفان (قال) اى نوح عليه السلام (يا قوم) فاستعطفهم بتذكيرهم انه أحدهم يهمه ما يهمهم (انى لكم نذير) اى مبالغ فى انذاركم (مبين) اى أمرى بين فى نفسه بحيث انه صار فى شدة وضوحه كانه مظهر لما يتضمنه منادبذلك للقريب والبعيد والفطن والغبى و يجوز فى قوله تعالى (أن اعبدوا الله) اى الملك الاعظم الذى له جميع الكمال أن تكون أن تفسيرية لنذير وأن تكون مصدرية والكلام فيها كما تقدم فى أختها وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة فى الوصل بكسر النون والباقون بالضم والمعنى وحدوا الله (واتقوه) اى اجعلوا بينكم و بين غضبه وقاية تقيكم من عذابه بالانتهاء عن كل ما يكرهه فلا تتحركوا حركة ولا تسكنوا سكنة الا فى طاعته وهذا هو العمل الواقى من كل سوء (وأطيعون) اى لاعرفكم ما تقصر عنه عقولكم من صفات معبودكم ودينكم ودنياكم ومعادكم وأدلكم على اجتلاب آداب تهديكم واجتناب شبه ترديكم فى طاعتى فلاحكم برضا الملك عنكم وقوله (يغفر لكم) جواب الامر وفى من فى قوله (من ذنوبكم) أوجه أحدها أنها تبعيضية الثانى أنها لابتداء الغاية الثالث أنها مزيدة قال ابن عطية وهو مذهب كوفى ورد بأن مذهبهم ليس ذلك لانهم يشترطون تنكير مجرورها ولا يشترطون غيره والاخفش لا يشترط شيأ فالقول بزيادتها هنا ماش على قوله لا على قولهم قاله القرطبى وقيل لا يصح كونها زائدة لان من لا تزاد فى الموجب وانما هى هنا للتبعيض وهو بعض الذنوب وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين (و يؤخركم) اى بلا عذاب تأخيرا ينفعكم (الى أجل مسمى) اى قد سماه

قلبس له اليوم ههنا حميم ولا طعام الا من غسلين) (ان قلت) ما التوفيق بينه و بين قوله فى محل آخر ليس لهم طعام الا من ضريع وفى آخر ان شجرة الزقوم

الله تعالى وعلمه قيل ايجاد كم فلا يزاد فيه ولا ينقص منه فيكون موتكم على العادة أو يأخذكم جميعا فالامور كلها قد قدرت وفرغ من ضبطها الاحاطة العلم والقدرة فلا يزاد فيها ولا ينقص ليعلم أن الارسال انما هو مظهر لما قدره في الازل ولا يظن أنه قالب للاعيان بتغيير ما سبق به القضاء من الطاعة والعصيان وقرأ ويؤخركم ولا يؤخر ورش بابدال الهمزة واوا وقفا ووصلا وحمزة في الوقف دون الوصل والباقون بالهمز (ان أجل الله) اى الذى له الكمال كله فلا راد لامره (اذا جاء لا يؤخر) اى اذا جاء الموت لا يؤخر بعذاب كان أو بغير عذاب واضاف الاجل اليه سبحانه لانه الذى أثبته وقد يضاف الى القول كقوله تعالى اذا جاء أجلهم لانه مضروب لهم (لو كنتم تعلمون) اى لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك ولكنهم لانهماكهم في حب الدنيا كانهم شاكون في الموت ولما كان عليه السلام أطول الانبياء عمرا وكان قد طال نصحه لهم ولم يزدادوا الا طغيانا وكفرا (قال) مناديا لمن أرسله لانه تحقق أن لا قريب منه غيره (رب) اى يا سيدى وخالقى (انى دعوت) اى أوقعت الدعاء الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة (قومى) اى الذين هم جديرون باجابتى لمعرفتهم بى وقربهم منى وفيهم قوة المحاولة لما يريدون (ليلا ونهارا) اى دائما متصلا لا أفتر عن ذلك وقيل معناه سرا وجهرا (فلم يزدهم دعائى) اى شيأ من أحوالهم التى كانوا عليها (الا فرارا) اى بعدا واعراضا عن الايمان كأنهم حمر مستنفرة استثناء مفرغ وهو مفعول ثان وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بسكون الياء والباقون بفتحها وهم على مراتبهم فى المد (وانى كلما) اى على تكرار الاوقات وتعاقب الساعات (دعوتهم) اى الى الاقبال اليك بالايمان بك والاخلاص لك (لتغفر لهم) اى ليؤمنوا فتمحو ما فرطوا فيه فى حقك فافرطوا الاجلة فى التجاوز فى المحو وبالغوا فلا يبقى لشئ من ذلك عين ولا أثر حتى لا تعاقبهم عليه ولا تعاتبهم (جعلوا أصابعهم) كراهة منهم واحتقارا للداعى (فى آذانهم) حقيقة لئلا يسمعوا الدعاء اشارة الى أنا لا نريد أن نسمع ذلك منك فان أبيت الا الدعاء فانا لا نسمع لسد أسماعنا ودل على الافراط فى كراهة الدعاء بما ترجم عنه قوله (واستغشوا ثيابهم) اى أوجدوا التغطية لرؤسهم بثيابهم لئلا يبصروه كراهة للنظر الى وجه من ينصحهم فى دين الله تعالى وهكذا حال النصحاء مع من ينصحونه دائما (وأصروا) اى اكبوا على الكفر وعلى المعاصى من أصر الحمار على العانة وهى القطيع من حمر الوحش اذا صر أذنيه وأقبل عليها يكدمها او يطردها (واستكبروا) اى أوجدوا الكبر طالبين له راغبين فيه وأكد ذلك بقوله (استكبارا) تنبيها على أن فعلهم منابذ للحكمة وقد أفادت هذه الآيات بالصريح فى غير موضع انهم عصوا نوحا عليه السلام وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهرا بتعطيل الاسماع والابصار وباطنا بالاصرار والاستكبار (ثم انى دعوتهم جهارا) اى معلنا بالدعاء قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بأعلى صوتى (ثم انى أعلنت لهم) اى كررت لهم الدعاء معلنا وقرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بسكونها (وأسررت لهم اسرارا) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الرجل بعد الرجل أكلمه سرا بينى وبينه أدعوه الى عبادتك وتوحيدك (فقلت) اى فى دعائى لهم (استغفروا ربكم) اى اطلبوا من المحسن اليكم المبدع لكم المدبر لاموركم أن يمحو ذنوبكم أعيانها وآثارها بان تؤمنوا بالله وتتقوه (انه

طعام الأثيم وفى آخر أولئك
ما يأكلون فى بطونهم الا
النار (فقلت) لا منافاة اذ
يجوز أن يكون طعامهم
جميع ذلك أو أن العذاب
أنواع والمعذبين طبقات

كان)

كان) اى أزلا وأبدا ودائما سرمدا (غفارا) اى متصفا بصفة الستر على من رجع اليه (يرسل السماء) اى المظلة لان المطر منها او يجوز أن يراد السحاب والمطر (عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين) اى ويكثر أموالكم وأولادكم وذلك أن قوم نوح عليه السلام لما كذبوه زمانا طويلا حبس الله تعالى عنهم المطر وعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أموالهم ومواشيهم فقال لهم نوح استغفروا ربكم من الشرك اى استدعوه المغفرة بالتوحيد يرسل السماء عليكم مدرارا وروى الشعبي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ماخرج يستسقى بالناس فلم يزد على الاستغفار فلما نزل قيل يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت فقال لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التى بها يستنزل القطر ثم قرأ هذه الآية شبه الاستغفار بالانواء الصادقة التى لا تخطئ وعن الحسن أن رجلا شكا اليه الجدب فقال استغفر الله وشكا اليه آخر الفقر وآخر قلة النسل وآخر قلة ريع أرضه فامرهم كلهم بالاستغفار فقال له الربيع بن صبيح أتاك رجال يشكون أبوابا ويسألون أنواعا فامرتهم كلهم بالاستغفار فتلا الآية وقال القشيرى من وقعت له حاجة الى الله تعالى فان يصل الى مراده الا بتقديم الاستغفار وقال ان عمل قوم نوح كان بضد ذلك كلما ازداد نوح عليه السلام فى الضمان ووجوه الخير والاحسان ازدادوا فى الكفر والنسيان (ويجعل لكم) اى فى الدارين (جنات) اى بساتين عظيمة وأعاد العامل للتأكيد فقال (ويجعل لكم أنهارا) اى يخصكم بذلك عمن لم يفعل ذلك فان من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقال تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا (ما لكم لا ترجون لله) اى الملك الذى له الامر كله (وقارا) اى ما لكم لا تأملون له توقيرا أى تعظيما والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله اياكم فى دار الثواب ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار فان بالمعرفة تزكو الاعمال وتصلح الاقوال انما سبق أبو بكر رضى الله عنه بشئ وقر فى صدره وانما يصح تعظيمه سبحانه بان لا ترى لك عليه حقا ولا تنازع له اختيارا وتعظم أمره ونهيه بعدم المعارضة (وقد) اى والحال أنه قد أحسن اليكم مرة بعد مرة بما لا يقدر عليه غيره فدل ذلك على تمام قدرته ثم لم يقطع احسانه عنكم فاستحق أن تؤمنوا به لانه هل جزاء الاحسان الا الاحسان ورجاء لدوام احسانه وخوفا من قطعه لانه (خلقكم) أى أوجدكم من العدم مقدرين (أطوارا) اى تارات عناصر أولا ثم مركبات تغذى الحيوانات ثم اخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما وأعصابا ودماء ثم خلقا آخر ناما ناطقا ذكرانا واناثا الى غير ذلك من الامور الدالة على قدرته على كل مقدور ومن قدر على هذا ابتداء كان على الاعادة أعظم قدرة (ألم تروا) اى أيها القوم (كيف خلق الله) اى الذى له العلم التام والقدرة البالغة والعظمة الكاملة (سبع سموات) من فى نهاية العلو والسعة والاحكام والزينة (طباقا) أى متطابقة بعضها فوق بعض وكل واحدة فى التى تليها محيطة بها مالها من فروج ولا يكون تمام المطابقة كذلك الا بالاحاطة من كل جانب (وجعل القمر) اى الذى ترونه (فيهن نورا) اى لامعا منتشرا كاشفا للمرئيات أحد وجهيه يضئ

فمنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريع ومنهم أكلة الزقوم ومنهم لكل باب منهم جزء مقسوم (قوله وما هو بقول شاعر) الآيتين ان قلت

لاهل الارض والثانى لاهل السموات قال الحسن يعنى فى السماء الدنيا كما تقول أتيت بنى فلان وانما أتيت بعضهم وفلان متوار فى دور بنى فلان وهو فى دار واحدة وبدأ به لقربه وسرعة حركته وقطعه جميع البروج فى كل شهر وغيبوبته فى بعض الليالى ثم ظهوره وذلك أعجب فى القدرة ولما كان نوره مستفادا من نور الشمس قال تعالى (وجعل) اى فيها (الشمس) اى فى السماء الرابعة (سراجا) اى نورا عظيما كاشفا لظلمة الليل عن وجه الارض وهى فى السماء الرابعة كامر وقيل فى الخامسة وقيل فى الشتاء فى الرابعة وفى الصيف فى السابعة روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وابن عمر أن الشمس والقمر وجوههما مما يلى السماء وأقفيتهما الى الارض وجعلهما سبحانه آية على رؤيته عباده المؤمنين له فى الجنة (والله) اى الملك الاعظم الذى له الامر كله (أنبتكم) اى بخلق أبيكم آدم عليه السلام (من الارض) اى كما ينبت الزرع وعبر بذلك تذكيرا لنا بما كان من خلق أبينا آدم عليه السلام لانه أدل على الحدوث والتكون من الارض (نباتا) اى أنشأكم منها انشاء فاستعير الانبات له لانه أدل على الحدوث والتكون وأصله أنبتكم فنبتم نباتا فاختصر اكتفاء بالدلالة الالتزامية (ثم يعيدكم) على التدريج (فيها) اى الارض بالموت والاقبار وان طالت الآجال (ويخرجكم) اى منها بالاعادة وأكده بالمصدر الجارى على الفعل اشارة الى شدة العناية به وتحتم وقوعه لانكارهم له فقال تعالى (اخراجا) اى غريبا ليس هو كما تعلمون بل تكونون به فى غاية ما يكون من الحياة الباقية تلابس أرواحكم بها أجسامكم ملابسة لا انفكاك بعدها لاحكام الآخر (والله) اى المتصف بجميع الجلال والاكرام (جعل لكم) اى نعمة عليكم اهتماما بامركم (الارض بساطا) اى سهل عليكم التصرف فيها والتقلب عليها لسهولة التصرف فى البساط ثم علل ذلك بقوله تعالى (لتسلكوا) أى متخذين (منها) اى الارض مجددين ذلك (سبلا) اى طرقا واضحة مسلوكة بكثرة (فجاجا) اى ذوات اتساع لتوصلوا الى البلاد الشاسعة برا وبحرا فيتم الانتفاع بجميع البقاع فالذى قدر على احداثكم وأقدركم على التصرف فى أصلكم مع ضعفكم قادر على اخراجكم من أجداثكم التى لم تزل طوع أمره ومحل عظمته وقهره ولما أكثروا مع نوح عليه السلام الجدال ونسبوه الى الضلال وقابلوه بأشنع الاقوال والافعال (قال نوح) اى بعد رفقه بهم ولينه لهم (رب) اى أيها المحسن الى المدبر لى المتولى لجميع أمرى (انهم) اى قومى الذين دعوتهم اليك مع صبرى عليهم ألف سنة الا خمسين عاما (عصونى) اى فيما أمرتهم به ودعوتهم اليه فأبوا ان يجيبوا دعوتى وشردوا عنى أشد شراد وخالفونى أقبح مخالفة (واتبعوا) اى بغاية جهدهم نظرا الى الظنون العاجل (من) اى رؤساءهم البطرين بأموالهم المفتخرين بأولادهم وقسرهم بقوله تعالى (لم يزده) اى شيأ من الاشياء (ماله) اى بكثرته (وولده) كذلك (الا خسارا) اى بالبعد من الله تعالى فى الدنيا والآخرة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح الواوين واللام والباقون بضم الواو الثانية واسكان اللام (ومكروا) اى هؤلاء الرؤساء فى تنفير الناس عن (مكرا) وزادوه تأكيدا بصيغة هى النهاية فى المبالغة بقوله (كبارا) فانه ابلغ من كبار المخفف الابلغ من كبير واختلفوا فى معنى مكرهم فقال ابن عباس قالوا قولا عظيما وقال الضحاك

لم ختم الاولى بقلة الايمان والثانية بقلة التذكر (قلت) لان من نسب النبى صلى الله عليه وسلم الى انه شاعر وأن ما أتى به شعر فهو كافر وان من نسبه

افتروا

افتروا على الله تعالى وكذبوا رسله وقيل منع الرؤساء أتباعهم عن الايمان بنوح عليه السلام فلم يدعوا أحدا منهم بذلك المكر يتبعه وحرشوهم على قتله (وقالوا) أي لهم (لاتذرن) اى لاتتركن (آلهتكم) اى عبادتها على حالة من الحالات لاقبيحة ولاحسنة وأضافوها اليهم تحبيبا فيها ثم خصوا بالتسمية زيادة في الحث وتصريحا بالمقصود فقالوا مكررين النهي والعامل تأكيدا (ولاتذرن ودا) قرأ نافع بضم الواو والباقون بفتحها وأنشدوا بالوجهين قول الشاعر

حياك ود فانا لا يحل لنا * لهو النساء وان الدين قد عزما

وقال القرطبي قال الليث ودا بفتح الواو صنم كان لقوم نوح وودا بالضم صنم لقريش وبه سمي عمرو بن ود وفي الصحاح والود بالفتح الوتد في لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها في الدال اه ثم أعادوا النفي تأكيدا فقالوا (ولاسواعا) وأكدوا هذا التأكيد وأبلغوا فيه فقالوا (ولايغوث) ولما بلغ التأكيد نهايته وعلم ان القصد النهي عن كل فرد فرد لا عن المجموع تركوا التأكيد في قولهم (ويعوق ونسرا) للعلم بارادته واختلف المفسرون في هذه الاسماء فقال ابن عباس وغيره هي أصنام وصور كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور وقيل انها للعرب لم يعبدها غيرهم وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم فلذلك خصوها بالذكر بعد قولهم لاتذرن آلهتكم وقال عروة بن الزبير اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وكان ود أكبرهم وأبرهم به قال محمد ابن كعب كان لآدم عليه السلام خمسة بنين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وكانوا عبادا فمات رجل منهم فحزنوا عليه فقال الشيطان أنا أصور لكم مثله اذا نظرتم اليه ذكرتموه قالوا افعل فصوره في المسجد من صفر ورصاص ثم مات آخر فصوره حتى ماتوا كلهم وصورهم وتناقصت الاشياء كما تناقصت اليوم الى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين فقال لهم الشيطان مالكم لاتعبدون شيأ قالوا وما نعبد قال آلهتكم وآلهة آبائكم ألا ترونها في مصلاكم فعبدوها من دون الله تعالى حتى بعث الله نوحا عليه السلام فقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا الآية وقال محمد بن كعب أيضا ومحمد بن قيس بل كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح عليهما السلام وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا زين لهم ابليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم وليتسلوا بالنظر اليها فصوروهم فلما ماتوا جاء آخرون فقالوا ليت شعري ماهذه الصور التي كان يعبدها آباؤنا فجاءهم الشيطان فقال كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر فعبدوها فابتدئ عبادة الاوثان من ذلك الوقت وبهذا المعنى فسر ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة ان أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بأرض الحبشة تسمى مارية فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أولئك كانوا اذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة وروى عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام كان يحرس جسد آدم عليه السلام على جبل الهند فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره فقال لهم الشيطان ان هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم وانما هو جسد وأنا أصور لكم مثله تطوفون به فصور لهم هذه الاصنام الخمسة وحملهم على عبادتها فلما كان أيام الطوفان دفنها

٣ الى الكهانة فانه انسبه الى القرآن اذ كلام الكهنة نثر لاشعر فناسب ختمه بقلة التذكر وختم الاول بقلة الايمان

٣ (قوله بالها مش اذ كلام الكهنة) الخ كذا بالاصل وفي الكرماني وخص ذكر الكهانة بقوله ماتذكرون لان من ذهب الى أن القرآن كهانة وان محمدا كاهن فهو ذاهل عن كلام الكهان فانه اسجاع لامعاني تحتها واوضاع تنبو الطباع عنها ولا يكون في كلامهم ذكر الله تعالى اه مصححه

الطين والتراب والماء فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب وكان للعرب أصنام أخر فاللات كانت لقديد واساف ونائلة وهبل كانت لأهل مكة وكان اساف حيال الحجر الاسود ونائلة حيال الركن اليماني وكان هبل في جوف الكعبة وقال الماوردي أما ود فهو أول صنم معبود سمي ودا لودهم له وكان بعد قوم نوح لكليب بدومة الجندل في قول ابن عباس وعطاء وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر في قولهم وقال الرازي وسواع لهمدان وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبا في قول قتادة وقال المهدوي لمراد ثم لغطفان وقال أبو عثمان النهدي رأيت يغوث وكان من رصاص وكانوا يحملونه على جمل اجرد ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يبرك بنفسه فاذا برك نزلوا وقالوا قد رضي لكم المنزل وأما يعوق فكان لهمدان وقيل لمراد وأما نسر فكان لذي الكلاع من حمير في قول قتادة ومقاتل وقال الواقدي كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير قال البقاعي ولا يعارض هذا انهم صور لناس صالحين لان تصويرهم لهم يمكن ان يكون منتزعا من معانيهم فكان ود للكامل في الرجولية وكان سواع امرأة كاملة في العبادة وكان يغوث شجاعا وكان يعوق سابقا قويا وكان نسر عظيما طويل العمر اه ولما ذكر مكرهم وما اظهروا من قولهم عطف عليه ما توقع السامع من أمرهم فقال تعالى (وقد أضلوا) اي الرؤساء او الاصنام وجمعهم جمع العقلاء معاملة لهم معاملة العقلاء كقوله رب انهن أضللن (كثيرا) من عبادك الذين خلقتهم على الفطرة السليمة من أهل زمانهم وممن اتى بعدهم فانهم أول من سن هذه السنة السيئة فعليهم وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة وقول نوح عليه السلام (ولا تزد الظالمين) أي الراسخين في الوصف الموجب للنار (الا ضلالا) اي طبعا على قلوبهم حتى يعموا عن الحق عطف على قد أضلوا ودعاء عليهم بعدما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون بقوله تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن وكذلك دعا موسى وهرون عليهما السلام في الشد على قلوب فرعون وملائه لئلا يؤمنوا في حال ينفعهم فيه وما في قوله تعالى (مما خطاياهم) اي من اجل خطيآتهم مزيدة للتأكيد والتفخيم وقرأ أبو عمرو بفتح الطاء وبعدها الف وبعد الالف ياء وبعد الياء ألف وضم الهاء على وزن قضاياهم والباقون بكسر الطاء وبعدها ياء تحتية ساكنة وبعد الياء همزة مفتوحة بعدها ألف وبعد الالف تاء فوقية مكسورة وكسر الهاء على وزن قضياتهم (اغرقوا) أي بالطوفان طاف عليهم جميع الارض السهل والجبل فلم يبق منهم احد وكذا الكلام فيما تسبب عنه وتعقبه في قوله (فادخلوا) اي في الآخرة التي اولها البرزخ يعرضون فيه على النار بكرة وعشيا (نارا) اي عظيمة جدا اخفها ما يكون من مباديها في البرزخ قال المحلي عذبوا في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالحرق وقال الضحاك في حالة واحدة كانوا يغرقون من جانب ويحترقون في الماء من جانب بقدرة الله تعالى (فلم يجدوا لهم) اي عند ما أناخ الله بهم سطوته واحل بهم نقمته (من دون الله) اي الملك الاعظم الذي تضمحل المراتب تحت رتبة عظمته وتذل لعزه وجليل سطوته (انصارا) تنصرهم على من ارادهم بذلك او يمنعوهم مما أراده سبحانه من اغراقهم من غير أن يتخلف منهم احد على كثرتهم وقوتهم لكونهم أعداءه والجاه

(سورة المعارج)

قوله ان الانسان خلق هلوعا) فسر هلوعا بقوله اذا مسه الشر الآية (ان قلت) الانسان في حال خلقه لم يكن موصوفا بذلك (قلت)

تنبيه

نبيه عليه السلام ومن آمن معه على ضعفهم وقلتهم لم يفقد منهم أحد لكونهم أولياءه كما أنه لم يسلم من اراد اغراقهم أحد على كثرتهم وقوتهم قال البقاعى فمن قال عن عوج ماتقوله القصاص فهو ضلال أشد ضلال قال وقائل ذلك هو ابن عربى صاحب الفصوص الذى لم يرد بتصنيفه الا هدم الشريعة وزاد فى الحط عليه وعلى ابن الفارض وعلى الحلاج وعلى من شابههم وأمر هؤلاء الى الله تعالى فانه العالم بحقائق الامور وماتخفى الصدور (وقال نوح) وأسقط الاداة كما هو عادة اهل الحضرة فقال (رب لا تذر) أى لا تترك (على الارض) أى كلها (من الكافرين) أى الراسخين فى الكفر (ديارا) أى أحدا يدور فيها وهو من ألفاظ العموم التى تستعمل فى النفى فيعال من الدور أو الدار لا فعال والا لكان دوارا قال قتادة دعا عليهم بعد ان أوحى الله تعالى اليه انه ان يؤمن من قومك الا من قد آمن فاجاب الله تعالى دعوته وأغرق أمته وهذا كقول النبى صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب وهازم الاحزاب اهزمهم وزلزلهم وقيل سبب دعائه ان رجلا من قومه حمل ولدا صغيرا على كتفه فمر بنوح عليه السلام فقال احذر هذا فانه يضلك فقال يا أبت أنزلنى فانزله فرماه فشجه فحينئذ غضب ودعا عليهم (فان قيل) مافعل صبيانهم حين أغرقوا (أجيب) بانهم أغرقوا معهم لا على وجه العقاب ولكن كما يموتون بالانواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة فى عذاب الآباء والامهات اذا أبصروا أطفالهم يغرقون ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى وعن الحسن انه سئل عن ذلك فقال علم الله تعالى براءتهم فاهلكهم بغير عذاب وقال محمد بن كعب ومقاتل انما قال هذا حين أخرج الله تعالى كل مؤمن من اصلابهم وأرحام نسائهم وأعقم ارحام امهاتهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب باربعين سنة وقيل بسبعين سنة فاخبر الله تعالى نوحا عليه السلام انهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمنا كما قال تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فحينئذ دعا عليهم فاجاب الله تعالى دعاءه فاهلكهم كلهم ولم يكن فيهم صبى وقت العذاب لان الله تعالى قال وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ولم يوجد التكذيب من الاطفال وقال ابن عربى دعا نوح عليه السلام على الكافرين أجمعين ودعا النبى صلى الله عليه وسلم على من تحزب على المؤمنين وكفى بهذا اصلا فى الدعاء على الكافرين فى الجملة وأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه لان ماله عندنا مجهول وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة وانما خص النبى صلى الله عليه وسلم عتبة وشيبة واصحابه لعلمه بمآلهم وما كشف الله له من الغطاء عن حالهم * ولما كان الرسل عليهم السلام لا يقولون ولا يفعلون الا ما كان فيه مصلحة الدين علل دعاءه بقوله (انك) أى يارب (ان تذرهم) اى تتركهم على اى حالة كانت فى ابقائهم سالمين على وجه الارض ولو كانت حالة دنيئة (يضلوا عبادك) أى الذين آمنوا بك وبى والذين يولدون على الفطرة السليمة (ولا يلدوا) أى ان قدرت بقاءهم (الا فاجرا) اى مارقا عن كل ما ينبغى الاعتصام به (كفارا) أى بليغ الستر لما يجب اظهاره من آيات الله (فان قيل) بم علم أن أولادهم يكفرون وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة (أجيب) بانه لبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فعرف طباعهم وأحوالهم وكان الرجل ينطلق بابنه اليه ويقول احذر هذا فانه كذاب وان أبى حذرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير

قوله او عا حال مقدرة اى مقدرا فى خلقه الهلع كما فى قوله تعالى محلقين رؤسكم اى لتدخلن المسجد الحرام مقدرين حلق رؤسكم (قوله والذين

على ذلك وقد أخبر الله تعالى انه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن ومعنى ولا يلدوا الافاجرا كفارا لم يلدوا الامن سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون اليه كقوله صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلا فله سلبه * ولما دعا على أعداء الله تعالى دعا لاوليائه وبدأ بنفسه فقال مسقط الاداة على عادة أهل الخصوص (رب) أى أيها المحسن الى باتباع من اتبعنى وتجنب من تجنبنى (اغفرلى) اى فانه لا يسعنى وان كنت معصوما الاحلمك وعفوك ومغفرتك (ولوالدى) وكانا مؤمنين يريد أبويه اسم أبيه ملك بن متوشلخ وأمه شمخا بنت أنوش وعن ابن عباس لم يكفر لنوح عليه السلام أب فيما بينه وبين آدم عليه السلام وقيل هما آدم وحواء وأعاد الجار اظهار اللاهتمام فقال (ولمن دخل بيتى) أى منزلى وقيل مسجدى وقيل سفينتى (مؤمنا) أى مصدقا بالله تعالى فؤمنا حال وعن ابن عباس اى دخل فى دينى (فان قيل) على هذا يصير قوله مؤمنا تكرارا (اجيب) بان من دخل فى دينه ظاهرا قد يكون مؤمنا وقد لا يكون فالمعنى ولمن دخل دخولا مع تصديق القلب (وللمؤمنين والمؤمنات) خص نفسه أولا بالدعاء ثم من يتصل به لانهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات الى يوم القيامة قاله الضحاك وقال الكلبى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل من قومه والاول أولى وأظهر ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال (ولا تزد الظالمين) اى العريقين فى الظلم فى حال من الاحوال (الاتبارا) اى هلاكا مدمرا والمراد بالظالمين الكافرون فهى عامة فى كل كافر ومشرك وقيل أراد مشركى قومه وتبارا مفعول ثان والاستثناء مفرغ وقيل الهلاك الخسران وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام حديث موضوع

هم على صلاتهم دائمون ختمه هنا بقوله دائمون وبعد بقوله يحافظون لان المراد بدوامهم عليها ان لا يتركوها فى وقت من أوقاتها وبمحافظتهم عليها

سورة الجن وسمى سورة قل أوحى مكية

وهى ثمان وعشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمائة وسبعون حرفا

(بسم الله) المحيط بالكمال (الرحمن) الذى عم برحمته الناس بالارسال (الرحيم) الذى خص من بين أهل الدعوة من شاء بمحاسن الاعمال * ولما كان نوح عليه السلام أول رسول أرسله الله تعالى الى المخالفين من أهل الارض وكان نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فهو آخر رسول بعثه الله الى أهل الارض وغيرهم ناسب ذكره بعد نوح فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) اى يا أشرف الرسل للناس (أوحى الى) وقال ابن عباس قل يا محمد لامتك أوحى الى على لسان جبريل عليه السلام (أنه استمع نفر من الجن) والنفر الجماعة ما بين الثلاثة الى العشرة قال البغوى وكانوا تسعة من جن نصيبين وقيل كانوا سبعة وفى هذه العبارة دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولا قرأ عليهم وانما اتفق حضورهم عند قراءته ففى صحيح مسلم عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا مالكم قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب فقالوا ما ذاك الامن شئ حدث فاضربوا مشارق الارض ومغاربها فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء فانطلقوا

يضربون

يضربون مشارق الارض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو وأصحابه بنخلة قاصدين سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء وهل هذا الاستماع هو المذكور في الاحقاف أو غيره قال أبو حيان المشهور أنه هو وقيل غيره والجن الذين أتوه جن نصيبين والذين أتوه بنخلة جن نينوى والسورة التي استمعوها قال عكرمة العلق وقيل الرحمن ولم يذكرها ولا في الاحقاف أنه رآهم وعن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن يذهب فسكتوا ثم قال الثانية فسكتوا ثم قال الثالثة فقلت أنا أذهب معك يا رسول الله قال فانطلق حتى جاء الحجون عند شعب ابن أبي ذئب خط علي خطا فقال لا تجاوزه ثم مضى الى الحجون فانحدروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزط قال ابن الاثير في النهاية الزط قوم من السودان والهنود وكان وجوههم المكاكي يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفها حتى غشوه فغاب عن بصري فقمت فأومأ الى بيده ان اجلس ثم تلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ولصقوا بالارض حتى صرت لا أراهم وفي رواية أخرى قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أنت قال أنا نبي قالوا فمن يشهد لك على ذلك فقال هذه الشجرة تعالى يا شجرة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع حتى انتصبت بين يديه فقال على ماذا تشهدين قالت أشهد أنك رسول الله قال اذهبي فرجعت كما جاءت حتى صارت كما كانت قال ابن مسعود فلما عاد الي قال اردت أن تأتيني قلت نعم يا رسول الله قال ما كان ذلك لك هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ثم ولوا الى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزودتهم العظم والبعر فلا يستطيبن اي يستنجي أحدكم بعظم ولا بعر وفي رواية أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ وضع رأسه على حجر ابن مسعود فرقد ثم استيقظ فقال هل من وضوء قال لا الا أن معي اداوة نبيذ فقال هل هو الا تمر وماء فتوضأ منه قال الرازي وطريق الجمع بين رواية ابن عباس ورواية ابن مسعود من وجوه أحدها لعل ما ذكره ابن عباس وقع أولا فأوحى الله تعالى اليه بهذه السورة ثم أمر بالخروج اليهم بعد ذلك كما روى عن ابن مسعود اي فالواقعة متعددة ثانيها انها واقعة واحدة الا أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولا عرف ماذا قالوا ولاي شئ فعلوا فالله تعالى أوحى اليه انه كان كذا وكذا وفعلوا كذا وكذا ثالثها أنها كانت واحدة وأنه صلى الله عليه وسلم رآهم وسمع كلامهم وهم آمنوا به ثم رجعوا الى قومهم قالوا لهم على سبيل الحكاية انا سمعنا قرآنا عجبا وكان كذا وكذا فأوحى الله تعالى الى نبيه صلى الله عليه وسلم ما قالوه لقومهم قال ابن عربي ابن مسعود أعرف من ابن عباس لانه شاهده وابن عباس سمعه وليس الخبر كالمعاينة وقال القرطبي ان الجن أتوا النبي صلى الله عليه وسلم دفعتين احداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود والثانية بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس وقال البيهقي الذي حكاه ابن مسعود انما هو في أول ما سمعت الجن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وعلمت بحاله وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه ابن عباس ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه ابن مسعود وقال القشيري لما رجم ابليس بالشهب فرق ابليس جنوده لعلم ذلك فاتى سبعة منهم بطن نخلة فاستمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا ثم أتوا قومهم فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يعني

ان يأتوا بها على أكمل أحوالها من الاتيان بها بجميع واجباتها وسننها ومنها الاجتهاد في تفريغ القلب عن الوسوسة والرياء والسمعة

ولم يرجعوا الى ابليس لما علموا من كذبه وسفاهته وجاؤا الى النبي صلى الله عليه وسلم في سبعين من قومه فاسلموا فذلك قوله تعالى واذ صرفنا اليك نفرا الآيات (فقالوا) أي فتسبب عن استماعهم ان قالوا (انا سمعنا) أي حين تعمدنا الاصغاء وألقينا اليه أفهامنا (قرآنا) أي كلاما هو في غاية الانتظام في نفسه والجمع لجميع ما يحتاج اليه وقرأ ابن كثير بالنقل وقفا ووصلا وحمزة في الوقف دون الوصل والباقون بغير نقل وقفا ووصلا ثم وصفوا القرآن بالمصدر مبالغة في أمره فقالوا (عجبا) اي بديعا خارجا عن عادة أمثاله من جميع الكتب الالهية فضلا عن جميع الناس في جلالة النظم واعجاز التركيب (يهدي) أي يبين غاية البيان (الى الرشد) أي الحق والصواب (فآمنا) أي كل من استمع منا لم يتخلف منا أحد ولا توقف بعد الاستماع (به) أي القرآن أي فاهتدينا به وصدقنا انه من عند الله (ولن نشرك بربنا أحدا) أي لا نرجع الى ابليس ولا نطيعه ولا نعود الى ما كنا عليه من الاشراك وهذا يدل على أن أولئك الجن كانوا مشركين قال الرازي واعلم أن قوله تعالى قل أمر لرسوله صلى الله عليه وسلم ان يظهر لاصحابه ما أوحى اليه في واقعة الجن وفيه فوائد أحدها أن يعرفوا بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى الجن كما بعث الى الانس ثانيها أن تعلم قريش ان الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن وعرفوا اعجازه آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ثالثها أن يعلم القوم ان الجن مكلفون كالانس رابعها أن يعلم ان الجن يستمعون كلاما نفهمه من لغتنا خامسها ان يظهر المؤمن منهم بدعوى غيره من الجن الى الايمان وفي هذه الوجوه مصالح كثيرة اذا عرفها الناس *(تنبيهات)* أحدها اختلف العلماء في أصل الجن فروى عن الحسن البصري ان الجن ولد ابليس والانس ولد آدم ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون وهم شركاء في الثواب والعقاب فمن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان وروى الضحاك عن ابن عباس ان الجن هم ولد الجان وليسوا شياطين ومنهم المؤمن ومنهم الكافر والشياطين ولد ابليس لا يموتون الا مع ابليس وروى أن ذلك النفر كانوا يهودا وذكر الحسن ان منهم يهودا ونصارى ومجوسا ومشركين * ثانيها اختلفوا في دخول الجن الجنة على حسب الاختلاف في أصلهم فمن زعم انهم من الجان لا من ذرية ابليس قال يدخلون الجنة بايمانهم ومن قال انهم من ذرية ابليس فلهم فيهم قولان أحدهما وهو قول الحسن يدخلونها والثاني وهو رواية مجاهد لا يدخلونها * ثالثها قال القرطبي قد أنكر جماعة من كفرة الاطباء والفلاسفة الجن وقالوا انهم بسائط ولا يصح طعامهم اجتراء على الله تعالى والقرآن والسنة ترد عليهم وليس في المخلوقات بسيط بل مركب مزدوج انما الواحد الواحد سبحانه وغيره مركب ليس بواحد وليس يمتنع أن يراهم النبي صلى الله عليه وسلم في صورهم كما يرى الملائكة واكثر ما يتصورون لنا في صور الحيات ثم عطفوا على قولهم انا سمعنا (وانه) اي الشان العظيم قال الجن (تعالى) اي انتهى في العلو الى حد لا يستطاع (جد) اي عظمة وسلطان وكمال غنى (ربنا) يقال جد الرجل اذا عظم ومنه قول أنس كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا اي عظم قدره وقال السدي جد ربنا اي امر ربنا وقال الحسن غنى ربنا ومنه قيل الحظ جد ورجل مجدود اي محظوظ وفي الحديث ولا ينفع ذا الجد منك الجد قال أبو عبيد والخليل اي ذا الغنى منك الغنى انما تنفعه

(سورة نوح)
(قوله ويؤخركم الى أجل مسمى) خطاب لقوم نوح (ان قلت) ان كان المراد تأخيرهم عن الاجل المقدر

الطاعة وقال ابن عباس قدرة ربنا وقال الضحاك فعله وقال القرطبي آلاؤه ونعماؤه على خلقه
وقال الاخفش علا ملك ربنا والاول جميع هذه المعانى وقرأ وانه تعالى جد ربنا وما بعده الى
قوله تعالى وانا منا المسلمون وهى اثنا عشر موضعا ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بفتح
الهمزة فى الجميع والباقون بالكسر ❊ ولما وصفوه بهذا الاعظم المستلزم للغنى المطلق
والتنزه عن كل شائبة نقص بينوه بنفى ما ينافيه من قولهم ابطالا للباطل (ما اتخذ صاحبة)
أى زوجة لان الصاحبة لابد وأن تكون من نوع صاحبها ومن له نوع فهو مركب تركيبا
عقليا من صفة مشتركة وصفة مميزة (ولا ولدا) لان الولد لابد وأن يكون جزأ منفصلا عن والده
ومن له أجزاء فهو مركب تركيبا حسيا ومن المقطوع به ان ذلك لا يكون الا محتاج وان الله
تعالى متعال عن ذلك من تركيب حسى أو عقلى قال القشيرى ويجوز اطلاق لفظ الجد فى
حق الله تعالى اذ لو لم يجز لما ذكر فى القرآن غير أنه لفظ موهم فتجنبه أولى أى لانه قيل انهم
عنوا بذلك الجد الذى هو أبو الاب ويكون ذلك من قول الجن قال ابن جعفر الصادق ليس لله
تعالى جد وانما قاله الجن للجهالة فلم يؤاخذوا به وقال القرطبى معنى الآية وأنه تعالى جد
ربنا أن يتخذ صاحبة للاستئناس بهما أو الحاجة اليهما والرب تعالى عن ذلك كما تعالى
عن الانداد والنظراء (وانه) أى وقالوا ان الشان هذا على قراءة الكسر وآمنا بانه على قراءة
الفتح (كان يقول) أى قولا هو فى عراقته فى الكذب بمنزلة الجبلة (سفيهنا) هو للجنس
فيتناول ابليس رأس الجنس تناولا اوليا وكل من تبعه ممن لم يعرف الله تعالى لان ثمرة العقل
العلم وثمرة العلم معرفة الله تعالى فمن لم يعرفه فهو الذى يقول (على الله) الذى له صفات الكمال
المنافية لقول هذا السفيه (شططا) أى كذبا وعدوانا وهو وصفه بالشريك والولد والشطط
والاشطاط الغلو فى الكفر وقال أبو مالك هو الجور وقال الكلبى هو الكذب وأصله البعد
فعبر به عن الجور لبعده عن العدل وعن الكذب لبعده عن الصدق (وانا) اى معشر المسلمين
من الجن (ظننا) اى حسبنا بالسلامة فطرتنا (أن) اى أنه وزادوا فى التأكيد فقالوا (لن تقول)
وبدؤا بأفضل الجنسين فقالوا (الانس) وأتبعوهم قرناءهم فقالوا (والجن على الله) اى الملك
الاعلى الذى بيده النفع والضر (كذبا) اى قولا هو لعراقته فى مخالفة الواقع نفس الكذب
وانما كنا نظنهم صادقين فى قولهم ان لله صاحبة وولدا حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحق قيل
انقطع الاخبار عن الجن ههنا (وانه) اى الشان (كان رجال) اى ذوو قوة وبأس (من
الانس) اى النوع الظاهر فى عالم الحس (يعوذون) اى يلتجؤن ويعتصمون خوفا على أنفسهم
وما معهم اذا نزلوا واديا (برجال من الجن) اى القبيل المستتر عن الابصار وذلك ان القوم منهم
كانوا اذا نزلوا واديا أو غيره من القفر تعبث بهم الجن فى بعض الاحيان لانه لا مانع لهم منهم من
ذكر الله ولا دين صحيح ولا كتاب من الله تعالى صريح فحملهم ذلك على أن يستجيروا بعظمائهم
فكان الرجل يقول عند نزوله أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه فيبيت فى أمن وفى جوار
منهم حتى يصبح فلا يرى الا خيرا وربما هدوه الى الطريق وردوا عليه ضالته قال مقاتل كان أول
من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن من بنى حنيفة ثم فشا ذلك فى العرب فلما جاء الاسلام عاذوا
بالله تعالى وتركوهم وقال كردم بن أبى السائب الانصارى خرجت مع أبى الى المدينة فى حاجة

أزلا فهو احتمال لقوله تعالى
ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء
أجلها أو تأخيرهم الى مجىء
اجلهم المقدر فهم كغيرهم
سواء امنوا ام لا (قلت)

وذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فآوانا المبيت الى راعى غنم فلما انتصف النهار جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم فوثب الراعى وقال يا عامر الوادى جارك فنادى مناد لا نراه يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمة فكان ذلك فتنة للانس باعتقادهم فى الجن غير ما هم عليه فتبعوهم فى الضلال وفتنة للجن بأن يغتروا بأنفسهم ويقولون سدنا الانس والجن فيضلوا ويضلوا ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فزادوهم) اى الانس والجن باستعاذتهم (رهقا) اى ضيقا وشدة وغشيانا لجاءهم فيه من أحوال الضلال التى يلزم منها الضيق والشدة وقال مجاهد الرهق الاثم وغشيان المحارم ورجل رهق اذا كان كذلك ومنه قوله تعالى وترهقهم ذلة وقال الاعشى

لاشئ ينفعنى من دون رؤيتها * هل يشتفى عاشق ما لم يصب رهقا

يعنى اثما وقال مجاهد أيضا زادوهم أى ان الانس زادوا الجن طغيانا بهذا التعوذ حتى قالت الجن سدنا الانس والجن وقيل لا ينطلق لفظ الرجال على الجن فالمعنى وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الانس من شر الجن فكان الرجل مثلا يقول أعوذ بحذيفة بن بدر من جن هذا الوادى قال القشيرى وفى هذا تحكم اذلا يبعد اطلاق لفظ الرجل على الجن * (تنبيه) * قوله تعالى من الانس صفة لرجال وكذا قوله من الجن (وانهم) أى الانس (ظنوا) والظن قد يصيب وقد يخطئ وهو أكثر (كما ظننتم) أى أيها الجن ويجوز العكس (أن) مخففة أى انه (لن يبعث الله) اى الذى له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (أحدا) اى بعد موته لما يمر به ابليس عليهم حتى رأوا حسنا ما ليس بالحسن أو أحدا من الرسل يزيل به عماية الجهل وقد ظهر بالقرآن ان هذا الظن كاذب وانه لابد من البعث فى الامرين قال الجن (وانا لمسنا السماء) اى رمنا استراق السمع منها قال الكلبى السماء الدنيا اى التمسنا أخبارها على ما كان من عادتنا من استماع ما نغوى به الانس واللمس المس فاستعير للطلب لان الماس طالب متعرف والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها (فوجدناها) فى وجد وجهان أظهرهما انها متعدية لواحد لان معناها أصبنا وصادفنا وعلى هذا فالجملة من قولهم (ملئت) فى موضع نصب على الحال على اضمار قد والثانى انها متعدية لاثنين فتكون الجملة فى موضع المفعول الثانى ويكون (حرسا) منصوبا على التمييز نحو امتلأ الاناء ماء والحرس اسم جمع لحارس نحو خدم لخادم وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجمع تكسيرا على احراس والحارس الحافظ الرقيب والمصدر الحراسة و(شديدا) صفة لحرس على اللفظ ولو جاء على المعنى لقيل شدادا بالجمع لان المعنى ملئت ملائكة شدادا كقولك السلف الصالح يعنى الصالحين قال القرطبى ويجوز أن يكون حرسا مصدرا على معنى حرست حراسة شديدة (وشهبا) جمع شهاب ككتاب وكتب وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم المانع لهم عن استراق السمع (وانا كنا) اى فيما مضى (نقعد منها) أى السماء (مقاعد) أى كثيرة قد علمناها لا حرس فيها صالحة (للسمع) أى أن نسمع منها بعض ما تتكلم به

معناه يؤخركم عن العذاب الى منتهى آجالكم على تقدير الايمان فلا يعذبكم فى الدنيا ان وقع منكم ذنب كما عذب غيركم من الامم الكافرة فيها

الملائكة عما أمروا بتدبيره وقد جاء في الخبر أن صفة قعودهم هو أن يكون الواحد منهم فوق الآخر حتى يصلوا إلى السماء فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان فيزيدون معها الكذب (فمن يستمع الآن) أي في هذا الوقت وفيما يستقبل لأنهم أرادوا وقت قولهم فقط (يجد له) أي لأجله (شهابا) أي شعلة من نار ساطعة تحرقه (رصدا) أي أرصد به ليرمى به

(تنبيه) اختلفوا هل كانت الشياطين تقذف قبل البعث أو ذلك أمر حدث بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم فقال قوم لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة عام وإنما كان من أجل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث منعوا من السموات كلها وحرست بالملائكة والشهب وقال عبد الله بن عمر لما كان اليوم الذي نبئ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين ورموا بالشهب قال الزمخشري والصحيح أنه كان قبل البعث وقد جاء شعره في أهل الجاهلية ٣ قال بشر بن أبي حازم

والعير يرهقها الغبار وجحشها * ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

ولكن الشياطين كانت تسترق السمع في بعض الأحوال فلما بعث صلى الله عليه وسلم كثر الرجم وازداد زيادة ظاهرة حتى تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلا وعن معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت أرأيت قوله تعالى وأنا كنا نقعد منها مقاعد قال غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم وروى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار فقال ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية فقالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم فقال صلى الله عليه وسلم إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرا في السماء سبح حملة العرش ثم سبح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ثم يسأل أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى أهل هذه السماء وهذا يدل على أن هذه الشهب كانت موجودة قال ابن عادل وهذا قول الأكثرين (فإن قيل) كيف تتعرض الجن لاحتراق أنفسهم بسبب سماع خبر بعد أن صار ذلك معلوما لهم (أجيب) بأن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة قال القرطبي والرصد قيل من الملائكة أي ورصدا من الملائكة والرصد الحافظ للشيء والجمع أرصاد وقيل الرصد هو الشهاب أي شهاب قد أرصد له ليرجم به فهو فعل بمعنى مفعول * واختلف فيمن قال (وأنا لا ندري) أي بوجه من الوجوه (أشر أريد) أي بعدم استراق السمع (بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم) أي المحسن إليهم المدبر لهم (رشدا) أي خيرا فقال ابن زيد معنى الآية أن إبليس قال لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عقابا أو يرسل إليهم رسولا وقيل هو من قول الجن فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم أي لا ندري أشر أريد بمن في الأرض بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم فإنهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذب من الأمم أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا فالشر والرشد على هذا الكفر والإيمان وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحي وقيل قالوه لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين أي لما آمنوا

او يؤخرهم وتكم ان كان قضى الله بتعميرهم الف سنة ان آمنوا وبخمسمائة سنة ان لم يؤمنوا (قوله فقلت

٣ وقد جاء شعره الخ الذي في الكشاف الذي بأيدينا وقد جاء ذكره في شعر أهل الجاهلية اهـ مصححه

أشفقوا أن لا يؤمن كثير من أهل الارض فقالوا انا لاندري أيكفر أهل الارض بما آمنا به أم يؤمنون قال الجن (وانا منا الصالحون) أي العريقون في صفة الصلاح قال الجلال المحلي بعد استماع القرآن (ومنا دون ذلك) أي قوم غير صالحين (كنا) أي كوناهو كالجبلة (طرائق قددا) أي جماعات متفرقين واصنافا مختلفة قال سعيد بن المسيب معنى الآية كنا مسلمين ويهودا ونصارى ومجوسا وقال الحسن والسدى الجن أمثالكم فنهم قدرية ومرجئة ورافضة وخوارج وشيعة وسنية وقال ابن كيسان شيعا وفرقا لكل فرقة هوى كاهواء الناس وقال سعيد بن جبير ألوانا شتى وقال أبو عبيدة اصنافا وقيل منا الصالحون ومنا المؤمنون لم يتناهوا في الصلاح قال القرطبي والاول أحسن لانه كان في الجن من آمن بموسى وعيسى وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه وهذا يدل على ايمان قوم منهم بالتوراة (تنبيه) القدد جمع قدة والمراد بها الطريقة وأصلها السيرة يقال قدة فلان حسنة اى سيرته وهو من قد السير أي قطعه فاستعير للسيرة المعتدلة قال الشاعر

القابض الباسط الهادي بطلعته ● في فتنة الناس اذ أهواؤهم قدد

وقال لبيد يرثي اخاه

لم تبلغ العين كل نهمتها ● يوم تمشي الجياد بالقدد

والقد بالكسر سير يقد من جلد غير مدبوغ و يقال ماله قد ولا قحف فالقد اناء من جلد والقحف اناء من خشب (وانا ظننا أن لن نعجز الله) اى وانا علمنا و تيقنا لتفكر والاستدلال في آيات الله انا في قبضة الملك وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره لماله من الاحاطة بكل شيء علما وقدرة لانه واحد لا مثل له ● (تنبيه) ● أطلقوا الظن على العلم اشارة الى ان العاقل ينبغي له أي يجتنب ما يفيد المضار ولو بادنى أنواع الظن فكيف اذا تيقن وقولهم (في الارض) حال وكذلك هربا في قولهم (ولن نعجزه) اى بوجه من الوجوه (هربا) فانه مصدر في موضع الحال تقديره لا نفوته كائنين في الارض او هاربين منها الى السماء فليس انا مهرب الا في قبضته فاين أم الى أين المهرب (وانا لما سمعنا) اى من النبي صلى الله عليه وسلم (الهدى) اى القرآن الذي له من العراقة التامة في صفة البيان والدعاء الى الخير ما سوغ ان يطلق عليه نفس الهدى (آمنا به) و بالله وصدقنا محمدا صلى الله عليه وسلم على رسالته وكان صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى الانس والجن قال الحسن بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم الى الانس والجن ولم يبعث الله تعالى قط رسولا من الجن ولا من أهل البادية ولا من النساء وذلك لقوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم من أهل القرى وفي الصحيح و بعثت الى الاحمر والاسود أي الانس والجن وفي ارساله الى الملائكة خلاف قدمنا الكلام عليه (فمن يؤمن بربه) اى المحسن الينا منا ومن غيرنا (فلا) اى فهو خاصة لا (يخاف بخسا ولا رهقا) قال ابن عباس لا يخاف ان ينقص من حسناته ولا ان يزاد في سيآته لان البخس النقصان والرهق العدوان وغشيان المحارم (وانا منا) اى الجن (المسلمون) اى المخلصون في صفة الاسلام (ومنا القاسطون) اى الجائرون اى وانا بعد سماع القرآن مختلفون فمنا من اسلم ومنا من كفر والقاسط الجائر لانه عدل عن الحق والمقسط العادل الى الحق قسط اذا جار واقسط اذا عدل

نقسط

استغفروا ربكم) أي من الشرك بالتوحيد (قوله ولا تزد الظالمين الا ضلالا) (ان قلت) كيف دعا نوح

قوله اطلقوا كذا بالاصل الطبع وفي بعض النسخ اطلاق اه مصححه

فقسط الثلاثي بمعنى جار وأقسط الرباعي بمعنى عدل وعن سعيد بن جبير أن الحجاج قال له حين ارادة قتله ما تقول في قال قاسط عادل فقال القوم ما أحسن ما قال حسبوا انه يصفه بالقسط والعدل فقال الحجاج يا جهلة انه سماني ظالما مشركا وتلا لهم قوله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (فمن أسلم) أي أوقع الاسلام كله بان أسلم ظاهره وباطنه من الجن وغيرهم (فأولئك) أي العالو الرتبة (تحروا) أي توخوا وقصدوا مجتهدين (رشدا) أي صوابا عظيما وسدادا كان لما عندهم من النقائص شاردا عنهم فما لجوا أنفسهم حتى ملكوه فجعلوه لهم منزلا (وأما القاسطون) أي العريقون في صفة الجور عن الصواب من الانس والجن فأولئك اهملوا أنفسهم فلم يتحروا الهداية فضلوا فأبعدوا عن الطريق القويم فوقعوا في المهالك التي لا منجى منها (فكانوا لجهنم) أي النار البعيدة القعر التي تلقاهم بالتجهم والكراهة والعبوسة (حطبا) أي توقد بهم النار فهي في اتقاد ما داموا أحياء ما دامت تتقد لا يموتون فيستريحون ولا يحيون فينتعشون *(تنبيه)* قوله تعالى فكانوا أي في علم الله عز وجل (فان قيل) لم ذكروا عقاب القاسطين ولم يذكروا ثواب المسلمين (أجيب) بأنهم في مقام الترهيب فذكروا ما يحذر وطووا ما يجب العلم به لان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا بل لا بد ان يزيد عليه تسعة اضعافه وعنده المزيد أو انهم ذكروه بقولهم تحروا رشدا أي تحروا رشدا عظيما لا يعلم كنهه الا الله تعالى ومثل هذا لا يتحقق الا في الثواب (فان قيل) ان الجن مخلوقون من النار فكيف يكونون حطبا للنار (أجيب) بانهم وان خلقوا منها لكنهم يتغيرون عن تلك الكيفية فيصيرون لحما ودما هكذا قيل وهذا آخر كلام الجن وأن في قوله تعالى (وأن) هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي وأنهم وهو معطوف على انه استمع أي وأوحي الى أن الشأن العظيم (لو استقاموا على الطريقة) أي طريقة الاسلام (لأسقيناهم) أي لجعلنا لهم بما لنا من العظمة (ماء غدقا) أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا ولبسطنا لهم في الرزق وضرب الماء الغدق مثلا لان الخير والرزق كله في المطر كما قال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم الآية وقال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم الآية وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا الآية وقال تعالى استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين الآية (لنفتنهم) أي نعاملهم معاملة المختبر بما لنا من العظمة (فيه) أي في ذلك الماء الذي تكون عنده انواع النعم لينكشف حال الشاكر والكافر قال الرازي وهذا بعد ما حبس عنهم المطر سنين اهـ قال الجلال المحلي سبع سنين وقال عمر رضي الله تعالى عنه أينما كان الماء كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة وقال الحسن وغيره كانوا سامعين مطيعين ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر ففتنوا بها فوثبوا بامامهم فقتلوه يعني عثمان رضي الله تعالى عنه قال البقاعي ويجوز ان يكون مستعارا للعلم وانواع المعارف الناشئة عن العبادات التي هي للنفوس كالنفوس للابدان وتكون الفتنة بمعنى التخليص من الهموم والرذائل في الدنيا والنعم في الآخرة من فتنت الذهب اذا خلصته من غشه (ومن يعرض) أي اعراضا مستمرا الى الموت (عن ذكر ربه) أي مجاوزا عن عبادة المحسن اليه المربي له الذي

على قومه بذلك مع انه أرسل اليهم لهدايتهم ورشدهم (قلت) انما دعا عليهم بذلك بعد ان أعلمه

لا احسان عنده من غيره وقيل المراد بالذكر القرآن وقيل الوحي وقيل الموعظة (يسلكه) أي ندخله (عذابا) يكون مطروقا فيه كالخيط في ثقب الخرزة في غاية الضيق (صعدا) أي شاقا شديدا يعلوه ويغلبه ويصعد عليه ويكون كل يوم أعلى مما قبله جزاء وفاقا وقال ابن عباس هو جبل في جهنم قال الخدري كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت وعن ابن عباس أن المعنى مشقة من العذاب لان الصعد في اللغة هو المشقة تقول تصعدني الامر اذا شق عليك ومنه قول عمر ما تصعدني شيء ما تصعدني في خطبة النكاح يريد ما شق علي وما غلبني والمشي في الصعود يشق وقال عكرمة هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها فاذا انتهى الى أعلاها حدر الى جهنم وقال الكلبي يكلف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلا في النار من صخرة ملساء يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها ولا يبلغ في أربعين سنة فاذا بلغ أعلاها أحدر الى أسفلها ثم يكلف أيضا الصعود فذلك دأبه أبدا وهو قوله تعالى سأرهقه صعودا وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالياء التحتية على الغيبة لاعادة الضمير على الله تعالى والباقون بالنون على الالتفات وهذا كما في قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ثم قال باركنا حوله لنريه من آياتنا واتفقوا على فتح الهمزة في قوله تعالى (وأن) أي وأوحي الي أن (المساجد لله) أي مختصة بالملك الاعظم والمساجد قيل جمع مسجد بالكسر وهو موضع السجود وقال الحسن أراد بها كل البقاع لان الارض جعلت كلها مسجدا للنبي صلى الله عليه وسلم يقول أينما كنتم فصلوا وأينما صليتم فهو مسجد وقيل انه جمع مسجد بالفتح مرادا به الاعضاء الواردة في الحديث الجبهة والانف والركبتان واليدان والقدمان وهو قول سعيد بن المسيب وابن جبير والمعنى أن هذه الاعضاء أنعم الله تعالى بها عليك فلا تسجد لغيره فتجحد نعمة الله تعالى بها عليك قال عطاء مساجدك أعضاؤك التي أمرت بالسجود عليها لا تذللها لغير خالقها قال صلى الله عليه وسلم أمرت أن أسجد على سبعة أعظم وذكر الحديث وقال صلى الله عليه وسلم اذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب قال ابن الاثير الآراب الاعضاء وهذا القول اختاره ابن الانباري وقيل بل جمع مسجد وهو مصدر بمعنى السجود ويكون الجمع لاختلاف الانواع وقال القرطبي المراد بها البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة قال سعيد بن جبير قالت الجن كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك فنزلت وأن المساجد لله أي بنيت لذكر الله تعالى وطاعته وقال ابن عباس المساجد هنا مكة التي هي القبلة وسميت مكة مساجد لان كل أحد يسجد اليها قال القرطبي والقول بانها البيوت المبنية للعبادة أظهر الاقوال ان شاء الله تعالى وهو مروي عن ابن عباس واضافة المساجد الى الله تعالى اضافة تشريف وتكريم وخص منها المسجد العتيق بالذكر فقال تعالى وطهر بيتي وهي وان كانت لله ملكا وتشريفا قد تنسب الى غيره تعريفا قال صلى الله عليه وسلم صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام وفي رواية ان صلاة فيه خير من مائة صلاة في مسجدي هذا قال القرطبي وهذا حديث صحيح وفي حديث سابق صلى الله عليه وسلم بين الخيل التي لم تضمر من الثنية الى مسجد بني زريق ويقال مسجد فلان لانه حبسه ولا خلاف بين الامة في تحبيس المساجد والقناطر والمقابر وان اختلفوا في تحبيس غير ذلك (فلا تدعوا) أي فلا تعبدوا أيها

الله تعالى انهم لا يؤمنون (قوله قال نوح رب) قاله هنا بالواو وقاله بعد بواو لان الاول استئناف والثاني

المخلوقون (مع الله) الذى له جميع العظمة (أحدا) وهذا توبيخ للمشركين في دعواهم مع الله تعالى غيره في المسجد الحرام وقال مجاهد كانت اليهود والنصارى اذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فامر الله تعالى نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة اذا دخلوا المساجد كلها يقول فلا تشركوا فيها صنما أو غيره مما يعبد وقيل المعنى أفردوا المساجد لذكر الله تعالى ولا تجعلوا لغير الله تعالى فيها نصيبا وفي الصحيح من نشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك فان المساجد لم تبن لهذا وقال الحسن من السنة اذا دخل رجل المسجد أن يقول لا اله الا الله لان قوله تعالى فلا تدعوا مع الله أحدا في ضمنه أمر بذكر الله تعالى ودعائه وروى الضحاك عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وقال وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا اللهم عبدك وزائرك وعلى كل مزور حق وأنت خير مزور فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار فاذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال اللهم صب على الخير صبا ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني ابدا ولا تجعل معيشتي كدا واجعل لي في الارض جدا اى غنى وقرأ (وانه) نافع وشعبة بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بالفتح اى وأوحى الى أنه (لما قام عبد الله) اى عبد الملك الاعلى الذى له الجلال كله والجمال فلا موجود يدانيه بل كل موجود من فائض فضله وعبد الله هو محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يصلي ببطن نخلة ويقرأ القرآن (فان قيل) هلا قيل رسول الله او النبي (اجيب) بان تقديره واوحى فلما كان واقعا في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل اولان المعنى ان عبادة عبد الله ليست بامر مستبعد عن العقل ولا مستنكر حتى تكونوا عليه لبدا ومعنى (يدعوه) اى يعبده وقال ابن جريج يدعوه اى قام اليهم داعيا الى الله تعالى فهو في موضع الحال اى موحدا له (كادوا) اى قرب الجن المستمعون لقراءته (يكونون عليه) اى على عبد الله (لبدا) اى متراكبين بعضهم على بعض من شدة ازدحامهم حرصا على سماع القرآن وقيل كادوا يركبونه حرصا قاله الضحاك وقال ابن عباس رغبة في سماع القرآن وروى عن مكحول ان الجن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة وكانوا سبعين الفا وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر وعن ابن عباس أيضا ان هذا من قول الجن لما رجعوا الى قومهم اخبروهم بما رأوا من طاعة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وائتمامهم به في الركوع والسجود وقال الحسن وقتادة وابن زيد يعني لما قام عبد الله محمد بالدعوة تلبدت الانس والجن على هذا الامر ليبطلوه فأبى الله تعالى الا ان ينصره ويتم نوره واختار الطبري ان يكون كادت العرب يجتمعون على النبي صلى الله عليه وسلم ويتظاهرون على اطفاء النور الذى جاء به وقرأ هشام بضم اللام والباقون بكسرها فالاولى جمع لبدة بضم اللام نحو غرفة وغرف وقيل بل هو اسم مفرد صفة من الصفات وعليه قوله تعالى مالا لبدا واما الثانية فجمع لبدة بالكسر نحو قربة وقرب واللبدة واللبدة الشيء الملبد اى المتراكب بعضه على بعض ومنه لبدة الاسد كقول زهير

لدى أسد شاكي السلاح مقذف * له لبد اظفاره لم تقلم

ومنه اللبد لتلبد بعضه فوق بعض * ولما قال كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم انك

(قوله ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) معطوف عليه من كلام نوح (ان قلت) كيف وصفهم بالفجور والكفر

جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك (قال) صلى الله عليه
وسلم مجيباً لهم (إنما أدعوا ربي) أي الذي أوجدني ورباني ولا نعمة عندي إلا منه وحده لا أدعو
غيره حتى تجيروا مني (ولا أشرك به) أي الآن ولا في مستقبل الزمان بوجه من الوجوه (أحداً)
من ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وغيرها من الصامت والناطق وقرأ عاصم وحمزة قل
بصيغة الأمر التفاتاً أي قل يا محمد والباقون قال بصيغة الماضي والخبر إخباراً عن عبد الله وهو
محمد صلى الله عليه وسلم قال الجحدري وهو في المصحف كذلك وقد تقدم لذلك نظائر في قل سبحان
ربي في آخر الإسراء وكذا في أول الأنبياء وآخرها وآخر المؤمنين (قل) أي يا أشرف الخلق
لهؤلاء الذين خالفوك (إني لا أملك لكم) أي الآن ولا بعده بنفسي من غير إقدار الله تعالى لي
(ضراً ولا رشداً) أي لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً ولا أسوق إليكم خيراً وقيل لا أملك لكم ضراً
أي كفراً ولا رشداً أي هدى لأنه لا يؤثر شيء من الأشياء إلا الله تعالى وإنما علي البلاغ وقيل
الضر الموت والرشد الحياة (قل) أي لهؤلاء (إني) وزاد في التأكيد لأن ذلك في غاية الاستقرار
في النفوس فقال (لن يجيرني) أي فيدفع عني ما يدفع المجير عن جاره (من الله) أي الذي له الأمر
كله ولا أمر لأحد معه (أحد) أي كائناً من كان إن أرادني سبحانه بسوء (ولن أجد) أي أصلاً
(من دونه) أي الله تعالى (ملتحداً) أي معدلاً وموضع ميل وركون ومدخلاً وملجأ وحيلة
وإن اجتهدت كل الجهد والملتحد الملجأ وأصله المدخل من اللحد وقيل محيصاً ومعدلاً وقوله
(إلا بلاغاً) فيه أوجه أحدها أنه استثناء منقطع أي لكن إن بلغت عن الله رحمني لأن البلاغ
عن الله لا يكون داخلاً تحت قوله وإن أجد من دونه ملتحداً لأنه لا يكون من دون الله بل يكون
من الله تعالى وبإعانته وتوفيقه الثاني أنه متصل وتأويله أن الإجارة مستعارة من البلاغ
إذ هو سببها وسبب رحمته تعالى والمعنى لن أجد شيئاً أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع
فيجيرني وإذا كان متصلاً جاز نصبه من وجهين أرجحهما أن يكون بدلاً من ملتحداً لأن
الكلام غير موجب وهو اختيار الزجاج الثاني أنه منصوب على الاستثناء الثالث أنه مستثنى
من قوله لا أملك فإن التبليغ إرشاد وانتفاع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة وقوله
(من الله) أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً فيه وجهان أحدهما أن من بمعنى عن لأن بلغ
يتعدى بها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ألا بلغوا عني والثاني أنه متعلق بمحذوف على أنه صفة
لبلاغاً قال الزمخشري من ليست بصلة للتبليغ وإنما هي بمنزلة من في قوله تعالى براءة من الله
بمعنى بلاغاً كائناً من الله وقوله (ورسالاته) فيه وجهان أحدهما أنه منصوب نسقاً على بلاغاً
كأنه قيل لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات ولم يقل الزمخشري غيره والثاني أنه مجرور نسقاً
على الجلالة أي إلا بلاغاً عن الله تعالى وعن رسالاته كذا قدره أبو حيان وجعله هو الظاهر
ويجوز فيه جعل من بمعنى عن والتجوز في الحروف مذهب كوفي ومع ذلك فغير منقاس عندهم
(ومن يعص الله) أي الذي له العظمة كلها (ورسوله) الذي ختم به النبوة والرسالة فجعل
رسالته محيطة بجميع الملل في التوحيد وغيره على سبيل الجبر (فإن له) أي خاصة (نار جهنم) أي
التي تلقاه بالعبوسة والغيظ وقوله تعالى (خالدين) حال مقدرة من الهاء في له والمعنى مقدر
خلودهم والعامل الاستقرار الذي تعلق به هذا الجار وحمل على معنى من فعل ذلك فوحد أولاً

حال ولادتهم وكيف علم أنهم
لا يلدون إلا فاجراً كفاراً
(قلت) ومنهم من يؤولون
إليه من الفجور والكفر

اللفظ

للفظ وجمع للمعنى وأكد بقوله تعالى (فيها ابدا) رداً على من يدعى الانقطاع قال البقاعى وأما من يدعى أنه الاقطرق وان عذابها عذوبة فليس احد أجن منه الامن تابعه على ضلاله وغيه ومحاله وليس لهم دواء الا السيف فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بما سموه عذوبة وهم صائرون اليه وموقوفون عليه وحتى فى قوله تعالى (حتى اذا رأوا) ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدر قبلها أى لا يزالون على كفرهم الى أن يروا (ما يوعدون) من العذاب فى الآخرة أو فى الدنيا كوقعة بدر (فسيعلمون) أى فى ذلك اليوم بوعد لا خلف فيه (من أضعف ناصرا) أى من جهة الناصر أنا وان كنت فى هذا الوقت وحيدا مستضعفا أوهم (وأقل عددا) وان كانوا الآن بحيث لا يحصيهم عددا الا الله تعالى فيالله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذى بيده الملك وله جنود السموات والارض بخلاف الجبابرة فانهم لا كلام لهم الا فى تعظيم أنفسهم وازدراء غيرهم قال مقاتل لما سمعوا قوله تعالى حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قال النضر بن الحرث متى يكون هذا الذى توعدنا به قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى لهؤلاء فى جوابهم باتيانهم العذاب وسألوا استهزاء عن وقت وقوعه (ان) اى ما (أدرى) بوجه من الوجوه (أقريب ما توعدون) أى فيكون الآن أو قريبا من هذا الاوان بحيث يتوقع عن قرب وقوله (ام يجعل) اى ام بعيد يجعل (له) اى لهذا الوعد (ربى) اى المحسن الى ان قدمه أو اخره (أمدا) أى اجلا مضروبا فلا يتوقع دون ذلك الامد فهو فى كل حال متوقع فكونوا على غاية الحذر لانه لابد من وقوعه لا كلام فيه وانما الكلام فى تعيين وقته وليس الى (فان قيل) أليس انه صلى الله عليه وسلم قال بعثت أنا والساعة كهاتين فكان عالما بقرب وقوع القيامة فكيف قال ههنا لا أدرى أقريب أم بعيد (أجيب) بان المراد بقرب وقوعه هو أن ما بقى من الدنيا أقل مما انقضى فهذا القدر من القرب معلوم فاما معرفة مقدار القرب المرتب وعدم ذلك فغير معلوم * (تنبيه) * أقريب خبر مقدم وما توعدون مبتدأ مؤخر ويجوز أن يكون قريب مبتدأ لاعتماده على الاستفهام وما توعدون فاعل به أى أقريب الذى توعدون نحو أقائم أبواك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وقوله تعالى (عالم الغيب) بدل من ربى أو بيان أو خبر مبتدأ مضمر أى هو عالم الغيب كله وهو ما لم يبرز الى عالم الشهادة فهو مختص بعلمه سبحانه فلذلك سبب عنه قوله تعالى (فلا يظهر) أى بوجه من الوجوه فى وقت من الاوقات (على غيبه) الذى غيبه عن غيره فهو مختص به (أحدا) لعزة علم الغيب ولانه خاصة الملك (الا من ارتضى) وقوله تعالى (من رسول) تبيين لمن ارتضى أى الا من يصطفيه لرسالته ونبوته فيظهره على ما يشاء من الغيب وتارة يكون ذلك الرسول ملكا وتارة يكون بشرا وتارة يظهره على ذلك بواسطة ملك وتارة بغير واسطة كموسى عليه السلام فى أوقات المناجاة ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فى العالم الاعلى فى حضرة قاب قوسين أو ادنى وقال القرطبى المعنى فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فانه يظهره على ما يشاء من غيبه لان الرسل مؤيدون بالمعجزات ومنها الاخبار عن بعض المغيبات كما ورد فى التنزيل فى قوله تعالى وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم وقال الزمخشرى فى هذه الآية ابطال الكرامات لان الذين

(قوله وعلم ذلك باعلام الله اياه
ولا تزد الظالمين الا تبارا)
ختمه بقوله تبارا موافقة
لقوله قبل لا تذر على الارض

تضاف اليهم وان كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل وقد خص الله تعالى الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وفيه ابطال الكهانة والتنجيم لان اصحابهما أبعد شئ من الارتضاء وأدخله في السخط اه وانكار الكرامات مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فيثبتونها فانه يجوز أن يلهم الله تعالى بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع في المستقبل فيخبر به وهو من اطلاع الله اياه على ذلك ويدل على صحة ذلك ما روى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لقد كان فيمن قبلكم من الامم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء وان يكن في أمتي أحد فانه عمر أخرجه البخاري قال ابن وهب تفسير محدثون ملهمون ولمسلم عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول في الامم قبلكم محدثون فان يكن في أمتي منهم أحد فان عمر ابن الخطاب منهم ففي هذا اثبات كرامات الاولياء فان قيل لو جازت الكرامة للولي لما تميزت معجزة النبي من غيرها ولانسد الطريق الى معرفة الرسول من غيره (أجيب) بان معجزة النبي أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة مقترن بالتحدي ولا يجوز للولي أن يدعي خرقا للعادة مع التحدي اذ لو ادعاه الولي لكفر من ساعته فبان الفرق بين المعجزة والكرامة واما الكهانة وما ضاهاها فقال القرطبي ان العلماء قالوا لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ثم استثنى من ارتضاه من الرسل فأعلمهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي اليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم وليس المنجم ومن ضاهاه ومن يضرب بالحصا وينظر في الكواكب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه قال بعض العلماء وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف انسان مختلفي الاحوال والرتب فيهم الملك والسوقة والعالم والجاهل والغني والفقير والكبير والصغير مع اختلاف طوالعهم وتباين مواليدهم ودرجات نجومهم فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة فان قال قائل انما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه فيكون على مقتضى ذلك ان هذا الطالع ابطل احكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم وما يقتضيه طالعه المخصوص به فلا فائدة اذا في عمل المواليد ولا دلالة فيها على شقي وسعيد ولم يبق الا معاندة القرآن الكريم ولقد أحسن القائل

حكم المنجم أن طالع مولدي * يقضي علي بميتة الغرق
قل للمنجم صبحة الطوفان هل * ولد الجميع بكوكب الغرق

وقيل لعلي رضي الله عنه لما اراد لقاء الخوارج تلقاهم والقمر في العقرب فقال فاين قمرهم وكان ذلك في آخر السنة فانظر الى هذه الكلمة التي اجاب بها وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم وقال له مسافر بن عوف يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة وسر بعد ثلاث ساعات يمضين من النهار فقال له علي ولم قال له انك ان سرت في هذه الساعة اصابك واصاب أصحابك بلاء وضر شديد وان سرت في الساعة التي امرتك بها ظهرت وظفرت واصبت ما طلبت فقال علي ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم ولا لنا من بعده ثم قال فمن صدقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله أندادا اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ثم

من الكافرين ديارا

﴿سورة الجن﴾

(قوله وانه لما قام عبد الله) اى النبي صلى الله عليه

قال

قال للمنجم نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي نهيتنا عنها ثم أقبل على الناس فقال يا أيها الناس اياكم وتعلم النجوم الا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر انما المنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار والمنجم كالساحر والساحر في النار والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم أو تعمل بها لاخلدنك في الحبس ما بقيت وبقيت ولاحرمنك العطاء ما كان لي سلطان ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها فلاقى القوم فقتلهم وهي وقعة النهروان الثابتة في صحيح مسلم ثم قال لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل انما كان ذلك بتنجيمه وما لمحمد منجم وما لنا بعده وقد فتح الله تعالى علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ثم قال يا أيها الناس توكلوا على الله وثقوا به فانه يكفي عمن سواه (فانه) أي الله سبحانه يظهر ذلك الرسول على ما يريد من ذلك الغيب وذلك أنه اذا أراد اظهاره عليه (يسلك) أي يدخل ادخال السلك في الجوهرة في غاية الاحكام (من) غير أن يكون في ذلك ما يخرجه الى غير المراد (من بين يديه) أي الجهة التي يعلمها ذلك الرسول (ومن خلفه) أي الجهة التي تغيب عن علمه فصار ذلك كناية عن كل جهة قال البقاعي ويمكن أن يكون ذكر الجهتين دلالة على الكل وخصهما لان العدو متى أعربت واحدة منهما أتى منها ومتى حفظتا لم يأت من غيرهما لانه يصير بين الاولين والآخرين (رصدا) أي حرسا من جنوده يحرسونه ويحفظونه من الشياطين أن يسترقوا السمع من الملائكة ويحفظونه من الجن أن يسمعوا الوحي فيلقوه الى الكهنة قبل الرسول فيطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم حتى يبلغ ما يوحى اليه وقال مقاتل وغيره كان الله اذا بعث رسولا أتاه ابليس في صورة ملك يخبره فيبعث الله تعالى من بين يديه ومن خلفه رصدا من الملائكة يحرسونه ويطردون الشياطين فاذا جاءه شيطان في صورة ملك أخبروه بانه شيطان فاحذره واذا جاءه ملك قالوا له هذا رسول ربك وعن الضحاك ما بعث نبي الا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك (ليعلم) أي الله علم ظهور كقوله تعالى حتى نعلم المجاهدين (أن) مخففة من الثقيلة أي أنه (قد أبلغوا) أي الرسل (رسالات ربهم) وحد أولا على اللفظ في قوله تعالى من بين يديه ومن خلفه ثم جمع على المعنى كقوله تعالى فان له نار جهنم خالدين فيها والمعنى ليبلغوا رسالات ربهم كما هي محروسة من الزيادة والنقصان وقيل ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أن جبريل قد بلغ رسالات ربه وقيل ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم (وأحاط بما لديهم) أي بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفا فهو مهيمن عليها حافظ لها (وأحصى) أي الله سبحانه وتعالى (كل شيء) أي من القطر والرمل وورق الاشجار وزبد البحر وغير ذلك (عددا) ولو على أقل مقادير الذر فيما لم يزل وفيما لا يزال فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه وقال ابن جبير رضي الله عنه ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط بما لديهم فيبلغوا رسالاته ● (تنبيه) ● هذه الآية تدل على أنه تعالى عالم بالجزئيات وبجميع الموجودات وعددا يجوز أن يكون تمييزا منقولا من المفعول به والاصل أحصى عدد كل شيء كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا أي عيون الارض وأن يكون منصوبا على الحال أي وضبط كل شيء معدودا محصورا وأن يكون مصدرا في معنى الاحصاء وقول البيضاوي تبعا

وسلم وانما عدل عنه الى عبد الله تواضعا لانه واقع موقع كلامه عن نفسه

● (سورة المزمل) ●

للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جني صدق محمدا أو كذب به عتق رقبة حديث موضوع

سورة المزمل مكية

في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وقال ابن عباس رضي الله عنهما الا آيتين منها واصبر على ما يقولون والتي تليها ذكره الماوردي وقال الثعلبي ان ربك يعلم أنك تقوم الى آخر السورة فانه نزل بالمدينة وهي تسع عشرة أو عشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمائة وثمانية وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذي من توكل عليه كفاه في جميع الاحوال (الرحمن) الذي عم بنعمة الايجاد المهتدي والضال (الرحيم) الذي خص حزبه بالسداد في الافعال والاقوال وقوله تعالى (يا أيها المزمل) أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي يقال تزمل يتزمل تزملا فاذا أريد الادغام اجتلبت همزة الوصل وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه ثلاثة أقوال الاول قال عكرمة يا أيها المزمل بالنبوة والملتزم للرسالة وعنه يا أيها الذي زمل هذا الامر أي حمله ثم فتر والثاني قال ابن عباس رضي الله عنهما يا أيها المزمل بالقرآن والثالث قال قتادة رضي الله عنه يا أيها المتزمل بثيابه قال النخعي كان متزملا بقطيفة عائشة بمرط طوله أربعة عشر ذراعا قالت عائشة رضي الله عنها كان نصفه علي وأنا نائمة ونصفه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي والله ما كان خزا ولا قزا ولا مرعزى ولا ابريسما ولا صوفا كان سداه شعرا ولحمته وبرا ذكره الثعلبي ولحمة الثوب بفتح اللام وضمها والفتح أفصح ولحمة النسب كذلك والضم أفصح ولحمة البازي بالضم لا غير لانها كاللقمة قال القرطبي وهذا القول من عائشة رضي الله عنها يدل على ان السورة مدنية فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يبن بها الا بالمدينة والقول بانها مكية لا يصح وقال الضحاك تزمل لمنامه وقيل بلغه من المشركين قول سوء فيه فاشتد عليه فتزمل وتدثر فنزلت يا أيها المزمل ويا أيها المدثر وقيل كان هذا في ابتداء ما أوحي اليه فانه صلى الله عليه وسلم لما جاءه الوحي في غار حراء رجع الى خديجة رضي الله عنها زوجته يرجف فؤاده فقال زملوني زملوني لقد خشيت على نفسي أي أن يكون هذا مبادي شعر أو كهانة وكل ذلك من الشيطان أو أن يكون الذي ظهر له بالوحي ليس الملك وكان صلى الله عليه وسلم يبغض الشعر والكهانة غاية البغضة فقالت له وكانت وزيرة صدق رضي الله تعالى عنها كلا والله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ونحو هذا من الكمال الذي يثبت وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان نائما في الليل متزملا في قطيفة فنبه ونودي بما يهجن تلك الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته فقيل له يا أيها المزمل (قم الليل) أي الذي هو وقت الخلوة والخفية والستر فصل لنا في كل ليلة من هذا الجنس وقف بين يدينا بالمناجاة والانس بما أنزل عليك من كلامنا فانا نريد اظهارك واعلاء قدرك في البر والبحر والسر والجهر وقيام الليل في الشرع معناه الصلاة فلذا لم يقيده وهي جامعة لانواع الاعمال الظاهرة والباطنة وهي عمادها فذكرها دال على ما عداها ولما كان للبدن حظ في الراحة قال تعالى مستثنيا من الليل (الا قليلا) أي من كل ليلة فان الاشتغال بالنوم فعل من

(قوله انا سنلقي عليك قولا ثقيلا) وصف القرآن بالثقل لثقله بنزول الوحي على نبيه حتى كان يعرق في

لايهمه أمر ولا يعنيه شأن الاترى الى قول ذى الرمة

وكائن تخطت ناقتى من مفازة * ومن نائم عن ليلها متزمل

يريد الكسلان المتقاعس الذى لا ينهض فى معاظم الامور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ونحوه * سهدا اذا ما نام ليل الهوجل * ومن أمثالهم

أوردها سعد وسعد مشتمل * ماهكذا توردياسعد الابل

فذمه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس وأمر بان يختار على الهجود التهجد وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة والمجاهدة فى الله لاجرم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر وأقبلوا على احياء لياليهم ورفضوا له الرقاد والدعة وتجاهدوا فيه حتى انتفخت اقدامهم واصفرت الوانهم وظهرت السيمافى وجوههم وتراقى أمرهم الى حد رحمهم له ربهم فخفف عنهم وقال الكلبي انما تزمل صلى الله عليه وسلم بثيابه ليتهيأ للصلاة وهو اختيار الفراء فهو على هذا ليس بتهجين بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التى كان عليها وأمر بان يدوم على ذلك ويواظب عليه وعن عكرمة رضى الله عنه أن المعنى يا أيها الذى زمل أمرا عظيما اى حمله والزمل الحمل قال البغوى قال الحكماء كان هذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فى أول الوحى قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعد بالنبى والرسول وقال السهيلى ليس المزمل من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم كما ذهب اليه بعض الناس وعدوه فى أسمائه صلى الله عليه وسلم وانما المزمل اسم مشتق من حاله التى كان عليها حين الخطاب وكذلك المدثر وفى خطابه بهذا الاسم فائدتان احداهما الملاطفة فان العرب اذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التى هو عليها كقول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى حين غاضب فاطمة رضى الله تعالى عنهما فاتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له قم أباتراب اشعارا له بانه غير عاتب عليه وملاطفة له وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة قم يانومان وكان نائما ملاطفة له واشعارا بترك العتب والتأنيب فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم يا أيها المزمل قم فيه تأنيس له وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقد ليله أن يتنبه الى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه لان الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة والليل مدة من غروب الشمس الى طلوع الفجر قال القرطبي واختلف هل كان قيامه فرضا أو نفلا والدلائل تقوى أن قيامه كان فرضا لان المندوب لا يقع على بعض الليل دون بعض لان قيامه ليس مخصوصا بوقت دون وقت * واختلف هل كان فرضا على النبى صلى الله عليه وسلم وحده او عليه وعلى من كان قبله من الانبياء او عليه وعلى أمته على ثلاثة أقوال الاول قول سعيد بن جبير رضى الله عنه لتوجه الخطاب اليه الثانى قول ابن عباس رضى الله عنهما قال كان قيام الليل فريضة على النبى صلى الله عليه وسلم والانبياء قبله الثالث قول عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أيضا أنه كان فرضا عليه وعلى أمته لما روى مسلم أن هشام بن عامر قال لعائشة رضى الله عنها أنبئينى عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ألست تقرأ يا أيها المزمل فقلت بلى فقالت فان الله عز وجل افترض قيام الليل

اليوم الشاق أو الثقيل العمل بما فيه اوالثقيل فى الميزان اوالثقيل على المنافقين (قوله السماء منفطر به)

فى أول هذه السورة فقام نبى الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا وأمسك الله عز وجل
خاتمتها اثنى عشر شهرا فى السماء حتى أنزل الله عز وجل فى آخر هذه السورة التخفيف فصار
قيام الليل تطوعا بعد فريضة وقيل عسر عليهم تمييز القدر الواجب فقاموا الليل كله وشق
عليهم فنسخ بقوله تعالى آخرها فاقرؤا ما تيسر من القرآن وكان بين الوجوب ونسخه سنة
وقيل نسخ التقدير بمكة وبقى التهجد حتى نسخ بالمدينة وروى وكيع ويعلى عن ابن عباس
رضى الله عنهما قال لما نزلت يا أيها المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان
حتى نزل آخرها وكان بين نزول أولها وآخرها نحو من سنة وقال سعيد بن جبير رضى الله
عنه مكث النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل فنزلت بعد عشر سنين
ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل فخفف الله تعالى عنهم وقيل كان قيام الليل واجبا
ثم نسخ بالصلوات الخمس والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم بعث يوم الاثنين فى رمضان وهو ابن
أربعين سنة وقيل ثلاث وأربعين وآمنت به خديجة رضى الله عنها ثم بعدها قيل على رضى
الله عنه وهو ابن تسع سنين وقيل ابن عشر وقيل ابو بكر وقيل زيد بن حارثة ثم أمر بتبليغ
قومه بعد ثلاث من مبعثه فاول ما فرض عليه صلى الله عليه وسلم بعد الانذار والدعاء الى
التوحيد من قيام الليل ما ذكر فى أول السورة ثم نسخ بما فى آخرها ثم نسخ بايجاب الصلوات
الخمس ليلة الاسراء الى بيت المقدس بمكة بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر ليلة سبع
وعشرين من رجب هذا ما ذكره النووى فى روضته وقال فى فتاويه بعد النبوة بخمس
اوست وجعل الليلة من ربيع الاول وخالفهما فى شرح مسلم وجزم بانها من ربيع الآخر
وقلد فيها القاضى عياضا والذى عليه الاكثر ما فى الروضة واستمر يصلى الى بيت المقدس مدة
اقامته بمكة وبعد الهجرة ستة عشر شهرا أو سبعة عشر ثم أمر باستقبال الكعبة ثم فرض
الصوم بعد الهجرة بسنتين تقريبا وفرضت الزكاة بعد الصوم وقيل قبله وفى السنة الثانية
قيل فى نصف شعبان وقيل فى رجب حولت القبلة وفيها فرضت صدقة الفطر وفيها ابتدأ صلى
الله عليه وسلم صلاة عيد الفطر ثم عيد الاضحى ثم فرض الحج سنة ست وقيل سنة خمس ولم يحج
صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة الا حجة الوداع واعتمر أربعا وتوفى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين
لاثنى عشرة خلت من شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة من الهجرة *(فائدة)* الانبياء
عليهم الصلاة والسلام كلهم معصومون قبل النبوة من الكفر وفى المعاصى خلاف وبعدها
من الكبائر وكذا من الصغائر ولو سهوا عند المحققين وقوله تعالى (نصفه) بدل من قليلا
وقلته بالنظر الى الكل (او انقص منه) اى من النصف (قليلا) أى الثلث (او زد عليه) أى
على النصف الى الثلثين واو للتخيير فكان صلى الله عليه وسلم مخيرا بين هذه المقادير الثلاثة وكان
صلى الله عليه وسلم يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب وكذا بعض أصحابه
واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت اقدامهم وقد تقدم أن ذلك نسخ بايجاب الصلوات الخمس
فصار قيام الليل تطوعا فينبغى للمتعبد المواظبة عليه خصوصا فى الوقت الذى يبارك الله
تعالى بالتجلى فيه فانه صح أنه ينزل سبحانه عن ان تشبه ذاته شيئا او نزوله نزول غيره بل هو كناية
عن فتح باب السماء الذى هو كناية عن وقت استجابة الدعاء حتى يبقى ثلث الليل وفى رواية حتى

ى بذلك اليوم لشدته وانما
يوم ثبت صفة السماء مع
م خامو تثبتة لانها بمعنى
السقف تقول هذا سماء

يبقى شطر الليل الآخر الى سماء الدنيا فيقول سبحانه هل من سائل فأعطيه هل من تائب فأتوب عليه هل من كذا هل من كذا حتى يطلع الفجر ولما أمر بالقيام وقدره وقته وعينه أمر بهيئة التلاوة التى هى روح الصلاة على وجه عام فقال تعالى (ورتل القرآن) أى اقرأه على ترسل وتؤدة وتبيين حروفه واشباع حركاته بحيث يتمكن السامع من عدها ويجىء المتلو منه شبيها بالثغر المرتل وهو المفلج المشبه بنور الاقحوان وأن لا يهذه هذا ولا يسرده سردا كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه شر السير الحقحقة وشر القراءة الهذرمة وقال ابن مسعود رضى الله عنه ولا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر ولكن قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم احدكم آخر السورة وقوله تعالى (ترتيلا) تأكيد فى الامر به وأنه لا بد منه للقارئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما اقرأ على هينتك ثلاث آيات أو أربعا أو خمسا وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قام حتى أصبح بآية والآية ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم وسئلت عائشة رضى الله عنها عن قراءته صلى الله عليه وسلم فقالت لا كسردكم هذا لو أراد السامع ان يعد حروفها لعدها وسئل أنس رضى الله عنه كيف كانت قراءة النبى صلى الله عليه وسلم قال كانت مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم وجاء رجل الى ابن مسعود رضى الله عنه فقال قرأت المفصل الليلة فى ركعة فقال هذا كهذ الشعر لقد عرفت النظائر التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين فى ركعة وروى الحسن رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم مر برجل يقرأ آية ويبكى فقال ألم تسمعوا الى قول الله عز وجل ورتل القرآن ترتيلا هذا الترتيل وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن عوف قال قال النبى صلى الله عليه وسلم يرقى بقارئ القرآن يوم القيامة فيوقف فى أول درج الجنة ويقال له اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها وندب اصغاء اليه وبكاء عند القراءة وتحسين صوت بها وتعوذ بها جهرا واعادته افصل لطويل وجلوس لها واستقبال وتدبر وتخشع وكرهت بفم نجس وجازت بحمام وهى نظرا فى المصحف أفضل منها عن ظهر قلب ثم ان زاد خشوعه وحضور قلبه فى القراءة عن ظهر قلب فهى أفضل فى حقه وهى أفضل من ذكر لم يخص بمحل ويحرم توسد مصحف وندب كتبه وايضاحه ونقطه وشكله ويحرم كتبه بنجس ومسه بنجس غير معفو عنه وتحرم القراءة بالشواذ وهى ما نقل آحادا وبعكس الآى وكره العكس فى السور الا فى تعليم وندب ختم القرآن أول نهار وأول ليل وختمه فى الصلاة أفضل من ختمه خارجها وندب صيام يوم الختم الا أن يصادف يوما نهى الشرع عن صيامه وندب الدعاء بعده وحضوره والشروع بعده فى ختمة أخرى وندب كثرة تلاوته ونسيانه كبيرة وكذا نسيان شئ منه ويحرم تفسيره بلا علم (انا) أى بما لنا من العظمة (سنلقى) أى بوعد لا خلف فيه (عليك قولا) أى قرآنا واختلف فى معنى قوله تعالى (ثقيلا) فقال قتادة رضى الله عنه ثقيل والله فرائضه وحدوده وقال مجاهد رضى الله عنه حلاله وحرامه وقال محمد بن كعب رضى الله عنه ثقيلا على المنافقين لانه يهتك أسرارهم ويبطل أديانهم وقيل على الكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم

البيت اى سقفه قال تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا أولا ما تذكر وتؤنث أو جاء منفطر على

والبيان افلاامم وسب آلهتهم قال السدى رضى الله عنه ثقيلا بمعنى كريم ماخوذ من قولهم فلان ثقل على أى كرم على وقال الفراء ثقيلا أى رزينا وقال الحسن بن الفضل ثقيلا أى لا يحمله الاقلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد وقال ابن زيد هو والله ثقيل مبارك كما ثقل فى الدنيا ثقل فى الميزان يوم القيامة وقيل ثقيل أى ثابت كثبوت الثقيل فى محله ومعناه انه ثابت الاعجاز لا يزول اعجازه أبدا وقيل ثقيلا بمعنى ان العقل الواحد لا يفى بادراك فوائده ومعانيه بالكلية فالمتكلمون غاصوا فى بحار معقولاته والفقهاء بحثوا فى احكامه وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعانى ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ما وصل اليها المتقدمون فعلمنا ان الانسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله فصار كالجبل الثقيل الذى يعجز الخلق عن حمله والاولى ان تحمل هذه المعانى كلها فيه وقيل المراد هو الوحى كما جاء فى الخبر ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أوحى اليه وهو على ناقته وضعت جرانها أى صدرها على الارض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه وعن الحرث بن هشام أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى فقال النبى صلى الله عليه وسلم أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس وهذا أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فاعى ما يقول قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا أى يجرى عرقه كما يجرى الدم من الفاصد وقوله فيفصم عنى أى ينفصل عنى ويفارقنى وقد وعيت أى حفظت ما قال وقال القشيرى القول الثقيل هو قول لا اله الا الله لانه ورد فى الخبر لا اله الا الله خفيفة على اللسان ثقيلة فى الميزان وقال الزمخشرى هذه الآية اعتراض ثم قال واراد بهذا الاعتراض أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التى ورد بها القرآن لان الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلابد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه اه يعنى فالاعتراض من حيث المعنى لا من حيث الصناعة وذلك أن قوله تعالى (ان ناشئة الليل) أى القيام بعد النوم (هى اشد وطأ) أى موافقة السمع للقلب على تفهم القرآن هى أشد مطابق لقوله قم الليل فكأنه شابه الاعتراض من حيث دخوله بين هذين المناسبين والمعنى سنلقى عليك بافتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حمله لان الليل للمنام فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك الا بحمل مشقة شديدة على النفس ومجاهدة الشيطان فهو أمر ثقيل على العبد ٭ ولما كان التهجد يجمع القول والفعل وبين ما فى الفعل لانه أشق فكان بتقديم الترغيب بالمدحة أحق اتبعه القول فقال (واقوم قيلا) أى وأعظم سدادا من جهة القيل فى فهمه ووقعه فى القلوب لحضور القلب لان الاصوات هادئة والدنيا ساكنة فلا يضطرب على المصلى ما يقرؤه وقال قتادة ومجاهد رضى الله عنهما أصوب للقراءة وأثبت للقول لانه زمان التفهم لرياقة الليل بهدو الاصوات وتجلى الرب سبحانه بحصول البركات وأخلص من الرياء فبين الله تعالى بهذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار وان الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما امكن أعظم للاجر وأجلب للثواب كان على بن الحسين رضى الله عنه يصلى بين المغرب والعشاء ويقول هو ناشئة الليل وقال عطاء وعكرمة رضى الله عنهم هو بدء الليل وقال فى الصحاح ناشئة الليل أول ساعاته وقال ابن عباس

ومجاهد

النسب أى ذات انفطار كامرأة مرضع وحائض اى ذات ارضاع وذات حيض (قوله فمن شاء اتخذ الى ربه

ومجاهد وغيرهما هي الليل كله لانه ينشأ بعد النهار وهو اختيار مالك قال ابن عربي وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة وقالت عائشة وابن عباس أيضا ومجاهد رضي الله عنهم انما الناشئة القيام بالليل بعد النوم ومن قام قبل النوم فما قام ناشئة وقال يمان وابن كيسان هو القيام من آخر الليل وأما قوله تعالى أشد وطأ أي أثقل على المصلي من ساعات النهار لان الليل وقت منام وراحة فاذا قام الى صلاة الليل فقد تحمل المشقة العظيمة هذا على قراءة كسر الواو وفتح الطاء وبعدها ألف ممدودة وهمزة منونة وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر وقرأ الباقون بفتح الواو وسكون الطاء وبعدها همزة منونة فهي مصدر واطأت وطأ ومواطأة اي وافقت على الامر من الوفاق تقول فلان يواطئ اسمه اسمي اي يوافقه فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان لانقطاع الاصوات والحركات قاله مجاهد وغيره قال تعالى ليواطؤا عدة ما حرم الله أي ليوافقوا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اشدد وطأتك على مضر وقيل أشد مهادا للتصرف في الفكر والتدبر وقيل أشد ثباتا من النهار فان الليل يخلو فيه الانسان بما يعمله فيكون ذلك أثبت للعمل والوطء الثبات تقول وطئت الارض بقدمي وفي الجملة عبادة الليل أشد نشاطا وأتم اخلاصا وأكثر بركة وأبلغ في الثواب (ان لك) أي أيها المتهجد أو يا أكرم الخلق ان كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (في النهار) الذي هو محل السعي في مصالح الدنيا (سبحا طويلا) أي تصرفا وتقلبا واقبالا وادبارا في حوائجك وأشغالك والسبح مصدر سبح استعير للتصرف في الحوائج من السباحة في الماء وهي البعد فيه وقال القرطبي السبح الجري والدوران ومنه السباحة في الماء لتقلبه بيديه ورجليه وفرس سابح شديد الجري وقيل السبح الفراغ اي ان لك فراغا لحاجات النهار وعن ابن عباس رضي الله عنهما سبحا طويلا يعني فراغا طويلا لنومك وراحتك فاجعل ناشئة الليل لعبادتك وقيل ان فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه (واذكر اسم ربك) اي المحسن اليك والموجد والمدبر لك بكل ما يكون ذكرا من اسم وصفة وثناء وخضوع وتسبيح وتحميد وصلاة وقراءة ودعاء واقبال على علم شرعي وادب مرعي ودم على ذلك في ليلك ونهارك واحرص عليه فاذا عظمت الاسم بالذكر فقد عظمت المسمى بالتوحيد والاخلاص وذلك عون لك على مصالح الدارين أما الآخرة فواضح وأما الدنيا فقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أعز الخلق عليه فاطمة ابنته رضي الله تعالى عنها لما سألته خادما يقيها التعب الى التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم (وتبتل) اي اجتهد في قطع نفسك عن كل شاغل والاخلاص في جميع أعمالها بالتدريج قليلا قليلا منتهيا (اليه) ولا تزل على ذلك حتى يصير ذلك لك خلقا فتكون نفسك كأنها منقطعة بغير قاطع وقوله تعالى (تبتيلا) مصدر تبتل جيء به رعاية للفواصل وهو ملزوم التبتل قال الزمخشري فان قلت كيف قيل تبتيلا مكان تبتلا قلت لان معنى تبتل بتل نفسه فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل اهـ والتبتيل الانقطاع ومنه امرأة بتول أي منقطعة عن النكاح وفي الحديث انه نهى عن التبتل وقال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة اي مؤن النكاح فليتزوج والمراد به في الآية الكريمة الانقطاع الى عبادة الله تعالى كما مرت الاشارة اليه دون ترك النكاح والتبتل في الاصل

سبيلا) وان قلت ان جعل
اتخذ الى ربه سبيلا جوابا
فاين الشرط اذ شاء لا يصلح
شرطا به ونذكر مفعوله

الانقطاع عن الناس والجماعات وقيل ان اصله عند العرب التفرد قاله ابن عرفة وقال ابن العربي هذا فيما مضى واما اليوم فقد مرجت عهود الناس وخفت أماناتهم واستولى الحرام على الحطام فالعزلة خير من الخلطة والعزبة أفضل من التأهل ولكن معنى الآية وانقطع عن الاوثان والاصنام وعن عبادة غير الله تعالى وكذلك قال مجاهد رضي الله عنه معناه أخلص له العبادة ولم يرد التبتيل فصار التبتل مأمورا به في القرآن منهيا عنه في السنة ومتعلق الامر غير متعلق النهي فلا يتناقضان وانما بعث لتبيين ما أنزل اليهم فالتبتل المأمور به الانقطاع الى الله تعالى اخلاص العبادة كما قال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين والتبتل المنهي عنه هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواضع القطر يفر بدينه من الفتن * ولما كان الواجب على كل أحد شكر المنعم بين سبحانه الذي انعم بسكن الليل الذي أمرنا بالتهجد فيه ومنتشر النهار الذي أمرنا بالسبح فيه فقال تعالى (رب المشرق) أي موجد محل الانوار التي بها ينمحي هذا الليل الذي أنت قائم فيه ويضيء بها الصباح وعند الصباح يحمد القوم السرى قال العلامة تقي الدين بن دقيق العيد

كم ليلة فيك وصلنا السرى * لا نعرف الغمض ولا نستريح
واختلف الاصحاب ماذا الذي * يزيل من شكواهم أو يريح
فقيل تعريسهم ساعة * وقلت بل ذكراك وهو الصحيح

(والمغرب) أي الذي يكون عنده الليل الذي هو موضع السكون ومحل الخلوات ولذيذ المناجاة فلا تغرب شمس ولا قمر ولا نجم الا بتقديره (لا اله) أي لا معبود بحق (الا هو) أي ربك الذي دلت تربيته لك على مجامع العظمة وأبهى صفات الكمال والمنزه عن كل شائبة نقص وقرأ رب ابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي بكسر الباء على البدل من ربك وعن ابن عباس رضي الله عنهما على القسم باضمار حرف القسم كقولك الله لافعلن وجوابه لا اله الا هو كما تقول لا أحد في الدار الا زيد والباقون برفعها على انه خبر مبتدا محذوف أو مبتدا خبره لا اله الا هو (فاتخذه) أي خذه بجميع جهدك وذلك بافرادك اياه بكونه (وكيلا) أي على كل من خالفك بان تفوض جميع أمورك اليه فانه يكفيكها كلها فانه المتفرد بالقدرة عليها ولا شئ في يد غيره فلا تهتم بشئ أصلا قال البقاعي وليس ذلك ان يترك الانسان كل عمل فان ذلك طمع فارغ بل بالاجمال في طلب كل ما ندب الانسان الى طلبه ليكون متوكلا في السبب لا من دون سبب فانه يكون حينئذ كمن يطلب الولد من غير زوجة وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الاسباب ولو لم يكن في افراده بالوكالة الا انه يفارق الوكلاء بالعظمة والشرف والرفق من جميع الوجوه فان وكيلك من الناس دونك وانت تتوقع أن يكلمك كثيرا في مصالحك وربك أعظم العظماء وهو يأمرك بان تكلمه كثيرا في مصالحك وتسأله طويلا ووكيلك من الناس اذا حصل مالك سألك الاجر وهو سبحانه يوفر مالك ويعطيك الاجر ووكيلك من الناس ينفق عليك من مالك وهو سبحانه يرزقك وينفق عليك من ماله ومن تمسك بهذه الآية عاش حرا كريما ومات خالصا شريفا ولقي الله تعالى عبدا صافيا مختارا تقيا ومن شرط الموحد أن يتوجه الى

أو جعل المجموع شرطا فاين الجواب (قلت) معناه فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا أو فمن شاء ان

الواحد ويقبل عليه ويبذل له نفسه ويفوض اليه أمره ويترك التدبير ويثق به ويركن اليه ويتذلل لربوبيته ويتواضع لعظمته (واصبر على ما يقولون) أى المخالفون المفهومون من الوكالة من الاذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من قولهم ولا تمتنع من دعواهم وفوض أمرهم الى فانى اذا كنت وكيلا لك أقوم باصلاح أمرك أحسن من قيامك بأمور نفسك (واهجرهم) أى أعرض عنهم (هجرا جميلا) أى لا تتعرض لهم ولا تشتغل بمكافأتهم فان ذلك ترك للدعاء الى الله تعالى وكان هذا قبل الامر بالقتال فانه صلى الله عليه وسلم منع فى أول الاسلام من قتال الكفار وأمر هو وأصحابه بالصبر على اذاهم بقوله تعالى لتبلون فى أموالكم الآية ثم أمر به اذا ابتدؤا بقوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ثم أبيح له ابتداؤه فى غير الاشهر الحرم ثم أمر به مطلقا من غير تقييد بشرط ولا زمان بقوله تعالى واقتلوهم حيث ثقفتموهم (وذرنى) أى اتركنى (والمكذبين) أى لا تحتاج الى الظفر بمرادك ومشيئتك الا أن تخلى بينى وبينهم بأن تكل أمرهم الى وتستكفينيه فان فى ما يفرغ بالك ويجلى همك وليس ثم منع حتى تطلب اليه أن تذره واياه الا ترك الاستكفاء والتفويض كأنه اذا لم يكل اليه أمره فكأنه منعه منه فاذا وكله اليه فقد أزال المنع وتركه واياه وفيه دليل على الوثوق بانه يتمكن من الوفاء باقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت فى المطعمين يوم بدر وهم عشرة فلم يكن الا يسيرا حتى قتلوا ببدر وقال يحيى بن سلام انهم بنو المغيرة وقال سعيد بن جبير أخبرت انهم اثنا عشر رجلا وقال البغوى نزلت فى صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين وقوله تعالى (أولى النعمة) نعت للمكذبين أى أصحاب التنعم والترفه *(فائدة)* النعمة بالفتح التنعم وبالكسر الانعام وبالضم المسرة (ومهلهم) أى اتركهم برفق وتأن وتدريج ولا تهتم بشأنهم وقوله تعالى (قليلا) نعت لمصدر أى تمهيلا قليلا أو لظرف زمان محذوف أى زمانا قليلا فقتلوا بعد يسير ببدر وقوله تعالى (ان لدينا أنكالا) جمع نكل بالكسر وهو القيد الثقيل الذى لا ينفك أبدا وقال الكلبى أغلالا من حديد (وجحيما) أى نارا حامية جدا شديدة الاتقاد بما كانوا يتقيدون به من تبريد الشراب والتنعم برقيق اللباس وتكلف أنواع الراحة (وطعاما ذا غصة) أى يغص به فى الحلق وهو الزقوم أو الضريع أو الغسلين أو الشوك من نار لا يخرج ولا ينزل (وعذابا أليما) أى مؤلما ومعنى الآية ان لدينا فى الآخرة ما يضاد تنعمهم فى الدنيا وهى هذه الامور الاربعة النكال والجحيم والطعام الذى يغص به والعذاب الاليم والمراد به سائر أنواع العذاب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق وعن الحسن أنه أمسى صائما فأتى بطعام فعرضت له هذه الآية فقال ارفعه ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال ارفعه وكذلك الليلة الثالثة فأخبر ثابت البنانى ويزيد الضبى ويحيى البكاء فجاؤا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق وقوله تعالى (يوم ترجف) منصوب بالاستقرار المتعلق به لدينا والرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة فتزلزل (الارض) أى كلها (والجبال) أى التى هى أشدها (وكانت) أى وتكون (الجبال) التى هى مراسى الارض وأوتادها وعبر عن شدة الاختلاط والتلاشى بالتوحيد فقال

يتخذ الى ربه سبيلا اتخذ الى ربه سبيلا كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر اى فمن شاء الايمان

تعالى (كثيبا) أي رملا مجتمعا من كثب الشيء اذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله ومنه الكثبة من اللبن (مهيلا) قال ابن عباس رملا سائلا يتناثر وقال الكلبي هو الذي اذا أخذت منه شيأ تبعك ما بعده قال القرطبي وأصله مهيول وهو مفعول من قولك هلت عليه التراب أهيله اهالة وهيلا اذا صببته يقال مهيل ومهيول ومكيل ومكيول ومدين ومديون ومعين ومعيون قال الشاعر

قد كان قومك يحسبونك سيدا ۞ واخال انك سيد معيون

وقال عليه الصلاة والسلام حين شكوا اليه الجدوبة اتكيلون أم تهيلون قالوا نهيل قال كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه وأصل مهيل مهيول استثقلت الضمة على الياء فنقلت الى الهاء فالتقى ساكنان فسيبويه واتباعه حذفوا الواو وكانت أولى بالحذف لانها زائدة وان كانت القاعدة أن ما يحذف لالتقاء الساكنين الاول ثم كسروا الهاء لتصح الياء ووزنه حينئذ مفعل والكسائي ومن تبعه حذفوا الياء لان القاعدة حذف الاول كما مر ولما خوف تعالى المكذبين أولي النعمة بأهوال يوم القيامة خوفهم بعد ذلك باهوال الدنيا فقال تعالى (انا) أي بما لنا من العظمة (ارسلنا اليكم) يا أهل مكة خصوصا بشرفا لكم خاصة والى كل من بلغته الدعوة عامة (رسولا) أي عظيما جدا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وامامهم وأجلهم وأفضلهم قدرا (شاهدا عليكم) أي بما تصنعون بؤدي الشهادة عند طلبها منه يوم تنزع من كل أمة شهيدا وهو يوم القيامة (كما ارسلنا) أي بما لنا من العظمة (الى فرعون) أي ملك مصر (رسولا) وهو موسى عليه الصلاة والسلام وهذا تهديد لاهل مكة بالاخذ الوبيل قال مقاتل وانما ذكر موسى وفرعون دون سائر الرسل لان أهل مكة ازدروا محمدا صلى الله عليه وسلم واستخفوا به لانه ولد فيهم كما أن فرعون ازدرى بموسى عليه السلام لانه رباه ونشأ فيما بينهم كما قال تعالى حكاية عن فرعون ألم نربك فينا وليدا وذكر الرازي السؤال والجواب قال ابن عادل وهو ليس بالقوي لان ابراهيم عليه السلام ولد ونشأ فيما بين قوم نمروذ وكان آزر وزير نمروذ على ما ذكره المفسرون وكذا القول في هود ونوح وصالح ولوط لقوله تعالى في قصة كل واحد منهم لفظة أخاهم لانه من القبيلة التي بعث اليها انتهى وقد يقال الجامع بين محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام التربية فان أبا طالب تربى عنده النبي صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام تربى عند فرعون ولم يكن ذلك لغيرهما (فعصى فرعون الرسول) المعهود لتقدم ذكره وهذه أل العهدية والعرب اذا قدمت اسما ثم أتوا به ثانيا أتوا به معرفا بال أو أتوا بضميره لئلا يلتبس بغيره نحو رأيت رجلا فاكرمت الرجل أو فاكرمته ولو قلت فاكرمت رجلا لتوهم أنه غير الاول وقال المهدوي ودخلت الالف واللام في الرسول لتقدم ذكره ولذا اختير في أول الكتب سلام عليكم وفي آخرها السلام عليكم ثم تسبب عن عصيانه قوله تعالى (فأخذناه) أي فرعون بما لنا من العظمة وبين انه أخذ قهر وغضب بقوله تعالى (أخذا وبيلا) أي ثقيلا شديدا وضرب وبيل وعذاب وبيل أي شديد قاله ابن عباس ومجاهد ومنه مطر وابل أي شديد قاله الاخفش وقال الزجاج اي ثقيلا غليظا ومنه قيل للمطر وابل وقيل مهلكا والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة وفي ذلك تخويف لاهل مكة ثم خوفهم بيوم

فليؤمن ومن شاء الكفر فليكفر (قوله فاقرؤا ما تيسر من القرآن) اى في الصلاة بان تصلوا ما تيسر

القيامة فقال تعالى (فكيف تتقون ان كفرتم) اى توجدون الوقاية التى تقى انفسكم اذا كفرتم فى الدنيا والمعنى لا سبيل لكم الى التقوى اذا رأيتم القيامة وقيل معناه فكيف تتقون العذاب يوم القيامة اذا كفرتم فى الدنيا وقوله تعالى (يوما) مفعول تتقون اى عذابه اى باى حصن تتحصنون من عذاب الله يوم (يجعل الولدان) وقوله تعالى (شيبا) جمع أشيب والاصل فى الشين الضم وكسرت لمجانسة الياء ويقال فى اليوم الشديد يوم يشيب نواصى الاطفال وهو مجاز ويجوز أن يراد فى الآية الحقيقة والمعنى يصيرون شيوخا شمطا من هول ذلك اليوم وشدته وذلك حين يقال لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ذريتك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك وفى رواية والخير فى يديك فينادى بصوت ان الله يأمرك ان تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يارب وما بعث النار قال من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعين فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قالوا يارسول الله أينا ذلك الرجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم ابشروا فان من ياجوج وماجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ثم قال انتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الابيض او كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الاسود وفى رواية كالرقمة فى ذراع الحمار وهى بفتح الراء وسكون القاف الاثر الذى فى بطن عضد الحمار وانى لارجو ان تكونوا ربع اهل الجنة فكبر القوم ثم قال ثلث اهل الجنة فكبروا ثم قال شطر اهل الجنة فكبروا وفى هذا اشارة الى الاعتناء بهم لان اعطاء الانسان مرة بعد مرة دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته وفى هذا ايضا حملهم على تجديد شكر الله تعالى وحمده على انعامه عليهم وهو تكبيرهم لهذه البشارة العظيمة ثم وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى (السماء منفطر) أى ذات انفطار اى انشقاق (به) اى بسبب ذلك اليوم لشدته فالباء سببية وجوز الزمخشرى ان تكون للاستعانة فانه قال والباء فى به مثلها فى قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به وقال القرطبى معنى به اى فيه اى فى ذلك اليوم وقيل به اى بالامر اى السماء منفطر بما يجعل الولدان شيبا وقيل منفطر بالله اى بامره * (تنبيه) * انما لم تؤنث الصفة لوجوه منها قال ابو عمرو بن العلاء لانها بمعنى السقف تقول هذا سماء البيت قال تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا ومنها انها على النسبة اى ذات انفطار نحو امرأة مرضع وحائض اى ذات ارضاع وذات حيض ومنها انها تذكر وتؤنث انشد الفراء

فلو رفع السماء اليه قوما * لحقنا بالسماء وبالسحاب

ومنها انه اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء فيقال سماءة واسم الجنس يذكر ويؤنث ولهذا قال ابو على الفارسى هو كقوله تعالى منتشر واعجاز نخل منقعر يعنى جاء على احد الجائزين لان تانيثها ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز تذكيره قال الشاعر والمهاة بالاعد الجبرى مكحول والضمير فى قوله تعالى (كان وعده مفعولا) يجوز ان يكون لله وان لم يجر له ذكر للعلم به فيكون المصدر مضافا لفاعله ويجوز ان يكون لليوم فيكون مضافا لمفعوله

من الصلاة بما تيسر من
القرآن وهذا يرجع الى
قول بعضهم ان المراد
باقرؤا صلوا وان عبر

والفاعل وهو الله تعالى مقدر قال المفسرون كان وعده بالقيامة والحساب والجزاء مفعولا كائنا لا شك فيه ولا خلف وقال مقاتل كان وعده بان يظهر دينه على الدين كله (ان هذه) أى الآيات الناطقة بالوعيد الشديد أو السورة (تذكرة) أى تذكير عظيم هو أهل لان يتعظ به ويعتبر به المعتبر ولا سيما ذكر فيها لاهل الكفر من العذاب ولما كان سبحانه قد جعل للانسان عقلا يدرك به الحسن والقبيح واختيارا يتمكن به من اتباع ما يريد فلم يبق له مانع من جهة اختيار الاصلح والاحسن الا قهر المشيئة التى لا اطلاع له عليها ولا حيلة له فيها سبب عن ذلك قوله تعالى (فمن شاء اتخذ) أى بغاية جهده (الى ربه) أى المحسن اليه خاصة لا الى غيره (سبيلا) أى طريقا الى رضاه ورحمته فليرغب فقد أمكن له لانه أظهر له الحجج والدلائل قيل نسخت بآية السيف وكذلك قوله تعالى فمن شاء ذكره قال الثعلبى والاشبه أنه غير منسوخ (ان ربك) أى المدبر لامرك على ما يكون احسانا اليك ورفقا بك (يعلم انك تقوم) أى فى الصلاة كما أمرت به أول السورة (ادنى) أى زمانا أقل والادنى مشترك بين الاقرب والادون الانزل رتبة لان كلا منهما يلزم عنه قلة المسافة (من ثلثى الليل) وقرأ (ونصفه وثلثه) ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى بنصب الفاء بعد الصاد ونصب المثلثة بعد اللام ورفع الهاء فيهما عطف على أدنى والباقون بكسر الفاء والمثلثة وكسر الهاء فيهما ٣ عطف على ضمير تقوم وقيامه كذلك مطابق لما وقع التضمير فيه أول السورة من قيام النصف بتمامه أو الناقص منه وهو الثلث أو الزائد عليه وهو الثلثان أو الاقل من الاقل من النصف وهو الربع وقوله تعالى (وطائفة من الذين معك) عطف على ضمير تقوم وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة من أصحابه كذلك للتأسى به ومنهم من كان لا يدرى كم يصلى من الليل وكم بقى منه فكان يقوم الليل كله احتياطا فقاموا حتى انتفخت اقدامهم سنة واكثر فخفف عنهم بقوله تعالى (والله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يقدر) أى تقديرا عظيما هو فى غاية التحرير (الليل والنهار) أى هو العالم بمقادير الليل والنهار فيعلم القدر الذى تقومون من الليل والذى تنامون منه (علم ان) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى انه (لن تحصوه) أى الليل لتقوموا فيما يجب القيام فيه الا بقيام جميعه وذلك يشق عليكم (فتاب عليكم) أى رجع بكم الى التخفيف بالترخص لكم فى ترك القيام المقدر أول السورة وقوله تعالى (فاقرؤا ما تيسر) أى سهل (من القرآن) فيه قولان أحدهما ان المراد بهذه القراءة القراءة فى الصلاة وذلك ان القراءة احد اجزاء الصلاة فاطلق اسم الجزء على الكل والمعنى فصلوا ما تيسر عليكم قال الحسن يعنى فى صلاة المغرب والعشاء قال قيس بن ابى حازم صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ فى اول ركعة بالحمد واول آية من البقرة ثم ركع ثم قام فى الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة ثم ركع فلما انصرف اقبل علينا فقال ان الله تعالى يقول فاقرؤا ما تيسر منه قال القشيرى والمشهور ان نسخ قيام الليل كان فى حق الامة وبقيت الفريضة فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه بل نسخ بالكلية فلا تجب صلاة الليل اصلا واذا ثبت ان القيام ليس فرضا فقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر من القرآن معناه اقرؤا ان تيسر عليكم ذلك وصلوا ان شئتم والقول الثانى ان المراد بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر من القرآن دراسته وتحصيل حفظه وان لا يعرض للنسيان سواء أكان فى صلاة ام غيرها قال كعب من قرأ فى ليلة

٣ قوله عطف على ضمير تقوم سهو أو سبق قلم وفى الجلال المحلى بالجر عطف على ثلثى اه مصححه

فالقراءة عن الصلاة التى هى بعض واجباتها فهو من اطلاق الجزء على الكل وقوله بعد فاقرؤا ما تيسر

مائة آية كتب من القانتين وقال سعيد خمسين آية قال القرطبي قول كعب أصح لقوله صلى الله عليه وسلم من قام بعشر آيات من القرآن لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين خرجه أبو داود والطيالسي وروى أنس ابن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ خمسين آية في يوم أو في ليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر فقوله من المقنطرين أي أعطي قنطارا من الأجر وجاء في الحديث أنه ألف ومائتا أوقية والأوقية خير مما بين السماء والأرض وقال أبو عبيدة القناطير واحدها قنطار ولا تجد العرب تعرف وزنه ولا واحد للقنطار من لفظه وقال ثعلب المعول عليه عند العرب أنه أربعة آلاف دينار فإذا قالوا قناطير مقنطرة فهي اثنا عشر ألف دينار وقيل إن القنطار ملء جلد ثور ذهبا وقيل ثمانون ألفا وقيل هو جملة كثيرة مجهولة من المال نقله ابن الأثير قال القرطبي والقول الثاني أصح حملا للخطاب على ظاهر اللفظ والقول الأول مجاز لأنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله وإذا كان ذلك على قيام لا في قدر القراءة فلا دليل فيه على أن الفاتحة لا تتعين في الصلاة بل هي متعينة في كل ركعة لخبر الصحيحين لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ولخبر لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب رواه ابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما ولفعله صلى الله عليه وسلم كما في مسلم مع خبر البخاري صلوا كما رأيتموني أصلي ويحمل قوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه مع خبر ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن على الفاتحة أو على العاجز عنها جمعا بين الأدلة ولما كان هذا نسخا لما كان واجبا من قيام الليل أول السورة لعلمه سبحانه بعدم إحصائه فسر ذلك العلم المجمل بعلم مفصل بيانا لحكمة أخرى للنسخ فقال تعالى (علم أن) هي مخففة من الثقيلة أي أنه (سيكون) أي بتقدير لا بد منه (منكم مرضى) جمع مريض وهذه السورة من أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ففي ذلك إشارة بأن أهل الإسلام يكثرون جدا (وآخرون) غير المرضى (يضربون) أي يوقعون الضرب (في الأرض) أي يسافرون لأن الماشي يجد ويضرب برجله في الأرض (يبتغون) أي يطلبون طلبا شديدا (من فضل الله) أي بعض ما أوجده الملك الأعظم لعباده بالتجارة وغيرها (وآخرون) أي منكم أيها المسلمون (يقاتلون) أي يطلبون ويوقعون قتل أعداء الله تعالى ولذلك بينه بقوله تعالى (في سبيل الله) أي الملك الأعظم وكل من الفرق الثلاث يشق عليهم ما ذكر في قيام الليل وسوى سبحانه في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين للمال الحلال لنفقته على نفسه وعياله والإحسان فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله قال صلى الله عليه وسلم ما من جالب يجلب طعاما من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله وقال ابن مسعود أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء وقرأ وآخرون الآية وقال ابن عمر ما خلق الله تعالى موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحب إلي من الموت بين

منه تأكيد هنا على قيام الليل بما تيسر
(سورة المدثر)
(قوله غير يسير) فائدة

شيء يبقى رجل ايتغى من فضل الله ضاربا في الارض وقال طاوس الساعى على الارملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأعاد قوله تعالى (فاقرؤا ماتيسر منه) أى من القرآن للتأكيد (وأقيموا الصلوة) أى المكتوبة وهي خمس بجميع الامور التى تقوم بها من أركانها وشروطها وأبعاضها وهيآتها (وآتوا الزكوة) أى زكاة اموالكم وقال عكرمة وقتادة صدقة الفطر لان زكاة الاموال وجبت بعد ذلك وقيل صدقة التطوع وقيل كل فعل خير وقال ابن عباس طاعة الله تعالى والاخلاص (وأقرضوا الله) أى الملك الاعلى الذى له جميع صفات الكمال التى منها الغنى المطلق من أبدانكم وأموالكم فى أوقات صحتكم ويساركم (قرضا حسنا) من نوافل الخيرات كلها برغبة تامة وعلى هيئة جميلة فى ابتدائه وانتهائه وقال زيد بن أسلم القرض الحسن النفقة على الاهل وقيل صلة الرحم وقرى الضيف وقال عمر بن الخطاب هو النفقة فى سبيل الله (وماتقدموا لانفسكم) أى خاصة سلفا لاجل مابعد الموت حيث لاتقدرون على الاعمال (من خير) أى خير كان من عبادات البدن والمال (تجدوه) أى محفوظا لكم (عند الله) اى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (هو) اى لاغيره (خيرا) اى لكم وجاز ضمير الفصل بين غير معرفتين لان أفعل منه كالمعرفة ولذلك يمتنع دخول أداة التعريف عليها والمعنى هو خير من الذى تدخرونه الى الوصية عند الموت قاله ابن عباس وقال الزجاج خيرا لكم من متاع الدنيا وروى البغوي بسنده عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيكم ماله أحب اليه من مال وارثه قالوا يارسول الله مامنا من أحد الا ماله أحب اليه من مال وارثه قال اعلموا ماتقولون قالوا مانعلم الا ذلك يارسول الله قال انما مال أحدكم ماقدم ومال وارثه ماأخر (وأعظم أجرا) قال أبو هريرة يعني الجنة ويحتمل أن يكون أعظم أجر الاعطائه بالجنة أجرا ولما كان الانسان اذا عمل مايمدح عليه ولاسيما اذا كان المادح له ربه ربما أدركه الاعجاب بين له أنه لايقدر بوجه على ان يقدر الله تعالى حق قدره فلا يزال مقصرا فلا يسعه الا العفو فقال عز من قائل (واستغفروا الله) أى اطلبوا وأوجدوا ستر الملك الاعظم الذى لاتحيطون بمعرفته فكيف باداء حق خدمته لتقصيركم عينا وأثرا بفعل مايرضيه واجتناب مايسخطه (ان الله) أي الملك الاعظم (غفور) أي بالغ الستر لاعيان الذنوب وآثارها حتى لايكون عنها عقاب ولاعتاب (رحيم) اى بالغ الاكرام بعد الستر افضالا واحسانا وتشريفا وامتنانا وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر فى الدنيا والآخرة حديث موضوع

ذكره بعد قوله فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين رفع توهم ان يراد بعسير عسير يرجى تيسيره كما يرجى

سورة المدثر مكية

(وهي خمس او ست وخمسون آية ومائتان وخمس وخمسون كلمة وألف وعشرة أحرف)

(بسم الله) الملك الواحد القهار (الرحمن) الذى عم برحمته الابرار والفجار (الرحيم) الذى خص أصفياءه بما وصلهم الى دار القرار ولما ختمت المزمل بالبشارة لارباب البصارة بعد ماابتدئت بالاجتهاد فى الخدمة المهيئ للقيام باعباء الدعوة افتتحت هذه بعد حكمة الرسالة

وهي

وهى النذارة فقال تعالى (يا أيها المدثر) روى عن يحيى بن أبى كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال يا أيها المدثر قلت يقولون اقرأ باسم ربك الذى خلق قال أبو سلمة سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ذلك الذى قلت فقال لى جابر لا أحدثك الا مثل ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيأ ونظرت عن شمالى فلم أر شيأ ونظرت عن خلفى فلم أر شيأ فرفعت رأسى فرأيت شيأ فأتيت خديجة فقلت دثرونى وصبوا على ماء باردا قال فنزل يا أيها المدثر الآية وذلك قبل ان تفرض الصلاة وفى رواية فلما قضيت جوارى هبطت فاستبطنت الوادى وذكر نحوه وفيه فاذا هو قاعد على عرش فى الهواء يعنى جبريل عليه السلام فأخذتنى رجفة شديدة وعن جابر من رواية الزهرى عن أبى سلمة عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحى فقال لى فى حديثه فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والارض فجئثت منه رعبا فقلت زملونى زملونى فدثرونى فأنزل الله عز وجل يا أيها المدثر الى قوله فاهجر وفى رواية فجئثت منه حتى هويت الى الارض فجئت الى أهلى وذكر ثم حمى الوحى وتتابع (فان قيل) ان هذا الحديث دال على أن سورة المدثر أول ما نزل ويعارضه حديث عائشة المخرج فى الصحيحين فى بدء الوحى وسيأتى فى موضعه ان شاء الله تعالى وفيه فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق حتى بلغ ما لم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده الحديث (أجيب) بان الذى عليه العلماء ان أول ما نزل من القرآن على الاطلاق اقرأ باسم ربك الذى خلق كما صرح به فى حديث عائشة ومن قال ان سورة المدثر أول ما نزل من القرآن فضعيف وانما كان نزولها بعد فترة الوحى كما صرح به فى رواية الزهرى عن أبى سلمة عن جابر ويدل عليه ما فى الحديث وهو يحدث عن فترة الوحى الى أن قال وأنزل الله تعالى يا أيها المدثر ويدل عليه قوله أيضا فاذا الملك الذى جاءنى بحراء وحاصله ان أول ما نزل من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة اقرأ باسم ربك وان أول ما نزل بعد فترة الوحى سورة المدثر وبهذا يحصل الجمع بين الحديثين قوله فاذا هو قاعد على عرش بين السماء والارض يريد به السرير الذى يجلس عليه وقوله يحدث عن فترة الوحى أى احتباسه وعدم تتابعه وتواليه فى النزول وقوله فجئثت منه روى بجيم مضمومة ثم همزة مكسورة ثم ثاء مثلثة ساكنة ثم تاء الضمير وروى بثاءين مثلثتين بعد الجيم ومعناه فرعبت منه وفزعت وقوله حمى الوحى وتتابع أى كثر نزوله وازداد بعد فترته من قولهم حميت الشمس والنار اذا ازداد حرها وقوله وصبوا على ماء باردا فيه انه ينبغى لمن فزع أن يصب عليه الماء ليسكن فزعه واصل المدثر المتدثر وهو الذى يتدثر فى ثيابه ليستدفئ بها وأجمعوا على انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما سمى مدثرا لوجوه أحدها قوله صلى الله عليه وسلم دثرونى وثانيها أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما متدثرا بثيابه فجاءه جبريل عليه السلام وايقظه صلى الله عليه وسلم وقال يا أيها المدثر (قم فانذر) اى حذر الناس من العذاب ان لم يؤمنوا والمعنى قم من مضجعك واترك التدثر بالثياب واشتغل بهذا المنصب الذى نصبك الله عز وجل له

تيسير التعسير من امور الدنيا وقيل فائدته التوكيد (قوله انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم

وثالثها ان الوليد بن المغيرة وابا جهل وابا لهب والنضر بن الحرث اجتمعوا وقالوا ان وفود العرب يجتمعون في ايام الحج وهم يسألون عن امر محمد وقد اختلفتم في الاخبار عنه فمن قائل هو مجنون وقائل ساحر وقائل كاهن وتعلم العرب ان هذا كله لا يجتمع في رجل واحد فيستدلون باختلاف الاجوبة على انها اجوبة باطلة سموا محمدا باسم واحد تجتمعون عليه وتسميه العرب به فقام رجل منهم فقال انه شاعر فلما سمع صلى الله عليه وسلم ذلك اشتد عليه ورجع الى بيته محزونا فتدثر بقطيفة فانزل الله تعالى يا ايها المدثر وقيل انه ليس المراد التدثر بالثياب وعلى هذا ففيه وجوه ايضا احدها قال عكرمة المعنى يا ايها المدثر بالنبوة والرسالة من قولهم البسه الله لباس التقوى وزينه برداء العلم قال ابن العربي وهذا مجاز بعيد لانه لم يكن نبيا بعد اى على القول بانها اول سورة نزلت واما على انها نزلت بعد فترة الوحي فليس ببعيد وثانيها ان المدثر بالثوب يكون كالمختفي فيه وهو صلى الله عليه وسلم كان في جبل حراء كالمختفي من الناس فكأنه قال يا ايها المدثر بدثار الاختفاء قم بهذا الامر واخرج من زاوية الخمول واشتغل بانذار الخلق والدعوة الى معرفة الحق وثالثها انه تعالى جعله رحمة للعالمين فكانه قيل له يا ايها المدثر باثواب العلم العظيم والخلق الكريم والرحمة الكاملة قم فانذر عذاب ربك وعلى كلا القولين في ندائه بذلك ملاطفة في الخطاب من الكريم الى الحبيب اذ ناداه بحاله وعبر عنه بصفته ولم يقل يا محمد (وربك) اى خاصة (فكبر) اى عظمه عما يقول عبدة الاوثان وصفه بانه اكبر من ان تكون له صاحبة او ولد وفي الحديث انهم قالوا بم تفتتح الصلاة فنزل وربك فكبر اى صفه بانه اكبر قال ابن العربي وهذا القول وان كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة فانه يراد فيه تكبير التقديس والتنزيه بخلع الانداد والاصنام دونه ولا يتخذ وليا غيره ولا يعبد سواه وروى ان ابا سفيان قال يوم احد اعل هبل وهو اسم صنم كان لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا الله اعلى واجل وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلها اذانا وصلاة وذكرا بقول الله اكبر وحمل عليه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم الوارد على الاطلاق موارده منها قوله تحريمها التكبير وتحليلها التسليم والشرع يقتضي بعرفه ما يقتضي بعزمه ومن موارده اوقات الاهلال بالله تعالى تخليصا له من الشرك واعلاما باسمه بالنسك وافراد المشروع من امره بالنسك والمنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم في التكبير في الصلاة هو لفظ الله اكبر وقال المفسرون لما نزل قوله تعالى وربك فكبر قام النبي صلى الله عليه وسلم وقال الله اكبر فكبرت خديجة رضي الله تعالى عنها وفرحت وعلمت انه وحي من الله تعالى ذكره القشيري قال مقاتل هو ان يقال الله اكبر وقيل المراد منه التكبير في الصلاة (واستشكل) ذلك على القول بانها اول سورة نزلت فان الصلاة لم تكن فرضت (واجيب) بانه يحتمل انه صلى الله عليه وسلم كان له صلوات تطوع فامر ان يكبر فيها * (تنبيه) * دخلت الفاء في قوله تعالى فكبر وفيما بعده لافادة معنى الشرط كانه قيل وما يكن فكبر ربك او للدلالة على ان المقصود الاول من الامر بالقيام ان يكبر ربه عن الشرك والتشبيه فان اول ما يجب معرفة الصانع واول ما يجب بعد العلم بوجوده تنزيهه والقوم كانوا مقرين به (وثيابك فطهر) اى من النجاسات لان طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة لا تصح الا بها وهي

قبل كيف قدر) ذكر قدر ثلاث مرات وقيل كيف قدر مرتين لان المعنى ان الوليد فكر في شان النبي

الاولى والاحب فى غير الصلاة وقبيح بالمؤمن الطيب ان يحمل خبثا قال الرازى اذا حملنا التطهير على حقيقته ففى الآية ثلاثة احتمالات الاول قال الشافعى المقصود من الآية الاعلام بأن الصلاة لا تجوز الا فى ثياب طاهرة من الانجاس وثانيها روى انهم القوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلى شاة فشق عليه فرجع الى بيته حزينا وتدثر فى ثيابه صلى الله عليه وسلم فقيل يا أيها المدثر قم فانذر ولا تمنعك تلك السفاهة عن الانذار وربك فكبر على ان لا ينتقم منهم وثيابك فطهر عن تلك النجاسات والقاذورات وثالثها قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كان المشركون لا يصونون ثيابهم عن النجاسات فأمره الله تعالى أن يصون ثيابه عنها وقيل هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب فى تطويلهم الثياب وجرهم الذيول وذلك مما لا يؤمن معه اصابة النجاسة قال صلى الله عليه وسلم ازار المؤمن الى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه و بين الكعبين وما كان أسفل من ذلك ففى النار فجعل صلى الله عليه وسلم الغاية فى لباس الازار الكعب وتوعد على ما تحته بالنار فما بال رجال يرسلون أذيالهم و يطيلون ثيابهم ثم يتكلفون رفعها بأيديهم وهذه حالة الكبر وقال صلى الله عليه وسلم لا ينظر الله الى من جر ثوبه خيلاء وفى رواية من جر ازاره خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيامة قال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله ان أحد شقى ازارى يسترخى الا أنى أتعاهد ذلك منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لست ممن يصنعه خيلاء وقيل هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الافعال و يستهجن من العادات يقال فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل اذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الاخلاق وفلان دنس الثياب للغادر وذلك لان الثوب يلابس الانسان و يشتمل عليه فكنى به عنه ألا ترى الى قولهم أعجبنى زيد ثوبه كما تقول أعجبنى زيد عقله وخلقه و يقولون المجد فى ثوبه والكرم تحت حلته ولان الغالب أن من طهر باطنه ونقاه عنى بتطهير الظاهر وتنقيته وأبى الا اجتناب الخبيث وايثار الطهر فى كل شئ وقال عكرمة سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى وثيابك فطهر فقال لا تلبسها على معصية ولا على غدر قال أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى

وانى بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ولا من غدرة أتقنع

والعرب تقول فى وصف الرجل بالصدق والوفاء طاهر الثياب و يقولون ان غدر انه لدنس الثياب وقال أبى بن كعب لا تلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على اثم البسها وأنت بر طاهر وقال الحسن والقرطبى وخلقك فحسن وقال سعيد بن جبير وقلبك وبيتك فطهر وقال مجاهد وابن زيد وعملك فاصلح وروى منصور عن أبى رزين قال يقول وعملك أصلح قال واذا كان الرجل خبيث العمل قالوا ان فلانا نجس الثياب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يحشر المرء فى ثوبيه اللذين مات عليهما يعنى عمله الصالح والطالح ذكره الماوردى وقيل المراد بالثياب الاهل أى طهرهم من الخطايا بالموعظة والتاديب والعرب تسمى الاهل ثوبا ولباسا وازارا قال تعالى هن لباس لكم وأنتم لباس لهن وقيل المراد به الدين أى ودينك فطهر جاء فى الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال رأيت الناس وعليهم ثياب منها ما يبلغ الثدى ومنها ما دون ذلك ورأيت عمر بن الخطاب

صلى الله عليه وسلم وما أقبح
وقدر ماذا يمكنه ان يقول
فيما قال الله فقتل كيف
قدر أى على أى حال كان
تقديره فالتقدير الاول مخاير

وعليه ازار يجره قالوا يارسول الله فما أولت ذلك قال الدين وقوله تعالى (والرجز) فسره النبي صلى الله عليه وسلم بالاوثان (فاهجر) أي دم على هجره وقيل الزاى فيه منقلبة عن السين والعرب تعاقب بين السين والزاى لقرب مخرجيهما دليل هذا التأويل قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان وروى عن ابن عباس ان معناه اترك المآثم وقرأ حفص بضم الراء والباقون بكسرها وهما لغتان ومعناهما واحد وقال أبو العالية الرجز بضم الراء الصنم وبالكسر النجاسة والمعصية وقال الضحاك يعني الشرك وقال الكلبي بمعنى العذاب قال البغوي ومجاز الآية اهجر ما أوجب لك العذاب من الاعمال وقوله تعالى (ولا تمنن تستكثر) مرفوع منصوب المحل على الحال أي لا تعط مستكثرا أي لما تعطيه كثيرا واجعله خالصا لله تعالى ولا تطلب عوضا أصلا ومعنى تستكثر أي طالبا للكثرة كارها أن ينقص المال بسبب العطاء فيكون الاستكثار هنا عبارة عن طلب العوض كيف كان ليكون عطاؤه صلى الله عليه وسلم خاليا عن انتظار العوض والتفات النفس اليه وقيل لا تعط شيأ طالبا للكثير نهي عن الاستغزار وهو أن يهب شيأ وهو يطمع أن يعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز ومنه الحديث المستغزر يثاب من هبته وفيه وجهان أحدهما أن يكون نهيا خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر الآية لان الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الاخلاق والثاني أنه نهي تنزيه لا تحريم له ولامته وقيل انه تعالى لما أمره بأربعة أشياء انذار القوم وتكبير الرب وتطهير الثياب وهجر الرجز ٢ ثم قال ولا تمنن تستكثر أي لا تمنن على ربك بهذه الاعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله (ولربك فاصبر) أي على الاوامر والنواهي متقربا بذلك اليه غير ممتن به عليه وقال الحسن بحسناتك تستكثرها وقال ابن عباس ولا تعط عطية ملتمسا بها أفضل منها وقيل لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين والوحي مستكثرا بذلك الانعام فانك انما فعلت ذلك بامر الله تبارك وتعالى فلا منة لك به عليهم ولهذا قال تعالى ولربك فاصبر وقيل لا تمنن عليهم بنبوتك لتستكثر أي لتأخذ منهم أجرا على ذلك تستكثر به مالك وقال مجاهد والربيع لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير فانه مما أنعم الله تعالى به عليك وقال ابن كيسان لا تستكثر عملك فتراه من نفسك انما عملك منة من الله تعالى عليك اذ جعل لك الله تعالى سبيلا الى عبادته وقال زيد بن اسلم اذا أعطيت عطية فاعطها لربك لا تقل دعوت فلم يستجب لي وقيل لا تفعل الخير لترائي به الناس ✲ ولما ذكر تعالى ما يتعلق بارشاد النبي صلى الله عليه وسلم ذكر بعده وعيد الاشقياء بقوله تعالى (فاذا نقر) أي نفخ (في الناقور) أي في الصور وهو القرن النفخة الثانية فاعول من النقر أي التصويت وأصله القرع الذي هو سبب الصوت والفاء للسببية كأنه قال تعالى اصبر على زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وأعداؤك عاقبة ضرهم واذ ظرف لما دل عليه قوله تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين) لان معناه عسر الامر على الكافرين وذلك اشارة الى وقت النقر وهو مبتدأ خبره يوم عسير ويومئذ بدل او ظرف لخبره اذ التقدير فذلك الوقت وقوع يوم عسير وقرأ على الكافرين واصحاب الناراً بو عمرو والدوري عن الكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح ✲ ولما كان العسر قد يطلق على

الثاني والثالث لاختلاف المقدور وقوله ثم قتل كيف قدر كرره للمبالغة فهو تأكيد ولزم منه ان قدر الثالث تأكيد للثاني وان قيل

٢ قوله ثم قال الظاهر اسقاط ثم اه مصححه

الشئ وفيه يسر من بعض الجهات او يعالج فيرجع يسيرا بين أنه ليس كذلك بقوله تعالى (غير يسير) فجمع فيه بين اثبات الشئ ونفي ضده تحقيقة الامر ودفعا للمجاز عنه وتقييده بالكافرين يشعر بيسره على المؤمنين فانهم لا يناقشون الحساب ويحشرون بيض الوجوه ثقال الموازين قال الرازي ويحتمل أنه عسير على المؤمنين والكافرين الا أنه على الكافرين أشد

(تنبيه) قال الحليمي سمى الصور باسمين فان كان هو الذي ينفخ فيه النفختان فان نفخة الاصعاق بخلاف نفخة الاحياء وجاء في الاخبار أن في الصور ثقبا بعدد الارواح كلها وانها تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية فتخرج عند النفخ من كل ثقبة روح الى الجسد الذي نزعت منه فيعود الجسد حيا باذن الله تعالى (ذرني) أي اتركني على أي حالة اتفقت (ومن خلقت) معطوف على المفعول أو مفعول معه وقوله تعالى (وحيدا) فيه أوجه أحدها انه حال من الياء في ذرني اي ذرني وحدي معه فانا أكفيك في الانتقام منه الثاني أنه حال من التاء في خلقت أي خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد فانا أهلكه الثالث أنه حال من عائد المحذوف أي خلقته وحيدا فوحيدا على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف أي خلقته في بطن أمه وحيدا لا مال له ولا ولد ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته قاله مجاهد الرابع أن ينتصب على الذم لانه يقال ان وحيدا كان لقبا للوليد بن المغيرة المخزومي ومعنى وحيدا ذليلا قيل انه كان يزعم انه وحيد في فضله وماله وليس لي ذلك ما يقتضي صدق مقالته لان هذا اللقب له شهرة به وقد يلقب الانسان بما لا يتصف به واذا كان لقبا تعين نصبه على الذم قال ابن عباس كان الوليد يقول أنا الوحيد بن الوحيد ليس لي في العرب نظير ولا لابي المغيرة نظير قال الرازي ورد هذا القول بعضهم بانه تعالى لا يصدقه في دعواه تلك بانه وحيد لا نظير له ذكره الواحدي وهو ضعيف من وجوه ثلاثة لانه قد يكون الوحيد علما فيزول السؤال لان اسم العلم لا يفيد في المسمى صفة بل هو قائم مقام الاشارة الثاني أن يكون ذلك بحسب ظنه واعتقاده كقوله عز وجل ذق انك أنت العزيز الكريم الثالث أنه وحيد في كفره وعناده وخبثه لان لفظ الوحيد ليس فيه أنه وحيد في العلو والشرف الرابع قال أبو سعيد الوحيد الذي لا أب له كما تقدم في الزنيم (وجعلت له) أي باسباب أوجدتها أنا وحدي لا بحول منه ولا قوة بدليل أن غيره أقوى منه بدنا وقلبا وأوسع فكرا وعقلا وهو دونه في ذلك (مالا ممدودا) أي مالا واسعا كثيرا قال ابن عباس هو ما كان للوليد بمكة والطائف من الابل والبقر والغنم والخيول والجنان والعبيد والجواري واختلفوا في مبلغه فقال مجاهد وسعيد بن جبير ألف دينار وقال قتادة ستة آلاف دينار وقال سفيان الثوري مرة أربعة آلاف دينار ومرة الف ألف دينار وقال ابن عباس تسعة آلاف مثقال فضة وقال الرازي الممدود هو الذي يكون له مدد يأتي منه الجزء بعد الجزء دائما ولذلك فسره عمر بغلة شهر بشهر وقال النعمان الممدود بالزيادة كالزروع والضروع وانواع التجارات وقال مقاتل كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفا (وبنين) اي وجعلت له بنين (شهودا) اى حضورا معه لغناهم عن الاسفار بكثرة المال وانتشار الخدم وقوة الاعوان وهم مع حضورهم لي الذروة من الحضور بتمام العقل وقوة الحذق فهم في غاية المعرفة ومع ذلك

الثاني تأكيد للاول وثم للدلالة على ان مدخولها ابلغ مما قبلها وقيل المراد بالقتل الاول لعن الوليد وتعذيبه فهو مغاير للثاني

فهم أعيان المجالس وصدور المحافل كأنه لاشاهد به غيرهم قال مجاهد وقتادة كانوا عشرة وقال السدى والضحاك كانوا اثنى عشر رجلا وعن الضحاك سبعة ولدوا بمكة وخمسة بالطائف وقال مقاتل كانوا سبعة واولاه اقتصر على من ولد بمكة وعلى كل قول اسلم منهم ثلاثة خالد الذى من الله تعالى على المسلمين باسلامه فكان سيف الله وسيف رسوله صلى الله عليه وسلم وهشام وعمارة (ومهدت) اى بسطت (له) العيش والعمر والولد والتمهيد عند العرب التوطئة والتهيئة ومنه مهد الصبى وقال ابن عباس اى وسعت له ما بين اليمن الى الشام وعن مجاهد انه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش فلم يرع هذه النعمة العظيمة وقوله تعالى (تمهيدا) تأكيد (ثم) اى بعد الامر العظيم الذى ارتكبه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم (يطمع) اى بغير سبب يدلى به مما جعلناه سبب المزيد من الشكر (ان أزيد) اى فيما آتيته فى دنياه او فى آخرته وهو يكذب رسولنا صلى الله عليه وسلم وقال الحسن ثم يطمع أن ادخله الجنة وكان الوليد يقول ان كان محمد صادقا فما خلقت الجنة الا لى فقال الله تعالى ردا عليه وتكذيبا له (كلا) اى وعزتنا وجلالنا لا تكون له زيادة على ذلك أصلا وأما النقصان فسيرى ان استمر على تكذيبه فليرتدع عن هذا الطمع ولينزجر وليرتجع فانه حق محض وزخرف بحت وغرور وصرف قالوا فمازال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك فقيرا *(تنبيه)* كلا قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة فيكون متصلا بالكلام الاول وقيل كلا بمعنى حقا ويبتدأ بقوله تعالى (انه) اى هذا الموصوف (كان) اى بخلق كأنه جبلة له وطبع لا يقدر على الانفكاك عنه (لآياتنا) على مالها من العظمة خاصة لكونها هادية الى الوحدانية لا الى غيرها من الشبه القائدة الى الشرك (عنيدا) قال قتادة اى جاحدا وقال مقاتل معرضا وقال مجاهد انه المجانب للحق وجمع العنيد عند مثل رغيف ورغف والعنيد بمعنى المعاند والعناد كما قال الملوى من كبر فى النفس ويبس فى الطبع وشراسة فى الاخلاق او خبل فى العقل وقد جمع ذلك كله ابليس لعنه الله تعالى لانه خلق من نار وهى من طبعها اليبوسة وعدم الطواعية *(تنبيه)* فى الآية اشارة الى ان الوليد كان معاندا فى امور كثيرة منها انه كان يعاند فى دلائل التوحيد وصحة النبوة وصحة البعث ومنها ان كفره كان عنادا لانه كان يعرف هذه الاشياء بقلبه ويشكرها بلسانه وكفر العناد أفحش انواع الكفر ومنها ان قوله تعالى كان يدل على ان هذه حرفته من قديم الزمان (سأرهقه) اى أكلفه (صعودا) اى مشقة من العذاب لا راحة له فيها وروى الترمذى عن ابى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم انه جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى وفى رواية انه كلما وضع يده فى معالجة الصعود ذابت فاذا رفعها عادت وكذا رجله وقال الكلبى انه صخرة ملساء فى النار يكلف ان يصعدها يجذب من امامه بسلاسل الحديد ويضرب من خلفه بمقامع الحديد فيصعدها فى اربعين عاما فاذا بلغ ذروتها اسقط الى اسفلها ثم يكلف ان يصعدها فذلك دأبه أبدا (انه) اى هذا العنيد (فكر) اى ردد فكره وادارة تابعا لهواه لاجل الوقوع على شئ يطعن به فى القرآن او النبى صلى الله عليه وسلم (وقدر) اى اوقع تقدير الامور التى يطعن بها وقاسها فى نفسه لعله أنها أقرب الى القبول وذلك ان الله تعالى لما أنزل

على

(قوله لاتبقى ولاتذر) قيل معناهما واحد اى لاتبقى ولاتذر لكفار من لحم ولا عصب الا اهلكته ثم يعود

على النبي صلى الله عليه وسلم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم الى قوله تعالى المصير قام النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم لاستماعه لقراءته اعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى اتى مجلس قومه بني مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه ثم انصرف الى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد والله لتصبأن قريش كلهم فقال ابو جهل انا اكفيكموه فانطلق فقعد الى جنب الوليد حزينا فقال له الوليد ما لي اراك حزينا يا ابن اخي قال وما يمنعني أن لا احزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون انك زينت كلام محمد وأنك داخل على ابن ابي كبشة وابن ابي قحافة تنال من فضل طعامهم فغضب الوليد وقال الم تعلم اني من اكثرهم مالا وولدا وهل شبع محمد واصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ثم قام مع ابي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم تزعمون ان محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق قط قالوا اللهم لا قال تزعمون انه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن فقالوا اللهم لا قال تزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط قالوا اللهم لا قال تزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيأ من الكذب قالوا اللهم لا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الامين قبل النبوة من صدقه فقالت قريش للوليد فما هو ففكر في نفسه وقدر ما أمر قال الله تعالى (فقتل) اى هلك وطرد ولعن في دنياه هذه (كيف قدر) اى على اى كيفية اوقع تقديره هذا (ثم قتل) اى هلك ولعن هذا العنيد هلاكا ولعنا هو في غاية العظمة فيما بعد الموت في البرزخ والقيامة (كيف قدر) فثم للدلالة على ان الثانية ابلغ من الاولى ونحوه قوله

* ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي *

ومعنى قول القائل قتله الله ما اشجعه واخزاه الله ما اشعره للاشعار بانه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بان يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك واما ثم المتوسطة بين الافعال التي بعدها فهي للدلالة على انه تأنى في التامل وتمهل وكان بين الافعال المتناسقة تراخ وتباعد وقوله تعالى (ثم نظر) عطف على فكر وقدر والدعاء اعتراض بينهما والنظر اما في وجوه قومه واما فيما يقدح به في القران (ثم عبس) اى قبض وجهه وكلحه ونظر مع تقبض جلد وما بين العينين بكراهة شديدة كالمهتم المتفكر في شئ وهو لا يجد فيه فرجا لانه ضاقت عليه الحيل لكونه لم يجد فيما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مطعنا وقيل عبس وجهه في وجوه المؤمنين وذلك انه لما قال لقريش ان محمدا ساحر مر على جماعة من المسلين فدعوه الى الاسلام فعبس في وجوههم وقيل عبس على النبي صلى الله عليه وسلم حين دعاه (وبسر) اى زاد في القبض والكلح يقال وجه باسر اى منقبض اسود كالح متغير اللون قاله قتادة (ثم) اى بعد هذا التروي العظيم (ادبر) اى عما دعاه اليه فكره من الايمان بسلامة المنظور فيه وعلوه عن المطاعن فحاد عن وجوه الافكار الى اقفيتها (واستكبر) اى اوجد الكبر عن الاعتراف بالحق ايجاد من هو في غاية الرغبة فيه (فقال) اى عقب ما جره اليه طبعه الخبيث من ايقاع الفكر على هذا الوجه لكونه رآه نافعا لهم في الدنيا (ان) اى ما (هذا) اى الذي اتى به محمد صلى الله عليه وسلم (الا سحر) اى امور تخييلية لا حقائق لها وهي لدقتها بحيث تخفى اسبابها لما رأيتموه

كما كان وقيل متغايران اى لا تبقي لهم لحما ولا تذر لهم عظما او لا تبقيهم احياء ولا تذرهم أمواتا (قوله

يفرق بين الرجل واهله وماله وولده ومواليه فما هو الا سحر (يؤثر) اى من شانه ان ينقله السامع عن غيره فهو ينقله من قبيلة واهل بابل كما قال (ان) اى ما (هذا) اى القرآن (الا قول البشر) اى ليس فيه شئ عن الله تعالى فلا يغترا حد به ولا يعرج عليه فارتج النادى فرحا ثم تفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه قيل وهذا شبيه بما قال بعضهم

لو قيل كم خمس وخمس لاغتدى * يوما وليلته يعد و يحسب
و يقول معضلة عجيب امرها * ولئن فهمت لها لامرى اعجب
خمس وخمس ستة اوسبعة * قولان قالهما الخليل وثعلب

فكان قوله هذا سببا هلاكه فكان كما قال بعضهم

احفظ لسانك ايها الانسان * لايلدغنك انه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه * كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقوله تعالى (سأصليه) اى ادخله (سقر) اى جهنم بوعد لابد منه عن قريب بدل من سأرهقه صعودا وقوله تعالى (وما أدراك ما سقر) تعظيم لشأنها وقوله تعالى (لا تبقى ولا تذر) بيان لذلك او حال من سقر والعامل فيها معنى التعظيم والمعنى لا تبقى شيأ يلقى فيها الا أهلكته فاذا أهلكته لم تذره هالكا حتى يعاد اولا تبقى على شئ ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة وسميت سقر من سقرته الشمس اذا آذته ولا تنصرف للتعريف والتأنيث قال ابن عباس سقر اسم للطبقة السادسة فان دركات النار سبعة جهنم ولظى والحطمة والسعير والجحيم وسقر والهاوية (لواحة) من لوح الهجير قال

تقول ما لاحك يامسافر * يا ابنة عمى لاحنى الهواجر

(للبشر) اى محرقة لظاهر الجلد فتدعه أشد سوادا من الليل قال تعالى تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون والبشر اعالى البشرة وهو جمع بشرة وجمع البشر أبشار وعن الحسن تلوح للناس كقوله تعالى ثم لترونها عين اليقين وقيل اللوح شدة العطش يقال لاحه العطش ولوحه اى غيره وقال الاخفش والمعنى انها معطشة للبشر اى لاهلها وأنشد

سقتنى على لوح من الماء شربة * سقاها من الله الرهام الغواديا

يعنى باللوح شدة العطش والرهام جمع رهمة بالكسر وهى المطرة الضعيفة وارهمت السحابة اتت بالرهام (عليها تسعة عشر) اى من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر وقيل التسعة عشر نقباء وقال أكثر المفسرين تسعة عشر ملكا باعيانهم وقيل تسعة عشر الف ملك قال ابن جريج نعت النبى صلى الله عليه وسلم خزنة جهنم فقال اعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياصى وأشعارهم تمس أقدامهم يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبى أحدهم مسيرة سنة نزعت منهم الرحمة يدفع احدهم سبعين ألفا فيرميهم حيث أراد من جهنم قال عمرو بن دينار واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة فى جهنم اكثر من ربيعة ومضر قال ابن الاثير الصياصى قرون البقر قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال ابو جهل لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبى كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم يعنى الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة

قوله (عليها تسعة عشر) وان قلت لاى معنى خص عدد خزنة جهنم بتسعة عشر (قلت) لانها موافقة

جهنم فقال أبو الاشد بن كلدة بن خلف الجمحى أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهرى وسبعة على بطنى فا كفونى أنتم اثنين وروى أنه قال أنا أمشى بين ايديكم على الصراط فادفع عشرة بمنكبى الايمن وسبعة بمنكبى الايسر فى النار ونمضى فندخل الجنة فأنزل الله عز وجل (وماجعلنا) اى بمالنا من العظمة وان خفى وجه العظمة فيه على من عمى قلبه (أصحاب النار) اى خزنتها (الاملائكة) اى لم نجعلهم رجالا فتغالبونهم وانما جعلناهم ملائكة لانهم خلاف جنسى الفريقين من الجن والانس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرحمة والرأفة ولانهم أشد باسا وأقوى بطشا فقوتهم أعظم من قوة الانس والجن ولذلك جعل الرسول الى البشر من جنسهم ليكون لهم رأفة ورحمة بهم (فان قيل) ثبت فى الاخبار أن الملائكة مخلوقون من النور فكيف تطيق المكث فى النار (أجيب) بان الله تعالى قادر على كل الممكنات فكما انه لا استبعاد فى أنه يبقى الحى فى مثل ذلك العذاب الشديد أبد الآباد ولا يموت فكذا لا استبعاد فى ابقاء الملائكة هناك من غير ألم (وماجعلنا) اى بمالنا من العظمة (عدتهم) اى مذكورة ومحصورة (الافتنة) اى بلية (للذين كفروا) وقال ابن عباس رضى الله عنهما ضلالة وفتنة مفعول ثان على حذف مضاف اى الاسبب فتنة وللذين صفة فتنة وليست فتنة مفعولا له وقول البيضاوى وماجعلنا عددهم الا العدد الذى اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر تبعا للزمخشرى قال أبو حيان انه تحريف لكتاب الله اذ زعم أن معنى الافتنة للذين كفروا الا تسعة عشر وهذا لايذهب اليه عاقل ولا من له ادنى ذكاء وقال الرازى انما صار هذا العدد سببا للفتنة الكفار من وجهين الاول ان الكفار يستهزؤن ويقولون لم لايكونون عشرين وما المقتضى لتخصيص هذا العدد والثانى ان الكفار يقولون هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب اكثر العالم من الجن والانس من اول ما خلق الله الى قيام الساعة (وأجيب) عن الاول بان هذا السؤال لازم على كل عدد يفرض وعن الثانى بانه لا يبعد ان الله تعالى يرزق ذلك العدد القليل قوة تفى بذلك فقد اقتلع جبريل عليه السلام مدائن قوم لوط على أحد جناحيه ورفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وايضا فاحوال القيامة لا تقاس باحوال الدنيا ولا للعقل فيها مجال وذكر أرباب المعانى فى تقرير هذا العدد وجهين احدهما ماقاله أرباب الحكمة ان سبب فساد النفس الانسانية فى قوتها النظرية والعملية هو القوى الحيوانية والطبيعية فالقوى الحيوانية هى الحسة الظاهرة والحسة الباطنة والشهوة والغضب فهذه اثنا عشر وأما القوى الطبيعية فهى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة فالمجموع تسعة عشر فلما كانت هذه منشآت لاجرم كان عدد الزبانية هكذا ثانيهما ان أبواب جهنم سبعة ستة منها للكفار وواحد للفساق ثم ان الكفار يدخلون النار لامور ثلاثة ترك الاعتقاد وترك الاقرار وترك العمل فيكون لكل باب من تلك الابواب الستة ثلاثة فالمجموع ثمانية عشر واما باب الفساق فليس هناك الا ترك العمل فالمجموع تسعة عشر مشغولة بغير العبادة فلاجرم صار عدد الزبانية تسعة عشر وقوله تعالى (ليستيقن الذين) متعلق بجعلنا لا بفتنة وقيل بفعل مضمر اى فعلنا ذلك ليستيقن الذين (أوتوا الكتاب) اى أعطوا التوراة والانجيل فانه مكتوب فيهما أنه تسعة عشر فذلك موافقة

لعدد أسباب فساد النفس الانسانية وهى القوى الانسانية والطبيعية اذ القوى الانسانية اثنا عشرة الحسة الظاهرة

لما عندهم (ويزداد الذين آمنوا) اى من أهل الكتاب (ايمانا) اى تصديقا لموافقة النبى صلى الله عليه وسلم لما فى كتبهم (ولا يرتاب) اى يشك (الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) فى عددهم (فان قيل) قد أثبت الاستيقان لأهل الكتاب وزيادة الايمان للمؤمنين فما فائدة ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون (أجيب) بان الانسان اذا اجتهد فى أمر غامض دقيق الحجة كثير الشبه فحصل له اليقين فربما غفل عن مقدمة من مقدمات ذلك الدليل الدقيق فيعود الشك فاثبات اليقين فى بعض الاحوال لا ينافى طريان الارتياب بعد ذلك فمفائدة هذه الجملة فى ذلك الشك وانه حصل لهم يقين جازم لا يحصل عقيبه شك البتة (وليقول الذين فى قلوبهم مرض) اى شك ونفاق وان قل ونزول هذه السورة قبل وجود المنافقين فهو علم من اعلام النبوة فانه اخبار بمكة عما سيكون بالمدينة بعد الهجرة ولا ينكر جعل الله تعالى بعض الامور علة اصلاح ناس وفساد آخرين لانه لا يسئل عما يفعل على أن العلة قد تكون مقصودة لشئ بالقصد الاول ثم يترتب عليها شئ آخر يكون قصده بالقصد الثانى تقول خرجت من البلد لمخافة الشر ومخافة الشر لا يتعلق بها الغرض (والكافرون) اى ويقول الراسخون فى الكفر الجازمون بالتكذيب الساترون لما دلت عليه الادلة من الحق (ماذا) اى اى شئ (أراد الله) اى الملك الذى له جميع العظمة (بهذا) اى العدد القليل فى جنب عظمته (مثلا) قال الجلال المحلى سموه لغرابته بذلك وأعرب حالا وقال الليث المثل الحديث ومنه مثل الجنة التى وعد المتقون أى حديثها والخبر عنها وقال الرازى انما سموه مثلا لانه لما كان هذا العدد عددا عجيبا ظن القوم أنه ربما لم يكن مراد الله تعالى منه ما أشعر به ظاهره بل جعله مثلا لشئ آخر وتنبيها على مقصود آخر لا جرم سموه مثلا على سبيل الاستعارة لانهم لما استغربوه ظنوا انه ضرب مثلا لغيره ومثلا تمييز أو حال وتسمية هذا مثلا على سبيل الاستعارة لغرابته * ولما كان التقدير اراد بهذا اضلال من ضل وهو لا يبالى وهداية من اهتدى وهو لا يبالى كان كأنه قيل هل يفعل مثل ذلك فى غير هذا فقال تعالى (كذلك) اى مثل هذا المذكور من الاضلال والهداية (يضل الله) اى الذى له مجامع العظمة فهو معاقد العز (من يشاء) باى كلام شاء كاضلال الله تعالى اباجهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم (ويهدى) بقدرته التامة (من يشاء) بنفس ذلك الكلام او بغيره كهداية أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهذه الآية تدل على مذهب أهل السنة لانه تعالى قال فى اول الآية وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا الخ ثم قال تعالى كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء (وما يعلم جنود ربك) اى المحسن اليك بانواع الاحسان المدبر لامرك (الا هو) اى الله سبحانه وتعالى قال مقاتل رضى الله عنه وهذا جواب لابى جهل حيث قال أما لمحمد اعوان الا تسعة عشر وقال مجاهد رضى الله عنه وما يعلم جنود ربك يعنى من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار ولا يعلم عدتهم الا الله تعالى والمعنى أن تسعة عشر هم خزنة النار ولهم من الاعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلم عدتهم الا الله تعالى ولو أراد لجعل الخزنة اكثر من ذلك فقد روى أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا تعود لهم نوبة أخرى

الهمة الباطنة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية سبعة الجاذبة والماسكة والهاضمة

وروى أن الارض فى السماء كحلقة ملقاة فى فلاة وكل سماء فى التى فوقها كذلك وورد فى الخبر أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع وفى رواية موضع قدم الا وفيه ملك قائم يصلى وفى رواية ساجد وانما خص هذا العدد لحكم لا يعلمها الا هو ثم رجع الى ذكر سقر فقال تعالى (وما هى) اى النار التى هى من أعظم جنوده (الا ذكرى للبشر) اى ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله وأنه سبحانه لا يحتاج الى أعوان وأنصار وللبشر مفعول بذكرى واللام فيه مزيدة وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى (كلا) ردع لمن أنكرها أو انكار لان يتذكروا بها قاله البيضاوى وقال البغوى هذا قسم يقول حقا وقال الجلال المحلى استفتاح بمعنى الا (والقمر) اى الذى هو آية الليل الهادية من ضل فى ظلامه (والليل اذ أدبر) اى مضى فانقلب راجعا من حيث جاء فانكشف ظلامه وقرأ نافع وحمزة وحفص بسكون الذال المعجمة والدال المهملة بعدها وهمزة قطع مفتوحة بين المعجمة والمهملة الساكنين والباقون بفتح الذال المعجمة وبعدها ألف وفتح المهملة بعد الالف فالقراءة الاولى اذ أدبر والثانية اذا دبر وكلاهما لغة يقال دبر الليل وأدبر اذا ولى مدبرا اذا هبا قال أبو عمرو ودبر لغة قريش وقال قطرب دبر اى أقبل تقول العرب دبرنى فلان اى جاء خلفى فالليل يأتى خلف النهار وقوله تعالى (والصبح اذا أسفر) اى أضاء وتبين وقوله تعالى (انها لاحدى الكبر) جواب للقسم أو تعليل لكلا والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كالتاء فلما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظير ذلك القواصع فى جمع القاصعاء كأنها جمع قاصعة اى لاحدى البلايا والدواهى الكبر ومعنى كونها احداهن انها من بينهن واحدة فى العظم لا نظيرلها كما تقول هو أحد الرجال وهى احدى النساء وقوله تعالى (نذيرا) تمييز من احدى على معنى انها لاحدى الدواهى انذارا كما تقول هى احدى النساء عفافا وقيل هى حال وقيل هو متصل باول السورة اى قم نذيرا (للبشر) قال الزمخشرى وهو من بدع التفاسير وقوله تعالى (لمن شاء) اى بارادته (منكم) بدل من البشر (أن يتقدم) اى الى الخير أو الى الجنة بالايمان (أو يتأخر) اى الى الشر أو النار بالكفر (كل نفس) اى ذكر أو أنثى على العموم (بما كسبت) اى خاصة لا بما كسب غيرها (رهينة) اى مرهونة مأخوذة وليست بتأنيث رهين فى قوله تعالى كل امرئ بما كسب رهين لتأنيث النفس لانه لو قصدت الصفة لقيل رهين لان فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث وانما هى اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل كل نفس بما كسبت رهن ومنه بيت الحماسة

أبعد الذى بالنعف نعف كويكب ✽ رهينة رمس ذى تراب وجندل

كأنه قال رهن رمس والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك (الا أصحاب اليمين) وهم المؤمنون فانهم فكوا رقابهم بايمانهم وبما أحسنوا من أعمالهم وقيل هم الملائكة وروى عن على أنهم أطفال المسلمين وقال مقاتل رضى الله عنه هم أهل الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق حين قال لهم الله هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وعنه أيضا هم الذين أعطوا كتبهم بايمانهم وقال الحسن رضى الله عنه هم المسلمون الخالصون وقال القاسم كل نفس مأخوذة بكسبها

والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمجموع تسعة عشر

بخبر أو شر الا من اعتمد على الفضل فكل من اعتمد على الكسب فهو رهين به ومن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ * ولما أخرجهم من حكم الارتهان الذى أطلق على الاهلاك لانه سببه استأنف بيان حالهم فقال تعالى (فى جنات) أى بساتين فى غاية العظم لانهم أطلقوا أنفسهم وفكوا رقابهم فارتهنوا (يتساءلون) أى فيما بينهم يسأل بعضهم بعضا أو يسألون غيرهم (عن المجرمين) اى عن أحوالهم ويقولون لهم بعد اخراج الموحدين من النار (ما) كلمة للاستفهام والتعجب والتوبيخ (سلككم) اى أدخلكم أيها المجرمون ادخالا هو فى غاية الضيق حتى كانكم السلك فى الثقب وقرأ السوسى بادغام الكاف فى الكاف والباقون بالاظهار (فى سقر) فاجابوا بان (قالوا لم نك من المصلين) اى صلاة يعتد بها فكان هذا تنبيها على أن رسوخ القدم فى الصلاة مانع من مثل حالهم وعلى أنهم معاقبون على فروع الشريعة وان كانت لا تصلح منهم فلو فعلوها قبل الايمان لم يعتد بها وعلى أن الصلاة أعظم الاعمال وأن الحسنات بها تقدم على غيرها (ولم نك نطعم المسكين) اى نعطيه ما يجب علينا اعطاؤه له (وكنا نخوض) اى نوجد الكلام الذى هو فى غير موقعه ولا علم لنا به ايجاد الشئ من الخائض فى ماء غمر (مع الخائضين) بحيث صار لنا هذا وصفا راسخا فنقول فى القرآن انه سحر وانه شعر وانه كهانة وغير هذا من الاباطيل لا نتورع عن شئ من ذلك ولا نقف مع عقل ولا نرجع الى صحيح نقل فليأخذ الذين يبادرون الى الكلام فى كل ما يسألون عنه من أنواع العلم من غير تثبت منزلتهم من هنا (وكنا نكذب) اى بحيث صار ذلك وصفا ثابتا (بيوم الدين) اى يوم البعث والجزاء (حتى أتانا اليقين) اى الموت أو مقدماته الذى قطعنا عن دار العمل قال الله تعالى حتى يأتيك اليقين (فان قيل) لم أخر التكذيب وهو أخس الخصال الاربع (أجيب) بانهم بعد اتصافهم بتلك الامور الثلاثة كانوا مكذبين يوم الدين والغرض تعظيم الذنب كقوله تعالى كان من الذين آمنوا * ولما أقروا على أنفسهم بما أوجب العذاب الدائم فكانوا ممن فسد مزاجه فتعذر علاجه سبب عنه قوله تعالى (فما تنفعهم) اى فى حال اتصافهم بهذه الصفات (شفاعة الشافعين) اى لا شفاعة لهم فلا انتفاع بها وليس المراد أن ثم شفاعة غير نافعة كقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهذه الآية تدل على صحة الشفاعة للمذنبين من المؤمنين بمفهومها لان تخصيص هؤلاء بانهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدل على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يشفع نبيكم عليه الصلاة والسلام رابع أربعة جبرائيل ثم ابراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ويبقى قوم فى جهنم يقال لهم ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين الى قوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فهؤلاء الذين فى جهنم (فما لهم عن التذكرة معرضين) اى فما لاهل مكة قد أعرضوا وولوا عن القرآن قال مقاتل رضى الله عنه معرضين عن القرآن من وجهين أحدهما الجحود والانكار والثانى ترك العمل بما فيه وقيل المراد بالتذكرة العظة بالقرآن وغيره من المواعظ ومعرضين حال من الضمير فى الجار الواقع خبرا عن ما الاستفهامية ومثل هذه الحال تسمى حالا لازمة وعن التذكرة متعلق به اى أى شئ حصل لهم فى اعراضهم

(سورة القيامة)

(قوله فاذا قرأناه) اى (قوله بقراءة جبريل عليك (قوله وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة)* (ان قلت)

عن

عن الاتعاظ (كأنهم) في اعراضهم عن التذكرة من شدة النفر (حمر) اي من حمر الوحش وهي أشد الاشياء نفارا ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الابل بسرعة السير بالحمر في عدوها اذا وردت ماء فاحست عليه بـ (مستنفرة) اي موجدة للنفار بغاية الرغبة حتى كأنها تطلبه من أنفسها لانه شانها وطبعها وقرأ ابن عامر ونافع بفتح الفاء على انه اسم مفعول اي نفرها القناص والباقون بكسرها بمعنى نافرة (فرت من قسورة) قال مجاهد رضي الله عنه هي جماعة الرماة الذين يتصيدونها لا واحد لها من لفظه وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه هو القناص وعن زيد بن أسلم فرقة من رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسورة وقسور وعن أبي المتوكل هي لغط القوم وأصواتهم وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال حبال الصيادين وقال أبو هريرة رضي الله عنه هي الاسد وهو قول عطاء والكلبي وذلك ان الحمر الوحشية اذا عاينت الاسد هربت كذلك هؤلاء المشركون اذا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن هربوا وعن عكرمة رضي الله عنه ظلمة الليل ويقال لسواد الليل قسورة وفي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين كما في قوله تعالى كمثل الحمار يحمل أسفارا شهادة عليهم بالبله وقلة العقل * ولما كان الجواب قطعا الاتي اهم في اعراضهم هذا أضرب عنه بقوله تعالى (بل يريد) اي على دعواهم في زعمهم (كل امرئ منهم) اي المعرضين من ادعائه الكمال في المروءة (أن يؤتى) اي من السماء (صحفا) اي قراطيس مكتوبة (منشرة) اي مفتوحة وذلك ان أبا جهل وجماعة من قريش قالوا يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين الى فلان بن فلان ونؤمر فيه باتباعك ونظيره ولن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانوا يقولون ان كان محمد صادقا فليصبح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءته من النار وقال الكلبي رضي الله عنه ان المشركين قالوا يا محمد بلغنا أن الرجل من بني اسرائيل كان يصبح مكتوبا عند رأسه ذنبه وكفارته فائتنا بمثل ذلك وقالوا اذا كانت ذنوب الانسان تكتب عليه فما لنا لا نرى ذلك قال البغوي والصحف جمع الصحيفة ومنشرة منشورة قال الله تعالى (كلا) اي لا يؤتون الصحف وقيل حقا قال البغوي وكل ما ورد عليك منه فهذا وجهه قال ابن عادل والاول أجود لانه رد لقولهم * ثم بين تعالى سبب اعراضهم بقوله تعالى (بل لا يخافون) اي في زمن من الازمان (الآخرة) فهذا هو السبب في اعراضهم بقوله تعالى (كلا) استفتاح قاله الجلال المحلي وقال البيضاوي ردع عن اعراضهم وقال البغوي وتبعه ابن عادل حقا (انه) اي القرآن (تذكرة) اي عظة توجب ايجابا عظيما اتباعه وعدم الانفكاك عنه بوجه فليس لاحد أن يقول أنا مغرور لم أجد مذكرا ولا معرفا فان عنده أعظم مذكر وأشرف معرف (فمن شاء) اي أن يذكره (ذكره) اي اتعظ به وجعله نصب عينيه وعلم معناه وتخلق به فمن فعل ذلك شمل عليه لفظه وبعض معانيه فانه كالحمر الفرات فمن شاء اغترف (وما يذكرون) اي في وقت من الاوقات (الا أن يشاء الله) اي الملك الاعظم الذي لا أمر لاحد معه ذكرهم أو مشيئتهم كقوله تعالى وما تشاؤن الا أن يشاء الله وهو تصريح بان فعل العبد بمشيئة الله تعالى وقرأ نافع بتاء الخطاب

الذي يوصف بالنظر بمعنى الابصار النظر بالعين لا بالوجه ٣ (قلت) أطلق الوجه فيه واراد جزءه في

٣ قوله في الهامش الذي يوصف الخ لعل الظاهر يوصف بالنظر بمعنى الذي يوصف بالنظر بمعنى الابصار العين وتأمل اهـ مصححه

وهو التفات من الغيبة الى الخطاب والباقون بياء الغيبة حملا على ما تقدم من قوله تعالى كل امرئ (هو) ى الله سبحانه وتعالى وحده (أهل التقوى) اى أن يتقيه عباده ويحذروا غضبه بكل ما تصل قدرهم اليه لما له من الجلال والعظمة والقهر وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وأبو عمرو بين بين وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين (وأهل المغفرة) اى وحقيق أن يطلب غفرانه للذنوب لاسيما اذا اتقاه المذنب لان له الجلال واللطف وهو القادر ولا قدرة لغيره فلا ينفعه شئ ولا يضره روى الترمذى وأحمد والحاكم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية هو أهل التقوى وأهل المغفرة يقول الله تعالى أنا أهل أن أتقى فمن اتقى أن يشرك بى غيرى فانا أهل أن أغفر له ووقف الكسائى على أهل المغفرة بالامالة على أصله وورش بترقيق الراء وقفا ووصلا على أصله وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المدثر أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به حديث موضوع

لفظ وجه وبالنظر الى ناضرة وناظرة جمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز (قوله أولى لك) اى أولاك

سورة القيامة مكيه

وهى تسع وثلاثون آية ومائة وتسع وتسعون كلمة وستمائة واثنان وخمسون حرفا

(بسم الله) الذى له الجلال والكمال (الرحمن) الذى عم بنعمة الايجاد أهل الهدى والضلال (الرحيم) الذى سدد أهل العناية فى الافعال والاقوال * واختلف فى لا فى قوله تعالى (لا أقسم) على أوجه أحدها انها نافية لكلام المشركين المنكرين للبعث اى ليس الامر كما زعموا ثم ابتدأ أقسم (بيوم القيامة) قال القرطبى ان القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار فجاء الاقسام بالرد عليهم كقولك لا والله لا أفعل فلا رد لكلام قد مضى كقولك لا والله ان القيامة لحق كأنك أكذبت قوما أنكروه الثانى انها مزيدة ومثلها فى لئلا يعلم أهل الكتاب واعترضوا هذا بانها انما تزاد فى وسط الكلام لا فى أوله وأجيب بان القرآن فى حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض يدل على ذلك انه قد يجئ ذكر الشئ فى سورة ويذكر جوابه فى سورة أخرى كقوله تعالى يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وجوابه فى سورة أخرى ما أنت بنعمة ربك بمجنون واذا كان كذلك كان أول هذه السورة جاريا مجرى الوسط ورد هذا بان القرآن فى حكم السورة الواحدة فى عدم التناقض لا أن تقرن سورة بما بعدها فذلك غير جائز الثالث قال الزمخشرى ادخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس

لا وأبيك ابنة العامرى * لا يدعى القوم انى أفر

وفائدتها توكيد القسم ثم قال الزمخشرى بعد ان ذكر وجه الزيادة والاعتراض والجواب كما تقدم والوجه أن يقال هى للنفى والمعنى فى ذلك انه لا يقسم بالشئ الا اعظاما له يدل عليه قوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم فكانه بادخال حرف النفى يقول ان اعظامى له باقسامى به كلا اعظام يعنى انه يستأهل فوق ذلك قال بعضهم قول الزمخشرى والوجه أن يقال الى آخره تقرير لقوله ادخال لا النافية فيه على فعل القسم مستفيض الى آخره

وحاصل

وحاصل كلامه يرجع الى انها نافية وأن النفي متسلط على فعل القسم بالمعنى الذي شرحه وليس فيه نفع لفظا ولا معنى وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزي بغير ألف بعد اللام والهمزة مضمومة والباقون بالالف و يعبر عن قراءة ابن كثير بالقصر وعن قراءة الباقين بالمد ولا خلاف في قوله تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة) في المد والكلام في لا المتقدمة وجرى الجلال المحلي على أنها زائدة في الموضعين واختلف في النفس اللوامة فقيل هي نفس المؤمن الذي لا تراه يلوم الا نفسه تقول ما أردت بكذا ولا تراه يعاتب الا نفسه وقال الحسن رضي الله عنه هي والله نفس المؤمن ما ترى المؤمن الا يلوم نفسه ما أردت بكلامي ما أردت بأكلي ما أردت بحديثي والفاجر لا يحاسب نفسه وقال مجاهد رضي الله عنه هي التي تلوم على ما فات فتلوم نفسها على الشر لم فعلته وعلى الخير لم لا تستكثر منه وقيل تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها وقيل المراد آدم عليه السلام لم يزل لائما نفسه على معصيته التي أخرج بها من الجنة وقيل هي الملومة فتكون صفة ذم وهو قول من نفى أن تكون قسما وعلى الاول صفة مدح فيكون اقسم بها سائغا وقال مقاتل رضي الله عنه هي نفس الكافر يلوم نفسه تحسرا في الآخرة على ما فرط في جنب الله تعالى وجواب القسم محذوف اي لتبعثن دل عليه قوله تعالى (أيحسب الانسان) اي هذا النوع الذي جبل على الانس بنفسه والنظر في عطفه وأسند الفعل الى النوع كله لان أكثرهم كذلك لغلبة الحظوظ على العقل الا من عصم الله تعالى وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (أن) اي أنا لا (نجمع) اي على ما لنا من العظمة (عظامه) اي التي هي قالب بدنه فنعيدها كما كانت بعد تفرقها وتفتتها للبعث والحساب وقيل نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الاخنس بن شريق الثقفي وذلك ان عديا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد حدثني عن القيامة متى تقوم وكيف أمرها وحالها فاخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أومن بك أو يجمع الله العظام بعد تفرقها ورجوعها رميما ورفاتا مختلطا بالتراب و بعد ما نسفتها الرياح وطيرتها في أباعد الارض ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اكفني جاري السوء عدي بن ربيعة والاخنس بن شريق وقيل نزلت في عدو الله أبي جهل أنكر البعث بعد الموت وذكر العظام والمراد نفسه كلها لان العظام قالب الخلق * (تنبيه) * أن هنا موصولة وليس بين الهمزة واللام نون في الرسم كما ترى وقوله تعالى (بلى) ايجاب لما بعد النفي المنسحب عليه الاستفهام وهو وقف حسن ثم يبتدئ بقوله تعالى (قادرين) وقيل المعنى بل نجمعها قادرين مع جمعها (على أن نسوي بنانه) اي أصابعه وسلامياته وهي عظامه الصغار التي في يده خصها بالذكر لانها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه اي نجمع بعضها الى بعض على ما كانت عليه قبل الموت لانا قدرنا على تفصيل عظامه وتفتيتها فنقدر على جمعها وتوصيلها وقدرنا على جمع صغار العظام فنحن على جمع كبارها أقدر وقال ابن عباس وأكثر المفسرين على أن نسوي بنانه اي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا كخف البعير أو كحافر الحمار أو كظلف الخنزير فلا يمكنه أن يعمل بها شيئا ولكنا فرقنا أصابعه حتى يفعل بها ما شاء وقيل نقدر أن نصير الانسان في هيئة البهائم فكيف في صورته التي كان عليها وهو كقوله تعالى وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا

الله ما تنكره وكررهما أولا بقوله فاولى ثم أولى لك فاولى مبالغة في التهديد والوعيد وهو تهديد بعد

تعلمون وقوله تعالى (بل يريد الانسان) عطف على أيحسب فيجوز أن يكون استفهاما وأن يكون موجبا بالجواز أن يكون الاضراب عن المستفهم وعن الاستفهام (ليفجر أمامه) أى ليدوم على فجوره فيما يستقبله من زمان لا يبرح عنه ولا يتوب هذا قول مجاهد رضى الله عنه وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه يقدم الذنب ويؤخر التوبة فيقول سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله وقال الضحاك رضى الله عنه هو الاجل يقول أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت وقال ابن عباس رضى الله عنهما يكذب بما أمامه من البعث والحساب وأصل الفجور الميل وسمى الكافر والفاسق فاجرا لميله عن الحق (يسئل) أى سؤال استهزاء أو استبعاد (أيان) أى أى وقت يكون (يوم القيامة)* ولما كان الجواب يوم يكون كذا وكذا عدل عنه الى ما سبب عن استبعاده لانه أهول فقال تعالى (فاذا برق البصر) أى شخص ووقف لما يرى مما كان يكذب به هذا على قراءة نافع بفتح الراء وأما على قراءة كسرها فالمعنى تحير ودهش مما يرى وقيل هما لغتان فى التحير والدهشة (وخسف القمر) أى أظلم وذهب ضوءه وقد اشتهر أن الخسوف للقمر والكسوف للشمس وقيل يكونان فيهما يقال خسفت الشمس وكسفت وخسف القمر وكسف وقيل الكسوف أوله والخسوف آخره ولم تلحق علامة التأنيث فى قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) لان التأنيث مجازى وقيل لتغليب التذكير ورد لانه لا يقال قام هند وزيد عند الجمهور من العرب وقال الكسائى حمل على جمع النيرين وقال الفراء لم يقل جمعت لان المعنى جمع بينهما قال الفراء والزجاج جمع بينهما فى ذهاب ضوئهما فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه وقال ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران فى النار وقال عطاء بن يسار رضى الله عنه يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكونان نار الله الكبرى وقيل يجمعان فى نار جهنم لانهما قد عبدا من دون الله تعالى ولا تكون النار عذابا لهما لانهما جماد وانما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبكيت الكفار وحسرتهم وقوله تعالى (يقول الانسان) أى الشديد روعه بما يرى مع طبعه جواب اذا من قوله تعالى فاذا برق البصر (يومئذ) أى اذ كانت هذه الاشياء وقوله تعالى (أين المفر) منصوب المحل بالقول والمفر مصدر بمعنى الفرار قال الماوردى ويحتمل وجهين أحدهما أين المفر من الله تعالى استحياء منه والثانى أين المفر من جهنم حذرا منها ويحتمل هذا القول من الانسان وجهين أحدهما أن يكون من الكافر خاصة فى عرصة القيامة دون المؤمن لثقة المؤمن ببشرى ربه تعالى والثانى أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها وقيل أبو جهل خاصة وقوله تعالى (كلا) ردع عن طلب المفر (لا وزر) أى لا ملجأ ولا حصن استعير من الجبل قال السدى كانوا فى الدنيا اذا فزعوا تحصنوا فى الجبال فقال الله تعالى لهم لا وزر يعصمكم منى يومئذ واشتقاقه من الوزر وهو الثقل (الى ربك) أى المحسن اليك بانواع الاحسان لا الى شئ غيره (يومئذ) أى اذ كانت هذه الامور (المستقر) أى استقرار الخلق كلهم ناطقهم وصامتهم ومكان قرارهم وزمانه الى حكمه سبحانه ومشيئته ظاهرا أو باطنا لا حكم لغيره بوجه من الوجوه فى ظاهر ولا باطن كما هو فى الدنيا وقال ابن مسعود

ثم ذكر وعيدا بعد وعيد

(سورة الانسان)

(قوله من نطفة امشاج) وصف النطفة مع انها

مفرد بامشاج وهو جمع
لانها فى معنى الجمع كقوله
تعالى رفرف خضر أو
بجعل أجزائها نطفا وقيل

المصير والمرجع قال الله تعالى الى ربك الرجعى واليه المصير وقال السدى المنتهى نظيره وأن الى ربك المنتهى (ينبأ) أى يخبر تخبيرا عظيما (الانسان يومئذ) أى اذ كان هذا الزلزال الاكبر (بما قدم) قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهم بما قدم قبل موته من عمل صالح وسيئ (وأخر) بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها وقال ابن عطية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة وقال قتادة بما قدم من طاعة الله وأخر من حق الله فضيعه وقال مجاهد بأول عمله وآخره وقال عطاء بما قدم فى أول عمره وما أخر فى آخر عمره وقال زيد بن أسلم بما قدم من أموال نفسه وما أخر خلفه للورثة والاولى أن يقال ينبأ بجميع ذلك اذ لا منافاة بين هذه الاقوال (بل الانسان) أى كل واحد من هذا النوع (على نفسه) أى خاصة (بصيرة) أى حجة بينة على أعماله والهاء للمبالغة يعنى أنه فى غاية المعرفة باحوال نفسه فيشهد عليه بعمله سمعه وبصره وجوارحه قال الله تعالى كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا قال البغوى ويحتمل أن يكون معناه بل للانسان على نفسه يعنى جوارحه فحذف حرف الجر كقوله تعالى وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم أى لاولادكم ويجوز أن يكون نعتا لاسم مؤنث أى بل الانسان على نفسه عين بصيرة (ولو ألقى) أى ذكر بغاية السرعة ذلك الانسان من غير تلعثم دلالة على غاية الصدق والاهتمام والتملق وقوله تعالى (معاذيره) جمع معذرة على غير قياس قاله الجلال المحلى أى لو جاء بكل معذرة ما قبلت منه وقال الزمخشرى المعاذير ليس بجمع معذرة وانما هو اسم جمع لها ونحوه المناكير فى المنكر اه قال أبو حيان وليس هذا البناء من أبنية أسماء الجموع وانما هو من أبنية جموع التكسير اه وقيل معاذير جمع معذار وهو الستر والمعنى ولو أرخى ستوره والمعاذير الستورة بلغة اليمن قاله الضحاك وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولو ألقى معاذيره أى ولو تجرد عن ثيابه

ولما كان صلى الله عليه وسلم اذا لقن الوحى نازع جبريل عليه السلام القراءة ولم يصبر الى أن يتمها مسارعة الى الحفظ وخوفا من أن ينفلت منه أمره الله تعالى بان ينصت له ملقيا اليه بقلبه وسمعه حتى يقضى الله تعالى وحيه ثم يعقبه بالدراسة الى أن يرسخ فيه بقوله تعالى (لا تحرك به) أى بالقرآن (لسانك) مادام جبريل عليه السلام يقرؤه (لتعجل به) أى لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك فان هذه العجلة وان كانت من الكمالات بالنسبة اليك والى اخوانك من الانبياء عليهم السلام كما قال موسى عليه السلام وعجلت اليك رب لترضى نقل صلى الله عليه وسلم من مقام كامل الى أكمل منه ثم علل النهى عن العجلة بقوله تعالى (ان علينا) أى بما لنا من العظمة لا على أحد سوانا (جمعه) أى فى صدرك حتى تثبته وتحفظه (وقرآنه) أى قراءتك اياه وجرى جريانه على لسانك (فاذا قرأناه) عليك بقراءة جبريل عليه السلام (فاتبع) أى بغاية جهدك بالقاء سمعك واحضار قلبك (قرآنه) أى قراءته مجموعة على حسب ما أداه رسولنا جمعناه لك فى صدرك وكرر تلاوته حتى يصير لك به ملكة عظيمة و يصير لك خلقا فيكون قائدك الى كل خير وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل جبريل بالوحى كان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه وكان يعرف منه فأنزل الله تعالى الآية التى فى لا أقسم بيوم القيامة لا تحرك به لسانك

الآية فكان صلى الله عليه وسلم اذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق فاذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى قال سعيد بن جبير قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فانا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما فانزل الله عز وجل الآية (ثم ان علينا) اى بما لنا من العظمة (بيانه) اى بيان ألفاظه ومعانيه لك سواء أسمعته من جبريل عليه السلام على مثل صلصلة الجرس أم بكلام الناس المعتاد بالصوت والحرف ولغيرك على لسانك وعلى ألسنة العلماء من أمتك والآية مشيرة الى ترك مطلق العجلة لانه اذا نهى عنها فى أعظم الاشياء وأهمها كان غيره بطريق الاولى والمناسبة بين هذه الآية وما قبلها ان تلك تضمنت الاعراض عن آيات الله تعالى وهذه تضمنت المبادرة اليها بحفظها وقوله تعالى (كلا) استفتاح بمعنى ألا وقال الزمخشري ردع للنبي صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وقال جماعة من المفسرين حقا والاول جرى عليه الجلال المحلي وهو أظهر (بل يحبون) متجددة على تجدد الزمان (العاجلة) بدليل أنهم يقبلون غاية الاقبال عليها وحبها أوجب لهم ارتكاب ما يعلمون قبحه فات الآخرة والاولى ضرتان من تقرب من أحدهما لا بد من تباعده عن الاخرى فان حبك للشئ يعمي ويصم (ويذرون) اى يتركون على اى وجه كان ولو أنه غير حسن (الآخرة) لانهم يبغضونها لارتكابهم ما يضرهم فيها وجمع الضمير وان كان سبق الخطاب مع الانسان للمعنى وقرأ يحبون ويذرون ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بياء الغيبة فيهما حملا على لفظ الانسان المذكور أولا لان المراد به الجنس لان الانسان بمعنى الناس والباقون بتاء الخطاب فيهما اما خطابا لكفار قريش اى تحبون يا كفار قريش العاجلة اى الدار الدنيا والجاه فيها وتتركون الآخرة والعمل لها واما التفاتا عن الاخبار عن الجنس المتقدم والاقبال عليه بالخطاب ولما ذكر تعالى الآخرة التى أعرضوا عنها ذكر ما يكون فيها بيانا لجهلهم وسفههم وقلة عقولهم وترهيبا لمن أدبر عنها وترغيبا لمن أقبل عليها الطافا بهم ورحمة لهم فقال تعالى (وجوه) اى من المحشورين وهم جميع الخلائق (يومئذ) اى اذ تقوم الساعة (ناضرة) من النضرة بالضاد وهي النعمة والرفاهية اى هي بهية مشرقة عليها أثر النعمة بحيث يدل ذلك على نعمة أصحابها (الى ربها) اى المحسن اليها خاصة باعتبار أنه عد النظر الى غيره كلا نظر (ناظرة) اى دائما هم محدقون أبصارهم لا غفلة لهم عن ذلك فاذا رفع الحجاب عنهم أبصروه بأعينهم بدليل التعدي الى وذلك النظر جهرة من غير اكتتام ولا انضمام ولا ازدحام كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأكثر المفسرين وجميع أهل السنة وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام في الاحاديث الصحيحة من وجوه كثيرة بحيث اشتهر غاية الشهرة وتكون الرؤية كما مثلت فى الاحاديث كما يرى القمر ليلة البدر أى كل من يريد رؤيته من بيته يراه مجليا له هذا وجه الشبه لا انه فى جهة ولا فى حالة لها شبيه تعالى الله الكريم عن التشبيه فمن تلك الاحاديث ما روي عن جرير بن عبد الله قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر فقال صلى الله عليه وسلم انكم سترون ربكم عيانا كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك

أمشاج مفرد لا جمع كبرمة أعشار وثوب أخلاق

(قوله نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا)* (ان قلت)

قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وفى كتاب النسائى عن وهب قال ينكشف الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم شيأ أحب اليهم من النظر ولا أقر لأعينهم وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجلى ربنا عز وجل حتى تنظر الى وجهه فيخرون له سجدا فيقول تعالى ارفعوا رؤسكم فليس هذا يوم عبادة وقدم الجار الدال على الاختصاص اشارة الى أن هذا النظر مباين للنظر الى غيره فلا يعد ذلك نظرا بالنسبة اليه وعبر بالوجوه عن أصحابها لانها أدل مايكون على السرور وليكون ذكرها أصرح فى أن المراد بالنظر حقيقته روى مسلم فى قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة كان ابن عمر يقول أكرم أهل الجنة على الله من ينظر الى وجهه غدوة وعشية ثم تلا هذه الآية وأنكر الرؤية المعتزلة واحتجوا بقوله تعالى لاتدركه الابصار ويقولون النظر المقرون بالى ليس اسما للرؤية بل لمقدمة الرؤية وهى تقليب الحدقة نحو المرئى التماسا لرؤيته ونظر العين بالنسبة الى الرؤية كنظر القلب بالنسبة الى المعرفة وكالاصغاء بالنسبة الى السمع ويدل على ذلك قوله تعالى وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون فأثبت النظر حال عدم الرؤية فتكون الرؤية غاية النظر وان النظر يحصل والرؤية غير حاصلة قالوا ويمكن أن يكون معنى قوله تعالى ناظرة منتظرة كقولك انا أنظر اليك فى حاجتى وأجيب عن استدلالهم بقوله تعالى لاتدركه الابصار بان لاتدركه بالاحاطة والجهة فلا يكون ذلك مانعا للرؤية على هذا الوجه وعن بقية استدلالهم بما ذكروه بجوابين أحدهما أن نقول النظر هو الرؤية لقول موسى عليه السلام أرنى أنظر اليك فلو كان المراد تقليب الحدقة نحو المرئى لاقتضت الآية اثبات الجهة والمكان ولانه أخر النظر عن الاراءة فلا يكون تقليب الحدقة الجواب الثانى سلمنا ماذكرتموه من أن النظر تقليب الحدقة تعذر حمله على الحقيقة فيجب حمله على الرؤية اطلاقا لاسم السبب على المسبب وهو أولى من حمله على الانتظار لعدم الملازمة لان تقليب الحدقة كالسبب للرؤية ولا تعلق بينه وبين الانتظار وأما قولهم بحمله على الانتظار فأجيب عنه أيضا بان الذى هو بمعنى الانتظار فى القرآن غير مقرون بالى كقوله تعالى انظرونا نقتبس من نوركم هل ينظرون الا أن والذى ندعيه ان النظر المقرون بالى ليس الا بمعنى الرؤية لان وروده بمعنى الرؤية ظاهر فلا يكون بمعنى الانتظار دفعا للاشتراك ولما ذكر تعالى أهل النعمة أتبعه أضدادهم من أهل النقمة فقال سبحانه وتعالى (ووجوه يومئذ) اى فى ذلك اليوم بعينه (باسرة) اى شديدة العبوس والكلوح والتكره لما هى فيه من الغم كانها قد غرقت فيه وقال السدى باسرة متغيرة (تظن) اى تتوقع أربابها بما ترى من المخايل (أن يفعل بها) اى بهم فانه اذا أصيب الوجه الذى هو أشرف ما فى الجملة كان ماعداه أولى (فاقرة) وهى الداهية العظيمة قال أبو عبيدة سميت بذلك لانها تكسر فقار الظهر يقال فقرته الفاقرة اى كسرت فقار ظهره ومنه سمى الفقير لانكسار فقاره من القل وقال قتادة الفاقرة الشر وقال السدى الهلاك وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما دخول النار وقال الكلبى هى أن تحجب عن رؤية الرب عز وجل وقوله تعالى (كلا) ردع عن ايثار الدنيا على الآخرة قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى وزاد الزمخشرى كانه قيل ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا الى ما بين أيديكم من الموت الذى عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنقلبون

كيف عطفت على بقليـة ما بعده بالفاء مع أن الابتلاء متأخر عنه (قلت) فنبليه حال مقدرة اى مريدين

الى الآجلة التى تبقوا فيها مخلدين (اذا بلغت) النفس (التراقى) وأضمر النفس وان لم يجر لها ذكر لان الكلام الذى وقعت فيه يدل عليها كما قال حاتم

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وتقول العرب أرسلت يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء والتراقى جمع ترقوة وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ولكل انسان ترقوتان قال البقاعى ولعله جمع المثنى اشارة الى شدة انتشارها بغاية الجهد لما فيه من الكرب لاجتماعها من أقاصى البدن الى هنالك اهـ وهذا كناية عن الاشفاء على الموت ذكرهم صعوبة الموت وهو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقى ودنا زهوقها (وقيل) اى قال حاضر وصاحبها وهو المحتضر بعضهم لبعض (من راق) اى أيكم يرقيه مما به ليحصل له الشفاء وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو من كلام ملائكة الموت اى أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب فالاول اسم فاعل من رقى يرقى بمعنى الرقية بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع والثانى الذى بمعنى الصعود بالكسر فى الماضى والفتح فى المضارع (وظن) اى أيقن المحتضر لما لاح له من أنوار الآخرة وقيل القائل من راق من أهله (أنه) اى الشأن العظيم الذى هو فيه (الفراق) اى لما كان فيه من محبوب العاجلة الذى هو الفراق الاعظم الذى لا فراق مثله ففى الخبر ان العبد ليعالج كرب الموت وسكراته وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض يقول السلام عليك تفارقنى وأفارقك الى يوم القيامة وسمى اليقين هنا بالظن لان الانسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه فانه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها أو ان المراد الظن الغالب اذ لا يحصل يقين الموت مع رجاء الحياة وقيل سماه بالظن تهكما قال الرازى وهذه الآية تدل على ان الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن لانه تعالى سمى الموت فراقا والفراق انما يكون اذا كانت الروح باقية فان الفراق والوصال صفة والصفة تستدعى وجود الموصوف (والتفت الساق بالساق) اى اجتمعت احداهما بالاخرى اذ الالتفاف الاجتماع قال تعالى جئنا بكم لفيفا ومعنى الكلام اتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والحسن وغيرهما وقال الشعبى التفت ساق الانسان عند الموت من شدة الكرب قال قتادة أما رأيته اذا أشرف على الموت يضرب رجله على الاخرى وقال سعيد بن المسيب هما ساقا الانسان اذا التفتا فى الكفن وقال زيد بن أسلم التفت ساق الكفن بساق الميت وقال الضحاك الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه وقال السدى لا يخرج من كرب الا جاء أشد منه وأول الاقوال كما قال النحاس أحسنها والعرب لا تذكر الساق الا فى الشدائد والمحن العظام ومنه قولهم قامت الحرب على ساق قال أهل المعانى لان الانسان اذا دهمته شدة شمر لها عن ساقيه فقيل للامر الشديد ساق قال الجعدى

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها * وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ولما صور وقت تأسفه على الدنيا واعراضه عنها ذكر غاية ذلك فقال تعالى مفردا النبى صلى الله عليه وسلم بالخطاب اشارة الى أنه لا يفهم هذا حق فهمه غيره (الى ربك) اى المحسن اليك

ابتلاء حيث تأهل لفهماذاه معطوف عليه هو ارادة الابتلاء لا لابتلاء (قوله وبطاف

بجميع ما أنت فيه (يومئذ) اى اذ وقع هذا الامر (المساق) اى السوق الى حكمه تعالى فقد انقطعت عنه أحكام الدنيا فاما أن تسوقه الملائكة الى سعادة واما الى شقاوة والضمير فى قوله تعالى (فلا صدق) راجع للانسان المذكور فى أيحسب الانسان اى فلا صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما أخبره به مما كان يعمل من الاعمال الخبيثة ولا فى ماله بالانفاق فى وجوه الخير التى ندب اليها واجبة كانت أو مندوبة وحذف المعمول لانه أبلغ فى التعميم (ولا صلى) اى ما أمر به من فرض وغيره فلا تمسك بحبل الخالق ولا وصل حبل الخلائق وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يصدق بالرسالة ولا صلى اى دعا ربه عز وجل وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة فلا صدق بكتاب الله تعالى ولا صلى لله جل ذكره (ولكن) اى فعل ضد ما أمر به بان (كذب) اى بما أتاه به النبى صلى الله عليه وسلم من قرآن وغيره (وتولى) اى أعرض عنه وهذا الاستدراك واضح اذ لا يلزم من نفى التصديق والصلاة التكذيب والتولى وقال القرطبى معناه كذب بالقرآن وتولى عن الايمان وقيل نزلت فى أبى جهل (ثم ذهب) اى هذا الانسان أو أبو جهل (الى أهله) غير متفكر فى عاقبة ما فعل من التكذيب حالة كونه (يتمطى) اى يتبختر افتخارا بتكذيبه واعراضه وعدم مبالاته بذلك وأصله يتمطط اى يتمدد لان المتبختر يمد خطاه وانما أبدلت الطاء الثانية ياء كراهة اجتماع الامثال وقيل هو من المطا وهو الظهر لانه يلويه تبخترا فى مشيته وقوله تعالى (أولى لك) فيه التفات من الغيبة والكلمة اسم فعل واللام للتبيين اى وليك ما تكره (فأولى) اى فهو أولى بك من غيرك وقوله تعالى (ثم أولى لك فأولى) تأكيد وقيل هذه الكلمة تقولها العرب لمن قاربه المكروه وأصلها من الولى وهو القرب قال الله تعالى قاتلوا الذين يلونكم وقال قتادة ذكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبى جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى فقال أبو جهل أتوعدنى يا محمد فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيأ وانى والله لأعز من مشى بين جبليها فلما كان يوم بدر صرعه الله شر مصرع وقتله أسوأ قتلة قال وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول لكل أمة فرعون وان فرعون هذه الامة أبو جهل (أيحسب) اى يجوّز لقلة عقله (الانسان) اى الذى هو عبد مربوب ضعيف عاجز محتاج بما يرى من نفسه وأبناء جنسه (أن يترك) اى يكون تركه بالكلية (سدى) اى هملا لاغيا لا يكلف ولا يجازى ولا يعرض على الملك الاعظم الذى خلقه فيسأله عن شكره فيما أسدى اليه فان ذلك مناف للحكمة فانما اقتضى الامر بالمحاسن والنهى عن المساوى والجزاء على كل منهما وأكثر الظالمين والمظلومين يموتون من غير جزاء فاقتضت الحكمة أنه لا بد من البعث للجزاء (ألم يك) اى الانسان (نطفة) اى شيأ يسيرا (من منى) اى ماء من صلب الرجل وترائب المرأة (يمنى) اى تصب فى الرحم سبب الله تعالى للانسان المعالجة فى اخراجها بما ركب فيه من الشهوة وجعل له من الزوج التى يسر لها القضاء وطره حتى ان وقت صبها فى الرحم تصب منه بغير اختياره حتى كانه لا فعل له فيها أصلا (فان قيل) ما فائدة يمنى بعد قوله تعالى من منى (أجيب) بان فيه اشارة الى حقارة حاله كانه قيل انه مخلوق من المنى الذى يجرى على مجرى النجاسة فلا يليق بمثل هذا أن يتمرد عن طاعة الله تعالى الا أنه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز

عليهم) ذكره بالبناء للمفعول وقال بعضهم و يطوف عليهم ولدان بالبناء للفاعل لان المقصود

كما في قوله تعالى في عيسى عليه السلام وأمه مريم كانا يأكلان الطعام والمراد منه قضاء الحاجة (ثم كان) أي كونا محكما (علقة) أي دما أحمر غليظا شديد الحمرة والغلظ (فخلق) أي قدر سبحانه عقب ذلك لحمه وعظامه وعصبه وغير ذلك من جواهره وأعراضه (فسوى) أي عدل من ذلك خلقا آخر غاية التعديل شخصا مستقلا (فجعل) أي بسبب النطفة (منه) أي من المني الذي صار علقة أي قطعة دم ثم مضغة أي قطعة لحم (الزوجين) أي النوعين (الذكر والأنثى) يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر تارة قال القرطبي وقد احتج بهذه الآية من رأى اسقاط الخنثى وأجيب بأن هذه الآية وقرينتها اخرجت مخرج الغالب أو أنه في نفس الامر ذكر أو أنثى (أليس ذلك) أي الخالق المسوى الاله الاعظم الذي قدر على تمييز ما يصلح من ذلك للذكر وما يصلح منه للأنثى (بقادر على أن يحيي الموتى) أي ان يعيد هذه الاجسام كهيئتها للبعث بعد البلاء روي أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأها قال سبحانك اللهم بلى رواه أبو داود والحاكم وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من قرأ سبح اسم ربك الاعلى اماما كان أو غيره فليقل سبحان ربي الاعلى ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة الى آخرها فليقل سبحانك اللهم بلى اماما كان أو غيره وروى البغوي بسنده من طريق أبي داود عن اعرابي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى الى آخرها أليس الله باحكم الحاكمين فليقل بلى وانا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى الى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فليقل بلى ومن قرأ والمرسلات فبلغ فبأي حديث بعده يؤمنون فليقل آمنا بالله وروى أن رجلا كان يصلي فوق بيته فكان اذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى قال سبحانك اللهم بلى فسألوه عن ذلك فقال سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أن كان مؤمنا حديث موضوع

في الاول ما يطوف * الطائفون بقرينة قوله بآنية من فضة والمقصود في الثاني الطائفون فذكر

سورة الانسان

وتسمى هل أتى والامشاج والدهر مكية أو مدنية وهي احدى وثلاثون آية ومائتان وأربعون كلمة وألف وأربعة وخمسون حرفا

واختلف فيها هل هي مكية أو مدنية فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومقاتل والكلبي مكية وجرى عليه البيضاوي والزمخشري وقال الجمهور مدنية وقال الجلال المحلي مكية أو مدنية ولم يجزم بشيء وقال الحسن وعكرمة هي مدنية الا آية وهي قوله تعالى فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا وقيل فيها مكي من قوله تعالى انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا الى آخر السورة وما تقدمه مدني

(بسم الله) الذي له الاسماء الحسنى (الرحمن) الذي عم بنعمه الذكر والانثى (الرحيم) الذي خص منهم من شاء بالمقام الاسنى * ولما تم الاستدلال على البعث والقدرة عليه بلا الاستفهام وهو قوله تعالى (هل أتى) قال الزمخشري بمعنى قد في الاستفهام خاصة والاصل

أهل بدليل قول الشاعر

سائل فوارس يربوع بشدتنا * أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

فالمعنى أقد أتى على التقرير والتقريب جميعا اى أتى (على الانسان) قبل زمان قريب (حين من الدهر لم يكن) فيه (شيأ مذكورا) اى كان شيأ منسيا غير مذكور نطفة فى الاصلاب اهـ فقوله على التقرير يعنى المفهوم من الاستفهام وقوله والتقريب يعنى المفهوم من قد التى وقع موقعها هل ومعنى قوله فى الاستفهام خاصة أن هل لا تكون بمعنى قد الا ومعها استفهام لفظا كالبيت المتقدم أو تقديرا كالآية الكريمة ولو قلت هل جاء زيد بمعنى قد جاء من غير استفهام لم يجز وغيره جعلها بمعنى قد من غير هذا القيد وجرى عليه الجلال المحلى واعترض على الزمخشرى بانه لم يذكر غيره كونها بمعنى قد وبقى قيد آخر وهو أن يقول فى الجمل الفعلية لانها متى دخلت على جملة اسمية استحال كونها بمعنى قد لان قد مختصة بالافعال وأجيب عنه بان هذا لا يحتاج اليه لانه تقرر ان قد لا تباشر الاسماء واختلف فى المراد من الانسان فقال قتادة وعكرمة والشعبى هو آدم عليه السلام مرت عليه أربعون سنة قبل أن تنفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى رواية الضحاك أنه خلق من طين فاقام أربعين سنة ثم من حمإ مسنون أربعين سنة ثم من صلصال أربعين سنة ثم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الحين المذكور هنا هو الزمن الطويل الممتد الذى لا يعرف مقداره وقال الحسن خلق الله كل الاشياء ما يرى وما لا يرى من دواب البر والبحر فى الايام الست التى خلق الله تعالى فيها السموات والارض وآخرها خلق آدم عليه السلام فهو قوله تعالى لم يكن شيأ مذكورا روى ان أبا بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية قال ليتها تمت فلا نبتلى اى ليت هذه المدة التى أتت على آدم عليه السلام لم يكن شيأ مذكورا تمت على ذلك فلا يلد ولا تبتلى أولاده وسمع عمر رجلا يقرأ لم يكن شيأ مذكورا فقال عمر ليتها تمت يقول ليته بقى على ما كان هذا وهما ضجيعاه صلى الله عليه وسلم ولكن بقدر القرب يكون الخوف (فان قيل) ان الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان انسانا والآية تقتضى أنه مضى على الانسان حال كونه انسانا حين من الدهر مع انه فى ذلك الحين ما كان شيأ مذكورا (أجيب) بان الطين والصلصال اذا كان مصورا بصورة الانسان ويكون محكوما عليه بانه سينفخ فيه الروح ويصير انسانا صح تسميته بانه انسان روى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى لم يكن شيأ مذكورا لا فى السماء ولا فى الارض بل كان جسدا مصورا ترابا وطينا لا يذكر ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا قال ابن سلام لم يكن شيأ لانه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوانا وقال الزمخشرى وتبعه جماعة من المفسرين ان المراد بالانسان جنس بنى آدم بدليل قوله تعالى (انا خلقنا الانسان) اى بعد خلق آدم عليه السلام (من نطفة) اى مادة هى شئ يسير جدا من الرجل والمرأة وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه

فى كل منهما ما يناسبه (قوله كانت قوارير) معناه تكونت لانها كانت قبل قوارير كذا من قوله

مالى أراك تكرهين الجنه * هل أنت الانطفة فى شنه

وعلى هذا فالمراد بالحين المدة التى هو فيها فى بطن أمه لم يكن شيأ مذكورا اذ كان علقة ومضغة لانه فى هذه الحالة جماد لاخطر له وقوله تعالى (أمشاج) اى أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين نعت لنطفة ووقع الجمع نعتا لمفرد لانه فى معنى الجمع كقوله رفرف خضر أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فوصفت بالجمع وقال الزمخشرى نطفة أمشاج كبرمة أعشار وبرد أكياش وهى ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للافراد ويقال أيضا نطفة مشج قال الشماخ

طوت أحشاء مرتجة لوقت * على مشج سلالته مهين

ولا يصح امشاج أن يكون تكسيراله بل هما مثلان فى الافراد لوصف المفرد بهما اه فقد منع أن يكون امشاجا جمع مشج بالكسر قال أبو حيان وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن أفعالا لا يكون مفردا وأجاب بعضهم بان الزمخشرى انما قال يوصف به المفرد ولم يجعل افعالا مفردا فكأنه جعل كل قطعة من البرمة برمة وكل قطعة من البرد بردا فوصفهما بالجمع والمعنى من نطفة قد امتزج فيها الماآن وكل منهما مختلف الاجزاء متباين الاوصاف فى الرقة والثخن والقوام والخواص يجمع من الاخلاط وهى العناصر الاربعة ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فايهما علا كان الشبه له وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فمن نطفة الرجل وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة قال القرطبى وقد روى هذا مرفوعا ذكره البزار وعن قتادة أمشاج ألوان وأطوار يريد أنها تكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم خلقا آخر وعن ابن مسعود رضى الله عنه هى عروق النطفة وقال مجاهد نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء والغرض من هذا التنبيه على ان الانسان محدث فلابد له من محدث قادر على تصويره وقد صوره على صور مختلفة فمنها صغير وكبير وطويل وقصير ومستدير وعريض ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة جعل له بدنه وبعض أعضائه جعل بين العظام مفاصل ثم أوصلها باوتار وعروق ولحم ودور الرأس وشق فى جانبيه السمع وفى مقدمه البصر والانف والفم وشق فى البدن سائر المنافذ ثم مد اليدين والرجلين وقسم رؤسها بالاصابع وركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة فسبحان من خلق هذه الاشياء من نطفة مضغة أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى * وقوله تعالى (نبتليه) يجوز فيه وجهان أحدهما أنه حال من فاعل خلقنا اى خلقناه حال كوننا مبتلين له والثانى أنه حال من الانسان وصح ذلك لان فى الجملة ضميرين كل منهما يعود على ذى الحال ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنة ان كان المعنى نبتليه نصرفه فى بطن أمه نطفة ثم علقة كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وأن تكون مقدرة ان كان المعنى نبتليه نختبره بالتكليف لانه وقت خلقه غير مكلف وفيما يختبره به وجهان أحدهما قال الكلبى نختبره بالخير والشر والثانى قال الحسن نختبر شكره فى السراء وصبره فى الضراء وقيل نبتليه نكلفه بالعمل بعد الخلق قاله مقاتل رضى الله عنه وقيل نكلفه ليكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصى (فجعلناه) اى

تعالى كن فيكون وكذا
كان مزاجها كافورا
(قوله حسبتهم) اذا رأوا
منثورا) * ان قلت

بما لنا من العظمة بسبب ذلك (سميعا بصيرا) اى عظيم السمع والبصر والبصيرة ليتمكن من مشاهدة الدلائل ببصره وسماع الآيات بسمعه ومعرفة الحجج ببصيرته فيصح تكليفه وابتلاؤه فقدم العلة الغائية لانها متقدمة فى الاستحضار على التابع لها المصحح لورودها وقدم السمع لانه أنفع فى المخاطبات ولان الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية وخصهما بالذكر لانهما أنفع الحواس ولان البصر يفهم البصيرة وهى تتضمن الجميع وقال بعضهم فى الكلام تقديم وتأخير والاصل انا جعلناه سميعا بصيرا لنبتليه اى جعلناه ذلك للابتلاء وقيل المراد بالسميع المطيع كقولك سمعا وطاعة وبالبصير العالم يقال افلان بصر فى هذا الامر (انا) اى بما لنا من العظمة (هديناه السبيل) اى بيناه له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعثة الرسل وقال مجاهد رضى الله عنه بيناله السبيل الى السعادة والشقاوة وقال السدى رضى الله عنه السبيل هنا خروجه من الرحم وقيل منافعه ومضاره التى يهتدى اليها بطبعه وكمال عقله قال الرازى والآية تدل على أن العقل متأخر عن الحواس قال وهو كذلك وقوله تعالى (اما شاكرا) اى لانعام ربه عليه (واما كفورا) اى بليغ الكفر بالاعراض والتكذيب نصب على الحال وفيه وجهان أحدهما انه حال من مفعول هديناه اى هديناه مبيناله كلتا حالتيه والثانى انه حال من السبيل على المجاز قال الزمخشرى ويجوز أن يكونا حالين من السبيل اى عرفناه السبيل اما سبيلا شاكرا واما سبيلا كفورا كقوله تعالى وهديناه النجدين فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازا وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه الحديث وعن جابر رضى الله عنه كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا ولما قسمهم الى قسمين ذكر جزاء كل فريق فقال تعالى (انا) اى على ما لنا من العظمة (أعتدنا) اى هيأنا وأحضرنا بشدة وغلظة (للكافرين) اى العريقين فى الكفر خاصة وقدم الاسهل فى العذاب فالاسهل فقال تعالى (سلاسل) جمع سلسلة أى يقادون ويوثقون بها (وأغلالا) أى فى أعناقهم تشد فيها السلاسل فتجمع أيديهم الى أعناقهم (وسعيرا) اى نارا حامية جدا شديدة الاتقاد وقرأ نافع وهشام وشعبة والكسائى سلاسلا وصلا بالتنوين والباقون بغير تنوين وأما الوقف على الثانية فوقف عليها بغير ألف قنبل وحمزة ووقف البزى وابن ذكوان وحفص بغير ألف و بالالف ووقف الباقون بالالف ولا وقف على الاولى والرسم بالالف اما من نون سلاسل فوجه باوجه منها انه قصد بذلك التناسب لان ما قبله وما بعده منون منصوب ومنها ان الكسائى وغيره من أهل الكوفة حكوا عن بعض العرب انهم يصرفون جميع ما لا ينصرف الا أفعل منك وقال الاخفش سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف لان الاصل فى الاسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها وروى عن بعضهم انه يقول رايت عمرا بالالف يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأيضا هذا الجمع قد جمع وان كان قليلا قالوا صواحب وصواحبات وفى الحديث انكن صواحبات يوسف ومنها أنه مرسوم فى الامام اى مصحف الحجاز والكوفة بالالف رواه أبو عبيدة ورواه قالون عن نافع وروى بعضهم ذلك عن مصاحف البصرة أيضا وقال الزمخشرى فيه وجهان أحدهما أن

ما الحكمة فى تشبيههم باللؤلؤ المنثور دون المنظوم (قلت) لانه تعالى أراد تشبيههم فى حسنهم وانتشارهم

يكون هذا التنوين بدلا من حرف الاطلاق ويجري الوصل مجرى الوقف والثاني أن يكون صاحب هذه القراءة ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف اه قال بعض المفسرين وفي هذه العبارة فظاظة وغلاظة لاسيما على مشايخ الاسلام وأئمة العلماء الاعلام وأما من لم ينونه فوجهه ظاهر لانه على صيغة منتهى الجموع وقولهم قد جمع نحو صواحبات لا يقدح لان المحذور جمع التكسير وهذا جمع تصحيح وأما من لم يقف بالالف فواضح ولما أوعد جزى جزاء الكافر أتبعه بجزاء الشاكر وأطنب تأكيدا للترتيب فقال تعالى (ان الابرار) جمع بر كأرباب جمع رب أو بار كأشهاد جمع شاهد وفي الصحاح وجمع البار البررة وهم الصادقون في ايمانهم المطيعون لربهم الذين سمت هممهم عن المستحقرات فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة وروى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال انما سماهم الله تعالى الابرار لانهم بروا الآباء والابناء كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق وقال الحسن رضي الله عنه البر الذي لا يؤذي الذر وقال قتادة رضي الله عنه الابرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر وفي الحديث الابرار الذين لا يؤذون احدا (يشربون من كأس) هو اناء شرب الخمر وهي فيه والمراد من خمر تسمية للحال باسم المحل ومن للتبعيض (كان مزاجها) أي ما تمزج به (كافورا) لبرده وعذوبته وطيب عرفه وذكر فعل الكون يدل على أن له في المزج شأنا عظيما يكون فيه كأنه من نفس الجبلة لا كما يعهد والكافور نبت معروف وكان اشتقاقه من الكفر وهو الستر لانه يغطي الاشياء برائحته والكافور أيضا كمام الشجر الذي هو ثمرتها والكافر أيضا البحر والكافر الليل والكافر الساتر لنعم الله تعالى والكافر الزارع لتوريته الحب في الارض قال الشاعر

وكافرمات على كفره * وجنة الفردوس للكافر

والكفارة تغطية الاثم في اليمين الفاجرة والنذور الكاذبة بالمغفرة والكافور ماء جوف الشجر مكافور فيغرزونه بالحديد فيخرج الى ظاهر الشجر فيضربه الهواء فيجمد وينعقد كالصمغ الجامد على الاشجار (فان قيل) مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيذا فما السبب في ذكره (أجيب) بأوجه أحدها قال ابن عباس رضي الله عنهما الكافور اسم عين في الجنة يقال لها عين الكافور أي يمازجها ماء هذه العين التي تسمى كافورا في بياض الكافور ورائحته وبرده ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته ثانيها أن رائحة الكافور عرض والعرض لا يكون الا في جسم فخلق الله تعالى تلك الرائحة في جرم ذلك الشراب فسمي ذلك الجسم كافورا وان كان طعمه طيبا فيه نعت الكافور وريحها الا طعمها ثالثها ان الله تعالى يخلق الكافور في الجنة مع طعم طيب لذيذ ويسلب عنه ما فيه من المضرة ثم انه تعالى يمزجه بذلك الشراب كما انه تعالى يسلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها في الدنيا من المضار وقال سعيد عن قتادة رضي الله عنهم يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك وقيل يخلق فيها رائحة الكافور وبياضه فكأنها مزجت بالكافور وقوله تعالى (عينا) في نصبه أوجه احدها انه بدل من كافورا لان ماءها في بياض الكافور وفي رائحته وبرده واقتصر على هذا الجلال المحلي الثاني انه بدل من محل من كأس قاله مكي ولم يقدر حذف مضاف وقدر الزمخشري على هذا الوجه حذف مضاف قال كأنه قيل يشربون خمرا خمر عين

قوله في الخدمة بالالواو الذي لم يعقب وهو أشد صفاء وأحسن منظرا مما تعقب لانه اذا تعقب نقص صفاؤه

الثالث انه نصب على الاختصاص قاله الزمخشري الرابع انه باضمار أعنى قاله القرطبي وقيل غير ذلك (يشرب بها) قال الجلال المحلي منها وقال البقاعي أي بمزاجها وقال الزمخشري بها الخمر قال كما تقول شربت الماء بالعسل والاول اوضح (عباد الله) أي أولياؤه (فان قيل) الكفار عباد الله وهم لا يشربون منها بالاتفاق (اجيب) بان لفظ عباد الله مختص باهل الايمان ولكن يشكل بقوله تعالى ولا يرضى لعباده الكفر فانه يصير تقدير الآية ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر مع أنه سبحانه لا يرضى الكفر للكافرين لغيره وقد يجاب بان هذا أكثرى لا كلى أو يقال حيث اضيف العباد أو العبد الى اسم الله الظاهر سواء كان بلفظ الجلالة أم لا فالمراد به المؤمن وان أضيف الى ضميره تعالى فيكون بحسب المقام فتارة يختص بالمؤمن كقوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وتارة يعم كقوله تعالى ولا يرضى لعباده الكفر وقوله تعالى نبئ عبادى انى أنا الغفور الرحيم (يفجرونها) اى يجرونها حيث شاؤا من منازلهم وان علت (تفجيرا) سهلا لا يمتنع عليهم * ولما ذكر جزاءهم ذكر وصفهم الذى يستحقون عليه ذلك بقوله تعالى (يوفون بالنذر) وهذا يجوز ان يكون مستأنفا ويجوز ان يكون خبر الكان مضمرة قال الفراء التقدير كانوا يوفون بالنذر فى الدنيا وكانوا يخافون وقال الزمخشري يوفون جواب من عسى يقول مالهم يرزقون ذلك قال ابو حيان واستعمل عسى صلة لمن وهو لا يجوز وأتى بالمضارع بعد عسى غير مقرون بان وهو قليل أو فى الشعر والوفاء بالنذر مبالغة فى وصفهم بالتوفر على اداء الواجبات لان من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله تعالى كان بما أوجبه الله تعالى عليه أوفى وقال الكلبي يوفون بالنذر أى يتمون العهود لقوله تعالى وأوفوا بعهد الله أوفوا بالعقود أمروا بالوفاء بها لانهم عقدوها على انفسهم باعتقادهم الايمان قال القرطبي والنذر حقيقة ما أوجبه المكلف على نفسه من شئ يفعله وان شئت قلت فى حده هو ايجاب المكلف على نفسه من الطاعات مالو لم يوجبه لم يلزمه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر ان يعصيه فلا يعصه * ولما دل وفاؤهم على سلامة طباعهم قال تعالى عاطفا دلالة على جمعهم للامرين المتعاطفين فهم يفعلون الوفاء لا لأجل شئ بل لكرم الطبع (ويخافون) أى مع فعلهم للواجبات (يوما) قال ابن عبد السلام شر يوم أو أهوال يوم (كان) اى كونا هو فى جبلته (شره) اى ما فيه من الشدائد (مستطيرا) اى فاشيا منتشرا غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو أبلغ من طار وقال قتادة رضى الله عنه كان شره فاشيا فى السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة ونسفت الجبال وغارت المياه وتكسر كل شئ على الارض من جبل وبناء وفى ذلك اشعار بحسن عقيدتهم واحسانهم واجتنابهم عن المعاصى فان الخوف أدل دليل على عمارة الباطن قالوا مافارق الخوف قلبا الا خرب ومن خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل (فان قيل) لم قال تعالى كان شره ولم يقل سيكون (اجيب) بانه كقوله تعالى أتى امر الله فما قيل فى ذاك يقال هنا (ويطعمون الطعام) اى على حسب ما يتيسر لهم من عال ودون وقوله تعالى (على حبه) حال اما من الطعام اى كائنين على حبهم اياه فهو فى غاية المكنة منهم والاستعلاء على قلوبهم لقلته وشهوتهم له وحاجتهم اليه كما قال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ليفهم انهم للفضل أشد بذلا ولهذا

وماثبته ومالم يثبت لا يكون الا منثورا (قوله وسقاهم ربهم شرابا طهورا) • ان قلت أى شرف

قال صلى الله عليه وسلم فى حق الصحابة رضى الله تعالى عنهم لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه لقلة الموجود اذ ذاك وكثرته بعد واما من الفاعل والضمير فى حبه لله أى على حب الله وعلى التقديرين فهو مصدر مضاف للمفعول وقال الفضيل بن عياض على حب اطعام الطعام (مسكينا) اى محتاجا احتياجا يسيرا فصاحب الاحتياج الكثير أولى (ويتيما) اى صغيرا لا أب له (وأسيرا) أى فى أيدى الكفار وخص هؤلاء بالذكر لان المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه عما يكفيه واليتيم مات من يكتسب له وبقى عاجزا عن الكسب لصغره والاسير لا يتمكن لنفسه نصرا ولا حيلة وقال مجاهد وسعيد بن جبير رضى الله عنهم الاسير المحبوس فيدخل فى ذلك المملوك والمسجون والكافر الذى فى أيدى المسلمين وقد نقل فى غزوة بدر ان بعض الصحابة رضى الله عنهم كان يؤثر أسيره على نفسه بالخبز وكان الخبز اذ ذاك عزيزا حتى كان ذلك الاسير يعجب من مكارمهم حتى كان ذلك مما دعاه الى الاسلام وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم لما دفعهم اليهم قال استوصوا بهم خيرا وقيل الاسير المملوك وقيل المرأة لقول النبى صلى الله عليه وسلم اتقوا الله فى النساء فانهن عندكم عوان أى أسرى وقوله تعالى (انما نطعمكم) على اضمار القول أى يقولون بلسان المقال أو الحال انما نطعمكم أيها المحتاجون (لوجه الله) أى لذات الملك الذى استجمع الجلال والاكرام لكونه أمرنا بذلك وعبر بالوجه لان الوجه يستحى منه ويرجى ويخشى عند رؤيته (لا نريد منكم) لاجل ذلك (جزاء) أى لنا من اعراض الدنيا (ولا شكورا) اى لشئ من قول ولا فعل روى أن عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تبعث بالصدقة الى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا فان ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله تعالى ثم عللوا قولهم هذا على وجه التأكيد بقولهم (انا نخاف من ربنا) أى الخالق لنا المحسن الينا (يوما) أى اهوال يوم هو فى غاية العظمة وبينوا عظمته بقولهم (عبوسا) قال ابن عباس رضى الله عنهما ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين ان يوصف بصفة أهله من الاشقياء كقولك نهارك صائم روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران وان يشبه فى شدته وضرره بالاسد العبوس أو بالشجاع الباسل (قمطريرا) قال ابن عباس رضى الله عنهما طويلا وقال مجاهد وقتادة رضى الله عنهما القمطرير الذى يقبض الوجوه والجباه بالتعبس وقال الكلبى العبوس الذى لا انبساط فيه والقمطرير الشديد وقال الاخفش القمطرير اشد ما يكون من الايام وأطوله فى البلاد يقال يوم قمطرير وقماطير اذا كان شديدا كريها * ولما كان فعلهم هذا خالصا لله تعالى سبب عنه جزاءهم فقال تعالى (فوقاهم الله) أى الملك الاعظم بسبب خوفهم (شر ذلك اليوم) اى العظيم ولا بد لهم من نعيم ظاهر وباطن ومسكن يقيمون فيه وملبس وقد ... الاول بقوله تعالى (ولقاهم) اى اعطاهم (نضرة) اى حسنا دائما فى وجوههم واشار الى الثانى بقوله تعالى (وسرورا) اى فى قلوبهم دائما فى مقابلة خوفهم فى الدنيا واشار الى الثالث بقوله تعالى (وجزاهم بما صبروا) اى بسبب ما أوجدوا من الصبر على العبادة من لزوم الطاعة واجتناب المعصية ومنع انفسهم الشهوات وبذل المحبوبات (جنة) أى ادخلوا بستانا جامعا يأكلون منه ما يشتهون جزاء على ما كانوا يطعمون وان كان غيرهم يشاركهم فى ذلك دونهم فى

تلك الدار مع انه سقاهم ذلك فى الدنيا قال تعالى وأسقيناكم ماء فراتا أى عذبا (قلت) المراد سقاهم

الجزاء واشار الى الرابع بقوله تعالى (وحريرا) اى ألبسوه اى هو فى غاية العظمة ومارواه البيضاوى تبعا للزمخشرى عن ابن عباس أن الحسن والحسين رضى الله عنهما مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس فقالوا ياأبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما صوم ثلاثة ايام ان برئا فشفيا ومامعهما شئ فاستقرض على من شمعون اليهودى الخيبرى ثلاثة آصع من شعير وطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال السلام عليكم اهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعمونى اطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا الا الماء وأصبحوا صياما فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين ايديهم فوقف عليهم يتيم فآثروه ووقف عليهم أسير فى الثالثة ففعلوا مثل ذلك زاد فى الكشاف فلما أصبحوا أخذ على رضى الله تعالى عنه بيد الحسن والحسين فاقبلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ابصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال ماأشد مايسوءنى ماأرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة فى محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يامحمد أى السورة هنأك الله فى أهل بيتك فاقرأه السورة حديث موضوع ثم بين حالهم فيها بقوله تعالى (متكئين فيها) اى الجنة واختلفوا فى اعراب متكئين فقال الجلال المحلى حال من مرفوع ادخلوها المقدر وقال أبو البقاء يجوز أن يكون حالا من المفعول فى جزاهم وأن يكون صفة واعترض عليه فى كونه صفة بانه لايجوز عند البصريين لانه كان يلزم الضمير فيقال متكئين هم فيها لجريان الصفة على غير من هى له وقيل انه من فاعل صبروا واعترض بأن الصبر كان فى الدنيا والاتكاء فى الآخرة وأجيب بانه يصح أن يكون حالا مقدرة لان مآلهم بسبب صبرهم الى هذه الحالة ثم أشار الى زيادة راحتهم بقوله تعالى (على الارائك) أى السرر فى الحجال ولا تكون اريكة الامع وجود الحجلة وقيل الارائك الفرش على السرر وقوله تعالى (لايرون فيها) اى الجنة حال ثانية على الخلاف المتقدم فى الاولى ومن جوز أن تكون الاولى صفة جوزه فى الثانية وقيل انها حال من الضمير المرفوع المستكن فى متكئين فتكون حالا متداخلة (شمسا) اى حرا (ولا) يرون فيها (زمهريرا) اى بردا شديدا فالآية من الاحتباك دل نفى الشمس أولا على نفى القمر ودل نفى الزمهرير الذى هو سبب البرد ثانيا على نفى الحر الذى سببه الشمس فافاد هذا ان الجنة غنية عن النيرين لانها نيرة بذاتها واهلها غير محتاجين الى معرفة زمان اذلا تكليف فيها بوجه وانها ظليلة معتدلة دائما بخلاف الدنيا فان فيها الحاجة الى ذلك والحر والبرد فيهما من فيح جهنم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكت النار الى ربها قالت يارب أكل بعضى بعضا فجعل لها نفسين نفسا فى الشتاء ونفسا فى الصيف فشدة ماتجدونه من البرد من زمهريرها وشدة ماتجدونه من الحر من سمومها وقيل الزمهرير القمر بلغة طيئ وأنشدوا

وليلة ظلامها قد اعتكر * قطعتها والزمهرير مازهر

ويروى ماظهر (ودانية) اى قريبة مع الارتفاع (عليهم ظلالها) أى شجرها من غير أن يحصل منها مايزيل الاعتدال واختلف فى نصب دانية فقال البغوى عطف على متكئين وقال الجلال

فى تلك الدار بغير واسطة وأيضا فشتان مابين الشرابين والآنيتين والمزاجين (قوله ولا تطع منهم آثما أو كفورا)

قوله فالآية من الاحتباك الخ كذا بالنسخ وليتأمل اه مصحح

الجنى عطف على محل لا يرون وذكره البغوى بصيغة قيل قال البيضاوى أو عطف على جنة أى وجنة أخرى دانية لانهم وعدوا جنتين لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان (فان قيل) ان الظل انما يوجد حيث توجد الشمس والجنة لا شمس فيها فكيف يحصل الظل (أجيب) بان اشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الاشجار مظللة منها وان كان لا شمس ولا قمر كما ان امشاطهم الذهب والفضة وان كان لا وسخ ولا شعث ثم (وذللت قطوفها) جمع قطف بالكسر وهو العنقود وهو اسم للثمار المقطوفة أى الجنية (تذليلا) اى سهل تناولها تسهيلا عظيما لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك لكل من يريد اخذها على اى حالة كانت من اتكاء وغيره فان كانوا قعودا أو مضطجعين تدلت اليهم وان كانوا قياما وكانت على الارض ارتفعت اليهم وقال البراء ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاؤا فمن أكل قائما لم يؤذه ومن اكل جالسا لم يؤذه ومن اكل مضطجعا لم يؤذه وهذا جزاؤهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لامر الله تعالى ❁ ولما وصف تعالى طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف شرابهم بقوله تعالى (ويطاف) أى من أى طائف كان لكثرة الخدم (عليهم بآنية) جمع اناء كسقاء وأسقية وجمع الآنية أوان وهى ظروف للمياه ومعنى يطاف أى يدور على هؤلاء الابرار الخدم اذا أرادوا الشرب ثم بين تلك الآنية بقوله تعالى (من فضة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ليس فى الدنيا شئ مما فى الجنة الا الاسماء اى الذى فى الجنة أشرف وأعلى ولم ينف الآنية الذهبية بل المعنى يسقون فى الاوانى الفضة وقد يسقون فى الاوانى الذهب كما قال تعالى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد فنبه بذكر أحدهما على الآخر ❁ ولما جمع الآنية خص فقال تعالى (وأكواب) جمع كوب وهو كوز لا عروة له فيسهل الشرب منه من كل موضع فلا يحتاج عند التناول الى ادارة (كانت) أى تلك الاكواب كونا هو من جبلتها (قوارير) أى كانت بصفة القوارير من الصفاء والرقة والشفوف والاشراق جمع قارورة وهى ما أقر فيه الشراب ونحوه من كل اناء رقيق صاف وقيل هو خاص بالزجاج ❁ ولما كان رأس آية وكان التعبير بالقوارير ربما أفهم انها من الزجاج وكان فى الزجاج من النقص سرعة الانكسار لافراط الصلابة قال تعالى معيدا اللفظ أول الآية الثانية تأكيدا للاتصاف بالصالح من اوصاف الزجاج وبيانا لنوعها (قوارير من فضة) أى قد جمعت صفتى الجوهرين المتباينين صفاء الزجاج وشفوفه وبريقه وبياض الفضة وشرفها ولينها وقال الكلبى ان الله تعالى جعل قوارير كل قوم من تراب ارضهم وان أرض الجنة من فضة فجعل منها قوارير يشربون منها (٣) وقرأ نافع وشعبة والكسائى وصلا بالتنوين فيهما ووافقهم ابن كثير فى الاول دون الثانى والباقون بغير تنوين وأما الوقف فمن نون وقف بالالف ومن لم ينون وقف بغير ألف الا هشاما فانه وقف على الثانى بالالف وفى الوصل لم ينون فالقرآت حينئذ على خمس مراتب احداها تنوينهما معا والوقف عليهما بالالف الثانية مقابلة وهو عدم تنوينهما وعدم الوقف عليهما بالالف الثالثة عدم تنوينهما والوقف عليهما بالالف الرابعة تنوين الاول دون الثانى والوقف على الاول بالالف وعلى الثانى بدونها الخامسة عدم تنوينهما معا والوقف على الاول بالالف وعلى الثانى بدونها وأما من نونهما فلانهما فى تنوين سلاسل لانهما صيغة منتهى الجموع ذاك على مفاعل وذا على مفاعيل والوقف بالالف التى هى بدل

أفاد بالتعبير باو النهى عن طاعتهما معا بالاولى ولو عطف بالواو لافهم جواز طاعة أحدهما وليس

(٣) قوله وقرأ نافع الخ واعلم أن عبارة الجلال واعلم أن القراء فيهما على خمس مراتب احداها تنوينهما معا والوقف عليهما بالالف لنافع والكسائى وأبى بكر الثانية مقابلة هذه وهى عدم تنوينهما وعدم الوقف عليهما بالالف لحمزة وحده الثالثة عدم تنوينهما والوقف عليهما بالالف لهشام وحده الرابعة تنوين الاول دون الثانى والوقف على الاول بالالف وعلى الثانى بدونها لابن كثير وحده الخامسة عدم تنوينهما معا والوقف على الاول بالالف وعلى الثانى بدونها لابى عمرو وابن ذكوان وحفص اهـ المراد منه وبها يتضح ما فى عبارة المفسر

التنوين فاما عدم تنوينهما وعدم الوقف بالالف فظاهر وأما من نوّن الاول دون الثاني فانه ناسب بين الاول وبين رؤس الآي ولم يناسب بين الثاني وبين الاول والوجه في وقفه على الاول بالالف وعلى الثاني بغير ألف ظاهر وأما من لم ينونهما ووقف على الاول بالف وعلى الثاني بدونها فلان الاول رأس آية فناسب بينه وبين رؤس الآي في الوقف بالالف وفرق بينه وبين الثاني لانه ليس برأس آية وأما من لم ينونهما ووقف عليهما بالالف فانه ناسب بين الاول وبين رؤس الآي وناسب بين الثاني وبين الاول وقال الزمخشري وهذا التنوين بدل من ألف الاطلاق لانه فاصلة وفي الثاني لاتباعه الاول يعني انهم يأتون بالتنوين بدلا من حرف الاطلاق الذي للترنم كقوله * ياصاح ماهاج العيون الذرّفن * وقوله تعالى (قدروها تقديرا) صفة لقوارير من فضة وفي الواو في قدروها وجهان أحدهما أنه للمطاف عليهم ومعنى تقديرهم اياها انهم قدروها في انفسهم أن تكون على تقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروا والثاني انه للطائفين بها دل عليه قوله تعالى ويطاف عليهم على انهم قدروا شرابها على قدر الري وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنه ولا يعجز وعن مجاهد رضي الله عنه لا تفيض ولا تغيض وعن ابن عباس رضي الله عنهما قدروها على ملء الكف حتى لا تؤذيهم بثقل أو بافراط صغر وجوز أبو البقاء أن تكون الجملة مستأنفة (ويسقون) أي ممن أرادوه من خدمهم الذين لا يحصون كثرة (فيها) أي في الجنة أو تلك الاكواب (كأسا) أي خمرا في اناء (كان مزاجها) اي ما تمزج به على غاية الاحكام (زنجبيلا) أي غاية اللذة وكانت العرب تلتذ بالشراب الممزوج به لهضمه وتطييبه الطعم والزنجبيل نبت معروف وسمي الكأس بذلك لوجود طعم الزنجبيل فيها قال الاعشى

كأن القرنفل والزنجبيـ * ـل باتا بفيها وأريا مشورا

وقال المسيب بن علس

وكأن طعم الزنجبيل به * اذ ذقته وسلافة الخمر

وقوله تعالى (عينا فيها) أي الجنة بدل من زنجبيلا وكون الزنجبيل عينا فيه خرق للعوائد لان الزنجبيل عندنا شجر يحتاج في تناوله الى علاج فبين انه هناك عين لا يحتاج في صيرورته زنجبيلا الى ان تحمله الارض بتضميره فيها حتى يصير شجرا ليتحول عن طعم الماء الى طعم الزنجبيل (تسمى) أي تلك العين لسهولة اساغتها ولذة طعمها وسعة وصفها (سلسبيلا) والمعنى ان ماء تلك العين كالزنجبيل الذي تلتذ به العرب سهل المساغ في الحلق فليس هو كزنجبيل الدنيا يلذع في الحلق فتصعب اساغته والسلسبيل والسلسل والسلسال ما كان من الشراب غاية في السلاسة زيدت فيه الباء زيادة في المبالغة في هذا المعنى وقال مقاتل وابن حبان رضي الله عنهما سميت سلسبيلا لانها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم تنبع من اصل العرش من جنة عدن الى اهل الجنان قال البغوي وشراب الجنة في برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك من غير لذع وقال مقاتل رضي الله عنه يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة * ولما ذكر تعالى المطوف به لانه الغاية المقصودة وصف الطائف لما في طوافه من العظمة المشهودة بقوله تعالى (ويطوف عليهم) أي بالشراب وغيره من الملاذ والمحاب (ولدان) اي غلمان هم في سن

مرادا (قوله وشددنا أسرهم) أي خلقهم (ان قلت) كيف قال ذلك هنا وقال في النساء وخلق الانسان

من هو دون البلوغ لان الفقهاء قالوا الناس غلمان وصبيان وأطفال وذرارى الى البلوغ ثم هم بعد البلوغ شبان وفتيان الى الثلاثين ثم هم بعدها كهول الى الاربعين ثم بعدها شيوخ واستنبط بعضهم ذلك من القرآن فى حق بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى فى حق يحيى وآتيناه الحكم صبيا وفى حق عيسى يكلم الناس فى المهد وكهلا وعن ابراهيم قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وعن يعقوب ان له أبا شيخا كبيرا قالوا وأقل اهل الجنة من يخدمه ألف غلام و يعطى فى الجنة قدر الدنيا عشر مرات وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها ثم وصف تعالى تلك الغلمان بقوله تعالى (مخلدون) أى قد حكم من لا يرد حكمه بان يكونوا كذلك دائما من غير علة ولا ارتفاع عن ذلك الخدمع انهم مزينون بالحلى وهو الحلق والاساور والقرط والملابس الحسنة (اذا رأيتهم) أى يا أعلى الخلق وأنت أثبت الناس نظرا أو أيها الرائى الشامل لكل راء فى اى حالة رأيتهم فيها (حسبتهم) أى من بياضهم وصفاء الوانهم وانتشارهم فى الخدمة (لؤلؤا منثورا) أى من سلكه أو من صدفه وهو أحسن منه فى غير ذلك قال بعض المفسرين هم غلمان ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين وقال بعضهم أطفال المؤمنين لانهم ماتوا على الفطرة وقال ابن برجان وارى والله أعلم انهم من علم الله تعالى ايمانه من اولاد الكفار وتكون خدما لاهل الجنة كما كانوا لنا فى الدنيا سبيا وخدما وأما أولاد المؤمنين فيلحقون بآبائهم سناوملكا سرورالهم ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى ابنه ابراهيم عليه السلام ان له لظئرا تتم رضاعه فى الجنة فانه يدل على انتقال شأنه فيما هنالك وكتنقله فى الاحوال فى الدنيا ولا دليل على خصوصيته بذلك وقرأ السوسى وشعبة بابدال الهمزة الاولى الساكنة وقفا ووصلا واذا وقف حمزة أبدل الاولى والثانية ولما ذكر المخدوم والخدم ذكر المكان بقوله تعالى (واذا رأيت) أى وجدت منك الرؤية (ثم) اى هنالك فى أى مكان كان فى الجنة وأى شئ كان فيها وقوله تعالى (رأيت) جواب اذا أى رأيت (نعيما) أى ليس فيه كدر بوجه من الوجوه ولا يقدر على وصفه واصف (وملكا كبيرا) أى لم يخطر على باله عما هو فيه من السعة وكثرة الموجود والعظمة قال سفيان الثورى بلغنا ان الملك الكبير تسليم الملائكة عليهم وقيل كون التيجان على رؤسهم كما تكون على رؤس الملوك وقال الحكيم الترمذى هو ملك التكوين اذا أرادوا شيأ قالوا له كن فيكون وفى الخبران الملك الكبير هو ان ادناهم منزلة أى وما فيهم دنى الذى فى ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه وان اعظمهم منزلة من ينظر الى وجه ربه سبحانه وتعالى كل يوم اى قدر يوم من ايام الدنيا مرتين * ولما ذكر الدار وساكنيها من مخدوم وخدم ذكر لباسهم بقوله تعالى (عاليهم) اى فوقهم (ثياب سندس) هو مارق من الحرير (خضر واستبرق) وهو ماغلظ من الديباج فهو البطائن والسندس الظهائر وقرأ نافع وحمزة عاليهم بسكون الياء بعد اللام وكسر الهاء والباقون بفتح الياء وضم الهاء لان الياء لما سكنت كسرت الهاء ولما تحركت ضمت الهاء فاما قراءة نافع وحمزة ففيها أوجه أظهرها أن يكون خبرا مقدما وثياب مبتدأ مؤخر وأما قراءة الباقين ففيها أيضا أوجه اظهرها أن يكون خبرا مقدما وثياب مبتدأ مؤخر كانه قال فوقهم ثياب قال ابو البقاء لان عاليهم بمعنى فوقهم والضمير المتصل به للمطوف عليهم أو للخادم والمخدوم جميعا وان كانت تتفاوت

ضعيفا (قلت) قال ابن عباس وغيره المراد به ضعيف عن الصبر عن النساء فلذلك أباح الله له نكاح الامة

بتفاوت الرتب وقرأ نافع وحفص خضر واستبرق برفعهما وقرأ حمزة والكسائي بخفضهما وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر وجر استبرق وقرأ ابن كثير وشعبة بجر خضر ورفع استبرق وحاصل القراآت في ذلك اربع مراتب الاولى رفعهما الثانية خفضهما الثالثة رفع الاول وخفض الثاني الرابعة عكس ذلك فاما القراءة الاولى فان رفع خضر على النعت لثياب ورفع استبرق نسق على الثياب ولكن على حذف مضاف أي وثياب استبرق وأما القراءة الثانية فيكون جر خضر على النعت لسندس ثم استشكل على هذا وصف المفرد بالجمع فقال مكي هو اسم جمع وقيل هو جمع سندسة كتمر وتمرة ووصف اسم الجنس بالجمع صحيح قال تعالى وينشئ السحاب الثقال وأعجاز نخل منقعر ومن الشجر الاخضر واذا كانوا قد وصفوا المحلى لكونه مرادا به الجنس بالجمع في قولهم اهلك الناس الدينار الحمر والدرهم البيض وفي التنزيل أو الطفل الذين فلأن يوجد ذلك في أسماء الجموع أو أسماء الاجناس الفارق بينها وبين واحدها تاء التأنيث بطريق الاولى وجر استبرق نسقا على سندس لان المعنى ثياب من سندس وثياب من استبرق وأما القراءة الثالثة فرفع خضر نعتا لثياب وجر استبرق نسقا على سندس أي ثياب خضر من سندس ومن استبرق فعلى هذا يكون الاستبرق أيضا أخضر وأما القراءة الرابعة فجر خضر على أنه نعت لسندس ورفع استبرق على النسق على ثياب بحذف مضاف أي وثياب استبرق ＊ ثم اخبر تعالى عن تحليتهم بقوله سبحانه (وحلوا) اى المخدوم والخادم (أساور من فضة) وان كانت تتفاوت بتفاوت الرتب وهي بالغة من الاعضاء ما يبلغه التحجيل في الوضوء كما قال صلى الله عليه وسلم الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء فلذلك كان أبو هريرة يرفع الى المنكبين والى الساقين ＊(تنبيه)＊ قال هنا أساور من فضة وفي سورة فاطر يحلون فيها من أساور من ذهب وفي سورة الحج يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ فقيل حلى الرجال الفضة وحلى النساء الذهب وقيل تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة وقيل يجمع في يدى احدهم سواران من ذهب وسواران من فضة وسواران من لؤلؤ ليجتمع لهم محاسن الجنة قال سعيد بن المسيب وقيل يعطى كل أحد ما يرغب فيه وتميل نفسه اليه وقيل اسورة الفضة انما تكون للولدان واسورة الذهب للنساء وقيل هذا للنساء والصبيان وقيل هذا يكون بحسب الاوقات والاعمال (وسقاهم ربهم) أى الموجد لهم المحسن اليهم المدبر لمصالحهم (شرابا طهورا) أى ليس هو كشراب الدنيا سواء أكان من الخمر أم من الماء أم من غيرهما فهو بالغ الطهارة وقال على رضى الله عنه اذا توجه أهل الجنة الى الجنة مروا بشجرة يخرج من ساقها عينان فيشربون من احداهما فتجرى عليهم نضرة النعيم فلا تتغير أبشارهم ولا تشعث شعورهم أبدا ثم يشربون من الاخرى فيخرج ما في بطونهم من الاذى ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقال النخعي وأبو قلابة هو اذا شربوه بعد أكلهم طهرهم وصار ما أكلوه وشربوه رشح مسك وضمرت بطونهم وقال مقاتل هو من عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله تعالى ما كان في قلبه من غش وغل وحسد وما كان في جوفه من اذى وعلى هذا فيكون فعول للمبالغة وقال الرازي قوله تعالى طهورا في تفسيره احتمالات أحدها أن لا يكون نجسا كخمر الدنيا وثانيها المبالغة في

وقال الزجاج معناه يغلبه وقال الزجاج معناه يغلبه ونه ذلك وصف هواه وشهوته وشددنا بالضعف ومعنى قوله وشددنا أسرهم ربطنا أوصالهم

البعد عن الامور المستقذرة لانه لم يعصر فتمسه الايدى الوضرة وتدوسه الارجل الدنسة ولم يجعل في الدنان والاباريق التي لم يعن بتنظيفها وثالثها أنه لايؤل الى النجاسة لانه ايترشح عرقا من ابدانهم له ريح كريح المسك وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهرا الا انه يطهر بواطنهم من الاخلاق الذميمة والاشياء المؤذية (فان قيل) هل هذا نوع آخر غير ماذكر قبل ذلك من أنهم يشربون من الكافور والزنجبيل والسلسبيل ام لا (أجيب) بانه نوع آخر لوجوه ٢ أولها رفع ثانيها انه تعالى أضاف هذا الشراب الى نفسه بقوله تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا وذلك يدل على فضل هذا دون غيره ثالثها ماروى انه تقدم اليهم الاطعمة والاشربة فاذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر ذلك بطونهم ويفيض عرقا من جلودهم مثل ريح المسك وهذا يدل على أن ذلك الشراب مغاير لتلك الاشربة ولان هذا الشراب يهضم سائر الاشربة ثم ان له مع هذا الهضم تأثيرا عجيبا وهو انه يجعل سائر الاطعمة والاشربة عرقا يفوح منه ريح كريح المسك ويطهر شاربه عن الميل الى اللذات الخسيسة والركون الى ماسوى الحق فيتجرد لمطالعة جلاله متلذذا بلقائه باقيا ببقائه وهو منتهى درجات الصديقين وكل ذلك يدل على المغايرة وقوله تعالى (ان) على اضمار القول أى ويقال لهم ان (هذا كان لكم جزاء) أى على أعمالكم التي كنتم تجهدون فيها أنفسكم عن هواها الى مايرضي ربكم والاشارة الى ماتقدم من عطاء الله تعالى لهم (وكان) أى على وجه الثبات (سعيكم مشكورا) أى لانضيع شيئا منه ونجازى بأكثر منه اضعافا مضاعفة ولما بين تعالى بهذا القرآن العظيم الوعد والوعيد ذكر سبحانه أنه من عنده وليس هو بسحر ولا كهانة ولا شعر بقوله تعالى (انا نحن) أى على مالنا من العظمة التي لانهاية لها الاغيرنا (نزلنا عليك) وأنت أعظم الخلق انزالا استعلى حتى صار المنزل خلقا لك (القرآن) أى الجامع لكل هدى (تنزيلا) قال ابن عباس متفرقا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة قال الرازى والمقصود من هذه الآية تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وشرح صدره فيما نسبوه اليه صلى الله عليه وسلم من كهانة وسحر فذكر تعالى ان ذلك وحى من الله تعالى فكانه تعالى يقول ان كان هؤلاء الكفار يقولون ان ذلك كهانة فانا الله تعالى الملك الحق أقول على سبيل التأكيد ان ذلك وحى حق وتنزيل صدق من عندى وفي ذلك فائدتان الاولى ازالة الوحشة الحاصلة بسبب طعن الكفار لان الله تعالى عظمه وصدقه الثانية تقويته على تحمل مشاق التكليف فكانه تعالى يقول له انى مانزلت القرآن عليك متفرقا الا لحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شئ بوقت معين وقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الاذن في القتال (فاصبر لحكم ربك) أى المحسن اليك قال ابن عباس اصبر على أذى المشركين ثم نسخ بآية القتال وقيل اصبر لما يحكم عليك به من الطاعات أو انتظر حكم الله اذ وعدك بالنصر عليهم ولا تستعجل فانه كائن لامحالة (ولا تطع منهم) أى الكفرة الذين هم ضد الشاكرين (آثما) أى داعيا الى اثم سواء كان مجردا عن مطلق الكفر أو مصاحبا له (أو كفورا) أى مبالغا في الكفر وداعيا اليه وان كان كبيرا وعظيما في الدنيا فان الحق أكبر من كل كبير وقال قتادة أراد بالآثم والكفور أبا جهل وذلك انه لما فرضت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم نهاه أبو جهل عنها وقال لئن رأيت محمدا يصلى لاطأن

٢ قوله أولها رفع هكذا في النسخ واوله أولها مارفع بعض ماتقدم في قوله وقال على الخ اه

بعضها الى بعض بالعروق والاعصاب أو المراد بالاسر عجب الذنب لانه لايتفتت في القبر

على عنقه وقال مقاتل أراد بالآثم عتبة بن ربيعة وبالكفور الوليد بن المغيرة وكانا أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يعرضان عليه الاموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة عرض عليه عتبة ابنته وكانت من أجمل النساء وعرض عليه الوليد ان يعطيه من الاموال حتى يرضى و يترك ماهو عليه فقرأ عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات من اول حم السجدة الى قوله تعالى فان اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فانصرفا عنه وقال أحدهما ظننت أن الكعبة ستقع على (فان قيل) كانوا كلهم كفرة فما معنى القسمة في قوله آثما أو كفورا (أجيب) بان معناه ولا تطع منهم راكبا لما هو اثم داعيا لك اليه أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك اليه لانهم اما أن يدعوه الى مساعدتهم على فعل هو اثم أو كفر أو غير اثم ولا كفر فنهى ان يساعدهم على الاثنين دون الثالث ثم قال (فان قيل) معنى أو ولا تطع أحدهما فهلا جيء بالواو ليكون نهيا عن اطاعتهما جميعا (أجيب) بانه لو قال ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما واذا قيل ولا تطع احدهما علم أن الناهي عن طاعة احدهما أنهى عن طاعتهما جميعا كما اذا نهى ان يقول لابويه أف علم أنه نهى عن ضربهما بطريق الاولى (فان قيل) انه صلى الله عليه وسلم ما كان يطيع أحدا منهم فما فائدة هذا النهي (أجيب) بان المقصود بيان ان الناس محتاجون الى التنبيه والارشاد لاجل ما تركب فيهم من الشهوة الداعية الى النساء وان الواحد لو استغنى عن توفيق الله تعالى وارشاده لكان احق الناس به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم دائما أبدا ومتى ظهر لك ذلك عرفت ان كل مسلم لابد له من الرغبة الى الله تعالى والتضرع اليه أن يصونه عن الشهوات (واذكر) أي في الصلاة (اسم ربك) أي المحسن اليك بكل جميل (بكرة) أي الفجر (وأصيلا) أي الظهر والعصر (ومن الليل) أي بعضه والباقي للراحة بالنوم (فاسجد له) أي المغرب والعشاء (وسبحه ليلا طويلا) أي صل التطوع فيه كما تقدم من ثلثيه أو نصفه أو ثلثه أو اذكره بلسانك بكرة عند قيامك من منامك الذي هو الموتة الصغرى وتذكر أنه يحيي الموتى ويحشرهم جميعا وأصيلا أي عند انقراض نهارك وتذكر انقراض دنياك وطي هذا العالم لاجل يوم الفصل وفي ذكر الوقتين اشارة الى دوام الذكر وذكر اسمه لازم لذكره والذي عليه أكثر المفسرين الاول قال ابن عباس وسفيان كل تسبيح في القرآن فهو صلاة لان الصلاة أفضل الاعمال البدنية لانها أعظم الذكر لانها ذكر اللسان والجنان والاركان فوظفت فيها اركان انسانية وحركات وسكنات على هيآت مخصوصة من عادتها أن لا تفعل الا بين يدي الملوك * ولما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعظيم والامر والنهي عدل سبحانه الى شرح احوال الكفار والمتمردين فقال تعالى (ان هؤلاء) أي الذين يغفلون عن الله من الكفار والمتمردين (يحبون) أي محبة تجدد عندهم زيادتها في كل وقت (العاجلة) لقصور نظرهم وجودهم على المحسوسات التي الاقبال عليها منشأ البلادة والقصور ومعدن الامراض للقلوب التي في الصدور ومن تعاطى أسباب الامراض مرض وسمي كفورا ومن تعاطى ضد ذلك شفي وسمي شاكرا (ويذرون) أي و يتركون (وراءهم) أي قدامهم على وجه الاحاطة بهم وهم عنه معرضون كما يعرض الانسان عما وراءه أو خلف ظهورهم لا يعبؤن به وقوله تعالى (يوما) مفعول يذرون لا ظرف وقوله تعالى (ثقيلا) وصف له استعير له الثقل لشدته

(سورة والمرسلات)

(قوله و يل يومئذ للمكذبين) كرر هنا عشر مرات والتكرار في مقام

وهو المن الشئ الثقيل الباهظ لحامله ونحوه ثقلت في السموات والارض (نحن خلقناهم) أى بما لنا من العظمة لا غيرنا (وشددنا) أى قوينا (أسرهم) أى توصيل عظامهم بعضها ببعض وتوثيق عظامهم بالاعصاب بعد أن كانوا نطفا أمشاجا في غاية الضعف وأصل الاسر الربط والتوثيق ومنه أسر الرجل اذا وثق بالقد وهو الاسار وفرس مأسور الخلق (واذا شئنا) أى بما لنا من العظمة أن نبدل ما نشاء من صفاتهم أو ذواتهم (بدلنا أمثالهم) أى جئنا بأمثالهم بدلا منهم اما بان نهلكهم ونأتى ببدلهم ممن يطيع واما بتغيير صفاتهم كما شوهد في بعض الاوقات من المسخ وغيره وقوله تعالى (تبديلا) تأكيد قال الجلال المحلى ووقعت اذا موقع ان نحو ان يشأ يذهبكم لانه تعالى لم يشأ ذلك واذا لما يقع وفي ذلك رد لقول الزمخشرى وحقه أن يجئ بان لا باذا كقوله وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ان يشأ يذهبكم (ان هذه) أى السورة أو الآيات القريبة (تذكرة) أى عظة للخلق فان في تصفحها تنبيهات للغافلين وفي تدبرها وتذكرها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه وأحضر قلبه وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى اليه سمعه (فمن شاء) أى بان اجتهد في وصوله الى ربه (اتخذ) أى أخذ بجهده في مجاهدة نفسه ومغالبة هواه (الى ربه) أى المحسن اليه الذى ينبغى له أن يحبه بجميع جوارحه وقلبه ويجتهد في القرب منه (سبيلا) أى طريقا واضحا سهلا واسعا بأفعال الطاعة التى أمرهم الانبياء الامور غاية البيان وكشفنا اللبس وأزلنا جميع موانع الفهم فلم يبق مانع من استطراق الطريق غير مشيئتنا (وما تشاؤن) أى في وقت من الاوقات شيأ من الاشياء وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب واذا وقف حمزة سهل الهمزة مع المد والقصر وله أيضا ابدالها واوا مع المد والقصر (الا) وقت (أن يشاء الله) أى الملك الاعلى الذى له الامر كله والملك كله على حسب ما يريد ويقدر وقد صح بهذا ما قال الاشعرى وسائر أهل السنة من أن للعبد مشيئة تسمى كسبا لا تؤثر الا بمشيئة الله تعالى وانتفى مذهب القدرية الذين يقولون انا نخلق أفعالنا ومذهب الجبرية القائلين لا فعل لنا أصلا ومثل الملوى ذلك بمن يريد قطع بطيخة فحدد سكينة وهيأها أوجد فيها أسباب القطع وأزال عنها موانعه ثم وضعها على البطيخة فهى لا تقطع دون أن يتحامل عليها التحامل المعروف لذلك ولو وضع عليها ما لا يصلح للقطع كخشبة مثلا لم تقطع ولو تحامل فالعبد كالسكين خلقه الله تعالى وهيأه بما أعطاه من القدرة للفعل فمن قال أنا أخلق فعلى مستقلا به فهو كمن قال السكين تقطع بمجرد وضعها من غير تحامل ومن قال الفاعل هو الله من غير نظر الى العبد أصلا كان كمن قال هو يقطع البطيخة بتحامل يده أو قصبة مثلا من غير سكين والذى يقول انه باثر بقدرته المهيأة لفعل بخلقه الله تعالى اياها في ذلك الفعل كمن قال ان السكين قطعت بالتحامل عليها بهذا أجرى الله سبحانه وتعالى عادته في الناس ولو شاء غير ذلك فعل ولا يخفى ان هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ثم علل ذلك باحاطته بمشيئتهم بقوله تعالى (ان الله) أى المحيط علما وقدرة (كان) أى أزلا وابدا (عليما) أى بما يستأهل كل أحد (حكيما) أى بالغ الحكمة فهو يمنع منعا محكما من ان يشاء غيره ما لم يأذن فيه فمن علم في جبلته خيرا أعانه عليه ومن علم منه الشر ساقه اليه وحمله عليه وهو معنى قوله تعالى (يدخل من يشاء) أى ممن علمه من أهل السعادة (في رحمته) أى جنته

الترغيب والترهيب متضمن لاسيما اذا تغايرت الآيات السابقة على المرات المكررة كما هنا (قوله هذا

قوله الملوى هكذا بالاصل وليحرر

وهم المؤمنون وقوله تعالى (والظالمين) أى الكافرين منصوب بفعل يفسره قوله تعالى (أعد لهم) مثل أوعد وكافأ ليطابق الجمل المعطوف عليها (عذابا أليما) أى مؤلما فهم فيه خالدون أبد الآبدين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريرا حديث موضوع

سورة والمرسلات عرفا

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وقال ابن عباس وقتادة الا آية منها وهى قوله تعالى واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون فمدنية

وقال ابن مسعود نزلت والمرسلات عرفا على النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ونحن معه نسير حتى أوينا الى غار بمنى فنزلت فبينما نحن نتلقاها منه وان فاه رطب بها اذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت فقال النبى صلى الله عليه وسلم وقيتم شرها كما وقيت شركم اهـ والغار المذكور مشهور فى منى وقد زرته ولله الحمد وعن كريب مولى ابن عباس قال قرأت سورة والمرسلات عرفا فسمعتنى أم الفضل امرأة العباس فبكت وقالت والله يا بنى لقد أذكرتنى بقراءتك هذه السورة انها لآخر ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى صلاة المغرب وهى خمسون آية واحدى وثمانون كلمة وثمانمائة وستة عشر حرفا

(بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) المنعم على الخلق أجمعين (الرحيم) الذى خص بكرامته عباده المؤمنين (والمرسلات عرفا) أى الرياح متتابعة كعرف الفرس يتلو بعضها بعضا ونصبها على الحال هذا ما عليه الجمهور من أنها الرياح قال تعالى وأرسلنا الرياح وقال تعالى ويرسل الرياح وروى مسروق عن عبد الله قال هى الملائكة أرسلت بالعرف من امر الله تعالى ونهيه والخبر والوحى وهو قول أبى هريرة ومقاتل والكلبى وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم الانبياء عليهم السلام أرسلوا بلا اله الا الله وقال أبو صالح هم الرسل ترسل بما يعرفون به من المعجزات وقيل المراد السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت اليه ومن أرسلت اليه (فالعاصفات) أى الرياح الشديدة (عصفا) اى عظيما بما فيها من النتائج الصالحة وقيل الملائكة شبهت لسرعة جريها فى امر الله تعالى بالرياح وقيل الملائكة تعصف بروح الكافر يقال عصف بالشئ اذا اباده واهلكه وناقة عصوف اى تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السرعة وعصفت الحرب بالقوم أى ذهبت بهم وقيل يحتمل انها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف (والناشرات نشرا) اى الرياح اللينة تنشر المطر وقال الحسن هى الرياح التى يرسلها الله تعالى بين يدى رحمته وقيل الامطار لانها تنشر النبات بمعنى تحييه وروى عن السدى انها الملائكة تنشر كتب الله تعالى وروى الضحاك انها الصحف تنشر على الله تعالى باعمال العباد ‌• (تنبيه) • انما قال الله تعالى والناشرات بالواو لانه استئناف قسم آخر (فالفارقات فرقا) اى الرياح تفرق السحاب وتبدده قاله مجاهد وعن ابن عباس هى الملائكة تفرق الاقوات والارزاق والآجال وقيل هم الرسل فرقوا بين ما أمر الله تعالى به ومانهى عنه أى بينوا ذلك وقيل آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل والضلال والحرام (فالملقيات ذكرا) اى الملائكة تنزل بالوحى الى الانبياء والرسل

يوم لا ينطقون) وان قات نفى النطق عنهم يدل على انتفاء الاعتذار منهم اذ الاعتذار لا يكون

عليهم الصلاة والسلام وقيل هو جبريل عليه السلام وحده سمي باسم الجمع تعظيماً (فان قيل)
ما المناسبة على هذا بين الرياح والملائكة في القسم (اجيب) بان الملائكة روحانيون فهم
بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم كالرياح وقيل المراد به الرسل يلقون الى اممهم ما انزل عليهم
وذكراً مفعول به ناصبه الملقيات (عذراً او نذراً) مصدران من عذر اذا محا الاساءة ومن انذر
اذا خوف على فعل كالكفر والشكر ويجوز ان يكون جمع عذير بمعنى المعذرة وجمع نذير بمعنى
الانذار وبمعنى العاذر والمنذر ونصبهما اما على البدل من ذكراً على الوجهين الاولين أو على
المفعول له وأما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عاذرين او منذرين وقرأ اونذرا نافع وابن
كثير وابن عامر وشعبة بضم الذال والباقون بسكونها وقوله تعالى (انما توعدون لواقع)
جواب القسم ومعناه ان الذي توعدونه من مجيء القيامة كائن لامحالة وقال الكلبي المراد
ان كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع ثم بين وقت وقوعه فقال تعالى (فاذا النجوم) اي على
كثرتها (طمست) أي محي نورها اوذهب نورها ومحقت ذواتها وهو موافق لقوله تعالى انتثرت
وانكدرت قال الزمخشري ويجوز ان يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور (واذا السماء) اي على
عظمها (فرجت) اي فتحت وشققت فكانت ابواباً والفرج الشق ونظيره اذا السماء انشقت
(واذا الجبال) اي على صلابتها (نسفت) اي ذهب بها كلها بسرعة من نسفت الشيء اذا
اختطفته او نسفت كالحب اذا نسف بالمنسف ونحوه وبست الجبال بساً وكانت الجبال كثيباً
مهيلاً (واذا الرسل) اي الذين انذروا الناس ذلك اليوم فكذبوا (اقتت) قال مجاهد والزجاج
المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذي فيه يحضرون للشهادة على اممهم اي جمعت لميقات يوم
معلوم وهو يوم القيامة والوقت الاجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر اليه فالمعنى جعل لها
وقت اجل للفصل والقضاء بينهم وبين الامم كقوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقرأ أبو عمرو
بواو مضمومة والباقون بهمزة مضمومة وهما لغتان والعرب تعاقب بين الواو والهمزة
كقولهم وكدت وأكدت وقوله تعالى (لأي يوم) اي عظيم متعلق بقوله تعالى (أجلت) وهذه
الجملة معمولة لقول مضمر اي يقال لاي يوم اجلت وهذا القول المضمر يجوز ان يكون جواباً
لاذا وأن يكون حالا من مرفوع اقتت اي مقولاً فيها لاي يوم اجلت اي اخرت وهذا تعظيم
لذلك اليوم وتعجيب له وقوله تعالى (ليوم الفصل) بيان ليوم التأجيل وقيل اللام بمعنى الى
ذكره مكي قال ابن عباس يوم فصل الرحمن بين الخلائق كقوله تعالى ان يوم الفصل ميقاتهم
اجمعين ثم اتبع هذا التعظيم تعظيماً آخر بقوله تعالى (وما ادراك ما يوم الفصل) اي ومن اين
تعلم كنهه ولم تر مثله في شدته ومهابته وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي وابن ذكوان
بخلاف عنه بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح ثم اتبعه تهويلاً ثالثاً بقوله تعالى
(ويل يومئذ) اي اذ يكون يوم الفصل (للمكذبين) اي بذلك قال القرطبي ويل عذاب وخزي
لمن كذب بالله تعالى وبرسله وكتبه وبيوم الفصل وهو وعيد وكرره في هذه السورة عند كل آية
كأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم فان لكل مكذب بشيء عذاباً سوى عذاب تكذيبه بشيء آخر
ورب شيء كذب به هو اعظم جرماً من تكذيبه لغيره لانه اقبح في تعظيمه واعظم في الرد على الله
تعالى وانما يقسم له من الويل على قدر ذلك وعلى قدر وفاقه وهو قوله تعالى جزاء وفاقاً وقيل

الا بالنطق فما فائدة قوله عقبه ولا يؤذن لهم فيعتذرون (قلت) معناه لا ينطقون ابتداء بعذر

كرره لمعنى تكرار التخويف والوعيد وروى عن النعمان بن بشير قال ويل واد فى جهنم فيه ألوان العذاب وقاله ابن عباس وغيره وروى انه عليه الصلاة والسلام قال عرضت على جهنم فلم ار فيها واديا اعظم من الويل وروى أيضا أنه مجمع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم وانما يسيل الشئ فيما سفل من الارض وقد علم العباد فى الدنيا ان شر المواضع ما استنقع فيه امياه الادناس والاقذار والغسالات والجيف وماء الحمامات فذكر ان الوادى مستنقع صديد أهل الكفر والشرك ليعلم العاقل انه لا شئ اقذر منه قذارة ولا أنتن منه نتنا * (تنبيه) * ويل مبتدأ وسوغ الابتداء به الدعاء ويومئذ ظرف للويل وللمكذبين خبره وقال الزمخشرى فان قلت كيف وقع النكرة مبتدأ قلت هو فى اصله مصدر منصوب ساد مسد فعله لكنه عدل به الى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ونحوه سلام عليكم واعترض بأن الذى ذكره ليس من المسوغات التى ذكرها النحويون وانما المسوغ كونه دعاء وفائدة العدول الى الرفع ما ذكره (ألم نهلك) اى بما لنا من العظمة (الاولين) من لدن آدم عليه السلام الى زمن محمد صلى الله عليه وسلم كقوم نوح وعاد وثمود بتكذيبهم اى اهلكناهم (ثم نتبعهم الآخرين) أى ممن كذبوا ككفار مكة فنهلكهم كما أهلكنا الاولين ونسلك بهم سبيلهم لانهم كذبوا مثل تكذيبهم (كذلك) اى مثل ذلك الفعل الشنيع (نفعل بالمجرمين) اى بكل من اجرم فيما يستقبل اما بالسيف واما بالهلاك (ويل يومئذ) اى اذ يوجد ذلك الفعل (للمكذبين) اى بآيات الله وانبيائه قال البيضاوى فليس تكرارا وكذا ان أطلق التكذيب او علق فى الموضعين بواحد لان الويل الاول بعذاب الآخرة وهذا للاهلاك فى الدنيا مع ان التكرير للتوكيد حسن شائع فى كلام العرب (ألم نخلقكم) اى ايها المكذبون بما لنا من العظمة التى لا تقدر ها عظمة (من ماء مهين) اى ضعيف حقير وهو المنى وهذا نوع آخر من تخويف الكفار وهو من وجهين الاول انه تعالى ذكرهم عظيم انعامه عليهم وكل ما كان نعمه عليه اكثر كان جنايته فى حقه اقبح وأفحش الثانى انه تعالى ذكرهم انه قادر على الابتداء والقادر على الابتداء قادر على الاعادة فلما انكروا هذه الدلالة الظاهرة لاجرم قال تعالى فى حقهم ويل يومئذ للمكذبين وهذه الآية نظير قوله تعالى ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وقرأ كل القراء بادغام القاف فى الكاف وابقاء الصفة ولهم أيضا ادغام الصفة مع الحذف ٣ (فجعلناه) اى بما لنا من القدرة والعظمة بالانزال للماء فى الرحم (فى قرار) أى مكان (مكين) أى حريز وهو الرحم (الى قدر معلوم) أى وهو وقت الولادة كقوله تعالى ان الله عنده علم الساعة الى قوله ويعلم ما فى الارحام (فقدرنا) أى ذلك دون غيرنا (فنعم القادرون) نحن وقرأ نافع والكسائى بتشديد الدال فيصح على هذه القراءة أن يكون المعنى فقدرناه والباقون بالتخفيف وقال على كرم الله وجهه ولا يبعد أن يكون المعنى فى التخفيف والتشديد واحدا لان العرب تقول قدر وقدر عليه الموت (ويل يومئذ) أى اذ كان ذلك (للمكذبين) أى بقدرتنا على ذلك أو على الاعادة وقوله تعالى (ألم نجعل) أى نصير بما لنا من العظمة (الارض كفاتا) مصدر كفت بمعنى ضم وعاء ضامة (أحياء) اى على ظهرها فى الدور وغيرها (وأمواتا) اى فى بطنها فى القبور وغيرها وقيل الاحياء والاموات ترجع الى الارض أى الارض منقسمة الى حى وهو

مقبول ولا يبعد أن يؤذن لهم فى الاعتذار ولو اذن لهم فيه اذ الطائف عادة قد لا ينطق لسانه بعذر وحجة

٣ قوله ولهم أيضا ادغام الصفة الخ لعل الظاهر ولهم أيضا الادغام مع حذف الصفة فليحرر اه مصححه

الذي ينبت والى ميت وهو الذي لا ينبت وقيل كفاتا جمع كافت كصيام وقيام جمع صائم وقائم وقال الخليل تقليب الشيء ظهرا لبطن أو بطنا لظهر ويقال انكفت القوم الى منازلهم أي انقلبوا فمعنى الكفات انهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون اليها فيدفنون فيها (وجعلنا) أي بما لنا من القدرة التامة (فيها) أي الارض (رواسي) أي جبالا لولاها لمادت باهلها ومن العجائب مراسيها من فوقها خلافا لمراسي السفن (شامخات) أي مرتفعات جمع شامخ وهو المرتفع جدا ومنه شمخ بانفه اذا تكبر جعل كناية عن ذلك كثني العطف وصعر الخد كما قال لقمان لابنه ولا تصعر خدك للناس (وأسقيناكم) أي بما لنا من العظمة (ماء) أي من الانهار والعيون والغدران والآبار وغير ذلك (فراتا) أي عذبا تشربون منه ودوابكم وتسقون منه زرعكم وهذه الامور أعجب من البعث روى في الارض من الجنة سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة (ويل يومئذ) أي اذ تقوم الساعة (للمكذبين) اى بامثال هذه النعم

وقوله تعالى (انطلقوا) على ارادة القول أي يقال للمكذبين يوم القيامة انطلقوا (الى ما كنتم به تكذبون) من العذاب يعني النار فقد شاهدتموها عيانا (انطلقوا الى ظل) أي ظل دخان جهنم لقوله تعالى وظل من يحموم (ذي ثلاث شعب) أي تتشعب لعظمه كما يرى الدخان العظيم يتفرق ذوائب وقيل يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ حسابهم والمؤمنون في ظل العرش وقيل ان الشعب الثلاث هي الضريع والزقوم والغسلين لانها أوصاف النار وقوله تعالى (لا ظليل) أي كنين يظلهم من حر ذلك اليوم تهكم بهم ورد لما أوهم لفظ الظل (ولا يغني) أي ولا يرد عنهم شيأ (من اللهب) أي لهب النار فليس كالظل الذي يقي حر الشمس وهذا تهكم بهم وتعريض بان ظلهم غير ظل المؤمنين واللهب ما يعلو على النار اذا اضطربت من أحمر وأصفر وأخضر (انها) اى النار (ترمي) أي من شدة الاشتعال (بشرر) وهو ما تطاير من النار (كالقصر) أي كل شررة كالقصر من البناء في عظمه وارتفاعه قال ابن مسعود يعني الحصون وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ترمي بشرر كالقصر قيل هي الخشب العظام المقطعة قال وكنا نعمد الى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه ندخرها للشتاء فكنا نسميها القصر وقال سعيد بن جبير والضحاك هي أصول النخل والشجر العظام واحدتها قصرة مثل جمرة وجمر وقوله تعالى

(كأنه) أي الشرر (جمالات) قرأ حمزة والكسائي وحفص بغير ألف بعد اللام على التوحيد والباقون بالالف على الجمع جمع جمالة وهي التي قرئ بها أولا وهي جمع جمل مثل حجارة وحجر وقوله تعالى (صفر) جمع أصفر أي في هيئتها ولونها وفي الحديث شرار النار أصفر كالقير والعرب تسمي سود الابل صفرا لشوب سوادها بصفرة فقيل صفر في الآية بمعنى سود لما ذكر وفي شعر عمران ابن حطان الخارجي

دعتهم باعلى صوتها ورمتهم * بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

قال الترمذي وهذا القول ضعيف ومحال في اللغة أن يكون من يشوبه شيء قليل فينسب كله الى ذلك الشائب فالعجب ممن قد قال هذا وقد قال الله تعالى جمالات صفر فلا نعلم من هذا شيأ في اللغة وقيل شبه الشرر بالجمالات لسرعة سيرها وقيل لتتابعه بعضها بعضا (ويل يومئذ) أي

اذ يكون ذلك (للمكذبين) أي بهذه الامور العظام (هذا) أي يوم القيامة (يوم لا ينطقون)
أي بشيء من فرط الدهشة والحيرة وهذا نوع آخر من أنواع تخويف الكفار بين انه ليس لهم
عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح وهذا في بعض المواقف فان يوم القيامة يوم طويل
ذو مواطن ومواقيت ينطقون في وقت ولا ينطقون في وقت ولذلك ورد الامران في القرآن
الكريم ففي بعضها يختصمون ويتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون وروى
عكرمة أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سأله ابن الازرق عن قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون
ولا تسمع الا همسا وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فقال ان الله تعالى يقول وان يوما عند
ربك كألف سنة مما تعدون فان لكل مقدار من هذه الايام لونا من هذه الالوان وقال الحسن
فيه اضمار أي هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة نافعة فجعل نطقهم كلا نطق لانه لا ينفع ولا يسمع
ومن نطق بما لا ينفع فكأنه ما نطق كما يقال لمن تكلم بكلام لا يفيد ما قلت شيأ وقيل ان هذا
وقت جوابهم اخسؤا فيها ولا تكلمون (ولا يؤذن لهم) أي في العذر وقوله تعالى (فيعتذرون)
عطف على يؤذن من غير تسبب عنه فهو داخل في حيز النفي أي لا اذن فلا اعتذار (ويل
يومئذ) أي اذ كان هذا الموقف (للمكذبين) أي الذين لا تقبل منهم معذرة (هذا يوم الفصل)
وهذا نوع آخر من أنواع تهديد الكفار وتخويفهم أي يقال لهم هذا اليوم الذي يفصل فيه
بين الخلائق فيتبين المحق من المبطل (جمعناكم) أيها المكذبون من هذه الامة بما لنا من العظمة
(والاولين) من المكذبين قبلكم فتحاسبون وتعذبون جميعا قال ابن عباس رضي الله تعالى
عنهما جمع الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم والذين كذبوا النبيين من قبل وقوله تعالى (فان
كان لكم كيد) أي حيلة في دفع العذاب عنكم (فكيدون) أي فاحتالوا لانفسكم وقاوون
ولن تجدوا ذلك تقريع لهم على كيدهم لدين الله تعالى وذويه وتسجيل عليهم بالعجز وقيل ان
ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم فيكون كقول هود عليه السلام فكيدوني جميعا ثم
لا تنظرون (ويل يومئذ) أي اذ يقال لهم هذا الكلام فيكون زيادة في عذابهم (للمكذبين) أي
الراسخين في التكذيب في ذلك ثم ذكر ضد المكذبين بقوله تعالى (ان المتقين) أي الذين اتقوا
الشرك لانهم في مقابلة المكذبين (في ظلال) أي تكاثف أشجار اذ لا شمس يظل من حرها
(وعيون) أي من ماء وعسل ولبن وخمر كما قال تعالى فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم
يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام
وحفص بضم العين والباقون بكسرها (وفواكه مما يشتهون) في هذا اعلام بان المأكل
والمشرب في الجنة بحسب شهواتهم بخلاف الدنيا فبحسب ما يجد الناس في الاغلب وقوله تعالى
(كلوا واشربوا) في موضع الحال من ضمير المتقين في الظرف الذي هو في ظلال أي هم مستقرون
في ظلال مقولا لهم ذلك وقوله تعالى (هنيئا) حال أي متهنئين (بما) أي بسبب ما (كنتم تعملون)
من طاعات الله تعالى (انا) أي بما لنا من العظمة (كذلك) أي كما جزينا المتقين هذا الجزاء
العظيم (نجزي المحسنين) أي نثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم
وأعمالهم في الدنيا (ويل يومئذ) أي اذ يكون هذا النعيم للمتقين المحسنين (للمكذبين) أي بمحض

قلت) ماذكرنا فيه مادل
عليه قوله يوم لا ينفع
الظالمين معذرتهم من
وقوع الاعتذار منهم

لهم العذاب الخالد ضد النعيم المؤبد وقوله تعالى (كلوا وتمتعوا) خطاب للكفار في الدنيا (قليلا) أي من الزمان وغايته الى الموت وهو زمان قليل لانه زائل مع قصر مدته في زمن الآخرة وفي هذا تهديد لهم ويجوز أن يكون ذلك خطابا لهم في الآخرة ايذانا بانهم كانوا في الدنيا احقاء بان يقال لهم وكانوا من أهله تذكيرا بحالهم السمجة بما جنوا على أنفسهم من ايثار المتاع القليل على النعيم والملك الخالد وهذا ما جرى عليه الزمخشري أولا وذكر الاول ثانيا واقتصر الجلال المحلي على ما ذكرته أولا وهو أولى قال بعض العلماء التمتع بالدنيا من افعال الكافرين والسعي لها من افعال الظالمين والاطمئنان اليها من أفعال الكاذبين والسكون فيها على حد الاذن والاخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين والاعراض عنها من أفعال الزاهدين وأهل الحقيقة أجل خطرا من أن يؤثر فيهم حب الدنيا وبغضها وجمعها وتركها ثم علل ذلك مؤكدا بقوله تعالى لانهم ينكرون وصفهم بذلك (انكم مجرمون) ففيه دلالة على ان كل مجرم يتمتع أياما قلائل ثم البقاء في الهلاك أبدا (ويل يومئذ) أي اذ تعذبون باجرامكم (للمكذبين) حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل (واذا قيل لهم) أي لهؤلاء المجرمين من أي قائل كان (اركعوا) أي صلوا الصلاة التي فيها الركوع كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وأطلقوه عليها تسمية لها باسم جزئها وخص هذا الجزء لانه يقال على الخضوع والطاعة ولانه خاص بصلاة المسلمين (لا يركعون) أي لا يصلون قال الرازي وهذا ظاهر لان الركوع من أركانها فبين تعالى ان هؤلاء الكفار من صفتهم أنهم اذا دعوا الى الصلاة لا يصلون ويجوز أن يكون اركعوا بمعنى اخشعوا وتواضعوا لله بقبول وحيه واتباع دينه واطرحوا هذا الاستكبار لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على استكبارهم وأن يكون بمعنى اركعوا في الصلاة اذ روي أنها نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة فقالوا لا نجبي فانها مسبة علينا فقال صلى الله عليه وسلم لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود قال في القاموس جبى تجبية وضع يديه على ركبتيه أو على الارض أو انكب على وجهه والتجبية أن تقوم قيام الراكع واستدل بهذه الآية على ان الكفار مخاطبون بفروع الشريعة وأنهم حال كفرهم يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة لان الله تعالى ذمهم حال كفرهم وعلى أن الامر للوجوب لان الله تعالى ذمهم بمجرد ترك المأمور به وهو يدل على أن الامر للوجوب (فان قيل) انما ذمهم لكفرهم (أجيب) بأنه تعالى ذمهم على كفرهم من وجوه الا أنه تعالى انما ذمهم في هذه الآية لتركهم المأمور به وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها (ويل يومئذ) أي اذ يكون الفصل (للمكذبين) اي بما أمروا به قال الرازي انه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة الى آخرها بهذه الوجوه العشرة المذكورة وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من الكفار وبين أنهم اذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل القطعية مع تجليها ووضوحها (فبأي حديث بعده) أي القرآن (يؤمنون) اي لا يمكن ايمانهم بغيره من كتب الله تعالى بعد تكذيبهم به لاشتماله على الاعجاز الذي لم يشتمل عليه غيره واستدل بعض المعتزلة بهذه الآية على ان القرآن حادث لان الله تعالى وصفه بانه حديث والحديث ضد القديم والضدان لا يجتمعان فاذا كان حديثا وجب أن لا يكون

قديما

(قلت) لا ينافيه لان يوم القيامة يوم طويل ولا فيه مقادير في وقت ولا يعتذرون في اخر والجواب

قديما واجيب بان المراد منه هذه الالفاظ ولا نزاع فى أنها محدثة وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والمرسلات كتب الله تعالى له أنه ليس من المشركين حديث موضوع

سورة عم يتساءلون

وتسمى سورة النبا مكية وهى أربعون أو احدى واربعون آية ومائة وثلاث وسبعون كلمة وسبعمائة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له الملك كله (الرحمن) الذى عم الوجود بفضله (الرحيم) الذى محضت أولياءه جنته وقوله تعالى (عم) أصله عن ما على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية وأدغمت النون فى الميم وحذفت ألف ما كقوله فيم واستعمال الاصل قليل ومنه قول حسان

على ما قام يشتمنى لئيم • كخنزير تمرغ فى رماد

ومعنى هذا الاستفهام تفخيم الشان كانه قال عن أى شئ (يتساءلون) ونحوه ما فى قولك زيد ما زيد جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كانه شئ خفى عليك فانت تسال عن جنسه وتفحص عن جوهره كما تقول ما الغول وما العنقاء تريد أى شئ هو من الاشياء هذا أصله ثم جرد للعبارة عن التفخيم حتى وقع فى كلام من لا تخفى عليه خافية ولذا الما وقف البزى ألحق الميم هاء السكت بخلاف عنه والضمير فى يتساءلون لاهل مكة كانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما دعاهم الى التوحيد وأخبرهم بالبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون ماذا جاء به محمد و يسألون الرسول والمؤمنين عنه استهزاء وقيل الضمير للمسلمين والكافرين جميعا وكانوا جميعا يتساءلون عنه أما المسلم فليزداد خشية واستعدادا واما الكافر فليزداد استهزاء ثم ذكر أن تساءلهم عماذا فقال تعالى (عن النبا العظيم) قال مجاهد والاكثرون هو القرآن دليله قوله تعالى قل هو نبأ عظيم وقال قتادة هو البعث (فان قيل) اذا كان الضمير يرجع للكافر فكيف يكون قوله تعالى (الذى هم) اى بضمائرهم مع ادعائهم أنها أقوى الضمائر (فيه مختلفون) مع ان الكفار كانوا متفقين على انكار البعث (اجيب) بانا لا نسلم اتفاقهم على ذلك بل كان فيهم من يثبت المعاد الروحانى وهم جمهور النصارى واما المعاد الجسمانى فمنهم من يقطع القول بانكاره ومنهم من يشك وأما اذا كان المتساءل عنه القرآن فقد اختلفوا فيه كثيرا وقيل المتساءل عنه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (كلا) ردع للمتسائلين هزؤا (سيعلمون) ما يحل بهم على انكارهم له وقوله تعالى (ثم كلا سيعلمون) تاكيد وجئ فيه بثم للايذان بان الوعيد الثانى اشد من الاول وقال الضحاك الاولى للكفار والثانية للمؤمنين أى سيعلم الكافرون عاقبة تكذيبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم * ثم أومأ تعالى الى القدرة على البعث بقوله تعالى (ألم نجعل) اى بما لنا من العظمة (الارض مهادا) اى فراشا كالمهاد للصبى وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر كضرب الامير (والجبال) أى التى تعرفون شدتها وعظمها (أوتادا) اى تثبت بها الارض كما تثبت الخيام بالاوتاد والاستفهام للتقرير فيستدل بذلك على قدرته على جميع الممكنات واذا

بان المراد بتلك الآية الظالون من المسلمين وبما هنا الكافرون ضعيف لتعقيب تلك الآية بقوله

ثبت ذلك ثبت القول بصحة البعث وانه قادر على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وارضها وعلى ايجاد عالم الآخرة *(تنبيه)* مهادا مفعول ثان لان الجعل بمعنى التصيير ويجوز أن يكون بمعنى الخلق فتكون حالا مقدرة (وخلقناكم) أي بما دل على ذلك من مظاهر العظمة (أزواجا) أي أصنافا ذكورا واناثا وقيل ألوانا (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (نومكم سباتا) أي راحة لابدانكم قال الزجاج السبات ان ينقطع عن الحركة والروح فيه وقيل معناه جعلنا نومكم قطعا لاعمالكم وقيل المسبوت الميت من السبت وهو القطع لانه مقطوع عن الحركة والنوم أحد التوفيتين وقوله تعالى (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (الليل) أي بعد ذهاب الضياء حتى كأنه لم يكن (لباسا) فيه استعارة أي يستركم عن العيون بظلامه كما اذا أردتم هربا من عدو او بياتا له أو اخفاء مالا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الامور قال الشاعر

وكم لظلام الليل عندي من يد * تخبر أن المانوية تكذب

ولما جعل النوم موتا جعل اليقظة معاشا فقال تعالى (وجعلنا) أي بما لنا من القدرة التامة (النهار) أي الذي آيته الشمس (معاشا) أي حياة تبعثون فيه من نومكم أو وقت معاش تتقلبون فيه في حوائجكم ومكاسبكم لتحصيل ما تعيشون به فمعاشا على هذا اسم زمان (وبنينا) اي بما لنا من الملك التام (فوقكم سبعا) اي سبع سموات وقوله تعالى (شدادا) جمع شديدة أي قوية محكمة لا يؤثر فيها مرور الزمان لا فطور فيها ولا فروج ونظيره قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة مما لا يقدر عليه غيرنا (سراجا) أي منيرا متلألئا (وهاجا) أي وقادا وهي الشمس (وانزلنا) أي بما لنا من كمال الاوصاف (من المعصرات) أي السحاب اذا اعصرت أي شارفت ان تعصرها الرياح فتمطر كقولك أجز الزرع أي حان أن يجز وأعصرت الجارية اذا دنت أن تحيض وعن الحسن وقتادة هي السموات وتاويله ان الماء ينزل من السماء الى السحاب فكأن السموات يعصرن وقيل من الرياح التي حان لها ان تعصر السحاب وقيل الرياح ذوات الاعاصير وانما جعلت مبدأ للانزال لانها تنشئ السحاب وتدر اخلافه (ماء ثجاجا) اي منصبا بكثرة يقال ثجه وثج بنفسه وفي الحديث أفضل الحج العج والثج اي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مثجا يسيل غربا يعني يثج الكلام ثجا في خطبته (لنخرج) اي بعظمتنا التي ربطنا بها المسببات بالاسباب (به) اي بذلك الماء (حبا) اي نجما اذا حب مما يتقوت به كالحنطة والشعير والارز (ونباتا) اي ما يعتلف به كالتبن والحشيش كما قال تعالى كلوا وارعوا انعامكم والحب ذو العصف والريحان (وجنات) اي بساتين تجمع انواع الاشجار والنبات المقتات وغيره (الفافا) اي ملتفة بالشجر جمع لفيف كشريف واشراف وقيل هو جمع الجمع يقال جنة لفاء وجمعها لف بضم اللام وجمع الجمع الفاف وقيل لا واحد له كالاوزاع والاخياف وقيل الواحد لف قال صاحب الاقليد انشدني الحسن بن علي الطوسي

جنة لف وعيش مغدق * وندامى كلهم بيض زهر

وقال الزمخشري ولو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولا وجيها (ان يوم الفصل) اي بين الخلائق (كان) اي في علم الله تعالى وفي حكمه كونا لابد منه (ميقاتا) اي وقتا

والهم اللعنة ولهم سوء الدار

(سورة النبأ)

(قوله كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) كررتا كبدا أو

للثواب والعقاب اووقتا توقت به الدنيا وتنتهي عنده مع مافيها من الخلائق وقوله تعالى (يوم ينفخ في الصور) اى القرن بدل من يوم الفصل او بيان له والنافخ اسرافيل عليه السلام أومن اذن الله تعالى له فى ذلك (فتاتون) اى بعد القيام من القبور الى الموقف (افواجا) اى جماعات مختلفة وعن معاذ انه سال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يامعاذ سالت عن امر عظيم من الامور ثم ارسل عينيه باكيا وقال تحشر عشرة اصناف من أمتى بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون ارجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عميا وبعضهم صما بكما وبعضهم يمضغون السنتهم فهى مدلاة على صدورهم يسيل القيح من افواههم يتقذرهم اهل الجمع وبعضهم مقطعة ايديهم وارجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد نتنا من الجيف وبعضهم ملبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ثم فسر هؤلاء بقوله فاما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس يعنى النمام واما الذين على صورة الخنازير فاهل السحت واما المنكسون على وجوههم فاكلة الربا واما العمى فالذين يجورون فى الحكم واما الصم البكم فالمعجبون باعمالهم واما الذين يمضغون السنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم فعلهم واما الذين قطعت ايديهم وارجلهم فهم الذين يؤذون الجيران واما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس الى السلطان واما الذين أشد نتنا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى فى اموالهم واما الذين يلبسون الجباب فاهل الكبر والفخر والخيلاء اه وقد تكلم فى صحة هذا الحديث نعوذ بالله تعالى من هؤلاء ونسأله التوفيق لنا ولاحبابنا فانه كريم جواد لا يرد من سأله (وفتحت السماء) اى شققت لنزول الملائكة (فكانت ابوابا) فان قيل هذه الآية تقتضى ان السماء بجملتها تصير ابوابا اجيب بوجوه اولها ان تلك الابواب لما كثرت صارت كانها ليست الا ابوابا مفتحة كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا كان كلها عيون تتفجر ثانيها انه على حذف مضاف اى فكانت ذات ابواب ثالثها ان الضمير فى قوله تعالى فكانت ابوابا عائد الى مضمر والتقدير فكانت تلك المواضع المفتوحة ابوابا وقيل الابواب الطرق والمسالك اى تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقا لا يسدها شئ وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف التاء بعد الفاء والباقون بتشديدها (وسيرت الجبال) اى ذهب بها عن اماكنها (فكانت سرابا) اى لاشئ كما ان السراب كذلك يظنه الرائى ماء وليس بماء قال الرازى ان الله تعالى ذكر احوال الجبال بوجوه مختلفة ويمكن الجمع بينها بان نقول اول أحوالها الاندكاك وهو قوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة والحالة الثانية ان تصير كالعهن المنفوش وهو قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش والحالة الثالثة ان تصير كالهباء وهو قوله تعالى وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا الحالة الرابعة ان تنسف لانها مع الاحوال المتقدمة قارة فى مواضعها فترسل عليها الرياح فتنسفها عن وجه الارض فتطيرها فى الهواء وهو قوله تعالى ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا الحالة الخامسة ان تصير سرابا اى لاشئ كما يرى السراب من بعد وقرأ ابو عمرو وحمزة والكسائى بادغام تاء التانيث فى السين والباقون بالاظهار (ان جهنم) اى النار التى تلقى اصحابها بتجهمها لهم بغاية مايكرهون (كانت

الاول توعد للكفار بما يرونه عند النزع والثانى توعدلهم بما يصيرون اليه من عذاب الآخرة او الاول

مرصادا) اى ترصد الكفار او موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار او خزنة الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها فى مرورهم عليها وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان على جسر جهنم سبع محابس يسئل العبد عند اولها عن شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فان جاء بها تامة جاز الى الثانى فيسئل عن الصلاة فان جاء بها تامة جاز الى الثالث فيسئل عن الزكاة فان جاء بها تامة جاز الى الرابع فيسئل عن الصوم فان جاء به تاما جاز الى الخامس فيسئل عن الحج فان جاء به تاما جاز الى السادس فيسئل عن العمرة فان جاء بها تامة جاز الى السابع فيسئل عن المظالم فان خرج منها والا فيقال انظروا ان كان له تطوع أكمل به أعماله فاذا فرغ انطلق به الى الجنة وأما الكافر فهو مستقر فيها كما قال تعالى (للطاغين) أى الكافرين (مآبا) اى مرجعا يرجعون اليه وقرأ حمزة (لابثين فيها) بغير ألف بين اللام والباء الموحدة والباقون بالف وهما لغتان والاولى أبلغ قاله البيضاوى وقوله تعالى (احقابا) جمع حقب والحقب الواحد ثمانون سنة كل سنة اثنا عشر شهرا كل شهر ثلاثون يوما كل يوم ألف سنة وروى ذلك عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال مجاهد الاحقاب ثلاثة وأربعون حقبا وقال الحسن ان الله تعالى لم يجعل لاهل النار مدة بل قال لابثين فيها أحقابا فوالله ماهو الا أنه اذا مضى حقب دخل آخر الى الابد فليس للاحقاب عدة الا الخلود وروى عن عبد الله انه قال لو علم أهل النار أنهم يلبثون فى النار عدد حصى الدنيا لفرحوا ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون فى الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا وقال مقاتل بن حيان الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة قال وهذه الآية منسوخة نسختها فلن نزيدكم الا عذابا يعنى ان العدد قد ارتفع والخلود قد حصل وعلى تقدير عدم النسخ فهو من قبيل المفهوم فلا يعارض المنطوق الدال على خلود الكفار و يجوز أن يراد لابثين فيها أحقابا (لا يذوقون) أى غير ذائقين (فيها) أى النار (بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا) ثم يبدلون بعد الاحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب و يجوز أن يكون جمع حقب من حقب عامنا اذا قل مطره وخيره وحقب فلان اذا أخطأ الرزق فهو حقب وجمعه أحقاب فينتصب حالا عنهم يعنى لابثين فيها حقبين جهدين وقوله تعالى لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا تفسير له والاستثناء منقطع يعنى لا يذوقون فيها بردا قال عطاء والحسن أى راحة وروحا اى ينفس عنهم حر النار ولا شرابا يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميما أى ماء حارا غاية الحرارة وغساقا وهو مايسيل من صديد أهل النار فانهم يذوقونه وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان البرد النوم ومثله قال الكسائى وأبو عبيد تقول العرب منع البرد البرد أى اذهب البرد النوم قال الشاعر

فلو شئت حرمت النساء سواكم * وان شئت لم اطعم نقاخا ولا بردا

وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتشديد السين والباقون بتخفيفها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده جوزوا بذلك (جزاء وفاقا) أى موافقا لعملهم قال مقاتل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الكفر ولا عذاب أعظم من النار وقوله تعالى (انهم كانوا لا يرجون حسابا) بيان لما وافقه هذا الجزاء أى لا يخافون أن يحاسبوا والمعنى أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا أنهم يحاسبون (وكذبوا بآياتنا) أى بما جاءت

قوله باهوال القيامة والثانى توعدهم بما بعدها من النار وحرها والاول ردع عن الاختلاف والثانى

قوله بتخفيفها كذا بالنسخ ومقتضاه ان حفصا يقرأ بالتخفيف والمعروف خلافه وبالجملة فليحرر اهـ مصححه

به الانبياء عليهم السلام وقيل القرآن وقرأ (كذابا) غير الكسائي بالتشديد أي تكذيبا قال الفراء وهي لغة يمانية فصيحة يقولون في مصدر التفعيل فعال وقال الزمخشري وفعال في باب فعل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره وسمعني بعضهم أفسر آية فقال لقد فسرتها فسارا ما سمع بمثله وقرأ الكسائي بالتخفيف مصدر كذب بدليل قول الشاعر

فصدقتها وكذبتها • والمرء ينفعه كذابه

قال الزمخشري وهو مثل قوله أنبتكم من الارض نباتا يعني وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا أو تنصبه بكذبوا لانه يتضمن معنى كذبوا لان كل مكذب بالحق كاذب وان جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة أو كذبوا بها مكاذبين لانهم اذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة أو لانهم يتكلمون بما هو افراط في الكذب فعل من يغالب في امر فيبلغ فيه أقصى جهده (وكل شئ) أي من الاعمال وغيرها (احصيناه) اى ضبطناه وقوله تعالى (كتابا) فيه وجهان أحدهما انه مصدر في موضع احصاء والاحصاء والكتب يتشاركان في معنى الضبط ثانيهما أن يكون حالا بمعنى مكتوبا في اللوح المحفوظ كقوله تعالى وكل شئ احصيناه في امام مبين وقيل أراد ما تكتبه الملائكة الموكلون بالعباد بامر الله تعالى اياهم بالكتابة لقوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين والجملة اعتراض وقوله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم) اى شيأ من الاشياء في وقت من الاوقات (الا عذابا) تسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات قال الرازي وفي هذه الآية مبالغات منها لن للتأكيد ومنها الالتفات ومنها اعادة قوله تعالى فذوقوا بعد ذكر العذاب قال أبو بردة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أشد آية في القرآن فقال صلى الله عليه وسلم قوله تعالى فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا اى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب وكلما خبت زدناهم سعيرا ولما ذكر تعالى مال الكافرين أتبعه بذكر مال المؤمنين فقال تعالى (ان للمتقين مفازا) أى مكان فوز في الجنة وقوله تعالى (حدائق) أى بساتين فيها أنواع الاشجار المثمرة بدل من مفازا بدل الاشتمال أو البعض أو بيان له وقوله تعالى (وأعنابا) اى كروما عطف على مفازا (وكواعب) اى جوارى تكعبت ثديهن جمع كاعب (اترابا) اى على سن واحد جمع ترب بكسر التاء وسكون الراء وقيل الاتراب اللدات (وكأسا دهاقا) اى خمرا مالئة محالها وفي القتال وانهار من خمر والدهاق المترعة ودهق الحوض ملأه حتى قال قطني وقال ابن عباس مترعة مملوأة وقال عكرمة صافية (لا يسمعون فيها) اى الجنة في وقت ما عند شرب الخمر وغيره من الاحوال (لغوا) أى لغطا يستحق أن يلغى بان يكون ليس له معنى وقوله تعالى (ولا كذابا) قرأه بالتخفيف الكسائي وبالتشديد الباقون أى تكذيبا من واحد لغيره بخلاف ما يقع في الدنيا عند شرب الخمر (جزاء من ربك) أى المحسن اليك بما أعطاك جزاهم بذلك جزاء وقوله تعالى (عطاء) بدل من جزاء وهو اسم مصدر وجعله الزمخشري منصوبا بجزاء نصب المفعول به ورده أبو حيان بانه جعل جزاء مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة التي هي ان للمتقين قال والمصدر المؤكد لا يعمل لانه لا ينحل لحرف مصدري والفعل ولا نعلم في ذلك خلافا (حسابا) أى كافيا وافيا يقال أحسبت فلانا أى أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبي وقال ابن قتيبة اى عطاء كثيرا

عن الكفر وثم للاشعار بأن الوعيد الثاني أشد (قوله ألم نجعل الارض مهادا) وجه اتصاله بما قبله انهم

وقيل جزاء بقدر اعمالهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (رب السموات والارض ومابينهما الرحمن) برفع رب والرحمن وابن عامر وعاصم بخفضهما والاخوان بخفض الاول ورفع الثانى أما رفعهما فمن اوجه أحدها أن يكون رب خبر مبتدا مضمر أى هو رب والرحمن كذلك أو مبتدا خبره لايملكون ثانيها أن يجعل رب مبتدأ والرحمن خبره ولايملكون خبرا ثانيا أو مستأنفا ثالثها ان يكون رب مبتدأ والرحمن نعته ولايملكون خبر رب رابعها أن يكون رب مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولايملكون خبره والجملة خبر الاول وحصل الربط بتكرير المبتدا بمعناه وهو رأى الاخفش ويجوز أن يكون لايملكون حالا وتكون لازمة وأما جرهما فعلى البيان والنعت أو يجعل رب السموات تابعا للاول والرحمن تابعا للثانى وأما جر الاول فعلى التبعية للاول ورفع الثانى فعلى الابتداء والخبر الجملة الفعلية وهى (لايملكون) أى الخلق (منه) أى من الله تعالى (خطابا) والضمير فى لايملكون لاهل السموات والارض أى ليس فى أيديهم مايخاطب به الله ويأمر به فى أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه أو لايملكون أن يخاطبوه بشئ من نقص العذاب أو زيادة فى الثواب الا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه وقوله تعالى (يوم) متعلق بلايملكون أو لايتكلمون (يقوم الروح والملائكة) وقوله تعالى (صفا) حال أى مصطفين والروح أعظم خلقا من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو ملك عظيم ماخلق الله تعالى بعد العرش خلقا أعظم منه فاذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفا وقامت الملائكة كلهم صفا واحدا فيكون عظم خلقه مثلهم وقال الشعبى هو جبريل عليه السلام وقيل ملك موكل على الارواح وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال الروح ملك أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة وهو فى السماء الرابعة يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة يخلق من كل تسبيحة ملك يجئ يوم القيامة صفا وحده وقال مجاهد وقتادة رضى الله عنهما الروح خلق على صورة بنى آدم وليسوا بناس يقومون صفا والملائكة صفا هؤلاء جند وهؤلاء جند وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خلق على صورة بنى آدم وماينزل من السماء ملك الا معه واحد منهم وقال الحسن رضى الله عنه هو بنو آدم ورواه قتادة عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال هذا مما كان يكتمه ابن عباس وقيل هو جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل يأكلون الطعام وقيل أرواح بنى آدم وقال زيد بن أسلم هو القرآن وقرأ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا واذا كان هؤلاء (لايتكلمون) وهم من أفضل الخلق وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه تعالى لايملكون التكلم فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والارض ويجوز رجوع الضمير للخلق أجمعين (الا من أذن له) أى فى الكلام اذنا خاصا (الرحمن) أى الملك الذى لاتكون النعمة الا منه (وقال) قولا (صوابا) فى الدنيا أى حقا من المؤمنين والملائكة وهما شرطان أن يكون المتكلم مأذونا له فى الكلام وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وقيل القول الصواب لا اله الا الله (ذلك) أى المشار اليه لبعد مكانته وعظم رتبته وعلو منزلته (اليوم الحق) اى الكائن لامحالة وهو يوم القيامة (فمن شاء اتخذ

لما اختلفوا فى النبأ العظيم وهو البعث ثم انكروه نبههم الله تعالى بما خلقه وأوجده على كمال قدرته

الى ربه) أي الحسن اليه (مآبا) أي مرجعا وسبيلا لطاعته ليسلم من العذاب في ذلك اليوم فان الله تعالى جعل لهم قوة واختيارا ولكن لا يقدر أحد منهم على مشيئة شيء الا بمشيئة الله تعالى (انا) اى على ما لنا من العظمة (أنذرناكم) أي يا كفار مكة (عذابا قريبا) أي عذاب يوم القيامة الآتي وكل آت قريب وقوله تعالى (يوم) ظرف لعذابا بصفته (ينظر المرء) اى كل امرئ سواء كان مؤمنا أو كافرا انظار الامرية فيه (ما) أي الذي (قدمت يداه) اى كسبه في الدنيا من خير وشر وقال الحسن رضي الله عنه أراد بالمرء المؤمن أي يجد لنفسه عملا واما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا ولانه تعالى قال (ويقول الكافر) فعلم انه أراد بالمرء المؤمن وقيل هو الكافر لقوله تعالى انا انذرناكم فيكون الكافر ظاهرا وضع موضع الضمير لزيادة الذم ومعنى ما قدمت يداه من الشر كقوله تعالى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك ومايجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدمت أي ينظر أي شيء قدمت يداه أو موصولة منصوبة بينظر يقال نظرته بمعنى نظرت اليه والراجع الى الصلة محذوف وقال مقاتل رضي الله عنه نزل قوله تعالى يوم ينظر المرء ما قدمت يداه في أبي سلمة بن عبد الاسد المخزومي ويقول الكافر (ياليتني كنت ترابا) في اخيه الاسود بن عبد الاسد وقال الثعلبي سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول الكافر هنا ابليس وذلك انه عاب آدم عليه السلام بانه خلق من تراب وافتخر بانه خلق من نار فاذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب تمنى انه كان بمكان آدم فيقول ياليتني كنت ترابا قال ورأيته في بعض التفاسير قال البغوي قال أبو هريرة رضي الله عنه فيقول التراب لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وانسان ثم يقال للبهائم والطير كونوا ترابا فعند ذلك يقول الكافر ياليتني كنت ترابا أي فلا اعذب وقيل معنى ياليتني كنت ترابا أي لم ابعث وقال أبو الزناد اذا قضى بين الناس وأمر باهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار قيل لسائر الامم ولمؤمني الجن عودوا ترابا فيعودون ترابا فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم ياليتني كنت ترابا وقال ليث بن أبي سليم مؤمنو الجن يعودون ترابا وقال عمر بن عبد العزيز ومجاهد وغيرهما مؤمنو الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها والذي عليه الاكثر انهم مكلفون مثابون ومعاقبون كبني آدم وقيل يحشر الله تعالى الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة عم سقاه الله تعالى برد الشراب يوم القيامة حديث موضوع

وغاية قهره وان جميع الاشياء طوع ارادته ووفق مشيئته (قوله جزاء وفاقا) قال ذلك هنا وقال بعد جزاء

سورة النازعات مكية

وهي خمس اوست وأربعون آية وثمانة وسبعون كلمة وسبعمائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذي أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذي أنعم على سائر الموجودات (الرحيم) الذي خص اولياءه بالجنات (والنازعات) أي الملائكة تنزع ارواح الكفار (غرقا) اى تنزع ارواحهم من اجسادهم بشدة كما يغرق النازع في القوس ليبلغ بها غاية المد بعد ما نزعها

حتى اذا كادت تخرج ردها الى جسده فهذا عملهم بالكفار وقال على وابن مسعود رضى الله عنهما يريد نفس الكفار ينزعها ملك الموت من اجسادهم من تحت كل شعرة ومن تحت الاظافير واصول القدمين نزعا كالسفود ينزع من الصوف الرطب ثم يغرقها اى يرجعها الى اجسادهم ثم ينزعها فهذا عمله فى الكفار وقال السدى رضى الله عنه والنازعات هى النفوس حين تغرق فى الصدور وقال مجاهد رضى الله عنه هى الموت ينزع النفوس وقال الحسن وقتادة رضى الله عنهما هى النجوم تنزع من افق الى افق تطلع ثم تغيب وقال عطاء وعكرمة رضى الله عنهما هى القسى وقيل الغزاة ‪*‬ (تنبيه) ‪*‬ غرقا يجوز أن يكون مصدرا على حذف الزوائد بمعنى اغراقا وانتصابه بما قبله لملاقاته فى المعنى وأن يكون على الحال أى ذوات اغراق يقال أغرق فى الشئ يغرق فيه اذا أوغل وبلغ أقصى غايته (والناشطات نشطا) أى الملائكة تنشط أرواح المؤمنين أى تسلها برفق فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير اذا حل عنه وفى الحديث كأنما نشط من عقال وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى أنفس المؤمنين تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة لان الجنة تعرض عليهم قبل الموت وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه هى الملائكة تنشط أرواح الكفار مما بين الجلد والاظفار حتى تخرجها من أفواههم بالكد والغم والنشط الجذب والنزع يقال نشط الدلو نشطا انتزعها وقال السدى رضى الله عنه هى النفس تنشط من بين القدمين أى تجذب وقال قتادة رضى الله عنه هى النجوم تنشط من أفق الى افق اى تذهب يقال نشط من بلد الى بلد اذا خرج فى سرعة ويقال حمار ناشط ينشط من بلد الى بلد وقال الجوهرى يعنى النجوم تنشط من برج الى برج كالثور الناشط من بلد الى بلد (والسابحات سبحا) أى الملائكة تسبح من السماء بامره أى ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد يقال له سابح اذا أسرع فى جريه وقال على رضى الله عنه هى الملائكة تسبح بارواح المؤمنين قال الكلبى كالذى تسبح فى الماء فاحيانا ينغمس وأحيانا يرتفع يسلونها سلا رفيقا بسهولة ثم يدعونها حتى تستريح وعن مجاهد رضى الله عنه السابحات الموت يسبح فى نفوس بنى آدم وقال قتادة والحسن رضى الله عنهما هى النجوم تسبح فى افلاكها وكذا الشمس والقمر قال تعالى كل فى فلك يسبحون وقال عطاء هى السفن فى الماء وقال ابن عباس رضى الله عنهما أرواح المؤمنين تسبح شوقا الى لقاء الله تعالى ورحمته حتى تخرج وقيل هى خيل الغزاة قال عنترة

والخيل تعلم حين تسبح فى حياض الموت سبحا

(فالسابقات سبقا) أى الملائكة تسبق بارواح المؤمنين الى الجنة وقال مجاهد رضى الله عنه هى الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح وقال ابن مسعود رضى الله عنه هى أنفس المؤمنين تسبق الى الملائكة الذين يقبضونها شوقا الى لقاء الله تعالى وكرامته وقد عاينت السرور وقال قتادة رضى الله عنه هى النجوم يسبق بعضها بعضا فى السير وقال عطاء هى الخيل التى تسبق فى الجهاد وقيل هى ما يسبق من الارواح قبل الاجساد الى جنة أو نار قال الجرجانى ذكر السابقات بالفاء لانها مسببة عن الذى قبلها أى واللاتى يسبحن فيسبقن قال

من ربك عطاء حسابا لان الاول للكفار فناسب ذكر وفاقا أى جزاء موافقا لاعمالهم كما قال تعالى

الواحدى وهذا غير مطرد فى قوله تعالى (فالمدبرات أمرا) اى الملائكة تدبر أمر الدنيا أى تنزل بتدبيره قال الرازى ويمكن الجواب بانها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض وقال ابن عباس رضى الله عنهما المدبرات هى الملائكة وكلوا بامور عرفهم الله تعالى العمل بها قال عبد الرحمن بن سابط يدبر الامر فى الدنيا أربعة من الملائكة جبريل وميكائيل وملك الموت واسرافيل عليهم السلام فاما جبريل فوكل بالرياح والجنود واما ميكائيل فوكل بالقطر والنبات واما ملك الموت فوكل بقبض الارواح وأما اسرافيل فهو ينزل بالامر عليهم وليس فى الملائكة أقرب منه وبينه وبين العرش خمسمائة عام وقيل هى الكواكب السبع حكى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه وفى تدبيرها بالامور وجهان احدهما تدبير طلوعها وافولها والثانى فى تدبير ما قضى الله تعالى فيها من تقليب الاحوال اقسم سبحانه وتعالى بهذه الامور على قيام الساعة والبعث وانما حذف لدلالة ما بعده عليه ولله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه وأما العباد فلا يصح لهم ان يقسموا بغير الله تعالى وصفاته وقوله تعالى (يوم ترجف) أى تضطرب اضطرابا كثيرا مزعجا (الراجفة) اى الصيحة منصوب بالجواب أى لتبعثن يا كفار مكة يوم ترجف الراجفة وهى النفخة الاولى بها يرجف كل شئ أى يتزلزل فيتحرك لها كل شئ ويموت منها جميع الخلائق فوصفت بما يحدث منها (تتبعها الرادفة) أى الصيحة التابعة لها وهى النفخة الثانية ردفت الاولى وبينهما أربعون سنة والجملة حال من الراجفة واليوم واسع للنفختين وغيرهما فصح ظرفيته للبعث الواقع عقيب الثانية وقال قتادة رضى الله عنه هما صيحتان فالاولى تميت كل شئ والاخرى تحيى كل شئ باذن الله سبحانه وتعالى وقال عطاء الراجفة القيامة والرادفة البعث روى عن أبى بن كعب رضى الله عنه أنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذهب ربع الليل قام وقال يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه (قلوب يومئذ) أى اذ قام الخلائق بالصيحة التابعة للاولى (واجفة) أى خائفة قلقة مضطربة من الوجيف وهو صفة القلوب وقال مجاهد رضى الله عنه وجلة وقال السدى زائلة عن أماكنها نظيره اذ القلوب لدى الحناجر (أبصارها) أى أبصار أصحابها وهو من الاستخدام (خاشعة) أى ذليلة من الخوف ولذا أضافها الى القلوب كقوله تعالى خاشعين من الذل (يقولون) أى ارباب القلوب والابصار فى الدنيا استهزاء وانكارا للبعث (أئنا لمردودون) أى بعد الموت (فى الحافرة) أى فى الحياة التى كانت قبل الموت وهى حالتنا الاولى فنصير أحياء بعد الموت كما كنا تقول العرب رجع فلان فى حافرته أى رجع من حيث جاء والحافرة عندهم اسم لابتداء الشئ وأول الشئ وقال بعضهم الحافرة وجه الارض التى تحفر فيها قبورهم سميت حافرة بمعنى المحفورة كقوله تعالى عيشة راضية أى مرضية وقيل سميت حافرة لانها مستقر الحوافر أى أئنا لمردودون الى الارض فنبعث خلقا جديدا نمشى عليها وقال ابن زيد الحافرة النار (أئذا كنا) أى كوننا صار جبلة لنا (عظاما نخرة) أى بالية متفتتة فحيا بعد ذلك وقرأ أئنا واذا نافع وابن عامر والكسائى بالاستفهام فى الاول والخبر فى الثانى والباقون

وجزاء سيئة سيئة مثلها والثانى للمؤمنين فناسب ذكرها بأى كانوا فيها لا عمالهم من قولك حسبى أى كفانى

بالاستفهام فيهما وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو والباقون بالتحقيق وأدخل بين الهمزتين قالون وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه ألفا والباقون بغير ادخال وقرأ نخرة حمزة وشعبة والكسائي بالالف بعد النون والباقون بغير ألف وهما لغتان مثل الطمع والطامع والحذر والحاذر ومعناهما البالية وفرق قوم بينهما فقالوا النخرة البالية والنخرة المجوفة التي تمر فيها الريح فتنخر أي تصوت (قالوا) أي المنكرون للبعث (تلك) أي رجعتنا العجيبة الى الحياة (اذا) اي ان صحت (كرة) أي رجعة (خاسرة) أي ذات خسران أو خاسرة أصحابها والمعنى ان صحت فنحن اذا خاسرون بتكذيبنا وهو استهزاء منهم وعن الحسن رضي الله عنه ان خاسرة بمعنى كاذبة أي ليست كائنة قال الله تعالى (فانما هي) أي الرادفة التي يتبعها البعث (زجرة) اي صيحة بانتهار تتضمن الامر بالقيام والسوق الى المحشر والمنع من التخلف (واحدة) عبر بالزجرة لانه أشد من النهي لانها صيحة لا يتخلف عنها القيام أصلا فكان كأنه بلسان قال عن تلك الصيحة أيها الاجساد البالية انتهى عن الرقاد وقومي الى الميعاد بما حكمنا به من المعاد فقد انتهى زمن الحصاد وآن أوان الاجتناء لما قدم من الزاد فيا خسارة من ليس له زاد (فاذاهم) أي فتسبب عن تلك النفخة وهي الثانية أن كل الخلائق (بالساهرة) أي صاروا على وجه الارض بعد ما كانوا في جوفها والعرب تسمي الفلاة ووجه الارض ساهرة قال بعض أهل اللغة تراهم سموها ساهرة لان فيها نوم الحيوان وسهرهم قال سفيان رضي الله عنه هي أرض الشام وقال قتادة رضي الله عنه هي جهنم (فان قيل) بم يتعلق فانما هي زجرة واحدة (أجيب) بأنه متعلق بمحذوف معناه لا تستصعبوها فانما هي زجرة واحدة يعني لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله تعالى فانها سهلة هينة في قدرته تعالى وقال الزمخشري الساهرة الارض البيضاء المستوية سميت بذلك لان السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة أي جارية الماء وفي ضدها نائمة قال الاشعث بن قيس

وساهرة يضحى السراب مجللا * لأقطارها قد جبتها متلثما

أو لان سالكها لا ينام خوف الهلكة وقال الراغب هي وجه الارض وقيل أرض القيامة وحقيقتها التي يكثر الوطء بها كأنها سهرت من ذلك والاسهران عرقان في الانف والساهور غلاف القمر الذي يدخل فيه عند كسوفه وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الساهرة أرض من فضة لم يعص الله عليها قط جعلها حينئذ وقيل الساهرة اسم للارض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق وذلك حين تبدل الارض غير الارض وقال وهب بن منبه جبل بيت المقدس وقال عثمان بن أبي العاتكة انه اسم مكان من الارض بعينه بالشام وهو الصقع الذي بين جبل اريحا وجبل حسان يمده الله تعالى كيف شاء ثم ان الله تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (هل أتاك) يا أشرف الخلق (حديث موسى) أي أليس قد أتاك حديثه فيسليك على تكذيب قومك ويهددهم عليه بان يصيبهم مثل ما أصاب من هو أعظم منهم فانه كان أقوى اهل الارض بما كان له من كثرة الجنود فلما أصر على التكذيب ولم يرجع ولا أفاده التاديب أغرقناه وآله ولم نبق منهم أحدا وقد كانوا لا يحصون عددا بحيث قيل ان طليعته كانت على عدد بني اسرائيل ستمائة ألف فكيف بقومك الضعاف

* (سورة النازعات) *
(قوله والنازعات) الواو فيه للقسم وجوابه محذوف أي لتبعثن والمراد بالنازعات وما عطف عليه

وقوله تعالى (اذ) أى حين (ناداه) منصوب بحديث لا بأتاك (ربه) أى المحسن اليه بالرسالة وغيرها (بالواد المقدس) أى المطهر غاية الطهر بتشريف الله تعالى له بانزال النبوة المفيضة للبركات وقوله تعالى (طوى) اسم الوادى وهو الذى طوى فيه الشر عن بنى اسرائيل ومن أراد الله تعالى من خلقه ونشر فيه بركات النبوة على جميع اهل الارض المسلم باسلامه وغيره برفع عذاب الاستئصال عنه فان العلماء قالوا ان عذاب الاستئصال ارتفع حين انزلت التوراة وهو واد بالطور بين ايلة ومصر وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بغير تنوين فى الوصل والباقون بالتنوين وقوله تعالى (اذهب الى فرعون) أى ملك مصر الذى كان يستعبد بنى اسرائيل على ارادة القول (انه طغى) أى تجاوز الحد فى الكفر وعلا وتكبر وقال الرازى لم يبين أنه طغى فى أى شئ فقيل تكبر على الله تعالى وكفر به وقيل تكبر على الخلق واستعبدهم وروى عن الحسن رضى الله عنه قال كان فرعون علجا من همذان وقال مجاهد رضى الله عنه كان من أهل اصطخر وعن الحسن أيضا كان من أصبهان يقال له ذو الظفر طوله أربعة أشبار وقوله تعالى (فقل) أى له (هل لك) أى هل لك سبيل (الى أن تزكى) اى تتطهر من الكفر والطغيان قال ابن عباس رضى الله عنهما بأن تشهد ان لا اله الا الله وقال أبو البقاء لما كان المعنى أدعوك جاء بالى وقال غيره يقال هل لك فى كذا وهل لك الى كذا كما تقول هل ترغب فيه وهل ترغب اليه وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاى والاصل تتزكى والباقون بتخفيفها (وأهديك الى ربك) أى وأنبهك على معرفة المحسن اليك (فتخشى) لان الخشية لا تكون الا بالمعرفة قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء أى العلماء به وذكر الخشية لانها ملاك الامر من خشى الله تعالى أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن ادلج بلغ المنزل بدأ بمخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه هل لك أن تنزل بنا وأردفه الكلام الرفيق ليستدعيه للتلطف فى القول ويستنزله بالمداراة من علوه كما أمر بذلك فى قوله تعالى فقولا له قولا لينا الآية وقال الرازى سائر الآيات تدل على انه تعالى لما نادى موسى عليه السلام ذكر له اشياء كثيرة نودى أنا ربك الى قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى فدل قوله تعالى اذهب الى فرعون انه طغى أنه من جملة ما ناداه به لا كل ما ناداه به وأيضا فليس الغرض انه عليه السلام كان مبعوثا الى فرعون فقط بل الى كل من كان فى الطور الا انه خصه بالذكر لان دعوته جارية مجرى كل القوم والفاء فى قوله تعالى (فأراه) عاطفة على محذوف يعنى فذهب فأراه (الآية الكبرى) كقوله تعالى اضرب بعصاك الحجر فانفجرت اى فضرب فانفجرت واختلفوا فى الآية الكبرى اى العلامة العظمى وهى المعجزة فقال عطاء وابن عباس رضى الله عنهم هى العصا وقال مقاتل والكلبى رضى الله عنهما هى اليد البيضاء تبرق كالشمس والاول أولى لانه ليس فى اليد الا انقلاب لونها وهذا حاصل فى العصا لانها لما انقلبت حية لابد وان يتغير اللون الاول فاذن كل ما فى اليد فهو حاصل فى العصا وأمور أخر وهى الحياة فى الجرم الجمادى وتزايد أجزائه وحصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة وابتلاعها أشياء كثيرة وزوال الحياة والقدرة عنها وذهاب تلك الاجزاء التى عظمت وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حية

الملائكة وذكر بلفظ
التأنيث مع انهم ليسوا
اناثا لانه تعالى أقسم
بطوائفها والطائفة
مؤنثة (قوله أبصارها

وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزا مستقلا فى نفسه فعلمنا أن الآية الكبرى هى العصا وقال مجاهد رضى الله عنه هى مجموع العصا واليد وقيل فلق البحر وقيل جميع آياته التسع (فكذب) أى فتسبب عن رؤيته ذلك أن كذب موسى عليه السلام (وعصى) الله تعالى بعد ظهور الآية وتحقيق الامر وقيل كذب بالقول وعصى بالتمرد والتجبر (ثم أدبر) أى تولى وأعرض عن الايمان بعد المهل والاناة اعراضا عظيما بالتمادى على أعظم ما كان فيه من الطغيان بعد خطوب جليلة ومشاهد طويلة حال كونه (يسعى) أى يعمل بالفساد فى الارض أو انه لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا يسعى أى يسرع فى مشيته قال الحسن رضى الله عنه كان رجلا طياشا خفيفا وتولى عن موسى عليه السلام يسعى ويجتهد فى مكايدته أو أريد ثم أقبل يسعى كما تقول أقبل فلان يفعل كذا بمعنى أنشأ يفعل فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالاقبال (فحشر) أى فتسبب عن ادباره انه جمع السحرة للمعارضة وجنوده للقتال (فنادى) حينئذ بأعلى صوته قال حمزة الكرمانى قال له موسى عليه السلام ان ربى أرسلنى اليك لئن آمنت بربك تكون أربعمائة سنة فى النعيم والسرور ثم تموت فتدخل الجنة فقال حتى أستشير هامان فاستشاره فقال أتصير عبدا بعدما كنت ربا فعند ذلك جمع بعث الشرط وجمع السحرة والجنود فلما اجتمعوا قام عدو الله على سريره فقال (أنا ربكم الاعلى) أى لا رب فوقى وقيل أراد ان الاصنام أرباب وأنا ربها وربكم وقيل أمر مناديا فنادى فى الناس بذلك وقيل قام فيهم خطيبا فقال ذلك (فأخذه الله) أى أهلكه بالغرق الملك الاعظم الذى لا كفء له (نكال) أى عقوبة (الآخرة) أى هذه الكلمة وهى قوله أنا ربكم الاعلى (والاولى) وهى قوله ما علمت لكم من اله غيرى قال ابن عباس رضى الله عنهما وكان بين الكلمتين أربعون سنة والمعنى أمهله فى الاولى ثم أخذه فى الآخرة فعذبه بكلمتيه وقال الحسن رضى الله عنه نكال الآخرة والاولى هو ان أغرقه فى الدنيا وعذبه فى الآخرة وعن قتادة رضى الله عنه الآخرة هى قوله أنا ربكم الاعلى والاولى تكذيبه لموسى عليه السلام ٭ ثم انه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى (ان فى ذلك) أى الامر العظيم الذى فعله فرعون والذى فعل به حين كذب وعصى (لعبرة) أى لعظة (لمن يخشى) أى لمن يخاف الله تعالى لان الخشية أساس الخير كما مرت الاشارة اليه ٭ ثم خاطب تعالى منكرى البعث بقوله تعالى (أأنتم) أى أيها الاحياء مع كونكم خلقا ضعيفا (أشد خلقا) أى أخلقكم بعد الموت أشد فى تقديركم (أم السماء) أى فمن قدر على خلق السماء على عظمها من السعة والكبر والعلو والمنافع قدر على الاعادة وهذا كقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس والمقصود من الآية الاستدلال على منكرى البعث ونظيره قوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ومعنى الكلام التقريع والتوبيخ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما وأدخل بينهما ألفا قالون وابو عمرو وهشام والباقون بغير ادخال وقوله تعالى (بناها) بيان لكيفية خلقه اياها فالوقف على السماء والابتداء بما بعدها وقوله تعالى (رفع سمكها) جملة مفسرة لكيفية البناء والسمك الارتفاع أى جعل مقدارها فى سمت العلو مديدا رفيعا مسيرة خمسمائة عام (فسواها) أى فعدلها مستوية

خاشعة) أى ذليلة لما ترى (فان قلت) كيف أضاف الابصار الى القلوب مع انها لا تتصاف بها

ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور وتممها بما علم أنها تتم به وأصلحها من قولك سوّى فلان أمر فلان (وأغطش) أي أظلم (ليلها) أي جعله مظلما بغياب شمسها فإذا خفي ضياؤها بانعقاد ظل الأرض على كل ما كانت الشمس ظهرت عليه فصار لا يهتدي معه إلى ما كان في حال الضياء وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس والشمس تضاف إلى السماء ويقال نجوم الليل لأن ظهورها بالليل وقوله تعالى (وأخرج ضحاها) فيه حذف أي نهار شمسها أو أضاف الليل والضحى إليها للملابسة التي بينهما أو بينهما لأن الليل ظلها والشمس هي السراج المثقب في جوها وإنما عبر عن النهار بالضحى لأن الضحى أكمل أجزاء النهار بالنور والضوء (والأرض بعد ذلك) أي بعد المذكور كله (دحاها) أي بسطها ومهدها للسكنى وبقية المنافع وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو فلا معارضة بينها وبين آية فصلت لأنه خلق الأرض أولا غير مدحوة ثم خلق السماء ثم دحا الأرض قال ابن عباس رضي الله عنهما خلق الله تعالى الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء فسواها سبع سموات ثم دحا الأرض بعد ذلك وقيل معناه والأرض مع ذلك دحاها كقوله تعالى عتل بعد ذلك أي مع ذلك ومنه قولهم أنت أحمق وأنت بعد هذا سيء الخلق وقيل بعد بمعنى قبل كقوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أي من قبل وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال خلق الله تعالى الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام ثم دحيت الأرض من تحت البيت (أخرج منها) أي الأرض (ماءها) أي بتفجير عيونها وإضافته إليها دليل على أنه مودوع فيها (ومرعاها) أي النبات الذي يرعى مما يأكله الناس والأنعام من العشب والشجر والثمر والحب حتى النار والملح لأن النار من العيدان قال تعالى أفرأيتم النار التي تورون لآية والملح من الماء واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام نرتع ونلعب والمرعى في الأصل موضع الرعي ❊(تنبيه)❊ أخرج حال بإضمار قد أي مخرجا وإضمار قد هو قول الجمهور وخالف الكوفيون والأخفش (والجبال أرساها) أي أثبتها على وجه الأرض لتسكن ونظيره قوله تعالى والجبال أوتادا وقوله تعالى (متاعا) مفعول له لمقدر أي فعل ذلك منفعة أو مصدر لعامل مقدر أي متعكم تمتيعا (لكم) وقوله تعالى (ولأنعامكم) جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم وذكر الأنعام لكثرة الانتفاع بها (فإذا جاءت الطامة الكبرى) أي الداهية التي تطم على الدواهي أي تعلو وتغلب وفي أمثالهم جرى الوادي فطم على القرى قال ابن عباس وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث وقال الضحاك هي القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء فتغمره وقال القاسم بن الوليد الهمداني هي الساعة التي تساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار وقوله تعالى (يوم يتذكر) أي تذكرا عظيما (الإنسان) أي الخلق الآنس بنفسه الغافل عما خلق له بدل من إذا (ما سعى) في الدنيا من خير أو شر يعني إذا رآه مدونا في كتابه تذكره وكان قد نسيها كقوله تعالى أحصاه الله ونسوه وما في ما سعى موصولة أو مصدرية (وبرزت الجحيم) أي أظهرت النار المحرقة إظهارا بينا مكشوفا (لمن يرى) أي لكل راء كقولهم قد تبين الصبح لذي عينين يريدون لكل من له بصر

(قلت) فيه حذف مضاف أي أبصار أربابها (قوله فأراه الآية الكبرى) أي العصا واليد (إن قلت) كيف قال الآية الكبرى

وهو مثل في الامر المنكشف الذي لا يخفى على أحد لكن الساجي لا ينصرف بصره اليها فلا يراها كما قال تعالى لا يسمعون حسيسها وجواب اذا قوله (فأما من طغى) أي تجاوز الحد في العدوان حتى كفر بربه (وآثر) أي قدم واختار (الحيوة الدنيا) أي انهمك فيها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس (فان الجحيم) أي النار الشديدة التوقد العظيمة (هي) أي خاصة (المأوى) أي مأواه كما تقول للرجل غض الطرف تريد طرفك وليست الالف واللام بدلا عن الاضافة ولكن لما علم أن الطاغي هو صاحب المأوى وانه لا يغض الرجل طرف غيره تركت الاضافة * (تنبيه) * هي يجوز أن تكون فصلا أو مبتدأ (وأما من خاف مقام ربه) أي قيامه بين يديه لعلمه بالمبدا والمعاد وقال مجاهد خوفه في الدنيا من الله تعالى عند مواقعة الذنب فيقلع عنه نظيره ولمن خاف مقام ربه جنتان (ونهى النفس) أي الامارة بالسوء (عن الهوى) وهو اتباع الشهوات وزجرها عنها وضبطها بالصبر والتوطين على ايثار الخير (فان الجنة) أي البستان لكل ما يشتهى (هي) أي خاصة (المأوى) أي ليس له سواها مأوى وحاصل الجواب أن العاصي في النار والطائع في الجنة قال الرازي هذان الوصفان مضادان للوصفين المتقدمين فقوله تعالى وأما من خاف مقام ربه ضد قوله تعالى فأما من طغى ونهى النفس عن الهوى ضد قوله تعالى وآثر الحياة الدنيا فكما دخل في ذينك الوصفين جميع القبائح دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات وقال عبد الله بن مسعود أنتم في زمان يقود الحق الهوى وسيأتي زمان يقود الهوى الحق فتعوذوا بالله من ذلك الزمان * (تنبيه) * اختلف في سبب نزول هاتين الآيتين فقيل نزلتا في مصعب بن عمير وأخيه روى الضحاك عن ابن عباس قال أما من طغى فهو أخو مصعب بن عمير أسر يوم بدر وأخذته الانصار فقالوا من أنت قال أنا أخو مصعب بن عمير فلم يشدوه في الوثاق وأكرموه وبيتوه عندهم فلما أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه فقال ما هو لي بأخ شدوا أسيركم فان أمه أكثر أهل البطحاء حليا ومالا فأوثقوه حتى تبعث أمه فداءه وأما من خاف مقام ربه فمصعب بن عمير وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص في جوفه والمشاقص جمع مشقص وهو السهم العريض فلما رآه صلى الله عليه وسلم متشحطا في دمه قال صلى الله عليه وسلم عند الله أحتسبك وقال صلى الله عليه وسلم لاصحابه لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وان شراك نعله من ذهب وعن ابن عباس أيضا نزلت في رجلين أبي جهل بن هشام ومصعب بن عمير وقال السدي نزلت الآية الثانية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقال الكلبي هما عامتان * ولما سمع المشركون أخبار القيامة ووصفها بالاوصاف الهائلة مثل الطامة الكبرى والصاخة والقارعة وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء متى تكون الساعة نزل (يسئلونك) يا أشرف الخلق (عن الساعة) أي البعث الآخر لكثرة ما تتوعدهم به من أمرها (أيان مرساها) أي في أي وقت ارساؤها أي اقامتها أرادوا متى يقيمها الله تعالى ويثبتها ويكونها أو أيان منتهاها ومستقرها كما أن مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهي اليه فاجابهم الله تعالى بقوله سبحانه (فيم) أي في أي شئ (أنت من ذكراها) أي من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به * (تنبيه) * فيم خبر مقدم وأنت مبتدأ مؤخر

مع انه أراه الآيات كلها (قلت) وكل آياته كبرى وأول الاخبار هنا عما أراه له أول ملاقاته اياه وهو العصا واليد

ومن

ومن ذكراها متعلق بما تعلق به الخبر والمعنى أنت في أي شئ من ذكراها أي ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها في شئ وعن عائشة رضي الله عنها لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها كأنه قيل في أي شغل واهتمام أنت من ذكراها والسؤال عنها والمعنى انهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها (الى ربك) أي المحسن اليك بانواع النعم (منتهاها) أي منتهى علمها لم يؤت علمها أحدا من خلقه كقوله تعالى انما علمها عند ربي وقوله تعالى ان الله عنده علم الساعة قال القرطبي ويجوز أن يكون انكارا على المشركين في مسئلتهم أي فيم أنت من ذلك حتى يسألونك بيانه ولست ممن يعلمه روى معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل الوقف على قوله تعالى فيم وهو خبر مبتدا مضمر أي فيم هذا السؤال ثم يبتدأ بقوله تعالى أنت من ذكراها أي أرسلناك وانت خاتم الانبياء وآخر الرسل المبعوث في نسم الساعة ذكر من ذكراها وعلامة من علاماتها فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ولا معنى لسؤالهم عنها (انما أنت) اي يا أشرف الرسل (منذر) اي انما بعثت لانذار (من يخشاها) اي انذر من يخاف هولها وهو لا يناسب تعيين الوقت وتخصيص من يخشى لانه المنتفع به أي انما ينفع انذارك من يخافها وان كنت منذرا لكل مكلف (كأنهم) قال البغوي يعني كفار قريش (يوم يرونها) أي يعلمون قيام الساعة علما هو كالرؤية ويرون ما يحدث فيها بعد سماع الصيحة وقيامهم من القبور مع علمهم بما مر من زمانهم وما أتى فيه (لم يلبثوا) اي في الدنيا أو في القبور (الا عشية) أي من الزوال الى غروب الشمس (أو ضحاها) أو ضحى عشية من العشايا وهو البكرة الى الزوال والعشية بعد ذلك أضيف اليها الضحى لانهما من النهار والاضافة تحصل بادنى ملابسة وهي هنا كونهما من نهار واحد فالمراد ساعة من نهار من أوله أو آخره لم يستكملوا نهارا تاما ولم يجمعوا بين طرفيه وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة الا كما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع (فان قيل) هلا قال الا عشية أو ضحى وما فائدة الاضافة (أجيب) بان ذلك للدلالة على ان مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه فلما ترك اليوم اضافه الى عشيته فهو كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار وحسن الاضافة وقوع الكلمة فاصلة *(تنبيه)* قرأ حديث موسى طوى طغى تزكى فتخشى وعصى يسعى فنادى الاعلى والاولى يخشى ما سعى طغى الدنيا المأوى عن الهوى المأوى حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش وابو عمرو بين بين وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين وقرأ فأراه الآية الكبرى الطامة الكبرى لمن يرى من ذكراها أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح في الجميع وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله تعالى في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة مكتوبة حديث موضوع

واطلق عليهما الآية الكبرى لاتحاد معناهما أو أراد بالكبرى العصا وحدها لانها كانت

سورة عبس مكية وتسمى سورة السفرة

وهي اثنان وأربعون آية ومائة وثلاثون كلمة وثلثمائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الواحد القهار (الرحمن) الذى عم بانعامه الابرار والفجار (الرحيم) الذى خص أولياءه برحمته فى دار القرار (عبس) أى كلح وجهه النبى صلى الله عليه وسلم (وتولى) اى أعرض بوجهه لأجل (أن جاءه الاعمى) وهو ابن أم مكتوم وأم مكتوم ام ابيه واسمها عاتكة بنت عامر بن مخزوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهرى من بنى عامر بن لؤى وذلك انه جاءه وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم الى الاسلام رجاء أن يسلم أولئك الاشراف الذين كان يخاطبهم فيتأيد بهم الاسلام ويسلم باسلامهم أتباعهم فقال لو كلمنا الله تعالى فقال يا رسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله تعالى وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه وقال فى نفسه يقول هؤلاء الصناديد انما اتبعه العميان والعبيد والسفلة فعبس وجهه وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه واذا رآه قال مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ويبسط له رداءه ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين فى غزوتين غزاهما قال أنس بن مالك رأيته يوم القادسية راكبا وعليه درع وله راية سوداء (وما يدريك) اى وأى شئ يجعلك داريا بحاله (لعله) اى الاعمى (يزكى) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الزاى اى يتطهر من الذنوب بما يسمع منك وفى ذلك ايماء بان اعراضه كان لتزكية غيره (أو يذكر) فيه ادغام التاء فى الذال اى يتعظ ويتسبب عن تزكيته وتذكره قوله تعالى (فتنفعه الذكرى) اى العظة المسموعة منك وقرأ عاصم بنصب العين والباقون برفعها فمن رفع فهو نسق على قوله تعالى أو يذكر ومن نصب فعلى جواب الترجى كقوله تعالى فى غافر فأطلع الى اله موسى وقال ابن عطية فى جواب التمنى لان قوله تعالى أو يذكر فى حكم قوله تعالى لعله يزكى واعترض عليه أبو حيان بان هذا ليس تمنيا وانما هو ترج وأجيب عنه بانه انما يريد التمنى المفهوم وقت الذكرى وقرأ الذكرى أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقيل الضمير فى لعله للكافر يعنى أنك طمعت فى أن يتزكى بالاسلام او يذكر فتقربه الذكرى الى قبول الحق وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن (أما من استغنى) اى بالمال وقال ابن عباس رضى الله عنهما استغنى عن الله وعن الايمان بماله من المال (فأنت له) اى دون الاعمى (تصدى) اى تتعرض له بالاقبال عليه والمصادة المعارضة وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الصاد بادغام التاء الثانية فى الاصل فيها والباقون بالتخفيف (وما) اى فعلت ذلك والحال انه ما (عليك) أى وليس عليك بأس (ألا يزكى) اى فى أن لا يتزكى بالاسلام حتى يبعثك الحرص على اسلامه الى الاعراض عمن أسلم ان عليك الا البلاغ (وأما من جاءك) حال كونه (يسعى) اى يسرع فى طلب الخير وهو ابن أم مكتوم (وهو) اى والحال انه (يخشى) اى الله أو الكفار فى أذاهم على الاتيان اليك وقيل جاء وليس معه قائد فهو يخشى الكبوة وقرأ قالون وأبو عمرو والسدى بسكون الهاء والباقون بضمها (فأنت عنه تلهى) فيه حذف التاء الآخرة فى الاصل اى تتشاغل وقرأ وتولى الاعمى يزكى من استغنى تصدى يزكى يسعى يخشى

(قوله مقدمة على الاخرى وأغطش ليلها) اضاف الليل الى السماء مع انه انما هو فى الارض لانه

قرأهى حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح وقوله تعالى (كلا) ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله (فان قيل) ما فعله ابن أم مكتوم كان يستحق عليه التأديب والزجر فكيف عاتب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على تأديبه لانه وان كان أعمى فقد سمع مخاطبته صلى الله عليه وسلم لأولئك الكفار وكان بسماعه يعرف شدة اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم بشأنهم فكان اقدامه على قطع كلامه صلى الله عليه وسلم لغرض نفسه قبل تمام كلام النبى صلى الله عليه وسلم معصية عظيمة وأيضا فان الاهم يقدم على المهم وكان قد أسلم وتعلم ما يحتاج من أمر الدين وأما أولئك الكفار فلم يكونوا أسلموا وكان اسلامهم سببا لاسلام غيرهم فكان كلام ابن أم مكتوم كالسبب فى قطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل وذلك يحرم وأيضا فان الله تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات بمجرد ندائهم فهذا النداء الذى هو كالصارف للكفار عن الايمان أولى ان يكون ذنبا وأيضا فعم هذا الاعتناء كيف اقترب بالاعمى وأيضا للنبى صلى الله عليه وسلم له أن يؤدب أصحابه بما يراه مصلحة والتعبيس من ذلك القبيل (أجيب) بأن ما فعله ابن ام مكتوم كان من سوء الادب لو كان عالما بأن النبى صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره وأنه يرجو اسلامهم ولكنه لم يعلم بذلك وأيضا الله سبحانه وتعالى انما عاتبه على ذلك حتى لا تنكسر قلوب الضعفاء أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغنى الكافر وقال ابن زيد انما عبس النبى صلى الله عليه وسلم لابن أم مكتوم وأعرض عنه لانه أشار الى الذى كان يقوده أن يكفه فدفعه ابن أم مكتوم وأبى الا أن يتكلم مع النبى صلى الله عليه وسلم فكان فى هذا نوع جفاء منه ومع هذا نزل فى حقه ذلك وأما ذكره بلفظ الاعمى فليس لتحقير بل كان بسبب عماه يستحق أن يزيده تعطفا وترؤفا وتقريبا وترحيبا ولقد تأدب الناس بأدب الله تعالى فى هذا تأدبا حسنا فقد روى عن سفيان الثورى رضى الله عنه أن الفقراء كانوا بمجلسه امراء وأما كونه صلى الله عليه وسلم كان مأذونا له فى تأديب أصحابه فلأن تقديمهم ربما يوهم ترجيح تقديم الاغنياء على الفقراء فلهذا السبب عوتب قال الحسن رضى الله عنه لما تلا جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآيات عاد وجهه كأنما سف فيه الرماد ينتظر ما يحكم الله تعالى عليه فلما قال كلا سرى عنه اى لا تفعل مثل ذلك وقد بينا لك ان ذلك محمول على ترك الاولى ثم قال الله تعالى (انها) اى هذه السورة وقال مقاتل رضى الله عنه آيات القرآن وقيل القرآن وأنثه لتأنيث خبره وهو قوله تعالى (تذكرة) اى عظة للخلق يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها (فمن شاء ذكره) اى كان حافظا له غير ناس وذكر الضمير لان التذكرة فى معنى الذكر والوعظ ثم ان الله تعالى أخبر عن جلالة ذلك عنده فقال سبحانه (فى صحف) اى منتسخة من اللوح المحفوظ وقيل هى كتب الانبياء عليهم السلام دليله قوله تعالى ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى (مكرمة) اى عند الله تعالى (مرفوعة) اى فى السماء السابعة أو مرفوعة المقدار (مطهرة) أى منزهة عن أيدى الشياطين لا يمسها الا أيدى ملائكة كرام مطهرين كما قال تعالى (بايدى سفرة) اى كتبة ينسخونها من اللوح المحفوظ وهم الملائكة الكرام الكاتبون واحدهم سافر يقال سفرت أى كتبت ومنه قيل للكتاب سفر وجمعه اسفار وقيل هم الرسل من الملائكة واحدهم سفير

اول ما يظهر عند الغروب
من أفق السماء (قوله فاذا
جاءت الطامة الكبرى) اى
الداهية العظمى التى تطم

وهو الرسول وسفير القوم هو الذي يسعى بينهم بالصلح وسفرت بين القوم اذا أصلحت بينهم ثم أثنى تعالى عليهم بقوله سبحانه (كرام) أي على الله تعالى وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في كرام قال مكرمون أن يكونوا مع ابن آدم اذا خلا بزوجته أو برز لغائط وقيل يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم وقوله تعالى (بررة) جمع بار كساحر وسحرة وفاجر وفجرة والبار هو الصادق المطيع ومنه بر فلان في يمينه أي صدق وفلان يبر خالقه أي يطيعه فمعنى بررة مطيعين صادقين لله تعالى في أعمالهم * ولما ذكر تعالى ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين عجب عباده المؤمنين من ذلك فقال سبحانه (قتل الانسان) أي لعن الكافر وقوله تعالى (ما أكفره) استفهام توبيخ أي ما أشد تغطيته للحق وجحده له وعناده فيه لانكاره البعث واشراكه بربه وغير ذلك مما حمله على الكفر وقوله تعالى (من أي شيء خلقه) استفهام تقرير ثم بينه بقوله تعالى (من نطفة) أي ماء يسير جدا لا من غيره (خلقه) أي أوجده مقدرا على ما هو عليه من التخطيط (فقدره) أي علقة ثم مضغة الى آخر خلقه فكأنه قيل وأي سبب في هذا الترفع مع ان أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو فيما بين الوقتين حامل عذرة فان خلقة الانسان تصلح أن يستدل بها على وجود الصانع لانه يستدل بها على أحوال البعث والحشر قيل نزلت في عتبة بن أبي لهب والظاهر العموم (فان قيل) الدعاء على الانسان انما يليق بالعاجز فالقادر على الكل كيف يليق به ذلك والتعجب أيضا انما يليق بالجاهل بسبب الشيء فالعالم به كيف يليق به ذلك (أجيب) بان ذلك ورد على أسلوب كلام العرب لبيان استحقاقهم لاعظم العقاب حيث أتوا باعظم القبائح كقولهم اذا تعجبوا من شيء قاتله الله ما أحسنه وأخزاه الله ما أظلمه والمعنى اعجبوا من كفر الانسان بجميع ما ذكرنا بعد هذا وقيل الاستفهام استفهام تحقير له فذكر أول مراتبه وهو قوله تعالى من نطفة خلقه ولا شك ان النطفة شيء حقير مهين ومن كان أصله ذلك كيف يتكبر وقوله تعالى فقدره أي أطوارا وقيل سواه كقوله تعالى ثم سواك رجلا أو قدر كل عضو في الكيفية والكمية بالقدر اللائق لمصلحته كقوله تعالى وخلق كل شيء فقدره تقديرا ثم ذكر المرتبة الوسطى بقوله تعالى (ثم) بعد انتهاء المدة (السبيل) اي طريق خروجه من بطن أمه (يسره) اي سهل له أمره في خروجه بان فتح له الرحم وألهمه الخروج منه ولا شك أن خروجه من أضيق المسالك من أعجب العجائب يقال انه كان رأسه في بطن أمه من فوق ورجلاه من تحت فاذا جاء وقت الخروج انقلب فمن الذي أعطاه ذلك الالهام المراد ومنه قوله تعالى وهديناه النجدين أي التمييز بين الخير والشر وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سبيل الشقاء والسعادة وقال ابن زيد سبيل الاسلام قال أبو بكر بن طاهر يسر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه لقوله صلى الله عليه وسلم كل ميسر لما خلق له ثم ذكر المرتبة الاخيرة بقوله تعالى (ثم أماته) وأشار الى ايجاب المبادرة بالتجهيز بالفاء المعقبة في قوله تعالى (فأقبره) أي جعله في قبر يستره اكراما له ولم يجعله ممن يلقى على وجه الارض تأكله الطير وغيرها (ثم اذا شاء أنشره) أي أحياه بعد موته للبعث ومفعول شاء محذوف اي شاء انشاره وأنشره جواب اذا وقرأ قالون وأبو عمرو والبزي باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل الثانية ورش وقنبل ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (كلا) ردع

النفخة على غيرها وهي الثانية وخص ما هنا بالطامة موافقة لما قبله من داهية فرعون وهي

للانسان عما هو عليه وقيل معناها حقا قال الاول الزمخشري وتبعه البيضاوي وقال الثاني الجلال المحلي (لما يقض) أي يفعل (ما أمره) به ربه من الايمان وترك التكبر وقيل لم يوف بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم عليه السلام وقيل المعنى ان ذلك الانسان الكافر لم يقض ما أمر به من التأمل في دلائل الله تعالى والتدبر في عجائب خلقه ولما كانت عادة الله تعالى جارية في القرآن انه كلما ذكر دلائل الانسان ذكر عقبها دلائل الآفاق بدأ من ذلك بما يحتاج اليه الانسان بقوله تعالى (فلينظر الانسان) اي يوقع النظر التام بكل شئ يقدر على النظر به من بصره وبصيرته (الى طعامه) أي الذي هو قوام حياته كيف هيأله اسباب المعاش ليستعد بها للمعاد قال الحسن ومجاهد فلينظر الى طعامه الى مدخله ومخرجه وروى عن الضحاك انه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ياضحاك ما طعامك قلت يارسول الله اللحم واللبن قال فتصير الى ماذا قلت الى ما قد علمته قال فان الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا وروى عن ابن عمر ان الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه فيأتيه الملك فيقول انظر الى ما بخلت به الام صار وقرأ (انا صببنا) أي بما لنا من العظمة (الماء) عاصم وحمزة والكسائي بفتح الهمزة على أنه بدل اشتمال بمعنى ان صب الماء سبب في اخراج الطعام فهو مشتمل عليه بهذا التقدير أو انه على تقدير لام العلة أي فلينظر لانا ثم حذف الخافض وقال البغوي أنا بالفتح على تكرير الخافض مجازه فلينظر الى أنا وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف تعديدا لنعمه تعالى عليه وقوله تعالى (صبا) تأكيد والمراد بالماء المطر ولما كان الانسان محتاجا الى جميع ما في الوجود ولو نقص منه شئ اختل امره وبدأ اولا بالسماوي لانه اشرف وبالماء الذي هو حياة كل شئ تنبيها له على ابتداء خلقه ثنى بالارض التي هي كالانثى بالنسبة الى السماء فقال تعالى (ثم) اي بعد مهلة من انزال الماء (شققنا) أي بما لنا من العظمة (الارض) اي بالنبات الذي هو في غاية الضعف عن شق اضعف الاشياء فكيف بالارض اليابسة وقوله تعالى (شقا) تأكيد ثم سبب عن الشق ما هو كالتفسير له فقال تعالى (فانبتنا) اي بما لنا من القدرة التامة (فيها) اي بسبب الشق (حبا) اي قمحا وشعيرا وسلتا وسائر ما يحصد ويدخر وقدم ذلك لانه كالاصل في التغذية (وعنبا) وذكره بعد الحب لانه غذاء من وجه وفاكهة من وجه (وقضبا) قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الرطب لانه يقتضب من النخل اي يقطع ووجهه بعضهم لذكره بعد العنب لانهما يقترنان كثيرا وقيل القت الرطب وقيل كل ما يقضب من البقول لبني آدم وقيل هو الرطبة والمقضاب أرضه سمي بمصدر قضبه اذا قطعه لانه يقضب مرة بعد أخرى وقال الحسن القضب العلف للدواب (وزيتونا) وهو ما يعصر منه الزيت يكون فيه حرافة وغضاضة فيه اصلاح المزاج وقوله تعالى (ونخلا) جمع نخلة وكل من هذه الاشجار مخالف للآخر في الشكل والحمل وغير ذلك مع الموافقة في الارض والسقي وقوله تعالى (وحدائق غلبا) جمع أغلب وغلباء كحمر في أحمر وحمراء أي بساتين كثيرة الاشجار والاصل في الوصف بالغلب الرقاب يقال رجل أغلب وامرأة غلباء غليظا الرقبة فاستعير قال عمرو بن معديكرب

يمشي بها غلب الرجال كأنهم * بزل كسين من الكحيل جلالا

قوله أنا ربكم الاعلى ولذلك وصفت الطامة بالكبرى موافقة لقوله وقيل فاراه الآية الكبرى بخلاف

قال مجاهد ومقاتل الغلب الملتفة الشجر بعضه في بعض وقال ابن عباس رضي الله عنهما الطوال وقيل غلاظ الاشجار (وفاكهة) وهي ما تأكله الناس من ثمار الاشجار كالتين والخوخ قال النووي في منهاجه ويدخل في فاكهة رطب وعنب ورمان وأترج ورطب ويابس أي كالتمر والزبيب قال قلت والموز وليمون ونبق وبطيخ ولب فستق وبندق وغيرها في الاصح (وأبا) وهو ما تأكله الدواب لانه يؤب أي يؤم وينتجع اليه وقال عكرمة الفاكهة ما يأكله الناس والأب ما تأكله الدواب وقيل التبن وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في كتاب الله تعالى ما لا علم لي به وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال كل هذا عرفناه فما الأب ثم رفض عصا كانت بيده ثم قال هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب ثم قال اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه (فان قيل) هذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته (أجيب) بانه لم يذهب الى ذلك ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم الذي لا يعمل به تكلفا عندهم فاراد أن الآية مسوقة عندهم في الامتنان على الانسان بطعامه واستدعاء شكره وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله تعالى للانسان متاعا له أو لأنعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله تعالى على ما بين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجلية الى أن يتبين لك من مشكلات القرآن ٢ (متاعا) أي العشب ٣ أي منفعة أو تمتيعا كما تقدم في السورة قبلها (لكم) أي الفاكهة (ولانعامكم) وتقدم أيضا في السورة التي قبلها معرفة الانعام والحكمة في الاقتصار عليها * ولما ذكر تعالى هذه الاشياء وكان المقصود منها ثلاثة أولها الدلائل الدالة على التوحيد وثانيها الدلائل الدالة على القدرة والمعاد وثالثها ان هذا الاله الذي أحسن الى عبيده بهذه الانواع العظيمة من الاحسان لا يليق بالعاقل أن يتمرد على طاعته وأن يتكبر على عبيده أتبع ذلك بما يكون كالمؤكد لهذه الاغراض وهو شرح أحوال القيامة فان الانسان اذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف الى التأمل في الدلائل والايمان بها والاعراض عن الكفر ويدعوه أيضا الى ترك التكبر على الناس والى اظهار التواضع فقال تعالى (فاذا جاءت) أي كانت ووجدت لان كل ما هو كائن كأنه لاقيك وجاء اليك (الصاخة) أي صيحة القيامة وهي النفخة الثانية التي تصخ الاذن أي تصمها لشدة وقعتها مأخوذة من صخه بالحجر أي صكه به وقال الزمخشري صخ لحديثه مثل أصاخ فوصفت النفخة بالصاخة مجازا لان الناس يصخون لها وقال ابن العربي الصاخة التي تورث الصمم وانها المسمعة وهذا من بديع الفصاحة كقوله

أصمني سرهم أيام فرقتهم * وهل سمعتم بسر يورث الصمما

وجواب اذا محذوف دل عليه قوله تعالى فاذا جاءت الصاخة أي اشتغل كل واحد بنفسه وقوله تعالى (يوم يفر المرء) بدل من اذا (من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته) أي زوجته (وبنيه) لاشتغاله بما هو مدفوع اليه ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيأ كقوله تعالى يوم لا يغني مولى عن مولى شيأ فيفر المرء من هؤلاء الذين كان يفر اليهم في دار الدنيا ويستجير بهم لكثرة ما يشغله

(قوله في عبس) لم يتقدم شيء من ذلك نعم فسرت بالصاخة وان شاركت الطامة في انها النفخة الثانية لانها الصوت

٢ (قوله الى أن يتبين لك الخ) عبارة الزمخشري الى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ثم وصى الناس بان يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن اهـ

٣ (قوله أي العشب) لعل الظاهر أن يؤخر بعد قوله ولانعامكم فليتأمل

وبدأ بالاخ لانه أدناهم رتبة فى الحب والذب ثم بالام لانها كانت مشاركة له فى الالف ويلزم من حمايتها أكثر مما يلزم للاخ وهو لها آلف وعليها أحن وعليها أرق وأعطف ثم بالاب لانه أعظم منهما فى الالف لانه أقرب منهما فى النوع وللولد عليه من المعاطفة ماله من مزيد النفع أكثر من قبله ثم بالصاحبة لان الزوجة التى هى اهل لان تصحب ألصق بالفؤاد وأعرق فى الوداد وكان الانسان أذب عنها عند الشدائد ثم بالولد لان له من المحبة والمعاطفة بالسرور والمشاورة فى الامر ما ليس لغيره ولذلك يضيع عليه رزقه وعمره فقدم أدناهم مرتبة فى الحب والذب فادناهم على سبيل الترقى واخر الاوجب فى ذلك فالأوجب بخلاف ما فى سورة سأل فكأنه قيل يفر المرء من اخيه بل من أمه بل من أبيه بل من صاحبته بل من بنيه وقيل يفر منهم حذرا من مطالبتهم بالتبعات يقول الاخ لم تواسنى بمالك والابوان قصرت فى برنا والصاحبة اطعمتنى الحرام وفعلت وصنعت والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا وقيل اول من يفر من أخيه هابيل ومن ابويه ابراهيم عليه السلام ومن صاحبته نوح ولوط ومن ابنه نوح * ولما ذكر الفرار اتبعه سببه فقال تعالى (لكل امرئ) وان كان أعظم الناس مروءة (منهم يومئذ) اى اذ تكون هذه الدواهى العظام والشدائد والآلام (شأن) اى امر عظيم وقوله تعالى (يغنيه) حال اى يشغله عن شأن غيره وعن سودة رضى الله تعالى عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث الناس حفاة عراة غرلا اى بالقلفة قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان فقلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا الى بعض فقال صلى الله عليه وسلم قد شغل الناس لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وقال قتيبة يغنيه اى يصرفه عن قرابته ومنه يقال أغن عنى وجهك اى اصرفه وقال أهل المعانى يغنيه اى ذلك الهم الذى حصل له قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع لهم آخر فصار شبيها بالغنى فى أنه ملك شيئا كثيرا ولما ذكر تعالى حال القيامة فى الهول بين ان المكلفين على قسمين سعداء وأشقياء فوصف سبحانه السعيد بقوله تعالى (وجوه يومئذ) اى اذ كان ما تقدم من الفرار وغيره (مسفرة) اى مضيئة منيرة من أسفر الصبح اذا أضاء وعن ابن عباس من قيام الليل لما روى فى الحديث من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك من آثار الوضوء وقيل من طول ما اغبرت فى سبيل الله تعالى (ضاحكة) اى مسرورة فرحة قال الكلبى يعنى بالفراغ من الحساب (مستبشرة) اى بما آتاها الله تعالى من الكرامة ثم وصف الشقى بقوله تعالى (ووجوه يومئذ) اى اذ وجد ما ذكر (عليها غبرة) اى غبار (ترهقها) اى تعلوها (قترة) اى سواد كالدخان ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه كما يرى فى وجوه الزنوج اذا اغبرت (أولئك) اى البعداء البغضاء الذين يصنع بهم هذا (هم) اى خاصة (الكفرة الفجرة) جمع الكافر والفاجر وهو الكاذب والمفترى على الله تعالى فجمع تعالى الى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور الى الكفر وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر حديث موضوع وكان من حق البيضاوى ان لا يتعسر بقال بل يعبر كالزمخشرى او نحوها ويأتى مثله فى نظائره

الشديد والصوت يكون زمن الطم فناسب جعل الطم للسابقة والصخ للاحقة وجواب اذا قوله

سورة التكوير مكية

وهي تسع وعشرون آية ومائة واربع كلمات واربعمائة واربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذي أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذي عم بجوده سائر البريات (الرحيم) الذي خص حزبه بنعيم الجنات واختلف في معنى قوله تعالى (اذا الشمس) اي التي هي أعظم آيات السماء الظاهرة وأوضحها للحس (كورت) فقال ابن عباس أظلمت وقال قتادة ذهب ضوءها وقال سعيد بن جبير غورت وقال مجاهد اضمحلت وقال الزجاج لفت كما تلف العمامة يقال كرت العمامة على رأسي أكورها كورا وكورتها تكويرا اذا لففتها واصل التكوير جمع بعض الشيء الى بعض فمعناه أن الشمس يجمع بعضها الى بعض ثم تلف فاذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها قال ابن عباس يكور الله تعالى الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ثم يبعث عليها ريحا دبورا فتضرمها فتصير نارا وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الشمس والقمر يكوران يوم القيامة * (تنبيه) * ارتفاع الشمس على الفاعلية ورافعها فعل مضمر يفسره كورت لان اذا تطلب الفعل لما فيها من معنى الشرط (واذا النجوم) اي كلها كبارها وصغارها (انكدرت) اي انقضت وتساقطت على الارض قال تعالى واذا الكواكب انتثرت والاصل في الانكدار الانصباب قال العجاج في مدحه لعمرو بن معديكرب

اذا الكرام ابتدروا الباع ابتدر * تقضي البازي اذا البازي كسر

* أبصر خربان فضاء فانكدر *

أي فانقض وسقط والخربان جمع خرب وهو ذكر الحبارى والباع يستعمل في الكرم يقال فلان كريم الباع والمعنى ان الكرام اذا ابتدروا فعل المكرمات بدرهم عمرو اي أسرع كانقضاض البازي وروى عن ابن عباس أن النجوم قناديل معلقة بين السماء والارض بسلاسل من نور بأيدي الملائكة عليهم السلام فاذا مات من في السموات ومن في الارض تساقطت تلك الكواكب من أيدي الملائكة لانه مات من كان يمسكها (واذا الجبال) التي هي في العالم السفلي كالنجوم في العالم العلوي وهي أصلب ما في الارض (سيرت) اي ذهب بها عن وجه الارض فصارت هباء منبثا وصارت الارض قاعا صفصفا (واذا العشار) اي النوق الحوامل جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها الى أن تضع لتمام السنة وهي أنفس ما يكون عند أهلها روى أنه صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بعشار من النوق فغض بصره فقيل له هذه أنفس أموالنا فلم لا تنظر اليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا ولا تمدن عينيك الآية (عطلت) اي تركت مسيبة مهملة بلا راع أو عطلها أهلها عن الحلب والصر لاشتغالهم بأنفسهم أو السحاب عطلت عن المطر والعرب تشبه السحاب بالحامل والاول على وجه المثل لان في القيامة لا تكون ناقة عشراء والمعنى أن يوم القيامة بحالة لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه (واذا الوحوش) أي دواب الارض التي لا تأنس بأحد التي تظن أنها لا عبرة بها ولا التفات اليها فما ظنك بغيرها (حشرت) اي جمعت بعد البعث ليقتص لبعضها من بعض ثم تصير ترابا قال قتادة يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص

فأما من طغى الخ وقيل محذوف تقديره فان الجحيم مأواه

وقيل

(سورة عبس)

(قوله كلا انها) اى الآيات أو السورة (قوله فمن شاء ذكره) اى القرآن او ماذكر من الآيات

وقيل اذا قضى بينها ردت ترابا فلا يبقى منه الا مافيه سرور لبنى آدم واعجاب بصورته كالطاوس ونحوه وعن ابن عباس حشرها موتها يقال اذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة وقرأ (واذا البحار سجرت) اى على كثرتها ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الجيم والباقون بتشديدها قال ابن عباس أوقدت فصارت نارا تضطرم وقال مجاهد فجر بعضها فى بعض العذب والملح فصارت البحار كلها بحرا واحدا وقال القشيرى يرفع الله تعالى الحاجز الذى ذكره فاذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار فعمت الارض كلها وصارت بحرا واحدا وروى أبو العالية عن أبى بن كعب قال ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس فى أسواقهم اذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك اذ تناثرت النجوم فبينما هم كذلك اذ وقعت الجبال على الارض فتحركت واضطربت وفزعت الجن الى الانس والانس الى الجن واختلطت الدواب والطير والوحش وماج بعضهم فى بعض فذلك قوله تعالى واذا الوحوش حشرت اى اختلطت واذا البحار سجرت قال الجن للانس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا الى البحر فاذا هو نارا تتأجج قال فبينما هم كذلك اذ تصدعت الارض صدعة واحدة الى الارض السابعة السفلى والى السماء السابعة العليا فبينما هم كذلك اذ جاءتهم الريح فأماتتهم وعن ابن عباس قال هى اثنتا عشرة خصلة ستة فى الدنيا وستة فى الآخرة وهى ماذكر من بعد (واذا النفوس) اى من كل ذى نفس من الناس وغيرهم (زوجت) اى قرنت باجسادها وروى ان عمر سئل عن هذه الآية فقال يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة و يقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار وقال الحسن وقتادة ألحق كل امرئ بشيعته اليهود باليهود والنصارى بالنصارى وقال عطاء زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين وقرنت نفوس الشياطين بالكافرين (واذا الموؤدة) اى الجارية المدفونة حية كان الرجل فى الجاهلية اذا ولدت له بنت فاراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أوشعر ترعى له الابل والغنم فى البادية وان أراد قتلها تركها حتى اذا كانت سداسية فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها الى أحمائها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء فيذهب بها الى البئر فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها و يهيل عليها التراب حتى تستوى بالارض وقال ابن عباس كانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة واذا ولدت ولدا حبسته وكانوا يفعلون ذلك لخوف لحوق العار بهم من أجلهن أو الخوف من الاملاق كما قال تعالى ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق و كانوا يقولون ان الملائكة بنات الله فالحقوا البنات به فهو أحق بهن وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد وفيه افتخر الفرزدق فى قوله

ومنا الذى منع الوائدات * واحيا الوئيد فلم يوأد

(سئلت بأى) أى بسبب اى (ذنب) ياأيها الجاهلون (قتلت) اى استحقت به عندكم القتل وهى لم تباشر سوأ لكونها لم تصل الى حد التكليف (فان قيل) مامعنى سؤال الموءودة عن ذنبها الذى قتلت به وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها (أجيب) بان سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت فى قوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى ان أقول ماليس لى بحق وروى أن قيس بن عاصم جاء الى النبى صلى

سورة التكوير مكية

وهي تسع وعشرون آية ومائة وأربع كلمات وأربعمائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذي أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذي عم جوده سائر البريات (الرحيم) الذي خص حزبه بنعيم الجنات واختلف في معنى قوله تعالى (إذا الشمس) اي التي هي أعظم آيات السماء الظاهرة وأوضحها للحس (كورت) فقال ابن عباس أظلمت وقال قتادة ذهب ضوءها وقال سعيد بن جبير غورت وقال مجاهد اضمحلت وقال الزجاج لفت كما تلف العمامة يقال كرت العمامة على رأسي أكورها كورا وكورتها تكويرا اذا لففتها واصل التكوير جمع بعض الشيء الى بعض فمعناه أن الشمس يجمع بعضها الى بعض ثم تلف فاذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها قال ابن عباس يكور الله تعالى الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ثم يبعث عليها ريحا دبورا فتضربها فتصير نارا وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الشمس والقمر يكوران يوم القيامة * (تنبيه) * ارتفاع الشمس على الفاعلية ورافعها فعل مضمر يفسره كورت لان اذا تطلب الفعل لما فيها من معنى الشرط (واذا النجوم) اي كلها كبارها وصغارها (انكدرت) اي انقضت وتساقطت على الارض قال تعالى واذا الكواكب انتثرت والاصل في الانكدار الانصباب قال العجاج في مدحه لعمرو بن معديكرب

اذا الكرام ابتدروا الباع ابتدر * تقضي البازي اذا البازي كسر

* أبصر خربان فضاء فانكدر *

أي فانقض وسقط والخربان جمع خرب وهو ذكر الحبارى والباع يستعمل في الكرم يقال فلان كريم الباع والمعنى ان الكرام اذا ابتدروا فعل المكرمات بدرهم عمرو اي أسرع كانقضاض البازي وروى عن ابن عباس أن النجوم قناديل معلقة بين السماء والارض بسلاسل من نور بأيدي الملائكة عليهم السلام فاذا مات من في السموات ومن في الارض تساقطت تلك الكواكب من أيدي الملائكة لانه مات من كان يمسكها (واذا الجبال) التي هي في العالم السفلي كالنجوم في العالم العلوي وهي أصلب ما في الارض (سيرت) اي ذهب بها عن وجه الارض فصارت هباء منبثا وصارت الارض قاعا صفصفا (واذا العشار) اي النوق الحوامل جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها الى أن تضع لتمام السنة وهي أنفس ما يكون عند أهلها روى أنه صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بعشار من النوق فغض بصره فقيل له هذه أنفس أموالنا فلم لا تنظر اليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا ولا تمدن عينيك الآية (عطلت) اي تركت مسيبة مهملة بلا راع أو عطلها أهلها عن الحلب والصر لاشتغالهم بأنفسهم أو السحاب عطلت عن المطر والعرب تشبه السحاب بالحامل والاول على وجه المثل لان في القيامة لا تكون ناقة عشراء والمعنى أن يوم القيامة بحالة لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه (واذا الوحوش) أي دواب الارض التي لا تأنس بأحد التي تظن أنها لا عبرة بها ولا التفات اليها فاظنك بغيرها (حشرت) اي جمعت بعد البعث ليقتص لبعضها من بعض ثم تصير ترابا قال قتادة يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص

وقيل

فاما من طغى الخ وجواب محذوف تقديره فان الجحيم مأواه

(سورة عبس)

(قوله كلا انها) اى الآيات أو السورة (قوله فمن شاء ذكره) اى القرآن او ماذكر من الآيات

وقيل اذا قضى بينهما ردت ترابا فلا يبقى منه الا مافيه سرور لبنى آدم واعجاب بصورته كالطاوس ونحوه وعن ابن عباس حشرها موتها يقال اذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة وقرأ (واذا البحار سجرت) اى على كثرتها ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الجيم والباقون بتشديدها قال ابن عباس أوقدت فصارت نارا تضطرم وقال مجاهد فجر بعضها فى بعض العذب والملح فصارت البحار كلها بحرا واحدا وقال القشيرى يرفع الله تعالى الحاجز الذى ذكره فاذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار فعمت الارض كلها وصارت بحرا واحدا وروى أبو العالية عن أبى بن كعب قال ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس فى أسواقهم اذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك اذ تناثرت النجوم فبينما هم كذلك اذ وقعت الجبال على الارض فتحركت واضطربت وفزعت الجن الى الانس والانس الى الجن واختلطت الدواب والطير والوحش وماج بعضهم فى بعض فذلك قوله تعالى واذا الوحوش حشرت اى اختلطت واذا البحار سجرت قال الجن للانس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا الى البحر فاذا هو نار تتأجج قال فبينما هم كذلك اذ تصدعت الارض صدعة واحدة الى الارض السابعة السفلى والى السماء السابعة العليا فبينما هم كذلك اذ جاءتهم الريح فأماتتهم وعن ابن عباس قال هى اثنتا عشرة خصلة ستة فى الدنيا وستة فى الآخرة وهى ماذكر من بعد (واذا النفوس) اى من كل ذى نفس من الناس وغيرهم (زوجت) اى قرنت باجسادها وروى ان عمر سئل عن هذه الآية فقال يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة و يقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار وقال الحسن وقتادة ألحق كل امرئ بشيعته اليهود باليهود والنصارى بالنصارى وقال عطاء زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين وقرنت نفوس الشياطين بالكافرين (واذا الموؤدة) اى الجارية المدفونة حية كان الرجل فى الجاهلية اذ ولدت له بنت فاراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الابل والغنم فى البادية وان أراد قتلها تركها حتى اذا كانت سداسية فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها الى أحمائها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء فيذهب بها الى البئر فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها و يهيل عليها التراب حتى تستوى بالارض وقال ابن عباس كانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة واذا ولدت ولدا حبسته وكانوا يفعلون ذلك لخوف لحوق العار بهم من أجلهن أو الخوف من الاملاق كما قال تعالى ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق و كانوا يقولون ان الملائكة بنات الله فالحقوا البنات به فهو أحق بهن وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد وفيه افتخر الفرزدق فى قوله

ومنا الذى منع الوائدات * واحيا الوئيد فلم يوأد

(سئلت بأى) أى بسبب اى (ذنب) يا أيها الجاهلون (قتلت) اى استحقت به عندكم القتل وهى لم تباشر سوأ لكونها لم تصل الى حد التكليف (فان قيل) مامعنى سؤال الموؤدة عن ذنبها الذى قتلت به وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها (أجيب) بان سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت فى قوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى ان أقول ماليس لى بحق وروى أن قيس بن عاصم جاء الى النبى صلى

الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى وأدت ثمان بنات كن لى فى الجاهلية فقال صلى الله عليه وسلم أعتق عن كل واحدة منهن رقبة قال يارسول الله انى صاحب ابل فقال له صلى الله عليه وسلم أهد عن كل واحدة منهن بدنة ان شئت وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان المرأة التى تقتل ولدها تأتى يوم القيامة متعلقا ولدها بيدها ملطخا بدمائه فيقول يارب هذه أمى وهذه قتلتنى (واذا الصحف نشرت) اى فتحت بعد أن كانت مطوية والمراد صحف الاعمال التى كتبت الملائكة فيها أعمال العباد من خير وشر تطوى بالموت وتنشر فى القيامة فيقف كل انسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وروى عن عمر أنه كان اذا قرأها قال اليك يساق الامر يا ابن آدم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يحشر الناس حفاة عراة فقالت أم سلمة كيف بالنساء فقال شغل الناس يا أم سلمة قالت وما يشغلهم قال نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الشين والباقون بتشديدها على تكرير النشر للمبالغة فى تقريع العاصى وتبشير المطيع وقيل لتكرير ذلك من الانسان (واذا السماء) أى هذا الجنس كله أفرده لانه يعلم بالقدرة على بعضه القدرة على الباقى (كشطت) أى نزعت عن أماكنها كما ينزع الجلد عن الشاة والغطاء عن الشئ قال القرطبى يقال كشطت البعير كشطا نزعت جلده ولا يقال سلخت لان العرب لا تقول فى البعير الا كشطته أو جلدته والمعنى أزيلت عما فوقها وقال القرطبى طويت (واذا الجحيم) أى النار الشديدة التأجج (سعرت) أى أججت فاضرمت للكفار وزيد فى احمائها يقال سعرت النار وأسعرتها روى أنه صلى الله عليه وسلم قال أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة واحتج بهذه الآية من قال النار مخلوقة الآن لانه يدل على أن سعيرها معلق بيوم القيامة وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم بتشديد العين والباقون بتخفيفها (واذا الجنة) أى البستان ذو الاشجار الملتفة والرياض المعجبة (أزلفت) أى قربت لاهلها ليدخلوها وقال الحسن انهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها وقال عبد الله بن زيد زينت والزلفى فى كلام العرب القربة وقوله تعالى (علمت نفس) جواب اذا أول السورة وما عطف عليها أى علمت كل نفس من النفوس وقت هذه المذكورات وهو يوم القيامة فالتنكير فيه مثله فى تمرة خير من جرادة ودلالة هذا السياق المهول على ذلك يوجب اليقين فيه (ما) اى كل شئ (أحضرت) من خير وشر روى عن ابن عباس وعمر أنهما قرآ فلما بلغا علمت نفس ما أحضرت قالا لهذا أجريت القصة قال الرازى ومعلوم ان العمل لا يمكن احضاره فالمراد اذن ما أحضرته فى صحائفها وما أحضرته عند المحاسبة وعند الميزان من آثار تلك الاعمال وعن ابن مسعود أن قارئا قرأها عنده فلما بلغ علمت نفس ما أحضرت قال واقطع ظهراه (فلا أقسم) لا مزيدة أى أقسم (بالخنس الجوار الكنس) هى النجوم الخمسة زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد تخنس بضم النون أى ترجع فى مجراها وراءها بينا ترى النجم فى آخر البرج اذ كر راجعا الى أوله وتكنس بكسر النون تدخل فى كناسها أى تغيب فى المواضع التى تغيب فيها تخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس وقيل

(قوله وفاكهة وأبا) الأب ما ترعاه البهائم وقيل التبن وقيل يابس الفاكهة

هى

هي جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل أي تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها (والليل) أي الذي هو محل ظهور النجوم وزوال خنوسها وذهاب كنوسها (إذا عسعس) قال البغوي قال الحسن أقبل بظلامه وقال آخرون أدبر تقول العرب عسعس الليل وسعسع إذا أدبر ولم يبق منه إلا القليل (والصبح إذا تنفس) أي امتد حتى يصير نهارا بينا يقال للنهار إذا زاد تنفس ومعنى التنفس خروج النسيم من الجوف وفي كيفية المجاز قولان الأول أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفسا له على المجاز وقيل تنفس الصبح الثاني أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي حبس بحيث لا يتحرك فإذا تنفس وجد راحة فههنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس وقوله تعالى (إنه) أي القرآن (لقول رسول كريم) هو المقسم عليه والمعنى أنه لقول رسول عن الله تعالى كريم على الله تعالى أي انتفت عنه وجوه المذام كلها وثبتت له وجوه المحامد كلها وهو جبريل عليه السلام وأضاف الكلام إليه لأنه قاله عن الله عز وجل (ذي قوة) أي شديد القوى روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال من قوته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها وأبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ويهبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف (عند ذي العرش) أي الملك الأعلى المحيط عرشه بجميع الأكوان الذي لا عندية في الحقيقة إلا له وهو الله سبحانه وتعالى وقوله تعالى (مكين) أي ذي مكانة متعلق به عند أي ذي منزلة ومكانة ليست عندية جهة بل عندية إكرام وتشريف كقوله تعالى أنا عند المنكسرة قلوبهم وقيل قوي في أداء طاعة الله تعالى وترك الإخلال بها (مطاع ثم) أي في السموات قال الحسن فرض الله تعالى على أهل السموات طاعة جبريل عليه السلام كما فرض على أهل الأرض طاعة محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس من طاعة جبريل عليه السلام الملائكة أنه لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان افتح له ففتح فدخلها فرأى ما فيها (أمين) أي بليغ الأمانة على الوحي الذي يجيء به وقيل الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى حينئذ ذي قوة على تبليغ الوحي مطاع أي يطيعه من أطاع الله تعالى (وما صاحبكم) أي الذي طالت صحبته لكم وأنتم تعلمون أنه في غاية الكمال حتى أنه ليس له وصف عندكم إلا الأمين وهو محمد صلى الله عليه وسلم وهذا عطف على أنه إلى آخر المقسم عليه وأغرق في النفي فقال تعالى (بمجنون) أي كما زعمتم بهتم في قوله بل جاء بالحق وصدق المرسلين فما القرآن الذي يتلوه عليكم قول مجنون ولا قول متوسط في العقل بل قول أعقل العقلاء وأكمل الكمل * (تنبيه) * استدل بذلك بعضهم على فضل جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم حيث عد فضائل جبريل عليه السلام واقتصر على نفي الجنون عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو كما قال البيضاوي ضعيف إذ المقصود منه نفي قولهم إنما يعلمه بشر وقولهم افترى على الله كذبا وقولهم أم به جنة لا تعديد فضلهما والموازنة بينهما (ولقد رآه) أي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورته التي خلق عليها وله ستمائة جناح (بالأفق المبين) أي البين

(قوله فإذا جاءت الصاخة) جواب إذا محذوف يدل عليه قوله لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه

* (سورة التكوير) *

(قوله وإذا البحار سجرت) أي أوقدت فصارت نارا

وهو الافق الاعلى الذى عند سدرة المنتهى حيث لا يكون لبس أصلا ولا يكون للشيطان على
ذلك المكان سبيل فعرفه حق المعرفة وقال مجاهد وقتادة بالافق الاعلى من ناحية المشرق
وعن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام انى أحب أن أراك على
صورتك التى تكون فيها فى السماء قال ان تقوى على ذلك قال بلى قال فاين تشاء أن أتخيل لك
قال بالابطح قال لا يسعنى قال فبمنى قال لا تسعنى قال فبعرفات قال ذلك بالحرى أن يسعنى
فواعده فخرج النبى صلى الله عليه وسلم للوقت فاذا هو بجبريل قد أقبل من جبل عرفات
بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه فى السماء ورجلاه فى الارض فلما رآه
النبى صلى الله عليه وسلم خر مغشيا عليه قال فتحول جبريل عن صورته فضمه الى صدره وقال
يا محمد لا تخف فكيف لو رأيت اسرافيل ورأسه تحت العرش ورجلاه فى التخوم السابعة وان
العرش لعلى كاهله وانه ليتضاءل احيانا من مخافة الله تعالى حتى يصير مثل الوصع يعنى العصفور
حتى ما يحمل عرش ربك الا عظمته وقيل ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل بالافق
المبين وهو قول ابن مسعود وقد مر ذلك فى سورة النجم (وما) أى وسمعه ورآه والحال انه
ما (هو) أى محمد صلى الله عليه وسلم (على الغيب) أى ما غاب من الوحى وخبر السماء ورؤية
جبريل وغير ذلك مما أخبر به وقرأ (بظنين) ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالظاء المشالة من الظنة
وهى التهمة أى فليس بمتهم والباقون بالضاد موافقة للمرسوم من الضن وهو البخل أى فليس
ببخيل بالوحى فيزوى بعضه أو يبدل تعليمه فلا يعلمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه
حلوانا وهو فى مصحف عبد الله بالظاء وفى مصحف أبى بالضاد وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما
قال الزمخشرى واتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ومعرفة مخرجيهما مما لابد منه للقارئ
فان أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وان فرقوا ففرقا غير صواب وبينهما بون بعيد
فان مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الاضراس من يمين اللسان أو يساره وكان
عمر بن الخطاب أضبط يعمل بكلتا يديه وكان يخرج الضاد من جانبى لسانه وهى أحد الاحرف
الشجرية أخت الجيم والشين وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا وهى
أحد الاحرف الذولقية أخت الذال والثاء ولو استوى الحرفان لما ثبتت فى هذه الكلمة
قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ولما اختلف المعنى والاشتقاق
والتركيب فان قلت فان وضع المصلى أحد الحرفين مكان صاحبه قلت هو كواضع الذال مكان
الجيم والثاء مكان الشين لان التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما اه كلامه
بحروفه (وما هو) أى القرآن الذى من جملة معجزاته الاخبار بالمغيبات وأغرق فى النفى
بالتأكيد بالباء فقال تعالى (بقول شيطان) أى مسترق للسمع فيوحيه اليه كما يوحيه الى بعض
الكهنة (رجيم) أى مرجوم مطرود بعيد من الرحمة وذلك ان قريشا كانوا يقولون ان هذا
القرآن يجىء به شيطان فيلقيه على لسانه يريدون بالشيطان الابيض الذى كان يأتى النبى صلى
الله عليه وسلم فى صورة جبريل يريد أن يفتنه فنفى الله تعالى ذلك وقوله تعالى (فأين) منصوب
بقوله تعالى (تذهبون) لانه ظرف مبهم وقال أبو البقاء أى الى أين فحذف الجار أى فاى طريق
تسلكون فى انكاركم القرآن واعراضكم عنه وفى هذا استضلال لهم فيما يسلكون من أمر

النبى

قال ذلك هنا وقال فى الانفطار واذا البحار فجرت اى سالت مياهها على الارض فصارت بحرا واحدا واختلط العذب بالملح موافقة فى الاول

النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن كقولك لتارك الجادة أين تذهب (ان) أى ما (هو) أى القرآن الذى أتاكم به الرسول (الا ذكر) أى عظة وشرف (للعالمين) من انس وجن وملك وقوله تعالى (لمن شاء منكم) بدل من العالمين باعادة الجار (ان يستقيم) باتباع الحق قال أبو جهل الامر الينا ان شئنا استقمنا وان شئنا لم نستقم وهذا هو القدر وهو رأس القدرية فنزل (وما تشاؤن) الاستقامة على الحق (الا أن يشاء الله) أى الا وقت أن يشاء الملك الاعظم الذى بيده كل شئ مشيئتكم الاستقامة عليه (رب العالمين) أى مالك الخلق وفى هذا اعلام بأن أحدا لا يعمل خيرا الا بتوفيق الله تعالى ولا شرا الا بخذلانه ونقل البغوى فى أول السورة باسناده الى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن ينظر فى يوم القيامة فليقرأ اذا الشمس كورت واما قول البيضاوى تبعا للزمخشرى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة التكوير أعاذه الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته فحديث موضوع

سورة الانفطار مكية

وهى تسع عشرة آية وثمانون كلمة وثلثمائة وسبعة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذى خلق كل شئ فقدره تقديرا (الرحمن) الذى دبر الكائنات تدبيرا (الرحيم) الذى أرسل رسوله للخلق نذيرا (اذا السماء) أى على شدة احكامها واتساقها وارتفاعها (انفطرت) أى انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام (واذا الكواكب) أى النجوم الصغار والكبار كلها الغراء الزاهرة المتوقدة توقد النار المرصعة ترصيع المسامير (انتثرت) أى تساقطت متفرقة لان عند انتقاض تركيب السماء تنتثر النجوم على الارض (واذا البحار) المتفرقة فى الارض وهى ضابطة لها أتم ضبط لنفع العباد على كثرتها (فجرت) أى فتح بعضها الى بعض فاختلط العذب بالملح وزال البرزخ الذى بينهما فصارت البحار بحرا واحدا وروى أن الارض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية وهو معنى التسجير عند الحسن فى قوله تعالى واذا البحار سجرت وقال هنا فجرت بغت (واذا القبور) أى مع ذلك كله (بعثرت) أى قلبت يقال بعثره وبحثره بالعين والحاء قال الزمخشرى وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة اليهما أى فهما بمعنى والمعنى قلب أعلاها اسفلها وقلب باطنها ظاهرها وخرج ما فيها من الموتى احياء وقيل التبعثر اخراج ما فى بطنها من الذهب والفضة ثم تخرج الموتى بعد ذلك وجواب اذا اول السورة وما عطف عليه قوله تعالى (علمت نفس) اى كل نفس وقت هذه المذكورات وهو يوم القيامة (ما قدمت) من عمل (وأخرت) اى جميع ما عملت من خير او شر او غيرهما (فان قيل) اى وقت من القيامة يحصل هذا العلم قال الرازى اما العلم الاجمالى فيحصل فى اول زمان الحشر لان المطيع يرى آثار السعادة والعاصى يرى آثار الشقاوة فى اول الامر واما العلم التفصيلى فانما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة وقوله تعالى (يا أيها الانسان) أى البشر الآنس بنفسه الناسى لما يعنيه خطاب لمنكرى البعث وروى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى أبى الاشرين ضرب النبى صلى الله عليه وسلم فلم يعاقبه الله تعالى فى أول أمره وقيل تتناول جميع العصاة لان الاعتبار

قوله بعد ما سجرت ليقع
لقوله بعد تسجير البحار
او بعد تسجير النار وفى الثانى
وتسجير البحار
لقوله واذا الكواكب
انتثرت اى تساقطت على
الارض وصيرورة البحار

بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (ما غرك بربك) أي ما خدعك وسول لك الباطل حتى تركت ما أوجب عليك الحسن اليك وأتيت بالمحرمات (الكريم) أي الذي له الكمال كله المقتضى لان لا يهمل الظالم ولا يسوي بين المحسن والمسيء هذا اذا حملنا الانسان على جميع العصاة فان حملناه على الكافر وهو ظاهر الآية فالمعنى ما الذي دعاك الى الكفر وانكار الحشر والنشر (فان قيل) كونه كريما يقتضي أن يغتر الانسان بكرمه لانه جواد مطلق والجواد الكريم يستوي عنده طاعة المطيع وعصيان المذنب وهذا يوجب الاغترار كما يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه صاح بغلام له مرات فلم يلبه فنظر فاذا هو بالباب فقال له لم لا تجيبني فقال لثقتي بحلمك وأمني عقوبتك فاستحسن جوابه وأعتقه وقالوا أيضا من كرم ساء أدب غلمانه واذا ثبت ان كرمه يقتضي الاغترار به فكيف جعله ههنا مانعا من الاغترار (أجيب) بان حق الانسان أن لا يغتر بكرم الله تعالى عليه حيث خلقه حيا وتفضل عليه فهو من كرمه لا يعاجل بالعقوبة بسطا في مدة التوبة وتأخير الجزاء الى أن يجمع الناس للجزاء فالحاصل ان تأخير العقوبة لاجل الكرم وذلك لا يقتضي الاغترار بهذا التفضيل فانه منكر خارج عن حد الحكمة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلاها غره جهله وقال عمر غره حمقه وجهله وقال الحسن غره والله شيطانه الخبيث أي زين له المعاصي وقال له فعل ما شئت فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولا وهو متفضل عليك آخرا حتى ورطه وقيل للفضيل بن عياض ان أقامك الله يوم القيامة وقال لك ما غرك بربك الكريم ماذا تقول له قال أقول غرتني ستورك المرخاة وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ في الاغترار بالستر وليس باعتذار كما يظنه الطماع ويظن به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم انما قال بربك الكريم دون سائر صفاته ليلقن عبده الجواب حتى يقول غرني كرم الكريم وقال مقاتل غره عفو الله حيث لم يعاقبه أول مرة وقال السدي غره رفق الله تعالى به وقال قتادة سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان وقال ابن مسعود ما منكم من احد الا سيخلو الله تعالى به يوم القيامة فيقول ما غرك بي يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين (الذي خلقك) أي أوجدك من العدم مهيأ بتقدير الاعضاء (فسواك) عقب تلك الاطوار بتصوير الاعضاء والمنافع بالفعل (فعدلك) أي جعل كل شيء من ذلك سليما مودعا فيه قوة المنافع التي خلقه الله تعالى لها (تنبيه) قوله تعالى الذي يحتمل الاتباع على البدل والبيان والنعت والقطع أي الرفع والنصب * واعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الامور الثلاثة كالدلالة على تحقيق ذلك الكرم فقوله سبحانه الذي خلقك أي بعد ان لم تكن لاشك أنه كرم لانه وجود والوجود خير من العدم والحياة خير من الموت كما قال تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم وقوله تعالى فسواك أي جعلك مستوي الخلقة سالم الاعضاء غاية في الكرم كما قال تعالى أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا أي معتدل الخلق والاعضاء وقال ذو النون المصري أي سخر لك المكونات أجمع وما جعلك مسخرا لشيء منها ثم أنطق لسانك بالذكر وقلبك بالعقل وروحك بالمعرفة وسرك بالايمان وشرفك بالامر والنهي وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الدال والباقون بالتشديد بمعنى جعلك متناسب

نارا مسعرة وماء مغيرا بان يعمر احدهما في وقت والآخر في آخر الطول يوم القيامة (قوله واذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت)* ان قلت كيف

الاطراف فلم يجعل احدى يديك أو رجليك أطول ولا احدى عينيك أوسع فهو من التعديل وهو كقوله تعالى بلى قادرين على أن نسوي بنانه وقال عطاء عن ابن عباس جعلك قائما معتدلا حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية وقال أبو علي الفارسي عدلك خلقك في أحسن تقويم مستويا على جميع الحيوان والنبات وواصلا في الكمال الى ما لم يصل اليه شيء من اجسام هذا العالم واما قراءة التخفيف فتحتمل هذا اى عدل بعض اعضائك ببعض ويحتمل ان يكون من العدول اى صرفك الى ما شاء من الهيآت والاشكال ونقل القفال عن بعضهم انهما لغتان بمعنى واحد (في اى صورة) اى من الصور التى تعرفها والتى لا تعرفها من الدواب والطيور وغير ذلك من الحيوان وغيره وما فى قوله تعالى (ما شاء) مزيدة وفى اى متعلق بركب فى قوله تعالى (ركبك) اى ركبك فى اى صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة فى الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والانوثة والشبه ببعض الاقارب وخلاف الشبه (فان قيل) هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ما قبلها (اجيب) بانها بيان لعدلك ويجوز ان تتعلق بمحذوف اى ركبك حاصلا فى بعض الصور ومحله النصب على الحال ان علق بمحذوف ويجوز ان يتعلق بعدلك ويكون فى اى معنى التعجب اى فعدلك فى صورة عجيبة ثم قال ما شاء ركبك من التراكيب يعنى تركيبا حسنا وقوله تعالى (كلا) ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى والتعلل به وهو موجب الشكر والطاعة الى عكسهما الذى هو الكفر والمعصية وقوله تعالى (بل تكذبون) اى يا كفار مكة (بالدين) اضراب الى ما هو السبب الاصلى فى اغترارهم والمراد بالدين الجزاء على الاعمال والاسلام (وان) اى والحال ان (عليكم) اى ممن اقناهم من جندنا من الملائكة (لحافظين) اى على اعمالكم بحيث لا يخفى عليهم منها جليل ولا حقير (كراما) اى على الله تعالى (كاتبين) اى لهذه الاعمال فى الصحف كما تكتب الشهود منكم العهود ليقع الجزاء على غاية التحرير * (تنبيه) * هذا الخطاب وان كان خطاب مشافهة الا ان الامة اجمعت على عموم هذا الخطاب فى حق المكلفين وقوله تعالى لحافظين جمع يحتمل ان يكونوا حافظين لجميع بنى آدم من غير ان يختص واحد من الملائكة بواحد من بنى آدم ويحتمل ان يكون الموكل بكل واحد منهم غير الموكل بالآخر ويحتمل ان يكون الموكل بكل واحد منهم جمعا من الملائكة كما قيل اثنان بالليل واثنان بالنهار او كما قيل انهم خمسة واختلفوا فى الكفار هل عليهم حفظة فقيل لا لان امرهم ظاهر وعملهم واحد قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وقيل عليهم حفظة وهو ظاهر قوله تعالى بل تكذبون بالدين وان عليكم لحافظين وقوله تعالى وأما من اوتى كتابه بشماله وقوله تعالى واما من اوتى كتابه وراء ظهره فاخبر ان لهم كتابا وان عليهم حفظة (فان قيل) فاى شئ يكتب الذى عن يمينه ولا حسنة له (اجيب) بان الذى عن شماله يكتب باذن صاحبه ويكون صاحبه شاهدا على ذلك وان لم يكتب وفى هذه الآية دلالة على ان الشاهد لا يشهد الا بعد العلم لوصف الملائكة بكونهم حافظين كراما كاتبين (يعلمون) اى على التجدد والاستمرار (ما تفعلون) فدل على انهم يكونون عالمين بها حتى انهم يكتبونها فاذا كتبوها يكونون عالمين عند اداء الشهادة وفى تعظيم الكتبة تعظيم لامر الجزاء فانه عند الله من جلائل الامور ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه وفيه انذار وتهويل للعصاة ولطف

قال ذلك مع ان السؤال
ماذكر انما يحسن
من القائل لا من المقول
(قلت) انما ساغ التبكيت
قائلها وتوبيخه بما يجيب
به فان المقامات بغير مذنب

بالمؤمنين وعن الفضيل انه كان اذا قرأها قال ما اشدها من آية على الغافلين • ولما وصف تعالى الكرام الكاتبين لاعمال العباد ذكر احوال العاملين وقسمهم قسمين وبدأ بقسم اهل السعادة فقال تعالى (ان الابرار) اى المؤمنين الصادقين فى ايمانهم باداء فرائض الله تعالى واجتناب معاصيه (لفى نعيم) اى محيط بهم ابد الآبدين وهو نعيم الجنة الذى لا نهاية له • ثم ذكر قسم اهل الشقاوة بقوله تعالى (وان الفجار) الذين من شأنهم الخروج عما ينبغى الاستقرار فيه من رضا الله تعالى الى سخطه وهم الكفار (لفى جحيم) اى نار محرقة تتوقد غاية التوقد فيهم ابد الآبدين (يصلونها) اى يدخلونها ويقاسون حرها (يوم الدين) اى يوم الجزاء وهو يوم القيامة (وماهم عنها) اى الجحيم (بغائبين) اى بمخرجين ويجوز ان يراد يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك فى قبورهم وقيل اخبر الله تعالى فى هذه السورة ان لابن آدم ثلاث حالات حالة الحياة التى يحفظ فيها عمله وحالة الآخرة التى يجازى فيها وحالة البرزخ وهو قوله تعالى وماهم عنها بغائبين وروى ان سليمان بن عبد الملك قال لابى حازم المدنى ليت شعرى مالنا عند الله قال اعرض عملك على كتاب الله تعالى فانك تعلم مالك عند الله تعالى قال فاين اجد ذلك فى كتاب الله قال عند قوله تعالى ان الابرار لفى نعيم الآية قال سليمان فاين رحمة الله تعالى قال قريب من المحسنين • ثم عظم سبحانه وتعالى ذلك اليوم فقال تعالى (وما ادراك) اى وما اعلمك وان اجتهدت فى تطلب الدراية به (ما يوم الدين) اى اى شئ هو فى طوله وهوله وفظاعته وزلزاله ثم كرره تعجيبا لشأنه فقال تعالى (ثم ما ادراك) اى كذلك (ما يوم الدين) اى ان يوم الدين الذى بحيث لا تدرك دراية دارك كنهه فى الهول والشدة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى اضعافه والتكرير لزيادة التهويل ثم اجمل تعالى القول فى وصفه فقال سبحانه (يوم لا تملك) اى بوجه من الوجوه فى وقت ما (نفس) اى اى نفس كانت (لنفس شيئا) اى قل او جل وقرأ ابن كثير وابو عمرو برفع يوم على انه خبر مبتدأ مضمر اى هو يوم وجوز الزمخشرى ان يكون بدلا مما قبله يعنى يوم الدين والباقون بالفتح باضمار اعنى او اذكر (والامر) اى كله (يومئذ) اى اذ كان البعث للجزاء (لله) اى ملك الملوك لا امر لغيره فيه فلا يملك الله تعالى فى ذلك اليوم احدا شيأ كما ملكهم فى الدنيا وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة وبعدد كل قبر حسنة حديث موضوع

وتطيره قوله تعالى اعند الله عيسى عليه السلام أأنت قلت للناس الآية (قوله عات نفس) اى كل نفس لقوله تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا

سورة المطففين مدنية

فى قول الحسن وعكرمة ومقاتل قال مقاتل وهى اول سورة نزلت بالمدينة وقال ابن عباس وقتادة مدنية الا ثمان آيات وهى قوله تعالى ان الذين اجرموا الى آخرها فهو مكى وقال الكلبى وجابر بن زيد نزلت بين مكة والمدينة ولعل هذا هو سبب الاختلاف وقال ابن مسعود والضحاك مكية وهى ست وثلاثون آية ومائة وتسع وتسعون كلمة وسبعمائة وثمانون حرفا

(بسم الله) الذى من توكل عليه كفاه (الرحمن) الذى عم بجوده الابرار والعصاة (الرحيم) الذى خص اهل طاعته بهداه (ويل) مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه دعاء وهو اما كلمة عذاب او هلاك ثابت عظيم فى كل حال من احوال الدنيا والآخرة او واد فى جهنم وقوله تعالى

(للمطففين) خبره والتطفيف البخس فى الكيل او الوزن لان ما يبخس شئ طفيف حقير قال الزجاج وانما قيل للذى ينقص المكيال والميزان مطفف لانه لا يكاد يسرق فى المكيال والميزان الا الشئ اليسير الطفيف وروى ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكانوا من ابخس الناس كيلا فنزلت فاحسنوا الكيل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم وقال خمس بخمس قيل يارسول الله ما خمس قال مانقض قوم العهد الا سلط الله تعالى عليهم عدوهم ولا حكموا بغير ما انزل الله الا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت فيهم الفاحشة الا فشا فيهم الموت ولا طففوا المكيال الا منعوا النبات واخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة الا حبس عنهم المطر وقال السدى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وبها رجل يعرف بابى جهينة ومعه صاعان يكيل باحدهما ويكتال بالآخر فنزلت وقيل كان اهل المدينة تجارا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت وعن على انه مر برجل يزن الزعفران وقد ارجح فقال له اقم الوزن بالقسط ثم ارجح بعد ذلك ماشئت كأنه امر بالتسوية اولا ليعتادها ويفصل الواجب من النفل وعن ابن عباس انكم معشر الاعاجم وليتم امرين بهما هلك من كان قبلكم المكيال والميزان وخص الاعاجم لانهم يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفرقين فى الحرمين كان اهل مكة يزنون واهل المدينة يكيلون وعن ابن عمر انه كان يمر بالبائع فيقول اتق الله واوف الكيل فان المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى ان العرق ليلجمهم الى انصاف آذانهم وعن عكرمة أشهد ان كل كيال ووزان فى النار فقيل له ان ابنك كيال او وزان فقال اشهد أنه فى النار وعن أبى لا تلتمس الحوائج ممن رزقه فى رؤس المكاييل وألسن الموازين ثم بين تعالى المطففين من هم بقوله تعالى (الذين اذا اكتالوا) أى عاملوا الكيل (على الناس) اى كائنين من كانوا لا يخافون شيأ ولا يراعون أحدا بل صارت الخيانة والوقاحة لهم ديدنا (يستوفون) أى اذا كالوا منهم وابدل على مكان من للدلالة على ان اكتيالهم من الناس اكتيال يضرهم ويتحامل فيه عليهم ويجوز ان يتعلق على بيستوفون ويقدم المفعول على الفعل لافادة الخصوصية اى يستوفون على الناس خاصة واما أنفسهم فيستوفون لها وقال الفراء من وعلى يتعاقبان فى هذا الموضع لانه حق عليه فاذا قال اكتلت عليك فكأنه قال أخذت ما عليك واذا قال اكتلت منك فكقوله استوفيت منك (واذا كالوهم) أى كالوا للناس أى حقهم اى مالهم من الحق (أو وزنوهم) أى وزنوا لهم فحذف الجار واوصل الفعل كما قال القائل

واقد جنيتك أكمؤا وعساقلا • ولقد نهيتك عن بنات الاوبر

وقال آخر والحريص يصيدك لا الجواد بمعنى جنيت لك ويصيد لك ويقال وزنتك حقك وكلتك طعامك أى وزنت لك وكلت لك ونصحتك ونصحت لك وكسبتك وكسبت لك والا كمؤ جمع كمأة والعساقل ضرب منها واصله عساقيل لان واحدها عسقول كعصفور فحذفت الياء للضرورة وبنات اوبر ضرب من الكمأة ردىء (يخسرون) جواب اذا وهو يتعدى بالهمزة يقال خسر الرجل وأخسرته انا مفعوله محذوف أى يخسرون الناس متاعهم وقيل يخسرون أى ينقصون بلغة قارس أى ينقصون الكيل أو الوزن وقوله تعالى (ألا يظن اولئك) أى الاخساء البعداء

الآية (ان قات) لم ختم الآية هنا بقوله ما احضرت اى من خير وشر وفى الانفطار بقوله ما قدمت واخرت اى ما قدمته من الاعمال وما اخرته

الاراذل (أنهم مبعوثون ليوم) أى لاجله او فيه وزاد التهويل بقوله تعالى عظيم انكارا وتعجيبا من حالهم فى الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخمينا انهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة والخردلة وقيل الظن بمعنى اليقين وقوله تعالى (يوم) يجوز نصبه بمبعوثون او باضمار اعنى او بدل من محل ليوم فناصبه مبعوثون (يقوم الناس) اى من قبورهم (لرب العالمين) اى الخلائق لاجل امره وجزائه وحسابه وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه الى انصاف اذنيه وعن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قيد ميل او اثنين قال سليم لا ادرى اى الميلين يعنى مسافة الارض او الميل الذى تكتحل به العين قال فتصهرهم الشمس فيكونون فى العرق بقدر اعمالهم فمنهم من يأخذه الى عقبيه ومنهم من يأخذه الى ركبتيه ومنهم من يأخذه الى حقويه ومنهم من يلجمه الجاما فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشير بيده الى فيه يقول الجمه الجاما وعن قتادة أوف يا ابن آدم كما تحب ان يوفى لك واعدل كما تحب ان يعدل لك وعن الفضيل بخس الميزان سواد الوجوه يوم القيامة وعن عبد الملك بن مروان أن اعرابيا قال له قد سمعت ما قال الله فى المطففين أراد بذلك ان المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذى سمعت به فما ظنك بنفسك وانت تاخذ اموال المسلمين بلا كيل ولا وزن وفى هذا الانكار والتعجب وكلمة الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله تعالى خاضعين ووصفه ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الاثم فى التطفيف وفيما كان فى مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل فى كل اخذ واعطاء بل فى كل قول وعمل وعن ابن عمر انه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين بكى نحيبا وامتنع من قراءة ما بعده وعن بعض المفسرين ان لفظ التطفيف يتناول التطفيف فى الوزن والكيل وفى اظهار العيب واخفائه وفى طلب الانصاف والانتصاف ويقال من لم يرض لاخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمنصف والمعاشرة والصحبة فى هذه المادة والذى يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه وقوله تعالى (كلا) ردع أى ليس الامر على ما هم عليه فليرتدعوا وههنا تم الكلام وقال الحسن كلا ابتداء متصل بما بعده على معنى حقا وجرى الجلال المحلى وأكثر المفسرين على الاول (ان كتاب الفجار) أى كتب اعمال الكفار فاظهر موضع الاضمار تعميما وتعليقا للحكم بالوصف واختلف فى معنى قوله سبحانه وتعالى (لفى سجين) فقيل هو كتاب جامع وهو ديوان الشر دوّن الله تعالى فيه اعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والانس وقيل هو مكان تحت الارض السابعة وهو محل ابليس وجنوده وقال عبد الله بن عمرو سجين فى الارض السابعة السفلى فيها ارواح الكفار وعن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سجين أسفل سبع أرضين وعليون فى السماء السابعة تحت العرش وقال الكلبى هو صخرة تحت الارض السابعة خضراء خضرة السموات منها يجعل كتاب الفجار فيها وقال وهب هى آخر سلطان ابليس وعن كعب الاحبار ان روح

(قلت) منها فلم تعاد رعاية للمناسبة اذ شروط الجواب هنا طالت بكثرتها فحسن اختصاره ليوقف عليه وشروطه ثم قصرت بقلتها فحسن بسطه لتيسير الوقف عليه حينئذ

الفاجر

الفاجر يعني الكافر يصعد بها الى السماء فتأبى السماء ان تقبلها ثم يهبط بها الى الارض فتأبى الارض ان تقبلها فتدخل تحت سبع ارضين حتى ينتهي بها الى سجين وهو موضع جند ابليس وذلك استهانة بها ويشهدها الشياطين المدحورون كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون وقال عكرمة لفي سجين أي في خسار وضلال (وما أدراك) أي جعلك داريا وان اجتهدت في ذلك (ما سجين) وقال الزجاج أي ليس لك ذلك ما كنت تعلمه أنت ولا قومك وقوله تعالى (كتاب مرقوم) ليس تفسيرا لسجين بل هو بيان للكتاب المذكور في قوله تعالى ان كتاب الفجار أي هو كتاب مرقوم أي مسطور بين الكتابة مكتوب فيه أعمالهم مثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى حتى يجازون به او معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه وقيل الرقم الختم بلغة حمير واقتصر على هذا الجلال المحلي وقال قتادة رقم عليه بشر كأنه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر والمعنى ان ما كتب من اعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان وسمي سجينا فعيلا من السجن وهو الحبس والتضييق في جهنم أولانه مطروح تحت الارض كما مر (فان قيل) سجين هل هو اسم أو صفة (أجيب) بانه اسم علم منقول من وصف كحاتم وهو منصرف لانه ليس فيه الا سبب واحد وهو التعريف (ويل) أي أعظم الهلاك (يومئذ) أي اذ تقوم الناس لما تقدم (للمكذبين) أي بذلك أو بالحق وقوله تعالى (الذين يكذبون بيوم) أي بسبب الاخبار بيوم (الدين) أي الجزاء الذي هو سر الوجود بدل أو بيان للمكذبين ثم أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين بثلاث صفات ذكر أولها بقوله تعالى (وما) أي والحال انه ما (يكذب به) أي بذلك اليوم (الا كل معتد) أي متجاوز عن النظر غال في التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه فاستحال منه الاعادة ثم ذكر الصفة الثانية بقوله تعالى (أثيم) اى منهمك في الشهوات المخدجة بحيث اشتغل عما وراءها وحملته على الانكار لما عداها ثم ذكر الصفة الثالثة بقوله تعالى (اذا تتلى عليه آياتنا) أي القرآن (قال أساطير الاولين) أي الحكايات سطرت قديما جمع أسطور بالضم وذلك لفرط جهله واعراضه عن الحق فلا تنفعه شواهد النقل كما لا تنفعه دلائل العقل وهذا عام في كل موصوف بذلك وقال الكلبي هو الوليد بن المغيرة وقيل هو النضر بن الحرث وقوله تعالى (كلا) ردع وزجر أي ليس هو أساطير الاولين وقال الحسن معناها حقا كما مر (بل ران) أي غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم السماء (على قلوبهم) أي كل من قال هذا القول (ما كانوا يكسبون) أي كان يركب الصدأ من اصرارهم على الكبائر وتسويف التوبة حتى طبع على قلوبهم فلا تقبل الخير ولا تميل اليه وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا أذنب ذنبا نكتت نكتة سوداء في قلبه فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها واذا زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه المبين وقال أبو معاذ الرين أن يسود القلب من الذنوب والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الران والاقفال أشد من الطبع وهو ان يقفل على القلب قال تعالى أم على قلوب أقفالها وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب ويغشى فيموت القلب قال صلى الله عليه وسلم اياكم والمحقرات من الذنوب فان الذنب على الذنب يوقد على صاحبه جحيما ضخمة وعن الحسن الذنب بعد الذنب يسود القلب يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا والغين الغيم

(سورة الانفطار)

(قوله ما غرك بربك الكريم)

(تخصيص) ان قلت ما فائدة تخصيص ذكر صفة الكرم من سائر صفاته تعالى (قلت) فائدته للاطف بعبده وتلقينه

و يقال ران فيه النوم رسخ فيه ورانت به الخمرة ذهبت به وقرأ حمزة وشعبة والكسائى بالامالة محضة والباقون بالفتح وسكت حفص على اللام وقفة لطيفة من غير قطع والباقون بغير سكت وقوله تعالى (كلا) ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم وقيل بمعنى حقا كما مر (انهم عن ربهم) أى المحسن اليهم (يومئذ لمحجوبون) أى فلا يرونه بخلاف المؤمنين فانهم يرونه كما ثبت ذلك فى الاحاديث الصحيحة وقال الحسن لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم فى المعاد لزهقت أنفسهم فى الدنيا وسئل مالك عن هذه الآية فقال لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لاوليائه حتى رأوه وفى قوله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون دلالة على ان أولياء الله يرون الله تعالى ومن نفى الرؤية كالزمخشرى جعله تمثيلا للاستخفاف بهم واهانتهم لانه لا يؤذن على الملوك الا للوجهاء والمكرمين لديهم ولا يحجب عنهم الا الاذناب المهانون عندهم وعن ابن عباس وقتادة محجوبون عن رحمته وعن ابن كيسان عن كرامته (ثم انهم) أى بعد ما شاء الله تعالى من امهالهم (لصالوا الجحيم) أى لداخلوا النار المحرقة (ثم يقال) أى تقول لهم الخزنة (هذا) اى العذاب (الذى كنتم به تكذبون) أى فى دار الدنيا وقوله تعالى (كلا) ردع عن التكذيب وقيل معناه احقا كما مر وقال البيضاوى تكرير للاول ليعقب بوعد الابرار كما عقب بوعيد الفجار اشعارا بأن التطفيف فجور والايفاء بر أو ردع عن التكذيب (ان كتاب الابرار) أى كتب اعمال المؤمنين الصادقين فى ايمانهم (لفى عليين) وعليون علم لديوان الخير الذى دون فيه كل ما عملته صلحاء الثقلين منقول من جمع فعيل من العلو كسجين من السجن سمى بذلك اما لانه سبب الارتفاع الى أعالى الدرجات فى الجنة واما لانه مرفوع فى السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريما له وتعظيما وروى ان الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلونه فاذا انتهوا به الى ماشاء الله تعالى من سلطانه أوحى اليهم انكم الحفظة على عبدى وانا الرقيب على ما فى قلبه وانه أخلص عمله فاجعلوه فى عليين وقد غفرت له وانها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فاذا انتهوا به الى ماشاء الله أوحى اليهم أنتم الحفظة على عبدى وانا الرقيب على قلبه وانه لم يخلص لى عمله فاجعلوه فى سجين وعن البراء مرفوعا عليين فى السماء السابعة تحت العرش وقال ابن عباس هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيها وقال كعب وقتادة هو قائمة العرش اليمنى وقال عطاء عن ابن عباس هو الجنة وقال الضحاك سدرة المنتهى وقال بعض أهل المعانى علو بعد علو وشرف بعد شرف ولذلك جمعت بالياء والنون قال الفراء هو اسم موضع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظه مثل عشرين وثلاثين (وما أدراك) أى جعلك داريا وان بالغت فى الفحص (ما عليون) أى ما كتاب عليين هو (كتاب) أى عظيم (مرقوم) أى فيه ان فلانا آمن من النار رقبا له من رقم ما أبهاه وأجله (يشهده المقربون) يحضرونه فيشهدون على ما فيه يوم القيامة أو يحفظونه ولما عظم كتابهم عظم منزلتهم بقوله تعالى (ان الابرار لفى نعيم) أى فى الجنة ثم بين ذلك النعيم بأمور ثلاثة أولها قوله تعالى (على الارائك) أى الاسرة فى الحجال ولا يسمى اريكة الا اذا كان كذلك والحجال بكسر الحاء جمع حجلة وهى بيت يزين بالثياب والستور والاسرة قاله الجوهرى (ينظرون) أى الى ما شاؤا مد أعينهم اليه من مناظر الجنة والى ما أولاهم الله تعالى من النعمة والكرامة والى أعدائهم يعذبون فى النار وما تحجب

جنبه وعذره ليقول غرنى كرم الكريم (قوله وما أدراك ما يوم الدين ثم ما ادراك ما يوم الدين) كرره تعظيما للدين وقيل الاول للمؤمنين والثانى

الجمال أبصارهم عن الادراك وقال الرازى ينظرون الى ربهم بدليل قوله تعالى (تعرف) أى أيها
الناظر اليهم (فى وجوههم) عند رؤيتهم (نضرة النعيم) أى بهجته وحسنه ورونقه كما ترى فى
وجوه الاغنياء وأهل الترفه والخطاب اما للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل ناظر وقال الحسن
النضرة فى الوجه والسرور فى القلب وهذا هو الامر الثانى وأما الثالث فهو قوله تعالى
(يسقون من رحيق) أى خمر صافية طيبة وقال مقاتل الخمر البيضاء وقال الرازى لعله الخمر
الموصوفة بقوله تعالى لافيها غول (مختوم) أى ختم ومنع من أن تمسه يد الى أن يفك ختمه
الابرار وقال القفال يحتمل أن يكون ختم عليه تكريما له بالصيانة على ما جرت به العادة من
ختم ما يكرم ويصان وهناك خمر أخرى تجرى أنهارا لقوله تعالى وأنهار من خمر لذة للشاربين
الا أن هذا المختوم أشرف من الجارى (ختامه مسك) أى آخر شربه يفوح منه مسك فالمختوم
الذى له ختام أى آخر شربه وختم كل شئ الفراغ منه وقال قتادة يمزج لهم بالكافور ويختم
بالمسك وقال ابن زيد ختامه عند الله مسك وقيل طينه مسك وقيل تختم أوانيه من الاكواب
والاباريق بمسك مكان الطينة (وفى ذلك) أى الامر العظيم البعيد التناول وهو العيش
والنعيم أو الشراب الذى هذا وصفه (فليتنافس) أى فليرغب غاية الرغبة بجميع الجهد
والاختيار (المتنافسون) أى الذين من شأنهم المنافسة وهو أن يطلب كل منهم ان يكون ذلك
المتنافس فيه لنفسه خاصة دون غيره لانه نفيس جدا والنفيس هو الذى تحرص عليه نفوس
الناس وتتغالى فيه والمنافسة فى مثل هذا بكثرة الاعمال الصالحة والنيات الخالصة وقال
مجاهد فليعمل العاملون نظيره قوله تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون وقال مقاتل بن سليمان
فليتسارع المتسارعون وقال عطاء فليستبق المستبقون وقال الزمخشرى فليرتقب
المرتقبون والمعنى فى الجميع واحد وأصله من الشئ النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس
ويريده كل أحد لنفسه وينفس فيه على غيره أى يضن (ومزاجه) أى ما يمزج به ذلك الرحيق
(من تسنيم) وهو علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذى هو مصدر سنمه اذا رفعه لانها أتتهم من
فوق على ما روى انها تجرى فى الهواء مسنمة فتصب فى أوانى أهل الجنة على مقدار الحاجة
فاذا امتلأت أمسكت وقوله تعالى (عينا) نصب على المدح وقال الزجاج نصب على الحال
(يشرب بها) أى يشربها على طريقة المزج منها (المقربون) وضمن يشرب معنى يلتذ فهم
يشربونها صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة (ان الذين أجرموا) أى قطعوا ما أمر الله به أن يوصل
وهم رؤساء قريش (كانوا من الذين آمنوا) وهم فقراء الصحابة عمار وصهيب وخباب وبلال
وغيرهم من فقراء المؤمنين (يضحكون) اى استهزاء بهم (واذا مروا) اى المؤمنون (بهم) أى
بالذين اجرموا (يتغامزون) اى يشير المجرمون الى المؤمنين بالجفن والحاجب استهزاء بهم وقيل
يغمز بعضهم بعضا ويشيرون باعينهم قيل جاء على بن ابى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين
فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا الى أصحابهم فقالوا رأينا اليوم الاصلع
وضحكوا منه فنزلت قبل أن يصل على الى النبى صلى الله عليه وسلم (واذا انقلبوا) أى رجع
الذين أجرموا برغبتهم فى الرجوع واقبالهم عليه من غير تكره (الى أهلهم) أى منازلهم التى
هى عامرة بجماعتهم وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وأبو عمرو بكسر الهاء

للكفار (قوله يوم لا تملك نفس لنفس شيأ) فان قلت كيف قال ذلك مع ان النفوس المقبولة الشفاعة تملك ان تشفع فيه شيأ وهو الشفاعة (قلت) المنفى

والباقون بكسر الهاء وضم الميم (انقلبوا) حالة كونهم (فاكهين) أى متلذذين بما كان من مكنتهم ورفعتهم التى أوصلتهم الى الاستحضار بغيرهم قال ابن برجان روى عنه عليه الصلاة والسلام ان الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدا يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر وفى أخرى يكون المؤمن فيهم أذل من الامة وفى أخرى العالم فيهم انتن من جيفة حمار فالله المستعان وقرأ حفص بغير ألف بين الفاء والكاف والباقون بالالف قيل هما بمعنى وقيل فكهين فرحين وفاكهين ناعمين وقيل فاكهين أصحاب فاكهة ومزاح (واذا رأوهم) أى رأى المجرمون المؤمنين (قالوا) أى المجرمون (ان هؤلاء) أى المؤمنين (لضالون) أى لايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم يرون أنهم على شئ وهم على ضلال فى تركهم التنعم الحاضر بسبب شئ لايدرى هل له وجود أم لا قال الله تعالى (وما) أى والحال أنهم ما (ارسلوا) أى الكفار (عليهم) أى على المؤمنين (حافظين) اى موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم بهم وقيل هو من جملة قول الكفار وانهم اذا رأوا المسلمين قالوا ان هؤلاء لضالون وانهم لم يرسلوا عليهم حافظين انكارا لصدهم اياهم عن الشرك ودعائهم الى الاسلام وجدهم فى ذلك وقوله تعالى (فاليوم) منصوب بيضحكون ولا يضر تقديمه على المبتدا لانه لو قدم العامل هنا لجاز اذ لا لبس بخلاف زيد قام فى الدار لا يجوز فى الدار زيد قام ومعنى فاليوم أى فى الآخرة (الذين آمنوا) ولو كانوا أدنى درجات الايمان (من الكفار يضحكون) وفى سبب هذا الضحك وجوه منها أن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين فى الدنيا بسبب ماهم فيه من الضر والبؤس وفى الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ماهم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفه ومنها أنهم علموا أنهم كانوا فى الدنيا على غير شئ وانهم باعوا الباقى بالفانى ومنها انهم يرون انفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الابد ومنها قال أبو صالح يقال لاهل النار وهم فيها اخرجوا وتفتح لهم أبوابها فاذا رأوها وقد فتحت أبوابها أقبلوا اليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون اليهم فاذا انتهوا الى أبوابها غلقت دونهم يفعل ذلك بهم مرارا فذلك سبب الضحك ومنها انهم اذا دخلوا الجنة وجلسوا على الارائك ينظرون الى الكفار كما قال تعالى (على الارائك) أى الاسرة العالية (ينظرون) اليهم كيف يعذبون فى النار ويرفعون أصواتهم بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضا * (تنبيه) * ينظرون حال من يضحكون أى يضحكون ناظرين اليهم والى ماهم فيه من الهوان وقال كعب بين الجنة والنار كوى اذا أراد المؤمن أن ينظر الى عدو له كان فى الدنيا اطلع عليه من تلك الكوى كما قال تعالى فاطلع فرآه فى سواء الجحيم فاذا اطلعوا من الجنة على أعدائهم وهم يعذبون فى النار ضحكوا قال الله تعالى (هل ثوب الكفار) اى هل جوزوا (ما كانوا يفعلون) اى جزاء استهزائهم بالمؤمنين ومعنى الاستفهام ههنا التقرير وثوبه واثابه بمعنى واحد اذا جازاه قال اوس

سأجزيك او يجزيك عنى مثوب * وحسبك ان يثنى عليك وتحمدى

وقرأ الكسائى وهشام بادغام اللام فى الثاء والباقون بالاظهار وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المطففين سقاه الله تعالى من الرحيق

المختوم

ثبوت الملك بالسلطنة والشفاعة ليست بطريق السلطنة فلا تدخل فى النفى ويؤيده قوله تعالى والامر يومئذ لله

المختوم يوم القيامة حديث موضوع

سورة الانشقاق مكية

وهي ثلاث او خمس وعشرون آية ومائة وسبع كلمات واربعمائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذي شقق الارض بالنبات (الرحمن) الذي عم بجوده أهل الارض والسموات (الرحيم) الذي خص اهل طاعته بالجنات وقوله تعالى (اذا السماء) أي على مالها من الاحكام والعظمة (انشقت) كقوله تعالى اذا الشمس كورت في اضمار الفعل وعدمه وفي اذا هذه احتمالان أحدهما أن تكون شرطية والثاني أن تكون غير شرطية فعلى الاول في جوابها اوجه أحدها أنه محذوف ليذهب المقدر كل مذهب أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار وهو قوله تعالى علمت نفس الثاني جوابها ما دل عليه فملاقيه الثالث أنه يا أيها الانسان على حذف الفاء وعلى كونها غير شرطية هي مبتدأ وخبرها اذا الثانية والواو مزيدة تقديره وقت انشقاق السماء وقت مد الارض أي يقع الامران في وقت قاله الاخفش وقيل انه منصوب مفعولا به باضمار اذكر وانشقاقها بالغمام وهو من علامات القيامة كقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام وعن علي تنشق من المجرة قال ابن الاثير المجرة هي البياض المعترض في السماء والسرابان من جانبيها (وأذنت) أي سمعت وأطاعت في الانشقاق (لربها) أي انها تأثرت قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطواع الذي ورد عليه الامر من جهة المطاع فانصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع كقوله اتينا طائعين (وحقت) أي حق لها أن تسمع وتطيع بأن تنقاد ولا تمتنع يقال حق بكذا فهو محقوق وحقيق (واذا الارض) أي على مالها من الصلابة (مدت) أي زيد في سعتها كمد الاديم ولم يبق عليها بناء ولا جبل كما قال تعالى قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وعن ابن عباس مدت مد الاديم العكاظي لان الاديم اذا مد زال كل انثناء فيه وأمت واستوى (وألقت) أي أخرجت (ما فيها) من الكنوز والموتى كقوله تعالى وأخرجت الارض أثقالها (وتخلت) أي خلت منها حتى لم يبق في بطنها شيء وذلك يؤذن بعظم الامر كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة ووصفت الارض بذلك توسعا والا فالتحقيق أن الله تعالى هو المخرج لتلك الاشياء من الارض وقوله تعالى (واذنت لربها وحقت) تقدم تفسيره وهذا ليس بتكرار لان الاول في السماء وهذا في الارض وتقدم جواب اذا ومن جملة ما قيل فيه وما عطف عليه انه محذوف دل عليه ما بعده تقديره لاقى الانسان عمله وذلك كله يوم القيامة واختلف في الانسان في قوله تعالى (يا أيها الانسان) أي الآنس بنفسه الناسي لامر ربه (انك كادح) فقيل المراد جنس الانسان كقولك يا أيها الرجل فكأنه خطاب خص به أحد من الناس قال القفال وهو أبلغ من العموم لانه قائم مقام التنصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين بخلاف اللفظ العام وقيل المراد منه رجل بعينه فقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى انك كادح في ابلاغ رسالات الله تعالى وارشاد عباده وتحمل الضرر من الكفار فابشر فانك تلقى الله تعالى بهذا العمل وقال ابن عباس هو أبي بن خلف وكدحه هو جده واجتهاده في طلب الدنيا وايذاء النبي صلى الله عليه وسلم والاصرار على الكفر والكدح جهد

(سورة المطففين)

(قوله اذا كالوا) فان قلت هلا قال اكتالوا واتزنوا كما قال في مقابله واذا كالوهم أو وزنوهم (قلت) لان المطففين كانت عادتهم ان لا يأخذوا ما يكال وما يوزن الا بالمكيال لان استيفاء

النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها من كدح جلده اذا خدشه ومعنى كادح (الى ربك) أي جاهد الى لقائه وهو الموت أي هذا الكدح يستمر الى هذا الزمن وقال القفال تقديره انك كادح في دنياك (كدحا) تصير الى ربك وقوله تعالى (فملاقيه) يجوز أن يكون عطفا على كادح والسبب فيه ظاهر وان يكون خبر مبتدا مضمر أي فانت ملاقيه وقيل جواب اذا والضمير في ملاقيه اما للرب أي ملاق حكمه لا مفر لك منه واما للكدح الا ان الكدح عمل وهو عرض لا يبقى فلاقاته ممتنعة فالمراد جزاء كدحك من خير او شر وقال الرازي المراد ملاقاة الكتاب الذي فيه بيان تلك الاعمال ويؤكد هذا قوله تعالى بعده (فاما من أوتي كتابه) أي كتاب عمله الذي كتبته الملائكة (بيمينه) أي من امامه وهو المؤمن المطيع (فسوف يحاسب) أي يقع حسابه بوعد لا خلف فيه وان طال الامد لاظهار الجبروت والكبرياء والقهر (حسابا يسيرا) هو عرض عمله عليه كما فسر في حديث الصحيحين وفيه من نوقش الحساب هلك وفي رواية من حوسب عذب قالت عائشة أليس يقول الله تعالى فسوف يحاسب حسابا يسيرا فقال انما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عذب وانما حوسب حسابا سهلا لانه كان يحاسب نفسه فلا تقع له المخالفة الا ذهولا فلاجل ذلك تعرض أعماله فيقبل حسنها ويعفى عن سيئها (وينقلب) أي يرجع بنفسه من غير مزعج برغبة وقبول (الى أهله) أي الذين أهله بهم في الجنة من الحور العين والآدميات والذريات اذا كانوا مؤمنين (مسرورا) أي قد أوتي جنة وحريرا فانه كان في الدنيا في أهله مشفقا من العرض على الله يحاسب نفسه حسابا عسيرا مع ما هو فيه من نكد الاهل وضيق العيش (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) وهو الكافر تغل يمناه الى عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه (فسوف يدعو) أي بوعد لا خلف في وقوعه (ثبورا) يقول يا ثبوراه والثبور الهلاك كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا (ويصلى سعيرا) أي يدخل النار الشديدة وقرأ أبو عمرو وعاصم بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام والباقون بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين واذا فتح ورش غلظ اللام واذا أمال رقق والباقون بالفتح (انه كان) أي بما هو له كالجبلة (في أهله) أي عشيرته في الدنيا (مسرورا) قال القفال أي منعما مستريحا من التعب بأداء العبادات واحتمال مشقة الفرائض من الصلاة والجهاد مقدما على المعاصي آمنا من الحساب والثواب والعقاب لا يخاف الله تعالى ولا يرجوه فابدله الله تعالى بذلك السرور غما باقيا لا ينقطع وقيل ان قوله تعالى انه كان في أهله مسرورا كقوله تعالى واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين أي متنعمين في الدنيا معجبين بما هم عليه من الكفر بالله تعالى والتكذيب بالبعث يضحكون ممن آمن بالله تعالى وصدق بالحساب كما قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (انه ظن) أي لضعف نظره (أن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي أنه (لن يحور) أي لن يرجع الى الله تعالى تكذيبا بالمعاد يقال لا يحور ولا يحول أي لا يرجع ولا يتغير قال لبيد

وما المرء الا كالشهاب وضوئه • يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

(Handwritten marginal note:) الزيادة بالمكيال امكن لهم وأهون عليهم منه بالميزان واذا اعطوا كالوا ووزنوا لتمكنهم من البخس فيهما (قوله وما أدراك ما سجين) (قوله وما أدراك ما ... كتاب مرقوم وما أدراك

وعن

وعن ابن عباس ما كنت أدرى ما معنى يحور حتى سمعت اعرابية تقول لبنية لها حورى أى ارجعى وقوله تعالى (بلى) ايجاب لما بعد النفى فى ان يحور أى بلى ليحورن (ان ربه) أى الذى ابتدأ انشاءه ورباه (كان) اى أزلا وابدا (به بصيرا) اى من يوم خلقه الى يوم بعثه أو باعماله لا يخفى عليه شئ منها وقال عطاء بصيرا بما سبق عليه فى ام الكتاب من الشقاوة * واختلفوا فى الشفق فى قوله تعالى (فلا أقسم بالشفق) فقال مجاهد هو النهار كله وقال عكرمة ما بقى من النهار وقال ابن عباس واكثر المفسرين هو الحمرة التى تبقى فى الافق بعد غروب الشمس وقال قوم هو البياض الذى يعقب تلك الحمرة * (تنبيه) * سمى بذلك لرقته ومنه الشفقة على الانسان رقة فى القلب عليه واللام فى لا أقسم مزيدة للتأكيد (والليل) أى الذى يغلبه ويذهبه (وما وسق) أى ما جمع وضم يقال وسقه فاتسق واستوسق قال الشاعر * مستوسقات لو يجدن سائقا * ونظيره فى وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع ومعناه وما جمعه وستره وآوى اليه من الدواب وغيرها (والقمر) اى الذى هو آيته (اذا اتسق) اى اذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة وقال قتادة استدار وهو افتعل من الوسق * (تنبيه) * قد اختلف العلماء فى القسم بهذه الاشياء هل هو قسم بها أو بخالقها فذهب المتكلمون الى أن القسم واقع بربها وان كان محذوفا لان ذلك معلوم من حيث ورود الحظر بان يقسم بغير الله تعالى او بصفة من صفاته وقدمر ان ذلك يكره فى حق الانسان فان الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وجواب القسم (لتركبن) اى ايها الناس اصله تركبونن حذفت نون الرفع لتوالى الامثال والواو لالتقاء الساكنين وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بفتح الباء الموحدة على خطاب الانسان والباقون بضمها على خطاب الجمع وهو معنى الانسان اذ المراد به الجنس اى لتركبن أيها الانسان (طبقا) مجاوزا (عن طبق) اى حالا بعد حال قال عكرمة رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ وعن ابن عباس الموت ثم البعث ثم العرض وعن عطاء مرة فقيرا ومرة غنيا وقال أبو عبيدة لتركبن سنن من كان قبلكم واحوالهم لما روى انه صلى الله عليه وسلم قال لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وقوله تعالى (فما لهم) اى الكفار (لا يؤمنون) استفهام انكار أى أى مانع لهم من الايمان او اى حجة لهم فى تركه بعد وجود براهينه (و) ما لهم (اذا قرئ) اى من اى قارئ قراءة مشروعة (عليهم القرآن) اى الجامع لكل ما ينفعهم فى دنياهم واخراهم الفارق بين كل ملتبس (لا يسجدون) اى لا يخضعون بان يؤمنوا به لاعجازه ولا يصلون قاله مقاتل او لا يسجدون لتلاوته لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ واسجد واقترب فسجد ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق رؤسهم فنزلت وعن أبى هريرة انه قال سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقرأ باسم ربك واذا السماء انشقت وعن نافع قال صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ اذا السماء انشقت فسجد فقلت ما هذه قال سجدت بها خلف ابى القاسم صلى الله عليه وسلم فلا ازال اسجد فيها حتى ألقاه وليس فى ذلك دلالة على وجوبها فهى مندوبة وعن الحسن هى واجبة واحتج ابو حنيفة على وجوب السجود بانه تعالى ذم من سمعه ولم يسجد وعن ابن

ما علمون كتاب مرقوم) * ان قلت كيف فسر سجينا وعليين بكتاب مرقوم مع ان سجينا اسم للارض السابعة وعليين اسم لاعلى الجنة او لاعلى الامكنة

قوله فان الله تعالى يقسم الخ هذا التعليل لا يقابل القول الذى ذكره فليتأمل اه

عباس ليس في المفصل سجدة وما روي عن أبي هريرة يخالفه وعن أنس صليت خلف ابي بكر وعمر وعثمان فسجدوا (بل الذين كفروا يكذبون) اي بالقرآن والبعث (والله اعلم بما يوعون) اي بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغي والبغضاء أو بما يجمعون في صحفهم من الكفر والتكذيب وأعمال السوء ويدخرون لانفسهم من انواع العذاب وقوله تعالى (فبشرهم بعذاب اليم) اي مؤلم استهزاء بهم او ان البشارة بمعنى الاخبار اي اخبرهم وقوله تعالى (الا) استثناء منقطع اي لكن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تحقيقا لايمانهم (لهم اجر غير ممنون) اي غير مقطوع ولا منقوص ولا يمنون به عليهم وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرا اذا السماء انشقت اعاذه الله تعالى ان يعطيه كتابه وراء ظهره حديث موضوع

سورة البروج مكية

وهي اثنتان وعشرون آية ومائة وتسع كلمات واربعمائة وثمانية وخمسون حرفا

(بسم الله) الذي أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذي عم بجوده سائر المخلوقات (الرحيم) الذي خص اهل السعادة بالجنات وقوله تعالى (والسماء) اي العالية غاية العلو المحكمة غاية الاحكام (ذات البروج) قسم اقسم الله تعالى به وتقدم الكلام على ذلك مرارا وفي البروج أقوال فقال مجاهد هي البروج الاثنا عشر شبهت بالقصور لانها تنزلها السيارات وقال الحسن هي النجوم وقيل هي منازل القمر وقال عكرمة هي قصور في السماء وقيل عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها وقيل ابواب السماء وقوله تعالى (واليوم الموعود) قسم آخر وهو يوم القيامة قال ابن عباس وعد أهل السماء واهل الارض ان يجتمعوا فيه واختلفوا في قوله سبحانه وتعالى (وشاهد ومشهود) فقال ابو هريرة وابن عباس الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وروي مرفوعا اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة خرجه الترمذي في جامعه قال القشيري فيوم الجمعة يشهد على عامله بما عمل فيه قال القرطبي وكذا سائر الايام والليالي لما روى أبو نعيم الحافظ عن معاوية ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ليس من يوم يأتي على العبد الا ينادي فيه يا ابن آدم انا خلق جديد وأنا فيما تعمل عليك شاهد فاعمل في خيرا أشهد لك به غدا فاني اذا مضيت لم ترني ابدا ويقول الليل مثل ذلك حديث غريب وحكى القشيري عن عمر أن الشاهد يوم الاضحى وقال ابن المسيب الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة وروي عن علي الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر وقال مقاتل أعضاء الانسان هي الشاهد لقوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم الآية وقال الحسين بن الفضل الشاهد هذه الامة والمشهود سائر الامم لقوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا الآية وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى انا ارسلناك شاهدا وقيل آدم وقيل الحفظة الشاهد والمشهود اولاد آدم وقيل غير ذلك وكل ذلك

أو السماء السابعة أو
السدرة المنتهى (ذات) كتاب
مرقوم وصف معنوي
لكتاب الفجار والكتاب
الابرار لا تفسير لسجين
وعليين والتقدير وهو
كتاب مرقوم

صحيح * واختلف في جواب القسم فقال الجلال المحلي جواب القسم محذوف صدره أي لقد
(قتل) أي لعن (أصحاب الاخدود) وقال الزمخشري محذوف ويدل عليه قوله قتل أصحاب
الاخدود وكأنه قيل أقسم بهذه الاشياء أنهم ملعونون يعني كفار قريش كما لعن أصحاب
الاخدود فان السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم
واستظهر هذا البيضاوي والاخدود هو الشق المستطيل في الارض كالنهر وجمعه اخاديد
واختلف فيهم فعن صهيب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان ملك فيمن كان قبلكم
وكان له ساحر فلما كبر قال للملك اني قد كبرت فابعث الي غلاما أعلمه السحر فبعث اليه غلاما
وكان في طريقه اذا سلك اليه راهب فقعد اليه وسمع كلامه فأعجبه فكان اذا أتى الساحر مر
بالراهب فقعد اليه فاذا أتى الساحر ضربه واذا رجع من عند الساحر قعد الى الراهب وسمع
كلامه فاذا أتى أهله ضربوه فشكا الى الراهب فقال اذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي
واذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر فبينما هو كذلك اذ أتى على دابة عظيمة قد حبست
الناس فقال اليوم أعلم الراهب أفضل أم الساحر فأخذ حجرا ثم قال اللهم ان كان أمر الراهب
أحب اليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها فمضى الناس
فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أي بني انت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى
وانك ستبتلى فان ابتليت فلا تدل علي فكان الغلام يبرئ الاكمه والابرص ويداوي الناس من
سائر الادواء فسمع جليس الملك وكان قد عمي فأتاه بدايات كثيرة فقال هذا لك أجمع ان أنت
شفيتني فقال اني لا أشفي أحدا انما يشفي الله فان آمنت به دعوت الله تعالى فشفاك فآمن
بالله فشفاه الله تعالى فأتى الملك فجلس اليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك
قال ربي قال ولك رب غيري قال ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء
بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الاكمه والابرص وتفعل وتفعل قال اني
لا أشفي أحدا انما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقال
ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء
بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى ففعل به كالراهب ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن
دينك فأبى فدفعه الى نفر من أصحابه وقال اذهبوا به الى جبل كذا فاصعدوا به فاذا بلغتم
ذروته فان رجع عن دينه والا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما
شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي الى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك فقال
كفانيهم الله تعالى فدفعه الى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور وتوسطوا به البحر
فان رجع عن دينه والا فاقذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت السفينة
بهم فغرقوا وجاء يمشي الى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله تعالى فقال
للملك انك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك قال وما هو قال تجمع الناس في صعيد واحد
وتصلبني على جذع ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس وقل بسم الله رب الغلام
ثم ارمني فانك اذا فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ
سهما من كنانته ووضع السهم في كبد القوس ثم قال بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم

* (سورة الانشقاق) *

(قوله اذا السماء انشقت) جوابه اذا جعلت شرطية محذوف تقديره علمت نفس ما أحضرت او علمت نفس ما قدمت وأخرت او بعثتم او لاقى كل انسان كدحه او مذكور وهو يا أيها

فى صدغه فوضع يده على صدغه موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ثلاثا فاتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس فامر بالاخدود بافواه السكك فخدت واضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فاقحموه فيها أو قيل له اقتحم قال ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبى لها فتقاعست ان تقع فيها فقال الصبى يا أماه اصبرى فانك على الحق فاقتحمت قال البغوى هذا حديث صحيح وقيل ان الصبى قال لها قعى ولا تقاعسى وقيل ما هى الا غميضة فصبرت وذكر محمد بن اسحق عن وهب بن منبه أن رجلا كان قد بقى على دين عيسى فوقع على نجران فاجابوه فسار اليه ذونواس اليهودى بجنود من حمير وخيرهم بين النار واليهودية فابوا عليه فخد الاخاديد واحرق اثنى عشر ألفا فى الاخاديد وقيل سبعين ألفا ثم غلب ارياط على اليمن فخرج ذونواس هاربا واقتحم البحر بفرسه فغرق قال الكلبى وذونواس قتل عبد الله بن التامر رضى الله عنه وقال محمد بن اسحق عن عبد الله بن أبى بكر ان خربة احتفرت فى زمن عمر فوجد واعبد الله بن التامر واضعا يده على ضربة فى رأسه اذا اميطت يده عنها انبعثت دما واذا تركت ارتدت مكانها وفى يده خاتم من حديد فيه ربى الله فبلغ ذلك عمر فكتب ان أعيدوا عليه الذى وجدتم عليه * وعن ابن عباس قال كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذونواس بن شرحبيل فى الفترة قبل أن يولد النبى صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة وكان فى بلاده غلام يقال له عبد الله بن تامر وكان أبوه سلمه الى معلم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بدا من طاعة أبيه فجعل يختلف الى المعلم وكان فى طريقه راهب حسن الصوت فاعجبه ذلك وذكر قريبا من معنى حديث صهيب الى أن قال الغلام للملك انك لا تقدر على قتلى الا أن تفعل ما أقول قال فكيف أقتلك قال تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فترمينى بسهم على اسم الهى ففعل الملك فقتله فقال الناس لا اله الا اله عبد الله بن التامر لا دين الا دينه فغضب الملك وأغلق باب المدينة واخذ أفواه السكك وخد أخدودا وملأه نارا ثم عرضهم رجلا رجلا فمن رجع عن الاسلام تركه ومن قال دينى دين عبد الله بن تامر القاه فى الاخدود وأحرقه وكان فى مملكته امرأة قد أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع فقال لها الملك ارجعى عن دينك والا ألقيتك وأولادك فى النار فابت فاخذ ابنها الاكبر فالقاه فى النار ثم قال لها ارجعى فابت فاخذوا الصبى منها ليلقوه فى النار فهمت المرأة بالرجوع فقال لها الصبى يا أماه لا ترجعى عن الاسلام فانك على الحق ولا باس عليك فالقى الصبى فى النار والقيت أمه على اثره * وعن على أنهم حين اختلفوا فى أحكام المجوس قال هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها بعض ملوكهم فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له المخرج أن تخطب الناس فتقول يا أيها الناس ان الله تعالى أحل لكم نكاح الاخوات ثم تخطبهم بعد ذلك أن الله تعالى حرمه فخطب فلم يقبلوا منه فقالت ابسط فيهم السوط فلم يقبلوا فامرت بالاخاديد وايقاد النيران وطرح من أبى فيها فهم الذين أرادهم الله تعالى بقوله قتل أصحاب الاخدود وعن مقاتل كانت الاخاديد ثلاثة واحدة بنجران باليمن وأخرى بالشام وأخرى بفارس حرقوا بالنار أما التى بالشام فهو ابطاموس الرومى وأما التى بفارس فبختنصر وأما

لانسان بتقدير الفاء او بتقدير
يقال او هو فلا قبله اى
فانت ملاقيه او هو فاما من
اوتى كتابه الى آخره والعامل
فيها بكل تقدير جوابها او ان
جعلت غير شرطية فهى
منصوبة باذكر مقدرا او
مرفوعة مبتدأ خبرها اذا

التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآنا وأنزل في التي كانت بنجران وذلك ان رجلا مسلما ممن يقرأ الانجيل أجر نفسه في عمل وجعل يقرأ الانجيل فرأت بنت المستأجر النور يضيء من قراءة الانجيل فذكرت ذلك لأبيها فرمقه فرآه فسأله فلم يخبره فلم يزل به حتى أخبره بالدين والاسلام فتابعه هو وسبعة وثمانون انسانا ما بين رجل وامرأة وهذا بعد ما رفع عيسى عليه السلام الى السماء فسمع ذلك يوسف ذو نواس فخد لهم في الارض وأوقد فيها فعرضهم على الكفر فمن أبى ان يكفر قذفه في النار ومن رجع عن دين عيسى لم يقذفه وان امرأة جاءت ومعها ولد صغير لا يتكلم فلما قامت على شفير الخندق نظرت الى ابنها فرجعت عن النار فضربت حتى تقدمت فلم تزل كذلك ثلاث مرات فلما كانت في الثالثة ذهبت ترجع فقال لها ابنها يا أماه اني ارى امامك نارا لا تطفأ فلما سمعت ذلك قذفا جميعا انفسهما في النار فجعلها الله وابنها في الجنة فقذف في النار في يوم واحد سبعة وسبعون انسانا فذلك قوله تعالى قتل اصحاب الاخدود وقوله تعالى (النار) بدل اشتمال من الاخدود وقوله تعالى (ذات الوقود) وصف لها بانها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وابدان الناس واللام في الوقود للجنس وقوله تعالى (اذهم عليها قعود) ظرف لقتل اى لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها ومعنى عليها على ما يدنو منها من حافات الاخدود كقوله وبات على النار الندى والمحلق وكما تقول مررت عليه تريد مستعليا المكان الذي يدنو منه فكانوا يقعدون حولها على الكراسي وقال القرطبي عليها (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين) بالله من تعذيبهم بالالقاء في النار ان لم يرجعوا عن ايمانهم (شهود) أي يشهد بعضهم لبعض عند الملك بانه لم يقصر فيما أمر به أو شهود بمعنى حضور اه روى ان الله تعالى أنجى المؤمنين الملقين في النار بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها وخرجت النار الى القاعدين فاحرقتهم قال الرازي يمكن أن يكون المراد باصحاب الاخدود القاتلين ويمكن أن يكون المراد بهم المقتولين والمشهور أن المقتولين هم المؤمنون وروي ان المقتولين هم الجبابرة روي انهم لما ألقوا المؤمنين في النار عادت النار على الكفرة فاحرقتهم ونجى الله المؤمنين منها سالمين والى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواحدي وتأولوا قوله تعالى فلهم عذاب جهنم أي في الآخرة ولهم عذاب الحريق أي في الدنيا فان فسر أصحاب الاخدود بالقاتلين فيكون قوله تعالى قتل اصحاب الاخدود دعاء عليهم كقوله تعالى قتل الانسان ما اكفره وان فسر بالمقتولين كان المعنى ان المؤمنين قتلوا بالنار فيكون ذلك خبرا لا دعاء والمقصود من هذه الآية تثبيت قلوب المؤمنين واخبارهم بما كان يلقاه من قبلهم من الشدائد وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من أذى الكفار ليتأسوا بهذا الغلام في صبره على الاذى والصلب وبذل نفسه في اظهار دعوته ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وكذلك صبر الراهب على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار وكذلك أكثر الناس لما آمنوا بالله تعالى (وما نقموا) أي وما انكروا وكرهوا (منهم) من الخلال وكان ذنبا ونقصا (الا ان يؤمنوا) أي يجددوا الايمان مستمرين عليه (بالله) أي الذي له الكمال كله (العزيز) في ملكه الذي يغلب من أراد ولا يغلبه شئ (الحميد) أي المحيط بجميع صفات الكمال فهو

الثانية بزيادة الواو اى وقت انشقاق السماء وقت امتداد الارض (قوله وأذنت لربها وحقت) ذكر مرتين لان الاول متصل بالسماء والثاني بالارض ومعنى اذنت سمعت واطاعت وحق لها

قوله وقال القرطبي عليها كذا في جميع النسخ وفيه سقط فراجعه

يثيب من أطاعه أعظم ثواب ويتنقم ممن عصاه باشد العذاب وهذا استثناء على طريقة قول القائل

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول (أى كسر فى حدهن) من قراع الكتائب

أى من ضرابها والكتائب بالتاء المثناة جمع كتيبة وهى الجيش وقال ابن الرقيات

ما نقموا من بنى أمية الا أنهم يحلمون ان غضبوا

ونظيره قوله تعالى هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله * ولما ذكر تعالى الاوصاف التى يستحق بها أن يؤمن به ويعبد وهو كونه تعالى عزيزا غالبا قادرا يخشى عقابه حميدا منعما يجب الحمد على نعمه ويرجى ثوابه قرر ذلك بقوله تعالى (الذى له) اى خاصة (ملك السموات والارض) أى على جهة العموم مطلقا فكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له تقريرا لان ما نقموا منهم هو الحق الذى لا ينقمه الا مبطل منهمك فى الغى وان الناقمين أهل لانتقام الله تعالى منهم بعذاب لا يعدله عذاب (والله) الملك الاعظم الذى له الاحاطة الكاملة (على كل شئ شهيد) فلا يغيب عنه شئ وهذا الان الله علم ما فعلوا وهو مجازيهم عليه * ولما ذكر قصة أصحاب الاخدود أتبعها ما يتفرع من أحكام الثواب والعقاب فقال تعالى (ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) أى أحرقوهم بالنار يقال فتنت الشئ اذا أحرقته والعرب تقول فتن فلان الدرهم والدينار اذا أدخله الكور لينظر جودته ونظيره يوم هم على النار يفتنون قال الرازى ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك قال وهذا أولى لان اللفظ عام والحكم عام والتخصيص ترك للظاهر من غير دليل * ولما كانت التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمان عبر سبحانه باداة التراخى فقال تعالى (ثم لم يتوبوا) أى عن كفرهم وعما فعلوا (فلهم عذاب جهنم) أى بكفرهم (ولهم عذاب الحريق) أى عذاب احراقهم المؤمنين فى الآخرة وقيل فى الدنيا بان خرجت النار فاحرقتهم كما تقدم ومفهوم الآية أنهم لو تابوا الخرجوا من هذا الوعيد وذلك يدل على ان الله تعالى يقبل التوبة من القاتل المتعمد خلاف ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما * ولما ذكر سبحانه وعيد المجرمين ذكر ما أعد للمؤمنين بقوله تعالى (ان الذين امنوا) اى اقروا بالايمان من المقذوفين فى النار وغيرهم من كل طائفة فى كل زمان (وعملوا الصالحات) تحقيقا لايمانهم (لهم جنات) أى بساتين تفضلا منه تعالى (تجرى من تحتها) أى تحت غرفها وأسرتها وجميع أماكنها (الانهار) يتلذذون ببردها فى نظير ذلك الحر الذى صبروا عليه فى الدنيا ويزول عنهم برؤية ذلك مع خضرة الجنان جميع المضار والاحزان (ذلك) أى الامر العالى الدرجة العظيم البركة (الفوز) أى الظفر بجميع المطالب (الكبير) وهو رضا الله تعالى لادخول الجنة وقال تعالى ذلك الفوز ولم يقل تلك لان ذلك اشارة الى اخبار الله تعالى بحصول الجنان وتلك اشارة الى الجنة الواحدة واخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضيا (ان بطش ربك) أى أخذ المحسن اليك المربى لك المدبر لامرك الجبابرة والظلمة (لشديد) كقوله تعالى وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد قال المبرد ان بطش ربك جواب القسم والبطش هو الاخذ بعنف فاذا وصف بالشدة فقد تضاعف * ولما كان هذا البطش لا يتاتى الا لكامل القدرة دل على كمال قدرته واختصاصه

بذلك

(قوله بل ان نسمع ونطيع (قوله بل الذين كفروا يكذبون) قاله هنا بلفظ يكذبون وفى البروج بلفظ فى تكذيب رعاية للفواصل فيهما

* (سورة البروج) *

(قوله وشاهد ومشهود) الشاهد يوم الجمعة

بذلك بقوله تعالى مؤكدا لما له من الانكار (انه هو) اى وحده (يبدئ) اى يوجد ابتداء اى خلق اراد الى اى هيئة اراد (ويعيد) اى ذلك المخلوق عند البعث وروى عكرمة قال عجب الكفار من احياء الله تعالى الاموات اى فنزلت وقال ابن عباس رضى الله عنهما يبدئ لهم عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده عليهم فى الآخرة وهذا اختيار الطبرى وقيل يبدئ البطش ويعيده فيبطش بهم فى الدنيا والآخرة او دل باقتداره على الابداء والاعادة على شدة بطشه او أوعد الكفرة بان يعيدهم كما بدأهم ليبطش بهم اذ لم يشكروا نعمة الابداء وكذبوا بالاعادة (وهو) اى وحده (الغفور) اى الستور لعباده المؤمنين وقرأ قالون وابو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها وقوله تعالى (الودود) مبالغة فى الود قال ابن عباس رضى الله عنهما هو المتودد لعباده بالمغفرة وعن المبرد هو الذى لا ولد له وانشد

واركب فى الروع عريانة ❊ ذلول الجماع لقاحا ودودا

اى لا ولد لها تحن اليه وقيل هو فعول بمعنى مفعول كالركوب والحلوب بمعنى المركوب والمحلوب وقيل يغفر ويود أن يغفر (ذو العرش) اى خالقه ومالكه اى ذو الملك والسلطان كما يقال فلان على سرير ملكه وان لم يكن على سرير ويقال ثل عرشه اى ذهب سلطانه او السرير الدال على اختصاص الملك بالملك وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة الذى به قوام الامور وقرأ (المجيد) حمزة والكسائى بجر الدال على انه نعت العرش او لربك فى قوله تعالى ان بطش ربك قال مكى وقيل لا يجوز ان يكون نعتا للعرش لانه من صفات الله تعالى اه وهذا ممنوع لان مجد العرش علوه وعظمه كما قاله الزمخشرى وقد وصف العرش بالكريم فى آخر المؤمنين وقرأ الباقون برفع الدال على انه خبر بعد خبر وقيل هو نعت لذو واستدل بعضهم على تعدد الخبر بهذه الآية ومن منع قال لانها فى معنى خبر واحد اى جامع بين هذه الاوصاف الشريفة او كل منها خبر لمبتدا مضمر والمجد هو النهاية فى الكرم والفضل والله سبحانه موصوف بذلك وتقدم وصف عرشه بذلك (فعال) اى على سبيل التكرار والمبالغة (لما يريد) قال القفال اى يفعل ما يريد على ما يراه لا يعترض عليه احد ولا يغلبه غالب فيدخل اولياءه الجنة لا يمنعه مانع ويدخل اعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر ويمهل العصاة على ما يشاء الى ان يجازيهم ويعاجل بعضهم بالعقوبة اذا شاء فهو يفعل ما يريده وعن ابى السفر دخل ناس من الصحابة على ابى بكر الصديق رضى الله عنه يعودونه فقالوا الا نأتيك بطبيب قال قد رآنى قالوا فماذا قال لك قال قال انى فعال لما اريد وقال الزمخشرى فعال خبر مبتدا محذوف وانما قال فعال لان ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة وقال الطبرى رفع فعال وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لاعراب الغفور الودود ❊(تنبيه)❊ دلت هذه الآية أن جميع افعال العباد مخلوقة لله تعالى قال بعضهم ودلت على ان الله تعالى لا يجب عليه شئ لانها دالة على أنه يفعل ما يريد (هل) اى قد (اتاك) اى يا اشرف الرسل (حديث) اى خبر (الجنود) اى الجموع الكافرة المكذبة لانبيائهم وقوله تعالى (فرعون وثمود) يجوز أن يكون بدلا من الجنود واستشكل كونه بدلا لانه لم يكن مطابقا للمبدل منه فى الجمعية وأجيب بانه على حذف مضاف اى جنود فرعون وان المراد فرعون وقومه واستغنى بذكره عن ذكرهم لانهم اتباعه

والمشهود يوم عرفة ونكرهما دون بقية ما أقسم به لاختصاصهما من بين الايام بفضيلة ليست لغيرهما فلم يجمع بينهما وبين البقية بلام الجنس وهذا جواب أيضا عما يقال لم خصهما بالذكر

ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى لأنه لما لم يطابق ما قبله وجب قطعه والمعنى انك قد عرفت ما فعل الله تعالى بهم حين كذبوا رسلهم كيف هلكوا بكفرهم فقومك ان لم يؤمنوا بك فعل بهم كما فعل بهؤلاء فاصبر كما صبر الانبياء قبلك على أممهم (بل الذين كفروا) اى من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك (فى تكذيب) لك لا يرعوون عنه ومعنى الاضراب أن حالهم أعجب من حال هؤلاء فانهم سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم وكذبوا أشد من تكذيبهم وانما خص فرعون وثمود لان ثمود فى بلاد العرب وقصتهم عندهم مشهورة وان كانوا من المتقدمين وأمر فرعون كان مشهورا عند أهل الكتاب وغيرهم وكان من المتأخرين فى الهلاك فدل بهما على أمثالهما وقوله تعالى (والله) اى والحال ان الملك الذى له الكمال كله (من ورائهم محيط) وفيه وجوه أحدها أن المراد وصف اقتداره عليهم وأنهم فى قبضته وحصره كالمحاط اذا أحيط به من ورائه فسد عليه مسلكه فلا يجد مهربا يقول الله تعالى فهم كذا فى قبضتى وأنا قادر على اهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم اياك فلا تجزع من تكذيبهم اياك فليسوا يفوتوننى اذا أردت الانتقام منهم ثانيها أن يكون المراد من هذه الاحاطة قرب اهلاكهم كقوله تعالى وظنوا أنهم أحيط بهم فهو عبارة عن مشارفة الهلاك ثالثها انه تعالى محيط بأعمالهم اى عالم بها فيجازيهم عليها (بل هو) اى هذا القرآن الذى كذبوا به وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (قرآن) اى جامع لكل منفعة جليلة بالغ الذروة العليا فى كل شرف (مجيد) اى شريف وحيد فى اللفظ والمعنى وليس كما زعم المشركون انه شعر وكهانة (فى لوح) هو فى الهواء فوق السماء السابعة وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال ان فى صدر اللوح لا اله الا الله وحده دينه الاسلام ومحمد عبده ورسوله فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة قال واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والارض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء وقلمه نور وكلامه نور معقود بالعرش وأصله فى حجر ملك وقرأ (محفوظ) بالرفع نافع على انه نعت القرآن والباقون بالجر على انه نعت للوح وقال مقاتل اللوح المحفوظ عن يمين العرش وقال البغوى وهو أم الكتاب ومنه تنسخ الكتب محفوظ من الشياطين ومن الزيادة فيه والنقصان وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة البروج أعطاه الله تعالى بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون فى الدنيا عشر حسنات حديث موضوع

سورة الطارق مكية

وهى سبع عشرة آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان واحدى وسبعون حرفا

(بسم الله) مالك الخلق أجمعين (الرحمن) الذى عم جوده المؤمنين والكافرين (الرحيم) الذى خص رحمته بعباده المؤمنين وقوله تعالى (والسماء والطارق) قسم أقسم الله تعالى به وقد أكثر الله تعالى فى كتابه العزيز ذكر السماء والشمس والقمر لان أحوالها فى أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة ولما كان الطارق يطلق على غير النجم أبهمه أولا ثم عظم القسم به بقوله تعالى (وما أدراك) اى أعلمك أيها أشرف خلقنا وان حاولت معرفة ذلك وبالغت فى الفحص

دون بقية الايام والعالم يعرفها لام العهد لان التنكير ادل على التفخيم والتعظيم بدليل قوله تعالى والهكم اله واحد (قوله قتل أصحاب الاخدود) هو جواب القسم بحذف اللام او بحذفها مع قد ان جعل

عنه

عنه (ما الطارق) وهذا مبتدأ وخبر في محل المفعول الثاني لأدرى وما بعد ما الاولى خبرها وفيه تعظيم لشأن الطارق وأصله كل آت ليلا ومنه النجوم لطلوعها ليلا وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وشعبة وابن ذكوان بخلاف عنه بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح ثم فسر الطارق بقوله تعالى (النجم الثاقب) اى المضيء لثقبه الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل درى لانه يدرؤه اى يدفعه والمراد جنس النجوم او جنس الشهب التي يرجم بها وقال محمد بن الحسين هو زحل وقال ابن زيد هو الثريا وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو الجدي وقال علي هو نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم فاذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع الى مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وحين يرجع وفي الصحاح الطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح قال الماوردي واصل الطرق الدق ومنه سميت المطرقة وسمي النجم طارقا لانه يطرق الجني اى يقتله وروى أن أبا طالب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل اذ انحط نجم فامتلأت الارض نورا ففزع أبو طالب وقال اى شيء هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا نجم رمى به وانه آية من آيات الله تعالى فعجب أبو طالب فنزلت السورة وقال مجاهد الثاقب المتوهج وجواب القسم قوله تعالى (ان كل نفس) اى من الانفس مطلقا لاسيما نفوس الناس (لما عليها) اى بخصوصها (حافظ) وقرأ ابن عامر وعاصم بتشديد الميم والباقون بتخفيفها فعلى تخفيفها تكون ما مزيدة وان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف اى انه واللام فارقة وعلى تشديدها فان نافية ولما بمعنى الا والحافظ هو المهيمن الرقيب وهو الله تعالى وكان الله على كل شيء رقيبا وكان الله على كل شيء مقيتا أو ملك يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خير وشر وروى الزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب ولو وكل العبد الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين ولما ذكر تعالى أن على كل نفس حافظا اتبعه بوصية الانسان بالنظر في حاله فقال تعالى (فلينظر الانسان) اى الآنس بنفسه الناظر في عطفه نظر اعتبار في أمره ونشأته الاولى حتى يعلم ان من أنشأه قادر على اعادته فيعمل ليوم الاعادة والجزاء ولا يملي على حافظه الا ما يسره في عاقبته وقوله تعالى (مم خلق) استفهام اى من اى شيء وجوابه (خلق) اى الانسان على أيسر وجه وأسهله بعد خلق أبيه آدم عليه السلام من تراب وأمه حواء رضي الله تعالى عنها من ضلعه (من ماء دافق) اى مدفوق فاعل بمعنى مفعول كقوله تعالى عيشة راضية او دافق على النسب اى ذي دفق او اندفاق وقال ابن عطية يصح أن يكون الماء دافقا لان بعضه يدفق بعضا اى يدفعه فمنه دافق ومنه مدفوق والدفق الصب اى مصبوب في الرحم ولم يقل تعالى من ماءين فانه من ماء الرجل وماء المرأة لان الولد مخلوق منهما لامتزاجهما في الرحم فصارا كالماء الواحد واتحادهما حين ابتدئ خلقه (يخرج من بين الصلب) اى للرجل وهو عظام الظهر (والترائب) اى للمرأة جمع تريبة وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة وعن عكرمة الترائب ما بين ثدييها وقيل الترائب التراقي وقيل أضلاع الرجل التي أسفل الصدر وحكى الزجاج أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة أضلاع من

خبر ان فان جعل دعاء فجواب القسم ان الذين فتنوا او ان بطش ربك لشديد او محذوف اى لتبعثن

(سورة الطارق)

(قوله ان كل نفس لما عليها حافظ) هو جواب القسم وان مخففة من الثقيلة

يسرة الصدر وقال ابن عادل جاء في الحديث ان الولد يخلق من ماء الرجل يخرج من صلبه العظم والعصب ومن ماء المرأة يخرج من ترائبها اللحم والدم وحكى القرطبي أن ماء الرجل ينزل من الدماغ ثم يجتمع في الانثيين وهذا لا يعارضه قوله تعالى يخرج من بين الصلب والترائب لانه ينزل من الدماغ الى الصلب ثم يجتمع في الانثيين قال المهدوي ومن جعل يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة فالضمير للانسان والضمير في قوله تعالى (انه) للخالق المدلول عليه بخلق لانه معلوم أن لا خالق سواه سبحانه وتعالى وفي الضمير في قوله تعالى (على رجعه) وجهان أحدهما انه ضمير الانسان اي بعثه بعد موته (لقادر) وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والثاني انه ضمير الماء اي رجع المني في الاحليل او الصلب وهذا قول مجاهد وعن الضحاك أن المعنى انه على رد الانسان من الكبر الى الشباب ومن الشباب الى الكبر وقال ابن زيد انه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر وقال الماوردي يحتمل انه قادر على أن يعيده الى الدنيا بعد بعثه الى الآخرة لان الكفار يسألون فيها الرجعة وقوله تعالى (يوم) منصوب برجعه ومن يجعل الضمير في رجعه للماء وفسره برجعه الى مخرجه من الصلب والترائب او الاحليل وحاله الاولى نصب الظرف بمضمر اي واذكر يوم (تبلى) تختبر وتكشف (السرائر) اي ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرهما وما أخفي من الاعمال وذلك يوم القيامة وبلاؤها تعرفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث وعن الحسن انه سمع رجلا ينشد

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا * سريرة ود يوم تبلى السرائر

فقال ما أغفله عما في والسماء والطارق وقال عطاء بن رباح ان السرائر فرائض الاعمال كالصوم والصلاة والوضوء والغسل من الجنابة فانها سرائر بين الله تعالى وبين العبد ولو شاء العبد لقال صمت ولم يصم وصليت ولم يصل واغتسلت ولم يغتسل فيختبر حتى يظهر من اداها ممن ضيعها وقال ابن عمر يبدي الله تعالى كل سر فيكون زينا في وجوه وشينا في وجوه يعني فمن اداها كان وجهه مشرقا ومن لم يؤدها كان وجهه اغبر (فما له) اي لهذا الانسان المنكر للبعث الذي أخرجت سرائره وأغرق في النفي والتعميم فقال تعالى (من قوة) اي منعة في نفسه يمتنع بها (ولا ناصر) اي ينصره من عذاب الله تعالى فيدفعه عنه ثم ذكر تعالى قسما آخر فقال تعالى (والسماء) اي التي تقدم الاقسام بها اوصفها بما يؤكد العلم بالبعث فقال تعالى (ذات الرجع) اي التي ترجع بالدوران الى الموضع الذي تحرك عنه فترجع الاحوال التي كانت وتصرمت من الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول من الشتاء وما فيها من برد ومطر والصيف وما فيه من حر وصفاء وسكون وغير ذلك وقيل ذات النفع وقيل ذات الملائكة لرجوعهم فيها باعمال العباد وقيل ذات المطر لعوده كل حين او لما قيل من ان السحاب تحمل الماء من البحار ثم ترجعه الى الارض وعلى هذا يجوز أن يراد بالسماء السحاب (والارض) اي مسكنكم الذي أنتم ملابسوه ومعاينوه كل وقت (ذات الصدع) اي تنصدع عن النبات والشجر والثمار والانهار والعيون نظيره قوله تعالى ثم شققنا الارض شقا الآية والصدع بمعنى الشق لانه يصدع الارض فتنصدع به فكأنه قال تعالى والارض ذات النبات وقال مجاهد ذات الطرق التي تصدعها المشاة وقيل ذات الحرث لانه

واسمها محذوف واللام فارقة وما مخففة مزيدة اوان نافية ولما بالتشديد بمعنى الا (قوله فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) كررتا كيدا وخولف بين اللفظين طلبا للخفة

يتصدع بها وقيل ذات الاموات لاصداعهم عنها للنشور قال الرازى واعلم انه تعالى كما جعل كيفية خلقة الحيوان دليلا على معرفة المبدا او المعاد ذكر فى هذا القسم كيفية خلقة النبات فقوله تعالى والسماء ذات الرجع كالاب وقوله تعالى والارض ذات الصدع كالام وكلاهما من النعم العظام لان نعم الدنيا موقوفة على ماينزل من السماء مكررا وعلى ماينبت من الارض كذلك ثم أردف هذا القسم بالمقسم عليه وهو قوله تعالى (انه لقول فصل) وفى هذا الضمير قولان أحدهما ماقاله القفال وهو أن المعنى ان ماأخبرتكم به من قدرتى على احيائكم يوم تبلى السرائر قول فصل وحق والثانى انه عائد على القرآن اى القرآن فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان قال الرازى والاول اولى لان عود الضمير الى المذكور السالف اولى انتهى وأكثر المفسرين على الثانى والفصل الحكم الذى ينفصل به الحق من الباطل ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم الجازم ويقال هذا قول فصل قاطع للشر والنزاع معناه جد لقوله تعالى (وماهو) اى فى باطنه ولاظاهره (بالهزل) اى باللعب والباطل بل هو جد كله لاهوادة فيه ومن حقه وقد وصفه الله تعالى بذلك أن يكون مهيبا فى الصدور معظما فى القلوب يترفع به قارئه وسامعه أن يلم بهزل او يتفكه بمزاح وأن يلقى ذهنه الى أن جبار السموات والارض يخاطبه فيأمره وينهاه ويعده ويوعده حتى ان لم يستفزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية فادنى أمره ان يكون جادا غير هازل فقد نعى الله تعالى عن المشركين ذلك فى قوله تعالى وتضحكون ولاتبكون وأنتم سامدون والغوا فيه هذا على عود الضمير للقرآن وعلى جعله للاول يكون الشخص خائفا وجلا من ذلك الذى تبلى فيه السرائر (انهم) اى الكفار أعداء الله تعالى (يكيدون كيدا) اى يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكرا واختلف فى ذلك الكيد فقيل القاء الشبهات كقولهم ان هى الاحياتنا الدنيا من يحيى العظام وهى رميم أجعل الآلهة الها واحدا وما أشبه ذلك وقيل قصدهم قتله لقوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الآية وأما قوله تعالى (وأكيد) اى أنا بتمام اقتدارى (كيدا) فاختلف فيه أيضا فقيل معناه اجازيهم جزاء كيدهم وقيل هو ماأوقع الله تعالى بهم يوم بدر من القتل والاسر وقيل استدراجهم من حيث لايعلمون وقيل كيد الله تعالى لهم بنصره واعلاء درجته تسمية لاحد المتقابلين باسم الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقول الشاعر

الالايجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكقوله تعالى نسوا الله فنسيهم يخادعون الله وهو خادعهم * ولما كان هذا امهالا لهم عدم لااعتبار بهم قال تعالى مسببا عنه تهديدا لهم (فمهل الكافرين) اى فمهل يا أشرف الخلق هؤلاء البعداء ولا تستعجل بالانتقام منهم ولا بالدعاء عليهم باهلاكهم فانا لانعجل لان العجلة وهى ايقاع الشئ فى غير وقته اللائق به نقص وقوله تعالى (أمهلهم) تأكيد حسنه مخالفة اللفظ اى أنظرهم (رويدا) اى قليلا وهو مصدر مؤكد لمعنى العامل مصغر رود أو ارواد على الترخيم وقد أخذهم الله تعالى ببدر ونسخ الامهال بالامر بالجهاد والقتال وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات حديث موضوع

(سورة الاعلى)

(قوله ان نفعت الذكرى) ذكره مع انه صلى الله عليه وسلم مامور بالتذكير وان لم تنفع الذكرى لان معنى ان اذ كما فى قوله وانتم

سورة الاعلى مكية

في قول الجمهور وقال الضحاك مدنية قال النووي وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبها لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات وهي تسع عشرة آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وأربعة وثمانون حرفا

(بسم الله) عالم الغيب فلا تخفى عليه خافية (الرحمن) الذي عم بجوده كل انس وجن وملك ودابة (الرحيم) الذي خص أولياءه بعرفتهم احسانه * واختلف في قوله سبحانه وتعالى (سبح اسم ربك) فالاكثرون على ان المعنى نزه ربك المحسن اليك بعد ايجادك على صفة الكمال عما لا يليق به فاسم زائد كقول لبيد * الى الحول ثم اسم السلام عليكما * وقيل عظم ربك (الاعلى) والاسم زائد كما مر قصد به تعظيم المسمى وذكر الطبري ان المعنى نزه اسم ربك الاعلى عن ان تسمي به احدا سواه وقيل نزه تسمية ربك وذكرك اياه أن لا تذكره الا وأنت خاشع معظم لذكره وقال الرازي معنى سبح اسم ربك الاعلى اي نزهه عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه أما في ذاته فان تعتقد أنها ليست من الجواهر والاعراض وأما في صفاته فان تعتقد أنها ليست محدثة ولا ناقصة ولا متناهية ولا ناقصة وأما في أفعاله فان تعتقد أنه سبحانه مالك مطلق لا اعتراض لاحد عليه في أمر من الامور وأما في اسمائه فان لا تذكره سبحانه الا بالاسماء التي لا توهم نقصا بوجه من الوجوه سواء ورد الاذن فيها أم لم يرد وأما في أحكامه سبحانه فان تعلم أنه ما كلفنا لنفع يعود اليه بل لمحض المالكية قال البغوي ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحدا لان أحدا لا يقول سبحان الله وسبحان اسم ربنا انما يقول سبحان الله وسبحان ربنا فكان معنى سبح اسم ربك سبح ربك اه وكون الاسم عين المسمى أو غيره قد ذكرتها في مقدمتي على البسملة والحمدلة وعن ابن عباس رضي الله عنهما سبح اي صل بامر ربك وذهب جماعة من الصحابة والتابعين على ان المراد قل سبحان ربي الاعلى وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سبح اسم ربك الاعلى فقال سبحان ربي الاعلى وعن عقبة ابن عامر انه لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم ولما نزل سبح اسم ربك الاعلى قال اجعلوها في سجودكم وروي انه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك وروي ان أول من قال سبحان ربي الاعلى ميكائيل * ولما أمر تعالى بالتسبيح فكأن سائلا قال الاشتغال بالتسبيح انما يكون بعد المعرفة فما الدليل على وجود الرب تعالى فقال تعالى (الذي خلق) اي اوجد من العدم فله صفة الايجاد لكل ما اراده لا يعسر عليه شيء (فسوى) اي مخلوقه وقال الرازي يحتمل ان يريد الناس خاصة ويحتمل ان يريد الحيوان ويحتمل ان يريد كل شيء خلقه الله تعالى فمن حمله على الانسان ذكر للتسوية وجوها أحدها اعتدال قامته وحسن خلقه كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم وأثنى على نفسه بسبب خلقه اياه بقوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين ثانيها كل حيوان مستعد لنوع واحد من الاعمال فقط وأما الانسان فانه خلق بحيث يمكنه أن يأتي بجميع الاعمال بواسطة الآلات ثالثها انه تعالى هيأه للتكليف والقيام باداء العبادات وقال بعضهم خلق في أصلاب الآباء

الاعلون ان كنتم مؤمنين او التقدير ان نفعت الذكرى اولم تنفع كما في قوله سرابيل تقيكم الحر (قوله ثم لا يموت فيها ولا يحيى) فان قلت كيف قال ذلك

وسوّى في أرحام الامهات ومن حمله على جميع الحيوانات فمعناه انه أعطى كل حيوان ما يحتاج
اليه من الآلات والاعضاء ومن حمله على جميع المخلوقات كان المراد من التسوية هو انه تعالى
قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات يخلق ما أراده على وفق ارادته موصوفا بالاحكام
والاتقان مبرأ عن النقص والاضطراب وقرأ (والذى قدر) الكسائي بتخفيف الدال
والباقون بالتشديد قال البغوي وهما بمعنى واحد اى اوقع تقديره في أجناس الاشياء
وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها وغير ذلك من أحوالها فجعل
البطش لليد والمشي للرجل والسمع للاذن والبصر للعين ونحو ذلك (فهدى) قال مجاهد هدى
الانسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة وهدى الانعام لمراعيها وقال مقاتل
والكلبي في قوله تعالى فهدى عرف خلقه كيف يأتي الذكر الانثى كما قال تعالى في سورة طه
أعطى كل شئ خلقه ثم هدى أى الذكر للانثى وقال عطاء جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له
وقيل قدر أقواتهم وأرزاقهم وهداهم لمعاشهم ان كانوا اناسا ولمراعيهم ان كانوا وحوشا وقال
السدي قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه الى الخروج من الرحم ومن ذلك هدايات الانسان
الى مصالحه من أغذيته وأدويته وأمور دنياه ودينه والهامات البهائم والطيور وهوام الارض
الى معايشها ومصالحها يقال ان الافعى اذا أتى عليها ألف سنة عميت وقد ألهمها الله تعالى أن
تمسح عينيها بورق الرازيانج الغض فيرد اليها بصرها فربما كانت في برية بينها وبين الريف
مسيرة أيام فتطوى تلك المسافة على طولها وعماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة
الرازيانج لا تخطئها فتحك بها عينيها فترجع باصرة باذن الله تعالى وقيل فهدى اى دلهم بأفعاله
على توحيده وكونه عالما قادرا والاستدلال بالخلق والهداية معتمد الانبياء قال ابراهيم عليه
السلام الذى خلقني فهو يهدين وقال موسى عليه السلام لفرعون ربنا الذى أعطى كل شئ
خلقه ثم هدى * ولما ذكر سبحانه ما يختص بالناس اتبعه ما يختص بالحيوان فقال تعالى
(والذى أخرج المرعى) اى انبت ما ترعاه الدواب وقال ابن عباس رضي الله عنهما المرعى
الكلأ الاخضر (فجعله) اى بعد أطوار من زمن اخراجه بعد خضرته (غثاء) اى جافا هشيما
(أحوى) اى أسود يابسا قال الزمخشري ويجوز أن يكون أحوى حالا من المرعى اى أخرجه
أحوى اى أسود من شدة الخضرة والرى فجعله غثاء بعد حويه وقال ابن زيد هذا مثل ضربه
الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها وقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى) بشارة من الله
تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم باعطاء آية بينة وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من
الوحى وهو أمى لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه فهو نفى أخبر الله تعالى أن نبيه صلى الله
عليه وسلم لا ينسى وقيل نهى والالف مزيدة للفاصلة كقوله تعالى السبيلا اى فلا تغفل
قراءته وتكريره فلا ينساه وضعفه مكي لانه لا ينهى عما ليس باختياره (وأجيب) بان هذا
غير لازم اذ المعنى النهى عن تعاطى أسباب النسيان وهو شائع قال الرازي وهذه الآية تدل
على المعجزة من وجهين الاول انه كان رجلا أميا فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة
ولا تكرار خارق للعادة فيكون معجزا الثاني ان هذه السورة من اول ما نزل بمكة فهذا اخبار
عن أمر عجيب مخالف للعادة سيقع في المستقبل وقد وقع فكان هذا اخبارا فيكون معجزا

مع ان الحيوان لا يخلو
من الاتصاف باحدهما
(قال) معناه لا يموت موتا
يستريح به ولا يحيا حياة
ينتفع بها كقوله لا يقضى
عليهم فيموتوا ولا يخفف

وفى المشيئة فى قوله تعالى (الا ماشاء الله) اى الا الذى له الامر كله وجوه أحدها التبرك بهذه الكلمة كقوله تعالى ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فكأنه تعالى يقول انى عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الامور على التفصيل ومع ذلك لا أخبر بوقوع شىء فى المستقبل الا مع هذه الكلمة فانت وأمتك يا أشرف الخلق اولى بها ثانيها قال الفراء انه تعالى ماشاء أن ينسى محمدا صلى الله عليه وسلم شيأ الا ان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان انه تعالى لو أراد أن يصيره ناسيا لذلك لقدر عليه كقوله تعالى ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم انا نقطع انه تعالى ماشاء ذلك ونظيره قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك مع انه صلى الله عليه وسلم ما أشرك البتة ففائدة هذا الاستثناء ان الله تعالى يعرفه قدرته حتى يعلم ان عدم النسيان من فضل الله تعالى واحسانه لا من قوته ثالثها ان الله تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوز صلى الله عليه وسلم فى كل ماينزل عليه من الوحى أن يكون ذلك هو المستثنى فلا جرم بالغ فى التثبت والتحفظ فى جميع المواضع فكان المقصود من ذكر الاستثناء بقاءه صلى الله عليه وسلم على التيقظ فى جميع الاحوال رابعها أن ينساه بنسخ تلاوته وحكمه وكان صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام خوف النسيان فكأنه قيل له لا تعجل بها انك لا تنسى ولا تتعب نفسك بالجهر بها (انه) اى الذى مهما شاء كان (يعلم الجهر) اى القول والفعل (وما يخفى) اى منهما وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما فى قلبك ونفسك وقال محمد بن حاتم يعلم اعلان الصدقة واخفاءها وقيل الجهر ما حفظته من القران فى صدرك وما يخفى ما نسخ من صدرك وقوله تعالى (ونيسرك لليسرى) عطف على سنقرئك فهو داخل فى حيز التنفيس ومابينهما من الجملة اعتراض قال الضحاك واليسرى هى الشريعة اليسرى وهى الحنيفية السهلة وقال ابن مسعود اليسرى الجنة أى نيسرك الى العمل المؤدى الى الجنة وقيل اليسرى الطريقة اليسرى وهى اعمال الخير والامر فى قوله تعالى (فذكر) للنبى صلى الله عليه وسلم اى فذكر بالقرآن (ان نفعت الذكرى) اى الموعظة وان شرطية وفيه استبعاد لتذكرهم ومنه قول القائل

لقد أسمعت لو ناديت حيا • ولكن لا حياة لمن تنادى

ولانه صلى الله عليه وسلم قد استفرغ مجهوده فى تذكيرهم وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى الا عتوا وطغيانا وكان صلى الله عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفا ويزداد جهدا فى تذكيرهم وحرصا عليه فقيل ان نفعت الذكرى وذلك بعد الزام الحجة بتكرير التذكير وقيل ان بمعنى اذ كقوله تعالى وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين اى اذ كنتم مؤمنين وقيل بعده شىء محذوف تقديره ان نفعت الذكرى وان لم تنفع كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر اى والبرد قاله الفراء والنحاس وقيل ان بمعنى ما لا بمعنى الشرط لان الذكرى نافعة بكل حال • ثم بين تعالى من تنفعه الذكرى بقوله سبحانه (سيذكر) أى بوعد لاخلف فيه (من يخشى) اى يخاف الله تعالى فهى كآية فذكر بالقرآن من يخاف وعيد وان كان النبى صلى الله عليه وسلم يجب عليه تذكيرهم نفعتهم الذكرى أم لم تنفعهم وقال ابن عباس نزلت فى ابن أم مكتوم وقيل فى عثمان بن عفان قال الماوردى وقد تذكر من يرجوه الا أن تذكر الخاشى أبلغ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء وقال القشيرى

عنهم من عذابها وقيل معناه تصعد نفسه الى الحلقوم ثم لا تفارقه فيموت ولا ترجع الى موضعها من الجسم فيحيا وثم للتراخى بين الرتب فى الشدة

المعنى

المعنى عم أنت بالتذكير والوعظ وان كان الوعظ انما ينفع من يخشى ولكن يحصل لك ثواب الدعاء (فان قيل) التذكير انما يكون بشئ قد علم وهؤلاء لم يزالوا كفارا معاندين (أجيب) بان ذلك لظهوره وقوة دليله كانه معلوم لكنه يزول بسبب التقليد والفساد *(تنبيه)* السين في قوله تعالى سيذكر يحتمل أن تكون بمعنى سوف وسوف من الله تعالى واجب كقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى ويحتمل أن يكون المعنى ان من خشى فانه يتذكر وان كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر * ولما بين تعالى من ينتفع بالذكرى بين من لا ينتفع بها بقوله تعالى (ويتجنبها) أى الذكرى أى يتركها جانبا الا يلتفت اليها (الاشقى الذى يصلى النار) وهو الكافر (فان قيل) الاشقى يستدعى وجود شقى فكيف قاله ذا القسم (أجيب) بان لفظ الاشقى من غير مشاركة كقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا وقوله تعالى وهو أهون عليه وقال الرازى الفرق ثلاثة العارف والمتوقف والمعاند فالسعيد هو العارف والمتوقف له بعض الشقاوة والاشقى هو المعاند وقال الزمخشرى الاشقى هو الكافر لانه أشقى من الفاسق أو الذى هو اشقى الكفرة لتوغله فى معاداة النبى صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة واختلف فى قوله تعالى (الكبرى) أى العظمى على وجوه أحدها قال الحسن هى نار جهنم والصغرى نار الدنيا ثانيها ان فى الآخرة نيرانا ودركات متفاضلة فكما ان الكافر أشقى العصاة فكذلك يصلى اعظم النيران ثالثها ان النار الكبرى هى النار السفلى فهى نصيب الكفار كما قال تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار (فان قيل) قوله تعالى (ثم لا يموت فيها ولا يحيى) يقتضى ان ثم حالة غير الحياة والموت وذلك غير معقول (أجيب) عن ذلك بوجهين أحدهما الا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه كما قال تعالى لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها وهذا جاء على مذهب العرب يقولون للمبتلى بالبلاء الشديد لا هو حى ولا هو ميت ثانيهما ان نفس أحدهم فى النار فى حلقه لا تخرج فيموت ولا ترجع الى موضعها فيحيا *(تنبيه)* قوله تعالى ثم للتراخى بين الرتب فى الشدة * ولما ذكر تعالى وعيد من أعرض عن النظر فى دلائل الله تعالى أتبعه بالوعد لضده فقال تعالى (قد أفلح) أى فاز بكل مراد (من تزكى) أى تطهر من الكفر بالايمان لما روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قد أفلح من تزكى أى شهد أن لا اله الا الله وخلع الانداد وشهد أنى رسول الله وقيل تطهر للصلاة أو أدى الزكاة (وذكر اسم ربه) أى بقلبه ولسانه مكبرا (فصلى) أى الصلوات الخمس قال الزمخشرى وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لان الصلاة معطوفة عليها وقال قتادة تزكى عمل صالحا وعن عطاء نزلت فى صدقة الفطر قال ابن سيرين قد أفلح من تزكى قال خرج فصلى بعدما أدى زكاة الفطر وصلى صلاة العيد قال بعضهم لا أدرى ما وجه هذا التأويل فان هذه السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر وأجاب البغوى بانه يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم كقوله تعالى وأنت حل بهذا البلد والسورة مكية وظهر أثر الحل يوم الفتح قال صلى الله عليه وسلم أحلت لى ساعة من نهار وقيل المراد زكاة الاعمال لا زكاة الاموال أى زكى أعماله من الرياء والتقصير وروى عن عطاء أنه قال ان

(سورة الغاشية)
(قوله وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) قال ذلك هنا وقال بعده وجوه يومئذ ناعمة وليس بتكرار لان الاول فى الكفار والثانى

هذه الآية نزلت في عثمان وذلك انه كان بالمدينة منافق له نخلة مائلة الى دار رجل من الانصار اذا هبت الريح تساقط منها بسر ورطب في دار الانصاري فيأكل هو وعياله من ذلك فخاصمه المنافق فذكر الانصاري ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فارسل خلف المنافق وهو لا يعلم نفاقه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ان أخاك الانصاري ذكر ان بسرك ورطبك يقع في منزله فيأكل هو وعياله منه فهل لك ان أعطيك نخلة في الجنة بدلها قال أبيع عاجلا بآجل لا أفعل فذكروا ان عثمان قد أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته يقول فيه قد أفلح من تزكى وفي المنافق ويتجنبها الاشقى وقال الضحاك نزلت في أبي بكر وقرأ (بل تؤثرون الحيوة الدنيا) أبو عمرو بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب ومعناه على القراءة الاولى بل يؤثرون الاشقون وعلى القراءة الثانية بل تؤثرون أيها المسارعون الاستكثار من الدنيا الدنية بالعز الحاضر مع انها فانية لاستغنائكم الآجل حضورها كالحيوانات التي هي مقيدة بالمحسوسات على الاستكثار من الثواب (والآخرة) أي والحال ان الدار التي هي غاية القصد المبرأة عن العيب المنزهة عن الخروج عن الحكمة (خير) أي من الدنيا (وأبقى) لانها تشتمل على السعادة الجسمانية والروحانية والدنيا ليست كذلك فالآخرة خير من الدنيا ولان الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام والآخرة ليست كذلك ولان الدنيا فانية والآخرة باقية والباقي خير من الفاني وعن عمر ما الدنيا في الآخرة الا كنفجة أرنب وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية فقال أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة قلنا لا قال لان الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها وان الآخرة نعتت لنا وزويت عنا فأحببنا العاجل وتركنا الآجل والاشارة في قوله تعالى (ان هذا لفي الصحف الاولى) الى قوله قد أفلح من تزكى الى قوله خير وأبقى أي هذا الكلام وارد في تلك الصحف وقيل الى ما في السورة كلها وهو رواية عكرمة عن ابن عباس وقال الضحاك ان هذا القرآن لفي الصحف الاولى ولم يرد ان هذه الالفاظ بعينها في تلك الصحف وانما معناه ان معنى هذا الكلام في تلك الصحف ثم بين تلك الصحف وهي المنزلة قبل القرآن بقوله تعالى (صحف ابراهيم) وقدمه لان صحفه أقرب الى الوعظ كما نطق به حديث ابي ذر (وموسى) وختم به لان الغالب على كتابه الاحكام والمواعظ فيه قليلة ومنها الزواجر البليغة كاللعن لمن خالف أوامر التوراة التي اعظمها البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وروى عن ابي بن كعب انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كم انزل الله تعالى من كتاب فقال مائة واربعة كتب منها على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسون صحيفة وعلى اخنوخ وهو ادريس ثلاثون صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف والتوراة والانجيل والزبور والفرقان وقيل في صحف ابراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظا للسانه عارفا بزمانه مقبلا على شانه وعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعتين اللتين يوتر بعدهما بسبح اسم ربك الاعلى وقل يا ايها الكافرون وفي الوتر بقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وقرأ الاعلى فسوى فهدى المرعى احوى فلا تنسى وما يخفى من يخشى الاشقى ولا يحيى من تزكى فصلى الدنيا وأبقى الاولى وموسى حمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش وأبو عمرو بين

…المؤمنين والمراد بالوجوه
…ما جميع الابدان لان
…كر من الاوصاف
…يختص بالوجوه فهو كقوله
…عالى وعنت الوجوه للحي
القيوم او المراد بها

بين والفتح عن ورش قليل أما الاعلى الذى والاشقى الذى اذا وقف عليهما فالامالة وان وصلا فلا امالة والباقون بالفتح وقرأ الذكرى الكبرى ابو عمرو والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الاعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله تعالى على ابراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام حديث موضوع

سورة الغاشية مكية بالاجماع

وهى ست وعشرون آية واثنان وتسعون كلمة وثلثمائة واحدى وثمانون حرفا

(بسم الله) علام الغيوب (الرحمن) كاشف الكروب (الرحيم) الذى خص أولياءه بالعفو عن الذنوب وقوله سبحانه وتعالى (هل اتاك حديث الغاشية) فيه وجهان أحدهما ان هل بمعنى قد اى قد جاءك يا اشرف الخلق حديث الغاشية كقوله تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر قاله قطرب والثانى انه استفهام على حاله وتسميه اهل البيان التشويق والمعنى ان لم يكن اتاك حديث الغاشية فقد اتاك وهو معنى قول الكلبى والغاشية الداهية التى تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم اهوالها وهى القيامة من قوله يوم يغشاهم العذاب وقيل هى النار من قوله تعالى وتغشى وجوههم النار ومن فوقهم غواش وقيل المراد النفخة الثانية للبعث لانها تغشى الخلق وقيل الغاشية اهل النار يغشونها ويقتحمون فيها (وجوه) اى كثيرة جدا كائنة (يومئذ) اى يوم اذ غشيت (خاشعة) اى ذليلة من الخجل والفضيحة والخوف من العذاب والمراد بالوجوه فى الموضعين اصحابها (عاملة ناصبة) اى ذات نصب وتعب قال سعيد بن جبير عن قتادة تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله تعالى فاعملها الله تعالى وانصبها فى النار بجر السلاسل الثقال وحمل الاغلال والوقوف حفاة عراة فى العرصات فى يوم كان مقداره الف سنة وقال ابن مسعود تخوض فى النار كما تخوض الابل فى الوحل وقال الحسن لم تعمل لله فى الدنيا ولم تنصب له فاعملها وانصبها فى جهنم وقال ابن عباس هم الذين انصبوا انفسهم فى الدنيا على معصية الله تعالى على الكفر مثل عبدة الاوثان والرهبان وغيرهم لا يقبل الله تعالى منهم الا ما كان خالصا له وعن على انهم الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم واعمالكم مع اعمالهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الحديث وقرأ (تصلى) ابو عمرو وشعبة بضم التاء الفوقية على ما لم يسم فاعله والباقون بفتحها على تسمية الفاعل والضمير على كلتا القراءتين للوجوه والمعنى تدخل (نارا حامية) اى شديدة الحر قد احميت واوقدت مدة طويلة ومنه حمى النهار بالكسر اى اشتد حره وحكى الكسائى اشتد حمى الشمس وحموها بمعنى قال صلى الله عليه وسلم اوقد عليها الف سنة حتى احمرت ثم اوقد عليها الف سنة حتى ابيضت ثم اوقد عليها الف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة وقيل المصلى عند العرب ان يحفروا حفيرا فيجمعون فيه جمرا كثيرا ثم يعمدوا الى شاة فيدسوها وسطه فاما ما شوى فوق الجمر او على المقلى او فى التنور فلا يسمى مصليا هو وما بين تعالى مكانهم ذكر شرابهم فقال تعالى (تسقى من عين آنية) اى

الاعيان ولرؤساء كما يقال هؤلاء وجوه القوم ويا وجه العرب (قوله أفلا ينظرون الى الابل الخ) * ان قلت كيف ارتبط هذا بما قبله واى مناسبة بين الابل

شديدة الحرارة كقوله تعالى من حميم آن اى متناه فى الحرارة روى انه لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا الاذابتها * ولما ذكر تعالى شرابهم أتبعه بذكر طعامهم فقال تعالى (ليس لهم طعام الا من ضريع) قال مجاهد هو نبت ذو شوك لاطئ بالارض تسميه قريش الشبرق فاذا هاج سموه الضريع وهو أخبث طعام وأبشعه قال الكلبى لا تقربه دابة اذا يبس وقال ابن زيد اما فى الدنيا فان الضريع الشوك اليابس الذى ليس له ورق وهو فى الآخرة شوك من نار وجاء فى الحديث عن ابن عباس يرفعه الضريع شئ فى النار يشبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حرا من النار قال أبو الدرداء والحسن ان الله تعالى يرسل على اهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بالضريع ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة ثم يسقون من عين آنية لا هنيئة ولا مريئة فلما أدنوه من وجوههم سلخ جلود وجوههم وشواها فاذا وصل بطونهم قطعها فذلك قوله تعالى وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم قال بعض المفسرين فلما نزلت هذه الآية قال المشركون ان ابلنا التسمن على الضريع وكذبوا فى ذلك فان الابل انما ترعاه مادام رطبا ويسمى شبرقا فاذا يبس لا يأكله شئ قال ذؤيب يصف حمارا

رعى الشبرق الريان حتى اذا ذوى * وصار ضريعا بان عنه النحائص

والنحوص من الاتن التى لا لبن لها * ولما قالوا ذلك أنزل الله تعالى تكذيبا لهم (لا يسمن ولا يغنى) أى يكفى كفاية مبتدأة (من جوع) فلا يحفظ الصحة ولا يمنع الهزال فنفى السمن والشبع عنه وعلى تقدير أن يصدقوا فيكون المعنى ان طعامكم من ضريع ليس من جنس ضريعكم انما هو ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع (فان قيل) كيف قيل ليس لهم طعام الا من ضريع وفى الحاقة ولا طعام الا من غسلين (أجيب) بان العذاب الوان والمعذبون طبقات فمنهم اكلة الزقوم ومنهم اكلة الغسلين ومنهم اكلة الضريع لكل باب منهم جزء مقسوم * ولما ذكر تعالى وعيد الكفار اتبعه بشرح احوال المؤمنين فقال تعالى (وجوه يومئذ) اى يوم اذ تغشى الناس ووصفها بصفات الاولى قوله تعالى (ناعمة) أى ذات بهجة وحسن كقوله تعالى تعرف فى وجوههم نضرة النعيم أو متنعمة قال مقاتل فى نعمة وكرامة الصفة الثانية قوله تعالى (لسعيها) أى فى الدنيا بالاعمال الصالحة (راضية) أى فى الآخرة بثواب سعيها حين رأت ما أداهم اليه من الكرامة الصفة الثالثة قوله تعالى (فى جنة) ثم وصف الجنة بصفات الاولى قوله تعالى (عالية) أى علية المحل والقدر الصفة الثانية قوله تعالى (لا يسمع فيها لاغية) قرأ بالتاء الفوقية نافع مضمومة لاغية بالرفع وقرأ ابن كثير وابو عمرو بالياء التحتية مضمومة لاغية بالرفع لقيامها مقام الفاعل والباقون بالتاء الفوقية مفتوحة لاغية بالنصب فيجوز أن تكون التاء للخطاب اى لا تسمع انت وان تكون للتأنيث اى لا تسمع الوجوه واللغو قال ابن عباس الكذب والبهتان والكفر بالله تعالى وقال قتادة لا باطل ولا اثم وقال الحسن هو الشتم وقال الفراء الحلف الكاذب والاولى كما قيل لا يسمع فى كلامهم كلمة ذات لغو وانما يتكلمون بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم وهذا احسن الاقوال قاله القفال وقال الكلبى لا يسمع فى الجنة حالف بيمين لا برة ولا فاجرة الصفة الثالثة قوله

تعالى

قوله من حميم آن هكذا فى النسخ بايدينا والتلاوة وبين حميم آن اه مصححه

والمعطوفات عليها حتى جمع بينوهما (قلت) اما الجواب عن الاول فلانه انما وصف الله الجنة بما وصف بحسب الكفار من ذلك فذكرهم غرائب

تعالى (فيها) أى الجنة (عين جارية) قال الزمخشرى يريد عيونا فى غاية الكثرة كقوله تعالى علمت نفس وقال القفال فيها عين شراب جارية على وجه الارض فى غير اخدود وتجرى لهم كما أرادوا الصفة الرابعة قوله تعالى (فيها سرر مرفوعة) أى عالية فى الهواء قال ابن عباس الواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة فى السماء مالم يجئ أهلها فاذا أرادوا أن يجلسوا عليها تواضعت ثم ترتفع الى مواضعها الصفة الخامسة قوله تعالى (وأكواب موضوعة) جمع كوب وهى الكيزان التى لا عرى لها قال قتادة فهى دون الابريق وفى قوله تعالى موضوعة وجوه أحدها انها معدة لاهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيأ فيقول هو ههنا موضوع بمعنى معد ثانيها موضوعة على حافات العين الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوءة من الشراب ثالثها موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم اياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جواهر وتلذذهم بالشرب فيها رابعها أن يكون المراد موضوعة عن حد الكبر اى هى أوساط بين الكبر والصغر كقوله قدروها تقديرا الصفة السادسة قوله تعالى (ونمارق) وهى الوسائد واحدها نمرقة بضم النون والراء وكسرهما لغتان أشهرهما الاولى وهى وسادة صغيرة قالت

نحن بنات طارق * نمشى على النمارق

(مصفوفة) أى واحدة الى جنب واحدة أخرى قال الشاعر

كهولا وشبانا حسانا وجوههم * لهم سرر مصفوفة ونمارق

الصفة السابعة قوله تعالى (وزرابى) وهى جمع زربية بفتح الزاى وكسرها لغتان مشهورتان وهى بسط عراض فاخرة وقال ابن عباس هى الطنافس التى لها خمل أى وبر رقيق واختلف فى قوله تعالى (مبثوثة) فقال قتادة مبسوطة وقال عكرمة بعضها فوق بعض وقال الفراء كثيرة وقال القتيبى مفرقة فى المجالس قال القرطبى وهذا أصح فهى كثيرة متفرقة ومنه قوله تعالى وبث فيها من كل دابة * ولما ذكر تعالى أمر الدارين تعجب الكفار من ذلك فكذبوه وأنكروه فذكرهم الله تعالى صنعه وقدرته بقوله تعالى (أفلا ينظرون) أى المنكرون لقدرته سبحانه وتعالى على الجنة وما ذكر فيها والنار وما ذكر فيها أى نظر اعتبار (الى الابل) ونبه على أنه عجيب خلقها مما ينبغى أن تتوفر الدواعى على الاستفهام والسؤال عنه باداة الاستفهام فقال تعالى (كيف خلقت) أى خلقا عجيبا دالا على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث خلقها لتنهض بالاثقال وجرها الى البلاد النائية فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعارض ضعيفا ولا تمانع صغيرا وبرأها طوال الاعناق لتنوء بالاوقار وعن بعض الحكماء انه حدث عن البعير وبديع خلقه وقد نشأ فى بلاد لا ابل بها ففكر ثم قال يوشك أن تكون طوال الاعناق وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى ان ظماءها لتصبر الى عشر فصاعدا الثانى انها ترعى البرارى والقفار ومع مالها من منافع أخر ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبثة فى الحيوانات التى هى أشرف المركبات وأكثرها صنعا ولانها أعجب ما عند العرب من هذا النوع لانها ترعى كل شئ نابت فى البرارى والقفار زمن الارتعاء سائر البهائم وعن سعيد بن جبير

صنعه وانه لما ذكر ارتفاع
سررها قالوا كيف نصعدها
فنزلت هذه الآية وله فى
أفلا ينظرون الى الابل
نظر اعتبار كيف خلقت
للاثقال وحملها الى البلاد
البعيدة وبروكها لحمل

قال لقيت شريحا القاضي فقلت له اين تريد قال أريد الكناسة قلت وما تصنع بها قال انظر الى
الابل كيف خلقت * (تنبيه) * الابل اسم جمع واحده بعير وناقة وجمل ولا واحد لها من لفظها
وقال المبرد الابل هنا القطع العظيمة من السحاب قال الثعلبي ولم أجد لذلك أصلا في كتب
الائمة وقال الماوردي وفي الابل وجهان أظهرهما وأشهرهما الابل والثاني انها السحاب فان كان
المراد بها السحاب فلما فيها من الآيات والدلالات الدالة على قدرته والمنافع العامة لجميع خلقه
وان كان المراد بها الابل فلأن الابل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات لان ضروب الحيوان
أربعة حلوبة وركوبة وأكولة وحمولة والابل تجمع هذه الخلال الاربع فكانت
النعمة بها أعم وظهور القدرة فيها أتم وقيل للحسن الفيل أعظم في الاعجوبة فقال العرب
بعيدة العهد بالفيل ثم هو لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره ولا يحلب دره (والى السماء) التي هي
من جملة مخلوقاتنا (كيف رفعت) أي رفعا بعيدا بلا امساك وبغير عمد على ما لها من السعة
والكبر والثقل والاحكام وما فيها من الكواكب والغرائب والعجائب (والى الجبال) أي
الشامخة وهي أوتاد الارض (كيف نصبت) نصبا ثابتا فهي راسية لا تميل ولا تزول كما قال تعالى
وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بكم (والى الارض) أي على سعتها (كيف سطحت) سطحا
بتمهيد وتوطئة فهي مهاد للتقلب عليها واستدل بعضهم بذلك على أن الارض ليست بكرة
قال الرازي وهو ضعيف لان الكرة اذا كانت في نهاية العظمة تكون كل قطعة منها كالسطح
(فان قيل) كيف حسن ذكر الابل مع السماء والجبال والارض ولا مناسبة (أجيب) بان من
فسرها بالسحاب فالمناسبة ظاهرة وذلك على طريق التشبيه والمجاز ومن فسرها بالابل فالمناسبة
بينها وبين السماء والارض والجبال من وجهين أحدهما ان القرآن نزل على العرب وكانوا
يسافرون كثيرا ويسيرون عليها في أوديتهم وبواديهم مستوحشين ومنفردين عن الناس
والانسان اذا انفرد أقبل على التفكر في الاشياء لانه ليس معه من يحادثه وليس هناك ما يشغل
به سمعه وبصره فلا بد من أن يجعل دأبه التفكر فاذا تفكر في تلك الحال فأول ما يقع بصره على
البعير الذي هو راكبه يرى منظرا عجيبا وان نظر الى فوق لم ير غير السماء وان نظر يمينا وشمالا
لم ير غير الجبال وان نظر الى تحت لم ير غير الارض فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة
والانفراد حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر ثانيهما ان جميع المخلوقات
دالة على الصانع جلت قدرته الا أنها قسمان منها ما للشهوة فيه حظ كالوجه الحسن والبساتين
النزهة والذهب والفضة فهذه مع دلالتها على الصانع قد يمنع استحسانها عن كمال النظر فيها
ومنها ما لا حظ فيه للشهوة كهذه الاشياء فأمر بالنظر فيها اذ لا مانع من كمال النظر فيها
وقال عطاء عن ابن عباس كأن الله تعالى يقول هل يقدر أحد أن يخلق مثل الابل أو يرفع
مثل السماء أو ينصب مثل الجبال أو يسطح مثل الارض غيري * ولما ذكر تعالى الدلائل على
صحة التوحيد والمعاد قال مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم (فذكر) أي بنعم الله تعالى
ودلائل توحيده وعظهم بذلك وخوفهم يا أشرف الخلق (انما أنت مذكر) فلا عليك أن
لا ينظروا ولم يذكروا وما عليك الا البلاغ كما قال تعالى ان عليك الا البلاغ (لست عليهم
بمسيطر) أي بمسلط فتقهرهم وتكرههم على الايمان كقوله تعالى وما أنت عليهم بجبار وهذا

وتنوء بها حملته وتضرب لكل من قادها حتى الصبي الصغير وأعطيت الصبر على العطش عشرة أيام فأكثر وجعلت ترعى كل نبات في القفار دون غيرها من الدواب والانعام

قيل

قبل الامر بالجهاد وقرأ هشام بالسين وقرأ حمزة بخلاف عن خلاف باشمام الصاد كالزاي والباقون بالصاد الخالصة وقوله تعالى (الا من تولى) استثناء منقطع اى لكن من تولى عن الايمان (وكفر) أى بالقرآن (فيعذبه الله) اى الذى له الكمال كله بسبب تكبره عن الحق ومخالفته لامرك (العذاب الاكبر) أى عذاب الآخرة لانهم عذبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والقتل والاسر وقيل استثناء متصل فان جهاد الكفار وقتلهم تسليط فكانه أوعدهم بالجهاد فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة وقيل هو استثناء من قوله تعالى فذكر الا من انقطع طمعك من ايمانه وتولى فاستحق العذاب الاكبر وما بينهما اعتراض (ان الينا) أى خاصة بما لنا من العظمة (ايابهم) أى رجوعهم بعد البعث (ثم ان علينا) أى خاصة بما لنا من القدرة والتنزه عن نقص العيب والجور وكل نقص لا على غيرنا (حسابهم) أى جزاءهم فلا نتركه أبدا وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان يشق عليه تكذيبهم (فان قيل) ما معنى تقديم الظرف (اجيب) بان معناه التشديد فى الوعيد وان ايابهم ليس الا الى الجبار المقتدر على الانتقام وان حسابهم ليس الا عليه وهو الذى يحاسب على النقير والقطمير وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ الغاشية حاسبه الله حسابا يسيرا حديث موضوع

سورة الفجر مكية

وقيل مدنية وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية ومائة وتسع وثلاثون كلمة وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفا

(بسم الله) الملك المعبود (الرحمن) الذى عم خلقه بالكرم والجود (الرحيم) الذى سدد أهل عنايته بفضله فهو الحليم الودود وقوله تعالى (والفجر) أى فجر كل يوم قسم كما أقسم بالصبح فى قوله تعالى والصبح اذا أسفر والصبح اذا تنفس وقال قتادة هو فجر أول يوم من المحرم تتفجر منه السنة وقال الضحاك فجر ذى الحجة وقيل ذلك على مضاف محذوف أى وصلاة الفجر وقيل ورب الفجر وتقدم ان الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته واختلف فى قوله تعالى (وليال عشر) فقال مجاهد وقتادة هو عشر ذى الحجة وقال الضحاك هو العشر الاول من رمضان وعن ابن عباس انه العشر الاخير من رمضان وعن يمان بن رباب هو العشر الاول من المحرم التى عاشرها يوم عاشوراء ولصومه فضل عظيم (فان قيل) لم نكر الليالى من بين ما أقسم به (اجيب) بان ذلك للتعظيم (والشفع) أى الزوج (والوتر) أى الفرد وقيل الشفع الخلق كلهم قال الله تعالى وخلقناكم أزواجا والوتر هو الله تعالى قاله أبو سعيد الخدرى وقال مجاهد ومسروق الشفع الخلق كله قال الله تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين الكفر والايمان والهدى والضلال والسعادة والشقاوة والليل والنهار والسماء والارض والبر والبحر والشمس والقمر والجن والانس والوتر هو الله تعالى قل هو الله أحد وقال قتادة هما الصلوات منها شفع ومنها وتر وروى ذلك عن عمران بن حصين مرفوعا وعن ابن عباس الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب وقال الحسين بن الفضل الشفع درجات الجنة لانها ثمان والوتر دركات

بذكر الفيل والزرافة والبحر كذو غيرها مما هو أعظم من الجبل لان العرب لم يروا شيئا من ذلك ولا عرفوه وأما الجواب عن الثانى فلان الابل كانت أنفس أموالهم

النار لانها سبع دركات وسئل ابو بكر الوراق عن الشفع والوتر فقال الشفع تضاد اوصاف المخلوقين من العز والذل والقدرة والعجز والقوة والضعف والعلم والجهل والبصر والعمى والوتر انفراد صفات الله سبحانه وتعالى عز بلا ذل وقدرة بلا عجز وقوة بلا ضعف وعلم بلا جهل وحياة بلا موت وعن عكرمة الوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر واختاره النحاس وقال هو الذى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم فيوم عرفة وتر لانه تاسعها ويوم النحر شفع لانه عاشرها وقال ابن الزبير الشفع الحادى عشر والثانى عشر من أيام منى والوتر الثالث عشر وقال الضحاك الشفع عشر ذى الحجة والوتر أيام منى الثلاثة وقيل الشفع والوتر آدم عليه السلام كان وترا فشفع بزوجته حواء حكاه القشيرى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقرأ حمزة والكسائى بكسر الواو والباقون بفتحها وهما لغتان الفتح لغة قريش ومن والاها والكسر لغة تميم وقوله تعالى (والليل اذا يسر) قسم خامس بعدما أقسم بالليالى العشر على الخصوص أقسم به على العموم ومعنى يسر سار وذهب كما قال الله تعالى والليل اذ ادبر وقال قتادة اذا جاء واقبل وقيل معنى يسر أى يسرى فيه كما يقال ليل قائم ونهار صائم ومنه قوله تعالى بل مكر الليل والنهار وقرأ نافع وأبو عمرو باثبات الياء بعد الراء وصلا لا وقفا وأثبتها ابن كثير فى الحالين وحذفها الباقون فى الحالين لسقوطها فى خط المصحف الكريم واثباتها هو الاصل لانها لام فعل مضارع مرفوع ومن فرق بين حالتى الوقف والوصل فلان الوقف محل استراحة وسئل الاخفش عن العلة فى سقوط الياء فقال الليل لا يسرى ولكن يسرى فيه فهو مصروف فلما صرفه بخسه حظه من الاعراب كقوله تعالى وما كانت امك بغيا ولم يقل بغية لانه صرفه عن باغية وهذه الاسماء كلها مجرورة بالقسم والجواب محذوف تقديره لتعذبن يا كفار مكة بدليل قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد الى قوله تعالى فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد وما بينهما اعتراض وقوله تعالى (هل فى ذلك) أى القسم والمقسم به (قسم) أى حلف أو محلوف (لذى حجر) استفهام معناه التقرير كقولك ألم أنعم عليك اذا كنت قد أنعمت والمراد منه التأكيد لما أقسم به واقسم عليه كمن ذكر حجة باهرة ثم قال هل فيما ذكرته حجة والمعنى ان من كان ذا لب علم ان ما أقسم الله تعالى به من هذه الاشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية فهو حقيق بان يقسم به لدلالته على خالقه والحجر العقل لانه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغى كما يسمى عقلا ونهية لانه يعقل وينهى وحصاة من الاحصاء وهو الضبط وقال الفراء يقال انه لذو حجر اذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها وقوله تعالى (ألم تر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكن المراد به العموم والمراد بالرؤية العلم أى ألم تعلم يا أشرف رسلنا (كيف فعل ربك) أى المحسن اليك بانواع النعم (بعاد ارم) وهو ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ثم انهم جعلوا لفظ عاد اسما للقبيلة كما يقال لبنى هاشم هاشم ولبنى تميم تميم ثم قيل للاولين منهم عاد الاولى وارم تسمية لهم باسم جدهم ولمن بعدهم عاد الاخيرة فارم فى قوله تعالى عاد ارم عطف بيان لعاد وايذان بانهم عاد الاولى القديمة وقيل ارم بلدتهم وأرضهم التى كانوا فيها وقوله تعالى (ذات) أى صاحبة (العماد) بتقدير ان كانت صفة للقبيلة فالمعنى انهم كانوا بدويين أهل عمد

واكثرها وانما جمع بينها وبين ما بعدها الانها جاءا على وفق عادة العرب فى ان اتقاءهم بالابل اكثر ولا يحصل الابان ترعى وتشرب وذلك بنزول المطر من السماء

وطوال

وطوال الاجسام على تشبيه قدودهم بالاعمدة وقيل ذات البناء الرفيع وان كانت صفة للبلدة فالمعنى انها ذات أساطين وروى انه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الامر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال ابني مثلها فبنى ارم في بعض صحارى عدن في ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الاشجار والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها باهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب ابل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث الى كعب فسأله فقال هي ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت فابصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل وقوله تعالى (التي لم يخلق مثلها في البلاد) صفة أخرى لارم فان كانت للقبيلة فلم يخلق مثل عاد في البلاد عظم أجرام وقوة قال الزمخشري كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحي فيهلكهم وروي عن مالك انه كانت تمر بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة وان كانت للبلدة فلم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا والمقصود من هذه الحكاية زجر الكفار فان الله تعالى بين انه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل مع الذي اختصوا به من هذه الوجوه فلان تكونوا مثل ذلك أيها الكفار اذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم أولى وقد ذكر الله تعالى ثلاث قصص هذه القصة الاولى وأما الثانية فهي في قوله تعالى (وثمود الذين جابوا) أي قطعوا (الصخر) جمع صخرة وهي الحجر واتخذوها بيوتا كقوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا (بالواد) أي وادي القرى قيل أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة وقيل سبعة آلاف مدينة كلها من الحجارة *(تنبيه)* اثبت الياء ورش وابن كثير وصلا وأثبتها وقفا ابن كثير بخلاف عن قنبل وأما القصة الثالثة فهي في قوله تعالى (وفرعون) أي وفعل بفرعون (ذي الاوتاد) واختلف في تسميته بذلك على وجهين أحدهما انه سمي بذلك على كثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها اذا نزلوا والثاني انه كان يتد أربعة أوتاد ويشد اليها يدي ورجلي من يعذبه وعن عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان فرعون انما سمي ذا الاوتاد لأنه كانت امرأة وهي امرأة خازنه حزقيل وكان مؤمنا كتم ايمانه مائة سنة وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون اذ سقط المشط من يدها فقالت تعس من كفر بالله فقالت بنت فرعون وهل لك اله غير أبي فقالت الهي واله أبيك واله السموات والارض واحد لا شريك له فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي فقال ما يبكيك فقالت الماشطة امرأة خازنك تزعم ان الهك والهها واله السموات والارض واحد لا شريك له فارسل اليها فسألها عن ذلك فقالت صدقت فقال لها ويحك اكفري بالهك وأقري باني الهك قالت لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب وقال لها اكفري بالله والا عذبتك بهذا العذاب شهرين فقالت له لو عذبتني بهذا العذاب سبعين شهرا ما كفرت بالله وكان

فعطفها في الذكر على الابل ثم لابدائهم من حسن يصنعون به ولاشئ في ذلك اهم كالجبال فعطفها على ما قبلها ثم لابدائهم عند طول المكث من التنقل

امها فقتلت بخاتا بنتها الكبرى فذبحها في فيها وقال لها اكفرى بالله والاذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعة فقالت لو ذبحت من في الارض على فيّ ما كفرت بالله عزوجل فاتى بابنتها فلما اضجعت على صدرها وأراد ذبحها جزعت المرأة فانطق الله تعالى لسان ابنتها فتكلمت وهى من الاربعة الذين تكلموا أطفالا وقالت يا أماه لا تجزعى فان الله تعالى قد بنى لك بيتا فى الجنة فاصبرى فانك تفضين الى رحمة الله تعالى وكرامته فذبحت فلم تلبث ان ماتت فاسكنها الله تعالى الجنة قال وبعث فى طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه فقيل لفرعون انه قد رؤى فى موضع كذا فى جبل كذا فبعث رجلين فى طلبه فانتهيا اليه وهو يصلى ويليه صفوف من الوحوش خلفه يصلون خلفه فلما رأيا ذلك انصرفا فقال حزقيل اللهم أنت تعلم انى كتمت ايمانى مائة سنة ولم يظهر على أحد فايما هذين الرجلين أظهر على فعجل عقوبته فى الدنيا واجعل مصيره فى الآخرة الى النار فانصرف الرجلان الى فرعون فاما أحدهما فاعتبر وآمن وأما الآخر فاخبر فرعون بالقصة على رؤس الملا فقال له فرعون وهل معك غيرك قال نعم فلان فدعى به فقال حق ما يقول هذا قال لا ما رأيت مما قال شيأ فاعطاه فرعون فاجزل وأما الآخر فقتله ثم صلبه قال وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بنى اسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة فقالت وكيف يسعنى أن أصبر على ما يأتى من فرعون وانا مسلمة وهو كافر فبينما هى كذلك تؤامر نفسها اذ دخل عليها فرعون فجلس قريبا منها فقالت يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثه عمدت الى الماشطة فقتلتها فقال لعل بك الجنون الذى كان بها قالت ما بى من جنون وان الهى والهها والهك واله السموات والارض واحد لا شريك له فمزق عليها ثيابها وضربها وأرسل الى أبويها فدعاهما فقال لهما ألا تريان ان الجنون الذى كان بالماشطة أصابها قالت أعوذ بالله من ذلك انى أشهد أن ربى وربك ورب السموات والارض واحد لا شريك له فقال أبوها يا آسية ألست من خير نساء العماليق وزوجك اله العماليق قالت أعوذ بالله من ذلك ان كان ما يقول حقا فقولا له أن يتوجنى تاجا تكون الشمس امامه والقمر خلفه والكواكب حوله فقال لهما فرعون أخرجاها عنى فمدها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها بابا الى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون فعند ذلك قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله فقبض الله تعالى روحها وأدخلها الجنة وروى عن أبى هريرة ان فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها الى السماء وقالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ففرج الله تعالى عن بيتها فى الجنة فرأته وقوله تعالى (الذين طغوا) اى تجبروا (فى البلاد) فى محل نصب على الذم ويجوز أن يكون مرفوعا على هم الذين طغوا فى البلاد أو مجرورا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون فالضمير راجع الى عاد وثمود وفرعون وقيل يرجع الى فرعون خاصة (فاكثروا) اى طغاتهم (فيها الفساد) اى بالقتل والكفر والمعاصى قال القفال وبالجملة فالفساد ضد الصلاح فكما ان الصلاح يتناول جميع اقسام البر فالفساد يتناول جميع أقسام الاثم فمن عمل بغير أمر الله تعالى وحكم فى عباده بالظلم فهو مفسد (فصب) اى أنزل انزالا هو فى غاية القوة (عليهم) اى فى الدنيا (ربك) اى المحسن

من أرض الى سواها فاذا فتش على ما قبلها وجد هذه البدوى فى نفسه وجد هذه الاشياء حاضرة عنده على الترتيب المذكور بخلاف الحضرى

(سورة الفجر)

(قوله والفجر) قسم وجوابه مع ما بعده محذوف تقديره لتعذبن يا كفار مكة (قوله وليال عشر) اى ليالى عشر ذى

اليك بكل جميل (سوط) اى نوع (عذاب) وقال قتادة يعنى ألوانا من العذاب صبه عليهم وقال أهل المعانى هذا على الاستعارة لان السوط عندهم غاية العذاب وقال الفراء هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب وأصل ذلك ان السوط هو عذابهم الذى يعذبون به فجرى الى كل عذاب اذا كان فيه غاية العذاب وقال الزجاج جعل سوطهم الذى ضربهم به العذاب وعن الحسن انه كان اذا أتى على هذه الآية قال ان الله تعالى عنده أسواط كثيرة فأخذهم بسوط منها وقال قتادة كل شئ عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب وشبه بصب السوط الذى يتواتر على المضروب فيهلكه (ان ربك) اى المحسن اليك بالرسالة (لبالمرصاد) اى يرصد أعمال العباد لا يفوته منها شئ ليجازيهم عليها والمرصاد المكان الذى يترقب فيه الرصد مفعال من رصده كالميقات من وقته وهذا مثل لارصاده العصاة بالعقاب وانهم لا يفوتونه وعن بعض العرب انه قيل له أين ربك فقال بالمرصاد وعن عمرو بن عبيد انه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه فقال ان ربك لبالمرصاد يا أبا جعفر عرض له فى هذا النداء بانه بعض من توعد بذلك من الجبابرة قال الزمخشرى فلله دره اى أسد فراس كان بين ثوبيه يدق الظلمة بانكاره ويقصع أهل الاهواء والبدع باحتجاجه وقوله تعالى (فاما الانسان) متصل بقوله تعالى ان ربك لبالمرصاد فكأنه قيل ان الله تعالى يريد من الانسان الطاعة والسعى للعاقبة وهو لا يهمه الا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها (اذا ما ابتلاه) اى اختبره بالنعمة (ربه) اى الذى ابدعه وأحسن اليه بما يحفظ وجوده ليظهر شكره او كفره (فاكرمه) اى جعله عزيزا بين الناس وأعطاه ما يكرمونه به من الجاه والمال (ونعمه) اى جعله متلذذا متنعما بما أوسع الله تعالى عليه وقوله تعالى (فيقول) اى سرورا بذلك وافتخارا (ربى أكرمن) اى فضلنى بما اعطانى خبر المبتدا الذى هو الانسان ودخول الفاء لما فى اما من معنى الشرط والظرف المتوسط بين المبتدا والخبر فى تقدير التأخير كأنه قيل فاما الانسان فقائل ربى أكرمنى وقت الابتلاء بالانعام فيظن ان ذلك عن استحقاق فيرتفع به ويتكبر وكذا قوله تعالى (وأما اذا ما ابتلاه فقدر) اى ضيق (عليه رزقه) التقدير وأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه اى بالفقر ليوازى قسيمه (فيقول) اى الانسان بسبب الضيق (ربى أهانن) فيهتم لذلك ويضيق به ذرعا ويكون أكبر همه وهذا فى حق الكافر لقصور نظره وسوء فكره فيرى الكرامة والهوان بكثرة الحظ فى الدنيا وقلته وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى أمية بن خلف الجمحى الكافر وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى عتبة بن ربيعة وقيل أبى بن خلف (فان قيل) كيف سمى كلا الامرين من بسط الرزق وتقتيره ابتلاء (أجيب) بان كل واحد منهما اختبار للعبد فاذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر واذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع فالحكمة فيهما واحدة ونحوه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فان قيل) هلا قال فاهانه وقدر عليه رزقه كما قال فاكرمه ونعمه (أجيب) بان البسط اكرام من الله تعالى لعبده بانعامه عليه متفضلا من غير سابقة وأما التقتير فليس باهانة له لان الاخلال بالتفضل لا يكون اهانة ولكن تركا للكرامة وقد يكون المولى مكرما ومهينا وغير مكرم ولا مهين واذا أهدى لك زيد هدية قلت أكرمنى بالهدية ولا تقول أهاننى ولا أكرمنى اذا لم يهد اليك (فان

قيل) قد قال تعالى فاكرمه فصحح اكرامه واثبته ثم أنكر قوله ربي أكرمن وذمه عليه كما أنكر قوله أهانن وذمه عليه (أجيب) بوجهين أحدهما انما أنكر قوله ربي أكرمن وذمه عليه لانه قاله على قصد خلاف ما صححه الله تعالى عليه واثبته وهو قصده الى أن الله تعالى أعطاه ما أعطاه اكراما له مستحقا مستوجبا على عادة افتخارهم وجلالة اقدارهم عندهم كقوله انما أوتيته على علم عندي وانما أعطاه الله تعالى على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتد الله تعالى الا به وهو التقوى دون الانساب والاحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها ثانيهما ان ينساق الانكار والذم الى قوله ربي أهانن يعني انه اذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله واكرامه واذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانا وليس بهوان قال الزمخشري ويعضد هذا الوجه ذكر الاكرام في قوله تعالى فاكرمه وقرأ ما ابتلاه في الموضعين حمزة بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ ربي أكرمن ربي أهانن نافع باثبات الياء فيهما وصلا لا وقفا وقرأ البزي باثباتها فيهما وقفا ووصلا وعن أبي عمرو فيهما في الوصل الاثبات والحذف عنه في الوصل أعدل والباقون بالحذف وقفا ووصلا وقرأ ابن عامر فقدر عليه رزقه بتشديد الدال والباقون بتخفيفها وهما لغتان معناهما ضيق وقيل قدر بمعنى قتر وقدر أعطاه ما يكفيه ثم رد الله تعالى على من ظن ان سعة الرزق اكرام وان الفقر اهانة بقوله تعالى (كلا) اى ليس الاكرام بالغنى والاهانة بالفقر انما هما الطاعة والمعصية وكفار مكة لا ينتبهون لذلك (بل) لهم فعل أشر من هذا القول وهو انهم (لا يكرمون اليتيم) اى لا يحسنون اليه مع غناهم او لا يعطونه حقه من الميراث قال مقاتل كان قدامة بن مظعون يتيما في حجر أمية بن خلف فكان يدفعه عن حقه فنزلت (ولا يحضون) اى يحثون حثا عظيما (على طعام) اى اطعام (المسكين) فيكون اسم مصدر بمعنى الاطعام ويجوز أن يكون على حذف مضاف اى على بذل أو على اعطاء وفي اضافته اليه اشارة الى انه شريك للغني في ماله بقدر الزكاة (ويأكلون) على سبيل التجدد والاستمرار (التراث) اى الميراث والتاء في التراث بدل من واو لانه من الوراثة (أكلا لما) اى ذا لم واللم الجمع الشديد يقال لممت الشئ لما اى جمعته جمعا قال الحطيئة

اذا كان لما يتبع الذم ربه * فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا

والجمع بين الحلال والحرام فانهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون انصباءهم ويأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك فيلمون في الاكل بين حلاله وحرامه ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال مهلا مهلا من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في انفاقه ويأكله أكلا واسعا جامعا بين ألوان المشتهيات من الاطعمة والاشربة والفواكه كما يفعل الوراث البطالون ولما دل على حب الدنيا بامر خارجي دل عليه في الانسان فقال تعالى (ويحبون) اى على سبيل الاستمرار (المال) اى هذا النوع من اى شئ كان وأكد بالمصدر والوصف فقال تعالى (حبا جما) اى كثيرا شديدا مع الحرص والشره ومنع الحقوق وقوله تعالى (كلا) ردع لهم عن ذلك وانكار لفعلهم ثم أخبر تعالى عن تلهفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم فقال عز من

الجنة (فان قلت) كيف نكرها دون بقية ما أقسم به (قلت) لاختصاصها من بين الليالي بفضيلة ليست لغيرها فلم يجمع بينها وبين البقية بلام الجنس

قوله مهلا الخ كذا باصله الطبع وفي بعض النسخ سهلا سهلا وفي الكشاف سهلا مهلا اه مصححه

قتل

قائل (اذا دكت الارض) أى حصل دكها ورجها وزلزالها وتسويتها فتكون كالاديم الممدود بشدة المط لاعوج فيها بوجه (دكادكا) أى مرة بعد مرة وكسر كل شئ على ظهرها من جبل وبناء وشجر فلم يبق على ظهرها شئ وينعدم (وجاء ربك) قال الحسن أمره وقضاؤه (والملك) أى الملائكة وقوله تعالى (صفا صفا) حال أى مصطفين أى ذوى صفوف كثيرة فتنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والانس (وجئ) أى باسهل أمر (يومئذ) أى اذ وقع ما ذكر (بجهنم) أى النار التى تجهم من يصلاها كقوله تعالى وبرزت الجحيم وروى انها لما نزلت تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف فى وجهه حتى اشتد على أصحابه فاخبروا عليا فجاء فاحتضنه من خلفه وقبل ما بين عاتقيه ثم قال يا نبى الله بابى أنت وامى ما الذى حدث اليوم وما الذى غيرك فتلا عليه الآية فقال له على كيف يجاء بها قال يجئ بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لاحرقت أهل الجمع ثم تعرض لى جهنم فتقول مالك ولى يا محمد ان الله تعالى قد حرم لحمك على فلا يبقى أحد الا قال نفسى نفسى الا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول رب أمتى أمتى وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه تقاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام بيد سبعين ألف ملك لها تغيظ وزفير حتى تنصب على يسار العرش وقوله تعالى (يومئذ) أى يوم يجاء بجهنم بدل من اذ وجوابها (يتذكر الانسان) أى يتذكر الكافر ما فرط أو يتعظ لانه يعلم قبح معاصيه فيندم عليها (وأنى له الذكرى) أى ومن أين له منفعة الذكرى قال الزمخشرى لابد من حذف مضاف والا فبين يتذكر وبين وأنى له الذكرى تناف وتناقض *(تنبيه)* انى خبر مقدم والذكرى مبتدأ مؤخر وله متعلق بما تعلق به الظرف وقرأ وأنى حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين وقرأ الدورى عن ابى عمرو بالامالة بين بين والباقون بالفتح وقرأ الذكرى أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح (يقول) أى يقول مع تذكره (يا) للتنبيه (ليتنى قدمت لحياتى) أى فى حياتى فاللام بمعنى فى أو قدمت الايمان والخير لحياة لاموت فيها أو وقت حياتى فى الدنيا (فيومئذ) أى يوم يقول الانسان ذلك وقرأ (لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) الكسائى بفتح الذال والثاء على البناء للمفعول والباقون بكسرهما على البناء للفاعل فاما قراءة الكسائى فضمير عذابه ووثاقه للكافر والمعنى لا يعذب أحد مثل تعذيبه ولا يوثق مثل ايثاقه وأما على قراءة الباقين فالضمير فيهما لله تعالى أى لا يكل عذابه الى غيره أو الزبانية المتولين العذاب بامر الله تعالى *ولما وصف الله تعالى حال من اطمأن الى الدنيا وصف حال من اطمأن الى معرفته وعبوديته وسلم أمره اليه فقال تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة) قال الحسن أى المؤمنة الموقنة وقال مجاهد الراضية بقضاء الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بثواب الله تعالى وقال ابن كيسان المخلصة وقال ابن زيد التى بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع ويقال لها عند الموت (ارجعى الى ربك) أى الى أمره وارادته وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الى صاحبك وجسدك وقال الحسن الى ثواب ربك (راضية) أى بما أوتيته (مرضية) أى عند الله تعالى بعملك أى جامعة بين الوصفين لانه لا يلزم من أحدهما الآخر وهما حالان

وانما لم تعرف بلام العهد لما مر فى سورة البروج (قوله فيقول ربى أكرمن) (ان قلت) كيف ذمه يقول ربى أكرمن مع انه صادق فيه لقوله تعالى فاكرمه ونعمه ومع انه متحدث بالنعمة وهو

قال القفال هذا وان كان أمرا فى الظاهر فهو خبر فى المعنى والتقدير ان النفس اذا كانت مطمئنة رجعت الى الله تعالى فى القيامة بسبب هذا الامر (فادخلى فى) أى فى جملة (عبادى) أى الصالحين والوافدين على الذين هم أهل الاضافة الى أوفى اجساد عبادى التى خرجت فى الدنيا منها (وادخلى جنتى) أى معهم هى جنة عدن وهى أعلى الجنان ويجىء الامر بمعنى الخبر كثيرا فى كلامهم كقوله اذا لم تستح فاصنع ماشئت وقال سعيد بن زيد قرأ رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال ابو بكر ما أحسن هذا يارسول الله فقال له ان الملك سيقولها لك يا أبا بكر وقال سعيد بن جبير مات ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بالطائف فجاء طائر لم ير على خلقه طائر قط فدخل نعشه ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لايدرى من تلاها يا أيتها النفس الآية وروى الضحاك انها نزلت فى عثمان حين وقف بئر رومة وقيل فى خبيب بن عدى الذى صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه الى المدينة فقال اللهم ان كان لى عندك خير فحول وجهى نحو قبلتك فحول الله تعالى وجهه نحوها فلم يستطع أحد ان يحوله وقيل نزلت فى حمزة بن عبد المطلب قال الزمخشرى والظاهر العموم وقول البيضاوى تبعا له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الفجر فى الليالى العشر غفر له ومن قرأها فى سائر الايام كانت له نورا يوم القيامة حديث موضوع

سورة البلد مكية

وهى عشرون آية واثنتان وثمانون كلمة وثلثمائة وعشرون حرفا

(بسم الله) الملك الذى لاراد لامره (الرحمن) الذى عم سائر خلقه بفضله (الرحيم) الذى خص أهل طاعته بجنته واختلف فى لا فى قوله تعالى (لا أقسم) فقال الاخفش انها مزيدة أى أقسم كما تقدم فى قوله تعالى لا أقسم بيوم القيامة وقد أقسم به سبحانه وتعالى قال الشاعر

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة * وكاد صميم القلب لا يتقطع

أى يتقطع ودخل حرف لا صلة وكقوله تعالى مامنعك أن لا تسجد وقد قال تعالى فى ص مامنعك أن تسجد وأجاز الاخفش أيضا أن تكون بمعنى ألا وقيل هى نفى صحيح والمعنى لا أقسم بهذا البلد اذا لم تكن فيه بعد خروجك منه حكاه مكى وأجمعوا على ان المراد بالبلد فى قوله تعالى (بهذا البلد) اى الحرام وهو مكة وفضلها معروف فانه تعالى جعلها حرما آمنا وقال تعالى ومن دخله كان آمنا وجعل مسجده قبلة لاهل المشرق والمغرب فقال تعالى وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وأمر الناس بحج البيت فقال تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا وقال تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا وقال تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت وقال تعالى وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق وشرف مقام ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وحرم صيده وجعل البيت المعمور بازائه ودحيت الارض من تحته فهذه الفضائل وأكثر منها انما اجتمعت فى مكة لاجرم أقسم الله تعالى بها (وأنت) أى يا أشرف الخلق (حل) اى حلال لك مالم يحل لغيرك من قتل من تريد ممن يدفى أنه لاقدرة لاحد عليه (بهذا البلد) بان يحل لك فتقاتل فيه وقد أنجز الله له هذا الوعد يوم

مأمور بالتحدث بها لقوله وأما بنعمة ربك فحدث (قالت) المراد ان يقول ذلك مفتخرا به على غيره ومستدلا به على علو منزلته فى الآخرة ومعتقدا استحقاق ذلك على ربه كما فى قوله تعالى

الفتح واحلها له وما احلت على احد قبله ولا احلت له فاحل ما شاء وحرم ما شاء فقتل ابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار ابي سفيان ثم قال ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض فهي حرام الى ان تقوم الساعة لم تحل لاحد قبلي ولن تحل لاحد بعدي ولم تحل لي الا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها الا لمنشدها فقال العباس يا رسول الله الا الاذخر فانه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا فقال صلى الله عليه وسلم الا الاذخر ونظيره وانت حل في معنى الاستقبال قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ومثله واسع في كلام العرب تقول لمن تعده الاكرام والحباء انت مكرم محبو وهو في كلام الله تعالى واسع لان الاحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة وكفاك دليلا قاطعا على انه للاستقبال وان تفسيره بالحال محال ان السورة بالاتفاق مكية واين الهجرة من وقت نزولها فما بال الفتح والجملة اعتراض بين المقسم به وما عطف عليه واختلف في قوله تعالى (ووالد وما ولد) فقال الزمخشري هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ولده اقسم ببلده الذي هو مسقط راسه وحرم ابيه ابراهيم ومنشا ابيه اسمعيل وبمن ولده وبه وقال البغوي هما آدم وذريته وقيل كل والد وولده (فان قيل) هلا قيل ومن ولد (اجيب) بان فيه ما في قوله تعالى والله اعلم بما وضعت اي باي شيء وضعت يعني موضوعا عجيب الشأن او ان ما بمعنى من والذي عليه اكثر المفسرين هما آدم وذريته لانهم اعجب ما خلق الله تعالى على وجه الارض لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم وفيهم الانبياء والدعاة الى الله تعالى والانصار لدينه وامر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الاسماء كلها ولقد قال الله تعالى ولقد كرمنا بني آدم وقيل هما آدم والصالحون من ذريته واما الطالحون فكانهم بهائم كما قال تعالى ان هم الا كالانعام بل هم اضل صم بكم عمي فهم لا يرجعون والمقسم عليه قوله تعالى (لقد خلقنا الانسان) اي الجنس (في كبد) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اي شدة ونصب وعنه ايضا في شدة من حمله وولادته ورضاعه ونبت اسنانه وسائر احواله وعن عكرمة منتصبا في بطن امه والكبد الاستواء والاستقامة فهذا امتنان عليه في الحقيقة ولم يخلق الله تعالى دابة في بطن امها الا منكبة على وجهها الا ابن آدم فانه منتصب انتصابا وقال ابن كيسان منتصبا في بطن امه فاذا اراد الله تعالى ان يخرجه من بطن امه قلب راسه الى رجلي امه وقال الحسن يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة وقال يمان لم يخلق الله تعالى خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك اضعف الخلق قال بعض العلماء اول ما يكابد قطع سرته ثم اذا قمط قماطا وشد رباطا يكابد الضيق والتعب ثم يكابد الارتضاع ولو فاته ضاع ثم يكابد نبت اسنانه ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام ثم يكابد الختان والاوجاع ثم المعلم وصولته والمؤدب وسياسته والاستاذ وهيبته ثم يكابد شغل التزويج وشغل الاولاد والخدم وشغل المسكن والجيران ثم الكبر والهرم وضعف الركب والقدم في مصائب يكثر تعدادها من صداع الراس ووجع الاضراس ورمد العين وهم الدين ووجع السن وألم الاذن ويكابد محنا في المال والنفس من الضرب والحبس ولا يمضي عليه يوم الا يقاسي فيه شدة ثم يكابد بعد ذلك مشقة الموت ثم بعد سؤال الملك وضغطة القبر وظلمته ثم

انما اوتيته على علم عندي وكل ذلك منهي عنه واما اذا قاله على وجه الشكر والتحدث بنعمة الله فليس بمذموم بل ممدوح (قوله وجاء ربك) اي امره

(سورة البلد)

(قوله لا أقسم بهذا البلد

البعث والعرض على الله تعالى الى أن يستقر به القرار اما فى الجنة واما فى النار فدل هذا على أن له خالقا دبره وقضى عليه بهذه الاحوال ولو كان الامر اليه ما اختار هذه الشدائد فليمتثل أمر خالقه وقال ابن زيد المراد بالانسان هنا آدم عليه السلام وقوله تعالى فى كبد أى فى وسط السماء وقال مقاتل فى كبد أى فى قوة نزلت فى أبي الاشدين واسمه أسيد بن كلدة بن جمح وكان شديدا قويا يضع الاديم العكاظى تحت قدميه فيقول من أزالنى عنه فله كذا وكذا فيجذبه عشرة فيتمزق الاديم من تحت قدميه ولا تزول قدماه ويبقى موضع قدميه وكان من أعداء النبى صلى الله عليه وسلم وفيه نزل (أيحسب) أى أيظن الانسان قوى قريش وهو أبو الاشدين ٣ بقوته (أن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى انه (لن يقدر عليه) أى خاصة (أحد) أى من أهل الارض أو السماء فيغلبه حتى انه يعاند خالقه والله تعالى قادر عليه فى كل وقت وقيل نزلت فى المغيرة بن الوليد المخزومى (يقول) أى يفتخر بقوته وشدته (أهلكت) أى على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم (مالا لبدا) أى كثيرا بعضه على بعض (أيحسب) أى هذا الانسان المنيد بقله عقله (أن) اى انه (لم يره أحد) قال سعيد بن جبير أى أظن ان الله تعالى لم يره ولا يسأله عن ماله من اين اكتسبه وفيم أنفقه وقال الكلبى انه كان كاذبا فى قوله انه أنفقه ولم ينفق جميع ما قال والمعنى أيظن ان الله تعالى لم ير ذلك منه فيعلم مقدار نفقته وقرأ أيحسب فى الموضعين ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها * ثم ذكر نعمه عليه ليعتبر بقوله تعالى (ألم نجعل) اى بما لنا من القدرة التامة (له عينين) يبصر بهما المرئيات والا لتعطل عليه اكثر ما يريد تحقيقه مما وهو فى الرحم فى ظلمات ثلاث على مقدار مناسب لا تزيد احداهما على الاخرى شيئا وقدرنا البياض والسواد والشهلة والزرقة وغير ذلك على ما ترون وأودعناهما البصر على كيفية يعجز الخلق عن ادراكها (ولسانا) يترجم به عن ضمائره (وشفتين) يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والاكل والشرب والنفخ وغير ذلك قال قتادة نعم الله تعالى عليه متظاهرة فيقرره بها كى يشكره قال البغوى وجاء فى الحديث ان الله تعالى يقول يا ابن آدم ان نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد اعنتك عليه بطبقتين فاطبق وان نازعك بصرك الى بعض ما حرمت عليك فقد اعنتك عليه بطبقتين فاطبق وان نازعك فرجك الى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فاطبق (وهديناه) اى آتيناه من العقل (النجدين) قال اكثر المفسرين بيناله طريق الخير والشر والهدى والضلال والحق والباطل كقوله تعالى انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا وصار بما جعلناه له من ذلك سميعا بصيرا عاقلا فصار موضعا للتكليف روى الطبرانى انه صلى الله عليه وسلم قال يا أيها الناس هلموا الى ربكم فان ما قل وكفى خير مما كثر والهى يا أيها الناس انما هما نجدان نجد خير ونجد شر فلم يجعل نجد الشر احب اليكم من نجد الخير قال المنذرى النجد هنا الطريق وقال ابن عباس رضى الله عنهما بيناله الثديين وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك واصله المكان المرتفع (فلا اقتحم العقبة) اى فهلا انفق ماله فيما يجوز به العقبة من فك الرقاب واطعام المساكين والايتام بل غمط النعم وكفر بالمنعم والمعنى ان الانفاق على هذا الوجه هو الانفاق المرضى النافع عند الله تعالى لا ان يهلك مالا لبدا فى الرياء والفخر وعداوة النبى صلى الله عليه

وسلم

وأنت حل بهذا البلد) اى مكة (فان قلت) لم كرر لفظ البلد (قلت) لم يكرره اذ التقدير لا أقسم بهذا البلد المحرم الذى يجب على العرب تعظيمه وتحريمه وأنت حل بهذا البلد اى أحل لك فيه من

٣ قوله أبى الاشدين هكذا فى النسخ بصيغة التثنية وفى حاشية الجمل والاشد هكذا بالافراد فى كثير من نسخ هذا الشرح وكثير من عبارات المفسرين وفى بعض نسخ هذا الشرح وكثير من التفاسير الاشدين بصيغة التثنية فليحرر اه

وسلم فيكون على هذا الوجه كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم الآية وقيل معناه لم يقتحمها ولا جاوزها والاقتحام الدخول في الامر الشديد وذكر العقبة مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة يقول الله تعالى لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة والاطعام وهذا معنى قول قتادة وقيل انه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها بعقبة فاذا أعتق رقبة وأطعم المساكين كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها وروى عن ابن عمر أن هذه العقبة جبل في جهنم وقال الحسن هي عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله تعالى ومجاهدة النفس وقال مجاهد هي الصراط يضرب على متن جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة صعودا وهبوطا واستواء وان بجنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان فناج مسلم وناج مخدوش ومكردس في النار منكوس وفي الناس من يمر كالبرق الخاطف ومنهم من يمر كالريح العاصف ومنهم من يمر كالرجل يعدو ومنهم من يمر كالرجل يسير ومنهم من يزحف زحفا ومنهم الزالون ومنهم من يكردس في النار وقال ابن زيد فهلا سلك طريق النجاة وقوله تعالى (وما أدراك) اى أعلمك أيها السامع لكلامنا الراغب فيما عندنا (ما العقبة) تعظيم لشأنها والجملة اعتراض قال سفيان بن عيينة كل شئ قال فيه وما أدراك فانه أخبر به وما كان قال وما يدريك فانه لم يخبر به ثم بين سبب جوازها بقوله تعالى (فك) اى الانسان (رقبة) اى خلاصها من الرق وذلك بان يعتق رقبة في ملكه أو يعطى مكاتبا ما يصرفه في فك رقبته روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله تعالى بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه وقال الزمخشري وفي الحديث أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم دلني على عمل يدخلني الجنة قال تعتق النسمة وتفك الرقبة قال أوليسا سواء قال لا اعتاقها أن تنفرد بعتقها وفكها أن تعين في تخليصها من قود أو غرم والعتق والصدقة من أفضل الاعمال وعن ابي حنيفة أن العتق أفضل من الصدقة وعن صاحبيه الصدقة أفضل قال الزمخشري والآية أدل على قول أبي حنيفة لتقديم العتق على الصدقة وقال عكرمة يعني فك رقبته من الذنوب وقال الماوردي ويحتمل أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه باجتناب المعاصي وفعل الطاعات ولا يمنع الخبر من هذا التأويل وهو أشبه بالصواب (أو أطعم) اى دفع الاطعام لشئ له قابلية ذلك (في يوم ذي مسغبة) اى مجاعة والسغب الجوع (يتيما) اى انسانا صغيرا لا أب له (ذا مقربة) اى ذا قرابة لك بان كان بينك وبينه قرابة يقال فلان ذو قرابتي وذو مقربتي (أو مسكينا) وهو من له مال او كسب يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه (ذا متربة) اى لصوق بالتراب لفقره يقال ترب اذا افتقر ومعناه التصق بالتراب وأما أترب فاستغنى اى صار ذا مال كالتراب في الكثرة كما قيل أثرى وعنه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ذا متربة الذي مأواه المزابل قال ابن عباس رضى الله عنهما هو المطروح على الطرق الذي لا بيت له وقال مجاهد هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره وقال قتادة انه ذو العيال واحتج بهذه الآية على أن المسكين يملك شيأ لانه لو كان لا يملك شيأ لكان تقييده بقوله تعالى ذا متربة تكريرا وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة برفع الكاف وجر رقبة وكسر همزة اطعام وفتح العين وبعدها ألف

حرمانه مالم يحل لاحد قبلك ولا بعدك من قتل ابن خطل وقتال المشركين ساعة من النهار فالمراد بالبلد الاول الباقى على تحريمه وبالثانى الذى احلت منه للنبى صلى الله عليه وسلم ساعة اكراما له

و رفع الميم منونة والباقون فك بنصب الكاف رقبة بالنصب أطعم بفتح الهمزة والعين والميم بغير تنوين ولا ألف بين العين والميم (فان قيل) قوله تعالى فلا اقتحم العقبة الى آخره ذكر لامرة واحدة قال الفراء والزجاج والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي حتى تعيد لا كقوله تعالى فلا صدق ولا صلى (أجيب) بانه انما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه فيجوز أن يكون قوله تعالى (ثم كان من الذين امنوا) قائما مقام التكرير فكأنه قال فلا اقتحم العقبة ولا آمن وقال الزمخشري هي متكررة في المعنى لان معنى فلا اقتحم العقبة فلا فك رقبة ولا أطعم مسكينا ألا ترى انه فسر اقتحام العقبة بذلك قال ابو حيان ولا يتم له هذا الا على قراءة فك فعلا ماضيا وعن مجاهد ان قوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا يدل على أن لا بمعنى لم ولا يلزم التكرير مع لم فان كررت لا كقوله تعالى فلا صدق ولا صلى فهو كقوله تعالى لم يسرفوا ولم يقتروا *(تنبيه)* ثم كان معطوف على اقتحم وثم للترتيب الذكري والمعنى كان وقت الاقتحام من الذين آمنوا وقال الزمخشري جاء بثم لتراخي الايمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت لان الايمان هو السابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح الا به (وتواصوا) اى وصبروا وأوصى بعضهم بعضا (بالصبر) اى على الطاعة وعن المعصية والمحن التي يبتلى بها المؤمن (وتواصوا بالمرحمة) اى بالرحمة على عباده بان يكونوا متراحمين متعاطفين اى بما يؤدي الى رحمة الله تعالى (أولئك) اى الموصوفون بهذه الصفات (أصحاب الميمنة) اى الجانب الذي فيه اليمن والبركة والنجاة من كل هلكة قال محمد بن كعب اى الذين يؤتون كتبهم بايمانهم وقال يحيى بن سلام لانهم ميامين على أنفسهم وقال ابن زيد لانهم أخذوا من شق آدم الايمن عليه السلام وقال ميمون بن مهران لان منزلتهم عن اليمين وقال الزمخشري الميمنة اليمين أو اليمن (والذين كفروا) اى ستروا ما ظهر لهم من أنوار بصائرهم من العلم (بآياتنا) اى على ما لها من العظمة بالاضافة الينا وهو الظاهر الذي لا يمكن خفاؤه من القرآن وغيره (هم أصحاب المشأمة) اى الخصلة المكتسبة للشؤم والحرمان قال محمد بن كعب اى الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم وقال يحيى بن سلام لانهم مشائيم على أنفسهم وقال ابن زيد لانهم أخذوا من شق آدم الايسر عليه السلام وقال ميمون لان منزلتهم عن اليسار وقال الزمخشري المشأمة الشمال أو الشؤم قال القرطبي ويجمع هذه الاقوال أصحاب الميمنة هم أصحاب الجنة واصحاب المشأمة هم أصحاب النار (عليهم) اى خاصة (نار مؤصدة) اى مطبقة وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة بالهمزة والباقون بغير همزة اى بواو ساكنة وهما لغتان يقال آصدت الباب وأوصدته اذا أغلقته وأطبقته وقيل معنى المهموز المطبقة وغير المهموز المغلقة واذا وقف حمزة أبدل على أصله وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الامان من غضبه يوم القيامة حديث موضوع

سورة الشمس مكية

وهي خمس عشرة آية وأربع وخمسون كلمة ومائتان وسبعة وأربعون حرفا

(بسم الله) الذي له الاسماء الحسنى (الرحمن) الذي يعلم السر وأخفى (الرحيم) الذي خص

خواصه

وتعظيما لنزائه (قوله ووالد وما ولد) الوالد آدم وما ولد ذريته وقال وما ولم يقل ومن لان في ما من الابهام ما ليس في من فقصد بها التفخيم والتعظيم كانه تعالى قال وأي شيء عجيب غريب ولد ونظيره قوله تعالى والله

خواصه بالفردوس الاعلى وقوله تعالى (والشمس) اى الجامعة بين النفع والضر بالنور والحر (وضحاها) قسم وقد تقدم الكلام على أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته وقيل التقدير ورب الشمس الى تمام القسم * واختلف فى قوله تعالى وضحاها فقال مجاهد والكلبى ضوءها وقال قتادة هو النهار كله وقال مقاتل هو حرها وقال لقوله تعالى فى طه ولا تضحى اى لا يؤذيك الحر وقال المبرد انبساطها قال الرازى انما أقسم بالشمس لكثرة ما يتعلق بها من المصالح فان أهل العالم كانوا كالاموات فى الليل فلما ظهر الصبح فى المشرق صار ذلك الضوء كالروح الذى تنفخ فيه الحياة فصارت الاموات أحياء ولا تزال تلك الحياة فى القوة والزيادة الى غاية كمالها وقت الضحوة وذلك يشبه استقرار أهل الجنة (والقمر) اى المكتسب من نورها كما ان أنوار النفوس من أنوار العقول (اذا تلاها) اى تبعها وذلك اذا سقطت رؤى الهلال قال الليث يقال تلوت فلانا اذا تبعته وقال ابن زيد اذا غربت الشمس فى النصف الاول من الشهر تلاها القمر بالطلوع وفى آخر الشهر يتلوها بالغروب وقال الفراء تلاها أى أخذ منها يعنى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس وقال الزجاج تلاها أى حين استوى ودار وكان مثلها فى الضياء والنور وذلك فى الليالى البيض (والنهار) اى الذى هو محل الانتشار فيما جرت به الاقدار (اذا جلاها) اى الشمس بارتفاعه لان الشمس تنجلى فى ذلك الوقت تمام الانجلاء وقيل الضمير للظلمة أو الدنيا أو للارض وان لم يجر لها ذكر كقولهم أصبحت باردة يريدون الغداة وأرسلت يريدون السماء (والليل) أى الذى هو ضد النهار فهو محل السكون والانقباض (اذا يغشاها) اى يغطيها بظلمته فتغيب وتظلم الآفاق وقيل الكناية للارض اى يغشى الدنيا بالظلمة فتظلم الآفاق فالكناية ترجع الى غير مذكور وجىء بغشاها مضارعا دون ما قبله وما بعده مراعاة للفواصل اذ لو أتى به ماضيا لكان التركيب اذا غشيها فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع *(تنبيه)* اذا فى الثلاثة لمجرد الظرفية والعامل فيها فعل القسم (والسماء وما) اى ومن (بناها) اى خلقها على هذا السقف المحكم أقسم تعالى بنفسه وباعظم مخلوقاته وقوله تعالى (والارض) اى التى هى فراشكم (وما) اى ومن (طحاها) أى بسطها ووسعها على الماء كذلك وكذا قوله تعالى (ونفس) اى اى نفس جمع فيها سبحانه العالم بأمره (وما) اى ومن (سواها) اى عدلها على هذا القانون الاحكم فى أعضائها وما فيها من الجواهر والاعراض والمعانى وغير ذلك (فان قيل) لم نكرت النفس (أجيب) بوجهين أحدهما انه يريد نفسا خاصة من بين النفوس وهى نفس آدم عليه السلام كأنه قال تعالى وواحدة من النفوس ثانيهما انه يريد كل نفس وتنكيره للتكثير على الطريقة المذكورة فى قوله تعالى علمت نفس وانما أوثرت ما على من فيما ذكر لارادة الوصفية ايماضا وان لم يوصف بلفظها اذ المراد انه تعالى على نوع من يعقل وعلى صفته ولذلك مثلوا بقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم وقدروها بانكحوا الطيب وهذا تنفرد به ما دون من وهذه الاسماء كلها مجرورة على القسم أقسم الله تعالى بانواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لان الذى يقسم الله تعالى به يحصل به روح فى القلب فتكون الدواعى الى تأمله أقرب (فألهمها) اى النفس (فجورها وتقواها)

أعلم بما وضعت

(سورة الشمس)

(قوله ونفس وما سواها) أقسم ذكرها دون بقية ما أقسم به لانه لا سبيل الى لام الجنس المدخلة لنفس غير الانسان مع انها ليست مرادة لقوله فألهمها فجورها وتقواها

قال ابن عباس رضي الله عنهما بين لها الخير والشر وعنه علمها الطاعة والمعصية وعن ابي صالح عرفها ما تأتي وما تتقي وقال سعيد بن جبير الزمها فجورها وتقواها وقال ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه اياها التقوى وخذلانه اياها للفجور واختار الزجاج هذا وحمل الالهام على التوفيق والخذلان قال البغوي وهذا يبين أن الله تعالى خلق في المؤمن التقوى وفي الكافر الفجور وروى عن أبي الاسود الديلي قال قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سبق اوفيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم وثبتت الحجة عليهم قلت بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم فقال أفلا يكون ظلما قال ففزعت منه فزعا شديدا وقلت انه ليس شيء الا وهو خلقه وملك يده لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فقال لي سددك الله انما سألتك لاختبر عقلك ان رجلا من جهينة اومزينة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويكدحون فيه أشيء قضي الله عليهم من قدر سبق أوفيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وأكدت به الحجة فقال في شيء قد قضي عليهم قال فقلت ففيم العمل الآن قال من كان الله خلقه لاحدى المنزلتين يهيئه الله تعالى لها وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها وعن جابر قال جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال يارسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير أوفيما يستقبل قال بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير قال ففيم العمل قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له * واختلف في جواب القسم فاكثر المفسرين على أنه (قد أفلح) اي ظفر بجميع المرادات والاصل لقد وانما حذفت لطول الكلام وقيل انه ليس بجواب وانما جيء به تابعا لقوله تعالى فالهمها فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء والجواب محذوف تقديره ليدمدمن الله عليهم اي أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لانهم قد كذبوا صالحا اوليبعثن وقيل هو على التقديم والتأخير من غير حذف والمعنى قد أفلح (من زكاها) اي طهرها من الذنوب ونماها وأصلحها ووصفها انه صفة عظيمة مما يسره الله تعالى له من العلوم النافعة والاعمال الصالحة (وقد خاب) اي خسر (من دساها) اي أغواها اغواء عظيما وأفسدها واهلكها بخباثة الاعتقادات ومساوي الاعمال وقبائح السيآت والشمس وضحاها وفاعل زكاها ودساها ضمير من وقيل ضمير الباري سبحانه وتعالى اي قد أفلح من زكاها بالطاعة وقد خاب من دساها اي خسرت نفس دساها الله تعالى بالمعصية وأنكر الزمخشري على صاحب هذا القول لمنافرته مذهبه ولكن قال بعض المفسرين الحق انه خلاف الظاهر لا كما قاله الزمخشري وقال ابن عباس رضي الله عنهما خابت نفس أضلها الله تعالى وأغواها وأصل الزكاة النمو والزيادة ومنه زكا الزرع اذا كثر ريعه ومنه تزكية القاضي الشاهد لانه يرفعه بالتعديل وأصل دساها دسسها من التدسيس وهو اخفاء الشيء فابدل من السين الثانية ياء والمعنى أخملها وأخفى محلها بالكفر والمعصية وعن زيد بن أرقم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والجبن والهم وقهر وابنوا الهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها أنت خير من

زكاها

ولا الى لام العهد اذ ليس المراد نفسا واحدة معهودة وبتقدير انه اريد بها آدم فالتنكير ادل على التفخيم والتعظيم كما في سورة الفجر وغيرها (قوله قد افلح من زكاها) جواب القسم

زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع ومن قلب
لا يخشع ومن دعوة لا يستجاب لها (كذبت ثمود) وهم قوم صالح كذبوا رسولهم صالحا
عليه السلام وأنث فعلهم لضعف أثر تكذيبهم لأن كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح
آيتهم (بطغواها) أي أوقعت التكذيب لرسولها بكل ما أتى به عن الله تعالى أي طغيانها
وقيل إن الباء للاستعانة قال الزمخشري مثلها في كتبت بالقلم والطغوى من الطغيان
فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء بأن قلبوا الياء واوا في الاسم وتركوا القلب
في الصفة فقالوا امرأة خزيا وصديا يعني فعلت التكذيب بطغيانها كما تقول ظلمني بجرأته
على الله تعالى وقيل كذبت بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى كقوله تعالى فأهلكوا
بالطاغية (إذ) أي تحقق تكذيبهم أو طغيانهم بالفعل حين (انبعث أشقاها) أي قام
وأسرع وذلك أنهم لما كذبوا بالعذاب وكذبوا صالحا عليه السلام انبعث أشقى القوم وهو
قدار بن سالف وكان رجلا أشقر أزرق قصيرا فعقر الناقة وعن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي
صلى الله عليه وسلم يخطب فذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في أهله مثل أبي زمعة وقوله عارم أي شديد
ممتنع قال الزمخشري ويجوز أن يكونوا جماعة والتوحيد لتسويتك في أفعل التفضيل إذا
أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث * (تنبيه) * إذ منصوب بكذبت أو بطغواها
(فقال لهم) أي بسبب الانبعاث أو التكذيب الذي دل على قصدهم لها بالأذى (رسول الله)
أي صالح عليه السلام وعبر بالرسول لأن وظيفته الإبلاغ والتحذير الذي ذكره هنا ولذلك
قال تعالى مشيرا بحذف العامل إلى ضيق الحال عن ذكره لعظم الهول وسرعة التعذيب
عند مسهم إياها بالأذى وزاد في التعظيم بإعادة الجلالة (ناقة الله) أي الملك الأعظم الذي له الأمر
كله وهي منصوبة على التحذير كقولك الأسد الأسد والصبي الصبي بإضمار اتقوا أو احذروا
ناقة الله (وسقياها) أي وشربها في يومها وكان لها يوم ولهم يوم لأنهم لما اقترحوا الناقة
فأخرجها لهم من الصخرة جعل لهم شرب يوم من بئرهم ولها شرب يوم فشق عليهم وإضافة
الناقة إلى الله تعالى إضافة تشريف كبيت الله (فكذبوه) أي صالحا عليه السلام
بطغيانهم في وعيدهم بالعذاب (فعقروها) أي عقرها الأشقى بسبب ذلك التكذيب وأضيف
إلى الكل لأنهم رضوا بفعله وإن كان العاقر جماعة فواضح وقال قتادة بلغنا أنه لم يعقرها
حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وقال الفراء عقرها اثنان والعرب تقول هذان
أفضل الناس وهذان خير الناس وهذه المرأة أشقى القوم ولهذا لم يقل أشقياها (فدمدم)
أي فأطبق (عليهم ربهم) أي الذي أحسن إليهم فغمرهم إحسانه فقطعه عنهم بسبب
تكذيبهم فأهلكهم وأطبق عليهم العذاب يقال دمدمت عليه القبر أطبقته عليه (بذنبهم)
أي بسبب كفرهم وتكذيبهم وعقرهم الناقة وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما دمدم
عليهم ربهم بذنبهم أي بجرمهم وقال القشيري وقيل دمدمت على الميت التراب أي سويته
عليه فالمعنى على هذا فجعلهم تحت التراب (فسواها) أي فسوى عليهم الأرض فجعلهم
تحت التراب وعلى الأول فسوى الدمدمة عليهم أي عمهم بها فلم يفلت منهم أحدا وقرأ

بحذف اللام لطول
الكلام وقيل جوابه
محذوف تقديره لتبعثن
أو لتدمرن يا أهل مكة

(ولا يخاف) نافع وابن عامر بالفاء والباقون بالواو فالفاء تقتضي التعقيب والواو يجوز ان تكون للحال وان تكون للاستئناف الاخباري وضمير الفاعل في يخاف الاظهر عوده على الله تعالى لانه أقرب مذكور وهو قول ابن عباس ويؤيده قراءة الفاء المسببة عن الدمدمة والتسوية والهاء في قوله تعالى (عقباها) ترجع الى الفعلة وذلك لانه تعالى يفعل ذلك بحق وكل من فعل فعلا بحق فانه لا يخاف عاقبة فعله وقيل المراد تحقيق ذلك الفعل والله تعالى أجل من ان يوصف بذلك وقيل المعنى انه تعالى بالغ في الانذار اليهم مبالغة من لا يخاف عاقبة عذابهم وقيل يرجع ذلك الى رسولهم صالح عليه السلام أي لا يخاف عقبى هذه العقوبة لانذاره اياهم ونجاه الله واهلكهم وقال السدي يرجع الضمير الى أشقاها أي انبعث لعقرها والحال انه غير خائف عاقبة هذه الفعلة الشنعاء وقرأ الكسائي جميع رؤس آي هذه السورة بالامالة محضة وقرأها أبو عمرو بين بين وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين وأمال حمزة مثل الكسائي الا تلاها وضحاها فتحهما والباقون بالفتح واتفقوا على فتح فعقروها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر حديث موضوع

سورة والليل مكية

وهي احدى وعشرون آية واحدى وسبعون كلمة وثلثمائة وعشرة أحرف

(بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) الذي عم رزقه العالمين (الرحيم) الذي خص بجنته المؤمنين وقوله تعالى (والليل) أي الذي هو آلة الظلام (اذا يغشى) قسم وقد مر الكلام على ذلك ولم يذكر تعالى مفعولا للعلم به فقيل يغشى بظلمته كل ما بين السماء والارض وقيل يغشى النهار وقيل الارض وقيل الخلائق قال قتادة أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما والنور نهارا مضيئا مبصرا وقوله تعالى (والنهار) أي الذي هو سبب انكشاف الامور (اذا تجلى) أي تكشف وظهر قسم آخر قال الرازي أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان الى مأواه وتسكن الخلق عن الاضطراب ويغشاهم النوم الذي جعله الله تعالى راحة لابدانهم وغذاء لارواحهم ثم أقسم تعالى بالنهار اذا تجلى لان النهار اذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة وجاء الوقت الذي تحرك فيه الناس لمعايشهم وتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكامنها فلو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش ولو كان كله نهارا لبطلت الراحة لكن المصلحة في تعاقبهما كما قال تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة وقال تعالى وسخر لكم الليل والنهار (وما) بمعنى من أي ومن (خلق الذكر والانثى) أي فيكون قد أقسم بنفسه أو مصدرية أي وخلق الله الذكر والانثى وجاز اضمار اسم الله تعالى لانه معلوم لانفراده بالخلق اذ لا خالق سواه والذكر والانثى آدم وحواء عليهما السلام أو كل ذكر وأنثى من سائر الحيوانات والخنثى وان اشكل امره عندنا فهو عند الله تعالى غير مشكل معلوم بالذكورة أو الانوثة فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومئذ ذكرا ولا أنثى وقد لقي خنثى مشكلا كان حانثا لانه في الحقيقة اما ذكر أو أنثى وان

كان

(قوله اذ انبعث اشقاها) هو قدار بن سالف وقيل هو مصدع بن دهر

(سورة الليل)

كان مشكلا عندنا وقيل كل ذكر وأنثى من الآدميين فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته وقوله تعالى (ان سعيكم) أى عملكم (لشتى) جواب القسم والمعنى ان اعمالكم لمختلف فعامل للجنة بالطاعة وعامل للنار بالمعصية و يجوز ان يكون محذوفا كما قيل فى نظائره المتقدمة وشتى واحده شتيت مثل مريض ومرضى وانما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه أى ان عملكم المتباعد بعضه من بعض اشتى لان بعضه ضلال و بعضه هدى أى فيكم مؤمن وبر وكافر وفاجر ومطيع وعاص وقيل لشتى أى لمختلف الجزاء فمنكم مثاب بالجنة ومعاقب بالنار وقيل لمختلف الاخلاق فمنكم راحم وقاس وحليم وطائش وجواد و بخيل قال بعض المفسرين نزلت هذه الآية فى أبى بكر وأبى سفيان بن حرب وروى أبو مالك الاشعرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها أى مهلكها وقوله تعالى (فأما من أعطى) أى وقع منه اعطاء على ما حددناه له وأمرنا به (واتقى) أى ووقعت منه التقوى وهى ايجاد الوقايات من الطاعات واجتناب المعاصى خوفا من سطواتنا (وصدق بالحسنى) تفصيل مبين انشعبت المساعى واختلف فى الحسنى فقال ابن عباس أى بلا اله الا الله وقال مجاهد بالجنة لقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وقال زيد بن اسلم الصلاة والزكاة والصوم (فسنيسره) أى نهيئه بما لنا من العظمة بوعد لا خلف فيه (لليسرى) أى لاسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها وقال زيد بن أسلم لليسرى اى للجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نفس منفوسة الا كتب الله تعالى مدخلها فقال القوم يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال صلى الله عليه وسلم بل اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من أهل السعادة فانه ميسر لعمل أهل السعادة واما من كان من أهل الشقاوة فانه ميسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى (واما من بخل) أى أوجد هذه الحقيقة الخبيثة فمنع ما أمر به وندب اليه (واستغنى) أى طلب الغنى عن الناس وعما وعده به من الثواب أو وجده بما زعمت له نفسه الخائنة وظنونه الكاذبة فلم يحسن الى الناس ولا عمل للعقبى (وكذب) أى أوقع التكذيب لمن يستحق التصديق (بالحسنى) اى فانكرها وكان عامدا مع المحسوسات كالبهائم (فسنيسره) اى نهيئه (للعسرى) اى للخلة المؤدية الى العسر والشدة كدخول النار وعن ابن عباس قال نزلت فى امية بن خلف وعنه فسنيسره للعسرى اى سأحول بينه و بين الايمان بالله ورسوله وعنه ايضا واما من بخل اى بماله واستغنى عن ربه وكذب بالحسنى اى بالخلف الذى وعده الله تعالى فى قوله سبحانه وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وقال مجاهد وكذب بالحسنى أى بالجنة وعنه بلا اله الا الله و يجوز فى ما فى قوله تعالى (وما يغنى عنه ماله) ان تكون نافية أى لا يغنى عنه ماله شيأ وان تكون استفهاما انكاريا أى اى شئ يغنى عنه ماله (اذا تردى) قال ابو صالح اى اذا سقط فى جهنم وقيل هو كناية عن الموت كما قال القائل

نصيبك مما تجمع الدهر كله • رداآن تطوى فيهما وحنوط

• ولما عرفهم سبحانه ان سعيهم شتى و بين ما للمحسنين من اليسرى وما للمسيئين من العسرى

(قوله الا الاشقى) المراد الشقى (قوله ان سعيكم لشتى) جواب القسم وقيل جوابه محذوف كما مر فى

اخبرهم بان عليه بيان الهدى من الضلال بقوله تعالى (ان علينا) اى بما لنا من القدرة
والعظمة (للهدى) اى للارشاد الى الحق بموجب قضائنا او بمقتضى حكمتنا فنبين
طريق الهدى من طريق الضلال ليمتثل أمرنا بسلوك الاول ونهينا عن ارتكاب الثانى
وقال الفراء معناه ان علينا للهدى والاضلال فحذف المعطوف كقوله تعالى سرابيل
تقيكم الحر وهو معنى قول ابن عباس يريد أرشد اوليائى للعمل بطاعتى وأحول بين
أعدائى أن يعملوا بطاعتى وهو معنى الاضلال وقيل معناه من سلك سبيل الهدى فعلى
الله تعالى سبيله كقوله تعالى وعلى الله قصد السبيل (وان لنا للآخرة والاولى) أى انا
مالك الدنيا والآخرة فنعطى فى الدارين ما نشاء لمن نشاء فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ
الطريق وعن ابن عباس قال ثواب الدنيا والآخرة وهو كقوله تعالى من كان يريد ثواب
الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة (فانذرتكم) أى حذرتكم وخوفتكم يا أيها
المخالفون للطريق الذى بينته (نارا تلظى) بحذف احدى التاءين من الاصل اى
تتلهب وتتوقد وتتوهج يقال تلظت النار تلظيا ومنه سميت جهنم لظى وقرأ البزى فى
الوصل بتشديد التاء وهو عسر لالتقاء الساكنين على غير حدهما وهو نظير قوله تعالى
اذ تلقونه والباقون بغير تشديد (لا يصلاها) أى لا يقاسى شدتها على طريق اللزوم
والانغماس (الا الاشقى) أى الذى هو فى الذروة من الشقاوة وهو الكافر فان الفاسق
وان دخلها لم يلزمها ولذلك سماه أشقى و وصفه بقوله تعالى (الذى كذب) النبى صلى الله
عليه وسلم (وتولى) أى عن الايمان او كذب الحق وأعرض عن الطاعة أو الاشقى
بمعنى الشقى كقوله لست فيها باوحد أى بواحد والحصر مؤول لقوله تعالى و يغفر ما دون
ذلك لمن يشاء فيكون المراد الصلى المؤبد (وسيجنبها) أى النار الموصوفة بوعد لا خلف
فيه (الاتقى) أى الذى اتقى الشرك والمعاصى فانه لا يدخلها فضلا ان يدخلها و يصلاها
ومفهوم ذلك على التفسير الاول ان من اتقى الشرك دون المعصية لا يجنبها ولا يلزم ذلك
صليها ولا يخالف الحصر السابق او الاتقى بمعنى التقى على وزان ما مر (الذى يؤتى ماله) أى
يصرفه فى وجوه الخير لقوله تعالى (يتزكى) فانه بدل من يؤتى او حال من فاعله فعلى الاول
لا محل له لانه داخل فى حكم الصلة والصلة لا محل لها وعلى الثانى محله نصب قال البغوى
يعنى أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى قول الجميع قال ابن الزبير كان يبتاع الضعفة فيعتقهم
فقال له أبوه أى بنى لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك فقال منع ظهرى أريد فانزل الله تعالى
وسيجنبها الاتقى الى آخر السورة وذكر محمد بن اسحق قال كان بلال لبعض بنى جمح وهو بلال
ابن رباح واسم أمه حمامة وكان صادق الاسلام طاهر القلب وكان أمية بن خلف يخرجه
اذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على
صدره ثم يقول لا تزال هكذا حتى تموت او تكفر بمحمد فيقول وهو فى ذلك أحد أحد قال
محمد بن اسحق عن هشام بن عروة عن أبيه قال مر به أبو بكر يوما وهم يصنعون به
ذلك وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح فقال لامية الا تتقى الله تعالى فى هذا المسكين قال
أنت أفسدته فانقذه مما ترى قال أبو بكر أفعل عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى وهو

تمام السابقة

(سورة الضحى)

(قوله ما ودعك الآية) جواب القسم (قوله ووجدك

على دينك أعطيكه قال قد فعلت فاعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فاعتقه وكان قد أعتق ست رقاب على الاسلام قبل أن يهاجر وبلال سابعهم وهم عامر بن فهيرة شهد بدرا وأحدا وقتل يوم بئر معونة شهيدا وأعتق أم عميس فاصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش ما أذهب بصرها الا اللات والعزى فقالت كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان فرد الله تعالى بصرها وأعتق النهدية وابنتها وكانتا الامرأة لبنى عبد الدار فربهما وقد بعثتهما سيدتهما يحتطبان لها وهى تقول لهما والله لا أعتقكما أبدا فقال أبو بكر كلا يا أم فلان فقالت كلا أنت أفسدتهما فاعتقهما قال فبكم قالت بكذا وكذا قال قد أخذتهما وهما حرتان ومر بجارية من بنى المرسل وهى تعذب فابتاعها فاعتقها وقال سعيد بن المسيب بلغنى ان أمية بن خلف قال له أبو بكر فى بلال أتبيعه قال نعم أبيعه بقسطاس عبد لابى بكر صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش وكان مشركا حمله أبو بكر على الاسلام على أن يكون ماله فأبى فابغضه أبو بكر فلما قال له أمية أبيعه بغلامك قسطاس اغتنمه أبو بكر وباعه به وروى الضحاك عن ابن عباس قال عذب المشركون بلالا وبلال يقول أحد أحد فمر النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول أحد أحد فقال أحد يعنى الله تعالى ينجيك ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر يا أبا بكر ان بلالا يعذب فى الله فعرف أبو بكر الذى يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف الى منزله فاخذ رطلا من ذهب ومضى به الى أمية بن خلف فقال له أتبيعنى بلالا قال نعم فاشتراه فاعتقه فقال المشركون ما فعل ذلك أبو بكر ببلال الا ليد كانت لبلال عنده فانزل الله تعالى (وما لاحد عنده) اى أبى بكر (من نعمة تجزى) اى يد يكافئه عليها وقوله تعالى (الا ابتغاء) استثناء منقطع اى لم يفعل ذلك مجازاة لاحد بيد كانت له عنده لكن فعله ابتغاء (وجه ربه) اى المحسن اليه (الاعلى) وطالب رضاه ويجوز أن يكون متصلا عن محذوف مثل لا يؤتى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى لا لمكافأة نعمة (ولسوف يرضى) اى بما يعطى من الثواب فى الجنة وروى عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله أبا بكر زوجنى ابنته وحملنى الى دار الهجرة وأعتق بلالا والآية تشمل من فعل مثل فعله فيبعد عن النار ويثاب وقرأ حمزة والكسائى يغشى تجلى والانثى اشقى من أعطى واتقى وصدق بالحسنى واستغنى بالحسنى تردى للهدى والاولى تلظى الاشقى وتولى الاتقى يتزكى تجزى الاعلى يرضى بالامالة محضة فى جميع ذلك وأمال ورش جميع ذلك بين بين والفتح عنه قليل وله فى من أعطى الفتح وبين اللفظين سواء وأمال أبو عمرو بين بين الا من أعطى لانه ليس برأس آية والباقون بالفتح وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى لليسرى للعسرى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وأمال حمزة والكسائى بهلاها محضة ولورش الفتح وبين اللفظين واذا فتح غلظ اللام واذا أمال رققها وأما الاشقى والاتقى فلا يمالان الا فى الوقف دون الوصل وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والليل أعطاه الله تعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر حديث موضوع

سورة والضحى مكية

ضالا) أى عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداك اليها وضالا فى صغرك فى شعاب مكة فردك الى

وهي احدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وسبعون حرفا ولما نزلت كبر النبي صلى الله عليه وسلم فسن التكبير آخرها وروي الامر به خاتمها وخاتمة كل سورة بعدها وهو الله أكبر او لا اله الا الله والله أكبر

(بسم الله) الملك ذي الجلال والاكرام (الرحمن) الذي عم بنعمته الخاص والعام (الرحيم) الذي خص أهل وده بإتمام الانعام وقوله تعالى (والضحى) قسم وقدم الكلام على ذلك وخصه بالقسم لانها الساعة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام وألقى السحرة فيها سجدا وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها لقوله تعالى وأن يحشر الناس ضحى وقال البغوي أراد النهار كله بدليل انه قابله بالليل في قوله تعالى (والليل) اي الذي به تمام الصلاح (اذا سجى) أي سكن وركد ظلامه يقال ليلة ساجية ساكنة الريح وقيل معناه سكون الناس والاصوات فيه وسجى البحر سكنت أمواجه وطرف ساج فاتر وقال قتادة أقسم بالضحى الذي كلم الله تعالى فيه موسى وبليلة المعراج التي عرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم (فان قيل) ما الحكمة في أنه تعالى قدم هنا الضحى وفي السورة التي قبلها الليل (أجيب) بان لكل منهما أثرا عظيما في صلاح العالم وللليل فضيلة السبق لقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وللنهار فضيلة النور فقدم سبحانه هذا تارة وهذا أخرى كالركوع والسجود في قوله تعالى اركعوا واسجدوا وقوله تعالى واسجدي واركعي مع الراكعين أو أنه قدم الليل في سورة أبي بكر لان أبا بكر سبقه كفر وقدم الضحى في سورة محمد صلى الله عليه وسلم لانه نور محض ولم يتقدمه ذنب أو أن سورة والليل سورة أبي بكر وسورة والضحى سورة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم أنه لا واسطة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر رضي الله تعالى عنه (فان قيل) ما الحكمة في كونه تعالى ذكر الضحى وهو ساعة وذكر الليل بجملته (أجيب) بان في ذلك اشارة الى ان ساعة من نهار توازن جميع الليل كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم يوازن جميع الانبياء عليهم السلام وأيضا الضحى وقت السرور والليل وقت الوحشة ففيه اشارة الى أن سرور الدنيا أقل من شرورها وان هموم الدنيا أدوم من سرورها فان الضحى ساعة والليل ساعات ويروى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت غمامة سوداء ونادت ماذا أمطر فاجيبت أن امطري الشرور ساعة فلهذا ترى الهموم والاحزان دائمة والسرور قليلا ونادرا وقدم ذكر الضحى وأخر الليل لانه يشبه الموت وقوله تعالى (ما ودعك) أي تركك يا أشرف الرسل تركا تحصل به فرقة كفرقة المودع ولو على أحسن الوجوه الذي هو مراد المودع (ربك) أي المحسن اليك جواب القسم (وما قلى) اي وما أبغضك بغضا ما وتركت الكاف لانه رأس آية كقوله تعالى والذاكرين الله كثيرا والذاكرات اي الله *(تنبيه)* اختلفوا في سبب نزول هذه الآية على ثلاثة أقوال أحدها ما روى البخاري عن جندب ابن سفيان قال اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتين او ثلاثا فجاءت أم جميل امرأة أبي لهب فقالت يا محمد اني لارجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين او ثلاث فنزلت ثانيها ما روى أبو عمرو قال أبطأ جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم حتى شق عليه فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو وانزل عليه الآية ثالثها ما روي

جدك عبد المطلب
او وجدك ناسيا فهداك
الى الذكر لان الضلال
جاء بمعنى النسيان كما في

أن خولة كانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ان جروا دخل البيت فدخل تحت السرير فمات فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحي فقال صلى الله عليه وسلم يا خولة ما حدث في بيتي ان جبريل عليه السلام لا يأتيني قالت خولة فكنست فأهويت بالمكنسة تحت السرير فاذا بجرو ميت فأخذته فألقيته خلف الجدار فجاء نبي الله صلى الله عليه وسلم ترعد لحياه وكان اذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة فقال يا خولة دثريني فأنزل الله تعالى هذه السورة ولما نزل جبريل عليه السلام سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن التأخير فقال أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة رابعها ما روى ان اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف فقال صلى الله عليه وسلم سأخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس عنه الوحي الى أن نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فأخبره بما سئل عنه وفي هذه القصة نزلت ما ودعك ربك واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه فقال ابن جريج اثنا عشر يوما وقال ابن عباس خمسة عشر يوما وقال مقاتل أربعون يوما قالوا وقال المشركون ان محمدا ودعه ربه وقلاه فأنزل الله تعالى هذه السورة فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما جئت حتى اشتقت اليك فقال جبريل عليه السلام اني كنت اليك أشد شوقا ولكني عبد مأمور وأنزل الله تعالى وما نتنزل الا بأمر ربك (وللآخرة) التي هي المقصود من الوجود بالذات لانها باقية خالصة عن شوائب الكدر (خير لك) اى لما فيها من الكرامات لك (من الاولى) اى الدنيا الفانية التي لا سرور فيها خالص وقيد تعالى بقوله سبحانه لك لانها ليست خيرا لكل أحد قال البقاعي ان الناس على أربعة أقسام منهم من له الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الاغنياء ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء ومنهم من له صورة خير في الدنيا وشر في الآخرة وهم الكفرة الاغنياء ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة وهم المؤمنون الفقراء وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا (ولسوف يعطيك) اى بوعد لا خلف فيه وان تأخر وقته بما أفهمته الاداة (ربك) اى المحسن اليك بسائر النعم في الآخرة من الخيرات عطاء جزيلا (فترضى) اى به فقال صلى الله عليه وسلم اذا لا أرضى وواحد من أمتي في النار وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله تعالى يا جبريل اذهب الى محمد واسأله ما يبكيك وهو يعلم فأتى جبريل وسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال يا جبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك وعن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته واني اختبأت دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيأ وعن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتاني آت من عند ربي يخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة فهي نائلة من مات ولم يشرك بالله شيأ وعن شريح قال سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول انكم معشر اهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وانا أهل البيت نقول ارجى آية في كتاب الله ولسوف يعطيك ربك فترضى وفي هذا مرعد لما اعطاه الله تعالى في الدنيا من

قوله ان تقبيل احداهما تذكرا احداهما الاخرى وانما جمع بينهما في قوله لا يضل ربي ولا ينسى لان

الفتح والظفر باعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس في الدين افواجا والغلبة على قريظة والنضير واجلائهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في اقطار الارض من المدائن وهدم بايديهم من ممالك الجبابرة وانهبهم من كنوز الاكاسرة وما قذف في قلوب اهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الاسلام وفشو الدعوة واستيلاء المسلمين ولما اعطاه في الآخرة من الثواب الذي لا يعلم كنهه الا الله تعالى قال ابن عباس له في الجنة الف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك (فان قيل) ما هذه اللام الداخلة على سوف (أجيب) بانها لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولانت سوف يعطيك وذلك أنها لا تخلو من ان تكون لام قسم أو ابتداء فلام القسم لا تدخل على المضارع الا مع نون التوكيد فبقي أن تكون لام ابتداء ولام الابتداء لا تدخل الا على الجملة من المبتدا والخبر فلا بد من تقدير مبتدا خبر وأن يكون أصله ولانت سوف يعطيك (فان قيل) ما معنى الجمع بين حرفي التأكيد والتاخير (اجيب) بان معناه ان العطاء كائن لا محالة وان تأخر لما في التاخير من المصلحة على انه تعالى اخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بالحال التي كان عليها فقال جل ذكره (الم يجدك) وهو استفهام تقرير اى وجدك (يتيما) وذلك ان اباه مات وهو جنين قد اتت عليه ستة اشهر وقيل مات قبل ولادته وماتت امه وهو ابن ثمان سنين (فآوى) اى بان ضمك الى عمك ابي طالب فاحسن تربيتك وعن مجاهد هو من قول العرب درة يتيمة اذا لم يكن لها نظير فالمعنى الم يجدك يتيما واحدا في شرفك لا نظير لك فآواك الله تعالى باصحاب يحفظونك ويحوطونك وهذا خلاف الظاهر من الآية ولهذا قال الزمخشري ومن بدع التفاسير انه من قولهم درة يتيمة وان المعنى الم يجدك واحدا في قريش عديم النظير فآواك (فان قيل) كيف ان الله تعالى عن بنعمه والمن بها لا يليق ولهذا ذم فرعون في قوله لموسى عليه السلام الم نربك فينا وليدا (اجيب) بان ذلك يحسن اذا قصد به تقوية قلبه ووعد دوام النعمة فامتنان الله تعالى زيادة نعمه بخلاف امتنان الآدمي واختلفوا في قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) فاكثر المفسرين على أنه كان ضالا عما هو عليه الآن من الشريعة فهداه الله تعالى اليها وقيل الضلال بمعنى الغفلة كقوله تعالى لا يضل ربي ولا ينسى اى لا يغفل وقال تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم وان كنت من قبله لمن الغافلين وقال الضحاك المعنى لم تكن تدري القرآن وشرائع الاسلام فهداك الى القرآن وشرائع الاسلام وقال السدي وجدك ضالا اى في قوم ضلال فهداهم الله تعالى بك او فهداك الى ارشادهم وقيل وجدك ضالا عن الهجرة فهداك اليها وقيل ناسيا شان الاستثناء حين سئلت عن اصحاب الكهف وذي القرنين والروح فذكرك كقوله تعالى ان تضل احداهما وقيل وجدك طالبا للقبلة فهداك اليها كقوله تعالى قد نرى تقلب وجهك في السماء الآية ويكون الضلال بمعنى الطلب لان الضال طالب وقيل وجدك ضائعا في قومك فهداك اليهم ويكون الضلال بمعنى المحبة كما قال تعالى قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم اى في محبتك قال الشاعر

هذا الضلال اشاب مني المفرقا ۞ والعارضين ولم اكن متحققا
عجبا لعزة في اختيار قطيعتي ۞ بعد الضلال فحبلها قد اخلقا

الضلال ثم ايس بمعنى الخطا النسيان بل بمعنى الغفلة (قوله ووجدك) اى فقيرا (عائلا فاغنى)

وروى الضحاك عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم ضل في شعاب مكة وهو صبي صغير فرآه أبو جهل منصرفا من اغنامه فرده الى عبد المطلب وقال سعيد بن المسيب خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة عبد خديجة فبينما هو راكب ذات ليلة مظلمة ناقة فجاء ابليس فاخذ بزمام الناقة فعدل بها عن الطريق فجاء جبريل عليه السلام فنفخ ابليس نفخة وقع منها الى أرض الحبشة ورده الى القافلة فمن الله تعالى عليه بذلك وقيل وجدك ضالا نفسك لاتدرى من انت فعرفك نفسك وحالك وقال كعب ان حليمة لما قضت حق الرضاع جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لترده على عبد المطلب فسمعت عند باب مكة هنيألك يا بطحاء مكة اليوم يرد اليك النور والبهاء والجمال قالت فوضعته لاصلح شأني فسمعت هدة شديدة فالتفت فلم أره فقلت معشر الناس أين الصبي فقالوا لم نر شيأ فصحت وامحمداه فاذا شيخ فان يتوكأ على عصا فقال اذهبي الى الصنم الاعظم فان شاء أن يرده اليك فعل ثم طاف الشيخ بالصنم وقبل رأسه وقال يارب لم تزل منتك على قريش وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضل فرده ان شئت فانكب على وجهه وتساقطت الاصنام وقالت اليك عنا أيها الشيخ فهلا كان على يد محمد فالقى الشيخ عصاه وارتعد وقال ان لابنك ربا لايضيعه فاطلبيه على مهل فانحشرت قريش الى عبد المطلب وطلبوه في جميع مكة فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا وتضرع الى الله تعالى أن يرده وقال

يارب ردولدى محمدا * اردده ربي واصطنع عندي يدا

فسمعوا مناديا ينادي من السماء معاشر الناس لاتضجوا فان لمحمد ربا لايخذله ولايضيعه وان محمدا بوادي تهامة عند شجرة السمر فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل فاذا النبي صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة يلعب بالاغصان وبالورق وفي رواية مازال عبد المطلب يردد البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة ومحمد صلى الله عليه وسلم بين يديه وهو يقول ألا تدرى ماذا يجرى من ابنك فقال عبد المطلب ولم فقال اني أنخت الناقة وأركبته خلفي فابت الناقة أن تقوم فلما اركبته أمامي قامت الناقة قال ابن عباس رده الله تعالى الى جده بيد عدوه كما فعل بموسى عليه السلام حين حفظه عند فرعون وقيل وجدك ضالا ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لاتعرف الطريق فهداك الى ساق العرش وقال بعض المتكلمين اذا وجدت العرب شجرة منفردة من الارض لاشجرة معها سموها ضالة فيهدى بها الى الطريق فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالا أي لاأحد على دينك بل أنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق الى وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره فقوله تعالى ووجدك ضالا فهدى أي وجد قومك ضلالا فهداهم بك وقيل غير ذلك قال الزمخشري ومن قال كان على أمر قومه أربعين سنة فان أراد أنه كان على خلوهم من العلوم السمعية فنعم وان أراد انه كان على كفرهم ودينهم فمعاذ الله والانبياء عليهم الصلاة والسلام يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة فما بال الكفر والجهل بالصانع ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر (ووجدك عائلا) أى فقيرا (فاغنى) قال

فاغناك بما قنعك به من الغنيمة وغيرها الا بكثرة المال وفي الحديث ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس (قوله فاما اليتيم فلا تقهر) واذكر يتمك واما السائل فلا تنهر واذكر فقرك واما

مقاتل فرضاك بما أعطاك من الرزق واختاره الفراء وقال لم يكن غنى عن كثرة المال ولكن الله تعالى أرضاه بما أعطاه وذلك حقيقة الغنى قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس وقال صلى الله عليه وسلم قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه وقيل أغناك بمال خديجة وتربية أبي طالب ولما اختل ذلك أغناه بمال أبي بكر ولما اختل ذلك أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم روى الزمخشري أنه صلى الله عليه وسلم قال جعل رزقي تحت ظل رمحي وقال الرازي العائل ذو العيلة ثم أطلق على الفقير ويجوز أن يراد ووجدك ذا عيال لا تقدر على التوسعة عليهم فأغناك بما جعل لك من ربح التجارة ثم من كسب الغنائم وروى البغوي باسناد الثعلبي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت ربي مسئلة وددت اني لم أكن سألته قلت يارب انك آتيت سليمان بن داود ملكا عظيما وآتيت فلانا كذا وفلانا كذا قال يا محمد ألم أجدك يتيما فآويتك قلت بلى يارب قال ألم أجدك ضالا فهديتك قلت بلى يارب قال ألم أجدك عائلا فأغنيتك قلت بلى يارب وفي رواية ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك قلت بلى يارب ثم أوصاه باليتامى والمساكين والفقراء فقال تعالى (فأما اليتيم) أي هذا النوع (فلا تقهر) قال مجاهد لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما وقال الفراء لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه كما كانت العرب تفعل في أموال اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه ثم قال باصبعيه انا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وهو يشير باصبعيه *(تنبيه)* اليتيم منصوب بتقهر وبه استدل ابن مالك على انه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل الاترى ان اليتيم منصوب بالمجزوم وقد تقدم على الجازم ولو تقدم على لا لامتنع لان المجزوم لا يتقدم على جازمه كالمجرور لا يتقدم على جاره وفي الآية دلالة على اللطف باليتيم وبره والاحسان اليه وقال صلى الله عليه وسلم من ضم يتيما وكان في نفقته وكفاه مؤنته كان له حجابا من النار يوم القيامة وقال من مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة وقال قتادة كن لليتيم كالاب الرحيم (فان قيل) ما الحكمة في ان الله تعالى اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم اليتم (أجيب) بوجوه أحدها ان يعرف حرارة اليتم فيرفق باليتيم ثانيها يشاركه في الاسم فيكرم لاجل ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم اذا سميتم الولد محمدا فأكرموه ووسعوا له في المجلس ثالثها ليستند من أول عمره على الله تعالى فيشبه ابراهيم عليه السلام في قوله حسبي من سؤالي علمه بحالي رابعها ان اليتيم تظهر عيوبه فلما لم يجدوا فيه عيبا لم يجدوا فيه مطعنا خامسها جعله يتيما ليعلم كل أحد ان فضيلته ابتداء من الله تعالى لا من تعليم لان من له أب فانه يؤدبه ويعلمه سادسها اليتم والفقر نقص في العادة فكونه صلى الله عليه وسلم مع هذين الوصفين من أكرم الخلق كان ذلك قلبا للعادة فيكون معجزة (وأما السائل) اى الذي أحوجته العيلة أو غيرها الى السؤال (فلا تنهر) أى فلا تزجر يقال نهره وانتهره اذا زجره وأغلظ عليه القول ولكن رده ردا جميلا قال ابراهيم بن أدهم نعم القوم السؤال يحملون زادنا الى الآخرة وقال ابراهيم النخعي السائل بريدنا الى الآخرة يجيء الى باب أحدكم فيقول هل تبعثون الى أهليكم بشيء وقيل المراد بالسائل هنا الذي يسأل عن الدين

نعمة ربك التي هي النبوة او الاسلام فحدث واذكر ضلالك

(سورة الم نشرح)

(قوله الم نشرح لك صدرك) (ان قلت) ما فائدة ذكر لك فيه وعنك فيما بعده مع أن الكلام تام بدونهما (قلت)

وروى الزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا رددت السائل ثلاثا فلم يرجع فلا عليك ان تزبره وقيل أما انه ليس السائل المستجدي ولكن طالب العلم اذا جاءك فلا تنهره (واما بنعمة ربك) اى المحسن اليك بالنبوة وغيرها (فحدث) بها فان التحدث بها شكرها وانما يجوز لغيره صلى الله عليه وسلم مثل هذا اذا قصد به اللطف وان يقتدى به غيره وأمن على نفسه الفتنة والستر أفضل ولو لم يكن فى الذكر الا التشبه باهل الرياء والسمعة لكفى والمعنى انك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك الله وهداك وأغناك فمهما يكن من شئ فلا تنس نعمة الله عليك فى هذه الثلاث واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوه فقد ذقت اليتم وهوانه ورأيت كيف فعل الله تعالى بك وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فاغناك بعد الفقر وحدث بنعمة الله كلها ويدخل تحته هدايته الضلال وتعليمه الشرائع والقرآن مقتديا بالله تعالى فى أن هداه من الضلالة وقال مجاهد تلك النعمة هى القرآن والتحديث به أن يقرأ ويقرئ غيره وعنه أيضا تلك النعمة هى النبوة أى بلغ ما انزل اليك من ربك وقيل تلك النعمة هى ان وفقك الله سبحانه وتعالى فراعيت حق اليتيم والسائل فحدث بها ليقتدى بك غيرك وعن الحسن بن على قال اذا عملت خيرا فحدث به اخوانك ليقتدوا بك الا أن هذا لا يحسن الا اذا لم يتضمن رياء وظن ان غيره يقتدى به كما علم مما مر وروى ان شخصا كان جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم فرآه رث الثياب فقال له صلى الله عليه وسلم ألك مال قال نعم فقال له صلى الله عليه وسلم اذا آتاك الله مالا فليرأثره عليك وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده (فان قيل) ما الحكمة فى أن الله تعالى أخر حق نفسه عن حق اليتيم والسائل (أجيب) بكأنه يقول أنا غنى والاغنياء وهما محتاجان وحق المحتاج أولى بالتقديم واختار قوله سبحانه وتعالى فحدث على قوله تعالى فاخبر ليكون ذلك حديثا عنه لا ينساه ويعيده مرة بعد أخرى وقرأ والضحى وسجى وقلى الاولى فترضى فآوى فهدى فاغنى حمزة والكسائى بامالة محضة لكن حمزة لم يمل سجى وامال ورش وابو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح وروى أبى بن كعب ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا بلغ الضحى كبر بين كل سورتين الى ان يختم القرآن ويفصل بينهما بسكتة وكأن المعنى فى ذلك ان الوحى تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اياما فقال ناس من المشركين قد ودعه صاحبه وقلاه فنزلت هذه السورة فقال صلى الله عليه وسلم الله أكبر قال مجاهد قرأت على ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فامرنى به وأخبر أنه صلى الله عليه وسلم أمره به وبعض القراء لا يكبر لان ذلك ذريعة الى الزيادة فى القرآن وقال القرطبى القرآن ثبت نقله بالتواتر سوره وآياته وحروفه بغير زيادة ولا نقصان فالتكبير ليس بقرآن وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والضحى جعله الله ممن يرضى لمحمد ان يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله تعالى له بعدد كل يتيم وسائل حديث موضوع

سورة الم نشرح مكية

فائدة الابهام ثم الايضاح وذلك من انواع البلاغة فلما قال تعالى الم نشرح لك فهم ان ثم مشروحا ثم قال صدرك فاوضح ما علم مبهما وكذا الكلام فى وضعنا عنك (قوله فان مع العسر يسرا) • ان قلت مع

وهى ثمان آيات وتسع وعشرون كلمة ومائة وثلاثة أحرف

(بسم الله) الظاهر الباطن الملك العلام (الرحمن) الذى عم المخلوقين بالانعام (الرحيم) الذى خص اولياءه بدار السلام وقوله تعالى (ألم نشرح) استفهام تقرير اى شرحنا بما يليق بعظمتنا (لك) يا اشرف الخلق (صدرك) بالنبوة وغيرها حتى وسع مناجاتنا ودعوة الخلق او فسحناه بما اودعنا فيه من الحكم والعلوم وازلنا عنه الضيق والحرج الذى كان يكون معه العمى والجهل وعن الحسن ملئ حكمة وعلما وقيل انه اشارة الى ماروى ان جبريل عليه السلام اتى النبى صلى الله عليه وسلم فى صباه او فى يوم الميثاق فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه ايمانا وعلما (فان قيل) لم قال تعالى صدرك ولم يقل قلبك (اجيب) بان محل الوسوسة هو الصدر كما قال تعالى يوسوس فى صدور الناس فازال تلك الوسوسة وابدلها بدواعى الخير فلذلك خص الشرح بالصدر دون القلب وقال محمد بن على الترمذى القلب محل العقل والمعرفة والشيطان يجىء الى الصدر الذى هو حصن القلب فاذا وجد مسلكا أغار فيه وبث جنده فيه وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للاسلام حلاوة فاذا طرد العدو فى الابتداء حصل الامن وانشرح الصدر (فان قيل) لم قال تعالى ألم نشرح لك صدرك ولم يقل ألم نشرح صدرك (أجيب) بوجهين أحدهما كانه تعالى يقول لام بلام فانت انما تفعل جميع الطاعة لاجلى وأنا أيضا جميع ما أفعله لاجلك ثانيهما ان فيه تنبيها على ان منافع الرسالة عائدة اليك لاجلك لا لاجلنا واختلف فى قوله تعالى (ووضعنا) أى بما لنا من العظمة (عنك وزرك) فقال الحسن ومجاهد حططنا عنك الذى سلف منك فى الجاهلية وهو قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وقال الحسين بن الفضل يعنى الخطأ والسهو وقيل ذنوب أمتك وأضافها اليه لاشتغال قلبه بها (الذى أنقض) اى أثقل (ظهرك) قال أبو عبيدة خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بها حتى لا تثقل عليك وقيل كان فى الابتداء يثقل عليه الوحى حتى يكاد يرمى نفسه من شاهق الى أن جاءه جبريل عليه السلام وأزال عنه ما كان يخاف من تغير العقل وقيل عصمناك من احتمال الوزر وحفظناك قبل النبوة فى الاربعين من الادناس حتى نزل عليك الوحى وانت مطهر (ورفعنا) أى بما لنا من القدرة التامة (لك ذكرك) روى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال يقول الله عز وجل لا ذكرت الا ذكرت معى فى الاذان والاقامة والتشهد ويوم الجمعة على المنابر ويوم الفطر ويوم الاضحى ويوم عرفة وأيام التشريق وعند الجمار وعلى الصفا والمروة وفى خطبة النكاح ومشارق الارض ومغاربها ولو أن رجلا عبد الله تعالى وصدق بالجنة والنار وكل شىء ولم يشهد ان محمدا رسول الله لم ينتفع بشىء وكان كافرا وقيل أعلينا ذكرك فذكرناك فى الكتب المنزلة على الانبياء قبلك وأمرناهم بالبشارة بك ولا دين الا ودينك يظهر عليه وقيل رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء وفى الارض عند المؤمنين ونرفع فى الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات وقال الضحاك لا تقبل صلاة الا به ولا تجوز خطبة الا به وقال مجاهد يعنى التأذين وفيه يقول حسان بن ثابت

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

للمصاحبة فالمعنى مصاحبة العسر واليسر (قلت) لما عير المشركون بفقرهم وعدهم الله يسرا قريبا من زمان عسرهم واراد تأكيد الوعد وتسلية قلوبهم فجعل اليسر كالمصاحب

ونعم

وضم الاله اسم النبي الى اسمه ＊ اذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ＊ فذو العرش محمود وهذا محمد

وقيل رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين والزامهم الايمان به والاقرار بفضله وقيل عام في كل ما ذكروه أولى وكم من موضع في القرآن يذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز وقوله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولما كان المشركون يعيرونه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق الى وهمه انهم رغبوا عن الاسلام لافتقار أهله واحتقارهم ذكره ما أنعم الله به عليه من جلائل النعم ثم وعده اليسر والرخاء بعد الشدة فقال تعالى (فان مع العسر) اى ضيق الصدر والوزر المنقض للظهر وضلال القوم وايذائهم (يسرا) اى كالشرح والوضع والتوفيق للاهتداء والطاعة فلا تيأس من روح الله اذا عراك ما يهمك فان مع العسر الذى أنتم فيه يسرا (فان قيل) ان مع للصحبة فما معنى اصطحاب العسر واليسر (أجيب) بان الله تعالى أراد أن يصيبهم بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادة فى التسلية وتقوية للقلوب وقوله تعالى (ان مع العسر يسرا) استئناف وعد الله تعالى بان العسر متبوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك للصائم ان للصائم فرحتين أي فرحة عند الافطار وفرحة عند لقاء الرب ويجوز أن يراد باليسرين ما تيسر من الفتوح فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تيسر لهم أيام الخلفاء وقيل تكرير (فان قيل) ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم لن يغلب عسر يسرين وقد روى مرفوعا انه صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين (أجيب) بان هذا حمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء وان موعد الله لا يحمل الا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه والقول عنه أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريرا للاولى كما كرر قوله تعالى ويل يومئذ للمكذبين لتقرير معناها فى النفوس وتمكينها فى القلوب وكما تكرر المفرد فى قولك جاء زيد زيد وأن تكون الاولى عدة بان العسر مردف بيسر لا محالة والثانية عدة مستأنفة بان العسر متبوع بيسر فهما يسران على تقدير الاستئناف وانما كان العسر واحدا لانه لا يخلو اما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذى كانوا فيه فهو هو لان حكمه حكم زيد فى قولك ان مع زيد مالا ان مع زيد مالا واما أن يكون للجنس الذى يعلمه كل أحد فهو هو أيضا وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس فاذا كان الكلام الثانى مستأنفا غير مكرر فقد تناول بعضا غير البعض الاول بغير اشكال أو بان لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذى وعد الله المؤمنين فيها واليسر الذى وعدهم فى الآخرة فانما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا فاما يسر الآخرة فدائم غير زائل أى لا يجتمعان فى الغلبة كقوله صلى الله عليه وسلم شهرا عيد لا ينقصان اى لا يجتمعان فى النقصان (فان قيل) ما معنى هذا التنكير (أجيب) بانه للتفخيم كأنه قيل ان مع العسر يسرا عظيما وأى يسر روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان العسر فى جحر ضب لتبعه اليسر حتى يخرجه والطبرانى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان العسر فى جحر لدخل اليسر حتى يخرجه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ＊ ولما عدد تعالى على

العسر فى سرعة مجيئه (فان قلت) لم ذكر ذلك مرتين بقوله فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا (قلت) لان معنى فان مع العسر الذى انتم فيه من مقاساة الكفار يسرا فى العاجل ان مع العسر الذى

نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه السابقة ووعده الآنفة حثه على الشكر والاجتهاد في العبادة بقوله تعالى (فاذا فرغت) قال ابن عباس رضى الله عنهما فرغت من صلاتك المكتوبة (فانصب) اى انصب في الدعاء وقال ابن مسعود رضى الله عنه فاذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل وقال الشعبي اذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك وقال الحسن وزيد بن اسلم اذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك وصل وقال ابن حبان عن الكلبي اذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب استغفر لذنبك وللمؤمنين قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه انى أكره ان أرى أحدكم فارغا لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة (والى ربك) اى الحسن اليك بفضائل النعم خصوصا بما ذكر في هاتين السورتين (فارغب) اى اجعل رغبتك اليه خصوصا ولا تسأل الا فضله متوكلا عليه وقيل تضرع اليه راغبا في الجنة وراهبا من النار عصمنا الله تعالى واحبابنا منها بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ ألم نشرح فكأنما جاءنى وأنا مغتم ففرج عنى حديث موضوع

سورة والتين والزيتون مكية

وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة مدنية وهى ثمان آيات

وأربع وثلاثون كلمة ومائة وخمسون حرفا

(بسم الله) الذى له الملك كله (الرحمن) الذى وسع الخلائق عدله (الرحيم) الذى خص اولياءه بتوفيقه فظهر عليهم جوده وفضله وقوله تعالى (والتين والزيتون) قسم وتقدم نظائر ذلك أقسم بهما لانهما عجيبتان من بين أصناف الاشجار المثمرة روى انه أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لاصحابه كلوا فلو قلت ان فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لان فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فانها تقطع البواسير وتنفع من النقرس ومر معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فاخذ منها قضيبا واستاك به وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة وسمعته يقول هى سواكى وسواك الانبياء من قبلى وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو تينكم هذا الذى تاكلون وزيتونكم هذا الذى تعصرون منه الزيت وقال عكرمة هما جبلان من الارض المقدسة يقال لهما بالسريانية طورتينا وطور زيتا لانهما منبتا التين والزيتون وقيل التين جبال ما بين حلوان وهمذان والزيتون جبال الشام لانهما منابتهما كانه قيل ومنابت التين والزيتون وقال محمد بن كعب التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد ايليا وقال الضحاك مسجدان بالشام وقال ابن زيد التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وحسن القسم بهما لانهما موضع الطاعة وقيل التين مسجد نوح عليه السلام الذى بناه على الجودى والزيتون مسجد بيت المقدس (وطور سينين) اى الجبل الذى ناجى عليه موسى عليه السلام ربه عز وجل وسينين وسيناء اسمان للموضع الذى هو فيه فاضيف الجبل الى المكان الذى هو فيه وقال مقاتل والكلبي سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسيناء بلغة

أنت فيه من مقاساتهم بسر في الأجل فلا تكرار والعسر واحد والتعريف أولا للجنس وثانيا للعهد واليسر اثنان بدليل تنكيرهما والتنكير فيهما للتفخيم والتعظيم ولذلك روى

النبط ولم ينصرف سينين كما لا ينصرف سيناء لانه جعل اسما للبقعة أو الارض ولو جعل اسما للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف لانك سميت مذكرا بمذكر وانما أقسم بهذا الجبل لانه بالشام وهي الارض المقدسة وقد بارك الله تعالى فيها قال الله تعالى الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله ولا يجوز أن يكون سينين نعتا للطور لاضافته اليه (وهذا البلد الامين) اى الآمن من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهي مكة حرسها الله تعالى لانها الحرم الذى يامن الناس فيه في الجاهلية والاسلام لا ينفر صيده ولا يعضد ورقه اى شجره ولا تلتقط لقطته الا لمنشد أو المامون فيه يامن فيه من دخله قال الزمخشري ومعنى القسم بهذه الاشياء الابانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر منها من الخير والبركة بسكنى الانبياء والصالحين فنبت التين والزيتون مهاجر ابراهيم عليه السلام ومولد عيسى عليه السلام ومنشؤه والطور المكان الذى نودى منه موسى عليه السلام ومكة البيت الذى هو هدى للعالمين ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه اه وقوله تعالى (لقد خلقنا) اى قدرنا وأوجدنا بما لنا من العظمة والقدرة التامة (الانسان) جواب القسم والمراد بالانسان الجنس الذى جمع فيه الشهوة والعقل وفيه من الانس بنفسه ما ينسيه أكثر مهمه الشامل لآدم عليه السلام وذريته وقيل نزلت في منكرى البعث وقيل في الوليد بن المغيرة وقيل كلدة بن أسيد وقوله تعالى (في أحسن تقويم) صفة لمحذوف اى في تقويم أحسن تقويم وقال أبو البقاء في أحسن تقويم في موضع الحال من الانسان وأراد بالتقويم القوام لان التقويم فعل وذاك وصف للخالق لا للمخلوق ويجوز أن يكون التقدير في أحسن قوام التقويم فحذف المضاف ويجوز أن تكون في زائدة اى قومناه أحسن تقويم اه وأحسن التقويم أعدله لانه تعالى خلق كل شئ منكبا على وجهه وخلق الانسان مستويا وله لسان ذلق ويد وأصابع يقبض بها قال ابن العربى ليس لله تعالى خلق أحسن من الانسان فان الله تعالى خلقه حيا عالما قادرا مريدا متكلما سميعا بصيرا مدبرا حكيما وهذه صفات الله تعالى وعبر عنها بعض العلماء ووقع البيان بقوله ان الله تعالى خلق آدم على صورته يعنى على صفاته المتقدم ذكرها وفى رواية على صورة الرحمن ومن أين يكون للرحمن صورة شخصية فلم يكن الا معانى روى أن عيسى بن يوسف الهاشمى كان يحب زوجته حبا شديدا فقال لها يوما أنت طالق ثلاثا ان لم تكونى أحسن من القمر فنهضت واحتجبت عنه وقالت طلقتنى فبات بليلة عظيمة فلما أصبح غدا الى دار المنصور فاخبره الخبر فاحضر الفقهاء واستشارهم فقال جميع من حضر قد طلقت الا رجلا واحدا من أصحاب أبى حنيفة فانه كان ساكتا فقال له المنصور ما لك لا تتكلم فقال الرجل بسم الله الرحمن الرحيم والتين والزيتون الى قوله تعالى لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم يا أمير المؤمنين فالانسان أحسن الاشياء ولا شئ أحسن منه فقال المنصور لعيسى الامر كما قال الرجل فاقبل على زوجتك فارسل المنصور اليها أطيعى زوجك فما طلقك وهذا يدل على ان الانسان أحسن خلق الله تعالى ولذلك قيل انه العالم الاصغر اذ كل ما فى المخلوقات اجتمع فيه (ثم رددناه) اى بعض افراده بما لنا من القدرة الكاملة (أسفل سافلين) اى الى الهرم وارذل العمر فيضعف بدنه وينقص عقله والسافلون هم الضعفاء والزمنى والاطفال والشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعا لانه لا يستطيع حيلة

عن عمرو ابن عباس وابن مسعود بل عن النبي صلى الله عليه وسلم ان يقال عمر بسر بن وقيل كرر ذلك انما كرر كما في قوله ويل يومئذ للمكذبين لتقرير معناه في النفوس وتمكينه في القلوب

ولايهتدى سبيلا فتقوس ظهره بعد اعتداله وابيض شعره بعد اسوداده وكل بصره وسمعه وكانا حديدين وتغير كل شئ منه فمشيه دليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف وقيل ثم رددناه الى النار لانها دركات بعضها أسفل من بعض فقوله تعالى (الا الذين آمنوا وعملوا) اى تصديقا بالدعوى اهم الايمان (الصالحات) اى الطاعات استثناء متصل على الثانى على ان المعنى رددناه أسفل من سفل خلقا وتركيبا يعنى أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة وهم أهل النار وأسفل من سفل من أهل الدركات فالاتصال على هذا واضح وعلى الاول منقطع اى لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى (فلهم) اى فتسبب عن ذلك أن كان لهم (أجر غير ممنون) اى ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى لهم بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم وفى الحديث اذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجز عن العمل كتب له ما كان يعمل وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال الا الذين قرؤا القرآن وقال من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر ثم قال تعالى الزاما للحجة (فما يكذبك) اى أيها الانسان الكافر (بعد) اى بعد ما ذكر من خلق الانسان من نطفة وتقويمه بشرا سويا وتدريجه فى مراتب الزيادة الى أن يستوى ويكمل ويصير فى أحسن تقويم ثم يرد الى أرذل العمر الدال على القدرة على البعث فيقول ان الذى فعل فى ذلك قادر على أن يعيدنى ويحاسبنى فما سبب تكذيبك أيها الانسان (بالدين) اى الجزاء بعد هذا الدليل القاطع وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذا يكون المعنى فما الذى يكذبك فيما تخبر به من الجزاء او البعث بعد هذه العبر التى يوجب النظر فيها صحة ما قلت وقوله تعالى (أليس الله) اى الملك الاعظم على ماله من صفات الكمال (بأحكم الحاكمين) اى بأقضى القاضين وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله وفى الحديث من قرأ التين الى آخرها فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والتين أعطاه الله تعالى خصلتين العافية واليقين ما دام فى دار الدنيا واذا مات أعطاه الله من الاجر بعدد من قرأ هذه السورة حديث موضوع

فالبصر ان شهد ان كالمسرين

●(سورة التين)●

(قوله لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم) قال ذلك هنا وقال فى سورة البلد لقد خلقنا الانسان فى كبد ولا منافاة بينهما لمراعاة

سورة العلق مكية

وهى عشرون آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له صفة الكمال المستحق للالهية (الرحمن) الذى عم بجوده سائر البرية (الرحيم) الذى خص أهل طاعته بالطافه السنية وعن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد أن أول سورة نزلت من القرآن (اقرأ باسم ربك) وأول ما نزل خمس آيات من أولها الى قوله تعالى ما لم يعلم وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة ولمسلم الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل ان ينزع الى اهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وفى رواية حتى فجئه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال له اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذنى

فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ قال فاخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ قال فاخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى فقال اقرأ باسم ربك حتى بلغ ما لم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة واخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى فقالت له خديجة كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى اتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله تعالى ان يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن اخيك فقال له ورقة يا ابن اخى ماذا ترى فاخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذى انزل على موسى ياليتنى أكون فيها جذعا ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اومخرجى هم فقال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم يلبث ورقة ان توفى وفتر الوحى زاد البخارى قال وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا حتى يتردى من رؤس شواهق الجبال فكلما اوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل عليه السلام فقال له يا محمد انك لرسول الله حقا فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فاذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك فاذا اوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك ففى هذا الحديث دليل صحيح على ان سورة اقرأ أول ما نزل من القرآن وفيه رد على من قال ان المدثر اول ما نزل من القرآن وعلى من قال ان الفاتحة اول ما نزل ثم سورة القلم وهذا الحديث من مراسيل الصحابة ومرسل الصحابى حجة عند جميع العلماء الا ما انفرد به الاستاذ ابو اسحق الاسفراينى وانما ابتدئ صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك فيأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تحملها القوى البشرية فبدئ باوائل علامة النبوة توطئة للوحى *(تنبيه)* محل باسم ربك النصب على الحال أى اقرأ مفتتحا باسم ربك أو مستعينا به قل بسم الله ثم اقرأ وقال أبو عبيدة مجازه اقرأ اسم ربك يعنى ان الباء زائدة والمعنى اذكر اسمه أمر أن يبتدى القراءة باسم الله تعالى تأديبا وقيل الباء بمعنى على أى اقرأ على اسم ربك كما فى قوله تعالى وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها قاله الاخفش (فان قيل) كيف قدم هذا الفعل على الجار وقدر مؤخرا فى بسم الله الرحمن الرحيم أى على سبيل الاولوية كما فى اياك نعبد واياك نستعين ولانه تعالى مقدم ذاتا لانه قديم واجب الوجود لذاته فيقدم ذكرا (أجيب) بأن هذا فى ابتداء القراءة وتعليمها المأمور انها أول سورة نزلت فكان الامر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض وان كان ذكر الله تعالى أهم فى نفسه وذكرت أجوبة غير هذا فى مقدمتى على البسملة والحمدلة وقوله تعالى (الذى خلق) يجوز أن لا يقدر له مفعول ويراد أنه الذى حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه وأن يقدر له مفعول ويراد خلق كل شئ فيتناول كل مخلوق لانه مطلق فليس

الفواصل فى السورتين ولان معناه هنا عند كثير من المفسرين منتصب القامة معتدلها فيكون فى المعنى احسن تقويم وذلك لا ينافى كونه فى كبد

بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض وقوله تعالى (خلق الانسان) أى هذا الجنس الذى من شأنه الانس بنفسه ومارأى من أخلاقه وحسنه وما ألفه من أبناء جنسه تخصيص بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لان التنزيل اليه وهو أشرف ما على الارض ويجوز أن يراد الذى خلق الانسان كما قال تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان فقيل الذى خلق مبهما ثم فسره بقوله تعالى خلق الانسان تفخيما لخلق الانسان ودلالة على عجيب فطرته وقوله تعالى (من علق) جمع علقة وهى الدم الجامد فاذا جرى فهو المسفوح * ولما كان الانسان اسم جنس فى معنى الجمع جمع العلق ولمشاكلة رؤس الآى أيضا وقوله تعالى (اقرأ) تكرير للمبالغة أو الاول مطلق والثانى للتبليغ أو فى الصلاة قال البيضاوى ولعله لما قيل له اقرأ باسم ربك قال ما أنا بقارئ فقيل له اقرأ (وربك الاكرم) أى الزائد فى الكرم على كل كريم فانه ينعم على عباده النعم التى لا تحصى ويحلم عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهى فى اطراحهم الاوامر ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم فما لكرمه غاية ولا أمد وكأنه ليس وراء التكرم بافادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال الاكرم (الذى علم) أى بعد الحلم عن معاجلتهم بالعقاب جودا منه تعالى من غير مانع من خوف عاقبة ولا رجاء منفعة (بالقلم) أى الخط بالقلم (علم الانسان ما لم يعلم) فدل على كمال كرمه بانه علم عباده ما لم يعلموه ونقلهم من ظلمة الجهل الى نور العلم ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها الا هو وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الاولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة الا بالكتابة ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل الا أمر القلم والخط لكفى به ولبعضهم فى صفة القلم

وروا قم رقش كمثل اراقم * قطف الخطا نيالة أقصى المدى
سود القوائم ما يجد مسيرها * الا اذا لعبت بها بيض المدى

وقال قتادة القلم نعمة من الله تعالى ولولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش فدل على كمال كرمه تعالى وروى عبد الله بن عمر قال قلت يا رسول الله أأكتب ما أسمع منك من الحديث قال نعم فاكتب فان الله تعالى علم بالقلم ويروى ان سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال ريح لا يبقى قال فما قيده قال الكتابة وعن عمر قال خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده ثم قال تعالى لسائر الحيوان كن فكان وهى القلم والعرش وجنة عدن وآدم عليه السلام وفيمن علم بالقلم ثلاثة أقوال أحدها قال كعب اول من كتب بالقلم آدم عليه الصلاة والسلام ثانيها قال الضحاك ادريس عليه السلام ثالثها انه جميع من كتب بالقلم لانه ما علم الا بتعليم الله تعالى وقال القرطبى الاقلام ثلاثة فى الاصل القلم الاول الذى خلقه الله تعالى بيده وأمره أن يكتب فى اللوح المحفوظ والثانى قلم الملائكة الذى يكتبون به المقادير والكوائن والثالث أقلام الناس يكتبون بها كلامهم ويصلون بها الى مآربهم وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا تعلموهن الكتابة قال بعض العلماء وانما حذرهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك لان فى اسكانهن الغرف تطلعا الى الرجال وليس فى ذلك تحصين لهن ولا تستر وذلك انهن لا يملكن

(قوله ثم رددناه أسفل سافلين) ان فسر بالرد الى جهنم فهو فعل حقيقى والاستثناء بعده متصل وعليه فقوله فلهم أجر غير ممنون قائم مقام قوله فلا

انفسهن حين يشرفن على الرجال فتحدث الفتنة فحذر من ذلك وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سببا للفتنة لانها قد تكتب لمن تهوى والكتابة عين من العيون بها يبصر الشاهد الغائب والخط اشارة اليد وفيها تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان فهي ابلغ من اللسان فاحب صلى الله عليه وسلم ان ينقطع عن المرأة اسباب الفتنة تحصينا لها وقوله تعالى (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وان لم يذكر لدلالة الكلام عليه فانه تعالى قد عدد مبدأ امر الانسان ومنتهاه اظهارا لما انعم عليه من ابلاغه من احسن المراتب الى اعلاها تقريرا لربوبيته وتحقيقا لاكرميته (ان الانسان) اى هذا النوع الذي من شانه الانس بنفسه والنظر فى عطفه (ليطغى) اى من شانه الا من عصمه الله تعالى ان يزيد على الحد الذي لا ينبغي له مجاوزته (ان رآه) اى راى نفسه (استغنى) اى وجد له الغنى بالمال وقيل ان يرتفع عن منزلته فى اللباس والطعام وغير ذلك نزلت فى ابي جهل كان اذا زاد ماله زاد فى ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون اتاه ابو جهل فقال يا محمد أتزعم انه من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة ذهبا لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك قال فاتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد خيرهم فى ذلك فان شاؤا فعلنا بهم ما ارادوا فان لم يفعلوا فعلنا بهم كما فعلنا باصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء ابقاء لهم وقيل ان رآه استغنى بالعشيرة والانصار والاعوان وحذف اللام من قوله تعالى ان رآه كما يقال انكم لتطغون ان رأيتم غناكم فرأى علمية واستغنى مفعول ثان وان رأى مفعول له (ان الى ربك) اى المحسن اليك بالرسالة التى رفع بها ذكرك لا الى غيره (الرجعى) مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع ففى ذلك تخويف للانسان بان يجازى العاصى بما يستحقه وقوله تعالى (ارايت) فى مواضعها الثلاث للتعجب (الذى ينهى) اى على سبيل التجدد والاستمرار وهو ابو جهل (عبدا) اى من العبيد وهو النبى صلى الله عليه وسلم (اذا صلى) اى خدم سيده الذى لا يقدر احد ان ينكر سيادته بايقاع الصلاة التى هى اعظم العبادات نزلت فى ابي جهل وذلك انه نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وعن ابي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابو جهل هل يعفر محمد وجهه بين اظهركم فقالوا نعم فقال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لاطأن على رقبته ولاعفرن وجهه فى التراب قال فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ليطأ على رقبته فنكص على عقبيه وهو يتقى بيده فقيل له مالك فقال ان بينى وبينه خندقا من النار وهولا واجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا فانزل الله تعالى هذه الآية وفى رواية لو فعل لاخذته الملائكة زاد الترمذى عيانا وعن الحسن انه امية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة وفائدة التنكير فى قوله تعالى عبدا الدلالة على انه كامل العبودية كانه قيل ينهى اشد الخلق عبودية عن العبادة وهذا عين الجهل وقيل ان هذا الوعيد يلزم كل من ينهى عن الصلاة وعن طاعة الله تعالى ولا يدخل فى ذلك المنع من الصلاة فى الدار المغصوبة وفى الاوقات المكروهة لانه قد ورد النهى عن ذلك فى الاحاديث الصحيحة ولا يدخل ايضا منع السيد عبده والرجل زوجته عن صوم التطوع وقيام الليل والاعتكاف لان ذلك مصلحة الا ان يأذن فيه السيد والزوج (ارايت ان كان) اى المنهى وهو النبى صلى الله عليه وسلم (على الهدى)

نردهم اسفل سافلين او بالرد الى اسفل العمر فهو تسفل فى الرتب والاوصاف بالنسبة الى رتب الشباب واوصافه والاستثناء بعد منقطع

وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء وعن ورش ابدالها ألفا وأسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق وقوله تعالى (أو أمر بالتقوى) أي الاخلاص والتوحيد للتقسيم *(تنبيه)* قوله تعالى أرأيت تكرير للاول وكذا الذي في قوله تعالى (أرأيت ان كذب) وهو ابو جهل (وتولى) عن الايمان (ألم يعلم) أي يقع له علم يوما من الايام (بان الله) الذي له صفات الكمال (يرى) ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك أي اعجب منه يا مخاطب في نهيه عن الصلاة من حيث ان المنهي على الهدى آمر بالتقوى وفي وجه التعجب وجوه أحدها انه صلى الله عليه وسلم قال اللهم أعز الاسلام اما بابي جهل واما بعمر بن الخطاب وهو ينهى عبدا اذا صلى الثاني أنه يلقب بابي الحكم فقيل أيلقب بهذا وهو ينهى عن الصلاة فيتعجب منه ومن حيث ان الناهي مكذب متول عن الايمان الثالث انه كان يامر وينهى ويعتقد وجوب طاعته ثم انه ينهى عن طاعة الله تعالى وقوله تعالى (كلا) ردع للناهي (لئن لم ينته) أي عما هو فيه واللام لام قسم (لنسفعا بالناصية) أي لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها الى النار والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدة قال عمرو بن معديكرب

قوم اذا نقع الصريخ رأيتهم * ما بين ملجم مهره او سافع

والنقع الصوت * ولما علم انها ناصية المذكور اكتفى باللام عن الاضافة والآية وان كانت في أبي جهل فهي عظة للناس وتهديد لمن يمنع غيره عن طاعة الله تعالى وقوله تعالى (ناصية) بدل من الناصية قال الزمخشري وجاز بدلها عن المعرفة وهي نكرة لانها وصفت أي ب(كاذبة خاطئة) واستقلت بفائدة واعترض عليه بان هذا مذهب الكوفيين فانهم لا يجيزون ابدال نكرة من معرفة الا بشرط وصفها أو كونها بلفظ الاول ومذهب البصريين لا يشترط شيء والمعنى لنأخذن بناصية ابي جهل الكاذبة في قولها الخاطئة في فعلها والخاطئ معاقب مأخوذ والمخطئ غير مأخوذ ووصفت الناصية بالكاذبة الخاطئة كوصف الوجوه بالنظر في قوله تعالى الى ربها ناظرة وانما وصفت الناصية بالكاذبة لانه كان يكذب على الله تعالى في أنه لم يرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وعلى رسوله في أنه ساحر وليس بنبي ووصفت بانها خاطئة لان صاحبها تمرد على الله تعالى كما قال تعالى لا يأكله الا الخاطئون فهما في الحقيقة لصاحبها وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطئ وروي أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقال ألم أنهك فاغلظ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتنهرني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا فوالله لاملأن عليك هذا الوادي ان شئت خيلا جردا ورجالا مردا فانزل الله تعالى (فليدع) أي دعاء استغاثة (ناديه) أي أهل ناديه ليعينوه فهو على حذف مضاف لان النادي هو المجلس الذي ينتدي فيه القوم قال تعالى وتأتون في ناديكم المنكر أي يتحدثون فيه أو على التجوز لانه مشتمل على الناس كقوله تعالى واسأل القرية ولا يسمى المكان ناديا حتى يكون فيه أهله والمعنى فليدع عشيرته فليستنصر بهم (سندع) أي بوعد لا خلف فيه (الزبانية) قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد زبانية جهنم سموا بها لانهم يدفعون أهل النار اليها بشدة جمع زبني مأخوذ من الزبن وهو الدفع وقال الزمخشري الزبانية في كلام العرب الشرط الواحد زبنية وقال الزجاج هم الملائكة

وعليه فقوله فلهم اجر غير ممنون اي غير مقطوع والمعنى بالهرم والضعف الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال شبابهم وقوتهم اذا عجزوا بالهرم

الغلاظ الشداد قال ابن عباس رضى الله عنهما لو دعا ناديه لاخذته زبانية الله تعالى وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ الى قوله تعالى لنسفعا بالناصية قال أبو جهل أنا أدعو قومى حتى يمنعوا عنى ربك قال الله تعالى فليدع ناديه سندع الزبانية فلما ذكر الزبانية رجع فزعا فقيل له خشيت منه قال لا ولكن رأيت عنده فارسا وهددنى بالزبانية فلا أدرى الزبانية ومال الى الفارس فخشيت منه أن يأكلنى قال ابن عباس رضى الله عنهما والله لو دعا ناديه لاخذته ملائكة العذاب من ساعته وقوله تعالى (كلا) ردع لابى جهل اى ليس الامر على ما يظنه أبو جهل (لا تطعه) اى فيما دعاك اليه من ترك الصلاة كقوله تعالى ولا تطع المكذبين وقوله تعالى (واسجد) يحتمل أن يكون بمعنى السجود فى الصلاة وأن يكون سجود التلاوة فى هذه السورة ويدل لهذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه أنه قال سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اذا السماء انشقت وفى اقرأ باسم ربك الذى خلق سجدتين وهذا نص أن المراد سجود التلاوة ويدل للاول قوله تعالى أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى الى قوله تعالى كلا لا تطعه واسجد اى ودم على سجودك قال الزمخشرى يريد الصلاة لانه لا يرى سجود التلاوة فى المفصل والحديث عليه (واقترب) اى وتقرب الى ربك بطاعته وبالدعاء اليه قال صلى الله عليه وسلم أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن اى حقيق أن يستجاب لكم وكان صلى الله عليه وسلم يكثر فى سجوده من البكاء والتضرع حتى قالت عائشة رضى الله عنها قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا وفى رواية أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا الدعاء وقرأ ليطغى استغنى اذا صلى على الهدى بالتقوى وتولى حمزة والكسائى بجميع ذلك بالامالة محضة وورش وابو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة العلق أعطى من الاجر كأنما قرأ المفصل كله حديث موضوع

سورة القدر مدنية

فى قول أكثر المفسرين وحكى الماوردى عكسه وذكر الواحدى انها أول سورة نزلت بالمدينة وهى خمس آيات وثلاثون كلمة ومائة واثنا عشر حرفا

(بسم الله) الملك الاعظم الذى لا يعبد الا اياه (الرحمن) الذى عم بجوده جميع خلقه أقصاه وأدناه (الرحيم) الذى قرب أهل طاعته وأبعد من عداهم وأشقاه وقوله تعالى (انا أنزلناه) اى بما لنا من العظمة اى القرآن فيه تعظيم له من ثلاثة أوجه أحدها انه أسند انزاله اليه وجعله مختصا به دون غيره والثانى انه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه والثالث الرفع من مقدار الوقت الذى أنزل فيه وهو قوله تعالى (فى ليلة القدر وما أدراك) اى أعلمك يا أشرف الخلق (ما ليلة القدر) فان فى ذلك تعظيما لشأنها روى أنه أنزله جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا وأملاه جبريل عليه

عن العمل كتب لهم ثواب ما كانوا يعملون الى وقت موتهم

(سورة العلق)

(قوله اقرأ باسم ربك) اى اوجد القراءة مبتدئا باسم

السلام على السفرة ثم كان ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحاجة اليه وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نزل فى شهر رمضان وفى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى السفرة الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا فنجمته السفرة على جبريل عليه السلام عشرين سنة ونجمه جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم عشرين سنة قال ابن العربى وهذا باطل ليس بين جبريل و بين الله تعالى واسطة ولا بين جبريل و بين محمد صلى الله عليه وسلم واسطة وعن الشعبى انا ابتدأنا انزاله فى ليلة القدر وقيل المعنى أنزل فى شأنها وفضلها فليست ظرفا وانما هو كقول عمر رضى الله عنه خشيت أن ينزل فى قرآن وقول عائشة رضى الله عنها لانا أحقر فى شأنى أن ينزل فى قرآن وسميت ليلة القدر لان الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره الى السنة القابلة من أمر الموت والاجل والرزق وغيره و يسلمه الى مدبرات الامور وهن الملائكة وهم اسرافيل وميكائيل وعزرائيل وجبرائيل عليهم السلام كقوله تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى يقضى الاقضية فى ليلة نصف شعبان و يسلمها الى أربابها فى ليلة القدر وهذا يصلح أن يكون جمعا بين القولين فى قوله تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم فانه قيل انها الليلة النصف من شعبان وقيل ليلة القدر وحينئذ لا خلاف وقيل سميت بذلك لتضييقها بالملائكة قال الخليل لان الارض تضيق فيها بالملائكة كقوله تعالى ومن قدر عليه رزقه وقيل سميت بذلك لعظمها وشرفها وقدرها من قولهم لفلان قدر اى شرف ومنزلة قاله الازهرى وغيره وقيل سميت بذلك لان للطاعة قدرا عظيما وثوابا جزيلا وقيل لانه أنزل فيها كتابا ذا قدر على رسول ذى قدر الى أمة ذات قدر ومعنى أن الله تعالى يقدر الآجال والارزاق انه يظهر ذلك للملائكة و يامرهم بفعل ما هو من وظيفتهم بان يكتب لهم ما قدره فى تلك السنة ويعرفهم اياه وليس المراد أنه يحدث فى تلك الليلة لان الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والارض فى الازل قيل للحسين بن الفضل أليس قد قدر الله تعالى المقادير قبل أن يخلق السموات والارض قال نعم قيل له فما معنى ليلة القدر قال سوق المقادير الى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر واختلفوا اهل هى باقية أو لا فقيل انها كانت مرة ثم انقطعت وقيل انها رفعت بعد النبى صلى الله عليه وسلم والصحيح انها باقية الى يوم القيامة وروى عن عبد الله بن محسن مولى معاوية قال قلت لابى بكر زعموا أن ليلة القدر قد رفعت قال كذب من قال ذلك قلت هى فى كل شهر رمضان أستقبله قال نعم وعن سعيد بن المسيب انه سئل عن ليلة القدر أهى شئ كان فذهب أم هى فى كل عام فقال بل هى لامة محمد صلى الله عليه وسلم ما بقى منهم اثنان واستدل من قال برفعها بقوله صلى الله عليه وسلم حين تلاحى الرجلان انى خرجت لاخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيرا لكم وهذا غفلة من هذا القائل فنى آخر الحديث فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة فلو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها واختلفوا فى وقتها فاكثر أهل العلم انها مختصة برمضان واحتجوا بقوله تعالى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن وقال تعالى انا أنزلناه فى ليلة القدر فوجب أن لا تكون ليلة القدر

وربك واقرأ الثانى تاكيد له
(قوله الذى خلق) اى الخلائق
وخص قوله خلق الانسان
بالذكر مع دخوله فى الاول
لشرفه ونزول القرآن اليه
(قوله من علق) لم يقل من

الا فى رمضان لئلا يلزم التناقض وروى عن أبى بن كعب أنه قال والله الذى لا اله الا هو انها لفى رمضان حلف بذلك ثلاث مرات وعن ابن عمر قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا اسمع عن ليلة القدر فقال هى فى كل رمضان وقيل هى دائرة فى جميع السنة لا تختص برمضان حتى لو علق طلاق امرأته او عتق عبده بليلة القدر لا يقع مالم تنقض سنة من حين حلف يروى ذلك عن ابى حنيفة وعن ابن مسعود أنه قال من يقم الحول يصبها وذكر عن أبى الحسن الشاذلى انه قال من أراد أن يعرف ليلة القدر فلينظر الى غرة رمضان اى الى اوله فان كان يوم الاحد فليلة القدر ليلة تسع وعشرين وان كان يوم الاثنين فليلة القدر احدى وعشرين وان كان يوم الثلاثاء فليلة سبع وعشرين وان كان يوم الاربعاء فليلة تسعة عشر وان كان يوم الخميس فليلة خمس وعشرين وان كان يوم الجمعة فليلة سبعة عشر وان كان يوم السبت فليلة ثلاث وعشرين وعلى القول الاول هل هى فى كل رمضان أو فى العشر الاخيرة قولان أحدهما انها فى كل شهره واختلفوا فى اى ليلة منه فقال ابن رزين هى الليلة الاولى من رمضان وقال الحسن البصرى السابعة عشر وقال أنس التاسعة عشر وقال محمد بن اسحق الحادية والعشرون وقال ابن عباس الثالثة والعشرون وقال ابى بن كعب السابعة والعشرون وقيل التاسعة والعشرون وقيل ليلة الثلاثين وكل استدل على قوله بما يطول الكلام عليه والقول الثانى وهو ما عليه الاكثرون انها مختصة بالعشر الاخير منه واستدل لذلك باشياء منها ماروى عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر فقال فى رمضان فالتمسوها فى العشر الاواخر ومنها ماروى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتمسوها فى العشر الاواخر من رمضان وعن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد فى العشر الاواخر مالا يجتهد فى غيرها وعنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله واختلفوا فى انها اى ليلة من العشر هل فى ليلة من ليالى العشر كله أو فى أوتاره فقط وهل تلزم ليلة بعينها أو تنتقل فى جميعه أقوال والذى عليه الاكثر أنها فى جميعه ولكن أرجاها أوتاره وأرجى الاوتار عند امامنا الشافعى رضى الله عنه ليلة الحادى والعشرين أو الثالث والعشرين يدل للاول خبر الصحيحين وللثانى خبر مسلم وأنها تلزم عنده ليلة بعينها وقال المزنى صاحب الشافعى وابن خزيمة انها منتقلة فى ليالى العشر جمعا بين الاحاديث قال النووى وهو قوى وقال فى مجموعه انه الظاهر المختار وخصها بعض العلماء باوتار العشر الاواخر وبعضهم باشفاعه وقال ابن عباس وأبى هى ليلة سبع وعشرين وهو مذهب أكثر أهل العلم واستنبط ذلك بعضهم من أن ليلة القدر ذكرت ثلاث مرات وهى تسعة أحرف واذا ضربت تسعة فى ثلاثة تكن سبعة وعشرين وبعضهم استنبط ذلك من عدد كلمات السورة وقال انها ثلاثون كلمة وفاقا وقوله تعالى هى السابع والعشرون وهى كناية عن هذه الليلة فبان أنها الليلة السابع والعشرين وهو استنباط لطيف وليس بدليل كما قيل وفيها الخمس والثلاثين قولا وبضع وعشرون حديثا وأفردت بالتصنيف وفيما ذكرناه كفاية وذكروا للسبب فى اخفائها عن الناس وجوها احدها انه تعالى أخفاها ليعظموا جميع السنة على القول بانها

علقة لان الانسان فى معنى الجمع أو رعاية للفاصلة قبله (قوله الذى علم بالقلم) مبهم فسره بقوله بعده علم الانسان مالم يعلم

(سورة القدر)

فيها أو جميع رمضان على القول به أو جميع العشر الاخير على القول به كما أخفى رضاه في الطاعات ليرغبوا في كلها وأخفى غضبه في المعاصي ليحذروها كلها وأخفى وليه في المسلمين ليعظموهم كلهم وأخفى الاجابة في الدعاء ليبالغوا في الدعوات وأخفى ساعة الاجابة في يوم الجمعة ليجتهدوا في العبادة في جميع أوقاته في غير الاوقات المنهي عنها طمعا في ادراكها وأخفى الاسم الاعظم ليعظموا كل أسمائه تعالى وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل وأخفى التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسامها وأخفى قيام الساعة ليكونوا على وجل من قيامها بغتة ثانيها ان العبد اذا لم يتيقن ليلة القدر واجتهد في الطاعة رجاء أن يدركها فيباهي الله تعالى به ملائكته ويقول تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء وهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة فكيف لو جعلتها معلومة له فحينئذ يظهر اني أعلم ما لا تعلمون ثالثها ليجتهدوا في طلبها والتماسها فينالوا بذلك أجر المجتهدين في العبادة بخلاف ما لو عينت في ليلة بعينها لحصل الاقتصار عليها ففاتت العبادة في غيرها ● ثم ذكر الله تعالى فضلها من ثلاثة أوجه أحدها ما ذكره بقوله سبحانه (ليلة القدر) أي التي خصصناها بانزاله فيها (خير من ألف شهر) ليس فيها ليلة القدر فالعمل الصالح فيها خير منه في ألف شهر ليست فيها ليلة قدر وعن ابن عباس رضي الله عنهما ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني اسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك وتمنى ذلك لامته فقال يا رب جعلت أمتي أقصر الامم أعمارا وأقلها أعمالا فأعطاه الله تعالى ليلة القدر فقال تعالى ليلة القدر خير من ألف شهر التي حمل فيها الاسرائيلي السلاح في سبيل الله لك ولامتك الى يوم القيامة أي فهي من خصائص هذه الامة وعن مالك انه سمع من يثق به من أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الناس قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذي يبلغ غيرهم فأعطاه الله تعالى ليلة القدر التي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وقيل ان الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر فأعطوا الليلة ان أحيوها كانوا أحق بان يسموا عابدين من أولئك العباد وهي أفضل ليالي السنة ويدخل في ذلك ليلة الاسراء فهي افضل منها ان لم تكن ليلة الاسراء ليلة القدر كما قيل ان الاسراء كان في رمضان وانما كان كذلك لما يريد الله تعالى فيها من المنافع فيكتب فيها جميع خير السنة وشرها ورزقها وأجلها وبلائها ورخائها ومعاشها الى مثلها من السنة ولا يشكل ذلك بما قيل ان الآجال تقطع من شعبان الى شعبان حتى ان الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى لما ورد ان الله تعالى يأمر بنسخ ما يكون في السنة من الآجال والامراض والارزاق ونحوها في ليلة النصف من شعبان فاذا كان ليلة القدر فيسلمها الى أربابها وقيل يقدر في ليلة النصف من شعبان الآجال والامراض وفي ليلة القدر الامور التي فيها الخير والبركة والسلامة ● الوجه الثاني من فضائلها ما ذكره الله تعالى في قوله جل ذكره (تنزل) أي تنزلا متدرجا متواصلا على غاية ما يكون من الخفة والسرعة بما أشار اليه حذف التاء (الملائكة) أي الى الارض وروي انه اذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة وهم سكان سدرة المنتهى (والروح) أي جبريل عليه السلام (فيها) أي في الليلة ومعه اربعة الوية فينصب

(قوله ليلة القدر خير) عدل عن الضمير الى الظاهر في لفظ القدر تعظيما لليلة (قوله من كل امر) متعلق بتنزل ومن بمعنى الباء كما في قوله

لواء على قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولواء على ظهر بيت المقدس ولواء على ظهر المسجد الحرام ولواء على ظهر طور سيناء ولا يدع بيتا فيه مؤمن ولا مؤمنة الا دخله وسلم عليهم يقول يا مؤمن ويا مؤمنة السلام يقرئك السلام الا على مدمن خمر وقاطع رحم وآكل لحم خنزير وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام في كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى وهذا يدل على أن الملائكة كلهم لا ينزلون وظاهر الآية نزول الجميع وجمع بين ذلك بعض الروى انهم ينزلون فوجا فوجا كما ان أهل الحج يدخلون الكعبة فوجا بعد فوج وان كانت لا تسعهم دفعة واحدة كما ان الارض لا تسع الملائكة دفعة واحدة ولذلك ذكر بلفظ تنزل الذى يقتضى المرة بعد المرة اى ينزل فوج ويصعد فوج والله أعلم بذلك وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان الملائكة فى تلك الليلة أكثر من عدد الحصى وقال بعضهم الروح ملك تحت العرش ورجلاه فى تخوم الارض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفى كل رأس ألف وجه وفى كل وجه ألف فم وفى كل فم ألف لسان يسبح الله تعالى بكل لسان ألف نوع من التسبيح والتحميد والتمجيد ولكل لسان لغة لا تشبه لغة اخرى فاذا فتح أفواهه بالتسبيح خرت ملائكة السموات السبع سجدا مخافة ان تحرقهم انوار افواهه وانما يسبح الله تعالى غدوة وعشية فينزل فى ليلة القدر لشرفها وعلو شانها فيستغفر للصائمين والصائمات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بتلك الافواه كلها الى طلوع الفجر وعن على أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة أسرى بى ملكا رجلاه جاوزت من الارض السابعة السفلى ورأسه من السماء السابعة العليا ومن لدن رأسه الى قدميه وجوه وأجنحة فى كل وجه فم ولسان يسبح الرحمن تسبيحا لا يسبحه العضو الآخر ولو أمره الله تعالى أن يلتقم السموات السبع والارضين السبع لقمة واحدة كما يلتقم أحدكم اللقمة لأطاق ذلك ثم لم تكن تلك فى فيه الا كالقمة أحدكم فى فيه ولو سمع أهل الدنيا صوته بالتسبيح لصعقوا ما بين شحمة أذنه الى منكبه خفقان الطير السريع سبعة آلاف سنة وهو رأس الملائكة وقيل الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة الا فى تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس الى طلوع الفجر (باذن ربهم) أى بامر المحسن اليهم المربى لهم (من كل أمر) أى قضاه الله تعالى فيها لتلك السنة الى قابل وتقدم الجمع بينها وبين ليلة النصف من شعبان ومن سببية بمعنى الباء * الوجه الثالث من فضائلها ماذكره تعالى بقوله سبحانه (سلام) أى عظيم جدا وهو خبر مقدم والمبتدا (هى) جعلت سلاما لكثرة السلام فيها من الملائكة لا يمرون بمؤمن ولا مؤمنة الا سلمت عليه ويستمرون على ذلك من غروب الشمس (حتى) أى الى (مطلع الفجر) أى وقت مطلعه أى طلوعه وقرأ الكسائى بكسر اللام على انه كالمرجع او اسم زمان على غير قياس كالمشرق والباقون بفتحها * ومن فضائلها أن من قامها غفرت له ذنوبه ففى الصحيحين من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه قال النووى فى شرح مسلم ولا ينال فضلها الا من اطلعه الله تعالى عليها فلو قامها انسان ولم يشعر بها لم ينل فضلها قال الاذرعى وكلام المتولى ينازعه حيث قال يستحب التعبد فى كل ليالى العشر حتى يحوز الفضيلة على اليقين

يحفظونه من امر الله
وقوله يلقى الروح من امره

(سورة البينة)

(قوله رسول من الله) اى
من عنده كما ظهره فى قوله
ولما جاءهم رسول من عند
الله (قوله يتلوا صحفا) ان

اه وهذا أولى نعم حال من اطلع أكمل اذا قام بوظائفها وعن ابي هريرة مرفوعا من صلى العشاء الاخيرة في جماعة من رمضان فقد أدرك ليلة القدر أي اخذ حظا منها ويسن لمن رآها ان يكتمها ويسن ان يكثر من الدعاء والتعبد في ليالي رمضان وأن يكون من دعائه اللهم انك عفو كريم تحب العفو فاعف عني ومن علاماتها ان الشمس تطلع صبيحتها لاشعاع لها رواه مسلم عن أبي بن كعب وعن ابن مسعود قال ان الشمس تطلع كل يوم بين قرني شيطان الاصبيحة ليلة القدر فانها تطلع يومئذ بيضاء ليس لها شعاع (فان قيل) لافائدة في هذه العلامة فانها اذا انقضت (اجيب) بانه يستحب أن يجتهد في ليلتها ويتقى يعرفها كما مر عن الشافعي أنها تلزم ليلة واحدة وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القدر أعطى من الاجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر حديث موضوع

سورة لم يكن

وتسمى القيمة وتسمى المنفكين مكية في قول يحيى بن سلام ومدنية في قول الجمهور وهي ثمان آيات وأربع وتسعون كلمة وثلثمائة وتسعون حرفا

(بسم الله) الذي لايخرج شئ عن مراده (الرحمن) الذي عم بنعمه جميع عباده (الرحيم) الذي خص أولياءه باسعاده * ولما كان الكفار جنسين أهل كتاب ومشركين ذكرهم الله تعالى في قوله سبحانه (لم يكن الذين كفروا) أي في مطلق الزمان الماضي والحال والاستقبال (من أهل الكتاب) أي من اليهود والنصارى الذين كان أصل دينهم حقا فالحدوا فيه بالتبديل والتحريف والاعوجاج في صفات الله تعالى ثم نسخه الله تعالى بما شرع من مخالفته في الفروع وموافقته في الاصول فكذبوا (والمشركين) أي بعبادة الاصنام والنار والشمس ونحو ذلك ممن هم عريقون في دين لم يكن له أصل في الحق بان لم يكن لهم كتاب *(تنبيه)* من للبيان وقوله تعالى (منفكين) خبر يكن أي منفصلين وزائلين عما كانوا عليه من دينهم انفكاكا يزيلهم عنه بالكلية بحيث لايبقى لهم به علقة ويثبتون على ذلك الانفكاك وأصل الفك الفتح والانفصال لما كان ملتحما من فك الكتاب والختم والعظم اذا أزيل ما كان ملتصقا أو متصلا به أو عن الوعد باتباع الحق اذا جاءهم الرسول المبشر به فان أهل الكتاب كانوا يستفتحون به والمشركين كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم (فان قيل) لم قال تعالى كفروا بلفظ الماضي وذكر المشركين باسم الفاعل (أجيب) بان أهل الكتاب ما كانوا كافرين من اول الامر لانهم كانوا مصدقين بالتوراة والانجيل وبمبعث محمد صلى الله عليه وسلم بخلاف المشركين فانهم ولدوا على عبادة الاوثان وذلك يدل على الثبات على الكفر وقوله تعالى (حتى) أي الى ان (تأتيهم البينة) متعلق بيكن او بمنفكين والبينة الآية التي هي في البيان كالفجر المنير الذي لايزداد بالتمادي الاظهورا واضياء ونورا وذلك هو الرسول صلى الله عليه وسلم وما معه من الآيات التي أعظمها الكتاب وهو القرآن وقوله تعالى (رسول) أي عظيم جدا بدل من البينة بنفسه أو بتقدير

قلت ظاهره انه يقرأ
المكتوب من الكتاب مع
انه منتف في حقه صلى الله
عليه وسلم لكونه أميا
(قلت) المراد يتلو ما في
الصحف عن ظهر قلبه (فان
قلت) ما الفرق بين الصحف

مضاف اى سنة رسول او مبتدأ وزاد عظمته بقوله تعالى واصفاله (من الله) أى الذى له الجلال والاكرام وهو محمد صلى الله عليه وسلم لانه فى نفسه بينة وحجة ولذلك سماه الله تعالى سراجا منيرا ولان اللام فى البينة للتعريف اى هو الذى سبق ذكره فى التوراة والانجيل على لسان موسى وعيسى عليهم السلام وقد يكون التعريف للتفخيم اذ هو البينة التى لا مزيد عليها والبينة كل البينة وكذا التنكير وقد جمعهما الله تعالى ههنا فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم ونظيره قوله تعالى حين أثنى على نفسه ذو العرش المجيد فعال لما يريد فنكر بعد التعريف وقال ابو مسلم المراد من البينة مطلق الرسول وما معه من الآيات التى أعظمها الكتاب سواء التوراة او الزبور أو الانجيل او القرآن وعبر بالمضارع بتجدد البيان فى كل وقت بتجدد الرسالة والتلاوة وقال البغوى لفظه مستقبل ومعناه الماضى أى حتى أتتهم البينة وتبعه على ذلك الجلال المحلى وقوله تعالى (يتلوا صحفا) صفة الرسول أو خبره والرسول صلى الله عليه وسلم وان كان اميا لكنه لما تلا مثل ما فى الصحف كان كالتالى لها وقيل المراد جبريل عليه السلام وهو التالى للصحف المنتسخة من اللوح التى ذكرت فى سورة عبس ولا بد من مضاف محذوف وهو الوحى والصحف جمع صحيفة وهى القرطاس والمراد ما فيها عبر بها عنه لشدة المواصلة (مطهرة) أى فى غاية الطهارة والنزاهة من كل قذر مما جعلنا لها من البعد عن الادناس بان الباطل من الشرك بالاوثان وغيرها من كل زيغ لا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها وانها لا يمسها الا المطهرون (فيها) أى تلك الصحف (كتب) أى أحكام مكتوبة (قيمة) أى مستقيمة ناطقة بالحق والعدل الذى لا مرية فيه ليس فيه شرك ولا اعوجاج بنوع من الانواع (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) أى عما كانوا عليه وخص اهل الكتاب بالتفرق دون غيرهم وان كانوا مجموعين مع الكافرين لانهم يظنون بهم علما فاذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف (الا من بعد ما جاءتهم البينة) أى اتتهم البينة الواضحة والمعنى به محمد صلى الله عليه وسلم أتى بالقرآن موافقا للذى فى أيديهم من الكتاب بنعته وصفته وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوته فلما بعث صلى الله عليه وسلم جحدوا نبوته وتفرقوا فمنهم من كفر بغيا وحسدا ومنهم من آمن كقوله تعالى وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم وقال تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقد كان مجىء البينة يقتضى اجتماعهم على الحق لا تفرقهم فيه وقرأ حمزة وابن ذكوان بامالة الالف بعد الجيم محضة والباقون بالفتح ٭ ولما كان حال من أضل على علم أشنع زاد فى فضيحتهم فقال تعالى (وما أمروا) أى هؤلاء الكفار فى التوراة والانجيل (الا ليعبدوا الله) اى يوحدوا الاله الذى له الامر كله ولا أمر لاحد غيره واللام بمعنى أن كقوله تعالى يريد الله ليبين لكم وقوله تعالى (مخلصين له الدين) فيه دليل على وجوب النية فى العبادات لان الاخلاص من عمل القلب وهو ان يراد به وجه الله تعالى لا غيره ومن ذلك قوله انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين (حنفاء) أى مائلين عن الاديان كلها الى دين الاسلام وأصل الحنف فى اللغة الميل وخصه العرف بالميل الى الخير وسموا الميل الى الشر الحادا والحنيف المطلق الذى يكون متبرئا من اصول الملل الخمسة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين

والكتب حتى جمع بينهما فى الآية (قالت) الصحف قراطيس مطهرة من الشرك والباطل والكتب بمعنى المكتوبات اى فى القراطيس مكتوبة قيمة اى مستقيمة ناطقة

وعن فروعها من جميع الخلل الى الاعتقادات وعن توابعها من الخطا والنسيان الى العمل
الصالح وهو مقام التقى وعن المكروهات الى المتحببات وهو المقام الاول من الورع وعن
الفضول شفقة على خلق الله تعالى وهو ما لا يعنى الى ما يعنى وهو المقام الثانى من الورع وعما يجر
الى الفضول وهو مقام الزهد فالآية جامعة لمقامى الاخلاص الناظر أحدهما الى الحق والثانى
الى الخلق ٭ ولما ذكر أصل الدين اتبعه الفروع وبدأ باعظمها الذى هو مجمع الدين وموضع
التجرد عن العوائق فقال عز من قائل (ويقيموا) أى يعدلوا من غير اعوجاج بجميع الشرائط
والاركان والحدود (الصلوة) لتصير بذلك أهلا لان تقوم بنفسها وهى من التعظيم لامر الله
تعالى ولما ذكر تعالى صلة الخالق اتبعها صلة الخلائق بقوله تعالى (ويؤتوا الزكوة) أى
يدفعوها المستحقيها شفقة على خلق الله تعالى اعانة على الدين أى ولكنهم حرفوا ذلك وبدلوه
لطباعهم المعوجة وتدخل الزكاة عند أهل الله تعالى فى كل ما رزق الله من عقل وسمع وبصر
ولسان ويد ورجل وجاه وغير ذلك كما هو واضح من قوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون (وذلك)
أى والحال ان هذا الموصوف من العبادة على الوجه المذكور (دين القيمة) أى الملة المستقيمة
وأضاف الدين الى القيمة وهى نعته لاختلاف اللفظين وانث القيمة ردا بها الى الملة وقيل الهاء
للمبالغة فيه وقيل القيمة هى الكتب التى جرى ذكرها أى وذلك دين الكتب القيمة فيما تدعو
اليه وتامر به كما قال تعالى وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقال
النضر بن شميل سالت الخليل بن أحمد عن قوله تعالى وذلك دين القيمة فقال القيمة جمع القيم
والقيم والقائم واحد قال البغوى ومجاز الآية وذلك دين القائمين لله تعالى بالتوحيد ثم ذكر
تعالى ما للفريقين فقال سبحانه (ان الذين كفروا) اى وقع منهم الستر لما أى عقولهم بعد صرفها
للنظر الصحيح فضلوا واستمروا على ذلك وان لم يكونوا عريقين فيه (من اهل الكتاب) أى اليهود
والنصارى (والمشركين) أى العريقين فى الشرك (فى نار جهنم) أى النار التى تلقاهم بالتجهم
والعبوسة (خالدين فيها) أى يوم القيامة او فى الحال لسعيهم لموجباتها واشتراك الفريقين فى
جنس العذاب لا يوجب التساوى فى النوع بل يختلف بحسب اشتداد الكفر وخفته (أولئك)
أى هؤلاء البعداء البغضاء (هم) أى خاصة بما اضمارهم من الخبث (شر البرية) أى الخليقة
الذين أهملوا اصلاح أنفسهم وفرطوا فى حوائجهم ومآربهم وهذا يحتمل ان يكون على التعميم
وان يكون بالنسبة لعصر النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى وأنى فضلتكم على العالمين
أى عالمى زمانهم ولا يبعد أن يكون فى كفار الامم قبل من هو شر منهم مثل فرعون وعاقر ناقة
صالح ٭ ولما ذكر تعالى الاعداء وبدأ بهم لان ذلك أردع لهم أتبعه الاولياء فقال تعالى مؤكدا
ما للكفار من الانكار (ان الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا) تصديقا لايمانهم
(الصالحات) أى هذا النوع (أولئك) أى هؤلاء العالو الدرجات (هم) اى خاصة (خير البرية)
أى على التعميم أو برية عصرهم وباقى فيه ما مر وقرأ نافع وابن ذكوان بالهمز فى الحرفين لانه
من قولهم برأ الله الخلق والباقون بالياء المشددة بعد الراء كالذرية ترك همزه فى الاستعمال
ثم ذكر ثوابهم بقوله تعالى (جزاؤهم) أى على طاعاتهم وعظمه بقوله تعالى (عند
ربهم) اى المربى لهم والمحسن اليهم (جنات عدن) أى اقامة لا يحولون عنها (تجرى)

(قوله بالعدل والحق وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) اى وهم اليهود والنصارى الامن بعد ما جاءتهم البينة اى محمد صلى الله عليه وسلم او القرآن المعنى انهم كانوا

اى بريادائما لا انقطاع له (من تحتها) اى تحت أشجارها وغرفها (الانهار خالدين فيها) اى يوم القيامة أو فى الحال لسعيهم فى موجباتها وأكد معنى الخلود تعظيما لجزائهم بقوله تعالى (أبدا رضى الله) اى بما له من نعوت الجلال والجمال (عنهم) اى بما كان سبق لهم من العناية والتوفيق (ورضوا عنه) لانهم لم يبق لهم أمنية الا أعطاهموها مع علمهم انه تفضل فى جميع ذلك لا يجب عليه لاحد شئ ولا يقدره أحد حق قدره فلو آخذ الخلق بما يستحقونه لاهلكهم كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس ورضوا عنه بثواب الله عز وجل (ذلك) اى الامر العالى الذى جوزوا به (لمن خشى ربه) اى خاف المحسن اليه خوفا يليق به فلم يركن الى التسويف والتكاسل فان الخشية ملاك الامر والباعث على كل خير وهى للعارفين فان الانسان اذا استشعر عذابا يأتيه لحقته حالة يقال لها الخوف وهى انخلاع القلب عن طمأنينته فان اشتد سمى وجلا لجولانه فى نفسه فان اشتد سمى رهبا لادائه الى الهرب وهى حالة المؤمنين الفارين الى الله تعالى ومن غلب عليه الحب لاستغراقه فى شهود الجماليات لحقته حالة تسمى مهابة ووراء هذا الخشية انما يخشى الله من عباده العلماء فمن خاف ربه هذا الخوف انفك عن جميع ما عنده مما لا يليق بجنابه تعالى وما فارق الخوف قلبا الا خرب روى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لابى بن كعب ان الله أمرنى أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا قال أبى وسمانى لك قال النبى صلى الله عليه وسلم نعم فبكى أبى قال البقاعى سبب تخصيصه بذلك أنه وجد اثنين من الصحابة قد خالفاه فى القراءة فرفعهما الى النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهما فعرضا عليه فحسن لهما قال فسقط فى نفسى من التكذيب أشد ما يكون فى الجاهلية فضرب صلى الله عليه وسلم فى صدرى ففضت عرقا وكأنما أنظر الى الله فرقا اى خوفا ثم قص على خبر التخفيف بالسبعة الاحرف وكانت السورة التى وقع فيها الخلاف سورة النحل وفيها انه تعالى يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم يوم البعث شهيدا وانه نزل عليه الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وأنه نزل عليه روح القدس بالحق ليثبت الذين آمنوا وان اليهود اختلفوا الى السبت وسورة لم يكن على قصرها حاوية اجمالا لكل ما فى النحل على طولها وزيادة وفيها التحذير من الشك بعد البيان وتقبيح حال من فعل ذلك وان حاله يكون كحال الكفرة من أهل الكتاب فى العناد فيكون شر البرية فقرأها صلى الله عليه وسلم عليه تذكيرا له بذلك كله على وجه أبلغ وأخصر ليكون أسرع له تصورا فيكون أرسخ فى النفس وأثبت فى القلب وأعشق للطبع فاختصه الله بالتثبيت وأراد له الثبات فكان من المريدين المرادين لما وصل الى قلبه بركة ضربة النبى صلى الله عليه وسلم لصدره وصار كلما قرأ هذه السورة الجامعة غائبا عن تلاوة نفسه مصغيا باذن قلبه الى روح النبوة يتلو عليه ذلك فيدوم له حال الشهود الذى وصل اليه بسر تلك الضربة ولثبوته فى هذا المقام قال صلى الله عليه وسلم اقرؤكم أبى قال القرطبى وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم وقال بعضهم انما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم على أبى ليعلم الناس التواضع لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه فى المنزلة وقيل أن أبيا كان أسرع أخذا الالفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاراد بقراءته عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليه ويعلم غيره

مجتمعين على الايمان به اذا جاءه فلما جاءته تفرقوا فمنهم من كفر بغيا وحسدا ومنهم من آمن كقوله وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم

وفيه نضيلة عظيمة لابي اذ أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ عليه وقول البيضاوى تبعا الزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلا حديث موضوع

سورة الزلزلة مدنية

في قول ابن عباس وقتادة ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر وهي ثمان آيات وخمس وثلاثون كلمة ومائة وتسع وأربعون حرفا

(بسم الله) المحيط بكل شئ قدرة وعلما (الرحمن) الذى عم الخلق بنعمته الظاهرة قسطا (الرحيم) الذى أتم النعمة على خواصه حقيقة عينا واسماء ولما قال تعالى للمؤمنين جزاؤهم عند ربهم جنات عدن كأن المكلف قال متى يكون ذلك فقيل له (اذا زلزلت الارض) اى تحركت واضطربت لقيام الساعة فالعاملون كلهم يكونون فى الخوف وأنت فى ذلك الوقت تنال جزاءك وتكون آمنا القوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (زلزالها) اى تحريكها الشديد المناسب لعظم جرم الارض وعظمة ذلك وذلك كما تقول اكرم التقى اكرامه وأهن الفاسق اهانته تريد ما يستوجبانه من الاكرام والاهانة ولما كان الاضطراب العظيم يكشف عن الخفى فى المضطرب قال تعالى (وأخرجت الارض) اى كلها ولم يضمر تحقيقا للعموم (أثقالها) اى ما هو مدفون فيها من الكنوز والاموات قال ابو عبيدة والاخفش اذا كان الميت فى بطن الارض فهو ثقل لها واذا كان فوقها فهو ثقل عليها وقال ابن عباس ومجاهد أثقالها أمواتها تخرجهم فى النفخة الثانية ومنه قيل للجن والانس الثقلان وقيل أثقالها كنوزها ومنه الحديث تلقى الارض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة فيجئ القاتل فيقول فى هذا قتلت ويجئ القاطع فيقول فى هذا قطعت رحمى ويجئ السارق فيقول فى هذا قطعت يدى ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيأ فيعطيها الله تعالى قوة اخراج ذلك كله كما كان يعطيها قوة أن تخرج النبات الصغير اللطيف الطرى الذى هو انعم من الحرير فتنشق الارض الصلبة التى تكل عنها المعاول بل شق النواة مع مالها من الصلابة التى استعصت بها على الحديد فتنفلق نصفين وينبت منها ما ساتر ما يريده سبحانه وتعالى فالذى قدر على ذلك قادر على تكوين الموتى فى بطن الارض واعادتهم على ما كانوا عليه كما يكون الجنين فى البطن ويشق جميع منافذه من السمع والبصر والفم وغير ذلك من غير أن يدخل هنالك بيكار ولا منشار ثم يخرج من البطن هكذا اخراج الموتى من غير فرق كل ذلك عليه هين سبحانه ما أعظم شانه وأعز سلطانه (وقال الانسان) أى هذا النوع الصادق بالقليل والكثير لما له من النسيان لما أكد عنده من أمر البعث بما له من الانس بنفسه والنظر فى عطفه على سبيل لتعجب او الدهش والحيرة او الكافر كما يقول من بعثنا من مرقدنا فيقول له المؤمن هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (مالها) اى اى شئ ثبت للارض فى هذه الزلزلة الشديدة التى لم يعهد مثلها ولفظت ما فى بطنها (يومئذ) اى اذ كان ما ذكر من الزلزال وما لزم عنه وقوله تعالى (تحدث أخبارها) جواب اذا وهو الناصب لها عند الجمهور ومعنى تحدث اى تخبر الارض بما عمل عليها من خير او شر

(قوله اذا زلزلت الارض زلزالها) * ان قلت لم اضاف الزلزال الى الارض ولم يقل زلزالا كما قال اذا دكت الارض دكا دكا (قلت) ليدل على انها

يومئذ ثم قيل هو من قول الله تعالى وقيل من قول الانسان اى يقول الانسان ما لها تحدث أخبارها متعجبا روى الترمذى عن ابى هريرة أنه قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية يومئذ تحدث أخبارها قال أتدرون ما أخبارها قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا كذا وكذا قال فهذه أخبارها *(تنبيه)* فى تحديثها اخبارها ثلاثة اقوال احدها ان الله تعالى يقلبها حيوانا ناطقا فتتكلم بذلك ثانيها ان الله تعالى يحدث فيها الكلام ثالثها ان يكون فيها بيان يقوم مقام الكلام وقيل فى الآية تقديم وتأخير تقديره يومئذ تحدث اخبارها فيقول الانسان ما لها اى تخبر الارض بما عمل عليها (بان ربك) متعلق بتحدث ويجوز ان يتعلق بنفس اخبارها والباء سببية اى تحدث بسبب ان ربك المحسن اليك بانواع النعم (أوحى لها) اى أذن لها ان تتكلم بذلك المذكور بالقال أو بالحال على ما مر قال البقاعى وعدل عن قوله اليها الى قوله تعالى لها ايذانا بالاسراع فى الايحاء وقال البغوى أوحى لها وأوحى اليها واحد وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يومئذ) بدل من يومئذ قبله أو منصوب بقوله تعالى (يصدر) أو باذكر مقدرا اى واذكر يوم اذ كان ما تقدم وهو حين يقوم الناس من القبور يصدر (الناس) اى يرجعون من قبورهم الى ربهم الذى كان لهم بالمرصاد ليفصل بينهم وقرأ حمزة والكسائى باشمام الصاد بين الصاد والزاى والباقون بالصاد الخالصة (أشتاتا) اى متفرقين بحسب مراتبهم فى الذوات والاحوال من مؤمن وكافر وآمن وخائف ومطيع وعاص وعن ابن عباس متفرقين على قدر اعمالهم اهل الايمان على حدة ومتفرقين فآخذ ذات اليمين الى الجنة وآخذ ذات الشمال الى النار (ليروا) اى يرى الله تعالى المحسن منهم والمسئ بواسطة من شاء من جنوده أو بغير واسطة حين يكلم سبحانه كل أحد من غير ترجمان ولا واسطة كما اخبر بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم (أعمالهم) فيعلموا جزاءها وصادرين عن الموقف كل الى داره ليرى جزاءه ثم سبب عن ذلك قوله تعالى مفصلا الجملة التى قبله (فمن يعمل) من محسن او مسئ مسلم او كافر (مثقال ذرة خيرا) اى من جهة الخير (يره) اى يرى ثوابه حاضرا لا يغيب عنه شئ منه لان المحاسب له الاحاطة علما وقدرة (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فالمؤمن يراه ليشتد سروره به والكافر يوقف على عمله انه احبط لبنائه على غير اساس الايمان او على انه جوزى فى الدنيا فهو صورة بلا معنى ليشتد ندمه وتبقى حسرته وعن ابن عباس من يعمل من الكفار خيرا يره فى الدنيا ولا يثاب عليه فى الآخرة ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه فى الآخرة مع عقاب الشرك ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره فى الدنيا ولا يعاقب عليه فى الآخرة اذا تاب ويتجاوز عنه وان عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه ويضاعف فى الآخرة وفى بعض الاحاديث ان الذرة لا زنة لها وهذا مثل ضربه الله تعالى ليبين انه لا يغفل عن عمل ابن آدم صغيرا ولا كبيرا وهو كقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وذكر بعض أهل اللغة ان الذر أن يضرب الرجل بيده على الارض فما علق من التراب فهو الذر وعن ابن عباس اذا وضعت يدك على الارض ورفعتها فكل واحد مما لزق من التراب ذرة وفسرها بعضهم بالنملة

زلزلت الزلزال الذى يستحقه فى حكمته تعالى ومشيئته فى ذلك اليوم وهو الزلزال الذى ليس بعده زلزال (قوله فمن يعمل مثقال ذرة الآيتين) ليس بتكرار لان الاول متصل بقوله

الصغيرة وبعضهم بالهباءة التي ترى طائرة في الشعاع الداخل من الكوة وقال محمد بن كعب القرظي فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى خير ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى شر ودليله ما روى أنس أن هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل فأمسك وقال يا رسول الله وإنا لنرى ما عملنا من خير وشر فقال صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فمثاقيل ذر الشر ويدخر لكم مثاقيل ذر الخير حتى تعطوه يوم القيامة قال أبو ادريس ان مصداقه من كتاب الله عز وجل وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وقال مقاتل نزلت في رجلين أحدهما كان يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة ويقول انما وعد الله تعالى النار على الكبائر فنزلت هذه الآية لترغبهم في القليل من الخير يعطوه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة وتحذرهم من اليسير من الذنب ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لعائشة اياك ومحقرات الذنوب فان لها من الله تعالى طالبا وقال ابن مسعود هذه الآية أحكم اية في القرآن وأصدق وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية وقال كعب الاحبار لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آيتان أحصتا ما في التوراة والانجيل والزبور والصحف فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وكان صلى الله عليه وسلم يسمي هذه الجامعة الفاذة حين سئل عن زكاة الحمير فقال ما نزل علي فيها شئ غير هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وروى مالك في الموطا ان مسكينا استطعم عائشة رضي الله عنها وبين يديها عنب فقالت لانسان خذ حبة فاعطه اياها فجعل ينظر اليها ويتعجب فقالت أتعجب كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة وكذا تصدق عمر رضي الله عنه وما ذاك الا لتعليم الغير والا فهما من كرماء الصحابة قال الربيع بن خيثم مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه الآية فلما بلغ آخرها قال حسبي قد انتهت الموعظة *(تنبيه)* قوله تعالى يره جواب الشرط في الموضعين وقرأ هشام بسكون هاء يره وصلا في الحرفين والباقون بضمها وصلا وساكنة وقفا كسائر هاء الكناية وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ اذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله رواه الثعلبي بسند ضعيف لكن يشهد له ما رواه ابن أبي شيبة مرفوعا اذا زلزلت تعدل ربع القرآن

خيرا يره والثاني متصل بقوله شرا يره (فان قلت) كيف عم فيهما مع ان حسنات الكافر محبطة بالكفر وسيآت المؤمن باجتناب الصغائر مغفورة باجتناب الكبائر (قلت) معناه

سورة والعاديات مكية

في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء ومدنية في قول ابن عباس وأنس ابن مالك وقتادة وهي احدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وثلاثة وستون حرفا

(بسم الله) الذي له الامر كله فلا يسئل عما يفعل (الرحمن) الذي نعمته أتم نعمة وأشمل (الرحيم) الذي خص اولياءه بتوفيقه وأتم نعمته عليهم وأكمل وقوله سبحانه وتعالى

(والعاديات ضبحا) قسم أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة تعدو فتضبح والضبح صوت أنفاسها اذا عدون وعن ابن عباس انه حكاه فقال أح أح قال عنترة

والخيل تكدح حين تضبح في حياض الموت ضبحا

وانتصاب ضبحا على يضبحن ضبحا أو بالعاديات كأنه قيل والضابحات ضبحا لان الضبح يكون مع العدو أو على الحال أى ضابحات والعاديات جمع عادية وهى الجارية بسرعة من العدو وهو المشى بسرعة وعن ابن عباس كنت جالسا فى الحجر فجاء رجل فسألنى عن العاديات ضبحا ففسرتها بالخيل فذهب الى على رضى الله عنه وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت فقال ادعه لى فلما وقفت على رأسه قال تفتى الناس بما لا علم لك به والله ان كانت لاول غزوة فى الاسلام بدر وما كان معنا الا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد العاديات ضبحا الابل من عرفة الى المزدلفة ومن المزدلفة الى منى قال الزمخشرى فان صحت الرواية فقد استعير الضبح للابل كما استعير المشافر والحافر للانسان والشفتان للمهر وما أشبه ذلك قال ابن عباس وليس شئ من الحيوان يضبح غير الفرس والكلب والثعلب ونقل غيره ان الضبح يكون فى الابل والاسود من الحيات والبوم والصرد والارنب والثعلب والفرس ثم اتبع عدوها ما ينشأ عنه فقال تعالى عاطفا باداة التعقيب (فالموريات قدحا) قال عكرمة والضحاك هى الخيل تورى النار بحوافرها اذا سارت فى الحجارة لاسيما عند سلوك الاوعار وقدحا منصوب بما انتصب به ضبحا قال الزمخشرى ففيه الثلاثة اوجه المتقدمة وعن ابن عباس أورت بحوافرها غبارا وهذا انما يناسب من فسر العاديات بالابل وقال ابن مسعود هى الابل تطأ الحصى فتخرج منه النار وأصل القدح الاستخراج ومنه قدحت العين اذا أخرجت منها الماء الفاسد وعن قتادة وابن عباس أيضا ان الموريات قدحا مكر الرجال فى الحرب والعرب تقول اذا أرادوا أن الرجل يمكر بصاحبه والله لامكرن بك ثم لاورين لك وعن ابن عباس أيضا هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل لحاجتهم وطعامهم وعنه أيضا انها نيران المجاهدين اذا كثرت نارها ليظنهم العدو كثيرا قال القرطبى وهذه الاقوال مجاز كقولهم فلان يورى زناد الضلالة والاول الحقيقة وان الخيل من شدة عدوها تقدح النار بحوافرها قال مقاتل تسمى تلك النار نار أبى حباب وأبو حباب كان شيخا من مضر فى الجاهلية من أبخل الناس وكان لا يوقد نارا لخبز ولا غيره حتى تنام العيون فيوقد نويرة تقد مرة وتخمد أخرى فان استيقظ لها أحد اطفأها كراهة أن ينتفع بها أحد فشبهت العرب هذه النار بناره لانه لا ينتفع بها ولما ذكر العدو وما يتأثر عنه ذكر نتيجته وغايته بقوله تعالى (فالمغيرات) أى بإغارة أهلها على العدو وقوله تعالى (صبحا) ظرف أى التى تغير وقت الصبح يقال أغار يغير اغارة اذا باغت عدوه بنهب أو قتل أو أسر قال الشاعر

فليت لى بهم قوما اذا ركبوا * شنوا الاغارة فرسانا وركبانا

وغارلغية (فأثرن) أى فهيجن (به) أى بفعل الاغارة ومكانها وزمانها من شدة العدو (نقعا) أى غبارا لشدة حركتهن والنقع الغبار *(تنبيه)* عطف الفعل وهو فأثرن على الاسم لانه فى تأويل الفعل لوقوعه صلة لأل وقال الزمخشرى معطوف على الفعل الذى وضع

فمن يعمل مثقال ذرة من فريق السعداء خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة من فريق الاشقياء شرا يره

(سورة العاديات)

(قوله والعاديات ضبحا)

اسم الفاعل موضعه لان المعنى واللاتي عدون فاورين فاغرن فاثرن (فوسطن به) أي بذلك النقع او العدو أو الوقت (جمعا) من العدو أي صرن وسط العدو وهو الكتيبة يقال وسطت القوم بالتخفيف ووسطتهم بالتشديد وتوسطتهم بمعنى واحد وقال القرطبي يعني جمع منى وهو من دلفة ووجه القسم على هذا ان الله تعالى أقسم بالابل لما فيها من المنافع الكثيرة وتعريضه بابل الحج للترغيب فيه وفيه تعريض على من لم يحج بعد القدرة عليه كما في قوله تعالى ومن كفر أي من لم يحج فان الله غني عن العالمين وجواب القسم قوله تعالى (ان الانسان) أي هذا النوع بما له من الانس بنفسه والنسيان لما ينفعه (لربه) المحسن اليه بابداعه ثم بابقائه وتدبيره وتربيته (لكنود) قال ابن عباس لكفور جحود لنعم الله تعالى وقال الكلبي هو بلسان ربيعة ومضر الكفور وبلسان كندة وحضرموت العاصي وقال الحسن هو الذي يعد المصائب وينسى النعم وقال أبو عبيدة هو قليل الخير والارض الكنود التي لاتنبت شيأ وفي الحديث عن ابي امامة هو الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده وقال الفضيل بن عياض الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الاساءة الخصال الكثيرة من الاحسان والشكور الذي انسته الخصلة الواحدة من الاحسان الخصال الكثيرة من الاساءة (وانه) أي الانسان (على ذلك) أي الكنود العظيم حيث أقدم على مخالفة الملك الاعظم المحسن مع الكفر لاحسانه (لشهيد) أي يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه او ان الله تعالى على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد (وانه) أي الانسان من حيث هو (لحب) أي لاجل حب (الخير) أي المال الذي لا يعد غيره لجهله خيرا (لشديد) أي بخيل بالمال ضابط له ممسك عليه أو بليغ القوة في حبه لان منفعته في الدنيا وهو متقيد بالعاجل الحاضر المحسوس مع علمه بان أقل ما فيه أنه يشغله عن حسن الخدمة لربه تعالى ومع ذلك فهو لحب المال وايثار الدنيا وطلبها قوي مطيق وهو لحب عبادة ربه وشكر نعمته ضعيف متقاعس ثم سبب عن ذلك قوله تعالى (أفلا يعلم) أي هذا الانسان الذي انساه أنسه بنفسه (اذا بعثر) أي اثير بغاية السهولة وأخرج (ما في القبور) اي من الموتى قال أبو عبيدة بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه قال محمد بن كعب ذلك حين يبعثون (فان قيل) لم قال ما في القبور ولم يقل من ثم قال بعد ذلك ان ربهم بهم (أجيب) عن الاول بان ما في الارض غير المكلفين أكثر فاخرج الكلام على الاغلب أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل يصيرون كذلك بعد البعث فلذلك كان الضمير الاول ضمير غير العقلاء والضمير الثاني ضمير العقلاء (وحصل) أي أخرج وجمع بغاية السهولة (ما في الصدور) من خير وشر مما يظن مضمره انه لا يعلمه أحد أصلا وظهر مكتوبا في صحائف الاعمال وهذا يدل على ان النيات يحاسب عليها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها وتخصيص الصدر بذلك لانه محل القلب (ان ربهم) أي المحسن اليهم بخلقهم وخلقهم وتربيتهم (بهم يومئذ) أي اذ كانت هذه الامور وهو يوم القيامة (لخبير) أي محيط بهم من جميع الجهات عالم غاية العلم بسرائر أمورهم فكيف بظواهرها ومعنى علمه بهم يوم القيامة مجازاته لهم والا فهو خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره فكيف ينبغي للعاقل ان يعلق آماله بالمال فضلا عن ان يؤثره على الباقي وقول البيضاوي

أقسم بثلاثة أشياء وجعل جوابها ثلاثة أشياء وهي قوله ان الانسان الى قوله لشديد (قوله ان ربهم بهم يومئذ لخبير) ان قلت كيف قال ذلك مع انه تعالى خبير بهم في كل زمن (قلت)

تبعه للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعاديات أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا حديث موضوع

سورة القارعة مكية

وهى احدى عشرة آية وست وثلاثون كلمة ومائة واثنان وخمسون حرفا

(بسم الله) الملك الاعلى (الرحمن) الذى عمت نعمة ايجاده جميع الورى (الرحيم) الذى خص أولياءه بالتوفيق لما يحب و يرضى * ولما ختم العاديات بالبعث ذكر صيحته بقوله تعالى (القارعة) أى الصيحة أو القيامة التى تقرع القلوب بأهوالها والاجرام الكثيفة بالتشقق والانفطار والاشياء الثابتة بالانتشار وقوله تعالى (ما القارعة) تهويل لشأنها وهما مبتدأ وخبر خبر القارعة وأكد تعظيمها اعلاما بأنه مهما خطر فى بالك من عظمها فهى أعظم منه فقال تعالى (وما أدراك) أى أعلمك (ما القارعة) أى انك لا تعرفها لانك لم تعهد مثلها وما الاولى مبتدأ وما بعدها خبره وما الثانية وخبرها فى محل المفعول الثانى لادرى واختلف فى ناصب (يوم) على وجهين أحدهما أنه بمضمر دل عليه القارعة أى تقرعهم أى تقرعهم يوم وقيل تقديره تأتى القارعة يوم (يكون الناس) والثانى انه اذكر مقدرا فهو مفعول به لا ظرف وقوله تعالى (كالفراش المبثوث) يجوز أن يكون خبر الناقصة وأن يكون حالا من فاعل التامة أى يوجدون ويحشرون شبه الفراش شبههم فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير الى الداعى من كل جانب كما يتطاير الفراش الى النار والفراش طائر معروف قال قتادة الفراش الطير الذى يتساقط فى النار والسراج الواحدة فراشة وقال الفراء هو الهمج من البعوض والجراد وغيرهما وبه يضرب المثل فى الطيش والهوج يقال اطيش من فراشة وأنشدوا

فراشة الحلم فرعون العذاب وان ... تطلب نداه فكلب دونه كلب

وفى امثالهم أضعف من فراشة وأذل وأجهل وسمى فراشا لتفرشه وانتشاره وروى مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى وفى تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى منها الطيش الذى يلحقهم وانتشارهم فى الارض وركوب بعضهم بعضا والكثرة والضعف والذلة والمجئ من غير ذهاب والقصد الى الداعى من كل جهة والتطاير الى النار قال جرير

ان الفرزدق ما علمت وقومه ... مثل الفراش غشين نار المصطلى

والمبثوث المتفرق وقال تعالى فى موضع آخر كأنهم جراد منتشر (فان قيل) كيف شبه الشئ الواحد بالصغير والكبير معا لانه شبههم بالجراد المنتشر والفراش المبثوث (اجيب) بأن التشبيه بالفراش فى ذهاب كل واحد الى غير جهة الآخر وأما التشبيه بالجراد فبالكثرة والتتابع (وتكون الجبال) على ما هى عليه من الشدة والصلابة وأنها ضخور راسخة (كالعهن) اى الصوف المصبوغ ألوانا لانها ملونة قال تعالى ومن الجبال جدد بيض وحمر أى

معناه ان ربهم تعالى مجازيهم يومئذ على اعمالهم فتجوز بالعلم عن المجازاة كما فى قوله تعالى أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم أى يجازيهم على ما فيها

وغيرذلك (المنفوش) أى المندوف المفرق الاجزاء فتراها لذلك متطايرة فى الجو كالهباء المنثور كما قال تعالى فى موضع آخر هباء منبثا حتى تعود الارض كلها لا عوج فيها ولا امتا ثم سبب عن ذلك قوله تعالى مفصلا لهم (فامامن ثقلت موازينه) أى برجحان الحسنات وفى الموازين قولان أحدهما انه جمع موزون وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله تعالى وهذا قول الفراء والثعالى قال ابن عباس انه جمع ميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه الا الاعمال فتوزن فيه الصحف المكتوبة فيها الحسنات والسيآت أو الاعمال أنفسها فيؤتى بحسنات المؤمن فى أحسن صورة فتوضع فى كفة الميزان فاذا رجحت فالجنة له ويؤتى بسيآت الكافر فى اقبح صورة فيخف ميزانه فيدخل النار وقيل انما توزن اعمال المؤمنين فمن ثقلت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن ثقلت سيآته على حسناته دخل النار فيقتص منه على قدرها ثم يخرج منها فيدخل الجنة او يعفو الله عنه فيدخل الجنة بفضله ورحمته واما الكافر فقد قال الله تعالى فى حقه فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ثم قيل انه ميزان واحد بيد جبريل عليه السلام يزن به أعمال بنى آدم فعبر عنه بلفظ الجمع وقيل موازين لكل حادثة ميزان وقيل الموازين الحجج والدلائل قاله عبد العزيز بن يحيى واستشهد بقول الشاعر

قد كنت قبل لقائكم ذامرة ٭ عندى لكل مخاصم ميزانه

(فهو) اى بسبب رجحان حسناته (فى عيشة) اى حياة يتقلب فيها قال البقاعى واعله الحقها بالهاء الدالة على الوحدة والمراد العيش ليفهم انها على حالة واحدة فى الصفاء والالذة وليست ذات الوان كحياة الدنيا (راضية) اى ذات رضا او مرضية لان اهله جنة عالية (واما من خفت) اى طاشت (موازينه) اى غلبت سيآته اولم تكن له حسنة لاتباعه الباطل وخفته عليه فى الدنيا (فامه) اى التى تؤويه وتضمه اليها كما يقال للارض ام لانها تقصد لذلك ويسكن اليها كما يسكن الى الام وكذا المسكن (هاوية) أى نار نازلة سافلة جدا فهو بحيث لا يزال يهوى فيها نازلا فهو فى عيشة ساخطة فالآية من الاحتباك ذكر العيشة أولا دليلا على حذفها ثانيا وذكر الام ثانيا دليلا على حذفها أولا والهاوية اسم من اسماء جهنم وهى المهواة لا يدرك قعرها وقال قتادة هى كلمة عربية كان الرجل اذا وقع فى امر شديد يقال هوت امه وقيل اراد ام راسه يعنى انهم يهوون فى النار على رؤسهم والى هذا التاويل ذهب قتادة وأبو صالح وروى عن أبى بكر انه قال وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباع الحق وثقله فى الدنيا وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحسنات أن يثقل وانما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل وخفته فى الدنيا وحق لميزان لا يوضع فيه الا السيآت أن يخف (وما أدراك) أى وأى شئ أعلمك وان اشتد تكلفك (ماهيه) أى الهاوية والاصل ماهى فدخلت الهاء للسكت وقرأ حمزة فى الوصل بغير هاء بعد الياء التحتية ووقف بها والباقون باثباتها وصلا ووقفا (فان قيل) قال هنا وما أدراك ماهيه وقال أول السورة وما أدراك ما القارعة ولم يقل وما أدراك ما الهاوية (اجيب) بان كونها قارعة أمر محسوس وكونها هاوية ليس كذلك فظهر الفرق وقوله تعالى (نار حامية) خبر مبتدا مضمر أى هى أى الهاوية نار شديدة الحرارة روى مسلم ان النبى صلى الله

٭(سورة القارعة)٭

قوله فامامن ثقلت موازينه) الميزان جمع فيه وفيما بعده مع انه واحد باعتبار تعدد الموزونات أو الموزون لهم وقيل هى جمع موزون (ان قلت) كيف قال لمن

عليه وسلم قال ناركم هذه التي توقدجزء من سبعين جزأ من حرجهنم قالوا وانها الكافية يارسول الله قال فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلها مثل حرها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة حديث موضوع

سورة التكاثر مكية

وهي ثمان آيات وثمانية وعشرون كلمة ومائة وعشرون حرفا

(بسم الله) ذي الجلال والاكرام (الرحمن) الذي عم بالايجاد بعد الاعدام (الرحيم) الذي خص أولياءه بتمام الانعام ولما ختم القارعة بالشقي افتتح هذه بفعل الشقاوة ومبتدا الحشر ليتزجر السامع فقال تعالى (ألهاكم التكاثر) اي شغلكم المباهاة والمفاخرة والمكاثرة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه (حتى زرتم المقابر) اي الهاكم التكاثر بالاموال والاولاد الى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق اليها والتهالك عليها الى أن أتاكم الموت لاهم لكم غيرها عماهو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لآخرتكم وزيارة القبر عبارة عن الموت قال الاخطل

لن يخلص العام خليل عشرا ٭ ذاق الضماد أو يزور القبرا

٭(تنبيه)٭ حتى غاية لقوله تعالى الهاكم وهو عطف عليه والمعنى حتى أتاكم الموت فصرتم في المقابر زوارا ترجعون منها كرجوع الزائر الى منزله من جنة أو نار يقال لمن مات قد زار قبره (فان قيل) شان الزائر أن ينصرف قريبا والاموات ملازمون للقبور فكيف يقال انه زار القبر وأيضا حتى زرتم اخبار عن الماضي فكيف يحمل على المستقبل (أجيب) عن الاول بان سكان القبور لابد أن ينصرفوا عنها فان كل آت قريب وعن الثاني لتحققه عبر عنه بالماضي كقوله تعالى أتى أمر الله وقال أبو مسلم ان الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييرا للكفار وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور وقال مقاتل والكلبي نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عددا فكثرهم بنو عبد مناف وقالت بنو سهم ان البغي أهلكنا في الجاهلية فعادونا بالاحياء والاموات فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لانهم كانوا في الجاهلية أكثر عددا والمعنى انكم تكاثرتم بالاحياء حتى استوعبتم عددهم ثم صرتم الى المقابر فتكاثرتم بالاموات عبر عن بلوغهم ذكر المرتي بزيارة القبور تهكما بهم وانما حذف الملهى عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدين للتعظيم والمبالغة وقال قتادة في اليهود قالوا نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان شغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالا أو انهم كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان عند تفاخرهم والمعنى ألهاكم ذلك وهو مما لا يعنيكم ولا يجدي عنكم في دنياكم وآخرتكم عما يعنيكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعنى من كل مهم من المقابر والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها ويسمى سعيد المقبري لانه كان يسكن المقابر قال القرطبي لم يأت في التنزيل ذكر المقابر الا في هذه السورة واعترضه ابن عادل بان الله تعالى قال في سورة أخرى ثم أماته فاقبره وهذا ممنوع فانه قال المقابر فلفظ هذه الآية غير لفظ تلك وزيارة القبور من أعظم الادوية للقلب

خفت موازينه فامه هاوية اي فسكنه النار مع ان اكثر المؤمنين سيآتهم راجحة على حسناتهم (قلت) قوله فامه هاوية لا يدل على خلوده فيها فيسكن المؤمن فيها بقدر

القاسى لانها تذكر الموت والآخرة وذلك يحمل على قصر الامل والزهد فى الدنيا وترك الرغبة فيها قال صلى الله عليه وسلم كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوارات القبور فتكره لهن لقلة صبرهن وكثرة جزعهن نعم زيارة النبى صلى الله عليه وسلم سنة لهن ويلحق به بقية الانبياء والاولياء والعلماء وينبغى لمن زار القبور أن يتأدب بآدابها ويحضر قلبه فى اتيانها ولا يكون حظه منها الطواف عليها فقط فان هذه حالة يشاركه فيها البهائم بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى واصلاح فساد قلبه ونفع الميت بما يتلوه عنده من القرآن والدعاء ويتجنب الجلوس عليها ويسلم اذا دخل المقابر فيقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين وانا ان شاء الله بكم لاحقون واذا وصل الى قبر ميته الذى يعرفه سلم عليه أيضا وأتاه من قبل وجهه لانه فى زيارته كمخاطبته حيا ثم يعتبر بمن صار تحت التراب وانقطع عن الاهل والاحباب ويتأمل حال من مضى من اخوانه كيف انقطعت آمالهم ولم تغن عنهم أموالهم ومحى التراب على محاسنهم ووجوههم وافترقت فى التراب أجزاؤهم وترمل من بعدهم نساؤهم وشمل ذل اليتم أولادهم وانه لابد صائر الى مصيرهم وان حاله كحالهم ومآله كمآلهم وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما تصدقت فامضيت أو أكلت فافنيت أو لبست فابليت وعن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله وقرأ ألهاكم حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (كلا) ردع وتنبيه على انه لا ينبغى للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه وقوله تعالى (سوف تعلمون) انذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم وقوله تعالى (ثم كلا سوف تعلمون) تكرير للتأكيد وثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الاول وأشد كما يقال للمنصوح أقول لك لا تفعل والمعنى سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه اذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله تعالى وان هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم وعن على كرم الله وجهه ورضى الله عنه كلا سوف تعلمون فى الدنيا ثم كلا سوف تعلمون فى الآخرة فعلى هذا يكون غير مكرر لحصول التغاير بينهما لاجل تغاير المتعلقين وثم على بابها من المهلة وعن ابن عباس كلا سوف تعلمون ما ينزل بكم من العذاب فى القبور ثم كلا سوف تعلمون فى الآخرة اذا حل بكم العذاب فالتكرار للحالتين وروى زر بن حبيش عن على كنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة فاشار الى أن قوله تعالى كلا سوف تعلمون فى القبور وقيل كلا سوف تعلمون اذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسل ربكم بنزع أرواحكم ثم كلا سوف تعلمون فى القيامة انكم معذبون وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر وعرض وسؤال الى غير ذلك من أهوال القيامة وقال الضحاك كلا سوف تعلمون يعنى الكفار ثم كلا سوف تعلمون أيها المؤمنون فالاول وعيد والثانى وعد ولما كان هذا أمرا صادقا أشار تعالى الى انه يكفى هذه الامة المرحومة التأكيد بمرة واحدة فقال سبحانه مرددا الامر بين تأكيد الردع تاليا بالاداة الصالحة له ولان يكون بمعنى حقا كما يقوله أئمة

ما تنقضى به ذنوبه ثم يخرج منها الى الجنة وقيل المراد بخفة الميزان خلوها من الحسنات بالكلية وتلك موازين الكفار

(سورة التكاثر)

(قوله كلا) فى المواضع

القراءة (كلا) اى ليشتد ارتداعكم عن التكاثر فانه أساس كل بلاء فانكم (لو تعلمون) اى أيها الكافرون (علم اليقين) اى لو يقع لكم علم على وجه اليقين مرة من الدهر لعلمتم ما بين ايديكم فلم يلهكم التكاثر ولضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تجأرون فحذف الجواب أخوف ليذهب الوهم معه كل مذهب ولا يجوز أن يكون (لترون الجحيم) جوابه الان هذا مثبت وجواب لو يكون منفيا ولانه تعالى عطف عليه ثم اقتصر وهو مستقبل لابد من وقوعه وحذف جواب لو كثير قال الاخفش التقدير لو تعلمون علم اليقين لالهاكم بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوضح به ما أنذرهم منه بعد ابهامه تفخيما وقوله تعالى (ثم لترونها) تكرير للتأكيد والاولى اذا رأتهم من مكان بعيد والثانية اذا وردوها والمراد بالاولى المعرفة والثانية الابصار (عين اليقين) اى الرؤية التى هى نفس اليقين فان علم المشاهدة اعلى مراتب اليقين قال الرازى واليقين مركب الاخلاص فى هذا الطريق وهو غاية درجات العامة وأول خطوة الخاصة قال صلى الله عليه وسلم خير ما ألقى فى القلب اليقين وعلمه قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق وقال قتادة اليقين هنا الموت وعنه ايضا البعث اى لو تعلمون علم الموت او البعث فعبر عن الموت باليقين والعلم من أشد البواعث على العمل وقيل لو تعلمون اليوم فى الدنيا علم اليقين بما امامكم مما وصفت لترون الجحيم بعيون قلوبكم فان علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك وقرأ لترون ابن عامر والكسائى بضم التاء والباقون بالفتح (ثم لتسئلن) حذف منه نون الرفع لتوالى النونات والواو لالتقاء الساكنين (يومئذ) اى يوم رؤيتها (عن النعيم) وهو ما يلتذ به فى الدنيا من الصحة والفراغ والامن والمطعم والمشرب وغير ذلك والمراد بذلك ما يشغله عن الطاعة للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده وقوله تعالى كلوا من الطيبات وقال الحسن لا يسئل عن النعيم الا أهل النار لان أبا بكر رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية قال يا رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك فى بيت أبى الهيثم من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أيكون من النعيم الذى يسئل عنه فقال صلى الله عليه وسلم انما ذلك للكفار ثم قرأ صلى الله عليه وسلم وهل يجازى الا الكفور ولان ظاهر الآية يدل على ذلك لان الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذى ظنوه لسعادتهم كان من اعظم الاسباب لشقاوتهم وقيل السؤال عام فى حق المؤمن والكافر لقوله صلى الله عليه وسلم أول ما يسئل العبد يوم القيامة عن النعيم فيقال له ألم نصح جسمك ألم نروك من الماء البارد وقيل الزائد على ما لابد منه وقيل غير ذلك قال الرازى والاولى على جميع النعم لان الالف واللام تفيد الاستغراق وليس صرف اللفظ الى البعض أولى من صرفه الى الباقى فيسئل عنها أهل شكرها أم كفرها واذا قيل ان هذا السؤال للكافر فقيل هو فى موقف الحساب وقيل بعد دخول النار يقال لهم انما حل بكم هذا العذاب لاشتغالكم فى الدنيا بالنعيم عن العمل الذى ينجيكم من هذه النار ولو صرفتم عمركم الى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ ألهاكم

الثلاثة قيل للردع والزجر عن التكاثر وقيل بمعنى حقا وقيل الاولان للردع والزجر والثالث بمعنى حقا وهو اشهرها (قوله سوف تعلمون) ذكره مرتين للتأكيد أو الاول

التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا وأعطي من الاجر كأنما قرأ ألف آية حديث موضوع الا آخره فرواه الحاكم بلفظ ألا يستطيع أحدكم ان يقرأ ألف آية في كل يوم قالوا ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية قال أوما يستطيع أحدكم أن يقرأ الهاكم التكاثر

سورة والعصر مكية

وروي عن ابن عباس وعبادة انها مدنية وهي ثلاث آيات وأربع عشرة كلمة وثمانية وستون حرفا

(بسم الله) الذي كل شئ هالك الا وجهه (الرحمن) الذي عم الوجود بانعامه فليس شئ شبهه (الرحيم) الذي اعز أولياءه فكانوا الدهر غرة ولاهله جبهة وقوله تعالى (والعصر) قسم واختلف في المراد به فقال ابن عباس والدهر أقسم به لان فيه عبرة للناظر بتصرف الاحوال وتبدلها ومافيها من الدلالة على الصانع وقيل معناه ورب العصر ومر الكلام في امثاله وقال ابن كيسان أراد بالعصر الليل والنهار يقال لهما العصران وقال الحسن بعد زوال الشمس الى غروبها وقال قتادة آخر ساعة من ساعات النهار وقال قائل أقسم بصلاة العصر وهي الصلاة الوسطى وهذا أشبه قال صلى الله عليه وسلم من فاتته الصلاة الوسطى فكأنما وتر أهله وماله ولان التكليف في ادائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعاشهم ونقل ابن عادل عن مالك أن من حلف أن لا يكلم الرجل عصرا لم يكلمه سنة قال ابن العربي انما حمل مالك يمين الحالف على السنة لانه أكثر ماقيل فيه ونقل عن الشافعي يبر بساعة الا أن تكون له نية وجواب القسم (ان الانسان) اى الجنس (لفي خسر) اى نقص بحسب مساعيهم في أهوائهم وصرف أعمارهم في اغراضهم لما لهم بالطبع من الميل الى الحاضر والاعراض عن الغائب والاغترار بالفاني ✱(تنبيه)✱ تنكير خسر يحتمل التهويل والتحقير فان حمل على الاول وهو الظاهر كان المعنى ان الانسان لفي خسر عظيم لايعلم كنهه الا الله تعالى لان الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب أولانه وقع في مقابلة النعم العظيمة فلذلك كان الذنب في غاية العظم وان حمل على الثاني كان المعنى ان خسران الانسان دون خسران الشيطان ولما كان الحكم على الجنس حكما على الكل لانهم ليس لهم من ذواتهم الا ذلك وكان فيهم من خلصه الله تعالى مما طبع عليه الانسان وحفظه عن الميل استثناهم بقوله عز من قائل (الا الذين آمنوا) اى أوجدوا الايمان وهو التصديق بما علم بالضرورة مجيء النبي صلى الله عليه وسلم به من توحيده سبحانه والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (وعملوا) اى تصديقا لما أقروا به من الايمان (الصالحات) اى هذا الجنس من ايقاع الاوامر واجتناب النواهي واشتروا الآخرة بالدنيا فلم يلههم التكاثر ففازوا بالحياة الابدية والسعادة السرمدية فلم يلحقهم شئ من الخسران وقال ابن عباس في رواية أبي صالح المراد بالانسان الكافر وقال في رواية الضحاك يريد به جماعة من المشركين الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والاسود بن عبد المطلب وقيل لفي خسر غبن وقال الاخفش لفي هلكة

قوله لو تعلمون جواب لو محذوف تقديره لو تعلمون الامر يقينا لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر (قوله لترون) الاول للكفار والثاني للمؤمنين (قوله ثم لترونها) للقبر والثاني للقيامة او

وقال الفراء لفي عقوبة وقال ابن زيد لفي شر وروى ابن عوف عن ابراهيم قال أراد ان الانسان اذا عمر في الدنيا وهرم لفي ضعف ونقص وتراجع الا المؤمنين فانه يكتب لهم اجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم ونظيره قوله تعالى لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا ولما كان الانسان بعد كماله في نفسه بالاعمال لا ينتفي عنه مطلق الخسر الا بتكميل غيره وحينئذ كان وارثا للانبياء عليهم الصلاة والسلام بعنوا التكميل قال تعالى مخصصا لما دخل في الاعمال الصالحة منبها على عظمه (وتواصوا) اى اوصى بعضهم بعضا بلسان الحال والمقال (بالحق) اى الامر الثابت وهو كل ما حكم الشرع بصحته ولا يسوغ انكاره وهو الخير كله من توحيد الله تعالى وطاعته واتباع كتبه ورسله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة (وتواصوا) أيضا (بالصبر) عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبتلي الله به عباده من الامراض وغيرها وروى عن ابي بن كعب انه قال قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم والعصر ثم قلت ما تفسيرها يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم والعصر قسم من الله أقسم ربكم بآخر النهار ان الانسان لفي خسر أبو جهل الا الذين آمنوا أبو بكر وعملوا الصالحات عمر وتواصوا بالحق عثمان وتواصوا بالصبر علي وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفا عليه وقال قتادة بالحق أي بالقرآن وقال السدي الحق هنا الله عز وجل وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعصر غفر الله له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر حديث موضوع

سورة الهمزة مكية

وهي تسع آيات وثلاثون كلمة ومائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الحكم العدل (الرحمن) الذي عم بجوده أهل الفضل وأولي العدل (الرحيم) الذي خص اولياءه بزيادة الفضل وقوله تعالى (ويل) فيه قولان أحدهما انه كلمة عذاب والثاني انه واد في جهنم (لكل همزة لمزة) قال ابن عباس هم المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاحبة الباغون للبرآء العيب فعلى هذا هما بمعنى وقال صلى الله عليه وسلم شر عباد الله المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون للبرآء العيب وقال مقاتل الهمزة الذي يعيبك في الغيب واللمزة الذي يعيبك في الوجه وقال ابو العالية والحسن الهمزة الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل واللمزة الذي يغتابه من خلفه وهذا اختيار النحاس ومنه قوله تعالى ومنهم من يلمزك في الصدقات وقال سعيد بن جبير الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم واللمزة الطعان عليهم وقال ابن زيد الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم وقال سفيان الثوري يهمز بلسانه ويلمز بعينه وقال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ واللمزة الذي يكسر عينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه وحاصل هذه الاقاويل يرجع الى أصل واحد وهو الطعن واظهار العيب ويدخل في ذلك من يحاكي الناس باقوالهم وافعالهم واصواتهم ليضحكوا منهم واصل الهمز الكسر واللمز الطعن ثم خصا بالكسر من

> ثم لترونها الجحيم) اعاده بقوله تأكيدا او الاول قبل دخولهم والثاني بعده ولهذا قال عقبه عين اليقين أو الاول من رؤية العين والثاني من رؤية القلب (قوله لتسئلن

اعراض الناس والطعن فيهم حتى صار ذلك عادة لانه خلق ثابت فى جبلتهم والذى دل على الاعتياد صيغة فعلة بضم ففتح كما يقال ضحكة للذى يفعل الضحك كثيرا حتى صار عادة له وضرى به واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال الكلبى نزلت فى الاخنس بن شريق الثقفى كان يقع فى الناس و يغتابهم وقال محمد بن اسحق مازلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت فى أمية بن خلف الجمحى وقال مقاتل نزلت فى الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبى صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطعن عليه فى وجهه وقال مجاهد هى عامة فى حق من هذه صفته وقوله تعالى (الذى جمع مالا) بدل من كل أو ذم منصوب أو مرفوع وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بتشديد الميم على المبالغة والتكثير ولانه يوافق قوله تعالى (وعدده) والباقون بتخفيفها وهى محتملة للتكثير وعدمه ومعنى عدده أحصاه وجعله عدة للحوادث وقال الضحاك أعد ماله لمن يرثه من اولاده وقيل فاخر بعدده وكثرته والمقصود الذم على امساك المال عن سبيل الطاعة كقوله تعالى مناع للخير وقوله تعالى جمع فاوعى (يحسب) أى يظن بجهله (ان ماله اخلده) أى أوصله الى رتبة الخلد فى الدنيا فيصير خالدا فيها لايموت او يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الاشجار وعمارة الارض عمل من يظن أن ماله أبقاه حيا أوهو تعريض بالعمل الصالح وانه هو الذى أخلد صاحبه فى النعيم فاما المال فما أخلد أحدا فيه وروى انه كان للاخنس أربعة آلاف دينار وقيل عشرة آلاف دينار وعن الحسن انه عاد موسرا فقال ماتقول فى ألوف لم افتدبها من لئيم ولاتفضلت بها على كريم قال لماذا قال لنبوة الزمان وجفوة السلطان ونوائب الدهر ومخافة الفقر قال اذا تدعه لمن لايحمدك وترد على من لا يعذرك وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها وقوله تعالى (كلا) ردع له عن حسبانه وقيل معناه حقا وقوله تعالى (لينبذن) جواب قسم محذوف أى ليطرحن بعد موته (فى الحطمة) أى الطبقة من جهنم التى من شانها أن تحطم أى تكسر بشدة وعنف كل ماطرح فيها فيكون أخسر الخاسرين ويقال للرجل الاكول انه لحطمة (وما أدراك) أى وأى شئ أعلمك ولو بمحاولة منك للعلم واجتهاد فى التعرف مع كونك اعلم الحكماء (ما الحطمة) اى الدركة النارية التى سميت هذا الاسم بهذه الخاصة وانه ليس فى الوجود الذى شاهدتموه مايقاربها ليكون مثالا لها ثم فسرها بقوله تعالى (نار الله) اى الملك الاعظم الذى له الملك كله (الموقدة) أى التى وجد وتم ايقادها ومن الذى يطيق محاولة ما أوقده فهى لايزال لها هذا الاسم ثابتا روى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة (التى تطلع) أى اطلاعا شديدا (على الافئدة) جمع فؤاد وهو القلب الذى يكاد يحترق من شدة ذكائه فكان ينبغى ان يجعل ذكاءه فى أسباب الخلاص واطلاعها عليه بان تعلو وسطه وتشتمل عليه اشتمالا بليغا سمى بذلك لشدة توقده وخص لانه الطف مافى البدن واشد تألما بادنى شئ من الاذى ولانه منشأ العقائد الفاسدة ومعدن حب المال الذى هو منشأ الفساد والضلال وعنه تصدر الافعال القبيحة وقيل معنى تطلع على الافئدة أى تعلم مايستحقه كل واحد منهم من العذاب يقال اطلع على كذا أى علمه ثم اشار الى خلودهم فيها بقوله تعالى موكدا لانهم يكذبون بها (انها عليهم

مؤصدة

يومئذ عن النعيم) يعم المؤمن والكافر فالمؤمن يسئل عن شكر النعمة والكافر يسئل عنها سؤال توبيخ

• (سورة العصر) •

(قوله ان الانسان) المراد

مؤصدة) قال الحسن مطبقة أي بغاية الضيق وقال مجاهد مغلقة بلغة قريش يقال أصدت الباب أي اغلقته ومنه قول عبد الله بن قيس

ان في القصر لو دخلنا غزالا • مفتنا مؤصدا عليه الحجاب

ثم بين حال عذابهم بقوله تعالى (في) أي في حال كونهم موثقين في (عمد) قرأ حمزة والكسائي وشعبة بضم العين والميم جمع عمود نحو رسول ورسل وقيل جمع عماد ككتاب وكتب والباقون بفتحهما فقيل هو اسم جمع لعمود وقيل بل هو جمع له قال الفراء كأديم وآدم وقال ابو عبيدة هو جمع عماد (ممددة) اى معترضة كأنها موضوعة على الارض فهي في غاية المكنة فلا يستطيع الموثوق بها على نوع حيلة في أمرها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث عليهم ملائكة باطباق من نار ومسامير من نار وعمد من نار فيطبق عليهم بتلك الاطباق وتسد بتلك المسامير وتمد بتلك العمد فلا يبقى فيها خلل يدخل منه روح ولا يخرج منه غم فيكون كلامهم فيها زفيرا وشهيقا وقال قتادة عمد يعذبون بها واختاره الطبري وقال ابن عباس ان العمد الممددة اغلال في اعناقهم وقال ابو صالح قيود في ارجلهم وقال القشيري العمد اوتاد الاطباق وقيل المعنى في دهور ممدودة لا انقطاع لها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه حديث موضوع

سورة الفيل مكية

وهي خمس آيات وعشرون كلمة وستة وتسعون حرفا

(بسم الله) الذي قدرته في كل شيء عاملة (الرحمن) الذي له النعمة الشاملة (الرحيم) الذي يخص أهل الاصطفاء بالنعمة الكاملة وقوله تعالى (ألم تر) استفهام تعجب أي اعجب (كيف فعل ربك) أي المحسن اليك (باصحاب الفيل) فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو وان لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها وانما قال تعالى كيف دون ما لان المراد ذكر ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم • وكانت قصة الفيل ما روى أن ابرهة بن الصباح الاشرم ملك اليمن من قبل اصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس واراد ان يصرف اليها الحاج وكتب الى النجاشي اني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلها ولست منتهيا حتى اصرف اليها حاج العرب فسمع بذلك رجل من بني مالك بن كنانة فخرج اليها فدخلها ليلا فقعد فيها ولطخ بالعذرة قبلتها فبلغ ذلك أبرهة فقال من اجترأ علي فقيل صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع الذي قلت فحلف ابرهة عند ذلك ليسيرن الى الكعبة حتى يهدمها فكتب الى النجاشي يخبره بذلك وسأله ان يبعث اليه بفيله وكان له فيل يقال له محمود وكان فيلا لم ير مثله عظما وجسما وقوة فبعث به اليه فخرج ابرهة في الحبشة سائرا الى مكة وخرج معه بالفيل واثني عشر فيلا غيره وقيل ثمانية عشر وقيل كان معه ألف فيل وقيل كان وحده فسمعت العرب بذلك فاعظموه ورأوا جهاده حقا عليهم فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر بمن اطاعه من قومه فقاتله فهزمه

بالانسان الجنس فالاستثناء بعده متصل وقيل المراد به ابو جهل فالاستثناء منقطع (قوله وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) كرره لاختلاف المفعولين

ابرهة واخذ ذا نفر فقال له أيها الملك استبقنى فان استبقائى خير لك من قتلى فاستبقاه فأوثقه
وكان ابرهة رجلا حليما ثم سار حتى اذا دنا من بلاد خثعم خرج له نفيل بن حبيب الخثعمى فى
خثعم ومن اجتمع اليه من قبائل اليمن فقاتلوه فهزمهم واخذ نفيلا فقال نفيل أيها الملك انى
دليل بارض العرب وهاتان يداى على قومى بالسمع والطاعة فاستبقاه وخرج معه يدله حتى اذا
مر بالطائف خرج اليه مسعود بن معتب فى رجال من ثقيف فقال ايها الملك نحن عبيدك ليس
عندنا خلاف لك انما تريد البيت الذى بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا أبا رغال مولى
لهم فخرج حتى اذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذى يرجم قبره وبعث ابرهة من المغمس
رجلا من الحبشة يقال له الاسود بن مسعود على مقدمة خيله وأمره بالغارة على نعم الناس
فجمع الاسود اليه أموال الحرم وأصاب لعبد المطلب مائتى بعير ثم ان أبرهة بعث حناطة
الحميرى الى أهل مكة فقال سل عن شريفها ثم أبلغه ما أرسلك به اليه أخبره أنى لم آت لقتال انما
جئت لاهدم هذا البيت فانطلق حتى دخل مكة فلقى عبد المطلب بن هاشم فقال ان الملك أرسلنى
اليك لاخبرك انه لم يأت لقتال انما جئت لاهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم فقال عبد
المطلب ما له عندنا قتال ولا لنا به يد انا سنخلى بينه وبين ما جاء اليه فان هذا بيت الله الحرام وبيت
خليله ابراهيم عليه السلام فان يمنعه فهو بيته وحرمه وان يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به
قوة قال فانطلق معى الى الملك قال بعض العلماء انه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بعض
بنيه حتى قدم العسكر وكان ذو نفر صديقا لعبد المطلب فأتاه فقال يا ذا نفر هل عندك من غناء
فيما نزل بنا فقال ما غناء رجل أسير لا يأمن ان يقتل بكرة او عشيا ولكن سأبعث الى انيس
سائس الفيل فانه لى صديق فاسأله ان يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم خطرك
ومنزلتك عنده فارسل الى انيس فأتاه فقال له ان هذا سيد قريش صاحب عين مكة يطعم الناس
فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال وقد اصاب الملك له مائتى بعير فان استطعت ان تنفعه
عنده فانفعه فانه صديق لى احب ما وصل اليه من الخير فدخل انيس على ابرهة فقال ايها الملك
هذا سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال يستأذن
عليك وانا احب ان تأذن له فيكلمك وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك فاذن له وكان
عبد المطلب رجلا جسيما وسيما فلما رآه ابرهة أعظمه وأكرمه وكره أن يجلس معه على
السرير وان يجلس تحته فهبط الى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه ثم قال لترجمانه قل
له ما حاجتك الى الملك فقال الترجمان ذلك فقال عبد المطلب حاجتى الى الملك أن يرد الى مائتى بعير
أصابها لى فقال ابرهة لترجمانه قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ولقد زهدت فيك قال لم
قال جئت الى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لاهدمه لم تكلمنى فيه
وتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها قال عبد المطلب أنا رب هذه الابل وللبيت رب سيمنعه قال ما كان
ليمنعه منى قال فأنت وذاك فامر بابله فردت عليه وقيل عرض عليه عبد المطلب أموال تهامة
ليرجع فابى فلما ردت الابل على عبد المطلب خرج فاخبر قريشا الخبر وأمرهم ان يتفرقوا فى
الشعاب ويتحرزوا فى رؤس الجبال تخوفا عليهم من معرة الجيش ففعلوا وأتى عبد المطلب
الكعبة فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول

﴿سورة الهمزة﴾

(قوله همزة لمزة) أى كثير الهمز واللمز والهمز الطعن باليد أو كسرها واللمز العيب وقيل هما بمعنى فالثانى تأكيد للاول وقيل الاول المغتاب

يارب

يارب لا ارجو لهم سواكا * يارب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا * امنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضا

لاهم ان المرء يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم * ومحالهم عدوا محالك
جروا جموع بلادهم * والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم * جهلا وما رقبوا جلالك
ان كنت تاركهم وكعبتنا فامر ما بدالك

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه فى بعض تلك الوجوه مع قومه فاصبح ابرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وهيأ جيشه وهيأ فيله فاقبل نفيل الى الفيل الاعظم ثم أخذ باذنه وقال ابرك محمودا وارجع راشدا من حيث جئت فانك فى بلد الله الحرام فبرك الفيل فبعثوه فابى فضربوه بالمعول فى رأسه فابى فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول فوجهوه الى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك فصرفوه الى الحرم فبرك وأبى أن يقوم وخرج عبد المطلب يشتد حتى صعد الجبل فارسل الله تعالى عليهم ما قصه فى قوله سبحانه (ألم يجعل) اى جعل بما له من الاحسان الى العرب لاسيما قريش (كيدهم) اى فى هدم الكعبة (فى تضليل) اى خسارة وهلاك (وارسل عليهم) اى خاصة من بين ما هنالك من كفار العرب (طيرا) اى طيورا سودا وقيل خضرا وقيل بيضا (أبابيل) اى جماعات بكثرة متفرقة يتبع بعضها بعضا من نواحى شتى فوجا فوجا وزمرة زمرة امام كل فرقة منها طائر يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق وقيل أبابيل كالابل المؤبلة قال الفراء لا واحد لها من لفظها وقيل واحدها ابالة وقال الكسائى كنت أسمع النحويين يقولون واحدها ابول كعجول وعجاجيل وقال ابن عباس كانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كاكف الكلاب وقال عكرمة لها رؤس كرؤس السباع وقال سعيد بن جبير طير خضر لها مناقير صفر وقال قتادة طير سود (ترميهم) اى الطير (بحجارة) اى عظيمة فى الكثرة والفعل صغيرة فى المقدار والحجم مع كل طائر حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة وعن ابن عباس انه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بالحمرة كالجزع الظفارى فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه فهربوا فهلكوا فى كل طريق ومنهل واما أبرهة فتساقطت أناملة كلها كلما سقطت انملة اتبعها مدة وقيح ودم فانتهى الى صنعاء وهو مثل فرخ الطير وما مات حتى انصدع صدره من قلبه وانفلت وزيره ابو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة فلما اتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه لان تلك الحجارة كانت (من سجيل) اى طين متحجر مصنوع للعذاب فى موضع هو فى غاية العلو ولما تسبب عن هذا الرمى هلاكهم وكان ذلك بفعل الله تعالى لانه الذى خلق الاثر قطعا لان مثله لا ينشأ عنه ما نشأ من الهلاك قال الله تعالى (فجعلهم) اى رب المحسن اليك باحسانه الى قومك لاجلك بذلك (كعصف ماكول) اى كورق زرع أكلته فراشة فيبس

قوله وخرج عبد المطلب يشتد فى حاشية الجلال نفيل وهو الظاهر اه

والثانى العياب اى العلم وقيل الاول العياب فى الوجه والثانى العياب فى القفا وقيل الاول يكون بالعين والثانى باللسان وقيل عكسه (قوله الذى

وتفرقت أجزاؤه شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث قال مجاهد العصف ورق الحنطة وقال قتادة هو التبن وقال عكرمة كالحب اذا أكل وصار أجوف لان الحجر كان يأتى فى الرأس فيخرق بما له من الحرارة وشدة الوقع كل ما مر به حتى يخرج من الدبر ويصير موضع تجويفه أسود لما له من النارية وقال ابن عباس هو القشر الخارج الذى يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف له وروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما فى جوفه فيبقى كقشر الحنطة اذا اخرجت منه الحبة وعن عكرمة من أصابه جدره وهو أول جدرى ظهر وعن أبى سعيد الخدرى انه سئل عن الطير فقال حمام مكة منها وقيل جاءت عشية ثم صبحتهم واختلف فى تاريخ عام الفيل فقيل كان قبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة وقيل بثلاث وعشرين سنة والاكثرون على انه كان فى العام الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم وعن عائشة قالت رأيت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس وقال عبد الملك ابن مروان لعتاب بن أسيد أنت أكبر أم النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أسن منه ولد صلى الله عليه وسلم عام الفيل وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس بل قيل لم يكن بمكة أحد الا رأى قائد الفيل وسائسه أعميين يتكففان الناس لان عائشة مع صغر سنها رأتهما وقال ابن اسحق لما رد الله تعالى الحبشة عن مكة المشرفة عظمت العرب قريشا وقالوا أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فكان ذلك نعمة من الله عليهم وقال بعض العلماء كانت قصة الفيل مما نعده من معجزاته صلى الله عليه وسلم وان كانت قبله لانها كانت توكيدا لامره وتمهيدا لشأنه وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ حديث موضوع

سورة قريش مكية

فى قول الجمهور ومدنية فى قول الضحاك والكلبى وهى أربع آيات
وسبع عشرة كلمة وثلاثة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع الكمال (الرحمن) ذى النعم والافضال (الرحيم) الذى خص أولياءه بالقرب والاجلال وقوله تعالى (لايلاف قريش) فى متعلقه أوجه أحدها أنه ما فى السورة قبلها من قوله تعالى فجعلهم كعصف مأكول قال الزمخشرى وهذا بمنزلة التضمين فى الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذى قبله تعلقا لا يصح الا به وهما فى مصحف أبى سورة واحدة بلا فصل وعن عمر أنه قرأهما فى الثانية من صلاة المغرب وقرأ فى الاولى والتين اه والى هذا ذهب الاخفش وقال الرازى المشهور أنهما سورتان ولا يلزم من التعلق الاتحاد لان القرآن كسورة واحدة ثانيها أنه مضمر تقديره فعلنا ذلك وهو ايقاعهم للايلاف وهو الفهم (?) لبلادهم الذى ينشأ منه طمأنينتهم وهيبة الناس لهم وقيل تقديره اعجبوا لايلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت ثالثها انه متعلق بقوله تعالى فليعبدوا أمرهم ان يعبدوه لاجل ايلافهم الرحلتين لانهما أظهر نعمة عليهم وهذا هو الذى صدر به الزمخشرى كلامه وفى هذا اشارة الى تمام قدرته سبحانه وانه اذا اراد شيأ يسر سببه لان التدبير كله له يخفض من يشاء وان

جمع) بالجر بدل من كل او بالنصب باضمار أذم او بالرفع مبتدا خبره بعد (?)

(سورة الفيل)

(قوله ألم تر كيف فعل ربك) مفعول ترى محذوف

عز ويرفع من يشاء وان ذل وقريش هم ولد النضر بن كنانة ومن ولده النضر فهو قرشي ومن لم يلده النضر فليس بقرشي قال صلى الله عليه وسلم ان الله اصطفى كنانة من بني اسمعيل واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وأخرج الحاكم وصححه البيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فضل الله قريشا بسبع خلال أني منهم وأن النبوة فيهم وان الله نصرهم على الفيل وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده غيرهم وأن الحجابة والسقاية فيهم وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن وسموا قريشا من القرش وهو التكسب والجمع يقال فلان يقرش لعياله و يقترش اى يكتسب وهم كانوا تجارا حراصا على جمع المال وقال أبو ريحانة سأل معاوية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لم سميت قريش قريشا قال لدابة تكون في البحر من أعظم دوابه تعبث بالسفن ولا تطاق الا بالنار يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين الا أكلته وهي تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى قال وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم فانشده شعر الجمحي

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين فلا تترك فيه لذي الجناحين ريشا

هكذا في الكتاب حي قريش * يأكلون البلاد أكلا كميشا

ولهم آخر الزمان نبي * يكثر القتل فيهم والخموشا

وقيل هو من تقرش الرجل اذا تنزه عن مدانس الامور او من تقارشت الرماح في الحرب اذا دخل بعضها في بعض وقوله تعالى (الافهم) بدل من الايلاف الاول وقرأ ابن عامر لالاف بغير ياء بعد الهمزة والباقون لايلاف بياء بعدها وأجمع الكل على اثبات الياء في الثاني وهو ايلافهم بالياء بعد الهمزة قال ابن عادل ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين ان القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الاول مع اتفاق المصاحف على اثباتها خطا واتفقوا على اثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منها خطا وهذا أدل دليل على ان القراء متبعون الاثر والرواية لا مجرد الخط وقوله تعالى (رحلة الشتاء) منصوب بايلافهم مفعول به كما نصب يتيما باطعام وهي التي يرحلونها في زمنه الى اليمن لانها بلاد حارة ينالون منها متاجر الحبوب (والصيف) التي يرحلونها الى الشام في زمنه لانها بلاد باردة ينالون فيها منافع الثمار وهم آمنون من سائر العرب لاجل عزهم بالحرم المعظم و بيت الله والناس يتخطفون من حولهم ولا يجترئ أحد عليهم والايلاف من قولك آلفت المكان أولفه ايلافا اذا ألفته فانا مؤالف والاصل رحلتي الشتاء والصيف ولكنه أفرد ليشمل كل رحلة كما هو شأن المصادر وأسماء الاجناس وفي ذلك اشارة الى انهم يتمكنون من الرحلة الى اي بلاد أرادوا لشمول الامن لهم قال مالك الشتاء نصف السنة والصيف نصفها وقال قوم الزمان أربعة أقسام شتاء وربيع وصيف وخريف وقيل شتاء وصيف وقيظ وخريف قال القرطبي والذي قاله مالك أصح لان الله تعالى قسم الزمان قسمين ولم يجعل لهما ثالثا وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف وقال آخرون كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة احداهما في الشتاء الى اليمن لانها أدفأ

لا كيف لانه استفهام فلا يعمل فيه ما قبله فهو مفعول فعل بعده (قوله أبابيل) اى جماعات جماعات قيل لا واحد له وقيل واحده ابال او ابالة او ابول او ابيل

والاخرى فى الصيف الى الشام وكان الحرم واديا جدبا لازرع فيه ولا ضرع وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم ولولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ولولا الامن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف واول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف وكانوا يقسمون ربحهم بين الغنى والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم وفى ذلك يقول الشاعر

قل للذى طلب السماحة والندى ** هلا مررت بآل عبد مناف

هلا مررت بهم تريد قراهم ** منعوك من ضر ومن اكفاف

الرائشين وليس يوجد رائش ** والقائلين هلم للاضياف

والخالطين فقيرهم بغنيهم ** حتى يكون فقيرهم كالكافى

والقائلين بكل وعد صادق ** والراحلين برحلة الايلاف

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ** ورجال مكة مسنتون عجاف

سفرين سنهما له ولقومه ** سفر الشتاء ورحلة الاصياف

وتبع هاشما على ذلك اخوته فكان هاشم يؤالف الى الشام وعبد شمس الى الحبشة والمطلب الى اليمن ونوفل الى فارس وكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار بجاه هذه الاخوة اى بعهودهم التى أخذوها بالامان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحى * ولما كان هذا التدبير لهم من الله تعالى كافيا لهمومهم الظاهرة بالغنى والباطنة بالامن وكان شكر المنعم واجبا قال تعالى (فليعبدوا) اى قريش على سبيل الوجوب شكرا على هذه النعمة خاصة ان لم يشكروه على جميع نعمه التى لا تحصى لانهم يدعون أنهم أشكر الناس للاحسان وأبعدهم من الكفران (رب هذا البيت) اى الموجد له والمحسن الى أهله بحفظه من كل طاغ وباذلال الجبابرة له ليكمل احسانه اليهم وعطفه عليهم بما كمل اعزازه لهم فى الدنيا والآخرة والمراد به الكعبة عبر عنها بالاشارة تعظيما لشانها * ثم وصف نفسه الاقدس بما هو ثمرة الرحلتين ومظهر لزيادة شرف البيت بقوله تعالى (الذى أطعمهم) اى قريشا بحمل الميرة الى مكة بالرحلتين اطعاما مبتدأ (من جوع) اى عظيم فيه غيرهم من العرب أو كانوا هم فيه قبل ذلك لان بلدهم ليس بذى زرع فهم عرضة للفقر الذى ينشأ عنه الجوع فكفاهم ذلك وحده ولم يشركه أحد فى كفايتهم فليس من الشكر اشراكهم غيره معه فى عبادته ولامن البر بأبيهم ابراهيم عليه السلام الذى دعا لهم بالرزق بقوله عليه السلام وارزقهم من الثمرات ونهى أشد النهى عن عبادة الاصنام ولم يقل أشبعهم لانه ليس كلهم كان يشبع ولان من كان يشبع منهم طالب لا كثر مما هو عنده ولا يملا جوف ابن آدم الا التراب (وآمنهم) اى تخصيصا لهم (من خوف) اى شديد جدا من أصحاب الفيل الذين أرادوا اخراب البيت الذى به انتظامهم وما ينالهم من حولهم من التخطف بالقتل والنهب والغارات ومن الجذام بدعوة أبيهم ابراهيم عليه السلام ومن الطاعون والدجال بتأمين النبى صلى الله عليه وسلم وعن ابن زيد كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبى بعضهم بعضا فأمنت قريش ذلك لمكان الحرم وقيل شق عليهم السفر فى الشتاء والصيف فالقى الله تعالى فى قلوب الحبشة أن يحملوا اليهم طعاما فى السفن فحملوا فخافت قريش منهم وظنوا أنهم قدموا لحربهم فخرجوا اليهم متحرزين

﴿سورة قريش﴾

(قوله لايلاف قريش) الاظهر انه للتأكيد والثانى بدل من الاول أو بدل منه واللام

فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام واغاثوهم بالاقوات ثم كان أهل مكة يخرجون الى جدة بالابل والحمر فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين وقيل ان قريشا لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف فاشتد القحط فقالوا يا محمد ادع الله لنا فانا مؤمنون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن فحملوا الطعام الى مكة واخصب اهلها وقال الضحاك والربيع فى قوله تعالى وآمنهم من خوف اى من خوف الحبشة وقال على وآمنهم من خوف ان تكون الخلافة الا فيهم قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير وآمنهم من خوف ان تكون الخلافة فى غيرهم اهـ لكن ان ثبت ذلك عن على كرم الله وجهه فليس كما قال وقيل كفاهم أخذ الايلاف من الملوك وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لايلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها حديث موضوع

سورة الدين وتسمى سورة الماعون مكية

فى قول عطاء وجابر وأحد قولى ابن عباس رضى الله عنهما ومدنية فى قول له آخر وهو قول قتادة وغيره وهى سبع آيات وخمس وعشرون كلمة ومائة وثلاثة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذى له كل كمال (الرحمن) الذى عم جميع عباده بالنوال (الرحيم) الذى خص اولياءه بنعمة الافضال وقوله تعالى (أرأيت) استفهام معناه التعجب وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش أيضا ابدالها ألفا واسقطها الكسائى قال الزمخشرى وليس بالاختيار لان حذفها مختص بالمضارع ولم يصح عن العرب ريت ولكن الذى سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام فى أول الكلام ونحوه

صاح هل ريت أو سمعت براع * ردفى الضرع ما قرى فى الحلاب

وحققها الباقون والمعنى أرأيت (الذى يكذب) أى يوقع التكذيب ان يخبره كائنا من كان (بالدين) أى بالجزاء والحساب أى هل عرفته أم لم تعرفه (فذلك) بتقدير هو بعد الفاء أى البغيض البعيد المبعد من كل خير (الذى يدع) اى يدفع دفعا عظيما بغاية القسوة (اليتيم) ولا يحث على اكرامه لان الله تعالى نزع الرحمة من قلبه ولا ينزعها الامن شقى لانه لا حامل على الاحسان اليه الا الخوف من الله تعالى فكان التكذيب بجزائه مسببا للغلظة عليه وقال قتادة يقهره ويظلمه فانهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار ويقولون انما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحسام وقال صلى الله عليه وسلم من ضم يتيما من المسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة واختلف فيمن نزل ذلك فيه فقال مقاتل فى العاصى ابن وائل السهمى وقال السدى فى الوليد بن المغيرة وقال الضحاك فى عمرو بن عائذ المخزومى وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما فى رجل من المنافقين وقيل فى ابى جهل (ولا يحض) أى يحث نفسه ولا غيره (على طعام المسكين) أى بذله واطعامه اياه بل يعقته ولا يكرمه ولا يرحمه وقد تضمن هذا أن علامة التكذيب بالبعث ايذاء الضعيف والتهاون بالمعروف * ولما كان هذا حالهم مع الخلائق أتبعه حالهم مع الخالق بقوله تعالى (فويل) أى عذاب

متعلقة بقوله فليعبدوا اى ليعبدوا الله من أجل ايلافهم وقيل متعلقة بجعلهم من سورة الفيل لانهما كالسورة الواحدة بدليل اسقاط البسملة من بينهما فى مصحف ابى

أو واد في جهنم (للمصلين الذين هم) أي بضمائرهم وخالص سرائرهم (عن صلاتهم) التي هي جديرة بأن تضاف اليهم لوجوب اعليهم ولا يجابها الأجل مصالحهم ومنافعهم بالتزكية وغيرها (ساهون) أي عريقون في الغفلة عنها وتضييعها وعدم المبالاة بها وقلة الالتفات اليها وروى البغوي بسنده ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال هو اضاعة الوقت وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال هم المنافقون يتركون الصلاة اذا غابوا عن الناس ويصلونها في العلانية مع الناس اذا حضروا لقوله تعالى (الذين هم) أي بجملة سرائرهم (يراؤن) أي بصلاتهم وغيرها الناس لانهم يفعلون الخير ليراهم الناس لا لرجاء الثواب ولا لخوف العقاب من الله تعالى ولذلك يتركون الصلاة اذا غابوا عن الناس وقال ابراهيم هو الذي يلتفت في صلاته وقال قطرب هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله تعالى وقال ابن عباس رضي الله عنهما لو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين وقال عطاء الحمد لله الذي قال تعالى عن صلاتهم ساهون ولم يقل في صلاتهم فدل على ان الآية في المنافقين وقال قتادة ساه عنها لا يبالي صلى أم لم يصل وقال مجاهد غافلون عنها متهاونون بها وقال الحسن هو الذي ان صلاها صلاها رياء وان فاتته لم يندم وقيل هم الذين يسهون عنها قلة مبالاة بها حتى تفوتهم أو يخرج وقتها أولا يصلونها كما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف ولكن ينقرونها نقرا من غير خشوع ولا اجتناب لما يكره فيها من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ولا ما قرأ من السورة وكما ترى صلاة أكثر من ترى من الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم والمعنى ان هؤلاء أحق أن يكون سهوهم عن الصلاة التي هي عماد الدين والفارق بين الايمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الاسلام علما على انهم مكذبون بالدين وكم ترى من المتسمين بالاسلام بل بالعلم من هو منهم على هذه الصفة فيا مصيبتاه (فان قيل) كيف جعل المصلين قائما مقام ضمير الذي يكذب وهو واحد (أجيب) بان معناه الجمع لان المراد به الجنس (فان قيل) أي فرق بين قوله تعالى عن صلاتهم وقولك في صلاتهم (أجيب) بان معنى عن انهم ساهون عنها سهو ترك وقلة التفات اليها وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشياطين من المسلمين ومعنى في أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلا عن غيره ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم وعن أنس الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم وقد مرت الاشارة الى بعض ذلك (فان قيل) ما معنى المراآة (أجيب) بانها مفاعلة من الاراءة لان المرائي يرى الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والاعجاب به ولا يكون الرجل مرائيا باظهار العمل الصالح ان كان فريضة فمن حق الفرائض الاعلان بها وتشهيرها لقوله صلى الله عليه وسلم ولا غمة في فرائض الله لانها أعلام الاسلام وشعائر الدين ولان تاركها يستحق الذم والمقت فوجب اماطة التهمة بالاظهار وان كان تطوعا فحقه أن يخفى لانه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه فان أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا وانما الرياء أن يقصد بالاظهار أن تراه الاعين فتثني عليه بالصلاح

والمعنى انه أهلك أصحاب الفيل لايلاف قريش وقيل هي لام التعجب معناه اعجبوا لايلاف قريش وكان لهم في كل سنة رحلتان للتجارة رحلة في الشتاء الى اليمن ورحلة

وعن

وعن بعضهم أنه رأى رجلا في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال ما أحسن هذا لو كان في بيتك وانما قال هذا لانه توسم فيه الرياء والسمعة على أن اجتناب الرياء صعب الا على المرتاضين بالاخلاص ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الاسود * ثم بين أن من هو بهذه الصفة يغلب عليه الشح بقوله تعالى (ويمنعون) اى على تجدد الاوقات (الماعون) أى حقوق الاموال والشئ اليسير من المنافع وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه الماعون الفأس والدلو والقدر وأشباه ذلك وهى رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال مجاهد الماعون أعلاها الزكاة المفروضة وأدناها عارية المتاع وعن على انها الزكاة وقال محمد بن كعب والكلبي الماعون المعروف كله الذى يتعاطاه الناس فيما بينهم وقال قطرب أصل الماعون من القلة تقول العرب ماله سعنة ولا معنة أى شئ قليل فسمى الزكاة والصدقة والمعروف ماعونا لانه قليل من كثير وقيل الماعون مالا يحل منعه مثل الماء والملح والنار وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة أرأيت غفر له ان كان للزكاة مؤديا حديث موضوع

سورة الكوثر وتسمى سورة النحر مكية

في قول ابن عباس رضى الله عنهما والكلبي ومقاتل ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وهى ثلاث آيات وعشر كلمات واثنان وأربعون حرفا

(بسم الله) الذى لا حد لافاضة فضله (الرحمن) الذى شمل الخلائق بجوده فلا راد لامره (الرحيم) الذى خص حزبه بالاعتصام بحبله وقوله تعالى (انا) اى بما لنا من العظمة (أعطيناك) أى خولناك مع التمكين العظيم يا أشرف الخلق (الكوثر) أى نهرا فى الجنة هو حوضه صلى الله عليه وسلم ترد عليه امته لما روى عن أنس انه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا اذ اغفى اغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال انزل على آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر الى آخرها ثم قال أتدرون ما الكوثر قلنا الله ورسوله أعلم قال فانه نهر وعدنيه ربى خير كثير هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فاقول رب انه من امتى فيقول ما تدرى ما احدث بعدك وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فاذا أنا بنهر يجرى بياضه بياض اللبن وأحلى من العسل وحافتاه خيام الدر فضربت بيدى فاذا الثرى مسك أذفر فقلت لجبريل ما هذا قال الكوثر أعطاكه الله تعالى وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ أبدا وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا فرطكم على الحوض وليرفعن الى رجال منكم حتى اذا

في الصيف الى الشام

(سورة الماعون)

(قوله فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) * ان قلت كيف توعد الله الساهى عن الصلاة مع انه غير مؤاخذ بالسهو

هو يت لاناوانهم اختلجوا دوني فاقول أي رب أصحابي فيقال انك لا تدري ما احدثوا بعدك وعن ثوبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن عرضه فقال من مقامي الى عمان وسئل عن شرابه فقال اشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق وعن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي أو قال من امتي فيحلؤن عن الحوض فاقول أي رب أصحابي فيقول انه لا علم لك بما احدثوا بعدك انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى ولمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ترد علي أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل ابل الرجل عن ابله قالوا يا نبي الله تعرفنا قال نعم لكم سيما ليست لاحد غيركم تردون علي غرا محجلين من آثار الوضوء وليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون فاقول يا رب هؤلاء من أصحابي فيجيبني فيقول وهل تدري ما أحدثوا بعدك وأحاديث الحوض كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لأولي الالباب فنسأل الله تعالى أن يروينا منه نحن وأحبابنا ويدخلنا واياهم الجنة بغير حساب قال القاضي عياض أحاديث الحوض صحيحة والايمان به فرض والتصديق به من الايمان وقال ابن عادل وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأول ولا يختلف فيه وحديثه متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة اه وقيل الكوثر القرآن العظيم وقيل هو النبوة والكتاب والحكمة وقيل هو كثرة أتباعه وقيل الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى اياه وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما الكوثر الخير الكثير قال ابو بشر قلت لسعيد بن جبير ان ناسا يزعمون ان الكوثر نهر في الجنة فقال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى اياه واصل الكوثر فوعل من الكثرة والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير القدر والخطر كوثرا قيل لاعرابية رجع ابنها من السفر آب ابنك قالت آب بكوثر وقال الشاعر

وأنت كثير يا ابن مروان طيب * وكان ابوك ابن العقائل كوثرا

وقيل الكوثر الفضائل الكثيرة التي فضلها على جميع الخلائق *(تنبيه)* لا منافاة بين هذه الاقوال كلها فقد اعطيها النبي صلى الله عليه وسلم أعطي صلى الله عليه وسلم النبوة والحكمة والعلم والشفاعة والحوض المورود والمقام المحمود وكثرة الاتباع واظهاره على الاديان كلها والنصر على الاعداء وكثرة الفتوح في زمنه وبعده الى يوم القيامة وأولى الاقاويل في الكوثر وهو الذي عليه جمهور العلماء انه نهر في الجنة *ولما كان له سبحانه من النعم ما لا يأتي عليه حصر علما لا يناسب أدنا منعم الدنيا بجملتها ما سبب عنه قوله تعالى آمرا بما هو جامع لجامع الشكر (فصل) اي بقطع العلائق عن الخلائق بالوقوف بين يدي الله تعالى في حضرة المراقبة شكرا للاحسان المنعم خلافا للساهي عنها والمرائي فيها (لربك) أي المحسن اليك بأنواع النعم مراغما لمن شئت فلا سبيل لاحد عليك (وانحر) أي انفق له الكوثر من المال على المحاويج خلافا لمن يدعهم ويمنعهم الماعون والنحر أفضل نفقات العرب لان الجزور الواحد يغني مائة مسكين واذا أطلق العرب المال انصرف الى الابل وقال محمد بن كعب ان ناسا كانوا يصلون لغير الله تعالى و ينحرون لغير الله فامر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يصلي و ينحر لله عز وجل وقال عكرمة وعطاء

نلعبر رفع عن امتي الخطا والنسيان (قلت) المراد هنا التغافل بالسهو والتكاسل عن أدائها أو قلة الالتفات اليها وذلك فعل المنافقين او الفسقة من المسلمين لا ما يتفق فيها من

وقتادة

وقتادة فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وانحر نسكك والمقتصر على هذا الجلال المحلى وقال سعيد ابن جبير ومجاهد فصل الصلاة المفروضة بجمع اى مزدلفة وانحر البدن بمنى وعن ابن عباس رضى الله عنهما وضع اليمين على الشمال فى الصلاة عند النحر وعن على أن معناه أن يرفع يديه فى التكبير الى نحره وقال الكلبى استقبل القبلة بنحرك وعن عطاء أمره أن يستوى بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره (ان شانئك) اى مبغضك والشانئ المبغض يقال شنأه يشنؤه اى بغضه (هو الابتر) اى المنقطع عن كل خير وأما أنت فقد أعطيت مالا غاية لكثرته من خير الدارين الذى لم يعطه أحد غيرك فمعطى ذلك كله هو الله رب العالمين فاجتمعت لك العطيتان السنيتان اصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم او المنقطع العقب لا أنت لان كل من يولد الى يوم القيامة من المؤمنين فهم أعقابك وأولادك وذكرك مرفوع على المنابر والمنائر وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر الدهر يبدأ بذكر الله تعالى ويثنى بذكرك ولك فى الآخرة مالا يدخل تحت الوصف فمثلك لا يقال له أبتر انما الابتر هو شانئك المنسى فى الدنيا والآخرة وقال الرازى هذه السورة كالمقابلة للتى قبلها فانه ذكر فى الاولى البخل وترك الصلاة والرياء ومنع الماعون وذكر ههنا فى مقابلة البخل انا اعطيناك الكوثر وفى مقابلة الصلاة فصل اى دم على الصلاة وفى مقابلة الرياء لربك اى لرضاه خالصا وفى مقابلة منع الماعون وانحر اى تصدق بلحم الاضاحى ثم ختم السورة بقوله تعالى ان شانئك هو الابتر اى ان المشاقق الذى أتى بتلك الافعال القبيحة سيموت ولا يبقى له أثر وأما أنت فيبقى لك فى الدنيا الذكر الجميل وفى الآخرة الثواب الجزيل واختلف المفسرون فى الشانئ فقيل هو العاص ابن وائل وكانت العرب تسمى من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقى البنات أبتر فقيل ان العاص وقف مع النبى صلى الله عليه وسلم يكلمه فقال له جمع من صناديد قريش مع من كنت واقفا فقال مع ذلك الابتر وكان قد توفى قبل ذلك عبد الله ابن النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان أهل الجاهلية اذا مات ابن الرجل قالوا ابتر فلان فلما توفى عبد الله ابن النبى صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل الى أصحابه فقال بتر محمد فنزلت وقال السدى ان قريشا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده قد بتر فلان فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم بمكة وابراهيم بالمدينة قالوا ابتر محمد فليس له من يقوم بامره من بعده فنزلت وقيل لما اوحى الله تعالى الى النبى صلى الله عليه وسلم دعا قريشا الى الايمان قالوا بترمنا محمد اى خالفنا وانقطع عنا فنزلت *(تنبيه)* قال أهل العلم قد احتوت هذه السورة على قصرها على معان بليغة وأساليب بديعة منها دلالة استهلال السورة على انه تعالى أعطاه كثيرا من كثير ومنها اسناد الفعل الى المتكلم المعظم نفسه ومنها ايراده بصيغة الماضى تحقيقا لوقوعه كافى قوله تعالى أتى امر الله ومنها تأكيد الجملة بان ومنها بناء الفعل على الاسم ليفيد الاسناد مرتين ومنها الاتيان بصيغة تدل على مبالغة الكثرة ومنها حذف الموصوف بالكوثر لان فى حذفه من فرط الشياع والابهام ماليس فى اثباته ومنها تعريفه بال الجنسية الدالة على الاستغراق ومنها فاء التعقيب الدالة على السببية فان الانعام سبب للشكر والعبادة ومنها التعريض بمن كانت صلاته ونحره لغير الله تعالى ومنها ان الامر

السهو بالوسوسة او حديث النفس عما لا ينفع العبد فيه

(سورة الكوثر)

(قوله الكوثر) هو نهر فى الجنة وهو حوضه صلى الله عليه وسلم يرد عليه أمته

بالصلاة اشارة الى الاعمال الدينية التي الصلاة قوامها وأفضلها والامر بالنحر اشارة الى الاعمال البدنية التي النحر أسناها ومنها حذف متعلق انحر اذ التقدير فصل لربك وانحر له ومنها مراعاة السجع فانه من صناعة البديع العارى عن التكلف ومنها قوله تعالى لربك في الاتيان بهذه الصفة دون سائر صفاته الحسنى دلالة على أنه المربي له والمصلح بنعمه فلا يلتمس كل خير الامنه ومنها الالتفات من ضمير المتكلم الى الغائب في قوله تعالى لربك ومنها الامر بترك الاهتمام بشانئه للاستئناف وجعله خاتمة للاعراض عن الشانئ ولم يسمه ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة القبيحة ولو كان المراد مخصوصا معينا لعينه الله تعالى ومنها التنبيه بذكر هذه الصفة القبيحة على أنه لم يتصف الا بمجرد قيام الصفة به من غير أن تؤثر فيمن يشنؤه شيأ البتة لان من يشنأ شخصا قد يؤثر فيه شنؤه شيأ ومنها تأكيد الجملة بان المؤذنة بتأكيد الخبر ولذلك يتلقى بها القسم وتقدير القسم يصلح هنا ومنها الاتيان بضمير الفصل المؤذن بالاختصاص والتأكيد ان جعلنا هو فصلا وان جعلناه مبتدأ فكذلك يفيد التأكيد ذ يصير الاسناد مرتين ومنها تعريف الابتر بال المؤذنة بالخصوصية بهذه الصفة كأنه قيل الكامل في هذه الصفة ومنها اقباله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بالخطاب من اول السورة الى آخرها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر او يقربونه حديث موضوع

سورة الكافرون مكية

في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك وتسمى أيضا سورة المعابدة والاخلاص لانها في اخلاص العبادة والدين كما أن قل هو الله أحد في اخلاص التوحيد واجتماع النفاق فيهما محال لمن اعتقدهما وعمل بهما ويقال لها ولسورة الاخلاص المقشقشتان اى المبرئتان من النفاق قال الشاعر

أعيذك بالمقشقشتين مما * أحاذره ومن نظر العيون

وهي ست آيات وستة وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذي لا يستطيع أحد أن يقدره حق قدره (الرحمن) الذي عم برحمته من أوجب عليهم شكره (الرحيم) الذي وفق أهل وده فالتزموا نهيه وأمره وقوله تعالى (قل) اى يا أشرف الخلق (يا أيها الكافرون) الى آخر السورة نزل في رهط من قريش منهم الحرث بن قيس السهمي والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة والاسود بن عبد يغوث والاسود بن المطلب ابن أسد وأمية بن خلف قالوا يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كله تعبد آلهتنا سنة ونعبد الهك سنة فان كان الذي جئت به خيرا كنا قد شركناك فيه وأخذنا حظا منه وان كان الذي بايدينا خيرا كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه فقال معاذ الله ان نشرك به غيره قالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد الهك قال حتى انظر ما يأتي الي من ربي فانزل الله تعالى هذه السورة فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد الحرام

وفيه

او هو الخير الكثير من النبوة والقرآن والشفاعة ونحوها

(سورة الكافرون)

(قوله اعبد) لم يقل من مع انه القياس رعاية لمقابلة ما بما في قوله

وفيه الملأ من قريش فقام على رؤسهم ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه وفى مناداتهم بهذا الوصف الذى يسترذلونه فى بلدهم ومحل عزهم وحميتهم ايذان بانه محروس منهم علم من أعلام النبوة (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى التحريم يا أيها الذين كفروا وههنا قال قل يا أيها الكافرون (أجيب) بان فى سورة التحريم انما يقال لهم يوم القيامة وثم لا يكون رسولا اليهم فازال الواسطة فيكونون فى ذلك الوقت مطيعين لا كافرين فلذلك ذكره تعالى بلفظ الماضى وأما هنا فكانوا موصوفين بالكفر وكان الرسول رسولا اليهم فقال تعالى قل يا أيها الكافرون اى الذين قد حكم بثباتهم على الكفر فلا اتفكاك لهم عنه فستروا ماتدل عليه عقولهم من الاعتقاد الحق لوجدوها من ادناس الحظ وهم كفرة مخصوصون وهم من حكم بموته على الكفر عما طابقه من الواقع ودل عليه التعبير بالوصف دون الفعل واستغرق اللام كل من كان على هذا الوصف فى كل مكان وكل زمان والتعبير بالجمع الذى هو أصل فى القلة وقد يستعار للكثرة اشارة الى البشارة بقلة المطبوع على قلبه من العرب المخاطبين بهذا فى حياته صلى الله عليه وسلم وقال الله تعالى له قل يا أيها الكافرون لانه صلى الله عليه وسلم كان مأمورا بالرفق واللين فى جميع الامور كما قال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وقال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم وقال تعالى بالمؤمنين رؤف رحيم ثم كان مأمورا بان يدعوهم الى الله تعالى بالوجه الاحسن فلما خاطبهم بيا أيها فكانوا يقولون كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق فاجاب بانى مأمور بهذا الكلام لا أنى ذكرته من عند نفسى ولما كان القصد اعلامهم بالبراءة منهم من كل وجه وانه لا يبالى بهم بوجه لانه محفوظ منهم قال (لا أعبد) اى الآن (ما تعبدون) من دون الله من المعبودات الظاهرة والباطنة بوجه من وجوه العبادات فى سر ولا علن لانه لا يصلح للعبادة بوجه (ولا أنتم عابدون) اى الآن (ما أعبد) وهو الله تعالى وحده (ولا أنا عابد) اى فى الاستقبال (ما عبدتم) من دون الله تعالى (ولا أنتم عابدون) اى فى الاستقبال (ما أعبد) وهو الله وحده لا شريك له وهذا خطاب لمن علم الله تعالى منهم انهم لا يؤمنون واطلاق ما على الله تعالى على جهة المقابلة وبهذا زال التكرار ووجه التكرار كما قال أكثر أهل المعانى هو ان القرآن نزل بلسان العرب وعلى مجارى خطابهم ومن مذاهبهم التكرار لارادة التأكيد والافهام كما أن من مذاهبهم الاختصار لارادة التخفيف والايجاز فالقائل بالتأكيد يقول قوله تعالى ولا أنا عابد ما عبدتم تأكيد لقوله تعالى لا أعبد ما تعبدون وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد ثانيا تأكيد لقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد ومثله فبأى آلاء ربكما تكذبان وويل يومئذ للمكذبين فى سورتيهما وكلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون وفى الحديث فلا اذن ثم لا اذن انما فاطمة بضعة منى وفائدة التأكيد هنا قطع أطماع الكفار وتحقيق الاخبار بموافاتهم على الكفر وأنهم لا يسلمون أبدا وعلى الاول قد تقيدت كل جملة بزمان غير الزمان الآخر قال ابن عادل وفيه نظر كيف يتقيد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفى عبادته لما يعبدون بزمان وهذا مما لا يصح اه وقد يرد هذا بانه صلى الله عليه وسلم نفى فى الجملة الاولى الحال وفى الثانية الاستقبال وقول البيضاوى فان لا لا تدخل الا على مضارع بمعنى

وكرر قوله لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد مرتين لان الاولى للحال والثانية للاستقبال وقيل لمقابلة سؤالهم مرتين حيث قالوا يا محمد تعبد آلهتنا كذا

الاستقبال كما ان ما لا تدخل الا على المضارع بمعنى الحال جرى على الغالب فيهما ولما أيس منهم صلى الله عليه وسلم قال (لكم دينكم) اى الذى أنتم عليه من الشرك (ولى دين) اى الذى أنا عليه من التوحيد وهو دين الاسلام وفى هذا معنى التهديد كقوله تعالى لنا أعمالنا ولكم أعمالكم اى ان رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا وهذا كما قال الجلال المحلى قبل أن يؤمر بالحرب وقيل السورة كلها منسوخة وقيل ما نسخ منها شئ لانها خبر ومعنى لكم دينكم اى جزاء دينكم ولى دين اى جزاء دينى وسمى دينهم دينا لانهم اعتقدوه وقيل المعنى لكم جزاؤكم ولى جزائى لان الدين الجزاء وحذفت ياء الاضافة من دين للتبعية وقفا ووصلا وقرأ نافع وهشام وحفص والبزى بخلاف عنه بفتح الياء والباقون باسكانها * (فائدة) * قال الرازى جرت العادة بان الناس يتمثلون بهذه الآية عند المتاركة وذلك غير جائز لانه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه فيعمل بموجبه وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ من الشرك ويعافى من الفزع الاكبر حديث موضوع الا الجملة الاولى منه فرواها الترمذى

سورة النصر مدنية

بالاجماع وتسمى سورة التوديع وهى ثلاث آيات وست عشرة كلمة وتسعة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له الامر كله فهو العليم الحكيم (الرحمن) الذى أرسلك رحمة من الله العلى العظيم (الرحيم) الذى خص أهل وده بفضله العميم وقوله تعالى (اذا) منصوب بسبح (جاء نصر الله) اى الملك الاعظم الذى لا مثل له ولا امر لاحد معه باظهاره اياك على أعدائك ومعنى جاء استقر وثبت فى المستقبل بمجيء وقته المضروب له فى الأزل وزاد فى تعظيمه بالاضافة ثم بكونها الى اسم الذات وقرأ حمزة وابن ذكوان بامالة الالف بعد الجيم محضة والباقون بالفتح والاعلام به قبل كونه من اعلام النبوة وروى أنها نزلت فى أيام التشريق بمنى فى حجة الوداع (والفتح) اى فتح مكة وهو الفتح الذى يقال له فتح الفتوح وقصته مشهورة فى البغوى وغيره فلا نطيل بذكرها وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وطوائف العرب وأقام بها خمس عشرة ليلة ثم خرج الى هوازن وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يا أهل مكة ماترون انى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ثم قال اذهبوا فانتم الطلقاء فاعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الله تعالى قد أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيئا فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الاسلام فى دين الله تعالى فى ملة الاسلام التى لا دين له يضاف اليه غيرها ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وقيل المراد جنس نصر الله تعالى المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم (فان قيل) ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه (أجيب) بان النصر الاعانة والاظهار على العدو ومنه نصر الله تعالى الارض أغاثها قال الشاعر

مرة ونعبد الهك كذا مرة
ثم تعبد آلهتنا كذا مرة
ونعبد الهك كذا مرة

(سورة النصر)
وتسمى سورة التوديع
(قوله اذا جاء نصر الله)
جواب اذا فسبح او محذوف

اذا انسلخ الشهر الحرام فودعي * بلاد تميم وانصري آل عامر

وروى اذا دخل الشهر الحرام فجاوزي * بلاد تميم وانصري أرض عامر

والفتح فتح البلاد وقال الرازي الفرق بين النصر والفتح ان الفتح هو الاعانة على تحصيل المطلوب الذي كان متعلقا به والنصر كالسبب للفتح فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه (فان قيل) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائما منصورا بالدلائل والمعجزات فما المعنى بتخصيص لفظ النصر بفتح مكة (أجيب) بان المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع (فان قيل) النصر لا يكون الا من الله تعالى قال الله تعالى وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم فما فائدة التقييد بنصر الله (اجيب) بان معناه نصر لا يليق الا بالله تعالى كما يقال هذه صنعة زيد اذا كان مشهورا باحكام الصنعة والمقصود منه تعظيم حال تلك الصنعة فكذا ههنا (فان قيل) الذين اعانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة هم أصحابه من المهاجرين والانصار ثم انه تعالى سمى نصرتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم نصر الله فما السبب في ذلك (أجيب) بان النصر وان كان على يد الصحابة لكن لا بد له من داع وباعث وهو من الله تعالى (فان قيل) فعلى هذا الجواب يكون فعل العبد مقدما على فعل الله تعالى وهذا بخلاف النصر لانه تعالى قال ان تنصروا الله ينصركم فجعل نصره مقدما على نصره لنا (اجيب) بانه لا امتناع في أن يكون فعل العبد سببا لفعل آخر يصدر عن الله تعالى فان أسباب الحوادث ومسبباتها على ترتيب عجيب تعجز عن ادراكه العقول البشرية * ولما عبر عن المعنى بالمجيء عبر عن المرئي بالرؤية فقال تعالى (ورأيت) أي ببصرك (الناس) أي العرب الذين كانوا احقرين عند جميع الامم فصاروا بك هم الناس كما دلت عليه لام الكمال وصار سائر أهل الارض لهم اتباعا وبالنسبة اليهم رعاعا حال كونهم (يدخلون) شيأ فشيأ متجددا دخولهم مستمرا (في دين الله) أي شرع من لم تزل كلمته هي العليا (أفواجا) أي جماعات كثيفة كانت تدخل فيه القبيلة باسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له في ذلك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دخل الناس في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا وقال عكرمة ومقاتل أراد بالناس أهل اليمن وذلك انه ورد من اليمن سبعمائة انسان مؤمنين طائعين بعضهم يؤذنون وبعضهم يقرؤن القرآن وبعضهم يهللون فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال ابو هريرة لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الايمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية وقال أجد نفس ربكم من قبل اليمن وفي هذا تأويلات أحدها انه الفرج لتتابع اسلامهم أفواجا الثاني ان الله تعالى نفس الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم باهل اليمن وهم الانصار وعن الحسن لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا أما اذ ظفر باهل الحرم فليس به يدان وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من ارادهم فكانوا يدخلون في الأسلام افواجا من غير قتال أمة بعد أمة وقال الضحاك والامة أربعون رجلا *(تنبيه)* دين الله تعالى هو الاسلام لقوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقال

تقديره حضر أجلك أي اذا جاء نصر الله بالفعل من أجلك وكان عاد الحضر صلى الله عليه وسلم يقول لما نزلت هذه السورة نعي الله تعالى الى نفسي وقال الحسن اعلم الله النبي صلى

تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه واضافة الدين الى الاسم الدال على الالهية اشارة الى أنه يجب ان يعبد لكونه الها وللدين أسماء أخر منها الصراط قال تعالى صراط الله ومنها النور يريدون ليطفؤا نور الله ومنها الهدى قال تعالى هدى الله يهدي به من يشاء ومنها العروة الوثقى قال تعالى ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ومنها الحبل المتين قال تعالى واعتصموا بحبل الله ومنها صبغة الله ومنها فطرة الله * (تنبيه) * جمهور الفقهاء وأكثر المتكلمين على أن ايمان المقلد صحيح واحتجوا بهذه الآية قالوا ان الله تعالى حكم بصحة ايمان أولئك الافواج وجعله من أعظم المنن على نبيه صلى الله عليه وسلم فلو لم يكن ايمانهم صحيحا لما ذكره في هذا المعرض ثم انا نعلم قطعا انهم ما كانوا يعرفون حدوث الاجسام بالدليل ولا اثبات كونه تعالى عالما بجميع المعلومات التي لا نهاية لها ولا اثبات الصفات والتنزيهات بالدليل والعلم بان أولئك الاعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري فعلمنا ان ايمان المقلد صحيح (فان قيل) انهم كانوا عالمين باصول دلائل هذه المسائل لان أصول هذه الدلائل ظاهرة بل كانوا جاهلين بالتفاصيل (أجيب) بان الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان فان الدليل اذا كان مثلا من عشر مقدمات فمن علم تسعة منها وكان في المقدمة العاشرة مقلدا كان في النتيجة مقلدا لا محالة * ولما كمل الدين أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ان يشتغل بنفسه فقال عز من قائل (فسبح) أي نزه ربك وقدسه بالصلاة وغيرها تسبيحا ملتبسا (بحمد ربك) أي الذي أنجز لك الوعد باكمال الدين وقمع المعتدين المحسن اليك بجميع ذلك لان هذا كله لاكرامك والا فهو عزيز حميد على كل حال تعجبا لتيسير الله تعالى لهذا الفتح الذي لم يخطر ببال أحد حامدا له عليه أو فصل له حامدا على نعمه قاله ابن عباس روي انه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة بدأ بالمسجد فدخل الكعبة وصلى ثمان ركعات (واستغفره) أي اطلب غفرانه لتقتدي بك امتك في المواظبة على الامان الثاني فان الامان الاول الذي هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعه الى معدنه في الرفيق الاعلى والمحل الاقدس وفي ذلك اشارة الى انه لا يقدر أحد أن يقدر الله تعالى حق قدره كما أشار الى ذلك الاستغفار عقب الصلاة التي هي أعظم العبادات وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة اذا جاء نصر الله والفتح الا يقول أستغفر الله وأتوب اليه قال فاني أمرت بها ثم قرأ اذا جاء نصر الله والفتح الى آخرها وقال عكرمة لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قط أشد اجتهادا في أمور الآخرة ما كان عند نزولها وقال مقاتل لما نزلت قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص والعباس ففرحوا واستبشروا وبكى العباس فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عم قال نعيت اليك نفسك قال انه كما قلت فعاش بعدها ستين يوما ما رؤي فيها ضاحكا مستبشرا وقيل نزلت في منى بعد أيام التشريق في حجة الوداع فبكى عمر والعباس فقيل لهما هذا يوم فرح فقالا لا بل فيه نعي النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزل اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي فعاش صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوما ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها

خمسين

الله عليه وسلم انه قد اقترب أجله فأمره بالتسبيح والاستغفار ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح فكان يكثر من قوله سبحانك اللهم اغفر لي انك أنت التواب وروى

خمسين يوما ثم نزلت لقد جاءكم رسول من أنفسكم فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما ثم نزل واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فعاش بعدها أحدا وعشرين يوما وقال مقاتل سبعة أيام وقيل غير ذلك وقال الرازي اتفق الصحابة على ان هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه أحدها انهم عرفوا ذلك لما خطب صلى الله عليه وسلم عقب السورة وذكر التخيير وهو قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته لما نزلت هذه السورة ان عبدا خيره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله فقال أبو بكر رضي الله عنه فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا ثانيها انه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجا دل ذلك على حصول الكمال والتمام وذلك يستعقبه الزوال كما قيل

اذا تم أمر بدا نقصه * توقع زوالا اذا قيل تم

ثالثها انه تعالى أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقا واشتغاله بذلك يمنعه من الاشتغال بأمر الامة فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل وذلك يقتضي انقضاء الاجل اذ لو بقي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لكان كالمعزول من الرسالة وذلك غير جائز وعن ابن عباس ان عمر كان يدنيه ويأذن له مع أهل بدر فقال عبد الرحمن أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبنائنا من هو مثله فقال انه من قد علمتم قال ابن عباس فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله تعالى اذا جاء نصر الله والفتح ولا أراه سألهم الا من أجلي فقال بعضهم أمر الله تعالى نبيه اذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب اليه فقلت ليس كذلك ولكن نعيت اليه نفسه فقال عمر ما أعلم منها الا مثل ما تعلم ثم قال كيف تلومونني عليه بعد ما ترون وروى أنه صلى الله عليه وسلم دعا فاطمة رضي الله عنها فقال يا بنتاه انه نعيت الي نفسي فبكت فقال لا تبكي فانك أول أهلي لحوقا بي وعن عائشة كان صلى الله عليه وسلم يكثر قبل موته أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب اليك وعنها أيضا ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت اذا جاء نصر الله والفتح الا يقول فيها سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي وقالت أم سلمة رضي الله عنها كان النبي صلى الله عليه وسلم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب الا قال سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب اليه قال فاني أمرت بها ثم قرأ اذا جاء نصر الله والفتح الى آخرها وقيل استغفره هضما لنفسك واستصغارا لعملك واستدراكا لما فرط منك بالالتفات الى غيره وعنه عليه الصلاة والسلام اني أستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة وقيل استغفر لامتك وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق الى الخلق كما قيل ما رأيت شيأ الا ورأيت الله قبله * ولما أمره الله تعالى بالتسبيح والاستغفار أرشده الى التوبة بقوله تعالى (انه) أي المحسن اليك بالنصر والفتح وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر (كان) أي ولم يزل (توابا) أي رجاعا بمن ذهب به الشيطان من أهل رحمته فهو الذي رجع بأنصارك عما كانوا عليه من الاجتماع على الكفر والاختلاف والعداوات فأيدك الله تعالى بدخولهم في الدين شيأ فشيأ الى أن دخلت مكة بعشرة آلاف وهو أيضا يرجع بك الى الحالة التي يزداد بها ظهور رفعتك في الرفيق الاعلى قال

ان النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها سنتين

(سورة تبت)

(قوله تبت يدا أبي لهب) ليس بتكرار مع ما بعده لانه دعاء والثاني خبر أي فقد

الله تعالى وللآخرة خير لك من الاولى فتفوز بتلك السعادات العالية وعن ابن مسعود ان هذه السورة تسمى سورة التوديع قال قتادة ومقاتل عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين وهذا بناء على انها نزلت قبل فتح مكة وهو قول الاكثر فان الفتح كان في سنة ثمان واما من قال عاش دون ذلك كما مر فبناء على انها نزلت بمنى في حجة الوداع كما مر ايضا *(تنبيه)* في الآية سؤالات أحدها ان قوله تعالى كان توابا يدل على الماضي وحاجتنا الى قبوله في المستقبل ثانيها هلا قال غفارا كما قال في سورة نوح عليه السلام ثالثها انه قال تعالى نصر الله وقال تعالى في دين الله وقال تعالى بحمد ربك ولم يقل بحمد الله (واجيب) عن الاول بوجوه أحدها أن هذا أبلغ كأنه يقول اني تبت على من هو أقبح فعلا منكم كاليهود فانهم بعد ظهور المعجزات العظيمة كفلق البحر ونتق الجبل ونزول المن والسلوى عصوا ربهم وأتوا بالقبائح ولما تابوا قبلت توبتهم فاذا كنت قابلا لتوبة أولئك وهم دونكم افلا أقبل توبتكم وانتم خير أمة أخرجت للناس ثانيها اني شرعت في توبة العصاة والشروع ملزم على قول النعمان فكيف في كرم الرحمن ثالثها كنت توابا قبل أمركم بالاستغفار أفلا اقبل وقد امرتكم بالاستغفار رابعها كأنه اشار الى تخفيف جنايتهم أي لستم اول من جنى وتاب والمصيبة اذا عمت خفت خامسها كأنه نظير ما يقال لقد احسن الله اليك فيما مضى كذلك يحسن اليك فيما بقي (واجيب) عن الثاني بوجهين احدهما لعله خص هذه الامة بزيادة الشرف لانه لا يقال في صفات العبد غفار ويقال تواب اذا كان آتيا بالتوبة فيقول تعالى كنت لي سميا من اول الامر انت مؤمن وانا مؤمن وان كان المعنى مختلفا فتب حتى تصير سميا لي في آخر الامر وانت تواب وأنا تواب ثم التواب في حق الله تعالى انه يقبل التوبة كثيرا فيجب على العبد ان يكون اتيانه بالتوبة كثيرا ثانيهما انه تعالى انما قال توابا لان القائل قد يقول استغفر الله وليس بتائب كقوله عليه الصلاة والسلام المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزئ بربه (فان قيل) قد يقول اتوب وليس بتائب (اجيب) بان ذا يكون كاذبا لان التوبة اسم للرجوع والندم بخلاف الاستغفار فانه لا يكون كاذبا فيه فصار تقدير الكلام واستغفره بالتوبة وفيه تنبيه على ان خواتيم الاعمال يجب ان تكون بالتوبة والاستغفار فكذا خواتيم الاعمار (واجيب) عن الثالث بانه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين احدهما الرب والثاني التواب ولما كانت التربية تحصل اولا والتوبة آخر الاجرم ذكر اسم الرب اولا واسم التوبة آخرا فنسأل الله تعالى من فضله وكرمه ان يمن علينا بتوبة نصوح لا نكث بعدها ابدا فانه كريم رحيم وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة اذا جاء نصر الله اعطي من الاجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة حديث موضوع

تب اي خسر وقيل تبت تب اي خسر وقيل تبت يدا ابي لهب اي عمله وتب اي ابو لهب (فان قلت) كيف ذكره الله تعالى بكنيته دون اسمه وهو عبد العزى مع ان ذلك اكرام واحترام (قلت) لانه لم يشتهر الا

سورة تبت مكية

وهي خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وسبعة وسبعون حرفا

(بسم الله) المتكبر الجبار المضل الهاد (الرحمن) الذي عم خلقه نعمه بعد الا كرام بالايجاد

(الرحيم)

(الرحيم) الذى خص بتوفيقه أهل الوداد وقوله تعالى (تبت يدا أبى لهب) دعاء عليه وسبب نزول ذلك ماروى عن ابن عباس أنه قال لما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين صعد صلى الله عليه وسلم الصفا وجعل ينادى يابنى فهر يابنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا عنده فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتم لو أخبرتكم ان العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونى قالوا بلى قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبالك ألهذا دعوتنا جميعا فنزلت وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم خرج الى البطحاء فصعد الجبل ونادى ياصباحاه فاجتمعت اليه قريش وذكر نحوه وفى رواية فصعد الصفا فهتف ياصباحاه فقالوا من هذا الذى يهتف فقالوا محمد فاجتمعوا اليه فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى قالوا ماجربنا عليك كذبا قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبالك أما جمعتنا الا لهذا فنزلت وعن ابن زيد ان أبا لهب أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ماذا أعطى ان آمنت بك يامحمد فقال صلى الله عليه وسلم كما يعطى المسلمون فقال مالى عليهم فضل فقال صلى الله عليه وسلم وأى شئ تبتغى قال تبا لهذا من دين أن أكون وهؤلاء سواء فنزلت ومعنى تبت قال ابن عباس خابت وقال قتادة خسرت وقال عطاء ضلت وقال ابن جبير هلكت والتباب الهلاك ومنه قولهم اشابة أم تابة اى هالكة من الهرم والتعجيز والمعنى هلكت يداه لانه فيما يروى أخذ حجرا ليرمى به النبى صلى الله عليه وسلم وقيل رماه به فادمى عقبه فلهذا ذكرت اليد وان كان المراد جملة البدن فهو كقولهم خسرت يده وكسبت يده فاضيفت الافعال الى اليد وذلك على عادة العرب فى التعبير ببعض الشئ عن كله وجميعه أو عبر باليدين لان الغالب ان الاعمال تزاول بهما وقال يمان بن رباب صفرت من كل خير حكى الاصمعى عن أبى عمرو بن العلاء انه لما قتل عثمان سمع الناس هاتفا يقول

لقد خلوك وانصرفوا * فما آبوا ولا رجعوا
ولم يوفوا نذورهم * فتبا للذى صنعوا

وقيل المراد باليدين دينه ودنياه أو أولاده وعقباه او المراد باحداهما جر المنفعة وبالاخرى دفع المضرة اولان اليمنى سلاح واليسرى جنة وأبو لهب هو ابن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم واسمه عبد العزى (فان قيل) لماذا كنى بذلك ولم يكن له ولد اسمه لهب وأيضا فالتكنية من باب التعظيم (أجيب) عن الاول بان الكنية قد تكون اسما كما سمى أبو سفيان وأبو طالب ونحو ذلك فان هؤلاء اسماؤهم كناهم اولتلهب وجنتيه وكان مشرق الوجه أحمره (وأجيب) عن الثانى بوجوه احدها أنه لما كان اسما خرج عن افادة التعظيم ثانيها ان اسمه كان عبد العزى كما مر فعدل عنه الى كنيته لقبح اسمه لان الله تعالى لم يضف العبودية فى كتابه الى صنم ثالثها انه لما كان من أهل النار ومآله الى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته فكان جديرا بان يذكر بها كقولهم ابو الخير وأبو الشر لصدورهما منه اولان الكنية كانت أغلب من الاسم اولانها انقص منه ولذلك تذكر الانبياء عليهم الصلاة والسلام باسمائهم دون كناهم وقال الزمخشرى فان قلت لم كناه والكنية تكرمة ثم ذكر ثلاثة أجوبة

بكنيته اولان ذكره باسمه خلاف الواقع حقيقة لانه عبد الله لاعبد العزى أو انه ذكره بكنيته لموافقته حاله لها فان مصيره الى النار ذات اللهب وانما

اما لشهرته بكنيته واما لقبح اسمه كما تقدم واما لانه لما كان من أهل النار ومآله الى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته اه وهذا يقتضي ان الكنية أشرف من اللقب لا أنقص وهو عكس قول تقدم وقرأ ابن كثير باسكان الهاء والباقون بفتحها وهما لغتان بمعنى نحو النهر والنهر وقوله تعالى (وتب) خبر كما يقال أهلكه الله وقد هلك فالاول أخرج مخرج الدعاء عليه والثاني أخرج مخرج الخبر فحقق به ما أريد من الاسناد الى اليدين من الكناية عن الهلاك الذي لا بقاء بعده وقيل المراد بالاول ماله وملكه كما يقال فلان قليل ذات اليد يعنون به المال وبالثاني نفسه * ولما دعا صلى الله عليه وسلم أقربيه الى الله تعالى وخوفهم النار قال أبو لهب ان كان ما يقول ابن أخي حقا فاني أفتدي نفسي بمالي وولدي فانزل الله تعالى (ما أغنى عنه) اى عن أبي لهب (ماله) اى الكثير الذي جرت العادة أنه منج من الهلاك فانه كان صاحب مواش كثيرة (وما كسب) اى من الولد والاصحاب والعز بعشيرته التي كان يؤذي بها النبي صلى الله عليه وسلم وكان ابنه عتبة شديد الاذى للنبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فكان أبو لهب يعرف أن هذه الدعوة لا بد ان تدركه فسافر الى الشام فاوصى به الرفاق ليحموه من هذه الدعوة فكانوا يحدقون به اذا ناموا يكون وسطهم والجمول محيطة به وهم محيطون بها والركاب محيطة بهم فلم ينفعه ذلك بل جاء الاسد فتشمم الناس حتى وصل اليه فاقتلع رأسه وانما كان الولد من الكسب لقوله صلى الله عليه وسلم أطيب ما يأكل أحدكم من كسبه وان ولده من كسبه *(تنبيه)* ما في ما أغنى يجوز فيها النفي والاستفهام فعلى الاستفهام تكون منصوبة المحل بما بعدها التقدير اى شئ أغنى المال وقدم لكونه له صدر الكلام ويجوز في ما في قوله تعالى وما كسب أن تكون بمعنى الذي فالعائد محذوف وأن تكون مصدرية اى وكسبه وأغنى بمعنى يغني ثم اوعده سبحانه بالنار فقال تعالى (سيصلى) اى عن قريب بوعد لا خلف فيه (نارا) يندس فيها او تنعطف عليه وتحيط به (ذات لهب) اى لا تسكن ولا تخمد أبدا الا ان ذلك مدلول الصحبة المعبر عنها بذات وذلك بعد موته * ولما أخبر تعالى عنه بكمال التباب الذي هو نهاية الخسار زاده تحقيرا بذكر من يصونها بازرى صورة وأشنعها بقوله تعالى (وامرأته) وهو عطف على ضمير يصلى سوغه الفصل بالمفعول وصفته وهي أم جميل وهي أخت أبي سفيان بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي مثل زوجها في التباب والصلي من غير ان يغني عنها شئ من مال ولا حسب ولا نسب وعدل عن ذكرها بكنيتها الا ان صفتها القباحة وهي ضد كنيتها قال البقاعي ومن هنا يؤخذ كراهة التلقيب بناصر الدين ونحوها لمن ليس متصفا بما دل عليه لقبه وقوله تعالى (حمالة الحطب) فيه وجهان أحدهما هو حقيقة قال قتادة وكانت تعير النبي صلى الله عليه وسلم بالفقر ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل وقال ابن زيد كانت تحمل العضاه والشوك تلقيه في الليل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير وقال مرة الهمداني كانت ام جميل تأتي في كل يوم بابالة من الحسك فتطرحها في طريق المسلمين فبينما هي ذات ليلة حاملة حزمة عييت فقعدت على حجر تستريح فجذبها الملك من خلفها فاهلكها الوجه الثاني ان ذلك مجاز عن

كني بذلك لتلهب وجنتيه واشراقهما

(سورة الاخلاص)

(قوله الله احد الله الصمد) كرر لفظ الله لتكون الجملة الثانية مستقلة بذاتها

المشي بالنميمة ورمى الفتن بين الناس ويقال للمشاء بين الناس بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم اي يوقد بينهم النائرة ويثير الشر قال الشاعر

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة * ولم تمش بين الناس بالحطب الرطب

جعله رطبا ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر وقال سعيد بن جبير حمالة الخطايا والذنوب من قولهم فلان يحتطب على ظهره قال تعالى يحملون أوزارهم على ظهورهم وقرأ عاصم بنصب التاء من حمالة على الشتم قال الزمخشري وأنا أستحب هذه القراءة وقد توسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب شتم أم جميل اه والباقون برفعها على انها صفة امرأته فانها مرفوعة باتفاق اما بالعطف على الضمير في سيصلى كما مر ويكون قوله تعالى (في جيدها حبل) حالا من امرأته أو على الابتداء ففي جيدها حبل هو الخبر وحبل فاعل به ويجوز أن يكون في جيدها خبرا مقدما وحبل مبتدأ مؤخرا والجملة حالية أو خبر ثان والجيد العنق ويجمع على أجياد وقوله تعالى (من مسد) صفة لحبل والمسد ليف المقل وقيل الليف مطلقا وقال أبو عبيدة هو حبل يكون من صوف وقال الحسن هي حبال من شجر ينبت باليمن يسمى المسد وكانت تفتل وقال الضحاك وغيره هذا في الدنيا وكانت تعير النبي صلى الله عليه وسلم بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف فخنقها الله عز وجل به فاهلكها وهو في الآخرة حبل من نار (فان قيل) ان كان ذلك حبلها فكيف يبقى في النار (أجيب) بأن الله تعالى قادر على تجديده كلما احترق كما يبقى اللحم والعظم والجلد أبدا في النار وعن ابن عباس قال هو سلسلة ذرعها سبعون ذراعا تدخل فيها وتخرج من أسفلها ويلوى سائرها على عنقها وقال قتادة هو قلادة من ودع وقال الحسن انما كان خرزا في عنقها وقال سعيد بن المسيب كانت لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت واللات والعزى لأنفقنها في عداوة محمد ويكون ذلك عذابا في جيدها يوم القيامة وقيل ان ذلك اشارة الى الخذلان يعني انها مربوطة عن الايمان لما سبق لها من الشقاء كالمربوط في جيده بحبل من مسد والمسد الفتل يقال مسد حبله يمسده مسدا اي اجاد فتله والجمع امساد وروى أنها لما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر وفي يدها فهر من حجارة تريد أن ترميه به فلما وقفت عليه أخذ الله تعالى ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى الا أبا بكر فقالت يا أبا بكر أين صاحبك قد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه والله اني لشاعرة

مذمما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت فقال أبو بكر يا رسول الله أما تراها رأتك قال صلى الله عليه وسلم ما رأتني لقد أخذ الله تعالى ببصرها عني وكانت قريش انما تسمي محمدا صلى الله عليه وسلم مذمما ثم يسبونه وكان صلى الله عليه وسلم يقول الا تعجبوا لما صرف الله تعالى عني من أذى قريش يسبون مذمما وأنا محمد انظر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا الاذى ويحلم عليهم فينبغي لغيره أن يكون له به اسوة قال الله تعالى لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

(تنبيه) احتج أهل السنة على تكليف ما لا يطاق بانه تعالى كلف أبا لهب بالايمان بتصديق الله

كالاولى غير محتاجة الى الاولى (فان قلت) كيف ذكر أحد في الاثبات مع ان المشهور انه يستعمل بعد النفي كما ان الواحد لا يستعمل الا بعد الاثبات

تعالى فى كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن فانه من أهل النار فانه قد صار مكلفا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال وذلك مذكور فى أصول الفقه وقد تضمنت هذه الآيات الاخبار عن الغيب بثلاثة أوجه أحدها الاخبار عنه بالتباب والخسران وقد كان ذلك ثانيها الاخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده وقد كان ذلك ثالثها الاخبار عنه بأنه من أهل النار وقد كان ذلك لانه مات على الكفر هو وامرأته ففى ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم وامرأته خنقها الله تعالى بحبلها كما مر وأبو لهب رماه الله تعالى بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال فمات وأقام ثلاثة أيام لا يدفن حتى انتن ثم ان ولده غسله بالماء قذفا من بعيد مخافة عدوى العدسة وكانت قريش تتقيها كما تتقى الطاعون ثم احتملوه الى اعلى مكة واسندوه الى جدار ثم رضموا عليه الحجارة وقيل ان الله تعالى يدخل امرأته جهنم على الصورة التى كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الحطب ولا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من أصل شجرة الزقوم أو من الضريع وفى جيدها حبل من مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله فى جرمه وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة تبت رجوت ان لا يجمع الله بينه وبين ابى لهب فى دار واحدة حديث موضوع

يقال فى الدار واحد وما فى الدار احد ومن ذلك قوله تعالى والهكم اله واحد وقوله لله الواحد القهار وقوله تعالى ولا تصل

سورة الاخلاص مكية

فى قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة ومدنية فى احد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى وهى اربع آيات وخمس عشرة كلمة وسبعة واربعون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع الكمال ذى الجلال والجمال (الرحمن) الذى افاض على جميع خلقه عموم الافضال (الرحيم) الذى خص اهل وداده من نور الانعام بالاتمام الاكمال * واختلف فى سبب نزول سورة (قل هو الله احد) فروى ابو العالية عن ابى بن كعب ان المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فنزلت وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان عامر بن الطفيل واربد بن ربيعة اتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقال عامر الى من تدعونا يا محمد فقال الى الله تعالى قال صفه لنا امن ذهب هو ام من فضة ام من حديد ام من خشب فنزلت واهلك الله تعالى اربد بالصاعقة وعامر بن الطفيل بالطاعون وقال الضحاك وقتادة ومقاتل جاء ناس من احبار اليهود الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فان الله تعالى انزل صفته فى التوراة فاخبرنا من اى شئ هو وهل يأكل ويشرب ومن ورث ومن يرثه فنزلت *(تنبيه)* هو ضمير الشأن وهو مبتدأ وخبره الله واحد بدل او خبر ثان يدل على مجامع صفات الجلال كما دل الله تعالى على جميع صفات الكمال اذ الواحد الحقيق ما يكون منزه الذات عن التركيب والتعدد وما يستلزم احدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة فى الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للالوهية *(فائدة)* جاء فى الواحد عن العرب لغات كثيرة يقال واحد وأحد ووحد ووحيد ووحاد واحاد وموحد وأوحد وهذا كله راجع الى معنى الواحد وان كان فى ذلك معان لطيفة ولم يجئ

في صفات الله تعالى الا الواحد والاحد وقوله تعالى (الله) أي الذي ثبتت الهيته وأحديته لا غيره مبتدأ خبره (الصمد) واخلى هذه الجملة عن العاطف لانها كالنتيجة للاولى أو الدليل عليها والصمد السيد المصمود اليه في الحوائج كلها والمعنى هو الله الذي تعرفونه وتقرون بانه خالق السموات والارض وخالقكم وهو واحد متوحد بالالوهية لا يشارك فيها وهو الذي يصمد اليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم وعن ابن عباس رضي الله عنهما الصمد هو الذي لا جوف له وقال الشعبي هو الذي لا يأكل ولا يشرب وقال الربيع هو الذي لا تعتريه الآفات وقال مقاتل بن حيان هو الذي لا عيب فيه وقال قتادة هو الباقي بعد فناء خلقه وقال سعيد بن جبير هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وقال السدي هو المقصود اليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب تقول العرب صمدت فلانا اصمده صمدا بسكون الميم اذا قصدته وعن أبي بن كعب هو الذي (لم يلد) لان من يلد سيموت ومن يرث يورث عنه ففسر الصمد بما بعده وينبغي ان تجعل هذه التفاسير كلها تفسيرا واحدا فانه متصف بجميعها فكونه لم يلد لانه لم يجانس ولم يفتقر الى من يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه لدوامه في أبديته والاقتصار على الماضي لوروده ردا على من قال الملائكة بنات الله أو العزير او المسيح أو غيره ● ولما بين أنه لا فصل له ظهر أنه لا جنس له فدل عليه بقوله تعالى (ولم يولد) لانه لو تولد عنه غيره تولد هو عن غيره كما هو المعهود والمعقول فهو قديم لا أول له بل هو الاول الذي لم يسبقه عدم لان الولادة لا تتكون ولا تتشخص الا بواسطة المادة وعلائقها وكل ما كان ماديا أو كان له علاقة بالمادة كان متولدا عن غيره والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع ذلك (ولم يكن) أي لم يتحقق ولم يوجد بوجه من الوجوه ولا بتقدير من التقادير (له) أي خاصة (كفوا) أي مثلا ومساويا (أحد) على الاطلاق أي لا يساويه في قوة الوجود لانه لو ساواه في ذلك لكانت مساواته باعتبار الجنس والفصل فيكون وجوده متولدا عن الازدواج الحاصل من الجنس الذي يكون كالام والفصل الذي يكون كالاب وقد ثبت انه لا يصح بوجه من الوجوه أن يكون في شيء من الولادة لان وجوب وجوده لذاته فانتفى ان يساويه شيء وكان الاصل أن يؤخر الظرف لانه صلة لكن لما كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى قدم تقديما للاهم ويجوز أن يكون حالا من المستكن في كفوا أو خبرا أو يكون كفوا حالا من أحد وعطف هاتين الجملتين على الجملة التي قبلهما لان الثلاث شرح الصمدية النافية لاقسام الامثال فهي كالجملة الواحدة روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياي بقوله[٣] لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من اعادته وأما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد وقرأ حمزة بسكون الفاء والباقون بضمها وقرأ حفص كفوا بالواو وقفا ووصلا واذا وقف حمزة وقف بالواو ● وروي في فضائل هذه السورة أحاديث كثيرة منها ماروى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد يرددها فلما أصبح أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده انها

على احد منهم وقوله لان فروف بين احد (قلت) قال ابن عباس رضي الله عنهما

[٣] قوله بقوله الذي في صحيح البخاري فقوله اهـ

لتعدل ثلث القرآن (فان قيل) لم كانت تعدل ثلث القرآن (أجيب) بان القرآن أنزل أثلاثا ثلث أحكام وثلث وعد ووعيد وثلث أسماء وصفات فجمعت هذه السورة أحد الاثلاث وهو الاسماء والصفات وقيل انها تعدل القرآن كله مع قصر متنها وتقارب طرفيها وما ذاك الا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده وكفى بذلك دليلا لمن اعترف بفضلها * ومنها ماروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية فكان يقرأ فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لاى شئ يصنع ذلك فسألوه فقال لانها صفة الرحمن فانا أحب أن أقرأ بها فقال صلى الله عليه وسلم أخبروه ان الله تعالى يحبه * ومنها مارواه الترمذى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرأ قل هو الله احد فقال صلى الله عليه وسلم وجبت قلت ما وجبت قال الجنة * ومنها ماروى أنس أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد خمسين مرة غفرت ذنوبه * ومنها ماروى سعيد بن المسيب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بنى الله له قصرا فى الجنة ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين فى الجنة ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور فى الجنة فقال عمر اذن تكثر قصورنا فقال صلى الله عليه وسلم الله أوسع من ذلك * ومنها مارواه الطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد بعد صلاة الصبح ثنتى عشرة مرة فكأنما قرأ القرآن أربع مرات وكان أفضل أهل الارض يومئذ اذا اتقى وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله احد فى مرضه الذى يموت فيه لم يفتن فى قبره وأمن من ضغطة القبر وحملته الملائكة باكفها حتى تجيزه من الصراط الى الجنة وقد أفردت أحاديثها بالتأليف وفى هذا القدر كفاية لاولى الالباب * ولها اسماء كثيرة وزيادة الاسماء تدل على شرف المسمى احدها انها سورة التفريد ثانيها سورة التجريد ثالثها سورة التوحيد رابعها سورة الاخلاص خامسها سورة النجاة سادسها سورة الولاية سابعها سورة النسبة لقولهم انسب لنا ربك ثامنها سورة المعرفة تاسعها سورة الجمال عاشرها سورة المقشقشة حادى عشرها سورة المعوذة ثانى عشرها سورة الصمد ثالث عشرها سورة الاساس قال أسست السموات السبع والارضون السبع على قل هو الله احد رابع عشرها المانعة لانها تمنع فتنة القبر ونفحات النار خامس عشرها سورة المحضر لان الملائكة تحضر لاستماعها اذا قرئت سادس عشرها سورة المنفرة لان الشياطين تنفر عند قراءتها سابع عشرها سورة البراءة لانها براءة من الشرك ثامن عشرها المذكرة لانها تذكر العبد خالص التوحيد تاسع عشرها سورة النور لانها تنور القلب المكمل العشرين سورة الانسان قال صلى الله عليه وسلم اذا قال العبد الله قال الله دخل حصنى ومن دخل حصنى امن من عذابى فنسأل الله تعالى ان يجيرنا من عذابه ويدخلنا الجنة نحن وجميع الاحباب بغير حساب لانه كريم حليم وهاب وما رواه البيضاوى من انها تعدل ثلث القرآن فرواه البخارى ومن انه صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرؤها الخ فرواه الترمذى والنسائى وغيرهما

لا فرق بينهما فى المعنى واختاره ابو عبيدة ويؤيده قوله تعالى فابعثوا احدكم بورقكم وعليه فلا يختص

سورة الفلق مكية

في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومدنية في قول ابن عباس وقتادة
وهي خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذي له جميع الحول (الرحمن) الذي استجمع كمال الطول (الرحيم) الذي أتم على أهل وده جميع النول واختلف في سبب نزول سورة (قل أعوذ برب الفلق) فقال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم كان غلام من اليهود يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فدنت اليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم وعدة أسنان من مشطه وأعطاها اليهود فسحروه فيها وتولى ذلك لبيد بن الاعصم رجل من اليهود فنزلت هذه وقل أعوذ برب الناس فيه وعن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم طب أي سحر حتى كانه يخيل اليه انه صنع شيأ وما صنعه وانه دعا ربه ثم قال اشعرت ان الله قد افتاني فيما استفتيته فيه فقالت عائشة رضي الله عنها وماذاك يارسول الله قال جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال احدهما لصاحبه ما وجع الرجل قال الآخر مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الاعصم قال فيماذا قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فاين هو قال في ذروان وذروان بئر في بني زريق قالت عائشة رضي الله عنها فاتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع الى عائشة فقال والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤس الشياطين قالت فقلت يارسول الله هل اخرجته قال اما انا فقد شفاني الله وكرهت ان اثير على الناس منه شرا وعن زيد بن ارقم قال سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى ذلك اياما فاتاه جبريل عليه السلام فقال ان رجلا من اليهود سحرك وعقد لك عقدا في بئر كذا وكذا فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فاستخرجها فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كانما انشط من عقال قال فما ذكر ذلك لليهودي ولا راي وجهه قط وروي انه كان تحت صخرة في البئر فرفعوا الصخرة واخرجوا جف الطلعة فاذا فيها مشاطة من راسه صلى الله عليه وسلم واسنان مشطه وعن مقاتل والكلبي كان ذلك في وتر عقد عليه احدى عشرة عقدة وقيل كانت مغروزة بالابرة فانزل الله عز وجل هاتين السورتين وهما احدى عشرة آية سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات فكلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها فقام صلى الله عليه وسلم كانما انشط من عقال وروي انه لبث فيه ستة اشهر واشتد عليه ثلاث ليال فنزلت المعوذتان وروي انه كان يخيل له انه يطأ زوجاته وليس بواطئ قال سفيان وهذا اشد ما يكون من السحر وعن ابي سعيد الخدري ان جبريل عليه السلام اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اشتكيت قال نعم قال بسم الله ارقيك من كل شئ يؤذيك ومن شر كل نفس او عين حاسد والله يشفيك بسم الله ارقيك (فان قيل) المستعاذ منه هل هو بقضاء الله وقدره اولا فان كان بقضاء الله وقدره فكيف امر بالاستعاذة مع ان ما قدر لابد واقع وان لم يكن بقضاء الله وقدره فذلك قدح في القدرة (اجيب) بان كل ما وقع في الوجود فهو بقضاء الله وقدره والاستشفاء بالتعوذ والرقى من قضاء الله فيدل على صحة

احدهما بمحل دون آخر وان اشتهر استعمال احدهما في النفي والآخر في الاثبات ويجوز ان يكون العدول عن المشهور هنا رعاية للفاصلة

بعد

ذلك ماروى الترمذى عن ابى خزامة عن ابيه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ارايت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل يرد من قضاء الله شيأ قال هو من قدر الله قال الترمذى هذا حديث حسن وعن عمر نفر من قدر الله الى قدر الله ومعنى أعوذ أستجير وألتجئ وأعتصم وأحترز والفلق الصبح فى قول الاكثرين ومنه قوله تعالى فالق الاصباح لانه ظاهر فى تغير الحال ومحاكاة يوم القيامة الذى هو أعظم فلق يشق ظلمة الفناء والهلاك بالبعث والاحياء وقال الملوى الفلق بالسكون والحركة كل شئ انفلق عنه ظلمة العدم وأوجد من الكائنات جميعا وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سجن فى جهنم وقال الكلبى واد فى جهنم وقال الضحاك يعنى الخلق وقيل المطمئن من الارض وجمعه فلقان مثل خلق وخلقان وقيل الفلق الجبال والصخور تتفلق بالمياه اى تنشق وقيل هو التفليق بين الجبال لانها تنشق من خوف الله تعالى ولفظ الرب هنا أوقع من سائر أسمائه تعالى لان الاعاذة من المضار تربية ✽ ولما كانت الاشياء قسمين عالم الخلق وعالم الامر وكان عالم الامر خيرا كله فكان الشر منحصرا فى عالم الخلق خصه بالاستعاذة فقال تعالى معمما فيها (من شر ما خلق) خص عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشر فيه والشر يكون اختياريا من العاقل الداخل تحت مدلول ما وغيره من سائر الحيوانات كالكفر والظلم ونهش السباع ولدغ ذوات السموم وتارة طبيعيا كاحراق النار واهلاك السموم وقيل المراد به ابليس خاصة لانه لم يخلق الله تعالى خلقا شرا منه ولان السحر لا يتم الا به وباعوانه وجنوده وقيل من شر كل ذى شر وقوله تعالى (ومن شر غاسق اذا وقب) فيه أوجه احدها ما روى عن عائشة قالت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الى القمر فقال يا عائشة استعيذى بالله من شر هذا فان هذا هو الغاسق اذا وقب أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح حسن فعلى هذا المراد به القمر اذا خسف واسود وذهب ضوءه او اذا دخل فى المحاق وهو آخر الشهر وفى ذلك الوقت يتم السحر المؤثر للتمريض وهذا مناسب لسبب نزول هذه السورة ثانيها ما روى عن ابن عباس أن الغاسق الليل اذا وقب اى اقبل بظلمته من المشرق وسمى الليل غاسقا لانه أبرد من النهار والغسق البرد وانما أمرنا بالتعوذ من الليل لان فيه تنتشر الآفات و يقل الغوث ومنه قولهم الليل أخفى للويل وقولهم أغدر الليل لانه اذا أظلم كثر فيه الغدر وفيه يتم السحر وأسند الشر اليه لملابسته له من حدوثه فيه ثالثها انه الثريا اذا سقطت وغابت ويقال ان الاسقام تكثر فيه عند وقوعها وترتفع عند طلوعها فلهذا أمرنا بالتعوذ من الثريا عند سقوطها رابعها انه الاسود من الحيات ووقبه ضربه ونقبه والوقب النقب ومنه وقبة الثريد ولما كان السحر اعظم ما يكون لما فيه من تفريق المرء من زوجه وأبيه وابنه ونحو ذلك عقب ذلك بقوله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) أى النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللواتى تعقد عقدا فى خيوط و ينفثن عليها او يرقين عليها والنفث النفخ مع ريق وقال ابو عبيد النفاثات من بنات لبيد بن أعصم اليهودى سحرن النبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) ما معنى الاستعاذة من شرهن (أجيب) بثلاثة أوجه أحدها ان يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ومن اثمهن فى ذلك ثانيها ان يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن

ثالثها

✽(سورة الفلق)✽

(قوله من شر) كرره اربع مرات لان شر كل منها غير شر البقية (فان قلت) فما اولها يشمل البقية فما فائدة اعادتها (قلت) فائدتها تعظيم شرها او دفع

ثالثها أن يستعاذ مما تصيب الله به من الشر عند نفثهن قال الزمخشري ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله تعالى ان كيدكن عظيم تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك *(تنبيه)* اختلف في النفث في الرقى فجوزه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ويدل عليه حديث عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذتين وروى محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل ينفث عليها ويتكلم بكلام زعم انه لم يحفظه وروى ان قوما لدغ رجل منهم فأتوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هل فيكم من راق قالوا لا حتى تجعلوا لنا شيأ فجعلوا لهم قطيعا من الغنم فجعل رجل منهم يقرأ فاتحة الكتاب ويرقى ويتفل حتى برئ فأخذوه فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال وما يدريك أنها رقية خذوا واضربوا لي معكم بسهم وأنكر جماعة النفث والتفل في الرقى وأجازوا النفخ بلا ريق وقال عكرمة لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد وقيل ان النفث في العقد انما يكون مذموما اذا كان سحرا مضرا بالارواح والابدان واذا كان النفث لاصلاح الارواح والابدان فلا يضر فليس بمذموم ولا مكروه بل هو مندوب اليه * ولما كان أعظم حامل على السحر وغيره من أذى الناس الحسد وهو تمني زوال نعمة المحسود للحاسد او غيره قال تعالى (ومن شر حاسد) اى ثابت الاتصاف بالحسد معروف فيه وأعظم الحساد الشيطان الذي ليس له دأب الا السعي في ازالة نعم العبادات عن الانسان بالغفلات ثم قيد ذلك بقوله تعالى (اذا حسد) اى اذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود لانه اذا لم يظهر أثر ما أضمر فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد وفي اشعار الآية ادعاء بما يحسد عليه من نعم الدارين لان خير الناس من عاش محسودا ومات محسودا (فان قيل) لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه (أجيب) بان النفاثات عرفت لانه كل نفاثة شريرة ونكر غاسق لان كل غاسق لا يكون فيه الشر انما يكون في بعض دون بعض وكذلك كل حاسد لا يضر ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لا حسد الا في اثنتين الحديث وقال ابو تمام

*وما حاسد في المكرمات بحاسد * وقال آخر * ان العلا حسن في مثلها الحسد *(فائدة)* قال بعض الحكماء الحاسد بارز ربه من خمسة اوجه اولها أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره ثانيها أنه ساخط لقسمة ربه كأنه يقول لم قسمت هذه القسمة ثالثها انه ضاد فعل الله تعالى ان فضل بر من شاء وهو يبخل بفضل الله تعالى رابعها أنه خذل أولياء الله تعالى أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم خامسها انه أعان عدو الله ابليس والحاسد لا ينال في المجالس الا ندامة ولا ينال عند الملائكة الا لعنة ولا ينال في الدنيا الا جزعا وغما ولا ينال في الآخرة الا حزنا واحتراقا ولا ينال من الله تعالى الا بعدا ومقتا وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم آكل الحرام ومكثر الغيبة ومن كان في قلبه غل أو حسد للمسلمين وقيل المراد بالحاسد في الآية اليهود فانهم كانوا يحسدون النبي صلى الله عليه وسلم (فان قيل)

توهم انه لا شر لها لذلك فانه فيها (ان قلت) كيف عرف النفاثات ونكر ما قبلها وما بعدها (قلت) لان كل نفاثة لها شر وليس كل غاسق وحاسد له شر والغاسق الليل

قوله تعالى من شر ما خلق تعميم فى كل ما يستعاذ منه فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد (أجيب) بانه قد خص شر هؤلاء من كل شر لخفاء امرهم وانه يلحق الانسان من حيث لا يعلم كأنما يغتال به وقالوا شر العداة المداجى الذى يكيدك من حيث لا تشعر وأخرج الامام احمد عن الزبير بن العوام أنه صلى الله عليه وسلم قال دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء ألا و البغضاء هى الحالقة فنسأل الله تعالى ان يحفظنا ويحمينا منه انه كريم جواد وروى مسلم انه صلى الله عليه وسلم قال لقد أنزلت على سورتان ما أنزل مثلهما وروى ابن ماجه انه صلى الله عليه وسلم قال وانك أن تقرأ سورتين لا احب ولا ارضى عند الله منهما يعنى المعوذتين وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الا أخبرك بافضل ما تعوذ به المتعوذون قلت بلى يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وما رواه الزمخشرى ولم يقله البيضاوى هنا لكن قال فى آخر السورة الآتية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التى أنزلها الله تعالى فهو حديث موضوع

سورة الناس مكية

وهى ست آيات وعشرون كلمة وتسعة وتسعون حرفا

(بسم الله) المحيط بكل باطن كاحاطته بكل ظاهر (الرحمن) الذى عمت نعمته كل باد وحاضر (الرحيم) الذى خص اهل وده باتمام النعمة فى جميع أمورهم الاول منها والاثناء والآخر ولما امر الله تعالى نبيه بالاستعاذة مما تقدم امره أن يستعيذ من شر الوسواس بقوله تعالى (قل) اى يا أشرف المرسلين (اعوذ) اى اعتصم والتجئ (برب) اى مالك وخالق (الناس) وخصهم بالذكر وان كان رب جميع المحدثات لامرين احدهما ان الناس يعظمون فاعلم بذكرهم أنه رب لهم وان عظموا الثانى انه امر بالاستعاذة من شرهم فاعلم بذكرهم انه هو الذى يعيذ منهم قال الملوى والرب من له ملك الرق وجلب الخيرات من السماء والارض وانقاذها ودفع الشرور ورفعها والنقل من النقص الى الكمال والتدبير العام العائد بالحفظ والتتميم على المربوب وقوله تعالى (ملك الناس) اشارة الى ان له كمال التصرف ونفوذ القدرة وتمام السلطان فاليه المفزع وهو المستغاث والملجأ والمنجا والمعاذ وقوله تعالى (اله الناس) اشارة الى انه تعالى كما انفرد بربوبيتهم وملكهم لم يشركه فى ذلك احد فكذلك هو وحده الههم لا يشركه فى ألوهيته احد وقد اشتملت هذه الاضافات الثلاث على جميع قواعد الايمان وتضمنت معانى أسمائه تعالى الحسنى فان الرب هو القادر الخالق الى غير ذلك مما يتوقف الاصلاح والرحمة والقدرة الذى هو بمعنى الربوبية عليه من أوصاف الجمال والملك هو الآمر الناهى المعز المذل الى غير ذلك من الاسماء العائدة الى العظمة والجلال وأما الاله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل فيه جميع الاسماء الحسنى ولتضمنها لجميع معانى الاسماء الحسنى كان المستعيذ جديرا بان يعاذ وقد وقع ترتيبها على الوجه الاكمل الدال على الوحدانية لان من رأى ما عليه من النعم الظاهرة والباطنة علم ان له مربيا فاذا درج فى

(سورة الناس)

ذكر فيها الناس خمس مرات تفصيلا لهم اولا لانفصال كل آية منهم فيها عن الاخرى بعدم العاطف او المراد بالاول الاطفال بقرينة معنى الربوبية وبالثانى الشبان بقرينة ذكر الملك الدال على السياسة وبالثالث الشيوخ بقرينة ذكر الاله الدال على

العروج في درج معارفه سبحانه علم أنه غني عن الكل والكل اليه محتاج وعن أمره تعالى تجري أمورهم فيعلم انه ملكهم ثم يعلم بانفراده بتدبيرهم بعد ابداعهم أنه المستحق للالهية بلا مشارك له فيها * (فائدة) * قد أجمع جميع القراء في هذه السورة على اسقاط الالف من مالك بخلاف الفاتحة كما مضى لان المالك اذا أضيف الى اليوم أفهم اختصاصه بجميع ما فيه من جوهر وعرض وانه لا أمر لاحد معه ولا مشاركة في شيء من ذلك وهو معنى الملك بالضم واما اضافة المالك الى الناس فانها لا تستلزم أن يكون ملكهم فلو قرئ به هنا لنقص المعنى واتفقوا في آل عمران على اثبات الالف في المضاف وحذفها من المضاف اليه لان المقصود من السياق أنه سبحانه يعطي الملك من يشاء ويمنعه من يشاء والملك بكسر الميم اليق بهذا المعنى واسرار كلام الله تعالى أعظم من أن تحيط بها العقول وانما غاية اولي العلم الاستدلال بما ظهر منها * (تنبيه) * يجوز في ملك الناس واله الناس أن يكونا وصفين لرب الناس وان يكونا بدلين وأن يكونا عطف بيان واقتصر عليه الزمخشري قال كقولك سيرة أبي حفص عمر الفاروق بين بملك الناس ثم زيد بيانا باله الناس لانه قد يقال لغيره رب الناس كقوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله وقد يقال ملك الناس وأما اله الناس فخاص لا شركة فيه فجعل غاية للبيان (فان قيل) هلا اكتفى باظهار المضاف اليه الذي هو الناس مرة واحدة (أجيب) بان عطف البيان للبيان فكان مظنة للاظهار دون الاضمار (من شر الوسواس) وهو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة واما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال والمراد به شيطان سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لانها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه اواريد ذو الوسواس والوسوسة الصوت الخفي ويقال لحس الصائد والكلاب واصوات الحلي وسواس والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما في الصحيح فهو الذي يوسوس بالذنب سرا اليكون احلى ولا يزال يزينه ويثير الشهوة الداعية اليه حتى يوقع الانسان فاذا أوقعه وسوس لغيره ان فلانا فعل كذا حتى يفضحه بذلك فاذا افتضح ازداد جراءة على امثال ذلك كأنه يقول قد وقع ما كنت احذر من ايقاعه فلا يكون شيء غير الذي كان فيجترئ على الذنب * ولما كان الله تعالى لم ينزل داء الا انزل له دواء غير السام وهو الموت وكان قد جعل دواء الوسوسة ذكره تعالى فانه يطرد الشيطان وينير القلب ويصفيه وصف سبحانه الموسوس عند استعماله الدواء بقوله تعالى (الخناس) اى الذي عادته أن يخنس اى يتوارى ويتأخر ويختفي بعد ظهوره مرة بعد مرة كلما كان الذكر خنس وكلما بطل عاد الى وسواسه فالذكر له كالمقامع التي تقمع المفسد فهو شديد النفور منه ولهذا كان شيطان المؤمن هزيلا كما حكى عن بعض السلف أن المؤمن يضني شيطانه كما يضني الرجل بعيره في السفر قال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب وقيل كخرطوم الخنزير في صدر الانسان فاذا ذكر العبد ربه خنس ويقال راسه كرأس الحية واضع راسه على ثمرة القلب يمنيه ويحدثه فاذا ذكر الله تعالى خنس ورجع ووضع رأسه فذلك قوله تعالى (الذي يوسوس) اى يلقي المعاني الضارة على وجه الخفاء والتكرير (في صدور الناس) اى المضطربين اذا غفلوا عن ذكر ربهم من غير تمانع وقال مقاتل ان الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن

العبادة وبالرابع الصالحون بقرينة وسوسة الخناس وهو الشيطان المولع باغوائهم وبالخامس المفسدون بقرينة عطفه على الجنة المتعوذ منهم (فان قلت) لم خص الناس بالذكر في الثلاثة الاولى

آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله تعالى على ذلك وقال القرطبي وسوسته هي الدعاء الى طاعته بكلام خفي يصل مفهومه الى القلب من غير سماع صوت *(تنبيه)* يجوز في محل الذي يوسوس الحركات الثلاث فالجر على الصفة والرفع والنصب على الشتم ويحسن ان يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذي يوسوس على أحد هذين الوجهين وقوله تعالى (من الجنة) أي الجن الذين هم في غاية الشر والتمرد والخناس (والناس) أي أهل الاضطراب والذبذبة بيان للذي يوسوس على ان الشيطان ضربان جني وانسي كما قال تعالى شياطين الانس والجن ويجوز ان يكون بدلا من الذي يوسوس اى الموسوس من الجن والانس وأن يكون حالا من الضمير في يوسوس أى حال كونه من هذين الجنسين وقيل غير ذلك قال الحسن هما شيطانان لنا أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس وأما شيطان الانس فيأتي علانية وقال قتادة ان من الجن شياطين وان من الانس شياطين فنعوذ بالله من شياطين الجن والانس وعن أبي ذر قال لرجل هل تعوذت بالله من شيطان الانس فقال أومن الانس شياطين قال نعم لقوله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن الآية وذهب قوم الى ان المراد بالناس هنا الجن سموا ناسا كما سموا رجالا في قوله تعالى وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن وكما سموا نفرا في قوله تعالى قل اوحي الي انه استمع نفر من الجن وكما سموا قوما نقل الفراء عن بعض العرب انه قال وهو يحدث جاء قوم من الجن فوقفوا فقيل من انتم فقالوا ناس من الجن فعلى هذا يكون والناس عطفا على الجنة ويكون التكرير لاختلاف اللفظين والجنة جمع جني كما يقال انس وانسي والهاء لتأنيث الجماعة وقيل ان ابليس يوسوس في صدور الجن كما يوسوس في صدور الناس فعلى هذا يكون في صدور الناس عاما في الجميع ومن الجنة والناس بيانا لما يوسوس في صدورهم وقيل معنى من شر الوسواس الوسوسة التي تكون من الجنة والناس وهو حديث النفس قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى تجاوز لامتي عما حدثت به انفسها مالم تعمل او تتكلم به وعن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الم تر آيات نزلت الليلة لم ير مثلهن قط أعوذ برب الفلق وأعوذ برب الناس وعنه أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الا اخبرك بافضل ما تعوذ به المتعوذات بلى قال قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وعن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا آوى الى فراشه كل ليلة جمع كفيه فنفث فيهما وقرأ قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما رأسه ووجهه وما اقبل من جسده يصنع ذلك ثلاث مرات وعنها ايضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت اقرؤهما عليه وامسح عنه بيده رجاء بركتها وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل واطراف النهار وعن ابن عباس قال قال رجل يا رسول الله اى الاعمال احب الى الله تعالى قال الحال المرتحل قال وما الحال المرتحل قال الذي يضرب من اول القرآن الى آخره كلما حل ارتحل وعن ابي هريرة انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ما اذن الله لاحد ما اذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به *(لطيفة)*

قوله بدلا من الذي الخ كذا في النسخ وهو غير ظاهر والصواب حالا من الذي اه

مع انه تعالى رب كل شئ وملكه والهه (قلت) تشريفا لهم وتفضيلا على غيرهم (قوله الذي يوسوس في صدور الناس) أى قلوبهم (قوله من الجنة والناس) بيان للشيطان الموسوس فهو جني وانسي

فختم بها كما ختم بها الفخر الرازي رحمه الله تعالى تفسيره وهي ان المستعاذ به في السورة الاولى مذكور بصفة واحدة وهي انه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهي الغاسق والنفاثات والحاسد وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث وهي الرب والملك والاله والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة والفرق بين الموضعين ان الثناء يجب ان يقدر بقدر المطلوب فالمطلوب في السورة الاولى سلامة النفس والبدن والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين وهذا تنبيه على ان مضرة الدين وان قلت أعظم من مضار الدنيا وان عظمت ۞ وهذا آخر ما يسره الله تعالى من السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير فدونك تفسيرا كأنه سبيكة عسجد اودر منضد جمع من التفاسير معظمها ومن القرا آت متواترها ومن الاقاويل أظهرها ومن الاحاديث صحيحها وحسنها محرر الدلائل في هذا الفن مظهر الدقائق استعملنا الفكر فيها اذا الليل جن فاذا ظفرت بفائدة شاردة فادع لي بالتجاوز والمغفرة او بزلة قلم او لسان فافتح لها باب التجاوز والمعذرة

فلابد من عيب فان تجدنه * فسامح وكن بالستر أعظم مفضل

فمن ذا الذي ما ساء قط ومن له الـ * ـمحاسن قد تمت سوى خير مرسل

وأنا أعوذ بجميع كلمات الله الكاملة التامة والوذ بكنف رحمته الشاملة العامة من كل ما يكلم الدين ويثلم اليقين او يعود في العاقبة بالندم او يقدح في الايمان المنوط بالسلم والدم وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر ووضع الخد لجلاله الاعظم الاكبر مستشفعا اليه بنوره الذي هو الشيبة في الاسلام متوسلا اليه بسيد الانام عليه الصلاة والسلام وبالتوبة الممحصة للآثام وبما عنيت به من مصابرتي على نوا كل من القوى وتفضل من الخطا ثم أسأله بحق صراطه المستقيم وقرآنه المجيد الكريم وبما لقيت من كدح اليمين وعرق الجبين في عمل هذا التفسير المبين عن حقائقه الخاص عن مضايقه المطلع على غوامضه المثبت في مداحضه المكتنز بالفوائد التي لا توجد الا فيه المحيط بما لا يكتنه من بديع ألفاظه ومعانيه مع الايجاز الحاذف للفضول وتجنب المستكره المملول متوسط الحجم وخير الامور أوساطها لا تفريطها ولا افراطها هذا ولسان التقصير في طول مدحه قصير

١

أعيذه بالمصطفى * من حاسد قد هما

بذمه وقد غدا * من أجله مذمما

فليس يبغي ذمه * الا بغيض أعمى

كفاه ربي شرهم * وزان منه الرسما

وراد في تدبيرهم * تدميرهم والعمى

وردهم بغيظهم * فلم ينالوا غنما

وزاده سعادة * ولازمته النعمى

فنسأل الله الكريم الذي به الضر والنفع والاعطاء والمنع أن يجعله لوجهه خالصا وان

قوله تعالى شياطين الانس والجن واعترض بان الناس لا يوسوسون في صدور الناس انما يوسوس في صدورهم الجن وأجيب بان الناس يوسوسون في صدور الناس أيضا بواسطة وسوسة تم لهم

يداركني بالطافه اذا الطفل أضحى في القيامة خالصا وأن يتجاوز عني انه هو السميع العليم
وأن يرفع به درجتي في جنات النعيم وان يجعله ذخيرة لي عنده انه ذو الفضل العظيم وأن
ينفع به من تلقاه بالقبول انه جواد كريم وان يخفف عني كل ذنب وحوبه وأن يمدني بحسن
المعونه وان يهب لي خاتمة الخير ويقيني مصارع السوء وان يتجاوز عن فرطاتي يوم التناد
ولا يفضحني بها على رؤس الاشهاد انا ووالدي وأولادي وأقاربي ومشايخي وأحبابي
ويحلهم دار السلام من فضله بواسع طوله وسابغ نونه فهو الجواد الكريم الرؤف الرحيم
وهذا شيء ما كان في قدرتي فاني والله معترف بقصر الباع وكثرة الزلل ولكن فضل الله تعالى
وكرمه لا يعلل بشيء من العلل والمعهد رجوت أن أكون متصفا باحدى الخصال الثلاث التي
اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا منها بل ارجو من الله الكريم اجتماعها انه جواد كريم حليم
(قال) المؤلف رحمه الله تعالى وكان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين المبارك ثالث عشر صفر
الخير من شهور سنة ثمان وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة
والسلام على يد مؤلفه فقير رحمة ربه القريب محمد بن أحمد الشربيني الخطيب غفر الله
تعالى له ذنوبه وستر له عيوبه والمسلمين والحمد لله رب العالمين وصلاة الله وسلامه
على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين والصحابة والتابعين اجمعين وتابعيهم باحسان الى
يوم الدين

يعنى بلبقيهم فى الظاهر حتى تصل وسوستهم الى الصدور والله أعلم بالصواب

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمدك يا من زينت سماء القلوب بأنوار العرفان وحليت الصدور من جواهره بفرائد
العرفان ونشكرك أن أنزلت كتابا احكمت آياته أي إحكام لا تخلق معجزاته على مر الدهور
ولا الأيام ونصلي ونسلم على السراج المنير الذي جاء بالتبصير والتيسير الكشاف عن
اسرار التنزيل بروح البيان المودع معالم التأويل تبيان كل شيء وأي تبيان سيدنا محمد
المؤيد بالفتح المبين المبعوث رحمة الى كافة العالمين المؤيد بكتاب أعجز البلغاء ان يحوموا
حول حماه وأخرس الفصحاء عن محاكاة قصر سوره ومضاهاته وعلى آله الطاهرين
وصحابته ... (وبعد) فيقول المتوسل بالنبي الخاتم خادم التصحيح بدار الطباعة محمد
قاسم ان أعظم ما تبتهج به نفوس العقلاء وأحلى ما تنشرح له الصدور والجلاء السلاه
فهم كتاب الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد
وليس يخفى أن الاعلام التفسير المتلقى عن أكابر الائمة النحارير اذ هو الكاشف عن حقائقه
المبين مكانه ودقائقه المعرب عن غرائبه المشير الى بدائعه وعجائبه وان التفسير المسمى
بالسراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للعلامة الامام
والفهامة الهمام من برعت ... العرفان محرز قصب السبق في مضمار
المعاني والبيان سيدنا ومولانا محمد الشربيني الخطيب متعه الله تعالى بمشاهدته في
دار التقريب كتاب قد أشرقت شمس التحقيق من مطالع عباراته وازهرت انوار
التدقيق من اكمام اشاراته كم ابرز فيه ابريز معان تأخذ بالنفوس طربا ويقضي الفطن

اللبيب من حسن صوغ مبانيها عجبا وناهيك بتفسير استخرج زبدة الكشاف طارحا ما به من زبد الزيغ والاعتساف واجتلب من اسرار التنزيل للقاضي البيضاوي أخلاف دره وانتقى من مفاتيح الغيب للامام الرازي فرائد دره وقصارى التعبير قصر لسان البليغ عن حصر محاسن هذا التفسير كما يشهد بذلك العالم النحرير ويعترف بها هنالك الناقد البصير فكان حريا ان يطبع الطبعة الثانية لفوائده التي هي لغلة الصادي شافية وافية مرصعة في هذه المرة هوامشه الحسان بفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للملك العلماء وامام الاجلة الفضلاء خاتمة المحققين وطراز عصابة المدققين شيخ الاسلام وحبر الانام قاضي القضاة مولانا زكريا الانصاري امطر عليه وابل احسانه الكريم الباري ولعمري انه الكتاب عديم المثال بعيد المنال احرز من الدقائق القرآنيه وابرز من نكات الآي الفرقانيه مع الوجازة والاختصار ما خلت عنه اسفار التفاسير الكبار فما ابدع فوائده وغرره وما أغلى فرائده ودرره هذا وكان طبعه الناضر ووضعه الانيق الباهر بمطبعة بولاق التي أينعت ثماره بالآفاق مقابلا على عدة نسخ قلم مع نسخة الطبع الاولى فجاء بحمد الله تعالى مكرره احلى واغلى وذلك في ظل من نضرت به الايام وغمر بجار فضله الانام صاحب السعاده وكوكب افق السيادة والجاده من هو بحسن الثناء عليه حقيق الخديو

الاعظم محمد توفيق متعه الله تعالى بوجود انجاله الكرام وجعله غرة حسنة

في جبين الليالي والايام مشمولا طبعه بادارة صاحب نظارتها المشمر عن

ساعد الجد في تحرير نضارها ونضارتها من به جودة المعارف

الى اوج الكمال رقت سعادة مديرها علي بك جودت

وقد طلع بدر تمامه وفاح مسك شذى ختامه

في اواخر محرم الحرام عام تسع وتسعين ١٢٩٩

ومائتين والف من هجرة من هو

للانبياء ختام صلى الله عليه

وعلى آله واصحابه

وكل ناسج حلي

To: www.al-mostafa.com